التفسير الواضح الميسر

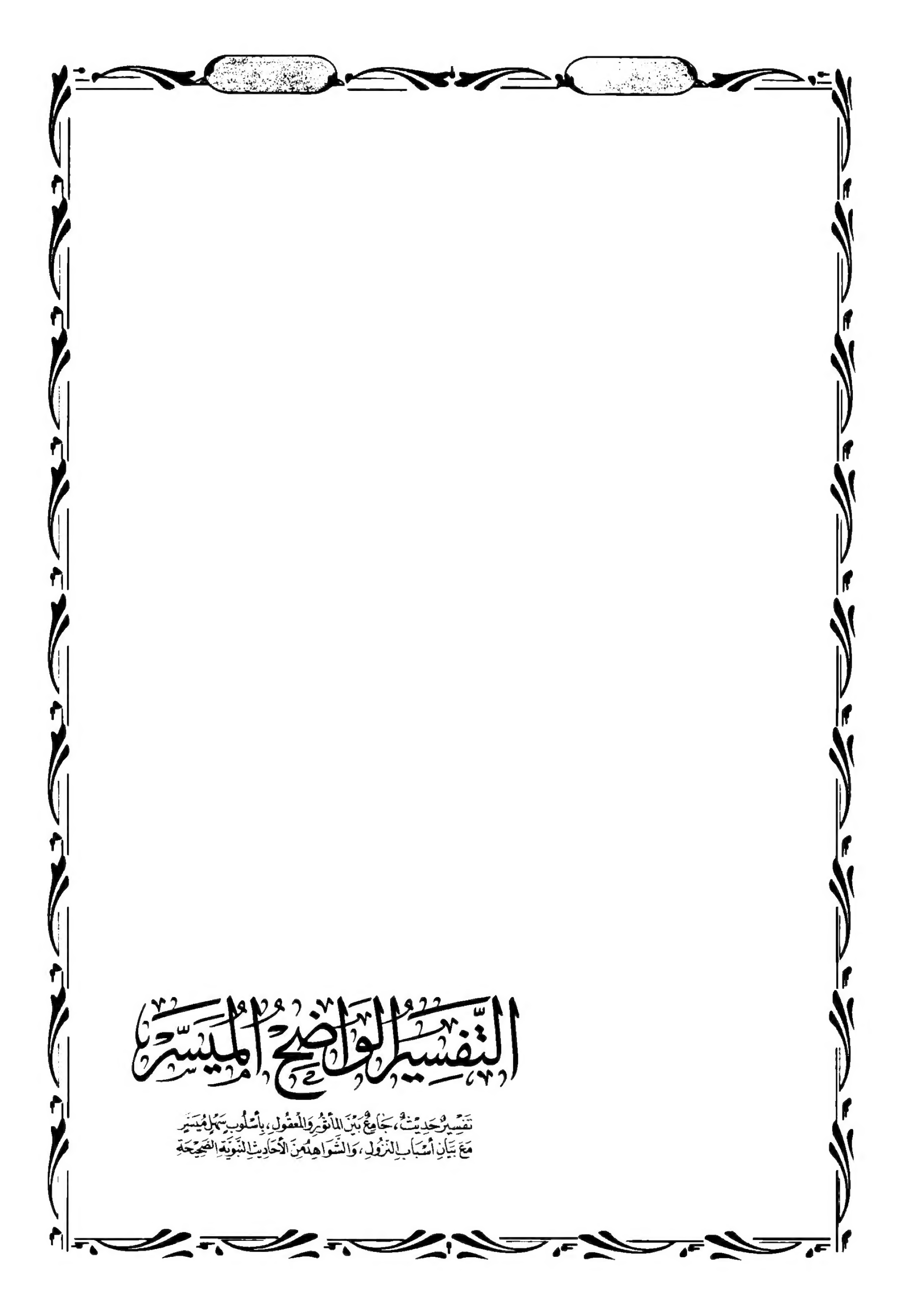
بقلم

الشيخ محمد علي الصابوني



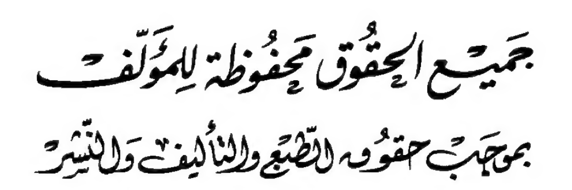






التفسير الواضح الميسر

تفسير حديث، جامع بين المأثور والمعقول، بأسلوب سهل ميسر
مع بيان أسباب النزول، والشواهد من الأحاديث النبوية الصحيحة



الطبعة الثامنة

١٤٢٨هـ - 2007م

موقعنا على الإنترنت:

www.almaktaba-alassrya.com

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية

الدار النموذجية — المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ١١ ٨٣٥٥ - تلفاكس ٠٠٩٦١١ ٦٥٥٠١٥

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلفاكس ٠٠٩٦١٧ ٧٢٠٣١٧

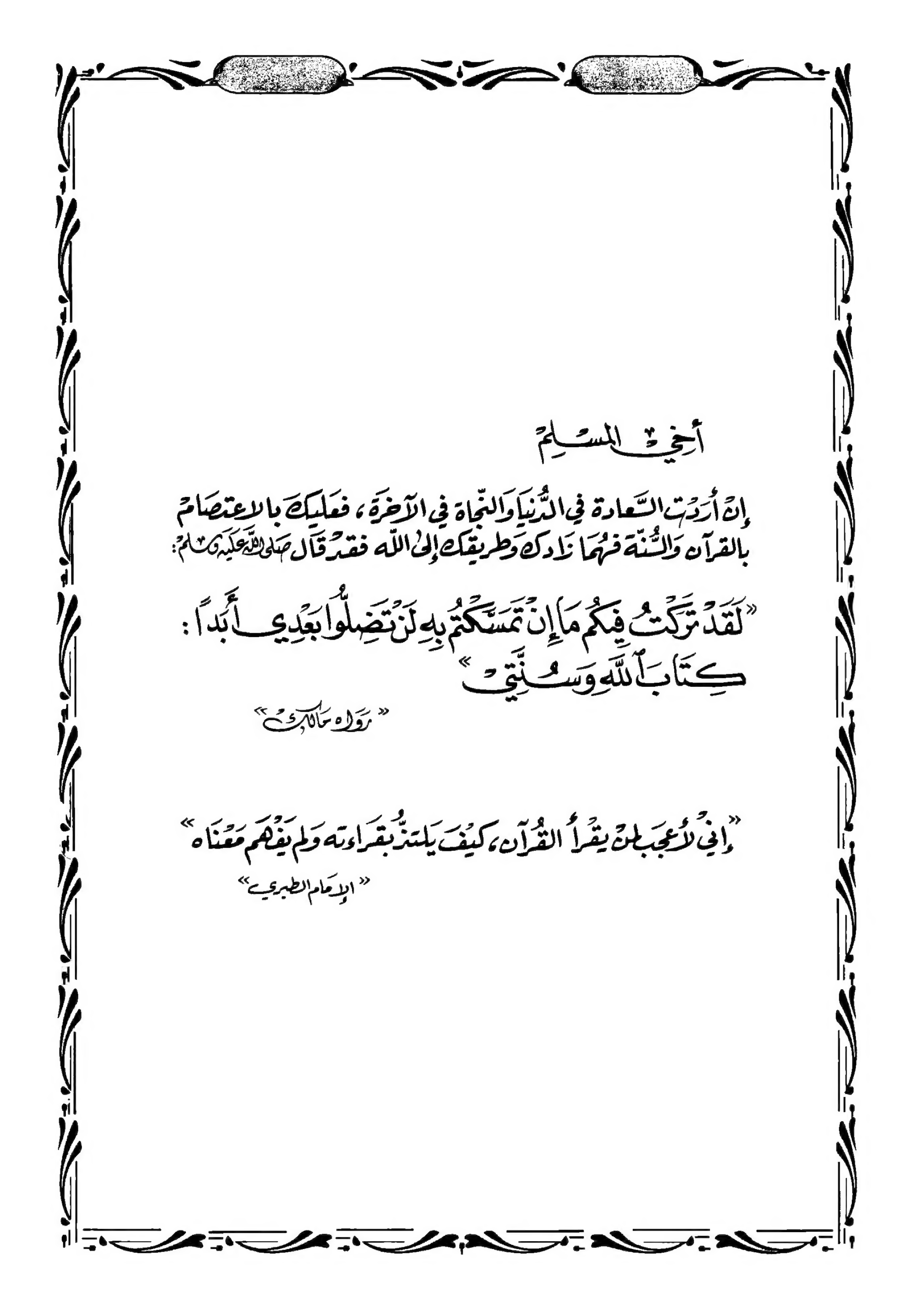
E-mail: alassrya@terra.net.lb - alassrya@cyberia.net.lb



تفسير حديث، جامع بين المأثور والمعقول، بأسلوب سهل ميسر
مع بيان أسباب النزول، والشواهد من الأحاديث النبوية الصحيحة

بقلم
خادم الكتاب والسنة
الشيخ محمد علي الصابوني
الأستاذ بجامعة أم القرى (سابقاً)

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت



أخي المسلم

إن أردت السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة، فعليك بالاعتصام بالقرآن والسنة فهما زادك وطريقك إلى الله فقد قال صلى الله عليه وسلم:

«لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله وسنتي»

«رواه مالك»

«إني لأعجب لمن يقرأ القرآن، كيف يلتذ بقراءته ولم يفهم معناه»

«الإمام الطبري»

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم من العلماء العاملين، وسائر المسلمين إلى يوم الدين.

أما بعد ...

فإن خدمة القرآن الكريم وتفسيره من أجلِّ وأفضل الأعمال عند الله عز وجل، وإن المؤلفات التي خدمت القرآن الكريم كثيرة وعديدة، فقد هيئ الله عز وجل لكل جيل علماء أجلاء يخدمون كتابه، ويذلِّلون فهم معانيه، فكتبوا في التفسير كتباً كثيرة كانت ولا زالت من أهم كتب التفسير وأفضلها، ولكن كان أكثرها صعب العبارة يفهمه الخاصة من طلاب العلم.

وكان في هذا العصر علماء أفاضل أخرج الله على أيديهم ما ييسر فهم كتابه، في زمن انشغل الناس فيه عن دراسة العلم الشرعي بأمور الدنيا، فكانت الحاجة ماسَّة لتفسير سهل العبارة واضح المعنى، يفهمه الخاصة والعامة، فكان من بين هؤلاء العلماء الأجلاء خادم الكتاب والسُّنَّة فضيلة الشيخ/ محمد علي الصابوني العالم المفسر الذي خدم الكتاب والسُّنَّة بمؤلفات زادت عن الأربعين كتاباً، امتازت جميعها بحسن الترتيب وسهولة العبارة، مع عمق علمي جعلها متفردة بين أمثالها من الكتب، فلاقت جميع مؤلفاته القبول بين الناس، حتى قال أحد العلماء الدعاة في إفريقيا (ممن تعلموا العربية حديثاً): كأن الشيخ الصابوني يعلم ضعفنا في فهم اللغة العربية فيكتب لنا، بعبارة سهلة ميسرة، نفهم من خلالها معاني القرآن الكريم.

وفي إطار خدمته للكتاب والسُّنَّة وفقه الله تعالى فأخرج لنا حفظه الله هذا الكتاب المسمَّى **(التفسير الواضح الميسر)** الذي أصبح فعلاً أسهل وأيسر كتاب في التفسير، لسهولته ووضوح عبارته، وجمْعِه بين المأثور والمعقول، واشتماله على أسباب النزول، والشواهد من الأحاديث النبوية الصحيحة، والتنبيهات المهمة لفهم الكتاب العزيز.

وقد لاقى هذا الكتاب بفضل الله تعالى وبفضل إخلاص مؤلفه، القبول بين الناس، فلم تمض سنتين على صدوره، حتى طُبع منه أربع طبعات كان مجموعها ما يقارب الأربعين ألف نسخة، وتواصلت الطلبات لنشره وتوزيعه في أنحاء العالم الإسلامي، فكانت أن نالت **المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع** شرف إخراج هذا الكتاب وطباعته طباعة أنيقة فاخرة تتناسب والجهد الذي بُذل فيه.

نسأل الله العلي الكبير أن يجزي المؤلف خير الجزاء، وأن يديم عليه نعمة الصحة والعافية، وأن يوفقه لخدمة دينه وكتابه، وأن يوفقنا لما فيه الخير والصلاح.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

الناشر



المقدمة

الحمد لله أنار بكتابه المبين، عقول عباده المؤمنين، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

فإن المسلمين اليوم في أمسِّ الحاجة، إلى فهم كتاب الله العظيم، والتمسك به، في عصرٍ طغت فيه المادة، وتاهت فيه البشرية في خِضمّ المادية، فانحرفت عن هداية الله، مع أن بين أيديهم، هذا النور الإلهي الوضاء، المنقذ لهم من الشقاء، لذا كان لزاماً على العلماء أن يعيدوا الأمة الإسلامية، إلى مركز عزِّها وسيادتها، وذلك بالارتباط بكتاب ربها، الذي فيه السعادة، والنجاحُ، والفلاح ﴿**قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتَّبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم**﴾

هذا وقد وضعتُ بين يديْ إخوتي المؤمنين، هذا التفسيرَ الواضح الميسَّر، عسى أن ينفع الله به من يريد له الخير، وهو تفسيرٌ يجمع بين المأثور والمعقول، بأسلوبٍ سهلٍ ميسَّر، يفهمه الخاصة والعامة، والله أسأل أن ينفع به، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، ويوفِّقنا لخدمة كتابه ودينه، والله من وراء القصد.

خادم الكتاب والسنّة

الشيخ محمد علي الصابوني

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

تفسير الاستعاذة:

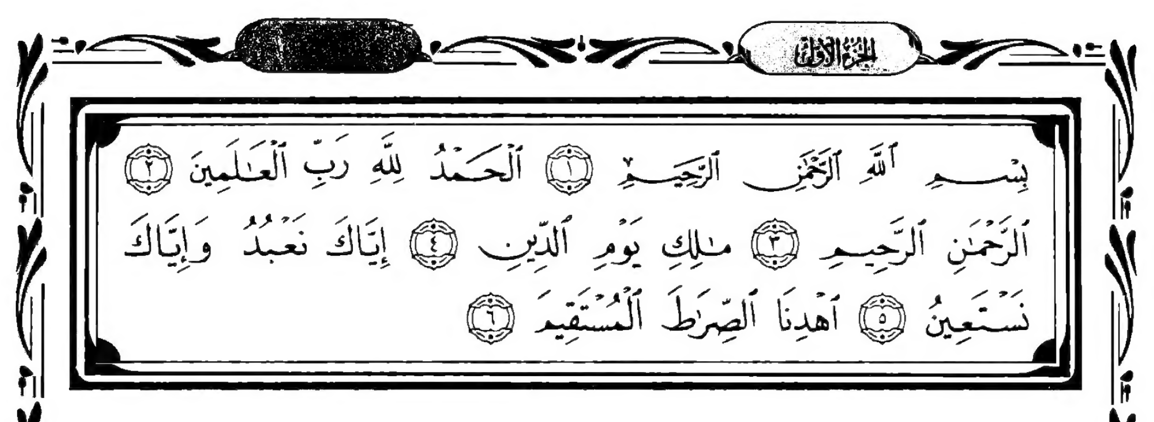
الاستعاذة ليست آية من القرآن، وإنما هي أدبٌ أمر الله تعالى به، قبل البدء بتلاوة القرآن بقوله: **﴿فإذا قرأتَ القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾** والمعنى: أستجيرُ وأعتصمُ بالله، من شرِّ الشيطان المرجوم، العاتي المتمرد، أن يضرني بهَمْزه، ولمزه، ووساوسه، فإن الشيطان لا يردُّه عن الإنسان إلا الله ربُّ العزة والجلال.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير البسملة:

أي أبدأ باسم الله العظيم الجليل، مستعيناً به جلَّ جلاله في جميع أموري، طالباً منه العون، فإنه الربُّ المعبود، ذو الفضل والجود، الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، الرحيم الذي يرحم عباده المؤمنين **﴿يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون. إلا من أتى الله بقلبٍ سليم﴾**

● ● ●



تفسير سورة الفاتحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

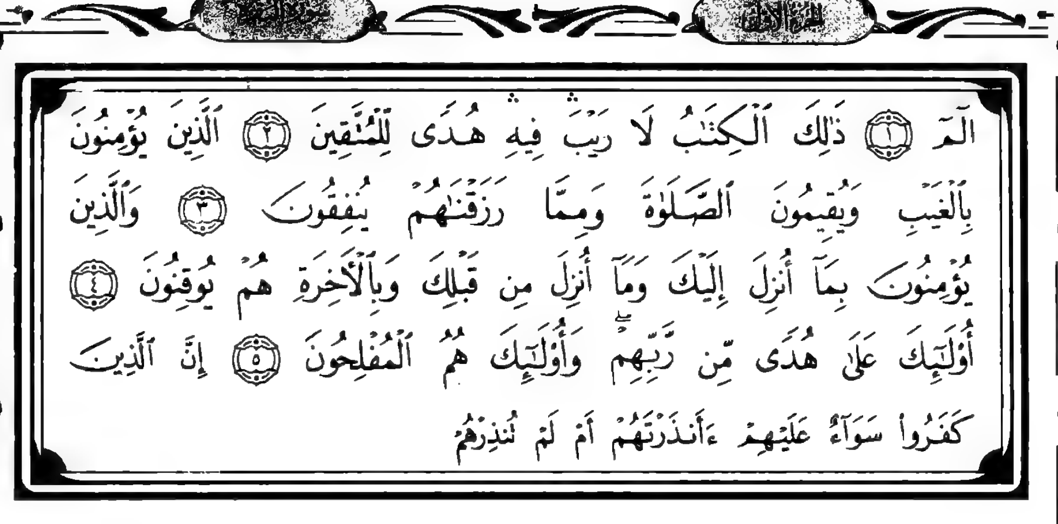
علَّمنا الباري جلَّ وعلا، كيف ينبغي أن نحمده ونقدِّسه، ونثني عليه بما هو أهلٌ للمدح والثناء، فقال ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي قولوا يا عبادي، إذا أردتم شكري والثناء عليَّ: الحمد لله، أي الثناء كلُّه لله وحده، دون ما يَعبدون من دونه، من أوثانٍ أو أصنام، فلا يستحقُّ الثناءَ، والشكر، والحمدَ، إلاَّ الله ربُّ العالمين، الذي أفاض على الخلق، فنون نعمائه وفضله، فهو الخالق لجميع ما في الكون، المتصرِّف بالخلق والإيجاد، ربُّ الملائكة، والإنس، والجنّ، والطير، والوحش، وسائر المخلوقات ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اسمان من أسمائه الحسنى (الرحمن) أي المتصف بالرحمة، فهي صفة الذات، أي الذي وسعت رحمته كلَّ شيء، وعمَّ فضلُه جميعَ الأنام، بما أنعم على عباده من نعمة الخلق، والرزق، والهداية إلى طريق السعادة ﴿الرحيم﴾ الذي يرحم عباده المؤمنين يوم الدين ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ فالرحمن يدل على أنه سبحانه متصفٌ بالرحمة بذاته المقدَّسة، والرحيم صفة متعلقة بالعباد ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي هو سبحانه المالكُ ليوم الحساب والجزاء، المتصرفُ يوم الدين تصرُّف المالك في ملكه (لمن الملكُ اليومَ لله الواحد القهار) ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي نخصُّك وحدك يا ربنا بالعبادة، لا نعبد أحداً سواك، ونخصك وحدك بطلب العون، فلا نستعين بأحدٍ غيرك، لك وحدك نذلُّ ونخضع، ونستكين ونخشع، وبك وحدك ربنا نستعين، فأعنَّا على أمور الدنيا والدين ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي دلَّنا وأرشدنا يا رب، إلى طريق الخير والسعادة، وطريق الإسلام، الموصل إلى دار السلام، الذي بعثتَ به أنبياءك ورسلك المكرَّمين، واجعلنا ممن سلك طريق

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾

المقرَّبين ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي طريق عبادك المهتدين، الذين أنعمت عليهم، من النبيِّينَ، والصدِّيقين، والشهداء، والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقاً ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي غير طريق اليهود الذين غضبتَ عليهم، فمسختهم إلى قردة وخنازير، وغير طريق النصارى الذين ضلُّوا صراطك المستقيم، فعبدوا المسيح ابن مريم من دون الله، والآيةُ ولو كان المراد بها اليهودُ والنصارى، كما صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: (اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضُلاَّل) أخرجه الترمذي، لكنَّ حكمها عامٌّ يشمل كل ضالٍّ، وكافر، ومشرك، من أهل الكتاب، ومن المشركين عَبَدة الأوثان، لأن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب (آمين) أي استجب دعاءنا يا رب، وليست من القرآن باتفاق، ولهذا لم تكتب في المصحف، ولكن يسنُّ ختم السورة الكريمة بها، لما رواه البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا قال الإمام ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ فقولوا: آمين، فمن وافق قولُه قولَ الملائكة، غُفِر له ما تقدم من ذنبه» رواه البخاري.

انتهى تفسير سورة الفاتحة

● ● ●


الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ

تفسير سورة البقرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ﴾ الحروف المقطعة للإشارة إلى إعجاز القرآن، فهذا الكتاب المعجز، منظومٌ من أمثال هذه الحروف الهجائية، وقد تحدَّى الخالقِ به البشر ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هذا القرآنُ لا شكَّ في أنه تنزيل الحكيم العليم ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ مرشدٌ وهادٍ لأهلِ الإيمان، الذين يخافون عذاب الله، فيمتثلون أوامره، ويجتنبون نواهيه ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي يصدِّقون بما غابَ عن أبصارهم من الجنة والنار، والملائكة والجن، والصراط والميزان ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يؤدونها على أكمل الوجوه، بالخشوع والخضوع ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يؤدون زكاة أموالهم، وينفقون في وجوه البر والإحسان على الفقراء والمساكين ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن العظيم المنزل على محمد خاتم المرسلين ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ من الصحف والكتب السماوية، كالزبور، والتوراة والإنجيل ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يصدِّقون بالحساب والجزاء تصديقاً جازماً، لا يخالطه شك أو ارتياب ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ على بصيرة ونور من رب العزة والجلال ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكل محبوب ومطلوب، من نعيم الجنة وثوابها، ورؤية ربهم جلَّ وعلا في جنان الخلد، وهو النعيم الأكبر لأهل الجنة.. ذكر تعالى خمس آياتٍ في صفات المؤمنين الأبرار، ثم ذكر آيتين في صفات الكفار الفجار، فقال سبحانه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ أي يتساوى عندهم تخويفك لهم من

لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾

عذاب الله، وعدم الإنذار والتخويف ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدِّقون بما جئتهم به من النور المبين، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي طبع عليها بسبب كفرهم، فلا يدخل إليها إيمان، ولا يشرق فيها نور، وكأنها معمَّة لا تفقه ما تسمع ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ أي وختم على سمعهم، فكأنهم صمٌّ لا يسمعون ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ أي عليها غطاءٌ وحُجُبٌ، لذلك لا يبصرون نور الهداية والإيمان ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب شديد، دائم لا ينقطع، والآية على سبيل التشبيه والتمثيل، كأنهم قطيع من البهائم، لا تفقه ولا تعقل، لأنهم عطَّلوا هذه الحواس!! ثم تحدثت الآيات عن المنافقين، في ثلاث عشرة آية، للتنبيه على أنهم أقبح من الكفار، وعذابهم أشدُّ، فقال سبحانه ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ يقولون ذلك قولاً دون اعتقاد، فهو قول باللسان، دون اعتقاد بالجَنَان، أي يقولون بألسنتهم: صدَّقنا بالله، وبالبعث والنشور، ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي وما هم في الحقيقة بمؤمنين، بل هم كذَبَةٌ فَجَرة ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي يعملون عمل المخادع، بإظهار الإيمان وإبطان الكفر، يظنون أنهم يخدعون الله وعباده المؤمنين ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وما يخدعون في الحقيقة إلا أنفسهم ولا يُحسُّون بذلك، لأنهم سفهاء أغبياء، فقدوا الشعور والإحساس ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ مرضُ الضلال والنفاق، فهم في شكٍ وارتياب من أمر الإسلام ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ أي زادهم رجساً وشكاً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ أي لهم عذاب مؤلمٌ موجع، بسبب كذبهم في دعوى الإيمان، واستهزائهم بآيات الرحمن، والمرضُ هنا مرضٌ في الدِّين، وليس مرضاً بالجسد ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي وإذا قال

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾

لهم الناصحون: لا تسعوا في الأرض بالفساد، بالكفر والصدِّ عن سبيل الله، قالوا: لسنا أهلَ فسادَ، إنما نحن أهلُ إصلاح، ودُعاةُ رشاد، نسعى للخير والفلاح!! قال تعالى رداً عليهم ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أي: ألاَ فانتبهوا أيها المؤمنون لخطرهم، فإنهم هم المفسدون حقاً، ولكن لا يفقهون ولا يُحسُّون، لانطماس نور الإيمان في قلوبهم، فاحذروا شرَّهم وضلالهم.. أكَّد تعالى الآية بأربع تأكيدات. «ألاَ» المفيدة للتنبيه، و«إنَّ» التي هي للتأكيد، وأداة الفصل «هم» أي لا غيرهم، والتعريف بـ«أل» في قوله «المفسدون» لبيان كمال الفساد، وهذا أبلغُ وجهٍ من وجوه التسفيه لهم، ووصمهم بالضلال. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ أي صدِّقوا بالله وآياته، وآمنوا إيماناً صادقاً لا يشوبه شكٌّ ولا نفاق، كما آمن أصحاب محمدٍ ﷺ عن يقين وإخلاص ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ﴾؟! أي قالوا ساخرين مستهزئين: أنؤمن كما آمن البلهاءُ المغفَّلون، ناقصو العقل والتفكير؟ يعنون بذلك الصحابة رضوان الله عليهم، متَّهمين لهم بالغفلة وقصور العقل؟ قال تعالى رداً عليهم ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي هم الحمقى المجانين، لا أصحاب محمد كما يزعمون، ولكنهم لسفههم لا يعلمون ذلك، وذلك أبلغُ في العمى، وأبعدُ عن الهدى!! أكَّد تعالى ونبَّه وحذَّر، بأكمل وجوه الفصاحة والبيان، إلى مقدار ما هم عليه من السفاهة والضلال، حيث وَسَمُوا أكابر أصحاب النبي ﷺ بالسَّفه، وقلة العقل، مع أن المنافقين هم السفهاء حقيقةً، لا أولئك المؤمنون المهتدون ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ نموذجٌ آخر عن نفاقهم وتذبذبهم، فإنهم إذا رأوا المؤمنين، أظهروا لهم الإيمان، وقالوا: نحن مؤمنون مثلكم ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أي وإذا التقوا برؤسائهم، من أهل النفاق والضلال، قالوا: إننا معكم وعلى دينكم، وإنما نستهزىء بالقوم، ونسخر منهم بإظهار الإيمان.. سمَّى تعالى الرؤساء بالشياطين، تشبيهاً لهم بهم، في الخبث والمكر، فهم كالشياطين

﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨﴾

يوحي بعضهم إلى بعض ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ أي الله جلَّ وعلا يجازيهم على استهزائهم، ويسخر منهم كما سخروا من أوليائه المؤمنين، بالإمهال في الدنيا، ثم العقاب في الآخرة، ويزيدهم في شقائهم وضلالهم يتخبَّطون حيارى، لا يدرون ما يفعلون، والعَمَهُ يكون في القلب كالعمى في البصر، يقال: رجلٌ عَمِهٌ أي أعمى القلب والبصيرة. ثم ذكر تعالى سبب خسرانهم وشقائهم فقال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ أي استبدلوا الكفر بالإيمان، وأخذوا الضلالة ودفعوا ثمنها الهدى ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ أي فما ربحوا في هذه التجارة بل خسروا، لأنهم اشتروا الخسيس الدنيء وهو الكفرُ، بالغالي النفيس وهو الإيمانُ، فصاروا خاسرين في غاية الخسران، كمن دفع الذهب الخالصَ، ثمناً لروث الأنعام، فما أفلح في تجارته، ولا ربح فيها. ثم ضرب تعالى مثلين، وضَّح فيهما خسارتهم الفادحة، فقال في المثل الأول ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا﴾ أي مثلهم في الضلال والنفاق، كمثل إنسان أوقد ناراً، في ليلةٍ مظلمةٍ شاتية، ليستدفىء بها ويستضيء بنورها ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ أي فلمَّا استأنس بالنار، ورأى ما حوله فأمن واطمأنَّ، بعد أن كان في خوف وفزع، أطفأ الله هذه النار، وأذهب نورها بالكليَّة ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ أي وتركهم في ظلام دامسٍ. وخوف شديد، لا يبصرون طريقاً، ولا يهتدون إلى مسْلَك. شبَّه تعالى حالة المنافق، بحالة رجل مسافر في الصحراء، في ليلة شاتيةٍ باردة شديدة الظلمة، أخطأ الطريق وقد تمالكه الفزع، فأوقد النار ليستضيء بنورها، ويستدفىء بحرارتها، ويعرف طريقه، فما أن شبَّت النار، وأبصر ما حوله وأمِنَ بعض الشيء، حتى جاءت ريح عاصفة فأطفأت النار، وأذهبت الضياء، وعاد يتخبَّط في الظلام لا يدري ما يصنع، ويا له من مثل بديع رائع!! ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ أي هم كالصمِّ لا يسمعون من يدعوهم إلى الخيرِ، وكالخُرْس لا يتكلمون بما ينفع، وكالعمي لا يبصرون

أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

الهدى، ولا يسلكون سبيله، ولذلك لا يرجعون عمَّا هم فيه من العمى والضلال، والآية وردت بأسلوب «التشبيه البليغ» بالعُمْي، والصُمّ، والبُكْم، حواسّهم موجودة ولكنهم عطَّلوها، كما قال سبحانه ﴿**لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ**﴾ [الأعراف:١٧٩].

أما المثل الثاني: ففي قوله سبحانه ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ فقد شبَّههم تعالى في حيرتهم وتردُّدهم، بمثل قومٍ أصابهم مطر شديد، أظلمت له الأرض، وأرعدت له السماء، مصحوب بالبرق، والرعد، والصواعق، وهم من دهشتهم يضعون أصابعهم في آذانهم، لدفع خطر الصواعق، يظنون أن ذلك ينجيهم من الموت ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي وهم في قبضته سبحانه لا يفوتونه ولا يعجزونه، كمن أحاط به العدوُّ من كل جانب، والجملة اعتراضية لبيان ضعفهم وعجزهم، أمام قدرة الله الباهرة، وتتميماً للمثل قال تعالى ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي يقرب البرقُ لشدة لمعانه، أن يذهب بأبصارهم فيأخذها بسرعة ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾ أي كلما أنار لهم الطريق ﴿مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ أي مشوا في ضوئه ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ أي وإذا خفي البرقُ واستتر، وقفوا في أماكنهم خشية التردي في حفرة ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أي لو شاء الله أن يذهب بسمعهم بقصف الرعد، وبأبصارهم بوميض البرق، ولكنْ لم يشأ ذلك، لحكمة الابتلاء والتدبير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يعجزه شيء أراده، لأنه الخالق القادر.. وصف تعالى المنافقين في هذه الآيات بعشرة أوصاف، كلها قبيحةٌ وشنيعة، تدل على رسوخهم في النفاق والضلال، وهي «الكذبُ، والخداعُ، والمكرُ، والسَّفهُ، والاستهزاءُ، والإفسادُ، والجهلُ، والضلالُ، والتذبذبُ، والسخريةُ بالمؤمنين» وكلُّ واحدة منها تكفي للخزي والإهانة، فكيف بها مجتمعة؟!

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي وحِّدوا ربكم العظيم الجليل، الذي خلقكم من العدم، وربَّاكم بصنوف النعم، وخلق آباءكم وأجدادكم، فهو الخالق المستحقُّ للعبادة وحده ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أي لتتقوا عذابه وانتقامه ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ أي جعلها لكم فسيحة، كالبساط المفروش، تنامون عليها وتبنون وتسكنون ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ أي وجعل السماءَ كالسقف للأرض، وأنتم أيها البشرُ في هذا البيت الواسع، السماءُ مرفوعة فوقكم كالسقف، والأرض مبسوطة كالفراش، والنجومُ منوَّرةٌ كالمصابيح، والإنسانُ كالساكن في هذا البيت والمالك له ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ أي وأنزل لكم المطر من السحاب، تشربون منه، وتسقون منه زروعكم وأنعامكم ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ أي فأخرج لكم ربكم بهذا المطر، أنواعَ النباتات والثَّمر، رحمةً منه بكم ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي فلا تعبدوا معه غيره، وأنتم تعلمون أن الله وحده هو الخالق الرازق، وأن هؤلاء الشركاء لا يخلقون ولا يرزقون!! ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ أي إن كنتم في شكٍ من هذا القرآن، الذي أنزلناه على عبدنا ورسولنا محمد ﷺ ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ أي فجيئوا بسورةٍ واحدةٍ من مثل سور القرآن، في حسن النظم والفصاحة والبيان ﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي استعينوا بمن شئتم غير الله تعالى، من الفصحاء والبلغاء، وأرباب العلم والأدب ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين في دعواكم أنه من نظم محمد، فمحمدٌ رجلٌ أميٌّ، وفيكم مصاقع البلغاء، وجهابذةُ النبغاء، وفرسانُ البيان ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ أي إذا عجزتم عن الإتيان بمثل سورة منه، مع استعانتكم

ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا

بالفصحاء والبلغاء وعباقرة الأرض، ولن تستطيعوا في المستقبل على ذلك ـ وهذا تحدٍّ آخر لهم ـ فخافوا عذاب الله وانتقامه، بإدخالكم نار جهنم ﴿ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ أي حطبُها الذي تُشعل به، ليس كنار الدنيا من الفحم والخشب والبترول، إنما وقودُها البشرُ وحجارةُ الكبريت ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي هيأها الله، وأعدَّها لعذاب كل فاجر كافر، لا يؤمن بيوم الحساب.

هذا جزاء الكافرين الفجار، أمَّا جزاء المؤمنين الأبرار، فقد بيَّنه تعالى بقوله ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي وبشِّر يا أيها الرسول المؤمنين المتقين، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، بأن لهم في الآخرة حدائق وبساتين في جنان الخلد، تجري من تحت قصورها ومساكنها، أنهارُ الجنة بالماء السلسبيل ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾ أي كلما جاءتهم الملائكة بالفواكه والثمار بصحافٍ من ذهب ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي هذا مثلُ الطعام الذي قدمتموه لنا قبل هذه المرة!! قال الحسن البصري: يُرزقون الثمرة، ثم يُرزقون بعدها مثل صورتها في الشكل، والطعمُ مختلفٌ، فهم يتعجبون لذلك، فتقول الملائكة: كُلْ يا عبد الله، فاللون واحدٌ والطعم مختلف ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ أي ويؤتون بالثمار متشابهة في الشكل والمنظر، مختلفة في الطعم واللذة ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي لهم في الجنة زوجاتٌ من الحور العين، مطهَّراتٌ من الأقذار والأدناس، الحسية والمعنوية، فلا بول في الجنة ولا غائط، ولا حيض ولا نفاس، ولا حسد ولا تباغض ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي لا يُخرجون منها أبداً، بل هم في نعيم دائم، وسرور مقيم، لأن الموتَ يُذبح يوم القيامة، وينادي المنادي: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موتَ، ويا أهل النارِ خلودٌ فلا موت، كما ورد في الحديث الصحيح. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضة، تركَ من يستحيي أن يُمثِّل بها لحقارتها، فكما لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

عن ضرب المثل بها، والآيةُ جاءت للردِّ على المشركين والسفهاء، حين قالوا: الله أعظمُ وأجلُّ من أن يضرب المثلَ بالذباب والعنكبوت ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ﴾ أي فأمَّا المؤمنون الصادقون، فيعلمون أن هذا المثل حقّ، لأن الله حقٌّ لا يقول إلا الحقَّ، فيؤمنون ويصدِّقون، ويتفكرون في تلك الأمثال التي ذكرها القرآنُ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ﴾؟ أي وأمَّا الجاحدون الكافرون، فيقولون ساخرين مستهزئين: ماذا أراد الله بضرب المثل بهذه الأشياء الحقيرة؟ ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ﴾ أي يُضل بهذا المثل الكفار، الذين ينكرون أنه من عند الله، فيزدادون به ضلالاً، ويهدي به المؤمنين، الذين يعلمون أنه الحقُّ من ربهم، فيزدادون هدى، لأن الغَرضَ من ذكر المثل: التذكُّرُ والاعتبار ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي وما يُضلُّ بهذا المثل إلاَّ الفاسقين الخارجين عن طاعة الله ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي ينقضون المواثيق والعهود، من بعد ما أكَّدوه على أنفسهم، من الإيمان بخاتم الأنبياء والمرسلين، وما جاء به من عند الله ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ أي يقطعون الأرحامَ التي أمر الله بها أن تُوصَل ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ بأنواع البغي والعدوان، وإثارة الفتن والحروب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي الخاسرون للسعادة، لأنهم بإهمالهم للعقل، خسروا السعادة الأبدية ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ﴾ الأسلوب هنا أسلوبُ توبيخ وتأنيب، ورد بطريقة التعجيب، أي كيف تجحدون الخالقَ، وتنكرون وجوده، وقد كنتم قبل خلقكم في العدم، نُطَفاً في أصلاب الآباء، ثم أجنةً في أرحام الأمهات، لا حياة لكم ولا وجود، فأحياكم تعالى بقدرته ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي ثم

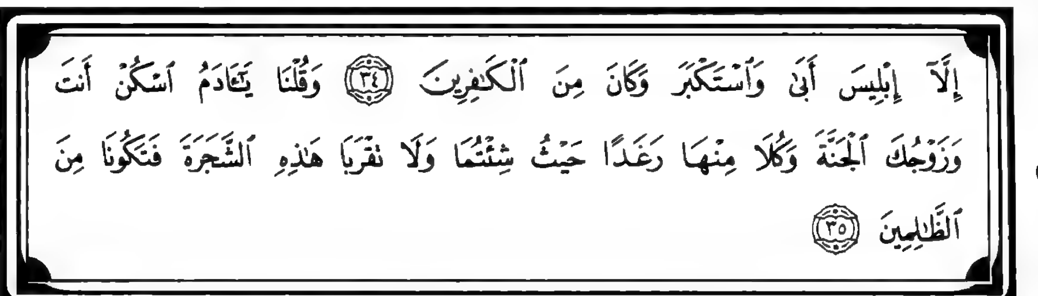
﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

يميتكم بعد انتهاء آجالكم، ثم يحييكم بالبعث من القبور، ثم إليه مصيركم للحساب والجزاء!! ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي خلق لكم ومن أجلكم، جميعَ ما في الكون، من نباتٍ وأشجار، وكواكب وأقمار، وبحار وأنهار، ومعادن ومناجم، لتنتفعوا بكل ما فيها، وتشكروا ربكم الخالق الرازق ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ أي قصد إلى خلقها بعد خلق الأرض، فجعلها سبع سموات طباقاً، فكيف تكفرون بمن خلق هذا الكون وأبدعه؟ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي وهو سبحانه عالمٌ بكل ما خلق وأبدع، لا تخفى عليه خافية!! أفلا تعتبرون بأن القادر على خلق هذه العجائب، قادرٌ على إعادتكم بعد الموت!!

ثم ذكر تعالى قصة بدءِ الخليقة «آدم» أبي البشر عليه السلام فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي اذكر يا أيها الرسول، حين قال ربُّ العزة والجلال للملائكة الأبرار: إني خالقٌ في هذه الأرض بشراً، يخلف بعضُهم بعضاً، قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ أي قالت الملائكة على سبيل الاستفسار عن الحكمة، لا على سبيل الاعتراض، كأنهم يقولون: يا ربنا كيف تخلق من يفسد في الأرض بإراقة الدماء؟ والمعاصي والفجور والاعتداء؟ ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي ونحن ننزّهك عمّا نسب إليك الملحدون، ونعظّم أمرك، ولا نعصيك بحالٍ من الأحوال!! ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم ما لا تعلمون، من الحكمة في خلقه وخلق ذريته، ففي ذريته أنبياء وفضلاء، يصلحون في الأرض ولا يفسدون، فإن قيل: كيف عرفت الملائكةُ أن ذرية آدم سيفسدون في الأرض؟ فالجواب: أن الملائكة رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن، وسفكهم الدماء. حيث إنهم خُلقوا قبل البشر، فقاسوا الإنسَ على الجن!! وقال ابن عباس: إن الله تعالى أخبرهم بما تفعل ذرية آدم، من التحاسد والتباغض،

وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟

وقتل بعضهم بعضاً، وإفسادهم في الأرض، فقالوا ذلك ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ أي علّم ربُّ العزة والجلال أبانا آدم أسماء الأشياء كلِّها، ما كان منها وما سيكون، بطريق الإلهام وعلّمه اللغات، وأصول العلوم، وقوانين الزراعة والصناعة، وأسماء آلاتها مما يحتاج إليه البشر، هذا فرسٌ، وهذا جملٌ، وهذا بحر، وهذا قمر، وهذه سيارة، وهذه طيارة... إلخ قال ابن عباس: علّمه أسماء كل شيء، حتى القصعة والمغرفة، وأسماء جميع الأشياء ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي أخبروني بأسماء هذه الأشياء التي ترونها، إن كنتم صادقين في أنكم أحقاء بالخلافة، من آدم وذريته!! ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي قالت الملائكة: ننزّهك يا ربنا عمّا لا يليق بك من صفات العجز والنقص، ونعترف إليك بعجزنا وضعفنا أمام علمك الواسع، فليس عندنا من العلم، إلاَّ ما علمتنا إيَّاه، إنك أنت العليم بكل أمر، الحكيم في صنعك وتدبيرك ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ أي قال الله يا آدم: أخبرهم بأسماء الأشياء التي عجزوا عن علمها، واعترفوا بقصورهم عن إدراكها ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ أي فلما أخبرهم آدم بأسماء كل الأشياء التي رأوها، وعرَّفهم بخصائصها ومنافعها، والحكمةِ من وجودها ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي قال تعالى للملائكة: ألم أخبركم بأني أعلم ما خفي عنكم، في عالم السموات والأرض، وأعلمُ ما تظهرونه وما تخفونه في نفوسكم، من دعواكم أن الله لا يخلق خلقاً أفضل منكم!! رُوي أن الملائكة لما رأت خلق آدم، وتكوينه العجيب من تراب ثم من طين لازب، قالوا: ليكنْ ما شاء هذا المخلوقُ، فلن يخلق ربُّنا خلقاً أكرم عليه منا!! فهذا الذي أخفوه في نفوسهم ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾ هذا من عطف القصة على القصة، أي واذكرْ يا أيها الرسولُ لقومك، حين قلنا للملائكة المكرَّمين: اسجدوا لآدم سجودَ تحيةٍ وتكريم، لا



﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾

سجود خضوع وعبادة، فامتثلوا الأمرَ وأطاعوا فسجدوا له ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي لكنَّ إبليس خرج عن طاعة الله، بامتناعه عن السجود لآدم، وتكبَّر عن امتثال أمر الله، وصار بإبائه واستكباره من الكافرين، حيث استقبح أمر الله بالسجود لآدم. والاستثناء في الآية منقطع، لأن إبليس لم يكن من الملائكة طرفة عين كما يقول الحسن البصري، وإنما كان في ضمن وجملة الملائكة حين أمروا بالسجود لآدم، وهذا هو الصحيحُ الراجح، للأدلة الآتية نذكرها بإيجاز:

أولاً: إن الملائكة لا يعصون أمر الله، وإبليس اللعين عصى الأمر، فهو ليس من الملائكة.

ثانياً: الملائكةُ خُلِقتْ من نور، وإبليس مخلوقٌ من نار كما قال عن نفسه ﴿**خلقتني من نار**﴾ فالطبيعةُ مختلفة.

ثالثاً: إن الملائكة لا يتناكحون ولا يتناسلون، وليس لهم ذرية، ولا يوصفون بذكورةٍ ولا أنوثة، وإبليس له ذرية كما أخبر عنه تعالى بقوله ﴿**أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو**﴾؟ الكهف آية (٥٠).

رابعاً: النصُّ الصريح الواضح، بخبر الله عنه أنه من الجن، كما في سورة الكهف ﴿**فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه**﴾ وكفى به حجة قاطعة!!

يُحكى أن الإمام الشعبيَّ سُئل: هل لإبليس زوجة؟ فقال: ذاك عرسٌ لم أشهده، ثم أخذ يقرأ القرآن من بدايته بإمعان، حتى وصل إلى قوله تعالى في سورة الكهف ﴿**أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو**﴾؟ قال: فعلمتُ أنه لا يكون له ذرية ونسلٌ، إلاَّ وله زوجة، فقلت: نعم له زوجة ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ أي اسكن مع زوجك حواء في جنة الخُلد والنعيم ﴿وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ أي وكلا من فواكهها وثمارها أكلاً هنيئاً واسعاً، من غير جهد ولا تعب، من أيِّ مكانٍ أردتما من الجنة ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي ولا تأكلا من هذه الشجرة، التي أحذِّركما منها ـ وهي شجرة معيَّنة، نهاهما

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾

تعالى عن الأكل منها ابتلاءً ـ فتصبحا من الذين ظلموا أنفسهم بمخالفة أمر الله ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي فأوقعهما الشيطان اللعين في الزلَّة وهي الخطيئة بالأكل منها، فأخرجهما من ذلك النعيم الدائم الذي كانا فيه، بطريق الخديعة حيث أقسم لهما كذباً أنهما سيخلَّدان في الجنة إن أكلا منها، كما حكاه تعالى في سورة الأعراف بقوله: ﴿**وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكَين أو تكونا من الخالدين. وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين**﴾ وهكذا خدع اللعين أبانا آدم عليه السلام بالأيمان الكاذبة ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي اهبطوا من الجنة إلى الأرض، بينكم العداوة ـ والخطابُ لآدمَ وحوَّاءَ وإبليس ـ اهبطوا حال كونكم أعداء، الشيطان عدوٌّ لكم فكونوا أعداء له، ولكم في الأرض موضع استقرار، وتمتع بالعيش فيها والانتفاع بنعيمها، إلى وقت انتهاء آجالكم ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي استقبل آدم دعوات من ربه ألهمه الله إياها، فقالها وتاب من ذنبه، فتاب الله عليه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي لأن الله هو الرحيم بالعباد، كثير التوبة على من تاب إليه وأناب، وهذه الكلمات التي ألهمه الله إيَّاها، وضحتها سورة الأعراف، وهي قوله تعالى ﴿**قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**﴾ ويُروى عن ابن مسعود أنه قال: هي: «سبحانك اللهمَّ لا إله إلا أنت، وقد ظلمتُ نفسي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ كرر الأمر بالهبوط، لبيان أن إقامة آدم وذريته، إنما تكون في الأرض لا في الجنة، لأن الأمر الأول بالهبوط كان لبيان العداوة بين آدم وإبليس، والثاني لبيان التكليف، فمن اهتدى نجا، ومن ضلَّ هلك، والمعنى: اهبطوا إلى الأرض جميعكم، فإن يأتكم مني هدىً، بإنزال الكتب، وإرسال الرسل، فمن آمن بكتبي، وصدَّق برسلي، فلا خوف عليهم في الآخرة، ولا يصيبهم

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ

فزع ولا حزن ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي ومن لم يتَّبعْ الهدى، بل كفر وكذَّب، فهو مخلَّدٌ في نار الجحيم ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ إسرائيل اسم ليعقوب عليه السلام، والد يوسف الصدِّيق، وإليه ينتسب اليهود، أي يا أبناء النبي الصالح «يعقوب» تذكَّروا نعمة ربكم عليكم، بالشكر، والطاعة، والإيمان بخاتم الأنبياء ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ أي وفُّوا بعهدي بالإيمان بمحمد، وطاعة الله ورسوله، أوف لكم بما عاهدتكم عليه، من حسن الثواب ودخول الجنة ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ أي خافوني ولا تخافوا غيري من الخلق، فإن عذابي شديد، لا يماثل عقاب أحد من البشر ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ أي آمنوا بالقرآن العظيم الذي أنزلته على محمد، المطابق لما معكم من التوراة، في أمر التوحيد والنبوة، فالقرآن العظيم مطابق للكتب الإلهية، لأن المنزلَ لهذه الكتب واحد، هو الله ربُّ العزة والجلال ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ أي ولا تكونوا أول جاحد ومكذِّب بالقرآن، فبرهانه واضح، ودليلُه ساطع ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ أي ولا تستبدلوا بآياتي البينات، عوضاً يسيراً من حطام الدنيا الفاني، وخافوني دون غيري ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ الذي تخترعونه، ولا تخفوا ما في التوراة من أوصاف محمد ﷺ **وأنتم تعلمون** أنه رسول حقٌّ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي: أدُّوا ما فرضت عليكم من المحافظة على الصلاة، وأداء الزكاة إلى الفقراء والمساكين، وصلُّوا بالجماعة مع المصلِّين ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾؟ خطاب لليهود بأسلوب التوبيخ والتعجيب من حالهم، أي أتدعون الناس يا

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ

معشر اليهود، إلى فعل الخير، والعمل الصالح، وتتركون أنفسكم فلا تزكُونها، ولا تأمرونها بفعل الخير، والحالُ أنكم تقرأون التوراة، وفيها الوعيدُ لمن أمر بالمعروف ولم يفعله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ أي: أفلا تدركون أن ذلك قبيح فترجعون عنه؟ أم أنكم لا عقول لكم؟ ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ أي استعينوا على أمور دنياكم وآخرتكم بالصبر على المكاره والشدائد، والمحافظة على الصلاة التي تعصمكم من الشيطان، وإن الصلاة لشاقةٌ وثقيلةٌ إلا على المؤمنين الصادقين، المعظِّمين لحرمات الله ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي الذين يعتقدون اعتقاداً جازماً، أنهم سيلقون ربهم يوم القيامة، وأن مصيرهم إلى الله وحده فيجازيهم على أعمالهم، والظنُّ هنا بمعنى اليقين، لا بمعنى الشك، كقوله سبحانه **﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها﴾** أي أيقنوا بدخولها ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي يا أولاد النبي الصالح يعقوب، تذكَّروا نعمي الجليلة عليكم، بصنوف الإحسان والإكرام، حيث نجَّيتُ آباءكم من جبروت فرعون وطغيانه، وفضلتهم على العالمين في زمانهم ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ أي خافوا ذلك اليوم الرهيب، الذي لا تتحمل فيه نفسٌ عن أخرى شيئاً، ولا تدفع عنها شيئاً من العذاب، ولا تنفعها بشيء من النفع، فكلُّ نفس مثقلة بحملها ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي لا تُقبل شفاعة أحدٍ من البشر في نفسٍ مجرمة كفرت بالله، ولا يُقبل منها فدية، وليس لهم ناصر ينجيهم من عذاب الله، ونفيُ الشفاعة هنا خاصٌّ بالكفار، لقوله تعالى **﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾** أما العُصاة من المؤمنين فتقبل فيهم الشفاعة.. ثم فصَّل تعالى بعض هذه النعم فقال ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي العظيمة عليكم، حين نجيتكم من بطش فرعون وأتباعه الطغاة المجرمين، الذين

يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْۚ

كانوا يذيقون آباءكم، أسوأ أنواع العذاب وأفظعه ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ﴾ أي يذبحون الذكور من بني إسرائيل، ويُبْقون الإناث على قيد الحياة، لا رحمةً بهم، بل للخدمة والامتهان ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي وفيما حلَّ بآبائكم من العذاب المهين، اختبار عظيم لكم من الله، لتمييز المؤمن من الكافر، والبرِّ من الفاجر ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي واذكروا أيضاً حين فلقنا لكم البحر، حتى صارت فيه طرق ومسالك اثنا عشر طَريقاً، لكل سبطٍ طريق، لتمشوا عليها وتنجوا من الغرق، فنجيّناكم وأغرقنا فرعون الجبار، مع جنده وأتباعه الأشرار، وأنتم تشاهدون غرقهم ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تذكير لبني إسرائيل بنعمةٍ ثالثة، وهي: عفو الله عنهم عن جريمةٍ كبيرة، يستحقون أشدَّ أنواع العقاب عليها، وهي عبادة العجل، فبعد أن أهلك الله فرعون وقومه بالإغراق في البحر، وعدَ موسى أن يُنْزِل عليه التوراة، بعد أربعين ليلة، وهو الميقاتُ الذي حدَّده الله له، ولمَّا ذهب موسى لمناجاة ربه، عَبَد قومُه العجلَ، الذي صنعه لهم السامري، فقابلوا النعمة بالكفر والجحود، أي واذكروا يا بني إسرائيل حين ذهب نبيكم للموعد الذي حدَّده الله له، وفي حال غيبته اتخذتم العجل إلهاً فعبدتموه، ثم عفونا عنكم عن هذه الجريمة الشنيعة، وأنتم ظالمون لأنفسكم لتشكروا ربكم على هذا العفو والإحسان. ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي واذكروا نعمتي أيضاً عليكم، حين أعطيت نبيكم موسى التوراة، الفارقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، لتهتدوا بها إلى طريق السعادة والنجاة. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْۚ﴾ أي واذكروا حين قال موسى لقومه: لقد ظلمتم أنفسكم حقاً

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾

بعبادتكم العجل، وعرَّضتموها لعذاب الله، فتوبوا إلى خالقكم، وتخلَّصوا من هذا الذنب العظيم، بقتل البريء منكم المجرم، لعلَّ الله يتوب عليكم!! ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي طاعتكم لله، وامتثالكم لأمره، بأن يقتل البريءُ منكم المجرمَ، خيرٌ لكم عند خالقكم، فإن عذاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة، فتاب عليكم ربكم بتنفيذكم لأمره، لأن ربكم رحيم بكم، يقبل توبة من تاب وأناب إليه!!

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ بعد أن ذكَّرهم تعالى بالنعم التي أفاضها عليهم، بيَّنَ لوناً من ألوان طغيان اليهود، واستهزائهم بأوامر الله، وهم مع الكفر والعصيان، يُقَابلون باللطفِ والإحسان، فما أقبحهم من أمة وما أخزاهم!! أي واذكروا يا بني إسرائيل حين قلتم لنبيكم موسى: لن نصدِّق برسالتك، حتى ترينا ربَّنا علناً وجهاراً!! وهذه منهم قاصمةُ الظهر ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي فأخذتكم صيحةُ العذاب، وهي الصاعقةُ المحرقة، التي فيها النار اللاَّهبة، وأنتم تنظرون إلى ما حلَّ بكم من العذاب، يموتُ الواحدُ أمام الآخر، حتى ماتوا عن آخرهم، وكانوا سبعين رجلاً، وهم الذين قال الله عنهم ﴿**واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا**﴾ الأعراف آية (١٥٥).

قال الطبري: لما تاب بنو إسرائيل من عبادة العجل، أمر الله موسى أن يختار سبعين رجلاً من خيارهم، ليعتذروا عن قومهم في عبادة العجل، فلما ذهبوا وسمعوا كلام الله يكلِّم موسى، يأمره وينهاه، قالوا قولتهم الشنيعة: ﴿**لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة**﴾ فأخذتهم الصاعقة، وهي نار محرقة مدمِّرة، حتى احترقوا وماتوا، وهَمَدت أجسامهم ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ثم أحييناكم بعد أن مكثتم ميِّتين يوماً وليلةً، لتشكروا ربكم على نعمة الإحياء بعد الموت ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ تذكيرٌ لهم بنعمة أخرى، وهم في أرض التيه، في الصحراء الشاسعة المحرقة، أي وتذكَّروا حين سترناكم من حرِّ

كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

الشمس، بالسحاب الذي ظلَّلكم، وأنتم تائهون في الصحراء، وأنعمنا عليكم بأنواع من الطعام، من غير كدٍّ ولا تعب، وهو المنُّ الذي كان ينزل من السماء مثل العَسَل، فيمزجونه بالماء ويشربونه، وبالسلوى وهو طيرٌ يشبه السُّمَّاني لذيذ الطعم، وقلنا لكم: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي كلوا من هذه اللذائذ والطيبات التي رزقناكم إياها، من غير جهدٍ منكم ولا عناء، وإنما هو من فضل رحمة الله ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ في الكلام حذفٌ واختصار، أي فكفروا بهذه النِّعم، وما ظلمونا بالكفر، ولكنْ ظلموا أنفسهم لأنهم عرَّضوها لعذاب الله، ووبالُ العصيان عائد عليهم، وإنما وقعوا في أرض التيه مدة أربعين سنة، بسبب معصيتهم لنبيهم، وقولتهم الشنيعة حين أمرهم أن يدخلوا أرض الجبارين، فقالوا له: ﴿**إنَّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربُّك فقاتلا إنَّا ههنا قاعدون**﴾ فكان عقابُ الله لهم على هذا التعنت والعصيان ﴿**قال فإنها محرَّمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض**﴾، ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ أي واذكروا أيضاً نعمتي عليكم، وقت قولنا لآبائكم: ادخلوا هذه البلدة «بيت المقدس» بعد خروجكم من أرض التيه، وكلوا من خيراتها وثمارها، أكلاً هنيئاً واسعاً ﴿وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي ادخلوا باب البلدة المقدَّسة ساجدين لله، شكراً له على خلاصكم من الضياع، وقولوا حين دخولكم: رجاؤنا يا رب أن تحطَّ عنا ذنوبنا، نغفرْها لكم، وسنزيدكم ثواباً، وكلمةُ «حِطَّة» كلمة رجاء واستغفار، كقول المؤمن: أستغفر الله، ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ أي غيَّر هؤلاء السفهاء الظالمون، المستهزئون بأوامر الله القول، فدخلوا يزحفون على مقاعدهم بدل السجود، وهم يقولون مستهزئين: حنطةٌ، أو حبة في شعرة بدلاً من حِطَّة ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي أنزلنا عليهم عذاباً شديداً من السماء، وهو «الطاعونُ» بسبب عصيانهم وخروجهم عن طاعة الله، قال

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ﴾

المفسرون: وقد مات بالطاعون منهم في ساعة واحدة سبعون ألفاً ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل، حين طلب موسى من ربه السقيا لقومه، فقلنا له: اضرب بعصاك الحجر، فتفجرت منه عيون الماء، بقدر قبائلهم الاثنتي عشرة، وهذه إحدى النعم العظيمة عليهم، حين كانوا في التيه «الصحراء» وعطشوا عطشاً شديداً، كادوا يهلكون معه، فدعا موسى ربه أن يغيثهم ويسقيهم، فأوحى الله إليه أن يضرب الحجر، فتفجرت منه عيون الماء، كأنها أنهار جارية ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ﴾ أي علمت كلُّ قبيلةٍ وكلُّ جماعة مكان شربهم، فلا يشركهم فيه غيرهم، وإنما قال ﴿مشربهم﴾ ولم يقل عينَهم، للإشارة إلى معجزة أخرى، حيث حدث مع انفجار الماء جداولُ جرت بالماء كالعيون التي تجري على سطح الأرض ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي كلوا ممَّا رزقكم الله تعالى من المنِّ والسلوى، واشربوا من هذا الماء العذب، ولا تطغوا في الأرض بأنواع البغي والإفساد ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ أي وتذكَّروا يا بني إسرائيل عنادكم لنبيِّكم موسى، حين قلتم له وأنتم في الصحراء، تأكلون من المنِّ والسلوى: لن نصبر على لونٍ واحد من الطعام ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ﴾ أي ادع الله أن يرزقنا غير ذلك الطعام فقد سئمناه، ونريد ما تخرجه الأرضُ من أنواع البقول، من الخيار، والثوم، والعدس، والبصل، فقد كانوا أصحاب مزاجٍ فاسد، كرهوا «المنَّ» وهو طعام حلو يشبه العسل، وكرهوا «السلوى» وهو أطيب لحوم الطير، وطلبوا بدلهما العدسَ والثومَ والبصل.. ولا غرابة في ذلك، فإن من فسد عقلُه، فسدَ مزاجه، فالبصلُ عندهم أطيب من العسل، والعدسُ أطيب من اللحم!! يا لهم من حمقى جهلاء، إذ فضَّلوا الثوم

﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

والبصل، على المنِّ والسلوى، ولهذا قال لهم نبيُّهم منكراً عليهم هذا الانحراف في فساد الذَّوق ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ﴾؟ أي أتستبدلون الخسيسَ بالنفيس، وتؤثرون الرديءَ من الطعام، على الجيِّد النافع ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ﴾ أي ادخلوا أيَّ بلدةٍ من البلدان، لتروا فيها ما تحبُّون وتشتهون!! قال تعالى في بيان مخازيهم وجرائمهم ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ﴾ أي لزمهم الذلُّ والهوان، وضُربَ عليهم الصغَّارُ والخزيُ، ورجعوا بسخط عظيم من الله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ أي ذلك الجزاء والعقاب، بسبب عصيانهم وطغيانهم، و كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء ظلماً وعدواناً، وكان ذلك العقابُ الشديد، بسبب ما اقترفوه من الجرائم الشنيعة، في حقِّ الله وأنبيائه الكرام.

قال ابن مسعود: قتل بنو إسرائيل في يوم واحدٍ ثلاثةً وأربعين نبيًّا، ثم أقاموا سوق بقلهم - أي فتحوا حوانيتهم - من آخر النهار. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ هذه دعوةٌ عامةٌ، لجميع أهل الأديان، أن يلتزموا بالإيمان الصادق، أي إن المؤمنين من أمة محمد ﷺ، واليهود أتباع موسى، والنصارى أتباع عيسى، والصابئين وهم قوم تركوا اليهودية والنصرانية ووحَّدوا الله، فقالوا: لا إله إلا الله، ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي من آمن منهم في زمانه، إيماناً صادقاً خالصاً، لا يشوبه شيء من الشرك، وعمل بطاعة الله في دار الدنيا ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي فلهم ثوابهم الكامل عند الله، لا يضيع منه مثقال ذرة، ولا خوف عليهم في

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

القيامة حين يخاف المجرمون، ولا هم يحزنون على ما تركوه في الدنيا، والمراد باليهود والنصارى في الآية: المؤمنون منهم في زمانهم، فاليهودي الذي تمسك بشريعة موسى، والنصراني الذي تمسك بشريعة عيسى في زمانه ومات عليها، هؤلاء يدخلون الجنة مع أمة محمد، وأمّا بعد بعثة خاتم الأنبياء ﷺ، فلا يُقبل عند الله دينٌ غير الإسلام، ومصيرُه في الآخرة، إلى نار جهنم، لقوله ﷺ: (والذي نفسُ محمد بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة، يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموتُ ولم يؤمن بالذي أُرسلتُ به، إلاّ أدخلَهُ الله النَّارَ) رواه مسلم، ويؤيد هذا قول الله تبارك وتعالى ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل، حين أخذنا منكم العهد المؤكَّد، الموثَّق بأنواع المواثيق، على تنفيذ أحكام التوراة، ثم رفضتم العمل به، فرفعنا فوقكم جبل الطور، حتى صار كالمظلَّة فوقكم، وقلنا لكم: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي اعملوا بأحكام التوراة، بجدٍّ وعزيمة، واستمسكوا بها ولا تغفلوا عنها، لكي تتقوا سخط الله وعذابه، بطاعتكم له ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي ثم نكثتم العهد، وأعرضتم عن الطاعة، بعد أن عاهدتم ربكم على ذلك، فلولا فضلُ الله عليكم بالتوبة، ورحمتُه بكم بالعفو عنكم، لكنتم من الهالكين، الخاسرين لدنياهم وآخرتهم ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ أي ولقد عرفتم يا معشر اليهود، ما عاقبنا به أسلافكم الذين اصطادوا يوم السبت، وكان ذلك محرماً عليهم، فمسخناهم قردة، مع ما ألحقناهم به من الذلة والهوان ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي جعلنا هذا المسخ، عقوبةً زاجرة، لمن شهدها وعاينها، وعبرة لمن جاء بعدها، وعظةً لكل

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

عبد صالح، متّقٍ لله عز وجل ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل حين قال نبيكم موسى لقومه: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، بعد أن قُتل منكم قتيلٌ ولم تعرفوا قاتله ﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ أي قالوا: أتهزأ وتسخر منا يا موسى؟ نسألك عن القاتل فتقول: اذبحوا بقرة، ما دخلُ البقرة بالقتيل؟ فقال موسى لهم: ألتجىء إلى الله وأستجير به، أن أكون في زمرة الساخرين المستهزئين بالناس!! عبَّر بالاستعاذة «أعوذ بالله» استعظاماً لما رموه به من السخرية والاستهزاء، فإن النبيَّ يقول الحقَّ ولا يهزأ، ولو كانوا أذكياء، لفهموا مغزى كلامه عليه السلام، فإنه وضَّح لهم أن هذا ليس من عنده، إنما هو أمرُ الله ﴿إن الله يأمركم﴾ ولكنهم جهلاء معاندون مشاغبون ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ﴾ أي ادع لنا يا موسى ربك، حتى يبيِّن لنا صفة هذه البقرة، ما سنُّها؟ ما شكلها؟ هل هي صغيرة أم كبيرة؟ وهذا منهم سفهٌ وعناد، ولو امتثلوا أمر الله، فذبحوا أيَّ بقرةٍ لأجزأتهم، ولكنهم شدَّدوا فشدَّد الله عليهم ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ أي إن هذه البقرة التي أمركم ربكم بذبحها، ليست كبيرة هرمة، ولا صغيرة فتية، وإنما هي (عَوَانٌ) أي وسطٌ بين الكبيرة والصغيرة، فنفِّذوا أمر الله، ولا تكثروا الجدل فيشدِّد الله عليكم ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ﴾ لم يمتثلوا الأمر، وعادوا إلى الجدل والتعنت، فقالوا: ادع لنا ربك حتى يبيِّنْ لنا لونها، هل هي بيضاء؟ أم صفراء؟ أم حمراء؟ نريد أن توضِّح لنا لونها بشكل قاطع ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ﴾ أي قال لهم موسى: إن ربي يقول: إن هذه البقرة صفراءُ اللون، شديدةُ الصُّفرة، حسنةُ المنظر، من نظر إليها سرَّته بجمال لونها وشكلها

قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧١﴾

﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ عادوا إلى العناد والمراوغة، فقالوا يا موسى: إن البقر يشبه بعضُه بعضاً، وقد التبس الأمر علينا، فادعُ لنا ربك، يوضِّح لنا ما هي هذه البقرة التي يأمرنا بذبحها؟ وسنهتدي إليها إن شاء الله تعالى، وفي الحديث الشريف عن ابن عباس مرفوعاً (إنما أُمروا بأدنى بقرة ـ أيَّ بقرة ـ ولكنهم لمَّا شدَّدوا شدَّد الله عليهم، وايمُ الله لو أنهم لم يستثنوا ـ أي يقولوا إن شاء الله ـ لما بُيِّنتْ لهم آخر الأبد) ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ﴾ أي إن الله يقول: إن هذه البقرة ليست مسخَّرة لحراثة الأرض، ولا لسقي الزرع، وإنما هي للحليب والنسل ﴿مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ﴾ أي سليمة من جميع العيوب، ليس فيها لون آخر، يخالف لون جلدها الأصفر ﴿قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ أي الآن جئت بحقيقة الوصف، وما بقي لنا إشكال في أمرها!! وفي هذا القول إساءةُ أدبٍ مع رسولهم، كأنه ما كان يخبرهم بالحق قبل ذلك، والآن قال لهم الحقَّ، ولمَّا تعيَّنت لهم البقرة اشتروها بثمن غالٍ جداً، وما كادوا يفعلون ذلك لغلاء ثمنها!!

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾

قصة أهل البقرة

وقصة هذه البقرة أن رجلاً من بني إسرائيل، كان غنياً ذا ثروةٍ كبيرة، ولم يكن له وارثٌ إلاَّ ابنُ أخيه، فقتله ليتعجل إرثه، وحمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدَّعي عليهم أنهم قتلوه ويطالب بدمه، حتى تسلَّح بعضهم لقتال بعض، فقال ذوو الرأي منهم: علامَ يقتل بعضُنا بعضاً، وهذا رسولُ الله «موسى» بين أظهرنا!؟ فأتوا موسى وطلبوا منه أن يسأل ربه عن القاتل، فقال لهم **﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾** فلما ذبحوا البقرة، أخذوا طرفاً منها، فضربوا به القتيل، فقام حيَّاً بإذن الله، وأخبرهم عن القاتل، فقتلوه قصاصاً، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي اذكروا حين قتلتم نفساً، فتخاصمتم وتدافعتم في شأنها، كلُّ واحدٍ من الخصماء يدفع التهمة عن نفسه وينسبها للآخر، والله مظهرٌ لا محالة ما تخفونه من أمر القاتل الحقيقي ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي فقلنا لكم على لسان نبينا: اضربوا القتيل ببعض البقرة، يحيا ويخبركم عن قاتله، وفي الآية شيءٌ محذوفٌ تقديره: فضربوه فقام حياً، وأخبرهم عن الشخص القاتل!! **﴿كذلك يحي الله الموتى﴾** أي كما أحيا الله هذا الميِّت أمام أبصاركم، كذلك يحيي الموتى من قبورهم، ويريكم بعض الدلائل والبراهين على قدرته سبحانه، في إحياء الناس بعد موتهم، لتعقلوا وتعلموا قدرة الله على البعث والنشور. رُوي أنهم لمَّا ضربوا القتيل ببعضها، قام حياً وأوداجُه تشخب دماً، وقال: قتلني ابن أخي هذا، ثم سقط ميتاً!! فأُخذَ القاتلُ فقُتل، ولم يُورَّثْ قاتلٌ بعد ذلك، ثم إن موسى عليه السلام، أمرهم أن يضربوه ببعضها، وما ضربه بنفسه، نفياً للتهمة، كيلا يُنسب إلى السحر، أو الحيلة، ولتبقى معجزةً باهرة لسيدنا موسى الكليم ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي ثم قست قلوبكم يا معشر اليهود وغَلُظت، فلم يعُدْ يؤثِّر فيها نصحٌ ولا تذكير، من بعد

وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ

رؤية تلك المعجزات الباهرات، ومنها معجزة إحياء الميِّت، فهي في قسوتها مثلُ الحجارة، بل أشدُّ منها قسوة ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي وإن من الحجارة ما يلين، فتتدفَّق منه الأنهار بالماء السلسبيل ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ أي وإن من الحجارة ما يتصدّع، إشفاقاً من عظمة الله، فينبع منه الماء عيوناً جاريات ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي وإن من هذه الحجارة ما يتصدَّع، ويهبط من أعالي الجبال، خوفاً من الله وفزعاً، فالحجارةُ تلين وتخشع، وقلوبكم قاسية صلبة، لا تلين ولا تخشع ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي لا يخفى على الله شيء من أعمالكم، وسيجازيكم عليها، وفي هذا وعيدٌ، وتهديدٌ شديد. ثم عاتب تعالى المؤمنين، على طمعهم في إيمان اليهود، بعد أن ذكر لهم طَرَفاً من قبائحهم وجرائمهم، فقال سبحانه: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الخطاب هنا للمؤمنين، والاستفهام للإنكار والتعجيب من حالهم، أي أتسمعون يا معشر المؤمنين أخبار اليهود، وعنادهم وأفانين قبائحهم، ثم ترجون أن يُسْلِموا، ويدخلوا في دينكم؟ وحالُهم أنهم كانوا يسمعون كلام الله واضحاً جلياً، ثم يغيِّرون ويبدِّلون آيات التوراة، المنزَّلة من عند الله، عن خبثٍ وقصد، من بعدما عرفوها، وتحققوا منها بعقولهم، وهم يعلمون أن هذا التحريف، جريمةٌ منكرة لا تغتفر ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ أي وإذا رأوا أصحاب النبي واجتمعوا معهم، قالوا لهم: نحن نصدِّق بأن رسولكم حقٌّ، وأنه المبشَّر به عندنا في التوراة ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي وإذا اختلى بعضهم ببعضٍ، وانفردوا عن المؤمنين، قال رؤساهم وأحبارهم الغارقون في الضلالة، قالوا

لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةًۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓۖ

لإخوانهم اليهود: أتخبرون المؤمنين، بما في كتابكم التوراة من صفة محمد؟ ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي لتكون للمؤمنين الحجة عليكم يوم القيامة، في ترك اتباع الرسول، مع العلم بصدقه؟ أفليس لكم عقولٌ، تدركون به هذا الخطأ الفاحش؟ ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي أو لا يعلم هؤلاء اليهود، المحرِّفون لكلام الله، والكاتمون لأوصاف رسول الله، أن الله جلَّ وعلا، لا تخفى عليه خافية؟ وأنه يعلم ما يخفونه وما يظهرونه، فكيف يقولون ذلك، ثم يزعمون الإيمان!؟ ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ومن اليهود طائفة من الجهلة العوامّ، الذين لا يعرفون من الدين شيئاً، إلاَّ الأمانيَّ والمواعيد التي سمعوها من أحبارهم، من أن الجنة لا يدخلها إلا يهودي، فهم يصدِّقون بذلك لفرط جهلهم، وما هم إلاَّ في ظنون وأوهام ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي فويلٌ لهؤلاء الفجرة، المحرِّفين لكتاب الله «التوراة» الذين كتبوا بأيديهم تلك الآيات المحرَّفة، ثم زعموا أن هذا كلام الله ﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ﴾ أي ليحصِّلوا بذلك، على شيءٍ من حُطام الدنيا الخسيس ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أي عذاب وهلاك لهم، بما اقترفته أيديهم من جرائم، من تحريف كلام الله، حيث كتبوها بأيديهم، ونسبوها إلى الله كذباً وزوراً، وويلٌ لهم مما يأكلونه من السحت والحرام ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةًۚ﴾ أي وقال اليهود لن ندخل النار إلاَّ أياماً قلائل، هي سبعة أيام فقط، وهي مدة عبادتنا العجل ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓۖ﴾ أي قل لهم يا أيها الرسول، على سبيل الإنكار

أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

والتوبيخ: هل أعطاكم الله عهداً بذلك؟ فإن كان قد أعطاكم العهد، فالله لا يخلف الميعاد ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي بل تكذبون وتفترون على الله؟ فتجمعون بين الكذب على الله، وتحريف كلامه!! ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي بلى ستَمَسَّكُمُ النارُ وتُخلَّدون فيها، فإنَّ من أشرك بالله، وكثرت جرائمه وأعماله القبيحة، فإنه يخلَّد في نار الجحيم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي وأمَّا المؤمنون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، فهؤلاء يخلَّدون في رياض الجنة، يسرُّون فيها ويُحبرون، لا يُخرجون منها أبداً، قَابَل تعالى في هذه الآيات، بين جزاء الأبرار وجزاء الفجار، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ شروعٌ في بيان أنواع أخرى، من جرائم وقبائح اليهود، حيث نقضوا الميثاق، وأزهقوا الأرواح، واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل، واعتدوا على حرمات إخوانهم في الدين، والمعنى: اذكروا يا معشر اليهود، حين أخذنا عليكم العهد المؤكد، أن لا تعبدوا إلا الله وحده، وأن تحسنوا إلى الوالدين إحساناً، فتبرُّوهم وتعطفوا عليهم، وتحسنوا كذلك إلى الأقارب، واليتامى، والفقراء ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي وأمرناكم أن تحسنوا معاملتكم مع الناس جميعاً، وتتلطفوا معهم في الكلام، كما أمرناكم بالمحافظة على الصلاة، ودفع الزكاة للفقراء ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي ثم أعرضتم عن الميثاق، ورفضتموه رفضاً باتاً، إلاَّ جماعةً قليلة منكم ثبتوا عليه، وأنتم قوم عادتكم العنادُ، وعدمُ الطاعة

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ إخبارٌ عن جناية أخرى لليهود، أي: واذكروا يا معشر اليهود، حين أخذنا عليكم العهد المؤكَّد بالمواثيق، بأن لا يقتل بعضكم بعضاً، ولا يعتدي بعضكم على بعض، بالإخراج من الأوطان، والطرد من الديار ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي ثم اعترفتم بذلك الميثاق، وبوجوب المحافظة عليه، وأنتم تشهدون على أنفسكم بلزومه ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ أي ثم نقضتم العهد يا معشر اليهود، فقتلتم إخوانكم في الدين، وطردتم بعضهم من ديارهم، من غير التزام بالميثاق، ومن غير مراعاة لأوامر الله ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أي تتعاونون على قتلهم، وطردهم من أوطانهم، بالبغي والظلم ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ﴾ أي وإن وقعوا في الأسر في أيدي حلفائكم، دفعتم المال لتخليصهم من الأسر، وافتديتموهم منهم ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ وإخراجهم من أوطانهم، حرام عليكم في شريعة التوراة ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ أفتؤمنون ببعض أحكام التوراة وتكفرون ببعض؟ ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي فما عقوبة من يؤمن ببعض الكتاب، ويكفر ببعض، إلاَّ الذلُّ والهوانُ في الدنيا، والمقتُ والغضبُ من الله ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي وأمَّا عذابهم في الآخرة فأشدُّ وأفظع، وهو الخلود في نار الجحيم، والله تعالى لهم بالمرصاد، لا يغفل عن أفعالهم القبيحة

أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي هؤلاء السفهاء الجهلاء، هم الذين استبدلوا الحياة الدنيا بالآخرة، وآثروا نعيمها الفاني، على نعيم الآخرة الباقي ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي فلا يخفف عنهم العذاب يوم القيامة ولا يُرفع عنهم ساعةً من الزمان، وليس لهم ناصر ينقذهم، أو ينجيهم من عذاب الله ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ شروع في بيان جرائم أخرى لليهود، وهي كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء، أي والله لقد أعطينا رسولنا موسى التوراة، وأتبعنا على أثره الكثيرَ من الرسل ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي وأعطينا عيسى المعجزات الواضحات، التي أيدناه بها، كإحياء الموتى، وإبراء الأعمى، وقوّيناه وشددنا أزره، بعظيم الملائكة «جبريل» عليه السلام ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ أي أفكلّما جاءكم يا معشر اليهود، رسول بما لا يوافق هواكم، استكبرتم عن الإيمان به وتصديقه؟ فطائفةً منهم كذبتموهم، وطائفة قتلتموهم وسفكتم دماءهم، أفهذا هو الإيمانُ الذي تزعمونه؟ ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي وقال فريق منهم لخاتم الأنبياء ﷺ: قلوبنا مغشّاةٌ بأغطية، لا تفقه ما تقوله يا محمد، قالوه سخرية واستهزاء، وليس الأمر كما زعموا، بل هم أناسٌ مغضوب عليهم، لعنهم الله وطردهم من رحمته بسبب كفرهم، وقليلٌ من يؤمن منهم ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي ولمّا جاء اليهودَ هذا القرآنُ الكريم، المنزل بحقٍّ من عند الله، الذي جاء مصدِّقاً لما في التوراة، من بعثة خاتم الأنبياء، وبيان أحواله وصفاته ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي

فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾

وكانوا من قبل مجيئه، يطلبون من الله النصر على أعدائهم الكفار، بالنبي المبعوث آخر الزمان، حيث كانوا يقولون: اللهمَّ انصرنا عليهم بالنبي المبعوث آخر الزمان ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي فلَّما جاءهم الرسول محمد ﷺ، الذي عرفوا صفاته في التوراة، كفروا برسالته، حسداً وبُغضاً، لأنهم كانوا يظنون أنه سيكون من بني إسرائيل، فلمَّا بعثه الله من العرب، حسدوه وكفروا به، فلعنة الله عليهم، ومعنى اللعنة: الطردُ من رحمة الله ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي بئس هذا الشيء التافه، الذي باعوا به أنفسهم، وهو كفرُهم بالقرآن المنزل على خاتم المرسلين ﴿بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾ أي حسداً منهم لرسول الله ﷺ، من أجل أن الله أنزل عليه كتابه «القرآن العظيم» وخصَّه بهذا الفضل الجسيم، وختَمَ به رسالات الأنبياء، وهم يريدون أن تبقى النبوة في بني إسرائيل، لا أن تكون في العرب ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ أي فرجعوا بسخطٍ عظيم من الله، زيادة على سابق غضبه عليهم، بتحريفهم لكلام الله، ولهؤلاء اليهود الكفار عذابٌ شديد، مع الإهانة والإذلال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ أي وإذا قال لهم المؤمنون: آمنوا بما أنزل الله على محمد ﷺ من القرآن الحكيم، قالوا: نؤمن بالتوراة فقط، التي أنزلها الله على نبينا موسى ﴿وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ﴾ أي ويكفرون بما سواه من الكتب السماوية، المنزلة على الأنبياء والمرسلين، وبخاصة «القرآن العظيم»، الذي جاء مصدِّقاً للتوراة، لأن كتب الله يُصدِّق بعضُها بعضاً في الأصول، كالإيمان بوحدانية الله، وبالآخرة، وبالبعث والنشور ﴿قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؟

﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾

أي قل لهم يا أيها الرسول: لماذا قتلتم الأنبياء، إن كنتم تزعمون الإيمان، مع أن قتلهم من أعظم الجرائم عند الله؟ ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ أي جاءكم نبيكم موسى بالحجج الباهرات، والمعجزات الساطعات، ثم عبدتم العجل من بعد ذهابه إلى الطور، وأنتم ظالمون لأنفسكم بعبادتكم له، فكيف تزعمون الإيمانَ، وهذا حالكم مع كتابكم ورسولكم؟ والآيةُ تكذيبٌ لقولهم **﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾** ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ﴾ أي واذكروا يا معشر اليهود، حين أخذنا على أسلافكم العهد المؤكَّد بالأيمان، على العمل بما في التوراة، ورفعنا فوقكم جبل الطور قائلين: خذوا هذه الأحكام بجد ونشاط، وعزم وحزم، واسمعوا قول ربكم سماع قبول، وإلاَّ طرحنا عليكم الجبل فسحقناكم به ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ أي قالوا: سمعنا قولك وعصينا أمرك، وهذا منهم استهزاء بأوامر الله، ﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ﴾ أي خالط حبُّ العجل قلوبهم، وامتزج بدمائهم، لفرط شغفهم به، ومحبتهم له، وهذه استعارةٌ لطيفة، كأن عبادة العجل شراب سائغ لذيذ، شربوه فامتزج بدمائهم وأبدانهم، بسبب الكفر الذي سيطر على قلوبهم ﴿قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي قل لهم على سبيل التهكم بهم: بئس هذا الإيمانُ الذي يأمركم بعبادة العجل؟ فالإيمان يدعو إلى عبادة الرحمن، لا إلى عبادة العجل والشيطان!! ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ توبيخ آخر لليهود على ادعائهم الكاذب أنهم أبناء الله وأحباؤه، أي قل لهم يا أيها الرسول: إن كنتم تزعمون أن الجنة خالصة لكم، وأنكم أحبابُ الله، وأن الله لن يعذبكم على ذنوبكم، فاطلبوا

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾

من الله أن يميتكم، لتستمتعوا بنعيم الجنة، إن كنتم صادقين في دعواكم، فإن نعيم الدنيا لا يساوي شيئاً إذا قيس بنعيم الآخرة، ومن أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي ولن يتمنوا الموت مدى الحياة، بسبب جرائمهم وقبائحهم، في حقِّ الله وأنبيائه المرسلين، والله عليم بظلمهم وإجرامهم، وسيجازيهم على ذلك، وهذه الآية فيها أعظم المعجزات، على صدق القرآن، وصدق الرسالة المحمدية، لأنها إخبارٌ بالغيب، عن أمر تحدَّاهم به القرآن، وهو أن يتمنى أحدهم الموت، وكان الأمر كما أخبر، ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك، ما بقي على الأرض يهودي إلاَّ مات، كما جاء في مسند أحمد عن النبي ﷺ أنه قال: «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ورأوا مقاعدهم من النار» ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي ولتجدنَّ اليهود أشدَّ الناس حرصاً على الحياة، وأحرصَ من المشركين أنفسهم، لمعرفتهم بذنوبهم وإجرامهم، فلا تكاد تجد يهودياً يحبُّ الموتَ ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي يتمنى أحدهم أن يعيش ألف سنة، وليس ذلك بمبعده ومنجيه من عذاب الله، والله مطَّلع على أعمالهم ومجازيهم عليها ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء اليهود: من كان منكم عدواً لجبريل، فإنه عدوٌّ لله، لأن الله أرسله بالوحي على رسله، فمن عاداه فقد عادى الله، وجبريلُ الأمين نزل بهذا القرآن على قلبك يا محمد، بأمر الله تعالى وإذنه وتيسيره ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي مصدِّقاً لما سبقه من الكتب الإلهية، فيه الهداية والإرشاد، والبشارة السارة للمؤمنين بفوزهم بجنات النعيم ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي من عادى الله وملائكته ورسله، وعادى جبريل

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

وميكائيل، فهو كافر عدوٌ لله، فإن الله أنزل الوحي بواسطة الملائكة على الرسل، فمن عادى أحداً منهم أو كذَّبه، فقد كذَّب الجميع، فهو كافر برسالات الله ووحيه.. نزلت هذه الآية، لمَّا سأل اليهود الرسول عن أمور خمسة: عن علامة النبي، وعمَّا حرَّم يعقوب على نفسه من الطعام، وعن أول طعام أهل الجنة، وكيف يأتي الولد مشبهاً أباه أو أمه.. فأجابهم ﷺ عن هذه الأمور الأربعة، قالوا: صدقتَ، بقيتْ واحدةٌ، إن أجبتنا عنها آمنا بك واتبعناك، من يأتيك بالوحي من الملائكة؟ قال: جبريل عليه السلام، قالوا: جبريلُ ذاك عدوُّنا لأنه يأتي بالحرب والعذاب والقتال، ولو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والخصب والمطر لاتَّبعناك» فنزلت تلك الآيات!! ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي والله لقد أنزلنا إليك يا محمد، آيات ساطعات، واضحات الدلالة، دالاتٍ على صدق نبوتك، فإنك نبيٌّ أميٌّ، وهذا كتاب معجز، فنبوتك واضحة جلية، وما يجحد بهذه الآيات الساطعة، إلاَّ الكفرةُ الخارجون عن طاعة الله ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي هل كلما أعطوا عهداً، نقضه جماعة منهم، فاليهود ليست لهم عهود، والمراد أن اليهود أخلفوا العهود، ولم يلتزموا بها، مع أنها موثقة بالأيمان المغلَّظة، فكيف يطمئن الإنسان إليهم؟ بل أكثرهم لا يصدِّق بالتوراة المنزلة على رسولهم ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي ولما جاءهم خاتم الأنبياء محمد ﷺ، المرسل من عند الله، مصدِّقاً للتوراة وموافقاً لها في أصول الدين، ومقرراً لنبوة موسى عليه السلام ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي طرح علماؤهم وأحبارهم التوراة، وأعرضوا عنها بالكلية، لأنها تدلُّ على نبوة محمد ﷺ، كأنهم لا يعلمون من دلائل نبوته شيئاً، وقولُه ﴿وراء ظهورهم﴾ مثلٌ يُضرب لمن يستخفُّ بالشيء فلا يعمل به، ولا يلقي له بالاً، أي جعلوه نسْياً منسياً، والعرب تقول: جعل هذا الأمرَ وراء

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ

ظهره، إذا لم يلتفت إليه أصلاً ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ أخبر سبحانه عن اليهود، أنهم قوم مجرمون، يتَّبعون ما تلقي إليهم الشياطينُ، من كتب السحر والشعوذة، ويكذِّبون برسالات الأنبياء، والمعنى: اتَّبع اليهودُ كتبَ السحر، التي كانت تحدِّثهم بها الشياطينُ، في عهد ملك سليمان، ونسبوا سليمان عليه السلام إلى السحر، وما سَحَر سليمانُ، لأن السحر كفر، ولكنَّ الشياطين هم الذين علَّموا الناسَ السحرَ، حتى فشا أمره بين الناس، والمراد بالكفر هنا: السحْر، لأن اليهود ـ لعنهم الله ـ نسبوا سيدنا سليمان إلى السحر، والسحرُ كفرٌ ولهذا قال: **﴿وما كفر سليمانُ﴾** أي ما سحر، ولا كان ساحراً، إنما كان نبياً. ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ أي وكما اتَّبع رؤساءُ اليهود السحر، كذلك اتَّبعوا ما أُنزل على الملَكَيْن، وهما «هاروت» و«ماروت» بأرض بابل في العراق، وقد أنزلهما الله بصورة البشر، ابتلاءً وامتحاناً للناس، وتمييزاً بين السحر والمعجزة ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي إنَّ الملكَيْن لا يعلِّمان أحداً السحَر، حتى يبذلا له النصيحة، ويقولا له: إنما هذا ابتلاءٌ وامتحان من الله، فلا تكفر بتعلم السحر، واستعماله فيما حرَّم الله، فمن تعلَّمه ليدفع ضرره عن الناس نجا، ومن تعلَّمه لإيذاء الناس ضلَّ وهلك ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ أي فيتعلمون منهما ما يكون سبباً للتفريق بين الزوجين ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي وما يستطيع هؤلاء السحرة أن يضروا أحداً من الخلق، إلا بمشيئة الله وقضائه، فقد يحدث الضرر بالسِّحر، وقد لا يحدث ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أي ولا يحصِّلون بتعلم السحر، إلاَّ على الضرر، لا على النفع، فإنَّ السحرة لا يتعلمونه لدفع الأذى، وإنما يتعلمونه للإضرار بالناس ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ

مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ﴾ أي ولقد علم اليهودُ، أن من آثر السحر على كتاب الله، ليس له حظٌ ولا نصيب من رحمة الله ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أي بئس هذا الشيء الذي باعوا به أنفسهم، لو كان لهم عقلٌ أو إدراك، والحكمةُ في تعليم الملكَيْنِ السحر للناس، أن السحرةَ كثروا في ذلك الحين، واخترعوا فنوناً غريبة من السحر، فبعث الله الملكَيْن ليعلِّما الناس وجوه السحر، حتى يتمكنوا من التمييز بين معجزات الأنبياء، وأعمال هؤلاء المشعوذين من السحرة ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أي لو أن هؤلاء اليهود، آمنوا بالرسول والكتاب حقَّ الإيمان، لأثابهم الله ثواباً أفضل مما شغلوا به أنفسهم من السحر، ولأكرمهم بأنواع الكرامة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي يا معشر المؤمنين، يا من صدَّقتم بالله ورسوله، لا تقولوا في خطابكم للرسول: راعنا أي راقبنا وأمهلنا، وقولوا: انظرنا، أي انتظرنا، واسمعوا سماع قبول، وللكافرين اليهود عذاب مؤلم موجع، وكلمةُ «راعنا» من الرعاية والنظر في مصالح الإنسان، وقد حرَّفها اليهود اللعناء إلى كلمة «مسبَّة» من الرعونة وهي الجهلُ والحُمْقُ، فكانوا يشتمون بها الرسول ﷺ مظهرين أنهم يخاطبونه بما يخاطبه به الصحابة، فنهي المؤمنون عن ذلك، سدَّاً لخباثة اليهود ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ﴾ أي ما يحبُّ اليهود والنصارى والمشركون أن يكون في العرب نبوة، ولا شيء من الخير، لشدَّة بغضهم وحسدهم لكم ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي والله

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ

سبحانه يتفضل بالنبوة والوحي على من شاء من عباده، وهو سبحانه واسع الفضل والإنعام ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ﴾ ردٌّ على اليهود حين قالوا: ألا تعجبون لأمر محمد؟ يأمر أصحابه بأمرٍ، ثم ينهاهم عنه!! فنزلت، والمعنى: ما نبدِّل حكم آيةٍ فنغيِّره بآخر، أو نمحها من قلبك يا محمد، نأت بما هو أنفع لكم أيها المؤمنون، أو بمثلها مع زيادة الأجر ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي ألم تعلم أيها المؤمن العاقل، أن الله عظيم حكيم قدير، لا يصدر عنه إلا كل خيرٍ وإحسان للبشر؟ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي هو سبحانه المالك المتصرف في شؤون الخلق، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وليس لكم أيها المؤمنون، من يرعى شؤونكم ومصالحكم، وينصركم إلاَّ الله ربُّ العالمين!! ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ﴾؟ أي هل تريدون أن تتعنَّتوا على نبيكم، فتسألوه كما سأل قوم موسى نبيَّهم من قبل؟ ويكون مثلكم مثل اليهود، حين قالوا لنبيهم موسى (أرنا الله جهرة) فتضلوا كما ضلُّوا؟ ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي ومن يستبدل الضلالة بالهدى، ويختر الكفر على الإيمان، فقد انحرف عن الطريق المستقيم، طريق السعادة ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ أي تمنَّى كثير من اليهود والنصارى، أن تكفروا بعد إيمانكم لتصبحوا مثلهم ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ﴾ أي حسداً لكم على نعمة الإسلام، من بعد ما ظهر لهم أن دينكم

فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١٠﴾ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ

هو الحق ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي اتركوا الآن مقاتلتهم، واصفحوا عن إساءتهم لكم، حتى يأذن الله لكم بقتالهم، فالله قادر على نصرتكم عليهم ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ أي حافظوا على طاعتكم لربكم، بأداء الصلاة، ودفع الزكاة للمستحقين ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ أي أيَّ شيء تتقربون به إلى الله، من صلاةٍ وزكاة وإحسان، تجدون ثوابه كاملاً يوم القيامة، فالله مطَّلع على أعمالكم وسيجازيكم عليها ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ أي قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا يهودي، وقالت النصارى: لا يدخل الجنة إلاَّ نصراني، كلٌّ من اليهود والنصارى يزعم أن الجنة خاصة به ﴿تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي تلك أحلامهم وتمنِّياتهم الفاسدة!!

قل لهم يا أيها الرسول: ائتوني بالحجة الساطعة على هذه المزاعم الكاذبة، إن كنتم صادقين في دعواكم أن الجنة خاصة بكم ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ أي ليس الأمر كما تدَّعون، بلى يدخل الجنة من استسلم وخضع لله، وهو مؤمنٌ صادق الإيمان ﴿فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي فله جزاؤه الكامل يوم القيامة، ولا يعتريهم حزن أو كدر، بل هم في نعيم مقيم ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ﴾ أي كلٌّ منهم طعن في ديانة الآخر، فاليهود قالوا: دينُ النصارى باطل، والنصارى قالوا: دين اليهود باطل، والحالُ أن كلاً من الفريقين

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾

يقرأ التوراة والإنجيل، ويعلم أن الإيمان بجميع الكتب والرسل، من لوازم الإيمان، فقد كفَّر بعضُهم بعضاً عن علم لا عن جهل ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْۚ﴾ أي كذلك قال المشركون الوثنيون من العرب، مثل قول اليهود والنصارى: قالوا إن دين الإسلام باطلٌ ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي فالله هو الذي يحكم بين العباد، بقضائه العادل، فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، ويُظهر الحقَّ ويُزهق الباطل ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآۚ﴾ أي لا أحد أطغى وأظلم، ممن خرَّب بيوتَ الله، ومنع الناسَ من عبادة الله فيها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ﴾ أي كان الواجب أن يدخلوها بخشيةٍ، وخوفٍ من الله العظيم الجليل، فضلاً عن أن يجترئوا على تخريبها ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي لهؤلاء الفجار الذلُّ والهوان في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾ أي ولله سبحانه الأرضُ كلُّها، لا يختصُّ به مكانٌ دون مكان، فإلى أيِّ جهةٍ توجهتم، فهناك قبلته التي رضيها لكم، نزلت الآية فيمن أضاع القبلةَ في سفره، فإنه يتحرَّى ويصلِّي إلى الجهة التي يغلب عليها ظنُّه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي رحمتُه تعالى واسعة، ولهذا وسَّع عليكم في أمر القبلة، وهو عليم بمصالحكم وتدبير شؤونكم ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ﴾ أي قال اليهود: عزيرٌ ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابنُ الله، وكفار مكة المشركون قالوا: الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ تكذيبٌ للجميع أي

بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ

تنزَّه جلَّ وعلا عمَّا نسبه إليه الظالمون، فكلٌّ من في الكون خاضع لعظمته وجلاله ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق، ليس بحاجةٍ إلى ولد، وإذا أراد أمراً حصل فوراً من غير امتناع (إنما أمرُه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) فكيف يكون له ولد وهو الغنيُّ عن كل شيء ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ﴾ أي وقال جهلةُ المشركين: هلاَّ يكلمنا الله ويخبرنا مشافهةً بأنك رسولُه؟ أو تأتينا يا محمد بمعجزة قاطعة على صدق رسالتك؟ بلغوا من العتوِّ والعناد، أن يطلبوا مرتبة المكالمة الإلهية ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ أي مثل ذلك القول الشنيع، قال الطغاة المعاندون لأنبيائهم، تشابهت قلوبهم في التكذيب والعناد، وفي هذا تسلية لخاتم الأنبياء ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ أي وضحنا الأدلة والبراهين، لقوم يطلبون معرفة الحق واليقين ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾ أي أرسلناك يا محمد بالشريعة النيِّرة، والهدى الساطع، والحقِّ المبين، بشيراً للمؤمنين، ونذيراً للكافرين ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي ولست مسؤولاً عن أصحاب النار إن لم يؤمنوا، فقد أدَّيتَ الأمانة، وبلَّغت الرسالة ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ أي لن يرضى عنك اليهود حتى تصبح يهودياً، ولا النصارى حتى تصبح نصرانياً، فتترك دين الإسلام وتتَّبع دينهم الأعوج، وهذه حقيقة ينبغي أن يعيها المسلمون، أنهم لن يرضوا عنا، حتى ننسلخ عن إسلامنا، مهما تودّدنا إليهم، وسايرناهم على قوانينهم وأنظمتهم، فهم أعداء ألداء للإسلام ورسوله ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ﴾ أي قل لهم: إن الدين الذي هداني الله له «الإسلام» هو الدين الحقُّ، ليس وراءه

وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

هدى، وما تدعونني إليه باطل وضلال ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ولئن سايرتهم على أهوائهم الفاسدة، بعد الحق الساطع، المنزل إليك من عند الله، فليس لك من يتولَّى أمرك، أو ينصرك من عذاب الله وعقابه، والخطاب للمؤمنين، جاء بصورة الخطاب للرسول ﷺ، لأن من عادات الناس توجيه الخطاب إلى القائد والزعيم ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ﴾ المراد به المؤمنون من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأصحابه، من الذين أسلموا من اليهود والنصارى، أي هؤلاء الذين عرفوا الحقَّ فاتبعوه من أهل الكتاب، يؤمنون بالقرآن العظيم، ولا يحرِّفون كلام الله ولا يبدِّلونه، هؤلاء هم الصادقون في إيمانهم، دون الأشرار المحرفين لكلام الله ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي ومن يكذب بالقرآن المنزل على خاتم المرسلين، فقد خسر دنياه وآخرته، حيث اشترى الكفر بالإيمان ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تذكير لليهود بنعم الله الجليلة عليهم، أي تذكَّروا يا معشر اليهود، ما أنعمت به عليكم من أنواع النعم، التي لا تُحصَى، واشكروا ربكم عليها، ومعنى تفضيلهم على العالمين، أن بني إسرائيل الذين آمنوا بموسى عليه السلام وتمسَّكوا بالتوراة، هم أفضلُ عالمي زمانهم، وليسوا أفضل الأمم على الإطلاق، فأمة محمد ﷺ خير الأمم بالنص القاطع ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ وقد كفر اليهود، وقتلوا الأنبياء، فأصبحوا شرَّ الأمم ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ أي خافوا ذلك اليوم العصيب الرهيب، الذي لا تنفع نفسٌ نفساً أيَّ نفع، ولا تدفع عنها شيئاً من عذاب الله، لأن كل نفسٍ بما كسبت رهينة ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي لا يُقبل منها فداءٌ مهما قدَّمتْ من فدية، والعدلُ هنا: الفديةُ، ولا تنفعها شفاعةُ أحدٍ إن كفرت بالله، ولا ينصرها ناصرٌ من عذاب الله.

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي كلَّفه ربه بتكاليف شاقة، واختبره بأوامر ونواهي، فأدَّاهنَّ على وجه الكمال والتمام، وقام بهن خير قيام، من هذه التكاليف والمحن: هجرته من الوطن، وما ابتلي به من ذبح ابنه إسماعيل، حين أُمر بذبحه، وصبُره على قذفهم له بالنار ليحرقوه ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي قال له ربه: سأجعلك قُدوةً للناس، ومناراً يهتدي بك الخلق ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي قال إبراهيم: واجعل يا رب أيضاً من ذريتي أئمة هدى، قال الله له: لا ينال يا إبراهيم هذا الفضل ظالم ولا كافر، لأن النبوة أمانة، والظالم لا يصلح لحمل هذه الأمانة ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ أي جعلنا الكعبة المعظَّمة، والبيت العتيق، مرجعاً يثوب إليه الحُجَّاج والزُّوارُ، ومكان أمنٍ يأمن فيه الخائف، ويلوذ إليه الضعيف ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ أي وقلنا للمؤمنين: اتخذوا مصلًّى عند مقام إبراهيم أي صلُّوا فيه، والمقام هو الحَجرُ الذي وقف عليه الخليل عند بنائه الكعبة ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي أوصينا وأمرنا إبراهيم وولده إسماعيل، أن يطهِّرا البيت العتيق، من الأوثان والأرجاس، لمن يطوف به من حاضر وبادٍ، و﴿العاكفين﴾ أي المقيمين عنده، والمصلِّين فيه ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي اجعل يا رب هذا المكان القفر، بلداً ذا أمنٍ، يأمن أهلُه على أنفسهم، وارزقهم من أنواع الثمرات، ليقبلوا على طاعتك، ويتفرغوا لعبادتك، ارزق المؤمنين منهم خاصة ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي قال الله تعالى لإبراهيم: ومن

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾

كفر منهم أرزقه أيضاً، أأخلقُ خلقاً ثم لا أرزقهم؟ ولكن من كَفَر منهم، فإني أرزقه في الدنيا إلى انتهاء أجله، ثم ألجئه إلى نار جهنم، وبئست جهنم مصيراً للكافرين!! قاس إبراهيمُ الرزقَ على الإمامة، فنبَّهه تعالى على أن الرزق رحمة دنيوية، تشمل المؤمن والكافر، والبَّر والفاجر، بخلاف الإمامة فإنها خاصة بالأبرار ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ أي اذكر يا أيها الرسول، ذلك الحدثَ العجيب، وقت بناء إبراهيم وولده إسماعيل الكعبةَ المشرَّفه ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يبنيان وهما يدعوان بهذه الدعوات المباركات، يقولان: يا ربنا تقبَّل عملنا، واجعله خالصاً لوجهك الكريم، فإنك سميع لأقوالنا، عالمٌ بنيَّاتنا ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ أي اجعلنا مستسلمين لأمرك، مخلصين عملنا لوجهك، واجعل من ذريتنا من يُسلم وجهه لك، ويخضع لعظمتك ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي وعلِّمنا شرائع دينك، ومناسك حجنًا، واعف عن تقصيرنا، فإنك يا رب عظيم المغفرة، واسع الرحمة ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي ابعث في الأمة المسلمة، رسولاً من العرب، يقرأ عليهم القرآن، ويرشدهم إلى الطريق المستقيم، بهدي النبوة وهي الحكمة، ويطهرهم من رجس الشرك والوثنية، فإنك أنت العزيز أي الغالب الذي لا يُقهر، الحكيم أي الذي لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة، وقد استجاب الله دعاءه، فبعث في أمة العرب، محمداً خاتم المرسلين ﷺ، ختم به الرسالات السماوية ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ لمَّا ذكر تعالى مآثر الخليل إبراهيم، وقصة بنائه للبيت العتيق، منار الإيمان والتوحيد، ذكر بعده سفه من خالف دينه وشرعه، أي لا يرغب عن دين إبراهيم، وشريعته الحنيفية السمحة، إلا الأحمق السفيه،

وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

الذي استخفَّ نفسه، فأهانها وامتهنها ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي ولقد اخترناه في الدنيا من بين سائر الخلق، بالخُلَّة والنبوة والإمامة العظمى، وإنه في الآخرة من أصحاب الدرجات العالية، لصلاحه ودينه ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي استسلمْ لأمر ربك يا إبراهيم، وأخلصْ نفسك لربِّ العزةِ والجلال، قال: أسلمتُ لله، وخضعتُ لحكمه ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي وصَّىٰ الخليل أبناءه باتباع دين الإسلام، وكذلك يعقوب وصَّى أبناءه بذلك، قائلين لذريتهم: إن الله اختار لكم دين الإسلام، الذي هو صفوة الأديان ديناً، فاثبتوا عليه حتى تموتوا مسلمين ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ روي أن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ: ألستَ تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية يوم مات؟ فنزلت الآية، والمعنى: هل كنتم يا معشر اليهود حاضرين، حين نزل الموت بيعقوب، فجمع أبناءه ووصَّاهم بهذه الوصية؟ ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ أي حين قال يعقوب لأبنائه: ما هو الدِّينُ الذي ستكونون عليه بعد وفاتي؟ أراد بهذا السؤال تقريرهم على التوحيد والإسلام، ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي قالوا: نحن على دينك، نعبد الله وحده، إلهك وإله إبراهيم، وإله إسماعيل ـ وهو ابن إبراهيم ـ وإسحاق، إلهاً واحداً لا نشرك به شيئاً، ونحن على دين الإسلام، دين أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، ويعقوب هو «إسرائيل» الذي ينتسب إليه اليهود زوراً وبهتاناً، وهم يزعمون أنهم على دينه، ولا يرضون الإسلام، الذي دعا أبناءه إليه، وهو على فراش الموت، فكيف يزعمون الانتساب إلى يعقوب وهم يخالفون وصيته

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ

ودينه؟ ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي هذه جماعة من الأنبياء وأتباعهم المؤمنين، مضت قبلكم، لهم جزاء ما عملوا، ولكم جزاء ما عملتم، ولا يُسأل أحد عن فعل غيره، ولا يُؤاخذ بذنب غيره، بل كلُّ إنسان يتحمل تبعة كسبه ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ أي قال كلُّ أهل دينٍ، من اليهود والنصارى: اتبعوا ديننا تهتدوا، فاليهود قالوا للمؤمنين كونوا يهوداً تهتدوا، والنصارى قالوا: كونوا نصارى تهتدوا ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي قل لهم: ليست الهداية في اتباع اليهودية والنصرانية، كما زعم أهل الكتاب، بل السعادةُ في اتباع دين إبراهيم وهو الإسلام، وما كان إبراهيم مشركاً، بل كان مسلماً موحِّداً، وفيه تعريضٌ بأهل الكتاب، بأن ما هم عليه من اليهودية والنصرانية، شركٌ وضلال ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ الآية خطاب للمؤمنين، تحذيراً لهم من مسايرة أهواء أهل الكتاب، إلى دينهم الأعوج، أي قولوا آمنا بوحدانية الله، وما أنزل على الأسباط من أنبياء بني إسرائيل. ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي وقولوا: آمنا بالتوراة والإنجيل، وصدَّقنا بما أعطي الأنبياء جميعاً من الآيات والمعجزات الباهرة ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي لا نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض، كما فعل اليهود والنصارى، بل نؤمن بجميعهم، ونحن مستسلمون لأمر الله، منقادون لحكمه ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ أي فإن آمن اليهود والنصارى إيماناً صادقاً بمثل ما آمنتم به يا معشر المؤمنين، فقد اهتدوا إلى الحق وأصابوه ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ أي وإن أعرضوا عن الإيمان، والدخول في دين الإسلام، فإنما هم أعداء، مستقرون في خلاف

نَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾

شديد، وعداوةٍ عظيمة لك يا محمد ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي فسيكفيك ربُك شرَّهم وأذاهم، ويعصمك منهم، وهو سبحانه السميع لأقوالهم، العليم بما يضمرونه من الشر ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ أي هذا الإسلام الذي نحن عليه، هو دينُ الله الحق الذي فطرنا عليه، ولا أحد أحسنُ من الله ديناً، ونحن عابدون لله لا نعبد غيره ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ أي قل يا أيها الرسول لهؤلاء اليهود والنصارى: أتجادلوننا وتخاصموننا في دين الله، وتدَّعون أن دينه هو اليهودية والنصرانية! وهو خالقنا وخالقكم، ولنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم، وقد أخلصنا الدينَ والعمل لله، لا نبتغي بها إلاَّ وجهه الكريم!؟ نزلت حين قال اليهود والنصارى للمسلمين: إن الأنبياء كانوا منَّا وعلى ديننا، ودينُنا أقدمُ من دينكم، ونحن أبناءُ الله وأحباؤه، فنزلت هذه الآيات ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ﴾ أم تزعمون أن جميع الأنبياء، وأحفادهم الذين بُعثوا فيكم، كانوا على دين اليهودية أو النصرانية، فتكذبون عليهم وعلى الله؟ ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾ أي هل أنتم أعلمُ بحقيقة ما كانوا عليه من الدين، أم ربُّ العالمين؟ وقد شهد الله بأنهم كانوا مسلمين، وبرَّأهم من اليهودية والنصرانية (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين) فكيف تكذبون فتزعمون أنهم على دينكم؟ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي لا أحد أفجرُ وأظلمُ، ممن أخفى الحقيقة التي أنزلها الله، ووضَّحها في التوراة والإنجيل، من أن الأنبياء الكرام كانوا على الإسلام، وليس الله بغافلٍ عما تعملونه يا أهل الكتاب، وسيعاقبكم على

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾

افترائكم في الآخرة.

لقد زعمت كل طائفة من اليهود والنصارى، أن الأنبياء كانوا على دينهم، فأبطل الله مزاعمهم بالحجة النيِّرة المُفْحِمَة، وهي أن الأنبياء كانوا قبل ظهور الديانة (اليهودية والنصرانية)، فكيف ينسبونهم إليها؟ كما قال سبحانه ﴿**يا أهل الكتاب لمَ تحاجُّون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون**﴾؟ ثم قال تعالى قطعاً لشَغَبهم ومجادلتهم ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ كرَّر الآية لأنها تضمنت معنى الوعيد والتهديد أي إذا كان هؤلاء الأنبياء على فضلهم، وجلالة قدرهم، يجازون بكسبهم، فما هو حالكم أنتم، وقد كذبتم على الله، ثم زعمتم أنكم أولياؤه؟ ولا يُسأل أحدٌ عن عمل غيره، بل يُسأل عن عمله ويجازى عليه ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ أي سيقول الحمقى ضعفاء العقول، من اليهود والمنافقين والمشركين: ما الذي صرف المسلمين وحوَّلهم، عن قبلة بيت المقدس، التي كانوا يصلُّون إليها؟

أخبر تعالى عن ذلك قبل حدوثه، وذلك من المعجزات الغيبيَّة للقرآن، فقد قال ذلك السفهاء، بعد أن تحوَّلت القبلة إلى الكعبة المشرفة ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي للهِ جلَّ وعلا الجهاتُ كلُّها، لا يختصُّ به مكان دون مكان، فهو سبحانه يأمر بالتوجه إلى حيث شاء، من شرقٍ أو غرب، حسب ما توجبه الحكمة، وتقتضيه المصلحة ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي كما هديناكم إلى الإسلام، وإلى قبلة أبيكم براهيم، كذلك جعلناكم خياراً وعدولاً، وفضلناكم يا أمة محمد على جميع الأمم ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أي لتشهدوا يوم القيامة على الناس، أن

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ﴾

الرسل بلَّغتهم رسالةَ ربهم، ويشهد عليكم الرسول فيزكِّيكم ويشهد بصدقكم، رُوي أن الأمم يجحدون تبليغ الأنبياء لهم، فتشهد أمة محمد عليهم يوم القيامة، كما ورد ذلك في صحيح البخاري ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ﴾ أي وما شرعنا التوجه إلى بيت المقدس أولاً، ثم حوَّلناك يا محمَّدُ إلى الكعبة المشرَّفة، إلا امتحاناً للناس، لنختبر إيمانهم، فنعلم من يصدِّقُ الرسولَ، ممن يرتدُّ عن الإسلام لضعف إيمانه ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ أي وإن كان هذا التحويل لشاقاً وصعباً، إلاَّ على الذين أنار الله بصيرتهم، فعرفوا حكمة التشريع ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ولا يصحُ ولا يستقيم، أن يُضيِّع الله صلاتكم إلى بيت المقدس، لأنه شفيق رحيم بالعباد!! ويُروى أنه لمَّا حوِّلت القبلةُ إلى الكعبة المشرَّفة، قال بعض الصحابة يا رسول الله: كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلُّون إلى بيت المقدس؟ فنزلت الآية، وسمَّى الله الصلاةَ إيماناً (ليضيع إيمانكم) لأنها أعظم مظاهر الإيمان ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ «قد» هنا للتكثير، أي كثيراً ما رأينا تردُّد بصرك يا محمد، إلى جهة السماء، تترقب تحويل القبلة، فلنوجهنَّك إلى جهةٍ تحبُّها، وهي قبلةُ أبيك إبراهيم، فتوجَّهْ إلى الكعبة المشرَّفة ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ﴾ أي وحيثما كنتم يا معشر المؤمنين، فتوجَّهوا في صلاتكم جهة الكعبة المعظمة ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ﴾ أي وإن أهل الكتاب يعرفون أن هذا التحويل، حقٌّ ثابت من عند الله، ولكنهم يُلْقون الشبهات لتضليل الناس

وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ أي هو سبحانه لا يخفى عليه شيء من مكرهم، وسيجازيهم عليه ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ﴾ أي ولئن جئت يا أيها الرسول اليهودَ والنصارى، بكل حجة ساطعة، تدلُّ على صدقك، في أمر تحويل القبلة، ما اتَّبعوك ولا صلُّوا إلى قبلتك، لأن جحودهم عن عنادٍ لا عن جهل ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ﴾ ولستَ يا محمد بمتوجِّه إلى قبلتهم أبداً، كما أن اليهود لا يتوجهون إلى قبلة النصارى، ولا النصارى يتوجهون إلى قبلة اليهود، لما بينهم من العداوة والخلاف الشديد ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي ولئن فُرِض أنك سايرتهم على أهوائهم، واتبعت ما يحبونه، بعد وضوح البرهان الذي جاءك بطريق الوحي، تكون ممن ارتكب أفحش الظلم، والآية وردت على سبيل «الفرض والتقدير» وحاشاه ﷺ أن يتَّبع أهواء الكفرة المجرمين!!

والخطابُ في الظاهر للرسول، والمرادُ أمَّته ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾ أي إن اليهود والنصارى، ليعرفون خاتم المرسلين ﷺ، معرفةً يقينية صادقة، كما يعرفُ الواحد منهم ولده ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أي وإن أحبارهم ورؤساءهم، ليخفون صفة محمد ﷺ وهم يعلمون حقيقة الأمر ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ أي ما أوحيناه إليك يا محمد، من أمر الوحي والدين، هو الحقُّ القاطعُ، واليقين الساطع، فلا تكوننَّ من الشاكيِّن، والمراد بالآية أمةُ محمد ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ أي ولكل أمة من الأمم، شريعة وقبلةٌ، وجَّههم الله إليها، فبادروا وسارعوا أيها

أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ

المؤمنون إلى فعل الخيرات﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي في أيِّ مكانٍ كنتم بعد موتكم، في أغوار الأرض، أو أعماق البحار، يجمعكم الله للحساب والجزاء، لأنه سبحانه قادرٌ لا يعجزه شيءٌ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي وفي أيِّ مكانٍ كنت، وأنت في حال السفر، فتوجَّهْ في صلاتك إلى الكعبة المشرَّفة وهذا التوجه هو الحقُّ من عند الله، لأنه بحكمه وأمره﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ تكرَّر الأمر من الله عزَّ وجلَّ، في موضوع القبلة لِحكَم ثلاثة: تعظيم أمر الرسول ﷺ بتوجيهه إلى الكعبة المشرَّفة التي يحبها، والثانية لبيان أن حكم التوجه في السفر والحضر واحد، والثالثة لدفع شبهات الضالِّين، لأن نسخ القبلة من مكانٍ إلى مكان، أمرٌ عظيم وخطير، يولِّد شبهة التشكيك في الدين، ولهذا قال تعالى بعد﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي لئلا يبقى لليهود عليكم حجة، فيقولوا: يخالف محمد ديننا ويتَّبع قبلتنا!! ولقول المشركين: يدَّعي ملَّة إبراهيم، ويخالف قبلته﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ أي إلاَّ الفسقةُ الظلمةُ من الناس الذين يقولون: إن محمداً يتلاعب بالدين، يصلِّي أحياناً إلى بيت المقدس، وأحياناً إلى البيت الحرام، يساير اليهود في قبلتهم، ثم يرجع إلى دين قومه، فيصلي إلى قبلتهم، فلا تخافوا أيها المؤمنون هؤلاء الأشرارَ الفُجَّارَ، وخافوني﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ولأتمم نعمتي عليكم، بالهداية إلى قبلة أبيكم إبراهيم، والتوفيق إلى سعادة الدارين﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ﴾ الآية متصلة بما قبلها، أي ولأتمَّ

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾

نعمتي عليكم في أمر القبلة، كما أتممتُها بإرسال رسولٍ من العرب إليكم، الذي به شرفكم وعزُّكم، يتلو عليكم القرآن، ويطهِّركم من دنس الشرك وعبادة الأوثان ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ أي يعلِّمكم أحكام الكتاب المجيد، والسنة النبويَّة المطهرة، ويعلِّمكم من علوم الدنيا والدين، ما لم تكونوا تعرفونه من قبل ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ أي اذكروني بالعبادة والطاعة، أذكركم بالمغفرة والثواب، واذكروني في النعمة والرخاء، أذكركم في الشدة والبلاء، واشكروا نعمتي الجليلة عليكم، ولا تكفروها بالجحود والعصيان، فمن أطاع الله فقد شكر، ومن عصاه فقد كفر!! ثم نادى تعالى عباده بنداء الإيمان، ليستنهض هممهم إلى امتثال الأوامر الإلهية فقال سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي استعينوا على طاعة ربكم، بالصبر على المشاقِّ، وأداء الصلاة التي فرضها عليكم، فبالصبر تنالون كل فضيلة وإحسان، وبالصلاة تنتهون عن كل رذيلة وعصيان **﴿إن الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر﴾** والله مع الصابرين بالمعونة والرعاية ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ أي لا تقولوا عن الشهداء إنهم أموات، بل هم أحياء عند ربهم يُرزقون، ولكنكم لا تعرفون ذلك، لأنهم في حياةٍ برزخية، أسمى من حياة الدنيا ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي ولنختبرنكم أيها الناسُ بشيءٍ يسير من أنواع البلاء، مثل الخوف من الأعداء، والجوع الشديد بسبب القحط والجدب، وذهاب بعض الأموال، وفقد بعض الأحباب، وضياع بعض الزروع والثمار، وبشِّر الصابرين على المصائب والمحن، بالأجر والثواب الجزيل، من رب العالمين ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾

﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾

أي هم الذين إذا أصيبوا بمكروهٍ أو بلاء، قالوا: نحن عبيدٌ، وملْكٌ لله، ونحن راجعون إليه للحساب والجزاء ﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ أي هؤلاء الصابرون، لهم ثناءٌ وتمجيد ورحمة عظيمة من الله، وهم المهتدون إلى طريق السعادة والفلاح، وفي الحديث القدسي «من ابتليتُه بحبيبتيْه ـ أي عينيه ـ فصبَر عوَّضتُه الجنة» أخرجه البخاري ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ المراد جبل الصفا وجبل المروة أي هما من معالم دين الله، ومناسك حجه ﴿فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ أي فمن قصد بيت الله للحج والعمرة، فالواجب عليه أن يسعى بينهما، وإنما قال (فلا جناح عليه) مع أنَّ السعي ركنٌ أو واجب، لدفع توهم ما وقع في أذهان بعض الصحابة، حيث قالوا: كيف نسعى بينهما، وقد كنا في الجاهلية نسعى للأصنام؟ وخافوا أن يتشبهوا بالمشركين، فنزلت الآية تأمرهم بالسعي للرحمن، لا كما كانوا يسعون للأوثان ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي ومن فَعَل خيراً، سواءٌ كان فرضاً أو نفلاً، فإن الله شاكر له طاعته، ومجازيه عليها أفضل الجزاء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ نزلت في أحبار اليهود الخائنين، وهي عامة في كل من كتم شيئاً من أحكام الدين، أي إن الذين يخفون صفات محمد ﷺ، ويخفون الآيات البينات الدالة على صدق رسالته، بعد ما وضحنا لهم ذلك في التوراة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ أي أولئك المحرِّفون لأحكام التوراة، الكاتمون لأوصاف الرسول، يلعنهم الله فيطردهم من رحمته، ويلعنهم أهلُ السماء والأرض، وجميع الخلق ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي إلا إذا رجعوا عن جريمتهم، فأظهروا

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾

للناس الحقيقة، وأصلحوا ما أفسدوه بالكتمان، وبيَّنوا ما أخفوه من صدق رسالة محمد ﷺ، فأولئك التائبون الصادقون، أقْبَلُ توبتهم وأشملُهم برحمتي، وأنا واسع التوبة، عظيم الرحمة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي إن الذين جحدوا وحدانية الله، وكذَّبوا رسوله، وماتوا على الكفر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي أولئك الكفرة الفجار، استقرَّتْ عليهم اللعنةُ من الله، والملائكة، وجميع الخلق، خالدين في نار جهنم، وعذابُهم دائم لا ينقطع، ولا يُمهلون أو يؤجَّلون ساعةً واحدة.. حكم تبارك وتعالى على الكفار بثلاث عقوبات: الخلود في الجحيم، وعدم الإمهال، وعدم التخفيف ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي إلهكم المستحقُّ للعبادة أيها الناس، إلهٌ واحد، لا نظير له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لا معبود بحقٍّ إلاّ هو جلّ وعلا، المتَّصفُ بالرحمة الواسعة، الرحيم بالعباد ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي إن في إبداع السموات والأرض، بما فيهما من عجائب الصَّنعة ودلائل القدرة، بما تعجز عن الإحاطة بها عقول البشر، وتعاقب الليل والنهار، بنظام دقيق محكم، يأتي الليلُ فيعقبه النهارُ، ويمضي النهار فيعقبه الليلُ، ويطول النهار ويقصر، حسب التدبير الإلهي ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي والسُّفن الكبيرة الضخمة، التي تسير في البحر، وتجري على سطح الماء ولا تغوص فيه، وهي مملوءةٌ بالأثقال والرجال، بما يحقِّق مصالح العباد ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي والمطر الذي أنزله الله من السحاب بقدرته، فأحيا به الضرع، وأخرج به الزرع، بعد جدب الأرض وقحطها ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي وما نشر وفرَّق

وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ

في الأرض من كل ما يدبُّ على سطحها، من حيوان، وزواحف، وأنعام ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي وتقليب الرياح عند هبوبها، جنوباً وشمالاً، حارة وباردة، والسحاب المسيَّر بين السماء والأرض، يسير بقدرة الله حيث شاء الله ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ أي لدلائل وبراهين ساطعة، لقوم يتفكرون بعقولهم، ذكر تعالى في هذه الآية ثمانية دلائل، على قدرة الله ووحدانيته، كلُّها براهين ساطعة قاطعة، تشير إلى وجود الخالق، المنظِّم الحكيم، وختم هذه الآية بقوله (لآيات لقوم يعقلون) ليوضِّح للناس أن هذه دلائل عقلية، لمن له عقلٌ وفهم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ أي وفريقٌ من البشر، تبلغ بهم الجهالةُ والحماقةُ، أن يعبدوا غير الله، من الأصنام والأوثان، يجعلونها أشباهاً ونظراء مع الله، كأنها تخلق وترزق، يحبونها كحبِّ المؤمن لله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ أي وحبُّ المؤمنين لله، أشدُّ من حب المشركين للأوثان ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي ولو يرى الظالمون، حين يشاهدون العذاب الأليم، أن القدرة لله وحده، وأن عذاب الله أليم شديد، وجواب «لو» محذوف للتهويل، أي لرأوا ما لا يوصف من الهول والشدة ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ أي حين يتبرأ المتبوعون من الأتباع، ويتبرأ الرؤساء المضلُّون، من الأنصار الأشقياء، وعاينوا عذاب الله الشديد، وانفرطت بينهم روابط الألفة والمحبة ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ﴾ أي وتمنى الأتباع لو أن لهم رجعة وعودة إلى الدنيا، ليتبرءوا من أولئك الزعماء الذين أضلُّوهم

كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي كذلك يريهم الله أعمالهم القبيحة، نداماتٍ شديدة، وحسرات تتبعها زفرات، تتردَّدُ في صدورهم، وليس لهم خروج أبداً من النار، لأنهم في عذاب دائم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ أي كلوا يا معشر البشر، ممَّا أحلَّه الله لكم في الأرض، وممَّا أخرج لكم من أنواع الزروع والثمار ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي ولا تسلكوا طرق الشيطان، فيما يزيِّنه لكم من المنكرات والفواحش، فإن الشيطان عدوٌّ لكم ظاهر العداوة، يريد هلاككم ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي لا يأمركم الشيطانُ إلاَّ بكل قبيح، وبكل عملٍ فاحش خبيث، وأن تفتروا على الله فتنسبوا له الزوجة والولد، وتحلِّلوا وتُحرِّموا من تلقاء أنفسكم، دون برهانٍ ولا حجة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ﴾ أي وإذا قيل للمشركين على وجه النصيحة: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الهدى والإيمان، واتركوا ما أنتم عليه من الفساد والضلال، قالوا: بل نتَّبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي أيتَّبعون آباءهم، ولو كانوا سفهاء جهلاء؟ ليس لهم عقلٌ ولا بصيرة؟ ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ﴾ أي مَثَلُ الكفَّار، في عدم انتفاعهم بالقرآن وحججه الساطعة، كمثل الراعي الذي يصيح بغنمه ويحذِّرها، فهي تسمع الصوتَ ولا تفهم الكلام، فهؤلاء الكفار كالدوابِّ السارحة، لا تفهم ولا تعقل. ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي هم كالصُمّ لا يسمعون من يدعوهم إلى الهدى، وكالخُرس لا ينطقون بخير، وكالعمي لا يبصرون طريق

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾

الرشاد، فهم أغبياء لا يعقلون، شبَّههم تعالى بالبهائم التي لا تعقل ما يُقال لها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ أي كلوا يا معشر المؤمنين، من الرزق الحلال الذي رزقكم الله إيّاه، من أنواع اللذائذ الطيبة، واشكروا ربكم على نعمه الجليلة، إن كنتم حقاً تعبدونه، ولا تعبدون معه غيره ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ أي ما حرَّم ربكم عليكم، إلاَّ كلَّ قذرٍ خبيث، ضارٍّ بكم، مثل الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما ذُبح للأصنام والأوثان، أو ذُكر عليه اسم غير الله، كاللات والعزَّى، والشيطان ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ أي فمن ألجأته الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرمات، بشرط أن لا يكون ساعياً في فساد، ولا متجاوزاً مقدار الحاجة والضرورة، فلا عقوبة عليه، لأن الضرورات تبيح المحظورات، والله عظيم المغفرة، واسع الرحمة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ أي يخفون ما أنزل الله في آياته البينات، من أحكام الدين، وصفة خاتم المرسلين، طمعاً في حطام الدنيا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي أولئك الأشرار الفجار، إنما يأكلون ناراً، تتأجّج في بطونهم يوم القيامة، ولا يكلّمهم الله سبحانه كلام رضى، ولا يطهِّرهم من دنس الذنوب، ولهم فوق ذلك عذاب مؤلمٌ موجع ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي أخذوا الضلالة بدل الهدى، والكفر بدل الإيمان، فما أشدَّ صبرهم على نار

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ

جهنم!! وهو تعجيبٌ من جراءة أولئك الفجار ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي ذلك العذاب الذي ذاقوه، بسبب أن الله أنزل كتابه المنير «التوراة» بالحقِّ الساطع، فكتموا وحرَّفوا ما فيه، طمعاً في حُطام الدنيا ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي وإن اليهود والنصارى، الذين اختلفوا في تأويل التوراة وتحريفها، لفي خلافٍ ونزاع، بعيد عن الهدى والصواب، مستوجب لأشد العذاب ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ الخطاب لليهود والنصارى، المختلفين في كتابهم اختلافاً كبيراً، والمعنى: ليس فعلُ الخير، والعملُ الصالح، محصوراً في توجه الإنسان في صلاته، جهة المشرق أو المغرب، فإن أمر القبلة جزء يسيرٌ من أمر الدين ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ أي ولكنَّ البر الذي ينبغي أن يحرص عليه الإنسان، ويهتمَّ بشأنه، هو الإيمانُ بالله، والطاعةُ له، والإيمانُ باليوم الآخر، وبالملائكة، وبالكتب السماوية، وبالأنبياء المرسلين جميعاً، فهذا هو حقيقةُ البِّر، الذي يحبُّه الله ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ أي أعطي المال على شُحّه به، وحبِّه الشديد له، أعطاه للأقارب الفقراء، واليتامى الضعفاء، والمساكين المعدمين، وأعطاه أيضاً لابن السبيل، وهو المسافر الذي انقطع في سفره لفقد ماله، وللسائل المحتاج، وفي فكِّ الأسرى ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي أدّى الصلاة المفروضة عليه على أكمل الوجوه، ودفع زكاة ماله إلى المستحقين من الفقراء والمساكين ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ أي والذين يفون بالعهود والمواثيق، العهود التي عاهدوا بها ربَّهم، والعهود مع البشر ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ أي والصابرين على الشدائد والمكاره، في الأنفس والأموال، وحين اشتداد القتال

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَىۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي هؤلاء المتصفون بهذه الصفات الكريمة، هم الصادقون في إيمانهم، المطيعون لربهم، والفائزون بأعلى الدرجات في جنات النعيم، هذا هو البُر الذي يرضى عنه الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَىۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰۚ﴾ أي فُرض عليكم أيها المؤمنون، أن تقتصُّوا للمقتول من القاتل، بالمساواة والعدل، فالحرُّ يُقتل بالحرِّ، والعبدُ يُقتل بالعبد، والأنثى تُقتل بالأنثى، ولا تتجاوزوا الحدود فتقتلوا غير القاتل، كما كان يفعل أهلُ الجاهلية، حيث يقتلون بالأنثى الرجلَ، ويقتلون بالعبد الحرَّ والسيِّدَ، ويقتلون بالواحدِ العَدَدَ والجماعةَ ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍۗ﴾ أي فمن أسقط القصاصَ، ورضي بقبول الدية، فعلى أهل القتيل مطالبة القاتل بالدية، من غير تعنيفٍ ولا إرهاق، وعلى القاتل أداء الدية، بدون تسويفٍ ولا مماطلة ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌۗ﴾ أي ما شرعه الله لكم، من قبول الدية، وترك القصاص، تسهيلٌ عليكم من ربكم، ورحمة منه جلَّ وعلا بكم، ففي الدية تيسيرٌ على القاتل، ونفعٌ لورثة القتيل ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي فمن اعتدى على القاتل بعد قبول الدية فقتَله، فله عذاب مؤلم موجع ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي في قتل القاتل حياةٌ للنفوس، فإن القاتل إذا أيقن بأنه سيُقتل إن قَتل، كفَّ عن القتل، فأحيا نفسه، وأحيا الآخرين، وبذلك تُصان الدماءُ، وتُحفظ حياة الناس، وقوله تعالى **﴿لعلكم تتقون﴾** أي لعلكم تتقون محارم الله، وتنزجرون عن العدوان، وسفك الدماء ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي فُرض عليكم أيها المؤمنون، إذا أشرف أحدكم على الموت، وقد ترك مالاً كثيراً، أن يوصي

فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٨١﴾ فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ

لوالديه وأقاربه بالمعروف أي بالعدل بأن لا يزيد على الثلث، وهذه الوصية حقٌّ لازم على المتقين، وقد نُسِخَ هذا الحكمُ بآية المواريث ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ أي فمن غيَّر هذه الوصية، بعدما تحقَّق منها، من وصيٍّ أو شاهد، فإن ذنب هذا التبديل على من بدَّله، لأنه خان وخالف أمر الله، والله سميع لأقوال العباد، عليمٌ بأحوالهم وأفعالهم، وهو وعيد شديد، ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا﴾ أي فمن تخوَّف من الموصي، ميلاً عن الحق، أو تعمداً للإثم بحرمان أحد الورثة من الميراث ﴿فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي فأصلح بين الموصي والموصَىٰ له، بأن ذكَّره بأن هذه الوصية فيها إجحافٌ بالورثة، لأنه زاد فيها على الثلث، فليس عليه ذنب، لأن هذا التبديل للوصية، يُقصد منها الحقُّ لا الباطلُ، والله سبحانه عظيم المغفرة، واسع الرحمة، وفي الحديث الشريف «إن الرجل والمرأة ليعملان بطاعة الله ستين سنة، ثم يحضُرُهما الموتُ، فيضارَّان في الوصية، فتجب لهما النار» رواه الترمذي، ومعنى الحديث أنه يستحقُّ العقاب، وليس معناه الخلود في النار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أي فُرض عليكم أيها المؤمنون صيام شهر رمضان، كما فرض على من قبلكم من الأمم، لتكونوا من المتقين لله، المجتنبين لمحارمه ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ أي وأيَّام الصيام قلائل، هي شهر رمضان، فلم يفرض الله عليكم صيام كل الدهر، تخفيفاً عليكم، ورحمةً بكم ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾ أي فمن كان مريضاً مرضاً يضرُّه الصومُ، أو مسافراً سفراً شرعياً، وقدَّره الفقهاء بـ(٨٤) كيلومتراً، فأفطر للمرض أو السفر، فعليه قضاء عدة الأيام التي أفطرها ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ﴾ أي

فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ

وعلى الذين يطيقون صيامه بمشقة شديدة، بسبب الشيخوخة والهَرَم، إذا أفطروا عليهم فدية، بقدر طعام مسكين عن كل يوم، والآيةُ نزلت في الشيخ الكبير، والعجوز الهرمة ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي فمن زاد في الفدية على القدر المفروض، فهو أفضل له، والصوم خيرٌ لكم من الفطر، إن كنتم تعلمون ما في الصوم، من الفضيلة والأجر العظيم، ثم وضَّح تعالى زمن الصيام فقال ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ أي زمنُ الصيام الذي فرضَ الله عليكم صيامه، هو شهر رمضان المبارك، الذي ابتدأ به نزول القرآن الكريم، أنزله الله هداية للناس، وهو كتاب فريدٌ، معجزٌ في بيانه، واضحٌ في أحكامه، فَرَق اللهُ به بين الهدى والضلال، والحق والباطل، وقد نبَّه تعالى بهذه الآية على الحكمة من تخصيص رمضان بالصوم، وهي تذكير المؤمنين بالنعمة الجليلة عليهم، بنزول القرآن الكريم، ليخرجهم به من الظلمات إلى النور، وكأن الآية تقول: إنما فُرِضتُ عليكم صيامَ رمضان، لتعرفوا قدر نعمة القرآن ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أي من حضره الشهرُ ولم يكن مريضاً أو مسافراً، فلْيصمْ شهر رمضان، وليس معنى «شهد» أنه رأى الهلالَ، وشاهده بنفسه، فإن الصوم يجب برؤية شاهدِ عدل، وإنما المعنى أنه كان حياً، وأدركه وحضره شهر رمضان ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي ومن كان مريضاً، مرضاً يشقُّ عليه الصوم، أو مسافراً سفراً شرعياً طويلاً، فأفطر بسبب المرض أو السفر، فعليه صيام أيام أخرى بقدر ما أفطر، وكرَّره لزيادة التأكيد بمشروعية الرخصة، ولا يشترط في السفر أن يكون على الدواب أو الأقدام، بل يحقُّ له الإفطارُ، ولو كان مسافراً بالسيارة أو الطائرة، إذا كانت المسافة أكثر من ـ ٨٤ ـ كيلومتراً ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ أي يريد الله بهذا الحكم، التيسير عليكم لا التعسير، فلذلك

وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ

أباح لكم الفطر، في المرض أو السفر ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولتكملوا عدة أيام شهر رمضان، بقضاء ما أفطرتم، ولتحمدوا ربكم على ما أرشدكم إليه من فرائض دينكم، ولتشكروه على نعمه وإحسانه ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ جاء جماعة من الأعراب إلى رسول الله ﷺ، فقالوا يا رسول الله: أقريبٌ ربّنا فنناجيه ـ أي ندعوه سرًا ـ أم بعيدٌ فنناديه؟ ـ أي نرفع أصواتنا بالدعاء ـ فنزلت الآية، والمعنى: إنني مع عبادي، أسمع دعاءهم، وأعلم حالهم، وأقضي حوائجهم، وأجيب دعاء من دعاني، ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي فليطيعوا أمري، وليصدِّقوا بأني القادر على كل شيء، ليهتدوا إلى طريق الفلاح ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ الرفث: كناية عن الجماع، أي أبيح لكم أيها الصائمون، جماعُ نسائكم في ليالي رمضان ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ أي هنَّ سَكَنٌ لكم وستر، وأنتم سكنٌ لهنَّ وستر، شبَّه تعالى المرأة باللباس، الذي يزيِّنُ الإنسان ويستر قُبحه، فلولا اللباسُ لبدتْ سوأةُ الرجل، فالمرأة كاللباس للرجل، تزيِّنه وتكمِّله وتجمِّله، والرجل سترٌ لها وسكنٌ، يزيِّنها ويجمِّلُها ويسترها، وهذا التعبير من ألطف أنواع الاستعارة البيانية ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ أي لقد علم ربكم أنكم كنتم تخونون أنفسكم، بمقارفة الجماع في ليالي رمضان، ولا تصبرون عنهن، فرخَّص لكم بجماعهنَّ رحمة منه بكم، وسامحكم على جنايتكم، وكانت معاشرة النساء في ليالي رمضان، محرمة عليهم طيلة الشهر، ثم نُسخ هذا الحكمُ، روى البخاري عن البراء قال: «لمَّا نزل صومُ رمضان، كانوا لا يقربون النساء رمضان كلَّه، وكان رجال يخونون أنفسهم، فنزلت الآية ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي فمنذ هذا الحين، أُبيح لكم

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

معاشرتهنَّ في ليالي رمضان، فعاشروهنَّ واطلبوا بنكاحهن الذرّية والولد، ولا يكن غرضكم نيلَ اللذة والشهوة فقط، قال ابن عباس: ﴿ما كتب الله لكم﴾ يريد الذرية والنسل، نبَّه تعالى إلى أن الغرض من الزواج، ليس نيل اللذة والمتعة، وإنما هو لبقاء النسل، ولهذا الغرض السامي شُرع الزواج ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي وكلوا واشربوا في ليالي الصوم إلى طلوع الفجر، والتعبيرُ بالخيط الأبيض عن النهار، وبالخيط الأسود عن الليل، استعارة بديعةٌ، وليست الآية على ظاهرها فقد روى البخاري عن عدي بن حاتم أنه قال: «لمَّا نزلت الآيةُ، عَمَدْتُ إلى عِقَال - أي حبل - أبيض، وعِقالٍ أسود، فجعلتهما تحت وسادتي، وجعلتُ أنظر في الليل، فغدوتُ على رسول الله ﷺ وذكرت له ذلك، فقال: إن وسادك لعريضٌ - كناية عن سوء الفهم - إنما ذلك سوادُ الليل وبياضُ النهار ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ أي أمسكوا عن الطعام والشراب والجماع إلى غروب الشمس ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ أي ولا تقربوهنَّ ليلاً ولا نهاراً، إذا كنتم معتكفين في المساجد، لأنكم في عبادةِ الله ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي هذه الأحكام المذكورة حدودُ الله أي محارمُه، أوامرُه ونواهيه، فلا تتجاوزوها ولا تخالفوها، كذلك يوضِّح الله لكم شرائع دينه، لتتقوا غضب الله وعذابه ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لا يأكل أحدكم مال غيره، ولا يتوصلْ على أكل الحرام، برشوة الحكام، وهو يعلم أنه مبطل، فإن ذلك يوجب الإثم والعقاب، وردت هذه الآية بعد آيات فريضة الصيام، لتنبيه المؤمنين على أن الغرض من فرضية الصيام، ليس الامتناع عن الشراب والطعام، إنما الكفُّ عن أكل الحرام، فالصيام طريق لتهذيب النفس، والكفُّ عن العدوان

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ أي يسألك الناسُ عن الهلال، لمَ يبدو دقيقاً مثل الخيط؟ فقل لهم يا محمد إن الحكمة من ذلك، أن يعرِّفكم ربُّكم أوقاتَ عبادتكم، ومعالم دينكم، تعرفون وقت الصوم، والحج، ووقت الزكاة، وغير ذلك من معاملاتكم ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ أي وليست الطاعة لله، وعمل الخير، بأن تدخلوا المنازل من ظهورها، كما كنتم تفعلون في الجاهلية، ولكنَّ الطاعة بتقوى الله، وادخلوا منازلكم من أبوابها، روى البخاري عن البراء قال: «كانت الأنصار إذا حجُّوا فرجعوا، لم يدخلوا بيوتهم من قبل أبوابها، فجاء رجلٌ من الأنصار فدخل دارَه من قِبَل بابه، فكأنه عُيِّر بذلك، فنزلت الآية، وسبب هذا أنهم ظنوا أن المُحْرِم، لا بدَّ أن يغيِّر جميع عاداته، في الدخول، واللباس، والتطيب، وهذا اختراع من عند أنفسهم من غير شرع، فنبَّههم تعالى أن هذا ليس براً ولا طاعة ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي خافوا ربكم وامتثلوا أوامره، لكي تظفروا برضاه ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي جاهدوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وقاتلوا الذين يقاتلونكم من الكفار، ولا تعتدوا بقتل الشيوخ والنساء والأطفال، فالله يكره الظلم والعدوان ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي اقتلوهم حيث وجدتموهم، في حلٍّ أو حرم، وأخرجوهم من أوطانهم وشرِّدوهم كما شرَّدوكم ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي فتنةُ المؤمن عن دينه، وإشراكُهم بالله في الحرم، أشدُّ من قتلكم إيّاهم فيه.. نزلت هذه الآيات، لمَّا صدَّ المشركون رسول الله ﷺ وأصحابه عام الحديبية عن دخول مكة، وقد جاءوا معتمرين، فصدَّهم المشركون عن دخول مكة ﴿وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ أي لا تبدءوهم بالقتال في

فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ

الحرم، ولا تنتهكوا حرمة المسجد الحرام، حتى يبدءوا هم بقتالكم فيه ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي فإن هتكوا حرمة المسجد الحرام، فبدءوكم بالقتال فيه، فلكم حينئذٍ قتالهم، لأن البادىء بالشر أظلم، وهذا جزاء الكفرة المجرمين ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي فإن كفُّوا عن قتالكم، ودخلوا في دين الإسلام، فإن الله يغفر لهم كل ذنب ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ أي وقاتلوا المحاربين من الأعداء حتى تكسروا شوكتهم، ولا يبقى شركٌ على وجه الأرض، ويصبح دينُ الإسلام هو الغالب، العالي على سائر الأديان ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فإن انتهوا عن الشرك، فكفُّوا عن قتالهم، فمن قاتلهم بعد ذلك، فهو ظالم، والله إنما أَذِنَ لكم بقتال الكفرة الظالمين ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي إذا قاتلوكم في الشهر الحرام، واستحلُّوا دماءكم بالقتال فيه، وهتكوا حرمته، فلا إثم عليكم أن تقاتلوهم فيه، وأن تردُّوا عدوانهم بالمثل، فالشهر الحرام بالشهر الحرام، وهتكُه بهتكه، واتقوا ربكم بالبدء بالعدوان، واعلموا أن الله ناصركم عليهم، لأن الله مع المتقين ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ أي أنفقوا لنصرة دين الله، في الجهاد، وسائر وجوه البر والإحسان، ولا تبخلوا بالإنفاق، فإنَّ ذلك يقوِّي الأعداء، ويسلطهم عليكم فتهلكوا، فالتهلكةُ هنا: تركُ الغزو، وعدم الإنفاق في سبيل الله، كما قاله أبو أيوب الأنصاري، وانظر قصَّته في سنن الترمذي ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي أحسنوا في جميع أعمالكم، فإن الله يحب الأسخياء، يحب كل محسن، بقوله، وماله، وعمله ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ أي من شرع

﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ﴾

منكم بالحج أو العمرة، فليؤدِّها على وجه التمام والكمال، مخلصاً في نيَّته لله، فإن مُنعتم عن إتمام الحج أو العمرة، بمرضٍ أو عدوٍّ، أو خوف طريق، وأردتم التحلل، فعليكم أن تذبحوا ما تيسَّر من الأنعام، «من بعيرٍ، أو بقرةٍ، أو شاة» ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ﴾ أي لا تتحلَّلوا من الإحرام بالحلق أو التقصير، حتى يُذبح الهديُ في مكان الإحصار، أو يُذبح في الحرم ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ﴾ أي فمن كان منكم محرماً، واضطر إلى حلق رأسه، لمرضٍ أو صُداع، أو لبسَ مخيطاً بسبب المرض، فعليه فديةٌ وهي: صيام ثلاثة أيام، أو يتصدق على ستة مساكين، لكل مسكينٍ نصفُ صاع من القمح، أو يذبح ذبيحةً وأقلُّها شاة، ويتصدَّق بها على الفقراء ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ﴾ أي فإذا لم تُحصروا وكنتم في حال أمن، فمن اعتمر في أشهر الحج، ثم حجَّ من عامه، فعليه ما تيسَّر من الهَدْي، وهو شاة يذبحها شكراً لله تعالى، لتوفيقه له بحجٍ وعمرة في سفرة واحدة ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ﴾ أي فمن لم يجد ثمن الهدْي لفقره، فعليه صيامُ عشرة أيام، ثلاثة منها حين يحرم بالحج، وسبعة إذا رجع إلى وطنه، أو رجع من الحج، ويكون قد استكمل عشرة أيام ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ﴾ أي ذلك الهديُ لمن لم يكن من ساكني المسجد الحرام، أما سُكَّان الحرم، فليس لهم تمتع، وليس عليهم دم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي عقابه شديد لمن عصاه، أو خالف أمره ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ﴾ أي وقتُ الحج أشهرٌ معلومات، هي «شوال، وذو القعدة، وعشرٌ من ذي الحجة» فمن ألزم نفسه الحجَّ، بالإحرام والشروع فيه، فلا يقرب النساء، ولا يعاشرهن، لأنه مقبل على الله

﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾

بالطاعة، ولا يعملْ معصية، ولا يجادل ويخاصم الرفقاء، بمعنى أنه لا ينبغي أن يفعل شيئاً من هذه المحظورات ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ﴾ أي ما تقدِّموا لأنفسكم من خيرٍ، يجازيكم عليه ربكم خير الجزاء، وخذوا معكم زاداً لآخرتكم، تنجون به من عذاب الله، وخير زادٍ ليوم المعاد تقوى الرحمن ﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ أي خافوا عذابي وعقابي، يا أهل العقول والأفهام ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ﴾ أي ليس عليكم ذنب ولا حرج، بالتجارة في أثناء الحج، فإن التجارة الدنيوية لا تنافي التجارة الأخروية، فبيعوا واشتروا واطلبوا الرزق من الرزَّاق، قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في التجارة في موسم الحج ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ﴾ أي فإذا رجعتم من عرفات، وقد أدَّيتم الركنَ الأكبر، فاذكروا ربكم عند المشعر الحرام بمزدلفة، اذكروه بالدعاء، والتضرع، والتكبير، والتهليل ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي اذكروا ربكم ذكراً كثيراً، كما هداكم إلى هذا الدين القويم، والحال أنكم كنتم من قبل ذلك لفي عداد الضالين، التائهين عن طريق الهداية والنور ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي انزلوا من عرفة، حيث ينزل الناسُ، لا من المزدلفة، واطلبوا من الله المغفرة من ذنوبكم، فإنه عظيم المغفرة، وواسع الرحمة..

فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ

سبب نزول الآية

«كانت قريشٌ تترفع على الناس، أن يقفوا معهم في عرفة، وكانوا يقولون: نحن أهلُ الله، وسُكّانُ حَرَمه، فلا نخرج من الحرم، فيقفون في مزدلفة لأنها من الحرم، ثم يفيضون منها، وكانوا يُسَمَّوْن «الحُمْسَ» أي المتشددين في الدين، فنزلت الآية ﴿**ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس**﴾ أي من عرفة ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ أي فإذا أتممتم مناسك حجكم، فاذكروا ربكم، كما كنتم تذكرون مفاخر آبائكم، بل أشدَّ ذكراً. . كانوا في الجاهلية، إذا انتهوا من الحج، وقفوا بمِنًى، يذكرون مفاخر آبائهم، ومحاسن أيامهم، فنهوا عن ذلك ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ أي فمنهم فريقٌ همُّه الدنيا فقط، يطلب الجاه والغنى والثراء، وليس له في الآخرة حظٌّ ولا نصيب من رحمة الله ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي ومنهم فريق يطلب خيري الدنيا والآخرة، من الصحة والعافية، والرزق والعلم، ويطلب الجنة ورضى الله، وأن ينجيه الله من عذاب جهنم الشديد ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي هؤلاء السعداء الأبرارُ، الذين طلبوا سعادة الدارين، هم العقلاء الذين لهم حظٌّ وافرٌ من الأجر والثواب، لأنهم أحسنوا في الدنيا، والله يحاسب الخلائق ـ على كثرتهم ـ في زمن يسير، لا يتصوره البشر ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي أكثروا من ذكر الله

وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

في أيام الحج ـ أيام عيد الأضحى ـ فمن استعجل النفر من منى، بعد تمام يومين، من أيام التشريق ـ أي الثاني والثالث من عيد الأضحى ـ فلا حرج عليه ﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أي ومن تأخَّر في مِنىً، حتى رمىٰ الجمرات، في اليوم الرابع من أيام العيد، فلا حرج عليه أيضاً، لمن اتَّقى ربَّه، فأتىٰ بمناسك الحج على أكمل الوجوه ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي خافوا ربكم وعقابه، واعلموا أنكم مجموعون إليه للحساب، فيجازيكم على أعمالكم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ أي وفريق من الناس يسرُّك كلامه؛ بحلاوته وفصاحته، ولكنه منافقٌ كذَّاب، يقول لك: الله شاهد على ما في قلبي، من المحبة لدين الإسلام ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ أي وهو شديد العداوة لك يا أيها الرسولُ وللمسلمين، كما قال القائل:

يعطيك من طرف اللِّسان حلاوةً ... ويَرُوغُ فيكَ كما يروغُ الثعلبُ

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ أي وإذا انصرف من مجلسك، عاث في الأرض فساداً، يتلف الزرعَ والنسلَ، والله يبغضُ كلَّ مفسد، نزلتْ في «الأخنسِ بن شريقٍ» كان حَسَن المنظر، حلو الكلام، يظهر لرسول الله ﷺ البشاشة والإيمان، ويخفي الكفر ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي إذا قيل لهذا المنافق الفاجر: خفِ الله، واتركْ النفاقَ والفساد، حمله الكِبْرُ على الإمعان في الذنب والإجرام، فيكفيه جهنمُ والخلودُ فيها، وبئس الفراشُ نارُ الجحيم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي ومن

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ

الناس من يبيعُ نفسه، ويبذلها طلباً لرضى الرحمن، فيضحِّي بماله ونفسه، لنصرة دينه، والله عظيم الشفقة بعباده، نزلت في «صهيب الرومي» رضي الله عنه، ضحَّى بكل ما يملك، ودلَّ كفار قريش على ماله من أجل أن يتركوه يهاجر إلى المدينة المنوَّرة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ المراد بالسِّلْم هنا: الإسلامُ، أي ادخلوا في دين الإسلام بكلِّيته، بجميع أحكامه وشرائعه، ولا تأخذوا بعضاً منه، وتتركوا بعضاً، فالإسلامُ كلٌّ لا يتجزأ، ولا تسلكوا طرق الشيطان ومسالكه الخبيثة، فإنه عدوٌّ لكم ظاهر العداوة ﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي فإن ضللتم وانحرفتم، من بعد ما جاءتكم الحجج القاطعة، والبراهين الساطعة، على أن دين الإسلام هو الحقُّ، فاعلموا أن الله غالب، ينتقم ممن عصاه، حكيم في أفعاله ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي ما ينتظر هؤلاء العُصاة المتكبِّرون، إلا أن يأتيهم ربُّ العزة والجلال، مع الملائكة الأبرار، في ظللٍ رهيبة من السحاب، لفصل القضاء بينهم ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أي وينتهي أمر الخلائق بالفصل بينهم، حيث لا ينفع الظالمينَ ندمٌ ولا اعتذار، وإلى الله وحدَه، مصيرُ جميع الخلق لمجازاتهم ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ﴾ أي سل يا محمد اليهود ـ تقريعاً لهم وتوبيخاً ـ كم أعطيناهم من معجزة واضحة، شاهدة على الحقِّ، كالعصا، واليد، وفلق البحر، فكفروا بها ونسَوْها؟ ﴿وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ أي ومن يُغيِّر آيات الله، بالتحريف والتبديل، ويجحد بها، من بعد ما وصلتْ إليه، فإن عذاب الله شديدٌ أليم ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ﴾ أي حسَّن الشيطان

وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

لهؤلاء الكفار الحياة الدنيا، حتى نسوا الآخرة، وتهالكوا على الدنيا، واستهزءوا من المؤمنين، لرفضهم الدنيا وإقبالهم على الآخرة ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ أي والذين آمنوا وأطاعوا ربهم، وآثروا الآخرة على الدنيا، هم يوم القيامة في أعلى علّيين، في جنان الخلد والنعيم، فوق هؤلاء الكفار الفجار ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي يرزق من شاء من عباده، ويوسِّع على من يشاء، حسب الحكمة والمصلحة، وليس الرزقُ دليلاً على محبة الله للإنسان، إنما هو امتحانٌ وابتلاء، فقد يرزق الله الكافر، ويحرم المؤمن ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي كان الناس على الإيمان، والفطرة المستقيمة، مؤمنين موحِّدين، من زمن آدم إلى بعثة نوح، ثم ظهرت الوثنيةُ والإشراكُ، فبعث اللهُ الأنبياء، ليرشدوا الناس إلى التوحيد، مبشِّرينَ المؤمنين بالثواب، ومنذرين الكفارَ بالعقاب ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ أي وأنزل معهم الكتب السماوية لهداية البشرية، لتبيِّن للناس أمر الدين الحقّ، الذي اختلفوا فيه ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ﴾ أي وما اختلف في القرآن الهادي المنير، إلاَّ اليهودُ والنصارى، من بعد ما جاءتهم الحجج الواضحة، والبراهين الساطعة، على صدق الكتاب المنير، حسداً منهم للمؤمنين ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ﴾ أي هدى الله المؤمنين، إلى الاستمساك بهذا النور المبين، الذي اختلف فيه أهل الكتاب، وثبّت الله المؤمنين على الحقّ، بتوفيقه وتيسيره ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي يوفِّق من شاء من عباده، إلى طريق الحقّ والهداية، الموصل إلى جنات النعيم

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ﴾ أي هل تظنون يا معشر المؤمنين، أن تدخلوا الجنة، بدون ابتلاء وامتحان؟ ولم تعرفوا ما أصاب الأمم قبلكم، من الشدائد والمصائب؟ ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ﴾؟ أي أصابتهم الشدائد والكوارثُ والبلاريا، في أنفسهم وأموالهم، وامتُحنوا امتحاناً شديداً، حتى وصل الحال بالرسل وأتباعهم، أن يقولوا: متى يأتينا الفرجُ والنصر؟ والتعبير بالزلزلة يوحي بشدة الكرب والهول الذي نزل بهم ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ أي استبشروا معشرَ المؤمنين، ففرجُ الله قريب، ونصره لأوليائه، آتٍ لا محالة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ﴾ أي يسألونك ماذا ينفقون من أموالهم؟ وعلى من ينفقون؟ قل لهم يا أيها الرسولُ: أيَّ شيء أنفقتموه فالأحقُّ والأولى به، آباؤكم، وأقرباؤكم، واليتامى الذين فقدوا آباءهم، والفقراء المعدمين، والغريبُ الذي انقطع في سفره ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ أي وكلُّ شيء تفعلونه في سبيل الله، فلن يضيع عند الله، والله عالم به، ومجازيكم عليه، والغرضُ من هذه الآية: الحثُّ على برِّ الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الفقراء والمساكين ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾ أي فُرضَ عليكم أيها المؤمنون، جهادُ أعداء الله، والقتال شاقٌّ عليكم تكرهه النفوس، لما فيه من خطر الهلاك، ولكنْ قد تكره نفوسكم شيئاً، وفيه كلُّ النفع والخير لكم، ففي الجهاد: الظفرُ والغنيمة، أو الشهادةُ والجنةُ ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي ولعلَّ نفوسكم تحبُّ الشهواتِ،

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾

وهو شرٌ لكم، ومن الشهواتِ القعود عن الجهاد، الذي فيه الذلةُ والمهانة، وتسلُّط الأعداء عليكم، والله هو العالم بما فيه خيركم ومصلحتكم، وأنتم لا تعلمون ذلك ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي يسألونك عن القتال في الشهر الحرام؟ أيحلُّ القتال فيه؟ قل لهم: إن القتال فيه إثمه عظيم عند الله، فلا تبدءوا بالقتال فيه ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي ومنعُ الناس عن الدخول في دين الإسلام، والكفرُ بالله تعالى، وانتهاكُ حرمة المسجد الحرام، وإخراجُ النبي والمؤمنين من بلدهم مكة، كلُّ ذلك أعظمُ ذنباً عند الله، من قتل المشركين في الشهر الحرام!! فإذا استعظموا قتالكم في الشهر الحرام، فإن ما ارتكبوه في حقِّ النبي والمؤمنين، أعظمُ وأشنعُ ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي وفتنةُ المسلم عن دينه، أكبرُ عند الله من القتل ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟﴾ أي ولا يزال الكفار جاهدين في قتالكم، حتى يعيدوكم إلى الكفر، ويسلخوكم عن دينكم ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ أي ومن يرتدَّ عن الإسلام، طمعاً في حُطام الدنيا، ثم يموتُ على الكفر، فقد بَطَل عملُه الصالح، وهو مخلَّدٌ في نار الجحيم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي جمعوا بين الإيمان والهجرة، والجهاد في سبيل الله، هؤلاء هم الجديرون، بأن ينالوا رحمة الله، والله واسع

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ

المغفرة والرحمة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ أي يسألونك يا أيها الرسول، عن حكم الخمر، وحكم القمار، فقل لهم: إنَّ في شرب الخمر، وتعاطي القمار، إثماً كبيراً وضرراً عظيماً، وفيهما منافعُ مادية ضئيلة، لا تعادل الضرر الكبير الذي فيهما، فإن ضياع العقل في الخمر، وخرابَ البيوت، ودمارَ الأسر في القمار، أكبرُ وأعظم من النفع المادي التافه ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي ويسألونك يا محمدُ ماذا ينفقون من أموالهم؟ وماذا يتركون؟ قل لهم: أنفقوا ما تيسَّر من أموالكم، وما كان زائداً عن حاجتكم، كذلك يبيِّن الله لكم الأحكام، ويوضِّح لكم النافع والضارَّ، والحلالَ والحرام، لتفكروا في أمور حياتكم ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ﴾ أي لتتفكَّروا في أمور الدارين، فتأخذوا بالأنفع والأصلح، أو لتتفكروا في الدنيا وزوالها، والآخرة وبقائها، ويسألونك عن مخالطة اليتامى، ومشاركتهم في أموالهم؟ فقل لهم: مشاركتكُم لهم على وجه الإصلاح لأموالهم، خيرٌ من اعتزالهم ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ﴾ أي وإن خلطتم أموالهم بأموالكم، على وجه المصلحة لهم، وشاركتموهم لتنفعوهم، فلا حرج في ذلك، فهم إخوانكم في الدين، والله تعالى هو العالُم بالمفسد لمال ا ليتيم، وبالمصلح الذي يريد نفعه ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي لو أراد الله لأوقعكم في المشقة والضِّيق، وحرَّم عليكم مشاركتم، ولكنه يسَّر عليكم الأمر، فلم يكلفكم ما يشقُّ عليكم، لأنه تعالى حكيمٌ، لا يفعل إلا ما فيه المصلحة ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ﴾ أي ولا تتزوجوا بالمشركات

﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ

الوثنيات، اللاتي لا يؤمنَّ بالله، حتى يدخلن في الإسلام، ويتركن الوثنية، وامرأةٌ مملوكةٌ مؤمنة، خيرٌ من حرةٍ مشركةٍ كافرة، ولو كانت جميلة فاتنة، حتى ولو أعجبتكم الكافرة بحسنها وجمالها ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ﴾ أي ولا تزوّجوا بناتكم للمشركين وأهل الكتاب، حتى يؤمنوا بالله ورسوله، ولعبدٌ رقيقٌ مملوكٌ، وهو مؤمنٌ، خيرٌ من المشرك، ولو أعجبكم بماله وجماله ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ﴾ أي هؤلاء الذين حرَّمتُ عليكم مصاهرتهم، بالزواج منهنَّ أو التزويج، يدعونكم إلى الكفر، ونار الجحيم، والله يدعوكم إلى ما فيه سعادتكم، وهي الجنة ومغفرة الذنوب، ﴿بإذنه﴾ أي بتوفيقه وتيسيره ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي يوضِّح حججه، وأدلَّته النيِّرة للناس، لكي يتذكَّروا فيميِّزوا بين الخير والشر، والخبيث والطيِّب ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ﴾ أي يسألونك عن إتيان النساء حالة الحيض، أيحلٌّ أم يحرم؟ قل لهم: إن الحيض شيء مستقذر، مؤذٍ للزوجين، فاجتنبوا معاشرتهن في حالة الحيض ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ﴾ أي لا تقربوهنَّ بالجماع، حتى يَطْهرن من الحيض ويغتسلنَ، فإذا تطهَّرن بالماء واغتسلن، فأتوهنَّ في المكان الذي أباحه الله لكم، وهو الفَرْج مكانُ (النسل والولد)، لا الدُّبرُ مكانُ (القذر والنجس) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي يحبُّ التائبين من الذنوب، والمتنزِّهين عن الفواحش والأقذار ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ﴾ أي نساؤكم موضعُ نسلكم، وفي أرحامهنَّ يتكوَّن أولادكم، فأتوا نساءكم في مكان الزرع، كيف شئتم، قائمةً، أو قاعدةً، أو مضطجعة، بشرط أن يكون في القُبُل لا في الدبر، وفي

وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ

الحديث «ملعونٌ من أتى امرأةً في دُبُرها» ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي قدِّموا فعلَ ا الخير، والعملَ الصالح لآخرتكم، وخافوا ربكم، وأيقنوا أن مرجعكم إليه فيجازيكم على أعمالكم، وبشِّر المؤمنين بالفوز العظيم، في جنات النعيم ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي لا تجعلوا الحلف بالله، حاجزاً مانعاً عن فعل الخير، كالبرِّ، والطاعة، والإصلاح بين الناس، مثل أن يقول أحدكم: حلفتُ بالله أن لا أفعله، وأريد أن أبرَّ بيميني، فيكون الله جلَّ وعلا، كأنه السببُ المانعُ عن فعل الخير والإصلاح، بل افعلوا الخيرَ، وكفِّروا عن أيمانكم، والله سميع لأقوالكم وعليمٌ بأحوالكم ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي لا يعاقبكم ربكم بما يجري على لسانكم، من ذكر الله، بدون قصد الحلف، كقول الإنسان: لا واللهِ، وبلى واللهِ، لا يقصد به اليمين، وإنما يعاقبكم على تعمدكم الكذب في اليمين، والله واسع المغفرة، لا يعجِّل العقوبة للمذنبين ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي للرجال الذين يحلفون ألاَّ يجامعوا زوجاتهم، للإضرار بهن، انتظارُ أربعة أشهر، فإن كفَّروا عن أيمانهم، ورجعوا إلى رشدهم، قبل انتهاء المدة، فإن الله يعفو عنهم، ويصفح عن هذه الإساءة، والإيلاءُ: هو الحلفُ على أن لا يقرب زوجته بالمعاشرة ـ أعني الجماع ـ إضراراً لها، وكيداً بها، وهو فعلُ الجاهليين ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي وإن أصرُّوا على أيمانهم، ولم تحصل المعاشرة، فقد وقع بينهما الفراق والطلاق، فإمَّا أن يطلِّقها، أو يطلِّق الحاكم عليه، والله سميع لأقوالهم، عليمٌ بنيّاتهم ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ أي الواجبُ

وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَـٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَـٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ

على المرأة المطلَّقة، المدخول بها، أن تنتظر مدة ثلاث حِيَض، وهي مدةُ العِدَّة لها، ثم يحلُّ لها أن تتزوَّج بعد ذلك ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي ولا يحلُّ للمطلَّقة، أن تخفي الحملَ، إن كانت حاملاً، استعجالاً في العدة، وإبطالاً لحق الزوج في الرجعة، إن كانت مؤمنةً بالله، وتؤمن بلقائه وجزائه ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَـٰحًا﴾ أي وزوجُها أحقُّ بإعادتها إلى عصمته، ما دامت في العدة، إن كان يريد الخير لها، لا الإضرار بها ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي وللزوجة من الحقوق، مثلُ ما للرجل عليها، وعليها من الواجبات، مثلُ ما للزوج عليها، بما فرض الله وأوجب بالمعروف، من حسن المعاشرة وترك الضرار، وللرجال على النساء ميزةٌ، وهي: القوامةُ، والإنفاقُ، والإحسانُ، فهي درجةُ تكليف، لا درجة تشريف، فقد تكون المرأة، أفضلَ عند الله من الرجل، لقوله سبحانه (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي هو جلَّ وعلاً غالبٌ ينتقم ممن عصاه، حكيم في أفعاله وتشريعه ﴿ٱلطَّلَـٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ﴾ أي الطلاقُ الشرعيُّ الذي يملك به الرجلُ حقَّ الرجعة (مرتان) أي طلقتان، ولا يملك الرجعةَ بعد المرتين، فإمَّا أن يردَّها إلى عُشِّ الزوجية، مع حسن المعاملة، أو يُطْلِق سراحها بإحسان، بأن لا يظلمها حقَّها، ولا يذكرها بسوء ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي لا يحلُّ لكم أيها الرجال، أن تأخذوا من مهور النساء شيئاً ولو قليلاً، إلاَّ بطريق الخُلْع، إذا عرفتم أنه لا يمكن الإصلاحُ، ولا بدَّ من الفراق بينهما ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ أي فإن تحققتم أيها الحكام، من عدم

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ﴾

مراعاتهما لأوامر الله، وأرادت الزوجة أن تفتدي نفسها، بترك شيء من مهرها ليطلِّقها، فلا إثم في ذلك ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي هذه شرائعُ الله وأحكامُه، فلا تخالفوها ولا تتجاوزوها لغيرها، ومن خالف أحكام الله، فقد عرَّض نفسه لعذاب الله الشديد، وهو ظالم لنفسه، لانتهاكه محارم الله ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ﴾ أي فإن طلَّقها الطلقة الثالثة، فلا تحلُّ له بعد ذلك، حتى يتزوجها رجلٌ آخر، ويدخل بها (وتذوق عُسَيْلته ويذوق عُسَيْلتها) كما جاء في الحديث الشريف، والغرضُ منه منعُ تكرار الإساءة، وتأنيبُ الرجل، حيث طلَّقها المرة الأولى، ثم الثانية، ثم الثالثة، وكأنه لم يتأدب بالمرتين السابقتين، وغدت الحياةُ بينهما جحيماً لا يُطاق، وفي ذلك زجرٌ عن طلاق المرأة ثلاثاً، لمن له رغبةٌ في زوجته، لأن صاحب المروءة، يأبى أن يفترش امرأتَه رجلٌ آخر ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي فإن طلَّقها الزوجُ الثاني، وانقضت عدَّتُها منه، فلا بأس أن ترجع إلى زوجها الأول، بشرط أن يستمسكا بأوامر الله وأحكامه، وهذه شرائع الله وأحكامُه العادلة، يوضِّحها ويبيِّنها لذوي العلم والفهم.. والمرادُ بقوله تعالى (فإن طلَّقها) أي الزوجُ الثاني لا الأولُ، والمعنى: إن ظهر للمطلَّقة أن الزوج الثاني أسوأ من الأول، ورغبت أن ترجع إلى الأول، فلا حرج، لأن الرَّمَدَ أخفُّ من العمى، وكما قال القائل «وعند ذكر العَمَى يستحسنُ العَوَرُ» ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ﴾ أي وإذا طلقتم النساء طلاقاً رجعياً ، وقاربن انقضاء العدة (فأمسكوهنَّ) أي راجعوهنَّ بالمعروف من غير ضرارٍ ولا أذى، أو اتركوهنَّ حتى تنقضي عدتهن، من غير إضرار لأن الحديث عن المطلَّقة، والإمساكُ هنا كنايةٌ عن المراجعة، لأن الحديثَ عن المطلَّقة، والتسريحُ كنايةٌ عن الترك ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ﴾ أي لا تراجعوهنَّ

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾

إرادة الإضرار بهنَّ، لتفتدي نفسها منكم، بتركِ المهر أو بعضه ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ أي ومن يمسكها للإضرار بها، أو ليكرهها على الافتداء، فقد ظلم بذلك العمل نفسه، لأنه عرَّضها لعذاب الله ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ أي لا تهزأوا بأحكام الله بمخالفتكم لها، وتتلاعبوا بشرعه ودينه ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ أي اذكروا فضل الله عليكم بهدايتكم للإسلام، وما أنعم به عليكم، من نعمة القرآن، والسنة النبوية المطهرة ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي يرشدكم ويذكِّركم بكتابه وهدي رسوله، إلى ما فيه سعادتكم ونجاحكم، فراقبوا الله في أعمالكم، واعلموا أن الله لا تخفى عليه خافية، وسيجازيكم عليها ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ أي وإذا طلقتم النساء وانقضت عدَّتهنَّ، فلا تمنعوهنَّ يا معشر الأولياء، من العودةِ إلى أزواجهن ﴿إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي إذا صلحت الأحوال بين الزوجين، وظهرت أمارات للندم، ورضي كل واحد منهما بالعودة إلى صاحبه، بما يرضي الله عز وجل.. نزلت هذه الآية في «مَعْقل بن يسار» زوَّج أخته رجلاً من المسلمين، ثم طلَّقها وتركها حتى انقضت عِدَّتُها، ورغب في إعادتها ورغبت هي فيه، فخطبها مع الخطاب، فقال له أخوها: يا لئيمُ أكرمتك وزوَّجتُك إيَّاها فطلَّقتها، والله لا ترجع إليك أبداً!! فعلم الله رغبة كل منهما في صاحبه، فنزلت الآية كما روى ذلك البخاري، ثم قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي التمسك بأوامر الله، واجتناب نواهيه، إنما ينتفع ويستمسك به، من كان يُصدِّق بلقاء الله وجزائه في الآخرة، وهو أفضل لكم وأطهر، من الوقوع في الآثام، والتعرُّضِ

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾

لعذاب الرحمن، والله عز وجل يعلم ما هو أصلح لكم من الشرائع والأحكام، وأنتم لا تعلمون ذلك، فامتثلوا أمر ربكم تفلحوا ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ أي الواجب على الأمهات المطلَّقات، أن يرضعن أولادهنَّ مدَّة سنتين كاملتين، إذا شاء الوالدان إتمام الرضاعة، والتعبيرُ عنهن (بالوالدات) دون لفظِ المطلَّقات، لاستعطافهن نحو أولادهنَّ، فالمرأة وإن طلِّقتْ هي والدةٌ وأمٌ، ولا ينبغي أن يضيع الطفلُ نتيجة نزاع الوالدين ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي وعلى الوالد الإنفاقُ على الأم المطلَّقة، وكسوتُها بالشكل الجميل المتعارف عليه، دون إسراف ولا تقتير، بقدر الوُسْع والطاقة، لم يقل تعالى «وعلى الوالد» وإنما قال ﴿وعلى المولود له﴾ لينبّه تعالى إلى أن النسب للأب، دون الأم ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ أي لا يجوز أن تقع المضارةُ بين الزوجين، فيضرَّ أحدُهما الآخر بسبب الولد، فترفض الأم مثلاً إرضاعه، لتضرَّ أباه بتربيته، وأن يضارَّها الأبُ فينتزع منها الولد، ليغيظ أحدُهما الآخر، ويصبح الطفلُ ضحيَّةً لنزاعهما ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ أي وعلى وارث الطفلِ، كالجد، والأخ، والعمّ، الإنفاقُ على المرضع المطلَّقة، مثل ما على والده، من النفقة والسكنى، إن كان والده متوفياً ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي فإن رأى الوالدان المصلحة، في فطام الطفل قبل انتهاء العامين، بعد التشاور في شأن الولد، فلا إثم عليهما ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي وإن أردتم أن تطلبوا مرضعةً لأولادكم، غيرَ الأم، بسبب عجزها، أو استنكافها عن إرضاعه، فلا حرج ولا إثم عليكم في ذلك، بشرط أن تدفعوا للمرضعة، ما اتفقتم عليه من الأجر ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وعيدٌ وتهديد، أي خافوا ربكم، وراقبوه في جميع أفعالكم، فهو سبحانه بصير

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

بكم، وسيجازيكم على ما تعملونه في الدنيا ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي والذين يموتون منكم، ويتركون زوجاتهم بعد وفاتهم، على هؤلاء الزوجات، أن يمكثن في العدة، أربعة أشهر وعشرة أيام، وهي «عدة الوفاة» حداداً على أزواجهن، وهذا الحكم لغير الحامل، أمَّا الحامل فعِدَّتُها وضعُ الحمل، لقوله سبحانه ﴿وأولاتُ الأحمال أجلهنَّ أن يضعن حملهن﴾ والحكمةُ من العدة: الحفاظُ على الأنساب لئلا تختلط، ومراعاةً لحقوق الزوجية ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي فإذا انقضت العدَّةُ، فلا إثم عليكم في الإذن لهن بالزواج، وفعل ما أباحه لهن الشرعُ من الزينة، والتعرض للخُطَّاب، والله عليمٌ بجميع أعمالكم، وسيجازيكم عليها!! وفي هذا وعيد شديد، وتهديدٌ أكيد، لأنه تعالى إذا كان رقيباً على أعمال العباد فسيجازيهم عليها.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي لا إثـم عليكم في التعريض، بخطبة المرأة المعتدَّة، بطريق التلميح لا التصريح، مثل أن يقول: أسألُ الله أن يسهِّل لي امرأةً صالحة، ولا يصرِّح بالنكاح بأن يقول: إني أريد أن أتزوجك، كما لا إثم عليكم، فيما أخفيتم في نفوسكم، من الرغبة بالتزوُّج من المعتدة ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي والله جلَّ وعلا يعلم رغبتكم في الزواج منهن، ولكن لا تواعدوهنَّ بالنكاح في السرِّ، إلاَّ عن طريق التلميح لا التصريح ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ أي ولا تعقدوا عقد الزواج عليهنَّ حتى تنتهي العدَّةُ ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي أيقـنـوا أن الله

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾

عالمٌ بخفايا نفوسكم، فاحذروا عذابه وعقابه، واعلموا أن الله يمحو الذنب، ولا يعاجلكم بالعقوبة رحمةً منه بكم ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي لا إثم عليكم إن طلقتم النساء قبل المسيس ـ الجماع ـ إلا إذا سميتم لهن مهراً، فلهن عند ذلك نصفُ المهر، أمَّا إذا كان المهر غير مذكور، فإن للمطلَّقة المتعة فقط ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي فإذا طلقتموهن فادفعوا لهن المتعة، تطييباً لخاطرهنَّ، وجبراً لوحشة الفراق، على قدر حال الرجل، في الغنى والفقر، لمن كان من أهل الفضل والإحسان، والمتعةُ شيء من المال أو الثياب، يدفعه لها إكراماً وإحساناً، إن لم يكن هناك مهر مذكور ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي وإذا كان الطلاق قبل الزفاف، وقد سمَّى الرجلُ لها مهراً مقدَّراً، فعليه أن يدفع لها نصف المهر، لأنه طلاق قبل المسيس ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي إلاَّ إذا أسقطت المطلقة حقها، وعفَتْ عن المطالبة بالمهر، أو عفا الزوج عن حقه، وقد كان قد دفع لها كامل المهر، والتسامحُ والعفو أفضلُ عند الله ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي لا تنسوا الجميل والإحسان الذي بينكم، والخطابُ للرجال والنساء، بطريق التغليب، أي ينبغي أن تراعوا العلاقات الزوجية بينكم، ويظلَّ المعروف والإحسان صفة المؤمنين، في حال الوفاق والطلاق ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ أي حافظوا أيها

فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ

المؤمنون على الصلوات الخمس، التي فرضتُها عليكم، وعلى وجه الخصوص «صلاة العصر» التي تشهدها ملائكة الرحمن، وكونوا في صلاتكم خاشعين، مواظبين على الطاعة ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ أي فإذا خفتم من الأعداء، فصلُّوا ماشين على الأقدام، أو راكبين على الدواب، ولا تتركوا الصلاة بحالٍ من الأحوال، فإذا ذهب الخوفُ، وجاء الأمنُ فأقيموا الصلاة مستوفية للأركان، على الوجه الذي علَّمكم الله، وشرعه لكم ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ أي على الرجال أن يوصوا قبل وفاتهم، بأن تُمتَّع أزواجهم عاماً كاملاً، بالنفقة والسكنى من تركتهم، ولا يخرجن من مساكنهن، وكان هذا حكمُ العِدَّة، للمتوفَّى عنها زوجُها في ابتداء الإسلام، ثم نُسخت العدة إلى أربعةِ أشهرٍ وعشرةِ أيام ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي فإن خرجن من منزل الأزواج، بعد انتهاء العدة، فلا إثم عليكم أيها الأولياء، أن تسمحوا لهنَّ بالتزيُّن، والتطيُّب، والتعرض للخطاب، بالمعروف الذي يقرُّه الشرع، والله غالب على أمره، حكيم في تشريعه ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي والواجب على الأزواج، تمتيعُ المطلَّقات، بقدر استطاعتهم، بالمعروف الذي شرعهُ الله، وعرفه الناسُ، جبراً لوحشة الطلاق والفراق، وهذا حقٌّ واجبٌ، على المؤمنين المتقين لله ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي مثلَ هذا البيان الواضح، يبيِّنُ الله لكم الأمور الشرعية، التي تحفظ المودة والرحمة بينكم، لكي تعقلوا حكمة الله، في تشريع هذه الأحكام ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾

فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةًۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ

الاستفهام للتشويق إلى قصتهم، والتعجيب منها، أي ألم تسمع بخبر هؤلاء القوم، الذين خرجوا من وطنهم، وهم ألوفٌ مؤلفة، خوفاً من الموت وفراراً منه؟ وكانوا سبعين ألفاً كما قال المفسرون ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْۚ﴾ أي فأماتهم الله عزّ وجل ثم أحياهم، ليكون ذلك أعظم برهان، على قدرة رب العزة والجلال، على إحياء الناس بعد موتهم!! وهم قوم من بني إسرائيل دعاهم نبيّهم إلى الجهاد، فهربوا خوفاً من الموت، فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي إنه سبحانه لذو إنعام وإحسان إلى الناس، ولكنَّ أكثرهم يجحدون نعمة الله، ولا يقابلونها بالشكر والثناء ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي قاتلوا يا معشر المؤمنين أعداءكم الكفار، لإعلاء كلمة الله، لا لمكسب أو مغنم، واعلموا أن الله سميع لأقوالكم، عليم بنيّاتكم وأحوالكم، لا تخفى عليه خافية ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةًۚ﴾ أي من ذا الذي يبذل ماله في سبيل الله، طلباً لرضوانه، خالصاً لوجه الله الكريم، فيضاعف اللهُ له ذلك القرض، أضعافاً كثيرة!؟ فالحسنةُ تُضاعف عند الله إلى عشرة، وإلى سبعين، وإلى سبعمائة، حسب إخلاص العبد في إنفاقه.

وهذا تلطُّفٌ منه سبحانه في تنبيه عباده، إلى أعمال البرّ والإحسان ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي يقتّر الرزقَ على بعض، ويوسّع على بعض، حسبما تقتضيه حكمتهُ، فلا تبخلوا عليه بما وسَّع عليكم، كيلا يبدِّل الله حالكم، وإليه مرجعكم يوم القيامة، فيجازيكم على أعمالكم، وفي الآية تهديدٌ ضمنيٌّ لمن يبخل عن الإنفاق في سبيل الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ الأسلوب

قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ

أسلوبُ تعجيب وتشويق للسامع، لمعرفة قصتهم، أي ألم يصل إليك أيُّها السامعُ خبرُ القوم من بني إسرائيل؟ حين قالوا لنبيِّهم «شمعون» ـ وذلك بعد وفاة موسى ـ ولِّ علينا قائداً وأميراً، لنقاتلَ معه في سبيل الله؟ ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ۖ﴾ أي قال لهم نبيُّهم: لعلكم إذا فُرض عليكم القتالُ مع قائدكم، ألاَّ تقاتلوا، وتجبنوا عن القتال معه!؟ ﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَاۖ﴾ أي ما الذي يمنعنا من قتال أعدائنا، والحالُ أننا قد ظُلمنا، فطُردنا من أوطاننا، وسُلبت أموالنا، وأُبعدنا عن أولادنا؟ وكان العمالقةُ أخذُوا ديارَهم، وسَبَوْا أولادهم ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فلمَّا فُرض عليهم القتال، جَبُن أكثرُهم عن الجهاد، إلاَّ فئةً قليلةً منهم، صبروا وثبتوا ـ وهم الذين عبروا النهر مع طالوت ـ والله عالمٌ بظلم هؤلاء الناقضين للعهد، وهذا شأن الأمم المرفَّهة، تطلب الحرب لإثبات الشجاعة، فإذا جدَّ الجدُّ، جبُنوا ومالوا إلى الرفاهية والنعيم ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ﴾؟؟ أي قال لهم نبيهم: لقد بعث الله لكم قائداً شجاعاً، ماهراً في فنون الحرب، هذا القائد اسمه «طالوت» قالوا: وكيف يكون قائداً ومَلِكاً علينا، وهو فقير لا يملك المالَ، الذي يجمع القلوب حوله؟ ونحن أغنى منه، وأحقُّ بالملك، لقوتنا وشجاعتنا!! ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ﴾ أي أجابهم نبيُّهم بقوله: إنَّ الله اختاره عليكم، وهو أعلم بالمصالح منكم، والاعتمادُ في القيادة على أمرين: سعةِ العلم، وقوَّةِ الجسم، وقد خصَّه الله منهما بحظ

وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ

وافر، وينبغي أن يكون الملِكُ واسع المعرفة، قويَّ البدن، ذا هيبة ووقار، لتعظُمَ مكانتُه في عيون الناس ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي والله جلَّ جلالُه، مالكُ الملك، يعطي الملك لمن يشاء، دون اعتراض عليه، لأنه سبحانه واسعُ الفضل، عالمٌ بمن هو أهلٌ للملك فيصطفيه ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾ طلبوا من نبيهم آيةً واضحة تدل على اصطفاء الله لطالوت، فقال لهم: إن علامة ملكه، واصطفاء الله له، أن يأتيكم الصندوق، الذي كان يقدِّمه موسى بين يدي الجيش، إذا قاتل الأعداء، فتسكن إليه نفوسُ بني إسرائيل، وفي هذا التابوت الطمأنينةُ، والوقارُ، وفيه عصا موسى وثيابُه، وبعضُ الألواح التي كتبت فيها التوراة، يأتيكم هذا التابوت تحمله الملائكة، قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت، بين السماء والأرض، حتى وضعته بين يدي طالوت، والناس ينظرون ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي في نزول التابوت على هذا الوصف، لعلامةً عظيمة على اصطفاء الله لطالوت، ليكون مَلِكاً عليكم، إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ أراد طالوت أن يختبر الجيشَ، فلما خرج به وانفصل عن بلده، وجاوز الديارَ، وكانوا ثمانين ألفاً، فيهم المؤمنُ والمنافق، والشجاعُ والجبانُ، أخذ بهم في طريقٍ قفرةٍ، لا ظلَّ فيها ولا ماء، فأصابهم حرٌّ وعطش شديد، فقال لجنوده: إن الله مختبركم بنهرٍ من ماء، فمن شرب من مائه فلا يصحبني في هذه الحرب، ومن لم يذقه فإنه من جندي الذين

إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ

سيقاتلون معي ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ﴾ أي إلاَّ من اغترف قليلاً من الماء ليبلَّ عطَشَه، فلا حرج عليه، فشربوا من ماء النهر، وأفرطوا في الشرب، إلاَّ قليلاً منهم صبروا على العطش.. أراد بذلك أن يختبر طاعتهم، فمن ظهرت طاعته في ترك الماء، علمَ أنه يصلح لخوض غِمَارِ الحرب، ومن غلبت شهوتُه وعصىٰ الأمر، فهو في الشدائد أحرى بالعصيان ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾ أي فلما اجتاز النهر مع الذين صبروا على العطش، ورأوا كثرة عدوِّهم، اعتراهم الخوفُ، فقال فريق منهم: لا قدرة لنا على قتال جالوتَ وجنوده، فنحن قلَّةٌ وهم كثرة ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي قال المؤمنون الصادقون، الذين يعتقدون بلقاء الله، وهم الصفوةُ من الأتقياء الأبرار، من أتباع طالوت: ليس النصرُ عن كثرة العَدَد، فكثيراً ما غلبت الجماعةُ القليلةُ، الجماعةَ الكثيرة بمشيئة الله وعونه، فليست العبرةُ بالكثرة بل بالشجاعة وقوة الإيمان، والله مع الصابرين بالحفظ والرعاية ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي ولـمَّـا ظهـروا أمام أعدائهم (جالوتَ) وجنوده، دعوا الله قائلين: يا ربنا اجعلنا نصبر على ملاقاة أعدائنا، وثبتنا في ميدان الحرب، وانصرنا على الكفرة المجرمين ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ﴾ أي هزموا أعداءهم بنصر الله وتأييده، وقتل داودُ البطلُ ـ وكان في ضمن جيش طالوت ـ قَتَلَ جالوتَ رأسَ الكفر

وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ

والطغيان، وأعطى الله «داودَ» الملكَ والنبوةَ، وعلَّمه العلم النافع، الذي يسوسُ به بني إسرائيل ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي ولولا أن الله يدفع شرَّ الأشرار عن المؤمنين، ويسلِّط بعضَ الكفار على بعض، لفسد الكونُ، وفسد العالمُ، ولكنَّ الله جلَّت عظمتُه، ذو فضلٍ وإنعام على البشر ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي ما قصصناه عليك ياأيها الرسول، من قصص بني إسرائيل، وما فيها من الغرائب والعجائب، فإنما هي من كتاب ربك الجليل، الذي أنزله إليك بالحقِّ المبين، وإنك يا محمد أحد الرسل المكرَّمين، وهذه شهادةٌ من الله لنبيِّه بالرسالة، وكفى بها شهادة!! ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ أي أولئك الرسلُ الكرام، الذين قصصنا عليك من أنبائهم، هم رسلُ الله حقاً، وهم متفاوتون في الفضل والمنزلة، والمراتب العليَّة، منهم من خصَّه الله بالتكليم، من غير سفير مثل «موسى بن عمران» ومنهم من رفع قدره، وفضَّله على سائر المرسلين، كخاتم النبيين «محمد بن عبد الله ﷺ» كما أخبر عن ذلك نبينا الحبيب بقوله: (أنا سيِّدُ ولد آدم يوم القيامة ولا فخر..) رواه الترمذي ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ﴾ أي أعطينا عيسى بن مريم، الحججَ والمعجزات الواضحة القاطعة، كإحياء الموتى، وإبراء الأعمى، وشفاء الأمراض المستعصية، كما قوَّيناه برئيس الملائكة «جبريل» عليه السلام المسمَّى «روح القدس» ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي لو أراد الله ما اقتتلت الأمم، الذين جاءوا بعد الرسل، من بعد تلك الحجج الباهرة، والبراهين الساطعة، التي جاءتهم بها رسلهم ﴿ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ

وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ

﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أي ولكنَّ الله لم يشأ هدايتهم، بسبب اختلافهم في الدين، وتشعُّب أهوائهم ومذاهبهم، فمنهم من ثَبَت على الإيمان، ومنهم من انحرف وكفر، ولو شاء الله لجعلهم كالملائكة، لا يتنازعون ولا يقتتلون، ولكنَّ الله حكيم، يفعل ما يوافق المصلحة، لا اعتراض عليه في حكمه وقضائه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي أنفقوا يا معشر المؤمنين في سبيل الله، من مال الله الذي منحكم إيَّاه، ادفعوا زكاة أموالكم، وأنفقوها في وجوه الخير والإحسان، من قبل مجيء ذلك اليوم الرهيب، الذي لا ينفع فيه مال، ولا مودة ولا صداقة، ولا تجدون من يشفع لكم، لتتخلَّصوا من عذاب الله، و الجاحدون لنعم الله، هم الظالمون لأنفسهم ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ أي الله جلَّ ثناؤه، هو المستحقُّ للعبادة، لا معبود بحقٍّ سواه، هو واحد أحدٌ، فردٌ صمد (الحيُّ) الباقي الدائم الذي لا يفنى ولا يموت، (القيوم) أي القائم على تدبير شؤون العباد ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أي لا تأخذه غمضةُ عينٍ، ولا نوم أصلاً، لأن النوم أخو الموت، وربُّنا لا ينام ولا يموت، وفي الحديث (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القِسْطَ ويرفعه، حجابُه النورُ، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه، ما انتهى إليه بصرُه من خلقه) أخرجه مسلم ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي جميع ما في الكون ملكه، والخلقُ عبيدُه، ولا أحد يستطيع أن يشفع لأحدٍ يوم الحشر، إلا إذا أذن اللهُ له في ذلك، وهذا بيان لعظمته وكبريائه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أي يعلم سبحانه ما هو مشاهد للبشر، وما هو غائب عنهم، من أمور الدنيا والآخرة،

وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

ولا يدرك أحد من الملائكة، والأنبياء، وسائر الخلق، من علم الله شيئاً، إلاَّ ما أطلعهم سبحانه عليه ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي أحاط كرسيُّه بالسمواتِ والأرض، لعظمته وسعته (ولا يؤده حفظهما) أي لا يُثْقِله ولا يُعْجِزه سبحانه، حفظُ السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، وهو جلَّ وعلا العليُّ فوق خلقه، ذو العظمة و الكبرياء والجلال.. والكرسيُّ أحدُ مخلوقات الله العظيمة، وهو بالنسبة إلى العرش، كحلْقةٍ في صحراءَ واسعة، لا يعلم سعتَها إلاَّ الله، وإذا كان الكرسيُّ لا تسعه سمواتٌ ولا أرضٌ، فكيف بالعرش العظيم، الذي أحاط بالكرسي وبالسموات والأرض؟ واعتقادُ بعضُ الجهلة، أن الله داخلَ السماء، خطأٌ فاحش، فاللهُ تعالى مستوٍ على عرشه كما أخبر، والعرشُ محيط بالجميع، أحاط بالكرسي، وبالسموات والأرض، ولا يعلم سَعَةَ العرشِ وعظمَته، إلاَّ الله ربُّ العالمين، فافهم هذا هداك الله ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ أي لا إجبار ولا إكراه لأحد على الإسلام، بل لا بد أن يكون عن قناعة، وقد توضَّح الإيمانُ من الكفر، وتميَّز الهدى عن الضلال ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي فمن يكفر بالشيطان والأوثان، وكلِّ ما عُبد من دون الرحمن، ويؤمن بالله وحده، فقد استمسك بأوثق عُروة، وأمتن حبل، لا انقطاع له، والله سميع لأقوال العباد، عالم بأحوالهم، شبَّه تعالى المستمسك بالإسلام، بالمستمسك بالحبل القويّ المحكم، وهو تشبيه تمثيلي رائع ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي الله

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ

جلَّ وعلا حافظُ المؤمنين، ومتولِّي أمورهم، يخرجهم بهدايته وتوفيقه، من ظلمات الكفر والضلال، إلى نور الهداية والإيمان، على عكس الكفار، فإنَّ أولياءهم وأنصارهم الشياطينُ، يخرجونهم بالوساوس والشبهات العليلة، من نور الإيمان، إلى ظلمات الكفر والضلال، وهؤلاء الكفار الفُجَّار، مخلَّدون في نار جهنم، لا يخرجون منها أبداً. ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ تعجيب للسامع من أمر هذا الكافر «النمروذ» الذي بلغ به الفجور والطغيان، إلى درجة الحماقة أن يجادل ويخاصم في أمر وجود الله ووحدانيته، أي ألم تبلغك قصةُ هذا الشقي الكافر، الذي جادل الخليلَ إبراهيم، في شأن وجود الله ووحدانيته، لأجل أن آتاه الله الملك؟ ﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ أي حين قال له إبراهيم: إن الدليلَ على وجود ربي، أنه إلهٌ عظيم قدير، يُنشيء الخلق من العدم، ثم يحييهم، ويخلق الحياة والموت، وهذا أعظم برهانٍ على وجود الرحمن! فكان جواب الفاجر له: وأنا أيضاً أحيي وأميتُ!! دعا برجلين من السجن، كان قد حُكم عليهما بالإعدام، فأطلق سراحَ واحدٍ وقال: هذا أحييتُه، وأمَرَ بقطع عُنق الثاني، وقال: هـذا أمـتُّـه!! ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لمَّا رأى إبراهيم عليه السلام، حماقةَ هذا السفيه، وشَغَبه في الدليل، عَدَل إلى أمرٍ آخر، أجدى وأنفع في إفحام الخصم، لئلا يجد ذاك الشقيُّ، مجالاً للتمويه والتلاعب، فقال له: إذا كنت تدَّعي الربوبية، وأنك تحيي وتميت كما يفعل ربُّ العزة والجلال، فهذه الشمس أمامك، تطلُعُ كلَّ يوم من المشرق وتغرب من المغرب، فأرنا قدرتك الباهرة، اجعلها تطلع من المغرب بدل المشرق، ولو مرة واحدة، لِتُثبِتَ للناس عظمة ربوبيتك!؟ فأصبح الأحمقُ الفاجر مبهوتاً، لا يستطيع الجوابَ، ولا يَنبِسُ ببنتِ شَفَة، وانقطعت حجته أمامَ الحاضرين، والله تعالى لا يوفِّق للحجة والبيان، من كان ظالماً فاجراً، وهذه الحجة من إبراهيم قصمتْ ظهرَ الباطل ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ

عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ هذا من عطف القصة على القصة، والغرضُ التعجيب في الحالتين، من صنيع «النمروذ» ومن استغراب «عزير» إعادة الحياة إلى المدينة المدمَّرة على أهلها، وكلتا القصتين تنبيهٌ واضح، على قدرة رب العالمين، في الإحياء والإماتة، والمعنى: ألم يصل إلى سمعك، ويبلغك خبرُ «عُزير» حين مرَّ على مدينة بيت المقدس، التي خرَّبها «بختنصَّر» المجوسي وقتل أهلها، فجعلها خراباً يباباً، حتى سقطت جدرانها على سُقفها، فقال ذلك الرجل: كيف يحيى الله هذه البلدة بعد خرابها ودمارها؟ وكيف يحيا أهلُها بعد هذا الفناء، والدمار المريع!؟ ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ أي أماته سبحانه مائة سنة، ثم أحياه ليريه كمال قدرته، وسأله: كم مكثت في هذه الحال؟ قال: يوماً واحداً، ثم نظر إلى الشمس، فرآها لم تغب، فقال: أو بعض يوم!! قال: بل مكثتَ مائةَ سنة كاملة، وكان «عزيرٌ» حين وقف على أطلال المدينة الخربة راكباً على حمار، وكان معه تينٌ وعصيرُ عنب، وهما مما يتسارع إليه الفساد، فقال له ربُّه ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي انظر إلى الطعام الذي معك، وإلى الشراب، لم يتغيَّر أحدٌ منهما بمرور الزمان؟ فنظر فوجدهما على حالهما، لم يفسد شيء منهما ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي وانظر إلى الحمار الذي كنت تركبه، كيف تفرَّقت أوصاله، ونخرت عظامه، وسنحييه أمامك؟ وفعلنا ذلك، لنجعلك آية باهرة، ومعجزةً واضحة، دالةً على كمال قدرتنا ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ أي وانظر الآن بعينيك، لترى كيف نحيي لك الحمار، ﴿كيف ننشزها﴾ أي كيف نركِّبُ بعضها فوق بعض، ثم نكسوها لحماً بقدرتنا!! فنظر فإذا بالحمار يقوم على رجليه ثم ينهق ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي فلمَّا رأى ما رأى من آيات قدرة الله العظيمة، قال: أشهدُ أن الله قادر

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

على كل شيء، وأنه يحيي الموتى، وهو الإله الحقُّ المعبود، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وهذا الرجل «عُزير» الذي أماته الله مائة عام ثم أحياه، هو الذي زعم اليهود أنه «ابنُ الله» لهذه الآية الباهرة التي جرت عليه ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ قاتلهم الله أنى يؤفكون، وما هو إلا عبدٌ من عباد الله، أظهر الله قدرته للبشر في إحيائه بعد موته ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ هذه قصة أخرى على إحياء الله للموتى، والمعنى: اذكر يا أيها الرسول حين طلب إبراهيم من ربه، أن يريه كيفية إحياء الله للموتى!! قال له ربه: أولم تصدِّق يا إبراهيم بقدرتي على الإحياء؟ قال إبراهيم: بلى يا رب أنا مؤمن بقدرتك، ولكنْ أردتُ أن أزداد بصيرة بمشاهدة ذلك!! سأل إبراهيمُ ربَّه عن الكيفية، ولم يكن سؤاله عن شكٍّ في قدرة الله، فلم يقل: هل تقدر على إحياء الموتى؟ وإنما قال ﴿أرني كيف تحي الموتى﴾؟ فهو سؤال مؤمنٍ مصدِّق، يريد أن يرى كيفية الإحياء ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي قال له ربه: خذ يا إبراهيم أربعة طيورٍ، مختلفة الخِلقةِ ﴿فصُرْهنَّ﴾ أي ضمهنَّ إليك، وقطِّعهُنَ واخلط بعضهنَّ ببعض، حتى تختلط لحومهن، ثم اجعل على كل جبل، قطعةً من هذا اللحم المتداخل، ثم ادعهنَّ إليك يأتينَك مسرعات، ففعل إبراهيم ذلك، فأحياهنَّ الله له، وهو يرى ذلك بعينيه.

قال مجاهد: أخذ إبراهيم (طاووساً، وديكاً، وحمامة، وغراباً) فذبحهنَّ وخلطهنَّ، ثم جعل على رأس كل جبل جزءاً منهنَّ، ثم ناداهنَّ فقال: تعالَيْن إليَّ بإذن الله، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، واللحم إلى اللحم، حتى عادت طيراً كما كانت، ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ أي لا يعجزه شيء أراده جلَّ وعلا، القادرُ على كل شيء!!

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ أي مثل المنفقين لأموالهم في الجهاد، وسائر وجوه الخيرات، كمثل حبة زُرعت، فأنبتت سبعَ سنابل، كلُّ سنبلة منها تحتوي على مائة حبة، فيكون الحاصل من حبةٍ واحدة سبعمائة حبة، وهذا تمثيلٌ لمضاعفة الأجر، لمن أخلص في صدقته، طلباً لرضى ربه، حيث يضاعف الله له الأجر إلى سبعمائة ضعف، ولهذا قال بعده ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي والله بفضله وكرمه، يضاعف الأجر لمن شاء، حسب إخلاص الإنسان في إنفاقه ﴿والله واسع﴾ الفضل ﴿عليم﴾ بمن يستحقُّ مضاعفة الجزاء ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي هؤلاء الذين يضاعف الله لهم الأجرَ، هم الذين ينفقون الأموال، طلباً لرضى الرحمن ولا يقصدون بإنفاقهم الامتنانَ على من أحسنوا إليه، ولا يؤذونه بالكلام الجارح، كقولهم للسائل: كم تسأل؟ وقد بُليتُ بك، وأمثال هذا!! هؤلاء لهم ثوابهم العظيم عند ربهم، ولا يعتريهم فزع في الآخرة ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾ تأكيد للتحذير من إضاعة الأجر بالمنِّ والأذى، أي ردٌّ حسنٌ جميل، يُردُّ به السائل، من غير إعطاء شيء، كقوله: يرزقكم الله ﴿ومغفرةٌ﴾ أي عفوٌ عن السائل، إذا وُجد منه ما يُثقِل، من الإلحاح على المسؤول، خيرٌ من إحسانٍ مقرونٍ بالأذى، كقولِ المعطي: ما أكثرَ الشحَّادين، أو ما رأيتُ شحاداً ثقيلاً مثلك!! والله غني عن صدقات العباد، حليمٌ لا يعاجل لهم العقوبة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾. أي لا تضيِّعوا ثواب ما قدمتموهُ من صدقات بالمنِّ على الفقير، أو الإساءة

كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ

إليه بأنواع من الأذى ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ أي فيكون عملُكم مثلَ فعلِ المنافق، الذي يبطل إنفاقه بالرياء، ولا يصدِّق بلقاء الله، حتى يرجوَ له ثواباً، أو يخشى عقاباً ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ﴾ أي فمثلُ هذا المرائي، كمثل حجرٍ من الرخام أملس، عليه شيءٌ يسير من التراب، أصابه مطرٌ شديد دافق، أذهب ذلك التراب، حتى لم يبق له أثر، كذلك هذا المرائي والمنافق، يضيع عمُله، فلا يبقى له في الآخرة أجرٌ ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي لا ينتفعون بما أنفقوا، ولا يجدون له ثواباً، والله لا يهدي إلى طريق الخير والرشاد، من كفَر بالله، وجحد فضله ونعمته ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي وَمَثلُ الذين ينفقونها طلباً لمرضاة الله، وتثبيتاً لأنفسهم على الإيمان ﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي مثل هؤلاء المنفقين لوجه الله، كمثل بستانٍ كثير الشجر، بمكان مرتفع من الأرض، أصابها مطرٌ غزير، فأخرجت ثمارها مِثْليْ ما كانت تثمر، فإن لم ينزل عليها المطر الغزير، فيكفيها النَّدى، للطافة هوائها، وارتفاع مكانها، فكذلك نفقتهم تكون كثيرة زاكية، والله جلَّ وعلا مطَّلعٌ على أعمالكم ونيَّاتكم ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ﴾ أي أيحبُّ أحدكم أن يكون له بستان مثمر،

﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ﴾

فيه من جميع أنواع الفواكه، والأعناب والثمار، ويسقيه ماء النهر دون جهدٍ ولا تعب، وأصاب صاحبَ البستان الشيخوخةُ، فضَعُف عن الكسب، وله أطفال صغار، لا قدرة لهم على الكسب ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ هذا من تمام المثل، أي أصاب هذا البستان، ريح عاصفة شديدة، أحرقت الزرع والثمر، أحوج ما يكون الإنسان إليه، فكيف يكون حالَهُ؟ وهو تمثيلٌ بالغُ الروعةِ والجمال. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي مثل هذا البيان الواضح، في هذا المثل البديع المحكم، يُبيِّنُ اللهُ لكم أمورَ الدِّين، لتتفكروا وتتدبروا فيها، وتعملوا بموجبها!!

قال الحسن البصري: هذا مَثَلُ قلَّ واللهِ من يعقله، شيخٌ كبير، ضَعُف جسمُه، وكثرُ ولده وصبيانُه، أحوجَ ما كان إلى جنَّته ـ بستانه ـ فجاءها الإعصار فيه النارُ فأحرقها، وإن أحدَكم واللهِ أفقرُ ما يكون إلى عمله، إذا انقطعت عنه الدنيا!! **وروى البخاري** عن ابن عباس أن عمر رضي الله عنه قال يوماً لأصحاب النبي ﷺ: فِيَم ترون هذه الآية نزلت ﴿**أيود أحدكم أن تكون له جنة**﴾؟ قالوا: الله أعلم، فغضب عمر فقال: قولوا: نعلمُ أو لا نعلم!! فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، فقال عمر: يا ابنَ أخي، قل ولا تحقِرْ نفسك!! فقال ابن عباس: ضُربت مثلاً لعمل، قال عمر: أيُّ عمل؟ قال: لرجل غنيٍّ يعمل بطاعة الله، ثم بعثَ اللهُ له الشيطانَ فعملَ بالمعاصي، حتى أغرق أعماله» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي أنفقوا من المال الحلال الطيِّب، الذي كسبتموه بجهدكم، وأنفقوا من المال الجيِّد، الذي أخرجناه لكم من الأرض، من أنواع الحبوب والثمار ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ أي ولا تقصدوا إلى الرديء الخسيس فتتصَدقوا منه، والحالُ أنكم لا تقبلونه لو أُعطِيتُموه، إلاَّ إذا تساهلتم وأغمضتم فيه البصر، فكيف تتصدَّقون بما تكرهونه لأنفسكم؟

وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي أيقنوا أن الله غنيٌ عن إنفاقكم، مستحقٌ للحمد على نِعَمه وإحسانه ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ لمَّا رغَّب تعالى في الإنفاق، حذَّر المؤمنين من وسوسة الشيطان، الذي يريد أن يمنع من فعل الخير بوسوسته، أي الشيطانُ يخوِّفكم من الفقر إذا تصدقتم، ويأمركم بالبخل وعدم الإنفاق، والله جلَّ وعلا، يعدكم على إنفاقكم في سبيله، بالمغفرة لذنوبكم، وبالإخلاف عليكم فيما أنفقتموه، كقوله سبحانه ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يُخلِفه﴾ والله واسع الفضل، عليمٌ بمن يستحقُّ الأجر والثناء ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ أي يهب جلَّ وعلا العلمَ النافع، والفهم السليم، والسَّدادَ في العمل، لمن شاء من عباده، ومن أُعطي الحكمة والفقه في أمور الدين، فقد أعطي الخير الكثير ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي وما يتَّعظ بأمثال القرآن، إلاَّ أصحابُ العقولِ النيِّرة، الخالصة قال لقمان لابنه: يا بُنيَّ جالسِ العلماءَ، واسمع كلام الحكماءِ، فإن الله تعالى يُحيي القلبَ الميِّتَ، بنور الحكمة، كما تحيا الأرض الميتة بوابل المطر» أخرجه الطبراني ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي وما بذلتم أيها المؤمنون من مالٍ في سبيل الله، أو نذرتم من فعل خيرٍ وطاعة، فإن الله تعالى سيجازيكم عليه، ولا يضيع عند الله منه شيء، وليس لمن منع الزكاة، أو صَرَف المال في معاصي الله، من ينقذهم ويخلِّصهم من عذاب الله، وفيه وعيد شديد لكل ظالم ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ أي إن تُظهروا صدقاتكم، فنِعْمَ هذا

وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًاۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾

الشيء الذي تفعلونه، إن لم يكن فيه رياءٌ ولا سُمعة، وإن تعطوها خفيةً للفقراء، فهو أفضلُ لكم، لأن الإخفاءَ أبعدُ عن الرياء ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي ويزيل عنكم سَّيِءَ أعمالكم، ويغفر لكم ذنوبكم، وهو سبحانه مطَّلعٌ على أعمالكم، يعلم ما تُسرُّون وما تعلنون، وفي الآية ترغيبٌ في إخفاء الإنفاق، ليبقى العمل خالصاً لوجه الله ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُۗ﴾ أي ليس عليك يا محمد هدايةَ البشر، وإنما عليك الإرشادُ، والله يهدي من شاء من عباده، إلى الدين الحقِّ، دينِ الإسلام ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي وما تبذلونه من مالٍ، تحسنون به إلى الفقراء، فنفعُه عائدٌ إليكم، لا ينتفع به غيركم، فلا تمنُّوا على الفقراء بما بذلتم، وينبغي أن يكون غرضكم رضوانَ الله، لا الشهرة والرياء، وكلُّ ما تنفقونه في سبيل الله، يعوَّضُ لكم ثوابُه أضعافاً مضاعفة، ولا تُنقصون منه شيئاً يوم القيامة ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ أي اجعلوا ما تنفقونه للفقراء، الذين أحصرَهم وأقعَدَهم الجهادُ في سبيل الله، عن السفر في الأرض للتجارة والكسب، فهم أشدُّ الناس استحقاقاً للصدقة، يظنهم الذي لا يعرف حقيقة أمرهم، أنهم أغنياء موسرون، من شدَّة تعفُّفهم عن السؤال ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًاۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ أي تعرفهم أيها المخاطبُ بعلاماتهم، من

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾

التواضع، وأَثَر الجُهْد الذي يَعلوهم، وهم مع ذلك لا يسألون الناس شيئاً، وإن سألوا للحاجة والاضطرار، لم يلحُوا في السؤال، وما أنفقتموه في وجوه الخير، فإن الله يجازيكم عليه أفضل الجزاء ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي هؤلاء المحسنون الأتقياء، الذين ينفقون في سبيل الله، في جميع الأوقات، من ليلٍ أو نهار، وفي جميع الأحوال، من سرٍّ وجهر، لهم ثوابهم العظيم عند ربِّ العزة والجلال، ولا خوف عليهم يوم القيامة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ أي الذين يتعاملون بالربا، فيمتصُّون دماء الناس، لا يقومون من قبورهم يوم القيامة، إلاّ كما يقوم المخبولُ والمصروع من جنونه، يتخبَّطُه الشيطانُ، فيهذي في كلامه، ويُصرع في مشيه، لأن الربا أثقل بطونَهم، فلم يستطيعوا المشيَ سوِّياً ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ أي ذلك العقابُ لهم، بسبب أنهم استحلُّوا ما حرَّم الله، فقالوا: الربا كالبيع يكون بالتراضي، فلماذا يكون حراماً؟ قال تعالى رداً عليهم: ﴿وأحلَّ الله البيعَ﴾ لما فيه من تبادل المنافع الدنيوية، ﴿وحرَّم الربا﴾ لما فيه من الأضرار الجسيمة، حيث يغدو الإنسان كأنه وحشٌ، همُّه جمعُ المال، وامتصاصُ دماء الآخرين، أناسٌ يعملون ويتعبون، وآخرون يجنون ثمرة المال على برد الماء ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي فمن بلغه نهيُ الله وتحريمُه للربا، فكفَّ عن التعامل به، فالله يغفر له ما مضى قبل التحريم،

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى الصَّدَقَٰتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ الزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ اتَّقُوا۟ اللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾

وأمرُه موكولٌ إلى الله، ومن عاد إلى التعامل بالربا، واستحلّه فهو من المخلّدين في نار جهنم ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى الصَّدَقَٰتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ أي يُذهبُ بركته، ويُهلك أصلَه الذي دخل فيه، والمحقُ: إذهابُ الشيء من أساسه وجذوره، فهو وإن كان في الظاهر زيادة، لكنه في الحقيقة خسرانٌ ودمار، ويبارك الله في الصدقات فيزيدها ويُنمّيها، والله يبغض كل فاجر كافر، منهمكٍ في الجرائم والآثام ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ الزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي إن المؤمنين الأبرار، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وحافظوا على صلاتهم على وجه الكمال، وأدَّوا الزكاة للفقراء والمساكين، هؤلاء لهم ثوابهم الكامل في الجنة، ولا يخافون يوم الفزع الأكبر، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ اتَّقُوا۟ اللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي خافوا ربكم، واخشوا عقابه، وراقبوه فيما تفعلون، واتركوا ما بقي لكم من الربا عند الناس، إن كنتم حقاً مؤمنين ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أي وإن لم تتركوا التعامل بالربا، فأيقنوا بحرب الله ورسوله لكم، والآية «إعلانُ حرب» ومن يستطيع محاربة الملك الجبار، الكبير المتعال؟ وإن تبتم فلكم أصلُ المال بدون زيادة، لا تَظْلِمون غيركم، ولا تُظْلَمون بضياع حقكم ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إذا كان المستقرضُ معسراً، فالواجب إمهالُه إلى وقت اليسر، وإن سامحتموه بترك بعض ما لكم عليه، فهو أكرم لكم وأفضل، لو كنتم

وَاتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ

تعلمون ما لكم عند الله، من عظيم الأجر والثناء ﴿وَاتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي خافوا ذلك اليوم الرهيبَ العصيب، الذي ترجعون فيه إلى ربكم، فيجازيكم على أعمالكم، وأنتم لا تُظلمون بنقص ثواب، أو مضاعفة عقاب، وهذه الآية آخر ما نزل من القرآن العظيم، وفيها التذكيرُ بالوقفة الكبرى، بين يدي أحكم الحاكمين، وقد عاش بعدها النبي ﷺ تسع ليال، ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ تسمى هذه الآية (آية المداينة) وهي أطول آية في القرآن الكريم، نزلت في تقرير الحقوق المالية، لبيان عظم جريمة أكل أموال الناس بالباطل، أي إذا كان لكم دينٌ على أحدٍ من الناس، أو تبايعتم بالدين إلى زمن معلوم، فاكتبوا هذا الدين، ليكون أوثقَ وأضمنَ، والواجب أن يكون الكاتب مسلماً ثقة عدلاً، أميناً على ما يكتب ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ﴾ أي ولا يمتنع أحد من الكتابة بالعدل، كما تُكتب الوثائقُ ﴿فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ﴾ أي فلْيَكتُبْ تلك الوثيقة، ويكونُ المدينُ الذي عليه الحقُّ، هو الذي يلقي عليه ما يكتبه، لأنه هو المشهودُ عليه، فيكون ذلك إقراراً على نفسه، ولْيخشَ الله ربَّ العالمين، ولا يُنقص من الحق شيئاً ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ أي إن كان المدينُ أحمق ناقصَ العقل، أو صبيّاً، أو شيخاً هرماً، أو أخرسَ لا يستطيع أن ينطق؛ فلْيقُم وليُّه بالإملاء نيابةً عنه، من غير نقصٍ أو زيادة ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ أي واطلبوا مع

أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

الكتابة، شاهدين من الرجال، يشهدون على وثيقة الدين، زيادة في التوثقة، فإذا لم يوجد رجلان، فليشهد رجل وامرأتان، ممن يُوثق بدينهم وأمانتهم ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ هذا بيانٌ لاشتراط امرأتين مع الرجل الواحد، أي لئلا تنسى إحداهما القضيَّة، فتذكُرها الأخرى، لأن الغالب على طباع النساء النسيانُ، لا سيما في الأمور المالية، التي هي من خصائص الرجال، لا انتقاصاً لكرامة المرأة ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ أي ولا يمتنع الشهودُ عن أداء الشهادة، إذا ما دُعوا إلى ذلك، لئلا تضيع الحقوق ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ أي ولا تَملُّوا ولا تضجروا أن تكتبوا الدَّيْنَ، إلى وقتِ حلول ميعاده، صغيراً كان الدَّينُ أو كبيراً، قليلاً أو كثيراً ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾ أي ذلك الكتابُ والتسجيلُ أعدلُ في حكمه تعالى، وأثبتُ للشهادة لئلا تُنسى، فالإنسان معرَّضٌ للنسيان، وأقرب أن لا تشكُّوا في مقدار الدَّيْن والأجل ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أي إلا أن يكون البيعُ نقداً، والثمنُ مقبوضاً، فلا إثم عليكم ولا حرج ألاَّ تكتبوها، لعدم ضياع الحقوق، وعدم إمكان الجحود ﴿وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ أي وأشهدوا على العقود في مبايعاتكم، لا سيما في الأمور الكبيرة، كبيع الدور، والمتاجر، والصفقات الضخمة التي تكون بالملايين، لئلا يكون هناك جحودٌ أو إنكار من أحد الطرفين، ولا يضرَّ صاحبُ الحقِّ الكاتبَ أو الشاهد، كأن يكلِّفه بالسفر إلى بلدٍ، دون أن يعطيه أجر الطريق مثلاً، أو يأمره أن يترك عمله ليشهد له، بل يصحبه مكرَّماً في وقت فراغه ﴿وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ أي إن فعلتم ما نُهيتم عنه، فقد عصيتم أمر ربكم، فأصبحتم فُسَّاقاً، لأنكم خرجتم عن الطريق السويّ، بمخالفتكم أمر الله ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي

﴿وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

خافوا ربكم، وقفوا عند حدوده. يمنحكم ربُكم العلم النافعَ، المحقِّق لمصالحكم، والله جلَّ وعلا هو العالمُ بمصالح العباد.. ما أرحمَ الله بعباده!! فقد أنزلَ أطولَ آية في كتابه العزيز، لأحكامٍ تتعلق بالحقوق المالية، حيث وجَّههم إلى ما يحقِّق مصالحهم الدنيوية، لئلا يكون هناكَ عدوان، أو ظلمٌ يلحقه طغيان!!

﴿وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ﴾ أي وإن كنتم مسافرين وتداينتم إلى أجل مسمَّى، ولم تجدوا من يكتب لكم وثيقةَ الدَّين، فليكنْ بدل الكتابة شيء مقبوضٌ، يكون رهناً من متاع أو حُليّ، توثقةً للدين الذي في الذمة ﴿فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ﴾ أي فإن اكتفى الدائنُ بأمانة المَدِين، واستغنى بأمانته عن الرهن، فلْيؤدِّ المديونُ الدَّيْن الذي عليه، وليخف ربه في رعاية الحقوق، وفي الحديث (أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخُنْ من خانك) رواه الترمذي، أي من وثِقَ بك وبأمانتك فلا تَخُنه ﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ﴾ أي وإذا دعيتم إلى أداء الشهادة، فاشهدوا بالحق، ولا تُخفوا شيئاً منه، فإنَّ إخفاء الشهادة إثمٌ كبير، يجعل القلبَ خائناً، وصاحبَه فاجراً، وخصَّ القلب بالذِّكرِ، لأنه سلطانُ الأعضاء، إذا صَلَح صلح الجسدُ كلُه، وإذا فَسَد فسدَ الجسدُ كلُه ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ أي هو سبحانه عالم بكل ما يحصلُ منكم، لا تخفى عليه خافيةٌ من أعمال العباد، وسيجازيكم عليها. ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ أي لله جلَّ وعلا جميعُ ما في الكون، خلقاً، ومُلْكاً، وتصرفاً، ليس لأحدٍ شركةٌ معه، وإن تظهروا ما في نفوسكم من الشرّ والسوء، أو تُسِرُّوه فلا تظهروه لأحد، فإن الله يعلمه وسيحاسبكم عليه ﴿فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ أي يعفو سبحانه عمن يشاء، ويعاقب من

ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ

يشاء، حسبما تقتضيه حكمتُه ومشيئتُه، والله هو القادر على كل شيء، الذي لا يُسأل عمَّا يفعل وهم يُسألون ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي صدَّق محمدٌ بما أنزل الله عليه، من القرآن والوحي، وصدَّق معه المؤمنون المتقون، كلُّ واحدٍ منهم، من النبيِّ والأتباع، صدَّق بوحدانية الله، وآمن بالملائكة، وبجميع الكتب، والرسل ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ أي قائلين: لا نؤمن ببعض الرسل، ونكفر ببعض الرسل، كما فعل اليهود والنصارى، بل نؤمن بجميع رسل الله، دون تفريق، أما اليهود فقد آمنوا برسالة موسى، وكفروا برسالة عيسى ومحمد، والنصارى آمنوا بعيسى وكفروا برسالة محمد، وجميعُ أهل الكتاب في ضلالٍ، وبُعْدٍ عن الهدى والإيمان ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي قال المؤمنون من أصحاب محمد ﷺ: سمعنا يا رب دعوتك، وأطعنا أمرك، وآمنا بجميع رسلك، فنطلب منك المغفرة لجميع ذنوبنا، وإليك يا ربِّ وحدَك، مرجعُنَا للحساب والجزاء، وهذه شهادة من الله عزَّ وجل، لرسوله ولأتباعه المؤمنين، على صحة الإيمان ورضى الرحمن ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ أي لا يكلِّف المولى جلَّ جلاله أحداً، بما يَشِقُّ عليه، وبما لا يستطيعه، إنما يكلِّفه بما في طاقته ووسعه، ولكل نفسٍ جزاءُ ما قدمت من خير، وجزاء ما اقترفت من شر، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ أي يقولون في دعائهم وتضرعهم إلى الله: يا ربنا لا تعذِّبنا بما صَدَر منَّا عن طريق النسيان أو الخطأ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ﴾ أي لا تحمل علينا ما لا نطيقُ، من التكاليف الشاقة التي نعجز عنها، كما كانت على الأمم

رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

السابقة قبلنا ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ أي ولا تكلِّفنا يا رب بما لا نطيق من البلاء والشدائد، والتكاليف التي لا طاقة للبشر بها ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾ أي وامحُ ذنوبنا التي فرطت منا، واسترْ عيوبنا فلا تفضحْنَا يوم الحشر الأكبر، وارحمنا برحمتك التي وسعت كلَّ شيء ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي أنت يا ربنا مالكُنَا، وناصرنا، ومتولِّي أمورنا، ونحن عبيدك الضعفاء، فانصرنا على أعدائنا، من الكفرةِ الوثنيِّين، وأعداء الدِّين، المكذِّبين لرسالة الأنبياء والمرسلين!!

روى مسلم في صحيحه أنه لمَّا نزل قوله تعالى **﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾** ثقُل ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فجاءوا إلى رسول الله وقالوا يا رسول الله: كُلِّفنا من العمل ما نُطِيق، الصلاةَ، والصيام، والحجَّ، والجهاد!! وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، فقال لهم ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهلُ الكتاب قبلكم (سمعنا وعصينا)!! قولوا: (سمعنا وأطعنا) فلما قرأها القومُ وذلَّتْ بها ألسنتُهم، أنزل الله عز وجل **﴿لا يكلف الله نفساً إلاَّ وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾** رواه مسلم، فنسخت هذه الآيةُ، الآيةَ التي قبلها، وهي آيةُ المحاسبة على النوايا، وهذا كلُّه من فضل الله، ورحمته بعباده المؤمنين، حيث لم يكلفهم ما لا يطيقون، تفضلاً منه وكرماً، وقد جعل تعالى شريعته الخالدة، يسراً لا عُسر فيها، والحمد لله رب العالمين.

انتهى تفسير سورة البقرة

● ● ●

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ

تفسير سورة آل عمران

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ الحروف المقطَّعة للتنبيه على إعجاز القرآن، فهذا القرآن الكريم منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية، فليأتوا بمثل سورة منه إن استطاعوا ﴿الله لا إله إلا هو﴾ أي لا معبود بحق إلاَّ هو جلَّ جلالُه ﴿الحي القيوم﴾ أي الباقي الدائم، القائم على تدبير شؤون العباد ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ أي نزَّله سبحانه بالحقِّ الفاصل، بما فيه من الحجج الظاهرة، والبراهين القاطعة، مصدِّقاً لما سبقه من الكتب السابقة، المنزلة على الأنبياء والمرسلين ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ أي أنزل سبحانه التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، من قبل نزول هذا القرآن، ليكونا هداية لبني إسرائيل ﴿وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾ أي وأنزل سائر الكتب الإلهية، الفارقة بين الحق والباطل، والكفر والإيمان ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي إن هؤلاء الكفار، الذين جحدوا وحدانية الله، وكذَّبوا رسله، لهم في الآخرة عذاب دائم شديد، واللهُ جلَّ وعلا عزيز أي غالب لا يُغلب، ينتقم ممن عصاه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ أي لا يغيب عنه سبحانه أمرٌ من الأمور، لا مما يحدث في الأرض من أعمال البشر، ولا ممَّا تفعله الملائكة في السماء، وهو الذي يخلقكم على الصورة التي يشاءها في أرحام أمهاتكم،

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾

من ذكر وأنثى، وأسود وأبيض، وطويل وقصير ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي لا خالق غيرُه، ولا معبود بحقٍّ سواه، العزيزُ الذي لا يُغلب ولا يُقهر، الحكيمُ في صنعه وتدبيره ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ أي الله جلَّ جلالُه، هو الذي أنزل عليك هذا القرآن ﴿منه آيات محكماتٌ﴾ أي واضحاتٌ بيِّناتٌ، لا التباس فيها ولا غموض، كآيات الحلال والحرام ﴿هنَّ أمُّ الكتاب﴾ أي أصلُ الكتاب وأساسُه، وآيات أخرى متشابهات، لا يتضح فيها الأمر، إلا بالنظر الدقيق الثاقب، كآيات الحروف المقطَّعة في أوائل السور، وآيات الروح في خلق عيسى ابن مريم، فمن ردَّ المتشابه إلى الواضح المحكم فقد اهتدى، ومن عكس فقد ضلَّ وزاغ، ولهذا قال بعده ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ أي فأمَّا من كان في قلبه عدولٌ عن الحقّ، واتباعٌ للهوى، فيتعلَّق بالمتشابه منه، طلباً لفتنة الناس عن دينهم، وطلباً لتفسيره بما يوافق هواه، كما فعل النصارى حيث زعموا أن عيسى «ابن الله» وهو جزءٌ من الله، احتجاجاً بقوله سبحانه ﴿وروحٌ منه﴾ أخذوا بالمتشابه، وتركوا المحكم الذي بيَّن حقيقة عيسى، وهو قوله سبحانه ﴿إن هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه﴾ قال تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي وما يعلم تفسير المتشابه، ومعناه الحقيقي، إلاَّ الله ربُّ العالمين، كما قال سبحانه ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ أي والثابتون المتمكنون من العلم، يُقرُّون بعجزهم، فيردُّون العلم إلى الله، ويقولون: آمنا بجميع كلام الله، المحكم منه والمتشابه، فالكلُّ من عند ربِّ العزة والجلال ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي وما يتعظ ويتدبر بهذه الآيات، إلاَّ أصحاب العقول السليمة، المستنيرة بنور القرآن ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ تعليمٌ من الله للعباد، أي

رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَاۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِۚ

قولوا: يا ربنا لا تصرف قلوبنا عن نور الهداية والإيمان، بعد أن هديتنا إلى دينك القويم، وشرعك المستقيم، وامنحنا من فضلك الثبات على الإسلام، فأنت يا رب المتفضل على عبادك، بالعطاء والإحسان ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ وقولوا أيضاً في دعائكم: يا ربنا إنك جامع الخلائق، ليوم لا شكَّ في وقوعه، وهو يوم القيامة، يوم الحساب والجزاء، فإن وعدك حق، وأنت لا تخلف الوعد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ أي إن الذين جحدوا وحدانية الله، وكذَّبوا رسله، لن تفيدهم الأموالُ والأولاد، ولن تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله، وهم في الآخرة حطبُ جهنم، الذي توقد به نارُ السعير ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي شأن هؤلاء الكفرة من قومك، كشأن جماعة فرعون وأتباعه الضالين، ومن سبقهم من الأمم الباغية، كذَّبوا بآيات الله الواضحة الساطعة ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي أهلكهم الله ودمَّرهم، بسبب معاصيهم وجرائمهم، وعقابُ الله شديد لمن كفر به ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي قل يا أيها الرسول، لهؤلاء اليهود المكذبين لرسالتك: ستهزمون في الدنيا، وتجمعون وتساقون إلى جهنم في الآخرة، وبئس الفراشُ الذين تفرشونه نار الجحيم ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَاۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ أي لقد كان لكم يا معشر اليهود عظةٌ وعبرة، في جماعتين التقتا يوم بدر، ودارت بينهما الحربُ، جماعةٌ مؤمنة تقاتل لإعلاء كلمة الله، وإعزاز دينه، وجماعة كافرة تقاتل في سبيل الشيطان والأوثان ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِۚ﴾ أي يرى المؤمنون الكافرين، أكثرَ

﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾

منهم مرتين، رؤيةً حقيقية ظاهرة، بالعين المجرَّدة، لا بالخيال والأوهام ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي والله جلَّت عظمته ينصر من يشاء من عباده، وقد نصر جنده المؤمنين على قلَّتهم، على الكفرة المشركين وهم كثرة كثيرة، وفي هذا النصر موعظة وعبرة لأولي العقول السليمة.. رُوي أن النبي ﷺ لما انتصر على المشركين في غزوة بدر، ورجع إلى المدينة المنورة، ظافراً منتصراً، جمع اليهود فقال لهم: يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ما أصاب قريشاً!! فقد عرفتم أني رسولُ الله حقاً، وأني نبيٌّ مرسل، فقالوا يا محمد: لا يغرَّنك من نفسك أنك قتلتَ نفراً من قريش، كانوا أغراراً لا يعرفون طريقة الحرب، إنك إن قاتلتنا، عرفتَ أننا نحن الرجال، وأنك لم تلق مثلنا!! فأنزل الله ﴿قل للذين كفروا ستغلبون﴾ **الآية** ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ أي حُسِّن للبشر حبُّ أنواع الشهوات، التي يُفتن بها الناسُ ﴿من النساء﴾ وبدأ بهنَّ لأن الفتنة بهن أشدُّ، والميلُ نحوهنَّ أعظم ﴿والبنين﴾ أي الأولاد لأنهم بهجة النفس وقُرَّة العيون، ﴿والقناطير﴾ أي الأموال الكثيرة المكدَّسة من الذهب والفضة، والقنطار في اللغة: المالُ الكثير الذي لا يُحصى، والمقنطرة أي المكدَّسة المخبوءة في الخزائن من أصناف الذهب والفضة ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ أي وُزيِّن لهم حبُّ الخيل، المعلَّمة بعلامةٍ تجعلها حسنة المنظر، وهي الأصيلةُ الحسانُ، والأنعامُ هي: (الإبلُ، والبقَر، والغنم) فمنها المركب والمطعم، والحرث وهي أنواع الزروع والنبات والثمار، لأن فيها تحصيل الأقوات ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ أي هذه الشهواتُ المذكورة، هي زهرةُ الحياة الدنيا، وزينتُها الفانية الزائلة، والله عنده حسْنُ المرجع والمصير، وهو الجنةُ دارُ الخلود والنعيم، فلا تغترُّوا بنعيم الدنيا الفاني، عن نعيم الجنة الباقي ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ أي قل لهم: هل أخبركم

لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

بما هو أفضل من كل شهوات الحياة، ونعيمها الزائل؟ ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي للمؤمنين المتقين يوم القيامة، حدائق وبساتين فسيحة، تجري من تحت قصورها وجوانبها أنهارُ الجنة، ماكثين فيها أبد الآبدين ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي ولهم زوجات منزَّهات عن الدَّنس والخَبَث، لا يتبوَّلْنَ، ولا يتغوَّطن، ولا يحضن، ولا يعتريهنَّ ما يعتري نساء الدنيا، وفوق هذا لهم مع ذلك النعيم، رضوان من الله عظيم، كما جاء في الحديث القدسيّ (أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً) رواه البخاري ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي رقيبٌ مطَّلع على أعمالهم، فيجازي المحسن بالإحسان، والمسيء بالإساءة ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي هؤلاء الذين أعدَّ الله لهم جنات النعيم، هم المؤمنون الأبرار، الذين يقولون: ربنا إننا آمنا بك، وبكتبك ورسلك، فاغفر لنا ما اقترفناه من أوزار، ونجِّنا برحمتك من عذاب النار ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ أي الصابرين على البأساء والضراء، والصادقين بإيمانهم وإخلاصهم في العمل لله، والقانتين أي المطيعين المواظبين على الطاعة، والمنفقين أموالهم في سبيل الله، والمستغفرين ربهم في آخر الليل وقت السَّحَر، وَخصَّ الأسحارَ بالذكر، لأنه وقت إجابة الدعاء، وخلوِّ النفس وصفائها ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ أي أقام الحجج والبراهين على وحدانيته، فيما خلق وأبدع في هذا الكون، وشهد لنفسه أنه واحدٌ أحد، لا شريك له في خلقه وملكه، وهذه أعظم شهادة، يشهد فيها الله، وملائكتُه، وأهلُ العلم، على تفرده بالوحدانية والخلق ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ أي مقيماً للعدل، فيما يقسم من الآجال والأرزاق ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي لا

إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقٍّ

معبود بحقٍّ سواه، ولا خالق ولا رازق غيره، العزيزُ في ملكه، الحكيمُ في صنعه ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ أي الدينُ المرضيُّ، الذي لا يقبل الله غيرَه هو الإسلامُ، دينُ خاتم الأنبياء والمرسلين، كما قال سبحانه ﴿ومن يَبْتغِ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ أي وما اختلفت اليهودُ والنصارى في أمر الإسلام، ونبوَّة محمد عليه الصلاةُ والسلام، إلاَّ بعد أن علموا حقيقة الأمر، بما جاء في كتبهم من صفات خاتم الأنبياء، فلم يكن كفرُهم عن شبهةٍ وخفاء، وإنما كان عن استكبارٍ وعناد ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ أي حسداً منهم للمؤمنين، حملهم عليه حبُّ الرئاسة والزعامة ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي ومن يجحد بالقرآن وكلام الرحمن، فإن الله سيعذِّبه، وهو سبحانه سريع الحساب، شديد العذاب ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ أي فإن جادلوك يا محمد، في أمر الإسلام والدين، فقل لهم: إني عبدٌ لله، وقد أخلصتُ نفسي واستسلَمتُ أنا وأتباعي، لله رب العالمين، لا شريك له ولا شبيه ولا نظير ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ﴾ أي وقل لأهل الكتاب من اليهود، والنصارى، والوثنيين، هل أسلمتم؟ أم أنكم مقيمون على كفركم؟ فقد ظهر الحقُّ، وسطعت أنواره وحججه!! ﴿فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ أي فإن دخلوا في دين الإسلام، فقد نفعوا أنفسهم، بخروجهم من الضلالة إلى الهدى، ومن الظلمة إلى النور، وإن أعرضوا عن قبول الإسلام، فلن يضروك شيئاً، فأنت لستَ مكلفاً بهدايتهم، إنما أنت رسول مكلَّفٌ بتبليغ الدعوة، والله عالمٌ بأحوال العباد، ومجازيهم عليها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقٍّ

﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ نزلت في اليهود، أي إن هؤلاء الأشقياء، الذين كفروا بالقرآن، وقتلوا الأنبياء، بغير سبب ولا جريمة، وقتلوا الدعاة إلى الله، الذين يأمرون بالخير والعدل، لنشر دين الله، فبشِّرهم بالعذاب الأليم في نار الجحيم، واستعمالُ البشارة في العذاب، للتهكم والسخرية ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أي بطلت أعمالهم الصالحة التي عملوها، من أنواع البر والإحسان، فلم يبق لها أثر، بل بقي لهم الخزيُ في الدنيا، واللعنةُ في الآخرة، وليس لهم من ينصرهم من عذاب الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أسلوبُ تشويق وتعجيب من حال اليهود، أي ألا تعجب يا أيها الرسول، من حال اليهود، الذين نالوا حظاً وافراً من التوراة؟ يُطلب منهم أن يتحاكموا إلى التوراة، المنزلة من عند الله، لتحكم بينهم فيما تنازعوا فيه، ثم يُعْرِض فريقٌ منهم عن قبول حكم الله، وهم قومٌ طبيعتهم الإعراض عن الحق، والإصرارُ على الباطل ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي ذلك الإعراضُ، بسبب أنهم زعموا أنهم أولياء الله وأحبابُه، وأن النار لن تصيبهم إلاَّ مدة يسيرة، ستة أيام لعبادتهم العجل، وخَدَعهم في هذا الزعم، كذبُهم على الله، حيث قالوا: إن الله وعد يعقوب أن لا يعذِّب أبناءه!! ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي كيف يكون حال هؤلاء الأشقياء

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ

المفترين على الله، حين يجمعهم الله للحساب، وتنال كلُّ نفس جزاءها العادل، ولا يظلم ربك أحداً!! رُوي أن رجلاً من اليهود زنى بيهودية - وكانا مُحْصَنَيْن - وكان في كتابهم الرجمُ، فكرهوا رجمهما، ورفعوا أمرهما إلى رسول الله ﷺ، ورَجَوْا أن تكون عنده رُخصة، فحكم عليهما بالرجم، فقال علماؤهم: لا نجد في كتابنا الرجم، فقال النبي ﷺ: بيني وبينكم التوراةُ، ائتوني بالتوراة إن كنتم صادقين!! فأبوا أن يقبلوا أن يأتوا بها، ورفضوا أن يقبلوا بالحكم، فنزلت الآية ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب..﴾ الآية ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قل: يا الله، يا مالكَ كل شيء، أنت المتصرِّفُ في الأكوان، تهب الملك لمن تشاء من العباد، وتخلع الملك ممن تشاء، وتعطي العزة لمن تشاء، وتذلُّ بقدرتك من تشاء، بيدك وحدَك جلبُ النفع والضُرِّ، وأنت على كل شيء قدير.. رُوي أن رسول الله ﷺ لمَّا فتح مكة، وعَدَ أمته بملك فارسَ والروم، فقال اليهود: هيهات!! من أين لمحمد ملك فارس والروم!! هم أعزُّ وأمنعُ من ذلك، أما تكفيه مكة حتى يطمع في ملك فارس والروم؟ فنزلت الآية ﴿تؤتي الملك من تشاء﴾ ثم قال تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي تُدخل الليل في النهار، والنهارَ في الليل، فتزيد في هذا، وتُنقص في ذاك، وهكذا يطول الليلُ وينقص النهار شتاءً، وينقُص الليلُ ويطول النهار صيفاً، شيئاً فشيئاً يتسرب ظلامُ الليل إلى وضاءة النهار وبالعكس، فيطول النهار ويقصر، وهذا دليل القدرة الباهرة، ويخرج سبحانه الحبّ من الزرع، والنخلة من النواة، والبيضة من الدجاجة، والإنسانَ من النطفة، وبالعكس، وهكذا تتولَّد الحياة من الميت إلى الحي، ومن الحيِّ إلى الميت، في دورة دائبة دائمة، وسبحان المبدع الحكيم!! ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ

ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾

﴿ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي احذروا يا معشر المؤمنين، صداقة أعداء الله، فلا تتخذوهم أعواناً وأنصاراً، توالونهم من دون إخوانكم المؤمنين، ومن يوالِ الكفرة، فقد خالف شرع الله ودينه، وليس بمؤمنٍ صادق الإيمان ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ أي إلاَّ أن تخافوا شرَّهم وأذاهم، فتظهروا لهم المودَّةَ باللسا ن، دون المحبة بالقلب، لأن هذا من باب «مداراة السفهاء» كما قال ﷺ: (إنَّا لنبشُّ ـ أي نظهر السرور ـ في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم) ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي يخوِّفكم الله عقابه الشديد، الصادر منه تعالى، لا عقاباً من غيره، وإليه جلَّ وعلا وحدَه، مصيرُكم ومرجعكم، فيجازي كلَّ إنسانٍ بعمله ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي ما أخفيتم في قلوبكم من الحب والموالاة للأعداء، أو أظهرتموه، فإن الله سبحانه مطلع عليه، ولا يخفى عليه ما في الكون، لأنه العالمُ بجميع الأمور، فكيف يخفى عليه أمركم؟ وهو القادر على الانتقام ممن خالف حكمه، وعصى أمره، وفي الآية تهديد شديد ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ أي ليس الجزاء هنا في الدنيا، إنما الجزاء في الآخرة، يوم يجد كل إنسانٍ جزاء عمله، حاضراً لا يغيب، فإن كان عمله حسناً، سرَّه ذلك وأفرحه، وإن كان سيئاً، تمنَّى أن لا يرى عمله القبيح، وأن يكون بينهما المسافة الشاسعة البعيدة، بحيث لا يراه ولا يتصوره، لما يلحقه من الخزي والذل ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي يخوِّفكم الله عقابَه الشديد، ومن رأفته ورحمته لكم، حذَّركم من موالاة أعدائه ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي قل لهم: إن كنتم حقاً تحبون الله، فاتَّبعوني لأني رسولُه،

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ

أرسلني لهدايتكم، فإذا أطعتموني أحبَّكم الله، وغفر لكم ما سلف من الذنوب، والله سبحانه واسع المغفرة، عظيم الرحمة ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تأكيدٌ آخر لوجوب طاعة الرسول، أي قل لهم: أطيعوا أمر الله، وأمرَ رسوله، تفلحوا وتسعدوا، فإن أعرضتم عن الطاعة والالتزام بأوامر الله، أصبحتم كالكافرين، والله لا يحب من كفر بآياته، وعصى رسله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي اختار للنبوة والرسالة صفوة خلقه، آدمَ أبا البشر، ونوحاً شيخ المرسلين، وذرية إبراهيم الخليل، منهم (إسحاق وإسماعيل) ومن تَنَاسل منهم من الأنبياء، كموسى، و عيسى، ومحمد خاتم النبيِّن، لأنه من ذرية إسماعيل بن إبراهيم، اختارهم على جميع الخلق ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي هؤلاء المصطَفَوْن أسرةٌ واحدة، وعائلة واحدة، متجانسون في الفضل، والتقى والصلاح، والله عليم بمن يصطفيه من خلقه ﴿**الله أعْلَمُ حيثُ يجعلُ رسالتَه**﴾ ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تمهيدٌ لذكرِ قصَّة ولادة السيِّد المسيح «عيسى ابن مريم» أي اذكر يا أيها الرسول لقومك، حين قالت زوجة العبد الصالح «عمران»: يا ربِّ إني نذرت لوجهك الكريم، ما أحمله في بطني (محرراً) أي مخلصاً لخدمة بيتِ المقدس، فتقبَّلْ منِّي هذا النذر، إنك السميع لدعائي، العليمُ بنيَّتي ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ أي فلمَّا ولدتْ، قالت على وجه التحسُّر والاعتذار: يا ربِّ إنها أنثى!! تُظْهرِ الأسى والحسرة، لأنه لم يكن يُقبل في النذر إلاَّ الذكور، والله أعلم بالشيء الذي وضعت، قالت ذلك أم لم تقله، وليس الذكرُ الذي طَلبْتِ، كالأنثى التي وُهبتِ، بل هذه أفضل، والجملتان من كلامه تعالى، تعظيماً لشأن المولودة، وما سيتعلق بها من عظائم

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾

الأمور ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أي وإني سميت هذه الأنثى «مريم» - ومعناها في لغتهم العابدة - وأنا يارب أطلب منك، أن تعصمها وتحفظها هي وأولادها، من شرِّ الشيطان الرجيم ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي قبلها الله قبولاً حسناً، ورضي بها في النذر، وربَّاها تربيةً كاملة، فسلك بها طريق السعادة، وجعل لها من يكفلها ويتعهَّد أمرها، وهو نبيُّ الله «زكريا» عليه السلام ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي في كل وقتٍ وحين، كان يدخل عليها زكريا، في مكان عبادتها، يجد عندها فاكهةً وطعاماً، فيسألها يا مريم: من أين جاءك هذا الطعام؟ فتجيبه: إنه رزقٌ من ربِّ العزة والجلال، والله يرزق من غير كدٍّ ولا تعب!! **قال مجاهد**: كان يجد عندها في الصيف فاكهة الشتاء، وفي الشتاء فاكهة الصيف، فلهذا كان يستغرب الأمر ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أي في ذلك الوقت والزمان، الذي رأى فيه زكريا كرامة الله لمريم، دعا ربه متوسلاً ومتضرعاً إليه، قال يا رب: امنحني من فيض جودك وكرمك، ولداً صالحاً مباركاً، إنك تسمع دعاء من سألك وناداك!! لم يكن لسيدنا زكريا ولدٌ، لأن امرأته كانت عقيماً لا تلد، وهو في سَنِّ الشيخوخة والهرم، ولكنْ لمَّا رأى كرامة الله لمريم، طمع من مولاه في الولد، من غير الطريق المعتاد ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ المنادي كان جبريل وحده، والجمعُ للتعظيم لأنه رئيسُ الملائكة، أي ناداه جبريل الأمين، وزكريا قائم في المحراب يصلِّي، ناداه بأن الله

﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾

يبشره بولادة غلام اسمه يحيى، سمَّاه الله عزَّ وجلَّ له ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي مصدِّقاً بعيسى مؤمناً برسالته، سُمِّي «كلمة الله» لأنه خُلق بكلمة (كُنْ) من دون سببٍ عادي ﴿وسيِّداً﴾ يسود قومه ويفوقهم ﴿وحصوراً﴾ أي عفيفاً يحبس نفسه عن الشهوات، ترفُّعاً وزهداً، ولا يقرب النساء مع قدرته على ذلك، وما قاله البعضُ أنه كان عنِّيناً فباطلٌ، لأن هذا نقصٌ في الرجولة، والآية وردت مورد المدح والثناء، لا مورد الذمِّ، ﴿ونبياً من الصالحين﴾ أي وسيكون فيما بعدُ أحد الأنبياء الصالحين، الذين يختارهم الله لهداية الناس ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾؟ أي كيف يكون لي غلامٌ؟ وقد أدركتني الشيخوخةُ والهرمُ، وزوجتي عقيم لا تلد؟ هناك سببان يحولان دون حصول الولد: ١ـ العُقمُ في الزوجة ٢ـ والشيخوخة في الزوج، وقد كان عمره حين طلب الولد مائةً وعشرين سنة، وزوجته قاربت المائة سنة ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ أي الله جلَّ وعلا لا يعجزه شيءٌ، ولا يتعاظمه أمر، إذا أراد شيئاً كان ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ أي قال زكريا: يا رب اجعل لي علامة، أعرف بها حَبَل زوجتي؟ قال: علامتك أن لا تقدر على كلام الناس إلاَّ بالإشارة، ثلاثة أيام كاملة، مع أنك سويُّ صحيح الجسم، من غير علَّةٍ ولا مرض ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ أي اذكر الله في أيام احتباس اللسان، ذكراً كثيراً، وسبحْ ربك آخر النهار وأوّله، شكراً له على النعمة الجليلة. ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إي اذكر وقت قول الملائكة لمريم: إن الله عزَّ وجل اختارك من بين سائر النساء، فخصَّك بالكرامات، وطهَّرك من الأقذار والأدناس، وممَّا

يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ

رماك به اليهود اللعناء، من جريمة الزنى، واختارك على سائر نساء العالمين، لتكوني مظهر قدرة الرب الجليل، في إنجاب طفلٍ بدون أب ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي الزمي يا مريم عبادة الله وطاعته، وصلِّي لربك مع المصلِّين، لتهيىء نفسها للفيوضات الإلهية، بما سيظهر على يدها من غرائب العجائب ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد، من قصة امرأة عمران، وابنتها مريم البتول، ومن قصة زكريا وولده يحيى، إنما هي من الأنباء الغيبية، ما كنت تعلمها يا محمد، لولا إخبار الله لك بها، وما كنت حاضراً في ذلك الزمان، حين اقترعوا على من يكفل مريم، وحين اختصموا في شأنها، والغرضُ بيان أن هذه الأخبار، إنما جاءت من عند الله العليم الخبير، لتكون برهاناً على صدق رسالة محمد ﷺ ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ شروع في ذكر قصة ولادة عيسى عليه السلام، أي اذكر أيها الرسول، حين جاءت الملائكة تبشِّر مريم بمولود، يحصل بكلمةٍ من الله، من غير أن يكون له أب، هذا المولود اسمه «عيسى» ولقبُه المسيح، يكون وجيهاً أي سيِّداً ومعظماً في الدنيا، ومن المقرَّبين عند الله في الآخرة، ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي ويكلِّم الناسَ وهو طفل رضيع في السرير، كما يكلِّمهم في سنِّ الشيخوخة، من غير تفاوت بين حال الطفولة والكهولة، وهذا من المعجزات، وهو من الكاملين في التقى والصلاح ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ

يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن

يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي قالت على وجه التعجب، واستعظام قدرة الله: كيف يولد لي ولد؟ وأنا لست متزوجة، ولم يقربني أحد من الرجال؟ قال لها المَلَكُ: هكذا أمرُ الله عظيمٌ، يخلق ما يشاء، بسبب وبغير سبب، وإذا أراد شيئاً حصل من غير تردُّد، بقوله له: كنْ فيكون ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ أي يعلِّمه ربُّه الكتابة، ويفقِّهه في الدين، ويجعله يحفظ التوراة والإنجيل، من غير أن يكون له معلِّم ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْۖ﴾ أي ويرسله رسولاً إلى بني إسرائيل، قائلاً لهم: إني قد جئتكم بعلامة واضحة ساطعة، تدلُّ على صدق نبوتي ورسالتي ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ﴾ وهذه المعجزة هي: أنني أصوِّر لكم من الطين، مثلَ صورة الطير، فإذا نفخت في الصورة، صارت طيراً بإذن الله، وطار أمام أعينكم ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ﴾ أي وأشفي الأكمه أي الأعمى الذي وُلد أعمى، فأردُّ عليه بصره، والمصاب بمرض البَرَص الجلدي، المستعصي على الشفاء، وأحيي الموتى لا بقدرتي إنما بمشيئة الله وقدرته ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْۚ﴾ أي وأخبركم بكثير من الأمور الغيبية، ممَّا في بيوتكم من طعام، وما أخفيتموه وخبأتموه من أنواع المدخرات ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن فيما أتيتكم به من المعجزات، لعلامة واضحة قاطعة على صدق رسالتي، إن كنتم مصدِّقين بأن الله أرسلني إليكم ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن

رَبُّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا

﴿رَبُّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي وجئتكم مصدِّقاً لرسالة موسى، وقد أرسلني الله تعالى، لأحلَّ لكم بعض ما كان محرَّماً عليكم في التوراة، وجئتكم بعلامة شاهدة على صدق رسالتي، وهي ما أيدني الله به المعجزات الكثيرة، فخافوا عذاب الله، وأطيعوا أمري ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي إنني لستُ بإله، بل أنا عبدٌ لله، فربي وربُّكم واحد، هو الخالقُ المبدع الحكيم، فاعبدوه وحده ولا تشركوا به غيره، هذا هو الطريق المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي فلمَّا استشعر عيسى من اليهود، التصميم على الكفر، وعزمهم على قتله، قال لأتباعه المؤمنين: من يمنعني ويكون معي لنصرة دين الله؟ قال المؤمنون الأصفياء: نحن أنصار الله، صدَّقنا بالله وبما جئتنا به، واشهدْ يا رسول الله، بأننا مسلمون على الدين الذي جئتنا به ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي آمنا بك وبآياتك، ورسولك عيسى، فاكتبنا مع أهل الإيمان، الذين يشهدون على الأمم يوم القيامة.. ثم أخبر تعالى عن اليهود الكفرة، الذين أرادوا قتل عيسى، فقال ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أي أرادوا قتله، فنجَّاه الله من شرِّهم، ورفعه إلى السماء، دون أن يُصاب بأذى، وسمَّى ذلك مكراً، على سبيل المقابلة لمكرهم، حيث أحبط مؤامرتهم، وردَّ كيدهم في نحورهم، ولهذا قال ﴿والله خيرُ الماكرين﴾ أي أقواهم مكراً، فقد رفع عيسى حياً إليه، وألقى شبهه على رجلٍ خائن، مندسٌ بين أتباعه الحواريين ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي إني رافعك إلى السماء، ثم مميتك بعد استيفائك كامل أجلك، ومخلِّصك من شرِّ الأشرار الذين أرادوا قتلك، والمقصود بشارتُه بنجاته من اليهود، ورفعه إلى السماء حياً بجسده

وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾

وروحه، سالماً دون أذى، والآية تكذيبٌ لدعوى النصارى أنه صُلب، والعجيبُ أنهم يعتقدون بألوهيته ويوقنون بصلبه، فكيف يكون إلهاً ويُصلب؟ فما أسخف وأحمقَ هذه الدعوى!؟ ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي وجاعلُ أتباعك المؤمنين، الذين صدَّقوا برسالتك، من المسلمين والنصارى، فوق الكفار الذين لم يؤمنوا برسالتك، إلى قيام الساعة، والآيةُ تشمل كلَّ من آمن برسالة السيد المسيح، من المسلمين من أمة محمد، وممن آمن برسالته في زمانه وبعده إلى يوم القيامة، فكلهم تشملهم هذه الآية، دون من كفر به من اليهود، أو اعتقد بألوهيته من النصارى، فإنهم ليسوا من أتباعه ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي مصير جميع الخلق إلى ربِّ العزة والجلال، فيجازيهم على أعمالهم، ويقضي بينهم بالحق، فيما اختلفوا فيه من أمر عيسى عليه السلام ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي فأمَّا الكفار الذين كذَّبوك أو ألَّهوك، أو اعتقدوا صلبك، فلهم عذاب شديد، في الدنيا بالقتل والأسر، وفي الآخرة بنار الجحيم، وليس لهم ناصرٌ يمنعهم من عذاب الله ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي وأمَّا المؤمنون الصادقون، فيعطيهم ربهم جزاء أعمالهم الصالحة، كاملةً غير منقوصة، والله لا يحب من كان ظالماً، فكيف يظلم عباده؟

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي هذه الأنباء التي قصصناها عليك يا محمد، هي الحقُّ المبين، أنزلناها إليك في آيات القرآن المحكم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

أي شأن عيسى العجيب، كشأن آدم وهو أعجب وأغرب، حيث خلقه ربه من تراب، ثم قال له كن فكان، فليس أمر عيسى بأعجب من أمر آدم، الذي خُلق من غير أبٍ ولا أمٍ، فالقادرُ على خلق آدم، قادر على خلق عيسى وهو أسلوب إقناع، في غاية الوضوح والبيان!! ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي هذا هو القولُ الحقُّ القاطع، في أمر عيسى ابن مريم، فلا تكن من الشاكّين في قدرة الله، والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته وأتباعه ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي فمن جادلك في شأن عيسى من النصارى، بعدما وضح لك الحقُّ في أمر وجوده، فقل: تعالوا نجتمع ويدعو كلٌّ منّا ومنكم أعزَّ الناس إليه، من الأبناء، والنساء، ويحضر بنفسه، فندعو الله عزَّ وجل، ونتضرَّع إليه، أن يُهلك الكاذب منا!!

والمباهلةُ هي: الدعاءُ باللعنة على الكاذب المفتري، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿**فنجعل لعنة الله على الكاذبين**﴾ وفي صحيح مسلم «لمَّا نزلت هذه الآية دعا رسولُ الله ﷺ فاطمةَ، وحسناً، وحُسيناً، وقال: اللهمَّ هؤلاء أهلي» والآية نزلت في نصارى نجران، فلمَّا دعاهم ﷺ للمباهلة، امتنعوا وقبلوا دفع الجزية، وفي تركهم الملاعنةَ أعظمُ شاهدٍ على صحة نبوته ﷺ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي ما قصصنا عليك من نبأ عيسى، هو الحقُّ الذي لا شكَّ فيه، لا ما يزعمه النصارى أن عيسى ابن الله، ولا ما يفتريه اليهود أنه ابن زنى، وإن الله هو الواحد الأحد، الذي لا شريك له، وهو العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، فإن أعرضوا عن الإقرار بالتوحيد، وقبول الحقّ، فاعلم أنهم مفسدون، والله لا يحب المفسدين ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾

أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ أي قل يا أيها الرسول لهؤلاء اليهود والنصارى: هلمُّوا إلى كلمة عادلة مستقيمة، فيها إنصافُ بعضنا لبعض، وهي: أن نفردَ الله وحدَه بالعبادة، ولا نجعل له شريكاً من خلقه أو الأوثان﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي ولا يعبد بعضُنا بعضاً، كما عبد اليهودُ عزيراً، والنصارى عيسى ابن مريم، وأطاعوا الأحبار والرهبان، فجعلوهم كالأرباب، يحللّون ويحرّمون من تلقاء أنفسهم، فإن أعرضوا عن الإيمان والتوحيد، ورفضوا قبول تلك الدعوة المنصِفة، فقولوا أنتم: اشهدوا يا معشر أهل الكتاب، بأننا مسلمون، موحِّدون لله.. ولمَّا نزلت هذه الآية قال عديُّ بن حاتم ـ وكان نصرانياً فأسلم ـ يا رسول الله: ما كنَّا نعبدهم!! فقال له ﷺ: أَمَا كانوا يحلّلون لكم ويحرّمون، فتأخذون بقولهم؟ قال: نعم، قال: فذلك عبادتهم﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ أي قل: يا معشر اليهود والنصارى، لم تجادلون في أمر دين إبراهيم؟ فتقولون: إنه كان يهودياً أو نصرانياً، وهذه الأديانُ ما حدثت إلاَّ من بعده، بقرونٍ وأزمان كثيرة، بعد نزول التوراة والإنجيل، فكيف يكون إبراهيم على دينكم يهودياً أو نصرانياً؟ أفليس لكم عقولٌ تفكّرون بها؟﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي ها أنتم يا معشر اليهود والنصارى، جادلتم وخاصمتم في شأن عيسى، وقد عشتم زمانه!! فلم تخاصمون وتجادلون في شأن إبراهيم ودينه، فتنسبونه إلى اليهودية أو النصرانية بدون علم؟ أفليست هذه سفاهة وحماقة، فكيف يكون إبراهيم يهودياً أو نصرانياً، ولم تظهر هذه الأديانُ إلاَّ بعدُ؟ ثم أخبر تعالى عن الحقيقة فقال:﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وهذا

إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾

تكذيبٌ للفريقين، أي ما كان إبراهيم على دين اليهودية، ولا على دين النصرانية، فإن اليهودية ملّةٌ محرَّفة عن شريعة موسى، والنصرانية ملة محرَّفةٌ عن شريعة عيسى، وإبراهيم أبو الحنفاء وإمامُ الموحِّدين، فإنه كان مسلماً على دين التوحيد، ولم يكن مشركاً على دينكم الأعوج، وفي قوله ﴿وما كان من المشركين﴾ تعريضٌ بأنهم مشركون، في قولهم: المسيح ابن الله ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ شهادةٌ من الله بصحة دين محمد ﷺ وأنه كان على دين إبراهيم الخليل، أي إن أحقَّ الناس بالانتساب إلى إبراهيم، أتباعُه المؤمنون الذين سلكوا طريقه ومنهجه، ومحمد خاتم النبيين الذي جاء بالحنيفية السمحة، والمؤمنون من أمة محمد، فهؤلاء هم الجديرون بأن يقولوا: نحن على دين إبراهيم، لا أنتم يا معشر اليهود والنصارى، والله عزَّ وجل حافظ المؤمنين وناصرهم ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي تمنَّوْا إضلالكم بالرجوع إلى دينهم، حسداً وبغياً، ولا يعود وبالُ ذلك إلاَّ عليهم، لأنهم بذلك التمني يُضاعف عذابهم وما يفطنون لذلك، لسفههم وقصور عقلهم ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي لِمَ تكفرون بالقرآن المنزل على محمد ﷺ، وأنتم تشهدون أنه حق ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لِمَ تخلطون بين الحقِّ والباطل، بتحريفكم كلامَ الله، وإلقاء الشبه، وأنتم تعلمون صدق ما جاء به محمد ﷺ ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي قال أحبار اليهود ورؤساؤهم لأتباعهم: آمنوا بالقرآن المنزل على محمد، وادخلوا في دين الإسلام أول النهار، واكفروا آخره، لعلَّ الناس يشكُّون في الإسلام فيرجعون عنه، وهذه مكيدةٌ خبيثةٌ، أرادوا

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ﴾

بها أن يشككوا الناس في دين الإسلام، فتشاوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، ويصلُّوا مع المسلمين، فإذا جاء آخر النهار، ارتدوا إلى دينهم، ليقول الجهلة من الناس: ما ردَّهم إلى دينهم، إلاَّ اطلاعهم على نقصٍ وعيب في الإسلام، وهذا منتهى الخبث والإجرام ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ هذا من تتمة كلام اليهود، حكاه الله عنهم، أي يقول بعضهم لبعض: لا تصدِّقوا ولا تطمئنوا إلاَّ لمن كان يهودياً على دينكم .!! قال تعالى ردّاً عليهم ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ هذه جملة اعتراضية جاءت بين كلام اليهود، أي قل لهم يا محمد: الهدى ليس بدينكم ولا بأيديكم، بل هو في الإسلام الذي هدى الله إليه المؤمنين ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ هذا من تتمة كلام اليهود، أي خشية أن يؤتى أحدٌ من الوحي والدين، مثل ما أنتم عليه من الهدى والإيمان، وخشية أن يحتجوا عليكم في الآخرة، فإذا أقررتم بنبوة محمد ولم تتبعوه، تكون للمسلمين الحجة عليكم يوم القيامة، وغرضُهم نفيُ النبوة عن رسول الله ﷺ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي قل لهم: إن أمر النبوة ليس إليكم، وليس محصوراً في بني إسرائيل، بل هو بيد الله، يعطيه لمن يشاء من عباده، والله واسع الفضل، كثير الإنعام، يعلم من هو أهل للإنعام ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي يخصُّ بالنبوة من شاء من عباده، لأن فضله واسعٌ عظيم، لا يُحدُّ ولا يمنع، وفي الآية دليل على أن النبوة بالاختصاص الإلهي، لا بالوراثة والاستحقاق ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ أي من اليهود فريق أمناء، إذا ائتمنتَ أحدَهم على القنطار ـ أي المال الكثير ـ أدّاه إليك، لدينه وأمانته، ومنهم فريقٌ خائنون، لو ائتمنته على شيء قليل من المال خانك، إلاَّ إذا كنت ملازماً له، لا تكاد

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

تفارقه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي إنما حملهم على الخيانة، زعمُهُم أن الله قد أباح لهم أموال غير اليهود، من العرب وسائر الناس، وهم يكذبون على الله في هذه الدعوى.. ولمَّا قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿**ليس علينا في الأميِّين سبيل**﴾ قال: كذب أعداءُ الله، ما من شيء كان في الجاهلية، إلاَّ هو تحت قدميَّ هاتين، إلاَّ الأمانةَ، فإنها مؤدَّاة للبَّر والفاجر) ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي ليس الأمرُ كما زعموا، بل عليهم فيه إثمٌ كبير، لكنْ من أدَّى الأمانة منهم، وآمن بمحمد ﷺ، واجتنب محارم الله عز وجل، فإن الله يحبه ويكرمه، لإيمانه وتقواه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي إن هؤلاء الذين باعوا دينهم، بعرَضٍ من الدنيا حقير، فحرَّفوا التوراة، وبدَّلوا صفات رسول الله ﷺ، طمعاً في حبِّ الرئاسة والزعامة، ونقضوا العهد الذي أخذه الله عليهم، من بيان الحقِّ وعدم كتمانه، فعلوا ذلك، طمعاً في حُطام الدنيا، وعَرَضها الخسيس الزائل ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي أولئك الأشقياء الفجار، لا نصيب لهم من رحمة الله في الآخرة ﴿**ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة**﴾ لشدة غضبه وسخطه عليهم، والمراد أنه تعالى لا يكلمهم كلام أنسٍ ولطف، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة، كما يكلِّم المؤمنين ويرحمهم، بل يكلمهم كلام سخط وغضب كقوله ﴿**اخسئوا فيها ولا تكلمون**﴾ ﴿**ولا يزكيهم**﴾ أي ولا يطهِّرهم من دَنَس المعاصي والآثام، ولهم عذاب مؤلم موجع، والآية نزلت في أحبار اليهود، لكنَّها عامة في كلِّ من حلف بالله كاذباً، روى البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: (من حَلَفَ على يمينِ صبرٍ ـ أي صابرٍ عليها مستهينٍ بعظمة الله وجلاله ـ يقتطع بها مالَ امرىءٍ مسلم، لقي الله وهو عليه غضبان، فأنزل الله تصديق

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾

ذلك ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا﴾ الآية، رواه البخاري.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي وإن من اليهود لطائفة، يفتلون ألسنتهم في قراءة التوراة، لتحريف كلام الله عن معانيه، لتظنوا أن هذا المحرَّف من كلام الله، وما هو إلاَّ كذبٌ وبهتان، فقد ارتكبوا جريمتين: جريمة التحريف لكلام الله، وجريمة الكذب على الله، ويقولون على الله الكذب، وهم يعلمون أنه كذب. . لقد حرَّف اليهود صفة خاتم الأنبياء، الموجود في كتابهم، وحرفوا حدَّ الرجم، وحرَّفوا كثيراً مما هو موجود في التوراة، لأنه لم يوافق مزاجهم، وهكذا تلاعبوا في التوراة عمداً، فباءوا بغضب الله وسخطه، فما أجرأهم على شرع الله ودينه!! ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الآيةُ كشفت كذب النصارى، في دعواهم أن المسيح أمرهم بعبادته والاعتقاد بألوهيته، أي لا يصحُّ عقلاً ولا يُتصور لأحدٍ من البشر، أكرمه الله بالنبوة، وأعطاه الحكمة والسداد في الرأي، وأنزل عليه كتاباً منيراً، ثم يقول للناس: اعبدوني من دون الله!! هذا شيء مستحيل. ولا يُتصور عقلاً، لأن النبي سفيرٌ بين الله وخلقه، لدعوة الناس إلى عبادة الله، فكيف يدعوهم إلى عبادة نفسه!! ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي ولكنَّ الرسول يقول لهم. إني أدعوكم إلى طاعة الله وعبادته، إلى أن تكونوا ربَّانيين علماء، حكماءَ، منسوبين إلى رب العزة والجلال، بسبب تعليمكم الناسَ كتاب الله، ودراستكم له، والرباني: منسوبٌ إلى الربِّ، وهو الكاملُ في العلم والعمل، والعارف بالله

وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي ولا يصحُّ من النبي، أن يأمركم بعبادة غير الله، ملائكةً كانوا أو أنبياء، أو أولياء، لأن مهمة الرسل الدعوة إلى الله، لا إلى الإشراك به!! أيأمركم النبيُّ بالكفر، وعبادة غير الله، بعد أن أسلمتم ودخلتم في دين الله؟! والآية كلُّها للردِّ على النصارى، الذين اعتقدوا ألوهيَّةَ المسيح، ثم اعتقدوا صلبه، وزعموا أن عيسى هو الذي دعاهم إلى عبادته، ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ أي اذكروا يا أهل الكتاب، وقت أن أخذ الله ميثاق الأنبياء ـ والميثاقُ العهدُ المؤكد ـ ﴿لما آتيتكم﴾ أي من أجل ما آتيتكم من الكتاب والحكمة، ثم جاءكم رسول من عندي، مصدِّقٌ لما بين أيديكم، لتصدِّقنه ولتنصرنه!! قال ابن عباس: ما بَعَثَ الله نبياً من الأنبياء، إلاَّ أخذ عليه الميثاق، لئن بَعَثَ الله محمداً وهو حيٌّ، ليؤمننَّ به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي هل اعترفتم وأقررتم بهذا الميثاق؟ وأخذتم عليه إصري؟ أي عهدي، قالوا: اعترفنا، قال ربُّ العزة والجلال: فليشهدْ بعضكم على بعض، وأنا معكم من الشاهدين على ذلك ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي فمن أعرض عن العهد والميثاق، منكم يا معشر «اليهود والنصارى» بعد الإقرار عليه من الأنبياء، ونكث عهده، فأولئك هم الخارجون عن طاعة الله.. يا له من ميثاقٍ عظيم مبارك، أقرَّ به الأنبياء أجمعون، وشهد عليه ربُّ العزة والجلال لمحمد ﷺ بالنبوة والرسالة!! ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ إنكار توبيخيٌّ، أي أيطلب أهلُ الكتاب لهم ديناً، غير دين الإسلام الحقِّ، الذي أرسل الله به جميع أنبيائه

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

ورسله؟ ولله جلَّ وعلا انقاد واستسلم أهل السموات والأرض، من الملائكة، والإنس، والجن، طائعين ومكرهين، المؤمنون استسلموا طوعاً، والكافرونَ كرْهاً، والكلُّ منقادٌ وخاضع لجلال الله، في تكوينه ووجوده، وإليه سبحانه مرجع العباد يوم المعاد، فيجازيهم على أعمالهم، وهو وعيد شديد ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي قل يا محمد أنت وأتباعُك: آمنَّا بوجود الله، ووحدانيَّته، وبالقرآن العظيم المنزل علينا، وآمنا بما أنزل الله على الرسل الكرام (إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوبَ، والأسباطِ) وهم بطونُ بني إسرائيل، المتشعِّبة من يعقوب عليه السلام، وآمنا على وجه الخصوص بما أُنزل اللهُ على (موسى وعيسى) من التوراة والإنجيل، خصَّهما بالذكر، لأنهما أعظمُ أنبياء بني إسرائيل، وهما من أولي العزم من الرسل ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي لا نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعض، كما فعل اليهودُ والنصارى، بل نؤمن بالكلِّ، وهذا معنى التفريق بين الرسل، وليس معناه التفضيل بينهم، فإن ذلك ثابت ومقطوع به، قال تعالى ﴿ولقد فضلنا بعض النبيِّين على بعض﴾، ﴿ونحن له مسلمون﴾ أي مقرُّون له جلَّ وعلا بالألوهية والربوبية، منقادون لله وحده، لا نشرك معه أحداً ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ هذا تأكيد لما سبق أن دين الإسلام هو الحقُّ، أي ومن يطلب له ديناً غير دين الإسلام، بعد بعثة محمد عليه الصلاة والسلام، فلن يتقبَّل الله منه ذلك، وطاعتُه وعبادتُه مردودة، وهو يوم القيامة من الأشقياء الخاسرين، والآية ردٌّ على من زَعَم من أدعياء العلم، أن اليهود والنصارى إذا استمسكوا بدينهم، ولم يدخلوا في الإسلام، يدخلون الجنة مع المسلمين، وهذه «فِرْيةٌ ما فيها مِرْيةٌ» فإنها تعارضُ النصَّ القاطع الصريح، حيث حكم الله عليهم

كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾

بالشقاء والخسران، وأكَّده بعد ذلك بقوله سبحانه: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ استبعادٌ لدخولِ أهلِ الكتاب الجنَّة، أي كيف يكون مهتدياً، مَنْ كذَّب رسالةَ خاتم المرسلين محمد ﷺ؟ بعد أن وضح له الحقُّ بما جاء في التوراة والإنجيل من البشارة ببعثة خاتم المرسلين محمد ﷺ، والله جلَّ جلاله لا يوفِّق لطريق السعادة، كل ظالمٍ مكذِّب لرسل الله.

قال الحسن البصري: هم اليهود والنصارى رأوا صفة محمد ﷺ في كتابهم، وشهدوا أنه حقٌّ، فلمَّا بُعث من غيرهم، حسدوا العربَ، فكفروا بعد إيمانهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي أولئك الأشقياءُ الفَجرةُ، المكذِّبون لرسالة محمد ﷺ، عقوبتُهم على كفرهم، اللعنةُ من الله ـ أي الطردُ من رحمته ـ كما تلعنهم الملائكةُ وجميعُ الخلق، مؤمنُهم وكافرهم، وبَرُّهم وفاجرُهم، لإنكارهم للحقِّ المبين ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي ماكثين في نار الجحيم أبَدَ الآبدين، لا يُخفَّف عنهم العذاب، ولا هم يُمهلون فترةً من الزمن ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي إلاَّ من تاب منهم وأناب، وآمن بمحمد رسول الله، ورجع عن كفره وضلاله، فإن الله يغفر ذنبه، ويتفضل عليه باللطف والإحسان ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ نزلت في اليهود، كفروا بعيسى بعد إيمانهم بموسى، ثم ازدادوا كفراً،

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾

بكفرهم بالقرآن ورسالة محمد عليه السلام، فهؤلاء الفجار لن تُقبل توبتهم، لعظيم كفرهم، وأولئك هم الغارقون في الضلال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ الكلامُ على سبيل الفرض والتقدير، لأنهم لا يملكون شيئاً في الآخرة، أي هؤلاء الذين ماتوا على الكفر، لهم عذاب مؤلم أي موجع، وليس لهم أحد ينقذهم أو يخلِّصهم من عذاب الله، أجارنا الله من عذابه، روى البخاري ومسلم عن أنس أن النبي ﷺ قال: (يُقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء، أكنتَ مفتدياً به؟ فيقول: نعم، فيقول الله له: لقد أردتُ منك ما هو أهونُ من ذلك، أردتُ أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيتَ إلاَّ أن تشرك) ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ أي لن تبلغوا حقيقة البِرِّ الذي هو جماع فعل الخير ـ ولن تفوزوا برضى الرحمن، ودخول الجنان، حتى تنفقوا من أفضل أموالكم، مما تحبونه وتشتهونه لأنفسكم، وما تنفقونه من شيء في سبيل الله، فهو محفوظٌ لكم تُجزون عنه في الآخرة خير الجزاء ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ أي كلُّ الأطعمة والمأكولات كانت حلالاً لبني إسرائيل، إلاَّ ما حرَّمه إسرائيل أي «يعقوب» على نفسه من قبل نزول التوراة، وهي لحوم الإبل وألبانها، ثمَّ حُرِّمت على اليهود بعضُ أنواع الأطعمة، عقوبةً لهم على بغيهم وعدوانهم وسفكهم دماء الأنبياء ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي قل يا أيها الرسول تكذيباً لهم: ائتوني بالتوراة فاقرءوها عليَّ، إن كنتم صادقين في دعواكم، أنها لم تُحَرَّم عليكم بسبب بغيكم وظلمكم! وسببُ هذه الآية أن النبي ﷺ لمَّا قال: أنا على دين إبراهيم، قالت اليهودُ: كيف تكون على دين إبراهيم، وأنت تأكل لحومَ

فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾

الإبل وألبانَها، وهي محرَّمةٌ في شريعة إبراهيم؟ فقال لهم ﷺ: ما كانت محرَّمةً عليه، وإنما حرَّمها الله عليكم!! فلمّا حاجَّهم بكتابهم ووبَّخهم، وطلب منهم أن يأتوا بالتوراة، بُهتوا وانقلبوا صاغرين، ولم يجسُرْ أحدٌ منهم على إخراج التوراة، وفي ذلك الحجَّةُ البيِّنةُ على صدق النبي ﷺ ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي فمن اختلق الكذب، من بعد قيام الحجة، وظهور البيِّنة، وكذَبَ على الله، بزعمِهِ أن التحريم كان على الأنبياء وأممهم، لا بسبب بغي اليهود، فأولئك المفترون هم الظالمون لأنفسهم بكذبهم وافترائهم ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي قل لأهل الكتاب: صَدَقَ اللهُ في كل ما أوحى إلى محمد، وفيما أخبر، في أن دين إبراهيم كان الإسلام، فاتركوا اليهودية والنصرانية، واتَّبعوا دين الإسلام، الذي هو دين إمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام، وما كان إبراهيم مشركاً، وفي الآية تعريضٌ بشرك اليهود والنصارى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي إن أول مسجدٍ بُني في الأرض، لعبادة الله عزَّ وجلَّ، (المسجدُ الحرام) الذي هو بمكة المكرمة، بناه أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، بُني ﴿مباركاً﴾ أي كثير الخير والنفع، ﴿وهدى للعالمين﴾ أي سعادة وهداية ونجاةً لمن حجَّه واعتمره، وهو مصدر الهداية والنور لأهل الأرض، لأنه قبلتهم ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ أي فيه علامات واضحة كثيرة، تدل على شرفه وفضله على سائر مساجد الدنيا، منها ﴿مقامُ إبراهيمَ﴾ وهو الحَجَرُ الذي وقف عليه إبراهيم، حين كان يبني الكعبة المشرَّفة، ومنها (الصفا والمروة) وزمزم وحِجْرُ إسماعيل و(الحجرُ الأسود) أفلا يكفي ذلك برهاناً على شرف هذا البيت أن يكون قبلةً للمسلمين؟ وآيةٌ أخرى أن من دخل البيت كان آمناً ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي وفرضٌ لازمٌ محتَّم، على المستطيع من الناس، حجُّ بيت الله العتيق، ومن ترك الحج مع استطاعته له، فإن الله مستغنٍ عن عبادته، وعن

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

الخلق أجمعين، وعبَّر عن ترك الحج بالكفر ﴿ومن كفر﴾ تغليظاً وتشديداً، وتنبيهاً على وجوبه وفرضيته على المؤمنين.

ذكر تعالى من مزايا هذا البيت ثلاثة وجوه:

الأول: أنه أول المساجد بُني للعبادة والنُّسك، **الثاني**: ما خصَّه الله به من الآيات الباهرات الدالة على شرفه وفضله، **الثالث**: ما أكرم الله به أهله من الأمن والاستقرار ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ أي قل يا محمد: يا معشر اليهود والنصارى، لـمَ تكفرون بالقرآن العظيم، المنزل على خاتم المرسلين؟ مع قيام الدلائل والبراهين على صدقه؟ والله جلَّ وعلا مطلعٌ على جميع أعمالكم ومجازيكم عليها، والاستفهامُ للتوبيخ، وبيان عجزهم عن إقامة العذر في الكفر ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ توبيخ آخر لهم، أي لـمَ تمنعون الناسَ وتصرفونهم عن دين الله الحقِّ، وهو الإسلامُ؟ وتمنعون من أراد الدخول فيه؟ بالتلبيس على الناس، بإيهامهم أن فيه خَلَلاً وعوجاً، تطلبون أن يكون دينُ الله أعوج، وأنتم تعلمون حقَّ العلم، بأن الإسلام هو الحقُّ، وهو الدين المستقيم، وليس الله بغافلٍ عن أعمالكم وإجرامكم!! لقد جمع اليهود والنصارى بين الضلال، والإضلال لعباد الله، فقد كفروا بالإسلام، ثم صدُّوا الناسَ عن الدخول فيه، بإلقاء الشُّبَه والشكوك في قلوب الضعفة من الناس، كما يفعل المبشِّرون في زماننا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ أي إن تطيعوا طائفة من أهل الكتاب، يصرفونكم من الإيمان إلى الكفر ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ استفهام إنكاريٌّ فيه

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾

تعجيبٌ من حالهم، أي وكيف تنقلبون من الإيمان إلى الكفر، والوحيُ لم ينقطع بعدُ، وآياتُ القرآن لا تزال تتنزَّلُ عليكم، ورسولُ الله ﷺ حيٌّ بين أظهركم يُرزق؟ ومن يتمسك بدين الله الحقِّ، وهو الإسلام، فقد تحقق له الهُدى، وطريقُ الله المستقيم.. نزلت هذه الآيات في الأنصار، وهي عامةٌ لكل زمان ومكان، وسبب نزولها ما أخرجه ابن إسحاق عن زيد بن أسلم أنه قال: (مرَّ«شاسُ بن قَيْس اليهودي» على جماعة من أصحاب النبي ﷺ من الأوس والخزرج، وهم في مجلس يتحدثون، فغاظه ما رآه من أُلفتهم، وصلاح ذات بينهم، بعد أن كانوا أعداء ألدَّاء في الجاهلية، فأرسل إلى شاب من اليهود خبيث، فقال له: اذهب فاجلسْ معهم وذكرْهم بحرب بُعَاث، وما كان بينهم من الهجاء، و«أنشدهم ببعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار، فذهب الخبيثُ وفَعَل، وثارت ثائرةُ الفتنة بينهم، فتنازعوا وغضبوا، وتنادَوْا: السِّلاحَ، السِّلاحَ!! فاجتمع من القبيلَتَيْن خلقٌ كثير، ووصل الخبرُ إلى رسول الله ﷺ، فجاء فيمن معه من المهاجرين، فناداهم: يا معشر الأنصار أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ بعد أن هداكم الله إلى الإسلام، وقطع عنكم به أمر الجاهلية؟! فعرف القوم أنها كانت نزغةٌ من الشيطان، وكيداً من عدوِّهم لهم، فألقوا السِّلاحَ، وبكَوْا، وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين ـ وقد أطفأ الله فتنة عدو الله اليهودي «شاس بن قيس» ـ وأنزل الله هذه الأيات الكريمة.. قال جابر: ما رأيتُ يوماً أقبحَ أولاً، وأحسن آخراً من ذلك اليوم)!! ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ ناداهم بلفظ الإيمان تكريماً وتشريفاً، أي يا من آمنتم بالله ورسوله، اتقوا الله تقوى حقيقية «حقَّ التقوى» وذلك كما قال ابن مسعود: «أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسىٰ، وأن يُشكر فلا يكفر» وتمسَّكوا بالإسلام واثبتوا عليه، حتى يأتيكم الموتُ وأنتم على ذلك، فتموتون على الإسلام ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ أي واستمسكوا بدين الإسلام، وبالقرآن العظيم، ولا تتفرقوا وتختلفوا في الدين، كما فعل من قبلكم من «اليهود والنصارى» وتذكَّروا نعمة الله عليكم، حين كنتم قبل الإسلام

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾

أعداء، يقتلُ بعضُكم بعضاً، فألَّف بين قلوبكم بالمحبة، وجمعكم على الإيمان، فأصبحتم إخوة متحابين في الله، بفضل الله وإنعامه﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي وكنتم على طرف حفرة من نار جهنم، بسبب كفركم، فأنقذكم ربُّ العزة والجلال، بأن هداكم للإسلام، ومثل هذا البيان البديع، يُبيِّن الله لكم شرائع الدين، لكي تهتدوا وتفوزوا بسعادة الدارين، شبَّه تعالى حالهم في الجاهلية، بحال من كان واقفاً على طرف جبل شاهق، مشرفٍ على وادٍ سحيقٍ، يكاد يقع فيه، وما أروعه من تمثيل!!﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ توجيةٌ ربانيٌّ للمؤمنين، للدعوة إلى هداية الخلق، بعد إصلاح النفس، ليكونوا هادين مهتدين، أي ولتقم منكم طائفة كثيرة بالدعوة إلى الله، والأمر بكل ما فيه خير للناس، والنهي عن كل ما فيه شرٌّ، والمعروفُ: هو كلُّ ما استحسنه الشرع والعقلُ، والمنكر ضدُّه: كلُّ ما استقبحه العقلُ والشرع ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي الفائزون بكل محبوب﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولا تكونوا كاليهود والنصارى، الذين تفرَّقوا فِرقاً كثيرةً، وكفَّر بعضُهم بعضاً، بسبب اتباع الهوىٰ، من بعد ما جاءتهم الآياتُ، والحججُ المبيِّنةُ للحق، وأولئك الضالون لهم يوم القيامة أشدُّ أنواع العذاب﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ﴾ أي في يوم القيامة ـ يوم الجزاء العادل ـ تبيضُّ وجوه المؤمنين، بظهور آثار البهجة والسرور، وتسودُّ وجوه الكافرين، بالكآبةِ والنَّدامة﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي فأمَّا الأشقياء الفُجّارُ الذين اسودت وجوههم، فيقال لهم على وجه التوبيخ: أكفرتم بالله ورسله، بعد ظهور الآيات والبراهين، على صدق دعوى الأنبياء والمرسلين؟ فذوقوا

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾

العذاب الشديد بسبب كفركم وعصيانكم ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي وأمَّا السعداء الأبرار، الذين آمنوا بالله ورسله، فهم في رياض الجنان، مخلَّدون فيها، لا يخرجون منها أبداً، والمراد برحمة الله «الجنة» لأنها مكان تنزل الرحمة الإلهية ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي هذه آياتُ الذكر الحكيم، نقصُّها عليك يا محمد، بالحقِّ الساطع، الذي ليس فيه أدنى شبهة أو شكٍّ، ولا يظلم ربك أحداً من الخلق ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أي جميع ما في الكون ملكُ لله الواحد الأحد، وإليه سبحانه مصيرُ الخلائق كلِّهم، للحساب والجزاء ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ أي أنتم يا أمة محمد، خيرُ الأمم وأفضلُها عند الله، لأمركم بالمعروف، ونهيكم عن المنكر، وإيمانكم بالله، وفي الحديث الشريف «أنتم تُوفُونَ ـ أي تتمِّمون ـ سبعينَ أمة، أنتم خيرُها وأكرمُها على الله عز وجل» رواه أحمد، وهذا الفضلُ العظيم، نالته الأمة المحمدية، بسبب أنها «أمة إنقاذ» أُخرجت لإنقاذ البشرية، رسالتُها الإصلاحُ والصلاح، ونفعُ العباد، روى البخاري عن أبي هريرة أنه قال: ﴿كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس﴾ قال: لخير الناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم، حتى يدخلوا في الإسلام» ﴿وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ أي ولو آمن أهل الكتاب، إيماناً صادقاً كما ينبغي، فآمنوا برسالة محمد ﷺ، وصدَّقوا بالقرآن المنزل عليه، لكان خيراً لهم في الدنيا والآخرة، منهم فئة مؤمنة قليلة، كالنجاشي وعبد الله بن سلام، والكثرةُ الكثيرةُ منهم، فاسقون خارجون عن طاعة الله ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي لن يضركم أهل الكتاب ـ اليهود ـ إلاَّ

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (١١٢) ۞ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١١٤)

ضرراً يسيراً، أذى باللسان، أو تهديداً بالكلام، وإن قاتلوكم فلن يصبروا على القتال، وسينهزمون أمامكم، لأن الله يُلقي في قلوبهم الرعب، ثم لا يُنصرون عليكم!! وهذا إخبارٌ من الله عزَّ وجل عن أمرٍ غيبيٍّ، وقد حدث ما أخبر عنه القرآن، فقد أُجليت «بنو قريظة» و«بنو النضير» عن المدينة المنورة، كما استسلم اليهود في خيبر، ورحلوا عن الديار، ونصر الله جنده المؤمنين ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي لزمهم الذلُّ والهوانُ، أينما وُجدوا، وفي أيِّ مكان وزمان، إلاَّ إذا أعطيتموهم العهد والأمان، أو حَماهم أنصارهم الكفار كالأميركان، وهذا هو المراد بالحبل «عهد الأمان» - ﴿وباءوا﴾ بغضبٍ من الله﴾ أي رجعوا مخذولين، مستوجبين سَخَط الله، وغَضَبه الشديد ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ أي لزمهم الفقر النفسُي، وأحاط بهم من جميع جوانبهم، كما تُضرب الخيمةُ على أصحابها، فاليهود مصَّاصو الدماء، يعبدون المال، ونفوسهم فقيرة دائماً، مهما تكدَّستْ بين أيديهم الثروات والأموال، وذلك الذلُّ والهوان، الذي لحق اليهودَ وَلاَزمَهم، بسبب كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء، ظلماً وعدواناً، وتمردهم وعصيانهم لأوامر الله ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي ليس أهلُ الكتاب متساوين في القبائح والمساوىء، ففيهم المؤمن والكافرُ، والبَرُّ والفاجر، منهم طائفة مستقيمة على شريعة الله، يتهجَّدون في الليل بتلاوة آيات القرآن في صلاتهم، ويكثرون من السجود طاعة لله عزَّ وجل، والآية نزلت فيمن أسلم من أهل الكتاب، من أحبار اليهود، وعلماء النصارى ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي يؤمنون

وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ

بالله وبالآخرة، على الوجه الكامل الصحيح، دون شكٍ أو ارتياب، ويأمرون الناس بالخير، وينهون عن الفجور والشرِّ، من غير نفاقٍ ولا مداهنة، ويتسابقون في فعل الخيرات والطاعة، وهؤلاء في زمرة عباد الله الصالحين ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي وكلُّ ما عملوه من عملٍ صالح، فلن يضيع عند الله، لأن الله عالمٌ بهم وبتقواهم!! وهذه بشارة لهم بجزيل الثواب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ لمَّا ذكر تعالى حال الأبرار، أعقبه بذكر حال الأشرار الكفار، وبيَّن مآلهم ومصيرهم، أي إن الكفَّار الفُجار، الذين جحدوا وحدانية الله، وكذبوا رسوله، لن تنفعهم الأموال والأولاد في الآخرة شيئاً، ولن تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله، وهم مخلَّدون في نار جهنم، والآية عامة في جميع الكفار، من الوثنيين وأهل الكتاب، فقد كانوا يتعزَّزون بكثرة الأموال والأولاد، ويقولون (نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين) فبيَّن تعالى أنَّ أموالهم وأولادهم لا تنفعهم أيَّ نفع ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ أي مثلُ أعمالهم الصالحة، وما أنفقوه من أموال، في سبيل الثناء، وحبِّ الشهرة، كمثل قوم زرعوا أرضهم، وتعبوا في ذلك الزرع، حتى إذا نما الزرعُ واشتدَّ، أرسل الله عليها ريحاً عاصفة شديدة، فيها بردٌ شديد، فأهلكت الزرع والثمر، كذلك الكفار يمحق الله أعمالهم الصالحة، كما يذهب هذا الزرع ويحترق ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي وما ظلمهم الله بإهلاك زرعهم، وضياع نفقاتهم، ولكنَّهم ظلموا أنفسهم، بارتكاب ما يستوجب العقاب ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي لا تتخذوا يا معشر المؤمنين،

﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا

المنافقين أحباباً وأصدقاء، تودُّونهم وتطلعونهم على أسراركم، وتجعلونهم أولياء لكم من دون المؤمنين، شبَّههم بالبطانة للثوب، لأنهم يطَّلعون على سرائر الإنسان ﴿**لا يألونكم خبالاً**﴾ أي لا يقصِّرون في إيذائكم وإفسادكم ﴿**ودوا ما عنتم**﴾ أي تمنَّى هؤلاء الأعداء لكم، ما يوقعكم في المشقة والضرر الشديد ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي قد ظهرت أمارات العداوة لكم على ألسنتهم، وما يبطنونه لكم من البغضاء في قلوبهم، أكبر ممَّا يظهرونه، وقد وضَّحنا لكم يا معشر المؤمنين، في كتابنا العزيز ما ينبغي أن تفعلوه مع أعدائكم، إن كنتم عقلاء فلا تتخذوهم أولياء ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ أي أنتم يا معشر المؤمنين مخطئون في موالاتهم ومحبتهم، فأنتم تحبونهم وهم لا يحبونكم، وتريدون لهم الخير والنفع، وهم يريدون لكم الشرَّ والضرر، ثم أنتم تؤمنون بالكتب المنزلة من عند الله، وهم لا يؤمنون بدينكم وقرآنكم، وإذا رأوكم أظهروا أمامكم الإيمانَ، خداعاً ونفاقاً ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي وإذا انفردوا وخلت مجالسُهم منكم، أظهروا ما في قلوبهم من العداء والبغضاء، وطعنوا في دينكم، من شدة الغيظ والحَنَق، والعضُّ على الأنامل: كنايةٌ عن الغيظ والألم، الذي يعتصر قلوبهم، قل لهم يا أيها الرسول: أدام الله غيظكم حتى تموتوا، وهو دعاء عليهم بالفناء والهلاك، والعجيبُ في حال المنافقين، أن لهم وجهين ولسانين، فإذا رأوا المؤمنين، أظهروا أمامهم الإيمانَ، خديعةً ونفاقاً، وإذا خلتْ مجالسهم من المؤمنين، أظهروا ما في قلوبهم من البغضاء والعداء، ولهذا حذَّر القرآن منهم، ثم زاد في كشف حالهم فقال سبحانه ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا

يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي إن نالكم شيءٌ من الخِصْب والرخاء، أو النصر والغنيمة، ساءهم ذلك وأزعجهم، وإن أصابتكم شدةٌ أو هزيمة، سرَّهم ذلك، وفرحوا بما أصابكم، وإن تصبروا على عداوتهم، وتتقوا الله فتكفُّوا عن موالاتهم، لا يضركم مكرهم وكيدهم شيئاً، والله سبحانه عالم بما يدبِّرونه لكم من المكائد، وسيصرف عنكم شرَّهم وأذاهم ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي اذكر يا أيها الرسول، حين خرجت إلى غزوة أُحُد، من منزل أهلك، لتنزِّل المؤمنين، وتهيىء لهم مواقف وأماكن للقتال، والله سميع لأقوالكم، عليمٌ بأحوالكم ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي حين كادت جماعتان كبيرتان من الأنصار، وهما «بنو سلمة» و«بنو حارثة» وهمَّتا بالرجوع وعدم القتال، والله ناصرهما ومتولي أمرهما، وعلى الله وحده فليعتمد المؤمنون في جميع أمورهم وأحوالهم، روى البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه قال: «فينا نزلت ﴿إذ همَّتْ طائفتان منكم أن تفشلا﴾ الآية بني سلمة، وبني حارثة، وما أحبُّ أنها لم تنزل، والله عزَّ وجل يقول: ﴿والله وليُهما﴾!! رواه البخاري، والظاهر أنَّ همَّهما ليس بمعنى العزم، وإنما هو خطرات وحديثُ نفس، كما لا تخلو النفسُ عند الشدائد، من بعض الهَلَع، ثم يردُّها صاحبها إلى الثبات والصبر، روي أن النبي ﷺ لمَّا خرج إلى أحدٍ بألفٍ من الرجال، فلما قاربوا معسكر الكفار، انخذل رأسُ المنافقين «عبد الله بن سلول» فرجع بثلث الجيش، فلما رأى بنو سلمة وبنو حارثة انخذال ابن سلول، ضعفا وجبُنا، وكانا جناحَيْ العسكر، فوقع في نفوسهم الرجوع، فعصمهم الله وثبَّتهم فمضوا مع رسول الله ﷺ ففيهم نزلت الآية، ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي اذكروا يا معشر المؤمنين، نعمة الله الجليلة عليكم، حين نصركم يوم بدر، مع قلة العدد والسلاح، لتعلموا أن النصر من عند الله، لا بكثرة العدد، فاشكروا ربكم على ما منَّ به عليكم من النصر، والمرادُ من قوله تعالى: ﴿وأنتم أذلة﴾: قلَّةُ العدد، وضعفُ الحال، فقد كان عدد المسلمين

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾

في بدر /٣١٥/ وعدد المشركين قرابة /١٠٠٠/ ألف، فانتصر المسلمون عليهم، مع قلة عددهم وعُددهم ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ أي حين تقول لأصحابك: أما يكفيكم أن يعينكم ربكم، بإنزال ثلاثة آلاف من الملائكة لنصرتكم وتثبيتكم؟ ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ «بلى» تصديقٌ للوعد، أي بلى يكفيكم ذلك، وإن صبرتم في المعركة، واتقيتم ربكم، وأطعتم أمره، وجاءكم الأعداء من ساعتهم هذه، فسوف يمدكم الله بخمسة آلاف من الملائكة ﴿مسوِّمين﴾ أي معلَّمين على السلاح، ومدرَّبين على القتال، ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي وما جعل الله إمدادكم بالملائكة، إلاَّ بشارةً لكم، لتزدادوا إيماناً وثباتاً، ولا تخافوا أعداءكم، فلا تتوهَّموا أن النصر بكثرة العَدَد، ووفرة السلاح، إنما هو بعون الله وحده، ليس من عند الملائكة ولا غيرهم ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾ أي ذلك التدبير الإلهي، من أجل أن يُهلِك طائفةً منهم، بالقتل أو الأسر، ويهدم ركناً من أركان الشرك (أو يكبتهم) أي يخزيهم ويهينهم، . فيرجعوا أذلاء مخذولين، وقد حقَّق الله ذلك، فقُتل في بدر سبعون من صناديد الكفر، وأُسر منهم سبعون، وفرَّ الباقون يجرُّون ثياب الذُلّ والهزيمة ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ لمَّا كُسرت رباعية الرسول، وشُجَّ وجهُه الشريف، قال: كيف يُفلح قومٌ شجُّوا رأس نبيِّهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله تعالى؟ فأنزل الله هذه الآية ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ رواه مسلم، أي ليس لك يا محمد من أمر هؤلاء شيء، فأنت لا تقدر على إجبارهم على الإيمان، ولا على

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةًۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

التوبة، ولا تقدر أن تعذبهم، فإن الأمور كلَّها بيد الله، فإمَّا أن يوفِّقهم للإسلام والتوبة، أو يُعذِّبهم إن أصرُّوا على الكفر، فإنهم فجرة ظالمون يستحقون العذاب ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي له جلَّ وعلا جميعُ ما في السموات والأرض، ملكاً، وخلقاً، وتصرُّفاً، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا دخل لأحدٍ في ذلك، فهو يعفو عمن يشاء، ويُعذِّب من يشاء، والله جلَّ وعلا عظيمُ الفضلِ على عباده، واسع الرحمة لهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةًۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ خاطبهم تعالى بوصف الإيمان تشريفاً لهم وتكريماً، لأنهم أهلٌ للخطاب، أي لا تتعاملوا بالربا، بطريق الظلم الصارخ، كما كنتم تفعلون في الجاهلية، وخافوا عذاب الله، بترك ما نهاكم عنه، لتفوزوا بالسعادة.. كان الرجل في الجاهلية، إذا كان له على إنسان مائةٌ، وحان الأجلُ، ولم يكن عنده وفاءٌ للدين، قال الدائن للمَدِين: زدني في المال، حتى أزيد لك في المدة، فربما جعله مائتين، ثم إذا حلَّ الأجلُ الثاني، فعل مثل ذلك، فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها مئاتٍ أو آلافاً، وهي التي تسمى في عصرنا بـ«الفائدة المركَّبة» والآية ليست للقيد بحيث تصبح جائزة، إذا كانت نسبتها قليلة، كواحدٍ في المائة، أو ثلاثة في المائة، وإنما وردت الآية للتقبيح والتشنيع عليهم، كأنه يقول: لقد وصل بكم الطمعُ والجشع، إلى هذه الدرجة المتناهية في الظلم، أن تأخذوا الربا أضعافاً مضاعفة؟ وأن تمتصوا دماء الناس بهذه الوحشية؟ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي احذروا نار جهنم التي هيأها الله وأعدَّها، لكل فاجر كافر، منتهك لمحارم الله، وفي الآية إشارة، إلى أن أكلةَ الربا، على شفا حفرة الكفر، وقد حلَّل بعضُ علماء السُّوء في عصرنا «فوائد البنوك» وفتحوا باب جهنم أمام الجشعين، فباءوا بالخزي والعار، وغضب الجبار، وهي جراَةٌ عظيمةٌ لم يسبقهم إليها أحد، فيها استحلال لما حرَّم الله، وأجمعت على تحريمه الأمة، نسأل الله الحفظ والسلامة ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله، لتكونوا من

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾

المؤمنين الأبرار، الذين تنالهم رحمة الله عزَّ وجل﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ أي بادروا وعجّلوا إلى ما يوجب لكم المغفرة من ربكم، وذلك بفعل الطاعات واجتناب المحرمات وبادروا إلى الفوز بجنة، عرضها كعرضِ السماء والأرض، أعدَّها الله وهيَّأها للمتقين من عباده، ثم بيَّن تعالى صفات هؤلاء الفائزين بجنة النعيم فقال﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي الذين يبذلون أموالهم، طلباً لمرضاة الله، في حال اليسر والعسر، وفي الشدة والرخاء، والذين يتغلَّبون على أنفسهم، فيمسكون غيظهم مع قدرتهم على الانتقام، والذين يعفون عمن أساء إليهم، والله يحب المتصفين بتلك الصفات الجليلة﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ أي والذين إذا ارتكبوا كبيرة من كبائر الذنوب، أو صغيرة من الصغائر، تذكَّروا عظمة الله وجلاله، فأقلعوا عن الذنب وتابوا، وطلبوا من الله أن يعفو عمَّا صدر منهم﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أي ومن يملك مغفرة الذنوب إلاَّ الرحمنُ، ربُّ العزة والجلال؟ هو وحده غفار الذنوب، وفي الآية ردٌّ على النصارى (القسس)، الذين يُقعدون النصرانيَّ على «كرسي الاعتراف» فيقرُّ أمامهم بما اقترف من خطيئة، ثم يغفرون له ذنبه!! وقوله تعالى: ﴿ولم يصروا على ما فعلوا﴾ أي لم يقيموا على ذنوبهم، مداومين على المعصية، وهم يعلمون قبحها، بل يسرعون إلى التوبة وطلب المغفرة﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ أي أولـئـك

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾

الموصوفون بهذه الصفات الحميدة، جزاؤهم عند الله سترٌ لذنوبهم، وحدائق وبساتين تجري خلال أشجارها وقصورها أنهار الجنة، ماكثين فيها أبداً، ونعم أجرُ العاملين، المغفرةُ وجناتُ النعيم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي قد مضتْ من قبلكم يا معشر الكفار، وقائعُ وعقوباتٌ، سنَّها الله في الأمم المكذبة قبلَكم، فتنقَّلوا في الأرض، لتروا ما حلَّ بهم من الهلاك والدمار، فتتعظوا بما ترونه من آثار هلاكهم ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي هذا الذي ذكرناه من آثار الأمم السابقة، وأخبار هلاكهم، فيه تبيينٌ وتذكرة، يتَّعظ بها المتقون!! والعاقلُ من اتَّعظ بغيره ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تشجيعٌ للمؤمنين، وتسليةٌ لهم عمَّا أصابهم يوم أُحُدٍ، من القتل والجراحات، أي لا تضعُفُوا عن الجهاد، ولا تحزنوا على ما أصابكم، من قتلٍ أو هزيمة، وأنتم الأعلون الغالبون، لأنكم على الحقِّ، وهم على الباطل، وقتلاكم في الجنة، وقتلاهم في النار، إن كنتم مؤمنين حقاً ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي إن كان قد أصابكم قتلٌ أو جراحٌ، فقد أصاب المشركين مثلُ ما أصابكم، والأيامُ لا تدوم على حال، يومٌ لك ويومٌ عليك، أيامٌ ترى فيه الأممُ الظفر، وأيامٌ ترى فيها الهزيمة ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي كلَّفكم الله بالجهاد ليمتحنكم، ليرى من يصبر منكم عند الشدائد والحروب، ويميز بين الخبيث والطيب، وليكرم بعض المؤمنين بفضيلة الشهادة في سبيله، فيدخلهم الجنة دار النعيم، والمراد بالعلم هنا: التمييزُ أي ليميِّز بين الثابتين على الإيمان، والمذبذبين فيه، وإلاَّ فالله عالمٌ، لا يحتاج إلى معرفة المجاهد من غيره ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ أي ليطهِّرهم

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

ويصفِّيهم من الذنوب، بسبب الاستشهاد في سبيل الله، ويسحق ويهلك الكافرين، بقتلهم بأيدي المؤمنين، ومغزى الآية: إن قتلكم الكفارُ فهي شهادة لكم، وتطهيرٌ لذنوبكم، وإن قتلتموهم فهو استئصالٌ لهم، وشفاءٌ لصدوركم ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الاستفهامُ للإنكار والاستغراب، أي هل تظنون يا معشر المؤمنين، أن تفوزوا بالجنة، بدون ابتلاء وتمحيص؟ والحالُ أنه لم يتبيَّنْ بعدُ المجاهد منكم، لإعلاء كلمة الله، والصابر على الشدائد، وقت مقارعة السيوف؟ ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي ولقد كنتم تتمنون لقاء الأعداء لتحظَوا بالشهادة، من قبل أن تلقَوْا شدَّته، فقد رأيتموه بأعينكم، حين قُتل من إخوانكم من قُتل، وشارفتم أن تُقتَلوا!! وهو عتابٌ في حقِّ من انهزم، وتوبيخٌ لهم، لأنهم تمنَّوْا الحرب، ثم جَبُنوا وانهزموا عنها ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ﴾ أي ليس محمدٌ إلاَّ رسولٌ، مضت قبلَه رسلٌ كثيرون، وليس إلهاً حتى لا يموت، فهل إذا استُشهِد أو مات، رجعتم عن دينكم، وارتددتم عن الإسلام؟ ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي ومن يرجع عن دينه، فلا يضرُّ اللَّهَ تعالى، إنما يضرُّ نفسه، لأنه يعرِّضها للسخط والعذاب، والله تعالى كريمٌ يثيب المطيعين، الذين يثبتون في الميدان.. نزلت هذه الآية لمَّا قال المشركون إن محمداً ﷺ قد قُتِل، ودبَّ الضعف والخوف في نفوس بعض المسلمين، فقال المنافقون: إن كان محمدٌ قد قُتل، فتعالَوْا نرجع إلى ديننا الأول!! وسببُ هذه الإشاعة أن عدوَّ الله «ابن قميئة» لمَّا رمَى رسولَ الله ﷺ بحجر، فشجَّ وجهه، وكسر رباعيته، ظنَّ أنه قتل الرسول عليه السلام، فنادى بين الناس: لقد قتلتُ محمداً، وصرخَ صارخٌ: ألا إن محمداً قد قُتل، فقال «أنسُ بن

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾

النّضر»: يا قوم إن كان محمد قد قُتل، فإن ربَّ محمد حيٌّ لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ؟ فقاتِلوا على ما قاتل عليه، ثم شدَّ بسيفه فقاتل حتى قُتل، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

أي لا يمكن لنفسٍ أن تموت، إلاَّ بإرادة الله ومشيئته، بعد أن تستكمل أجلَها، على ما قدَّره الله لها، لا يتقدم عليه ولا يتأخر، ومن كان يريد بعمله وجهاده، الغنيمة العاجلة، أعطيناه منها وليس له في الآخرة نصيب، ومن كان يريد بجهاده الأجر والثواب، أعطيناه الأجر كاملاً، وسنجازي كلَّ من أخلص النيَّة للَّه أعظمَ الجزاء، والآية تعريضٌ بالذين رغبوا في الغنائم.. وضَّح تعالى أن حصول الدنيا، ليس بموضع غبطة، لأنها مبذولة للبرِّ والفاجر، أمَّا الآخرة فإليها ينبغي أن تطمح الأنظار، لأنها باقية، والدنيا فانية، ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي وكثير من الأنبياء قاتلوا لإعلاء كلمة الله، وقاتل معهم جموعٌ كثيرة، علماء ربانيون، فلم يضعفوا لما أصابهم، من القتل والجراح في سبيل الله، ولم يذلُّوا ويخضعوا لعدوِّهم، والله سبحانه يحبُّ الصابرين، على مقاساة الشدائد والأهوال في سبيل الله ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي ما كان دعاؤهم وهم في ساحة القتال، إلا طلب المغفرة من الله عزَّ وجل لخطاياهم، وتثبيت أقدامهم في مواطن الحرب، ونَصْرِهم على

فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًاۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ

أعدائهم الكفرة الفجار﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي جمع الله تعالى لهم، بين جزاء الدنيا بالعزّ والنصر، وبين جزاء الآخرة، بالشهادة في سبيل الله، ودخول الجنان، والله تعالى يحب أهل الفضل والإحسان، والمقصودُ من هذه الآية حكاية ما جرى لسائر الأنبياء وأتباعهم المؤمنين، ليقتدي المسلمون بهم في تضحيتهم ونضالهم﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ﴾ أي إن أطعتم أعداءكم الكفار والمنافقين، فيما يحسّنونه لكم من الباطل، أرجعوكم إلى ما كنتم عليه، من الكفر والإشراك، فخسرتم دنياكم وآخرتكم﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ﴾ بَلْ للإضراب، أي ليس الكفار أنصارَكم حتى تطيعوهم، بل اللهُ ناصركم ومولاكم، وهو سبحانه خير ناصرٍ وخير مُعين، فأطيعوا أمره، ينصرْكم على أعدائكم﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًاۖ﴾ أي سنقذف في قلوب الكفار، الخوفَ والفزع منكم، بسبب إشراكهم بالله، وعبادتهم لحجارةٍ وأوثان، لا تضرُّ ولا تنفع، من غير حجة ولا برهان ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي مسكنهم ومستقرُّهم في نار جهنم، وبئست النار مسكناً ومأوى للظالمين، وفي الحديث الشريف «نُصرتُ بالرعب مسيرةَ شهر» رواه البخاري﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦۖ﴾ أي ولقد وفَّى لكم سبحانه ما وعدكم به، من النصر على عدوكم، فانتصرتم عليهم وهزمتموهم، وقتَ كنتم تحصدونهم بسيوفكم، وتقتلونهم قتلاً ذريعاً، بإرادة الله وحكمه﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ

وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَۚ﴾ أي حتى إذا جبنتم وضعف رأيكم، واختلفتم في أمر المُقَام في الجبل، وعصيتم أمر الرسول ﷺ، من بعد أن كان النصر حليفكم، منكم من يريد الدنيا أي (الغنيمة)، ومنكم من يريد الآخرة أي (ثواب الله) وأجره العظيم ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ردَّكم عن الكفار بالهزيمة التي أصابتكم، ليمتحنكم ويمتحن إيمانكم، ثم صفح عنكم مع العصيان، والله سبحانه ذو منٍّ وفضل عظيم على عباده المؤمنين، ولذلك لم يعاقبكم، رُوي أن النبي ﷺ في «غزوة أُحد» وضع خمسين من الرماة فوق الجبل، وقال لهم: لا تبرحوا أماكنكم، حتى ولو رأيتمونا تخطفتنا الطير!! فلما التقى الجيشان، لم تَقْوَ خيل المشركين على الثبات، بسبب السهام التي أخذتهم في وجوههم من الرماة، فانهزم المشركون، فلما رأى الرماةُ ذلك، قالوا: الغنيمةَ، الغنيمة، فتركوا الجبل ونزلوا لجمع الغنائم، وخالفوا أمر الرسول ﷺ فجاءهم المشركون من خلف الجبل، وانقلب النصرُ إلى هزيمة للمسلمين، وإلى ذلك تشير الآيات الكريمة ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي اذكروا حين وليتم الأدبار، وأنتم تُمْعِنون في الفرار، صاعدين في الجبال، منهزمين من أعدائكم، لا يلتفت أحدٌ إلى أحدٍ، من شدة الخوف والرعب، ومحمد رسول الله يدعوكم من ورائكم، يقول: إليَّ عبادَ الله، إليَّ عبادَ الله، أنا رسولُ الله حيٌّ لم أُقتل ﴿فأثابكم غماً بغم﴾ أي جازاكم

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا

على صنيعكم غمّاً، بسبب غمّكم لرسول الله ﷺ ومخالفتكم لأمره، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الغنيمة، ولا ما أصابكم من الهزيمة، والله يعلم المخلص منكم، والمجاهد في سبيله ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ﴾ أي ثم أرسل تعالى عليكم بعد الغمِّ الشديد، النعاسَ للسكينة والطمأنينة، لتأمنوا من عدوكم، وهذه من الآيات الباهرة، إذ وقت الحرب لا يكاد ينام الإنسان، والسَّهرُ يوجب الضَّعفَ والكَلاَل، والنومُ يعيد القوة والنشاط!! روى البخاري عن أبي طلحة رضي الله عنه أنه قال: (غَشِيَنا النعاسُ ونحن في مصافِّنا يوم أحد، فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، ويسقط وآخذه) وهذا النوم كان لأهل الإيمان والإخلاص، أما المنافقون فقد طار النومُ من أعينهم، من شدة الفزع والجزع، ولهذا قال سبحانه ﴿يغشى طائفةً منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم﴾ أي يغشى النومُ فريقاً منكم، وطائفة أخرى وهم أهلُ النفاق، أوقعتهم أنفسهم في الهموم والأكدار، يظنون بالله الظنون السيئة، كظنِّ أهل الجاهلية، أن الإسلام لن تقوم له قائمة، وأن المشركين لن يتركوا أحداً من المسلمين إلاّ قتلوه، ولذلك تناوشتهم الظنون والأوهام ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ﴾ أي يقول أولئك المنافقون، ليس في يدنا شيء من الأمر، ولو كان لنا اختيارٌ ما خرجنا لقتال!! قل لهم يا محمد: إن الأمر كلَّه بيد الله، ينصر من يشاء، ويخذل من يشاء، وغلبةُ الكفار على المسلمين ليس بنصر، إنما هو استدراجٌ لهم، وامتحان للمسلمين ﴿يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾ أي يبطنون في أنفسهم ما لا يظهرون لك، يقولون: لو كان الاختيار لنا لم نخرج ولم نُقتل، ولكنْ أُكرهنا على ا لخروج، وعرَّضنا إخواننا للموت ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا

فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾

فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي قل لهم: لو لم تخرجوا من بيوتكم، وقعدتم في المدينة، لخرج الذين قدَّر الله عليهم الموت إلى مصارعهم، فقَدَرُ اللَّهِ لا مناصَ منه ولا مفرَّ، وليختبر الله ما في صدوركم، من الإيمان أو النفاق، ولينقّي قلوبكم فيطهِّرها من الشك والتذبذب، ابتلاكم بهذه الحرب، والله تعالى عالمٌ بالسرائر والضمائر، وما فيها من خير أو شر، فيجازيكم عليها ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ عتابٌ لطيف لبعض أصحاب الرسول، الذين هربوا يوم أحد، أي إن الذين انهزموا منكم من المعركة، يوم التقى جمعُ المسلمين، وجمعُ المشركين في أُحد، إنما أزلَّهم الشيطان بوسوسته، فأوقعهم في الخطيئة، بسبب مخالفتهم أمر الرسول ﷺ، ولقد صفح الله عنهم وغفر لهم، لتوبتهم واعتذارهم، لأنه سبحانه واسع المغفرة، لا يعجِّل العقوبة لمن عصاه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ أي لا تكونوا يا معشر المؤمنين كالمنافقين، الذين قالوا عن إخوانهم، إذا خرجوا للتجارة، أو خرجوا غزاةً مجاهدين في سبيل الله، لو لم يسافروا أو يجاهدوا، لَمَا ماتوا ولا قُتلوا! قال تعالى ردّاً عليهم ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي قالوا ذلك واعتقدوه، ليكون ذلك حسرةً، وغمّاً وحزناً في قلوبهم، فإنَّ الموتَ لا يمنع منه قعود، والله وحده هو المحيي المميت، سواءً قعد الإنسان في بيته، أو خرج مجاهداً في سبيل الله، وهو المطَّلع على أعمال العباد ومجازيهم عليها

وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي ولئن استشهدتم في سبيل الله، أو متُّم على فراشكم، وأنتم تنوون الجهاد في سبيل الله، فذلك خيرٌ من البقاء في الدنيا، وجمع حُطامها الفاني، وفي الحديث الشريف: (من سألَ اللّهَ الشهادةَ بصدق، بلّغه اللّهُ منازلَ الشهداء، وإن مات على فراشه) رواه مسلم. ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي سواء متم على فراشكم أو قتلتم في ساحة الحرب، فإن مرجعكم إلى الله وحده، فيجازيكم على أعمالكم، فآثروا ما يقرّبكم إلى الله، ويوجب لكم رضوانه ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ أي بسبب الرحمة التي أودعها الله في قلبك يا محمد، كنتَ هيِّناً، ليِّن الجانب مع أصحابك، مع أنهم خالفوا أمرك وعصوك، ولو كنت خشن الجانب، شرس الأخلاق، تعاملهم بالغلظة والجفاء، لنفروا منك وتفرّقوا عنك، ولكنك وسعتَهم بخُلقك الحميد، وقلبك الرحيم، ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ أي فاعفُ عمّا صدر منهم من خطأ، كما عفى الله عنهم واطلب لهم من الله المغفرة، إكمالاً للبرّ بهم، وإتماماً للشفقة عليهم، وشاورهم في أمر الحرب، وفي جميع الأمور الهامة، ليقتدي بك المسلمون، فإذا صمَّمْت على أمر بعد الاستشارة، فتوكَّلْ على ربك، فإنه سبحانه يحبُّ المعتمدين عليه، المفوِّضين أمورهم إليه ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي إذا أراد الله لكم العزَّ والنصر، فلا أحد على وجه الأرض، يستطيع أن يغلبكم أو يقهركم، وإن أراد هزيمتكم وخذلانكم، فمن الذي يستطيع أن ينصركم غير الله عزَّ وجل؟ فالأمر كلُّه لله، بيده العزةُ والنصرة،

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَ

والإذلال والخذلان، فعلى الله وحده توكلوا يا معشر المؤمنين ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فُقدت قطيفة حمراء من الغنائم يوم بدر، فقال بعض المنافقين: لعلَّ النبيَّ ﷺ أخذها!! فنزلت الآية، رواه الترمذيُّ، والمعنى: ما صحَّ لنبيٍّ ولا استقام أن يخون في الغنائم، فإن النبوة تنافي الخيانة، فهذا لا يُتصور أصلاً، فضلاً عن أن يقع ويحصل، ومن يخن من غنائم المسلمين شيئاً، يأت حاملاً له على عنقه يوم القيامة، فضيحةً له على رؤوس الأشهاد، ثم تُعطى كلُّ نفس جزاءها، كاملاً غير منقوص ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي هل من سلك طريقاً يوصله إلى رضوان الله، كمن رجع بغضب من الله وسخط عظيم، بسبب إجرامه وعصيانه؟ ثم مسكنُه ومصيُره إلى نارِ الجحيم، وبئس هذا المآلُ والمصير ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي الناس متفاوتون في المنازل عند الله يوم القيامة، فلمن اتَّبع رضوان الله، الكرامةُ والثوابُ الجزيلُ، ولمن باء بسخطٍ من الله، المهانةُ والعذابُ الأليم، والله تعالى لا تخفى عليه أعمال العباد، وسيجازيهم عليها ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي لقد أنعم الله على المؤمنين بأعظم النِّعم، وأحسن إليهم وأكرمهم، ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين، بعثه من العرب من أنفسهم، ليتأسوا به ويأخذوا عنه، يقرأ عليهم آيات الذكر الحكيم، ويطهِّرهم من دنس الذنوب والآثام، ويعلِّمهم القرآن والسنة النبوية المطهرة، وقد كانوا قبل بعثته عليه السلام، يتخبَّطون في ظلمات الشرك والضلال ﴿أَوَ

لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ عتاب لمن كان سبباً في الهزيمة يوم أحد من الصحابة.

والمعنى: أحينَ أصابكم أيها المؤمنون، كارثة يوم أُحد، فقُتل منكم سبعون، قد أصبتم مثليها في غزوة بدر، حين قتلتم منهم سبعين، وأسرتم سبعين، قلتم أنَّى هذا؟ أي من أين جاءنا هذا البلاء؟ وكيف هُزمنا، وقد وُعدنا بالنصر؟ قل لهم يا محمد: سببُ الهزيمة هو أنتم، بسبب مخالفتكم الأمر، وموضعُ التبكيت في الآية، هو قولهم: (أنَّى هذا)؟ مع أنهم هم السبب في النكبة والهزيمة، بمخالفتهم أمرَ الرسول ﷺ، حيث تركوا المركز، وحرصوا على الغنيمة، فكيف يعصون الأمر، ثم يتعجبون من مجيء الهزيمة، وهم السبب لها!؟ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي وما أصابكم يوم أُحُد، من القتل والهزيمة، حين التقى جمع المؤمنين وجمعُ المشركين، فإنما هو بقضاء الله وقَدَره، وحكمته وابتلائه، ليظهر بعد هذا الابتلاء، المؤمنُ الصادق، من الكاذب المنافق، ولهذا قال سبحانه بعده ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾ أي وليميِّز الله المنافقين، الذين انخذلوا عن رسول الله ﷺ يوم أحد، ورجعوا من الطريق، وهم «ابن سلول» وجماعته، وكانوا نحواً من ثلاثمائة رجل، وقالوا متعللين بأعذار كاذبة: لو نعلم قتالاً لمضينا معكم، ولكنْ لا نظنُّ أنه سيكون قتال، وهم بهذا القول، صاروا أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان، لأنهم برجوعهم أضعفوا الجبهة الإسلامية، وأطمعوا المشركين في قتال المسلمين ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾ أي يُظهرون خلاف ما يبطنون، فإنهم تمسكوا بأمرين: الأول: عدم العلم بالقتال، والثاني: عزمُهم الدخول في

ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (١٦٨) وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ (١٧٠)

المعركة لو كان هناك قتال، وقد كذبوا في الأمرين، حيث كانوا عالمين به، غير عازمين على خوض الحرب أصلاً لنفاقهم، والله سبحانه عالمٌ بأمرهم، وما يخفونه في صدورهم ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ هذا من تتمة خُبث عقائد المنافقين، أنهم قالوا لإخوانهم، الذين هم من جنسهم من أهل النفاق، وقد قعدوا عن القتال: لو أطاعنا المسلمون وسمعوا نصيحتنا، فرجعوا كما رجعنا، ما كانوا قُتلوا في المعركة!! قل لهم يا أيها الرسول: إن كنتم صادقين في هذه الدعوى، وكان عدم الخروج ينجي من الموت، ويُطيل في الحياة، فادفعوا الموت عن أنفسكم!! ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ أي لا تظننَّ الذين سقطوا شهداء في المعركة ـ غزوة أحد ـ أمواتاً، لا يُحسُّون، ولا يأكلون، ولا يتنعمون!! بل أحياءً حياةً برزخية، يتنعَّمون في جنان الخلد بأنواع النعيم، وهم عند ربهم يُرزقون، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال «لمَّا أُصيب إخوانكم بأحد ـ أي استشهدوا ـ جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر، تَرِدُ أنهار الجنة تأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب، معلَّقة في ظلِّ العرش، فلما وجدوا طيبَ مأكلهم، ومشربهم، ومقيلهم، قالوا: من يُبلِّغ إخواننا أننا أحياء في الجنة؟ لئلا يزهدوا، ولا يَنْكُلوا ـ أي يجبنوا ـ عند الحرب؟ فقال الله عزَّ وجلَّ: أنا أبلِّغهم عنكم، فأنزل الآية ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون**﴾ رواه أبو داود ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي مسرورين بما هم فيه من النعيم والسرور، مما أكرمهم الله به من فضله، ويفرحون لإخوانهم الذين لم يقتلوا في الحرب، بما سيكونون عليه من النعيم والسرور، إذا استشهدوا في سبيل الله، كأنهم يتمنون لهم نيل الشهادة، ليحصلوا على النعيم الخالد، في حياةٍ

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٧١ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٧٢ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾

هنيئةٍ لا يكدِّرها خوف ولا حزن ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كرَّر سبحانه استبشارهم، لينبِّه على عظيم الفضل، الذي ناله المجاهدون في سبيل الله، ترغيباً لإخوانهم المؤمنين، أي يفرحون بما حباهم الله تعالى به من عظيم كرامته، وبما أسبغ عليهم من الفضل الجسيم لجهادهم، وأن الله لا يضيع أجر الشهداء ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي هؤلاء المجاهدون، هم الذين أطاعوا الله وأطاعوا الرسول، من بعدما ذَاقوا شديد البلاء، وأصابتهم الجراحات في غزوة أُحد، ولمَّا دعاهم رسولُ الله ﷺ إلى الخروج، لمواجهة المشركين في «حمراء الأسد» سارعوا إلى الطاعة، والاستجابة لأمر رسول الله ﷺ، على ما هم عليه من الجراحات والشدائد، هؤلاء لهم على جهادهم وتضحيتهم أجر عظيم، وقصة هذه الغزوة «حمراء الأسد» أن الرسول لمَّا رجع إلى المدينة المنورة، بعد تلك الهزيمة التي مُني بها المسلمون، بسبب عصيانهم لأمر الرسول، تلاوم المشركون وقال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئاً، أصبتم شوكة المسلمين ثم تركتموهم ولم تستأصلوهم، فعزموا على العودة إلى المدينة للإجهاز على المسلمين، ونزل الوحي على رسول الله ﷺ يخبره بما عزم عليه المشركون، فأمر الرسول أصحابه أن يتجهزوا لحرب المشركين، فسارعوا للطاعة، وهم مثقلون بالجراحة، مع شدة الوهن والضعف، وألقى الله في قلوب المشركين الرعب، فرجعوا دون أن يحقِّقوا هَدَفهم الدنيء ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي قال لهم بعض المرجفين من أنصار المشركين، لإدخال الرعب في أنفسهم: إن قريشاً قد جمعت لكم الجموع، فخافوا على أنفسكم ولا تخرجوا لقتالهم، فما زادهم هذا التخويفُ إلاَّ إيماناً بالله، وثقةً بنصره تعالى، وقالوا: كافينا الله ربُّ العالمين، ونعم الملجأ والنصيرُ

فَانقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾

لمن توكَّل عليه ﴿فَانقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾أي فرجعوا بنعمة السلامة، وفضل الثواب والكرامة، لم ينلهم مكروهٌ ولا أذى، لعدم وقوع الحرب، لأن الله ألقى في قلوب المشركين الرعب، ونال المجاهدون رضوان الله، الذي هو سبيل السعادة في الدارين، والله ذو إحسانٍ عظيم على العباد ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾أي لا تهابوا أعداءكم أيها المؤمنون، فالشيطانُ إنما يخوِّفكم أعوانَه وأنصاره من المشركين، فلا تخافوهم ولا ترهبوهم، فإني متكفل لكم بالنصر عليهم إن أطعتم أمري، والمرادُ بالشيطان هنا «نعيم الأشجعي» الذي أرسله أبو سفيان ليثبِّط العزائمَ، ونُسب إلى الشيطان لأنه بوسوسته وإغوائه ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾أي لا يحزنك يا أيها الرسول شأن هؤلاء المنافقين، الذين يتسابقون نحو الكفر تسابقاً، بأقوالهم وأفعالهم، ولا تبالِ بما يظهر منهم من الكيد للإسلام وأهله، فإنهم بكفرهم لن يضرُّوا الله شيئاً، وإنما يَضُرُّون أنفسهم ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾أي يريد الله أن يتركهم في دنسهم، فلا ينالون من رحمة الله شيئاً، ولهم فوق الحرمان من الثواب، عذاب عظيم في نار جهنم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾أي إن هؤلاء المنافقين، الذين باعوا الإيمانَ واشتروا به الكفر، لن يضرُّوا الله بصنيعهم شيئاً، ولهم عذاب مؤلم موجعٌ، في دار الجحيم ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي لا يظنُّ المشركون الكافرون،

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾

أن إمهالنا لهم بدون عقاب ولا عذاب، هو خيرٌ لهم في هذه الحياة، إنما نؤخرهم ونمهلهم، ليكتسبوا المعاصي والآثام، فيزدادوا ضلالاً، ويزيد عقابُهم، ولهم في الآخرة عذاب شديدٌ موجع، مع الإهانة والإذلال ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي لن يترك الله عزَّ وجلَّ المنافقين، مختلطين بالمؤمنين، حتى يبتليهم بأنواعٍ من المحن والشدائد، كما فعل في غزوة أحد، فيميِّز بين المؤمن الصابر، والمنافق الفاجر، ويظهر أهل الإيمان والصدق، وأهل النفاق والكذب ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي وما كان الله ليطلعكم على قلوب العباد، حتى تعرفوا المؤمن من المنافق، ولكنَّ الله سبحانه يميِّز بينهم بالمِحَن والابتلاء، كما يطلع بعض رسله على أخبار المنافقين، بالوحي الذي يوحيه إليهم، ويخبره ببعض المغيَّبات، كما أطلع النبيَّ ﷺ على حال المنافقين ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي فصدِّقوا الله ورسولَه، فيما يخبركم به من أمر الغيب، وإن آمنتم بالله، واتقيتم ربكم، فلم تنتهكوا محارمه، فلكم أجر عظيم عند الله ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ أي لا يظن الأغنياء، الذين لا يؤدُّون زكاة أموالهم، ويبخلون بالإنفاق مما أعطاهم الله، من عظيم فضله وكرمه، أن هذا البخل فيه منفعة لهم، بل هو مضرَّة عليهم في دنياهم وآخرتهم ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي سيجعل الله ما بخلوا به، طوقاً في أعناقهم يوم القيامة، وقلادة يقلَّدون بها، وهذه القلادة ليست من ياقوتٍ أو مرجان، إنما هي ثعبان هائل

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾

فظيع، يلفُّ على عنقه، يُعذِّب به يوم القيامة، روى البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «من آتاه اللَّهُ مالاً، فلم يؤدِّ زكاته، مُثِّل له مالُه يومَ القيامة شجاعاً أقرع ـ أي ثعباناً فظيعاً ـ يُطوَّقه فيأخذ بلهزمتيه ـ أي شدقيه ـ ثم يقول له: أنا مالُك، أنا كنزك، ثم تلا ﷺ هذه الآية **﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم..﴾** وختم الله هذه الآية بقوله **﴿ولله ميراثُ السموات والأرض والله بما تعملون خبير﴾** أي إنهم سيموتون، واللَّهُ هو الوارث لما في أيديهم، وإليه وحده يعود كل ما يملكون، بعد فناء خلقه، فما لهم يبخلون عليه بملكه!! ولا ينفقونه في سبيله!! وهو الخبيرُ بأعمال عباده!! ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ هذه المقالة الشنيعة، من كلام اليهود لعنهم الله، لمَّا سمعوا قوله تعالى: **﴿من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً﴾**؟ فقالوا على سبيل الطعن والاستهزاء: إن الله فقيرٌ يطلب القرضَ منَّا، ولو كان غنياً ما استقرض ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي سنكتب جريمتهم الشنيعة، التي صدرت منهم في حقِّ الله، ونكتب قتلهم الأنبياء بغير حقٍّ، ونعاقبهم عليها في الآخرة، ونقول لهم: ذوقوا عذاب جهنم الشديدة المحرقة ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي ذلك العذاب الشديد، بما اقترفته أيديكم من الجرائم، وأن الله ليس بظالم لأحد، ولا يقع منه ظلم لأحد أصلاً..

روي في سبب نزول هذه الآية، أن أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه، دخل بيت مجتمع اليهود، فوجدهم قد اجتمعوا على عظيم فيهم اسمه «فِنحاص» وكان من أحبارهم وعلمائهم، فقال له أبو بكر: اتَّقِ الله وأَسْلِمْ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسولُ الله، جاءكم بالحقِّ من عند ربه، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل!! فقال له «فِنحاص» واللهِ يا أبا بكر ليس لنا من حاجةٍ إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، ولو كان غنياً ما استقرض منا!! فغضب أبو بكر وضرب وجه «فنحاص» ضربةً شديدة سال منها الدم، وقال له: والله يا عدوَّ الله،

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ١٨٤ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾

لولا العهدُ الذي بيننا وبينكم، لضربتُ عنقك بالسيف، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ، فقال يا محمد: انظر ما صنع بي صاحبك!! وجاء أبو بكر وأخبر الرسول بما قاله ذلك الفاجر، فأنكر فنحاص تلك المقالة، فنزلت هذه الآية تصديقاً لأبي بكر، وردّاً على الفاجر الكافر ﴿**لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير**﴾ الآية، ثم قال تعالى في بيان أكاذيب اليهود ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ أي هؤلاء الخبثاء من رؤساء اليهود، هم الذين كذبوا على الله، فقالوا: إن الله أوصانا في التوراة، أن لا نصدِّق برسالة أيِّ رسول، حتى يُظْهِر لنا معجزة خارقة، وهي: أن يقدِّم قرباناً كبشاً أو طعاماً، فتنزل نار من السماء فتأكله وتلتهمه!! وهذا افتراء على الله، حيث لم يعهد إليهم بمثل هذا الذي زعموه ﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي قل لهم توبيخاً وإظهاراً لكذبهم: لقد جاءتكم رسلٌ قبلي بالمعجزات الواضحات، والحجج الباهرات، وبما طلبتم منهم من خوارق، تدلُّ على صدق نبوتهم، فلماذا كذَّبتموهم وقتلتموهم، إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان؟ ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ هذه تسلية لرسول الله ﷺ، عن تكذيب أهل الكتاب له، أي فإن كذَّبك يا محمد هؤلاء الفُجّار، فلا تحزن لتكذيبهم لك، فقد كذَّب أسلافهم من قبلُ رسلَ الله، مع ما ظهر على أيديهم من المعجزات الواضحات، ومع مجيئهم بالزُّبر أي الكتب السماوية المملوءة بالحكم والمواعظ، وبالكتاب الواضح الجلي، الهادي إلى الصراط المستقيم، وهو القرآن العظيم ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ أي مصيرُ الخلائق إلى الفناء، وكلُّ نفسٍ ميِّتةٌ لا محالةَ، وإنما تنالون جزاء أعمالكم وافياً يوم القيامة،

وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

فمن أُبعدَ عن النار ونُحّي عنها، فقد فاز بالسعادة الأبدية، والنعيم المخلَّد ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي وليست الدنيا وما فيها من لذَّات وشهوات ونعيم، إلاَّ دار الفناء والخداع، يستمتع بها الأحمق الجهول ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ أي والله لتمتحننَّ ولتختبرنَّ أيها الناسُ، في أموالكم بالفقر والمصائب، وفي أنفسكم بالأمراض والأسقام، ولتسمعنَّ من أهل الكتاب، ومن أعدائكم المشركين، أنواع الأذى والإساءة ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي وإن تصبروا على البلاء، وتتقوا ربكم بالتمسك بأوامره واجتناب نواهيه، فإن الاستمساك بحبل التقوى، والصبر عند البلوى، ممَّا ينبغي أن يعزم عليها المسلم من الأعمال، لأنها طريق نيل السعادة ورضوان الله ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ أي اذكر حين أخذ اللهُ العهد المؤكد على اليهود في التوراة، أن يظهروا للناس ما في الكتاب من أحكام الله عزَّ وجلَّ، وأن يوضِّحوا صفات رسول الله، المذكورة عندهم في التوراة، وألاَّ يخفوا من ذلك شيئاً ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ أي فطرحوا ذلك العهد وراء ظهورهم، واستبدلوا به شيئاً حقيراً من حُطام الدنيا، فبئس هذا الشراء، وبئست تلك الصفقةُ الخاسرة ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ نزلت في اليهود، سألهم رسولُ الله ﷺ عن شيءٍ فكتموه إيَّاه، وأخبروه بغيره، وظنوا

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ﴾

أن الرسول قد اقتنع بما قالوا واستحسنه ففرحوا لذلك.

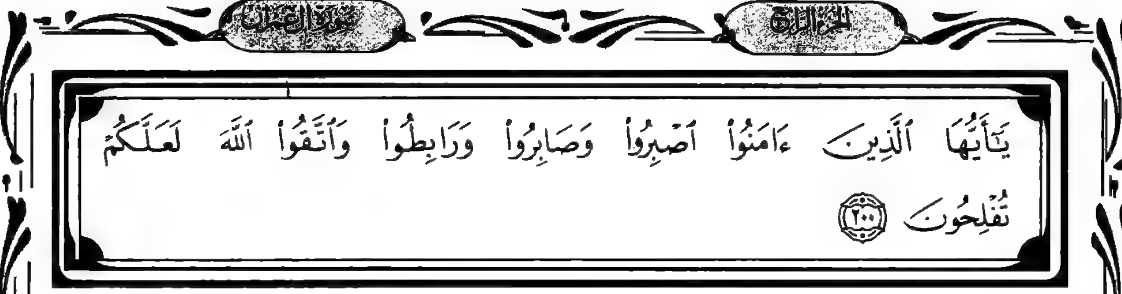
والمعنى: لا تظننَّ الذين يفرحون بما أَتَوْا من إخفاء الحقائق عن الناس، ويحبون أن يحمدهم الناس على ذلك، لا تظننَّ أنهم بنجاة من عذاب الله، لأن لباس الزور لا يبقى، ولا بدَّ أن ينكشف صاحبُه ويفتضح، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم موجع ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾أي له جلَّ وعلا جميعُ ما في الكون، ملكاً، وخلقاً، وتصرفاً، وهو سبحانه القادر على عقاب كل من كفر به وعصاه ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾أي إن في خلق السموات والأرض، على ما فيهما من إحكام وإبداع، وتعاقب الليل والنهار على الدوام وبانتظام، لعلامات واضحة ساطعة، دالة على وحدانية الله وكمال قدرته، لذوي العقول السليمة ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾أي هؤلاء العقلاء، هم الذين يذكرون الله وعظمته دائماً وأبداً، يتذكرون جلال الله، ولا يغفلون عنه في جميع الأحوال، سواء كانوا في أسواقهم وأعمالهم، أو مضطجعين في فرشهم للنوم، ويتفكرون في ملكوت السموات والأرض، قائلين: ربنا ما خلقتَ هذا الكون وما فيه سُدَىً ولا عبثاً، تنزهتَ يا ربنا عن العبث، فنجِّنا من عذاب جهنم ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾أي من تدخله نار جهنم، فقد أذللته وأهنتَه غاية الإذلال، وفضحته على رؤوس الأشهاد، وليس للكفَّار الفُجّار، من ينصرهم أو يمنع عنهم عذاب الله ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ﴾أي سمعنا داعياً يدعونا إلى الإيمان بك فآمنَّا، وهذا الداعي هو محمد

رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، الذي ختم الله به رسالات الأنبياء أجمعين ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ أي استر ذنوبنا ولا تفضحنا بها على رؤوس الأشهاد، وامحُ بفضلك وكرمك ما سلف منا من معاصي وسيئات، واقبض أرواحنا واجعلنا في زمرة الصالحين الأبرار، مع النبيِّين والصديقين والشهداء، وحَسُن أولئك رفيقاً ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ كرَّروا النداء بصيغة «ربَّنا» خمس مرات، للتضرع، وإظهار كمال الخشوع والتذلل، رغبةً في استجابة الدعاء، أي ربنا أعطنا ما وعدتنا به على ألسنة رسلك، وهي الجنة التي وعدنا بها أنبياؤك المرسلون، ولا تُهنَّا وتفضحنا كما فضحتَ الكفار، يوم الحشر الأكبر، إنك يا ربنا لا تخلف وعدك، حيث قلت ﴿**تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً**﴾ وبعد هذا التضرع والدعاء، جاءت الإجابة العاجلة، المبشِّرة من رب العزة والجلال ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ أي أجاب الله دعاءهم مخبراً بأنه لا يضيع عنده عَمَلُ العامل، ذكراً كان أو أنثى، فالله أكرم وأعدلُ من أن يضيع عنده مثقالُ الذرة، فكيف بمن عبدَ الله وأطاعه عمراً مديداً!؟ والآية تدلُّ على أنه لا تفاوت في الثواب، بين الذكر والأنثى، لأنهم مخلوقون من نفسٍ واحدة، فالذكر من الأنثى، والأنثى من الذكر ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ أي فالذين هجروا أوطانهم، فارِّين بدينهم من الكفار الفجار، وآذاهم أعداء الله بأنواع الأذى، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم لإعلاء كلمة الله، وقاتلوا الكفار في سبيل الله، واستشهدوا في الجهاد ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ أي والله لأمحونَّ عنهم سيئاتهم،

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾

وأسترها بالمغفرة، ولأدخلنهم حدائق وبساتين، تجري من تحت قصورها أنهارُ الجنة، جزاءً على أعمالهم الصالحة، والله تعالى عنده حسن الأجر و الثواب ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي لا تنظر إلى ما عليه الكفار من السعة وبسط الرزق، ولا تنخدع بظاهر ما ترى من أحوالهم وتنقلهم في البلاد، طلباً لكسب الأموال، فإنهم إنما يتنعَّمون بها قليلاً، ثم مصيرهم ومسكنُهم النار، وبئس الفراشُ والقرارُ نار جهنم!! روي أن بعض المسلمين، كانوا يرون المشركين في رخاء ورفاهية، فيقولون: إن أعداء الله فيما نرى من الخير والسعة، ونحن في الجهد والجوع والبلاء!! فنزلت الآية، ثم قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ أي لكن المؤمنون المتَّقون، الذين اتقوا عذاب الله بطاعته وامتثال أوامره، فهؤلاء لهم في الآخرة، حدائق تجري من تحت قصورها أنهار الجنة، ماكثين في هذا النعيم أبداً، ﴿**نزلاً من عند الله**﴾ أي ضيافةً وكرامةً من عند الله، وما عند الله من الكرامة والنعيم، خيرٌ للأبرار مما يتقلب فيه الكفار الفجار من متاع الدنيا ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ نزلت في المؤمنين من أهل الكتاب، أي وإن من علماء اليهود والنصارى، من يؤمن بالله حقَّ الإيمان، ويؤمن بما أُنزل إليكم من القرآن، وبما أنزل الله إليهم في التوراة والإنجيل، مثل «عبدالله بن سلام» من كبار أحبار اليهود، و«النجاشي» من علماء النصارى، وغيرهم، خاشعين متذللين لله الواحد الأحد، لا يغيِّرون كتبهم لنيل شيء من حطام الدنيا الخسيس، هؤلاء لهم ثوابهم



كاملاً، وحسابُ الله سريع لا يحتاج إلى زمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي اصبروا على الإيمان، ومشاقِّ الطاعة، وغالبوا أعداء الله، بالصبر على أهوال القتال، وشدائد الحروب، ورابطوا أي لازموا الثغور حماية للأهل والوطن، وخافوا عذاب الله، لتفوزوا بسعادة الدارين.. إنها آيات تنير القلوبَ، وتشرح الصدور، بنورها الوضَّاء، وجلالها الساطع، وقد ختمت السورة الكريمة بهذه الوصيَّة الفذَّة، الجامعة لسعادة الدارين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

وفي الحديث: (عينان لا تمسُّهما النارُ: عينٌ بكتْ من خشيةِ الله، وعينٌ باتت تحرس في سبيل الله) رواه الترمذي.

هذه الآيات العشرُ من أواخر (سورة آل عمران) مما ينبغي للمسلم أن يتفكر بما حوته من دلائل الخلق والإبداع، فالفكرة تورث في القلب العِبْرة، وقد قال الحسن البصري: «تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من قيام ليلةٍ بكاملها» وكان ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبَه، يأتي الخَربة فيقف على بابها، فينادي بصوتٍ حزين فيقول: أين أهلُكِ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول: **﴿كلُّ شيء هالكٌ إلا وجْهَه﴾**.

وذكر الحافظ ابن كثير عن عطاء أنه قال: (انطلقتُ مع ابن عمر، وعُبيد بن عُمير، فاستأذنَّا على عائشة رضي الله عنها، وبيننا وبينها حجاب، فقال لها ابن عمر: أخبرينا بأعجبِ ما رأيتيه من رسول الله ﷺ؟ فبكتْ ثم قالت: كان أمره ﷺ كلُّه عَجَباً!! أتاني في ليلتي التي يبيتُ فيها عندي، فاضطجع في فراشي حتى مسَّ جلدُه جلدي، ثم قال لي: يا عائشة هم ألا تأذنين لي أن أتعبَّد ربي هذه الليلة؟ فقلتُ: يا رسول الله والله إني لأحبُّ قربَك، وأحبُّ هواكَ!! فتوضأ ثم قام يصلي فبكى حتى بلَّ لحيته، ثم سجد فبكى حتى بلَّ الأرضَ، ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى جاءه بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال: ما يبكيكَ يا رسول الله وقد غفر اللَّهُ لك ما تقدم من

ذنبك؟ فقال: ويحكَ يا بلال، وما يمنعني أن أبكي، وقد أنزل الله عليَّ في هذه الليلة هذه الآيات ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب...**﴾ ثم قال: ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها!!

انتهى تفسير سورة آل عمران

● ● ●

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ

تفسير سورة النساء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ خطاب لجميع البشر، يذكِّرهم فيها بنعمة الخلق والإبداع، أي خافوا ربكم الذي أنشأكم من أصلٍ واحد، وهو «آدم» عليه السلام، وأوجد من تلك النفس الواحدة، زوجته حواء، فقد خُلقت من ضلع من أضلاع آدم، وفي الآية إشارة إلى أنه سبحانه، قادرٌ على أن يخلق حياً من حيٍّ، كما أنه قادر على أن يخلق حياً من جماد، كما خلق آدم من تراب ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أي ونشر وفرَّق من آدم وحواء، خلائق كثيرين ذكوراً وإناثاً، فالناسُ جميعاً تربطهم هذه الرابطة الإنسانية «رابطة الأخوَّة» في النسب، ولو أدرك الناسُ هذا المعنى السامي، لعاشوا في سعادة وأمان، ولما كانت هناك حروب طاحنة مدمِّرة، تلتهم الأخضرَ واليابس، وتقضي على الكهل والوليد، **﴿واتقوا الله الذي تساءلون به﴾** أي تتساءلون وتتناشدون به فيقول أحدكم: أسألك بالله، وأنشدك الله أن ترعى حقي، واتقوا الأرحام أن تقطعوها، فالله سبحانه مطَّلعٌ على أحوالكم وأعمالكم ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ أي أعطوا اليتامى أموالهم إذا بلغوا سنَّ الرشد، ولا تستبدلوا الحرام من أموالهم، بالحلال الطيب من أموالكم، فتخلطوها وتأكلوا الحرام، فأكل أموال اليتامى (حُوبٌ) أي ذنبٌ عظيم عند الله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ﴾ أي وإن خفتم عدم العدل في مهر اليتيمة،

فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

فتزوجوا بمن أحببتم من النساء، اثنتين، أو ثلاثاً، أو أربعاً، ولا تزيدوا على ذلك ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ أي فإن خشيتم عدم العدل بين الزوجات، فاقتصروا على الزواج بواحدة، أو بما ملكت أيمانكم من السراري، مهما كان العدد، فإن ذلك أضمن لعدم الظلم والجور، فإن قيل: ما علاقة اليتامى من البنات، في موضوع تعدد الزوجات؟ فالجواب أن عائشة أم المؤمنين وضحت هذا فقالت: هذه اليتيمةُ تكون في رعاية وليّها، ويعجبه ما لُها وجمالُها، فيريد أن يتزوجها دون أن يعدل في مهرها، فيعطيها أقلَّ مما يعطيها غيرُه، فنُهوا عن ذلك، وأُمِروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهنّ ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ أي أعطوا النساء مهورهنَّ عطيّةً عن طيب أنفسكم، دون تمنُّنٍ أو استعلاء، فإن طابت نفوسهنَّ عن شيءٍ من المهر بطريق الهبة، فخذوه حلالاً طيباً ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي لا تعطوا المبذِّرين من النساء واليتامى، الأموال التي بها قوامُ حياتكم، إذا رأيتم ما يدلُّ على عدم حسن التصرف فيها، واكسوهم وأنفقوا عليهم منها، حتى يبلغوا كمال الرشد، وقولوا لهم كلاماً ليناً، تطيب به نفوسهم ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ﴾ أي اختبروا من كان تحت أيديكم من اليتامى، إذا بلغوا سنَّ التكليف، فإن شاهدتم منهم الرشد وحسن التصرف، فادفعوا إليهم أموالهم بدون تأخير ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي ولا تأكلوا أموال اليتامى (بِداراً) أي مسارعة منكم، فتنفقوها عليهم وعلى

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

أنفسكم قائلين: ننفقها، قبل أن يكبروا فيطلبوها منّا، ومن كان منكم غنياً من الأوصياء، فلْيتعفَّفْ عن أخذ شيء من مال اليتيم، ومن كان فقيراً فليأخذ بقدر حاجته الضرورية، وبقدر أجرة عمله، فإذا سلمتم إلى اليتامى أموالهم، بعد بلوغهم سنَّ الرُّشْد، فأشهدوا على ذلك، لئلا يجحدوا قبضها، وكفى بالله محاسباً لعباده، ورقيباً على أعمالهم ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أي للأولاد الذكور، وللبنات الإناث، حقٌّ في الميراث، من تركة آبائهم وأقربائهم، سواءً كان الميراث قليلاً أو كثيراً، نصيباً مفروضاً بحكم الله وقضائه، وهذا ردٌّ وإبطالٌ لحكم الجاهلية، حيث كا نوا لا يورِّثون النساء مطلقاً، ويقولون: كيف نعطي المال من لا يركب فرساً، ولا يحمل سلاحاً، ولا يحارب عدواً؟! فأبطل الله ذلك وجعل للمرأة حقاً في الإرث كما للرجل حقٌّ فيه ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي وإذا حضر قسمة التركة بعض الأقارب والمساكين، من غير الوارثين، فأعطوهم شيئاً من مال التركة، تطييباً لخاطرهم، وأحسنوا معهم في القول، بأن تعتذروا لهم، أن هذا المال للصغار، وأنكم لا تملكون التصرف فيه، وهذا أمر ندبٍ كُلِّف به البالغون من الورثة ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي تذكَّرْ أيها الوصيُّ أولادك الضعاف من بعدك، إذا رحلتَ عن الدنيا وتركتهم يتامى لا عائل لهم، هل تحبُّ أن يُظلموا، أو تضيع أموالهم التي تركتها لهم؟ فكما تخاف على أولادك بعد مماتك، فاخش على أموال اليتامى، الذين هم تحت وصايتك، وقل لهم ما تقوله لأولادك من عبارات العطف والحنان ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ أي إن

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

الذين يغتصبون أموال اليتامى بدون حق، ويعتدون على هؤلاء الضعفاء، فيسلبون أموالهم التي تركها لهم آباؤهم، فهم في الحقيقة إنما يأكلون في بطونهم الحرام، وسيدخلون ناراً هائلة مستعرة يوم القيامة ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ هذه الآية تفصيل لأحكام المواريث، التي وردت بالإجمال في الآية السابقة، أي يأمركم الله ويعهد إليكم، بالعدل في شأن ميراث أولادكم، الذكور منهم والإناث، فإذا ترك الميتُ أبناءً وبنات، فللابن ضعف ميراث البنت، وإذا لم يكن للميت إلاّ الإناثُ، وكنَّ اثنتين فأكثر، فلهنَّ الثلثان من التركة، وإن كانت بنتاً واحدة، فلها نصفُ تركة أبيها، وإنما كان نصيب الذكر ضعف الأنثى لكثرة التزاماته، من المهر، والنفقة، والإنفاق على الأسرة، بينما الأنثى لا تُكلَّف بشيء من الإنفاق ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ أي ولكل واحدٍ من الأب، والأم سُدسُ التركةِ، إن كان للميت ولدٌ ـ ذكرٌ أو أنثى ـ فإن لم يكن له من يرثه من الأولاد، وليس له وارث إلا الأب والأم، فللأم ثلث التركة، والثلثان للأب، فإن كان له إخوة ـ اثنان فأكثر ـ فلأمه السدس ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي تُقسم التركة كما فرضها الله، من بعد تنفيذ وصية الميت، وقضاء ديونه للعباد.. لقد تولّى تعالى قسمة المواريث بنفسه، ولم يتركها لأحدٍ من خلقه، لئلا يقع حيفٌ أو ظلم، ولو تُرك الأمر إلى البشر، لضاعت حقوق كثيرة، لأنكم لا تعلمون من هو أنفع لكم، من آبائكم وأبنائكم، فاتركوا الأمر

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

لخالق العباد، فهو أعلم وأدرى بما يحقّق مصالح البشر ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ أي ولكم أيها الأزواج، نصفُ ما تركته زوجاتكم، إن لم يكن لزوجاتكم ولدٌ، منكم أو من غيركم، فإن كان لهن ولدٌ، فلكم الربع مما تركن من الميراث، من بعد الوصية، وقضاء الدين ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ أي ولزوجاتكم ـ واحدةً فأكثر ـ الربع مما تركتم من الميراث، إن لم يكن لكم ولدٌ مطلقاً، فإن كان لكم ولد، فلزوجاتكم الثمن مما تركتم من الميراث، من بعد إخراج الوصية، وقضاء الدَّيْن عن الميت ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ أي وإذا كان الميت لا آباء له ولا أولاد ـ وهذا معنى الكلالة ـ وورثه بعض الأقارب، كالأخ، أو الأخت من الأم، فلكل واحدٍ منهما السدسُ، فإن كان الإخوةُ والأخواتُ من الأم، أكثر من واحد، فإنهم يقتسمون الثلث بالسوية، ذكورُهمُ وإناثُهم في القسمةِ والاستحقاق سواءً، لقوله سبحانه: (شركاء) والشركة تقتضي المساواة، وهذه القسمةُ تكون بعد تنفيذ الوصية، وقضاء الدين، ويُشترط في الوصية أن تكون للمصلحة، لا بقصد

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾

حرمان أحدٍ من الورثة، أو الإضرار به، كأن يوصي بأكثر من الثلث، هذه وصية الله إليكم، ومن رحمته تعالى أنه لا يعجِّل العقوبة لمن خالف أمره ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي هذه الأحكامُ المذكورة، شرائعهُ التي هي كالحدود لا يجوز مجاوزتها، ومن يطع أمر الله وأمر رسوله، يدخله في الآخرة حدائق وبساتين، تجري من تحت قصورها أنهارُ الجنة، ماكثين فيها أبداً، وذلك هو الفلاحُ العظيم ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي ومن يخالف أمر الله، وأمر الرسول، ويستهزىء بأحكام الله، مستحلاً لما حرَّم الله، يدخله ناراً هائلة عظيمة، يُخلَّد فيها، ولا يخرج منها أبداً، وله عذاب عظيم مع الإهانة والإذلال ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ أي والنساء اللواتي يزنين، ويفعلن الفعلة الشنيعة، المتناهية في القبح، وهي «فاحشة الزنى» فاطلبوا أن يشهد على ذلك أربعة رجال، من المسلمين العدول الأحرار، فإن ثبت بطريق الشهود جريمتُهنَّ، فاحبسوهنَّ في البيوت، حتى يقبض أرواحهنَّ مَلَكُ الموت، أو يجعل الله لهن مخرجاً من الحبس، بما يشرعه فيهن من الأحكام، وكان هذا الحكُم في أول الإسلام، ثم نُسخ بالحدود التي ذكرها الله في سورة النور ﴿**الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة**﴾ ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ أي والبكران اللذان يفعلان

إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ

الفاحشة، فآذوهما بالتقريع، والتوبيخ، والضرب، فإن تابا عن الفاحشة، وأصلحا سيرتهما فكفُّوا عن الإيذاء لهما، فإن الله سبحانه مبالغٌ في قبول توبة العبد، واسع الرحمة والفضل ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ أي إنما التوبة المقبولةُ عند الله، لمن فعل المعصية عن سَفَهٍ وجهالة، وشَعَر بخطئه، وندم على ما حصل منه، فتاب سريعاً وأناب، فأولئك يتقبل الله توبتهم، وكان الله عليماً بخلقه، حكيماً في صنعه ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ أي وليس قبول التوبة لمن أغرق في الإجرام، وانتهاك محارم الله، وبقي مستمراً عليها، حتى إذا فاجأه الموتُ، تاب إلى ربه وأناب، فهذه توبةُ المُلْجَأ الذي شاهد أمارات العذاب، وهي غير مقبولة عند الله ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ أي وليس قبولُ التوبة أيضاً، لمن مات على الكفر، فلا تُقبل توبته عند الاحتضار، فأولئك المذكورون من الفريقين، هيأنا لهم عذاباً مؤلماً موجعاً، هو عذاب الجحيم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ أي لا يحل لكم أن تجعلوا النساء كالمتاع، ينتقل بالإرث من شخصٍ لآخر، وأن ترثوهنَّ بعد موت أزواجهن، فتتزوجوا بهن كُرْهاً عنهنَّ، (ولا تعضلوهنَّ) أي ولا يحلُّ لكم أيها الأزواج، أن تمنعوهنَّ من الزواج، أو تضيِّقوا عليهن، لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن من المهر، إلاَّ أن تكون المرأة ناشزاً، تريد فراق زوجها، فيأخذ منها بعض ما أدَّاها من المهر.

قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية، إذا مات الرجلُ، جاء قريبُه فألقى ثوبَه على المرأة،

وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾

فمنعها من الناس، فإن كانت جميلة تزوَّجها، وإن كانت دميمة حَبَسها حتى تموت فيرثها، وإن شاء زوّجها غيره وأخذ صَدَاقها - أي مهرها - فنهى الله المؤمنين عن ذلك ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي صاحبوهنَّ بالمعروف الذي أمركم الله به، من طيب القول، والإحسان إليهن، بالأقوال والفعال، ولا تضرب الوجهَ، ولا تُقبِّحْ، ولا تهجُر إلاَّ في البيت، كما وضحه عليه الصلاة والسلام، فإن كرهتم صحبتهنَّ، فاصبروا عليهن، واستمروا في الإحسان إليهن، ولا تطلِّقوهنَّ، فعسى أن تنقلب البغضاء إلى محبة، وأن يرزقكم الله منها ما تقرُّ به أعينكم، من الذرية الصالحة!! وهذا إطماعٌ للرجال بالفضل الكبير، إن صبروا على أزواجهن، حتى مع الكراهة لهنَّ، وما أعظم رحمة الله بالنساء، حيث أمر الرجل بعدم التسرع في الفراق لها، فلا يدري الإنسان أين يكون الخير له!! ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾أي وإن أردتم أيها المؤمنون، نكاح امرأةٍ مكان امرأة طلَّقتموها، وكنتم قد دفعتم لها مهراً كبيراً يبلغ القنطار - وهو المال الكثير الذي لا يعدُّ - فلا تأخذوا من ذلك المهر شيئاً، فإنه حقٌّ خالصٌ للمطلَّقة، أتأخذونه باطلاً وظلماً؟ ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ استغرابٌ وتعجيب من العدوان على مهور النساء، أي وكيف تأخذون ما دفعتم لهنَّ، والحال أنه قد وصل بعضكم إلى بعض، بطريق الخلوة، والاستمتاع الجسدي بهن، فنلتم منهنَّ اللذة والشهوة، وقضيتم منهن الوطر!!

قال ابن عباس: «الإفضاءُ في هذه الآية، معناه: الجماعُ، ولكنَّ الله حييٌّ كريمٌ يكني» أي يأتي بالكناية بدل اللفظ الصريح، وهذا من لطائف الكنايات **﴿وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾** أي أخذن منكم عهداً وثيقاً مؤكَّداً، هو العقد الشرعي «عقد النكاح» وهو الذي أشار

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾

إليه النبيُّ ﷺ بقوله في حجة الوداع: «اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهنَّ بأمانةِ الله، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله» رواه مسلم ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي لا تتزوجوا بزوجات آبائكم بعد موتهم، إلاَّ ما سبق منكم في الجاهلية، فقد عفا الله عنه، لأن الإسلام يهدم ما قبله، فإن نكاح زوجات الآباء أمرٌ قبيح، متناهٍ في القبح والشناعة، وساء هذا النكاح المشؤوم طريقاً لقضاء الوطر، إذ كيف يليق بالعاقل، أن يعلو امرأة أبيه بعد وفاته، وهي مثلُ أمه؟ كان الرجل في الجاهلية إذا توفي أبوه، كان ابنه أحقَّ بامرأته، إن شاء نكحها ـ إن لم تكن أمَّه ـ وإن شاء زوَّجها لمن يريد وأخذ مهرها، فلما تُوفي «أبو قيس بن الأسلت» قام ابنه يريد أن يتزوَّج بزوجة أبيه، فقالت له: إني أعدُّكَ ابناً لي، ولا أقبلُ حتى آتي رسولَ الله ﷺ فأسأله عن هذا الأمر، فأتته فأخبرته فنزل قوله تعالى (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم. .) الآية، ثم ذكر تعالى المحرمات من النساء فقال ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ شرع تعالى في ذكر من يحرم نكاحها من النساء، وبدأ بالمحرمات من النسب، وهنَّ سبعٌ: «الأمهاتُ، البناتُ، الأخواتُ، العماتُ، الخالاتُ، بناتُ الأخ، بناتُ الأخت» فهؤلاء يحرم نكاحهن بسبب القرابة والنسب، والأمهاتُ يدخل فيهن الجدات، والبناتُ يدخل فيهن بناتهنَّ، والأخوات يشمل الأخوات الشقيقات، والأخوات من الأب، والأخوات من الأم من أي جهة كانوا، والعماتِ يشمل أخوات الآباء وأخوات الأجداد، والخالات يشمل أخوات الأمهات وأخوات الجدات، وبنات الأخ وبناتُ الأخت يدخل معهن بناتهن، ثم ذكر تعالى المحرمات من الرضاعة فقال: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ أي وتحرم عليكم أمهاتكم من الرضاعة، وهي الأم التي رضع منها الطفل قبل اكتماله العامين، وأخواتكم اللاتي رضعن معكم، ولم يذكر سبحانه من المحرمات من الرضاعة سوى «الأمهات والأخوات» وقد وضحت السنة النبوية، أن المحرمات من الرضاعة سبعٌ كما هو الحال في النسب، فقد روى البخاري ومسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال:

وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ

«يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» ثم ذكر تعالى المحرمات بالمصاهرة فقال ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ أي ويحرم عليكم أمهات زوجاتكم، وهنَّ محرمات بمجَّرد العقد على بناتهن، والربائب جمع ربيبة وهي بنت الزوجة من زوج آخر، يحرم نكاحها إذا كان قد دخل بأمها، فإن لم يكن قد دخل بها، وفارق أمها قبل الزفاف، فلا حرج من نكاح ابنتها، والقاعدة في هذه المسألة، (أن العقد على البنات يُحرّم الأمهات، والدخولُ بالأمهات يحرّم البناتِ) لقوله تعالى ﴿**اللاتي دخلتم بهن**﴾ ويحرم أيضاً نكاح زوجة الابن الصلبيّ، لا الابن من التبنيّ، لقوله سبحانه ﴿**الذين من أصلابكم**﴾ أي الذين ولدتموهم من صلبكم، فخرج بذلك الأدعياء من أولاد التبني ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ ويحرم الجمع في النكاح بين الأختين، ووردت السُّنَّة النبوية بتحريم الجمع بين الزوجة والعمة، والزوجة والخالة، فقد روى مسلم بسنده أن النبي ﷺ «نهى أن يَجمع الرجلُ بين المرأةِ وعمتها، والمرأةِ وخالتِها» وقد كانوا في الجاهلية يجمعون بين الأختين في وقت واحد، ولهذا قال سبحانه ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي إلا ما كان منكم في الجاهلية، فقد عفا الله عنه، لأنه سبحانه ساتر لذنوب العباد، رحيم بهم ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي وحُرّم عليكم نكاحُ المتزوجات من النساء، إلاَّ ما ملكتموهن في الحرب، عن طريق الأسر، فيحلُّ لكم وطؤهنَّ بعد الاستبراء بحيضة، ومعنى قوله تعالى ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي كَتب الله عليكم تحريم ما ذُكر من النساء كتاباً، وفرضه فرضاً ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ أي وأُبيح لكم نكاحُ ما سواهنَّ، إرادة أن تطلبوا النساء، بطريق شرعي

فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ

صحيح، فتدفعوا للزوجة المهر، حال كونكم أعفَّاءَ متزوِّجين غير زانين، وسُمِّي الزنى سفاحاً، لأنه لا غرض للزاني إلاَّ سفح الماء «المني» وقضاء الشهوة البهيمية ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ المراد بالاستمتاع هنا: التمتُّع والتلُّذذ بالنساء، بطريق النكاح الشرعي، لا نكاح المتعة كما يفسِّره الرافضة، حيث أباحوا نكاح المتعة، وهو محرَّمٌ بالنصوص النبوية القاطعة، حرَّمه الرسول ﷺ في مشهدَيْن عظيميْن: حين فتح خيبر، ويوم فَتَح مكة، وقد سُئل جعفر الصادق ـ وهو من أئمة آل البيت ـ عن نكاح المتعة؟ فقال: هو الزنى بعينه، ويدُل عليه أن الله ذكر المحرمات من النساء، ثم أعقبه بذكر ما يحلُ من النساء، بشرط الدوام والاستمرار، ودفع المهر لهن، ونكاحُ المتعة مؤقت إلى أجل محدود، شهراً أو أكثر، وعندهم يجوز بيوم أو ساعة، وهذا باطلٌ بإجماع أهل السنة والجماعة، ومعنى الآية الكريمة: فما تلذَّذتم بالجماع من النساء، بالنكاح الشرعي الصحيح، فادفعوا لهن مهورهنَّ، فريضة فرضها الله عليكم، ولا حرج ولا إثم عليكم أيها المؤمنون، فيما أسقطن من المهر برضاهنَّ، فاللهُ سبحانه عليمٌ بمصالح العباد، حكيم فيما شرع لهم من أحكام ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ﴾ أي ومن لم يجد سَعَةً من المال، أن يتزوَّج بالحرة العفيفة، فله أن ينكح أَمَةً ـ أي مملوكةً ـ مؤمنة، إذا خاف على نفسه الوقوع في الزنى، فلْيتزوَّج بها للضرورة، بإذن سيِّدها ومالكها، وقوله سبحانه ﴿**والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض**﴾ جملةٌ اعتراضية، لبيان أنه يكفي في الإيمان معرفة الظاهر، واللهُ يتولَّى السرائر، فلا تستنكفوا من نكاح الأمة عند الضرورة، فكلكم بنو آدم، ومن نفس واحدة، وربَّ أمةٍ خيرٌ من حرة ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ﴾ أي فتزوجوهنَّ بأمر أسيادهن وموافقة مواليهنَّ، وادفعوا لهنَّ مهورهنَّ بالعدل والإنصاف، بشرط أن يكنَّ عفيفات،

فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾

غير مجاهرات بالزنى، ولا عشيقات لرجالٍ بالسرِّ، يفجرن معهم، والخِدْنُ: هو الصديق للمرأة يزني بها سرّاً ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ﴾ أي فإذا تعففن عن الزنى بالزواج، ثم زنين، فعليهنَّ نصف ما على الحرائر من عقوبة الزنى، وهو الجلدُ خمسون جلدة، ولا رجم على الأَمَة، لأن الله تعالى جعل عقوبتها النصف، والرجمُ لا يمكن أن يُنَصَّف ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي هذا الذي بيَّناه من نكاح الإماء، إنما هو لمن خاف على نفسه «العَنَتَ» أي الفجورَ، والوقوعَ في جريمة الزنى، وقد أشارت الآية، إلى أن النكاح بالمملوكات للضرورة، ولهذا قال تعالى: **﴿وأن تصبروا خير لكم﴾** أي وتعفُّفُكم أيها المؤمنون عن نكاح الإماء المملوكات، خيرٌ من نكاحهن، لئلا يصير الولدُ رقيقاً، والله واسعُ المغفرة، عظيم الرحمة، وفي الحديث الشريف (من أحبَّ أن يلقى الله طاهراً مطهَّراً فلينكح الحرائرَ) رواه ابن ماجه ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ أي يريد الله بما شرع لكم من هذه الأحكام، أن يُبيِّن لكم ما خفي عنكم من مصالحكم، ومحاسن دينكم، ويرشدكم إلى مناهج الأنبياء والمرسلين، لتقتدوا بهم، وأن يوفقكم للتوبة، والله عليم بأحوال العباد، حكيم في تشريعه لهم ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾ أي والله يريد أن يطهِّركم من الذنوب والآثام، ويريد الفُسّاقُ والفُجّار، الذين يتَّبعون الأهواء والشهوات، أن يصرفوكم عن التقوى إلى الفجور، وعن الإيمان إلى الضلال، لتكونوا مثلهم ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ أي يريد تعالى أن يُسهِّل عليكم، في أمر التكاليف الشرعية، ولهذا خفَّف عنكم الأعباء، وجعلكم على الحنيفية السمحة، رحمةً منه وفضلاً، لضعفكم وعجزكم، لأن طبيعة الإنسان عدم الصبر عن شهوات

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ

النفس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ أي لا تأكلوا أموال غيركم بالحرام، كالربا، والقمار، والسرقة، والغصب، إلاَّ ما كان بطريقٍ شرعي شريفٍ، كالتجارة التي أحلَّها الله، بطريق التراضي بين البائع والمشتري **﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾** أي لا يسفكْ بعضكم دمَ بعضٍ، وعبَّر عن ذلك بقتل النفس، لأن المؤمنين كنفسٍ واحدة، فالعدوان على أحد منهم، عدوانٌ على النفس، ويدخل في الآية «الانتحارُ» والإلقاءُ بالنفس إلى التهلكة، وذلك من رحمته تعالى بالعباد. ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي ومن يفعل ما نهى الله عنه، معتدياً ظالماً، مستحِلاً لقتل النفس، وأكل المال الحرام، فسوف ندخله ناراً هائلة شديدة، نحرقُه فيها، وكان هذا العقابُ، أمراً هيِّناً يسيراً على الله، لأنه تعالى لا يعجزه شيء ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ أي إن تجتنبوا كبائر الذنوب والمعاصي، نغفر لكم صغائرها، وندخلكم الجنة دار السرور والحبور، التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذُنٌ سمعتْ، ولا خَطَر على قلب بشر» والكبائر بيَّنها سيِّد المرسلين بقوله: (اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا يا رسول الله: وما هنَّ؟ قال: الشركُ بالله، والسحرُ، وقتلُ النفس التي حرَّم الله إلاَّ بالحق، وأكلُ الربا، وأكلُ مال اليتيم، والتولِّي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات) رواه البخاري ومسلم.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ

﴿نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ﴾

نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ في هذه الآية نهيٌ عن الحسد، أي لا يتمنَّى بعضكم ما فضَّل الله به بعضَ الناس، من الجاه، والمال، والبنين، فإن الأرزاق مقسومة، بحكمة وتدبير، واسألوا الله من فضله يعطكم ويرزقكم، لأنه كريم وهاب، وفي الحديث الشريف (إن الله تعالى قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم) الحديث، نزلت هذه الآية حين قال بعضُ النساء لرسول الله ﷺ: (يغزو الرجال ولا نغزو، وإنما لنا نصفُ الميراث)!! فأنزل الله **﴿ولا تتمنوا ما فضَّل الله به بعضكم على بعض﴾** وختم الآية بقوله **﴿إن الله كان بكل شيء عليماً﴾** لينبِّه على أن التفضيل بين البشر، عن حكمةٍ وعلم وتدبير ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ أي ولكل إنسانٍ جعلنا له عصبةً يرثون ماله، ممَّا تركه آباؤه وأقرباؤه، والذين حالفتموهم في الجاهلية على النصرة والميراث، فأعطوهم حظَّهم من الإرث، وكان هذا الحكم في أول الإسلام، ثم نُسخ بقوله سبحانه **﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾** أي أولى وأحق بإرثه ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ﴾ أي الرجالُ لهم القوامةُ على النساء، يقومون عليهن بالأمر والنهي، قيام الولاة على الرعية، فهي قوامة تكليفٍ لا تشريف، وقد علَّل تعالى ذلك بأمرين: وهبيّ، وكسبيّ، فقال **﴿بما فضَّل الله بعضهم على بعض﴾** أي بسبب ما خصَّ به الرجال، من كمال العقل، وحسن التدبير، ومزيد القوة، وهذا أمرٌ وهبي، وأمَّا الكسبيُّ فأشار تعالى إليه بقوله **﴿وبما أنفقوا من أموالهم﴾** أي وبسبب إنفاقهم من أموالهم على الزوجات والأسرة، من المهر، والمأكل، والملبس، والمسكن، فكلُّ هذه نفقاتٌ مالية، يُكلَّف بها الرجلُ لا المرأة، ولمَّا كانت الأسرةُ «إدارة عائلية» فلا بدَّ لها إذاً من مدير، يدير شؤونها الداخلية، فالرجل أحقُّ بهذه

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴿٣٤﴾ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ﴿٣٥﴾﴾

الإدارة، لما حباه الله به من كمال العقل، وحسن التدبير، ومزيد القوة، ولذلك جعل الله الرجل قوّاماً، كالمدير في المدرسة، والأمير في البلدة، فهي إذاً قوامة مسئوليةٍ وتكليف، لا قوامة استعلاء وتشريف، ثم بيَّن تعالى حال الفاضلات من النساء، تحت قوامة الرجل، فقال سبحانه: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾أي فالنساء الصالحات مطيعاتٌ لله عزَّ وجل، قائمات بحقوق الأزواج، حافظاتٌ لما يجب عليهن حفظُه، من الأموال، وحفظ العرض والشرف، وعدم كشف أسرار الزوجية في غياب أزواجهن ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾أي: واللاتي يتمرَّدن ويتكبَّرن عن طاعة الأزواج، فعليكم أيها الرجال، أن تسلكوا معهنَّ طريق الإصلاح، بالوعظ والتذكير أولاً، والهجر بالمضاجع ثانياً، بأن يعزل فراشه عن فراشها، ولا يكلِّمها، ولا يقربها بالجماع، ويولِّيها ظهره، فإن لم يرتدعن فاضربوهنَّ ضرباً غير مبرِّح، والضربُ ليس للإساءة وإنما هو علاج، لكسر الغطرسة والكبرياء، وإخراج الوسواس الخنَّاس من رأسها، فإن أطعن أمركم، فلا تطلبوا طريقاً لإيذائهنَّ بالسباب و الشتائم، فإن الله عزَّ وجل أعلى منكم وأكبر، وهو سبحانه وليُّهن، ينتقم ممن ظلمهنَّ وبغى عليهن، وكلُّ هذه الخُطُوات ينبغي أن تحصل قبل الفراق، وإيقاع الطلاق عليهن، فهو علاج لمشكلةٍ مستعصية، عالجها الإسلام بتشريعه الحكيم الخالد ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾أي وإن خشيتم أيها الحكام، استمرار الخلاف والعداوة بين الزوجين، فوجِّهوا رجلاً عدلاً من أهل الزوج، وحكماً عدلاً من أهل الزوجة، لفضِّ النزاع بينهما، وخصَّ الأقارب بالذكر **﴿من أهلها﴾** لأنهم أعرف ببواطن الأمور، وأرغب في الإصلاح، فإن صفت النية، وفَّق الله بين الزوجين، ولم يذكر تعالى الفراق، لأنه مكروه عند الله، لما فيه من

﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾

تخريب بنيان الأسرة ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي اعبدوا الله ربَّكم، وخصُّوه وحده بالعبادة، ولا تعبدوا معه وثناً ولا صنماً، ولا تجعلوا له شريكاً، وأحسنوا إلى الوالدين إحساناً، برّاً وإنعاماً وإكراماً ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي وأحسنوا إلى الأقارب عامة، وإلى اليتامى خاصة، الذين فقدوا آباءهم، والمساكين الذين أقعدهم الفقرُ، وإلى الجار ذى القربى، الذي له بك صلة قرابة، والجار الجنب أي الأجنبي الذي لا قرابة بينك وبينه، وإلى الصاحب بالجنب أي الرفيق في السفر، أو الشريك في الشركة، وإلى ابن السبيل وهو المسافر الذي انقطع في سفره، وإلى العبيد والإماء الذين هم تحت أيديكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ أي إنه سبحانه لا يحب المتكبِّر، المتعالي على الناس، المفتخر بنفسه، الذي يرى أنه خير منهم، ثم بيَّن تعالى صفات هؤلاء الذين يبغضهم الله فقال جل ثناؤه ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي هؤلاء المتكبرون، هم الذين يبخلون في الإنفاق، ويأمرون غيرهم بترك الإنفاق، ويخفون أوصاف خاتم المرسلين المذكورة عندهم في التوراة، والآية نزلت في جماعة من اليهود، عرفوا صفات رسولِ الله ﷺ، فأخفوها، عن الناس خشية أن يؤمنوا، وهؤلاء أعدَّ الله لهم أشدَّ العذاب، في نار الجحيم، مع الخزي والإذلال لهم ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ أي ينفقون أموالهم للشهرة

﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴿٤٢﴾﴾

والفخار، لا لوجه الله الكبير المتعال، ولا يؤمنون الإيمان الصحيح، بالله وبلقائه، ومن كان الشيطان له صاحباً وخليلاً، فبئس هذا الصاحبُ والخليل ﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا﴾ أي ماذا يضرُّهم لو أنهم آمنوا بالله حقَّ الإيمان، وصدَّقوا بلقائه، وأنفقوا بعض ما رزقهم الله من فضله؟ وهذا ذمٌّ وتوبيخٌ لهم على الجهل بمكان المنفعة **﴿وكان الله بهم عليماً﴾** وعيدٌ وتهديد، أي والله سبحانه مطلعٌ على ما أخفوه في أنفسهم، ومجازيهم عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ أي إن الله لا يظلم أحداً من عباده، ولو كان وزن ذرة من التراب، وإن كانت هذه الذرة من أعمال الخير، يضاعفها الله لصاحبها أضعافاً كثيرة، ويعطي تفضلاً منه، عطاءً جزيلاً، وهي الجنة دار المتقين ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ أي كيف يكون حال الأشقياء الفُجّار، إذا جئنا يوم القيامة بكل أمةٍ من الأمم، بنبيِّها يشهد عليها، وجئنا بك يا خاتم النبيِّن على أمتك، لتشهد على العُصاة منهم؟ كيف يكون موقفهم وحالهم؟

﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ أي في ذلك اليوم العصيب الرهيب، يتمنى الكفار والفُجّار، الذين عصوا أمر الله وأمر رسوله، لو يُدفنوا في الأرض، أو تنشق بهم الأرضُ فتبتلعهم، ولا يستطيعون في ذلك الوقت أن يكتموا الله حديثاً، لأن جوارحهم تنطق وتشهد عليهم بما فعلوا!! روي عن ابن مسعود أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: (اقرأ عليَّ القرآن، قلت يا رسولَ الله: أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: فإني أحبُّ أن أسمعه من غيري!! قال: فقرأت عليه سورة النساء، حتى أتيتُ إلى هذه الآية **﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾**؟ قال: حسبُك الآن، فنظرتُ فإذا عيناه تذرفان) رواه

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾

البخاري، بكى ﷺ شفقةً على العصاة من أمته ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ﴾ أي لا تصلُّوا حالة السُّكر، حتى تعلموا ما تقرءونه، و لا تقربوا الصلاة وأنتم في حالة الجنابة، حتى تغتسلوا، إلاَّ إذا كنتم مسافرين، ولم تجدوا الماء، فتيمَّموا وصلُّوا، وقد كان هذا قبل تحريم الله للخمر، فقد روي أن «عبد الرحمن بن عوف» صنع طعاماً، ودعا إليه بعض أفاضل الصحابة فأكلوا، وقدَّم لهم شراباً ـ حين كانت الخمر مباحةً ـ فأخذت الخمر منهم، وحانت صلاةُ المغرب، فقدَّموا أحدهم ليصلي بهم، فقرأ «قل يا أيها الكافرون، أعبد ما تعبدون، وأنتم عابدون ما أعبد» إلى آخرها، فنزلت الآية ﴿**لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى**﴾ رواه الترمذي ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ أي وإن كنتم في حالة المرض، ويضركم استعمالُ الماء، أو في حالة السفر ولم تجدوا الماء، أو قضى أحدكم حاجة من بولٍ أو غائط ـ وهو الحدث الأصغرُ ـ ﴿**أو لامستم النساء**﴾ أي جامعتموهنَّ ـ وهو الحدث الأكبر ـ ولم تجدوا الماء، فاقصدوا الطهارة بالتيمم بالتراب الطاهر، فامسحوا بهذا التراب وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، فإن التيمم يجزىء عن (الوضوء، والغُسْل)، وهذا من رحمة الله بالعباد، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿**إن الله كان عفواً غفوراً**﴾ أي يُسهِّل على العباد ويُرخِّص لهم، لئلا يقعوا في الضيق والحرج، وعبَّر تعالى عن الجماع بالملامسة، لتعليم المؤمنين الأدب في الحديث، فيأتوا بالكناية بدل اللفظ الصريح، قال ابن عباس: (لامستم النساءَ) أي جامعتموهن ولكنَّ الله حييٌ كريم يكني!! ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ تعجيبٌ من

وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

حال أحبار اليهود، وتحذيرٌ للمؤمنين من موالاتهم، أي ألاَ تعجب أيها السامع، إلى هؤلاء الذين أُعطوا حظّاً من علم التوراة ـ وهم أحبار اليهود ـ يختارون الضلالة على الهدى، ويريدون لكم يا معشر المؤمنين أن تضلُّوا كما ضلُّوا، لترجعوا عن الإيمان إلى الكفر، فتكونون مثلهم؟ ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ أي والله جلَّ وعلا أعلمُ بعداوة هؤلاء اليهود الضالين لكم، ولذلك حذَّركم منهم، وحَسْبُكم عزّاً ونصراً، أن يكون الله ولياً لكم وناصراً، فلا تبالوا بهم، ولا تثقوا بكلامهم، ثم ذكر طرفاً من جرائم وقبائح اليهود الخبثاء، فقال سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ﴾ أي وفريقٌ من اليهود، يحرِّفون كلام الله، ويبدِّلون آيات التوراة قصداً وعمداً، ليضلِّلوا الناس بذلك، كتحريفهم حكم الرجم، وتحريفهم نَعْتَ النبي ﷺ، ويقولون في كلِّ ما يخالف هواهم: **﴿سمعنا وعصينا﴾** أي سمعنا قولك يا محمد، ولا نطيعك فيه، وهذا أبلغ في الكفر والعناد **﴿واسمع غير مسمع﴾** وهذا من خُبثهم، يقولون: اسمع يا محمد ما نقول، لا أسمعك الله، دعاءٌ عليه بالصَّمم أو بالموت، والعبارة لها وجهان: ظاهرٌ جميل كأنهم يقولون: لا سمعتَ مكروهاً، وهي دعاء بالخير، وخفيٌّ خبيث، كأنهم يقولون: أُصِبْتَ بالصَّمم، وهو مرادهم هنا، وهي دعاء بالشرِّ **﴿وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين﴾** أي ويقولون عند خطابهم لرسول الله ﷺ: راعنا يا محمد، وهي كلمة ذاتُ وجهين أيضاً، محتملة للخير على معنى الرعاية والانتظار أي انظر إلى كلامنا وحالنا، وللشر من الرعونة والحماقة، فكانوا سخريةً وهزءاً بالرسول عليه السلام، يكلمونه بكلام محتمل، يحتمل الخير والشرَّ، ولكنهم لفجورهم يقصدون به الإهانة والشتيمة، ويظهرون به التوقير والإجلال، ولهذا قال تعالى بعده: **﴿لياً بألسنتهم وطعناً في الدين﴾** أي يقولون ذلك لصرف الكلام عن وجهه الصحيح، إلى السخرية والاستهزاء، والطعن في الدين ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾

أي لو أن هؤلاء اليهود، قالوا: ﴿**سمعنا وأطعنا**﴾ عوضاً عن قولهم الشنيع: سمعنا وعصينا، وقالوا: ﴿**اسمع وانظرنا**﴾ مكان قولهم: اسمع غير مسمع، لو أنهم قالوا للرسول ذلك القول اللطيف، بدل ذلك القول الشنيع، لكان ذلك القولُ خيراً لهم وأنفع، وأدعى لسعادتهم، ولكنهم لفجورهم آثروا الإساءة على الإحسان، ولذلك لعنهم الله أي أبعدهم وطَرَدهمَ من رحمته، وإيمانُهم مرفوضٌ غير مقبول عند الله تعالى، ثم توعَّدهم تعالى بالطمس وسلب الحواس، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾

أي يا معشر اليهود، يا من تزعمون الإيمان، آمنوا بالقرآن الذي نزَّلناه على عبدنا محمد خاتم المرسلين، الكتاب الذي جاء مصدَّقاً لما عندكم من التوراة، من قبل أن نُعْمِي أبصاركم، ونذهب حواسكم (السمع، والبَصر والعقل والكلام) فنجعل وجوهكم مطموسة كالأدبار، فنشوِّه محاسن الوجه، أو نلعنكم كما لعنَّا أجدادكم، الذين خالفوا أمر الله، واصطادوا يوم السبت، فمسخناهم إلى قردة وخنازير ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي كائناً لا محالة، لأن الله لا يخلف الميعاد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ إعلانٌ من ربِّ العزَّة والجلال لعباده، بأن كل ذنبٍ يمكن أن يغفره الله، إلاَّ الكفر والإشراك بالله، فهذا لا يُغفر أبداً، ومن أشرك بالله فقد اختلق ذنباً عظيماً، وارتكب جرماً فظيعاً شنيعاً تُسْتحقَر دونه الذنوب والجرائم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي ألا تعجب أيها السامعُ من حال هؤلاء اليهود؟ الذين يطهِّرون نفوسهم من الذنوب، ويقولون: نحن أبناءُ الله وأحباؤه، فلن يعذبنا الله، مع ما هم عليه من الكفر، والتكذيب لخاتم الأنبياء والمرسلين!؟ ﴿**ولا يظلمون فتيلاً**﴾ أي ولا يُظلمون أدنى ظلم وأصغره، ولو بمقدار الخيط الذي في شقِّ النواة، وهو

﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا

مَثَلٌ يُضرب للقلّة والحقارة ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ هذا تعجيبٌ من افترائهم، أي انظر كيف يتجرءون فيكذبون على الله، بدعوى أنهم أولياءُ الله وأحباؤه؟ وكفى بهذا الافتراء ذنباً عظيماً، وجُرماً بيِّناً واضحاً، يستحقون عليه أشدَّ العقاب!! ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ تعجيب آخر من ضلالات اليهود، زيادةً في التقبيح والتشنيع عليهم، أي ألا تعجب يا أيها الرسول، من أمر هؤلاء اليهود، الذين أُعطوا حظّاً من علم التوراة، يكفرون بالرحمن، ويؤمنون بالشيطان، وبكل ما عُبد من دون الله!! يفضّلون الكفار على المسلمين، لجهلهم وقلة دينهم، ويقولون لكفار مكة: أنتم أهدى طريقاً من محمد وأصحابه!! نزلت في «كعب بن الأشرف - أحد أحبار اليهود - سأله بعض مشركي مكة: هل نحن أهدى سبيلاً أم محمد وأصحابه؟ فقال اللعينُ: بل أنتم والله أهدى منه سبيلاً، ودينكم خيرٌ من دينه ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ أي أولئك الأشقياء المغرقون في الضلالة، هم المطرودون من رحمة الله، ومن يُبعده الله من رحمته، فلن تجد له ناصراً، يمنع عنه العذاب!! ثم ذكر تعالى بعض قبائحهم وشنائعهم، فقال موبخاً لهم: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ هذا توبيخ آخر لهم على شدة الشُحّ والبخل، أي هل لهم نصيب من الملك؟ وهذا إنكارٌ لما يزعمه اليهود، أن الملك يعود إليهم آخر الزمان!! ولو كان لهم ما يزعمون، فإذاً لا يؤتون أحداً مقدار نقير، وهو النُّقرةُ في ظهر النواة، يُضرب به المثلُ في القلة والحقارة، ثم انتقل إلى خصلة شنيعة، هي أشدُّ من البُخل وهي «الحَسَدُ» فقال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أي أيحسدون محمداً ﷺ وأصحابه، على نعمة النبوّة والقرآن؟ ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا

عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا

عَظِيمًا﴾ أي فقد أعطينا أسلافهم من ذرية إبراهيم، النبوَّة والعلم، وآتيناهم الملك العظيم مع النبوَّة، كداود، وسليمان حين قال: **﴿وهب لي مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي﴾** فكيف يحسدون محمداً ﷺ على النبوة؟ ويستبعدون أن تكون الرسالة في غير اليهود؟ ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أي فمن اليهود من صدَّق برسالة محمد ﷺ وهم قلَّةٌ قليلة، ومنهم من أعرض ولم يؤمن برسالته عليه السلام، وهم كثرة كثيرة، كقوله سبحانه: **﴿فمنهم مهتدٍ وكثيرٌ منهم فاسقون﴾** وَصَف تعالى اليهود في الآية المتقدمة، بالجهل الشديد، وهو اعتقادهم أن عبادة المشركين للأوثان، خيرٌ من عبادة المؤمنين للرحمن، ثم وصفهم بالشح والبخل، مع كثرة ما عندهم من مال، ثم وصفهم بما هو أقبح وأشنع، وهو «داءُ الحسد» الذي هو شرُّ الرذائل، فإن الحاسد يريد أن يمنع نعمة الله عن عباده، والحسودُ دائماً وأبداً لا يسود، وهذه هي أخلاق اليهود، في كل زمان ومكان ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي إن الذين كذبوا بالقرآن، ولم يؤمنوا بالرحمن، سوف ندخلهم ناراً هائلةً شديدة، تشوي الوجوه والجلود، كلما احترقت جلودهم واهترَتْ، بدلناهم جلوداً غيرها، ليدوم لهم ألمُ الاحتراق والعذاب، والله سبحانه عزيزٌ أي غالب لا يُقهر، حكيم لا يُعذِّب أحداً بدون جرم، روى أحمد في المسند أن النبي ﷺ قال: «يعظم أهلُ النار في النار ـ أي تعظم أجسامهم وتضخم ـ حتى إن بين شحمة أُذُن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، وإن غلظ جلده سبعون ذراعاً، وإن ضرسه مِثْلُ أُحدُ» ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ إخبارٌ عن مآل المؤمنين السعداء، بعد الإخبار عن مآل الكفار الأشقياء، أي إن الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، سندخلهم في الآخرة حدائق وبساتين، تجري من تحت قصورها ومنازلها أنهار الجنة، ماكثين فيها أبداً لا

﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ﴾

يخرجون منها ولا يموتون ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أي لهم في الجنة زوجاتٌ مطهَّراتٌ من الأقذار والأدناس، كالحيض والنفاس، والتبول والتغوط، وسائر ما يعتري نساء الدنيا، وندخلهم الظلَّ الظليل، في جنات الخلد والنعيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ أي يأمركم أيها المؤمنون ربُّ العزة والجلال، أن تُعطوا الحقوق إلى أهلها، الأمانات في حقوق الله عزَّ وجل، والأمانات التي للناس عندكم، كالودائع والحقوق المالية، ويأمركم إذا قضيتم بين الناس أن تحكموا بالعدل أي بالإنصاف والسويَّة، ليبقى المجتمع راسخ البنيان، قويَّ الأركان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي نعم هذا الشيء الذي يأمركم به، وهو أداءُ الأمانة، وإقامةُ العدل، بين جميع الخلق، إن الله سميعٌ لأقوالكم، بصيرٌ بأفعالكم، وهو وعدٌ ووعيد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ﴾ أي أطيعوا أمر الله، وأمر الرسول فيما يدعوكم إليه من فعل الطاعات، وترك الفواحش، وأطيعوا الحُكّام إذا كانوا مسلمين، متمسِّكين بشرع الله، إذ لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، وفي قوله سبحانه: ﴿منكم﴾ دليلٌ ساطع على أن الحكام إذا كانوا غير مسلمين، أو كانوا غير متمسكين بشرع الله، فلا طاعة لهم في أعناق المسلمين، لأن الله شَرَط أن يكونوا مسلمين حقاً، لا مسلمين في الصورة والهوية ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي فإن اختلفتم في أمرٍ من الأمور، فاحتكموا فيه إلى كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، إن كنتم مؤمنين حقاً، فذلك خيرٌ لكم وأصلح، وأحسن عاقبةً ومآلاً ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ

مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾

مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ نزلت هذه الآية في المنافقين وهم أخبثُ من الكافرين، وأشدُّ منهم عذاباً، أي ألاَ تعجب يا أيها الرسول، من صنيع هؤلاء المنافقين، الذين يزعمون الإيمان، ثم لا يرضون بحكم الرحمن!؟ يريدون أن يتحاكموا في خصوماتهم إلى رؤساء الكفر والضلال، ويرفضون حكم الله ورسوله، ويريد الشيطان بما زيَّن لهم، أن يحرفهم عن الحق والهدى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ أي وإذا قيل لأولئك المنافقين: تعالوا لنتحاكم إلى كتاب الله، وإلى ما يقضي به الرسول، ليفصل بيننا في النزاع، رأيت المنافقين يعرضون عنك إعراضاً.. نزلت هذه الآيات، في قصة من أغرب القصص، تكشف الستار عن المنافقين، وهي: أن رجلاً من اليهود، كان له على رجلٍ من المسلمين يُسمَّى «بِشر» حقٌّ ما لي، جاء يطلب منه حقَّه فجحده وأبى أن يدفع له الحقَّ، فقال اليهودي: تعالَ معي نتحاكم إلى محمد نبيِّك الذي تؤمن به!!

فقال له المنافق: بل نتحاكم إلى «كعب بن الأشرف» وهو الذي سمَّاه الله بـ«الطاغوت» فقال له اليهوديُّ: أدعوك إلى نبيِّك محمد فتأبى التحاكم عنده؟ وخشي المنافق أن يبلغ الخبر إلى رسول الله ﷺ فينكشف أمره، فذهب معه مكرهاً، وعَرَض اليهوديُّ قصته، وكان الأمرُ واضحاً ساطعاً، فحكَمَ رسولُ الله ﷺ لليهودي على المسلم المزيَّف «المنافق» فلمَّا خرجا من عنده لم يرض المنافق بحكم الرسول ﷺ وقال لليهودي: تعال نتحاكم من جديد عند «عمر بن الخطاب»، فأتيا عمر، فقال اليهودي: كان بيني وبين هذا خصومةٌ، فتحاكمنا عند محمد، فقضى لي بالحق عليه، فلم يرضَ بقضائه، وزعم أنه يخاصمني إليك!! فقال له عمر: أصحيحٌ ما يقوله اليهودي؟ قال: نعم - وظنَّ أن عمر سيجلُّه لأنه يرضى بحكمه وقضائه - فقال: مكانكما حتى أخرج إليكما!! فدخل عمر فأخذ سيفه، وخبأه تحت ردائه، ثم خرج فضرب رأس المنافق، ضربةً أطاحت برأسه عن عنقه، وقال: هكذا أحكم فيمن لم يرض بحكم الله، وحكم

﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ﴾

رسوله، ونزلت هذه الآيات، ثم قال تعالى في تتمة القصة ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾ أي فكيف يكون حالهم، إذا كشف الله الستر عنهم، فظهر نفاقهم للمؤمنين؟ وعاقبهم الله على إجرامهم؟ ثم جاءوك يُقْسِمون بالله، ما أردنا بالتحاكم إلى غيرك، إلا الصلح والتوفيق بين الخصوم، وما أردنا رفض حكمك، قال تعالى تكذيباً لهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ أي هؤلاء الأشقياء المنافقون يكذبون، والله يعلم ما في قلوبهم من النفاق والخديعة، فاترك معاقبتهم يا محمد للمصلحة، ولا تهتك سترهم، ليبقوا على خَوْف وحَذَر **﴿وعِظْهم﴾** أي ازجرهم بلسانك، وكفَّهم عن النفاق والكيد والكذب، وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ مؤثر، يكون لهم رادعاً، ولنفاقهم زاجراً ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ أي وما أرسلنا رسولاً من الرسل، إلاَّ لِيُطاع بأمر الله تبارك وتعالى، فإن طاعته طاعة لله، ومعصيتَهُ معصيةٌ لله، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ أي ولو أن هؤلاء المنافقين، حين ظلموا أنفسهم بالنفاق، وعرَّضوها لسوء العذاب، جاءوك يا أيها الرسول، تائبين نادمين، مستغفرين الله من ذنوبهم، معترفين بخطئهم، وجناياتهم، متوسِّلين إليك لتطلب لهم من الله المغفرة، واستغفرتَ يا محمدُ لهم، لعلموا سعة رحمة الله، ولطفه بعباده!! وإنما قال **﴿واستغفر لهم الرسول﴾** على طريقة الالتفات ولم يقل: واستغفرت لهم، تفخيماً لشأنه عليه السلام، وتعظيماً لاستغفاره ووساطته، لمكانته الرفيعة عند الله، فالله جلَّ وعلا وحده هو غفَّارُ الذنوب. ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ

يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾

﴿يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ «لا» مزيدةٌ لتأكيد القَسَم، أي أقسمُ بربكِ يا محمد، لا يكونون مؤمنين حقاً، حتى يتحاكموا إليك، ويرضوا، بحكمك، في ما تنازعوا واختلفوا فيه من خصومات ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي ثم لا يجدوا في أنفسهم، ضيقاً ولا ضجراً مما حكمتَ به، وينقادوا انقياداً تاماً كاملاً، بظاهرهم وباطنهم لحكمك وقضائك، فإن من صفة المسلم التسليم ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ أي ولو أنّا فرضنا وأوجبنا على هؤلاء المنافقين **﴿أن اقتلوا أنفسكم﴾** كما أمرنا بني إسرائيل حين عبدوا العجل **﴿أو أخرجوا من دياركم﴾** كما أمرنا بني إسرائيل بالخروج من مصر **﴿ما فعلوه إلا قليل منهم﴾** أي ما استجاب ولا انقاد لذلك التكليف، إلاّ قليلٌ منهم لضعف إيمانهم، والمراد بالقليل: المخلصون من المؤمنين منهم ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ أي ولو أنهم أطاعوا الأمر، واستجابوا لما كُلّفوا به، من متابعة الرسول ﷺ، والانقياد لحكمه ظاهراً وباطناً، لكان خيراً لهم في دنياهم وآخرتهم، وأشدَّ تثبيتاً لإيمانهم، وأبعد لهم عن النفاق والضلال ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي لو آمنوا وأطاعوا، لأعطيناهم من عندنا ثواباً جليلاً كبيراً، هو الجنة، ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي ولهديناهم إلى الطريق المستقيم، الموصل بهم إلى جنات النعيم ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ أي ومن يطع أمرَ الله وأمرَ الرسول، فإن الله جلَّ جلاله، سيسكنه جنان الخلد والنعيم، مع النبيِّين الأبرار، والصدِّيقين الأطهار، والشهداء الأخيار، والصالحين من عباد الله، ونعم صحبةُ هؤلاء ورفقتهم!! بمعنى ما أحسنها وأكرمها من

ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٧٣﴾

رفقة!! ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ أي هذا هو الفضل العظيم، من ربِّ العزة والجلال، لعباده المطيعين المتقين، وكفى أن يكون الله عالماً بمن يستحق هذا الفضل والإكرام!! والمرءُ يُحشر مع من أحبَّ، وهذه الآية هي التي دعا بها رسول الله ﷺ وهو في سكرات الموت، يودِّع الحياة، فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من نبيٍّ يمرضُ، إلاَّ خُيِّر بين الدنيا والآخرة، فلما كان في شكواه الذي قُبض فيه، سمعته يقول: **﴿مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين﴾** فعلمتُ أنه خُيِّر وأنه لا يختارنا)!! ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾ أي خذوا يا معشر المؤمنين، حذركم من أعدائكم، فتيقَّظوا واحترزوا منهم، واستعدُّوا لهم بالسلاح، فاخرجوا إلى الجهاد جماعات متفرِّقين، سريَّةً بعد سريَّة، أو اخرجوا مجتمعين في الجيش الكثيف جماعةً واحدة ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا﴾ أي وإن منكم لمن يتثاقلُ ويتخلفُ عن الجهاد، لمرضٍ في قلبه ـ وهم المنافقون ـ فإن أصابتكم هزيمةٌ أو قتلٌ، قال ذلك المنافقُ: الحمد لله أني لم أكن حاضراً في المعركة، فيصيبني ما أصابهم، وأُقتل كما قتلوا ﴿وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ أي ولئن أصابكم نصرٌ وغنيمة، ليقولنَّ ندامةً وتحسُّراً على ما فاته: يا ليتني كنت معهم في الغزو، لأنال حظاً وافراً من الغنيمة!! وجملةُ **﴿كأن لم تكن بينكم وبينه مودة﴾** جملة اعتراضية للتنبيه على ضعف إيمانهم، كأنهم لا يعرفون المؤمنين، وليس بينه وبينهم معرفة سابقة، ولا صلةُ صداقة، وللتنبيه على أن تمنِّيهم كونهم مع المؤمنين ليس لنصرتهم، وإنما للحرص على

۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

الغنيمة ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي فلْيقاتلْ المؤمنون المخلصون، لإعلاء كلمة الله، الذين يبيعون الحياة الفانية، بالحياة الباقية، ومن يقاتل لمرضاة الله، وإعزاز دينه، فينال شرف الشهادة، أو يظفر وينتصر على الأعداء، فسوف نعطيه الثواب الجزيل، وهو الجنة دار المتقين ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ أي أيُّ شيء يمنعكم من القتال في سبيل الله؟ وفي سبيل تخليص المستضعفين من إخوانكم في الدين؟ الذين صدَّهم المشركون عن الهجرة؟ وأخذوا في التضرع إلى الله، أن ينقذهم من أهل مكة الكفرة المجرمين، الذين أذاقوهم فنون العذاب، وهؤلاء المستضعفون هم (الشيوخ، والنساء، والصبيان)، واتفق المفسرون على أن المراد بالقرية الظالم أهلها «مكة» شرَّفها الله، التي كانت موطنَ الكفر، وعاصمةَ العُتاة الفراعنة من المشركين ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ أي واجعل لنا من يتولّى من المسلمين أمورنا، ويحفظ علينا ديننا، وينصرنا على أعدائنا!! وقد استجاب الله دعاءهم المخلص، فجعل لهم بعد الضيق فرجاً ومخرجاً، وجعل لهم خير وليّ وناصر، وهو محمد خاتم المرسلين، حين فتح مكة ودخلها عزيزاً منتصراً ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ أي أهلُ الإيمان يقاتلون لإعلاء كلمة الله، وأهل الكفر والطغيان، يقاتلون في سبيل الشيطان، فقاتلوا يا أهل الإيمان أئمة

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾

الكفر، فإنكم تغلبونهم، فشتَّان بين من يقاتل في سبيل الرحمن، ومن يقاتل في سبيل الشيطان!! وكيدُ الشيطان للمؤمنين، أمام كيد الله للكافرين، ضعيفٌ لا يُذكر ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ تعجيبٌ لرسول الله ﷺ من قوم طلبوا القتال وهم بمكة، فقيل لهم: أمسكوا أيديكم وكفُّوا عن قتال المشركين، واشتغلوا بعبادة الله، وأعدُّوا أنفسكم للتربية الروحية، بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ أي فلمَّا فُرض عليهم قتالُ المشركين، إذا جماعة منهم يجبنون ويفزعون من الموت، كخشيتهم لله أو أشدَّ من ذلك، أي يخافون المشركين أن يقتلوهم، كما يخشون الله أن يُنزل عليهم بأسه، وهؤلاء قوم من المنافقين ضعفاء الإيمان ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي وقالوا خوفاً من الموت وجَزَعاً منه: ربنا لِمَ فرضت علينا القتال؟ وهلاَّ أخرتنا حتى نموت بآجالنا؟ قل لهم يا محمد: إن نعيم الدنيا فانٍ زائل، ونعيم الآخرة باقٍ دائم، وما أعدَّه الله للمتقين، خيرٌ من كل ما في الدنيا من نعيم، ولا تُنقصون يوم القيامة من ثواب أعمالكم شيئاً، ولو مقدار الفتيل، وهو الخيط الذي في شقِّ النواة، والآية نزلت ـ كما وضَّحنا ـ في ضعاف الإيمان من المنافقين، الذين كانوا يظهرون الشجاعة والبطولة، ويخفون في نفوسهم الهَلع والجَزَع من الموت، وقد جاءت الآياتُ تكشف عن خباياهم ونواياهم، ولم تنزل في الصحابة الكُمَّل، من المجاهدين الصابرين، بدليل الآية التي بعدها، وهي قوله سبحانه ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ **أي في أيِّ مكانٍ كنتم من**

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾

الأرض، يلحقكم الموتُ الذي تكرهونه، ولو كنتم في حصون عالية منيعة!! وإن نال هؤلاء المنافقين حسنةٌ من نصرٍ وغنيمة، قالوا هذا من الله إكراماً لنا، وإن تنلهم سيئةٌ من هزيمةٍ وجوعٍ، قالوا هذه بشؤم محمد، قل لهؤلاء المنافقين: الحسنةُ والسيئةُ، والنعمةُ والنقمةُ، كلُّ ذلك من عند الله، وبحكمته وتدبيره، فهو وحده النافع الضار، فما لهؤلاء المنافقين، لا يكادون يفهمون الكلام!؟ وهو توبيخٌ لهم على قلة العلم والفهم، ثم بيَّن تعالى حقيقة قضية الإيمان فقال ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ الخطاب هنا لكل إنسان ولكل سامع، أي ما أصابك أيها الإنسانُ من نعمة وإحسانٍ، فمن الله تعالى تفضُّلاً منه وكرماً، وما أصابك من مصيبةٍ وبلاء، فبسبب ما اقترفته يداك أيها الإنسان من معاصٍ وآثام، كقوله سبحانه **﴿وما أصابكم من مصيبةٍ فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾** ثم قال تعالى تعظيماً لشأن الرسول ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي وأرسلناك يا أيها الرسولُ لكافة الناس، ولجميع البشر، تبلّغهم شرائع دين الإسلام، وتدعوهم إلى دار السلام، وحسبُك يا محمد أن الله شاهد على صدق نبوتك ورسالتك ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي من أطاع الرسول فقد أطاعَ الله تعالى، لأنه مبلّغٌ عن الله أمرَه ونهيه، فطاعتُه من طاعة الله، لأن الله أرسله، ومن أعرض عن طاعة الرسول، فما أرسلناك يا محمد، حافظاً لأعمالهم، مجازياً عليها، إنما عليك البلاغُ وعلينا الحساب ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ الآيات لا تزال تتحدث عن المنافقين، وقد فضحتهم هذه الآيات، وأظهرتْ خفايا نفوسهم، والمعنى: ويقول المنافقون: أمرُك يا محمد طاعةٌ، كقول القائل: سمعاً وطاعة، فإذا خرجوا من مجلسك، دبَّر جماعةٌ منهم ـ وهم رؤساء المنافقين ـ أمراً غير الذي أمرتهم به، وهو عزمُهم على الخلاف، والله تعالى يأمر الحفظة بكتابته في صحائف أعمالهم، ليُجازوا عليه، فلا تعاقبهم على إجرامهم،

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾

واعتمد على الله، فهو سبحانه ينتقم لك منهم، وكفى باللّهِ ناصراً ومعيناً لمن توكَّل عليه ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ أي أفلا يتأملون هذا الكتاب المعجز، ليروا ما فيه من التشريع الحكيم، والنور المبين؟ ففي تدبَّر آياته، يظهر برهانُه، ويسطعُ نُوره وبيانُه؟ ولو كان هذا القرآن من عند غير الله ـ كما يزعمون ـ لرأوا فيه تناقضاً كبيراً، في أحكامه، وألفاظه، ومعانيه، بعضُه موافق للعقل، وبعضه مناقضٌ، ولكنه منزَّهٌ عن ذلك، فدلَّ على أنه كلام العزيز الحميد ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ﴾ أي وإذا جاء المنافقينَ وضعفاءَ الإيمانِ، خبرٌ من الأخبار عن المؤمنين بالظفر والغنيمة، أو النكبة و الهزيمة، أفشوه وأظهروه، قبل أن يقفوا على حقيقة الأمر، وفي ذلك ضرر كبيرٌ على المجاهدين، لأن فيه إفشاء أسرار الحرب، قبل التثبت من النصر أو الهزيمة، ولو ترك المنافقون الحديثَ عن ذلك الأمر، وردُّوه إلى الرسول ﷺ وأكابر الصحابة، لعلمه أهلُ الفهم والذكاء من هؤلاء الأكابر، وبقيت أسرار الحرب والمعركة، سرّاً لا يطَّلع عليه كلُّ أحد، وفي الآية إنكارٌ على كل من يُحدِّث بكل ما سمع، وفي الحديث الشريف (كفى بالمرء كذباً أن يُحدِّث بكل ما سمعَ) رواه مسلم ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ولولا فضل الله عليكم بإرسال الرسول، ورحمته لكم بإنزال القرآن، لإرشادكم إلى طريق الحقِّ والصواب، لاتبعتم الشيطان فيما يوسوس به إليكم، من مقارفة الفواحش، وسلوك طريق الضلال، إلا القليل منكم وهم أصحاب العقول المستنيرة، والبصائر النافذة، ثم دعا اللّهُ رسولَه ﷺ إلى الجهاد، ولو لم يخرج معه أحد، فقال سبحانه ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ أي فقاتل يا أيها الرسول لإعزاز دين الله، ولو بقيتَ

مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

وحدك، ولم يخرج معك أحد، فإنك موعودٌ بالنصر، ولا تهتمَّ بتخلُّف المنافقين عنك، وشجِّعْ المؤمنين على قتال أعداء الله، لعلَّ الله يردُّ كيدهم في نحورهم، ويمنع شرَّهم عن الإسلام والمسلمين، والله جلَّ وعلا أشدُّ قوةً وسطوةً، من هؤلاء الفجرة، وأشدُّ تعذيباً وعقوبة لهم، بمعنى أن عذاب الله لهم أشدُّ من جميع ما ينالكم من قتالهم، و«عسى» في الآية للوجوب، فالكريمُ إذا أطمع أنجز ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾ أي من يشفع شفاعةً حسنةً كعون ضعيفٍ للوصول إلى حقه، أو دفع شرّ عنه، يكن له نصيبٌ من الأجر، ومن يشفع شفاعة سيئةً مخالفةً للشرع، كالشفاعة لإسقاط حدٍّ من حدود الله تعالى، كمن يشفع للسارق أو القاتل لئلا يُقام عليه الحدُّ، يكن له وزرٌ من هذه الشفاعة، لأنه إعانةٌ للأشرار على انتهاك محارم الله، وفيه ضرر عظيم على المجتمع ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ أي والله جلَّ وعلا مقتدرٌ على كل شيء، فيجازي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾ أي إذا سلَّم عليكم أحدٌ، فردُّوا عليه التحية بأفضلَ مما سلَّم، أو ردُّوا عليه بمثل ما سلَّم، فإذا قال: «السلام عليكم ورحمةُ الله» فلا ترَّد عليه بقولك: «وعلكيم السلامُ» مقتصراً عليها، بل تقول: وعليكم السلام ورحمةُ الله وبركاتُه، فهي الأحسن، أو تقول: «وعليكم السلام ورحمةُ الله» وهي المثلُ ﴿**إن الله كان على كل شيء حسيباً**﴾ أي إنه تعالى محاسبٌ ومجازٍ على كل شيء من أعمالكم، صغيرها وكبيرها، والحسيبُ بمعنى المحاسب، وقد كان العرب يقولون عند اللقاء: حيَّاك الله أي أطال حياتك، فأبدلها الإسلام بالسَّلام ﴿**فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة**﴾ لأن فيها من المعاني السامية، ما ليس في الدعاء بطول العمر، فإذا قلنا للشرِّير الفاجر: أطال الله عمرك، فنحن ندعو له بأن يستمرَّ شرُّه على العباد ويستديم!! ولا مانع للمسلم أن يقول لضيفه: أهلاً وسهلاً ومرحباً، لكنْ ينبغي أن يكون هذا بعد ردِّ السلام ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ هذا

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾

قَسَمٌ من رب العزة والجلال، أي واللهِ الذي لا معبود بحقٍّ سواه، ليحشرنكم اللّهُ أيها الناس من قبوركم، ليوم الحساب والجزاء، الذي لا شكَّ فيه **﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾** لفظُه استفهامٌ ومعناه النفيُ، أي لا أحد أصدقُ في الحديث من رب العزة والجلال!! وفي الحديث القدسي (كذَّبني ابنُ آدمَ ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، أمَّا تكذيبُه إيَّاي فقولُه: لن يعيدني كما بدأني، وليس أوَّلُ الخلق بأهونَ عليَّ من إعادته!! وأمَّا شتمُه إيَّاي فقوله: اتَّخذ اللهُ ولداً، وأنا الأحدُ الصَّمدُ، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفُواً أحدٌ) رواه البخاري ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ۚ﴾ أي ما لكم أيها المؤمنون، مختلفون في أمر المنافقين إلى فرقتين؟ بعضكم يقول نقتُلهم، وبعضكم يقول: لا، إنهم مسلمون، **﴿والله أركسهم﴾** أي ردَّهم إلى الكفر، بسبب ما كسبوا من النفاق، وخذلان المؤمنين ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ أي أتريدون هداية من أضلَّه الله؟ ومن يضلله الله، فلن تجد له طريقاً من الطرق لهدايته وفلاحه!! روى الشيخان عن زيد بن ثابت «أن رسول الله ﷺ، خرج إلى غزوة أُحُد، فرجع ناسٌ ممن كان معه ـ من المنافقين ـ فكان أصحاب النبي ﷺ فيهم فرقتين: فقال بعضُهم: نقتلهم ـ أي لأنهم خونة ـ وقال بعضهم: لا، فأنزل الله عز وجل **﴿فما لكم في المنافقين فئتين..﴾** الآية، فقال النبيُّ ﷺ: إنها طيبةٌ تنفي الخَبَثَ ـ أي الأشرار أهل النفاق ـ كما تنفي النارُ خَبَثَ الحديد) متفق عليه ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي تمنَّى هؤلاء المنافقون أن تكفروا كما كفروا، فتكونون مستوين معهم في الكفر والضلال، فانتبهوا يا معشر المؤمنين واحذروهم، ولا توالوا وتصادقوا منهم أحداً، حتى يؤمنوا ويحققوا إيمانهم بالهجرة، والجهاد في سبيل الله ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي فإن أعرضوا عن

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ﴾

الهجرة في سبيل الله، وبقوا على نفاقهم، فاقتلوهم حيث وجدتموهم، في حلّ أو حرم، ولا تتولوا منهم أحداً، ولا تطلبوا منهم النصرة والعون، فهم أعداء لكم، وحكمهم حكمُ سائر المشركين ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ أي إلاَّ الذين يلجأون إلى قوم عاهدوكم ولم يحاربوكم، فلحقوا بهم ودخلوا في حلفهم، فلا تتعرَّضوا لهم بالقتل، لأنهم تحت قهر رؤساء الضلالة، فهم ليسوا مع المؤمنين، ولا مع الكافرين ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ﴾ أي وإلاَّ الذين جاءوكم وقد ضاقت صدورهم، عن قتالكم أو قتال قومهم، فهم قوم ليسوا معكم ولا عليكم، فلا تقاتلوهم أيضاً ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أي ومن لطفه تعالى بكم، أن كفَّهم عنكم، ولو شاء الله لجرَّأهم عليكم فقاتلوكم، فإن لم يتعرضوا لكم بقتال، واستسلموا لكم، فلم يجعل الله لكم طريقاً إليهم، بالقتل أو بالأسر. .

استثنى الله عزَّ وجلَّ من المنافقين، المأمور بقتالهم فريقين: أحدهما: من تَرَك المحاربين ولحقَ بالمعاهدين، والثاني: من أتى المؤمنين، وكفَّ عن قتال الفريقين، والمراد بهم «بنو مدلج» حالفوا رسول الله ﷺ وصالحوه، ثم ذكر تعالى صنفاً ثالثاً من المنافقين، وهم الذين سلكوا طريق المكر والخديعة، وهم قوم من «بني أَسَد» و«غطفان» كانوا إذا جاءوا المدينة أظهروا الإسلام، فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا، ونكثوا عهودهم، وهؤلاء أمر الله تعالى بقتالهم، وفيهم يقول سبحانه ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ﴾ أي ستجدون قوماً آخرين من المنافقين، يريدون أن يأمنوكم

فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ

بإظهار الإيمان، ويأمنوا قومهم بإظهار الكفر، فهم يلعبون على الحبلين، كلّما دعوا إلى الكفر وقتال المسلمين ﴿أُركسوا فيها﴾ أي قُلبوا فيها أقبح قلب، وكانوا فيها شراً من كل عدوٍّ شرّير ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ﴾ أي فإن لم يكفُّوا عن التعرض لكم، ويستسلموا إليكم، فاحصدوهم حَصْداً، واقتلوهم حيث وجدتموهم ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا﴾ أي وأولئك المنافقون الفجار، جعلنا لكم على قتلهم حجةً بيّنة، وبرهاناً ساطعاً بسبب غدرهم وخيانتهم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ﴾ أي لا يليق ولا يُتصوَّر من مؤمنٍ، أن يقتل مؤمناً، إلاَّ على وجه الخطأ، فإن الإيمان زاجرٌ عن العدوان، ومن حَدَث منه قتلُ مؤمنٍ خطأً، فعليه إعتاقُ رقبةٍ مؤمنة، فإنَّ تخليصها من قيد الرقّ كإحيائها، وعليه كذلك دفعُ ديةٍ مؤدَّاةٍ إلى ورثة المقتول، إلاَّ إذا عفا الورثة عن القاتل، فأسقطوا الدية عنه، والديةُ مائةٌ من الإبل، ومن الذهب ألفُ دينارٍ، ومن الفضة عشرةُ آلاف درهم ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ﴾ أي وإن كان أهلُ المقتول كفاراً، وهو مؤمنٌ، فعلى القاتل عتقُ رقبةٍ مؤمنة، وليس عليه دية، لئلا يستعين بها الكفار على المسلمين ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ﴾

فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ

أي وإن كان المقتول من قومٍ كفار، بينكم وبينهم عهدٌ موثَّق، فعلى قاتله ديةٌ تُدفع إلى أهله، من أجل العهد الذي بينكم، وعلى القاتل تحريرُ رقبة مؤمنة، ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي فمن لم يجد من يعتقه، فعليه صيام شهرين متتابعين بدل الرقبة، شرع الله ذلك ليكون كفارة لذنبه، والله عليمٌ بكل ما يجري، حكيم فيما يشرع.. ثم ذكر تعالى عقوبة جريمة القتل العمد، فقال سبحانه: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ أي ومن يُقدم على قتل مؤمنٍ، متقصِّداً قتله، عالماً بإيمانه، فعقوبتُه عند الله، أن يُخلَّد في نار الجحيم، مع حلول غضب الله عليه، وطرده من رحمته، والعذاب الشديد الذي ينتظره، للجرم العظيم الذي ارتكبه، وظاهرُ الآية أن القاتل عمداً يُخلَّدُ في نار الجحيم، وأنه لا توبة له، وهو مذهب ابن عباس، والجمهورُ على أن ذلك خارجٌ مخرج التغليظ، وأنه يُخلَّد في جهنم إذا استحلَّ قتله، ولم يتب، لأنه باستحلاله لقتله يصبح كافراً، والكافرُ مخلَّدٌ في نار الجحيم، فجريمة القتل عظيمة وشنيعة، وقد قال ﷺ: (لزوالُ الدنيا أهونُ عند الله من قتل رجلٍ مسلم) رواه الترمذي، وجاء عنه ﷺ أنه قال: (من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة، جاء يوم القيامة مكتوبٌ بين عينيه: آيسٌ من رحمة الله تعالى) رواه ابن ماجه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ أي إذا خرجتم للجهاد في سبيل الله، فتبيَّنوا ولا تتعجلوا في القتل، حتى يتبيَّن لكم المؤمنُ من الكافر، ولا تقولوا لمن سلَّم عليكم بتحية الإسلام، إنه ليس بمسلم، وإنما سلَّم علينا خشية القتل ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ أي تطلبون من وراء قتله، أن تغنموا ما معه من مال وسلاح، وهو حُطامٌ سريع

﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾

الفناء والزوال، فعند الله لكم من المغنم، ما هو أكبر وأعظم، وهو الجنة التي أعدَّها الله للمجاهدين ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي كذلك كنتم كفاراً، فهداكم الله للإسلام، ومنَّ عليكم بالإيمان، فتثبتوا وتحققوا من أمره، قبل الإقدام على قتله، وقيسوا حالكم بحاله، والله مطَّلعٌ على أعمالكم ومجازيكم عليها، نزلت في جماعةٍ من الصحابة، «لحقوا رجلاً معه غنيمة ـ أي قطيعٌ من الغنم ـ فقال: السلام عليكم، فقتلوه، وأخذوا ما معه من الغنم، فنزلت الآية»، رواه البخاري، ثم أشار تبارك وتعالى بالجهاد في سبيل الله والمجاهدين، ووضَّح جزاءهم الكبير الذي ينالونه، فقال جلَّ وعلا ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ﴾ أي لا يتساوي عند الله، من قعد عن الجهاد من المؤمنين، مع من جاهد في سبيل الله، لإعزاز دينه؟ غير أصحاب الأعذار من الرجال، كالأعمى، والأعرج، والمريض، فإنهم غير مكلَّفين، ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي فضَّل الله المجاهدين في سبيله، على أهل الأعذار غير المكلَّفين درجةً، لاستوائهم في نية الجهاد، كما قال المصطفى ﷺ لأصحابه، وقد كانوا في بعض الغزوات: (إنَّ بالمدينة أقواماً، ما سرتم من مسير، ولا قطعتم من وادٍ إلاَّ كانوا معكم، قالوا يا رسول الله: كيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: حَبَسهم العُذْرُ) رواه البخاري ومسلم، وقوله سبحانه: **﴿وكلاً وعد الله الحسنى﴾** أي كلاً من المجاهدين، ومن القاعدين بسبب العذر، وعده الله بالجنة لإيمانه ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي وفضَّل الله المجاهدين في سبيله، على القاعدين من غير أولي الأعذار، درجات كثيرة متفاوتة، كما بين السماء والأرض، مع كمال المغفرة والرحمة

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾

للمجاهدين في سبيل الله، وهذا يدل على أن منازل المجاهدين، لا ينالها أحدٌ مهما كثرت طاعتُه وأعمالُه الصالحةُ، إذا كان قادراً على الجهاد، ولم يجاهد في سبيل الله!! ويكفي المجاهدين أجراً وفخراً، أنهم يوم القيامة مع النبيين، يشفعون لمن شاءوا من أحبابهم!! ولمَّا نزلت هذه الآية (لا يستوي القاعدون من المؤمنين) دعا النبيُّ ﷺ «زيد بن ثابت» فقال له: اكتبْ **﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله﴾** فجاء ابنُ أم مكتوم وكان أعمى، فقال يا رسول الله: والله لو أستطيعُ الجهادَ لجاهدتُ!! فأنزل الله على رسوله بواسطة جبريل هذا الاستثناء (غيرُ أولي الضرر) قال زيد: وكانت فخذُ رسول الله ﷺ على فخذي، فخشيتُ أن تَرُضَّ ـ أي تُهرس ـ من ثقل الوحي، ثم سُرِّي عنه ﷺ فأنزل الله (غيرُ أولي الضرر) أخرجه البخاري.. ولمَّا كان الجهادُ في سبيل الله، يستلزم منه الهجرة من دار الكفر، إلى دار الإيمان، لأن الهجرة فرعٌ من فروع الجهاد، ذكر تعالى عقوبة من ركن إلى نعيم الحياة، ولم يهاجر من بلد الكفر، لأن الهجرة كانت فريضةً على المسلمين، في بدء الدعوة الإسلامية، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: هؤلاء العُصاة، الذين تركوا الهجرة، مخالفة لأمر رسول الله ﷺ، حين ينزل بهم الموتُ، وتتوفَّاهم الملائكة، يسألونهم: أين كنتم حين هاجر إخوانكم ولم تهاجروا معهم؟ ولأيِّ شُغْلٍ شاغل، تقاعستم عن الهجرة؟ قالوا معتذرين: كنَّا مستضعفين في أرض مكة، عاجزين عن إقامة الدين فيها، قالوا توبيخاً لهم: أليست أرضُ الله واسعة، فتهاجروا من دار الكفر، كما هاجر إخوانكم إلى الحبشة؟ فأولئك الذين تركوا الهجرة، وبقوا تحت راية الكفر، مسكنهم جهنم، وساءت مقراً ومصيراً للمنافقين ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي إلاَّ العجزة المقهورون تحت أيدي الكفار، من الشيوخ المسنِّين، والنساء الضعيفات، والأطفال الصغار، الذين عجزوا لضعفهم، وإعسارهم عن الهجرة، لا يستطيعون الخلاص،

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةًۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾

ولا يهتدون إلى الطريق الموصل لدار الهجرة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ أي فهؤلاء الضعفاء لعلَّ الله أن يعفو عنهم، لأنهم لم يتركوا الهجرة اختياراً، إنما للعجز والضعف، فالله تعالى يعفو عنهم، ويغفر لهم زلاَّتهم، لأنه غفور رحيم ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةًۚ﴾ أي ومن يخرج من وطنه مهاجراً في سبيل الله، يجد له ما يُرغم به أنوف أعداء الله، ويُسهِّل الله له أمر الهجرة، ويرزقه من حيث لا يحتسب، فأرضُ الله واسعة، لا تضيق بأحدٍ من الناس، ورزقه سابغ على العباد ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي ومن يخرج من وطنه، مفارقاً لقومه وأهله وأولاده، يبتغي وجه الله، ثم يموت في الطريق قبل بلوغه دار الهجرة، فقد ثبت له الأجر كاملاً، لأن الله لا يضيع أجر المحسنين، روُي أن رجلاً مسنّاً يدعىٰ «ضمرة بن القيس» لمَّا سمع ما أنزل الله في المتخلِّفين عن الهجرة، قال لأولاده ـ وكان شيخاً كبيراً لا يستطيع الركوب على الراحلة ـ احملوني إلى المدينة المنوَّرة، والله لا أبيتُ الليلةَ بمكة، وإني لأهتدي إلى الطريق، فحملوه على سرير، ثم خرجوا به إلى المدينة، فمات في الطريق بالتنعيم قريباً من مكة، فقال بعضُ الناسَ: ذهبَ أجره لأنه لم يصل إلى مراده، فأنزل الله **﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾** وهذه الآية ترغيب في الهجرة، لكل من لم يستطع أن يقيم شعائر الدين في وطنه، فيجب عليه أن يهاجر إلى بلدٍ يستطيع أن يعبد الله فيه، دون أذى أو ضرر، فأرضُ الله واسعة **﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾** أي إنه سبحانه عظيم المغفرة، يغفر للإنسان ما فرط منه، وواسع الرحمة لمن تاب وأناب.. ثم ذكر تعالى كيفية الصلاة، في حالة الجهاد والحرب، وفي حالة الخوف والسفر، فالصلاة لا تُترك في سِلْم ولا حرب، وفي ذلك يقول تعالى ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي وإذا سافرتم للجهاد أو التجارة، فلا إثم عليكم أيها المؤمنون أن

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾

تقصروا الصلاة، فتصلُّوا الرباعية ركعتين، إن خشيتم أن ينالكم مكروه من عدوكم، بقتلٍ أو أسر، فإن الكافرين أعداء ألدَّاء لكم، فاحذروا شرَّهم، ولا يمنعهم فرصةُ عبادتكم لربكم أن يقتلوكم، وذكرُ الخوف في الآية (إن خفتم) ليس للشرط، وإنما هو لبيان الواقع، فإن حالة الحرب يكون فيها الخوف والفزع دائماً، ويؤيده حديث «يعلى» فإنه قال لعمر بن الخطاب: إن الله يقول ﴿**إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا**﴾ وقد أمن الناس!! فقال له عمر: عجبتُ ممَّا عجبتَ منه، فسألتُ رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال لي ﷺ: «صدقةٌ تصدَّق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته» رواه ابن ماجه ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ هذا بيان لصلاة الخوف، أي وإذا كنتَ يا أيها الرسول مع هؤلاء المؤمنين الخائفين في المعركة، وأردتَ أن تُقيم بهم الصلاة، فاجعلهم طائفتين: طائفة تصلِّي معك وهم مدجَّجون بالسلاح، وطائفة أخرى تقف في مواجهة العدو، فإذا فرغت الطائفة الأولى من الصلاة، فلْتأتِ الطائفة التي لم تصلِّ إلى مكانها لتصلِّي خلفك، ولْيكونوا حذرين من عدوِّهم، مستعدِّين له بالسلاح ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي تمنَّى الكفار أن تنشغلوا عن أسلحتكم وأمتعتكم، فيأخذوكم على حين غِرَّة، ويشدُّون عليكم شدَّة واحدة، فيقتلونكم وأنتم مشغولون بالصلاة، ولا إثم ولا حرج عليكم أيها المؤمنون إذا كنتم في حالة مرض، أو حالة سفر، أن لا تحملوا أسلحتكم في الصلاة، ولكنْ كونوا متيقِّظين للعدوِّ، واحترسوا

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾

منهم ما استطعتم، فإنهم يتربصون بكم الدوائرَ، والله تبارك وتعالى أعدَّ لهؤلاء الكفار، عذاباً شديداً مخزياً، مع بالغ الإهانة، روي أن النبي ﷺ قام إلى صلاة الظهر إماماً ـ في غزوة ذات الرِّقاع ـ مع أصحابه فلما انتهوا من الصلاة، ندم المشركون على عدم الإقدام على قتلهم وهم يصلُّون، فقال بعضهم: دعوهم فإن لهم صلاةً هي أحبُّ إليهم من أبنائهم وآبائهم وأموالهم!! يريدون ـ صلاة العصر ـ فإذا رأيتموهم قاموا إلى الصلاة فشدُّوا عليهم فاقتلوهم، فنزل جبريل على رسول الله ﷺ بهذه الآيات، بين صلاة الظهر والعصر، وعلَّمهم الله كيفية أداء صلاة الخوف، وأطلعه على قصد المشركين ومكرهم الخبيث ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ﴾ أي فإذا أديتم الصلاة وفرغتم منها، على الوجه الذي بيَّنه الله لكم، فأكثروا من ذكر الله في حال قيامكم، وقعودكم، واضطجاعكم، واذكروه في جميع الأحوال، لعل الله ينصركم على أعدائكم، فإذا أمنتم وذهب الخوف، فأتموا الصلاة وأقيموها كما أمركم الله، بخشوعها وركوعها، وسجودها، وجميع شروطها، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ فإن الصلاة مفروضة على المؤمنين، ومحدودة بأوقاتٍ معلومة، لا يجوز تأخيرها عنها، ولا تقليل عدد ركعاتها إلاَّ في السفر والحرب ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ نزلت تأنيساً للمؤمنين، وتضميداً لجراحاتهم في (غزوة أحد)، حين قُتل من المسلمين من قُتل، وجُرح منهم من جُرح، والمعنى: لا تضعفوا ولا تتوانوا في طلب أعدائكم الكفرة، والتعرُّض لهم، فإن كنتم تتألمون من الجراح والقتل، فإنهم يتألمون كما تتألمون، غير أنكم ترجون من الله الأجر والثواب، وهم لا يرجون ذلك ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي إنه سبحانه عالم بمصالح عباده، حكيمٌ في تشريعه وتدبيره ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ أي نحن الذين أنزلنا عليك يا أيها الرسول،

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾

هذا القرآن العظيم، ناطقاً بالحق المبين، لتحكم بين الناس، بما عرَّفك الله وأوحى به إليك، من إنصاف المظلوم، وإقامة العدل بين الخلق، ولا تكن مدافعاً ومخاصماً عن الخائنين، تجادل وتدافع عنهم، ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ **أي استغفر الله ممَّا هممتَ** به، من الدفاع عن الخائن المنافق «طعمة» المتظاهر بالإيمان ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ أي ولا تخاصم وتدافع عن الذين يخونون أنفسهم، بارتكاب ما حرَّم الله من المعاصي والآثام، فالله عزَّ وجل لا يحب من كان مفرطاً في الخيانة، متهماً للبريئين من الناس، يعمل الذنب ويخون الأمانة ثم يتَّهم غيره بالجريمة.. نزلت هذه الآياتُ في قصةٍ من أعظم القصص، فيها مَثَلٌ من أروع الأمثلة في الانتصار للحقِّ والعدالة، قصة سجَّلها القرآن في سجلِّه الخالد، ألاَ وهي إنصافُ رجل يهوديٍّ، أُتُّهم ظلماً وعدواناً بالسرقة، وإدانةُ رجل من المسلمين، من ضعفاء الإيمان يتظاهر بالتقوى والصلاح، كان هو السارق، وما كان من مناصرة قومه له، والدفاع عنه، حتَّى همَّ الرسول ﷺ أن يقطع يد اليهودي، لظهور قرائن تشير إلى أنه السارق، ودفاع قوم «طُعمة» عن صاحبهم المسلم المزيَّف بالباطل، وخلاصةُ القصة كما ذكرها المفسِّرون «أن رجلاً من المسلمين يُدعى «طُعمة بن أبيرق» سرق ليلاً درعاً وسلاحاً من بيت جاره «قتادة بن النُعمان» وكان ذلك السلاح مخبوءاً في كيسٍ فيه شيء قليلٌ من الطحين، وصار الدقيقُ يتناثر من خرقٍ فيه، فذهب بالدرع والسلاح وخَبَأه عند رجلٍ يهودي يُدعى «زيد بن السمين» واليهودي لا يعلم أن هذا مسروق، فلما كان الصباح فَقَد قتادة درعه وسلاحه، وشكَّ في أمر جاره «طُعمة» فالتمسه عنده فلم يجده، وحلف طُعمة أنه ما أخذه وليس له به علم، وذهب مع جماعةٍ من قومه يبحثون عن السلاح، فتتبعوا أثر الطحين حتى وصلوا إلى بيت اليهودي، فرأوا السلاح والدرع عنده، فقالوا: سرقتَه وخبأته في منزلك!! فقال اليهودي: لا علم لي بشيء من هذا الأمر، وإنما دفعها إليَّ طُعمة، ووضعها عندي أمانة، وشهد ناسٌ من اليهود بأمانته وصدقه وبراءته من السرقة، فلما فشا الأمر بين الناس، وخاف قومُ طُعمة أن يفتضح صاحبُهم، قالوا: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ ليجادل عن صاحبنا، ولنشهد عنده ببراءته وسرقة

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾

اليهودي، فذهبوا إلى رسول الله عليه السلام، وقالوا يا رسول الله: إن صاحبنا «طُعمة» اتُّهم بالسرقة، وهو رجل صالح بريءٌ، وإن الذي سرق الدرعَ هو فلان اليهوديُّ وقد أحطنا بذلك علماً، وقد وُجدت الدرعُ في بيته، وهذا أكبر برهانٍ على صدق قولنا، فجادل عن صاحبنا، وأعلنْ براءته من هذه التهمة الشنيعة على رؤوس الأشهاد، فإن لم تفعل افتضحنا، ونحن قومٌ أهلُ دين وإسلام!! فهمَّ الرسول ﷺ أن يبرِّىء طُعمة وقومه، من تُهمة السرقة، ويُلصقها باليهودي، اعتقاداً منه ﷺ بصدقهم، وعملاً بالقرائن، فقد وُجدت الدرعُ عند اليهودي، ولم يُعثر عليها عند المسلم، وإذا بالوحي يتنزَّل على رسول الله ﷺ بهذه الآيات العشر، التي تُبرِّىء ساحة اليهودي، وتُدين ذلك المسلم المزيَّف «طُعمة بن أُبيرق» وجماعته المنافقين المتآمرين، الذين أرادوا أن يصرفوا النبي عليه السلام عن الحقيقة بشهادتهم الكاذبة، ليجادل ويدافع عن صاحبهم، ويُلصق السرقة بذلك اليهودي البريء، وفي ذلك تنزلت هذه الآيات البينات **﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحقِّ لتحكم بين الناس بما أراك الله..﴾** إلى آخر الآيات العشر، وهذه القصة درسٌ من أبلغ الدروس، في عدالة الإسلام، وبلوغة الذُّروة العليا في إنصاف المظلوم، وردع الظالم، حتى ولو كان يتقمَّصُ ثوبَ الإسلام، وما أسماها من عظة وعبرة!!

ثم تتابعت الآيات الكريمة، توبِّخُ وتقرِّع أولئك الذين تآمروا على اليهودي البريء، فنسبوا إليه التهمة، دفاعاً عن صاحبهم السارق، فذكرت ما دبَّروه في خفاء، من شهادة الزور، والكذب، والبهتان، وكشفت للنبي ﷺ والمؤمنين، عن خفايا هؤلاء المتآمرين، ورمتهم بالخيانة وتزوير الحقائق، وعنهم يقول ربُّ العزة والجلال ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ أي يستترون من الناس خوفاً وحياءً، ولا يستحيون من الله، وهو أحقُّ بأن يُستحيا منه، وأن يُخاف من عقابه!! وهو جلَّ وعلا معهم، لا يغيب عنه شيء من أمورهم ولا يفوت، يسمع ما يدبِّرونه في الخفاء، ويضمرونه في السِرِّ، من رمي البريء، وشهادة الزور، وتبرئة المجرم السارق، ثم جاء دورُ الوعيد والتهديد، لأولئك

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ١٠٩ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١١﴾

المتآمرين على الأبرياء، المدافعين بالباطل عن صاحبهم السارق، حيث يقول تعالى موبخاً لهم: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ خطابٌ لقوم «طُعمة» السارق، أي هاأنتم يا معشر القوم المحامين، دافعتم عن طُعمة وأمثاله في الدنيا من الخونة الظالمين، فمن يدافع عنهم في الآخرة، إذا أخذهم الله بعقابه؟ **﴿أم من يكون عليهم وكيلا﴾** أي من يتولّى الدفاع عنهم، وينصرهم من بأس الله وعقابه؟ وإنه لوعيدٌ شديد، ترتجف له القلوب فزعاً وخوفاً، وكأن الآية تقول: لنفرضْ أن هؤلاء انتصروا في الدفاع عن صاحبهم في الدنيا، وغرَّروا بالحاكم الذي يحكم بالظاهر، فماذا يكون صنيعهم يوم القيامة، حين يقفون في محكمة «العدل الإلهي» بين يدي أحكم الحاكمين، الذي يعلم السِّر وأخفى؟ ومن الذي يتوكل عنهم، لينجيهم ويخلِّصهم من عذاب الله، وقد شهدوا في الدنيا زوراً وبهتاناً، ليوقعوا البريء، ويخلِّصوا المجرم؟ وهذه الآية ينبغي أن يتدبَّرها كلُّ محامٍ وكلُّ حاكم، ويضعها نُصب عينيه، فإن الأمر خطير، والناقد بصير، وعند الله تجتمع الخصوم!! ثم دعا تبارك وتعالى قوم طُعمة إلى التوبة والإنابة، وطلب المغفرة لما اقترفوه من الذنب العظيم، فقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ أي ومن يعمل عملاً قبيحاً، يسوء به غيرَه، كاتهام إنسان بريء، أو يظلم نفسه بارتكاب جريمة من الجرائم، كالسرقة، وشهادة الزور، ثم يتوب من ذنبه توبة صادقة، يجد ربَّه عظيم المغفرة، واسعَ الرحمة. . ثم زاد تعالى في التوضيح والبيان، فقال تقدست أسماؤه ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ أي ومن يفعل جريمةً من الجرائم، أو ذنباً من الذنوب، فإنما يعود ضررُ ذلك على نفسه، ولا يضرُّ غيره، إذ كلُّ نفسٍ مرهونةٌ بعملها، ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى، والله تعالى عليم بأعمال العباد، حكيم في تشريعه وتدبيره، ثم زاد تعالى في الوعيد والتهديد، لمن يتهم الناس بالبهتان

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾

والباطل فقال سبحانه: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي ومن يرتكب ذنباً صغيراً، أو جُرماً كبيراً، ثم ينسب ذلك إلى شخص بريء، ويتهمه به، كما فعل (طُعمة) برمي اليهودي بالسرقة وهو منها بريء، فقد تحمَّل جُرماً وذنباً فاحشاً، ثم بيَّن تعالى فضله على رسوله، بإطلاعه على الحقِّ، وتحذيره من الوقوع في شراك شهداء الزور من المنافقين، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ أي لولا فضلُ الله عليك بالنبوة، ورحمتُه لك بالعصمة، لهمَّتْ جماعة منهم أن يضلُّوك عن الحقِّ، حين سألوك أن تبرِّىء صاحبهم من السرقة، وتلصقها باليهودي ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ أي وهم في الحقيقة لا يضلونك، إنما يضلُّون أنفسهم، ووبالُ إضلالهم راجعٌ عليهم، وما يضرونك في أمرٍ من الأمور، لأن الله عصمك من ذلك ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ أي أنزل الله عليك القرآن العظيم، وعلَّمك السنة المطهرة، فكيف يضلونك وهو تعالى قد أنزل عليك الوحيين: وحيَ الكتاب، ووحي السنة؟ وعلَّمك ربك ما لم تكن تعلمه من الأحكام الشرعية، والأمور الغيبية، وكان فضله تعالى عليك عظيماً، بالوحي والرسالة ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ﴾ أي لا خير في كثير مما يجري بين الناس، من الكلام في الخفاء، وما يسرُّونه فيما بينهم من الحديث، إلا التحدث بما فيه منفعة ومصلحة للبشر، كالتواصي ببذل الصدقات، وفعل الخيرات والطاعات، والإصلاح بين المتخاصمين، وما فعله قومُ طعمة، كان شرَّاً جرَّهم إلى نيل سخط الله ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾

ومن يفعل ما أمر الله به، من البِّر، والخير، والمعروف، والإصلاح بين الناس، فسوف نعطيه ثواباً جزيلاً على فعله الصالح، وهو الجنة دار السلام ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ أي ومن يخالف أمر الرسول، فيما جاء به عن الله، من بعد ما ظهر له الحقُّ، بالمعجزات الواضحة، ويسلك طريقاً غير طريق المؤمنين، ومنهاجاً غير منهاج المرسلين، نتركه مع اختياره الفاسد، ونحرقه بنار جهنم، وبئست جهنم مرجعاً ومسكناً للفجرة المعاندين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ هذا إعلانٌ من الله عزَّ وجلَّ، بأن ذنب الشرك لا يغفره اللهُ لأحد، ويغفر ما دونه من الذنوب لمن يريد، ومن أشرك بالله فقد ابتعد عن طريق النجاة والسعادة بُعْداً كبيراً ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا﴾ إنْ نافية بمعنى «ما» أي ما يعبد هؤلاء المشركون من دون الله عز وجل، إلاّ أوثاناً سمَّوها بأسماء الإناث، (كاللاَّت، والعُزَّى، ومناة)، وما يعبدون في الحقيقة إلاّ شيطاناً متمرداً طاغياً، بلغ في العتو والفجور أبلغ الحدود، وهو إبليس اللعين، المطرود من رحمة الله، لأن عبادتهم لهذه الأوثان، كان عن أمره وتزيينه ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾ أي طرده الله وأبعده عن رحمته، فأقسم الشيطانُ قائلاً: وعزتك وجلالك لأجعلن من عبادك الذين أبعدتني من أجلهم، عدداً كبيراً مقدَّراً، أغويهم وأضلُّهم عن عبادتك!! وهذا النصيب من أتباع الشيطان، هم بعثُ النار، الذين ورد بهم الحديث الصحيح، فقد قال ﷺ: (يقول الله عزَّ وجلَّ لآدم يوم القيامة: يا آدمُ أخرجْ بعثَ النار من ذريتك!! قال يا ربّ: وما بعثُ النار؟ ـ أي ما عددُه ؟ ـ فيقول: من كل ألفٍ تسعمائة وتسعةً

وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

وتسعون) أخرجه مسلم ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ هذا من تتمة كلام إبليس اللعين، أي سوف أضلُّهم وأصرفهم عن طاعتك، وأجعلهم يعصون أمرك، وأخدعهم بالأماني الكاذبة، بطول العمر، وأن لا بعث ولا حساب ولا جزاء، ولآمرنهم بتقطيع آذان الأنعام ـ وهي الإبلُ والبقرُ والغنمُ ـ ومراده بها: (البحيرةُ، والسائبةُ، والوصيلةُ)، التي كان أهل الجاهلية يحرمّونها على أنفسهم، وينذرونها للأوثان والأصنام ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ أي وآمرهم كذلك بتغيير خلق الله، صورةً ومعنى، كخصاء العبد، والتخنث، وتشبُّه النساء بالرجال، والرجال بالنساء، والوشم، والوشر، وهو أن تحدِّد المرأة أسنانها وترققها للزينة والإغراء، وفي الحديث الشريف (لعنَ اللهُ النامصة والمتنمِّصة، والواصلة والمستوصلة، والواشمة والمستوشمة، المتفلجات للحُسْن المغيِّراتِ خلق الله) رواه البخاري ومسلم، وفي حديث آخر (لعن رسولُ الله المخنثين من الرجال، والمترجلات من النساء) قال تعالى ردّاً على مقالة إبليس: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ أي ومن يطع الشيطان ويجعله له ولياً، ويعصي أمر الرحمن، فقد خسر أعظم الخسارة، لمصيره إلى النار المؤبدة، وأيُّ خسرانٍ يزيد على هذا الخسران!؟ ثم قال تعالى مبيِّناً طرائق مكائد الشيطان ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي يعدهم الشيطان بالوعود الكاذبة، ويمنيُهم بالأماني الخادعة، وما يعدهم الشيطان إلاَّ بالخداع والباطل، حتى يرى الإنسانُ اللَّذة في اللواطة، وفي ممارسة الجنس بطريق الحرام، ويرى في التكشف والتعري التقدميةَ والازدهار ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي هؤلاء الأشقياء الذين أغواهم الشيطانُ، مصيرهم ومآلهم إلى نار الجحيم، وليس لهم منها مفرٌّ ولا مهرب، والمحيصُ: المهربُ، من حَاصَ يحيصُ إذا هَرَب وشرد، وبعد ذكر مآل الاشقياء، جاء الحديثُ عن الأبرار السعداء، فقال سبحانه

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾

عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ أي وأمَّا المؤمنون الصادقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، فسندخلهم حدائق وبساتين ناضرة، تجري من تحت منازلها وقصورها أنهار الجنة، مخلَّدين في دار النعيم، لا يخرجون منها أبداً، ومن أصدقُ من الله قولاً؟ والاستفهام هنا معناه النفيُ، أي لا أحد أصدق حديثاً وقولاً، من ربِّ العزة والجلال؟ والمقصودُ من الآية، معارضةُ مواعيد الشيطان الكاذبة، لأتباعه وأنصاره، بوعد الله الصادق، لأوليائه وأحبابه، ولمَّا زعم اليهود والنصارى أن الجنة خاصة بهم ـ وهو نوع من خداع الشيطان ـ جاء البيانُ الساطع القاطع، في قوله تبارك وتعالى ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي ليس الفوزُ بالجنة، ولا نيلُ ثواب الله، الذي أعدَّه للمتقين، يحصل بأمانيكم أيها المسلمون، ولا بأمانيِّ أهل الكتاب، وإنما يُنال بالإيمان والعمل الصالح، قال الإمام الحسنُ البصريُّ: «ليس الإيمانُ بالتمنِّي، ولا بالتحلِّي، ولكنْ ما وَقَر في القلب، وصدَّقه العمل، إنَّ قوماً ألهتهم الأماني، حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا: نحسنُ بالله الظن!! وكَذَبوا، لو أحسنوا الظنَّ بربهم لأحسنوا العمل» **﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾** أي من يفعل السوء والشرَّ، ينالُ عقابه عاجلاً أو آجلاً **﴿ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾** أي ولا يجد أحداً يحفظه، وينصره من عذاب الله، كما قال تعالى **﴿ليس لها من دون الله وليٌ ولا شفيع﴾** وبمقابلة أعمال الأشرار، يقول تعالى ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ أي ومن يعمل الأعمال الصالحة، سواءً كان هذا العاملُ، رجلاً أو امرأة، ذكراً أو أنثى، وهو مؤمنٌ بالله حقَّ الإيمان، فهؤلاء المؤمنون العاملون، يدخلهم الله الجنة، ولا

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾

يُنقصون شيئاً ولو كان حقيراً من أعمالهم الصالحة، حتى ولو كان بمقدار النقير، وهي الحفرةُ التي في ظهر نواة التمرة، كيف لا والمجازي يومَ الدين، هو ربُّ العزة أرحم الراحمين!!

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ أي لا أحد أحسن ديناً ممن انقاد لأمر الله، واستسلم لحكمه، وأخلص عمله لله **﴿وهو محسن﴾** أي مطيعٌ لله، مجتنبٌ لمحارمه، واتَّبع الدينَ الحقَّ، الذي كان عليه إبراهيم خليلُ الرحمن، وهو دينُ الإسلام، مستقيماً على منهاجه وسبيله، وقد اتخذ الله إبراهيم صفيّاً له، اصطفاه لصدقه ومحبته، فجعله خليلاً، كما جعل خاتم الأنبياء حبيباً له ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ أي جميع ما في الكون مِلكٌ لله عز وجلّ، وهم خلقُه وعبيدُه، الملائكةُ، والإنس، والجنُّ، وجميع المخلوقات، وهو المتصرف فيها، وهو محيطٌ بها، لا تخفى عليه خافية من شؤون عباده ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي يسألونك عما يجب عليهم في أمر النساء، قل لهم يا أيها الرسول: الله جلَّ وعلا يُبيِّن لكم حكمه فيهن، وفي أمر ميراثهنَّ، وأمر الزواج بهن، ويبين لكم ما يُتلى في القرآن، في شأن اليتيمات من النساء، اللواتي ترغبون في نكاحهن، ولا تدفعون لهن مهورهنَّ كما يجب.

قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية، تكون عنده اليتيمة ـ أي تحت كفالته ـ فيلقي عليها ثوبَه، فإذا فعل ذلك، لم يقدر أحدٌ أن يتزوَّجها أبداً، فإن كانت جميلة وأحبَّها، تزوَّجها وأكل مالَها، وإن كانت دميمة منعها الرجال أبداً حتى تموت، فإذا ماتت ورثها،

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ﴾

فحرَّم الله ذلك، ونهى عنه ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ أي ويفتيكم في المستضعفين من الأولاد الصغار، ويأمركم أن تعطوهم حقوقهم من الميراث، وأن تعدلوا بين اليتامى، في أمر المهر والزواج، وكلُّ ما تفعلونه في أمر النساء، من عدلٍ وبر وإحسان، فإن الله يجازيكم عليه خير الجزاء. . ثم ذكر تعالى حكم نشوز الرجل على امرأته، إذا كرهها، وطمحت عينُه إلى ضرَّتها لأنها أجمل منها وأشبُّ، فبينت طريق التوفيق والإصلاح بينهما، فقال: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ﴾ أي وإذا شعرت امرأة من زوجها الترفع عليها، أو الإعراضَ عنها، بسبب الكراهية لها، لكبر سنها، أو لغير ذلك من الأسباب والأمور، وأراد طلاقها، فلا إثم ولا حرج عليهما، من سلوك طريق المصالحة والتوفيق بينهما، بإسقاط المرأة بعض حقوقها من نفقةٍ، أو كسوةٍ، أو مبيت، لتستعطف الرجل بذلك، وتستديم مودته ومحبته، فالصلح حينئذٍ خير من الفراق.

قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: هذا الرجل تكون له امرأتان، إحداهما قد عَجَزتْ، أو هي دميمة، ولا يحبها زوجُها، فتقول له: لا تطلِّقني وأنتَ حِلٌّ في شأني، فذلك قوله تعالى: **﴿والصلح خيرٌ﴾** رواه البخاري. قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ أي طُبعت النفوسُ وجُبلت على الشُحّ، وهو شدةُ البخل لا تكاد تنفكُّ عنه، فالمرأة لا تكاد تسمح بترك حقها من النفقة، والاستمتاع الجسدي، والرجل لا تكاد نفسه تسمح بأن يعدل معها في القسمة، وأن يمسكها إذا أبغضها، وأحبَّ غيرها، فليس أمامهما طريق غير (الصلح)، وأن يتنازل كلُّ واحدٍ من الزوجين عن كامل حقه، والجملتان اعتراضٌ، الأولى **﴿والصلح خير﴾** للترغيب في المصالحة، والثانية **﴿وأحضرت الأنفسُ الشُحَّ﴾** لبيان السبب الداعي إلى الشقاق والنزاع، وتمهيد لذكرِ العذر لهذا الخلاف، روى الشافعي عن ابن المسيِّب أن

وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

«رافع بن خديج» كره من امرأته أمراً، فأراد أن يطلّقها، فقالت له: لا تطلّقني، واقسم ما بدا لك!! فاصطلحا، فَجَرتْ السُنَّة، ونزل القرآن» يعني بالإصلاح بين الزوجين، ثم قال تعالى﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي وإن تحسنوا في العِشرة مع النساء، بالإقامة معهنَّ، ولو كرهتموهنَّ وأحببتم غيرهن، وتتقوا الله بصبركم على ذلك، مراعاة لحقوق الصُحبة، ولم تضطروهنَّ إلى ترك حقوقهنَّ، فإن الله عالمٌ بإحسانكم، وسيجازيكم عليه أفضل الجزاء، ثم بيَّن تعالى أن العدل التام الكامل، بالغٌ من الصعوبة مبلغاً لا يكاد يُطاق، وأن الله تعالى لا يؤاخذ على ميل القلب، وإنما يؤاخذ على الظلم والجور، فقال سبحانه﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ﴾ أي ولن تستطيعوا أيها الرجال، أن تحققوا العدل التامَّ بين النساء، وتسوُّوا بينهن في المحبة، والأنس، والمعاشرة، لأن العدل الكامل، أن لا يقع ميلٌ أبداً، لا في المعاملة ولا في ميل القلب إلى بعضهنَّ، وهذا غير ممكن بين البشر ﴿ولو حرصتم﴾ أي ولو بذلتم كلَّ جهدكم، وكلَّ ما في وسُعكم ﴿**فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلَّقة**﴾ أي فلا تجوروا ولا تميلوا عن المرغوب عنها كل الميل، فتجعلوها كالمعلَّقة، وهي التي ليست بذات زوج، ولا مطلَّقة، شُبِّهت بالشيء المعلَّق بين السماء والأرض، فلا هي مستقرةٌ على الأرض، ولا هي في السماء، وهذا من أبلغ وجوه التشبيه وأفصحه، وفي الحديث الشريف «من كانت له امرأتان، فمال إلى إحداهما، جاء يوم القيامة، وشقُّه مائل» أخرجه الترمذي﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي وإن تصلحوا سيرتكم، وتتقوا الله ربكم، بالتمسك بالعدل وعدم الجور، فإن الله تعالى يغفر ما فرط منكم ويرحمكم﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ أي وإن لم يحصل بين الزوجين وفاقٌ، وحصل بينهما الفراقُ، بالخلع، أو بالطلاق، فالله عزَّ وجل يغني كلاً منهما عن الآخر أي يجعله مستغنياً

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾

وكذلك الرجل يرزقه زوجةً خيراً من زوجته، وعيشاً أهنأ من عيشه، ﴿**وكان الله واسعاً حكيماً**﴾ أي واسع الفضل على العباد، حكيماً في تشريعه وتدبيره، وفي الآية عتابٌ ضمنيٌ للزوجين، لعدم استطاعتهما الوفاق، وقد كان الواجب أن لا يحدث هذا، فإن الطلاق أبغضُ الأمور عند الله ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ﴾ أي ولله جلَّ وعلا كلُّ ما في الكون، مِلْكاً، وخلقاً وعبيداً، ولقد وصينا اليهود والنصارى، ومن سَبَقهم من الأمم، ما وصيناكم أنتم يا معشر المسلمين، بمراقبة الله عزَّ وجلَّ والحذرِ من عقابه، والوصيةُ بتقوى الله قديمة، أوصى الله بها الأمم أجمعين، وصفوة القول في التقوى: أنها امتثالُ الأوامر، واجتناب النواهي ﴿وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ أي وإن تكفروا فلا يضرُّه تعالى كفركم، لأنه مستغنٍ عن العباد، وهو المالك لما في السموات والأرض، وهو سبحانه غنيٌّ عن خلقه، محمود في ذاته، لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ كرَّر اللفظ ثلاثاً، للتنبيه على استغنائه عن الخلق أجمعين، وكأنه تعالى يقول: اعلموا أن الله ليس بحاجة لكم، لا يضرُّه كفركم، كما لا ينفعه شكركم، فهو سبحانه مالك الملك، له ما في السموات والأرض من الخلائق، يتصرف فيهم كيف يشاء، وكفى به حافظاً لأعمال عباده، ثم أكَّد استغناءه عن الخلق بقوله ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ أي لو أراد الله عزَّ وجلَّ لأهلككم وأفناكم، وأتى بآخرين غيركم، يكونون أعبدَ لله وأطوع منكم، وهو سبحانه قادر على ذلك، وفيه تهديد للكفار والفجار، يعني أن إبقاءكم على ما أنتم عليه من الكفر والعصيان، إنما هو لكمال استغنائه عن طاعتكم، لا لعجزه عنكم، فهو قادرٌ

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾

على أن يفنيكم بالكليَّة، فلا تغترُّوا بحلمه عليكم ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي من كان يريد بعمله ثواب الدنيا فقط، أي أجرَها العاجل الزائل، فعند الله ما هو أغلى من ذلك وأنفسُ، عنده أجرُ الدنيا والآخرة، فلِمَ يطلب أحدكم الأخسَّ، ولا يطلب الأعلى؟ وهو سبحانه السميع لأقوال العباد، البصير بأحوالهم، فليكن همُّ العاقل رضوان الله، وفي الحديث الشريف (من كانت الدنيا همَّه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلاَّ ما قُدِّر له..) الحديث رواه الترمذي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ لمَّا أمر تعالى بالإحسان إلى النساء، والعدل في معاملتهن، أمر هنا بالعدل العام في جميع الأمور والأحكام، والمعنى: أي كونوا يا معشر المؤمنين، مجتهدين في إقامة العدل، على أتمِّ وأكمل الوجوه، واشهدوا بالحقِّ لوجه الله، دون تحيُّز ولا محاباة لأحد، ولو كانت الشهادةُ على أنفسكم، أو آبائكم، أو أقربائكم، فلا تمنعكم القرابةُ من أداء الشهادة بالحق، على الوجه الأكمل، فإن الحقَّ سلطانٌ، وحاكم على كل إنسان ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ أي إن يكن المشهود عليه غنياً فلا يُراعى لغناه، أو فقيراً فلا تمتنعوا من الشهادة عليه، رحمة به وإشفاقاً، فالله عزَّ وجلَّ أولى بالغنيِّ والفقير، وأعلمُ بما فيه صلاحهما، فراعوا أمر الله، فإنه أعلم بمصالح العباد منكم، فلا تتبعوا هوى النفس، وتشهدوا بغير الحق، إرضاءً للناس، بل الزموا العدل في جميع أموركم ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي وإن تلووا ألسنتكم عن شهادة الحقِّ، أو تُعرضوا عن إقامتها فتكتموها، ولم تشهدوا بما عرفتم خوفاً من الناس، فإن الله رقيب عليكم، مطَّلع عليها، وسيجازيكم لا محالة على ذلك

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴿١٣٩﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾ أي يا معشر المؤمنين، اثبتوا على إيمانكم، والتصديق بنبيكم ورسولكم، وآمنوابالكتب السماوية، التي أنزلها الله من قبل على الأنبياء والمرسلين، ولا تكونوا كاليهود والنصارى، آمنوا بالبعض وكفروا بالبعض ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ أي ومن يكفر بشيء من ذلك، فقد خرج عن طريق الهداية، لأن الكفر بالبعض كفرٌ بالكل، وهو ضلال بيِّنٌ واضح ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا﴾ هذه الآية نزلت في المنافقين، المرتدين عن دين الإسلام، أي هؤلاء المنافقون الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، آمنوا ثم ارتدوا عن الإسلام، ثم رجعوا إلى الإيمان، ثم ارتدوا عنه، ثم ازدادوا كفراً باستهزائهم بدين الله، هؤلاء الأشقياء الفجرة، قلوبهم خَرِبَت، وبصائرهم عَمِيتْ، فلذلك لن يغفر الله لهم، ولن يرشدهم إلى سبيل الفوز والنجاة، بسبب نفاقهم وفجورهم، وهكذا نجد الفاسق الذي يتوب ثم يرجع، ثم يتوب ثم يرجع، لا يكاد يرجى منه الثبات!! ثم بشَّر تبارك وتعالى المنافقين بنار الجحيم فقال سبحانه: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ التعبيرُ بلفظ البشارة للتهكم والسخرية، أي بشِّر يا محمد هؤلاء الفجرة المنافقين، بما ينتظرهم من العذاب الأليم، في نار الجحيم، فهم نابتةُ السوء، وجرثومة الشرِّ، يتظاهرون بالإيمان، ويبطنون الكفر والنفاق ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ أي هؤلاء المنافقون الأشقياء، هم الذين والوا أعداء الله، من اليهود والنصارى والمشركين، فاتخذوهم لهم أعواناً وأنصاراً، وتركوا ولاية المؤمنين، هل يطلبون عند

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

الكافرين القوَّة، والغَلَبَة، والمَنَعة؟ ألا يعلمون أنَّ الكفارَ لا عزة لهم ولا كرامة؟ فكيف تُبتغى منهم؟ والعزةُ والغلبةُ لله ولأوليائه دون أعدائه ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ أي وقد نزَّل عليكم ربكم في القرآن العظيم، أنكم إذا سمعتم آيات القرآن، يكفر بها الكافرون، ويستهزىء بها المستهزئون، فلا تجالسوهم ولا تسمعوا لهم، حتى يتحدثوا بحديث آخر، ويتركوا الخوض في القرآن ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ أي إنكم إذا قعدتم معهم، صرتم مثلهم في الكفر، فمن رضي بالمنكر أو خالط أهله، كان مثلهم، والله تعالى سيجمع الفريقين: المنافقين، والكافرين في نار جهنم في الآخرة، لأن المرء مع من أحبَّ.. كان المنافقون يجالسون اليهود، ويخوضون معهم بالاستهزاء بكتاب الله، فنزلت الآيات فيهم، ثم ذكر تعالى تربُّص المنافقين بالمؤمنين، فقال سبحانه محذِّراً منهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾ أي ينتظرون أن تحلَّ بكم كارثة، من هزيمةٍ أو قتل، ويتربصون بكم الدوائر، فإن كان لكم فتحٌ وظَفَرٌ على الأعداء، قالوا: ألم نكن معكم في المعركة، فأعطونا نصيبنا من الغنيمة!! وإن كان للكافرين شيء من الظفر والغلبة عليكم، قالوا للكافرين: ألم نكن سبباً في انتصاركم على المسلمين؟ حيث تمكنَّا من قتلكم وأسركم، فأبقينا عليكم، وثبَّطنا عزائم المؤمنين؟ فهاتوا نصيبنا من المغنم، ومرادهم إظهار المِنَّة على المشركين، في أنهم كانوا السبب في انتصار الكفار على المؤمنين، قال تعالى ردّاً على السفهاء ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي فالله

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾

جلَّ وعلا يفصل بين المؤمنين والمنافقين يوم القيامة، بحكمه العادل، ولن يمكِّن الكفرةَ من رقاب المؤمنين، فيبيدوهم ويستأصلوهم، والمراد بالسبيل هو: إفناؤهم واستئصالهم بالكلية، وإن حصل للمشركين ظفر على المؤمنين في بعض الأحيان، فإن ذلك للابتلاء، والعاقبة للمتقين، كما قال سبحانه ﴿**وكان حقاً علينا نصر المؤمنين**﴾ ثم ذكر تعالى أبشع صور الخداع والمكر، عن تلك الشرذمة الباغية، فقد تجرَّءوا على خداع ربِّ الأرباب جلَّ وعلا فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إن هؤلاء المنافقين، يفعلون ما يفعل المخادع، فيظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، يظنون أنهم يخدعون الله بذلك، وهو سبحانه خادعهم، حيث تركهم في الدنيا كأنهم مسلمون، معصومو الدم والمال، وأعدَّ لهم في الآخرة أشدَّ العذاب والنكال، ومن أظهر صفات هؤلاء المنافقين، تثاقُلهم عن الصلاة، فهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، كالمكره على الفعل، لأنهم لا يرجون لها ثواباً، ولا يخشون على تركها عقاباً، يقصدون بصلاتهم الرياء وخداع المؤمنين، ولا يذكرون الله إلا ذكراً قليلاً: باللسان دون الاعتقاد بالجَنان ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ أي مضطربين متردِّدين بين الكفر والإيمان، لا يثبتون على حال، فهم مع المؤمنين يظهرون الإيمان، ومع الكافرين يظهرون النفاق ﴿**وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون**﴾ ومن يضلله الله، فلن تجد له من يهديه، إلى طريق الهدى والسعادة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي لا تتشبَّهوا يا معشر المؤمنين بالمنافقين، فتتخذوا الكفار أعواناً وأصدقاء لكم، وتتركوا موالاة المؤمنين، هل تريدون أن تجعلوا لله حجةً بيِّنةً على تعذيبكم؟ فإنَّ مصادقتهم

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

توجب العقاب، ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ أي إن هؤلاء المنافقين، في دركات الجحيم ـ وهي أسفلُ الطبقات في نار جهنم ـ ولن تجد له ناصراً ينصرهم من عذاب الله يوم القيامة، فهم حطبُ جهنم، وشرُّ عباد الله، وعذابهم أشدُّ من عذاب الكافرين، ولذلك كانوا في الدرك الأسفل من النار، لأنهم جمعوا بين الكفر والخداع، فكانوا شراً من الكفرة المعلنين للكفر ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي إلا الذين تابوا عن النفاق، وأصلحوا عملهم وسيرتهم، وتمسكوا بكتاب الله وشرعه، وجعلوا دينهم خالصاً لله، لا يبتغون بعملهم إلاَّ وجه الله ورضاه، فهؤلاء يكونون في زمرة المؤمنين يوم القيامة، وسوف يعطيهم الله الأجر الكبير، على إيمانهم، وهو الجنة دار المتقين. ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ المعنى: أيُّ منفعةٍ لله عزَّ وجل في تعذيبكم، إن شكرتم ربكم وآمنتم به وبرسوله؟ هل يتشفَّى به من الغيظ؟ أم يدرك به الثأر؟ أم يجلب به النفع؟ أم يدفع به الضر؟ كما هو شأن الملوك!! فإنه سبحانه الغنيُّ عن جميع الخلق، المتعالي عن أمثال ذلك، واللهُ شاكرٌ لطاعة العباد، عليم بجميع أحوال البشر. . ولنتأمل في بعض أسرار التعبير القرآني المعجز، فقد شرط تعالى لتوبة الكافر، شرطاً واحداً وهو الانتهاء عن الكفر **﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلف﴾** وأمَّا المنافق فقد شرط لتوبته أربعة شروط وهي:

١ـ الكفُّ عن النفاق ٢ـ وإصلاح العمل ٣ ـ والاعتصام بكتاب الله. ٤ـ وإخلاص الدين لله.

﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا، واعتصموا بالله، وأخلصوا دينهم لله﴾ ومع هذهِ الشروط الأربعة، فقد بقي أمر توبتهم مشكوكاً فيها، ولهذا لم يحكم تعالى بإيمانهم، وإنما جعلهم في المعيَّة **﴿فأولئك مع المؤمنين﴾** ولم يقل: فأولئك هم المؤمنون، فقد تكون توبتُهم مكراً وخداعاً،

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾

ثم لم يُعِد الضمير عليهم، وإنما أعاده على المؤمنين ﴿**وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً**﴾ ولم يقل: وسوف يؤتيهم أجراً عظيماً، بغضاً لهم، وإعراضاً عنهم، وتنبيهاً إلى ضخامة جريمة النفاق، فلا غَرْو أن يكون عذابهم أشدَّ من عذاب الكفار، فتأمل دقائق عبارات القرآن، زادنا الله وإياكم فهماً لأسرار كتابه المبين ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ أي لا يحب الله إظهار الفضائح، وإفشاء القبائح، ولا الفُحش في القول، أو الإيذاء باللسان، إلاَّ المظلوم فإنه يُباح له أن يذكر الظالم بما فيه من السوء، وأن يجهر بالدعاء عليه، ليحذره الناسُ، والله سميع لأقوال العباد، عليمٌ بأعمالهم ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي إن أظهرتم أيها الناسُ عمل الخير، أو أخفيتموه، أو سامحتم من أساء إليكم، فالله جلَّ وعلا كثير العفو عن العُصاة، مع كمال قدرته على الانتقام، وفي الآية حثٌّ على العفو، بعدما رخصَّ للمظلوم في الانتصار، حملاً على مكارم الأخلاق، فإن الله تعالى مع قدرته على الانتقام، يعفو ويصفح، فأنتم مع ضعفكم وعجزكم أولى بذلك.. ثم ذكر تعالى كفر اليهود والنصارى، فقال سبحانه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.

قال قتادة: أولئك أعداء الله «اليهودُ» و«النصارى» آمنت اليهود بالتوراة وموسى، وكفروا بعيسى وبمحمد، وآمنت النصارى بالإنجيل وعيسى، وكفروا بمحمد، وتركوا الإسلامَ دينَ الله الذي بعث به رسلَه ﴿**ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله**﴾ التفريقُ بين الله ورسله هو: أن يؤمنوا بالله، ويكفروا برسله، والتفريقُ بين الرسل هو: أن يؤمنوا بالبعض ويكفروا بالبعض، وقد وضَّحه تعالى بقوله ﴿**ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض**﴾ كما فعل اليهود والنصارى، وهو في الحقيقة كفرٌ بالله، لأن الله عزَّ وجلَّ، قد أمرهم بالإيمان بجميع

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾

الأنبياء، فمن كفر بواحدٍ منهم، فقد كفر بالكل، كما كفر بالله، لأنه كذَّب الله في خَبَره ﴿**يريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا**﴾ أي طريقاً وسطاً بين الكفر والإيمان ولا وساطة بينهما، فإمَّا الكفر وإما الإيمان، ولهذا قال بعده ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي هؤلاء هم الكاملون في الكفر، حقاً ويقيناً، ولو ادَّعوْا الإيمان، وهيأنا لهؤلاء الكفَّار الفُجَّار، عذاباً شديداً، يُهينُهم ويُذلهم، والآية صريحة بكفر أهل الكتاب ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لمَّا بيَّن كفر اليهود والنصارى، أعقبه ببيان إيمان أهل الإسلام، وهم أتباع محمد عليه الصلاة والسلام، والمعنى: أمَّا الذين صدَّقوا الله، وأقرُّوا بنبوة جميع الرسل، ولم يفرِّقوا بين أحدٍ منهم، بالإيمان بالبعض والكفر بالبعض، فهؤلاء المؤمنون الصادقون، سوف نعطيهم ثوابهم الكامل، على إيمانهم الصادق، مع العفو عمَّا صدر منهم من الأخطاء، لأن الله واسع المغفرة، عظيم الرحمة، وسعت رحمتُه كل شيء ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ نزلت في أحبار اليهود، حين قالوا لرسول الله ﷺ: إن كنتَ يا محمد رسولاً، فأتنا بكتاب من السماء جملةً، كما أتى به موسى جملة!! والمعنى: يسألك يا أيها الرسول علماءُ اليهود، أن تأتيهم بكتابٍ من السماء غيرِ القرآن، فلا تعجب من هذا السؤال، فإنهم لفجورهم وكفرهم، قد سألوا نبيهم موسى ما هو أفظع وأشنع!! سألوه أن يريهم الله علناً، حين قالوا: ﴿**يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة**﴾ قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي أرسلنا عليهم الصاعقة، وهي نار جاءتهم من

وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾

السماء فأهلكتهم، بسبب ظلمهم وفجورهم، ثم اتخذوا العجل إلهاً، وعبدوه من دون الله، من بعد ما ظهرت لهم المعجزات الواضحات، التي أظهرها موسى لفرعون، من اليد، والعصا، وفلق البحر، فعفونا عن ذلك لما تابوا، مع عظيم جريمتهم وجناياتهم، وأيدّنا موسى بالحجة الظاهرة، التي تظهر صدقه وصحة نبوته ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي ورفعنا فوقهم جبل الطور، لمَّا رفضوا تطبيق أوامر الله في التوراة، بسبب الميثاق الذي قطعوه على أنفسهم، وقلنا لهم: ادخلوا باب بيت المقدس، خاضعين خاشعين، شكراً لله على ما أنعم به عليكم، فخالفوا الأمر، ودخلوا يزحفون على مقاعدهم، وهم يقولون بدل «حِطَّةٌ» على سبيل الاستهزاء: حبةُ حنطة في شعيرة، وفي هذا تعداد لجرائمهم وقبائحهم. ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي وأمرناهم أن لا يصطادوا يوم السبت، ولا يخالفوا أمر الله، وأخذنا منهم عهداً موثَّقاً مؤكداً على ذلك، فخالفوا واصطادوا، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هذا بيان لجرائم اليهود، التي بسببها استحقوا أن يمسخهم الله إلى قردة وخنازير، أي فبسبب نقضهم للميثاق، لعنَّاهم وأذللناهم، وبسبب جحودهم للقرآن العظيم، وتحريفهم لكلام الله في التوراة، وقتلهم للأنبياء بغياً وعدواناً، وهذه أفظع الجرائم أن يُقدموا على قتل الأنبياء، **﴿وقولهم قلوبنا غلفٌ﴾** أي وقولهم لخاتم الأنبياء: قلوبنا مغطَّاةٌ بأغطية كثيفة، لا تفقه ما تقوله يا محمد!! قال تعالى رداً عليهم **﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾** أي ليس الأمر كما زعموا، بل ختم الله عليها بسبب الكفر والفجور **﴿فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾** أي لا يُؤمنُ منهم إلاَّ القليل، وأكثرهم فُسَّاق فُجار، حطبٌ للنار ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ أي وبكفرهم بعيسى عليه

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾

السلام أيضاً، ورميهم لمريم بالزنى، فقد زعم أعداء الله، أن مريم زانية، وعيسى ابن زنى، ولهذا عزموا على قتله ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي وقولهم على سبيل التبجح والافتخار: نحن قتلنا عيسى ابن مريم، رسولَ الله، وهذا إنما قالوه بطريق «التهكم والسخرية» لأنهم لا يعتقدون برسالته، قال تعالى تكذيباً لهم: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي وما قتلوا عيسى ولا صلبوه على وجه اليقين، وإنما صلبوا شخصاً، ألقى الله شبَهَ عيسى عليه، فأخذوه وصلبوه وهم يظنون أنه عيسى.. ادَّعى اليهود أنهم قتلوا عيسى عليه السلام، وصدَّقهم النصارى على ذلك، فكذَّبهم الله عزَّ وجلَّ جميعاً، وردَّ عليهم بقوله ﴿**وما قتلوه وما صلبوه**﴾ والغريبُ في شأن النصارى أنهم يعتقدون بأن عيسى إلهٌ، ويُصدِّقون بأن عيسى صُلب، فكيف يكون إلهاً ويُصلب؟ هذا عجيب، وما أحسن قول الشاعر:

إذا صُلِبَ الإلهُ بفعلِ عبدٍ   يهوديٍّ فما هذا الإلهُ؟

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ أي وإن اليهود والنصارى، الذين اختلفوا في شأن عيسى، لفي شكٍّ من المقتول، هل هو عيسى أو غيره؟ فإن اليهود لمَّا عزموا على قتله، قال لهم رجلٌ منافق: أنا أدلكم على مكانه، فدخل أمامهم على المكان الذي فيه عيسى، وألقى الله شَبَه عيسى عليه، ورفع عيسى بروحه وجسده إلى السماء حياً، فلما دخلوا المكان، أخذوا هذا الشخص فصلبوه وهم يظنون أنه عيسى، ولهذا وقعوا في الحيرة والشكِّ، فقالوا: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ ومن هنا جاء الشكُّ، واعتقادهم بقتله قائم على الظنِّ دون اليقين، ولهذا قال تعالى ﴿**ما لهم به من علم إلاَّ اتباع الظنّ**﴾ أي ليس لهم علمٌ يقينيٌّ بقتله، وإنما يتَّبعون فيه الظنون والأوهام، ثم ذكر تعالى الحقيقة اليقينية في الموضوع فقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۞ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي وما قتلوه على وجه اليقين، بل رفعه الله إلى السماء،

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾

ونجّاه من شرِّهم ومكرهم وخبثهم، والله جلَّ وعلا غالبٌ لا يُقهر، حكيمٌ في تدبيره وصنعه.. هذه عقيدتنا نحن المسلمين، أن عيسى لم يُقتل ولم يُصلب، وأنه حيٌّ في السماء، إلى أن ينزل إلى الأرض في آخر الزمان، فيحكم بشريعة خاتم المرسلين محمد ﷺ، كما تواترت بذلك الأحاديث النبوية الصحيحة ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي ليس أحد من اليهود والنصارى، إلاّ وسيؤمن بعيسى أنه رسولٌ وليس بإله، وأنه لم يُصلب، وذلك حين نزول عيسى بن مريم إلى الأرض، ويوم القيامة يشهد عيسى عليه السلام، على اليهود بأنهم كذَّبوه، وعلى النصارى بأنهم عبدوه من دون الله، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (والذي نفسي بيده ليوشكنَّ أن ينزل فيكم عيسى بن مريم، حَكَماً عدلاً، فيكسِرُ الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية ـ لا يقبلها ـ ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدةُ الواحدةُ خيراً من الدنيا وما فيها) ثم قال أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم ﴿**وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته..**﴾ الآية، ثم ذكر تعالى سبب تحريم بعض الطيبات على اليهود، فقال تقدست أسماؤه ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي بسبب الظلم العظيم من اليهود، وما ارتكبوه من جرائم وذنوب عظيمة، حرَّمنا عليهم أنواعاً من الطيبات، التي كانت حلالاً لهم، وبمنعهم ناساً كثيرين عن الدخول في دين الإسلام ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وبسبب استحلالهم للربا، وأكلهم أموال الناس بغير الحق، كالرشوة، والغصب، وسائر الوجوه المحرَّمة ﴿**وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً**﴾ أي هيأنا وأعددنا لمن كفر من هؤلاء اليهود، أشدَّ أنواع العذاب المؤلم الموجع، فتحريمُ الطيبات عليهم، إنما كان بسبب هذه الجرائم الشنيعة الفظيعة

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي لكن المتمكنون من العلم منهم، والثابتون على الإيمان، يؤمنون بالقرآن المنزل عليك يا محمد، وبالكتب السماوية السابقة ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قوله تعالى **﴿والمقيمين الصلاة﴾** منصوب على المدح، أي أخصُّ بالذكر وأمدح المصلِّين، الذين يحافظون على الصلاة، والمعطون زكاة أموالهم للفقراء، والمصدِّقون بوحدانية الله، وبالبعث بعد الموت، فهؤلاء المؤمنون الصادقون، سنعطيهم ثواباً جزيلاً على طاعتهم للّهِ، هو الجنة دار النعيم ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي نحن أوحينا إليك يا أيها الرسول، كما أوحينا إلى سائر الأنبياء والمرسلين، فأنت يا محمد رسولُ الله حقاً، أوحينا إليك عن طريق جبريل، كما أوحينا إلىٰ شيخ الأنبياء «نوح»، والأنبياء الذين جاءوا من بعده ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ أي كما أوحينا إلى إبراهيم، وأولاده إسماعيل وإسحق، وولد إسحق «يعقوب» والد يوسف الصدِّيق، والأسباط، وهم الأنبياء من ذرية يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام ﴿وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ أي كما أوحينا إلى عيسى ابن مريم، وإلى يونس بن متَّى، وهارون أخي موسى، وسليمان بن داود، والنبي الكريم داود الذي أنزلنا عليه الزبور.. بدأ تعالى بأفخم الأنبياء محمد ﷺ، ثم بشيخ الأنبياء نوح عليه السلام، ثم بإبراهيم عليه السلام أبِ الأنبياء، حيث تفرَّعت شجرة النبوة منه كما قال سبحانه **﴿وجعلنا في ذريته النبوّة والكتاب﴾** وخصَّ من بَعْدَهم بالذكر تشريفاً لهم، لأنهم أعظم أنبياء بني إسرائيل، وللردِّ على اليهود اللعناء، الذين رموا عيسى وأمه بالبهتان، فزعموا أن أمه زانية، وأنه ابنُ زنى، مع أنه أعظم

وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾

أنبياء بني إسرائيل ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ أي وأرسلنا رسلاً آخرين، منهم من حكينا لك أخبارهم يا محمد، في غير هذه السورة، ورسلاً لم نخبرك عن أحوالهم وأخبارهم، وخصصنا موسى بالمناجاة والتكليم، فكلَّمناه بدون وساطة جبريل الأمين، ولهذا يسمى «موسى الكليم».. ثم وضَّح تعالى الحكمة من إرسال الرسل إلى الناس، فقال تقدست أسماؤه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي أرسلنا هؤلاء الرسل الكثيرين، مبشرين من آمن بجنات النعيم، ومنذرين من كفَرَ بنار الجحيم، لكيلا يبقى لأحد من الناس عذرٌ يوم القيامة عند الله، فيقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير!! ثم أعلن الله شهادته الكبرى، على صدق رسالة محمد ﷺ مع الملائكة ردّاً على اليهود والنصارى، فقال سبحانه: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي إن لم يشهد هؤلاء لك بالنبوة، فالله جلَّ وعلا يشهد لك بأنك رسولُه، والملائكة يشهدون كذلك، وقد أنزل اللّهُ عليك الكتاب المعجز، الشاهد على نبوَّتك، أنزله بعلمه الخاص، وأسلوبه المحكم، وكفى أن يكون الله شاهداً، فشهادته تعالى تكفيك وتغنيك، وإن لم يشهد غيره ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ المراد بهم أهل الكتاب، كفروا بمحمد ﷺ وبالقرآن، ومنعوا الناس عن الدخول في دينه، بما أثاروه من الشبهات والأكاذيب، فهؤلاء ضلُّوا عن طريق الحق، ضلالاً بعيداً، لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ أي جمعوا بين الكفر والظلم، الكفر بآيات الله، والظلم بالصدِّ عن دين الله، هؤلاء لن يعفو الله عنهم، ولن

إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْۚ

يهديهم إلى طريق الجنة، ما داموا على الكفر ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي لن يهديهم الله إلا إلى طريق جهنم، جزاءً لهم على كفرهم وفجورهم، ماكثين في النار على الدوام، لا يخرجون منها أبداً، وتخليدهم في العذاب سهلٌ يسير على الله، لأنه لا مانع له ولا صارف. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي لقد جاءكم محمد عليه السلام، بالدين الحق، والشريعة السمحة، جاءكم بها من عند ربكم، فآمنوا بالرسول، وبما جاء به من الحقِّ، يكن ذلك الإيمانُ خيراً لكم، ينجيكم من عذاب الله، وإن تستمروا على الكفر، فلن تضروا الله شيئاً، فإن الله غني عنكم، له جميع ما في الكون، وهو سبحانه (عليم) بأحوال العباد، (حكيم) في تشريعه وتدبيره، ثم دعا القرآنُ النصارى خاصة، إلى الاعتدال في شأن المسيح ابن مريم، وعدم إضفاء صفات الألوهية عليه، فهو عبد الله، مرسلٌ من عند الله كبقية الرسل الكرام ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ﴾ أي يا معشر النصارى لا تغالوا في دينكم، وتجاوزوا الحدَّ، بادعائكم ألوهية المسيح، ولا تعتقدوا إلا الاعتقادَ الحقَّ، دون دعوى الحلول والاتحاد، أن الله حلَّ في عيسى، فعيسى هو الله، فإنها عقيدة وثنية خبيثة، خارجة عن دائرة الإيمان، فليس عيسى إلاَّ رسولٌ من رسل الله الكرام، أظهر الله فيه قدرته، في إيجاده من أم دون أبٍ، وهو كلمتُه أي مخلوقٌ بكلمته تعالى (كُنْ) من غير واسطة أبٍ ولا نطفة ﴿وروح منه﴾ أي وروح مبتدأةٍ من الله تعالى، من أثر نفخة جبريل عليه السلام في صدر مريم، حيث حملت بتلك النفخة بعيسى ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْۚ﴾ أي فآمنوا بالله

﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾

وحده، وخصُّوه بالألوهية، وآمنوا بجميع رسله دون تمييز أو تفريق، ولا تقولوا: الآلهةُ ثلاثة: «الله، والمسيحُ، ومريم» اتَّحَدُوا فصاروا واحداً، فالواحد ثلاثة، والثلاثة واحد **﴿انتهوا خيراً لكم﴾** أي كفُّوا عن هذا الضلال «القول بالتثليث» يكن خيراً لكم من هذه العقيدة الضالة، التي يرفضها الدينُ والعقل ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي ليس الإله كما تزعمون ثالثُ ثلاثة، إنما هو إله واحد، منفردٌ في ألوهيته، تنَزه عن أن يكون له ولدٌ، أو شبيه، أو مثيل، له جميع ما في الكون، ملكاً، وخَلْقاً، وعبيداً، وكفى أن يكون الله حافظاً لعباده، ولا حاجة له إلى الولد والمعين.. لقد اخترع النصارى فكرة غريبة عجيبة، زعموا أن الإله ليس واحداً، وإنما هو مركبٌ من ثلاثة أقانيم: (الآب، والابن، وروح القدس) ومجموع هذه الثلاثة هي الإله الواحد، ويا لها من فكرةٍ خاطئة، تشبه أوهام وضلالات الوثنيين، في عبادة أحجار لا تضر ولا تنفع، فهؤلاء النصارى عبدوا «عيسى» على أنه هو الله، فكيف يكون إلهاً وهو يُصلب؟ وكيف يكون إلهاً وهو يأكل ويشرب ويبول ويتغوَّط؟ وكيف يكون إلهاً وهو قد خرج من فرج امرأةٍ، ووُلدَ كما يلد سائر البشر؟ وأين كان الإله قبل أن يولد عيسى؟ هل كان العالم بدون إله؟ إنها أفكار يجب أن تُطرح على النصارى حتى يجيبوا عليها، بالحجة والعقل الرشيد، أمَّا أن يقولوا لمن يطلب منهم توضيح الفكرة: اطرح عقلك جانباً واتبعنا، فهذا منطقٌ مرفوضٌ، يأباه صاحبُ العقل الرشيد، كيف تتحد الأقانيم الثلاثة فتصبح واحداً؟ الآب غير الابن، والابنُ غير روح القدس، وروحُ القدس غير الآب، فكيف تتحد هذه الثلاثة؟ إذا كان أمامنا كرسي، وطاولة، وسرير، فكيف تتحد هذه الثلاثة فتصبح واحداً؟ هل نقول: إنها أصبحت كرسياً واحداً، أو طاولة واحدة، أو سريراً واحداً؟ وأجناسها مختلفة!! ثم يقول سبحانه وتعالى موضحاً عبودية المسيح، وعدم تكبره عن عبادة الله ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ أي لن يأنف ويتكبّر المسيحُ،

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

عن أن يكون عبداً لله، فإن عبوديته للّهِ شرفٌ يتباهى به، ولا يستنكف الملائكةُ المقرَّبون أن يكونوا عبيداً له تعالى، ومن يأنف ويتكبر عن عبادة الله جلَّ وعلا، فسيجمعهم الله في القيامة للحساب والجزاء ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي فأمَّا المؤمنون الصادقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، فسيعطيهم ثواب أعمالهم كاملة، ويزيدهم تفضلاً منه بما لا عينٌ رأتْ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي وأمَّا الذين أنفوا وتكبَّروا عن عبادة الله، فسيعذبهم عذاباً موجعاً مؤلماً، ولا يجدون لهم من يتولاَّهم، أو ينصرهم من عذاب الله.. رُوي أن وفداً من النصارى، قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد: لِمَ تعيبُ صاحبنا؟ قال: ومن صاحبكم؟ قالوا: عيسى!! قال: وأيَّ شيء أعيبه به؟ قالوا: تقول إنه عبدُ الله ورسوله، فقال لهم ﷺ: إنه ليس بعارٍ عليه أن يكون عبداً لله! قالوا: بلى، إنه ليس بعبد، إنما هو ثالث ثلاثة، فأنزل الله هذه الآية ﴿**لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله**﴾ الآية، ثم قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ خطابٌ لجميع البشر، أي لقد جاءكم أيها الناس، أكبرُ حجة وأعظم برهان من ربِّ العزة والجلال، وهو محمد رسولُ الله، المؤيَّد بالمعجزات الباهرة، وأعظمُ برهانٍ على صدق نبوته أنه نبيٌ أميٌ، جاءكم بالقرآن العظيم المعجز، فهل يُعقل لرجلٍ أميٍّ، أن يأتي بكتاب معجز، يتحدىٰ به جميع الخلق، وهو لا يعرف قراءة ولا كتابة؟ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي فأمَّا الذين صدَّقوا بوحدانية الله، وتمسكوا بكتابه المنير، فسيدخلهم في جنة الخلد والنعيم،

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾

ويهديهم إلى أقوم طريق مستقيم، هو طريق السعادة والإيمان!! .. وختم الله السورة الكريمة، بآيةِ المواريث حفاظاً على حقوق النساء واليتامى، والبنات، والأخوات فقال سبحانه: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ أي يستفتونك يا أيها الرسول، في شأن الميت إذا مات ولم يكن له والدٌ ولا ولدٌ، من يرثه؟ هل ترثه أخته أو أخوه؟ فقل لهم: إذا مات الإنسان ولم يكن له إلاَّ أخت واحدة، وليس له آباء ولا أولاد - وهي المسمَّاة بالكلالة - فلأخته الشقيقة أو أخته من أبيه نصف الميراث من تركته، وأخوها الشقيق أو لأب يرث جميع تركتها إن لم يكن لها والدٌ ولا ولد ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أي وإن كانت الأختان اثنتين فأكثر، فلهما الثلثان مما ترك أخوهما، وإن كان الورثة إخوة وأخوات، فللذكر منهم مثل نصيب الأختين ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ أي يبين الله لكم الأحكام والشرائع خشية أن تضلوا، والله عالم بما فيه مصالح الخلق والعباد، وهكذا اختتمت السورة بتقرير العدل في موضوع ميراث النساء والأخوات، على خلاف عادات الجاهلية، الظالمة، والحمد لله رب العالمين.

انتهى تفسير سورة النساء

● ● ●

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ﴾

تفسير سورة المائدة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ النداء بلفظ الإيمان للتشريف والتكريم، أي يا معشر المؤمنين، يا من صدَّقتم بالله ورسوله، أوفوا بالعقود أي بالعهود التي عاهدتم عليها ربكم، من الإيمان والطاعة، والعهود التي عاهدتم عليها الناس، من المواثيق والعهود الدولية، وعقود النكاح، والبيع، وسائر المعاملات، أحلَّ الله لكم أكلَ لحوم الأنعام وهي: (الإبلُ، والبقرُ، والغنم، والماعز)، بعد ذبحها الذبح الشرعي، إلاَّ ما حرَّم الله عليكم في هذه السورة، كالميتة، والدم، ولحم الخنزير، مما سيأتي بيانه، **﴿غير محلي الصيد وأنتم حرم﴾** أي غير مستحلِّين للصيد البرِّيِّ وأنتم محرمون، لأنكم في عبادةٍ ونُسُكٍ، فينبغي أن يأمنكم كلُّ شيء، حتى الطيرُ والحيوانُ **﴿إن الله يحكم ما يريد﴾** أي إنه جلَّ وعلا، يحكم في خلقه بما يشاء، لأنه الحكيمُ في أمره ونهيه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ أي لا تستحلوا حرمات الله، وهي الأمور التي حرَّمها الله على عبادة، في الحج، والصيام، وسائر الأحكام، ولا تستحلوا القتال في الأشهر الحُرُم، وهي «ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب» ولا ما أُهدي إلى البيت الحرام من الأنعام، وعلى وجه الخصوص، الهديُ الذي يوضع في عنقه قلادة، ليُعرف أنه لفقراء الحرم، فلا تتعرضوا له بمنع أو غصب، وهذه سُنَّةُ إبراهيم عليه السلام «وأهدى رسولُ الله ﷺ مرةً إلى البيت غنماً، فقلَّدها» رواه مسلم ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ﴾ أي ولا تستحلوا قتال القاصدين بيتَ الله الحرام، لحج أو عمرة، طالبين رضوان

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَـٰمِ﴾

الله ورحمته، وإذا تحللتم من الإحرام، فقد أبحنا لكم الصيد، كان العرب في الجاهلية، يُغير بعضُهم على بعض، فيسلبون الأموال، ويسترقُّون الأطفال، فجاءت الشريعة الغراء، تنهى عن الظلم والعدوان، حتى يأمن الناسُ على أموالهم وأرواحهم، ويعيشوا في أمنٍ وطمأنينة، ولهذا قال تعالى ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي لا يحملنكم بُغضُ قوم، كانوا قد صدُّوكم عن دخول مكة، أن تعتدوا عليهم، وذلك عام الحديبية، حين مُنع الرسولُ ﷺ وأصحابه من دخول مكة، وتعاونوا يا معشر المؤمنين على فعل الخيرات، وترك القبائح والمنكرات، وخافوا ربكم، فإن عقابه شديدٌ لمن عصاه، وهذا مبدأٌ إنساني كريم، أرشد إليه، عز وجل، أن يكون التعاون بين البشر، قائماً على أساس الحقِّ والعدل، بحيث يكون الإنسانُ مع الحق، وبجانب المظلوم، بقطع النظر عن العقيدة، والقرابة، فالحقُّ يجب أن يسود، والمظلومُ يجب أن يُنصف، ولو كان من أشدِّ الأعداء، ويا له من توجيهٍ رباني كريم!! ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ بيانٌ للمحرَّمات من المآكل والمطاعم، أي حُرِّم عليكم أيها المؤمنون، أكلُ الميتة التي ماتت من غير ذكاةٍ شرعية، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وسائر الخبائث الضارة التي حرمها الله، وحُرم عليكم ما ذُبح لغير الله، أو ذُكر عليه اسمُ غير الله، وقد تنجَّس هذا لعلة «روحية» هي سلامةُ القلبِ، وطهارة النفس، عن التوجه لغير الله، وإنما ذكر تعالى (لحم الخنزير) ولم يقل: والخنزير، ليبين أنه حرامٌ بعينه، حتى ولو ذبح بالطريق الشرعي، فإنه نجسٌ لعينه وذاته، ثم قال تعالى ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَـٰمِ﴾ أي وحُرِّمت عليكم المنخنقةُ، التي ماتت بالخنق بحبلٍ أو غرَق، أو ما شابه ذلك، وقد كان

﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ﴾

أهل الجاهلية يخنقون الشاة فإذا ماتت أكلوها **﴿والموقوذة﴾** التي قُتِلت بالضرب، بعصا أو حجر **﴿والمتردية﴾** التي سقطت من عُلوٍ أو جَبَل فماتت **﴿والنطيحة﴾** أي المنطوحةُ، التي نطحتها أخرى فماتت بالنطح **﴿وما أكل السبع﴾** أي افترسه الذئب أو الأسدُ، فأكل منه فمات **﴿إلاَّ ما ذكيتم﴾** أي إلا ما أدركتم فيه الروح من هذه الأنعام، فذبحتموه الذبح الشرعيَّ قبل أن يموت ويفارق الحياة **﴿وما ذُبح على النصب﴾** أي وما ذُبح للآلهة والأصنام، والنُّصُبُ جمع نصاب، وهي حجارةٌ كانوا يذبحون عليها لأوثانهم، ويتقرَّبون بها إلى آلهتهم المزعومة **﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾** أي وحُرِّم عليكم الاستقسام بالأزلام، وهي الأقداحُ التي كانوا يستشيرون فيها آلهتهم ـ أعني الأوثان ـ وذلك أنهم إذا قصدوا سفراً، أو تجارة، أو نكاحاً، ضربوا بالقداح، وهي ثلاثة: مكتوب على أحدها: أمرني ربي، وعلى الثاني: نهاني ربي، والثالث غُفْل ليس عليه شيء، فإذا خرج الآمرُ مضى إلى غرضه، وإن خرج الناهي اجتنب العملَ، وإن خرج الغُفْل أعاد القرعة ثانياً، وإذا كان لأحدهم أمرٌ عظيم، جاء إلى «هُبَل» كبير الأصنام، واستشفع به، وأعطى مائة درهم لصاحب القداح، حتى يحلِّلها له، وكل ذلك سفهٌ وجهلٌ، ولذا قال تعالى ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أي الاستقسامُ بالأزلام، تمرُّدٌ وخروج عن طاعة الرحمن، وضلال واضح، لأنه اعتقاد أن الأصنام تعلم الغيب، وهي حجارة صمَّاءُ بكماء، ولا يعلم الغيب إلاَّ الله ربُّ العالمين. ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ أي في هذا الوقت الذي أكمل الله لكم فيه الدين، انقطع أملُ الكافرين منكم، ويئسوا أن ترجعوا إلى دينهم الأعوج، فلا تخافوا المشركين ولا تهابوهم، وخافوا ربكم الذي أعزَّكم بالإسلام، ينصركم عليهم ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ نزلت هذه الآية في حجة الوداع، ورسولُ الله واقف على جبل عرفات، أي في هذا الزمان أكملتُ لكم الشريعة والدين، ببيان الحلال فيها والحرام، وأتممتُ عليكم نعمتي بفتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وتمام الهداية والتوفيق، واخترتُ لكم من بين الأديان «دينَ الإسلام» الذي لا يقبل الله بعد اليوم ديناً غيره، كما نبَّه تعالى على ذلك بقوله **﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في**

فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ

الآخرة من الخاسرين﴾ وهذه الآية يحسدنا اليهود عليها، فكيف بالقرآن العظيم كله؟! روى البخاري أن اليهود قالوا لعمر رضي الله عنه: «إنكم تقرءون آية لو نزلت علينا معشر اليهود لاتخذناها عيداً!! قال: وأيَّ آية؟ قالوا **﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾** فقال عمر: إني لأعلم حيثُ أُنزلت؟ وأين أُنزلت؟ وأين رسولُ الله حين أُنزلت؟ أُنزلت يوم عرفة، وإنَّا والله بعرفة، وكان نزولها يوم الجمعة» أي فهو عيدٌ على عيد، ثم قال تعالى في تتمة الحديث عن المحرَّمات ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي فمن اضطر إلى أكل شيءٍ من هذه المحرمات، في وقتِ مجاعة، يخاف على نفسه الهلاك والموتَ، ولم يجد طعاماً غيرها، فأكل منها، غير مائلٍ إلى الأكل منها تلذذاً، ولا مجاوزٍ حدَّ الرخصة، فإن الله لا يؤاخذه بأكله منها، لأنها حالة اضطرار وضرورة، والضرورات تبيح المحظورات ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾ أي يسألك أصحابك يا محمد: ماذا أحلَّ الله لهم من المطاعم والمآكل؟ فقل لهم: لقد أباح الله لكم كلَّ طيِّب نافع، وما ليس بخبيث ولا ضار، وحرَّم عليكم كلَّ مستقذر، تعافه الطباع السليمة، كالخنزير والكلاب والفئران، كما قال تعالى عن رسالة خاتم الأنبياء **﴿يحلُّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾** وأحلَّ الله لكم صيد ما علَّمتموه من الجوارح، وهي التي تجرح الصيد، وتمسكه ولا تأكل منه، ككلاب الصيد، والصقر، والبازي، وسائر ما يمكنُ الصيدُ به، بشرط أن تكون معلَّمة، ولا تأكل من الصيد، بل تمسكه لصاحبه، ولهذا قال تعالى ﴿مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي معلِّمين الكلابَ طرائق الصيد، وكيفية تحصيله لكم، والمكلِّب بكسر اللام معلِّمُ الكلاب، ومُغْريها على الصيد، سُمِّي بذلك لأن أكثر ما يكون التعليم في الكلاب، فكلوا يا معشر المؤمنين ممَّا أمسكنه لكم من الصيد، واذكروا عند إرساله اسم الله تعالى، ليكون الصيد حلالاً. كما تذكرون الله عند الذبح، وعلامةُ المعلَّم: أن يجري نحو الصيد إذا أُرسِل، وأن ينزجر

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾﴾

إذا زُجر، وأن لا يأكل من الصيد، وأن يذكر صاحبه اسم الله عند إرساله، فهذه شروطٌ أربعة لصحة الأكل من الصيد، وقد قال النبي ﷺ لعدي بن حاتم (إذا أرسلتَ كلبك المعلَّم، فقَتَل فكُلْ، وإذا أكل فلا تأكل، فإنما أمسكه على نفسه) رواه البخاري، أي إنما صاده لنفسه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي خافوا ربكم وعذابه، فيما حرَّم عليكم، فإن حساب الله سريع، وعقابه أليم لمن عصاه، والآية وردت مورد التهديد والوعيد ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ أي أُبيح لكم المستلذات من المطاعم، من الكسب الحلال، وذبائحُ أهل الكتاب «اليهود والنصارى» حلالٌ لكم، وذبائحكم حلالٌ لهم، فلا حرج عليكم أن تُطعموهم من ذبائحكم وتبيعوه لهم، وأن تشتروا من ذبائحهم وتأكلوا منها، فإنهم بالجملة يؤمنون بالله، وإن كان إيمانهم غير صحيح، لأنهم يعبدون المسيح وعُزَيراً ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي وأُبيح لكم أيها المؤمنون، الزواج من الحرائر العفيفات من المؤمنات، والعفيفات من الكتابيات «اليهوديات والنصرانيات» بشرط ان تكون لكم السيادةُ والقوامةُ عليهن، وبشرط أن تدفعوا لهن مهورهنَّ عن طيب نفس، أمَّا إذا كانت المرأة هي المسيطرة، والنظام الوضعي كما هو الآن في أوروبا وأمريكا، يجعل لها حق الأولاد، فيحرم الزواج باليهودية والنصرانية ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ أي حال كونكم أعفاء بالنكاح، غير مجاهرين بالزنى، وغير متخذين عشيقات وصديقات، تستمتعون بهن بالسرِّ بطريق الفجور ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي ومن يكفر بشرائع الإيمان، ويرتد عن دين الإسلام، فقد بطل عمُله الصالح الذي كان قد فعله، وهو من الأشقياء

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾

الخاسرين، الذين خسروا سعادتهم وآخرتهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾ هذه فرائضُ الوضوء التي أمر الله بغسلها عند إرادة الصلاة، أي إذا أردتم الصلاة، والوقوف بين يديْ الله لمناجاته، فاغسلوا وجوهكم، وأيديكم مع المرافق، بالماء الطاهر، وامسحوا رؤوسكم، واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين، وفائدةُ قوله ﴿إلى الكعبين﴾ للتنبيه على أن المراد، غسلُها مع الكعبين لا مسحها، لأن المسح لم تُضرب له غاية، وما يزعمه بعضُ الشيعة أن المطلوب في الرجلين المسحُ، لا الغسلُ، خطأٌ فاحشٌ، لأن الآية وردت بالفتح ﴿وأرجُلَكم﴾ فهي معطوفة على الأيدي، أي اغسلوا أيديَكم وأرجلَكم، ولو كانت بالكسر لتساوت الأرجل مع الرءوس «بروسِكم وأرجُلِكم» ومعاذ الله أن تتساوى الأقدام مع الرؤوس، ومن ساوى بين الرءوس والأقدام، فهو من صنف الأنعام، لا يفهم كلام الله، ولا يعرف هدْيَ سيد الأنام، ولمَّا رأى الرسول ﷺ في إحدى الغزوات بعضَ الأعراب، لم يغسلوا أرجلهم كاملة، وتركوا مؤخرتها، قال: «ويلٌ للأعقاب من النار» أخرجه البخاري ومسلم. ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ﴾ أي وإن كنتم في حالة جنابة، فتطهَّروا بغسل جميع البدن، وإن كنتم مرضى ويضركم الماء، أو كنتم مسافرين ولم تجدوا الماء، أو أتى أحدكم من المكان المنخفض ـ كناية عن البول أو الغائط ـ أو جامعتم النساء ولم تجدوا الماء، فاقصدوا الطهارة بالتيمم بالتراب الطاهر، فامسحوا بذلك التراب، وجوهكم وأيديكم، للحدث الأصغر والأكبر، بدل الوضوء والغسل ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾

وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

أي ما يريد الله بما شرع لكم من أحكام، أن يضيِّق عليكم في الدين، ولكن يريد أن يطهركم من الذنوب، وأن يتمم عليكم نعمته برخصة التيمم، لتشكروا ربكم على نعمه الجليلة.. نزلت آية التيمم رحمةً من الله على عباده، فقد يكون الإنسان مريضاً، أو به جراحة ببدنه، ويضره استعمال الماء، أو يكون مسافراً ولا يجد الماء، فيتيمم للوضوء والجنابة إذا كان محدثاً حدثاً أكبر، وقد نزلت الآية في قصة السيدة عائشة حين كانت مع رسول الله في بعض أسفاره، وفقدت عِقْداً وأخذ الناس يبحثون عنه، وليس معهم ماء، وحضر وقْت الصلاة، فنزلت آية التيمم، فقال أحد الصحابة: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر!! كما في الصحيحين. ثم وجدوا العقد تحت البعير الذي كانت تركبه، وبقي حكم التيمم تشريعاً خالداً إلى يوم الدين، رحمةً من رب العالمين لجميع الخلق ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي اذكروا يا معشر المؤمنين نعمة الله العظيمة عليكم بالإسلام، وعهده الموثق الذي عاهدكم به رسوله ﷺ في «بيعة الرضوان» حين بايعتموه على السمع و الطاعة، في العُسْر واليُسْر، والمنشط والمكرَه، وقلتم: سمعنا وأطعنا ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي وخافوا ربكم أن تنقضوا معه العهد، فإن الله عالم بخفايا نفوسكم، فيجازيكم عليها ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي كونوا مبالغين في الاستقامة بشهادتكم، تشهدون بالحق والعدل لوجه الله، دون مراعاة لصديق أو قريب ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي لا يحملنَّكم شدَّةُ بغضكم للمشركين، على ترك العدل فيهم، فتعتدوا عليهم، اعدلوا أيها المؤمنون مع أوليائكم وأعدائكم، فالعدل أقربُ لتقواكم لله، والله مطلع على أعمالكم،

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا

ومجازيكم عليها يوم الدين ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ هذه ثمرةُ العدل بين الناس، أي وعد الله المؤمنين الصادقين، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، بأن لهم المغفرة لذنوبهم، والثواب العظيم في الجنة، وإذا وُصف الأجر بالعِظم، فلا يراد به إلاَّ الجنة، لأنها غايةُ إكرام الله لعباده المتقين، كما جاء في الحديث القدسي الصحيح «أعددتُ لعبادي المؤمنين، ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر، وقال عليه السلام: واقرءوا إن شئتم ﴿**فلا تعلم نفسٌ ما أُخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون**﴾ وبمقابلة الوعد الكريم للمحسنين، يأتي الوعيد الشديد للمجرمين، المكذِّبين بآيات الله، فيقول سبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي والذين جحدوا وحدانيتنا، وكذبوا بآياتنا المنزلة في القرآن العظيم، فأولئك هم المخلَّدون في نار الجحيم، هم أهلُها وأصحابها لا يخرجون منها أبداً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي تذكَّروا يا معشر المؤمنين، نعمة الله الجليلة عليكم، بحفظه لكم من أعدائكم، حين همَّ جماعة منهم أن يبطشوا بكم، فعصمكم الله من شَرِّهم، وردَّ أذاهم عنكم، والله وليُّ المتقين، والآيةُ إشارة إلى كيد اليهود الأشرار، حين أرادوا أن يغدروا بالرسول ﷺ، وأن يلقوا عليه حجراً كبيراً، وهو جالس تحت ظلِّ بيتٍ لهم، ويغدروا بأصحابه، فأطلع الله الرسول ﷺ على ما دبَّروه بواسطة جبريل الأمين، ونجَّاه من شرِّهم، ودفع عن المسلمين ذلك الكيد الخبيث، والقصة مشهورة في السيرة النبوية ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ بيانٌ لنقض اليهود للمواثيق والعهود، وتحذيرٌ للمؤمنين من خبثهم ومكرهم، أي والله لقد أخذنا العهد المؤكَّد

وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦۚ

على بني إسرائيل، أن يلتزموا بأحكام التوراة، ويطيعوا رسولهم موسى فيما يأمرهم به، وأمرنا موسى أن يأخذ منهم اثني عشر عريفاً، كرؤساء وأُمناء عن قومهم، يكفلون عنهم بالوفاء ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي وقال الله لبني إسرائيل: إني ناصركم ومعينكم، إن قمتم بواجب ما فرضته عليكم، من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وتصديق رسلي، ونصرتهم **﴿وعزرتموهم﴾** أي قوَّيتموهم على الأعداء، مع التعظيم والتوقير لهم، لأنهم رسلُ الله **﴿وأقرضتم الله قرضاً حسناً﴾** أي أنفقتم من أموالكم في سبيلِ الخير، طلباً لرضى الله ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي لأمحونَّ عنكم ذنوبكم، ولأدخلنكم في الآخرة بساتين تجري من تحت قصورها أنهار الجنة، فمن كفر برسلي بعد ذلك الميثاق منكم، فقد أخطأ خطأً فاحشاً، وضلَّ ضلالاً بيناً لا عذر معه أصلاً.. روي أن بني إسرائيل، لمَّا نجَّاهم الله من فرعون، أمرهم على لسان موسى بالتوجه إلى «أريحا» وكان يسكنها الجبابرة، وأمر موسى عليه السلام أن يأخذ من كل سِبْطٍ كفيلاً عليهم، بالوفاء بما أُمروا به، فأخذ عليهم الميثاق، واختار منهم النقباء وسار بهم، فلما دَنَوْا من أرض كنعان، رأوا أقواماً أجسامهم عظيمة، ولهم قوة وشوكة فهابوهم، ورجعوا فحدَّثوا قومهم، فعند ذلك نقضوا الميثاق، فقال بنو إسرائيل لموسى **﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾** كما سيأتي خبرُهم مفصلاً في هذه السورة، ولهذا قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦۚ﴾ أي فبسبب نقضهم الميثاق، طردناهم وأبعدناهم عن رحمتنا، وجعلنا قلوبهم غليظة، جافة، لا تلين لقبول الإيمان، ولا تؤثر فيها حجة ولا موعظة، وقد أقدموا

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾

على (جريمة عظمى)، هي تحريفُهم لكلام الله في التوراة، بتغيير بعض ألفاظه، وأحكامه، وتركوا نصيباً وافراً، ممَّا أمروا به في التوراة، حينما حرَّفوها، فسقطت أشياء كثيرة منها عن حفظهم ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي لا تزال ترى منهم الخيانة، فالخيانةُ والغدرُ طبيعتُهم، وطبيعة أسلافهم من قبلهم، إلا القلة القليلة منهم، وهم الذين آمنوا كعبد الله بن سلام وأصحابه، فأعرضْ عنهم ولا تتعرَّضْ لهم بالمعاقبة، حتى يُظهر الله لك حكمه فيهم، فالله عزَّ وجلَّ يحب المؤمن المحسن، وقد نُسخت هذه الآيةُ بآيةِ السيف والجزية، كما قال الجمهور، وبعد أن حكى عن اليهود خيانتهم وغدرهم، حكى عن النصارى أيضاً ضلالهم وتلاعبهم في الدين، فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي ومن الذين ادَّعوا أنهم نصارى، أخذنا ميثاقهم أيضاً على الإيمان بالله، وتصديق رسله، والإيمان خاصة بخاتم المرسلين، محمد ﷺ، فنقضوا العهد، وتركوا نصيباً وافراً، ممَّا أمروا به في الإنجيل، من الإيمان بالله، والإيمان بجميع أنبيائه ورسله، وبدَّلوا وحرَّفوا في كتابهم ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي ألزمنا وألصقنا بين فِرَق النصارى، العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، فلا يزالون متعادين متباغضين، يُكفِّر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضُهم بعضاً، وكلُّ فرقةٍ تمنع غيرها من دخولِ كنائسها، كما هو الحال بين (البروتستانت والكاثوليك)، وسوف يدوم هذا التباغض بينهم إلى يوم الدين، جزاء ما ارتكبوه من تحريفٍ وتبديل، وإنما نَسَب تعالى تسميتهم نصارى إلى أنفسهم ﴿**الذين قالوا إنا نصارى**﴾ ولم يقل: ومن النصارى، للتنبيه على أن قولهم: نحن أنصار الله، كلام غير صادق، وإنما هو مجردُ تقوُّل وزعم، فليسوا من نصرة الله في شيء، ولو كانوا صادقين لما عبدوا عيسى من دون الله، وزعموا أنه هو اللهُ، أو هو ابنُ الله ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ أي سيلقون جزاء عملهم القبيح، وهذا وعيدٌ وتهديد، كقول الرجل لمن يتوعده: سأخبرك بما فعلت، ثم جاء

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ

الخطاب للفريقين من أهل الكتاب، (اليهود، والنصارى) لدعوتهم إلى الإيمان بالرسول، والقرآن الكريم، فقال تقدست أسماؤه ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ﴾ أي يا معشر اليهود والنصارى، قد جاءكم رسولنا محمد خاتم الأنبياء بالدين الحقِّ، يبيِّن لكم الكثير ممَّا كنتم تكتمونه في كتابكم، من صفته عليه السلام الموجودة عندكم في التوراة والإنجيل، ومن آية الرجم، وقصة أصحاب السبت، الذين مُسِخوا إلى قردة وخنازير، ويعفو عن كثير فلا يُبيِّنه، وإنما يبين لكم ما فيه حجةٌ على نبوته، وشهادةٌ على صدقه **﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾** ولو ذَكر كلَّ شيء لفضحكم، وكشَفَ باطلكم وضلالكم!! وفي الآية دليلٌ على صحة نبوته عليه السلام، لأنه كشف ما أخفوه في كتبهم، وهو أميٌّ لم يقرأ كتبهم ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾ أي والله لقد جاءكم من رب العزة والجلال، نورٌ وأيُّ نور، هو القرآن، المزيل لظلمات الشرك والشك، وهو كتاب مبينٌ ساطع، بيِّنُ الإعجاز ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي يهدي الله بهذا القرآن، من اتَّبع رضى الرحمن، بهديهم إلى السلامة من العذاب، والنجاة من العقاب، ويخرجهم من ظلمات الكفر والضلال، إلى نور الهداية والإيمان، بتوفيقه وإرادته، إلى طريق الجنة، طريق الإسلام، الذي هو الطريق المستقيم، ثم ذكر تعالى كفر النصارى، بإضفاء صفة الألوهية عليه، واعتقادهم أنَّ عيسى هو (اللَّهُ)، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، فقال سبحانه ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ﴾ أي والله لقد كفر هؤلاء النصارى،

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

الذين زعموا أن الله عزَّ وجلَّ قد حلَّ في بدنِ عيسى، فعيسى هو الله، ولا يزالون يقولون بألوهية المسيح، وبالتثليث، ولهذا نجد في الأناجيل هذه العبارات: «جاء الربُّ يسوع» وقال الربُّ يسوع، ويسوع عندهم هو عيسى، وهذا كفرٌ صريح، ويأتي لهم من اللّهِ الوعيدُ، الذي تتقطع له القلوبُ وترتجف ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي قل لهم توبيخاً وتبكيتاً: من يستطيع أن يدفع عن عيسى العذاب، لو أراد الله أن يهلكه وأمَّه وأهل الأرض جميعاً؟ هل هناك أحدٌ يستطيع أن يمنع الله من إرادته؟ فعيسى عبد مقهور، تحت سلطان جلال الله وعظمته، ولو كان إلهاً كما تزعمون، لدفع عن نفسه الفناء والهلاك، ثم كيف يكون إلهاً ويُصلب؟ وكيف يكون رباً وهو يأكل ويشرب، ويبول ويتغوَّط؟ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي ولله وحده جميع ما في الكون، من المخلوقات والعجائب، وهو سبحانه القادر على أن يخلق ما يريد، ولذلك خلق عيسى من أم بغير أب، ليدل على كمال قدرته وجلاله، فهو الذي لا يعجزه شيء، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقولَ له كن فيكون.. ثم حكى تعالى عن اليهود والنصارى مزاعمهم الباطلة، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ أي قالت اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه، وقالت النصارى مثل ذلك، أي نحن بمنزلة الأبناء إلى الله، وحبُّه لنا كحبِّ الوالد لولده، وهل يسخط الوالد على ولده؟ قل لهم يا محمد إلزاماً وتبكيتاً: إذا كنتم كما تزعمون أحباب الله، فلماذا يعذبكم بذنوبكم؟ ولماذا أعدَّ لكم نار الجحيم؟ هل يعذِّب المحبُّ حبيبه؟ وهذا تكذيب للفريقين في هذه الدعوى الباطلة الكاذبة، ثم قال تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠)﴾

هذه تتمة لردِّ مزاعمهم الكاذبة، أي أنتم بشرٌ كسائر الخلق، وهو سبحانه الحاكم في جميع عباده، يغفر لمن يشاء من عباده، ويُعذِّب من يشاء، لا اعتراض على حكمه، ولا رادَّ لأمره، وله جلَّ وعلا ملكُ جميع ما في الكون، لا ينتسب إليه أحدٌ إلاَّ بالعبودية، وإليه وحده في الآخرة مرجع جميع الخلق، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ثم دعاهم تعالى إلى الإيمان بخاتم المرسلين، فقال جلَّ ثناؤه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي يا معشر اليهود والنصارى، لقد جاءكم محمد ﷺ، يوضِّح لكم شرائع الدين، على انقطاع بعثة الرسل، وهي (٥٦٠) سنة، كانت بين عيسى ومحمد، وانقطاع الوحي، حتى عمَّ الجهل وطمَّ، وقد أرسلنا لكم الآن خاتم النبيين، لئلا تقولوا: ما جاءنا رسولٌ يبشرنا وينذرنا، ويبيِّين لنا شريعة الله الحقيقية، فقد جاءكم البشير والنذير، فلم يبق لكم حجةٌ ولا عذر، فلماذا تنكرون رسالته ولا تؤمنون به؟ والله قادر على تعذيب من عصاه، وإثابة من أطاعه، ثم حكى تعالى طرفاً عن قبائح اليهود وعنادهم، حتى مع نبيِّهم موسىٰ الكليم، حيث يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي اذكر يا أيها الرسول للناس، حين قال موسى لقومه: يا قوم تذكَّروا نعمة الله العظمى عليكم، حين جعل الأنبياء فيكم من أولاد يعقوب، وجعلكم تعيشون آمنين في أوطانكم، كالملوك في الترف والنعيم، بعد أن كنتم عبيداً تحت حكم فرعون، فهي نعمة جليلة نعمة «الحرية» و«الاستقلال» **﴿وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾** من فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المنِّ والسلوى، ممَّا خصَّكم به ربكم من الفضل والإنعام

﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾

﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ أي ادخلوا أرض بيت المقدس، الأرضَ الطاهرة المباركة، التي وعدكم الله بدخولها، إن جاهدتم في سبيل الله، وقاتلتم الجبارين، ولا ترجعوا مدبرين خوفاً من الجبابرة، فتخسروا عزكم ودينكم، وعدهم بالعزِّ والنصر والغلبة على الأعداء، إن هم قاتلوا الجبارين، وجاهدوا في سبيل الله، ولكنْ ماذا كان جواب أولئك الأشقياء الجبناء؟ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ أي قالوا معتذرين بضعفهم، مصرِّين على المخالفة: إنَّ فيها جبابرة، لا نستطيع مقاومتهم، ولا قدرة لنا على قتالهم، فإن خرجوا منها وسلَّموها لنا من غير قتالٍ دخلناها، وهذا يدل على طبيعة اليهود، ألا وهي (الجُبْنُ والهَلَع)، والخوف والفزع، وأنهم لا يريدون القتال، وإنما ينتظرون أن يُسلِّم لهم القومُ ديارهم على برد الماء، ليدخلوها آمنين مطمئنين، ومن الذي يُسلِّم وطنه لعدوه دون قتال؟ وهنا يظهر على الساحة شخصان مؤمنان، يستجيبان لدعوة موسى، وينصحان القوم بعدم الفزع والخوف، فإنَّ من كان الله معه، لا يخشى أحداً من الناس ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾ أي قال رجلان مؤمنان، من الذين يخافون الله، ويتقونه في مخالفة أمره، أنعم الله عليهما بالإيمان، ورباطة الجأش: يا قوم لا تخافوهم، ولا يهولنَّكم عِظَمُ أجسامهم، فأجسامهم ضخمة، وقلوبهم ضعيفة، فإذا دخلتم عليهم باب المدينة، وواجهتموهم بغتة، فإنهم سينهزمون أمامكم، وتتغلَّبون عليهم، والله يلقي في قلوبهم الرعب ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي وعلى الله وحده فاعتمدوا، فإنه ناصركم، إن كنتم حقاً مؤمنين، فالعبرةُ ليست بالقوة ولا بالكثرة، ولكنْ بالعون الإلهي!!

قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

ولننظر إلى جواب اليهود الشنيع لنبيهم موسى عليه السلام ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ أي قال أولئك السفهاء يا موسى: إنَّا لن ندخل أرض الجبابرة، بحالٍ من الأحوال، ما داموا في تلك الأرض، فلا تُجهدْ نفسك معنا، واذهب أنت وربك فقاتلاهم، فنحن قاعدون في أماكننا ننتظر النتيجة!! وهذا إفراطٌ منهم في العصيان، مع سوء الأدب، بعبارةٍ تقتضي الكفر، والاستهانة بالله ونبيهم موسى عليه السلام، كما أنَّ فيه الوقاحة في الخطاب، ولنقف لحظة يسيرة أمام هذا الجواب الشنيع من اليهود، لنبيهم الكريم موسى بن عمران، ولنقارنه بجواب صَحَابة النبي الكرام، حين دعاهم رسول الله لقتال المشركين في غزوة بدر، حيث قالوا: يا رسول الله، سِرْ بنا على بركة الله، فوالله لو خضتَ بنا البحرَ، لخضناه معك، ما تخلَّف عنك منا أحدٌ، لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لنبيهم موسى ﴿**اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون**﴾ ولكنْ نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون!! أين هذا الجوابُ البديع، من جواب اليهود الشنيع!! ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي قال نبيُّ الله موسى، معتذراً إلى ربه، متبرءاً من جواب أولئك السفهاء: يا ربِّ إني لا أملك إلاَّ نفسي، وأخي هارون كذلك لا يملك إلاَّ نفسه، فافصل بيننا وبين القوم الخارجين عن طاعتك، بحكمك العادل، وليس مراده إلا الشكوى إلى الله، لينتقم له من أولئك المتمرِّدين، الخارجين عن الطاعة، العاصين لله ولرسوله ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي قال الله تعالى لموسى: إن الأرض المقدَّسة، محرمة على هؤلاء العُصاة، مدة أربعين سنة، يبقون في أرض التيه ضائعين، فلا تحزن على القوم الفاسقين، والحكمة في هذا الضياع والتشرد، مدة أربعين سنة، أن ينقرض هذا الجيلُ الجبانُ الخانع، الذي ألف الذلَّ والمهانة، تحت سلطان فرعون وجبروته، ويأتي جيلٌ مؤمنٌ شجاع، يفتح الله بهم الأرض المقدسة!! رُوي

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠﴾

أنهم كانوا يسيرون الليل كلَّه، فإذا أصبح الصباحُ وجدوا أنفسهم في الموضع الذي كانوا فيه، وهذا هو التيهُ الذي عاقبهم الله به، وهذه القصة «قصة التيه» مفصَّلة في التوراة، ناعيةً على اليهود عصيانهم وطغيانهم. . ثم ذكر تعالى قصة ابنيْ آدم «قابيل وهابيل» وهي قصة ترمز إلى الصراع العنيف بين الخير والشر، ونوازع الرحمة والإجرام، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي اقرأ يا أيها الرسول، على هؤلاء اليهود، الحاسدين لك، خَبَر وقصة «هابيل وقابيل» ابنيْ آدم عليه السلام، تلاوةً متلبِّسةً بالصدق والصحة، وذكِّرهم بهذه القصة، حين قرَّب كل واحدٍ قربانه، فتقبَّل اللهُ قربان «هابيل» لصفاء نيته، ولم يتقبَّلْ قربان «قابيل» لأنه سخط على حكم الله ﴿**قال لأقتلنك**﴾ أي قال قابيلُ لهابيل سأتخلَّصُ منك بالقتل، قال له هابيلُ: ولم تقتلني ولم أرتكب جُرماً؟ قال: لأن الله تقبَّل قربانك، ولم يتقبَّلْ قرباني، فقال له هابيل ﴿**إنما يتقبل الله من المتقين**﴾ أي إنما يتقبَّل الله ممن أخلص نيته، واتقى اللَّهَ ربه، ولم يعارض حكم الله ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي لئن مددت إليَّ يدك لتقتلني ظلماً، فما أنا أقابلك بالمثل، لأنني أخاف الله ربَّ العالمين ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي إني أريد أن أكون مظلوماً لا ظالماً، فإن أقدمتَ على قتلي، رجعتَ بالإثم كاملاً، إثمَ قتلي، وإثمَ عدوانك، فتصبح من أهل النار، وذلك هو عقاب وجزاء كل ظالم، عاصٍ لأوامر الله، وفي قوله (إني أخاف الله) إرشادٌ لأخيه (قابيل) إلى خشية الله، فإن خشية الله تحول دون الإقدام على القتل، لأن الخشية ثمرة الإيمان بالله، والخوف من عقابه ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي زيَّنتْ له نفسُه وحسَّنتْ

فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ

له قتل أخيه، فقتله فخسر وشقي، خسر الدنيا والآخرة، وفي لفظ «أخيه» بيانٌ لكمال قبح الجريمة، فإنه لم يقتل عدواً أو غريباً، وإنما قتل أخاه الشقيق، وهذا نهاية الشناعة، أخرج البخاري عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: (لا تُقتل نفسٌ ظُلماً، إلاَّ كان على ابن آدم الأول، كِفْلٌ من ذنبها ـ أي نصيبٌ من الذنب ـ لأنه أول من سنَّ القتل) ولم يكن «هابيل» أضعفَ قوة من «قابيل» ولكنْ مَنَعه ورعُه وخوفُه من الله!! ولما قتله لم يدر كيف يدفنه؟ ولا كيف يصنع به؟ قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ أي فأرسل الله غراباً يحفر بمنقاره ورجله الأرض، ليُريَ القاتلَ كيف يستر جسد أخيه، وذلك أنه رأى طيراً يقتل طيراً، ثم يحفر حفرةً فيضعه فيها، ففعل بأخيه مثلَ ذلك، وقال متحسِّراً: يا ويلي ويا هلاكي، هل عجزتُ أن أكون مثل هذا الطير، فأستر جسد أخي في التراب، كما فعل هذا الغراب؟ فصار نادماً على صنيعه، لأنه لم يهتد إلى ما اهتدى إليه الغراب، ولو كانت ندامتُه على قتل أخيه، لكانت الندامة توبةً له، كما قال ابن عباس.. وهذه أول جريمة قتل، تقع على ظهر الأرض، والحكمة من ذكر هذه القصة، أن الحسد، هو الذي أفرز هذه الجريمة الشنيعة «جريمة القتل» وهذا المرضُ الخطير، والداء الوبيل «داء الحسد» صفة اليهود اللعناء، الذين حسدوا خاتم الأنبياء، محمداً عليه الصلاة والسلام، فكذَّبوا رسالته، وحرَّفوا أوصافه المذكورة في التوراة، فاستحقوا اللعنة والدمار، وغضب الجبار ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ﴾ أي من أجل هذه الحادثة المفجعة، وبيان هَوْل شأن القتل، وفرط قُبحه، قضينا على بني إسرائيل في التوراة، أنه من قتل منهم نفساً واحدةً من النفوس البشرية، بغير سبب

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾

موجب للقتل، وبغير فسادٍ يوجب إهدار دم الإنسان، كالردة عن الدِّين، وقطع الطريق، والإشراك بالله، فكأنه قتل جميع البشر، ومن تسبَّب لبقاء حياتها، فكأنه أحيا جميع البشر، وإنما ذكر تعالى هنا «بني إسرائيل» خاصةً، لأن الحسد كان أول سبب داع إلى ارتكاب جريمة القتل، وأول دافع لذلك الفساد، وهو غالبٌ على اليهود، والتوراةُ أولُ كتاب نزل فيه تعظيمُ جناية القتل، ومع ذلك كان اليهود أشدَّ طغياناً فيه من غيرهم من الأمم، حتى قتلوا الأنبياء، وسفكوا دماء الأبرياء، وعاثوا في الأرض فساداً ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ أي ووالله لقد جاءت بني إسرائيل، رسلُ الله بالمعجزات الساطعات، الدالة على صدق رسالتهم، فكذَّبوهم، وأسرفوا في الأرض بالبغي والعدوان، وهذا تقريع وتوبيخ لليهود على ارتكابهم المحارم، وسفكهم الدماء، بعد علمهم بشناعة القتل، وذلك يدلُّ على غاية قسوة قلوبهم، ونهاية بعدهم عن طاعة الله عزَّ وجل، وبعد أن حكى تعالى عن جريمة القتل، ذكر بعدها جريمة قطع الطريق، فقال تقدست أسماؤه ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي يحاربون دينَ الله وشريعته، وأولياءه، ويحاربون رسله، ويسعون في الأرض بأنواع البغي والفساد، - والمراد بهم قطَّاع الطريق - إلاَّ أن يُقتلوا أشنع قتلة، أو يُصلبوا ويُتركوا على الخُشُب على مرأى الناس، أو تُقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى، وهذا معنى قوله: (من خلاف) أو يُطردوا ويُبعدوا عن الوطن، ولمَّا كانت المحاربةُ والفسادُ على مراتب، نوَّع الله العقوبة، فمن قتل فقط قُتِلَ، ومن قَتَل وسَلَب المالَ، قُتل وصُلب، ومن سَلَب المالَ فقط، قُطعت يده ورجله من خلاف، ومن أخاف الطريق وأفزع الناس، نُفي من الأرض، وطُرد من الوطن ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ذلك العقاب المذكور، هو ذلٌّ وإهانة لهم في الدنيا،

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾

ولهم في الآخرة عذابُ الجحيم، فالعقاب على قدر الجريمة، وكيفية الصلب هو: أن يُصلب حياً على عمود، أو جذع شجرة، ويُبعج بطنُه برمح حتى يموت، ويبقى ثلاثة أيام مصلوباً حتى يعتبرَ به الناسُ ويتّعظوا ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي أمّا من تاب من المحاربين وقُطّاع الطرق، من قبل أن تصل إليه أيديكم، ومن قبل القبض عليه لمعاقبته، فاعفوا عنه واصفحوا، فإن الله واسع المغفرة، عظيُم الرحمة، وتقييُد التوبة بعدم القدرة على القبض عليه، وعدم وقوعه في يد العدالة، للتنبيه على أنها بعد القدرة، لا تُسقط عنه الحدَّ، لعظيم جنايته ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لـمَّا ذكر تعالى عظم القتل، والفساد، أمر عباده المؤمنين بأن يتقوا عذابه، بطاعته وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، أي يا معشر المؤمنين، خافوا ربكم، واطلبوا ما يقرِّبكم منه من طاعته وعبادته، وجاهدوا في سبيل الله لإعلاء دينه، لتفوزوا بالنعيم المؤبّد، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لـو كان للكافر جميعُ ما في الأرض، من كنوزٍ، وذهب، وأموال، ومتاع، ومثله أيضاً، ثم قدَّمه فدية، ليتخلَّص به من عذاب الله يوم القيامة، ما تقبَّله الله منه، وله في جهنم عذاب مؤلم موجع ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي يتمنى هولاء الكفار، الخروج من النار، وليسوا بخارجين منها، ولهم عذاب دائمٌ لا ينقطع، وفي الحديث الشريف (يُجاء بالكافر يوم القيامة، فيقالُ له: أرأيتَ لو كان لك ملءُ الأرض ذهباً، أكنتَ تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقول الله له: لقد سألتك ما هو أهونُ من ذلك، سألتُك أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلاَّ الشرك) رواه مسلم،

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ﴾

ولما ذكر تعالى عقوبة قاطع الطريق، ذكر بعدها عقوبة السارق، فقال جلَّ ثناؤه ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي كلُّ من سرق، رجلاً كان أو امرأةً، اقطعوا يده، مجازاة له على ذلك الفعل القبيح، عقوبةً من رب العزة والجلال، الحكيم في تدبيره وتشريعه ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي فمن تاب من السُرَّاق وأصلح سيرته وعمله، فإن الله يقبل توبته، لأنه تعالى واسع المغفرة، عظيم الرحمة لمن رجع عن خطئه وأناب، لقد جعل القرآن الكريم، قطع يد السارق، هو العلاج الرادع لتلك الجريمة المنكرة، فاليد التي تسرق يدٌ خائنة أثيمة، يجب أن تُبتر ليأمن الناس على أموالهم وأرواحهم، ويدٌ واحدة تقطع كفيلة بردع المجرم، أكثر مما لو حُكم عليه بالسجن عشر سنين، والله عزَّ وجلَّ هو الحكيم، الذي يشرِّع ما فيه مصالح البشر، وتأمين الاستقرار والأمن، النفسيِّ والماليِ، ولكنَّ تلك اليد لا تُقطع، إلا بعد أن تتوفر الشروط الشرعية، أن تكون السرقةُ من حرز مصون، خفيةً، من غير حاجة ولا شبهة إلى آخر الشروط ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي ألم تعلم أيها الإنسانُ العاقل، أن الله له السلطانُ القاهرُ، والمُلْك الباهر، وبيده ملكوت السموات والأرض، يتصرف كما يشاء، فيعذِّب من يشاء تعذيبَه، ويغفر لمن يشاء غفران ذنبه، وهو القادر على كل شيء؟ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ﴾ الكلامُ عن المنافقين، الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، أي لا تحزن يا أيها الرسول، ولا تُبال بصنيع هؤلاء المنافقين، الذين يتسابقون نحو الكفر تسابقاً، كأنهم في ميدان سباق، يريد الواحد منهم أن ينال قَصَب السبق؟ ثمّ

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ﴾

فَصَّل تعالى حالهم بقوله: ﴿**من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم**﴾ أي من المنافقين الذين لم يجاوز الإيمان أفواههم، يقولون بألسنتهم آمنَّا، وأمَّا قلوبهم فكافرة، لم تخالطها بشاشةُ الإيمان ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ﴾ هذا هو الفريق الثاني من أهل ا لكفر والضلال، وهم اليهود المحرفون لكلام الله، أي ولا تحزن أيضاً لهؤلاء اليهود، المبالغين في سماع الأكاذيب والأباطيل، وإشاعتها من أجل قوم آخرين، لم يحضروا مجلسك، تكبراً ومبالغة في العداوة، يحرِّفون كلام الله ويبدِّلونه، يقولون لإخوانهم في الكفر: إن أمركم محمد بالجلد فاقبلوا، وإن أمركم بالرجم فلا تقبلوا، والآية تشير إلى قصة اليهود، في أمرٍ يتعلق بالزنى والرجم، فقد رُوي أن رجلاً من أشراف يهود خيبر، زنى بامرأة شريفة، وكانا محصنينْ، فكرهوا رجمهما لشرفهما، فأرسلوا إلى يهود بني قريظة أن اسألوا لنا محمداً عن حكم الزاني المحصن في شريعته، فإن قال: حدُّه الجلدُ فاقبلوا حكمه، وإن قال: الرجمُ فلا تقبلوا، فجاءوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا محمد أخبرنا عن الزاني والزانية إذا أُحصنا ـ أي كانا متزوجين ـ ما حدُّهما في كتابك؟ فقال: الرجمُ، فأبوا أن يأخذوا بحكمه، فقال لهم عليه السلام: ما حكمه في التوراة؟ قالوا: الجلدُ، ونسوِّد وجههما ونفضحهما، فقال لرجلٍ من علمائهم: أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حقَّ الزاني في كتابكم؟ قال: لا، ولولا أنك نشدتني بالله لم أخبرك!! نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحدَّ، فقلنا تعالوا نجتمع على أمرٍ واحد، نقيمه على الشريف والوضيع، فاجتمعنا على التحميم ـ أي طلي الوجه بالسواد ـ والجلد، مكان الرجم، فقال رسول الله ﷺ: اللهم اشهد فإني أول من أحيا أمرك بعدما أماتوه، فأمر بهم فرجما، وفيهم نزل ﴿**إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا**﴾ يقولون: ائتوا محمداً فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أمركم وأفتاكم بالرجم فاحذروا.. والقصةُ رواها البخاري ومسلم، قال تعالى تسفيهاً لهم

وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

وتجهيلاً ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ومن أراد الله إضلاله وشقاءه، فلن يقدر أحدٌ على دفع ذلك عنه، أولئك الأشقياء الفجار، لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم، من رجس الكفر والضلالة، ودنس العصيان والفجور، لهم في الدنيا ذلٌ وفضيحة وهوانٌ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم، هو الخلود في نار الجحيم، ثم بيَّن تعالى طرفاً من قبائح اليهود، فقال: ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ﴾ أي هم مغرقون في الكفر والضلال، يبالغون في استماع الأباطيل والأكاذيب، وأكل الرشاوىٰ والحرام، فإن تحاكموا إليك يا محمد، فيما يحدث بينهم من الخصومات، فأنت بالخيار أن تحكم بينهم، أو تعرض عنهم، لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحقّ، بل اتباع ما يوافق أهواءهم ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي وإذا هجرتهم ولم تحكم بينهم، فسيزداد عداؤهم لك، والله عاصمك وحافظك من شرّهم، وإذا حكمت بينهم فاحكم بالعدل والحق الذي أمرك الله به، وإن كانوا ظلمةً فجرة، خارجين عن طاعة الله، فإن الله يحب العادلين في أحكامهم، ثم وبَّخهم تعالى على إعراضهم عن حكم التوراة، وهم يزعمون أنهم يؤمنون بها فقال ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تعجيبٌ من الله لرسوله ﷺ، بتحكيمهم من لا يؤمنون به، أي كيف يحكِّمك هؤلاء اليهود، ويرضون بحكمك، وعندهم حكم الله في التوراة ظاهرٌ جلي، ثم يتركونه ويأتون إليك؟ وليس هدفهم من ذلك، إلاَّ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ﴾

الميل إلى ما يوافق أهواءهم، فإن رأوه عندك قبلوه، وإلاَّ أعرضوا عن حكمك الموافق لكتابهم، وليسوا بمؤمنين في الحقيقة بالتوراة ولا بالقرآن، وهذا نهاية الجهل والطغيان، ثم مدح تعالى التوراة التي أنزلها الله على رسوله موسى، وفيها الهدى والنور كما هو في القرآن، فقال جلَّ ثناؤه ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أي نحن الذين أنزلنا التوراة، فيها البيانُ الواضح، والنورُ الساطع، الذي يفرق بين الهدى والضلال، يحكم بها أنبياء بني إسرائيل لليهود الذين انقادوا لحكم الله، لا للمتمردين على شريعة الله ﴿وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ﴾ أي ويحكم بالتوراة العلماء الربانيون، والفقهاء من رؤساء الدين وهم الأحبار، الذين يتقون الله ويخافونه، بسبب أمر الله لهم، بالمحافظة على كتاب الله «التوراة» من التحريف والتبديل، وعدم التلاعب فيه، أو تغيير أحكامه، حيث أُخذ عليهم العهدُ والميثاقُ، على المحافظة عليها ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ خطابٌ لرؤساء اليهود وعلمائهم، أي فلا تخافوا يا علماء اليهود في بيان الحق أحداً من الناس، وخافوا ربكم الجليل وعقابه، إن كتمتم آياته ولم تبينوها للناس، ولا تستبدلوا بآياتي حطام الدنيا الفاني، من الرشوة، والجاه، والعَرَض الخسيس، ومن لم يحكم بشريعة الله العادلة، فإنه كافرٌ خارج عن دين الله، والآية وإن نزلت في اليهود، ولكنها عامة تشمل حكام المسلمين إن لم يحكموا بالقرآن، الذي أنزله الله، فهي كما قال المفسرون تجرُّ بذيلها على عصاة المؤمنين، فكلُّ حاكم منتقص لشريعة الله، فإنه معرِّض نفسه لعذاب الله، لأنه خلع ربقة الإيمان من عنقه ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ﴾ أي وفرضنا على اليهود في التوراة، أن القاتل يُقتل

فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾

قصاصاً، فمن أزهق نفساً بغير حقٍّ قُتل به، ومن قلع عين إنسان قُلعت عينه، ومن جَدَع أنفه جُدع أنفُه، وأن الأذن تُقطع بالأذن، والسنَّ يُقلع بالسنّ، وأن الجراحات يجري فيها القصاصُ، بأن يُفعل بالجاني مثل ما فعل بالمجنيّ عليه، بشرط المساواة والمماثلة، لئلا يكون في الأرض بغيٌ ولا عدوان ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ أي فمن عفا عن الجاني وأسقط حقه، فهو كفارة للعافي، يكفِّر الله به ذنوبه، والتعبيرُ عن العفو بالتصدُّق **﴿فمن تصدَّق به﴾** للمبالغة في الترغيب بالعفو، وإعلانٌ بأن هذا منه صدقةٌ وإحسان، كأنه أنفق المال في سبيل الله، والله يجزيه خير الجزاء، على عفوه وإحسانه، ثم قال تعالى ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي هم أهل الظلم والإساءة، لأنهم رفضوا حكم الله ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ أي أتبعنا على آثار النبيين، ببعثة عيسى بن مريم، أرسلناه لبني إسرائيل رسولاً، مصدِّقاً لما تقدَّمه من التوراة، وأنزلنا عليه الإنجيل، فيه هدى ونور كما في التوراة، يُستضاء بأحكامه في إظهار الحق، وإزالة الشبهات ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي وجاء الإنجيلُ، معترفاً بأحكام التوراة، وأنها من عند الله، وجعلناه هادياً وواعظاً لأهل الإيمان والتقوى، وخصَّ المتقين بالذكر، لأنهم هم المنتفعون بهذه الأحكام، والتصديقُ الأولُ لعيسى عليه السلام بالتوراة، والتصديقُ الثاني للإنجيل، جاء مصدِّقاً للتوراة غير ناسخ لأحكامها، فلا تكرار في الآية ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي وألزمنا على النصارى وأوجبنا عليهم، أن يحكموا بالإنجيل، وبما جاء به عيسى ابن مريم من عند الله، ومن لم يحكم بما أنزله الله، فهو متمردٌ خارج عن طاعة الله، منظوم في سلك الفاسقين، وهو كالتأكيد لما سبق، أنه فاسقٌ، خارج عن طاعة الله عز وجل، منتهكٌ

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾

لمحارمه، وقد جمع الله لمن لم يحكم بشريعته المقدَّسة، بين (الكفر، والظلم، والفسق)، وأوردها جميعها بطريق الحصر **﴿فأولئك هم الكافرون﴾ ﴿هم الظالمون﴾ ﴿هم الفاسقون﴾** وأيُّ شقاءٍ أعظمُ من هذا الشقاء؟ أن يكون المعرض عن تطبيق شرع الله كافراً، ظالماً، فاسقاً؟ وبعد الحديث عن التوراة، والإنجيل، جاء الحديث عن القرآن، خاتمة الكتب السماوية ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أي وأنزلنا إليك يا محمد هذا الكتاب المجيد، أنزلناه بالعدل والصدق الذي لا ريب فيه، حال كونه مصدِّقاً للكتب السماوية التي سبقته، ومؤمناً وحاكماً على ما قبله من الكتب، يشهد لها بالصحة، ويُثبت ما طرأ عليها من تبديل وتحريف، ليردَّها إلى الصفاء والنقاء، فيثبت الحقَّ، ويُبطل الباطل ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ أي فاحكم بين أهل الكتاب، بالحقِّ الذي أنزله عليك، في هذا القرآن العظيم، ولا تسايرهم على أهوائهم الزائفة، وتترك الحقَّ المبين ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ﴾ أي لكل أمة من الأمم، جعلنا لهم شريعة خاصة، وطريقاً واضحاً بيّناً في الدين، فلليهود شريعة ومنهاج، وللنصارى شريعةٌ ومنهاج، وكذلك المسلمون لهم شريعة خاصة ومنهاج، فالشرائع مختلفة لأنها فروع، والدينُ واحد **﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾** لأنه أصل واعتقادٌ، وهو لا يختلف من أمة إلى أمة، ولو شاء الله لجعلكم أمة متفقة على دين واحدٍ، وملةٍ واحدة، من غير اختلاف بينكم، في شيء من الأحكام الدينية، ولكنه تعالى شرع الشرائع مختلفة، ليختبر العباد هل يذعنون لحكم الله أم يعرضون؟ ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي فسارعوا إلى طاعة ربكم، وافعلوا الخيرَ طلباً لمرضاة الله، وتمسكوا بشريعة الله، فمعادكم ومصيركم إلى الله وحده، فيخبركم

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾

بما اختلفتم فيه من أمر الدين، ويجازيكم بالجزاء العادل، الفاصل بين المحقّ والمبطل ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي احكم بين أهل الكتاب بهذا القرآن العظيم، ولا تتبع أهواءهم فيما يدعونك إليه، واحذرهم أن يصرفوك عن شريعة الله، فإنهم كفرة فجرة، روي أن أحبار اليهود، قالوا: تعالوا نذهب إلى محمد، لعلنا نفتنه عن دينه! فقالوا يا محمد: قد عرفتَ أنَّا أحبار يهود، وأنَّا إن اتبعناك اتبعك اليهود كلُّهم، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فنتحاكم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونحن نؤمن بك ونصدِّقك!! فأبى رسول الله ذلك منهم، وأعرض عنهم، فنزلت الآية **﴿واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾** لآية، ثم قال تعالى ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ﴾ أي فإن أعرضوا عن الحكم بما أنزل الله، وأرادوا حكماً غيره، فاعلم يا أيها الرسول أنما يريد الله أن يعاقبهم ببعض إجرامهم، وأكثرُ الناسِ خارجون عن طاعة الله، مخالفون للحق، ضالون عن طريق الهداية ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ إنكارٌ وتعجيبٌ من حالهم وتوبيخ لهم، والمعنى: أيعرضون عن حكمك، ويبتغون غير حكم الله؟! يريدون حكم الجاهلية؟ حكم أهل السَّفه والهوى؟ ومن أعدل من الله في حكمه؟ وأصدقُ في خبره وبيانه؟ لقوم يوقنون بحكمة الله وعظمته وجلاله!! وبعد أن حكى القرآن عن أهل الكتاب، تلاعبهم في الدين، وهجرهم للتوراة والإنجيل، وحكم عليهم بالكفر والضلال، جاءت الآيات تحذِّر من موالاتهم، والتودُّد إليهم، فإنهم أعداء ألداء للمؤمنين، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي يا معشر المؤمنين لا تصادقوا أعداءكم (اليهودَ والنصارى)، تجعلونهم أولياء، وأصدقاء وأحباء، تفشون إليهم أسراركم، وتصافونهم كأنهم إخوة لكم في الدين، وهم يضمرون لكم السوء والشر،

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

ويعملون جاهدين للقضاء عليكم، فكيف تصادقونهم وهذه حالتهم وحقيقتهم؟ **﴿بعضهم أولياء بعض﴾**

أي هم يدٌ واحدة على المسلمين، لاتحادهم على الكفر والضلال، وملَّةُ الكفر واحدة، ومن يتخذهم أصدقاء وأولياء، فهو من جملتهم يصبح مثلهم، والله لا يوفِّق للخير والفلاح، الظالم الذي يعصي أمر الله ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ أي فترى أهل النفاق والضلال، يسارعون في موالاتهم ومودتهم، ويتهالكون في التقرب منهم، يقولون معتذرين: نخاف حوادث الدهر وفواجعه، أن يظفر اليهود أو النصارى على المسلمين، فلا تقوم لدولة الإسلام قائمة!! قال تعالى ردّاً عليهم ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ أي لعلَّ الله يفتح على المسلمين مكة، أو يُهلك أعداء الدين، من المشركين ومن والاهم من اليهود والنصارى، بأمرٍ سماوي من عنده تعالى، كإلقاء الرعب في قلوبهم، أو القتل والجلاء، فيصبح المنافقون نادمين على ما كان منهم من موالاة أعداء الله ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ أي ويقول المؤمنون الصادقون، مخاطبين اليهود، أهؤلاء أحبابكم وأعوانكم، الذين أقسموا لكم أغلظ الأيمان، أنهم معكم وأنصاركم؟ ـ يعنون بهم المنافقين ـ الذين قالوا لهم: (لئن أُخرجتم لنخرجنَّ معكم.. ولئن قوتلتم لننصرنكم) ما أشدَّ شقاوتهم وخسارتهم!! لقد أبطل الله أعمالهم بنفاقهم، فصاروا خاسرين في الدنيا والآخرة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تحذيرٌ للمؤمنين، من الارتداد عن الدين، والمعنى: يا معشر المؤمنين، يا من صدَّقتم بالله ورسوله، من يرجع منكم عن دينه، وينقلب من الإيمان إلى الكفر، فلن يضرَّ الله شيئاً، إنما يضرُّ نفسه، وسوف يأتي الله بقومٍ خيرٍ

يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾

منهم، مؤمنين صادقين، يحبُّهم تعالى ويحبونه، رحماء متواضعين للمؤمنين، أشداء متعزِّزين على الكافرين، وهذه صفات أهل الإيمان الكامل، كما قال تعالى عن الصحابة الكرام (أشداء على الكفار رحماء بينهم) ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي يجاهدون في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، وإعزاز دينه، ولا يبالون بمن عابهم أو لامهم، فهم في صلابة الدين كالجبال، وفي القتال كالأسود الكاسرة، ذلك هو فضلُ الله وإنعامه يؤتيه من شاء من عباده، والله واسع الفضل والإحسان، عالمٌ بمن يستحقُّ ذلك من خلقه.. ولما نهى تعالى عن موالاة الكفار، ذكر من يستحقُّ هذه الموالاة، فقال سبحانه ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ أي ليس اليهود والنصارى أولياءكم، إنما أولياؤكم الله جلَّ وعلا، ورسولُه محمد ﷺ، وإخوتكم المؤمنون، المحافظون على الصلاة على الوجه الأكمل، والمؤدُّون للزكاة التي فرضها الله في أموالهم، وهم خاشعون متواضعون لعظمة الله وجلاله، فهؤلاء هم أولياؤكم في الحقيقة ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ أي من يتخذ الله ولياً له، ويجعل النبيَّ والمؤمنين سنداً وعوناً له، يكن من حزب الله، وحزبُ الله هم الغالبون دوماً، وفي الآية تعريض بأنَّ من وَالَى اليهودَ والنصارى، فهو من حزب الشيطان، لا من حزب الرحمن، ثم جاء التحذير من موالاة أعداء الله كلهم، (اليهود، والنصارى، والمنافقين، والمشركين)، فقال سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي لا تصادقوا يا معشر المؤمنين أعداء الله، من اليهود والنصارى، أهل الكتاب المحرَّف، ومن الكفار عَبدةِ الأوثان، والمنافقين الذين يسخرون ويهزءون من دينكم، فإن هؤلاء جميعهم لكم أعداء، وخافوا ربكم وعذابه، إن كنتم حقاً مؤمنين

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي وإذا أذَّنتم للصلاة، ودعوتم إليها، سخروا منكم ومن صلاتكم وعبادتكم، بسبب أنهم لا عقل لهم، ولا إيمان يحجزهم عن السخرية بدين الله، وبهذا التوجيه الرباني، طوى القرآن صفحةً، كان ينفذ من خلالها أهلُ الضلال، فقطع العلاقة بين أولياء الرحمن، وجند الشيطان، فلا صداقة ولا مودة، ولا أخوَّة ولا محبة، إلاَّ بين المؤمنين، أصحاب الدين الواحد، أمَّا الباقون فإنهم من حزب الشيطان، وملَّةُ الكفر واحدة، وزيادةً في الإيضاح والبيان، من التحذير من موالاة أهل الكتاب، يقول القرآن الكريم ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي قل يا أيها الرسولُ، لهؤلاء الفجرة المستهزئين بدينكم: يا معشر اليهود والنصارى، هل تعيبون علينا وتنكرون منَّا، إلاَّ إيماننا بالله، وبما جاء به رسل الله؟ وهل لكم مطعن أو عيبٌ علينا غير هذا؟ وهذا في الحقيقة ليس بعيبٍ ولا مذمة، وإنما هو شيء يدعو إلى الفخر والاعتزاز ﴿**وأن أكثركم فاسقون**﴾ أي فسقة خارجون عن طاعة الله، ولذلك تسخرون منا ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي هل أخبركم بشرٍّ من هذا الذي تعيبونه علينا من الإيمان بالله والتصديق برسله؟ ﴿**مثوبة عند الله**﴾ أي ثواباً وجزاء عند الله؟ سمَّى العقابَ ثواباً، سخريةً واستهزاءً بهم، وهذا الثوابُ هو اللعنةُ، والغضبُ، والسخطُ من الله تعالى عليه ﴿**وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت**﴾ أي مسخهم إلى قردة وخنازير، وجعل منهم من عَبَد الشيطان، هؤلاء الملعونون الموصوفون بتلك الشنائع والقبائح، شرٌّ منزلةً في الآخرة، وأكثر ضلالاً عن الطريق المستقيم ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ﴾ الكلام

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ﴾

عن المنافقين من اليهود، إي إذا جاءوكم أظهروا الإيمانَ، والحال أنهم قد دخلوا كافرين، وخرجوا من عندكم كافرين، لم ينتفعوا بما سمعوا، ولا أفادتهم المواعظ والزواجر شيئاً، والله عالم بما يخفونه في صدورهم من الكفر والنفاق ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي وترىٰ الكثيرين من اليهود، يتسابقون في الظلم والمعاصي، وأكل الحرام والرشوة، وبئست أعمالهم القبيحة، تلك الصفات الرذيلة التي اتصفوا بها ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ «لولا» هنا للتحضيض بمعنى هلاً، أي هلاً يزجرهم علماؤهم وأحبارهم عن المعاصي والآثام، وأكلهم المالَ الحرام؟ وهذا يتضمن التوبيخَ لهم على السكوت، وترك النهي عن المنكر!! لبئس هذا العمل القبيح الذي صنعوه! ثم تحدثت عن جرائم أخرى لليهود، هي أبشع وأشنع، وهي اتهامهم للذّات الإلهية، بالشح والبخل، فقد زعم اليهود أن الله بخيلٌ، يقتّر الرزق على العباد، ولو كان سخياً كريماً لأغدق عليهم الخير والمال ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾ أي قال اليهود اللعناء: إن الله لبخيلٌ ممسك، لا يوسع علينا في الرزق **﴿غُلت أيديهم﴾** دعاءٌ عليهم بالبخل المذموم، وبالفقر والنّكد، ولعنوا أي طُردوا من رحمته بهذا القول الشنيع، فليس الأمر كما زعموا، بل هو تعالى في غاية الجود والسخاء، ينفق على العباد كيف يشاء، حسب الحكمة والمصلحة، ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ﴾ أي وليزيدنهم هذا القرآن الذي أُنزل عليك يا محمد، كفراً فوق كفرهم، وضلالاً فوق ضلالهم، إذ كلمّا نزلت آيةٌ كفروا بها، فيزداد كفرهم وفجورهم، كما أن الطعام للصحيح، يزيد المريضَ مرضاً، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ في تكذيبهم له

وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي وألقينا بين اليهود العداوة الشديدة، والبغضَ لبعضهم البعض، بسبب كفرهم وفجورهم، فكلمتهم مختلفةٌ وقلوبهم شتى، لا يزالون متباغضين متعادين إلى قيام الساعة، كلَّما أرادوا إشعال نار الحرب، على رسول الله أطفأها الله، وردَّ كيدهم في نحورهم، ويسعون لإيقاد الحرب، وتهييج الفتن بين الناس، وهذه طبيعتهم وسجيَّتهم، «إنَّ الأذيَّة من طباع العقرب» والله سبحانه لا يحب من يسعى بالفساد، بل يبغضه ويمقته ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي لو أن اليهود والنصارى، آمنوا بالله ورسوله حقَّ الإيمان، واتقوا محارمَ الله فاجتنبوها، لمحونا عنهم ذنوبهم التي اقترفوها، ولأدخلناهم جنة الخلد والنعيم ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ أي ولو أنهم استقاموا على أمر الله، وعملوا بما في التوراة والإنجيل، التي من ضمنها التصديقُ بخاتم المرسلين، وآمنوا أيضاً بالقرآن العظيم، لوسَّع الله عليهم أرزاقهم، وأفاض عليهم بركات السماء والأرض ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أي منهم جماعة وطائفة معتدلة في الدين، ليست مسرفة ولا مقصِّرة، وهم الذين آمنوا بخاتم المرسلين، وكثيرٌ منهم أشرار فجار، لتحريفهم الحقَّ والإعراضَ عنه، وهم الأخلاف المتعصِّبون، وفي الآية بيان أن التقوى للّهِ، سببٌ لتوسعة الأرزاق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾

النداء بالرسالة دون الاسم العَلَم، نداءُ تشريفٍ وتعظيم، أي بلِّغ يا محمد رسالة ربك جميعها، فإن كتمتَ شيئاً منها فما أدَّيتَ الأمانة، ولا تخشَ أحداً من الكفار، أن ينالك بسوء، فإن الله عاصمك من شرِّهم، روى الترمذي عن عائشة أنها قالت: (كان رسولُ الله ﷺ يُحرَسُ ليلاً، حتى نزلت هذه الآية **﴿والله يعصمك من الناس﴾** فأخرج ﷺ رأسه من القُبَّة، وقال: يا أيها الناسُ انصرفوا فقد عصمني الله) رواه الترمذي **﴿إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾** أي لا يوفقهم للخير والفلاح، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي قل يا أيها الرسول لهؤلاء اليهود والنصارى: لستم على دينٍ حقٍّ يعتدُّ به، حتى تحافظوا على أحكام التوراة والإنجيل، التي من جملتها دلائلُ نبوة محمد ﷺ والإيمان بالقرآن الذي أنزله الله عليه، فإن مصدر هذه الكتب الإلهية، هو «الوحيُ الإلهي» فمن أنكر شيئاً منها وكذَّب به، فقد كذَّب بجميع الرسالات، فكان كافراً بالتوراة والإنجيل والقرآن ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ اللَّامُ لامُ القسم، أي وأقسمُ لك بأن هذا القرآن، المنزل عليك يا أيها الرسولُ، سيزيد الكثيرين منهم، الغلوَّ في التكذيب، والإصرار على الجحود لنبوتك، والإمعان في الكفر والضلال، فلا تحزن لتكذيبهم لك، فإن تكذيب الأنبياء عادتُهم ودأبُهم، وهذه الآية تسلية للنبي ﷺ على تكذيب أهل الكتاب له، وليستْ نهياً للحزن عليهم، أي فلا تحزن على تكذيبهم لك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هذه الآية عامة في جميع أهل الأديان، أي إن الذين صدَّقوا الله ورسوله، وهم المسلمون أتباع خاتم المرسلين، والذين هادوا أي اليهود أتباع موسى، والصابئون هم طائفة من النصارى يحلقون أوساط رؤوسهم، والنصارى أتباعُ عيسى ابن مريم، هؤلاء أهل الأديان كلها، من آمن منهم في زمانه برسوله، إيماناً

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ

صادقاً، لا يشوبه شكٌّ ولا ارتياب، وعمل لآخرته، فإنه ينال جزاءه كاملاً بدخول الجنة، من غير خوف ولا فزع، وليس معنى الآية ـ كما قال بعضُ الزائغين ـ إن اليهودي إذا تمسَّك بيهوديته، والنصراني بنصرانيته، حتى ولو لم يدخل في دين الإسلام، فإنه يدخل الجنة مع المؤمنين، هذا كذبٌ وهذا باطلٌ وضلال، فإن الإسلام نسخ الأديان قبله، لقوله سبحانه: **﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾** ثم ذكر تعالى ما أخذه على اليهود، من المواثيق والعهود، بالإيمان بجميع الرسل، ولكنَّهم لطغيانهم وفجورهم، سفكوا دماء الأنبياء، وعنهم يقول سبحانه ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ أي أخذنا من اليهود العهد المؤكَّد الموثَّق، على الإيمان بالله وبجميع الرسل، وأرسلنا إليهم رسلاً كثيرين، ليتعهدوهم بالعظة والتذكير، وكلما جاءهم رسول بما لا تحبه أنفسهم عصوه وعاندوه، فطائفة منهم كذبوهم، وطائفة قتلوهم، وإنما جاء التعبيرُ بـ(يقتلون) بدل «قتلوا» لاستحضار صورتها الفظيعة في الذهن، وللتنبيه على أن ذلك ديدنهم المستمر ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي وظنَّ اليهودُ أن لا يصيبهم عذاب وبلاء بقتل الأنبياء، فتمادوا في فنون الغيِّ والفساد، فعموا عن الهدى، وصمُّوا عن سماع الحق، ثم تابوا فتاب الله عليهم، ثم رجعوا إلى العمى والصمم، وفنون البغي والإجرام، والله بصيرٌ ومطلعٌ على إجرامهم، وسيجازيهم عليه، شبَّههم تعالى بالأعمى والأصم، الذي لا يرى النور ولا يسمع الحقَّ، فهو يتيه في بيداء الضلال، وبعد أن حكى عن اليهود بعض القبائح والشنائع، حكى عن النصارى بعض ضلالاتهم، في اعتقادهم بألوهية المسيح، أنه هو الله، أو أنه ثالث ثلاثة، فقال سبحانه ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ

﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ أي واللهِ لقد كفر هؤلاء النصارى، الذين قالوا: إن المسيح هو اللهُ وهم «اليعقوبية» الذين زعموا أن الله حلَّ في ذات عيسى واتَّحد به، فاللَّهُ في نظرهم مكوَّنٌ من ذَاتَيْنِ: (اللاَّهوتيَّة، والنَّاسوتيَّة) أي حلَّت ذاتُ الله، في ذات عيسى، فهو قد جمع بين كونه إلهاً، وكونه إنساناً، ولهذا اعتقدوا في عيسى الألوهية، فقالوا: إن مريم ولدت إلهاً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وقال لهم عيسى: يا بني إسرائيل أنا عبدٌ لله مثلكم، فاعبدوا خالقي وخالقكم، الذي خلقنا جميعاً ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي إن من يشرك بالله ويعبد غيره، أو يعتقد بأن أحداً من البشر إلهٌ، فالجنة محرمة عليه، ولن يدخلها أبداً، لأنها دار الموحِّدين، ومصيره نار جهنم، ردَّ عليهم القرآنُ بحجة قاطعة، وهي أن أول كلمة نطق بها عيسى، وهو طفلٌ رضيع في المهد ﴿**قال إني عبد الله**﴾ ولم يقل: إني أنا الله، وكيف يقول عيسى في دعائه: يا رب، ويا ألله، هل هو يدعو نفسه؟ أم هو يسألها؟ هذا محالٌ، ثم كيف يكون إلهاً ـ وهم جميعاً يعتقدون بصلبه ـ وكيف يُصلب الإلهُ، ولا يستطيع أن يدافع عن نفسه؟ كما قال القائل:

إذَا صُلِبَ الإلـهُ بـفِـعْـلِ عَـبْـدٍ يَـهُـوديٍّ فَـمَـا هَـذَا الإلَـهُ؟

وهناك فرقة أخرى من النصارى تعتقد بالتثليث، وهم كفار أيضاً، لا يقلُّون سفهاً وضلالاً عن الفئة الأولى، وفيهم يقول سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي والله لقد كفر الذين قالوا: إن الله أحد آلهةٍ ثلاثة، «الله، وعيسى، ومريم» فجعلوا الله (ثالث ثلاثةٍ) ولهذا اشتهر قولهم: «الآب، والإبن، وروح القدس» وقد ردَّ الله عليهم بقوله ﴿**وما من إله إلا إله واحد**﴾ أي وليس في الكون إلاَّ إلهٌ واحد، موصوفٌ

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾

بالوحدانية، لا مثيل له ولا نظير، وإن لم يكفُّوا عن القول بالتثليث، ليصيبنَّهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة، بسبب كفرهم وجحودهم لوحدانية الله ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تعجيب من إصرارهم على الكفر، أي أفلا ينتهون عن تلك العقائد الباطلة، والأقاويل المنكرة؟ ويستغفرون ربهم مما نسبوه إليه، من الاتحاد والحلول؟ واللهُ يغفر لهم ويرحمهم، إن تابوا!! لقد اخترعوا عقيدة تدعو إلى الدهشة والاستغراب، فقالوا: إن الإله جوهرٌ واحد، حلَّ في ثلاثة أجسام: «أب، وابن، وروح قدس» وهذه الثلاثة إلهٌ واحد، ومثَّلوا لذلك بالشمس تتناول «القرص، والشعاعَ، والحرارة» وهي واحدة، وهذا ضحكٌ على العوامّ، واحتقار للعقل الإنساني، فالشمس واحدة وإن كان فيها نورٌ، وحرارة، وعواصف، وانفجارات ذرية، وتفاعلات مغناطيسية، أمَّا الأب فهو غير الابن، وغير روح القدس، فكيف تكون الثلاثة واحداً، والواحد ثلاثة؟ أليس في هذا إزراء بالعقل، وهو أظهرُ في البطلان من الشمس في وضح النهار!! ثم قرَّر القرآن الحقيقة ناصعة في أمر السيد المسيح، فقال سبحانه ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي ليس المسيح عيسى بن مريم إلاَّ أحد الرسل الكرام، فهو رسول كسائر الرسل، وهو آخرُ أنبياء بني إسرائيل، وليس فيه من صفات الألوهية شيء، وقد سبق قبله رسلٌ كثيرون، أتوا بمعجزات باهرة، أيَّدهم اللهُ بها، فإن كان عيسى قد أحيا الله الموتى على يده، فقد أحيا الله العصا في يد موسى، وجُعلت حيةً تسعى، وهو شيء أعجب، وإن خُلق عيسى من غير أب، فقد خُلق آدم من غير (أب ولا أم)، وهو أغرب، فلماذا يُضيفون على عيسى صفات الألوهية؟ ثم قال تعالى ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي وأمه مريم، إحدى النساء الطاهرات، العفيفات الشريفات، اللواتي لازَمْنَ الصِّدق فهي صدِّيقة، وليست زوجةً للرب، وقد كان عيسى وأمُّه كسائر البشر، يأكلان الطعام، ويُحدثان الحَدَث، فكيف يكونان إلٰهين؟ انظر كيف نوضِّح لهم الآيات الباهرة، ثم انظر كيف يُصرفون عن الحق إلى الباطل، بعد هذا البيان الساطع! ولنقف لحظة أمام روعة التعبير

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ﴾

القرآني المعجز في قوله سبحانه ﴿**كانا يأكلان الطعام**﴾ فقد أشار بهذه اللفتة البديعة، إلى أنَّ من أكَلَ الطعام، وشربَ الشرابَ، يحتاج إلى إخراج الفضلات، إلى التبوُّلِ والتغوُّط، والقرآن يتنزَّه عن ذكر الألفاظ القبيحة، فلم يقل: كان يبولان ويتغوطان، ويحُدثان الحدث ويذهبان إلى (التواليت)، ولكنه كنَّى عن ذلك بهذا التعبير البديع ﴿**كانا يأكلان الطعام**﴾ للإشارة إلى أن من يأكل الطعام، يحتاج إلى إخراج الفضلات، والربُّ جلَّ وعلا منزَّهُ عن ذلك، فكيف يكون عيسى وأمه إلهين، وهما يأكلان ويبولان ويتغوَّطان؟ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الذين عبدوا المسيح: أتعبدون من لا يستطيع أن يدفع الضُرَّ عن نفسه، ولا يقدر لكم على النفع والضُرِّ؟ ومن عجز عن نفع نفسه، أو دفع السوء عنها، فهو عن نفع غيره أعجز، والله جلَّ وعلا هو السميع لأقوال العباد، العليم بأحوالهم!! وهذا يتضمن الوعيد لمن عَبَد غيرَ الله تعالى ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الخطاب للفريقين من أهل الكتاب أي لا تُغالوا في دينكم، ولا تجاوزوا الحدَّ فيه، فتقولوا عن عيسى: إنه إلهٌ، أو ابنُ إله، وهذا غلوُّ النصارى، وأمَّا غلوُّ اليهود فقولُهم في عيسى: إنه ابنُ زنىً، فكلا الفريقين غالى في عيسى (غلْوّاً فاحشاً)، ففريقٌ ألَّهوه، وفريقٌ أهانوه وحقَّروه، فجعلوا أمه زانية، ورموه بأشنع القبائح بأنه ابن زنى!! ولا تتبعوا أسلافكم وأئمتكم، الذين ضلُّوا قبل مبعث الرسول ﷺ، وأضلُّوا كثيراً من الخلق، ممن شايعهم على كفرهم وضلالهم، وضلُّوا عن الطريق الواضح المستقيم ـ وهو الإسلام ـ بسبب اتباع الأهواء، ثم خصَّ القرآنُ اليهودَ، بالقسط الأوفر من الضلال، بسبب بغيهم وعدوانهم، فقال سبحانه عنهم ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨١﴾

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ اللعنُ: الطردُ والإبعادُ من رحمة الله، أي لعن الله اليهود لكفرهم، وتكذيبهم لرسالة خاتم المرسلين، وسعيهم في الأرض بالفساد، لعنهم الله في الزبور على لسان داود، ولعنهم في الإنجيل على لسان عيسى، فهم ملعونون بكل لسان، في جميع الأوقات والأزمان، وذلك بسبب عصيانهم، وبسبب فجورهم وطغيانهم ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ أي كانوا لا ينهى بعضهم بعضاً، عن منكر من المنكرات، ولا قبيح من القبائح، وبئس هذا الشيءُ الذي فعلوه، من السكوت عن المنكر، والسير في ركاب الظالمين ﴿تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ أي ترى كثيراً من اليهود، يوالون المشركين الوثنيين، بُغضاً في المسلمين ﴿لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ أي بئس هذا العملُ الذي فعلوه، من موالاة أعداء الله، وما جنوه على أنفسهم من اكتساب غضب الله وسخطه، وفي عذاب جهنم مخلَّدون أبد الآبدين، رُوي أن جماعةً من اليهود، خرجوا إلى مكة، ليتفقوا مع مشركيها، على محاربة النبي ﷺ والمؤمنين، فلم يتمَّ لهم ذلك، ورجعوا خائبين، وهم كعب بن الأشرف وأصحابه، من غُلاة اليهود المعادين ﴿وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ أي لو كان هؤلاء اليهود، يصدِّقون بالله، ونبيِّهم موسى، وبالتوراة التي أنزلها الله عليهم، إيماناً صحيحاً، ما اتخذوا المشركين أولياء، ولكنَّ أكثرهم كفرةٌ فجرة، خارجون عن الإيمان، وطاعة الرحمن.. ثم أخبر تعالى عن شدة عداوة اليهود للمسلمين، حتى إنهم فاقوا المشركين الوثنيين، في عداوة

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾

المؤمنين، وفيهم يقول سبحانه ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ اللام للقسم، أي والله لتجدنَّ يا محمد، أعدى أعداء الإسلام اليهودَ، والمشركين، (عَبَدةَ الأوثان)، وقدَّم اليهودَ على المشركين، للتنبيه على زيادة عداوة اليهود لأهل الإسلام، حتى على المشركين، فالوثنيون واليهود أشدُّ الناس عداوةً للمؤمنين، ولتجدنَّ أقربهم مودة للمؤمنين نصارى الحبشة، ولم يُرد به جميع النصارى، لأنهم في عداوتهم للمسلمين كاليهود، لا يقلُّون عنهم شرّاً وخبثاً.

قال ابن عباس: نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه «نصارى الحبشة» وكان النجاشي ـ ملكُ الحبشة ـ نصرانياً، فأسلم هو وأصحابه، وذلك حين هاجر المسلمون إلى أرض الحبشة، فلما سمع الأحبار والرهبانُ آيات القرآن، بكَوْا حتى اخضلَّتْ لحاهم بالدموع، خشيةً من الله تعالى، وإيماناً بكتابه، ولهذا قال سبحانه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي ذلك لأن فيهم علماء وعُبَّاداً على دين السيد المسيح الصحيح غير المحرَّف، المبشِّر لهم بخاتم الأنبياء ﴿**ومبشراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد**﴾ وأنهم لا يتكبرون عن قبول الحق، وإذا سمعوا آيات الله البينات، الشاهدة على صدق الرسول، والمنزلة على محمد ﷺ، ترى أعينهم تمتلىء بالدمع، حتى تفيض مدراراً، لمعرفتهم أن هذا القرآن كلامُ الله الحقّ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي يقولون يا ربنا: صَدَّقنا بنبيِّك وبكتابك، فاكتبنا مع أمة محمد، الذين يشهدون يوم القيامة على الأمم، ومرادهم اكتبنا في زمرة المؤمنين من أمة محمد ﷺ، وما يزعمه بعضُ أدعياء العلم، أن النصارى إخوتنا في الوطنية، وهم غير كفار، وأن الله مدحهم في كتابه العزيز وأثنى عليهم لشدة مودتهم

وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

للمسلمين، فإنه كذبٌ وافتراء، وسوء فهم وغباء، فهم كمن يقرأ قوله تعالى: ﴿**فويل للمصلين**﴾ ويقف عندها ولا يكمِّلها، ولو أنهم أكملوا الآية هنا لعرفوا أنها لم تنزل في النصارى عامة، وإنما نزلت في (نصارى الحبشة) خاصة، بدليل قوله سبحانه ﴿**وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين**﴾ فهل نسي المسلمون الحروب الصليبية، التي خاض فيها النصارى في دماء المسلمين إلى الركب، حين دخلوا بيت المقدس؟ وهل غفلوا عمَّا يفعله الصربُ المجرمون، من إراقة دماء المسلمين، في البوسنة، والهرسك، وكوسوفو، في زماننا هذا؟ بمنتهى الوحشية والأعمال البربرية؟ فلينتبه المسلمون إلى هذه الفتنة العمياء، التي يروِّج لها دعاةُ الضلال، أن النصارى إخوة للمسلمين، وليسوا في العداء كاليهود!! ثم قال تعالى في تتمة قصة نصارى الحبشة، وبيان سبب إيمانهم، فقال سبحانه ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي ما الذي يمنعنا من الإيمان، ويصدُّنا عن اتباع الحق، وقد ظهر لنا الحقُّ المبين؟ ومعنى الإيمان بالله: الإيمان بوحدانيته سبحانه، على الوجه الذي جاءت به الشريعة المحمدية، وبالحقِّ: القرآن الكريم، ونحن نطمع أن يدخلنا ربنا الجنة، في صحبة الصالحين من عباده الأبرار ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي أعطاهم الله وجازاهم، على إيمانهم وإخلاصهم، وصدقهم فيما قالوا، الخلدَ في جنات النعيم، التي تجري من تحت قصورها أنهارُ الجنة، وذلك الأجرُ والثوابُ، جزاء من أحسن عمله، وأخلص نيَّته، وآمن بربه أصدق الإيمان!! وبمقابلة المحسنين، ذكر تعالى جزاء الأشقياء المجرمين، جمعاً بين الترغيب والترهيب، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي وأمَّا الذين جحدوا وحدانية الله، وكذبوا بالقرآن العظيم، وأنكروا نبوة خاتم المرسلين، فإنهم أهلُ الجحيم، المعذَّبون فيها.. ثم جاء الحديث عن الحلال

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ

والحرام، لأن السورة مدنية، وقد جاءت بكثير من الأحكام التشريعية، وفي ذلك يقول سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي يا معشر المؤمنين، لا تحرّموا على أنفسكم ما لذَّ وطاب من المآكل والمشارب، ولا تمنعوها من الاستمتاع بما أحلَّه الله لكم من النساء، ولا تجاوزوا الحدود التي أباحها الله لكم، إلى ارتكاب الحرام المحظور، فإن الله تعالى لا يحب المعتدين المجاوزين حدود الله، روي أن رسولَ الله ﷺ جلس يوماً، فوعظ الناسَ وذكَّرهم، ووصف لهم القيامة وخوَّفهم منها، فاجتمع عشرة من الصحابة، في بيت «عثمان بن مظعون» واتفقوا على أن يصوموا النهار، ويقوموا الليل، ولا يأكلوا اللحم، فنزلت الآية، وبلغ خبرهم رسول الله ﷺ فقال لهم: «أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلّي وأرقد، وأتزوج النساءَ، فمن رغب عن سنتي فليس منّي» أي ليس من المتقين، ثم قال تعالى ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ أي وكلُوا ممَّا أحلَّ اللهُ لكم وطاب، من أنواع المآكل والمشارب، واستمتعوا بجميع المباح الذي رزقكم الله إياه، بشرط أن يكون من كسب حلالٍ، وبوجهٍ مشروع، وخافوا ربكم الذي تؤمنون بلقائه ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ أي لا يؤاخذكم ربكم بما سبق به اللسانُ، من غير قصدِ الحلف، كقول أحدكم: لا واللهِ، وبلى واللهِ، لا يقصد به اليمين، ولكنْ يؤاخذكم بما وثَّقتموه، وأقسمتم عليه مع النية والقصد، تريدون به اليمين والقَسَم ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي فكفارة هذا اليمين، إذا حنثتم فيه، أن تطعموا عشرة من الفقراء والمساكين، من الطعام الوسط الذي تطعمون منه أهلكم وأولادكم، أو كسوة عشرة مساكين، لكل مسكين ثوب يستر البدن، أو إعتاق

فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾

عبد مملوك لوجه الله تعالى ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي فمن لم يجد شيئاً من الأمور المذكورة، لفقره أو عجزه عنها، فعليه أن يصوم ثلاثة أيام متتابعة، فهذه كفارة اليمين الشرعية عند الحنث أي العجز عن البر باليمين، واحفظوا أيها المؤمنون أيمانكم عن الابتذال، فلا تحلفوا لكل صغيرٍ وكبير، بل عند الحاجة والضرورة، لأن كثرة الحلف، استهانةٌ بعظمة الله وجلاله، كذلك البيان البديع، يبيِّن الله لكم أمور الشريعة، وأحكام الدين، لتشكروه على هدايته لكم لدين الإسلام.. ولمَّا طلب بعضُ الصحابة، أن يُبيِّن الله لهم، حُكْمَه القاطع، في أمر الخمر والقمار، نزل قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الخمرُ هي جميع الأشربة المسكرة، والميسر يراد به القمار، أي اعلموا يا معشر المؤمنين، أن الخمر، والقمار، والأنصاب أي الأصنام المنصوبة للعبادة، والأزلام أي القِداح التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها، كاستشارةٍ لآلهتهم المزعومة، كلُّ هذه المذكورات، نَجَسٌ وقَذَرٌ، من تزيين الشيطان ووسوسته، لإضلالكم وإبعادكم عن طاعة الله، فاجتنبوا هذه القذارات الحسية والمعنوية، لتفوزوا برضى الرحمن، وتبتعدوا عن وساوس الشيطان، ولفظُ الاجتناب أبلغ من لفظ التحريم، لأنه يفيد البعد عنه كلَّ البعد، ولهذا قال تعالى ﴿**فاجتنبوا الرجس من الأوثان**﴾ ولم يقل: حرام عليكم عبادة الأوثان، لأن لفظ الاجتناب أبلغ من التحريم، ومثلُه القربُ (ولا تقربوا الزنى) فإنه أشدُّ في التحريم من قوله: ولا تزنوا، لأن القرب إذا كان حراماً، فمقارفة الفعل من باب أولى حرامٌ، ثم بيَّن تعالى الحكمة في تحريم الخمر والميسر فقال ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ أي ما يريد الشيطانُ، بإغرائكم بفعل هذه الرذائل،

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

إلاَّ إيقاع العداوة والبغضاء بينكم، وأن يشغلكم عن طاعة الله وعبادته، وعن الصلاة التي هي عمود دينكم، فتخسروا دنياكم وآخرتكم ﴿**فهل أنتم منتهون**﴾؟! استفهامٌ بمعنى الأمر، أي فانتهوا عن هذه القذارات المحرَّمة، ولهذا قال عمر لمَّا سمع الآية «انتهينا ربَّنا انتهينا»!!

وقد جرت عادة القرآن، بالإيجاز في تعليل الأحكام الشرعية، والاكتفاء بالتحذير منها، وأمَّا هنا فقد ذكر العلَّة والسبب، بالإسهاب والتفصيل، وعدَّد منها وجوهاً كثيرة، منها:

١ـ إلقاء العداوة والتباغض بين البشر، ٢ـ الصدُّ عن ذكر الله وطاعته، ٣ـ شغل المؤمنين عن أهم الفرائض الدينية، وهي الصلاة المفروضة عليهم. ٤ـ إبعاد المؤمنين عن رحمة الله بانتهاكهم للمحارم، كما وصف الخمر والميسر ـ أي القمار ـ بأنهما رجسٌ وقذر من عمل الشيطان اللعين ووسوسته، وأن الشيطان يريد تخريب عقل الإنسان، عن طريق الخمر والميسر، وكلُّ ذلك لينبِّه على خطر وضرر هاتين الرذيلتين، فتدبَّرْ أسرار القرآن الكريم!! ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي أطيعوا أمر الله، وأطيعوا أمر الرسول، واحذروا من مخالفتهما في ذلك، فإن أعرضتم عن الطاعة والامتثال، فاعلموا أن الرسول ليس عليه إلاَّ تبليغكم الرسالة، وقد فعل ذلك، فلم يبق بعد ذلك إلا العقاب، الذي ينتهي بكم إلى الدمار، وهذا العقابُ إنما يتولاه الجبَّار جلَّ جلاله. ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ رُوي عن البراء بن عازب أنه قال: مات ناسٌ من أصحاب النبي ﷺ وهم يشربون الخمر، فلما نزل تحريم الخمر، قال ناسٌ يا رسول الله: كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربونها، فنزلت الآية ﴿**ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا..**﴾ الآية، رواه أحمد والترمذي، والمعنى: ليس

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾

عليهم إثم ولا عقاب، فيما تناولوه من الخمر قبل تحريمها، إذا كانوا مؤمنين، متقين لله، واستمروا على ما هم عليه من الإيمان، وترك المحرَّمات، ثم عملوا الأعمال الحسنة، فإن الحسناتِ يذهبن السيئات، والله يحب المحسنين، لأن من صار محسناً، صار عند الله محبوباً، والله لا يُعذِّب حبيبَه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي اعلموا يا معشر المؤمنين، أن الله سيختبركم بشيء من صيد البرّ، في حال إحرامكم بالحج أو العمرة، تنالُ صِغارَه الأيدي، وكبارَه الرماحُ، ليتميَّز منكم المؤمن الصادق، الذي يخاف ربه بالغيب، فلا يتعرَّض للصيد، من ضعيف الإيمان الذي ينتهك المحارم، فمن اصطاد منكم بعد النهي والتحريم، فله عند الله عذاب أليم، نزلت هذه الآية في غزوة الحديبية، ابتلاهم الله بالصيد وهم محرمون، فكانت الغزلان والأرانب، والطيور، تغشاهم في رحالهم، ويتمكنون من صيدها، فهمُّوا بصيدها، فأنزل الله تحريم ذلك، وقد كان الصيد مما تعيش به العرب، وتتلذَّذ باقتناصه، ولهم فيه الأشعارُ والقصائد الحسنة، والله يختبر عباده بما شاء، وتأكيداً لهذا التحريم، جاء بعده قوله سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾ أي لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون، ومن قتله في حالة الإحرام، فعليه جزاءٌ مماثلٌ لما قَتَله من الأنعام، وهي «الإبلُ والبقرُ والغنمُ» يحكم بالمِثْلِ حَكَمان عدلان من المسلمين، يُهدى إلى فقراء مكة، فيذبح في الحرم ويوزَّع على فقراء الحرم ﴿أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي فإن لم يكن للصيد مماثلٌ من النَّعم، كالطير، والأرنب،

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ

والحمام البريّ، فتقوَّم قيمتُه ثم يُشترى به طعامٌ يدفع لفقراء الحرم، لكلِّ مسكينٍ صاعٌ من التمر أو الحبِّ، ومن كان فقيراً لا يملك المالَ، فعليه صيامُ أيامٍ، يصوم عن كل صاعٍ يوماً، ليذوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الحرم، عفا الله عمَّا سلف من الصيد قبل التحريم، ومن اصطاد بعد التحريم فله عذابٌ مؤلم موجع. . نبَّه تعالى إلى أن حالة الإحرام، يجب أن يأمن فيه كلُّ شيء، الإنسانُ، والطيرُ، والحيوانُ، والوحشُ، فمن أحرم ودخل البيتَ الأمين (الذي جعله الله حَرَماً آمناً) فالواجب أن يأمن كلُّ مخلوقٍ على نفسه منه، حتى الطيرُ، والشجرُ، والوحشُ، فلا يجوز قلعُ الشجر بمكة، ولا الصيدُ، ولا اللُّقَطةُ، ولا ترويعُ شيء فيها، لأنها بلدة الأمن والأمان ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أيها المسلمون صيدُ البحر، وما يعيش في الماء، من أسماك وحيتان، هو طعام حلالٌ لكم، سواءٌ كنتم محرمين أو غير محرمين، كما أنه غذاء وطعام للسيارة أي المسافرين، يتزودون به في أسفارهم، وحُرِّم عليكم صيدُ البرِّ فقط ما دمتم محرمين، وخافوا عذاب الله في مخالفتكم لأوامره، الذي ستجمعون إليه يوم القيامة، فيجازيكم على أعمالكم. . ثم ذكر تعالى حرمة البلد الأمين، والكعبة المشرَّفة التي هي قبلة المؤمنين، وحرمةَ الأشهر الحرم، فقال سبحانه: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ﴾ أي صيَّر الله الكعبة المشرَّفة، منَار هدايةٍ، ومقرَّ أمنٍ، وصلاحاً ومعاشاً للناس، لقيام مصالح دينهم ودنياهم، فإن الحرم كما هو سببٌ لأمن الوحش والطير، كذلك هو سبب لحصول الخيرات والبركات، يلوذ به الخائف، ويأمن فيه الضعيفُ، ويربح فيه التُّجَّارُ، ويتوجَّه إليه الحُجَّاج والعُمَّار، كما جعل الأشهر الحُرُم (القعدة، والحجة، ومحرم، ورجب)، قياماً لمصالح البشر، يأمنون فيها من القتال، والغزو، والسلب، وكذلك جعل تعالى للهدي ـ وهو الذي يُهدى للحرم من الأنعام ـ متاعاً للفقراء والضعفاء، لا يجوز التعدي عليه، ولا منعُه من الوصولِ إلى مقرِّه في مكة، وبخاصة «القلائد» وهي الإبلُ التي تُقلَّد بقلادة خاصة من الشجر، لتعرف أنها مهداة إلى فقراء

﴿ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

الحرم ﴿ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ أي جعل هذه الحرمة للكعبة المشرَّفة، والبيت الحرام، والأشهر الحُرُم، لتوقنوا أن الله هو المشرِّع للأحكام، لا يشرع إلاَّ ما فيه مصلحة للعباد، لأنه سبحانه قد أحاط بكل شيء علماً ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي اعلموا أيها الناس أن عقاب الله شديد لمن عصاه، وأنه واسع المغفرة والرحمة، لمن أطاعه وطلب رضاه، والآية وعيد لمن انتهك محارم الله ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ أي ليس على الرسول إلاَّ تبليغُ الرسالة، وليس عليه إكراه الناس على الإيمان، وقد بلَّغ ما وجب عليه، والله تعالى لا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأعمالكم، وهو الذي يجازي العباد يوم الدين ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ هذا مثلٌ ضربه الله تعالى، للتمييز بين الحَسَن والقبيح، والحلال والحرام، والنافع والضار، والبَرّ والفاجر، وهو حكم عامٌ في جميع الأمور، يشمل المكاسبَ، والأعمالَ، والمعارفَ، والأحوال، أي لا يتساوى الخبيثُ والطيِّب في كل شيء، ولو أعجبك أيها السامع كثرةُ الخبيث، فالعبرةُ بالجودة والحُسْنِ، دون القلَّة والكثرة، فالطيِّبُ القليل خيرٌ عند الله من ملء الدنيا من الحرام، لأن الحرام خبيثٌ مردود، والحلال طيِّبٌ مقبولَ، ودرهمٌ من الحلال، خير من قنطار من الحرام، وهكذا في النفوس، فالمؤمن لا يتساوى مع الكافر، كما لا يتساوى البَرُّ مع الفاجر، فالمؤمن كالعَسَل، والكافرُ كالسُمِّ، والبَرُّ كشجرة النخلة تُعطي ثمرها، والفاجرُ كشجرة الشوك تؤذي من مسَّها، وهكذا يسوق الله الطيِّب إلى الطيب، كما يسوق الخبيث إلى الخبيث، كما قال سبحانه **﴿الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات، والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات﴾** فلا يستوي الخبيث مع الطيب على كل حال، وفي كل أمر، وعلى كل الوجوه والأشكال، ولهذا قال

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ١٠٢﴾

تعالى **﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون﴾** أي راقبوا ربكم، واتقوا عذابه، في تحرّي الطيِّب دون الخبيث، يا أصحاب العقول السليمة، اتقوه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، لتفوزوا بالثواب العظيم، والنعيم المقيم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ أي لا تسألوا عن أمورٍ، لا حاجة لكم بها ولا تَغنيكم، فمن حُسن إسلام المرءِ، تركُه ما لا يعينه، إن سألتم عنها وظهرت لكم ساءتكم، فلا تكثروا على الرسول السؤال فتندموا. . **قال ابن عباس**: كان ناسٌ يسألون النبي ﷺ عن كل شيء، فيثقلون عليه، يقول الرجلُ: من أبي؟ ويقول الرجل تضلُّ ناقتُه، أين ناقتي؟ فأنزل الله الآية، ورُوي أنه لمَّا فُرض الحج، خطب رسول الله ﷺ في أصحابه، فقال: يا أيها الناسُ قد فُرض عليكم الحجُ فحجُوا، فقال رجلٌ: أكلَّ عام يا رسول الله؟ فسكت ﷺ حتى قالها ثلاثاً، فقال ﷺ: لو قلتُ: نعم، لوجبت ولما استطعتم، ذروني ما تركتكم، فإنما هَلَك من قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائكم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فَدَعوه) رواه مسلم، فالآية نهيٌ عن كثرة السؤال فيما لا يعني، فقد يسأل الإنسان عن شيء لا ضرورة له به، فينزل التحريم بما يشقُّ عليه، وفي الحديث الشريف (إن أعظم المسلمين جُرْماً، من سأل عن شيءٍ لم يُحرَّم على الناس، فُحرِّم من أجل مسألته) أخرجه البخاري، ولهذا قال تعالى **﴿إن تُبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تُبد لكم﴾** أي إن ظهرت لكم، وكُلِّفتم بها، شقَّت عليكم وساءتكم، وإن سألتم عنها حين نزول الوحي، ظهرت لكم وغمَّتكم، ، والعاقل من لا يجلب الضرر لنفسه **﴿عفا الله عنها والله غفور حليم﴾** أي عفا الله عمَّا سلف من مسألتكم ما لا يعنيكم، فلا تعودوا إلى مثلها، والله واسع المغفرة، حليم لا يعاجلكم بعقوبة ما يفرط منكم ﴿قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ أي قد سأل عن مثل هذه المسائل المحظورة، أقوامٌ قبلكم، ثم أصبحوا بسببها كافرين، سأل قومُ صالح الناقة، وسأل قوم عيسى المائدة، فلما أُعطوها كفروا بها، فأهلكهم الله، وفي الحديث الشريف (إن الله فَرَض

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

فرائضَ فلا تضيِّعوها.. وسكت عن أشياء رحمة بكم، من غير نسيان، فلا تبحثوا عنها) رواه الحاكم. ذكر تعالى ضلالات المشركين فقال ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ هذه من خرافات أهل الجاهلية، واعتقاداتهم الباطلة، جعلوها تشريعاً خالداً يستمسكون به، فقد كانوا إذا أنتجتْ الناقةُ خمسة بطون، آخرها ذَكَرٌ، شقُّوا أذنها، وخلُّوا سبيلها، فلا تُذبح ولا تركب، وهي «**البحيرةُ**» وكان الرجل منهم يقول: إذا شُفيت من مرضي فناقتي (**سائبة**) كالبحيرة، في تحريم الانتفاع بها، وكانوا إذا ولدت الشاةُ أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم ـ أي الأصنام ـ وإن ولدت ذكراً وأنثى ـ توأماً ـ قالوا: وَصَلتْ أخاها، فلا يُذبح الذَّكرُ من أجل الأنثى، وهي (**الوصيلةُ**) وكانوا إذا جاء من صلب الفحل عشرةُ أبطن، قالوا: قد حميٰ ظهره، وهو (**الحامُ**) فلا يُركب ولا يُحمل عليه، ولا يمنع من ماء ولا مرعى، وكلُّ هذه خرافات وأباطيل مخترعة، ما أنزل الله بها من سلطان، وهذا معنى الآية، أي ما شرع الله ولا سنَّ ذلك لعباده، وإنما هو محضُ افتراء وكذبٍ على الله، ولهذا قال بعده ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي ولكنَّ المشركين يكذبون على الله، فينسبون إليه تحريم ما لم يُحرِّمه من الأنعام، وأكثرهم سفهاء أغبياء، لا عقل لهم ولا تفكير، لا يعرفون الحلالَ من الحرام، ولكنهم يقلِّدون كبارهم ورؤساءهم، دون بصيرة ولا رَوِيَّة، ولهذا قال تعالى بعده ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أي وإذا قيل لأولئك المشركين الضالِّين: هلمُّوا إلى كتاب الله المبين، ورسوله الأمين، لتعرفوا الحلال والحرام في هذه الأمور، قالوا: يكفينا ما وجدنا عليه آباءنا، ونحن على آثارهم مقتدون، قال تعالى رداً على سفههم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي أيقولون هذا القول، ويقلِّدون آباءهم بدون نَظَر ولا تفكير، ولو كان آباؤهم لا

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ

يعقلون شيئاً من الدين، ولا يهتدون إلى الحق؟ والغرضُ من الآية التوبيخُ لهم، على تقليدهم الأعمى للآباء، فلا يصحُّ التقليد للجاهل، الذي ليس حجةً من شرعٍ ودين!! فكيف يقلِّدون آباءهم على العمى، من غير بصيرةٍ ولا هدى؟ وفي الحديث الشريف «إنما أخافُ على أمتي الأئمة المضلِّين» رواه أبو داود، وهؤلاء أئمة الضلالة منتشرون في كل زمان ومكان، وبعضُ الناس يتبعون صوت كل ناعق، وقد حلَّل بعضُ علماء السَّوْء في زماننا «فوائد البنوك» الربا المحرَّم، فاقتدى بهم بعضُ الناس من غير بصيرة، وهذا هو التقليد الأعمى، الذي حذَّر منه القرآن الكريم، ثم قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي الزموا إصلاح أنفسكم، وحفظها مما يوجب سَخَط الله وعذابه، لا يضرُّكم ضلالُ من ضلَّ، إذا كنتم مهتدين، إلى الله وحده مرجع الخلائق كلِّهم، فيجازيهم على أعمالهم، وهذا وعدٌ ووعيد، للمهتدين والضالين، وتنبيه على أن الإنسان لا يؤاخذ بجناية غيره، هذا إذا أدَّى الواجب عليه، بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وقد خطب أبو بكر الصدِّيق ذات مرة، فقال «يا أيها الناسُ: إنكم تقرءون هذه الآية، وتضعونها غيرَ موضعها **﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾** وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يُغيِّروه، عمَّهم الله بعقابه» رواه أحمد، فإذا قام المسلم بالواجب، من النصح والتذكير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يستجب له الناس، فإنه لا يتحمَّل أوزارهم، ويدلُّ عليه قولُ النبي ﷺ: (مروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، فإذا رأيتم شُحّاً مطاعاً، وهَوَىً متَّبعاً، وإعجابَ كل امرىء برأيه، فعليكم أنفسكم، لا يضرّكم ضلالةُ غيركم) أخرجه الترمذي والحاكم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ نزلت في الوصية في حالة السفر، أي يا من آمنتم بالله ورسوله، أشهِدُوا بعضَ المسلمين العدول، إذا

تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾

شارف أحدكم على الموت، وظهرت علائمه، فلْيُشهدْ شخصين عدلين من المسلمين، أو شهادة آخرين من غير المسلمين، إذا شارفكم الموتُ، وليس معكم من أهل الإسلام أحد ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾ أي توقفونهما للحلف، بعد صلاة العصر، لأنه وقت اجتماع الناس، فيحلفان بالله تعالى، لا نأخذ لأنفسنا عَرَضاً من الدنيا، ولا نحلف بالله كاذبين، من أجل شيء من حطام الدنيا، وقوله تعالى **﴿إن ارتبتم﴾** جملة اعتراضية بين القَسَم والمقسم عليه، أي إن ارتبتم في شأنهما بخيانة، وأخذِ شيء من التركة فحلِّفوهما **﴿ولو كان ذا قربى﴾** أي ولو كان من نقسم له قريباً منا **﴿ولا نكتم شهادة الله إنا إذاً لمن الآثمين﴾** أي ولا نخفي الشهادة التي أمرنا الله بإقامتها وحفظها وتعظيمها، إنا إن كتمناها نكون من الظالمين، المستحقين للعقوبة، قال تعا لى ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ أي فإن اطُّلع بعد حلفهما، على خيانتهما أو كذبهما في الشهادة التي أوجبت لهما الإثم والذنب، فرجلان آخران يقومان مقام الشاهدين الخائنين، وليكونا من الأقرباء من أهل الميت ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فيحلفان بالله إنَّ شهادتنا أصدقُ وأولى بالسماع، ويميننا أحقُّ بالقبول من يمينهما، لأنهما خانا في الشهادة، وما اعتدينا عليهما فيما رميناهما به من الخيانة، إنَّا إذا كذبنا عليهما نكون من الظالمين لأنفسنا!! ومعنى الآيتين بإيجاز: أن المحتضَر إذا أراد الوصية، ينبغي عليه أن يُشهد عدلَين من ذوي دينه، أو نسبه، فإن لم يجدهما لكونه في السفر، فآخران من غير المسلمين، ثم إن وقع ارتيابٌ في صدقهما، أقسما بالله على صدقهما، فإن اطُّلع على كذبهما، حلف آخران من أهل الميت بأنهما خانا، فتكون شهادة

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾

القريبين أحقَّ بالقبول والسماع، قال الزجَّاجُ: إن هذه الآية من أشكل ما في القرآن، وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير: إن هذه الآية في غاية الصعوبة، إعراباً وحُكماً، وسبحان الخبير العليم بحقائق كلامه ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي ذلك الحكم المذكور، أقربُ أن يؤدِّي الشهودُ الشهادةَ على الوجه الصحيح، من غير تغييرٍ ولا تبديل، خوفاً من العذاب الأخرويِّ، أو يخافوا الافتضاحَ بردِّ وإبطال أيمانهما، وخافوا أيها الناسُ ربكم، وأطيعوا أمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين أي الخارجين عن طاعة الله، ونذكر هنا سبب النزول، لعلَّه يوضِّح معنى الآيات أكثر، فقد رُوي عن ابن عباس أنه قال: «كان عَدِيٌّ، وتميم الدَّاري ـ وهما نصرانيان ـ يسافران إلى مكة، فخرج معهما فتى من بني سهم، فتوفي بأرضٍ ليس فيها مسلم، فأوصى إليهما أن يحملا متاعه إلى أهله، وكان قد كتب كتاباً فيه جميع ما معه، ودسَّه بين الثياب، فوجدا بين المتاع إناءً من فضة، فيه نقوشٌ من الذهب، فأخذاه لأنفسهما، ولمَّا وصلا مكة دفعا المتاعَ إلى أهله، فافتقدوا الإناء، فسألوا الرجلين عنه، فقالا: لا ندري، إنما دفع إلينا المتاع لنحمله إليكم، فاستحلفهما رسولُ الله ﷺ، فحلفا أنهما لم يجدانه، ثم وُجد الإناء الفضيُّ عند رجل بمكة، فقال: اشتريته من عديٍّ وتميم، ففي ذلك نزلت هذه الآيات الكريمة.. ثم جاء التذكير بيوم الحشر الأكبر، الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، للحساب والجزاء، فقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ أي اذكروا يا أيها الناسُ ذلك اليوم العصيبُ الرهيب، الذي يجمع الله فيه الرسل والخلائق، للحساب والجزاء **﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾** فيسأل الرسل: ما الذي أجابتكم به أممُكم حين دعوتموهم إلى الإيمان والتوحيد؟ هل استجابوا لكم؟ أم رفضوا وكذَّبوا؟ قالوا: **﴿لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾** أي لا علم لنا إلى جانب علمك يا رب، فأنت العالم بما ردُّوا به علينا، لا يخفى عليك شيء من أمور الخلق، تعلم ما ظَهَر وما بطن، قالوا ذلك على سبيل الشكوى من

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ﴾

أقوامهم، وردُّوا العلم إليه تعالى أدباً، كأنهم يقولون: أنت العالم بما كابدناه منهم من الأهوال والأكدار، وإذا كان الرسل الكرام ـ على جلالة قدرهم ـ سَيُسْألون يوم القيامة، عمَّا حصل لهم، وما أجابتهم به أممهم، فما بالك بالخلائق وأفراد الناس؟ هل سَيُتركون من السؤال والحساب؟ أم أنهم سيرون يوماً عصيباً تطيش له الأحلام ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ﴾ الآيةُ توطئةٌ للردِّ على أهل الكتاب، في مغالاتهم في شأن السيد المسيح عليه السلام، فقد كذبته طائفة فسمَّوه ساحراً، ورموا أمه بالزنى، وهم اليهود اللعناء، وغلا فيه آخرون فاتخذوه إلهاً، وهم النصارى الضالون، والمعنى: اذكروا أيها المؤمنون، وقت قول الله لعيسى يوم القيامة، تذكَّرْ يا عيسى فضلي وإنعامي عليك، وعلى والدتك، وقت تأييدي لك بالروح الطاهرة المقدَّسة «روح القدس» والمراد به جبريل عليه السلام، الذي ينزل با لوحي على رسل الله ﴿**تكلِّم الناس في المهد**﴾ أي في السرير، وأنت طفلٌ صغير ـ وهذه معجزة باهرة ـ وتكلِّمهم في الكهولة، أي الشيخوخة ـ وهذه إشارة إلى نزوله إلى الدنيا آخر الزمان ـ وفائدةُ ذكر المهد والكهولة، أنه يكلِّمهم في الطفولة والكهولة، على حدٍّ سواء، من غير تفاوتٍ بين كلامه وهو طفل صغير، وكلامه وهو شيخ كبير، في كونه ينطق بالحكمة، والبيان الفصيح، الدال على كمال العقل ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ﴾أي واذكر نعمتي عليك أيضاً، حين علمتك الكتابة، والعلم النافع، الذي تتفرع منه أنواع المعارف، من غير أستاذٍ ولا معلِّم، وجعلتُ التوراة والإنجيل، محفوظةً في صدرك، تعرف معانيها وأسرارها، وهذا هو العلم الرباني وفي الحديث الشريف (من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرتْ ينابيعُ الحكمة من قلبه على لسانه) رواه أبو نُعيم في الحلية ٥/ ١٨٩ ثم عدَّد تعالى بعض المعجزات التي أيَّده بها فقال سبحانه ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ﴾ أي واذكر أيضاً حين كنت تصوِّر من الطين، هيئةً مماثلةً لهيئة الطير ﴿**بإذني**﴾ أي بأمري وإرادتي، فتنفخ في

وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

هذه الصورة، فتصبح طيراً بإذن الله، سأله بعض بني إسرائيل على وجه التعنت فقالوا له: إن كنت صادقاً في دعوى الرسالة، فاخلق لنا طيراً يطير أمامنا، فأخذ طيناً وجعل منه بشكل الطير، ثم نفخ فيه فإذا هو طائر يطير بين السماء والأرض، ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ أي تشفي الأعمى الذي وُلد أعمى، فتردُّ عليه بصره، وتشفي الأبرص الذي استعصى شفاؤه، فيذهب عنه المرضُ الجلديُّ بأمري ومشيئتي ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ أي تحي الموتى وتخرجهم من قبورهم أحياء بتيسيري وأمري، ولنمعن النظر في أسلوب القرآن البيانيّ، فإنه قد ذكر بعد كل معجزةٍ، أظهرها على يدي عيسى بن مريم لفظة (بإذني) أي بأمري ومشيئتي وتقديري، وكرَّرها أربع مرات، ليشير إلى أن تلك الخوارق، ليست من قِبَل عيسى عليه السلام، بل من جهته سبحانه، أظهرها على يديه معجزةً له، وليردَّ على أولئك الحمقى، الذين جعلوه إلهاً، حين رأوا منه تلك الخوارق العجيبة ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي واذكر نعمتي عليك، وقتَ أنْ منعتُ اليهود من قتلك، وصرفتُ شرَّهم عنك، لمَّا عزموا على الفتك بك، فلم يتمكنوا من ذلك، وقتَ جئتهم بالمعجزات الواضحة، فقال اليهود الجاحدون لرسالتك: ما هذه الخوارقُ إلاَّ سحرٌ عجيبٌ ظاهر ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ أي واذكر أيضاً نعمتي عليك، حين أمرتُ الحواريين، وقذفت في قلوبهم، أن آمنوا بوحدانيتي، وبرسالة رسولي عيسى، وفي الآية إشارة إلى عدم خروجه عن حدِّ البشريَّة، فهو رسولٌ وليس بإله **﴿قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾** أي قال الحواريون صدَّقنا يا رب بوحدانيتك، وبرسالة رسولك عيسى، واشهد بأنا مخلصون في هذا الإيمان، خاضعون لعظمة الرحمن ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الحواريون: هم

﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (١١٤)﴾

الأصفياء الخُلَّص من أتباع عيسى عليه السلام، وهم كالصحابة لنبينا محمد عليه السلام، وهذه القصة منقطعة عما قبلها؛ أي اذكر حين قال الحواريون: يا عيسى هل يُنزل ربك علينا مائدة من السماء؟ وهذا القول منهم قبل أن تستحكم فيهم معرفتهم بالله، ولذلك أساءوا الأدب مع عيسى عليه السلام، حيث لم يقولوا: يا روح الله، أو يا رسول الله، وخاطبوه باسمه ونسبوه إلى أمه، ثم أساءوا الأدب مع الله، إذ قالوا **﴿هل يستطيع ربك﴾** كالمتشكِّك في قدرة الله؟ والصحيحُ أن هذا السؤال منهم، لم يكن عن شكٍ وارتياب، في قدرة ربِّ الأرباب، وإنما كان سؤال استفسار واستخبار، عن إنزال الله المائدة من السماء، فسؤالهم كان للاطمئنان والتثبت، ولكنهم أخطأوا في التعبير فقالوا **﴿هل يستطيع ربك﴾**؟ ومرادهم هل يفعل ربك ذلك؟ وهل يجيبنا إلى هذا الطلب؟ ولهذا نبَّههم عيسى عليه السلام، ولفت أنظارهم إلى هذا الخطأ **﴿قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾** أي اتقوا الله في أمثال هذه الأسئلة، إن كنتم مصدِّقين بكمال قدرته تعالى!! قال الحسن البصري: لم يشكُّوا في قدرة الله تعالى، وإنما سألوه سؤال مستخبر: هل ينزِّل أم لا؟ فإن كان ينزِّل فاسأله لنا، فسؤالهم كان للاطمئنان والتثبت، ويدلُّ عليه قوله سبحانه: ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي قال الحواريون: نريد بسؤالنا المائدة، أن نأكل منها تبرُّكاً، وتسكن نفوسنا بزيادة اليقين، ونعلم علماً يقينياً أنك قد صدقتنا في دعوى النبوة، ونكون من الشاهدين عند من لم يحضرها، ليزداد المؤمنون بشهادتنا إيماناً!!

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لمَّا رأى عيسى عليه السلام، أن لهم غرضاً صحيحاً في طلبها، قام فتوضأ واغتسل، ودخل مصلاَّه فصلَّى ما شاء الله، ثم دعا ربه قائلاً: اللهمَّ يا ربنا: أنزل علينا مائدة من السماء، فيها أنواع الطعام، من محض فضلك وعطائك، يكون يوم نزولها عيداً نعظِّمه، ويكون يوم فرح وسرور، لمن في زماننا من أهل ديننا، ولمن يأتي بعدنا من

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١١٥ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾

المؤمنين، وارزقنا يا رب فأنت خير الرازقين، لأنك الغني الحميد!! نادى ربَّه مرتين: مرة بوصف الألوهية، ومرة بوصف الربوبية ﴿اللهم ربنا﴾ أي يا الله، يا ربَّنا، إظهاراً لغاية التضرع، ومبالغة في إجابة الدعاء، ولهذا أجيب طلبه ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي قال الله له: إني سأنزل عليكم هذه المائدة من السماء ـ كمعجزة لك ـ فمن كفر بعد تلك الآية الباهرة، والمعجزة الساطعة، فسوف أعذِّبه عذاباً شديداً، لا أعذِّب مثل ذلك التعذيب أحداً من البشر، لأن الكفر بعد رؤية المعجزة، يكون كفر عناد، يستحق عليه الجاحدُ أشد العذاب، وكان يوم نزول هذه المائدة يوم الأحد، ولذلك اتخذه النصارى يوم عيدٍ لهم، وقد أُمِرَ بنو إسرائيل، أن يأكلوا من المائدة، ولا يخونوا ولا يدَّخروا منها شيئاً، فلم يوفوا بالوعد.. رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (أُنزلت المائدةُ من السماء، خبزاً ولحماً، وأُمروا أن لا يخونوا، ولا يدَّخروا لغدٍ، فخانوا وادَّخروا، ورفعوا لغدٍ، فمسخوا قردةً وخنازير) رواه الترمذي وتخليداً لذكرى هذه المعجزة الباهرة، سميت السورة «سورة المائدة».

وتختم السورة الكريمة، بمشهد حافلٍ على رءوس الأشهاد، في ذلك الموقف الرهيب، يوم «الحشر الأكبر» حيث يلتقي جميع البشر، ويُدعى السيد المسيح «عيسى بن مريم» ويسأله ربُّ العزة والجلال ـ تبكيتاً لمن عَبَده من دون الله وإخزاءً لهم ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ أي هل أنت يا عيسى دعوتَ الناسَ إلى عبادتك، والاعتقاد بألوهيتك، فقلت لهم: اعبدوني وأمي!؟ فجعلت نفسك في مقام الألوهية، من دون الله تعالى؟ وإنما سأله ذلك على رءوس الأشهاد في الآخرة، توبيخاً لمن عَبَد المسيحَ، ليكون إنكارُه أبلغَ في التكذيب، والتأنيب ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ أي قال عيسى عليه السلام: تنزيهاً لك يا رب من أن أقول ذلك، فما ينبغي

إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾

ولا يليق بي، أن أقول قولاً شنيعاً، لا يحقُّ لي أن أقوله، فأنا عبدٌ لك ولستُ بربٍّ، وأنت وحدك المعبود في هذا الوجود!! ثم ترقَّى إلى ذكر حجة أخرى، تدلُّ على براءته، وهي قوله ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ أي إن كان ذلك قد صدر مني، فإنه لا يخفى عليك شيء، فأنت سبحانك تعلم ما أخفيه في نفسي، ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك، وأنت يا رب العالم بالخفايا والنوايا، وعلمك محيط بكل شيء، وهذا اعتذارٌ وبراءة، من ذلك القول الشنيع، ومبالغة منه في الأدب، وإظهارٌ للذلة والمسكنة في حضرة ذي العظمة والجلال، ثم بيَّن ما قاله عليه السلام لقومه، وما دعاهم إليه بالقول الحقِّ فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْۚ﴾ أي ما قلتُ لهم إلاَّ ما كلفتني به من أمر، فقلت لهم: اعبدوا الله، خالقي وخالقكم، فأنا عبد مثلكم ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي كنت شاهداً ورقيباً على أعمالهم، مدة مقامي بينهم، فلمَّا رفعتني إلى السماء، كنتَ أنت الحفيظَ على أعمالهم، والشاهدَ على أفعالهم، وأنت المطَّلع على كل شيء، لا يخفى عليك أمرٌ من أمور العباد، وفي أناجيلهم ما رواه يوحنا عن السيد المسيح «وهذه هي الحياة الأبدية، أن يعرفوك أنك أنت الإله الحقيقي وحدك» فكيف يزعمون أنه إلٰه؟ ثم يأتي التبرىء منه من كلِّ حولٍ وطوْل، فيقول: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي إن تعذبهم فإنهم عبيدك، وقد استحقوا ذلك حيث عبدوا غيرك، وإن تغفر لمن تاب منهم، فإنك أنت القويُّ القادر، تفعل ما تشاء، ولا اعتراض عليك في فعلك، وأنت الحكيم الذي لا يفعل إلا ما فيه حكمة ومصلحة، ومقصوده تفويضُ الأمور كلِّها إلى الله، وترك التعرُّض لهذا الأمر، فإن عذَّبَ فعدلٌ، وإن غفر ففضلٌ (روي أن رسول الله ﷺ قرأ

قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾

هذه الآية فبكى، وقال: اللهمَّ أمتي أمتي، فأرسل الله إليه جبريل وقال له: اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك) أخرجه مسلم، وختم الله السورة بقوله: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي يقول الله يوم القيامة مشيراً إلى صدق عيسى: هذا اليوم يوم (العدالة الإلهي)، ويوم الجزاء الأخروي، ينفع المؤمنين الصادقين فيه صدقهم، لهم بساتين وحدائق تجري من تحت قصورها أنهارُ الجنة، ماكثين فيها أبداً، ذلك هو الظفر والفوز الكبير ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ أي لله جل وعلا ملكُ جميع ما في الكون، وهو القادر على كل شيء، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء!.

انتهى تفسير سورة المائدة

● ● ●

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

تفسير سورة الأنعام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ابتدأت السورة الكريمة بحمد الله، والثناء عليه، الذي خلق الأكوان، وأبدع خلق الإنسان، ومع كلِّ الدلائل الباهرة، على وحدانيته ووجوده، يشرك الكافرون بربهم، فيسوُّون بين الخالق المبدع القدير، وبين الحجارة الصمَّاء البكماء، وفي ذلك يقول جلَّ ثناؤه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، هذا تعليم من الله لعباده، أن يحمدوه بهذه الصيغة ﴿**الحمد لله**﴾ أي قولوا يا عبادي إذا أردتم حمدي، والثناءَ عليَّ: الحمدُ لله، اشكروني على جميلي وإحساني إليكم، فأنا ربكم المستحقُّ لجميع المحامد، الذي أبدع وأنشأ خلق السموات والأرض، بما فيهما من صنوف العجائب، وأنواع المخلوقات البديعة، بما يدهش العقول والأبصار، وخلق لكم الليل والنهار، وهما آيتان من آيات الله الباهرة، ثم هؤلاء الكفرة الجاحدون للنعم، يسوُّون بينه تعالى، وبين من لا يخلق شيئاً وهم يُخلقون، وقوله سبحانه: ﴿**يعدلون**﴾ من العَدْل بمعنى التسوية، يُقال: عدلتُ هذا بهذا إذا ساويته، أي يجعلون للَّهِ مساوياً وشبيهاً هو الوثن والصنم!!

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أي هو جلَّ وعلا الذي خلق أباكم آدم من طين، ثم جعل نسله من سُلالة من ماءٍ مهين، حاصلة من الأغذية المتكونة من الأرض، وقضى وقدَّر لكل إنسانٍ أجلاً من الزمن، يموت عند انتهائه، وأجلٌ آخر لبعثكم جميعاً، لا يعلمه إلاَّ ربُّ العزة والجلال، هو (يوم القيامة)، أجلُ فناء العالم، ثم أنتم أيها الكفار، تشكُّون في البعث وتنكرونه!! ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾

﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٤ فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٥ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٦﴾

أي هو جلَّ وعلا المعبود في السموات والأرض، يعبده ويوحِّده ويقرُّ له بالألوهية، من في السموات، ومن في الأرض، يعلم ما أسررتم، وما جهرتم به، من الأقوال، والأعمال، والأفعال، ويعلم ما تكسبونه من خير أو شرٍّ، لا تخفى عليه خافية من أعمالكم، وسيجازيكم عليها، وهو وعيد للخلق ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾ أي وما يأتي هؤلاء الكفار، دليلٌ من الأدلة، أو معجزة من المعجزات، الدالة على وحدانية الله، وصدق رسالة محمد ﷺ، إلاَّ أعرضوا عنها، وتركوا النظر فيها، غير مكترثين بتلك الآيات الباهرة ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي فقد كذبوا بالقرآن، الذي جاءهم به خاتم المرسلين، من عند الله، فسوف يعلمون عاقبة ما يحلُّ بهم من عذاب الله، من فنون البلاء.. وصَفَ تعالى الكفار بأوصاف ثلاثة: الأول: الإعراض عن الإيمان، والثاني: التكذيب بآيات الله، والثالث: الاستهزاء بما جاء به المرسلون، والنتيجة: سيعلمون عاقبة هذا الإجرام، ثم دعاهم إلى الاعتبار بمن سبقهم من الأمم المكذبة، فقال سبحانه: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾ أي ألم يشاهد هؤلاء المكذبون المستهزئون، كم أهلكنا من أمم قبلهم، كذبت رسلهم؟ كقوم نوح، وعاد، وثمود، وأمثالهم؟ أعطيناهم من أنواع النعم، والعيش، والتمكين في الأرض، ما لم نعطكم إيَّاه يا أهل مكة؟ ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ أي أنزلنا عليهم المطر، متتابعاً غزيراً مدراراً، وجعلنا الأنهار تجري من تحت مساكنهم، حتى عاشوا في الخِصْب والرفاهية والنعيم، بين الأنهار والثمار، فكفروا وعصوا، فأهلكناهم بسبب ذنوبهم، وأوجدنا من بعد هلاكهم أقواماً آخرين؟ وفيه إنذار للكفار، أي كما أهلكنا المكذبين الطغاة، نحن قادرون أن نهلككم يا أهل مكة، ونأتي بقوم خير منكم!

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ هذا بيان لطغيانهم وعنادهم وتكذيبهم لسيد الخلق محمد ﷺ، أي لو نزَّلنا عليك يا محمد، كتاباً من السماء، مكتوباً على ورق، كما اقترحوا في قولهم **﴿ولن نؤمن لرقيِّك حتى تنزِّل علينا كتاباً نقرؤه﴾** فعاينوا ذلك الكتاب، ولمسوه بأيديهم، حتى يزول عنهم كلُّ شك وارتياب، لقال الكفار تعنتاً وعناداً: ما هذا إلاَّ سحرٌ واضح، ظاهرٌ أنه سحرٌ لكل إنسان ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أي قال الطغاة من أهل مكة: هلاَّ أُنزل على محمد مَلَكٌ، بحيث نراه ويكلِّمنا أنه نبيٌّ!! يعني يشهد بصدق نبوَّة محمد ﷺ، ولو أنزلنا مَلَكاً كما اقترحوا، وعاينوه ثم لم يؤمنوا، لحقَّ عليهم عذاب الاستئصال، بأن نهلكهم جميعاً، ثم لا يؤخَّرون ولا يُمهلون طرفةَ عين ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي ولو جعلنا الرسولَ مَلَكاً، لأرسلناه لهم في صورة رجل، لعدم استطاعة البشر رؤيةَ المَلَك في صورته الملَكيَّة، وحينئذٍ يلتبس عليهم الأمر ويختلط، هل هذا مَلَكٌ أم رجلٌ من البشر؟! والغرضُ تأكيدُ استحالةِ أن يكون الرسولُ من الملائكة، لأنهم لا طاقة لهم على رؤية المَلَك بصورته الملَكيَّة، التي خلقه الله عليها، وحين طلب رسولُ الله ﷺ من جبريل أن يراه بصورته الملكيَّة، فتح جناحين من أجنحته فقط، فسدَّ ما بين المشرق والمغرب، فأُغمي على رسول الله عليه السلام، من هول ما رأى، وفي كل مرة كان يأتيه بالوحي، كان ينزل عليه بصورة رجل، أو أحدِ الصحابة كدحيةَ الكلبيِّ!! فكيف يكون الرسول مَلَكاً!؟

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ تسليةٌ للنبيِّ عليه الصلاة والسلام، أي لا تحزنْ يا محمد على تكذيب قومك لك، فلقد

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ﴾

استهزأ الكافرون بأنبيائهم الذين بُعثوا إليهم من قبلك، كما استهزأ بك قومك، فنزل وأحاط بهؤلاء المستهزئين، أشد أنواع العذاب، نتيجة سخريتهم واستهزائهم، حيث أهلكهم الله ودمَّرهم ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي قل لهؤلاء المستهزئين الساخرين: سافروا في الأرض، فانظروا وتأمّلوا، ماذا كانت عاقبة الأمم المكذِّبة؟ ألم يهلكهم الله بعذاب الاستئصال، ويجعلهم عبرةً للمعتبرين؟ وهذه سُنَّةُ الله في الظالمين، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي قل يا أيها الرسول لقومك المنكرين للبعث: لمن الكائنات جميعاً؟ خلقاً، ومُلْكاً، وتصرفاً؟ فإن أجابوك أو سكتوا، فقل لهم تقريراً للحقيقة: هي للّهِ عزَّ وجلَّ، لا يشاركه في الخلق أحد، وقد ألزم على نفسه الرحمة، تفضلاً منه وإحساناً، أن يجمعكم ويحشركم من قبوركم، ليوم «العدالة الإلٰهية» يوم الحساب والجزاء، الذي لا شكَّ في مجيئه، والذي لا ينبغي لأحدٍ أن يرتاب فيه، لوضوح دليله وبرهانه ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي يكون فيه الخاسرون، هم الكفارُ المكذِّبون، الذين خسروا سعادتهم الأبدية، بتكذيبهم بآيات الله، والجملةُ لتقبيح حال الأشقياء المجرمين، حين يرون خسارتهم الفادحة ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ احتجاجٌ آخر على المشركين، أي وله جلَّ وعلا خاصةً، ملكُ جميع ما ثَبت واستقرَّ، في الليل والنهار، الجميعُ عبادُه وخلقُه، وتحت قهره وتصرُّفه، فهو الخالقُ لكل شيء، والمالكُ لكل شيء، وهو السميع لأقوال العباد، العليم بأحوالهم.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ﴾ الاستفهام للتوبيخ، أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين، الذين يدعونك إلى عبادة آلهتهم: أغيرَ اللّهِ تعالى أتَّخذ

قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

معبوداً؟ وهو خالق السمواتِ والأرضِ، ومبدعهما على غير مثالٍ سابق؟ وهو الرازقُ لعباده، من غير احتياج إليهم؟ يرزقُ عباده ولا يُرزق، فكيف أترك عبادة الإله الخالق القادر، وأعبد الضعيف العاجز؟ ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي قل لهم: إن ربي أمرني أن أكون أول من استسلم لحكم الله، وأول من دخل في الإسلام، وقيل لي: لا تكوننَّ من المشركين!! نزلت لمّا قال المشركون للرسول ﷺ: ارجع إلى عبادة آبائك، ونحن نجمع لك ما شئتَ من المال!! ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي قل لهم أيضاً: إن عبدتُ غير ربي، وسايرتكم على ما طلبتم، فإنني أخاف عذاب يوم القيامة، وهو عذاب جهنم الذي لا يُطاق، وفيه تيئيسٌ للمشركين مما طلبوه من الرسول ﷺ ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي من نجّاه الله من عذاب جهنم، فقد ظفر برضوان الله ورحمته، وذلك هو الفوز المبين، كقوله تعالى: ﴿**فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز**﴾ والفوزُ: هو الظفرُ بالشيء المحبوب.. ثم ذكر تعالى أنه هو المتفرد بالنفع والضر، والعون والخذلان، دون ما سواه من الأصنام والأوثان، فقال سبحانه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي إن أصابك الله بشيء من البلاء، كفقرٍ أو مرض، فلا دافع ولا صارف له، إلا الله ربُّ العالمين، ولا يملك أحدٌ كشفَه سواه، وإن أصابك بخير من صحة ونعمة، ورزقٍ وعطاء، فلا يقدر أحدٌ على ردِّه، لأنه تعالى وحده القادرُ على النفع والضُّرِّ، لا ما يعبدون من الأصنام والأوثان. ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي هو سبحانه الملك القهَّار، فتعالى فوق خلقه، الذي خضعت له الرقاب، وعنت له الوجوه، وذلَّت له الجبابرة، وهو الحكيم في جميع أفعاله، الخبيرُ بأعمال العباد، ثم ذكر تعالى شهادته على صدق نبوَّةِ محمد عليه

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

الصلاة والسلام، المؤيَّد بالمعجزات الباهرات، ومن أعظم معجزاته هذا القرآن العظيم، الذي يشهد بصدق رسالته، مع أنه ﷺ أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، وجاءهم بهذا الكتاب المعجز، الذي أوحاه الله إليه ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ رُوي أن كفار مكة قالوا لرسول الله ﷺ: يا محمد! لقد سألنا اليهود والنصارى عنك، فزعموا أن ليس لك عندهم ذِكْرٌ، فمن يشهد لك أنك رسولُ الله؟ فنزلت الآية، والمعنى: قل لهم: أيُّ شيء أعظم شهادة؟ فإن أجابوك، وإلاَّ فقل لهم ﴿الله شهيد بيني وبينكم﴾ أي شهادته سبحانه أكبرُ شهادة على صدقي في دعوى النبوة والرسالة، وكفى بشهادة الله لي شهادة، وقد أوحى اللَّهُ لي بهذا القرآن، لأنذركم به يا أهل مكة، وأُنذرَ كلَّ من بلغه القرآنُ، من العرب والعجم إلى يوم القيامة، ثم قل لهم زجراً وتوبيخاً ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ أي قل لهم: أئنكم أيها المشركون لتقرُّون بوجود آلهةٍ مع الله؟ بعد وضوح الأدلة، وقيام الحجة، على وحدانيته تعالى؟ قل لهم: أنا لا أشهد بذلك، ولو شهدتهم أنتم به، لأنه باطلٌ صِرْف ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي قل لهم تأكيداً للحقّ، ورداً للباطل والافتراء: إنما الله إلهٌ واحدٌ، لا شريك له، ولا مثيلَ ولا نظير، وإنني بريءٌ مما تشركون به من هذه الأصنام!!

ثم حكى تعالى عن أهل الكتاب معرفتهم الصادقة بخاتم الأنبياء، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن علماء اليهود والنصارى، يعرفون رسولَ الله ﷺ، بصفته المذكورة في (التوراة والإنجيل)، كما يعرف الواحد منهم ابنه، ولكنهم يجحدون رسالته حسداً وبغضاً، لأنه ليس من بني إسرائيل، وهم الهالكون الخاسرون.. رُوي أن عمر رضي الله عنه سأل «عبدالله بن سلام» وكان من أحبار علماء اليهود ثم أسلم: كيف معرفتك بمحمد؟ فقال: واللهِ لمعرفتي بمحمد، أشدُّ من

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥)﴾

معرفتي بابني!! لأني أعرف محمداً بصفته المذكورة في التوراة، وأمَّا ابني فلا أدري ما أحدثت أمه!! فقال له عمر: لقد وفِّقتَ للخير وصدقتَ!! ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لا أحد أظلم ولا أفجر ممن كذب على الله، فجعل له شريكاً وولداً، أو كذَّب بالقرآن العظيم، والمعجزات الباهرة، فسمَّاها سحراً، إنه لا يُوفَّق ولا يفوز الظالم، المفتري على الله. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي ويوم نجمع الأشقياء والكفار جميعاً، للحساب والجزاء، ونسألهم على رءوس الأشهاد: أين آلهتكم التي جعلتموها شركاء مع الله؟ ادعوهم لينقذوكم من عذاب الله! ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ أي لم يكن جوابهم حين رأوا الحقائق، وغابت عنهم الآلهة المزعومة، إلاَّ أن حلفوا بالله كاذبين ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾، وإنما يقولون ذلك، من فرط الدَّهشة والحيرة ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ تعجيبٌ من كذبهم، بعد أن سُقِط في أيديهم، أي انظر يا أيها الرسول، كيف كذبوا على أنفسهم، بنفي الإشراك عنها، أمام علاَّم الغيوب؟ وزالت عنهم أصنامهم وأوثانهم، التي كانوا يزعمون أنها آلهة، فلم تُغنِ عنهم من الله شيئاً!! ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي ومن هؤلاء الكفار، من يصغي إليك حين تقرأ القرآن، وقد ألقينا على قلوبهم أغطية لئلا يفهموه، لأنهم أغلقوا قلوبهم عن تدبر أحكامه وأسراره، وأصمُّوا آذانهم عن سماعه، فلذلك حال الله بينهم وبين فهمه وتدبره، وهذا تمثيلٌ لفرط طغيانهم وضلالهم ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي ومهما يشاهدوا ويبصروا من المعجزات الباهرات، الدالة على صدق رسالة محمد ﷺ، كانشقاق القمر، ونزول المطر، وتكثير

وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٠﴾

الطعام القليل ببركة دعائه، لا يصدِّقون بهذه المعجزات، ويقولون عن القرآن المبين، ما هذا إلا خرافات الأولين. ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي وهؤلاء المشركون، ينهون الناس عن استماع القرآن، ويتباعدون عنه بأنفسهم، وما يُهلكون بهذا الصنيع إلاَّ أنفسهم، وما يشعرون بذلك لشدة حماقتهم وغبائهم، فقد جمعوا بين الضلال والإضلال ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي لو تراهم حين يوقفون على نار جهنم، وتمنوا الرجوع إلى الدنيا، حتى يؤمنوا بالله إيماناً صادقاً، ولا يكذِّبوا بآيات القرآن المنزل على خاتم النبيِّين، وجواب (لو) محذوفٌ، لتفخيم الأمر، وتهويل شأنه، أي لرأيت أمراً عظيماً مهولاً، تشيب له الرءوسُ، وتفزع له الأبدان، ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي بل ظهر لهم من فنون العذاب، ما لم يكن بالحسبان، ولهذا تمنوا العودة إلى الدنيا، ليصلحوا العمل، ويتداركوا الزلل، ولو رُدُّوا ـ على سبيل الفرض والتقدير ـ لعادوا إلى الكفر والضلال، وإنهم لكاذبون في ادعاء الإيمان ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ أي قال أولئك الكفار الفجار: ما هي إلاَّ حياتنا الدنيا، وليس هناك بعث ولا حساب، ولا جزاء ولا عقاب، ولا عودة إلى الحياة بعد الموت. ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ أي ولو ترى حالهم، حين يوقفون للحساب، أمام ربِّ الأرباب، كما يقف العبد الجاني، أمام سيِّده للعقاب، لأشفقتَ لحالهم!! يسألهم تعالى: أليس هذا البعث والمعاد بحقٍّ؟ والهمزة للتوبيخ والتقريع لهم على التكذيب، قالوا: بلى واللَّهِ إنه لحقٌّ، أكَّدوا قولهم باليمين، فيقول الله تعالى لهم: فذوقوا

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾

إذاً العذاب، بسبب كفركم بالله، وتكذيبكم رسلَ الله!! ثم أخبر تعالى عن خسران أولئك الأشقياء فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ أي حقاً لقد خسر هؤلاء المكذبون بالبعث، وما يتبعه من الحساب والجزاء، حتى إذا جاءتهم القيامةُ فجأةً وبغتةً، من غير أن يعرفوا وقتها، قالوا يا شقاءنا وندامتنا، على تقصيرنا وتفريطنا في طاعة الله، والاستعداد لهذا اليوم، بالإيمان والعمل الصالح ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي وهم يحملون أثقال ذنوبهم على ظهورهم، وبئس هذا الحمل الذي يحملونه، من الجرائم والأوزار!!

ثم ذكر تعالى حقيقة هذه الحياة، الفانية الزائلة، فما هي إلاّ بريقٌ لامع، وسراب خادع، يغترُّ بها الجاهلون، فقال سبحانه: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ أي ليست الدنيا وما فيها من نُضرة، ومُتعةٍ، ونعيم، إلاّ باطل وغرور، يغتر بها الجهول، وما هي إلاّ كلُعَب الأطفال، يتلهّى بها الصبيانُ، وعما قريب تزول، والآخرةُ وما فيها من أنواع النعيم، خيرٌ وأبقى، للذين يخشون ربهم، ويخافون عقابه، لأن الآخرة باقية، والدنيا فانية، أفلا تعقلون ذلك؟ لتتركوا ما أنتم عليه من الكفر والعصيان؟ ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ «قَدْ» لتأكيد الأمرِ والخَبَر، أي قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك، وحزنك عليهم وتأثرك بما يقولون، فإنهم في الحقيقة يعتقدون صدقَ رسالتك، ولكنهم لكفرهم وطغيانهم، يكذِّبون بآيات الله، رُوي أن الأخنسَ بن شَريق مرَّ بأبي جهل اللعين، في أحد طرقات مكة، فقال له: يا أبا الحكم ليس هنا غيري وغيرك، أنشدك بالله هل محمد صادقٌ أم كاذب؟ فقال له أبو جهل: واللّهِ إن محمداً لصادق، وما كذب قطُّ، قال: فلماذا تكذِّبونه ولا تتبعونه؟! فقال له أبو جهل: ويحك! لقد تنازعنا نحن وبنو

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾

هاشم في الزعامة، فأطعموا فأطعمنا، وسقوا فسقينا، وأجاروا فأجرنا، حتى كنَّا كفرسي رهان!! ثم لمَّا بُعث محمد افتخروا علينا، فقالوا: بُعث فينا نبيٌّ، فمن أين نأتيهم نحن بنبيٍّ؟!! واللّهِ لا نؤمن به ولا نتَّبعه!! وإلى هذا تشير الآية الكريمة: ﴿**فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون**﴾ فكفرهم برسول الله ﷺ كفرُ جحودٍ وعناد، لا كفر جهالةٍ بالرسالة، وبرسول الله، لأنهم كانوا يسمونه «الصادق الأمين». ثم قال تعالى مسلِّياً رسوله عن تكذيبهم: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي وباللّهِ لقد جاءك رسلٌ من قبلك يا محمد، أولو شأنٍ خطير، وذوو عددٍ كبير، فكذَّبهم أقوامُهم، فتأسَّ بهم، واصبر على ما نالك من قومك، فأنت أولى بالصبر، لأنك مبعوث إلى العالمين، إلى أن يأتي فَرَجُ الله، فقد صَبَر من كان قبلك من الرسل، على ما نالهم من قومهم من البلاء، والتكذيب والاستهزاء، حتى جاءهم النصر، ولا مبدِّل لوعد الله، ولقد جاءك بعضُ أخبار المرسلين، كيف نصرهم الله، وأهلك أعداءهم المكذبين!! وهذه الآية تسليةٌ لرسول الله ﷺ.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ أي إن عَظُم عليك يا محمد، إعراضُ هؤلاء المشركين، فإن قدرتَ أن تطلب منفذاً ومسكناً في الأرض، أو تطلب سلَّماً تصعد به نحو السماء، فتأتيهم بما طلبوا من الآيات والمعجزات فافعلْ، والمقصود من هذا أن يقطع الرسولُ ﷺ طمعَه من إيمانهم، ولا يتأذىٰ من إعراضهم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي لو شاء الله تعالى أن يجمعهم على الهدى والرشاد لفعَله، ولكنْ لم يفعله لخروجه عن الحكمة، فلا تكوننَّ من الجاهلين بدقائق شؤون الله، الذين لا يعرفون حكمة الله تبارك وتعالى!! والغرضُ من

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

الآية، بيانُ حرصه عليه السلام البالغ، على إسلام قومه، وأنه لو قدر أن يأتيهم بآية معجزة، من تحت الأرض أو من فوق السماء، لأتىٰ بها رجاءً لإيمانهم، ولكنهم أشقياء لا ينفع معهم شيء، ولهذا قال بعده: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ أي لا يستجيب لدعوتك يا محمد، هؤلاء الأشقياء المستهزئون، إنما يستجيب لهذه الدعوة الربانية، الذين يسمعون كلام الله، سماع تدبُّر واعتبار، دون الموتى الكفار، موتى القلوب الذين لا يفقهون ولا يؤمنون، فالمراد (بالموتى) هنا: الكفار، شبَّههم تعالى بالأموات، لأنهم موتى القلوب، لا يفهمون ولا يعقلون، والمراد بالسماع أيضاً: سماع الفهم والتدبر، فهؤلاء الكفار مرجعهم إلى الجبَّار جلَّ وعلا، للحساب والجزاء، **قال قتادة**: الآيةُ مَثَلٌ للمؤمن والكافر، فالمؤمن يسمع كلام الله، فينتفع به ويعقله، والكافر أصمُّ أبكم، لا يبصر هدىً ولا ينتفع به، ثم ذكر تعالى عنادهم فقال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي قال الوثنيون من كفار قريش، الذين بلغ بهم الضلال، إلى حيث لم يقنعوا بما شاهدوه من معجزات خير الأنام: هلاَّ نَزَل على محمد آيةٌ باهرة، كالناقة، والعصا، والمائدة، من الخوارق الملجئة إلى الإيمان!! ـ وكان هذا منهم على سبيل التعنُّت ـ قل لهم: إن الله قادرٌ على أن يعطيكم ما اقترحتم، ولكنَّ هؤلاء الجهلة، لا يعلمون أن إنزالها يستجلب لهم البلاء، لأنه لو أنزلها ثم لم يؤمنوا، لاستحقُّوا عذاب الاستئصال، كما جرت سنَّته تعالى في السابقين!

ثم ذكر تعالى دليلاً على كمال قدرته، وسعة علمه، كبرهان على أنه قادر على أن ينزِّل عليهم ما طلبوه، فقال سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي ما من حيوانٍ يمشي على وجه الأرض، ولا طائرٍ

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾

يطير في جوِّ السماء، إلاَّ طوائفُ مخلوقةٌ مثلكم، خَلَقها الله وقدَّر أحوالها، وأرزاقها، وآجالها، ما تركنا ولا أغفلنا في القرآن شيئاً، مما يحقِّق مصالح جميع المخلوقات، ثم مرجع الجميع إليه، فيحاسبهم على أعمالهم، فالربُّ الذي لم يضيِّع حفظ أعمال البهائم، والدواب، والطير، حتى حفظ عليها حركاتها، وأفعالها، كيف يضيِّع أعمالكم، ويُفرِّط في حفظها، ويترك جزاءكم في الآخرة؟ مع كلِّ ما خصَّكم من العقل والفهم، الذي لم يعطه الطيرَ والبهائم، ثم ضرب مثلاً للمشركين، في جهلهم وقلة إدراكهم وفهمهم، بالأصمِّ والأبكم، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي والذين كذَّبوا بالقرآن، هم مَثَلُ الأصمِّ الذي لا يسمع، والأبكم الذي لا يتكلم، وهو مع هذا في ظلماتٍ لا يُبصر، فكيف يهتدي مثلُ هذا إلى الطريق؟ أو يخرج من أوحالِ الضلالة؟ واللّهُ وحده هو الهادي، يهدي من يشاء، ويضلُّ من يشاء، حسب استعداد الإنسان، لا بطريق الجبر والإكراه، وإنما بطريق الكسب والاختيار!

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أي قل يا أيها الرسول، لهؤلاء المكذبين المعاندين من أهل مكة: أخبروني إن أتاكم عذابُ الله الأليم، كما أتى من قبلكم من الأمم الطاغية المكذبة، أو أتتكم القيامةُ التي لا محيصَ عنها، هل تستغيثون وتستجيرون بغير الله تعالى؟ وهل تدعون غيرَ الله لكشفِ الضُرِّ عنكم؟ إن كنتم صادقين أن الأصنام تنفعكم؟ والغرضُ من الآية إقامة الحجة عليهم، فإنهم يضرعون إلى الله وقت الشدَّة، وينسونه وقت الرخاء ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أي بل تخصُّونه تعالى بالدعاء عند الشدائد والكروب، فيفرِّج عنكم عظيم البلاء، إن شاء أن يتفضَّل عليكم، وتتركون آلهتكم في ذلك الحين فلا تدعونها، لاعتقادكم أن الله وحده، هو القادر على كشف الضُرِّ، دون غيره من الخلق.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي أرسلنا رسلاً كثيرين، إلى أمم من قبلك، فكذبوا رسلهم، فامتحنَّاهم بأنواع الشدائد، بالأمراض، والأسقام، والجوع والفقر، لكي يرجعوا إلى الله، بالتضرع والتذلل، ويتوبوا من كفرهم ومعاصيهم ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي فهلاَّ تضرَّعوا حين جاءهم العذاب، ليصرف الله عنهم البلاء!! ولكنْ لشقائهم زادوا في التمرد والطغيان، حتى تحجَّرت قلوبهم فصارت كالصخر، لا تستجيب ولا تلين، وحسَّن لهم الشيطان قبيح أعمالهم. ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ أي فلمَّا تركوا دعوة الأنبياء، وانهمكوا في المعاصي والآثام، ولم يتعظوا بما نالهم من البأساء والضراء، أغدقنا عليهم أسباب الرفاهية، من السَّعة، والصحة، وصنوف النعمة، استدراجاً لهم، حتى إذا اطمأنوا بذلك النعيم، وازدادوا أَشَراً وبطراً، أخذناهم بعذاب الاستئصال (فجأة)، ليكون أشدَّ عليهم وقعاً، فإذا هم يائسون قانطون من كل خير، وفي الحديث الشريف: «إذا رأيتَ الله تعالى يعطي العبد في الدنيا، وهو مقيم على معاصيه، فإنما هو استدراج»، ثم قرأ الآية: ﴿**فلما نسوا ما ذكروا به**...﴾ رواه أحمد في المسند. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أهلكناهم عن آخرهم، بحيث لم يبق منهم أحد، بسبب ظلمهم وفجورهم، والحمد لله على هلاك العصاة والفُجَّار، وتخليص أهل الأرض من أعمالهم الخبيثة!

ثم جاءت الآيات تتوعَّد الطغاة المجرمين، من كفار مكة، بسلب الحواسِّ، من سمع، وبصرٍ، وعقل، إن لم يكفُّوا عن فجورهم وطغيانهم، فمن الذي يقدر أن يردَّ عليهم

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

حواسَّهم، إن سلبهم الله إيَّاها ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ أي أخبروني إذا أصمَّكم الله، وأعماكم بالكلية، وسلب منكم العقل، فأصبحتم لا تسمعون قولاً، ولا تبصرون طريقاً، ولا تعقلون شيئاً، من إلهٌ غير الله تعالى، يقدر على ردِّ ذلك عليكم؟ هل تستطيع آلهتكم المزعومة أن تردَّ عليكم هذه الحواسَّ؟ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ تعجيبٌ لرسول الله ﷺ من عدم اعتبارهم بالآيات الباهرة، أي انظر كيف نبيِّن ونوضِّح الآيات الدالة على وحدانيتنا، بالطرق المتنوعة من وعدٍ ووعيد، وترغيب وترهيب، ثم هم بعد ذلك يعرضون عنها، ولا يتَّعظون ولا يعتبرون!! ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ توبيخٌ آخر لكفار مكة، أي قل لهم: أخبروني، إن أتاكم عذاب الله العاجل ليلاً، وفجأةً دون إنذار، أو أتاكم عذابه عَلَناً وَضَح النهار، ما يُهلَك بهذا العذاب، إلاَّ الكفرةُ الفُجَّار، وهو أنتم، لظلمكم وطغيانكم، والاستفهام هنا ﴿**هل يهلك**﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ بمعنى النفي، أي لا يهلك بهذا العذاب إلاَّ الظالمون ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي وما نرسل الرسل إلاَّ لتبشير المؤمنين بالثواب، وإنذار الكافرين بالعقاب، ولم نرسلهم ليقترح عليهم الكفار، ما يريدون من الآيات والمعجزات، كما طلب طغاة مكة من رسول الله ﷺ حين قالوا: ﴿**لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً..**﴾ الآيات. ثم قال تعالى: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي فمن آمن بالله ورسله، وأصلح عمله في هذه الحياة الدنيا، وقدَّم ما ينفعه لآخرته، فلا خوف عليهم فيما يقدمون عليه، ولا هم يحزنون على ما خلَّفوه في الدنيا. ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي وأمَّا الأشقياء المكذبون بآيات

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾

الرحمن، التي جاءتهم بها الرسل صلوات الله عليهم، فيصيبهم العذاب الذي أُنذروا به، إن عاجلاً أو آجلاً، بسبب فسقهم وعصيانهم، وإصرارهم على التكذيب والعناد، والمراد بالفسق هنا ﴿**بما كانوا يفسقون**﴾: الكفرُ كما قال ابن عباس، لأن الكفر هو الموجب للخلود في النار ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ أي قل يا أيها الرسول لهؤلاء الذين يقترحون عليك أن تأتيهم بالمعجزات: لستُ أدَّعي أن خزائن مُلْك الله في يدي، حتى أتصرَّف فيها، وآتيكم بما تقترحون من الخَوارق، كقلب الجبال ذهباً، أو جعلِ مكة حدائق وأنهاراً، ولا أقول لكم إني أعلم الغيب، حتى تسألوني عن وقت قيام الساعة، ووقت نزول العذاب، ولا أقول لكم إني مَلَكٌ، حتى تكلِّفوني بالصعود إلى السماء، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي لا أفعل إلا ما يوحيه إليَّ ربي، ثم قل لهم: هل يتساوى الأعمى مع البصير؟ كذلك لا يتساوى المؤمن مع الكافر، ولا البَرُّ مع الفاجر، أفلا تتفكَّرون فيما أدعوكم إليه؟ تبرَّأ ﷺ من الألوهية، والملكيَّة، وادعاء معرفة الغيب، وقَصَر نفسه على النبوَّة، التي يوحي بها الله إلى من اصطفاه من عباده ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي وخوِّف بالقرآن المؤمنين، المصدِّقين بما أنزل اللَّهُ إليك، الذين يخافون عذاب يوم الحشر، ليس لهم وليٌّ ينصرهم، ولا شفيع يشفع لهم، من الأوثان والأصنام، لكي يخافوا ربهم، ويتقوا الكفر والمعاصي.. ونزل لمّا طلب المشركون من رسول الله ﷺ أن يطرد من مجلسه الفقراء والضعفاء، ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي لا تطرد هؤلاء المؤمنين الضعفاء من مجلسك، الذين يعبدون ربهم دوماً، صباحَ مساء، يطلبون رضاه والقرب منه سبحانه. ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ

﴿فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾

فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي ليس عليك شيءٌ من الذنب، إن أرادوا بصحبتك غير وجه الله، ولا هم يؤاخذون بما تفعله، فلمَ إذاً تطردهم؟ وهذا ردٌّ لما زعمه السفهاء، أن الفقراء إنما تبعوه ودخلوا في الإسلام، من أجل أنهم وجدوا عنده المطعم والملبس، وهذا محضُ الافتراء والبهتان، فقد دخلوا في الإسلام عن قناعة، وحبٌّ للّهِ ورسوله، وقد شهد الله لهم بذلك، بقوله: ﴿**يريدون وجهه**﴾ روى ابن مسعود أن أشراف قريش قالوا لرسول الله ﷺ: يا محمد، أرضيتَ بهؤلاء الفقراء عن أشراف قومك؟ اطردهم عنك، فإننا نأنف أن نجالس أمثال هؤلاء الصعاليك، ولعلّك إن طردتهم أن نتّبعك، فقال ﷺ: ما أنا بطارد المؤمنين، فقالوا: فإذا جئناك فأبعدهم عنك، حتى يعرف العرب فضلنا، فإذا انصرفنا فأقعدهم معك، فهمَّ رسول الله ﷺ أن يفعل ذلك، طمعاً في إيمانهم، فأنزل الله الآية، فكفَّ ﷺ عن ذلك!

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي وكذلك ابتلينا بعضَهم ببعض، ابتلينا الغنيَّ بالفقير، والشريف بالوضيع، فقدَّمنا هؤلاء الضعفاء على الأشراف، بالسبق إلى الإيمان، ليقول الأشراف والأغنياء: أهؤلاء الضعفاء والفقراء منَّ الله عليهم بالهداية، والسبق إلى الإيمان من دوننا؟! ونحن الرؤساء وهم الفقراء!! قال تعالى ردّاً عليهم: ﴿**أليس الله بأعلم بالشاكرين**﴾؟ أي أليس الله بعالم بما في قلوب العباد؟ يعلم من يشكره فيهديه، ومن يكفر به فيخزيه!! هذا منطق المشركين، في كل حينٍ وزمان، يعتبرون الفضل بالغنى والثَّراء، وكانوا يقولون إذا رأوا المؤمنين: جاءكم ملوكُ الدنيا!! يهزءون منهم ويسخرون، وقد بيَّن تعالى أن أمر الهداية والإيمان، ليس بالجاه والسلطان، ولا بالثراء والغنى، بل هو بالشكر وطهارة القلب والوجدان، فمن شَكَر الله على نعمته، وفّقه وهداه، ومن كَفَر النعمة، خَذَله وأشقاه، ولهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿**أليس الله بأعلم بالشاكرين**﴾؟ ثم جاءت الآيات تبشّر هؤلاء الفقراء الضعفاء، بالدرجات العالية في دار النعيم، فالمالُ يطغي، والدنيا تغري، وما على

وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

المؤمن إلاَّ التسلُّح بالصبر واليقين، ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ﴾ أي إذا جاءك هؤلاء المؤمنون الفقراء، الذين آمنوا باللَّهِ وبلقائه وجزائه، فبشرهم يا أيها الرسول، بالمغفرة والرضوان، ودخول الجنان، وقل لهم: إن ربكم ألزم على نفسه ـ بطريق التفضل والإحسان ـ الرحمةَ للمؤمنين، أن يرحمهم ويرعاهم ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي أنه من فعل خطيئةً من دون قصد، جاهلاً عاقبةَ الذنب الوخيمة، ثم تاب عن ذلك الذنب وأناب، وأصلح سيرته وعمله، فإن الله يغفر له ويرحمه، لأنه سبحانه واسع المغفرة، عظيم الرحمة للمنيبين ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي كما بيَّنَّا في هذه السورة، الدلائل والشواهد على ضلالات المشركين، كذلك نبيِّن ونوضِّح لكم أمور الدين، وليظهر للناسِ طريقُ المجرمين، فينكشف أمرُهم، وتستبين سبيلهم، فيجتنب عنها العقلاء.

ثم ذكر تعالى فساد عقول المشركين، في عبادتهم أوثاناً لا تضرّ ولا تنفع، وأمر الرسولَ بالتبرؤ من عبادة هؤلاء الضالين، فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي قل يا أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين يدعونك إلى عبادة ما كان عليه آباؤهم: إن ربي نهاني أن أعبد هذه الأوثان، التي عبدتموها من دون الرحمٰن، وزعمتم أنها آلهة، قل لهم: لا أتبع أهواءكم في عبادة غير الله، فما أنتم عليه هوى، فكيف أتبع الهوى وأترك الهدى؟ وإن اتبعت ما تدعونني إليه، فقد ضللتُ، ولا أكون في زمرة المهتدين.

قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ وقل للمشركين أيضاً: إني على شريعةٍ واضحة من دين الله، وكذبتم بالحقِّ الذي جاءني، وليس عندي ما تطلبونه من تعجيل العذاب، ولو كان الأمرُ بيدي لأهلكتكم عاجلاً، ولكنَّ الأمر بيد الله وحده، يقضي بالحقِّ وهو خير الحاكمين ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لو أن بيدي أمر العذاب الذي تستعجلونه، لعجلته لكم لأستريح منكم، والله تعالى أعلم بعباده، بالمؤمنين والظالمين، يفعل ما يشاء حسب الحكمة والمصلحة ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي عنده جلَّ وعلا خزائن علم الغيب، المستورة الخفية، لا يعلمها ولا يحيط بها إلاّ هو، ويعلم ما في البرِّ والبحر، من أنواع المخلوقات، على اختلاف أنواعها، وأجناسها وأشكالها ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي ولا تسقط ورقةٌ من الشجر، إلاّ يعلم وقت سقوطها، والمكان الذي سقطت فيه، ولا حبَّة في بطون الأرض، إلا يعلم مكانها، وهل تنبت أم لا؟ وكم تُخرج من ثمراتٍ، ومن يأكلها؟ ولا من شيءٍ فيه رطوبة أو جفاف، إلاّ وهو معلومٌ عند الله، مسجل في اللوح المحفوظ، فأين هذا الإِله القديرُ، من تلك الأوثان والأصنام، التي لا تسمع ولا تنفع، ولا تدري من دعاها أو دحاها!!

ثم ذكر تعالى قدرته على الإحياء والإماتة، والبعث والنشور، وضرب لذلك مثلاً بحال

وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾

الإنسان وقت النوم، الذي يشبه الموت، فقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ أي وهو سبحانه الذي يتوفاكم بالليل «الوفاة الصغرى» فإن النائم كالميت، لا يشعر، ولا يحسُّ بما حوله، ولا يُبصر، فهو كالميت في زوال الإحساس والتمييز، **﴿يتوفاكم بالليل﴾** أي ينيمكم بالليل، ويجعل أرواحكم في قبضته تعالى: **﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها﴾** وقد كان ﷺ إذا استيقظ من نومه يقول: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور». ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ أي ويعلم ما كسبتم بالنهار، من طاعات أو سيئات، وجوارحُ الإنسانُ: أعضاؤه التي يكسب بها الأعمال ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ﴾ أي ثم يوقظكم بالنهار، لتبلغوا الأجل المسمى، وهو وقت انتهاء أعماركم ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي ثم مرجعكم يوم القيامة، إلى الله وحده، الذي يحاسب العباد على أعمالهم، ويجازيهم عليها، إن خيراً فخيرٌ وإن شرّاً فشرٌّ، فالدنيا دار العمل، والآخرة دار الجزاء **﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾** .

ثم ذكر تعالى دلائل عظمته، وكبريائه وجلاله، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي هو جل وعلا الذي قهر كلَّ شيء، وخضع وذلَّ لعظمته وكبريائه كلُّ شيء، وهو المتصرِّف في خلقه بما يشاء، ويرسل عليكم ملائكةً تحفظ أعمالكم، وهم (الكرام الكاتبون)، حتى إذا انتهى أجلُ الإنسان، قبضتْ روحه الملائكةُ الموكَّلون بقبض الأرواح، وهم لا يقصِّرون في القيام بوظيفتهم، في الحفظ، وفي قبض الأرواح ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ أي ثم يُردُّ العباد بعد إحيائهم، إلى ملك الملوك، ربِّ الأرباب، الذي لا

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

يقضي إلا بالحقِّ والعدل، وهو الحاكم وحده في ذلك اليوم، وله الفصلُ والقضاء، لا يشغله شأنٌ عن شأن، ولا حسابٌ عن حساب، يحاسب الخلائق بنفسه في أسرع زمان، أما الحكمة من توظيف الملائكة، الحفظة على أعمال العباد، فهي أن المكلَّف إذا علم أن أعماله تُكتب عليه، وتُعرض على رءوس الأشهاد، في ذلك اليوم المشهود، كان ذلك أزجرَ له عن المعاصي، وأبعدَ عن القبائح والآثام.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي قل لهؤلاء المشركين: من ينجِّيكم من شدائد البرِّ والبحر، حين تقعون في كربٍ وضيق، وتدعون ربكم علانيةً وسراً، قائلين: لئن أنجيتنا من هذه البلايا والشدائد، لنكوننَّ من المواظبين على الشكر، المعترفين لك بالفضل والإنعام ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ أي الله وحده ينجيكم من هذه الشدائد، ومن كل كربٍ وغمٍّ، ثم أنتم بعد هذه النعم الجليلة، تعودون إلى الشرك، ولا توفون بالعهد. وهكذا حال المشركين، إذا أصابهم كرب، أو وقعوا في ضيق وشدة، التجأوا إلى الله، فإذا فرَّج الله كربتهم، وأزال ما ألمَّ بهم من محنةٍ وعناء، نسوا ربهم، وعادوا إلى الشرك والضلال!! ويأتي بعد ذلك الوعيد والتهديد ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أي قل لهؤلاء الكفرة المعادين لله ورسوله: إنه تعالى قادر على إهلاككم من فوقكم، بإرسال الصواعق من السماء، أو بالرجم بالحجارة، أو بالريح المدمِّرة **﴿أو من تحت أرجلكم﴾** بالخسف والزلازل والرجفة **﴿أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض﴾** أي يجعلكم فِرَقاً متحزِّبين، يقاتل بعضكم بعضاً، ويسترقُّ بعضكم بعضاً ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أي انظر كيف نبيِّن ونوضِّح لهم الآيات، بوجوه العظات والعِبَر، لكي يفهموا ويتدبَّروا

وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

هذه الدلائلَ والحجج، فيرجعوا عمَّا هم عليه من المكابرة والعناد، روى البخاري عن جابر أنه قال: لمَّا نزلت هذه الآية **﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾** قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك!!» **﴿أو من تحت أرجلكم﴾** قال: «أعوذ بوجهك» **﴿أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾** قال ﷺ: «هذا أهونُ أو أيسرُ» رواه البخاري.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ أي وكذَّب بهذا القرآن العظيم، قومك المشركون من قريش، وهو الكتاب المنزل بالحق من ربِّ العزة والجلال، الذي **﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾** قل لهم يا محمد: لستُ موكَّلاً عليكم، لأمنعكم عن الباطل والضلال، وإنما أنا منذر، وقد قمت بواجبي نحوكم من الإنذار، والحَكَمُ بيننا اللّهُ الواحد القهار ﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ أي لكل أمرٍ وخبرٍ من الأخبار، وقتٌ محدَّدٌ يقع فيه، من غير إخلاف ولا تأخير، وسوف تعلمون عند وقوعه ما يحلُّ بكم من العذاب!! ولقد كان من سَفه قريشٍ وطغيانهم، أنهم كانوا يخوضون في مجالسهم، بالطعن بالقرآن، والتكذيب بآياته، ويجعلون من القرآن والرسول ﷺ، مجالاً للسخرية والاستهزاء، فأُمر الرسولُ والمؤمنون بعدم مجالستهم بقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ﴾ أي وإذا رأيت هؤلاء الكفار، يخوضون في القرآن، بالطعن والتكذيب والاستهزاء، فلا تجالسهم، وقُم عنهم حتى يأخذوا في كلامٍ آخر، ويتركوا الخوض والاستهزاء بالقرآن، فإن مجالسة السفهاء نقصٌ في الدين، وخدشٌ للإيمان ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي وإن أنساك الشيطانُ هذه الوصية ـ وهي عدم مجالسة السفهاء ـ فقم إذا ذكرتَ النهيَ، ولا تقعد مع المشركين المستهزئين، والخطاب للرسول ﷺ، والمراد به المؤمنون من أمته، ويدلُّ عليه ما بعده وهو قوله سبحانه: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾

وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ

أي ليس على المؤمنين شيءٌ من قبائح أعمال المشركين، إذا ما اجتنبوهم فلم يجلسوا معهم، ولكنْ يحذِّرونهم من سخط الله، بما أمكن من العظة والتذكير، ويظهرون لهم الكراهة، لعلهم يجتنبون الخوض في القرآن، حياءً من المؤمنين، إذا رأوهم قد تركوا مجالستهم. ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي اترك هؤلاء الفَجرة المجرمين، الذين اتخذوا الدين سخريةً وهزؤاً، وخدعتهم هذه الحياة الفانية، عن طاعة الله، وذكِّر بالقرآن من يصلح للتذكير، خشية أن تُبسل أي تُسلم نفسٌ للهلاك، بكفرها وسوء صنيعها، والإبسالُ: التَّعرُّضُ لما فيه هلاكٌ للنفس، كمن يلقي بنفسه إلى التهلكة، وفي ذلك الوقت، ليس لهم ناصر ينجيهم من عذاب الله، ولا شفيع يشفع لهم **﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾** ثم ذكر تعالى كمال شقائهم فقال: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ﴾ أي وإن تعط تلك النفسُ كلَّ فديةٍ لا يُقبل منها، ولو جاءت بملء الأرض ذهباً، فلا فدية ولا شفاعة لأولئك المجرمين يوم القيامة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ أي أولئك المستهزئون بدين الله، المغترون بالحياة الدنيا، هم المهلَكون المعذَّبون، بسبب عقائدهم الشنيعة، وأعمالهم القبيحة، ولأولئك الأشقياء شرابٌ من ماءٍ حارٍّ مغليّ، يجرجر في بطونهم، وتتقطع من حرارته أمعاؤهم، كما قال سبحانه: **﴿وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم﴾** كما يُحرقون بنارٍ تشتعل في أبدانهم، جزاء كفرهم المستمر، وتكذيبهم بآيات الله، ولمَّا دعا المشركون رسول الله ﷺ إلى أن يعبد آلهتهم سنةً، مقابل أن يعبدوا إلٰهه سنة، نزل قوله تعالى ردّاً على سفاهتهم ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ

ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَاۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ

ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَاۗ﴾ أي قل لهؤلاء الضالين، على وجه التوبيخ لهم: أنعبد ما لا ينفعنا إن دعوناه، ولا يضرنا إن تركناه؟ ونرجع إلى الضلالة بعد أن هدانا الله إلى الدين الحق، دين الإسلام؟ فيكون مثلنا كمثل الشخص الذي اختطفته الشياطين وسارت به في المهالك والقِفار، فألقته في هوة سحيقة؟ **قال ابن عباس**: هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لمن يدعو إلى عبادة الأوثان، ولمن يدعو إلى عبادة الرحمن!! أقول: ضرب القرآن الكريمُ مثلاً لهؤلاء المشركين، في عدم انتفاعهم بعبادة الأوثان، بمثل رجلٍ ضلَّ عن الطريق في سفره، وبقي تائهاً حائراً، لا يدري أين يسير في تلك البيداء والصحراء، وقد اغتالته الشياطين واختطفته، فسارت به في دروب المهالك، بعيداً عن رفاقه وأصحابه، وبينما هو تائهٌ متحيِّر، لا يدري أين يمشي وكيف يصنع، إذ سمع صوت إخوانه يدعونه إلى الجادة والطريق، يقولون له: أقبلْ فهذا هو طريق الأمان!! فإن هو استجاب لهم نجا، وإلاَّ ضلَّ وهلك، فذلك مَثَلُ من يعبد الأوثان، فإنه يظن أنه على هدى، حتى يأتيه الموت، فيرى الندامة والهلكة، حين لا ينفعه توبة ولا ندم، ويا له من مَثَل رائع، في غاية البيان والإبداع، والجمال والإقناع، لمن كان له قلب أو عقل!! ولهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي قل لهم يا أيها الرسول: إن ما هدانا الله إليه من الإسلام، هو الهدى وحده، لا ما تدعوننا إليه من عبادة الأصنام والأوثان، وأمرنا اللَّهُ بأن نستسلم لأمره ونخضع، ونخلص له العبادة في جميع أمورنا وأحوالنا ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي وأمرنا الله جلَّ وعلا بالمحافظة على الصلاة، وأدائها على الوجه الأكمل، كما أمرنا بتقوى الله والخوف منه في جميع الأحوال، وإليه سبحانه وحده مرجع الخلائق كلهم، للحساب والجزاء، فيجازي كلَّ عاملٍ بعمله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ﴾ أي وهو سبحانه الخالقُ، المالكُ لكل ما في السموات والأرض، خَلَق الكون بالحقِّ والحكمة، لا باطلاً وعبثاً، وقضاؤه سبحانه كائن، حين يقول للشيء كنْ فيكون، لا يحتاج إلى مهلةٍ أو زمن، ولا تلكؤ

قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾

ولا تأخير ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي هذا الإلٰهُ الكبير الجليل، لا ينازعه أحدٌ في ملكه، فقوله الصدقُ الواقع لا محالة، وله الملك التام الكامل يوم القيامة، يوم ينفخ إسرافيل في الصور نفخة الإحياء، لا ملك فيه لأحدٍ غيره، هو العالم بما غاب عن الأبصار، وبما هو مشاهد أمام الأنظار، لا يخفى عليه شيء من الخلق، وهو الحكيمُ في أفعاله، الخبير بشئون عباده، والغرضُ من الآية: إثباتُ الملك والخلق والتدبير لله وحده، دون شيء من تلك الآلهة المزعومة، من الأصنام والأوثان!

ولما أبطل القرآنُ عبادة الأوثان، ذكر بعدها قصة خليل الرحمٰن إبراهيم عليه السلام، الذي يزعم المشركون أنهم على ملته ودينه، وهو الذي حطَّم الأصنام، فكيف يكونون على دينه ويخالفون شريعته بعبادة غير الله؟ ولنستمع إلى قصته في الآيات البينات: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي اذكر يا أيها الرسول لقومكَ، حين قال إبراهيم لأبيه «آزر» موبخاً له ومنكراً عليه عبادة الأوثان: أتعبد حجارة، لا تضرُّ ولا تنفع، تجعلها آلهة من دون الله؟ إني أراك وجماعتك الذين يتبعونك في عبادتها، في خطأٍ واضح، وضلالٍ وخسرانٍ مبين ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ أي وكما حفظنا إبراهيم، وعصمناه من عبادة الأصنام، كذلك أطلعناه على ملكنا العظيم، وسلطاننا الباهر، في السموات والأرض، ليكون من الراسخين في معرفة عظمة الله، وجلاله وسلطانه، والملكوتُ: معناه الملك الواسع، والتاءُ فيه للمبالغة ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾ أي فلما أظلم الليلُ وسَتَر كلَّ شيء بظلامه، رأىٰ إبراهيم كوكباً مضيئاً في السماء هو «الزهرة» فقال على طريقة الاستدراج لقومه، ليعرِّفهم جهلهم وخطأهم: هذا ربي ـ على زعمكم ـ فلمَّا غاب النجم، قال: لا أحبُّ عبادة إلٰهٍ

فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

متغيِّر من حال إلى حال، يظهر ثم يغيب، لأن الربَّ لا يجوز عليه التغيُّر والانتقال، فإن ذلك دليل الحدوث، وربُّ العالمين جلَّ جلالُه أزليٌّ قديم، قال هذا ليقيم الحجة عليهم على سبيل المناظرة: ﴿هذا ربي﴾ استدراجاً لهم، ليعرِّفهم خطأهم وضلالهم في عبادة غير الله. ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي ثم لمَّا رأى القمر طالعاً ليلة البدر، ساطعاً منتشر الضوء، قال: هذا ربي، على الأسلوب المتقدِّم، لإقامة الحجة على بطلان ما يعبدونه من دون الله، فلما غاب القمرُ قال إبراهيم: لئن لم يهدني ربي، ويرشدني إلى طريق الهدى ودينِ الحقِّ، لأكونن من أهل الزيغ والضلال، وفيه تعريضٌ لقومه بأنهم على ضلال في عبادة النجم والقمر ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي فلما رأى الشمس ساطعة مضيئة، تملأ الدنيا بنورها وضيائها، قال إبراهيم: هذه الشمس ربي، إنها أكبر من النجم والقمر، فلمَّا غابت الشمس، جهر بالحق المبين، بضلال قومه المشركين، وتبرأ منهم فقال: يا قوم أنا بريء منكم، ومن عبادتكم لهذه المحدَثات، من الأصنام والأجرام، فقد أصبحتم مشركين بعبادتكم لها ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي إني توجهت بوجهي لخالق الكون، مبدع السموات والأرض، ربِّ العزة والجلال، الذي أنشأ خلقهما على غير مثالٍ سابق، وأنا مؤمنٌ موحِّد، مائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق، وهذا معنى الحنيف، ولستُ مشركاً في عبادة ربي شيئاً من مخلوقاته!! لقد ابتكر إبراهيم الخليل، طريقة عجيبة في الاستدلال على بطلان ما كان قومه يعبدونه من دون الله، من أصنام، وكواكب، وشمس، وقمر، وذلك بطريق ادعاء ألوهية النجم، ثم القمر، ثم الشمس، وتنزَّل مع الخصم ليقيم عليه الحجة من نفس كلامه. فما أحرى المناظر العاقل، أن يُفحم خصمه بأيسر طريق، وأن يُدينه من فمه، على حدِّ قولهم في الأمثال «من فمك ندينك». فلما أوضح لهم، أن الكوكب الذي رآه، لا يصلح أن يكون رباً، انتظر ما هو أضوأ منه وأنور، فرأى القمر وقت طلوعه، وهو بدرٌ

وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ

يتلألأ في السماء، فقال: هذا ربي استدراجاً لهم، ليعرِّفهم ضلالهم في عبادة القمر، ثم لمَّا غاب عن الأنظار، انتظر الشمس إذْ كانت أنور من القمر، وأكبر جُرماً، وأضوأ نوراً، وأعظم نفعاً، فقال: «هذا ربي» على طريقة الاحتجاج عليهم، ثم لمَّا غابت الشمسُ، أعلن براءته من جميع هذه المعبودات المحدثة، وكلُّ هذه الأمور، إنما ذكرها إبراهيم عليه السلام على سبيل «التدرج مع الخصم» فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة «النجم، والقمر، والشمس» التي هي أنورُ ما تقع عليه الأبصار، تحقَّق بطلان ما كانوا يعبدونه بالدليل القاطع، وأقام عليهم الحجة في سفاهة عبادتهم لغير الله، فالقولُ منه إنما كان في «مقام المناظرة» لا مقام استدلالٍ ونظر، وحاشا الخليل أن يشكَّ في معرفة الرب الجليل، وهو إمام الحنفاء، وأبو الأنبياء، وقد منحه الله الهداية والإيمان منذ طفولته، وفي الحديث (نحن أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم) رواه البخاري، ومعناه: نحن لم نشكّ، فإبراهيم أولى أن لا يشكَّ. وهذه شهادة بالبراءة من رسول الله له بعدم الشك، ويدلُّ على هذا قوله سبحانه بعده: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ﴾ أي جادلوه وناظروه في أمر توحيد الله، وأنه وحده هو الربُّ المعبود، وخوَّفوه من آلهتهم الأصنام، أن تمسَّه بسوء، فأجابهم منكراً عليهم: أتجادلونني في وجود الله ووحدانيته، وقد بصَّرني ربي وهداني إلى الطريق الحق؟

﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ؟ أي ولا أخاف من هذه الآلهة المزعومة، من الأوثان والأصنام، التي تعبدونها من دون الله!! لأنها لا تضر ولا تنفع، ولا تُبصر ولا تسمع، وليست قادرة على فعل أيِّ شيء ممَّا تزعمون، إلا أن يصيبني ربي بمكروهٍ من جهته تعالى، من غير دخلٍ لآلهتكم فيه، فعلمه تعالى محيط بكل ما في الكون، أفلا تتعظون وتعتبرون، بأن الله وحده هو الخالق، النافع الضار، دون هذه الأوثان من الأحجار؟! ثم زاد في التوضيح والبيان لهم، فقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ﴾ أي

﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾

وكيف أخاف من آلهتكم المزعومة التي أشركتموها مع الله في العبادة، ولا تخافون أنتم الإلٰه الجليل القادر، الحقيق بأن يُخاف منه، الذي أشركتم به بدون حجة ولا برهان؟ فكيف أخاف أنا من العاجز الضعيف (الأصنام) ولا تخافون أنتم من إلٰهي العلي الكبير الرحمٰن، القادر على إهلاككم وتعذيبكم؟ ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي أيُّنا أحقُّ بالأمن؟ أنحن الذين عرفنا اللَّهَ بالأدلة الساطعة، أم أنتم وقد أشركتم معه الأوثان، وكفرتم بالواحد الديان؟ إن كان عندكم فهم وعلم!!

ثم وضَّح تعالى من يكون له الأمنُ في الآخرة، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي الذين تحققوا في الإيمان، ولم يخلطوا إيمانهم بوثنية وشرك، وعبدوا الله بإخلاص ويقين، هؤلاء لهم الأمنُ من العذاب، وهم من أهل الهداية والرشاد، لا من عداهم من أهل الضلال، وتأكيداً لما سبق إن إبراهيم عليه السلام، لم يكن شاكاً في معرفة الربِّ جلَّ وعلا، وإنما قال ما قال عن الكوكب، والقمر، والشمس، ﴿**هذا ربي**﴾ على طريقة السخرية والتهكُّم، ولإقامة الحجة عليهم، بهذا الأسلوب الرائع، ولهذا جاء البيان القاطع في قوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي هذا الذي احتجَّ به إبراهيم، على وحدانية الله، من غياب الكوكب، والشمس، والقمر، وعدم صلاحيتها أن تكون آلهة، هي من حججنا الساطعة، التي أرشدناه إليها، لتكون له الحجة الدامغة على قومه، ليمحق بها تلك العقائد الباطلة، نرفع بها من نشاء من عبادنا، بالفهم والعلم ونور النبوة، لأن الله حكيم في صنعه، عليمٌ بمن يصلح للمناظرة والمحاورة.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي منحنا إبراهيمَ ولداً هو إسحاق، ابنه الصلبيُّ، ووَلَد ولدٍ، هو يعقوب بن إسحاق، ومن إسحق ويعقوب

وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾

جاء أنبياء بني إسرائيل، كلاً منهما أرشدناه إلى طريق الخير والسعادة، وآتيناه النبوة والحكمة كما آتينا نوحاً الهداية، وأنعمنا عليه بالنبوة قبل إبراهيم، ذكر تعالى شرف أبناء إبراهيم، ثم ذكر شرف آبائه، فشرَّفهم جميعاً بالرسالة والنبوة، وكان هذا مكافأة لإبراهيم، حين اعتزل قومه، وهاجر من وطنه في سبيل الله، فعوَّضه الله عن قومه وعشيرته، بأولادٍ صالحين من صلبه، لتقرَّ بهم عينه ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي ومن ذرية إبراهيم، هؤلاء الأنبياء الكرام ﴿داود وسليمان﴾ بدأ بذكرهما لأنهما جمعا بين النبوة والمُلك، فكلٌّ منهما نبيٌّ وملِكٌ، وسليمان هو ابن داود، فذكر الأب والابن، ﴿وأيوب ويوسف﴾ قرنهما تعالى معاً، لاشتراكهما في الابتلاء والامتحان، كما قرن بين ﴿موسى وهارون﴾ لاشتراكهما في الأخوَّة، وقدَّم موسى لأنه كليمُ الله، وختم الآية بقوله: ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ أي مثل ذلك الجزاء الكريم لإبراهيم، نجزي كلَّ من كان محسناً في عمله، صادقاً في إيمانه، وفيه ترغيب بفضيلة الإحسان. ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي وهدينا أيضاً زكريا وابنه يحيى، وعيسى وإلياس، ومنحناهم النبوة، لتظلَّ سلسلة النبوة في أولاد إبراهيم، تكريماً له ولأبنائه، على استقامتهم ودينهم وصلاحهم، ولهذا قال: ﴿كلٌ من الصالحين﴾ أي كل واحدٍ منهم من أهل التقى والصلاح، ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي وجعلنا من ذريته أنبياء، أنعمنا عليهم بالهداية والرسالة، منهم إسماعيل بن إبراهيم، الذي جاء خاتم الأنبياء محمد ﷺ من ذريته، وإسماعيل هو «الذبيح» الذي أُمر إبراهيم في المنام بذبحه، كما أن نبيَّ الله اليسعَ ويونس ولوطاً كلهم أنبياء، أكرمهم الله بالنبوة، وفضَّلهم على العالمين في عصرهم وزمانهم. ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي وهدينا من آبائهم وذرياتهم

ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ

وإخوانهم جماعات كثيرين، اصطفيناهم وهديناهم إلى الطريق المستقيم، طريق الهداية والتوحيد، وهؤلاء الأنبياء كلُّهم مضافون إلى ذرية إبراهيم، منحهم الله هذا الفضل العظيم، ليكونوا هداة مرشدين، داعين إلى الله، ولهذا قال بعد ذكرهم: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي هذا الفضل والإنعامُ، هو هدى الله، يهدي به من شاء من خلقه، ممن يعلم الله فيهم الاستعدادَ للإيمان والصلاح، وهؤلاء الرسل الثمانية عشر، على جلالة قدرهم محاسبون ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ هذا على وجه الاستبعاد، أي لو أشرك هؤلاء الأنبياء ـ على الفرض والتقدير ـ لبطل عملُهم الصالح، وذهبت حسناتهم أدراج الرياح، فكيف بمن سواهم من الخلق؟ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ أي هؤلاء المذكورون من الرسل، هم الذين أنعمنا عليهم بإنزال الكتب السماوية، وأكرمناهم بالحكمة الربانية وخصصناهم بالنبوّة والرسالة، فإن يجحد بآياتنا كفَّارُ عصرك، فقد أمرنا بمراعاتها، قوماً مؤمنين، لا ينكرون النعمة، وهم المهاجرون والأنصار، الذين قال عنهم رسول الله ﷺ: «ما من نبي بعثه الله قبلي، إلاَّ كان له من أمته حواريون وأصحاب، يأخذون بسنته. .» رواه مسلم. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ أي هؤلاء الرسل الكرام، الذين أخبرناك عنهم يا محمد، هم الهداة المهديُّون، فتأسَّ واقتد بسيرتهم العطرة، وقل لقومك المعاندين: أنا لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً، وما هذا القرآن الذي جئتكم به، إلاَّ عظةٌ وتذكيرٌ لجميع الخلق، ثم ذكر تعالى إنكار أهل الكتاب والوثنيين للوحي، فقال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ نزلت في

﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

بعض أحبار اليهود (علمائهم) فقد رُوي أن «مالك بن الصيف» من كبار علماء اليهود، جاء يخاصم النبيَّ ﷺ، فقال له الرسول الكريم: «أنشدك بالذي أنزلَ التوراةَ على موسى، أَمَا تجد في التوراة أن الله يبغض الحبرَ السمينَ؟» . وكان حبراً سميناً . فغضب وقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء!! فقال له أصحابه الذين معه: ويحكَ، ولا على موسى؟ فكرَّر قوله: واللَّهِ ما أنزل الله على بشر من شيء!! رواه ابن جرير، فأنزل الله الآية أي ما عرفوا الله حقَّ معرفته، ولا عظَّموه حقَّ تعظيمه، حين أنكروا نزول الوحي على الرسل، مبالغةً في إنكار نزول القرآن على محمد عليه السلام، فقالوا: ما أنزل الله شيئاً من الوحي، على أحد من الخلق!! قل لهم على سبيل التوبيخ والتقريع: فمن إذاً أنزل التوراة على موسى؟ نوراً يُستضاء به، وهداية لبني إسرائيل؟ ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ أي تكتبونه في صحف وأوراق متفرِّقة، تُظهرون منها ما تشاءون، وتخفون ما تشاءون، وعُلمتم يا معشر اليهود، من دين الله ما لم تكونوا تعلمونه أنتم ولا آباؤكم، ومن جملة ما كتموه أمر نبوة محمد ﷺ، وآية الرجم، وغير ذلك من الأحكام التشريعية ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي قل لهم في الجواب: اللَّهُ الذي أنزل التوراة على موسى، هو الذي أنزل القرآن على محمد، فمصدرُ الوحي واحد هو: الله ربُّ العزة والجلال، ثم اتركهم في باطلهم الذي فيه يخوضون، ويهزءون فيه ويلعبون، وهذا وعيدٌ لهم وتهديد على إجرامهم، وجملةُ ﴿قل الله﴾ جملةٌ ابتدائية حُذف أحد جزئيها، أي اللَّهُ أنزله، وإنما أُمِرَ الرسولُ بالجواب، للإشعار بأنهم أُفحموا ولم يقدروا على التكلم ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي وهذا القرآن العظيم، الذي أنزله الله على محمد خاتم النبيين، كتابٌ معجزٌ، مباركٌ كثير النفع والفائدة، جاءكم به نبيٌّ، لم يتلقَّ شيئاً من العلوم والمعارف في مدرسة، ولا على يد أحدٍ من الناس، وجاء مصدِّقاً لما سبقه من كتب الله المنزَّلة على الرسل كالتوراة والإنجيل، وهو يحمل برهانه الساطع على أنه تنزيل الحكيم العليم، ألا يكفي هذا أن يكون برهاناً على صدق رسالة محمد

وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾

ﷺ؟ ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي ولتنذر يا أيها الرسول بهذا القرآن أهلَ مكة، ومن حولها من سائر البشر، والذين يصدِّقون بلقاء الله، يؤمنون بهذا الكتاب، وهم محافظون على الصلوات الخمس وخصَّ الصلاة بالذكر، لأنها أهمُّ أركان الإسلام، وهي أشرف التكاليف والطاعات.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؟ **﴿ومن أظلم﴾** الاستفهام إنكاري معناه النفيُ، أي لا أحد أفجر ولا أظلم ممن كذب على الله، بادعاء نزول الوحي عليه؟ وزيادة قوله تعالى **﴿كذبا﴾** مع أن الافتراء لا يكون إلا كذلك، للتنبيه على أن ما قالوه ـ مع أنه افتراء ـ هو كذبٌ في نفسه، فقد جمعوا بين الكذب، والافتراء على الله، وهذا غايةُ الإجرام، وكذلك من زعم أن الله أرسله إلى الخلق ولم يرسله، كمسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، فهذا أظلم من كل ظالم، ومثلُه من ادعى أنه سينظم كلاماً مثل ما أنزله الله، كما قال كفار مكة: **﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾**.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي لو رأيت أولئك الفجرة الظلمة، وهم في سكرات الموت وشدائده، وملائكةُ العذاب يضربون بمقامع الحديد، وجوههم وظهورهم، لتخرج أرواحهم من أجسادهم، وجواب (لو) محذوفٌ للتهويل والتفظيع، أي لرأيت أمراً عظيماً تذوب له الأكباد، ثم تقول لهم الملائكة: هذا اليوم الذي تلقون فيه ربكم، وتلاقون فيه العذاب الشديد، المتضمِّن للخزي والإهانة، بسبب كذبكم على الله، بنسبة

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

الشريك له والولد، واستكباركم عن الإيمان بآيات الله ورسله ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي ويقال لهم توبيخاً: لقد جئتمونا للحساب والجزاء، منفردين عن الأهل والمال والولد، على الهيئة التي ولدتم عليها، حفاةً، عُراةً، غرلاً، وتركتم ما أعطيناكم وتفضلنا عليكم به في الدنيا، من المال والخدم والمتاع، فلم ينفعكم شيء منها، في هذا اليوم العصيب، وما نرى معكم آلهتكم، الذين زعمتم أنهم يشفعون لكم، وأنهم شركاء مع الله في استحقاق العبادة ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي لقد انفرط بينكم عقد المودة والصداقة، وضاع عنكم وتلاشى ما كنتم تزعمونه من شفاعة الآلهة والشركاء، وفي هذا إذلالٌ لهم عنيف، وتوبيخ لهم شديد، على عبادتهم للأوثان، وبعد هذا البيان حول الوحي والنبوة، ذكر تعالى الأدلة والبراهين، على وجود الخالق المبدع الحكيم، وكمال علمه، وقدرته وحكمته، فقال عزَّ شأنه ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي إن ربكم العظيم الكبير القدير، هو الذي يشقُّ الحبة اليابسة، فيُخرج منها النبات الأخضر، ويشقُّ النواة الميتة، فيُخرج منها شجرة النخيل، فتثمر أنواع الرُّطب الشهيّ **﴿يخرج الحيَّ من الميت ومخرج الميت من الحيّ﴾** أي يخرج من النواة الصلبة، شجرةً باسقةً ذاتَ أغصانٍ، وأوراق وثمار، ويُخرج النباتَ الغضَّ الطريَّ من الحبِّ اليابس، كما يُخرج من النطفة الميتة إنساناً سوياً، ويخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والعالم من الجاهل وبالعكس، وهذا الأخيرُ قول ابن عباس، وهو محمول على تأويل الحيِّ بالمؤمن، والميِّت بالكافر، **﴿ذلكم الله فأنى تؤفكون﴾** أي ذلكم الخالق العظيمُ الشأن، هو ربكم المستحقُّ للعبادة وحده، فكيف تُصرفون عن الحقّ إلى الباطل، وعن عبادة الرحمٰن إلى عبادة الأوثان؟ ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي هو جلَّ جلاله الذي شقَّ عمود الصبح، عن

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾

ظلمة الليل وسواده، فأضاء نور النهار، وجعل الليل للراحة، يسكن فيه من يتعب بالنهار فيستريح، وجعل الشمس والقمر، يسيران بحساب دقيق، يتعلق به مصالح الخلق، ويُعرف بهما حساب الليالي، والأيام، والأعوام، ذلك هو تدبير الإله العلي الكبير، القاهر، الذي لا يستعصي عليه شيء، العليم بشئون العباد، ثم ذكر دليلاً آخر على وحدانيته وقدرته وعظمة جلاله فقال:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي وهو سبحانه الذي خلق لكم النجوم، لتهتدوا بها في أسفاركم، سواءً كنتم في الصحارى والقفار، أم كنتم في ظلمات الليل في البحار، قد بيَّنَّا الدلائل والبراهين، على قدرتنا وعظمتنا، لقوم يتدبرون هذه الآيات الكونية، ويعلمون عظمة الخالق، وإنما امتنَّ عليهم بالنجوم، لأن راكبيَ البحار، وساكني القفار، إنما يهتدون بالنجوم لمقاصدهم في الليل ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ أي وهو جلَّ وعلا، الذي خلقكم وأبدعكم من نفسٍ واحدة، هي نفس آدم عليه السلام، وجعل لكم مستقراً في أرحام الأمهات، ومستودعاً في القبور بعد انتهاء آجالكم، **قال ابن مسعود**: مستقرٌّ في الرحم، ومستودع في الأرض التي يموت فيها، كما قال تعالى ﴿**ثم أماته فأقبره**﴾ أي جعل له قبراً يضمُّه فيه، ختم تعالى آية النجوم بقوله ﴿**لقوم يعلمون**﴾ لأن أمر النجوم ظاهر مشاهد، لا يحتاج إلى كثير عناء، وأما في آية الخلق، فختم الآية بقوله ﴿**لعلهم يفقهون**﴾ أي يفهمون ويدركون الأسرار والدقائق، فإن أطوار الخلق في الإنسان، وما احتوى عليه من العجائب، أمرٌ خفي تتحيَّرُ فيه الألباب، ويحتاج إلى إدراك، وتفهم وتبصُّر، فتدبر أخي المسلم دقائق أسرار القرآن!! وبعد خلق الإنسان، انتقل إلى دقائق الخلق في النباتات، والأشجار، والثمار، وما يخرج الله في هذه الأرض طعاماً للإنسان، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ

نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾

نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ أي أنزل بقدرته المطر، فأخرج به من جميع أنواع النبات، ما هو غذاء للبشر، من الحبوب والفواكه والثمار، وأخرجنا من النبات شيئاً غضاً أخضر، نخرج من هذا الزرع الأخضر حباً متراكباً بعضه فوق بعض، كسنابل القمح، والشعير، والذرة، والأرز، وغيرها.. ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ أي وأخرجنا من طلع شجر النخيل، عناقيد قريبة سهلة التناول، والقنوان جمعُ قِنْوٍ، وهو العنقودُ للتمر، بمنزلة العنقود للعنب، دانية من الأرض من كثرة ثمرها، وثقل حملها، كما أخرجنا بالماء بساتين وحدائق، فيها أنواع شجر العنب، ممَّا لذَّ وطاب، وأخرجنا أيضاً شجر الزيتون وشجر الرمان، مشتبهاً ورقُه مختلفاً ثمرُه ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي انظروا أيها الناس نظر اعتبار واستبصار، إلى خروج هذه الثمار، من البداية إلى النهاية، كيف يثمر ضئيلاً لا يكادُ ينتفع به، ثم بعد نُضجه وإدراكه، كيف يصير الثمر حلواً طيباً مستساغ المذاق، بعد أن كان مرّاً لا يطاق، فسبحان الإله القدير الخلاَّق!! إن في خلق هذه الزروع والثمار، مع اختلاف الأنواع والأشكال والألوان، لدلائل باهرة على قدرة الله ووحدانيته، لقوم يعتقدون بوجود الله وقدرته، ولمَّا ذكر الدلائل على وحدانيته وقدرته، وبَّخ المشركين الذين نسبوا إلى الله ما لا يليق، من الزوجة والذرية والبنين، فقال سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي جعل المشركون للَّهِ جلَّ وعلا شركاء من الجن، وقد علموا أن الله تعالى هو الذي خلق الجنَّ، وانفرد بخلقهم وإيجادهم، فكيف يجعلونهم شركاء مع الله؟ وهذه غاية السفاهة والجهالة، كما خرقوا أي نسبوا له سبحانه البنين والبنات، فقال كفار مكّة: الملائكةُ بناتُ الله، وقال اليهود

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾

عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابنُ الله، تنزَّه ربُّ العزة والجلال وتقدَّس، عن هذه الصفات التي نسبها إليه الكفار الفُجّار، وهو المنزَّه عن المثيل والنظير ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي خالقهما ومبدعهما من غير مثال سابق، وهو المسمى بـ (الابتكار). كيف يكون له ولد وليس له زوجة؟ والولدُ لا يأتي إلاً من زوجة!! وهو سبحانه الخالق لكل شيء، والعالم بكل ما يحدث في الكون، والغرضُ من هذه الآيات، الردُّ على أولئك السفهاء الذين نسبوا إلى الله البنين والبنات، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وقد ردَّ تعالى عليهم من وجهين:

الأول: أن الولد لا يكون إلاً من جنس والده، والله تعالى لا مثيل له ولا نظير.

والثاني: أنه سبحانه خلق السموات والأرض ومن فيهما، وأبدع خلقهما، ومن كان كذلك فهو غني عن الولد.

ثم أكَّد تعالى وحدانيته، وتفرده بالخلق لكل موجود، فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي ذلكم هو الله ربُّ العالمين، خالقكم، ومالككم، ومدبِّر أموركم، لا معبود بحقٍّ سواه، هو الخالق لجميع الكائنات، فاعبدوه ولا تعبدوا غيره، وهو الحافظ والمدبر لكل شيء، ففوضوا أموركم إليه. ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي لا تحيط به تعالى الأبصار، إحاطة معرفة وشمول، ولا تعرف حقيقة كنهِ ذاته، وهو المحيط علماً بكلِّ ما في الكون، وهو اللطيف بعباده، الخبيرُ بأمورهم ومصالحهم ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي قد جاءتكم الحججُ التي تبصرون بها

وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

الهدى، ووضحت لكم الدلائل والبراهينُ، بنزول هذا القرآن الذي فيه الأنوار الساطعة، والبصائر الهادية، فمن أبصر الحقَّ فاهتدى، فقد نفع نفسه، ومن عمي فلم يؤمن فقد أضرَّ بنفسه، ولست عليكم بحافظ ولا رقيب. ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح، نوضِّح الآيات القرآنية، ليعتبروا ويتعظوا بما فيها من الحجج، وليقول المشركون: قرأتَ يا محمد وتعلَّمتَ من الكتب السابقة، وجئتنا بهذا القرآن!! وهذا محض البهتان لأنهم يعلمون يقيناً أن الرسول أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب **﴿ولنبينه لقوم يعلمون﴾** أي ولنبيِّن هذا الكتاب المجيد، لقوم يعلمون الحقَّ من الباطل، فيؤمنون به وينتفعون.

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هذه تسلية للرسول ﷺ، أي اتَّبعْ يا أيها الرسول، هذا القرآن الذي أوحاه الله إليك، ولا تُشغل قلبك وخاطرك بالمشركين، ولا تلتفت لأقوالهم وأفعالهم، فالله ينتقم لك منهم، ودع أذاهم وتوكل على الله ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي لو شاء الله هدايتهم لهداهم، وما كان يحدث منهم إشراك، ولكنْ ليس عندهم استعداد لقبول الإيمان، ولم نجعلك رقيباً، مهيمناً على أعمالهم لتحاسبهم عليها، ولست بموكَّل على أرزاقهم وهدايتهم.

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي لا تسبُّوا آلهة المشركين وأصنامهم، فيسبوا الله جهلاً وسفهاً وعدواناً، لعدم معرفتهم بعظمة الله وجلاله، **قال ابن عباس:** قال كفار مكة لأبي طالب: إمَّا أن تنهي محمداً وأصحابه عن سبِّ آلهتنا، والنيل منها، أو لنسبَّنَّ ربَّه ونهجوه، فنزلت الآية. ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي كما زيَّنَّا لهؤلاء المشركين أعمالهم، كذلك زينَّا لكل

وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾

أمةٍ عملهم، زينًا لأهل الطاعةِ الطاعةَ، ولأهل المعصية المعصية، بمعنى أن الله تركهم وأهواءهم، حتى استحسنوا القبيح، كما قال القائل:

يأتي على المرءِ في أيَّام محنته ... حتى يرى حسَناً ما ليس بالحَسَنِ

وبعد هذا البيان معادهم ومصيرهم إلى الله، فيجازيهم على أعمالهم، وهو وعيد للناس بالحساب والعقاب ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي حلف المشركون بأغلظ الأيمان وأشدِّها، أنهم لو جاءتهم معجزةٌ، أو أمر خارق مما اقترحوه، أقسموا أن يؤمنوا بالرسول وبما جاء به من عند الله، قل لهم يا أيها الرسول: ليس أمر هذه المعجزات بيدي، ولا بوسعي أن آتيكم بما تطلبونه، بل أمرُها بيد الله وحده، وما يُشعركم أيها المسلمون، أننا لو أجبناهم إلى ما طلبوا لم يؤمنوا لشدة كفرهم وعنادهم، فهم إنما يسألون الخوارق تعنُّتاً وعناداً، لا على سبيل الهدى والاسترشاد ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي ونحوِّل قلوبهم وأبصارهم، عن إدراك الحقِّ وفهمه، لإعراضهم بالكلية عن النظر في الآيات الكونية، كما كفروا بالقرآن أول مرة، ونتركهم في ضلالهم يتخبطون حيارى، لا يدرون ما يفعلون ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ هذا تعليل لعدم إعطائهم ما اقترحوه من المعجزات، وبيانٌ لكذبهم في أيمانهم، حين أقسموا أن يؤمنوا إذا جاءتهم الآيات، والمعنى: لو أننا أنزلنا إليهم الملائكة كما سألوا، وأحيينا لهم الموتى، فكلَّموهم وأخبروهم بصدق محمد ﷺ، وجمعنا لهم كلَّ شيء من الخلائق، حتى رأوهم عياناً ومشاهدة ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أي ما كان منهم الإيمان، لتماديهم في الفجور

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ

والعصيان، إلاَّ إذا شاء الله قسرهم على ذلك، ولكنَّ أكثر المؤمنين يجهلون ذلك، فيتمنون نزول الآيات طمعاً في إيمانهم، والآية بيانٌ لاستحالة وقوع إيمانهم، وتيئيس للمؤمنين منهم ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أي كما ابتليناك بهؤلاء المشركين الأشرار، الذين يعادونك ويكذّبونك، كذلك جعلنا لمن سبقك من الأنبياء، أعداء من مَرَدة الإنس والجن، يوسوسُ بعضهم إلى بعض بالضلال والشر، بالحديث المزيَّن، والأباطيل الخادعة، ليغرُّوا الناس ويخدعوهم، وقد ارتقى بعضُ شياطين الإنس، درجات رفيعة في هذا الزمان، فصوَّروا الاستعباد للشعوب حرية، والكذبَ «دبلوماسية» والتكشف سعادة، والشيوعية عدالة، والتحرر من الفضيلة مدنيَّة، والتمسك بالدين رجعية، يخدعون الناس بالألفاظ المعسولة، ويزينون لهم أقبح المنكرات، ونعوذ بالله من شرِّ شياطين الإنس والجن، قال مالك بن دينار: إن شيطان الإنس أشدُّ عليَّ من شيطان الجن، فشيطانُ الجنِّ إن تعوَّذْتُ بالله تعالى، ذهب عني، وشيطانُ الإنس لا يزال حتى يجرَّني إلى المعصية عياناً ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي لو شاء اللّهُ ما عادىٰ هؤلاء الأشقياء أنبياءهم، ولكنها سُنَّة الابتلاء في هذه الحياة، يبتلي الله بها الرسل والمؤمنين، فاتركهم يا محمد وما يدبِّرونه لك من مكائد، فإن الله ناصرك عليهم، وكافيك شرَّهم ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ أي ولتميل إلى هذا الباطل المزخرف، قلوبُ الكفرة الذين لا يؤمنون بالحساب والجزاء، وليرضوا بهذا الباطل لأنفسهم، وليكتسبوا ما هم مكتسبون من القبائح والجرائم، فمصيرهم مشؤوم ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ أي قل لهؤلاء السفهاء المشركين: أأطلب حاكماً بيني وبينكم غير الله تبارك وتعالى؟ وهو جلَّ وعلا

﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾

الذي أنزل إليك القرآن بأوضح بيان، وأسطع برهان؟ مفصِّلاً فيه الحق والباطل، والهدى والضلال، فأيُّ حاجة بعد ذلك إلى الحَكَم؟ فكفى بالله حاكماً بيني وبينكم!! يُروى أن مشركي مكة قالوا لرسول الله ﷺ: اجعل بيننا وبينك حَكَماً، من أحبار اليهود، أو علماء النصارى، ليخبرونا عنك بما في كتابهم من أمرك!! فنزلت الآية تحذِّر من هذا الباطل ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي وعلماء اليهود والنصارى، يعرفون حقَّ المعرفة، أن القرآن حقٌّ، وأنك مرسلٌ من عند الله، ولكنهم يخفون الحقائق، فلا تكونن من الشاكِّين في هذا الأمر، والخطابُ للمؤمنين، وإن كان في الصورة للرسول ﷺ، وكأنه يقول: لا ينبغي لأحدٍ أن يشكَّ فيه، لأنه حقٌّ منزلٌ من عند الرحمٰن. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي تمَّ كلامُ الله المنزل على خاتم النبيِّين، صدقاً فيما أخبر، وعدلاً فيما قضى وقدَّر، لا مغيِّر لحكمه ولا رادَّ لقضائه، وهو السميع لأقوال العباد، العليم بأحوالهم، يعلم الصادق والكاذب، والمؤمن والكافر، لقد طلب المشركون من رسول الله ﷺ حَكَماً يحكم بينه وبينهم، من أحبار اليهود والنصارى، فجاءت الآيات الكريمة تلقِّنه الحجة الدامغة، وتقول له: إن طلبوا منك التحاكم، فقل لهم: أفغيرَ الله أطلب حاكماً وقاضياً بيني وبينكم؟ أما تكفي شهادةُ الله عزَّ وجلَّ لي بأني رسولُه، وقد جئتكم بهذا الكتاب المعجز، بأوضح بيان، وأعظم برهان، يدل على صدقي؟ فكيف تطلبون مني أن أجعل من يفصل بيني وبينكم من أهل الكتاب، وهذا شأني في غاية الوضوح والجلاء!! كما قال تعالى: **﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلاً قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾**.

ثم ذكر تعالى أن أكثر الناس يتركون الحقَّ الساطع، ويميلون إلى الضلال المبين، فقال عزَّ شأنه: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي أكثرُ أهل الأرض كفارٌ ضالون مضلّون، إن تطعهم يضلوك عن سبيل

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

الهدى، فلا ينبغي لك أن تستجيب لمطالبهم، لأنهم لا يريدون الوصول إلى الحق، وإنما هم أناس مكابرون معاندون، لا يتبعون في عقائدهم إلا الظنون والأوهام، وتقليد الآباء تقليداً أعمى، وما هم إلاَّ كذبةٌ فجرة، ينسبون إلى الله ما لا يليق به من الأصنام والأوثان.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي إن ربَّ العزة والجلال، هو العالم بالضال والمهتدي، والصادق والكاذب، وهو أعلم بالفريقين: فريق أهل الفساد، وفريق أهل الرشاد، وإنما قال: ﴿**أكثر من في الأرض يضلوك**﴾ لأن أهل الكفر والضلال، أكثرُ وأغلبُ من أهل الإيمان والإسلام، كما قال سبحانه: ﴿**وما أكثرُ الناس ولو حرصت بمؤمنين**﴾ ثم ردَّت الآيات على سفاهات وحماقات المشركين، حين قالوا للمؤمنين: تزعمون أنكم تعبدون الله، ولا تأكلون مما قتله الله - يعنون الميتة - فما قتله الله أحقُّ أن تأكلوا منه، فأنزل الله تعالى ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ أي كلوا يا معشر المؤمنين، ممَّا ذبحتم وذكرتم اسم الله عليه عند الذبح، فإنه حلال طيب، إن كنتم حقاً مؤمنين بالله ورسوله. ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أي وما الذي يمنعكم، أن تأكلوا مما ذبحتموه بأيديكم، بعد أن ذكرتم اسم ربكم عند ذبحه؟ والحالُ أن الله جلَّ ثناؤه قد بيَّن لكم ووضَّح ما يحرم عليكم أكله، من الميتة، ولحم الخنزير، وسائر المحرَّمات الضارة، رحمةً بكم، إلاَّ حالة الاضطرار، فإن الضرورات تبيح المحظورات، والحرامُ يصبح حلالاً وقت الضرورة ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي وكثير من الكفار، يضلُّون الناس بتحريم الحلال، وتحليل الحرام، بغير علم من الله، بمجرد الأهواء والشهوات، فيحلِّلون ويحرِّمون من تلقاء أنفسهم، وربُّ العالمين هو العالم بالمعتدين،

وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ

المجاوزين الحدَّ في الخروج عن طاعة الرحمن، فيجازيهم على صنيعهم!!

﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ أي اتركوا الجرائم والمعاصي، الظاهرَ منها والخفيَّ!! كان أهل الجاهلية يرون أن الزنى إذا كان ظاهراً فهو إثم، وإذا كان مستتراً فلا إثم فيه، فنزلت الآية تُحَرِّم الظاهر منه والخفيَّ، إن الذين يرتكبون الآثام والمعاصي، ويأتون ما حرَّم الله، سيلقون جزاء إجرامهم يوم القيامة. ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ﴾ أي لا تأكلوا ممَّا ذُبح لغير الله، أو ذُكر اسم غير الله عليه، كالذي يذبح للأوثان، أو للأضرحة والقبور، فالأكل منه معصية، وإن الشياطين يوسوسون إلى أتباعهم من المشركين، لمجادلة المؤمنين بالباطل في قولهم: أتأكلون ممَّا قتلتم أي ذبحتم بأيديكم، ولا تأكلون ممَّا قتله الله ـ يعنون الميتة ـ؟ ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أي وإن أطعتم هؤلاء المشركين، في استحلال الحرام أصبحتم مثلهم، وخرجتم من ربقة الإسلام.

ثم ضربت الآيات مثلاً للمؤمن والكافر، فشبهت المؤمن بالحيِّ الذي استنار قلبه بنور الإيمان والتوحيد، والكافر بالميِّت الذي لا يُحسُّ ولا يبصر، فقال سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ هـــذا تمثيل للمؤمن والكافر، فالمؤمن مستنيرٌ بنور الوحي الإلهي، والكافر يتخبط في ظلمات الكفر والضلال، والمعنى: أومن كان ـ بمنزلة الميِّت ـ كافراً ضالاً أعمى البصيرة، فأحيا الله قلبَه بالإيمان، وأنقذه من الشقاء بالقرآن، وجعل له النور الوضَّاء، الذي يميِّز به بين الحق والباطل، كمن يتخبَّط في ظلمات الكفر والجهالة؟ وليس له منها منفذٌ ولا مخلصٌ؟ هل

كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

يستويان في المرتبة والمكانة؟ وهو مثلٌ واضح الدلالة، رائع التصوير!! نزلت في عمر الفاروق رضي الله عنه، أحياه الله تعالى بالإيمان، وأبي جهلٍ الذي بقي يتخبط في ظلمات الكفر والجهل، والعبرةُ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي كما زُيِّن للمؤمن إيمانُه، كذلك زُين للكافر فجورُه وطغيانه، حتى استمرَّ على الكفر وانتهاك المحارم، ورأى عمله القبيح جميلاً وحسناً.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وكما جعلنا في مكة أشقياء مجرمين، من أكابر صناديد الكفر والطغيان، كذلك جعلنا في كل بلدة مجرمين من الأكابر والعظماء، يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وإنما كان هؤلاء الأشقياء من أكابر القوم، لأنهم هم أعداء الرسل، تمنعهم الرئاسة والسَّعة عن قبول دعوة المرسلين، بسبب الكفر والغطرسة، وما يدرون أن وبال هذا المكر يحيق بهم، وما يضرُّون إلا أنفسهم، وما يشعرون بذلك، لأن حب الزعامة أعمى بصائرهم. ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ أي وإذا جاء المشركين معجزةٌ واضحة، تدل على صدق نبوَّة محمد ﷺ، قالوا: لن نصدِّق برسالته، حتى تحصل لنا النبوَّةُ والرسالةُ كما حصلت لمحمد!! قالوا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء، لأنهم لا يؤمنون برسالته عليه السلام، روي أن أبا جهل قال: زاحمنا بني عبد مناف في الشرف، حتى إذا كنَّا كفرسَيْ رهان، قالوا: منَّا نبيٌّ يُوحى إليه! واللهِ لا نرضى به ولا نتَّبعه، حتى يأتينا وحيٌ كما يأتيه، وقد ردَّ الله عليهم بقوله جلَّ ثناؤه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾ أي الله جلَّ جلالُه أعلم بمن هو أهلٌ للرسالة، ، فإن النبوة ليست بالجاه والمال، وإنما هي بصفاء النفس وطهارة القلب!!

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥﴾

سيصيب هؤلاء المجرمين ذلٌّ وهوانٌ، وعذابٌ شديد يوم القيامة، بسبب استكبارهم عن الإيمان، وجزاء مكرهم الشرِّير المستمر، قدَّم الصَّغارَ، وهو الذلُّ والهوان على العذاب، لأنهم تمرَّدوا وتكبَّروا طلباً للعزِّ والكرامة، فقوبلوا بالهوان والذُّلِّ، ثم بالعذاب الشديد ثانياً مقابل الكفر والجحود ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا﴾ أي من أراد الله به الخير، قذف في قلبه نور الإيمان، فانفسح له صدرُه، وانشرح به قلبُه، ومن أراد تعالى خذلانَه وضلالَه، جعل صدره ضيِّقاً، شديد الضِّيق، ينبو عن قبول الحقِّ، ويمتعضُ عند سماع القرآن، وذلك علامةُ عمى القلب.. (ولمَّا نزلت هذه الآيةُ،، سأل بعضُ الصحابة رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، كيف يشرح اللّهُ صدرَه؟ فقال عليه السلام: «نورٌ يقذفه الله في قلب المؤمن، فينشرح وينفسح!!» فقالوا: هل لذلك أمارة؟ ـ أي علامة ـ يُعرف بها؟ قال: «الإنابةُ إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعدادُ للموت قبل نزوله) رواه ابن جرير، والبيهقي. وقوله سبحانه: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ هذا من تمام التمثيل، أي يجعل في صدره الضيق الشديد، كمن يعلو في طبقات الجوِّ، حتى تكاد نفسه تزهق، وروحُه تتمزق، وتكاد تخرج من جلدها، وتعتريه عوارض الاختناق، من قلة «الأوكسجين»، وهذه حقيقة علمية، يعرفها الطيَّارون، وكلُّ من صعد شواهق الجبال، وقد كان المفسِّرون القُدامى يقولون في تفسيرها: كمن يحاول الصعود إلى السماء، وهو لا يستطيع ذلك، لأنه ليس في وسعه، وما كانوا يعرفون هذه الحقيقة العلمية، أن الأوكسجين يقلُّ في الطبقات العليا، حتى يكاد الإنسانُ يختنق وتتمزق روحه، وهذا أقربُ إلى تصوير القرآن الدقيق البديع. ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي مثل ما يكون صدرُ الكافر ضيِّقاً، شديدَ الضِّيق، كذلك يجعل الله اللعنةَ والخزيَ والعذابَ، على الكفرة المجرمين، الذين لا يؤمنون بآيات الرحمٰن، فيصبح قلبُهم مملوءَ بالكَدَر والقذر، والرجسُ في اللغة يأتي بمعنى العذاب، والنَّجَس والقذر، وكلٌّ منهما واقع على الكافر الفاجر.

وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي وهذا الإسلامُ، الذي أنت عليه يا أيها الرسول، هو الطريقُ المستقيم الذي لا عوج فيه، وهو سبيلُ السعادة لمن استمسك به، واعتصم بحبله المتين، قد وضَّحنا وبيَّنَّا الآيات والحجج والبراهين، لقوم يتذكَّرون ويتدبرون، ويتعظون بآيات الذكر الحكيم ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي لهؤلاء المؤمنين المتقين، المنتفعين بالمواعظ والآيات الزاجرة، دار السلامة من المكاره والفواجع، وهي الجنة التي أعدَّها الله لعباده الصالحين التي، (فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خَطَر على قلب بشر)، وهو تعالى وليُّهم وناصرهم في الدنيا والآخرة، جزاء عملهم الصالح.

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ﴾ أي اذكر يا أيها الرسول لأهل مكة وغيرهم، يوم يجمع الله الخلائقَ للحساب والجزاء، ويقول للمردة من الجن: لقد استكثرتم من إغواء الإنس، أي أضللتم خلقاً كثيراً منهم، وقال الذين أطاعوهم من الإنس: يا ربنا لقد انتفع بعضنا ببعض، الجنُّ دلُّونا على الشهوات فاتبعناهم وأطعناهم، وانتفع الجنُّ بنا حيث جعلناهم رؤساء ومرجعاً لنا، فاستعلَوْا علينا، وجعلونا كالعبيد الأرقَّاء، يأمروننا فنطيع أوامرهم، وبلغنا الوقت الذي حدَّدته لحسابنا وهو يوم القيامة!! وهذا منهم اعتذار، واعتراف بما كان منهم من طاعة الشياطين، والسير في ركابهم. ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ أي قال الله تعالى ردّاً عليهم: النَّارُ منزلكم وموضعُ إقامتكم جميعاً، ماكثين فيها أبداً إلاَّ الوقت الذي أمهلكم الله فيه، إن ربك حكيم في أفعاله، عليم بما يليق بهم من جزاء ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي كما مكَّنَّا الجنَّ

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

من إغواء الإنس،، كذلك نسلِّط بعض الظالمين على بعض، بسبب اقترافهم للذنوب والمعاصي، وهذه من سنن الله الكونية، أن الناس إذا كانوا ظالمين، سلَّط الله عليهم حاكماً ظالماً، وكما يكون الخلقُ يولَّ عليهم، وفي بعض الآثار القدسية: (إني أنا الله مالكُ الملوك، قلوبُ الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليهم رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليهم نقمة».

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، أي يقول الله تعالى للإنس والجن يوم القيامة، توبيخاً لهم: ألم تأتكم الرسل، يتلون عليكم آيات ربكم، ويخوِّفونكم عذاب هذا اليوم الشديد، الذي تلاقون فيه فنون أنواع العذاب؟ ﴿قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ اعترفوا بمجيء الرسل، وأقرُّوا بالكفر والإجرام، فقالوا: شهدنا بأن الرسل قد جاءتنا، وأنذرتنا عذاب هذا اليوم المشؤوم، وخدعتهم الحياة الدنيا بلذاتها الفانية، وشهدوا بأنهم كانوا في الدنيا كافرين. ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ أي إنما أرسلنا الرسل، وأنزلنا الكتب السماوية، لنقطع معاذير البشر، ولنحقِّق العدلَ في معاملة الخلق، لأن ربك يا محمد عادلٌ، لم يكن ليهلك قوماً حتى يبعث إليهم رسولاً، ولن يعذبهم بسبب ظلم فعلوه، حتى يُؤمروا ويُنذروا بالآيات والعبر، وإنما علَّل ذلك لبيان كمال نزاهته تعالى عن الظلم ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ أي ولكلٍّ من المكلَّفين من الخلق، مراتب متفاوتة من أعمالهم، يلقاها الإنسانُ في آخرته، صالحةً كانت أو سيئة، ويُجازى عليها، وليس الله غافلاً ولا ناسياً أعمال العباد، بل هو رقيبٌ ومطَّلعٌ عليهم، وفيه وعيدٌ وتهديدٌ للإنس

وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ

والجن ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي وربك يا محمد، ربُّ العزةِ والجلال، مستغنٍ عن الخلق وعبادتهم، لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية، ومن لطفه ورحمته بالعباد أرسل الرسل، ولم يعجِّل للعصاة والمجرمين العقاب، ولو شاء لأهلكهم بعذاب الاستئصال، وأتىٰ بخلقٍ آخر أعبدَ لله منكم وأطوع، كما خلقكم جيلاً بعد جيل، من نسل قومٍ آخرين كانوا قبلكم. ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي إن ما توعدون به أيها الناس، من مجيء القيامة، والحساب والجزاء، واقع لا محالة، ولستم معجزين ربكم، ولا خارجين عن قدرته وعقابه، فلا تغتروا بحلم الله عليكم!!.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي قل لهم: يا قوم اثبتوا على كفركم وعداوتكم لي، فإني ثابت على الإسلام، الذي أوحاه الله إليَّ، واعملوا كما تحبون وتشتهون، فإني مستقيم على شرع الله، وسوف تعلمون في الآخرة، لمن تكون العاقبة المحمودة؟ هل لنا نحن أم لكم أنتم؟ فإنه لا يفوز ولا ينجح في عمله من كان ظالماً، وهذا الأمر ظاهره التخييرُ في فعل ما يشاءون، وحقيقته التهديدُ والوعيد، كقوله سبحانه: **﴿اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾** ثم حكى تعالى نوعاً آخر من جهالات المشركين وسفاهاتهم، تنبيهاً على قلة فهمهم وإدراكهم، وضعف عقولهم، فقال سبحانه: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ

يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا

يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي جعل المشركون من كفار قريش، من الزروع والأنعام والثمار، نصيباً لله تعالى، ينفقونه على الفقراء والمساكين، وجعلوا لأوثانهم وأصنامهم التي يعبدونها نصيباً آخر، فما كان للصنم أنفقوه عليه وعلى سَدَنته ـ أي الخدم ـ وما كان من حقِّ الله تعالى أنفقوه على الفقراء وفي وجوه الخير، ومع أن الله وحده هو الخالقُ الرازقُ، فقد جعلوا الأصنام تشاركه في ملكه ورزقه، ثم العجيب في أمرهم أنهم فضَّلوا الأوثان على الرحمٰن، فما كان من نصيب أصنامهم فلا يصل إلى الله منه شيء، وما كان من نصيب الله إذا وقع منه شيء، أو سقط منه شيء واختلط بنصيب الأصنام، قالوا: اللَّهُ ليس بحاجةٍ إليه، وهو غنيٌّ عنه، والأصنامُ أحوجُ، وإذا كانت سنةُ قحطٍ وجدب، أكلوا نصيب الله، وتحاموا نصيب آلهتهم، فكانت هذه منهم قسمة ظالمة جائرة، لا عدل فيها ولا إنصاف، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿**ساء ما يحكمون**﴾ أي بئس هذا الحكم الجائر منهم، وبئس صنيعهم القبيح!!

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي ومن جملة قبائح المشركين، أنهم كانوا يئدون بناتهم، خوفاً من الفقر، أو خشية من العار، وكان الرجل منهم يحلف بالله، لئن وُلد له كذا وكذا من الأولاد، لينحرنَّ أحدَهم، وقد حسَّن لهم هذا الفعلَ القبيحَ، أولياؤُهم من شياطين الجنِّ، ليهلكوهم بالإغواء، وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل ـ جدِّ العرب ـ ولو شاء الله ما فعلوا ذلك القبيح، لأنه ينافي التكليف، فدعهم يا محمد وما يختلقونه من الكذب على الله، فإن لهم موعداً يحاسبون فيه على جرائمهم.

ثم حكى تعالى طرفاً آخر من جرائمهم وقبائح أفعالهم، فقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا

وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٣٩﴾ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

﴿وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ أي قالوا هذه أنعام وزروع خاصة بآلهتنا، ومعنى (حِجر) أي حرام ممنوعة على غير الأصنام، قسموا الأنعام إلى أقسام: منها ما خُصِّصت للكهنة وخدمة الأوثان، ومنها أنعام لا يجوز ركوبها، ولا الانتفاعُ بها، بدرٍّ أو حمل، كالبحائر، والسوائب، والحوامي، ومنها أنعام لا يذكرون اسم الله عليها عند الذبح، وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام، كذباً واختلاقاً على الله، وسيجزيهم الله على ذلك الافتراء أشد العذاب، ونوع آخر من أنواع البغي والعدوان، يذكره الرحمٰن جلَّ وعلا عن سفه المشركين، فيقول سبحانه: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ أي قالوا ما في بطون هذه البحائر والسوائب ـ يعنون الأجنَّة ـ حلالٌ للرجال خاصة دون الإناث، وإن يكن هذا المولود ميتةً، اشترك فيه الذكور والإناث، سيعاقبهم الله على هذا الافتراء والكذب، الذي اخترعوه من تلقاء أنفسهم، وزعموا أنه من دين الله، فأحلُّوا أكل الميتة للذكور والإناث، وهو أمر قبيحٌ مستهجن، وحرَّموا ما تلده الأنعام ـ وهو حلال ـ فحرَّموه على الإناث خاصة، وهي تفرقة جائرة، وقسمة عجيبة، وهي من أفعال الجاهلية.

﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ نزلت في ربيعة ومضر من قبائل العرب، كانوا يئدون بناتهم، مخافة السبي، أو خوف الفقر، والمعنى: واللّهِ لقد خسر هؤلاء السفهاءُ، الذين قتلوا أولادهم، لخفَّة

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١﴾

عقولهم، وعظيم سفههم، خسروا أعظم الخسارة، خسروا دينهم ودنياهم، فالله هو الرازق لهم ولأولادهم، وليسوا هم الرازقين لأحد، كما أنهم حرَّموا على أنفسهم (البحيرةَ والسائبةَ) كذباً واختلاقاً على الله، لقد ضلُّوا عن الطريق المستقيم، وما كانوا مهتدين في فعلهم هذا، قال ابن عباس: إذا سرَّك أن تعلم جهل العرب، فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿**قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم..**﴾ الآيات، رواه البخاري في المناقب.

وبعد هذا البيان عن ضلالات العرب، وما هم عليه من سفه وجهل، جاءت الآيات لتذكِّرهم بما امتنَّ الله به عليهم من أنواع الرزق، ليشكروه على نعمه الجليلة، فهو سبحانه الذي أوجد لهم البساتين النضرة، التي تحمل أنواع الفواكه والثمار، وأنواع النخيل التي تحمل الرطب الشهي، وأنواع الزيتون والرمان، ثم صرفوها إلى غير ما يرضي الله، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾ أي ربكم العظيم الجليل، هو الذي أنعم عليكم بأنواع النعم، لتعبدوه وحده، فخلق لكم بساتين من الكروم ـ العنب ـ منها ما هو مرفوع على عيدانٍ وهو المعرَّش، ومنها ما هو ملقى على وجه الأرض لم يُعرَّش، وأنشأ لكم شجر النخيل المثمر، بما فيه فاكهة وهو الرطب، وقوتٌ وهو العجوةُ والتمر، كما أنشأ لكم أنواع الزيتون والرمان، متشابهاً ورقه، مختلفاً طعمه وثمره ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ أي كلوا من ثمر كل واحدٍ، مما أنشأه الله لكم، من العنب، والرطب، والزيتون، والرمان، وسائر ما خلق الرحمٰن، وأعطوا الفقير والمسكين من ثمره يوم الحصاد، أعطوه الزكاة المفروضة في أنواع الحبوب والثمار، ولا تسرفوا في الأكل فإنه ضار، والله لا يحب المسرفين في كل شيء، في الإنفاق، والطعام، والملبس، والمأكل، والمشرب، وسائر وجوه الإسراف.

وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي وخلق لكم ربكم من الأنعام، ما يحمل الأثقال وهو «الحَمُولة» وما يُضجع للذبح وهو الفرشُ، خلق الإبل التي تحمل لكم الأثقال، وخلق الصغار منها للأكل، دون الحمل والركوب، كلوا من نعم الله الحلال، من الثمار والزروع والأنعام، التي جعلها الله لكم رزقاً، ولا تتَّبعوا طرق الشيطان ووساوسه، في تحليل ما حرَّم الله فتخسروا، فإن الشيطان لكم عدوٌّ مبين، ظاهر العداوة، فاحذروا كيده، فقد أخرج أبويكم من الجنة!

ثم فصَّل تعالى ما أجمله من الأنعام، التي خلقها وسخَّرها لعباده، فقال سبحانه: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي وخلق لكم من الأنعام، ثمانية أنواع، أحلَّها لكم ربكم للأكل، خلق لكم من الضأن: «الكبش والشاة» ومن الماعز: «التيسَ والعَنز»، قل لهم على وجه التوبيخ: هل حرَّم عليكم ربكم من هذه الأنواع الأربعة: الذكور منها أم الإناث؟ أم حرَّم ما حملته إناثُ الجنسين في بطونها؟ حتى حرَّمتم ما حرَّمتموه منها في قولكم: ﴿ومحرم على أزواجنا﴾؟ أخبروني بأمرٍ معلوم من جهة الله تعالى، جاءت به الأنبياء، إن كنتم صادقين في دعوى التحريم، وهو تعجيز لهم وتوبيخ ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ أي وخلق لكم من الإبل اثنين هما «الجملُ والناقة» ومن البقر اثنين هما «الجاموسُ والبقرة» فهل حرَّم ربكم عليكم منها الذكور أم الإناث؟ أم حرَّم ما حملته إناث الإبل والبقر؟

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ

والمقصود بهذا التكرار، إنكار أن يكون الله سبحانه حرَّم عليهم شيئاً من هذه الأنواع، وإظهار كذبهم على الله، فإنهم كانوا يحرِّمون ذكور الأنعام تارة، وإناثها تارة، وأولادها تارة أخرى، وقوله سبحانه: **﴿أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا﴾** زيادة في التقريع والتوبيخ لهم، بأسلوب السخرية والتهكم، أي هل كنتم حاضرين وشاهدين حين حرَّم الله هذا؟ حتى تقولوا: هذا حرام علينا!! لأن التحريم يكون إما بالسماع أو بالمشاهدة، وليس عندكم برهان تحتجون به على هذه الدعوى ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله، فنسب إليه تحريم ما لم يُحرِّم، بغير دليل ولا برهان، والله تعالى لا يوفِّق للخير والسعادة، كل ظالم فاجر، مفترٍ على الله.

ثم أمر الله رسوله أن يبيِّن للمشركين ما حرَّمه الله عليهم من المآكل، ليتضح كذبهم فيما يدَّعون، فقال سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفرة من أهل مكة: لا أجد فيما أوحاه الله إليَّ في هذا القرآن، شيئاً محرَّماً ممَّا تزعمون، إلاَّ إذا كان ميتة، أو دماً سائلاً منصبّاً، أو يكون لحم خنزير، فإن الخنزير قَذَرٌ ونجسٌ، لتعوُّده أكل النجاسات، أو يكون المذبوح قد ذُبح لغير الله، كالذي يُذبح للأصنام، فهذه هي التي حرَّمها الله، لا ما تزعمونه من اختراعات وأكاذيب ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي فمن ألجأته الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرمات، غير قاصدٍ أكل ما حرَّم الله، ولا متعدٍ على حدود الله، فإن الله لا يؤاخذه، لأنه واسع المغفرة، عظيم الرحمة، لا يعاقب إلا المتعمِّد لأكل الحرام من غير ضرورة. ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ

وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ

وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ﴾ أي وحرمنا على اليهود خاصة، بعض الطيبات عقوبةً لهم، فمنعناهم ما كانوا يحبونه من لحم الإبل والنعام، وما ليس بذي أصابع منفرجة، كالبط والأوز، وهي ذات الظُّفر ـ أي الظلف ـ ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما، إلا الشحم الذي علق بالظهر ﴿أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ أي إلاَّ الأمعاء وما عليها من الشحم، أو الشحم المتصل بالعظم كالأضلاع، ذلك التحريم بسبب ظلمهم وبغيهم، وهو قتلهم الأنبياء، وأكلهم الربا، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وكانوا كلما أتوا بمعصية، عوقبوا بتحريم شيء مما أُحلَّ لهم، وإنَّا لصادقون فيما قصصنا عليك يا محمد. ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي فإن كذَّبك اليهود فيما أخبرتهم به من التحريم، فقل لهم: إنني أعجبُ من حلم الله عليكم، مع كثرة طغيانكم وإجرامكم، حيث لم يعاجلكم بالعقوبة!؟ فلا تغتروا بحلم الله، فهو سبحانه يُمهل ولا يُهمل، وهو مع رحمته ذو بأسٍ شديد، ولا يُردُّ عقابه إذا نزل، عن أهل البغي والإجرام!

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ﴾ بيان لفنٍّ آخر، من باطل المشركين وضلالهم، فقد زعموا أنَّ ما هم عليه من الكفر والإشراك، واقع بمشيئة الله، فهم إذاً معذورون عند الله، ولو شاء الله ما أشركوا، ولا حرَّموا شيئاً أحلَّه الله، لا هم ولا آباؤهم الذين سبقوهم!! وغرضهم أن يتعلَّلوا بالقضاء والقدر، لدفع المسؤولية عنهم، وهذه نزعةٌ جبرية شيطانية، يحتجُّ بها السفهاء عندما تقرعهم بالحجة، كما يقول المجرم والعاصي، والمرتكب لأنواع القبائح والمنكرات: هذا قَدَرُ الله، لا مهربَ ولا مفرَّ منه، وقد ردَّ الله عليهم هذا الباطل والبهتان بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ

ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾

ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي كما افترى هؤلاء المشركون الكذب على الله، كذلك افترى من سبقهم من الأمم الكذب، كذَّبوا أنبياءهم بمثل مقالتهم، حتى ذاقوا عذابنا الشديد، وهو «عذاب الاستئصال» الذي لم يفلت منه أحد، قل لهم يا محمد: هل عندكم حجة أو برهان، على صدق قولكم فتظهروه لنا؟ ما تتبعون في هذه الدعوى، إلا الظنون والأوهام، وما أنتم إلاَّ قوم فجرة كذبة، تكذبون على الله!! ردَّ الله مزاعمهم الباطلة من وجهين:

الأول: أن هذه المقالة، هي مقالة من سبقهم من الفجرة، المكذبين لآيات الله.

الثاني: أنهم كذبوا على الله، وخلطوا صدقاً بكذب. نعم إن أفعالُ البشر واقعةٌ بقضاءٍ وقدر، هذا حقٌّ لا يخالف فيه مؤمن، ولكنْ من أين لهم علمٌ، بأن الله قدَّر عليهم هذه القبائح والمعاصي؟ هل اطَّلعوا على اللوح المحفوظ، فرأوا بأم أعينهم، أن الله كتب عليهم الضلال والشقاء، فسارعوا إلى تنفيذ قضاء الله، حتى يكونوا مطيعين؟ ومن الذي أخبرهم، أن الله إذا كان يعلم كفرهم وعصيانهم، أنه يقبل ذلك منهم ويرضى عنهم؟ إنَّ قضاء الله تابعٌ لعلمه، وعلمُه تعالى لا يدلُّ على الرضى، كما إذا علم السلطانُ خروج بعض الجنود، وقيامهم بثورةٍ ضدَّ حكمه، فهل هذا العلم يكون عذراً لهم، بالخروج على حكمه، ومخالفة النظام والقانون؟ هذا مَثَلٌ ـ ولِلَّهِ المثلُ الأعلى ـ فالله سبحانه يعلم كفر الكافر، وعصيان العاصي، وقد سُجِّل هذا العلمُ في اللوح المحفوظ، وعلمُه سبحانه ليس فيه حجة أبداً للإنسان، لأن الله تعالى يحبُّ الطاعة ويكره العصيان، ولهذا ختم الموضوع بقوله سبحانه: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي قل لهم: لقد قامت حجةُ الله البينة الواضحة على العباد، في أمر التكليف، فلم يبق لأحدٍ حجة، ولو شاء لهداكم إلى الإيمان أجمعين، ولكنه تعالى ترك للعباد، أمر الاختيار للإيمان أو الكفر، ليتمَّ التكليفُ ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ ولا إكراه لأحدٍ على طاعةٍ أو عصيان، ثم عاد إلى مخاطبة المشركين، وبيان ضلالهم في دعاواهم الكاذبة، بأسلوب التهكم والسخرية فقال:

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ﴾

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي قل لهم: أحضروا لي من يشهد لكم، على صدق ما تزعمون، من تحريم الله لهذه الأشياء، والمقصودُ من إحضارهم، فضيحتُهم وإظهار كذبهم، وأنهم لا متمسَّك لهم في هذه الدعاوى الباطلة، والأمر هنا للتعجيز، فإن شهدوا بأن الله حرَّم ذلك، فلا تصدِّقهم فإنه كذب بحتٌ، ولا تتبع أهواء الضالين المكذبين بآيات الرحمٰن، فإنما يتبعون الهوى، وهو شقاء وضلال، هؤلاء الذين لا يصدِّقون بالآخرة، ويجعلون لله عديلاً أي شريكاً، فيعبدون معه الأصنام والأوثان!!

ثم جاءت الآيات تبيِّن للناس الدينَ الحقَّ، الذي لا عوج فيه ولا انحراف، فما كانت شريعة الإسلام لتحرِّم على الناس الطيبات، ولا لتمنعهم عن لذائذ الحياة، إنما جاءت لتبعدهم عن المحرمات والخبائث الضارة، التي تؤذيهم في أبدانهم وعقولهم، سواء منها ما كان من الأمور العقدية، أو العملية، في العبادات، والمعاملات، والأخلاق، ولهذا جاءت الآيات الكريمة، بالوصايا العشر التي اتفقت عليها جميع الشرائع والأديان السماوية، وفي ذلك يقول تقدَّست أسماؤه: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ﴾ أي قل تعالوا أقرأ ما حرَّمه ربكم عليكم، باليقين لا بالظن والتخمين: ألاَّ تشركوا مع الله أحداً، لا بشراً ولا حجراً، وبدأ بأمر الشرك، لأنه أعظمُ المحرَّمات، وأكبرُ الكبائر. ﴿**وبالوالدين إحسانا**﴾ أي أن تحسنوا إلى الوالدين إحساناً، لا تقصير فيه ولا إساءة، والحكمة من ذكر الإحسان، دون قوله: ولا تسيئوا إلى الوالدين، هي المبالغةُ في حسن

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ﴾

المعاملة، والدلالة على أن ترك الإساءة إليهما، غيرُ كافٍ في قضاء حقوقهما. ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ الإملاقُ: الفقرُ، أي لا تقتلوا أولادكم خشية الفقر، فرزقُهم ليس عليكم، وإنما رزقكم ورزقهم علينا، فلا تخافوا الفقر من وجود العيال، فإن الله هو الرازق للعباد ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي ولا تقربوا المنكرات والفواحش كالزنى، وشرب الخمر، والربا، وغيرها من الذنوب المهلكة، سواء ما كان منها يُفعل بالعلانية، أو بالسرِّ والخفاء، **قال ابن عباس**: «كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنى بأساً في السرِّ، ويستقبحونه في العلانية، فحرَّمه الله في السرِّ والعلانية». وقد نهت الآية عن جميع المنكرات والفواحش، الظاهر منها والخفي، ليظلَّ المسلم بعيداً عن هذه القاذورات التي تلوِّث عرضه، وهذه هي الوصية الرابعة. أما الوصية الخامسة فهي تحريم سفك دم المسلم، اللهمَّ إلا أن يكون القتلُ بحق، كالارتداد عن الإسلام، أو بالقصاص بأن قتل شخصاً فيُقتل به، أو برجم المحصن، ولمَّا كانت الأمور المنهي عنها، ممَّا يدرك الإنسان قبحها بعقله، ختمت الآية الكريمة بقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي تستعملون عقولكم التي تصرفها عن مباشرة القبائح المحرمة.

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ هذه هي الوصية السادسة والسابعة، وهي تحريم أكل مال اليتيم، والأمر بالمحافظة عليه، حتى يبلغ سنَّ الرشد والتكليف، فيسلَّم إليه مالُه، والنهي عن البخس في المكيال والميزان، ومعنى القسط: العدلُ، أي العدل في الأخذ والعطاء، فإنَّ نقصَ المكيال والميزان ظلمٌ، والظلم ظلماتٌ يوم القيامة **﴿ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾** أي ينقصون الوزن، ثم قال تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ

﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي هذه التكاليف في وُسْع الإنسان وطاقته، فلا نكلِّف أحداً من عبادنا، إلاَّ بما هو في وُسْعه، وبما لا يعسُر عليه، وإذا حكمتم فاعدلوا في حكومتكم وشهادتكم، ولو كان المشهود عليه من ذوي قرابتكم، وهذا أمرٌ بالعدل بين جميع طوائف البشر، بقطع النظر عن أجناسهم وأديانهم، فالعدلُ أساسُ الملك، وهو واجبٌ في الأقوال، كما هو واجب في الأفعال، لأنه هو الذي تصلح به شؤون الناس، فهو ركنُ العمران، وقُطب رحى الإسلام، ثم قال: ﴿**وبعهد الله أوفوا**﴾ أي أوفوا بكلِّ عهدٍ عاهدتم به اللَّهَ، أو عاهدتم به النَّاس، فالوفاء بالعهد سِمةُ أهل الإيمان. ﴿**ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون**﴾ أي ذلكم هو أمر الله ووصيته إليكم، أمركم به أمراً مؤكداً، لتتعظوا وتسيروا على مقتضاه، وهذه الوصايا العشر، ممَّا لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار، وهنَّ محرَّمات على بني آدم جميعاً، ولهذا أكَّدها الله في هذه السورة الكريمة، وكرَّر فيها لفظ الوصيَّة، ليستمسك بها المسلمون، ولا يغفلوا عنها في حياتهم الاجتماعية، فهي وصايا ربَّانية، وتوجيهاتٌ قدسية سماوية، وقد ذُكرت هذه الوصايا في التوراة بالنصِّ الآتي: وأوَّلُها (أنا الربُّ إلهك الذي أخرجك من أرض مصر، من بيت العبودية، لا يكن لك إلهٌ غيري.. أكرمْ أباكَ وأمَّك، ليطول عمرك في الأرض.. لا تقتل ، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد شهادة زور، لا تشته بنت قريبك، ولا عبدَه ولا أَمَتَه، ولا ثوره ولا حماره، ولا شيئاً مما لقريبك) ولليهود عناية عظيمة بهذه الوصايا، ولكنهم لا يطبِّقونها، وقد كتبها أهل الإنجيل في أول إنجيلهم!!

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي وأن دين الإسلام، هو دينُ الله المستقيم، الذي لا يقبل الله ديناً سواه، بعد بعثة خاتم النَّبيِّين، فاستمسكوا به، ولا تتبعوا الأديان المختلفة، والطرق الملتوية، فتتفرق بكم عن سبيل الهدى والسعادة، ذلكم وصاكم به ربكم، لتتقوا نار جهنم، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه!! ولمَّا كانت المحرمات الأولى لا يقع بها عاقل، جاءت العبارة بقوله: ﴿**لعلكم**

ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ

تعقلون﴾ ولمَّا كانت المحرَّمات الأخرى شهوات، وقد يقع فيها من لم يتذكر ويتَّعظ جاءت العبارة بقوله: ﴿لعلكم تذكرون﴾، ولمَّا كان السير في طريق الفضيلة والاستقامة، يحتاج لمقاومةٍ للنفس، وجهادٍ لها لتستقيم على شرع الله ودينه، جاءت العبارة بقوله: ﴿لعلكم تتقون﴾ فتدبَّر أسرار بدائع القرآن! رُوي أن النبي ﷺ كان ذات يوم مع أصحابه، فخطَّ خطاً بيده ﷺ ثم قال: «هذا سبيلُ الله»، ثم خطَّ خطوطاً عن يمين ذلك الخطِّ وعن شماله، ثم قال: «هذه السُّبُل، ليس منها سبيلٌ، إلاَّ عليه شيطانٌ يدعو إليه» ثم قرأ: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه..﴾ الآية، رواه أحمد والنسائي.

وبعد ذكر الوصايا العشر، التي اتفقت عليها الشرائع السماوية، جاءت الآيات لتربط بين شريعة موسى، وشريعة محمد في الهداية والإرشاد، فإن كلاً من التوراة والقرآن، إنما تنزَّل من عند الرحمٰن، ليحقِّق للبشر السعادة في الدنيا والآخرة، ولهذا قرن تعالى بين القرآن، والتوراة في الذكر ـ أعني التوراة غير المحرَّفة ـ فكل منهما يدعو إلى الفضيلة، والخير والإصلاح، ولهذا قال سبحانه: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي ثمَّ إنا كنا قد أعطينا موسى التوراة، قبل إنزالنا القرآن على محمد ﷺ، أعطيناه الكتابَ «التوراة» نوراً شافياً وافياً، تماماً للكرامة والنعمة، على عبدنا ورسولنا موسى عليه السلام، الذي كان محسناً في عمله، صالحاً في سيرته واستقامته، وفصَّلنا له في التوراة كلَّ ما يحتاج إليه بنو إسرائيل في أمور الدين، وهدايةً لهم إلى الحقِّ، ورحمةً عليهم، لعلهم يؤمنون بالحساب والجزاء والعقاب ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي وهذا القرآنُ الذي أنزلناه عليك يا محمد، كتابٌ عظيم الشأن، كثير المنافع، مشتمل على أنواع الفوائد الدينية والدنيوية، فاستمسكوا به واجعلوه إماماً لكم، واحذروا أن تخالفوه، لتنالوا رحمة ربكم ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ

﴿أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ﴾

أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ أي لئلا تقولوا يوم القيامة: ما جاءنا رسولٌ، ولا أُنزل علينا كتاب فنتّبعه، وإنما أُنزل على اليهود والنصارى، وما كنا نعرف لغتهم، ولا نعرف ما في كتبهم، حتى نهتدي إلى الدين الحق!! فقطع الله حجتهم ومعاذيرهم بإنزال القرآن المبين، نوراً وهدى وضياء للعالمين ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ﴾ أي أو تقولوا لو أنّا أُنزل علينا الكتاب، كما أُنزل على اليهود والنصارى، لكنّا أهدى منهم إلى الحقّ، وأسرع إجابةً للرسول، واستمساكاً بشريعته ودينه، ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ أي لا تعتذروا يا معشر قريش بهذا القول، فقد جاءتكم حجة واضحة تعرفونها، على لسان محمد ﷺ، وهي (القرآنُ المعجزُ)، فيه الهدايةُ والرحمة من رب الأرباب، فمن أكفرُ ممن كذَّب بالقرآن، ولم يؤمن به، مع وضوح حجته، وسطوع بيانه؟ ومن أظلمُ ممن صرف الناسَ عن الإيمان بهذا الكتاب المعجز؟ سنجازي هؤلاء الأشقياء الفجار، الذين يصرفون الناسَ عن الإيمان بكتابنا وبرسولنا، أشدَّ أنواع العذاب، بسبب إعراضهم عن آيات الله، وحججه الساطعة، ومنعهم الناسَ عن الهداية والإيمان!.

ثم توعدهم تعالى بالعذاب فقال سبحانه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ أي ما ينتظر هؤلاء الأشقياء، إلاَّ أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم، أو يأتي ربك في موقف القيامة لفصل القضاء بين الخلائق، أو يأتي بعض علامات الساعة الكبرى، كطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدجال، والزلزلة الكبرى التي تكون بين يدي الساعة، وأمثال

يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

ذلك ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أي يوم تأتي بعض أشراط الساعة، لا ينفع أحداً من الخلق إيمانٌ ولا توبة، لأن الإيمان حينئذٍ يصبح اضطراراً لا اختياراً، ويكون ملجئاً لأهل الكفر والضلال أن يؤمنوا ويتوبوا، وفي الحديث الصحيح: «لا تقوم الساعةُ حتى تطلع الشمسُ من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناسُ، آمنوا أجمعون، وذلك حين ﴿**لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل..**﴾ الآية» رواه البخاري. قل لهم يا محمد: انتظروا ما يحلُّ بكم من العذاب، إنَّا منتظرون لذلك، وهو وعيدٌ شديدٌ، ملفَّعٌ بثوب التهديد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ نزلت في اليهود والنصارى كما قال ابن عباس، وليست في الأئمة المجتهدين الذين اختلفوا في فروع الدين، كما فهم ذلك بعض الجاهلين، فالاختلاف في الفروع رحمة، وفي الأصول بلاءٌ ونقمة، والمعنى: إن أهل الكتاب الذين فرَّقوا الدين، فأصبحوا شيعاً وأحزاباً، كلُّ فرقة تعادي الأخرى وتكفِّرها، أنت يا محمد بريء منهم، والله تعالى وحده يتولَّى جزاءهم يوم القيامة، ويجازيهم على إجرامهم في الدنيا، **قال مجاهد**: هم اليهود والنصارى، تفرَّقوا فرقاً، وكفَّر بعضُهم بعضاً، وأخذوا من الدين بعضاً وتركوا بعضاً، فهم أهلُ البدع والشبهات، لم يعبدوا الله وإنما عبدوا الأهواء.

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ المراد بالحسنة هنا: الإيمانُ والعمل الصالح، وبالسيئة المعاصي والذنوب، أي من جاء بالحسنة من المؤمنين ـ إذْ لا حسنةَ بغير إيمان ـ نضاعفها له إلى عشر حسنات أمثالها، تفضلاً من الله

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾

وكرماً، ومن جاء بالسيئة عوقب بمثلها دون مضاعفة، وهم لا يُنقصون من أجر أعمالهم شيئاً، ، فالزيادة في الحسنات من باب الفضل، والمعاملة بالمثل في السيئات من باب العدل، وفي الحديث القدسي: «يقول الله عزَّ وجلَّ: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيدُ، ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئةٍ مثلُها أو أغفرُ» رواه مسلم.

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي قل يا أيها الرسول لأولئك الضالين: إن ربي هداني وأرشدني بالوحي، إلى طريق قويم، موصلٍ إلى جنات النعيم، وهو دينُ الإسلام، الذي لا اعوجاج فيه ولا خلل، وهو دينُ الحنيفية السمحة، الذي جاء به إمامُ الحنفاء، إبراهيم الخليل، وما كان خليلُ الرحمٰن مشركاً، وفيه تعريضٌ بإشراك من خالف دين الإسلام، من اليهود، والنصارى، ومن كفار مكة ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي قل لهم: إن عبادتي كلُّها لله، ونسكي - أي ذبيحتي -، وحياتي، وموتي، وما أقدِّمه في هذه الحياة من خيرات، وأعمال صالحات، كلُّ ذلك أفعله خالصاً لوجه الله الكريم، لا أشرك فيها غيره، وبإخلاص العبادة لله وحده، أمرني ربي، وأنا أول من أسلم واستسلم، وانقاد لحكم الله ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب، أي قل لهم يا محمد: أغيرَ الله تعالى أطلب رباً، فأشركه في العبادة، والحال أنه خالق ومالك كلِّ شيء، فكيف يليق بي أن أطلب رباً غير الله تعالى؟ ولا يُجازى الإنسان إلاَّ بكسبه وعمله ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾ أي ولا يحمل أحد ذنب أحد، إنما يؤاخذ بجريمة ما اقترف من الذنوب والمعاصي. روي أن المشركين قالوا للمسلمين: اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم!! فردَّ الله عليهم، بأن ما كسبته كلُّ نفس من الخطايا، محمولٌ عليها لا على غيرها

ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي ثم مرجع الخلائق جميعهم إلى الله عزَّ وجلَّ، فيجازي كلَّ إنسان بعمله، ويميز بين المحسن والمسيء، والمحقِّ والمبطل، فالدنيا دار عمل، والآخرةُ دار جزاء، والآية تتضمن الوعيدَ والتهديد.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ أي هو جلَّ وعلا جعلكم خلفاً للأمم الماضية، والقرون السالفة، يخلف بعضكم بعضاً، كلما مضى جيلٌ أتى جيل آخر، ورفع بعضكم فوق بعض، في الغنى والفقر، والعلم والجهل، والقوة والضعف، فأغنى بعضكم وأفقر البعض، ليمتحنكم ويختبركم فيما منحكم من الرزق، هل تشكرون ربكم على نعمه أم تكفرون؟ وهل تنفقون في سبيله أم تبخلون؟ فالرزق والمال فتنة، وقليلٌ من العباد الشكور ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي إن ربك يا محمد سريع العقاب، لمن خالف أمره وعصاه، وواسع المغفرة والرحمة، لمن أطاعه واتقاه.. جمع الله في هذه الآية بين الخوف والرجاء، وعنصري الترهيب والترغيب، وما ألطف افتتاح هذه السورة الكريمة بالحمد، وختمها بالمغفرة والرحمة!!

انتهى تفسير سورة الأنعام

● ● ●

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾

تفسير سورة الأعراف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ﴾ تُكتب هكذا، وتُقرأ الحروفُ مقطَّعةً: (ألف، لام، ميم، صاد)، وقد تقدَّم في أول سورة البقرة، أن الحكمة من ابتداء بعض السور، بالحروف الهجائية المقطَّعة، هو لفتُ أنظار البشر إلى ما يسمعون، والتنبيه على «إعجاز القرآن» وأنَّ هذا الكتاب المعجز، منظومٌ ومركَّب من أمثال هذه الحروف المقطَّعة، ومع ذلك فقد تحدَّاهم القرآن بأن يأتوا بمثل سورةٍ منه، فَعَجز بلغاؤهم وفصحاؤهم، وعباقرتهم عن الإتيان بمثله، وهذا أعظم شاهد، على أن القرآن كلام الرحمٰن جلَّ ثناؤه، وهذا القول هو الذي اختاره المحقِّقون من المفسرين ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي هذا القرآنُ كتابٌ عظيم الشأن، أنزله عليك يا محمد ربُّ العزة والجلال، برهاناً ناطقاً على صدق رسالتك، ومعجزةً ساطعة تشهد بجلال الوحي المنزل عليك، فلا يكن في صدرك ضيقٌ من تبليغه للناس، مخافة أن يكذبوك، لتنذر به أهل الشرك والضلال، وتذكِّر به أهل اليقين والإيمان، المنتفعون بآيات الذكر الحكيم.. ثم دعا الله البشرَ إلى اتباع هذا الوحي الإلٰهي، المنزل لسعادة الخلق فقال: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي اتبعوا أيها الناسُ القرآن العظيم، المنزل إليكم من ربكم، ففيه النور والضياء، والهدى والشفاء، ولا تعبدوا الأصنام والأوثان من دون الرحمٰن، ولا تطيعوا أمر الكُهَّان والرهبان، فتزيغوا وتضلُّوا، وما يتَّعِظ منكم إلا القليل!!

﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ «كم» للتكثير، أي وكثير من

فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

القرى، أهلكنا أهلها، لتكذيبهم لرسلنا، وجحودهم لآياتنا، فجاءهم عذابنا ليلاً وهم نائمون، أو جاءهم وقت القيلولة، وهي النومُ وسط النهار، وخصَّ بالذكر هذين الوقتين، لأنهما وقت النوم والراحة، فمجيء العذاب فيهما أشقُّ وأفظع، لأنه يكون على غفلةٍ من المهْلَكِين ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ **أي ما كان دعاؤهم واستغاثتهم حين رأوا العذاب، وعاينوا أهواله، إلا اعترافهم بظلمهم وإجرامهم، تحسراً وندامة، وطمعاً في الخلاص، ولكنْ هَيْهَات!!** ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ **أي فلنسألن الأمم قاطبة، قائلين: ماذا أجبتم المرسلين؟ ولنسألن الرسل أيضاً: ماذا أُجبتم؟ والمقصود من هذا السؤال: التقريع والتوبيخ للكفار، أما سؤال الرسل، فهو للتأنيس والعناية، لإظهار اللطف بهم** ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ **أي فلنخبرنهم بكل ما صنعوا، عن علم منا بأفعالهم، وما كنا غائبين حتى يخفى علينا شيء من أحوالهم، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء.**

ثم أخبر تعالى عن الجزاء العادل يوم القيامة، فقال سبحانه: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ **أي توزن صحائف أعمال العباد يوم القيامة، بالميزان العادل، فمن رجحت موازين أعماله، بالإيمان وكثرة الحسنات، فهو الناجي من العذاب، الفائز بالجنة والثواب** ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ **ومن خفَّت موازينُ أعماله، بسبب الكفر واجتراح المنكرات، فهو الشقيُّ الخاسر، الذي خسر سعادته وحياته، بالهلاك والخلود في نار الجحيم، جزاء ظلمه وتكذيبه بآيات الرحمٰن، ولا غرابة في وزن الأعمال، فإذا كان العلم الحديثُ، قد كشف لنا عن ميزانٍ للحرارة والبرودة، وميزانٍ للضغط في جسم الإنسان، وللضَّغط الجوي، وميزان لسرعة الرياح**

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾

وحركتها، أفيعجز ربُّ العالمين عن وزن أعمال البشر؟

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ لمَّا أمر سبحانه كفار مكة باتباع ما أنزله الله على خاتم الأنبياء، ونهاهم عن اتباع غيره، ذكَّرهم تعالى هنا بما أفاض عليهم من فنون النعم، الموجبة للشكر، ترغيباً في الامتثال بالأمر والنهي، والمعنى: واللَّهِ لقد جعلنا لكم في الأرض مكاناً وقراراً، فمكَّنَّاكم من السكنى، والبناء، والزراعة فيها، لتأمين مصالحكم، وجعلنا لكم ما تحيون وتعيشون به، من المطاعم، والمشارب ونحوها، ومع هذا الفضل والإنعام، فشكركم لربكم قليل، لا تقرُّون له بالفضل والإنعام!!

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ الحديث عن آدم أبي البشر، وإنما ذُكر بصيغة الجمع﴿خلقناكم﴾ على وجه التعظيم لأنه أصلُ البشر، أي خلقنا أباكم آدم من طين، ثم صورناه أبدع تصوير، وجعلناه في أحسن تقويم، ثم أمرنا الملائكة بالسجود له ـ سجود تحية وتكريم إظهاراً لفضله ـ فامتثلوا الأمر، إلاَّ إبليس اللعين، فقد أبى واستكبر وكان من الكافرين. ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ أي قال ربُّ العزَّة والجلال لإبليس: لماذا امتنعتَ من السجود لآدم حين أمرتك؟ فأجابه اللعين بقوله: أنا أفضلُ من آدم وأشرف، فكيف يسجد الفاضلُ للمفضول؟ ثم قاس قياساً خاطئاً بارداً، خلاصته أن عنصره أفضل من عنصر آدم، فإبليس مخلوق من نار، وآدم مخلوق من طين، والنار أفضل من الطين!! وجهل الأحمقُ أن الفضلَ يكون بالطاعة، وامتثال الأمر!! نَظَر اللعينُ إلى أصل العنصر، ولم ينظر إلى التشريف والتكريم، الذي خصَّ الله به آدم، وهو أن الله خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلَّمه من العلوم، ما عجزت الملائكةُ عن معرفته، ولهذا السرّ أمر الملائكة بالسجود لآدم، وقاسَ إبليس قياساً فاسداً، فأخطأ قبَّحه الله في قياسه، في دعواه أن

قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

النار أشرف من الطين، فإن النار من شأنها الطيشُ والإحراق، والطينُ من شأنه النفعُ والإنبات، فلو كان عاقلاً، لسارع إلى امتثال الأمر كما فعلت الملائكة، ولكنه لعناده وحماقته تكبَّر وأبى، فأورثه ذلك الشقاءَ والهلاكَ ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي اهبط من ملكوت السماء، فما يصحُّ ولا يستقيم لك أن تتكبَّر عن أمري وطاعتي، وتسكن دار قدسي، فاخرج إنك من الأذلاء الحقيرين!! لمَّا أظهر إبليس الاستكبار، ألبسه الله الذُّلَّ والصَّغار، فمن تواضع لله رفعه، ومن تكبَّر على الله وضعه ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ أي قال اللعين: يا ربِّ أمهلني وأخِّرني إلى يوم يُبعث آدمُ وذريتُه، قال له ربُّه: إنك من الممهلين المؤخَّرين إلى يوم يموت الخلقُ، طلبَ من الله الإمهال إلى يوم البعث، لينجو من الموت، لأنه لا موت بعد البعث، فأمهله الله إلى يوم فناء الدنيا، لأن مهمته تكون قد انتهت بموت الخلائق، ولم يمهله إلى يوم البعث، وتؤيده الآيةُ الأخرى: **﴿قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾**

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي قال إبليس: فبسبب ما أضللتني يا ربِّ، وطردتني من السموات ومن رحمتك، فأقسمُ بعزتك لأقعدنَّ لآدم وذريَّته، على طريق الحق، كما يقعد قُطَّاع الطريق للمسافرين، لأصدَّهم عن دينك ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ أي ثم لآتينَّهم من جميع الجهات، عن اليمين والشمال، والأمام والخلف، ولا تجد أكثر الخلق مطيعين، شاكرين لنعمائك، ذكر الجهات الأربع لأنها هي التي يكون هجومُ العدوِّ منها، قال ابن عباس: ولا يستطيع أن يأتي من فوقهم، لئلا يحول بين العبد وبين رحمة الله تعالى. ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي اخرج من ملكوت السموات، مذموماً مهاناً ملعوناً، مطروداً من

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا﴾

رحمتي، وأقسمُ أنَّ من أطاعك من الإنس والجن، فسوف أملأ جهنم منك ومنهم أجمعين، وأتباعُ الشيطان هم كلُ من أطاعه في معصية الله، وقد سمَّاهم الله (حزب الشيطان) في قوله سبحانه: ﴿**استحوذ عليهم الشيطانُ فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون**﴾ ثم جاء النداء لآدم، لتحذيره من عدوه اللدود «إبليس» اللعين، فقال سبحانه: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي وقلنا: يا آدمُ اسكن مع زوجتك حواء الجنة، فكلا من جميع ثمارها وخيراتها، من أيِّ مكان شئتما، ولا تقربا شجرةً معيَّنةً، فتصبحا خاسرَيْن بظلمكما لأنفسكما. . أباح تعالى لهما الأكل من جميع ثمارها، إلاَّ شجرةً واحدةً عيَّنها لهما، نهاهما عن الأكل منها، ابتلاءً وامتحاناً، ولم يذكر تعالى لنا نوعها، ولو كان في ذلك مصلحة تعود إلينا لذكرها لنا!! وهنا يأتي دور اللعين إبليس في الوسوسة، والمكر، والخديعة، فيقول تعالى عنه: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾ أي ألقى إليهما الوسوسة بالطريق الخفيِّ، ليظهر لهما ما كان مستوراً من العورات التي يقبح كشفها، وأراد بوسوسته أن يسوءهما بانكشاف عوراتهما، وسميت «سوءة» لأن العاقل يسوءه كشفُها، فإن كشفها قبيحٌ ومستهجنٌ في الطبع، ولا يُسرُّ بكشفها إلا المجنون.

ثم زاد في الكذب والإغواء فقال لهما: ما نهاكما الله عن الأكل من هذه الشجرة، إلاَّ كراهية أن تصبحا ملكَيْن أي كالملائكة، أو تصبحا من المخلَّدين في الجنة ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي أقسم لهما بعزة الله وجلاله: إني ناصحٌ لكما فيما أقول، ولا أريد لكما إلا الخيرَ، والخلودَ في الجنة ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا

مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي فخدعهما بما غرَّهما به من القَسَم بالله، وكان آدم يظنُّ أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً، فغرَّهما بوسوسته ويمينه، فلما أكلا من الشجرة، ظهرت لهما عوراتهما فاستحييا، وشرعا يلصقان على عوراتهما من أوراق الجنة، ليسترا بها بعد أن كان لباسهما من حلل الجنة، نوراً على فروجهما، لا يرى أحدهما عورة الآخر، وناداهما الربُّ تبارك وتعالى: ألم أحذِّركما من الأكل من تلك الشجرة، وأخبركما بعدواة الشيطان اللعين؟ وأنه لكما عدوٌّ مبين!! روي أن الله تعالى قال لآدم: يا آدم ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة؟ فقال: بلى وعزَّتك!! ولكن ما ظننتُ أن أحداً من خلقك يحلف بك كاذباً، فقال الله له: فوعزَّتي لأهبطنَّك إلى الأرض، ثم لا تنال العيش إلاَّ كدّاً، فأُهبط وأُمر بحرث الأرض وزرعها، فحَرَث وسقى، وعَجَن وخَبَز، فانتقل من السعادة والراحة، إلى التعب والشقاء ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ اعترفا بالخطيئة، وتابا من الذنب، وطلبا من الله المغفرة والرحمة، وهذه هي الدعوات التي تلقَّاها آدم من ربه، وألهمه الدعاء بها، وهي التي أشارت إليها آية البقرة **﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾** وفي هذه الدعوات تعليمٌ لذريته، طريقَ التوبةِ والرجوع إلى الله، بأن يقول التائب: «يا ربِّ إني ظلمتُ نفسي فاغفر لي» ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي اهبطوا من سماء القُدس، إلى الأرض التي هي مسكنكم، بعضُكم عدوٌّ لبعض، ولكم في الأرض موضع استقرار، وانتفاع واستمتاع إلى حين انقضاء آجالكم. ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ أي قال الله تعالى لآدم وذريته: في الأرض تحيون وتعيشون، وفيها تموتون وتُقبرون، ومنها يوم القيامة تُخرجون للحساب والجزاء، وكان الأكل من الشجرة سبباً لخروج آدم وزوجه من الجنة، دار الهناء والسعادة، والنزول إلى الأرض دار التعب والشقاء، ليتمَّ عليها دورُ التكليف والابتلاء لذرية آدم!

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾

ثم ذكر تعالى ما امتنَّ به على ذرية آدم، من اللباس والزينة والمتاع، وحذَّرهم من فتنة الشيطان، فقال سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي يا أبناء آدم: لقد خلقنا لكم من اللباس، ما تسترون به عوراتكم، ولباساً يزيِّنكم ويجمِّلكم، وأكرمناكم بلباسين: لباسِ زينةٍ، ولباسِ ستر، وعبَّر عنها بالإنزال، لأن كلَّ ما تخرجه الأرض من بركات السماء، فالمطر ينزل فيخرج به القطنُ الذي يُجعل لباساً، وذَكَر المِنَّةَ عليهم باللباس، لما في العُري وكشف العورة، من المهانة والفضيحة، ثم ذكر نوعاً آخر من اللباس، هو لباس «الخشية والورع» فقال: ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾ أي خشيةُ الله والورعُ، خيرُ ما يلبسه الإنسان ويتزيَّن به، فإن طهارة الباطن أعظم من نظافة الظاهر، كما قال الشاعر:

وخيرُ لباسِ المرءِ طاعةُ ربه ... ولا خير فيمن كان للَّهِ عاصيا

﴿ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾ أي إنعامُ الله عليكم باللباس، من آيات الله الدالة على فضله، وعميم رحمته بعباده، ليعرفوا هذه النعم، ويشكروا ربهم عليها، وفي الآية استعارة لطيفة، حيث شبَّه تعالى الخشية والإيمان، باللباس الذي يستر البدن والعورة، ويُخفي القبائح، ويزيِّن الإنسان ويجمِّله، ولهذا قال: ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾ كما أن الريش مستعارٌ من ريش الطير، لأنه زينتُه ولباسه.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾ تكرير النداء في مقام الوعظ والتذكير، من أقوى الأساليب في التأثير، أي يا أبناء آدم، يا من كرَّمكم الله بإسجاد الملائكة لأبيكم: لا يغوينَّكم الشيطانُ ويوقعكم في الفتنة والمحنة، كما أغوى أبويكم: (آدم وحواء)، بالأكل من الشجرة، حتى أُخرجا من الجنة، وكان هدفُ إبليس الأسمى، أن ينزع عنهما اللباسَ، لتظهر منهما العوراتُ والسوءات، فاحترسوا من فتنته وضلاله

﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٨﴾

﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي إن إبليس يراكم هو وجنوده وأتباعه، من حيث لا ترونهم أنتم، فحجب الله رؤيتنا لهم، ليحصل عنصرُ الإيمان بالغيب، وإذا أتاك العدوُّ من حيث لا تراه، كان أشدَّ وأخوفَ، وكان الاحتراسُ عن مكره وكيده أوجب، وقد جعلنا الشياطين أعواناً وقرناء للكفرة، الذين لا يؤمنون بالله، بسبب كفرهم ومعاصيهم، والبشرُ بالنسبة للشياطين ثلاثةُ أصناف:

١ ـ صنف عَصَمهم الله، فلا تستطيع الشياطين فتنتهم وإغواءهم، وهم الرسل والأنبياء.

٢ ـ وصنفٌ تحومُ حولهم الشياطين، فإذا وقعوا في المخالفة والمعصية، تابوا ورجعوا إلى الله، فيمحو الله سيئاتهم، وهم عامة المؤمنين.

٣ ـ وصنف هم في أيدي الشياطين، يتلاعبون بهم، بمنزلة الكرة في أيدي الصبيان، وهم الكفارُ والفجار، أجارنا الله من شرِّ شياطين الإنس والجن.

ثم حكى تعالى عن تلاعب الشيطان بأجدادنا العرب، حيث زيَّن لهم الطواف حول بيت الله العتيق عُراة، وسمَّى الله هذا العمل القبيح «فاحشة» لأن قبحها قد تناهى إلى غاية الشناعة، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي وإذا فعل هؤلاء السفهاء المشركون، عملاً قبيحاً كالطواف حول البيت عُراةً، احتجوا بأمرين:

الأول: تقليد الآباء. **والثاني**: أن الله أمرهم بخلع الثياب عند الطواف.

فأعرض عن الأول «التقليد الأعمى» لظهور فساده، وردَّ على الثاني بقوله سبحانه: **﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾** أي قل لهم: كذبتم، فاللَّهُ تعالى لا يأمر بالقبيح، أتكذبون على الله، وتنسبون إليه القبيح، من غير علمٍ ولا دراية؟ قال ابن عباس في الآية: الفاحشةُ هي الطوافُ حول البيت عُراةً، كما ولدتهم أمهاتهم، وأخرج مسلم في

﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾

صحيحه قال: كانت العرب تطوف حول البيت عُراة، وكانت المرأةُ تطوفُ بالبيت عُريانة ـ أي بالليل ـ وتقول:

اليومَ يبدُو بعضُه أو كُلُّه ... فما بَدَا منه فلا أُحِلُّه

(تعني فرجها، فأمر الرسول ﷺ أن لا يطوف بالبيت عُريان) رواه مسلم.

﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾ أي قل يا أيها الرسول، لهؤلاء السفهاء الذين يقولون على الله ما لا يعلمون: إن ربي أمر بالعدل والاستقامة، في الأمور كلِّها، ولم يأمر بشيء منكرٍ ولا قبيح، وأمركم أن تتوجهوا إلى عبادته، مستقيمين على شريعته ودينه، وأمر بأن تخلصوا له العبادةَ والطاعة، فإن مصيركم إليه بالآخرة، كما أنشأكم وبدأكم من الأرض، تعودون يوم القيامة إليه، ليجازيكم على أعمالكم، وفي الحديث الصحيح: «أيها الناسُ إنكم محشورون إلى الله حُفاةً، عُراةً، غُرلاً ـ أي غير مختونين ـ كما بدأنا أول خلقٍ نعيدُه، وعداً علينا إنا كنَّا فاعلين..» الحديث أخرجه مسلم.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ أي الله سبحانه هدى فريقاً منكم فوفَّقه للإيمان، وفريقاً خذلهم فشَقُوا وضلّوا، وهم الكافرون، لاتباعهم خطوات الشيطان، وإعراضهم عن طاعة الرحمٰن، وهم في ضلالهم يظنون أنهم على بصيرةٍ وهداية ﴿ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾(الكهف).

ثم أمر تعالى بأخذ الزينة والتجمل، في الأعياد والمناسبات، ونهى عن الإسراف في الملبس والمطعم والمشرب، فقال عزَّ شأنه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ أي يا أبناء آدم: البسوا أفخر ثيابكم وأجملها وأطهرها، عند كل

﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

صلاة وطواف، ولا تسرفوا في الأكل، والشرب، واللباس، ممَّا يضرُّ بالنفس أو بالمال، لأنه سبحانه لا يحبُّ المجاوزين حدود الله، فيما أحلَّ لهم وحرَّم. ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ أي قل لهؤلاء الجهلة، الذين يُحرِّمون عل أنفسهم ما أحللتُ لهم من الطيبات: من حرَّم عليكم التجمل بالثياب، التي خلقها الله لكم مما أخرج من النبات؟ والمستلذات من المآكل، والمشارب، والملابس؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي كيف تحرّمون ما خلقه الله لنفعكم، وترفضون أن تستمتعوا بلذائذ وطيبات الدنيا، دون دليل ولا برهان؟ ﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ أي قل لهم: إن هذه الزينة والطيبات مخلوقةٌ في الأصل للمؤمنين، لتقويتهم على طاعة الله، ويشاركهم فيها الكفارُ تَبَعاً، وستكون خالصة للمؤمنين يوم القيامة، لا يشركهم فيها أحد، لأن الله حرَّم نعيم الجنة على الكافرين، كذلك نبيِّن ونوضِّح الأحكام الشرعية، لقومٍ يفقهون حكمة الله جلَّ وعلا.

﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي قل لهم: ما حرَّم الله إلا الفواحش أي القبائح الكبيرة من الذنوب، التي تناهى قُبحها، وتفاقم شرُّها، سواء منها ما كان في السرِّ أو في العلن، وحرَّم المعاصي كلَّها، والعدوان على الناس بالغطرسة والظلم، وحرَّم عليكم أن تجعلوا له شركاء في عبادته، دون حجة أو برهان، وأن تفتروا على الله الكذب بالتحليل والتحريم. ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ أي ولكل أمةٍ كذَّبت رسولَها، مدةٌ مضروبة لهلاكها، فإذا جاء وقتُ هلاكها المقدَّر لها، لا يتأخر عنها برهةً من الزمان ولا يتقدَّم، كما أن البشر يهلكون إذا كثرت فيهم المعاصي، وانتهكوا محارم الله، كما في حديث أم المؤمنين

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٣٦ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ۝٣٧﴾

زينب، حين سألت الرسول ﷺ فقالت: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخَبَثُ» أي إذا كثر الفسوقُ والفجور، أخرجه البخاري.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ الخطاب لكافة البشر، تكريماً لهم، واعتناءً بشأنهم، أي يا معشر الناس، إن جاءكم رسلي، الذين بعثتهم لهدايتكم، يبيِّنون لكم الأحكامَ والشرائع، ويرشدونكم إلى طريق الإيمان والجنة، فمن آمن منكم واتقى ربه، فلا خوف عليهم في الآخرة، ممَّا يلحق العصاة والمجرمين، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي وأمَّا من كذَّب بآيات الله، واستكبر عن الإيمان بما جاءت به الرسل، فهو من أهل الشقاء، يدخل نار جهنم، مخلَّداً فيها أبداً، لا يخرج منها، لكفره وعصيانه ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ﴾ أي من أقبحُ وأشنعُ ممن تعمَّد الكذب على الله، أو كذَّب بالقرآن العظيم، المنزل لهداية البشر؟ هؤلاء المكذِّبون بآيات الله، يصيبهم حظُّهم في الدنيا ممَّا كُتِب لهم وقُدِّر من الأرزاق، والأعمال، والآجال، إلى انتهاء أعمارهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ أي حتى إذا جاءتهم ملائكة الموت، لقبض أرواحهم الشرِّيرة، قالوا لهم تهكّماً وتوبيخاً: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ ادعوهم ليخلِّصوكم من العذاب! قال الأشقياء المكذِّبون: لقد غابوا عنَّا فلا ندري أين مكانهم؟ واعترفوا على أنفسهم بالكفر والضلال، قالوا ذلك تحسراً على

﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

أنفسهم، في عبادة من لا يستحقُّ العبادة، ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾ أي يقول الله تعالى لأولئك الأشقياء يوم القيامة: ادخلوا مع أمم أمثالكم من الفجرة، المكذبين بآيات الله، ممن سبقوا قبلكم في نار جهنم، من كفار الإنس والجن، كلما دخلت طائفة منهم النار، لعنتْ من سبقتها من الداخلين، يلعن الأتباعُ القادة، يقولون لهم: أنتم سبب شقائنا وضلالنا، فلعنكم الله تعالى!! فجهنَّم موطنُ اللعنات، ومقرُّ الغضب والسخط، كما قال سبحانه: **﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا﴾** وتبقى الشتائم واللعناتُ بينهم، إلى أن يكتملوا في نار جهنم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾ أي حتى إذا تلاحقوا واجتمعوا جميعاً في نار الجحيم، قال الأتباع للرؤساء والقادة: يا ربَّنا هؤلاء هم الذين أضلُّونا عن سبيلك، وزيَّنوا لنا الكفر والضلال فاتَّبعناهم، فاجعل العذاب لهم مضاعفاً، لأنهم تسببوا في كفرنا!! قال تعالى: لكلٍّ منكم عذابٌ مضاعف، ولكن لا تعلمون حقيقة هذا العذاب، ولذلك تطلبون لهم المضاعفة ﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ أي قال الرؤساء للأتباع، بعدما سمعوا كلام الرب الجليل: لا فضل لكم علينا في تخفيف العذاب، فنحن متساوون في الضلال، ومتساوون في استحقاق العذاب الأليم، وأرادوا بالفضل **﴿فما لكم علينا من فضل﴾** تخفيفَ العذاب، فالكل منهم مجرمٌ، مستحقٌّ لأشدِّ العذاب، ويقولون لهم تشفياً، لأنهم دعوا عليهم بمضاعفةِ العذاب: ذوقوا عذاب جهنم، بسبب كفركم وإجرامكم.

ثم يأتي البيان لاستحالة دخول الكفار الجنة، بتمثيلٍ في غاية الظهور والوضوح، وهو

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾

دخول الجمل ـ على ضخامته ـ بثقب الإبرة على صغره، فيقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ أي إن الذين كذبوا بالقرآن، مع وضوح بيانه، وسطوع إعجازه، وتكبَّروا عن العمل به، لا تُفتَّح لأرواحهم أبوابُ السماء، ولا تُقبل أدعيتُهم وأعمالهم، ولا يدخلون الجنة بحالٍ من الأحوال، إلاَّ إذا أمكن دخولُ الجمل في ثُقب الإبرة، فكما يستحيل هذا، يستحيل دخولهم جنة النعيم، كقوله قال سبحانه: **﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾** و**﴿سم الخياط﴾** ثقبُ الإبرة، وهو تمثيلٌ في منتهى الإبداع والبيان ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي ومثل ذلك العقاب الشديد، نعاقب أهل العصيان والإجرام، ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي لهؤلاء المجرمين، فراشٌ ومضجع من نار جهنم، ولهم من فوقهم أغطيةٌ ولُحُف من النار أيضاً، والمراد أن النار محيطةٌ بهم من جميع الجوانب، كقوله سبحانه: **﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾** وتسميتها بالظلل تهكُّمٌ وسخرية، فنار جهنم طبقات، تحيط بهم من الأعلى والأسفل، ولا يخلصون من عذابها، ومثل هذا الجزاء، نجازي كل ظالم فاجر، مكذِّب بآيات الله!

وبمقابلة هؤلاء الأشقياء الفُجَّار، يأتي الحديث عن المؤمنين الأبرار، فيقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ أي وأمَّا المؤمنون الأبرار، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، فإنهم أهلُ الجنة وسُكَّانها الذين لا يبغون عنها حِوَلاً، وهم مخلَّدون فيها إلى ما لا نهاية، وجملةُ **﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾** جملة اعتراضية بين المبتدأ والخبر، أي لا نكلِّف أحداً بما لا يُطيق، وبما ليس في وُسْعه، بل كلُّ التكاليف في مقدور الإنسان وطاقته، جيء بها لتنبيه

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾

الكفار، على أن هذا النعيم العظيم الذي ناله المؤمنون، يمكن الوصول إليه بكل يسرٍ وسهولة، فلو كان لهم عقل، لآثروا الإيمان والطاعة، على الكفر والمعصية، فبالعمل القليل نال المؤمنون الجزاء الكبير.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أي طهَّرنا قلوبهم من الشحناء والبغضاء، فليس بينهم إلاّ المودة والإخاء لأن الجنة دار الطُّهر، ولا يدخلها إلاّ طاهرٌ مطهَّر، وفي الحديث: «إذا خَلَص المؤمنون من النار، حُبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، فيتقاصُّون مظالمَ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا نُقُّوا وهُذِّبوا، أُذِن لهم بدخول الجنة، فوالذي نفسُ محمدٍ بيده، لأحدُهم بمسكنه في الجنة، أدلُّ بمنزله كان في الدنيا» رواه البخاري ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ أي تجري من تحت قصورهم ومساكنهم أنهارُ الجنة، زيادة في تكريمهم وسرورهم ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ أي ويقولون اعترافاً بفضل الله عليهم: الحمد لله الذي هدانا للإيمان، والعمل الصالح، لننال هذا النعيم الخالد العظيم، ولولا هدايةُ الله وتوفيقُه، لما وصلنا إلى هذه السعادة ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يقولون: واللّهِ لقد جاءتنا الرسل بالدين الحقِّ، فاهتدينا إلى الإيمان بإرشادهم وهدايتهم، وتناديهم الملائكةُ: هذه الجنة التي وعدكم الله بها، لقد صارت لكم إرثاً وملكاً، بسبب إيمانكم وعملكم الصالح، فهنيئاً لكم بهذا الأجر العظيم!! وينبغي أن نعلم أن دخول الجنة بمحضِ الفضل الإلهي، وتقاسم درجاتها ومنازلها بالعمل الصالح، فقد قال ﷺ: «لن يدخل أحدكم الجنةَ بعمله» قالوا: حتى أنت يا رسول الله؟ قال: «حتَّى أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمةٍ منه وفضل» رواه البخاري ومسلم.. ثمَّ يأتي الحديث عن المحاورة والمناظرة، بين أهل الجنة والنار، بعد أن يستقرَّ أهلُ الجنة في الجنة، وأهلُ النار في النار، فيقول سبحانه: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ عبَّر عن المستقبل بالماضي، لتحقق وقوعه، أي ينادي أهلُ الجنة أهلَ النار، تحدثاً بنعمة الله، وشماتةً

فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

بأعداء الله، يقولون لهم: إنَّا قد وجدنا ما وعدنا ربُّنا على ألسنةِ رسله حقاً، حيث نلنا هذه الكرامة والنعمة العظمى، فهل وجدتم ما وعد ربكم من الخزي والهوان والعذاب حقاً؟ ﴿قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي قال أهل النار مجيبين النداء: نعم لقد وجدنا ذلك حقاً، وينطلق صوتٌ علويٌ قدسيٌ من الملائكة، يسمعه كلُّ واحد من أهل الجنة وأهل النار: أن لعنةُ الله على كل ظالم، كافر، فاجر ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ أي هذه اللعنة للأشقياء، الذين يمنعون الناس عن الدخول في دين الإسلام، ويطلبون أن يكون دينُ الله معوجّاً غير مستقيم، يساير أهواءهم وشهواتهم الدنيئة، وهم غير معترفين بالآخرة، وحسابها وجزائها ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أي وبين أهل الجنة وأهل النار، حاجزٌ وسور، يمنع وصول أحدهما للآخر، وهو السور المذكور في سورة الحديد ﴿فضرب بينهم بسور له باب﴾ وعلى هذا السور رجالٌ ـ قصَّرت بهم حسناتُهم عن دخول الجنة ـ يعرفون كلاً من أهل الجنة والنار بعلامتهم، يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ونضرتها، ويعرفون أهل النار بسواد الوجوه وغبرتها، والسِّيما: العلامةُ، وحين يرون أهل الجنة، ينادونهم بالتحية والدعاء، يقولون لهم: سلامٌ عليكم يا أهل الجنة، لقد فزتم بالكرامة والسعادة، قال تعالى عنهم: ﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾ أي لم يدخل أهل الأعراف الجنة، وهم طامعون في رحمة الله بدخولها ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي وإذا صُرفت أبصار أهل الأعراف، نحو أهل النار، استغاثوا بربهم، ألاَّ يجعل عاقبتهم مثلَ عاقبة الأشقياء من أهل الجحيم، وفي التعبير بقوله: ﴿صُرِفت﴾ دليلٌ على أن صارفاً صَرَفَ أبصارهم، لينظروا إلى أهل النار، من غير رغبةٍ منهم في ذلك، فلذلك يُعرضون فوراً

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾

عنهم، ويستغيثون بالله من هذا المصير المشؤوم ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ أي وينادي أصحاب الأعراف، رجالاً من رؤساء الكفرة، من أهل النار، يعرفونهم بعلامتهم الدالة على شقائهم، يقولون لهم: ما الذي نفَعَكم جمعكم للأموال؟ واعتزازكم بالأتباع والأنصار؟ واستكباركم عن قبول الحق؟ هل انتفعتم بشيءٍ منها؟ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾؟ أي أهؤلاء الضعفاء، الذين كنتم تسخرون منهم وتحقِّرونهم في الدنيا، لفقرهم وضعفهم، وعدم وجود الأعوان والأنصار لهم؟ والاستفهام هنا للتقريع والتوبيخ، ثم يلتفتون إلى فقراء المسلمين، ويقولون لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ أي ادخلوا الجنة على رغم أنوف الكافرين، غير خائفين، ولا محزونين، يقولون لهم ذلك، نكايةً بأعدائهم الكفار من أهل النار.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي ينادي أهل النار، المؤمنين من أهل الجنة، يقولون لهم: أغيثونا بشيء من الماء، أو بأيِّ شيء من الطعام والشراب، الذي أكرمكم الله به، فقد قَتَلنا الجوعُ والعطش!! فيقولون لهم: إن الله حرَّم طعام أهل الجنة وشرابها على كل من كفر بالله، قال ابن عباس: ينادي الرجلُ أباه أو أخاه، فيقول: قد احترقتُ فأفِضْ عليَّ شيئاً من الماء، فيقول له: إن الله حرَّم ذلك على الكافرين، وهذا دليل على شدة عطشهم، ونهاية جوعهم، يسألونهم ذلك مع اليأس من الإجابة لهم، وهذا كما يُقال في المَثَل: «الغريقُ يتعلَّق بالقشَّةِ وإن علم أنها لا تفيده».

ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

ثم وصف تعالى حال وجريمة أولئك المجرمين، فقال جلَّ ثناؤه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي جعلوا الدِّينَ سخرية ولعباً، وخدعتهم الدنيا بزخارفها الفاتنة، وشهواتها القاتلة، حتى نسوا الآخرة، ففي هذا اليوم العصيب ـ يعني يوم القيامة ـ نعاملهم معاملة المنسيّ، فنتركهم في العذاب الشديد، كما تركوا العمل ليومهم هذا، الذي يشيب له الأطفال، وكما كانوا يكذِّبون بآيات الله ويستهزئون.. شبَّه تعالى حالهم بحال من يغضب عليه السلطان، فيلقيه في السجن، ثم يتركه ولا يسأل عنه، وإلاَّ فاللَّهُ لا ينسى صغيراً ولا كبيراً ﴿وما كان ربك نسيا﴾ فالكلام خارجٌ مخرج التمثيل ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي ولقد جئنا قومك المكذِّبين من أهل مكة، بكتابٍ عظيم الشأن، هو «القرآنُ العظيم» بينّا معانيه من الأحكام، والعقائد، والمواعظ، مفصَّلة غاية التفصيل، على علمٍ منّا بمصالح العباد، حتى جاء محكمَ التشريع، هدايةً ورحمة للمؤمنين ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي ما ينتظر الأشقياء من أهل مكة، المكذبون للقرآن، والمنكرون لرسالة خاتم النبيِّين، إلاَّ وقوع ما أُنذروا به من العذاب، يوم يأتي عاقبة ما وُعدوا به، وهو «يوم القيامة» الذي حدَّده الله لعذابهم، يقول الذين ضيَّعوا القرآن، وتركوا العمل به، لقد جاءتنا الرسلُ، بالأخبار الصادقة، فبلَّغونا الرسالة، ونصحونا فلم نؤمن بكلامهم، حتى جاء وقت الجزاء ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي يقولون متحسّرين

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

نادمين: هل لنا اليوم شفيع فيشفع لنا؟ ليخلِّصنا من هذا الكرب والعذاب؟ أو هل لنا من عودة إلى الدنيا، لنعمل صالحاً غير الذي كنا نعمله، من الشرك، والمعاصي، وقبيح الأعمال!! فبيَّن تعالى أن الذي تمنَّوه لا يحصل لهم بحالٍ من الأحوال، ولهذا قال: ﴿**قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون**﴾ أي حقاً لقد كانوا في الدنيا حمقى، خسروا أنفسهم، وأضاعوا أعمارهم في الشهوات والملذات، وغاب عنهم وبَطَل ما كانوا يزعمونه من شفاعة الآلهة والأوثان!! ثم جاءت الآيات تتحدث عن دلائل القدرة والوحدانية، في هذا الكون البديع، فقال تقدست أسماؤه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي إن خالقكم ومالككم أيها الناس، هو اللَّهُ رب العالمين، المتفرِّدُ بالعظمة والجلال، خلق السموات والأرض في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا، ولو شاء لخلقها في لحظة، ولكنه أراد أن يعلِّمكم عدم التسرع في أموركم، ثم استوى على العرش المجيد، استواءً يليق بجلاله بلا تشبيهٍ ولا تعطيل ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي يجعل سبحانه ظلمة الليل تغطِّي نور النهار، فتذهب ضياءه، لراحة الناسِ وهدوئهم، يطلبه طلباً سريعاً، والتعبيرُ في غاية الروعة والبيان، كأنهما في ميدان سباق، يلحق أحدُهما الآخر بأقصى السرعة، لِيلْحَقه حتى يدركه، ويذهب نوره وضياءه، كما سخَّر لعباده هذه الأجرام العظيمة (الشمس، والقمر، والكواكب) تتحرك وتجري بأمره سبحانه وتدبيره، لمعرفة الفصول، والسنين، والأوقات، كما قال سبحانه: ﴿**هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب**﴾ فبالشمس تعرف الأيامُ، وبالقمر تُعرف الشهورُ والأعوام ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي له جلَّ وعلا الملكُ والتصرف التام، في الخلق والرزق، والإيجاد والإعدام، فهو الموجد لكل شيء، والمتصرف في كل شيء، لا خالقَ ولا مالك، ولا متصرف في الكون غيرُه، تمجَّد وتعظَّم الخالقُ المبدعُ، الحكيم!

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ أي ادعوا أيها الناس ربكم بالخشوع والخضوع والتذلل، وبالإسرار في الدعاء، دون الصياح والصُّراخ، فإنه تعالى لا يحب المجاوزين الحدودَ، المعتدين في الدعاء، برفع الصوت والتشدُّق، عن أبي موسى الأشعري قال: (كنَّا مع رسول الله ﷺ في سفر، فجعل الناسُ يجهرون بالتكبير، فقال لنا النبي ﷺ: اربَعُوا على أنفسكم ـ أي ارفقوا بها ـ إنكم لا تَدْعون أصمَّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً بصيراً، هو معكم أينما كنتم) رواه البخاري. وسمع سعد بن أبي وقاص ولده يدعو، يقول في دعائه: «اللهم إني أسألك الجنة، ونعيمَها، وبهجتها، وكذا وكذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها، وكذا وكذا»، فقال له: يا بُنيَّ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «سيكون قوم يعتدون في الدعاء» فإيَّاك أن تكون منهم، إنك إن أُعطيت الجنةَ، أعطيتها وما فيها من الخير، وإن أُعِذتَ من النار، أُعذتَ منها وما فيها من الشرّ» رواه أحمد وأبو داود.

﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي لا تفسدوا في الأرض، بأنواع الفساد، بعد إصلاح الله لها، ببعثةِ الأنبياء والمرسلين، وادعوا ربكم خوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه، إن رحمته تعالى تغشى المطيعين، أهلَ الإحسان والصلاح ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ برهان آخر على وحدانيته تعالى، وتصرفه في شؤون الخلق، وتدبير الكون، أي هو جلَّ وعلا الذي يبعث الرياح، مبشراتٍ بالخير، قادمةً بالمطر الذي به حياةُ البشر، حتى إذا حملت الرياح سحاباً مثقلاً بالماء، سقنا هذا السحاب إلى أرض مجدبة، لا نبات فيها ولا ثمر ﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أي فأنزلنا في ذلك البلد القاحل المجدب الماءَ، فأخرجنا به من كل أنواع

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾

الثمار، غذاءً وطعاماً لكم!! وهنا موطنُ العظة والاعتبار في قوله **﴿كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾** أي كما أحيينا الأرض الميتة، بالماء النازل من السماء، كذلك نخرج الموتى من قبورهم، لتتذكَّروا قدرة الله وعظمته، وأن من قَدَر على إحياء الأرض بعد موتها، قادر على بعث الناس من قبورهم، وكثيراً ما يضرب القرآنُ المثلَ للبعث والنشور، بالأرض الميتة تحيا بالغيث والمطر، كقوله سبحانه: **﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾** ثم مثَّل تعالى للمؤمن والكافر بهذا المثل العجيب، فقال سبحانه: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ أي والأرض الكريمةُ التربة، يخرج فيها النباتُ حسناً، وافياً، غزير النفع، لطيب تربتها، بمشيئة الله وتيسيره، والأرضُ الخبيثةُ التربة، كالأرض السَّبخة، أو الصَّلدة التي تكثر فيها الحجارةُ، لا يخرج فيها الزرعُ إلاَّ ضعيفاً قليلاً، بعسرٍ ومشقة، كذلك نكرِّر الحجج والمواعظ ونردِّدها، لقوم يشكرون نعم الله تعالى بالتفكر والتدبر. **قال ابن عباس:** (هذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر، فالمؤمنُ طيِّبٌ وعمله طيِّبٌ، كالأرض الطيِّبة ثمرها طيِّب، والكافر خبيثٌ وعملُه خبيث، كالأرض السبخة المالحة، التي لا خير فيها ولا بركة، ولا يُنتَفَع بشيءٍ منها، إلاَّ بظهور البعوض والحشرات)!! رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير.

وبعد دلائل التوحيد، ذكر تعالى قصص بعض الأنبياء، كتسلية لخاتم المرسلين، على ما يلقاه من أذى المشركين، وبدأ بذكر قصة شيخ الأنبياء «نوح» عليه السلام، فقال عزَّ شأنه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي والله لقد أرسلنا نوحاً قبلك يا محمد، إلى قومه الكفرة المفسدين، الذين عبدوا

قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

الأصنام والأوثان، فآذاه قومه وسخروا منه، ونوحٌ عليه السلام شيخ الأنبياء، لأنه أطولُهم عُمُراً، وأشدُّهم بلاءً، فقد مكث في قومه (٩٥٠) تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم إلى الله، ولم ير منهم إلاَّ الكفر والعناد، فقال لقومه: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا معه أحداً، فليس لكم إلهٌ مستحقٌّ للعبادة غيرُه، إني أخاف عليكم عذاب يوم القيامة، العصيب الشديد، الذي لا يعرف هولَه أحدٌ، وصَفَه بالعِظم، لشدَّة ما فيه من كربٍ وهوْل ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي قال الرؤساء والطغاةُ من أشراف قومه: إنَّا لنراك يا نوح، في ذهابٍ عن طريق الحقِّ والصواب، واضحٍ جليٍّ، بنهيكَ لنا عن عبادة آلهتنا!! لم يجبه من قومه إلاَّ أشرافهم، وسادتهم، وهم الذين يتكبَّرون عن دعوة الرسل، لانغماسهم في الشهوات، وحبِّهم للزعامة والرئاسة ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي قال لهم نوح عليه السلام: ليس بي أثرٌ من أنواع الضلالة، لكنني مرسل إليكم من ربِّ العزة والجلال، لهدايتكم وإرشادكم ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أبلغكم ما أرسلني الله به إليكم، وأنصحكم لوجه الله، وأعلم من أمور الغيب ما لا تعلمونه أنتم!!، لقد اتَّهم السفهاء نبيَّهم نوحاً بالضلالة، لأنه دعاهم إلى نبذ عبادة الأحجار، وهذا حال الفجار، يرون الرشاد والهدى ضلالاً، وما هم عليه من الغيِّ والسَّفه رشاداً، وقد نبههم سيدنا نوح إلى أنه رسول، ناصح، أمين، لا يريد لهم إلا الخير، ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي هل تعجبون لأن الله أرسل إليكم رسولاً من البشر؟ بعثه إليكم، ليحذِّركم عاقبة الكفر والعصيان؟ وليرشدكم إلى طريق السعادة والنجاة، ولتنالوا رحمة الله بطاعته وتقواه؟ لا تعجبوا من ذلك، فهذا من لطف الله وإحسانه إليكم!! ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ أي فكذبوا رسولهم نوحاً، مع طول المدة التي

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ﴾

مكثها بينهم، فأنجاه الله ومن معه من المؤمنين من الغرق، بركوبهم في السفينة، وأغرق المكذبين بالطوفان الذي أحاط بهم، فلم يُبق لهم أثراً، ﴿إنهم كانوا قوما عمين﴾ أي كانوا عُمي القلوب، غير مستبصرين، عميت قلوبهم عن معرفة التوحيد، والنبوة، والمعاد، وقوله: ﴿عمين﴾ جمع عَمٍ، وهو عمى القلب، والعمى يكون في البصر، وعمى البصيرة أخطرُ.

ثم ذكر تعالى قصة سيدنا «هود» مع قومه «عاد» فقال تقدَّست أسماؤه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ هذه هي القصة الثانية في هذه السورة الكريمة، أي وأرسلنا إلى قبيلة عاد، رسولاً منهم هو «هود» عليه السلام، وكانت مساكنهم بالأحقاف في اليمن، فقال لهم رسولهم متلطفاً معهم: يا قوم وحِّدوا الله، فليس لكم إلهٌ يستحقُّ أن يُعبد، غير ربكم وخالقكم، أفلا تخافون عذاب الله تعالى إن عبدتم غيره؟ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي قال الأشراف والرؤساءُ من قومه الكفرة المجرمين: إنَّا لنرى فيك السفاهة، وهي الطَّيْشُ وخفَّةُ العقل، حيث فارقتَ دين آبائك، وإنَّا لنعتقد أنك كاذب في دعوى النبوة والرسالة!! رمَوه بالسَّفه وهم السفهاء، لأنه دعاهم إلى عبادة الواحد القهار، ونبذ عبادة الأحجار، وأكَّدوا كلامهم بـ «إنَّ» و«اللام» لغاية العتو والإجرام ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أي قال لهم هود: ليس بي والحمد لله، أدنى شيء من شوائب السفاهة والخفَّة، ولكني مرسل إليكم بالهداية، من رب العزة والجلال، أبلغكم دعوة الله، وأنا لكم رسول ناصح، أريد لكم الخير، وأمين على ما أقول لا أكذب فيه. ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ أي هل عجبتم لأن بعث الله رسولاً من أنفسكم، لينذركم لقاء الله، ويخوِّفكم

وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَاذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

عذابه؟ ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَاذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي اذكروا نعمة الله عليكم، حين استخلفكم في الأرض، من بعد إهلاك قوم نوح، وزاد في أجسامكم قوةً وضخامة، فاذكروا نعم الله واشكروها، لكي تفلحوا وتفوزوا بالسعادة الكبرى ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي قالوا أجئتنا يا هود تتوعدنا بالعذاب، كي نعبد اللّهَ وحده؟ ونهجر عبادة الأوثان والأصنام، التي كان يعبدها آباؤنا، ونتبرأ منها؟ فأتنا بما تعدنا به من العذاب فلن نؤمن لك، إن كنت من الصادقين في قولك!! وهذا منهم منتهى الطغيان والعناد. ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ أي قال لهم رسولهم هود عليه السلام، بعد أن سمع منهم هذا السَّفه: لقد حلَّ وحقَّ عليكم بإصراركم على الكفر والضلال، عذاب مهين، وسخطٌ من رب العزة والجلال، أتخاصمونني في أصنام وأوثان، لا تضرُّ ولا تنفع؟ وضعتم لها أسماء من عند أنفسكم، وسميتموها آلهة بزعمكم؟ وليس عندكم حجة ولا برهان من عند الله على عبادتها؟ فانتظروا نزول العذاب الذي طلبتموه، إني من المنتظرين لما يحلُّ بكم!! وهذا منتهى التهديد والوعيد، قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي أهلكنا قومه المكذبين، بالريح الصرصر العقيم، وأنجيناه ومن معه من المؤمنين، برحمةٍ عظيمةٍ منا عليهم، واستأصلنا قومه بالكلية،

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ

ودمَّرناهم عن آخرهم، فلم نبق منهم أحداً، لأنهم لم يؤمنوا، ولم يرعووا عن غيِّهم أبداً، وكان هلاكهم بأبسط جند الله، بالريح العقيم التي قال الله تعالى عنها ﴿ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم﴾.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذه هي القصة الثالثة، في هذه السورة الكريمة، أي وأرسلنا إلى قبيلة ثمود، نبيّنا صالحاً عليه السلام، وكانت مساكنُهم الحِجْرَ بين الحجاز والشام ـ فقال لهم: يا قوم وحِّدوا ربكم، ولا تشركوا به، فليس لكم إلهٌ مستحقٌّ للعبادة غيرُه، وقد جئتكم بمعجزة جليَّة ظاهرة، تدلُّ على صدق نبوَّتي، هذه الناقة معجزتي إليكم، فاتركوها ترعى في أرض الله، ولا تتعرضوا لها بشيءٍ من السوء، فيحلَّ بكم العذاب والبلاء، أضافَ الناقة إلى الله (ناقة الله) للتعظيم والتشريف، لأنها خُلقت بغير واسطة، من صخر أصمّ، بناءً على طلبهم، فقد رُوي أنهم طلبوا منه معجزة تدلُّ على صدقه، واقترحوا عليه أن يشقَّ لهم صخرة عظيمة، تخرج منها ناقة حامل، أمام أعينهم، وحينئذٍ يصدِّقون برسالته، فدعا الله عزَّ وجلَّ، فخرجت الناقة من حجر صلد، فكانت آية باهرة.

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ﴾ أي وتذكَّروا نعمة الله عليكم، حيث جعلكم خلفاء في الأرض، من بعد إهلاك من سبقكم من الطغاة المتجبرين، وهم قبيلة «عاد» وأسكنكم في أرض الحِجْر، تبنون في سهولها قصوراً رفيعة، وتنحتون الجبال لسكناكم، لطول أعماركم،

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾

وضخامة أجسامكم، فإن الأبنية كانت تبلى، قبل فناء أعمارهم، فلذلك نحتوا بيوتاً في الجبال ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي اذكروا نعم الله التي أنعم بها عليكم، واشكروه على ما تفضَّل به عليكم من جزيل النعم، ولا تتمادوا في الفساد في الأرض، فيهلككم الله كما أهلك من قبلكم!! ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي قال الأشراف والرؤساء من قوم صالح، الذين استكبروا عن الإيمان به، قالوا للمؤمنين الضعفاء من أتباع صالح: هل تعتقدون بأن صالحاً مرسلٌ إلينا من عند الله؟ قالوه على سبيل السخرية والاستهزاء، فأجابهم أتباع صالح بالأسلوب الحكيم ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ أي نحن مؤمنون برسالته، وهذا الجواب منهم في غاية الحُسْن، كأنهم يقولون: إن أمر رسالته معلومٌ واضح مسلَّمٌ، لا يدخله ريب، لما أتى به من المعجز الخارق العظيم، فلا يُحتاج أن يُسْأل عن رسالته؟ وإنما الكلام في وجوب الإيمان به، فنخبركم أنَّا به مؤمنون، ولم يقولوا في جوابهم: نعم إنه مرسلٌ إلينا، وإنما قالوا كلاماً ليس فيه شك: نحن مؤمنون ولا نشكُّ أبداً في رسالته، وهذا من الأسلوب الحكيم ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي قال السفهاء في جواب المؤمنين: نحن كافرون بهذا الذي آمنتم به، يعنون «رسالة صالح» ولم يقولوا: كافرون برسالته، غلواً في الضلال، وتحقيراً للمؤمنين، ثم أخبر تعالى عن نهاية جريمتهم فقال: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي نحروا الناقة، واستكبروا عن امتثال أمر الله، في التحذير من العدوان عليها، وقالوا على سبيل السخرية والتحدي لنبيِّ الله: ائتنا يا صالح بالعذاب

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾

الذي وعدتنا به، إن كنت صادقاً أنك رسول الله!! قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي فأخذتهم الزلزلة الشديدة من تحتهم، والصيحة من فوقهم، فأصبحوا هلكى، لا حركة لهم ولا كلام، ومعنى «جاثمين» أي خامدين هامدين، موتى لا حراك لهم، وأصلُ الجثوم: القعودُ على الأرض وعلى الركب، كما يجثم الطير أو البعير. ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي أدبر عنهم نبيُّهم بعدما جرى عليهم ما جرى، مغتمّاً متحسراً، وقال على سبيل الحزن والتفجع: يا قوم لقد بلَّغتكم الرسالة، وحذَّرتكم عذاب الله، وبذلت وُسعي في نصيحتكم، ولكنكم حمقى شأنكم بُغضُ الناصحين وعداوتهم!! وهذا كما يقول الرجل لصاحبه وهو ميِّت: يا أخي كم نصحتُك، وكم حذَّرتك فلم تقبل قولي!! حتى أهلكتَ نفسك، بالاستمرار على التكذيب والضلال!؟.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه هي القصة الرابعة في هذه السورة، أي واذكر يا أيها الرسولُ لقومك المكذبين المعاندين، حين قال «لوط» عليه السلام لأهل سدوم ـ وهي بلدة قريبة من الأردن ـ أتفعلون تلك الفعلة الشنيعة القبيحة، التي تناهت في القبح، وهي «اللواطة»؟ التي ما فعلها أحدٌ قبلكم في زمنٍ من الأزمان؟ يعني أنهم أول من اخترع وابتكر هذه الجريمة المنكرة، وهي أمر منكر مستقذر، تعافه طباعُ الحيوانات، قال عَمْرُو بن دينار: «ما نَزَا ذَكرٌ على ذَكر قبل قوم لوط» ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ توبيخ وتسفيه آخر لهم، يقول: لقد بلغَتْ بكم السفاهةُ والجهالة، أنكم تتركون النساء، وتأتون الذكور في أدبارهم، لقضاء الشهوة البهيمية، والحيواناتُ لا تفعل ذلك، فقد انحدرتم إلى درجة أصبحتم فيها أحطَّ من البهائم، وهذا العمل القبيحُ الشنيعُ، ما هو إلاّ

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ

لمجاوزتكم الحدَّ في الطغيان والإجرام ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي ما كان جواب هؤلاء السفهاء لنبيِّهم، إلاّ أن قال بعضهم لبعض: أخرجوا لوطاً وأتباعه المؤمنين، من بلدتكم هذه، لأنهم أناسٌ يتورَّعون عن إتيان الرجال، ليتطهَّروا من الفواحش، قالوا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء!! عاب قوم لوط نبيَّهم وأتباعه، بما يُمدح به الإنسانُ، فأصبحت الطهارةُ في نظرهم قذارة، ينبغي أن يُعاقب عليها الإنسان، بالطرد والإخراج من الأوطان، قال تعالى مذكِّراً بعاقبتهم الوخيمة ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي فنجينا رسولنا لوطاً من العذاب الذي حلَّ بقومه، وأنجينا أهله المؤمنين معه، إلا امرأته فإنها كانت كافرة، تخفي الكفر، فهلكت مع الهالكين، ومعنى ﴿الغابرين﴾ الباقين، الذين بقوا في ديارهم فهلكوا، وأرسلنا على أولئك المجرمين، نوعاً عجيباً من العذاب، هو الحجارة من سجيل، أرسلناها عليهم كالمطر، فانظر أيها السامع بعين الاعتبار، كيف كانت نهاية أولئك المجرمين الأشرار؟ ألم تكنْ شديدةً فظيعةً مدمِّرة!؟.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ﴾ هذه هي القصة الخامسة، أي وأرسلنا إلى أهل مدين ـ وهي مدينة بقرب معان في شرق الأردن بطريق الحجاز ـ رسولنا شعيباً عليه السلام، فقال لقومه: وحِّدوا الله واعبدوه، فليس لكم إلهٌ يستحق العبادة، غيرُ الله جلَّ وعلا، قد جاءتكم معجزة من الله تدلُّ على صدقي، توجب عليكم الإيمان برسالتي، ولم يذكر القرآن ما هي تلك المعجزة، لأنه من المعلوم ضرورةً أن كل نبيٍّ أيَّده الله ببعض المعجزات ﴿ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ

ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ كان قوم شعيب قد اشتهروا بالتطفيف في الميزان، والبخس في المكيال، فحذَّرهم نبيُّهم من ذلك، والمعنى: أتمُّوا للناس حقوقهم، بإيفاء الكيل والوزن، ولا تُنْقِصوا حقوق الناس فتظلموهم، ولا تعملوا بالمعاصي في الأرض، بعد أن أصلحها الله بالشرائع، وببعثة الأنبياء والمرسلين، ذلكم الذي آمركم به، خير لكم من الاستمرار في الظلم والعدوان، إن كنتم مصدِّقين لي في قولي!! ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ أي لا تجلسوا بكل طريقٍ تخوِّفون بالقتل من أراد الإيمان، وتمنعون الناس عن الهداية، تطلبون أن يكون دينُ الله مشوَّهاً بإلقاء الشُّبَه، لئلا يدخل فيه أحد، فقد كانوا يقعدون على الطريق، يخوِّفون الناسَ أن يأتوا شعيباً، ويقولون لهم: إن شعيباً كذَّابٌ، فلا يفتنكم عن دينكم ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أي اذكروا نعمة الله حين كنتم قلَّة قليلة، فأصبحتم كثرةً وفيرة، وكنتم فقراءَ فجعلكم اللَّهُ أغنياء، وكنتم أذلة فأعزَّكم اللَّهُ وقوَّاكم، فاشكروا الله تعالى بطاعته، وطاعة رسوله، وترك الفساد في الأرض، وانظروا ما حلَّ بالأمم السابقة، حين عصوا الرسل من الهلاك والدمار؟ ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ أي وإن كان فريق منكم آمنوا برسالتي، وصدَّقوني فيما جئتُ به من عند الله، وفريقٌ كفروا وجحدوا برسالتي، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا بحكمه العادل، وهو سبحانه أعدلُ من حكم، وفي قوله ﴿فاصبروا﴾ وعيدٌ وتهديد شديد!.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾

ولنستمع إلى جواب الأشقياء لنبيِّهم شعيب، فقد هدَّدوه وتوعَّدوه بالطرد والإخراج من الوطن ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ أي قال أشرافهم المستكبرون عن الإيمان بالله، بعد أن رأوا صلابة شعيب عليه السلام: والله لنخرجنك يا شعيب ومن آمن برسالتك من بلدتنا، أو تكونون معنا على ديننا، أي تصيرون مثلنا!! قال لهم نبيُّ الله شعيب: أتجبروننا وتكرهوننا على العودة في دينكم، ولو كنا كارهين لملَّتكم؟ استفهامٌ يراد به الإنكار على سوء صنيعهم القبيح، ثم زاد في التشنيع عليهم فقال: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ أي إن عدنا إلى دينكم الأعوج، واتبعنا ما أنتم عليه من الباطل، بعد إذ أنقذنا الله منه بالإيمان، نكون مختلقين على الله أعظم أنواع الكذب، وهذا تيئيسٌ للكفار من العودة إلى دينهم ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أي لا يصحُّ ولا ينبغي لنا أن نعود إلى دينكم، في حالٍ من الأحوال، إلا إذا شاء الله لنا الشقاء والخذلان، فذلك أمره إلى الله، وسع علمُ الله كل شيء، فمحالٌ من لطفه أن يشاء عودنا إلى الكفر ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ أي على الله وحده اعتمادنا، وبه ثقتنا، وهو الكافي لمن توكل عليه، ثم ختم شعيبٌ حديثه معهم بقوله: ربنا احكم بيننا وبينهم بحكمك الحقِّ العادل، وأنت خير من حَكم، لأن حكمك منزَّهٌ عن الجور والظلم!! ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ أي قال أشرافهم بعد أن رأوا صلابة شعيب ومن معه من الأتباع، وخافوا أن يؤمن قومهم، قالوا: لئن دخلتم في دينه، وتركتم دين آبائكم، إنكم حقاً

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾

خاسرون، مضيِّعون لسعادتكم، لإيثاركم الضلالة على الهدى!! جعل السفهاءُ اتِّباعَ شعيب شقاوةً وخسارة، وما هم عليه من الضلال سعادةً وفلاحاً، ويا لهم من حمقى سفهاء!! قال تعالى مبيناً عاقبتهم الوخيمة: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أي فأخذتهم الزلزلة العظيمة الفظيعة، فأصبحوا ميِّتين جاثمين على الركب لا حراك لهم، وقد اجتمعت عليهم أنواع العقوبة: الرجفةُ، والصيحةُ، وعذابُ يوم الظُّلَّة، وهي نار فيها شرر ولهب، جاءتهم على صورة سحابة، فصاح بهم جبريل، ورجفت بهم الأرض، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخَمَدت الأجسام ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ أي هؤلاء الأشقياء الفجار، الذين كذبوا نبيَّهم شعيباً، صاروا كأنهم لم يقيموا في ديارهم، ولم يسكنوا فيها، لأن الله أهلكهم عن بَكْرَة أبيهم، وهم الذين شقوا وخسروا، دون المؤمنين الذي هُدِّدوا بالطرد من الأوطان، ثم كانت عاقبة الأشرار: الهلاك والدمار ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أي: فأعرض عنهم نبيهم وقال لهم، بعدما هلكوا، تأسفاً وحسرة لشدة حزنه عليهم: يا قوم لقد بلَّغتكم شريعة الله على الوجه الأكمل، ونصحتكم فلم تسمعوا قولي، ولم تصدِّقوني، فكيف أحزن عليكم، وأتوجَّع لهلاككم، بعد أن كذَّبتموني، وعصيتم أمري؟! .

ثم ذكر تعالى سُنَّته الإلهية، في الانتقام ممن كفر به، وكذَّب رسله، وعاقبة كل طاغ مجرم، فقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ في الكلام حذفٌ تقديره: وما أرسلنا في بلدٍ نبياً من الأنبياء، أي (فكذَّبه أهلُها) فحذفت هذه الجملة لدلالة السياق عليها، إلاَّ أخذنا أصحابها بأنواعٍ من الشدة، فعاقبناهم بالبؤس والفقر، والجوع والمرض، والمصائب والكوارث، كي يتضرَّعوا ويخضعوا لربهم،

ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾

ويتوبوا من ذنوبهم ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي ثم أبدلناهم وأعطيناهم مكان ما كانوا عليه ـ من البلاء والمحنة، والفقرِ والمرض ـ الرخاءَ والسَّعةَ، والغنى والصحةَ، حتى كثروا ونَمَوْا، فأبطرتْهم النعمة، ولم يتَّعظوا، وقالوا: هذه عادةُ الدهر، وقد أصاب آباءنا مثل ذلك من البلايا والمصائب، فلْنثبُتْ على دين آبائنا، والغرضُ من هذا الخبر، أن الله عزَّ شأنه، ابتلاهم بالمصائب والكوارث، لينيبوا إليه، فلم يرجعوا، ثم ابتلاهم بالخيرات والحسنات، ليشكروا فلم يفعلوا، فلم يبق إلاَّ أن يهلكهم بالعذاب، ولهذا قال سبحانه: ﴿فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ أي أخذناهم بالهلاك والعذاب فجأة، من حيث لا يعلمون ولا يدرون، ولم يخطر على بالهم!! والأخذُ بالعقاب فجأةً وبَغْتةً، أشدُّ ألماً، وأعظم حسرة.

ثم حكى تعالى السبب في دمار الأمم فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي ولو أن أهل تلك القرى المهلَكَة، الذين كذَّبوا رسلهم، آمنوا بربهم حقَّ الإيمان، واتقوا الكفر والمعاصي، لوسَّعنا عليهم أرزاقهم، وأكثرنا عليهم الخيرات، بإنزال المطر، وإخراج الزرع والثمر، ولكنهم كذَّبوا وفجروا، وانتهكوا محارم الله، فأهلكناهم ودمَّرناهم بسوء كسبهم وصنيعهم ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار، أي هل أمن هؤلاء الطغاةُ، المكذِّبون لرسل الله، أن يأتيهم عذابنا ليلاً وقت راحتهم، وهم نائمون على فرشهم لا يشعرون؟ ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي وهل أمنوا أن يأتيهم عذابنا نهاراً جهاراً، وهم يلهون كالأطفال من فرط

أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

الغفلة كأنهم يلعبون؟ ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أي هل أمنوا استدراجه تعالى لهم بالنعم، ثم أخذه لهم من حيث لا يحتسبون؟ فلا يأمن عقابه تعالى إلا القوم الخاسرون، الذين خسروا إنسانيَّتهم وعقولهم، فصاروا أجهل من البهائم!! سمَّى تعالى إمهاله واستدراجه لهم بأنواع النِّعم (مكراً)، لأنه في صورة من يمكر بصاحبه، ليوقعه في المهلكة، ففي الآية استعارة لطيفة، قال الحسن البصريُّ: المؤمن يعمل بطاعة الله، وهو مشفقٌ خائفٌ وَجِلٌ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو مطمئنٌ آمنٌ ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ أي أوَلم يظهر ويتَّضح للأشقياء، الذين يخلفون من قبلهم، ويرثون ديارهم بعد هلاكهم، أننا لو شئنا لأهلكناهم بذنوبهم، كما أهلكنا من سَبَقهم، أفلا يتَّعظون ويعتبرون؟! ونختم على قلوب هؤلاء المجرمين فهم لا يسمعون النصيحة، سماع تبصُّر وتفكر، لأنهم كالصمِّ الذين لا يسمعون ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي هذه أخبار الأمم المهلكة، كقوم نوح، وعاد، وثمود، نقصُّ عليك يا محمد بعض ما جرى عليهم، من أنواع البلايا والعقوبات، كالخسف، والرجفة، والرجم بالحجارة، ليتَّعظ ويعتبر من يسمع، ولقد جاءتهم رسلهم بالمعجزات الواضحات، فما آمنوا ولا اتعظوا، بل استمرُّوا على التكذيب من حين مجيء الرسل، إلى أن ماتوا على الكفر والضلال، كذلك يختم الله على قلوب أولئك الضالين، فلا تؤثر فيهم المواعظُ والعِبَر، والآية تحذير لكفار مكة، أن يحلَّ بهم ما حلَّ بالطغاة المفسدين ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ﴾ أي وما وجدنا

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

لأكثر الناس وفاءً بالعهد، بل وجدناهم خارجين عن الطاعة، عُصاةً فاسقين، يتقلّبون في نِعَم الله، ويكفرون المنعم!! ولذلك استحقوا العذاب.

ثم جاء الحديث عن قصة موسى عليه السلام، مع الطاغية الجبار فرعون اللعين، وهي القصة السادسة في هذه السورة الكريمة، وقد أفاض القرآن الكريم، في سَرْد أخبارها وأحداثها، لما فيها من العظات والعبر، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي ثم أرسلنا من بعد الرسل المتقدِّم ذكرهم، أرسلنا رسولنا «موسى بن عمران» بالحجج الساطعات، والمعجزات الباهرات، إلى فرعون ـ ملكِ مصر ـ وأشراف قومه، فكفروا وجحدوا بها ظلماً وعدواناً، فانظر أيها السامع، ماذا كان مصير المفسدين الظالمين؟ ألم نغرقهم أجمعين بمرأى من بني إسرائيل؟ وهذا أبلغ في العذاب لأعداء الله، وأشفى لقلوب أولياء الله!! ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي قال موسى لفرعون الطاغية الجبار: إني مرسل إليك من ربِّ العزة والجلال، خالقِ كل الخلائقِ، أدعوك لعبادةِ رب العالمين، وأنهاك عن دعوى الربوبية!! والظاهرُ أن فرعون كذَّبه في دعوى الرسالة، فأجابه موسى بقوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي جدير بي أن لا أقول على الله إلا الحقَّ، لأني رسولٌ، والرسولُ لا يكذب على أحد، والدليل على صدقي أنني قد جئتكم بمعجزة ظاهرة قاطعة من الله، تشهد لي بأني رسوله، فاترك سبيل بني إسرائيل، حتى يذهبوا معي إلى الأرض المقدسة، التي هي وطن آبائهم ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي قال فرعون لموسى: إن كنت جئت بأمرٍ خارق، من عند من أرسلك كما تدَّعي، فأحضرها عندي،

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾

ليثبت بها صدقك في دعواك ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أي رمى موسى عصاه من يده، فإذا هي تنقلب إلى حيَّة ضخمة كبيرة، تتَّجه مسرعةً نحو فرعون، كأنها تريد أن تبتلعه، ولم يكن ذلك وهماً أو خيالاً، وإنما انقلبت حقيقة إلى ثعبان ظاهر للعيان، تتحرك بسرعة، وتلتقم ما حولها، ولهذا قال تعالى: ﴿**ثعبان مبين**﴾ أي ظاهرٌ أمره، ولهذا كانت معجزة، وأراه معجزة أخرى، حيث أدخل يده في فتحة ثوبه، ثم أخرجها من تحت إبطه، فإذا ليده نور ساطع عجيبب، يغلب نورُها نورَ الشمس، فهي كالشمس تتألق ضياءً ونوراً لكل ناظر ومشاهد. رُوي أن موسى عليه السلام، لمَّا ألقى العصا، صارت حية عظيمة، فاغرةً فاها، وتوجهت نحو فرعون، فوثب عن سريره هارباً، وصاح: يا موسى! أنشدك بالذي أرسلك أن تأخذها، وأنا أومن بك، وأرسلُ معك بني إسرائيل، فأخذها فعادت عصا كما كانت.. وفي هذه اللحظة، شعر أعوان فرعون بخطر موسى عليهم، وأرادوا أن يقلِّلوا من شأنه، فنسبوا ما رأوه منه إلى السحر ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي قال الأشراف من حاشية فرعون ـ وهم أصحابُ مشورته ـ: إن هذا لعالمٌ بالسحر، ماهرٌ به، قالوه تصديقاً لفرعون، يريد أن يخرجكم من أرض مصر بسحره، فماذا تأمروننا أن نفعل به؟ وهذا من قول الملأ قالوه لفرعون بصيغة التعظيم، كما يُخاطَب الجبَّارون من الزعماء والرؤساء، فيقال للواحد منهم: ماذا ترون يا سيادة الرئيس؟ وقيل: إنه من قول فرعون: يقول للحاشية (ماذا تأمرون) أي بماذا تشيرون عليَّ في أمره؟ ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ الإرجاء: التأخيرُ، أي قالوا: أخِّر أمرهما حتى ترى رأيك فيهما، وأرسل في أنحاء البلاد، من يجمع لك السحرة، من جميع مدائن مصر، فإن غلبهم موسى صدَّقناه، وإن غلبوه علمنا أنه ساحر ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾أي يأتوك بكل ساحرٍ ماهرٍ في السحر، وكان رؤساء السَّحرة، بأقصى صعيد

وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾

مصر. ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ في الكلام محذوف يدلُّ عليه السِّياقُ تقديره: بعث فرعون من يجمع له السحرة، فجُمِعوا له من كل حَدْب وصَوْب، وسارعوا إلى استجابة طلب الطاغية، فلمَّا جاءوا فرعون، قالوا واثقين من غلبتهم: لا بدَّ لنا من أجرٍ عظيم، إن نحنُ غلبنا موسى وهزمناه، وأبطلنا سحره!! طمعوا في عطائه وإكرامه لهم، بعد أن استنجد بهم، وجَمَعهم من كلِّ قطر ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أي قال فرعون: نعم لكم الأجر الكبير، وأزيدكم على ذلك، بأن أجعلكم من المقَربين عندي، من خاصَّتي وأهل مشورتي!! أعطاهم ما يحبون وزادهم على ما طلبوا ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ خيَّروا نبيَّ الله موسى، إمَّا أن يبدأ هو، أو يبدءوا هم، وكان كلامهم هذا من باب الأدب، كما قال بعض المفسرين، والأظهر ـ والله أعلم ـ أنهم قالوا ذلك، من باب الاعتزاز بالنفس، واليقين بالغلبة، وعدم الاكتراث بشأن موسى، كما يقول الواثقُ من نفسه: هل أبدأ أنا أولاً، أم تبدأ أنت؟ ﴿قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ أي قال لهم نبيُّ الله موسى: **ألقوا ما أنتم ملقون!!** فلما ألقوا العِصِيَّ والحبال سحروا أعين الناس، بأن خيَّلوا إليها ما لا حقيقة له، ولم يقل سبحانه: «سحروا النَاسَ» وإنما هو تخييلٌ للأعين، كما قال سبحانه: **﴿يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾** وهذا هو الفرق بين السحر، والمعجزة، لأن السحر صرفُ الأعين عن إدراك ذلك الشيء، والمعجزةُ: قلبُ الشيء حقيقة، كقلب العصا إلى ثعبان، وإخراج الناقة من الصخر الأصمّ **﴿واسترهبوهم﴾** أي أفزعوهم وأرهبوهم إرهاباً شديداً، حيث خيَّلوها لهم أنها حيات تسعى، وأتوا بسحرٍ عظيم، يهابه من رآه ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي وأوحينا إلى موسى، بأن ألقِ عصاك لترى العَجب العُجاب، فألقاها فإذا هي تبتلع بخفَّةٍ وسرعة، حبالهم

فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾

وخشبهم التي ألقوها، وكلُّ ما زوَّروه من الكذب والباطل، وهذا معنى قوله: ﴿**يأفكون**﴾ من الإفك بمعنى الكذب، ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي فثبت وظهر صدقُ موسى، أنه رسول ربِّ العالمين، وبطل إفكُ السحرة وباطلُهم، وما كان يُخطِّطه فرعونُ والسحرةُ، من الزور والبهتان ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ * وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ أي غُلب فرعونُ وأتباعُه، في ذلك الحشد والمجمع العظيم، وصاروا أذلاَّء مبهوتين، والمراد بهم: فرعونُ وحاشيتُه، أما السحرة فقد خرُّوا ساجدين لله رب العالمين ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أي خرُّوا ساجدين معلنين إيمانهم، لأن الحقَّ بَهرهم، فلم يتمالكوا أنفسهم من السجود، فكأن أحداً دفعهم وألقاهم، وقالوا أمام الجبار: آمنا بالله الواحد الأحد، ربِّ الخلق أجمعين، وربِّ (موسى وهارون)، وإنما أكَّدوا كلامهم بذكر (موسى وهارون)، لئلا يتوهَّم أحدٌ أنهم أرادوا به فرعون، حيث كان يدَّعي الربوبية، وهنا طارَ رُشْدُ فرعون، الذي أتى بهم لينصروه، فخذلوه، وآمنوا بموسى وربِّه الذي أرسله، فلم ير أمامه طريقاً إلاَّ التلبيسَ على الناس، بأنهم متآمرون مع موسى على هذا الأمر ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي قال فرعون الجبار للسحرة، موبِّخاً ومتوعِّداً لهم: آمنتم بموسى قبل أن تستأذنوني؟ ما صنيعكم هذا إلا مؤامرة منكم، وحيلة احتلتموها مع موسى، لتخرجوا الأقباط من مصر، وتَخْلُص الديارُ لكم ولبني إسرائيل، قال هذا تمويهاً على الناس، خشية أن يتبعوا السحرة في الإيمان، فسوف تعلمون ما يحلُّ لكم، وهذا وعيد وتهديدٌ مجمل، عقَّبه بالتفصيل فقال: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي سوف أقطع من كل واحدٍ منكم يده ورجله، ومعنى قوله: ﴿**من خلاف**﴾ هو أن يقطع من أحدهم يده اليمنى، ورجله اليسرى، أو يقطع يده اليسرى

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾

ورجله اليمنى، ثم أصلبكم على الأعمدة حتى تموتوا، والصَّلبُ: هو الشدُّ والربط على شجرة أو عمود، أياماً أو شهوراً، ليراهم الناس فيكون زاجراً للآخرين. ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أي قالوا بكل جرأةٍ وشجاعة، إنَّا راجعون إلى الله بالموت لا محالة، فلا نبالي بوعيدك، وحبَّذا الموتُ في سبيل الله!! وما تُنكر منا، ولا تعيب علينا، إلاَّ إيماننا بالله ورسوله، وذلك أفضل المحاسن، ولسنا نتخلَّى عنه طلباً لمرضاتك، ثم أعرضوا عن مخاطبة فرعون، وفزعوا إلى ربِّ العزة والجلال فقالوا: يا ربنا أفضْ علينا صبراً يغمرنا، عند تعذيب فرعون لنا، وتوفَّنا على دين الإسلام، غير مفتونين بما نلقى من البلاء!! فأخذ فرعونُ السحرةَ، فقطعهم ثم صلبهم على شاطىء نهر النيل، **قال قتادة**: كانوا أول النهار كَفَرةً سَحرة، وفي آخر النهار شهداء بَرَرة.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ لمَّا رأى فرعون ما رأى من موسى عليه السلام، من معجزة العصا، واليد، خافه أشدَّ الخوف، فلم يتعرض له بسوء، بل خلَّى سبيله، فلذلك قال له أشراف قومه: أتترك موسى وجماعته، ليفسدوا في أرض مصر، ويترك عبادة آلهتك؟ وفي هذا إغراء لفرعون بموسى والمؤمنين، وتحريضٌ له على قتلهم وتعذيبهم، كان فرعون قد صنع لقومه أصناماً، وأمرهم أن يعبدوها تقرباً إليه، ولهذا كان يقول لهم: **﴿أنا ربكم الأعلى﴾** فقد جعل نفسه الإله الأعلى، ولمَّا حرَّضه قومه على موسى وأتباعه، قال مجيباً لهم: سنقتل أبناءهم الذكور، ونستبقي نساءهم للخدمة، كما كنا نفعل بهم من قبل، ونحن مستعلون عليهم بالقوة، والقهر، والسلطان، ولم يقل: سنقتلُ موسى، لأنه يعلم أنه لا يقدر عليه. ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي قال موسى

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾

لقومه تسليةً وتسكيناً لهم ـ حين سمعوا قول فرعون يتوعدهم ـ: استعينوا بالله على فرعون، فسيكفيكم الله شرَّه، واصبروا على ما ينالكم من المكاره، فالأرضُ كلُّها لله تعالى، يعطيها من شاء من عباده، والنتيجةُ في النهاية، والنصرُ والظفرُ، لمن اتقى الله تعالى ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي قال بنو إسرائيل: لقد أوذينا من جهة فرعون، من قبل أن تأتينا بالرسالة، ومن بعد ما جئتنا بها، يعنون به ما توعَّدهم به فرعون، من إعادة قتل الأولاد، فهم لا يزالون في المحنة والبلاء، قبل بعثة موسى وبعد بعثته!! فأجابهم موسى حين رأى شدة جزعهم، مسلِّياً لهم: لعل الله يهلك أعداءكم ويجعلكم خلفاء في الأرض بعد هلاكهم، ليرىٰ ما تفعلون من الصلاح أو الفساد، سلك موسى طريق الأدب مع الله، فساق الكلام مساق الرجاء ﴿عسى ربكم﴾ وقد حقَّق الله رجاءه، فأهلك فرعون الطاغية الجبار وأتباعه، وملَّك بني إسرائيلَ أرض مصر، ثم جاء التفصيلُ لما حلَّ بقوم فرعون من البلايا والنكبات، والقحط والجدب، والطوفان والجراد، ليكون ذلك عظةً وعبرة للطغاة، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ اللام للقسم أي واللّهِ لقد ابتلينا فرعون وأتباعه، بالقحط والجدب، وهو المعبَّر عنه بالسنين، كما ابتليناهم بإذهاب الثمار من كثرة الآفات، زيادة في القحط، لكي ينتبهوا إلى أن ذلك بشؤم كفرهم ومعاصيهم، ويتَّعظوا وينزجروا عما هم عليه، من العُتوِّ، والظلم، والفساد، لأن الشدَّةَ ترقِّق القلوب، وتجلب الخشية والإنابة!! فأما أهل الشقاء، فلا تنفعهم إلاَّ صيحة العذاب، ولهذا بيَّن تعالى أنهم مع كثرة المحن والشدائد، لم يزدادوا إلا تمرداً وكفراً، فقال سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي فـــإذا

وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ

جاءهم الخِصبُ والرخاءُ، قالوا: هذا من أجلنا، ونحن مستحِقُّون له، ولم يروا أن ذلك من فضل الله عليهم، وإن جاءهم الجدبُ والبلاءُ. تشاءموا بموسى ومن معه من المؤمنين، وقالوا: ما أصابنا ذلك إلاّ بشؤمهم، قال تعالى رداً على سفههم: ﴿**ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾ أي ما أصابهم من شرٍّ وبلاء، إنما هو بتقدير الله وقضائه، بسبب كفرهم وإجرامهم، لا بشؤم موسى، ولكنَّ أكثرهم يجهلون حكمة الله وتدبيره ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي قال قوم فرعون لموسى، بعدما رأوا من الآيات الباهرة: أيَّ شيء تأتينا به يا موسى من المعجزات، لتسحر بها أعيننا، فلن نؤمن بنبوَّتك، سمَّوا تلك الخوارق «آيات» على سبيل السخرية والاستهزاء، لا إيماناً بها، ثم جعلوها من قبيل السحر، مبالغة في العناد والضلال.

قال تعالى مبيِّناً عاقبة أمرهم: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي فأرسلنا عليهم، عقوبةً لهم على جرائمهم، السيلَ الدافق، الذي خرَّب مزارعهم وبساتينهم، وقضى على الثمار، **(والجراد)** الذي حَصَد ما بقي من الزرع والنبات، **(والقُمَّل)** أي السوسَ الذي نخر لهم ما جمعوه من الحبوب، **(والضفادع)** حتى ملأت بيوتهم وطعامهم، وكانت تدخل عليهم كالذباب، لا يستطيعون التخلص منها، وإذا جلسوا لطعامهم وثبت الضفادع عليهم نحو أفواههم، **(والدم)** أي صارت مياههم دماً، فما يستقون من بئرٍ ولا نهرٍ إلاّ وجدوه دماً أحمر عبيطاً ﴿**آيات مفصلات**﴾ أي دلائل وعلامات واضحات، تشير إلى سخط الله عليهم، ومع ذلك استكبروا عن الإيمان، وطاعة الرحمٰن، ولهذا قال بعده: ﴿**فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين**﴾ أي تكبَّروا عن الإيمان بالله ورسوله، لغلوهم في الضلال والإجرام.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ

لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي وحين نزل بهم ذلك العذاب المهين، استغاثوا بموسى في كل مرةٍ من وقوع المحنة، فقالوا يا موسى ادع لنا ربك، ليكشف عنا البلاء، بحقِّ ما أكرمك به من النبوة، ثم قالوا مؤكِّدين الوعد: ونقسم لك بالله، لئن رفعت عنَّا العذاب، لنصدِّقنَّ برسالتك، ولنرسلنَّ معك أتباعك من بني إسرائيل!! فدعا موسى ربه فكشف عنهم البلاء، فنقضوا العهد، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أي فلمَّا كشفنا عنهم ذلك البلاء، بدعاء موسى عليه السلام، إلى زمنٍ هم واصلون إليه لا محالة، وهو وقتُ إغراقهم في البحر، إذا هم ينقضون عهودهم، ويصرُّون على الكفر ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ أي فأهلكناهم بإغراقهم في البحر، عقوبةً لهم على إجرامهم، بسبب تكذيبهم بآيات الله، وإعراضهم عنها، وعدم الإذعان والقبول لدعوة موسى عليه السلام، فلذلك كان الهلاكُ لهم بالإغراق.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ أي وأورثنا بني إسرائيل، الذين كان يقهرهم فرعون ويذلُّهم، أرضَ الشام، وملَّكناهم جميع جهاتها ونواحيها، والأرضَ المقدسة التي طلب موسى من فرعون أن يرسلهم إليها، التي باركنا فيها بالخِصب وسعة الأرزاق، وبكونها مساكن الأنبياء، وتمَّ وعدُ الله الصادق لبني إسرائيل، بالتمكين لهم في الأرض بسبب صبرهم على الأذى في سبيل الله، وخرَّبنا ودمَّرنا القصور والأبنية، التي كان يصنعها فرعونُ وجماعتُه، وما كانوا يعرشونه

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾

من البساتين والمزارع، يعني أنه تعالى دمَّر عليهم الديار، وخرَّب لهم الثمار، وكلمةُ الله الحُسْنَى في قوله: ﴿**وتمت كلمة ربك الحسنى**﴾ هي وعده سبحانه لهم في قوله: ﴿**ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض..**﴾.

وإلى هنا تنتهي قصة فرعون الجبار، مع جنده الأشرار، ويبتدىء الحديث عن بني إسرائيل، وما أغدق الله عليهم من النعم الجسام، والآيات العظام، وما أحدثوه من الأمور الشنيعة، تسليةً للرسول ﷺ لما رآه من اليهود بالمدينة المنورة، فإنهم جَرَوْا على سيرة أسلافهم مع موسى عليه السلام، لأن طبيعتهم نكران الجميل، وحبُّ التمرُّد والعصيان، فيقول سبحانه: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي نجينا بني إسرائيل من الغرق، وعبرنا بهم البحر - بحر القلزم عند خليج السويس - فمرُّوا على قوم من العمالقة الكنعانيين، الذين أُمر موسى عليه السلام بقتالهم، وهم يعكفون على أصنام أي يواظبون على عبادتها، ويسجدون لها، ويعبدونها من دون الله، فقالوا لنبيهم موسى: اجعل لنا صنماً نعبده، كما لهؤلاء أصنام يعبدونها!! وهذا القول منهم يدلُّ على غاية السَّفه والجهل، وكأنهم استحسنوا عبادة الأصنام، ولهذا ردَّ عليهم موسى بقوله: ﴿**إنكم قوم تجهلون**﴾ أي إنكم حقيقة قوم سفهاء جهلة، لا تعرفون عظمة الله وجلاله!! تعجَّب موسى من كلامهم القبيح، فوصفهم بالجهل المطلق، بعدما شاهدوا الآيات الكبرى، وأكَّده بـ «إنَّ» المفيدة للتأكيد، لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع، ثم زادهم في التوضيح والبيان فقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي إن هؤلاء الذين يعبدون تلك التماثيل والأصنام، مدمَّرٌ وهالك ما هم عليه من الدين الباطل، يعني أنَّ الله تعالى يهدم دينهم الذي هم عليه عن قريب، ويُحطِّم أصنامهم فيجعلها فُتاتاً، وكلُّ أعمالهم في خسران، فكيف تطلبون أن أصنع لكم مثل ما يعبدون من الأوثان؟ ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

أي قال لهم موسى موبخاً لهم، ومنكراً عليهم طلبهم: أأطلب لكم معبوداً غير الله تعالى، المستحقِّ وحده للعبادة؟ والحالُ أن الله أكرمكم، وخصَّكم بنعم جليلة لم يعطها غيركم؟ وفضَّلكم على أهل عصركم وزمانكم، فكيف تقابلون هذه النعم بعبادة غير الله؟ نبَّههم موسى عليه السلام على سوء مقالتهم، حيث قابلوا النعم، بطلب عبادة أخسِّ شيء، وهي (الأوثان والأصنام) التي جاء الأنبياء جميعاً لهدمها، ودعوة الخلق إلى عبادة الحق جلَّ وعلا.

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل، نعمتي الجليلة عليكم، بإنجائكم من فرعون الطاغية الجبار وزبانيته، الذين كانوا يذيقونكم أشدَّ أنواع العذاب وأسوأه، وذلك بتذبيح الذكور من أبنائكم، واستبقاء الإناث للخدمة، وفي هذا العذاب اختبار وامتحان لكم عظيم، وقد نجاكم الله منه أفلا تشكرونه؟.

ثم ذكر تعالى مناجاته لموسى، فقال سبحانه: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي وعدنا موسى لتكليمه ومناجاته ثلاثين ليلة، وأكملناها بعشر ليال، فتمت المناجاةُ له بعد أربعين ليلة، وقال موسى لأخيه هارون: كن خليفتي على بني إسرائيل، إلى أن أرجع إليهم من جبل الطور، وأصلحْ أمرهم، ولا تسلُكْ طريقَ من دعاك إلى غير ما يرضي الله!! والمقصود تحذيره من مسايرة أهواء المفسدين. أما سببُ تأخير المناجاة، إلى تمام أربعين ليلة، فهو ما روي أن موسى عليه السلام، صام ثلاثين يوماً استعداداً لنزول التوراة والمناجاة، ولمَّا أتمَّ الثلاثين، شعر بتغيُّرِ رائحة فمه فاستاك، فأوحى الله إليه: أما علمتَ يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك!؟ فأمره أن يزيد عشرة أيام، فأصبحت تمام الأربعين.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ﴾ أي ولمَّا جاء موسى للوقت الذي وعدناه فيه، وهو تمام أربعين يوماً، وناجاه ربه وكلَّمه، من غير واسطة أحدٍ من الملائكة، قال موسى: يا رب! أرني ذاتك المقدَّسة، لأنظر إليك وأراك!! طلب موسى رؤية ربه بعد سماع كلامه، لغلبة شوقه إليه، ظناً منه أن الرؤية في الدنيا ممكنة، فقال له ربه: إنك لا تستطيع رؤيتي في الدنيا بهذه العين الفانية، ولكنْ سأتجلَّى لما هو أقوى منك وهو الجبل، فإن ثبت الجبل مكانه، ولم يتزلزل ولم يتفتَّت، فعند ذلك يمكن أن تراني، وإلاَّ فلا طاقة لك. ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ﴾ أي فلما ظهر على جبل الطور، من نور ربِّ العزة والجلال، مقدار الخنصر من اليد، تفتَّت الجبلُ فصار تراباً، وخرَّ موسى مغشياً عليه من هول ما حدث، **قال ابن عباس**: ما تجلَّى منه سبحانه للجبل إلا قدر الخنصر، فصار الجبل تراباً، وخرَّ موسى مغشياً عليه، وفي الحديث الشريف: «أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿**فلما تجلى ربه للجبل..**﴾ الآية، فأشار ﷺ بأصبعيه هكذا، فوضع طرفَ إبهامه على أنملة الخنصر، فساخَ الجبلُ، وخرَّ موسى صعقاً» أخرجه الترمذي، ومعنى (ساخ الجبلُ) أي تطاير فصار ذراتٍ وتراباً متناثراً، من هيبة جلال الله.

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي فلما صحا موسى من غشيته، قال سبحانك يا رب أي تنزيهاً لك عن أن يراك أحدٌ في الدنيا، تبت من الجرأة على طلب ما لا ينبغي، وأنا أول المؤمنين بعظمتك وجلالك!! ولا ينافي هذا رؤية المؤمنين لربهم في الجنة، لأن المنفيَّ إنما هي الرؤية الدنيوية، أمَّا في الآخرة، فهي حاصلة لكل من يدخل الجنة، بالنصِّ القاطع ﴿**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾ وقد وردت الأحاديث المستفيضة الشهيرة بثبوت الرؤية، فإن الله سبحانه يعطي أهل الجنة، من

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ

الطاقة والقدرة ما يجعلهم يرون ربَّهم بأم أعينهم، ولا عجب في هذا فإن الله على كل شيء قدير!!.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي قال الله عزَّ وجلَّ تسليةً لموسى وتأنيساً له: إن كنتُ منعتُك الرؤية، فقد أعطيتك من النِّعم العظام ما يكفيك، فقد اخترتُك على أهل زمانك بالرسالة، وخصصتك بالكلام بدون واسطة، فخذ ما أعطيتك من شرف النبوَّة والحكمة، واشكر ربك على جلائل النعم العظام. ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي وكتبنا لموسى كل شيء، كان بنو إسرائيل محتاجين إليه، من أحكام التوراة، إرشاداً لهم لطريق السعادة، وتفصيلاً لأحكام الحلال والحرام فيها، وقلنا له: خذ ما في الألواح بجدٍّ وعزيمة، واجتهادٍ ونشاط، وأمر بني إسرائيل على الأخذ بعزائم الأمور!! سأريكم منازل أعدائكم الفاسقين، فرعون وزبانيته، كيف أقفرت بهم، ودمَّرهم الله لفسقهم وفجورهم؟ ليعتبروا فلا يكونوا مثلهم ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾ أي سأمنع المتكبرين عن فهم آياتي، فلا ينتفعون ولا يتَّعظون بآيات الله، التنزيلية والتكوينية، لكفرهم وتكبرهم، وإن يشاهدوا كل معجزة ربانية لا يؤمنوا بها، لتكبرهم وعنادهم، والصرفُ عن فهم معاني الآيات جائزٌ، لأنه إنما حدث بسوء اختيارهم، والممنوع إنما هو الجبرُ، كما قال سبحانه: **﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾** فمن عمي عن طريق السعادة والإيمان، أعماه الله بسوء اختياره،، وصَرَفَ قلبَه عن الهدى ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾ أي وإن يـــروا

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾

طريق الهدى والصلاح، لا يسلكونه ولا يتوجَّهون إليه، وإن يشاهدوا طريق الضلال والفساد، اختاروه لأنفسهم مسلكاً، لموافقته لشهواتهم الحيوانية، وأهوائهم الباطلة، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ أي ذلك الانحراف عن دينِ الله وهدايته، بسبب أنهم كذَّبوا بآيات الله فلم يؤمنوا بها، ولم يلتزموا بأحكامها، وغفلوا عن هذه الآيات التي بها سعادتهم، حيث لا يتعظون بها ولا يعتبرون ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي والذين كذَّبوا بالقرآن، وكذَّبوا بلقاء الله في الآخرة، ولم يؤمنوا بما وعدهم اللّهُ به من الحساب والجزاء، هؤلاء الأشقياء بطلت أعمالهم الخيرية التي عملوها في الدنيا، من إحسانٍ، وصلةِ رحم، وصدقة، وذهب ثوابها لعدم الإيمان!! ولا يُجزون ولا يعاقبون، إلاَّ بما كانوا يعملونه من الكفر والمعاصي!

ثم حكى تعالى ضلال بني إسرائيل، الذين عبدوا العجلَ في غيبة نبيِّ الله موسى عليه السلام، فقال سبحانه: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي جعل بنو إسرائيل من الحليِّ التي صاغها لهم السامريُّ، من بعد ذهاب موسى إلى الطور لمناجاة ربه، عجلاً جسداً لا روح فيه، صيَّروه إلٰهاً فعبدوه من دون الله، والعجلُ ذكرُ البقر ﴿**له خوار**﴾ أي صوتٌ كصوت البقر، وقد اتخذه السامريُّ من الحليِّ، وقد احتال بإدخال الريح فيه، حتى كان يُسمع له صوتٌ كصوت البقر، فكانوا كلَّما خار سجدوا له، وإذا سكت رفعوا رءوسهم ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ تقريعٌ وتوبيخٌ لهم على فرط ضلالهم، وإخلالهم بموجب العقل، والمعنى: كيف عبدوا العجل، مع أنه ليس فيه شيءٌ من صفات الخالق الرازق؟ فإنه تمثالٌ لا يملك قدرة الكلام، ولا قدرة هدايتهم إلى طريق السعادة، فكيف يُتَّخذ إلٰهاً ويُعبد من دون الله؟ ثم كرر التوبيخ والتشنيع عليهم فقال: ﴿**اتخذوه وكانوا ظالمين**﴾ أي لم يفكِّروا بعقولهم، وإنما عبدوه واتخذوه إلٰهاً، وأقدموا على

وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾

ما أقدموا عليه من المنكر، لأنهم كانوا ظَلَمةً فَجَرة، دأبُهم وعادتُهم الظلمُ، فليس ببدعٍ منهم هذا المنكر الفظيع!

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ لمَّا عادوا إلى رشدهم، وشعروا بجناياتهم الكبرى، ندموا على ما فعلوا، واشتدَّ ندمهم وحسرتهم لعبادة العجل، وتبيَّنوا ضلالهم تبيُّناً واضحاً، حتى كأنهم أبصروه بعيونهم، قالوا معترفين بذنبهم، ملتجئين إلى ربهم: لئن لم يتداركنا ربُّنا برحمته، ويغفر لنا ذنوبنا، لنكونن من الأشقياء الخاسرين، وهذا اعتراف منهم بالجريمة، وإقرار بالخطأ، ولفظ ﴿سقط في أيديهم﴾ كناية عن شدة الندم، يُقال لكل خائب في عمله: سُقط في يده، فإن النادمَ المتحسِّر يعضُّ يده ندماً ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ﴾ أي ولمَّا رجع موسى من المناجاة، إلى بني إسرائيل، وهو غضبان مما فعلوه من عبادة العجل ﴿أسفاً﴾ أي شديدَ الغضب، وشديد الحزن، لأن الله تعالى أخبره بما فعله بنو إسرائيل، قال لقومه: بئسما فعلتموه بعد غيبتي من عبادة العجل، هل عجلتم عن أمر ربكم؟ وهو انتظار نبيكم موسى حتى يرجع إليكم؟ ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ لمَّا عاين موسى عليه السلام قومه، وقد عكفوا على عبادة العجل، ألقى الألواح فكسرها، لما عراه من شدة الغضب، وكان عليه السلام سريع الغضب، يغضب لله في انتهاك محارمه، وأخذ بشعر رأس أخيه (هارون) يجرُّه إليه، ظناً منه أنه قصَّر في كفِّهم عن ذلك، ولم يقصد بذلك إهانته، بل اللوم على التقصير، فعل ذلك بأخيه لأنه لم يتمالك نفسه حين رآهم يطوفون حول العجل، ويسجدون له!! فقال له هارون: يا ابن أمي ـ وهو

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

نداء استعطافٍ وترحُّم - إن هؤلاء قهروني واستذلُّوني، وقاربوا أن يقتلوني حين نهيتُهم عن ذلك، فأنا لم أقصِّر في نصحهم، فلا تفعل بي ما يكون سبباً لشماتتهم، ولا تعدَّني في جملة هؤلاء الظلمة الأشقياء الذين عبدوا العجل!! ولمَّا اتضح لموسى عذر أخيه التجأ إلى ربه ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي قال موسى: يا رب! اصفح عني وسامحني فيما حدث مني في حقِّ أخي، واصفح عن أخي، وأدخلنا في رحمتك، فأنت أرحم بنا منَّا على أنفسنا!! استغفر عليه السلام لنفسه ليرضيَ أخاه، ويُظهر للشامتين رضاه عنه، وذلك بعد أن تحقَّق له براءة أخيه هارون عليه السلام من التقصير، ثم أخبر تعالى عمَّا نال أولئك الأشقياء الذين عبدوا العجل، من الغضب والعذاب، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ أي إن الذين عبدوا العجل، واتخذوه إلـٰهاً من دون الرحمن، سيصيبهم في الآخرة عذاب عظيم، وغضبٌ من رب العزة والجلال، على جريمتهم المنكرة، وينالهم في الدنيا الذلُّ والهوان، وكذلك نجازي كل من افترى الكذب على الله!! أما الغضبُ الذي نال بني إسرائيل، فهو أن الله تعالى لم يقبل توبتهم، حتى قَتَل البريءُ منهم المجرم، كما قال سبحانه: **﴿فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم﴾** وأما الذِّلَّة فقد لازمهم الذلُّ والصَّغارُ إلى قيام الساعة، ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي والذين عملوا القبائح والمعاصي، ثم تابوا توبةً صادقة ورجعوا إلى الله، واستمروا على إيمانهم وصدقهم، فإن ربك يا محمد عظيم المغفرة، واسع الرحمة، يغفر لهم ويرحمهم، وهذا من أعظم البشارة للمذنبين التائبين.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أي ولما سكن وهدأ غضبُ موسى باعتذار أخيه، وتوبة قومه، أخذ ألواح التوراة

﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥﴾

التي كان ألقاها، وفيما كُتب فيها ونُسخ، هدايةٌ للحقِّ، ورحمةٌ للخلق، بإرشادهم إلى ما فيه الخير والصلاح، للخائفين من ربهم، الذين يخشون عقابه.. وفي الآية استعارة لطيفة، يستشعر جمالها كلُّ من تذوَّق حلاوة البيان والفصاحة، فقد شبَّه الغضبَ بإنسان يُرعد ويزمجر، يريد أن يبطش بخصمه، وصوته يرتفع عالياً طالباً الانتقام، ثم اختفى ذلك الصوت وسكت، وهذا هو السرُّ في التعبير بقوله: ﴿**سكت عن موسى الغضب**﴾ وما ألطف وأجمل هذا التصوير الفنيّ البديع!!

﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ﴾ أي اختار موسى من قومه سبعين رجلاً، ممن لم يعبدوا العجل، للوقت الذي حدَّده الله له للاعتذار، فأخذ سبعين من خيارهم لينوبوا عن قومهم، فلما وصلوا الجبل، طلبوا رؤية الله عزَّ وجلَّ، فرجف بهم الجبلُ فصُعِقوا وماتوا، فلما رأى موسى ذلك، قام يدعو الله ويبكي، ويقول: يا رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتُهم، وقد أهلكتَ خيارهم؟ لو شِئتَ يا ربِّ أن تهلكنا قبل ذلك لفعلت، فنحن عبيدك وتحت قهرك، تفعل بنا ما تشاء ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾ أي أتهلكنا يا رب بطلب هؤلاء السفهاء رؤيتك؟ والاستفهام هنا للاستعطاف والتذلل، كأنه يقول: لا تعذبنا يا رب بذنوب غيرنا، ما هي إلا محنتك وابتلاؤك، تمتحن بها عبادك، تضل بهذه المحنة من تشاء، وتهدي بها من تشاء، أنت يا رب ناصرنا، والقائمُ بتدبير أمورنا، فاغفر لنا ما قارفناه من الخطايا، وارحمنا برحمتك الواسعة، وأنت خير من سَتَر وغفر. **قال المفسرون**: أمر الله موسى أن يأتي بسبعين رجلاً من خيار بني إسرائيل، ليعتذروا على ما كان من القوم من عبادة العجل، وهذا الميقات الذي حدَّده الله له هو «ميقات التوبة» لا ميقاتُ المناجاة والتكليم، فاختار منهم سبعين، فلما أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الصاعقةُ فماتوا، فهذا هو سبب موتهم، ونعوذ بالله من خُبْثِ اليهود، فإذا كان هذا حالُ خيارهم،

۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ

فكيف حال الأشرار منهم؟!! ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ هذا من تتمة دعاء موسى عليه السلام، أي اجعل لنا في الدنيا حياةً طيبة، مع التوفيق والطاعة، وفي الآخرة سعادة وراحة، في جنة الخلد والنعيم، فإنا قد تبنا ورجعنا إليك من جميع ذنوبنا!!

قال الله جواباً له: أمَّا عذابي فأصيبُ به من أشاء من عبادي، وليس لأحدٍ الاعتراضُ عليَّ، وأمَّا رحمتي فقد وسعت جميع الخلق ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي سأجعل هذه الرحمة في الآخرة، خاصةً بأهل الإيمان والتقوى، الذين يتقون ربهم باجتناب الكفر والمعاصي، ويؤدُّون زكاة أموالهم، عن طيب نفوسهم، ويصدِّقون بجميع الكتب والرسل، ولا يجحدون شيئاً من آيات الله، ثم زاد في التوضيح والبيان، لهؤلاء المستحقين لرحمة الله فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ أي يتبعون خاتم الأنبياء والمرسلين «محمد بن عبدالله» النبيَّ العربيَّ الأميَّ، الذي لا يقرأ ولا يكتب، وصفَه تعالى بالأميَّة، لتظهر المعجزةُ فيه على أكمل الوجوه، وهي صفة مدح، فإنه لم يخطَّ حرفاً، ولم يقرأ كتاباً، ثم أتاهم بهذا الكتاب المعجز من عند الله، وأوصافه مذكورة في التوراة والإنجيل، ورسالته تتلخص في الأمر بكل شيء مستحسن، والنهي عن كل شيء قبيح، ويحلُّ لهم اللذائذ، ويحرِّم عليهم الخبائث، كالخنزير، والعقارب، والخنافس، وسائر المستقذرات ﴿ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أي يرفع عنهم التكاليف

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

الشاقة، التي تشبه الأغلال، كقتل النفس في التوبة، وقطع الثوب من أثر البول، ووجوب القصاص دون الدية في القتل، وأمثالِ ذلك مما فيه عناء ومشقة، وقد جاءت الشريعة الإسلامية، برفع جميع تلك الأثقال، كما قال ﷺ: «بُعثتُ بالحنيفية السمحة السهلة» رواه ابن جرير. ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي فالذين صدَّقوه، وآمنوا برسالته، وعزَّروه أي عظَّموه ووقَّروه، وقاموا بنصرته على جميع من عاداه، واتبعوا القرآن المجيد، والشرع الإسلامي الحنيف، الذي جاءهم به من عند الله، هؤلاء هم السعداء، الفائزون بكل محبوب، الناجون من شدائد وأهوال يوم القيامة.

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ هذا بيان لعموم رسالته ﷺ إلى جميع الخلق، أي قل يا محمد لجميع الناس: إني رسولٌ من عند الله، بعثني الله إليكم جميعاً، وربي الذي أرسلني هو المالك لجميع الكائنات، مالك السموات والأرض، بالخلق والإبداع، لا ربَّ ولا معبود بحقٍّ سواه، وهو الإله القادر على الإحياء والإماتة، لا ما تعبدون من أوثان وأصنام ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ فآمنوا بهذا الإلٰه الجليل، ورسوله خاتم النبيين، النبي الأميِّ صاحب المعجزات، الذي لا يقرأ ولا يكتب، الذي يُصدِّق بما أنزل عليه، وعلى سائر الرسل قبله من الوحي الإلٰهي ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ أي اسلكوا طريقه وشرعه، في كل ما يأمركم به أو ينهاكم عنه، لكي تهتدوا إلى طريق الجنة!.

﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ لمَّا ذكر تعالى المنحرفين من بني

وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾

إسرائيل عن طاعة الله، ذكر بعده أن بني إسرائيل ليسوا بدرجةٍ واحدة، ففيهم المطيع والعاصي، والمهتدي والضال، أي ومن بني إسرائيل، جماعة مستقيمة على شرع الله، يهدون الناس بدين الله الحقّ، وبالعدل والحقّ يحكمون، لا يجورون ولا يظلمون، وهو ثناء على من استقام على أحكام التوراة من اليهود ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ﴾ أي فرَّقنا اليهود فجعلناهم قبائل شتى، صيَّرناهم اثنتي عشرة فرقة، ليرجع أمرُ كلِّ قبيلةٍ إلى رئيسهم، ليخفَّ أمرهم على نبيِّهم موسى، لئلا يتحاسدوا فيقع بينهم النزاعُ والقتال، والأسباطُ هم القبائل من أولاد إسحق بن إبراهيم، وأوحينا إلى نبينا موسى، حين أصابَ قومَه العطشُ، وكانوا في الصحراء، أن يضرب بعصاه الحجر، فضربه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، بعدد الأسباط والقبائل، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي قد علمت كلُّ قبيلة منهم، عينَهم الخاصة بهم، وهذه إحدى معجزات موسى عليه السلام، حيث تفجَّرت عيونُ الماء الدافق، من حجرٍ أصمّ، كفى القبائل، وجعلنا الغمام يسترهم من حرِّ الشمس وهم في الصحراء، ويسير معهم حيث ساروا، وأكرمناهم برزق شهيٍّ هنيء، وهو «المنُّ» ينزل من السماء على الشجر، فيجمعونه ويأكلونه، و«السلوى» وهو طير لذيذ اللحم، وقلنا لهم: كلوا من هذا الشيء الطيب اللذيذ، فكفروا بهذه النعم الجليلة، وما ظلمونا بذلك، ولكنْ ظلموا أنفسهم، حيث عرَّضوها لعذاب الله الشديد!.

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي واذكر حين قلنا لأسلافهم من بني إسرائيل: اسكنوا هذه البلدة المباركة «بيت المقدس» التي باركنا حولها بأنواع الخيرات والبركات، وكلوا ما تشتهون من خيراتها وثمراتها، من أيِّ مكانٍ وجهةٍ شئتم، وقولوا حين دخولكم بيت المقدس: اللهم حُطَّ عنا ذنوبنا، وادخلوا ساجدين شكراً لله تعالى، نمحو عنكم الخطايا والآثام، وسنزيد المحسنين على إحسانهم بدخول الجنان. ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ أي فغيَّر الظالمون أمر الله، وقالوا كلاماً لا يليق، قالوا: حبّة بدل «حِطّة» ودخلوا يزحفون على أدبارهم، بدل السجود، سخريةً منهم واستهزاءً بأمر الله، فأرسلنا على هؤلاء الظالمين، عذاباً هائلاً من السماء، وهو الطاعون الذي أفناهم، بسبب عدوانهم وظلمهم المستمر، فقد مات منهم في ساعة واحدة بالطاعون، أربعةٌ وعشرون ألفاً، روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قيل لبني إسرائيل **﴿وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم﴾** فبدَّلوا فدخلوا يزحفون على أستاههم ـ يعني مقاعدهم ـ وقالوا: حبَّةٌ في شَعْرة».

ثم ذكر تعالى لوناً آخر من جرائم اليهود فقال: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي اسأل يا أيها الرسول اليهودَ، عن

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

أخبار أسلافهم، أهل قرية «أيلة» التي كانت على شاطىء البحر، حين كانوا يتجاوزون حدود الله، فيصطادون يوم السبت، وهو محرَّم عليهم الصيدُ في هذا اليوم، حين كانت الأسماك تأتيهم كثيرةً، ظاهرة على وجه الماء يوم السبت، وفي سائر الأيام الأخرى لا تأتيهم، بل تغيب عنهم وتختفي، كذلك نمتحنهم الامتحان القاسي، بإظهار السمك لهم على وجه الماء في يوم السبت المحرَّم عليهم فيه الصيدُ، بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله!! اسألهم ماذا حلَّ بهم لمَّا عصوا أمر الله واصطادوا يوم السبت؟ ألم يمسخهم الله إلى قردة وخنازير؟ ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي واذكر حين قال جماعةٌ من صلحائهم: لماذا تبذلون جهدكم في وعظِ قوم مجرمين، انتهكوا محارم الله، والله مهلكهم بالخسف أو المسخ، لعدم إقلاعهم عمَّا هم عليه من الفسق والعصيان!! قالوا: إنما نعظهم لنعذر عند الله، بقيامنا بواجب النصح والتذكير، ولعلَّهم يخافون الله، فينتهون عما هم فيه من الإجرام!! **قال ابن كثير**: أخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم أصبحوا ثلاث فرق:

١ ـ فرقة ارتكبت المحظور، واحتالوا على الصيد يوم السبت.

٢ ـ وفرقة نهت عن ذلك العدوان والصيد، واعتزلتهم.

٣ ـ وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تَنْهَ، ولكنها قالت للمنكرة: **﴿لم تعظون قوما الله مهلكهم﴾**؟

والحاصل أن أصحاب البلدة انقسموا ثلاثَ فِرَقٍ: فرقة عصت فحلَّ بها العذاب، وفرقة نهتْ ووعظَتْ فنجَّاها الله من العذاب، وفرقة اعتزلت ولم تقارف المعصية وسكت عنها القرآن. **قال ابن عباس**: ما أدري ما فعل الله بالفرقة الساكتة، أَنَجوْا أم هلكوا؟ قال عكرمة: «فلم أزل به، حتى عرَّفته أنهم قد نَجَوْا، لأنهم كرهوا ما فعله أولئك، فكساني حُلَّة» انظر ابن كثير.

فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي فلمَّا تركوا ما ذكَّرهم به صلحاؤهم، وأعرضوا عن قبول النصيحة، نجينا من العذاب الناهين عن الفساد في الأرض، وأخذنا الفسقة الظالمين، المنتهكين لمحارم الله، بعذاب شديد مؤلم، بسبب فسقهم وعصيانهم. ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ أي فلما تمرَّدوا وتكبَّروا، وأبوا ترك ما نُهوا عنه، مسخناهم إلى قردة وخنازير، وجعلناهم صاغرين أذلاَّء، مبعدين عن كل خير، والمراد أنهم بمخالفتهم أمر الله، عُذِّبوا عذاباً شديداً، فلم يرتدعوا ولم ينزجروا، ولما استمروا وتمادوا في الطغيان، مسخوا إلى قردة وخنازير، عقوبة لهم على إجرامهم، ثم أخبر تعالى أن العذاب ملازم لهم إلى يوم القيامة، يتوارثونه خلفاً عن سلف، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي واذكر يا أيها الرسول، حين أخبر ربك علناً، وأوجب على نفسه أن يسلِّط على اليهود، إلى قيام الساعة، من يذلُّهم ويشرِّدهم، ويذيقهم أسوأ أنواع العذاب، لكفرهم بالله ورسله، وانتهاكهم لمحارم الله، وإفسادهم في الأرض، إن عقاب الله سريع لمن عصاه، وهو واسع المغفرة والرحمة لمن أطاعه واتقاه... وقد حقَّق الله وعده، فسلَّط عليهم «بختنصَّر المجوسي» فقتلهم وسباهم، وسلَّط عليهم النصارى فأذلُّوهم وضربوا عليهم الجزية قبل الإسلام، وسلَّط عليهم محمداً ﷺ خاتم النبيِّين، فأجلاهم عن المدينة المنورة، وعن خيبر، وعن الجزيرة العربية، وسلَّط عليهم أخيراً النازي الفاشي «هتلر» فاستباح حماهم، وأحرقهم بالأفران، وكاد أن يُبيدهم ويفنيهم، بالقتل والتشريد في الأرض، ولا يزال وعد الله، بتسليط العذاب عليهم سارياً، إلى أن يقتلهم المسلمون، في المعركة الفاصلة إن شاء الله، تحقيقاً لنبوءة خاتم المرسلين ﷺ الذي يقول: «لا تقوم الساعةُ حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون..» الحديث، أخرجه مسلم، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله!!

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩)

ثم بيَّن تعالى أنهم ليسوا جميعاً فجاراً، بل فيهم الأخيار والأشرار، فقال سبحانه: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي فرَّقناهم في البلاد فِرَقاً وطوائف، في كل بلد منهم طائفة وجماعة، وليس لهم وطنٌ يسكنونه، حتى لا تكون لهم شوكة، وما اجتمعوا في هذه الأيام بالأرض المقدَّسة، إلاَّ ليذبحوا بأيدي المؤمنين، إن شاء الله تعالى، منهم أناسٌ صالحون وهم قلة قليلة، ومنهم جماعة منحطُّون عن درجة التقوى والصلاح، وهم كثرة غالبة، واختبرناهم بالنِّعم والنِّقم، حيث فتحنا عليهم أبواب الرزق والسَّعة أحياناً، وأبواب الجدب والشِّدَّة أحياناً أخرى، لعلهم يرجعون عما كانوا عليه من الكفر والمعاصي ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ أي جاء من بعد هؤلاء المذكورين، الذين فيهم الصالح والطالح، أناسٌ آخرون لا خير فيهم، ورثوا التوراة عن آبائهم وأجدادهم، يأخذون الرشاوىٰ ويأكلون الحرام، ويقولون متبجِّحين: سيغفر الله لنا ما فعلناه، وهذا اغترارٌ منهم، وكذبٌ على الله، يرجون المغفرة، ويصرُّون على الذنب وأكل الحرام، كلما لاح لهم شيء من حطام الدنيا أخذوه، دون مبالاةٍ أهو من حلال أم حرام؟ ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي ألم يؤخذ عليهم العهد المؤكد، أن يقولوا الحقَّ، ولا يكذبوا على الله؟ فكيف يزعمون أن الله سيغفر لهم، مع إصرارهم على المعاصي وأكل الحرام؟ (ودَرَسُوا ما فيه) أي وقد قرءوا التوراة، وتبصَّروا بما فيها، وعرفوا عاقبة من افترى وكذب على الله؟ والآخرة خير من هذه الدنيا الفانية، للذين يخافون ربهم، أفلا يعقلون ذلك، فينتهون عن أكل الحرام؟

وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ أي والذين يستمسكون بكتاب الله، ويلتزمون بأحكامه، ويحافظون على أداء الصلاة بأركانها وآدابها، فلن نضيع لهم أجرهم لتقواهم وصلاحهم.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي واذكر حين قلعنا جبل الطور، ورفعناه فوق رءوسهم، حتى صار كالظُّلَّة والسقيفة، وأيقنوا أنه واقع عليهم، وقلنا لهم: خذوا بأحكام التوراة كاملة، وإلاَّ سحقناكم به، واذكروا ما فيه من الأوامر والنواهي، وطبقوها في حياتكم، لتتقوا عذاب الله. روي أن بني إسرائيل أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة، لما فيها من التكاليف الشاقة، فأمر الله جبريلَ أن يقتلع جبل الطور، ويرفعه فوق رءوسهم، وقيل لهم: إمَّا أن تقبلوا التوراة، أو ليقعنَّ الجبل عليكم، فخرَّ كل واحد ساجداً، خوفاً من سقوط الجبل، فلذلك لا ترى يهودياً إلاَّ ويسجد على حاجبه الأيسر، وينظر بطرف عينه نحو السماء.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ أي اذكر يا محمد للخلق، حين استخرج ربك أولاد آدم، من أصلاب آبائهم، فقرَّرهم على توحيده، وعلى أنه ربهم، فشهدوا له بذلك والتزموه، لئلا يقولوا يوم القيامة إنَّا كنا عن هذا الميثاق غافلين، لم نُنبَّه عليه؟ ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي ولكيلا تقولوا يوم القيامة، يا ربنا نحن ما أشركنا، وإنما قلَّدنا آباءنا، واتَّبعنا مناهجهم،

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

فنحن جئنا بعدهم، لا نهتدي إلى سبيل التوحيد، أفتهلكنا بكفر من أشرك من آبائنا الضالين؟

أقول: للمفسرين في هذه الآية قولان: أحدهما أن الله لمَّا خلق آدم، استخرج ذريته من صلبه، وهم أمثال الذرّ ـ أي النمل ـ وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم، فأقرُّوا وشهدوا بذلك. **والثاني**: أن هذه الآية من باب (التمثيل والتصوير)، لما رُكِّب في الكون، من الأدلة والبراهين على وجود الله ووحدانيته، لحديث: «كلُّ مولود يولد على الفطرة» قال ابن كثير بعد أن أورد الأحاديث والآثار: فهذه الأحاديث دالة على أن الله عزَّ وجلَّ، استخرج ذرية آدم من صلبه، وميَّز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم بأنه ربهم، فما هو إلا في حديثين موقوفين لا مرفوعين، ومن ثَمَّ قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد، إنما هو فَطْرهم على التوحيد، وقد فسَّر الحسن البصري الآية بذلك، ولهذا قال: ﴿**وإذ أخذ ربك من بني آدم**﴾ ولم يقل: من آدم، وقال: ﴿**من ظهورهم**﴾ ولم يقل: من ظهره، وقال: ﴿**ذريتهم**﴾ أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، كما قال سبحانه: ﴿**وهو الذي جعلكم خلائف الأرض**﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي ومثل ذلك التفصيل البديع، في دلائل القدرة والوحدانية، نبيِّن ونفصِّل الآيات التشريعية، ليتدبَّرها الناس، ويرجعوا عما هم فيه من الباطل، وعن الشرك والتقليد الأعمى للآباء!!

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ هذه قصة رجل من علماء بني إسرائيل، يدعى «بلعم بن باعورا» بعثه موسى عليه السلام إلى ملك «مَدْين» داعياً إلى الله، فرشاه الملك وقرَّبه منه، وأغدق عليه المال، على أن يترك دين موسى، ويتابع الملِكَ على دينه ففعل، فزاغ وضلَّ، وأضلَّ كثيراً من الناس بسوء صنيعه، والمعنى: اقرأ يا محمد على اليهود وعلى سائر البشر، قصة ذلك العالِم الخاسر، الذي أوتي علماً ببعض كتاب الله في التوراة، فانسلخ من تلك الآيات انسلاخ الجلد عن الشاة، بأن كفر بالآيات، ونبذها وراء ظهره، فلحقه الشيطان حتى صار قريناً له، فصار من زمرة الضالين، الراسخين في الضلال، والتعبيرُ عن ذلك بالانسلاخ ﴿**فانسلخ منها**﴾ للإشارة إلى أن الإيمان كان طِلاءً، لم يخالط بشاشةَ قلبه، فانسلخ من الإيمان كما تنسلخ الحية من جلدها، ولو

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

تمكّن الإيمان من قلبه لما حصل ذلك، وفي التعبير أيضاً بقوله: ﴿فأتبعه الشيطان﴾ فيه تلويحٌ بأنه كان أشدَّ من الشيطان غواية، إذ صار كأنه إمام للشيطان، والشيطانُ تلميذ يتبعه ويلحقه، كما قال بعض غلاة الضلالة:

وكنتُ فتىً من جُنْدِ إبليس فارتَقى ... بي الحَالُ حتى صارَ إبليسُ من جُنْدي

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثۚ﴾ أي لو أردنا لرفعناه بهذا العلم وبهذه الآيات، إلى مصافِّ العلماء الأبرار، ولكنه مال إلى الدنيا، وسَكَن إليها، وآثر حطامها الفاني على الآخرة، واتَّبع هوى نفسه في إيثار الدنيا، واسترضاء هوى الحُكَّام، فانحطَّ إلى أسفل سافلين، فمثله في الخِسَّة والدناءة كمثل الكلب، إن طردته وزجرته وجريت وراءه، مدَّ لسانه فلَهث، وهو طبعٌ في الكلب لضعف قلبه، وقلة «الأوكسجين» الذي يدخل إلى رئتيه، فهو يمدُّ لسانه لأخذ أكبر قسط من الهواء ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي هذا المثل السيىء، هو مثلٌ لكل من كذَّب بآيات الله، من أحبار وعلماء (اليهود والنصارى)، الذين أوتوا التوراة والإنجيل، وفيهما صفة محمد خاتم النبيين، ولكنهم لحب الرئاسة والزعامة، وحب الدنيا، أنكروا صفاته، وتلاعبوا في أحكام دينهم، فانسلخوا من التوراة والإنجيل، فاقصص يا محمد على الخلق جميعاً، هذه القصص التي أوحيناها إليك، لعلهم يتدبرونها فيتعظون ويتفكرون!! ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ أي بئس هذا المثل القبيحُ، مثلاً للقوم المكذبين بآيات الله، والجاحدين لنعمة فضل العلم والهداية، وما ظلموا بهذا الصنيع إلاّ أنفسهم، لأنهم عرَّضوها لعذاب الله الشديد.. ومن تفكَّر الأمثالَ المضروبة في القرآن، يرى بوضوح أن المثل الذي ضربه الله لعلماء السُّوْء، أقبحُ وأشنعُ، ممَّا ضربه لعبدة الأصنام والأوثان، مثَّل لهم

مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

بالعنكبوت اتخذت بيتاً، وبالذباب الذي يقف على الطعام، أما علماء السوء فقد مثَّل لهم بالكلب، وبالحمار ﴿كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾ لأنهم بتهالكهم على الدنيا، والركون إلى لذاتها وشهواتها، أصبحوا كالكلاب والحمير، وهما أقبح الأمثلة التي ذكرها القرآن.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي من هداه اللهُ فهو السعيد الموفَّق، ومن أضلَّه فهو الشقي الخاسر، والغرضُ تحقيق أن الهداية والضلال، بيد ربِّ العزة والجلال، ولا سعادة للإنسان، أعظم له من هداية الرحمٰن، إذ بها يكون دخول الجنان. ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ أي ولقد خلقنا خلائق كثيرين من الإنس والجن، لنار جهنم، ليكونوا لها وقوداً وحطباً، لهم قلوب معميَّة لا يفقهون بها الحقَّ، ولهم أعينٌ لا يبصرون بها طريق الرشاد، ولهم آذان لا يسمعون بها الآيات والمواعظ، أولئك كالبهائم والدواب، بل هم أضلُّ منها وأسوأ حالاً، لأن الحيوانات تدرك منافعها ومضارها، وهؤلاء لا يميِّزون بين المنافع والمضار، ولهذا يتسارعون نحو النار، أولئك هم الكاملون في الغفلة!! وليس المرادُ نفيَ السمع والبصر بالكلية، وإنما المراد نفيها عما ينفعها، فقد أثبت الله لهم القلوب والأسماع والأبصار، لكنهم لما لم يستفيدوا منها صاروا كالبهائم السارحة، التي لا تفهم ولا تعي.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي له جلَّ وعلا الأسماءُ التي هي أحسن الأسماء، فسمُّوه بتلك الأسماء الجليلة، واتركوا الضالين الذين يميلون في أسمائه تعالى عن الحق والاستقامة، كما فعل عُبَّاد الأوثان، حيث

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾

اشتقُّوا من أسماء الله الجليلة، أسماء لآلهتهم وطواغيتهم، كاللات من «الله» والعُزَّى من «العزيز» ومناة من «المنَّان» سينالون جزاء كفرهم، وأعمالهم القبيحة في الآخرة. ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ أي ومن بعض البشر الذين خلقناهم، أمة مستمسكة بشرع الله، قولاً وعملاً، يدلُّون الناس على الخير، ويهدونهم إلى طريق الإيمان، وبكتاب الله يقضون ويحكمون، والمراد بهم (أمة محمد) ﷺ لما رواه الشيخان عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ـ أي مستمسكين بالحق ـ لا يضرهم من خَذَلهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمرُ الله وهم على ذلك» رواه البخاري.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي والذين جحدوا القرآن، وكفروا بالرحمن، نمهلهم قليلاً، ثم نأخذهم من حيث لا يشعرون بالعذاب الأليم، والاستدراجُ: أن يعاملهم الله باللطف والإحسان، مع تماديهم في الغيِّ والطغيان، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كمن يستدرج عدوَّه، فينزله درجةً درجةً، حتى يوقعه في المهالك ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أي أمهلهم فترة من الزمن، حتى يظنوا أن ما هم عليه من الضلال هدى، فيزدادوا أَشَراً وبطراً، ثم آخذهم بالعقاب فإن عذابي شديد، سمَّى تعالى العذاب كيداً، لنزوله بهم وهم في غفلة وأمان، فأشبه حال من يكيد بصاحبه، ولمَّا كان حال المعرضين عن آيات الله البينات، أنهم لم يفكِّروا بعقولهم في دلائل خلق الله، وبديع مصنوعاته، ولم يبحثوا عن حقيقة هذا الرسول، ليعرفوا صدقه وأمانته، لذا جاءت الآيات تأمرهم بالتفكر في شأنه، وأمر رسالته، ليعرفوا صدقه، ورجاحة عقله، ولهذا قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ جِنَّة بكسر الجيم أي جنون، والمراد بصاحبهم محمد ﷺ، أي أولم يتفكر هؤلاء المنكرون لرسالته في شأنه ﷺ، ليعرفوا حقيقة حاله، وأنه ليس به شيء من الجنون، كما افتروا عليه في قولهم **﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾** فهو أكمل الناس عقلاً، والتعبير بلفظ (صاحبهم) للتنبيه على كمال غفلتهم، وقلة فطنتهم، فقد صاحبهم ﷺ وعاش بين أظهرهم أربعين سنة، فكيف يتهمونه بالجنون، وهو

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

أعقلُ العقلاء؟ وما محمد إلا رسولٌ منذرٌ للخلق من عذاب الله، أمرُه بيِّنٌ واضح.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أي أولم ينظر هؤلاء الكفار، نظر استدلال واعتبار، في ملك الله الواسع، وفي جميع مخلوقاته، ليظهر لهم صحة ما يدعوهم إليه خاتم المرسلين، وفي كمال قدرة الخالق، المبدع الحكيم، وأن يتفكّروا لعلهم يموتون عن قريب، فما لهم لا يسارعون إلى التدبر في القرآن وإعجازه؟ وإذا لم يؤمنوا بالقرآن، فبأي كلام بعد القرآن يؤمنون؟! ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي من يحكم الله بضلاله، فلن يستطيع أحد من الخلق هدايته، ويتركهم الله تعالى في تمردهم وطغيانهم، حيارى يتردَّدون، لا يهتدون، والعمهُ في البصيرة ـ أي القلب ـ كالعمى في البصر، بل هو أخطر من عمى البصر، والمراد أنهم يتخبّطون في الضلال كالعُمْي لأنهم عميُ البصائر والقلوب!.

ثم أخبر تعالى عن إنكارهم للآخرة، واستهزائهم بيوم القيامة، فقال سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ أي يسألك هؤلاء المشركون السفهاء عن القيامة، متى وقوعُها وحدوثُها؟ وفي أي زمانٍ تأتي؟ وسؤالهم هنا سؤال سخرية وتهكُّم، لا سؤال معرفة واستفسار، لأنهم ينكرون القيامة، فقل لهم يا محمد: ليس علمها عندي، وإنما علمها عند علاَّم الغيوب، ربِّ العزة والجلال، هو وحده العالم بوقتها، لا يكشف أمرها ولا يُظهرها للناس، إلا هو جلَّ وعلا ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي عَظُم أمرُها على أهل السماء والأرض، لما فيها

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨ ۞هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠﴾

من الشدائد والأهوال، لا تأتيكم إلا فجأة، وعلى حين غفلة، يسألونك يا محمد عن وقتها، كأنك شديد الطلب، والبحث عنها، وكأن أمرها يهمُّك وحدك، قل لهم مؤكداً وجازماً: إن وقتها لا يعلمه إلاَّ الله علاَّم الغيوب، حيث استأثر بعلمها وحده، وأكثرُ الناس لا يعلمون الحكمة من إخفائها. ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ أي قل لهم يا محمد: أنا لا أملك لنفسي أن أجلب لها نفعاً، ولا أن أدفع عنها شراً، إلا بمشيئته تعالى، ولو كنت أعرف الغيبَ، وما سيحدث في الدنيا، لحصَّلتُ كثيراً من منافع الدنيا وخيراتها، ودفعتُ عن نفسي الأحداثَ والكروب، وما أصابني شيء من الأذى والضرر، ولكنني لا أعلم ذلك ولذلك يصيبني المكروهُ والأذى ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي ما أنا إلاَّ عبد مرسلٌ من عند الله، لتذكير الخلق بالنافع والضار، أبشِّر المؤمنين، وأنذر الكافرين، وخصَّ المؤمنين بالذِّكر، لأنهم المنتفعون بهداية الأنبياء.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾ أي الله سبحانه العظيمُ الشأن، هو الذي خلق البشر جميعاً من نفسٍ واحدة هي «آدم» عليه السلام، وخلق منها حواء، ليطمئن إليها ويستأنس بها، فلمَّا واقعها حملت محمولاً خفيفاً ـ أي جنيناً في بطنها خفيف الوزن لكونه نطفة ـ فاستمرت به إلى حين ميلاده ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي فلما ثَقُل حملها، بكبر الولد في بطنها، دعا الأبوان ربهما لئن رزقتنا ولداً صالحاً، سويَّ الخِلْقة، كامل الجسم، لنشكرنك شكراً جليلاً على نعمائك ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي فلما وهبهما

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾

الولد الصالح، السويَّ الأعضاء، جعل أبناؤهم لله تعالى شركاء فيما رزقهم من البنات والبنين، فتنزَّه الله وتقدَّس عمَّا ينسبه إليه المشركون، والآية الكريمة امتنانٌ من الله على آدم وذريته، فإنه تعالى خلق لهم أزواجاً من أنفسهم، ليكنَّ سَكَناً وأُنساً وطمأنينة، ورزقهم البنين والبنات، وأكرمهم بما تقرُّ به أعينهم، ولكنَّ ذرية آدم، بدل أن يشكروا ربهم، على فضله وإنعامه، جحدوا وأشركوا به، وعبدوا الأوثان والأصنام، وأمَّا ما رُوي أن الآية في «آدم وحواء» وأنهما كان لا يعيش لهما ولد، وأن الشيطان وسوس إليهما أن يسمياه «عبدالحارث» فيعيش، لأن الحارث من أسماء الشيطان، إلخ ذلك، فإن هذا القول باطلٌ لا يصحُّ، ومن المحال أن يستجيب آدم ـ وهو نبيٌّ مكرَّم ـ لأمرٍ يخدش العقيدة والإيمان، بل هو شركٌ بالله، فهذا قولٌ غير مقبول، والصحيحُ كما قال المحققون من المفسرين: إن ذلك كان في ذرية آدم، بدليل قوله سبحانه: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ بالجمع، فهي حكاية عن ذرية آدم، وليست بشأن آدم وحواء، وقد قال الحسن البصري: كان هذا في بعض أهل الأديان من ذرية آدم، ولم يكن بآدم عليه السلام. . ثم جاء التقريع والتوبيخ، لمن عبد غيرَ الله من الأوثان والأصنام، من طوائف المشركين فقال سبحانه: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ أي أيشركون مع الله أوثاناً، لا تقدر على خلق شيء أصلاً، وهي مخلوقة؟ ومن حقِّ المعبود أن يكون خالقاً لا مخلوقاً!! وكأنه يقول: إنهم صنعوها بأيديهم، فهي مخلوقةٌ لهم، فكيف يجعلونها آلهة ويعبدونها مع الله؟ ثم إن هذه الأصنام لا تستطيع نصرهم، ولا أن تدفع عن نفسها من أرادها بسوء؟ فهي في غاية العجز والضعف، وإذا دُعيت إلى خير ورشاد، لا تجيب الدعاء لأنها جمادات، ويتساوى معها الدعاء أو السكوت، فكيف يليق بالعاقل عبادتها؟.

ثم زاد في التقريع والتوبيخ، لمن عبد الأصنام، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إن هذه الأصنام التي

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾

عبدتموها من دون الرحمٰن، وسميتموها آلهة، مخلوقون مثلكم، بل أنتم أكملُ منها وأفضل، لأنكم تسمعون وهم لا يسمعون، وتبصرون ولا يبصرون، فادعوهم ليجلبوا لكم نفعاً، أو يدفعوا عنكم ضُرّاً، إن كنتم صادقين في دعوىٰ أنها آلهة؟ ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي هل لهذه الأصنام أرجلٌ تستطيع المشي عليها؟ أم لها أيدٍ تقدر على أن تبطش بمن أراد السوء بها؟ أم لها آذان تسمع بها الكلام؟ قل يا محمد لهؤلاء الجهلاء: ادعوا أصنامكم واستعينوا بها عليَّ، وابذلوا جهدكم معها في الكيد، وإلحاق الأذى بي، ولا تتأخروا في ذلك!! والغرضُ من الآية تسفيه عقول المشركين، في عبادتهم لهذه الأوثان، كأنه يقول لهم: كيف عبدتم حجارة صمَّاء بكماء، ليس لها قدرة على الحركة، ولا على المشي، ولا على النطق والكلام؟ فكيف يليق بالعاقل أن يعبد من هو أضعف منه، وأقل شأناً، بل هي دونه في القوة والقدرة والحركة؟ ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّٰلِحِينَ﴾ أي إن الذي يتولَّى نصرتي وحفظي، هو الله ربُّ العزة والجلال، الذي أنزل عليَّ القرآن، وهو سبحانه يتولَّى عباده الصالحين بالحفظ والتأييد، فأنا لا أخافكم ولا أبالي بكم ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ أي والذين تعبدونهم من دون الله، وتدعونهم للاستعانة والنصرة، لا يستطيعون أن يجلبوا لكم نفعاً، ولا أن يصرفوا عنكم شراً، لأنهم أعجزُ عن نصرة أنفسهم، إذا أصيبوا بحادثة أو سوء، فكيف يدفعون عنكم الأذى والضرر؟ ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي وإن دعوتم هذه الأصنام، إلى الهداية والرشاد، لم يسمعوا دعاءكم، فضلاً عن مساعدتكم وإمدادكم، وترى هذه الأصنام، يقابلونك بعيون مصوَّرة كأنها ناظرة، وهي

خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ

جمادات لا تبصر شيئاً، لأنها صُوَرٌ لا حقيقة لها!.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي اترك الغلظة والفظاظة، ولا تقابل السفهاء بمثل سفههم، بل بالحلم والصفح والعفو، وأن تأمرَ بكل جميلٍ مستحسن، من الأقوال والأفعال، وهذه الآية ـ على وجازتها ـ جمعت الفضائل الإنسانية والاجتماعية التي دعا إليها الإسلام، وحذَّرت من مساوىء الأخلاق، فنهت عن كل رذيلة، ودعت إلى كل فضيلة، ولمَّا نزلت هذه الآية الكريمة قال جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ: «إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حَرَمك، وتصل من قطعك» وهو توجيه للرسول وتأديب لجميع الخلق ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي إن اعتراك وأصابك وسوسةٌ من جهة الشيطان، فاستجر بالله، والجأ إليه في دفعه عنك، فإن الله يسمع كلامك، ويعلم تضرعك، فيعصمك من شره ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ أي إن الذين اتقوا ربهم، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، إذا أصابتهم وسوسة من الشيطان، رجعوا إلى ربهم والتجأوا إليه، فأبصروا طريق الخلاص والنجاة، من وساوس الشيطان ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أي وأما الفسقةُ الفجرة، المنهمكون في الضلال، فإخوان الشياطين ـ أعني شياطين الإنس والجن ـ تغويهم، وتزيِّن لهم القبيحَ والضلال، لينتكسوا، ثم لا يكفُّون ولا يمسكون عن إغوائهم، والغرضُ من الآية، اتقاء شر الأشرار والفجار، والبُعد عنهم، لأنهم سببٌ لضلال الإنسان، وبعده عن الرحمٰن.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ﴾ كان كفار

﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٢٠٣ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢٠٦﴾

مكة، يطلبون من الرسول ﷺ بعض المعجزات التي يقترحونها، كقولهم: أحي لنا فلاناً لنسأله، وأزل عنا جبال مكة، وأمثال ذلك ممَّا فيه تعجيزٌ للنبي ﷺ، والمعنى: إذا لم تأتهم بمعجزة كما اقترحوا، قالوا: هلاَّ اختلقتها واخترعتها من عند نفسك يا محمد!! وهو تهكُّمٌ وسخريةٌ بالنبيِّ ﷺ منهم، قل لهم يا محمد: ليس الأمر إليَّ، حتى آتيكم به كما تقترحون، إنما أنا عبدٌ لله، أمتثل ما يوحيه إليَّ ربي ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي هذا القرآن الجليل، حجج ساطعة، وبراهين نيِّرة قاطعة، يغني عن غيره من المعجزات، أفلا يكفيكم هذا القرآنُ برهاناً على صدق رسالتي؟ وهو هداية ورحمة للمؤمنين، يهتدي به أهل النُّهى والعقول ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي وإذا تُليت آيات القرآن، فاستمعوا إليها أيها المؤمنون بتدبر وتبصُّر، واسكتوا عند تلاوته، إعظاماً للقرآن وإجلالاً له، لكي تنالوا رحمة ربكم ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ أي واذكر أيها المؤمن ربك سرّاً، مستحضراً لعظمة جلاله، واذكره متضرعاً إليه وخائفاً منه، وليكن ذكرك ودعاؤك، وسطاً بين الجهر والسر، في الصباح والمساء، ولا تغفل عن ذكر ربك أبداً، فإنه الغذاء الروحي لسلامة قلبك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ أي إن الملائكة الأبرار الأطهار، الذين هم في الملأ الأعلى ـ على مكانتهم وسموِّ قدرهم ـ لا يستكبرون عن طاعة الله وعبادته، يسبحونه ليلاً ونهاراً، وله وحده جلَّ وعلا يسجدون ويخضعون!!

انتهى تفسير سورة الأعراف

● ● ●

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾

تفسير سورة الأنفال

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ **الأنفالُ**: الغنائمُ، أي يسألك أصحابك يا محمد عن الغنائم، التي غنموها في غزوة بدر، لمن هي؟ وكيف تُقسم؟ فقل لهم: الحكمُ فيها للّهِ والرسول، يقسمها الرسولُ بينكم كما أمره الله، وليس أمرها إليكم، فاتقوا ربكم بطاعته واجتناب معاصيه، وأصلحوا أحوالكم بالائتلاف وعدم الاختلاف، وأطيعوا أمر الله وأمر رسوله، إن كنتم حقاً مؤمنين، متقين لله، **قال عُبادة بن الصامت**: نزلت فينا أصحابَ بدر، حين اختلفنا وتنازعنا وساءت أخلاقنا في أمر الغنائم، فنزع الله الأنفال من أيدينا، وجعلها لرسول الله ﷺ، فقسمها بيننا على السواء، فكان في ذلك تقوى الله، وطاعة رسوله، وإصلاح ذات البين، رواه أحمد والبيهقي.

ثم ذكر تعالى صفات المؤمنين الكاملين، فقال عزَّ شأنه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي إنما المؤمنون الكاملون في الإيمان، هم المخلصون الصادقون، الذين إذا ذُكر اسم الله أمامهم، فزعت قلوبهم وارتجفت، لمجرد ذكره، استعظاماً لجلاله، وهيبةً منه جلَّ وعلا، وإذا تليت عليهم آيات القرآن، ازداد إيمانهم ويقينهم بالله عزَّ وجلَّ، وعلى ربهم وحده يعتمدون، لا يخافون ولا يرجون غيره.. وصفهم تعالى بمقامات ثلاثة عظيمة: (مقام الخوف)، و(مقام

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾

الاطمئنان)، ومقام (التوكل على الرحمٰن)، ثم أفاض سبحانه بذكر أوصافهم الجليلة، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي هؤلاء المؤمنون الصادقون في دعوى الإيمان، هم الذين يؤدون الصلاة على الوجه الأكمل، بأركانها، وخشوعها، وآدابها، ويحافظون على أدائها في أوقاتها، ومما منحناهم وأعطيناهم من المال الحلال، ينفقون ويتصدقون ـ ويدخل في هذه الآية: الزكاة، والنفقة، وسائر الخيرات ـ فهؤلاء المتصفون بالصفات الحميدة، هم المؤمنون إيماناً حقاً، لهم منازل رفيعة عند الله، وتكفيرٌ لما فرط من ذنوبهم، ورزق دائم مقيم، في جنات النعيم.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ يبدأ الحديث عن غزوة بدر، وفيها تشبيه قصة اختلافهم في الغنائم، بقصة اختلافهم في الخروج للقتال في (غزوة بدر)، **والمعنى**: حالهم في اختلافهم في أمر الغنائم، كحالهم في اختلافهم في أمر الخروج للحرب، ولا ينبغي لهم أن يختلفوا في أمر قتال أعداء الله، فإنه حقٌّ فرضه الله على المؤمنين، وإن كان يكرهه الكثير منهم، كما قال سبحانه: ﴿**كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم**﴾ ثم صوَّر تعالى حالتهم النفسية، حين كُلِّفوا بالقتال، فقال سبحانه: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ أي يجادلونك يا محمد في شأن قتال كفار مكة ـ بعد أن وضح الحق وبان ـ، فحالهم كحال من ينساق إلى الموت وهو يشهده بأم عينيه.. لقد خرج المسلمون لهذه المعركة على غير استعداد، وقد كانوا يريدون التعرض لقافلة قريش، ولم يكن قصدُهم القتالُ، فلما نجت القافلة، ودعاهم الرسول لقتال المشركين، كرهوا الخروج وقالوا: يا رسول الله، لو أخبرتنا بأننا سنلقى الأعداء، لتهيَّأنا وأخذنا عُدَّتنا لحربهم، وجادلوا الرسول ﷺ في أمر القتال من غير استعداد، ونكاد نلمح من جوِّ هذه الآيات، مبلغ الحالة النفسية، التي كان عليها بعض

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾

أصحاب النبي ﷺ حين دعاهم الرسول إلى القتال، فقد صوَّرهم القرآن الكريم، بصورة من يُساق إلى الموت سوقاً، ويُدفع نحوه دفعاً، وذلك لقلة عددهم، وعدم استعدادهم، وفي الآيات إشارة إلى فرط فزعهم ورعبهم، وتمضي الآيات وهي تتحدث عن هذه الغزوة التي نصر الله فيها المؤمنين، على قلَّةٍ من السلاح والرجال، حيث يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي اذكروا حين وعدكم الله على لسان رسوله، أن إحدى الغنيمتين ستكون لكم: إما تجارة قريش التي رجعت من الشام، وهي (العِيرُ) وإمَّا قتل وأسر رجالات قريش، وهي (النفيرُ) وتحبون أن تلقوا الطائفة التي لا سلاح فيها ولا حرب، وهي الإبلُ المحمَّلة بالتجارة، ويريد الله عزَّ وجلَّ لكم، ما هو أكرمُ وأفضل، وهو العزة والنصرةُ والغلبة على الأعداء، وأن يعلي شأن الإسلام، ويستأصل شأفة الكافرين بإهلاكهم ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي اختار الله لكم القتال، ليظهر عزة الإسلام والمسلمين، ويمحق الباطل وأهله، ولو كره المشركون أهل البغي والإجرام ذلك.. روي أن النبي ﷺ قال لأصحابه: «إن الله وعدني إحدى الحسنيين: إمَّا العير، وإمَّا النفير» أي الرجال، فاختار الكثير منهم العير، لخفة الحرب، وكثرة الغنيمة، فلمَّا نجت القافلة بقيادة أبي سفيان، وجاء المشركون إلى بدر، من كل حدب وصوب، استشارهم رسول الله ﷺ في الخروج إلى قتالهم، فكرهوا ذلك، وقالوا: يا رسول الله، إنَّا لم نخرج للحرب، فقام «المقداد بن عمرو» فقال: يا رسول الله، امضِ بنا لما أمرك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿**اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون**﴾ ولكنْ نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فسُرَّ الرسول ﷺ من كلامه وقال: «أبشروا أيها الناسُ، وسيروا على بركة الله، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، واللّهِ لكأني أنظر إلى مصارع القوم ـ أي أماكن مقتلهم ـ» وحقَّق الله لرسوله ما وعده به، فقُتل منهم سبعون، وأُسر سبعون، وفرَّ الباقون يولُّون الأدبار

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ أي واذكروا وقتَ أن قام الرسول ﷺ يستغيث بربه ويستنجده، ويطلب منه النصر على المشركين، فاستجاب الله دعاءه، وأمدكم بألفٍ من الملائكة متتابعين، يقاتلون إلى جانب المؤمنين، ومعنى ﴿مردفين﴾ أي متتابعين يتبع بعضهم بعضاً، والآية إشارة إلى ما حدث من النبي ﷺ حيث نظر إلى المشركين وهم ألف، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة وخمسة عشر رجلاً، فاستقبل القبلة، ومدَّ يديه يدعو ربه، ويستنجد به، وعليه رداؤه وهو يقول: «اللهمَّ أنجزْ لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام، فلن تعبد في الأرض» فما زال يستغيث بربه ويدعوه، حتى سقط الرداء عن منكبيه، فالتزمه أبو بكر الصدِّيق من ورائه وهو يقول: كفاك يا نبيَّ الله مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله هذه الآية: ﴿إذ تستغيثون ربكم..﴾ الآية، ثم بيَّن تعالى أن النصر ليس بالملائكة ولا بالرجال، إنما هو من عند الكبير المتعال، فقال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي وما جعل الله إمدادكم بالملائكة، سبباً لعزتكم ونصرتكم، إنما هو مجرد بشارة لكم بالغلبة، ولتسكن بهذا الإمداد نفوسكم، وليس النصر في الحقيقة، إلا من عند الله العلي الكبير، فثقوا بنصره، ولا تعتمدوا على عدَّتكم وقوَّتكم، لأن ربكم غالبٌ لا يُغلب، حكيم في صنعه وتدبيره.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ أي اذكروا يا معشر المؤمنين، حين يلقي عليكم النوم، أمناً منه سبحانه وتعالى، وهذه معجزة لرسول الله ﷺ حيث غشيَ الجميعَ النومُ، في وقت المعركة، وحصولُ النوم عند الخوف الشديد بعيدٌ في العادة، وبالنوم

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾

حصلت لهم الراحة، **قال علي رضي الله عنه**: «ولقد رأيتُنا وما فينا إلاَّ نائم، إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرةٍ ويبكي، حتى أصبح الصباحُ»، وينزِّل الله عليكم المطر من السماء، ليطهِّركم به من الأحداث والجنابات، وليدفع عنكم وسوسة الشيطان وتخويفه لكم من العطش، وليقوِّي قلوبكم بالثقة بنصر الله، ويُثَبِّت بالمطر الأقدام، حتى لا تسوخ بالرمل، **قال ابن عباس**: كان المشركون سبقوا المسلمين إلى الماء ببدر، وأصبح المسلمون على غير ماء، واحتلم بعضهم فصاروا على جنابة، وكانت منازلهم على رملٍ تسوخ فيه الأقدام، فوسوس الشيطان إليهم، وقال: كيف تُنصرون وقد غُلبتم على الماء، وأنتم تصلُّون محدثين مجنبين، وتزعمون أنكم أولياء الله؟ وقد عطشتم، ولو كنتم على حق لما سبقكم المشركون إلى الماء!! فحزنوا حزناً شديداً، فأنزل الله عليهم المطر حتى جرى الوادي، وتوضؤوا واغتسلوا، وملأوا أسقيتهم، وتلبدت الأرض، وزالت عنهم وسوسة الشيطان.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ تذكيرٌ للمؤمنين بنعمة أخرى عليهم، أي اذكروا حين يوحي ربك إلى الملائكة، بأني معكم بالعون والنصر، فثبتوا المؤمنين بتقوية قلوبهم على الأعداء، برفع معنويَّاتهم، وسأقذف في قلوب الكفار الخوف والفزع، فاضربوهم على أعناقهم، واضربوهم على أطراف أصابعهم، والحكمةُ في ذكر البنان وهي ـ أطراف الأصابع ـ أن المحارب إذا ضُربت أصابعه تعطَّل عن القتال، فأمكن قتلُه أو أسره ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي ذلك العذاب الشديد الفظيع لهم، بسبب أنهم عادوا وحاربوا الله ورسوله، ومن يخالف أمر الله، ويعادي شريعته ودينه، فإن عذاب الله أليم، وبطشه شديد ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ أي ذلكم العقاب فذوقوه يا معشر الكفار، ولكم بعد عذاب الدنيا عذاب النار، الذي يهونُ عذاب الدنيا أمامه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٧﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ أي إذا لقيتم أعداءكم الكفار في المعركة، وكأنهم لكثرتهم يزحفون زحفاً نحوكم، فلا تنهزموا أمامهم، بل اصبروا واثبتوا ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ ومن ينهزم أمامهم إلا إذا كان متوجهاً إلى مكانٍ أصلح منه، أو يخيِّل لعدوه أنه منهزم، ليغرَّه مكيدةً له، أو (متحيزاً) أي منضماً إلى جماعة أخرى من المسلمين ليقاتل معهم، فقد رجع بغضب عظيم من الله، ومسكنه نار جهنم، وبئست جنهم مأوى له.. صوَّر تعالى هذا التصوير الرائع، فمثَّل لكثرة الأعداء ووفرة عددهم، بجيش يزحف على الأرض زحفاً، كأن بعضهم قد تداخل في بعض، فهم لا يسيرون سيراً إنما يزحفون زحفاً، كما يزحف الصبيان على الأيدي، وقد استثنى الله عزَّ وجلَّ حالتين اثنتين فقط:

الحالة الأولى: أن يفرَّ أمام عدوِّه مكيدة له، ثم يكرُّ عليه فيقتله، فهذه الحالة ليس فيها هربٌ، إنما هي مكيدة وخدعة، يتظاهر بالهرب ليستدرج عدوَّه.

الحالة الثانية: أن يترك إحدى الجبهات القتالية، لينضمَّ إلى جبهةٍ أخرى قلَّ المسلمون فيها، فإذا ترك القتال هنا، لينضمَّ إلى إخوانه هناك، فهذا تخطيطٌ عسكريٌّ نافع، وهو جائز.

﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ روي أن النبي ﷺ أخذ قبضةً من تراب، ورمى بها في وجوه المشركين يوم بدر، وقال: «شاهت الوجوه» فما بقي أحد منهم إلاَّ دخل في عينيه ومنخريه، من تلك الرمية، فولَّوا الأدبار منهزمين، وهذه إحدى المعجزات الظاهرة

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٨ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠﴾

لرسول الله ﷺ، ومعنى الآية: إنكم لم تقتلوهم أيها المسلمون ببدر، بقوتكم وقدرتكم، ولكنَّ الله قتلهم بنصركم عليهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، وما رميت أنت يا محمد، حين رميتَ أعين الكفار، بقبضةٍ من تراب، لأن كفاً واحدة من تراب، لا تصل إلى عيون الجيش الكبير بأكمله، ولكنَّ الله رمى بإيصالها إليهم، فالأمرُ في الحقيقة من الله، وفي الصورة منك، وقد فعل الله ذلك، ليختبر إيمان المؤمنين، فيعطيهم الأجر والنصر والغنيمة، ويقهر الكافرين ويخزيهم ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي ذلك الذي حدث، من نصر المؤمنين، وقتل المشركين في بدر، الغرضُ منه إضعاف كيد الكافرين، حتى لا تقوم لهم قائمة، وإبطال مؤامراتهم الخبيثة.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الخطاب هنا لكفار قريش، على سبيل (السخرية والتهكم)، أي إن تطلبوا يا معشر الكفار الفتحَ والنَّصرَ على محمد، فقد جاءكم الفتحُ، وهو (الهزيمةُ والقهرُ)، سمَّى تعالى إهلاكهم نصراً على طريق السخرية أي جاءكم الهلاك، وذلك أنَّ أبا جهل قال يوم بدر: اللهمَّ أيُّنا كان أشقى وأفجر، وأقطعَ للرحم، فأهلكْه اليومَ، اللهمَّ انصر أعلى الجندين، وأهدى الفئتين، وأكرم الحزبين، فأنزل الله: ﴿**إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح**﴾ ومعنى ﴿**تستفتحوا**﴾ أي تطلبوا الفتح والنصر ﴿**وإن تنتهوا فهو خير لكم**﴾ أي وإن تكفُّوا يا معشر قريش عن حرب الرسول ومعاداته، وعن الكفر بالله وبرسوله، فهو خيرٌ لكم في دنياكم وآخرتكم، وإن تعودوا لحربه وقتاله، نعُد لنصرته وهزيمتكم، ولن تدفع عنكم جماعتكم التي تستنجدون بها، شيئاً من العذاب والبلاء، مهما كثر الأعوان والأنصار، لأن الله تعالى مع المؤمنين بالنصر، ومن كان الله معه فلن يُغلب أبداً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي دوموا يا معشر أهل الإيمان، على طاعة الله ورسوله، ولا تُعرِضوا عنه بمخالفة أمره، وأنتم تسمعون القرآن

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

والمواعظ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا تكونوا كالكفار الفجار، الذين سمعوا الهدى والقرآن بآذانهم دون قلوبهم، فلم يتعظوا به ولم ينتفعوا، لأن الغرض من الاستماع، التدبُّر والانتفاع، فمن لم ينتفع من الكلام، فهو بمنزلة الأنعام، ولذلك شبَّههم تعالى بالدواب السارحة، في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي إن شرَّ المخلوقات، وشر البهائم التي تدبُّ على وجه الأرض، الصمُّ الذين لا يسمعون الحقَّ، البُكْمُ الذين لا ينطقون بكلمة التوحيد، السفهاء الذين فقدوا العقل، فصاروا كالدواب، السارحة، لم يكتفِ القرآن أن جعلهم مثل الدواب، بل جعلهم أخسَّ من البهائم حين قال: ﴿شر الدواب﴾ وذاك نهاية الذمِّ والتقبيح للكفرة المجرمين. قال بعض أهل المعرفة: الآية في منتهى الإيجاز والإعجاز، إذ أنَ الكافر لا يسمع الحقَّ، والبهائم لا تسمعه، ولا ينطق به والبهائم لا تنطق، والكافرُ يأكل والبهائم تأكل، بقي أنه بإبطاله العقل يضرُّ، والبهائمُ لا تضرُّ، فكيف لا يكون شراً منها؟ ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي لو علم الله في هؤلاء الكفار شيئاً من الخير، لأسمعهم سماع تفهُّم وتدبر، فانتفعُوا بحواسِّهم، ولو فُرض أن الله أسمعهم ـ وقد علم أن لا خير فيهم ـ لأعرضوا عن هداية الله كفراً وجحوداً، لأن بصائرهم مطموسة، وعقولهم منكوسة.

وبعد أن ذكر تعالى حال الكافرين، أمر المؤمنين بالاستجابة لأمر الله ودعوة رسوله فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي أجيبوا دعاء الله إلى طاعته، ودعاء الرسول إذا دعاكم إلى القرآن والإيمان، الذي به تحيا النفوسُ، كما تحيا الأرضُ بوابل المطر، ففي (الإيمانِ والقرآن)، الحياةُ، والنجاةُ، والعصمة في الدنيا والآخرة ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي اعلموا يا معشر

وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾

المؤمنين، أن الله تعالى يُصرِّف القلوب كيف يشاء، بما لا يقدر عليه البشر، فيفسخ عزيمة الإنسان، ويُغيِّر مقاصده، ويُلهمه الرشاد، أو يُزيغ قلبه، فهو المتصرف في شؤون الكون، ولهذا كان ﷺ يدعو بهذا الدعاء: «اللهمَّ يا مقلِّب القلوب، ثبِّت قلبي على دينك» ومرجعكم إلى الله، فيجازيكم على أعمالكم، فسارعوا إلى طاعته، وفي الآية حثٌّ على إخلاص القلوب وتصفيتها ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي احذروا بطش الله وانتقامه، إن عصيتم أمره وأمر رسوله، وخافوا عقاب الله، إن نزل بكم لا يقتصر على الظالم فقط، بل يعمُّ الصالح والطالح، لأن الظالم يهلك بظلمه وفجوره، وغير الظالم يهلك بسكوته على الجريمة والعصيان، وفي الحديث: «إن الناسَ إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يَعُمَّهم اللَّهُ تعالى بعقاب» رواه الترمذي. ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي اذكروا نعمة الله عليكم، وقت أن كنتم ضعفاء أذلة، يقهركم الكفار في أرض مكة، وينالونكم بالأذى والمكروه، تخافون من المشركين أن يتخطَّفوكم من دياركم، فجعل لكم مأوى تتحصنون به من أعدائكم وهو (المدينة المنورة)، وقوَّاكم ونصركم يوم بدر حتى هزمتم المشركين، ومنحكم غنائمهم حلالاً طيبة، ولم تكن تحلُّ لأحدٍ من قبل، لتشكروا ربكم على نعمه الجليلة عليكم. **قال قتادة**: «كان أهل هذا الحيِّ من العرب، أذلَّ الناس ذلاً، وأشقاهم عيشاً، وأجوَعَهُم بطوناً، وأعراهم جلوداً، والله ما نعلم قوماً كانوا أشرَّ منهم منزلاً، حتى جاء الله بالإسلام، فمكَّن لهم في البلاد، ووسَّع لهم في الرزق، وجعلهم ملوكاً على رقاب الناس، فاشكروا ربكم على نعمه، فإن ربكم جواد رحيم، منعم كريم» تفسير ابن كثير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لا تخونوا

وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾

دينكم ورسولكم، بإطلاع الكفار على أسرار المؤمنين، ولا تخونوا ما ائتمنكم عليه الناسُ من أموال، وأنتم تعلمون عاقبة الخيانة.. نزلت في قصة «أبي لبابة» وذلك حين حاصر رسولُ الله ﷺ يهودَ (بني قريظة)، طلبوا منه الصلح، فأمرهم أن ينزلوا على حكم «سعد بن معاذ» فقالوا: أرسل لنا أبا لبابة، فبعثه رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا لبابة ماذا ترى؟ أننزل على حكم سعد؟ فأشار إلى حلقه ـ يعني الذبح ـ قال: فعرفتُ أني قد خنتُ الله ورسولَه ثم قال: والله لا أذوقُ طعاماً، ولا أشرب شراباً، حتى أموت أو يتوب الله عليَّ!! فنزلت توبته، وكان قد ربط نفسه بسارية في المسجد، فحلَّه ﷺ، رواه ابن جرير.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي الأموال والأولاد محنة من الله تعالى، ليختبركم هل تفضِّلون المال والولد، على عبادته وطاعته، وإنما كانت فتنةً، لأنها تشغل القلب بالدنيا، وتمنعه عن الجهاد في سبيل الله، وثواب الله وجزاؤه خير من الأموال والأولاد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي إن أطعتم ربكم، واجتنبتم محارمه، يجعل لكم نوراً وهداية في قلوبكم، تفرقون به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، ويمحو عنكم ما صدر منكم من الذنوب والآثام، ويسترها عليكم فلا يؤاخذكم بها، والله واسع الفضل، عظيم العطاء ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ تذكيرٌ بنعمة خاصة لرسول الله ﷺ، بعد تذكير المؤمنين بالنعمة العامة عليهم، أي اذكر يا محمد حين تآمر عليك المشركون في «دار الندوة» بمكة (ليثبتوك) أي يقيِّدوك ويحبسوك، أو (يقتلوك) بضربك بالسيف على أيدي سفهاء مكة، أو (يخرجوك) أي يطردوك من بلدك الذي وُلدت فيه، ويحتالون ويتآمرون

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾

عليك في جناح الظلام، ويدبِّر لك ربك ما يُبطل مكرهم، ويردُّ كيدهم في نحورهم، وتدبيرُه تعالى لك أقوى من مكرهم، وأشدُّ قوة، وأبلغ تأثيراً.. والآية تشير إلى قصة المؤامرة الدنيئة، التي خطَّط لها ورسم لها، طواغيتُ الكفر والضلال، وحضرها «إبليس» بصورة شيخ ناصح أمين، فقد روى ابن عباس (أن نفراً من أشراف قريش، اجتمعوا في دار الندوة، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ مهيب، فقالوا: من أنتَ؟ قال: شيخ من العرب، سمعت أنكم اجتمعتم من أجل هذا الصابىء ـ يعني محمداً ـ فأردت أن أحضركم، ولن يعدمكم مني رأيٌ ونصحٌ!! قالوا: أجلْ فادخل، فقالوا: انظروا في شأن هذا الرجل، واللّهِ ليوشكنَّ أن يغلبكم على أمركم!! فقال بعضهم: احبسوه في وثاقٍ، ثم تربصوا به حتى يهلك، فصرخ عدوُّ الله إبليس: والله ما هذا لكم برأي، فليوشكنَّ أن يثب عليكم أصحابه، حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم، فقالوا: صدق الشيخ، فانظروا في غير هذا، فقال قائل: أخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضرَّكم ما صنع، وأين وقع!! فقال عدوُّ الله: ما هذا لكم برأي، ألم تروا إلى حلاوة قوله، وطلاقة لسانه، وأخذه القلوبَ بحديثه؟ والله لئن فعلتم، ليوشكنَّ أن يجمع عليكم العرب، حتى يخرجوكم من بلادكم، ويقتلوا أشرافكم!! قالوا: صَدَق، فانظروا رأياً غير هذا، فقال أبو جهل لعنه الله: لأشيرنَّ عليكم برأي لا أرى غيره، نأخذ من كل قبيلة غلاماً شاباً، جَلْداً، ونعطي كل واحد سيفاً صارماً، يجتمعون عند باب داره، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فيتفرَّق دمه في القبائل كلها، ولا أظن بني هاشم يقدرون على حرب قريش جميعها، فيقبلون الدية، فنقطع عنه أذانا، ونستريح منه، فصرخ عدوُّ الله إبليس: هذا والله هو الرأيُ، ولا أرى غيره!! فاتفقوا على ذلك، فأتى جبريلُ النبيَّ ﷺ وأخبره بمكر القوم، وأمَرَهُ تلك الليلة أن لا ينام على فراشه، وأذن لرسوله بالهجرة، فخرج ومعه حفنة من تراب، فجعل ينثرها عليهم وهو يقرأ: ﴿**وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون**﴾ وخرج مهاجراً إلى المدينة المنورة، بصحبة أبي بكر)، رواه البيهقي.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي وإذا قُرئت آيات القرآن المبين على كفار مكة، قالوا مكابرةً وعناداً: لو أردنا

وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

لقلنا مثل هذا الكلام، وما هذا الذي تتلوه علينا إلا أكاذيب وخرافات الأولين!! وهذا منهم غايةُ المكابرة والعناد، فكيف يزعمون أنهم قادرون على الإتيان بمثله، وقد تحدَّاهم عشر سنين، ولم يقدروا على أن يأتوا بمثل سورة واحدة منه، ثم قُورعوا بالسيف فلم يعارضوه، مع فرط استنكافهم أن يُغلبوا، لا سيَّما في ما يتقنونه من خصائص علم البيان؟ هذا منهم لمجرد التشويش على الرسول ﷺ.

﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي قال الطغاة المشركون: إن كان هذا القرآن حقاً منزلاً من عندك يا رب، فلن نؤمن به، ولن نتَّبعه، فأنزل علينا حاصباً وحجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب مؤلم فظيع، قالوا ذلك على سبيل (السخرية والاستهزاء)، ولو كانوا عقلاء لقالوا: إن كان ما جاءنا به محمد هو الحقُّ، فوفقنا لاتِّباعه، واهدنا إليه، ولكنهم لسفههم وطغيانهم طلبوا العذاب بدل الرحمة، والشقاوة بدل الهداية، قال تعالى ردّاً على جبروتهم: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي إكراماً لك يا محمد، ما كان الله ليعذبهم بعذاب الاستئصال، وأنت مقيم بين أظهرهم، هذا هو السبب الأول، وهناك سبب آخر لعدم الإهلاك الكليّ، أنَّ اللَّهَ يعلم أن من أبنائهم، من يحمل راية الإسلام ويؤمن، ومنهم من سيتوب ويدخل في الإسلام، فلذلك لم يهلكهم بالإفناء، مع استحقاقهم له ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي وكيف لا يُعذَّبون وهم على ما هم عليه من العتوّ والضلال، ومنع الناس عن الدخول في الإسلام؟ وحجِّ بيت الله الحرام؟ وما كانوا أهلاً لولاية بيت الله الحرام مع إشراكهم، إنما يكون أهلاً لهذا الشرف العظيم، المؤمنون

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾

المستمسكون بشرع الله!! كان كفار مكة يقولون: نحن ولاةُ البيت الحرام، نصدُّ من نشاء، ونُدخل من نشاء، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿وما كانوا أولياءه..﴾ الآية، ثم بيَّن أن أكثرهم جهلة سفلة، ولكنهم لا يعلمون ذلك، وزيادة في التقبيح والتشنيع عليهم، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي ما كانت عبادتهم ودعاؤهم، وهم يطوفون حول الكعبة المشرَّفة، (إلاَّ مُكاءً) أي تصفيراً، (وتصدية) أي تصفيقاً، يفعلون ذلك ليشوِّشوا على المسلمين صلاتهم، فذوقوا عذاب القتل والأسر في الدنيا، بسبب إجرامكم وعصيانكم. **قال ابن عباس**: «كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عُراة، يصفِّرون ويصفِّقون، ليشوِّشوا على المؤمنين عبادتهم» رواه ابنُ أبي حاتم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ أي ينفقون أموالهم ويصرفونها لمنع الناس عن الدخول في الإسلام، فسينفقون هذه الأموال، ثم تصير ندامةً عليهم، لأن أموالهم ذهبت، ولم يظفروا بما كانوا يطمعون فيه، من إطفاء نور الله، ثم نهايتُهم الهزيمةُ والاندحار، والذين عاشوا كفاراً وماتوا على الكفر، ففي نار جهنم يجتمعون، يساقون إليها سوقاً ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي ليفصل الله بين المؤمن والكافر، والبرِّ والفاجر، ويجمع الكفار بعضهم مع بعض فيقذف بهم في نار جهنم، فيصبحوا كالحُطام والركام، يتراكم بعضهم فوق بعض، أولئك هم الكاملون في الشقاء والخسران.. شبَّههم تعالى بالقُمامات والنفايات، التي تتجمَّع ويتكدس

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾

بعضُها فوق بعض، لِتُحرق بعد أن أصبحت سبباً للوباء.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي قل لهؤلاء المشركين من قومك، الذين حاربوك وعادوك، وأخرجوك من الوطن، إن ينتهوا عن الكفر، ويكفُّوا عن حربك وقتال المؤمنين، يغفر الله لهم ما سلف من الذنوب والآثام، وإن يعودوا إلى قتالك وتكذيبك، فقد مضت سنَّة الله في إهلاك الطغاة المكذبين، ففي الآية الكريمة إعذار لهم وإنذار. ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي قاتلوا أعداءكم المشركين، حتى تنتهي فتنةُ الطغاة، ولا يبقى مشرك يفتن المؤمن عن دينه، وتضمحلَّ الأديان الباطلة، ويبقى الدين الحقُّ، دين الإسلام عالياً على جميع الأديان، فإن كفُّوا عن الكفر وأسلموا، فالله تعالى مطَّلع على قلوبهم، يثيبهم على توبتهم وإسلامهم ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أي وإن أعرضوا عن الإيمان، فالله تعالى ناصركم ومعينكم عليهم، فثقوا بولايته ونصرته، فنعم المولى جلَّ وعلا أن يكون حاميكم وحافظكم، ونعم أن يكون النصير لكم، ومن كان الله معه فلن يُقهر ولن يُغلب.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي اعلموا أيها المؤمنون، أن أيَّ شيء تغنمونه في قتالكم للأعداء، فالخُمُس منه

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣)﴾

للرسول ولقرابته من بني هاشم وبني المطلب، وللأيتام، والمساكين، وابن السبيل وهو الغريب المنقطع في سفره، وأربعة أخماس الغنيمة للمجاهدين، إن كنتم مؤمنين بالله، وبما أنزلنا على نبينا محمد ﷺ يوم بدر، حين التقى جمع المؤمنين والكفار، فهذا حكم الله في الغنائم.. ولقد كانت الغنائم محرَّمة على الأمم السابقين، حتى يكون الجهاد خالصاً لوجه الله تعالى، لا يشوبه أي مطمع من حُطام الدنيا، وأحلَّه الله خاصة لهذه الأمة المحمدية، كما جاء في الحديث: «وأُحلَّت لي الغنائم ولم تحلَّ لأحدٍ من قبلي» رواه البخاري. ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي حين كنتم يا معشر المؤمنين بجانب الوادي القريب من المدينة المنورة، وأعداؤكم المشركون بجانب الوادي الأبعد عن المدينة، والعيرُ التي فيها تجارة قريش فيما يلي ساحلِ البحر، وهذا تصوير دقيق للمعركة يصوِّرها القرآن بأسلوبه البياني المعجز. ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي لو تواعدتم مع المشركين، على الوقت والمكان والزمان، لاختلفتم في الميعاد، ولكنَّ الله بقدرته وحكمته هيَّأ الأسباب، دون سابق اتفاق، وجَمَع بينكم على غير ميعاد، لتعلموا أن النصر الذي أحرزتموه ليس بقوتكم واستعدادكم، ولكن بتقدير من الله وتدبير، ليموت من يموت على الكفر عن وضوح وبيان، ويعيش من يعيش على الإيمان، عن بصيرة وبرهان، والله سميع لأقوال العباد، عليم بنياتهم، قال كعب بن مالك: إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش، وما رجعوا حتى جمع الله بينهم وبين عدوِّهم على غير ميعاد.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي اذكر حين أراك الله أعداءك في المنام قليلاً،

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾

فأخبرت بها أصحابك حتى قويت عزائمهم، وتشجعوا على حربهم، ولو أراك إياهم كثرة، لجبُن أصحابك ولم يقدروا على حرب القوم، ولكن الله أنعم عليكم بالسلامة من الفشل والتنازع، إنه تعالى يعلم خفايا النفوس، وهذه إحدى الكرامات للمؤمنين، وانظر إلى محاسن القرآن، في دقائق تعبيراته، فإنه لم يسند الفشل إلى رسول الله ﷺ فلم يقل: لفشلتَ، وإنما قال: ﴿لفشلتم﴾ إشارة إلى أصحابه رضوان الله عليهم، فمقام الرسول ﷺ رفيعٌ عند ربه، وهو المؤيَّد بالنصر من السماء ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ وهذه كرامةٌ أخرى من الله للمؤمنين، فقد كان عدد المشركين ألف مقاتل، ولكنَّ الله سبحانه قلَّل عددهم في أعين المؤمنين، حتى يتجرَّأ المؤمنون على قتالهم، وقلَّل عدد المؤمنين في أعين الكفار، حتى لا يستعدُّوا الاستعداد الكامل لهم، **قال ابن مسعود**: لقد قُلِّلوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لصاحبي: أيكونون مائة؟ وكان ذلك من آيات الله الباهرة، ولهذا قال تعالى مبيناً الحكمة: ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ أي فَعَل الله ذلك، لتقع الحرب، وينصر الله جنده، ويُعزَّ الإسلام وأهله، مع قلة عددهم وسلاحهم، وإلى الله وحده مرجع جميع الأمور، يصرِّفها كيف شاء!.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ هذا توجيه وإرشادٌ، إلى طريق العزة والنصر، أي إذا لقيتم جماعة من الكفار، فاثبتوا أمامهم ولا تنهزموا، وأكثروا من ذكر الله، لتستمطروا نصره وعونه، وتفوزوا بالفلاح والنجاح!!

أربعةُ عناصر ذكرها تعالى لكسب المعركة، ونيل النصر، وهي:

١ ـ الثبات في الميدان مع الإيمان.

٢ ـ وتقوية القلوب بالإكثار من ذكر الرحمن.

٣ ـ وعدم التنازع والاختلاف بين المؤمنين.

٤ ـ والصبر عند المكاره والشدائد.

وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾

أمّا الثمرةُ والنتنيجة فهي (الظفرُ والنصر) وقد حقق الله لهم ذلك.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي أطيعوا أمر الله، وأمر رسوله، في جميع شؤونكم وأحوالكم، ولا تختلفوا فيما بينكم، فيدبَّ فيكم الوهنُ والخَوَرُ، وتذهب قوتكم وبأسكم، واصبروا على شدائد الحروب وأهوالها، فاللّهُ مع الصابرين بالعون والنصر ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي ولا تكونوا مثل كفار قريش، الذين خرجوا إلى بدر لقتال المسلمين، أَشَراً وبَطَراً، يدفعهم حبُّ الثناء، والظهور بمظهر الشجاعة والكبرياء، ويمنعون الناس عن الدخول في دين الله، وهو سبحانه محيطٌ بهم وبأعمالهم، وسيجازيهم عليها، والآية تشير إلى ما قاله أبو جهل، حين بعث إليهم أبو سفيان يقول: ارجعوا فقد نجّى الله عيركم وأموالكم ورجالكم!! فقال عدوُّ الله: لا والله لا نرجع، حتى نأتي بدراً، فنشرب بها الخمور، وننحر بها الجزور، وتعزف علينا المغنِّيات، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبداً!! فسقوا كأس المنايا بدل الخمر.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ أي شجَّعهم الشيطان على قتال المسلمين، وزيَّن لهم سوء صنيعهم، وخيَّل إليهم أنهم لا يُغلبون، وقال لهم: إني مجيرٌ ومعين لكم ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي فلما تلاقى الفريقان، ولّى الشيطان هارباً مولياً الأدبار، وقال: إني بريء من عهدكم وجواركم، إني أرى

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا ۙ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ۙ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾

الملائكة نازلين لنصرة المؤمنين، وأنا أخاف الله، وأخاف عقابه الشديد، وكذب عدوُّ الله، لو خاف اللَّهَ لأطاعه، وفي الحديث: «ما رؤي الشيطانُ يوماً هو فيه أصغرُ، ولا أدحرُ، ولا أحقر، ولا أغيظ منه في يوم عرفة، إلاَّ ما رأىٰ يومَ بدر، فإنه رأى جبريل يَزَع الملائكة» أي يصفُّها للقتال، رواه مالك. ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ أي حين يقول أهل النفاق، الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، والذين في قلوبهم بذور الشكِّ في قدرة الله: لقد غرَّ المؤمنين دينُهم، يظنون أنهم سينتصرون في هذه الحرب، على ألف مقاتل من صناديد قريش، توهماً منهم أنهم يُنصرون، قال تعالى ردّاً عليهم: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي ومن يعتمد ويثق بوعده تعالى، فإنَّ الله ينصره، لأن الله (عزيز) أي غالبٌ لا يُغلب، لا يذلُّ من لجأ إليه، (حكيمٌ) في تدبيره وصنعه، يفعل ما تحار فيه العقول﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا ۙ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي لو رأيتَ أيها السامع حال الكافرين، حين تنزل بهم ملائكة العذاب، يضربون بمقامع الحديد وجوهَهم وظهورهم، ويقولون لهم: ذوقوا يا معشر الكفرة المجرمين، هذا العذاب الذي هو مقدِّمة لعذاب النار المحرق، وجواب (لو) محذوفٌ للتهويل والتعظيم، أي لرأيت أمراً فظيعاً هائلاً، لا يكاد يوصف ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي ذلك العذاب بسبب ما كسبتم من الجرائم والآثام، وأنه تعالى عادل، لا يعذب أحداً بدون ذنب، وصيغة (ظلاَّم) للنسب، وليست للمبالغة، كعطَّار، وحدَّاد، ونجَّار، أي ليس منسوباً إلى الظلم أصلاً، فهي لنفي الظلم بأنواعه.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ۙ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي عادة هؤلاء المجرمين، المكذبين بآيات الله، كعادة من قبلهم من الطُّغاة

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ۙ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾

الفَجَرة، من قوم فرعون والذين سبقوهم من الأمم، كقوم نوح، وعاد، وثمود، في العناد والتكذيب، والكفر والإجرام، وقد أهلكهم الله بسبب كفرهم ومعاصيهم، لأنه تعالى قويُّ البطش، شديد العذاب، لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي ذلك الذي حلَّ بهم من العذاب، من القتل والأسر والهزيمة، بسبب أن الله تعالى عادل في حكمه وقضائه، لا يغيِّر نعمةً أنعمها على أحدٍ من خلقه، حتى يبدِّلوا النعمة إلى كفرٍ وعصيان، فيسلبهم الله هذه النعمة، وهكذا كان أمرُ كفار مكة، كانوا في أمنٍ واستقرار، وسعادة ورفاهية، تُجبىٰ إليهم الخيراتُ من الفواكه والحبوب والثمار، من جميع البلدان والأقطار، وأكمل الله عليهم النعمة، ببعثة خاتم المرسلين، فكذبوه وقاوموه وقاتلوه، فغيَّر الله حالَهم، فنقلهم من الأمن إلى الخوف، ومن السَّعة إلى الضيق، وابتلاهم بالشدائد والنكبات، حتى أكلوا الجيَف والوَبَر، ثم قتل صناديدهم يوم بدر، وهذه نتيجة كل من كفر نعمة الله.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ۙ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ كرَّر اللفظ لزيادة التشنيع والتوبيخ على جرائم المشركين، أي عادتُهم وشأنهم، كعادة وشأن المكذبين من قبلهم، من جماعة فرعون ومن سبقهم من الطغاة المجرمين، كذبوا بآيات الله فأهلكهم الله، بسبب كفرهم وإجرامهم، وأغرق فرعون وجماعته في البحر، وكلٌّ من الأمم المكذِّبة، كانوا ظالمين لأنفسهم بالكفر والمعاصي!.

ثم ذكر تعالى شرَّ المخلوقات على الإطلاق فقال سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي إنَّ شرَّ من يدبُّ على وجه الأرض من المخلوقات، الكفَّارُ الفُجَّار، الذين لا يؤمنون بالله ورسوله، ويصرُّون على الكفر والإجرام، جعلهم تعالى شرَّ البهائم، لا شرَّ الناس فقط، كأنهم من جنس الدواب، لا يستفيدون من عقولهم وحواسِّهم،

ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ

والمراد بهم يهود «بني قريظة» الذين نقضوا عهودهم مرات مع الرسول ﷺ، ورئيسُهم «كعب بن الأشرف» ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾ أي هم الذين عاهدتهم يا محمد، من يهود بني قريظة، على أن لا يعينوا المشركين على حربك، ثم ينقضون العهد مرَّة بعد مرَّة، ثم هم لا يتقون الله في غدرهم، ولا يبالون ما فيه من العار والشَّنار. ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي فإن ظفرتَ بهم في الحرب، فاقتلهم ونكِّل بهم تنكيلاً شديداً، تخوِّف بهم الكفرة المجرمين، لعلهم يتَّعظون بما شاهدوه فيرتدعوا عن الخيانة والغدر.. نزلت في يهود (بني قريظة)، عاهدوا رسول الله ﷺ على أن لا يعينوا عليه أحداً من مشركي مكة، ثم نقضوا العهد وقالوا: نسينا، ثم عاهدهم فنقضوا العهد يوم الخندق.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ هذا من معجز ما جاء في القرآن، على إيجازه وكثرة معانيه، والمعنى: إن كنت تخاف خيانةً، من قوم بينك وبينهم عهد وميثاق، فانبذْ إليهم العهد، على علم منك ومنهم، بأن تقول لهم: قد نبذتُ إليكم عهدكم، وأنا سأقاتلكم، ليعلموا ذلك، فيكونوا معك في العلم سواء، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد، وهم يثقون بك، فيكون ذلك خيانة، والله لا يحب الخائنين، فأوجز القرآن ذلك كله في هذه الكلمات القلائل. ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ﴾ أي لا يظن الكفار الفجار أنهم يفلتون من عذابنا، فإنهم في قبضتنا ولا يعجزوننا!! وفي الآية تسلية للرسول ﷺ، في أن الله سينتقم له من أعدائه، إن عاجلاً أو آجلاً، لأن الله لا يعجزه أمرٌ أراده.

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾

وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ

أي أعدُّوا يا معشر المؤمنين لقتال أعدائكم، جميع أنواع القوة التي هي باستطاعتكم «القوة المادية، والعسكرية، والروحية، والعلمية» وأعدُّوا لهم الخيل، التي هي آلة للحرب في جميع الأزمنة والعصور، في الجبال والوديان، والهضاب والسهول، تُرْهِبون وتخيفون بهذه القوة، أعداء الله وأعداءكم ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي وترهبون أقواماً آخرين من المنافقين، لا تعلمون ما هم عليه من النفاق، ولكنَّ الله تعالى يعلمهم، فيأمركم بالحذر منهم، وإدخال الفزع إلى قلوبهم، وما تبذلونه من أموال تنفقونها لإعلاء كلمة الله، ونصرة دينه، فإن الله تعالى يجازيكم عليه أوفر وأحسن الجزاء، والآية الكريمة تشير إلى «السِّلم المسلَّح» الذي يقف في وجه الطغيان والعدوان، فهذا الإعداد ليس حرباً تُشنُّ لزهق الأرواح، وإرهاب الآمنين، إنما هو تخطيطٌ سياسي رائع، لمجابهة الشرِّ، والوقوف في وجه الظلم والطغيان. ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بعد أن أمر سبحانه بإعداد العُدَّة لإرهاب الأعداء، أمر بعدها بالصلح والسِّلم، بشرط العزة والكرامة للمؤمنين، أي وإن مال الأعداء إلى الصلح والمهادنة، وطلبوا المصالحة، فمِلْ إليها، وأجبهم إلى ما طلبوا، إن كان فيه مصلحة، وفوِّض أمركَ إلى الله، واعتمد عليه وحده، فإن الله يعصمك من مكرهم، إن ربك يا محمد هو السميع لأقوالهم، العليمُ بنيَّاتهم وأحوالهم.. وهذه الآية صريحة في جواز الصلح والمسالمة، بشرط (عزة الإسلام والمسلمين)، أما الصلح الدنيء المهين، الذي يُفرض اليوم فرضاً على العرب والمسلمين، كالصلح مع إسرائيل في هذه الأيام، فهو (استسلام) وليس بسِلْم، وهو ذلٌّ وهوان، يأباه دينُ الله، وعزَّةُ المؤمن، وليس مما تشمله الآية الكريمة، فليتنبه المسلمون لهذا، ولا يخدعنَّهم شياطين السياسة بمثل هذه التُّرهات!!

﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي

لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

وإن أرادوا بذلك الصلح خداعك، ليستعدّوا لحربك وحرب المؤمنين، فإن الله يكفيك شرَّهم، وهو (حَسْبُك) أي كافيك فلا تخف منهم، لأن الله ناصرك ومعزُّك، هو سبحانه الذي قوَّاك وأعانك، وشدَّ أزرك بالأنصار، وألَّف وجمع بين قلوبهم ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي لو أنفقت جميع ما في الأرض من أموال، ما استطعت أن تؤلف بين قلوبهم، ولكنه تعالى بقدرته وحكمته، جَمَع بين قلوب الأنصار، على ما كان بينهم من العداوة والبغضاء، فأبدلهم بالعداوة حباً، وبالتباعد قرباً، وبالشحناء ألفة، لأن الله (عزيز) أي غالبٌ لا يستعصي عليه أمر، (حكيم) أي يعلم المصالح لعباده!!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي اللّهُ جلَّ وعلا وحده، كافيك يا محمد وكافي أتباعك المؤمنين، فلا تحتاجون معه إلى أحد، من ناصرٍ أو معين، ومن كان الله معه فلا غالب له، فثق بنصر الله فإنه مع المتقين. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي حُثَّهم وحُضَّهم، ورغِّبهم في قتال أعداء الله، ليفوزوا بإحدى الحسنيين: إما النصر، وإما الشهادة في سبيل الله، إن كان منهم عشرون صابرون على شدائد الحرب، يغلبوا مائتين من عدوهم، وإن كان منهم مائة صابرة، يغلبوا ألفاً من الكفار، بسبب أن أولئك الكفار قوم جهلة، لا يعرفون حكمة الله في نصر جنده وأوليائه، ولا يثبتون عند اللقاء ثبات المؤمنين، وهذه الغلبة للمؤمنين، إنما جاءت من «القوة الروحية» التي أمدَّهم الله بها، لأنهم يقاتلون عن عقيدةٍ وإيمان، بخلاف المشركين الذين

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

يقاتلون في سبيل الشيطان. ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ أي خفَّف الله عنكم معشر المؤمنين، بسبب ضعفكم، فقد كان ثباتُ الواحد أمام العشرة فرضاً، ثم نُسخ وأصبح ثباتُ الواحد أمام الاثنين فرضاً، روى البخاري عن ابن عباس أنه قال: «لمَّا نزلت **﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾** شقَّ ذلك على المسلمين، حين فُرض عليهم أن لا يفرَّ واحد من عشرة، فجاء التخفيف فقال تعالى: **﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا﴾** فلمَّا خفَّف الله عنهم من العِدَّة ـ أي العدد ـ نَقَص من الصبر، بقدر ما خُفِّف عنهم» رواه البخاري. وقوله سبحانه: **﴿والله مع الصابرين﴾** ترغيبٌ في الثبات، وتبشيرٌ بالنصر، لأن من كان اللّهُ معه فهو الغالب لا محالة.

﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ في هذه الآية عتابٌ للنبي ﷺ ولأصحابه الكرام، على أخذهم الفداء من الأسرى، والمعنى: لا ينبغي لنبيٍّ من الأنبياء، أن يأخذ الفداء من الأسرى، إلاَّ بعد أن يُكثر فيهم القتل والجراح، ويُبالغ فيه، تريدون أيها المؤمنون بأخذ الفداء حُطام الدنيا ومتاعها الزائل؟ والله جلَّ وعلا يريد لكم الباقي الدائم، وهو ثوابُ الآخرة، بإعزاز الإسلام وقتلِ أعدائه، والله عزيز في ملكه، لا يُقهر ولا يُغلب، حكيمٌ في تدبيره وصنعه ﴿لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي لولا حكمٌ من الله سابقٌ من الأزل، وهو أن لا يُعذِّب المخطىء في اجتهاده، لأصابكم في أخذ الفداء من الأسرى عذاب عظيم، وإنما أمر تعالى بالإثخان في الأعداء، لأن (غزوة بدر)، كانت أولى الغزوات في جهاد المسلمين

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾

مع أعدائهم، فكان ينبغي ترجيح جانب الشدة على جانب الرحمة، لئلا يطمع الأعداء في حرب المسلمين، ولإضعاف قوتهم وشوكتهم، حتى لا يفكروا في غزوهم مرة أخرى، وقد كان رسول الله ﷺ استشار أصحابه، في أمر السبعين من أسرى المشركين، فأشار عليه عمر بقتلهم لأنهم صناديد الكفر والطغيان، وأشار عليه أبو بكر بأخذ الفداء منهم وإطلاق سراحهم، فمال قلبُ النبي الرحيم إلى رأي أبي بكر، فنزل العتاب للرسول ﷺ في هذه الآية الكريمة، وجاء في بعض الروايات: «لو نزل العذاب لما نجا منه غيرُ عمر» ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي كلوا من الغنائم التي ربحتموها من أعدائكم المشركين، فقد أحلَّ الله ذلك لكم، فإنها من أطيب المكاسب، لأنها ثمرة جهادكم، وخافوا ربكم في مخالفة أمره ونهيه، فالله غفور لمن تاب، رحيم بعباده المؤمنين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي قل لهؤلاء الأسرى الذين وقعوا في الأسر يوم بدر، إن يعلم الله في قلوبكم صدقاً وإخلاصاً، يعطكم أفضل مما أُخذ منكم من الفداء، ويمحو عنكم ما سلف من الذنوب، والله واسع المغفرة، عظيم الرحمة لمن تاب وأناب، نزلت هذه الآية في (العبَّاس) عمِّ النبي ﷺ، وفيها معجزة للنبي ﷺ، فإن العباس خرج مع كفار مكة، لحرب النبي ﷺ في غزوة بدر، ثم وقع أسيراً ضمن الأسارى، فقال النبي ﷺ لأصحابه: «أضعفوا على العباس الفداء ـ أي خذوه منه مضاعفاً ـ وأمره أن يفدي عن ابني أخيه «نوفل، وعقيل» حيث كان قد حثَّهما على الخروج لحرب النبي ﷺ في هذه الغزوة، فقال العباس لرسول الله ﷺ: لقد تركتني يا محمد أتكفَّف الناسَ ما بقيتُ ـ أي أسألهم المعونة وأستجدي منهم مدة عمري ـ فقال له الرسول ﷺ: «وأين الذهبُ الذي تركتَه عند زوجك «أم الفضل»؟ فقال: وأيَّ ذهب؟ فقال له المصطفى ﷺ: «إنك قلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حَدَثَ لي أمرٌ، فهذا الذهبُ يكفيك ولأولادك مدى

﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى﴾

العمر، ودفنته أنت وأم الفضل»، فقال له: يا ابن أخي: من أخبرك بهذا؟ فقال له ﷺ: «أخبرني به ربي!!» فقال العباسُ: أشهد أنك رسولُ الله، وأنك نبيٌّ صادقٌ، وما كنت أعلم أنك رسولُ الله قبل اليوم، والله يا رسول الله، إن هذا لشيءٌ ما علمه أحد، ولا اطَّلع عليه أحدٌ غيري وغير أم الفضل، ولقد دفنته في سواد الليل، ولقد أيقنت الآنَ أنك رسول الله حقاً، وأمر ابنيْ أخيه فأسلما، وفدىٰ نفسه بمائة أوقية ذهباً، وفدى ابني أخيه بأربعين أوقية، ففيه نزلت هذه الآية ﴿قل لمن في أيديكم من الأسرى﴾ . . الآية. قال العباسُ: فأبدلني الله خيراً من ذلك، أعطاني زمزم ـ أي السقاية ـ ما أحبُّ أن لي بها جميع أموال مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربي) أخرجه الحاكم والبيهقي.

﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي وإن كان هؤلاء الأسرى، يريدون خيانتك، بما أظهروا من العهد على عدم محاربتك، وإعانة المشركين عليك، فقد خانوا الله من قبلِ غزوة بدر، فقوَّاك الله ومكَّنك من رقابهم، فإن عادوا إلى الخيانة، فسيمكِّنك الله منهم أيضاً، وفي الآية تسلية للرسول ﷺ ووعيدٌ للخائنين الناقضين للعهد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي إن المؤمنين الذين صَدَقوا في دعوى الإيمان، وهجروا الديارَ والأوطان، حباً في الله ورسوله، وجاهدوا الكفار بأموالهم وأنفسهم، لإعزاز دين الله، وهم «المهاجرون» الذين هاجروا من مكة، والذين آووهم، وأنزلوهم منازلهم، وبذلوا لهم أموالهم، وآثروهم على أنفسهم، وهم «الأنصارُ» هؤلاء الأبرار من (المهاجرين والأنصار)، بعضهم أولياء بعض في الولاية والحماية والنصرة، وهذه الآية (آية المؤاخاة) فقد آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فكان إذا مات الأنصاريُّ ورثه أخوه المهاجر، وإذا مات المهاجر ورثه الأنصاري بأُخوة الدِّين، التي كانت أقوى من أخوَّة النسب ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى

ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾

ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي والـذيـن آمـنـوا ولم يهاجروا، فلا إرث بينكم وبينهم، ولا ولاية، حتى يهاجروا من بلد الكفر، وإن طلبوا منكم النصرة، فعليكم أن تنصروهم على أعدائهم، لأنهم إخوانكم في الدين، إلاَّ إذا كان بينكم وبين القوم معاهدة، فلا يجوز نقضُ عهدهم بنصرهم عليهم، والله رقيب على أعمالكم، فلا تخالفوا طاعته وأمره. . أشاد تعالى بذكر المهاجرين والأنصار، وأمر بنصرة المسلم لأخيه المسلم، أينما كان وحيثما حلَّ، فإن أخوَّة الإيمان والعقيدة، فوق أخوَّة القرابة والنسب، ولذلك كان بينهم التوارث، وقد كانت الهجرة فريضة على المسلمين، في بدء الدعوة الإسلامية، حتى إن من لم يهاجر منهم، فقد حُرم الولاية والإرث حتى يهاجر، وهذا يدلُّ على مبلغ مكانة «الأخوَّة الإسلامية» حتى وصلت إلى حدِّ التوارث بين المهاجرين والأنصار.

ثم ذكر تعالى حكم الأقارب الكفار، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أي وأمَّا الكفار فليس بينكم وبينهم صلةٌ، ولا توارثٌ، ولا موالاة، حتى ولو كانوا أقارب لكم، وهم في الكفر والضلال ملة واحدة، لا يتولأهم إلاَّ من كان منهم، وإن لم تفعلوا ما أُمِرْتم به، من تولِّي المؤمنين وقطع الصلة مع الكافرين، تحصل فتنةٌ عظيمة ومفسدة جسيمة، لأنه يترتب على ذلك، قوةُ الكفار وضعف المسلمين.

ثم ختم السورة الكريمة بالإشادة بذكر مآثر المهاجرين والأنصار، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي هؤلاء المؤمنون المهاجرون أصحاب السبق إلى الإسلام، والأنصار

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾

الأبرار، الذين نصروا دين الله، وآووا إخوانهم المهاجرين، فواسَوْهم بأموالهم وأسكنوهم في ديارهم، هؤلاء هم المؤمنون الكاملون حقاً، لأنهم حققوا إيمانهم بالهجرة من الوطن، وبذل المالِ والنفس لأجل إعزاز الدين، لهم مغفرة لذنوبهم، ورزق كريم وهو الجنة وما فيها من متاعِ مقيم. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ هذا هو الصنف الثالث، وهم المؤمنون الذين هاجروا بعد الهجرة الأولى، فحكمهم حكم المؤمنين السابقين، في الثواب، والأجر، والنصرة، ألحقهم تعالى بالسابقين تفضلاً منه سبحانه وكرماً، وترغيباً في الإيمان والهجرة، وهم «التابعون لهم بإحسان» وهم الذين قال تعالى عنهم في سورة التوبة: **﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾** وقوله تعالى: **﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾** أي أصحاب القرابات بالنسب، أحقُّ بالتوارث من الأجانب، . فيرث الأب ابنه، والأخ أخاه، وهم أحقُّ بالميراث من غيرهم في حكم الله وشرعه، وهذه الآية ناسخة لما كان عليه التوارث بالحلف، والأخوَّة التي آخى بها رسولُ الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، **قال ابن عباس:** آخى رسولُ الله تعالى بين أصحابه، وَوَرَّثَ بعضَهم من بعض، حتى نزلت هذه الآية، فتركوا الإرث بالأخوَّة، وتوارثوا بالنسب والقرابة.

وقوله سبحانه: **﴿إن الله بكل شيء عليم﴾** أي أحاط بكل شيء علماً، فقد علم مصالح العباد وقرَّرها، فورَّث بالقرابة الدينية أولاً، ثم بالقرابة النسبيَّة، حسب المصلحة والحكمة الإلٰهية، التي اقتضتها ظروف ذلك الزمان.

افتتح الله السورة الكريمة، بذكر فضائل الجهاد في سبيل الله، وحكم الغنائم، وختمها بذكر فضائل الهجرة والنصرة، ليتناسق البدء مع الختام، وهو ختم للسورة بديع، في أكمل صور الإعجاز والبيان، وصلَّى الله وسلم على من خصَّه الله بمعجزة القرآن.

انتهى تفسير سورة الأنفال

● ● ●

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾﴾

تفسير سورة التوبة

هذه السورة الكريمة، من أواخر ما نزل من القرآن الكريم، على صاحب الرسالة محمد ﷺ خاتم النبيِّين، بعد عودته من (غزوة تبوك)، وقد ابتدأت السورة بهذا البدء الرهيب، الذي يوحي بالحرب اللاَّهبة السافرة، على معاقل أهل الشرك والنفاق، ولهذا لم تُذكر فيها البسملةُ، لأن «بسم الله الرحمٰن الرحيم» أمانٌ ورحمة، وهذه السورة جاءت بالوعيد والعذاب، ولا تناسب بينهما.

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي هذه براءةٌ واصلة من الله ورسوله، بقطع العلاقات والعهود مع الأقوام المشركين، الذين نقضوا عهودهم مع رسول الله ﷺ، واستباحوا سفك الدماء، فقل لهم: سيروا يا معشر الكفار آمنين مدة أربعة أشهر، لا يصيبكم مكروه منَّا ولا أذى، ثم بعدها لا عهد لكم منَّا ولا أمان، واعلموا أنكم لا تفوتون اللَّهَ هرباً، وإن أمهلكم هذه المدة، لأنكم في قبضته سبحانه، وأن الله مذلُّ الكافرين، ومهينهم في الدنيا والآخرة، وسبب هذه البراءة، أن النبي ﷺ كان قد عاهد المشركين في «صلح الحديبية» على وقف الحرب بينه وبينهم عشر سنين، عاهدوه على أن لا يحاربوه، ولا يُعينوا عليه أحداً، ولا على من دخل مع الرسول ﷺ في حِلْفه، فنقضوا عهودهم، واعتدت «بنو بكر» على «خزاعة» حلفاء النبي ﷺ وأعانتهم قريش بالرجال وبالسلاح، فأمر الله رسوله الكريم أن يُنهي العهود بينه وبين المشركين، وأن يقطع هذه العلاقات، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر على الحج ليقيم للناس المناسك، ثم أتبعه بعليّ بن أبي طالب، لِيُعْلِم الناس بالبراءة في المحفل المشهود ـ يوم الحج ـ فقام عليٌّ فنادى في الناس بهذه الأمور الأربعة:

وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

١ ـ أن لا يقرب البيت الحرام بعد العام مشركٌ.

٢ ـ وأن لا يطوف بالبيت الحرام عُريان.

٣ ـ وأنه لا يدخل الجنة إلاّ مؤمنٌ.

٤ ـ ومن كان بينه وبين الرسول ﷺ مدة وعهد فأجلُه إلى مدته، والله بريء من المشركين ورسولُه) الحديث أخرجه البخاري ومسلم.

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ **أي إعلام من الله واضح صريح، إلى كافة الناس، ببراءة الله تعالى وبراءةِ رسولهِ من** المشركين، الذين نقضوا العهود، وقيّده بالحج الأكبر، لأن (العمرة) تسمى «الحج الأصغر» فإن تبتم من الكفر والغدر، ونقض العهد، فهو خير لكم من التمادي في الضلال، وإن أعرضتم عن الإيمان والتوبة، فاعلموا أنكم لا تعجزون ربكم، وعقابه نازل بكم، والبشارة هنا بالعذاب الأليم، إنما ورد على سبيل «السخرية والتهكُم» لأن البشارة تكون في الخير، واستعمالها في الشر للتهكُم، كقوله سبحانه: **﴿بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما﴾** وهذه من أساليب العرب، فيمن أرادوا السخرية منه. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ **أي إلاّ الـذين** عاهدتموهم، ثم لم ينقضوا العهد، ولم يعينوا عليكم أحداً من أعدائكم، فوفُوا إليهم عهدهم كاملاً إلى مدتهم، من غير إنقاصٍ ولا إبطال، فإن الله يحب المتقين لربهم، الموفين لعهودهم!! وهذا من جلال الإسلام وسُموّه وعظمته، أنه جعل إبطال العهود، قاصراً على

فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

الذين خانوا ونقضوا العهد، أمَّا الذين وفَّوْا ولم يغدروا، فقد أمر سبحانه بإتمام عهدهم لهم، مراعاة لحقوق العهد، فلا مساواة بين الغادر والوفي!!

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي فإذا انقضت الأشهر الأربعة، التي حرَّم الله فيها قتالهم، فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، في الحلِّ وفي الحرم، واحبسوهم في القلاع والحصون، واقعدوا لهم في كل طريق، فإن تابوا عن الشرك، والتزموا بأحكام الإسلام، من صلاة وزكاة وسائر الأركان، فدعوهم ولا تتعرَّضوا لهم، فإن الله واسع المغفرة والرحمة، لمن تاب وأناب.. والمقصود من هذا التأجيل لأربعة أشهر، أن يتفكروا في أنفسهم، ويحتاطوا في الأمر، ويعلموا بعد هذه المدة، أنه ليس أمامهم إلاَّ أحد أمرين: إمَّا الإسلام، أو السيف والقتال!

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ من حرص الإسلام على هداية البشرية، أن أمر الباري جلَّ وعلا بتأمين من طلب الأمان، حتى يسمع كلام الرحمٰن، وأوجب على المسلمين تبليغه الدعوة، حتى تقوم حجةُ الله عليه، ثم إيصاله إلى وطنه الذي يأمن فيه، ثم قتاله إن لم يقبل هداية الله، والمعنى: إن استأمنك مشركٌ وطلب جوارك، ليسمع ما تدعوه إليه من الإيمان والقرآن، فأمِّنه يا محمد حتى يسمع كلام الله ويتدبره، ويعرف حقيقة هذا الدين العظيم، ثم اتركه حتى يرجع إلى وطنه آمناً، لا يخشى سطوة أحد، ذلك بسبب أنه لا يعرف حقيقة دين الإسلام، ومن جهل شيئاً عاداه، وهذا غايةٌ في حسن المعاملة، وكرم الأخلاق، لأن المراد

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾

ليس قتل الكافر، بل إقناعه وهدايته، حتى يعرف الحقّ ويتّبعه، ويترك ما هو عليه من الكفر والضلال.

ثم بين تعالى الحكمة من البراءة من عهود المشركين، ووجوب قتالهم بعد مضيّ المدة، التي ضربها الله لهم، فقال سبحانه: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي كيف يكون للمشركين عهدٌ وأمانٌ، معتدٌّ به عند الله ورسوله؟ وهم يضمرون الغدر في كل عهد يعطونه للمسلمين؟ فلا تطمعوا في وفائهم لكم، وتمسكهم بالعهد خِداعاً، لكن من عاهدتموهم من المشركين، بجوار بيت الله الحرام، ولم ينقضوا العهد، فما داموا مستقيمين على عهدهم، ملتزمين به، فاستقيموا أنتم لهم على الوفاء، لأن الله يحب من ترك الغدر والخيانة، الذين يوفون بالعهود، ويخافون المعبود ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ تعليل آخر، لعدم الاعتداد بعهود المشركين، أي كيف يكون لهم عهد معتدٌّ به عند المسلمين، وحالُهم هذه أنهم إن يظفروا بكم، لا يراعون في شأنكم حلفاً ولا عهداً؟ يرضونكم بالكلام الجميل، إن كان لكم الظفر عليهم، ويخفون في نفوسهم العداوةَ والبغضاء لكم، وأكثرهم فجرة كفرة، خارجون عن الطاعة، ناقضون للعهد؟! بيَّن تعالى أن وجوب مراعاة العهد، مشروطٌ بمراعاة الآخرين لها، فإذا لم يراعها المشركون، فكيف تراعونها أنتم؟ ثم أفاضت الآيات في ذكر قبائح المشركين الشنيعة، فقال سبحانه: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾

فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

أي استبدلوا بالقرآن وآياته النيِّرات الساطعات، عَرَضاً يسيراً من متاع الدنيا الخسيس، فكانوا كمن باع الجواهر واللآلىء، بالحصى والبعر، ومنعوا الناس عن الدخول في الإسلام، دين الله الحقِّ، وبئس هذا العمل القبيح، لا يراعون في قتل مؤمن ـ ولو قدروا عليه ـ (إلاًّ) أي عهداً ولا ذمة، وأولئك هم المجاوزون الغاية القصوىٰ، في الظلم والبغي، وحسبُهم أنهم فسقة فجرة، لا يعرفون لمؤمن حرمة، ولا يقيمون لعهدٍ وزناً ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي فإن تابوا عن الكفر، واستمسكوا بشرائع الإسلام، من المحافظة على الصلاة، وأداء الزكاة إلى مستحقيها، فهم إخوةٌ لكم في الدين، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم، ونبيِّن الحجج والأدلة الساطعة، لأهل العلم والفهم، الذين ينتفعون بالآيات والعِبَر. . وهكذا نجد الرحمة الإلهية، تفسح أمامهم الطريق للتوبة والإنابة، وتجعلهم إخوة للمؤمنين، إن كفُّوا عن الظلم والعدوان، ورجعوا إلى شريعة الرحمٰن. ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ أي وإن عادوا فنقضوا عهودهم الموثَّقة بالأيمان، وعابوا الإسلام بالقدح والذمّ فيه، وأظهروا ما في ضمائرهم من الشر، فقاتلوهم لأنهم صناديد ورؤساء الكفر، فهم أحقاء بالقتل، لا عهود لهم ولا مواثيق صادقة، قاتلوهم كي يكفُّوا عن الإجرام، وينتهوا عن الطعن في الإسلام!! وهذا كالتعليل لقتالهم، وكأن الآية تقول: ليكن الغرضُ من قتالهم، كفُّهم عن الكفر والشرور والآثام، لا مجرَّد إرادة الأذى لهم، كما هو حال المفسدين في الأرض، فغَرضُ المسلم دفع الظلم والفساد، لا تخريب وتدمير البلاد. ﴿أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هذا حثٌّ وتحريض على قتالهم، أي ألا تقاتلون يا معشر المؤمنين، قوماً فُجّاراً، نقضوا أيمانهم وعهودهم مراراً وتكراراً!! وارتكبوا

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

جريمة أخرى، حيث عزموا على إخراج الرسول من مكة، واضطروه إلى الهجرة، ثم هم البادئون بالعدوان بقتالكم، والبادي أظلم!! تخافونهم فتتركون قتالهم، خوفاً على أنفسكم منهم؟ فالله أحقُّ بأن تخشوا عقوبته بمخالفة أمره، إن كنتم مؤمنين حقاً، فقاتلوا أعداء الله، فالمؤمن لا يخشى إلاَّ ربَّه!! ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي قاتلوا المشركين أعداء الدين، حتى يكون عذابُهم بأيديكم، لتنالوا أجر الجهاد، ويذلُّهم اللَّهُ بالقهر في الدنيا، والهوان والخسران في الآخرة، ويجعلكم مسلَّطين عليهم بالغلبة والظفر، ويشف صدوركم بإعزاز الدين، واندحار الأعداء ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ويذهب ما في قلوبكم من غيظٍ، وغمٍّ، وكرب، ويتوب تعالى على من أراد الله له الهداية، بدخوله في الإسلام، والله عالمٌ بسرائر البشر، حكيم لا يصنع إلا ما فيه حكمة ومصلحة.

رتَّب تعالى على قتال المشركين خمس نتائج، كثمرة عاجلة لجهاد المؤمنين:

الأولى: عذابهم العاجلُ السريع بالقتل، والأسر.

الثانية: إذلالهم بالقهر في الدنيا، والخزي في الآخرة.

الثالثة: نصر المؤمنين وغَلَبَتُهم عليهم.

الرابعة: شفاءُ صدور المؤمنين بهلاك أعداء الله.

الخامسة: ذهاب الغيظ والكرب والغم، عن قلوب أولياء الله.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ الوليجةُ: البطانة، أي هل تظنون يا معشر

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

المؤمنين أن تُتركوا بدون ابتلاء وامتحان، يُعرف فيه الصادقُ في دينه من الكاذب فيه؟ والحال أنه لم يتبيَّن المجاهد منكم، الذي يقاتل لإعلاء كلمة الله، الذي لم يتَّخذ له صديقاً يصافيه، ويفشي إليه سرَّه من غير المسلمين، كما يفعل بعضُ المنافقين، حيث يصادقون أعداء الله!! والله رقيب على أعمالكم، لا تخفى عليه خافية، والغرضُ من الآية: بيانُ أن الله لا يترك البشر، دون تمحيص واختبار، يتميَّز فيهم الصادق من المنافق، والطيِّب من الخبيث!

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ أي لا يصحُّ ولا يستقيم، ولا يليق بالمشركين، أن يعمروا المسجد الحرام ولا شيئاً من المساجد، حال كونهم معلنينَ الكفرَ، ناطقين به في أقوالهم وأفعالهم، حيث كانوا يقولون في تلبيتهم: «لبَّيْك لا شريك لك، إلاَّ شريكاً هو لك، تملكه وما ملك» وينصبون الأصنام حول الكعبة المشرَّفة، فكيف يفخرون بعمارة المسجد الحرام، وهم يعلنون الكفر بالله؟ هؤلاء حبطت أعمالهم أي بطلت بما قارنها من الشرك، وهم مخلَّدون في نار الجحيم.. نزلت الآية في العباس عمِّ النبي ﷺ، وذلك حين وقع أسيراً في غزوة بدر، فعيَّره المسلمون بالكفر، وقطيعة الرحم، وأغلظ له عليٌّ رضي الله عنه، فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوئنا، ولا تذكرون محاسننا؟ فقال له علي: وهل لكم محاسن؟ فقال: نعم، إنَّا لنعمر المسجد الحرام، ونفكُّ الأسير، ونسقي الحاجَّ، ونعين الضعيف!! فأنزل الله عز وجل: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر..﴾ الآية، رواه ابن جرير، ثم بيَّن تعالى، من هو أهل لعمارة بيوت الله، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي إنما تليق عمارة المساجد، بالمؤمنين

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ

المتقين لله، الذين يصدِّقون بوحدانية الله وجلاله، ويجاهدون في سبيله، ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله، فهؤلاء الذين يحقُّ لهم، أن يفخروا بعمارة بيوت الله، لإيمانهم واهتدائهم، وقد نبهت الآية أن العمارة الحقيقية لبيوت الله، ليست بإشادتها بالحجارة، وزخرفتها، وبنائها البناء الضخم، إنما عمارتها بإقامة الصلاة فيها، وبمجالس العلم والتذكير، وفي الحديث الشريف: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد، فاشهدوا له بالإيمان، لأن الله تعالى يقول: **﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله..﴾** الآية، أخرجه الترمذي.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خطابٌ للمشركين بأسلوب الإنكار والتوبيخ، والمعنى: هل جعلتم سقاية الحُجَّاج، وسدانة بيت الله العتيق، كإيمان المؤمن بالله وباليوم الآخر، والجهاد في سبيل الله؟ لا يستوون أبداً عند الله، فالفخر لا يكون بالأعمال الخيرية الظاهرة، إنما يكون بالإيمان والعمل الصالح، والأعمال إذا لم تُبْنَ على أساسٍ متين، من الإيمان الراسخ، والعقيدة الصافية، فإنها تضمحل وتتلاشى، وتكون خسراناً ودماراً على صاحبها يوم القيامة، ولهذا قال: **﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾** أي لا يوفق الظالمين لمعرفة الحق والرشاد.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بيانٌ وتوضيح لدرجات أهل الجهاد والإيمان، أي إن الذين تطهروا من دنس الشرك بالإيمان، وطهَّروا أبدانهم بالهجرة من الأوطان، وبذلوا أرواحهم وأموالهم لإعزاز الدين، هؤلاء أعظم أجراً، وأرفع ذكراً، من سُقاة الحُجَّاج، وعُمَّار المسجد الحرام، وهم الفائزون بالثواب العظيم، في جنات النعيم. ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ

وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي يبشّرهم ربُّ العزة والجلال، بالرحمة والمغفرة والرضوان، ودخول الجنان، التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب البشر، مع الخلود الدائم في دار الكرامة، جزاءً لهم على هجرتهم، وجهادهم في سبيل الله، وصَفَهم تعالى بثلاث صفات: (الإيمان، والهجرة، والجهاد). وأكرمهم على ذلك بالتبشير بثلاث كرامات: (الرحمة، والرضوان، ودخول الجنان)، ولمَّا كانت الهجرة فيها المشقةُ والسفرُ، والبعدُ عن الوطن، جازاهم على ذلك بالنعيم المقيم، الذي لا مفارقة له، ولا تعب ولا نَصَب، ثم جاءت الآيات تُنذر وتتوعَّد، من آثر الأهلَ والولد، والعشيرةَ والوطن، على حبِّ الله ورسوله، والجهادِ في سبيله، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي لا تتخذوا الآباء والإخوان الكفرة، أنصاراً وأعواناً تحبونهم وتودُّونهم، إن فضَّلوا الكفر على الإيمان، وأصرُّوا على البقاء عليه، ومن يصادقهم على كفرهم، فهو مشرك مثلهم، لأن من رضي بالشرك فهو مشرك.

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي قل لهم: إن كان هؤلاء الأقارب من الآباء، والأبناء، والإخوان، والزوجات، والعشيرة، والتجارة، والأموال، والوطن، أحبَّ

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾

عندكم من الله ورسوله، والجهاد في سبيله، فانتظروا حتى يأتيكم عذابُ الله! واللَّهُ لا يهدي الخارجين عن طاعته وحدوده، إلى طريق الخير والسعادة!! أفرأيتم إلى هذا الوعيد الشديد، الذي ينخلع له قلبُ المؤمن، هَلَعاً وفزعاً، وهو يسمع آيات الرحمن، تُنذر وتتوعَّد، كلَّ من آثر الدنيا وما فيها من زخرف المتاع، على الإيمان بالله والجهاد في سبيله؟! وقد جاء الترتيب في الآية الكريمة، في غاية الحُسْن والتناسق، فقد بدأ تعالى بذكر الآباء والأبناء، ثم الإخوة والزوجات، ثم العشيرة والأموال، ثم التجارة والأوطان، التي هي زهرات الحياة الدنيا ونعيمها العاجل، وكلُّها إلى فناء، ولا يبقى للمؤمن، إلا الإيمانُ والعمل الصالح، وما عند الله خيرٌ للأبرار.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ «اللام» للتأكيد، و«قد» للتحقيق، أي والله لقد نصركم الله في مشاهد كثيرة، وحروب عديدة، كغزوة (بدر، وخيبر، وغزوة بني النضير، وبني قريظة)، وغيرها من الغزوات، ويوم حُنين خُدعتم بكثرتكم، فقلتم: لن نُغلب اليومَ من قلة، فهُزمتم، ثم نصركم الله على أعدائكم، رُوي أن المسلمين كانوا في غزوة حنين اثنيْ عشر ألفاً، وأعداؤهم المشركون كانوا أربعة آلاف، فقال بعضُ المسلمين: لن نُغلب اليوم من قلة، فأراهم الله الهزيمة بأمِّ أعينهم، حتى ولَّوْا الأدبار منهزمين، وضاقت عليهم الأرض على سعتها ورحبها، من شدة ما لحقهم من خوف!! وهذا درس للمؤمنين، ليعلموا أن النصر ليس بكثرة العدد، ولا بوفرة السلاح، إنما هو بتأييد الله وإرادته وتدبيره ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ ثم بعد الهزيمة، جاء الفتحُ والانتصار ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي أنزل الله عليكم بعد

ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ

الهزيمة، الأمن والطمأنينة، حتى سكنت نفوسكم، وعادت إليكم قوتكم، وأنزل الملائكة لنصرتكم من حيث لا ترونهم، وعذَّب الكافرين بالقتل والأسر، وذلك عقوبة من كفر بالله، وجحد فضله وإنعامه ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي يوفق الله من يشاء للتوبة والإيمان، فيتوب عليه، لأنه تعالى عظيم المغفرة، واسع الرحمة.

ثم كَشف تعالى حقيقة سرائر المشركين، وما تنطوي عليه نفوسهم من الخبث وسوء الاعتقاد، فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ أي إن المشركين كالشيء النجس، الذي ينبغي أن يجتنبه العاقل، لخُبْث اعتقادهم، وكفرهم بالله، وعدم تطهرهم من الجنابة، وشربهم الخمور، وارتكابهم الفجور، فلا تمكِّنوهم من دخول المسجد الحرام ـ يعني مكة شرَّفها الله ـ بعد هذا العام، وهو العام التاسع من الهجرة، الذي نزلت فيه سورة براءة. ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ أي وإن خفتم الفقر، بسبب منعهم من دخول الحرم، فإن الله يرزقكم من فضله، ويوسِّع عليكم من حيث لا تحتسبون، وهو العليم بمصالحكم، الحكيم في تشريعه وتدبيره.. لمَّا منع الله المشركين من حج بيت الله العتيق، ألقى الشيطانُ في قلوب بعض المسلمين الحزن، وأثار في صدورهم الوساوس، من أين تأكلون؟ وقد مُنعت عنكم الأرزاق والتجارة؟ فنبَّههم تعالى على أنهم إذا أطاعوه، فسوف يفتح عليهم أبواب الرزق، ويغنيهم من حيث لا يحتسبون، لأنه هو الخالق والرازق، فلا ينبغي للمؤمن أن يتَّكل في أمر الرزق على غير الله!

ولمَّا أمر تعالى بقتال المشركين الوثنيِّين، أمر بعده بقتال أهل الكتاب، فقال سبحانه: ﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ

دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾

دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أهلُ الكتاب مثلُ المشركين كفار، لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر إيماناً صحيحاً، فلذلك أمر الله بقتالهم، حتى تُكسر شوكتُهم، ويعودوا إلى الدين الحق، دين الإسلام، أو يدفعوا الجزية للمسلمين، منقادين مقهورين بسلطان الإسلام وعزة المسلمين، وقد بيَّن تعالى السبب في قتالهم، أنهم لا يحرِّمون ما حرَّمه الله ورسولُه، فيستحلُّون الخمر والخنزير، واليهود يقولون عزيرٌ ابن الله، والنصارى يعتقدون بألوهية المسيح، فلذلك أُمر المسلمون بقتالهم، ومعنى قوله: ﴿**حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**﴾ أي حتى يدفعوا الجزية صاغرين مستسلمين، عن قهرِ وذلة، مقهورين بسلطان الإسلام وعزة المسلمين.

وزيادةً في بيان كفرهم وعدم إيمانهم، وضرورةِ قتالهم بسبب الكفر، قال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي قال اليهود أعداء الله: إن «عزيراً» ـ الذي أماته الله مائة عام، ثم أحياه ـ ابنُ الله، وقالوا: إنما أحياه الله لأنه ابنه، وقال النصارى السفهاء: إن عيسى ابن الله، لأنه ليس له أب، فينبغي أن يكون أبوه هو الله، قال تعالى رداً على الفريقين: ﴿**ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل**﴾ أي ذلك القولُ الشنيعُ، وذلك الافتراءُ والبهتان، هو مجرد قولٍ منهم باللسان، من غير حجة ولا برهان، يشابهون بهذا الاعتقاد السخيف، والقول الشنيع، قول المشركين الوثنيِّين قبلهم: الملائكةُ بناتُ الله، ﴿**قاتلهم الله أنى يؤفكون**﴾ أي أهلكهم الله، كيف يُصرفون عن الحق إلى الباطل، ويُصرُّون عليه، بعد وضوح الدليل على بطلانه؟

ثم ذكر تعالى سبباً آخر، يستدعي كفرهم وضلالهم، فقال سبحانه:

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي أطاع اليهودُ الأحبار «علماء اليهود» والنصارى الرهبان «علماءَ النصارى» في أمر التحليل والتحريم، وتركوا أمر الله، فكأنهم جعلوهم آلهة وأرباباً، يُشرِّعون لهم ما هو من خصائص الله تعالى، وعَبَد النصارى المسيحَ بن مريم، فكانوا في الضلال سواءً، وما أمروا إلا بعبادة الواحد الأحد، تنزَّه الله عمَّا ينسبه إليه المشركون، ومعنى جعلهم أرباباً: أنهم أطاعوهم في تحليل ما حرَّم الله، وتحريم ما أحلَّه الله، كما يُطاع الربُّ، فكأنهم عبدوهم، روي عن عديٍّ بن حاتم أنه قال: «أتيتُ رسول الله ﷺ وفي عُنقي صليبٌ من ذهب، فقال لي: «يا عديُّ اطرحْ عنك هذا الوثن»، وسمعتُه يقرأ من سورة براءة ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ الآية، فقلتُ: يا رسولَ الله، لم يكونوا يعبدونهم، فقال ﷺ: «أليس يحرِّمون ما أحلَّ الله فتُحرِّمونه؟ ويُحلُّون ما حرَّم فتستحلُّونه؟» فقلت: بلى، قال: «فذلك عبادتهم» رواه الترمذي.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أي يريد المشركون الوثنيُّون، واليهودُ والنصارى، أن يطفئوا نور الإسلام، بالتشكيك في القرآن، ورسالة محمد ﷺ، بمجرد الزور والبهتان، والقرآنُ هو الذي جعله الله للبشر ضياءً، فمثلُهم في ذلك، كمثل إنسان أحمق، أراد أن يطفىء نور الشمس بفمه الصغير الحقير، فنفخ عليها، ليذهب نورها، ويكسف ضياءها، وهيهات أن يعكِّر نورها أهلُ الأرض جميعاً، فكيف بهذا الأحمق السفيه؟ ولهذا قال بعده: ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ ويأبى الله إلا أن يُظهر هذا الدين، وينشره بين العالمين، ولو كره الكفار ذلك ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۗ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾

أي الله جلَّ ثناؤه، هو الذي أرسل محمداً خاتمَ الأنبياء، بالقرآن الهادي إلى الطريق المستقيم، وبدين الإسلامِ الحقّ، ليعليه على سائر الأديان، ولو كره المشركون ظهوره، وفي التعبير عن الإسلام (بالدين الحق) تنبيهٌ على أن كلَّ دينٍ، بعد مجيء الإسلام باطل، كما قال سبحانه: **﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾** وفي الآية أيضاً إشارةٌ إلى أن الإسلام نَسَخ ما سبقه من الأديان، وهذا مقتضى ظهوره وغلبته على سائر الأديان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لمَّا حكى تعالى عن الأحبار والرهبان، أنهم تلاعبوا في أديانهم، فحلَّلوا وحرَّموا من تلقاء أنفسهم، كأنهم آلهة يُشرِّعون ما يشاءون من الأحكام، ذكر تعالى هنا طرفاً من جرائمهم، في تكالبهم على حُطام الدنيا، وأكلهم للمال الحرام، وذلك نهاية الذُّلّ والدناءة، والمعنى: إن كثيراً من علماء اليهود، ورؤساء النصارى، ليأكلون أموال الناس بالحرام، ويمنعونهم عن الدخول في دين الإسلام، من أجل أن تبقى لهم زعامتهم، يتخذون الدينَ مطيَّةً لنيل الدنيا، باسم الكهنوت ثم قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي والذين يكدِّسون الأموال من الذهب والفضة، ولا ينفقون شيئاً منها في سبيل الله، ولا يؤدُّون زكاة أموالهم، فبشِّرهم يا محمد بعذاب مؤلم موجع في دار الجحيم، والبشارةُ بالعذاب ضربٌ من التهكم والسُخرية، وإنما قرن تعالى بين الأحبار والرهبان، وبين الكانزين للأموال، تنبيهاً على أن من أكل الحرام من أهل الكتاب، ومن منع الزكاة من المسلمين، سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي يوم تجمع هذه الكنوز، ويُوقد عليها في نار الجحيم، حتى

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

تصبح لاهبةً كاوية، فتُحرق بها جباههم، وأطرافهم، وظهورهم، ويُقال لهم إهانةً وتوبيخاً: هذا الذي جمعتموه لأنفسكم، وبخلتم من إنفاق شيء منه، فذوقوا عقاب ما كنتم تكنزونه من الأموال، خصَّ تعالى (الجباهَ، والجنوبَ، والظهورَ) بالإحراق، لأن البخيل يرى الفقير قادماً نحوه، فيصرف عنه وجهه، فإذا جاء أعرض عنه بجانبه، فإذا ألحَّ وطالبه بالعون والإحسان ولاَّه ظهره، فيعاقب بالكوي بالنار في هذه الأطراف، تحقيراً له وإهانة على قبيح صنعه.

ثم ذكر تعالى تلاعب المشركين من العرب، في الشهور والأعوام واستحلالهم القتال فيها، فقال سبحانه:

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي إن عدد الشهور، في شريعة الله وحكمه وقضائه، اثنا عشر شهراً بالشهور القمرية، إذ عليها يدور فَلَكُ الأحكام الشرعية، من الصيام، والحج، وسائر الأحكام، سجَّل الله ذلك في اللوح المحفوظ، من أول بدء الخلق، يومَ خلق السموات والأرض، من هذه الشهور أربعة أشهر محرَّمة هي: «ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرَّم، ورجب» سُمِّيت بالأشهر الحُرُم، لأنه يحرم فيها القتال، وتتضاعف فيها الحسنات والسيئات، لعظم حرمتها عند الله، فلا تعتدوا في هذه الأشهر، فتظلموا فيها أنفسكم بهتك حرمتها، وقاتلوا المشركين جميعهم، كما يقاتلون المسلمين جميعهم، واعلموا أن الله مع المتقين بالنصرة والعون والتأييد!! لقد بلغ من سفه المشركين، أن تلاعبوا بالشهور والأعوام، حتى ضاعت معالم الشريعة، وتغيَّرت أوقات الحج والعبادات، حتى جاء الإسلام فأعادها إلى ما كانت عليه، وحجَّ رسول الله ﷺ حجة الوداع، وصادف اليوم الذي وقف فيه رسول الله ﷺ بعرفة (يومَه الصحيح)، فخطب في الناس فقال: «إن الزمانَ قد استدار كهيئته يوم

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾

خَلَق الله السموات والأرضَ، السَّنةُ اثنا عشر شهراً، منها أربعةٌ حُرُم..» الحديث أخرجه البخاري، ولقد بلغ من سفه المشركين، أن يستحلُّوا القتال في الأشهر الحُرُم، ويستقرضوا حرمة شهرٍ لشهر غيره، فقد كانوا أصحاب حروب وغارات، وهذا ما يُسمَّى بالنسيء، ومعناه التأخيرُ، أي تأخيرُ حرمة الشهر إلى شهر آخر، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي إنما تأخيرُ حرمة شهرٍ لشهرٍ آخر، زيادةٌ في الكفر والضلال، مضافٌ إلى كفرهم الأول، لأنه تلاعبٌ بالأحكام التي شرعها الله، يُضلُّ به رؤساءُ الكفر أتباعَهم، يُحلُّون الشهر المحرَّم عاماً، ويحرِّمون الشهر الحلال عاماً، ليوافقوا عدة الأشهر الحرم الأربعة، فيستحلوا بذلك ما حرَّمه الله، لقد حسَّن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة، حتى تجرَّؤوا على انتهاك محارم الله، **قال مجاهد**: كان رجل من بني كنانة، يأتي كل عام على حمارٍ له إلى موسم الحج، فيقول: يا أيها الناسُ، إني لا أُعاب ولا أجاب، ولا مردَّ لما أقول، إني قد حرَّمتُ صفر، وأحللتُ المحرَّم، ثم يأتي في العام بعده فيقول: لقد أحللتُ لكم صفر وحرَّمتُ محرَّماً، فذلك قوله تعالى: ﴿**ليواطئوا عدة ما حرم الله**﴾ أي يوافقوا العدد من الأشهر المحرمة ﴿**والله لا يهدي القوم الكافرين**﴾ أي لا يرشدهم إلى طريق الخير والسعادة.. وبعد أن ذكر تعالى قبائح المشركين، أمر بجهادهم وقتالهم، لكفِّ شرِّهم عن البشرية، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي ما لكم أيها المؤمنون، إذا قيل لكم اخرجوا لجهاد أعداء الله، نصرةً للحق وإعزازاً للدين، تباطأتم وتثاقلتم؟ وملتم إلى الدنيا وشهواتها، وتركتم مشاقَّ السفر ومصاعبه؟

إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

والاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ، وهو توبيخٌ لهم على ترك الجهاد وعتابٌ لمن تخلَّف عن غزوة تبوك، هل رضيتم بنعيم الدنيا ومتاعها الفاني، عن نعيم الآخرة وثوابها الباقي؟ فما التمتع بلذائذ الدنيا في جنب الآخرة، إلاَّ شيء مستحقرٌ قليل، لا قيمة له بالنسبة لنعيم الآخرة!!

ثم توعَّدهم تعالى على ترك الجهاد، والتقاعس عن الخروج في سبيل الله فقال سبحانه: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي إن لم تخرجوا مع رسول الله ﷺ، وآثرتم الراحة على الخروج لغزو الأعداء، يعذبكم الله عذابا أليما موجعاً، في الدنيا باستيلاء الأعداء عليكم، وفي الآخرة بالنار المحرقة، ويستبدل بعد إهلاككم قوماً آخرين خيراً منكم، مؤثرين للآخرة على الدنيا، ولا تضرُّون ربكم شيئاً من الضرر، والله قادر على إعزاز دينه، ونصر رسوله بدونكم ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أي إن لم تنصروه فسينصره الله، كما نصره حين أخرجه الكفار من مكة، أحد اثنين لا ثالث لهما، حين اختفى في (غار ثور) مع صاحبه أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه وأرضاه، وبقيا في الغار ثلاثة أيام، حين يقول الرسول ﷺ لأبي بكر مواسياً ومطمئناً: لا تخف يا أبا بكر، فالله عاصمنا من شرِّهم، روي عن أبي بكر الصدِّيق أنه قال: «نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار، وهم على رءوسنا فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا!! فقال: «يا أبا بكر! ما ظنُّك باثنين اللَّهُ ثالثهما؟» رواه البخاري. ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي فأنزل الله الطمأنينة والراحة على الرسول ﷺ، وقوّاه وأنزل عليه الملائكة يحرسونه من حيث لا

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾

ترونهم، وكان في ذلك أعظم الآيات الباهرة، في حفظ الله لرسوله، وعصمته ونصرته له، وأذلَّ الشرك وأهلَه، وأعزَّ الإسلام ونبيَّه، والله تعالى غالب قاهر لا يُغلب، لا يفعل إلاَّ ما فيه الحكمةُ والمصلحة. ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي اخرجوا يا معشر المؤمنين، للجهاد في سبيل الله، شيوخاً وشباباً، مُشاةً ورُكباناً، في جميع الظروف والأحوال، في اليسر والعُسر، والمنشط والمكره، وجاهدوا بالأموال والأنفس، لإعزاز دين الله، فهذا خيرٌ لكم من متاع الدنيا الفاني، والتمتع بالأموال والأولاد.. ثم أخبر تعالى عن المنافقين، الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ في (غزوة تبوك)، فقال سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي لو كان هذا الغزوُ الذي دعوتَ إليه المنافقين، مغنماً قريباً سهلَ المنال، أو كان السفرُ سفراً قريباً غيرَ بعيد، لخرجوا معك يا محمد، طمعاً في الغنيمة، لا لوجه الله تعالى، ولكن بَعُدت عليهم المسافة وطولُ الطريق، ولذلك تخلَّفوا عن الخروج، لما في قلوبهم من النفاق والضلال، وسيحلفون لكم معتذرين بأعذارٍ كاذبة واهية، قائلين : لو قدرنا على الخروج معكم لما تأخَّرنا، والله يعلم أنهم كاذبون في هذا الكلام، لأنهم كانوا مستطيعين الخروج ولم يخرجوا، وقد حصل ما أخبر عنه القرآنُ، فكان في ذلك أعظم البرهان، على صدق رسالة محمد ﷺ، في هذا القرآن المجيد، حيث أخبر عن مغيَّب ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ هذا تلطُّفٌ في العتاب لرسول الله ﷺ، أي سامحك الله يا محمد، لمَ أذنتَ لهؤلاء المنافقين، بالقعود حين استأذنوك، وتعلَّلوا بالأكاذيب؟ وهلاَّ توقَّفتَ في أمرهم، وتركتهم حتى يظهر الصادق منهم في اعتذاره

لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾

من الكاذب؟ فقد كانوا مصرِّين على عدم الخروج، سواءٌ أذنت لهم أم لم تأذن!! ولنَمعنْ النَّظرَ في هذا اللطف الإلهي، فقد بشَّره الله بالعفو، قبل أن يخبره بالذنب **﴿عفا الله عنك﴾** ثم قال: **﴿لم أذنت لهم﴾**؟ ومن هذه المعاتبة اللطيفة، يتبين لنا بوضوح مكانة الرسول ﷺ، وعلو قدره عند ربه، **قال سفيانُ بن عُيَينة**: انظروا إلى هذا اللطف الإلهي، بدأ بالعفو قبل المعاتبة، فهل سمعتم بمعاتبة ألطف وأحسن من هذا؟.

ثم أخبر تعالى عن أهل الإيمان الصادقين، فقال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي لا يستأذنك في ترك الخروج للجهاد، أهلُ الصدق والإيمان، فالمؤمن يهرع لتلبية النداء، وأداء الواجب المقدس، لأنه يعلم ما أعدَّه الله من الثواب والكرامة، للمجاهدين في سبيله، فكيف يتخلَّفون عن الخروج؟ والله سبحانه عالم بهم، وبصدقهم ووفائهم، لأنهم مؤمنون متقون للرحمن.

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي إنما يستأذنك المنافقون، الذين لم تخالط بشاشةُ الإيمان قلوبَهم، لأنهم لا يؤمنون بالله ولقائه، وشكَّتْ قلوبهم في الدِّين، وفي جزاء الله وثوابه، فهم يتردَّدون حيارى، في أمر الخروج أو القعود ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ أي لو أرادوا الخروج معك للجهاد، أو كانت لهم نيَّةٌ في جهاد أعداء الله، لاستعدُّوا له بالسلاح والزاد، واللباس الحربي، كما يفعل المجاهد، ولكنَّ الله تعالى لم يُرد خروجهم لئلا يُضعِفوا الجيش، فحَبَسهم عن الخروج بالجُبْن والكسل، وقيل لهم: اقعدوا مع النساء، والصبيان، وأهلِ الأعذار، وهذا ذمٌّ لهم شديد، لإيثارهم القعود على

لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ

الخروج للجهاد في سبيل الله ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لو أنهم خرجوا معكم للجهاد، ما زادوكم إلاَّ شراً وفساداً، ولأسرعوا بينكم بالدسائس، والمشي بالنميمة والإفساد، وفيكم يا معشر المؤمنين من يسمع لهم، ويصغي إليهم، فكان من حكمة الله عزَّ وجلَّ أن صرفهم عنكم، فلا تأسفوا لتخلُّفهم، فإن الله عليم بالمنافقين، بظواهرهم وبواطنهم، ومجازيهم على ظلمهم وفجورهم ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ أي لقد طلبوا لك يا محمد الشرَّ، بتشتيت أمرك، وتفريق صحبك عنك، من قبل غزوة تبوك، كما فعل «ابن سلول» رأسُ المنافقين، حين رجع بثلث الجيش في غزوة أُحد، وقال: علامَ نعرِّض أنفسنا للهلاك؟ ودبَّروا لك المكايدَ والحِيَل في إبطال دينك، حتى نصرك الله عليهم، وأظهر دينك على سائر الأديان، وهم كارهون ذلك. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي ومن المنافقين من يقول لك: ائذن لي في القعود، ولا تفتنِّي بالخروج للجهاد، ولقد وقعوا في الفتنة عينِها، بظهور كفرهم ونفاقهم، وجهنمُ محيطةٌ بهم من كل جانب، كإحاطة السوار بالمعصم، لا يخلصون من العذاب ولا ينجون، نزلت الآية في «الجدِّ بن قيس» كان منافقاً يتظاهر بالإيمان، فلما خرج رسول الله ﷺ لغزوة تبوك، قال ﷺ: «هل لك في جلادِ بني الأصفر - يعني الروم -؟» فقال: يا رسول الله! إني أخشى إنْ رأيتُ نساءَ الروم، أن لا أصبرَ عنهن، فائذن لي ولا تفتنِّي بالنساء!! فأعرض عنه النبي ﷺ وقال: «قد أذنتُ لك» رواه الطبراني فأنزل الله: ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني..﴾ الآية ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ

يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾

يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ أي إن نصرك الله على أعدائك، ساءهم ذلك، لما في قلوبهم من البغضاء والحسد، وإن أصابتك مصيبة من هزيمةٍ ونكبة، فرحوا أشدَّ الفرح، وقالوا: لقد احتطنا لأنفسنا وأخذنا الحذر، فلم نخرج للقتال، وانصرفوا وهم فرحون مسرورون. ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي قل لهم توبيخاً وإنكاراً: لن يصيبنا شيء من خير أو شر، أو غنيمةٍ أو هزيمة، إلاَّ بتقدير المولى جلَّ وعلا، ولا يقع علينا إلاَّ المقدَّر المكتوب من الأزل، فعلامَ تفرحون وتشمتون بنا؟ الله ربنا هو ناصرنا وحافظنا، وعلى الله وحده نعتمد وبه نثق.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ أي قل لهم: هل تنتظرون أن يقع بنا إلاَّ إحدى الحسنيين: النصر، أو الشهادة في سبيل الله؟ وكلُّ واحدة منهما مقامٌ رفيعٌ لنا!! ونحن ننتظر بكم أسوأ العاقبتين الوخيمتين: أن يهلككم الله بعذاب من السماء، أو يقتلكم ويهلككم بأيدينا!! فانتظروا ما يحلُّ بنا، ونحن ننتظر ما يحلُّ بكم!! وهو أمرٌ يتضمَّنُ الوعيد والتهديد. ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي مهما أنفقتم من الأموال، طائعين أو مكرهين، فلن يتقبلها الله منكم، لأنكم فسقة فجرة خارجون عن طاعة الله!! لقد ضيَّع المنافقون أثمن شيء، ألا وهو «الإيمانُ» فمهما أنفقوا من خير فلن يُقبل منهم، لأن الأعمال لا تُقبل عند الله، إلاَّ بالإيمان، والإخلاص، وهم قد فقدوا الأمرين جميعاً، فخسروا كل حسناتهم.

وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾

ثم وضَّح تعالى السبب، في عدم قبول أعمالهم فقال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ أي وما كان السببُ، في عدم قبولِ النفقات منهم، إلاّ كفرهم بالله ورسوله، ومجيئهم إلى الصلاة متثاقلين، متظاهرين بالطاعة، وهم أيضاً غيرُ مخلصين في الإنفاق، فلا ينفقون أموالهم إلاَّ بالإكراه، لأنهم لا يرجون لها ثواباً، ولا يخافون لها عقاباً، وهذا نهايةُ الذمِّ لهم، لأن الكفر وحده، كافٍ لعدم قبول الأعمال، فكيف إذا اقترنت به هذه الآثام؟ ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي فلا تستحسن أيها السامعُ، ولا تَفْتتِنْ بما أوتوا من زينة الدنيا، من الأموال والأولاد، فإنما هي استدراج لهم، فظاهرها نعمةٌ، وباطنُها نقمة، والآية في الكافرين عامة، الله تعالى يستدرجهم بها، ليعذبهم بها في الدنيا، وينالوا كمال الشقاء، بخروج أرواحهم وهم كافرون بلقاء الله، فيشتدُّ في الآخرة حسابهم وعذابهم. . هكذا أخبر الله بشقائهم في الدنيا قبل الآخرة، فإن قيل كيف تكون الأموال سبباً للشقاء؟ فالجواب: أن الله يهلكهم بأموالهم بهذه المخترعات الجهنمية، التي يخترعونها بأنفسهم، من طائرات حربية، وراجمات، وصواريخ، ومدافع، ودبابات، وقنابل ذرية، وهيدروجينية، وغيرها من الأسلحة الفتاكة، التي ينفقون فيها الأموال الطائلة، ثم يهلكون بها بعضَهم البعض، وليس أدلَّ على صدق ما أخبر عنه القرآن، ما وقع في الحرب العالمية (الأولى) و(الثانية)، فقد ذهب في الحربين، ما يزيد على خمسين مليوناً من البشر، وما ينتظرهم أدهىٰ وأمرُّ، وصدق الله في قوله: **﴿إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾**

ثم أخبر تعالى عن المنافقين، أنهم اتخذوا الأيمانَ الكاذبة، درعاً لهم، يتَّقون بها غضب الرسول والمؤمنين، فقال سبحانه: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أي ويُقسمون لكم بالله، أنهم مؤمنون مثلكم، وما هم بمؤمنين، في الواقع،

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

لكفر قلوبهم، وخباثة باطنهم، ولكنهم قوم جبناء، يخافون أن تقتلوهم، لذلك يظهرون لكم الإسلام تقيَّةً، ويؤيدونه بالأيمان الكاذبة الفاجرة ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي لو يجدون لهم حصناً يلجأون إليه، أو مغارات أي سراديب تحت الأرض يختفون فيها منكم، أو (مدَّخلاً) أي مكاناً ضيقاً يدخلونه ليسلموا من الخطر، لانصرفوا عنه، وأقبلوا إليه مسرعين، كإسراع الفرس الجموح، وهذا تصوير رائع بديع، لحال المنافقين وخوفهم من أن يفتضح أمرهم، فهم من شدة بغضهم للرسول ﷺ والمؤمنين، وكراهيتهم لرؤيتهم، لو قدروا على الهروب منهم، ولو في شرِّ الأمكنة، وأخسِّها وأخبثها، لما تأخروا عن ذلك، فلا تغتروا أيها المؤمنون وتنخدعوا بأيمانهم الكاذبة، أنهم مؤمنون مثلكم. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أي ومن المنافقين من يعيبك يا محمد في قسمة الصدقات والغنائم، فإن أعطيتهم منها ما يحبون، استحسنوا فعلك ورضوا عنك، وإن لم تعطهم ما يحبون، سخطوا عليك وعابوك!! رُوي أن رسول الله ﷺ كان يقسم غنائم حنين، فجاءه رجلٌ من المنافقين، فقال له: اعدلْ يا محمد فإنك لم تعدل ـ يعني في القسمة ـ فقال له ﷺ: «ويلكَ! ومن يعدلُ إذا لم أعدل؟» فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي أضربْ عنقه!! فقال له ﷺ: «دَعْه يا عمر، فإنه له أصحاباً يقرءون القرآن، لا يجاوز تراقيهم ـ يعني حناجرهم ـ يمرقون من الدِّين كما يمرق السهم من الرميَّة» رواه البخاري.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ أي ولو أن هؤلاء الذين عابوك في القسمة، رضوا بما أعطاهم الرسولُ من الغنيمة أو الصدقة، وحمدوا الله على ما نالهم وشكروك، وجواب «لو»

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

محذوفٌ، تقديره: لو فعلوا ذلك لكان خيراً لهم عند الله وأكرم، وأتقى وأبرَّ، وذكرُ الله في الآية ﴿ما آتاهم الله ورسوله﴾ لتعظيم شأن الرسول، والتنبيه على أن ما فعله النبي ﷺ هو حكمُ الله، وكان بأمره سبحانه، ثم قال تعالى: ﴿**وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون**﴾ أي وقالوا: كفانا فضلُ الله وإنعامُه علينا، ورضينا بما قَسَم الله لنا، سيرزقنا الله ما هو أفضل من الغنائم والصدقات، ونحن راغبون في فضل الله وإكرامه!! ثم ذكر تعالى مصارف الزكاة، والمستحقين لها من الناس، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي إنما يستحقُّ الزكاة المفروضة، أحد هؤلاء الأصناف الثمانية، ولا تجوز لغيرهم، وهم: ﴿**الفقراء**﴾ الذين لا يملكون إلا القليل الذي لا يكفيهم ﴿**والمساكين**﴾ الذين لا يملكون شيئاً أصلاً، قال يونس ـ أحد علماء اللغة ـ: سألتُ أعرابياً: أفقيرٌ أنت؟ فقال: لا بل مسكينٌ والله. ﴿**والعاملين عليها**﴾ الجُباةُ الذين يجمعون الزكاة من الأغنياء، فيعطى له ولو كان حسن الحال. ﴿**والمؤلفة قلوبهم**﴾ أي ضعفاء الإيمان، الذين أعطاهم النبيُّ ﷺ ليتألف قلوبهم على الإسلام، كصفوان بن أمية، والأقرع، وعُيينة، قال صفوان: «أعطاني رسول الله ﷺ وإنه لأبغضُ الناس إليَّ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحبُّ الناس إليَّ» رواه الترمذي، فمن كان على مثل حال هؤلاء، أعطوا من الزكاة لتأليف قلوبهم. ﴿**وفي الرقاب**﴾ أي وفي تخليص الرقيق من الرق ليصبح حراً. ﴿**والغارمين**﴾ أي المديونين الذين أرهقت الديون كاهلهم. ﴿**وفي سبيل الله**﴾ أي المجاهدين الذي يقاتلون لإعلاء كلمة الله، يعطون لشراء السلاح والمركب. ﴿**وابن السبيل**﴾ أي الغريب الذي انقطع في سفره، ولو كان غنياً في بلده، فهذه هي الأصناف الثمانية التي تجوز لهم الزكاة ﴿**فريضة من الله والله عليم حكيم**﴾ أي فرض الله لهم هذه الزكاة فريضةً ثابتة، والله عليم بمصالح العباد، حكيم في تشريعه، لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة.

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

وإنما حصر تعالى مصارف الزكاة في تلك الأصناف الثمانية، لقطع طمع المنافقين في أموال الصدقات ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كان جماعة من المنافقين، يؤذون رسول الله ﷺ ويقولون فيه ما لا ينبغي، فقال بعضهم: لا تفعلوا، فإنَّا نخاف أن يبلغه الأمر، فينتقم له أصحابه منَّا، فقال الجلاَّس ـ وهو رئيسهم في النفاق ـ: نقول فيه ما شئنا، ثم نأتيه فنقول ما يرضيه ويصدِّقنا، فإنما محمد أذنٌ سامعة، يصدِّق كل أحد) فنزلت الآية، رواه ابن أبي حاتم، **والمعنى**: ومن المنافقين أناسٌ، يؤذون الرسول بضروب الأذى، ويقولون إن محمداً أذن يصدِّق بكل خبر يسمعه، قل هو أذنُ خيرٍ لا أذنُ شر، يسمع الخير فيقبله، ويسمع الشرَّ ولا يصغي إليه، يصدِّق الله في جميع كلامه، ويصدِّق المؤمنين فيما يخبرونه به، لعلمه بصدقهم وإخلاصهم، وهو رحمة من الله على المؤمنين، وأمَّا الذين يعيبون الرسول فهم قوم سفهاء، لهم عذاب مؤلم موجع، وإنما قالوا ذلك، لأنه ﷺ كان يصفح عن المنافقين، ولا يواجههم بسوء ما صنعوا، ويترك عقوبتهم حِلْماً منه وكرماً، فحملوه على السَّذاجة والبلاهة، سوَّد الله وجوههم، وأصمَّهم وأعماهم!! ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي يقسمون لكم بالأيمان، أنهم ما قصدوا بكلامهم، أمراً فيه انتقاصٌ للرسول ﷺ، ليرضوكم بهذه الأيمان، والله ورسوله أحقُّ بالإرضاء، لو كانوا مؤمنين صادقين، فهم بأيمانهم الكاذبة، يراعون جانبكم، أكثر من جانب الله تعالى ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الاستفهام للتوبيخ، أي ألم يعلم هؤلاء المنافقون، أنَّ من عادى الله،

يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ

وعصى أمره، وحارب دينه، وانتقص قدر رسوله، فقد استحق دخول الجحيم، مع الخلود فيها؟ وهذا هو الذلُّ والهوانُ، والشقاءُ الذي لا خسران أعظم منه. ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أي يخشى المنافقون أن ينزل فيهم القرآنُ، يكشف ما في قلوبهم من النفاق، ويخافون أن يُفضحوا، قل لهم: استهزئوا بدين الله كما تشتهون، فلا بدَّ أن يكشف الله الستر عنكم، ويفضحكم على قبائحكم وسوء صنيعكم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي ولئن سألت هؤلاء المنافقين، عمَّا قالوا في حقك وحقِّ الإسلام، من الكذب والباطل، ليقولون لك لم نكن جادِّين، إنما كنا نمزح ونلهو بالكلام، للترويح عن النفس، قل لهم توبيخاً: أتستهزئون بدين الله وشرعه، وكتابه ورسوله؟ ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ أي لا تعتذروا بالأيمان الكاذبة، فإنها لا تنفعكم، بعد أن كشف الله أسراركم، فقد كفرتم بإيذاء الرسول، بعد أن أظهرتم الإيمان، إن نعفُ عن فريق منكم، لتوبتهم وإخلاصهم، نعذِّبْ فريقاً آخر، لأنهم أصرُّوا على النفاق والإجرام، **قال الطبري**: بينا النبي ﷺ يسير في غزوته إلى تبوك، وبين يديه ناس من المنافقين، قالوا: انظروا إلى هذا الرجل، يريد أن يفتح قصور الشام وحصونها، هيهاتَ هيهاتَ!! فأطلع الله نبيَّه على مقالتهم، فدعاهم فقال لهم: «قلتم كذا وكذا»، فقالوا: يا نبيَّ الله! إنما كنا نخوضُ ونلعب، فنزلت الآية: ﴿قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾؟

ثم أخبر تعالى عمَّا أعدَّ للمنافقين من العذاب والنكال فقال سبحانه: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ

فَنَسِيَهُمْۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ

فَنَسِيَهُمْۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي أهل النفاق متشابهة قلوبهم في النفاق، كتشابه أجزاء الشيء الواحد، ليسوا بمؤمنين حقيقةً، لأنهم يأمرون بالكفر والفجور، وينهون عن الإيمان والطاعة، ويمسكون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله، وقبضُ الأيدي كناية عن البخل، أي تركوا طاعة الرحمن، فتركهم الله يتخبطون في الضلال والخذلان، وجعلهم كالمنسيِّين، وهم الغارقون في المعاصي، الخارجون عن حدود الطاعة.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ الوعدُ يكون بالخير، واستعماله بالشرِّ للتهكم، أي وعدهم جميعاً على نفاقهم وإجرامهم، وكفرهم بآيات الله، بنار جهنم، ماكثين فيها أبداً، هي كافية لهم عقاباً وجزاءً، ولعنهم الله فطردهم من رحمته، ولهم عذاب دائم لا ينقطع ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي حال المنافقين كحال الأشقياء قبلهم، كانوا أقوى من هؤلاء أجساماً، وأشدَّ بطشاً، تمتعوا بحظِّهم ونصيبهم من ملاذِّ الدنيا، كما استمتعتم بملاذ الدنيا وشهواتها، وخضتم في الباطل والضلال، كما خاضوا هم فيه، فاحذروا أن يحلَّ بكم من عقوبة الله، كما حلَّ بأولئك الأشقياء، فقد ضاعت وبطلت أعمالهم، فلا ثواب لها إلاَّ بنار الجحيم. ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ

مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ألم يأتهم خبر الأمم السابقة، كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم شعيب، وقوم لوط، وما حدث لهم من العذاب، فيعتبروا بهم؟ جاءتهم الرسل بالمعجزات الساطعات فكذَّبوهم وسخروا منهم، فأهلكهم الله ودمَّرهم، وما أهلكهم ظلماً، وإنما بسبب إجرامهم وظلمهم، وارتكابهم المعاصي والآثام.

ولما ذكر تعالى صفات المنافقين ومخازيهم، أعقبه بذكر صفات المؤمنين وفضائلهم الحميدة، فقال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي والمؤمنون والمؤمناتُ إخوةٌ في الدين، يعينُ بعضهم بعضاً، وينصر بعضهم بعضاً، يأمرون الناس بكل فضيلة وخير، وينهونهم عن كل رذيلة وشر، فهم على عكس المنافقين الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، إنهم مؤمنون صادقون، يؤدُّون الصلاة على وجه الكمال، بخشوعها وأركانها وآدابها، ويؤدُّون الزكاة إلى مستحقيها من الفقراء والمساكين، ويطيعون الله سبحانه في كل أمرٍ ونهيٍ، هؤلاء الصادقون في إيمانهم، سينالون رحمة الله، فيدخلهم في جنَّته، ويفيض عليهم جلائل نعمته، لأنه سبحانه (عزيز) أي قويٌّ قادر على إعزاز أوليائه، وقهر أعدائه، (حكيم) أي يضع كل شيء في موضعه، ولا يشرع إلاّ ما فيه مصلحة.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي وعدهم ربهم على

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ﴾

إيمانهم، بجنات وارفة الظلال، يانعة الثمار، تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهارُ الجنة، ماكثين فيها أبداً إلى غير نهاية، لا يزول عنهم نعيمها ولا يبيد، ولهم فيها مساكن طيبة، يطيب فيها العيش، في أعلى جنان الخُلد، وهي (جنات عَدْن) أي بساتين وحدائق الإقامة الدائمة، ولهم مع هذا النعيم الدائم أعظمُ كرامة، وهي: رضوان الله عليهم، وهو أفضل نعيم أُعطيه أهلُ الجنة، ولهذا قال تعالى: ﴿**ذلك هو الفوز العظيم**﴾ أي هذا هو الظفر بالسعادة الكبرى، التي لا سعادة مثلها، وفي الحديث: «**يقول الله تعالى لأهل الجنة: يا أهلَ الجنة، فيقولون لبَّيْك ربَّنا وسَعْديك!! فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطِ أحداً من خلقك؟! فيقول لهم: أعطيكم أفضلَ من ذلك!! فيقولون: وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أُحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً**» رواه البخاري ومسلم، اللهمَّ لا تحرمنا رضوانك الأكبر!!.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي يا أيها النبيُّ المعظَّم، الموحىٰ إليه من عند الله، جاهد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان، واشدد عليهم بالجهاد والقتال، للإرهاب والإرعاب، ومسكنهم ومصيرُهم نار جهنم، وبئس المسكنُ والمأوىٰ، الذي يصير إليه أهل الكفر والنفاق نار الجحيم. ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ﴾ أي يحلف المنافقون، أنهم ما قالوا ذلك الكلام الذي بلغك عنهم، من السبِّ والانتقاص لقدرك، ولقد قالوا كلاماً، خرجوا به من ربقة الإسلام، وهو قول ابن سلول: ﴿**لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ**﴾ يقصد بالأعزِّ نفسه، وبالأذل الرسولَ وصحبه، وليس أبلغ من هذا الكفر!! فكفروا بهذا الكلام، بعد دخولهم في الإسلام، وهمُّوا بالفتك بالرسول ﷺ، عند عودته من تبوك، بما لم

وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾

يمكّنهم الله من الوصول إليه، وما كرهوا ولا عابوا شيئاً على الرسول ﷺ، إلاَّ أن الله عزَّ وجلَّ، أغناهم ببركة مجيء «الرحمة المهداة» إليهم، وبيمن سعادته عليهم، فقد كانوا قبل بعثته ﷺ، في غاية ما يكون عليه الإنسان من شدَّة العيش، فاستغنوا وكثرت أموالهم، وازدهرت أحوالهم، وهذا من قبيل قولهم: «ما لي عندك ذنبٌ إلاَّ إحساني إليك» والآية في غاية السخرية والتهكم، والتوبيخ لهم، إذ جعلوا إحسانَ الرسول ﷺ إليهم، سبباً لبغضه وكراهيته.. نزلت هذه الآية في زعيم المنافقين، «عبدالله بن سلول» وذلك أنه اقتتل رجلان: جهنيٌّ، وأنصاريٌّ، فعَلاَ الجُهَنيُّ على الأنصاريِّ، فقال ابن سلول للأنصار: ألا تنصرُون أخاكم؟! واللّهِ ما مَثَلُنا ومَثَلُ محمد، إلاَّ كما قال القائل: «سَمِّنْ كَلْبَكَ يأكُلْك»!! فسعى بها رجلٌ من المسلمين، إلى النبي ﷺ، فأخبره بما قال، فأرسل إليه ﷺ يسأله، فجعل يحلف بالله ما قال ذلك، فأنزل الله فيه هذه الآية: ﴿**ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم**﴾ رواه البخاري ومسلم. ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي فإن يرجعوا عن نفاقهم وكفرهم، يكن رجوعُهم وتوبتُهم خيراً لهم، من التمادي في الضلال، وإن يعرضوا عن الرجوع، ويصرُّوا على النفاق، يعذبهم الله عذاباً شديداً، في الدنيا بالقتل والأسر، وفي الآخرة بالنار وعذاب الجبار، وليس لهم من ينقذهم، أو يخلِّصهم من العذاب يوم الحساب.

وبعد أن حكى تعالى قبائح المنافقين، ونواياهم الخبيثة ضدَّ الإسلام والمسلمين، أعقبها بذكر قصة المنافق «ثعلبة» وذلك في إطار تعداد جرائمهم الشنيعة، وأفعالهم القبيحة، فقال سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أي ومن المنافقين، من أعطى اللّهَ العهد والميثاق، لئن وسَّع الله عليه في الرزق، ورزقه المال الكثيرَ الوفير، ليبذلنَّ ماله في سبيل الله، وليحسننَّ إلى الفقراء والمساكين، وليعملنَّ بعمل أهل التُّقى والصلاح ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي فلمَّا رزقه الله

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

وأغناه من فضله، بخل بالإنفاق في سبيل الله، ومنع الزكاة أن يعطيها للمستحقين، ونقض العهد والميثاق ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي فجعل الله عاقبته السيِّئة، رسوخَ النفاق في قلبه، إلى يوم لقاء ربه، وموتِه على النفاق والضلال، بسبب إخلافه العهد، والكذب في دعوى الطاعة والإحسان.. نزلت هذه الآية في رجلٍ من المنافقين يُدعى «ثعلبة» ـ وهو غير ثعلبة بن أبي حاطب، فذاك رجلٌ من المؤمنين، وهذا رجلٌ من المنافقين ـ جاء هذا المنافق إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! ادعُ الله أن يرزقني مالاً، فقال له النبي الكريم: ويحك يا ثعلبة، قليلٌ تؤدي شكره، خيرٌ من كثير لا تُطيقه!! فقال: والذي بعثك بالحق، لئن دعوتَ الله أن يرزقني مالاً، لأعطينَّ كلَّ ذي حقٍّ حقه، ولأتصدَّقنَّ في سبيل الله!! فدعا له الرسول ﷺ أن يرزقه الله المال، فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدودُ، فضاقت عليه المدينة، فابتعد عنها ونزل أحد أوديتها، فجعل يصلّي الظهر والعصر في جماعة، ويترك ما سواهما، ثم نمت وكثرت حتى ترك الجمعة والجماعة، وأموالهُ تزيد وتنمو، وكان من آخر أمره أنه لما جاءه كتاب رسول الله ﷺ يدعوه فيه إلى دفع الزكاة، نظر فيه ثم قال: ما هذه إلاَّ جزيةٌ أو أختُ الجزية)!! رواه الطبراني والبيهقي.. ومات بعد ذلك على النفاق.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أي ألم يعلم أهلُ النفاق، أن الله تعالى يعلم أسرارهم، وما تخفيه صدورهم، من الكذب وسوء النيَّة، كما يعلم نجواهم وما يتحدَّثون به بينهم، وأن الله لا تخفى عليه خافية من أمور العباد!! ثم ذكر تعالى من قبائحهم عيبَهم للمتصدِّقين من المؤمنين في الإنفاق، فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي هؤلاء المنافقون، همُّهم السخرية

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾

والاستهزاء، يعيبون المتطوِّعين من المؤمنين، إذا تبرَّعوا بشيء من المال، رُوي أن عبدالرحمن بن عوف جاء بأربعين أوقية من الذهب، وجاء رجل من الأنصار بصاعٍ من التمر، فقال بعضُ المنافقين: والله ما جاء عبدالرحمن بما جاء إلاَّ رياءً، وإن الله لغنيٌّ عن صدقة هذا الأنصاري!! فهذا هو اللمزُ أي العيبُ للمؤمنين في الصدقات، ولهذا جازاهم الله بمثل عملهم، فقال: ﴿**سخر الله منهم ولهم عذاب أليم**﴾ أي جازاهم على سخريتهم، بمثل ما صنعوا بالمؤمنين، واللفظ جاء على سبيل المقابلة، لأن الجزاء من جنس العمل، فالسخرية منهم سفهٌ واستهزاء، والسخرية منه تعالى بهمَ عقوبة وبلاء، ولهم عذاب مؤلم موجع في الآخرة، روى البخاري عن ابن مسعود أنه قال: «لمَّا نزلت آيةُ الصَّدقة، كنا نحامل على ظهورنا لنتصدَّق، فجاء رجل فتصدَّق بمالٍ كثير، فقالوا: مراءٍ، وجاء رجل فتصدَّق بصاع، فقالوا: إن الله لغنيٌّ عن صدقة هذا، فنزلت الآية: ﴿**الذين يلمزون المطوعين**﴾ رواه البخاري.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ **أمرٌ يراد به الخبرُ، أي سواء عليك يا أيها الرسول، استغفرتَ لهؤلاء المنافقين، أم لم تستغفر لهم، فلن يغفر الله لهم أبداً، ولن يرضى عنهم، بسبب أنهم كفروا بالله ورسوله، كفراً شنيعاً مجاوزاً للحدّ، حيث أبطنوا الكفر وأظهروا الإيمان، وأرادوا بذلك مخادعة الله كما خدعوا المؤمنين، والله تعالى لا يوفّق للخير، أهل الخداع والنفاق** ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ **أي فرح المنافقون، المتخلفون عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك، فرحوا بقعودهم**

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾

مخالفةً لرسول الله، وعصياناً لأمره، وبقوا قابعين في دورهم، لا يخرجون للجهاد، وقال بعضهم لبعض: لا تخرجوا إلى الجهاد في وقت الحر، خشية أن تهلكوا، قل لهم يا أيها الرسول: إن نار جهنم التي ستصيرون إليها، أشدُّ حرّاً مما تفرُّون منه من حرِّ الدنيا، فإن حرَّ الشمس يزول، وحرُّ جهنم دائمٌ لا ينقضي، فلو كان لكم عقل، لخرجتم مع الرسول في الحرِّ، لتتقوا بذلك حرَّ جهنم، التي هي أضعاف حر الدنيا مجتمعة!! ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي فسيضحكون قليلاً وسيبكون كثيراً، جزاءً لهم على ما اقترفوا من الموبقات والآثام، واستهزائهم بالمؤمنين ودين الإسلام، **قال ابن عباس**: الدنيا زمنُها قليل، فليضحكوا فيها ما شاءوا، فإذا انقطعت الدنيا، وصاروا إلى الله عزَّ وجلَّ، استأنفوا بكاءً لا ينقطع أبداً.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ أي إن ردَّك الله يا محمد من غزوة تبوك، إلى طائفةٍ من المنافقين، الذين تخلفوا بغير عذر، وطلبوا الخروج معك مرة أخرى، فقل لهم: لن تخرجوا معي إلى الجهاد أبداً، ولن يكون لكم شرف القتال لأعداء الله، لأنكم قعدتم عن الخروج معي أول مرة، حين لم تخرجوا إلى (غزوة تبوك)، فلا حاجة لنا إلى جهادكم بعد اليوم، فاقعدوا مع الخالفين أي المتخلفين عن الغزو، من النساء والشيوخ، والصبيان، وهذا ذمٌّ لهم أبلغُ ذمّ، فقد أخرجهم الله من ديوان المجاهدين، وأبعدهم عن صحبة سيد المرسلين، إهانةً لهم، وعقوبةً لهم على نفاقهم، ثم نهى النبيَّ ﷺ عن الصلاة عليهم إذا ماتوا، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي ولا تصلِّ يا محمد على أحدٍ من المنافقين مات أبد

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾

الدهر، ولا تحضر دفنه، ولا تشييع جنازته بعد اليوم، لأن صلاتك عليه شفاعةٌ، واستنزال للرحمة، وهم ليسوا أهلاً للرحمة، لأنهم استمروا على النفاق، والكفر بالله وبرسوله، وماتوا على نفاقهم، فهم فسقةٌ فجرة، خارجون عن طاعة الله، نزلت هذه الآية في (عبدالله بن سلول) خاصة، وهي عامة في جميع المنافقين، لقوله سبحانه: ﴿**على أحد منهم**﴾ التي تفيد العموم، روى البخاري أن ابن سلول لما توفي، جاء ابنه عبدالله إلى رسول الله ﷺ ـ وكان من خيرة الصحابة ـ فسأله أن يعطيه قميصه ليكفِّن به أباه، فأعطاه إيَّاه، ثم سأله أن يصلِّي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله! تصلِّي عليه وقد نهاك ربك أن تصلِّي عليه؟ فقال رسول الله: إنما خيَّرني الله فقال: ﴿**استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم**﴾ وسأزيده على سبعين، قال: يا رسول الله، إنه منافق!! فقام رسولُ الله فصلَّى عليه، فأنزل الله عزَّ وجل هذه الآية: ﴿**ولا تصل على أحد منهم مات أبدا..**﴾ أخرجه البخاري، وزاد الترمذي في روايته فقال: «قال عمر: فعجبتُ من جرأتي على رسول الله ﷺ، قال: فوالله ما كان يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان». ﴿**ولا تصل على أحد منهم مات أبدا..**﴾ فما صلَّى رسول الله ﷺ بعده على منافق، ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل) رواه الترمذي.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي لا تستحسن ما هم عليه من الأموال والأولاد، فظاهرها نعمة وباطنها نقمة، يريد الله بما أنعم به عليهم، أن يعذبهم بها في الدنيا بالمصائب والنكبات، وتخرج أرواحهم فيموتوا على الكفر، فيكتمل عذابهم. ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ أي وإذا أُنزلت سورة جليلة الشأن، فيها الأمرُ بالقتال والجهاد، نصرةً للحق وإعزازاً لدين الله، استأذنك أصحابُ الغنى والبسطة في المال، وقالوا: اتركنا مع الذين قعدوا

رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

بسبب العذر، ولم يخرجوا للجهاد، قال تعالى تقبيحاً وتشنيعاً عليهم: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي رضي هؤلاء المنافقون، أن يقعدوا مع المتخلِّفين، من النساء والمرضى، والعجزة، الذين تخلَّفوا بسبب الأعذار، وخُتِم على قلوبهم كما يُختم على الكتاب، فلا يدخلها نورٌ ولا هداية، فهم لذلك لا يفقهون ما في الجهاد مع الرسول ﷺ من الفلاح والسعادة، وما في التخلف من التعاسة والشقاوة!.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي لكن الرسول وأهل التقوى جاهدوا بالأموال والأنفس، طلباً لرضىٰ الله، فإن تخلَّف المنافقون عن الجهاد، فقد جاهد من هو خيرٌ منهم، وأخلصُ نيّةً وأشد ثباتاً، وهؤلاء الأبرار لهم النصر والغنيمة في الدنيا، والسعادة والهناء في الآخرة.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي هؤلاء الذين بذلوا المُهَجَ والأرواح في سبيل الله، نالوا أعظم النعيم في جنات الفردوس، التي تجري من تحت قصورها أنهار الجنة، أنهارُ اللَّبن، والعسل، والخمر، والماءِ النمير، مع الخلود الدائم في الجنان، وذلك هو الفوز العظيم، الذي لا فوز وراءه.

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ المعذِّرون أي المعتذرون بالكذب، أي جاء المعتذرون من الأعراب، الذين انتحلوا الأعذار الكاذبة، طالبين أن تأذن لهم بالتخلف عن الجهاد، وقعد

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾

جماعةٌ من المنافقين، الذين في قلوبهم مرضُ النفاق، وهم قوم لم يجاهدوا ولم يعتذروا، كذبوا الله ورسوله في دعوى الإيمان، واكتفوا بدعوى الإيمان خداعاً ومكراً، سيصيبهم أشد أنواع العذاب المهين في الآخرة، بسبب كفرهم، وكذبهم في دعوى الإيمان، ثم استثنى تبارك وتعالى المتخلِّفين من أصحابِ الأعذار الصادقة، (كالأعمى، والأعرج، والشيخ الهرم، والفقير الذي لا يجد المركب والسلاح)، فقال سبحانه: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ليس على الشيوخ المسنِّين، ولا على المرضى العاجزين عن الخروج للجهاد، ولا على الفقراء الذين لا يجدون المال، لشراء السلاح والمركب، ليس على هؤلاء حرج أي إثم في ترك الخروج للجهاد، لأنهم أصحاب أعذار شرعية، إذا أخلصوا في الإيمان والعمل الصالح، ولا سبيل للعتب عليهم، والله عظيم المغفرة والرحمة، حيث لم يؤاخذ أهل الأعذار، وصفهم بالمحسنين، لأنهم نصحوا اللّهَ ورسوله، أي لا طريق لمؤاخذتهم ولا لعقابهم، فرفع عنهم العقوبة واللّوم، فلا سبيل لعاتبٍ عليهم، وهذا جارٍ مجرى المثل، يقولون: ما على المحسنين من سبيل﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ أي وليس هناك إثم، على الذين جاءوك يطلبون منك أن تحملهم ليجاهدوا مع إخوانهم المؤمنين، وكانوا فقراء لا يملكون مركباً، وقالوا لك: احملنا نغزو معك، وهم (البكّاءون) جاءوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون منه أن يعينهم على مركب، فقال لهم عليه السلام: «والله لا أجدُ ما أحملكم عليه»، فتولّوا وهم يبكون، وعزَّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقةً ولا محملاً، فعاملهم تعالى بصدق نيَّتهم، وأشركهم في الأجر مع

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾

المجاهدين، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه الشيخان أن النبيَّ ﷺ قال لأصحابه: «إنَّ بالمدينة أقواماً، ما قطعتم وادياً، ولا سرتم سيراً، إلاَّ وهم معكم!!» قالوا: يا رسول الله! وهم بالمدينة؟ قال: «نعم، حبسهم العُذْرُ» أي منعهم عن الجهاد الفقرُ والضعفُ، والمرض. ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي إنما الذنبُ والإثمُ والعتابُ، على الذين يستأذنونك في التخلف، وهم أغنياء قادرون على الجهاد والإنفاق، ولكنَّهم رضوا بالعار والمهانة، أن يبقوا مع الخوالف، وهنَّ النساء والمرضىٰ والعجزة، الذين لم يُكلَّفوا بالجهاد، وختم الله على قلوبهم فأعماها، فهم بسبب ذلك لا يعلمون ما في الجهاد من الأجر العظيم، والعزَّة والرفعة والسعادة.

ثم أخبر تعالى عن المنافقين، أنهم سيأتون إلى الرسول ﷺ معتذرين، وحدث كما أخبر القرآن، وكانوا قرابة مائة رجل، وفيهم يقول سبحانه: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي سيعتذر لكم هؤلاء المتخلِّفون عن (غزوة تبوك)، إذا رجعتم من سفركم وجهادكم، فقل لهم: لا تعتذروا، فلن نصدِّقكم فيما تقولون، فقد أطلعنا اللَّهُ على ما في ضمائركم، من الخبث والنفاق، وسوف يرى الله ورسولُه عملكم في المستقبل، هل تتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه؟ ثم ترجعون بعد موتكم إلى الله، فيجازيكم على أعمالكم الجزاء العادل.

ثم زاد تبارك وتعالى، في الإيضاح والبيان لأحوالهم، ومعاذيرهم الكاذبة فقال:

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي سيحلف المنافقون لكم بالله أعظم الأيمان، إذا رجعتم إليهم من غزوتكم، معتذرين بالأعذار الكاذبة، لتصفحوا عنهم وتُعرضوا عن معاتبتهم، وهم كذبةٌ فسقةٌ فجرة، فأعرضوا عنهم إعراض مقتٍ وسخط، وخلُّوهم وما اختاروا من الكفر والنفاق، لأنهم كالقذر والنجس، لخبث سرائرهم، وفساد بواطنهم، ومصيرهم إلى جهنم، هي مسكنهم ومأواهم، جزاءً لهم على نفاقهم، وما اكتسبوه من الجرائم والآثام. ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي يحلفون لكم يا معشر المؤمنين بأعظم الأيمان، لينالوا رضاكم، فإن رضيتم عنهم، فإن رضاكم لن يفيدهم شيئاً أبداً، لأن الله ساخطٌ عليهم، لفسقهم وفجورهم وخروجهم عن طاعة الرحمٰن، نبَّه تعالى أن المنافقين يُقدمون على الحلف كذباً، دون وازع من ضمير أو دين، ليرضوا الخلق، دون حسابٍ للخالق جلَّ وعلا، حتى ولو أغضبوا الله بكذبهم، وجرأتهم على انتهاك محارم الله، فكيف يكونون مؤمنين؟ وهم يحسبون حساباً للمخلوق، أكثر ممَّا يحسبون حساباً للخالق؟ ورضىٰ الناس عنهم، لا ينفعهم ولا يفيدهم عند الله شيئاً!! ثم حكى تعالى عن منافقي الأعراب، وهم أشدُّ خبثاً ونفاقاً من منافقي المدينة، فقال سبحانه: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الأعرابُ: سكان البوادي، الذين ضمّوا إلى النفاق، السَّفه، والجهل، وقلَّة الفهم، يعيشون كالأوباش لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، ولذلك قال تعالى عنهم: **﴿الأعراب أشد كفرا ونفاقا﴾** أي هم أشدُّ كفراً، وأعظم نفاقاً من أهل الحَضَر، لجفائهم وقسوة قلوبهم، وقلة مخالطتهم لأهل الإيمان والصلاح، وهم أولى أن لا يعلموا ما أنزل الله على رسوله، من الشرائع والأحكام السماوية، ولذلك كانوا أطلق

وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

لساناً بالكفر من منافقي المدينة، والله عليم بخلقه، حكيم في صنعه، لم يقل تعالى: العربُ، وإنما قال: ﴿**الأعراب**﴾ جمع أعرابي، وإنما وصَفَهم بشدة الكفر والنفاق، لفخرهم وطيشهم، وتربيتهم بلا مؤدِّب ولا سائس، ولهذا كانت بينهم الغاراتُ، والسلبُ، والنهبُ. ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي ومن بعض الأعراب الجهلاء، من يعتبر ما ينفقه، ويتصدَّق به، غرامةً وخسراناً، وينتظر بكم مصائبَ الدنيا وكوارثَها، ليتخلَّص من أعباء الإنفاق، عليهم الهلاكُ والدمار ـ وهي جملة اعتراضية للدعاء عليهم ـ والله سميع لأقوالهم، عليمٌ بأفعالهم. . وبمواجهة هؤلاء السفهاء من الأعراب، يأتي الكلام عن الصادقين المتقين منهم، فيقول سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ومن الأعراب أناسٌ أبرارٌ متقون، يؤمنون بالله ولقائه، وينفقون المال في سبيل الله، طلباً لمرضاة الله، ورغبة في دعاءِ الرسول ﷺ واستغفاره لهم، ألا إن هذا الإنفاق، سيكون قربة عظيمة لهم، تقرِّبهم من رضوان الله، لأنهم أنفقوها صادقين مخلصين، وسيدخلهم الله في جنَّته، التي هي مكان رحمته، ويغفر لهم ما سلف من ذنوبهم، لأنه سبحانه واسع المغفرة والرحمة.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

والسابقون إلى الإسلام، من المهاجرين والأنصار، والذين آووهم ونصروهم، وهم أهل المدينة المنورة، نالوا قصب السَّبق، فلولا جهادهم لما كان هناك عزٌّ وانتصارٌ لدعوة الإسلام، ثم الذين سلكوا سبيلهم، وهم التابعون وتابعُ التابعين، ومن سار على نهجهم إلى يوم القيامة، نالوا جميعاً رضوان الله، فرضي الله عنهم وأرضاهم، وهيَّأ الله لهم في الآخرة، حدائقَ زاهرة، تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهارُ الجنة، مقيمين فيها إلى غير نهاية، ذلك هو الفوز الذي لا فوز بعده، وأيُّ سعادة أعظم من الخلود في جنان النعيم؟!

وبعد الحديث عن المهاجرين والأنصار، عاد الحديث عن المنافقين الفجار، الذين ما فتئوا يكيدون المكائد، للإسلام وأهله، تنبيهاً وتحذيراً للمؤمنين، من عظيم خطرهم، وبالغ ضررهم، حيث يقول سبحانه: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أي وممن حولكم يا أهل المدينة، منافقون من الأعراب، منازلهم قريبة من منازلكم، ومن أهل المدينة منافقون أيضاً، استمروا وثبتوا على النفاق، وبرعوا فيه، لا تعلمهم أنت يا محمد لمهارتهم فيه، بحيث يخفى أمرهم على كثيرين، ولكنْ نحن نعلمهم ونخبرك عن أحوالهم، سنعذبهم في الدنيا بالقتل والأسر، وعند الموت بعذاب القبر، ثم في الآخرة يُردُّون إلى أسوء العذاب، الذي أعدَّه الله للمنافقين والكفار.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي وأناسٌ آخرون أقرُّوا بذنوبهم، ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة، خلطوا جهادهم السابق، بالعمل السيىء وهو تخلُّفهم عن غزوة تبوك، ثم ندموا وتابوا، هؤلاء لعلَّ الله يتوب عليهم، و«عسى» من الله واجبة، أي حقٌّ على الله أن يتوب عليهم، لأنه سبحانه واسع

خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

المغفرة، عظيم الرحمة. ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي خذ من أموال هؤلاء المتخلِّفين، الذين اعترفوا بذنوبهم، صدقةً تطهِّرهم بها من الخطأ الذي ارتكبوه، وتنمّي بهذه الصدقة حسناتهم، فترفعهم بها إلى مراتب المخلصين، وادعُ لهم بالخير والبركة، فإن دعاءك واستغفارك طمأنينةٌ لهم، تسكن بها نفوسهم، والله سميع لقولهم، عليم بندامتهم. . رُوي أنه لمَّا نزلت توبةُ هؤلاء، جاءوا بأموالهم إلى رسول الله ﷺ، فوضعوها بين يديه، وقالوا: هذه أموالنا التي خلَّفتنا عنك، خذها وتصدَّق بها، وطهِّرنا!! فكره ﷺ أخذها وقال: ما بذلك أُمرتُ، فنزلت الآية، فقبِل بعضها وردَّ إليهم أكثرها.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هو ٱلتوابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي ألم يعلم هؤلاء سعة فضل الله على العباد؟ فيتوب على من تاب منهم، ويتقبَّل صدقته وإحسانه؟ وأن الله هو وحده التائب على العباد، الرحيم بهم، والآية ترغيبٌ للعصاة بالتوبة والصدقة. ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ظاهرُ الآية تخييرٌ، وباطنه وعيدٌ وترهيب، والمعنى: اعملوا ما شئتم من الأعمال، فأعمالكم لا تخفى على الله، خيراً كانت أو شرّاً، وستُعرض يوم القيامة على الرسول ﷺ والمؤمنين، وستُردُّون بعد الموت إلى علاَّم الغيوب، فيجازيكم عليها، إن خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشرٌّ ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي وآخرون ممن تخلَّفوا عن غزوة تبوك، وهم الثلاثة الذين تقاعسوا عن الخروج (كعب،

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

ومرارة، وهلال) مُرْجون أي مؤخَّرون ليحكم الله في شأنهم، إمَّا أن يعاقبهم، أو يوفِّقهم للتوبة فيتوب عليهم، وهؤلاء الثلاثة هم الذين عناهم الله بقوله: **﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾** وقد هجرهم الرسول ﷺ والمؤمنون خمسين ليلة، حتى نزلت توبتهم بعد ذلك.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ الآيات تتحدث عن المنافقين، فقد بلغ بهم الخبثُ والمكرُ، أن يتخذوا بيوت الله أوكاراً، للتخريب والتدمير، وإلقاء الفتنة بين أهل الإيمان، والمعنى: ومن المنافقين جماعة، بلغوا النهايةَ في الإفساد والإجرام، بَنَوْا مجمعاً يدبِّرون فيه الشرَّ، سمَّوه (مسجداً) مضارَّة للمؤمنين، اشتهر باسم «مسجد الضرار»، نصرةً للكفر الذي يخفونه، وليفرِّقوا بواسطته جماعة المؤمنين، فيصرفوهم عن مسجد «قباء» الذي صلَّى فيه رسول الله ﷺ أول قدومه المدينة المنورة، وقوله تعالى: **﴿وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل﴾** أي ترقبا وانتظارا لقدوم أعداء الله، وعلى رأسهم «أبو عامر الفاسق» الذي قال للرسول ﷺ: لا أجدُ قوماً يقاتلونك إلاَّ قاتلتك معهم، وهو الذي أمرهم ببناء المسجد، ليكون وِكْراً ومعقلاً له ولأصحابه المنافقين. ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي وليقسمنَّ بالله، ما أردنا ببنائه إلا الخير والإحسان، والتوسعةَ على المصلِّين، والله يشهد بأنهم كاذبون، في هذه الأيمان الفاجرة، وأنهم ما بَنَوْه إلاَّ للأذى والضرر.. رُوي في سبب نزول هذه الآيات، أنَّ «أبا عامر الراهب» كان قد تنصَّر في الجاهلية، فلمَّا بُعث رسول الله ﷺ عاداه، وكان رسول الله ﷺ يسميه (أبا عامر الفاسق)، فلمَّا انتصر الرسول على المشركين في حنين، خرج عدوُّ الله إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين من إخوانه، أن ابنوا لي مسجداً، فإني ذاهبٌ إلى «قيصر» ملك الروم، فآتي بجند الروم، وأُخرج محمداً وأصحابه، فبنَوْا له مسجداً قريباً من مسجد قُباء، وأتوا رسولَ الله عليه السلام، فقالوا: لقد بنينا مسجداً قريباً للغريب، والمريض، وذي الحاجة، ونحبُّ أن تأتينا فتصلِّي لنا فيه!! فقال لهم ﷺ: «إني على جَناح سفر، وفي حال شُغل، وإذا رجعتُ من سفري أتيتكم فصلَّيتُ

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾

لكم فيه!! فلما رجع ﷺ من غزوة تبوك، أتوه فسألوه إتيان مسجدهم، فدعا بثوبه ليلبسه، فنزل عليه القرآنُ، يخبره بخبر هؤلاء المنافقين، وأمرِ (مسجد الضِّرار) وما قصدوه من وراء بنائه، فدعا رسول الله ﷺ بعض أصحابه وقال لهم: «اذهبوا إلى هذا المسجد الظالم أهلُه فأَحرِقوه واهدموه»، فحرقوه وهدموه وتفرَّق عنه أصحابه، وأنزل الله: ﴿والذين اتخذوا مسجدا ضرارا..﴾ رواه ابن مردويه وابن إسحاق.. وقد نهى الله رسولَه عن الصلاة فيه، وحذَّره من إتيانه، فقال سبحانه: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ أي لا تصلِّ يا محمد أبداً في هذا المسجد، لأنه لم يُبْن لطاعة الله، وإنما بُني ليكون حصناً ومعقلاً، لأهل الضلال والنفاق، لمسجدُ قُباء الذي بُني على تقوى الله وطاعته، من أول يوم ابتُدىء في بنائه، أولى وأحقُّ بأن تُصلِّي فيه من مسجد الضرار، في هذا المسجد رجالٌ مؤمنون أتقياء ـ وهم الأنصار ـ بنوه لوجه الله، ليتطهروا من الذنوب والآثام، والله يحبُّ كلَّ من زكَّى نفسه، بالطهارة الحسيَّة، والمعنويَّة، الظاهرة والباطنة!!.

ثم بيَّن تعالى الفارق بين المسجدين «مسجد التقوى» و«مسجد الضرار» وضربَ لهما المَثَل، بالبناء القائم على دعائم متينة، والبناء الذي شيد على غير أساس، فقال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي هل من أسَّسَ بنيانَ دينه، على التقوى والإخلاص، وطلباً لمرضاة الله، كمن أسَّسه على الضلال والنفاق؟ فانهار به البناءُ، وتهدَّم على رأسه وأهلِه، وهذا تمثيلٌ بديع، في غاية الوضوح والبيان، فقد مثَّل تعالى لفريق أهل التقى والإخلاص، بمن بنى قصراً مشيداً، على دعائم قوية راسخة، ووضع له أساساً، في

لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

غاية القوة والمتانة، فارتفع الصرحُ وشُيِّد البناءُ، فكان ثابتاً راسخاً كالجبال، ومثَّل لفريق أهل النفاق، بمن بنى القصر على طرفِ وادٍ سحيق، ولم يضع له أساساً، فما أن انتهى البناء، حتى تحطَّم وتهدَّم، وسقط على رأس بانيه وأهله وعياله، كذلك حالُ أهل النفاق، حينما بنوا (مسجد الضرار)، تحطَّم على رءوسهم وانهار، ولذلك أمر الله رسوله بهدمه وإحراقه، وأصبح كُناسةً ـ أي مزبلة ـ تلقى فيها القمامة والجيَف. ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي لا يزال في قلوب أهل مسجد الضِّرار، شكٌّ ونفاقٌ وارتياب، بسبب هدمه، حيث بذلوا فيه الأموال، وكانت نتيجتُه الخراب والزوال، فكيف هدمه رسول الله ﷺ؟ ولا يزالون في ارتياب وغيظٍ، من أمر هدمه، إلاَّ أن تتصدَّع قلوبهم فيموتوا أسىً وكَمَداً، والله عليمٌ بأحوالهم، حكيمٌ في تدبيره وقضائه، جزاءً لهم على سوء نياتهم.

ثم تحدَّث تبارك وتعالى، عن جزاء المجاهدين في سبيله، وما أعدَّه لهم من الكرامة والنعيم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾ هذا تمثيلٌ للمجاهدين رائع، عقدٌ فيه بيعٌ وشراء، وشهادةٌ وضمانٌ، (البائعُ) فيه المؤمنُ، و(المشتري) فيه ربُّ العزة والجلال، و(الثمنُ) فيه الجنة، و(الشهودُ) فيه الملائكةُ، و(الضمانُ) فيه الكتبُ الإلهية، و(الواسطةُ) فيه محمد رسول الله ﷺ، أي إن الله اشترى أموال المؤمنين وأنفسهم بالجنة، يجاهدون لإعزاز دين الله، فيقتلون أعداءهم، أو ينالون شرف الشهادة في سبيل الله، وعَدَهم ربهم على ذلك، وعداً مثبتاً في الكتب السماوية «التوراة، والإنجيل، والقرآن».

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي هل هناك أحدٌ أوفى بعهده من الله؟ لا أحد أوفى من الله!! فاستبشروا يا معشر

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾

المجاهدين، بذلك البيع الرابح، وذلك هو الظفرُ، بغاية ما يشتهيه المؤمن من سعادةٍ وأمل، **قال الحسن البصري**: بايَعَهم والله فأغلى لهم الثمن، وانظروا إلى كرم المولى جلَّ وعلا، أنفسٌ هو خَلَقها، وأموالٌ هو رزقها، ثم وهبها لهم، ثم اشتراها منهم بهذا الثمن الغالي، جنة عرضها السموات والأرضُ، فإنها والله لصفقةٌ رابحة، بايع اللَّهُ بها كلَّ مؤمن، والله ما على وجه الأرض مؤمن، إلاَّ وقد دخل في هذه البيعة!!

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي هؤلاء المؤمنون الأبرار، الذين باعوا أنفسهم لله، هم التائبون من الذنوب، العابدون للربِّ المعبود، الحامدون لله في السراء والضراء، السائحون في الأرض للعظة والاعتبار، المداومون على الركوع والسجود، الآمرون بالخير والناهون عن الشرِّ، الواقفون عند حدود الله، هؤلاء هم المؤمنون، بشِّرهم يا محمد بجنات النعيم.. ثم حذَّر تعالى رسوله والمؤمنين، من الاستغفار للمشركين، فقال سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي لا ينبغي ولا يصحُّ للنبيِّ وأتباعه المؤمنين، أن يطلبوا المغفرة للمشركين، ولو كان بينهم قرابةٌ ونسبٌ، من بعد ما توضَّح لهم، أنهم من أهل النار، لموتهم على الكفر والضلال!! نزلت في (أبي طالب)، وذلك حين دخل عليه رسول الله ﷺ وهو يجود بأنفاسه، وعنده صناديدُ قريش «أبو جهل، وابن أميَّة» فقال: «يا عم! قل لا إله إلا الله كلمةً أشهدُ لك بها عند الله!!» فقال له أبو جهل: أترغبُ عن ملَّة عبدالمطلب يا أبا طالب!! فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلَّمهم به: هو على ملَّة عبدالمطلب، وأبى أن يقول: «لا إله إلا الله» فقال رسول الله ﷺ: «لأستغفرنَّ لك، ما لم أُنهَ عنكَ!!» فأنزل الله: ﴿**ما كان للنبي..**﴾ الآية، رواه مسلم.

وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ أي لم يكن استغفارُ إبراهيمَ لأبيه آزر، إلاَّ من أجل وعدٍ، وعدَ به أباه، بقوله: ﴿سأستغفر لك ربي﴾ بناءً على رجاء إيمانه، فلما تبيَّن لإبراهيم، أن أباه مصرٌّ على الكفر، تبرَّأ من أبيه وقطع صلته به، وامتنع عن الاستغفار له، إن أبراهيمَ (أوَّاه) أي كثير التفجع والترحم، ولهذا كان يعطِفُ على أبيه، وهو (حليم) أي صبور على الأذية، ولذلك كان يحلم على أبيه. بيَّن تعالى العلَّة في استغفار إبراهيم لأبيه، وهو أنه كان يرجو إيمانه، فلما تبيَّن له بالوحي أنه عدوٌّ لله، وأنه يموت كافراً، تبرأ منه، وقطع استغفاره ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي ليس من عادة الله، أن يحكم على قومٍ بالضلال، حتى يرسل لهم الرسل، ليبيِّنوا لهم ما ينبغي أن يجتنبوه، فإن خالفوا بعد ذلك استحقوا العقوبة، ومن أنذر فقد أعذر، والله سبحانه عالم بمصالح العباد، يعلم من يستحق الهداية، ومن يستحق العقاب. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي هو تعالى المالك لجميع ما في السموات والأرض، كلُّ من فيهما عبيدُه ومماليكه، بيده تعالى وحده حياتُهم وموتُهم، وما لكم أيها الناس من تلجأون إليه، وتعتمدون عليه، غير رب العزة والجلال!.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي تاب الله على النبي وأصحابه، من المهاجرين والأنصار، الذين رافقوه في (غزوة تبوك)، وقت العُسرة، في

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾

شدَّةٍ من الحر، مع قلَّة الزاد، وبُعْد الطريق، من بعد ما كادت قلوب بعضهم تميل عن الحق وترتاب، لما نالهم من الكرب والشدَّة والمشقة، ثم تاب تعالى عليهم، للطفه ورحمته بالمؤمنين، روى الإمام ابن جرير عن عمر رضي الله عنه أنه قال: (خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك، في حرٍّ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطشٌ شديد، حتى ظننَّا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر البعير، فيعصر فرثه ـ أي كرشه ـ فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر: يا رسول الله! إنَّ الله عوَّدك في الدعاء خيراً، فادعُ لنا!! قال: «أتحبُّ ذلك؟» قال: نعم، فرفع ﷺ يديه، فلم يردَّهما حتى سكبت السماءُ أمثالَ العيونِ، فملأنا ما معنا، ثم ذهبنا ننظر فلم نرها جاوزت العسكر) أخرجه الحاكم والبيهقي.

فهذا هو السرُّ في ذكر لفظ العسرة في قوله: **﴿اتبعوه في ساعة العسرة﴾**

ثم ذكر تعالى توبته، على الثلاثة الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك، وكانوا من أهل الدين والصلاح، وهم: (كعب، وهلال، ومرارة) فقال سبحانه عنهم: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي وتاب كذلك على الثلاثة من المؤمنين، الذين تخلَّفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ، ولم يكن لهم عذر في التخلف، وهم «كعبُ بن مالك، وهلالُ بن أمية، ومرارة بن الربيع» حتى إذا ضاقت عليهم الأرضُ مع سَعَتها ورحب أرجائها، وضاقت عليهم نفوسهم، بما اعتراهم من الغمِّ والكرب والهمِّ، وأيقنوا أنه لا نجاة لهم، ولا ملاذ، ولا خلاص لهم من سخط الله تعالى، إلا بالرجوع والإنابة إليه سبحانه، ثم وفَّقهم الله للتوبة، ليتوب عليهم، لأنه هو المتفضِّل على العباد، بالمغفرة والرحمة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي خافوا ربكم، واخشوا عقابه،

مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

وكونوا مع أهل الصِّدق والإخلاص، في زمرتهم وجماعتهم، ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي لا ينبغي ولا يستقيم، للمؤمنين من أصحاب النبي ﷺ، ولا لسكان البوادي من الأعراب، أن يتخلَّفوا عن الغزو مع رسول الله، ولا يترفَّعوا بأنفسهم عن نفسه، بأن يكرهوا لها الشدائد والمصاعب، ويرضوها لرسول الله ﷺ، فحقُّه عليهم أن يفدوه بالمُهج والأرواح، وأن يؤثروه على أنفسهم بالراحة وطيب المقام، فكيف يتخلفون عنه، ويتركونه يقاسي الأهوال والخطوب؟ علماً بأن نفس الرسول ﷺ أكرمُ نفسٍ، وأعزُّ نفسٍ عند الله تعالى!! ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي ذلك الخروج معه ﷺ، وتحمُّل الشدائد والمكاره، في مجابهة أعداء الله، لا يضيع عند الله، فإنه لا يصيبهم عطشٌ، ولا تعبٌ، ولا مجاعةٌ في جهادهم، ولا يدخلون أرضاً من أراضي الكفار، فيها إغاظةٌ لهم، ولا يلحقون بهم ضرراً من الأضرار، بالقتل أو الأسر، إلاَّ كان ذلك في ميزان حسناتهم، لأنه تعالى لا يضيع أجر المجاهدين ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي ولا ينفقون في الجهاد أيَّ نفقة، مهما قلَّت، ولو كانت حفنة قمح أو تمرة، ولا يجتازون في مسيرهم أرضاً من أراضي الكفار، ذهاباً ولا إياباً، إلا كتب الله لهم أجر ذلك المسير، ليجازيهم الله على

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

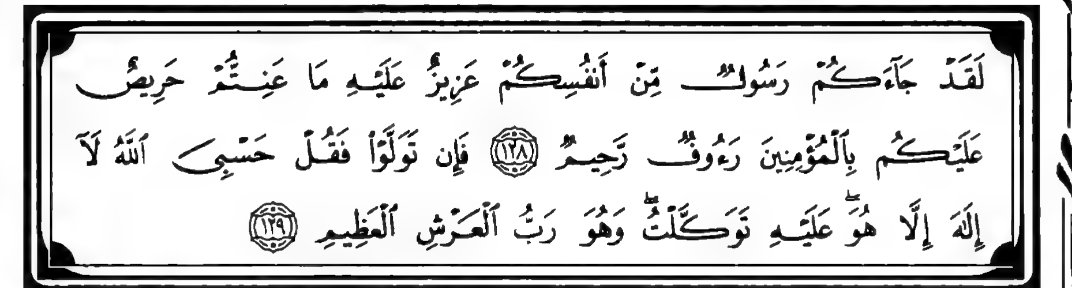
جهادهم وتضحيتهم أحسن الجزاء!!.

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أي لا ينبغي خروج جميع المسلمين للغزو، بحيث تخلو منهم الديار، بل يخرج البعض، ويبقى البعضُ مع رسول الله ﷺ، ليتفقَّهوا في الدين، حتى إذا رجع المجاهدون من غزواتهم، علَّمهم هؤلاء ما اقتبسوه من رسول الله ﷺ من معارف وعلوم شرعية، ليحذروا عقاب الله بمخالفة أوامره ونواهيه، **قال ابن عباس:** لمَّا شدَّد الله النكير، على المتخلفين عن الجهاد، قالوا: لا يتخلَّف منا أحدٌ بعد اليوم، فلما أرسل الرسول ﷺ السرايا إلى الكفار، نفر المسلمون جميعاً إلى الغزو، وتركوا الرسول ﷺ وحده بالمدينة، فنزلت الآية الكريمة. **أقول:** كان الإسلام في بدء الدعوة المحمدية، محتاجاً إلى الغزو والجهاد، لقهر الأعداء ودفع العدوان، وكان أيضاً بحاجة إلى وضع أسس الدولة الإسلامية، فكانت الشرائع تنزل، والأحكام توضَّح، والتعاليم ترسم الطريق للمؤمنين، فكان لا بدَّ من بقاء جماعة مع الرسول ﷺ تتفقه في الدين، وتحفظ الأحكام، لتبينها للمؤمنين، وبذلك يتمُّ أمرُ الدين، لأن الإسلام قائم على دعامة الجهاد، ودعامة التشريع، ولهذا قال تعالى بعده: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي قاتلوا أعداء دينكم، الذين هم أقرب إلى دياركم، لتأمنوا شرَّهم وكيدهم، ثم انتقلوا إلى من بعدهم، فإن ذلك أقوى للانتصار على أعدائكم، ولا تقاتلوا البعيد وتتركوا القريب، فقد ينتقضون عليكم، وهذه خطة حربية دقيقة، يعلمها الله عباده المؤمنين، ولْيجد هؤلاء الكفار منكم قسوةً وشدَّة عليهم، لكسر شوكتهم، واعلموا أن الله مع المتقين، بالنصر والعون والتأييد.

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ عادت الآيات للتنديد بقبائح ومخازي المنافقين، فهم الخطر الأكبر على الإسلام والمسلمين، أي وإذا أُنزلت سورة من سور القرآن الكريم، قال المنافقون بعضهم لبعض، سخريةً واستهزاءً: من منكم ازداد إيماناً ويقيناً بنزول هذه الآيات؟ ولماذا كلُّ هذا التخويف والوعيد؟ أمّا المؤمنون بالله ورسوله، فزادتهم إيماناً فوق إيمانهم، ويقيناً فوق يقينهم، وهم يستبشرون ويفرحون عند نزولها. ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي وأما المنافقون الذين في قلوبهم مرضُ الشكّ والنفاق، فزادتهم نفاقاً إلى نفاقهم، وكفراً فوق كفرهم، فازدادوا رِجْساً وضلالاً، وماتوا على الكفر، ولم يستفيدوا من هداية القرآن، ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي أوَلا يرى هؤلاء المنافقون، أنَّا نبتليهم ونكشف أستارهم، ونظهر مخازيهم، في كل عام مرة أو مرتين؟ ثم هم لا يرجعون عن النفاق والغيّ ولا يتّعظون ويعتبرون!!

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي وإذا أنزلت سورة من القرآن، فيها فضيحة المنافقين، وذكرُ مخازيهم، وهم في مجلس الرسول ﷺ، ضجُّوا واشمأزّوا، ونظر بعضهم إلى بعض، هل يرانا أحد من المسلمين، لأنّا نريد أن ننصرف، ثم قاموا فانصرفوا، صرف



﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

الله قلوبهم عن الهدى والإيمان، لأنهم قوم سفلة جهلاء، لا يعرفون الحقَّ ولا يتدبَّرونه، فهم حمقى غافلون ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي والله لقد جاءكم أيها القوم، رسولٌ عظيم القدر، رفيعُ الشأن، من جنسكم عربيٌّ قرشيٌّ، تعرفون حَسَبَه ونسبه، يشقُّ عليه ما يوقعكم في المكاره، حريصٌ على نفعكم وهدايتكم، شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين، **قال ابن عباس**: لم يجمع الله بين اسمين من أسمائه إلاَّ لخاتم الأنبياء محمد ﷺ «الرءوف، الرحيم». ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي فإن أعرضوا عن الإيمان برسالتك، واتباع هدايتك، فقل: يكفيني الله وهو يدفع عني شرَّكم، لا معبود بحق سواه، عليه اعتمدت، فلا أخاف ولا أرجو أحداً سواه، وهو سبحانه رب العرش العظيم، الذي أحاط بالسموات والأرض، وأحاط بكل شيء علماً!!.

وفي هذه الآية إشارةٌ بمقام الرسول ﷺ، وتعظيم لشأنه، حيث تولَّى الله عزَّ وجل حفظه وحمايته، من شر أعدائه المشركين.

انتهى تفسير سورة التوبة

● ● ●

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ

تفسير سورة يونس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ الحروف المقطَّعة ﴿الٓر﴾ للتنبيه على إعجاز القرآن، فمن أمثال هذه الحروف، تتألف آيات الكتاب الحكيم، وهم عاجزون عن الإتيان بمثل سورةٍ منه!! أي هذه آيات الكتاب المحكم المبين، الذي لا يعتريه شكٌ، المشتمل على الحِكَم والبدائع ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أي هل كان على كفار مكة، أمرٌ غريب عجيب، أن يرسل الله إليهم، رسولاً من البشر، ليخوِّفهم عذاب الله؟ لا ينبغي أن يتعجبوا من هذا، فهي عادة الله في الأمم السالفة، والآية ردٌّ على المشركين حين قالوا: اللَّهُ أعظمُ من أن يكون رسولُه بشراً، أما وَجَد الله من يرسلُه، إلاَّ يتيم أبي طالب؟! لقد استبعدوا ـ لحماقتهم ـ أن يكون الرسولُ من البشر، ولم يستبعدوا أن يكون الإلهُ من الحجر، حيث عبدوا الأصنام والأوثان ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي وبشِّر يا أيها الرسولُ أتباعك المؤمنين، وأخبرهم بالخبرِ السارِّ، أن لهم منزلة رفيعة، ومكانة سامية، عند ربهم، بما قدَّموا من صالح الأعمال!! ثم حكى عن المشركين سفاهتهم، أمام هذه الرسالة المحمديَّة، التي أكرم الله بها البشرية ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ومع وضوح صدق الرسول، وإعجاز الكتاب الذي جاءهم به من عند الله، قال المشركون: إن محمداً ساحرٌ كبير، ظاهرُ السحر لمن تأمَّله، وفي هذا القول اعترافٌ بأنهم صادفوا من الرسول ﷺ أموراً خارقةً للعادة، أعجزهم معارضتها، فنسبوه إلى السحر، وهو اعتراف من حيث لا يشعرون، بأن ما جاءهم به خارجٌ عن قدرة البشر ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي إن

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾

ربكم المستحق للعبادة، ومالك أمركم الذي ينبغي أن لا تعبدوا غيره، هو ربُّ العزة والجلال، الذي خلق الكائنات، في مقدار ستة أيام، من أيام الدنيا، ولو شاء لخلقها بلمح البصر، ولكنه أراد أن يعلِّم العبادَ، التأنِّي وعدم العجلة، ثم استوى على العرش، استواءً يليق بجلاله، من غير تكييفٍ، ولا تعطيلٍ، ولا تشبيه، كما هو مذهب السلف الصالح، قال الحافظ ابن كثير: نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح، وهو إمرارها كما جاءت من غير تشبيهٍ ولا تعطيل ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي يدبِّر أمر الخلائق، على ما تقتضيه الحكمةُ والمصلحة، لا يشغله شأنٌ عن شأن، ولا يستطيع أحدٌ أن يشفع يوم القيامة لأحد، إلاَّ من بعد أن يأذن الله له في الشفاعة!! وهذا ردٌّ لمزاعم المشركين، أن أصنامهم وآلهتهم، تشفع لهم يوم القيامة، ذلكم الإلهُ العظيمُ الشأن، هو ربكم وخالقكم، لا ربَّ لكم سواه، فاعبدوه وحده، ولا تشركوا معه بشراً ولا حجراً، أفلا تعتبرون وتتعظون؟ تعلمون أنه المتفرد بالخلق والتدبير، ثم تعبدون غيره؟! ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي إلى الله مرجعكم جميعاً أيها الناسُ يوم القيامة، ليجازيكم على أعمالكم، وعداً مؤكداً من الله، كائناً لا محالة، فهو سبحانه الذي ابتدأ خلق البشر، ثم يعيدهم بعد موتهم، للحساب والجزاء، ليثيبَ المؤمنين، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، أحسنَ الجزاء، ويوفِّيهم أجورهم بالعدل، من غير أن يُنقص من ثوابهم شيئاً ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ أي وأمَّا الكفار الفجار، الذين جحدوا وحدانية الله، وكذبوا رسله، فلهم في جهنم شرابٌ من ماءٍ حميم، بالغ النهاية في الحرارة، يصل ألمه إلى سويداء القلوب، جزاءً لهم على كفرهم وتكذيبهم رسل الله.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾

ثم نبَّه تعالى على دلائل القدرة والوحدانية، فقال جلَّ ذكره: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي هو جلَّ وعلا بقدرته، جعل الشمس مضيئةً ساطعةً بالنهار، كالسِّراج الوهَّاج، وجعل القمر منيراً بالليل، وقدَّر سيره في منازل معروفة، وهي «البروج» لمصالح البشر، ليعرف الناسُ حساب الأيام والشهور والأعوام، فبالشمس تُعرف الأيام، وبالقمر تُعرف الشهور والأعوام، وبذلك تتحقق الحكمةُ من خلق الليل والنهار، والشمس والقمر، ما خلق الله ذلك عبثاً، بل لحكمة عظيمة، وفائدة جليلة، يوضِّح الله لكم هذه الآيات الكونية، لتعرفوا قدرته، وتتدبروا حكمته، وتوقنوا بأنه الواحد الأحد، ولنمعن النظر في تفريق القرآن بين الشمس والقمر، فقد نسب إلى الشمس الضياء، وإلى القمر النور، وهذا التفريقُ له سرٌّ دقيق، فالشمسُ هي مصدر الحرارة، والإشعاع، والضياء الساطع، والقمر يستمدُّ نوره من انعكاس ضوئها عليه، فهو جرمٌ مظلم، وقد كانت الفكرة السائدة، أن القمر كوكب مضيء بنفسه، وهذه فكرة خاطئة، نبَّه القرآن على خطئها، فهو دائماً يذكر الشمس بأنها سراج وضياء، ويذكر القمر بأنه نور ﴿**وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا**﴾، والنورُ إنما يستمدُّ ضياءه من السراج، فسبحان من كشف لنا الحقائق، قبل أن يصعد الناس إلى القمر، ويروه على حقيقته موحشاً مظلماً!! ولولا الشمس والقمر، لما أمكن العيش، ولا كان زرعٌ ولا نبات، ولا شجر ولا ثمر، ولهذا يذكِّرنا الله بنعمة خلق الشمس والقمر!.

﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ أي إن في تعاقب الليل والنهار، بنظامٍ دقيق مستمر، يأتي الليلُ فيذهبُ النهار، ويأتي النهارُ

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

فيمضي الليلُ، هكذا في نظام رتيبٍ محكم، وما أوجد الله في السموات والأرض، من أصناف المخلوقات والمصنوعات، لعلامات عظيمة، وبراهين جليلة، على وجود الخالق ووحدانيته، لقوم يخافون الله ويحذرون عذابه.

وبعد أن أقام الأدلة والبراهين، على قدرته ووحدانيته، ذكر المنكرين الجاحدين للبعث والجزاء، ومصيرهم المشؤوم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي إن الذين لا يتوقعون لقاء الله أصلاً، ولا يخطر على بالهم، لأنهم لا يؤمنون بالمعاد، ولا بالحساب والجزاء، وانشغلوا بلذائذ الحياة الفانية، عن الدار الآخرة الباقية، هؤلاء الأشقياء مسكنُهم ومصيرهم نار جهنم، بسبب كفرهم وإجرامهم، وبمقابلة الأشقياء يأتي الحديث عن الأتقياء السعداء، فيقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي إن المؤمنين الصادقين، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، يهديهم ربهم إلى طريق الجنة بسبب إيمانهم، تجري من تحت قصورهم، ومن تحت أسرَّتهم، أنهارُ الجنة، وهم مقيمون في جنات الخلد والنعيم، ولهم مع هذا النعيم الدائم، أنواعُ العزِّ والتكريم، فالله تعالى يُحيِّيهم، والملائكةُ يدخلون عليهم من كل باب ﴿**سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار**﴾ وليس لهم شغل في الجنة، إلاَّ التلذذ بالحور العين ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دعواهم مصدر بمعنى الدعاء، أي دعاؤهم وكلامهم في الجنة: التسبيحُ والتقديسُ، يسبِّحون الله بكرةً وعشياً، دون جهدٍ ولا تعب، كما جاء في الحديث الشريف:

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

«يُلهمون التسبيح والتحميدَ، كما تُلهمون النَّفسَ» أي كما يتنفَّسُ الإنسان دون مشقَّة، ولا عناء، وتحيةُ بعضهم لبعض: (السلام عليكم)، كما تحيِّيهم ملائكةُ الرحمٰن، حيث يسلِّمون عليهم تأنيساً وتكريماً، وآخر دعاء أهل الجنة، أن يقولوا: الحمد لله ربِّ العالمين يحمدونه، على فضله وإنعامه عليهم. هذا شغلُ أهل الجنة، حمدُ الرب الجليل، على ما أفاض عليهم من صنوف النعم ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي لو يعجل الله إجابة دعاء الناس بالشرِّ، وفيما فيه عليهم مضرَّة، كما يعجِّل لهم استجابة الدعاء بالخير، لهلكوا، وما أُمهِلُوا طرفةَ عين، ولكنَّ الله من رحمته بهم، لا يعجِّل لهم الاستجابةَ بالشرِّ، **قال مجاهد**: «هو دعاءُ الرجل على نفسه، أو ولده إذا غضبَ عليه، يقول: اللهمَّ أهلكْه، اللهمَّ لا تبارك فيه» فلو استجاب الله دعاءه، فأماته وأهلكه، لبقي الإنسان طيلة عمره، متحسِّراً على ما دعا به عليه، ولذلك لا يستجيب الله الدعاء، لهذا المتعجِّل رحمةً به، كما لا يُهلك الكافر شفقةً عليه، لعله يتوب أو يرجع، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿**فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون**﴾ أي فنترك المجرمين، ونمهلهم دون عقوبة، نتركهم في تمرُّدهم وعتوِّهم، يتردَّدون حيارى، ونُفيض عليهم من أنواع النعم، مع فجورهم وطغيانهم، لتلزم عليهم الحجة، إذ لا صلاح ولا حكمةَ في إهلاكهم عاجلاً ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ أي وإذا أصاب الإنسانَ الضُّرُّ، من مرضٍ أو فقر أو مصيبة، دعا ربه في جميع الحالات: مضطجعاً على الفراش، أو قائماً أو قاعداً، لكشف ذلك الضُّرِّ عنه، فإذا كشف الله عنه الضُّرَّ والبلاء، نسيَ ربه كما نسيَ كَربه، واستمرَّ على فجوره وعصيانه، كأنه لم يلقَ كرباً، ولم يَحدُثْ له بلاءٌ ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي كذلك حالُ الكافرين الغافلين، يلجأون إلى الله عند الشدة، وينسونه عند

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ

الرخاء ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي ولقد أهلكنا الأمم الماضية، من قبلكم يا أهل مكة، حين كفروا وأشركوا، وتمادَوا في الغيِّ والضلال، وجاءتهم الرسلُ بالمعجزات الباهرة، والدلائل الساطعة، الدالة على صدق رسالتهم، فكذَّبوهم وما آمنوا بما جاءوهم به من عند الله، فاستحقوا العقابَ والعذابَ، فأهلكناهم ودمرناهم، ومثلَ ذلكَ العقاب والجزاء، نجزي كلَّ مجرم، مكذِّب لرسل الله، وهو وعيدٌ شديد لأهل مكة، المكذِّبين لسيد الخلق ﷺ.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي ثم استخلفناكم في الأرض، من بعد هلاك الطغاة المجرمين، الذين تسمعون أخبارهم، وتشاهدون آثارهم، لنرى صنيعكم في هذه الحياة، هل تسلكون سبيلهم في الكفر والعدوان، أم تسلكون سبيل أهل الخير والإحسان؟ فالدنيا ميدانُ امتحان **﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾** وفي الحديث: (إن الدُّنيا حُلوةٌ خَضِرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظرٌ كيف تعملون؟ فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أوّل فتنةِ بني إسرائيل كانت في النساء) رواه مسلم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ أي وإذا قُرِئتْ على المشركين، آياتُ القرآن المبين، واضحات الدلالة على أنها كلام الرحمٰن، قال الكفرة المكذِّبون بالبعث والحساب: ائتنا يا محمد بكتاب آخر، غير هذا القرآن، ليس فيه سبٌّ لآلهتنا، ولا تسفيهٌ لعقولنا، أو انسخْ بعضَ الآيات، وضعْ مكانها أخرى، مما يوافق مزاجنا!! ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ

﴿إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي قل لهم يا أيها الرسول: لا ينبغي لي ولا يصحُّ، أن أتلاعب في كتاب الله، فأغيِّر فيه أو أبدِّل لأرضيكم؟! فأنا عبد مأمور، لا أتَّبع إلاَّ ما يوحيه إليَّ ربي، أبلِّغكم وحيَ الله ودينه، وإني أخشى إن خالفتُ أمر الله، أن يعاقبني بعذاب عاجلٍ شديد، أو يهلكني يوم القيامة بعذاب جهنم ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي قل لهم: لو أراد الله ما قرأتُ هذا القرآن عليكم، ولا أخبرتكم بشأنه، لئلا أتعرَّض إلى تكذيبكم لي، فقد مكثت بين أظهركم عمراً طويلاً، مدة أربعين سنة، من قبل أن آتيكم بهذا القرآن، تشهدون لي بالصدق والأمانة، أفليس لكم عقول تدركون بها، أن مثل هذا الكتاب المعجز، لا يكون إلاَّ من عند الله؟ أتاهم ﷺ بالحجة الدامغة، فإنه عاش بينهم أربعين سنة، وهم يعلمون أنه ما طالع كتاباً، ولا تتلمذ على أستاذ، ولا تعلَّم من أحد، ثم جاءهم بهذا الكتاب العظيم، المشتمل على دقائق الأحكام، ولطائف الأخبار، وعَجَز عن معارضته العلماءُ، والفصحاءُ، والبلغاءُ، وهو رجلٌ أميٌّ لا يعرف قراءةً ولا كتابة، أفلا يكفي هذا برهاناً على صدق رسالته ﷺ؟.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ استفهامٌ إنكاري بمعنى النفي، أي لا أحد أفجر ولا أظلم، ممن اختلق على الله الكذبَ، أو كذَّبَ بالحقِّ الذي جاءت به رسلُ الله، إنه لا يفوز ولا ينجح المجرمون، المعادون لله ورسله!! وهذه حجة أخرى، تنطق بصدق رسالته عليه السلام، كأن الآية تقول لهم: إن محمداً صادقٌ في دعوى النبوة والرسالة، . إذ كيف يترك الكذب على الناس، ويكذب على الله؟ وقد عرفتم طهارته، وصدقه، وأمانته، وكنتم تسمونه «الصادق الأمين» فكيف تتهمونه بأعظم البهتان، ألا وهو الكذب على الله؟ ولهذا لمَّا سأل «هرقل»

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

ملك الروم أبا سفيان ـ قبل إسلامه ـ قال له: هل يكذب؟ قال: لا، فقال له هرقل: ما كانَ ليدَعَ ـ أي يترك ـ الكذب على الناس، ثم يذهب ليكذب على الله» أخرجه البخاري من حديث طويل.. ثم جاءت الآيات تسفِّه عقول المشركين، في عبادة أحجار لا تضرُّ ولا تنفع، فقال سبحانه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ أي ويعبد المشركون الأوثان، وهي جمادات صمَّاء بكماء، لا تقدر على جلب نفعٍ، أو دفع ضُرٍّ، ويزعمون أنها تشفع لهم يوم القيامة، مع أنها حجارة لا تبصر ولا تسمع!! والمراد من الآية تبكيتُهم، والإزراءُ بعقولهم، حيث عبدوا حجارةً نحتوها بأيديهم، ثم زعموا أنها تشفع لهم يوم القيامة!

ثم أقام الحجة، على بطلان دعواهم، بأسلوبٍ فيه سخريةٌ واستهزاء بمعتقدهم السخيف، فقال: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين، عَبَدةِ الأصنام والأحجار: أتخبرون ربكم جلَّ وعلا، بوجود شركاءَ أو شفعاء معه، لا يعلمها سبحانه؟! وهو علاَّم الغيوب، الذي أحاط علمه بجميع الكائنات، فما لكم عميتم عن مشاهدة عظمته تعالى، فيما خلق وأبدع، وعبدتم الأحجار، وتركتم عبادة الواحد القهار؟ تنزَّه الله وتقدس عمَّا ينسبه إليه المشركون!! ومن عجيب أمر المشركين، أنهم نحتوا الأحجار بأيديهم، ثم عبدوها وطلبوا شفاعتها، فكيف تكون آلهة تُعبد، وهم لها صانعون، ولأمرها عارفون؟ **قال ابن عباس**: كان الرجل من المشركين يرى حجراً، فيأخذه فينحته بيده ثم يعبده، فإذا رأى حجراً أحسن منه، ألقى بالحجر الأول، ثم أخذ الثاني فنحتَه وعَبَده، وفيهم نزل: **﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾**!!

ثم قال تعالى منبهاً على الحكمة من إرسال الرسل: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي ما كان

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾

الناس إلاَّ على دين واحد، هو «الإسلامُ» من عهد آدم، إلى نوح عليه السلام، فاختلفوا في دينهم، وتفرَّقوا شيعاً وأحزاباً، فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين، ولولا قضاءُ الله السابق، بتأخير الجزاء إلى يوم القيامة، لعجَّل الله عقابهم في الدنيا، بإهلاك المبطل، وإبقاء المحقّ، بسبب اختلافهم في الدين، وإشراكهم برب العالمين، **قال ابن عباس**: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلُّهم على الإسلام» ثم وقع الاختلاف بين الناس، فعُبدت الأحجار والأوثان والأصنام!

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ أي ويقول الكفرة المعاندون لرسالة محمد ﷺ: هلاَّ أنزل الله على محمد آيةً معجزةً؟ كما أُعطي الرسلُ قبله، كالناقة، والعصا، واليد؟ قل لهم: إن أمر الغيب لله وحده، ولا يأتي بالآيات والمعجزات، إلاَّ ربُّ العزة والجلال، وليس أمرها لي، حتى آتيكم بما تقترحون!! فانتظروا قضاء الله بيننا، إني منتظرٌ لما يفعله الله بكم، لجحودكم واستهزائكم ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ أي وإذا أذقنا هؤلاء المشركين، رخاءً بعد شدة، وخصباً بعد قحط، إذا هم يقابلون النعمة بالكفران، ويهزءون بآيات الرحمٰن ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ أي قل لهم: الله أعجلُ عقوبةً، وأشدُّ إمهالاً واستدراجاً للظالم الفاجر، يمهله ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر، عقوبةً له على مكره السيِّىء، وإن الملائكة الكرام، الموكَّلين بحفظ أعمال العباد، يكتبون مكركم، ويسجِّلون إجرامكم.. روي أن الله سلَّط على كفار قريش، القحطَ والجدبَ سبعَ سنين، حتى كادوا أن يهلكوا بسبب تكذيبهم لرسول الله ﷺ، فطلبوا من رسول الله ﷺ أن يدعو الله لهم لرفع الكرب والبلاء، بإنزال المطر، وخروج الثَّمَر، فلما أزال الله عنهم البلاء، عادوا إلى الكفر والعناد، فذلك قوله تعالى: ﴿إذا لهم مكر في آياتنا﴾ أي كفرٌ

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

وجحود، وسخرية واستهزاء، ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ هذا تمثيل لحال المشركين، بحالة أناس ركبوا في البحر، فهاج بهم الموجُ واضطرب، ولمّا شعروا بالخطر يُحدق بهم من كل جانب، فزعوا إلى الرحمٰن، ونسوا الأوثان، **والمعنى**: هو جلَّ وعلا الذي يحملكم في البر على الدواب، وفي البحر على السفن، حتى إذا كنتم في السفينة، في خضمِّ البحر ولُجّته، وسارت السفينة بالريح الليِّنة الطرية، وفرح الرُّكّاب بتلك الريح الطيبة، جاءتها فجأةً عواصفُ شديدة مدمِّرة، وأحاطت بهم أمواج البحار من كل جانب، وأيقنوا بالهلاك، أخلصوا الدعاء لله، ونسوا الأوثان والأصنام، واستغاثوا بالواحد الأحد، أنه إذا نجّاهم من هذه الشدائد والأهوال، فسوف يعبدونه ويُخلصون له الطاعةَ والعبادة ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فلما أنقذهم وخلَّصهم من الهلاك، إذا هم يعملون في الأرض بالمعاصي، ويتمادون في الكفر والطغيان، يا أيها الناس إنّما وبالُ بَغيكم عائدٌ عليكم، لا يجني ثمرتَه إلا أنتم، تتمتعون في هذه الحياة الدنيا، بالشهوات الفانية، التي تعقبها الحسرات الباقية، فالبغيُ نهايته وخيمة، والظلم ظلمات يوم القيامة، ثم مرجعكم بعد الموت، إلى الحَكَم العدل، ربِّ العزة والجلال، فيجازيكم على أعمالكم!

ثم ضرب تعالى مثلاً للحياة الدنيا، وسرعة فنائها وزوالها، وصوَّرها بأنها سراب

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

خادع، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أي إنما مَثَلُ هذه الحياة الدنيا، التي يغترُّ بها الناس، كمثل مطرٍ نزل من السماء، فنبتت به أنواع من الأزهار والنباتات، واختلط نباتُ الأرض بعضُه ببعض، بألوانٍ وأشكال شتَّى، مما يأكلُه الناس من أنواع الحبوب والبقول، والفواكه والثمار، وممَّا تأكله البهائم من الكلأ والمرعى، والتبن والشعير. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي حتى إذا أخذت الأرض حُسْنها وبهجتها، وتزينت بأنواع الفواكه والأزهار والثمار، جاءها أمر الله بالهلاك والدمار، فصارت خراباً يباباً، بعد أن كانت زاهرةً ناضرة، كأنها لم تكن قبلُ منبتةً زاهرة، كذلك نضرب للناس الأمثال، ليتفكروا في حال الدنيا ونعيمها الزائل!! والتعبيرُ بقوله تعالى: ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت﴾ تصويرٌ رائع في غاية الإبداع والجمال، فهو تمثيلٌ لها بالعروس إذا تزينت بالحليّ والثياب، فلبست أفخر الملابس، وتجملت بأبهى الحلل، فإنها في هذه الصورة تزيد في الفتنة والإغراء، كذلك الدنيا تخدع ثم تصرع، فإذا نزل المطر، تزينت الأرضُ بالأزهار والثمار، ثم جاءها أمر الله بالهلاك والدمار، فلا ينبغي للعاقل، أن ينشغل بها وينسى آخرته!

ثم دعا تعالى عباده المؤمنين، إلى الجنة دار السلام، فقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي والله جلَّ وعلا يدعو إلى الجنة دار السلام، التي يسلم فيها الإنسانُ من كل مكروهٍ وآفة، ويهدي من يشاء هدايته، إلى سلوك طريقها المستقيم، وطريقُها هو الإسلامُ دينُ خاتم المرسلين، سُمِّيت الجنة دارَ السلام، لأن من يدخلها يسلم من الأكدار والأحزان، فليس فيها تعبٌ ولا نصبٌ، ولا سَقَمٌ، ولا مرض، ولا

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ

جوعٌ ولا عطش، ولا شيءٌ مما يكدِّر الفكر والبال، وقد جاء التمثيل للدار بالإسلام، في حديث بديع، ولفظُه: (مَثَلي ومَثَلُ ما جئتُ به، كمثل سيِّد ـ أي مَلِكٍ ـ بنى داراً، ثم صنع مأدبةً، وأرسل داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدارَ، وأكل من المأدبة، ورضي عنه السيِّد، ومن لم يجب الداعي، لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة، فاللّهُ هو السيِّدُ ـ أي الملِكُ ـ والدارُ: الإسلامُ، والمأدُبةُ: الجنة، والداعي محمد ﷺ) رواه ابن جرير، والبيهقي. ثم ذكر تعالى كرامته للمؤمنين، برؤيتهم لربهم في جنات النعيم، فقال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي للمؤمنين أهل الإيمان والإحسان (الحُسْنى) أي الجنة، و(زيادة) وهي التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم، كما قال سبحانه: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ ولا يغشىٰ وجوهَهم قَتَرٌ أي سوادٌ ولا غُبار، كما يغشى وجوه أهل النار، ﴿ولا ذلة﴾ أي ذلٌّ وهوان، وهم مخلَّدون في جنان النعيم، بلا زوال ولا انتقال، وقد جاء تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله عن رسول الله ﷺ، ففي الحديث الشريف: أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ فقال: (إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ، نادى منادٍ: يا أهل الجنة! إنَّ لكم عند الله موعداً، يريد أن ينجزَه لكم!! فيقولون: وما هو؟! ألم يُبَيِّض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويجيرنا من النار؟ فَيُكْشفُ لهم الحجابُ، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم اللّهُ شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه) رواه مسلم والترمذي.

وبمقابلة السعداء من أهل الجنة، يأتي الحديث عن الأشقياء أهلِ النار، فيقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي والذين ارتكبوا الشرك والذنوب والآثام، جزاؤهم أن يُجازَوْا على السيئة بسيئة واحدة مثلها بدون زيادة، فالحسناتُ تتضاعف بالفضل، والسيئاتُ جزاؤها بالمثل، وتغشاهم الذلةُ والمهانة، ولا يعصمهم أحد من سخط الله وعذابه ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ

مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾

مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي كأنما أُلبِست وجوههم، قِطَعاً من ظلام الليل الحالك، من فرط السواد والظلمة، وهم مخلَّدون في نار الجحيم.

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾ أي ويوم نجمع الفريقين للحساب: المؤمنين والكافرين، ثم نقول للمشركين: الزموا مكانكم أنتم والذين عبدتموهم من دون الله، ففرَّقنا بين المؤمنين. وأهل الكفر والضلال، كقوله سبحانه: ﴿**وامتازوا اليوم أيها المجرمون**﴾ وإخزاءً لهم يُنطق الله الأوثان، فتقول لهم: ما كنا نشعر أنكم كنتم تعبدوننا، وما أمرناكم بعبادتنا!! ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ أي حسبنا الله شاهداً على ما نقول، فقد كنا عن عبادتكم لنا غافلين، لا نسمع ولا نبصر ولا نعقل، لأنَّا كنَّا جماداً لا روح فينا، قال مجاهد: يُنطق الله الأوثانَ إهانة للمشركين. ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ أي في ذلك الموقف المفزع العصيب، تُختبر كلُّ نفسٍ بما قدَّمتْ، من خيرٍ أو شر، وتنال جزاء ما عملت، ويرجعُ البشرُ والخلق إلى ملك الملوك، ربِّ العزة والجلال، المتولّي جزاءهم بالعدل، وضاع عنهم ما كانوا يزعمونه، من أن آلهتهم تشفع لهم، وفي الآية تبكيتٌ شديد للمشركين، حيث عبدوا ما لا يُبصر ولا يسمع ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي قل للمشركين الذين عبدوا الأحجار والأشجار، واستنكفوا عن

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾

عبادة الواحد القهار: من ينزل لكم الأمطار، ويخرج لكم الزروع والثمار؟ ومن منحكم الحواسَّ من السمع والبصر، التي تسمعون وتبصرون بها؟ ومن يملك أن يردَّها عليكم، إذا سلبكم الله إيَّاها؟ ومن يخرج الطيرَ من البيضة، والإنسانَ من النطفة، والسنبلةَ من الحبة، والنخلةَ من النواة؟ ومن يدبِّر شؤون العباد وأمر الخلائق، على غاية الإتقان والإبداع؟ هل آلهتكم تفعل ذلك؟ أم ربُّ العزة والجلال؟ فسيقرُّون ويقولون: الله يفعل ذلك، حيث لا مجال للمكابرة والعناد، فقل لهم عند ذلك: أفلا تخافون عقابه ونقمته؟ تقرّون بأن الخالق للكون، والمبدع لهذا الوجود، هو الله ربُّ العالمين، ثم تعبدون غيره؟ ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي ذلكم الخالقُ المبدع هو الإلهُ الحقُّ، الذي ينبغي أن تعبدوه، لا مالا يملك لكم ضرّاً ولا نفعاً، فهل بعد الحقِّ الساطع، إلاَّ الضلالُ المبين؟ فكيف تُصرفون عن عبادة الله القادر، إلى عبادة ما لا يخلق ولا يرزقُ، ولا يحيي ولا يميت؟ والعجيبُ في أمر هؤلاء المشركين، أنهم يُقرّون بألسنتهم بأن الخالقَ للكائنات، والمبدعَ لهذا الوجود، هو الله ربُّ العالمين، ثم هم يشركون معه ما لا يملكُ لهم ضراً ولا نفعاً، لأنهم يعبدون جماداً وأحجاراً، وهي ـ باعترافهم وإقرارهم ـ ليس لها من أمر الخلق، والرزق، والتصرف، والتدبير شيء، فكيف عبدوها من دون الله؟ ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي كذلك ثبت حكمُ الله بالشقاء، والخلودِ في الجحيم، على الفُسّاق الفجار، الذين لا يؤمنون بالله واليومِ الآخر!!

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ برهان آخر على بطلان عقائد المشركين، أي قل لهم على جهة التقريع والتوبيخ: هل من الأوثان والأصنام، التي عبدتموها من دون الله، من يُنشىء الخلق فيوجدهم من العدم، ثم يميتهم ويُفنيهم، ثم يعيدهم ويحييهم؟ فإن عجزوا عن الجواب ـ لظهور فساد دعواهم ـ فقل

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

لهم: اللَّهُ وحدَه، هو الذي يحيي ويميت، ويبدىء ويعيد، وليس شيء من هذه الآلهة المزعومة، يقدر على فعل شيءٍ من ذلك، ﴿فأنى تؤفكون﴾ أي فكيف تنقلبون وتنصرفون عن الحق إلى الباطل، وتعبدون ما لا يضرُّ ولا ينفع؟ ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ برهان ثالث على فساد عبادة الأوثان، أي قل لهؤلاء المشركين: هل من هذه الآلهة التي تعبدونها، من يُرشد ضالاً، أو يهدي حائراً؟ أو يدلُّ عل طريق الحقِّ والسعادة؟ فإن لم يُجيبوا فقل لهم: الله هو القادر على هداية الضالِّ، وبيانِ الحقِّ، وهدايةِ السبيل، فهل الله الهادي أحقُّ بالاتِّباع، أم هذه الأوثان التي لا تهدي ولا ترشد، ولا تدفع السوء عن نفسها؟ فكيف تدفعه عن غيرها؟ فما لكم أيها المشركون تسوُّون بين الأصنام العاجزة، وبين ربِّ الأرباب، القادر على كل شيء؟ وهو استفهامٌ معناه الاستغرابُ، والتعجيبُ، والإنكارُ!

ثم بيَّن تعالى الحقيقة، في معتقدهم الباطل السخيف، فقال سبحانه: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي وما يتَّبع هؤلاء المشركون، في اعتقادهم أُلوهيةَ الأصنام، إلا اعتقاداً مبنياً على الظن والتخمين، هو مجرد أوهام باطلة، وخرافات فاسدة، ومِثْلُ هذا لا ينفع صاحبَه شيئاً، والله تعالى عالمٌ بما هم عليه، من الكفر والتكذيب، وعبادة الأهواء، وسيعاقبهم على ذلك!!

نبَّههم تعالى في هذه الآيات، على بطلان عبادة الأوثان، من وجوه ثلاثة:

الأول: أنها حجارة صمَّاء، بكماء، لا تُبْدي ولا تُعيد، ولا تُحيي ولا تُميت، وليس لها قدرة على الخلق والإيجاد.

الثاني: أنها لا ترشد ضالاً، ولا تهدي حائراً، ولا تقدر على جلب نفع أو ضر.

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾

الثالث: أن الإلٰه الحقَّ المعبود، يجب أن تكون له صفات الكمال، في القدرة، والقوة، والتصرف، والتدبير، وهذه الأصنام ليس لها شيء من ذلك، فثبت بالدليل القاطع بطلانُ عبادتها.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي لا يصحُّ ولا يُعقل، ولا يستقيم لدىٰ كل ذي عقل سليم، أن يزعم أحدٌ أن هذا القرآن، مكذوب على الله، لأنه فوق طاقة البشر، فكيف يكون من وضع محمد؟ وقد جاء هذا القرآنُ، مصدِّقاً لما قبله من الكتب السماوية، كالتوراة والإنجيل، وفيه تفصيل وتبيينٌ للشرائع، والعقائد، والأحكام، فهو بلا شك كلام ربِّ العزة والجلال. ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي هل يقول الكفارُ: إن محمداً اختلق هذا القرآن من قِبَل نفسه؟ فقل لهم: إن كان الأمرُ كما زعمتم، فجيئوا بسورةٍ من مثل هذا القرآن، واستعينوا بمن شئتم من الإنس والجن، إن كنتم صادقين أن محمداً افتراه، ونَسَبه إلى الله!! نبَّه تعالى في هذه الآيات على «إعجاز القرآن» بالحجة الدامغة، والبرهان الناصع، فإن النبي ﷺ رجلٌ أميٌ بشهادة جميع قومه، جاءهم بهذا الكتاب المبين، وتَحدَّاهم أن يأتوا بمثل سورةٍ واحدة من سوره، وكرَّر التحدِّي لهم، وهم أساطينُ الفصاحة، وملوكُ البيان، فعجزوا وانقطعوا، ورجعوا مدحورين، ثم إن هذا القرآنَ بما حواه من تشريع وبيان، وآداب وأحكام، يعجز عنها جميع البشر، قد أثبتت العصورُ والدهورُ، تفوُّقه على جميع الشرائع، وعدم تعارضه وتناقضه، في كل ما جاء به من أخبار وأحكام، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً، أفلا يكفي هذا برهاناً على صدق رسالة محمد ﷺ؟ ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي بل كذَّب هؤلاء المشركون بالقرآن العظيم،

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤٠ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٤١ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤٢ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ۝٤٣﴾

وسارعوا إلى الطعن فيه، قبل أن يفقهوه ويتدبروا ما فيه، - والناسُ دائماً أعداءٌ لما جهلوا - ولم يأتهم بعدُ عاقبةُ ما فيه من الوعيد، وسيحلُّ بهم العذاب الشديد، حين لا ينفعهم الإيمانُ والتصديقُ، كذلك كذبت الأمم الخالية قبلهم، فانظر أيها السامع بعين العظة والاعتبار، كيف أخذهم الله بالعذاب والدمار، بسبب ظلمهم وبغيهم، وكما فعل اللّهُ بأولئك المكذِّبين، يفعل بهؤلاء الظالمين الطاغين!

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي ومن قومك من يؤمن بهذا القرآن، وينتفع بما فيه من المواعظ والذكر الحكيم، ومنهم من يكذِّب به، لفرط جهله، وسخافة عقله، فيكون مصيره الجحيم، وهو سبحانه أعلمُ بمن يستحقُّ الهداية فيهديه، ومن يستحق الضَّلالة فيغويه، وهو أعلم بأهل الخير والفساد، فيجازي كلاً بعمله ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وإن كذبك المشركون في دعوى النبوة والرسالة، فقل لهم: لا يُؤاخذ أحدٌ بذنب غيره، لي جزاء عملي، ولكم جزاءُ عملكم، فقد بلَّغتكم رسالةَ ربي، وليس عليَّ من وزركم شيءٌ، أنا بريء منكم ومن إشراككم، وأنتم بريئون مني، والله يحكم بيننا يوم القيامة ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي ومن هؤلاء المعاندين المكذِّبين، من يستمع إلى حديثك يا محمد، ويستمع إليك إذا تلوت القرآن، وقلوبهم لا تعي شيئاً مما تتلو، لأنها منكوسة معميَّة، فهل تستطيع أن تُسْمِع الأصمَّ، الذي فَقَد سمعه؟ ولو كان لا يعقل ولا يفهم ولا يتدبر؟ إن الأصمَّ لا يستفيد من الكلام، فكيف إذا جمع مع الصَّمم، عماءَ القلب والعقل؟ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي ومن قومك من ينظر إليك، ويشهد ملامح نبوتك الواضحة، ولكنهم عميٌ لم ينتفعوا بما رأوا، أفأنت

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾

يا محمد تقدر على هدايتهم، ولو كانوا عمي القلوب؟ شبَّههم تعالى بالعُمي، لتعاميهم عن الحق، والمراد تسلية النبي ﷺ عما يلقاه منهم من صدودٍ وإعراض، وكأن الآية تقول: كما أنك لا تقدر أن تخلق للأعمى بصراً يهتدي به إلى الطريق، فكذلك لا تقدر أن تصرف هؤلاء إلى الإيمان، فلا تحزن على تكذيبهم لك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ أي إن ربك يا محمد عادل، لا يظلم أحداً شيئاً، ولا يعاقب أحداً بدون ذنب، فلم يسلبهم الله الإيمان، ابتداءً منه، بدون جُرم حصل منهم، وإنما سلبهم ذلك بذنوب اكتسبوها، فهم الظالمون لأنفسهم بالكفر والعناد.

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ أي اذكر ذلك اليوم الرهيب، يوم نجمع المشركين للحساب، كأنهم ما أقاموا في الدنيا، إلاَّ ساعةً من النهار، لهَوْل ما يرونه من الشدائد والأهوال، يعرف بعضهم بعضاً، كما كانوا في الدنيا متعارفين على الضلال، فهو تعارف «توبيخ وافتضاح» لا تعارف «مودة ومحبة» فيقول أحدهم للآخر: أنتَ أغويتني، وأنت أضللتني، فيسبُّه ويلعنه، كما حكى ذلك عنهم **﴿ويوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾** قد خسر هؤلاء الظالمون سعادتهم وآخرتهم، وما كانوا في الدنيا مهتدين إلى طريق النجاة ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾ أي إن أريناك يا محمد بعض عذابهم في الدنيا، لنقرَّ عينك منهم، أو توفيناك قبل ذلك، فمرجعهم إلينا في الآخرة، لننتقم لك منهم، فإنهم لن يُفلتوا من عقابنا، وربك شاهدٌ على أفعالهم وإجرامهم ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ أي ولكل أمةٍ من الأمم، أرسلنا رسولاً لهدايتهم، فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر، فإذا جاءت كلُّ أمةٍ ومعها رسولها، قُضي بين الخلائق بالعدل، وهم لا يظلمون بنقص

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

ثواب، أو زيادة عقاب، لأن الحاكم هناك أعدل العادلين.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي ويقول المشركون سخريةً واستهزاءً: متى هذا العذابُ الذي تعدُنا به يا محمد؟ إن كنت صادقاً في قولك؟ ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي قل لهم: إنني لا أستطيع أن أدفع عن نفسي ضراً، ولا أن أجلب لها نفعاً، إلا بمشيئته تعالى، فكيف أقدر على أن أعجِّلَ لكم العذاب كما طلبتم؟ لكل أمة وقتٌ معلوم لهلاكهم وعذابهم، فإذا جاء وقتُ هلاكهم، لا يتأخر عنهم برهةً من الزمن ولا يتقدم. ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي أخبروني أيها الناس، إن جاءكم عذاب الله ليلاً أو نهاراً، ماذا ينفعكم طلبُ الاستعجال له؟ استفهامٌ للتهويل والتعظيم، أي ما أفدح ما تستعجلون به؟ وما الذي تجنونه على أنفسكم؟ ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي هل ينفعكم عند نزول العذاب الإيمان به؟ الآن تؤمنون؟ وقد كنتم من قبلُ تهزءون منه وتسخرون؟ ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي ثم يقال للمجرمين، سخريةً بهم واستهزاءً: ذوقوا العذاب الأبديَّ الدائم، الذي لا ينقطع، وتلذَّذوا به!! هل تُجزون إلا بما كسبته أيديكم من الآثام والإجرام؟

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي ويستخبرونك يا محمد ويسألونك: أحقٌّ ما وعدتنا به، من أمر البعث بعد الفناء، للحساب والجزاء؟ فقل لهم:

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

أُقسم لكم بربي، إنه لحقٌّ كائن لا شك فيه، ولستم معجزين ربكم لأنكم في قبضته وسلطانه!! لقد أنكر المشركون البعث بعد الموت، واستبعدوا أن يعيدهم الله للحياة مرة ثانية، بعد أن تبلى أجسامهم، فتصبح عظاماً ورُفاتاً، فأُمر ﷺ أن يُقسم لهم بعظمة الله وجلاله، على أن ذلك كائن لا محالة، فالذي خلقهم من العدم، يعيدهم بعد تفتّت الرِّمم! ﴿**قل يحييها الذي أنشأها أول مَرة**﴾!

ثم جاءت الآيات، لتصوِّر حالة المجرمين، وحسرتهم وندامتهم على ما فرَّطوا في هذه الحياة، فيقول سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لو كان يملك المجرم، كلُّ ما في الأرض من كنوز، وخزائن، وأموال، لقدَّمه يوم القيامةِ فديةً له، ليتخلَّص من العذاب، ولكن هيهات أن ينفعه ذلك!! وأخفى هؤلاء الظلمة النَّدم، لمَّا رأوا العذاب، أخفاها الرؤساء عن الضعفاء، خشية الشماتة، وقضى ربُّ العزة والجلال بين الخلائق بالعدل، ولا يُظلم أحد شيئاً، ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ «ألا» أداةُ تنبيه، أي انتبهوا أيها الناسُ، فالأمرُ جدٌّ خطير، فكلُّ ما في السموات والأرض ملكٌ لله، لا شيء فيها لأحدٍ سواه، هو الخالقُ وهو المالكُ، ووعدُه جلَّ وعلا بالبعث والجزاء، كائنٌ لا محالة، ولكنَّ أكثر الناس ـ لعدم إيمانهم ـ يجهلون هذه الحقيقة، هو سبحانه المحيي للخلق، والمميتُ لهم، وإليه مرجعكم في الآخرة فيجازيكم على أعمالكم.. وبعد هذا التحذير، جاء دورُ النصح والتذكير، فذكَّرهم تعالى بنعمة الهداية الربانية لهم بنزول القرآن، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ خطاب لجميع البشر، أي لقد جاءكم هذا القرآن العظيم، الذي هو موعظةٌ وتذكرةٌ لكم من ربكم، وفيه

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

شفاءٌ للقلوب من الجهل، والشكِّ، والارتياب، وهدايةٌ من الضلال، ورحمةٌ لأهل الإيمان واليقين، يهديهم إلى طريق السعادة والنجاة. ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي ليفرحوا بهذه النعمة العظمىٰ، «نعمة القرآن» هو خيرٌ لهم من جميع حُطام الدنيا، وما يجمعونه من الأموال والكنوز، فإن نعيم الدنيا زائل، وزهرتها فانية!! نبَّه تعالى إلى أن نعمة الهداية إلى الإسلام، ونعمة نزول القرآن، أعظم من نعمة جمع المال، فعلى الناس أن يشكروا ربهم، على نعمة القرآن العظيم، الذي به سعادتهم وفلاحهم، **قال ابن عباس**: (فضلُ الله: القرآنُ، ورحمتُه: الإسلامُ) أي فليفرحوا بنعمة القرآن، والإسلام، فهذا خير من جميع متاع الدنيا ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ أي أخبروني أيها المشركون، عمَّا خلق الله لكم من الرزق الحلال، فحرَّمتم بعضَه وحلَّلتم بعضه، هل كان هذا بأمرٍ من الله؟ أم هو مجرد افتراء وبهتان، على ذي العزة والجلال؟ فالتحريمُ والتحليلُ من خصائص الله، فهل أنتم متَّبعون أم مبتدعون؟ **قال ابن عباس**: نزلت في كفار مكة، حلَّلوا بعضَ الأنعام، وحرَّموا بعضها، كالبحيرة، والسائبة، والوصيلة، والميتة، دون مستند من شرع أو دين ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي ما ظنُّ هؤلاء الذين يتعمَّدون الكذبَ على الله، فيحلُّون ويحرِّمون من تلقاء أنفسهم؟ أيحسبون أن الله يصفح عنهم، ويغفر لهم جرائمهم؟ كلاَّ، بل سَيُصْليهم سعيراً، جزاء ما ارتكبوا من زورٍ وبهتان، والله ذو فضلٍ عظيم على العباد، لذلك رحمهم بترك معاجلة العقاب، لعلهم يتوبون ويرجعون!!.

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ بيانٌ لسعة علم الله تعالى الشامل، أي ما تكون يا محمد في أمرٍ من الأمور، وما تقرأ شيئاً من القرآن تتقرب فيه إلى ربك، ولا تعملون أيها الناس من خير أو شرٍّ، في نهاركم أو ليلكم، إلاَّ كنا شاهدين مطَّلعين عليه، حين تعملونه وتخوضون فيه ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي لا يغيب ولا يخفى على الله، وزن ذرَّة في الكائنات والوجود، ولا أصغر من الذرة ولا أكبر منها، إلاَّ وهو معلوم عند الله، ومسجَّل في اللوح المحفوظ، فكيف تخفى عليه أعمال العباد؟ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ أي انتبهوا أيها الناسُ، واعلموا أن أحباب الله وأولياءه، لا خوف عليهم في الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا، وهم كلُّ مؤمنٍ متَّقٍ لله، كما قال ﷺ: (آلُ محمدٍ كلُّ تقيٍّ) فمن كان في حياته تقياً، كان لله ولياً ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي لهم ما يسرُّهم في الدنيا والآخرة، تبشِّرهم الملائكة عند الاحتضار، برحمة الله ورضوانه، وفي الآخرة بجنات الخلد والنعيم، كما قال سبحانه: ﴿**يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم**﴾. وقوله سبحانه: ﴿**لا تبديل لكلمات الله**﴾ أي لا إخلاف لوعده، وهذا هو الفوز بالمحبوب، الذي لا فوز وراءه ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي لا تهتمَّ

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

يا محمد بوعيدهم وتهديدهم، ولا تحزن على تكذيبهم لك، فإن العزة والغلبة، والقدرة والسلطان، لله جلَّ وعلا، فهو ناصرك، ومعينك، ومن كان الله معه فلن يقهره أحد، هو سبحانه السميع لما يقولون، العليم بما يكيدون.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي انتبهوا أيها الناس وتفطَّنوا، فإن الله هو المالك لجميع ما في الكون، الكونُ كلُّه لله، مُلْكاً، وتصرُّفاً، وعبيداً، وما يعبد هؤلاء المشركون آلهة، إنما يعبدون أوثاناً وأحجاراً، هي أتفهُ وأحقرُ من أن ينتصروا بها، فكيف يخوِّفونك بالآلهة المزعومة؟ وليسوا في عبادتها إلاَّ في ظنون وأوهام.. سفَّه تعالى عقول المشركين، في أنهم لا يعبدون آلهة حقاً، إنما يعبدون الأوثان والأحجار،، وهم في الظن واهمون، يكذبون على الله، يظنون الأوهام حقائق ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ تذكيرٌ للناس بآثار قدرته تعالى، وبديع صنعته، أي هو جلَّ وعلا الإلهُ الحقُّ، الذي جعل لكم الليل مظلماً، تخلدون فيه إلى الراحة والسَّكن، وجعل النهار مضيئاً، لطلب الرزق والمعاش، وفي هذا أعظم الدلائل على قدرته ووحدانيته، لقوم يسمعون سماع تأمل وتدبر، وتفكُّر واعتبار.. ثم نبَّه تعالى على ضلال المشركين وأهل الكتاب، فقال سبحانه: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي نسبَ اليهود والنصارى لله الولد، فقالت اليهودُ: عُزَير ابنُ الله، وقال النصارى: المسيحُ

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾

ابن الله، وقال المشركون: الملائكةُ بنات الله!! تنزَّه الله وتقدَّس عمَّا نسب إليه الظالمون، فإنه الغنيُّ المستغني عن جميع الخلق، له جميع ما في الكون، واتخاذُ الولد إنما يكون للحاجة إليه، والله تعالى غيرُ محتاج إلى شيء!! ثم قال تعالى: **﴿إن عندكم من سلطان بهذا﴾**؟ أي ما عندكم حجة وبرهان، على هذا الافتراء والبهتان، أتفترون على الله وتكذبون عليه، بنسبة الشريك والولد؟ وهو توبيخ لهم وتقريعٌ على جهلهم ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ أي قل لهم: إنه لا يفوز ولا ينجح، كلُّ من كذب على الله، فنسب إليه ما لا يليق، من الشريك والزوجة والولد، ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ أي نمتِّعهم في هذه الدنيا متاعاً قليلاً، زائلاً لا بقاءَ له، ثم رجوعهم ومعادهم بعد الموت إلينا، للجزاء والحساب، ثم في الآخرة نذيقهم العذاب الموجع الأليم، بسبب كفرهم وكذبهم على الله! ثم ذكر تعالى لهم قصة شيخ الأنبياء «نوح» عليه السلام، مع قومه الكفرة عُبَّاد الأوثان، فقال سبحانه:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ أي اقرأ يا محمد على المشركين من أهل مكة، خبر أخيك (نوح) مع قومه المكذبين، حين قال لقومه المعاندين: يا قوم إن كان عَظُم وشقَّ عليكم، طولُ مقامي ومكثي فيكم، وعزمتم على قتلي وطردي، لأنني خوَّفتكم وذكَّرتكم بالله، فعلى الله وحده اعتمدتُ، فلا أبالي بكم ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي فاعزموا أمركم، وادعوا أعوانكم وأنصاركم، ودبِّروا ما تريدون لمكيدتي، ثم لا يكن أمركم في شأني مستوراً، بل مكشوفاً مشهوراً، ثم أنفذوا ما تريدونه في أمري، ولا تؤخِّروني ساعة واحدة، فأنا لا أخافكم ولا أخشاكم!! ومثل هذا الكلام لا يقوله إلا

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾

الواثقُ بنصر الله وحفظه ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي فإن أعرضتم عن قبول دعوتي ونصيحتي، فليس لأني طلبت منكم أجراً حتى تمتنعوا، بل لشقاوتكم وضلالكم، وليس أجري إلا على الله رب العالمين، الذي أمرني أن أكون من المسلمين الموحِّدين ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي فكذبوا نبيهم نوحاً، فنجيناه ومن معه في السفينة، وجعلناهم سكان الأرض، وخلفاً لمن هلك، وأغرقنا المكذبين بالطوفان، فانظر كيف كانت عاقبةُ الأمم المكذبة لرسلها!! والغرضُ من الآية تسليةُ النبي ﷺ، والتحذير لكفار مكة، أن يحلَّ بهم ما حلَّ بالسابقين، من الطغاة المجرمين.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي أرسلنا بعدَ نوح، رسلاً آخرين، (كهود، وصالح، ولوط، وشعيب)، جاءوا أقوامهم بالمعجزات الواضحات، فكذبوهم ولم يؤمنوا بما جاءتهم به الرسل، فأهلكناهم وعذبناهم، كذلك نختم على قلوب الطغاة المفسدين في الأرض.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي ثم أرسلنا من بعد هؤلاء الرسل، (موسى وهارون) إلى فرعون الطاغية الجبار، (وملئه) أي أشراف قومه، بآياتنا التِّسع، فتكبَّروا عن الإيمان بها، وكانوا قوماً مجرمين، تعوَّدوا الإجرام، وارتكاب الذنوب العظام ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي

قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

فلما ظهرت لهم معجزة موسى «اليد والعصا» على أوضح الوجوه، قالوا: هذا سحرٌ وشعوذة، أراد موسى أن يسحرنا بها ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ أي أتقولون عن الحق، من غير تأمل وتدبر: إنه سحرٌ؟ هل هذا سحرٌ؟ أم هو تأييد رباني، والساحر لا ينجح ولا يفلح أبداً، وكما قال القائل:

إذا جاء موسى وألقى العصا ... فقد بطل السحرُ والسَّاحرُ

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي قالوا أجئتنا لتصرفنا عن دين الآباء في عبادة إلٰهنا فرعون؟ ويكون لك ولأخيك هارون العظمةُ والملكُ والسلطان؟ ولسنا مصدِّقين لكما فيما جئتما به!! قالوا هذا تمويهاً على الناس، خشية أن يؤمنوا، بعد أن شاهدوا المعجزة الباهرة، العصا تنقلب إلى ثعبان مبين، واليد تصبح كأنها فلقة قمر ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي: وقال فرعون الطاغية لأشراف قومه: ائتوني بكل ساحر ماهر، عليم بفنون السحر وأساليبه ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ في الكلام محذوف تقديره: فأتوه بالسحرة من كل مكان، فلما جاءوا قال لهم موسى: ألقوا ما أنتم ملقون من حبالكم وعصيِّكم، فلما ألقوها قال لهم موسى: هذا الذي فعلتموه هو السحرُ، لا ما اتهمتموني به!! وسترون كيف سيبطله الله ويمحقه، ويُثبت الحقَّ بالحجج النيِّرة، ولو كره المجرمون ظهوره، لأن الحق دائماً هو الغالب.. والظاهر من النصِّ أن فرعون قد اندحر،

فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

وأن موسى قد انتصر، بعد أن ألقى السحرة حبالهم وعصيَّهم، فإذا هي أشباه ثعابين، تتحرك ذاتَ الشمالِ، وذاتَ اليمين، فلما ألقى موسى عصاه، ابتلعت جميع تلك الحبال، مما اضطر السحرة أنفسهم، أن يسجدوا لله رب العالمين، وأن يرجع فرعون مندحراً خائباً، يجرُّ أذيال الهزيمة والانكسار، ويتوعَّد السَّحرةَ بتقطيع أيديهم وأرجلهم، وقد نفَّذ ذلك فيهم، مما أدخل الفزع إلى قلوب الناس!! ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي ما آمن مع موسى، ولا دخل في دينه ـ بعدَ مشاهدة تلك المعجزات الباهرات ـ إلاَّ نفر قليلٌ من أبناء بني إسرائيل، خوفاً من طغيان فرعون وجبروته، أن يصرفهم عن دينهم بأنواع العذاب والبلاء، وحقاً إن فرعون قد جاوز الحدَّ في البغي والإجرام، والكبر والعتو، حتى ادعى الربوبية لنفسه!!

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لما رأى موسى تخوّف بني إسرائيل من فرعون، قوَّى قلوبهم بالثقة بنصر الله، فقال لهم: يا قوم إن كنتم صدَّقتم بالله، وآمنتم برسوله، فعلى الله وحده اعتمدوا، وثقوا به، فإنه يكفيكم كل شرٍّ وضُرّ، إن كنتم مستسلمين لقضائه وحكمه، فأجابوه بقولهم: توكلنا على الله، اللهمَّ لا تسلِّط علينا أعداءنا الكفرة، حتى يفتنونا عن ديننا، وخلِّصنا من طغيان فرعون وجبروته. ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جاء دور الإعداد الروحي لبني إسرائيل، ليثبتوا أمام المحنة القاسية، أي أوحينا إلى رسولنا موسى

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

وأخيه هارون: بأن اتخذا لبني إسرائيل بيوتاً للصلاة والعبادة، واجعلوها مصلًّى لكم تصلُّون فيها عند الخوف، **قال ابن عباس**: «كانوا خائفين فأُمروا أن يصلُّوا في بيوتهم» وأن يداوموا على المحافظة على الصلاة في أوقاتها، بشروطها وأركانها، وبشِّر يا موسى أتباعك المؤمنين، بالنصر والغلبة على عدوهم فرعون اللعين!!

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ لما ازداد طغيانُ فرعون وأذاه على بني إسرائيل، أخذ موسى يدعو عليهم، وهارونُ معه يؤمِّن على دعائه، ومن حقِّ من يدعو على الغير، أن يبيِّن السبب، لئلا يتوهَّمَ السامعُ أنه يدعو عليه بدون ذنب ولا سبب، ولهذا قدَّم موسى السبب، والمعنى: إنك يا رب قد أعطيتَ فرعونَ وأشراف قومه، الأموال الطائلة، ليطغَوْا بها ويفجروا، ولتكون عاقبة أمرهم إضلال الناس عن دينك، ربنا فاسحقْ أموالهم، ودمِّرْ ديارهم، فإنهم كفرة فجرة، استعملوا نِعَمك في معاصيك، واطبع على قلوبهم حتى تصبح قاسية، لا تلين لنصح ولا تذكير، حتى ينالوا أقسىٰ العذاب وأشدَّه!! ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي قال له ربه: قد أجبنا يا موسى دعاءك على فرعون وملئه، فاستبشر بهلاكهم، واستقم على أمر الله، أنتَ وأخوك هارون، حتى يقضي الله بينك وبين القوم الظالمين، ولا تسلكا سبيل الجهلة الذين لا يعلمون حكمة الله، **قال الطبري**: روي أنه مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة، ثم أغرق الله فرعون وقومه المجرمين، أقول: هذه المدة الطويلة (٤٠) سنة هي أقلُّ من ساعة بالنسبة إلى اليوم الإلهي **﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنةٍ مما تعدُّون﴾** وإنما جاء التعبيرُ بالتثنية **﴿أجيبت دعوتكما﴾** مع أن الداعي كان موسى، لأن هارون كان يؤمِّن على دعاء أخيه يقول: (آمين) فكأنه دعا معه.. وبعد هذا الدعاء، الذي تفتحت له أبواب السماء، لأنه خرج من قلبٍ خاشع منيب، أمر الله نبيَّه

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾

موسى، أن يخرج ببني إسرائيل من (أرض مصر) ليلاً، وأن يعبر بهم البحر، ويذهب بهم إلى أرض فلسطين، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ تجهز موسى ومن معه من المؤمنين، وخرجوا في الليل، وساروا في طريق البحر الأحمر، وأخذوا يجِدُّون السير، مخافة أن يدركهم فرعون بجنوده، فلحقهم فرعون في اليوم الثاني، وأدركهم مع طلوع الشمس، فأوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر، فضربه فانفلق بقدرة رب العالمين، فكان كلُّ فرق كالطود ـ الجبل ـ العظيم، **ومعنى الآية:** وقطعنا ببني إسرائيل البحر حتى جاوزوه، فلحقهم فرعون مع جنوده، ظلماً وعدواناً، وطلباً للاستعلاء في الأرض بغير حق، فلما غرق وأيقن بالهلاك، قال فرعون: آمنتُ بالله وحده، الإله الحقِّ الذي آمنت به بنو إسرائيل، وأنا ممن أسلم نفسه لله، وأخلص في إيمانه!! أعلن إسلامه، وصدَّق بوحدانية الله، ظناً منه أن ذلك ينجيه من عذاب الله، ويُخلِّصه من الغرق، وهي توبةُ اليائس من الحياة، فجاءه الجواب الإلهي: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ أي الآن تؤمن وتتوب وترجع عن طغيانك، حين يئستَ من الحياة؟ وهلاّ تبتَ قبل هذا، ورجعت إلى ربك قبل أن يحيط بك الهلاك؟ ففي هذا الوقت، وفي هذه الساعة، نخرجك من البحر، بجسدك الذي لا روحَ فيه، لتكون عبرةً لمن بعدك، من الجبابرة والفراعنة، حتى لا يطغوا مثل طغيانك، وإن كثيراً من الناس، معرضون عن آياتنا، لا يعتبرون بها، ولا يتفكرون ولا يتأمَّلون!! **قال ابن عباس:** «إن بعض بني إسرائيل، شكُّوا في موت فرعون، فأمر الله البحرَ أن يُلقيه جسداً سويّاً ـ أي بكامل جسده ـ بلا روح،

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾

ليتحققوا موته وهلاكه» وهكذا كانت نهاية الطغيان!!

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يذكر تبارك وتعالى، ما أنعم به على بني إسرائيل، بعد أن نجَّاهم من شرّ فرعون الطاغية الجبار، وما قابلوا به هذه النعم، من صنوف البغي والعدوان، والمعنى: والله لقد أنزلناهم وأسكنَّاهم، مكاناً محموداً، ومنزلاً مرضياً، وأورثناهم ملك فرعون وسلطانه، فعاشوا منعَّمين مكرَّمين، ورزقناهم من أنواع اللذائذ الطيبة النافعة، فعاشوا في رغدٍ من العيش، ولكنهم لم يشكروا ربهم على ما أنعم به عليهم، وما اختلفوا في أمر الدين، إلاَّ بعد ما جاءهم العلمُ، وهو (التوراة) التي فيها حكمُ الله، فاختلافهم كان بسبب الدِّين، والدِّينُ يجمع ولا يفرِّقُ، ويوحِّدُ ولا يشتِّتُ، وقد كانوا قبل بعثة محمد خاتم الأنبياء ﷺ، مجمعين على نبوته، والإقرار بمبعثه، فلما جاءهم بالقرآن العظيم، كفروا به، فكيف بدَّلوا الاتفاقَ بالاختلاف، والنعمةَ بالجحود؟ إن ربك يا محمد هو الذي يفصل بينهم في الآخرة، فيما اختلفوا فيه وتنازعوا من أمر الدين، ويجازي كلاًّ بعمله!!.

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الخطاب ظاهره مع الرسول ﷺ، وحقيقته خطابٌ للأمة، أي لا تشكُّوا يا معشر المؤمنين في هذا القرآن، فإنه حقٌّ منزل من عند الرحمن، فلا تكونوا من الممترين أي الشاكِّين في أمره، واسألوا أهل الكتاب الذين يعرفون التوراة والإنجيل ـ وهم الأحبار والرهبان ـ فإنه محقَّق عندهم كما قصصناه عليكم، **وقال بعض المفسرين**: إن الآية محمولةٌ على الفرض والتقدير، أي إنْ فُرض أنك يا محمَّد شككتَ، فاسألْ أهلَ

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

الكتاب، **ولهذا قال ابن عباس:** «لم يشكَّ النبيُ ولم يسأل» **وقال قتادة:** «بَلَغنا أن النبي ﷺ قال: لا أشكُّ ولا أسأل» والأظهر أن الخطاب للأمة، بدليل قوله تعالى بعد: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ **أي لا تكذِّب بشيء من آيات الله، فتصبح ممن** خسر دنياه وآخرته، ويستحيل أن يكذِّب الرسول بشيء من كلام الله، فالمراد إذاً (تحذير الأمة)، عن التكذيب بشيء مما أنزله الله، **قال الإمام القرطبي:** الخطابُ في هاتين الآيتين للنبي ﷺ، والمراد غيرُه من الأمة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ **أي إن الأشقياء الذين** وجبت عليهم كلمةُ العذاب، لسبْقِ شقاوتهم، لا يصدِّقون ولا يؤمنون، ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ ولو جاءتهم البراهينُ والمعجزات، حتى ينزل بهم عذاب الله الأليم، فعند ذلك يتوبون ويؤمنون، حين لا ينفعهم الإيمان، كما آمن فرعون حين وقع في الغرق، فلم ينتفع بإيمانه!!

ثم بيَّن تعالى سنَّته الكونية في إهلاك الظالمين، وهي أن العذاب إذا نزل بالطغاة المتكبرين، بدعاء نبيِّهم عليهم، فلن يُرفع عنهم العذاب، إلا ما كان من قوم يونس، فقد كان لهم شأن آخر، حيث نجَّاهم الله من العذاب، بإيمانهم وتوبتهم، لأن نبيَّهم لم يمهلهم، وخرج من بين أظهرهم ساخطاً عليهم، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ **أي فهلاً كانت قرية من القرى** التي أهلكناها، تابت عن الكفر، وأخلصت في الإيمان، عند معاينة العذاب، فنفعها إيمانها في ذلك الوقت!! أي لم ينفعها إيمانها، إلاَّ ما كان من قوم يونس، فإنهم لما رأوا أمارة العذاب، تابوا عن الكفر، وآمنوا بالله، فرفعنا عنهم العذاب المخزي المهين، وأبقيناهم في الدنيا إلى انتهاء آجالهم... وسببُ كشف الغُمَّة عن قوم يونس، أنهم لجأوا إلى الله، عن

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾

صدقٍ ويقين وإخلاص، وأن نبيَّهم كان قد خرج من بين أظهرهم، ساخطاً عليهم، قبل أن يستأذن ربَّه في الخروج ـ وهذا بالنسبة إلى مقام النبوة يُعتبر ذنباً ـ لذلك عاتبه الله على فعله، وتاب على قومه، ومتَّعهم ببقية حياتهم في الدنيا، كما قال سبحانه: ﴿**فآمنوا فمتعناهم إلى حين**﴾ فهذا استثناء من سنن الله الكونية، في عقاب الظالمين، ولذلك نبَّه الله تعالى عليه، لئلا ينخدع أحدٌ، بقبول الإيمان أو التوبة من الله له، عند نزول العذاب!

ثم وضَّح تعالى أن الإيمان لا يكون بالإكراه والإجبار، ولكنْ بالرضى والاقتناع، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾؟ أي لو شاء الله لما كفر كافر، ولا جحد جاحد، ولآمن جميعُ الخلق، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك، لكونه مخالفاً للحكمة الإلهية، وهي ترك أمر الإيمان، إلى (اختيار البشر)، ليترتب على ذلك قانون (الثواب والعقاب)، أفأنت يا محمد تُكرِه الناس على الإيمان، وتضطرهم إلى الدخول في الإسلام؟ ليس ذلك إليك، والآية صريحة في أن الإيمان لا يكون بالإكراه ﴿**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي**﴾ ثم جاءت الآية بعدها تؤكِّد هذا الأمر، فقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي وما كان لأحدٍ من الخلق، أن يؤمن إلا بإرادته سبحانه وتوفيقه، ويجعل الله الكفر والدَّنس على الذين لا يستعملون عقولهم فيما ينفعهم، . وينقذهم من عذاب الله، **قال ابن عباس**: (كان الرسول ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس، فأخبره تعالى أنه لا يؤمن إلاَّ من سبقت له السعادة في علم الله، ولا يكفر إلا من سبقت عليه الشقاوة في الذِّكر الأول) أي في علم الله.. عبَّر تعالى عن الكفر (بالرجس) وهو القَذَرُ والنَّجسُ، لأن الكفر نجاسة قلبية أعظمُ من النجاسة الحسِّية ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي قل لهؤلاء الكفار: انظروا ـ نظر

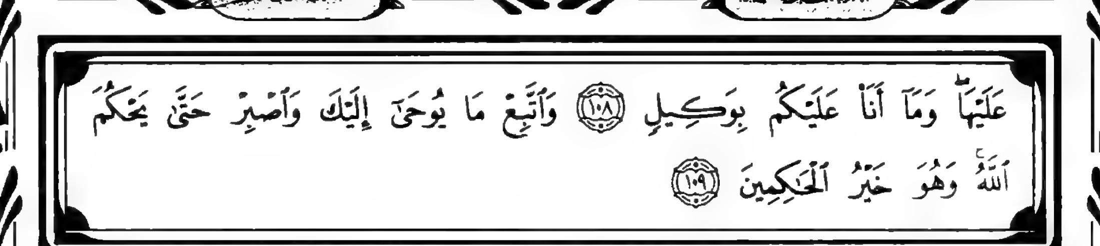
﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

تفكر واعتبار - إلى السموات والأرض، وما فيها من الآيات، الدالة على وحدانيته تعالى وكمال قدرته، لتعلموا علم اليقين، أن لها خالقاً مدبراً حكيماً، وأن هذا الكون لم يُخلق عبثاً!! وماذا تنفع الآيات والإنذارات، لقوم عُمي القلوب، لا يؤمنون بالله، مع كل الدلائل والبراهين، على وجوده ووحدانيته؟ ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ أي هل ينتظر الكفار، المكذبون لرسالة محمد، إلاَّ مثل أيام أسلافهم المكذبين؟ وما حلَّ بهم من العذاب والدمار، ليتعظوا ويعتبروا؟ قل لهم يا محمد: انتظروا عاقبة الكفر والتكذيب، فأنا معكم أنتظر ما سيفعله الله بكم، فعاقبةُ الكفر الهلاكُ والدَّمارُ ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ثم إذا نزل العذاب بالكفار، ننجّي رسلنا وأتباعهم المؤمنين، من ذلك العذاب، حقاً ثابتاً علينا، من غير شكٍّ ولا ارتياب، كما قال سبحانه: **﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾** فمدارُ النجاة من العذاب، هو الإيمان بالله ورسله، فقد نَصَر الله تعالى إبراهيم على النمرود، ونصر موسى على فرعون الجبار، ونصر عيسى على أعدائه اليهود، ونصر خاتم المرسلين على كفار مكة العُتاة الضالين، وهكذا لم يتخلَّف وعد الله أبداً، لأنها سنة كونية مستمرة!.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي قل لهؤلاء الأشقياء من قومك: إن كنتم في شك وريب من أمر ديني، وصدق رسالتي، فأنا بريء منكم، ومن أصنامكم التي تعبدونها من دون الله، ولا أعبد إلا إلٰهي الحقّ، الذي يتوفاكم، وبيده وحده مماتُكم ومحياكم، وأمرني ربي أن أكون في زمرة المؤمنين الموحِّدين.. وفي هذا القول تعريضٌ لطيف، بضلال المشركين وسفاهتهم، وكأنه يقول: لا ينبغي لكم أن تشكُّوا في ديني، ولكنْ شكُّوا

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ

في عبادة أصنامكم، التي لا تسمع ولا تعقل، ولا تنفع ولا تضرُّ، أمَّا إلٰهي الذي أعبده، فهو الخالقُ الرازق، النافع الضارُّ ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ. وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تأكيد للنهي السابق، أي وأمرني ربي بالاستقامة على التوحيد، على (الحنيفية السمحة) ملة إبراهيم، وأن لا أشرك به شيئاً، لا صنماً ولا وثناً، ولا بشراً ولا حجراً!! حاشا للرسول المنزَّه المطهَّر المعصوم، أن يشرك بالله، أو يعبد غيره، أو يعتقد بشيء من الأوثان، مما يخدش العقيدة، ولكنه ـ كما أوضحنا ـ خطابٌ للأمة في شخص قائدها وعظيمها، كما هو عادة العظماء والملوك، يخاطبون الوزير والمسؤول الكبير، ومرادهم الأمة والشعب ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي إن مسَّك ضرٌّ، فلا يكشفه ويدفعه عنك، إلا ربُّ العزة والجلال، وإن أراد الله لك النفع والخير، فلا يمنعه عنك مانع، فالكلُّ بيد الله، يعزُّ ويذلُّ، ويرفع ويخفض، ويغني ويُفقر، ولا سلطان لأحدٍ غير الله! نزلت الآية لمَّا خوَّف المشركون رسول الله ﷺ من أن تمسَّه آلهتهم بسوء، وتوعَّدوه بالفتك والبطش به، إن تعرَّض لسبِّ آلهتهم، فأخبره الله أن الأمر ليس بيدهم، إنما هو بيد الله وحده، إن أراد له الخير أتاه به، وإن أراد به السوء والشرَّ، فلا يملك أحد رفعه!! وختم الله السورة الكريمة، ببيان صدقِ رسالة محمد ﷺ، وأن ما جاءهم به من القرآن، هو كلام الرحمٰن جلَّ وعلا، فعليهم أن يستمسكوا به، ويستنيروا بضيائه. ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ



عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أي قل يا أيها الرسولُ للناس جميعاً: لقد جاءكم القرآن بالشرع المبين، الساطع المنير، فيه الهدى والشفاء، والنور والضياء، فمن آمن به فقد نفع نفسه، ومن زاغ عنه فقد ضرَّ نفسه، ولستُ مكلفاً بحفظ أعمالكم، إنما الله يحاسبكم ويجازيكم عليها، واصبر يا محمد على قضاء الله حتى يفصل الله بينك وبينهم بحكمه العادل، وقضائه المبرم.

انتهى تفسير سورة يونس

● ● ●

الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

تفسير سورة هود

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ (الٓر): الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، فهذا الكتاب المعجز، منظوم ومركب من أمثال هذه الحروف الهجائية، التي يتكلمون بها، **ومعنى الآية**: هذا القرآن المعجز، كتاب جليلُ القدر، عظيم الشأن، نُظمت آياته نظماً دقيقاً محكماً، ثم وُضِّحت فيه أمور الحلال والحرام، وأحكام العبادة والمعاملات، كما بُيِّنت فيه دلائل (التوحيد، والنبوَّة، والوحي، والقصص والمواعظ)، أحسن تبيين، فصَّلها وبيَّنها لكم الحكيمُ الخبيرُ، ربُّ العزة والجلال، لأجل أن لا تعبدوا إلا الله، فأنا لكم نذير وبشير، أنذركم عقابه إن عبدتم غيره، وأبشِّركم برحمته ورضوانه، إن عبدتموه وأطعتموه. ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ أي استغفروه من الذنوب، وأخلصوا التوبة لله، واستقيموا عليها بالطاعة والإنابة، يجعلكم تعيشون عيشة مرضيَّة، مع سعة الرزق، ورغد العيش، إلى وقت انتهاء أعماركم، ويعطي كلَّ محسن جزاء إحسانه، وإن تعرضوا عن الإيمان، وطاعة الرحمن، فإنني أخاف عليكم عذاب يوم مهول هو يوم القيامة ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ أي إلى الله مرجع الخلائق جميعاً، فيجازيهم على أعمالهم، وهو سبحانه قادر على معاقبة كل من كذَّب!.

ثم حكى تعالى طرفاً من سخرية كفار مكة، من دعوة سيد المرسلين، فقال سبحانه:

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾ أي إن المشركين يطوون صدورهم على عداوة النبي والمؤمنين، يظنون أن هذا يخفى على الله، وهو سبحانه العالم بما يخفون وما يعلنون.. لقد كشفت هذه الآية عن سرائر المشركين، وما انطوت عليه صدورهم من الحقد والعداوة، ولكنَّ الله لهم بالمرصاد، يرقبهم ليلاً ونهاراً، ويعلم أحوالهم سرّاً وجهاراً، ولهذا ختمها بقوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ هو تعالى مطَّلع على خفايا بواطنهم، لا يخفى عليه شيء مما يضمرونه من الكيد والشر ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ المراد بالدابة: كلُّ ما يدبُّ على ظهر الأرض، من إنسان وحيوان، ومن ماشٍ وزاحف، أي ما من مخلوق، إنساناً كان أو حيواناً، إلاَّ تكفَّل الله برزقه، تفضلاً منه تعالى وكرماً، ويعلم مستقرَّها الذي تأوي إليه من الأرض، ومستودعها الذي تموت فيه وتُدفن، كلُّ ذلك مسطَّر في اللوح المحفوظ، وإذا لم يُغفل الله أضعف خلقه، وهي البهائم والهوامُّ، فكيف يَغْفَل عن أشرفها وهم البشر؟.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾ أي هو جلَّ وعلا الذي خلق الكون كلَّه، سماءه وأرضه، في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا، وخلق العرش قبل تلك المخلوقات، ليدل على عظمته وسلطانه، وقد جعل حياة البشر وأرزاقهم، ابتلاءً لهم، ليظهر المحسن من المسيء، والشاكرُ من الكافر، فالدنيا دار الابتلاء، والآخرة دارُ الجزاء، وفي الحديث الشريف: «كان الله ولم يكن شيء غيرُه، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كلَّ شيء» رواه

وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

البخاري. ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ولئن قلت للمنكرين من كفار مكة: إنكم ستبعثون من قبوركم بعد موتكم، للحساب والجزاء، فسيهزءون ويقولون: ما هذا القرآن الذي يخبر عن البعث، إلا سحرٌ واضح لكل مخلوق ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي ولئن أخرنا عنهم العذاب، إلى مدة قصيرة معلومة، فسوف يقول المشركون استهزاءً: لماذا لم ينزل العذاب الذي وعدنا به محمد؟ وما الذي يمنع من نزوله؟ ألاَ فلينتبهوا، فإنه حين ينزل لن يدفعه عنهم دافع، وأحاط بهم العذاب، ونزل بهم جزاء ما كانوا به يهزءون ويسخرون!

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ أي وإذا منحنا الإنسان نعمة منا، من (الصحة، والأمن، والرزق)، ثم سلبنا تلك النعم منه، أصبح شديد اليأس من رحمة الله، عظيم الجحود لفضله، لقلة صبره وكثرة جزعه ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي ولئن منحناه نعمةً جليلة، كالصحة بعد السَّقم، والفَرَج بعد الشدة، ليقولنَّ مباهياً بجحوده: لقد ذهبت عني المكاره والمصائب، ولن تصيبني بعد اليوم، وأصبح بطراً، يفخر على الناس بما أُوتي من النعم، وهكذا شأن الكافر، لا يُقِرُّ بفضل الله عليه وإنعامه، فإذا حصلت له النعمةُ، ثم زالت عنه، وقع في اليأس الشديد، وإذا انتقل من مكروه إلى محبوب، اشتدَّ فرحه بذلك، فطغى وبغى، وأفسد في الأرض، بانتهاك محارم الله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي هذه عادة البشر، إلا

فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾

المؤمنين الصادقين منهم، فإنهم يشكرون ربهم، في السراء والضراء، وهؤلاء لهم في الآخرة، مغفرة لذنوبهم، وأجرٌ عظيم هو الجنة، وفي الحديث: (عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كلَّه له خير، وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء شَكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صَبَر فكان خيراً له) رواه مسلم، فالقنوطُ واليأسُ صفة الكافر، وهذا ما يفسِّر لنا، ظاهرة الانتحار عند الكفار، أما المؤمن فيستسلم لقضاء الله ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ، ليصبرَ على أذى المشركين، والمعنى: لعلك يا محمد تارك بعض ما أوحاه الله إليك، فلا تبلِّغهم إياه، خشية سخريتهم واستهزائهم!! ويضيق صدرك من تبليغهم ما أنزل الله إليك، لأجل أن يقولوا: لو كان محمد نبياً، لكان صاحب غنى وكنوز، كالملوك، أو يأتي معه مَلَكٌ، ليشهد على صدق رسالته!! ما أنت يا محمد إلاَّ رسولٌ منذر، تخوِّف المشركين عذاب الله، فتوكَّل على الله فإنه عالمٌ بأحوالهم!! وكأن الآية تقول: امضِ في دعوتك، ولا تبالِ بسخريتهم وتكذيبهم، فإن الله ناصرك عليهم!

ثم ذكر تعالى افتراء المشركين على القرآن، بأنه من صنع محمد، وردَّ عليهم بالحجة الدامغة، مع التحدي الصارخ لهم، فقال سبحانه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ «أم» هنا للتوبيخ والإنكار، والمعنى: أيقول المشركون: إن محمداً اختلق هذا القرآن من عند نفسه، ونَسَبه إلى الله؟ فإن كان الأمر كذلك، فليأتوا بعشر سورٍ من مثله مكذوبة، فمحمد بشر مثلهم، وهم فرسانُ البلاغة، وملوكُ البيان، وليستعينوا بمن شاءوا من الإنس والجن، إن كانوا صادقين في دعواهم، أنه من تأليف محمد ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

أي فإن عجزوا ولم يستجيبوا لكم، فيما دعوتموهم إليه من المعارضة، فاعلموا علم اليقين، أن هذا القرآن وحيٌ من الله، أنزله على خاتم الأنبياء، وليس هو من تأليف محمد ﷺ، فأسلموا لله واتركوا ذلك الضلال، لقد زعم المشركون أن القرآن من تأليف محمد، اختلقه وافتراه، ونَسَبه إلى الله، فتحدَّاهم القرآنُ المرة تلو المرَّة، أن يأتوا بمثله، أو بمثل سورةٍ منه، وهم في كل مرة يعجزون ويخرسون، ولا يستطيعون أن يواجهوا هذا التحدِّي، وهم فرسان الميدان، فثبت بالدليل القاطع، أنه كلام ربِّ العزة والجلال، يا عجباً لأشراف قريش وسادتها، هم فرسان الميدان في الفصاحة والبيان، جاءهم بهذا الكتاب كبرهانٍ على صدق رسالته، وقال لهم: هذا هو معجزتي، فعاندوه وكذَّبوه، فتحدَّاهم أن يأتوا بمثله، أو بمثل سورة منه، فهاجوا وماجوا، لردِّ هذا التحدي الصارخ ولم يستطيعوا، أتاهم به رجلٌ أميٌّ لا يعرف القراءة والكتابة، وهم أساطين البيان، وفرسانُ الميدان، فما سمعنا عن واحدٍ منهم أنه رفع عقيرته، ليردَّ على هذا التحدي، أو ليدفع عن نفسه عار الهزيمة، في أمر يفخر ويعتزُّ به، ألا وهو (ميدانُ الفصحى)، وبذلك قصم الحقُّ ظهر الباطل!!

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي من كان يقصد بأعمال البرِّ والإحسان، نعيمَ الدنيا فقط، من الأمن، والصحة، وسعة الرزق، ولا يؤمن بالآخرة، نعطيه ما يشتهيه من نعيم الدنيا، ونعجِّل له جزاءَ حسناته، ولا ننقص له شيئاً من أجره، وهؤلاء ـ الذين همُّهم الدنيا ونعيمَها فقط ـ ليس لهم في الآخرة إلا نار الجحيم، وعذابها المخلَّد، وبطل ثوابُ أعمالهم التي عملوها في الدنيا، لأنها لم تكن لوجه الله. **قال قتادة**: من كانت الدنيا همَّه وغايته، جازاه الله بحسناته في الدنيا، حتى يفضي إلى الآخرة، وليس له حسنة يُعطى عليها، وأما المؤمنُ فيُجازى بحسناته في الدنيا، ويُثاب عليها في الآخرة.. وبمقابلة الكافر المنكر للآخرة، يأتي الحديثُ عن المؤمن، الموقن بلقاء الله،

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾

الذي اهتدى قلبه بنور الإيمان، فيقول سبحانه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي أفمن كان على نور واضح، وبرهان ساطع، من الله تبارك وتعالى؟ وهو المؤمن المتَّبع للرسول ﷺ، والمصدِّق بالقرآن الذي أنزل عليه، كغيره ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها؟ ولا يفكِّر في مرضاة الله؟ لا يستوي هذا مع ذاك ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي أولئك السعداء، الذين هم على نور من ربهم، يؤمنون بالقرآن حقَّ الإيمان، ومن يكفر بالقرآن من أهل الملل والأديان، فإن له نار جهنم يُخلَّد فيها، فلا تكن أيها العاقل، في شكٍّ من هذا النور الإلهي (القرآن العظيم) فإنه الحقُّ المنزل من عند الله، ولكنَّ أكثر البشر، لا يصدِّقون أنه كلام ربِّ العزة والجلال، لشقاوتهم وضلالهم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي لا أحد أظلم ممن اختلق الكذب على الله، فنسب إليه الشريك والولد، هؤلاء يُعرضون يوم القيامة، على خالقهم ومالكهم، ويقول الخلائق والملائكةُ، الذين يشهدون على أعمالهم: هؤلاء الذين كذبوا على الله، فجعلوا له ذرية وبنين، فلعنةُ الله عليهم!!، والغرضُ بيانُ فضيحتهم في الآخرة، على رءوس الأشهاد، والتشهير بهم خزياً ونكالاً، وإنه لمشهد مخزٍ لأعداء الله، في ذلك الجمع الحافل، وأيُّ خزيٍ وفضيحة، أعظم من هذه الفضيحة؟

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ أي هؤلاء الأشقياء،

أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

هم الذين منعوا الناس عن دين الله، وطريق طاعته، يريدون أن يكون دين الله أعوج، موافقاً لأهوائهم، وهم جاحدون للآخرة، منكرون لها، لا يؤمنون بالبعث والنشور ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ أي هؤلاء وإن أمهلهم الله في هذه الدار، فلن يُفلتوا من عذابه، لأنهم في ملكه جلَّ وعلا وفي سلطانه، وقد اقتضت حكمته أن يؤخر جزاءهم إلى يوم القيامة، حيث لا شفيع لهم ولا نصير، وسيضاعف الله لهم العذاب، بسبب إجرامهم وطغيانهم، فقد منحهم الله السمعَ والبصرَ، ولكنهم كانوا صُمّاً عن سماع الحقِّ، عُمْياً عن اتباعه، فلم ينتفعوا بما منحهم الله من حواسَّ، كما قال سبحانه عنهم: **﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾**

ثم بيَّن تعالى خسارتهم الفادحة فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أي خسروا حياتهم وخسروا سعادتهم، لأنهم آثروا الفانيةَ على الباقية، وغاب عنهم ما كانوا يزعمونه من شفاعة الآلهة، **﴿لا جرم﴾** أي حقاً إنهم يوم القيامة من أخسر الناس وأشقاهم، فقد خسروا سعادة الدارين، واستعاضوا عن النعيم بلظى الجحيم، فما أتعسهم وأشقاهم!! ولمَّا حكى تعالى حال الأشقياء، أعقبه بذكر حال السعداء، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أمَّا المؤمنون الصادقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح،

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾

والخوفِ من الله، والخضوع والخشوع لعظمته وجلاله، فهم منعَّمون في جنان الخلد، لا يخرجون منها أبداً، مثلُ الفريقين: الضالين، والمهتدين، كمثل من جمع بين العمى، والصَّمم، فهذا حال الكافر، ومن جمع بين السمع والبصر، وهذا وصفُ المؤمن، هل يستويان في الوصف والشكل؟ لا يستويان أبداً، فليس حال من يتخبط في ظلمات الجهالة والضلالة، كحال من يبصر الحقَّ ويستضيء بضيائه.. شبَّه تعالى أهل الشقاوة والضلال، بالأعمى والأصم، وشبَّه أهل السعادة والإيمان بالسميع والبصير، وختم الآية بقوله: ﴿**أفلا تذكرون**﴾ أي أفلا تعتبرون وتتعظون؟ وحقاً إنه مَثَل من أروع الأمثال، يدركه العالم والجاهل، والذكيُّ والغبيُّ!!

وبعد هذا البيان الساطع، جاء الحديث عن قصص الأنبياء، فبدأ تعالى بذكر قصة «نوح» عليه السلام شيخ الأنبياء، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ هذه أول قصة في هذه السورة الكريمة، و(نوح) شيخ الأنبياء، لأنه أطولهم عمراً، وأكثر بلاءً وصبراً، وأقلُّهم أنصاراً، **قال ابن عباس**: «بُعث نوح على رأس أربعين من عمره، ولبث يدعو قومه (٩٥٠) تسعمائة وخمسين سنة، وعاش بعد الطوفان ستين سنة، فصار عمره ألفاً وخمسين سنة» **والمعنى**: والله لقد أرسلنا رسولنا نوحاً، إلى قومه الكفرة الوثنيين، الذين عبدوا الأصنام والأوثان، فقال لهم: إني رسولٌ إليكم منذر، أخوِّفكم عذاب الله إن لم تؤمنوا، وإني أخاف عليكم إن عبدتم غيره، عذاب يوم شديد مؤلم، هو يوم القيامة، ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ أي قال السادة والكبراء من أشراف قوم نوح: ما نراك إلا واحداً مثلنا، لا مزيَّة لك علينا، وما نراك اتبعك إلاَّ سَفَلةُ الناس، من الفقراء

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

أصحاب الحِرَف الخسيسة، اتبعوك من غير تفكُّر ولا رويَّة، وما نرى لك ولأتباعك، من مزية وشرف علينا، يؤهِّلكم للنبوة، بل نعتقد أنكم كاذبون في دعوى النبوة!!

لقد طعنوا في نبوته، وأثاروا حول رسالته الشكوك، بثلاثةِ أنواع من التُّهم:

الأولى: أنه بشر مثلُهم، وليس من الملائكة، حتى يقرُّوا له بالسيادة والفضل.

الثانية: أن أتباعه ليسوا من أشراف القوم، إنما هم من الفقراء، والأراذل والضعفاء.

الثالثة: أنهم جماعة بسطاء سُذَّج، لا فهم عندهم ولا تدبير.

ولنستمع إلى ردِّ نبيِّ الله «نوح» عليهم في هذه الشبهات، بأسلوب حصيفٍ لطيف: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ أي قال لهم نوح متلطفاً معهم في الكلام، لاستمالتهم إلى الإيمان: أخبروني يا قومي، إن كنتُ على بصيرة ونور، وهدايةٍ من ربي، ورزقني النبوة والرسالة، فخفي الأمرُ عليكم والتبس لأنكم تنظرون إلى الشخص، بمنظار (الغنى والثراء)، فهل نجبركم ونكرِهكم على قبول دعوى الإيمان، وأنتم كارهون لذلك؟ الإيمانُ لا يكون بالقهر، وإنما بالرضى والاقتناع. ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أي أنا لا أسألكم على تبليغ الدعوة مالاً، حتى تنفروا منِّي، ولا تقبلوا دعوتي، لا أطلب الأجر إلا من الله تعالى، فإنه هو الذي يثيبني ويجزيني، ولستُ بمبعد هؤلاء المؤمنين الضعفاء عن مجلسي، إنهم راجعون إلى ربهم، وفائزون بقربه، فكيف أطردهم؟ ولكنكم تجهلون قدرهم، فتطلبون طردهم ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي من يُخلِّصني وينقذني من عذاب الله الشديد، إن

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣١) قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣٢)﴾

أنا طردتهم من حولي، إرضاءً لكم؟ أفلا تفكِّرون بعقولكم، حتى تعلموا خطأ رأيكم هذا؟ ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا أقول لكم عندي المال الوفير الكثير، وخزائني مملوءة بالذهب والفضة، حتى تتبعوني لغناي، ولا أقول لكم إني أعلم الغيب، حتى تظنُّوا بي الألوهية والربوبية، ولا أقول لكم إني من الملائكة، حتى أتعظَّم بذلك عليكم، وأطلب منكم اتباعي، ولا أقول لهؤلاء الضعفاء الفقراء، الذين احتقرتموهم لفقرهم، إنهم محرومون من رحمة الله، ومن دخول جنته، فأكون كاذباً على الله!! اللَّهُ وحده هو العالم بسرائرهم وضمائرهم، إني إن قلت ذلك، أكون ظالماً مستحقاً لعقاب الله الشديد.. نبَّههم عليه السلام، إلى أن الغنى والثراء، ليس من شروط النبوة، وردَّ عليهم دعوى أنه من البشر، أن الحكمة تقتضي أن يكون الرسول من جنس البشر، ليتمَّ التجانسُ بين الطرفين، فلو كانوا من الملائكة، لأرسل الله لهم رسولاً ملَكاً **﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا﴾** وردَّ عليهم طلبهم طرد الفقراء عنه، أن قيمة المرء وقدره، لا يكون بالغنى والفقر، إنما بما في نفسه من الفضائل والكمالات، التي بها يتفاضل البشر!!.

ولنستمع إلى جواب هؤلاء السفهاء، إلى نبيهم نوح عليه السلام: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قابلوه على تلطفه معهم، بهذه السفاهة والحماقة، فقالوا له: لقد أكثرتَ الكلام معنا في دعواك، وخاصمتنا فأثقلتَ علينا في مجادلتك، فأتنا بالعذاب الذي تتوعدنا به، إن كنت صادقاً فيما تقول؟! لقد كان الأحرى بهم لو كانوا عقلاء، أن يقولوا له: سمعاً وطاعةً، فقد جئتنا بالحجة الواضحة، والبرهان الساطع، ولكنهم لسفههم وحماقتهم، طلبوا العذاب، كما فعل سفهاء مكة مع

قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

رسول الله ﷺ، حين قالوا: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ ولم يملك نوح عليه السلام، بعد أن نصحهم وأزال عنهم كلَّ شبهة أثاروها، إلا أن يلجأ إلى الله، لينتقم منهم. ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي إنما يأتيكم بالعذاب، الإلٰه المنتقم الجبار، متى شاء، وأمرُ تعجيله له سبحانه لا إليَّ، ولستم معجزين ربكم لأنكم في ملكه وسلطانه، وماذا ينفعكم نصحي وتذكيري إن أراد الله شقاوتكم وإضلالكم؟ هو خالقكم والمتصرف فيكم، وإليه مرجعكم فيجازيكم على أعمالكم!!.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ الآيــة هــذه وردت اعتراضاً بين قصة نوح، للإشارة إلى أن موقف مشركي مكة من رسولهم محمد، كموقف المشركين من قوم نوح، في التكذيب والعناد، والمعنى: هل يقول كفار قريش: افترى محمد هذا القرآن من عند نفسه؟ قل لهم: إن كنتُ قد افتريتُ هذا القرآن، فعليَّ وزري وذنبي، ولا تحملون أنتم شيئاً من إثمي، كما لا أتحمَّل شيئاً من وزركم!! ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي أوحى الله إلى نوح، أن قومك الأشقياء، لن يؤمن منهم أحدٌ بعد اليوم، إلاَّ من سبق منهم ودخل في دينك، فلا تحزن عليهم، ولا يهمَّنك أمرهم، فإني مهلكهم ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ أي اصنع السفينة بحفظنا ورعايتنا، وتحت نظرنا، وبتعليمنا لك، ولا

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾

تراجعني في أمر هؤلاء السفهاء، ولا تشفع فيهم، فإني مهلكهم بالغرق بالطوفان.

وهكذا صدر الحكم على أولئك الأشقياء بالهلاك، نتيجة الكفر والعدوان ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أخذ نوح عليه السلام يصنع السفينة، وجعل قومه يمرُّون عليه، فيسخرون منه ويهزأون، ويقولون له: يا نوحُ كنت بالأمسِ نبياً، وأصبحتَ اليوم نجاراً!! فكان يجيبهم بقوله: سوف ترون عاقبة سخريتكم واستهزائكم، عندما يحلُّ بكم العذاب المذلُّ المهين، الدائم الذي لا ينقطع، فنهزأ منكم كما تهزءون منَّا!! وورد النصُّ بصيغة المضارع ﴿ويصنع الفلك﴾ لاستحضار الصورة في الذهن، كأنَّ الناظر يشهده الآن وهو يصنعها، لأن المضارع يفيد الاستمرار ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ لما انتهى من صنع السفينة، أمره الله سبحانه أن يحمل معه أهله، وجماعته المؤمنين، وأن يحمل فيها من الحيوانات، من كل صنفٍ زوجين اثنين «ذَكَراً وأنثى» لبقاء نسلها، وهذا دليلٌ واضح على أن الطوفان كان عاماً لجميع الأرض، **ومعنى الآية**: حتى إذا جاء أمرنا بهلاكهم، وفار الماءُ من التنور، الذي يخبز فيه الخبزُ ـ وقد جعله الله علامةً لنوح، وموعداً لهلاك قومه ـ قلنا له: احمل في السفينة أتباعك المؤمنين، وأهلَ بيتك إلاَّ من كفر منهم، فحقَّ عليه الهلاك، كابنه كنعان، وامرأته الكافرة، وما آمن بدعوته ورسالته، إلا نزرٌ قليل، مع طول إقامته بينهم، وهي (٩٥٠) سنة، **قال ابن عباس**: كانوا ثمانين نفساً ما بين رجلٍ وامرأة، ويرى بعض المفسرين أن المراد بالتنور: وجهُ الأرض، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿**وفجرنا الأرض عيونا**﴾ ورجَّح شيخ المفسرين «ابن جرير الطبري» أن المراد بالتنور هو الذي يُخبز فيه الخبزُ، لأنه هو

﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٢ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾

المعروف من كلام العرب، وكلامُ الله يُحمل على الأشهَر والأغلَب، أي نبع الماء من جميع أطراف الأرض، حتى نبع من التنور.

﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي قال نوح: اركبوا في السفينة، باسم الله سيرُها ووقوفُها، حين تسير وحين تقف، إن ربي رحيم بنا، ولذلك لطف بنا، فنجّانا من الغرق ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي والسفينةُ تشقُّ بهم عُباب البحر، في وسط أمواج عاتية، هي كالجبال في العظم والارتفاع، ونادى نوح ولده «كنعان»: يا بنيَّ اركب معنا، ولا تهلك نفسك بالغرق مع الهالكين من الكفار، والتعبيرُ هنا **﴿في موج كالجبال﴾** يشير إلى مبلغ الهول الشديد، الذي يكاد يغمر السفينة بأمواجه، ونوح الوالدُ الملهوف، يبعث بالنداء تلو النداء، وابنُه المغرور يأبى إجابة الدعاء ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ أي قال سأصعد إلى رأس جبل، أتحصَّن به من الغرق، قال نوح: لا ناجي اليوم من عذاب الله، إلاّ من رحمه الله، والأمواج الغامرة تحسم الموقف، في سرعة خاطفة، ﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾، أي ممن غرق بالطوفان!!.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي قيل للأرض: انشقِّي وابلعي ماءك، وللسماء: كفِّي عن المطر،

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

وذهب الماء في أغوار الأرض، وتمَّ أمرُ الله بإغراق المكذبين، واستقرت السفينةُ على جبل الجوديّ قرب الموصل، وقيل: هلاكاً ودماراً لكل فاجر ظالم كافر!! وهنا تهدأ العاصفة، ويُخيِّم السكونُ، ويُقضى الأمرُ، ويوجَّه الأمر إلى السماء والأرض بصيغة العاقل، فتستجيب كلتاهما للأمر الفاصل، فتبلع الأرض الماءَ، وتكفُّ السماء عن المطر، ويغرق أهل الأرض جميعاً، إلا من ركب مع نوح في السفينة ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي نادى نوح ربه متضرعاً إليه قائلاً: يا رب إن ابني من أهلي وقد وعدتني بنجاتهم، ووعدُك حقٌّ لا يتخلَّف، وأنت يا الله أعدل الحاكمين بالحق!! ويأتيه الجواب السريع: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي قال له ربه: يا نوح، إن ولدك هذا ليس من أهلك، الذين وعدتك بنجاتهم، لأنه كافر، وعملُه سيىء غير صالح، ولا نسب بين المؤمن والكافر، فلا تسألني عن أمرٍ لا تعلم أهو صواب أم خطأ؟ إني أذكِّرك وأنصحك، خشية أن تكون من الجاهلين بحكمة الله.. وتختم القصة بإنابة نوح إلى ربه، وطلبه العفو والمغفرة منه، بعد أن ظهر له خطأ طلب النجاة لولده، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي قال نوح معتذراً إلى ربه، يا رب إني أستجير بك، أن أسألك أمراً لا يليق بي سؤاله، وإن لم تصفح عني، وتتداركني برحمتك، أصبح خاسراً لسعادتي، قال له ربه: اهبط يا نوح من السفينة بسلامةٍ وأمان، وخيراتٍ نامية عليك وعلى أتباعك المؤمنين، وأممٌ من نسل ذريتك، سنمتعهم في

تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

الدنيا إلى انتهاء آجالهم، ثم يصيبهم العذاب الأليم لأنهم لا يؤمنون!! نبّه تعالى إلى أن من ذريته من سيكفر بالله، وهؤلاء لا تنالهم رحمة الله أبداً.

وهكذا تنتهي قصة نوح عليه السلام، بنجاة المؤمنين، وهلاك الظالمين، وكأن الأمر لم يكن قد كان، ثم يأتي الخطاب لرسول الله ﷺ لتذكيره بمصدر الوحي الإلهي، في هذه الأخبار الغيبيّة، فيقول سبحانه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي هذه القصة وأشباهُها، من الأخبار الغيبيّة، لم تشهدها أنت يا محمد، ولا يعرفها قومك، ولكنّا أخبرناك عنها بواسطة الوحي، لتكون شاهدة على صدق رسالتك، فاصبر على أذى قومك، كما صبر أخوك نوح، وبلّغ رسالة ربك، فالعاقبة المحمودة، والنصرُ في النهاية لمن اتّقى الله.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ هذه هي القصة الثانية في هذه السورة الكريمة، أي وأرسلنا إلى قبيلة «عاد» رسولنا «هوداً» عليه السلام، فقال لقومه: اعبدوا الله وحده، واتركوا عبادة الأصنام والأوثان، فليس لكم معبود غيرُه تعالى يستحق العبادة، وما أنتم في عبادة الأوثان، إلاّ كاذبون مفترون على الرحمٰن، ويا قوم لا أسألكم على النصح والتبليغ عوضاً من المال، فما أطلب أجري إلا من الذي خلقني، أتغفلون عن هذه الحقيقة فلا تعقلونها؟ أن من يدعوكم إلى الخير، دون طلبٍ للأجر، هو لكم ناصح أمين؟ ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ أي اطلبوا

قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾

المغفرة من ربكم، وتوبوا إليه من عبادة الأوثان والأصنام، يرسل المطر عليكم مدراراً، ويزدكم قوةً فوق قوتكم، وعزاً فوق عزكم، ولا تعرضوا عن دعوتي لكم إلى الخير، وتستمرُّوا على ضلالكم وإجرامكم فتخسروا ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ردُّوا عليه دعوته بهذه السفاهة، فقالوا: يا هود، ما جئتنا بحجة واضحة، تدلُّ على صدقك، ولسنا بتاركين عبادة الأصنام من أجل قولك، وما نحن بمصدِّقين لنبوتك ورسالتك!! ثم زادوا في الضلال والعناد، وخوَّفوه من آلهتهم المزعومة ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي ما نقول إلا أصابتك بعضُ آلهتنا بجنون، حين سببتها ونهيتنا عن عبادتها!! وقد دلَّ قولهم هذا على جهلٍ مفرط، وسَفَه وغباء، حيثُ اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم ـ ولهذا جابههم هو بالقوة والصلابة، قال لهم: إني أُشهد الله على نفسي، وأشهدكم أيضاً بأنني متبرئ منكم، ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله، فاحتالوا في هلاكي أنتم وآلهتكم، ثم لا تمهلوني طرفة عين، وكلامه هذا أوضحُ برهانٍ على صدقه، فإنه فردٌ واحدٌ أمامَ جمعٍ غفير، من عُتاة عاد، الغلاظ الشداد، المتعطشين إلى إراقة دمه، وقد حقَّرهم وسفَّههم، وتحدَّاهم مع آلهتهم، وذلك لثقته بربه، وأنه يعصمه منهم، ولم يقدر أحدٌ منهم على النيل منه ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي إني التجأتُ إلى الله، وفوَّضت أمري إليه، خالقي وخالقكم، ما من نسمةٍ تدبُّ على وجه الأرض، إلاَّ هي في قبضته تعالى، وتحت قهره وسلطانه، إن ربي عادلٌ في حكمه، لا يفوته ظالم، ولا يضيع عنده إحسان المحسن ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾

فإن أعرضتم عن قبول دعوتي، فقد أدَّيتُ واجبي نحوكم، بتبليغكم رسالة ربي، وسوف يهلككم الله، ويستخلف قوماً آخرين غيركم، ولا تضرُّون ربكم شيئاً بإشراككم، إنه سبحانه رقيب على العباد، وهو الذي يحفظني من شرّكم ومكركم.. وتمضي الآيات تقصُّ علينا نهاية أولئك الطغاة المتجبرين، فقد أهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية، وجعلهم عبرة للمعتبرين ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾ أي ولمَّا جاء أمرنا بهلاكهم، نجينا رسولنا هوداً ومن معه من المؤمنين، بفضلٍ ونعمةٍ منَّا عظيمةٍ عليهم، وأنجيناهم من ذلك العذاب المدمِّر الشديد، وهي الريح العاتية، التي جعلتهم كأعجاز نخلٍ خاوية، وتلك هي عاقبة عاد الوخيمة، انظروا ماذا حلَّ بهم؟ حين كفروا بالله، وعصوا رسوله هوداً، وأطاعوا أمر كلِّ متكبِّرٍ على الله، معاند لرسله؟ ألم يهلكهم الله ويجعلهم عبرةً للمكذبين؟ ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾ أي وألحقناهم باللَّعنات المترادفة، بالطرد من رحمة الله، في الدنيا بالخزي والعار، وفي الآخرة بعذاب النار، وجعلنا اللعنة ملازمةً لهم، يلعنهم الله ويلعنهم المؤمنون، ألاَ فانتبهوا أيها الناسُ، إلى نهاية عاد المجرمين، فقد كفروا ربهم فاستحقوا اللعنة في الدنيا والآخرة، ألاَ سُحْقاً لهم وهلاكاً!! وهي جملة دعائية بالهلاك واللعنة.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ هذه هي القصة الثالثة، أي ولقد أرسلنا إلى قبيلة

قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾

ثمود، رسولنا صالحاً عليه السلام، أرسلناه لهم من العشيرة والقبيلة نفسها، وهذا هو المراد من قوله ﴿أخاهم﴾ أي لم يكن غريباً عنهم، إنما هو من جملة القبيلة، فقال لهم: يا قوم وحُدوا الله، فليس لكم معبودٌ، يستحقُّ العبادة سواه، هو الذي ابتدأ خلقكم من الأرض، وجعلكم عُمَّارها وسُكَّانها، فاستغفروا ربكم من عبادة غيره، ثم ارجعوا إليه بالإنابة والطاعة، إن ربي قريب الرحمة، مجيب الدعاء!! ولنستمع إلى جوابهم السقيم، الذي يدلُّ على طيشٍ وحماقة، وبُعدٍ عن منطق العقلاء ﴿قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي قال السفهاء من قومه: لقد كنا نرجو منك يا صالحُ أن تكون سيِّداً فينا، قبل مقالتك هذه، فلما قلتها انقطع أملُنا منك، وسقطتَ من أعيننا!! أتمنعنا يا صالح عن عبادة الأوثان، التي عبدها آباؤنا وأجدادنا؟ فهل أنت عاقل أم مجنون؟ كيف تأمرنا بترك عبادتها، وآباؤنا عبدوها مئات السنين؟! ونحن شاكُّون في دعواك الإصلاح، وأمرك عندنا مريب يوجب التهمة ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي قال لهم: أخبروني يا قومي!! إن كنت على برهان واضح من ربي، وكنتُ نبياً حقاً، وكانت دعوتي واضحة كالشمس، وتابعتكم فيما تحبُّون، وعصيتُ أمر ربي، فمن ينقذني من عذاب الله؟ فما تزيدونني بدعوتكم غير الشقاوة والخسران، بتعريضي لسخط الله.. ولما أقام عليهم الحجة في بطلان دعواهم، طلبوا منه معجزةً تدلُّ على صدق نبوَّته، فأجابهم إلى ما طلبوا ﴿وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ أي هذه الناقةُ معجزتي لكم، وعلامة على صدقي، فدعوها تأكل وتشرب في أرض الله، ولا تصيبوها بشيء من الأذى والمكروه، فينزل بكم عذاب عاجل من الله، وإنما

فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴿٦٨﴾

أضاف الناقةَ إلى الله ﴿ناقة الله﴾ تكريماً وتشريفاً لها، لأنها وُجدت بأمر الله، وخرجت من صخر أصمّ، حسب طلبهم ورغبتهم. سألوا نبيَّهم الناقة ـ وهي أنثى الجمل ـ واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صمّاء، عيَّنوها له بأنفسهم، فدعا ربه فانصدعت الصخرة عن ناقة عُشراء أي حامل، يتحرك جنينها في بطنها، فكانت (معجزة باهرة)، فلذلك أضيفت إلى الله، وقد حذَّرهم نبيهم من التعرض لها بسوء، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي نحروا الناقة، ولم يبالوا بالإنذار والوعيد، فقال لهم صالح: استمتعوا بالعيش والحياة في دياركم ثلاثة أيام، ثم ينزل بكم العذاب فتهلكون، وهذا وعدٌ حقٌّ، لا كذب فيه، ولا إخلاف له.. روي أنه لمَّا وعدهم نبيُّهم بالعذاب بعد ثلاثة أيام، عزموا على الفتك به ليلاً، فأرسل الله عليهم حجارةً رضختهم قبل قومهم، وأصبح القوم في اليوم الأول ووجوههم مصفرَّة، وأصبحوا في اليوم الثاني ووجوههم محمرَّة، وفي اليوم الثالث أصبحت وجوههم مسودَّة، فلما كان اليوم الرابع، جاءتهم صيحةٌ من السماء، ورجفة شديدة من الأرض، ففاضت أرواحهم، وأصبحوا جثثاً هامدة، لا أرواح فيها ولا حراك، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أي ولمَّا جاء وقت إهلاكهم، نجينا صالحاً والمؤمنين معه، بسبب رحمتنا لهم لإيمانهم، ونجيناهم من ذلِّ ذلك اليوم وهوله، وجاءت صيحة العذاب للكافرين، فصاروا في مساكنهم خامدين، ميِّتين، لا صوت لهم ولا حركة، كالطير إذا جثمت على الأرض ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ أي كأنهم لم يقيموا في ديارهم، برهةً من الزمن، ولم يأتوا إلى الدنيا ويسكنوها، يُقال غَنِيَ

وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾

بالمكان: إذا أقام فيه، ألا فانتبهوا أيها القوم، إن ثمود كفروا بربهم، وسخروا من نبيهم، فسُحْقاً لهم وبُعداً، فقد أهلكهم الله عن بَكْرةِ أبيهم، فلم يبق منهم ساكنٌ ولا ديَّار!!.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ هذه هي القصة الرابعة في هذه السورة الكريمة، وهي قصة أبي الأنبياء، (إبراهيم) خليل الرحمٰن عليه السلام، **والمعنى**: جاءت الملائكة تبشره بإسحاق، من زوجه العقيم «سارة» فسلَّموا عليه بأحسن تحية، فردَّ عليهم السلام على أكمل الوجوه، فما تأخر عنهم قليلاً من الزمن، حتى جاءهم بعجلٍ حنيذٍ أي مشويٍّ، قد شوي في تنور. والعجلُ: ذكرُ البقر الصغير، ويسمى «الحسيل» وكان إبراهيم كريماً، لا يدخل عليه ضيف، إلاَّ أكرمه بأنفس الطعام، جاءهم بالعجل فوضعه بين أيديهم ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي فلما رأى إبراهيم أنهم لا يمدُّون أيديهم إلى الطعام، ولا يأكلون منه، أنكرهم وأحسَّ منهم الخوف والفزع، لأن العرب إذا نزل بهم ضيف، فلم يأكل من طعامهم، ظنُّوا به السوء، وأنه لم يدخل عليهم إلا بشرّ، وهنا طمأنته الملائكة فقالوا: لا تخف يا إبراهيم منَّا، فإنَّا ملائكة ربك لا نأكل، وقد أرسلنا الله لإهلاك قوم لوط، وأمرنا أن نزفَّ إليك البشرى بمولودٍ من زوجك العقيم «سارة» ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ أي وامرأة إبراهيم قائمة وراء الستر، تسمع حديثهم، فضحكت استبشاراً بهلاك قوم لوط، فبشرتها الملائكةُ بمولود لها يسمى «إسحاق». ويأتي منه مولود يسمى «يعقوب» هو ابنٌ لولدها، ويصبح حفيداً لها ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾

قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾

﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ لمَّا بشَّرتها الملائكة بمولود، قالت «سارة» زوجة إبراهيم: يا لهفي ويا عجبي من هذه البشارة، كيف يأتيني مولود، وأنا امرأةٌ عجوز عقيم، وزوجي إبراهيم شيخ هرم، فكيف يأتينا الولد؟ إن هذا الأمر لشيءٍ غريب وعجيب، لم تَجْرِ به العادة؟! **قال مجاهد:** «كانت يومئذٍ ابنة تسع وتسعين سنة، وإبراهيمُ ابن مائة وعشرين سنة» تعجبت من البشارة، لأنها كانت مسنَّة، وكانت أيضاً عقيماً لا تلد، والعقمُ وحده كافٍ لاستحالة الولد، فكيف إذا اقترنت معه الشيخوخة والهرم؟ كما أخبر سبحانه عنها في سورة الذاريات: **﴿فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم﴾** وسارعت الملائكة إلى تهوين الأمر عليها **﴿قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾** أي قالت الملائكة: ليس هناك ما يدعو إلى العجب، فإن قدرة الله لا يعجزها شيء، وهو على ما يشاء قدير، رحمكم الله وبارك فيكم يا آل بيت إبراهيم، إنه تعالى محمود ممجَّد في عظمته وكبريائه، مستحقٌّ للحمد والثناء، وقد أراد أن يكرمكما بهذه النعمة الجليلة ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ﴾ أي فلمَّا ذهب عن إبراهيم الخوفُ والفزعُ، واطمأنَّ قلبه لضيوفه حين علم أنهم ملائكة، وجاءته البشارة بالمولود «إسحاق»، أخذ يجادل ملائكتنا في أمر إهلاك قوم لوط، من فرط حلمه ورقة قلبه، ورحمته بالناس، وهذا ثناء من الله عليه عظيم، فقد كان إبراهيم كثير التأوه والحزن على الناس، عظيم الرحمة بهم، يحرص على إيمان الناس، ويخشى عليهم من الهلاك والعذاب!.

﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ أي قالت الملائكة: يا إبراهيم، أعرضْ عن هذا الجدال، في أمر (قوم لوط)، فقد حقت عليهم كلمةُ العذاب، ونفذ فيهم القضاء، فإنهم مجرمون لا يستحقون الرحمة، والعذابُ

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾

نازلٌ بهم لا محالة ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي ولما جاءت الملائكةُ لوطاً، جاءوه بصورة غلمانٍ مُرد، في غاية الحسن والجمال، ولم يعلم أنهم ملائكة، فأصابه سوء وضَجَر، وضاق صدره بمجيئهم، لأنه خاف عليهم خُبْثَ قومه، وقال: هذا يوم عصيب أي شديد الكرب والبلاء ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ أي جاءه قومه الأشرار، يسرعون نحو داره، يطلبون الفاحشة بالضيوف، كأنهم يُدفعون إلى ذلك دفعاً، ومن قبل ذلك الحينِ كانت عادتُهم إتيانَ الرجال، وعملَ الفاحشة «اللواطة» فلذلك لم يستحيوا أن يهرعوا لها مجاهرين، وكان سبب إسراعهم أن امرأة لوط الكافرة، لما رأت الأضيافَ وجمالهم، خرجت حتى أتت مجلس قومها فقالت لهم: إن لوطاً نزل به أضيافٌ الليلة، لم أر مثلهم جمالاً!! فحينئذٍ جاءوا يهرعون مسرعين، قال لهم لوط: هؤلاء نساء البلد، تزوَّجوا بهنَّ، فذلك أشرف لكم وأطهر، فاخشوا عذاب الله، ولا تفضحوني وتهينوني في ضيوفي، أليس فيكم رجل راشد عاقل؟ يمنع عن فعل القبيح؟ وماذا كان جوابُ الفُسَّاق الفجار؟ ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أي لقد عرفت هدفنا وغرضنا الذي جئنا من أجله ـ وهو الاستمتاعُ بالذكور ـ وليس لنا رغبةٌ ولا حاجة في النساء، فلا تعرض علينا البنات، وإنك لتعلم مرادنا وهو هؤلاء الضيوف!! صرَّحوا بغرضهم الخبيث، وهو الفجور بالذكور، دون حياء قبَّحهم الله!! وإنما قال لهم (هؤلاء بناتي) وقصدَ بذلك نساء البلد، لأن كل نبيٍّ كالوالد لأمته في الشفقة والحنان ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي قال لوط لأولئك الأشقياء: لو كان لي قوة، أستطيع أن أدفع بها أذاكم، أو ألتجىء إلى عشيرة وأنصار تحميني منكم، لفعلتُ

﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

بكم ما فعلتُ، ونكَّلتُ بكم تنكيلاً!! وجواب (لو) هنا محذوفٌ تقديره: لبطشتُ بكم، قال علماء البيان: حَذْفُ الجواب هنا أبلغُ، لأنه يوهم بعظيم الجزاء، وغليظ النكال، ويَدَع النفس تذهب إلى أبعد صور الهول والعقوبة، وفي الحديث الشريف: «رحمَ الله أخي لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد» رواه البخاري، يريد به جانب الله عزَّ وجلَ.. لقد تركنا لوطاً عليه السلام في جدل عنيف مع الأشرار الفجار من قومه، الذين اقتحموا داره، يريدون أن يفجروا بضيوفه، وهو يتلطَّف بهم، ويخاطب فيهم المروءة والشهامة، ولكن دون جدوى، وهنا يكشف الضيوف عن أنفسهم، ويعرِّفون لوطاً عليه السلام الحقيقة، أنهم ملائكة وليسوا بشراً، أرسلهم الله لإهلاك هؤلاء الخبثاء الفُجَّار ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ أي قالت الملائكة: يا نبيَّ الله، لا تضجرْ ولا تقلقْ علينا، فنحن لسنا بشراً، نحن ملائكةٌ أرسلنا الله لإهلاك هؤلاء الفجار، وإنهم لن يصلوا إليك ولا إلى ضيوفك بضررٍ ولا مكروه، فاخرج بأهلك بطائفةٍ من الليل، قبل طلوع الفجر، ولا ينظر أحد منكم وراءه، إلاَّ امرأتك الكافرة، فإنها ستهلك مع الهالكين، إن موعد عذابهم وهلاكهم وقت الصبح، أليس وقت الصبح قريباً؟ حذَّرتْ الملائكة لوطاً وأتباعه، أن يلتفتوا إلى الخلف، لئلا تتفطر أكبادهم على بلدتهم، حين ستنقلب بمن فيها، ويصبح عاليها سافلها، ورُوي أن امرأة لوط، خرجت مع زوجها، فلمَّا سمعت هدَّة العذاب، التفتت وقالت: واقوْمَاه!! فأدركها حجرٌ فقتلها، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي فلمَّا جاء وقتُ العذاب، قلبنا بهم القرى، فجعلنا

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ

العالي سافلاً، فتهدمت الدور بمن فيها، فأصبحت خراباً يباباً، وأرسلنا عليهم حجارة من السماء، صلبةً شديدة من نار وطين، تشبه المطر الزاخر، في كثرتها وشدتها، ومعنى ﴿منضود﴾ أي متتابعة كقطر المطر، بعضُها إثْرَ بعض، وهذه الحجارةُ ﴿مسومة﴾ أي معلَّمة بعلامة، مرسلة من عند الله، وليست من حجارة الأرض ﴿**وما هي من الظالمين ببعيد**﴾ أي وليست هذه القرى المهلكة، ببعيدة عن كفار قريش، الذين ظلموا أنفسهم بتكذيبهم لخاتم المرسلين، بل هي قريبة منهم، يمرُّون عليها في أسفارهم، كما قال سبحانه: ﴿**وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون**﴾؟ وهكذا يسدلُ الستار على قوم لوط، بهلاكهم ودمارهم، بأفظع أنواع العقوبة والعذاب، بالصيحة المدمرة أولاً، وبقلب مدنهم وقُراهم ثانياً، وبالحجارة التي تشبه الطين المتحجِّر المشويَّ، التي نزلت عليهم كالمطر ثالثاً، فاجتمعت عليهم عقوباتٌ ثلاث. . .

ثم جاء الحديث عن أهل مَدْيَن، وهم قومُ نبيِّ الله «شعيب» عليه السلام، وهي القصة السادسة في هذه السورة الكريمة، وجميع هذه القصص إنما ذُكرت للعظة والاعتبار، وتسليةِ النبي ﷺ عما يلقاه من الكفرة الفجار ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ أي وأرسلنا إلى قبيلة «مَدْيَن» رسولنا شُعيباً، أرسلناه إليهم من القبيلة والعشيرة، ولهذا قال ﴿أخاهم﴾ أي من العشيرة وليس من النسب، من أشرفهم نسباً، وأطيبهم تُقى وصلاحاً، فدعاهم إلى توحيد الله، وحذَّرهم عذابه، ونهاهم عن تطفيف المكيال والميزان، وقال لهم: ﴿إني أراكم بخير﴾ أي أراكم في سعة من الرزق، وكثرة من المال، وفي نعم لا تُحصى، تغنيكم عن بخس المكيال والميزان، وأخاف عليكم يا قومي، إن لم تؤمنوا وتتقوا الله، من عذاب يومٍ هائل، يحيط بكم، فلا يُفلت منه أحد، وأراد به (يوم القيامة)، الذي لا يخلص منه كافر فاجر ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ

بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أكّد لهم التحذير متلطفاً، ليبعدهم عن تلك الخصلة القبيحة، التي كانت متأصلة في نفوسهم، وهي ظلم الناس، والاعتداء عليهم، فقد كانوا يأخذون حقهم وافياً كافياً، ويعطونه ناقصاً في وزنهم وكيلهم، عدا عن كفرهم وضلالهم، والمعنى: أتموا الكيلَ والوزنَ للناس بالعدل، ولا تُنقصوهم من حقوقهم شيئاً، ولا تَسْعوا بالفساد في الأرض، بأنواع البغي والإجرام، ثم قال لهم: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ﴾ أي ما يُبقيه الله لكم من الربح، بعد وفاء الكيل والميزان، خيرٌ لكم من أخذ أموال الناس بالظلم والعدوان، إن كنتم مصدِّقين بوعد الله ووعيده، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي ولستُ عليكم برقيب، أحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم بها، إنما أنا ناصحٌ مبلِّغٌ، والله تعالى، هو الذي يجازيكم بأعمالكم!! وبعد هذه النصائح التي أسداها لهم، بدافع الشفقة عليهم والحنان، كان جوابهم الغليظُ الشنيعُ لنبيِّهم، في منتهى القبح والشناعة ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ أي قال له قومه السفهاء: أدينُك يا شعيبُ يأمرك بهذا؟ أرادوا بذلك السخرية والاستهزاء، فإنه عليه السلام كان كثير الصلاة والعبادة، أي هل صلاتُك تدعوك لأن تأمرنا بترك عبادة الأوثان؟ وقد توارثنا عبادَتها أباً عن جدّ؟ وتأمرك بأن نترك تطفيف الكيل والميزان؟ أتريد منّا أن نضيِّع الربح والثروة؟! فهل أنت العاقل المتَّصف بالحلم والرشد؟ يستهزئون به ويسخرون منه، كأنهم يقولون له: لست بهذا القول بعاقل، وإنما أنت مجنون، قبَّحهم الله وأخزاهم!! دعاهم إلى التوحيد، وترك البخس في الميزان، فردُّوا عليه في الأمرين، **قال الطبري**: «يستهزئون بنبيِّهم، فإنهم أعداء الله، إنما قالوا ذلك استهزاءً به، سفَّهوه وجهَّلوه بهذا الكلام» تفسير الطبري.

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي قال لهم شعيب: أخبروني يا قومي، إن كنت على حجةٍ واضحة، وبرهانٍ بيِّن من ربي، ومنحني النبوة والحكمة!! أيصحُّ لي أن أترككم على الضلال، ولا أنهاكم عن الإشراك، وفعل القبائح؟ ولستُ أريد أن أنهاكم عن شيء ثم أفعله، وإنما آمركم بما آمر به نفسي، ولا أريد بدعوتي إلاَّ صلاحكم وفلاحكم، على قدر استطاعتي، وليس توفيقُ العبد إلى الخير، إلاَّ بمعونته سبحانه وتأييده، على الله وحده أعتمد في جميع أموري، وإليه أرجع بالتوبة والإنابة، فهو سبحانه غفَّار الذنوب!! ثم حذَّرهم من مغبَّة الاستمرار في الكفر والعصيان، وانتهاك محارم الله، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ أي لا تحملنكم عداوتي وبغضي، على ترك الإيمان بالرحمٰن، فيكسبكم ذلك غضبَ الله وسخطه، ويصيبكم العذابُ كما أصاب الكفار، قوم نوح الذين أهلكوا بالطوفان، وقوم هود الذين أُهلكوا بالريح العاتية، وقوم صالح الذين أهلكوا بالزلزلة والرجفة، وما ديار الظالمين من قوم لوط عنكم ببعيدة، الذين قلب الله ديارهم، وأمطرهم بالحجارة، أفلا تتعظون وتعتبرون؟ واستغفروا يا قومي ربكم من جميع الذنوب، ثم توبوا إليه توبةً نصوحاً، فإن ربي جلَّ وعلا واسع الرحمة، كثير الودِّ والمحبة لعباده التائبين!!

قَالُواْ يَـٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾

﴿قَالُواْ يَـٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ أي قال قومه السفهاء: يا شعيب، نحن لا نفهم كثيراً من كلامك، ولا قوة لك ولا منعةً فينا، فأتباعك وأنصارك قلةٌ قليلة، ولولا عشيرتك وجماعتك لقتلناك وتخلصنا منك رمياً بالأحجار، ولستَ عندنا بمكرَّم ولا محترم، حتى نمتنع عن رجمك، وإنما نتركك مراعاةً لحرمة قومك الذين هم على ديننا!! جعل الأشقياء كلام شعيب، المشتمل على فنون الحكم والمواعظ، وأنواع العلوم والمعارف، من قبيل التخليط والهذيان، الذي لا يُفهم معناه، مع أنه كلام واضحٌ ساطع، وهو عليه السلامُ كما ورد في الصحيح: «خطيب الأنبياء» وذلك من شقاوتهم وطغيانهم. ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ أي قال لهم شعيبٌ موبِّخاً ومنكراً عليهم سفاهتهم: هل رهطي وعشيرتي أعزُّ عندكم من الله وأكرم؟ أتتركون قتلي من أجل قومي، ولا تتركونه من أجل الله تعالى، الذي أنا نبيُّه؟ إعظاماً لقدره تعالى، وإكراماً لرسوله؟ وجعلتم ربكم خلف ظهوركم كالشيء المنبوذ، لا تعظِّمونه ولا تطيعونه!! ـ وهذا مثلٌ يُضرب، يُقال لمن لم يعبأ بشيء: جعله خلف ظهره ـ إنَّ ربي قد أحاط علماً بأعمالكم الشريرة، وسيجازيكم عليها أسوأ الجزاء، ثمَّ قابلهم بالسخرية والاستهزاء، متوعداً لهم بالوعيد الشديد، مع غاية التهديد، مستخفاً بهم، فقال لهم: اعملوا ما تريدونه معي، واثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة، فأنا ثابت على دعوتي ورسالتي، وسوف تعلمون من الذي سينزل عليه العذاب، فيذلّه ويهينه، هل أنا أم أنتم؟ وستعلمون أيضاً من هو الكاذب منا؟ وانتظروا عاقبة أمركم، إني منتظر معكم تلك العاقبة!!

وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴿٩٧﴾ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ﴿٩٩﴾

ويُسدل الستارُ على نتيجة ما حلَّ بأولئك المكذبين الأشرار، فإذا هم هلكى صرعى، هامدين لا حَرَاكَ بهم، قد خمدت أنفاسهم، وزهقت أرواحهم ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ أي ولما جاء أمرنا بإهلاكهم، نجينا رسولنا شعيباً والمؤمنين معه، بسبب رحمة عظيمة منا لهم، وجاءت صيحةُ العذاب، لأولئك الطغاة الظالمين، صاح بهم جبريل صيحةً، خرجت منها أرواحهم من أجسامهم، فأصبحوا موتى هامدين، كأن لم يقيموا في ديارهم، ولم يعيشوا برهةً من الزمن قبل ذلك، ألا أبعدَ الله هؤلاء الأشقياء المجرمين من رحمته، كما بعدت من قبلهم قبيلة ثمود، وهي دعاء عليهم بالهلاك والدمار.

ثم يأتي الحديث عن قصة نبيِّ الله «موسى» عليه السلام، مع فرعون الطاغية المتمرد الجبار، وهي القصة السابعة والأخيرة في هذه السورة الكريمة، فيقول سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ أي أرسلنا رسولنا (موسى بن عمران)، بشرائع وأحكام إلٰهية، وأيَّدناه بمعجزات باهرة، خارقة للعادة، كاليد والعصا، وأرسلناه إلى فرعون وأشراف قومه، فأطاعوا أمر فرعون، وعصوا أمر الله، وما كان عملُ فرعونَ وفعلُه بحميدٍ، ولا رشيد، في وقتٍ من الأوقات، لأنه أضلَّ قومه، وقادهم إلى طريق الشقاء ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ أي يتقدَّم فرعون يوم القيامة أمامهم إلى النار، وبئس هذا المدخلِ السيِّىء لهؤلاء الأشقياء، فكما كان لهم في الدنيا رائداً، يكون لهم إلى نار الجحيم قائداً ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾

أي ولحقتهم لعنة الدنيا العاجلة، وأُرفدوا بلعنةٍ أخرى يوم القيامة، وبئس العون والعطاءُ لعنةُ الدارين، اللعنة بعد اللعنة، والرِّفد في اللغة: العطاءُ والعونُ ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ أي ما أخبرناك عنه يا محمد، من أخبار البلاد التي أهلكنا أهلها، بكفرهم وتكذيبهم الرسل، هو من القصص الموحى إليك، نخبركَ عنه بطريق الوحي، منها ما هو عامرٌ، قد هلك أهلُه وبقي بنيانُه، ومنها ما هو خراب، قد اندثر فلم يبق له أثر، وأصبح كالزرع المحصود بالمناجل، ذهب بأهله، واندرسَتْ آثاره ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ أي وما أهلكناهم بغير ذنب، ولكنهم ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي، فاستحقوا عذاب الله ونقمته، أكلوا رزقنا، وعبدوا غيرنا، فما نفعتهم آلهتهم التي عبدوها من دون الله، حين جاء حكمُ الله بعذابهم، وما زادتهم غير خسرانٍ وتدمير.. ثم ذكر تعالى أن هذه سنته في الطغاة المتجبرين، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ أي وكما أهلكنا أهل تلك القرى الظالمة، نأخذ بالعذاب كل ظالم فاجر، فإن عذاب الله للطغاة الفجار، موجعٌ شديد، يمهلُ الظالم ولا يهملُه، وفي الحديث: «إن الله ليملي للظالم - أي يؤخر له العقاب - حتى إذا أخذه لم يُفلته، ثم قرأ ﷺ: **﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾** رواه البخاري ومسلم.

ثم ذكر تعالى الغرضَ من ذكر هذه القصص، وهي العظة والاعتبار للبشر، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي إنَّ في هذه القصص والأخبار، لعظةً وعبرةً لمن خاف عذاب الله وعقابه،

يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴿١٠٨﴾

يوم الحساب والجزاء، الذي يجتمع فيه جميع الخلق، وذلك يوم مشهود، يشهده الأولون والآخرون، أهل السماء وأهل الأرض، **قال ابن عباس**: يشهده البرُّ والفاجر، والمؤمن والكافر، كما قال سبحانه: ﴿**ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا**﴾ أي لم نترك منهم أحداً إلاَّ أحضرناه ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب الرهيب، لا يتكلَّم أحدٌ إلاَّ بإذن الله تعالى، لا مَلِكٌ ولا عظيم، الكلُّ قد خضع لجلال الله وعظمته، فمن أهل الجمع شقيٌّ، ومنهم سعيد، كما قال سبحانه: ﴿**فريق في الجنة وفريق في السعير**﴾ وفي الصحيحين في حديث الشفاعة: «ولا يتكلم يومئذٍ إلاَّ الرسلُ، ودعوى الرسل يومئذٍ: اللهمَّ سلِّمْ سلِّمْ» رواه البخاري ومسلم.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي فأمَّا المجرمون الأشقياء، فهم مخلَّدون في نار جهنم، لهم فيها زفيرٌ وهو صوتُ المحزون المكروب، الذي نزلت به كارثة شديدة، وشهيقٌ وهو صوت منكر مفزع كصوت الحمار، **قال قتادة**: صوتُ الكافر في النار، كصوت الحمار، أوله زفير، وآخره شهيق، ماكثين في نار جهنم أبداً على الدوام، ما دامت السماءُ سماءً، والأرضُ أرضاً، بمعنى (الخلود والتأبيد)، إلاَّ ما شاء ربك من العصاة المؤمنين، فإنهم يُطهَّرون في نار جهنم، ثم يُخرجون بشفاعة سيِّد المرسلين، ويقال لهم: ﴿**طبتم فادخلوها خالدين**﴾ إن ربك يفعل ما يريد، يرحم ويُعذب، لا معقِّب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ أي وأما السعداء الأبرار، فهم مخلَّدون في الجنة، لا يُخرجون منها أبداً، دائمون فيها دوام السموات والأرض، وقد شاء ربك لهم الخلود، عطاءً من الله غير مقطوع

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾

ولا ممنوع، **قال الطبري**: «إن العرب إذا أرادت أن تصف شيئاً بالدوام أبداً، قالت: هذا دائمٌ دوام السموات والأرض، بمعنى أنه دائم أبداً، فخاطبهم الله تعالى بما يتعارفونه بينهم» **وقال بعض المفسرين**: إن المراد بالسموات والأرض هنا: سمواتُ الجنة وأرضُ الجنة، وسمواتُ النار وأرضُ النار، وليس المراد سمواتُ الدنيا وأرضها، فإنها تزول ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار﴾ ولما كانت الجنة والنار باقيتَيْن، فدوامهم فيها كذلك دائم لا ينقطع.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ أي لا تشكُّوا يا معشر المسلمين في ضلال هؤلاء المشركين، وفساد دينهم، فإنهم عميُ القلوب، يقلِّدون آباءهم تقليداً أعمى، من غير حجة ولا برهان، وسنعطيهم جزاءهم من العقاب كاملاً غير منقوص، ومعنى المِرية: الشكُّ، والخطابُ ظاهره للرسول، والمراد به أتباعه المؤمنون، لأن الرسول ﷺ لا يتصور منه الشكُّ والارتياب في أمرهم، وقد أخبره الله بالخبر القاطع.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ الآية تسلية للرسول ﷺ عن تكذيب قومه، **والمعنى**: لا يحزنك يا محمد تكذيبُ قومك لك، فلقد أعطينا موسى التوراة، كما أعطيناك القرآن، فاختلف قومُ موسى في ذلك الكتاب، فكذَّب به بعضهم، وآمن به بعضهم، كما فعل قومك، ولولا حكمُ الله السابق، بتأخير حسابهم إلى يوم الجزاء - يوم القيامة - لفُصِل بينهم في الدنيا، فجوزي المحسنُ بإحسانه، والمسيء بإساءته، وإن قومك يا محمد، في شكٍّ من هذا القرآن، موقع لهم في الريب وسوء الظن، لا يدرون أحقٌّ هو أم باطل؟ لسفههم وظلمة قلوبهم!! ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي وإن كلاً من أهل السعادة ومن أهل

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾

الشقاوة، من المؤمنين والكافرين، لم ينالوا جزاء أعمالهم وافياً كاملاً، فمهما نُعّم المؤمن في الدنيا، لم ينل ثوابَه وجزاءه الذي يستحقُّه، والذي أعدَّه اللَّهُ له، ومهما عُذِّب الكافر في الدنيا، لم ينل عقابه الوافي على الوجه الأكمل، وسيوفيهم ربك جزاءهم كاملاً في الآخرة، لأنه سبحانه عالم بأعمالهم جميعاً، صغيرها وكبيرها، حسنها وقبيحها ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي استقم يا محمد على أمر الله، واثبت وداوم على الاستقامة، كما أمرك ربك، أنت وأتباعُك المؤمنون، ولا تجاوزوا حدود الله بارتكاب المحارم، إنه تعالى مطّلع على أعمالكم، ومراقب لها وسيجازيكم عليها ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ الركونُ: الميلُ إلى الشيء والرضا به، أي لا تميلوا إلى الظلمة من الولاة والحكام، وغيرهم من الفسقة الفجرة، وتتركوا أمر الله، فتمسّكم نار جهنم، وليس لكم من يمنعكم أو ينصركم من عذابه، ثم لا تجدون لكم ناصراً ولا معيناً ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي حافظ على الصلوات الخمس، التي فرضها الله عليك، في أوقاتها، في أول النهار وآخره ﴿وزلفا من الليل﴾ أي في ساعات من الليل وطائفةٍ منه، فإن فعل الخيرات والطاعات، يكفِّرن الذنوب والسيئات، ذلك الأمر موعظة للمتّعظين، واصبر يا محمد على ما تلقى من المكاره وأذى المشركين، فإن الله معك، ولا يضيع ثواب المحسنين.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ «لولا» هنا بمعنى هلاّ،

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

و«كان» بمعنى وُجد، أي فهلاً وُجد من القرون الهالكة قبلكم، أولو عقل وفضل، ينهون الأشرار والفجار، عن الإفساد في الأرض، حتى لا ينزل العذاب بهم؟ لكنْ قليلٌ منهم، نهوا عن الفساد فنجوا، واتَّبع أولئك الظلمة شهواتهم، وآثروها على الآخرة، فاستحقوا العذاب، بسبب إجرامهم وعصيانهم، وانتهاكهم لمحارم الله ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي ما جرت عادةُ الله تعالى، أن يهلك أهل القرىٰ ظلماً، وأهلُها مصلحون في أعمالهم، مستمسكون بدينهم، وإنما يهلكهم بكفرهم ومعاصيهم ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي لو شاء الله لجعل جميع الناس مؤمنين مهتدين، على ملة الإسلام، ولكنه سبحانه لم يفعل ذلك، ليبقى للإنسان حرية (الاختيار والكسب)، التي يدور عليها عنصرُ الثواب والعقاب، فلا إكراه لأحدٍ على الإيمان ولا إجبار، ولا يزال البشرُ مختلفين على أديان شتَّى، وملل متعددة، ما بين يهودي، ونصراني، ومجوسي، ووثني، إلاَّ فريقاً هداهم الله إلى (دين الفطرة) وهو الإسلام، فاجتمعوا عليه ولم يختلفوا، ولذلك خلقهم الله، وترك لهم الحرية، لتكون العاقبة أن يصبحوا بين مؤمن، وكافر، ومهتدٍ، وضالّ، وينالوا الجزاء، وتمَّ حكمُ الله وقضاؤه، بأن يملأ جهنم من الكفار والفجار، من كفار الإنس والجن أجمعين، حيث أرسل الله لهم الرسل، فاختاروا طريق الضلال، على طريق الهداية والإيمان!! ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي جميع هذه الأخبار والقصص، التي قصصناها عليك يا محمد، من أخبار إخوانك المرسلين، إنما أخبرناك عنها، لتثبيتك على أداء الرسالة، وتطمين قلبك للمضي في الدعوة إلى الله، بإيمان راسخ، ويقين صادق، لئلا يضيق صدرك من

وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

تكذيب أهل الكفر والضلال، ليكون لك بمن مضى من إخوانك المرسلين، أسوةٌ وقُدوة، فتصبر كما صبروا، وجاءك في هذه القصص، من ربك الحقُّ القاطع، الذي لا شكَّ فيه، في كلِّ ما أخبرك الله عنه، وجاءتك العظةُ والعبرةُ للمؤمنين الذين ينتفعون بالنصائح والمواعظ!! ثم تختم السورة الكريمة بالتهديد والوعيد، للكفرة الفجار، الذين وقفوا في وجه الدعوة، يعادون دين الله، ويحاربون رسوله، تنذرهم بعذاب الله الشديد ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الأعداء، الذين لا يؤمنون بالله ولا بلقائه: اعملوا على طريقتكم ومنهجكم، فنحن عاملون على طريقتنا ومنهجنا، لا نحيد عنها، وانتظروا العاقبة والنتيجة، فنحن منتظرون لها ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي الله وحده هو المختصُّ بأمور الغيب، يعلم نهاية العباد، السعداء منهم والأشقياء، ومرجعُ الخلائق جميعهم إلى الله الحَكَم العدل، فهو الذي يفصل بينهم، فينتقم ممن عصى، ويثيب من أطاع، فاعبد ربك وحده، وفوِّض أمرك إليه، وسيجازي ربُّ العالمين كلاً بعمله، لأنه سبحانه لا يخفى عليه شيء!.

انتهى تفسير سورة هود

● ● ●

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾

تفسير سورة يوسف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿الٓر﴾ ، تُقرأ هكذا: (ألف، لام، را)، وهذه الحروف المقطّعة، ، لإعجاز العرب وتحدِّيهم، وإقامة الحجة عليهم، فكأنه يقول لهم: هذه الحروف التي تنطقون بها، هي الحروف التي نُظم منها القرآن، فلماذا عجزتم عن الإتيان بمثله؟ فمن أمثالها تتألف آيات الكتاب المعجز!! وهذه الآيات التي أنزلت عليك يا محمد، هي آيات الكتاب المبين، المعجز في بيانه، الساطع في أحكامه، الواضح في معانيه، أنزلناه عليكم بلغة العرب، لكي تعقلوا وتدركوا، أن الذي يَنْظِمُ من هذه الألفاظ العربية قرآناً معجزاً، ليس بشراً مثلكم، وإنما هو إلهٌ قدير، فكما خلق من التراب إنساناً سويّاً، كذلك جعل من هذه الحروف قرآناً عربياً ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ أي نحن نقصُّ عليك يا أيها الرسول، أحسنَ القصص، وأجملَه، وأصدقَه، بأبدع أسلوب، وأظهر لسانٍ، وأعذب بيان!! بالوحي الذي أنزلناه عليك يا محمد، وقد كنت قبل نزول هذا القرآن، من الغافلين عن هذه الأخبار، لم تقرع سَمْعَكَ، ولم تخطر على بالك، لأنك أميٌّ لا تكتب ولا تقرأ. . سمَّى الله تعالى هذه الأخبار (أحسنَ القَصَص) لما فيها من العِبَر والحِكَم، والفوائد والبدائع، والأنباء العجيبة، التي لم يُحط بها البشر.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ من هنا بدايةُ قصة يوسف، وقد بدأت بذكر «الرؤيا المنامية» التي رآها في منامه سيِّدُنا

قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦ ۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨

(يوسف الصدِّيق)، أي اذكر يا محمد لقومك، حين قال يوسف لأبيه يعقوب: يا أبي لقد رأيتُ في منامي، أحد عشر كوكباً من كواكب السماء، خرَّتْ ساجدة بين يديَّ، ورأيت في المنام الشمس والقمر، ساجدة لي مع الكواكب!! فهم «يعقوب» بنور النبوة، أن ابنه يوسف، سيكون له شأن عظيم، يصطفيه الله من بين إخوته، لحمل أعباء الرسالة، ويبلِّغه مبلغاً من الشرف والحكمة، يفوق بها سائر إخوته، وخاف عليه من حسدهم، فنهاه أن يقصَّ رؤياه عليهم ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ أي قال له يعقوب: لا تخبر بهذه الرؤيا إخوتك، فيحتالوا حيلة عظيمة لإهلاكك، لا تقدر على ردِّها، لأن الشيطان عدوٌّ مبين للإنسان، ظاهر العداوة له، لا يتركه دون أن يفسد عليه دينه ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ أي كما أراك هذه الرؤيا العجيبة، كذلك يختارك ربك للنبوة، ويعلِّمك تفسير الأحلام ـ الرؤيا المنامية ـ ويتمُّ فضله وإنعامه عليك وعلى ذرية أبيك يعقوب، كما أتمها على جدك الأعلى (إبراهيم) وجدك (إسحق بن إبراهيم)، إن ربك عالم بمن هو أهلٌ للفضل، حكيمٌ في تدبير شؤون عباده.

ثم بدأ بتفصيل أحداث قصة يوسف، فقال سبحانه: ﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أي لقد كان في قصة يوسف وإخوته الأحد عشر، عِبَرٌ وعظات، ودروسٌ بالغة التأثير، عظيمةُ الشأن، لكل من سأل عن قصتهم وعرفها!! ﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين﴾ أي حين قالوا: والله ليوسف وأخوه «بنيامين» أحبُ إلى قلب أبينا منَّا، ونحن جماعةٌ ذوو عدد، نقدر على النفع والضُرِّ، دون هذين الصغيرين، فما معنى إيثاره طفلين صغيرين على عشرة أقوياء؟ وفي قولهم: **﴿ليوسف وأخوه﴾** دلالة على أن «بنيامين» كان أخاً شقيقاً ليوسف، وأمَّا البقية فكانوا إخوة له من الأب، ثم قالوا: **﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾** أي إن أبانا في خطأ واضح، وخروج عن الصواب ظاهر، لتفضيلهما بالمحبة علينا!! ولم يريدوا ضلال (الدين والعقيدة) كما نقول: فلانٌ ضالٌ أي غير مهتدي، إذ لو أرادوه لكفروا، لأن يعقوب نبيٌّ كريم، فكيف يكون ضالاً؟ وإنما أرادوا بالضلال: الخطأ، أي هو في خطأ واضح صريح، في تفضيل اثنين على عشرة!! وتبدأ محنة «يوسف» مع إخوته، فقد كان حبُ يعقوب ليوسف وبنيامين لصغرهما، وموت أمهما، سبباً للتآمر عليهما، ثم تكشف القصة لنا عن خيوط تلك المؤامرة، التي دبَّرها إخوة يوسف له في خفاء، وأخفوها عنه، بعد محاورات ومناظرات، فقالوا: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي اقتلوا يوسف، أو ألقوه في أرضٍ بعيدة، وصحراء مهلكة، يصفو لكم حبُ أبيكم، وتتوبوا من بعد هذا الذنب، فتصبحوا قوماً صالحين، قال لهم أكبر إخوتهم «يهوذا» لا تقتلوا يوسف، بل ألقوه في قعر الجبِّ وغوره، يأخذه بعض المسافرين المارِّين، إن كان لا بُدَّ من الخلاص منه!! لقد عزموا على التخلص من أخيهم (الصغير المسكين)، إمَّا بالقتل، أو بإلقائه بصحراء مهلكة، وكلا الأمرين شرٌّ مستطير!! ولكنَّ الشيطان «الوسواس الخنَّاس» هو الذي زيَّن لهم مثل هذا الصنيع القبيح، بل سهَّله ويسَّره، وأغراهم بالتوبة، حتى قال بعضهم لبعض: **﴿وتكونوا من بعده قوما صالحين﴾**!! أحكموا المؤامرة، ودبَّروا الخطة، وأظهروا لأبيهم أنهم في غاية الحبِّ ليوسف، وفي غاية الشفقة عليه، ويريدون أن يستمتع معهم باللهو واللعب في البرِّية، فلماذا يستمتعون هم، ويُحرم من هذه المتعة أخوهم

قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

الصغير؟ ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي قالوا يا أبانا: أيُّ شيء يمنعك أن تأمننا على أخينا يوسف؟ ونحن جميعاً أبناؤك، نخاف عليه كما تخاف أنت عليه، ونشفق عليه، ونريد له الخير؟ أرسله معنا غداً إلى البادية، يتوسَّع ويتمتَّع فيأكل معنا ما لذَّ وطاب، ويستمتع أيضاً بالتسابق معنا، ونحن نحفظه من كل سوء ومكروه!! ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ أي قال لهم أبوهم يعقوب: يا أبنائي إنه ليؤلمني فراقه لصغره، وأنا أخاف عليه أن يفترسه الذئبُ، وأنتم مشغولون عنه بالتسابق واللهو!! فقالوا: والله لئن أكله الذئب، ونحن جماعة أقوياء أشدَّاء، إنَّا لمستحقون أن يُدعى علينا بالخسار والدمار، ولا نكون حقيقةً رجالاً!! لقد كان «يعقوب» يعلم حسدهم له، ويخاف عليه منهم أكثر ممَّا يخافه عليه من الذئب، لكنَّه لم يظهر لهم ذلك، بل اعتذر لهم بأمرين:

الأول: أن ذهابه معهم يؤلم قلبه، لأنه صغير لا يستطيع الدفاع عن نفسه، وحقيقة الأمر أنه كان لا يصبر عن فراقه ساعة، ولكنه لم يذكرها لهم.

والثاني: خوفُه عليه من الذئب أن يفترسه، وهم مشغولون عنه بالتسابق أو برعاية الغنم!! ولكنَّ إخوته كانوا بارعين في الدهاء، حيث التقطوا تلك الكلمة من فم أبيهم، ليجعلوها ذريعة لهم في الكيد له، وتظاهروا أمامه بالرجوله والبطولة، فقالوا: ﴿**لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون**﴾ كأنهم يقولون: إذا لم نستطع أن ندفع عن أخينا المخاطر، فلسنا برجال، ونستحقُّ أن ننال أشدَّ أنواع العقاب، لقَّنهم الحجة في قوله: ﴿**وأخاف أن يأكله الذئب**﴾ وما كان يريد إلاَّ أن يصرفهم عن أخذ أخيهم، ولكنْ لا رادَّ لما

فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾

قضاه الله، وفي أمثال العرب: «البلاءُ موكَّلٌ بالمنطق» ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ في الكلام محذوفٌ دلَّ عليه السياق، أي فأرسله معهم، وأوصاهم به خيراً، فلما ذهبوا به وابتعدوا عن أبيهم، قلبوا له ظهر المِجَنِّ، فاتفقوا على إلقائه في غور الجبِّ، فأوثقوا يديه بالحبال، وخلعوا قميصه عن جسده، ودلَّوه بحبلٍ كانوا قد أعدُّوه، لتنفيذ تلك المؤامرة، حتى وصل إلى قعر الجبِّ، وكان فيه شيء قليل من الماء، لا يغرق معه الإنسان!! توسَّل إليهم يوسف الصغير وتضرَّع، ولكنَّ تلك القلوب القاسية، كانت أقسى من الحجر، فلم ينفعه التوسُّل والتضرع، وكان يبكي ويقول: يا أبتاه لو رأيتَ ما يصنع أولادُ الإماء بابنك!! وفي تلك المحنة العصيبة، تداركته (الرحمةُ الإلٰهية)، فأوحى الله إليه ـ وحي إلهام وإيناس ـ لتخبرنَّ إخوتك بفعلهم هذا القبيح معك، وهم لا يشعرون في ذلك الوقت، أنكَ يوسف وأنك أخوهم صاحب العزِّ والجاه!! **قال الحسن البصري**: «أُلقي يوسف في الجبِّ وهو ابنُ اثنتي عشرة سنة، ولقي أباه بعد الأربعين سنة» أي فيكون فراق يعقوب لابنه يوسف مدة (٢٨) سنة، ويا له من زمن طويل، على ذلك القلب الكليم المجروح!!

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ أي رجعوا إلى أبيهم وقت العشاء ليلاً، وهم يبكون ـ بدموع التماسيح ـ فقالوا: يا أبانا لقد ذهبنا نتسابق في الركض، وتركنا يوسف عند أمتعتنا وحوائجنا ليحفظها، فجاء الذئب وافترسه، ولستَ بمصدِّق لنا في كلامنا، ولو كنَّا في الواقع صادقين!! وهذا القول منهم يدلُّ على الارتياب، وكما قيل في الأمثال: «يكادُ المريبُ يقول خذوني» لقد رجعوا إلى أبيهم عشاءً، ومعهم قميص يوسف ـ أي ثوبه ـ وقد لطخوه بدم شاةٍ ذبحوها، ليوهموا أباهم أن الذئب أكله، ولكنهم نسوا أن يمزِّقوا

وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾

الثوب، فلم يفلحوا في هذا الكيد والمكر، فلم يكن هذا الدم «دم يوسف» وإنما هو دم الشاة ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾ لم يدخلوا على أبيهم في النهار، وإنما دخلوا عليه في ظلمة الليل، إمعانا منهم في التضليل، ثم دخلوا وهم يبكون، ليوهموا أباهم أن أخاهم فعلاً قد افترسه الذئب. **قال الطبري في روايته عن السُدِّي:** «أقبلوا على أبيهم عشاءً يبكون، فلما سمع أصواتهم فزع، وقال لهم: ما لكم يا بَنِيَّ؟ هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا، قال: فأين يوسف؟ قالوا: يا أبانا أكله الذئبُ، فبكى الشيخ وصاح: وأين القميص؟ فجاءوا بالقميص عليه دم سخلة قد ذبحوها، فأخذ القميصَ فجعله على وجهه، ثم بكى حتى تخضَّب وجهُه من دم القميص، ثم أخذ يقلِّبه وينظر فيه ويقول: «تاللَّهِ ما رأيتُ كاليوم ذئباً أحلمَ من هذا!! أكل ابني ولم يمزِّق قميصه!! يا بُنَيَّ يا يوسف ماذا فعل بك بنو الإماء؟» وهكذا فضح الله مؤامرتهم، فقد تحقَّق ليعقوب أنهم دبَّروا له مكيدة ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي قال لهم: لقد حسَّنت لكم أنفسكم الشرِّيرة، سوءاً وشرّاً بأخيكم المسكين «يوسف» وليس الأمر كما زعمتم، أن الذئب أكله، فأمري الذي أشكوه إلى الله: هو الصبر الجميلُ على هذه المصيبة، والله سبحانه عوني فيما تصفونه من الكذب والزور!

﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ المراد بالسَّيَّارة: القومُ المسافرون، أي جاء قوم من المارَّة، يسيرون من أرض مدين إلى مصر، فمروا على الجبِّ الذي فيه يوسف، فأرسلوا من يستقي لهم الماء، فأرسل دلوه في البئر، وكان يوسف في طرفٍ من ناحية البئر، فتعلَّق بالحبل فخرج، فلما رأى الواردُ حسنَهُ وجمالَه نادى رفاقه،

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ

قال: يا بشراي بهذا الغلام، قاله على سبيل السرور والفرح، لتبشير نفسه وجماعته، فقد فرحوا بهذه الغنيمة الثمينة، وأخفوا أمره عن الناس، ليبيعوه في أرض مصر، وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿**وأسروه بضاعة**﴾ أي أخفوه ليبيعوه على أنه عبد مملوك لهم، كالمتاع الذي يُباع، والله عالم بما أسرُّوه وأضمروه، من إرادة بيعه والتجارة فيه، وحين وصلوا إلى أرض مصر، باعوه بأبخس الأثمان، ولم يعرفوا قيمته وقدره، وهي أربعون درهماً كما قال عكرمة، وإنما باعوه بهذا الثمن الزهيد، لأنهم خافوا أن يكون عبداً قد هرب من سيده، فينتزعه سيِّدُه من أيديهم، ولذلك باعوه بهذا الثمن الزهيد!

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقد مرَّ يوسف الصدِّيق بمحن شديدة وعديدة، وهذه هي المحنة الثانية في حياته، وهي (محنة الاسترقاق) والعبودية، بعد محنة (وقوعه في الجب) والمعنى: وقال الذي اشتراه من مدينة مصر لزوجته: أكرمي إقامة هذا الغلام في دارنا، وأحسني معاملته، عسى أن يكفينا بعض المهمات إذا بلغ الرشد، أو نتخذه لنا ولداً فنتبنَّاه، حيث لم يكن يولد لهما ولد، وكما نجينا يوسف من الجبِّ، كذلك مكنَّا له في أرض مصر، يعيش فيها في قصر العزيز، بعزٍّ وأمان، ولنعلِّمه تفسير المنامات، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون لطائف صنع الله، وتدبيره الحكيم ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي ولمَّا بلغ سنَّ الرشد والكمال، منحناه حكمةً وفقهاً في الدين، وعلماً خاصّاً من لدنَّا كرامة له، وكذلك نجازي المحسنين في أعمالهم، المستقيمين في سيرتهم وسلوكهم، والمراد بالأشدِّ: بلوغ سنّ الشباب والرجولة. ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ

ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هذه هي المحنة الثالثة في حياة يوسف الصدِّيق، وهي محنة (مراودة امرأة العزيز له) والمراودةُ: الطلبُ برفق ولين، كما يفعل المخادع بكلامه المعسول، أي طلبت منه امرأة العزيز، التي كان يسكن معها في القصر، أن يضاجعها وينام معها، وتوسلت إليه بكلِّ وسيلة، لأن حبَّها له مَلَك قلبها، وغلَّقت أبواب القصر عليه، وأحكمت إغلاقها، وقالت له: هلمَّ وأسرعْ إلى الفراش، فليس ثَمَّةَ ما يُخشى، من رقيب أو شاهد، فالأبواب مغلقةٌ، وزوجي غائب!! قال يوسف: أستعيذ بالله وأستجير به، من فعل الخيانة، وعمل السوء، إن زوجك هو ربي أي سيِّدي الذي أكرمني، وأحسنَ إليَّ، فكيف أخونه في أهله وحَرَمه؟ إنه لا يُفلح الخائن، الذي يقابل الإحسان بالسوء!! هاج هائج الغرام في قلب امرأة العزيز، فأرادت أن تحمله على معاشرتها بالقوة والعنف، ولم تجد وسيلةً لإخضاعه، إلاَّ أن تجذبه إليها غصباً عنه، فتجاذبا وتشادَّا، هي تريد إجباره، وهو يريد الهرب منها، وأخيراً أُفلت من يدها، فهرب منها فلحقته، وجذبته من ثوبه من خلف ظهره، فانشقَّ الثوب وانخرق، ولنستمع إلى الآيات البينات، وهي تحدثنا عن هذه الفتنة الطاغية، التي حدثت ليوسف الصدِّيق في القصر ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولقد همَّت به همَّ عزم وقصدٍ وتصميم، تريد منه أن يضاجعها، وجاءه الوسواسُ الخنَّاسُ «الشيطانُ» يوسوس إلى أن يسايرها، ولكنَّ عفَّته وحياءه، وإيمانه، وخوفَه من الله، غلب على ذلك الهاجس الشيطاني، الذي مرَّ على قلبه، فصمَّم على الهرب منها، ومقاومتها بكل صلابة وقوة، حتى ولو بالبطش بها، وهذا معنى

قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه﴾ فهمُّها به كان همَّ عزم وتصميم، وهمُّه بها كان خاطرة عابرة وسوس له بها الشيطان، ولكنه لم يفلح في فتنته وإغرائه بدليل قوله تعالى بعدها: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ أي ثبَّتناه وقوَّينا عزيمته، أمام تلك الفتنة العارمة، لنصرف عنه المنكر والفجور والزنى، وفعل القبيح، لأنه من عبادنا الذين اصطفيناهم واخترناهم، لطاعتنا ومحبتنا وعبوديتنا، والمخلَصُ بفتح اللام: الذي اصطفاه الله واختاره للصحبة والمحبة، وقوله تعالى: ﴿واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر﴾ أي تسابقا نحو الباب الخارجي ـ باب القصر ـ هو للهرب، وهي للطلب، وشقَّت ثوب يوسف شقّاً عنيفاً من شدة الجذب، من خلف ظهره، لأنها كانت تلاحقُه، فجذبته بشدة فشقت ثوبه طولاً ﴿وألفيا سيدها لدا الباب﴾ أي وجدا وصادفا زوجها العزيز عند باب القصر، وجداه فجأةً وقد حضر في غير أوان حضوره!! وهنا يبدأ الكيد الخبيث، والمكرُ والدهاءُ، فتنطلق صارخةً باكيةً بدموع التماسيح، زاعمةً أن يوسف راودها عن نفسها، وأراد بها الفاحشة، وهي تقاومه وتطارده، وبلمح البصر تنقلب الأمور، فيصبح البريء خائناً، والخائن بريئاً، فتندفع مطالبة زوجها بإنزال أقسى العقوبة بمن أراد أن يلوِّث شرفها، ويهتك عرضها ﴿قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم﴾ أي ليس جزاء من أراد بأهلك فاحشة الزنى، إلاَّ أن يُدخل السجن، أو يُضرب ضرباً شديداً موجعاً، عقوبة له على عزمه القبيح!! وهنا اضطر يوسف الصدِّيق أن يبرِّىء نفسه مما نُسب إليه من تلك التهمة الشنيعة ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ أي قال يوسف: هي التي دعتني إلى نفسها، لا أني أردتُ بها السوء، وشهد شاهد من أهلها، وهو طفلٌ في المهد أنطقه الله، وكان ابن خالها، فقال: انظروا إن كان ثوبه قد شُقَّ من

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾

أمام، فهي صادقة وهو كاذب، لأنه هو الطالب وهي تريد أن تدفعه عن نفسها، وإِن كان ثوبه شُقَّ من خلف، فهي كاذبة وهو صادق، لأنها هي الطالب وهو الهارب!! حجةٌ أنطق الله بها الطفل، لتكون برهاناً ساطعاً على براءة يوسف الصدِّيق، فلما رأى زوجها أن الثوب قد شُقَّ من الوراء، عرف خيانتها، وبراءة يوسف، فقال: إِن هذا الأمر من جملة كيدكن ومكركنَّ أيها النسوة، وإِن مكركنَّ شيء عظيم. ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ أي قال زوجها: يا يوسف اكتم هذا الأمر، ولا تحدَّث به أحداً خشية الفضيحة، وتوبي أنتِ واطلبي من الله المغفرة، لهذا الذنب القبيح، فإِنك مخطئة في هذا التصرف!! ويظهر أن العزيز كان قليل الغيرة، فاقد الشهامة، فقد اكتفى بالعتاب الرقيق، الذي لا يجرح الكرامة، للزوجة الخائنة، على الذنب الفاحش، الذي يثير الدم في العروق ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي قال جماعة من النساء، وهنَّ زوجات الوزراء والكبراء: امرأةُ عزيز مصر، تطلب من خادمها وعبدها مضاجعتها، وتخادعه لقضاء غرضها منه، قد بلغ حبُّها له سويداء قلبها، إِنا لنراها في خطأ فادح، وبُعدٍ عن طريق الرشد والصواب، أيليق بامرأةٍ من سيِّدات القصور، من ذوات العزِّ والجاه، والسلطان، أن تعشق عبداً مملوكاً، هو خادم لها وأجير؟ وفي هذا تشنيعٌ عليها كبير ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ أي فلما سمعت بحديثهن ـ وسماه «مكراً» لأنه كان في خُفية عنها، كما يخفي الماكر مكره ـ أرسلت تدعوهن إِلى قصرها، لحضور مائدة فيها أنواعُ الفواكه والطعام، دعت أربعين امرأة،

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾

من أشراف نساء مصر، فيهن زوجات الوزراء والكبراء، وهيَّأت لهن مكاناً يجلسْنَ فيه، على الأرائك الوثيرة، والوسائد الناعمة، كعادة المترفات، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً لتقشير الفواكه، وكانت قد خبأت يوسف في غرفة في القصر، وفي تلك اللحظة من اشتغالهن بالأكل، أمرته أن يخرج عليهن، فلم يشعرن إلاَّ ويوسف يمرُّ من بينهن، فلما رأين يوسف أعظمنه وأجلَلْنَه، وبهرهنَّ جمالُه وحسنه، وجرحن أيديهن بالسكاكين، لفرط الدهشة المفاجئة، وقلن: تنزَّه الله عن صفات النقص والعجز، ليس هذا الفتى الشاب من البشر، وما هو إلا مَلَكٌ من الملائكة، فإن هذا الجمال الفائق، والحسن الرائع، لا يكاد يوجد في البشر!! وهنا شعرت امرأة العزيز أنها انتصرت عليهنَّ، بعد أن أوقعتهنَّ في شباك غرامه، فصرَّحت بما في نفسها من لوْعَة العِشق له ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي هذا هو العبدُ الكنعانيُّ، الذي لمتنَّني في محبته، فانظرن ماذا حدث لكنَّ من الافتتان به، من نظرة واحدة، حتى جرحتنَّ أيديكنَّ بالسكاكين؟ فكيف أنا وهو يعيش معي في القصر؟ وهنا تعلنُ بتبجحٍ أنها طلبت منه أن يقضي لها شهوتها، ولكنه استعصم أي أبى إباءً شديداً، وامتنع عن مضاجعتها، ولئن لم يستجب لها، ويلبي رغبتها، ليعاقبنَّ بالسجن والحبس، وليكوننَّ من الأذلاء المهانين!! صرَّحت بمراودته بمحضرِ منهنَّ، وعاودته الطلب أمامهنَّ، وهتكت عنها جلباب الحياء، وتوعدته بالسجن إن لم يفعل، ولم تعد تَخْشَ ملاماً ولا عتاباً، خلاف أول الأمر، إذ كان ذلك سرّاً بينها وبينه ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ لجأ يوسف إلى ربه، وجعل يناجيه في خشوعٍ وتضرُّع، قائلاً: يا ربِّ السجنُ أفضلُ عندي، وأحبُّ إلى نفسي، من مقارفة فاحشة الزنى معهن، وإن لم تدفع عني شرَّهنَّ، وتعصمني منهن، أملْ نحوهن بمقتضى الطبيعة البشرية، وأصبح حينئذٍ من السفهاء، الذين يرتكبون المنكر والقبيح، أسند الدعوة إليهن، وقال في مناجاته ﴿**يدعونني إليه**﴾ ولم

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

يقل: ممَّا تدعونني إليه امرأة العزيز، لأنهن أصبحن جميعاً مشتركات في المراودة، بالنظرات أو الحركات، بالتصريح أو التلميح، فقد طمعن به جميعاً، حتى قلن له: أطعْ مولاتك أي سيدتك، وليكنْ لنا منك حظٌ ونصيب!! ولذلك قال في مناجاته: **﴿أصب إليهن﴾** أي أميلُ نحوهنَّ بمقتضى بشريَّتي، وهنا تداركته عنايةُ الله، فصرف اللَّهُ عنه شرَّهن، وصانه من كيدهنَّ ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي أجابَ الله دعاءه، فنجَّاه من مكرهنَّ، وصرف عنه فعل الفاحشة، وثبَّته على العصمة والعفة، لأنه سبحانه السميعُ لدعاء الملتجئين إليه، العليم بأحوالهم. تكرَّر ذكرُ (الكيد والمكر)، في هذه السورة مرات عديدة، في قوله: **﴿إن كيدكن عظيم﴾** وقوله: **﴿وإن لا تصرف عني كيدهن﴾** وقوله: **﴿إن ربي بكيدهن عليم﴾** لينبهنا القرآن إلى خطر فتنة النساء، فهنَّ على ضعفهن أخطر فتنةٍ على الرجال، كما قال سيد البشر: «ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء» رواه البخاري، وقال لعائشة في مرضه حين طلب منها أن تُكلِّف أباها ـ أبا بكر ـ أن يصلي بالناس، فقالت له: مُرْ عمر فليصلِّ بالناس، فقال لها ﷺ: «إنكنَّ صواحب يوسف، مروا أبا بكر فلْيصلِّ بالناس» أخرجه البخاري، ومما يدلُّ على هذا المكر، الذي اشتهرت به النساء، أن امرأة العزيز استطاعت بمكرها وكيدها أن تؤثِّر على زوجها وحاشيته ـ بعد كل الدلائل والشواهد على براءة يوسف ـ حتى أدخلته السجن ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي ظهر للعزيز وحاشيته، من بعد ما رأوا الشواهد الواضحة، على براءة يوسف ـ من شقِّ القميص، وشهادة الصبي ـ أن يسجنوا يوسف إلى مدة من الزمن كافية لتأديبه. رُوي أن امرأة العزيز لما استعصى عليها أمرُ يوسف، ويئست أن تنال مبتغاها منه، احتالت على زوجها بطريق آخر، فقالت له: إن هذا العبد قد فضحني في الناس، أني راودتُه عن نفسه، فإمَّا أن تأذن لي أن أخرج إلى الناس وأعتذر، وإمَّا أن تحبسه حتى تنقطع عني ألسنة الناس، ويعلموا أنه هو الخائن، فعند ذلك بدا له سجنُه، **قال ابن عباس:** فأمر به عزيز مصر، فحُمِل على حمار، وضُرب بالطبل، ونُودي عليه في الأسواق، إن يوسف العبراني، أراد سيدته بسوء، فجزاؤه أن يسجن، **قال أبو صالح:** ما ذَكر ابن عباس هذا الخَبرَ إلاَّ بكى. هذه ثمرة الطُّهر والعفة، أن يُسجن البريءُ، وينجوَ المجرم الأثيم من العقاب، وهذا

وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

لون من ألوان المكر والدهاء، الذي تخصصت به بعضُ النساء، وما أشدَّ ألم النفس حين ترى المظلوم في غياهب السجن، والظالم ظافراً منتصراً، يتيه في أوج الكِبْر والخيلاء!!.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ هذه هي (المحنة الرابعة) والأخيرة في حياة يوسف الصدِّيق «محنة السجن»، والمعنى: أُدخل يوسف السجن، وصادف دخول شخصين معه السجن، أحدهما: طبَّاخُ الملك، والثاني: ساقيه، اتُّهما بأنهما أرادا أن يَسُمَّا الملك، فاتفق أن أدخلا معه، وقد اشتهر يوسف في السجن، (بالعفة، والأمانة، وصدق الحديث، ومعرفة تعبير الرؤيا)، فقال أحدهما ليوسف: إني رأيت في منامي هذه الرؤيا: رأيتُ كأني أعصر عنباً يؤول إلى خمر، وأسقي منه الملك، وقال الثاني: رأيتُ في منامي، أني أحمل على رأسي طبقاً فيه خبزٌ، والطيرُ تأكل من ذلك الخبز!! أخبرنا يا يوسف بتفسير هذه الرؤى، فإنَّا نراك رجلاً صالحاً تحسن تفسير المنامات والأحلام! ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أراد يوسف عليه السلام، أن يدعوهما إلى التوحيد والإيمان، قبل أن يعلِّمهما تفسير الأحلام، واستغلَّ وجوده في السجن، للدعوة إلى الله، وإرشاد الناس إلى

يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾

الدين القويم، وذلك شأن الصدِّيقين العارفين بالله، يريدون هداية البشر، وإنقاذهم من براثن الوثنية والضلال، فقدَّم في حديثه ما يكون معجزة له من الإخبار عن بعض الأمور الغيبية، ليدلهما على صدقه في الدعوة والتعبير، فقال لهما: إنه لا يأتيكما شيء من الطعام من أهلكم، إلا أخبرتكما ببيان حقيقته، ونوعه، واسمه، وكيفيته، قبل أن يصل إليكما!! فقالا له: هذا من فعل الكهنة، قال: لست بكاهن، ولا منجم، إنما هو علمٌ رباني علمني الله إياه، لأنني مؤمن من بيت (نبوَّة ودين)، وقد هجرت عبادة الأوثان، وعبدتُ الله الواحد الديَّان، واتبعت دين الأنبياء، دينَ آبائي (إبراهيم وإسحاق ويعقوب)، ما ينبغي لنا وقد هدانا الله إلى دينه الحق، أن نشرك بالله شيئاً، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، حيث بعث لهم الرسل لهدايتهم وإرشادهم، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ربهم على هذه النعم، وهكذا شأن الداعية المؤمن، الصادق المخلص، لا يترك فرصة إلاَّ ويستغلَّها في الدعوة إلى الله، بالحكمة والموعظة الحسنة، وبعد هذا التوضيح والبيان، عرَّفهما حقيقة التوحيد، وفساد ما هما عليه من عبادة الأصنام والأوثان، فقال لهما: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ والمعنى: يا صاحبيَّ ورفيقيَّ في السجن، أآلهة متعددة، لا تنفع ولا تضرُّ، ولا تستجيب لمن دعاها، كالأصنام والأوثان؟ خيرٌ أم عبادة الإله الواحد الأحد، المتفرد بالعظمة والجلال، الذي يخلق ويرزق، ويفرِّج كربة من دعاه؟ ما تعبدون يا معشر القوم إلاَّ أسماءً فارغة، سميتموها آلهة وهي جمادات عاجزة، لا تملك النفع والضر، لأنها حجارة صماء بكماء، فكيف عبدتموها من دون الله، وتركتم عبادة الإله القادر على كل شيء، المتفرد بالعظمة والجلال؟ ليس الحكم في أمر العبادة، إلا لله وحده، الذي خلق الخلق، وهو

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

يميتهم ويحييهم ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ فهذا هو الإله الحق، الذي أدعوكم إليه، وهذا هو الدين القويم، الذي لا اعوجاج فيه، ولكنَّ أكثر الناس يشركون بالله، ويجهلون عظمة الله، فيعبدون ما لا يضرُّ ولا ينفع!! تدرَّج يوسف الصدِّيق في دعوتهم، وألزمهم الحجة، فبيَّن لهم أولاً رجحان التوحيد على عبادة الأوثان، ثم برهن لهم ثانياً أن ما يسمونه آلهة، لا تستحق العبادة والألوهية، لأنها جمادات لا تستجيب، ولا تسمع، ولا تضر ولا تنفع، فأبطل لهم ما هم عليه من الوثنية، ثم دعاهم ثالثاً إلى عبادة الواحد القهار، العزيز الجبار، الذي بيده الخلقُ والأمرُ، والنفعُ والضرُّ.

وبعد أن أكمل لهم الدعوة إلى الله، بالأسلوب الحكيم، شرع في تفسير رؤياهما فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ أي يا صاحبيَّ في السجن، أمَّا الذي رأى في منامه أنه يعصر خمراً، فسوف يخرج من السجن ويعود إلى ما كان عليه، من سقي سيِّده الخمرَ، وأمَّا الآخر الذي رأى في منامه أنه يحمل على رأسه خبزاً تأكل الطيور منه، فسوف يُقتل ويُصلب ويُعلَّق على خشبة، فتأكل الطيرُ من لحم رأسه، هذا هو تفسير رؤياكما، قُضي الأمرُ وتمَّ في ذلك قضاء الله، وهكذا كان الأمرُ كما عبَّر لهما الرؤيا.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ أي وقال يوسف للذي اعتقد نجاته، وهو الساقي: اذكرني عند سيِّدك الملِك، فقل له: إن في السجن رجلاً مظلوماً، في تُهمةٍ لفَّقتها له امرأة العزيز، لعلَّه يدفع عني هذه الظُّلامة، ويخرجني من السجن، وأكَّد عليه أن لا ينسى أمره!! وتمَّ قضاءُ الله، فصُلبَ الطَّباخُ، وأُفرج عن الساقي فخرج من السجن، ولكنه نسي وصية يوسف، أنساه الشيطان أن يذكر أمره للملك، فمكث يوسف في السجن سبع سنين!. **قال وهب بن منبه**: «أقام أيوب في البلاء سبع سنين، وأقام يوسف في السجن سبع سنين» ولمَّا أراد الله

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾

عزَّ وجلَ أن يُفرِّج كربة يوسف، أرى الملكَ رؤيا في منامه، أشغلت باله، فجمع الكهنة ورجال الحاشية فسألَهم عن تعبيرها فلم يعرفوا، وأعجزهم الله جميعاً عن تفسيرها، لتكون سبباً في تخليص يوسف وإخراجه من السجن.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ رأى ملك مصر ـ وهو غير العزيز ـ رؤيا منامية، عجيبة غريبة أفزعته، رأى سبع بقراتٍ سمانٍ جميلات، خرجت من النهر، وأخذت ترتع في أرض خصبة كثيرة العشب والنبات، وخرج على أثرهنَّ سبع بقرات هزيلات، في غاية الهُزال والضعف، قبيحة الشكل والمنظر، قد خرجت من ذلك النهر أيضاً، فابتلعت البقراتُ العجافُ البقراتِ السمان، كما رأى سبع سنابل خضراء زاهية، قد انعقد حبُّها وأصبحت جاهزة للحصاد، وسبع سنابل يابسة ليس فيها حبٌّ، وإذا بالسنابل اليابسة تلتفُّ على السنابل الخضراء، فتبتلعها ولا تبقي لها أثراً، فجمع الكهنة والسحرة والمنجمين، وسألهم عن تفسير هذه الرؤيا فقالوا: ﴿**أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين**﴾ أي هذه أخلاط أحلام ومنامات كاذبة، قد اختلط فيها الأمر والتبس، ولسنا نعرف تأويل مثل هذه الأحلام الغريبة، التي يقرب أن تكون من الأوهام والخيالات ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي قال الساقي

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

الذي نجا من السجن: ﴿وادَّكَرَ﴾ أي تذكَّر وصية يوسف له، بعد مدةٍ طويلة من الزمن، أنا أخبركم بتفسير هذه الرؤيا، إذا كنتم تريدون معرفتها على وجه اليقين، فأرسلوني لآتيكم بتعبيرها!! خاطب الملك بصيغة التعظيم ﴿فأرسلون﴾ وفي الآية إيجاز بالحذف، تقديره: فأرسلوني فأرسلوه، فذهب إلى السجن، ودخل على يوسف، وسلَّم عليه، وتلطَّف معه في الحديث، وقدَّم بين يديه المديح والثناء، قبل الاستفتاء، ثم قال له: ﴿يوسفُ أيها الصدِّيقُ﴾ أيْ: يا يوسف يا أيها الصديق: أفتنا في هذه الرؤيا العجيبة، ثم ذكر له الرؤيا بعينها التي رآها الملك، وأعاد اللفظ كما سمعه بألفاظه وحروفه، لئلا يتغيَّر التعبيرُ.

ثم قال له: ﴿لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون﴾ أي لأرجع إلى الملك وأصحابه وأخبرهم بها، ليعلموا فضلك وعلمك، ويخلِّصوك من محنتك!! وهنا تظهر شهامةُ يوسف، وعزَّة نفسه، وكرامةُ أصله، فلم يشترط أن يخرجه الملك من السجن، ويطلق سراحه، حتى يعبِّر له الرؤيا، بل انطلق يفسِّرها لهم تفسيراً واقعياً دقيقاً، لأنه شعر أن البلاد مقبلةٌ على مخاطر، وسيقع فيها قحطٌ وجدب، قد يودي بحياة البشر، فلذلك سارع يعبِّر لهم الرؤيا، ويأمرهم بالحيطة والحذر ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي قال لهم: تزرعون سبع سنين دائبين، أي مستمرين في الزراعة دون انقطاع، بجدٍّ وعزيمة، فما حصدتم من الزرع فاتركوه في سنبله، لئلا يأكله السوس، إلا ما أردتم أكله فادرسوه، واتركوا الباقي في سنبله، ثم يأتي بعد سنوات الرخاء، سبع سنين مجدبات، يصيب الناسَ فيها قحطٌ وجدب، تأكلون فيها ما ادخرتم أيام الرخاء، إلا القليل منه الذي تتركونه للزراعة، ثم يأتي بعد سنوات القحط، عام خِصبٍ ورخاء، فيه يُمطر الناس ويُغاثون، ويعصرون فيه الأعناب والزيتون، لكثرة خِصبه، ووفرة خيراته

وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾

وثمراته، أوَّل لهم يوسف البقرات السمان، والسنبلات الخضر، بسبع سنين مخصبات، تجود فيها الأرضُ بالخيرات الوافرة، ثم يعقبها سبع سنين مجدبة، تأكل الأخضر واليابس، وأرشدهم إلى أن يقتصدوا من سنوات الرخاء، إلى سنوات الجدب، كما عرَّفهم الطريق الأصلح في أمور الزراعة، أن يتركوا الحبَّ في سنابله، لئلا يأكله السوسُ!! وحين رجع وذكر لهم تعبير تلك الرؤيا، كما سمعها من يوسف، أراد الملِكُ أن يسمعها من يوسف بنفسه، فأمر بإحضاره.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ لمَّا رجع رسولُ الملك من السجن، وهو يحمل لهم نبأ تعبير الرؤيا، التي فسَّرها لهم يوسف أبلغ تفسير، وأوَّلها لهم أحسن تأويل، أُعجب بتأويلها غاية الإعجاب، فأمر بإخراج يوسف من السجن، ليجعله من خاصته المقربين، ويسلمه إحدى الوزارات في مملكته، ولكنَّ يوسف أبى أن يخرج من السجن، حتى تُبرَّأ ساحته من تلك التهمة، فيخرج ناصع الجبين، مصون العفة، فقال لرسول الملك: ارجع إلى سيِّدك الملك، واسأله عن قصة النسوة اللاتي قطَّعن أيديهنَّ، هل يعلمُ خبرهنَّ؟ وهل يدري لماذا حُبست ودخلت السجن؟ وقد ظلمتُ بسبب كيدهنَّ، فالله هو العالم بحقائق الأمور، وما دبَّرنه من مكرٍ وكيد في حقي!! أبى عليه السلام أن يخرج من السجن، حتى يُبرَّأ من تلك التهمة الشنيعة، وقد أثنى عليه رسول الله ﷺ بقوله: «ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف، وأتاني الداعي لأجبتُ، وما ابتغيتُ العذر» رواه البخاري وأحمد، وإنما قال ﷺ هذا، إشادةً بصبر يوسف، ورفعاً لقدره، وتواضعاً منه ﷺ، وإلاَّ فمقامه أعلى، وأعظم، وأرفع، ولكنَّه خُلق النبيِّين، خفضُ الجانب والتواضع، والاعتراف بالفضل لأهل الفضل!!.

رجع الرسول فأخبر الملك أن يوسف أبى أن يخرج من السجن، حتى يتحقق الملك ورعيته، أن السجن كان ظلماً بدون حق، ويظهر للجميع براءةُ ساحته، ونزاهة عرضه، فجمع الملكُ النسوة، وسألهن بحضور الحاشية، والكبراء والوزراء، وسألهن

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

عن حقيقة الخبر ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي سألهن الملك: ما خطبكنَّ؟ أي ما شأنكنَّ العظيمُ الخطيرُ، حين دعوتُنَّ يوسف إلى فعل الفاحشة ـ الزنى ـ؟ والخطبُ في اللغة: الأمر العظيم الخطير، وفي مواجهة الملك لهنَّ بالذات، لم يكن هناك مجال للإنكار أو الكذب، قالت النسوةُ: معاذ الله أن يكون يوسف همَّ بالسوء، فهو شاب عفيفٌ نزيه، قالت زوجةُ العزيز: الآن ظهر الحقُّ وانكشف وبانَ، أنا التي دعوتُه إلى نفسي، وأعترف أمامكم بخطيئتي، وإنه لصادقٌ فيما يقول، وبريء مما نسبتهُ إليه من الخيانة!! وهذا اعتراف منها ببراءته على رءوس الأشهاد. ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا من كلام يوسف الصدِّيق عليه السلام، يقول: ذلك الأمرُ الذي فعلتُه من ردِّي رسولَ الملك، حتى تظهر براءتي، ليعلم العزيز الذي أمر بسجني، أني لم أخنه في غيبته بزوجته، بل تعفَّفتُ عنها، لأن الله لا يوفق الخائن، ولا يسدِّد خُطاه، بل يفضحه ويهتك الستر عنه، ولست أبرىء نفسي عن السوء، فإن النفس البشرية ميَّالةٌ للشهوات، كثيرةُ النزع إلى الشرِّ، ولكنَّ الله برحمته عصمني، رحمةً منه بي، لأنه سبحانه عظيم المغفرة، واسع الرحمة!! قال ذلك اعترافاً بفضل الله عليه، فإن صفةَ الأنبياء التواضع، يعلمون أن كلَّ شيء من الله وبفضله، فلا ينسبون شيئاً من الفضل لأنفسهم ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ وأمَّا من ذهب إلى أن الآيتين ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه﴾ وقوله: ﴿وما أبرىء نفسي﴾ من كلام امرأة العزيز فضعيفٌ، إذ كيف لها أن تتبجَّح، وتقول: ليعلم أني لم أخنه؟ وقد تعطَّرت، ولبست أفخر الملابس، وهيأت الفراش، ودعته إلى نفسها علناً؟ بعد أن غلَّقت الأبواب، ولمَّا أراد الهرب منها لحقته، فشقَّت ثوبه، وأرادت منه أن يضاجعها بالقوة، وهدَّدته بالبطش به، أفكلُّ هذا لا يُعدُّ خيانة؟ ولهذا ذهب جمهور المفسرين إلى ما

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

ذكرناه، أن هذه الآيات، من كلام يوسف الصدِّيق، وليس من كلام امرأة العزيز، وهو الصحيح الذي اعتمدهُ المحقِّقون من المفسرين، والله تعالى أعلم.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي قال الملك لحاشيته ـ بعد أن ظهرت له براءته ـ: ائتوني بيوسف، أجعله من خاصتي وخلصائي، وأهل مشورتي، فلما أتوه به، وكلَّمه يوسف، وشاهد الملِكُ حصافة عقله، وحُسْن كلامه، قال ليوسف: إنك اليوم رفيع القدر، عظيم المنزلة عندنا، مؤتمنٌ على كل شيء في المملكة المصرية عندنا ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أي قال يوسف للملك: ولِّني على خزائن ملكك، وسلِّمني «وزارة التموين» والمالية فإني أمينٌ على ما استودعتني، عليم بوجوه التصرف والتدبير، وقد يقول قائل: كيف مدح يوسف نفسه وزكَّاها، وطلب من الملك الوزارة؟ والجواب: أن ذلك ليس من باب التزكية للنفس، وإنما هو إخبارٌ منه بأن عنده المعرفة التامة، والخبرة الكافية، في إدارة الشؤون المالية والاقتصادية، وإنما سأله ذلك، ليتصرَّف بتدبير شؤون الناس، على الوجه الأصلح، والأرشد!! **قال الإمام الجصَّاص في تفسيره:** «وهذا الملك لمَّا كان من أهل العقل والدراية، لم يرعه من يوسف منظرُه الرائعُ البَهِجُ، كما راعَ النساءَ، لقلَّة عقولهنَّ، وضعف أحلامهن، وأنهن إنما نظرن إلى ظاهر حسنه وجماله، دون علمه وعقله، وأمَّا الملك فلم يعبأ بذلك كلِّه، ولكنه لمَّا كلَّمه، ووقف على كماله ببيانه وعلمه، قال له: إنك اليوم لدينا مكين أمين، فقال يوسف: **﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾** فوصف يوسف نفسه بالعلم، والحفظ، والأمانة، وفي هذه الآية دلالة على أنه جائز للإنسان، أن يصف نفسه بالفضل عند من لا يعرفه، وليس هذا من تزكية النفس» اهـ. أحكام القرآن للجصاص.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ أي وكما فرَّجنا كربة يوسف، جعلنا

وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾

له العز والسلطان في أرض مصر، يتصرَّف في المملكة كما يريد، بفضلنا وإكرامنا له، على عفَّته واستقامته، نخصُّ بهذا الفضل من نشاء من عبادنا، ولا نضيع جزاء المحسن، وما ادَّخرناه له في الآخرة، من الكرامة والثواب، خيرٌ وأبقى، من هذا الإكرام العاجل.. حُكي أن الملك لمَّا سمع كلام يوسف، نزع خاتمه من يده، وجعله في أصبع يوسف، وقال لمن حوله: هذا عزيزُ مصر، فاسمعوا له وأطيعوا، فكان له العزُّ والسلطانُ، والتمكينُ في الأرض، وصار الوزيرَ المتوَّجَ، فأبدله الله من العسر يسراً، ومن الضيق فرجاً، ومن السجن الوزارة والسلطان.. نهض يوسف عليه السلام بأعباء الدولة، وقام بإدارة شؤون البلاد خير قيام، فأشرف على زراعة الأرض، فكثرت الخيرات والبركات، وجاءت سنوات الرخاء، فملأ البيوت والمخازن، بأنواع الحبوب والأطعمة، بعد أن تولَّى بنفسه إدارة الشؤون المالية والاقتصادية، وبعد سنوات الرخاء السبع، جاءت سنوات القحط والجدب، وجاء الناس من أطراف مصر يمتارون، بعد أن عضَّهم الجوع بأنيابه، وجاء إخوة يوسف كذلك من أرض فلسطين، يطلبون العون والطعام ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي وجاء إخوة يوسف من بلادٍ بعيدة نائية، يقصدون أرض مصرَ، يبحثون عن الطعام، فدخلوا على يوسف، فعرف أنهم إخوتُه، ولكنهم لم يعرفوه مطلقاً، ولهذا قال: ﴿وهم له منكرون﴾ أمَّا معرفته لهم، فلأنهم لم يتغيَّروا عليه كثيراً، فقد كانوا حين رموه في الجبِّ كباراً، والكبير لا تتغير ملامحه إلاَّ يسيراً، أما هو فقد كان صغيراً، ولم يكن يدور في خيالهم إلاَّ أن يوسف قد هلك، ثم هم الآن يدخلون عليه، وهو في أُبَّهة الملك، وعزِّ الجاه والسلطان، على رأسه التاج المرصَّع بالدرر واللآلىء ـ على عادة الملوك والسلاطين ـ وحوله الحرسُ والخدم، ورجالُ الشرطة، وهو متربِّع على كرسيِّ العرش، ولهذا لم يعرفوه مطلقاً، بل ما خطر على بالهم، أن يكون هو يوسف، لهيبة المُلك، وطول المدة

قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَـٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

﴿ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم﴾ رُوي أنهم لمَّا دخلوا عليه تَجَاهَلهم، وقال لهم كالمنكر عليهم: من أنتم؟ وما أقدمكم على بلادي؟ قالوا: جئنا للميرة، قال: لعلكم عيونٌ علينا؟ - أي جواسيس - قالوا: معاذ الله، قال: من أين جئتم؟ قالوا: من بلاد كنعان، وأبونا «يعقوب» نبيٌّ صالح، قال: وله أبناء غيركم؟ قالوا: نعم، كنَّا اثنيْ عشر ولداً، فذهب أصغرنا وهلك في البريَّة، وكان أحبَّنا إليه، قال: أنتم الآن عشرة، فأين أخوكم الآخر؟ قالوا: هو عند أبينا، احتبسه عنده ليتسلَّى به عن يوسف ابنه المفقود، فأمر بإضافتهم وإكرامهم، وأنزلهم في جوار قصره، وأمرهم أن يأتوا بأخيهم معهم في المرة القادمة، بعد أن ملأ لهم رواحلهم بالطعام، وأكرمهم غاية الإكرام، ونفهم من دلالة هذا النصِّ ﴿ائتوني بأخ لكم من أبيكم﴾ أن يوسف استدرجهم، حتى أخبروه بخبر «بنيامين» أخيهم من أبيهم، حيث ذكروا أن لهم أخاً صغيراً، هو أخ شقيق ليوسف، لم يحضر معهم، لأن أباه يحبه ولا يطيق فراقه، وأنه أخٌ لهم من أبيهم، ولهذا طلب منهم أن يأتوه بهذا الأخ الصغير ليراه، وليزيد في إكرامهم ووفادتهم، وبأسلوبه اللطيف الحكيم، جمع لهم بين الترغيب والترهيب، فقال لهم: ﴿ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين﴾؟ أي ألا ترون أني أوفِّي الكيل للمشترين من غير نقص؟ وأنا خير من يُكرم الضيوف والنزلاء؟ فلا خوف عليه في مملكتي، وسيلقى الإكرام كما لقيتموه!! رغَّبهم ثم توعَّدهم وهدَّدهم فقال: ﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون﴾ أي فإن لم تأتوني بأخيكم بنيامين، فليس لكم عندي بعد اليوم طعام، ولا تقربوا بلادي مرة ثانية!! ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَـٰعِلُونَ ۝ وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي قالوا: سنخادع أباه ونحتال في انتزاعه من يده، ونجتهد في طلبه منه، وإنَّا لفاعلون ذلك، والتعبير يوحي بأن الأمر ليس ميسوراً، إنما في طريقه عقباتٌ، ولهذا قالوا: ﴿سنراود عنه أباه﴾ أنهم يعلمون أن يعقوب لن يجيبهم إلى طلبهم، بعد أن ذاق مرارة فقد ابنه «يوسف»، لذلك سيبذلون جهدهم في هذا الأمر!! وقال يوسف للموكلين بالكيل: ردُّوا إليهم ثمن الطعام، واجعلوه ضمن أوعيتهم، ليرجعوا إلينا مرة ثانية، إذا رأوه ضمن متاعهم، فإن دينهم يمنعهم عن أكل الحرام.

فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي فلما عادوا إلى أبيهم قالوا: يا أبانا لقد أنذرنا عزيز مصر بمنع الكيل عنَّا، إن لم نأته بأخينا «بنيامين» فإنه ظن في أول الأمر أننا جواسيس، فلما أخبرناه بقصتنا طلب أخانا ليتحقَّق صدقنا، فأرسلْه معنا لنضمن حقنا من الكيل، وسنحفظه من أن يناله مكروه!! ولا بدَّ أن هذا الطلب قد أثار مشاعر «يعقوب» وخشي أن يكون مكيدة منهم لولده الثاني، فقال لهم: كيف آمنكم على أخيكم «بنيامين» وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم، بعد أن ضمنتم لي حفظه؟ ثم خنتم العهد؟ فأنا لا أثق بكم ولا بحفظكم، وإنما أثق بحفظ الله وحمايته، وهو تعالى أرحم من والديه وإخوته، فأرجو أن يمنَّ عليَّ بحفظه، ولا يجمع عليَّ مصيبتين!! ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾ لمَّا استقرَّ بهم المقام، بعد الوصول إلى أوطانهم، فتحوا ركابهم فإذا الثمن الذي دفعوه للطعام، موجودٌ بين أمتعتهم، فدهشوا لهذا الكرم والإحسان، الذي لاقَوْه من عزيز مصر، فانطلقوا يقولون لأبيهم: يا أبانا أيَّ شيء نبتغي من هذا الرجل الكريم، صاحب الفضل والإحسان؟ أضافنا وأكرم وفادتنا، وردَّ إلينا ثمن الطعام من حيث لا ندري!! فأيَّ شيء نبتغي فوق هذا الإكرام؟ فإذا أرسلت معنا أخانا، نأتي لك بالميرة والطعام، ونأخذ حمل بعير زيادةً على استحقاقنا، ونحفظ أخانا من المكاره، . ثم قالوا: ﴿**ذلك كيل يسير**﴾ أي ذلك كيل يسير

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ

على هذا الرجل المحسن، لشدة سخائه وحرصه على البذل والعطاء. ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ الموثق: العهدُ الشديد الموثَّق باليمين، أي قال لهم أبوهم بعد أن ألحُّوا عليه: لن أرسل معكم بنيامين إلى مصر، حتى تعطوني عهداً موثَّقاً وتحلفوا بالله أنكم ستردُّونه عليَّ، إلا إذا أُصبتم بكارثة جميعكم، أو غُلبتم على أمركم، فلم تجدوا طريقاً أوحيلةً لردِّه، فيكون ذلك عذراً عندي، فلمَّا أقسموا له وأعطوه العهد المؤكد، على حفظ أخيهم ورعايته، قال لهم: الله شهيدٌ ورقيب على ذلك!! وإنما فَعَل ذلك، لأنه لم يجد بُدّاً أن يبعثه معهم، من أجل الميرة التي لا غنى لهم عنها.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي أوصاهم أبوهم فقال لهم: يا أبنائي! لا تدخلوا مصر من باب واحد، وادخلوها من أبواب متعدِّدة، ولست أقدر أن أردَّ عنكم شيئاً مما قضاه الله عليكم، وما الحكم إلاَّ لله عزَّ وجلَّ وحده، فما قدَّره الله وقضاه كائنٌ لا محالة، عليه اعتمدتُ، وعليه فليعتمد أهل التوكل والإيمان، **قال ابن عباس**: خشيَ عليهم من العَيْن، إن دخلوا من باب واحد، فأمرهم أن يتفرَّقوا ويدخلوا من أبواب متعددة، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال، وهيئةٍ حسنة، ومنظر وبهاء، فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم» وقد جاء في الحديث الصحيح: (العينُ حقٌّ، ولو كان شيءٌ يسبقُ القَدَر لسبقته العينُ) رواه مسلم، وكان ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين بهذه الدعوات: (أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كلِّ عين لامَّة) رواه البخاري، والعينُ اللامة هي العينُ التي تصيب بسوء. ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ

إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولمَّا دخلوا من الأبواب المتفرقة، كما أوصاهم أبوهم، ما كان دخولهم متفرقين، ليدفع عنهم من قضاء الله شيئاً، وأن الحَذَر لا يدفع القَدَر، ولكنه الأخذُ بالأسباب، يعلِّمه النبيُّ الصالح يعقوب لأبنائه، ليأخذوا لأنفسهم الحيطة والحذر ﴿إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها﴾ هي الشفقة على أبنائه من عيون الناس، وقد أثنى الله عليه بأنه كان على جانب عظيم من الفهم والعلم فقال: ﴿وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي وإن يعقوب لذو علم واسع، وفهمٍ راشد، بسبب ما أكرمناه به، من العلم والوحي، فقد علم بنور النبوَّة، أن القَدَر لا يدفعه الحذر، ولذلك احترس بقوله: ﴿وما أغني عنكم من الله من شيء﴾ فهو موقنٌ بقضاء الله، وأنه لا رادَّ لقضائه من شيء، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون دقائق فعل الله تعالى ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ها هم إخوةُ يوسف يعودون للمرة الثانية من بلاد فلسطين، وقد اصطحبوا معهم أخاهم الصغير «بنيامين» نزولاً عند رغبة عزيز مصر، ويطوي السياقُ هنا أنباء الرحلة الطويلة، ويضعنا وجهاً لوجهٍ أمام هذه المقابلة الملكية في القصر!! أي وحين دخل إخوة يوسف عليه، ضمَّ إليه أخاه الشقيق «بنيامين» بعد أن فرَّق بينهما الكيدُ والحسدُ، وتلتقي النظرات، وتحتبس في العيون العبرات، فما أن يلتقي يوسف بأخيه الشقيق، حتى يضمَّه إليه ضمَّ المحبِّ لحبيبه، ويكاد من فرط الشوق والفرح، أن يقول: هذا أخي، وهذا هو السرُّ في التعبير القرآني المبدع، حيث يحكي لنا هذا اللقاء، بأسلوب يوحي بعدم وجود مقدِّمات ﴿آوى إليه أخاه﴾ أي ضمَّه إلى صدره، مع أن هذا لم يحدث إلاَّ بعد أن أكرم إخوته، وأحسن ضيافتهم، ثم أنزل كلَّ اثنين منهم في بيتٍ، وبقي بنيامين وحيداً، فقال لهم: هذا لا ثاني له، فاتركوه عندي وانصرفوا إلى منازلكم، فلما خَلاَ به سأله: من هؤلاء؟ قال: إخوتي من أبي، قال: أليس لك إخوة غيرهم؟ قال: بلى، لي أخ شقيق اسمه يوسف، هلك في قديم الزمن، قال: أتحبُّ أن أكون أخاك بدل أخيك يوسف؟ قال: ومن يجد أخاً كريماً مثلك؟ ولكنَّك لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف وقام يعانقه

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾

ويضمُّه إلى صدره، وعرَّفه بنفسه أنه هو أخوه «يوسف» وأمره أن يكتم الأمر ﴿قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون﴾ أي أنا أخوك الشقيق يوسف، فلا تحزن ولا تأسف على ما صنعوا بنا فيما مضى، فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا بخير، ثم أخبره بأنه سيحتال عليهم، ليبقيه عنده في القصر، وطوى السياق أيضاً فترة الضيافة، التي أقامها إخوةُ يوسف في القصر، معزَّزين مكرَّمين، وما لاقوه من حفاوة بالغة من العزيز نفسه، ومن أهل مصر، ليعرض لنا مشهد الرحيل الأخير ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ أي فلمَّا قضى حاجتهم، وحمَّل إبلهم بالميرة والطعام، أمر يوسف بأن تُجعل السقاية ـ وهي صاعٌ من ذهب مرصَّع بالجواهر ـ في متاع أخيه بنيامين، وكان قد اتفق معه على هذه الحيلة، ثم أمر منادياً أن ينادي القافلة وأصحابها قائلاً: يا أصحاب الإبل، ويا أيها الركبُ: إنكم قوم سارقون، أكرمناكم ثم سرقتمونا!! وإنما استحلَّ رميهم بالسرقة، لما فيه من المصلحة من إمساك أخيه، وقد جعلها ذريعة لإمساك بنيامين عنده، ارتاع إخوة يوسف لهذا النبأ الخطير، الذي نزل عليهم كالصاعقة، فهم جماعة شرفاءُ أمناء، أبناء أنبياء، كيف يسرقون؟

﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ أي قالوا لهم بعد أن وقفوا عن السير، والتفتوا نحوهم، يسألونهم: وماذا فقدتم؟ وفي هذا التعبير بدل: ماذا سرقنا؟ تنبيه للمنادين لهم، على مراعاة حسن الأدب في الخطاب، وعدم التسرع في رمي البريئين بالسرقة، ولهذا التزم المنادون الأدب في التخاطب معهم فقالوا: ﴿نفقد صواع الملك﴾ أي لقد فقدنا وضاع منَّا صواع الملك، المرصَّع بالجواهر واللآلىء، وزيادةً في إحكام الخُطَّة، رغَّبهم المنادي وأخبرهم، بأن هناك مكافأة ثمينة، لمن يحضره متطوعاً فقال لهم: ﴿ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم﴾ أي ولمن يردُّه علينا، حملُ بعير من القمح مجاناً، كجائزة له، وأنا كفيلٌ وضامن لذلك، وهي مكافأة

قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

ثمينة، في مثل هذه الظروف العصيبة ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي قال إخوة يوسف: لقد علمتم من حالنا ومظهرنا، أننا ما جئنا لنفسد في الأرض، ونقسم لكم بالله أننا ما سرقنا لكم شيئاً!! قال لهم الفتيانُ والغلمان: فما عقوبةُ السارق في شريعتكم، إن ثبتت سرقته وكذبتم علينا؟ قالوا عقوبته في شريعتنا أن يصبح عبداً مملوكاً لمن سرق منه لمدة سنة، **قال ابن عباس:** «كانوا في ذلك الزمان، يستعبدون كل سارق بسرقته ـ أي يجعلونه عبداً ـ وكان ذلك يجري مجرى قطع اليد في شرعنا» وقوله تعالى: ﴿**فهو جزاؤه**﴾ أي هو «نفسُه» عقوبةٌ للسرقة، بمعنى أن السارق يصبح عبداً مسترقاً مملوكاً لمن سرق منه، وهذا جزاء كل سارق ظالم في شريعة يعقوب، وهنا ينكشف لنا طرف من التدبير الإلهي، الذي ألهمه الله ليوسف، فلقد كان المتَّبع في شريعة يعقوب، أن يؤخذ السارق بسرقته، فيصبح عبداً رقيقاً، وكان حكم ملك مصر، أن يُضرب السارق ويُغرَّم ضعفَيْ قيمة المسروق، ولما كان إخوة يوسف موقنين بالبراءة، فقد ارتضوا تحكيم شريعتهم في السارق، ذلك ليتمَّ تدبير الله ليوسف وأخيه، قال تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ وإحكاماً للخطة، وتنفيذاً للحيلة على أكمل الوجوه، أمر يوسف بتفتيش أوعيتهم، قبل وعاء أخيه بنيامين، ففتشوا أوعيتهم حتى انتهوا من العشرة، بحضرة يوسف، فقال لهم يوسف: اتركوا تفتيش هذا الصغير، فما أظنه أخذ شيئاً!! فقالوا: لا والله لا نتركه حتى تنظر في رحله،

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾

فإنه أطيب وأشفى لنفسك ولأنفسنا، فأمرهم أن يفتشوا رحله، فوجدوا الصواع فيه، فذلك قوله تعالى: **﴿ثم استخرجها من وعاء أخيه﴾** أي استخرج السقاية - يعني الصواع - من متاع أخيه بنيامين، ولْنتصوَّر مبلغ الدهشة بالمفاجأة العنيفة لأبناء يعقوب، فقد كانوا موقنين جازمين، بأنهم بريئون من هذه التهمة الشنيعة، فلما خرج الصُّواع في رحل أخيهم، نكَّسوا رءوسهم خجلاً وحياءً، وأخذوا يوبِّخون أخاهم ويقولون له: ما الذي صنعتَ بنا؟ فضحتنا وسوَّدت وجوهنا يا ابن راحيل - وهي أمه وأم يوسف - ينسبونه إليها ذماً وتقبيحاً، قال تعالى: **﴿كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله﴾** أي كذلك صنعنا ودبَّرنا ليوسف هذه الحيلة، وألهمناه إيَّاها، ليستبقي أخاه عنده، ما كان يستطيع يوسف أن يأخذ أخاه في دين ملك مصر، إلا بمشيئته تعالى وإذنه، فلو قبلوا بحكم شريعة الملك، لما كان يوسف يتمكن من أخذ أخيه، ولكنهم رضوا بتحكيم شريعة يعقوب، وهذا هو تدبيرُ الله الذي ألهم به يوسف، ثم قال تعالى: **﴿نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم﴾** أي نرفع بالعلم منازل من نشاء من عبادنا، كما رفعنا شأن يوسف، ودبَّرنا له الحيلة في إبقاء أخيه عنده، وفوق كل عالِم من هو أعلم منه، حتى ينتهي العلم الشاملُ الكامل، إلى ربِّ العالمين ذي العزَّة والجلال، **قال الحسن البصري**: ليس عالمٌ إلاَّ فوقه عالم - أي من هو أعلم منه - حتى ينتهي العلم إلى ربِّ العزة والجلال، وقد دلت الآية الكريمة **﴿كذلك كدنا ليوسف﴾** على أن تلك الحيلة، كانت بتعليم الله وإلهامه ليوسف، والحيلةُ لما فيه خير ومصلحة لا إثم فيها، كما في قصة سليمان عليه السلام في المرأتين اللتين افترس الذئب ولد إحداهما وأكله، وبقي الولد الثاني وكلٌّ واحدة منهما تدَّعي أنه ابنها، فتحاكمتا عند سليمان، فقال: ائتوني بالسكين أقسمه بينكما نصفين، فسكتت الكبرى، وقالت الصغرى: لا ويرحمك الله، لا تفعل، هو ابنها، فعرف أنه للصغرى» والقصة في البخاري.

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ هنا حرَّك الحسدُ كوامن حقدهم على يوسف وأخيه، فإذا هم يتنصَّلون من السرقة، ويرمون بها يوسف وأخاه، فيقولون: إن هذا ليس

قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾

بغريب على بنيامين، فإن أخاه الشقيق الذي هلك، كان أيضاً لصاً سارقاً ـ وهم لا يعلمون أن الذي يخاطبونه هو يوسف ـ يقولون: إن يوسف وبنيامين أبناء أمٍّ غير أمنا، اشتهروا بالسرقة ونحن منزهون عن ذلك!! فقال لهم يوسف في نفسه ـ ولم يظهر هذه الكلمات تلطفاً معهم ـ بل أنتم شرٌّ منزلة، حيث سرقتم أخاكم من أبيكم، ثم زعمتم أن الذئب أكله، وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم﴾ أي أخفاها ولم يظهرها لهم، وهي الكلمات التي تحدثت بها نفسُه، ولم ينطق بها لسانه: أنهم هم الأشرار، لا يوسف وأخوه ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ شعر الإخوة بأنهم قد ضيَّعوا أخاهم، بحكم رضاهم بتطبيق شريعة يعقوب في السارق، فراحوا يتلطَّفون ويسترحمون العزيز، باسم والد الشيخ المسنّ الهرم، فقالوا ليوسف: يا أيها السيِّدُ المعظَّم المبجَّل: إن أباه شيخ كبير في السنِّ، لا يصبر على فراقه، فخذ بَدَله واحداً منا، اتركه عندك رهينة، وأرسل معنا هذا الصغير، فقد عوَّدتنا الجميل والإحسان ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾ أي قال لهم: نعوذ بالله أن نأخذ أحداً بجرم غيره، فإن هذا ظلمٌ صارخ، لا يجيزه عقلٌ ولا دين، ولئن فعلنا ذلك نكون ظالمين ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ فلما يئسوا من إجابة طلبهم يأساً تاماً، اعتزلوا جانباً عن الناس يتناجون ويتشاورون بينهم سراً، قال أكبرهم سناً، وهو «روبيل»: أليس قد أعطيتم أباكم عهداً وثيقاً مؤكداً، وأقسمتم له أن تردُّوا عليه أخاكم، فكيف ترجعون إليه الآن وليس

﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾

معكم بنيامين؟ ومن قبل ذلك، ألاَ تذكرون تفريطكم في أمر يوسف؟ وماذا تقولون له في هذه المرة؟ أمَّا أنا فلن أفارق أرض مصر، حتى يسمح لي أبي بالخروج منها، أو يحكم الله لي بخلاص أخي، وهو سبحانه أعدل الحاكمين، لأنه لا يحكم إلاَّ بالعدل والحقّ ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ يقول أخوهم الكبير: ارجعوا أنتم إلى أبيكم، فأخبروه بحقيقة ما جرى، وقولوا له: إن ابنك «بنيامين» قد سَرَق، ولسنا نتَّهمه اتهاماً، أو نرميه جُزافاً، إنما شهدنا بأنفسنا ورأينا الصاع في رحله، وما كنا نعلم الغيب حين أعطيناك العهد على ردِّه، وإذا كنت شاكّاً في كلامنا، فاسأل أهل القرية ـ مصر ـ واسأل القوافل التي رافقتنا في رجوعنا، ونحن صادقون، لا نقول إلا الحقَّ ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ لـمَّـا دخلوا عليه وأخبروه الخبرَ، لم يصدِّقهم بل اتهمهم بالتآمر على بنيامين، وظنَّ أنها مكيدة منهم، كفعلتهم بيوسف، فقال لهم: بل حسَّنتْ وزيَّنت لكم أنفسكم مكيدة، فدبرتموها له، ثم استسلم لقضاء الله وحكمه، فقال: ﴿فصبر جميل﴾ أي لا أجد سوى الصبر، محتسباً لأجري عند الله ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم﴾ أي عسى ربي أن يجمع شملي بهم، ويقرَّ عيني برؤيتهم جميعاً، إنه سبحانه العليم بأمري، الحكيم في تدبيره وتـصـريـفـه ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ أي أعرض عن أولاده جميعاً، كراهيةً لما سمع منهم، وقال: يا حسرتي ولهفي على يوسف. وفَقَدَ بصره من شدة البكاء والحزن، فهو كئيبٌ حزين، يكظم غيظه، ويتجرَّع حزنه وألمه،

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

وإنما تأسف على يوسف، مع أن الحادث كان في فقده لبنيامين، لأن الحزن الجديد يقوِّي ويذكِّر بالحزن القديم، فالأسى يبعث الأسى، وقد كان حبُّ يوسف آخذاً بمجامع قلبه، لا يكاد ينساه ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ أي قال له أبناؤه: لا تزال تذكر يوسف وتتفجَّع عليه بالحزن والبكاء، حتى تصبح عليلاً مريضاً، تشرف على الهلاك، أو تموت وتهلك أسىً وحسرة، رقُّوا وأشفقوا عليه، وقالوا له ذلك، على سبيل الرفق والشفقة ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي قال لهم يعقوب: لستُ أشكو غمِّي وحزني إليكم، وإنما أشكو ذلك إلى ربي، فهو الذي تنفع الشكوى إليه، وأعلم من رحمته ولطفه وإحسانه ما لا تعلمون أنتم!! وعلينا أن نتصوَّر مبلغ الحزن والألم، في ذلك القلب المفجوع، فقد توالت عليه المصائب والنكبات، ولكنَّ وراءه أملاً كبيراً، في رب العزة والجلال، أن يرحمه ويتداركه فيردَّ عليه يوسف وبنيامين، ولم ينقطع أمله أبداً من الله، ولهذا يقول لهم في ثقةٍ وأمان **﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾** فإن رحمة الله واسعة، وفرجه قريبٌ منظور.

﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي يا أبنائي، عودوا من حيث جئتم، اذهبوا إلى مصر، وتلمَّسوا خبر يوسف وأخيه بنيامين بحواسكم، والتحسُّسُ هو: طلبُ الشيء بالحواسِّ، والتعرُّف عليه بطريق البحث الدقيق، ويكون بالخير، كما أن التجسس يكون بالشر **﴿ولا تيأسوا من روح الله﴾** أي ولا تقنطوا من رحمة الله، ولا يدخل إلى قلوبكم اليأسُ من ذلك **﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾** أي لا يقنط من رحمته تعالى، وتفريج الكربة، إلا الكافرون الذين لا يؤمنون بالله!! ويدخل إخوة يوسف مصر، للمرة الثالثة، وقد أضرَّت بهم المجاعة، ونفدت منهم النقودُ، فجاءوا ببضاعة رديئة، يشترون بها الزاد والطعام، يدخلون على العزيز،

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾

وفي حديثهم ذلٌّ وانكسار، وشكوى مما فعلت بهم الأيام!.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أي فلما دخلوا عليه، أظهروا له الذلَّ والانكسار، فقالوا له: يا سيِّدنا المعظَّم المبجَّل، لقد أصابنا وأهلنا الجوعُ والفقر، واشتدَّ علينا البلاء، وجئنا إليك ببضاعةٍ رديئة لا تصلح ثمناً للطعام، **قال ابن عباس**: «كانت دراهمهم رديئةً لا تُقبل في ثمن الطعام» فأتمم لنا الكيل، ولا تُنقصه لرداءة بضاعتنا، وتصدَّق علينا بردِّ أخينا إلينا، إن الله يجازي المحسنين أفضل الجزاء.. وصف إخوةُ يوسف أنفسهم بالعجز، ورقَّة الحال، وقلَّة المال، وشدة الحاجة، وذلك ممَّا يرقِّق القلب، ويُحرِّك الشفقة، ويوجب الحنان، ولمَّا كلموه بهذا الكلام، أدركته الرقَّة والشفقةُ على إخوته، وترقرقت الدموع في عينيه، فلم تعد نفسه تطاوعه، إلاَّ أن يذكر لهم الحقيقة، ويخبرهم عن نفسه بأنه هو (أخوهم يوسف)، الذي أرادوا قتله، وألقوه في الجب، وانتزعوه من أبيه، وأن الله أكرمه بما أكرمه به، من العزِّ والجاه والسلطان، بسبب صبره وتقواه لربه، ثم يباغتهم بهذه المفاجأة العجيبة ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي قال لهم: هل تذكرون ما فعلتم بيوسف وأخيه، حال شبابكم وطيشكم؟ والغرضُ منه تعظيمُ فعلتهم الشنيعة، كأنه يقول لهم: ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف؟ وما أقبح ما أقدمتم عليه؟ يقول ذلك نصحاً لهم، وحثاً لهم على التوبة، وشفقةً عليهم!! قالوا متعجبين مستغربين: هل أنت يوسف حقاً؟ قال: نعم أنا يوسف وهذا أخي الشقيق!! وهنا تتمثَّل لعيونهم وقلوبهم، صورة ما صنعوا بيوسف، ويجلِّلهم الخزيُ والخجلُ، وهم يرونه

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

محسناً إليهم وقد أساءوا، حليماً بهم وقد جهلوا، كريماً معهم وقد وقفوا منه موقفاً غير كريم!! وقوله: ﴿**أنا يوسف**﴾ صرَّح باسمه تعظيماً لما جرى له من ظلم إخوته له، كأنه قال: أنا الذي ظلمتموني على أشنع وجوه الظلم، وأسأتم إليَّ غاية الإساءة، والله تعالى أوصلني إلى أعلى المناصب والمراتب ﴿**وهذا أخي**﴾ أي وهذا أخي - مع أنهم كانوا يعرفونه - لأن مقصوده أن يقول لهم: وهذا أخي الشقيق، كان مظلوماً معكم، كما كنت أنا مظلوماً، ثم إنه صار منعَّماً عليه من الله تعالى كما ترون!؟ ﴿**قد من الله علينا**﴾ أي منَّ علينا بالخلاص من البلاء، والاجتماع بعد الفرقة، والعزة بعد الذلَّة ﴿**إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين**﴾ أي إنه من يَتَّقِ ربه، بالاستقامة على الدين، ويصبر على البلايا والمحن، فإن الله لا يضيِّعه، بل يحفظه ويرعاه، فيجازيه خير الجزاء، ويكرمه غاية الإكرام، لإحسانه وإيمانه. ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ أي قالوا: والله لقد فضَّلك الله علينا بالعلم والحلم، والفضل والعقل، ومكارم الأخلاق، وقد كنا حقاً مذنبين بما صنعناه بك، فقد أعزَّك الله وأذلَّنا، ورفع قدرك وأهاننا، وهذا منهم اعترافٌ بالخطيئة، وإقرار بالذنب، وإشادة بمآثره وفضائله!! ولم يكثر معهم العتاب والملام بل صفح عنهم، وعفا عنهم ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي قال لهم يوسف: لا عتب عليكم اليوم، ولا تأنيب ولا عقوبة على ما صنعتم بي، بل أعفو عنكم وأصفح، وأسأل الله أن يغفر لكم ما ارتكبتموه في حقي، وجملةُ ﴿**يغفر الله لكم**﴾ جملة دعائية بالمغفرة وطلب العفو من الله لهم، وهذا منه منتهى الحلم والكرم، سامحهم، وعفا عن خطيئتهم، وطلب من الله عزَّ وجلَّ أن لا يؤاخذهم ولا يعاقبهم، بما جنوه في حقه من العدوان، وهذه أخلاق النبيِّين، كما قال سيد الأنبياء، لأهل مكة حين ظفر بهم: اذهبوا فأنتم الطلقاءُ. ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي اذهبوا بهذا

وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾

القميص إلى أبي، فضعوه على وجهه، يرتدُّ إليه بصرُه، وجيئوني بجميع الأهل والذرية من أولاد يعقوب!! أراد أن يعجِّل البشارة، لذلك القلب الكليم المجروح، قلب أبيه «يعقوب» فأرسل إليه القميص الذي يلبسه، ليكون ذلك له علامة على حياة ابنه يوسف، ولكنْ كيف عرف يوسف أن رائحة القميص ستردُّ على أبيه بصره؟ ذلك من الإلهام الإلهي الذي اختُصَّ به يوسف!

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾ أي ولما خرجت الإبل منطلقةً من مصر إلى بلاد فلسطين، ومعهم البشير قد سبقهم بالبشارة السارة، قال يعقوب لمن حضر من أولاده وقرابته: إني لأشمُّ ريح يوسف، ولولا أن تقولوا: إنه وصلَ إلى درجة الخَرَف، لقلتُ لكم إنه حيٌّ، والفَنَدُ في اللغة: الخرفُ وذهابُ العقل، ولما سمعوا كلامه، قالوا له: والله يا أبانا إنك لا تزال في خطئك القديم، من حبِّ يوسف، لا تنساه ولا تَسْلاَه، وإنما جابهوه بهذه العبارة الغليظة، لاعتقادهم بأن يوسف قد مات، وأرادوا بقولهم ﴿**ضلالك القديم**﴾ الخطأ، أي إنك لا تزال في خطئك السابق، ولو أرادوا الضلال الذي يقابل الهدايةَ والإيمان لكفروا، ولكنهم أرادوا الخطأ والبعد عن الصواب، **قال ابن عباس**: هاجت ريحٌ فحملت ريحَ قميص يوسف، وبينهما مسيرة ثمانية أيام. ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي فلما جاء البشيرُ بالخبر السارِّ يبشره بحياة يوسف، وطرح القميص على وجه يعقوب، عاد بصيراً من شدة السرور والفرح، كرامة من الله له، بعدما ابيضَّت عيناه من الحزن، فعند ذلك قال لأولاده: ألم أخبركم بأني أعلم بالوحي من الله، ما لا تعلمونه أنتم؟ وهو أن الله سيردُّ يوسف عليَّ، لأن الرؤيا التي رآها يوسف لم تتحقق بعد.. يُروى أنه لما جاء البشير، سأله كيف تركت يوسف؟ قال: تركتُه

قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

وهو ملك مصر المتوَّج، قال: ما أصنعُ بالملك؟ على أيِّ دين تركتَه؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ طلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم الله، لما فرط منهم في حقِّ أخيهم يوسف، بعد أن اعترفوا بذنوبهم بقولهم: ﴿**إنا كنا خاطئين**﴾ أي مذنبين في عملنا هذا، ولم يقولوا: مخطئين، لأن الخاطىء الذي يتعمَّد الذنب، بخلاف المخطىء، فقال لهم يعقوب ﴿**سوف أستغفر لكم ربي**﴾ ونلمح من هذه العبارة، أن قلبه لم يصفُ على أبنائه، ولهذا لم يستغفر لهم في الحال، وإنما وعدهم الاستغفار في المستقبل، بعد أن يصفو قلبه عليهم، ويسكن ويستريح، وقيل: إنما أخَّر الاستغفار لوقت السَّحر، ليكون أقرب إلى الإجابة!.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ أي فلما دخل يعقوب وأولاده وأهلوهم على يوسف، ضمَّ إلى صدره أباه وأمَّه فاعتنقهما، وقال: ادخلوا بلدة مصر، آمنين مطمئنين، لا ترون فيها مكروهاً إن شاء الله تعالى، وأجلسهما على العرش بجانبه، وسجد له أبوه وأمه وإخوته، سجود تحية وتكريم، لا سجود خضوع وعبادة، وكان ذلك جائزاً في شريعتهم ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي وقال يوسف لأبيه: هذا تفسير الرؤيا التي رأيتها في المنام وأنا صغير، قد تحققت بفضل

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

الله وكرمه، وقد أنعم الله عليَّ بالخروج من السجن ـ ولم يذكر الجبَّ لئلا يُخجل إخوته بعد أن عفا عنهم ـ ومن بعد ما جاء بكم من البادية، بعدما أفسد الشيطان بيني وبين إخوتي بالوسوسة والإغراء، إن ربي لطيف التدبير لشؤون عباده، وهو العليم بخلقه، الحكيم في صنعه، وإنما ذكر البادية ﴿**وجاء بكم من البدو**﴾ لأن إخوته وعشيرته كانوا أهل إبلٍ وغنم ببادية فلسطين!.

وإلى هنا تنتهي قصة «يوسف الصدِّيق» وما فيها من أحداث، ومفاجآت، وأخبار غريبة عجيبة، بالأسلوب البياني المعجز، ثم يُسدل الستار على هذا كلِّه، فيتوجَّه العبد الشاكر الذاكر لربه، بأن يميته الله على الإسلام، ويلحقه بالصالحين فيقول في دعائه الخاشع الضارع: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لقد ذاق يوسف حلاوة الدنيا ومرارتها، ونعيمها وضُرَّها، ونال من العزِّ والسلطان، ما لم يكن في الحسبان، فلما تمَّ له الملك والسلطان، وعلم أن الدنيا لا تدوم لأحد، اشتاق للقاء ربه، وطلب الرفيقَ الأعلى، والمعنى: يا ربِّ لقد أعطيتني العزَّ والملك والسلطان، وذلك من نعمة الدنيا، وعلَّمتني تفسير الرؤى والأحلام، وذلك من نعمة العلم ﴿**فاطر السموات والأرض**﴾ أي يا خالقهما ومبدعهما من غير مثالٍ سابق، ابتدأتَ خلقهما فأنت الخالق القادر، أنت يا ربِّ خالقي ومتولِّي أموري وشؤوني في دنياي وآخرتي، توفَّني على الإيمان الكامل، وألحقني بعبادك المتقين، من الأنبياء والمرسلين، والشهداء والصالحين، وحَسُن أولئك رفيقاً!!.

قال تعالى لرسوله ﷺ، بعد أن قصَّ عليه قصة يوسف، على أكمل الوجوه وأدقِّها: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي هذا الذي أخبرناك

وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

عنه يا محمد من أمر يوسف وقصته مع إخوته، هو من أمور الغيب التي لم تكن تعلمها من قبل، حيث لم تكن موجوداً في زمانهم، حين تآمروا على أخيهم، وأجمعوا أمرهم على إلقائه في الجب، وهم يحتالون ويمكرون به، وإنما قصصناها عليك، لتكون برهاناً واضحاً على صدق نبوتك ورسالتك، وليس أكثر الخلق ولو حرصت على إيمانهم، وبالغت في إرشادهم، بمصدِّقين لك فيما جئتهم به، لتصميمهم على الكفر، وما تطلب منهم على تبليغ الوحي والرسالة أجراً، وما هذا القرآن الذي جئتهم به، إلاَّ عظة وتذكرة للعالمين، فإن كانوا عقلاء استجابوا لدعوتك ورسالتك. ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ أي كم من الآيات والعلامات، والبراهين الساطعة، التي يشاهدونها في الكون، ولا يعتبرون بها!! من كواكب زاهرات، وجبالٍ راسيات، وبحارٍ زاخرات، وأشجار وأطيار، وأنهار وبحار، وسائر ما في الكون من عجائب وغرائب، دالة على وحدانية الله ووجوده، وهم لا يفكِّرون بها ولا يعتبرون!! وما يؤمن أكثرُ هؤلاء المعاندين من قومك، إلاَّ إذا أشركوا مع الله غيره، فعبدوا الأوثان والأحجار، فإنهم يقرُّون بأن الله هو الخالقُ الرازق، ثم يعبدون معه الأوثان، وكانوا يقولون في تلبيتهم: (لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما مَلَك) يقصدون آلهتهم المزعومة ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي هل أمن هؤلاء المشركون المكذبون، أن تأتيهم عقوبة من عذاب الله، تغشاهم وتحيط بهم، فتهلكهم عن آخرهم؟ أو تأتيهم القيامة بشدائدها وأهوالها، فجأة وبغتة، من حيث لا يشعرون ولا يتوقعون؟ ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: هذه طريقتي ومنهاجي، وهذه دعوتي ورسالتي، واضحة مستقيمة جلية: لا أطلب الملك

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾

والسلطان، ولا العزِّ والجاه، وإنما أدعوكم لوجه الله، أدعوكم لعبادته وطاعته، على بيان واضح، وحجة نيِّرة، أنا وأتباعي، لا نريد بكم إلا الخير، وأنزِّه ربي عن الشركاء، والأنداد، وما نسبه إليه المشركون، وأنا مؤمن موحِّد على دين الحنيفية السمحة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي لقد أرسلنا قبلك رسلاً كثيرين، من الرجال لا من الملائكة، أرسلناهم إلى قومهم أهلِ المدن والأمصار، فلماذا ينكر كفار مكة رسالتك، ويطلبون أن يكون الرسول مَلَكاً لا بشراً؟ أفلم يسيروا في الأرض، ليروا مصارع المكذبين من قبلهم، كيف دمَّرهم الله وأهلكهم، ليعتبروا بذلك؟! والدار الآخرةُ خيرٌ للمؤمنين المتقين، من هذه الدار العاجلة الفانية، أفلا يعقل الناس ذلك؟ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي حتى إذا يئس الرسل من إيمان قومهم، وأيقنوا أن قومهم كذَّبوهم، ولم يعد لهم أملٌ في إيمانهم، جاءهم نصرنا فنجيناهم وأتباعهم المؤمنين، وأهلكنا أعداءهم المجرمين، وإذا نزل عذابنا بهم، فلا يرفع ولا يردُّ!! والآية بيان لسنة الله في الخلق، أن النصر حقٌّ مؤكد للرسل والمؤمنين، ولكنه لا يأتي لأول وهلة، بل عند اشتداد الخطب والكرب، وتفاقم الأمر، فينصر الله المؤمنين، ويهلك الفجرة المجرمين ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ ختم الله السورة الكريمة،

ببيان الحكمة من ذكر قصص الرسل، وأخبار الأمم السابقة، وهي العظة والاعتبارُ لأصحاب العقول النيِّرة، والمعنى: لقد كان في قصة يوسف مع إخوته، عظةٌ وتذكرة، ليتَّعظ أهلُ البصائر من أهل الإيمان، فما كان هذا القرآن المعجز، أخباراً تروى، أو أحاديث تُختلق، ولكنه كتابٌ حكيم، معجز في بيانه، جاء مصدِّقاً لما سبقه من الكتب الإلٰهية المنزلة، وفيه تفصيل وتبيان، لكلِّ ما يحتاجه الناس من أمور الحلال والحرام، والشرائع والأحكام، وهدى ورحمة للمصدِّقين به، المؤمنين بخاتم الأنبياء ﷺ.. ووجه الاعتبار بهذه القصة، أن الله العظيم القدير، الذي نجَّى يوسف من الجب، وأخرجه من السجن، وملَّكه أرض مصر، حتى صار فيها العزيز المطاع، وجمع شمله بأبيه وإخوته، بعد طول فراق، قادرٌ على إعزاز محمد ﷺ، ونصره على القوم الكافرين، وأن العاقبة للمتقين!

انتهى تفسير سورة يوسف

● ● ●

الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

تفسير سورة الرعد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ البدء بهذه الحروف المقطَّعة (ألف، لام، ميم) للتنبيه على إعجاز القرآن، والإشارة إلى أنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية، فهو معجز بأسلوبه، ونظمه، وبيانه، وتشريعه، وإن كانت حروفه وكلماته مما ينطق بها الناس، ﴿**تلك آياتُ الكتاب**﴾ أي هذه آيات القرآن العظيم، المنزل عليك يا محمد من ربك بالحقِّ، ومع هذا البيان والوضوح، والجلاء، كذَّب به أكثر الناس، فهم لا يعتقدون بأنه كلام ربِّ العزة والجلال ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ أي الله جلَّ وعلا بقدرته خلق السموات، فجعلها مرتفعة البناء، واسعة الأرجاء، قائمة بلا عمد، لا تستند على شيء، وأنتم تشاهدونها بغير دعائم، ثم استوى على العرش استواءً يليق بجلاله، من غير تعطيل ولا تمثيل، وذلَّل الشمس والقمر لمصالح العباد، كلٌّ يسير بقدرته تعالى، إلى زمنٍ محدودٍ معيَّن، هو زمن فناء الدنيا، يدبِّر بحكمته وقدرته أمور الخلق، ويبيِّن الآيات ويوضِّحها، لتؤمنوا وتوقنوا بلقاء الله.. ذكر تعالى من دلائل قدرته، وعظمته، ووحدانيته، ثلاثة أمور، كبرهانٍ على البعث والنشور:

الأول: خلق السموات وما فيها من البدائع والعجائب.

وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

الثاني: خلقُه تعالى للعرش العظيم، الذي تعتبر السموات والأرض جميعها كذرة بالنسبة له.

الثالث: تسخيرُ الشمس والقمر لمصالح العباد، ومن قدر على خلق ذلك كلِّه، فهو قادر على إحياء الإنسان بعد موته، ولهذا ختمها بقوله ﴿**لعلكم بلقاء ربكم توقنون**﴾ أي تصدِّقون بالحساب والجزاء، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي هو سبحانه بسط الأرض، فجعلها ممدودة فسيحةً واسعةً فيها الجبال والتلال، والوديانُ والسهولُ، لينتفع الناسُ بها بالزراعة، والبناء، والسكنى، وجعل في الأرض جبالاً ثوابت راسخة، لئلا تضطرب بالناس، وأجرى فيها العيون والأنهار، وأخرج منها من كل أنواع الثمرات، صنفين اثنين: أبيض وأسود، وحلواً وحامضاً، وحاراً وبارداً، وصغيراً وكبيراً، وأمثال ذلك. ﴿**يغشي الليلَ النهارَ**﴾ أي يغطِّي نورَ النهار بظلمةِ الليلِ، حتى يصبح مظلماً بعد أن كان مضيئاً، إن في عجائب صنع الله، لعلامات باهرة، ودلائل ساطعة، على وجود الله وقدرته، ووحدانيته، لقوم يتفكَّرون في مخلوقات الله ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ أي في الأرض بقاعٌ متقاربٌ بعضها إلى بعض، وبساتينُ كثيرة، من أشجار العنب، وأنواع الزروع والنخيل والرطب، منها ما ينبت منه من أصلٍ واحد شجرتان فأكثر، ومنها ما ينبت منه شجرة واحدة، والصِّنْو: الفرعُ والغصنُ الخارج من أصل الشجرة ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي الماء الذي تُسقى به هذه الأشجار واحد، والتربة واحدة، ولكنَّ الثمار مختلفات الطعوم، فكيف اختلفت ألوانها، وأشكالها، وطعومها، مع أن الماء واحد، والتربة

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾

واحدة؟ الأرضُ يكون فيها الخوخُ، والكمثرى، والعنبُ الأبيض والأسود، والبرتقال، والليمون، بعضها حلوٌ وبعضها حامض، وكلُّها متقاربة، بعضُها إلى جنب بعض، أليس بعجيب أن تختلف ألوانها وطعومها، مع أن الماء الذي يسقيها واحد؟ ينبغي على العاقل أن يفكر في هذه القدرة الباهرة، ليرى عظمة الله، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿**إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون**﴾ أي إن في هذا التنوع والاختلاف، لدلائل وبراهين، على قدرة الله ووحدانيته، لقوم يستعملون عقولهم، فيما خلق الله وأبدع!! والآيةُ ردٌّ على القائلين بأن هذا من فعل الطبيعة، مع أن الطبيعةَ لا عقل لها، ولا قدرة، ولا تصرُّف ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي وإن تعجب يا أيها الرسول، فليس هناك أعجب من قول المشركين، المكذبين بالبعث والنشور: هل إذا متنا، وأصبحنا ذرات من التراب، هل سنبعث من جديد؟ إن إنكارهم للبعث، جديرٌ بأن يُتعجَّب منه، فالذي قَدَر على خلق السموات والأرض، والجبالِ والبحار والأنهار، قادرٌ على إعادتهم بعد موتهم وفنائهم، فما لهم لا يتفكَّرون ولا يتدبَّرون!؟ وهؤلاء الذين أنكروا البعثَ، هم الجاحدون لقدرة الله، وهم الذين يعاقبون بربطهم بالسلاسل في أعناقهم يوم القيامة، وهم مخلَّدون في نار جهنم، لا يخرجون منها أبداً ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي يستعجلك يا أيها الرسول، هؤلاء المشركون بالعذاب والعقوبة، قبل طلب الرحمة والسلامة، استعجلوا نزول العذاب سخريةً واستهزاءً، وقد مضت من قبلهم (المَثُلاتُ) أي عقوبات أمثالهم من المكذبين، فما لهم لا يعتبرون؟ وإن ربك رحيم ودود، لا يُعجِّل لهم العقوبة وإن كانوا ظالمين، ليتوب المذنب، ويرجع العاصي، وإن ربك شديد العقاب لمن استمَّر على الكفر والعصيان!

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي ويقول كفار قريش: هلاَّ أُنزل على محمد معجزة واضحة ساطعة، كمعجزة موسى، وعيسى، وصالح!! قل لهم: لستُ إلهاً حتى آتيكم بما تطلبون، إنما أنا رسولٌ منذرٌ، أحذِّركم عذاب الله وانتقامه، شأني شأن كل رسولٍ قبلي، وقد بعث الله لكل أمة نبياً، يهديهم ويرشدهم إلى الله، وأمَّا المجيء بالمعجزات، فأمرُها إلى خالق الأرض والسموات ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ * عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ أي الله وحده هو الذي يعلم ما تحمله كل أنثى في بطنها، هل هو ذكرٌ أو أنثى؟ تامٌ أو ناقصٌ؟ حسنٌ أو قبيح، يعلم كلَّ شجرة، وكلَّ ثمرة، وكلَّ قطرة تنزل من السماء، ويعلم ما تسقطه أرحام الأمهات، فيَلِدُ ميتاً، وما يلد على التمام والكمال، وكلُّ شيء بقدر محدود لا يتخطَّاه، وهو سبحانه يعلم ما غاب عن الأنظار، وما ظهر للبشر، وهو العظيم المتعالي على كل شيء، وهذا بيان لكمال علمه سبحانه، وكمال قدرته ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي يستوي في علمه تعالى، ما أضمرته القلوب، وما نطقت به الألسنة، يعلم من هَمَسَ بالكلام سرَّاً، أو نطق به جهراً، ويستوي في علمه من هو مستترٌ في ظلام الليل يعمل القبائح، ومن يأتي بها في وَضَح النهار، لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ أي للإنسان

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾

ملائكة تتعاقب في حفظه، كالحَرس في الدوائر الحكومية، يحفظونه من الأخطار والمضار، في الليل والنهار، بأمره تعالى وتدبيره، وفي الحديث الشريف (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح، وصلاة العصر..) الحديث رواه البخاري.

قال مجاهد: (ما من عبدٍ إلاً ومَلَكٌ موكًّل به، يحفظه في نومه، ويقظته، من الجن والإنس والهوامّ)، إن الله لا يزيل نعمته عن قوم، ولا يسلبهم إيَّاها، إلا إذا انتهكوا محارمه، وبدَّلوا الشكر بالعصيان، وإذا أراد الله هلاك قوم أو عذابهم، فلا يقدر أحد على ردِّه، وليس لهم غيرُ اللَّهِ، من يدفع عنهم العذاب والبلاء ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ أي هو سبحانه الذي يريكم البرق اللاَّمع، من السحاب المتكاثف، خوفاً من الصواعق، وطمعاً في المطر، ويخلق السحب الكثيفة المحمَّلة بالماء الزلال، نبَّه تعالى إلى أن البرق غالباً ما يعقبه صواعق مدمِّرة، وقد يكون وراءه المطر المدرار، الذي به حياة البلاد والعباد ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي يسبِّح الرعد تسبيحاً مقترناً بحمد الله والثناء عليه، وتسبِّح له الملائكة خوفاً من عذابه، وتسبيحُ الرعد حقٌّ نؤمن به، وإن لم نفهم تلك الأصوات، لقوله سبحانه: **﴿وإن من شيءٍ إلا يسبح بحمده﴾** وكلُّ ما في الكون شاهدٌ على وحدانية الله، ويرسل اللَّهُ الصواعق المدمِّرة، نقمةً منه فيهلك بها من شاء، وهؤلاء الكفار يجادلون في الله ووحدانيته، وفي قدرته على البعث، وهو تعالى (شديدُ المِحَال) أي القوة والبطش، والانتقام، وأمرُ السحاب عجيب، يحمل معه الرحمة والعذاب، فهو يحمل المطر، ويحمل الصواعق، وفي الماء الرحمةُ والإحياءُ، وفي الصواعقِ العذابُ والإفناء، والجمعُ بين النقيضين من بدائع صنع الله:

جمعُ النقيضَين من أسرارِ قدرتِه ... هذا السحاب به ماءٌ به نارٌ

روي في سبب النزول: (أن رسول الله ﷺ بعث صحابياً إلى رجلٍ من فراعنة قريش،

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ

فقال له: اذهبْ فادعُه لي، فقال يا رسول الله: إنه جبَّارٌ عاتٍ، قال: ادْعُه لي!! فذهب إليه الصحابي فقال: إن رسول الله ﷺ يدعوك إليه، فقال له: أخبرني عن إله محمد، أمنْ ذهبٍ هو؟ أم من فضة، أم من نحاسٍ!؟ يقول ذلك استهزاء، فرجع الرجلُ فأخبر النبي ﷺ بأمره، فقال له: ارجع إليه ثانيةً فادعه لي، فأعاد عليه فجوره بنفس الكلام، فبينما هو يجادله إذ بعث الله عليه سحابةً أظلَّته، ثم برقت وأرعدت، ونزلت منها صاعقة، ذهبت برأس ذلك الشقي) رواه البزار، ونزل قوله تعالى ﴿وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال﴾ أي القوة والانتقام، ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي للَّهِ جلَّ وعلا دعوةُ التوحيد، التي هي دعوة الحقّ، والذين يدعوهم الكفار، ويعبدونهم من دون الله، من الأصنام والأوثان، لا يستجيبون لهم دعاءً، ولا يدفعون عنهم بلاءً، إلاَّ كمن ينادي الماء وهو جماد لا يسمع، وما التجاؤهم لآلهتهم ودعاؤهم لهم، إلا في ضياع وخسار.. شبَّههم تعالى في عبادتهم للأوثان، بتصويرٍ في منتهى الوضوح والبيان، شبَّههم بصورة إنسان اشتدَّ عطشه، فهامَ على وجهه يبحث عن الماء، فلما أبصر الماء، أخذ يصرخ ويناديه، طالباً من الماء أن يحضر إليه لينقذه، والماء جماد لا يشعر بعطشه، ولا يُحسُّ به ولا يسمع، كذلك هؤلاء الكفار في عبادتهم للأوثان والأحجار ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ أي له جلَّ وعلا ينقاد ويخضع، أهلُ السموات وأهلُ الأرض، طائعين وكارهين، المؤمن يسجد وينقاد طوعاً، والكافرُ ينقاد ويخضع كَرْهاً في حالة الفزع والاضطرار، في الصباح والمساء، والغرضُ بيانُ عظمته تعالى وسلطانه، وأنه قهر كلَّ شيء، ودان له كلُّ شيء، حتى ظلالُ الآدميين، والكلُّ في نهاية الخضوع والاستسلام، لذي العظمة والجلال ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي قل لهؤلاء المشركين: مَنْ خالقُ السموات والأرض، ومدبِّرُ أمرهما؟

قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ

فإنهم لا يستطيعون أن يقولوا: آلهتنا الأصنام هي التي خلقتها، فقل لهم توبيخاً وتقريعاً: الله خالقُهما ومبدعهما، قل لهم ـ إلزاماً لإقامة الحجة عليهم ـ أجعلتم لله شركاء، وعبدتموهم من دون الله؟ وهم لا يقدرون على نفع أنفسهم، ولا دفع الضُرّ عنها، فكيف يستطيعون نفعكم، ودفع الضر عنكم؟ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ﴾ المراد بالأعمى: الكافر، وبالبصير: المؤمن، وبالظلمات: الشركُ والضلال، وبالنور الهدى والإيمانُ، أي هل يستوي الكافر الأعمى، الذي عميَ عن الحقّ، مع المؤمن البصير، الذي استنار قلْبه بنور الإيمان، فكما لا تستوي الظلماتُ والنور، كذلك لا يستوي المؤمنُ والمشركُ، فالفارق بينهما كالفارق بين النور والظلام، ثم أردفها تعالى بما هو أوضح وأظهر ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ أي هل اتخذ المشركون آلهةً، خلقوا مخلوقات كالتي خلقها الله؟ حتى التبس الأمر عليهم، فلا يدرون أهي من خلق الله، أم من خلق آلهتهم؟ وهو تهكمٌ وسخريةٌ لاذعة بالمشركين، فإنهم يرون كل شيء من خلق الله، ثم هم يعبدون تلك الأوثان، وذلك أسخف وأحطُّ ما وصلت إليه عقول المشركين!! ولما أقام الحجة عليهم، جاءهم بهذه النتيجة القاطعة، التي لا يملكون لها دفعاً **﴿قل الله خالق كل شيء﴾** أي اللهُ جلَّ وعلا هو الخالقُ لجميع هذه المخلوقات، وهو المتفرد بالألوهية والربوبية، الغالبُ على كل شيء، وكلُّ الخلق تحت قهره وسلطانه، ثم ضرب تعالى مثلين للحق والباطل، فقال سبحانه ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ﴾ هذا هو المَثَل الأول، أي أنزل من السماء المطر النافع، فجرت مياه الأودية بمقدار سعتها، الكبيرُ بمقدار سعته وكبره، والصغيرُ بمقدار ضيقه وصغره، وحمل معه السيلُ زَبَداً عالياً، منتفخاً له غثاءٌ ورغوة، فالماء هو (الحقُّ)، والزبدُ الذي يذهب جفاءً هو (الباطل).

وتوضيحُ هذا، أن الله تعالى مثَّل للحقّ في ثباته، والباطلِ في ذهابه، بالماء النافع ينزل من السماء، فتسيل به الأودية، كلٌّ على حسب سعته وضيقه، وهذا الماء «السيلُ» يجرف في

وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٨﴾

طريقه الغُثاء، يطفو على وجهه في صورة الزبد، وهو نافشٌ منتفخ، لا خير ولا نفع فيه، والماء من تحته ساكنٌ هادىء، ولكنه يحمل معه الخير والحياة، بينما الزَّبدُ يفورُ ويغلي، ثم لا يلبث أن يذهب ويتلاشى، ذلك مَثَلُ الحقِّ والباطل ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ هذا هو المثل الثاني للحق والباطل، أي ومن الذي يوقد عليه الناس من المعادن، كالذهب والفضة، والنحاس، والحديد، من أجل الزينة والجمال، أو من أجل الحاجة والمتاع، من هذه المعادن التي تُصهر بالنار، يخرج منها زبدٌ، هو خبثٌ لا ينفع، ويبقى المعدنُ الصافي النقيُّ، فكما لا يظهر الزبد في الماء إلا عند اشتداد السيل، كذلك زبد المعادن لا يظهر إلاَّ بعد الصهر بالنار، فأمَّا الزبد فإنه يذهب جُفاءً أي بلا نفع ولا فائدة، وأما الذي ينفع الناسَ، وهو الماء والمعدن الصافي، فيبقى لأصحابه ويثبت في الأرض، كذلك مثل الحقِّ والباطل، والكفر والإيمان، وهذا مَثَلٌ كما بيَّنا، ولذلك قال سبحانه ﴿**كذلك يضرب الله الأمثال**﴾ أي مثل هذين المثلين، يبيِّن الله الأمثال للناس، ليفرِّقوا بين الهدى والضلال، ثم ذكر تعالى عاقبة أهل الإيمان، وأهلِ الضلال فقال ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ أي للذين استجابوا لدعوةِ الله ـ وهم المؤمنون المتقون ـ لهم المثوبةُ الحُسنى، وهي الجنة وما فيها من النعيم، مما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خَطَر على قلب بشر، والذين لم يستجيبوا لدعوة الله، وكذَّبوا رسل الله ـ وهم الكفار الأشقياء ـ لو كان لهم جميع ما في الأرض، من الذهب والفضة والأموال، لبذلوا كل ذلك فديةً لهم من العذاب، أولئك لهم أسوء أنواع العقوبة والجزاء، ومسكنُهم ومقامهم الدائم الأبديُّ، الذي يأوون إليه يوم القيامة، نار جهنم،

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (١٩) ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ (٢٠) وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ (٢١) وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ (٢٢) جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ (٢٤)﴾

وبئس المستقرُّ نارُ الجحيم ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي هل يستوي من آمن بالقرآن، الذي جئت به يا محمد من عند الله، وصدَّق برسالتك، كمن هو أعمى البصيرة، يتخبَّط في ظلمات الضلال؟ لا يستوون عند الله، إنما يتعظ ويعتبر بآيات الله، ذوو العقول السليمة، الذين تمسَّكوا بحصن الإيمان، ثم شرع في بيان أوصاف السعداء، فقال سبحانه ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ أي هؤلاء السعداء، هم الذين يؤدُّون حقوق الله ـ وهي أوامرُه ونواهيه التي وصَّىٰ بها عباده ـ ولا ينقضون العهود والمواثيق التي قطعوها على أنفسهم ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ هذا هو الوصف الثاني، أي يصلون الأرحام التي أمر الله بصلتها، ويهابون ربهم فيخافون عذابه، ويخافون العذاب المهين، الذي أعدَّه الله للفجار، فهم لخوفهم من الله جادُّون في طاعته ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ هذا هو الوصف الثالث، والمعنى: والذين صبروا على المكاره والشدائد في الجهاد وغيره، طلباً لمرضاة الله، وأدوا الصلاة المفروضة خير أداء، وأنفقوا في سبيل الله في الخفاء والعلانية، ويدفعون السَّفاهة بالحلم، والأذى بالصبر، والعمل السيِّء بالعمل الصالح، هؤلاء لهم العاقبةُ المحمودة في الآخرة، وهي الجنة دار السرور والحبور، ثم فسَّرها تعالى بقوله ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي هي جنات إقامةٍ خالدة، يدخلها أولئك الأبرار، ويدخلها الصالحون من

﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾

آبائهم، ونسائهم، وأولادهم، ليأنسوا بلقائهم، ويتمَّ بهم سرورهم، زيادة في تكريمهم، وملائكة الرحمن يدخلون عليهم من كل باب من أبواب الجنة، يهنئونهم ويسلِّمون عليهم، يقولون لهم: سلامٌ عليكم بصبركم على المكاره والشدائد، فنعمتْ هذه العاقبة المحمودة عاقبة لكم، ونعمتْ الجنة دار السلام داركم!! ولمَّا ذكر حال المؤمنين وأوصافهم، ذكر بعدها حال الكافرين ومآلهم، فقال سبحانه ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ﴾ أي والذين ينقضون عهودهم المؤكَّدة بالأيمان، ويقطعون الرحم التي أمر الله بوصلها، ويفسدون في الأرض بأنواع البغي والإجرام، فلهم اللعنة الدائمة، وسوء العاقبة والمآل، هكذا بإيجاز دون إسهاب، حكم الله عليهم بالشقاء والدمار، وقرن بين الفريقين في الذكر، ليظهر الفارق الكبيرُ، بين عاقبة المتقين، وعاقبة المجرمين ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ أي يوسِّع الرزق على من يشاء من عباده، ويضيِّق على من يشاء، حسب الحكمة والمصلحة، وفرح هؤلاء المشركون بنعيم الدنيا فرح أشِر وبطر ـ وهو خبرٌ في ضمنه ذمٌّ ـ وما الحياة الدنيا ونعيمُها إلا متاعٌ قليل بالنسبة للآخرة ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي ويقول كفار مكة: هلاَّ أُنزل على محمد معجزة من ربه، كمعجزة موسى في فلق البحر، ومعجزة عيسى في إحياء الموتى، وأمثال ذلك!! قل: قد جاءكم محمد بالقرآن ومعجزات كثيرة، فلماذا عميتم عنها؟ وأمرُ الإتيان بالمعجزات بيد الله وليست إليَّ، يضلُّ من يشاء، ويهدي من أراد هدايته، فيوفقه للتوبة والإنابة ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ أي المؤمنون السعداء الذين يهديهم الله، هم الذين تأنس وتسكن قلوبهم بذكر الله، ويجدون حلاوة في (ذكر ربهم)، وهؤلاء لهم الفرح والسرورُ، وما تقرُّ به أعينهم من النعيم في الآخرة ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي كما أرسلنا الأنبياء قبلك، كذلك أرسلناك يا محمد، في أمة مضت قبلها خلائق كثيرة، فهي آخر الأمم، وأنت خاتم النبيِّين، أرسلناك لتبلِّغهم هذا القرآن العظيم، والمشركون يكفرون بالرحمن، فيعبدون غيره، قل لهم: إن الرحمن الذي كفرتم به، وأنكرتم وحدانيته، هو ربي لا أعبد سواه، عليه وحده اعتمدتُ، وإليه أرجع بالتوبة والإخلاص ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ﴾ أي لو أن كتاباً من الكتب المنزَّلة، يصنع العجائب، بأن يزيلَ الجبال ويسيِّرها عن أماكنها، أو يشقِّق الأرض فيجعلها عيوناً وأنهاراً، أو يخاطبُ به الأمواتَ حتى يتكلموا، بتلاوة القرآن عليهم، وجواب (لو) محذوف تقديره: لكان هذا القرآن، لكونه غاية في الإيجاز والإعجاز، ونهايةً في التذكير والإنذار، ﴿بل لله الأمر جميعاً﴾ أي ليس مجيء المعجزات حسب رغباتهم، بل أمرُها للخالق المالك لجميع الأمور ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء لهدى الناس جميعاً﴾ أي أفلم يقنط وييأس المؤمنون من إيمان الكفار؟ ويعلموا أن الله لو شاء لهدى جميع الخلق للإيمان، لأن الأمر له وحده؟ ولكنَّ الحكمة اقتضت أن يترك للناس حرية الاختيار، التي عليها مدار التكليف والجزاء!! ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن

دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٣٤﴾

دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ أي ولا يزال أعداؤك يا محمد «كفار مكة» تصيبهم النكبات والدواهي، بسبب كفرهم، أو تحلُّ قريباً من ديارهم، حتى يأتي وعدُ الله، بإظهار الإسلام، ونصرك عليهم، فإن الله لا يخلف وعده لأنبيائه ورسله ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ تسليةٌ للرسول ﷺ، أي إن استهزأ بك هؤلاء المشركون، فقد استهزأ المجرمون بالرسل قبلك، فأمهلتهم وتركتُهم في أمنٍ وراحة، ثم أخذتهم بأشدِّ أنواع العذاب، فانظر كيف كان عقابي لهم؟ ألم يكن فظيعاً وشديداً؟ وهكذا أنتقم من الكفرة المكذبين ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ﴾؟ أي هل الله الحفيظُ، الرقيبُ على أعمال العباد، العالمُ بكل ما يفعله الخلقُ، من خير أو شرٍّ؟ كالأصنام التي يعبدونها، وهي في منتهى العجز، والحقارة، والجهالة؟ قل لهم يا محمد: سمُّوهم لنا وصفوهم، حتى نعلم قدرتهم وإبداعهم؟ أم تخبرون ربكم بشركاء لا يعلمهم سبحانه؟ والغرضُ من الآية تسفيهُ عقولهم وأحلامهم، فقد جعلوا الإلَه السميعَ البصيرَ القدير، كالصنم العاجز الحقير!! ولهذا قال بعده ﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ أي بل زيَّن الشيطانُ لهؤلاء الأشقياء، ذلك الكفرَ والضلالَ، ومُنعوا عن طريق الهدى والإيمان، ومن يضلله الله، فلا يقدر أحد أن يهديه ﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾ أي لهؤلاء الكفار الفجار، الذين عبدوا غير الله، عذاب عاجلٌ في الحياة الدنيا، ولعذابُهم في الآخرة أثقلُ وأشدُّ ألماً، وليس لهم من

۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

يحميهم، أو ينقذهم من عذاب الله ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ لمَّا ذكر ما أعدَّه للكفار في الآخرة، ذكر ما أعدَّه للمؤمنين في جنات النعيم، أي صفةُ الجنة العجيبة الشأن، التي وعد الله بها عباده المتقين، أن أنهارها تجري من تحت قصورها وغرفها، في غير أخاديد، وثمرها دائم لا ينقطع، وظلُّها كذلك لا تنسخه الشمس، ولا ينقضي ولا يزول، تلك هي عاقبة المتقين الأبرار، وهي مسكنُهم ومقامهم، أمَّا عاقبة الكفار الفجار، فهي نار الجحيم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ أي ومن أهل الكتاب، من أنارَ الله بصيرته فاهتدى، كعبد الله بن سلام، والنجاشي وأصحابه، وهؤلاء وأمثالهم يفرحون بهذا القرآن المنزل عليك يا محمد، لما في كتبهم من الشواهد على صدقه، ومن الطوائف المتحزِّبين ضد الإسلام ـ وهم أهل أديان شتَّى ـ من ينكر بعض القرآن، مكابرةً وعناداً مع يقينهم بصدقه، لأنه موافقٌ لما معهم، قل لهم يا أيها الرسول، معلناً دعوتك ورسالتك: إن ربي أمرني أن أعبده وحده، ولا أشرك معه غيره، إلى هذا الدين الحقِّ أدعو الناسَ، ومرجعي ومصيري إلى رب العزة والجلال ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ أي وكما أنزلنا الكتب السابقة على الرسل قبلك، كذلك أنزلنا عليك هذا القرآن المعجز، بلسان عربي مبين، لتحكم به بين الناس، ولئن اتبعت أهواء المشركين، فيما يدعونك إليه من معتقداتهم السخيفة، بعدما جاءك من ربك

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾

الحقُّ المبين، فليس لك ناصرٌ ينصرك، ولا من يقيك ويحميك من عذاب الله، الخطابُ للنبي ﷺ والمراد أتباعُه، والمقصودُ تحذيرُ الأمة من اتباع أهواء الناس، لأن المعصوم ﷺ، إذا خُوطب بمثل ذلك، كان الغرضُ تحذيرَ أتباعه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي ولقد أرسلنا قبلك يا محمد، الرسلَ الكرام، وجعلنا لهم النساء والبنين، ولم يكن لرسولٍ أن يأتي بمعجزة من تلقاء نفسه، إلاّ إذا أذن الله له فيها، ولكل أمرٍ قضاه الله، وقتٌ محدودٌ، وزمن معيَّن لا يتعدَّاه!! لقد طعن أهلُ الكتاب في نبوته عليه السلام، وعابوا الرسول بكثرة الزوجات، وقالوا: لو كان رسولاً، لشغلته عبادتُه وزهدهُ، عن الإكثار من الزوجات، فردَّ الله عليهم بأنه قد سبق قبل محمد رسل كثيرون، تزوجوا وكان لهم من أزواجهم، ذريةٌ وأولاد، فعلامَ يعيبك هؤلاء الظالمون؟ ولماذا يطعنون في نبوتك؟ ولست أنت وحدك الذي عدَّد الزوجات، ونكح النساء؟ فقد كان لداود مائةُ زوجة ـ كما في صحيح البخاري ـ وكان لولده سليمان أكثر من ذلك وهم من أنبياء بني إسرائيل، فلماذا لم يعيبوا عليهم؟ وشبهة أخرى أثارها المشركون، وهي: إذا كان محمد رسولاً فلماذا لم يأتِنا بما طلبناه من المعجزات؟ فردَّ الله عليهم بقوله ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلاّ بإذن الله﴾ أي أمرُ المعجزة ليس للرسول، وإنما راجع إلى مشيئة الله، ولو علم الله فيهم الإيمانَ لأجابهم إلى ما طلبوا ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي الله عزَّ وجل يبدِّل ويغيِّر من الأحكام ما يشاء، حسب الحكمة والمصلحة، فينسخ الله ما يشاء نسخه من الشرائع والأحكام، ويبقي ما يشاء إثباته دون تغييرٍ أو تبديل، كما يمحو من صحف الملائكة ما يشاء، فيغني ويفقر، ويعزُّ ويذل، ويدفع البلاء بالتضرع والدعاء، وعنده جلَّ وعلا اللوحُ المحفوظ، الذي سُطِّر فيه علمُ الله، فالمحوُ والإثباتُ، والتبديلُ والتغييرُ، إنما يجري في الشرائع والأحكام، وصُحف الملائكة الكرام، أمَّا ما أُثبت في اللوح المحفوظ، فقد فُرغ منه، وجرى به العلم الأزليُّ، وهذا معنى قول ابن عباس: «يبدِّل الله ما يشاء فينسخه، إلا

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾

الموت، والحياة، والشقاء، والسعادة، فإنه قد فُرغ منها» فهناك كتابان: كتاب الملائكة على الخلق، فهذا محلُّ المحو والإثبات، وكتاب اللوح المحفوظ، فهذا لا يتبدَّل ولا يتغيَّر، وليس فيه محو ولا إثبات، لأن فيه علم الله جلَّ وعلا، وهو لا يتغيَّر!!

قال العلامة ابن عطية في المحرر الوجيز: «والذي يتلخَّصُ من هذه الآية، أن الأشياء التي دبَّرها الله في الأزل وعَلِمها، لا يصحُ فيها محوٌ ولا تبديل، بحالٍ من الأحوال، وهي التي كتبت في أم الكتاب، وسَبَق بها القضاءُ، وهذا مرويٌّ عن ابن عباس وغيره من أهل العلم، وأمَّا الأشياء التي أخبر الله تعالى أنه يُبدِّل فيها وينقل، كمغفرة الذنوب بعد تقريرها، وكنسخ آية بعد تلاوتها، ففيها يقع المحُو بعد الإثبات، فيما يسجِّله له الحَفَظة ونحو ذلك، وأمَّا إذا رُدَّ الأمْر إلى القضاء والقدر، فلا محَو ولا إثبات).

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ أي إن أريناك يا محمد، بعض الذي وعدناهم من العذاب، لنقرَّ به عينَك، أو قبضناكَ قبل أن ترى عقابهم، فالأمرُ راجعٌ إلينا، وليس عليك إلاَّ تبليغ رسالة ربك، وعلينا حسابُهم وجزاؤهم، فلا تُشغل نفسك بأمرهم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي أولم يشاهد هؤلاء الكفار ما يحدث في الدنيا؟ أنَّا نفتح على الرسول والمؤمنين، ونمكّنهم من الاستيلاء على ديار المشركين، حتى تزداد رقعة المسلمين، وتنقص ديارُ المشركين؟ وذلك من أظهر البراهين، على إنجاز الله الوعدَ للرسول بالنصر والتمكين، والله تعالى يحكم ما يريد، لا يتعقَّب حكمه أحدٌ بنقض ولا تغيير، وهو سريع الانتقام ممن عصاه.. نبَّهت الآية على أن استيلاء المسلمين على ديار المشركين، وظهور الإسلام على الشرك، قريةً بعد قرية، من أظهر الأدلة على نصر الله لرسوله، أفلا يعتبر هؤلاء المشركون بذلك؟ وقيل: نقصُ الأرض بموت أشرافها، وعلمائها، وكبرائها، وأنشدوا:

وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

الأرضُ تَحْيا إذا ما عاشَ عَالِمُهَا   مَتَى يمتْ عالمٌ منها يمتْ طَرَفُ
كالأَرضِ تَحْيَا إذا مَا الغيثُ حَلَّ بها   وإن أَبَى عَادَ في أكنافِهَا التَّلَفُ

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي وقد مكر الكفار بأنبيائهم، فأرادوا قتلهم، أو إخراجهم من الأوطان، كما مَكَر بك كفار مكة، فأرادوا قتلك أو إخراجك من مكة، بلدك الحبيب، فله جلَّ وعلا أسبابُ القدرة على إهلاكهم بمكرهم، وتدميرهم بتدبيرهم، فلا يهولنك أمرُهم، فهو القادر على أن يوصل لهم العذاب من حيث لا يشعرون، يعلم ما تفعله كل نفسٍ من خير أو شرٍّ، ويجازي عليه، وسيعلم الكفار لمن تكون العاقبة الحسنة في الآخرة ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي يقول كفار مكة: لستَ يا محمد رسولاً مرسلاً من عند الله، قل لهم حسبي شهادة على صدق رسالتي، ما أيدني الله به من المعجزات، وفي طليعتها (معجزة القرآن)، وشهادة المؤمنين من علماء أهل الكتاب، وكفى بشهادة الله لي شهادة!!

انتهى تفسير سورة الرعد

● ● ●

الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾

تفسير سورة إبراهيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ الحروف المقطّعة (ألف، لام، را) للإشارة على إعجاز القرآن، كما وضحنا سابقاً، والمعنى: هذا القرآن العظيم المعجز، كتاب أنزلناه عليك يا محمد، لم تُنشئه أنت، وإنما أوحيناه إليك، لتخرج البشرية من ظلمات الجهل والشرك، إلى نور الهداية والإيمان، بأمر الله وإرادته ومشيئته، ولتهديهم إلى طريق الله المستقيم، المالك لما في السموات والأرض، المحمود بكل لسان، الممجَّد في كل مكان، ويا ويل المشركين من عذاب الله الأليم!! ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي هؤلاء الكفار الذين فضلوا الدنيا على الآخرة، وآثروا الفانية على الباقية، وصرفوا الناس عن الدخول في دين الإسلام، وأرادوا أن يكون دين الله غير مستقيم، ليوافق أهواءهم، هؤلاء في بُعْدٍ عن الحق واضح، لا يُرجى لهم صلاح ولا فلاح، وقد ضلُّوا وأضلُّوا ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي وما بعثنا في الأمم السابقة رسولاً من الرسل، إلاّ بلغة قومه، ليبيِّن لهم شريعة الله، لتتمَّ الغايةُ من

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

الرسالة، فَيُضِل الله من لا خير فيه، ويهدي من فيه استعدادُ لقبول نور الله، وهو سبحانه العزيزُ في ملكه، الحكيم في صنعه.. نبَّه تعالى على أن وظيفة الرسول تبليغ الرسالة، وأمّا أمُر الهداية والإيمان، فذلك بيد الرحمن جلَّ وعلا وحده، يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، حسب علمه الشامل ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي واللهِ لقد أرسلنا رسولنا موسى، بالمعجزات الباهرات، الدالة على صدقه، وقلنا له: أخرج بني إسرائيل من ظلمات الجهل والكفر، إلى نور التوحيد والإيمان، وذكُرهم بأيام الله الخالدة، التي نصرهم الله فيها على فرعون الطاغية الجبار، ومكَّن لهم من ميراث ملكه، إن في هذا الأمر، لعبراً وعظات لكل عبدٍ صابر شاكر، وفي قوله ﴿أخرج قومك﴾ تنبيه على أن رسالة موسى خاصة لقومه «بني إسرائيل» بخلاف قوله لمحمد ﷺ ﴿لتخرج الناس﴾ ممَّا يدلُّ على عموم رسالته لجميع الخلق ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل، نِعَم اللهِ العظيمة الجليلة عليكم، حين نجَّاكم الله من الذلِّ والهوان، وأنقذكم من فرعون الطاغية الجبار، وزبانيته الأشرار الفجار، الذين كانوا يذيقونكم أسوأ أنواع العذاب، يُذبِّحون الذكور، ويستبقون الإناث على قيد الحياة، لا رحمةً بهنَّ، وإنما للخدمة والإهانة، وفي هذه المحنة ابتلاءٌ واختبار لكم من ربكم عظيم، وسببُ تذبيح الذكور، أن الكهنة والعرَّافين، أخبروا فرعون أن مولوداً من بني إسرائيل سيكون ذهاب ملكه على يديه، فأمر بذبح كل غلام ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ هذا من تتمة مواعظ موسى لقومه،

وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى

أي واذكروا أيضاً حين أعلم ربكم، إعلاماً واضحاً بيناً، لا شبهة فيه: لئن شكرتم إنعامي، لأزيدنكم من فضلي وإحساني، ولئن جحدتم نعمتي فإن عذابي أليم شديد ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي وقال موسى لبني إسرائيل ـ بعد أن يئس من إيمانهم ـ يا قوم إنكم لن تضرُّوا اللَّهَ شيئاً، فلئن كفرتم أنتم وجميع الخلق، فلن تضرُّوا ربكم، لأنه سبحانه لا تنفعه طاعة، ولا تضرُّه معصية، فهو الغني عن عباده، المستحقُّ للحمد وإن كفر به من كفر، فلو كفر أهلُ الأرض جميعاً، لم يُنقصوا من عظمة الله وجلاله شيئاً، ولو أطاعوه جميعاً لم يزيدوا في ملكه وسلطانه شيئاً، سبحانه تنزَّه عن النفع والضر!!

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي ألم يأتكم أخبار الأمم المكذبة لرسلها، ماذا صنع الله بها؟ كقوم نوح، وعاد، وثمود، والأمم الذين جاءوا بعدهم؟ لا يحصي عددهم إلا اللَّهُ؟ أهلك بعضهم بالطوفان، وبعضهم بالريح العاتية، وبعضهم بالصيحة المدمِّرة، جاءتهم الرسل بالمعجزات الواضحات، والبراهين الساطعات، فسخروا منهم واستهزءوا، حين سمعوا كلامهم، حتى وضعوا أيديهم على أفواههم من كثرة الضحك والسخرية، وأعلنوا كفرهم بهم صراحة، وقالوا لهم: إنا لفي شكٍّ عظيم من أمر رسالتكم، فما أنتم رسل اللَّهِ إنما أنتم مفترون ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى

قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي قالت لهم الرسل: يا عجباً، أفي وجود الله ووحدانيته شكٌّ؟ وهو الخالقُ لهذا الكون البديع، والمنشىء للسموات والأرض؟ يدعوكم إلى الإيمان، ليطهِّركم من الذنوب والعصيان، ويدخلكم الجنان، ويُمتِّعكم بالحياة السعيدة إلى منتهى آجالكم!! قال الكافرون ردّاً عليهم: ما أنتم إلاَّ بشرٌ مثلنا، لا فضل لكم علينا، تريدون بدعوتكم لنا، أن تصرفونا عن عبادة الأوثان، التي كان عليها آباؤنا، فأتونا بحجة واضحة على صدق دعواكم!؟ ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي أجابتهم الرسل بقولهم: صدقتم، نحن بشرٌ مثلكم، لسنا ملائكة، ولكنَّ الله خصَّنا بالوحي والرسالة، وهذا فضلُ الله يختصُّ به من يشاء من عباده، وما ينبغي لنا أن نأتيكم بمعجزة، مما اقترحتموه من عند أنفسنا، إلاَّ بمشيئة الله وإذنه، وما جئناكم به من المعجزات، كافٍ لإثبات صدقنا، فعلى الله وحده، فليعتمد أهلُ اليقين والإيمان، وكأنهم يقولون لهم: دعوا الجَدَل وتوكَّلوا علـى ربِّ الأربـاب!! ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ هذا من كلام الرسل، لمَّا رأوا قومهم يسخرون منهم، قالوا لهم: وما يمنعنا من التوكل على الله؟ وقد هدانا ربُّنا لأوضح الطرق، وأقومها، وأبينها؟ ولنصبرنَّ على أذاكم لنا بالكلام السيء، والأعمال الإجرامية، وعلى الله فليعتمد أهلُ التوكل والإيمان!! وإنما قصَّ تعالى هذا على نبينا محمد ﷺ، ليقتدي بالرسل الكرام في الصبر على أذى الكفار، وليعلم ما جرى لهم فيصبر كما صبروا ﴿**فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل**﴾.. وهنا يسفر الطغيان عن وجهه، متبجحاً بالقوة المادية، التي يملكها المتجبِّرون، ويتوعدون بها الرسل، بالبطش

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

والتنكيل ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي وقال الكفار الفجار لرسلهم: لنطردنكم من ديارنا، أو لترجعنَّ إلى ديننا!! وهذا كما قال قوم لوط السفهاء ﴿**أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون**﴾ وكما قال قوم شعيب ﴿**لنخرجنك يا شعيبُ والذين آمنوا معك من قريتنا**﴾ ولما تجرَّءوا على الرسل بهذه السفاهة، جاء الوعيد الإلهي للكفرة الفجار، بهذا الإنذار ﴿**فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين**﴾ أي أوحى الله إلى الرسل: لأهلكنَّ أعداءكم الفجرة المتجبرين، ولأسكنَنَّكم أرضهم وديارهم بعد هلاكهم، ذلك النصرُ للرسل، وإهلاكُ أعدائهم، لمن خاف عظمتي، وخاف عذابي ووعيدي!! لما أقسموا على إخراج الرسل، أو العودة إلى ملَّتهم، أقسم اللهُ على إهلاكهم، وأيُّ إخراج أعظم من الهلاك، بحيث لا يكون لهم عودة إليها أبداً ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي استنصر الرسلُ بالله على قومهم، وطلبوا نصرته وعونه، على أعدائهم المكذبين، وخاب وخسر وهَلَك، كلُّ متجبِّر معاند للحق، ومعنى الاستفتاح: طلب الفتح والنصر، أي طلبوا النصر فجاءهم النصر، أما أعداؤهم فقد أبيدوا وأهلكوا بعذاب عاجل، أما العذاب الآجلُ فذاك أدهى وأمرُّ، ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ أي أمام ذلك الكافر، جهنم تنتظره، وسوف يُسقى في النار شراباً من قيح ودم، وهو (الصديدُ)، الذي يخرج من بدن المريض والمعذَّب!!

قال مجاهد: هو القيحُ والدم وعُصارة أهل النار ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي يبتلعه الكافر ويشربه قهراً

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ٢٠ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾

وقسراً، ولا يكاد يستسيغه لقبحه، وسوء ريحه وطعمه، ويأتيه الموتُ من كل جانب، فلو كان هناك موت لماتَ، ولكنْ هيهات، لأن الموت يذبح يوم القيامة، كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري الذي رواه مسلم، وأمام هذا الكافر عذاب أشدُّ، وأعظمُ، وأغلظُ!! ثم ضرب تعالى مثلاً لأعمال الكفار الحسنة، وأنها تذهب أدراج الرياح، فقال سبحانه ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ أي مثلُ أعمال الكفار، كتراب طيَّرته الريح، في يوم اشتدت فيه العواصف، فلم تُبْقِ له أثراً.. شبَّه تعالى أعمالهم، وهي الأعمال الحسنة التي عملوها في الدنيا، يطلبون بها الأجر، من صلة الأرحام، ورعايةِ الأيتام، وإطعام الفقراء والمساكين، وعون المظلومين، وأمثالها من أعمال البر والإحسان، شبَّهها في ضياعها وحبوطها، برمادٍ يعني تراب، طيَّرته الرياحُ في يوم عاصفٍ، شديد العواصف والزوابع، فلم تترك له أثراً!! ﴿لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد﴾ أي لا يستطيعون تحصيل أيِّ شيء من العمل، ولا تحصيل ثوابه، لإحباطه بالكفر، كما لا يستطيع الإنسان أن يحصل على شيء من التراب، الذي طيَّرته الريح، وذلك هو الخسران المبين، الذي لا يوازيه خسران ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ أي ألم تر أيها المخاطب العاقلُ، أن الله العظيم الجليل، خلق السموات والأرض بالحقِّ، لم يخلقهن عبثاً إنما خلقهن لأمرٍ عظيم؟ ولو شاء تعالى لأهلككم أيها الكفار، وجاء بقومٍ غيركم، يكونون خيراً منكم، وأعبدَ لله وأطوع، وليس ذلك بصعب على الله تعالى، لأنه قادرٌ على الإفناء، كما هو قادر على الإحياء!! ثم تنتقل الآيات لتبيِّن شقاءَ الكافرين وخسرانهم، يوم الحشر الأكبر، فيقول سبحانه ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ أي

قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

خرجوا من قبورهم لموقف الأحشر الأكبر، الرؤساء والزعماء، والأتباعُ والضعفاء، الجميع بارزون أمام ملك الملوك، جبار السموات و الأرض، لا يسترهم عن الله ساتر، فيقول الأتباع الضعفاء، لسادتهم الكبراء، الذين أضلُّوهم في الدنيا: إنَّا كنَّا أتباعاً لكم نأتمر بأمركم، ونطيعكم في كل شيء، فهل أنتم دافعون عنَّا شيئاً من عذاب الله؟ وهل تخلِّصوننا مما نحن فيه من الشقاء؟ ﴿قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي قال الرؤساء معتذرين لهم: لو أراد الله بنا الخير، وهدانا للإيمان، لهديناكم إليه، ولكنْ شقينا وضللنا فأضللناكم، فلا ينفعنا اليوم عتابٌ ولا جزع، ويستوي علينا الصبر والجزع، فليس لنا مهرب ولا ملجأ من عذاب الله، والمرادُ تقنيط أتباعهم من رحمة الله، ويا له من موقفٍ مخزٍ لأعداء الله!! ثم تتحدث الآيات عن دخول الكفار نار الجحيم، وخطبة إبليس الشهيرة في أتباعه وأشياعه، فيقول سبحانه ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذه الخطبة هي «الخطبة البتراء» التي يخطب بها إبليس في جهنم، وهم ينهالون عليه باللعنات، فيقف ويترجل هذه الخطبة الجهنمية، أي وقال الشيطان بعد أن دخل أهلُ النار النار: يا أتباعي ويا أحبابي، إن الله وعدكم وعداً صادقاً، أن من آمن به وأطاع رسله، له النجاة والسلامة، ووعدتكم أن لا بعث ولا نشور، ولا حساب ولا عقاب، فخدعتكم وكذبتُ عليكم، وما كان لي عليكم تسلُّطٌ وقهرٌ، حتى أجبركم على طاعتي، إلاَّ دعائي لكم بطريق الوسوسة والإغراء، فأطعتموني وعصيتم ربكم، فلا تلوموني اليوم ولوموا أنفسكم، فإن الذنب ذنبكم، ولستُ اليوم بمصرخكم أي مغيثكم ومنجيكم من

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾

عذاب، كما أنكم لا تستطيعون إنقاذي من عذابه، إنني اليوم أتبرأ منكم ومن عبادتكم لي من دون الله، وإن الكفار لهم عذاب موجع مؤلم» هذه هي خطبته الشهيرة في أتباعه أهل الجحيم!! وبمقابلة هؤلاء الأشقياء، يأتي الحديث عن نعيم السعداء، فيقول سبحانه ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي وأُدخل المؤمنون السعداء، حدائق وبساتين ناضرة، تجري من تحت غرفها وقصورها أنهارُ الجنة، أنهارُ اللبن، والعسل، والماء السلسبيل، وأنهار الخمر التي هي لذة للشاربين، كما قال سبحانه **﴿فيها أنهار من ماءٍ غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى﴾** ولهم مع هذا النعيم، الخلودُ الدائم في الجنة، تحيِّهم الملائكة في الصباح والمساء، ويسلِّم عليهم ربُّ العزة والجلال **﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾** ثم ضرب تعالى مثلاً لكلمة الإيمان، ومثلاً آخر لكلمة الكفر، بالشجرة الطيبة، والشجرة الخبيثة، فقال سبحانه ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ هذا مثل المؤمن، أي مَثَلُ كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) التي في قلب المؤمن، كشجرةٍ مثمرة طيبة، فالمؤمنُ طيِّبٌ كمثل الشجرة الطيبة، طابت تربتها، فطاب ثمرها وفاكهتها، ورسخت أصولها في الأرض، وامتدت أغصانها في الهواء، فأعطت ثمارها زاهيةً وافية، ناضجة.

قال ابن عباس: «الكلمة الطيبةُ: «لا إله إلا الله» والشجرة الطيبة: قلبُ المؤمن» وهذا مثلٌ ولهذا ختم الله الآية بقوله **﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾** فالغرضُ من ضرب الأمثال: التدبُّرُ والاعتبار ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ هذا مثلٌ للكافر، وعملِه الخبيث، أي ومثلُ كلمة الكفر، كمثل شجرة خبيثة

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

«شجرة الحنظل» استؤصلت من جذورها، واقتلعت من الأرض، لا خير فيها ولا نموٌّ، ولا ثَمر ولا بركة، وذلك مثلُ الكافر لا يُقبل عملُه، ولا يصعد إلى الله تعالى، لأنه ليس له أصلٌ في الأرض ثابت، ولا فرع في السماء صاعد ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ أي يثبِّتُ الله المؤمن الصادق في إيمانه في الدنيا، على كلمة التوحيد والإيمان، فلا يزيغ ولا يضلُّ، ويثبِّته في القبر عند سؤال الملكَيْن له، ويضلُّ الله أهل الشرك والنفاق، ويفعل الله ما يريد، وفي الحديث الصحيح عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: (المسلم إذا سُئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)، فذلك قوله تعالى ﴿**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة**﴾ رواه البخاري، وكان ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل، وقف عليه وقال لأصحابه: (استغفروا لأخيكم وأسألوا له التثبيت، فإنه الآن يُسأل) رواه أبو داود ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ الاستفهامُ للتعجيب، أي ألا تعجب أيها السامعُ من أولئك الذين غيرَّوا نعمة الله، بالكفر والتكذيب؟ وأنزلوا قومهم دار الهلاك والدمار؟ وهي جهنم يذوقون حرَّها وسعيرها، وبئست جهنم مستقراً لهؤلاء الفجرة الكفار!!

قال ابن عباس: «هم كفار مكة» أسكنهم اللهُ حَرَمه الآمن، وجعل عيشهم في سَعَة، وبعث فيهم محمداً ﷺ فآذوه وكذَّبوه، فابتلاهم الله بالقحط والجدب سبع سنين، حتى أكلوا الجلود والوَبَر، والآية وإن نزلت في أهل مكة، إلا أنها تعمُّ جميع الكفار، لأن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي جعلوا لله شركاء من الأصنام والأوثان، عبدوهم معه، ليضلُّوا الناسَ عن دين الله

قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾

الحقّ، قل لهم: استمتعوا بنعيم الدنيا وزينتها، فإن مرجعكم ومآلكم إلى نار الجحيم ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ أي قل لعبادي المؤمنين المتقين، يؤدوا الصلاة المفروضة على الوجه الأكمل، وينفقوا مما أكرمناهم به من الرزق الحلال، في الخفاء والعلانية، من قبل أن يأتي ذلك اليوم العصيب الشديد، الذي لا انتفاع فيه ببيع ولا صداقة، ولا فداء ولا شفاعة، والخلالُ معناها: الصُّحْبةُ والصداقة، جمع خُلَّة، كما قال تعالى ﴿من قبل أن يأتي يومٌ لا بيع فيه ولا خُلة ولا شفاعة﴾ وهو يوم القيامة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾ تذكيرٌ بنعم الله على العباد، أي اللهُ جلَّ وعلا هو الذي أبدع خلق السموات والأرض واخترعهما على غير مثالٍ سابق، وأنزل لكم المطر من السماء، فأخرج لكم به من أنواع النباتات والزروع والثمار، رزقاً للعباد، وسخَّر أي يسَّر وذلَّل لكم السفن، تسير على وجه الماء برحمته وفضله، وشقَّ لكم الأنهار العذبة، تسير من قطر إلى قطر، للشرب والسقي والزراعة ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ أي وذلَّل لكم الشمس والقمر، يجريان بانتظام لا يفتران، لصلاح أنفسكم ومصالحكم، وسخَّر لكم الليل والنهار، لتسكنوا في الليل، ولتبتغوا من رزق الله في النهار، الليلُ للسكن والراحة،

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾

والنهار للعمل والمعاش، وأعطاكم كل ما تحتاجون إليه في حياتكم، مما سألتموه أولم تسألوه، وإن أردتم أن تعدُّوا نعم الله عليكم، لا تطيقون حصرها ولا عدَّها، فإنها لا تكاد تُحصى، إن الإنسان لمبالغ في الظلم والجحود لنعم الله تعالى ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ أي قال إبراهيم يا رب: اجعل مكة بلد أمنٍ، يأمن أهله وساكنوه!! استجاب الله دعاءه، فأطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف، ﴿واجنبني﴾ أي احفظني واحمني وذرياتي وأولادي من عبادة الأوثان والأصنام، استجاب الله دعاءَ إبراهيمَ فحطَّم خاتم الأنبياء ﷺ الأصنام حين فتح مكة، وطهَّرها من شرك الوثنية ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي يا ربِّ إن هذه الأصنام أضلَّتْ كثيراً من الخلق عن الإيمان، فمن أطاعني فإنه من أتباعي، وأهل ديني، ومن خالف أمري فإنك يا رب غفار الذنوب، رحيم بالعباد ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ أي يا ربنا إني أسكنت من ذريتي، ولدي «إسماعيل» وأمَّه «هاجر» بوادٍ قاحل، ليس فيه زرع، في جوار بيتك الحرام، يا رب لكي يقيموا الصلاة ويعبدوك، أسكنتهم في هذا الوادي، فاجعل قلوب الناس تطير إليهم شوقاً، وارزقهم من أنواع الخيرات والثمار، ليشكروك على فضلك وإنعامك!!

قال ابن عباس: «لو قال: أفئدة الناس، لازدحمَتْ عليه فارسُ والرومُ والناسُ كلُّهم، ولكنه قال ﴿أفئدة من الناس﴾ أي بعض الناس، وهم المسلمون» ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي يا ربنا إنك تعلم سرَّنا وجهرنا،

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾

وأنت العالمُ بما في الضمائر، لا يخفى عليك شيء في هذا الكون، لا في الأرض ولا في السماء، وغرضُ إبراهيم أن يرزقه الله الإخلاص والقبول، ويجعل باطنه خيراً من ظاهره ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي الحمد لله الذي رزقني على شيخوختي وكبر سني، ولدَيْن بارَّين: (إسماعيل، وإسحق)، إن ربي مجيبٌ لدعاء من دعاه، وكان عمره حين وُلد له «إسماعيل» أكثر من مائة سنة، ولدته له «هاجر» ووُلد له من زوجه «سارة» إسحاق، وكانت عقيماً لا تلد، ولذلك ذكر هذه النعمة ثناءً على الله ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ أي يا ربِّ اجعلني ممن حافظ على الصلاة، واجعل من ذريتي من يحافظ عليها، وهذه خير دعوةٍ يدعو بها المؤمن لأولاده، لأنها الحصنُ الحصين للإيمان، وهي عمود الدين وأساسه!! وختم إبراهيم الخليل هذه الدعوات السبع، بالاستغفار له ولوالديه ولجميع المؤمنين والمؤمنات، إلى يوم (يقوم الناس لرب العالمين)، وهذه هي نهاية سُؤله، وغايةُ قصده!! وبعد الحديث عن أبي الأنبياء، ينتقل الحديثُ إلى مشاهد القيامة، وما يكون فيها من الشدائد والأهوال، التي تضطرب لها القلوبُ، وتتزلزل لها الأقدام، فيقول سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي لا تظننَّ أن ربَّك ناسٍ لأعمال الظلمة، إنما يؤخِّرهم ليوم عصيب رهيب، تشخص فيه الأبصار، فتبقى مفتوحة مبهوتة، لا تتحرك الأجفانُ من شدة الفَزَع والهَلَع، والآيةُ وعيدٌ للظالم، وتعزيةٌ للمظلوم، فإن سنة الله إمهال الظلمة، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ أي مسرعين لا يلتفتون إلى شيء، رافعي رؤوسهم من الذلِّ والخشوع، لا ينظر أحدٌ إلى أحد، لا يطرفون

وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾

بعيونهم من الخوف والفزع، كحال المجرم الذي يُساق إلى حبل المشنقة، لا يفكِّر في شيء مما حوله، (وأفئدتهم هواء) أي قلوبهم خالية من العقل، لا تدري ما تفعل!؟ ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ﴾ أي خوِّف يا محمد الظلمةَ والكفَّارُ، من هول يوم القيامة، حين يأتيهم العذاب الشديد، فيقول أهلُ الظلم والفجور، يا ربنا أمهلنا إلى زمنٍ قريبٍ، نستجيب لدعوة رسلك إلى الإيمان، ونطيعهم ونتَّبعهم!! فيقال لهم تأنيباً وتوبيخاً ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي أو لم تحلفوا أنكم باقون في الدنيا، لا تنتقلون منها إلى دار أخرى؟ وتعتقدون أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء؟ وسكنتم في مساكن الظالمين بعد أن أهلكناهم، فهلاَّ اعتبرتم بمصارعهم!! وظهر لكم كيف أهلكناهم وانتقمنا منهم؟ ولكنكم لم تعتبروا ولم تتعظوا، مع كثرة الأمثال التي ذكرناها لكم ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ أي وقد مكر المشركون مكرهم الخبيث، الذي استفرغوا فيه جهدهم، حين أرادوا قتل النبي ﷺ وإطفاء نور الله، وعند الله جزاءُ هذا المكر ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك﴾ وكان هذا التآمر والمكر بدار الندوة، وقد كان مكرهم من القوة والتأثير، بحيث يكاد يصل إلى زوال الجبال، ولكنَّ الله حفظ رسوله، وعصمه ووقاه من شرهم، وردَّ كيدهم في نحورهم ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي لا تظنن أيها المخاطب أن الله يخلف رسله الوعد لهم،

يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

بنصرهم وإهلاك أعدائهم، إنه تعالى قاهر لا يعجزه شيء، منتقم ممن عصاه، فوعدُ الله للرسل لا يُخلف، وانتقامه من أعدائهم قريب، وإنما أخَّر نزوله لذلك اليوم الرهيب ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي يوم تتبدَّل الأرضُ والسموات، فتتبَّدل هذه الأرضُ بأرض أخرى، وتتبدَّل السموات بسموات أخرى، وخرجت الخلائق جميعها من قبورهم فزعين، وَمَثُلُوا بين يدي أحكم الحاكمين، الواحد القهّار، الذي قهر الملوك والجبابرة والناس جميعاً، فأتوا ربهم ذليلين خاضعين ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ أي وفي ذلك اليوم الرهيب، تبصر المجرمين مربوطين بالسلاسل والأغلال ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي ثيابهم التي يلبسونها من الزِّفت الأسود، المنتن الريح، الذي يحرق الجلود بحرِّه وشدته، وتغطِّي وتُجلّل وجوهَهم نارُ جهنم، مع الخزي والكآبة، وجزاء المكر والاستكبار ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي ليجازي الله كلَّ إنسان على عمله، يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، إن حساب الله سريع، يحاسب جميع البشر في زمن قصير، لأنه لا يشغله شأن عن شأن ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي هذا القرآن بلاغ لجميع الخلق، وليخوفوا بما فيه من الإنذار، وليتحققوا بصدق أقواله، وليتعظ أصحاب العقول السليمة، بآي الذكر الحكيم.

انتهى تفسير سورة إبراهيم

● ● ●

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾

تفسير سورة الحجر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ «الٓر» الحروف المقطَّعة للإشارة إلى إعجاز القرآن، فهذا الكتاب المعجز كلام الله، منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية، وهذه آيات الكتاب، الكامل في الفصاحة والبيا ن، الواضح الجليّ، الذي لا خلل فيه ولا اضطراب، وسوف يتمنَّى الكفارُ أن لو كانوا في الدنيا مسلمين، رُوي (أن الكفار إذا دخلوا النار، يدخل معهم العصاةُ من المؤمنين، فيقول لهم الكفار: ألم تكونوا مسلمين؟ فيقولون: بلى، فيقولون لهم: ماذا نفعكم إسلامكم؟ وأنتم معنا في النار؟ فيأمر الربُّ جلَّ وعلا بإخراج كل من كان مسلماً، فيخرجون من النار، فحينئذٍ يود الكفار لو كانوا مسلمين)، رواه الطبراني وابن أبي حاتم ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ وعيدٌ وتهديد، أي دعهم في غفلتهم، يأكلون كما تأكل البهائم، ويستمتعون بهذه الدنيا الفانية، ويشغلهم الأملُ بطول الأجل، فسوف يعلمون عاقبة الكفر والضلال ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ أي وما أهلكنا أهل بلدة من البلاد الظالمة، إلاَّ ولها أجلٌ محدود لإهلاكها، لا يتقدَّم وقتُ هلاكها ولا يتأخر، فلا ينبغي أن يَغْترُّوا بحلم الله عليهم بتأخير العذاب!! بيَّن تعالى أن هلاك الطغاة المكذبين، له أجل ووقت محدَّدٌ عند الله، لا يتقدَّم عليه ولا يتأخر، كما قال سبحانه ﴿وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾ ثم ذكر تعالى استهزاء كفار مكة بالرسول، وإتهامهم له ـ وحاشاه ـ بالجنون، فقال سبحانه ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ أي قال السفهاء من كفار مكة لخاتم الأنبياء، على سبيل السخرية والاستهزاء:

لَوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

يا أيها الذي يزعم، أن القرآن نزل عليه، إنك حقاً لمجنون، أكَّدوا الخبر بـ«إنَّ» و«اللام» مبالغةً في الاستخفاف بمقامه الشريف عليه السلام، وإمعاناً منهم في الغيّ والضلال، كما قال فرعون الطاغية عن موسى **﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾** ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي هلاَّ جئتنا بالملائكة لتشهد لك بالرسالة، إن كنت صادقاً في دعوى أنك رسولٌ؟ هكذا يقابل السفهاء سيِّد الرسل، بالسخرية والاستهزاء، قال تعالى ردّاً عليهم وتجهيلاً لهم فيما طلبوا ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ أي ما ننزِّل ملائكتنا إلاَّ بالعذاب الشامل، لمن أردنا إهلاكه، فكيف يطلبون ما فيه عذابهم وهلاكهم؟ ولو أنزلنا الملائكة لم نمهلهم طرفة عين ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي نحن بعلمنا وعظمة شأننا، نزَّلنا عليك القرآن يا محمد، ونحن الحافظون له، نصونه من التبديل والتغيير!! لقد تكفَّل الله بحفظ هذا الكتاب المجيد، فلم يقدر أحدٌ على الزيادة فيه أو النقصان، ولم يتكفَّل بحفظ الكتب السماوية السابقة، بل وَكَل أمر حفظها إلى أربابها، فبدَّلوا وغيَّروا **﴿بما استحفظوا من كتاب الله﴾** أي طُلب منهم حفظها من العبث والتبديل، وقال عن القرآن **﴿وإنا له لحافظون﴾** فلم يستطع أحد، ولن يستطيع أن يتلاعب في هذا القرآن، كائناً من كان ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ تسليةٌ للنبي ﷺ، والمعنى لقد أرسلنا قبلك يا محمد رسلاً كثيرين، إلى الأمم السابقين، إلى طوائف وفرق منهم، فكذَّبوهم وسخروا منهم، فلا تحزن لتكذيب قومك لك، فهذه سنة الأنبياء من قبلك **﴿يا حسرةً على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾** ثم قال تعالى ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي كذلك نُدخِلُ الباطلَ والضلال، في قلوب أولئك المجرمين، ليزداد عذابهم

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾

وشقاؤهم، لا يصدِّقون بالقرآن، وقد مضت سنتنا في إهلاك الطغاة المكذبين، فما أقرب قومك من الهلاك والدمار!! ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ هذا بيانٌ لما انطوت عليه نفوس المشركين، من المكابرة والجحود والعناد، والمعنى: لو فُرض أننا أعطيناهم مطلوبهم، وصعدنا بهم إلى السماء، فرأوا عجائب خلق الله، ورأوا بأم أعينهم الملائكة، لقالوا على سبيل العناد والمكابرة: لقد سحرنا محمد، فخيَّل إلينا الصعود إلى السماء، وسُدَّت أبصارنا وخُدعت بهذا الصعود والارتقاء، وما هذا إلاَّ سحرٌ مبين، وهذا بيان لشدة جبروتهم وطغيانهم، كمن يرى الشمس في وَضَح النهار، ثم يقول: لا شمس ولا نهار، وإنما هو وهمٌ وخيال.. ثم ذكر تعالى الدلائل والبراهين على قدرته ووحدانيته فقال سبحانه ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ أي جعلنا في السماء بروجاً أي منازل ومدارات، تدور فيها تلك النجوم الزاهرة، وحفظنا السماء من كل شيطان ماردٍ، مطرودٍ من رحمة الله، إلا من اختلس شيئاً من أخبار ملائكة السماء، فلحقه شهاب ثاقب فأحرقه، والشهاب شعلة من النار، تنفصل من بعض النيازك، تُرجم بها الشياطين ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ أي والأرض بسطناها ووسعناها بالسهول الفسيحة ـ مع كرويتها ـ وجعلنا فيها جبالاً ثوابت، هي كالرواسي للسفينة، لئلا تنقلب بأهلها، وأنبتنا في الأرض من الزروع والثمار، من كلِّ شيء موزونٍ بميزان الحكمة والقدرة، المطرُ بميزانٍ، والهواءُ بميزان، والنباتُ بميزان، وكلُّ شيء موزونٌ بدقة وحكمة وتقدير ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ أي وجعلنا لكم في الأرض، ما تعيشون به: من المطاعم، والمآكل، والمشارب، ومعاشاً لأنعامكم وخدمكم

وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾

ومماليككم ـ أي عبيدكم ـ ولستم ترزقونهم أنتم بل نحن نرزقهم، فرزقُهم علينا لا عليكم ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي ما من شيء من أرزاق العباد، إلا عندنا خزائنه ومستودعاته، وما ننزلُه إلا حسبَ حاجة الخلق، وعلى مقدار المصلحة ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ أي وأرسلنا الرياح تلقِّحُ السحابَ، فينزل منه المطر، وتلقِّح الشجر فيخرج منه الثمر، فالريحُ كالذَّكر، لتلقيح السحاب والشجر، فأنزلنا من السحاب ماءً عذباً فراتاً لسقياكم، وسقيا زروعكم وأنعامكم، ولستم بقادرين على خزنه في الأرض، ولكن نحن نحفظه لكم بقدرتنا، في العيون، والآبار، والأنهار ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ أي بيدنا الحياة والموتُ، نحيي الخلق ثم نميتهم، ونحن الباقون بعد فناء العباد، نرث الأرض ومن عليها وإلينا يُرجعون ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ أي أحطنا علماً بجميع الخلق، الأموات منهم والأحياء.

قال ابن عباس: المستقدمون: كلُّ من هلك ومات من لدن آدم عليه السلام، والمستأخرون: من هو حيٌّ إلى يوم القيامة، والغرضُ بيان أن علمه تعالى محيط بمن تقدَّم ومن تأخر من البشر، لا يخفى عليه شيء من أحوال العباد ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي وإن ربك هو الذي يجمعهم يوم القيامة، للحساب والجزاء، إنه تعالى حكيم في صنعه، عليم بخلقه. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ أي ولقد خلقنا أباكم آدم من طين يابس، يُسمع له صلصلة أي صوت إذا نُقِر عليه، والحمأ: الطينُ الأسود، ومعنى (مسنون) أي متغيِّر، والجنَّ خلقناهم قبل خلق آدم من نار السموم، أي النار الحارة الشديدة، وعنى بالجانِّ هنا «إبليس» أبا الجن، فهو أصلٌ للجن،

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾

كما أن آدم أصلٌ للإنس، نبَّه تعالى البشر إلى مبدأ أصلهم وتكوينهم من نفسٍ واحدة، ليشير سبحانه إلى أن القادر على الإحياء، قادر على الإفناء، ثم الإعادة بعد الموت، وذكَّرهم بعداوة إبليس لأبيهم آدم ليحذروه ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ أي قال الله عزَّ وجل للملائكة: إني سأخلق بشراً من الطين الأسود المتغيِّر، فإذا خلقته ونفختُ فيه الروح، فاسجدوا له سجود (تحية وتكريم)، وأضاف الروح إليه سبحانه ﴿من روحي﴾ على سبيل التشريف والتكريم، ، مثل (ناقة الله) و(بيت الله) وهي من إضافة الملك إلى المالك ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي سجد لآدم جميع الملائكة، لم يمتنع منهم أحد، لكنْ إبليس امتنع عن السجود، والاستثناءُ هنا منقطع، لأن إبليس لم يكن من الملائكة، لقوله سبحانه في الكهف ﴿إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ لكنْ كان في صفِّ الملائكة ـ أي في زمرتهم ـ وتوجَّه له أمر خاص من ربِّ العزة والجلال ﴿قال ما منعك أن لا تسجد إذْ أمرتك﴾ فهناك أمرٌ للملائكة عام، وأمرٌ آخر لإبليس ـ لعنه الله ـ خاصٌ، فالملائكة استجابت وسجدت، وإبليس أبى وتكبَّر ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي لماذا امتنعتَ عن السجود لآدم؟ وأبيتَ أن تسجد مع الساجدين؟ ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أي ما الذي منعك من السجود لآدم؟ قال إبليس: لا يليق لمثلي، أن يسجد لمخلوقٍ، من طين يابس متغير؟ فهو من طين وأنا من نار، فكيف يسجد الشريف للحقير؟ تكبَّر عدوُّ الله على أمر ربه، فطرده الله ولعنه، وأبعده عن مكان القدس ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي اخرجْ من السموات، فإنك مطرود من رحمتي، وإن عليك

قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾

اللعنة إلى يوم القيامة ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ أي قال إبليس: يا ربِّ أمهلني وأخرني إلى يوم البعث!؟. قال إنك من المؤجَّلين، إلى اليوم الذي يموت فيه جميع الخلق، أراد بقوله (إلى يوم يبعثون) أن لا يموت، لأنه لا موت بعد يوم البعث، فلم يعطهِ اللَّهُ ذلك!! ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي أُقسمُ لك بسبب إغوائك وإضلالك لي، لأزيننَّ لذرية آدم بالمعاصي، والشهوات، ولأضلنهم عن طريق الهدى أجمعين، إلاَّ الذين أخلصتهم من عبادك لنفسك، فلا أقدر عليهم ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أي قال الله لإبليس: هذا طريقٌ واضحٌ مستقيم. عليَّ أن أحميه وأرعاه، إنك لا تستطيع إغواء عبادي المتقين، ولا قدرة لك على إضلالهم، لأنهم في حفظي ورعايتي، لكنْ من غوى وضلَّ من البشر، فلك عليهم قدرة وتسلُّطٌ، وإن جهنم مصير أولئك الأشقياء، لها سبعة أبواب يدخلون منها لكثرتهم، ولكلٍّ من أتباع إبليس باب معيَّن معلوم!! أخبر تعالى أن إبليس ليس له قدرة على إضلال جميع الخلق، إنما يغوي الشاردين منهم عن الله، كما يتسلَّط الذئب على الشاردة من الغنم.. وبعد الحديث عن الأشقياء أهل الجحيم، جاء الحديث عن السعداء أهل النعيم، فقال سبحانه ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أي إن المتقين الذين خافوا ربهم، واجتنبوا محارمه، لهم في الآخرة الحدائقُ الزاهرة، والبساتينُ الناضرة،

لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾

والعيونُ المتفجرة بالماء السلسبيل، ويُقال لهم يوم القيامة: ادخلوا الجنة سالمين من كل المخاوف والآفات، ومن زوال هذا النعيم، وأزلنا ما في قلوبهم من الحقد، والبغضاء، والشحناء، وجعلناهم إخوةً متحابين، لا يكدِّرُ صفوهم شيء، على سرر من الذهب مكلَّلة بالدرِّ والياقوت، وجوه بعضهم إلى بعض، تدور بهم الأسرَّةُ كلما داروا، ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ لا يمسُّهم في الجنة (نصبٌ) أي إعياءٌ وتعب، ولا هم مخرجون من الجنة، لأنها دار الهناء والصفاء، ودار الخلود الدائم، كما جاء في الصحيحين يُقال لهم (يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت) وفي الحديث أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: (يُقال لأهل الجنة: إن لكم أن تصحُّوا فلا تَسْقَموا ـ أي تمرضوا ـ أبداً، وإن لكم أن تَحْيَوْا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشِبُّوا ـ أي تبقوا شباباً ـ فلا تهرموا أبداً) رواه مسلم. ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ الآية جمعت بين مقامي: (الرجاء، والخوف)، و(الترغيب، والترهيب)، أي أخبرْ يا محمد عبادي المؤمنين، أن رحمتي واسعة، لمن تاب وأناب، وأن عذابي شديد لمن كفر وفجر، والآية تُدْخِل الأنس والسرور، إلى قلوب العصاة المذنبين، فالمسلم مهما كثرت ذنوبه، لا ينبغي أن يقنط من رحمة الله، فإن الله غفار الذنوب جميعاً، ورحمته سبقت غضبه، وقد ورد في سبب نزول هذه الآية، أن النبي ﷺ مرَّ بنفرٍ من أصحابه وهم يضحكون، فقال: أتضحكون والنارُ بين أيديكم؟ ثم خرج ﷺ حتى إذا كان عند مقام إسماعيل رجع إليهم فقال لهم: إني لمَّا تركتكم، جاءني جبريل عليه السلام، فقال لي يا محمد: إن الله يقول: لمَ تُقنِّط عبادي؟ **﴿نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم. وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾** رواه ابن جرير ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أي أخبرهم عن قصة ضيوف إبراهيم، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، ومرُّوا بطريقهم على إبراهيم، فسلَّموا عليه وردَّ عليهم السلام، ولمَّا قدَّم لهم الطعام ولم يأكلوا

قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾

منه، قال لهم: إنَّا منكم خائفون لماذا لا تأكلون؟ قالوا: لا تخف فإنا ملائكةُ ربك ولسنا بشراً، وقد جئنا لنبشرك بغلام واسع العلم والذكاء ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ أي أتبشروني بغلام وأنا في سنِّ الشيخوخة والهرم؟ فبأيِّ أعجوبةٍ تبشروني؟ قالوا بشرناك بالأمر المحقَّق، الكائن لا محالة، فلا تيأس من رحمة الله!! قال: لا يقنط من رحمة الله إلاَّ الشقيُّ الضالُّ، ومراده نفي القنوط عن قلبه على أبلغ وجه، أي ليس بي يأسٌ مطلقاً، وكان تعجب إبراهيم باعتبار (العادة) دون القدرة، فإن الله قادر على أن يخلق بشراً من غير أبوين، فكيف من شيخ هرم، وعجوز عاقر؟ ثم يلتفت ليسألهم عن السبب الذي جاءوا من أجله ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي ما شأنكم وما أمركم الخطير، الذي جئتم من أجله، أيها الرسل الكرام؟ قالوا: لقد أرسلنا ربنا لإهلاك هؤلاء الفجرة قوم لوط، إلاَّ أهله وأتباعه المؤمنين، فسينجون من ذلك العذاب المهين، ما عدا زوجة لوط فإنها ستهلك مع الهالكين، استثنوا من أهل لوط امرأته، لأنها كانت كافرة، فالتحقت بالمجرمين في الهلاك ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي فلما جاءت الملائكة لوطاً عليه السلام، قال لهم: إنكم قوم غرباء لا أعرفكم، فماذا تريدون؟ ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ أي جئناك بالعذاب الذي كان فيه قومك يشكُّون، وجئناك بالأمر اليقيني من عذابهم، وإنا لصادقون فيما

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾

نقول.. جاءوه بصورة شبابٍ حسانِ الوجوه، مُرْد، لا يُرى عليهم أثر السفر، وقومُه السفهاء يعشقون الغلمان، فلذلك أنكرهم، ثم قالوا له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ أي سِرْ بأهلك في طائفة من الليل، وسِرْ خلفهم لتطمئنَّ عليهم، ولا يلتفت منكم أحدٌ وراءه، وسيروا إلى جهة بلاد الشام، حيث أمركم الله، وأخبروه أن قومه المجرمين، سَيُسْتَأصلون عن آخرهم، عند طلوع الصباح، حتى لا يبقى منهم أحد!! خشيت الملائكةُ أن يرقَّ قلبُ لوط على قومه، فيطلب تأجيل العذاب، فأخبروه أنه أمر محقق صدر من الرحمن، فلا يُردُّ ولا يُؤخَّر، ثم أمروه بأن يخرج سريعاً في جناح الليل، قبل أن يبزغ الفجرُ، ولا يلتفت من أتباعه أحد، لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم من البلاء فيرتاع، وقطعُ الدابر: كناية عن الإفناء الكليّ والهلاك ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ أي أقبل قوم لوط يُسرعون الخُطى، فرحين مستبشرين بنوع من الصيد ثمين، قال لهم نبيُّهم لوط: هؤلاء ضيوفي فلا تهينوني بالإعتداء عليهم، ولا تُلْحِقوا بي الخزي والعار، وخافوا الله أن يحلَّ بكم عقابُه!! ولكنْ ماذا كان جواب أولئك الفجار؟ ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي قال قومه السفهاء: ألسنا قد نهيناك أن تعارضنا في أحد من الناس، إذا قصدناه بالفاحشة؟ قال لهم لوط: هؤلاء نساء البلد، فتزوجوا بهنَّ إن كنتم تريدون قضاء الشهوة، نسبهنَّ إليه (بناتي) لأن كَلَّ نبيّ يعتبر أباً لأمته، ومراده بناتُ البلد.. لقد جاء هؤلاء الأشقياء يهرولون، فرحين مستبشرين، كأنهم عثروا على صيدٍ ثمين!! إنهم لم يهرعوا لضيافتهم، كما هو شأن الرجل الفاضل، وإنما هرعوا ليفجروا بهم، ولم يدروا أنهم ملائكة، جاءوا لإهلاكهم ودمارهم، والتعبير هنا بقوله

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

﴿يستبشرون﴾ يكشف لنا عن مدى القباحة والشناعة، التي وصل إليها القومُ في الدنس والفجور، يكشف عن هذا الانحطاط القذر، الذي تردَّىٰ إليه هؤلاء السفهاء المجرمون، في مشهد أهل المدينة يجيئون جماعات، مستبشرين بالعثور على شباب، يعتدون عليهم، علناً وجهاراً، دون رادع من حياء أو خجل، يريدون (اللواطةَ) التي يترفع عنها (الحيوان)، بينما أولئك السفهاء المجرمون، يجاهرون بالفاحشة، ويسعون إليها وهم مستبشرون، قال بعض علماء السلف: ما نزا ذَكَر على ذكر، حتى كان قوم لوط الخبثاء!! ثم يأتي التعقيب الربانيُّ في قوله سبحانه: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي أُقسم بحياتك يا محمد، وأقسم لك أن قوم لوط، لفي ضلالهم وجهلهم يتخبَّطون، ويتردَّدون حيارى، كالسكران الذي فقد عقله.

قال ابن عباس: (ما خلق الله ولا ذَرأ ولا برأ، نفساً أكرم عليه من نفس محمد، وما سمعتُ الله أقسم بحياة أحدٍ غيره) رواه ابن أبي حاتم، والعَمْرُ بفتح العين معناه: الحياةُ والعُمُر، وفي القسم بحياة النبي ﷺ تشريف عظيم لمقامه الكريم، ورفعٌ لجاهه وقدره، حيث أقسم ربُّ العزة والجلال بحياة سيد الرسل عليه السلام، ثم أخبر تعالى بما حلَّ بأولئك المجرمين فقال ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي أخذتهم صيحة العذاب المدمِّرة، وقت شروق الشمس، فقلبنا بهم ديارهم، فجعلنا أعالي المنازل أسافلها، حيث حَمَل جبريل قراهم، واقتلعها من جذورها، ثم قلبها بهم، ثم نزلت عليهم حجارة من السماء، كالمطر الزاخر، من طينٍ متحجر، يشبه الرصاص القاتل، فإذا بهم صرعى، قد زهقت أرواحهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إن في ما حلَّ بهؤلاء المجرمين من الدمار، لعلامات للمعتبرين، المتأملين بعين البصر والبصيرة، الذين يعتبرون ويتَّعظون، وإن هذه القرى المهلكة، بطريق واضح لم يندرس، يمرون عليها في أسفارهم، أفلا يعتبرون؟ إن في ذلك لعبرة للمؤمنين، المصدِّقين بوعيد الله!! وهكذا قلب الله بقوم لوط ديارهم، وأبقى آثارهم باقية للعيان، يراها الناسُ في أسفارهم ورحلاتهم، وهم في طريقهم من الحجاز إلى الشام،

﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

كما قال سبحانه: **﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين. وبالليل أفلا تعقلون﴾**؟ ثم يأتي الحديث عن قصة أصحاب الأيكة، وهم قومُ شعيب أصحاب مدين، ولكنَّ قصتهم تأتي هنا بإيجاز، لأنها ذكرت في الأعراف مفصلة، ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ أي ولقد كان أصحابُ الأيكة ـ أي الشجر الكثير الملتف ـ وهم قوم شعيب، أصحاب الحدائق الغناء، والبساتين الفيحاء، كثيرة الشجر، وافرة الثمر، كانوا ظالمين لأنفسهم، بتكذيبهم شعيباً، وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان، فأهلكناهم بالرجفة، وعذاب يوم الظُلَّة، وإنهما أي قرى قوم (لوط، وشعيب)، لفي طريق واضح بيِّن، أفلا تعتبرون يا أهل مكة، بما حدث لهم من الهلاك والدمار؟ رُوي أن قوم شعيب، اشتدَّ عليهم الحرُّ سبعة أيام، حتى قاربوا الهلاك، فبعث الله عليهم سحابةً كالظُلَّة، فالتجأوا إليها واجتمعوا تحتها للتظلُّل بها، فبعث الله عليهم ناراً فأحرقتهم جميعاً ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ أصحابُ الحجر: هم قوم (صالح) عليه السلام، أي كذبت ثمودُ نبيَّهم صالحاً، وأريناهم معجزاتنا الدالة على قدرتنا، مثل معجزة الناقة، وما فيها من العجائب، فكانوا لا يعتبرون بها ولا يتعظون، وكانوا ينحتون الجبال، فيبنون فيها بيوتاً آمنين، يظنون أنها تحميهم من عقاب الله ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي فأخذتهم صيحة الهلاك وقت الصباح، فما دفع عنهم عذاب الله، ما كانوا يشيِّدونه من القلاع والحصون، وقد أهلكهم الله لمَّا طغوا وتمردوا، وعقروا الناقة، فأهلكهم الله بصيحة من السماء من فوقهم، ورجفة ـ أي زلزلة ـ شديدة من تحت أقدامهم، فأصبحوا جثثاً هامدة، وقد حذَّر النبي ﷺ أصحابه من الدخول إلى ديار هؤلاء الظالمين، إلا أن يكونوا باكين، فقد رُوي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (لا تدخلوا على هؤلاء القوم، إلاّ أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم) رواه

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

البخاري ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي وما خلقنا الكون كلَّه، سماءه وأرضه، وما فيه من جبال، وبحار، وأنهار، ونجوم، وشمس، وقمر، إلاّ لحكمة، وإن القيامة آتية لا محالة، فيجازى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فأعرض يا محمد عن هؤلاء السفهاء، وعاملهم معاملة الحليم، ودع عقابهم إلى الله، فهو سبحانه الخالقُ لهم، والعليم بأحوالهم ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لقد أعطيناك يا محمد «سورة الفاتحة» أم القرآن، وهي سبع آيات تُتلى وتُكرَّر آياتها، في كل ركعة من ركعات الصلاة، روى البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ هي السبع المثاني، والقرآنُ العظيم الذي أوتيتُه» وقد جمعت هذه السورة مقاصد الدين، كما أكرمناك بالقرآن العظيم، خاتمة الكتب السماوية، فلا تنظر إلى ما عليه الكفار، من أصناف النعم من المال والبنين، فما أعطيناك أعظم منها وأشرف وأكرم، ولا تحزن لعدم إيمانهم، وتواضع لمن آمن معك من أتباعك ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ أي وقل لهم: أنا الرسول المنذرُ لكم من عذاب الله، الواضحُ في دعوتي وإنذاري، وقد أنزلنا عليك القرآن، كما أنزلنا على اليهود والنصارى، التوراة والإنجيل، فآمن بعضهم وكفر بعض، آمنوا بما يوافق أهواءهم، وكفروا بالبعض، كما فعل قومك من كفار مكة، حين قالوا عن القرآن: سحر، وشعر، وأساطير الأولين، ومعنى (عِضين) أي أجزاء متفرِّقة، روى البخاري عن ابن عباس أنه قال: (هم أهل الكتاب، جزَّءوه أجزاء، فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه) وهذه الآية تسلية للرسول ﷺ عن صنيع قومه بالقرآن، وتكذيبهم له ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٩٦ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾

أي فأُقسمُ لك بربك يا محمد، لنسألنَّ الخلائق أجمعين، عما كانوا يعملون في الدنيا ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي فاجهر بتبليغ دعوة ربك، ولا تلتفت إلى سخرية المشركين ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ أي نحن كفيناك شرَّ أعدائك المشركين، المستهزئين برسالتك ودعوتك، وكانوا خمسة من رؤساء الطواغيت، فكفاه الله شرهم، وقطع دابرهم، وهم الذين عبدوا الأصنام والأوثان، فأشركوا بربهم، فسوف يعلمون عاقبة هذا الكفر والإجرام ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ أي ولقد علمنا أن صدرك يا محمد، كان يضيق من استهزائهم وتكذيبهم، فلا تبال بهم، وسننتقم لك منهم، أما أنت فافزع إلى ربك، ممَّا نالك منهم من تكذيب، وداوم على ذكر ربك، والصلاة له بالليل والنهار، واعبده حتى يأتيك الموتُ!! سُمِّي الموت باليقين، لأنه متيقن الوقوع والنزول، لا ينجو منه أحد!.

انتهى تفسير سورة الحِجْر

● ● ●

أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴿٤﴾

تفسير سورة النحل

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾

هذه السورة الكريمة تسمى «سورة النِّعم» لكثرة ما ذكر الله تعالى فيها من النعم، التي أفاضها على عباده، من نعمة العقل، والسمع، والبصر، ونعمة الأنعام، والظلال، والمساكن، والزروع، والخيرات، والأمطار، والشمس، والقمر، والليل والنهار، إلى غير ذلك من النعم الجليلة، وقد بدأها تعالى بالحديث عن القيامة، لتخويف المشركين من عاقبة الكفر بنعم الله!.

والمعنى: قَرُبَ مجيءُ القيامة، فلا تتعجلوا هذا العذاب، الذي أوعدكم به محمد، تنزَّه اللهُ وتقدَّس وتمجَّد، عن أن يكون له شريك من الأصنام والأوثان، ينزِّل تعالى الملائكة بالوحي والرسالة، على من شاء من خلقه من الأنبياء، لينذروا أهل الكفر، أنه لا معبود بحق إلا الله، فيتقوا ربهم، ويخافوا عذابه ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ أي خلقهما بالحق الثابت، لاعبثاً ولا جُزافاً، وخلق ذرية آدم، من مادة مهينةٍ ضعيفة، هي المنيُ الذي ينطف من الإنسان، ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾؟ فإذا بالإنسان الضعيف بعد تكامله بشراً سوياً ـ يخاصم

وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

ربه، ويكابر ويعاند، ويزعم أن الله لا يقدر على إعادته بعد الفناء، فينكر البعث والجزاء؟ ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي وخلق لكم الإبَل، والبقر، والغنم، لكم فيها ما تستدفئون به من البرد، من الأكسية، والأصواف، والأوبار التي تصنعون منها البُسُطَ والعباءات، وتأكلون لحومها، وتشربون ألبَانَها، ولكم فيها متعةٌ وبهجةٌ، حين ترجع عشياً من المرعى، وحين تغدو صباحاً لترعى ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي وتحمل أمتعتكم وحوائجكم الثقيلة، التي تعجزون عن حملها، إلى بلدٍ بعيد، لم تكونوا لتصلوا إليه، إلا بجهدٍ ومشقة، يصعب على الإنسان تحملها، إن ربكم أيها الناس، الذي سخَّر لكم هذه الأنعام، لعظيم الرأفة والرحمة بكم ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي وخلق لكم ربُكم (الخيلَ، والبغال، والحمير)، للركوب وحمل الأثقال، ومنها ما هو للزينة والجمال، كالخيل البديعة الخلق، ويخلق لكم ربكم ما لا تعلمون من أنواع المراكب، وعلى الله تعالى، بيانُ طريق الهداية والإيمان، ومنها طرقٌ مائلة عن الحقِّ، وهي طرق الضلال، كاليهودية، والنصرانية، والمجوسية، ولو شاء الله لهدىٰ الخلق جميعاً، ولكنه ترك لهم حرية الاختيار، التي هي مناط التكليف.. ولْنمعِنْ النظرَ في هذه الآيات، فقد عدَّد تعالى منافع هذه الحيوانات، فمنها الغذاءُ والكساء، ومنها الدرُّ واللبنُ، ومنها المحمل والمركب، ومنها الزينة والجمال، ثم ختم الآيات بقوله **﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾** وهو ختمٌ في غاية الإبداع، بأسلوب يتقبله العقل البشري في ذلك الزمان، فقد خاطبهم القرآن بما يفهمون وما يدركون، ولو قال لهم: هذه وسائل الركوب (الخيل والبغال والحمير)،

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

وسترون وسائل أخرى من سيارات، وعربات، وطائرات نفاثة، تطير بين السماء والأرض، لسخروا وأنكروا، لأن عقولهم لا تتحمل ذلك، فجاءهم بهذا التعبير الرائع **﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾** ليهيء النفوس لاستقبال ما يتمخَّض عنه العلم، من وسائل عصرية حديثة، ونَسَب تعالى الخلق إليه، لأنها من صنع الإنسان الذي خلقه الله، وميَّزه بالعقل والعلم ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي هو جلَّ وعلا الذي أنزل لكم المطر من السحاب، أنزله لكم عذباً فراتاً، لكم من هذا الماء ما تشربونه، ولكم منه ما تسقون الزروع والأشجار، لترعى منه أنعامكم، يُخرج لكم ربكم من الأرض، بهذا الماء الواحد، الزرع، والزيتون، وشجر النخيل والعنب، على اختلاف طعومها، وصنوفها، وألوانها، ويخرج لكم أنواع الفواكه والثمار بهذا الماء، إن في ذلك لدلالة واضحة، وعبرة ساطعة، على وحدانية الله وقدرته، لقوم يفكِّرون بعقولهم!! لينظر الإنسان بفكره الثاقب كيف خرج البرتقالُ والليمونُ، والرطب والعنب، والتفاح والرمان، والكمثرى والحنظل في أرضٍ واحدة؟ ماؤها واحد، وتربتها واحدة، بعضها حلوٌ، وبعضها حامض، وبعضها مرٌّ علقم؟ فسبحان المبدع الحكيم!!

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي وسخَّر لكم ربكم الليل والنهارَ، يتعاقبان بنظام محكم، لمنامكم ومعاشكم،

وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

وذلَّل الشمسَّ والقمر يجريان لمصالحكم ومنافعكم، والنجُوم تتحرك في أفلاكها بأمره تعالى، لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، وفي هذا التسخير، براهين ساطعة على وحدانية الله، لأصحاب العقول والألباب، وما خلق لكم ربكم في الأرض، من الأمور العجيبة، (من الحيوانات، والنباتات، والمعادن، والجمادات)، على اختلاف ألوانها وأشكالها، وخواصها ومنافعها، لعظة وعبرة لقوم يتذكرون عظمة الله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي وهو تعالى بقدرته ورحمته، ذلَّل لكم البحر المتلاطم الأمواج، للركوب على سطحه، والغوص في أعماقه، لتأكلوا منه السمك الطريَّ، وتستخرجوا منه الجواهر الثمينة، كاللؤلؤ والمرجان، حليةً لنسائكم، وعلى سطحه تجري السفن الضخمة، تشقُّ عُباب البحر، تحمل الأثقال والرجال!! والماء بطبيعته مائع، فكيف حمل هذه الأثقال فوق سطحه، ولم ترسب إلى قراره؟ فلولا تسخيره تعالى لطغى البحرُ، فأهلك الحرث والنسل، وقضى على الأخضر واليابس، ولولا تذليله ما أمكن الركوبُ على سطحه، فلهذا ختم الآية بقوله ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي لتشكروا ربكم على نعمه الجليلة عليكم ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي ونصب في الأرض جبالاً ثوابت راسخات، خشية أن تضطرب الأرضُ وتتحرك بكم، وجعل فيها طرقاً وأنهاراً، تجري من بلدٍ إلى بلد، ونجوماً يهتدي بها الناس في ظلمات الليل، فالعلاماتُ هي الجبالُ والأنهار، يهتدون بها في النهار، وبالنجوم يهتدون في البراري والبحار، وكلُّ هذا من تسخير الواحد القهار.. لقد كانت الأرضُ كرةً خفيفة، قبل أن تُخلق فيها الجبال، ومن صفة الخفيف أن يتحرَّك، فثَّبتها الله بالجبال، وجعلها لها كالأوتاد، وهي مع ما فيها من الجبال والبحار والتلال، تتحرك

أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

وتدور بنظام دقيقٍ محكم، ولولا الجبال لكانت كالريشة في مهبِّ الهواء، فسبحانه من إله مدبِّر حكيم!! ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي هل الخالق القادر، الذي يخلق ويرزق، كالصنم الأبكم الذي لا يستطيع أن يفعل شيئاً؟ أفلا تتذكرون فتعرفون خطأ هذا؟ وإذا أردتم أن تعدُّوا نعم الله الفائضة عليكم، لا تستطيعون عدَّها، فضلاً عن القيام بشكرها!. نبَّه تعالى في هذه الآيات على عظمته، وأنه لا تنبغي العبادةُ إلاَّ له وحده، وأقام البرهان النيِّر الساطع، على بطلان عبادة غير الله تعالى، ومعنى الآية: أتسوُّون بين الخالق للسموات والأرض، والإنسان والحيوان، والبحار والأنهار، وبين من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا يقدر على خلق شيء أصلاً؟ كيف تشركون هذا الصنم الحقير، مع الإله الخالق القدير؟ ﴿أفلا تذكرون﴾ أي أفلا تدركون خطأ ما أنتم فيه من عبادة الأصنام والأحجار؟ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ استدلال آخر على بطلان عبادة الأوثان، والمعنى: إنه تعالى لا تخفى عليه خافية، يعلم ما يخفيه البشر في أنفسهم، وما يعلنونه، بينما الأصنام التي يعبدونها لا تدرك شيئاً، لا تسمع دعاء، ولا تستجيب نداءً، ولا تعرف من عَبَدها ممن دحرجها ودَحَاها!! والإلٰهُ الحقُّ يجب أن يكون عالماً بالسرِّ والعلانية، وهذه الأصنام جمادات، لا معرفة لها بشيء أصلاً، ثم إنها مخلوقة نحتَها البشر بأيديهم، فكيف تَحْسُنُ عبادتها؟ وكيف تكون آلهة تعبد من دون الله؟

وزيادة في التقبيح والتشنيع على من عبدها قال سبحانه ﴿**أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون**﴾ أي تلك الأصنام التي خلعوا عليها صفات الألوهية، أمواتٌ لا أرواح فيها، وهي لا تسمع ولا تبصر، ولا تحسُّ ولا تدرك، لأنها جمادات لا حياة فيها، فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها، لما فيكم من الحواس والحياة؟ وما تشعر الأصنامُ متى تُبعث مع

إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

عابديها؟ وفيه (تهكمٌ لاذع) بالمشركين، ثم ذكر تعالى صفات الإله الحق، الذي ينبغي أن يُعبد، فقال: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ أي إلهكم المستحقُّ للعبادة أيها الناسُ، إلهٌ واحدٌ تفرَّد بالوحدانية، لا شريك له ولا شبيه ولا نظير، والكفَّارُ الذين لا يصدِّقون بالبعث، ينكرون وحدانية الله، وهم متكبِّرون عن قبول الحقِّ، بعدما سطعت دلائله، فلذلك لا يقرُّون بالتوحيد، (لا جرم) أي حقاً ولا شكَّ أن الله يعلم ما يضمرونه في نفوسهم من العناد والمكابرة، وما يظهرونه من الكفر والإشراك، إنه سبحانه لا يحب أهل الاستكبار والجحود ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي وإذا سُئل هؤلاء المشركون، ماذا أنزل ربكم على رسوله؟ قالوا على سبيل الاستهزاء: إنَّ ما أنزله ما هو إلا خرافات وأباطيل الأمم السابقين!! والعجيب في أمر هؤلاء الأشقياء، أنهم جمعوا بين الضلال والإضلال، فقد كانوا يجلسون على طرقات مكة، يحذِّرون الناس عن تصديق محمد، والدخول في دين الإسلام، ولهذا تحمَّلوا أوزار من أضلوهم قال تعالى ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي ليحملوا ذنوبهم كاملة، وذنوب الذين أضلُّوهم بغير دليل ولا برهان، ألا فانتبهوا أيها الناس، فبئس ما يحمله هؤلاء الأشقياء ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾

ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾

أي لقد مكر المجرمون بأنبيائهم، من قبل كفار قومك، وأرادوا إطفاء نور الله، فدمَّرهم الله وأهلكهم، وجاءهم عذاب الله من حيث لا يخطر على البال، شبَّه تعالى كيدهم، بجماعة بنوا بناءً قويَّ الدعائم، فدمَّر الله بنيانهم من أساسه، ووقع عليهم السقف، فبادوا وهلكوا تحته ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي وفي الآخرة يفضحهم الله ويذلهم بالعذاب الشديد، ويقول لهم توبيخاً: أين الآلهة الذين عبدتموهم وخاصمتم الأنبياء من أجلهم؟ أحضروهم ليشفعوا لكم؟ وهذا سخريةٌ بهم وتهكم!! قال العلماء الذين دخلوا في الإسلام، شماتةً بأولئك الأشقياء: إن الذلَّ والهوان محيط اليوم بالكافرين ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي هؤلاء الأشقياء، هم الذين تقبض الملائكةُ أرواحهم الخبيثة، ظالمي أنفسهم بالكفر والإشراك، وهناك يلجأون إلى التضرع والاستسلام، ويحلفون كذباً أنهم ما كانوا يفعلون القبيح، وما أشركوا بالله، فتكذبهم الملائكة وتقول لهم: بلى قد كذبتم وعصيتم، والله عالمٌ بما فعلتموه، فلا ينفعكم هذا الاعتذار بالكذب ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي ادخلوا نار جهنم ماكثين فيها أبداً، فبئست جهنم مقراً ومسكناً للمشركين، المتكبرين عن عبادة الله!! وبمقابلة هؤلاء الأشقياء، يأتي جزاء المؤمنين الأتقياء، فيقول سبحانه ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾

أي وقيل لأهل التقوى والإيمان: ما الذي أنزل ربكم على رسوله؟ قالوا: أنزل عليه الخير والهدى والإيمان، ولهؤلاء المؤمنين مكافأة عاجلة بإحسانهم، وما ينالونه في الآخرة، خير وأعظم من هذا الأمر العاجل، ولنعم هذا الجزاء الكريم، ثم فسَّره بقوله ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي لهؤلاء السعداء جناتُ عدن، أي جنَّاتُ إقامة، يدخلون تلك الجنان، التي تجري من تحت قصورها الأنهار، لهم في تلك الجنات ما يشتهونه، وليسرحْ خيالك في هذا الذي يشتهونه، فلا يشتهون شيئاً إلا أعطاهم الله إياه، ولا يخطر على بالهم شيء إلاَّ حقَّقه الله لهم، فضلاً منه وكرماً، سأل أعرابيٌّ النبي ﷺ فقال يا رسول الله: هل في الجنة خيلٌ؟ فقال له ﷺ: (إن أدخلك اللهُ الجنةَ، أُتِيتَ بفرسٍ من ياقوتةٍ حمراءَ، له جناحان، فَحُملتَ عليه، ثم طار بك في الجنة حيث شئتَ) رواه الترمذي، ثم إن هؤلاء الأبرار، تُسلِّم عليهم الملائكة صباح و مساء، وينالون ذلك التكريم والجزاء..

قال المفسرون: هذا كان في أيام موسم الحجِّ، يأتي الرجل مكة فيسأل المشركين عن محمد وأمره، وعما أنزل الله عليه؟ فيقولون له: إنه ساحر، وكاهن، وكذَّاب، وما جاء به هو أساطير الأولين، ويأتي المؤمنين فيسألهم فيقولون: إنه رسولُ الله حقاً، وقد أنزل الله عليه الهدى والخير والقرآن!!

ثم يأتي التوبيخ والتقريعُ للكفار، على تماديهم في الباطل والضلال، فيقول سبحانه ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾

أي هل ينتظر هؤلاء الكفار، الذين أصرُّوا على الكفر، والاستهزاء برسل الله، إلا أن تنزل بهم ملائكة العذاب لقبض أرواحهم؟ أو يأتيهم أمرُ ربك، بعذاب الاستئصال، وبالنكال والدمار، حتى يتوبوا ويرجعوا؟ كذلك صنع مَنْ قبلهم من المجرمين، حتى نزل بهم العذاب العاجل، وما ظلمهم الله، ولكنهم ظلموا أنفسهم، فأصابتهم عقوبات كفرهم وضلالهم، وحلَّ بهم جزاء سخريتهم واستهزائهم!! والآية تصوير للعذاب المحيط الشامل، الذي نزل بأولئك المجرمين، بحيث لم يُفلت منهم أحد، بل عمَّهم جميعاً، يقال: حاق به البلاءُ، أي أحاط به من كل جانب ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي قال المشركون: لو شاء الله ما عبدنا الأصنام نحن ولا آباؤنا، ولا حرَّمنا ما حرَّمنا من السوائب والبحائر وغيرها!! أحالوا إشراكهم، وتحريمهم لبعض الأطعمة والذبائح، على إرادة الله ومشيئته، فلو شاء الله ـ على زعمهم ـ أن لا يفعلوا شيئاً من هذا لمَنَعهم!! وغرضُهم أن إشراكهم، واقع برضى الله عزَّ وجل، فلا مسؤولية عليهم، وهذا باطل!! تناسوا أنهم فعلوه بمحض إرادتهم واختيارهم، وزبدة القول: أن الاحتجاج بالقضاء والقدر، حجة باطلة، باتفاق كل ذي عقل ودين، والمشركون يعلمون بفطرتهم وعقولهم، أن هذه الحجة باطلة، فإن أحدهم لو ظلمه شخصٌ، أو أراد قتل ولده، أو الزنى بزوجته، فقاومه وقاتله، فقال المعتدي: لو شاء الله ما فعلتُ ذلك، لم يقبل أحد منه هذا القول، ولا يقبلها هو من غيره، وإنما يحتجُّ بها المحتجُّ، دفعاً للّوم عن نفسه، وهي قولةٌ باطلة لا تستند على منطق سليم، فالله تعالى لا يرضى لعباده الشرك، ولا يريد أن يحرّموا ما أحلَّه لهم من الطيبات، وإرادته هذه منصوصٌ عليها في شرائعه السماوية، وعلى ألسنة رسله الكرام، الذين بعثهم لهداية البشر، ولهذا قال تعالى بعده ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي ولقد

إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

أرسلنا الرسل إلى جميع الخلق، بأن اعبدوا الله وحده، واتركوا الطاغوتَ، وهو كلُّ ما عُبد من دون الله، كالشيطان، والكاهن، والصنم، فمنهم من أنار الله بصيرته فاهتدى، ومنهم من وجبت له الشقاوةُ فكفر، فسيروا يا معشر كفار قريش في البلاد، فانظروا ماذا حلَّ بالمكذبين قبلكم؟ من العذاب والهلاك، لتعتبروا بهم؟ ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي إن تحرص يا محمد على هدايتهم، فلن يهتدوا مهما بذلت معهم الجهد، لأن من أضلَّه الله، فلن يهديه أحد، وليس لهم من ينصرهم وينقذهم من عذاب الله!! أعلمَ الله تعالى أنه لا يخلق الهداية جبراً وقهراً، فيمن عشعش في قلبه الضلال، بل كلُّ إنسان متروك لحريته واختياره، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي حلف المشركون بأغلظ أنواع الأيمان مبالغين في الإنكار، فقالوا: والله لا يبعث الله من يموت، استبعاداً منهم للبعث، واعتقاداً باستحالته، بعد الفناء، وتشتت الأشلاء، وقد ردَّ الله عليهم هذا الزعم الباطل، فقال ﴿بلى وعداً عليه حقاً﴾ أي بلى واللهِ ليبعثنَّهم، وعد الله بذلك وعداً قاطعاً، ولكن أكثر الناس لا يعلمون قدرة الله، فينكرون البعث والنشور، ثم ذكر تعالى الحكمة من بعثهم فقال ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾ أي سيبعثهم ليكشف ضلالهم في إنكارهم للبعث، وليحقّق تعالى العدل بين الناس، فيأخذ للمظلوم من الظالم، وليعلم الجاحدون للبعث، كذبهم فيما قالوه، فيفتضحوا على رؤوس الأشهاد ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي لا يحتاج الأمر إلى كثير جهدٍ وعناء، لإعادة الناس أحياء، بل هو سهلٌ هيِّن، فإنَّا نقول للشيء كنْ فيكون!! لقد رأى الكفار البعثَ أمراً عسيراً، بل اعتقدوه شيئاً مستحيلاً، وغفلوا عن معجزة «الحياة

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾

الأولى» كيف أوجد الله الإنسان من نطفة مهينة، من شيء حقير لا يُذكر، غفلوا عن طبيعة القدرة الإلهية، التي توجد الشي بلمح البصر، بلفظ كن فيكون.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي والذين تركوا أوطانهم، حباً في الله ورسوله، وطلباً لرضوان الله، من بعد ما عُذِّبوا وأوذوا، لنسكننَّهم داراً حسنة خيراً مما تركوا، **قال ابن عباس**: «أسكنهم الله المدينة المنورة، فجعلها لهم دار هجرة» ولثوابُ الآخرة أعظمُ وأكبر لهم، من نعيم الدنيا، وهم الذين صبروا على الشدائد والمكاره، فهجروا الأوطان، وفارقوا الإخوان، واعتمدوا على رب العزة والجلال، يطلبون رحمته وثوابه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الآية الكريمة جاءت لردِّ شبهةٍ أثارها المشركون، فقد قال مشركو مكة: الله أعظم وأجلُّ من أن يكون رسوله بشراً من الرجال، فردَّ الله عليهم بأن الله لم يبعث قبل محمد ﷺ إلا أنبياء من البشر، فاسألوا أهل العلم، من علماء (اليهود والنصارى)، يخبرونكم عن أنبيائهم ورسلهم، أنهم كانوا رجالاً، ولم يكونوا ملائكة، أرسلناهم بالحجج والمعجزات، ليبينوا للناس شرائعَ الله، وأنزلنا إليك يا محمد، القرآن الحكيم، الموقظ للقلوب الغافلة، ليعرفوا الحلال والحرام، ويتعظوا بآياته البينات ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ هذا

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾

تهديد وتخويف لأهل مكة المشركين، أي هل أمن هؤلاء الكفار، الذين مكروا برسول الله ﷺ، واحتالوا لقتله في (دار الندوة)، بطرق المكر والاحتيال؟ أن يخسف الله بهم الأرضَ، كما فعل بقارون؟ أو يأتيهم عذاب اللّه فجأةً، في حال أمنهم واستقرارهم، من حيث لا يدرون ولا يخطر على بالهم، أو يأخذهم بالهلاك في أسفارهم وتجاراتهم، فليسوا معجزين ربهم، أو يهلكهم جماعةً بعد جماعة، حال كونهم خائفين، مترقبين نزول العذاب، وهذا يكون أشدَّ على النفس وأبلغ، فإن ربكم أيها الناس لرؤوف بكم ورحيم، حيث لم يعاجلكم بالعقوبة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي ألم يعتبر هؤلاء الكفار، ويروا أن الكون كلَّه بما فيه من (إنسان، وحيوان، وجبال، وأنهار، وأشجار)، كلُّها تخضع لعظمة الله وجلاله؟ وتسبّح بحمده، وهي منقادة خاضعة لأمر الله؟ وكلُّها في مقام خشوع وخضوع، لا يستكبرون عن عبادة الله وطاعته، بما فيهم الملائكة الأبرار الأطهار، الذين يخافون ربهم، ويمتثلون أوامره على الدوام، وهكذا يصور القرآنُ الكونَ العظيم، بكل ما فيه من مخلوقات أبدعها الله، وهي خاضعة لمشيئة الله تعالى؛ لا تخرج عن إرادته ومشيئته، عدا الإنسان الكافر، المتمرد على طاعة الله ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ أي أمر الله وأوصى، أن لا تعبدوا إلهين اثنين، فإن الإله الحقَّ لا يتعدَّد، وخافوا الله ربكم دون سواه، وله جلَّ وعلا كلُّ ما في الكون، لأنه هو الخالق والرازق، ولا يملك أحد من أمر الخلق والرزق شيئاً ﴿وله الدين واصباً﴾

وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾

أي له سبحانه العبادةُ والطاعةُ والانقياد، تاماً واجباً ثابتاً، لأنه هو الإله الحقُّ، أفغير الله تخافون وتحذرون؟ وبيده وحده النفع والضُر؟ ولهذا قال بعده ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي جميع ما بكم من النعم، من صحة، وأمنٍ، ورزق، هي من الله وحده، ومن فضله وإحسانه، وإذا أصابكم الضرُّ، من فقرٍ، ومرضٍ، فإليه وحده ترفعون أصواتكم بالتضرع والدعاء، ثم إذا صرف عنكم الضرَّ، رجع فريق منكم إلى الكفر والإشراك، ليجحدوا نعمته تعالى عليهم، وليتمتعوا بدار الفناء، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم، وما ينزل بهم من البلاء، وهو خبرٌ مبطَّنٌ بالوعيد. . نبَّه تعالى إلى أن الناس يلجأون إلى ربهم، وقت الكرب والشدة، ثم ينسونه وقت العافية والرخاء ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ أي ويجعلون للأصنام التي لا يعلمون ربوبيتها، وهي جمادات لا تحسُّ بعبادتهم لها، نصيباً مما أنعمنا به عليهم، من الزروع، والثمار، والأنعام، وأُقسِمُ لكم أيها المشركون لتسألن عمَّا كنتم به تفترونه من الكذب على الله!! لقد كانوا يحرِّمون على أنفسهم بعض الأنعام، لا يركبونها ولا يذوقون لحمها، لأنهم جعلوها للآلهة ـ الأصنام ـ التي عبدوها، كما كانوا يتركون نصيباً من الزروع تقرباً إليها، والله هو الذي رزقهم هذه النعم، وليست هي من رزق الآلهة المزعومة، ليرُدوها عليها، وهذه سفاهة وحماقة منهم، ثم ذكر تعالى سفاهة أخرى هي أشنع وأقبح، فقال سبحانه ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ

يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾

﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

هذه إحدى سفاهات المشركين، ذكرها القرآن عنهم، وهي اتهامهم للذات المقدَّسة، بأنه تعالى اتخذ بنات من الملائكة، أي نسب المشركون إلى الله البنات، فقالوا: الملائكةُ بناتُ الله ـ تنزَّه الله عما يقول الظالمون ـ وهم يحبُّون الذكور ويكرهون البنات، وهذا منتهى السفه والجهل، فكيف يجعلون لله ما يكرهونه؟ وينسبون لأنفسهم ما يشتهون من البنين؟ وهذا حيفٌ وعدوان ﴿**ألكم الذكر وله الأنثى؟ تلك إذاً قسمة ضيزى**﴾ أي جائرة، وإذا بُشِّر أحد هؤلاء الجاهليِّين، بولادة بنت أنثى له، صار وجهه مكتئباً من الهمِّ والحزن، وهو مملوء غيظاً وكمداً، هل يختفي من قومه خوفاً من العار؟ أم يمسكه ويلحقه بسببها الذلُّ والهوان؟ أم يدفنها حية في التراب؟ ليتخلَّص من شؤمها وعارها؟ بئس ما فعلوا وبئس ما صنعوا، حيث جعلوا لخالقهم البنات، وهي عندهم بهذه المهانة والحقارة!! ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي لهؤلاء السفهاء الذين نسبوا إلى الله البنات لهم صفة السوء القبيحة، ولله عزَّ وجل صفةُ الكمال والجلال، فالنقصُ إنما يُنسب إليهم لا إلى الله، وهو العزيز في ملكه، الحكيمُ في تدبيره ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي لو يؤاخذهم اللَّهُ بكفرهم ومعاصيهم، ويعاجلهم بالعقوبة، ما ترك على الأرض أحداً يدبُّ على ظهرها من إنسان وحيوان، ولكنه تعالى رحيم بالعباد، يؤخرهم إلى وقت معيَّن تقتضيه الحكمة، فإذا جاء الوقتُ المحدَّد لهلاكهم، لا يتأخرون بُرهة يسيرة من الزمن، ولا يتقدمون عليها، كما قال سبحانه (وجعلنا لمهلكهم موعداً).

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ أي ويجعلون لله جلَّ وعلا البنات مع كراهيتهم لهن، ومع ذلك يزعمون، أن الله سيدخلهم الجنة ـ وهو تأكيد لمزاعمهم الكاذبة زيادةً في التوبيخ ـ حقاً إن لهم مكان ما أمّلوه نار الجحيم، وهم (مفرطون) أي معجّلون ومقدَّمون إليها ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي أقسمُ بالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك رسلاً، ليرشدوا الناس إلى دين الله، وعبادته وتوحيده، فحسَّن الشيطان للكفار أعمالهم القبيحة، حتى كذَّبوا الرسل، وردُّوا عليهم دعوتهم، فالشيطان ناصرهم وعونهم في الدنيا، ولهم عذاب مؤلم موجع في الآخرة ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي وما أنزلنا عليك القرآن، إلا لتبيِّن للناس ولأهل الكتاب، ما اختلفوا فيه من أمر الدين، والشرائع والأحكام، وهذا القرآنُ، نورٌ وضياء، وهدى وشفاء، إنه هداية للقلوب، ورحمة لمن آمن به، وخصَّ المؤمنين بالذكر لأنهم المنتفعون به.. ثم ذكَّر تعالى عباده، بعظيم قدرته ووحدانيته، فقال سبحانه ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي والله تعالى هو الذي أنزل لكم المطر من السحاب، فأحيا بذلك الماء النبات والزرع، بعد جَدْب الأرض ويبسها، فكما أحيا الأرض بالمطر، كذلك يحي البشر بعد فنائهم، وفي هذا أعظم الدلائل والبراهين، على قدرة الله وعظمته، لقوم يسمعون فيعتبرون ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ أي وإن لكم في هذه

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩﴾

الأنعام، لعبرة وأيَّ عبرة!! ففي تسخيرها، ولبنها، وما تأكلون من لحومها، أعظمُ النِّعم والعبر، حيث نخرج لكم من بطون هذه الأنعام الحليب الخالص، واللبن النافع، من بين الروث ـ فضلات الطعام ـ والدم، هذا اللبن اللذيذ السائغ في الحلق، دون أن يغصَّ الإنسان بشربه، فكيف خرج هذا اللبن من بين الفضلات والدم، دون أن يختلط بها؟ فسبحان الله ما أعظم قدرته، وألطف حكمته!! ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ تذكيرٌ بنعمة أخرى، أي والله أنعم عليكم بالنخيل والعنب، تصنعون منهما ما يضرُّ وما ينفع، كالخمر التي تُسكر ـ وهذه الآية نزلت قبل تحريم الخمر، ثم حُرِّمت بعد ذلك ـ أمَّا الرزقُ الحَسَنُ: فهو (الدِّبسُ، والخلُّ، والزبيبُ، والتمرُ)، قال ابن عباس: الرزقُ الحسنُ: «ما أحِلَّ من ثمرتها، والسَّكَر: ما حُرِّم من ثمرتها» وفي هذا التدبير آية باهرة دالة على قدرة الله ووحدانيته، لقوم يتدبرون بعقولهم ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي وأوحى ربك إلى النحل (وحي إلهام)، حيث أرشدها بالفطرة إلى طريقة صنع العسل، وجعل بيوتها هذه المواطن الثلاثة: في الجبال وكُواها، أو في بطون الأشجار، أو الأكوار التي يبنيها لها البشر، ثم ألهمها أن تأكل من جميع الأزهار، والثمار التي تشتهيها، لتخرج هذا العسل اللذيذ، المتنوِّع اللون والشكل، فمنه الأبيض، والأحمرُ، والأصفرُ، وفي هذا العسل شفاء لكثير من الأمراض الجلدية، والباطنية، وفيها عبرة لقوم يتفكرون في عظيم قدرة الله!! ومن نظر إلى النحل، وهي حشرات صغيرة تشبه الذباب، ورأى طريق صنع العسل، تأخذه الدهشةُ لهذه العجائب الغريبة، إذ كيف نظِّمت هذه البيوت؟ وكيف رتبت العمل فيها؟ هذه

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٧٠ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢﴾

طائفة للبناء، وأخرى للتهوية، وثالثة لامتصاص رحيق الأزهار، وهناك حرس وجندٌ للحماية والدفاع، وكأننا في ثُكنة عسكرية، كلُّ جندي فيها له عمل مخصوص، ثم بناء البيوت بشكل المسدس، بطريقة هندسية عجيبة، لو اجتمع عليها مهندسو العالم، لحارت أفكارهم في صنعها، فسبحان من فطرها على صنع ذلك كله، وإخراج العسل الذي هو دواء وعلاج لكثير من الأمراض!! ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾ تذكيرٌ بنعمة الخلق، أي والله جلَّ وعلا بقدرته، خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً، ثم يتوفاكم عند انقضاء آجالكم، ومنكم من يعود إلى الهَرَم والخَرَف، حتى يصبح كالطفل، في نقصان القوة والعقل، وهو تعالى العالم بتدبير الخلق، القادر على ما يشاء، والمراد بأرذل العمر: الهرمُ، والشيخوخة، وما يرافقها من ضعف القوة، والنسيان، وسوء الحفظ، وقلة الفهم والإدراك، والبلاهة، ولهذا كان ﷺ يستعيذ بالله من الردِّ إلى أرذل العمر فيقول: (أعوذ بك من البخل، والكسل، وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات) رواه البخاري ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾.

أي فاوت سبحانه بينكم في الأرزاق، هذا غني، وذاك فقير، وهذا سيِّد، وذاك مملوك، وليس الأغنياء يشاركون عبيدهم في ثروتهم ومالهم، حتى يصبحوا في الغنى والثراء سواء!! وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى للمشركين، **قال ابن عباس**: لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني!؟ أيشركون معه غيره ويجحدون فضل الله عليهم؟ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾ تذكيرٌ بنعمة الذرية والبنين،

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ

أي هو تعالى بقدرته خلق لكم من جنسكم وأصلكم النساء، ليحصل بينكم الائتلافُ والمودةُ والرحمة، وجعل لكم من الزوجات: البنين، والبنات، والأحفاد ـ وهم أولادُ الأبناء ـ يسارعون في خدمتكم وطاعتكم، ورزَقكُمْ من أنواع اللذائذ الحلال، من الفواكه والثمار، واللحوم، وما تشتهيه النفوسُ، أفبعد هذه النعم، تؤمنون بالأوثان، وتكفرون بالرحمن؟ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي ويعبدون جمادات من دون الرحمن، لا تقدر على إنزال مطر، ولا على إخراج شيء من النبات والثمر، وليس بمقدورهم ذلك بحال من الأحوال، حتى ولو أرادوا ذلك، فكيف وهي لا تسمع ولا تبصر؟ فلا تمثّلوا الله الأمثال، ولا تشبِّهوا له الأشباه، فتجعلوا هذه الأصنام آلهة مثل الله، فإن الله تعالى لا مثيل له ولا نظير!! ثم ضرب تعالى مثلين على بطلان عبادة الأوثان، فقال في المثل الأول ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا المثلُ ضربه تعالى لنفسه مع الأوثان، فشبَّه المشركين في إشراكهم، بمن سوَّى بين العبد المملوك وبين السيد المالك، وتوضيحُ المثل: أن الله تعالى هو السيِّدُ المالكُ لكل شيء، يُنفق كيف يشاء على عبيده، سراً وجهاراً، ليلاً ونهاراً، والأوثان عاجزة لا تقدر على شيء، فكيف يجعلونها شركاء مع الله، ويعبدونها من دونه؟ مع التفاوت العظيم، بين الرحمن والأوثان!!

وأما المثل الثاني فقد قال سبحانه عنه ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ

بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾

بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ هذا المثل للتفريق بين الإله الحق، وبين الصنم المعبود بالباطل، شبَّه تعالى الأصنامَ التي يعبدونها، برجل أخرس أبكم، لا يتكلم ولا ينطق بخير، ولا يقدر على شيء بالكلية، أينما أرسلته لا يأتيك بخير، ولا يقضي لك حاجة **﴿وهو كل على مولاه﴾** أي وهو ثقيلٌ عالةٌ على وليِّه وسيده، وحيثما أرسله سيِّدُه، لم ينجح في مسعاه، لأنه أخرس بليد الذهن، ضعيفٌ، هل يستوي هذا الأخرس، مع الرجل البليغ، المتكلم بأفصح لسان، المستنير بنور القرآن، وهو يأمر بالفضل، ويحكم بالعدل، ويسير على طريق مستقيم؟ وإذا كان العاقل لا يسوِّي بين هذين الرجلين، فكيف يمكن التسوية بين الإله الحق القدير، الحيِّ العالم المتكلم، الهادي إلى الصراط المستقيم، وبين الصنم العاجز الذي لا ينطق ولا يقدر على جلب خير أصلاً؟ وهو مثلٌ في منتهى الإبداع والجمال ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي هو سبحانه المختصُّ بعلم الغيب، يعلم ما غاب عن أبصار الناس، في ملكه الواسع، في السماء والأرض، وما شأن الساعة في سرعة المجيء، إلاَّ كلمح البصر، أي نظرة خاطفة بطرف العين، بل هو أقرب، وهذا تمثيلٌ لسرعة مجيء القيامة، ولهذا ختم الآية بقوله **﴿إن الله على كل شيء قدير﴾** أي قادر على جميع الأشياء، ومنها التعجيل بمجيء الساعة ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ تذكير بنعمة الحواسّ، من (العقل والسمع والبصر)، أي هو تعالى الذي أخرجكم من أرحام أمهاتكم، وأنتم خلق ضعيف، لا تعرفون شيئاً أصلاً، فخلق لكم الحواسَّ التي بها تسمعون وتبصرون، وتعقلون، لتشكروه على نعمه الجليلة التي أنعم بها عليكم، فالإنسان بأصل نشأته ضعيف، وقد أفاض عليه القويُّ العزيز، من فيوضات رحمته وعلمه، ما يجعله خليقاً بعمارة هذا الكون، من قوةٍ وقدرةٍ وعلم وذكاء، ولم يجعله كالحيوان، لا يدرك إلا شهوة المأكل والمشرب، أفلا يستحقُّ هذا الإله أن يُعبد ويُشكر!؟

أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ برهان آخرُ على وحدانية الله، في خلق الطيور، أي ألم يشاهد هؤلاء المنكرون لوجود الله ووحدانيته، هذه الطيور مذلَّلات للطيران، في ذلك الفضاء الواسع بين السماء والأرض، ما يحفظهن من السقوط، عند قبض أجنحتهن وبسطها، إلاَّ الله سبحانه وتعالى، إن في هذا الصنع لعبراً وعظات، لقوم يؤمنون بالله!! وبواسطة الطير، وشكلها، وكيفيَّة طيرانها، اخترع البشر الطائرات، فجعلوا لها جناحين كجناحي الطير، تنقبض وتنبسط، ومقدِّمة محدَّبة كرأس الطائر حتى تشقَّ الهواء، ومؤخرة كالذنب، فسبحان من علَّم الإنسان بطريق الطير، ما يخترع به الطائرة؟!

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ تذكير بنعمة السَّكن، أي والله جلَّ وعلا جعل لكم هذه البيوت، من الحجر والشجر والمَدَر، لتسكنوا فيها أوقات إقامتكم في أوطانكم، وجعل لكم بيوتاً أخرى من الخيام المتخذة من الشعر والصوف، تستخفون حملها في أيام (ظعنكم) أي سفركم، وهي خفيفةٌ عليكم في أيام السفر والحضر، تحملونها معكم من غير مشقة، كما جعل لكم من صوف الغنم، ووبر الإبل، وشعر الماعز، ما تلبسون منه وتفرشون به بيوتكم، وتنتفعون بها إلى انتهاء آجالكم ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ تذكير بنعمة الظلال

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

والثياب، أي ومن رحمته تعالى بكم، أن جعل لكم من السحاب، والأبنية، والأشجار، ما تستظلون به من حرِّ الشمس، وجعل لكم مساكن حصينة في الجبال، تسكنون فيها، وهي الكهوفُ والحصون، التي تتحصَّنون فيها من الأعداء، وجعل لكم ثياباً من الصوف والقطن، تتحصنون بها من البرد والحر، وملابس من الدروع وقت الحرب، التي تدفع عنكم خطر الأعداء، لتستسلموا لأمر ربكم وتخلصوا له العبادة!! وإنما ذكَّرهم تعالى بنعمة الظلال، لأن بلاد العرب شديدة الحرّ، وحاجتهم إلى الظلِّ، لا تقلُّ عن حاجتهم إلى المشرب والمطعم، وبوجهٍ خاصّ للعرب الرُّحَّل ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي فإن أعرضوا عن التوحيد والإيمان، فلا ضرر عليك يا محمد، لأن وظيفتك التبليغ، وقد قمت بواجبك، وحسابهم على الله، وهؤلاء المشركون يعرفون نعمَ الله التي أنعم بها عليهم، وأنه هو وحده المتفضل عليهم، ثم ينكرون ذلك ويعبدون معه غيره، وأكثرُ الناس جاحدون لوحدانية الله، منكرون لوجوده ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي ويوم القيامة، نحشر الخلائق للحساب والجزاء، ونبعث في كل أمة نبيَّها ليشهد عليها، وفي ذلك اليوم الرهيب، لا يُسمح للكفار بالاعتذار، ولا يطلب منهم أن يسترضوا ربهم بقولٍ، أو بطلب العفو، فقد ذهب وقتُ العتاب والاعتذار، وجاء وقت العذاب والعقاب، يُقال في اللغة : استعتبني فلانٌ أي استرضاني فأعتبتُه أي قبلتُ عذره، وصفحتُ عنه، قال تعالى **﴿هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾** ثم أخبر تعالى أن عذاب الآخرة، ليس فيه تخفيفٌ ولا إمهال، فقال سبحانه ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي وإذا رأى المشركون الظلمة عذابَ جهنم، فلا يُفتَّر عنهم ولا يُخفَّف، ولا يُؤخَّرون ولا يمهلون طرفة عين، . بل يأخذهم العذاب سريعاً، ويُدحرجون في جنهم جميعاً، وهناك تتبرأ منهم آلهتهم أحوج ما يكونون إلى نصرتها

وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي وإذا أبصر المشركون شركاءهم، الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، قالوا يا ربنا: هؤلاء الذين عبدناهم من دونك، وهم الذين زيَّنوا لنا الشرك والضلال، قالت لهم الشركاء: كذبتم ما نحن أمرناكم بعبادتنا، بل كنتم أنتم قوماً مجرمين!! فاستسلَموا لحكم الله وقضائه، وبطل ما كانوا يؤملونه من شفاعة الشفعاء، ونصرة الآلهة، وينتهي الموقف والعتاب، بمضاعفة العذاب لأولئك المشركين الضالين، فيقول سبحانه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ أي هؤلاء الأشقياء الذين كفروا بالله، ومنعوا الناس عن الدخول في الإسلام، زدناهم عذاباً في السعير، فوق عذاب الكفر، لأنهم ارتكبوا جريمةً فوق جريمتهم، وهي إضلال الناس، ومنعهم من اعتناق الإسلام، فجمعوا بين الضلال والإضلال، وكانوا مغرقينَ في البغي والإفساد ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي ويوم القيامة، نبعث في كل أمةٍ نبيَّها ليشهد عليها، وجئنا بك يا محمد شهيداً على أمتك، ونزلنا عليك القرآن العظيم، نوراً وضياء، وبياناً شافياً، لكل ما يحتاج الناس إليه، من أمور الهداية والدين، فلا حجة لهم بعده ولا معذرة، فهو هدايةٌ للقلوب، ورحمة للعباد، وبشارة لأهل الإيمان والإسلام، قال ابن مسعود: قد بيَّن الله لنا في القرآن كل علم، وكلَّ شيء، فهو الكتابُ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ

الشافي، والنورُ المبين، والهدى المستقيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ هذه من الآيات الجامعة المانعة، التي جمعت (أصول الدين، والأخلاق، والآداب، والمعاملات، والتربية، والإصلاح)، حتى قال عنها ابن مسعود رضي الله عنه «هذه أجمعُ آيةٍ في القرآن، لخيرٍ يُمتثل، ولشرّ يُجتنب، حيث تناولت جميع الفضائل والمكارم».

والمعنى: إن الله يأمركم أيها الناس، بالعدل بين الخلق، والإحسان إلى جميع البشر، ويأمركم بمواساة الأقارب، وعون الضعفاء، والعطف على الفقراء والمساكين، وينهاكم ربكم عن كل قبيح من قول، وعمل، وعن جميع الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وعن سائر المنكرات المخلّة بالمروءة والشهامة، يعظكم ربكم ويؤدّبكم، بما شرعه لكم في القرآن العظيم، لتقفوا عند حدوده، وتجتنبوا ما حرَّم عليكم من الظلم والطغيان ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ الآية تحذيرٌ من نقض العهود والمواثيق، والمعنى: حافظوا أيها المؤمنون، على العهود التي عاهدتم عليها ربكم، في عباداتكم، ومعاملاتكم، وأخلاقكم، وسلوككم، والعهود التي عاهدتم عليها الناسَ، فأدُّوها على وجه التمام والكمال، ولا تنقضوا أيمان البيعة والعهد، بعد توثيقها بالحلف بالله، وقد جعلتم ربكم شاهداً ورقيباً على ذلك العهد، فالله سبحانه يعلم ما تفعلونه من الوفاء أو النقض، وسيجازيكم عليه يوم الحساب.. أكَّد تعالى على الوفاء بالعقود والعهود، لأنه الضمان لبقاء عنصر الثقة بين الناس، وبدون هذه الثقة، لا تُبنى حضارة، ولا يقوم مجتمع، ولا يكون اطمئنان!! ثم ضرب تعالى مثلاً للناقض للعهد فقال سبحانه ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ مثَل

أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ السُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾

تعالى للناقض للعهد، بصورة امرأة حمقاء، ملتاثة العقل، ضعيفة الرأي والعزم، تغزل غزلها وتفتله محكماً، حتى إذا ما كادت تنتهي منه، حلّته أنكاثاً، فتركته قِطَعاً محلولةً مبعثرة هنا وهناك، تقضي أيامها فيما لا فائدة تجنيها إلاَّ التعب والعناء، وسوء التصرف والغباء، ثم قال تعالى ﴿**تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم**﴾ أي تتخذون أيمانكم التي عاهدتم عليها إخوانكم، خديعةً ومكراً، تخدعون بها الناس، ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي لأجل أن تكون طائفة وجماعة، أعزَّ وأوفر جاهاً ومكانة من غيرها.

قال مجاهد: «كانوا في الجاهلية يحالفون حلفاءهم، ثم يجدون جماعة أكثر منهم وأعزَّ، فينقضون حلْفَ هؤلاء، ويحالفون أولئك» وقد كان بعض الأعراب يبرّر لنفسه، نقض عهده مع الرسول ﷺ، زاعماً أن محمداً وأصحابه قلة قليلة، بينما قريش كثرةٌ قوية، فحذَّرهم الله من هذه الخيانة والخداع ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي إنما يختبركم الله، بما أمركم به من الوفاء بالعهد، ليظهر المطيع من العاصي، وليجازي كلَّ عاملٍ بعمله، من خير أو شرّ، فالدنيا امتحان وابتلاء، والآخرة دار الجزاء، ﴿وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي لو شاء الله لخلق الناسَ، فجعلهم أهل دين واحد، لا يختلفون ولا يفترقون، ولكنْ اقتضت حكمته تعالى، أن يتركهم لاختيارهم، ناسٌ للسعادة، وناسٌ للشقاوة، فيضلُّ من يشاء بخذلانه لهم عدلاً، ويهدي من يشاء بتوفيقه لهم فضلاً، وسوف يجازيهم على أعمالهم يوم القيامة، الذي هو يوم الجزاء ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ السُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولا تعقدوا العهود والأيمان، وتجعلوها خديعةً ومكراً، كمن يحلف بالله لمن عاهده أنه على العهد، ثم ينقض عهده معه، ليحصل على بعض منافع

وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ

الدنيا الفانية، فتزلَّ قدمه عن طريق الاستقامة، بعد رسوخها في الدين، لأن ذلك يزعزع الثقة بدين الإسلام.

قال الحافظ ابن كثير: هذا مثلٌ لمن كان على الاستقامة، فحاد عنها وزلَّ عن طريق الهدى، بسبب الأيمان الحانثة - أي الكاذبة - لأن الكافر إذا رأى المؤمن قد عاهده، ثم غَدَر به وخانه، لم يبق له وثوقٌ بالدين، فيمتنع بسببه عن الدخول في الإسلام ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي لا تستبدلوا عهد الله وعهد رسوله، بحطام الدنيا الفاني، فتنقضوا عهودكم، فإن ما عند الله من الأجر والثواب، خير لكم من متاع الدنيا العاجل، لأن ما عندكم فانٍ زائل، وما عند الله باق دائم، لا انقطاع له ولا نفاد، فآثروا الباقي على الفاني، ولنجزين الصابرين على ما ينالهم من أذى في سبيل الله، بأحسن الجزاء وأكرمه في الآخرة ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي من فعل شيئاً من الأعمال الصالحة، سواءً كان العامل ذكراً أو أنثى، بشرط أن يكون مؤمناً، فلنحيينَّه في الدنيا حياة طيبة، بالراحة، والسعادة، والطمأنينة التي تغمر قلب المؤمن، الذي ذاق حلاوة الإيمان، ولنجزينهم في الآخرة، بجزاء أحسن أعمالهم، وما أكرمه وأحسنه من جزاء!! وإنما اشترط تعالى في العمل الصالح الإيمان، لأنه بدون الإيمان يكون العمل زاهقاً باطلاً، كما قال سبحانه ﴿**وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً**﴾.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ

رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾

رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ أي وإذا أردت قراءة القرآن، فاستعذ بالله من شر الشيطان، المطرود من رحمة الله، واسأله تعالى أن يحميك ويحفظك، من وساوسه ومكره، لئلا يوسوس لك عند القراءة، فيمنعك عن تدبر آياته البينات، وإن الشيطان ليس له تسلُّطٌ وقدرة، على إغواء المؤمن الصادق، المتعلّق قلبه بالله، إنما يتسلَّط على الأشقياء، الذين يطيعونه، ويجعلونه إماماً لهم وقائداً، والذين هم بسببه قد أشركوا وكفروا بالله ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَقُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ قال ابن عباس: كانت إذا نزلت آية فيها شدَّة، ثم نسخت بما هو أيسرُ، قال كفار مكة: والله إن محمداً ليسخر من قومه، يأمرهم اليوم بأمر، وينهاهم عنه غداً، وإنه لا يقول ذلك إلا من تلقاء نفسه، فنزلت الآية.

والمعنى: وإذا نسخنا آية، وبدَّلنا حكمها بحكم آخر، بما هو أصلح للعباد، قال السفهاء الجاهلون: إن محمداً يكذب على الله، وأكثرهم جهلة لا يعرفون حكمة الله!! فإنَّ مَثَل آيات هذا الكتاب، كمثل الدواء والعلاج، يُعطى منه للمريض جرعات، حتى يتماثل للشفاء، ثم يُستبدل بما يصلحه من أنواع الأدوية والأغذية، فكذلك أحكام القرآن!! قل يا أيها الرسول لهؤلاء السفهاء، إنما نزله روح القُدُس (جبريل الأمين) لتثبيت المؤمنين على الإيمان بأنه كلام الرحمن، فالمؤمن يزيد إيمانه، والكافر يزيد كفره وضلاله ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ روي في سبب نزول هذه الآية، أن رسول الله ﷺ كان يجلس عند الصفا إلى غلام

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾

نصراني، يُقال له (جَبْر الرومي) وكان أعجميَّ اللسان لا يعرف اللغة العربية، وكان المشركون يرون رسول الله يدخل عليه ويخرج من عنده، فقال المشركون: ما يتعلَّم محمد هذا القرآن، إلا من جبر الرومي، فنزلت الآية، والمعنى: لقد علمنا مقالة المشركين الشنيعة، ودعواهم أن هذا القرآن من تعليم «جبر الرومي» لك يا محمد، فكيف يمكن لمن لا يعرف العربية، ولسانه أعجميٌّ، أن يعلِّم محمداً هذا الكتاب العربي المبين؟ ومن أين للأعجمي أن يتذوَّق بلاغة هذا الكتاب، المعجز في فصاحته وبيانه؟ هذا كذب صريح، ولهذا قال سبحانه ﴿**لسان الذين يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين**﴾ أي إن لسانَ الذي يزعمون أنه علَّمه القرآن، لسانٌ أعجمي، وهذا لسانٌ عربي مبين، فكيف يُتصور ذلك؟ أفليس لكم عقول تفكِّرون فيها؟ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي إن الذين لا يصدِّقون بالقرآن العظيم، لا يوفقهم الله للإيمان، ولا يهديهم طريق النجاة والسعادة، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم موجع ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ وهذه الآية ردٌّ على سفهاء مكة، وتبرئةٌ لساحة النبي ﷺ مما نسبه إليه المشركون في قولهم ﴿**إنما أنت مفتر**﴾ وكأن الآية تقول: ليس محمد بمفتر ولا كذَّاب، لأن الكذب إنما يفتريه شرارُ الخلق، ولا يكذب على الله، إلاَّ من لم يؤمن بالله وآياته، ولا يمكن أن يصدر مثل هذا من (محمد) النبي الصادق الأمين، والكذب جريمة فاحشة، لا يُقْدِم عليها مؤمن، فضلاً عن سيد الأنبياء!! ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي من ارتدَّ عن دين الإسلام، بعدما دخل فيه، وكَفَر بالله ورسوله، إيثاراً للحياة الدنيا على الآخرة ـ إلا من تلفَّظ بكلمة الكفر مكرهاً، بشرط أن يكون قلبه عامراً بالإيمان ـ لكنْ من طابت نفسه بالكفر، وانشرح صدره له، فله من ربه الغضبُ الشديد،

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

والعذابُ العظيم!! نزلت في «عمَّار بن ياسر» أخذه المشركون فعذبوه عذاباً شديداً، حتى أعطاهم ما أرادوا مكْرَهاً، ونال من النبي ﷺ، وذكر آلهتهم بخير، ثم جاء إلى النبي ﷺ يبكي، فقال له الرسول الكريم: كيف تجد قلبك؟ قال: أجده مطمئناً بالإيمان، والحمد لله، فقال له ﷺ: إن عادوا فعُدْ» رواه ابن جرير، وفي الآية تغليظٌ لجريمة المرتدِّ، لأنه عرف الإيمان وذاقه، ثم ارتدَّ عنه، لذلك عاقبه الله بالغضب الشديد، والعذاب العظيم، والحرمان من دخول الجنة!! ولمَّا كانت جريمته شنيعة، كان حدُّه القتل، لقوله ﷺ: «من بدَّل دينه فاقتلوه» رواه البخاري، ثم بيَّن تعالى سبب هذا العقاب الشديد، فقال ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي ذلك العذاب الأليم، بسبب أنهم آثروا الدنيا وفَضَّلُوها على الآخرة، والله لا يوفق الكافر الجاحد لنعمة الله!! وهؤلاء الأشقياء، طُمس على قلوبهم فلا يدخلها نورٌ ولا إيمان، وهم الكاملون في الغفلة، وحقاً إنهم الخاسرون في الآخرة، لأنهم ضيَّعوا حياتهم في اللذائذ والشهوات، وعاشوا كالبهائم في الدنيا ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ثم إن ربك للذين هاجروا في سبيل الله، بعدما فتنهم المشركون الطغاة عن دينهم، بأنواع العذاب، وصبروا على مشاقِّ الجهاد، محتسبين للأجر والثواب، فهؤلاء بشِّرهم يا محمد، بأن الله سيغفر لهم ويرحمهم ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ (١١٣) فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤)﴾

ذكّرهم ذلك اليوم العصيب الرهيب، الذي لا ينفع فيه حسبٌ ولا نسب، ويأتي كل إنسان وحيداً فريداً يجادل عن نفسه، سعياً من خلاصها من العذاب، وتُعطى كل نفسٍ جزاء ما عملت من صالح أو طالح، من غير بخسٍ ولا نقصان، والتعبيرُ يوحي بشدة الهول، في ذلك اليوم العسير، الذي يُشغل فيه كل إنسان بنفسه **﴿لكل امرىء منهم يومئذٍ شأن يغنيه﴾** ثم ضرب تعالى مثلاً لطغاة مكة، المكذبين لسيد الخلق ﷺ فقال سبحانه ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ هذا المثلُ ضربه الله لكفار مكة، ضرب الله لهم المثل، بقريةٍ كانت في أمنٍ وأمان، وراحة واطمئنان، وفي سعة رزق ورخاء، ولكنها كفرت بنعمة الله، فبدَّل الله حالها، وغيَّر مسارها، فسلبها نعمة الأمن والراحة، وأذاقها آلام الجوع والخوف والحرمان، بسبب كفرهم ومعاصيهم، ذلك مثلُ أهل مكة، كانوا في الأمن والطمأنينة والخِصْب، ثم أنعم الله عليهم بالنعمة العظمى، بعثةِ (محمد) ﷺ خاتم النبيين، فكفروا به، وبالغوا في إيذائه، فعذَّبهم الله بالقحط والجوع سبع سنين، حتى أكلوا الجِيفَ والعظام، بدعاء النبي ﷺ عليهم (اللهمَّ اجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف) فرماهم الله بالجوع والقحط، ومما يؤكِّد أن المثل يُراد به أهل مكة، أن الله أتبعها بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ أي ولقد جاءهم محمد ﷺ بالآيات الباهرة، والمعجزات الظاهرة، وهو رجل منهم، يعرفون أصله ونَسَبَه، وصدقه وأمانته، فكذبوه ولم يؤمنوا برسالته، فأصابتهم البلايا والنكبات، وهم ظالمون لأنفسهم بالاستهزاء والتكذيب!. ولما ذكر جحود أهل مكة لنعمة الله، أمر المؤمنين بشكر نعمه، ليزيدهم من فضله وإنعامه، فقال سبحانه ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي فكلوا يا معشر المؤمنين من نعم الله التي أباحها اللَّهُ لكم، حال كونه

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

حلالاً طيباً، ولذيذاً تحبُّه النفوسُ، واشكروا ربكم على نعمه الجليلة، إن كنتم تعبدون ربكم، لا تعبدون أحداً سواه!! ثم ذكر تعالى لهم ما حرَّم عليهم من المآكل، رحمة بهم، فقال سبحانه ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لم يحرِّم ربكم عليكم إلا كلَّ ما فيه أذى لكم، (كالميتة، والدم، وأكل لحم الخنزير، وما ذُبح على اسم غير الله، للصنم والوثن) ففيه أذى، «أذىً روحيٌّ» حيث تنجَّس اللحمُ بذبحه للطواغيت، فالله عزَّ وجل هو الذي خلق الحيوان، ثم ذبحوه لغيره، لكنْ من اضطُرَّ أي ألجأته الحاجةُ والضرورة، إلى أكل شيء من هذه المحرَّمات، فلا إثم ولا ذنب عليه، لأن الضرورات تبيح المحظورات، بشرط أن لا يكون قاصداً للبغي والفساد، ولا متجاوزاً قدر الضرورة!! ثم وبَّخ تعالى المشركين، الذين حلَّلوا وحرَّموا من تلقاء أنفسهم، دون حجة ولا برهان، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لا تقولوا أيها المشركون: هذا حلال، وهذا حرام، لما تصفه ألسنتكم، وتنطق به، بمجرد الرأي والهوى، دون مستندٍ شرعيٍّ، فإن التحليل والتحريم لله وحده، دون سائر الخلق، فمن حلَّل أو حرَّم شيئاً من تلقاء نفسه، فقد كذب على الله، ومن كذب على الله فلن ينجح ولن يفلح، لأنه يستمتع في الدنيا قليلاً بالشهوات والملذات، وله في الآخرة عذاب شديدٌ موجع!! ثم ذكر تعالى ما حرَّم على اليهود بسبب إجرامهم فقال سبحانه ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي وعلى اليهود خاصة، حرَّمنا عليهم ما قصصناه عليك، يا محمد عقوبة لهم، وهي بعض

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

الطيبات، وما فصَّلناه في سورة الأنعام ﴿**وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون**﴾ وكقوله سبحانه: ﴿**فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم..**﴾ الآية، ولهذا قال هنا ﴿**وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ أي وما ظلمناهم بذلك التحريم، ولكنهم ظلموا أنفسهم، فاستحقوا ذلك! ثم أخبر تعالى ـ تكرماً منه وامتناناً في حق العصاة المؤمنين ـ أن من تاب منهم إلى الله وأناب، فإن الله يغفر له زلَّته، ويسعه برحمته، فقال سبحانه ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ أي ثم إن ربك يا محمد، للذين ارتكبوا القبائح، عن جهلٍ وسفه، ثم رجعوا إلى ربهم وأنابوا، وأصلحوا العمل، بعد ذلك الزلل، فإنه تعالى سيغفر لهم ويرحمهم، والآية تأنيسٌ لجميع العصاة، وفتحٌ لباب التوبة أمام جميع الناس، **قال بعض السلف**: «كلُّ من عصى الله فهو جاهل».

وقال سفيان الثوريُّ: «جهالتُه أن يلتذَّ بهواه، ولا يبالي بمعصية مولاه» وهذا معنى قوله سبحانه ﴿**عملوا السوء بجهالة**﴾ أي جاهلين غير عارفين بالله وبعقابه، وغير متدبرين لسوء العاقبة!! ثم أشاد تعالى بمآثر إبراهيم عليه السلام، أبي الأنبياء، وخليل الرحمن، للردِّ على المشركين وأهل الكتاب، الذين يخالفون منهجه ودينه، ويدَّعون أنهم على ملَّة إبراهيم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وصف تعالى إبراهيم، بخمس صفات في هذه الآيات، تشير إلى رفعة شأنه، وعلو منزلته:

ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

الأولى: أنه (**كان أمة**)، أي يعدل أمة كاملة، في صفات الخير والإحسان، كأنه جمع الفضائل والمحاسن، التي تجتمع في الأمم.

الثانية: أنه كان مطيعاً لله، خاشعاً خاضعاً لأمره ﴿**قانتاً لله**﴾ القانتُ: هو الخاشعُ، الخاضع، المطيعُ، أي مطيعاً لربه، مستسلماً لأمره.

الثالثة: ﴿**حنيفاً**﴾ والحنيفُ: المنحرفُ قصداً عن الشرك، إلى التوحيد والإيمان، أي مائلاً عن كل دين باطل، إلى الدين الحقِّ دين الإسلام،

الرابعة : أنه عبدٌ قد أخلص نفسه لله، وباعها في طلب مرضاته، فهو العبدُ الذاكر الشاكر ﴿**شاكراً لأنعمه**﴾ أي دائم الشكر لنعم الله.

الخامسة: اصطفاؤه للنبوة والرسالة ﴿**اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم**﴾ أي اختاره الله لخلته، واصطفاه لنبوته، وهداه إلى طريق الحق دين الإسلام، وبمقابل هذه الصفات العالية الرفيعة، التي اتصف بها الخليل إبراهيم عليه أفضل الصلاة والتسليم، جعل الله له المحبة في قلوب العباد، وأبقى له الذكر الحسن، والمقام الرفيع في العالمين ﴿**وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين**﴾.

قال قتادة: حببَّه إلى جميع الخلق، فكلُّ أهل الأديان يقرُّون بفضله، ويعترفون بمآثره (اليهود، والنصارى، والمسلمون، والمشركون) خصوصاً كفار قريش، فإن عزَّهم وفخرهم، كان بإبراهيم، حيث كانوا يقولون: نحن على دين إبراهيم، باني بيت الله العتيق!! ولكنَّ الله كذبهم بقوله ﴿**ولم يك من المشركين**﴾ فهو الذي حطَّم الأصنام، وهم عَبَدةُ الأوثان والأصنام، فكيف يكونون على ملته ودينه؟ ثم أمر الله رسوله خاتم النبيين، باتباع ملته، والسير على منهجه، والتمسك بشريعته الحنيفية السمحة، فقال سبحانه ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي ثم أمرناك يا محمد بطريق الوحي، أن استمْسِك بدين إبراهيم، وشريعته الحنيفية، وما كان أبو الأنبياء إبراهيم، مشركاً في يوم من الأيام، وإنما كان مؤمناً موحِّداً، مائلاً عن كل دين باطل، إلى دين الإسلام، وهذا معنى قوله (حنيفاً) وفي هذه الآية تعريض بإشراك اليهود، والنصارى، والمشركين من

إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾

قريش، حيث زعم اليهود أن «عزيراً» ابن الله، والنصارى زعموا أن «عيسى» ابن الله، وكفار قريش قالوا: (الملائكةُ) بناتُ الله، فبرأ الله إبراهيم من الشرك، الذي درج عليه أهل الضلال!. وزيادةً في توضيح ضلالات أهل الكتاب، ذكر تعالى افتراءهم على شريعة إبراهيم، حيث جعل اليهود السبت يوم عيدهم، وجعل النصارى الأحد يوم عيدهم، ونسبوا ذلك إلى شريعة إبراهيم، وقد جاءت الآيات بتكذيبهم، وردِّ افتراءتهم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي لم يكن تعظيمُ يوم السبت وتركُ العمل فيه، من شريعة إبراهيم، ولا من شعائر دينه، وإنما جُعل تغليظاً على اليهود، لاختلافهم في الدين، وعصيانهم أمر الله، حيث نهاهم الله عن الصيد يوم السبت، فخالفوا أمر الله، واصطادوا الحيتان، فمسخهم الله قردة وخنازير، وسيفصل الله بينهم يوم القيامة، فيجازيهم على أعمالهم، كما قال سبحانه **﴿فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾** فتحريم السبت كان عقوبة ولم يكن تشريعاً ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي أُدعُ يا أيها الرسولُ، إلى دين الله وشريعته القدسية، بالأسلوب الحكيم، مع اللطف واللين، لا بالقسوة والشدة، وجادل المخالفين لك، بالطريقة التي هي أحسن من طرقِ (المناظرة والمجادلة)، بالحجج والبراهين، وربك هو العالمُ بحال الضالين، وحال المهتدين، فيعطي كلاً جزاءه ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ أي وإن عاقبتم من ظلمكم واعتدى عليكم، فعاقبوه بالمثل ولا تزيدوا، والقصاصُ ينبغي أن يكون مع الجاني، العينُ بالعين، والسنُّ بالسنِّ، ولا يُقتل الرجل بجرم غيره، وقد ورد في سبب نزول هذه الآية، أنه لـمَّا قُتِل حَمْزةُ عمُّ الرسول ﷺ في غزوة أحد، مثَّل به المشركون،

وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

فبقروا بطنه، وقلعوا عينه، واستخرجوا كبده فلاكوه، فلما رآه ﷺ بهذه الصورة قال: واللهِ لأمثلنَّ بسبعين منهم، فنزلت الآية الكريمة ﴿**وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به..**﴾ الآية رواه البزَّار، ثم قال تعالى ﴿**ولئن صبرتم لهو خير للصابرين**﴾ أي ولئن عفوتم عمن ظلمكم، وتركتم القصاص فهو خير لكم وأفضل عند الله، لما فيه من الأجر العظيم ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي اصبر يا محمد على ما ينالك، من أذى أعدائك المشركين، فإن الداعي إلى الله، لا بدَّ أن يناله شيء من الأذى والمكروه، فما لم يكن متدرِّعاً بدرعِ الصبر، ورحابة الصدر، أخفقَ في دعوته، وليكن صبرك من أجل الله، ولا تحزن على الكفار إن لم يؤمنوا، ولا يضقْ صدرك بما ينسبونه إليك من الكذب والزور، يقولون: (ساحر، كاهن، مجنون)، ولا بما يدبرّونه لك من المكر والكيد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ أي إن الله مع المؤمنين المتقين، بعونه ونصره، ومع المحسنين بحفظه ورعايته، ومن كان الله معه فلن يضره كيدُ الكائدين!. وهكذا ختم الله السورة الكريمة، بتوجيه الدعاة إلى سلوك طريق الحكمة، في الدعوة إلى الله، ومعالجة الأمراض الاجتماعية بالأسلوب الحكيم، فإن المرضَ النفسي والأخلاقي، أخطر من مرض الجسد، ومعالجته تحتاج إلى صبرٍ وحلم وأناة، وبدون ذلك لا نجاح ولا فلاح!!

انتهى تفسير سورة النحل

● ● ●

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾

تفسير سورة الإسراء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ابتدأت السورة الكريمة، بذكر المعجزة العظيمة «معجزة الإسراء» التي كانت لسيد الأنبياء ﷺ، وكانت أعظم معجزاته التي سجَّلها القرآن الكريم، وسطَّرها في كتابه الخالد بحروف من نور، لتبقى خالدة على كرِّ الدهور، ومرِّ الأزمان، تشير إلى رفعة قَدْر هذا النبي، ومكانته السامية عند الله، والمعنى: تنَّزه وتقدَّس وتمجَّد، الإله العليُّ الكبير، الذي انتقل بعبده ورسوله محمد ﷺ، من (مكة) إلى (بيت المقدس)، فقطع به المسافات الشاسعة في جزءٍ يسير من الليل، ليُطلعه على آياته العظيمة، في ملكوت السموات والأرض، إنه تعالى هو السميع لأقوال محمد، البصيرُ بأفعاله وأعماله، فلهذا خصَّة بهذه الكرامات والمعجزات! والإسراء معناه: السفرُ ليلاً، وإنما قال (ليلاً) بالتنكير، لأنه كان في جزء من الليل، ولم يستغرق الليل كله، ولفظ العبد (بعبده) للإشارة إلى أنه كان بروحه وجسده، (يقظةً) لا مناماً، (حقيقةً) لا خيالاً، فلهذا لم يقل: أسرى به مناماً، أو أسرى بروح عبده، ولو كانت قصة منامية، لما ذكرها الله في كتابه العزيز، فإن كل إنسان يرى في منامه كثيراً من العجائب والغرائب ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ أي وأعطينا موسى التوراة، هدايةً لبني إسرائيل، لنخرجهم من ظلمات الجهل، إلى نور الهداية والإيمان، وقلنا لهم: لا تعبدوا غير الله، ولا تجعلوا لكم رباً غيره تعالى،

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾

تعتمدون عليه، يا أبناء الذين كانوا مع نوح في السفينة، إنه ـ يعني نوحاً ـ كان عبداً شاكراً لله في جميع أحواله.. ربط تعالى بين رسالة محمد ﷺ ورسالة موسى عليه السلام، لينبِّه إلى أن مصدر الوحي واحد، فالذي بعث موسى بالتوراة، أرسل محمداً بالقرآن، وكلٌّ من (موسى) و(محمد) من ذرية شيخ الأنبياء «نوح» عليه السلام أبي البشر الثاني، ثم جاء الحديث عن بني إسرائيل «اليهود» الذين لم يشكروا الله على نعمه، فسلَّط الله عليهم فرعون، وعاقبهم شر عقاب ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أي أخبرناهم وأعلمناهم في التوراة، بما سيحدث منهم من إفساد وإجرام، وأنذرناهم عاقبة هذا الفساد، ليرتدعوا وينزجروا، فلم يرتدعوا ولم ينزجروا، وأفسدوا في أرض فلسطين وما حولها، إفساداً كبيراً، وكان أول الإفساد مخالفة أحكام التوراة، والآخر قتل (زكريا ويحيى)، وقصدهم قتل (عيسى ابن مريم)، وكلٌّ منهما طغيان في الأرض وفساد كبير ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ أي فإذا جاء وعد الإفساد الأول، وهو الطغيانُ والإفسادُ في الأرض، بقتل الأنبياء، وسفك الدماء، واستحلالهم محارم الله التي حرمها عليهم في التوراة، سلَّطنا عليكم من عبيدنا أناساً جبَّارين للانتقام منكم، فطافوا وسط البيوت، يروحون ويَغْدون للتفتيش عنكم واستئصالكم، بالقتل، والسلب والنهب، وكان ذلك التسليط قضاءً جازماً، لا يقبل النقض والتبديل!! لقد سلَّط الله على اليهود الطاغية «بختنصَّر المجوسي» فقتل منهم ما يربو على سبعين ألفاً حتى كاد أن يفنيهم، وكان ذلك أول الفسادين، وهكذا يسلِّط الله الظالم على الظالم، والفاجر على الفاجر، عندما يكثر الشرُّ والفساد، كما قال عمر رضي الله عنه في وصيته للجيش: «ولا تقولوا إن عدونا شرٌّ منَّا فلن يُسلَّط علينا، فربَّ قوم سُلِّط عليهم من هو شرٌّ منهم، كما سُلِّط على بني إسرائيل، «بختنصَّر المجوسي»، لمَّا انتهكوا محارم الله ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي ثم جعلنا لكم الدولة والغلبة

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨)﴾

عليهم، حينما تبتم ورجعتم إلى دينكم، بعد ذلك البلاء الشديد، ومنحناكم الأموال الكثيرة، والذرية الوفيرة، وجعلناكم أكثر عدداً ورجالاً من أعدائكم، لتستعيدوا قوتكم، وتبنوا دولتكم!! ثم تكرَّرت القصة من جديد، فعاد اليهودُ إلى الإفساد، وعاد عليهم العذاب والنكال، بشكل أفظع وأروع ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ أي إن أحسنتم يا بني إسرائيل فإحسانكم لأنفسكم، ونفعُه عائد عليكم، وإن أسأتم عملكم، فضررُ الإساءة راجع عليكم، لا يتضرر الله بشيء من ذلك، لأنه الغني عن العباد، لا تنفعه الطاعة، ولا تضره المعصية، فإذا جاء وعدُ المرة الثانية من الإفساد، سلطنا عليكم من ينتقم منكم، بعثناهم عليكم ليهينوكم ويجعلوا آثار المساءة والكآبة بادية على وجوهكم، بالإذلال والقهر، وليدخلوا بيت المقدس فيخربوه كما خرَّبوه أوَّلَ مرة، وقد سلَّط الله عليهم مجوس الفرس، فقتلوهم وشرَّدوهم في الأرض، ودمَّروا مملكتهم تدميراً، وهذان الإفسادان منهم قد وقعا، وانتقم الله منهم، ولا يزال وعدُ الله سارياً عليهم، حتى تقع المعركة الفاصلة بين اليهود والمسلمين، فيطهِّر اللَّهُ الأرضَ من رجسهم، كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ في قوله (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبىء اليهودي وراء الشجر والحجر، فينطق الله الشجر والحجر، يقول: يا مسلمُ، يا عبد الله: هذا يهودي ورائي تعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود) رواه مسلم، ثم يعقب القرآن الكريم على سياق القصة، بأن هذا العقاب قد يكون سبباً للعودة والإنابة إلى الله، فيقول سبحانه ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي لعل الله أن يرحمكم، ويغفر لكم ما صدر منكم من ذنوب وآثام، إذا تبتم ورجعتم إلى ربكم، وإن عدتم إلى الإفساد والإجرام، عدنا إلى العقوبة والانتقام، وجعلنا جهنم سجناً ومحبساً للمجرمين، ولقد عادوا في زمن النبي ﷺ للإفساد، فسلَّط الله عليهم رسوله والمسلمين

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾

فأخرجوهم من الجزيرة العربية كلها، ثم عادوا إلى الإفساد منذ زمن قريب، فسلَّط الله عليهم «هتلر» حتى جرَّعهم غصص العذاب، وأحرق منهم من أحرق، ولا يزال وعدُ الله القاطع، حتى تكون نهايتهم على أيدي المؤمنين إن شاء الله ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي إن هذا القرآن، يهدي لأقوم الطرق، وأصوبها وأسعدها، فهو الدواء والعلاج للأمراض الاجتماعية، والنفسية ، ويبشر المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، بالثواب العظيم في جنات النعيم، وأمَّا الذين لا يصدِّقون بالآخرة، ولا يؤمنون بالحساب والجزاء، فيبشرهم بالعذاب الأليم في دار الجحيم ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ أي ويدعو الإنسان بالشر على نفسه، كما يدعو لها بالخير، عند وقوع كربٍ عليه، ولو استجيب له في ذلك لهلك، وذلك لما جُبِل عليه من العجلة وعدم التمهل!!

قال ابن عباس: «هو دعاءُ الرجل على نفسه أو ولده عند الضجر، يقول: اللهمَّ أهلكه، اللهمَّ دمره، وأمثال ذلك» ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ أي جعلنا الليل والنهار علامتين عظيمتين، دالتين على وحدانيتنا وكمال قدرتنا، فجعلنا الليل مظلماً لتسكنوا فيه إلى الراحة، وجعلنا النهار مضيئاً، مشرقاً بالنور والضياء، ليحصل به الإبصار، ولتعلموا بالنهار طريق معيشتكم، وتعلموا عدد الأيام، والشهور، والأعوام، فالليل

وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

للراحة والسكون، والنهار للسعي والكسب، وكل أمر من أمور الدنيا والدين، وضّحناه وبيَّناه للناس أحسن تبيين، وليس شيء متروك للمصادفة والطفرة، وإنما هو بتدبير، وتنظيم، وإحكام ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي كلُّ إنسان محبوسٌ بعمله ومجزيٌّ به، وعمله ملازمٌ له كالطوق في العُنُق، لا ينفكُّ عنه، ويوم القيامة نخرج له كتاب أعماله، فيرى فيه حسناته وسيئاته، ويُقال له: اقرأ كتاب أعمالك، كفى بكَ اليوم أن تكون شاهداً على نفسك، لا تحتاج إلى من يشهد عليك ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ أي من اهتدى باتباع هدي المرسلين، فثواب اهتدائه له، وهو الذي يقطف عاقبته الحميدة، ومن ضلَّ عن الحق، وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجني على نفسه، ولا يضرُّ غيره، ولا يحمل أحدٌ ذنب أحد، وما كنا معذبين أحداً من الخلق، حتى نبعث لهم الرسل، مذكّرين ومنذرين، فتقوم عليهم الحجة ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ أي وإذا أردنا إهلاك قوم من الأقوام، أمرنا الرؤساء والكبراء والمنعَّمين فيها، وفي الآية محذوف تقديره: أمرناهم بالطاعة، فعصوا أمرنا، وخرجوا عن طاعتنا، ففسقوا فيها، لأن الله لا يأمر بالفحشاء، وهذا كما تقول: أمرتُه فعصاني، فأنت لم تأمره بالعصيان، إنما أمرته بطاعتك فعصى أمرك، فاستحقوا العذاب بالفسق والطغيان، فأهلكناهم إهلاكاً فظيعاً!.

قال ابن كثير: «أمرهم بالطاعات، ففعلوا الفواحش، فاستحقوا العقوبة» فدمَّرهم الله تدميراً ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي وكثير من

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

الخلائق والأمم، من المكذبين لرسلهم، أهلكناهم من بعد بعثة نوح، كعاد، وثمود، وقوم صالح، وقوم لوط، وغيرهم من الطغاة الفجار، وكفى أن يكون ربك يا محمد، شاهداً على أعمال العباد وذنوبهم، ليعاقبهم عليها!! والآية إنذارٌ لكفار قريش، الذين كذبوا سيد المرسلين ﷺ، يقول لهم: إنكم لستم أكرم على الله منهم، وقد كذبتم أشرف الخلق، فعقوبتكم أولى وأحرى منهم.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ أي من كان همُّه الدنيا فقط، لا همَّ له غيرها، ولها يسعى ويتعب، عجَّلنا له من نعيمها ما نشاء نحن، لا ما يحبُّ ويهوى، ثم جعلنا له في الآخرة جهنم، يدخلها مهاناً حقيراً، مطروداً من رحمة الله، ومن أراد الآخرة وما فيها من النعيم الخالد المقيم، وعمل لها ما ينبغي من الطاعات والأعمال الصالحة، وهو مؤمن صادق الإيمان، فهؤلاء يلقون التكريم في دار النعيم، ويكون عملهم مقبولاً عند الله، فمن شاء أن يعمل للجنة فالطريق أمامه ميَسَّر، ومن أحبَّ أن يكون حطباً لجهنم، فالطريق أيضاً أمامه ميَسَّر، وقد ترك الله للإنسان حرية الاختيار ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي كلاً من الفريقين: من أراد بعمله الدنيا فقط، ومن أراد الآخرة، نعطيه من فضلنا وكرمنا ما قسمناه له، من العطاء العاجل، أو العطاء الآجل، وما كان عطاء الرحمن ممنوعاً عن أحد من الخلق، نعطي المؤمن والكافر، والبرَّ والفاجر، انظر يا أيها الرسول كيف فاوتنا بينهم في الأرزاق والأخلاق!! ولتفاوتُ منازلهم في الآخرة، أعظم من تفاوتهم في الدنيا وأكبر، كما قال سبحانه ﴿هم درجات عند الله والله

لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾

بصير بما يعملون﴾ ثم حذَّر تعالى عباده من الشرك، الذي يُحْبِط العمل، فقال سبحانه ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ أي لا تجعل أيها الإنسان العاقل، لله شريكاً، تعبده وتخضع له كما تخضع لله، فتخسر حياتك وسعادتك، وتصير مهاناً جامعاً على نفسك الذمَّ من الملائكة والمؤمنين ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي أَمَر ووصَّى ربك بأن لا تعبدوا إلهاً غيره، ووصَّى بأن تحسنوا إلى الوالدين إحساناً، لا سيَّما عند الشيخوخة والكبر، فإنهما يحتاجان إلى العون والإحسان، فلا تسمعهما قولاً سيئاً، ولو بكلمة «أُفّ» التي تفيد الضَّجر منهما، ولا تزجرهما بإغلاظٍ وتعنيف، وقل لهما قولاً ليناً، طيباً بأدب ووقار، جمع تعالى بين حقِّ الله، وحقِّ الوالدين، لينبِّه على عظيم حقهما على الولد، لا سيَّما عند بلوغهما سنَّ الشيخوخة والكبر، فإن رعايتهما والإحسان إليهما في هذا الوقت، تكون ألزم وأوجب، حيث يصبح كلٌّ منهما كالطفل، يحتاج إلى حماية ورعاية، كما كان الولد في صغره يحتاج إلى رعاية أبيه وأمه ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ أي تواضع لهما بتذلُّل وخضوع، من فرط رحمتك وعطفك عليهما، وقل يا ربِّ: ارحم والديَّ وأكرمهما برحمتك الواسعة، كما أحسنا تربيتي في صغري!! والتصوير جاء في أبدع صور الجمال، فقد شبَّه التذلُّل والتواضع لهما، بطائر له جناحان، فإذا طار فتح جناحيه ونشرهما، وإذا أراد التوقف عن الطيران، قبض جناحيه إليه، فشبَّه شدة التواضع لهما بقبض الجناح، ولم يكتف بذكر الجناح، بل أضافه إلى الذل ﴿جناح الذل﴾ ليشعره بالانكسار والخضوع التام بين يديهما، كأنه جناحٌ مكسور لذلّه، فما أسمى وأبدع هذا التعبير!؟ ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ أي ربكم أيها الناس أعلم بما في نفوسكم وضمائركم،

وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾

من قصد العقوق أو الإحسان، إن تكونوا قاصدين للبر والإحسان، دون العقوق والإساءة، فإنه يغفر لكم ما سلف منكم، عن خطأ في حقهما بدون قصد، ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ أي امنح الأقارب حقوقهم من العون والإحسان، وأعْطِ المحتاجَ أيضاً، والغريب المنقطع في سفره، مما أعطاك الله من المال، ولا تنفق المال في غير وجوه المنفعة، فتصبح من أشباه الشياطين وأمثالهم، الذين يسعون في الأرضِ بالفساد، وينفقون أموالهم في الشرّ والمعصية!! ينهى القرآن عن التبذير، والتبذير ـ كما يفسّره ابن مسعود ـ الإنفاق في غير حق، وفي غير وجوه المنفعة التي تعود على الإنسان!.

قال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كلَّه في الحقّ، وفي وجوهِ الخير والإحسان، لم يكن مبذّراً، ولو أنفق مُدّاً ـ أي صاعاً من القمح ـ في غير حقّ كان مبذّراً، وختم الله الآية بقوله **﴿وكان الشيطان لربه كفوراً﴾** أي مبالغاً في جحود نعمة الله، وكذلك أتباعه المبذِّرون، لأنهم لا يؤدُّون شكر النعمة، وحقُّها أن ينفقوها في الطاعات لا في المعاصي ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي وإن أعرضت عن ذوي القربى والمساكين، إذا لم تجد ما تحسن به إليهم، فعِدْهم وعداً حسناً، وقل لهم قولاً ليناً، تطيِّب به خاطرهم، مثل أن تقول لهم: إن جاءنا رزق الله، فسنصلكم إن شاء الله ونكرمكم، وربَّ كلمةٍ طيبة خير من كثير العطاء مع الإساءة.. وكما أمر الله بالبر والإحسان، نهى سبحانه عن الشح والبخل، فقال ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ غلُّ اليد: كنايةٌ عن البخل، كما أن بسطها كل البسط: كنايةٌ عن الإسراف والتبذير، أي لا تكن بخيلاً منوعاً عن الإنفاق، كمن شُدَّت يده إلى عنقه، فلا يستطيع أن يُخْرِج من جيبه شيئاً من

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾

المال، ولا تكن مسرفاً مبذِّراً، كمن يلقي كلَّ ما فيه يديه من المال، حتى لا يبقى معه شيء ﴿فتقعد ملوماً محسوراً﴾ أي تصبح فقيراً عديم المال، يلومك الناس ويذمونك، كمن انقطع في سفره بانقطاع دابته ومطيته، والحسيرُ: الدابةُ تعجز عن السير، فتقطع صاحبها عن متابعة السفر، وهذه الآية أرست أصول الاقتصاد، فلا بخل ولا تقتير، ولا إسراف ولا تبذير، وخير الأمور الوسط، كقوله تعالى: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾ ثمَّ بيَّن تعالى الحكمة من إغناء البعض، وإفقار البعض فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي إنه جلَّ وعلا يوسِّع الرزق على من يشاء، ويضيِّق على من يشاء، وهو القابضُ الباسط، المعطي المانع، العالم بمصالح العباد، فإن من عباد الله من لا يُصلحه إلاَّ الغنى، ولو أفقره لفسد حاله، وإن من عباد الله من لا يُصْلِحه إلا الفقر، ولو أغناه لفسد حالُه، فهو سبحانه العليم الخبير بمصالح الخلق كقوله: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء﴾ فالله تعالى يعلم من مصالح العباد ما يخفى عليهم أنفسهم ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ لقد كان بعضُ أهل الجاهلية، يقتلون البنات خشية الفقر والإملاق، وبعضهم يقتلها خشية العار، يخافون أن تزوَّج لغير الكفء بسبب الفقر، وذلك عار شديدٌ عندهم، وكلُّ هذه الأسباب مرفوضة شرعاً وعقلاً، فإن الأولاد نعمة، وقتلهم وحشيةٌ وعمل قبيح، والمعنى: لا تقتلوا أولادكم مخافة الفقر، فرزقهم علينا لا عليكم، وقتلهم ذنب عظيم، وجرم كبير، ولا تقربوا فاحشة الزنى، فإنها فعلة قبيحة، متناهية في القبح والشناعة ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ أي ولا تُقدموا على

وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾

قتل أحدٍ بدون حق، فالنفس الإنسانيةُ حرامٌ إزهاقها، إلا بحقٍّ شرعي، كالرِّدة عن الدين، والقتل العمد، والزنى إذا كان متزوجاً، للحديث الشريف «لا يحلُّ دمُ امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، إلاّ بإحدى ثلاثٍ: النفسِ بالنفس، والزاني المحصن ـ المتزوج ـ والتارك لدينه، المفارقِ للجماعة» رواه البخاري ومسلم، ومن قُتل ظلماً بغير حق شرعي يوجب القتل، فقد جعلنا لولي أمر المقتول، كالابن، والأب، والأخ، سلطةً على القاتل بالقصاص منه، فلا يتجاوز الحدَّ المشروع له، استغلالاً لهذا السلطان، بأن يقتل أخ القاتل، أو ابن عمه، تشفياً وانتقاماً، أو يقتل اثنين بواحد، كما كان أهل الجاهلية يفعلون، فحسبُه أن الله نصره على خصمه، فليكن عادلاً في قصاصه، فإن قتل النفس جريمة كبيرة، تهدِّد الأمن والاستقرار، وتدمِّر بنيان المجتمع، وتجعل البشر كالوحوش الضارية، يفترس القويُّ الضعيفَ، ويسطو القادر على العاجز، والله عزَّ وجل هو واهبُ الحياة للإنسان، وليس لأحدٍ غير الله أن يسلبها منه، إلاّ في الحدود التي رسمها الله، وخراب الدنيا كلِّها أهون عند الله من قتل المسلم، كما قال سيد البشر ﷺ (لزوال الدنيا عند الله، أهونُ من قتل مسلم) رواه الترمذي، وكان عبد الله بن عمر يطوف حول الكعبة المشرفة، وينظر إليها ويقول: «ما أعظمك؟ وما أعظم حرمتك!؟ ولنفسُ المؤمن أعظمُ حرمةً عند الله منك» وكما حرَّم القرآن قتل النفس، كذلك حرَّم أكلَ مال الضعيف واليتيم، فقال سبحانه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي لا تتصرفوا في مال اليتيم، إلا بالطريقة التي هي أحسن له، وهي حفظُه وتثميرُه له، ليزيد ولا ينقص، حتى يبلغ اليتيمُ سنَّ البلوغ والرشد، فيسلِّم له مالُه، وأمر تعالى بالوفاء بالعهود، سواءً كانت بين الإنسان وربه، أو بين الإنسان والإنسان، ومنها عهد رعاية مال اليتيم، فإن العهد سَيُسْأَلُ عنه العبد يوم القيامة، كما أمر بإتمام الكيل والميزان، من غير تطفيف ولا بخس، ولا خديعة ولا احتيال، فوفاء الكيل والميزان، خيرٌ في الدنيا، وأحسن عاقبةً ومآلاً في الآخرة.

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ أي لا تَّتبعْ ولا تسلكْ، ما لا علم لك به، من قولٍ أو فعل، كمن يسلك طريقاً لا يدري أين يوصله؟ فإنَّ هذه الجوارح من سمع، وبصرٍ، وقلب، ستُسأل عنها يوم القيامة، لأنها أمانة استودعها الله عندك!.

قال قتادة: «لا تقل رأيتُ ولم تر، وسمعتُ ولم تسمعْ، وعلمتُ ولم تعلم، فإن الله سائلك عن ذلك كلِّه» وفي الآية التحذيرُ من إساءة الظن بالمسلمين، وعدم التسرع بالحكم على إنسان، أو اتهامه قبل أن تتثبتَ من الأمر، وفي الحديث «إياكم والظنَّ، فإن الظنَّ أكذبُ الحديث» رواه البخاري، ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ أي لا تمشِ في الأرض مشية المختال المتكبّر، المعجب بنفسه، فإنك أيها الإنسان ضعيفٌ هزيلٌ، لا يليق بك الكبرياء، فلن تستطيع بمشيتك أن تخرق الأرض، فتقهرها وتشعرها بعظمتك، ولا أن تتطاول على الجبال، فتصل إلى قممها وذُراها، وفي الآية تهكُّمٌ لاذع، وسخرية رائعة بالمتكبرين، وما أجمل قول القائل:

ولا تمشِ فوق الأرض إلاَّ تواضعاً ... فكم تحتها قومٌ همو منك أرفع؟

كلُّ ذلك المذكور الذي نهى الله عنه، كان عمله قبيحاً ومحرَّماً عند الله تعالى، فلا ظلم ولا عدوان، ولا تكبر ولا تجبر، ولا سلب لمال اليتيم المسكين. ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي ذلك مما أوحاه إليك ربك يا محمد، من المواعظ البليغة، والحِكَم البديعة، ولا تشرك مع الله غيره، من

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾

وثنٍ، أو حَجَر، أو بشر، فتلقى في نار جهنم، ملوماً تلوم نفسك، ويلومك الله والخلقُ، وتصبح مطروداً مبعداً عن كل خير، مع غاية الذلِّ والهوان!! وبعد هذا يأتي التوبيخُ لأهل السَّفه والفجور، الذين جعلوا الملائكة إناثاً ونسبوهم إلى الله، فقالوا: الملائكةُ بنات الله، وعنهم يقول سبحانه: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ والمعنى: هل خصَّكم الله بالذكور، واختار لنفسه البنات؟ كيف يجعل لكم الأشرف والأفضلِ، ويختار لنفسه الأدنى والأحقر؟ وهو (أسلوب تهكميٌّ) لاذع، كأنه يقول: لا عقل لكم تفكِّرون به، تجعلون لله ما تكرهون، وتجعلون لأنفسكم ما تحبون؟ إنكم لتقولون قولاً عظيماً في شناعته، كبيراً في وقاحته!! ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي ولقد بينَّا في هذا القرآن العظيم، العِبَر والأمثال، والحِكَم والمواعظ، وسلكنا معهم طريق الترغيب والترهيب، ليتَّعظوا ويعتبروا، وما يزيدهم هذا البيانُ والتذكيرُ، إلاَّ نفوراً عن الحق، وإعراضاً عن أنوار القرآن، والتعبيرُ بالنفور **﴿وما يزيدهم إلا نفوراً﴾** وهو من أوصاف الدوابِّ الشرسة، التي تستعصي على راكبها فتنفر منه، شبههم تعالى وكأنهم دواب شاردة، تنفر من سماع مواعظ القرآن، كما قال سبحانه عنهم **﴿فما لهم عن التذكرة معرضين. كأنهم حمر مستنفرة. فرت من قسورة﴾**؟ أي كأنهم حمرٌ وحشيَّة، رأت الأسد ففرَّت منه فزعاً ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ الآية وردت على سبيل الفرض والتقدير، أي لو فرضنا أن مع الله آلهةً أخرى كما زعم المشركون، إذاً لطلبوا طريقاً إلى مغالبة ذي العزة والجلال، الكبير المتعال، أي قصدوا مغالبته ليسلبوا منه ملكه وسلطانه، كما يفعل ملوك الدنيا بعضُهم ببعض، لكنَّ هذه الآلهة المزعومة، من وَثَنٍ، أو حَجَرٍ، أو بشرٍ، أحقر وأذلُّ من أن تنافس الله في عظمته، وتشاركه في ربوبيته، فكيف تجعلونها آلهة مع الله؟ تنزَّه الله وتقدَّس، وتعالى عما يقوله الظالمون علواً كبيراً!. ثم ذكر تعالى أن كلَّ ما في الكون، يُسبِّح بعظمة الله، وينطق بجلاله، ويشير إلى

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾

كبريائه، فقال سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي كلُّ ما في الوجود، يسبِّح الله ويمجِّده، السموات والأرض، والملائكةُ والإنسُ، والجنُّ، والجبال، والأشجار، والبحارُ والأنهار، ولكنكم لا تفهمون تسبيحها، لأنها بلسانٍ غير لسانكم، السمواتُ تسبِّح الله في زرقتها، والحقولُ في خُضرتها، والبساتينُ في نُضرتها، والأشجار في حفيفها، والمياه في خريرها، والطير في تغريدها، وكلُّها قائمة تسبِّح الله، وتشهد له بالوحدانية، والإبداع، والوجود!.

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ ... تدلُّ على أنه واحد

فكيف تعمى أبصار المشركين عن هذه الحقائق والبدائع؟ ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾ أي إنه سبحانه حليمٌ بالعباد، لا يعاجلهم العقوبة مع كفرهم ومعاصيهم، وهو الغفور الرحيم لمن تاب وأناب لأنه هو التواب الرحيم، ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ أي وإذا قرأت هذا القرآن على الكفار، الذين لا يؤمنون بالآخرة، وينكرون البعث والحساب والجزاء، جعلنا بينك وبينهم، كالحاجز الخفي الساتر، الذي يمنعهم عن رؤية نور الحق، وجعلنا على قلوبهم أغشية وأغطية لئلا يفهموا القرآن، وفي آذانهم صمماً يمنعهم من استماعه!! وهذا كلُّه على سبيل (التشبيه والتمثيل)، كمن فقد الرؤية، والسمع، والإدراك، فهم كالأنعام تسمع الصوت دون أن تفهم المعنى، وإذا عظَّمت ربك بوصفه بالتوحيد (لا إله إلا الله) فرُّوا كالدواب الجامحة، هرباً من استماع اسم الله

نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾

الجليل ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ أي نحن أعلمُ بالغاية التي يستمعون من أجلها القرآن، ليست غايتُهم الانتفاع بأنواره وآياته البينات، وإنما غرضهم السخرية والاستهزاء بالرسول وبالقرآن، فهم يتناجون ويتحدَّثون بينهم سراً، بعيدين عن الناس، فيقول بعضهم لبعض، ما تتبَّعون إلاً رجلاً مسحوراً، سُحِر فاختلط عليه عقله، فهو يهذي بهذا القرآن، انظر يا محمد وتعجَّبْ، كيف يقولون عنك تارةً: إنه ساحر، وتارةً شاعر، وتارةً يقولون: إنه مجنون!! وقد ضلُّوا بهذا الزور والبهتان، فلا يرون طريقاً إلى الهدى والإيمان!! ثم حكى تعالى إنكارهم للقيامة، والبعث والنشور، فقال سبحانه ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾!

أي وقال السفهاء المنكرون للبعث والجزاء: هل إذا أصبحنا عظاماً بالية، وذراتٍ متفتّتة، مختلطه بتراب الأرض، هل سنُخلق خلقاً جديداً؟ بعد أن نفنى ونبلى؟ قل لهم يا محمد: لو كنتم من حجارة صمَّاء، أو حديد صلدٍ، أو من مادةٍ أقسى من الحديد، لأعادكم الله إلى الحياة مرة أخرى!! فسيقولون من الذي سيردُّنا إلى الحياة بعد موتنا وفنائنا؟ قل الذي خلقكم وأنشأكم أول مرة ﴿فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي فسيحركون رؤوسهم ويهزُّونها

وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾

سخرية واستهزاءً، ويقولون متى سيكون هذا البعث والإحياء؟ قل لهم: لعلَّ وقته يكون قريباً، وهو يوم (الحشر الأكبر)، يوم يدعوكم للخروج من القبور، فتخرجون مستجيبين لأمره، حامدين له على قدرته على البعث، وتظنون لهول ما ترون، أنكم ما أقمتم في الدنيا إلاَّ زمناً قليلاً كما قال سبحانه: **﴿ويوم تقوم الساعة يُقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾** أي ما أقاموا في الدنيا، إلاَّ برهة قصيرةً من الزمن ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي وقل لعبادي المؤمنين، يختاروا من الكلام ألطفه وأحسنه، ويتركوا الكلام الفظَّ الغليظ، الذي يوغر الصدور، ويُشعل نار الفتنة، فإن الشيطان اللعين، يفسد الودَّ، ويهيِّجُ الشَّر بينهم، بالكلمة الخشنة التي يُفلت لها اللسان، وعداوته ظاهرة للإنسان من قديم الزمان، فليحذروا شرَّه ومكره وكيده ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ أي ربكم أيها الناسُ أعلم بخفايا نفوسكم، إن يشأ يرحمكم بالتوفيق للإيمان، وإن يشأ يعذبكم بالإماتة على الكفر والعصيان، وما أرسلناك يا محمد موكَّلاً عليهم، حتى تجبرهم على الإيمان، إنما أنت هادٍ وبشير، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار، وربك العالمُ بكل ما في الكون، ولقد فاوتنا بين الأنبياء في المراتب والدرجات، وأنزلنا الزَّبورَ على داود، فيه الحكمة وفصل الخطاب، والآيَةُ ردٌّ على المشركين، حيث استبعدوا أن يكون محمد رسولاً، وقالوا: كيف يكون يتيم أبي طالب نبياً علينا؟ وكيف يكون أصحابه هم الفقراء والضعفاء، دون الأكابر والرؤساء؟ فردَّ الله عليهم بأن أمر النبوة موكولٌ إلى الله، فقد خصَّ كل نبيٍّ بخصلة من خصال الفضل، خصَّ إبراهيم بالخُلَّة، وموسى بالكلام، وسليمان بالملك العظيم، وداود بإنزال الزبور عليه، وتسبيح الجبال معه، ومحمداً خاتم النبيِّين بالإسراء والمعراج، وفضَّل بعضهم على بعض، والله أعلم بمن يستحقُّ النبوة

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴿٥٨﴾﴾

﴿**الله أعلم حيث يجعل رسالته**﴾ ولا دخل لأحدٍ من البشر، في أمر النبوة والرسالة ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ أي قل لهم: ادعوا الآلهة المزعومة لكشف الضُرِّ عنكم، أو تحويله إلى غيركم، إن أراد الله بكم العذاب والبلاء، هل تستطيع أن تنفعكم، أو تصرف عنكم شيئاً من عذاب الله؟ إن الذين تدعونهم آلهة كعيسى والملائكة، وتريدون شفاعتهم، هم أنفسهم يبتغون القرب من الله، ويتوسلون إليه بالطاعة والعبادة، وهم ـ بعبادته ـ يرجون رحمته، ويخافون عقابه، لأن عذاب الله شديد، جديرٌ بأن يحذره الإنسانُ العاقل!!

قال ابن عباس: كان أهل الشرك وأهل الكتاب يقولون: نعبد الملائكة، والمسيحَ وعزيراً، فقال الله لهم: هؤلاء الذين تعبدونهم، هم يتوسلون إلى الله بصالح الأعمال، ويرجون رحمته ومغفرته ورضوانه، فكيف يليق بكم أن تعبدوا مخلوقين مثلكم، هم بحاجةٍ إلى رحمة الله ورضوانه؟ ثم بيَّن تعالى سنَّته في إهلاك الأقوام الطاغين، فقال سبحانه ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ أي ما من قرية من القرى الكافرة، التي عصت أمر الله، وكذبت رسله، إلا وسيهلكها الله، إمَّا بعذاب الاستئصال ـ أعني الفناءَ الكلِّي ـ كما أهلك (قوم نوح، وعاد، وثمود)، أو بالعذاب الشديد لأهلها، بأخذهم بالقحط والجدب، والفيضانات والزلازال، كما نسمع بين حين وآخر، كان ذلك حكماً لازماً، وأمراً مسطَّراً في اللوح المحفوظ عند الله تعالى، كما قال سبحانه ﴿**وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً**﴾ وفي هذا وعيدٌ شديد لكفار مكة، لئلا يغترُّوا بحلم الله عليهم، فإن الله يُمهل ولا

وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

يُهمل ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفًا﴾ لقد طلب المشركون من رسول الله ﷺ أن يزيل عنهم جبال مكة، ويجري لهم فيها الأنهار، ويجعل بلادهم حدائق وبساتين ناضرة، تنبت لهم الفواكه والثمار، وأن يقلب لهم الصفا ذهباً، فأخبره تعالى بأنه لو أجابهم إلى ما طلبوا ثم لم يؤمنوا، كان هلاكهم بعذاب الاستئصال محققاً، كما فعل بقوم صالح، لمَّا طلبوا الناقة، فلما أخرجها الله لهم عقروها، فدمَّرهم الله وأفناهم و جعلهم عبرةً لمن يعتبر!.

ومعنى الآية: ما منعنا من إرسال المعجزات والخوارق، التي طلبها قومُك كفار مكة، إلاَّ تكذيب من سبقهم من الأمم، حيث اقترحوا ثم كذَّبوا، فأهلكهم الله ودمَّرهم، وأعطينا قوم صالح الناقةَ، آية واضحة بيِّنة، أخرجناها لهم من صخرٍ جامد أصمّ، فكفروا بها وعقروا فأهلكناهم بعذاب الاستئصال، وما نرسل بالخوارق إلا تخويفاً للعباد، ليرتدعوا وينزجروا، فرحمةً بقومك يا محمد، وإكراماً لك، لم نجبهم إلى ما طلبوا، لأن الله أرسلك رحمة للعالمين.

قال ابن عباس: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، فأوحى الله إليه، إن شئت أعطيناهم ما سألوا، فإن كفروا أهلكناهم، وإن شئت أن نستأني بهم ـ أي نتأنى عليهم ـ فقال: بل استأن بهم يا رب!! فنزلت الآية، رواه النسائي وأحمد ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنًا كَبِيرًا﴾ أي واذكر حين أوحينا إليك، أن ربك أحاط علمه وقدرتُه بالناس، فهم في قبضته وتحت قهره وسلطانه، فامضِ لأمر الله ولا تخفْ أحداً، وما جعلنا الرؤيا التي أريناكها (ليلة المعراج)، من عجائب آيات الله، إلا اختباراً وامتحاناً لإيمان الناس، حيث آمن البعضُ، وكفر بها البعض، وما جعلنا الشجرة الملعونة (شجرة الزقوم) إلاَّ فتنةً للكفار الفجار، ونخوِّفهم بهذه الآيات، وما يزيدهم التخويف إلاَّ تمرداً وطغياناً وجبروتاً!.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

روى البخاري عن ابن عباس ﴿وما جعلنا الرؤيا﴾ قال: هي رؤيا عينٍ أُريها رسولُ الله ﷺ ليلةَ أُسري به ﴿والشجرة الملعونة﴾ قال: هي (شجرة الزقوم) رواه البخاري.. قال أهل التفسير: لمَّا عُرج برسول الله ﷺ رأى البيتَ المعمور، وسدرة المنتهى، ورأى الجنة والنارَ، ورأى في النار شجرة خبيثة هي شجرة الزقُّوم، التي قال الله عنها ﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم. طلعها كأنه رؤوس الشيطان﴾ ولما سمع أبو جهل ما جاء في القرآن، عن شجرة الزقوم، رواه البخاري قال لأصحابه: إن محمداً يتوعَّدكم بنارٍ عظيمة تحرق الحجارة، ثم يزعم أنها تُنبت الشجرَ!! وتعلمون أن النار تُحرق الشجر، ثم قال ساخراً متهكماً: هل تعلمون ما هو الزقوم؟ هو التمرُ والزُّبد، ثم أمر جارية، فأحضرتْ له تمراً وزبداً، فقال: هذا الذي يتوعدكم به محمد، كلوا فتزقموا!! ثم أشار تعالى إلى أن هذا الفجور والطغيان، سببه إغواءُ إبليس اللعين، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي اذكر حين قال ربُّ العزة والجلال للملائكة: اسجدوا لآدم، فسارعوا إلى تنفيذ الأمر، فسجدوا جميعهم، إلا (إبليس اللعين)، استكبر عن السجود، وكان الدافع له الكِبْرُ والحسدُ، فقال لربه: أأسجد لهذا الإنسان الحقير؟ المخلوقِ من التراب والطين؟ كيف يصحُّ للعالي أن يسجد للداني؟ لئن أمهلتني يا ربي إلى يوم القيامة، لأستأصلنَّ ذرية آدم بالإغراء والإغواء، حتى أفسد عليهم دينهم، فلا يبقى من المؤمنين منهم إلا القليل ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أي قال ربُّ العزة والجلال

رَبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ﴿٦٩﴾

لإبليس: اذهب يا إبليس فقد أنظرتك، فابذل جهدك فيهم، فمن أطاعك من ذرية آدم، فجزاؤكم جميعاً نار جهنم، جزاءً وافياً كافياً، وحرّك من أردت أن تستفزّه، بدعائك له إلى الشرّ والفساد، واجمع لهم أعوانك وجنودك، من جميع الركبان والمشاة ـ وهو تمثيلٌ لجمع قوى الشرّ على بني آدم ـ وشاركهم في أموالهم وأولادهم، وعدهم بالوعود الكاذبة، فلن تغوي إلا أتباعك المجرمين، أما عبادي المؤمنين فلا قدرة لك على إغوائهم وإضلالهم، لأنهم في حمايتي وحفظي!!.

قال ابن عباس: ﴿بصوتك﴾ صوتُه: «كلُّ داع يدعو إلى معصية الله تعالى» **وقال مجاهد: «صوتُه: الغناءُ والمزاميرُ، واللهوُ والطربُ»** وختم الله الآية بقوله **﴿وكفى بربك وكيلا﴾** أي كفى أن يكون الله عاصماً وحافظاً لعباده المؤمنين، من كيدك وشرّك ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾، أي ربكم أيها الناس هو الذي يسيِّر لكم السفن في البحر، لتطلبوا الرزق في أسفاركم وتجاراتكم، وذلك من فيض رحمته بكم، وإذا أصابتكم الشدة والكرب في البحر، وخشيتم الغرق، غاب عن خاطركم، كلُّ من كنتم تعبدونه من الآلهة، ولم تجدوا مغيثاً لكم تلجأون إليه غيرَ الله، فلما نجَّاكم من الغرق، وأخرجكم إلى برِّ الأمان، أعرضتم عن ربكم، ورجعتم إلى الكفر والفجور والطغيان، وهذا شأن الإنسان الكافر الجاحد لنعم الله!! ثم يأتي الوعيدُ والتهديد، فيقول سبحانه: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا﴾ أي هل أمنتم

۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

أيها الناسُ، حين نجوتم من الغرق بفضل الله ورحمته، وخرجتم إلى البّر، أن يخسف الله بكم الأرضَ، فيغيِّبكم في باطنها، كما فعل بقارون وقوم لوط؟ ثم لا تجدون لكم من ينقذكم من عذاب الله!! أم هل أمنتم أن يعيدكم الله في البحر مرةً أخرى، فيرسل عليكم ريحاً عاصفة مدمِّرة، فيغرقكم بسبب كفركم وفجوركم، ثم لا تجدون من يأخذ لكم بالثأر؟ أو يطالبنا بتبعة إهلاككم وإغراقكم؟ إنهم في قبضة الله تعالى، سواءً كانوا في بَرٍّ أو بحر، في صحةٍ أو مرض، وبعد هذا الإنذار، يذكِّرهم الله تعالى، بنعمة الخلق والتكريم، فيقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي والله لقد كرَّمنا ذرية آدم، وفضلناهم على جميع المخلوقات، بالعقل، والعلم، والفهم، والنطق، وسخرنا لهم جميع ما في الكون، وحملناهم في البر على ظهور الأنعام والدواب، وفي البحر على السفن والمراكب، ورزقناهم من فنون المطاعم والمشارب، من حلال الطعام ولذيذه، وفضلناهم على أصناف المخلوقات، تفضيلاً عظيماً، فحقيق بهم أن يشكروا نعم الله ولا يكفروها!!

لقد فضَّل الله البشر، فخلقهم في أجمل صورة، وأبدع شكل، يمشون منتصبين على أرجلهم، يأكلون بأيديهم، والحيوانات تمشي على أربع، منكوسة الوجه نحو الأرض، وتأكل بفمها، وليس لها عقل، بينما الإنسان كرَّمه الله بالعقل، والعلم، والنطق، والفهم، وسخَّر له جميع ما في الكون، وهذا طرف من تكريم الله تعالى لبني آدم ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ المراد بالإمام هنا: (كتابُ الأعمال)، أي اذكر لهم يوم الحشر الأكبر، حين ننادي كل إنسان بكتاب عمله، ليسلَّم له بيده، وينال جزاءه فمن أُعطي كتابه بيمينه، فهو السعيد الناجح، يقرأ كتابه بفرح واستبشار، ولا ينقص من عمله مقدار الفتيل، وهو الخيط الذي في شق النواة، ومن كان في هذه الدنيا أعمى

وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

القلب والبصيرة، فهو الشقي الخاسر، الذي يتخبَّط في ظلمات الجهل والضلال، وهو في الآخرة أشدُّ عمى وضلالة ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ أي لقد قارب المشركون أن يوقعوك في الفتنة، لولا أن الله عصمك من كيدهم ومكرهم، أرادوا منك أن تطرد الفقراء من مجلسك، وتدني أشراف قريش منك، وأن لا تذكر آلهتهم بسوء وأمثال ذلك، لتخالف بعض ما أوحاه الله إليك، ولو أنك سايرتهم إلى ما طلبوا، لاتخذوك صاحباً لهم وصديقاً، ولولا حماية الله وعصمتُه لك، لملتَ إليهم بعض الميل، طمعاً في إيمانهم، ولو فُرض أنك سايرتهم على ما طلبوا، لضاعفنا لك عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة، ثم لا تجد من ينصرك ويحميك منا!!

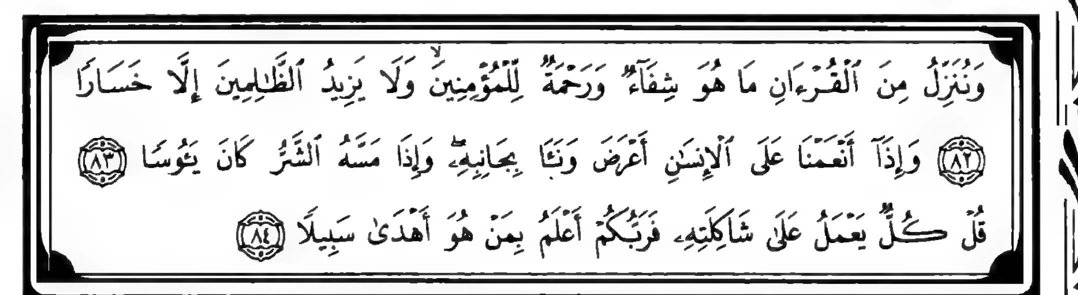
قال ابن عباس: «كان رسول الله ﷺ معصوماً من الله، ولكنْ هذا تعليم للأمة، لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين، في شيء من أحكام الدين وشرائعه» ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي وإن كاد المشركون بمكرهم وإيذائهم لك، أن يخرجوك من أرض مكة، ولو أخرجوك لأهلكناهم، وما أمهلناهم طرفة عين، هذه عادة الله مع رسله، في إهلاك كل أمةٍ أخرجت رسولها من بين أظهرها، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تغييراً.

قال قتادة: همَّ أهلُ مكة أن يُخرجوا النبي ﷺ من مكة، ولو فعلوا ذلك ما أُمهلوا،

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾

ولكنَّ الله تعالى منعهم من إخراجه، حتى خرج بنفسه بأمر الله له بالخروج ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ أي داوم يا أيها الرسول على إقامة الصلاة في أوقاتها، من زوال الشمس إلى ظلمة الليل، وصلِّ صلاة الفجر بتدبر وخشوع، واقرأ فيها كتاب ربك، فإن صلاة الفجر تشهدها ملائكة الرحمن، وفي الحديث (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، فيجتمعون في صلاة العصر، وفي صلاة الفجر..) الحديث، رواه البخاري، وغَسقُ الليل: ظلمتُه، ومن الليل فقم بعد النوم متهجِّداً لربك عابداً، تطوعاً لك زيادةً في حسناتك، لعلَّ الله أن يقيمك في المحشر مقاماً محموداً، يحمدك عليه الأولون والآخرون!!

قال ابن عباس: (المقامُ المحمودُ): هو مقام «الشفاعة العظمى» لسيد الخلق ﷺ، «وعسى من الله واجبة» أي ليست للترجّي بل للتحقيق، أي سيبعثك مقاماً محموداً، والآية الكريمة إشارة إلى الصلوات الخمس المفروضة، فدلوكُ الشمس: إشارة إلى صلاة الظهر، والعصر، وغسقُ الليل: ظلمتُه وهو إشارة إلى المغرب، والعشاء، وقرآن الفجر: صلاة الفجر، وأطلق عليها لفظ «قرآن» لأنه يطلب فيها إطالة القراءة ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي وقل يارب أدخلني المدينة المنورة مدخل صدق، أي إدخالاً حسناً أكون فيه معزَّزاً، وأخرجني من مكة إخراجاً حسناً، لا يلحقني فيه سوء ولا مكروه، **قال الحسن البصري**: أراد المشركون أن يتآمروا على رسول الله ﷺ، ليقتلوه، أو يطردوه، أو يوثقوه، فأمره الله عزَّ وجلَّ بالهجرة، وعلَّمه هذا الدعاء، فهو دعاء له بالحفظ والحماية، من مخرجه من مكة،



إلى مدخله إلى المدينة، وينبغي أن يدعو به المسلم، كلّما أراد أن يدخل بلداً، ويخرج من بلد، فالله تعالى هو الحافظ لعبده المؤمن ﴿**واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً**﴾ أي اجعل لي يا رب قوةً ومَنَعة، تنصرني بها على أعداء دينك، وتشدُّ بها أزري، فأنت وحدك المعين والناصر، وقد استجاب الله دعاءه، فنصره على الأعداء، وأعلا دينه على سائر الأديان، ﴿**وقل جاء الحقُّ وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً**﴾ أي وقل يا أيها الرسول: جاء الإسلامُ دينُ الله الحق، ومُحق الباطلُ وهو الشركُ والوثنية، فلا شرك ولا وثنية بعد إشراق شمس الإسلام، إن الباطل لا ثبات له ولا بقاء، بل سرعان ما يضمحلُ ويتلاشى، كشعلة هشيم الزرع، ترتفع عالياً، ثم تخبو سريعاً. . روي أن النبي ﷺ لمَّا دخل مكة عام الفتح، كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿**جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً**﴾ فما بقي صنمٌ إلاَّ خرَّ لوجهه فتكسَّر)، أخرجه البخاري عن ابن مسعود.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي ونــنـزِّل من آي الذكر الحكيم، ما يشفي القلوب من مرض الجهل والضلال، ويذهب دنس النفس، من الحسد، والشحّ، والبغضاء والعقائد الفاسدة، والأخلاق الذميمة، ولا يزداد الكافرون إلا شقاءً ودماراً! ! والقرآن أيضاً شفاء للأمراض الجسدية، لما في قراءته من البركة، وحصول الشفاء من المرض، كما ثبت في الصحيح (أن رئيس قبيلةٍ لُدغ، فرَقاه بعضُ الصحابة بسورة الفاتحة، فشفاه الله، فأعطوهم ثلاثين شاة، فلما أُخبر النبي ﷺ قال لهم: «إن أحقَّ ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله» رواه البخاري، وقال بعض السلف: «من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله»﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ۝ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي وإذا أنعمنا على الإنسان، بأنواع من النعم، كالصحة، والأمن، والرزق، أعرض عن طاعة الله وعبادته، وابتعد عن ربه، كِبْراً وغروراً، وإذا أصابته البلايا والنكبات، وبعض الشدائد، أصبح يائساً قانطاً من رحمة الله، وذلك لضعف إيمانه بربه، وقل لهم: إن كلَّ واحد يعمل على نهجه وطريقته، فمن الناس من يعمل لطريق السعادة، ومنهم من يعمل

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾

لطريق الشقاوة، والله سبحانه هو العالم بمن اهتدى وبمن ضل، وسيجازي كلاً على عمله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي يسألك كفار مكة عن الروح، ما هي؟ ما حقيقتها؟ وكيف تتولَّد في الجسم؟ وإذا مات الإنسانُ فأين تذهب؟ فقل لهم يا محمد: إن أمر الروح، قد استأثر به علاَّم الغيوب، لا أنا أعرفها، ولا أحد من البشر يعرف حقيقتها! وما أوتيتم أيها الناس من العلم، إلاَّ القليلَ، بالنظر إلى علم الله عزَّ وجل!! روى الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال: إن كفار مكة بعثوا إلى اليهود في المدينة، يسألونهم عن أمر محمد، هل هو نبيٌّ أم لا؟ وقالوا لهم: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل - يعنون محمداً ﷺ - فقالوا: سلوه عن الروح، فإن أجابكم عنها فهو كذاب، وإن لم يعرفها فهو صادق، فسألوه، فأمسك النبي ﷺ ونزل عليه الوحي ﴿**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي..**﴾ رواه أحمد، والآية دليلُ عجز البشر عن كثير من العلوم، وحَسْبُ الإنسان عجزاً أن لا يعرف ما في بدنه، ألا وهي الروح، التي تسري في عروقه، وتحرِّك هذا الجسد، لا يدري كيف جاءت، ولا كيف تذهب؟ ولا أين كانت؟ ولا إلى أين تصير؟ ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ أي لو أردنا لمحونا هذا القرآن من صدرك يا محمد، ثم لا تجد من يردُّه عليك، ولكنْ رحمةً من ربك، تركناه محفوظاً في صدرك، وصدر أصحابك، لتبلِّغه للناس، وهذا من فضل الله الكبير عليك، حيث خصَّك بالنبوة والرسالة، وجعلك خاتم المرسلين، وسيِّد الأولين والآخرين ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ أي لو فُرض أن الإنس والجنَّ تعاونوا، وحاولوا بكل قواهم وجهودهم، على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لما أطاقوا ولما استطاعوا، بما فيهم أربابُ الفصاحة والبيان، ولو تعاونوا وتساعدوا على

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

ذلك، ومعنى (ظهيراً) أي معيناً ونصيراً، وأدرج تعالى الجنَّ مع الإنس، مبالغةً في التحدي، ليكون ذلك أبلغ في العجز، فلم يكتف باجتماع الإنس، حتى ضمَّ إليهم الجنَّ، وطلب منهم أن يستعين بعضهم ببعض، ومع هذا التحدي أقرَّ العرب بالعجز ـ وهم فرسان البلاغة وملوكُ البيان ـ ولجأ الفرسان منهم إلى السيف والسِّنان، بدل معارضته بالحجة والبرهان، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي ولقد وضحنا للناس الحجج والبراهين، وبيَّنا لهم الحق بالآيات والعِبَر، وبطريق الترغيب والترهيب، والتبشير والإنذار، بحيث أزلنا عنهم الشكوك والأوهام، ومع هذه البراهين القاطعة والحجج الواضحة، أبى أكثرُ الناس إلا جحوداً وإنكاراً، واستهزاء واستكباراً.. ثم ذكر تعالى تعنت الكفار وضلالهم، بطلبهم معجزات مادية غير معجزة القرآن، فقال سبحانه ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي قال الأشقياء المشركون من أهل مكة: لن نصدِّقك يا محمد، حتى تخرج لنا عيناً غزيرة من الماء، تتدفق منها المياهُ، أو تكون لك حديقة وبستان، فيها من أنواع النخيل والأعناب، تجري فيها الأنهار بقوة وغزارة، لتكون فينا غنياً وعظيماً ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ هذا هو الاقتراح الثالث، أي تجعل السماء تتساقط علينا كِسَفاً أي قِطَعاً، قِطَعاً، كما كنت تخوِّفنا وتتوعَّدنا بذلك، أو تحضر لنا الله وملائكته مقابلة وعياناً، ليشهدوا لك بالرسالة، فنراهم ونشاهدهم بدون حجاب ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾؟ هذا هو

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾

الاقتراح الرابع، أي أن يكون لك قصر فخمٌ ضخم من ذهب، لا من حجرٍ أو طين، كبرهان على محبة الله لك، أو تصعد إلى السماء فترى ملكوتها، وتخبرنا عمَّا شاهدت، ولن نصدِّقك لمجرد صعودك، حتى تعود إلينا ومعك كتاب من الله منشور، أنك عبدُه ورسولُه!! قل لهم يا محمد: يا سبحان الله، هل أنا إلهٌ حتى تطلبوا مني أمثال هذه الخوارق والمطالب؟ ما أنا إلا رسولٌ من البشر، بعثني الله إليكم، فلماذا هذا الجحود والعناد؟ هذه هي اقتراحات المشركين، وما هي في الحقيقة إلاَّ سفاهات وحماقات، تدلُّ على بالغ الغطرسة والكبرياء ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ أي وما منع هؤلاء الكفار من الإيمان بالقرآن، والتصديق برسالة محمد عليه الصلاة والسلام، بعد أن جاءتهم الآيات الواضحة، والمعجزات القاطعة، إلا استبعادهم أن يكون الرسول من البشر، ولو كان أهل الأرض ملائكة، يعيشون مطمئنين على سطحها، لبعث الله الرسول من الملائكة، لأن الجنس يألفه الجنس، ولكنَّ أهل الأرض بشرٌ، فالرسول إليهم ينبغي أن يكون من البشر، من جنسهم، إذ جرت حكمةُ الله أن يبعث الجنس إلى الجنس ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي كفى برهاناً على صدق رسالتي، أن يشهد الله لي بالنبوة، فليس أعلى من شهادة الله شهادة، إنه تعالى العالم بأحوال العباد، وسيجازيهم عليها ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ أي من يرد

ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلًا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ

الله هدايته، فهو السعيد الموفَّق، ومن يرد شقاوته، فلن تجد لهم أنصاراً وأعواناً يعصمونهم من عذاب الله، وتجرُّهم الزبانية على وجوههم، لا يُبصرون، ولا ينطقون، ولا يسمعون، مسكنهم ومستقرهم في نار جهنم، كلما خمدت نارها، وسَكَن لهبُها، زدناهم إحراقاً وعذاباً، سُئل رسول الله ﷺ: كيف يُحشر الناسُ على وجوههم؟ قال: إن الذي أمشاهم على أرجلهم، قادر على أن يمشيهم على وجوههم» رواه الشيخان ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾؟ أي ذلك العذاب والنكالُ بسبب أنهم كفروا بآيات الرحمن، واستهزءوا بها، وقالوا: هل إذا متنا وأصبحنا عظاماً بالية متفتِّتة، سُنخلق ونُبعث مرة ثانية؟ بعد أن نصبح رميماً؟ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلًا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾، أي أولم ير هؤلاء الجاحدون المكابرون، أن الله الذي أبدع هذا الكون العظيم، بسمواته وأرضه، وبحاره وأنهاره، ونجومه وأقماره، قادرٌ على إعادتهم بعد فنائهم؟ فإن من قَدَر على هذا الخلق العظيم للكون، لا يعجزه أن يعيدهم بعد موتهم، وجعل لهم وقتاً محدَّداً للبعث والنشور، فأبى الكافرون الظالمون، إلاَّ الكفور والجحود ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ أي قل لهؤلاء المعاندين، المقترحين للخوارق والمعجزات، من قصور الذهب، وجنات النخيل والأعناب: لو كنتم تملكون مفاتيح خزائن رزق الله، وَوُكِلَ لكم أمرُ الإنفاق على البشر، لبخلتم وأمسكتم عن الانفاق، وكان الإنسان بخيلاً منوعاً، شديد البخل والإمساك ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ

بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ﴿١٠٣﴾ وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿١٠٥﴾ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾

بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾ بيانٌ من الله، أن كثرة المعجزات لا تُنشىء الإيمان في القلوب الجاحدة، والمعنى: لقد أعطينا موسى تسع معجزات واضحات، دالات على صدق رسالته، وهي «اليد، والعصا، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، والسنون، وانفلاق البحر» ومع ذلك فقد كذَّب بها فرعون وقومُه، فأهلكناهم وأغرقناهم في البحر، فلو أعطينا قومك ما طلبوا ثم لم يؤمنوا، لاستحقوا الفناء والهلاك، فلا تُشغِل بالَك بمطالبهم ومقترحاتهم، وكان جواب فرعون الطاغية لموسى، أنه قال له: إني لأعتقد أنك يا موسى رجلٌ مسحورٌ، قد جُننتَ وتخبَّط عقلك، حين قلتَ: إني رسولُ ربِّ العالمين ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ قابله موسى بالسخرية والاستهزاء، مقابلَ فجوره واستهزائه، فقال له: وإني لأعتقد يا فرعونُ أنك هالكٌ مدمَّر، جزاء تكذيبك بآيات الله، وأنت تعلم حقَّ اليقين، أنه لا أحد يستطيع أن يأتي بهذه الخوارق، إلا الله ربُّ العالمين، ومعنى المثبور: الهالك، من الثبور وهو الهلاك، ﴿فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا﴾ أي أراد فرعون الطاغية، أن يخرج موسى وقومه من أرض مصر، بجبروته وطغيانه، فأغرقناه وجنوده أجمعين، وقلنا لبني إسرائيل من بعد هلاك فرعون: اسكنوا أرض مصر، فإذا جاء يوم القيامة، جئنا بكم جميعاً للحساب والجزاء، مختلطين، فيكم المؤمن والكافر، والبرُّ والفاجر، ثم نميِّز السعداء من الأشقياء ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ أي وأنزلنا هذا القرآن

قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾

بالنور الساطع، والحقِّ القاطع، فيه الحِكَمُ والأمثال، والعِبَرُ والعظات، وما أرسلناك يا محمد إلا بشيراً للمؤمنين، ونذيراً للكافرين، وأنزلنا عليك القرآن المعجز، مفرَّقاً منجَّماً لتقرأه على قومك (على مُكث) أي على تُؤده وتمهل، ليكون حفظه عليهم أسهل، وتطبيق أحكامه أيسر، ونزلناه على حسب الأحوال والمصالح ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ خطابٌ للمشركين على وجه التهديد، أي قل لهؤلاء الأشقياء: سواء عليكم آمنتم بالقرآن أم لم تؤمنوا، فإن أهل العقل والبصائر من أهل العلم، من أحبار (اليهود والنصارى) من الصالحين فيهم، كانوا إذا سمعوا القرآن، خرُّوا على وجوههم، ساجدين لعظمة رب العالمين، من فرط تأثير القرآن عليهم، كما فعل ملك الحبشة «النجاشي» والقُسسُ حين سمعوا القرآن ﴿**وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين**﴾ ويقولون: تنزَّه ربُّنا عن إخلاف وعده، فوعده كائنٌ لا محالة، ويخرُّون على وجوههم باكين، ويزيدهم ذلك تواضعاً وخشوعاً ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي نادوا ربكم وادعوه باسم «الله» أو باسم «الرحمن» فبأيِّ اسم من أسمائه تعالى تدعونه فإنه مقبول، لأن جميع أسمائه لها صفة (الجلال والكمال)، وهي أحسن الأسماء، ولا تجهر يا محمد بالقراءة في صلاتك، فيسب المشركون القرآن ومن أنزله، ولا تقرأ سراً بحيث لا يسمعك أصحابك، وتوسَّطْ في قراءتك في الصلاة، بين الجهر والمخافتة.

قال المفسرون: سبب نزول هذه الآية، أن الكفار سمعوا النبي ﷺ يدعو ربه فيقول:

﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١﴾

(يا الله، ويا رحمن) فقالوا عجباً لأمر محمد، إنه يأمرنا بعبادة إلهٍ واحد، وهو يدعو إلهين: (الله)، و(الرحمن) فنزلت الآية تُوضِّح أن هذه أسماءٌ جليلة، لمسمًّى واحد، ليست أسماء لآلهة متعددة، فهي صفات للذَّات المقدسة، وأسماء لرب العزة والجلال، جلَّ جلاله، ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ أي وقل: الحمد لله الذي تنَزّه عن الشريك والولد، فليس له مثيلٌ في عظمته وألوهيته، وليس معه شريك ولا معينٌ ولا ناصر، ليس بذليل فيحتاج إلى الولي والناصر، فهو عزيز لا يحتاج إلى الوليّ والنصير، وعظِّم ربك يا محمد بذكر عظمته وجلاله، وقل دوماً: اللهُ أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله وبحمده، بكرةً وأصيلاً!!

وتسمى هذه الآية (آيةَ العِزِّ) وقد ورد أن الرسول ﷺ علَّم هذه الآية لبعض أصحابه فقال له: قل في دعائك: (توكلتُ على الحيِّ الذي لا يموت، الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له وليٌّ من الذُلِّ وكبِّره تكبيراً) رواه الحافظ أبو يعلى.

انتهى تفسير سورة الإسراء

● ● ●

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾

تفسير سورة الكهف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ هذه إحدى خمس سور كريمة ابتدأت بلفظ (الحمد لله) لتعليم العباد كيفيَّة الثناء على الله، وهي: (الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر) وفي الحديث الشريف «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف، عُصم من الدجال» رواه مسلم.

والمعنى: احمدوا ربكم العظيم الجليل، الذي أنزل القرآن على عبده ورسوله محمد ﷺ، وهو أعظم نعمةٍ على البشر، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ، واضحاً بيِّناً جلياً، نذيراً للكافرين، وبشيراً للمؤمنين، يحذِّر الكافرين من عذاب أليم، ويبشر المؤمنين بجنات النعيم، خالدين فيها لا يخرجون منها أبداً ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي ويحذِّر ويخوِّف المشركين الوثنيِّين، الذين عبدوا الملائكة وزعموا أنهم بنات الله، من غير برهانٍ ولا دليل، بل بمجرد الإفك والبهتان، عظمت تلك المقالة الشنيعة كلمةً قبيحة، خرجت من أفواههم، وهي في غاية البطلان، ما يقولون إلاَّ كذباً وزوراً. ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ أي لعلك يا محمد مهلكٌ نفسك، وقاتلٌ لها من شدة

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾

الغمّ والحزن، لتولّيهم وإعراضهم عن الإيمان، حسرةً وأسفاً عليهم!! فما يستحقُّ هؤلاء أن تأسف وتحزن عليهم، . فهم قومٌ فُتنوا بالدنيا وزينتها، ونسوا ربهم والدار الآخرة، فلماذا تتفجع وتتألم عليهم؟ والآية تسلية للنبي ﷺ عن عدم إيمانهم ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي لقد جعلنا ما على وجه الأرض، من زخارف ورياش، وذهب وفضة، ومعادن ومتاع، زينةً للأرض، كما زيّنّا السماء بالكواكب، لنختبر الخلق أيُّهم أطوعُ لله، وأحسن عملاً وأزكى ﴿**وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً**﴾ أي وسنجعل ما عليها من الزينة والبهجة والنعيم، حُطاماً ورُكاماً، حتى تصبح كالأرض الجرداء، التي لا نبات فيها ولا حياة، بعد أن كانت بهجة خضراء، تسرُّ الناظرين، والأرضُ الجُرُز: الأرض الجرداء التي لا نبات فيها، وفي الحديث (إن الدنيا حلوةٌ خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظرٌ كيف تعملون؟ فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء) رواه مسلم، ثم شرع تعالى بذكر قصة أصحاب الكهف فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ أي هل تظن أن قصة أصحاب الكهف ـ على غرابتها وعظيم شأنها ـ هي أعجب آيات الله؟ ففي صفحات هذا الكون البديع، من العجائب والغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي حين التجأ الشبَّانُ إلى الغار، وجعلوه مأواهم، فراراً من الطاغية الجبار «دقيانوس» الذي كان يجبر الناس على عبادة الأوثان، فقالوا: يا ربنا أعطنا من خزائن فضلك ورحمتك، ما تثبِّتُ به قلوبنا أمام هذا الملكِ الغاشم، واجعلنا من المهتدين الراشدين ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ أي ألقينا عليهم النوم في الغار، سنينَ عديدة، ثم أيقظناهم بعد نومهم الطويل،

نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾

الذي استمر (٣٠٩) سنوات، لنرى أيَّ الفريقين أدقَّ إحصاءً، للمدة التي ناموها في الكهف؟ ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ أي نحن الذين نخبرك بقصتهم، على الوجه الدقيق الأكمل، إنهم شُبَّانٌ آمنوا بالله، فثبتناهم على الإيمان، وزدناهم رسوخاً ويقيناً ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي قوّينا عزائمهم، ليقفوا في وجه الطاغية، بكل ثباتٍ وحزم، غير خائفين ولا متردّدين، حين وقفوا بين يدي الملك الجبار، فقالوا ربُّنا الذي نؤمن به ونعبده، هو الخالق للكون، لا ما تدعونا إليه من عبادة الأصنام والأوثان ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ أي لن نشرك معه غيره، ولا نعبد إلهاً سواه، إنَّا إن عبدنا غير الله، نكون قد تجاوزنا الحدَّ، وأفرطنا في الظلم والطغيان، وصفهم تعالى بثلاث صفات: (الفتوَّة، والإيمان الصادق، وعدم الانحناء أمام الطغيان) ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي هؤلاء قومنا عبدوا الأصنام والأوثان، من دون حجةٍ ولا برهان، فهلاَّ أقاموا على صحة ما عبدوا دليلاً واضحاً صحيحاً؟ فهم إذاً كذبةٌ على الله، ولا أحد أظلم ممن كذب على الله، فجعل له شركاء وأنداداً!!

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ الخطاب هنا للفتية المؤمنين، والمعنى: إذا كنتم أيها الفتية قد اعتزلتم قومكم، وعبدتم ربكم، وهجرتموهم وما يعبدون من الأوثان، فكما فارقتموهم بأديانكم، ففارقوهم بأبدانكم، ولا تساكنوهم، وأووا أي التجئوا إلى الغار، يبسط عليكم ربكم أبواب

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾

رحمته، وييسِّر لكم من أسباب العيش، كلَّ ما تحتاجون إليه من الطعام والشراب، في هذا الغار، والمِرْفقُ: ما يرتفق به الإنسان وينتفع به من ضرورات الحياة ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ أي وترى أيها السامع والناظر، الشمس إذا طلعت عليهم تميلُ وتنحرف عنهم ذات اليمين، وإذا غربتْ تقطعهم وتبتعد عنهم ذات الشمال، والله تبارك وتعالى يُقلِّبهم يمنةً ويَسْرةً، ذلك الصنيعُ من دلائل قدرة الله الباهرة، وهم في متَّسعَ من الكهف ـ يعني في وسطه ـ بحيث لا تصيبهم الشمسُ، لا في أول النهار ولا في آخره، ومن يوفِّقه الله للإيمان فهو السعيد المهتدي حقاً، ومن يضلله بسوء عمله، فهو الشقيُّ الخاسر، الذي لا يستطيع أحدٌ إنقاذه من الشقاء والضلال. !

قال ابن عباس: لو أن الشمس أصابتهم لأحرقتهم، ولو أنهم لا يُقلَّبون لأكلتهم الأرض ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أي لو رأيتهم لظننتهم أيقاظاً، لأن عيونهم مفتَّحة مع أنهم نيام، ونُقلِّبهم يمنةً ويسرة لئلا تتعفَّن أجسامهم ولا تتضرر، وكلبهم نائم معهم، باسطٌ ذراعيه ﴿بالوصيد﴾، يعني فناء الكهف أي ساحته كأنه يحرسهم، لو شاهدتهم وهم على تلك الحالة، لفررت منهم هرباً ورعباً، وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة والجلال، فرؤيتهم تثير الرعب، إذ يراهم الناظرُ نياماً كالأيقاظ، يتقلَّبون ولا يستيقظون

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ والمعنى: كما ناموا تلك المدة الطويلة، ثلاثمائة وتسع سنوات (٣٠٩) وهي نومةٌ تشبهُ الموتَ، لأنهم لم يأكلوا ولم يشربوا ولم يتكلموا، كذلك أحييناهم وأيقظناهم، ليسأل بعضهم بعضاً عن مدة مكثهم، وإقامتهم في الغار، قال أحدهم: كم مكثنا في هذا الغار؟ قال بعضهم: لقد مكثنا فيه يوماً واحداً، ظنوا أن الشمس قد غربت، ثم رأوها لم تغرب فقالوا: أو بعض يوم، قال بعضهم: الله أعلم بمدة إقامتنا، ولا طائل وراء البحث عنه، فنحن الآن جياع، فأرسلوا واحداً يأتي لنا بالطعام بورِقكم بكسر الواو أي بهذه النقود الفضية، فلْيختر لنا أطيب الحلال من الطعام، ولْيكن لطيفاً في دخوله البلدة وحديثه مع الباعة، حتى لا يشعر بأمرنا أحد ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ أي إنهم إن يظفروا بكم، يرجموكم بالحجارة حتى يقتلوكم، أو يردوكم إلى دينهم الباطل ـ عبادة الأوثان ـ وإن عدتم إلى دينهم، فلن تفوزوا بخير أبداً!! وهكذا يتناجى الفتيةُ بينهم خائفين حذرين، أن يظهر عليهم الملك الجبار، وزبانيتُه الفُجّار، فيقتلونهم أو يردونهم إلى عبادة الأوثان والأحجار ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ أي وكذلك أطلعنا الناس

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (٢٤)﴾

عليهم، بعد تلك المدة الطويلة التي ناموها، ليستدلوا بذلك على صحة البعث بعد الموت، ويوقنوا أن القيامة لا شكَّ فيها، وهنا اختلف الناسُ في شأنهم وأمرهم، وتنازعوا فيما يفعلونه بهم، بعد أن رأوهم أحياء، ثم أماتهم الله، فاختلفوا ما يفعلون بهم؟ هل ينقلونهم إلى البلدة لدفنهم، أم يكتفون ببناء مَعْلم عليهم، واستقرَّ رأي الأغلبية، على بناء مسجد عليهم، ليظلَّ علامةً على كرامة الله لهؤلاء الفتية المؤمنين ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ القائلون بأنهم ثلاثة هم اليهود، والقائلون بأنهم خمسة هم النصارى، وقد ردَّ الله القولين، بقوله ﴿رجماً بالغيب﴾ أي قولاً بالهوى والظن بلا علم، كمن يرمي من مكان بعيد، فإنه لا يكاد يصيب، ثم حكى القول الثالث وهو أن عددهم سبعة، وسكت عنه، فدلَّ على أنه الصواب، وقوله تعالى ﴿ما يعلمهم إلا قليل﴾ أي قليل من الناس.

قال ابن عباس: «أنا من القليل الذي استثنى الله عزَّ وجلَّ، كانوا سبعة» ثم نبَّه تعالى رسوله إلى الأفضل والأكمل، في مثل هذه الأمور، وأمره أن لا يجادل أهل الكتاب في عدتهم، إلاَّ إذا كان متيقناً بحقيقة الخبر، وأن لا يسأل أحداً عن قصتهم، ففيما أوحاه الله إليه الحقيقة والكفاية ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ رُوي أن النبي ﷺ لما سُئل عن قصة أصحاب الكهف قال: غداً أجيبكم، فتأخر الوحي عليه خمسة عشر يوماً فنزلت الآية، وهذا إرشاد من الله تعالى لرسوله ﷺ إلى الأدب فيما عزم عليه من أمر، أن يقول: إن شاء الله، لأن الأمور كلَّها بيد الله، وإذا نسي أن يقول: إن شاء الله، ثم تذكَّر فلْيقلها، لتبقى نفسُ

وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

المؤمن مستشعرةً عظمة الله، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولْيقل لعلَّ الله يرشدني إلى ما هو الأصلحُ في أمر دنياي وآخرتي ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ أي مكثوا في الغار نائمين، ثلاث مائة وتسع سنين قمرية، وهي مدة طويلةٌ في عُمر الزمان، يستحيل في العادة أن ينامها الإنسان، ويبقى حياً بدون طعام أو شراب ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي الله أعلم بمدة مكثهم في الكهف على وجه اليقين، وهو سبحانه الذي أخبرك بالمدة، لأنه المختصُّ بعلم الغيب دون غيره من الخلق، ما أبصره بكل موجود، وما أسمعه لكلِّ مسموع، لا يخفى عليه شيء، والصيغةُ صيغةُ تعجب بأسلوب المبالغة، والناس ليس لهم وليٌّ أي ناصرٌ ومعين غيره سبحانه، وليس لله شريك ولا نظير ولا مثيل، وهو المستغني عن الخلق ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ أي اقرأ يا محمد القرآن، الذي أوحاه الله إليك، وعلِّمه أمتك، فإن تلاوة آيات القرآن، فيها الهدى والنورُ، والسلوى والطمأنينة لقلب المؤمن، ولا يقدر أحدٌ أن يغيِّر أو يبدِّل كلام ربِّ العزة والجلال، ولن تجد ملجأ لك غيرَه تعالى، والملتحدُ: الملجأ، أي إن لم تعملْ بالقرآن، فلا ملجأ لك من الله ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ أي احبس نفسك مع الفقراء الضعفاء، من أتباعك المؤمنين،

﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾

الذين يدعون ربهم بالصباح والمساء، يبتغون رضوان الله تعالى، ولا تصرف بصرك إلى غيرهم من أهل الثراء والجاه، تبتغي بمجالستهم نيل الفخر والشرف، ولا تسمع لأولئك السفهاء الذين طلبوا منك طرد المؤمنين الضعفاء، فإنهم غافلون عن ذكر ربهم، سائرون مع الأهواء، وأمرُهم فُرُط أي ضياعٌ، وخسار، ودمار، روي في سبب نزول الآية، أن أشراف قريش، اجتمعوا عند رسول الله ﷺ، وقالوا له: إن أردت يا محمد أن نؤمن بك ونسمع كلامَك، فاطرد هؤلاء الفقراء من مجلسك، فإنَّا أشراف قريش وسادتها، إن أسلمنا أسلم الناس، ونحن نأنف أن نجلس في مجلس واحدٍ مع هؤلاء الفقراء الصعاليك، فهمَّ رسول الله ﷺ أن يجيبهم إلى ما طلبوا، حرصاً منه على إسلام سادة قريش، فنزلت الآية، فخرج ﷺ يلتمس الفقراء، فلمَّا رآهم جلس معهم وقال: الحمد لله الذي جعل في أمَّتي من أمرني ربي أن أصبر نفسي معهم» رواه مسلم. ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ ظاهره أمرٌ وحقيقتُه وعيدٌ وتهديد، أي قل لهؤلاء الكافرين الغافلين: لقد ظهر الحقُّ وبَانَ بتشريع الرحمن، فآمنوا إن شئتم، أو اكفروا وقد اقتضت الحكمة الإلهية، أن يكون للإنسان اختيار ليترتب عليه الجزاء!! وهذه الآية كقوله سبحانه ﴿اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾ فهو وعيدٌ وليس بتخيير، إنَّا هيأنا للكافرين بالله ورسله، ناراً حامية شديدة، ﴿أحاط بهم سُرادقها﴾ أي سورها لا مفرَّ لهم منها، وإن استغاثوا من شدة العطش فطلبوا الماء، أُغيثوا بماءٍ حار، أسود منتن، يشبه النحاس المذاب، يشوي وجوههم إذا قُرِّب منهم، لشدة حرِّه، أو كعكر الزيت المحمي، بئس هذا شراباً لأهل جهنم، وساءت جهنم مسكناً ومأوى لهؤلاء الكفار الفجار، وفي الحديث «ماء كالمُهْل كعكر الزيت، فإذا قرَّبه إليه، سقطت فروةُ وجهه فيه» رواه الترمذي وأحمد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ لمَّا ذكر تعالى مصير الأشقياء، أعقبه بذكر مصير السعداء، على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب،

أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

والمعنى: إن المؤمنين الصادقين، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، إنا لا نضيع ثواب من أحسن عمله، بل نزيده له وننمِّيه، ونعطيه جزاءه بأحسن الأعمال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي هؤلاء المؤمنون المتقون، لهم في الآخرة بساتين وحدائق غنَّاء، تجري من تحت قصورهم وغرفهم أنهارُ الجنة، في جنات إقامة، يُحلَّون في الجنة بأساور الذهب، ويلبسون الثياب الخضر من (السندس) وهو رقيق الحرير، و(الإستبرق) وهو الثخينُ من الحرير، متكئين على الأسرة من الذهب، المكلَّلة بالدر والياقوت، نعم هذا الجزاء للمتقين، وحَسُنت الجنةُ منزلاً ومسكناً لهم.. ثم ذكر تعالى قصة الرجلين: الكافر الذي كفر النعمة، والمؤمن الذي شكر النعمة، فقال سبحانه ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ هما شريكان من بني إسرائيل، أحدهما مؤمن والآخر كافر، اقتسما الشركة، فخرج لكل واحدٍ أربعة آلاف دينار، فاشترى الكافر بماله حديقتين، فيهما من أنواع النخيل والأعناب، والفواكه والثمار، ما يبهج النفس، وكان النهر يجري بينهما، وكثر مالُه وازدادت ثروته، فطغى بالمال وبغى، وأمَّا المؤمن فقد أنفق ماله في وجوه الخير والإحسان، اشترى مماليك وأعتقهم، وبنى المساجد والمدارس، وأطعم الأيتام، ثم جمعهما اللقاء بعد طول الفراق، وجرت بينهما المحاورة الآتية، قال تعالى ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ أي كلُّ واحدٍ من البستانَين، أخرج ثمره يانعاً، في غاية الجودة والحسن، وكان كثيراً وافياً، وجعلنا النهر يجري بين البستانين، ليكتمل شربهما، ويزداد بهاؤهما ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي وكان لهذا الكافر، من أنواع الفواكه

وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ

والثمار، من البستانين، ما يجلب له المال الكثير، ويزيد له في الثروة، ويأخذ بيد شريكه، ويدخل به الحديقة يطوف به فيها، ويريه ما فيها من الأشجار والزروع والثمار، ثم يدخل الحديقة الثانية، ويريه ما فيها من أنواع الفواكه، وهو معجبٌ بما هو فيه من النعيم، يحاوره ويقول له متبجّحاً: أنا أكثر مالاً منك، وأكثر خدماً وأنصاراً، أمَّا أنت فقد ضيَّعت مالك، وأشقيتَ نفسك بالإنفاق بما لا يعود نفعه عليك!! ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي ودخل هذا الكافر حديقته، ومعه المؤمن يطوف به ويفاخره بها، وهو ظالم لنفسه بالعُجب والكفر، ويقول له متبجحاً مزهوّاً: ما أعتقد أن تفنى هذه الحدائق أبداً، وما أعتقد أن هناك داراً آخرة، وأن القيامة قادمة وحاصلة، ولئن كان هناك حياة بعد هذه الحياة كما تقول، فسوف يعطيني الله خيراً من هذا وأفضل، (منقلباً) أي مرجعاً وعاقبة، فكما أكرمني هنا في هذه الدنيا، بما ترى من المال والعزِّ والجاه، فسيكرمني كذلك بالآخرة، بما هو أعظم وأبدع!! ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ أي قال له صاحبُه المؤمن، وهو يراجعه الحديث ويكلِّمه: يا هذا أجحدتَ نعمةَ ربك، وكفرت بالله الذي خلقك، من تراب، ثم من منيٍّ، ثم سَّواك إنساناً سويًّا؟ في أجمل صورة، وأحسن شكل؟ ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ لكنَّا أصلُها «لكنْ» «أنا» أدغمت بها فصارت لكنَّا، والمعنى: لكنْ أنا أومن بالله، وأعترف بوجوده، فهو ربي وخالقي، ولا أشرك معه غيره ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَىٰ رَبِّىٓ

أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي وهلاً حين دخلتَ حديقتَك، وأعجبتَ بما فيها من الأشجار، والثمار، والأنهار، قلتَ: ما شاء الله لا قوة إلا بالله!! إني أتوقَّع من الله أن يقلب حالي وحالتك، فيرزقني لإيماني، ويسلب عنك النعمة لكفرك، أو يرسل على حديقتك، صواعق من السماء تدمِّرها، فتصبح أرضاً جرداء ملساء، ينزلق عليها القدم!! ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ أي أو يغور الماءُ في الأرض، فلا يبقى في تلك الحدائق ما تُسقى به الأشجار والزروع، ويتلف كل ما فيها من زرع وثمر، وحينئذٍ لا تستطيع إخراج الماء من الأرض!؟ وينتهي الجدال والحوار، وينقلنا السياق من مشهد البهجة والازدهار، إلى مشهد البوار والدمار ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أي أهلكت أموالُه وزروعه، وأخذ يَقْلب كفيه ظهراً لبطن، أسفاً وحزناً على ماله الضائع، وقد أصبحت الحدائق محطَّمة مهشَّمة، قد سقطت سقوفها على جدرانها، فأصبحت خراباً يباباً، وهو نادم على إشراكه بالله، ويقول متحسراً: يا ليتني كنت مؤمناً بربي، ولم أجحد نعمته عليَّ، لئلا أصل إلى هذا المصير المشؤوم!!

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ أي لم يكن له من يحميه من بطش الله وانتقامه، فلم تنفعه العشيرة والأولاد، حين اعتزَّ وافتخر بهم، وما استطاع بنفسه أن يدفع عنها عذاب الله ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي في ذلك الوقت تكون النصرة لله وحده، لا يقدر عليها أحدٌ غيرُه، فهو الوليُّ الحقُّ، وليُّ المتقين، ينصر أولياءه

وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ﴿٤٨﴾

ويخذل أعداءه، هو خيرٌ ثواباً لأوليائه، وخيرٌ عاقبةً ومآلاً، لمن رجاه واعتمد عليه ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ أي اذكر للناس مَثَل هذه الحياة الدنيا، في زوالها وزهرتها وسرعة انقضائها، بمَثَل ماء نزل من السماء، فخرج به النبات غزيراً وافياً، وخالط بعضه بعضاً من كثرته وتكاثفه، وخرج به الزرع والثمر، ثم بعد ذلك ذَبُلَ وزوى، وأصبح يابساً متكسِّراً، تنسفُه الرياح ذات اليمين وذات الشمال، وكان الله قادراً على الإحياء والإفناء، وهكذا الدنيا نعيمٌ يأتي ثم يزول، ولا يدوم إلاّ الحيُّ القيوم ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ أي الأموال والأولاد، زينةُ هذه الحياة الزائلة، لا ينخدع بها إلاّ الأحمقُ الجهول، وأعمال الخير والإحسان، هي التي تبقى ذخراً للإنسان، وهي التي تدوم لصاحبها، وينال كلَّ ما يؤمِّله منها، وفي الحديث (سبحان الله، والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، والله أكبرُ، هنَّ الباقياتُ الصالحاتُ) رواه مالك، يعني أنهن من جملة الباقيات الصالحات، والآية تشمل جميع أعمال الخير، والبر، والصلاح ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ أي اذكر حين نقلع الجبال من أماكنها، وترى الأرض مكشوفة ليس عليها ما يسترها من شجر أو بنيان، وجمعنا الخلائق كلهم للحساب والجزاء، فلم نترك أحداً منهم، فالكل في أرض المحشر، بين يدي أحكم الحاكمين ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا﴾ أي عُرضوا على ربِّ العزة والجلال صفوفاً، صفاً بعد صف، لا يحجبهم شيء، ويقال لهم على وجه التوبيخ والتقريع: لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة، لا شيء معكم من الأموال والأولاد والأتباع، بل زعمتم يا معشر الكفار، أن لا بعث ولا حساب، ولا جنة

وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾

ولا نـــار ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ أي وضـعـت صحائف أعمال البشر، وعُرضت عليهم ليروا ما فيها، فترى حينئذٍ المجرمين خائفين مما فيها من الجرائم والذنوب، ويقولون متحسرين نادمين: يا هلاكنا وخيبتنا ما شأنُ هذا الكتاب، لا يترك صغيرة ولا كبيرة، إلاَّ سجَّلها وضَبَطها علينا؟ وهذه مقالةُ المجرم الخائف من سوء العاقبة، ووجدوا ما فعلوه مكتوباً مثبتاً في الكتاب، ولا يظلم ربُّ العزة والجلال أحداً من خلقه ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾، والمعنى: اذكر يا أيها الرسول حين قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم سجود (تحية وتكريم) فسجدوا إلا إبليس، عصى وطغى وتمرَّد، وخرج عن طاعة الله، لأنه كان من مردة الجنِّ، أفتتخذونه يا بني آدم، هو وأولاده الشياطين أولياء أي أحباباً وأعواناً من دون الله، وهم لكم أعداء؟ بئست عبادةُ الشيطان بدلاً من عبادة الرحمن ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ والآية واضحة وقاطعة، على أن إبليس من الجن **﴿كان من الجنِّ﴾**، ولم يكن من الملائكة، ويكفي قول الحسن البصري: «ما كان إبليسُ من الملائكة طرفة عين» وهو من أكابر المفسرين من التابعين.

أي ما أشهدتُ هؤلاء الشياطين، الذين عبدتموهم من دوني، خلق السموات والأرض حين خلقتهما، **﴿ولا خلق أنفسهم﴾** أي ما أشهدتُ بعضهم خلق بعض، فهم عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً، وما كنت متخذ الشياطين أعواناً لي في الخلق، فكيف تطيعونهم من دوني؟

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾

والغرضُ التشنيع عليهم في عبادتهم للشياطين ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ أي ويوم يقول الله للمشركين: ادعوا شركائي ليمنعوكم من عذابي، ويشفعوا لكم كما كنتم تزعمون، فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم، وجعلنا بين الداعين والمدعوِّين ﴿**موبقاً**﴾ أي مَهْلَكةً يشتركون فيها، وفي قوله: ﴿**فدعوهم**﴾ مع أنهم أوثان وأحجار، لا يسمعون ولا يبصرون، تهكمٌ لاذع بهم ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي عاين المجرمون النار، رأيَ العين، فأيقنوا أنهم داخلوها لا محالة، ولم يجدوا عنها مكاناً يلجأون إليه، لأنها أحاطت بهم من كل جانب ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ أي ولقد بيَّنا للناس في هذا القرآن الأمثال، وكرَّرنا الحجج والمواعظ، ليتذكَّروا ويتعظوا، ولكنَّ طبيعة الإنسان الجدل والخصومة، لا يُنيب إلى حق، ولا ينزجر لموعظة، يجادل ويكابر، روي أن النبي ﷺ طرق علياً وفاطمة ليلاً، فقال: ألا تُصلِّيان؟ فقال عليٌّ يا رسول الله: أنفسُنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا!! فانصرف رسول الله ﷺ وسمعته يقول وهو منصرفٌ يضرب فخذه ﴿**وكان الإنسانُ أكثر شيء جدلاً**﴾ رواه البخاري ومسلم. ثم قال تعالى ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي ما منع كفَّارَ مكة من الإيمان والاستغفار، حين جاءهم الهدى من الله، إلاَّ طلبُهم أن يشاهدوا العذاب معاينةً ومواجهة، أو ﴿**تأتيهم سنة الأولين**﴾ أي طريقة الأمم المكذبين، وهي الهلاكُ والدمارُ، والآيةُ بيان لإغراقهم في الضلال، حتى جعلوا عدم نزول العذاب عليهم، سبباً لعدم الإيمان، والآية كقوله سبحانه ﴿**ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجلٌ مسمى لجاءهم العذاب**﴾ فانتظارهم للعذاب كان المانع لهم من الإيمان، ومعنى (قُبُلاً) أي معاينةً

وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾

ومواجهة ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾ أي ما نرسل الرسل، إلاَّ للتبشير والإنذار، لا للإهلاك والدمار، ومع وضوح الحقِّ، يجادل الكفارُ بالباطل، باقتراح الآيات مكابرة وعناداً، ليغلبوا الحقَّ ويبطلوه، فهم حين يستعجلون العذاب، لا يريدون الإيمان، إنما يستهزئون ويسخرون كقوله سبحانه ﴿يا حسرةً على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾ ثم ذكر تعالى شقاوتهم وخسرانهم بإعراضهم عن هداية الله، فقال سبحانه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ أي لا أحد أشقى وأظلم، ممن وُعِظَ بآيات الله البيِّنة، وحججه الساطعة، فتعامى عنها وتناساها، ولم يُلقِ لها بالاً، ونسي ما فعله من الجرائم الشنيعة، ولم يتفكَّر في عاقبتها!! ولإجرامهم جعلنا على قلوبهم أغطيةً، تحول بينهم وبين فقه هذا القرآن المنير، وإدراك أحكامه وأسراره!! كما جعلنا في آذانهم صمماً، يمنعهم من سماعه، سماعَ فهم وانتفاع، وإن دعوتَهم للإيمان فلن يستجيبوا لك أبداً، لأنهم كالبهائم السارحة، لا يفقهون ولا يعقلون ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ أي وربك يا محمد واسعُ المغفرة، عظيم الرحمة بالعباد، مع كفرهم وعصيانهم، ولو عاقبهم بما اقترفوه من المعاصي والإجرام، لعجَّل لهم العذاب الذي طلبوه، ولكنه سبحانه يمهلهم ويؤخر عنهم العذاب، رحمةً بهم، بل لهم أجلٌ آخر لهلاكهم، وإذا نزل بهم فلن يجدوا لهم ملجأً ولا منجى منه

وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ أي تلك هي أخبار الأمم المكذبين، كقوم هود، وعاد، وثمود، وقوم لوط، أهلكناهم لمَّا ظلموا بتكذيب الرسل، وجعلنا لهلاكهم وقتاً محدَّداً معلوماً، أفلا يعتبر هؤلاء المعاندون المكذِّبون من قومك؟ فلا يغتُّروا بتأخير العذاب عنهم!! ثم ذكر تعالى قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، وما فيها من الغرائب والعجائب، التي يعرفها أهل الكتاب، لتكون برهاناً على صدق رسالة محمد ﷺ، وهي القصة الثالثة في هذه السورة الكريمة، وفيها يقول سبحانه ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ أي اذكر يا أيها الرسولُ حين قال موسى الكليم، لفتاه «يوشع بن نون»: إني لا أزال أسير في الأرض وأتابع السير، حتى أصل إلى ملتقى البحرين «بحر الروم وبحر فارس» ـ وهو في جنوب أفريقيا على المشهور ـ مهما لاقيتُ من المشقة، ومهما كان الزمن طويلاً، حتى ولو كان سنين عديدة!! وسببُ هذه الرحلة كما جاء في صحيح البخاري، نذكره موجزاً هنا وهو: «أن موسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل، فسُئل أيُّ الناس أعلمُ؟ فقال موسى: أنا، فعتَبَ الله عليه حين لم يردَّ العلم إليه ـ بأن يقول: الله أعلم ـ فأوحى الله إليه يا موسى: إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلمُ منك!! فقال موسى يا رب: وكيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً فتجعله في مكتل ـ أي زنبيل ـ فحيثما فقدتَ الحوتَ فهو ثَمَّ ـ أي هناك ـ فانطلق موسى ومعه فتاه «يوشع» حتى إذا أتيا الصخرة، وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوتُ في المكتل فخرج منه فسقط في البحر ـ وكان حوتاً مشويًا ـ واتخذ سبيله في البحر سَرَباً ـ أي طريقاً ومسلكاً ـ) الحديث، ولنرجع إلى الآيات الكريمة ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي فلما وصلا إلى المكان الذي حدَّده الله لهما، جلسا يستريحان فيه، فناما إلى جوار صخرة كبيرة، واستيقظ الفتى فوجد أمراً عجباً، رأى الحوت المشويَّ يخرج من المكتل، ثم يجري في البحر سابحاً، يتخذ له طريقاً ومسلكاً في البحر، من أين جاءته الحياةُ؟ إنها قدرةُ الله، وعلامُته لموسى على مكان

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾

وجود الخضر عليه السلام، ولما استيقظ موسى نسي الفتى أن يخبره بقصة الحوت ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ أي فلمَّا قطعا ذلك المكان، وهو (مجمع البحرين)، الذي جعله الله موعداً للملاقاة، وكانا قد تعبا من شدة المشي وطول المسافة، قال موسى للفتى: ائتنا بالطعام، فقد لقينا في سفرنا هذا التَّعب والعناء!! عند ذلك تذكَّر الفتى أمر الحوت، فشرع يخبر موسى بقصته العجيبة وكانا قد قطعا ليلة يمشيان، وجزءاً كبيراً من النهار ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ أي قال الفتى: هل تذكر حين جلسنا للراحة قرب الصخرة، ونمتَ عندها، ماذا حدث من الأمر العجيب؟ لقد خرج الحوت من المكتل ودخل البحر، وقد أنساني الشيطانُ أن أخبرك بقصته الغريبة، فقد دبَّتْ فيه الحياةُ ودخل في البحر، وكان أمره عجباً!! يتعجب الفتى من أمره، لأنه كان حوتاً مشويًّا، فدبَّت فيه الحياة ودخل البحر ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ أي قال له موسى: هذا هو المطلوبُ، وهذا الذي نريده، لكونه علامةً على لُقيا العبد الصالح، فرجعا في طريقهما، يتتَّبعان آثار مشيهما حتى أتيا الصخرة، فوجدا الخضر عليه السلام، الذي كانا يطلبانه، وقد وهبه الله علماً غيبيًّا، لم يكن يعرفه موسى، والصحيح أن الخضر لم يكن نبياً وإنما كان عبداً من عباد الله الصالحين، وأوليائه المقربين، أظهر الله على يديه بعض الكرامات، والأمور الغيبية التي لم يكن يعرفها موسى، تعليماً للخلق فضل العبودية لله، وهذا العلم الرباني ثمرة الإخلاص والتقوى، ولهذا قال سبحانه: ﴿**وعلمناه من لدنا علماً**﴾ أي علماً خاصاً لا يُعلم إلا بتوفيقنا، وهو علم بعض الأمور الغيبية، ولمَّا لقي موسى العبد الصالح «الخضر» سلَّم عليه، ثم قال له بتلطف

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٦٧﴾ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴿٧١﴾﴾

وتواضع: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ أي هل تأذن لي بمرافقتك، لأقتبس من علمك، ما يرشدني لطريق الخير والسعادة؟ وفي هذا الأسلوب ملاطفةٌ وتواضع، لكل طالب علم يحب أن يستفيد من المربيِّ والمعلِّم، أن يُكلِّمه بأسلوبٍ فيه أدبٌ وتوقير ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا﴾ أي قال له الخضر: إنك يا موسى لا تستطيع الصبر على ما ترى، وكيف تصبر على أمرٍ ظاهره منكرٌ يخالف الشرع، وأنت لا تعلم حقيقته وباطنه؟ نبَّهه بأسلوب لطيف، على أنه لا يستطيع الصبر، على ما سيجري من الخضر، مما لا يطيقه موسى عليه السلام!! وفي الحديث الصحيح أنه قال له: (أنت يا موسى على علم من علم الله علَّمكه لا أعلمه) رواه البخاري ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ أي قال له موسى: ستجدني إن شاء الله صابراً، ولا أعصي أمرك، وأنا عند وعدي هذا ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ شرط عليه قبل بدء الرحلة، أن لا يسأله ولا يستفسر عن شيء من تصرفاته، حتى يكشف الخضر له سرَّها، ويبيِّن له وجه الحكمة فيها، فقبل موسى شرطه، رعايةً منه لأدب التلميذ مع الأستاذ ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا﴾ أي انطلق موسى والخضر يمشيان، ومعهما يوشع بن نون، حتى وصلا إلى البحر، فوجدا سفينة، وهنا تبدأ المفاجأة الأولى، أراد الخضر أن يركب في السفينة، وكان أهل السفينة يعرفون الخضر بصلاحه واستقامته، ولا يعرفون موسى، فحملوا الجميع بدون أجر، وما أن صارت السفينة في لُجَّة البحر، حتى اقتلع الخضر لوحاً من ألواحها، فقال له موسى مستنكراً عمله: قومٌ حملونا بدون أجر، عمدتَ إلى سفينتهم فخرقتها، لتغرق أهلها، لقد جئت أمراً عظيماً خطيراً هائلاً!! وكان

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾

ذلك من موسى نسياناً منه للشرط ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾ أي قال له الخضر: ألم أخبرك من أول الأمر، أنك لا تستطيع الصبر، على ما ترى من صنيعي!! ذكَّره بلطفٍ في مخالفته الأمر، فأجابه موسى بقوله: لا تؤاخذني بمخالفتي الشرط، ونسياني العهد، ولا تكلفني مشقة، فيما حدث مني عن غير قصد، وعاملني باليسر لا بالعسر، قال ﷺ: «وكانت الأولى من موسى نسياناً، وجاء عصفور فوقع على طرف السفينة، فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر يا موسى: «ما علمي وعلمُك من علم الله تعالى، إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر» رواه البخاري ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ هنا تأتي المفاجأة الثانية، التي كانت أخطر وأعظم من الأولى، وذلك أنهما لمَّا نزلا من السفينة، ومشيا في أحد شوارع المدينة، رأى الخضر غلاماً جميلاً وسيماً، يلعب مع الغلمان، فأمسكه الخضر فاقتلع رأسه بيده، ثم رمىٰ به جثةً هامدة على الأرض، فلم يتحمَّل موسى ما رأى، وسارع إلى الإنكار عليه، فقال له: أقتلتَ نفساً طاهرة بريئة، لم ترتكب جُرماً، فقتلته بغير حقٍّ شرعيّ!! لقد جئت أمراً عظيماً منكراً لا يمكن السكوتُ عليه!! لم يكن موسى هذه المرة ناسياً للوعد، ولكنه رأى أمراً فظيعاً عظيماً، لا يمكن له أن يسكت عنه، فالغلام في نظره بريء، وهو طفل لم يبلغ بعدُ سنَّ الرشد والتكليف، فكيف يقتله الخضر بدون ذنب؟ وبدون جناية يستحقُّ العقوبة عليها؟ ولهذا قال له هنا ﴿جئت شيئاً نكراً﴾ أي منكراً عظيماً فظيعاً يوجب عليَّ إنكاره، وهو أبلغ من قوله في الأولى ﴿شيئاً إمراً﴾ أي أمراً عظيماً مهولاً، ذكر القرطبي في تفسيره أن موسى لمَّا قال للخضر: (أقتلتَ نفساً زكية)؟ غضبَ الخضرُ واقتلع كتِفَ الصبيِّ الأيسر، وقشر اللحم عنه، فإذا هو مكتوب على عظم كتفه: كافرٌ لا يؤمن بالله أبداً» ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ أي قال له الخضر: ألم أخبرك أنتَ نفسَك، أنك لا تستطيع الصبرَ على ما ترىٰ منِّي؟ وقَّره الخضر في المرة

قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴿٧٩﴾

الأولى، فلم يجابهه بالخطاب، فلما خالفه في الثانية واجهه بقوله ﴿ألم أقل لكَ﴾ لعدم العذر هنا، وقد شعر موسى بأنه خالف الشرط مرتين، فيندفع ويقطع على نفسه الطريق، ويجعلها آخر مرة له في الاعتراض ﴿قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾ أي قال له موسى: إن أنكرتُ عليك بعد هذه المرة، فلا تصحبني معك، فأنت معذورٌ عندي لمخالفتي لـك ثـلاث مـرات ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾ هذه هي المفاجأة الثالثة، لقد مضى موسى مع الخضر يمشيان، وقد أجهدهما التعب، حتى وصلا إلى قرية أهلُها بخلاء، لا يطعمون جائعاً، ولا يستضيفون ضيفاً، ويجد الخضر جداراً يكاد ينهدم، فيشمِّر عن ساعده، ويأمر موسى معه في هدم الجدار، وإعادة بنائه من جديد، فيمتثل الأمر، ويشعر موسى بالتعب الشديد، والجوع المضني، فيندفع قائلاً للخضر: قومٌ استطعمناهم فلم يطعمونا، وضفناهم فلم يضيفونا، ثم أرهقتنا ببناء جدارٍ لهم بدون أجر؟ لو طلبتَ منهم الأجر على ذلك!! وينتهي أمر المصاحبة عند هذا الكلام ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾ أي قال الخضر لموسى: هذا وقتُ الفراق بيننا، وسأخبرك الآن بأمر هذه المفاجآت التي رأيتها مني، وأنكرتَها عليَّ، ولم تستطع الصبر عليها!! ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾ أي أمّا أمرُ السفينة التي خرقتها، واعترضتَ عليَّ فيها، فقد كانت لأناسٍ ضعفاء، لا يقدرون على مدافعة الظلمة المتجبرين، فأردتُ بخرقي لها أن أعيبها، لأن أمامهم ملك ظالمٌ جائر، يغتصب كلَّ سفينةٍ جيدة ليس فيها عيب، وهؤلاء كانوا سيمُرون في طريقهم عليه، فلو لم أخرقها لاغتصبها منهم ذلك

وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾

الملك الظالم، فهل أحسنتُ في عملي هذا لهم أم أسأت؟ ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي وأمّا الغلام الذي قتلتُه، فقد كان كافراً فاجراً، وكان أبواه مؤمنين صالحين، فلو عاش هذا الولد، لتسبَّب في كفر والديه، وقادهُ حبُّهما له على الكفر والضلال، فأراد الله أن ينقذهما من هذا البلاء، فألهمني قتله ليبدلهما عنه بغلام مؤمن تقي، يكون باراً بوالديه، ورحيماً بهما، وفي الحديث الشريف «إن الغلام الذي قتله الخضر، طُبع كافراً، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً» رواه مسلم ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي وأما الجدار الذي هدمناه ثم بنيناه، فقد كان لغلامين يتيمين في هذه البلدة التي دخلناها، وكان والدهما رجلاً صالحاً، توفي وترك لهما كنزاً ثميناً، تحت هذا الجدار الذي كاد أن ينهدم، فأراد الله بهذا العمل، الذي فعلناه أن يكبرا ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار، وما فعلتُ كلَّ هذه الأمور، من خرق السفينة، وقتل الغلام، وبناء الجدار عن رأيي واجتهادي، وإنما بأمر العليم القدير وبإلهامه لي، ذلك تفسير الأمور التي لم تستطع الصبر عليها، واعترضت فيها عليَّ قبل أن أخبرك عنها!! وهكذا تنتهي القصة بما فيها من الغرائب والعجائب، ثم تأتي القصة الرابعة في هذه السورة الكريمة، وهي قصة (ذي القرنين) حيث يقول سبحانه ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي ويسألونك

حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾

يا محمد عن ذي القرنين، ما شأنه؟ وما قصته؟ وما خبره؟ فقل لهم سأقصُّ عليكم من خبره وقصته قرآناً ووحياً، ثم فصَّل تعالى من أمره وقصته فقال: **﴿إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً. فأتبع سبباً﴾** أي نحن بحكمتنا وقدرتنا، مكنَّا له أسباب العزِّ والسلطان، والفتح والعمران، حتى يلغ مشارق الأرض ومغاربها، وأعطيناه من أسباب العلم والحكمة والتصرف ما يحتاج إليه، لتوطيد ملكه وسلطانه، (فأتبع سبباً) أي سلك طريقه الذي يوصله إلى مبتغاه، من جهة المغرب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ أي حتى إذا وصل أقصى الأرض من جهة المغرب، وجد الشمس تغرب في ماء وطين أسود ـ حسب ما شاهده لا حسب الحقيقة ـ ومعنى الحَمِئة: أي الكثيرة الحمأة وهي الطينة السوداء، ووجد عندها قوماً كفاراً. يعبدون غير الله **﴿قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً﴾** أي قلنا له بطريق الإلهام: إمَّا أن تقتلهم، أو تدعوهم بالحسنى إلى الإيمان ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي قال ذو القرنين: أمَّا من ظلم نفسه بإصراره على الكفر، فسوف نقتله أو نحرِّقه، ثم يردُّ إلى ربه فيعذِّبه عذاباً منكراً فظيعاً في نار جهنم، وأما من آمن بالله، وأحسن عمله في الدنيا، فجزاؤه الجنة يتنعَّم نيها، وسنيسِّر عليه في الدنيا، فلا نكلِّفه ما يشقُّ عليه!! لقد اختار الملِكُ المسلم العادل، دعوة القوم بالحسنى، فمن آمن فله المعاملةُ الطيبة، والتيسيرُ والتكريم، ومن كفر فله العذاب والنكال، وسوء المصير في الآخرة، وهذا يدل على أن ذا القرنين كان مَلِكاً (مسلماً عادلاً)، وقد رُوي أن الذين ملكوا الدنيا أربعة: مؤمنان، وكافران، أمَّا المؤمنان (فسليمان) و(ذو القرنين) وأما الكافران (فبختنصَّر)، و(النمرود) ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ بعد أن تمت رحلته نحو المغرب، توجَّه جهة

كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۝ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۝ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ

المشرق للدعوة إلى الله، والمعنى: ثم سلك طريقاً بجنده نحو المشرق، حتى إذا وصل أقصى المعمورة من جهة الشرق، وجد الشمس تشرق على أقوام، ليس لهم من اللباس والبناء، ما يسترهم من حر الشمس، فإذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب تحت الأرض، وإذا غربت خرجوا لمكاسبهم، وهم (الزنوج)، كذلك فعل بأهل المشرق، من آمن كرَّمه، ومن كفر عذَّبه، كذلك أحطنا علماً بأحواله وأخباره

أي ثم سلك طريقاً ثالثاً بين المشرق والمغرب، يوصله جهة الشمال حيث الجبالُ الشاهقة، حتى إذا وصل إلى منطقة بين حاجزين عظيمين، في أقصى بلاد الترك، يخرج منها (يأجوج ومأجوج) على تلك البلاد، فيعيثون فيها فساداً، ويهلكون الحرث والنسل، ووجد هناك أناساً متخلّفين، لا يكادون يعرفون كلاماً، لبطء فهمهم، وانتشار الجهل بينهم، وبعدهم عن مخالطة الناس

أي قال القومُ لذي القرنين: إن قبيلة (يأجوج ومأجوج) قوم مفسدون في الأرض، بالقتل، والسلب، والنهب، وسائر وجوه الشر، فهل نفرضُ لك جزءاً من أموالنا، لتجعل بيننا وبينهم سدّاً، يحمينا من شرهم وفسادهم؟

أي قال لهم ذو القرنين: إن ما بسطه الله لي من القدرة، والمُلْكِ، والتصرف في الأرض، خير مما تبذلونه لي من المال، فأعينوني بالأيدي والرجال، اجعل بينكم وبينهم سداً منيعاً، وحاجزاً حصيناً، أخلصكم من شرِّهم!! وهذه شهامة منه حيث رفض المال، واكتفى بالعون منهم بالرجال، وتطوَّع ببناء السدِّ، دون أجرٍ ولا مقابل، والرَّدْم: السدُّ المنيعُ الحصين، ثم قال لهم

بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾

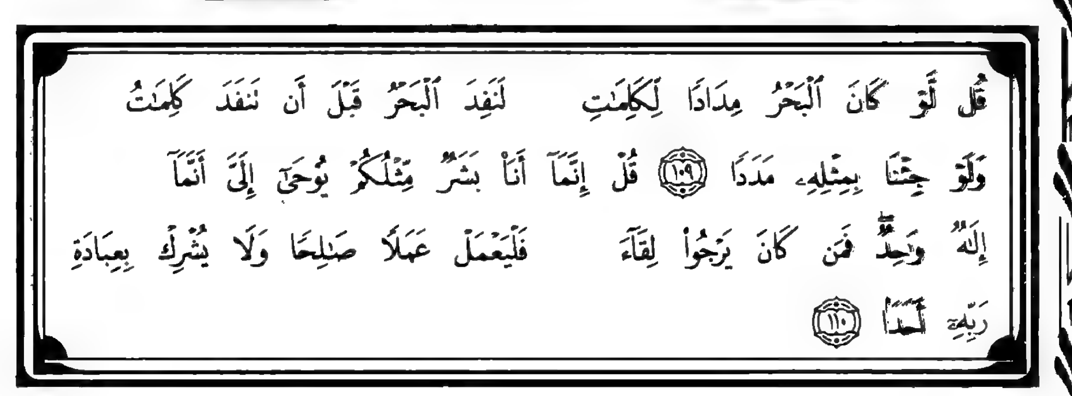
أي أعطوني قطع الحديد، واجعلوها في مكان السدِّ، حتى إذا ساوى البناء بين جانبي الجبلين، والصَّدَفُ: كلُّ بناءٍ عظيم مرتفع، قال انفخوا على الحديد بالمنافيخ لأذيبه، حتى إذا جعله كالنار لشدة توهُّجه وإحمراره، قال لهم: أعطوني لأصبَّ عليه النحاسَ المذابَ، حتى يصبح قوياً صلداً، فما استطاع المفسدون أن يعلوه ويتسوروه، وما استطاعوا نقبه من أسفله، لصلابته وثخانته، وبهذا الصنيع أغلق ذو القرنين الطريق على يأجوج ومأجوج أي قال ذو القرنين: هذا السدُّ نعمةٌ من الله، ورحمة على عباده، فإذا جاء وعدُ الله بخروج المفسدين من يأجوج ومأجوج، وذلك قرب قيام الساعة، جعل الله هذا السدَّ، متهدِّماً مندكاً، كأن لم يكن بالأمس، وكان وعدُ الله بخراب السدِّ، وقيام الساعة كائناً لا محالة.

قال الفخر الرازي: «لمَّا أَتَوْه بقطع الحديد، وضع بعضَها على بعض، حتى صارت بحيث تسدُّ ما بين الجبلين إلى أعلاهما، ثم وضع المنافخ عليها، حتى إذا صارت كالنار، صبَّ النحاسَ المذابَ على الحديد المحمى، فالتصق بعضُه ببعض، وصار جبلاً صلداً»!! وإلى هنا ينتهي الحديث عن قصة ذي القرنين، النموذج الطيب للحاكم الصالح، ثم يأتي الحديث عن قيام الساعة، وأهوال يوم القيامة، فيقول سبحانه

أي وتركنا البشرَ يوم قيام الساعة، يختلط بعضهم ببعض، ويضطرب كاضطراب أمواج البحر العاتية، وهو تصوير يوحي بشدة ما يصيب الناس من الفَزَع والهَلَع،

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾

وما يكونون عليه من الخوف والاضطراب، كحالة الرجل السكران، ونُفخ في الصور النفخة الثانية، وهي نفخة الإحياء والخروج من القبور، فجمعناهم في أرض المحشر جمعاً، لم يتخلف منهم أحد، وأبرزنا جهنم للكافرين، حتى شاهدوها بأهوالها، عرضاً مخيفاً مفزعاً، وهؤلاء الأشقياء هم الذين كانوا في الدنيا عُمياً، عن دلائل قدرة الله ووحدانيته، وكانوا يكرهون فلا يطيقون سماع كلام الله الهادي المنير ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ أي هل يظنُّ الكفار الفجار، الذين عبدوا الملائكة والمسيح، والأوثان، أن ذلك ينفعهم، أو يدفع عنهم عذاب الله؟ إنَّا هيأنا جهنم وجعلناها لهم ضيافةً وكرامة، وهو تهكمٌ لاذعٌ، وسخريةٌ مريرة، تتفق مع سخريتهم وإعراضهم عن آيات الله ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي قل لهم: هل نخبركم بأخسر الناس أعمالاً؟ هم الذين بطل عملهم وضاع، وذهب أدراج الرياح، لأنه بُني على غير أساس، وهم يظنون أنهم محسنون بأعمالهم وأفعالهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ أي أولئك الأشقياء، الذين كفروا بآيات الله المنزَّلة، وبالبعث والنشور، فبطلت أعمالهم، فليس لهم عند الله قدرٌ ولا منزلة، كما جاء في الحديث الشريف (إنه ليأتي الرجلُ العظيم السمينُ يوم القيامة، فلا يزن عند الله جناح بعوضة، واقرءوا إن شئتم ﴿**فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً**﴾ رواه البخاري ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ أي جزاؤهم وعقوبتهم نارُ جهنم بسبب كفرهم واستهزائهم بآيات الله ورسله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أي إن المؤمنين الصادقين، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل


قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ
وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ
إِلَٰهُ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ
رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾

الصالح، فسيكرمهم الله بجنات الفردوس، ضيافة وكرامةً لهم، ماكثين في الجنة أبداً، لا يطلبون عنها تحوُّلاً، ومعنى قوله (حِوَلاً) أي تحوُّلاً وانتقالاً

رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن هذا تمثيلٌ لسعة علم الله تعالى، والمعنى: لو كانت بحار الدنيا كلُّها، حِبْراً ومداداً، وكُتبت بها كلمات الله، الدالة على علمه و عظمته، لنفد ماءُ البحر وانتهى، وما نفدت كلمات الله، ولو جئنا بمثل ماء البحار مراراً وتكراراً ﴿قُلْ إِنَّمَا

صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَ أي قل يا محمد لأولئك المشركين المكذبين لرسالتك: أنا لستُ بإلهٍ ولا بملكٍ، وإنما أنا بشرٌ مثلكم، أوحى الله إليَّ بهذا القرآن، لأبلّغكم أن إلهكم إله واحد، فمن كان يرجو ثواب الله، ويخشى عقابه، فلْيخلصْ العبادة لله وحده، ولا يرائي بعمله، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم!!.

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا نبيَّ الله: إني لأقف المواقف أبتغي وجهَ الله، وأحبُّ أن يرى الناسُ موطني!! فسكت ﷺ ولم يردَّ عليه شيئاً، حتى نزلت هذه الآية ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعباده ربه أحداً﴾ رواه الحاكم... وجاء في الحديث الشريف: (إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، نادى منادٍ: من كان أشرك في عملٍ عَمِلَه لله أحداً، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك) رواه أحمد والترمذي.

انتهى تفسير سورة الكهف

● ● ●

كۤهيعۤصۤ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾

تفسير سورة مريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كۤهيعۤصۤ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ الحروف المقطَّعة للإشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، وتقرأ هكذا: «كَافْ، هَا، يَا، عَيْنْ، صَادْ» فمن أمثال هذه الحروف، جاءت آياتُ الذكر الحكيم، وهذا ذكر رحمة ربك لعبده زكريا، حين دعا ربه بصوت خفيٍّ خاشع، لا يكاد يُسمع، لأنه يعلم أن ربه يسمع دعاءه ويُجيب ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي دعا ربَّه في خشوع وضراعة، فقال يا رب: لقد ضعف عظمي، وذهبت قوَّتي من الشيخوخة وكبر السِنّ، وانتشر الشيب في رأسي، انتشار النار في الهشيم، ولم تخيِّب رجائي في وقت من الأوقات، بل عوَّدتني الجميل والإحسان، فاستجب دعائي يا رب ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي إني خفت العشيرة والأقارب من بعد موتي، أن يضيِّعوا الدين، ولا يحسنوا وراثة العلم والنبوة، فارزقني من فضلك، ولداً صالحاً، ولو كانت امرأتي عاقراً لا تلد، فإنك قا در على كل شيء، يرثني ويرث أجداده من آل يعقوب، في النبوة، والعلم، والإرشاد!! سأل الله ولداً يكون من بعده، ليسوسهم (بالنبوة) وبما يُوحى إليه، ولم يرد به وراثة المال، لأن الأنبياء أعلى قدراً من النظر إلى المتاع الزائل من المال ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي جاءه الجواب بطريق الملائكة، بأن

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿١١﴾ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾﴾

الله يبشّره بغلام يسمى «يحيى» سمّاه الله له، ولم يترك تسميته لأبويه، وهذا الغلام ليس له مثيل في الفضل والكمال، أو لم يُسمَّ بهذا الاسم أحدٌ قبله، فهو اسم فذٌّ ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾أي قال زكريا: كيف يكون لي غلام، وامرأتي عقيم لا تلد؟ وأنا شيخ كبير هرم، قد بلغتُ في الشيخوخة والكبر نهاية العمر!! قال المفسرون: كان قد بلغ من العمر مائة سنة، وامرأته تسعاً وتسعين سنة، وقوله هذا كان تعجباً وسروراً بالأمر الغريب الذي بُشّر به، وليس للإنكار والاستبعاد، ومعنى العتيّ: النهاية في الكبر والهرم ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾أي قال الله له: كذلك الأمر، لا يصعب عليّ شيء، أخلقه منك ومن زوجك العقيم، وهذا الخلق عليّ سهل، كما خلقتك من قبل من العدم، فإن الله لا يعجزه شيء ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾أي قال زكريا: يا ربِّ اجعل لي علامة، تدلُّ على حمل امرأتي وتحقق البشرى بالولد؟

قال الله له: إن العلامة أن لا تستطيع تكليم الناس ثلاثة أيام، وأنت صحيحٌ سويّ، من غير مرض ولا علة!..

قال ابن عباس: «اعتقل لسانُه عن كلام الناس، فكان لا يكلمهم إلا بالإشارة، من غير علة» وهو مع ذلك يسبّح، ويقرأ التوراة، فإذا أراد كلام الناس، لم يستطع أن يكلمهم ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾أي أشرف زكريا على قومه من المصلّى، وهو بتلك الصفة الغريبة، لا يستطيع الكلام، فأشار إليهم بأن سبِّحوا الله في أول النهار وآخره، واشكروه على هذه النعمة الجليلة ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا

وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانًا شَرۡقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابًا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾

أي قال الله له: يا يحيى

خذ التوراة بجدّ ونشاط وعزيمة، وأعطيناه الحكمة ورجاحة العقل، منذ الصغر قبل بلوغه سنَّ الرجال، فعلنا ذلك تحنناً منّا على أبويه، وتعطفاً عليه، وتزكية له لصلاحه، وكان عبداً صالحاً متقياً لله، وجعلناه باراً بوالديه، محسناً إليهما، ولم يكن عاصياً متكبراً على ربه

أي والسلام عليه، في يوم ولادته، وفي

يوم وفاته، ويوم يخرج حياً من قبره للبعث والنشور.. ثم يأتي الحديث عن قصةٍ هي أعجب وأغرب، من قصة (ولادة يحيى)، وهي قصة ولادة السيد المسيح (عيسى ابن مريم) من امرأة عذراء، ليس لها زوج، إذ كيف يأتي ولد من غير أب؟ وفي هذه القصة يقول سبحانه: ...تْ مِن دُونِهِمۡ حِجَابًا

أي واذكر يا أيها الرسول للناس، في القرآن الذي

أوحيناه إليك، قصة مريم العجيبة الغريبة، حين تنحّتْ واعتزلت أهلَها، لتتفرَّغ لعبادة ربها، شرقيَّ بيت المقدس، وتوارت عن الأنظار، فأرسلنا إليها (جبريل الأمين)، بصورة إنسانٍ تام الخِلْقة، جميل الصورة، لتأنس بكلامه ولا تنفر منه، ولو جاءها بصورة ملكيَّة لغُشي عليها

وهذا يدلُّ على عفافها وتورُّعها، فإنها تعوذت

بالله من تلك الصورة الجميلة، الفائقة في الحسن، أي قالت مريم لمَّا رأته: إني ألجأ إلى الله، وأستجير بالله منك، فإن كنت عبداً تقياً لله، فلا تمسَّني بسوء!! ولْنتصوَّر مقدار الفزع والخجل الذي أصابها، وهي في ذلك المكان النائي، بعيدة عن أهلها وعن الناس، وإذا بها تُفاجىء بشاب، مكتمل الرجولة والشباب، وسيم جميل الطلعة، يباغتها في خلوتها، ويظهر أمامها فجأة!! فما تجد لها طريقاً للتخلص منه، إلاَّ اللجوء إلى الرحمن، وتخويفه بالله إن

قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾

كان مؤمناً، وهنا يكشف لها عن الحقيقة، ويعرِّفها أنه ليس بشراً، إنما هو مَلَكٌ
إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ ، أي قال لها جبريل: إنني مرسلٌ إليك من عند الله، ليهب الله لك غلاماً صالحاً تقياً، طاهراً من الدَّنس والذنوب، يكون آية من آيات الله العجيبة الباهرة أي قالت متعجبّةً مستغربة: كيف يكون لي ولد؟ وعلى أيِّ صفةٍ يأتي، ولم أتزوَّجْ بعد؟ ولم يقربها أحدٌ بطريق الفاحشة؟ فهي من أسرة فاضلة، اشتهرت بالدين والصلاح، والولدُ إنما يأتي بطريق الزواج، أو بطريق الفاحشة والرذيلة!!
هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً أي قال لها: كذلكِ الأمرُ، سيخلق الله منك غلاماً، حَكَم ربُّكِ بذلك، وإن لم يكن لك زوج، فإنَّ ذلك على الله سهلٌ يسير، وليكون مجيئه دلالةً للناس، على قدرة الله العجيبة، في الخلق والتكوين، ورحمة لهم ببعثته لهم نبياً، يهتدون بهدايته وإرشاده
فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ أي فحملت به بالنفخة التي نفخها جبريل في فتحة ثوبها، فوصلت إلى رحمها، فابتعدت به عن قومها، إلى مكانٍ بعيد، فألجأها ألمُ الطَّلق وشدةُ الولادة، إلى الاستناد إلى جذع نخلة يابسة، وشعرت بحرج الموقف، فقالت: يا ليتني متُّ قبل هذا اليوم، وكنتُ شيئاً تافهاً لا يخطر ببال أحد!! وإنما تمنت الموت لأنها عرفت أن الناس لن يصدّقوها في خبرها، فبعد أن كانت عندهم عابدةً ناسكة، تصبح عاهرةً زانية

وَهُزِّىٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾

﴿وَهُزِّىٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ أي فناداها المَلَكُ من تحت النخلة قائلاً لها: لا تحزني لهذا الأمر، فقد جعل لك ربك جدولاً صغيراً، ونهراً جارياً، يجري أمامك، فيه الماء العذبُ السلسبيل، وحرِّكي جذع النخلة اليابسة، يتساقط عليكِ الرُّطب الشهيُّ الطريُّ ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ أي فكلي من هذا الرطب، واشربي من هذا الماء السلسبيل، وطيبي نفساً بهذا المولود الميمون، فإذا رأيت أحداً من الناس، وسألك عن شأن المولود، فقولي له: إني نذرت الصَّمْت والسكوت، فلن أكلِّم اليوم أحداً من البشر!! أُمرت بالكفِّ عن الكلام، ليكفيها ولدها ذلك، فتكون آية باهرة على صدقها وعفافها ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ أي جاءتهم بولدها تحمله على كتفها، قالوا: يا مريم لقد جئت شيئاً عظيماً منكراً!! يا من تُشْبِهين هارون في الصلاح والعبادة، ما كان أبوك رجلاً فاجراً، وما كانت أمك زانية!! فكيف صدر ذلك منك، وأنت من أسرة عريقةٍ في الدين والصلاح؟ ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ أي فأشارت إلى عيسى أن كلِّموه ولا تكلموني أنا!! فقالوا منكرين لقولها: كيف نكلِّم طفلاً صغيراً، لا يزال في السرير يتغذَّى من لبن أمه ويرضع؟ ولمَّا قالوا هذا الكلام، جلس، وتكلَّم بكلام فصيح صريح ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾ أي

وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾

قال في كلامه معهم: إني عبدٌ مخلوق لله، قضى ربي أن يُنْزِل عليَّ الإنجيل، ويجعلني نبياً داعياً إلى توحيد الله، وأن يجعلني مباركاً نافعاً للأمة أينما كنتُ، وأوصاني بالمحافظة على الصلاة، وأداء الزكاة، مدة حياتي، وباراً بوالدتي شفوقاً عليها، ولم يجعلني متكبراً عنيداً، متعظماً على الناس، شقياً في حياتي التي أعيشها. . كانت أول كلمةٍ نطق بها «عيسى» وهو طفل رضيع، أنه قال: ﴿إني عبدُ الله﴾ وكان ذلك معجزةً تدل على براءة أمه، وطهارتها من مقارفة الفاحشة، ولا نجد في الأناجيل ذكر هذه المعجزة، وهي قوله: ﴿إني عبد الله﴾ لأنها تبطل مزاعم النصارى في ألوهية المسيح، ولهذا حذفوها من الأناجيل، مع أنها من سواطع البراهين والمعجزات ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي وسلام الله عليَّ يوم ولادتي، ويوم موتي، ويوم أخرج من قبري حياً، للحساب والجزاء، وفي قوله: ﴿ويوم أموتُ﴾ إشارة إلى أنه بشر، يحيا ويموت، وليس بإله، لأن الإله حيٌّ لا يموت ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي ذلك الذي قصصناه عليك هو القول الحقُّ، في شأن (عيسى بن مريم) لا ما يقوله النصارى المبطلون من أنه ابن الله، وهو الذي يشكُّون فيه ويتنازعون، فيقول اليهود: إنه ساحرٌ وابن زنى، ويقول النصارى: إنه إله أو ابن الإله، وكلا الفريقين مفترٍ كاذب، وما ينبغي لله وما يجوز له أن يتخذ ولداً، تنزَّه الله عن الولد والشريك، لأن اتخاذ الولد من شأن الضعيف العاجز، الذي يحتاج إلى نصير ومعين، أمّا الغنيُّ القادرُ، الذي يقول للشيء: كنْ فيكون، فلا يحتاج إلى زوجة، ولا إلى ولد!! ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي ومما أمر به عيسى قومه وهو في المهد، أن أخبرهم أنَّ الله ربُّه وربُّهم، فلْيفردوه بالعبادةِ والتوحيد، هذا هو الدينُ القويمُ، والصراط

فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾

المستقيمُ، الذي لا اعوجاج فيه كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ

المراد بالأحزاب: أهلُ الكتاب «اليهود والنصارى» والمعنى: اختلفت فِرَقُ أهل الكتاب في أمر عيسى، وصاروا أحزاباً متفرِّقين في شأنه، بعدما بيَّن لهم عيسى أمره بوضوح، أنه (عبدُ الله)، فقال اليهود: إنه ابن زنى وكلامُه سحرٌ، وقال النصارى: إن الذي تكلَّم هو اللهُ، وقال آخرون: بل هو ابنُ الله، وقال جماعة: إنه ثالثُ ثلاثة، فويلٌ لهؤلاء الكفار، من شهود يومٍ عظيم الهول، هو يوم الحساب والجزاء بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا

أي ما أسمعهم وأبصرهم في ذلك اليوم الرهيب العصيب!!

وهي صيغة مبالغةٍ للتعجب، والمراد أن أسماعهم وأبصارهم في ذلك اليوم، تكون قويَّة وجليَّة، بعد أن كانوا في الدنيا صُمّاً وعُمياً، لكنهم اليوم في الدنيا، يتخبَّطون في ظلمات الكفر والضلال، الضلالِ البيِّن الذي لا تُدرك غايتُه إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى

أي أنذر يا أيها الرسول الخلائقَ، وخوِّفهم يوم الحسرةِ والندامة ـ يوم القيامة ـ يوم يتحسَّر المسيءُ إذ لم يُحْسن، والمجرمُ إذ لم يرتدع، حين يفرغ العبادُ من الحساب، وينقضي فيهم أمرُ الله العلي الكبير ﴿**فريقٌ في الجنة وفريق في السعير**﴾ وهم الآن في الدنيا لا يؤمنون ولا يصدِّقون، وسُمِّي يومُ القيامة (يوم الحسرة) لأنه اليوم الذي يُذبح فيه الموتُ، ويُخلَّد فيه الإنسانُ إمَّا في النعيم، أو في الجحيم، وتعظم فيه الحسرةُ على الكفار والفُجَّار!.

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «يُؤتى بالموت كهيئة كبشٍ أملح ـ فيه بياضٌ وسواد ـ فينادي منادٍ، يا أهلَ الجنة فيشرئبُّون ـ أي يمدُّون أعناقهم ـ وينظرون، فيقول لهم: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموتُ، وكلُّهم قد رآه!! ثم ينادي منادٍ، يا أهلَ النار، فيشرئبُّون وينظرون، فيقول لهم: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموتُ، وكلُّهم قد رآه، فيُذْبحُ بين الجنة والنار، ثم يقول: يا أهل الجنة خلودٌ

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾

فلا موت، ويا أهل أهل النار خلودٌ فلا موت، ثم قرأ ﷺ **﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قُضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾** وأشار ﷺ بيده إلى الدنيا) رواه البخاري ومسلم، أي هم الآن في الدنيا في غفلةٍ عن هذا اليوم العصيب ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي نحن الذين تتفرَّد بالمُلك والبقاء، بعد الهلاك والفناء، وكلُّ ما على الأرض عائدٌ إلينا، ولا يبقى لأحدٍ غيرنا مِلْكٌ عليها، وإلينا مرجع الخلائق كلهم، للحساب والجزاء، وهذا تخويفٌ رهيبٌ، ووعيد شديد ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ وتأتي قصةُ الخليل «إبراهيم» مع أبيه المشرك، لتكشف لنا عمَّا في عقيدة الشرك، من كذبٍ، ونكارةٍ، وضلال، فإبراهيم أبو الأنبياء، منه تفرَّعت شجرةُ النبوة، وبه يفخر جميع أهل الأديان، حتى مشركو العرب، وفي قصته مع أبيه المشرك عِبَرٌ وعظات!! والمعنى: اذكر يا أيها الرسول لقومك وللناس جميعاً، في هذا القرآن العظيم، خبرَ أبيك إبراهيم، الذي يزعم قومُك أنهم على دينه، وهم يعبدون الأصنام!! ثم أثنى تبارك وتعالى عليه بذلك الثناء العاطر فقال **﴿إنه كان صديقاً نبياً﴾** أي كان جامعاً بين (النبوَّة، والصدِّيقية)، فهو نبيٌّ كثير الصدق، وكثير التصديق، صَدَق في إيمانه، وصدَّق الله في خبره وكلامه، فكان أبا الأنبياء، وإمام الحنفاء ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ ناداه متلطفاً في كلامه، (يا أبتِ) التي تدلُّ على كامل الشفقة والحبِّ، ولم يقسُ عليه في الكلام، مع كفره وإشراكه، بل دعاه بغاية الرفق واللطف، مستميلاً له نحو الهداية والإيمان، والمعنى: كيف يا أبتاه تعبدُ حجارة صمَّاء، بكماء؟ لا تسمع ولا تُبصر، ولا تدفع عنك ضُرّاً، أو تجلب لك نفعاً؟ لم يصرِّح له بضلاله، وإنما نبَّهه على أن العاقلَ، لا يعبد من كان ضعيفاً، لا سيَّما إذا كان جماداً، لا يسمع ولا يُبصر ولا يعقل؟ ثم زاد في النصح له والتذكير، فقال ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ أي يا أبتِ لقد جاءني من العلم بالله، وصفاته القدسية، ما لا تعلمه أنت، فاقبلْ نصيحتي وأطعني، أرشدك إلى سبيل

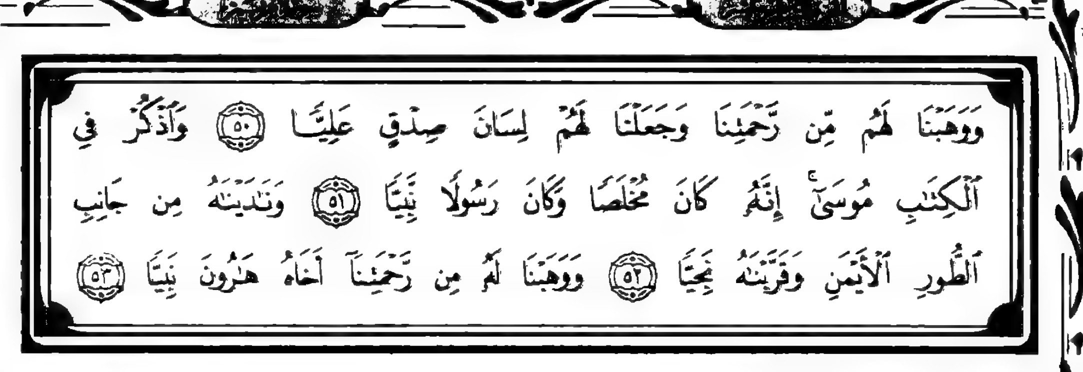
يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ۝ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ۝ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ۝

السلامة، والنجاة، وأهدك إلى الطريق المستقيم!! كرَّر له النصح باللطف، ولم يصِفْ أباه بالجهل الشنيع في عبادته للأصنام، وإنما ترفَّق وتلطَّف في خطابه، ثمَّ حذَّره من عبادة الأصنام، وبيَّن له أن عبادتها في الحقيقة، هي عبادة للشيطان، لأنه هو المزيِّن للإنسان عبادتها، فقال: أي لا تعبد الأصنامَ، فإن عبادتها عبادةٌ للشيطان، والشيطانُ عاصٍ للرحمن، مستكبرٌ عن عبادته، ولهذا طرده الله وأبعده من رحمته، وإنما عبَّر عن عبادة الأصنام، بعبادة الشيطان، لأنه المغويَ المضلُّ، فمن أطاعه في معصية الله، فقد عَبَده، كقوله سبحانه: ؟ ويتابع الابنُ البارُّ دعوة أبيه إلى الإيمان، وتحذيره من الشرك والعصيان، بكل لطفٍ وأدب، لتخليصه من مكائد الشيطان، فيقول له أي إني أخاف أن تموت على إشراكك وعصيانك، فيحلَّ بك عذابُ الله الأليم، وتكون قريناً للشيطان في نار الجحيم، ولا تجد لك ولياً ولا ناصراً، إلا إبليس اللعين!!

قال الفخر الرازي في التفسير الكبير: «وإيرادُ الخطاب بلفظ (يا أبتِ) في كلامه أربع مرات، في كل نداء، دليلٌ على شدة الحبِّ له، والرغبة في صونه من العقاب، وإرشاده إلى الصواب، وقد رتَّبَ إبراهيم عليه السلام، الكلامَ في غاية الحُسن، لأنه نبَّهه أولاً إلى بطلان عبادة الأوثان، ثم أمره باتِّباعه في الاستدلال، وتركِ التقليد الأعمى، ثم ذكَّره بأن طاعة الشيطان غير جائزة في العقل، ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام على طاعة الشيطان، مع رعاية الأدب والرفق، وقولُه: دليلٌ على شدة تعلق قلبه بمصالح أبيه، قضاءً لحقِّ «الأبُوَّة»!! ولنستمع إلى جواب أبيه الجاهل له، حيث قابَلَ هذا اللطف والاستعطاف، بالفظاظة والعناد، مع التهديد والوعيد أي قال له أبوه آزر: أتترك يا إبراهيمُ عبادة الأوثان، وتنصرف عنها؟ أو بَلَغ الأمرُ بك إلى هذه الجراءة؟ استفهام فيه معنى التعجب

قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ۝ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ۝ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ۝

والإنكار، كأن ترك عبادتها لا يصدر عن عاقل، ثم توعَّده بالضرب الفظيع الوجيع، إن أصرَّ على ذلك الموقف الشنيع، فقال له: لئن لم تكُفَّ عن شتم آلهتي وعيبها، لأرجمنَّك بالحجارة، واهجرني زمناً طويلاً!! قابلَ أبوه لطفه واستعطافه، بالفظاظة وشدة العناد، فناداه باسمه «يا إبراهيم» ولم يقل له: «يا ابني» كما قال هو «يا أبت» ثم أنذره بالموت رجماً بالحجارة «لأرجمنك» كأنه عدوٌّ له، وليس ابناً له، وقدَّم الخبَر وصدَّره بهمزة الإنكار كأن ترك عبادة الأصنام، لا يرغب عنها عاقلٌ، فضلاً عن أن يتركه، فكيف يدعوه إلى ترك عبادتها؟ لم يغضب إبراهيم الحليم، ولم يفقد برَّه وعطفه وأدبه مع أبيه، بل بقي مترفّقاً به، محسناً مخاطبته، وذلك شأن القلب الذي هذَّبه الإيمان، مع القلب الذي أفسده الطغيان أي قال إبراهيم لأبيه: أمَّا أنا فلا ينالك منيّ أذى ولا مكروه، سلام عليك أي أدعو لك بالهداية والسلامة، لحرمة الأبّوة، فلا جدال ولا شتيمة، ولا ردَّ للتهديد والوعيد، وسأدعو الله أن يغفر لك، فقد عوَّدني ربي الإحسان والجميل، فإنه مبالغٌ في اللطف بي، والاعتناء بشأني!! ومعنى قوله (حفياً) الحفيُّ: هو المبالغ في اللطف، والبِرّ بالغير، يريد أن له مكانةً عند الله، لا يخيِّب بها رجاءه، وكان استغفاره لأبيه في بدء الدعوة، قبل أن يتبيَّن له أنه عدوٌّ لله، كما قال سبحانه: ثم اعتزل إبراهيم أباه وقومه، وهاجر من وطنه، طلباً لرضى الرحمن، يقول إبراهيم لأبيه: سأترككم وما تعبدون من الأصنام والأوثان وأرتحل عن دياركم، وأعبدُ ربي وحده مخلصاً له الدين، راجياً ـ بسبب إخلاصي في عبادته ـ أن لا يجعلني شقياً!! وفيه تعريضٌ بشقاوتهم في عبادة الأصنام أي لمَّا ترك الخليلُ إبراهيم علي السلام أباه وقومه من أجل الله، أبدله الله من هم خيرٌ منهم، فرزقه الله «إسحاق» و«يعقوب» أولاداً أنبياء، آنس



وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

الله بهما وحشته، عن فراق قومه، بأولئك الأولاد الأبرار الأطهار، وكلٌّ منهما نبيٌّ كريم، و(يعقوب) هو ابنُ إسحاق، و(إسحاق) ابن إبراهيم، وهما شجرتا الأنبياء من نسله، إذ جاء منهم جميعُ أنبياء بني إسرائيل، وأقرَّ الله عين إبراهيم في حياته، فرزقه الذرية الصالحة الطيبة ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ أي أعطينا الجميع «إبراهيم، وإسحق، ويعقوب» النبوة، والمال، والأولاد، وكلَّ خيرٍ دينيّ ودنيوي، وجعلنا لهم ذكراً حسناً في الناس، لأن جميع أهل الملل والأديان، يثنون عليهم، ويصلُّون على إبراهيم وآل إبراهيم إلى قيام الساعة!! كما أن المسلمين يصلُّون عليهم، فيجمعون في صلاتهم بين الثناء على خاتم الأنبياء، والثناء على إبراهيم وعلى آل إبراهيم (اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد)..

وإلى هنا تنتهي قصة الخليل إبراهيم عليه السلام، ثم يأتي الحديث عن قصة «موسى وهارون» عليهما السلام، مع الثناء العاطر عليهما، وهما من ذرية يعقوب بن إسحاق، بن إبراهيم، فيقول سبحانه ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾.

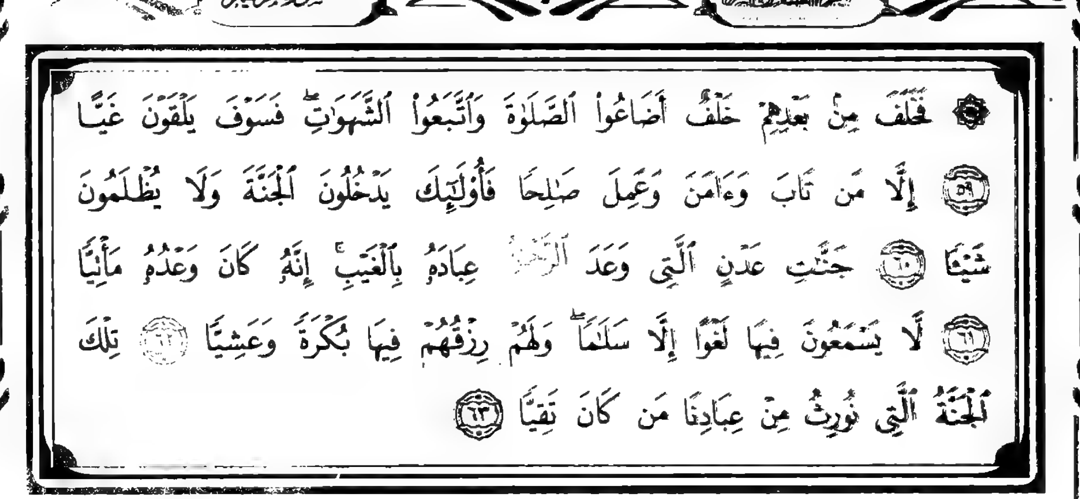
جاءت قصة موسى وهارون هنا بإيجاز، لأنها ذُكرت مفصلة في الأعراف ويونس.

والمعنى: واذكر في القرآن العظيم، قصة موسى الكليم، الذي استخلصه الله لنفسه، واصطفاه من بين الخلق لكلامه، والمخلَصُ: بفتح اللام أعظمُ قدراً من المخلِص بكسر اللام، لأن المخلَصَ: الذي اصطفاه الله واختاره لنفسه، والمخلِصُ: من أخلص عمله لله، وشتَّان بينهما، وكما خصَّه الله بالاصطفاء، كذلك خصَّه بالمناجاة، فكلَّمه بدون وساطة، وكان من الرسل الكبار، والأنبياء الأطهار، ولهذا جمع له بين الوصفين: (الرسالة، والنبوة)، وهو من أعاظم أنبياء بني إسرائيل، ناداه الله من ناحية جبل الطور، وأدناه للمناجاة حتى كلَّمه، واستجاب الله دعاءه، فأرسل معه أخاه هارون نبياً، ليكون له عَضُداً وناصراً ومعيناً

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا۩ ٥٨﴾

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ هذا هو الفرع الآخر من ذرية إبراهيم، وهو «إسماعيل» عليه السلامُ أبو العرب، الذي جاء من نسله خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد ﷺ.

والمعنى: اذكر يا محمد في القرآن لقومك، خبر جدِّك الأكبر «إسماعيل» الذبيح ابن إبراهيم، إنه كان صادقاً في وعده، وقد قدَّم نفسه قُرباناً للذبح، طاعة لأبيه حين قال **﴿يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾** ووفَّى بوعده، فلذلك أثنى الله عليه بصدق الوعد، وكان يحثُّ أهله على طاعة الله، وعلى إقامة الصلاة، وأداء الزكاة، فنالَ رضي الله في الدارين، و«إسماعيلُ وإسحق» ابنا الخليل إبراهيم، وفي الآية دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق، لأن إسحاق وُصِف بالنبوة فقط، وإسماعيلُ وُصف بالنبوة والرسالة، وهو جدُّ العرب الأكبر ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ أي واذكر أيضاً في القرآن العظيم خبر (إدريس)، وهو جدُّ نوح، وأول مرسلٍ بعد آدم، كان ملازماً للصدق، وكان نبياً موحىً إليه من عند الله، وقد رفع اللَّهُ قدره، وأعلى ذكره، بشرف النبوة، وبالمكانة الرفيعة عند الله، ولهذا قال **﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾** أي مكاناً رفيعاً لم ينله كثير من الأنبياء، غير الرسل من أولي العزم، وبعد أن أثنى على بعض الأنبياء والمرسلين، بالثناء العاطر، حيث خصَّ كل واحدٍ ببعض الخصائص، ذكر أنهم من خيرة الخلق، وصفوة البشر، فقال سبحانه عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾ أي هؤلاء المصطَفَوْن المخلَصون، الذين قصصنا عليك يا محمد خبرهم في هذه السورة، هم الذين أنعم الله عليهم بشرف النبوة، وهم إمَّا من ذرية (آدم) كإدريس أو من ذرية (نوح)


﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾﴾

كإبراهيم، أو من ذرية الخليل (إبراهيم)، كإسماعيل وإسحق، أو من ذرية (إسرائيل) وهو يعقوب بن إسحق، الذي جاء من نسله سائر أنبياء بني إسرائيل، كموسى وهارون، وزكريا ويحيى، وعيسى بن مريم، وممن اصطفيناهم لرسالتنا ووحينا، إذا سمعوا كلام الرحمن، بكوا وذرفوا الدموع، وسجدوا لله، مع علوِّ مرتبتهم، ورفعة قدرهم، فهم عبادُ الله أتقياءُ أوفياءُ، يعبدون ربهم بكل خضوع وخشوع ﴿فَخَلَفَ ... فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ أي جاء من بعد أولئك الأمم الصالحين ـ أتباع الأنبياء ـ جماعة أشقياء، سلكوا طريق العصيان، ففرَّطوا في أمر الدين، تركوا الصلوات، وسلكوا طريق الشهوات، فسيلقون كل شرٍّ، وخسار، ودمار، والغيُّ معناه: الشرُّ والضلال ﴿... ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ أي إلاَّ من تاب من ذنبه، ورجع عن غيِّه، وأصلح سيرته وعمله، فأولئك يقبل الله توبتهم، ويحسن عاقبتهم، ويجعلهم من أهل جنة النعيم، ولا يُنقصون من أجور أعمالهم شيئاً.. ثم فصَّل تعالى هذا الجزاء والنعيم فقال ﴿... عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ أي هي جنات عدنٍ أي بساتين إقامة، التي وعدهم بها ربهم، فآمنوا بها بالغيب، قبل أن يروها، تصديقاً لوعد الله، ووعدُه تعالى كائن لا محالة، لا بدَّ أن يأتي، لأن الله لا يخلف الميعاد ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ ...﴾ أي ليس في الجنة شيء من فضول الكلام، ولا ألفاظ قبيحةٌ نابية، إلاَّ التحية والسلام، لأن الجنة دار الأمان والسلام، لا يُسمع فيها إلا صوتٌ واحد، يناسب ذلك الجوَّ الراضي، صوتُ التهنئة بالسلام ﴿... رب رحيم﴾ ولهم في الجنة رزقهم في الصباح والمساء، مما تشتهيه الأنفسُ وتلذُّ الأعين، ومما لا يخطر على قلب أحد من البشر ﴿تِلۡكَ ...﴾ أي هذه الجنة التي ذكرنا لكَ أحوال أهلها، هي جنة الخلد، التي نورثها عبادنا المتقين، وهم المطيعون لله في السراء والضراء، فمن أراد أن يكون من أهلها، فعليه أن يطيع الله؛ ويجتنب

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾

محارمه.. ثم يأتي الحديث عن الوحي وعن جبريل، فقد كان ﷺ يتشوّق إلى الوحي، وإلى زيارة جبريل عليه السلام له، روى البخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل «ما يمنعك أن تزورنا أكثر ممّا تزورنا؟ فأنزل الله هذه الآية ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا ... نَسِيًّا﴾ يقول جبريل الأمينُ لخاتم النبيين: ما نتنزل يا محمد إلاَّ بأمر الله جلَّ جلالُه، المتصرِّف في شؤون العباد، بالتقدير والتدبير، الذي لا مثيل له ولا نظير، فالأمر ليس بيد جبريل، إنما هو بأمر العليّ الكبير، الذي لا ينساك، ولا ينسى أحداً من خلقه ﴿... وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ أي هذا الإله العظيم الجليل، هو المالك لجميع ما في السموات والأرض، فاعبده يا محمد، واصبر على مشقة العبادة، وتكاليف الدعوة، ولا تحزن لتكذيبهم لك، هل تعلم لربك شبيهاً أو نظيراً؟ أي ليس له تعالى من يشابهه ويماثله في العظمة، والألوهية والخلق ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ ... مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾؟

أي ويقول الكافر الذي لا يؤمن بالحساب والجزاء، هل إذا متُّ، وأصبحتُ تراباً ورُفاتاً؟ هل سوف أُحْيا وأُبعثُ بعد الموت؟ يقول ذلك بطريق (السخرية والاستبعاد)، أولم يتذكر هذا الجاحُد، المكذِّبُ بالبعث والنشور، أول خلقه؟ حيث كان في العدم، فأوجده الله بقدرته، فالذي خلقه من العدم، قادر على إعادته بعد الفناء، وتشتُّت الأشلاء، واللامُ في قوله (لسوف) للمبالغة في الإنكار، وهو إنكارٌ منشؤه غفلةُ الإنسان عن نشأته الأولى، أين كان؟ وكيف خُلق من ماء مهين؟ ولو عَقَل وتدبَّر لعرف أن الأمر أيسرُ مما يتصور، كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ...﴾ أي هيِّنٌ عليه، ثم أقسم جلَّ وعلا بعزته وجلاله على حشر الناس جميعاً فقال سبحانه: ﴿... لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ أي أقسم لك بربك

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ۝٦٩ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝٧٠ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾

يا محمد، لنجمعنَّ المجرمين المنكرين للبعث والنشور، مقرونين بالسلاسل، مع الشياطين الذين أغووهم، كلٌّ مع شيطانه في سلسلة، ثم تحضر هؤلاء المجرمين حول جهنم، جاثين أي قاعدين على الركب، من شدة الهول والفزع، إهانةً لهم كحال المجرم الذليل، الذي اعترته المهانة والذُّلُّ ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ أي ثم لننزعنَّ من كل أمةٍ طاغية، من كان أشدَّ عتواً وتجبراً على الله، نأخذ الأعصى فالأعصى، والأشقى فالأشقى، فنقذف به في نار جهنم، ومعنى (عتياً) أي عصياناً وتمرداً، قال ابن مسعود: يُبدأ بالأكابر جُرْماً ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ أي ثم نحن أعلم بمن هو أحقُّ بأن يُحرق في نار جهنم، ويُخلَّد فيها، والصليُّ معناه الإحراقُ!! وإنه لمنظرٌ مفزع، يرسمه القرآنُ الكريم لأولئك العُتاة المجرمين، صورة الانتزاع، يتبعها صورةُ الإلقاء في نار جهنم، ثم الإحراق والتخليد في العذاب، فيؤخذ بالقادة والرؤساء في الشر، ثم من بعدهم، ليطرحوا في السعير ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ أي ما منكم من أحدٍ أيها الناسُ، إلاَّ وسيرد على نار جهنم ويدخلها، المؤمنُ للعبور، والكافر للقرار والخلود، كان ذلك أمراً محتوماً، أوجبه الله تعالى على ذاته، لا يمكن تخلُّفه، ثم تنجِّي المتقين من عذاب جهنم، ونتركُ الفجرة المجرمين فيها قعوداً على الركب، وفي الحديث الشريف: (لا يبقى برٌّ ولا فاجرٌ إلاَّ دخلها، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً، كما كانت على إبراهيم، حتى إنَّ للنار ضجيجاً من بردهم، ثم ينجِّي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً) رواه أحمد: يُروى أن (ابن رواحة) كان مريضاً، وكان واضعاً رأسه في حجر امرأته فبكى، فبكت امرأته، قال: ما يُبكيك؟ قالت: رأيتُك تبكي فبكيتُ، فقال لها: إني ذكرتُ قول الله عزَّ وجلَّ ﴿**وإن منكم إلا واردها**﴾ أي داخلها، فلا أدري أأنجو منها أم لا؟ وهذا مذهب ابن عباس، أن المراد بالورود: الدخولُ، يدخلها المؤمن والكافر، والبرُّ والفاجر، ثم يخرج منها المؤمن دون أن تحرقه، ويبقى فيها الكافر والفاجر، واستدلَّ بقوله تعالى ﴿**حصبُ جهنم أنتم لها واردون**﴾ يعني داخلون، ومذهب ابن مسعود أن

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾

الورود معناه: المرورُ، وذلك حين يُنصب الصراط على ظَهْرَانَيْ جهنّم، ويمرُّ عليه جميع الخلق، فالمؤمن يمرُّ عليه مثل البرق، والكافر تختطفه كلاليبُ جهنم، والملائكةُ يقولون: ((اللهمَّ سلِّمْ، سلِّمْ))، ولهذا القول دليلٌ في الصحيحين. ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي وإذا تليت على المشركين آيات القرآن المبين، واضحات المعنى، بيّنات الإعجاز، قال الكفرة المجرمون لفقراء المؤمنين: أيُّ الفريقين أحسن مسكناً، وأطيبُ عيشاً، وأكرمُ ندياً أي نادياً يجتمع فيه القوم للتسلّي، هل نحن أم أنتم؟ يفخرون عليهم! لِمَا لهم من حظوظ الدنيا، وطيب المأكل والمشرب!! وقد كان المشركون يتطيَّبون، ويسرِّحون شعورهم، ويلبسون الملابس الفاخرة، ويجلسون في أنديتهم، ثم يقولون لفقراء المؤمنين: أيّنا أحسن حالاً، وأكثر نادياً، وأعظم منزلة؟ وما هذه المقايسةُ العقيمة، إلاّ لكونهم جهلة، يظنون أن قدر الإنسان، بما يكون عليه من الغنى والترف، والاستمتاع بنعيم الدنيا، ولهذا يسخرون من المؤمنين ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ أي وكثير من الأمم الطاغية، المكذّبين بآيات الله، أهلكناهم بكفرهم، مع ما كانوا عليه من المتاع والنعيم، وجمال الصورة والمنظر، والمنازل البهيجة!! والأثاثُ: متاعُ المنزل الذي يُفرش فيه، والرِّئيُ: المنظر الحسنُ، فلا يغتر هؤلاء الكفار، بما لديهم من المتاع والثراء، فإنما هو متاع زائل، والعاقبة عند ربك للمتقين!! وبأسلوب زاجر فيه الوعيد والتهديدُ، يبيّن القرآن مصيرهم المشؤوم، فهم الآن في غفلة وترف، وفي الآخرة في حسرة وندامة، وعذاب دائم لا ينقطع ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أي من كان في هذه الدنيا، غارقاً في الشهوات والملذات، مستمراً في طغيانه وضلاله، فليمهله الرحمن، وليتركه يعيش كالبهائم، حتى يرى ما يَحِلُّ به من مقت الله وسخطه، فسيعلم هؤلاء الفجار، حين يرون ما وُعدوا به، إمّا العذاب العاجل في الدنيا، أو تأتيهم الساعة بغتةً بأهوالها وشدائدها،

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾

وحينئذٍ يعلمون حين تنكشف الحقائق، أيُّ الفريقين شرٌّ منزلة عند الله، وأقلُّ أعواناً وأنصاراً هل هم أهل الإيمان، أم أهل الكفر والطغيان؟ ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أي ويزيد الله المؤمنين المهتدين، إيماناً وهدايةً وبصيرة، بإيمانهم وصبرهم، وما هم عليه في الدنيا من الفقر، وسوء الحال، فليس لنقصهم وعدم كرامتهم عند الله، بل لأن الله أراد لهم ما هو خير، وادّخره لهم في الآخرة، والأعمال الصالحة تبقى لصاحبها ذخراً، وهي خير مما يتباهى به أهل الأرض، وخيرٌ رجوعاً ومآباً!! لقد زعم المشركون أنهم أفضلُ من أتباع محمد، لأنهم أغنى وأبهى وأنعم، فبيَّن تعالى أن ما هم عليه من النعيم، زائلٌ لا يدوم، وأما أعمال الخير من صلاة، وصيام، وذكر، وتسبيح، وتحميد، وتلاوةٍ للقرآن، هي الباقية الخالدة التي تدوم لصاحبها، وما يبقى خيرٌ مما يفنى، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور، ولهذا كان المصطفى ﷺ يقول: (اللهمَّ لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة) كما ورد في الصحيحين.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أي أخبرني عن حال هذا الشقي الفاجر، الذي جحد بآيات الله، واستهزأ بها، ثم زعم أن الله سيعطيه في الآخرة الأموال والبنين!! هل اطَّلع هذا الفاجر على الغيب؟ أم أعطاه الله عهداً موثقاً، بأن الله سيكرمه في الآخرة، فهو يتكلم عن ثقةٍ ويقين؟ كلاَّ ليس الأمر كما يزعم، فلْيرتدع هذا الشقيُّ، عن هذه الأماني الفارغة، فسوف نضاعف له العذاب، مكان العطاء، ونرثه كلَّ ما يملك، ويأتينا وحيداً فريداً، لا مال له ولا ولد، ولا نصير له ولا سند، وسبب نزول هذه الآيات ما رواه البخاري ومسلم، عن خباب بن الأرتّ رضي الله عنه، أنه قال: (كنت قَيْناً ـ أي حداداً ـ في الجاهلية، وكان لي على «العاص بن وائل» دَيْنٌ، فأتيتُه أتقاضاه حقي ـ أي أطلب منه حقي ـ فقال لي: لا أعطيك حقك حتى تكفر بمحمد!! فقلتُ له ساخراً: لا أكفرُ

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدًا ﴿٨٧﴾

حتى يميتكَ الله ثم يبعثك!! - أي يحييك الآن أمامي - فقال لي: إني لميِّتٌ ثم مبعوث؟ فذرني حتى أموت ثم أبعث، فسوف يعطيني الله مالاً وولداً فأقضيك حقَّك)، فأنزل الله فيه هذه الآيات، وهذا الشقيُّ «العاص» هو والد ذلك الصحابي الجليل «عمرو بن العاص» فاتح مصر، وسبحان الله الذي يخرج الحيَّ من الميت!! ثم حكى تعالى عن المشركين أنهم عبدوا الأصنام، ليعتزُّوا بهم وليشفعوا لهم، فقال سبحانه ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ أي واتخذ المشركون أصناماً جعلوها آلهة، وعبدوها من دون الرحمن، لينالوا بها العزَّ والشرف!! ليس الأمر كما توهَّموا وزعموا، فإن الآلهة التي عبدوها، ستتبرأ من عبادتهم، ويكونون لهم أعداء يوم القيامة، كما قال سبحانه عنهم ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ ويا لَلْخزي والعار، الذي يصيب الكفار، في ذلك اليوم العصيب الرهيب!! ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزًّا فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدًّا﴾ أي ألم تر يا محمد، أنا سلَّطنا الشياطين على الكافرين، تغريهم على الشرّ إغراءً، وتُهيِّجهم على فعل القبائح والمنكرات تهييجاً!! وتزيِّن لهم كل فعلٍ قبيح، بأنواعٍ من الخبث والمكر والدهاء، فلا تتعجل على هلاكهم، فلم يبق لهم إلاَّ أيامٌ معدودة، وأنفاسٌ محدودة، نعدُّها عليهم عداً، قال ابن عباس: نعدُّ في الدنيا أنفاسهم، كما نعدُّ عليهم سنواتهم وأعمارهم!! وفي التعبير بقوله ﴿تؤزهم أزاً﴾ ما يوحي بقوة التسلُّط، وشدة الدفع والتهيُّج، فكأن المشركين قطيعٌ من الأغنام، تُساق إلى المذبح، وهم لا يدرون أين يسيرون؟ ولا إلى أين يذهبون؟ ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدًا وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدًا لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدًا﴾ أي سيكون الجزاء للخلق، في ذلك اليوم الآتي لا محالة، يوم يقدم المؤمنون على

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

الرحمن، معزَّزين مكرَّمين، كما يفد الوفود على الملِكِ والسلطان، يحفُّ بهم حرس الشرف، ومعنى ﴿**وفداً**﴾ أي وافدين ركباناً على مراكب من نور، تحفُّ بهم الملائكة، في عظمةٍ وجلال، وأما المجرمون فيساقون إلى جهنم ﴿**وِرْداً**﴾ أي عطاشاً، كما تُساق قُطعانُ البهائم إلى الزريبة، لا يملك أحد أن يشفع لهم، كقوله تعالى: ﴿**فما تنفعهم شفاعةُ الشافعين**﴾ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ أي نسب المشركون وأهل الكتاب، إلى الله ما لا يليق به سبحانه من الزوجة والولد، فقال كفار قريش: الملائكةُ بنات الله، وقال النصارى: المسيح ابن الله، وقال اليهود: عزير ابن الله، وكلُّهم كاذبون مفترون، ولهذا جاء الردّ: ﴿**لقد جئتم شيئاً إداً**﴾ والإِدُّ: الداهيةُ العظيمة، والمنكرُ الفظيع، أي جئتم بقول قظيع شنيع، تناهى في القبح والشناعة ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ أي تكاد السموات تتشقَّق من هول هذا القول، وتنشقُّ الأرضُ وتتصدع، وتندكُّ الجبال، وتُهدُّ هدّاً استعظاماً للكلمة الشنيعة، حيث نسبوا إلى الله الولد، والولدُ لا يأتي إلاَّ من زوجة، فهل تزَّوج الله من أحد حتى يكون له ولد؟ ولهذا ردَّ الله على هذا السَّفه الشنيع بقوله ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ أي ولا يليق بالله أن يكون له ولد، لأن الولد يقتضي المجانسة، ويكون عن حاجة، وهو سبحانه المنزَّه عن المثيل، والشبيه، والنظير، فكيف يُتصوَّر أن يجانس المخلوقُ الخالقَ!! وليس أحد في السموات والأرض، إلاَّ وهو عبدٌ مملوكٌ لله، لقد أحصى الله عددهم، وأحاط علماً بهم، وكلُّ واحدٍ من الخلق سيأتي يوم القيامة وحيداً فريداً، بلا معين ولا نصير، ولا مالٍ ولا ولد، وفي الحديث القدسي (يقول الله تعالى: كذَّبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك ـ أي لا يحقُّ له فعل هذا ـ أمَّا تكذيبه إيَّايَ، فقولُه: لن يعيدني كما بدأني!!

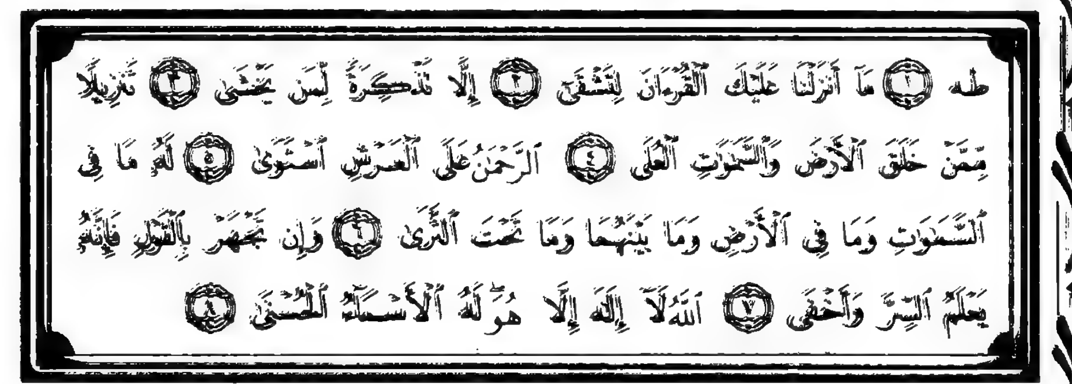
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾

وليس أول الخلق بأهونَ عليّ من إعادته، وأمّا شتمه إيّاي فقوله: اتَّخذ الله ولداً!! وأنا الأحد الصَّمدُ، لم ألدْ ولم أولد، ولم يكن لي كفواً أحدٌ) رواه البخاري، ومعنى (كُفواً) أي مثيلاً وشبيهاً أي ليس له سبحانه من يشبهه أحدٌ من خلقه. . وتختم السورةُ بالثناء العاطر على المؤمنين الأبرار، بعد أن ذكرت مصير الكفار الفجار، فيقول سبحانه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ أي سيغرس لهم في قلوب عباده المودة والمحبة، يُحبّبهم إلى الناس، ويُحبّب الناس إلى قلوبهم، فيجعل قلوب الخلق تميل إليهم، وفي لفظ الوُدّ ما يشير إلى اللطف والأنس والحنان، روى البخاري ومسلم عن النبي ﷺ أنه قال (إن الله إذا أحبَّ عبداً دعا جبريل فقال يا جبريلُ: إني أحبُّ فلاناً فأحبَّه!! فيحبُّه جبريل، ثم ينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبّوه، فيحبُّه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض. . وإنَّ الله إذا أبغض عبداً، دعا جبريل فقال يا جبريل: إني أبغضُ فلاناً فأبغضه!! فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يُبغض فلاناً فأبغضوه، فيبغضه أهل السماء، ثم يُوضع له البغضاء في الأرض) رواه البخاري ومسلم.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾ أي فإنما يسَّرنا عليك هذا القرآن، وأنزلناه بلسانٍ عربي مبين، فجعلناه سهلاً يسيراً عليك وعلى أمتك، وسهَّلنا أمره للحفظ، لتبشّر به أهل التقوى والإيمان، وتخوّف به أهل الكفر والعصيان، القومَ المعاندين، شديدي الخصومة والجدال، واللُّدُّ: جمعُ الألَدّ، وهو الشديد الخصومة والجدال ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾ أي وكثير من الأمم الماضية، المكذبة لرسلها، أهلكناهم بأنواع من العذاب، قبل كفار قومك من قريش، فبادوا وهلكوا، هل ترى منهم أحداً؟ أو تسمع لهم صوتاً حتى ولو كان خفياً؟ والرِّكزُ: الصوتُ الخفيُّ، أي فقد خلت منهم الديار، فلم يبق منهم عينٌ ولا أثر، فكما أهلكنا أولئك الكفار، نهلك قومك الأشرار!!

انتهى تفسير سورة مريم

● ● ●



تفسير سورة طه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طه مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾أي ما أنزلنا عليك يا محمد القرآن لتشقى به، وتتعب نفسُك في مكابدة الشدائد، ومحاورة الطغاة، وإنما أنزلناه رحمة، لتسعد به، ويسعد به أتباعك وأنصارك، وليكون عظةً وتذكرة لمن يخاف الله، ويخشى النار الآخرة!! بهذا الاستهلال البديع اللطيف، وبهذا الأسلوب الندِيِّ الشفيف، يخاطب الله رسوله، وحبيبه محمداً، لينبِّهه على النعمةِ العظمى، بإنزال هذا القرآن عليه، ليسعد به ويرقى، في مدارج الكمال والمحبة.. روي أن رسول الله ﷺ لمّا نزل عليه القرآن صلّى هو وأصحابُه، وأطال القراءة والقيامَ، فقال المشركون: ما أنزل الله هذا القرآن على محمد، إلاّ ليشقى به، فنزلت الآية، ثم قال تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾أي أنزله عليك خالقُ الأرض، ومبدعُ الكون، ورافعُ السموات السبع العالية، بدون أركان، ولا دعائم تستند عليها.. هذا الخالق العظيم، هو الذي علا فوق العرش علواً يليق بجلاله، من غير تشبيه، ولا تمثيل، ولا تعطيل، كما هو مذهب السلف الصالح ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾أي له جلَّ وعلا ملكُ ما في الوجود، السموات السبعُ، والأرضون، وما بينهما من المخلوقات الكائنة في الجو، كالهواء، والسحاب، والطير، والمطر، وما تحت التراب من معادن، وكنوز، ومكنونات، الكلُّ ملكه، وتحت تصرّفه وقهره وسلطانه، فكيف يكون شأنُ هذا الخالق العظيم؟ ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾أي وسواء جهرت

وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾

بدعائك، أو أخفيته في نفسك، فهو عند الله واحد، يستوي عنده تعالى السرُّ والجهرُ، بل ما هو أبلغ من ذلك، يعلم الخاطر والهاجسَ الذي يدور في نفسك، ذلك الربُّ العظيمُ الجليل، هو الله الذي لا معبود بحق سواه، ذو الأسماء الحسنة، التي هي في غاية الحسن والكمال، والمقصود من الآية طمأنينةُ قلبه الشريف عليه السلام، بأن ربه معه يسمعه، ولن يتركه وحيداً يقاسي الأهوالَ، في مجابهة أهل الكفر والطغيان، والقلبُ حين يستشعر قرب الله منه، وعلمه بسرِّه ونجواه، يطمئنُّ ويرضى، ويأنس بهذا القرب الكريم ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ الأسلوب أسلوبُ التشويق والترغيب، لسماع هذه القصة، والمعنى: هل بلغك يا محمد، خبرُ أخيك موسى الكليم؟ وهل وصل إلى سمعك نبأ قصته العجيبة الغريبة، حين رأى ناراً متأجِّجة ـ وهو في طريق عودته من مدين إلى مصر ـ فقال لامرأته: أقيمي في هذا المكان، فإني أبصرتُ ناراً، لعلِّي آتيكم بشعلة من النار تستدفئون بها، أو أجد هادياً يدلُّني على الطريق!! **قال ابن عباس**: كان قد أخطأ الطريقَ، وكانت ليلةً مظلمة شاتية، فجعل يقدح الزناد فلا يخرج منها شرر، فبينما هو كذلك أبصر ناراً من بعيد، على يسار الطريق، ظنها ناراً فبشَّر أهله بذلك ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ فلما أتى النارَ، وجدها بيضاء تتَّقد في شجرة خضراء، كأضوء ما يكون من النور، نوراً يغلب الأنوار، فوقف متعجباً من شدة ضوئها، ومن شدة خضرة الشجرة، فلا النار تغيِّر خضرتها، ولا كثرة ماء الشجرة تغيِّر ضوءها، فبينا هو في تأمله وتعجبه، سمع نداءً ارتعش له قلبُه، سمع نداء الربِّ جلَّ جلاله: إني أنا ربك الذي يكلِّمك، فانزع نعليك من رجلك، فأنت بالحضرة القدسية، بهذا الوادي المقدَّس، جبل الطور المسمَّى «طُوى» وأنا الذي

﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾﴾

اصطفيتك للنبوة والرسالة، فاستمع لما أوحيه إليك ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ أي أنا الله المستحقُ للعبادة، لا إله غيري، ولا معبود بحقٍ سوايَ، فأخلصْ العبادة لي، وأقم الصلاة لتذكرني فيها، وتعلم عظمتي وجلالي!! خصَّ الصلاة بالذكر وإن كانت داخلة في جملة العبادات، تعظيماً لشأنها، واحتوائها على الذكر، وشغل القلب، واللسان، والجوارح، فهي أعظم أركان الدين بعد التوحيد، **قال مجاهد: إذا صلَّى** العبد ذكر ربه، وكان متصل القلب بالله ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾ أي إن القيامة قادمة لا محالة، أكاد أخفيها عن نفسي، فكيف أُطلعكم عليها!! لتنال كل نفسٍ جزاء عملها، فلا يصرفنَّك عن الاستعداد لها، من لا يوقن بها، ومال مع هواه وشهواته (فتردى) أي فتهلك، فإن الغفلة عن الآخرة مستلزمةٌ للهلاك، والحكمةُ في إخفاء وقت الساعة، أن الله تعالى حكم بعدم قبول التوبة، عند قيام الساعة، وعند الاحتضار وقت الوفاة، فلو عرف الناسُ وقت الساعة، أو وقت الموت، لاشتغلوا بالمعاصي، ثم تابوا قبل ذلك، فيتخلَّصون من العقاب، لذلك أخفى الله أمرها، ليبقى الناسُ على حذرٍ دائم من أمرها ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ هذه هي المعجزة الأولى، أراد سبحانه أن يظهر لموسى معجزة باهرة، حتى يدفع باطل فرعون بالحق الساطع المبين، فسأله سؤال إيناسٍ وتنبيه: ما هذه التي تحملها في يدك يا موسى؟ أليست عصا من خشب؟ أليست جماداً لا حياة فيها ولا إحساس؟ فسترى بعينيك ما نصنع بها!! ولكنْ أين موسى من هذا السؤال، وهو مستغرقٌ في لذة المناجاة؟ ولهذا يندفع في الجواب، بأسلوب الإطناب والإسهاب، قال: هي عصاي أعتمد عليها وقت المشي، وأضرب بها الأشجار، ليتساقط

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾

ورقها فترعاه غنمي، ولي فيها مصالح ومنافع أخرى!! كان يكفي أن يقول: إنها عصاي، ولكنه أراد أن يتلذَّذ بالخطاب، وهو يسمع كلام ربِّ الأرباب، وكلام الحبيب يريح النفس، ويذهب العناء ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي قال له ربه: ألقها يا موسى من يدك، فألقاها فإذا هي ثعبان عظيم، يبتلعُ الشجر والحجر، ويتحرك في غاية السرعة، فدُهش موسى وخاف، وولّى مدبراً من هول ما رأى وشاهد، فناداه ربه يا موسى: خذ هذه الحية ولا تخف منها، فسنردُّها إلى حالتها الأولى، فترجع كما كانت عصا لا حية، فاطمأنَّ بهذا الكلام، فأمسكها فعادت عصا كما كانت!! وإنما أظهر الله هذه الآية وقت المناجاة، تأنيساً له بهذه المعجزة الهائلة، حتى لا يفزع إذا ألقاها عند فرعون، وليبيِّن له قدرته الفائقة، في قلب الجماد إلى ثعبان، لأن الذي خلق الإنسان من تراب، هو الذي قلب العصا إلى حية تسعى ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ وهذه هي المعجزة الثانية، أي أدخل يا موسى يدك تحت إبطك، ثم أخرجها تخرج ساطعة مضيئة، نورها يتلألأ، يغلب نورَ الشمس، من غير عيبٍ ولا بَرَص، وهذا معنى **﴿من غير سوء﴾** لنريك بعض آياتنا العظيمة.. أراه الله معجزتين كبيرتين «اليد» و«العصا» ثم أمره أن يتوجَّه إلى فرعون، الطاعية الجبَّار ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي اذهب بما معك من الآيات والمعجزات، إلى فرعون رأسِ الكفر والطغيان، إنه تكبَّر وتجبَّر، وجاوز الحدَّ في الفجور والطغيان، حتى ادَّعى الربوبية فقال **﴿أنا ربكم الأعلى﴾**!! اذهب إليه فبلِّغه رسالتي، وادعه إلى عبادتي وتوحيدي، وحذِّره نقمتي وعذابي ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ يقول موسى في دعائه ومناجاته: يا ربِّ إذْ كلّفتني بهذه المهمة الشاقة، مع هذا الجبَّار، فاشرح صدري بالإيمان، ونوِّر عقلي بنور الهداية والفرقان، وسهِّلْ عليَّ القيام بما كلفتني به، لأبلِّغه دعوتك

وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ

ورسالتك، وحُلَّ عنّي هذه اللُّكنة الحاصلة في لساني، ليكون كلامي واضحاً، بحيث يفهموه، وقد كان فرعونُ ـ لعنه الله ـ يسخر من موسى لثقل كلامه، ويقول لقومه مستهيناً برسالة موسى: ﴿أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾ فلذلك طلب موسى من ربه، أن يزيل عنه هذه العقدة من لسانه، كما طلب منه أن يعينه بأخيه هارون، ليكون له سنداً وعضداً، فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ... وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ يقول موسى: يا رب اجعل لي معيناً يساعدني في مهمتي، وهو (هارون) أخي، الذي هو أفصح مني لساناً، كما قال سبحانه: ﴿وأخي ... فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون﴾ خصَّ بالذكر أخاه هارون، وطلب أن يرسله معه، ليتقوَّى به ظهره، وليفصح عن ما في نفس موسى من الكلام، مع ذلك الجبار، وطلب أن يكون شريكه في النبوة والرسالة، قال ابن عباس: «نُبِّىء هارون ساعتئذٍ بدعوة موسى، ولم يكن قبل ذلك نبياً» ورُوي أن عائشة سمعت رجلاً من الأعراب يقول: أيُّ أخ كان في الدنيا أنفعَ لأخيه؟ قالوا: لا ندري!! قال: أنا واللهِ أدري، ـ فاستعظمتْ منه هذا القولَ، حيث لم يقل: اللهُ أعلمُ ـ فلمّا قال: هو موسى، حين سأل لأخيه النبوَّة، فقالت: واللهِ لقد صدق» وإنما طلب موسى من ربه أن يعينه بأخيه، لما يعلم من فصاحة لسانه، وأن يشركه معه في المهمة، لما يعلم من طغيان فرعون وجبروته، ثم علَّل هذا الطلب فقال: كي نسبِّحك يا ربِّ وننزِّهك عما يقول السفهاء، تسبيحاً كثيراً، ونشكرك على نعمتك شكراً كثيراً، فأنت العالم بأحوالنا وأفعالنا، يا أرحم الراحمين!!

﴿... أُخْرَىٰٓ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ... لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ أي لقد أُعطِيتَ ما طلبتَ وما سألتَ يا موسى، ولقد أنعمنا عليك بنعمةٍ

وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾

أخرى، هي إنجاؤك من بطش فرعون، حين كنت طفلاً رضيعاً، وألهمنا أمك ما ألهمناها، مما كان سبباً في نجاتك!! ألهمناها أن ترضعك، فإذا خشيت عليك من زبانية السّفاح «فرعون» أن تضعك في صندوق ثم تلقي بك في نهر النيل، ثم ماذا؟ ومن الذين يتسلمك؟ إنه عدوُّك اللدودُ فرعون، حين يصل الصندوق إلى شاطىء قصره، لتعلم كيف أحفظ أحبابي، بأيدي أعدائي!! ... مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ أي زرعت محبتك في القلوب، بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك، حتى أحبَّك فرعونُ فعشتَ في قصره، متنعّماً مكرَّماً، ولتُربَّى بالحنوِّ والشفقة، وتكون في حفظي وكلأي ورعايتي!! ولنتقف قليلاً عند هذه الآية ... ﴾ أيُّ كرامةٍ أعظم من هذه الكرامة؟ وأيُّ نعمة أظهر من هذه النعمة؟ أن يجعل الله له من أعدائه، من يحرسه ويرعاه، فيتربى في قصر فرعون، العدوّ اللدود، الذي كان يقتل أبناء بني إسرائيل، من أجل هذا الطفل الرضيع، الذي كان يخشى فرعون أن يسلبه ملكه ـ كما فسَّر له المنجِّمون رؤياه ـ ثم ها هو فرعون يرعى هذا الطفل ويغذوه، ويحنو عليه، كأنه ولده وفلذة كبده، أليس هذا من صنع الله العجيب!! **قال ابن عباس: «أحبَّه الله، وحبَّبه إلى خلقه، حتى إلى عدوه فرعون»** ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ ... وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ ... يَٰمُوسَىٰ﴾ لقد منع الله عنه قبول ثدي المرضعات، حتى يحظى بإرضاع أمه له، وهذا من ضمن الحفظ والرعاية لموسى، **قال المفسرون**: لمَّا التقطه آل فرعون، جعل لا يقبل ثدي امرأة، لأن الله حرَّم عليه المراضع، وبقيت أمه بعد قذفه في نهر النيل مغمومة، لا تكاد تصبر عليه، فأمرت أخته أن تتتبَّع أثره، فلما وصلت إلى قصر فرعون، رأته يبكي ولا يقبل ثديَ امرأة، فقالت: هل أدلُّكم على امرأةٍ فاضلةٍ أمينة، تتعهَّد لكم إرضاع هذا الطفل؟ قالوا لها: ائتنا بها، فأتت بأم موسى، فلما أخرجت ثديها التقمه، ففرحت زوجة فرعون «آسية» فرحاً شديداً بذلك، وقالت لها: تكونين

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ۝٤١ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ۝٤٢ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾

هنا معي في القصر، لإرضاع هذا الطفل، وأعطيك أجراً كبيراً، فقالت لها: لا أستطيع أن أترك بيتي وأولادي، ولكنْ آخذه معي، وآتي لكِ به بين كل حين وحين، فقالت: نعم خذيه، وأحسنت إليها غاية الإحسان، فذلك قوله تعالى: **﴿فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن﴾** أي فرددناك إلى أمك، لكي تفرح بلقائك، وتهنأ بسلامتك ونجاتك، ولكيلا تحزن على فراقك **﴿وقتلت نفساً فنجيناك من الغمّ وفتناك فتوناً﴾** أي وقتلتَ القبطيَّ من حاشية فرعون، حين أصبحت شاباً وكنت تُدعى «ولد فرعون»، فنجيناك من غمّ القتل، وصرفنا عنك شرَّ فرعون وزبانيته، وابتليناك ابتلاءً عظيماً بأنواع من المحن، فمكثت ستين عديدة عند شعيب في أرض مدين، ثم جئت الآن على موعدٍ محدَّد، كتبه الله لك، لإكرامك بالنبوة والرسالة ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ أي اخترتك يا موسى لرسالتي ووحي، فأنت اليوم مقرَّبٌ عندي ومكلَّم، اذهب مع أخيك هارون، بمعجزاتي التي أيدتك بها، من (اليد، والعصا)، ولا تفترا ولا تضعفا عن ذكري، فإنه عُدَّتكما وسلاحكما، في وجه الطاغية الجبار، والونى في اللغة: معناه الفتورُ والضعفُ ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أي اذهبا إلى فرعون، إنه تكبَّر وتجبَّر، وبلغ النهاية في العتوّ والطغيان، فقولا لفرعون قولاً رقيقاً لطيفاً، ليس فيه خشونةٌ ولا تعنيف، لعلَّه يتَّعظ ويتذكر جلال الله وعظمته، فيرتدع عن طغيانه.. ومع أن الله يخبرهما بأنه شقي فاجر، وطاغية جبار، ومع ذلك أمرهما بالرفق واللين، في مخاطبتهما له، وهذا توجيه رباني لكل العلماء، وكلِّ الدعاة، أن يتلطفوا بأسلوب الدعوة، فلا يغلظوا في القول، ولا يعنِّفوا في الكلام، فإن ذلك ينفِّر القلوب من قبول النصيحة.. حُكي أنَّ أحدَ الوعَّاظ الدعاة، دخل على أحد السلاطين، فقسا عليه في القول، واشتدَّ عليه في التذكير، فقال السلطانُ له: يا هذا لقد بعث الله من هو خيرٌ منك، إلى من هو شرٌّ مني!! بعث (موسى وهارون) إلى فرعون، وقال لهما **﴿فقولا له قولاً ليناً﴾** فاستحيا الواعظُ، وعرف أنه أخطأ طريق الدعوة بالأسلوب

قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾

الحكيم ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أي قال موسى وهارون يا ربنا: إن فرعون طاغية، متكبر، جبار، ونخشى إن دعوناه للإيمان، أن يعجِّل لنا في العقوبة، فيبطش بنا، أو يجاوز الحدَّ في الإساءة والعدوان، فيقول في ذاتك المقدَّسة، ما لا ينبغي من سفيهِ الكلام!؟ قال الله لهما: لا تخافا من سطوته وجبروته، فأنا معكما بالحفظ، والنصرة، والعون، أسمع جوابه لكما، وأرى ما يفعل بكما، ومن كان الله معه، فلا ينبغي أن يخشى من أحدٍ من الخلق، مهما كان شقياً أو فاجراً ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي إذهبا إلى فرعون فادخلا عليه بأمري، وقولا له: إننا مرسلان من عند الله إليك، فأطلق سراح بني إسرائيل من الاستعباد، ولا تعذبهم بتكليفهم بالأعمال الشاقة، والاستخدام المهين، بقتل الذكور، واستحياء النساء، قد جئناك بالمعجزة الباهرة الدالة على صدقنا، والأمنُ والسلامة لمن أسلم واتبع الحقَّ!! وليس المراد منه «سلام التحية» لأنه ليس بابتداء الخطاب، إنما المراد السلامة من عذاب الله وسخطه ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي وقولا له: إن الله قد أخبرنا فيما أوحاه إلينا، أن العذاب الأليم، على من كذَّب رسلَ الله، وأعرض عن الإيمان بالله ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي قال فرعون: ومن هذا الربُّ الذي تدعوني إلى الإيمان به يا موسى؟ فإني لا أعرفه؟ ولم يقل: من ربِّي؟ لغاية عتوِّه وطغيانه، بل أضافه إلى موسى وهارون!! فأجابه موسى: ربُّنا هو الذي أبدع خلق كل شيء، ثم هداه لمنافعه ومصالحه، وجوابه عليه السلام كان في غاية الإيجاز والإبداع، لأنه جواب جامعٌ مانع، فقد أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق السماع، وجعل الرجل للمشي، واليد للأخذ

قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾

والعطاء، واللسان للنطق، وهكذا كل شيء خلقه الله، من البشر. والطير، والأنعام وسائر المخلوقين، هداه، إلى ما فيه سعادته ومصلحته ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي قال فرعون: ما حالُ من هلَكَ من القرون الماضية؟ لماذا لم يُبعثوا ولم يحاسبوا؟ إن كان ما تقول حقاً؟ فأجابه موسى: بأن علم أحوال الخلائق، عند علاَّم الغيوب، لا يعلمها إلاَّ ربُّ العزة والجلال، وهي مسطَّرة عنده في اللوح المحفوظ، لا تخفى عليه تعالى، ولا ينساها جلَّ وعلا، وإنما أخَّر حساب الخلائق ليوم القيامة!! ثم شرع موسى يبيِّن لفرعون، الدلائل على قدرة الله ووحدانيته، فقال: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ﴾ أي ربُّ العالمين هو الذي جعل الأرض ممهَّدة، صالحة للسكنى والاستقرار، وجعل لكم فيها طرقاً تسلكونها من قِطْر إلى قِطْر، وأنزل لكم المطر عذباً فراتاً، فأخرج بذلك الماء، أنواعَ النباتات المختلفة في الطعم، والشكل، والرائحة، كلوا من هذه النباتات والثمار، واتركوا أنعامكم تسرح وترعى في الكلأ والعشب، الذي أخرجه الله، إن فيما ذُكر لعبراً وعظات، لأصحاب العقول السليمة، و(النُّهَىٰ) جمعُ نُهية، لأن العقل ينهى عن القبيح، واتباع الباطل... ذكر تعالى من آثار نعمه الجليلة: (الأرض، والمطر، والنبات)، فالأرضُ هيأها لهم للسكنى والزراعة، والمطر أنزله لهم من السماء عذباً فراتاً، به بقاءُ كل حيّ، ومن المطر تتكون العيون والأنهارُ، وبه ينبت الزرع، ويدرُّ الضرعُ، وهذه الأرضُ التي يعيشون على ظهرها، هي لهم كالأمِّ، تغذوهم وترعاهم، وتحنو عليهم، كما تحنو الأمُّ على أولادها، حتى إذا انتهت حياتهم عليها، ضمَّتهم إلى بطنها، فعادوا إليها كما خرجوا منها، ولهذا قال بعد ذلك ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي من الأرض خلقناكم، وإليها تعودون بعد مماتكم، فتصيرون فيها تراباً، ومنها نخرجكم مرة أخرى

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾

للبعث والحساب ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ يخبر تعالى عن عتوِّ فرعون وعناده، فمع كل الدلائل والبراهين، والمعجزات التي جاءه بها موسى، يتمرَّد فرعون، ويأبى الإيمان والإذعان، وينسب موسى إلى السحر، والمعنى: والله لقد أرينا فرعون، كلَّ المعجزات الدالة على نبوة موسى، من اليد، والعصا، وسائر الخوارق التسع، فكذَّب بها وزعم أنها سحر، وقال لموسى: أجئتنا بهذا السحر لتخرجنا من أرض مصر!! فوالله لنأتينك بسحرٍ مثل سحرك، نكشف فيه للناس أنك ساحر، ولست برسول، فعيِّنْ لنا وقت اجتماع، لا يُخلف ذلك الموعد، لا من جهتنا ولا من جهتك، ويكون بمكان معيَّن، ووقتٍ معين، مكشوف للأنظار، لا يحجب الرؤية عن العين ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ أي قال موسى: موعدنا للاجتماع في (يوم العيد)، وأن يجتمع الناس ضحى ذلك النهار، وكان يوم عيد لهم، يزيِّنون فيه الأحياء والدور ـ وهو يوم النيروز ـ وإنما عيّنه ليظهر الحقُّ، ويزهق الباطلُ، على رءوس الأشهاد، ويشيع ذلك بين جميع الناس ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ أي فانصرف فرعون فجمع السحرة، وأغراهم بالأموال والهبات، وبتقريبهم منه إن هم غلبوا موسى، ثم أتى فرعونُ الموعدَ ومعه السحرة، وهو مزهوٌّ بخيلائه وأعوانه، ليطفىء نور الله، وسمَّاه تعالى كيداً، لأنه مكرٌ وخبثٌ ودهاء، **قال ابن عباس:** كانوا اثنين وسبعين ساحراً، مع كل ساحر عدَّته وأدواته، من الحبال والعصيِّ، قال لهم موسى: بطريق النصيحة: إياكم أن تختلقوا على الله الكذب، فيهلككم بعذاب هائل، وقد

﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ۝٦٣ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ۝٦٤ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ۝٦٦﴾

خسر وهلك من كذب على الله!! ولفظ السُّحت يفيد الهلاك المحقَّق، ولمَّا سمع السحرة منه هذا القول، هالهم ذلك، ووقعت في نفوسهم مهابته، ولذلك تنازعوا في أمره، فقال بعضهم: ما هذا بقول ساحر، وأخذ الطامعون في الهدايا، يرغّبونهم في الإقدام دون تردُّد ولا نزاع، فاليوم يوم المعركة الفاصلة ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ أي اختلفوا في أمر موسى، وأخذوا يتناجون فيما بينهم سراً، قالوا بعد التناظر والتشاور: ما هذان إلا ساحران، يريدان الاستيلاء على أرض مصر، وإخراجكم منها بهذا السحر، وغرضُهما إفسادُ دينكم الذي أنتم عليه، والذي هو أفضل الأديان، و(المُثْلى) تأنيث الأمثل بمعنى الأفضل، ثم قال بعضهم لبعض: أحكموا أمركم ولا تتنازعوا فيه، وارموا عن قوسٍ واحدة، ثم ائتوا إلى الميدان مصطفين، ليكون أهيب في صدور الناظرين، وقد فاز اليوم من علا وغلَب خصْمَه.! وأرادوا بالفلاح: الهدايا الجسيمة والجزيلة التي سيقدّمها لهم فرعون، ولم يريدوا الفلاح برضى الله ودخول الجنة، وهكذا غلب جانب الطمع والجشع، على جانب الإيمان والخوف من الرحمٰن، فوحَّدوا كلمتهم، وأجمعوا أمرهم، ثم جاءوا موسى متعالين مفتخرين ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾ أي قالوا: إمَّا أن تبدأ أنت بالإلقاء، أو نبدأ نحن قبلك؟ خيَّروه ثقةً منهم بالغلبة، لأنهم كانوا يعتقدون أن أحداً لا يقاومهم في هذا الميدان، فهم البارعون في هذه الصنعة!! قَبِل موسى التحدِّي، وترك لهم فرصة البدء، ثقةً منه بنصر الله له، قال لهم: بل ابدءوا أنتم!! فألقوا فإذا حبالهم وعصيُّهم تتحرك وتسعى على بطونها، ويظنها موسى من شدة

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾

السحر، أنها حيات تتحرك ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ أي فأضمر موسى في نفسه الخوف والفزع، بمقتضى الطبيعة البشرية، التي تفزع من الحيَّات!! قلنا له: لا تخف يا موسى، فإنك أنت الغالبُ المنتصر، وألق عصاك التي بيدك، تبتلع كلَّ ما صنعوه وزيَّفوه من السحر، وما أتوا به من الإفك والدَّجل، لأنه خيال لا حقيقة، شأنه شأن كل باطل، أمام الحقِّ الناصع المبين، ولا يسعد الساحرُ ولا يفوز بما يشتهي، لأنه كاذب مضلِّل!! ألقى موسى عصاه، فصارت ثعباناً عظيماً هائلاً، وابتلعت كلَّ ما ألقاه السحرة، فلم تُبْقِ له أثراً، والناس ينظرون إلى ذلك نهاراً جهاراً، ثم أقبل الثعبان نحو فرعون، فاتحاً فاه ليبتلعه، فصاح فرعون مستنجداً بموسى، فأخذ الثعبان فإذا هو يرجع إلى عصا كما كان، فلمَّا عاين السحرة ذلك، علموا علم اليقين، أن هذا ليس من قبيل السحر، إنما هو من الخوارق والمعجزات، فلذلك خرُّوا ساجدين لله رب العالمين ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ قامت المعجزة، واتَّضح البرهانُ، ووقع الحقُّ وبطل السحر، وخرَّ هؤلاء السحرة ساجدين لله، معلنين إيمانهم أمام الجموع الخفيرة، بعد أن كانوا معتزين مفتخرين بقوتهم ومهارتهم، وموقنين بأن الغلبة لهم، ويأتي الوعيد والتهديد من فرعون لهم، بالقتل والصلب، وقطع الأيدي والأرجل، دون أن يزعزع ذلك إيمانهم بالله، مهما كان الوعيد شديداً، والعذاب أليماً ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبْقَىٰ﴾ أي قال فرعون للسحرة: آمنتم بموسى وصدَّقتموه، قبل أن أسمح لكم بذلك، وقبل أن تستأذنوني؟ إنه رئيسكم الذي علَّمكم السحر، وتواطأتُم معه لتذهبوا بملكي!! ثم توعَّدهم وهدَّدهم بالقتل والتعذيب فقال

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾

لهم: والله لأقطعن الأيدي والأرجل منكم من خلاف، يعني أنه سيقتلهم على أشنع وأبشع صورة، بأن يقطع من كل واحد منهم، يده اليمنى ورجله اليسرى، لأن كلَّ عضو في جهةٍ خلافَ الأخرى، ولأعلِّقنكم على جذوع النخل، بعد قطع الأيدي والأرجل، حتى تموتوا فأقتلكم شر قتلة، وحينئذٍ تعلمون من أشدُّ عذاباً وأدوم، هل أنا أم ربُّ موسى وهارون؟ يا عجباً لفرعون ما أحمقه وما أجهله!! استدعى السحرة من كل بلد، وأغراهم بالمال والمناصب، ولم يكونوا رأوا موسى، ولا اجتمعوا به قبل ذلك، فلمَّا بَهرهم الحقُّ ورأوا تلك المعجزة، زعم فرعون أن موسى تواطأ معهم لتقويض عرشه، وأراد اللعينُ بهذا القول، أن يلبِّس على الناس حتى لا يؤمنوا كما آمن السحرة، ويوهم الحاضرين أن أمرهم مع موسى، أمرٌ دُبِّر بليل، وهو يعلم أنه كاذب في هذه التهمة الملفَّقة ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي قال السحرة: لن نختارك على ما جاءنا من الله تعالى، من الهدى والإيمان، ولو كان في ذلك هلاكُنا، ونقسم لك بعزة ربِّنا وجلاله الذي خلقنا، فاصنع بنا ما أنت صانع؟ فإن حكمك نافذ بنا في هذه الحياة الدنيا، الفانية الزائلة، وما أقصر الدنيا بالنسبة للآخرة!! ونحن قد آمنا بالله ليغفر لنا الذنوب التي اقترفناها، ويغفر لنا ما فعلناه من السحر، إرضاءً لك، وطمعاً في نيل إحسانك، والله خير منك ثواباً، ونعيمُه أدومُ وأبقى.

قال الحسن البصري: (سبحان الله، قوم كفار لم يعبدوا الله إلاّ بسجدة واحدة، ثبت في قلوبهم الإيمانُ في طرفة عين، فلم يتعاظم عندهم أن قالوا في ذات الله تعالى: **﴿فاقض ما أنت قاض﴾** واللهِ إن أحدهم اليوم ليصحب القرآن ستين سنة، ثم إن أحدهم ليبيع دينه بثمن بخس حقير)!! ثم زادوا في التذكير والإنذار، لفرعون الجبار، فقالوا له: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ

جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي من كان مجرماً في الدنيا، ومات على كفره وإجرامه، فإن له نار جهنم، لا يموت فيها فينقضي عذابه ويستريح، ولا يحيا حياة طيبة هنيئة، فليس بالحيِّ ولا بالميِّت، بل هو في عذاب دائم لا ينقضي، ومن يلقى ربه مؤمناً موحِّداً، وقد قدَّم خيراً لآخرته، فعمل الصالحات، واجتنب المحرَّمات، فهؤلاء ينالون أعلى المراتب والدرجات، لهم حدائق وبساتين إقامة، تجري من تحت قصورها وغرفها أنهارُ الجنة، ماكثين فيها أبداً لا يخرجون منها، وذلك جزاء وأجر من طهَّر نفسه من دنس الكفر والمعاصي، وآمن بالله!! هذا من تتمة قول السحرة، حكاه عنهم القرآن.. ولقد نفَّذ فرعونُ الطاغية الجبار، ما توعدَّهم به من القتل والصلب، فثبتوا على الإيمان، ودخلوا الجنان، **قال عكرمة**: لمَّا سجدوا أراهم الله منازلهم في الجنة، فلذلك قالوا لفرعون ما قالوه، **وقال ابن عباس**: (كانوا في أول النهار سَحَرة، وفي آخر النهار شهداء بررة) وبعد هذه المحاورة، يأتي الحديث عن إهلاك الله لفرعون غرقاً في البحر، وإنجاء موسى وأتباعه المؤمنين، حيث يقول سبحانه ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ أي أوحينا إلى موسى، أن سرْ ببني إسرائيل ليلاً من أرض مصر، فإذا وصلت البحر، فاضربه بعصاك، ليصبح لهم طريقاً يابساً يمرُّون عليه، حيث لا تخافون لحاقاً من فرعون وزبانيته، ولا تخشون الغرق في البحر، فلحقهم فرعون مع جنوده، فأصابهم ما أصابهم من البلاء، الذي لم يكن في الحسبان، وعلاهم من الأهوال ما الله به عليم، وأضلَّ فرعون جنده وأتباعه، وقادهم إلى الهلاك والدمار!!

وفي قوله ﴿وما هدى﴾ تهكُّمٌ وسخرية، حيث دلَّ قومه على طريق الشقاء، وقد كان

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾

يقول لهم: ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ وأيُّ رشادٍ هذا الذي هداهم إليه، هذا القائد اللامع!! ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ أي يا أبناء يعقوب، اذكروا نعمتي العظيمة عليكم، حين نجيتكم من بطش فرعون وجبروته، وقومه الأشرار الذين كانوا يذيقونكم سوء العذاب، واذكروا حين وعدنا موسى للمناجاة، وإنزال التوراة عليه، جانب طور سيناء الأيمن، ورزقناكم وأنتم في أرض التيه في الصحراء، بالمنِّ الذي هو أطيب من العسل، وبالسلوى الذي هو لحمُ أجود الطيور، المسمَّى «السماني» وقلنا لكم: كلوا من الطعام اللذيذ الحلال الطيب، ولا يحملنكم سعة الرزق على البطر والطغيان، فيحلَّ عليكم سخطي وعقابي، ومن حلَّ عليه غضب الله فقد هلك، وشقي الشقاء الدائم ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ أي وإني لواسع المغفرة، لمن تاب من ذنبه، وآمن بربه، وحَسُن إيمانُه وعملُه، ثم استقام على الهدى والصلاح ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ أي ما الذي حملك على العجلة عن قومك يا موسى؟ ـ وكان موسى قد مضى مع النقباء الذين اختارهم من قومه، على الموعد المضروب لمناجاته، وكانوا سبعين رجلاً ـ قال: هم خلفي قادمون على أثري، وعجلت شوقاً إليك يا رب، لتزداد رضىً عنِّي ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أي قال له ربه: لقد ابتلينا قومك، من بعد ذهابك عنهم، وأوقعهم السامريُّ في الضلالة، بسبب تزيينه لهم عبادة العجل، وكان السامريُّ منافقاً ساحراً، صنع لهم العجل، من حليٍّ من الذهب، في صورة ثورٍ له خوار، فعكفوا عليه

فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

يعبدونه من دون الله ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ أي عاد موسى إلى قومه شديد الغضب، بالغ الحزن، على ما صنع قومه، والأسف: أشدُّ الحزن والغضب، عاد يوبِّخ قومه ويؤنِّب أخاه، قال لهم: ألم يعدكم ربكم، بعد أن نجَّاكم من فرعون، أن ينزل عليكم التوراة، فيها الهدى والنور؟ أم أردتم بصنيعكم هذا، أن ينزل عليكم سخطُ الله وغضبُه، فأخلفتم وعدي؟ وكانوا وعدوه بأن يتمسكوا بدين الله، ولا يخالفوا أمر الله أبداً، فأخلفوا الوعد بعبادة العجل ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾ المَلْكُ بفتح الميم: الطاقةُ والقدرة، أي ما أخلفنا الوعد والعهد، بطاقتنا وقدرتنا، بل كنا مكرَهين، حيث حملنا معنا حليَّ القبط، التي استعرناها منهم، ولم نردَّها إليهم، وهي حرامٌ علينا، فأردنا التخلص من إثمها، فطرحناها في النار بأمر السامريِّ، فصاغ لنا منها عجلاً فعبدناه!! اعتذروا بعذرٍ أقبحَ من الذنب، زعموا أن حليَّ القبط لا يحل لهم أخذه، وأرادوا أن يتخلصوا من إثمه، فرموا به في النار ثم عبدوا ما صُنع منه ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؟ أي صنع لهم السامري من تلك الحُليِّ المذابة، عجلاً ـ وهو ذكر البقر ـ جسداً أي في صورة العجل، بلا روح ولا لحم، له صوتٌ كصوت خُوار البقر، وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى، وإن موسى أضاع ربه، فذهب يطلبه في جبل الطور!! وما إن سمعوا صوته الرخيم، حتى انكبُّوا عليه يعبدونه، أفلا يعلم هؤلاء الحمقى الجهلاء، أن العجل الذي زعموا أنه ربهم، شبحٌ بلا روح، لا يسمع

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾

ولا يُجيب، ولا يقدر أن يدفع عنهم ضُرّاً، أو يجلب لهم نفعاً؟ فكيف يعتقدون بأنه رب، ويعكفون على عبادته!؟ ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ أي ولقد نصحهم هارون وذكَّرهم بضخامة الجريمة التي ارتكبوها، من قبل رجوع موسى إليهم، وقال لهم: يا قوم إنما ابتُليتم وأُضللتم بهذا العجل، وإن ربكم المستحقُّ للعبادة هو «الرحمٰنُ» ربُّ العزة والجلال، لا هذا العجل الجماد، فأطيعوا أمري في ترك عبادة العجل، واسلكوا طريق العقل فيما تفعلون!! قالوا ممعنين في الضلال: لن نزال مقيمين على عبادته، حتى يعود إلينا موسى، فننظر في الأمر!! تبّاً لهؤلاء اليهود، ما أسخفهم وما أجهلهم بصفات الله، فما إن صاغ لهم السامريُّ، عجلاً في صورة «ثور» له خُوار، حتى ادعوا أن هذا هو ربهم، وأن موسى أضاع ربه، فراح يبحث عنه في الجبل، وهي مقالة شنيعة، تضيف إلى بلادتهم وحماقتهم، اتهامهم لنبيهم «موسى» أنه لا يعرف ربه، فهو موجودٌ بين أيديهم، وهو هذا العجل الرخيمُ الصوت، وموسى قد أضاعه فهو يبحث عنه في جبل الطور!! فما أشنع هذا الاتهام لنبيهم الكريم!! وما أقبح هذا التصور للذات المقدسة، ذات الله جل جلالُه، حيث جسَّموه بأنه عجلٌ ذَكَر، وما نشأ هذا التصور عنهم، إلاّ لأنهم فعلاً بقر!! «والجنسُ يألفه الجنس» كما يقال في الأمثال، ولمَّا رجع موسى وسمع الصياح، وهم يرقصون حول العجل، ويعبدونه من دون الله، امتلأ عند ذلك غضباً، فالتفت إلى أخيه «هارون» وهو في أوْج ثورة الغضب، آخذاً بشعر رأس أخيه ولحيته، يجرُّه إليه ﴿قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ أي قال موسى لأخيه هارون: ما الذي منعك حين رأيتهم

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾﴾

عبدوا العجل، أن تغضب لله، وتقاتل من كفر به؟ أفعصيت أمري في واجب النصح والتذكير!؟ وكان قد وصَّاه بقوله ﴿اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ قال هارون استعطافاً له وترقيقاً لقلبه: يا أخي، ويا ابن أمي، لا تأخذ بشعر رأسي، ولا بلحيتي، ودعني حتى أنبئك الخبر، إني خفتُ إن زجرتُهم بالقوة، أن يقع القتالُ بينهم، وتُسفك الدماء، فيقتل بعضُهم بعضاً!! كما خشيت أن تشتعل الفتنةُ بينهم، لو سلَّطتُ بعضهم على بعض، فتلومني وتقول لمَ لم تنتظرني حتى أرجع إليهم، وأزجرهم عن هذا الفعل القبيح؟! فرأيتُ أنَّ الخير والصلاح في حفظ الدماء، والمداراة معهم إلى أن ترجع إليهم، لتكون أنت المتداركَ للأمر!! **قال ابن عباس**: «أخذ شعرَ رأس أخيه بيمينه، ولحيته بشماله، من شدَّة غيظه وغضبه، لأن الغَيْرةَ في الله مَلَكَتْه، وكان موسى حديداً أي شديد الغضب في الله، وكان هارون هائباً مطيعاً له» ولمَّا عَرَف موسى العذر، وانتهى من معاتبة هارون، أقبل على السامريِّ متوعِّداً له ومهدِّداً ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أي قال عدوُّ الله السامريُّ: لقد رأيتُ ما لم يره القومُ، رأيتُ فرسَ جبريل، كلَّما رفع الفرسُ يديه أو رجليه، يخرج من تحته النباتُ، حين حضر غَرَق فرعونَ، فعلمتُ أن له شأناً، فأخذتُ قبضةً من التراب، من تحت موطىء قدم الفرس، فطرحتها في الحُليِّ المذابة، فصار للعجل ذلك الخوارُ، وكذلك حسَّنت لي نفسي فعل هذا الشيء، فاتبعتُ هواي!! وجمهور المفسرين على أن المراد بالرسول في الآية ﴿من أثر الرسول﴾ أنه جبريلُ عليه السلام، وكان في هذا الفعل، فتنةٌ عظيمة لبني إسرائيل، حيث شوَّقهم لعبادة العجل. وكان السامريُّ ساحراً منافقاً.!

قال المفسرون: لمَّا جاء جبريلُ لهلاك فرعون، كان يركب على فرسٍ، وهو في صورة شجاع مناضل، وكان كلَّما وضع الفرسُ يديه أو رجليه على الطريق اليابس، يخرج من تحته النباتُ في الحال، ولم يفطن لهذا إلا «السامريُّ» المنافق، فأخذ حفنةً من أثر فرسه، فألقاها على حلية بني إسرائيل، فانسبك عجلاً جسداً، له خوارٌ كخوار البقرة، فذلك قوله تعالى: ﴿فقبضتُ قبضةً من أثر الرسول فنبذتها﴾ وهنا تظهر لموسى الحقيقة، فقد كانت هذه الفتنة

قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ﴿٩٩﴾

من (تدبير السامريّ)، الذي كان من قوم يعبدون البقر، فلمَّا غاب عنهم موسى، صنع بقومه ما صنع، ولهذا طرده موسى عن بني إسرائيل، وأبعده عن الجماعة ﴿قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾ أي قال موسى للسامري: اذهبْ وحيداً، طريداً، شريداً، تهيم في البرية مع الوحوش والسباع، لا تقربُ أحداً ولا يقربك أحد، هذا هو العذاب العاجل، وأما العقاب الأكبرُ، فهو أن لك موعداً للعذاب الأليم في الآخرة، لن يتخلَّف عنك، جزاء كفرك وفتنتك لبني إسرائيل، وانظر إلى إلّهك المزيَّف الذي عبدته، وهو العجلُ الذي أقمت ملازماً على عبادته، وفتنتَ به بني إسرائيل، لنحرقنَّه بالنار، ثم نذروه رماداً في البحر، حتى لا يبقى منه عينٌ ولا أثر!! ثم يعلن موسى حقيقة الإله المعبود، فيقول ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾ أي إنما ربكم ومعبودكم المستحقُّ للعبادة، هو الله ربُّ العالمين، الذي لا معبود بحقّ سواه، ولا ربَّ غيرُه، الذي أحاط علمه بكل ما في السموات والأرض، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، لا هذا العجلُ الجمادُ المزيَّف، الذي لا عقل له، ولا علم، ولا قدرة، ولا إحساس!! وإلى هنا تنتهي قصة موسى الكليم، مع فرعون الجبار، وقومه من بني إسرائيل، ويأتي الحديث عن الوحي الإلهي، المنزل على خاتم الأنبياء، فما كان لمحمد ﷺ علمٌ بهذه الأنباء والأخبار، لولا أن الله الجليل القهَّار، أوحى له بها ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا﴾ أي كما قصصنا عليك يا محمد، خبر موسى مع فرعون، وما رافق ذلك من الأنباء العجيبة، والأحداث الغريبة، كذلك نقصُّ عليك أخبارَ إخوانك من الأنبياء والمرسلين، وما حصل لهم مع أقوامهم، لتكون برهاناً لك على صدق دعواك، وصحة رسالتك، وقد أنزلنا عليك

مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلًا ﴿١٠١﴾ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴿١٠٣﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ﴿١٠٤﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ﴿١٠٧﴾

يا أيها الرسولُ هذا القرآن العظيم، المعجزَ في بيانه، وأحكامه، وأخباره، ذِكْراً يُتلى، باقياً على مدى الأزمان والدهور، شاهداً على رسالتك ﴿مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلًا﴾ أي من لم يؤمن بهذا القرآن، ولم يتّبعْ هداه، فإنه يحمل يومِ القيامة حملاً ثقيلاً، وذنباً عظيماً كبيراً، يُثقله في نار جهنم، مع الشقاء والخلود في نار الجحيم، وفي الحديث الشريف (كتاب الله، هو الفصلُ ليس بالهزل، من تركه من جبَّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله. . .) الحديثُ رواه الترمذي، وهو جزء من حديث طويل. ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾ أي عِقَابُ هؤلاء المجرمين، المعرضين عن آيات الرحمٰن، في (يوم القيامة)، يوم ينفخ إسرافيل في الصور، النفخة الثانية، ونحشر المجرمين إلى أرض المحشر، زرق العيون، سود الوجوه، في أقبح منظر، وأبشع صورة، يتحدَّثون فيما بينهم سراً، لا يرفعون أصواتهم من الفزع والهول، يقول بعضهم لبعضٍ: ما مكثنا في الدنيا إلاَّ عشرة أيام، ويقول أعقلُهم وأعدلُهم رأياً: الحقيقةُ أننا ما لبثنا في الدنيا إلاَّ يوماً واحداً!! وهكذا ينسى المجرمون، تلك الأعمار الطويلة المديدة، التي عاشوها في الدنيا، فكأنهم ما عاشوا فيها إلاَّ يوماً أو ساعات، كما قال سبحانه عنهم ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون﴾ ومن هول القيامة إلى هول الساعة وأهوالها، تتحدث الآيات الكريمة فيقول سبحانه: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾ أي يسألك الناسُ عن حال الجبال يوم القيامة، فقل لهم: إن ربي يطيِّرها في الجوِّ، ويفتِّتُها حتى تصبح كالرمل، وتصبح كالهباء المنثور، تتطاير ذراتها في الفضاء، فيترك الأرضَ ﴿قاعاً صَفصفاً﴾

﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ﴿١٠٨﴾ يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ﴿١٠٩﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ﴿١١٢﴾﴾

أي أرضاً ملساء مستوية، لا نبات فيها ولا بناء **﴿لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً﴾** أي لا يرى فيها الناظر اعوجاجاً، ولا انخفاضاً ولا ارتفاعاً، والأَمْتُ في اللغة: المكان المرتفعُ كالتلِّ والهَضَبة، فإذا كان هذا حال الجبال، تتفتَّت وتتطاير، فكيف بحال الرجال؟ ومايكونون عليه من الشدائد والأهوال؟ ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب العصيب، يتَّبع الناسُ الداعيَ لهم إلى المحشر، وهو «إسرافيل» عليه السلام، حين ينادي أهل القبور للخروج منها فيقول: أيتها العظامُ النَّخرةُ، والأوصالُ المتفرِّقةُ، واللحوم المتمزِّقة، إن الله يأمركنَّ أن تجتمعن للحساب والجزاء، فتأتي سريعاً لا تزيغُ ولا تنحرف، وذلَّتْ وسكنتْ أصوات الخلائق، هيبةً من الرحمٰن جلَّ وعلا، فلا تسمع إلاَّ صوتاً خفياً يتهامسُ الناسُ به، لا يكاد يسمع!! ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب، لا تنفع الشفاعةُ أحداً، إلاَّ لمن أذن الرحمٰنُ أن يُشفع له، وهو المؤمن الذي مات على الإيمان، وكان في الدنيا من أهل التوحيد، أمَّا الكافر فلا تُقبل فيه شفاعة، كما قال سبحانه **﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾** ثم قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ أي يعلم سبحانه أحوال الخلائق، فلا تخفى عليه منهم خافية، فأعمالهم لديه محفوظة، وأقوالهم في صحف الملائكة مسطورة، ولا تُحيط علوم الخلق بعلمه سبحانه شيئاً ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾ أي ذلَّت وخضعتْ وجوه الخلائق يوم القيامة، للواحد القهار، العزيز الجبار، الدائم الباقي الذي لا يموت، وقد خسر وشقي من كفر وأشرك بالله!! أمَّا من قدَّم الأعمال الصالحة، طلباً لرضى الله، بشرط الإيمان، فلا يخاف ظلماً يقع عليه، ولا يُنقص شيئاً من حسناته، بل يأخذ جزاءه وافياً، كاملاً، شافياً، والظلمُ أن يعاقب بدون جريمة، والهضمُ أن يُنقص شيئاً من

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾

حسناته وثوابه.. شرط تعالى لنجاة العبد يوم القيامة، شرطين أساسيين: **الأول**: الإيمان، وهو التصديقُ بكل ما جاء في القرآن، **والثاني**: العملُ الصالح الذي يكون خالصاً لوجه الله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي كما قصصنا عليك يا أيها الرسول أخبار الأمم السابقة، وأنباء الرسل الكرام قبلك، كذلك أنزلنا عليك هذا القرآن العظيم، بلسانٍ عربي مبين، أنزلناه بلغتهم ليظهر عجزهم، وصدقُك في دعوى النبوة والرسالة، فهو في الفصاحة والبيان، خارج عن مقدور البشر، وكرَّرنا فيه الإنذار والوعيد، كي يتقوا الكفر والمعاصي، أو يُحدث لهم القرآنُ موعظةً في القلوب، فيؤمنوا بربهم، وينيبوا إليه ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ أي تنزّه وتقدّس الملِكُ الحقُّ، عن إخلاف الوعد، من إثابة أهل الإيمان، ومعاقبة أهل الطغيان، ولا تتعجل يا محمد في القراءة مع جبريل، بل استمع إليه واصبر، حتى يفرغ من تلاوته عليك، وسلْ ربَّك زيادة العلم النافع، الذي تستنير به في حياتك.. كان رسول الله ﷺ حريصاً على حفظ القرآن، يخشى أن ينساه، فكان إذا تلا جبريلُ عليه الوحيَ، سارع ﷺ إلى القراءة معه مخافة ضياع شيء منه، أو خشية النسيان، فأمره سبحانه أن يستمع إلى قراءة جبريل، وتكفَّل له بأن يجعله محفوظاً في صدره، كقوله سبحانه ﴿**لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه**﴾ وهذا ضمانٌ من الله تعالى له، بأن يجعله محفوظاً في صدره، لأنه ﷺ كان أمياً، لا يعرف القراءة ولا الكتابة ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ أي وصَّينا آدم، وأمرناه أن لا يأكل من الشجرة، حين أسكنَّاه الجنة، فنسي الوصية، وخالف الأمر، ولم نجد له حزماً ولا عزماً، عمَّا نهيناه عنه، عاتبه ربُّه على ترك التحفظ، وعدم التنبه والتيقظ، حتى جرَّه ذلك إلى النسيان، وما أكل من الشجرة متعمداً ارتكاب الذنب، إنما كان عن اجتهاد أو نسيان، **قال الحسن البصري**: والله ما عصىٰ آدم عن

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾

قصدٍ وعمد، إنما كان عن غفلةٍ ونسيان﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ أي واذكر حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم ـ سجود تحيةٍ وتكريم ـ فامتثلوا الأمر إلا إبليس، فإنه أبى السجودَ، وعصى أمر ربه، وقال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، ونبَّهنا آدم فقلنا له: إن إبليس عدُوٌّ لدودٌ، شديدُ العداوة لك ولزوجك حواء، فلا يكن سبباً لإخراجكما من الجنة، فتشقيان، واقتصر على ذكر شقائه (فتشقى) لأن في شقائه شقاءَ زوجه حواء، ومراعاةً لرءوس الآيات. ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ أي إن لك في الجنة، أن لا ينالك فيها العُرْيُ، ولا الجوعُ، وأن لا يصيبك العطشُ، ولا حرُّ الشمس، لأن الجنة دار السرور والحبور، لا جوع فيها ولا عطش، ولا تعب فيها ولا نصب، ومعنى (تضحى) أي تبرز للشمس فيصيبك حرُّها، لأن الجنة ليس فيها شمس ﴿لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً﴾ وإنما هي أنوارٌ تتلألأ، وهذه الآية من أوضح البراهين، على أن الجنة التي كان فيها آدم وأخرج منها هي «جنة الخلد» التي هي في السموات، وليست جنة في الأرض كما قال بعضُ المتأخرين، لأن هذه الأوصاف بعدم الجوع والعطش، وعدم العُرى والنَّصب، لا تنطبق إلا على (جنة النعيم)، فما من أحدٍ في الدنيا حتى الملوكُ والسلاطينُ إلاَّ ويصيبهم في الدنيا الجوع، وينالهم حرُّ الشمس، وتنزل بهم الآفات والأمراض والمصائب، فكيف تكون هذه الجنة في الدنيا؟ ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ أي حدثه إبليس

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾

اللعينُ بطريق الوسوسة وقال له: هل أدلُّك يا آدم على شجرةٍ من أكل منها خُلِّد، ولم يمت أصلاً، ونال الملك الدائم الخالد؟ وأقسم لهما بعزة الله وجلاله، فأكل آدم وزوجه حواء من الشجرة، التي نهاهما الله عنها، فظهرت لهما في الحال عوراتهما، وشرعا يأخذان من أوراق شجر الجنة، ويستران بها عوراتهما، وخالف آدم أمرَ الله، فأخطأ طريق الخلد والسعادة، ثم اصطفاه ربه إليه، واختاره للنبوة، فجعله من المقرَّبين عنده، وتاب عليه من الزلة، وهداه إلى الاستقامة على الطاعة، بعد الندم على ما حصل منه من الخطأ والنسيان ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ أي قال الله لآدم وحواء: انزلا من السماء إلى الأرض؛ بعضُ أولادكم عدوٌّ لبعض، في أمر المعاش، والكسب، والسلطان، فلهذا تشتعل بينهم الحروبُ والفتن!! ثم عهد إلى آدم وذريته بهذا العهد ﴿**فإما يأتينكم مني هدى**﴾ أي فإن جاءكم من جهتي (الهدى الإلهيُّ)، والوحيُ الربانيُّ، وأنزلتُ عليكم كتبي، وأرسلتُ إليكم رسلي، فمن تمسَّك بهداية الله، فآمن واتَّبع ما جاء به المرسلون، فلا يضلُّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة **قال ابن عباس: ضمِنَ الله عزَّ وجلَّ لمن قرأ القرآنَ، وعمل بما فيه، أن لا يضلَّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، وتلا الآية** ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ أي ومن أعرض عن الهداية والإيمان، ولم يستنر قلبه بنور القرآن، فإن له في الدنيا المعيشة الضَّنك، أي التعيسة القاسية النكدة، التي لا يشعر معها بطعم السعادة والراحة، ونحشره في الآخرة أعمى البصر، لأنه كان في الدنيا أعمى القلب، يقولُ الكافر: يا رب لم عاقبتني بعمى البصر، وقد كنت في الدنيا بصيراً؟ قال: لقد أتتك آياتي واضحةً جليَّة، فتعاميتَ عنها، وجعلتها خلف ظهرك، فتركت العمل بها، وكذلك تُترك اليوم في العذاب، جزاءً وفاقاً!! إنَّ الكافر لا يشعر بطعم السعادة والراحة في الدنيا وإن تنعَّم ظاهره، ولو سكن في

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧ أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ١٢٨ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ١٢٩ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ١٣٠ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ١٣١﴾

القصور، وغرق في الشهوات، فإن قلبه في حيرة، وقلق، واضطراب. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء، نعاقب كلَّ من كفر بالله، وكذّب بآياته، وأسرف على نفسه بالانهماك في الشهوات، ولعذاب الآخرة أشدُّ من عذاب الدنيا، وأدوم وأفظع، لأنه عذاب دائم لا ينقطع ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ أي أفلم يتبيَّنْ لكفار مكة العُتاة الطغاة، ما حلَّ بالمكذبين من الأمم السابقة، كيف بادوا وهلكوا؟ وهم يشاهدون مساكن قوم عاد، وثمود، ويعاينون آثار هلاكهم، أفلا يعتبرون ويتعظون؟ إن في آثار هؤلاء المهلَكين، لعبراً وعظات، لأولي العقول السليمة، و(النُّهى) بمعنى العقول ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾ أي ولولا الكلمة السابقة من الله بتأخير العذاب عنهم، وأجلٌ مسمًّى لهلاكهم، لكان العذاب واقعاً عليهم، ولكنْ لحكمةٍ يريدها الله أخَّر عنهم العذاب ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ أي اصبر يا محمد على أذى قومك المشركين، وما يقولونه في حقك وفي حق القرآن، وصلِّ لربك قبل طلوع الشمس ـ يعني صلاة الفجر ـ وقبل غروبها؛ يعني العصر ـ وصلِّ في ساعات الليل ـ يعني صلاة العشاء ـ وأطراف النهار ـ يعني صلاة الظهر والمغرب ـ لأن الظهر في آخر طرف النهار الأول، والمغرب في آخر طرف النهار الأخير، لعلك تنال رضى ربك، ويعطيك ربك ما يرضيك، وأكثرُ المفسرين على أن هذه الآية، إشارة إلى الصلوات الخمس كما بينّا ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ أي لا تنظر إلى هؤلاء المترفين، وما هم عليه من نعيم الدنيا

﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

وبهجتها، وإلى ما متّعنا به أصنافاً من الكفار، لنبتليهم ونختبرهم بهذا النعيم، ونعذّبهم في الآخرة بسببه، فثواب الله خيرٌ وأعظم من هذا النعيم الفاني، والخطابُ للرسول ﷺ والمراد به أتباعه المؤمنون، لأن النبي ﷺ كان أزهد الناس في الدنيا، وأبعدَهم عن نعيمها ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ أي وأمر أهل بيتك بالمحافظة على الصلاة، واصبر أنت على أدائها بخشوعها، وأركانها، وآدابها، لا نسألك أن ترزق أحداً، بل نحن متكفّلون برزقك، ورزق الخلق، والعاقبة الحميدة لأهل التقوى ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ أي وقال المشركون من أهل مكة: هلاَّ يأتينا محمد بمعجزة باهرة تدل على صدقه!؟ أولم يكتفوا بالقرآن العظيم، (المعجزة الخالدة) لخاتم المرسلين، المحتوى على أخبار الأمم الماضية؟ فإنه أعظم البراهين والمعجزات لخاتم الأنبياء ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ أي لو أنّا أهلكناهم في الدنيا بعذاب الاستئصال، من قبل نزول القرآن، وبعثة محمد عليه الصلاة والسلام، لقالوا يا ربنا: هلاَّ أرسلت إلينا رسولاً، من قبل أن نذلّ بنزول العذاب، ونفتضح على رءوس الأشهاد!؟ ولهذا قطع الله أعذارهم بإرسال الرسول، وإنزال الكتاب ﴿قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ أي قل لهؤلاء الجاحدين المعاندين، كلٌّ منا ومنكم منتظر عاقبة أمره، فانتظروا العاقبة والنتيجة، فستعلمون عن قريب، من هم أصحاب الدين الحق، هل نحن أو أنتم؟ ومن منّا ومنكم اهتدى إلى طريق الحق، وسبيل الرشاد؟! ومن بقي على طريق الكفر والضلال!!

انتهى تفسير سورة طه

● ● ●

ﭐقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ (١) مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ (٢) لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (٤)

تفسير سورة الأنبياء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ أي دنا وقَرُب وقتُ حساب الناس، وهم في الدنيا غافلون عن الآخرة، لا يعملون لها، ولا يستعدُّون لذلك اليوم الرهيب، الحسابُ يقترب، والآيات تتنزَّل، وهم معرضون عن الهدىٰ والإيمان، وكلما جاءهم من القرآن جديد، قابلوه باللهو والتكذيب، حالهم كحال الأطفال، يتلهَّوْن باللُّعَب، للسرور والطرب ﴿لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ أي ساهية قلوبهم عن كلام الله، لا يخشعون ولا يتذكرون، وتناجىٰ المشركون سرّاً، وبالغوا في إخفاء الكلام، فقال بعضهم لبعض: ليس محمد الذي يدَّعي الرسالة، إلا شخص مثلكم، يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، أفتقبلون السحر، وأنتم تعلمون أنه سحر؟ جعلوا ما جاء به الرسول ﷺ من قبيل السحر، وعنوا بالسحر القرآن ﴿قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي قال الرسول: إن ربي الذي أنزل عليَّ هذا القرآن. هو الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم الصادق منا والكاذب، وهو السميع لأقوالكم، العليم بأحوالكم!! لقد طعن المشركون في نبوته ﷺ بأمرين **الأول**: أنه بشر مثلهم فكيف صار رسولاً؟ **والثاني**: أن الذي أتى به سحرٌ، وليس هو من كلام الله، وكلاهما فاسد، لا يستند على منطق سليم،

بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

إنما هو مجرد التشويش والتلبيس ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي بل قال الفُجّار عن القرآن ماهو أشنع وأقبح، قالوا: إنه أخلاط أحلامٍ ومنامات، بل اختلقه محمد من تلقاء نفسه، بل محمد شاعر وما أتى به شعر، فليأتنا بمعجزة خارقة غير القرآن، كما جاء موسى بالعصا، وصالح بالناقة!! وهكذا يضطرب كلامهم فيما يقولونه عن (القرآن، والرسول)، فهم متحيِّرون لا يستقرُّون على شيء، ثم هم يطلبون معجزة غير القرآن، وقد ردَّ تعالى عليهم بأن من سبقهم من المكذبين، اقترحوا على أنبيائهم الآيات والمعجزات، فلمَّا جاءتهم كذبوهم، أفيصدِّق هؤلاء بالخوارق لو رأوها؟ مع كونهم أعتى منهم وأطغى؟ لا لن يؤمنوا لكونهم أضل ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي وما أرسلنا قبلك يا محمد، إلاّ رسلاً من البشر، وما كانوا من الملائكة، فكيف ينكرون رسالتك، ويقولون: ما هذا إلاّ بشر مثلنا؟ فليسألوا العلماء بالتوراة والإنجيل، هل كان الرسلُ، الذين جاءوهم بشراً أم ملائكة؟ إن كنتم يا معشر المشركين لا تعلمون ذلك فاسألوا العلماء قبلكم من أهل الكتاب ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي وما جعلنا الرسل أجساداً، لا يأكلون ولا يشربون كالملائكة، بل هم كسائر البشر، يأكلون ويشربون، وينامون ويمرضون، وما كانوا مخلَّدين في الدنيا لا يموتون، ثم صدقنا رسلنا ما وعدناهم من نصرنا، وأهلكنا الطغاة المكذبين، المجاوزين الحدَّ في الكفر والعصيان ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي والله لقد أنزلنا إليكم يا معشر العرب، كتاباً عظيماً نيِّر البرهان، فيه

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَارْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

شرفكُم وعزُّكم ومجدكم، أفلا تدركون هذه النعمة؟ وتعقلون أن هذا الكتاب المعجز، لا يمكن أن يأتي به رجل أميٌّ كمحمد، إنما هو تنزيلٌ من الرحمن الرحيم؟ وفيه توبيخٌ لهم على عدم التدبر ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ أي وكثير من أهل القرى المكذبين لرسلهم، أهلكناهم إهلاكاً فظيعاً، بسبب ظلمهم وطغيانهم، ثم خلقنا بعد إهلاكهم، أمماً أخرى سواهم، والتعبيرُ بالقصم يوحي بشدة الهلاك والعذاب، لأن معناه الكسرُ للشيء الصلب، بحيث لا تلتئم معه الأجزاء ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ لَا تَرْكُضُواْ وَارْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي فلما عاينوا العذاب، وعلموه علم حسٍّ ومشاهدة، إذا هم يركضون سراعاً، هاربين منهزمين، كالحمر الوحشية، يُقال لهم على سبيل السخرية والاستهزاء: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور، والمساكن الطيبة، والعيش الرغيد، لعلكم تُسألون على ما جرى عليكم، فتجيبون عن مشاهدة وعلم!! وهذا كلُّه على سبيل التهكم والسخرية والاستهزاء ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ أي قالوا حين شاهدوا العذاب، ورأوه رأي العين: يا هلاكنا ودمارنا، لقد كنا ظالمين بإشراكنا بالله، وتكذيبنا رسله!! وهذا اعتراف منهم وندم، حيث لا ينفع الندم.. فما زالوا يردّدون تلك الكلمات، حتى أهلكناهم فجعلناهم مثل الزرع المحصود بالمناجل، قد خمدت أنفاسُهم، فلا حسَّ لهم ولا وجود.. ثم ذكر تعالى بعض الأدلة والبراهين، على وحدانيته ووجوده، بما هو مشاهدٌ في هذا الكون البديع فقال ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي لم نخلق هذا الوجود، وما فيه

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾

من (سموات، وأرضين، وجبال، وبحار، وأنهار، ونجوم، وأقمار)، عبثاً وباطلاً، لمجرد اللهو والتسلِّي، وإنما خلقناهما لحكمة بليغة، ليستدل الناسُ بالخلق على الخالق، وبالإتقان على المدبِّر الحكيم، و﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً﴾ ـ أي ولداً ، لاتخذناه من عندنا ومن جهة قدرتنا، من الملائكة أو من الحور العين، لو أردنا فعله، ولكنه مناف للحكمة فلم نفعله، **قال ابن عباس**: هذا ردٌّ على من قال: اتخذ الله ولداً، فإن المشركين زعموا أن الملائكة بنات الله، والنصارى قالوا: عيسى ابن الله، فنزلت الآية للرد عليهم. ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي نقذف الحقَّ الساطع المبين، على الباطل المتزعزع، فيمحقه ويُزهقه، ولكم العذاب والدمارُ، يا معشر الكفار، على ما تنسبون إليه تعالى من الزوجة والولد، وفي الآية تشبيه رائع بديع، فقد شبَّه الحقَّ بقذيفةٍ نارية، تُقذف على رأس الفجور والباطل، فتشدخه وترديه قتيلاً ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي وله جلَّ وعلا جميع المخلوقات، ملكاً وخلقاً، وتصرفاً وتدبيراً، أما الملائكة الذين عبدتموهم من دون الله، فهم عبيدٌ لله، لا يتكبَّرون عن عبادة ربهم، ولا يملُّون ولا يسأمون، يسبحون الله ليلَ نهار، ﴿لا يفترون﴾ أي لا يضعفون عن الذكر والتسبيح!! سئل كعب عن تسبيح الملائكة، فقيل له: كيف لا يفترون؟ أليس لهم شغل أو حاجة؟ فقال للسائل يا ابن أخي: جُعل لهم التسبيحُ كما جُعل لكم النَّفسُ!! ألستَ تأكل وتشرب؟ أليس تذهب وتجيء وأنت تتنفَّسُ؟ فكذلك جُعل لهم التسبيح ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ الأسلوب هنا أسلوب تعجب وإنكار، من عمل الكفرة الفجار، والمعنى: هل اتخذ هؤلاء المشركون، آلهةً من

أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾

الأرض، تقدر على إحياء الموتى؟ لا، وإنما اتخذوا لهم آلهة عاجزة بلهاء جامدة، هي الأوثان، عاجزة عن البعث والإحياء، فهي في الحقيقة ليست آلهة، إنما هي أخشاب، وأحجار، ولو كان في الوجود إلهٌ غير الله، لفسد نظام الكون، لما يحدث بين الآلهة من التنازع والاختلاف، تنزَّه الله ربُّ العرش العظيم عمَّا ينسبه إليه الجاهلون، لا يُسأل تعالى عمَّا يفعل، والخلائق جميعاً يُسألون، لأنهم عبيد لله تعالى، الواحد القهار ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ كرَّر الإنكار استعظاماً لأمر الشرك، ومبالغةً في التوبيخ، والمعنى: هل اتخذوا آلهة من دون الرحمٰن، تصلح للعبادة والتعظيم؟ قل لهم: ائتوني بالحجة والبرهان، على صحة عبادة الأوثان؟ هذا هو القرآن العظيم، والكتب السماوية التي قبلي، كلُّها تدحض دعوى الشرك، بل أكثر هؤلاء لا يميِّزون بين الحق والباطل، لأنهم عُمْيُ القلوب، فهم معرضون عن دلائل التوحيد، وحجج القرآن ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ أي وما أرسلنا رسولاً من الرسل قبلك يا محمد، إلاَّ وأوحينا إليه، أن لا إله ولا معبود بحق، إلا الله ربُّ العالمين، فاعبدوه وحده، ولا تشركوا معه أحداً ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي قال مشركوا العرب من قبيلة خُزاعة: الملائكةُ بنات الله!! سبحانه أي تنزَّه الله وتقدَّس عما يقول الظالمون، بل هم عباد لله، مختارون مخلوقون له، مكرَّمون عنده، في منازل عالية، ومقامات سامية ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ أي لا يقترحون عليه شيئاً، شأنهم شأن العبيد المؤدَّبين، الذين لا

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٩) أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢)﴾

يفعلون شيئاً بدون إذن سيّدهم، وهم بأمره سبحانه وطاعته يعملون، لا يخالفون ربهم في أمرٍ من الأمور، وعلمه تعالى محيط بهم، ولا يشفعون يوم القيامة لأحد، إلا لأهل (التوحيد والإيمان)، الذين يرضى الله عنهم، وهم من جلال الله ورهبته، خائفون حذرون ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي ومن يدّعي منهم أنه إله مع الله، فعقوبتُه نار جهنم، كسائر الكفرة المجرمين، والآية إنما وردت على سبيل (الفرض والتقدير)، فإنهم في غاية الطاعة والعبودية، ولو ادَّعوا الألوهية ـ جدلاً ـ لاستحقوا الإحراق بنار الجحيم، كشأن سائر المجرمين ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ إشارة إلى عظمة القدرة الإلهية، أي ألم ير هؤلاء الجاحدون لوحدانية الله، أن الله العظيم الجليل، هو الذي أبدع خلق السموات والأرض، وكانتا قطعة واحدة، ملتصقتين متحدتين، ففصل بينهما، وعزل بعضهما عن بعض، لتكون السماء مسكناً للملائكة، والأرض مسكناً للبشر، وأنبت الأرضَ، وأمطر السماء!! **قال ابن عباس:** كانت السماء رتقاً لا تُنبت، وكانت الأرض رتقاً لا تُمطر، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات، وجعلنا الماء أصل كل الأحياء، وسبباً لحياة الإنسان، والحيوان، والنبات، أفلا يؤمنون بوجود الخالق العظيم، المدبِّر لهذا الكون؟ ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي جعلنا في الأرض جبالاً ثوابت، لئلا تنقلب وتضطرب بهم، ولتحفظ توازنها في سيرها وحركتها، وجعلنا فيها طُرُقاً ومسالك، ليهتدوا إلى البلاد والأقطار في أسفارهم ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ برهان ثالث على عظمة الخلق والخالق، أي جعلنا هذه السماء التي فوقكم، كالسقف للأرض، محفوظة من الوقوع والسقوط، قائمة بقدرة الواحد الأحد، بدون أعمدة ولا أساطين، والمشركون معرضون عن التفكير، في تلك الآيات الباهرة، الدالة على

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾

وحدانية الله، وعظيم قدرته؟ فمن الذي أبدع خلق هذا الكون؟ فسيَّر أفلاكه، وأوجد ليله ونهاره، وأجرى شمسه وقمره؟ أليس هو الله ربُّ العالمين، الخالق المبدع لنظام الكائنات؟! ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي هو سبحانه بقدرته، جعل الليل مظلماً للسكن، والنهار مضيئاً للمعاش، وخلق الشمس والقمر، والكل يجري ويسير، في هذا الكون الفسيح، بنظام محكم دقيق، وفي الآية دليل على حركة الأرض، لأنه تعالى عبَّر عن الأرض بالليل والنهار، فكأنه قال: وهو الذي خلق الأرض، والشمس، والقمر، ثم جاء بصيغة الجمع ﴿يسبحون﴾ أي كلٌّ من الأرض والشمس والقمر، يسبحون في هذا الفضاء الشاسع الواسع، وإطلاق ظرف الزمان على المكان، معروفٌ في اللغة، فالليلُ والنهار زمان، ولا بدَّ لهمامن مكان، فلولا الأرض لما ظهر ليلٌ ولا نهار، ولا شروق ولا غروب، وهذا كإطلاق الصفة على الموصوف في قوله سبحانه: ﴿وأمَّا الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله﴾ أي هم في الجنة التي هي مكان نزول رحمة الله، وانظر تفصيل هذا الدليل في كتابنا «حركة الأرض حقيقة علمية أثبتها القرآن» ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي ما كُتب لأحدٍ من قبلك الخلودُ في الدنيا، فهل إذا متَّ سيخلَّدون بعدك في هذه الحياة؟.. نزلت ردَّاً على المشركين حين قالوا ﴿شاعر نتربص به ريب المنون﴾ أي ننتظر موته، فأعلمه الله بأن الأنبياء قبله ماتوا، وتولَّى الله نصرة دينه، فلا يشمتوا بموتك، لأن كل مخلوق إلى الفناء، ولا يدوم إلاَّ الحيُّ القيوم، ونختبركم أيها الناس بالخير والشر، والشدة والرخاء، والفقر والغنى، والصحة والمرض، ليظهر الشاكر من الكافر، والبَرُّ من الفاجر، وإلينا مرجع جميع الخلائق للحساب والجزاء ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي وإذا رآك الكفار

خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾

الفجار، ما يقابلونك إلا بالسخرية والاستهزاء، قائلين: أهذا الذي يسبُّ آلهتكم، ويسفِّه عقولكم؟ على سبيل الإنكار والتعجيب من نيلك من آلهتهم، وهم مع ذلك كافرون بالرحمٰن، فهل هذه الأوثان ـ في نظرهم ـ أجلُّ قدراً من الرحمٰن؟ وهي حجارة صمَّاء بكماء، لا تضرُّ ولا تنفع؟ يقابلون الرسول بالسخرية والاستهزاء، ويستعظمون أن يذكر الرسولُ ﷺ آلهتهم بسوء، ولم ينكروا على أنفسهم كفرهم بالله، وسخريتهم من رسوله، مع أنهم أحقُّ بالعيب والإنكار ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي جُعل الإنسانُ لفرط استعجاله، وقلَّة صبره، كأنه مخلوقٌ من العجل، وهذا على سبيل المبالغة، فالعجلةُ من سجيَّته وفطرته، فليس بعجيب أن يستعجل المشركون عذاب الله، سأريكم انتقامي منهم، وعقابي لهم، فلا تتعجلوا الأمر قبل أوانه ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي ويقول الكفار: متى وقتُ نزول هذا العذاب، إن كنت يا محمد وأتباعك، صادقين فيما توعَّدتمونا به؟ يقولون ذلك بطريق السخرية والتكذيب، ولو عرف الكافرون فظاعة العذاب، حين لا يستطيعون دفعه، عن وجوههم ولا عن ظهورهم، لأنه محيط بهم من جميع جهاتهم، لما استعجلوا الوعيد، حين لا يكون لهم ناصر ولا معين، وجواب (لو) محذوف لأنه أبلغ في الوعيد والتهديد، تقديره: لو عرفوا الحقيقة، لما طلبوا استعجال العذاب، ولكنهم سفهاء جهلاء، ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي بل تأتيهم القيامة بشدائدها وأهوالها، فجأة وبغتة، فتدهشهم وتحيِّرهم، وتتركهم في حيرة واضطراب، لا يستطيعون ردَّها ولا هم يُمهلون لتوبة أو تقديم معذرة، لأن الزمان قد فات.. **ثم سلَّى الله رسوله ﷺ عن سخرية المشركين، تخفيفاً**

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾

للأحزان والآلام التي كانت تعصر قلبه ﷺ، فقال ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي وبالله لقد استهزىء برسلٍ كرام، أولي شأن خطير، وذوي عددٍ كثير، جاءوا قبلك يا محمد، وكانت ثمرةُ استهزائهم بهم، هلاكاً وعقاباً في الدنيا والآخرة، فكذلك نفعل بقومك المستهزئين، فلا تحزن لسخريتهم واستهزائهم بك ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أي قل لهؤلاء المستهزئين: من يحفظكم ويحميكم من بأس الرحمٰن، ليلاً ونهاراً، إن أراده الله بكم؟ ومن يدفع عنكم عذابه وانتقامه؟ هل تستطيع آلهتكم المزعومة أن تدفعه عنكم؟ بل هؤلاء السفهاء المستهزئون، معرضون عن كلام الله ومواعظه، لا يتفكرون ولا يعتبرون ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ توبيخ آخر مع الإنكار والتقريع، أي هل لهم آلهة تمنعهم من العذاب، هم واثقون بحفظها، معتمدون عليها؟ غير الله تعالى؟ وإذا كانت هذه الآلهة لا تستطيع أن تنصر نفسها، فكيف تنصر عابديها؟ وهي ليست قادرة أن تُجير نفسها من عذاب الله، لأنها في غاية العجز والضعف، فكيف تُجير غيرها؟ **قال ابن عباس:** (يُصحبون): أي يُمنعون، فإذا كانت عاجزة عن منع العذاب عن نفسها، فكيف تمنعه عن غيرها، وحمايةُ النفس أولى من حماية الغير ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أي سببُ إعراضهم عن الله، هو اغترارُهم بحلم الله عليهم، وتمتُّعهم بالحياة السعيدة الرغيدة، فقد أمهلهم الله حتى طالت أعمارهم، في رخاءٍ ونعمة، وحسبوا أن ذلك يدوم لهم، فبطروا وكفروا نعمة الله، أفلا ينظرون ويعتبرون بما يحدث لهم؟ بأننا نفتح على

قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾

المؤمنين، فنزيد في ديارهم، ونُنقص من ديار أهل الشرك، بتسليط المؤمنين عليهم، حتى يقهروهم ويستولوا على أوطانهم؟ فهل هم المنصورون أم هم المخذولون؟ أفلا يعتبرون بذلك؟ وخلاصة الآية هي: بيان نصرةِ الله لأوليائه، وخذلانه لأعدائه، فديار المسلمين تزداد، وأوطان المشركين تنقص وتتقلّص!! ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ أي قل لهم يا محمد: إنما أحذِّركم وأخوِّفكم، بالقرآن الذي أوحاه الله إليَّ، أحذِّركم من عذاب الله وعقابه، وقد بلَّغتُ، فإن لم تَقْبلوا ما دعوتكم إليه، فعليكم الوبالُ والنَّكالُ، وأنتم لجهلكم كالصُمِّ الذين لا يسمعون الكلام، لذلك لا تتعظون ولا تنزجرون!! شبَّههم تعالى بالأصمِّ وهو الأطرش الذي لا يسمع الدعاء والنداء، فماذا يصنع الإنسان مع مثل هذا؟ ﴿**أفأنت تسمع الصمَّ ولو كانوا لا يعقلون**﴾؟ ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي ولئن أصابهم أقلُّ شيءٍ من العذاب، شيءٌ يسيرٌ وخفيف، مما أُنذروا به، كنَسْمَة الريح، وهبَّة الهواء، ليعترفنَّ بجرائمهم، وقبائحهم التي فعلوها، ويدعون على أنفسهم بالهلاك والدمار، فكيف إذا صاروا في قلب الجحيم؟ ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ أي ويوم القيامة نقيم الموازين العادلة، فلا يُظلم أحدٌ شيئاً من عمله، ولو كان العمل في غاية القِلَّة والحقارة، بمقدار حبة الخردل، وكفى بربك أن يكون محصياً على عباده أعمالهم، مجازياً لهم عليها، والغرضُ التحذيرُ من الظلم والعصيان، فإن المحاسب بصير، والجزاء عسير ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أي لقد أعطينا موسى وهارون، كتاباً

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٠ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣﴾

عظيماً، هو (التوراة)، فارقاً بين الحق والباطل، وجامعاً بين النور والذكر المبين، وتذكرة للمؤمنين المتقين، الذين يخافون الله، ويخشون عقابه، وهم من أهوال القيامة وشدائدها، خائفون وجلون ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي وهذا القرآن العظيم، كتاب فارق بين الهدى والضلال، والنور والظلام، وهو ذكرٌ لمن تذكَّر، وموعظة لمن اتعظ به وتدبَّر، كثير النفع والخير، لمن تمسَّك بأحكامه، أفتنكرون أنه من عند الرحمٰن؟ وتزعمون أنه أضغاث أحلام؛ اختلقه محمد وافتراه؟ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ إبراهيم عليه السلام جدُّ العرب الأكبر، وهو باني الكعبة المشرفة «قبلة التوحيد» وهم يزعمون أنهم على ملة إبراهيم، وهو الذي حطَّم الأصنام والأوثان، وأرسى دعائم التوحيد والإيمان، فكيف يكونون على شريعته، وهم يناقضون دعوته ورسالته؟

والمعنى: والله لقد أعطينا إبراهيم الخليل، العقل الناضج، والفهم السليم، وأرشدناه إلى طريق الحجة والتوحيد، منذ نعومة أظفاره، وكنَّا عالمين بحاله، واستعداده لحمل رسالة التوحيد، التي حملها المرسلون ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ أي اذكر يا أيها الرسولُ لقومك، قصته مع أبيه وقومه المشركين، حين قال لهم: ما هذه الأصنام التي تقيمون على عبادتها وتعظيمها؟ سمَّى الأحجار والأخشاب باسمها (ما هذه التماثيل)؟ ولم يقل: ما هذه الآلهة؟ تحقيراً لها، وتصغيراً لشأنها، مع علمه اليقينيِّ بعبادتهم لها، معتقدين بألوهيَّتها، وهذا دليل رشده، ودقة تعبيره وفهمه، استنكر عليهم أن يعكفوا على عبادتها، وهي أشباح لا روح فيها، ولا إدراك ولا حياة!! والتعبير بقوله ﴿**عاكفون**﴾ يدلُّ على الانكباب الدائم المستمر، والملازمة لها، كأنهم لا يفارقونها، وهو بذلك يستخف بعقولهم، ويهزأ منهم ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ أي وجدنا آباءها يعبدونها فعبدناها، فنحن مقلِّدون في هذه العبادة.. ما أسخف هذه الحجة!! وما أغرب هذا المنطق العجيب!! كأنهم يقولون: ما عندنا حجة على عبادتنا لها، إلا «التقليد الأعمى» للآباء والأجداد، لا حجة لنا سوى هذه، وهذه هي الحماقة والسفاهة بعينها.. وقد أجابهم إبراهيم عليه السلام

قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾

بجواب ساطع قاطع، فيه سخرية بهم، وازراء بعقولهم، فالتقليد صفة القردة، لا صفة العقلاء من بني آدم ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ صرَّح بضلالهم دون مواربةٍ ولا خشية، يقول لهم: حقاً إنكم ضالون زائغون، أنتم وآباؤكم الأقدمون، في عبادة حجارةٍ صمَّاء بكماء، لا تسمع ولا تنفع، ولا تعقل ولا تبصر!! صنعتموها بأيديكم، ثم زعمتم أنها آلهة، أفليس لكم عقول، تدركون بها سخافة ما تعملون؟ وما كانت عبادة الآباء، لتخلع على هذه الأوثان القداسة، وتجعلها آلهة تستحقُّ العبادة، فأنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ لمَّا سفَّه أحلامهم، وضلَّل آباءهم، وواجههم بهذه الصراحة، راحوا يتساءلون متعجبين: أجادٌّ أنت يا إبراهيم في كلامك؟ أم أنت مازح؟ هل ما تقوله عن آلهتنا وآبائنا، صادرٌ عن حقيقة واعتقاد؟ أم أنت تقوله لمجرد اللعب والتسلِّي، فإنا لم نسمع به من قبل؟ وهنا انطلق الخليل إبراهيم، يبيِّن لهم الحقيقة الناصعة، في أمر العبادة وصفات الربِّ المعبود ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي ربكم الجدير بالعبادة، الذي ينبغي أن تعبدوه، هو ربُّ السموات والأرض، الذي خلقهنَّ وأبدعهنَّ، على غير مثالٍ سابق، لا هذه الأصنام المزعومة من أحجار وأخشاب، وأنا شاهد لله بالوحدانية، مؤمن بوجوده وألوهيته، بالبراهين القاطعة، والحجج الساطعة، لا رب سواه ولا معبود بحقٍّ غيره، ثم توعَّد الأصنام بالتحطيم فقال ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾ الظاهر أنه قال ذلك بعد أن انصرفوا عنه، ولم يبق إلاَّ أشخاص معدودون، أي وأقسمُ بالله لأحطمَّن أصنامكم، بعد ذهابكم عنها إلى عيدكم، يعني في أثناء غيابكم ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي كسَرها فجعلها فُتاتاً وحطاماً، إلا الصنم الكبير فإنه لم يكسره، لعلهم يرجعون إلى الصنم، فيسألونه عمَّن كسرها!! وحينئذٍ يتضح عجزه، وتقوم الحجة عليهم ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾

قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾

لمَّا رجعوا ورأوها محطَّمة، طار رشدهم وعقلُهم، وقالوا على وجه الوعيد والتهديد: من كَسَر هذه الأصنام؟ وصنع بآلهتنا هذا الصنيع القبيح الشنيع؟ وكيف تجرأ على تكسيرها؟ حقاً إنه لإنسانٌ عظيمُ الجُرم، كثير الظلم!! قال بعضُ من سمعه يتوعَّدها بعد انصرافهم عنها: لقد سمعنا شاباً يسبُّها ويعيبها، يُدعى «إبراهيم» فلعلَّه هو الذي جنى عليها فحطَّمها!! ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي أحضروا إبراهيم بمرأى من الناس حتى يروه، لعلهم يحضرون عقابه، ويرون ما نصنع به!! وغرضهم أن تكون محاكمته علنيَّة، على رءوس الأشهاد، بحضرة الناس كلهم، ليكون عقابه عبرةً لمن يعتبر!! ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ هنا تبتدىء المحاكمة، فيوضع إبراهيم عليه السلام في قَفَص الاتهام، ويتوجَّه إليه السؤالُ، بسلطان الحاكم الغاشم وجبروته: هل أنت الذي حطَّمت هذه الآلهة يا إبراهيم؟ وكيف أقدمت على هذا المنكر الفظيع؟ إنهم لا يزالون يصرُّون على أنها آلهة، وهم يرونها مهشَّمة محطمة، ملقاة على الأرض!! وبأسلوب بارع، مع السخرية والتهكم اللاذع، يجيبهم إبراهيم بحجة لا يستطيعون لها دفعاً، مما يجعلهم مدهوشين متحيرين من الجواب ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ يقول لهم الخليل: إن الذي كسر الأصنام وحطَّمها، هو هذا الصنم الكبير، فقد غضب أن تُعبد معه الصغارُ فكسرها، وإن كنتم تشكُّون في كلامي، فاسألوا الأصنام من كَسَرها؟ والدليلُ أن هذا الصنم الكبير، علَّق الفأس في عنقه!! والغرضُ تقريعُهم وتوبيخهم في عبادة من لا يعقل، ولا يتكلم ولا يبصر، لأنها جمادات خالية عن النطق والكلام!! ويبدو أن هذا التهكُّم الساخر، قد ردَّهم إلى شيء من العقل والرشد ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي فرجعوا إلى عقولهم، وتفكَّروا في أمرهم، فعرفوا خطأ عبادتهم لجمادات صمَّاء بكماء، لا تنفع ولا تضرُّ، ومن كان عاجزاً عن دفع الضرر عن نفسه، يستحيل أن يدفع الضرر عن غيره، فقالوا: نحن الظالمون في عبادة ما لا يسمع ولا ينطق!! وكانت هذه المقالة بادرة نورٍ

﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾

وإشراق، أعقبها الضلالُ والظلام، ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾؟ أي ثم انتكسوا إلى جحيم الضلال والأوهام، وانقلبوا في تفكيرهم رأساً على عقب، فقالوا يا إبراهيم: لقد علمتَ أن هذه الأصنام لا تنطق، ولا تسمع، ولا تعقل، فكيف تأمرنا بسؤالها؟ والتعبير القرآني هنا بالغ الروعة في التمثيل والتصوير، فقد شبههم بإنسانٍ انقلب على رأسه، فكيف يكون سليم العقل والتفكير؟ وقد اختلَّ وضعُه، وضاعَ رشدُه؟ لقد أقاموا الحجة على أنفسهم، دون فهم ولا تبصُّر، وأيَّةُ حجةٍ لإبراهيم عليهم، أقوى من أن يقولوا هم أنفسُهم بألسنتهم **﴿لقد علمتَ ما هؤلاء ينطقون﴾**؟ وهنا أمسك إبراهيمُ بخناقهم، . وجعل يعنِّفهم ويوبخهم ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي قال لهم إبراهيم: أتعبدون حجارةً هي جمادات، لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تنطق ولا تسمع؟ وتتركون الخالق القادر، الإله الجليل، المتفضّل عليكم بأنواع النعم؟ **﴿أفٍّ لكم﴾** أي قبحاً لكم وللأصنام التي عبدتموها من دون الرحمٰن، ما لكم لا تفكِّرون؟ ما لكم لا تدركون قبح صنيعكم؟ هل لكم عقولٌ؟ أم أنتم كالأنعام لا تفهمون ولا تعقلون؟ ولمَّا عجزوا عن الردِّ وأُفحموا عن الجواب، عدلوا عن المحاورة، إلى البطش والتنكيل، كما هو عادةُ الطغاة، حين يفقدون الحجة، يلجأون إلى قوة النار والحديد، ليخرسوا صوت الحقِّ ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي قالوا: أُحرقوا إبراهيم بالنار، نصرةً لآلهتكم وانتقاماً لها ممن حطَّمها، إن كنتم ناصرين لها حقاً، ترغبون في حفظ مهابتها وكرامتها، وتريدون الدفاع عنها!! **قال ابن كثير**: جمعوا حطباً كثيراً جداً، حتى إن كانت المرأة لتمرضُ، فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطباً لإحراق إبراهيم، ثم أضرموا النار، حتى صار لها شرر عظيم، ولَهَبٌ مرتفع، وجعلوا إبراهيمَ في كَفَّة المنجنيق، فلما ألقوه قال إبراهيم: (حسبي الله ونعم الوكيلُ) وكان عمره إذْ ذاك ست عشرة سنة، ولمَّا أُلقي قال خازن المطر، متى أُومر بالمطر

قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ

فأرسله مدراراً، فكان أمرُ اللهِ أسرعَ من أمره ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ أي قلنا يا نارُ كوني مكان بردٍ وسلامةٍ على إبراهيم، ولا تُحرقيه بحرِّك ولهبك!! وأرادوا إهلاكه بمكرٍ منهم عظيم، فنجيناه من شرهم، ورددنا كيدهم في نحورهم، وجعلناهم خاسرين مغلوبين، لم يشفوا غليلهم من إبراهيم، **قال ابن عباس**: «لو لم يقل الله (وسلاماً) لآذى إبراهيمَ بردُها، فمات من شدة البرد» لأن النار انقلبت إلى زمهرير لا يُطاق، فحفظه الله من بردها، كما حفظه من حرِّها.. فإن قيل: كيف خاطب اللهُ النارَ مع أنها لا تعقل؟ فالجوابُ أن (خطابَ التكوين) لا يختصُّ بالعقلاء، مثل قوله تعالى **﴿يا جبالُ أوبي معه والطيرَ﴾** وقوله **﴿يا أرضُ ابلعي ماءكِ ويا سماء أقلعي﴾** أي أمرنا الجبال، وأمرنا الأرض، فهذا وأمثاله خطابُ التكوين، لا يختصُّ بمن يعقل، وأمَّا (خطابُ التكليف) فهذا الذي يشترط فيه العقل، وهذا هو الفارق بين (الخطاب التكويني)، و(الخطاب التكليفي)، فتنبَّه لهذا واللهُ يرعاك ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ أي ونجينا إبراهيم عليه السلام، من شرِّ أولئك الأشرار الفجار، مع ابن أخيه «لوط» عليه السلام، حيث هاجرا من بلاد العراق إلى بلاد الشام، التي بارك الله فيها بالخِصْب، ووفرة الأشجار والثمار، إلى جانب بركة النبوةِ والوحي، فأكثرُ الأنبياء ولدوا وعاشوا، في بلاد الشام وفلسطين، ولذلك وصفها تعالى بالأرض المباركة، وهي كما وردت بها الآثار، أرضُ المحشر والمنشر، وبها ينزل عيسى بن مريم في آخر الزمان، وبها يهلك المسيح الدجال.. وقد سأل إبراهيم ربَّه أن يرزقه الولد، على شيخوخته وعُقم زوجته، فوهب الله له «إسحاق» من سارة، وأعطاه «يعقوب» نافلة، أي زيادةً وفضلاً من غير سؤال، إكراماً له على صبره، ويعقوب هو ابنُ إسحق، وهو ولدُ الولد، وقد جاء من نسله أنبياء بني إسرائيل، وولدُ الولد يُعتبر كالولد، ولهذا نسبه الله إلى إبراهيم وجعله نافلة، وكلاً من إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، جعلناهم من أهل التقوى والصلاح ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ

فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمًا وَعِلۡمًا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٧٧﴾

فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ أي وجعلناهم أئمة هدى وخير وصلاح، يُقتدى بهم في أمور الدنيا والدين، يرشدون الناس إلى كل صلاح وفلاح، بتكليفنا وأمرنا، وألهمناهم أن يفعلوا الخيرات، ليجمعوا بين العلم والعمل، وأن يقيموا الصلاة، ويؤدوا الزكاة إلى الفقراء والمستحقين، وكانوا لله طائعين عابدين، هذه سيرةُ إبراهيم وذريته عليهم السلام ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمًا وَعِلۡمًا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ هذه هي القصة الثانية، في هذه السورة الكريمة، قصة «لوط» عليه السلام، وقد جاءت هنا بإيجاز، لأن الغرض منها التذكير بنهاية الطغاة االمهلكين، وكان لوط قد صحب عمَّه إبراهيم، من العراق إلى الشام وفلسطين، وأقام في قرية «سدوم» وكان أهلها خبثاء، يرتكبون أقبح الرذائل «اللواطة» جهاراً وعلناً، بلا حياء ولا خجل، والمعنى: آتينا لوطاً النبوة، والعلم، والفهم السديد، في الفصل بين الخصوم، وأنجيناه من الأشرار الفجار، أهل مدينة «سدوم» الذين كانوا يعملون الأعمال الخبيثة، فأهلكناهم ودمَّرناهم، ونجيناه وأهله المؤمنين، لأنه من عبادنا الصالحين. ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ هذه القصة الثالثة «قصة نوح» عليه السلام، أي واذكر يا محمد لقومك قصة أخيك «نوح» عليه السلام، حين دعا على قومه بالهلاك بقوله **﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾** أي ولا واحداً منهم، فاستجاب الله دعاءه، فأنقذه ومن معه من المؤمنين من الغرق والطوفان، الذي كان كرباً وغمّاً شديداً على البشر، وخلَّصناه من شرِّ قومه عبدةِ الأوثان،

وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾

المغرقين في الشرّ، فأغرقناهم جميعاً، ونجينا نوحاً ومن معه من المؤمنين ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ هذه القصة الرابعة من قصص الأنبياء، أي واذكر لقومك قصة نبينا «داود» وولده «سليمان» حين حكما في الزرع، الذي رعته غنم القوم ليلاً فأفسدته، وكنا مطّلعين على حكم كلّ منهما، ففهَّمنا القضيَّة لسليمان، أن يقضي فيها بما هو أرفق بالشخصين، وكلٌّ من (داود) و(سليمان) على جانب عظيم من العلم والفهم، **وخلاصة القصة** كما رُوي عن ابن مسعود: إن الزرع الذي رعته الغنم، كان كَرْماً ـ أي بستاناً فيه شجر العنب ـ فدخلت الغنم ليلاً فأكلته، فلم تُبقِ فيه عنباً ولا ورقاً، فتحاكما عند «داود» فقضى بالغنم لصاحب الكرم، فخرجا من عنده، ومرَّا على «سليمان» وكان ابن عشر سنوات، فدخل على أبيه فقال: غيرُ هذا كان أرفق، تدفعُ الغنم إلى صاحب الزرع، لينتفع بدرِّها، ونسلها، وصوفها، وتدفع الأرض إلى صاحب الغنم، ليقوم بزرعها وتعهدها وسقيها، حتى يعود الزرعُ والثمرُ كما كان، ثم يترادّان، فيأخذ صاحب الزرع بستانه، وصاحب الغنم غنمه، فقال داود: القضاءُ ما قضيتَ يا بُنيَّ، وأمضى حكم سليمان، فذلك قوله سبحانه **﴿ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً﴾** وكل منهما على جانب واسع من العلم، وكان حكم سليمان أصوب، ومن غرائب القصص العجيب لسليمان، ما رواه البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «بينما امرأتان معهما ابنان لهما، إذ جاء الذئبُ فذهب بابن إحداهما، فقالت لصاحبتها: إنما ذهبَ بابنكِ أنتِ، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى «داود» فقضى به للكبرى ـ لأن الصغيرة لا تلد في الغالب ـ فخرجتا على «سليمان» فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسكّين أشُقُّه بينكما ـ أي أقسمه نصفين كلٌّ واحدة تأخذ نصفه ـ فقالت الصغرى: لا تفعلْ يرحمك الله، هو ابنها ـ أي ظنت أنه سيقسمه نصفين، فقالت بدافع الحنان هو ابنها ـ فقضى به للصغرى» رواه البخاري ومسلم، عَرَف سليمان بطريق الحيلة أنّ الولد للصغرى، أما الكبرى فقد سكتت فعرف أنه ليس ابناً لها ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ أي وخصصنا داود بكرامة عظيمة، هي أننا جعلنا

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

الجبال تسبِّح معه، والطيور تكفُّ عن الطيران، فتردّد معه التسبيح كرامةً له منّا!! وقد كان داود رخيم الصوت، حسن الترتيل، يرتِّل الزبورَ بصوته الحنون، فتتجاوب معه الجبالُ، تُسبِّح بحمد الله، وتتجاوب معه الطيور فتردِّد معه بأصواتها الجميلة، آيةً باهرةً له، كما قال سبحانه ﴿**إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق. والطيرَ محشورة كل له أواب**﴾ أي رجَّاع معه بالتسبيح، وقد كان يُضرب المثلُ بصوت داود، كما قال المصطفى ﷺ لأبي موسى الأشعري وقد سمعه يقرأ القرآن بصوت حسنٍ: (لقد أُعطيتَ مزماراً من مزامير آل داود) رواه البخاري.

قال الحافظ ابن كثير: «كانت الطير تُسبِّح بتسبيحه، وتُرجِّع بترجيعه، إذا مرَّ الطير وهو سابحٌ في الهواء، فسمعه يترنَّم بقراءة الزبور، يكفُّ عن الطيران، ويقف على الأغصان يُسبِّح معه، وكذلك الجبال الشامخات، كانت تُرجِّع وتُسبِّح معه تبعاً له» ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ أي وعلَّمنا داود صنع الدروع، التي تُلبس في الحرب، لتمنع عنكم أذى القتال، وتقيكم شرَّ الأعداء، فاشكروا الله على نعمه الجليلة، و«داود» عليه السلام، هو أول من اخترع الدروع، فجعلها حلقات صغيرة، متداخلاً بعضها مع بعض، وكانت قبل ذلك صفائح، لا يمكن التحرك بها، والمعجزةُ فيها أنها كانت كالشمع والعجين بين يديه، لا يحتاج إلى مطرقة، ولا إحماء بنار، لقوله تعالى: ﴿**وألنّا له الحديد أن أعمل سابغات**﴾ أي دروعاً وافية تستر البدن، ثم تَعَلَّم الناسُ صناعة الدروع التي تُلبس في الحرب.. ولمَّا ذكر تعالى ما خصَّ به (داود) من خصائص عجيبة، ذكر ما خصَّ به ولده (سليمان) فقال سبحانه: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفة، أي شديدة الهبوب، تنقله من بلدٍ إلى

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۢ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾

بلدٍ، وتقطع به المسافات البعيدة الشاسعة، في فترة قصيرة، وكأنها طائرة «البوينج» كما قال سبحانه **﴿غدوُّها شهر ورواحها شهر﴾** أي تقطع به وقت الصباح مسيرةَ شهر، ووقتَ المساء مسيرة شهر، والغدوُّ: الذهاب صباحاً، والرواح الرجوع مساءً، تنقله من اليمن إلى بلاد الشام، التي بارك الله فيها، بكثرة الأشجار والأنهار والثمار، وكنا عالمين بجميع أحواله، وسخرنا له بعض مردة الشياطين، يغوصون في الماء، ويَسْبحون في أعماق البحار، ليستخرجوا له الدُرَّ والياقوت، ويعملون له أعمالاً أخرى غير الغوص، كبناء القصور الشاهقة، والقلاع الحصينة، وشقِّ الصخور، وبناء الجسور، وغير ذلك من الأعمال التي يعجز عنها البشر، وكنَّا لهم حافظين عن الخروج عن طاعته، حيث أوقعنا في نفوسهم الخوف منه، والهيبة له، وهذه من معجزاته عليه السلام ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۢ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ هذه هي القصة الخامسة، أي واذكر لقومك قصة نبيِّ الله «أيوب» حين دعا ربه بتضرع وإخبات، فقال في دعائه: يا رب لقد نالني البلاءُ، والكربُ والشدة، وأنت يا رب أرحم الراحمين فارحمني، فأجبنا دعاءه وتضرعه، وأزلنا ما أصابه من كرب وبلاء، ورزقناه مثل ما كان له من الأولاد، رحمةً منَّا به، وتذكرة للعابدين!! كان نبيُّ الله أيوب مثالاً للعبد الشاكر، والعبد الصابر، بسط الله في الدنيا، ووسَّع عليه في الرزق، وكثَّر له الأهل والمال، فكان رحيماً بالمساكين، يكفل الأيتام والأرامل، ثم ابتلاه بالشدة والكرب، بموت أولاده، وذهاب ماله، وبالمرض الشديد في بدنه، وامتدَّ به البلاءُ/ ١٨/ ثمان عشرة سنة، وهو صابرٌ على قضاء الله، ولهذا يضرب به المثل في الصبر على البلاء، فيقال: اللهمَّ صبراً كصبر أيوب ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي واذكر لقومك قصة هؤلاء الأنبياء الكرام،

وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

«إسماعيل بن إبراهيم» و«إدريس بن شيث» و«ذا الكفل» عليهم السلام، كلٌّ من هؤلاء الأنبياء، من أهل الصبر والإحسان، جاهدوا في الله، وصبروا على ما نالهم من الأذى، وأدخلناهم في الجنة دار الرحمة والرضوان ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي واذكر لقومك قصة «يونس» صاحب الحوت، نُسب إليه لأنه ابتلعه الحوتُ، وبقي في بطنه دون أن يموت، ولذلك ذُكر بالوصف، ﴿**وذا النون**﴾ حين ذهب مغاضباً لقومه، لأنه دعاهم إلى الله فاستعصوا عليه، فضاق بهم صدراً، وغادرهم مغاضباً لهم، لا لربه - كما يظن البعضُ - ولم يصبر على معاناة الدعوة، ولذلك عاتبه ربه ﴿**فظنَّ أن لن نقدر عليه**﴾ أي ظنَّ أن الله لن يُضيِّق عليه، بسبب تركه لقومه، وخروجه من بين أظهرهم، دون استئذانٍ من الله تعالى، وهذا من «القَدْر» بمعنى التضييق، كقوله سبحانه ﴿**ومن قُدِر عليه رزقُه**﴾ أي ضُيِّق عليه فيه، لا من «القُدرة» ومن ظنَّ عجز الله فهو كافر، فكيف يظنُّ نبيُّ الله (يونس) أن لن يقدر الله عليه؟ - فتنبَّهْ للمعنى فإنه دقيق - فنادى ربه في ظلمة الليل، وهو في بطن الحوت، مستغيثاً به، قائلاً لا إله إلا أنت، سبحانك يا ربِّ إني كنت ظالماً لنفسي!! فألقاه الحوتُ على الساحل، وكذلك ينجي الله أولياءه المؤمنين.. روي أن «يونس» عليه السلام لمَّا ابتلعه الحوتُ، أوحى الله إلى الحوت أن خُذه، ولا تخدشْ له لحماً، ولا تكسر له عظماً، فإني جعلتُ بطنك له سجناً، ولم أجعله لك طعاماً، فرمى به الحوتُ بعد أن مكث في بطنه يوماً ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ هذه هي القصة الثامنة في هذه السورة الكريمة، وهي قصة

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٩١ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ۝٩٢﴾

نبيِّ الله (زكريا) عليه السلام.

والمعنى: اذكر يا محمد لقومك قصة رسولنا «زكريا» حين دعا ربه وطلب منه أن يهبه ولداً، يكون من بعده نبياً، وقال في دعائه: يا رب لا تدعني وحيداً، لا ولد لي ولا سند، فإن لم ترزقني ولداً فأنت حسبي، فإنك خير سند، وخيرُ وارث!! قال ابن عباس: «كان سنُّه مائة سنة، وسنُّ زوجته تسعاً وتسعين سنة، وكانت (عقيماً) فاستجاب الله دعاءه، ورزقه ولداً على شيخوخته اسمه «يحيى» وأصلح له زوجه فجعلها ولوداً، بعد أن كانت عقيماً، وإنما استجبنا له الدعاء، لأنه كان من أسرة مؤمنة طيبة، تُسارعُ في فعل الطاعات، وعمل الصالحات، وكانوا يعبدوننا طمعاً في رحمتنا، وخوفاً من عذابنا، وكانوا خاضعين متذللين لله، وخلاصة الآية: أن الله تعالى أنالَهُ ما أنالَهُ، لأنه كان متصفاً بالإيمان واليقين، والأخلاق الحميدة، والخصال المجيدة، وهذا كالتعليل لاستجابة الدعاء من زكريا ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ هذه هي القصة التاسعة، والمعنى: واذكر يامحمد قصة «مريم» البتول، الطاهرة العفيفة، التي صانت نفسها عن مقارفة فاحشة الزنى، وعفَّت عن الزواج، فلم يمسسها بشرٌ، لا بنكاح ولا بسفاح، وبياناً لفضلها وإكراماً لها، أرسلنا إليها الروح الأمين «جبريل» فنفخ في فتحة ثوبها فحملت «بعيسى» وأضاف تعالى الروح إليه ﴿من روحنا﴾ على جهة التشريف والتعظيم، وجعلنا مريم وولدها عيسى، علامة باهرة، ومعجزة ظاهرة، وأعجوبة للخلق، يستدلون بها على قدرتنا الباهرة، التي تقول للشيء كن فيكون، وإنما قرن تعالى بين قصة زكريا وابنه يحيى، وقصة مريم وولدها عيسى، للمناسبة بينهما، لأن قصة يحيى عجيبة، حيث وُلد من شيخ كبير، جاوز المائة من العمر، وامرأة عجوز وهي أيضاً عقيمٌ لا تلد، وقصة عيسى أعجبُ وأغربُ، لأنها ولادة ولدٍ من أنثى، دون أن يكون لها زوج، وهذا في العادة مستحيل، ولكنه عند الله سهلٌ ويسير، وبعد ذكر قصص الأنبياء، وما ابتلوا به من أنواع البلاء، جاء التذكير للأمم جميعاً، بأن دين الرسل واحد، وربُّهم واحد، وكلُّهم على دين الإسلام، فلهذا قال ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ المراد بالأمة في الآية: الدينُ والمِلَّةُ، أي دينكم أيها الناسُ دينٌ واحد، هو الإسلامُ دينُ جميع الأنبياء والمرسلين،

﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

فالتوحيدُ والإسلامُ هو دين الأنبياء، كلُّهم بعثوا برسالة التوحيد، وهم متفقون في أصول العقيدة، وإن كانوا مختلفين في فروع الأحكام ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾ أما الشرائع فمختلفة ﴿**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً**﴾ فلا ينبغي أن يكون هناك اختلاف بين أهل الأديان، لأن الرسل دعوتهم واحدة، وإلٰههم واحد، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿**وأنا ربكم فاعبدون**﴾ وفي هذا تسفيهٌ لمن عبد المسيح، أو عَبَدَ الملائكة، أو عَبَد الحَجَر والشجر، أي اعبدوني وحدي، ولا تشركوا معي أحداً ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ أي اختلف الناسُ في الدين، فأصبحوا فيه شيعاً وأحزاباً، فمن موحِّد مؤمن، ومن يهودي، أو نصراني، أو مجوسي، أو عابد وَثَن وصنم، جعلوا أمر الدين قِطَعاً، ومِزَقاً، كلٌّ واحدٍ منهم يعبد الله على هواه، بينما الرسل جاءوا بدين واحد، هو «الإسلام» ومرجع الخلائق إلى الله، فيجازي كلاً بعمله، فمن يعمل شيئاً من الطاعات والقُربات ـ بشرط الإيمان ـ فالله تعالى لا يُبطل عمله، ولا يُضيع له شيئاً من جزائه، بل يجزيه عليه خير الجزاء.. مثَّل تعالى لاختلاف الأمم، وتفرقهم في الدين إلى شيع وأحزاب، بجماعة جاءوا إلى ثوب جديد فاختطفوه، فاقتطع كلُّ واحد منهم قطعة، فأصبح الثوب مِزَقاً بالية، لم يبق الثوبُ على حاله يُنتفع منه، ولا هم استفادوا مما في أيديهم من القطع الممزَّقة، ولهذا جاء التعبير بقوله ﴿**وتقطعوا أمرهم بينهم**﴾ فما أروعه من تصوير!! وما أبدعه من تمثيل!! ومعنى قوله ﴿**فلا كفران**﴾ أي لا جحود ولا حرمان، ولا تضييع، مصدر كَفَر، يُقال: كُفْرٌ، وكُفْرانٌ ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي وممتنعٌ على أهل قريةٍ أهلكناها، أن يرجعوا إلى الدنيا مرة ثانية، هذا أظهر الأقوال في معنى الآية الكريمة، وهو قول ابن عباس، بمعنى أنه بعد الهلاك، لا عودة إلى الحياة مرة ثانية ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ الحَدَبُ: المرتفعُ من الأرض، كالهضبة، والتَلّ، والمراد بفتح يأجوج ومأجوج: فتحُ السدّ، **والمعنى**: حتى إذا فُتح سدُّ يأجوج ومأجوج ـ وهو الذي

﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٩٧) إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ (٩٨) لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٩٩)﴾

بناه ذو القرنين، وجُعل خرابُه علامةً لقيام الساعة ـ وقبائلُ يأجوج ومأجوج لكثرتهم، من كل مرتفع من الأرض، يسرعون النزول للفساد، حيث يأكلون الزرعَ، ويفسدون الضرع، ولا يتركون شيئاً إلاّ خرّبوه ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي اقترب وقت حساب البشر، وذلك يوم القيامة، فإذا أبصار الكافرين شاخصة ـ أي مرتفعةٌ أجفانُها لا تكاد تَطْرِف من هول ذلك اليوم العصيب، يقولون: يا حسرتنا ويا هلاكنا، لقد كنا في الدنيا في غفلة تامة، عن هذا اليوم الرهيب، والمصير المشئوم، بل لم نكن غافلين لأن الرسل حذَّرتنا وذكَّرتنا، بل كنا ظالمين لأنفسنا بتعريضها للعذاب الخالد، وصفوة القول في هذه الآيات، أن الناس لا يرجعون إلى الحياة، حتى تزلزل الأرض زلزالها، ويختل نظامُ هذا الكون، ويموج الأمم بعضها ببعض، من شدة الهول والكرب الذي هم فيه، ويخرج الكفار من القبور شاخصةً أبصارهم، لا يدرون ما يفعلون، حينئذٍ تكون العودة إلى الحياة، كماقال سبحانه **﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً. وعرضنا جهنم يومئذٍ للكافرين عرضاً﴾** ثم جاء الحديث عن الكفار، الذين عبدوا الأوثان والأحجار، وعن عاقبتهم الوخيمة فقال سبحانه ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ أي إنكم يا معشر الكفار، وما تعبدونه من الأصنام والأحجار، (حَصَبُ جهنم) أي حطب جهنم ووقودها، التي بها تُسعَّر الجحيمُ، أنتم داخلوها مع الآلهة التي عبدتموها من دون الله، والتعبيرُ بقوله **﴿حَصَبُ جهنم﴾** للتحقير، كأن المشركين مع آلهتهم المزعومة حجارة من حصباء، تُقذف في جهنم قذفاً، دون ما رفقٍ ولا أناة، كما يقذف الإنسان بالنوىٰ، ففي هذا التمثيل تصغيرٌ وتحقير، وإنما يُجمع بينهم وبين الآلهة في نار الجحيم، لزيادة غمِّهم وحسرتهم، حيث يرون آلهتهم التي كانوا يؤمِّلون في نصرتها وشفاعتهم، معهم في عذاب السعير ﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي لو كانت هذه الأصنام التي

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ۝١٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝١٠١ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ۝١٠٢ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝١٠٣﴾

عبدوها، آلهة كما يزعمون، ما دخلوا جهنم، ولا وردوا عليها، وكلٌّ من العابدين والمعبودين، مخلَّدون في نار الجحيم، لا خلاصَ لهم منها أبداً ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لهم في جهنم أنينٌ، وزفيرٌ، وهو صوتُ دخول النَّفَس وخروجه من الرئتين، وهم في أطباق جهنم، لا يسمع بعضهم صوت بعض، لشدة الهول، وفظاعة العذاب، وفي السماع نوعُ أُنسٍ فلا يُعطونه، كما يُقال: البلاءُ إذا عمَّ خفَّ وهان. . يُروى أن الآية لمَّا نزلت ﴿**إنكم وما تعبدون من دون الله حصبُ جهنم**﴾ جاء أحد المشركين إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد: أتزعم أن كلَّ من عُبد من دون الله في جهنم مع عابديه!! فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبدُ المسيح عيسى، فنحن نرضى أن نكون معهم في الجحيم، وظنَّ الأحمقُ أنه أقام الحجة على الرسول ﷺ، وما درى أن اللفظ جاء بلفظ (ما) وهي لما لا يعقل ﴿**إنكم وما تعبدون**﴾ ولم يقل: ومَنْ تعبدون، فالملائكة، وعزير، وعيسى، لم يدخلوا في هذا النصّ، ويُحكى أن النبي قال له: ما أجهلكَ بلغة قومك (ما) لما لا يعقل، **قال ابن كثير**: وهذا الذي قاله ابن الزِّبعري خطأ كبيرٌ، لأن الآية نزلت خطاباً لأهل مكة، في عبادتهم الأصنام، التي هي جماد لا تعقل، ليكون ذلك تقريعاً وتوبيخاً لعابديها، فكيف يورد هذا على (المسيح)، و(عُزَير)، وغيرهما ممن له عمل صالح، ولم يرضَ بعبادة من عَبَده!! قال: وعوَّل ابن جرير في تفسيره في الجواب، أن «ما» لما لا يعقل عند العرب». . ولمَّا ذكر تعالى حال أهل النار، أعقبه تعالى بذكر حال السعداء الأبرار، فقال سبحانه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ أي إن الذين سبقت لهم من الله السعادة، هم عن النار مبعدون، لا يَصْلَون حرَّها، ولا يرون أهوالها، لأنهم في الجنة يُنعَّمون ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ الحسيسُ: الصوتُ الخفيفُ الضعيفُ، أي لا يسمعون حِسَّ النار، ولا حركة لهبها وصوتها، ولو أدنى شيء، فضلاً عن رؤية العذاب ومعاناته،

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

ولهم في الجنة ما تشتهيه نفوسهم، من كلِّ ما لذَّ وطاب، مع الإقامة الدائمة في جِنان الخلد، لا تصيبهم أهوال القيامة، ولا ينالهم الفزع الأكبر الذي يُذهل المشركين، حين تَزْفُر جهنم زفرةً، لا يبقى أحدٌ من أهل النار، إلاَّ خرَّ على وجهه، وتتلقاهم الملائكةُ مهنئين لهم، قائلين: هذا يوم السعادة والنعيم، الذي وعدكم به ربُّ العزة والجلال ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي اذكر يوم نطوي السماء طَيّاً، مثلَ طيِّ الصحيفة على ما كُتب فيها، ونحشر الخلائق حُفاة، عُراةً، على الصورة التي بدأنا خلقهم فيها، وعداً مؤكداً علينا، لا يُبدَّل ولا يُخلف، لأنَّا قادرون على ما نشاء، وهو تأكيدٌ لمجيء البعث، روى البخاري عن ابن عباس أنه قال: (خطب النبي ﷺ فقال: يا أيها الناسُ، إنكم محشورون إلى الله حُفاةً، عُرَاة، غُرْلاً ـ أي بدون ختان ـ وهي الجلدة التي تُقطع من الغلام عند الولادة ـ ﴿**كما بدأنا أول خلقٍ نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين**﴾ ألاَ إن أول الخلائق يُكسى يوم القيامة: إبراهيمُ عليه السلام ـ أي لأنه أُحرق من أجلِ الله في النار ـ ألاَ وإنه سَيُجاء برجالٍ من أمتي، فيُؤخذ بهم ذات الشمال ـ أي إلى النار ـ فأقول يا رب: أصحابي، فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك؟ إنهم لم يزالوا مرتدِّين على أعقابهم بعد أن فارقتهم، فأقول: «سُحقاً، سُحقاً») رواه البخاري ومسلم ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ أي سطَّرنا في الكتاب المقدَّس «الزبور» المنزل على داود عليه السلام، من بعد ما سطَّرنا في اللوح المحفوظ، أن الأرضَ ميراثٌ للمؤمنين الصالحين، الذين يصلحونها بالعبادة، والطاعة، فعليهم أن يستنقذوها من أيدي الكفار الأشرار، بالكفاح والنضال، وبالجهاد المقدس، وقيل: المراد بها (أرض الجنة)، لأن أرض الدنيا ورثها الصالحون وغيرهم، والأظهر القولُ الأول، يرثها المؤمنون بالفتوح والجهاد المقدَّس، لقوله سبحانه ﴿**وعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض**﴾ ثم قال تعالى ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي لموعظة

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

وتذكرة لعباد الله الصالحين، وما أرسلناك يا محمد إلا رحمة لجميع الخلق، لإنقاذك البشرية من شقاء الجاهلية، وبراثن الوثنية، وفي الحديث الشريف «إنما أنا رحمةٌ مهداة» وعن أبي هريرة أنه قال: (قيل يا رسول الله: أُدعُ الله على المشركين، فقال ﷺ: إني لم أُبعث لعَّاناً، وإنما بُعثت رحمة) أخرجه مسلم ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي قل لهم: إن إلهكم المستحق للعبادة، هو الله الرحمٰن الرحيم، لا إله غيره، ولا معبود بحق سواه، فأسلموا له وانقادوا لحكمه وأمره ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أي فإن أعرضوا عن الإسلام، وقبول دعوة الرحمن، فقل لهم: لقد أعلمتكم بالحقِّ، ودعوتكم إليه، على بيّنة وبصيرة، ولم أخصَّ بعضكم به، بل أرشدتكم إليه جميعاً، ولستُ أعلم متى يجيء العذاب الذي أنذركم الله به؟ ولا متى تأتي الساعة؟ لأنه من الغيب الذي اختصَّ الله بعلمه ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي وما أدري لعلَّ تأخير عقوبتكم، امتحانٌ وابتلاء لكم، لتزيد آثامكم ومعاصيكم، ويزيد عذابكم وبلاؤكم، ولعله إلى أجلٍ محدودٍ في علم الله ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي قال الرسول داعياً ربه: يا رب احكم بيني وبين هؤلاء الأشقياء المجرمين، بحكمك العادل، وافصل بيننا بالحقِّ، وأنت ربُّنا الرحمٰن، الذي نستعين به على هؤلاء الكفار، وما يتقوَّلونه من أكاذيب، أنت يا رب نعم العون ونعم النصير!! وقد استجاب الله دعاء رسوله، فأهلكهم الله يوم بدر، ونصر رسوله وعباده المؤمنين!

انتهى تفسير سورة الأنبياء

● ● ●

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣﴾

تفسير سورة الحج

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ خطابٌ لجميع البشر إلى يوم القيامة، أي احذروا يا معشر الخلائق عقاب الله، واتقوا ربكم بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن الزلزال الذي يكون بين يدي الساعة، شيء مفزعٌ مخيف، لا يكاد أحدٌ يتصوَّر شدَّته وهوله ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب الرهيب، الذي تكون فيه الزلزلة، تغفل وتنسى الأم المرضعةُ ولدها، وهو أعزُّ مخلوق لديها،وتُسقط كلُّ امرأةٍ حامل، ما في بطنها من حمل، من شدة الرعب والفزع، وترى الناس يومئذٍ سُكارى، يترنحون ترنُّح السكران، وما هم بسكارى من الخمر، ولكنه هولُ العذاب، الذي ينزل بهم، مما يشيب له الولدان، وتطير له القلوب، هَلعاً وفزعاً، رُوي أن الله عزَّ وجل يقول لآدم يومَ القيامة: (يا آدمُ أَخرجْ بعثَ النار من ذريتك!! قال يا رب: وما بعثُ النار؟ ـ أي كم عدده ومقداره ـ قال: من كل ألفٍ تسعمائة وتسعة وتسعون، فحينئذٍ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد ﴿**وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد**﴾ فشقَّ ذلك على الناس حتى تغيَّرتْ وجوههم، فقال لهم ﷺ: «من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد، ما أنتم في الناس، إلاَّ كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود) رواه البخاري ومسلم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ أي ومن الناس من ينازع ويخاصم في وجود

كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا

الله ووحدانيته، وفي قدرته على إحياء الناس بعد الموت والفناء، بلا علمٍ ولا حجة، ويتَّبع في أباطيله كلَّ عاتٍ متمرِّدٍ، من رؤساء الكفر والضلال، نزلت في «النضر بن الحارث» كان كثير الجدل، يقول: لا بعث بعد الموت، والقرآن أساطيرُ الأولين، والملائكةُ بنات الله.. إلى آخر تلك الأباطيل، والآية عامةٌ في كل من كان على شاكلته من العُتاة المتمردين ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي حكم الله وقضى على أن من تولَّى الشيطانَ، واتخذه ولياً، فأنه يُشقيه، ويوصله إلى نار جهنم المستعرة يحترق فيها، وعبَّر بلفظ (يهديه) على طريقة التهكُّم، لأن الهداية تكون إلى الجنة، لا إلى نار السعير.. ثم ذكر تعالى دليلين واضحين، على إمكان البعث، وأنه حقيقةٌ لا بدَّ منها: الأول: في خلق الإنسان في أطوار، والثاني في خلق النبات والفواكه والثمار، من تربة الأرض، فقال سبحانه في الأول ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي إن كنتم تشكُّون في قدرتنا على إحيائكم بعد موتكم، فانظروا في أصل خلقتكم، ومبدأ نشأتكم، فقد خلقناكم من التراب، في ضمن خلق أبيكم «آدم» ثمَّ من النطفة وهي المنيّ الذي يحصل من الغذاء، وهو ماء مهين، ثم من العلقة وهي شيء متجمدٌ من المنيّ يعلق بجدار الرحم، ثم من المضغة وهي قطعة من اللحم صغيرة بمقدار اللقمة التي يمضغها الإنسان، هذه المضغة إمَّا أن تصبح مستبينة الخلق، يظهر فيها بعضُ الأعضاء، كالرأس، واليد، والرجل، أو غير مخلَّقة أي لم يستَبِن خَلقُها، خلقناكم على هذا النموذج البديع، لنبيِّن لكم عظمة قدرتنا، وأن من قدر على خلق الإنسان من التراب، وهو جمادٌ لا روحَ فيه، قادرٌ على إعادة الإنسان بعد فنائه، ثم بعد هذه الأطوار (النطفة، العلقة، المضغة) نثبت في أرحام الأمهات، من نريد إحياءه، وإيجاده، إلى أن يستكمل مدته،

ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٧﴾

إلى وقت الوضع، وهو تسعة شهور، ثم نخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ أي ثم لتبلغوا كمال قوتكم ورشدكم، ومنكم من يموت في ريعان شبابه، ومنكم من يُعَمَّر حتى يصل إلى سنِّ الشيخوخة والهرم، فيضعف عقلُه، وتذهب قوتُه، وربما وصل إلى درجة الخَرَف، فعاد كما كان في إبَّان الطفولة، ضعيفاً في بدنه، وسمعه، وبصره، وسائر حواسه، فينسى ما عَلِمَه، وينكر ما عرفه، ويعجز عمَّا كان يقدر عليه، كما قال سبحانه ﴿**ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون**﴾؟ هذ هو حال الإنسان، يمر في أدوار وأطوار، أفيعجز الذي خلقه في هذه الأطوار، أن يعيده إلى الحياة مرة أخرى، بعد مماته؟ أمَّا **البرهان الثاني** على إمكان البعث فهو في النبات، وإليه الإشارة بقوله سبحانه ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ أي وترى أيها المخاطب الأرض ميِّتة يابسة، لا زرع فيها ولا نبات، فإذا أنزلنا عليها المطر، دبَّتْ فيها الحياة، فانتفخت وزادت، وظهر فيها النباتُ والثمر، وأخرجت من كل صنفٍ عجيب، ما يسرُّ الناظر ببهائه، وحسن منظره، مع اختلاف الأشكال، والطعوم، والروائح، بعد أن كانت ميتة، فمن الذي أحياها بعد الموت؟ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ أي ذلك الصنع البديع، لتستدلوا على وجود الإله الحق، المبدع الحكيم، ولتعلموا أنه القادر على إحياء الموتى، كما أحيا الأرض الميتة بالنبات، ولتعلموا قدرة الله الفائقة، وأن القيامة قادمة لا شكَّ في مجيئها، وأن الله يبعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء!!

عن أبي رُزَين العقيلي أنه قال: (قلتُ يا رسول الله: كيف يحيى الله الموتى؟ وما آيةُ ـ

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾

أي علامةُ ـ ذلك في خلقه؟ فقال ﷺ: أَمَا مررتَ بوادي أهلك مُمْحِلاً ـ أي مجدباً ـ قلتُ: بلى، قال: ثم مررتَ به يهتزُّ خَضِراً؟ قلت: بلى، قال: فكذلك يحيي الله الموتى، وذلك آيتُه في خلقه) رواه أحمد ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ أي ومن الناس من يخاصم ويجادل في شأنه تعالى، وفي قدرته ووحدانيته، من غير عقلٍ صحيح، ولا نقلٍ صريح، بل بمجرد الرأي والهوى، يقول ما يقول عن جهل، وهو يجادل بالباطل ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ العِطْفُ: الجانب، وثنيُ العطف: كنايةٌ عن الغطرسة والكبرياء، أي لاوياً عنقه تكبراً، معرضاً عن الحقِّ إذا دُعي إليه، ليصدَّ الناس عن دين الله وشرعه، له الذلُّ والهوانُ في الدنيا، مقابل كِبَرِه وغطرسته، أمَّا عذابه في الآخرة فهو أشدُّ وأوجع، حيث نذيقه النار المحرقة ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أي ذلك الخزيُ والعذابُ، بسبب ما اقترفتَ من الكفر والضلال، وصدِّك الناسَ عن دين الله، وأن الله عادل، لا يعذِّب أحداً بدون ذنب.. كرَّر تعالى هذه الآية على وجه التوبيخ؛ فكأنه يقول: هذه الأمثالُ التي ذكرناها، في غاية الوضوح والبيان، ومع ذلك فإن من الناس من يجادل في الله ويخاصم في آياته، بغير دليل ولا برهان ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ الآيات السابقة تحدثت عن أهل الكفر، وهذه الآيات تتحدث عن أهل النفاق، المذبذبين في أمر الدين، الذين يزنون العقيدة بميزان الربح والخسارة، ويظنونها صفقة رابحة في سوق التجارة.

والمعنى: ومن الناس فريقٌ مذبذب، يعبد الله على جانب وطَرَف من الدين، لا ثبات

يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥٓ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

له ولا استقرار، فإن ناله خيرٌ دُنيويٌّ من صحة، ونعمةٍ، ومالٍ، ثبت على دينه ظاهراً، وإن أصابه ضيقٌ في عيشه، أو مرضٌ في جسده، ارتدَّ فرجع إلى الكفر، فخسر دنياه وآخرته، وذلك هو الخسران الكبير الواضح، الذي لا خسران مثله!! شبَّه تعالى حال المنافق، وما هو عليه من التقلُّب والاضطراب، في أمر الدين، برجل وقف على طرف هاويةٍ سحيقة، يريد الصلاة، لم يقف على أرضٍ صلبة راسخة، ولا على ركيزة ثابتة، فإنه إن أصابته عاصفة هوى إلى ذلك الوادي السحيق، ويا له من تمثيل رائع بديع!! ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥٓ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ أي يعبد هذا الشقيُّ الخاسر، إلهاً وثَناً جماداً ليس من شأنه الضرُّ والنفع، لا يجلب له نفعاً، ولا يدفع عنه ضراً، وذلك منتهى الضلال والخسران، يعتمد على شفاعة الأصنام، وضَرَرُها أكبر من نفعها، لو سلَّمنا ـ فَرَضاً ـ أن لها شيئاً من النفع والضُرِّ، فضررها أكبر من نفعها، فبئس هذا الناصر، وبئس القريبُ والصاحبُ!! والآية سيقت تسفيهاً وتجهيلاً لمن يعتقد أنه ينتفع بعبادة غير الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ لمَّا ذكر تعالى حال الكفار والمنافقين، أعقبه بذكر حال المؤمنين، وما لهم عند الله من النعيم والكرامة، والمعنى: إن الله يدخل المؤمنين الصادقين (جناتٍ) أي حدائق وبساتين، تجري من تحت غرفها وقصورها أنهارُ الجنة، يتمتعون في الجنة بما لذَّ وطاب، إن الله يفعل ما يشاء، لا معقِّب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه، يُدْخِل المؤمنين الجنة بفضله، ويدخل الكافرين النارَ بعدله، ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ أي من كان يزعجه ظهورُ دين محمد ﷺ، من الكفار والفجار، ويعتقد بأن الله لن

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ

ينصر رسوله، في الدنيا والآخرة، فليربطْ حبلاً في سقف بيته، ولْيقتلْ نفسه شنقاً، فلْينظر بعد ذلك، هل يذهب ما في صدره، من الغيظ والحقدِ على محمد رسول الله؟ وهذا أسلوب سخريةٍ وتهكم بأعداء الإسلام، فإن الأحمق هو الذي يتشفَّى من عدوِّه بقتل نفسه، وذلك نهاية السَّفه والجهل!! والآيةُ أشارت إلى (الشَّنق)، الذي تستعمله بعضُ الدول، بالمجرمين الكبار، وهي موتةٌ فظيعة شنيعة، لأن الروح تُزهق بالخنق شيئاً فشيئاً، ويبقى عنقه معلَّقاً بالحبل، وجسده يترنح فوق الأرض، جنَّبنا الله وإيَّاكم موتة السُّوء ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ أي وكما وعدنا محمداً بالنصر على أعدائه، كذلك أنزلنا عليكم هذا القرآن، آياته واضحات، وأحكامه قاطعات، وحججه ساطعات، ليهتدي به من أراد الله هدايته، وإرشاده إلى سبيل الخير والسلام ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ ذكر تعالى أصحاب الديانات المختلفة، وأنه سبحانه هو الذي يقضي بينهم يوم القيامة، بحكمه العادل، وهو العالم بما في عقائدهم من حقٍّ وباطل، وسيجازي كلاً منهم بما يستحقه من ثواب أو عقاب، وقد ذكر منهم ستة أنواع: (المؤمنين، واليهود، والصابئين، والنصارى، والمجوس، والمشركين) خمسةُ فِرَقٍ منهم للشيطان، وواحدٌ للرحمٰن، فالمؤمنون هم أصحاب الدين الحقِّ، لأنهم صدَّقوا خاتم المرسلين، وآمنوا بجميع النبيِّين، والفِرَقُ الباقية هم (حزب الشيطان) لهم العذاب والدمار، فالمؤمنون يدخلهم الله الجنة، والكافرون يدخلهم الله النار، وهو سبحانه الشاهد على أعمال العباد، يعلم المؤمن والكافر، والبرَّ والفاجر ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ

ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾

ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ أي ألم تر أيها المخاطَبُ العاقل، أن كلَّ ما في الكون، خاضعٌ لأمر الله، ساجدٌ له، سجود خضوع وإذعان، لا يخالف الأمر، وكلُّ المخلوقات شاهدة لله بالوحدانية (الشمسُ، والقمرُ، والنجوم، والأشجار، والجبالُ، والبحارُ، والدوابُّ والأنعام). كلُّ هذه المخلوقات، تسجد لعظمة الله، سجود انقيادٍ وخضوع، في موكِب خاشع، يظهر فيها انقيادُها وسيرُها بالنظام الذي وضعه الخلاَّق لها، وكثير من الناس يسجد لله سجود طاعة وعبادة، وكثير منهم آخرون لا يسجدون ويتكبَّرون عن عبادة الله، وهؤلاء وجب لهم العذاب بكفرهم وتمرُّدهم، ومن أهانه الله بكفره وضلاله، فلا يقدر أحد على إعزازه، إن الله يفعل ما يريده، يُعزُّ ويذلُّ، ويُغني ويُفقر، ويُعذِّب ويرحم، ولا اعتراض لأحد عليه!! ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ أي هـذان فريقان مختصمان: فريقُ (المؤمنين المتقين)، وفريق (الكفرة المجرمين)، اختلفوا وتنازعوا بسبب الدين، لم تكن خصومتهم من أجل دنيا، ولا من أجل مال، إنما كانت الخصومة والعداوة في الله، ومن أجل الله، فالكفار فُصِّلَتْ لهم ثياب من نار، على قدر أجسادهم، يُصبُّ على رؤوسهم الماء الحار، الذي بلغ الغاية في الحرارة ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي يُذيب ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء، كما يذيب الجلود، ولهم سياط من الحديد، يُضربون بها ويُدفعون، وكلما أرادوا الخروج من النار، ردُّوا إلى أماكنهم فيها، وذوقوا العذاب المحرق في نار الجحيم، وفي الحديث (إن الحميم ليُصبُّ على رءوسهم، فينفذ الجُمْجمةَ، حتى يَخْلُص إلى جوفه، فيسلت ما في جوفه، حتى

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

يَمْرُقَ من قدميه، وهو الصَّهْرُ، ثم يُعاد كما كان) رواه الترمذي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ لمَّا ذكر تعالى عذاب أهل النار، ذكر نعيم أهل الجنة، للجمع بين الترهيب والترغيب، أي وأمَّا المؤمنون الأبرار، فيدخلهم ربهم في جنان الخلد والنعيم، تجري من تحت قصورها ومساكنها أنهارُ الجنة، من الخمر، والعسل، واللَّبَن، والماء السلسبيل، وحليتهم فيها الذهبُ واللؤلؤ، ولباسُهم فيها الحرير، على عكس الكفار، الذين تُفصَّل لهم ثياب من النَّار ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي وهداهم الله في الجنة، إلى القول الطيب، من الكلام الذي يحبُّه الله، كقولهم: **﴿الحمدُ لله الذي هدانا لهذا﴾** والتسبيح، والتحميد، والتكبير، والحديث النافع، حيث لا لغو في الجنةِ ولا كذب، ولا سفاهة ولا فجور، وأرشدهم إلى الطريق الحميد، طريق أهل السعادة والهناء، حيث لا همَّ ولا كدر، ولا مشقة، ولا تعب ولا نصب، إنما هي الطمأنينةُ والراحة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قال ابن عباس: نزلت في مشركي مكة، حين صدُّوا رسولَ الله والمؤمنين، (عام الحديبية) عن دخول المسجد الحرام، وقد جاء معتمراً مع أصحابه، وكره ﷺ أن يقاتلهم، حرمةً لبيت الله العتيق، ثم صالحوه على أن يدخلها في العام القابل، **والمعنى**: إن الذين جحدوا وحدانية الله، وكذَّبوا رسوله، ومنعوا المؤمنين عن دخول المسجد الحرام، لأداء المناسك فيه، هذ المسجد الذي جعلناه منسكاً ومتعبداً لجميع الخلق، يتساوى في حقّ دخوله: المقيمُ الساكنُ فيه، والبادي الذي

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾

يأتي من الباديةِ من خارج البلاد، ومن يقصد مكة بسوء، نذقه أشدَّ أنواع العذاب الأليم!

قال ابن مسعود: (ما من رجل يهمُّ بسيئة فتُكتب عليه، إلاّ البلدَ الحرام، ولو أن رجلاً بعَدَن، همَّ أن يقتل رجلاً بهذا البيت، لأذاقه الله من العذاب الأليم) رواه أحمد، وهذا من خصائص الحرم، أن يُعاقب فيه الإنسان بمجردُ النية وإن لم يفعله، نسأل الله أن يرزقنا الأدب فيه.. وبمناسبة ذكر المسجد الحرام، يذكرُ اللهُ المشركين، بأن الذي بنىٰ هذا البيتَ، هو أبوهم (إبراهيم) خليلُ الرحمٰن الذي يفخرون بالانتساب إليه، ثم هم يصدُّون المؤمنين، عن إقامة الشعائر فيه، ويجعلونه مركزاً للشرك وعبادة الأوثان، فيقول سبحانه ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي اذكر لقومك حين أرشدنا إبراهيم، وألهمناه إلى مكان البيت، وأمرناه ببنائه خالصاً لله، على أساس الإخلاص والتوحيد، ليكون قبلةً لأهل الأرض من المؤمنين، وقلنا له: اجعله حصناً للتوحيد، وطهِّره من الأوثان، لمن يتعبَّد الله فيه، من الطائفين، والمصلِّين لله، المكثرين من الركوع والسجود، طلباً لرضى الرحمٰن ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي ونادِ يا إبراهيم عبادي لحج بيتي العتيق، ﴿يأتوك رجالاً﴾ جمعُ راجل، وهو الذي يمشي على رجليه، أي يأتوك مُشاةً يسعون على أقدامهم، أو ركوباً على كل جملٍ هزيل، قد أتعبه وأنهكه بُعْدُ المسافةِ، تأتي هذه الإبل الضامرة الهزيلةُ، من كل طريق بعيد، وأعاد الضمير إلى الإبل (يأتين) تكرمةً لها وتشريفاً، كأنها قصدت الحج مع أربابها ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ أي ليحصلوا على منافع لهم كثيرة، دينية، ودنيوية، أمَّا المنافع الدينية، فمنها نيلُ رضوان الله، ومغفرةُ الذنوب، وتقوية

ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَٰنِ وَاجْتَنِبُواْ قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾

الروابط الأخوية الإيمانية، مع إخوانهم المؤمنين، وأمَّا المنافع الدنيوية، فهي ما يصيبونه من الكسب في التجارة، التي أباحها الله للحُجَّاج، ومنافع الذبائح من الضحايا والقرابين، وما يجلبونه إلى أوطانهم، من أنواع السِّلع، والهدايا الثمينة، فقد اجتمعت منافع الدنيا مع الآخرة، وليذكروا عند ذبح الأنعام وهي (الإبلُ، والبقر، والغنم) اسم الله الجليل، في أيام النحر، شكراً لله على نعمائه، حيث ملَّكهم هذه الأنعام، فكلوا يا معشر الحجاج من لحوم الأضاحي والهدايا، وأطعموا منها الفقير والمعدوم.. أمرهم تعالى أن يذكروا اسم الله عند ذبح هذه الأنعام، لتبقى خالصةً لوجه الله، لا كما كان المشركون يذبحونها للأوثان والأصنام، ولا يذكرون اسم الله عند ذبحها ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ التَّفَثُ: الوَسَخُ، أي ثم بعد ذبح الأنعام، ليزيلوا ما علق بهم من الأوساخ، فيحلقوا شعر رءوسهم، ويُقلِّموا الأظفار، ويأخذوا من الشوارب، ويزيلوا عنهم كلَّ القذارات، بالتطهر التام، والتطيب، ولبس ما كان ممنوعاً عليهم وقت الإحرام، وينبغي عليهم أن يأتوا بما نذروه على أنفسهم من أعمال البر، وأن يطوفوا (طواف الإفاضة)، الذي هو ركنٌ من أركان الحج بالكعبة المشرَّفة، بعد النزول من عرفات، ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَٰنِ وَاجْتَنِبُواْ قَوْلَ الزُّورِ﴾ أي هذا الذي أمرناكم به من الطاعات، في أداء مناسك الحج، إنما هو لمصلحتكم ومنفعتكم، ومن يجتنب معاصي الله ومحارمه، ويستشعر في نفسه الخوف من الله، ينال رضوان الله، وله الخيرُ الكثيرُ، والثوابُ الجزيل، وأحلَّ الله لكم أيها المؤمنون جميع الأنعام، إلا ما استثناه في كتابه المجيد، في آية المحرمات، كالميتة، والمنخنقة، والموقوذة، وما ذُبح لغير الله **﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾** الرجس: النَّجس والقذر، أي ابتعدوا عن عبادة الأوثان، التي هي رجسٌ ونجس،

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾

كما تتجنَّبون النجاسات، وابتعدوا أيضاً عن شهادة الزور، التي هي قرينةُ الإشراك بالله، فإن كلاً منهما ذنبٌ كبير، وجُرم خطير، كما في الحديث الشريف «يا أيها الناسُ عدَلَتْ شهادةُ الزور الإشركَ بالله، ثم قرأ ﷺ **﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾** رواه الترمذي وأبو داود، وإنما جُعلت شهادة الزور في صف عبادة الأوثان، لأن ادعاء أنها آلهة، كذبٌ وافتراء على الله، كما أن شهادة الزور كذب وبهتان على الناس ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ حنفاء أي مائلين عن الشرك، إلى الإيمان والتوحيد، غير مشركين مع الله أحداً، من بشر أو حجر، وسُمِّي سيدنا «إبراهيم» إمام الحنفاء، لأنه حطَّم الأوثان، وأعلن العبودية للواحد الديَّان، وقد كان المشركون في جاهليتهم، يشركون في تلبيتهم، فيقولون: «لبَّيك لا شريك لك، إلاَّ شريكاً هو لك، تملكه وما مَلَك» فأمر المسلمون أن يُنزِّهوا الله عن الشريك والنظير، وأن يعلنوا التوحيد الخالص له.. ثم ضرب تعالى مثلاً للمشرك، في ضلاله وهلاكه، في غاية الوضوح والإبداع، فقال سبحانه **﴿ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطيرُ﴾** أي ومن أشرك بالله، فمثله كمثل الذي سقط من السماء، من علوٍّ شاهق، فتخطَّفته الطَّيرُ، فمزَّقته كل ممزَّق، لأنه سقط من أوج الإيمان، إلى حضيض الكفر **﴿أو تهوى به الريح في مكان سحيق﴾** أي أو هوى من السماء، فقذفت به الريح من العلياء، بعيداً عن الأنظار، في هوَّة سحيقة ليس لها قرار، فتحطَّم وتكسَّر، ويا له من تمثيلٍ رائع في منتهى الوضوح والبيان!! ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ أي هذا الذي أرشدناكم إليه، هو الذي ينبغي أن تستمسكوا به، فتعظِّموا شعائر الله، وهي أوامرُه ونواهيه، ومن هذه الشعائر أمرُ المناسك، والأضاحي، والهدايا، فإنها من معالم الحج وشعائره، وتعظيمُهَا من أعمال المتقين لله، الذين يحبهم الله، وأضاف التقوى إلى القلوب، لأن القلب محلُّها وموطنها، وقد قال ﷺ: «التقوى ههنا وأشار إلى صدره»، والله تبارك وتعالى، لا ينظر إلى الصور والأجساد، وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال

لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي لكم في هذه الأضاحي والهدايا، التي تهدونها إلى بيت الله الحرام، منافع عديدة وكثيرة، من (الدرّ، والنَّسل، والركوب)، إلى وقت أداء المناسك، ثم مكان ذبحها في الحرم، بمكة، أو بمنى، لأنها مهداة إلى فقراء الحرم، كما قال سبحانه ﴿هدياً بالغ الكعبة﴾ رأى ﷺ رجلاً يسوق بدنة ـ أي ناقةً ـ فقال له: اركبها، قال: إنها بدنة!! ـ أي مهداةٌ إلى بيت الله الحرام ـ قال: اركبها ويلكَ، في الثانية أو الثالثة» رواه البخاري، أي كرَّرها عليه في المرة الثانية، أو الثالثة، فهذا يدل على جواز الانتفاع بالهدايا، إلى وقت ذبحها ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ أي ولكل أهل دينٍ، من الأمم السابقة، من عهد إبراهيم عليه السلام، شرعنا لهم ما يذبحونه من الذبائح، وما يتقربون به إلى الله من أنواع القرابين، ليذكروا اسم الله عند ذبحها، ويشكروه على ما أحلَّه لهم، وأنعم به عليهم، من أنواع الأنعام المأكولة اللحم، ويذبحوها على اسم الله وحده، لا لأحدٍ من الملوك، أو الأوثان والأحجار، فمعبودكم وإلهكم أيها الناس إله واحد، فأسلموا له العبادة، وأخلصوا له العمل، واستسلموا لحكمه وقضائه، وبشر الخاشعين الخاضعين لله، بالفوز بالرضى وجنات النعيم... ثم وضَّح تعالى صفات هؤلاء الخاشعين، المتواضعين لله، فقال ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي هؤلاء المؤمنون الخاشعون لربهم، هم الذين إذا سمعوا اسم الله الجليل، خافت وفزعت قلوبهم، لإشراق نور جلاله عليها، والصابرين على المصائب والبلايا، ومشاقّ التكاليف الشرعية، من صلاة وصيام وبُعدٍ عن المحرمات، والمحافظين على إقامة الصلاة، وينفقون بعضَ أموالهم، ابتغاء مرضاة الله ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ البُدْنَ:

﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٧﴾

(الإبلُ والبقرُ) جمع بَدَنة، سميت «بُدْناً» لعظم بدنها، وضخامة أجسامها، جعلها الله لكم من شعائر الدين، لأنها تهدىٰ إلى بيت الله الحرام، وتُذبح على اسم الله، وتوزَّع لحومها للفقراء والمساكين، وهي أفضلُ ما يُهدى من الأنعام، وقد أهدى رسولُ الله ﷺ في حجة الوداع مائة بَدَنة، كما في الصحيح، لكم فيها نفعٌ في الدنيا، وأجرٌ في الآخرة، وفي الحديث الصحيح عن عائشة أن النبي ﷺ قال: (ما عمِلَ ابنُ آدم يوم النحر، عملاً أحبَّ إلى الله من إهراق الدم ـ أي ذبح الضحايا والهدايا ـ وإنها لتأتي يوم القيامة بقرونها، وأظلافها، وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان، قبل أن يقع من الأرض، فطيبوا بها نفساً) رواه ابن ماجه والترمذي. ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أي اذكروا اسم الله العظيم عند ذبحها، وقولوا: «باسم الله والله أكبر» وانحروا هذه الإبل قائمة، ولا تنحروها مضطَّجعة، فإذا سقطت جنوبها على الأرض بعد النحر، فكلوا من هذه الأضحي والهديا، وأطعموا (القانع) أي العفيف الذي يقنع بما يُعطى، من غير سؤال ولا إلحاح، (والمعترَّ) أي الفقير السائل، الذي يتعرَضُ للطلب والسؤال، والمرادُ من الآية: أعطوا منها العفيفَ، والسائل، ولا تمنعوا منها أحداً، كذلك ذللناها لكم، مع ضخامة أجسامها، ونهاية قوتها، لتشكروا ربكم على إنعامه، ولولا هذا التسخير لما استطعتم ذبحها، ولا الركوب عليها ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي لن يصل إلى الله شيء من هذه اللحوم، والدماء المهراقة، ولكِنْ تصلُ إليه الأعمال الصالحة، التي يبتغي بها العبدُ وجهَ الله، ويصله التقوى منكم لربكم، كذلك سخَّرها الله لكم لنفعكم، لتكبِّروا الله عند ذبحها، على ما أرشدكم إليه من أمور الدين، وبشِّر المحسنين بالسعادة الدائمة في جنان النعيم.. كرَّر الله ذكر التسخير، لينبِّه العباد على وجوب الشكر للخالق الجليل، على نعمه التي لا تُحصى، ومنها تسهيلُ أمر هذه الأنعام!!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ﴾

وبعد أن ذكر تعالى الشعائر الدينية في أمور الحج، ذكر بعدها أن هذه الشعائر، لا بدَّ لها من حماية، تدفع عنها المعتدين، ولذلك شرع الله لهم الجهاد، لصدِّ العدوان، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ أي إن الله يدافع عن عباده المؤمنين، ويصرف عنه شرَّ الأشرار، وكيدَ الفجار، إن هم أطاعوا الله، واستمسكوا بدينهم، إنه تعالى يبغض كل خائن فاجر، كثير الفجور والآثام، جاحد لنعمة الرحمٰن، وصيغةُ (خوان) و(كفور) من صيغ المبالغة، أي كثير الخيانة، وكثير الكفر والجحود ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ بيانٌ للسبب الداعي لمشروعية القتال، وفي الآية محذوفٌ دلَّ عليه السياق، أي أُذن ورُخِّص للمؤمنين، «في قتال أعدائهم الكافرين» بسبب أنهم ظُلموا، وهو سبحانه القادر على نصرهم، دون أن يكلِّفهم بقتالهم للأعداء، ولكنه سبحانه يريد لهم العزَّة والسعادة، ليفوزوا بمراتب الشهداء، وهذه أول آية نزلت في (مشروعية الجهاد)، وقد كان أصحاب النبي ﷺ يُؤذون إيذاءً شديداً وهم بمكة، فيأتون رسول الله ﷺ ما بين مضروبٍ ومشجوج، ومجلود، ويتظلَّمون إليه، فيقول لهم: اصبروا فإني لم أُومر بقتالهم، حتى كانت الهجرة، وأصبح للمؤمنين دولة وقوة، فأذن لهم بالقتال، ونزلت هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ أي أُخرجوا من أوطانهم ظلماً وعدواناً، من غير ذنبٍ ولا جناية، إلاّ لأنهم عبدوا الله وحده، وهجروا عبادة الأصنام والأوثان، وأعلنوا كلمة التوحيد «لا إله إلا الله محمدٌ رسولُ الله» وهذا ليس بذنب، يوجب تهجيرهم من الأوطان ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ﴾ أي ولولا ما شرعه الله من الجهاد، وقتال الظالمين

وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾

أعداءِ الله، لاستولى أهلُ الكفر على أهل الإيمان، وتعطَّلت أماكنُ العبادة كلُّها: صوامع الرهبان، وكنائس اليهود، ومعابد النصارى، وهي المراد بقوله ﴿**وصلوات**﴾ أي أماكن صلوات النصارى، ومساجد المسلمين التي يُذكر فيها اسم الله، بكرةً وأصيلاً، وخصَّ المساجد بهذا الوصف ﴿**يذكر فيها اسم الله كثيراً**﴾ تعظيماً لها وتشريفاً، لأنها أماكن العبادة الحقة، وأما غيرها من المعابد، فقد اختلط فيها الحقُّ بالباطل، والشركُ بالإيمان ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ هذا قَسمٌ أي ووالله لينصرن الله من ينصر دينه ورسوله، لأنه تعالى قادر لا يعجزه شيء، ﴿**عزيز**﴾ أي غالب لا يقهره أحد، فبقوَّته يُهلك الكافرين، وبعزته ينصر عباده المؤمنين، لأنه لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب.. ثم ذكر تعالى أوصاف هؤلاء، الذين يستحقون نصرة الله، فقال سبحانه ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي هؤلاء الذين يستحقون نصرة الله، هم الذين إن جعلنا لهم تملكاً، واستعلاءً على المشركين في الأرض، أقاموا شرع الله، فأدَّوا الصلاة على الوجه الذي يرضي الله، ودفعوا زكاة أموالهم للفقراء والمساكين، وأَمروا بالخير، ونَهوْا عن الشرّ، فمنعوا المفاسد والمظالم الاجتماعية، ومرجعُ الأمور كلِّها، إلى الكبير المتعال، ربِّ العزة والجلال، ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ تسلية للرسول ﷺ متضمنة للوعيد بإهلاك أعدائه، **والمعنى**: إن كذبك يا محمد أهل مكة، فاعلم أنك لست أوَّلَ رسولٍ يكذّبه قومُه، فقد جاء قبلك أنبياء كثيرون، كُذِّبوا فصبروا، إلى أن أهلك الله أعداءهم الكفرة المجرمين، كقوم (نوح، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وقوم شعيب)، وكُذِّب موسى تكذيباً شنيعاً، مع كون معجزاته

فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾

في كمال الوضوح، فما بالك بغيره من المرسلين؟ فلا تحزن يا محمد على تكذيب المشركين لك، واصبر كما صبر إخوانك الرسل، فلقد أمهلتُ المكذِّبين ثم أخذتهم بالعذاب، فكيف كانت عقوبتي لهم؟ وكيف كان إنكاري عليهم؟ وهو سؤالٌ للتهويل والتعجيب، أي ألم يكن عقابهم فظيعاً شنيعاً؟ ألم أبدلهم بالنعمة نقمة، وبالكثرة قلة، وبالعمران خراباً؟ فكذلك أفعل بالطغاة من أهل مكة!! ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ أي وكثير من القرى الظالمة، أهلكنا أهلها بظلمهم، وتكذيبهم لرسلهم، فهي مخرَّبة مهدَّمة، قد خرَّتْ سقوفها على الأرض، ثم سقطت الحيطان فوق السقوف، فصار منظرها موحشاً كئيباً، وهو تصويرٌ مؤثِّرٌ في النفس، يذكِّر بالدمار الشامل، وإلى جوار هذه المدن المخرَّبة، الآبار المعطَّلةُ المهجورة، قد عُطِّلت فلم يَستَقِ منها أحد، لهلاك أهلها، وهذه المدنُ خاليةٌ من السكان، موحشة في المكان ﴿**وقصر مشيد**﴾ أي وكم من قصر مشيد، قد خلا من سكانه، أفليس في ذلك عبرةٌ للمعتبرين؟ ثم يأتي بعد ذلك التوبيخ للكفار، في عدم الاتعاظ والاعتبار، فيقول سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي أفلم يسافر هؤلاء الطغاة في البلاد، ليروا مصارع المهلَكِين؟ تنطق بالعظات، وتتحدث بالعِبَر؟ ليشاهدوا بأعينهم أوطان المكذبين، ويسمعوا بآذانهم أخبارهم، فيعتبروا بما حلَّ بهم من النّكال والدمار!! ولكنَّ العمى ليس عمى البصر، ولكنه (عمى البصيرة)، فمن كان أعمى القلب، لا يعتبر ولا يتدبَّر!! ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي ويستعجلك المشركون بالعذاب سخريةً واستهزاء، فيقولون: متى هذا العذابُ الذي تتوعدنا به؟ أنزلْه علينا لنتلذَّذ به!! ولكنْ لوقوعه أجلٌ لا يتعدَّاه، لأنه تعالى لا يخلف الميعاد، ويومٌ واحد عنده تعالى، في طول ألف سنة من سنواتكم!! فإذا تأخر العذاب عنهم بضع سنوات،

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾

فما هي عنده إلاَّ بضع دقائق، وكلُّ ساعة عند الله، تعادل خمسين سنة عند البشر، فعلام إذاً يستعجلون العذاب؟ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ أي وكثير من أهل القرى الظالمة، أخَّرتُ إهلاكهم، وأمهلتُهم مع استمرارهم على الظلم، فاغترّوا بذلك التأخير، ثم أخذتهم بالعذاب وإليَّ المصير!! نبَّه تعالى على أن السابقين أُمهلوا ثم أُهلكوا، وأن كفار مكة وإن أمهلهم الله، فإنه لا بدَّ من عذابهم، فلا يغترُّوا بحلم الله عليهم، ولا يفرحوا بتأخير العذاب عنهم، كما قال سبحانه ﴿**وجعلنا لمهلكهم موعداً**﴾ ثم تمضي السورة تحذِّر وتنذر، هؤلاء الطغاة المتجبرين، وتذكُرهم بأن مهمة محمد ﷺ ليست هي أن يأتيهم بالعذاب، إنما هو رسول منذر، يبشِّر المتقين، ويُنذر المشركين ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي قل يا أيها الرسول لهؤلاء المستعجلين بالعذاب: إنما أنا رسولٌ منذر لكم، أخوِّفكم عذاب الله، فمن آمن وعمل صالحاً، فله عند ربه العفو عن ذنوبه، والرزق الحسنُ الكريمُ في جنات النعيم، **قال القرطبي**: إذا سمعتَ الله يقول ﴿**ورزقٌ كريم**﴾ فاعلم أنه الجنة، لأنه لا أفضلَ ولا أكرم منها؟! وأمَّا الذين سعوا لإطفاء نور الله، وأرادوا محاربة الله بالسخرية من كتابه ورسوله، فهم أهلُ الجحيم وسكَّانُها، لا يخرجون منها أبداً، كأنهم أصبحوا مُلاَّكاً لها، كما يملك الإنسانُ داره في الدنيا ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تمنَّىٰ تأتي في اللغة بمعنى قرأ، وتأتي بمعنى: حَدَّث، قال الشاعر في يوم مقتل عثمان رضي الله عنه:

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

تـمـنَّـى كـتـابَ اللهِ أوَّل لَـيْـلِـهِ وآخـرَهَـا لاقَـىٰ حِـمَـام الـمـقَـادِرِ

وقال البخاري في كتاب التفسير: قال ابن عباس ﴿**إذا تمنَّى**﴾ إذا حدَّث ألقى الشيطان في حديثه، ويُقال ﴿**أمنيته**﴾ يعني قراءته. **والمعنى**: وما أرسلنا قبلك أيها الرسول، نبياً ولا رسولاً، إلاَّ إذا حدَّث ألقى الشيطانُ في حديثه، شبهاتٍ فيما يُحدِّث به، فيزيلُ الله ويُبطل، ما ألقاه الشيطان من الشبهات والخرافات، التي علقت ببعض النفوس، ثم يُثبت في نفس الرسول وأصحابه، الحقَّ المبين الذي أوحاه الله إلى رسوله، والله حكيم في خلقه، عالم بما يكون من الحوادث والأمور.. هذا المعنى الصحيح للآية الكريمة، وأمَّا ما قيل: إن الشيطان ألقى على لسان الرسول وهو يقرأ سورة النجم، مدح الأصنام والأوثان بلفظ «تلك الغرانيقُ العُلَى. وإن شفاعتهنَّ لترتُجى» فباطلٌ وزورٌ وبهتانٌ، وهو من وضع الزنادقة، كما نبَّه المفسِّرون، لأن الله تعالى تكفَّل بحفظ القرآن ﴿**وإنا له لحافظون**﴾ فلا يمكن لمثل هذه الأباطيل والخرافات، أن تخترق أسوار القرآن!! ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي ليجعل تلك الشبه والوساوس، التي يلقيها الشيطان فتنةً واختباراً للمنافقين، الذين في قلوبهم مرضُ النفاق، وللكافرين الذين قست قلوبهم وهم الطغاة العُتاة الفجار، الذين هم في غاية الضلال ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي وليعلم أهل العلم، الذين استنارت بصائرهم بنور الإيمان، أن ما أوحيناه إليك من القرآن، هو الحقُّ النازل من عند الحكيم العليم، فيصدِّقوا به، فتخشع له قلوبهم، وتسكن له وتطمئن، والله مرشد المؤمنين إلى الحق الواضح، وهاديهم إلى دينه القويم ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ أي ولا يزال المشركون في شك وارتياب من هذا القرآن، حتى

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾

تأتيهم الساعة فجأة، أو يأتيهم عذاب يوم القيامة، العصيب الرهيب، الذي لا يأتيهم بخير أو فَرَج!! والعقيمُ: المرأةُ التي لا تلدُ، وُصفَ ذلك اليوم بالعُقم، لأنه يومٌ لا يعقبه آخر، فهو اليوم الأخير، لأن الزمان قد مضى، والتكليف قد انقضى، وهو يوم لا يأتي المشركين فيه بشيء من الخير والفلاح ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي الحاكم يوم القيامة هو ربُّ العزة والجلال وحده، لا منازع له فيه ولا مدافع، يفصل بين عباده بالعدل، فيدخل المؤمنين جنات النعيم، ويدخل الكافرين نار الجحيم، فالمؤمنون يتنعَّمون في حدائق الجنان، والكافرون لهم العذاب المخزي، مع الذلِّ والهوان ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ أي والذين هاجروا في سبيل الله، فتركوا الأوطان والديار، ابتغاء مرضاة الله، سواءً قُتلوا في المعركة، أو ماتوا على فرشهم دون قتال، فإن الله سيكرمهم بالنعيم الخالد في الجنة، وهو المراد بالرزق الحسن في الآية، بدليل قوله بعده **﴿ليدخلنهم مدخلاً يرضونه﴾** أي ليدخلنهم الجنة، التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعتْ، وهو المُقام الذي يحبونه، والله عليم بما وقع عليهم في الدنيا، من أذى وظلم، حليمٌ لا يعجِّل العقوبة للظالم، فهو سبحانه يُمهل ولا يُهمل ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي ذلك حكمُ الله وشرعه،

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿٦٣﴾

أن من جازى الظالم بمثل ما ظلمه، ودفع عن نفسه شرَّ المعتدين، ثم اعتدى الظالم عليه ثانياً، فاضطره إلى الهجرة ومفارقة الوطن، فلينصرنَّ الله هذا المظلوم، ولينتقمنَّ له من أعدائه، فردُّ الظلم حقٌّ شرعي، وأمَّا ختم الآية بقوله: ﴿ **إن الله لعفو غفور**﴾ للحثُّ على العفو والصفح، فإن الله تعالى، مع كمال قدرته على الانتقام من الظالم، يعفو ويغفر، فغيره أولى بذلك ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ هذه الآية وما بعدها، دلائل وبراهين على القدرة والوحدانية، يسوقها القرآنُ لتذكير العباد بعظمة الله وسلطانه، فيما أبدع وصوَّر، فهو الإله القادر، العزيزُ القاهر، **والمعنى**: ذلك الربُّ العظيمُ الجليل، هو الذي يُدخل الليلَ في النهار عند مغيب الشمس، ويُدخل النهار في الليل عند الشروق، فتارةً يطول النهارُ ويقصر الليل، كما في الصيف، وأخرى يقصر النهارُ ويطول الليلُ، كما في الشتاء، وهذا يدل على وجود إله حكيم، مدبر للكون، وظاهرةُ الليل والنهار من آيات الله الباهرة، كما قال سبحانه ﴿**ومن آياته الليلُ والنهار والشمس والقمر**﴾ فلو أن إنساناً وُلد في كهفٍ مظلم، ثم خرج إلى الدنيا بعد بضع سنين، فرأى الشمس تشرق فتنير الكون، ثم تختفي الشمس ويخيم الظلامُ، لفزع واضطرب، ولرأى العَجَب العُجاب، ولكنَّ الناس ألفوا ذلك، فلم يعد يُثير فيهم العُجْب والانتباه، ومثلُه طلوعُ الشمس من المشرق، أمرٌ معتاد، ولكنْ ماذا يحدث للناس، لو أن الشمس كُسِفتْ، فأصبح النهارُ ظلاماً دامساً، أو طلعت الشمس من المغرب، كما سيحدث في آخر الزمان؟ هنا يدرك الناسُ روعة هذه الآية. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ أي ذلك بأن الله هو الإله الحقُّ، القادرُ على كل شيء، وأن الذي يعبده المشركون من أوثانٍ وأصنام، هو الباطل المعدوم، الذي لا يقدر على شيء، وأن الله هو العالي على كل شيء، ذو العظمة والكبرياء، الذي لا أعلى منه ولا أكبر ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ هذا برهان

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٦٧﴾﴾

آخر، على قدرة الله ووحدانيته، أي ألم تر أيها الإنسان المخاطب، أن الله بقدرته أنزل المطر من السحاب، فأصبحت الأرضُ خضراء منتعشة، قد دبَّتْ فيها الحياةُ، بعد أن كانت يابسة جدباء!! فكما أخرج الله النباتَ، من الأرض الميتة، بنزول المطر، كذلك يخرج الموتى من القبور، وقت النشور، وذلك من لطفه ورحمته بعباده ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ أي هو سبحانه المالك لكل ما في الكون، وهو الغنيُّ عن العباد، وهو المحمود في كل حالٍ، وإن جحد نعمته الكافرون ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ تذكير بنعمة أخرى، أي ألم تر أيها العاقلُ، أن الله بقدرته وحكمته، سخَّر للبشر جميع ما في الأرض، من (نباتٍ وحيوان، وشجرٍ، وثمر)، وذلَّل لهم السفن العظيمة الضخمة، المثقلة بالأثقال والرجال، لمصالحهم ومنافعهم، ولفظُ التسخير يدل على التيسير والتدبير، فلولا تذليله تعالى، وتدبيره لنا، لما أمكننا ركوب البحار، ولا الانتقال من بلد إلى بلد في الأسفار، ويمسك بقدرته السماءَ، أن تقع على الأرض، فتهلك البشر، إلاَّ بمشيئته تعالى وإرادته، وذلك من لطفه تعالى بالعباد، ورحمته لهم ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾ أي هو جلَّ وعلا الإله القدير، الذي أحياكم بعد أن كنتم عدماً، ثم يميتكم عند انتهاء آجالكم، ثم يحييكم بعد موتكم للحساب والجزاء، إن الإنسان الكافر، لجاحدٌ لنعم الله، فكيف يصحُّ أن يُعْبَد غيره؟ وهو سبحانه المحيي المميت، الخالق الرازق؟ ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي لكل أمةٍ من الأمم، جعلنا لهم شريعةً

وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧٠﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ

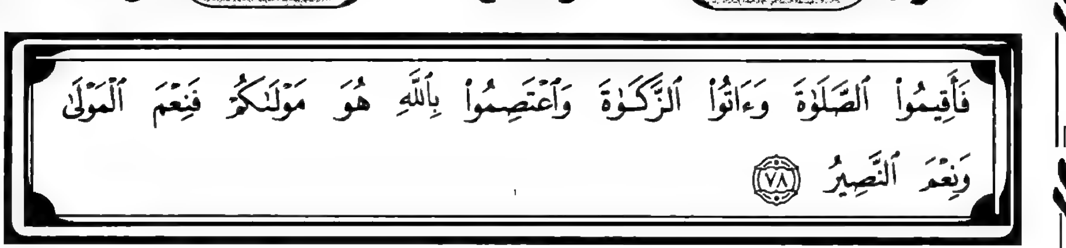
ومنهاجاً، يتعبَّدون ربهم عليه، فلا ينبغي أن ينازعك أحد من المشركين، فيما شرعتُ لك، فقد ظهر الحقُّ وبان، وادع يا أيها الرسولُ الناسَ إلى عبادة ربك، وشريعته الحنيفية السمحة، فأنت على دين واضح مستقيم، هداك الله إليه، وهذه الآية كقوله سبحانه: ﴿**لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً**﴾ فالشرائع تختلف من أمة إلى أمة، ولكنَّ الدين عند الله واحد، هو (الإسلام) ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ أي وإن خاصمك المشركون في أمر الدين، بعد ظهور الحق المبين، فقل لهم: الله هو العالمُ بأعمالكم القبيحة، وهو الذي سيجازيكم عليها، وهو سبحانه الذي يفصل بين عباده، فيما اختلفو فيه من أمر العقيدة والدين، فيظهر حينئذٍ المحقُّ من المبطل!! أمر الله رسوله ﷺ أن لا ينشغل بجدال المجادلين، فالحديث ينفع مع القلوب المستعدَّة للهدى، لا مع القلوب المصرَّة على الضلال والكفر، وليترك أمرهم إلى الله، فهو الذي يتولى جزاءهم وحسابهم ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ الاستفهام للتقرير، أي قد علمتَ يا محمد، أن الله قد أحاط علمه بكل شيء، فلا تخفى عليه أعمال هؤلاء الفجار، الذين يجادلونك في أمر البعث والحساب والجزاء، إن أمرهم مسطَّر في اللوح المحفوظ، وسهلٌ يسير عليه تعالى معاقبتُهم وجزاؤهم ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ﴾ أي ويعبد هؤلاء المشركون، أصناماً وأوثاناً، لا تشفع ولا تنفع، وما ليس لهم بها حجة ولا برهان، لا من جهة الشرع ولا من جهة العقل، وليس لهم في الآخرة من ينصرهم من عذاب الله ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ

﴿يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾

﴿يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وإذا تليت على هؤلاء الفجار، آيات الله البيّنة الواضحة، ترى في وجوههم العبوسَ والإنكار، والكراهة لما يسمعون، يكادون من شدة غيظهم، يبطشون بالمؤمنين، الذين يسمعونهم آيات الذكر الحكيم، قل لهم: هل أنبئكم بما هو أسوأ وأشنع، ممّا تتوعَّدون به المؤمنين، نار جهنم التي أعدَّها الله وهيَّأها لكم، وبئست نار جهنم، مسكناً ومصيراً للمجرمين!! ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ توبيخٌ لعبدة الأوثان، في تمثيل رائع بديع، والمعنى: يا معشر الكفار، يا عبدة الأوثان والأحجار، لقد ضرب الله لكم مثلاً، فاعقلوه وتدبروه: إن هذه الأوثان التي عبدتموها من دون الرحمٰن، لن تقدر على خلق ذبابة، ولو اتحدت واتفقت على ذلك، ولو اختطفت الذبابةُ وسلبت شيئاً من الطعام أو الطيب، الذي كانوا يُضمِّخون به الأصنام، لما استطاعت تلك الآلهة استرجاعه، ضعف العابدُ الذي يطلب الخير من الصنم، والمطلوب الذي هو الصنم، فكل منهما حقير ضعيف. . يا له من مثل رائع، يدركه الذكيُّ والغبيُّ!! لقد عبد المشركون حجارة وأوثاناً، عمياء بكماء صماء، لا تستطيع مجتمعةً أن تخلق ذبابة، فضلاً عن أن تخلق إنساناً سميعاً بصيراً، يطلبون منها الرزق والعون، والنُّصرةَ والشفاعة، وهذه الآلهة، لا تقدر على خلق ذبابة صغيرة حقيرة!! ويختار القرآن ذكر (الذباب) بالذات، لمهانته، وضعفه، واستقذاره، وهو ضعيف حقير، ليُبْرِز حقارةَ معبوداتهم، التي جعلوها آلهة، وخلقُ الذباب مستحيل، كخلق الجمل والفيل، لأنه يحتوي على ذلك السرِّ المعجز «سرّ الحياة» فإذا عجزت الأصنام على خلق ذبابة، فكيف تقدر على خلق ما هو أعظم وأكبر؟ ثم يأتي التعقيب المباشر ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ أي ما عرفوا قدر الله وجلاله وعظمته، ولا

ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ

عظَّموه حق تعظيمه، حين جعلوا الأوثان ـ على حقارتها ـ شركاء وآلهة مع الرحمن، والله هو القويُّ القادر، العزيز الغالب، فكيف يسوُّون بين القويِّ القدير، والعاجز الحقير!؟ وينبغي أن نعلم أنَّ أعدى عدوّ للإنسان الذباب، فهو يحمل أفتك أنواع المرض الخطير، يحمل «ميكروب» السلِّ، والتيفوئيد، والدسنتريا، والرَّمد، ويسلب نور العيون، وقد يسلب الحياة والأرواح، وهو الضعيف الحقير، وهذا أعظم إنذار للبشر، على ما يحمله الذباب من خطر!! فلا عجب إذاً أن يضرب القرآن به المثل ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ ردٌّ على من أنكر أن يكون الرسول من البشر، والمعنى: الله جلَّ وعلا يختار رسلاً من الملائكة، ليكونوا سفراء بينه وبين الرسل، لتبليغ الوحي إليهم، ويختار رسلاً من البشر، لتبليغ شرائع الدين الحقِّ، وليس محمد إلاَّ أحد هؤلاء الرسل الكرام، فلماذا يجحد المشركون رسالته، وينكرون نبوته؟ وهو سبحانه يعلم أعمال العباد، وأحوالهم، وإليه مرجعهم فيجازيهم عليها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أي يا معشر المؤمنين، صلُّوا لربكم خاشعين، واعبدوا ربكم وحده، وافعلوا ما يقرّبكم منه، من أنواع الخيرات والطاعات، كصلة الأرحام، ومواساة الأيتام، والصلاة بالليل والناسُ نيام، لكي تفوزوا وتظفروا بنعيم الآخرة، وعبَّر عن (الصلاة) بالركوع والسجود، لأنها أعظم أركان الصلاة، وأقرب ما يكون العبدُ من ربه وهو ساجد ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ أي



وجاهدوا يا معشر المؤمنين، بأموالكم وأنفسكم، لإعلاء كلمة الله، حقَّ الجهاد، بألاَّ تخافوا أحداً إلا الله، وأن تخلصوا جهادكم لوجهه الكريم، هو سبحانه اختاركم من بين الأمم، لنصرة دينه، وخصَّكم بأكمل شرع، وأكرم رسول، وما جعل عليكم في هذا الدين، من عُسر ولا ضيق، ولا كلَّفكم بما لا تطيقون، بل اختار لكم الحنيفية السمحة، دين أبيكم إبراهيم عليه السلام، فالزموه لأنه الدين القيِّم، والله جلَّ وعلا سماكم المسلمين في الكتب المتقدمة، وفي هذا القرآن العظيم، ليشهد عليكم الرسول بتبليغه لكم الرسالة، ولتشهدوا أنتم على الخلائق يوم القيامة، أن الرسل قد بلَّغتهم ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أي وحيث قد اختاركم الله لهذا الشرف العظيم، فجعلكم شهداء على الناس، فحافظوا على الصلاة في أوقاتها، وادفعوا الزكاة لمستحقيها، واستمسكوا بكتاب الله ودينه القويم، وثقوا به في جميع أموركم، فالله حافظكم وناصركم، ومتولي أموركم، فنعم الوليُّ، ونعم الناصر، لعباده المؤمنين، رب العزة والجلال!!

انتهى تفسير سورة الحج

● ● ●

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾

تفسير سورة المؤمنون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ الفلاحُ: هو الفوز بالمحبوب والمطلوب، أي لقد فاز المؤمنون بكل خير، ونالوا مبتغاهم الذي يحبونه، بسبب إيمانهم وعملهم الصالح، وهم الخائفون المتذلِّلون لربهم في صلاتهم، المعرضون عن الكذب والباطل، وكل ما لا فائدة فيه، من الأقوال والأفعال ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أي والذين يدفعون زكاة أموالهم للفقراء والمساكين، عن طيب نفسٍ منهم، طلباً لرضى ربهم، والذين يحفظون فروجهم وعوراتهم، عن الكشف والتعري، وعن الزنى والفواحش، إلاَّ عن طريق شريف أحلَّه الله، وهو (الزواج)، أو (ملكُ اليمين)، فإنهم في هذه الحالة غير مؤاخذين ولا ملومين، ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ أي فمن طلب غير ما أباح الله له من الزوجات، أو المملوكات، فقد جاوز الحدَّ في الإجرام والعصيان، وقد استدل فقهاء أهل السنة، بهذه الآية الكريمة، على حرمة «نكاح المتعة» فإن المنكوحة بالمتعة ليست بزوجة، لأنها لا ترث ولا تورث، وليست مملوكة «ملك اليمين» وصاحب هذا الزواج من المعتدين بالنص القرآني، واقرأ كتابنا (موقف الشريعة الغراء من نكاح المتعة) ففيه الأدلة الساطعة القاطعة على تحريم نكاح المتعة، وقد حرَّمها رسولُ الله يوم غزوة خيبر، ويوم الفتح الأكبر (فتح مكة). ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي إنهم يحافظون على الأمانات، ويرعون العهود، فإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا أوفوا بالعهد، واللفظ يشمل جميع الأمانات، سواءً كانت مع الخالق أو المخلوق، فالصلاة أمانة، والزكاة أمانة، وكذلك سائر التكاليف الشرعية، والعهد مع الناس أمانة، والكفُّ عن عورات المسلمين أمانة، وردُّ الحقوق إلى أربابها أمانة!. مدح تعالى المحافظين على الصلاة، وليس في الآيات تكرار، لأنه قد ذكر أولاً الخشوع فيها، وذكر هنا المحافظة عليها، وهما مختلفان، ثم قال تعالى ﴿**أولئك هم الوارثون. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون**﴾ أي هؤلاء الجامعون لهذه الأوصاف الجليلة، هم الجديرون بوراثة جنات النعيم، والفردوسُ أعلى منازل الجنة درجة، وفي الحديث «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة، ومنه تفجَّر أنهارُ الجنة» رواه مسلم، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحيُ، يُسمع عند وجهه كدويِّ النحل، فلبثنا ذات يوم ساعةً، فاستقبل ﷺ القبلةَ ورفع يديه وقال: «اللهمَّ زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تُهنَّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارضَ عنَّا» ثم قال ﷺ: لقد أنزل اللَّهُ عليَّ عشر آيات، من أقامهن دخل الجنة - أي من عمل بهن - ثم قرأ ﴿**قد أفلح المؤمنون**﴾ حتى ختم العشر) رواه الترمذي وأحمد.. ثم ذكر تعالى الأدلة والبراهين، على القدرة والوحدانية، فقال عزَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ﴾ السُّلالة: الخلاصةُ من الشيء، وهي ما يُستلُّ من الشيء ويُستخرج منه، **والمعنى**: واللهِ لقد خلقنا أباكم آدم من صفوةٍ وخلاصة، استُلَّت من طين، لا عَكَر فيه ولا كَدَر، ثم جعلنا نسله نُطَفاً من أصلاب الآباء - وهو المنيُّ - يقذف به الرجل فيصير في حصنٍ حصين «رحم الأم» مسكن الطفل ومستقره، إلى أن يخرج إلى هذه الدنيا!! ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ أي ثم صيَّرنا هذه النطفة «علقةً» تعلق بجدار

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

الرحم، تشبه الدودة الصغيرة «علقةَ الماء» ثم صيَّرنا هذه العلقة «مُضْغة» أي قطعة لحم بمقدار ما يُمضع في الفم، ثم صيَّرنا قطعة اللحم عظاماً صلبة، لتصبح عموداً للبدن، يرتكز عليها الجسم، وسترنا تلك العظام باللحم، وجعلناه كالكسوة لها، وشكَّلناها أشكالاً، ذات رأس، ويدين، ورجلين، وبطن، وشددناها بالعصب والعروق، ثم بعد اكتمال أربعة شهور، نفخنا فيها الروح، فجعلناه خلقاً آخر، مختلفاً عن الخلق الأول، حيث صار إنساناً وكان جماداً، وناطقاً وكان أبكم، وبصيراً وكان أعمى، وسميعاً وكان أصمَّ، فتقدَّس وتنزَّه وتمجَّد ربُّ العِزةِ والجلال، أحسنُ الخالقين خلقةً، وأعظم الصانعين صنعاً!! من نقطةٍ صغيرة من المنيِّ، ينطلق هذا الجيشُ الجرار، من الأبطال الأشاوس «الحيوانات المنوية» واحدٌ منها لا يُرى بالعين، يلتقي مع رفيق حياته «البويضة» فيتكون منه هذا الإنسان السميع البصير، فما أعظم قدرة الله، وما أبدع تدبيره!! كيف انقلبت هذه النقطة من ماء مهين، إلى إنسان عظيم كبير يتحرك، ويتكلم، ويقوم، ويقعد، ويتحدث، ويخطب!؟ ولو أن إنساناً قال لك: رأيت نقطة ماء خرجت من البحر، ووقفت تخاطب الجماهير، بلسان صحيح فصيح، لقلتَ إنه مجنون!!، وهذه هي الحقيقة في خلق الإنسان، إنه من نقطةٍ من ماءٍ كريهٍ، تشمئزُّ منه النفس **﴿ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه في قرار مكين. إلى قدر معلوم، فقدرنا فنعم القادرون﴾** وهنا ندرك سرَّ عظمة الحديث القدسي، الذي يصوِّر لنا هذه الحقيقة جليَّةً ناصعة، فقد كان ﷺ ذات يوم مع أصحابه، فبسط كفَّه ثم بصق فيها، ثم وضع أصبعه عليها ثم قال: يقول الله عزَّ وجل: «ابنَ آدم أنَّىٰ تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه؟ حتى إذا سوَّيتك وعدلتك مشيتَ وللأرض منك وئيدٌ. . » أي ثِقَلٌ وصوت، رواه أحمد وابن ماجه، ثم بعد هذه النشأة العجيبة، تأتي المرحلة الأخيرة لنهاية الإنسان، فيقول سبحانه ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ أي ثم إنكم أيها الناس بعد تلك النشأة العجيبة، في الخلق والتكوين، سائرون إلى الموت لا محالة، ثم بعد النفخة الثانية تُبعثون من قبوركم، للحساب والجزاء، والثواب والعقاب. . وبعد أن ذكر تعالى بداية الإنسان ونهايته، ذكر خلقَ هذا الكون العجيب، وكلها أدلة ساطعة على وجود الخالق الحكيم، وقدرته ووحدانيته، فقال سبحانه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أي خلقنا فوقكم أيها الناسُ، سبع سموات، وما كنَّا

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾

مهملين أمر الخلق، بل نحفظهم وندبِّر أمرهم، وسميت السموات «طرائق» لأن بعضها فوق بعض، ولأن الملائكة تسلك طرقاتها ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ أي ونزلنا بقدرتنا الباهرة، المطر من السحاب، بمقدار محدَّد موزون، لا كثيراً فيفسد، ولا قليلاً فلا يكفي البَشَر، والزرعَ والثمر، ولْنقف قليلاً عند قوله (بقدر) فإنها جديرة بالتأمل والتفكر، فإن الماء نعمة من الرحمٰن، لكنه لو زاد على الحدِّ المطلوب، لانقلب إلى كارثة وبلاء، كما يحدث في الفيضانات والسيول المدمرة، ولو نقص عن الحاجة لكان الجدبُ والقحط، فسبحان من أنزل المطر، بميزانٍ دقيق وقَدَر!! وثَمَّةَ نعمةٌ أخرى أشارت إليها الآية **﴿فأسكناه في الأرض﴾** فلولا خزنه في الأرض، وحفظُه في الطبقات الصخرية، لتتفجَّر منه العيون والأنهار، لهلك الناس عطشاً، ومات الزرع والضرع، إذ لا ينتفعون بالمطر إلاَّ وقت نزوله، وماذا يصنعون في بقية الشهور والأيام، إذا لم يجدوا الماء؟ فإسكانه في الأرض نعمةٌ أخرى، توازي نعمة الإنزال، ثم بعد التذكير، يأتي دور التهديد والتحذير فيقول سبحانه: **﴿وإنا على ذهاب به لقادرون﴾** أي ونحن قادرون على إغارته في الأرض، وإذهابه كلياً منها، بحيث يذهب إلى البحار، فتهلكون عطشاً أنتم ومواشيكم كقوله سبحانه: **﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين﴾**، ثم ذكَّرهم بنعمة ما ينشأ من المطر من فوائد، من البساتين الناضرة، والثمار اليانعة، والحبوب والزروع، فقال سبحانه ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي فأخرجنا لكم بذلك الماء، حدائق وبساتين، فيها النخيلُ والأعنابُ، ولكم في هذه البساتين أنواع الفواكه والثمار، المتنوعة الأشكال، والألوان، والطعوم، تأكلون منها ما هو غذاء، كالرطب، والتمر، والعنب، والزيتون، وما هو فاكهة، كالتفاح، والخوخ، والمشمش وغيرها ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ أي وأنشأنا لكم من ذلك الماء، شجرةً مباركة، هي «شجرة الزيتون» التي يكثر وجودها في البقاع المقدَّسة،

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

حول «جبل الطور» الذي كلَّم الله عليه موسى، وتُثمر لكم زيتوناً، يخرج منه الدُّهن أي الزيتُ، الذي يُتخذ إداماً لكثيرٍ من المآكل المطبوخة، فهو غذاءٌ وإدام للبشر، وفي الحديث الشريف: «كلوا الزيتَ وادَّهنوا به فإنه من شجرة مباركة» رواه أحمد، وإتماماً للمنَّة ذكرَهم تعالى بنعمة خلق الأنعام، وهي الحيوانات المأكولة اللحم (الإبل، البقر، الغنم، الماعز) فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أي وإن لكم في هذه الحيوانات المأكولة من الأنعام، لعظةً بالغة تعتبرون بها، على قدرة الله وحكمته، حيث أخرج لكم من بطونها الحليب، لبناً صافياً سائغاً للشاربين، ولكم فيها منافع عديدة، تأكلون من لحومها، وتلبسون من أصوافها، وتركبون على ظهورها، وتحملون عليها الأحمال والأثقال، كما تركبون السفن في البحار!! إن من فكَّر في هذه الأنعام المسخَّرة، رأى العجب العُجاب، فالجمل أضخم جثَّةً من الإنسان، كيف ذلَّله الله له، حتى تمكَّن أن يركبه، ويحمل عليه الأثقال؟ وهذه الإبل، سفائن البرّ، كما أن السفن سفائن البحر، ولهذا ربط تعالى بينهما فقال **﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾** والفلْكُ: هي السفن، ثم إن العبرة من هذه الأنعام، أن الدَّم المتولد من الأغذية، يتحول ـ بقدرة الله ـ إلى شراب طيِّب لذيذ، هو غذاء كامل، وهو اللبنُ ـ الحليب ـ فكيف ينقلب العَلَفُ والغذاءُ، إلى لبن صافٍ نقي؟ وكيف لا يمتزج الحليبُ بالدم والقذارات، الموجودة في بطون هذه الحيوانات؟ إنها القدرة الإلهية المبدعة **﴿نسقيكم مما في بطونه من بين فَرْث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾** والفرثُ: هو القذر والروثُ، . الذي تدفع به المعدة إلى الأمعاء، وكله نجاسةٌ وقذارة، ولا يختلط بالحليب!! وبعد هذا البيان المستفيض عن دلائل القدرة والوحدانية، يأتي الحديثُ عن قصص الأنبياء والمرسلين، تسلية لخاتم النبيين ﷺ عن تكذيب قومه له، فيقول سبحانه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي أرسلنا شيخ الأنبياء، رسولنا «نوحاً» عليه السلام، إلى قومه الكفرة عبدة الأوثان، فقال لهم: يا قوم اعبدوا الله وحده، فليس لكم إله غيرُه يستحق

فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ

العبادة، أفلا تخافون عقوبته بعبادتكم لهذه الأوثان؟ ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي فقال أشراف قومه ورؤساؤهم، المغرقون في الكفر والضلال: ما هذا الرجل الذي يزعم أنه رسول، إلا إنسانٌ مثلنا من البشر، يريد بدعواه الرسالة، أن تكون له السيادة والفضل عليكم، مع كونكم مثله؟ ولو أراد الله أن يبعث رسولاً، لأرسله من الملائكة، لا من البشر، ما سمعنا بمثل هذا الكلام ـ عبادة إله واحد ـ في آبائنا السابقين، من الأمم الماضية!! تبّاً لهم على هذا السَّفه، استبعدوا أن يكون الرسول بشراً، ولم يستبعدوا أن يكون إلههم حجراً!! فقد كانوا عبدة أوثان وأحجار، ثم زادوا في الفجور والطغيان، فقالوا عن نوح نبيهم الكريم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي ما هو إلاَّ رجل مجنون، أصابه الجنون، فهو يتكلم بكلام غير مفهوم، فانتظروا به حتى يهلك ويموت، ونتخلَّص منه!! ولا يجد نبيُّ الله نوح عليه السلام، ألاَّ أن يلتجىء إلى ربه، يطلب منه العون والنصر ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي قال نوح: يا ربِّ انصرني عليهم، بسبب تكذيبهم لي، فأوحينا إليه أن اصنع السفينة بحفظنا ورعايتنا، وبأمرنا وتعليمنا، فإذا جاء وقت عذابنا لهم، وفار الماء من التنور ـ وذلك علامةُ هلاكهم ـ فأدخلْ معك في السفينة، من كلِّ صنفٍ من الحيوان زوجين اثنين ـ ذكراً وأنثى ـ واحمل

وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ

فيها أهلك وأتباعك المؤمنين، إلاَّ من سبق عليه القول بالهلاك، كزوجتك وابنك ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي ولا تسألنِ الشفاعة بالدعاء لهم بإنجائهم، فإنهم مهلكون لا محالة، فإذا عَلَوتَ على السفينة، وركبت فيها بمن معك من المؤمنين، فقل: الحمد لله الذي أهلك أعداءنا، ونجّانا من هؤلاء المشركين الظالمين ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي وقل أيضاً إذا خرجت من السفينة: يا رب أنزلني إنزالاً مباركاً، يحفظني من كل سوء وشر، وأنت خير الحافظين لأوليائك!! إن فيما جرى على قوم نوح، من الطوفان والغرق، لدلائلَ وعِبَراً، لمن نظر بعين البصيرة، إلى حفظ الله ورعايته لأوليائه، وخذلانه لأعدائه، وإنْ كنا لمختبرين للعباد، بهذه الآيات والعبر، لننظر من يعتبر ويتدبَّرْ!! ثم جاءت قصة «هود» عليه السلام مع قومه الطغاة المتجبرين، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي ثم أنشأنا من بعد إهلاكهم، قوماً آخرين، هم قوم «عاد» فأرسلنا إليهم رسولنا «هوداً» بدعوة التوحيد والإيمان، وقد خوَّفهم من عذابنا قائلاً لهم: أفلا تتقون؟ أي أفلا تخافون عذاب الله وانتقامه إن كفرتم؟ ولم يذكر القرآن اسم الرسول، ولا اسم القوم في هذه القصة، لأن ذلك معروف من قصص الأنبياء، فإن الذين جاءوا بعد قوم نوح، هم (قوم عاد) ونبيُّهم هو «هود» لقوله سبحانه في سورة الأعراف ﴿**واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح**﴾ ولنستمع إلى جواب هؤلاء السفهاء لهود عليه السلام ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ

ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

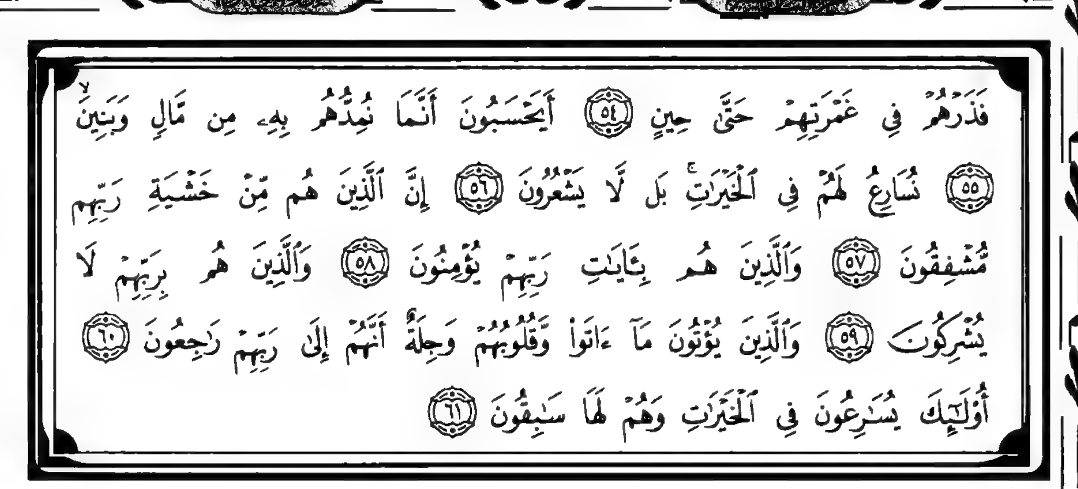
ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ﴾ الكلام نفسه الذي قاله قوم نوح لنبيهم، يقوله هؤلاء السفهاء لنبيّهم هود عليه السلام، يقولون: إنه بشر وليس بملك، يأكل ويشرب كما نأكل ونشرب، فما الذي جعل له الفضل علينا، حتى يكون نبياً ورسولاً؟ ثم زادوا في السخرية والاستهزاء، فقالوا ﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ أي لئن أطعتموه فيما يدعوكم إليه من عبادة الله، وترك عبادة الأوثان، فأنتم بلا شك قوم جهلاء خاسرون ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ أي أيعدكم بأنكم ستحيون بعد موتكم، وستخرجون أحياء من قبوركم؟ ﴿هيهات هيهات﴾ هذه الكلمة اسم فعل ماضٍ، بمعنى بَعُدَ، أي بعيدٌ بَعيدٌ هذا الذي توعدونه، من الإخراج من القبور، بعد موتكم وفنائكم، وبعد أن تصبحوا رفاتاً وعظاماً بالية!؟ وغرضُهم أن هذا شيء مستحيل مطلقاً ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ أي ما هي إلا حياتنا الدنيا، لا حياة بعدها، يموت بعضنا ويُولد بعضنا، يموتُ جيلٌ، ويحيا جيلٌ، وما نحن بمبعوثين بعد الموت، وما هذا الرجل الذي يزعم أنه رسول، إلا مفترٍ كذاب، يكذب على الله، ولسنا مصدِّقين له في دعواه، فليس هناك بعثٌ، ولا حساب، ولا جزاء ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لمَّا يئس هودٌ من إيمانهم، ورأى إصرارهم على الكفر، دعا عليهم بالهلاك، فقال: يا رب أهلكهم وانصرني عليهم، بسبب تكذيبهم لي، فأخذتهم صيحةُ العذاب المدمّر، فجعلناهم صرعى هلكى، كغثاء السيل

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾

التافه، الذي يجرف معه القشور والأوساخ، فسحقاً وهلاكاً لهم على كفرهم وظلمهم، **قال المفسرون**: صاح بهم جبريل صيحةً مزلزلةً مدمِّرة، رجفت لها الأرض من تحتهم، فصاروا لشدَّتها كغثاء السيل، وهو الشيء التافه الحقيرُ، الذي لا يُنتفع منه بشيء أصلاً، وبعث الله عليهم الريح العقيم، فأهلكهم عن آخرهم، فلم يبق لهم ذكر ولا أثر ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ أي ثم أنشأنا من بعد هلاك قوم عاد أقواماً آخرين، هم قوم (صالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب)، وغيرهم، وفي الآية حذفٌ بالإيجاز، تقديره: أرسلنا إليهم الرسل، فأهلكناهم ودمَّرناهم، دلَّ عليه قوله بعده ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ أي لا تتقدم الأمة المُهْلَكةُ، عن الوقت الذي عُيِّن لهلاكها، ولا تتأخر عنه ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (تترى) يعني متتابعة، يتبع بعضهم بعضاً، أي أرسلنا الرسل متتالين، واحداً بعد واحد، كلما بعثنا رسولاً إلى أمته، كذَّبه قومه وسخروا منه، وفيه تشنيعٌ عليهم بكمال ضلالهم، كما قال سبحانه ﴿**يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون**﴾ فأتبعنا بعضهم بعضاً أي ألحقنا بعضهم في إثر بعض، بالهلاك والدمار، وجعلناهم أخباراً تُروى، وأحاديث تُذكر، تتناقلها الأجيال والقرونُ، ﴿**فبُعداً**﴾ أي فهلاكاً ودماراً لقوم لا يؤمنون بالله، ولا يصدّقون رسله ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ أي ثم أرسلنا موسى وهارون، إلى فرعون الطاغية، وأشراف قومه المتكبرين، أرسلناهما بالمعجزات الساطعات، من اليد، والعصا، وبقية الآيات التسع، فاستكبروا عن الإيمان، وطاعة الرحمٰن، وكانوا قوماً متكبِّرين متجبرين ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ أي فقال الأشقياء من قوم فرعون: أنؤمن لرجلين مثلنا

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾

ونتّبعهما؟ يعنون موسى وهارون، وقومهما بنو إسرائيل، خدمُنَا وعبيدُنا، يخضعون لنا، ويتلقَّون أوامرنا بالطاعة والانقياد؟ فكذَّبوهما أي أصروا على تكذيبهما، فأهلكهم الله غرقاً في البحر، ولم ينج منهم أحد ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ أي ولقد أعطينا موسى وقومه التوراة، بعد غرق فرعون وملائه، ليهتدي بها بنو إسرائيل، وجعلنا قصة مريم وابنها (عيسى)، آية باهرة، ومعجزة قاطعة، دالة على عظمة قدرتنا، وبديع صنعنا، حيث ولدته دون أن يمسَّها بشر، وجعلنا مأواهما بمرتفع من الأرض ـ الهضبة ـ ذي ثمار وأشجار، وعيونٍ دافقة على ظهر الأرض كالأنهار، ومعنى المعين: الماء الجاري الظاهر للعيون ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ أي وقلنا للرسل: يا أيها الرسل، كلوا من الحلال الطيِّب، الذي خلقه الله لكم، وتقرَّبوا إلى الله بالعمل الصالح، مع إخلاص النيّة، فإني رقيب عليكم، مطَّلع على جميع أعمالكم، ودينكم يا معشر الرسل دينٌ واحد، هو (الإسلامُ) دينُ الأمان والسلام، وأنا ربكم المتفرِّد بالخلق والألوهية، فخافوا عذابي، واحذروا انتقامي!! وهكذا تتجلَّى وحدة الرسالات السماوية، فدين الأنبياء واحد، وربهم واحد، ورسالتهم واحدة ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي تفرَّق أتباع الرسل، إلى فِرَق وجماعات، وأصبحوا أحزاباً شتَّى، وجماعات متناحرة، هذا يهودي، وهذا نصراني، وهذا مجوسي، كلُّ فريق منهم فرحٌ ومغتبطٌ بدينه، ولو كان أعوج، والتعبيرُ جاء في غاية الإبداع، ضَرَب مثلاً للدين بالثوب الجميل الفضفاض، اختصم فيه جماعة فتخاطفوه، فأصبح في يد كل واحدٍ منه قطعة، فتمزَّق الثوب، وذهب بهاؤه وجماله، وهذا معنى قوله تعالى (زُبُراً) أي قطعاً جمع زبور وهي



القطعة من الذهب أو الفضة ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي دع هؤلاء الضالين المتنازعين في أمر الدين، في غفلتهم وجهلهم وضلالهم، إلى انتهاء آجالهم!!

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أي هل يظن هؤلاء الحمقى الجاهلون، المغرورون بما هم عليه من سعة الرزق، وكثرة الأموال والأولاد، أنه لخيرهم وإكرامهم؟ لا، بل هو استدراج لهم، ليزدادوا في الإثم والضلال، ولكنهم لا يشعرون بذلك، لأنهم كالبهائم، لا فطنة لهم ولا شعور ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ بيانٌ لصفات أهل التقوى الذين هم من جلال الله وعظمته خائفون، ومن خوف عذابه وعقابه حذرون، والذين هم بآيات الرحمٰن يصدِّقون، والذين لا يراءون في أعمالهم، بل يخلصون العمل والعبادة لوجه الله، وطلباً لرضوانه، ولا يراد بالشرك هنا: نفي الشريك عن الله، لأن هذا داخل في الإيمان، ولكن يراد بالشرك هنا عدم النفاق والرياء ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ أي والذين يعطون العطاء، من صدقات وإحسان، ويتقرَّبون إلى الله بأنواع القربات والخيرات، وهم خائفون مشفقون أن لا يتقبَّل الله منهم، لأنهم يؤمنون بلقاء ربِّ العزة والجلال، المحاسب والمجازي على الأعمال، هؤلاء هم الفائزون بالجنان، ورضى الرحمن، وهم الذين ينالون الكرامة والسعادة، **قال الحسن البصري**: «إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة ـ أي خوفاً من الله ـ وإن الكافر جَمَع إساءةً وأمناً» وروى الترمذي وأحمد عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقالت يا رسول الله: «أهو الذي يزني، ويسرقُ، ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عزَّ وجلَّ؟ فقال لها: لا يا بنتَ الصدِّيق!! ولكنه الذي يصلِّي، ويصوم، ويتصدَّق، وهو يخاف الله عزَّ

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾

وجلّ» أي يخاف أن لا يتقبل الله منه عمله الصالح ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي ولا نكلِّف أحداً من العباد ما لا يُطيق، تفضلاً منَّا وإحساناً، فإن جميعَ التكاليف الشرعية في مقدور الإنسان وطاقته، وعندنا كتاب أعمال العباد، يشهد عليهم بما عملوا، دون زيادة ولا نقصان، ولا يُظلَم أحدٌ من عمله شيئاً ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ الغمرةُ: الغفلةُ والجهالةُ، أي قلوبُ هؤلاء الكفار في غفلةٍ وجهالة، غامرة وساترة لهم عن فهم كلام الله، لا يفهمون آيات القرآن، ولا يتدبرون مواعظه، ولهم أعمال خبيثة كثيرة، غير الكفر والإشراك، هم مقيمون عليها لا ينفكُّون عنها، كالسخرية والاستهزاء، وفعل أنواع الموبقات والمعاصي ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ الجؤارُ: رفعُ الصوت بالاستغاثة كصوت الثور عندما يخور، والمعنى: حتى إذا أخذنا كبراءهم، وأغنياءهم المترفين، بالعذاب العاجل، صاحوا صيحة منكرة كصيحة الثور، وضجوا بالاستغاثة والعويل، قائلين: واغوثاه، وابؤساه!! يدعوننا لرفع العذاب عنهم، يُقال لهم: لا تستغيثوا اليوم، ولا تصرخوا، ولا تتضرَّعوا، فلن يجديكم البكاء والعويل، ولا الصراخ ولا الاستغاثة، ولن تنالكم من جهتنا نصرة ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ أي لقد كنتم تسمعون آيات الرحمن، فتنفرون عنها، وتهربون منها، وتولوُّن الأدبار، كمن يهرب من شيء مفزع مخيف، تُعرضون عن الإيمان، وتسمرون في مجالسكم بالهُجْر من الكلام، أمام بيت الله الحرام!! **قال المفسرون**: كانوا يسهرون بالليل حول البيت الحرام، يطعنون في القرآن، وفي النبي عليه الصلاة والسلام، يقولون: إن محمداً ساحر، كاذب، كاهن، يفتري على الله، والقرآن أساطيرُ الأولين، وهم يتحلَّقون حول الأصنام، التي نصبوها حول الكعبة

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾

المشرّفة، ويقولون: نحن أهلُ حرم الله، وخُدّام بيته، لا يقوى علينا أحدٌ، ولا يفخر علينا أحد!! ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي لماذا لم يتدبروا آيات هذا القرآن المعجز؟ ليعرفوا أنه الحقُّ النازل من عند رب العالمين!! أم جاءهم محمد ﷺ بشيء مبتدع، لم يأتِ مثله في آبائهم السابقين؟ وهذا توبيخ لهم على عدم تدبر القرآن. ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ توبيخٌ آخر، أي هل جهلوا أمر هذا الرسول، فلم يعرفوا حقيقته، وصدقه وأمانته؟ وقد عاش بينهم أربعين سنة؟ فلذلك أنكروه وكذَّبوا نبوته ورسالته؟ ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ أي أم أن سبب التكذيب له، هو اعتقادهم بأنه مجنون؟ كلُّ هذا باطلٌ، فإنهم يعلمون أنه ﷺ أرجحهم عقلاً، وأثقبُهم ذهناً، وأصدقهم حديثاً، فما الداعي لهم إذاً إلى هذا العناد والجحود؟ ثم ذكر تعالى السبب الحقيقي فقال ﴿بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون﴾ أي جاءهم محمد بالحق الساطع المبين، ومع وضوح الحقّ وسطوعه، فإن أكثر المشركين ـ لما في قلوبهم من الزيغ والانحراف ـ لا يقبلون الحقَّ ولا يريدونه، خشيةَ زوال رياستهم ومناصبهم ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي لو أجابهم الله إلى ما تهواه نفوسهم، لفسد نظامُ الكون، لاختلاف الآراء والأهواء، ولو تُرك الناسُ يعيشون على أهوائهم، لحدث الاضطراب والفساد، وصار الناس كالوحوشِ، يأكل القويُّ الضعيفَ، وساد حكم الغابات، بل أتيناهم بالقرآن العظيم، الذي هو فخرهم وشرفهم، فأعرضوا عنه واستهزءوا به ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي هل تسألهم يا محمد أجراً، على تبليغك الرسالة لهم، فهم من أجل ذلك يفرُّون عنك ويهربون؟ أنت لا تطلب منهم أجراً، فرزق الله وعطاؤه خير من جميع ما في الدنيا من ثواب وعطاء،

وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

وهو تعالى أفضل من أعطى ورزق ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ أي وإنك لتدعوهم إلى دين قيِّم كريم، هو دين الإسلام، الذي تشهد العقول السليمةُ باستقامته، ولكنهم لشقائهم وتعاستهم، تركوا الإسلام، واستمسكوا بما عليه الآباء من الخرافات والأوهام، وعبادة الأصنام ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي لو رحمنا هؤلاء المشركين، ورفعنا عنهم ما أصابهم من جدب وقحط، وكشفنا عنهم البلاء، لتمادوا في طغيانهم وعنادهم يتخبَّطون كالعُمْي، لعماية بصائرهم، **وسببُ نزول الآية**: ما روي أنه لمَّا أسلم «ثُمامة بنُ أُثال» ولحقَ باليمامة ـ بلاد نجد ـ منع الميرةَ عن أهل مكة، وأخذهم الله بالقحط والجذب، حتى أكلوا الميتةَ والكلابَ والحشرات، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ ـ وكان مشركاً ـ فقال يا محمد: أنشدك الله والرَّحِم، ألستَ تزعم أن الله بعثك رحمة للعالمين؟ قال: بلى، فقال: لقد قتلت الآباء بالسيف، وقتلتَ الأبناءَ بالجوع، فادعُ الله أن يكشف عنَّا الضُرَّ!! فنزلت الآية ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي ولقد ابتليناهم بالمصائب والشدائد، وبالقحط، والجوع، فما خضعوا لله، وما دعوا ربهم لكشف البلاء، لشدة جبروتهم وطغيانهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي امتحنَّاهم بكل محنة، فما رُؤي منهم لينٌ، ولا توجُّهٌ إلى الإسلام، إلى أن يروا عذاب الآخرة الشديد، فحينئذٍ يخضعون ويستسلمون، وييأسون من كل خير!! والإبلاسُ: اليأسُ من الخير.. ثم ذكَّرهم تعالى بنعمه الجليلة، وأقام لهم الأدلة على قدرته ووحدانيته، فقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي هو سبحانه الذي خلق لكم هذه الحواس، لتسمعوا بها، وتبصروا، وتعقلوا، ولكنكم لا تشكرون ربكم على فضله وإنعامه، و«ما» لتأكيد القلَّة، أي ما

وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾

أقلَّ شكركم لله، والعرب تقول: ما أقلَّ شكر فلانٍ لنعمتي!! يريدون أنه لم يشكرها ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي والله سبحانه هو الذي خلقكم، وبثَّكم في الأرض، بطريق النكاح والتناسل، وإليه وحده مرجعكم للحساب والجزاء ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي هو الذي يحيي الخلائق، ثم يميتها، ثم يعيدها للحياة مرة ثانية، وإن اختلاف الليل والنهار، بالزيادة والنقصان، من فعله تعالى وحده، أفليست لكم عقول تدركون بها دلائل قدرته ووحدانيته؟ وأنه لا خالق ولا رازق، ولا محيي ولا مميت، إلاَّ الله سبحانه وتعالى!؟ ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ «بل» للإضراب، أي لم يكن لهم عقلٌ ولا نظر، في هذه الآيات والعِبَر، بل قال هؤلاء السفهاء، كما قال أباؤهم الأقدمون، قالوا: أئذا بليت عظامنا، وأصبحنا ذراتٍ ناعمة، هل سنعود إلى الحياة مرة ثانية؟ هذا أمر مستحيل، لقد وُعدنا بهذا نحن ومن سبقنا، فلم يحدث هذا البعث، ولم نر له حقيقة!! ثم زادوا في السخرية والاستهزاء فقالوا: ما هذا الذي يعدنا به محمد، إلاَّ خرافات وأكاذيب المتقدمين!! والأساطيرُ جمع أسطورة، وهي الأكذوبة، ولمَّا أنكروا البعث والنشور، أمر الله رسوله ﷺ أن يُفحمهم بالحجة الدامغة، التي تقصم ظهر الباطل فقال له ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ أي قل لهم يا محمد: لمن الأرضُ ومن فيها من المخلوقات؟ من الإنس، والجن، والطير، والوحش، والنبات؟ ومن مالكُها الحقيقيُّ، والمتصرِّفُ فيها بالإحياء والإفناء؟ والجواب معلوم، أنهم سيعترفون بأن الأصنام لم تخلق ذلك، ولا تقدر عليه، وسيقولون: الله خالقُها ومالكُها، فقل لهم: أفلا تتدبرون بطلان ما

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾

أنتم عليه من هذه السفاهات؟ ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي اسألهم سؤالاً آخر، قل لهم: من هو خالق السموات السبع، وما فيها من الكواكب، والنجوم، والشمس، والقمر، والملائكة؟ ومن هو خالقُ العرش العظيم؟ هل أصنامكم وآلهتكم المزعومة خلقتها أم من؟ والجواب واضح كذلك، فسيقولون: الله ربُّها وخالقها ومالكُها!! فقل لهم: أفلا تخافون عذاب الله الأليم، فتتركون عبادة هذه الأوثان، وتعبدون الخالق لهذه الأكوان؟ ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أي قل لهم: من بيده الملكُ الواسعُ التام؟ ومن بيده خزائنُ كل شيء؟ ومن الذين يحمي ويُغيث من استجارَ به، والتجأ إليه؟ هل هناك أحد يستطيع أن يغيث أحداً من الله؟ إن كنتم تعلمون فأخبروني عن ذلك!! فسيقرون أيضاً ويعترفون، بأن هذا لا يقدر عليه إلا الله، فقل لهم على سبيل التوبيخ: كيف تُخدعون وتُصرفون عن عبادة الرحمٰن، إلى عبادة الأصنام والأوثان؟ تدرَّج القرآن معهم بهذه الأسئلة الثلاثة، ليقيم عليهم الحجة في بطلان عبادة غير الله، فبدأ بذكر الأرض التي يعيشون عليها، ثم بذكر السموات التي يرونها ويشاهدونها، ثم بذكر جميع المخلوقات والكائنات، وما فيها من بدائع الصنعة والخلق، ليحملهم على الإقرار، بأن الله هو الخالق لجميع ما في الكون، ثم يأتي التعقيب فيقول سبحانه ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي لقد أتيناهم بالحق الواضح المنير، في أمر الإله، والبعث والحشر، وإنهم لكاذبون فيما ينسبون إلى الله، من الشركاء والأولاد ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي ليس له تعالى ولد، كما زعم المشركون حين

عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾

قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، إذ كيف يكون له ولد، وهو المنزَّه عن الشبيه والمثيل، وليس له من يشاركه في الألوهية، لأنه الواحد الأحد، الفردُ الصمد، ولو قُدِّر ـ فَرضاً ـ تعدُّد الآلهة، لانفرد كلُّ واحد منهم بما خَلَقه، وأصبح مغايراً لخلق غيره، وما كان ينتظم الكون، والمشاهَدُ أن الكون في غاية النظام والكمال، وأيضاً كان يحدث التنازع بين الآلهة، فيعلو بعضهم فوق بعض، كما هو الجاري بين ملوك الدنيا، ويحصل التصارعُ والتنازعُ على المُلْك، حتى يكون واحد منهم هو الغالب، فبطل بذلك الأمران: أمرُ الولد، وأمرُ الشريك ﴿**سبحان الله عما يصفون**﴾ أي تنزَّه الله وتقدَّس عمَّا يصفه به الظالمون، من الشريك والولد ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي هو تعالى العالم بما غاب عن الأبصار، المشاهد لكل ما في الكون، الذي لا تخفى عليه خافية، تعالى وتقدَّس، عن أن يكون له شريك، أو شبيه، أو نظير ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي قل يا ربِّ: إن كنتُ سأرى ما وعدتني به، من عذاب هؤلاء الكفرة الظالمين، ربِّ فلا تجعلني في جملتهم، فأهلكَ بهلاكهم!! وهو عليه السلام معصومٌ من العذاب، ولكنه تواضعٌ منه، وإظهار للعبودية ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي لو شئنا يا محمد لأريناك ما نُنزله عليهم، من العذاب والبلاء، ولكننا نؤخره لحكمة، فادفع أذاهم بالإغضاء عن سفههم، فنحن أعلم بحالهم، وبما يصفونك به من السحر، والشعر، والجنون، وسنجازيهم على بهتانهم ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ أي قل يا رب: ألتجىء إليك، وأحتمي بك، من وساوس الشياطين ونزغاتهم، وألتجىء إليك أن يصيبوني بسوء، أو أن يلازموني في أموري، فأنت يا رب عصمتي وملاذي!! أرشده تعالى إلى أن يتحصَّن من شرِّ شياطين الإنس والجن، بالالتجاء إلى (حمى الرحمٰن)، فإنه نعم المجيرُ والناصر، وقد

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

كان ﷺ يعلِّم أصحابه كلمات يقولونها عند النوم (بسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة، من غضبه، وعقابه، ومن شرِّ عباده، ومن هَمَزات الشياطين، وأن يحضرون) رواه أحمد والترمذي ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ أي يستمرُّ هؤلاء الكفار في طغيانهم وفجورهم، حتى إذا نزل الموتُ بأحدهم، وظهرت له أهوال الآخرة، ورأى ملائكة العذاب، طلب من ربه أن يردَّه إلى الدنيا، ليستقيم على أمر الله، ويعمل صالحاً، ويأتيه الردُّ الحاسم القاطع: لا عودة إلى الدنيا، وهذه كلمة ذاهبةٌ أدراجَ الرياح، لا فائدة فيها ولا جدوى، فليرتدع عن مثل هذا الطلب، وأمامه حاجزٌ يحول بينه وبين العودة إلى الدنيا، إلى يوم القيامة، وهذا الحاجز هو «القبرُ» الذي سيكون مثواه إلى يوم الحشر **قال مجاهد**: البرزخُ: «الحاجز ما بين الدنيا والآخرة، إلى يوم البعث، وهو القبرُ» ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي فإذا نفخ في الصور ـ النفحة الثانية ـ وهي نفخةُ النشور، أي الخروج من القبور، فلا حسبَ ولا نسبَ ينفعهم في ذلك اليوم الرهيب العصيب، ولا يسأل أحدٌ غيره عن شأنه وحاله، لانشغال كل واحدٍ بنفسه **﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾** ولا ينفع الإنسانَ في ذلك اليوم إلاَّ عملُه، ولهذا قال سبحانه ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ أي فمن زادت حسناته على سيئاته، فهو السعيد الذي فاز بالجنة والرضوان، ومن زادت سيئاتُه على حسناته، فهو الشقيُّ الخاسر، الذي يصلى لظىٰ النيران، وسيخلَّد في نار جهنم إن كان كافراً ﴿تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ أي تلفحهم نار جهنم بلهبها، حتى تحرق وجوههم بشدة حرِّها، وهم في جهنم عابسون، مشوَّهو المنظر، والكلوحُ: تغيُّر شكل الوجه إلى المنظر

أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾

القبيح، وخصَّ الوجوه بالذّكر، لأنها أشرفُ الأعضاء، رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: (تشويه النارُ، فتتقلَّصُ شفته العليا، حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرَّته) رواه الترمذي ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي يُقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: ألم تكن آيات القرآن، تُقرأ عليكم في الدنيا؟ فكنتم تسخرون منها، وتكذبون بها مع وضوحها ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ أي قالوا: يا ربنا لقد غلبت علينا شقاوتنا، وضللنا طريق الهدى والإيمان، بسبب اتباعنا للشهوات، ربناأخرجنا منها، فإن عدنا بعد ذلك إلى الكفر والمعاصي، فنكون ظالمين لأنفسنا، مستحقين للعقوبة!! وهنا يأتيهم الجواب الزاجر ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ أي اخرسوا واسكتوا، ولا تكلموني في رفع العذاب، فلا رجعة إلى الدنيا، ولا أمل في الخروج، لأنه كان فريق من ضعفاء المؤمنين، الذين يعبدونني ويطلبون رحمتي ومغفرتي، إذا سمعتموهم تسخرون منهم وتضحكون، حتى نسيتم ذكري وعبادتي، بانشغالكم بالسخرية منهم والاستهزاء، **قال أهل اللغة**: (اخسئوا) كلمةٌ تستعمل في زجر الكلاب، وفيها إهانة وإبعاد، وتشبيه له بالكلب الحقير، لقاء سخريتهم بالمؤمنين، جزاءً وفاقاً ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي جزيتهم بسبب صبرهم على الاستهزاء أحسن الجزاء، وذلك بالخلود المقيم في دار النعيم.. وبعد هذا الردُّ الزاجر المهين، يسألهم سؤالاً آخر فيه تقريع لهم وتوبيخ: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ

﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾

قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي كم مكثتم في الدنيا، وعمَّرتم فيها من السنين؟ قالوا: مكثنا يوماً أو أقلَّ من يوم، فاسأل الحاسبين المتمكِّنين من العدِّ والحساب!! **قال ابن عباس:** «أنساهم ما كانوا فيه من العذاب المدة التي لبثوها» قال: صدقتم ما أقمتم فيها إلاَّ قليلاً، ولو كان لكم عقل أو فهم، لعرفتم حقارة الدنيا، ومتاعها الزائل، وليس الغرض من هذا السؤال، إلاَّ إدخال الحسرة على قلوبهم، وتحقير مدة مكثهم في الدنيا!! خطب النبي ﷺ ذات يوم في أصحابه فقال: «إن الله إذا أدخل أهلَ الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهلَ النارِ النار، قال: يا أهل الجنة: كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم!! قال: لنعم ما اتَّجرتم في يوم أو بعضَ يوم: رحمتي، ورضواني، وجنَّتي، امكثوا فيها خالدين مخلَّدين!! ثم يقول يا أهل النار: كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم!! فيقول: لبئس ما اتجرتم في يوم أو بعضَ يوم: ناري وسخطي، امكثوا فيها خالدين مخلَّدين» رواه ابن أبي حاتم، وذكره الحافظ ابن كثير، حقاً لقد خسروا خسارة فادحة، حيث باعوا حياةَ الخلود بهذه الحياة التافهة القصيرة، وإنهم ليحسُّون اليوم بقصر تلك الحياة وضآلتها، وهم يائسون من الخروج من النار، قانطون من رحمة الجبار، وتختم السورة الكريمة، بذلك الختم البديع، في تقرير عقيدة «البعث والنشور» بالحجة القاطعة الدامغة، فيقول سبحانه ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ أي هل تظنون أيها الناسُ، أنما خلقناكم من غير حكمة، لمجرد اللهو والعبث؟ حتى أنكرتم البعث والحساب والجزاء!! هل خُلقتم كما تُخلق البهائم، تعيشون لملىء البطون، ونيل الشهوات، دون تفكيرٍ منكم بالرجوع إلينا لمحاسبتكم على أعمالكم؟ لا، ليس الأمر كما تظنون، إنما خلقناكم للابتلاء، ثم الرجوع إلى دار الجزاء!! فتقدَّسَ وتنزَّه الله العليُّ الكبير، عن العبث، واللهو، لأنه حكيم، فهو منزَّه عن خلقكم للباطل والهمل كما تظنون، ولا بدَّ لكم من يومٍ

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾

تلقون فيه الجزاء على أعمالكم ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ أي ومن يعبد غير الله، أو يجعل له شريكاً، من غير حجة ولا برهان، ولا دليل له على ما يرتكبه من جناية، فإنما جزاؤه وعقابُه عند الله، لأنه لا يفوز ولا ينجح من أشرك بالله، وجحد وكذَّب رسله.. بدأت السورة الكريمة بتقرير فلاح المؤمنين، وختمت بنفي الفلاح عن الكافرين، ليظهر التفاوت الكبير بين الفريقين ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي قل يا رب استرْ ذنبي، وارحم ضعفي، وأنت خير من غفر ورحم!! أمر الله رسوله بالاستغفار، وطلب الرحمة من الله، تعليماً للأمة طريق الثناء على الله، والدعاء والتضرع له، لاستمطار رحمته!! اللهم ارحمنا برحمتك التي وسعت كلَّ شيء، يا أرحم الراحمين.

انتهى تفسير سورة المؤمنون

● ● ●

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾

تفسير سورة النور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾أي هذه سورةٌ عظيمةُ الشأن، كبيرةُ القدر، فيها الحلالُ والحرام، والحدودُ والأحكام، أنزلناها عليكم يا معشر المؤمنين، وفرضناها عليكم وعلى من بعدكم، فيها المواعظُ والعِبَرُ، لم ننزلها لمجرد التلاوة، والتبرك بقراءتها، وإنما أنزلناها للعمل والتقيد بما فيها من حدودٍ وأحكام.. ثم شرع تعالى يبيّن بعض هذه الأحكام، فقال سبحانه ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾أي فيما فرضتُه عليكم، وشرعته لكم، أن تجلدوا كلاً من الزانيين ـ إذا كانا غير متزوجين ـ مائة جلدة بالسوط، عقوبةً لهما على جريمتهما الشنيعة، ولا تأخذكم بهماشيء من الرقَّة أو الرحمة، في شرع الله ودينه، إن كنتم تصدِّقون بالله وباليوم الآخر، فإن جريمة الزنى أعظم وأكبر من أن تستدرَّ الرحمة، أو تدعو إلى الشفقة عليهما والحنان، وليحضر عقوبتهما عددٌ كبير، وجمعٌ غفير من المؤمنين، ليكون ذلك زاجراً لكل فاسق وفاجر، فإن الفضيحة والتشهير بالمجرم، قد تكون أشدَّ ألماً من وقع السياط عليه ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾أراد بعضُ الفقراء، أن يتزوجوا بالموسرات من البغايا الزانيات، فاستأذنوا رسولَ الله ﷺ في ذلك، فنزلت الآية تنفِّر من الزواج من الزانيات، وتبيِّن أن هذا ليس من أوصاف أهل الإيمان، إنما هو من خصائص

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤﴾

المشركين والفُسَّاق، والمعنى: الزاني من الرجال لا يرغب إلاَّ بزانية خبيثة فاجرة مثله، أو بمشركة أخسَّ منها، والزانية من النساء، لا يليق بها أن ينكحها إلاَّ زانٍ فاجر، أو أخسَّ منه وهو المشرك، وحُرِّم الزنى على المؤمنين، فلا تقربوه، وليس المراد من الآية، أنه لا يجوز للزاني أن يتزوَّج إلاَّ بزانية أو مشركة، وأن الزانية لا يجوز أن يتزوجها إلاَّ زانٍ أو مشرك، وإنما الآية وردت مورد التنفير من الزنى، وتقبيح شأنه، بتصوير أنه من القباحة والشناعة، بحيث أنه لا يصدر إلاَّ من فاسق مشرك، أو فاسقة مشركة، وأن الخبيث لا يليق به إلا الخبيثة، ولهذا قال ابن عباس: «هذا لا يُراد به النكاحُ، وإنما هو الجماعُ، أي لا يزني بالفاجرة، إلاَّ زانٍ أو مشرك» وهو من أوصاف المشركين الفجار، الذين يعيشون كالبهائم والدواب، للمتعة والشهوة البهيمية، ولا يبالون بالعفة، وطهارة النفس، فإن قيل: لماذا بدأ الله في الزنى بالمرأة (الزانيةُ والزاني) وفي السرقة بالرجل (والسارقُ والسارقة)؟ والجواب أن الزنى من المرأة أقبح، والعارُ عليها أفظع وأشنع، لما تجرُّه من الفضيحة للأسرة والعشيرة، فجرمها أكبر، فلذلك بدأ بها، وأمَّا السرقةُ فالرجلُ عليها أجرأ، وهو عليها أقدر، ولذلك بدأ به، فتدبَّرْ أسرار القرآن، ولطائفه البديعة!! ثم ذكر تعالى عقوبة رمي العفيفات بالزنى، والحدَّ الواجب فيه، فقال سبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ المراد بالمحصنات هنا: العفيفات من النساء، ولا يُراد بهنَّ المتزوجات، وإنما هي العفة عن الزنى، **والمعنى**: والذين يقذفون بالزنى العفيفات الشريفات، ثم لم يأتوا على دعواهم، بأربعة رجال عدول، يشهدون بأنهم رأوا المرأة تزني، وأنهم عاينوا الجريمة بأمِّ أعينهم، فاجلدوا القاذف ثمانين جلدة، وزيادةً له في العقوبة: لا تقبلوا له شهادة مطلقاً، وهو عند الله وفي حكمه، فاسقٌ خارج عن دائرة أهل التقوى والصلاح.. حكَمَ تعالى على القاذف، إذا لم يُقم البينة على صحة ما قال، بثلاثة أحكام: **الأول**: الجلد ثمانين جلدة، **الثاني**: أن تُردَّ شهادتُه أبداً، **الثالث**: وصفُه بالفسوق والخروج عن أهل العدالة والإيمان.. وردُّ الشهادة معناها: إهدار كرامته الإنسانية، فكأنه سقط عن مرتبة من يُقبل كلامه، وتُعتَبر آدميته، فصار منبوذاً عند الله، وعند الناس، وإنما شدَّد تعالى عقوبة القاذف، صيانةً للأعراض أن تُنتهك أو تُلَوَّث، بكلمةٍ من فاسق أو ماجن، وردعاً

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾

لأهل الفجور، أن يعبثوا بحرمات المؤمنين والمؤمنات الشرفاء، والتقييد بالإحصان (يرمون المحصنات) وهو لفظ يعمُّ الرجال والنساء، للتنبيه على أن من لم يكن محصناً أي عفيفاً، فلا حرمة له ولا كرامة، ولا حدَّ على قاذفه، إذا كان يعلنُ الفجور، ويتباهى بفعل الفاحشة، فكرامةُ الإنسان منوطةٌ بعفته ونزاهته عن الزنى، أمَّا إذا كان ملوَّثاً بهذه القذارات والنجاسات، فليس له ما يحمي عرضه من الكرامة. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي إلاَّ إذا تاب القاذف من ذنبه، وأعلن خطأه، وأصلح عمله، وندم على ما حدث منه، من ذلك الذنب العظيم، فاعفوا عنه واصفحوا، وردُّوا له كرامته واعتباره، فإن الله يغفر ذنب من تاب إليه وأناب.. ثم ذكر تعالى حكم من قذف زوجته ورماها بالزنى، وهو ما يسمى في الشريعة الغراء «بحدِّ اللعان» فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ هذا حكمٌ خاصٌ بالزوجين، فإذا قذف الرجل زوجته، واتهمها بالزنى، ولم يكن عنده شهود على خيانتها وزناها، فقد يكون صادقاً، وقد يكون كاذباً، لذلك شرع الله له حكماً خاصاً وهو «اللعانُ» بأن يقول أمام القاضي: «أشهد باللهِ أني صادقٌ فيما رميتها به من الزنى» يكرِّرها أربع مرات، لتقوم مقام الشهود الأربعة، ويقول في المرة الخامسة: لعنةُ الله عليه إن كاذباً في قذفه لها بالزنى ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي ويدفع عن الزوجة المقذوفة حدَّ الزنى ـ وهو الرجم ـ الذي ثبت بشهادة الزوج، أن تحلف أربع مرات أنه كاذب في دعواه، فتقول: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به من الزنى، وفي الخامسة تقول: غضبُ الله عليها إن كان من الصادقين في اتهامه لها بالزنى.. فإذا حدثت الملاعنة، يُفرَّق بين الزوجين (فرقة

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾

مؤبدَّة)، لا تحلُّ له بحال من الأحوال، حتى ولو تزوجت بعده بزوج آخر، هذا حكم الله في حقِّ الزوجين المتلاعَنيْن، الحرمةُ الأبدية بعد التلاعن، لأن كلاً منهما قد كذَّب صاحبه، ولعنه على رءوس الأشهاد، فلم يعد بينهما طريقٌ للمحبة والوفاق، والحكمةُ من اللعان واضحة، فإن الرجل إذا رأى مع زوجته رجلاً أجنبياً في الفراش، فإن قتلها قُتل بها قصاصاً، وإن ذهب يأتي بأربعة شهود، يكون الخائن الفاجر، قد قضى وطره، ومضىٰ آمناً، وإن سكت على الخيانة بقي عرضُه ملوَّثاً بالفجور، فماذا يصنع في مثل هذه الحالة؟ لقد شرع اللّه له ما يتخلَّص به من الفضيحة والعار، ولم يقبل الشارعُ الحكيمُ تصديق كلام الزوج بدون بينة ولا شهود، لأنه قد يكون كاذباً، وهو يبغضها أشدَّ البغض، فيتهمها بالزنى لمجرد التشفِّي والانتقام، وحكمها في هذه الحالة الرجم لأنها متزوجة، فلذلك جاء التشريع الإلٰهي، في منتهى التثبت والعدالة والرحمة، ولهذا قال سبحانه بعد تشريع حكم اللعان ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ أي لولا فضل الله العظيم عليكم، ورحمته بكم، بالستر على ما جرى.. وجواب (لولا) محذوفٌ للتهويل وتعظيم الأمر، تقديره: لولا فضل الله ورحمته بكم، لعاجلكم بالعقوبة فهلكتم وافتضحتم بين الناس، ولكنه سبحانه رحيم بالعباد، حكيم في تشريعه وعدله!! أما سبب نزول آيات اللعان، فهوما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس (أنَّ «هلال بن أمية» قذف امرأته عند النبي ﷺ بـ «شريك بن سحماء» فقال له النبي ﷺ: البيِّنة أو حدٌّ في ظهرك ـ أي ائتني بالشهود أو أُقيم عليك حدَّ القذف ـ فقال يا رسول الله: إذا رأىٰ أحدنا مع امرأته رجلاً، ينطلق يلتمسُ البيّنة؟ والذي بعثك بالحقِّ إني لصادق، ولينزلنَّ الله ما يبرِّىء ظهري من الحد!! فنزل جبريل على رسول الله وأنزل الله هذه الآيات ﴿**والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم**...﴾الآيات (فلاعَنَ رسول الله بينهما، ثم فرَّق بينهما فرقة مؤبدة..) وانظر كامل القصة من صحيح البخاري ٨/٤٤٩ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ بمناسبة ذكر قذف المحصنات، جاء الحديث عن (حادثة الإفك)، وهي الحادثة

﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴿١٢﴾ لَّوۡلَا جَآءُو

المروعة، التي اتهمت فيها زوجة خير البشر، السيدة عائشة الصدِّيقة بنت الصدِّيق «أبي بكر» رضي الله عنهما، اتهمت بتلك التهمة الشنيعة، أفظع وأشنع التُّهم، تهمة الفجور والزنى، ونزلت في هذه القصة خمس عشرة آية لبراءتها، وإدانة المنافقين أهل الزور والبهتان بالجريمة المنكرة «جريمة الإفك» لتكون درساً بليغاً، على مرِّ العصور والأزمان، لكل من تحدثه نفسه، بالولوغ في أعراض المؤمنين والمؤمنات، وخلاصة القصة كما وردت في الصحيحين: أن النبي ﷺ صَحِب معه السيدة «عائشة» في غزوة من الغزوات، ولماأراد الرسول الرجوع، فقدت عائشة عقداً لها، فذهبت تبحث عنه، ونادى منادي الرسول بالرحيل، فحملوا هودجها على البعير، ظناً منهم أن عائشة فيه، ولمَّا رجعت لم تجد الجيش، فجلست تنتظر لعلهم يفتقدونها، فنامت في مكانها، وكان «صفوان بن المعطل» خلف الجيش فلما رآها عرفها، فاسترجع ـ أي قال: إنَّا لله وإنا إليه راجعون ـ فاستيقظت على صوته، فأناخ لها بعيره، فركبت عليه، حتى لحق بالجيش، فلما رآها رأسُ المنافقين «ابن سلول» وصفوان يقود بها الراحلة، أشاع بين جماعته المنافقين الإفك، واتهمها بصفوان أنه فجر بها. .» إلى آخر القصة الطويلة، فنزلت هذه الآيات لتبرأتها، صيانةً لعرض الرسول ﷺ أن يُثلم بالزور والبهتان، من أول الآيات إلى قوله ﴿**الخبيثاتُ للخبيثين والخبيثون للخبيثات. والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم**﴾ وانظر كامل الحادثة في صحيح البخاري ٨/ ٤٥٢ ومعنى الإفك: الكذبُ والزور والبهتان، أي إن الذين جاءوا بأسوأ الكذب، وأقبحه وأشنعه، وهو قذفُ البريئة العفيفة «عائشة» زوجة الرسول المعصوم ﷺ، ليسوا غرباء عنكم، إنما هم جماعة منكم، من أهل الضلال والنفاق، لا تظنُّوا أن هذا القذف والاتهام، شرُّ لكم يا أهلَ بيت أبي بكر، بل هوخير لكم، لما فيه من الشرف العظيم لكم، بنزول الوحي من علياء السماء، ببراءتها ورفعة مكانتها، لكل واحدٍ من العُصْبة الكاذبة، جزاء ما اقترف من الذنب، بقدر جريمته وجنايته، والذي تولَّى إشاعة معظم هذا البهتان، وهو «عبد الله بن سلول» له أشدُّ العذاب في نار الجحيم، لأنه آذى رسولَ الله ﷺ في أهله وحَرَمه. . ثم عاتب الله المؤمنين بشدة، لأنهم لم يردعوا أهل الفجور، من أول وهلةٍ سمعوا فيها الخبر، فقال سبحانه: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ لَّوۡلَا جَآءُو

عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِالشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِالشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي هلاً إذ سمعتم يا معشر المؤمنين، هذا الافتراء والبهتان، سارعتم إلى ردِّه وتكذيب قائله، وظننتم بإخوانكم المؤمنين الخير، وبخاصة في أهل بيت النبوة!! فإن واجب الإيمان، ردُّ هذا الفجور والبهتان على صاحبه وقائله، وقلتم أول ما سمعتموه: سبحانك يا رب، هذا كذب مبين، لا ينبغي أن نتحدث به!! **قال ابن الزبير**: هذه معاتبةٌ من الله للمؤمنين، إذ المؤمنُ لا يفجُر بأمه، وعائشةُ رضي الله عنها أمُّ المؤمنين، فكيف بالصدِّيقةِ بنت الصدِّيق، أم المؤمنين، حرم رسول الله ﷺ؟ ـ أي كيف يتصوَّر أن يصدر منها هذا ـ؟! رُوي أن «أبا أيوب الأنصاري» قالت له امرأتُه: أما تسمعُ ما يقول الناسُ عن عائشة؟ قال لها: نعم، وذلك الكذبُ المكشوفُ!! أكنت فاعلةً ذلك يا أمَّ أيُوب؟ قالت: لا والله، قال: فعائشةُ واللهِ خيرٌ منك» يريد أنها بريئة من هذا الزور والبهتان، لأنها أفضل من نساء جميع المؤمنين، فكيف يُتصور منها مقارفة الفاحشة؟ يقول تعالى في تفنيد هذه التهمة: وهلاً جاء الخائضون الأفَّاكون بأربعة شهود، يشهدون على ما قالوا؟ فإن عجزوا ولم يأتوا بالشهود، فأولئك هم الكاملون في الكذب، والمتَّهمون بالباطل للبريئين، في حكم الله وشرعه ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هذه الآية في جهلة المؤمنين، المتسرّعين في سماع الأكاذيب، لا في المنافقين الموغلين في النفاق والكفر، أي لولا فضل الله عليكم أيها الخائضون في شأن عائشة بغير علم، ولولا رحمته بكم، حيث لم يعجِّل لكم العقوبة، لنالكم بسبب ما تناقلتموه من حديث الإفك، عذاب شديدٌ لا يُطاق.. ثم زاد تعالى في اللوم والعتاب فقال ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أي حين كنتم تتحدثون به، ويتناقله بعضكم عن بعض، من غير تثبت ولا تحقق، وتحسبون أن الأمر سهل يسير، وهو عند الله من أعظم الكبائر، وأعظم الجرائم، لأنه أمرٌ يتعلق ببيت النبوة، وبزوج خاتم الأنبياء، إمام

وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ

المرسلين ﷺ ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ أي وهلاَّ حين سمعتم هذا الاتهام الشنيع، من الأفّاكين الكذابين، استبعدتموه وقلتم: ما ينبغي لنا أن نتحدَّث بهذا، ولا أن ننقله لأحد، لأنه كذب صُراح، وقلتم أيضاً: سبحانك أي ننزّه أسماعنا يا رب، عن مثل هذا الزور والبهتان، في حقّ زوجة أشرف الرسل، الطاهرة البريئة «عائشة» رضوان الله عليها، فهذا كذب واضح، جرمه عظيم!! ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي يذكّركم الله وينبهكم بالمواعظ المؤثِّرة، والإرشادات الشافية، لكيلا تعودوا لمثل هذا العمل أبداً، إن كنتم حقاً مؤمنين، تريدون لأنفسكم السلامة من عذاب الله، ويوضِّح الله لكم الآيات، الدالة على محاسن الآداب، وفضائل الدين، لتتعظوا وتتأدبوا بها، والله عليم بما يصلح العباد، حكيم في تشريعه وتوجيهه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الفاحشةُ: العملُ القبيحُ، الذي تناهى في القبح والشناعة، **والمعنى**: إن الذين يحبون أن ينتشر الزنى، والأعمال المنكرة القبيحة، كالرذائل والعلاقات الجنسية الأثيمة، بين صفوف المؤمنين، لهم عذاب مؤلم موجع، في الدنيا بإقامة الحدود عليهم، وفي الآخرة بعذاب جهنم المخلَّد، والله عالم بالأسرار، وبما تخفيه نفوسُ الفجار، وأنتم لا تعلمون ذلك ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لولا فضله تعالى على عباده، ورحمتُه بهم، لأهلكهم وعذَّبهم، ولكنه تعالى رءوفٌ رحيم، ولذلك لم يعاجلهم بالعقوبة، وجواب «لولا» محذوفٌ للتهويل، تقديره: لنزل بكم من العذاب ما لا يحيط به الخيال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ

ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾

ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ خطوات الشيطان: طرائقه ومسالكه، أي لا تسلكوا الطرق التي يدعوكم إليها الشيطان، ويزيِّنها لأعينكم، ومن يتَّبع طرائق الشيطان وسيرته، فإن الشيطان يُضلّه ويُغويه، ويأمره بفعل كل قبيح ومنكر، ولولا فضلُ الله عليكم أيها المؤمنون، وتوفيقه لكم بالتوبة، لما تطهَّر أحدٌ منكم من الذنوب والأوزار أبد الدهر، ولكنَّ الله بفضله ورحمته، يطهِّر النفوس من فجورها ودنسها، والله سميع لأقوالكم، عليم بأحوالكم.. قال مسروق: «سأل رجلٌ ابن مسعود فقال: إني حرَّمتُ على نفسي أن آكل طعاماً ـ وسمَّاه له ـ فقال له: هذا من نَزَغات الشيطان، كفِّرْ عن يمينك وكُل» **وقال قتادة:** كلُّ معصية لله، فهي من نزغات الشيطان﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لا يحلف أهلُ الفضل في الدين، والسَّعة في الرزق، أن لا يحسنوا إلى ذويهم من الفقراء المهاجرين، لذنبٍ فعلوه، وليعفوا عنهم وليصفحوا، ألا تحبون يا معشر المؤمنين، أن يعفو الله عنكم على عفوكم عمن أساء إليكم؟ والله مبالغ في المغفرة والرحمة، مع كمال قدرته على المؤاخذة.. نزلت هذه الآية في «أبي بكر الصدِّيق» كان ينفق على «مسطح بن أُثاثة» لمسكنته وقرابته، فلما وقعت حادثةُ الإفك، وخاض فيها من خاضَ، كان «مسطح» في جملة الخائضين، حلف أبو بكر أن لا ينفق عليه بعد اليوم، ولا ينفعه بنافعة أبداً، فأنزل الله هذه الآية ﴿**ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة..**﴾ الآية، فلما سمعها أبو بكر، قال: بلى واللهِ إني أحبُ أن يغفر الله لي، فأعاد إلى مسطح النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً» رواه ابن جرير.﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي يقذفون بالزنى المؤمنات، العفيفات، الطاهرات النفوس، النقيَّات القلوب، البعيدات عن كل سوء وفاحشة،

يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾

طُردوا من رحمة الله وأُبعدوا عنها، ولهم أشد أنواع العذاب العظيم في الآخرة. **قال ابن عباس**: «هذا اللعنُ فيمن قذف زوجات النبي ﷺ إذْ ليس له توبةٌ، ومن قذف مؤمنةً جعل الله له توبة» أقول: هذا كلُّه حماية لبيت النبوة، أن يعبث في حرمتها، أهلُ الفسوق والفجور، فكرامةُ أمهاتِ المؤمنين، من كرامة سيد المرسلين، ولذلك جاء التغليظُ باللعن والطرد من رحمة الله، لمن خاض بالإفك في آل بيت الرسول ﷺ ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي ذلك العذاب الشديد، في ذلك اليوم الرهيب، يوم القيامة حين تشهد على الإنسان جوارحه وأعضاؤه، فتنطق الأيدي والأرجل والألسنة، بما اقترف من سيء الأعمال، وينال الإنسان جزاءه العادل، من أحكم الحاكمين، ويظهر للخلق أن الله لا يظلم أحداً من العباد، لظهور عدله في تشريعه وحكمه، وختم الله هذه القصة، بذكر براءة السيدة «عائشة» بالدليل القاطع، والبرهان الساطع، فقال سبحانه: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ لقد جرت سُنَّةُ اللهِ في خلقه، أن يسوق الجنس إلى جنسه، فالخبيثاتُ من النساء، للخبيثين من الرجال، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، وحيث كان سيِّد الخلق محمد ﷺ أطيب الأطيبين، كانت الصدِّيقة عائشة من أطيب الطيبات بالضرورة، هذا المنطقُ البدهيُّ، أن «الجنسَ يألفه الجنسُ» كما يُقال في الأمثال، فالرجل الطاهر الشريف لا يُتصور أن تكون عنده زوجة فاجرة عاهرة ويرضى بها!! وهذه الآية سيقت كدليل على براءة عائشة، لأنها زوجةُ من؟ زوجة أفضل الخلق، إذاً لا بدَّ أن تكون طاهرة، شريفة عفيفة، لأن الطيب لا يكون عنده إلا طيِّبة، وختم الله الآيات ببراءتها بأظهر بيان فقال ﴿**أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم**﴾ أي أولئك الفضلاء الموصوفون بعلوِّ الشأن، لهم على ما نالهم من الأذى، مغفرةٌ لذنوبهم،

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

ورزقٌ كريم هو الجنة التي أعدَّها للمتقين. . وبهذا تنتهي هذه الحادثة المفجعة، ببراءة السيدة عائشة من تلك التهمة الشنيعة، فما كان الله ليجعلها زوجةً لأحبِّ عباده له، لو لم تكن عفيفةً، طاهرةً، شريفةً!! كان مسروق إذا حدَّث حديثاً عن عائشة، أو روى عنها خبراً يقول: (حدَّثتني الصدِّيقة، بنتُ الصدِّيق، حبيبةُ رسول الله ﷺ، المبرأةُ من السماء) ثم يروي ما سمعه منها. . يُحكى أن قسِّيساً أراد أن يغمز السيدة (عائشة)، بحضور بعض المسلمين، فقال: لقد تكلَّم الناسُ فيها ورموها بالفاحشة!! فأجابه بعضُ الحاضرين على الفور، قائلاً له: هناك امرأتان اتُّهمتا بالزنى، وقد برَّأهما القرآن الكريم، إحداهما ليس لها زوج وقد جاءت بولد، والأخرى لها زوج ولم تأت بولد، فأيَّتُهما أولى بالتهمة؟ هل التي لها زوج، أم التي ليس لها زوج؟ فبُهت القسِّيسُ ولم يَنْبسْ ببنتِ شفة!! يريد المسلم أن يُخرسه بهذا الجواب، فمريم اتهمت بالزنى، وليس لها زوج، وحملت بولد، فالتهمةُ في مريم أظهر وأوضح، والنصارى يعتقدون بعفاف السيدة «مريم» كما يعتقد بذلك المسلمون، فإمَّا أن يعتقد المنصف ببراءة الاثنتين، أو لا يعتقد!! ولمَّا حذَّر تعالى من قذف المحصنات، وكان طريق هذا الاتهام، هو الخلوة بالنساء، ومخالطة الرجال للنساء، أرشد تعالى المؤمنين، إلى عدم دخول البيوت، إلاَّ بعد الاستئذان، لئلا تقع العين على حرمات المنزل، فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي لا تدخلوا يا معشر المؤمنين بيوتاً غير بيوتكم، حتى تستأذنوا من أصحابها، وتسلِّموا على أهلها بتحية الإسلام المباركة «السلام عليكم ورحمةُ الله» وهذا الاستئذان والتسليمُ، خيرٌ لكم من الدخول بغتة، وخيرٌ من تحية الجاهلية، يعظكم الله بهذه المواعظ، لتتذكَّروا الآداب وتعملوا بموجبها ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أي فإن لم يكن في البيوت أحدٌ ممن يأذن لكم، فاصبروا ولا تدخلوها، حتى يُسمح لكم بالدخول، لأن للبيوت حرمة، ولا يجوز

لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ

اقتحامُها بدون إذن أهلها، وإذا اعتذر أهل الدار، عن استقبالكم فارجعوا، ولا تلحُّوا في طلب الدخول، فقد يكون أهلُ الدار، في شغلٍ شاغل عن التفرغ للضيف، والإثقالُ على الغير منافٍ للمروءة، ورجوعكم أطهر وأكرم لنفوسكم، وهو خيرٌ لكم عند الله وأزكى ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أي ليس عليكم إثمٌ ولا حرج، أن تدخلوا بدون استئذان بيوتاً غير مسكونة، كالرباطات، والفنادق، والخانات، فيها منفعة لكم، لأن العلة وهي الاطلاع على العورات، غير وارد في البيوت غير المسكونة، والإنسان يحتاج إلى الدخول إليها لمصالحه الشخصية، كالاستظلال من الحر والبرد، ووضع الأمتعة، والاستراحة في السفر، وأمثال ذلك مما هو معدٌّ لمصالح الناس، والله هو العالم بما تظهرونه وما تخفونه في صدوركم، من إرادة الخير أو السوء، فيجازيكم عليه، وهذا وعيدٌ لمن يدخل مدخلاً لفساد، أو لاطِّلاع على عورات النساء، في الحضر والسفر ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ أي قل لأتباعك المؤمنين، أن يكفُّوا أبصارهم عن النظر إلى الأجنبيات ـ غير المحارم ـ فإن النظرة تزرع في القلب الشهوة، وتجرُّ إلى بلاءٍ مستطير، وقل لهم: أن يصونوا فروجهم عن الكشف، وعن مقارفة الفاحشة، فذلك أطهر لهم من دنس الريبة، وأتقى للدين، وأحفظ عن الوقوع في الفجور، إنه تعالى رقيب عليهم، مطَّلع على أعمالهم، **وسبب نزول هذه الآية**: (ما رُوي أن رجلاً على عهد رسول الله ﷺ، مرَّ بالطريق فرأى امرأةً فأُعجب بها، فنظر إليها ونظرتْ إليه، فوسوس لهما الشيطان أن كلاً منهما معجبٌ بالآخر، فبينا الرجلُ يمشي وهو ينظر إليها، صَدَمه عمودٌ فشقَّ أنفه، فقال الرجل: واللهِ لا أغسل الدم عني حتى آتيَ رسول الله فأخبره بأمري، فجاء فقصَّ عليه القصة، فقال له المصطفى ﷺ: هذه عقوبةُ ذنبك، فأنزل الله الآية)، رواه ابن مردويه عن علي رضي الله عنه: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ

زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ

زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ﴾ أي وقل للمؤمنات أيضاً، أن يكففن أنظارهنَّ عن الرجال، ويحفظن فروجهن بالتصوُّن والعفة عن الزينة، والتستر عن الكشف للعورات، ولا يُظهرن زينتهن للأجانب، إلاَّ ما ظهر منها بدون قصدٍ ولا نيَّة سيئة، ولْيلقين (بخمرهنَّ) أي غطاء الرأس على (جيوبهن) أي فتحة صدورهن، لئلا يبدو شيء من النحر، والصدر!! كانت المرأة في الجاهلية، تمرُّ بين الرجال، مكشوفة النحر، بادية الصدر، حاسرة الذراعين، وربما أظهرت بعض مفاتنها، لإغراء الرجال، وكنَّ يسدلن الخُمُر ـ أغطية الرأس ـ من ورائهن، فتبقى صدورهن مكشوفة، فأُمرت المسلمةُ أن تلقيه من قُدَّامها، حتى تغطي صدرها، وتدفع عنها شَرّ الفجّار، تقول السيدة عائشة: (يرحم اللهُ نساء المهاجرات الأُوَل، لمَّا أنزل الله **﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾** شققْنَ مروطهنَّ ـ أي الأُزر جمعُ مُرْط وهو الإزار ـ فاختمرن بها) رواه البخاري ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ أي ولا يُظهرن أجسادهن ومواضع الزينة، إلاَّ لأزواجهن «البعولة» أو لآبائهن، أو آباء أزواجهن، لأن الأب يصون عرض ابنته، ووالد الزوج يصون عرض ابنه، ثم عدَّد بقية المحارم، بذكر (الأبناء، وأبناء الأزواج، والإخوة الأشقاء، أو الإخوة لأب، أو لأم، وأبناء الإخوة، وأبناء الأخوات)، وكلّهم من المحارم، الذين يحرم على المرأة الزواج بهم، وقوله سبحانه: **﴿أو نسائهن﴾** أي المسلمات، **قال مجاهد**: ليس المشركات من نسائهن، وليس يحل للمسلمة أن تنكشف بين يدي مشركة، **وقال ابن عباس**: «هنَّ المسلمات، ولا تُبدي زينتها أمام يهودية أو نصرانية» وكتَبَ عمر رضي الله عنه إلى أبي عُبيدة «أن يمنع نساء أهل الكتاب، أن يدخلن الحمَّام مع المسلمات» **﴿أو ما ملكت أيمانهن﴾** أي من الإماء النساء، فإن عبد المرأة بمنزلة الأجنبي منها، قال سعيد بن المسيِّب: لا تغرنَّكم سورةُ النور، فإنها في «الإماء» دون الذكور، أي الإماء المشركات، فيجوز

أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾ وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٣٢﴾ وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ

للمسلمة أن تُظهر زينتها لها، وإن كانت مشركة لأنها أَمَتُها ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾ أي البُلْه من الرجال، والمعتوهين، الذين لا يدركون العلاقات الجنسية، **قال مجاهد**: «هو الأبله الذي يريد الطعام، ولا يريد النساء، ولا يهمُّه إلاّ بطنُه» أو الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا سنَّ الشهوة، ولا يعرفون أمور الجماع لصغر سنهم ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أي ولا تضرب برجلها الأرض، لئلا يسمع الرجال صوت الخلخال، فتتحرك شهوتهم نحو النساء، وإذا كان سماع صوت خلخالها، الذي تلبسه في رجلها للأجانب حراماً، كان سماع صوتها بالغناء الماجن بحيث يسمعه الأجانب، حراماً بطريق الأولى، وتوبوا يا معشر المؤمنين من ذنوبكم، وامتثلوا أوامر ربكم، لتفوزوا بسعادة الواثقين، وتنالوا رضى ربكم ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ الأيامى جمع أيِّم، وهو من لا زوج له، من الرجال والنساء، أي زوِّجوا الشباب الذين لا زوجات لهم، والفتيات اللَّواتي لا أزواج لهن، وزوِّجوا أهلَ الدين والصلاح، من عبيدكم وجواريكم، إن يكن هؤلاء الذين تزوجونهم فقراء، فلا يمنعكم فقرهم من تزويجهم، فالله هو الرزَّاق للعباد، وهو واسع الفضل والعطاء، وهذا وعدٌ من الله، بالغنى لمن أراد العفاف، **قال ابن مسعود**: التمسوا الغنى في النكاح، وتلا الآية، وفي الحديث الصحيح «ثلاثةٌ حقٌّ على الله عونُهم: الناكحُ الذي يريد العفاف، والمكاتَبُ الذي يريد الأداء، والمجاهدُ في سبيل الله» رواه الترمذي والنسائي ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ﴾ أي

وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

وليجتهدْ في العفة وقمع الشهوة، الذين لا يجدون أسباب تيسر النكاح، من المهر، والنفقة، أو المسكن، أو لأسباب اجتماعية أو دراسية، حتى يوسِّع الله عليهم، ويُسهِّل عليهم أمر الزواج، والذين يطلبون المكاتبة ليتحرَّروا من (رقِّ العبودية)، فكاتبوهم على قدرٍ من المال، إن عرفتم منهم الأمانة والرشد، ورأيتم منهم الصلاح في الدين ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ أي وادفعوا لهم شيئاً من أموالكم، التي رزقكم الله إيَّاها، ليكون لهم عوناً على فَكَاك أنفسهم، وهذا كلُّه للندب والاستحباب، وهو من محاسن الإسلام أن يدعو إلى تحرير (العبيد والأرقاء)، بشتى طرق التحرير، من المكاتبة، والإعتاق لوجه الله دون شيء من المال، فالإسلام دينُ التحرير، لا دين الرق والعبودية، وما يقع الإنسان في الرق إلاّ بسبب كفره، ومع ذلك يدعو الإسلام إلى تحرير الأرقاء ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي ولا تكرهوا الجواري، اللواتي تحت أيديكم على الزنى، إن أردن التعفف عن مقارفة الفاحشة، من أجل أن تحصلوا على شيء من حطام الحياة الفانية من المال، بطريق الرذيلة والزنى، ومن يكرههنَّ على ذلك، فإن الله سيغفر لهنَّ، وينتقم ممن أكرههنَّ شرَّ انتقام!! وليس قوله **﴿إن أردن تحصناً﴾** للقيد أو الشرط، وإنماهو لبيان فظاعة الأمر، ومنتهى بشاعته، حيث كانوا يكرهونهن على الزنى، وهنَّ يردن التعفف عنه، والأصل في المملوكة أن يزجرها سيُّدها ويمنعها من الفجور، أمَّا أن يأمرها بالزنى، وهي تمتنع منه، وتريد لنفسها العفة، فذلك منتهى الخسَّة والدناءة!! **روى مسلم** عن جابر أنه قال: «كان عبدُ الله بن أبيٍّ بن سلول ـ رئيس المنافقين ـ يقول لجاريته: اذهبي فابغينا شيئاً ـ أي ائتينا بالمال عن طريق ممارسة الجنس والزنى ـ فأنزل الله تعالى: **﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء﴾** الآية، رواه مسلم، والمراد المغفرة للمكرَهات، لا للمُكرِهين المجرمين، الذين يتاجرون بأعراض الفتيات ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ أي لقد أنزلنا إليكم

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾

يا معشر المؤمنين، آيات واضحات، لكل ما تحتاجون إليه، من أمور الدين في (الحدود، والآداب، وسائر الأحكام)، وضربنا لكم الأمثال بمن سبقكم من الأمم، لتعتبروا وتتعظوا، وتنزجروا عمَّا لا ينبغي فعله من المحرمات. ولمَّا ذكر تعالى بعض الآداب والأحكام التشريعية، ذكر بعده مصدر هذا النور الإلهي، الذي جعله الله في قلب عبده المؤمن، فقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ **أي الله جلَّ ثناؤه منوِّر** الكائنات، أنار السموات بالكواكب المضيئة، وأنار الأرضَ بالشرائع والأحكام، وبعثة الرسل الكرام، **قال ابن مسعود**: «ليس عند ربكم ليلٌ ولا نهار، نورُ السمواتِ والأرض نورُ وجهه» أي من النور الذي خلقه الله، فاستنارت منه الكائنات، **وفسَّر الطبري** الآية بأن معناها: «الله هادي أهل السموات والأرض، فهم بنوره إلى الحقِّ يهتدون، وبهداه من حيرة الضلالة يعتصمون» **وقال ابن القيم**: سمَّى الله سبحانه نفسه نوراً، وجعل كتابه نوراً، ورسوله نوراً، واحتجب عن خلقه بالنور.. قال: وما قاله ابن مسعود أقربُ إلى تفسير الآية من غيره» ثم قال تعالى **﴿مثل نوره كمشكاة﴾** هذا تمثيلٌ، حيث مثَّل لهدايته عباده المؤمنين، بالنور الوضاء، ولهذا ختم الآية بقوله **﴿ويضرب الله الأمثال﴾** وكثيراً ما يضرب القرآنُ النورَ على الإيمان، والظلامَ على الكفر، كقوله سبحانه: **﴿لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾** ومعنى قوله تعالى: **﴿مثل نوره كمشكاةٍ فيها مصباح﴾** أي مثلُ نور الله، الذي أودعه الله في قلب عبده المؤمن، كفتحة كوة - أي طاقة - في الحائط، ليس لها منفذ، ليكون أجمع للضوء، وأنور للمكان، في هذه الكوَّة مصباح أي سراج ثاقبٌ ضخم **﴿المصباحُ في زجاجة﴾** أي في قنديل من الزجاج الصافي الوضاء **﴿الزجاجةُ كأنها كوكبٌ دريٌّ﴾** أي كأن الزجاج في صفائه وضيائه، شبيهٌ بالكوكب المتلألىء الوقَّاد، يشبه الدُّرَّ في البهاء والحسن **﴿يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية﴾** أي زيتُ هذا المصباح، الذي يُوقد به، يخرج من شجرةِ زيتونةٍ مباركة، كثيرة المنافع، تنبت هذه الشجرة على ربوةٍ مرتفعة، ليست

يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾

في ناحيةٍ شرقية، ولا غربية من الأرض، فالشمس لا تكاد تغيب عنها، لا في حال الطلوع ولا الغروب، فيكون زيتُها أجودَ، وأصفى، وأضوأ ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ﴾ أي يكاد زيتُ هذه الزيتونة يضيء من صفائه، وحسن ضيائه، ولو لم تمسسه النارُ، فكيف وقد أُوقِدَ به المصباح؟ فتضاعف النور والضياء ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي هذا هو المثلُ الذي ضربه الله، لنور المؤمن الذي أودعه الله في قلبه، فهو نور عظيم متضاعف، (نور الإيمان، نور الهداية، نور الطاعة، نور المعرفة بصفات الله)، يوفِّق الله إلى هذا النور الإلهي، من أراد توفيقه إلى طريق الهداية والسعادة، وهذه الهداية التي أشارت إليها الآية، هداية خاصة موصلة إلى الإيمان والسعادة، وليس المراد بها مجرد الدلالة، ويضرب الله الأمثال، لتقريبها لعقول البشر، والله واسع العلم، يعلم المؤمن من الكافر، والبرَّ من الفاجر!! **فإن قيل**: لمَ مثَّل الله سبحانه، نورَ معرفة الله تعالى، في قلب العبد المؤمن، بنور المصباح، دون نور الشمس مثلاً؟ فالجواب أن المقصود تمثيل النور في القلب، ولمَّا كان القلبُ في الصدر في الداخل، والصدر في البدن، ناسب التمثيل له بنور المصباح، في كوَّة الحائط والجدار، **قال شيخ المفسرين الطبري**: ذلك مثلٌ ضربه اللهُ عزَّ وجل، للقرآن في قلب أهل الإيمان، فقال: مثلُ نور الله، الذي أنار لعباده سبيل الرشاد، مثلُ كوَّةٍ في الحائط، لا منفذ لها، فيها مصباح أي سراج، وهذا السراجُ مثلٌ لما في قلب المؤمن من القرآن والآيات البينات، فاستنار قلبُ المؤمن بنور القرآن، فَخَلُص من الشكِّ والكفر، وعنى بزيت الزيتونة التي تخرج من شجرة مباركة، أن حجج الله على خلقه، تكاد من بيانها ووضوحها تضيء، لمن فكَّر فيها ونظر، ولو لم يزدها الله بياناً ووضوحاً بنزول هذا القرآن، فكيف وقد نبَّههم به، وذكَّرهم بآياته؟ فزادهم بها حجةً ويقيناً، وذلك نورٌ من الله، ونور على نور» اهـ تفسير الطبري ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ لمَّا ذكر تعالى هدايته لعباده المؤمنين، وضرب لهم المثلَ بالنور الذي جعله في قلوبهم، ذكر الأماكن التي يمكن أن يقبس منها

رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾

الإنسانُ هذا النور، وهي المساجد، والمعنى: في بيوتٍ أمر اللهُ أن تُبنى وتُشاد، وأن يُعبد فيها الله، بذكره، وتلاوة آياته، ومجالس العلم والتفقه في الدين، وأن يُنزَّه، ويُقدَّس، ويُصلَّى فيها لله سبحانه في الصباح والمساء، وهي المساجد التي عُمرت لعبادة الله، فهي مراكز العبادة والمعرفة، وهي معامل لتخريج العلماء والأبطال، **قال ابن عباس**: المساجد بيوتُ الله في الأرض، تضيء لأهل السماء، كما تضيء النجوم لأهل الأرض. ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾، أي يعبده في هذه الأماكن الطاهرة ـ (المساجد) ـ رجالٌ لا تشغلهم الدنيا ببهجتها وزخرفها عن طاعة الله، ولا يشغلهم البيعُ والشراء والتجارة، عن الصلاة والزكاة وذكر الله، يخافون يوماً رهيباً، تضطرب من شدة هوله، قلوبُ الخلائق وأبصارهم، وتطيش لها أحلامهم ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي ليثيبهم على أعمالهم الصالحة في الدنيا بأحسن الجزاء، ويتفضل عليهم فوق ذلك الجزاء، بنوعٍ من النعيم لا يخطر على بال، فيعطيهم ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر، وهو سبحانه يعطي من يشاء من خلقه، عطاءً واسعاً، بدون حدٍ ولا عدٍّ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ ضرب الله مثلين للكفار: **المثل الأول**: لأعمالهم التي يظنونها حسنات، وهى أعمال البر، كصلة الأرحام، وإطعام الأيتام، ونحوهما، بالسراب الذي يراه الإنسان في الصحراء، فيظن أنه ماء، من لمعان الشمس وقت الظهيرة، فإذا وصل إليه، لم يجده شيئاً، لا ماءَ ولا شراباً، وإنما وجده سَراباً، فعظمت حسرتُه وخيبتُه، ووجد الله له بالمرصاد، فوفَّاه جزاء عمله، وهكذا أعمال الكفار يوم القيامة، تذهب أدراج الرياح، لأنها كالسراب غشٌّ وخداع، **وأما المثل الثاني**: فذكره سبحانه

أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

بقوله: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ هذا هو المثل الثاني، وهو مثل في غاية البيان والإبداع، فقد مثَّل تعالى لمعتقدات الكفار، وأعمالهم الخبيثة، بالظلمات المتكاثفة، المتراكم بعضُها فوق بعض، في بحرٍ عميقٍ لا يُدرك قعرُه، يعلو ذلك الموجَ موجٌ هائل، متلاطم الأمواج، بعضُه فوق بعض، من فوق ذلك الموج سحاب كثيفٌ، فقد اجتمعت عليه الظلماتُ الثلاثُ: (ظلمةُ البحر، وظلمةُ الموج، وظلمةُ الليل، وظلمةُ السحاب)، حتى لا يكاد الإنسان يرى يده، من شدة هذه الظلمات، فكذلك شأن الكافر، يتخبَّط في ظلمات الكفر والضلال، ومن لم يهده الله للإيمان، وينوِّر قلبه بنور القرآن، لم يهتد أبدَ الدهر!! ثم ختم الآية ذلك الختم البديع بقوله: **﴿فما له من نور﴾** مقابل قوله في المؤمن **﴿نور على نور﴾** فكان هذا التمثيل والبيان، في غاية الإبداع والحسن، فللَّه ما أروع وأبدع أسلوب القرآن!! حُكي أن بعض علماء البحار من الغربيِّين، سمع هذه الآية **﴿أو كظلمات في بحر لجي﴾** أي عميق، فسأل المسلمين: هل ركب محمد البحر؟ أو سافر في البحر؟ قالوا: لا، قال: أشهد أنه رسول الله!! قالوا: وكيف عرفتَ أنه رسول الله؟ قال: إن هذا الوصف الدقيق، لا يعرفه إلا من عاش حياته في البحار، ورأى الأهوال والأخطار، في المحيطات العميقة، فلمّا عرفتُ أنه لم يركب البحر، أيقنتُ أن هذا الوصف إنما جاء به الوحي من عند الله!! فأسلم وحَسُن إسلامُه.. وبعد الأمثلة القرآنية، تتحدث الآيات عن دلائل القدرة والوحدانية، فيقول سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي ألم تر أيها الإنسانُ العاقل، أن جميع ما في الكون، يشهد لله بالوحدانية، ويسبِّح له (الملائكةُ، والإنسُ، والجنُّ، والطيرُ، والوحشُ)، كلٌّ بلغته وطريقته، والطيرُ تسبِّح الله في جوِّ السماء،

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)﴾

صافاتٍ أجنحتها، ولكنكم لا تعرفون حقيقة هذا التسبيح!! ولا غرابة أن تسبِّح الطيرُ، والأشجارُ، والأنهار، والبحار، فكلُّ ما في الكون يُسبِّح الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وإن من شيء إلا يُسبِّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ وكلُّ ما في الكون ملكٌ لله سبحانه، وإلى الله وحده مصير الخلائق جميعاً ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾أي ألم تر أن الله العظيمَ الجليلَ القدير، يسوق السحاب بقدرته إلى حيث يشاء، ثم يجمعه بعد تفرُّقه، ويضمُّ أجزاءه فيجعله كثيفاً متراكماً بعضُه فوق بعض، فترى المطر يخرج من بين ثنايا السحاب، والوَدْقُ معناه: المطر، لكن السحاب لا يُمطر حتى يتكاثف، ويتكوَّن منه «السحابُ الرُّكامي» كما يقول علماء الطبيعة، ولهذا قال تعالى منبِّهاً إلى تلك الحقيقة ﴿فيجعله رُكاماً﴾ قال كعب: السحاب غربالُ المطر، ولولاه لأفسدَ المطرُ ما ينزل عليه ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾أي وينزِّل جلَّ وعلا من السحاب، من قطعٍ عظيمة تشبه الجبال بَرَداً، فيصيب بذلك البَرَد من شاء من العباد، فيضرُّه في نفسه وزرعه، وماشيته، وثَمَره، ويصرفه عمن يشاء فلا يصيبه شيء من الضرر، يكاد ضوءُ برقِ السحاب، من شدة لمعانه أن يخطف أبصار الناظرين إليه، وهذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة، لأن البرق من نار، والنارُ ضدُّ الماء، وفي السحاب يخرج الضِدُّ من الضِدِّ، كما قال القائل: جمعُ النقيضَيْن من أسرار قدرته: هذا السحاب به ماءٌ به نارُ، وفي ذلك عبرةٌ لذوي البصائر المستنيرة ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي والله تعالى بقدرته خلق أنواع

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾

المخلوقات، باختلاف أشكالها وألوانها وصنوفها، من ماءٍ واحد، فمنهم من يمشي على بطنه كالحيَّة والزواحف، ومنهم من يمشي على رجلين كالإنسان والطير، ومنهم من يمشي على أربع كالأنعام، وسائر الدواب، يخلق الله بقدرته ما يشاء من المخلوقات، مع اتحاد العنصر، إنه قادر على كل شيء، لا يمنعه مانع، ولا يدفعه دافع.. قدَّم تعالى ما هو أظهرُ في القدرة وأعجبُ، وهو الماشي على بطنه، من غير آلة ولا قوائم، ثم بالماشي على رجلين، ثم بالماشي على أربع!! ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي لقد أنزلنا إليكم أيها الناسُ القرآن، وما فيه من الدلائل البينات الواضحات، المرشدة إلى طريق الحق والنجاة، والله يرشد من يشاء من خلقه إلى الدين الحق، دين الإسلام.. ولمَّا ذكر تعالى التوحيد، حذَّر من النفاق والمنافقين، فقال سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ويقول المنافقون الذين في قلوبهم مرضٌ: آمنا بالله، وصدقنا بآياته، وأطعنا الله ورسوله، وهم في دعوى الإيمان كاذبون، لأن الإيمان لا يصحُّ ولا يستقيم، إلاَّ بالرضى والتسليم، لحكم الله وحكم رسوله، وهؤلاء في الحقيقة ليسوا بمؤمنين ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي إذا طُلب منهم التحاكم إلى شرع الله ودينه، استنكفوا وأعرضوا عن الحضور إلى مجلس الرسول ﷺ، وكيف يرفض مؤمن قبول حكم الله ورسوله، وهو يدّعي الإيمان؟ ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ أي وإن كان الحقُّ بجانبهم، جاءوا إلى رسول الله مسرعين، طائعين منقادين، لعلمهم أن الرسول ﷺ يحكم بالحقِّ ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي هل في قلوبهم

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

نفاقٌ؟ أم شَكُّوا في نبوته عليه الصلاة والسلام؟ أم يخافون أن يظلمهم رسولُ الله ﷺ في حكمه؟ بل الحقيقة أنهم ظلمة فجرة، كاملون في الظلم والعناد، ولذلك يعرضون عن حكم الرسول عليه السلام.. ثم بيَّن تعالى صفات أهل الإيمان والصدق فقال ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي إنما كان الواجب عليهم ـ لو كانوا صادقين في دعوى الإيمان ـ إذا دُعوا إلى التحاكم عند رسول الله ﷺ أن يسرعوا إلى المجيء، ويقولوا: سمعاً وطاعة، هكذا شأن المؤمن، وحينئذٍ يصبحون من أهل الفلاح، الفائزين في الدنيا والآخرة ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي ومن يطع أمر الله وأمر رسوله، ويخاف الله تعالى، إذا حصل منه شيء من الذنب، ويمتثل أوامره ويجتنب زواجره، فأولئك هم الفائزون بالنعيم المقيم، في جنات النعيم ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ حكاية لبعضٍ آخر من أكاذيب المنافقين، وما انطوت عليه نفوسهم من المكر، والكذب، والاحتيال، مؤكدةً بالأيمان الفاجرة، **والمعنى**: حلف المنافقون أغلظَ الأَيْمان وآكدها، لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد، ليخرجُنَّ معك!! قل لهم: لا تحلفوا فأيمانكم كاذبةٌ، وطاعتكم لله ورسوله معروفة، هي قولٌ باللسان دون القلب، وبالقول دون العمل، والله عالم بأحوالكم ونفاقكم، لا يخفى عليه شيء من نواياكم، **قال مقاتل**: لمَّا فضحهم الله بإعراضهم عن قبول حكمه عليه السلام، جاءوا إليه فقالوا: لو أمرتنا بالخروج من ديارنا وأموالنا لفعلنا، ولو أمرتنا بالجهاد لجاهدنا، فنزلت الآية، أخرجه ابن مردويه، ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥﴾

قل لهم: أطيعوا الله بإخلاص النية وترك النفاق، وأطيعوا الرسول بالاستجابة لأمره والتمسك بهديه، فإن أعرضتم عن طاعته، فعلى الرسول ما كُلِّف به من تبليغ الرسالة، وعليكم ما كُلِّفتم من السمع والطاعة، وإن أطعتم أمره فقد اهتديتم، وليس على الرسول إلا تبليغ أوامر الله، لا أن يضعَ الإيمان في قلوب الناس ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾ أي وعد الله المؤمنين الصادقين، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ليجعلنهم خلفاء، متصرِّفين في الأرض تصرف الملوك في ممالكهم، كما استخلف من قبلهم من المؤمنين، فملَّكهم ديار الكفار، وليجعلنَّ دينهم (الإسلام) الذي ارتضاه لهم، بقوله: **﴿ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾** ديناً عزيزاً مكيناً، عالياً على كل الأديان، وليغيرنَّ حالهم التي كانوا عليها من الخوف والفزع، إلى الأمن والاستقرار ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ أي يخلصون العبادة لي، لا يعبدون إلهاً غيري، فمن جحد شكر هذه النعم، فهو الخارج عن طاعة الله، العاصي لأمره.. **قال المفسرون**: لمَّا قدم رسول الله ﷺ وأصحابُه المدينة، رمتهم العرب عن قوسٍ واحدة، فكان المسلمون لا يبيتون إلاَّ في السلاح، ولا يصبحون إلاَّ في السلاح، حتى قال بعضهم يا رسول الله: أبدَ الدهر نبقى هكذا خائفين؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح؟! فأنزل الله هذه الآية الكريمة، وحقَّق الله وعده، فلم ينتقل رسولُ الله إلى جوار ربه، حتى فتح الله له (مكة، وخيبر، والبحرين، واليمن، وسائر جزيرة العرب)، ثم توالت الفتوحات في خلافة أبي بكر، وعمر، وقال الرسول ﷺ لعدي بن حاتم لمَّا وَفَد عليه: أتعرف الحِيرة؟ قلت: لا، ولكنْ سمعتُ بها!! فقال له عليه السلام: والذي نفسي بيده، لَيُتِمَنَّ الله هذا الدين، حتى تخرج الظعينة ـ يعني المسافرة ـ وحدها حتى تطوف بالبيت، في غير جوار أحد، ولتفتحنَّ كنوز كسرى، قلت: كسرى بن هُرْمز؟ قال: نعم، وليبذلنَّ المالُ حتى لا يقبله أحد، قال عدي: فلقد رأيت الظعينة تخرج من الحِيرة، فتطوف

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ

في البيت في غير جوار أحد، وكنتُ فيمن فتح كنوز كسرى، ولتكوننَّ الثالثة لأن رسول الله قالها» يعني فيض المال، رواه ابن أبي حاتم، وروى مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله زَوَىٰ لي الأرض ـ أي جمعها ـ فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وإن مُلك أمتي سيبلغ ما زُوِيَ لي منها، وأُعطيتُ الكنزين: الأحمر، والأبيض..» الحديث يعني الذهب والفضة، وكلُّ هذا قد تحقَّق، فانتشر دينُ الإسلام في أقاصي المعمورة، وملَك المسلمون الممالك والبلدان، تحقيقاً لوعد الله لهذه الأمة المحمدية. ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي أقيموا أيها المؤمنون الصلاة التي فرضها الله عليكم، وأدُّوا الزكاة إلى الفقراء والمساكين، وأطيعوا نبيكم محمداً في سائر ما يأمركم به، لتفوزوا وتنالوا رحمة ربكم ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ تسليةٌ للنبي ﷺ، ووعدٌ له بالنصرة على أعدائه، أي لا تظننَّ الكافرين الذين عاندوك وكذَّبوك، معجزين لله في الأرض، بل هم في قبضته وتحت سلطانه، وهو قادر على إهلاكهم في كل وقت، ومسكنهم في الآخرة نار جهنم، وبئسَ المرجعُ والمصير نارُ السعير ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ هذه آدابٌ اجتماعية أدَّب الله بها المؤمنين، أي ليستأذنكم في الدخول عليكم يا معشر المؤمنين، العبيدُ والإماءُ الذين تملكونهم ملكَ اليمين، والأطفالُ الصغار، الذين لم يبلغوا سنَّ التكليف، في ثلاث مرَّات: في ظلمةِ الليل قبل طلوع الفجر، وقت نومكم وخلودكم للراحة، وفي الظهيرة وقت القيلولة، وبعد صلاة العشاء، لأنه وقت إرادتكم للنوم، ووقتُ التجرد من الثياب ﴿ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ

طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٩﴾ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٦٠﴾

طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ أي هنَّ ثلاث أوقات، يختلُّ فيها التستُّرُ عادةً، وتبدو فيها العورات، فعلِّموا عبيدكم، وخدمكم، وصبيانكم، أن لا يدخلوا عليكم في هذه الأوقات، إلاَّ بعد الاستئذان، وفي غير هذه الأوقات، لا حرج أن يدخلوا عليكم من غير استئذان، لأنهم خدمكم وأولادكم، يطوفون عليكم للخدمة وقضاء الحاجات، ولو كُلِّفوا الاستئذان في كل مرة، لشقَّ الأمر عليكم وعليهم، كذلك يبيِّن الله لكم الآداب الشرعية، لتتمسكوا وتتقيدوا بها، والله عليم بمصالح العباد، حكيم في تشريعه وتدبيره ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ أي وإذا كبر الأطفال وبلغوا مبلغ الرجال، فعلّموهم الآداب الإسلامية، أن يستأذنوا في جميع الأوقات، كما يستأذن الرجال البالغون.. (روي عن «أسماء بنت مِرثد» أنها قالت يا رسول الله: ما أقبح هذا!! إنه ليدخل على المرأة وزوجِها، غلامُهما بغير إذن، وهما في ثوب واحد!!) فأنزل الله الآية ﴿ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم﴾ الآية، رواه ابنُ أبي حاتم، ثم ذكر تعالى حكماً خاصاً بالنساء العجائز، اللواتي بلغن سنَّ الشيخوخة، ولا يرغب فيهن الرجالُ فقال سبحانه ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ أي والنساء العجائز اللواتي لا يُشتهين لكبر سنهنَّ، وليس لهن رغبة في الأزواج، لانعدام دوافع الشهوة فيهن، فلا حرج ولا إثم عليهن، في أن يضعن بعض ثيابهن، كالرداء والجلباب، وأن يظهرن أمام الرجال بملابسهن المعتادة، التي لا تثير شهوةً، ولا تلفت انتباهاً، بشرط أن لا يتظاهرن بالزينة، وإنْ يستترن بارتداء الجلباب كما

لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ

تلبسه الشابات، فإنه خير لهن وأكرم، وأزكى عند الله، والله يعلم خفايا النفوس، يعلم المقاصد والنوايا، وفيه وعيدٌ وتحذير!! شرط تعالى في العجوز، أن لا تكون متظاهرة بالزينة، وحينئذٍ تظهر بالملابس المعتادة، دون التقيد بالحجاب الكامل، بارتداء الجلباب، وهذا من تيسير الإسلام لها، رعاية لشيخوختها وسنِّها، أمَّا إذا كانت ترغب في إظهار الزينة، فمعناه أن في نفسها ناراً خامدة، فينبغي أن تحتجب وتلبس الجلباب الساتر، يحكى أن امرأة عجوزاً مرضت، فأتى لها ابنها بالطبيب ليعالجها، فرآها متزينة بثياب مصبوغة ومتكحِّلة، فعالجها فلم يجد فيها مرضاً، فقال لابنها: ما أحوجها إلى الزواج لتأنس وترتاح نفسها!! فقال الابن: إن قولك يا حضرة الطبيب لعجيبٌ، ما لها وللأزواج وهي في هذا السن؟ فقالت: ويحك هل أنت أعلمُ من الطبيب؟! ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ الآية نزلت في أهل الأعذار، الذين لا يستطيعون الخروج للجهاد، فكما يسَّر الله على القواعد من النساء، في أمر اللباس والجلباب، كذلك يسَّر على أهل الأعذار في شأن الجهاد، فلم يكلفهم به، ومتعلَّق الحرج محذوف، دلَّ عليه السياقُ، أي ليس على الأعمى، والأعرج، والمريض، إثمٌ ولا حرج في عدم خروجهم للجهاد، لضعفهم وعجزهم، واللَّهُ لا يكلِّف نفساً إلاَّ وسعها ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ كما رفعت الآية الإثم والحرج من الأكل في بيوت الآتي ذكرهم (الآباء، الأمهات، الإخوة، الأخوات، الأعمام، العمات، الأخوال، الخالات) فالأكلُ من بيوت هؤلاء حلالٌ، لا إثم فيه ولا حرج، ولو كان بغير إذن أصحابها، لوجود علاقة القرابة القوية، وذلك كلُّه من يسر الإسلام، لزيادة روابط المحبة والصداقة، بين هؤلاء الأقارب ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ

فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي وليس عليكم إثم أن تأكلوا من البيوت التي تُوكَّلون عليها، وتملكون مفاتيحها في غياب أهلها، **قالت عائشة**: «كان المسلمون يذهبون مع رسول الله ﷺ في الجهاد والغزو، ويدفعون مفاتيحهم إلى أصدقائهم ويقولون لهم: قد أحللنا لكم الأكل منها، فكانوا يتحرَّجون الأكل منها، ويقولون: نحن أمناء عليها، وإنما أباحوا لنا من غير طيب أنفسهم» فنزلت الآية تبيح لهم الأكل، كما أباح الله الأكل من بيت الصَّديق، في غيبته، **قال قتادة**: إذا دخلتَ بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه، ليس عليكم أيها المؤمنون أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين، فإذا دخلتم بيوتاً مسكونة، فاستأذنوا وسلِّموا على أهلها بتحية الإسلام (السلام عليكم) وهي التحية المباركة التي شرعها الله لعباده المؤمنين، وَصَفَها تعالى بالبركة، لأن فيها الدعاء واستجلاب المودة والمحبة، ووَصَفها بالطيِّب لأن سامعها يستطيبها ويأنس لها ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي إنما المؤمنون الكاملون في الإيمان، الذين صدَّقوا الله وصدَّقوا رسوله في كل ما جاءهم به، وإذا كانوا مع النبي في أمر مهم، فيه مصلحة للمسلمين، كالغزو والجهاد، لم يتركوا مجلسه حتى يستأذنوه ويأذن لهم، إن الذين يستأذنونك يا أيها الرسولُ، هم المؤمنون حقاً، فإذا استأذنوا منك لبعض شئونهم ومهامِّهم، فاسمح لمن أحْبَبتَ بالانصراف وادعُ لهم بالعفو والمغفرة، فإنَّ تَرْكَ مجلسك ولو لعذر، فيه نوعٌ من القصور، واللّهُ عظيم العفو، وواسع الرحمة.. نزلت

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾

هذه الآية في غزوة الخندق، فإن بعض المؤمنين كانوا يستأذنون الرسول ﷺ في الانصراف لبعض المصالح والضرورات، وكان المنافقون يذهبون من غير استئذان، فنزلت الآية: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لا تنادوا الرسول ﷺ باسمه كما ينادي بعضكم بعضاً باسمه، بل قولوا: يا نبيَّ الله، ويا رسول الله، تفخيماً لمقامه، وتعظيماً لشأنه، قد علم الله حال المنافقين، الذين كانوا ينسلُون من مجلس رسول الله ﷺ، ﴿لواذاً﴾ أي يتستَّر بعضهُم ببعض، ويخرجون في خفية وتستُّر، لئلا يراهم أحد، والتسلُّلُ: الخروجُ في خُفية، واللِّواذُ: تستُّر بعضهم ببعض، كمن يحتمي بغيره لئلا يُرى، كان إذا استأذن رجلٌ من المسلمين لحاجته، قام المنافقُ إلى جنبه يستتر به حتى يخرج، فليخش هؤلاء المنافقون، أن تنزل بهم محنة، أو ينالهم عذاب شديد مؤلم، بهذا العمل الذي يُفضحون به ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ختم الله السورة الكريمة بأن ما يفعله المنافقون من مراوغات وأعمال خبيثة، كالذهاب بدون استئذان، وعدم التأدب مع رسول الله في الخطاب، وما كانوا يجتهدون في ستر أعمالهم وإخفائها عن العيون، لا تخفى على الله، فليعلموا أن الله لهم بالمرصاد، وسيجازيهم على عملهم يوم الدين!

انتهى تفسير سورة النور

● ● ●

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾

تفسير سورة الفرقان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ أي تمجَّد وتعظَّم وتكاثر خيرُ الله، الذي أنزل القرآن العظيم، على عبده ورسوله محمد ﷺ، ليكون نبياً للخلق أجمعين، منذراً لهم من عذاب الله!! هذا الربُّ العظيم الذي أنزل القرآن، هو المالك لجميع ما في السموات والأرض، الكلُّ خلقه وملكُه، وهو المنزَّه عن الزوجة والولد، لا كما قال (اليهود والنصارى)، حيث نسبوا إليه الولد، وليس معه إله كما قال (عَبدةُ الأوثان)، وهو الذي أوجد كل شيء بقدرته، مع الغاية في الحكمة والتدبير.. ثم ذكر تعالى سفاهات المشركين وضلالاتهم في عبادة الأوثان والأحجار، فقال سبحانه ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي وعبد هؤلاء المشركون السفهاء، آلهةً صمَّاءَ بكماء، عبدوا أوثاناً وأصناماً نحتوها بأيديهم، ثم أضفَوْا عليها صفات العظمة والجلال، وهذه الآلهة لا تقدر على خلق جناح بعوضة، فضلاً عن خلق البشر، ولا تستطيع أن تدفع عن نفسها الضرر، أو تجلب لها النفع، ولا تملك إحياء أحدٍ ولا إماتته، ولا بعثه بعد الموت، فكيف تكون آلهة مع الله؟ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ أي وقال كفار مكة: ماهذا القرآن إلا كذب،

وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٨﴾

اختلقه محمد وافتراه من تلقاء نفسه، وساعده على هذا العمل قومٌ من أهل الكتاب، يريدون «جبر الرومي» فقد جاءوا بقول باطل منكر، هو محضُ الزور والبهتان، يعلمون أنه باطلٌ، إذْ كيف يُتصوَّر أن يتلقَّى النبيُّ العربيُّ هذا القرآن، من رجلٍ أعجمي لا يعرف اللغة العربية؟ بل إنهم زادوا في السفه والطغيان، فزعموا أن القرآن خرافات الأمم السابقين ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ أي وقال السفهاء في حق القرآن: إنه خرافاتُ الأمم السابقين، أمر محمد أن تُكتب له، فهي تُقرأ عليه ليحفظها صباحاً ومساءً!! لقد أعجز القرآن بفصاحته العربَ، فلما تحدَّاهم أن يأتوا بسورة من مثله، قبعوا في جحورهم، ولم يتجرأ واحدٌ منهم على مجابهة هذا التحدي، فأخذوا يخوضون فيه بالكذب والبهتان، وحتى لا يكون كذبُهم مكشوفاً، لأنهم يعلمون أن محمداً «أميٌّ» أي لا يقرأ ولا يكتب، قالوا (اكتتبها) أي طلب من يكتبها له، ولم يقولوا: كتبها، لئلا ينسبهم الناسُ إلى الكذبَ ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ هذا ردٌّ لمزاعمهم الكاذبة. أي قل لهم: ليس هذا القرآن من عندي، ولا من خرافات الأولين كما زعمتم، إنما أنزله العليمُ القدير، الكبيرُ المتعال، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولم يُعَجِّل الله لكم العقوبة على هذا الافتراء، بل أمهلكم رحمةً بكم، لأنه واسع العفو والمغفرة، رحيم بالعباد!! ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾ أنكروا على الرسول أن يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق للبيع والتجارة، واقترحوا أن ينزل عليه ملكٌ من الملائكة، يعضُده ويساعده، ليشهد له بصدق الرسالة،

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾

أو يكون حالُه كحال الملوك والعظماء، الذين يعيشون على البَذَخ والترف، وأن تكون له الحدائق الناضرة، والقصور الشامخة!! ثم زادوا في السَّفه والضلال، فقالوا: ليس محمد إلا رجلٌ مسحور، سُحر فغُلب على عقله، فهو يزعم أنه رسول الله ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي انظر وتعجَّبْ كيف قالوا في حقك، تلك الأقاويل المفتراة، التي تشبه لغرابتها الأمثال؟ وكيف اخترعوا هذه الأكاذيب، فضلُّوا عن طريق الهدى؟ فلا يجدون طريقاً إلى الحقِّ والرشاد، وقولُهم: ﴿**ما لهذا الرسول**﴾؟ مع إنكارهم لرسالته، إنما هو منهم (تهكُّمٌ واستهزاء)، كأنهم يقولون: ما لهذا الرجل الذي يزعم أنه رسول الله؟ وقد أنكروا رسالته واستبعدوا أن يكون الرسول من البشر، ولم يستبعدوا أن يكون إلٰههم من الحجر، فما أسخفهم وأحمقهم!! ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا﴾ أي تمجَّد وتكاثر خيرُ الله، الذي لو شاء لجعل لك يا محمد، خيراً مما اقترحوه من نعيم الدنيا، بأن يعطيك حدائق وبساتين، تجري فيها الأنهارُ، والعيونُ الدافقة، لا جنة واحدة، ويجعل لك مع الحدائق، القصورَ الرفيعة المشيدة، كما عليه ملوك الدنيا ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ أي بل كذبوا بالقيامة وبلقاء ربهم، وهيأنا لمن كذَّب بالآخرة، ناراً مستعرةً حامية، تُسعَّر عليهم وتتَّقد، إذا رأت جهنمُ الكفَّارَ من مسافةٍ بعيدة، سمعوا صوت لهيبها وغليانها، كالغضبان إذا غلا صدره من الغيظ، وسمعوا لها صوتاً منكراً فظيعاً كصوت الحمار، قال ابن عباس: إن الكافر ليجرُّ إلى النار، فتشهق إليه شهوق البغلة إلى الشعير، وتزفر زفرةً لا يبقى أحدٌ إلاَّ خاف ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أي وإذا أُلقوا في جهنم في مكان

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾

ضيِّق، مقيَّدين (بالسلاسل والأغلال)، دعوا على أنفسهم بالهلاك والدَّمار، يقولون: يا هلاكنا ويا ويلنا، نادوا الهلاكَ نداء المتمنِّي له، ليتخلَّصوا ممَّا هم فيه من العذاب، كما يقالُ في الأمثال: «أشدُّ من الموتِ ما يُتَمنَّى معه الموتُ» يُقال لهم: لا تدعوا اليوم بالهلاك على أنفسكم مرةً واحدة، بل ادعوا مرَّات ومرَّات، وفي هذا سخريةٌ وتهكم بهم، وفيه إقناط لهم ممَّا تمنوه من الموت ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ أي قل لهم يا أيها الرسول: أذلك العذابُ خيرٌ، أم جنة الخُلْد، التي وعدها الله لعباده المتقين؟ كانت لهم ثواباً على أعمالهم الصالحة، ومآلاً ومرجعاً.. والأسلوب كما يظهر أسلوب سخريةٍ وتهكم، جزاء استهزائهم بالرسول ﷺ وأتباعه المؤمنين، لهم في هذه الجنة ما يشاءون من النعيم، لا يُخرجون منها أبداً، كان ذلك الجزاء وعداً على الله واجب التحقيق، **قال أهل البيان**: الآية وردت على سبيل السخرية والتوبيخ، لأنه لا يصحُّ أن يقول العاقل: هل السُّكَّرُ أحلى أم الحنظل؟ كما لا يقال: العذابُ خيرٌ أم جنة الخلد؟ ولكنَّ هذا يحسنُ في معرض التوبيخ والتقريع، كما إذا أعطى السيد عبده مالاً، فتمرَّد وعصى واستكبر، فيضربه ضرباً وجيعاً ويقول له على سبيل التوبيخ: أهذا أطيبُ أم ذاك؟ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي ويوم يجمع الله الكفارَ، وكلَّ من عُبد من دون الله، كالملائكة، وعُزير، والمسيح، فيسأل اللهُ المعبودين: هل أنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم، أم هم ضلوا الطريقَ فعبدوكم من تلقاء أنفسهم؟ وفائدةُ هذا السؤال، تقريعُ المشركين وإخزاؤُهم، لتزداد حسرتُهم وحيرتُهم ببراءة المعبودين منهم، كما قال سبحانه في موضع آخر ﴿**ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون**﴾؟ فالكلام خطابٌ للملائكة، وتقريعٌ للكفار، على حدِّ ما جاء في المَثَل «إيَّاكِ أعني واسمعي يا جارة» وقد علم الله سبحانه أن الملائكة وعيسى منزهون عمَّا نُسب إليهم، ولهذا

قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

جاء بعده قوله سبحانه: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي قال المعبودون تعجباً ممَّا نُسب إليهم: تنزَّهت وتعاليتَ يا ربنا عن الأعوان والأنداد، فلا يحقُّ لنا ولا لأحدٍ من الخلق، أن يعبد غيرَكَ، ولا أن يشرك معك سواك، ولكنْ أكثرتَ عليهم فضلك وإنعامك، فكان ذلك سبباً للإعراض عن ذكرك وشكرك، وكانوا قوماً (بُوْرَاً) أي هالكين، جمعُ بائر وهو الهالكُ الفاسدُ الذي لا خير فيه.. يقول تعالى توبيخاً للكفرة المشركين، وتيئيساً لهم من شفاعتهم: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ أي فقد كذبكم الذين عبدتموهم من دون الله، في زعمكم أنهم آلهة، وتخلُّوا عنكم، فما تستطيعون دفعاً للعذاب عنكم، ولا نصراً لأنفسكم من هذا البلاء، وقد كنتم تعتقدون أنهم ينفعونكم وينصرونكم!! ومن يظلم نفسه بالإشراك بالله، نذقه أشدَّ أنواع العذاب الأليم ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ هذا ردٌّ على المشركين في قولهم **﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام﴾**؟ والمعنى: ما أرسلنا قبلك أحداً من الرسل، إلاَّ وهو بشرٌ، يأكل ويشرب، كما يأكل الناس ويشربون، ويمشي في الأسواق للبيع والشراء والتجارة، كمايفعل سائر الخلق، فعلامَ يعترضون على رسالتك لأنك بشر، تأكل وتشرب؟ وهل كان الرسل قبلك إلاَّ بشراً؟ ولقد امتحنَّا بعضكم ببعض، وجعلنا بعضكم فتنةً وابتلاءً لبعض، ابتلينا الغنيَّ بالفقير، والسقيم بالصحيح، والشريف بالوضيع، لنختبر صبركم وإيمانكم أتشكرون أم تكفرون!! **قال الحسن البصري**: يقول الأعمى لو شاء الله لجعلني

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾

بصيراً مثل فلان!! ويقول الفقير: لو شاء الله لجعلني غنياً مثلا فلان!! ويقول المريض: لو شاء الله لجعلني صحيحاً مثل فلان!! وهكذا يمتحن الله البشر بعضهم ببعض ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ أي وقال المشركون الذين لا يصدِّقون بحساب الله، ولا بلقائه، ولا يؤمنون بالبعث والنشور: هلاَّ نزلت علينا الملائكةُ بالوحي، فأخبرونا بصدق رسالة محمد!! أو نرى ربَّنا جهرةً وعياناً، فيخبرنا أنك رسوله!! قال تعالى تسفيهاً لهم وتقبيحاً: لقد تكبَّروا على ربهم، وجاوزوا الحدَّ في الكفر والطغيان، حين تفوَّهوا بمثل تلك المقالة الشنيعة، وتمرَّدوا على الله تمرداً قبيحاً، حتى بلغوا أقصى غايات السَّفه والإجرام ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي لينتظروا نزول الملائكة، حين تنزل ملائكةُ العذاب لقبض أرواحهم الخبيثة، في ذلك اليوم المشئوم، وتبشِّرهم الملائكة بالنار، وعذاب الجبار، ويومئذٍ لا يكون هناك بشارة سارة للمجرمين، بل لهم الخيبةُ والخسرانُ، وتقول لهم الملائكة: حرامٌ محرَّمٌ عليكم دخول الجنة اليوم، وحرام محرَّم عليكم الفلاحُ والنجاح ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ أي وقدمنا وقَصَدنا وعَمدنا إلى أعمال البِرّ التي عملها الكفار، من إطعام المساكين وعون الضعفاء، ورعاية الأرامل والأيتام، فجعلناها مثل الغبار المنثور في الجو، المتطاير أدراجَ الرياح، لأنها لا تستند على دعامة الإيمان، وركيزة الإخلاص لله رب العالمين، والله لا يقبل من العمل، إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي أهلُ الجنة ـ وهم السعداء الأبرار ـ في ذلك اليوم، خير من الكفار منزلاً ومسكناً، وأحسن مكاناً للتمتع وقت القيلولة، وهي الاستراحةُ نصفَ النهار، **قال ابن عباس:** «والله إنماهي ساعة، حتي يَقيلَ أولياءُ الله، على الأسرَّة مع الحور العين، ويَقيلَ أعداءُ الله مع الشياطين

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾

مقرّنين» ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي واذكر ذلك اليوم الرهيب العصيب، حين تتشقَّق السماءُ وتتفطَّر، بالغمام الكثيف، وتتنزَّل الملائكة لتحيط بالخلائق، وتسوقهم إلى أرض المحشر، المُلْكُ في ذلك اليوم يكون لله وحده، الذي تعنو له الوجوه، وتذلُّ له الجبابرة، لا مالك يومئذٍ سواه، كقوله تعالى ﴿**لمن الملك اليوم لله الواحد القهار**﴾ وكان ذلك اليوم صعباً شاقاً على الكفار، وفي الحديث الشريف (إن الله يطوي السموات بيمينه، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى، ثم يقول: أنا الملِكُ، أنا الديَّان، أين ملوكُ الأرض؟ أين المتكبرون) أخرجه البخاري، ودلَّ قوله تعالى ﴿**على الكافرين عسيراً**﴾ على تيسيره على المؤمنين، فقد جاء في الحديث الصحيح (والذي نفسي بيده، إنه ليُخَفَّف على المؤمن، حتى يكون أخفَّ عليه من صلاةٍ مكتوبة، يصلّيها في الدنيا) رواه أحمد ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ أي اذكر يوم يتحسَّر ويندم الظالم، لما فرَّط في جنب الله، ويقول متحسراً على ما حدث منه: يا ليتني اتخذت طريقاً مع الرسول، ينجيني من عذاب الله، يا هلاكي ويا حسرتي، ليتني لم أَتَّخذْ فلاناً صديقاً وصاحباً لي!! لقد أضلَّني عن الهدى والإيمان، بعد أن هداني الله وآمنتُ، وهكذا حالُ الشيطان يغوي ويضلُّ الإنسان ثم يتبرأ منه، فلا ينصره ولا ينقذه!! نزلت في «عُقبة بن أبي مُعيط» كان يكثر مجالسة الرسول ﷺ ويعجبه حديثه، وكان كلَّما رجع من سفر، دعا أصحابه إلى طعام «وليمة»، ودعا ذات يوم رسول الله ﷺ إلى طعامه، فأتاه ﷺ طمعاً في إسلامه، فلما قُدِّم الطعام أبى رسولُ الله أن يأكل منه، حتى يشهد له بالرسالة أنه (رسولُ الله)، فشهد له عُقبة، فأكل رسولُ الله من طعامه، وكان لعقبة صديقٌ لم

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾

يحضر الوليمة لأنه كان مسافراً، هو «أبيُّ بن خلف» ولمَّا رجع بلغه أن عُقبة قد أسلم، فجاء إليه وقال له: بلغني أنك صبأتَ ـ أي أسلمتَ ـ قال: لا، ولكن دخل عليَّ رجلٌ عظيم، وأبى أن يأكل من طعامي حتى أشهد له بالرسالة، فشهدت له بذلك!! فقال له «أبيٌّ»: وجهي من وجهك حرام، ولا أكلمك أبدَ الدهر، حتى تأتي محمداً فتردَّ عليه دعوته، وتبصق في وجهه وتشتمه، ففعل الشقيُّ ذلك، وارتدَّ عن الإسلام، وقُتل يوم بدرٍ كافراً، رواه أبو نُعيم في الدلائل، وفيه نزلت هذه الآيات، وهي عامة في كل ظالم فاجر، ضلَّ بعد الهدى، بسبب مصادقته الأشرار!! ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ هذه شكايةُ الرسولُ لربه، من قومه العُتاة الضالين، الذين بالغوا في إيذاء الرسول ﷺ والسخرية منه، والطعن في القرآن، والمعنى: قال محمدٌ: يا رب إن قريشاً كذبت بالقرآن، وجعلته خلف ظهرها، وأعرضت عن استماعه، والعمل بآياته!! وليس المقصود من هذا القول، الإخبارُ بما قاله المشركون، بل المقصودُ تعظيمُ شكايته عليه السلام، وتخويف قومه، لأن الأنبياء إذا التجأوا إلى الله، وشكَوْا قومهم لعظيم ما نالهم منهم، حلَّ بهم العذابُ، ولم يُمْهَلوا ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ تسليةٌ للنبي ﷺ بالتأسِّي بغيره من الأنبياء، **والمعنى**: كما جعلنا لك يا محمد، أعداء من كفار قومك، الأشقياء المجرمين، كذلك جعلنا لك نبيٍّ سبقك، أعداء له، يعادونه ويؤذونه، ويتهمونه بالاتهامات الشنيعة، فلا تبالِ بمن عاداك، وكفى بربك أن يكون هادياً لك، وناصراً لك على أعدائك، فإنَّ فرجَ الله قريب!! ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي وقال الكفار من عُتاة مكة: هلاَّ نزل القرآن على محمد دفعة واحدة، كما نزلت التوراة والإنجيل!! يريدون بذلك التشكيك بالقرآن، حيث لم ينزل جملة واحدة كما نزلت الكتب السماوية، وقد ردَّ الله هذه الشبهة السخيفة بقوله **﴿كذلك لنثبت به فؤادك﴾** أي أنزلناه عليك مفرَّقاً، ليتقوى قلبك

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ﴿٣٥﴾ فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا ﴿٣٦﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾

على تحمُّله، فتحفظه وتعلِّمه أصحابَك، لأنك نبيٌّ أميٌّ، لا تعرف القراءة والكتابة، فلو نزل عليك كاملاً، لصعب عليك حفظه، وصعب على أصحابك، فلهذه الحكمة أنزلناه عليك مفرَّقاً، وبينَّاه تبييناً رائعاً، في غاية الإبداع والإتقان!! ولا يأتيك هؤلاء الكفارُ بشبهةٍ، للقدح في رسالتك، أو في القرآن، إلاَّ أتيناك بالحق الساطع الواضح المبين، لدفع شبهتهم وباطلهم، وأحسن بياناً وتفصيلاً!! لقد جهل المشركون الحكمة من نزول القررن مفرَّقاً، وطعنوا في القرآن سفهاً وجهلاً، وما عرفوا الحكمة والمصلحة من نزوله مفرَّقاً، لأنهم أميون لا يستطيعون حفظه دفعة واحدة، فكيف يحفظونه لو نزل كما اقترحوا؟ ثم تطبيقُ أحكامه يكون أيسر عليهم ممَّا لو نزل جملة واحدة، ألا يرون أن التوراة أنزلت دفعة واحدة، فشقَّ على بني إسرائيل العمل بموجبها، حتى رُفع عليهم جبلُ الطور!؟ ثم حكى تعالى نهايتهم المشئومة فقال سبحانه ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ أي هؤلاء الكفار الفجار، الطاعنون في القرآن العظيم، والمكذبون لسيد المرسلين، سوف يُسحبون ويُجرُّون إلى النار، على وجوههم إهانةً لهم، كما تُجرُّ الدوابُّ الميتة، وهم شرٌّ منزلاً ومصيراً، وأضلُّ من البهائم السارحة، قيل يا رسول الله: (كيف يُحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا، قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟ قال قتادة: بلىٰ وعزَّةِ ربِّنا) رواه البخاري، ثم ذكر تعالى قصص بعض الأنبياء، تسلية لرسول الله ﷺ وتهديداً للمكذبين، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا﴾ أي وبالله لقد أعطينا موسى التوراة، وأعنَّاه بأخيه هارون، فجعلناه وزيراً له، يناصره ويؤازره، فقلنا لهما اذهبا إلى فرعون وقومه بالمعجزات الساطعات، فأهلكناهم إهلاكاً مريعاً، بالغرق في البحر، لمَّا كذبوا رسلنا، ولفظ (التدمير) يدلُّ على فظاعة العقاب، لأنه دمارٌ تامٌّ، وشدَّته حيث لم ينج أحدٌ منهم على الإطلاق ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ

أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿٣٧﴾ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ﴿٣٨﴾ وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا ﴿٤٠﴾

أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ أي وأهلكنا قوم نوح بالطوفان حين كذَّبوا رسولهم «نوحاً» وجعلناهم عبرةً لمن يعتبر، وأعددنا لهم في الآخرة، عذاباً شديداً موجعاً، لا يتصوَّرُ هولُه، وإنما قال ﴿لمَّا كذبوا الرسل﴾ بالجمع، مع أنهم كذبوا رسولهم نوحاً، لينبِّه تعالى على أن تكذيب أيِّ رسول، هو تكذيبٌ لجميع الرسل، لاتفاقهم على التوحيد والإيمان ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا﴾ أي وأهلكنا قبيلة «عاد» بالريح العاتية المدمِّرة، وقبيلة «ثمود» بالصيحة الهائلة، التي جاءتهم من السماء، فقطعت أنفاسهم، وجعلتهم جثثاً خامدة، وأهلكنا قوم شعيب وهم أصحابُ الرسِّ، الذين خُسفت بهم الأرض وبديارهم، فلم يَبْقَ منهم عينٌ تطرف، وأهلكنا بين هؤلاء المكذِّبين، أمماً وخلائق كثيرين، وجميع هؤلاء المهلَكِين، بيَّنا لهم الحجج، ووضحنا لهم الأدلة على خطأ ما ارتكبوا، وحين لم تنجح معهم المواعظُ والعِبَر، دمَّرناهم تدميراً، وأهلكناهم إهلاكاً مريعاً.

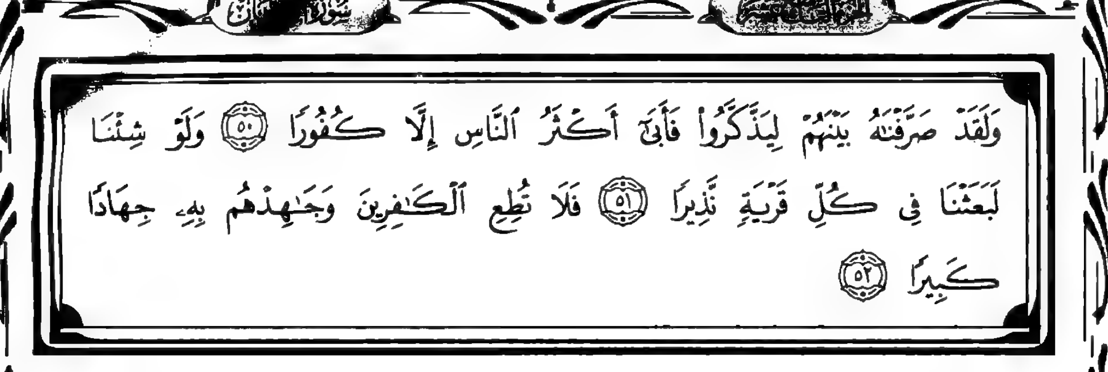
﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا﴾ أي ولقد مرَّ كفار مكة مراراً، في أسفارهم للتجارة، على ديار قوم لوط، الذين قُلبت بهم ديارهم، وأُمطِرُوا بحجارة من السماء من سجِّيل، مثلَ المطر، فاجتمع عليه عذاب من السماء، وعذابٌ من الأرض، بجعل دورهم عاليها سافلها، وهلاكهم بالحاصب، والتعبيرُ بالمطر، يوحي بكثرة العذاب وشدته، فهي حجارة من سجِّيل أي نار محرقة، لا حجارة من طين، وتخصيصُ القرية بالذكر، وهي قرية «سدوم» عُظمى قرى قوم لوط، لكونها كانت في ممرِّ تُجَّار قريش، وكانوا في أسفارهم يرونها ولا يعتبرون، ولهذا قال بعدها ﴿أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا﴾ أي أفما كانوا يرونها مقلوبة، قد جعل الله عاليها سافلها، بل كانوا لا يُصدِّقون بالبعث والنشور

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي وإذا رآك المشركون، ما يتخذونك إلاَّ موضع هزءٍ وسخرية، قائلين بطريق الاستحقار والسخرية: أهذا الذي بعثه الله إلينا رسولاً؟ أَمَا وجدَ اللَّهُ رسولاً غير يتيم أبي طالب!؟ إنه كاد أي قارب أن يصرفنا عن عبادة آلهتنا، لولا أننا ثبتنا عليها واستمسكنا بعبادتها، وسوف يعلمون في الآخرة عند مشاهدة العذاب، من هو أخسر ديناً، وأبعدُ عن طريق الهدى والصواب؟ هل هم أم خاتم الأنبياء؟ ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ تعجيبٌ من ضلال المشركين، أي أخبرني عمن جعل هواه إلهاً له، كيف يكون حاله؟ هل أنت تستطيع منعه عن عبادة الهوى؟ ليس الأمر لك!! وهذا تيئيسٌ من إيمانهم، وإشارةٌ للرسول أن لا يتأسف عليهم، وإعلامٌ أنهم في الجهل بالمنافع، وقلة النظر في العواقب، مثل البهائم!! أفتظنُّ أن هؤلاء المشركين يسمعون ما تنصحهم به؟ أو يعقلون ما ترشدهم إليه، من وحدانية الله، ودلائل عظمته وجلاله؟ ما هم إلا كالبهائم السارحة، يعيشون لبطونهم وشهواتهم، بل هم أضلُّ من الدوابِّ، وأسوأ حالاً، وأبشع مآلاً!! **قال ابن عباس**: كان الرجل في الجاهلية يعبد حَجَراً، فإذا رأى حجراً أحسن منه، رماه وأخذ الثاني فعبَده، ولهذا قال ﴿**إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا**﴾ ثم شرع تعالى يذكر لهم، أنواعاً من الدلائل والبراهين، الدالة على وحدانيته وكمال قدرته فقال سبحانه ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي ألم تر أيها الإنسان العاقل، إلى بديع

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾

صنع الله وقدرته، كيف بسط سبحانه الظلَّ، ومدَّه وقت النهار؟ ليستروح الإنسان بظلِّ الأشياء، من حرارة الشمس المتوهجة، إذ لولا الظلُّ لأحرقت الشمسُ الإنسان والزرع!! ولو أراد الله لجعل الظلَّ دائماً ثابتاً في مكان واحد، لا يزول ولا يتحوَّل عنه، ولكنه بقدرته ينقله من مكان إلى مكان، حتى يستفيد البشر والزرعُ، من الظلِّ والشمس، ثم جعلنا طلوع الشمس دليلاً على وجود الظلِّ، فلو لم تكن الشمسُ لما عُرف الظلُّ، والأشياءُ تُعرف بضدِّها ﴿ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً﴾ أي ثمَّ أزلنا هذا الظلَّ شيئاً فشيئاً، على مهل، قليلاً قليلاً، لا دفعةً واحدة، لئلا تختلَّ المصالح، وتُعدم المنافع، فالشمس تنسخ الظلَّ شيئاً فشيئاً إلى الظهيرة، ثم ينسخ الظلُّ شعاع الشمس ويزيله، من الظهيرة إلى الغروب، ولولا الظلّ لأحرقت الشمس ما بدا لها، من نباتٍ وشجر وثمر، وأحرقت جسم الإنسان، فسبحان الإله الكريم، المنعم المنَّان!! ومن نعمة الظلِّ إلى نعمة الليل والنهار، حيث يقول سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي هو سبحانه بقدرته ورحمته، جعل لكم الليل كاللباس، يستركم بظلامه، كما يستركم اللباسُ بزينته، وجعل الليلَ راحةً للأبدان، قاطعاً للأعمال، وجعل النهار للكسب والعيش.. ما أعظم رحمة الله بالعباد!! جعل النهار للكسب والعيش!؟ ينتشر فيه الناسُ لمعايشهم وأرزاقهم، وجعل الليلَ للسَّكن والراحة، وجعل النوم راحةً للبدن، فإن الجوارح والأعضاء، تتعب وتملُّ من كثرة الحركة والعمل، فإذا جاء الليلُ وحصلَ النومُ، هدأت النفس واستراحت الأعضاء، فعاد للإنسان نشاطه في النهار، وبدون النوم يصبح الإنسان مخدَّراً كالسكران، لا يهنأ له عيش، ولا يشعر بلذةٍ ولا راحة، ولا يعرف نعمة النوم، إلاَّ من فقده فأصابه الأرق!! وفي الآية إشارة إلى أن النوم واليقظة، نموذجان للموت والبعث!. ثم تأتي نعمةُ المطر، الذي به حياةُ البشر، فيقول سبحانه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ أي وربكم أيها الناس بقدرته ورحمته، يرسل الرياح لتسوق السحاب، مبشرات بمجيء


وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾

الغيث والمطر، فلولا الرياح لبقي السحابُ متراكماً فوق البحار والمحيطات، ثم نزل المطر فوقها، فلا يستفيد منه البشر، فكان من الرحمة الإلهية، أن يسوق السحابَ من مكان إلى مكان، ليعمَّ النفع جميع الأراضي والبلدان، وينتفع منه الشجر والبشر، وفي الآية جمالٌ وروعةُ بيان، فإن المراد بالرحمة: المطر ﴿وبين يدَيْ﴾ أي أمامه وقُدَّامه، فالسحاب يحمل الماءَ، والرياحُ تسوقُ السحاب، كالراعي الذي يسوق أغنامه أمامه، (ريحٌ، ثم سحابٌ، ثم مطر)، وهذا المطر لمنافع البشر، ينزله الله عذباً فراتاً، طاهراً مطهراً، وقد ذكر اللَّهُ الحكمة من إنزاله بقوله ﴿لنحيي به بلدة ميتاً﴾ أي لنحيي بهذا الماء العذب، أرضاً مجدبةً ميتة، فيخرج منها الزرع والثمر ﴿ونسقيه ممَّا خلقنا أنعاماً وأناسيَّ كثيراً﴾ أي وليشرب من هذا الماء الحلو الزلال، الإنسانُ، والحيوانُ، وكلُّ ذي روح ونَفَس، والأناسيُّ جمع إنسيِّ، والمراد بهم أهل البوادي، الذين يعيشون بالمطر، وتخصيصُهم بالذكر، لأن أهل المدن يقيمون بقرب الأنهار والعيون، فلا يحتاجون كثيراً إلى الأمطار. **قال عكرمة**: «ما أنزل الله من السماء قطرة، إلا أنبت بها في الأرض عُشبة، أو في البحر لؤلؤة» وقال بعضُ الحكماء: في (البَرِّ بُرٌّ)، وفي (البحر دُرٌّ)!! ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي وباللهِ لقد كرَّرنا هذا القول، في القرآن وغيره من الكتب السماوية، وضربنا الأمثال، ووضحنا المواعظ، بشتى أساليب الإرشاد والتذكير، ليتعظوا ويرتدعوا عن الكفر والعصيان، ولكنهم لم يرتدعوا ولم ينزجروا، وأبى أكثر البشر، إلاّ كفران نعمة الله عليهم ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ أي ولو شئنا لخفَّفنا عنك يا محمد أعباءَ الرسالة، فبعثنا في كل بلدةٍ نبياً ورسولاً، ينذرهم عذاب الله، ولكنَّا قصرنا الأمر عليك، لتكون للعالمين نذيراً، إجلالاً لك، وتفضيلاً لك على سائر الرسل، كما قال سبحانه ﴿**وما أرسلناك إلاَّ كافة للناس بشيراً ونذيراً**﴾ فجعلنا رسالتك عامة لجميع الخلق ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ أي فلا تطع الكافرين فيما يدعونك إليه من موافقتهم، والكفَّ عن التعرض لذكر آلهتهم، وجاهدهم بالقرآن جهاداً كبيراً، بمواعظه وزواجره، فإن مجاهدة السفهاء بالحجج

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

والبراهين، أعظم من مجابهة الأعداء بالسيف والحِراب ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ المراد بالبحرين: (مياهُ البحار)، و(مياهُ الأنهار)، وهو من باب التغليب، كما يُقال: القمران للشمس والقمر، أي وهو تعالى بقدرته جاور بين مياه البحار، ومياه الأنهار، هذا ماؤه حلوٌ وعذبٌ، يُذهب الظمأ والعطش بحلاوته، وهذا ماء شديد الملوحة، مرٌّ شديد المرارة، لا يُستساغ شربه لشدة ملوحته، وجعل بينهما حاجزاً يمنع اختلاط أحدهما بالآخر، رحمةً منه بالعباد، ولو طغى ماء البحار على الأنهار، لأفسد جميع حياة البشر، والبرزخُ في اللغة بمعنى: الحاجز ﴿حجراً محجوراً﴾ أي مانعاً يمنع من وصول أثر أحدهما للآخر، وامتزاجه به، والبرزخُ: هو اليابسة من الأرض ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ أي وهو سبحانه خلق هذا الإنسانَ، السميعَ البصير، من النطفة المهينة، من ماء المنيِّ، فجعله في أكمل صورة، وأبدع خلق، وقَسَم الخلقَ قسمين: ذكوراً يُنسب إليهم الأبناء، وإناثاً يُصاهر بهن، فبالنَّسَب يتعارفون ويتواصلون، وبالمصاهرة تكون القرابةُ واجتماع الأُسر، وكان ربك مبالغاً في القدرة، حيث قدر على أن يخلق من النطفة الواحدة، ذكراً وأنثى، يختلف كل منهما عن الآخر، في الشكل والأعضاء التناسلية، وربما خلق في بطن واحدة توأمين: ذكراً، وأنثى ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ أي ومع هذه الدلائل الباهرة، على قدرته تعالى ووحدانيته، يعبد الكفار أوثاناً وأصناماً، لا تنفع ولا تضرُّ، لأنها جمادات لا تُحسُّ ولا تُبصر، ولا تسمع ولا تعقل، وكان الكافر معيناً للشيطان على معصية الرحمٰن، لأن عبادته للأوثان إعانة منه للشيطان، والظهيرُ: المعينُ، **قال مجاهد**: يظاهر الشيطانَ على معصية الله ويعينه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي

وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾

وما أرسلناك يا محمد، إلاَّ مبشراً للمؤمنين، ونذيراً للكافرين، قل لهم: لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً، إنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله، لكنَّ أجري أن أهديكم إلى الله، وأرشدكم إلى رضوانه، فتسلكوا الطريق الذي يقرّبكم إليه، بالإيمان والعمل الصالح، سمَّاه (أجراً) من فرط الشفقة على أمته، فكأنَّ أجره هو إسعاد البشر ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي كنْ في جميع أمورك معتمداً على الله وحده، الباقي الدائم الذي لا يفنى ولا يموت، ونزِّه ربك عمَّا يقوله أولئك الكفار الفُجَّار، من أن لله شركاء وأولاداً، وحسبُك أن الله مطَّلع على أعمال العباد، يعلم ما يدبرونه لك من مكائد، وسيجازيهم عليها، فلا تخش من أحدٍ من الخلق، فإن الله كافيك وناصرك ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي هذا الربُّ العظيمُ الجليل، هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما من الشمس والقمر والكواكب، في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا، لأنه لم يكن ثَمَّةَ شمسٌ ولا قمر، ولو شاء لخلقها بلمح البصر، ولكنْ أراد أن يعلِّم العبادَ التأني في الأمور، كما قال ابن عباس، ثم علا فوق العرش علواً يليق بجلاله، من غير تشبيه ولا تمثيل، ولا تأويل ولا تعطيل، وهو سبحانه الرحمٰنُ الذي أفاض فنون رحمته على عباده، فاسأل ربك العظيم الجليل عن صفاته القدسية يخبرك عنها، فالمراد بالخبير: ربُّ العزة والجلال، الذي لا يعلم عظمتَه وجلالَه إلا هو سبحانه كقوله سبحانه ﴿**ولا ينبئك مثلُ خبير**﴾ لأنه العالم بالأشياء على حقيقتها ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أي وإذا قيل للمشركين عبدة الأوثان: اسجدوا لربكم الرحمٰن، وصلُّوا له واعبدوه، قالوا: ومن هو الرحمٰن الذي تأمرنا بالسجود له؟ قالوا ذلك سخرية وتكبراً، وزادهم ذلك القولُ طغياناً وتجبراً، ونفوراً عن قبول الهدى والإيمان!! أبوا السجود للرحمٰن، ووضعوا رءوسهم التي تحمل عقولهم، للحجارة الصمَّاء البكماء من الأوثان، فما أسفههم وأجهلهم، وأبعدهم عن

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾

منطق العقل والفطرة!! ثم أشاد تعالى بآثار عظمته وقدرته، في خلق الشمس والقمر والكواكب وسائر النجوم، فقال سبحانه ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ أي تمجَّد وتعظَّم الله الكبير الجليل، الذي جعل في السماء تلك المدارات الهائلة، التي تدور فيها الكواكبُ العظامُ المضيئة، وجعل فيها الشمس المتوهِّجة في النهار، والقمر المضيء لأهل الأرض في الليل، والشمسُ سراج وهَّاج يتوقَّد من نفسه، والقمرُ جرمٌ مظلم يستمدُّ نورَه من الشمس، ولذلك غاير بينهما في الوصف فقال: ﴿سراجاً وقمراً منيراً﴾ فوصَفَ الشمس بالسراج، والقمر بالنور، والنورُ لا يتوقَّد من ذاته ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي وهو سبحانه الذي جعلَ الليلَ والنهار، يتعاقبان على الدوام، يخلف كلٌّ منهما الآخَرَ، يأتي النهار بضيائه، ثم يعقبه الليل بظلامه، هكذا دون انقطاع، لمن أراد أن يتذكَّر آيات الله الجليلة، ويتفكَّر في بدائع صنعه، أو أراد شكر الله على إحسانه ونعمائه!! ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ هذه إضافة تشريف، أي العباد الأبرار الذين يحبُّهم الله، والجديرون بالانتساب إلى الرحمٰن، هم الذين يمشون على الأرض بسكينةٍ وتواضع، من غير تبخترٍ ولا استكبار، لأن الإسلامَ قد هذَّبهم وربَّاهم، وإذا خاطبهم السفهاء، قالوا قولاً يسلمون به من الأذى والإثم، لا يجهلون على أحد، ولا يفحشون في كلامهم ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ أي يحيون الليل بالصلاة والعبادة، ساجدين لله على جباهم، أو قائمين له على أقدامهم، كما وصفهم تعالى في موطن آخر بقوله ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون﴾ فهم فرسانٌ بالنهار، رهبانٌ بالليل، يجتهدون بعبادة ربهم ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي وهم مع إحسانهم،

﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾

يبتهلون إلى ربهم، أن ينجيهم من عذاب النار، ﴿**إن عذابها كان غراماً**﴾ أي دائماً لازماً غير مفارق، لا ينقطع ولا يرتفع، ﴿**إنها ساءت مستقراً ومقاماً**﴾ أي بئست جهنم منزلاً ومسكناً لمن يدخلها **قال الحسن البصري**: خشعوا بالنهار، وتعبوا بالليل، فَرَقاً ـ أي خوفاً ـ من عذاب جهنم، مع إيمانهم وصلاتهم بالليل، وهم خائفون مشفقون من نار جهنم ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ هذا هو الوصف الخامسُ، من أوصاف عباد الرحمٰن، والمعنى: إذا أنفقوا لم يكونوا مبذرين في إنفاقهم، في المطاعم والمشارب والملابس، ولا بخلاء يقصِّرون ويضيّقون في الإنفاق، بل هم وسطٌ معتدلون، وخيرُ الأمور الوسط، فكما أن التبذير مذموم، كذلك البخل والتقتير مذموم، **قال مجاهد: لو أنفقت مثل جبل أبي قبيس ذهباً في طاعة الله ما كان سَرَفاً، ولو أنفقت صاعاً في المعصية كان سرفاً** ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ هذا الوصف السادس، أي لا يعبدون مع الله إلهاً آخر، بل يوحِّدونه ويخلصون له الدين، ولا يقتلون النفس التي حرَّم الله قتلها، إلاَّ بسبب الحق الموجب لقتلها، كالقصاص، أو الزنى بعد الإحصان، أو الردة عن الإسلام، أو السعي في الأرض بالفساد، ولا يرتكبون جريمة الزنى، التي هي أفحش الجرائم وأقبحها، ومن يقترف تلك الموبقات العظيمة، من (الشرك، والقتل، والزنى) يلقى في الآخرة أشدَّ أنواع العقوبة والنكال، ثم فسَّر هذه العقوبة فقال ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ أي يضاعف الله له العقوبة، ويُخلِّده في نار جهنم، مهاناً حقيراً ذليلاً، وهذه الجرائم الثلاث: الشرك، والقتل، والزنى، أمهات الكبائر، كما ورد عن سيد البشر من حديث ابن مسعود قال: (قلت يا رسول الله: أيُّ الذنبِ أعظمُ عند الله؟ قال: أن تجعل لله نِدّاً ـ أي شريكاً ـ وهو خَلَقَك!! قلت: إن ذلك لعظيم!! ثم أيٌّ؟ قال: أن تقتل ولدكَ خشية أن يَطْعم معك!!

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾

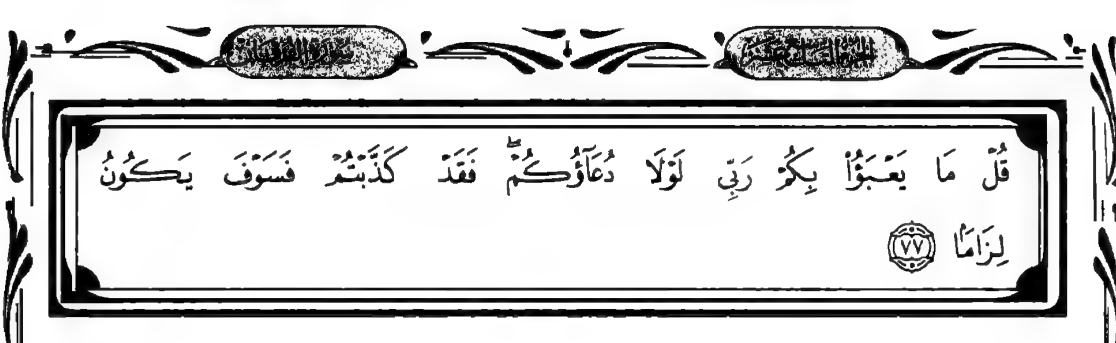
قلت: ثم أيٌّ؟ قال: أن تزاني حليلةَ جارك ـ أي تزني بزوجة جارك ـ قال ونزلت هذه الآية تصديقاً لقول رسول الله ﷺ ﴿**والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر..**﴾ الآية، رواه البخاري ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ أي إلاَّ من تاب من ذنبه، وأحسن سيرته وعمله، فالله يمحو له سوابق معاصيه بالتوبة، ويصرفه عن فعل السيئات، إلى فعل الحسنات، وعن المعصية إلى الطاعة، وعن الفجور إلى التقوى، وهذا قولُ ابن عباس، وابن جبير، والحسن البصري، وقيل: إن السيئات نفسَها تنقلب إلى حسنات بالتوبة النصوح، لما روي في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (إني لأعرف آخرَ أهلِ النار خروجاً من النار، وآخر أهل الجنةِ دخولاً الجنة: يؤتى برجلٍ فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملتَ يوم كذا: كذا وكذا، وعملتَ يوم كذا: كذا وكذا!! فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئاً، وهو مشفقٌ من كبار ذنوبه أن تُعرضَ عليه!! فيقال له: فإن لك بكل سيئةٍ حسنة، فيقول يا ربِّ: عملتُ أشياء لا أراها ههنا!! فلقد رأيتُ رسول الله ﷺ ضحك حتى بدتْ نواجذُه) رواه مسلم، ﴿**ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً**﴾ أي ومن تاب توبةً صادقة، وأصلح سيرته، فإن الله يقبل توبته، ويغفر زلَّته، ويكون مرضياً عند الله تعالى، وكأنَّ المعنى: يتوب توبةً صادقة، لا غشَّ فيها ولا زَغَل، فهذا معنى ﴿**يتوب إلى الله متاباً**﴾ أما الوصف السابع من أوصاف عباد الرحمٰن، فهو البعد عن شهادة الزور، التي فيها تضييع لحقوق الناس ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ أي والذين يجتنبون شهادة الزور، ولا يشهدون بالباطل، لأن فيها الكذب الصريح، حيث يشهد بغير الحق، وإذا مروا بمجالس اللغو، كمجالس القمار، والتهريج، وأماكن الفحش والفجور، والغناء المحرَّم الماجن، مرُّوا معرضين عنها، مكرِّمين أنفسهم عن تلك المجالس ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ هذا هو الوصفُ الثامنُ، أي والذين إذا وُعظوا بآيات الذكر الحكيم، لم يكونوا كالعُمي،

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾

الصُمّ، لا يفهمون معناها، ولا يتأثرون بما فيها من القوارع والزواجر، بل يسمعونها بآذان واعية، وقلوبٍ صافية، ويطبقون أحكامها ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي يقولون طالبين من ربهم الذرية الصالحة: يا ربنا أكرمنا بأزواجٍ وبنين، تقرُّ بهم أعيننا، يكونون لنا مسرَّة وبهجة، يعملون بطاعتك، ويخلصون في عبادتك، واجعلنا أئمة يُقتدى بنا في الخير، وغرضهم من هذا ليس طلب الذرية فقط، وإنما غرضهم أن يكونوا أولاداً صالحين، دعاةً إلى الخير، مستمسكين بالدين، فليست سعادةُ الإنسان بالأولاد، للتباهي بكثرتهم، وإنما السعادة بأن يكونوا صالحين، يعمرون الدنيا بالطاعة والاستقامة على أمر الله تعالى، كما دعا زكريا عليه السلام: ﴿**ربِّ هب لي من لدنك ذريةً طيبة إنك سميع الدعاء**﴾ وهذه من أكبر النعم على العبد، الولدُ النبيهُ الصالح، الذي يُحيي ذكره، ويرفع قدره:

نِعَمُ الإلَـهِ علـى العِبَاد كثيـرةٌ   وأجلُّهُـنَّ نجـابـةُ الأولاد

﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ أي هؤلاء المتصفون بهذه الصفات السامية، الحميدة الجليلة، هم الذين ينالون الدرجات العالية، في جنان الخلد والنعيم، ويُتلقَّون يوم القيامة بالتحية والسلام، من الملائكة الكرام، كما أخبر سبحانه عنهم ﴿**والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار**﴾ والمراد بالغرفة في الآية: الدرجة العالية الرفيعة، أعلى منازل الجنة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي خالدين في الجنة، لا يموتون ولا يخرجون منها، حسنت الجنةُ موضع سكنٍ وإقامة، أي ما أحسنها وأكرمها!! وصف تعالى عباده المتقين، الذين أضافهم إليه إضافة (تكريم وتشريف)، فقال عنهم: (عباد الرحمن)، بعشر خصالٍ، كلُّها فضائل ومحامد، وهي: (التواضعُ، الحلمُ، التهجدُ، الخوفُ من الله، تركُ الإسراف والبخل، عدم الإشراك بالله، النزاهة عن الزنى، اجتناب شهادة الزور، التأثر بآيات القرآن، طلب الذرية



الصالحة) ثم بيَّن جزاءَهُم الكريم، وهي الدرجة الرفيعة، وهي أعلى منازل الجنة وأفضلُها، كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا وأبهجها.. وختم السورة الكريمة باستغناء الله عن خلقه ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾ أي قل لهم: ما يكترث ربي بكم، ولا يبالي بشأنكم، لولا دعاؤكم وعبادتكم له، فلولا ذلك لكنتم وسائر البهائم سواء، ولكنه سبحانه شفيق بالعباد، ومن أجل ذلك أرسل إليكم الرسل، وأنزل عليكم الكتب، فقد كذبتم بما جئتكم به من عند الله، فسوف يكون عقابكم لازماً لا محالة، لكفركم وضلالكم وتكذيبكم لآيات الله!.

انتهى تفسير سورة الفرقان

● ● ●

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾

تفسير سورة الشعراء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ الحروف المقطَّعة للإشارة على إعجاز القرآن، فهو منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية، هذه آيات الكتاب الواضح الجليّ، الساطع في بيانه، المعجز في أحكامه، لعلك يا محمد مهلكٌ وقاتلٌ نفسك، لعدم إيمان هؤلاء الكفار الفجار ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ أي لو شئنا وأردنا لأكرهناهم على الإيمان، وأنزلنا عليهم من السماء آية ملجئة، تجبرهم على الإذعان والطاعة، كإنزال الملائكة عليهم، أو رفع جبلٍ عليهم، كما فعلنا باليهود، فآمنوا قسراً وقهراً، ولكنْ سبق علمنا بشقائهم، فأرحْ نفسك من التعب معهم ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي وما تأتيهم موعظةٌ من مواعظ القرآن الكريم، تذكُرهم بالله، وتخوِّفهم عقابه، جديدة في نزولها، إلاَّ أعرضوا عنها، واستهزءوا بها، فقد كذبوا بالقرآن، وطعنوا فيه، فجعلوه تارة شعراً، وأخرى سحراً، ولم يتأملوا بما فيه من المواعظ والعِبَر، فسوف يأتيهم عاقبةُ ما كذَّبوا واستهزءوا به، وهو العذاب الذي يناسب عتوَّهم وضلالهم!! ثم نبَّه تعالى على عظمته وباهر قدرته في مخلوقاته فقال ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي أفلم ينظروا إلى عجائب الأرض، كم أخرجنا فيها من كل صنف من الأصناف البديعة النافعة؟ فالأرضُ واحدة، والثمرات مختلفة،

﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾

والماء الذي تسقى به الأشجار واحد، فكيف اختلفت الأشكالُ، والطعومُ، والألوان؟ إن في ذلك لعظة وعبرة، تدلُّ على وحدانية الله، وكمال قدرته، ولكنهم يستمرُّون في الكفر والتكذيب، لغاية عتوهم وضلالهم، وإن ربك هو الغالب القاهر، القادر على الانتقام ممن عصاه، الرحيم بخلقه حيث لم يعجِّل لهم العقاب.. ثم شرع تعالى في ذكر قصص الأمم الطاغين مع أنبيائهم، تسلية لرسوله عليه السلام فقال سبحانه ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ أي اذكر لقومك المعرضين عن الإيمان، المكذِّبين بآيات الرحمٰن، حين نادى ربك رسوله «موسى» الكليم، بأن يأتي القوم الظالمين، قوم فرعون العُتاة الجبابرة، الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي، وذبح أبناء بني إسرائيل، ليكفَّهم عن الغيِّ والضلال، ويخوِّفهم عقاب ذي الجلال ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ أي قال موسى متضرعاً إلى الله: يا ربِّ إني أخافُ أن يجابهوني من أول الأمر بالتكذيب، ويضيق صدري من تكذيبهم لي، وفي لساني عُقدة أخشى أن لا أستطيع أن أبلغهم دعوتك، فأرسل معي أخي هارون رسولاً، ليكون عوناً لي في تبليغ الرسالة، طلب موسى من ربه الناصرَ والمعين، واعتذر بثلاثة أعذار: (خوفَ التكذيب، وضيق الصدر، وعدم انطلاق اللسان)، ثم زاد اعتذاراً آخر فقال ﴿ولهم عليَّ ذنب فأخاف أن يقتلون﴾ أي لهم عليَّ جزاء ذنب ارتكبته، وهي قتلُه للقبطي، فأخاف أن يقتلوني بمقابلته، قبل أن أبلِّغهم رسالتك!! سمَّاه ذنباً بحسب زعمهم، بدليل قوله: (ولهم) ولم يكن قتله له عن عمد، وإنما كان خطأً، فطلب من ربه أن يرسل معه أخاه هارون، فأجاب الله طلبه ﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي قال له ربه: كلاً لن يقتلوك، ولن يستطيعوا قتلك، فثق بربك، وانزجرْ عن خوفك منهم، واذهب أنت وأخوك هارون،

قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾

بالبراهين الساطعة، والمعجزات الواضحة، التي أيدتك بها، وأنا معكما بالحفظ والتأييد، أسمع ما تقولان له، وما يجيبكما به، وصيغةُ الجمع (مستمعون) للتعظيم والتفخيم، فقولا لفرعون: إنا مرسلان من عند رب العالمين إليك، أن أطلق بني إسرائيل من قهرك واستعبادك، وخلِّ سبيلهم ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ دخل موسى على فرعون، معتمداً على الله، واثقاً بنصره، ومعه أخوه هارون، وهو يعلم مقدار طغيان فرعون وبطشه، ولكنها الثقة بالله، تجعله لا يخاف ولا يهاب منه، وبلَّغه الرسالة، فقال له فرعون: ألست أنت الذي تربَّيتَ في قصرنا ومنزلنا، وأنت طفل صغير؟ وأحسنَّا إليك غاية الإحسان؟ ومكثتَ بين ظهرانينا سنين عديدة؟ ونحن نحسن إليك ونرعاك؟ ثم قابلتَ ذلك الإحسانَ بتلك القبيحة، أن قتلت منَّا رجلاً، وجحدت نعمتنا عليك؟ وأراد بقوله ﴿**وأنت من الكافرين**﴾ أي الجاحدين لنعمتنا، ولم يرد الكافرين بالله، لأن فرعون لا يعرف اللَّهَ، ولا الفارق بين الإيمان والكفر ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي قال موسى: فعلت تلك الفعلة وأنا من المخطئين، لأني لم أتعمد قتله، وإنما أردتُ دفعه، وتأديبه لعدوانه، فكانت هي القاضية، فهربت منكم إلى أرض مدين، فمنحني اللهُ النبوة والحكمة، واختارني رسولاً إليكم، لأنذركم عذاب الله ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؟ أي وهل هذه نعمةٌ تمتنُّ بها عليَّ، أن جعلت بني إسرائيلِ عبيداً وخدماً لك ولقومك!! ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي قال فرعون ساخراً مستهزئاً: من هذا الربُّ الذي تزعم أنه أرسلك؟ وهل هناك ربٌّ غيري؟ تنكَّر اللعينُ لوجود الخالق المبدع للكون، وقال: أيُّ شيء ربُّ العالمين؟ ما حقيقتُه؟ من أي جنسٍ هو؟ لم يقل: من

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

ربُّ العالمين. وإنما قال: ﴿**وما ربُّ العالمين**﴾؟ أي ما هي ماهيته وحقيقتُه؟ فكان في كلامه مغالطاً، وفي سؤاله مخادعاً، ولو أراد أن يعرف عظمة الله وجلاله لقال (من ربُّ العالمين)؟ وقد أجابه موسى بالأسلوب الحكيم، صرفه إلى صفات الإله، الدالة على عظمته ووجوده فقال: ربُّ السموات والأرض أي هو خالق السموات والأرض، والمتصرِّف فيها بالإحياء والإماتة، وهو الخالق لكل الأشياء، من بحار وأنهار، وجبال وقفار، وأشجار وثمار، إن كانت لكم أبصار نافذة، وقلوب واعية، عرفتم أن اللَّهَ هو الخالق الرازق، المتصرف في الكون، تصرف المالك في ملكه ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ رجع فرعون إلى شَغَبه ومغالطته، فقال لمن حوله: ألا تسمعون جوابه؟ ألا تعجبون لما يقول؟ أسأله عن حقيقة الله، فيجيبني عن صفاته!! وأراد بهذا الكلام، أن يتهم موسى بأنه مغفَّلٌ لا يفهم ما يُقال له، يسأله عن أمرٍ فيجيبه عن آخر، وأن فيه ـ وحاشاه ـ شيء من الغباء، وهنا يجيبه موسى بما يجرح كبرياءه ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي هذا الربُّ الذي أدعوك إليه، هو خالقكم وخالق آبائكم السابقين، فوجودكم برهان قاطع، على وجودِ الخالق الحكيم، وخاطبه بقوله (ربكم) ليوضِّح كذب فرعون في (دعوى الألوهية)، ففرعون عبدٌ لله كسائر البشر، فكيف يزعم أنه إلٰه؟ وعندها غضب فرعون، ونسب موسى إلى الجنون ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أي قال فرعون اللعين: إنَّ هذا الذي يزعم أنه رسول، هو إنسان مجنون، سمَّاه رسولاً على سبيل (السخرية والاستهزاء)، وأضافه إلى المخاطبين ﴿**إن رسولكم**﴾ استنكافاً عن نسبته له، كأنه يقول: اسمعوا لرسولكم المجنون، أسأله عن شيء فيجيبني عن شيء، ولكنَّ موسى لم يحفل بسخرية فرعون، فعاد إلى تأكيد الدعوى بحجة ثالثة أوضح في الدلالة، وأقطع لمشاغبة الخصم ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي ربكم هو الإله العظيم الجليل، الذي يجعل الشمس تطلع من المشرق، وتغرب من المغرب، فإن كان فرعون رباً وإلهاً فليغيِّر نظام الكون؟ وهذه من أبلغ الحجج، في دحض شبه الخصم، ولهذا ختم كلامه بقوله ﴿**إن كنتم تعقلون**﴾ أي إن كانت لكم عقول تفكرون

قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾

بها، عرفتم كذب فرعون في دعوى الألوهية!! ولمَّا غُلب فرعونُ، رجع إلى البطش، والوعيد بالسجن الرهيب، كما يفعل الطغاة الجبابرة ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ أي لئن اتخذت إلهاً غيري، لألقينَّك في غياهب السجن، ولم يقل لأسجننَّك، لأن سجنه كان رهيباً، يحبس الشخص في مكان تحت الأرض، لا يبصر النور، ولا يسمع النداء، ويتركه حتى يموت ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي قال له عليه السلام: أتسجنني ولو جئتك بمعجزة قاطعة، تدل على صدقي؟ قال فرعون: فأت بما تقول، إن كنت صادقاً في دعواك ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أي رمى موسى بالعصا، فإذا هي حية عظيمة، تبتلع ما أمامها من أشياء، وأخرج يده من فتحة ثوبه، فإذا هي نور ساطع، تتلألأ كالشمس الساطعة، لها شعاع يبدِّد الظلام، ففزع فرعون وارتعش، وحاول أن يجعل ذلك من قبيل السحر ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي قال فرعون لأشراف قومه: إن هذا لساحرٌ بارع في فنِّ السحر، يريد أن يستولي على بلادكم بسحره العظيم، فبأيِّ شيء تأمرونني؟ وبماذا تشيرون عليَّ؟ لقد بهره سلطانُ المعجزة وحيَّره، حتى حطَّه من ذروة ادعائه الربوبية، إلى حضيض الخضوع لعبيده، فنراه يقول ﴿فماذا تأمرون﴾؟ بعد أن كان يتبجَّح ويقول ﴿أنا ربكم الأعلى﴾!! ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ أي قالوا: أخِّر البتَّ في أمرهما، ولا تتعجل بقتلهما قبل أن يظهر كذبهما، وأرسل في أطراف مملكتك، من يجمع لك السحرة من كل مكان، ويأتيك بكل ساحرٍ ماهر، عليم بضروب السحر، ويكون لك النصر

فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾

والظفر عليه ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ أي فاجتمع السحرة لليوم المحدَّد، الذي عيَّنه لهم موسى بقوله ﴿**قال موعدكم يوم الزينة وأن يُحشر الناس ضحى**﴾ ويومُ الزينة: أول أيام العيد عندهم، ليكون ظهور الحق على رءوس الأشهاد، وقيل للناس: بادروا إلى الاجتماع، لكي نتبع السحرة في دينهم، إن غلبوا موسى ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أي فلما حضر السحرةُ عند فرعون قالوا له: هل تكرمنا بالمال إن غلبنا موسى بسحرنا؟ قال: نعم أكرمكم بما تشتهون، وأجعلكم من المقربين عندي ومن جلسائي ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ في الكلام إيجاز بالحذف، دلَّ عليه السياقُ تقديره: فقال السحرة لموسى: إمَّا أن تبدأ أنت؟ أو نكون نحن أول البادئين؟ فأجابهم موسى بقوله: ابدءوا أنتم، فأنا لا أخشاكم، وألقوا ما تريدون إلقاءه، فسوف ترون عاقبة أمركم!! فألقوا الحبال والعصيَّ، وقالوا عند إلقائها: نُقسم بعزة ربنا فرعون وبعظمته وسلطانه، أننا نحن الغالبون لموسى، قالوا ذلك لثقتهم بأنفسهم في إتقان السحر، وأن موسى لن يستطيع أن يغلبهم في هذا المضمار، وهذا لا يقوله إلاَّ من أتقن الصنعة ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أي فألقى موسى العصا، فانقلبت إلى حية عظيمة، تبتلع الحبال والعصيَّ التي اختلقوها باسم السحر، حيث

قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

خيَّلوها للناس أنها حيات تسعى، وسمَّاها إفكاً ﴿تلقف ما يأفكون﴾ لأنها خداع وكذبٌ، أي فإذا هي تبتلع الإفك والزور، وعندئذٍ خرَّ السحرة ساجدين لله رب العالمين، بعدما شاهدوا البرهان الساطع، والمعجزة الباهرة، وقالوا عند سجودهم: آمنَّا برب العزة والجلال، ربِّ موسى وهارون.. في تلك اللحظات الحاسمة، طاش لبُّ فرعون، فقد أتى بالسحرة مستعيناً بهم مستنصراً، يريد أن يقهر موسى، فإذا بالسحرة يؤمنون بموسى ويسجدون لله رب العالمين، لأن الحقَّ بهرهم، وعرفوا حقَّ اليقين، أن ما أتى به موسى، لو كان من قبيل السحر، لبقيت الحبالُ والعصيُّ ولم يفقدوها، ولانتفخت الحية حين ابتلعت الحبال، فلما لم يجدوا لها أثراً، عرفوا أن ذلك أمرٌ ربانيٌّ، من خلق الله وتدبيره، لذلك خرُّوا ساجدين لله ربِّ العالمين، وأكَّدوا بقولهم (رب موسى وهارون) الربَّ الذي دعاهم إليه موسى، لا فرعون الذي كان يزعم أنه رب ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي قال فرعون للسحرة: آمنتم لموسى قبل أن تستأذنوني؟ إنه رئيسكم الذي علَّمكم السحر، ثم توعَّدهم بالعذاب الأليم، بتقيطع أيديهم وأرجلهم، وصلبهم على جذوع الأشجار!! أراد فرعون اللعين بهذا الكلام، التلبيسَ على قومه، لئلا تعتقدوا أن السحرة آمنوا عن بصيرة، وظهور حق، وزعم أنهم كانوا متواطئين مع موسى!! وهذا محضُ الكذب والبهتان، فإن موسى لم يرهم، ولم يلتق بهم قبل اليوم، ولكنها حجةُ المغلوب المقهور، والحبل الذي يتمسك به الغريقُ، ولو كان من خيوط العنكبوت!! أمَّا السحرة فثبتوا على الإيمان، ولم يبالوا بوعيد ولا تهديد فرعون ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي قال السحرة لفرعون: لا يضرُّنا ذلك ولا نبالي به، فافعل بنا ما أنت فاعل، فإننا سنرجع إلى ربنا بعد موتنا، ويجازينا على ثباتنا على الإيمان، ونطمع في مغفرته ورحمته، وتطهيرنا من الذنوب والآثام، لأننا أول من

۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾

آمن بالله من قوم فرعون.. نفَّذ عدوُّ الله حكمه فيهم، فقتلهم وصلبهم، فأدخلهم الله جنات النعيم، وردَّ كيد فرعون في نحره، **قال ابن عباس**: لمَّا صلبهم فرعون رأوا منازلهم في الجنة، وكانوا في أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ أراد فرعونُ الجبار أن يبطش بموسى وأتباعه المؤمنين، حتى لا يبقى هناك من يتهدَّد ملكه، فأوحى الله إلى موسى أن يسير بقومه ليلاً من أرض مصر، لأن الله يريد أن يُغرق فرعون وقومه الأقباط، ويجعلهم عبرة لمن يعتبر، ومعنى (أَسْرِ) أي سِرْ بهم ليلاً، لأن السُّرى هو السفر بالليل، فسار بهم من أرض مصر، ولما رأى الطاغية أن موسى قد ذهب بقومه، أرسل في الحال من يجمع له جيشه، من المدن والأمصار، ليلحق بموسى وأتباعه، وقال لحاشيته وجنده: إن هؤلاء (شرذمة) أي طائفة قليلة حقيرة، لا نبالي بهم، ولا يُقام لهم وزن عندنا، وهم قد فعلوا ما يغضبنا ويغيظنا، ونحن منتبهون لهم يقظون، نعلم ما يفعلون!! تعلَّل الطاغية بهذا الكلام، ليحفظ ماء وجهه أمام حاشيته، لئلا يظنوا به العجز والضعف، وكان بنو إسرائيل حين خرجوا من مصر /٦٠٠/ ستمائة ألف، ولكنَّ فرعون قلَّلهم بالنسبة إلى جنوده فقال ﴿وإن هؤلاء لشرذمة قليلون﴾ أي فئة قليلة حقيرة، ليس لهم عندنا شأن، نقضي عليهم بأسرع ما يكون!! ومن العجيب أن نرى سَفَهَ فرعون وحماقته، وهو يزعم أنه ربٌّ، ثم يقول لحاشيته وجنده ﴿وإنهم لنا لغائظون﴾ فكيف يكون رباً، والقلة القليلة تغيظه وتقهره؟ أين عظمته وكبرياؤه وسلطانه؟ قال تعالى حكايةً عمَّا جرى لفرعون وجنوده ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي فأخرجنا فرعون وقومه الظالمين، من بساتين وحدائق كانت ممتدة على حافَّتيْ نهر النيل، فيها الأنهار الجارية، والأموال الوفيرة، والكنوز الثمينة، والمنازل البهية، وملَّكناها لبني إسرائيل، بعد إغراق فرعون وجنوده في البحر.. ثم حكى تعالى طريقة إغراقهم، وإنجاء بني إسرائيل من

فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾

شرهم، فقال ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ أي لحقهم فرعون وجنوده وقت شروق الشمس، فلما رأى كلٌ واحد منهم الآخر، وتقارب الجمعان، قال أصحاب موسى: سيدركنا جنود فرعون ويقتلوننا، فها هم الآن على إثرنا وفي مقربةٍ منا، وقد تحقَّق هلاكنا، فالبحر أمامنا، والعدوُّ وراءنا، فأين النجاةُ وأين المهرب؟ فقال لهم موسى: كلاً أي ارتدعوا عن هذه الظنون والأوهام، فلن يدركوكم، لأن ربي معي بالحفظ والنصرة، وسيهديني إلى طريق النجاة والخلاص ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي أمرنا موسى بطريق الوحي، أن يضرب البحر بعصاه (فانفلق) في الكلام حذف أي فضربه فانشقَّ وانفلق، فصار اثنتي عشرة فرقة، بعدد الأسباط، كل فرقٍ منه كالجبل الشامخ، الثابت في مقره لا يتزحزح، يعني أن البحر انقلب إلى طريق يابس، فيه اثنا عشر طريقاً، كل طريق كالجبل العظيم ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وأزلفنا أي قرَّبنا فرعون وجماعته، قربناهم من البحر حتى دخلوه، عقب دخول بني إسرائيل، وأنجينا موسى ومن معه من المؤمنين جميعاً، بحفظ البحر على تلك الهيئة، حتى عبروه، ثم أغرقنا فرعون وجماعته، وإن في إغراق فرعون وقومه، لعبرةً وعظةً عظيمة، على حفظ الله لأوليائه، وإهلاكه لأعدائه، ومع مشاهدة هذه الآية العظمى، لم يؤمن أكثر البشر.. وإلى هنا تنتهي قصة موسى مع فرعون، ثم تأتي قصة الخليل إبراهيم عليه السلام، مع قومه عبدة الأوثان الضالين، فيقول سبحانه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ أي اقصص على قومك

قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾

يا محمد خبر إبراهيم الهام وشأنه العظيم، مع قومه عبدةِ الأوثان، حين قال لأبيه وقومه: أيَّ شيء تعبدون؟ سألهم مع علمه أنهم يعبدون الأصنام، ليبيّن لهم سفاهة عقولهم!! في عبادة ما لا يضرُّ ولا ينفع، وليقيم عليهم الحجة!! قالوا: نعبد أصناماً فنظل مقيمين على عبادتها لا نتركها، قالوا ذلك على سبيل الابتهاج والافتخار، وكان يكفيهم أن يقولوا: نعبدُ الأصنام، ولكنهم زادوا في الوصف ﴿فنظل لها عاكفين﴾ كالمفتخر بما يصنع ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي قال لهم على سبيل التوبيخ والتقريع: هل يسمعون دعاءكم، حين تلجأون إليهم بالدعاء؟ وهل يصل إليكم نفعها إن عبدتموها، وضرُّها إن تركتم عبادتها؟ قالوا: نحن نقلّد آباءنا في هذا، فقد وجدناهم يعبدونها فعبدناها!! اعترفوا بأنها لا تنفع ولا تضر بالمرة، وإنما هو التقليد الأعمى منهم للآباء ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي قال إبراهيم: أفرأيتم هذه الحجارة التي عبدتموها من دون الله، أنتم وآباؤكم السابقون؟ فإنها أعداء لي لا أعبدها، ولكن أعبد الإله الحق، ربَّ العالمين، الذي بيده النفع والضرُّ، وهو المتصف بصفات القدرة والكمال ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ أي هذا الإله الذي أعبده، هو الإله الخالقُ الرازق، لا هذه الأصنام والأوثان!! خلقني وأرشدني إلى طريق النور والسعادة، أنزل المطر، وأخرج الثمر، ورزقني الطعام والشراب، وإذا أصابني المرضُ، فلا يقدر على شفائي غيرُه، وهو الذي يحيي العباد، ثم يميتهم عند انتهاء آجالهم، فهذا هو الإله الحقُّ، لا ما لا يسمع ولا يبصر، ولا يغني عن عابده شيئاً، أسند المرض إلى نفسه (مرضتُ) والشفاء إلى الله رعايةً للأدب، وإلاّ فالمرضُ والشفاء، والخيرُ والشرُ منه تعالى، لا نافع ولا ضار إلا الله تعالى، أمَّا أدباً فَيُنسبُ الخير إلى الله، والشرُّ إلى النفس، كما في الأثر (الخيرُ بيديك، والشرُّ لا يُنسب إليك) وكقول الجن ﴿وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم

وَالَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾

ربهم رشداً﴾؟ ثم زاد إبراهيم عليه السلام في صفات الإله الحق، والتضرع إليه فقال ﴿وَالَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي وهذا الإله هو غفار الذنوب، الذي أرجو من فضله وكرمه، أن يغفر لي ذنبي يوم الحساب، قاله هضماً لنفسه، وتعليماً للناس أن يستغفروا ربهم، من المعاصي والذنوب، ثم طلب من ربه أن يهبه العلم النافع، والعمل الصالح، وأن يجعل له ذكراً حسناً، وثناءً عاطراً، بحيث يبقى أثره إلى يوم الدين، وأن يجعله في الآخرة من أهل الجنة، الذين يستحقون ميراث جنة الخلد والنعيم ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ أي واصفح عن أبي واهده للإيمان، فإنه كان ممن ضلَّ عن سبيل الهدى، وكان أبوه قد وعده أن يؤمن به، فلذلك استغفر له، فلما تبيَّن له أنه عدوٌّ لله تبرأ منه، ثم طلب من ربه أن لا يهينه ولا يذلَّه، يوم يُبعثُ الناسُ للحساب، يوم لا ينفع أحداً مالُه ولا أولاده، إلا من جاء ربه يوم القيامة، بقلب نقي طاهر، سليم من الشرك والنفاق!! استجاب الله منه جميع الدعوات، سوى الدعاء بالغفران لأبيه، لأنه كان كافراً، والكافر لا تنفع فيه شفاعة، ولا يُمحى عنه ذنب، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: (يلقى إبراهيمُ أباه، فيقول: يا ربُّ إنك قد وعدتني أن لا تخزني يوم يُبعثون!! فيقول الله له: إني حرَّمتُ الجنة على الكافرين) رواه البخاري.. وبعد الانتهاء من قصة إبراهيم مع قومه الوثنيين، يأتي الحديث عن مصير أهل السعادة، ومصير أهل الضلال، فالمؤمنون تُقرَّب لهم دار النعيم، والمجرمون تبرز لهم دار الجحيم، وفي ذلك يقول سبحانه ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ﴾؟ أي قُرِّبت الجنةُ وأدنيت من أهلها ليدخلوها، مزيَّنةً بأبهى

فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾

الزينة، بالحور والولدان، وبالملائكة وقوفاً على أبواب الجنان، ليستقبلوا أهلها، وظهرت نار الجحيم للأشقياء المجرمين، بسلاسلها وأغلالها، وسعيرها وحميمها، وقيل لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: أين آلهتكم الذين عبدتموهم من الأصنام والأوثان؟ ادعوهم ليخلِّصوكم من هذا العذاب، هل يستطيعون نصرتكم؟ أو دفع العذاب عنكم؟ وهل ينصرون أنفسهم؟

﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ﴿كُبْكِبُوا﴾ أي: أُلقوا على رءوسهم في جهنم، ودُحرجوا فيها، كما تُدحرج الحجارة، هم ورؤساؤهم الضالون، وهناك قال العابدون لمن عبدوهم من (العظماء والكبراء)، وهم في جهنم يتنازعون ويتخاصمون. نقسم بالله لكم لقد كنَّا في ضلال واضح، وبُعدٍ عن الحقّ ظاهر، حين عبدناكم مع رب العالمين، وجعلناكم مثلَه في استحقاق العبادة ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وما أضلَّنا عن الهدى والإيمان، إلا الرؤساء والكبراء، الذين زيَّنوا لنا الكفر والمعاصي فاتَّبعناهم، فليس لنا من يشفع لنا من هول هذا اليوم الأكبر، وليس لنا صديق مخلصٌ صادق الودِّ، ينقذنا اليوم من عذاب الله، فلو أن لنا رجعة إلى الدنيا، فنؤمن، ونحسن عملنا ونطيع ربنا!! ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي إن في قصة إبراهيم مع قومه، لعظةً وعبرة، يعتبر بهاأولو الأبصار، وأكثرُ الناس لا يؤمنون بالله، لغاية عتوِّهم وضلالهم، وإن ربك هو المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي كذَّب قوم نوح

وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

نبيهم نوحاً، وإنما قال (المرسلين) لأن من كذَّب رسولاً فقد كذَّب جميع الرسل، وقوله: ﴿ألا تتقون﴾ أي: ألا تخافون عذاب الله في عبادتكم للأصنام!؟ إني أنصحكم لوجه الله، ولا أطلب على نصحي أجراً منكم، فأطيعوا ربكم وخافوا عقابه، وأطيعوا أمري ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي أنصدق أنك رسول الله، وأتباعك هم السَّفلة والفقراء والضعفاء؟ وهذا من حماقتهم، وسفاهة عقولهم، حيث قصروا الفضيلة على حُطام الدنيا، حتى جعلوا اتِّباعَ الفقراء له، مانعاً عن إيمانهم بدعوة نوح، قال لهم نوح: ليس عليَّ أن أبحث عن خفايا نفوسهم، هل اتبعوني إخلاصاً لله، أم طمعاً في المال؟ وليس حسابهم ولا جزاؤهم، إلا على الله المطَّلع على السرائر والضمائر ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ طلبوا منه أن يطردهم عن مجلسه، فأجابهم بقوله: لستُ بطاردهم ولا مبعدهم عني لإيمانهم، وكونُهم فقراء لا يُنتقصُ به قدرُهم، ما أنا إلا نذير لكم، أخوِّفكم عذاب الله وسطوته، فمن أطاعني نجا، شريفاً كان أو وضيعاً، جليلاً أو حقيراً!! ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ توعَّده الأشقياء بالقتل رمياً بالحجارة، لأنه دعاهم إلى الإيمان بالله، أي لئن لم تكفَّ عن تقبيح ما نحن عليه من عبادة الأصنام، لنرمينَّك بالحجارة حتى الموت، ولما يئس من إيمانهم وفلاحهم، دعا عليهم فقال: يا رب إن قومي كذَّبوني، ولم يؤمنوا بي، فاحكم بيني وبينهم بحكمك العادل، ونجِّني وأتباعي المؤمنين من شرهم وكيدهم ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي فأنجينا نوحاً ومن

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾

معه في السفينة المملوءة بالرجال، والطعام، وأنواع الحيوان، ثم أغرقنا المكذبين من قومه بالطوفان، فلم نُبق منهم أحداً، إن في قصة نوح لعظة وعبرة، ولكنَّ أكثر الناس لا يعتبرون ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه هي القصة الرابعة في هذه السورة، قصة نبي الله «هود» عليه السلام مع قومه العتاة المتجبرين قوم عاد، والكلمات التي قالها نوح لقومه، هي الكلماتُ نفسُها التي يقولها «هود» لقومه، دعاهم إلى التوحيد والإيمان، وحذَّرهم من الشك وعبادة الأوثان، ثم قال لهم «هود» ناصحاً ومذكراً ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ الرِّيعُ: المكان المرتفع، أي أتبنون بكل مرتفع من الأرض، بناءً عالياً شامخاً، لمجرد اللهو والعبث، دون الحاجة إليه، وتتخذون مصانع أي قصوراً مرتفعة، محكمة البناء، ترجون الخلود في الدنيا، كأنكم لا تموتون، وإذا غضبتم على أحد، بطشتم به دون شفقةٍ أو رحمة، كفعل الجبارين الظلمة ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي فخافوا الله ربكم، الذي أنعم عليكم بأنواع النعم: من المواشي، والأنعام، والبنين، والأموال، والبساتين، والأنهار الجارية، والحدائق الغناء، إني أخاف عليكم عذاب يوم هائل، تشيب له الولدان ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي قال

فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾

السفهاء لهود عليه السلام: لا نبالي بما تقول، ويستوي عندنا وعظُك وعدمُه، سواء أخوفتنا بالعذاب، أم لم تخوِّفنا به؟ فما هذا الذي جئتنا به، إلا خرافات وأساطيرُ الأولين، سمعناها مراراً وتكراراً، أننا سنموت ثم نحيا، ولسنا بمعذبين، لأنه لا بعث ولا حساب، ولا جزاء، ولا عقاب!! قال تعالى مبيناً عاقبة هؤلاء المجرمين ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي فكذبوا نبيَّهم هوداً فأهلكناهم بالريح الصرصر العاتية، وفي إهلاكهم عظة وعبرة لأولي الألباب، وما آمن أكثر الناس، مع رؤيتهم للآيات الباهرة، وربك يا محمد هو الغالب المنتقم من أعدائه، الرحيم بأحبابه وأوليائه ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هذه هي القصة الخامسة في هذه السورة، وهي قصة «صالح» عليه السلام، مع قومه من قبيلة ثمود، وقد كانوا في رفاهية ورخاء، وأمنٍ وهناء، يتنقلون بين الرياض النضرة، والبساتين الزاهرة، وقد غمرتهم الخيرات، ولكنهم لم يشكروا ربهم على هذه النعم!. وكرَّر تعالى الألفاظ التي قالها من قبل كلٌّ من «نوح، وهود» لينبِّه إلى أن دعوة الرسل واحدة، هي الدعوة إلى الله، وإلى طاعته وتوحيده، دون أن يطلبوا أجراً من أحد، ثم يقول لهم ناصحاً ومذكِّراً ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.

قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٦٢﴾

﴿فارهين﴾: بمعنى أشِرين بطِرين، أي أيترككم ربكم في هذه الدنيا آمنين، مخلَّدين في النعيم، كأنكم باقون في الدنيا بلا موت؟ في بساتين وحدائق، وأنهار جاريات، وسهولٍ فسيحة، فيها أنواع الزروع والثمار، والنخيل وما فيه من الرُّطب الليِّن، السريع الهضم؟ وتنحتون مساكن في الجبال، أشراً وبطراً وعبثاً؟ فاتقوا الله وأطيعوا أمري، ولا تطيعوا أمر الكبراء المجرمين، المفسدين في الأرض ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ أي قال السفهاء جواباً لنبيهم صالح: ما أنت إلاَّ رجلٌ مسحور، غلَب السحرُ على عقله فهو يهذي كالمجنون، وما أنت إلا رجل مثلنا، تأكل وتشرب، فكيف تزعم أنك رسول الله؟ فإن كنت صادقاً في دعوى النبوة، فأتنا بمعجزة واضحة تدل على صدقك؟ قال: هذه الناقة معجزتي إليكم، وقد أخرجها الله لكم من صخر أصمّ بناء على طلبكم، ومن عجائب أمرها أنها تشرب ماءكم يوماً، وأنتم تشربون يوماً آخر الماء، وهذه معجزةٌ أخرى أنها تشرب من الماء ما يكفي قبيلة. بأكملها، ولا تنالوها بأيّ نوع من الأذى، فينتقم الله منكم بعذاب عاجل هائل!! ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي فقتلوها رمياً بالسهام، فأصبحوا نادمين على قتلها خوفاً من نزول العذاب، لم يكن ندمهم ندم التائبين، إنما ندم الخائفين من نزول العذاب!! فأهلكهم الله ودمَّرهم، بصيحة خمدت لها أنفاسُهم، وانشقَّتْ لها قلوبهم، وزلزلت الأرض تحتهم زلزالاً شديداً، فأصبحوا في ديارهم خامدين، لا صوت لهم ولا حركة، إن في ذلك لعظة وعبرة، لمن تدبَّر وعقل، ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ نفس الكلمات والألفاظ التي قالها من قبل «صالح، ونوح، وهود» ممَّا يؤكِّد أن دعوة الرسل واحدة، ومنشؤها الوحي الإلهي، ثم قال لوط لقومه موبِّخاً لهم ومستنكراً ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي أتنكحون الرجال في أدبارهم، وتنفردون بهذا الفعل القبيح، دون سائر الخلق، مما لا يشارككم فيه غيركم؟ حتى الحيوانات تستنكف عنه، وتتركون النساء اللواتي هنَّ مكان المتعة، فلا تنكحوهن!؟ بل أنتم حقاً مجاوزون الحدَّ في الإجرام والعُدْوان!! كأنه يقول: خرجتم عن حدود الإنسانية ـ بهذه الجريمة الشنيعة ـ إلى مرتبة البهيمية، فأصبحتم أحطَّ من الحيوان!! **قال مجاهد**: تركتم فروج النساء إلى أدبار الرجال، بل أنتم قوم معتدون ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ أي قال السفهاء الطغاة: لئن لم تترك تقبيح أمرنا، لنخرجنَّك من بلدتنا، وننفينَّك من وطننا!! هو يدعوهم إلى الفضيلة والطهر، وهم يتوعدونه بالبطش والتنكيل، والطرد من الوطن!! فأجابهم لوط: إني لعملكم الشنيع القبيح، من المبغضين له غاية البغض، والقالي معناه: المبغض، ثم يلتجىء لوط عليه السلام إلى ربه، داعياً إيَّاه أن ينجيه من شرهم ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي قال لوط: يا رب نجني أنا وأهلي، من شؤم عملهم الخبيث، وما يستحقونه من أنواع العذاب والهلاك!! فنجيناه مع أهله جميعاً، إلا امرأته فقد كانت من جملة الهالكين، الباقين في العذاب، لأنها كانت تنقل أخبار ضيوف لوطٍ إلى قومها الخبثاء، ثم أهلكنا الفجرة أشدَّ إهلاك وأفظَعه، بالخسف والحصباء، وأمطرنا عليهم حجارة من السماء، فبئس عذاب القوم

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾

المنذرين ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ بعد ختام كل قصة، تأتي هذه الآيات بعينها، للتذكير بمصير كل مجرم أثيم، متمردٍ على الله ورسله، أي إن في خبر إهلاكهم لعظةً وعبرة، وما آمن أكثر الناس مع وضوح الآياتِ والمعجزات، وإن ربك لهو العزيز أي القاهر الغالب لأعدائه، الرحيم بأوليائه ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الأيكةُ: الشجرُ الكثيفُ الملتف بعضه على بعض، والمراد بهم (أهل مدين) قوم نبيِّ الله «شعيب» عليه السلام، بدليل قوله تعالى: **﴿إذ قال لهم شعيب﴾** وقد كانوا يعبدون الأحجار والأشجار، فدعاهم شعيب إلى الإيمان بالله وتوحيده، وطاعته وعبادته، وطاعة رسوله، ثم حذَّرهم من تطفيف المكيال والميزان، فقال لهم: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي أعطوا الناس حقوقهم في الكيل والميزان، وزنوا بالميزان العادل السويِّ، ولا تظلموا أحداً من عباد الله، بأيِّ طريق من طرق الظلم، بالغصب، والنهب، والغبن، ونحو ذلك، ولا تفسدوا في الأرض بأنواع الفساد، من قطع الطريق، والاعتداء على الناس!! ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي خافوا ربكم الذي خلقكم، وخلق مَنْ قبلَكُم من الخلائق، **قال مجاهد**: الجبلَّةُ: الخليقةُ، ويعني بها الأمم السابقين ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٥﴾

المسحَّرُ: معناه المسحورُ، وفيه مبالغة من السِّحر، أي ما أنت يا شعيب إلاَّ من المسحورين، الذين أثَّر فيهم السحرُ تأثيراً بليغاً، وما أنت إلا إنسانٌ مثلنا ولست برسول، وما نعتقد إلا أنك كاذب في دعوى النبوة والرسالة، فأنزل علينا العذاب قِطَعاً من السماء، إن كنت صادقاً فيما تقول!! طلبوا ذلك زيادة منهم في الجحود والتكذيب، لاستبعادهم وقوعَه، فظنوا أنه إذا لم يقع ظهر كذبه، فعند ذلك أجابهم شعيب ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ أي قال لهم شعيب: الله أعلم بأعمالكم، وما تستحقونه من الجزاء والعقوبة، فاستمروا على السخرية والاستهزاء، وعلى تكذيب نبيِّهم، فأخذهم عذابُ يوم الظُّلَّة أي السحابة التي أظلَّتهم ثم اشتعلت عليهم ناراً فأحرقتهم، إنه كان عذاب يوم عظيم في الشدة والهول، **قال المفسرون:** بعث الله عليهم حراً شديداً فأخذ بأنفاسهم، حتى كادوا يهلكون، فخرجوا من البيوت هرباً إلى الصحراء، فبعث الله عليهم سحابةً أظلتهم من الشمس، فوجدوا لها برداً، فنادى بعضهم بعضاً، حتى إذا اجتمعوا تحتها، أرسل الله عليهم ناراً فاحترقوا جميعاً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تقدَّم تفسيرها، وإنما كرر في نهاية كل قصة هذه الآيات، ليكون ذلك أبلغ في الاعتبار، وأشدَّ تأثيراً وتنبيهاً لذوي العقول والأبصار.. وبعد البيان المستفيض عن سنة الله في معاقبة المكذبين المجرمين، عادت السورة للتنويه بشأن القرآن العظيم، تفخيماً لشأنه، وبياناً لصدق رسالة محمد ﷺ فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ أي وإن هذا القرآن المعجز، في بيانه، وتشريعه، وأحكامه، لتنزيل ربِّ الأرباب، نزل به أمينُ السماء «جبريل» عليه السلام، من عند رب العزة والجلال، على قلبك يا محمد لتحفظه وتنذر به قومك وعشيرتك، بلغةٍ عربية فصيحة صحيحة، لئلا يبقى لهم عذر لو أنزلناه بغير اللغة العربية، فيقولون عند ذلك: ما فائدة كلام لا نفهمه؟ وإنما قال ﴿**على قلبك**﴾ لأن الرسول أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، فنزل على قلبه مباشرة بطريق تلاوة

وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾

جبريل عليه السلام ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي وإن ذكر هذا القرآن المجيد وخَبَرَه، لموجودٌ في كتب الأنبياء السابقين، أولم يكن لكفار مكة المكذبين لسيد المرسلين، علامة واضحة على صدق القرآن، أن يعلم ذلك علماءُ بني إسرائيل، كعبد الله بن سلام، والنجاشي وأمثالهما؟ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ أي لو نزلنا هذا القرآن، بنظمه البديع المعجز، على رجلٍ من العجم، لا يقدر على التكلم بالعربية، فقرأه عليهم قراءة فصيحة صحيحة، ما آمنوا بالقرآن، لفرط عنادهم واستكبارهم

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي كذلك أدخلنا القرآن في قلوب المجرمين، فسمعوه وفهموه وعرفوا فصاحته، وأنه خارج عن مقدور البشر، ثم لم يؤمنوا به، ولن يؤمنوا حتى يأتيهم عذاب الله المؤلم، حيث لا ينفع الإيمان، فيأتيهم العذاب فجأة، من حيث لا يعلمون بمجيئه ولا يدرون، فيقولوا: هل نحن مؤخَّرون لنؤمن ونصدِّق؟ وكيف يستعجلونك بالعذاب، وهم عند نزوله يطلبون الإمهال؟ ويتمنون أن لو أُخّروا، حتى يؤمنوا ويعملوا بطاعة الله؟ ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ أي أخبرني لو أننا متعناهم سنين عديدة، مع الصحة وطيب العيش، ثم جاءهم العذاب الذي وُعدوا به، ماذا ينفعهم ما كانوا فيه من النعيم؟ هل ينفعهم في تخفيف الحُزن، أو دفع العذاب؟ وماذا يساوي تمتُّع برهةٍ من الزمن أمام الخلود في نار الجحيم؟ روى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: (يؤتى بأنعمِ أهل الدنيا، من أهل النار يوم القيامة، فيُصبغُ ـ

وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾

أي يُغمسُ - في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم: هل رأيتَ خيراً قطُّ؟ هل مرَّ معك نعيمٌ قطُّ؟ فيقول: لا والله يا رب..) الحديث رواه مسلم ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي وما أهلكنا أهل قرية من القرى، إلاَّ بعدما أرسلنا لهم الأنبياء والرسل، مبشِّرين ومنذرين، ليكون إهلاكُهم تذكرةً وعبرةً لغيرهم، فلا يعصُوا مثل عصيانهم، وما كنا ظالمين لهم، لأننا أقمنا الحجة عليهم ببعثة الرسل ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ أي وما تنزَّلت بهذا القرآن الشياطينُ، بل نزل به الروحُ الأمين، وما يصحُّ ولا يستقيم أن تتنزَّل الشياطين بهذا القرآن، لأنه كلام رب العزة والجلال، والشياطينُ ممنوعون، من استراق الوحي الإلهي من السماء، بعد بعثة خاتم الأنبياء!! ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ الخطابُ للرسول ﷺ والمرادُ أمته، لأن الرسول معصوم عن الإشراك، وفعل المعاصي والآثام، أي لا تعبد إلهاً آخر غير الله، فيعذبك الله في نار جهنم، **قال ابن عباس**: «يُحذِّر به غيره، يقول: أنت أكرمُ الخلق عليَّ، ولو اتَّخذتَ إلهاً غيري لعذَّبتُك» وخوِّف عشيرتك، الأقربَ منهم فالأقرب، من عذاب الله، إن لم يؤمنوا!! ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي وتواضع وألِنْ جانبك لأتباعك المؤمنين، فبالأخلاق الحميدة، وباللطف واللين، تكسب قلوبهم، ومن عصاك وخالف أمرك، فتبرأ منه ومن عمله، وكأن المراد من الآية: من اتبعك مؤمناً فتواضع له، ومن عصاك فتبرأ منه ومن عمله، روى البخاري عن ابن عباس قال: (لمَّا نزلت الآية **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾** صعد ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فِهْر، يا بني عديٍّ، لبطون قريش، حتى اجتمعوا عنده، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي، تريد أن تُغِير عليكم، أكنتم مصدِّقيَّ؟ قالوا: نعم ما جرَّبنا عليكَ إلاَّ صدقاً!! قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب

وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾

شديد!! فقال أبو لهب: تبّاً لك سائرَ اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت ﴿**تبت يدا أبي لهب وتبَّ**﴾ رواه البخاري ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾أي فوِّضْ جميع أمورك إلى ربك، (العزيز) أي الغالب الذي يقهر أعداءك بعزته، وينصرك عليهم برحمته، ربك الذي يراك في جميع أحوالك، قائماً، وجالساً، وعابداً، يراك حين تقوم وحدك إلى التهجد في ظلمة الليل، ويراك حين تصلي مع المصلِّين بالجماعة، قائماً وراكعاً وساجداً، وهو السميع لما تقوله، العليمُ بما تُخفيه ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾أي قل يا محمد لكفار مكة، الذين قالوا: إنما يأتيه بالقرآنِ الشياطينُ: هل أخبركم على من تتنزَّل الشياطين؟ تتنزَّل على كل كذَّاب فاجر، مبالغ في العصيان والعدوان، لا على محمد سيِّد البشر!؟ تلقي الشياطين ما استرقوه من السمع، إلى أوليائهم الكهنة، وأكثرهم يكذبون فيما يوحون به إليهم، فالشياطين إنما تتنزَّل على أمثالِ هؤلاء!!، وفي الحديث الشريف (فيسمعها مسترقُ السمع، فيُلْقيها إلى من تحته، ثم يُلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فيكذب معها مائة كذبة، فيُصدَّق بتلك الكلمة التي سمع من السماء) رواه البخاري ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾هذا ردٌّ على من زعم أن محمداً ﷺ شاعر، والمعنى: إن الشعراء يتبعهم ويسلك مسلكهم، الضالون، لا أهل البصيرة والرشاد!! والشعراء يخوضون في كل واد، بالمديح والهجاء، فيمدحون بالباطل أقواماً ويذمُّون آخرين، حسب الهوى والمزاج، ألا تراهم يقولون ما لا يفعلون؟ ديدنُهم الكذبُ والخوضُ في المدح والهجاء، حتى قيل عن الشعر «أعذبُه أكذبه» وهذا مخالف لحال النبوة، لأنهم لا يقولون إلا الحقَّ، ولا يتبعهم إلا الراشدون، لا الغاون

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

الـضـالـون ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ هذا استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين، الذين يُكثرون ذكر الله، ويكون أكثر أشعارهم في التوحيد، والثناء على الله، والحث على طاعته، وفي الحكمة والموعظة الحسنة، ولو وقع منهم ذمٌّ أو هجاء، كان ذلك على طريق الانتصار للحقِّ، كما كان رسول الله ﷺ يقول لحسان: (أهجُ المشركين فإن جبريل معك) رواه البخاري، وقد روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يضع لحسان منبراً في المسجد، يقوم عليه، يفاخر عن رسول الله ﷺ ويُنافح ـ أي يدافع ـ ويقول: إن الله يؤيد حسَّانَ بروح القدس ما نَافَح عن رسوله» رواه أبو داود والترمذي ﴿وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد عامٌ في كل ظالم، تتفتَّت له القلوب ألماً، وتتصدع له القلوبُ كمداً، أي سيعلم كلُّ ظالم، وكلُّ كافر فاجر، أيَّ مصيرٍ يرجعون إليه؟ وأيَّ عقاب ينالونه، حيث ظلموا أنفسهم، بالإعراض عن الإيمان، والتكذيب بآيات الرحمٰن!؟، كما سيعلم كل طاغية جبار، نهايته المشئومة التي يصير إليها يوم الحشر الأكبر!!.

انتهى تفسير سورة الشعراء

● ● ●

طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

تفسير سورة النمل

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ الحروفُ المقطَّعة للإشارة إلى إعجاز القرآن، أي هذه آيات الكتاب المبين، المعجز في بيانه، الساطع في برهانه، لمن تفكَّر فيه وتدبَّر، وهو الكتاب الهادي للمؤمنين إلى الطريق المستقيم، المبشِّر لهم بجنات النعيم، وهم المؤمنون الذين يؤدُّون الصلاة على الوجه الأكمل، بآدابها، وأركانها، وخشوعها، ويدفعون الزكاة إلى مستحقيها، وهم بالآخرة يوقنون حقَّ اليقين، لا يخالجهم في ذلك شكٌّ ولا ارتياب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ لمَّا ذكر تعالى المؤمنين الموقنين بالبعث، ذكر بعدها المنكرين المكذبين بالحساب والجزاء، **والمعنى**: إن الذين لا يصدِّقون بالحساب والجزاء، زينَّا لهم أعمالهم القبيحة، حتى ظنوا أنها حسنة، فهم في الدنيا كالعمي، يتخبَّطون حيارى، لا يميّزون بين الضارّ والنافع، والحسن والقبيح، وخسارتُهم في الآخرة أشدُّ وأكبر، لمصيرهم إلى النار المؤبدة، والجحيم والسعير، وإنك يا محمد لتتلقَّى هذا القرآن العظيم، من ربِّ العزة والجلال، الكبير المتعال، الحكيم في تشريعه، العليم بمصالح خلقه، بما فيه سعادتهم وصلاحهم.. ثم شرع تعالى في ذكر

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾

قصص الأنبياء، تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام، وتخفيفاً لآلامه وأحزانه فقال سبحانه ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ هـذا عـنـد مسيره من مدين إلى مصر، وكان في ليلةٍ مظلمة باردة، وقد ضلَّ الطريق، وأخذ زوجتَه الطَّلْقُ، فقال لأهله: إني أبصرتُ ورأيتُ ناراً، سآتيكم بخبر الطريق، أو آتيكم بشعلة مقتبسةٍ من النار تستدفئون بها، وفي لفظ (تصطلون) إشارة إلى أنهم كانوا في برد شديد ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي فلما وصل إلى مكان النار، رأى منظراً هائلاً عجيباً، رأى النارَ تشتعل في شجرة خضراء، لا تزداد النار إلاَّ توقُّداً، ولا تزداد الشجرة إلاَّ خُضْرةً ونُضْرة، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصلٌ بعنان السماء!! لم تكن ناراً، وإنما كانت نوراً يتوهَّج من نور ربِّ العالمين، كما قاله ابن عباس، وجاءه النداء العلويُّ من جانب الطور، بأن بُوركتَ يا موسى، وبورك وتقدَّس من حولك من الملائكة، فأنا ربُّ العالمين الذي أكلِّمك، العليُّ الشأن، المنزَّه عن العجز والضَّعف ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ونـودي بـأن ألـقِ عـصـاك مـن يدك، لترى معجزتك بنفسك، فألقاها فلما رآها تتحرَّك حركةً سريعة، كأنها ثعبان خفيفٌ سريعُ الجري، فزع وولَّى الأدبار منهزماً ﴿**ولم يُعقِّب**﴾ أي لم يرجع إليها ولم يلتفت، لما دهاه من الخوف والفزع، وهو انقلابُ العصا حيةً تسعى، ولهذا ناداه ربه ﴿**يا موسى لا تخف إني لا يخاف لديَّ المرسلون**﴾ أي أقبلْ ولا تخف، فأنت رسولي اصطفيتُك لرسالتي،

وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾

ورسلي لا يخافون عندي، ولا يخشون غيري، نبَّهه تعالى على أنَّ من اختاره لرسالته، وآمنه من عذابه، لا ينبغي أن يخاف من حية، لكنْ من ظلم من سائر الناس، ثم تاب وبدَّل عمله السيء، بعمل حسن، فإن الله يتوب عليه، ثم نبَّهه إلى معجزة أخرى ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي وأَدْخلْ يا موسى يدك في فتحة صدرك ثم أخرجها، تخرجْ بيضاءَ برَّاقةً مضيئةً، كأنها قطعةُ قمر، تتلألأ نوراً وضياءً، من غير مَرَضٍ ولا بَرَص، في جملةِ تسع معجزات أيَّدتُك بها، لتذهب بها إلى فرعون الطاغية الجبار، وقومه الفجرة الفُسَّاق، الممعنين في الكفر والضلال، الخارجين عن طاعتنا!! ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في الكلام إيجازٌ وحذف، أي فلما رأوا تلك المعجزات الباهرة، واضحةً بينةً جليَّة، كأنها لجلائها تُبصر، أنكروها وزعموا أنها سحرٌ واضح، وكفروا وكذَّبوا بتلك الخوارق والمعجزات، وقد أيقنوا بقلوبهم أنها من عند الله، وليست من قبيل السحر، فانظر وتدبَّرْ بعين الفكر والبصيرة، ماذا كان مآل أمرهم؟ من الإغراق في الدنيا، عقوبةً لهم على التكذيب والفساد، وعظةً وعبرةً لجميع العباد!! جاءت قصة موسى هنا بإيجاز، للتمهيد إلى دلائل التوحيد في قصة داود وسليمان عليهما السلام، وما جرى فيها من غرائب الأحداث ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ اللامُ للقسم، و«قد» للتحقيق، أي واللهِ لقد أعطينا رسولنا «داود» وولده «سليمان» علماً واسعاً من علوم الدنيا والدين، علم كلام الطير، والنمل، والدواب، وخصصناهما بخصائص جلية، من تسخير الإنس، والجن، والشياطين، ووهبناهما مع النبوة المُلْكَ، فضلاً منّا ونعمة عليهما، وقالا ثناءً على الله، وشكراً له: الحمد لله الذي فضَّلنا بالنبوة

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾

والمُلْك، على الكثيرين من عباده المؤمنين ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي ورث نبيُّ الله سليمانُ أباه داود، ورثه في النبوة، والعلم، والمُلك، لا في المال، فقد كان لداود عليه السلام تسعة عشر ولداً، ولو كانت وراثةَ مال لكان جميع أولاده فيه سواء!! وقال سليمانُ تحدثاً بنعمة الله عليه: يا أيها الناس لقد أكرمنا الله، فعلَّمنا منطق الطير، وأصوات الحيوانات، وأعطانا من كل شيء من خيرات الدنيا، ممَّا أوتيه الملوك والعظماء، إن هذا لفضلٌ عظيم من الله علينا، نشكره عليه عظيم الشكر!! حُكي أن سليمان عليه السلام، مرَّ ببلبل يشدو على الشجرة، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول؟ قالوا: الله أعلم!! قال يقول: أكلتُ نصف ثمرة، فعلى الدنيا العفاء أي الفناء، وصاح طاووسٌ فقال: يقول: «كما تَدينُ تُدان» وصاح خُطَّافٌ، فقال: يقول: «قدِّموا لأنفسكم خيراً تجدوه» وهكذا كان يعلم جميع أصوات الطير والحيوانات حتى النمل ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي جُمع لسليمان جيوشُه وعساكرُه، وأُحضرت له في مسيرة كبيرة، فيها الجنُّ والإنسُ والطيور، يتقدَّمهم سليمان في أُبَّهة المُلْك، وعظمة السلطان، شأنَ الملوك والعظماء ﴿فهم يُوزعون﴾ أي يُحبس أوائلهم على أواخرهم، ليتلاحقوا ويجتمعوا، ويكونوا في صفوف متتابعة، كما هو شأن العسكر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي حتى إذا وصلوا إلى وادٍ في بلاد الشام، كثير النمل، سمع نملةً تقول للنمل: أسرعوا بالدخول إلى مساكنكم، فإني أخشى عليكم خيل (سليمان) وجنوده، أن يسحقوكم بأقدامهم، دون قصدٍ منهم ولا تعمد، وهم لا يشعرون بكم!! يا لها من نملةٍ ذكيَّة، نبَّهتْ، ثم حذَّرتْ، ثم اعتذرت بقولها ﴿وهم لا يشعرون﴾ لأنها علمت أن نبيَّ الله ومن معه، لا يُقدمون على أذى أحد!! سمع سليمان كلامها، وعَرَف اعتذارها، فتبسم ضاحكاً من قولها، ودعا ربه أن يلهمه شكر

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

النعم ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي تبسم سروراً بما سمع من ثناء النملة عليه وعلى جنوده، وقال يا رب: ألهمني أن أشكر نعمتك الجليلة، التي أنعمت بها عليَّ وعلى والديَّ، ووفقني لعمل الخير والإحسان الذي يُقرِّبني منك، والذي تحبُّه وترضاه، وأدخلني الجنة مع عبادك الصالحين. ! لِننظُرْ إلى ذكاء النملة، قولها (يا أيها النملُ) تنبيه (ادخلوا مساكنكم) إرشاد (لا يحطمنكم سليمان وجنوده) تحذير، (وهم لا يشعرون) اعتذار، وهذه غاية العقل والفهم، فيا لها من نملة ذكية!! ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي وبحث سليمان وفتَّش عن جماعة الطير، فلم ير «الهدهد» بينها، فقال: ما لي لا أراه معنا؟ أم هو متغيِّبٌ عنَّا لم يصحبنا اليوم!! لأعاقبنَّه عقاباً شديداً بالسجن، أو الذبح، أو ليأتينِّي بحجة مقبولة صحيحة، تبيِّن عذره!! كانت الطيور تصحب سليمان في سفره، وتظلِّله بأجنحتها، فلمَّا فصل عن وادي النمل، ونزل في قفرٍ من الأرض، عطش الجيشُ فسألوه الماءَ، وكان «الهدهد» هو الذي يدلُّه على الماء، فلمَّا لم يجده توعدَّه بالعذاب الشديد، وليس هذا من العدوان، وإنما هو من حرص الراعي على رعيته، فإن الله لمَّا سخَّر له الجنَّ والطير، صار الهدهد من ضمن الرعية، فالواجب عليه أن يبحث عنه، كما أن الواجب على الملوك تفقد شئون الرعية، ولكنَّ الهدهد كان في (مهمة دعوية) تخدم رسالة (سليمان)، هي أن يأتي مليكه بخبر من يعبد الله، ومن يعبد الشياطين، ولم تمضِ مدة طويلة، حتى رجع الهدهد بخبره بأمرٍ غريبٍ عجيب، رآه في اليمن في مملكة سبأ، رآهم يعبدون الشمس والقمر ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أي

إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾

غاب الهدهدُ زمناً يسيراً، ثم جاء معتذراً إلى سليمان يقول له: لقد اطلعت على أمرٍ خطير، لم تطَّلع عليه أنت ولا جنودك، وجئتك من مدينة «سبأ» باليمن، بأمرٍ هام، وحَدَث جدُّ خطير!! ثم أخذ يحدِّثه عمَّا شاهده في تلك البلاد فقال ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ أي يقول الهدهد لسليمان: إن من عجائب ما رأيتُ، أن امرأة تسمَّى «بلقيس» هي الملكة المتوَّجة على أهل اليمن، وأهلُ تلك البلاد يدينون لها بالطاعة والخضوع، وقد أُعطيت من كل أسباب الملكِ والعزِّ والجاه، من سعة المال، وكثرة الرجال، ولها سرير عظيم من ذهب، مفضَّض بالياقوت الأحمر، وعنى بالعرش العظيم: العظيم في (قدره وصناعته)، لا في ضخامته وسعته، **قال ابن عباس**: (كان عرشُها سريراً من ذهب، قوائمه من جوهر ولؤلؤ)، وجدتها وقومها وثنيِّين يعبدون الشمس والقمر، ويتركون عبادة الله الكبير المتعال، وقد حسَّن لهم الشيطان عبادتها، فصرفهم عن طريق الهدى والإيمان، فهم لا يهتدون إلى الله، ولا إلى توحيده!! ثم قال الهدهد متعجباً ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي أيسجدون للشمس والقمر؟ ولا يسجدون لله الخالق المدبِّر العظيم، الذي يعلم الخفايا والنوايا؟ ويعلم كلَّ مخبوء في العالم العلوي والسفلي، ويعلم السرَّ والعلن؟ وهو ربُّ العرش العظيم، العرش الذي هو (أعظم المخلوقات) وهو سبحانه المتفرِّدُ بالعظمة والجلال؟ وهنا أراد سليمان أن يَتَثبَّتَ من هذا الخبر الخطير، الذي اهتزت له مشاعره ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾ أي قال سليمان: سننظر في الأمر، هل أنت

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣)﴾

صادق فيما تقول؟ أم أنك تعتذر بالباطل لتتخلَّص من العقاب!؟ ثم كتب كتاباً وختمه بخاتمه، ودفعه إليه، وقال له: اذهبْ بهذا الكتاب، وأوصله إلى (مَلَكة سبأ)، وتنحَّ إلى مكان قريب مستتراً عنهم، فانظر ما هو جوابهم على الكتاب فأتني به؟ ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ أخذ الهدهدُ الكتابَ وذهب إلى ملكة سبأ، فرفرف فوق رأسها، ثم ألقى الكتاب في حضنها، وتنحَّى جانباً أدباً وامتثالاً للأمر!! فتحيَّرت ممَّا رأتْ وهَالَها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب ففتحته وقرأته، فعلمتْ أن الأمر خطير، فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها، وكبار رجال دولتها وقالت لهم: إنه قد أتاني كتابٌ عظيم جليل، من ملكٍ كبير، ثم قرأته لهم: إنه من الملكِ سليمان، وإنه: «بسم الله الرحمٰن الرحيم» ـ وهو استفتاح شريف بارع، فيه تشويقٌ وترغيب، وبضمنه وعيدٌ وتهديد ـ ﴿ألاَّ تعلوا عليَّ وأتوني مسلمين﴾ أي لا تتكبروا ولا تتجبَّروا عليَّ، وائتوني موحِّدين، مسلمين، طائعين!! إنها دعوة صريحة إلى توحيد الله، وترك عبادة ما سواه، بأسلوب بارع، وخطابُ الملوك بمثل هذا الكلام الصريح، يحرِّك فيهم حميَّة الغطرسة والانتقام، ولهذا لم تبُتَّ في الأمر، بل استشارت الكبراء والجند، لأنها شعرت بأن مثل هذا الخطاب، لا يصدر إلاَّ من ملك عظيم، له عزةٌ ومنعةٌ وسلطان ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أي أشيروا عليَّ في هذا الأمر، فما كنت لأقضي أمراً، ولا أحكم فيه، بدون حضوركم ومشورتكم!! ولمَّا سمعوا كلامها، أخذتهم العصبيَّةُ وحبُّ الغطرسة والكبرياء ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾؟ أي قالوا لها: نحن أصحابُ قوة وشوكة ومنعة، وأصحاب حربٍ وقتال، وأمرنا مفوَّضٌ إليك، فأْمرينا بما شئتِ نمتثل الأمر!! وهذا دليلٌ على الطاعة المفرطة، ولمَّا شعرت منهم ميلَهم إلى الحرب، نبَّهتهم إلى

قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾

خطئهم في التعجل بدون رويّة ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي قالت لهم: إن عادة الملوك، أنهم إذا دخلوا بلداً عَنوةً وقهراً، خرَّبوها وأهانوا أشرافها، وأذلُّوهم بالقتل والأسر، وهذه عادتهم وطريقتهم، فأخشى أن نحاربهم، فلا نقدر على التغلب عليهم، فيقصدنا بجنوده ويهلكنا بمن معه، ويخلص إليَّ وإليكم الهلاك والدَّمار، ثم عدلت إلى الصلح والمسالمة فقالت: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي وسأبعث إليه بهدية ثمينة عظيمة، فإن قَبِل الهديَّة فهو ملِكٌ يريد الدنيا فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبيٌّ صادق فاتبعوه!! ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي فلما جاء رسلُ بلقيس إلى سليمان، بالهدية العظيمة الثمينة، وكانت جواهر ثمينة وأوانٍ من ذهب، موشَّحةً بالدرر واليواقيت، قال منكراً عليهم: أتصانعونني بالمال والهدايا، لأترككم على كفركم وشرككم، فما وهبني الله من النبوة، والمُلك، والجنود، خير ممَّا أعطاكم من زينة الدنيا وحُطامها الزائل، بل أنتم الذين تفرحون بمثل هذه الهدايا، أمَّا أنا فلا أقبلُ منكم إلاَّ الإسلام، أو القتال!! ثم قال لرئيس الوفد: ارجعْ إليهم بهديتهم، فسوف نأتيهم بجنودٍ لا طاقة لهم بمحاربتها، ولنخرجنهم من وطنهم أذلاء حقيرين، إن لم يأتوني مسلمين!! **قال ابن عباس**: لمَّا رجعت رسلُ بلقيس إليها من عند سليمان، وأخبروها الخبر، قالت: قد عرفتُ ما هذا بملِكٍ، وما لنا به من طاقة، فبعثت إلى سليمان، إني قادمة إليك بعظماء قومي، حتى أنظر ما أمرك؟ وما تدعو إليه من دينك؟ ثم ارتحلت إليه في اثنيْ عشر ألف من الجنود والقادة!! ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ لمَّا علم بقدومها، طلب من يأتيه بعرش بلقيس، ليريها بعض ما خصَّه الله

قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾

به من العجائب، الدالة على عظيم الملك والسلطان، فقال لأتباعه والعظماء عنده: أيُّكم يأتيني بسريرها المرصَّع بالجواهر، قبل أن تصل إليَّ مع قومها مسلمين؟ ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ أي قال ماردٌ من مَردة الجنّ، الذين سخَّرهم الله لسليمان: أنا أحضره إليك، قبل أن تقوم من مجلس القضاء والحكم، وإني على حمله لقادر، وأمينٌ على ما فيه من الدر والجواهر، وكان يجلس للقضاء من الصبح إلى الظهر، يريد أنه يأتيه به في أقلَّ من نصف نهار ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ أي قال العالِمُ الرباني: أنا آتيك به بلمح البصر، قبل أن تغمض عينك ثم تفتحها!! وهذا غايةٌ في سرعةِ الزمن، فدعا الله فحضر العرشُ، وهذا الرجل الرباني من أهل الكرامة، اسمه «آصف بن بَرْخِيَا» كان يعلم اسم الله الأعظم، الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب، كما قال ابن عباس، ولا عجب فما كان معجزةً لنبيٍّ، كان كرامةً لوليٍّ!! قام هذا الرجل الصالح، فتوضأ ودعا الله، فإذا بعرش بلقيس ماثلٌ بين يديه، فلمَّا عاين سليمانُ ذلك، ورآه مستقراً عنده، قال: هذا من فضل الله عليَّ ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ أي ليختبرني أأشكر إنعامه، أم أجحد فضله وإحسانه؟ ومن شكر فإن منفعة الشكر لنفسه، ومن كفر فلا يضرُّ إلاَّ نفسه، واللهُ مستغنٍ عنه وعن شكره، وهو الكريم في ذاته وإن لم يعبده أحد!! ولمَّا جيء بالعرش، أمر سليمانُ أن يُغيِّر فيه بعض ملامحه وصفاته، ليختبر ذكاءها وعقلها ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ أي غيِّروا لها هيئته بوجهٍ من الوجوه، كما يتنكَّر الإنسان حتى لا يُعرف، لننظر إذا رأته، هل تعرف أنه عرشها أم

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾

لا تعرفه؟ ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ أي فلما دخلت قيل لها: أمثلُ هذا العرش عرشُكِ؟ ولم يقل: أهذا عرشك؟ لئلا يكون تلقيناً لها، قالت: يشبهه ويقاربه، وهذا غايةٌ في الذكاء والنباهة، ولم تقل: نعم هذا عرشي، وإنما قالت: (كأنه هو)، لعدم تصورها نقله مع بُعد المسافة **﴿وأوتينا العلم من قبلها﴾** هذا من كلام سليمان عليه السلام، أي قال سليمان تحدثاً بنعمة الله: لقد أعطينا العلم من قبل هذه المرأة، وكنا مسلمين لله من قبلها، فنحن أسبق منها علماً وإسلاماً ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أي منعها عن الإيمان بالله، أنها كانت تعبد الشمس والقمر، بسبب كفرها ونشوئها بين قوم وثنيِّين مشركين ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي قيل لها: ادخلي القصرَ العظيمَ الفخم، فلما رأت ذلك الصرح الشامخ، ظنته ماءً غَمْراً كثيراً، وشمَّرت عن ساقيها تظن أنه ماء، قال سليمان: إنه قصرٌ أملس، مصنوع من الزجاج الصافي، فلما عاينت هذه العظمة لسليمان، انقادت لحكمه، وعرفت أنه نبي كريم، ومَلِكٌ عظيم، فأسلمت وأسلم قومها!! رُوي أن سليمان لمَّا علم بقدومها، أمر الجنَّ فبنوا له قصراً عظيماً من زجاج، وأجرى تحته الماء، فالذي يراه يظن أنه ماء، ولكنَّ الزجاج يحول بين الماشي وبين الماء، ثم وضع سرير ملكه وسط القصر، وجلس عليه، وعكف عليه الطيرُ والجنُّ والإنس، وذلك ليريها عظمة ملكه وسلطانه، وأمرهم أن يُدْخِلوها عليه، فلذلك شمَّرت عن ساقيها لئلا تبتلَّ ثيابها بالماء، ثم أعلنت إسلامها بين يديه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ ذكر تعالى أولاً قصة

قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾

موسى، ثم أعقبها بذكر قصة داود وسليمان، وما فيها من العجائب والغرائب، ثم ذكر هنا قصة «صالح» ثم أتبعها بقصة «لوط» وكلُّ هذه القصص غرضُها العظةُ والاعتبار، وبيان سنة الله في إهلاك الظالمين، تسليةً لخاتم الأنبياء والمرسلين، **والمعنى**: لقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم في النسب صالحاً عليه السلام، من العشيرة نفسها، داعياً لهم إلى توحيد الله، ونبذ عبادة الأوثان، فإذا هم ينقسمون إلى جماعتين: جماعة آمنت وصدَّقت برسالته، وجماعة كافرة حاربته وكذَّبتْ دعوته، **قال مجاهد**: (فريقان) أي فريقٌ مؤمنٌ، وفريقٌ كافر، واختصامُهم: اختلافُهم وجدالهم في الدين ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي قال لهم صالح بطريق اللطف والرفق: يا قوم لـمَ تطلبون العذاب قبل الرحمة؟ ولـمَ تقولون: ائتنا بما تعدنا؟ هلاَّ تستغفرون ربكم، لعلَّ الله يرحمكم ويتوب عليكم؟ فماذا كان جواب هؤلاء السفهاء؟ ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي قالوا: تشاءمنا بك وبمن معك من أتباعك، فإنكم سبب بلائنا ونكبتنا!! ـ وكانوا قد أصابهم القحطُ والجدبُ، حتى جاعوا ـ وأصل «اطيَّرنا» تطيَّرنا، والتطيُّرُ: التشاؤم، جعلوا دعوة صالح لهم للإيمان، هي سبب البلاء والنكبة، فتشاءموا به وبأتباعه، قال لهم صالح: ليس ما حلَّ بكم من بلاء بسببنا، بل هو بشؤم أعمالكم، وبسبب كفركم وإجرامكم، بل أنتم جماعة حمقى، يفتنكم الشيطان بوسوسته وإغوائه!! لمَّا لاطفهم (صالح) بالخطاب، أغلظوا له الجواب، فأخبرهم بالحقيقة أن شؤمهم بسبب الكفر، لا بسببه مع أتباعه ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي وكان في مدينة صالح ـ الحِجْر ـ تسعةُ رجالٍ من عظماء أهل البلدة، من دعاة الكفر والضلال، ـ وهم الذين عقروا الناقة، وهمُّوا بقتل صالح ـ جماعة أشقياء، شأنهم الإفساد، وإيذاء العباد، يفسدون بكل طريقةٍ ووسيلة

قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ أي أمَّا هؤلاء التسعة الأشقياء، فقد تحالفوا فيما بينهم وأقسموا على أن يقتلوا نبيَّ الله «صالح» عليه السلام، ويقتلوا معه أهله ليلاً، ليتخلَّصوا منه ومن دعوته، ثم يحلفون لأهل صالح وعشيرته، بأنهم لا يعرفون قاتله، ولا يدرون أين قُتل، ولا متى قُتل؟ هكذا دبَّروا وتآمروا، ولكنَّ الله جلت عظمته كان لهم بالمرصاد ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي دبَّروا مكيدةً لقتل نبيهم «صالح» فجازيناهم على مكرهم بتعجيل هلاكهم، من حيث لا يدرون ولا يعلمون، فالمكر منهم هو ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح وأهله، ومكرُ الله إهلاكهم من حيث لا يشعرون ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ أي فتلك مساكنهم ودورهم خالية من أهلها، لأن أهلها قد أُهلكوا، بسبب كفرهم وظلمهم، فهي فارغة لا يسكنها أحد، فتأملْ وفكِّر أيها العاقل في عاقبة أمرهم، ونتيجة مكرهم، كيف صار مآل أمرهم الخراب والدمار!! وفي هذا التدمير عظة وعبرة لقوم يعلمون قدرة الله فيتعظون، وأنجينا من العذاب صالحاً ومن معه من المؤمنين، بسبب إيمانهم وتقواهم ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي واذكر قصة لوط مع قومه، حين قال لهم: أتفعلون الفعلة المنكرة الشنيعة «اللواطة» وأنتم تعلمون أنها عملٌ قذر قبيح؟ سمَّاها «فاحشة» لكونها

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

غاية في القذارة والقبح، وهي إتيان الذكور دون الإناث، التي تنفر منها طبائع البهائم والحيوانات!! أئنكم لفرط سفهكم تشتهون الرجال وتتركون النساء؟ حقاً إنكم قوم سفهاء ماجنون، ولا يراد بالجهل هنا عدم العلم والمعرفة، وإنما يراد به الشناعةُ والقُبح، فهو توبيخ آخر لهم، أنهم يفضّلون العمل القبيح الشنيع، على ما أباح الله لهم من النساء!! ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي ما كان جواب أولئك المجرمين، إلا أن يطلبوا طرد نبيهم وأتباعه من البلدة، ويعلِّلوا ذلك بأنهم يتنزَّهون عما يفعله الأشقياء، من إتيان الذكور في الأدبار، وهو عذر أقبح من الذنب.. عجباً لهؤلاء السفهاء، لقد صارت الفضيلة وهي «الطهر» رذيلةً في نظرهم، ينبغي أن يُعاقب صاحبُها بالطرد من الوطن، وصارت القذارةُ والنجاسةُ شرفاً يفخر به القوم!! وهذا منطق السفهاء في كل حين وزمان، يسخرون ممن يعفُّ عن الفحش وشرب المسكرات، ويعتبرونه «رجعياً» ومن يغرق في الفسوق والمجون وينحطُّ في الشهوات إلى درجة الحيوان، يعدُّونه «تقدمياً» وما أشبه الليلة بالبارحة!! وماذا كانت نهاية أولئك السفهاء؟ الهلاك والدمار، وأنجى الله المؤمنين الأبرار ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي فأنجينا لوطاً وأهله من العذاب، إلاّ امرأته هلكت مع الهالكين، وأنزلنا على قومه المجرمين، حجارةً من السماء كالمطر الزاخر، وبئس هذا العذاب الذي أُمطروا به، وهو الحجارة التي أهلكتهم ودمرتهم.. لقد كانت عاقبةُ قوم لوط فظيعة وخيمة، فقد دمَّر الله ديارهم، وقلب عليهم مساكنهم، فجعل عاليها سافلها، وأرسل عليهم حجارة من السماء، كالمطر الزاخر، فلم تبق منهم عين تطرف، ولم يبق لهم ذكرٌ ولا أثر، فانظر وتفكر أيها العاقل في نهاية هؤلاء المفسدين!! ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بعد ذكر قصص بعض الأنبياء، وما لاقوه من أقوامهم من صنوف الأذى والبلاء، يأتي الثناء العاطر من الله عليهم، لصبرهم وجهادهم في سبيل إنقاذ البشرية،

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾

والمعنى: قل يا أيها الرسول: الحمدُ لله على إفضاله وإنعامه، وسلام على عباده المرسلين، الذين اختارهم الله لرسالته وتبليغ دعوته، هل الخالقُ المبدعُ الحكيم، خيرٌ أم هذه الأصنام والأوثان؟ التي يعبدونها من دون الرحمٰن؟ وهو أسلوب تهكم وسخرية بعقول المشركين، في عبادتهم لما لا يسمع ولا ينفع!! ثم ذكر تعالى خمسة براهين على وجوده ووحدانيته، وتفرده بالخلق والرزق، والإماتة والإحياء، فقال سبحانه ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي هل الله الذي أبدع الكائنات، فخلق السموات والأرض؟ وجعل فيها الكواكب النيِّرة، وأنزل لكم بقدرته المطر من السحاب، فأخرج به الشجر والثمر؟ والحدائق والبساتين، ذات الجمال والخُضرة والنُضرة؟ ما كان بمقدور أحدٍ من البشر، أن يُنْبِت شجرها، فضلاً عن أن يخرج منها الثمر، هل هذا الخالق المبدعُ خيرٌ؟ أم الأوثانُ والأصنام التي تعبدونها؟ هل هناك إلهٌ غير الله؟ **﴿بل هم قومٌ يعدلون﴾** أي يشركون بالله، فيجعلون له عديلاً ومثيلاً، فيسوُّون بين الخالق الرازق، وبين الوثن والصنم، الأصمّ الأبكم، هذا هو البرهان الأول ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا هو البرهان الثاني أي هل الإلهُ العظيم الكبير، الذي جعل الأرض مستقراً لكم، تعيشون على ظهرها، وتبنون فوقها القصور والدور؟ وأجرى لكم فيها الأنهار العذبة، وجعل فيها الجبال الرواسخ، تثبِّتُها أثناء حركتها ودورانها، لئلا تميد وتضطرب بكم؟ وجعل بين المياه العذبة «الأنهار» والمياه المالحة «البحار» فاصلاً ومانعاً يمنعها من الاختلاط، لئلا تُفسد مياه البحار مياه الأنهار؟ هل هناك إلهٌ ومعبود غير الله؟ حتى تسوُّوا بينهما؟ بل أكثرهم لا يعلمون الحقَّ، فيشركون معه

أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾

غيره، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ هذا هو البرهان الثالث، أي أمَّن يجيب دعاء المضطر، ويكشف الضُرَّ والبأساء عن المكروب، ويجعلكم سُكَّانَ الأرض تعمرونها جيلاً بعد جيل، وأمةً بعد أمة، أإلهٌ غير الله يفعل ذلك حتى تعبدوه؟ ما أقلَّ تذكّركم واعتباركم فيما تشاهدون!! رُوي أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ يسأله عن الإسلام، فقال يا محمد: إلى ما تدعو؟ قال: أدعو إلى الله وحده، الذي إن مسَّك ضرٌّ فدعوتَه كشفَ عنك الضُرَّ، والذي إن أضللت بعيرك بأرضٍ قفر، فدعوتَه ردَّه عليك، والذي إن أصابتك سَنَةٌ - أي جدبٌ وقحط - فدعوتَه، أنبت لك..) الحديث رواه أحمد، فهذا هو ربُّ العالمين، الذي يملك من أسباب القوة والقدرة ما يشفي المريض، وينفِّس الكرب، ويدفع الضُرَّ، لا تلك الآلهة المزيفة ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هذا هو البرهان الرابع، **والمعنى**: من يرشدكم في ظلمات الليالي الحالكة في أسفاركم؟ في الصحارى، والبحار، والقفار، بواسطة النجوم إلى مقاصدكم؟ ومن الذي يسوق الرياح مبشرة بنزول المطر؟ أليس هو الله ربُّ العالمين!؟ هل إلهٌ غير الله يقدر على ذلك؟ تمجَّد وتعظَّم الإلهُ الخالقُ القادر، عن مشاركة المخلوق العاجز له!! ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ هذا هو البرهان الخامس في هذه السورة، والمعنى: من هو الذي يبدأ خلق الإنسان، ثم يعيده بعد موته وفنائه؟ أليس هو اللهُ ربُّ العالمين، أم آلهتكم المزعومة؟ ومن يُنزل لكم المطر، فيخرج لكم به النبات والثمر؟ أليس هو الله ربُّ العزة والجلال!! هل هناك إله آخر غيرُ الله يفعل ذلك؟ قل لهم يا أيها الرسول: أحضروا لنا حجتكم ودليلكم على ما تزعمون. إن كنتم صادقين أن مع الله آلهة أخرىٰ؟

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾

هكذا ساق القرآن خمسة براهين في هذه السورة، على ألوهيته ووحدانيته، وكلُّها براهين ساطعة، لا يستطيع المشركون أنفسهم أن يكابروا فيها أو يعاندوا، وكلُّها مستقاة من الواقع، فالسماء والأرض حقيقة، لا يملك المشركون أن يقولوا إن الأصنام خلقتها!! والمطرُ، والزرعُ، والشجر، والثمر، والأنهار، والبحار، كلٌّ هذه حقائق من الطبيعة موجودة، لا يستطيع أحد من البشر، أن يزعم أن أحداً خلقها، فلم يبق أمامهم إلا الإقرار، بوجود الخالق المبدع الحكيم لها!! ثم يأتي الحديث عن وقت الساعة وعلم الغيب، فيقول سبحانه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ سأل المشركون الرسول ﷺ عن وقت الساعة، سخريةً واستهزاءً، فنزلت الآية للرد عليهم، أي قل يا محمد لهؤلاء المستعجلين، الذين يسألون عن وقت قيام الساعة: لا يعلم أحدٌ من رسولٍ، ولا مَلَكٍ، ولا بشر، وقت مجيء الساعة، فلماذا يسألونك عنها، وهي ممَّا اختصَّ بها علاَّم الغيوب، وما يدري أحدٌ من الخلائق، متى يكون انتهاء الدنيا؟ ولا متى يُبعثون من قبورهم للحساب والجزاء؟ والعجيبُ في أمر المشركين، أنهم لا يؤمنون بالآخرة، ثم هم يسألون عن وقت الساعة، وذلك منهم عمى وضلال، ولهذا قال سبحانه ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ أي هل تدارك وتلاحقَ علم المشركين بالآخرة، حتى يسألوا عن الساعة وقيامها؟ إنهم لا يؤمنون بالآخرة، فلماذا يسألون عن قيام الساعة؟ بل هم في شكٍّ منها، ولذلك يعاندون ويكابرون، ثم أضرب عن هذا إلى ما هو أفظع وأقبح فقال ﴿بل هم منها عمون﴾ أي بل هم في عمىً عنها، ليس لهم بصائر يدركون بها حقائق الأشياء، لأنهم كالبهائم والأنعام، لا يتبصَّرون ولا يتدبَّرون، فلذلك هم عميُ القلوب ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ ثم حكى تعالى عنهم إنكارهم للقيامة والحشر والنشر، فقال سبحانه ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي قال كفار مكة، المنكرون للبعث: هل إذا فارقنا الحياةَ، وبليتْ أجسامُنا، وتلاشت أشلاؤنا، وأصبحنا

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

ذرات مختلطة بتراب الأرض؟ هل سنرجع إلى الحياة مرة أخرى، ونحاسب على أعمالنا؟ هذا شيء مستحيل لا يكون أبداً، لقد وعدنا محمد بهذا الأمر، كما وعد الرسلُ قبله آباءنا السابقين، ولو كان حقاً لحصل ذلك، وعاد إلى الحياة من ماتوا قبلنا!! ما هذا إلاَّ خرافات وأباطيل السابقين!! ينكرون البعثَ، وينسون أنهم خُلقوا من العدم، والذي خلقهم أولاً، قادر على أن يعيدهم ثانياً!! ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي قل لهؤلاء المنكرين للبعث: سيروا في أرجاء الأرض، وانظروا نظر اعتبار، كيف كان مصير المكذبين للرسل؟ ألم يهلكهم الله ويدمِّرهم!! فما حدث للمجرمين السابقين، يحدث للمجرمين اللاحقين، وفي الآية وعيدٌ وتهديد ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ تسلية للرسول ﷺ، أي لا تحزن يا محمد ولا تتفجَّع على هؤلاء السفهاء المكذِّبين، إن لم يؤمنوا برسالتك، ولا يضقْ صدرُك من مكرهم وكيدهم، فسننتقم لك منهم، وننصرك عليهم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي يقولون سخريةً واستهزاءً: متى يجيئنا العذاب، إن كنتم صادقين في قولكم؟ والخطابُ للرسول والمؤمنين، قل لهم: لعلَّ الذي تستعجلونه من العذاب، قد دنا وقَرُب وقتُه، وحينئذٍ تعلمون متى يأتي العذاب؟ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي وإن ربك يا محمد، هو الحليمُ بالعباد، المتفضِّل عليهم بترك تعجيل العقوبة، مع كفرهم وعصيانهم، ولكنَّ أكثر الناس لا يشكرون ربهم على هذه النعمة، وإن ربك ليعلم ما يخفون في صدورهم من عداوة الرسول، والكيد له، وما يعلنونه من الاستهزاء والتكذيب ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي ما من شيء مخفيّ في السموات ولا في الأرض، إلاَّ هو عند الله مسطَّرٌ في

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

كتاب واضح، هو (اللوح المحفوظ)، عَلِمه اللهُ وأحاط به، فلا تخفى عليه خافية ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي إن هذا القرآن، الذي أنزله الله عليك يا محمد، هو الكتابُ الحقُّ، الذي يُبيِّن لأهل الكتاب، أكثر ما اختلفوا فيه من أمر الدين، وهو هداية لقلوب المؤمنين من الضلالة والزيغ، وربك هو الذي يفصل بين العباد بحكمه العادل، وهو الغالبُ الذي لا يُردُّ أمره، العليم الذي لا تخفى عليه خافية!! لقد حرَّف اليهود التوراة وتلاعبوا فيها وفي أحكامها، فجاء القرآن يخبر عمَّا حرَّفوه، ويبيِّنُ القول الحقَّ، واختلف النصارى في المسيح وأمه، فقال جماعة: إنه (ابن الله)، وقال جماعة: إنه هو (الله) تجسَّد في صورة بشر هو «عيسى» وقال آخرون: هو (ثالث ثلاثة)، وزعموا أنه صُلب، فردَّ الله ضلالاتهم وبيَّن القول الحقَّ فيه ﴿**ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صدِّيقة...**﴾ وهذا أكبر برهان على صدق محمد ﷺ، لأنه جاءهم ببيان كثيرٍ من ضلالاتهم، التي حرَّفوها في (التوراة والإنجيل)، فمن أين يعرف محمد هذه الحقائق وهو رجل أميٌّ، لولا أن الله عزَّ وجل أوحى إليه بها؟ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ أي فوِّض يا محمد أمرك إلى الله، واعتمد عليه في جميع أحوالك وأمورك، فإنك على الدين الحقِّ، الواضح المنير، إنك لا تُسمع الصُمَّ، الذين في آذانهم وقرٌ، لا تُسمعهم دعوتك لهم إلى الهداية والإيمان، لا سيّما إذا تولوا عنك معرضين!! القرآن الكريم يرسم صورة حية لهؤلاء الكفار، الذين لم ينتفعوا بآيات الذكر الحكيم، فيشبِّههم بالموتى، وبالصمِّ، والعمي، والأصمُّ إذا ناديته من قريب لا يسمع الكلام، فكيف إذا ناديتَه وهو بعيدٌ عنك، مدبرٌ في مسيره عن مكان المنادي؟ هل يسمع الكلام ويفهم المرام؟ ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي وليس بمقدورك، أن

۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾

تهدي عُمي القلوب، عن كفرهم وضلالهم، ما ينتفع بدعوتك ورسالتك، إلاَّ من كان مؤمناً قويَّ الإيمان، مستسلماً ومنقاداً لحكم الرحمٰن، أي: لا ينتفع بما جئتَ به من عند الله، إلا أهلُ الصدق والإيمان ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ هذه الدابة من أشراط الساعة الكبرى، ومعنى: ﴿وإذا وقع القول عليهم﴾ أي إذا دنا واقتربَ وقتُ قيام الساعة، ونزول العذاب بالمجرمين المكذبين، أخرجنا لهم دابة من الأرض، هي «الجسَّاسة» تنشقُّ عنها الأرض، وتخرج هذه الدابة، فتكلِّم الناس بكلام فصيح صحيح، تخاطبهم وتقول: إن الناس كانوا بآيات الله لا يوقنون!

روى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: (لا تقوم الساعةُ حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة..) الحديث، وروى مسلم أيضاً عنه ﷺ أنه قال: (إن أول الآيات خروجاً، طلوعُ الشمس من مغربها، وخروجُ الدابة على الناس ضُحى، وأيتُّهما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على أثرها قريباً) رواه مسلم، وخروج هذه الدابة يكون في آخر الزمان، عند فساد الناس، فتشهد للمؤمن بالإيمان، وللكافر بالكفر والضلال، وتَخْطِم الناسَ على وجوههم ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي واذكر يوم نجمع الناس للحساب والجزاء، من كل أمة من الأمم جماعةً وزمرة، من المكذبين بآيات الرحمٰن، يُساقون سوقاً كما تُساق الأنعام، ويُحبس أولهم على آخرهم، حتى يتلاحقوا ويتتابعوا، وهذا معنى (يوزعون) أي يحبسون ليجتمعوا جميعاً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي حتى إذا حضروا موقف الحساب، يقال لهم توبيخاً وتحقيراً: أكذَّبتم بآيات الله المنزلة على رسله؟ من غير فكرٍ ولا رويَّة؟ أم أيَّ شيء كنتم تعملونه في الدنيا؟ والسؤال هذا للتخجيل والتأنيب، فعملهم وإجرامهم معروف، وكأنه يقول: ماذا قدَّمتم ليومكم هذا؟ ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي حقَّ عليهم العذاب بسبب ظلمهم في الدنيا، وتكذيبهم بآيات الله، فهم

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

واجمون ساكتون، بما لحقهم من الخزي والإهانة ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ هذه النفخة هي نفخة الفزع، ثم تتلوها نفخة الصعق ـ أي الموت ثم نفخة الإحياء والخروج من القبور، وكلٌّ من الخلائق والبشر ﴿أتوه داخرين﴾ أي صاغرين ذليلين، مطيعين لله رب العالمين ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ أي وترى أيها المخاطب الجبال في الدنيا، تظن أنها ثابتة في مكانها وواقفة، وهي تسير سيراً سريعاً، كما يسير السحاب في الفضاء، كذلك الأرض تسبح في هذا الفضاء الواسع، ويرى بعض المفسرين أن هذه تكون في الآخرة، عند حشر الناس من قبورهم، والراجح أنها في الدنيا، يظنها الإنسان واقفة وهي متحركة حركة سريعة، لأن الجبال تتناثر وتتطاير عند القيامة ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً﴾ ثم قوله تعالى ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ أي ذلك صنعُ الله وإتقانه، يتجلى في كل شيء، فليس شي إلاّ بتقدير وتدبير، والخرابُ لا يقال له صنعٌ، ولا إتقان، وهذه الآية إحدى معجزات القرآن الكونية، حيث أخبر عن حقائق علمية، لم يعرفها علماء الكون إلاّ منذ زمن قريب، **قال الإمام الفخر الرازي**: «ووجه حسبانهم أنها جامدة، أن الأجسام الكبار إذا تحركت حركة سريعة، على نهج واحد، ظنَّ الناظر إليها أنها واقفة، مع أنها تمر مراً سريعاً» التفسير الكبير للرازي، وانظر كتابنا «حركة الأرض حقيقة علمية أثبتها القرآن» ففيه تفصيل لهذا الأمر الهام ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي من كان

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

في الدنيا مؤمناً موحداً، وجاء يوم القيامة بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فإنه يُعطى جزاءه وافياً كاملاً، ويأمن من هول ذلك اليوم العصيب، ومن جاء يوم القيامة كافراً، فإنه يُكبُّ في نار جهنم على وجهه منكوساً، وينال عقابه الكامل، ولا يُجازى الإنسان إلاّ بعمله، **قال ابن عباس**: السيئة: الإشراك بالله تعالى ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي قل يا أيها الرسول: إنما أمرني ربي أن أخلص الدين له والعبادة، وأن أدعوه وحده، ولا أشرك معه أحداً، فالعبادةُ والخضوعُ والطاعة لا تكون إلا لهذا الرب العظيم، ربِّ البلد الحرام «مكة» شرَّفها الله، البلد الأمين الذي جعله الله حرماً آمناً، وأمرتُ أن أكون مسلماً، أنقادُ لله وأستسلم لحكمه ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ أي وأمرني ربي أيضاً أن أقرأ القرآن، بتدبر وإمعان، لتنكشف لي حقائقه الرائعة، وتظهر له روائعه الباهرة، وأن أقرأه على الناس، فمن استنار قلبُه بالقرآن، فإن ثمرة نفعِه راجعٌ إليه، ومن زاغ قلبه وضلَّ، عن هداية القرآن، فوبالُ ضلاله مختصٌّ به، لا يضرُّ إلا نفسه. وما أنا إلا رسولٌ مبلِّغ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي وقل لهؤلاء المشركين المكذبين: الحمد لله على وضوح آياته وبيناته، ودلائل قدرته ووحدانيته، سيريكم آياته الباهرة في الأنفس والآفاق، فتعرفونها حين لا تنفعكم المعرفة، وتؤمنون بها حين لا يُقبل منكم الإيمان، وما ربك بغافل عن أعمال العباد!! وهذا وعيد وتهديد شديد.

انتهى تفسير سورة النمل

● ● ●

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

تفسير سورة القصص

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الحروف المقطعة للإشارة إلى إعجاز القرآن، أي هذه آياتُ الكتاب المعجز، الواضح في بيانه، الظاهر في إعجازه، أنزلناه عليك يا محمد، ليكون برهاناً قاطعاً على صدق رسالتك!! ثم شرع تعالى بذكر قصة موسى عليه السلام، مع فرعون الطاغية الجبار فقال **﴿نتلو عليك﴾** أي نقرأ عليك بواسطة الروح الأمين، من الأنباء والأخبار الهامة، بالحقِّ الذي لا يعتريه شبهة، والصدق الذي لا ريب فيه ولا كذب ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي إن فرعون تكبَّر وتجبَّر، وجاوز الحدَّ في الظلم والطغيان، في أرض مصر، وجعل أهلها طوائف وفِرَقاً، يستذلُّ طائفة منهم من بني إسرائيل، فيقتل ذكورهم، ويترك الإناث على قيد الحياة، لخدمته وخدمة أتباعه الأقباط، إنه كان من الراسخين في الإجرام والفساد، ولذلك ادعى الألوهية والربوبية ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي نريد أن نجعل لهؤلاء المستضعفين العزةَ والسيادة، ونجعلهم أئمة يُقتدى بهم في الخير، بعد أن كانوا أذلاء مستعبدين، تحت جبروت فرعون وطغيانه، وأن نجعلهم وارثين لملك فرعون وأتباعه، يرثون ملكهم ويسكنون دورهم ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ أي

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾

ونمكِّن لهؤلاء المؤمنين المستضعفين في أرض مصر، يتصرَّفون فيها كما يشاءون، ونُري فرعون الطاغية الجبار، ووزيره هامان، وأتباعَ فرعون وجنوده، ما كانوا يخشونه من ذهاب ملكهم على يد مولودٍ من بني إسرائيل ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي ألهمناها وقذفنا في قلبها هذا الأمر، (وحيَ إلهام) لا وحي نبوَّة - ألهمناها أن ترضع ولدها موسى، فإذا خافت عليه من فرعون وزبانيته، أنْ تجعله في صندوق، وتلقي به في نهر النيل، ولا تخافي عليه الهلاك، ولا تحزني لفراقه، فسنردُّه إليك ونجعله نبياً مرسلاً، وإنما كان ذلك بالإلهام، لأن الإجماع على أنها لم تكن نبيَّة، **قال ابن عباس**: هو وحيُ إلهام! وهذه الآية جمعت بدائع الإيجاز والإعجاز، حُكي أن الأصمعيَّ سمع جاريةً عربية تنشد بعض أبيات، فقال لها: قاتلكِ الله ما أفصحَك!! فقالت: ويحك، أوَ يُعَدُّ هذا فصاحةً أمامَ قول اللهِ عزَّ وجل ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادُّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ فقد جمعت هذه الآية بين «أمرين، ونَهْيَيْن، وخبَرَيْن، وبشارتَيْن» قال: فأُعجبتُ بفهمها كما أعجبتُ بفصاحتها!! تريد بالأمرين: (أرضعيه، وألقيه)، وبالنهيين: (لا تخافي، ولا تحزني)، وبالخبرين: (أوحينا، وخفتِ)، وبالبشارتين: (إنا رادُّوه إليك) بشارة أولى (وجاعلوه من المرسلين) بشارة ثانية، فما أروع هذا الإعجاز!! ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ أي فألقته في نهر النيل، فالتقطه أعوان فرعون، لتكون عاقبةُ الأمر أن يصبح لهم عدواً، ومصدر حزنٍ وبلاء، وهذه اللَّامُ (ليكون) لامُ العاقبة، لأنهم أخذوه ليكون لهم قرة عين، فكان عاقبة ذلك أن صار لهم عدواً وحَزَناً، فذكر الحالَ باعتبار المآل، كما قال الشاعر:

وللمنَايَا تُرَبِّي كلُّ مُرْضِعةٍ		ودُوْرُنَا لخرابِ الدَّهْرِ نَبْنِيها

وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾

والمعنى: التقطوه ليكون سبباً لحزن فرعون وهلاكه، إن فرعون وحاشيته كانوا عُصاةً آثمين، متعمِّدين للإجرام والعصيان، وقال تعالى ﴿خاطئين﴾ ولم يقل: مخطئين، لأن الخاطىء هو الذي يتعمد الإثم والذنب، بخلاف المخطىء، فهو الذي يفعل الذنب عن غير تعمد، فتدبر دقائق التعبير!! ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لمَّا التقطت الجواري الصندوق، حملنه إلى «آسية» امرأةِ فرعون، فلما فتحته رأت فيه طفلاً وضيئاً وسيماً، وألقى الله في قلبها محبَّته، فضمَّته إلى صدرها وقبَّلته، وكانت لا يلد لها أولاد، فلما جاء فرعون ورآه أراد قتله، وطلب الذبَّاحين ليذبحوه، فقالت ﴿لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾ خاطبتْهُ بلفظِ الجمع، كما يُخاطب الجبارون، تعظيماً له ليساعدها فيما تريده، عسى أن ينفعنا في كبرنا، أو نتخذه ولداً فنتبنَّاه، ويكون لنا ما تقرُّ به عيوننا أي سبباً لسعادتنا، وهم لا يشعرون أن هلاك فرعون وأتباعه سيكون على يدي هذا الطفل الرضيع!؟ ولمَّا قالت ﴿قرة عين لي ولك﴾ قال لها فرعون: أمَّا لك فنعم!! وأمَّا لي فليس بقرة عين، **قال ابن عباس**: ولو قال قرة عين لي لهداه الله به ولآمن، ولكنه أبى!! ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي طار عقلها من فرط الحزن والغمِّ، حين سمعت بوقوعه في يد فرعون، وكادت تصيح: واإبناه، فتكشف أمره وتُظهر للناس أنه ابنها، لولا أن ثبتناها وألهمناها الصبر، لتكون من الواثقين بوعد الله، أنه سبحانه سيردُّه عليها ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي قالت أمُّ موسى لأخته تتبَّعي أثره، واعرفي لنا خبره، ماذا سيفعلون به؟ فأبصرته عن بُعدٍ، وهم لا يعلمون أنها أخته ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾

أي منعنا موسى أن يقبل ثَدْي أحدٍ من المرضعات، إلاَّ ثَدْيَ أمه، ليعيش معها معززاً مكرَّماً، فلما رأت أخته أنه لا يقبل ثدي أحد، قالت: هل أدلكم على مرضعةٍ له ترضعه وترعاه؟ وهم لا يقصِّرون في تربيته وإرضاعه؟ قال السُّدِيُّ: دلتهم على أم موسى، فأمرها فرعونُ أن تأتي بها إلى القصر، فأتت بأمه وموسى على يد فرعون، يبكي يطلب الرضاع، فدفعه إليها ووعدها الإكرام إن قَبِلَ ثديَها، فلمَّا وجد ريح أمه التقم ثديها، فقال لها فرعون: من أنت فقد أبى كلَّ ثدي إلاَّ ثديك؟ فقالت: أنا امرأةٌ طيِّبةُ الريح، لا أَكاد أُوتى بصبيٍّ إلاَّ قَبِلني، فدفعه إليها، وأجْرَى عليها العطاء بسخاء، فرجعت به من يومها إلى بيتها، ولم يبق أحدٌ من آل فرعون إلاَّ أهدىٰ إليها، وأتحفها بالهدايا والجواهر، فذلك قوله تعالى ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي أعدناه إلى أمه تحقيقاً للوعد، كي تسعد وتهنأ بلقائه، ولا تحزن على فراقه، ولتعلم وتتحقق من صدق وعد الله بردِّه عليها، وحفظه من شر فرعون، ولكن أكثر الناس، لا يعلمون قدرة الله على صنع العجائب والغرائب!! وهكذا عاد الطفلُ الرضيع، إلى أمه الوالهة المسكينة، آمناً من كل المخاوف، يحميه فرعونُ، وترعاه امرأتُه، ويُكرَّم جميعُ أهله من أجله، بتدبير الحكيم الخبير!! ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي ولمَّا بلغ كمال الرشد، ونهاية القوة، وتمام العقل والفهم، أعطيناه العلم والفقه في الدين، وكذلك نجزي كلَّ من أحسن عمله، وأخلص نيَّته، والمرادُ بالحكم هنا: العلمُ والفقه في الدين، وذهب بعضهم إلى أن المراد بها النبوَّة، وهو مرويٌّ عن مجاهد، وهو قول مرجوحٌ، لأن الأنبياء لا يوحى إليهم قبل الأربعين، وقد كان عمره حين خرج من مصر ثلاثين سنة، وبقي في أرض مدين عشر سنين، وفي عودته جاءه الوحيُ والرسالة ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ

عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾

عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ شبَّ موسى في قصر فرعون، بعد أن فطمته أمُّه، وكان يعيش عيش أبناء الملوك، وكان الناس يسمونه «ابن فرعون» فيحترمونه ويعظِّمونه من أجل أنه ابن الملك، وكانت «آسية» امرأة فرعون تكرم أمَّه، التي أرضعته إكراماً زائداً، وتُغدق عليها أنواع الخيرات، لأنها رعتْ لها هذا الوليد، وكلُّ هذا من رعاية الله، وحفظه، وتدبيره العجيب!! ولمَّا بلغ موسى سنَّ الثلاثين، دخل البلدةَ مصرَ خارجاً من قصر فرعون، وقت الظهيرة عند المقيل، وقد خلت الطرق من المارين، فوجد رجلين يقتتلان: أحدهما (إسرائيليٌّ) من جماعة موسى، والآخرُ (قبطيٌّ) من حاشية فرعون، فاستنجد الإسرائيلي بموسى وطلب أن يغيثه، فأقبل ليدفع أذاه عنه، فلمَّا لم يمتنع ضربه موسى بجُمْع يده ـ أي لكَمهُ لكمةً واحدة ـ فخرَّ القبطيُّ ميتاً لا حَرَاك به، فتنحَّى موسى جانباً، يستغفر ربه، ويطلب منه الرحمة والمغفرة، وقال: هذا من إغواء الشيطان لإهاجة الفتنة، إنه عدوٌّ ظاهر العداوة، يضلُّ الإنسان ويغويه.. أضاف القتل إلى الشيطان، لأنه كان بإغوائه ووسوسته، وسمَّاه ظلماً واستغفر منه، لما يترتب عليه من الفتنة، والشيطانُ تفرحه الفِتَنُ، ثم طلب المغفرة من الله ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي ظلمتُ نفسي بقتله، فاغفر لي ذنبي فغفر له، لأنه سبحانه عظيم المغفرة، وواسع الرحمة ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي بسبب إنعامك عليَّ بالهداية والإيمان، وبما أكرمتني من العزّ والجاه، فلن أكون (ظهيراً) أي معيناً لأحد من المجرمين، وهذه معاهدةٌ عاهد موسى ربَّه عليها ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ أي أصبح موسى في البلدة التي قتل فيها القبطي ـ وهي مصر ـ خائفاً على نفسه، أن يصل الخبرُ إلى فرعون فيقتله به، فإذا صاحبه الإسرائيلي الذي خلَّصه بالأمس، يقاتل شخصاً قبطياً آخر، فلما

فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾

رأى موسى أخذ يستصرخه أي يطلب منه أن ينصره على عدوه القبطي، فقال له موسى: إنك رجلٌ شرِّيرٌ، ظاهرُ الغواية والضلالة، لأنك تسبَّبت لي بالأمس في قتل رجل، وتريد اليوم أن توقعني في ورطةٍ أخرى!! ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ هذا من كلام الإسرائيلي، فإنه لما استغاث بموسى، وسمعه يقول له: إنك لغويٌّ مبين، وجاء مغضباً يريد أن يُنجيه من شرِّ الفرعوني، وأن يبطش بعدوه، ظنَّ الإسرائيلي أن موسى يريد أن يبطش به، فقال له: أتريد يا موسى أن تقتلني كما قتلتَ نفساً بالأمس؟ ولمَّا سمع القبطيُّ قول الإسرائيلي، علم أن موسى هو الذي قتل ذلك الفرعوني، فانطلق إلى فرعون فأخبره بذلك، ولم يكن أحدٌ يعرف القاتل إلاّ الإسرائيلي، لأنه لم يكن في الطريق أحد لمَّا وكزه موسى، ثم قال له **﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين﴾** أي ما تريد إلاّ أن تكون جباراً أي مفسداً في الأرض، وما تريد أن تكون من أهل الخير والإصلاح بين الناس، وهذه وقاحةٌ وسفاهةٌ من الإسرائيلي لمن أراد أن يدفع عنه الظلم، كأنه يقول له: كان ينبغي عليك أن تسعى للإصلاح بيني وبين خصمي، لا أن تسارع في البطش والتنكيل!! ولمَّا وصل الخبر إلى فرعون، أن القاتل هو موسى ثارت ثائرته، واشتدَّ غضبُه، وأمَرَ الجندَ أن يقبضوا عليه ليقتله، وسخَّر الله لموسى رجلاً مؤمناً من آل فرعون، يخفي إيمانه، جاء مسرعاً إلى موسى يخبره، أن حاشية فرعون يبحثون عنه ليقتلوه، فعليه أن يخرج سريعاً من أرض مصر ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي جاء رجلٌ من أبعد أطراف المدينة، يشتدُّ ويُسرع في مشيه، فقال يا موسى: إن أشراف فرعون وحاشيته الفجرة الظلمة، يبحثون عنك ليقتلوك، فاخرجْ قبل أن يدركوك، فأنا لك ناصحٌ أمين، أريد سلامتك، **قال ابن عباس:** هو مؤمن من آل فرعون يخفي إيمانه!! أقول: هو الذي أشارت

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾

إليه سورة غافر بقوله سبحانه ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله﴾؟ ولمَّا سمع موسى ذلك عزم على الهرب ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي خرج من المدينة خائفاً على نفسه، يخشى أن يدركه جنود فرعون، ثم التجأ إلى ربه بالدعاء فقال: يا رب خلِّصني منهم، واحفظني من شرِّهم ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي ولمَّا قصد أرض مدين، مدينة شعيب عليه السلام، ولم تكن تحت سلطان فرعون، وبينها وبين مصر ثمانية أيام، قال: لعلَّ الله يرشدني إلى طريقي، فلا أضلُّ ولا أخطىء الطريق!! خرج كليمُ الله موسى من أرض مصر، فاراً بدينه، يريد النجاة من جبروت فرعون وطغيانه، ماشياً على قدميه، يتلفَّت خشية أن يدركه أحد من آل فرعون، وليس معه طعام، **قال ابن عباس**: خرج موسى وليس معه طعام، وكان حافياً فما وصل أرضَ مدين، حتى سقطت نعلُ قدميه ـ أي جلدتها ـ من الحفاء، وجلس في الظلِّ وهو صفوةُ الله من خلقه، وإن بطنه للاصقٌ بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لتُرى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شِقِّ تمرة» ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي ولـمَّا وصل مدين، وجد على البئر الذي يستقي منه الرعاةُ، جماعة كثيرين يسقون مواشيهم، ووجد أسفل من مكانهم امرأتين تكفَّان غنمهما عن الماء، لئلا تختلط بأغنامهم، فسألهما ما شأنكما تمنعان الغنم عن ورود الماء؟ ولماذا لا تتركانها تشرب مع الأغنام؟ قالتا: لا نسقي أغنامنا حتى ينتهي الرعاة من السقاية ويرجعوا، حَذَراً من مخالطة الرجال، وأبونا رجلٌ كبيرٌ مسنٌّ، لا يستطيع لشيخوخته أن يباشر سقاية الغنم، فلذلك نقوم بهذا العمل نحن!! فعطَفَ عليهما وعزم على إعانتهما

فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي فسقى لهما غنمهما رحمة بهما، ثم تنحَّى جانباً فجلس تحت ظلِّ شجرة، ودعا ربه فقال يا رب: إنني جائع، وأنا محتاج إلى شيء من الطعام أسدُّ به جوعي، **قال الضحاك**: مكث سبعة أيام لم يذق فيها طعاماً، إلاَّ بقلَ الأرض وورقَ الشجر ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ولمَّا رجعت الفتاتان إلى أبيهما سريعاً بالغنم، قال: ما أعجلكما؟ قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا، فأمر إحداهما أن تدعوه له، وهي البنتُ الكبرى، فجاءته وهي تمشي مشية الحرائر العفائف، بحياءٍ وخجل، قد سترت وجهها بثوبها، في غير تبذُّل ولا تبرُّج، ولا فتنة ولا إغراء، **قال عمر**: (لم تكن بسَلْفع - أي جسورة وقحة - من النساء، ولاَّجة خرَّاجة)! قالت له: إن أبي يطلبك ليعوِّضك عن أجر السقاية لغنمنا، وإنما صرَّحت له بقولها ﴿**ليجزيك أجر ما سقيتَ لنا**﴾ لئلا يُوهم كلامُها الرِّيبةَ، وهذا من تمام حيائها وعفّتها وصيانتها، فأجابها موسى عليه السلام من شدة ما به من الجوع والضعف، فانطلقا وهي أمامه، فكشفت الريحُ ثوبها فقال لها: امشي خلفي وصفي لي الطريق، فتأخرتْ وكانتْ تقول له: عن يمينك، عن شمالك، امشِ قدَّامك، حتى وصل دار شعيب، فرحَّب به وقدَّم له طعاماً، فقال له: إني أخشى أن يكون أجراً للسقاية، فإنا آل بيتٍ لا نأخذ على المعروف أجراً!! فقال: لا والله، هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا، ثم ذكر موسى له قصته، فقال له: لا تخف يا فتى، فأنت في بلدٍ آمن، لا سلطان لفرعون عليه، وقد نجوتَ من شرّ القوم الظالمين ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ أي استأجره لرعي أغنامنا وسقايتها، فإنه قويٌّ أمين،

قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾

رُوي أن شعيباً قال لها: وما أعلمكِ بقوته وأمانته؟ فقالت له: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلاّ عشرةُ رجال، وإني لما جئتُ أدعوه خفض رأسه فلم ينظر إلى وجهي، ولما كنت أمامه قال لي: كوني خلفي ودُلّيني على الطريق!! فرغب شعيب في مصاهرته وتزويجه ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي قال له شعيب: إني أريد أن أزوجك إحدى ابنتيَّ هاتين، الكبرى أو الصغرى، على أن تكون أجيراً عندي، ترعى لي غنمي ثمان سنين، فإن أكملتها عشر سنين فذلك تفضُّلٌ منك، لا ألزمك به، ولستُ أريد أن أوقعك في المشقة باشتراط العشر، وستجدني حسن المعاملة، ليِّن الجانب، وفياً بالعهد، إن شاء الله تعالى ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ أي قال له موسى: ذلك الذي قلتَه ثابتٌ بيننا جميعاً، لا نخرج عنه، وأيَّ المدتين (الثمانية) أو (العشر) أدّيتها لك، فلا إثم ولا حرج عليَّ، والله شاهدٌ وحفيظٌ على ما تعاهدنا وتواثقنا عليه ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ أي فلما أتمَّ موسى مدةَ الخدمة، **قال ابن عباس**: «قضى أكثرَهما وأطيبَهما ـ يعني العشر ـ إنَّ رسولَ الله إذا قال فعل» ومشى بأهله مسافراً إلى مصر، أبصر من بعيد ناراً تتوهج من جانب الطور، فقال لزوجته: امكثي هنا، فقد أبصرتُ ناراً ـ وكانت ليلةً باردةً وقد أضلَّ الطريق ـ لعلي أسأل من يرشدني إلى الطريق، أو آتيكم بشعلة من النارَ

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٣٠) وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ (٣١) ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ (٣٢)﴾

كي تستدفئوا بها ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي فلما وصل إلى مكان النار، لم يجدها ناراً وإنما وجد نوراً يسطع منها إلى السماء، وجاءه النداء من جانب الوادي الأيمن، في ذلك المكان المبارك، سُمِّي مباركاً لأنه حصل فيه ابتداءُ الرسالة والتكليم، ناداه ربه: إن الذي يخاطبك ويكلمك، هو أنا الله الكبير الجليلُ، المنزَّه عن صفات النقص، ربُّ الخلائق أجمعين ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ أي وناداه بأن اطرح عصاك، فطرحها فصارت حية عظيمة، تدبُّ في سرعة، وتتحرك في خفة، وتتلوَّى كأنها ثعبان صغير، وهي حية كبيرة عظيمة، فلما رآها كذلك، ولَّى مدبراً ولم يلتفت، لأن طبع البشر ينفر من الحيات، لا سيما وأن هذه الحية، كأنها جانٌّ في حركتها السريعة، مع عظم خلقتها واتساع فمها، تبتلع كلَّ ما أمامها!! فناداه ربه يا موسى: ارجعْ ولا تخف فأنت آمن منها، لأنك رسولي، وإنه لا يخاف لديَّ المرسلون، فرجع وأدخل يده في فم الحية فعادت عصا كما كانت.. ثم أراه معجزة أخرى فقال له ربه ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ أي وأدخل يدك في فتحة ثوبك، ثم انظر ماذا يحدث؟ فأدخلها ثم أخرجها، فإذا هي تتلألأ كأنها قطعة قمر، في لمعان البرق ﴿من غير سوء﴾ أي من غير أذى ولا برص، فهاتان حجتان نيِّرتان، ومعجزتان باهرتان، أيدتك بهما، لتذهب إلى فرعون وأشراف قومه، إنهم طغاةٌ

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾

متجبِّرون، خارجون عن طاعتنا!! كان لليد وظيفتان: **الأولى**: إذا أدخلها في فتحة صدره ثم أخرجها، يكون لها نور كنور القمر، تضيء له في الليل كالمصباح، **الثانية**: إذا فزع من شيء، يضمُّ يده تحت إبطه فيذهب عنه الخوف، فذلك قوله تعالى ﴿**واضمم إليك جناحك من الرهب**﴾ والجناحُ يراد به اليد، لأن يدي الإنسان كجناحي الطائر، ومعنى الرهب: الخوف ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ طلب موسى من ربه أن يعينه بأخيه هارون، ليكون له سَنَداً وعَضُداً، حتى يتقوَّى على فرعون الطاغية، ويبلِّغه الرسالة، وعلَّل ذلك بأمرين: **الأول**: أنه قتل قبطياً من آل فرعون، ويخشى إن جاءهم أن يقتلوه، **والثاني**: أن هارون أَطْلقُ لساناً، وأوضحُ بياناً، لأن موسى عليه السلام، كان في لسانه حُبْسه من أثر الجمرة التي تناولها في صغره، وقوله تعالى ﴿**فأرسله معي ردءاً يصدقني**﴾ أي معيناً يعينني على تبليغ الرسالة لفرعون، وليس المراد بقوله «يصدِّقني» أن يقول له: صدقتَ، أو يقول للناس: صَدَق موسى، وإنما غرضُه أن يُلخِّص بلسانه الفصيح مراد موسى، ويجيب عن الشبهات التي يثيرها فرعون وقومه ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ استجاب الله له الدعاء، وحقَّق له الرجاء، فكلَّف هارون بالذهاب معه إلى فرعون، وجعله (رسولاً) مثل موسى، **والمعنى**: سنقوِّيك بأخيك، ونُعينك به، ونجعلُ لكما غلبةً وتسلطاً على فرعون وقومه، فلا سبيل لهم إلى أذاكما، بما أيدتكما به من المعجزات الساطعات، فاذهبا بهذه المعجزات، فالغلبةُ والنصر لكما ولأتباعكما، على فرعون وقومه، وأنتم الغالبون على القوم المجرمين ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي فلما جاءهم موسى بالبراهين الساطعة، والمعجزات القاطعة، الدالة

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

على صدق رسالته عليه السلام، قال فرعونُ وكبراؤه: ما هذا الذي جئتنا به يا موسى، من «العصا واليد» إلاَّ من قبيل السحر، افتريَته من تلقاء نفسك، وتنسبه إلى الله، وما سمعنا بمثل هذه الدعوىٰ دعوى الوحدانية (لا إله إلا الله) في آبائنا وأجدادنا السابقين ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تلطَّف موسى مع فرعون وحاشيته في الخطاب، وآثَر أحسنَ الوجوه في المجادلة، فقال لهم: ما جئتكم به حقٌّ وهدى، وليس بسحر ولا شعوذة، وربي عالمٌ بذلك، يعلم من تكون له العاقبةُ الحميدة في الدنيا والآخرة، إنه لا يسعد ولا يفوز بمطلوبه، من كان فاجراً ظالماً، كاذباً على الله!! ويطوي السياقُ هنا حلقات ومشاهد عديدة، حلقة السحرة التي ذكرت مفصَّلة في سور أخرى، كما يختصر المحاورات التي وقعت بين فرعون وموسى، وبين فرعون والسحرة، ويوقفنا هنا على جبروت فرعون وطغيانه، وأنه لا يزال ممعناً في الضلال، فيقول سبحانه ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أي نادى فرعون في أشراف قومه وكبرائهم قائلاً: ليس هناك إله غيري، فاطبخ لي يا هامان الآجُرَّ، وابن لي منه قصراً رفيعاً، لأرى وأشاهد إلهَ موسى الذي يزعم أنه أرسله ـ قال ذلك على سبيل التهكم والسخرية ـ ولهذا قال بعده ﴿وإني لأظنه من الكاذبين﴾ أي وإني لأعتقد أنه كاذب في هذه الدعوى!! ظنَّ الأحمق أن الله جالسٌ في السماء، فهو يريد أن يصعد إليه ليراه، وكلُّ ذلك للتمويه على أتباعه وحاشيته، لئلا يعتقدوا صدق دعوى موسى، بعد أن رأوا منه تلك المعجزات الباهرات ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي

﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

تكبَّر وتعظَّم فرعون وقومه عن الإيمان بالله، بالباطل والظلم، واعتقدوا أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء، فأخذناه مع جنوده فطرحناهم في البحر، وأغرقناهم جميعاً، فلم نُبْقِ منهم أحداً، فانظر أيها السامع بعين بصيرتك، كيف كانت عاقبة هؤلاء الظالمين؟ ألم تكن عاقبة وخيمةً مشئومة؟ **﴿كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ومقام كريم. ونعمة كانوا فيها فاكهين﴾**؟ ثم قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ أي وجعلناهم في الدنيا زعماء وقادة إلى جهنم، يقتدي بهم أهل الضلال، ويوم القيامة ليس لهم ناصرٌ ينصرهم من عذاب الله، وجعلنا اللعنة تلحقهم، وتطاردهم وتلازمهم إلى يوم القيامة، مع الخزي والعار، وغضب الجبار، وهكذا اتصل عذابهم في الدنيا بالغرق والدمار، مع عذاب الآخرة باللعنة والاستقرار في دركات الجحيم، وهذا مصير كل فاجر، متجبِّر على الله!! وإلى هنا تنتهي قصة موسى مع فرعون، في بعض مشاهد وحلقات، ولقد أكثر القرآن من قصص بني إسرائيل، وأفاض في ذكر حوادثهم ووقائعهم، ليأخذ المؤمنون العظة والعبرة، من حياة هذه الأمة الطاغية الفاجرة (اليهود) اللعناء، الذين قابلوا النعمةَ بالجحود، والإحسانَ بالعصيان، فقد نجَّاهم الله من كيد فرعون وجنده، وأغدق عليهم نعمه، فما كان منهم بعد هذا الجميل والإحسان، إلاَّ أن عبدوا العجلَ وكفروا بالرحمٰن، وقتلوا الأنبياء، وسفكوا دماء الأبرياء، وفعلوا ما تقشعر له الأبدان، ولا يزالون إلى يومنا هذا مغرقين في طغيانهم وفسادهم، إلى أن يطهِّر الله منهم الأرض من رجسهم، بجهاد المسلمين الصادقين، كما أخبرنا بذلك الصادق المصدوق ﷺ بقوله (لا تقوم الساعةُ حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون. .) الحديث أخرجه مسلم. . ثم يأتي الحديث عن التوراة، وعن دلائل صدق رسالة محمد ﷺ، فمن أين يأتي بهذه الأخبار عن قصة موسى والأنبياء، ودقائق ما فيها؟ وهو نبيٌ أميٌ، لولا أن الله أوحى له بذلك!؟، ولهذا قال سبحانه ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي آتينا موسى

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

التوراة، من بعد هلاك الأمم التي كانت قبله، كقوم نوح، وعاد، وثمود، وغيرهم من المكذبين لرسلنا ﴿**بصائر للناس**﴾ أي أنواراً لقلوبهم، يبصرون بها الحقائق، ويميزون بها بين الحقِّ والباطل، وهدى لهم من الضلالة، ورحمة لمن آمن منهم بالتوراة، ليتعظوا بما فيها من المواعظ والعبر ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي وما كنت يا محمد، بجانب جبل الطور، الذي كلَّم الله عليه موسى، وأوحى إليه بالرسالة، وما كنت حاضراً في ذلك المكان، ولكنَّ الله أوحاه إليك، ليكون ذلك حجة وبرهاناً على صدقك، **قال ابن كثير**: يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ﷺ، حيث أخبر بالغيوب الماضية، خبراً كأن سامعه شاهدٌ وراءٍ لما تقدَّم، وهو رجلٌ أميٌّ لا يقرأ شيئاً من الكتب، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك!! فمن أين جاء بهذه الأخبار؟ والمعنى: ما كنتَ حاضراً لذلك، ولكنَّ الله أوحاه إليك، لتخبرهم بتلك المغيَّبات ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي ولكنَّا أوجدنا وأنشأنا أمماً وأجيالاً، من بعد موسى، فتطاول عليهم الزمانُ، وطالت الفترةُ، فنسوا ذكرَ الله، وبدَّل اليهود والنصارى وحرَّفوا الشرائع والأحكام، فأرسلناك يا محمد لتجدِّد أمر الدين، وتعيد إليه نقاءه وصفاءه ﴿**وما كنت ثاوياً في أهل مدين**﴾ أي وما كنت يا محمد مقيماً في أهل مدين، حتى تعلم خبر موسى وشعيب، وما جرى من قصة زواج موسى بابنة شعيب، وأمر السقاية، واستئجار موسى لرعاية الغنم، لتتلو ذلك على أهل مكة، ولكننا أرسلناك بهذا الكتاب المبين، لتقصَّ على قومك تلك الأخبار، ولولا الوحيُ لما علمتها أنت ولا قومك ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي وما كنت أيضاً بجانب جبل الطور، وقت ندائنا لموسى وتكليمنا اياه، وتكليفنا له بالرسالة، وأمرنا له بالذهاب إلى فرعون، ودعوته إلى الله، فأنت يا

وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾

محمد، لم تشاهد شيئاً من أخبار موسى، ولكننا نحن الذين قصصناها عليك، وأخبرناك بها، رحمةً من ربك، لتخوِّف أهل مكة، الذين لم يأتهم رسولٌ من قبلك، لعلهم يتَّعظون بإنذارك!! ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ولولا قولهم إذا نزلت بهم عقوبة، بسبب كفرهم ومعاصيهم: يا ربنا هلاً أرسلت إلينا رسولاً، حتى نستمسك بأوامرك؟ ونطيعك، ونؤمن بما جاءنا به رسولك!؟ وجواب «لولا» الأولى محذوف تقديره: لولا اعتذارهم بذلك، لما أرسلناك إليهم رسولاً، وكنَّا نخفِّف عنك أعباء الدعوة، ولكنهم ما جاءهم رسولٌ قبلك، فلذلك أرسلناك إليهم رسولاً، لنقطع معاذيرهم **﴿لئلا يكون للناس على اللهِ حجة بعد الرسل﴾** أمَّا «لولا» الثانية **﴿لولا أرسلت إلينا رسولاً﴾** فهي بمعنى هلاً للتحضيض أي هلاً بعثت لنا رسولاً!! قال تعالى رداً عليهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ أي فلما جاء أهلَ مكة، هذا الرسولُ العظيم، بهذا الكتاب المنير، قالوا على وجه الاستكبار والعناد: هلاً أُعطي محمد من المعجزات الواضحة، مثل ما أُعطي موسى من اليد، والعصا؟ أولم تكفر قريش برسالة محمد؟ وتكذيبُهم لك تكذيبٌ لموسى، لأن الوحي واحدٌ، وقالوا يعني المشركين من أهل مكة: ما التوراة والقرآن إلاً من قبيل السحر، فهما سحران، وكفروا بالكتابين!! والغرضُ من الآية، أن المشركين يقترحون أن يأتيهم محمد بمعجزاتٍ حسيَّة، كالمعجزاتِ التي جاء بها موسى، وقد جاءهم القرآن بأعظم المعجزات، فقالوا عنه وعن التوراة: إنهما سحران، ونحن كافرون بهما، فلو جاءهم محمد بما طلبوا ما آمنوا، وذلك من شقائهم وضلالهم ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي

فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾

قل لهم: فائتوني بكتاب منزلٍ من عند الله، أهدى من التوراة والقرآن، اللّذين كفرتم بهما، لأتمسَّك به، إن كنتم صادقين أنكم تريدون اتباع الحق!! **قال ابن كثير**: وقد عُلم بالضرورة، أن الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء، أكمل ولا أشمل، ولا أعظم ولا أفصح، من القرآن الذين أنزله على محمد ﷺ، وبعده في الشرف والعظمة، التوراة التي أنزلها اللَّهُ على موسى عليه السلام، وأمَّا الإنجيل فجاء متمماً للتوراة، ومحّلاً لبعض ما حُرِّم على بني إسـرائيـل ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي فإن لم يفعلوا ما كلَّفتهم به، من الإتيان، بكتاب غير التوراة والقرآن، فاعلمْ أن كفرهم كفر عناد، واتباع للأهواء، ولا أحد أضل ممن اتَّبع هواه، بغير رشاد ولا بيان، والله سبحانه لا يوفق للهدى والحق، من كـان ظالـماً معانداً ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي ولـقـد تابعـنا لـهم المواعظ والزواجر، في هذا القرآن الكريم، ليتَّعظوا ويتذكَّروا بما فيه، أنزلناه متتابعاً، فيه الوعدُ والوعيدُ، والقصصُ والعبر، والنصائح والمواعظ، لعلهم يتَّعظون به!! ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ ثناءٌ من الله تعالى، على الذين آمنوا بمحمد ﷺ، من مسلمي أهل الكتاب، أي الذين أنزلنا عليهم التوراة والإنجيل، من قبل إنزال القرآن، عرفوا الحقَّ فآمنوا بما جاءهم من عند الله، كالنجاشي، وعبد الله بن سلام، وبعض القسس والرهبان، فهؤلاء يؤمنون بالقرآن حقاً، وإذا سمعوا آيات الذكر الحكيم، قالوا: صدَّقنا كلامَ ربنا، إنا كنَّا من قبل نزول القرآن، مؤمنين بأنه سيبعث محمد ﷺ وينزل عليه القرآن، ببشارة الرسل لنا ﴿**ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد**﴾ فنحن مسلمون،

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

مستسلمون لأمر الله، قال تعالى في بيان جزائهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ أي هؤلاء الأبرار، من أهل الكتاب، يعطون أجرهم مضاعفاً، الأجر الأول على إيمانهم بكتابهم، والثاني على إيمانهم بالقرآن، بسبب صبرهم وتقواهم، ويدفعون الكلام القبيح، بالكلمة الطيبة، ولا يقابلون السيِّء بمثله، بل يعفون ويصفحون، ومن الحلال الطيِّب الذي رزقناهم ينفقون، وفي الحديث (ثلاثةٌ لهم أجران: رجلٌ من أهل الكتاب، آمنَ بنبيِّه، وآمن بمحمد ﷺ. .) الحديث، رواه البخاري ومسلم ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أي وإذا سمعوا الشتم والأذى من الكفار، لأنهم آمنوا، لم يلتفتوا إليه ولم يردُّوا على أصحابه، وقالوا: لنا طريقنا من الحلم والصفح، ولكم طريقتكم من السفاهة والوقاحة **﴿سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾** أي نهجركم ونترككم، سلام مباعدةٍ وترك، ولم يريدوا سلام التحية، وإنما سلام المتاركة والهجران لأولئك السفهاء، كأنهم يقولون: لا نريد المجادلة والخوض مع الجاهلين ولا مصاحبتهم. . وسبب نزول هذه الآيات: (ما رُوي أن عشرين من نصارى الحبشة، قدموا على رسول الله ﷺ وهو بمكة، فوجدوه في المسجد الحرام، فجلسوا إليه وكلَّموه، وسألوه عن أمور فأجابهم عنها، فأشهروا إسلامهم، وصدَّقوا رسول الله في أمر الرسالة والقرآن، فلما قاموا اعترضهم «أبو جهل» في نفرٍ من قريش، فقالوا لهم: خيَّبكم الله من ركب، بعثكم أهلُ دينكم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تقوموا من مجلسه، حتى فارقتم دينكم وصدَّقتموه!! ما نعلمُ ركباً أحمقَ منكم، فقالوا لهم: لا نبتغي الجاهلين، أي لا نصاحبكم ولا نردُّ عليكم، ففيهم نزلت هذه الآيات)، رواه ابن إسحاق في السيرة. . ثم قال الله تعالى لرسوله ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ أي إنك يا محمد دالٌّ ومرشد، لا تستطيع هداية من أحببتَ من الناس، مهما بذلتَ فيه من مجهود، ولكنه تعالى هو الهادي، يعلم من يستحقُّ الهداية فيهديه، ومن يستحق الشقاوة فيضلُّه ويشقيه، فسلِّم أمرك إلى ربك، فإنه أعلم

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾

بأهل السعادة والشقاوة.. **وسبب نزول هذه الآية ما روي في الصحيحين**: (أنه لمَّا حضرت «أبا طالب» الوفاةُ، جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال: أيْ عمّ - أي يا عمّ - قل «لا إله إلا الله» كلمةً أحاجُ لك بها عند الله!! فقال أبو جهل: أترغبُ عن ملَّة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيدان عليه تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخرَ ما كلَّمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: واللهِ لأستغفرن لك ما لم أُنهَ عنك!! فأنزل الله ﴿**ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين..**﴾ وأنزل الله في أبي طالب هذه الآية، وقال لرسوله ﷺ ﴿**إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء..**﴾ رواه البخاري ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ذكر تعالى هنا بعض شبهات المشركين، وردَّ عليها بالبيان الواضح القاطع، أي قال كفار مكة: إن اتَّبعناك يا محمد على الإسلام، وتركنا دين آبائنا وأجدادنا، نخاف أن يتخطَّفنا العربُ من أرض مكة، ويخرجوننا من أوطاننا!! ومعنى التخطُّف: الانتزاعُ بسرعة، أي ينتزعوننا انتزاعاً من بلادنا، قال تعالى ردّاً عليهم: ألم نعصمهم ونجعل مكة بلداً آمناً، ذا حرمة ومهابة، تُحمل إليهم الأرزاقُ من جميع أقطار الدنيا، وهم عَبَدةُ أوثان؟ فكيف يكون حالهم وهم يعبدون الرحمٰن؟ كيف يكون الحرمُ آمناً لهم وقت كفرهم، ولا يكون آمناً لهم حال إسلامهم؟ هذا أمرٌ عجيب ﴿**ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون**﴾ أي لا يعلمون نعمة الله الجليلة عليهم، ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، الذي جاء ليخرجهم من الظلمات إلى النور!! قطع الله حجتهم بهذا البيان الناصع، إذ كانوا وهم كفار، عبَّاد أوثان وأصنام، قد أمنوا في حرمهم، والناسُ من حولهم يسفك بعضُهم دماء بعض، وهم تُنقل إليهم خيراتُ البلاد، فكيف يتخلَّى الله عنهم وقد أسلموا وآمنوا؟ ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ «كم» للتكثير، أي وكثير

وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

من أهل بلدة، طغت وبغت، وحملها التَّرفُ على جحود نعمة الله، فكفرت بأنعم الله، كما فعل أهلُ مكة، فدمَّر الله عليهم ديارهم، وسلبهم النعمة، فتلك مساكنهم خالية من سكانها، لم يسكنها أحدٌ إلا القليلُ، من المارة في أسفارهم، يسكنونها يوماً أو بعض يوم، وكنا نحن الوارثين لأموالهم وديارهم!! والآية تخويفٌ لكفار مكة، أن يفعل الله بهم، كما فعل بمن سبقهم من المكذبين المترفين ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ﴾ أي ما جرت سنة الله في إهلاك أمة من الأمم، حتى يبعث في عاصمتها وكُبرى مدنها، رسولاً، يحذِّرهم ويُبلغهم رسالة الله؟ لئلا يبقى لهم عذر، وما كنا لنهلك أهل بلدة، إلاَّ وأهلها كافرون مكذِّبون لرسل الله، وفي هذا بيان لعدله سبحانه، وتقدّسه وتنزّهه عن الظلم ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي وما أُعطيتم أيها الناس من شيء من زهرة الدنيا، من مالٍ، ومتاع، ومسكنٍ، وملبس، فهو متاعٌ قليل، وزهرة فانية، بالنسبة إلى ما أعدَّه الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة، أفلا تعقلون أن الباقي خير من الفاني؟ ومهما كان نعيم الإنسان في الدنيا عظيماً، فإنما هو كالذرَّة بالنسبة للبحر، فمن لم يرجِّحْ منافع الآخرة على منافع الدنيا، يكون كأنه خارج عن حدود العقل، كما قال سيدنا رسول الله ﷺ: (ما الدنيا في الآخرة، إلاَّ مثل ما يجعل أحدُكم أصبعه في اليمِّ - أي البحر - وأشار ﷺ بالسبَّابة، فلْينظر بم ترجع)؟ رواه مسلم والترمذي، أي ماذا أخذت الأصبع من البحر؟ ﴿أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أي هل المؤمن، الذي وعدناه وعداً قاطعاً بالجنة، وما فيها من النعيم الدائم الخالد، الذي هو مدركُه لا محالة، كالكافر الذي متعناه في الدنيا، بمتاع فانٍ زائل، مصحوب بالمتاعب والمصاعب، ثم هو في الآخرة، من المحضرين للعذاب؟ لا يتساويان أبداً،

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾

ولفظُ ﴿من المحضرين﴾ يراد به: المساقون للحساب والعذاب، كالذي يُساق بواسطة الزبانية، إلى ظلمة السجن الرهيب، كُرهاً عنه ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ النداءُ هنا للتوبيخ والتأنيب: أي اذكر حال المشركين، حين يناديهم الله معنفاً وموبِّخاً، فيقول لهم: أين هؤلاء الشركاء والآلهة الذين عبدتموهم من دوني؟ وزعمتم أنهم يشفعون لكم وينصرونكم؟ ادعوهم حتى يخلّصوكم من العذاب!! ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ أي قال الرؤساء الأشقياء: يا ربنا هؤلاء الأتباع الذين أضللناهم، ﴿أغويناهم كما غوينا﴾ أي أضللناهم كما ضللنا نحنُ، لا بالقسر والإكراه، ولكن بالإغراء وتزيين القبيح لهم، نتبرأ إليك منهم، فما كانوا في الحقيقة يعبدوننا، إنماكانوا يعبدون أهواءهم، ويجرون وراء شهواتهم، فهم مؤاخذون بإجرامهم ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ أي وقيل للمشركين على سبيل السخرية والتهكُّم: استغيثوا بآلهتكم، واستنصروا بهم الآن، ليدفعوا عنكم عذاب الله!! فاستغاثوا بهم فلم يجيبوهم ولم يغيثوهم، وهم يعلمون أنهم لا يسمعون ولا يجيبون، ولكنه الإذلالُ لهم والإهانة، وحينئذٍ يتمنون أنهم لو كانوا في الدنيا مؤمنين، حتى لا يصيروا إلى هذا المصير المشئوم، ولكنْ هيهات فقد فات الأوان، وهم اليوم في الذل والهوان ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ من توبيخ إلى توبيخ، يناديهم ربُّ العزة والجلال، فيقول لهم: ماذا أجبتم رسلي؟ هل آمنتم بهم واتبعتموهم؟ أم استهزأتم بهم وكذبتموهم؟ ﴿فعميت عليهم الأنباء﴾ أي حاروا في الجواب، وأظلمت عليهم الأمور، فلم يعرفوا ما يقولون، فهم الآن حيارى واجمون، قد انعقدت ألسنتهم، ولا يسأل بعضهم بعضاً من فرط الدهشة والحيرة، والأنباءُ:

فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾

الأخبارُ، وإنما سمَّى حُجَجهم أخباراً، لأنها لم تكن في الحقيقة حُجَجاً، إنما هي حكاياتٌ ومزاعم، والأصلُ أن يُقال: عموا عن الأنباء أي الأخبار، وقد عُكس للمبالغة، ويسمى التشبيه المقلوب ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ هذا تذكير لهم بالتوبة والإنابة إلى الله، أي فأمَّا من تاب من كفره، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح، فعسى أن يكون من الفائزين برضوان الله، وجنات النعيم، و«عسى» من الله تفيد التحقيق، أي يكون حقاً من المفلحين ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هذا ردٌّ على المشركين، في اقتراحهم أن يكون الرسول، من الأغنياء ذوي الشرف والرئاسة، ومعنى الآية: وربك يا محمد هو الخالق المتصرف في الكون، يخلق ما يشاء، ويفعل ما يريد، ولا اعتراض لأحدٍ على حكمه، يختار للنبوة والرسالة من يشاء، وما كان لأحد من العباد اختيار، إنما الاختيارُ للهِ الواحد القهار، تنزَّه الله العظيم الجليل، أن ينازعه أحدٌ في ملكه، أو يشاركه في اختياره وأمره ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي وربك هو العالم بما تخفيه قلوبهم من الكفر، والعدواة للرسول والمؤمنين، وما يظهرونه على ألسنتهم من الطعن في القرآن، والنيل من كرامة الرسول عليه الصلاة والسلام، حيث يقولون: ما أنزل الله الوحيَ إلاَّ على يتيم أبي طالب؟ أمَا وجد الله غير محمد حتى يبعثه إلينا رسولاً؟ ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي وهو جلَّ وعلا الإله المستحقُّ للعبادة، لا معبود بحق سواه، له الحمد أي الثناء الكامل في الدنيا والآخرة، وله القضاء النافذ فيهما، وإليه وحده مرجع الخلائق جميعهم يوم القيامة، فيجازي كل عاملٍ بما يستحقُّ من الجزاء!! ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾؟ نبَّه تعالى على ظاهرتين كونيَّتين عظيمتين هما (ظاهرة الليل) و(ظاهرة النهار)

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

وهما من الآيات الباهرة الدالة على قدرة الله ووحدانيته، ولكنَّ الناس ألفوا رؤية الشمس تشرق عليهم في الصباح، ثم تغيب عنهم في الليل، وألفوا النهار يُقبل ثم يدبر، وإلفُ الإنسان للشيء، يُفقده ما فيه من روعة الجمال والإبداع، **والمعنى**: أخبروني أيها الناسُ، لو أن الله تعالى، جعل عليكم الليل دائماً مستمراً بلا انقطاع، من هو الإله الذي يقدر، على أن يأتيكم بالنور والضياء؟ غير الله تعالى؟ أفلا تسمعون هذا الكلام، سماع تدبر واستبصار، فتستدلون بذلك على قدرة الواحد القهار؟ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي وأخبروني أيضاً، لو أن الله تعالى جعل عليكم النهار، دائماً مستمراً إلى يوم القيامة بلا انقطاع، من هو الإله القادر على أن يأتيكم بليل، تستريحون فيه من تعب النهار، غير الله تعالى؟ أفلا تبصرون عظمة هذا الإله الكبير؟ فتؤمنون به وتوحِّدونه!! إن الناس يشتاقون إلى الصبح، حينما يطول عليهم الليل قليلاً في الشتاء، ويشتاقون إلى الليل، حينما تحرقهم الشمس بلهبها الدائم في أيام الصيف، وربما انقطعوا عن العمل في الصيف، وجعلوا عملهم بالليل، فماذا يصنعون لو استمرَّت الشمس عليهم دائمة بلا انقطاع؟ ألا تصبح الحياة كلها معرَّضة للفناء والدمار!؟ ولهذا امتنَّ الله على عباده بقوله ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ومن آثار رحمته بكم، أن جعل الليل والنهار يتعاقبان بدقة وإحكام، لتستريحوا بالليل من نصب الحياة وهمومها وأكدارها، ولتلتمسوا بالنهار أسباب الكسب والمعاش، ولتشكروا ربكم على نعمه الجليلة، التي أنعم بها عليكم!! نبَّه تعالى على أن الليل والنهار نعمتان، يتعاقبان دون انقطاع، لأن الإنسان في الدنيا مضطر إلى العمل، لتحصيل ما يحتاج إليه من عمل وزراعة، وبناء، ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار، ولولا الراحة والسكون بالليل، فلا بدَّ منهما في الدنيا، وأمَّا في الجنة فلا تعب فيها ولا نصب، فلا حاجة لهم إلى الليل، فلذلك يدوم له الضياءُ واللَّذاتُ، قال تعالى: ﴿لا يَرَوْن

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾

فيها شَمْساً ولاَ زَمْهَرِيراً﴾ وقد جاء في الحديث (أن الجنة أنوارٌ تتلألأ) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ هذا توبيخٌ آخر لمن عبد مع الله إلهاً آخر، أي يناديهم الربُّ على رءوس الأشهاد: أين الآلهة الذين زعمتهم أنهم شركاء معي، وعبدتموهم من دوني؟ ائتوا بهم لينقذوكم من العذاب؟ وأخرجنا من كل أمةٍ نبيَّها ليشهد عليها، فقلنا للكفرة المجرمين: هاتوا حجتكم على ما كنتم عليه من الكفر، وعبادة الأصنام والأوثان!! فعلموا حينئذٍ أنهم كانوا في ضلال، وغابت عنهم تلك الآلهة المزعومة!! ثم ذكر تعالى قصة الطغيان بالمال ممثلة في قارون، بعد أن ذكر قصة الطغيان بالملك والسلطان، ممثلة بفرعون الطاغية الجبار، فقال سبحانه ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ (قارون) اسم أعجمي، وهو من جماعة موسى، بل كان ابنَ عمه كما قال النخعي وقتادة، وكان يُسمَّى المنوَّر لحسن صوته بالتوراة، ولكنَّ عدوَّ الله نافق، وأهلكه البغيُ بسبب كثرة ماله ﴿**فبغى عليهم**﴾ أي تكبَّر وتجبَّر على قومه، وأبطرته النعمةُ حتى طمستْ نورَ بصيرته، ولْنتصوَّر مدى الغنى الذي كان عليه قارون، فإن مفاتيح خزائن أمواله، يعجز عن حملها المجموعةُ الكبيرة من أقوياء الرجال، فضلاً عن الخزائن نفسها، وهذا معنى قوله تعالى ﴿**وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة**﴾ أي يثقل عليهم حملُها، وإذا قسنا أصحاب الغنى في زماننا، ممن يملك مئات أو آلاف المليارات، نجدهم فقراء بالنسبة لقارون ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ الفرحُ هنا: يُراد به الأشَرُ والبَطَر، والتكبر على عباد الله، أي لا تبطر، فإن الله يُبغض البطرين، الذين لا يشكرون الله على إنعامه، ويتكبرون

وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾

على عباد الله بأموالهم ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ أي اطلب فيما أعطاك الله من الأموال رضى الله، ولا تضيِّع حظَّك بالاستمتاع بما أباح الله لك، من المآكل، والمشارب، والملابس، والمراكب، وأحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك، بالإنفاق عليهم وعونهم ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أي ولا تطلب بهذا المال، التطاول على الناس، بالظلم والبغي وإنفاق المال في غير وجهه، فإن الله لا يحب كل مفسدٍ في الأرض، بأنواع البغي والظلم!! هكذا قدَّم له أهلُ الفضل والصلاح النصيحة، فكان جوابه لهم جواب الأحمق المغرور، المفتون بماله، الذي أعماه الثراء ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ أي أُعطيتُ هذا المال بذكائي وفهمي، وعلى علم عندي بوجوه الغنى والكسب ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أي ألم يعلم هذا الأحمقُ المغرور، أن الله قد أهلك من الخلائق قبله، من هو أقوى منه بدناً، وأكثر منه مالاً وولداً؟ ولا حاجة أن يسألهم الله عن ذنوبهم وإجرامهم، بل يُعذَّبون ولا يُمْهَلون، لأن الله عالم بجرائمهم، ولا حاجة إن يسألهم عنها!! ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ أي خرج قارون على قومه، في أبهى زينةٍ وأكملها، مع خدمه وحشمه، على خيولٍ موشَّحة بالذهب، في موكب حافل باهر، فلما رآه ضعفاء الإيمان، ممن تخدعهم الدنيا ببريقها وزخرفها وزينتها، قالوا: يا ليت لنا مثل الجاه والغنى، الذي أُعطيه قارون ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ أي ذو حظ وافر من الدنيا، ومكانةٍ عظيمة من الجاه

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ أي وقال لهم العقلاء من أهل العلم والفهم: (ويلكم) أي ارتدعوا وانزجروا عن مثل هذا التمني، والكلام الفارغ، فإن ثواب الله للمؤمنين الصالحين في الآخرة، خيرٌ من كل ما ترون من النعيم، ولا يعادل ذرةً بالنسبة لنعيم الآخرة، ولا ينال هذه المرتبة والمنزلة الرفيعة، إلا المؤمنون الصابرون على أمر الله، والمعرضون عن زينة الدنيا وشهواتها!! وكانت العاقبةُ والنتيجة لقارون ما ذكرها لنا القرآن ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾ أي جعلنا الأرض تغور به وبكنوزه وأمواله، جزاءً له على عتوه وبطره، فما كان له جماعة ينصرونه ويدفعون عنه عذاب الله، ولم يكن هو بنفسه من الناجين من عذاب الله، بل من الهالكين!! هكذا في لمحة خاطفة، ابتلعته الأرضُ، وابتلعت ملكه ودوره وقصوره، وحطّمتْ غروره وكبرياءه!! وكان ذلك جزاءً وفاقاً ﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ﴾ أي وصار الذين تمنوا منزلته وغناه بالأمس القريب، يقولون بعدما شاهدوا ما نزل به من البلاء والخسف: ﴿ويكأن﴾ أي اعجبوا أيها القوم وتنبَّهوا، كيف أن الله يوسّع الرزق على من يشاء، ويضيّق الرزق على من يشاء، حسب الحكمة والمشيئة، فقد يوسِّع على الكافر، ويضيِّق على المؤمن!! ولا دخل لكثرة الرزق، في كرامة الإنسان عند الله أو هوانه ﴿لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أي لولا لطفُ الله بنا، بعدم إعطائنا ما تمنيناه، لصار مصيرنا مصير (قارون)، فخسف اللَّهُ بنا الأرض كما خسفها بقارون، وانتبهوا واعجبوا أيها القوم، فإنه لا يفلح ولا ينجح الجاحد لنعم الله!! وإلى هنا تنتهي قصة قارون، قصة الطغيان بالمال، ثم يأتي

تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

التعقيب المباشر ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي هذه الجنة التي سمعتم خبرها، وبلَغكم وصفُها، هي دار النعيم الخالد، التي لا تنغيص فيها ولا كدر، نجعلها للمؤمنين المتقين، الذين لا يريدون التكبر والطغيان، ولا الظلم والعدوان في الدنيا، والعاقبة المحمودة للذين يخشون عذاب الله، ويطلبون رضوانه ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي من جاء بالحسنة، ضاعفها الله له أضعافاً كثيرة، إلى عشرة، أو سبعين، أو أكثر من ذلك، ومن جاء بالسيئة، فلا يجزى إلاّ بمثلها أي تكتب عليه سيئة واحدة دون مضاعفة ولا زيادة، وهذا من فضل الله على العباد، أن الحسنة يُضاعف الله جزاءَها فضلاً منه ورحمة، وأن السيئة لا يُضاعف جزاءَها، كرماً منه وعدلاً ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي إن الذي أنزل عليك القرآن، وفرض عليك تبليغه للناس، لرادُّك يا محمد إلى مكة كما أخرجوك منها، وهذا وعدٌ من الله لرسوله بفتح مكة، ورجوعه إليها سالماً غانماً، **قال الضحاك**: لما هاجر النبي ﷺ من مكة، ووصل الجحفة وهي قريبة من المدينة المنورة، اشتاق إلى رؤية مكة، فأنزل الله عليه هذه الآية، رواه ابن أبي حاتم، وروي البخاري عن ابن عباس ﴿**لرادُك إلى مَعَاد**﴾ قال: إلى مكة. ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي قل يا أيها الرسول لهؤلاء المشركين: إن ربي هو أعلم بالمهتدي والضالّ ـ يعني نفسه والمشركين ـ فهو سبحانه العالم بالمهتدي وما يستحقه من الثواب والنصر، وبالضال وما يستحقه من العذاب والإذلال ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي وما كنت يا محمد تطمع أن

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

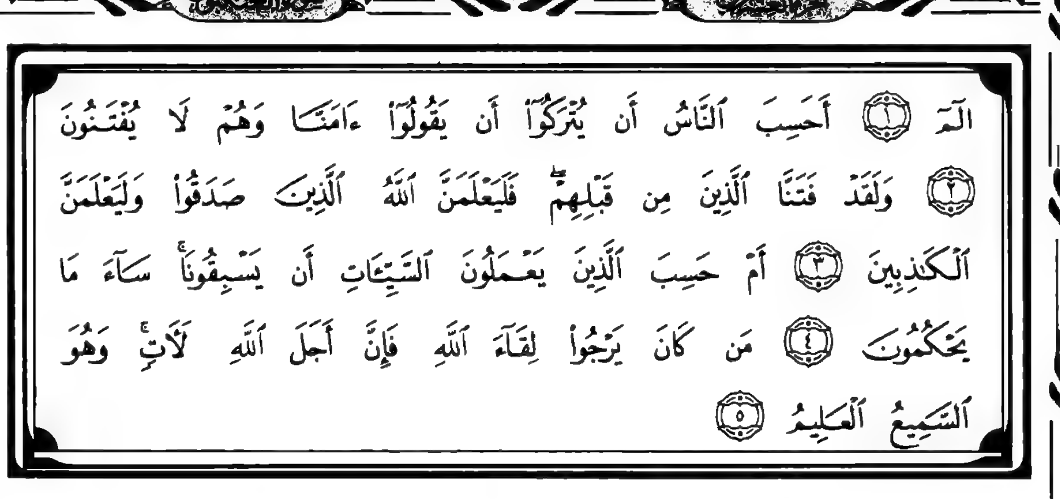
تأتيك النبوة، ولا أن ينزل عليك الكتاب من رب الأرباب، ولكنَّ الله رحمك ورحم البشرية، فأنزل القرآن عليك، فلا تكن عوناً للكافرين، بالمداراة والمجاملة، **قال أهل التفسير**: أمره الله أن يصدع بالحق، ولا يساير الكفرة أعداء الله ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي لا يمنعك سفههم عن تبليغهم آيات الذكر الحكيم، وادع الناس إلى توحيد ربك وعبادته، ولا تكونن من المشركين بمسايرتهم على أهوائهم، فإنَّ الرضى بالكفر كفرٌ ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي لا تعبد إلهاً سوى ربك الذي خلقك، فإنه لامعبود بحق إلا الله رب العالمين، كل شيء في الكون يفنى، ويبقى الله وحده الحيُّ القيوم، له القضاء النافذُ في الخلق، وإليه مرجعهم ومصيرهم للحساب والجزاء!! **قال الحافظ ابن كثير**: هذا إخبار منه سبحانه بأنه الحيُّ القيوم، الدائم الباقي، الذي تموت الخلائق ولا يموت، فعبَّر بالوجه عن الذات، أي كلُّ شيء هالك إلاَّ إيَّاه جلَّ وعلا، فكلُّ الذوات فانية وزائلة، إلا ذاته تعالى وتقدَّس!!

رُوي عن ابن عباس أنه قال: (كان قارونُ ابنَ عمِّ موسى، وقد جمع علماً كثيراً، ولكنَّ عدوَّ الله نافَقَ، حتى بغى على موسى وحَسَده، فقال له موسى: إن الله أمرني أن آخذ الزكاة منكم، فأبى وقال لجماعته: إن موسى يريد أن يأكل أموالكم، أمركم بالصلاة فأطعتموه، وهو الآن يريد أن يسلب أموالكم، فأرى أن نرسل إلى بغيٍّ ـ أي زانية ـ فترميه بأنه راودها عن نفسها وزنى بها، فجاء قارون إلى موسى، فقال: اجمعْ بني إسرائيل وأخبرْهم بما أمركَ ربُّك، فجمعهم وقال لهم: إن ربي أمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأمرني أن من زنى منكم وهو محصنٌ أن أرجمه، فقالوا: إنك قد زنيتَ، قال: أنا؟ قالوا: نعم، فأرسلوا إلى المرأة فاتهمته بأنه زنى

بها، فخرَّ موسى ساجداً يبكي، فأوحى الله إليه ما يُبكيك؟ قد سلَّطناك على الأرض فمُرْها تطيعك، فرفع رأسه وقال: يا أرضُ خذيهم!! فغابوا في جوفها، فذلك قولُه تعالى: ﴿**فخسفنا به وبداره الأرض**﴾. أخرجه ابنُ المنذر والحاكم وصححه.

انتهى تفسير سورة القصص

● ● ●



تفسير سورة العنكبوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ الحروف المقطعة للإشارة إلى إعجاز القرآن، والمعنى للآية: هل يظن الناسُ أنهم سَيُتركون في هذه الحياة، دون اختبار وابتلاء!؟ لمجرد أنهم قالوا بلسانهم آمنّا؟ لا، ليس الأمر كذلك، بل لا بدَّ من امتحانهم، ليتميَّز الصادق من المنافق.. نزلت في قوم من المؤمنين، كان المشركون يؤذونهم ويعذبونهم، فضاقت صدورهم واستبطئوا النصر، فواساهم الله بهذه الآيات، وأعلمهم أن تلك سنته في عباده، يسلّط الكفار على المؤمنين، ليمحِّصهم ويرفع درجاتهم، ويظهر الصادق من المنافق، ولهذا قال بعدها ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي ولقد اختبرنا من سبقهم، بأنواع المحن والمصائب، فالابتلاءُ سُنَّة إلهية، مبنية على الحِكم والمصالح، وقد كان في الأمم السابقة، من يُنشر بالمنشار، ويُمشط بأمشاط الحديد، ليرجع عن دينه، فيصبر ويتحمل الأذى والبلاء، ما يصدُّه ذلك عن دينه، كما ورد ذلك في صحيح البخاري!!، فليميزنَّ الله بين الصادقين في دعوى الإيمان، وبين الكاذبين فيه ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي هل يظن المجرمون المفسدون في الأرض، أنهم يعجزوننا ويتخلَّصون من عقابنا؟ ليس الأمر كما يظنون ويتوهمون، وبئس ما يظنون!! فإن سنة الله كما تكون في تمحيص المؤمنين، تكون أيضاً في تدمير المفسدين وإهلاكهم ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي من كان يرجو ثواب الله،

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٧ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٨﴾

فليصبر في الدنيا على المجاهدة، حتى يلقى الله فيجازيه، فإن لقاء الله قريب، وهو سبحانه السميع لأقوال العباد، العليم بأحوالهم ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي ومن جاهد نفسه بالصبر على الطاعات، والكفِّ عن الشهوات، فمنفعة جهاده لنفسه، والله مستغن عن العباد، لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين، والجزاء هناك في الآخرة، ولهذا قال بعده ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي أمَّا المؤمنون الصادقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، فسينالون أحسن الجزاء، وأطيبه وأكرمه، والله تعالى يمحو عنهم الذنوب والآثام، ويثيبهم على طاعتهم لله بأحسن الثواب، فَلْيطمئنَّ المؤمنون العاملون، فالأمل مشرق، والجزاء طيب ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي أمرنا الإنسان بالإحسان إلى والديه غاية الأحسان، وإن بذلا كل جهدهما ليحملاك على أن تكفر بالله، وتشرك بألوهيته، فلا تطعهما، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله، إليَّ مرجع الخلائق جميعاً، فأجازي كلاً بما عمل.. وهذه الآية وضعت (ميزاناً دقيقاً)، يُعرف به شرطُ الطاعة للوالدين والحكام، وهي أن تكون الطاعة في غير معصية الله، فإذا كانت في المعصية، فلا سمع ولا طاعة، وسببُ نزول هذه الآية ما روي عن «سعد بن أبي وقَّاص» رضي الله عنه أنه قال: (كنتُ رجلاً باراً بأمي، فلما أسلمتُ قالت لي: ما هذا الدينُ الذي أحدثتَ يا سعد؟ أليس الله أمركَ بالبرِّ بأمك!! واللهِ لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فتتعيَّر بذلك أبد الدهر، فيقال: يا قاتل أمه، أو ترجع إلى دينك الأول!! قال: فقلت لها: يا أمَّاه لا تفعلي، فإني لا أدع ديني هذا لشيء أبداً!! فمكثت يوماً وليلة لا تأكل ولا تشرب، حتى جهدت جهداً شديداً، ثم مكثت يوماً آخر لم تأكل ولم تشرب، حتى اشتدَّ بها الجهدُ والعناء، فجاءها سعد، فقال لها: يا أمَّاه

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾

انظري، واللهِ لو كانت لكِ مائة نَفْس ـ أي روح ـ فخرجت نَفْساً نَفْساً، ما تركتُ ديني، فإن شئتِ فكلي، وإن شئتِ فلا تأكلي حتى تموتي، فلمَّا يئست منه أكلت وشربت، فنزلت فيه هذه الآية) رواه مسلم والترمذي ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كرَّر جزاء المؤمنين، لتحريك النفوس إلى مراتبهم الرفيعة، أي والذين صدقوا في إيمانهم وأطاعوا ربهم، لندخلنهم الجنة مع زمرة الصالحين. . ولما ذكر تعالى ما أعدَّه للمؤمنين من الأجر والمثوبة، ذكر حال المنافقين المذبذبين، فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي ومن الناس فريق يقولون بألسنتهم آمنا بالله، فإذا أوذي أحدهم بسبب إيمانه ارتدَّ عن الدين، وانسلخ عنه، واعتبر فتنة الدنيا كعذاب الله الشديد، سبباً صارفاً له عن الإيمان، فهؤلاء المنافقون يظنون الإيمان كلمةً هيِّنةً تُقال باللسان، ويجعلون الانتساب إلى الإسلام، سُلَّماً للمغانم والمكاسب، فإذا أصابتهم المحنةُ افتُتِنُوا وارتدوا، وانتكسوا إلى جحيم الضلال ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ﴾ أي ولئن كان للمؤمنين نصرٌ وغنيمة، قالوا: نحن مسلمون معكم، فأشْركونا في الغنيمة، فقد كنا نجاهد كما تجاهدون؟ قال تعالى رداً عليهم ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟ أي أليس الله هو العالم، بما في قلوب الناس، من إيمانٍ أو نفاق؟ ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي إنما يمتحن الله الناسَ، ليظْهِر لعباده المؤمن من المنافق، ليميّزوا بينهما، فيفتضح حال المنافق، ويظهر شرف المؤمن، وفسَّر ابن عباس العلم ﴿وليعلمن﴾ بمعنى (الرؤية والتمييز) أي فليميزنَّ الله بين المؤمن والمنافق، كقوله سبحانه: ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ لأن الله قد علم ذلك من قبل، كما حكاه عنه البخاري ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ أي قال

وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾

الكفار الفجرة للمؤمنين: اتَّبعوا ديننَا واتركوا الإسلام، ونحن نتحمَّلُ عنكم الإثم والعقاب، إن كان هناك عقاب، قال تعالى ردّاً عليهم ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي وليسوا بحاملين شيئاً من خطاياهم لو كفروا بالله، لأنه لا يحمل أحدٌ ذَنْب أحد، وإنهم لكاذبون في ذلك ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي وليحملنَّ ذنوبهم التي عملوها، وذنوب من أضلوهم، لأن ذلك من فعلهم وكسبهم، وليسألنَّ يوم القيامة عما كانوا يختلقون في الدنيا من الأكاذيب والأباطيل، وفي الحديث الصحيح (ومن دعا إلى ضلالةٍ، كان عليه من الإثم، مثلُ آثام من اتبعه، إلى يوم القيامة، من غير أن يُنْقِص من آثامهم شيئاً) رواه مسلم ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ ذكر الله لرسوله قصة نوح عليه السلام، تسليةً له عما يلقاه من أذى المشركين، فقد كانت محنةُ نوح مع قومه، قاسية ومريرة، حيث مكث في قومه (٩٥٠) تسعمائة وخمسين سنة، يدعوهم إلى توحيد الله، وما آمن معه إلا قليل، وكانوا عَبدة أصنام وأوثان، فأهلكهم الله بالطوفان، وهم ظالمون لأنفسهم بالإصرار على الكفر والضلال ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي فأنجينا نوحاً من الغرق، ومن ركب معه في السفينة، من أهله وأتباعه المؤمنين، وجعلنا تلك الحادثة المهولة المدمِّرة «الطوفان» عبرة يعتبر بها أهلُ العقول والألباب.. لم يذكر تعالى هنا قصته مفصَّلة، لأنه قد مضى ذكرها في سور عديدة، والغرضُ هنا ذكر (محنته الشاقة)، ليتأسى به رسولُ الله ﷺ في الصبر على تحمل الأذى في سبيل الله، ولهذا اختصرت السورة قصته! ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي واذكر قصة خليل الرحمن «إبراهيم» عليه السلام، حين قال لقومه: اعبدوا الله وحده، وخافوا عقابه في عبادتكم لغيره، فعبادةُ

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

الله وتقواه، خير لكم من الاستمرار على الضلال، إن كنتم تعلمون عظمةَ الله وجلاله!! وأن الأصنام لا تضرُّ ولا تنفع!! ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ أي تصوِّرون باطلاً وكذباً تعتقدونها آلهة، وتتركون عبادة الواحد الأحد؟ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ أي إن هذه الأصنام والأوثان، التي تعبدونها من دون الرحمن، لا تقدر أن ترزقكم شيئاً من الرزق، فاطلبوا الرزق من عند الله، الخالق الرازق، الذي أفاض عليكم فنون النعم ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي خصُّوه تعالى وحده بالعبادة، واشكروه على نعمه التي أنعم بها عليكم، إليه وحده مرجعكم يوم القيامة، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي وإن تكذبوني فلن تضروني بتكذيبكم شيئاً، إنما تضرون أنفسكم، فقد سبق قبلكم أمم كثيرون، كذَّبوا رسلَ الله، فحلَّ بهم عذاب الله، وليس على الرسول إلا تبليغ دعوة الله!! دعاهم الخليل إبراهيم عليه السلام بالأسلوب الحكيم، فبدأهم أولاً بالدعوة إلى توحيد الله، والخوف من عذابه ﴿اعبدوا الله واتقوه﴾ ثم ثنى بما في هذه الدعوة لهم من الخير ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي إن كان لكم فهم وعلم، ثم بيَّن لهم ثالثاً فساد ما هم عليه، من عبادة أوثان من خشب أو حجارة، اخترعوها من تلقاء أنفسهم، وهي عبادة سخيفة، لا تقدِّم لهم نفعاً، ولا تدفع عنهم ضراً ﴿إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً﴾ ثم حبَّبهم رابعاً بعبادة الخالق الرازق، الذي أسبغ عليهم النعم ﴿فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه﴾ ثم جاءهم أخيراً بالوعيد والتهديد، إن لم يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴿وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ والمعنى: قد أعذر إليكم من أنذر!! وبعد هذا البيان الساطع القاطع، يلفت أنظارهم إلى آثار قدرة الله ووحدانيته، فيقول سبحانه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي أولم يروا كيف خلق الله

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

الخلائق من العدم، ثم يردُّها بعد الموت إلى الحياة؟ فالذي أنشأها أولاً يردُّها ثانياً، والكلُّ عليه يسير!! وكذلك ألم يروا كيف يخلق الله الشجر والثمر، فتحيا ثم تفنى، ثم يعيدها كذلك!؟ فهو القادر على الإعادة، كما قدر على البدء، فلماذا تنكرون قدرته على البعث؟ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ أي قل لهؤلاء المنكرين للبعث: سيروا في أطراف الأرض، فانظروا إلى آثار قدرة الله، كيف أن الله العظيم الكبير القدير، خلق البشر على كثرتهم، وتفاوت هيئاتهم وألوانهم، واختلاف ألسنتهم ولغاتهم؟ ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي ثم هو تعالى يعيدهم إلى الحياة نشأةً أخرى، كما قال سبحانه ﴿وننشئكم فيما لا تعلمون﴾ فالذي قدر على البدء، قادر على الإعادة، لا يعجزه تعالى شيء ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ أي يعذِّب الكفرة المجرمين، ويرحم عباده المؤمنين، وإليه تعالى مرجعكم للحساب والجزاء ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ولستم يا معشر الكفار معجزين ربكم، حتى ولو تواريتم في أعماق الأرض، أو تحصنتم بالصعود إلى السماء، فأنتم في قبضة الله وسلطانه، وليس لكم من ينقذكم أو ينصركم من عذاب الله!! ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي والذين كذبوا بآيات الله التشريعية والتكوينية، وكذَّبوا بالبعث والنشور، فهؤلاء الكفرة سيقنطون من رحمة الله، يوم يرحم الله عباده المؤمنين، ولهم عذاب مؤلمٌ موجع، لكفرهم وتكذيبهم لآيات الله، وعبَّر بالماضي ﴿يئسوا من رحمتي﴾ عن المستقبل أي سيقنطون،

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾

للتنبيه على تحققه، لأن الماضي يفيد التحقيق كقوله تعالى ﴿أتى أمر الله﴾!! وبعد هذا التذكير، ماذا كان جواب قوم إبراهيم، لهذا النبي الكريم؟ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي فما كان جواب الأشقياء السفهاء، حين دعاهم إلى الله وتوحيده، إلاّ أن قال كبراؤهم المجرمون: اقتلوا إبراهيم لتستريحوا منه ومن دعوته، أو حرِّقوه بالنار، جزاء جرأته على تحطيم آلهتنا، فأنجاه الله منها بعد أن ألقوه فيها، وجعلها برداً وسلاماً عليه، إن في صنع الله هذا، وإنجائه له من النار، لآيات باهرة، وعظات نيِّرة، لأهل اليقين والإيمان ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي وقال إبراهيم لقومه بأسلوبٍ فيه توبيخٌ وتأنيب، وسخرية بعقولهم السخيفة: إنما عبدتم هذه الأصنام والأوثان، وجعلتموها آلهة لكم من دون الله، لتدوم بينكم المحبة والألفة، في هذه الحياة الدنيا باجتماعكم على عبادتها ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ جابههم عليه السلام بالحقيقة ناصعة، وهي أنهم اجتمعوا في الدنيا على الضلال، ويوم القيامة تنقلب الصداقةُ إلى عداوة، والنصرة إلى خذلان، وسيلعن بعضهم بعضاً، وليس لهم في ذلك اليوم ناصر ولا معين، هكذا يكون حال الكفار الفجار يوم القيامة، يكون بينهم التكذيب، والتناكر، ويتبرأ القادة من الأتباع، ويلعن الأتباع الرؤساء، ومصيرهم جميعاً جهنم ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي آمن بدعوته ورسالته ابنُ أخيه «لوط» عليه السلام، وقال الخليل إبراهيم: إني تارك وطني، ومهاجرٌ من بلدي طلباً لرضى ربي، إنه سبحانه هو العزيز الذي لا يذلُّ من اعتمد عليه، الحكيم الذي لا يفعل إلا

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾

ما فيه حكمة ومصلحة!! سنَّ الخليلُ إبراهيم الهجرة في سبيل الله، فهاجر مع لوط وامرأته سارة، من أرض العراق إلى أرض فلسطين، واستوطن فيها، وماكانت هجرته لتجارةٍ أو كسب ماديّ، إنما كانت هجرةً لله، ولنصرة دين الله، فأبدله الله خيراً عن أهله وعشيرته، بذرية صالحة، ولهذا قال بعدها ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أي وهبنا لإبراهيم لمَّا فارق أهله ووطنه في الله، وهبنا له ولداً صالحاً هو (إسحاق) من زوجه العقيم التي لا تلد، إكراماً له على صدقه ووفائه، كما أكرمناه بوَلدِ ولدِ، هو (يعقوب) ابن إسحاق، والد يوسف الصدِّيق، وجعلنا في ذرية يعقوب النبوة والكتب السماوية، **قال ابن كثير**: وهذه خصلةٌ عظيمةٌ سنيَّة، فلم يوجد نبيٌّ بعد إبراهيم، إلاَّ من سلالة يعقوب، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالته، وليس من سلالةِ «إسماعيل» سوى النبي العربي الهاشمي عليه أفضل الصلاة والتسليم ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي وتركنا له الثناء العاطر، والذكر الحميد، إلى آخر الدهر، في جميع أهل الأديان، فما من أمةٍ إلاَّ تعظِّمه وتثني عليه، (اليهود، والنصارى، والمسلمون) وإنه في الآخرة في زمرة الأنبياء الكاملين في الصلاح من أهل الجنة ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي واذكر لقومك قصة لوط، حين قال لقومه: إنكم يا معشر القوم، لترتكبون الفعلة المتناهية في القبح والشناعة (فاحشة اللواطة) التي لم يسبقكم بها أحدٌ من الخلق قبلكم!! ثم فسَّرها ووضّحها بقوله ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي إنكم لتأتون الذكور في الأدبار، وذلك منتهى القذارة والسفاهة، ومثلُ هذا تنفر عنه طبائع البهائم والحيوانات، فضلاً عن الإنسان الذي كرمه الله بالعقل والعلم!! وجريمةٌ أخرى ارتكبوها ﴿وتقطعون السبيل﴾ أي وتقطعون طريق الناس فتقتلونهم وتنهبون أموالهم

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾

﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ النادي: المجلسُ، أي وتفعلون في مجلسكم وناديكم ما لا يليق من أنواع المنكرات، **قال مجاهد**: «كانوا يأتون الذكور أمام الملأ، يرى بعضهم بعضاً» وهذا منتهى الخسة والدناءة، بل منتهى الحيوانية ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي فما كان جواب قومه له، حين نصحهم وذكَّرهم، إلاَّ أن قالوا على سبيل الاستهزاء: ائتنا بالعذاب الذي تعدنا به، إن كنت صادقاً فيما تهدِّدنا به!! ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي انصرني يا رب على هؤلاء السفهاء والأشقياء، الذين لا يُرجى منهم خير!! ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ أي ولما جاءت الملائكة لتبشير إبراهيم بمولود، وإهلاك قوم لوط، ومرُّوا في طريقهم على إبراهيم، أخبروه بأن الله أرسلهم لإهلاك قوم لوط، لأنهم قوم ممعنون في الظلم والفساد، فجادلهم في شأن ابن أخيه «لوط» عليه السلام ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي قال لهم إبراهيم: كيف تهلكون أهل هذه القرية، وفيها هذا النبي الصالح «لوط» عليه السلام؟ قالوا: نحن عالمون به وبمن فيها من المؤمنين، وسننجِّيه هو وأهله، إلا امرأته فإنها ستهلك مع الهالكين، ومعنى ﴿**الغابرين**﴾ الباقين في العذاب، لأنها كانت كافرة، ثم ساروا من عنده، ودخلوا على لوط في صورة شبَّان حسان ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي ولما أن دخلوا على لوط، حزن بسببهم، وضاق صدره من مجيئهم، لأن الملائكة جاءته بصورة شبابٍ مردٍ، حسانٍ

﴿وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾

الوجوه، فخاف عليهم من قومه، فأعلموه أنهم رسل الله، وليسوا بشراً ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي قالوا له: لا تخف علينا ولا تحزن بسببنا، فلن يصل هؤلاء المجرمون إلينا، وسننجيك أنت وأهلك جميعهم، إلا امرأتك فإنها ستهلك مع الهالكين ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي سننزل على أهل هذه القرية «سدوم» عذاباً شديداً من السماء، بسبب فسقهم وفجورهم المستمر، **قال ابن كثير**: اقتلع جبريلُ قراهم من تحت قرار الأرض، ثم رفعها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، وأرسل عليهم حجارة من سجيل منضود - أي من نار حامية كاوية - وجعل الله مكانها بحيرة خبيثةً منتنة، وجعلهم عبرة لمن يعتبر!! ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي تركنا هذا القريةَ علامةً بيِّنة واضحة، هي بقاء آثار منازلهم الخربةَ، التي انقلبت بهم، لقوم يتفكرون بعقولهم ويتدبرون، ولم تزل آثار انقلاب ديارهم باقية إلى عصر نبينا ﷺ حيث كان أهل مكة يمرُّون عليها في أسفارهم، فيرونها مدمَّرة خربة، كما قال سبحانه **﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين. وبالليل أفلا تعقلون﴾**؟ ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي وأرسلنا إلى أهل مَدْينَ أخاهم (شعيباً)، من نسبهم وعشيرتهم، فقال لهم بطريق النصح والتذكير: يا قوم وحِّدوا الله، وخافوا بأسه وانتقامه، ولا تسعوا بالإفساد بالأرض، بأنواع البغي والعدوان ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي فكذبوا رسولهم شعيباً، فأخذهم الله وأهلكهم برجفةٍ عظيمة مدمِّرة، زلزلت بهم ديارهم، وصيحة هائلة أزهقت أرواحهم، فأصبحوا هلكى جاثمين على الركب، ميِّتين،

وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

أشباحاً لا أرواح فيها ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي أهلكنا عاداً وثمودَ، وقد ظهر لكم إهلاكُنا لهم، حيث كنتم تمرون في أسفاركم على مساكنهم، فتبصرونها خراباً يباباً، أفلا تعتبرون وتتعظون!؟ وقد حسَّن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة، من الكفر والمعاصي حتى رأوها حسنة، وكانوا قبل ذلك عقلاء متمكنين من النظر والاستدلال، **وقال قتادة: ﴿وكانوا مستبصرين﴾** أي معجبين بضلالهم، حكاه البخاري عنه ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ أي وأهلكنا كذلك الجبابرة الطغاة «قارون» صاحب الكنوز والخزائن، و«فرعون» الطاغية الجبار، الذي ادَّعى الألوهية، صاحب الملك والسلطان، و«هامان» وزير فرعون الذي كان يعينه على الظلم والطغيان، ولقد جاءهم موسى بالحجج والمعجزات الباهرة، فاستكبروا عن عبادة الله وطاعة رسوله، وما كانوا ناجين من عذابنا!! ثم فصَّل تعالى عذاب كلٍ من هؤلاء الطغاة المفسدين فقال ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي فكل واحدٍ من هؤلاء المجرمين عاقبناه بجنايته، وكانت عقوبته بما يناسبه، فمنهم من أرسلنا عليه (ريحاً عاصفاً) فيها حصباء من السماء، كقوم لوط، وعاد، ومنهم من أخذته (صيحة العذاب) مع الرجفة، كقوم شعيب وثمود، صاح بهم جبريل صيحة، انشقَّت

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾

لها قلوبهم، وزهقت لها أرواحهم، ومنهم من (خسفنا به الأرض) حتى غاب فيها كقارون وأصحابه، ومنهم من (أغرقناه بالطوفان) أو بالبحر، كقوم نوح وفرعون وجنوده، وما كان الله ليعذبهم بغير ذنب، فيكون لهم ظالماً، ولكنهم ظلموا أنفسهم بالكفر والتكذيب، فاستحقوا العذاب والدمار.. ثم ضرب تعالى مثلاً للكفار، عبدة الأوثان والأحجار، فقال سبحانه ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾أي مَثَلُ هؤلاء الكفار في عبادتهم للأوثان، كمثل العنكبوت صنعت لها بيتاً، لا يغني عنها من حر ولا برد، لتفاهته وحقارته، يتهاوى من هبَّة نسيم أو نفخة فم، ولو كان لهم عقول سليمة ما عبدوها.. تمثيل رائع، وتصوير عجيب يأخذ بالألباب، فقد مثَّل تعالى لهؤلاء الكفار، في عبادتهم للأصنام والأحجار، بالعنكبوت التي تبني لها بيتاً، تظن أنه يقيها من عوامل الدهر، وهو بيت هزيلٌ واهن، يكاد يطير من هبَّة ريح، ولهذا كان سريع الزوال، كذلك هؤلاء الكفار يعتمدون على أوثان وأصنام، لا تسمع ولا تنفع، ولا تغني عن عابدها شيئاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾أي إن الله هو العالم بما يعبدونه من دونه، لا يخفى عليه ذلك، وسيجازيهم على كفرهم، وهو العزيز في ملكه، الحكيمُ في صنعه، وهذه الأمثال نوضِّحها ونبيِّنها للناس، لتقريبها إلى أذهانهم، وما يدركها إلاَّ ذوو البصائر، العقلاء من البشر، لا المجانين الذين لا يفهمون من الحياة، إلا اللذائذ والشهوات ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾أي خلق جلَّ وعلا السموات والأرض بالحق، لا على وجه العبث واللعب، فالكونُ كلُّه يسير بنظام محكم، وفي هذا النظام الدقيق، أكبرُ شاهد على

﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

وحدانية رب العالمين، وإنما يدرك هذا المؤمنون، لا الغافلون الجاحدون ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ أي رتّل يا أيها الرسول هذا القرآن، وداوِمْ على الصلاة بأركانها وشروطها وآدابها، فإن الصلاة عماد الدين، وهي معراج المتقين، تنهى المؤمن عن فعل القبائح والمنكرات، وتحجزه عن الهبوط في مستنقع الشهوات ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ أي ولذكركَ لله أعظمُ من كلِّ شيء في الدنيا، وهو أن تتذكر عظمته وجلالَه، وتذكر ربك في بيعك وشرائك، وفي جميع شؤون حياتك، ولا تغفل عنه أبداً، ليكون حصناً لك من الشيطان، والله يعلم جميع أعمالكم وأفعالكم فيجازيكم عليها!! ربط هذا الدين العظيم، بين (العقيدة)و(العبادة)، ومزج بين الإيمان والعمل، فلا عمل بدون عقيدة، ولا إيمان بغير عبادة، والصلاة أعظم مذكِّر ومنبِّه للمسلم، ليستقيم على شريعة الله ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي لا تجادلوا اليهود والنصارى إلاَّ بالطريقة الحسنى، من الرفق واللين، فالخشونةُ في الكلام تضرُّ ولا تنفع، إلا الظالمين المكابرين منهم ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي وقولوا في مناظرتكم لهم: نحن مؤمنون بالقرآن ومؤمنون بالتوراة والإنجيل، وإلهنا وإلهكم واحد، فينبغي أن يكون بين أهل الأديان التفاهم لا الخصام والقتال، وقولوا لهم نحن خاضعون مستسلمون لحكم الله!! عن أبي هريرة قال (كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، ويفسّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: لا تصدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم **﴿وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾** رواه البخاري.. وإنما أُمرنا بمجادلتهم بالحسنى، لأنهم في الجملة يؤمنون بالله، وبالوحي، والبعث والنشور، فهم أقرب من المشرك الوثني،

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ

ولذلك جاز للمسلم أن يتزوج من نساء أهل الكتاب، ليكون بينهم التقارب، والله أعلم ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي وكما أنزلنا على الرسل الكتبَ السماوية، كذلك أنزلنا عليك القرآن العظيم، فالمؤمنون الصادقون من أهل الكتاب، يؤمنون بالقرآن، لأنه جاء مصدِّقاً لما معهم، مثل «عبد الله بن سلام» وأمثاله ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي ومن قومك أهل مكة من يؤمن بالقرآن، لأنهم يريدون معرفة الحق ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي وما يكذب بآياتنا وينكرها، إلاّ كلُّ شقي موغلٍ في الكفر والضلال ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي وما كنت يا محمد تعرف القراءة ولا الكتابة، قبل نزول هذا القرآن عليك!! لأنك أميٌّ، ولو كنت تقرأ أو تكتب، لشكَّ الجهلة أهلُ الضلال في القرآن، وقالوا: لعلَّه جمعه وتلقَّاه من الكتب السابقة، وحينئذٍ ينسبونك إلى الافتراء على الله، لذلك جعلناك أمِّياً لتكون المعجزة ساطعة ظاهرة. **قال ابن كثير**: لقد لبثتَ يا محمد في قومك عمراً لا تقرأ كتاباً ولا تحسن الكتابة، بل كلُّ أحدٍ من قومك يعرف أنك أميٌّ لا تقرأ ولا تكتب، وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً إلى يوم الدين، لا يحسن الكتابة ولا يخطُّ حرفاً ولا سطراً بيده، بل كان له كُتَّاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم، وهذه صفة محمد في الكتب المتقدمة، كما قال سبحانه **﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي﴾** اهـ ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي بل هذا القرآن ناطق بصدقك، فيه آيات واضحات الدلالة على الإعجاز، وأنه تنزيل العزيز الحميد، محفوظة في صدور العلماء وما يكذب بهذا القرآن، إلاّ الظالم الفاجر، المتجاوز الحد في الشر والفساد، والمكابرة والعناد ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ

عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾

عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ أي وقال المشركون من كفار مكة: هلاَّ أُنزل على محمد معجزات خارقة، مثل (ناقة صالح)، و(عصا موسى)، و(مائدة عيسى) ونحو ذلك، فقل لهم: إن أمر الخوارق والمعجزات راجعٌ إلى الله عزَّ وجل، وإلى حكمته وتدبيره، وليس لي أن أقترحَ على الله شيئاً، وليست هذه وظيفتي، وإنما أنا منذر أخوّفكم عذاب الله!! قال تعالى ردّاً على سفههم وجهلهم: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾؟ أي أولم يكفهم آية معجزة، أننا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم، الذي عجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته، وأنت رجلٌ أميٌّ لا تقرأ ولا تكتب؟ أفيطلبون معجزة أخرى غير القرآن، وقد أتيتهم بمعجزة المعجزات؟ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي إن في إنزال القرآن لنعمة عظيمة على العباد، وتذكرة بليغة لقوم غرضهم الإيمان، لا التعنت والطغيان!! ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أي قل لهم: كفى أن يكون الله شاهداً على صدقي، يشهد لي بأني رسوله، وأما الكافرون بالرحمن العابدون للأوثان، فهم الأشقياء الخاسرون، لأنهم خسروا آخرتهم وسعادتهم، وذلك نهاية الخسران ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي يستعجلك هؤلاء المشركون بالعذاب بقولهم ﴿فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ وكان الأحرى بهم لو كانوا عقلاء، أن يطلبوا الرحمة والرضوان بدل العذاب، وهو آتيهم لا محالة، ولولا وقت محدَّد لعذابهم، لعجَّل الله لهم العذاب حين طلبوه، وليأتينهم فجأة من حيث لا يدرون ولا يشعرون ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ الآية وردت

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾

مورد الاستغراب والتعجب، من قلة فطنتهم ومن تعنُّتهم وعنادهم، **والمعنى**: كيف يستعجلونك بالعذاب، وجهنَّم محيطةٌ بهم، لا مفرَّ لهم منها؟ وكيف يستعجل من يوشك أن تُطبق عليه جهنم، وهو غافل مخدوع؟ ثم يصوِّر القرآن حالهم في جهنم، وهم في الدنيا ساهون غافلون، فيقول سبحانه ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يوم يجلِّلهم العذاب من جميع جهاتهم، من فوقهم ومن تحتهم، ويقول الله لهم: ذوقوا جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا، من السخرية والإجرام، وسيِّء الأعمال، حيث كنتم تسخرون من العذاب، ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ نداء رباني حبيب، يلامسُ أوتار القلوب، أضافهم إلى نفسه تكريماً وتشريفاً، ووصَفَهم بالإيمان الصادق، فهم عباده المؤمنون، وهو ربهم الرحيم، أي يا عبادي إذا لم تقدروا على إقامة الدين في أرض، فهاجروا من وطنكم، فأرضُ الله واسعة فسيحةٌ، لتعبدوا ربكم دون أذى ولا ظلم، **قال قتادة**: نزلت في ضعفاء المسلمين، الذين بقوا في مكة، تحت تسلُّط المشركين وأذاهم ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي إن الموت لا بدَّ منه، ولن يُخلَّد أحد في هذه الدار، فإذا كانت مفارقةُ الوطن صعبة على النفس، فإن مفارقة الدنيا آتية لا محالة، ثم إلى الله المرجع والمآب!! وكأن الآية تقول: اصبروا على الأذى والهجرة من الوطن، فأيام الدنيا قصيرة، وعند الله عوضٌ عمَّا يفوتكم من النعيم في الدنيا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ أي والذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، لنسكننَّهم وننزلنَّهم قصوراً رفيعة في الجنة، عوضاً عما فاتهم في الدنيا، تجري من تحت هذه القصور أنهارُ الجنة، مخلَّدين فيها إلى غير نهاية، نعم هذا الجزاء أجراً للعاملين في مرضاة الله ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي هؤلاء

وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

الذين ينالون هذه المراتب الرفيعة، هم الصابرون على تحمُّل المشاق في سبيل الله، المعتمدون على الله في جميع أحوالهم وأمورهم، وإذا كان خاطر الرزق، لمن هاجر من الوطن، يتردَّد على فكر المؤمن، فإنَّ ربه لن ينساه، فالذي رزق البهائم، لن ينسى عبده المؤمن، ولهذا قال سبحانه ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي وكم من دابة ضعيفة عاجزة، لا تقدر على كسب رزقها بنفسها، اللهُ يرزقها مع ضعفها؟! فلا تخافوا الفقر إذا هاجرتم في سبيل الله، فإن الذي يرزق البهائم، لن يتخلَّى عنكم، والغرضُ تقويةُ قلوب المؤمنين، إذا خافوا الجوع والفقر، في الهجرة من أوطانهم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي ولئن سألت المشركين: من خلق السموات والأرض؟ وسخَّر الشمس والقمر، يجريان بنظام دقيق لمصالح البشر؟ فسيقرون بأن الخالق هو الله، لا أصنامهم التي نحتوها من حجارة، ثم عبدوها من دون الله، فكيف يُصرفون من الحق إلى الباطل؟ ومن الهدى إلى الضلال؟ ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي يوسِّع الرزق على من يشاء، ويضيّقه على من يشاء، ليظهر الشاكر والصابر، ويمتحن عباده بالغنى والفقر، وهو سبحانه العليم بمصالح العباد، فلو وسَّع الرزق للجميع لطغوا وأفسدوا كما قال سبحانه ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء﴾ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي ولئن سألتهم من أنزل من السماء المطر، فأخرج لكم به الزرع والثمر، بعد جدب الأرض ويبسها؟ ليقولُنَّ: الله، قل لهم: حمداً لله تعالى على ظهور الحجة، حيث

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

أقررتم بألسنتكم أن فاعل ذلك هو الله، لا الأصنام، ﴿**بل أكثرهم لا يعقلون**﴾ أي ليس لهم عقل يفكّرون به، حيث يقرّون بأن الله هو الخالق الرازق، ثم يعبدون غيره ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي وليست هذه الحياة الدنيا دائمة خالدة، بل هي ظلٌّ زائل، ومتاعٌ فانٍ، وما فيها من زينة وشهوات وملذات، يشبه اللهو واللعب، الذي هو من شأن الصبيان والسفهاء، لا من شأن العقلاء، فينبغي أن لا ينخدع بها المؤمن ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي وإن الآخرة وما فيها من النعيم الدائم، هي الحياة الحقيقية السعيدة، لمن أراد الراحة والهناء، أمَّا الدنيا فهي دار البلاء، ولو كان عندهم علم وفهمٌ، لم يُؤثروا دار الفناء على دار البقاء، وما أحسن قول القائل:

تأمَّلْ في الوُجودِ بِعَيْنِ فِكْرٍ ... تَرَى الدُّنْيا الدنيةَ كالخَيالِ
ومَنْ فيها جَميعاً سَوْفَ يَفْنَى ... ويَبْقَى وجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلاَلِ

ثم حكى تعالى عن المشركين، التجاءهم إلى الله وقتَ الشدة فقال ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي وإذا ركبوا في السفن، وخافوا الغرق، وشعروا بالخطر يداهمهم، دعوا الله مخلَصين له الدعاء، لعلمهم أنه لا يكشف الشدائد عنهم إلاّ هو سبحانه، فلمَّا أنقذهم من أهوال البحر، ونجَّاهم إلى جانب البر، إذا هم يعودون إلى الكفر، وعبادة الأوثان، ناسين ربهم الذي أنقذهم من ذلك الكرب الرهيب، ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أمرٌ على وجه الوعيد والتهديد، أي فلْيكفروا بما آتيناهم من نعمة الإنقاذ والإنجاء، ولْيتمتعوا بهذه الدنيا الفانية ببقية أعمارهم، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم ومصيرهم المشئوم!! **قال عكرمة**: كان أهل الجاهلية إذا ركبوا البحر، حملوا معهم الأصنام، فإذا اشتدت الريحُ، وخافوا على أنفسهم الغرق، ألقوا الأصنام في البحر، وصاحوا: يا ربُّ، يا ربُّ!! **وروى الحافظ ابن كثير**: «أن عكرمة بن أبي جهل، لمَّا فتح رسولُ الله ﷺ مكة، فرَّ منها هارباً، فلما ركب البحر يريد الحبشة، اضطربت بهم

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

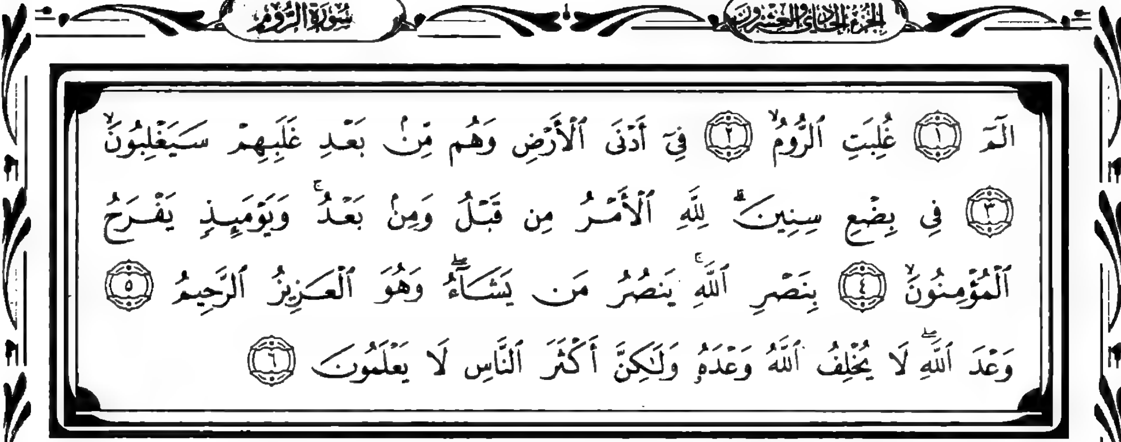
السفينة وكادوا أن يغرقوا، فقال أهلها: يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء، فإنه لا يُنجي ههنا إلا هو سبحانه، فقال عكرمة: واللهِ لئن كان لا يُنجي في البحر غيرُه، فإنه لا يُنجي أيضاً في البَرّ غيرُه، ثم قال: اللهمَّ لك عليَّ عهدٌ، لئن خرجتُ سالماً، لأذهبنَّ فلأضعنَّ يدي في يد محمد رسول الله ﷺ، فلأجدنَّه رءوفاً رحيماً» فلما رجع مكة أتى رسول الله فبايعه على الإسلام، تفسير ابن كثير ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ أي أَلَمْ ير هؤلاء الكفار، رؤيةَ نظرٍ واعتبار، أنا جعلنا بلدهم مكة، حرماً آمناً من القتل والنهب والسلب؟ والناسُ حولهم في الجزيرة العربية يُقتلون ويُسلبون؟ ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي أفبعد هذه النعمة الجليلة، (نعمة الأمن والاستقرار) يؤمنون بالأوثان ويكفرون بالرحمٰن؟ ذكَّرهم تعالى بنعمة الأمن في مكة، فقد كانوا في أمنٍ واستقرار، بسبب بيت الله الحرام، أفلا يشكرون الله على هذه النعمة كما قال سبحانه: ﴿أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ ثم قال تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي لا أحد أظلم ممن عَبَد غير الله، وكذَّب بالقرآن حين جاءه؟ والمراد بهم أهل مكة الذين كذَّبوا سيد المرسلين، أليس في جهنم مأوى ومسكن لهؤلاء المجرمين المكذبين؟ ثم ختم الله السورة ببيان فضل الجهاد والمجاهدة للنفس والهوى، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي والذين جاهدوا النفس، والهوى، والشيطان، وجاهدوا الكفرةَ أعداء الدين، ابتغاء مرضاتنا، لنبصرَّنهم بطريق الخير والسعادة الموصل إلينا، وإن الله مع المؤمنين المحسنين، بالنصر والعون والهداية!

قال البوصيري:

وجَاهِدِ النَّفْسَ والشَّيطَانَ واعْصِهِمَا وإنْ هُمَا مَحَّضَاكَ النُّصْحَ فَاتَّهِمِ

انتهى تفسير سورة العنكبوت

● ● ●



الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾

تفسير سورة الروم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ (آلم) الحروف المقطعة للإشارة إلى إعجاز القرآن ﴿غلبت الروم﴾ أي هُزم جيشُ الروم في أقرب أرضهم من أطراف الشام، والرومُ من بعد الهزيمة وغَلَبة الفرس عليهم، سيغلبون فارسَ وينتصرون عليهم ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي سينتصرون عليهم في مدة قصيرة، لا تتجاوز بضعة أعوام، لله الأمر والتدبيرُ ﴿من قبل﴾ حين هُزموا ﴿ومن بعدُ﴾ حين ينتصرون، ويغلبون أعداءهم الفرس!! وإنما يفرح المؤمنون بهذا النصر لأن أهل الكتاب أقربُ إلى المؤمنين من المجوس، فانتصارُ أهل الكتاب انتصارٌ للإيمان والعقيدة، ينصر تعالى من يشاء من عباده، وهو العزيز أي الغالبُ في انتقامه من أعدائه، الرحيمُ بأوليائه وأحبابه ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي ذلك وعدٌ مؤكدٌ لا يمكن أن يتخلَّف، لأنه وعدٌ من الله القوي الكبير، ولكنَّ أكثر الناس يجهلون حكمة الله وتدبيره.. وهذه الآيات إحدى المعجزات الغيبيَّة، فقد جرت بين الروم والفرس حربٌ طاحنة، فغلبت الفرسُ الرومَ، وانهزم الروم أمام جحافل الفرس انهزاماً مريعاً، وفرح المشركون من كفار مكة، لأن الفرس كانوا مجوساً «أهل أوثان» والرومُ كانوا نصارى «أهل كتاب» فقال المشركون للمؤمنين لقد غلب إخواننا من الفرس على إخوانكم من الروم، ولنظهرنَّ عليكم، فحزن المسلمون وكانوا يحبون أن تظهر الروم على الفرس، فنزلت الآيات، وقد راهن «أبو بكر» المشركين بعد إذن

يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ

رسول الله ﷺ وكسب الرهان، وهي مائة ناقة فتصدَّق بها.

قال العلامة أبو السعود: «وهذه الآيات من البيِّنات الباهرة، الشاهدة بصدق النبوة، وكون القرآن من عند الله عز وجل، حيث أخبر عن الغيب، الذي لا يعلمه إلا العليمُ الخبير، وقد وقع كما أخبر» أقول: وجهُ الإعجاز أن القرآن أخبر أن الروم ستنتصر بعد هزيمتها في بضع سنوات ـ والبضعُ ما بين الثلاث إلى التسع ـ ومعلوم أن الأمة المسحوقة المغلوبة، لا تستطيع أن تستعيد قوتها، إلا بعد عشرات أو مئات السنين، لا في سنوات قلائل، وقد وقعت الحرب وانتصر الروم على الفرس في فترة قصيرة، فكان ذلك من أعظم المعجزات الغيبية ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ أي علومهم سطحية، لا تعدو أن تكون قشوراً، يعلمون أمر معايشهم ومكاسبهم، متى يزرعون؟ ومتى يحصدون؟ أمَّا العلم الصحيح النافع، الذي يسعدهم في آخرتهم فيجهلونه!! وأثبت تعالى لهم العلم السطحي، الذي هو تدبير أمور الحياة، كالزراعة، والصناعة، والبناء، وملء البطون كالبهائم بلذيذ الطعام، وغفلتهم عن الآخرة، وما يستتبعها من الخلود في النعيم، أو الجحيم! . ثم يأتي التوبيخ للمشركين، على تركهم التأمل والنظر في ملكوت السموات والأرض، فيقول سبحانه ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ أي أولم يتفكَّروا بعقولهم وألبابهم، في هذا الكون الفسيح، ليعلموا أن الله العظيم الجليل، ما خلق السموات والأرض عبثاً؟ فإن هذا العالم بما حواه من سموات وأرض، وشمس وقمر، ونجوم وأفلاك، وبحار وأنهار، كلُّه ينطق بوجود الله ووحدانيته، فلماذا يَعْمُون عن هذه الآيات؟ ولا يتفكرون فيما أبدع الله من هذه المخلوقات؟ خلق كل هذا الوجود لإقامة الحقِّ، إلى وقتٍ ينتهي فيه هذا العالَمُ وهو يوم القيامة، وأكثرُ الناسِ منكرون جاحدون للبعث والحساب ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ أي أفلم

كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾

يسافروا فينظروا مصارع الأمم قبلهم، كيف أُهلكوا بتكذيبهم لرسلهم، وعصيانهم لأوامر الله؟ ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي كانوا أقوى من أهل مكة أجساداً، وأطول منهم أعماراً، وأكثر منهم أموالاً وأولاداً!! حرثوا الأرض للزراعة، وحفروها لاستخراج الكنوز والمعادن، وعمروها بالأبنية المشيدة، والقصور الفريدة، أكثرَ مما عمرها هؤلاء المكذبون، من أهلِ مكة ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ أي جاءتهم الرسل بالمعجزات الواضحات، والآيات البيِّنات، وفي الآية حذفٌ تقديره «فكذّبوهم فأهلكهم الله» وما كان الله ليهلكهم بغير ذنب، ولكنهم ظلموا أنفسهم بالتكذيب والإنكار، فاستحقوا الهلاك والدمار ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي ثم كانت عاقبة المجرمين المكذبين بآيات الله، أفظع وأشنع العقوبات، وهي إهلاكهم الفظيع المريع، بسبب كفرهم واستهزائهم برسل الله ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي الله جلَّ جلاله، هو الذي ينشىء الخلق من العدم، ثم يعيدهم بعد فنائهم إلى الحياة مرة أخرى، ثم إليه مرجعكم للحساب والجزاء ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أي ويوم تأتي القيامةُ ويُحشر الناس للحساب، ييأسُ المجرمون ويفتضحون، ويصبحون حيارى يائسين لا أمل لهم في نجاة، ولا رجاء لهم في خلاص، والإبلاسُ في اللغة: الحيرةُ واليأسُ.

قال ابن عباس: أي ييأس المجرمون ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ أي ولم يكن لهم من الآلهة التي عبدوها، من يشفع لهم أو يجيرهم من

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

عذاب الله، كما كانوا يزعمون في الدنيا، وكفروا بآلهتهم حين يئسوا منهم ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ أعاد ذكر الساعة للتهويل وتفخيم أمرها، أي ويوم تقوم القيامةُ، يتفرَّقُ المؤمنون والكافرون، فيصبحون فريقين، كما قال سبحانه ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾.

قال الحسن البصري: لئن اجتمعوا في الدنيا، فوالله ليتفرقُنَّ يوم القيامة، هؤلاء في أعلى علّيين، وهؤلاء في أسفل سافلين.. ثم فصَّل تعالى أحوال الفريقين فقال ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي فأما المؤمنون الأبرار، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، فهم في روضات الجنة، يُسرُّون ويُنعَّمون، في أحسن حال، وأهنأ عيش، وأما الكفار الفجار، الذين كذَّبوا بالبعث والنشور، فهم في عذاب جهنم مقيمون فيها أبداً، والمحضَرُ: الذي يُساق إلى العذاب سوقاً، ليحضر نار الجحيم ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ أي سبِّحوا الله ونزِّهوه في جميع الأوقات والأحوال، في الصباح، والمساء، والظهيرة، والعشاء، وهو جلَّ وعلا المحمود في السموات والأرض، تحمده الملائكةُ الأبرار سُكان السماء، ويحمده المؤمنون الأخيار سُكَّان الأرض، وجملةُ ﴿وله الحمد في السموات والأرض﴾ جملة اعتراضية، وأصلُ الكلام: سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، وعشياً وحين تظهرون، فنبَّه تعالى بهذه الجملة الاعتراضية، أنه سبحانه المستحق للحمد والثناء، في كل حين وزمان، حمده الناس أم لم يحمدوه ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي يخرج تعالى

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

بقدرته النباتَ من الحبِّ، والحبَّ من النبات، والشجرةَ من النواة، والنواة من الشجر، والإنسانَ من النطفة، والنطفة من الإنسان!! وهذا الصنعُ معجزةٌ خارقة يراها الناس في كل يوم ولحظة، ولكنهم يغفلون عنها للألفة والتكرار، تنشقُّ البيضة فيخرج منها طائر أو دجاجة، وتبيضُ الدجاجةُ فيخرج منها البيضُ، وتنشقُّ البيضة فيخرج منها نخلة، وتحمل النخلةُ التمرَ فتخرج منها النواة، ويلقي الإنسانُ النطفة في رحم الزوجة، فإذا به إنسان سميعٌ بصير!! إنها دورةٌ دائبة عجيبة، لمن تأملها بنور الفكر والبصيرة، وهي نموذج (للبعث والنشور)، ولهذا ختمت الآية بقوله ﴿**وكذلك تخرجون**﴾ أي كما يحي الله الأرض القاحلة المجدبة بالمطر، فيخرج منها النبات والثمر، كذلك يخرجكم الله من القبور للبعث والنشور!! ما أعظم قدرة الله في خلقه!! فالإنسانُ نطفةٌ من ماء مهين، هذه النطفة الميتة، يتخلَّق منها إنسان حيٌّ ناطق، سميع، بصير، وقل مثل ذلك في النبات، والزرع، والشجر، والثمر، وفي البهائم والحيوانات، تظهر هذه المعجزة الخارقة في كل يوم، بل في كل لحظة، فالذي خلقها يردُّها إلى الحياة بعد الموت ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ أي ومن آياته جلَّ وعلا الباهرة، الدالة على وحدانيته وكمال قدرته، أن خلق أصلكم أيها الناس ـ آدم عليه السلام ـ من تراب، تراب جامد لم يشمَّ رائحة الحياة، ثم أصبحتم بشراً عقلاء، تسيرون في الأرض وتتحركون، أليست هذه آية باهرة؟ هذه النقلة الضخمة تُثير التأمل في صنع الله وإبداعه!! وخلقُ الإنسان أعظم برهان على قدرة الإله الخالق المبدع ﴿**الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى**﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي ومن آياته الباهرة أيضاً، أن خلق لكم من جنسكم وصنفكم، زوجاتٍ آدميات ـ ولم يجعلهن من نوع القردة أو الجان ـ خلقهنَّ من جنسكم ليتمَّ التعاون والتعارفُ، والتفاهم والتآلفُ، ولو جعل الإناث من جنس آخر كالقِرَدة، أو الضباع، أو الحيوان أو الجان، لما حصل هذا الائتلاف بين الأزواج ﴿**لتسكنوا إليها**﴾ أي لتميلوا إليهن وتألفوهنَّ، فالمرأةُ سكنٌ للرجل،

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾

يجد بجوارها الراحةَ والأنس والاستقرار ﴿وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ أي وجعل بين الزوج والزوجة، المحبَّةَ والشفقةَ.

قال ابن عباس: (المودَّةُ): حبُّ الرجل امرأته، و(الرحمةُ): شفقتُه عليها أن يصيبها بسوء، ولولا هذه المودّة والرحمة، ما عطف رجل على امرأة **﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾** أي عبراً جليلة، لقوم يتفكرون في قدرة الله وعظمته، فيعرفون حكمته السامية!.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ﴾ أي ومن آياته العظيمة، الدالة على كمال قدرته ووحدانيته، خلقُ هذا الكون البديع، خلق السموات في ارتفاعها واتساعها، وما فيها من (النجوم والشمس والقمر)، وخلقُ الأرض وما فيها من (الإنسان والحيوان، والبحار والأنهار، والشجر والثمر)، **﴿واختلاف ألستكم﴾** أي لغاتكم من عربية، وتركية، وهندية، وانجليزية، وغيرها من اللغات التي لا تحصى **﴿وألوانكم﴾** من أبيض، وأسود، وأصفر، وأحمر، حتى لا يشتبه شخص بشخص، ولا إنسان بإنسان، مع أنهم جميعاً من ذرية آدم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ أي دلائل وعبراً لأولي العلم والفهم، خصَّ العلماء بالذكر، لأنهم أهل الاستدلال والنظر، دون سائر الخلق الذين لا يفهمون ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ﴾ أي ومن دلائل قدرته ووحدانيته، نومكم بالليل، ونومُكم وقت الظهيرة بالنهار، يعني «القيلولة» وطلبكم للرزق والتكسب في وضح النهار ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي يسمعون كلام الله سماع فهمٍ واستبصار، وكونُ النوم من آيات الله الباهرة، واضحٌ ظاهر، فإن جسم الإنسانِ يحتاج إلى الراحة، والإنسانِ مجموعة من لحم، ودم، وأعصاب، فهو كالآلة «الميكانيكية» إذا لم تتوقف بين الفترة والفترة، أصابها الدمار والعطب، ولا يعرف قيمة النوم ونعمتَه، إلاّ من أصابه الأرَقُ، فإنه يتقلَّب طيلة الليل على الفراشِ، يتمنى أن تغمُضَ عيناه، ولو لزمنٍ قصيرٍ أو دقائق، وإذا لم ينم الإنسانُ أياماً أصبح عليلاً مريض الجسم، وأضحى كالسكران، فسبحان من جعل النوم راحة للإنسان!! شكى بعض الصحابة لرسول الله ﷺ ما يصيبه من الأرق، فقال له ﷺ

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾

قل: «اللهمَّ غارت النجومُ، وهدأت العيونُ، وأنت حيٌّ قيوم!! يا قيُّوم، أنِمْ عيني، وأهْدأ ليلي) قال: فقلتُها فذهب عني الأرَقُ)، رواه الطبراني ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي يريكم البرق خوفاً من الصواعق، وطمعاً في الغيث والمطر، وينزِّل المطر فيحي به الأرض، بعدما كانت ميْتة، يابسة، مجدبة، لا نبات فيها ولا ثمر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي فيما ذُكر من البرق والمطر، وإحياء الأرض بعد جدبها، لعظاتٍ وعِبَراً، لقوم يستعملون عقولهم، في النظر إلى بدائع صنع الله ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي ومن آياته الباهرة، أن يقوم الكونُ بهذا ا لنظام الدقيق المحكم، فتقف السماء بلا عَمَد، والكواكب تسير في مداراتها دون اصطدام ولا اضطراب، والأرض مع حركتها ودورانها لا تنكفىء بأهلها، ولا تنقلب بسكانها، والكلُّ يجري بحكمته تعالى وتدبيره، ثم إذا دعاكم «إسرافيل» إلى الخروج من القبور، عند النفخة الثانية في الصور، إذا أنتم تخرجون فوراً دون إبطاء ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراعاً﴾ وقد رُوي إن إسرافيل ينادي: يا أهل القبور، إن الله يأمركم أن تقدموا للحساب والجزاء، فلا تبقى نَسَمةٌ من الأولين والآخرين، إلاّ قامت تنظر ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي كلُّ ما في الوجود منقادٌ لأمره وتدبيره، من الملائكة، والإنس، والجن، لا يشذُّ أحدٌ عن إرادته.. ذكر تعالى في هذه الآيات، سبعَ دلائل وبراهين، على وجوده ووحدانيته وتدبيره، وختمها ببيان قدرته على إعادة خلق البشر، بعد موتهم وفنائهم، ليكون ذلك برهاناً ساطعاً على أمر البعث والنشور، فلهذا قال سبحانه بعد هذه الدلائل والبراهين ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي هو سبحانه يُنشيء الخلق من العدم، ثم يعيدهم بعد الموت،

وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

للحساب والجزاء، وهو سهلٌ هيِّن عليه!! خاطب تعالى البشر بما يعقلون، فإنَّ الإعادة أسهل من الابتداء ـ في نظرهم ومنطقهم ـ وليس شيء على الله أهون أو أصعب، بل الكلُّ عنده هيّن، وإنما قرَّبه إلى أذهانهم فقال: ﴿وهو أهون عليه﴾ أي بالنسبة لتقديركم ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أي ضرب تعالى لكم مثلاً تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم، هل يرضى أحدكم أن يكون عبدهُ ومملوكُه، شريكاً له في ماله، الذي رزقه الله إيَّاه ﴿فأنتم فيه سواء﴾ أي تكونون مع عبيدكم متساويين في المال؟ ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ﴾ أي تخافون من عبيدكم على أموالكم، كما تخافون الأحرار مثلكم؟ فإذا كنتم لا ترضون أن يكون عبيدكم شركاءَ لكم في أموالكم، فكيف ترضون لله شركاء معه في الألوهية، وهم خلقُه وعبيده؟ ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي كذلك نوضِّح الآيات ونبيِّن الأمثال، لقوم يستعملون عقولهم في فهمها وإدراكها ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ «بل» للإضراب، والمعنى: ليس لهم عذر ولا حجة في إشراكهم بالله، بل هو اتباع للهوى، وتقليد أعمى للأسلاف، وهذا شأن الأحمق الجاهل، فمن يستطيع أن يهدي من أراد اللهُ إضلاله؟ وليس لهم منقذ ولا ناصر ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ أي استمسك بالدين الحق ـ دين الإسلام ـ الذي شرعه الله لعباده، وهو دين الفطرة والتوحيد، الذي خلق الناسَ وفطرهم عليه ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا تغيير لتلك الفطرة السليمة، صورتُه نفيٌ ومعناه

﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾

النهيُ، أي لا تغيِّروا خلق الله بتبديل الفطرة التي فطرهم الله عليها، ذلك هو الدين المستقيم، ولكنَّ أكثر الناس جهلة، لا يفكِّرون أن لهم خالقاً، فلذلك يتخبَّطون في ظلمات الكفر والضلال، وفي الحديث الصحيح (كلُّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجِّسانه..) الحديث رواه البخاري ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي الزموا طريق الهداية، حال كونكم راجعين إلى الله بالتوبة والإنابة، وراقبوا ربكم في السرّ والعلن، وأقيموا الصلاة على الوجه الذي يرضي ربكم، ولا تكونوا من المشركين المبدِّلين لفطرة التوحيد ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ أي من الذين غيَّروا دينهم وبدَّلوه، فأصبحوا فيه فِرَقاً وأحزاباً، كل جماعة وفرقة مسرورون بما هم عليه من الدين المعوَجِّ، ظناً منهم أنهم على حق، وهم غارقون في الغيِّ والضلال، كاليهود والنصارى، وعُبَّاد الأوثان، كلٌّ منهم يزعم أن دينه هو الدين الصحيح الذي يحبه الله ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ أي وإذا أصاب الناسَ الضُرُّ من قحط وجوع ومرض، تركوا دعاء الأوثان ودعوا ربهم منيبين إليه، لعلمهم أنه لا فرج عند الأصنام، وأنه لا يكشف الضرَّ إلا الله، فإذا كشف الله عنهم الكرب والبلاء، عادوا إلى الكفر والإشراك، والغرضُ التشنيعُ على الكفار، أنهم يلجأون إلى الله في الشدائد، فإذا انكشفت عنهم الغُمَّة، نسوا الله الذي عافاهم، وعادوا لعقائدهم الفاسدة ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ أي ليكفروا بنعم الله، وليتمتعوا بهذه الدنيا الفانية، فسوف يعلمون عاقبة هذا الجحود والكفران، وهو تهديد مفزع شديد، قال بعضُ العلماء: واللهِ لو توعَّدني شرطيٌّ لخفتُ منه، فكيف والمتوعد ههنا ربُّ العزة والجلال، الذي يقول للشيء كن فيكون؟ ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ﴾ أي هل أنزلنا على هؤلاء المشركين حجة واضحة، تقرُّهم على ما هم

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ

عليه من الشرك؟ أم أنزلنا عليهم كتاباً من السماء، فهو ينطق بإشراكهم بالله تعالى، حتى يستمسكوا بهذا الضلال؟ ليس عندهم على ذلك حجة ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ المراد بالفرح هنا: فرح البطر الذي يدمِّر الإنسان.

والمعنى: إذا أصاب الإنسانَ النعمةُ بَطِر، وإذا أصابته الشدة قَنِط ويئس، فهو عند الرخاء ينسى شكر النعمة، فيغرق في الملذات والشهوات، وعند الشدة ييأس من الفَرَج والرحمة، لعدم إيمانه ويقينه بالله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي أولم يعلموا أن الله يوسِّع الرزق على من يشاء، ويُضيِّق على من يشاء؟ فهو المتصرِّف في العباد، حسب حكمته ومشيئته، فلا داعي للفرح والبطر عند البسط، ولا لليأس والقنوط عند القبض، فإنما هي سنَّةُ الله في الابتلاء والاختبار **كما قال سبحانه: ﴿ونبلوكم بالشرِّ والخير فتنةً وإلينا ترجعون﴾** وفي هذا الابتلاء عظاتٌ وعِبَرٌ، لقوم يؤمنون بحكمة الخالق الرازق ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي فإذا علمتَ أن الله يعطي ويمنع، ويوسِّع ويُضيِّق، فلا تبخل بما رزقك الله من المال، فأعط القريب حقَّه من البرِّ والصلة، والمسكين حقَّه من الزكاة، والمسافر الذي انقطع في سفره، أعطه من الصدقة والإحسان، فهذا هو الذي يبقى لك ذخراً يوم القيامة، وهو خير للذين يريدون ثواب الله، ولا يبتغون بإنفاقهم الجاه والثناء، وأصحابُه هم الفائزون برضوان الله ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي وما أعطيتم يا معشر الأغنياء، شيئاً من أموالكم على وجه الربا، ليزيد مالكم ويكثر به، فلا ينمو ولا يكثر عند الله، لأنه مالٌ حرام، وكسب خبيث

وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤١﴾

يمحقه الله ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات﴾ ولا يبارك الله فيه ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ أي وما أعطيتم أحداً من الفقراء، بقصد الزكاة أو الإحسان، تريدون بذلك وجه الله، فهذا هو الذي يبارك الله فيه، ويضاعف لكم به الأجر والثواب!! ثم عاد إلى التشنيع على المشركين، في عبادتهم لغير الله، وهم يعلمون أن الله وحده هو الخالقُ الرازق، فقال سبحانه ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي الله جلَّ وعلا هو الخالق والرازق للعباد، وهو الذي يُحيي الخلقَ ثم يميتهم، ثم يعيدهم إلى الحياة مرة ثانية ليجازيهم على الأعمال، فماذا فعلت هذه الشركاء حتى عبدوها من دون الله؟ والسؤال هنا ﴿هل من شركائكم﴾ سؤال لا يحتاج إلى جواب، يُراد به التقريُع والتوبيخ، أي لا أحد يفعل شيئاً من تلك الأفعال، بل هو من فعل الكبير المتعال، فهو وحده الخالق الرازق، المحيي المميتُ، ولهذا عقَّبه بتنزيه الله عن مشاركة أحدٍ له في الخلق أو الرزق فقال: ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي تنزَّه تعالى وتقدَّس عن أن يكون له شريك أو مثيل، في الخلق والإبداع!! ثم بيَّن تعالى أن البلايا والنكبات، والحوادث والكوارث، سببها الكفرُ والعصيان، فقال سبحانه ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ أي ظهرت البلايا والمحنُ، والكوارثُ والفتن، في برِّ الأرض وبحرها، بسبب معاصي الناس وذنوبهم، فما يصيب البشرَ من البلايا والنكبات، والأعاصير والفيضانات، والسيول المدمرة، والزلازل المخربة، إنما ذلك كلُّه بسبب شؤم المعاصي، وبسبب الكفر والإشراك، ليذيقهم الله وبال بعض أعمالهم السيئة، لعلهم يتوبون عما هم فيه من المعاصي والآثام!

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ أي قل يا أيها الرسول، لهؤلاء المشركين المكذبين بآيات الله: سيروا في البلاد، وانظروا إلى مساكن الظالمين، كيف كان نهاية أمرهم؟ ألم يُخرِّب الله ديارهم، ويجعلهم عبرةً لمن يعتبر؟ بسبب كفرهم بالله، ومعاداتهم لرسله؟ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي فاعتصم بدين الإسلام، الدينِ القيِّم الذي أوحاه الله إليك، من قبل أن يأتي ذلك اليوم الرهيب ـ يوم القيامة ـ الذي لا يقدر أحدٌ على ردِّه، لأن الله حكم وقضى به، يومئذٍ يتصدَّعون أي يتفرَّقون فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي من كفر بالله فعليه وبالُ كفره، وهو النار المؤبَّدة، ومن آمن وعمل صالحاً، فإنهم يمهِّدون الطريق لأنفسهم، ويُهيئون الفراش المريح لهم، وهو الجنة دار الخلود والنعيم، وأصلُه من المهد أي الفراش، شُبِّه من يقدِّم الأعمال الصالحة، بمن يمهِّد فراشه، ويُهيِّئه للنوم عليه، وهو من لطيف الاستعارة ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ أي ليجازيهم على إيمانهم وعملهم الصالح، أفضل الجزاء وأكرمه، ويضاعف لهم الأجر، أمَّا الكافرون الجاحدون لنعمة الله، فلهم اللعنةُ ولهم سوء الدار ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ومن دلائل قدرته ووحدانيته، أن يرسل الرياح تسوق السحاب، مبشرة بنزول المطر رحمةً بالعباد، لخروج الزرع والثمر، ولتسير السفنُ في البحر عند هبوب الرياح، بتدبيره تعالى وأمره، ولتطلبوا الرزق في أسفاركم في البحر، ولتشكروا ربكم على نعمه الجليلة

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تسليةٌ للرسول ﷺ وتأنيسٌ له بقرب الفرج والنصر، **والمعنى**: لقد أرسلنا رسلاً من قبلك إلى أقوامهم، كما أرسلناك رسولاً إلى قومك، فجاءوهم بالحجج الساطعات، والمعجزات الواضحات، فكذبوهم وسخروا منهم، فانتقمنا لهم من الكفرة المجرمين، وكان حقاً لازماً علينا نصرة عبادنا المؤمنين، وفي الآية تشريفٌ للمؤمنين، ومزيدُ تكرمةٍ لعباده الصالحين.

قال في البحر المحيط: والآيةُ اعتراضٌ بين قوله ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح﴾ وبين قوله بعدها ﴿الله الذي يرسل الرياح﴾ جاءت تسليةً للرسول ﷺ، ووعداً له بالنصر، ووعيداً لأهل الكفر ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾ أي الله جلَّ وعلا بقدرته هو الذي يبعث الرياح، فتحرِّك السحابَ وتسوقه أمامها، فينشره في أعالي الجوِّ، كيف يشاء خفيفاً أو كثيفاً، ويجعله قِطَعاً كبيرة متراكماً بعضُه فوق بعض ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي فترى الودق أي المطر يخرج من بين ثنايا السحاب، فإذا أنزل الله ذلك المطر على من يشاء من العباد، إذا هم يستبشرون بمجيء الخصب، وزوال القحط، فيفرحون ويُسرُّون ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ أي وقد كانوا قبل نزول المطر عليهم، قانطين يائسين، يخشون الهلاك من القحط والجوع ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي فانظر أيها العاقلُ، نظر تفكُّر وتدبُّر، إلى

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

ما ينشأ عن آثار رحمة الله بنزول المطر، من خضرة النبات، وتفتح الأزهار، وخروج الثمار، بعد أن كانت الأرض ميتةً مجدبة، لا زرع فيها ولا ثمر، فالذي أحيا الأرض الميتة، قادر على إحياء الأموات بعد فنائهم، وهو على كل شيء قدير، وقد ساق القرآن الآية، كبرهان عقلي على قضية (البعث والنشور)، فمن أحيا الأرضَ الميتةَ بالمطر، يحيى الأموات من البشر.

والريحُ أنواعٌ: منها ما هي رحمة، ومنها ما هي عذاب، فقد أهلك الله عاداً بالريح العقيم **﴿ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم﴾** وإذا وردت الريح مجموعة (الرياح) فإنه يُراد بها الرحمة، وإذا وردت مفردة كانت للعذاب، ولهذا قال تعالى بعدها ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ أي ولئن أرسلنا على الزرع، بعد نمُوه وخضرته، ريحاً ضارة مفسدة، فرأوا الزرع والنبات مصفراً ذابلاً، بعد خُضرته ونُضرته، لاستمرُّوا يجحدون النعمة، فشأنهم أنهم يفرحون عند الخصب، وإذا نزلت بهم كارثة، جحدوا سابق نعمة الله عليهم ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ أي فإنك يا أيها الرسول، لا تسمع الكفَّارَ الأموات، الذين ماتت قلوبهم، هذا القرآن المبين، ولا تسمعهم المواعظ المؤثرة، لا سيَّما إذا كانوا مدبرين عنك ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي ولا تستطيع يا أيها الرسول هداية العمي، وردَّهم عن ضلالتهم إلى الإيمان، ما تسمع سماع تذكُّر واعتبار، إلاَّ من يصدِّق بكلام الله، فينتفع بآيات الذكر الحكيم، وليس في الآية ما يدلّ على عدم سماع الميت، فإن قوله **﴿فإنك لا تسمع الموتى﴾** يُراد به «موتى القلوب» أي لا تسمعه سماع انتفاع وتدبر، فالكفر موتٌ للقلب، ولهذا قابله بقوله **﴿إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا﴾** أي تسمع المؤمن المصدِّق بآيات الرحمن، وكثيراً ما يشبِّه القرآن الكريمُ، الكافرَ بالأعمى والأصمّ كقوله سبحانه **﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحقُّ كمن هو أعمى﴾**؟ يراد بالأعمى: الكافرُ أعمى القلب، والآية الكريمة مثلٌ ضربه الله للكفار، حيث شبههم هنا بالموتى، وبالصمِّ، والعمي، فإن الميت لا يسمع الدعاء، ولا يستجيب للنداء، والأصمُّ لا يسمع الكلام وهو أمامك، فكيف إذا كان

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾

مدبراً عنك؟ والأعمى كيف يهتدي لرؤية الطريق؟ وإنما شبَّههم تعالى بالعُمْي، وبالصُمّ، لأن من يرى الكونَ وما فيه من دقائق الصنعة والإبداع، ثم ينكر وجود الله، فإنه ميِّت القلب والحسِّ، لا حياة فيه إلا أنه يتنفَّس، وهي حياة حيوانية، بل إن الحيوان أكرمُ منه وأفضل، لأنه مهديٌّ إلى مصالحه بفطرته، والذي يسمع آيات الله، التي تتصدع لها الجبال، ثم لا يتأثر بها، فإنه أصمُّ ولو كان له أذنان، والذي لا يبصر دلائل القدرة الباهرة في هذا الكون أعمى القلب، ولو كانت له عينان كالدابة والبهيمة!!.

قال الحافظ ابن كثير: الصحيح عند العلماء أن الميِّت يسمع، ويحسُّ بمن يُسلِّم عليه أو يزوره، لما رُوي عن ابن عباس مرفوعاً (ما من أحدٍ يمرُّ بقبر أخيه المسلم، كان يعرفه في الدنيا، فيسلِّم عليه: إلا ردَّ الله عليه روحه، حتى يردَّ عليه السلام) وثبت عنه ﷺ أنه علَّم أمته، إذا سلَّموا على أهل القبور، أن يسلِّموا عليهم سلام من يخاطبونه، فيقول المسلِّمُ: «السلامُ عليكم دارَ قوم مؤمنين» وهذا خطاب لمن يسمعُ ويعقل، ولولا هذا لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد، والسلفُ مجموعون على هذا، وقد تواترت الآثار عنهم، بأن الميت يعرف بزيارة الحيِّ له، ويستبشر به لحديث عائشة مرفوعاً (ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده، إلاَّ استأنس به، وردَّ عليه حتى يقوم) رواه ابن أبي الدنيا، وروي عن أبي هريرة أنه قال: (إذا مرَّ الرجل بقبرٍ يعرفه فسلَّم عليه، ردَّ عليه السلام) وقد روى البخاري عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ خاطب القتلى الذين ألقوا في قليب بدر من المشركين، بعد ثلاثة أيام وعاتبهم وقرَّعهم فقال: يا فلان بن فلان، يا فلان بن فلان ـ وذكرهم بأسمائهم ـ هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً!؟ فإني قد وجدتُ ما وعدني ربي حقاً!! فقال له عمر رضي الله عنه يا رسول الله: أتخاطبُ قوماً قد جيَّفوا؟ ـ أي أصبحوا جيفاً ميتة ـ فقال ﷺ: والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون) رواه البخاري، ثم ذكر ابن كثير أدلة كثيرة على سماع الميت واستبشاره بمن يزوره أو يسلِّم عليه، ثم قال: وقد شُرع السلام على الموتى، والسلام والخطابُ والنداءُ، إنما يكون لموجودٍ يسمع ويُخاطب ويعقل، والسلام على من لم يشعر ولا يعلم بالمسلِّم محال. اهـ ابن كثير بإيجاز ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ أي الله جلَّ وعلا خلقكم

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

أيها الناسُ من أصلٍ ضعيف وهو «النطفة» أي من ماء مهين، وجعلكم تتقلَّبون في أدوار وأطوار، من نطفة، إلى علقة، إلى مضغة، ثم جنين، ثم طفل رضيع، ثم جعل من بعد ضعف الطفولة، قوة الرجولة والشباب، ثم من بعد قوة الشباب، ضعفَ الهرم والشيخوخة، فيصبح حاله كحال الطفل الصغير، ضعيف القدرة، قليل الحركة والبطش!! يخلق سبحانه ما يشاء من شباب وقوة، وضعفٍ وهرم، وهو العليم بتدبير خلقه، القدير على ما يشاء، لم يقل سبحانه «خلقكم ضعفاء» وإنما قال ﴿خلقكم من ضعف﴾ لينبِّه سبحانه أنَّ أصل خلق الإنسان هو الضعفُ، فكأنَّ الضعف هو المادة الأساسية في تكوين «خلقة الإنسان» فكيف يتكبر على ربِّه، من كان أصلُ خلقه من ماءٍ مهين؟ ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾! فلْيعرف الإنسان أصلـه، ويدرك قدره ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ المراد بالساعة الأولى «يوم القيامة» وبالساعة الثانية «البرهة القصيرة من الزمن» أي ويوم تقوم القيامةُ، ويُبعث الناس للحساب، ويقفون أمام ربِّ الأرباب، يُقسم المجرمون أنهم ما مكثوا في الدنيا إلاَّ ساعة من النهار!! وكما أقسموا بغير الحقِّ، كذلك كانوا في الدنيا (يؤفكون) أي يكذبون ويقولون: ﴿إِنْ هي إلاّ حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ ومعنى الإفك: الكذب، فقد كذبوا بأيمانهم أمام رب العزة والجلال، كما كذبوا في الدنيا حين أنكروا البعث والحشر ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي وقال العقلاء من أهل الفهم والإيمان: لقد مكثتم في الدنيا مدةً طويلة، هي مدة أعماركم التي قدَّرها الله لكم، لا كما تزعمون ساعة واحدة، فهذا هو اليوم الموعود (يوم البعث) الذي وعدكم الله به، وكنتم في الدنيا تنكرونه، ولكنكم لفرط جهلكم كنتم تستعجلون به استهزاء، وتقولون: ﴿ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين﴾ قال تعالى ردا عليهم، وتسفيهاً لهم ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي ففي ذلك اليوم العصيب الرهيب، لا ينفع هؤلاء

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

الفجرة الظالمين اعتذارهم، ولا يُقال: أرضوا ربكم بتوبةٍ أو طاعة، لأن وقت التوبة ذهب، وجاء يوم الحساب والعقاب، يقال في اللغة: استعتبتُه فأعتبني، أي اعتذرتُ منه واسترضيتُه فقبل عذري وأرضاني، فالمجرمون يوم القيامة، لا يُطلب منهم أن يُرْضوا ربَّهم، ولو أرادوا المعذرة لا تُقبل منهم، لأنه فات أوانها ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي ولقد بيَّنا في هذا القرآن المواعظ والأمثال، وذكرنا فيه العظات والعِبَر، ممَّا يوضِّح الحق، ويزيل الشكوك والأوهام، ولئن جئت المشركين بكل معجزة مما اقترحوه، ليقولن: ما أنتم إلا قوم مفترون، تفترون على الله وتكذبون ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي كذلك يختم الله على قلوب الأشقياء، الكفرة المجرمين، فاصبر يا محمد على أذاهم، فإن وعد الله لك بنصرتك عليهم حق، ولا يحملنك على الخفة والضجر، الضالون الشاكون في قدرة الله، الذين لا يوقنون بالله، ولا يصدِّقون أنبياءه، ولا يؤمنون بكتبه!!

انتهى تفسير سورة الروم

● ● ●

﴿الٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾

تفسير سورة لقمان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ﴿الم﴾ تُكتب هكذا وتُقرأ: «ألف، لام، ميم» والحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وللإشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز، الذي أفحم الفصحاء والبلغاء، منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية، وهي في متناول أيدي الناطقين بالعربية، فليأتوا بمثل سورة واحدة منه، ولهذا قال تعالى بعدها ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ أي هذه آيات الكتاب البديع، ذي الحكمة الفائقة، الذي فاق كل كتاب في تشريعه، وبيانه، وأحكامه ﴿هدى ورحمة للمحسنين﴾ أي فيه النور والهدى والرحمة، لمن آمن به، واتَّبع طريق الحقِّ والرشاد، وخصَّ (المحسنين) بالذكر لأنهم هم المؤمنون المنتفعون بما فيه!! ثم بيَّن تعالى صفاتهم الكريمة فقال ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ أي يؤدُّونها على الوجه الأكمل، بأركانها، وآدابها، وخشوعها، وفي أوقاتها، فهي الصلةُ بين العبد وربه، وبها يتمُّ الأنسُ بالله، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول لبلال (أرحنا بها يا بلال) ﴿ويؤتون الزكاة﴾ أي يدفعونها عن طيب نفسٍ، إلى مستحقيها من الفقراء والمساكين، طلباً لمرضاة الله، فيجمعون بين حقِّ الله، وبين حقِّ العبد بأداء (الزكاة) ويعتقدون بلقاء الله، وبيوم الحساب والجزاء، اعتقاداً جازماً لا يخالطه شكٌّ، واليقين أعلى مرتبةً من الإيمان، لأنه الإيمان الصادق الجازم، الذي لا يحوم حوله أيُّ شك، هؤلاء المتصفون بتلك الصفات الجليلة، هم السعداء الفائزون في الدنيا والآخرة.. ولمَّا ذكر حال السعداء، أعقبه بذكر حال الأشقياء، فقال سبحانه:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ أي ومن الناس من يشتري ما يُلهي عن طاعة الله، مما لا خير فيه ولا فائدة، ليضل الناس عن طريق الهدى، ويُبعدهم عن دينه القويم «دين الإسلام» ويتخذ آيات الذكر الحكيم للسخرية والاستهزاء، فهؤلاء الأشقياء المجرمون، لهم عذاب شديد مع الذلة والهوان.. روي في سبب نزول هذه الآية، أن «النضر بن الحارث» ـ أحد صناديد مكة وطغاتها ـ كان يشتري المغنِّيات، فلا يظفر بأحدٍ يريد الإسلام، إلا انطلق به إلى إحدى المغنِّيات، فيقول لها: أطعميه، واسقيه الخمر، وغنِّيه، ويقول له: هذا خيرٌ ممَّا يدعوك إليه محمد، من الصلاة، والصيام، والقتال بين يديه حتى تُقتل، فأنزل الله فيه الآية، والحكمُ عام في كل من دعا إلى باطل، ولهوُ الحديث، كلُّ شيء يلهي الإنسانَ، ويشغله عن طاعة الله، من أمثال الغناء الماجن، وسماع الأوتار، ومزامير الشيطان، والتمثيليات الخليعة، وقد سُئل ابن مسعود عن هذه الآية ﴿من يشتري لهو الحديث﴾ فقال: والله الذي لا إله إلاَّ هو ـ وكرَّرها ثلاثاً ـ إنما هو الغناء والمزاميرُ، وكذلك قال الحسن البصري: نزلت هذه الآية في الغناء والمزامير ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي وإذا قُرئت عليه آيات القرآن الحكيم، أعرض وأدبر متكبراً عن تدبُّرها، كأنه لم يسمعها، كأن في أذنيه صمماً مانعاً له من السماع، فبشره بعذاب مؤلم وجيع، واستعمال البشارة مكان الإنذار للسخرية والتهكم، ﴿فبشره بعذاب أليم﴾ فيه نوع من السخرية والتهكم، يليق بالمتكبرين.. ولمَّا ذكر تعالى ما وعد به المستهزئين من العذاب الأليم، ذكر ما وعد به المؤمنين من جنات الخلد والنعيم، فقال سبحانه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي إن المؤمنين

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾

الصادقين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، لهم على إيمانهم وتقواهم، جناتُ الخلد والنعيم، يتنعَّمون فيها بأنواع الملاذِّ، من المآكل، والمشارب، والملابس، والحور العين، دائمين في تلك الحدائق والبساتين، لا يخرجون منها أبداً، وعدَ اللهُ بذلك وعداً مؤكَّداً قاطعاً، لا يتخلَّف لأن الله لا يخلف الميعاد، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي خلق السموات بدون أعمدة، حال كونكم تشاهدونها كذلك واقفة، من غير أن تستند على شيء، ثم خلق ما تحت هذه السموات، من كواكب مضيئة، وشمس، وقمر، ونجوم، ومجرات، كلُّها تسبح في هذا الفضاء الواسع، وجعل في الأرض جبالاً ثوابت، لئلا تضطرب بكم فتهلككم، بأن تقلبكم عن ظهرها ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي نشر تعالى وفرّق في أطراف الأرض من أنواع الحيوانات، والدواب، والطيور، والزواحف، ومن كل مأكول ومركوب، مما يحتاج إليه البشر ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي وأنزلنا المطر من السحاب، لحفظكم وحفظ دوابكم، لأن الماء عنصر الحياة الأساسي ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ فأنبتنا بهذا الماء من كل نوع من النبات، ومن كل صنف من الأغذية والأطعمة ﴿كَرِيمٍ﴾ أي كثير المنافع والخصائص، بديع الخلق والتقدير ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي هذا خلقُه تعالى وإبداعه، وهذه مخلوقاته، في الإنسان، والحيوان، والنبات، فأروني ماذا خلقت الأوثانُ والأصنامُ، من مخلوقات؟ حتى عبدتموها من دون الله؟ وهو سؤال فيه (السخريةُ والتهكم) بالمشركين وآلهتهم المزعومة، ولهذا عقَّب عليه بقوله ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي هم في ضلال واضح، وخسران ظاهر، ما بعده ضلال ولا خسران، لأنهم عبدوا ما لا يسمع ولا ينفع، ولا يقدر على خلق ذبابة فضلاً عن خلق السموات والأرض، وخلق الإنسان!؟ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي لقد أعطينا العبد

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

الصالح «لقمان» (الحكمة) أي الفقه في دين الله، والإصابة في القول، وقلنا له: اشكر ربَّك على ما أكرمك ومنحك، من فنون الحكمة والعلم، ومن يشكر فثوابُ شكره راجع إليه، وفائدته تعود عليه، ومن يكفر النعمة فإنما يضرُّ نفسه، لأن الله مستغن عن العباد، محمود في جميع الأحوال، لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية.

قال القرطبي: والصحيح الذي عليه الجمهور، أن «لقمان» كان حكيماً ولم يكن نبياً، أحبَّ الله تعالى فأحبَّه الله، فمنَّ عليه بالحكمة ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أي واذكر موعظة لقمان الحكيم لولده، حين قال له واعظاً ناصحاً مرشداً: يا بُنيَّ لا تشرك بالله أحداً، لا بشراً، ولا وثناً، ولا ولداً، فإن الشرك قبيح، وخيم العاقبة، فإن من سوَّى بين الخالق والمخلوق، وبين الإله والوثن، فهو أحمقُ الناس، وأبعدُهم عن منطق العقل والحكمة، وحريٌّ به أن يُجعل في عداد البهائم ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي أمرنا الإنسان وأكَّدنا وصيتنا إليه، بأن يُحسن إلى والديه، لا سيما الأم التي حملته جنيناً في بطنها، ﴿وهناً على وهن﴾ أي ضعفاً على ضعف، من حين الحمل إلى حين الولادة، ﴿وفصاله﴾ أي فطامُه ومدةُ رضاعه إلى تمام سنتين، وقلنا له: اشكر ربك على نعمة الخلق والإيمان، واشكر والديك على نعمة التربية والإحسان، إليَّ المرجعُ والمآبُ، فأجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي وإن بذلا أقصى طاقتهما وجهدهما، على حملك على الإشراك بالله، فلا تطعهما على ذلك، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي وصاحبهما في الحياة الدنيا

يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾

بالمعروف، بالإحسان إليهما ولو كانا كافرين، لأن كفرهما بالله، لا يستدعي ضياع المعروف والمتاعب التي تحمَّلاها في تربية الولد، وتخصيصُ ذكر ﴿في الدنيا﴾ للتنبيه على أنها مدة قصيرة، تنتهي بالموت، فعليه أن يتحمَّل بعض المشاقِّ في سبيلهما، ثم أَمَرناهُ بسلوك طريق المؤمنين الموحِّدين، وهاتان الآيتان اعتراضٌ ضمن وصايا لقمان الحكيم، لتقبيح أمر الشرك: فكأنه تعالى يقول: مع أننا وصينا الإنسان بطاعة والديه والإحسان إليهما، ومع ذلك فقد حذرناه من طاعتهما، إذا دعياه إلى الشرك والعصيان لأنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.. ثم قال تعالى عن بقيَّة وصايا لقمان ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ يقول لقمان: يا ولدي إن الخطيئة والمعصية، مهما كانت صغيرة، حتى ولو كانت بوزن حبة الخردل، وكانت في أخفى مكانٍ وأضيقه، في أعماق الأرض، أو في أغوار السماء، فإن الله تعالى يحضرها ويحاسب عليها، لأنه سبحانه عالمٌ ببواطن الأمور ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي يا ولدي حافظ على الصلاة في أوقاتها، بخشوعها وفروضها، وآدابها، وادعُ الناس إلى كل خير وفضيلة، وانههم عن كل شر ورذيلة، واصبر على المحن والبلايا، والأذى الذي ينالك من الأشرار، لأن الداعي إلى الحقِّ معرَّضٌ لإيصال الأذى إليه، فهذه الخصال من عزائم الأمور، التي حضَّ وحثَّ عليها ربُّ العزة والجلال ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾ أي ولا تمل خدَّك للناس، تكبُّراً عليهم، وإعجاباً واحتقاراً لهم، ولا تمش في الأرض متبختراً متكبراً، والمَرَحُ في اللغة: البطرُ والخيلاء، ﴿إن الله لا يحب كل مختال فخور﴾ أي يكره كلَّ متكبِّر يرى العظمة لنفسه، يتبختر في مشيته، ويفخر على غيره!! ولمَّا نهاه عن الخُلق الذميم، أمره بالخُلق

وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾

الفاضل الكريم، فقال سبحانه: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أي توسَّط يا بنيَّ في مشيتك، فامشِ بسكينةٍ ووقار، فإن الإسراعَ مشيةُ السفهاء، والبطءُ علامة الضعفاء، وكلاهما مذموم ﴿واغضض من صوتك﴾ أي اخفضْ صوتك عند الكلام، فلا ترفعه عالياً، لأنه قبيح لا يجمل بالرجل العاقل، وإن أوحش الأصوات صوتُ الحمير، فمن رفع صوته فوق الحاجة، فقد تشبَّه بالحمار.

قال الحسن البصري: كان المشركون يتفاخرون برفع الأصوات، فردَّ الله عليهم بأنه لو كان خيراً لفضلتهم الحمير.

وقال قتادة: (أقبح الأصوات صوتُ الحمير، أوَّله زفيرٌ وآخره شهيق) ولذلك ضرب الله المثل به، لبشاعته وشناعته.. وإلى هنا تنتهي نصائح لقمان، وهي درر ثمينة من الحكم البليغة، التي أُعطيها هذا العبد الصالح «لقمان الحكيم» ثم يأتي التذكير الإلهي للبشر، بالنعم الجليلة التي أسبغها الله عليهم، ليشكروه عليها فقال سبحانه ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ﴾ أي ألم تروا أيها الناس رؤيةً قلبية، كأنها مشاهدةٌ بالبصر، أن الله العظيم الجليل، سخَّر لكم ما في الكون، من شمس، وقمر، ونجوم، وجبال، وأنهار، وأنعام، وأمطار، وغير ذلك ممَّا لا يُحصى، وأغدق عليكم نعمه العديدة، المرئية والخفية، المرئية كنعمة السمع والبصر، والخفية كنعمة العقل والفهم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أي ومن الناس فريق جاحدون لنعم الخالق، يخاصمون ويجادلون في توحيد الله ووجوده، بغير علم ولا فهم، ولا حجة ولا برهان، ولا كتاب منزلٍ من عند الرحمن، واضح بيِّن، بل بمجرد التقليد الأعمى للآباء والأجداد، ولهذا قال بعده ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

وإذا قيل لهؤلاء المجادلين بالباطل، اتبعوا ما أنزل الله من النور المبين، على خاتم المرسلين ﷺ، قالوا: بل نسيرُ على طريقة آبائنا!! أيتّبعونهم ولو كانوا ضالين؟ حتى ولو كان الشيطان يقودهم إلى نار جهنم؟ وهذا أسلوبٌ تهكميٌ لاذع، كأنه يقول: ولو كان آباؤهم مجانين، يتبعونهم ويتركون الحق المبين؟ ثم يوضِّح تعالى الفارق بين المؤمن والكافر، فيقول ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي ومن يخلص عمله لله، وينقاد لأمره وحكمه، وهو مؤمن صادق الإيمان، فقد تمسَّكَ وتعلَّق بأوثق حبال النجاة، والآية وردت مورد التمثيل، كأنه تمسَّك بحبلٍ متينٍ لا ينقطع، كمن تدلَّى من شاهقٍ إلى الأرض، بحبل غليظ فسلم ونجا ﴿وإلى الله عاقبة الأمور﴾ أي إليه مصير جميع الأمور، فيجازي كلَّ عاملٍ بعمله، ومن كفر وضلَّ، وزاغ عن طريق الإسلام، وهَدْي النبي عليه السلام، فلا يحزنك أمرُه، إلينا معادهم في الآخرة، فنخبرهم بأعمالهم التي عملوها، ونجازيهم عليها، فإن الله عالم بما يخفونه في صدورهم، من المكر والكيد للإسلام، وسيعاقبهم على ذلك ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي نمهلهم في الدنيا زمناً قليلاً، ليتمتعوا بنعيم الدنيا الفاني، ثم نضطرهم أي نلجئهم إلى عذاب شديد لا ينقطع، هو عذاب الجحيم، ووصفُ العذاب بالغلظ: لشدته، ودوامه، وشناعة أمره. ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولئن سألت يا أيها الرسول المشركين، من هو الخالق للسموات والأرض، والموجد لما فيهما من بدائع الخلق والصنعة؟ ليقولنَّ: الله هو الخالق لها، فقد اضطروا إلى الاعتراف به، يعترفون بأنه هو الخالق، ثم يعبدون غيره ﴿قل الحمد لله﴾ على ظهور الحجة عليكم، بل أكثرهم سفهاء

لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٩﴾

لا يفكِّرون ولا يتدبرون ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ أي له جلَّ وعلا وحده، جميعُ ما في السموات والأرض، ملكاً، وخلقاً، وتقديراً، وتدبيراً، وهو سبحانه المستغني عن الخلق وعبادتهم، المحمود في صنعه وآلائه ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ هذا تمثيل تقريبيٌّ لعقول البشر، أي لو فُرض أن جميع أشجار الأرض، تحوَّلت أقلاماً، وجميع ما في الأرض من بحار تحولتْ مِداداً ـ أي حبراً ـ وأمدتها سبعة أبحر أيضاً، وكُتبت بهذه الأقلام، وبهذه البحور كلماتُ الله، الدالة على عجائب خلقه وصنعه، لتكسَّرت الأقلامُ، ونفدت البحور، ولم تنفد أي لم تنته كلماتُ الله، لأن أحداً لا يستطيع أن يتصوَّر عظمة الله وجلاله. ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ أي غالب لا يُغلب، حكيم لا يخرج عن علمه وحكمته أمر، وهذه الآية كما بيَّنا وردت على سبيل التمثيل، لبيان عجائب صنع الله، ولهذا قال بعدها ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ أي ما خلقكم أيها الناسُ، ولا إحياؤكم بعد الموت، إلاَّ كخلق نفسٍ واحدة وإحيائها، فلا تستبعدوا قدرة الله على إحيائكم بعد فنائكم، إنه تعالى سميع لأقوال العباد، بصير بأعمالهم.. ثم نبَّه تعالى على بعض مظاهر قدرته فقال ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ أي ألم تروا إلى قدرة الله، كيف يزيد من ساعات الليل في ساعات النهار؟ ويدخل ضوء النهار على ظلمة الليل صيفاً، فيطول النهار ويقصر الليل، ومعنى الإيلاج: الإدخال، فلا يبقى الليل والنهار

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾

واحداً، بل يطول ويقصر، حسب الفصول والأزمنة، وذلَّل لمصالحكم أيها الناس الشمس والقمر، يسيران بنظام دقيق لا يتخلف، كلٌّ يسير إلى زمن معيَّن، هو يوم القيامة، يوم انتهاء الدنيا، ولا بدَّ لهذا التسخير والتذليل من إلهٍ، خالقٍ، مبدع، ولهذا عقَّب الآية بقوله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي ذلك الذي تشاهدونه، من عجائب الصنعة، وباهر القدرة، لتتيقَّنوا أن الله هو الإله الحقُّ، الخالقُ لهذا الكون، والمدبِّر له، الذي ينبغي أن يُعبد وحده، وأن كل ما يعبدون من دون الله، من الأوثان، والأحجار، والملائكة والبشر، والشمس والقمر، كلُّ ذلك باطلٌ لا حقيقة له، ولا يملك أحدٌ تحريك ذرة إلا بإذنه تعالى، كما قال القائل:

أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مـا خَـلاَ اللهَ بَـاطِـلُ وكـلُّ نَـعِـيـمٍ لا مَـحَـالَـةَ زَائِـلُ

﴿وأن الله هو العلي الكبير﴾ أي وأنه تعالى هو العليُّ الذي لا أعلى منه، الكبيرُ الذي هو أكبرُ من كل شيء، الذي ذلَّ وخضع له كلُّ شيء في الوجود ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ برهانٌ آخر على عظمة الله، وكبريائه وجلاله، أي ألم تر أيها الإنسان العاقلُ، أن هذه السفن الضخمة، تسير فوق سطح البحر، بلطفه تعالى وتسخيره، ليريكم عجائب قدرته وصنعه، إن في تسخيرها لآيات باهرة، لكل عبدٍ منيب، صابر على قضاء الله، شاكر لنعمائه!! حقاً إنها آية باهرة، لأن الحصاة الصغيرة تسقط في الماء، وهذه السفُنُ التي هي كالجبال، تسير فوق سطح الماء، دون أن تغوص أو تغطس فيه!! فمن الذي سخَّرها وسيَّرها من قارة إلى قارة، وهي تحمل هذه الأثقال؟ إنها قدرة الله الواحد القهار، ولطفه بالعباد، ولولا هذا اللطف، لغرقت السفن وغرق من فيها، والناسُ لا يعرفون ربهم إلاَّ عند الشدة والضيق، ولهذا قال ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي وإذا علاهم

﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾

وأحاط بهم ـ وهم في البحر ـ موجٌ كثيفٌ مخيفٌ، هو كالجبال هولاً وشدة، دعوا ربهم، واستغاثوا به، وأخلصوا له الدعاء، حين عرفوا أنه لا ينجيهم غيره ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي فلما أخرجهم إلى شاطيء النجاة، وأنقذهم من الهلاك بالغرق، فمنهم مقتصدٌ في عمله وإحسانه، وفي الآية إيجازٌ بالحذف، تقديره: فمنهم مقتصدٌ، ومنهم جاحد، دلَّ عليه قوله سبحانه ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ الختَّارُ: الغدَّارُ الفاجرُ اللئيم، والخترُ: أسوءُ الغدر وأقبحُه، أي وما يكذِّب بآياتنا وينكرها، إلاَّ كلُّ غدَّار عظيم الغدر (كفور) أي شديد الكفر والجحود لنعم الله!

قال ابن كثير: والمقتصدُ هنا هو: المتوسِّط في العمل، كما قال ابنُ زيد، وكما في قوله تعالى ﴿فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد﴾ أي متوسطٌ في عمله، وتكون الآية من باب الإنكار، على من شاهد تلك الأهوال، والآيات الباهرات، والأمور العظام في البحر، ثم بعدما أنعم الله عليه بالخلاص، كان ينبغي عليه أن يقابل ذلك، بالعمل التامِّ الدءوب في الطاعة والعبادة، والمبادرة إلى الخيرات، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصِّراً، والله أعلم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ أي خافوا ربكم واحذروا عقابه وعذابه، وخافوا يوماً شديداً عصيباً، لا ينفع فيه والدٌ ولده، ولو أراد أن يفديه بنفسه لما قُبل منه، وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يُقبل منه ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ أي إن وعده تعالى بالبعث والحساب والجزاء، حقٌّ كائن لا يتخلَّف، فلا تخدعنكم الحياة الدنيا، وتلهيكم عن طاعة الله، وعن الدار الآخرة، ولا يخدعنكم الشيطانُ الخبيثُ الماكرُ، الذي يغرُّ الخلق ويخدعهم، ويلهيهم، بالأماني الكاذبة، والغَرور بفتح الغين اسمٌ للشيطان، الذي يغرُّ الناس ويخدعهم كما قال سبحانه ﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطانُ إلا غروراً﴾ .. وختم الله

إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

السورة الكريمة، بذكر المغيبات الخمس، اللاتي لا يعلمهن إلاَّ الله، فقال سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي إن الله تعالى عنده معرفةُ وقت قيام الساعة، أي فناء الدنيا ومجيء يوم القيامة، وعنده معرفة وقت نزول المطر، ومحلُّ نزوله، ومقداره، وعدد قطراته، ويعلم جلَّ وعلا ما في أرحام الأمهات، هل هو ذكرٌ أو أنثى؟ هل هو تامٌّ أو ناقص؟ هل هو شقي أو سعيد؟ هل هو حسن أو قبيح؟ ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ أي ولا يدري أحدٌ من البشر، ماذا سيحدث عليه في يومه أو غده؟ أخيرٌ أم شرٌّ؟ وماذا سيكون من أمره، وما يدري أحد بأيِّ بلدٍ أو مكانٍ تكون منيَّته، ولا أين يُدفن ويُقبر؟ لم يقل سبحانه «متى يموت» وإنما قال: ﴿بأيِّ أرضٍ تموت﴾ فإذا كان الإنسان لا يعرف بأي بلد سيموت، فإنه من باب أولى لا يدري وقت موته ولا متى يموت ﴿إن الله عليم خبير﴾ أي هو تعالى العالمُ بأحوال العباد، المطَّلع على خفايا ما في نفوسهم، وهذه الآية هي مفاتح الغيب التي اختصَّ الله بعلمها، كما ورد في الحديث الصحيح (مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله!! ثم تلا ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام..﴾ الآية أخرجه البخاري، ولا يتعارض هذا مع ما يقوله علماء الأرصاد، من توقع نزول المطر غداً أو بعد غد، فإن هذا على وجه الظن لا القطع، ولكن هل يعرفون المقدار والكمية؟ وهل سينزل في الأيام المقبلة أمطار غزيرة تسبب فيضانات وسيولاً جارفة، وأعاصير مدمرة، ليأخذوا حذرهم واحتياطهم، فلا تتدمر المنازل والبيوت؟ ومثله الإخبار عن الجنين في بطن أمه عن طريق التصوير، فإن هذا رؤية بالآلات ولا يعتبر من أنواع معرفة الغيب، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين.

انتهى تفسير سورة لقمان

● ● ●

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾

تفسير سورة السجدة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الحروف المقطَّعة **(الٓم)** للتنبيه على إعجاز القرآن **﴿تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾** أي هذا الكتاب الموحى به إليك يا محمد، هو القرآن الذي لا شك في أنه من عند الله عزَّ وجل، تنزيل من رب العالمين ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ الضمير يعود لكفار قريش، و**(أم)** بمعنى بل للإضراب، أي بل أيقول المشركون: إن محمداً اختلق القرآن، وافتراه من تلقاء نفسه، ونَسَبه إلى الله؟ ليس الأمر كذلك، بل هو الحقُّ المنزل من عند رب العزة والجلال، لتنذر به قوماً ما جاءهم رسول قبلك يا محمد، وهم «أهلُ الفترة» لكي يهتدوا إلى الحقّ، ويؤمنوا بالله العزيز الحميد.. ثم شرع تعالى في ذكر أدلة التوحيد فقال سبحانه ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي الله جلَّ وعلا هو الذي خلق السموات في ارتفاعها وإحكامها، وأبدع خلق الأرض في عجائبها وتكوينها، وخلق ما بينهما من الشمس، والقمر، والنجوم، والرياح، والسحاب، في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا، ولو شاء لخلقها بلمح البصر، ولكن أراد أن يعلِّم عباده التأني في الأمور، كما قال الحسن البصري **﴿ثم استوى على العرش﴾** أي علا فوق العرش علواً يليق بجلاله، من غير تكييفٍ، ولا تشبيه، ولا تمثيل، ولا تعطيل، كما هو مذهب السلف الصالح ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي ليس لكم أيها الناسُ ناصر، ولا شفيعٌ يشفع لكم عند الله تعالى، إلا بإذنه

يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾

وإرادته!! أفلا تسمعون هذه المواعظ فتتذكرون بها؟ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي يدبِّر سبحانه أمور العباد في الكون، وأمْره يتنزَّل من أعلى السموات إلى أقصى أعماق الأرض، في يوم طولُه ألفُ سنة من أيام الدنيا!! وهذا اليوم هو «اليوم الإلهي» فاليوم عند الله ليس كأيامنا، وإنما طوله ألف سنة ﴿**وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدُّون**﴾ فإذا تأخر العذاب عن الكفار أربعين سنة، فهو في حساب الله أقلُّ من ساعة، وأمَّا يوم القيامة فطولُه خمسون ألف سنة، والآية هنا تتحدث عن «اليوم الإلهي» لا عن يوم القيامة ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي ذلك الإله الحقُّ، المدبِّر لشؤون الخلق، هو العالم بكل شيء، يعلم ما هو غائب عن أنظار البشر، وما هو مشاهد لهم من الموجودات، (**العزيز**) أي الغالب على أمره (**الرحيم**) بعباده في تدبير شؤونهم ومصالحهم ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ أي هو سبحانه الخالقُ المبدع لجميع المخلوقات، أحكم خلق الأشياء وأبدع صنعها، ثم خلق أبا البشر «آدم» عليه السلام من طين ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ أي ثم جعل ذريته يتناسلون من خلاصة، من ماء ضعيف حقير هو المنيُّ ﴿**ألم نخلقكم من ماء مهين**﴾؟ ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي ثمَّ قوَّم أعضاءه، وعدَّل خلقته وهو في رحم أمه، ونفخ بعد ذلك فيه الروح، فإذا هو في أكمل صورة، وأحسن شكل!! وخلق لكم هذه الحواسَّ، (**السمع، والبصر، والعقل**)، لتعرفوا عظمة ربكم، فما أقلَّ شكركم لله!! وأضاف الروح إليه ﴿**من روحه**﴾ تشريفاً وتكريماً للإنسان، فهي إضافة ملك إلى مالك، ومخلوقٍ إلى خالق، ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾

أي قال المشركون من كفار مكة: هل إذا هلكنا وصرنا تراباً، مختلطاً بتراب الأرض، حتى غابت أجسادنا فيه بالدَّفن، ولم تتميز عن التراب، هل سنخلق بعد ذلك خلقاً جديداً؟ وهل سنعود إلى الحياة مرة ثانية؟ وهو إنكار للبعث مع الاستهزاء ﴿**بل هم بلقاء ربهم كافرون**﴾ «بَلْ» للإضراب، أي بل هناك ما هو أبلغ وأشنعُ من الاستهزاء، وهو كفرهم وجحودهم بالله، ولقائه في دار الجزاء!! وليس بعد الكفر ذنب ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي قل لهم يا أيها الرسول، ردّاً على مزاعمهم الباطلة: سيتوفاكم مَلَكُ الموت، الذي وكلَّه الله بقبض أرواحكم، ثم مرجعكم يوم القيامة إلى ربِّ العزَّة والجلال، للحساب والجزاء!!

قال ابن كثير: والظاهرُ أن مَلَك الموت شخصٌ معيَّنٌ، وقد سُمِّي في بعض الآثار بـ(عزرائيل) وهو المشهور، وله أعوانٌ، وأعوانه ينتزعون الروح من سائر الجسد، حتى إذا بلغت الحلقومَ تناولها مَلَكُ الموت، قال مجاهد: (جُمعت له الأرض فجعلت مثل الطست ـ الإناء الكبير ـ يتناول منها متى يشاء) اهـ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي ولو ترى حال المجرمين يوم القيامة، وهم مطرقو رؤوسهم أمام ربهم، من شدة الحياء والخجل، وجواب (لو) محذوفٌ، تقديره: لرأيتَ أمراً فظيعاً هائلاً، ولرأيت العَجَب العُجابَ، يقولون: يا ربنا أبصرنا حقيقة الأمر، وسمعنا ما كنا ننكره من أمر الرسل، وكنَّا من قبلُ عمياً وصُمَّاً، فارجعنا إلى الدنيا لنعمل عملاً صالحاً، ونعبدك ولا نشرك بك، فنحن الآن موقنون، مصدِّقون بوحدانيتك ووجودك!! قال تعالى ردّاً عليهم ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي لو أردنا هداية جميع الخلق لفعلنا، ولكنَّ ذلك ينافي

فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

حكمتنا، حتى يكون الإيمان بطريق الاختيار، لا بطريق الإكراه والإجبار، ولذلك لم نجبر أحداً على الإيمان، ولكنْ وجب القولُ وتقرّر الوعيد، بملء جهنم من العصاة المجرمين، من الجنّ والإنس أجمعين، فهذا وعدٌ لا يُخلف وما كنا ظالمين ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يُقال للأشقياء الكفار تقريعاً لهم وتوبيخاً: لا عودة اليوم إلى الدنيا، فذوقوا العذاب الأليم الدائم، بسبب نسيانكم ليوم الحساب، وإهمالكم الاستعداد له،﴿إنا نسيناكم﴾ أي تركناكم في العذاب، ترك المنسِيّ، كحال من رُمي في السجن، ثم تُرك وأُهمِلَ، ولا يُراد به حقيقة النسيان، فاللهُ لا ينسى شيئاً ﴿وما كان ربك نسياً﴾ .. ولما ذكر تعالى حال الأشقياء، أتبعه بذكر حال السعداء فقال ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي إنما يُصدِّق بآياتنا، ويعتقد بها، المؤمنون الصادقون المتقون، لا الكفرة المجرمون، وهؤلاء المؤمنون إذا وُعظوا بآياتنا، سقطوا على وجوههم سُجَّداً، تعظيماً لله جلَّ وعلا، وسبَّحوا ربهم على نعمائه، وهم لا يتكبَّرون عن طاعته وعبادته، وفي الحديث الشريف **(إذا قرأ ابنُ آدمَ السجدةَ فسجَدَ لها، اعتزل الشيطانُ يبكي يقول: يا ويلي، أُمر ابنُ آدمَ بالسجود فسجد فله الجنة، وأُمرتُ بالسجود فأبيتُ فليَ النارُ) رواه مسلم** ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي تتنحّى وتتباعد أطرافهم عن الفُرش ومواضع النوم، لأنهم يتهجدون بالصلاة، ويتركون لذيذ النوم، خوفاً من عذاب الله، وطمعاً في رحمته، ويبذلون أموالهم ابتغاء وجه الله ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي لا يعلم أحد من الخلق، ما أعدَّه الله لهم من النعيم، مما لا عينٌ رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خَطَر على قلب بشر، كما ورد في الحديث القدسي ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

أي جزاءً لهم على إيمانهم وطاعتهم لله، و(قرَّةُ الأعين) ما تقرُّ به العيون، وتبتهج به الصدور، من أنواع الكرامة والنعيم، وفي الحديث الشريف (من يدخل الجنةَ، يَنْعُم ولا يبأسُ، لا تبلى ثيابُه، ولا يَفْنَىٰ شبابُه، في الجنة ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر) رواه مسلم ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ أي لا يتساوى المؤمنون الأبرار، مع الفسقةِ الفُجّار، في الأجر والثواب، كما لم يتساووا في الدنيا بالأعمال، والعبادة، فطريقُهم في الآخرة مختلفٌ، كما اختلفوا في الدنيا ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ النُّزل: الضيافةُ التي تُقدَّم للضيف، والمأوى: المسكنُ، أي أمَّا المؤمنون الأبرار، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، فلهم جناتُ الإقامة والخُلد، هي مسكنهم ودورهم، ضيافةً وكرامةً لهم من الله، بسبب ما قدَّموه من صالح الأعمال، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي وأمَّا الفساقُ الفجار، فمسكنهم ومنزلهم نار جهنم، لا خروج لهم منها، إذا دفعهم لهبُ النار، ردُّوا إلى أسفلها، وتقول لهم خزنة جهنم: ذوقوا عذاب النار المخزي، الذي كنتم تستهزئون به في الدنيا!!

قال الفُضيل: والله إن الأيدي لموثَقَة، وإن الأرجل لمقيَّدة، وإن اللَّهبَ ليرفعهم، والملائكة تقمعهم، ولا خروج لهم من نار الجحيم ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي ولنذيقنهم من عذاب الدنيا بالقتل، والأسر، والقحط، والمصائب، والمحن، دون عذاب جهنم الأكبر، لعلهم يرجعون عن غيِّهم وضلالهم، ويتوبون عن الكفر والمعاصي!! وقيل: العذابُ الأدنى: يُراد به عذابُ القبر، وهو حقٌّ كما تواترت به الأخبارُ النبوية ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ أي لا أحد

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾

أظلمُ ممن وُعظ وذُكِّر بآيات الرحمن، فلم يُلق لها بالاً، ولم يتفكر ويتدبر ما فيها، بل تعامى عن الآيات والنذر؟ وهذا الاستفهام يُراد به النفي، أي هو أظلمُ من كل ظالم، ولا أحد أفجر وأظلم منه ﴿إنا من المجرمين منتقمون﴾ أي سأنتقم ممن يكذب بآياتي أشدَّ الانتقام، ويا له من وعيدٍ شديد من العزيز الجبَّار!! ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي ووالله لقد أعطينا موسى (التوراة)، فلا تكن يا محمد من شكٍّ من تلقيك (القرآن)، كما تَلقَّى موسى التوراة، فمصدرُ الوحي واحد، فالذي أنزل التوراة على موسى، هو الذي أنزل عليك القرآن، وقد آمن بالتوراة فريق، وكفر به فريق، كما فعل قومك، آمن بعضهم بالقرآن، وكفر به بعض ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي وجعلنا التوراة نوراً وهداية لبني إسرائيل، كما جعلنا القرآن هداية لقومك ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أي وجعلنا من بني إسرائيل قادة، وقدوة يدعون إلى الله، ويُقتدى بهم في الخير، يدعون الخلق إلى طاعتنا، ويرشدونهم إلى طريق السعادة بإذننا وتكليفتنا، حين صبروا على تحمل المشاق، وكانوا يصدِّقون بآياتنا أشدَّ التصديق ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي إن ربك يحكم بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة بحكمه العادل، فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، ويميِّز بين المحقِّ، والمبطل، ويجازي كلاً بما يستحقُّ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ أي أغفلَ هؤلاء المشركون، ولم يظهر لهم كثرة الأمم التي أهلكناها، من الطغاة المكذبين، الذين كذبوا رسل الله؟ حال كون أهل مكة، يمشون في مساكن هؤلاء المهلَكِين، فلا يرون فيها أحداً؟ أفلا يعتبرون ويتَّعظون؟ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أي إن في إهلاكهم لعبراً وعظات، أفلا يسمعون هذه الآيات، سماع تدبُّر

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

وتفكر؟ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ أي أولم يشاهد هؤلاء الجاحدون لآياتنا، آثار عظمتنا وقدرتنا، أننا نسوق الماء إلى الأرض المجدبة اليابسة، التي لا نبات فيها ولا زرع، فنخرج به أنواع الزروع، والفواكه، والثمار؟ فالذي أحيا الأرض الميتة، يحييهم من قبورهم بالبعث والنشور، أفلا يبصرون ذلك، فيستدلون على كمال قدرتنا ووحدانيتنا؟ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي ويقول الكفار على وجه السخرية والاستهزاء: متى ستُنصرون ويكون لكم الغلبة والنصر علينا؟ ومتى يكون الحكم الفصلُ بيننا وبينكم؟ إن كنتم صادقين في دعواكم؟ ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي قل لهم توبيخاً وتقريعاً: إن يوم القيامة هو يوم الفصل بيننا وبينكم، حين لا ينفعكم الإيمان ولا الاعتذار، ولا تُؤخَّرون ولا تُمهلون لحظة واحدة، فلماذا تستعجلون علينا؟ ولماذا تطلبون أن يأتيكم ذلك اليومُ سريعاً؟ وهو يوم خزيٍ وذلٍّ لكم؟ ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ أي فأعرض يا أيها الرسول عن هؤلاء الكفار الفُجار، ولا تبالِ بهم ولا بتهديدهم، وانتظر ما يحلُّ بهم من عذاب الله الأليم، إنهم ينتظرون هلاكك وهلاك أتباعك!!

كان ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة السجدة ﴿الَم تنزيل الكتاب﴾ و﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر﴾ رواه مسلم، والقراءةُ بهما من السنن النبوية، وهما سورة السجدة، وسورة الدهر!!

انتهى تفسير سورة السجدة

● ● ●

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ

تفسير سورة الأحزاب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ بدأ الله السورة الكريمة بنداءِ حبيب لطيف ﴿**يا أيها النبي**﴾ ينمُّ عن تكريم وتشريفٍ لسيد الأنبياء محمد ﷺ، لم يقل: يا محمد كما قال في خطاب الأنبياء «يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم» إلخ وإنما خاطبه بلفظ فيه رفعٌ لقدره ﷺ (لفظ النبوة)، كما خاطبه بلفظ الرسالة (يا أيها الرسول) تشريفاً له عليه السلام، وللدلالة على أنه سيّد الرسل على الإطلاق ﴿**اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين**﴾ أي واظبْ على تقوى الله، ومراقبته في السرِّ والعلن، ولا تطع أهل الكفر والنفاق، فيما يدعونك إليه، من التساهل واللين، وعدم التعرض لآلهتهم بسوء، واحذرهم واحترسْ منهم، فإنهم أعداء ألدَّاء لك ولدينك، إن الله تعالى عالمٌ بأسرارهم، حكيم في تشريعه وتدبيره.. والخطابُ للنبي ﷺ، والمرادُ به أمتُه، فهو تحذيرٌ للمؤمنين كافة من طاعة أهل الكفر والنفاق ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي استمسك بما يوحيه إليك ربك، من الشرع الحكيم، والدين القويم، إن الله لا تخفى عليه خافية، يعلم المؤمن من الكافر، والبرَّ من الفاجر، والمطيع من العاصي ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي اعتمد في جميع أمورك على ربك، ولا تحفل بكيدهم ومكرهم، وحسبك أن يكون الله حافظاً وناصراً لك عليهم ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ كانت العربُ تزعم أن اللبيبَ، الأديبَ،

﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾

الأريبَ، له قلبان في جوفه، ولذلك قيل لجميل بن مَعْمر: (ذو القلبين)، فردَّ الله هذا الزعم الكاذب، وجعله مثلاً لما بعده!!.

ومعنى الآية: ما خلق الله لأحدٍ من الناس، سواءً كان رسولاً، أو إنساناً لبيباً عادياً، قلبين في صدره، ولم يجعل الزوجات اللاتي تظاهرون منهن، بقول أحدكم لزوجته: أنتِ عليَّ كظهر أمي، لم يجعلها أمّاً، وما جعل أبناءكم من التبنيّ، الذين هم ليسوا من أصلابكم، أبناءً لكم على الحقيقة، فالظهار منكر وحرام، ولكنْ لا تصير الزوجة أماً بهذه الكلمة، فالأم أمٌّ، والزوجة تبقى زوجة، وولدُ الغير من التبنِّي لا يصبح ابناً بقول الرجل لولدٍ، أنت إبني، أرثك وترثني ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ أي دعاؤهم أبناءً، هو مجرد قولٍ بالفم، لا حقيقة له من الواقع، فإن الولد المتبنَّى مخلوقٌ من صلب رجل آخر، ولا يمكن أن يكون لأحدٍ أبوان من الرجال، والله تعالى يُبيِّن ويوضِّح لكم الحق، وهو يرشدكم إلى الصراط المستقيم ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ أي ردُّوا نسب هؤلاء الذين جعلتموهم لكم أبناء، إلى آبائهم الأصلاء، فهذا هو العدلُ والقسطُ، والصدقُ في النسب، فإن لم تعرفوا آباءهم الحقيقين، فهم إخوانكم في الإسلام، وأولياؤكم في الدين، فليقل أحدكم: يا أخي، ويا مولاي، يقصد بذلك أخوَّةَ الدين وولايته ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي ليس عليكم إثم ولا ذنب، فيمن نسبتموهم إلى غير آبائهم مخطئين، بالسهو أو النسيان، أو بطريق الشفقة والحنان، كقول القائل: يا ابني، أو يا بنيَّ، أو يا أبي بطريق الاحترام والتعظيم، ولكنَّ الإثم فيما تعمدته قلوبكم بعد النهي، وكان الله واسع المغفرة، عظيم الرحمة بالعباد!! روى البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال (إن «زيد بن حارثة» مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلاَّ، «زيدَ بن

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾

محمد» حتى نزل القرآنُ ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾ الآية، فصرنا نقول بعد ذلك: زيد بن حارثة) رواه البخاري.. ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ أي رسول الله أحقُّ بالمؤمنين من أنفسهم، وهو كالوالد لأمته، وأزواجُه الطاهرات كالأمهات للمؤمنين، وهو أولى بهم من أنفسهم، في كل أمرٍ من أمور الدنيا والدين، فطاعته أوجب، وحكمه أنفذ، وعليهم أن يعظِّموه ويحبوه، أكثر من أنفسهم وأبنائهم، وفي الحديث الشريف (ما من مؤمنٍ إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، واقرءوا إن شئتم ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ رواه البخاري ﴿وأولو الأرحام﴾ وأهلُ القرابات بعضُهم أولى ببعض في التوارث، من المؤمنين بحقِّ المؤاخاة الإيمانية، والنصرة الدينية ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ أي إلاَّ أن تحسنوا إلى إخوانكم من الفقراء المهاجرين، فلا حرج في ذلك ولا إثم!! وكان حكم التوارث بين أهل القرابة، حكماً مسطراً في الكتاب العزيز، لا يبدَّل ولا يُغيَّر.. كان المسلمون يتوارثون بالهجرة، والإخوة التي آخى بها رسولُ الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فكان المهاجري يرث الأنصاريَّ دون قراباته وذوي رحمه، فنسخ الله ذلك، وجعل التوارث بالقرابة والنكاح ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي واذكر حين أخذ ربك من الأنبياء، الميثاق أي العهد المؤكد، بتبليغ الرسالة التي كُلِّفوا بها، (ومنك) أي أنتَ يا خاتم النبيِّين، (ومن نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى) آخر أنبياء بني إسرائيل، وهؤلاء الرسل الخمسة، هم أولوا العزم، الذين قال الله عنهم ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ وهم أصحاب أعظم الرسالات السماوية، وقدَّم نبيَّنا في الذكر، مع أنه آخر الأنبياء، تعظيماً له، وتكريماً لشأنه، وبياناً لسيادته على جميع الأنبياء والمرسلين ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي وأخذنا من الأنبياء

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾

عهداً مؤكَّداً موثقاً، على الوفاء بما التزموا به، من تبليغ رسالة الله ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي فعلنا ذلك، ليسأل الله الأنبياء الصادقين، عن تبليغهم الرسالة إلى أقوامهم، وأعدَّ تعالى وهيأ للكافرين الفجار، المكذبِّين للرسل، عذاباً مؤلماً موجعاً مع الخزي والعار.. والحكمةُ من سؤال الرسل، مع علمه تعالى بصدقهم وتبليغهم الرسالة، هو التقبيحُ على الكفار، وإخزاؤهم يوم القيامة على رءوس الأشهاد. ثم ذكر تعالى غزوة الأحزاب، وما فيها من آيات باهرات، فقال سبحانه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي اشكروا إنعام الله عليكم، بالنصرة وردِّ كيد الأعداء عنكم، حين جاءتكم قوى الشر من كل مكان، فأرسلنا عليهم ريحاً باردة، شديدة عاصفة، قلعت خيامهم، وقلبت قدورهم، وأطفأت نيرانهم، وجعلت تقذف بهم نحو الأرض، وأنتم آمنون مطمئنون، حتى كان رئيس كل جماعة يقول لقومه: النَّجاءَ، النَّجاءَ، وأرسلنا كذلك عليهم ملائكة من السماء لم تروها أنتم، زلزلت نفوسهم، وألقت في قلوبهم الرُّعب، حتى فرُّوا هاربين!! وسميت هذه الغزوة «غزوة الأحزاب» لأن أعداء الله من المشركين، تحزَّبوا على المؤمنين، واجتمعوا عليهم من كل جهة، ومن كل جانب، فالتقى (كفار قريش، ويهود بني قريظة، ويهود بني النضير، وقبائل غطفان، وأوباش العرب)، كلُّ هؤلاء تألبوا واجتمعوا على محاربة المسلمين، وحصار المدينة المنورة، وزاد في شدة الهول، وعظم البلاء، أن المنافقين في المدينة المنورة، التقوا مع أعداء الله على محاربة الإسلام، وكشفوا عن خبايا نفوسهم، وما يضمرونه للإسلام، من خبثٍ ومكر ودهاء، وتثبيطٍ للعزائم، حتى قال كبيرٌ من كبراء المنافقين، وهو «معتِّب بن قُشير»: يعدنا محمد كنوز كسرى وقيصر، ولا يقدر أحدنا أن يذهب إلى الغائط!! وكان عدد الأعداء قرابة اثني عشر ألفاً، فلما سمع رسول الله ﷺ بإقبالهم، ضرب الخندق على المدينة، بإشارة «سلمان الفارسي» ولهذا تسمى أيضاً (غزوة الخندق) وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين، والآيات تتحدث عن هذه الغزوة العجيبة، التي ظهرت فيها روائع آيات الله، في نصرة عباده المؤمنين، وهزيمة

إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ۚ

أعدائهم شرَّ هزيمة. . وقد صوَّر القرآن صورة (الهول المفزع)، الذي روَّع أهل المدينة، والكرب الذي حلَّ بالمؤمنين، بعد أن أطبقت عليهم جيوش الأعداء من كل مكان، وأحاطوا بالمسلمين إحاطة السوار بالمعصم ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ أي حين جاءكم الأعداء، من أعلى الوادي من جهة المشرق، ومن أسفل الوادي من جهة المغرب، وأعانهم يهودُ بني قريظة، الذين نقضوا العهد مع الرسول وانضموا إلى المشركين، فصار الأعداء محيطين بالمسلمين من كل جانب، وحين زاغت الأبصار أي مالت وانحرفت عن مستوى نظرها، حيرةً لشدة الفزع والرعب **﴿وبلغت القلوبُ الحناجر﴾** أي كأن القلوب قد خرجت عن أماكنها، حتى كادت تبلغ الحناجر، وهو تمثيلٌ لشدة ما لاقوه من الهول **﴿وتظنون بالله الظنونا﴾** أي حتى ظن المنافقون بربهم الظنون الخبيثة، أن محمداً وأصحابه سَيُستأصلون، وكاد المسلمون يضطربون ويقولون: ما هذا الخُلف للوعد؟ وأمَّا المنافقون فتعجَّلوا ونطقوا، وقالوا: ما وعدنا الله ورسولُه إلا غروراً!! ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ أي في ذلك الوقت الرهيب، كان الابتلاء والامتحانُ للمؤمنين شاقاً وعصيباً، حتى لكأن الأرض تتزلزل بهم، وتضطرب تحت أقدامهم، وكان هذا الابتلاء الشديد، ليتميَّز المؤمن الصادق، من الفاجر المنافق، ولهذا قال بعده ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي وحين يقول أهلُ النفاق، والذين في قلوبهم مرضُ الشك، وضعف العقيدة والإيمان: ما هذا الوعد الذي وعدنا الله من النصر، إلاَّ باطلٌ وخداع، وعدنا محمد بالنصر، وأحدنا لا يقدر أن يذهب ليتغوَّط فَرَقاً!! وفريق آخر من المنافقين، حرَّضوا المجاهدين على ترك الصفوف، والعودة إلى المدينة، بحجة أن بيوتهم ليس فيها من يحميها من الرجال، وهي معرَّضةٌ للخطر ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ۚ﴾ أي يا أهل

وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾

المدينة: لا معنى لإقامتكم هنا مع النبي مرابطين في الخندق، فبيوتكم معرَّضة للخطر، فارجعوا إلى المدينة، لحماية أهليكم وذراريكم ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي ويستأذن جماعة من المنافقين رسولَ الله ﷺ، بالانصراف من الغزوة، بحجة أن بيوتهم عورة أي خالية ليس فيها أحد، وأنها غير حصينة، يخافون عليها من اللصوص والأعداء!! وهنا يكشف القرآن عن حقيقة المنافقين، ويضبطهم متلبِّسين بالكذب، والجبن، والفرار من المعركة فيقول: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي ليس الأمر كما زعموا، بل هي محصَّنة، وما يريدون إلا الفرار، والهرب من المعركة، والأمان على نفوسهم من القتل.. ثم زاد تعالى في فضيحتهم، فبيَّن كذبهم ونفاقهم فقال ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ أي ولو حدث ودخل عليهم الأعداء، من جميع نواحي المدينة، ثم طلبوا منهم أن يكفروا ويرتدوا عن الإسلام، لما تأخروا لحظة، وأجابوهم إلى ما طلبوا سراعاً دون انتظار، إلا بمقدار ما يسمعون السؤال، حتى يعطوا الجواب، وهذا ذمٌّ لهم في غاية الذمِّ، أي ارتدوا عن الإسلام في أسرع ما يكون، وانضموا إلى حزب المشركين، غير مبالين بالإسلام وأهله ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ أي وكان هؤلاء المنافقون، قد أعطوا ربهم العهود والمواثيق، قبل (غزوة الأحزاب)، أن لا يفرُّوا من المعركة، ولا ينهزموا أمام الأعداء، ثم نقضوا العهد ولم يفوا به، وكان هذا العهد منهم جديراً بالوفاء، سَيُسألون عنه، لأنه عهدٌ مع ربِّ العزة والجلال، فالعهد كبير، والأمر خطير ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي قل يا أيها الرسول لهؤلاء المنافقين، الذين يهربون من الغزو، حرصاً على الحياة: إن فراركم لن يطوِّل أعماركم، ولن يدفع الموت عنكم أبداً، ولئن هربتم فإذاً لا تمتعون في الدنيا إلا زمناً

قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾

يسيراً، لأن الموت مآل كل حي، ومن لم يمت بالسيف مات بغيره.

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي قل لهم: من يقدر أن يمنعكم من الله عزَّ وجل، سواءً قدَّر هلاككم ودماركم، أو قدَّر حياتكم وبقاءكم؟ ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي وليس لهم من يجيرهم، أو ينقذهم من عذاب الله، فلا مجير لهم ولا مغيث، ولا ناصر، ولا معين ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لقد علم الله المثبِّطين للناس عن الجهاد، والقائلين للمنافقين أمثالهم، من أهل الكفر والنفاق: تعالوا إلينا، واتركوا محمداً وأصحابه حتى يهلكوا، وهذا يدلُّ على أنهم كانوا خارج المعسكر، فارين من المعركة ومن العدو، ولا يأتون القتال إلا زمناً قليلاً، فإذا بدأت المعركةُ، فرُّوا وهربوا، ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي بخلاء عليكم بالمعاونة، والشفقة، والنفقة في سبيل الله، فإذا حضر القتالُ رأيت هؤلاء المنافقين، ينظرون إليك كنظر من غُشي عليه من معالجة سكرات الموت، تدور أعينُهم في أحداقهم، من شدة الرعب والفزع، يتشدَّقون بالكلام بألسنةٍ سليطة، يقولون: أعطونا قسمتنا، فإنَّا ساعدناكم وقاتلنا معكم، ولولا صمودنا لما انهزم الأعداء!! فأمَّا عند الحرب فأجبنُ قومٍ وأخذلهم للحق، وأمَّا عند الغنيمة، فأشحُّ قوم وأبسطُهم لساناً، وهكذا تخرج الفئران من جحورها ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي بخلاء على المال، يبغون الغنيمة، وهؤلاء لم يؤمنوا في الحقيقة، وإن أسلموا بألسنتهم ظاهراً، فأبطل

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

الله أعمالهم بسبب كفرهم ونفاقهم، وكان ذلك الإحباط لأعمالهم، سهلاً هيناً عند الله، لأنها فقدت عنصر الإخلاص، كبناءٍ قام على غير أساس.. وتتميماً للصورة التي كان عليها المنافقون، يذكر القرآن الكريم، أنهم مع التبجح بالبطولة والشجاعة، لا يزالون في شدة خوف وفزع، يظنون أن الأعداء لم ينصرفوا عن المدينة، فيقول سبحانه ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي يحسب المنافقون من شدة خوفهم وجبنهم، أن المشركين لم ينصرفوا عن المدينة، وهم قد انصرفوا، وإن يرجع إليهم الكفار كرَّة ثانية، تمنوا لشدة خوفهم، أنهم خارجون مع الأعراب في البادية، لا معكم في المدينة، حذراً من القتل ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ أي يسمعون من بعيدِ أخباركم، من غير مشاهدة ولا حضور، يقولون: أَهَلكَ المؤمنون؟ أتغلَّبَ أهلُ مكة على المسلمين؟ ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ولو كانوا فيكم وقت القتال في الخندق، ما قاتلوا معكم، ولا ثبتوا في المعركة إلا مدة يسيرة، لجبنهم، وضعف يقينهم ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي لقد كان لكم أيها المؤمنون، قدوة حسنة، يُقتدى بها ويُتأسَّى، تقتدون بالرسول ﷺ في إخلاصه، وصدقه، ووفائه، وصبره في الحروب والمعارك، فهو (المثلُ الأعلى) لكل مؤمنٍ، يجب أن يقتدي به المسلمون ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي لمن كان يطلب ويريد ثواب الله، وجزاءه في الآخرة، وكان دائم الصلة بربه، يذكره في السراء والضراء ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ هذا ثناء من الله تعالى، على الذين ثبتوا في غزوة الأحزاب، أي ولمَّا شاهد المؤمنون جيوش الكفر، الذين تحزَّبوا لقتال المسلمين، قالوا: هذا ما وعدنا الله به من المحنة والابتلاء، ثم النصر على الأعداء ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ أي صدق الله وعده

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

لنا، وصدق رسولُه فيما بشرَّنا به، وما زادهم ما رأوه من كثرة الأعداء، إلا إيماناً بالله، وتسليماً وانقياداً لطاعته وأوامره!! رُوي أن المسلمين حين كانوا يحفرون الخندق، اعترضتهم صخرة عظيمة، عجزوا عن تكسيرها، فأخبروا الرسول ﷺ بذلك، فقام ﷺ نحوها وأخذ المعول، وضربها ثلاث ضربات، أضاءت منها مدائن كسرى، وقصورُ الروم، ثم تحطمت الصخرة، فقال لأصحابه: أبشروا بالنصر، فلما أقبلت جموعُ الأحزاب والمشركين ورأوهم ﴿**قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله**﴾ انظر السيرة النبوية.. لقد كانت غزوة الخندق، من أوضح الدلائل، وأظهر المعجزات، على نصر الله لجنده وأوليائه، فلقد التقت فيها طُغمة الكفر والنفاق، على إطفاء نور الله، وحاصروا المدينة يريدون أن يستأصلوا الإسلام من جذوره، فأرسل الله على الأحزاب ريحاً عاصفة، شديدة الهبوب، في ليلةٍ شديدة البرد والظلمة، فقلعت خيامهم، وأطفأت نيرانهم، وكفأتْ قدروهم، وصارت تلقي الرجل على الأرض إلى مسافات بعيدة، وأرسل الله على جموع المشركين جنداً من الملائكة زلزلتهم، وألقت في قلوبهم الرعب، ولم تقاتل الملائكة لأنه لم تقع معركة، ورجع المشركون مندحرين منهزمين، يجرُّون ثياب الخيبة والفشل.. وفي أعقاب غزوة الخندق، جاء الحديث عن نصر الله للمؤمنين في غزوة أحد، بعد أن ذاقوا الهزيمة، بمخالفتهم لأمر الرسول ﷺ، فيقول سبحانه مثنياً على الذين ثبتوا في الغزوة ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي من المؤمنين رجال صادقون أوفياء، نذروا أنهم إن أدركوا حرباً، أن يقاتلوا حتى يُستشهدوا ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ أي فمنهم من مات شهيداً، ووفَّى بنذره، ومنهم من ينتظر دوره لينال الشهادة، وما بدَّلوا عهدهم الذي عاهدوا به ربهم أبداً!! نزلت هذه الآية في «أنس بن النضر» عم أنس بن مالك، فقد روى البخاري عن أنسٍ رضي الله عنه أنه قال: (نَرَى هذه الآية ﴿**من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه**﴾ نزلت في عمِّي أنس بن النضر)، وروى ابن جرير الطبري عن أنس أنه قال: (غاب عمِّي «أنسُ بن النضير» عن قتال يوم بدر، فقال: غبتُ عن أول قتالٍ مع رسول الله ﷺ!! واللهِ لئن أشهدني اللهُ قتالاً، ليرينَّ اللهُ ما أصنع؟ فلما كان يوم أحد، انهزم المسلمون، فقال أنسُ بن النضر: اللهم إني أبرأ إليك مما فعل هؤلاء!! يعني المشركين -

لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ

وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني ـ المسلمين ـ ثم مشى بسيفه، فلقيه «سعدُ بن معاذ» فقال: يا سعد، واللهِ إني لأجد ريح الجنة دون أُحد ـ أي أقرب من جبل أحد ـ ثم قاتل حتى قُتل، فقال أنس بن مالك: فوجدناه بين القتلى، وبه بضعٌ وثمانون جراحة، ما بين ضربة بسيفٍ، أو طعنةٍ برمح، أو رميةٍ بسهم، فما عرفناه حتى جاءت أختُه فعرفته ببنانه ـ أي من أصابعه ـ قال أنس: فكنا نتحدث أن هذه الآية ﴿من المؤمنين رجال﴾ نزلت فيه وفي أصحابه) رواه أحمد، ومسلم بنحوه. ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ عاد الحديث إلى غزوة الأحزاب، بعد أن جاء عن غزوة أُحدٍ استطراداً، ليشيد بمواقف المؤمنين البطولية، والمعنى: وقع ما وقع في «غزوة الخندق» ليثيب الصادقين، بسبب صدقهم وثباتهم أمام قوى المشركين، أحسن الجزاء في الآخرة، ويُعذِّب المنافقين الذين ثبَّطوا الهمم والعزائم، بأن يموتوا على النفاق فيعذبهم، أو يتوبوا فيرحمهم الله ويتوب عليهم، وكان الله واسع التوبة، رحيماً بالعباد، ولمَّا كانت رحمتُه تعالى الغالبة، ختم الآية الكريمة بها ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ أي وردَّ الله جحافل المشركين، الذين تألبوا على غزو (المدينة المنورة)، ردَّهم خائبين خاسرين، مملوءة قلوبهم بالغيظ والغضب، حيث لم يصلوا إلى مبتغاهم، من حصد المؤمنين واستئصالهم، ولم ينالوا شيئاً من النجاح والفلاح، لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً﴾ أي وكفى الله المؤمنين شر أعدائهم، بأن أرسل عليهم الريح والملائكة، وصرف عنهم شرَّ الحرب والقتال، حتى ولَّى الكفار الأدبار منهزمين، وكان الله ﴿قَوِيًّا﴾ أي قادراً على الانتقام من أعدائه، ﴿عزيزاً﴾ أي غالباً لا يُقهر، وقد كان ﷺ يشير إلى هذا في ثنائه على الله فيقول: (لا إله إلا الله وحده، صدَقَ وعدَه، ونصَرَ عبدَه، وأعزَّ جندَه، وهَزَم الأحزابَ وحده) رواه البخاري ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ أي

﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾

وأنزل تعالى «يهودَ بني قُريظة» الذين أعانوا المشركين، ونقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ، وانقلبوا على رسول الله وأصحابه، أنزلهم من حصونهم وقلاعهم ـ والصَّياصِي في اللغة بمعنى الحصون ـ وألقى في قلوبهم الخوف الشديدَ والفَزَعَ، حتى فتحوا الحصون واستسلموا ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ أي تقتلون الرجال، وتأسرون النساء والصِّبيان ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أي وأورثكم بساتين وحدائق بني قريظة، وحصونهم وبيوتهم، وأموالهم التي تركوها، وأرضاً أخرى لم تطئوها بعدُ بأقدامكم، وهي «أرضُ خيبر» وهذه بشارة للمؤمنين بفتح خيبر، وكان الله قادراً على كل شيء، فكما ملككم ديار بني قريظة، يملككم غيرها من البلدان.

كان نقضُ اليهود للعهد مع رسول الله ﷺ سبباً لإجلائهم عن المدينة المنورة، حيث كانوا يسكنون في أطرافها، ولمَّا رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة، ظافراً منتصراً، ووضع المسلمون السلاح، جاء جبريل إلى الرسول عليه السلام، وهو في بيت أم المؤمنين «أم سلمة» رضي الله عنها يغتسل، فقال: أَوَضعتَ السلاحَ يا رسول الله !! قال: نعم، قال: ولكنَّ الملائكة لم تضع السلاح، إن الله يأمرك أن تنهض إلى (بني قريظة) فتقاتلهم، وأمرني أن أزلزل عليهم حصونهم، فنهض رسول الله من فوره، وأمر المسلمين بالمسير إلى بني قريظة ـ وكانوا على أميال من المدينة ـ وقال لأصحابه: لا يصلينَّ أحدكم العصر إلا في بني قريظة، فأسرع المسلمون نحو حصون اليهود، وحاصرهم رسولُ الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة، ونزلوا على حكم «سعد بن معاذ» وكان حليفهم في الجاهلية، فأرسل النبي ﷺ إلى سعد، فأتى على حمار، فلما دنا من المسجد، قال للأنصار: قوموا إلى سيِّدكم، فقام المسلمون إعظاماً وإكراماً واحتراماً له في محل ولايته، فلما جلس قال له الرسول الكريم: إن هؤلاء نزلوا على حكمك، فاحكم فيهم بما شئتَ!! قال: وحكمي نافذٌ على من ههنا ـ وأشار إلى النبي ﷺ ـ فقال: نعم، قال: فإني أحكم بهم أن تُقتل مقاتلتُهم، وتُسْبى ذراريهم ـ أي يُقتل الرجال، ويُسترق النساء والأطفال ـ فقال له الرسول الكريم: لقد حكمتَ فيهم بحكم اللهِ عزَّ وجل من فوق سبع سمواته، وفي رواية: حكمت فيهم بحكم الملِك ـ يعني ربَّ العزة والجلال) استقينا هذا من صحيح البخاري من بضعة أحاديث رواها في صحيحه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾

وقد ظهرت لرسول الله ﷺ معجزة باهرة في هذه الغزوة «غزوة الأحزاب» رواها الإمام البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال: (لمَّا حُفر الخندقُ رأيتُ بالنبي ﷺ خَمَصاً ـ أي جوعاً ـ شديداً، فانكفأتُ إلى امرأتي فقلت لها: هل عندكِ شيء؟ فإني رأيتُ برسول الله ﷺ خَمَصاً شديداً!! فأخرجتْ جِرَاباً ـ أي كيساً ـ فيه صاعٌ من شعير، ولنا بهيمةٌ داجنٌ ـ أي سمينة ـ فذبحتُها، وطحنت امرأتي الشعيرَ، ففرغتْ إلى فراغي، فقطعتُها في برمتها ـ أي القِدْر ـ ثم ولَّيْتُ إلى رسول الله ﷺ، **فقالت**: لا تفضحني برسول الله وبمن معه!! فجئته فساررتُه ـ أي تكلمت معه سراً ـ فقلت يا رسول الله: ذبحنا بهيمةً لنا، وطحنَّا صاعاً من شعير كان عندنا، فتعالَ أنتَ ونفرٌ معك!! فصاح النبي ﷺ: يا أهل الخندق، إن جابراً قد صنع سؤراً ـ أي طعاماً ـ فحيَّا هلاً بكم ـ أي أهلاً وسهلاً بكم هلمُّوا مسرعين ـ فقال ﷺ: لا تنزلنَّ برمتكم، ولا تخبزنَّ عجينكم حتى أجيء!! فجئتُ وجاء رسول الله يقدم الناسَ، حتى جئتُ امرأتي، فقالت: بكَ وبكَ ـ أي فعل الله بكَ ما فعل، من أين أطعم الناسَ؟ ـ قلتُ: قد فعلتُ الذي قلتِ، فأخرجت لي عجيناً، فبصق ـ أي تفل فيه ﷺ بريقه ـ وبارَكَ، ثم عَمَد إلى برمتنا ـ أي قدرنا ـ فتفل وبارك، ثم قال: ادعُ خابزةً فلتخبز معكِ، واقدحي ـ أي اغرفي ـ من برمتكم ولا تنزلوها!! وهم ألفٌ ـ أي عددهم ألف رجل ـ فأقسمُ بالله، لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإنَّ برمتنا لتغِطُّ كما هي ـ أي تغلي وتفور ـ وإن عجيننا ليخبز كما هو) رواه البخاري، وفي هاتين الغزوتين «الأحزاب» وغزوة «بني قريظة» عبرٌ وعظات، لأهل الإيمان وسائر البشر.. وبعد ذلك يأتي الحديث عن بيت النبوة، وأزواج النبي الطاهرات، فيقول سبحانه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ سببُ نزول هذه الآيات، أن النبي ﷺ كان يعيش مع أزواجه في بيته عيشة الكفاف، وكانت تأتيه الغنائم والأموال فيقسمها بين المسلمين، ولا يأخذ منها لنفسه وأهله إلا القليل، الذي يسدُّ به الحاجة، لزهده في الدنيا، فلما نصر الله نبيَّه في (غزوة الأحزاب)، وفتح عليه بني قريظة وخيبر، وملَّكه ديارهم وأموالهم، طمع نساؤه بنفائس اليهود، فقعدن ذات مرة حوله، وقلن له يا رسول الله: بناتُ كسرى وقيصر في الحُليِّ والحُلَل، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق!! وآلمن

وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

قلبه الشريف بمطالبتهن له بالتوسعة عليهنَّ، حتى احتجب عن أصحابه فلم يخرج إليهم، فنزل القرآن بآية التخيير، روى مسلم عن جابر أنه قال: (أقبل أبو بكر يستأذن على رسول الله، والناسُ ببابه جلوسٌ والنبي جالسٌ فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يُؤذن له، ثم أذن لأبي بكر وعمر فدخلا، والنبيُّ جالس وحوله نساؤه وهو ﷺ ساكتٌ، فقال عمر: لأكلمنَّ النبيَّ ﷺ لعلَّه يضحك!! فقال عمر يا رسول الله: لو رأيتَ ابنة زيد ـ يعني زوجته ـ سألتني النفقة آنفاً فوجأتُ عُنُقها ـ أي نحرتها ـ فضحك النبيُّ ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال: هنَّ حولي يسألنني النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها، وقام عمر إلى حفصة، كلاهما يقول: تسألان النبيَّ ﷺ ما ليس عنده، فنهاهما رسولُ الله، فقلن: واللهِ لا نسألُ رسولَ الله بعد هذا اليوم، ثم اعتزلهن شهراً، حتى نزلت، آيةُ التخيير، فبدأ ﷺ بعائشة فقال لها: إني ذاكرٌ لك أمراً، ما أحبّ أن تَعجلي فيه، حتى تستأمري أبويك ـ أي تأخذي رأيهما ـ قالت: وما هو؟ فتلا عليها الآية ﴿**يا أيها النبي قل لأزواجك أن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها**﴾ الآية، قالت عائشة: أفيكَ أستأمرُ أبويَّ؟ بل أختار الله ورسوله ـ والدار الآخرة.. وهكذا فعل سائر نسائه، اخترن جميعاً الله ورسوله والدار الآخرة..) رواه مسلم.

ومعنى الآية: قل يا أيها النبي لزوجاتك اللواتي طالبنك بالتوسعة عليهن: إن كنتنَّ ترغبن في سعة الدنيا ونعيمها، وبهرجها الزائل، فتعالين حتى أعطيكنَّ متعة الطلاق، وأطلقكن طلاقاً من غير ضرار ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي وإن كنتنَّ ترغبن في رضوان الله وطاعة رسوله، والفوز بالنعيم الوافر في الدار الآخرة، فإن الله قد هيأ لكنَّ ثواباً عظيماً لا يوصف، هو الجنة وما فيها من النعيم الدائم، إكراماً لكنَّ على إحسانكن ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي من تفعل منكنَّ ذنباً كبيراً، أو تأتِ بفعلٍ قبيح، كعصيان أمر الرسول ﷺ أو إيذائه بأيِّ نوع من أنواع الأذىٰ.

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝٣١ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٣٢ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾

قال ابن عباس: «الفاحشةُ: النشوزُ ـ يعني العصيان ـ وسوء الخلق» وليس المراد بها فاحشة الزنى، لأن الله صان نساء الأنبياء عن ذلك، ﴿يضاعف لها العذاب ضعفين﴾ أي يكون العذاب للواحدة ضعف عذاب غيرها من النساء أي مثليه، لأن زيادة قبح المعصية، تتبع زيادة الفضل والمرتبة، وكان هذا العذاب سهلاً يسيراً عند الله ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ أي ومن تدم منكن على الطاعة، وتتقرب إلى الله بأنواع الخيرات، والأعمال الصالحات، نؤتها ثوابها مضاعفاً، أي مرتين، مرة على الطاعة والتقوى، وأخرى على إرضائها لرسول الله ﷺ، وهيأنا لها في الجنة، رزقاً حسناً مرضيّاً لا ينقطع، والآيةُ إظهارٌ لفضل أزواج الرسول ﷺ، وعظم قدرهنَّ عند الله، لأنهن زوجات حبيب الله، وبقدر القرب من رسول الله يكون القربُ من الله ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي أنتنَّ أزواج خاتم النبيين، ولستنَّ كسائر النساء، بل أنتنَّ أفضلُ وأشرفُ إن اتقيتُنَّ الله، فلا تتلاينَّ في الكلام عند مخاطبة الرجال، فيطمع الذي في قلبه فجورٌ وريبة ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي قلن قولاً عفيفاً، بعيداً عن الريبة، من غير لينٍ ولا تكسُّر، ولا ميوعة ولا انحلال، كما تفعله الفاجرات المائعات، وإذا كان التلاينُ في الكلام محرماً ومنهياً عنه، فكيف بمن تثير الغرائز بالغناء الماجن، الخالي من العفة!! الذي تختلط فيه أصوات المغنِّين والمغنيات، مع آلات الموسيقى والطرب!! ثم نسمع من بعض المفتونين في دينهم، من يبيح للمرأة الغناء، بحجة أن صوت المرأة ليس بحرام، إذاً فما هو الحرامُ في نظرهم!؟ ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي الزمن بيوتكنَّ ولا تخرجن لغير حاجة، ولا تتسكَّعن في الطرقات، ولا تظهرن زينتكنَّ للأجانب،

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾

مثل ما كانت نساء أهل الجاهلية يفعلن، وحافظن على إقامة الصلاة، وأداء الزكاة، وطاعة الله ورسوله في جميع الأوامر والنواهي، والقرارُ في البيوت، ليس معناه ملازمة البيت فلا تبرحه المرأة أبداً، إنما فيه إيماءة لطيفة، إلى أن يكون البيت هو (السَّكنُ والأصل)، وهو المقرُّ للمرأة، لأنه المدرسة التي تتخرج منها الأجيال، والمصنع الذي يخرِّج لنا الأبطال!! فالمرأة تخرج لحاجتها، وللمسجد، وللنزهة، والترويح عن النفس، لكنْ بشرط الحشمة، وعدم التسكُّع في الطرقات، وعدم إبداء الزينة أمام الرجال ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ أي إنما يريد الله بهذا التشريع الكريم، أن يطهركنَّ من دَنَس المعاصي والآثام، التي يتدنَّس بها عرضُ الإنسان، كما يتلَّوثُ الثوب بالنجاسات، ويطهرِّكم يا آل بيت النبوة، من جميع ما يُنقص من كرامتكن!! والآية نصٌّ قاطع في دخول أزواج النبي ﷺ في آل البيت (آل بيت النبوة)!

قال ابن عباس: نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة، وقال عكرمة: من شاء باهلتُه ـ أي لاعنته ـ إنها نزلت في شأن نساء النبي ﷺ، وفي هذه الآية ردٌّ على الرافضة في تخصيصهم أهل البيت بـ (فاطمة، وعلي، والحسن، والحسين) فإن الآيات هنا نصٌّ قاطع، على أن أمهات المؤمنين داخلات دخولاً أولياً في آلِ بيت النبوة ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي اقرأن آيات الذكر الحكيم، وادرسن سنة النبي الكريم، فأنتن في بيت النبوة، مهبط الوحي، مما يوجب عليكنَّ طاعة الرحمن، والله هو العالم بحقائق الأمور وبواطنها ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ أي المستمسكين بآداب الإسلام، المتخلِّقين بأخلاقه، من الرجال والنساء ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي المصدِّقين بآيات الله، وما أُنزل على رسله وأنبيائه، من الفريقين: الذكور والإناث ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ أي المداومين على الطاعات وفعل الخيرات ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ أي الصادقين في إيمانهم ونيَّاتهم، وأقوالهم، وأعمالهم ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ أي الصابرين على المصائب والنوائب،

وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴿٣٦﴾

وعلى فعل الطاعات، وترك الشهوات المحرَّمات ﴿وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ﴾ أي المتواضعين بقلوبهم، وجوارحهم لله عزَّ وجل ﴿وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ أي المحسنين إلى الفقراء والمساكين، المنفقين في سبيل الله ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ أي الصائمين عن المآكل والمشارب لوجه الله تعالى، في رمضان وغيره ﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾ أي يحفظون فروجهم عن الزنى، ويصونونها عن التكشف وإظهار العورات ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ أي المواظبين على ذكر الله بقلوبهم وألسنتهم ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ أي أعدَّ لهؤلاء المتقين الأبرار، المتصفين بجلائل الصفات، مغفرة لذنوبهم، وثواباً عظيماً هو الجنة، دار السرور والكرامة.. وسببُ نزول هذه الآية ما رُوي أن «أمَّ سَلَمة» قالت: يا نبيَّ الله ما لي أسمع الرجالَ يُذكرون في القرآن، والنساء لا يُذكرن؟ فأنزل الله ﴿**إن المسلمين والمسلمات..**﴾ رواه النسائي والترمذي، وقد ذكر تعالى من صفات هؤلاء الأبرار، صفاتٍ عشراً، هي: (الإسلام، والإيمانُ، والقنوتُ، والصدقُ، والصبر، والخشوع، والتصدق، والصوم، وحفظ الفروج، وذكر الله جلَّ وعلا) وهي صفات أهل الإيمان واليقين، من الرجال والنساء، ونبَّه تعالى على أن الرجال والنساء في التكاليف، والأوامر، والنواهي، سواء عنده تعالى، وأنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً، سواءً كان رجلاً أو امرأة!!

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾ أي ما صحَّ ولا استقام لرجلٍ من المؤمنين، أو امرأة من المؤمنات، إذا صدر أمرٌ من الله أو رسوله، أن يكون لهم رأيٌ أو اختيار فيه، بل الواجب الانقيادُ والتسليم لقضاء الله، وقضاء رسوله ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ أي ومن يعصِ أمر الله، ويخالف حكمه وحكم رسوله، فقد ضلَّ ضلالاً واضحاً بيِّناً، وأخطأ طريق الحقِّ والسعادة!! وسبب نزول هذه الآية ما

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ

رُوي أن رسول الله ﷺ خطب «زينب» لمولاه «زيد بن حارثة» فاستنكفت عن الرضى به وأبت، وأبى أخوها «عبد الله» أن يزوِّجها إيَّاه، لنسبها من قريش، وقد كان «زيد» عبداً مملوكاً، فأعتقه رسولُ الله ﷺ وتبنَّاه، فلما نزلت هذه الآية، أذعنت زينب وقبلت به، وجاء أخوها إلى الرسول ﷺ، فقال يا رسول الله: مرني بما شئت!! قال: زوِّجها من زيد، فقال: سمعاً وطاعة فزوَّجه إيَّاها)، رواه ابن جرير، والحكم في الآية عام، وإن كان سبب النزول خاصاً، فإنه لا رأي ولا اختيار لأحدٍ أمام أمر الله وأمر رسوله.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ هذه الآية توضِّح الحكمة من زواج النبي ﷺ؛ بالسيدة (زينب الأسدية)، بعد أن تزوَّج بها «زيد بن حارثة» ثم طلَّقها، وكان ذلك بأمرٍ من الله، فقد ألهمَ الله رسولَه أن يتبنَّى «زيداً» قبل النبوة، فتبنَّاه حتى كان الناس يسمونه «زيد بن محمد» حتى نزل القرآن ﴿ما كان محمد أبا أحدٍ من رجالكم﴾ ثم تخلَّى رسول الله عن تبنِّيه وزوَّجه بالسيدة زينب، ولمَّا طلَّقها زيد، أمر الله رسوله أن يتزوج بها، ليهدم تلك العادة المتوارثة، والنظام السائد (نظام التبنِّي) ويعيد التشريع الإلهي العادل، باعتماد النسب دون التبني!.

ومعنى الآية: أي اذكر يا أيها الرسولُ وقت قولك، للذي أنعم الله عليه بتوفيقه إلى الإسلام، وأنعمتَ عليه بالعتق وتحريره من العبودية: أمسك عليك زوجك ولا تطلِّقها، واتق الله في أمرها ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ أي وتخفي في نفسك ما سيظهره الله، وهو إرادة الزواج بها، لإبطال (حكم التبني)، والذي أخفاه رسول الله ﷺ هو إرادة تزوجها ليبطل حكم التبني، أخفاه حياءً وحشمةً، وصيانةً لعرضه من ألسنة السفهاء من المنافقين، أن يقولوا إنه تزوج بزوجة ابنه ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾ أي وتهابُ أن يقول الناسُ تزوج محمد بحليلة ابنه، والله أحقُّ أن تهابه وحده، حيث أمرك بالزواج بها ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ

حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾

حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أي فلما طلَّقها زيد، ولم يبق له رغبة فيها، زوجناك زينب نحن، لئلا يكون في تشريع الله على المؤمنين ضيقٌ ومشقة، في حقِّ التزوج بزوجات مطلّقات الأبناء من التبنّي في هذه الآية، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي حكمه سبحانه نافذ لا محالة!! لقد أبطل الله حكم التبني في هذه الآية، وتولّى بنفسه تزويجها لرسوله، فدخل عليها رسول الله ﷺ بلا عقد، ولا مهر، ولا شهود، وكان ذلك من خصوصياته عليه السلام، فقد رُوي عن أنس أنه قال: (كانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ وتقول: زوَّجكنَّ أهاليكنَّ، وزوَّجني الله من فوق سبع سموات) رواه البخاري.

قال ابن عباس: خشي أن يقول المنافقون تزوَّج محمد امرأة ابنه. هٰذا هو الصحيح في الأمر الذي أخفاه الرسولُ في نفسه، أمَّا ما قاله البعضُ، من أن الرسول لمَّا رآها أحبَّها، ووقعت في قلبه، فقال: (سبحان مقلب القلوب) فسمعتها زينب فأخبرت بذلك زيداً، فأراد أن يطلِّقها ليتزوج بها الرسول، فهذا من أعظم الدسائس التي دسَّها أعداء الإسلام، وتلقَّفها المستشرقون، فخبُّوا فيها وأوضعوا، ونالوا من مقام رسول الله بهذه الفرية الباطلة المكذوبة، ثم كيف يُقال: إن الرسول رآها فأعجبته، وهي بنت عمته، ولم يزل يراها منذ وُلدت، وهو الذي زوَّجها لزيد، فكيف يحبُّها وتقع في قلبه، بعد أن تتزوج؟ ثم الآية صريحة في أن الله سبحانه سيظهر ما أخفاه الرسول، فهل أظهر الله حبَّه لها كما يفتري المفترون؟ أم أظهر أمره له بالزواج منها، لإبطال (حكم التبني)؟ فهذه أخبار ساقطة، وروايات باطلة، لم يصحَّ منها شيء، كما قال الحافظ ابن كثير، ثم قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي لا حرج ولا إثم على النبي فيما أباح الله، وقسم له من الزوجات، حيث تزوج بتسع نسوة، وهذه سنة الله في جميع الأنبياء والمرسلين، فلقد كان لداود مائة زوجة، ولسليمان ثلاثمائة امرأة، فلماذا يعيب اليهود الرسول في كثرة النكاح؟ ورسول الله ﷺ عدَّد الزوجات في سن الشيخوخة، لحكم جليلة عديدة؛ نذكر منها أربعة:

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾

١ ـ الحكمة التشريعية.

٢ ـ الحكمة التعليمية.

٣ ـ الحكمة الاجتماعية.

٤ ـ الحكمة السياسية.

وجميع زوجات الرسول ثيبات (أرامل) ما عدا السيدة عائشة فهي البكر الوحيدة، وانظر كتابنا (شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول ﷺ) ففيه البيان الشافي حول هذا الموضوع!! ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾ أي قضاءً مقضيّاً، وحكماً ثابتاً لا يتبدّل ولا يتغير ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي هؤلاء الرسل الذين أخبرتك عنهم يا محمد، هم الذين يبلّغون رسالات الله إلى الناس، ويخافون ربهم، ولا يخافون أحداً سواه، ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ أي ليس محمد ﷺ أباً لأحدٍ منكم أيها الناس، ولكنه رسولُ الله، وهو خاتم الأنبياء والمرسلين، فلا تقولوا بعد اليوم (زيد بن محمد) بل ردُّوا نسبه إلى أبيه!! نزلت لمّا تزوّج النبيُّ ﷺ زينب، فقال الناس: إن محمداً قد تزوج امرأةَ ابنه، فنزلت الآية رواه الترمذي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي اذكروا ربكم ذكراً كثيراً، بالليل والنهار، وبالسرِّ والعلن، فالذكرُ يحيي القلوب كما تحيا الأرض بالمطر، ونزِّهوه عما لا يليق به في الصباح والمساء، وليس المراد بالذكر مجرد تحريك اللسان بالتسبيح، والتحميد، والتهليل، بل هو اتصال القلب بالله جلَّ وعلا، ومراقبته على الدوام، حتى لا ينسى الإنسان عظمة الكبير المتعال ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي هو جلَّ وعلا يرحمكم، ويثني عليكم،

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

ويعتني بأمركم، وملائكتُه يصلُّون عليكم بالدعاء والاستغفار، فالصلاة من الله، بالمغفرة والتزكية والرحمة، ومن الملائكة بالدعاء والاستغفار. كما قال سبحانه عنهم ﴿**ويستغفرون للذين آمنوا**﴾ وحكى البخاري عن أبي العالية قال: الصلاةُ من الله تعالى: ثناؤه على العبد عند الملائكة ﴿**ليخرجكم من الظلمات إلى النور**﴾ أي ليخرجكم من ظلمات الجهل والضلال، إلى نور الهدى واليقين، وكان سبحانه رحيماً بالمؤمنين، في الدنيا والآخرة، حيث يقبل القليل من أعمالهم، ويعفو عن الكثير من ذنوبهم ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ أي تحيةُ الله لهم يوم لقائه: التسليمُ والإكرامُ ﴿**سلام قولاً من رب رحيم**﴾ وهيأ لهم جزاءً حسناً وهو الجنة، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ وصف تعالى خاتم النبيين بخمسة أوصاف جليلة هي: الشهادة على أمته وعلى سائر الأمم، بأن رسلهم قد بلَّغوهم دعوة الله، ومبشراً بالجنة للمؤمنين الأبرار، ونذيراً بالنار للكفرة الفجار، وداعياً الخلقَ إلى الإيمان بوحدانية الله ودين الإسلام، بأمره جلَّ وعلا وتكليفه، وأنت يا محمد السراجُ المنير، الذي يُستضاء به في ظلمات الجهل، كما يُستضاء بالسراج في ظلمات الليل الحالكة!!.

قال الزمخشري: شبَّهه تعالى بالسراج المنير، لأن الله جلا به ظلمات الشرك، واهتدى به الضالون، كما يُجلى ظلامُ الليل بالسراج المنير، ويُهندى به، كالشمس في إشراقها لا ينكرها إلا معاند ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي وبشر المؤمنين خاصة، بأن لهم من الله الأجر الواسع الكبير، والمرتبة السامية الرفيعة على سائر الأمم، ولا تطع أهل الكفر والضلال، فيما يدعونك إليه من المساهلة والملاينة في أمر الدين، واثبت على دعوتك،

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ

ولا تبال بأذاهم، واعتمد في جميع أمورك وأحوالك، على ربك الذي يحفظك ويرعاك، وكفى به حافظاً وناصراً لك!! ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ أي إذا عقدتم عقد الزواج على المؤمنات وتزوجتموهن، ثم طلقتموهنَّ قبل المِساس (الجماع) فليس لكم عليهن حقُّ العدة، لأن العدة إنما وجبت لمعرفة براءة الرحم، حتى لا تختلط الأنسابُ، وهذه المطلَّقة ليست مدخولاً بها، وليس في بطنها حمل، فإجبارها بالعدة ظلمٌ وجورٌ، وإنما قيَّد النكاح بالمؤمنات ﴿**إذا نكحتم المؤمنات**﴾ للتنبيه على أن المؤمن ينبغي أن يتخيَّر لنطفته امرأة صالحة، وأن لا ينكح إلا العفيفة المؤمنة ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي فالواجب عليكم إكرامهنَّ بدفع المتعة، بما تطيب نفوسكم به من مالٍ أو كسوة، تطييباً لخاطرهنَّ، وتخفيفاً لشدة وقع الطلاق عليهن، وخلُّوا سبيلهنَّ بالطريقة الحسنى، دون إيذاء ولا إضرار ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أي يا أيها النبيُّ المكرَّم، نحن الذين أبحنا لك أنواعاً من النساء، توسعةً عليك، وتيسيراً عليك في تبليغ الدعوة، ليكنَّ مرشدات ومعلِّمات، لسائر نساء المؤمنين، فمن ذلك (الزوجات) الَّلاتي تتزوج بهن، فتدفع لهن مهورهنَّ، وأبحنا لك النساء (المملوكات) اللاتي تملكهن بطريق الغنيمة في الحرب، وأحللنا لك التزوج (بقريباتك) من بنات العم والعمة، والخال والخالة، بشرط أن يكنَّ قد هاجرن معك، وفي هذا القيد دليلٌ على فضل الهجرة، وثوابها العظيم عند الله ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا الصنف خاصٌ بالنبي ﷺ، وهي «الواهبة نفسها» لرسول الله عليه السلام، فقد كانت بعضُ النساء، تهب

قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾

نفسها لرسول الله ﷺ، طمعاً في نيل شرف الانتساب له، لتقوم بخدمته، وتصبح أماً للمؤمنين في (بيت النبوة)، وهو شرف لا يضاهيه شرف!! رُوي عن عائشة أنها قالت: (كنتُ أغارُ على اللاتي وهبْنَ أنفسهنَّ للنبي ﷺ، وأقول: أتهبُ المرأة نفسها؟ ـ أي أما تستحي من هذا؟ ـ فلما أنزل الله: ﴿ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء..﴾ قلتُ: ما أرى ربك إلاَّ يُسارع في هواك)!! رواه البخاري، ومعنى ﴿يستنكحها﴾ أي يرغب في نكاحها فهو تخييرٌ وليس بإلزام، ونلحظ في الآية تكرار ذكر الرسول ﷺ بوصفه بالنبيِّ لا باسمه العلم، تعظيماً له ﷺ ورفعاً لقدره، ﴿يا أيها النبيُّ﴾ ﴿إن وهبت نفسها للنبي﴾ ﴿إن أراد النبي﴾ زاده الله شرفاً وتعظيماً!! ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ أي هذا النوع خاصٌّ بك دون سائر المؤمنين، فإنه لا يحلُّ لهم التزوج بالهبة بدون مهر ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي لقد شرعنا للمؤمنين أحكاماً، وأوجبناها عليهم، من النفقة، والشهود، والمهر، وعدم تجاوز أربع نسوة، وأبحنا لهم ما كان بملك اليمين، وأمَّا أنت يا أيها الرسولُ فقد خصصناك بخصائص فريدة توسعة عليك، وتيسيراً لك، لكيلا يكون عليك مشقة أو ضيق، وربك يا محمد عظيم المغفرة، واسع الرحمة ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَۚ﴾ أي ولك أيها النبيُّ الخيارُ، في أن تطلِّق من تشاء من زوجاتك، وتمسك من تشاء منهن، وتقسم لمن تشاء في المبيت والمضاجعة، وتترك من تشاء مضاجعتها، وإذا أحببتَ أن تضمَّ إليك امرأةً ممن عزلتها من القسمة، فلا إثم عليك ولا عتب!! وقد كانت القسمة والعدلُ بين نسائه واجباً عليه، فلما غار بعضهنَّ على النبي ﷺ أسقط الله عنه الوجوب، وصار الاختيار إليه في أمر النساء، يفعل ما يشاء، دون تقييد بمبيت أو قسمة، وكان ذلك من خصائصه ﷺ، ولهذا قال بعده: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ أي ذلك التخييرُ والتفويضُ

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴿٥٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن

إليك في أمر أزواجك، أقربُ إلى قرة عيونهن، ورضاهنَّ بصنيعك، فإن عدلتَ بينهن وجدن ذلك كرماً وتفضلاً منك، وإن رجَّحت بعضهن على بعض، علمن أنه بحكم الله تعالى، فتطمئنُّ نفوسهنَّ به، ولا يشعرن بالحزن والألم، وإنما خيَّرناك فيهنّ، تيسيراً عليك فيما أردت!! ولمَّا نزلت هذه الآية قالت السيدة عائشة: (ما أرى ربك إلا يُسارع في هواك) رواه البخاري، أي يعطيك ما تحبُّه وتهواه ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ لمَّا نزلت آية التخيير المتقدمة ﴿قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها﴾ الآية، وخيَّرهن رسول الله ﷺ، واخترن جميعاً الله ورسولَه والدار الآخرة، أكرمهنَّ الله بهذه الكرامة، بأن حرَّم الله عليه أن يتزوج بغيرهن، وأن يطلّق واحدة منهن، وينكح مكانها امرأةً أخرى، مهما كانت في منتهى الحسن والجمال.

ومعنى الآية: لا يحلُّ لك أيها النبيُّ النساءُ، من بعد زوجاتك التسع اللاتي في عصمتك، ولا يحلُّ لك أن تطلّق واحدةً منهن وتنكح غيرها، ولو أعجبك جمالها، إلاّ ما استمتعتَ به منهنَّ بملك اليمين، فلا حرج عليك، لأنهن لسن زوجات، أما الحرائر فلا يجوز لك تطليقهن بعد اليوم، ولا أن تتزوج عليهن، لأنهن آثرن البقاء معك، على ما في حياتك من الزهد، وتركَ الترف والنعيم ﴿وكان الله على كل شيء رقيباً﴾ أي شاهداً على أعمالكم، مطَّلعاً على ما تضمرون وما تفعلون!! وفيه تحذير من مجاوزة حدوده سبحانه، وهكذا تكون المكافأة من الله عزَّ وجلَّ، للزوجات الفاضلات الوفيَّات، إكراماً لهن، أما نساؤه التسْع الحرائر فهن (عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وصفية، وميمونة، وزينب، ورملة، وجويرية) رضوان الله عليهن جميعاً، وهنَّ اللواتي تُوفي عنهن رسولُ الله ﷺ وكنَّ في قيد الحياة، وحرَّم الله على المؤمنين الزواج بواحدة منهن بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، لأنهن أمهات للمؤمنين، وأزواج رسول الله في الآخرة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن

يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ لـمَّا كـان الحديث عن بيت النبوة، وما أباح الله له من النساء، جاءت الآيات بعد ذلك تبيِّن، آداب دخول بيوت النبي ﷺ، بعد أن أصبحت هذه البيوت مهبط الوحي، ودور العلم والحكمة.

ومعنى الآية: لا تدخلوا يا معشر المؤمنين بيوت النبي ﷺ الذي أمركم الله بتكريمه واحترامه، إلاَّ إذا دعاكم الرسول إلى وليمة طعام، دعوةً مسبقة، ولا تحضروا مبكِّرين إذا دعيتم إلى الطعام، فتنتظروا إلى أن يحين نضجه، وإذا حضرتم الدعوةَ، وتناولتم الطعام، فاخرجوا وتفرَّقوا إلى بيوتكم، ولا تُثقلوا على الرسول، بالجلوس في بيته بعد تناول الطعام ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ أي ولا تجلسوا بعد الطعام، ليستأنس بعضكم بحديث بعض، فإن صنيعكم هذا يؤذي الرسول، وحياؤه يمنعه أن يأمركم بالانصراف، لأنه ذو الخُلُق الكريم، والقلب الرحيم، فيستحي من إظهار ذلك لكم، والله تعالى لا يترك بيان الحقّ لكم ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ﴾ أي وإذا طلبتم حاجة من أزواج نبيكم، فاطلبوه من وراء حاجزٍ أو حجاب، فإن هذا أزكى لقلوبكم وقلوبهن وأطهر، وأبعدُ عن التهمة ووساوس الشيطان ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي ولا يليق بكم أن تؤذوا رسولكم، الذي هداكم الله به، وأنقذكم به من ظلمات الجهل والضلال، ولا ينبغي لكم أن تتزوجوا بزوجاته بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، لأنهن لكم كالأمهات، وإن إيذاء النبي، ونكاح

إِن تُبْدُوا شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾

زوجاته من بعده، ذنب كبير، وجرمٌ شنيع، لا يغفره الله لكم ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ لمَّا نزلت آية الحجاب، قال بعض الآباء والأبناء يا رسول الله: أو نكلمهنَّ أيضاً نحن من وراء الحجاب يريد المحارم، فنزلت الآية، والمعنى: لا إثم ولا حرج على المسلمة، أن تُظهر زينَتَها أمام محارمها، ولا يجب أن تحتجب منهم، بسبب القرابة التي تستدعي كثرة المداخلة والنظر، فهؤلاء: (الآباء، والأبناء، والإخوة، وأبناء الإخوة، وأبناء الأخوات)، ينظرون إلى الوجه، والرأس، والساقين، والعضدين، والصدر، ولا ينظرون إلى الأفخاذ من السرة إلى الركبة، وقوله تعالى ﴿ولا نسائهن﴾ يعني بهن المسلمات نساء المؤمنين.

قال ابن عباس: لا يحلُّ للمسلمة أن تبدي نفسها أمام نساء اليهود والنصارى، ولا يحلُّ لها أن تنكشف بين يدي مشركة ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ من الإماء خاصة ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ أي واتَّقين يا معشر النساء ربكنَّ، وخَفنَ منه في السِّر والعلانية، فإن الله شهيدٌ عليكنَّ، لا تخفى عليه خافية من أموركن.. وجاء هذا الختمُ للآية في غاية الحسن، لأن الخلوة والتكشف أمام الرجال، مما ترغب به النساء، فحذَّرهن الله من مخالفة أمره، وإظهار زينتهنَّ أمام غير المحارم.. وسبب نزول آية الحجاب ما رواه البخاري عن أنس قال: (أنا أعلمُ الناس بهذه الآية «آية الحجاب»: لما أُهديت زينبُ إلى رسول الله ﷺ صنع طعاماً، ودعا القوم، فقعدوا يتحدثون، فجعل النبي ﷺ يخرج ثم يرجع، وهم قعود يتحدثون، فأنزل الله تعالى ﴿**لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام**..﴾ إلى قوله ﴿**وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب**﴾ فضُرب الحجابُ، وقام القومُ) رواه البخاري، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ أي إن الله جلَّ وعلا يثني على رسوله محمد ﷺ ويمجِّده ويمدحه في الملأ

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾

الأعلى، والملائكةُ يدعون له برفعة القدر، وعلوِّ الشأن، ويُبرِّكون ويمجِّدون، وأنتم يا معشر المؤمنين صلُّوا عليه وسلِّموا تسليماً، قولوا: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد.

قال أبو العالية: صلاة الله على رسوله: ثناءُ الله عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاءُ له بعلوِّ الشأن» رواه عنه البخاري.. يا له من فضلٍ عظيم، وشرفٍ لا يضاهية شرف، أن يصلِّي الله على رسوله، وتصلِّي عليه الملائكة الأبرار الأطهار!! فأين صلاة جميع البشر، من صلاة ربِّ العزة والجلال، على خاتم الأنبياء المرسلين؟ إن صلاتنا لا تساوي ذرةً أمامَ صلاة الله عليه، وصلاتنا على الرسول ليس لرفع قدره، وإنما تشريف لنا، ورفعٌ لدرجاتنا، فما أن نصلي على رسول الله مرة، حتى يكافئنا الله بها عشراً!!

فقد أخرج مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: (من صلَّى عليَّ واحدةً، صلَّى الله عليه بها عشراً) **وأخرج أحمد في المسند**، عن أبي طلحة الأنصاري (أن رسول الله ﷺ جاء ذات يومٍ والسرور يُرى في وجهه، فقالوا يا رسول الله: إنا لنرى السرور في وجهك!! فقال عليه السلام: إنه أتاني المَلَكُ ـ يعني جبريل ـ فقال يا محمد: أما يرضيك أن ربك عزَّ وجل يقول: إنه لا يصلِّي عليك أحدٌ من أمتك، إلاَّ صلَّيتُ عليه عشراً، ولا يُسلِّم عليك أحدٌ من أمتك، إلا سلَّمتُ عليه عشراً!! قلتُ: بلى) يعني رضيتُ، رواه أحمد. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ إيذاء الله بالإشراك به، ونسبة الزوجة والولد له، ووصفه بما لا يليق به جلَّ وعلا، وإيذاءَ الرسول بالطعن في رسالته، والاستهزاء والسخرية به، كقول كفار مكة ﴿**يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون**﴾ ﴿**لعنهم الله**﴾ أي طردهم الله من رحمته، وهيأ لهم في الآخرة عذاباً شديداً، يُهينهم ويذلهم ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي يفعلون ما يؤذيهم بغير جنايةٍ واستحقاقٍ للأذى، فقد تحمَّلوا البهتان أي الكذب والزور، والذنب العظيم، وتقييده هنا بقوله ﴿**بغير ما اكتسبوا**﴾ أي بغير جناية يستحقون بها الأذى، ولم يقيِّده في حقِّ الله ورسوله، لأن إيذاء الله ورسوله، لا يكون أبداً إلا بغير حقٍّ، بخلاف إيذاء المؤمنين، فمنه ما

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٠﴾ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾

يكون بحقٍّ، كإقامة الحدِّ والتعزير، ومنه ما يكون بالباطل، والبهتانُ: الافتراءُ والكذبُ الواضح، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ أي يا أيها الرسول قل لزوجاتك الطاهرات، وبناتك الفضليات، وسائر نساء المؤمنين الكريمات، قل لهنَّ: احتجبْنَ، مرهنَّ بالتستر والاحتشام، ستراً لهن، وحفاظاً على كرامتهن، وقل لهنَّ: البسن الجلباب الواسع، الذي يستر محاسنهن وزينتهن، وذلك التستر أقرب أن يُعرفن أنهن حرائر عفيفات، فلا يطمع فيهن أهل السوء والفجور!! والجلبابُ: هو الرداء الذي يستر جميع البدن، والثوب السابغ الفضفاض، وهذه الآية تردُّ على السفهاء، الذين يزعمون أن الحجاب إنما فُرض على نساء النبي ﷺ خاصة، حرمةً لهن، ولا يقرءون هذه الآية العامة لجميع النساء ﴿قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين﴾ فهل خرجت واحدة من المسلمات، من هذا التكليف الإلهي بوجوب الحجاب؟ ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ أي لئن لم يترك هؤلاء المنافقون، نفاقهم وفجورهم، ويكفُّوا عن الغي والضلال، وإيذاء المؤمنين، ولئن لم ينته الذين ينشرون الأكاذيب والأراجيف، لبلبلة الأفكار، وخلخلة الصفوف، ونشر أخبار السوء ﴿لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي لنسلطنَّك عليهم يا أيها الرسول، ولنمكننَّك منهم حتى يهربوا من المدينة المنورة، فلا يعودون إلى مجاورتك ومساكنتك فيها، إلاَّ زمناً يسيراً، ريثما يتأهبوا ويستعدوا للخروج ﴿مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا﴾ أي مطرودين من رحمة الله، مبعدين عن كرامته وجنته، أينما وجُدوا وأُدركوا، فجزاؤهم أن يُقتَّلوا تقتيلاً، لكفرهم ونشرهم أخبار السوء والفساد ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ أي هذا حكمُ الله، وعادتُه وسنَّته في

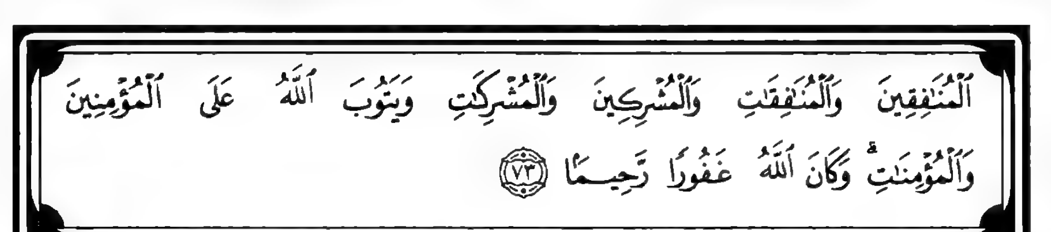
يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾

المنافقين، المفسدين في الأرض، ممن سبقهم من الأمم الباغية، أن يُؤخذوا ويُقتلوا، لتطهير الأرض من رجسهم ونفاقهم، ولم يتغيَّر حكم الله فيهم، ولم يتبدل.. ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي يسألك المشركون عن وقت القيامة، متى يكون؟ يسألون لا خوفاً منها واستعداداً لها، وإنما سخريةً وتهكماً، قل لهم: أنا لستُ أعرف وقتها، وإنما يعرفه علاَّمُ الغيوب، الذي اختصَّ بعلمها، وما يعلمك يا محمد أن وقت القيامة قريب!؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي طردهم الله وأبعدهم عن رحمته، وهيأ لهم ناراً شديدة مستعرة، مقيمين فيها أبد الآبدين، لا يجدون لهم من يُنجيهم، ولا من ينقذهم من عذاب الله تعالى ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ أي يُحرقون في نار جهنم، وتُقلَّب وجوههم من جهة إلى جهة، كاللحم المشويِّ، الذي يقلَّب على النار، يقولون نادمين متحسِّرين: يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا رسوله، حتى لا يكون مصيرنا هذا المصير المشؤوم!! ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ أي يقولون يا ربنا: لقد أطعنا القادة والأشراف فينا، فأضلونا عن طريق الهداية والإيمان ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ أي اجعل عذابهم ضعفي عذابنا، لأنهم كانوا سبباً لضلالنا، والعنهم لعناً شديداً وعظيماً، يناسب فجورهم وطغيانهم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي لا تؤذوا نبيكم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ

كما آذى اليهود نبيهم موسى عليه السلام، وكان موسى ذا مكانةٍ وجاهٍ عند الله عظيم، والآية تشير إلى زواج النبي ﷺ بزينب، حيث انطلقت ألسنة بعض المنافقين، تغمز وتلمز، بأن محمداً قد تزوَّج بزوجة ابنه «زيد» فجاءت الآيات تنذر هؤلاء المنافقين، وتحذّرهم من عذاب إليم، وأما إيذاء موسى فهو اتهام اليهود له، بأن في جلده عيباً، إمّا برصٌ، أو أُدرةٌ ـ أي انتفاخ الخصية ـ فبرأه الله من هذا كلّه كما في حديث أبي هريرة الذي رواه البخاري ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي راقبوا ربكم، واحذروا عقابه، بطاعتكم له، وقولوا قولاً مستقيماً، مرضياً لله ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي يوفقكم للعمل الصالح ويتقبله منكم، ويمحو عنكم الذنوب والأوزار، ومن يطع الله والرسول، فقد فاز في الدارين فوزاً عظيماً، يعيش في الدنيا حميداً، وفي الآخرة سعيداً ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ الأمانة: هي جميع التكاليف الشرعية، والفرائض الإلهية التي كلَّف الله بها الناس، من صلاة، وصيام، وحدود وأحكام، والتزام بالطاعات، واجتناب للمحرمات، ويدخل فيها الأمانات والودائع المالية، وقد وردت الآية بأسلوب عجيب، على طريقة التمثيل، والمراد أن تلك الأمانة في عظم الشأن، بحيث لو كُلّفت بها السموات الضخمة، والجبال الشاهقة، والأرض اليابسة، لأشفقت منها، وخافت أن لا تقوم بواجب الوفاء بهذه التبعة الضخمة ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ أي وتحملها هذا الإنسان الضعيفُ، وقد كان غِرّاً مبالغاً في الجهل بعواقب الأمور.

قال ابن الجوزي: لم يرد بقوله ﴿أَبَيْنَ﴾ المخالفة لأمر الله، وإنما أبين للخشية والمخافة، لأن العرض لها كان تخييراً لا إلزاماً، ولو ألزمها ما تأخرت ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ



ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي إنما حمَّل الله بني آدم الأمانة، ليعذِّب أهل الشرك والنفاق، ويرحم أهل التقوى والإيمان، وكان الله واسع المغفرة، عظيم الرحمة بعباده المؤمنين!!.

انتهى تفسير سورة الأحزاب

● ● ●

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾

تفسير سورة سبأ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ هذه إحدى خمس سور بدأت بلفظ ﴿الحمد لله﴾ لتعليم العباد كيفية الثناء على الله، وكيفية الشكر للخالق المبدع الحكيم، أي جميعُ أفراد الحمد والشكر والثناء خاصة به جلَّ وعلا، فهو وحده المستحقُّ لأنواع المحامد، على نعمه التي لا تُعدُّ ولا تحصى، فكلُّ ما في الكون ملكُه وخلقُه، هو الخالق والرازق والمنعم، فله الحمد في الدنيا والآخرة، وهو الحكيم في صنعه، الخبيرُ بخلقه.. ثم فصَّل تعالى بعض آثار قدرته وعظمته فقال ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ أي يعلم سبحانه كلَّ ما يلج في الأرض أي يدخل في جوفها، من المطر، والكنوز، والأموات، والحبوب وغيرها، وما يخرج من الأرض من الزروع، والنباتات، والثمار، والمعادن، ومياه الآبار، وما ينزل من السماء من الأمطار، والملائكة، والوحي الإلهي، وما يصعد إليها من الأعمال الصالحات، والأرواح الطاهرات، والملائكة الأبرار، وهو سبحانه الرحيم بعباده المؤمنين، الغفور لذنوب التائبين ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أي وقال الكفار الفجار: لا قيامة ولا بعث ولا نشور، ولا حساب ولا جزاء!! قل لهم يا أيها الرسول: أقسمُ لكم بجلال الله وعظمته، لتأتينكم القيامة لا محالة، لأنها وعدٌ من الله لا يُخلف، لتتحقق عدالة الله في حساب البشر، كما قال سبحانه ﴿الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً﴾؟ ثم ذكَّرهم تعالى بعلمه الواسع فقال

عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي لا يغيب عنه مثقال الذرة ولا أصغر من الذرة، ولا أكبر منها، إلاّ ويعلمه تعالى، وهو مسطَّرٌ عنده في اللوح المحفوظ، فكيف يخفى عليه أمر البشر؟، وأحوالهم وأقوالهم وأعمالهم؟ فالأجسادُ وإن تمزَّقت، واختلطت بتراب الأرض، فهو تعالى عالم بها، وسيعيدها يوم القيامة للحساب والجزاء ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أي ليثيب المؤمنين الذين أحسنوا العمل في الدنيا، بأحسن الجزاء، فلهم عند ربهم مغفرة لذنوبهم، ورزقٌ حسن كريم في جنات النعيم، وأما الذين بذلوا جهدهم لإطفاء نور الله، من الكفرة الفجرة، يظنون أنهم يعجزون ربهم، فأولئك لهم أسوأ العذاب يوم القيامة، حيث يَصْلون نارَ الجحيم، ولهم عذاب، شديد الإيلام والإيجاع ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي ولكي يرى أهل العلم والإيمان، أن هذا القرآن الذي جاءهم به خاتم النبيين محمد ﷺ، هو الحق الذي لا يأتيه الباطل، وأنه الكتاب الهادي إلى الصراط المستقيم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي وقال الأشقياء من كفار قريش، المنكرون للبعث والجزاء: هل نرشدكم إلى رجلٍ يحدِّثكم بأعجب العجائب؟ يقول: إننا إذا متنا ومُزِّقتْ أجسادنا، وصارت تراباً ورفاتاً، أننا سنبعث ونُخلق خلقاً

أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾

جديداً؟ ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي هل كذب محمد على الله؟ أم به جنون فهو يتكلم بما لا يُعقل؟ قال تعالى رداً على سفههم: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ أي ليس الأمر كما يزعمون، أن محمداً به جنون، بل هم في اختلال العقل، وغاية الضلال، والرسول في غاية العقل والكمال ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي أفلم يشاهدوا دلائل قدرة الخالق الصانع، المبدع الحكيم، فيما حولهم من السماء والأرض؟ أفلا يتدبرون ذلك، ليعلموا أن الذي خلقهم من العدم، قادر على إحيائهم بعد الموت؟ ثم هدَّدهم تعالى بأنه لو شاء الله لخسف بهم الأرضَ، كما فعل بقارون، أو أسقط عليهم قِطَعاً من العذاب، كما فعل بقوم شعيب، فمن أين لهم المهرب؟ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي إن ما يشاهدون من آثار القدرة والوحدانية، لعظةً وعبرة لكل عبد تائب، رجَّاعٍ إلى الله منزجر عن القبائح.. ولمَّا ذكر تعالى حال الكافرين، المنكرين للبعث والنشور، ذكر حال الشاكرين، ممثلةً في قصة داود، وولده سليمان عليهما السلام، فقال سبحانه ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ أي أعطينا نبينا «داود» فضلاً عظيماً، فقد جمعنا له بين «النبوة» و«المُلْك» وقد أُعطي صوتاً جميلاً حسناً، في غاية الجمال و الحُسن، فكان إذا تلا الزَّبور، لم تبق دابة إلا استمعت لقراءته، وبكت لبكائه، وإذا سبَّح تسبِّح معه الجبالُ الراسيات، والطيور السارحات، وألان الله له الحديدَ، حتى كان بين يديه كالعجين والشمع، لا يحتاج إلى إدخاله في النار، وضربه بالمطرقة معجزةً له ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي قلنا له: اصنعْ من

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ﴾

الحديد الدروعَ السابغة، أي الواسعة الوافرة، وأحِكْم الصنعة في نسج الدروع، بحيث لا تنفذ منها الرماح، و«داود» عليه السلام هو أول من اخترع صنعة الدروع، بإلهام من الله عز وجل له ﴿وقدر في السرد﴾ أي قدِّرْ في نسج الدروع، فاجعلها حلقات متداخلة متناسبة لئلا تُثقل الجسم، واعملوا يا آل داود عملاً صالحاً يقرِّبكم من الله. ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح تسير بأمره، جريُها من الصباح إلى الظهر مسيرةُ شهرٍ، ورجوعُها من الظهر إلى الغروب مسيرة شهر، فهي تقطع في نهارٍ واحد مسيرة شهرين، وأذبنا له النحاسَ حتى كان يجري له كأنه عين ماء دافقة، فكما ألان الله لداود الحديد، كذلك أجرى لسليمان النحاس، آية باهرة، ومعجزة ساطعة﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي وسخرنا له الجنَّ، تعمل بأمره وإرادته ما يشاء، ومن ينحرف عما أمرناه من طاعة سليمان، يُحرقه نبيُّ الله سليمان، بسياطٍ من نار يهلكه بها، وكلُّ ذلك بتسخير الله تعالى!! ثم أخبر تعالى عمَّا تصنع له الجنُّ، من خوارق الأمور التي يعجز عنها البشر، فقال سبحانه﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾ أي يبنون له القصور الشامخة، والتماثيل الضخمة العجيبة من الزجاج والرخام، والأواني الضخمة التي تشبه الأحواض، والقدور الثابتة التي لا تتحرك لكبرها، لكثرة جنده وضيوفه﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ أي وقلنا لسليمان وذريته: اعملوا يا آل داود بطاعة الله، لتؤدوا شكر ربكم على هذه النعم الجليلة، وقليلٌ من الخلق من يشكر الله على نعمه الوفيرة﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ﴾ أي فلما حكمنا عليه بالموت، ما دلَّ الجنَّ على موته إلا

﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾

دويبة ـ وهي الأَرَضةُ والسوسة التي تأكل الخشب ـ أكلت عصاه التي يتوكأ عليها ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أي فلما سقط ميتاً، ظهر للجن أنهم لو كا نوا يعرفون الغيب ـ كما زعموا ـ ما مكثوا هذه المدة الطويلة، وهم في الأعمال الشاقة التي كلَّفهم بها سليمان!! كانت الإنس تقول: إن الجنَّ يعلمون الغيب، فوقف سليمان في محرابه يصلِّي وهو متوكىءٌ على عصاه، فمات، ومكث الجن سنة كاملة يعملون، وهم يظنون أنه حيٌّ، فلما سقط على الأرض، علم الناس أن الجن لا يعرفون الغيب، لأنهم لو عرفوه ما مكثوا هذه المدة الطويلة في العناء والتعب.. وإنما حكى تعالى أمر موته، بعد أن حكى عظمة ملكِ سليمان، وتسخير الريح والجن له، لينبِّه على أنه لم ينج من الموت، مع ما أُعطي من الملك الباهر، وعلى أن الموت لا بدَّ منه لكل حي ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ ذكر الله تعالى قصة «أهل سبأ» لتكون عبرةً للبشر، وتبدأ القصة بوصف ما كان عليه أهل سبأ في اليمن، من رزق رَغَد، ونعيم عظيم، أنعم الله به عليهم، لكنهم كفروا النعمة، فأهلكهم الله ودمَّرهم، وشتَّتهم في الأرض، ومزَّقهم كل ممزَّق.

والمعنى: لقد كان لقوم سبأ في مسكنهم باليمن، آية عظيمة دالة على إكرام الله لهم، بأنواع الكرامة والنعيم، ثم فصَّل تلك النعمة فقال ﴿جنتان عن يمين وشمال﴾ أي حديقتان عظيمتان عن يمين البلدة وشمالها، فقد كانت البساتين والجنانُ، تمتدُّ إلى مسافات طويلة، والنعمُ متوافرةٌ، والخيراتُ متكاثرة، وقد بنوا سداً عظيماً يسمى «سدَّ مأرب» للانتفاع بمياه الأمطار، وجاءهم الخصبُ، والرخاء، والهواء العليل، والرزق الوفير، وقيل لهم على لسان نبيهم: كلوا من رزق ربكم، واشكروه على هذه النعم التي تفضَّل بها عليكم، فبلدتكم التي تسكنونها بلدة طيبة، كريمةُ التربة، كثيرة الخيرات، وربكم الذي رزقكم ما فيها، ربٌّ غفور

فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ

كريم رحيم ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ أي فأعرضوا عن الإيمان، وشكر الرحمن، فأرسلنا عليهم (السيلَ المدمِّر) المخرِّب، فغرَّق بساتينهم ودورهم، حيث انفجر السدُّ عليهم، ودمَّر كل شيء أمامه، وأبدلناهم بتلك البساتين الغناء النضرة، بساتين قاحلة جرداء، ذاتِ أُكُلٍ مُرٍّ بشع، لا يُنتفع به ولا يستساغ لمرارته، وبعض الأشجار التي لها شوك، كالأثل والسِّدر، وتسميتها «جنتين» فيه نوع (سُخرية وتهكُّم)، لأنها أشجار أشواك، وحدائق دمار، ليس فيها ثمار ولا ما ينفع، ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ أي عاقبناهم بذلك لأنهم كفروا نعمتنا، وهل نعامل؛ بمثل هذه العقوبة إلا الكافر المبالغ في كفره؟ ثم تتابع الآيات وصف ما كانوا عليه قبل خراب السَّد، من الأمن والرفاهية والاستقرار، فيقول سبحانه ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ أي وجعلنا بين بلاد سبأ، وقرى الشام وفلسطين المباركة، مدنناً متواصلة بعضُها قريب من بعض، فكان المسافر لا يكاد يحتاج إلى حمل الزاد، لتقارب المدن، وكانت الراحة موفورة، والأمن مستتباً، وقلنا لهم سيروا بين هذه المدن والقرى آمنين، لا تخافون في ليل ولا نهار!! ولكنهم لسفههم، قالوا على وجه الأشر والبطر ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي قالوا يا ربنا: اجعل هذه المسافات بعيدة بين مدننا، لنتزوَّد في أسفارنا، ونقطع المفاوز والقفار!! وهذه دعوةُ الحُمْقِ والسَّفه، فقد سئموا طيب العيش، وملُّوا الراحة والعافية، وطلبوا الكدَّ والتعب، كما طلب بنو إسرائيل الثومَ والبصل، مكان المنِّ والسلوى ﴿**وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث**﴾ أي ظلموا أنفسهم بسبب الكفر وجحود النعمة، فشرَّدناهم في الأرض، ومزَّقناهم شرَّ ممزَّق، وعادوا أحاديث تُروى، وأخباراً تُذكر، وأصبح يُضرب بهم المثل فيقال: «تفرَّقوا أيدي سبأ»

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي إن فيما ذكرناه من أخبارهم، لَعِظَةً وعبرة، لكل عبدٍ منيب، صابر على البلاء، شاكر في النعماء ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي تحقَّق ظنُّ إبليس في هؤلاء الضالين، حيث ظنَّ أنه يستطيع إغواءهم، بتزيين الباطل لهم، فكان الأمرُ كما ظنَّ، فصدَّقَ ظنَّه، فاتبعوه فيما دعاهم إليه من الضلالة، إلاَّ المؤمنون فإنهم لم يتَّبعوه فسلموا من شرِّه ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي وما كان لإبليس تسلُّط واستيلاءٌ عليهم، حتى يغويهم ويضلَّهم، إنما كان تسلُّطه عليهم بالوسوسة، ليثبت على الحق من يثبت، ويزيغ عنه من يزيغ، فيظهر أهل الإيمان، وأهل الكفر والطغيان، وربك يا محمد رقيب على أعمال العباد، لا تخفى عليه خافية ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي قل يا أيها الرسول لهؤلاء المشركين، الذين عبدوا الأصنام، وزعموا أنها شركاء مع الله: أدعوا آلهتكم المزعومة، ليخبرونا عمَّا خلقوا؟ فليقولوا هم وآلهتهم ماذا خلقوا؟ أو ماذا ملكوا في السموات والأرض؟ وهل باستطاعتهم أن يجلبوا للناس الخير، أو يدفعوا عنهم الضر؟ ﴿وما لهم فيهما من شرك﴾ أي ليس لتلك الآلهة شركة مع الله، لا خلقاً ولا ملكاً ولا تصرفاً ﴿وما له منهم من ظهير﴾ أي وليس لله عز وجل من الآلهة، من يعينه في تدبير أمرهما، بل هو وحده الخالق لكل شيء، والمدبر لشؤون العباد ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أي وكما لا يملكون مع الله شيئاً، كذلك لا يجترىء أحد أن يشفع عنده

حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾

تعالى، إلاَّ إذا أذن الله تعالى له في الشفاعة، فإذا كانت الملائكة والأنبياء، لا يُقدمون على الشفاعة لأحد، إلا إذا أذن الله لهم فيها، فكيف يزعمون أن الأوثان تشفع لهم؟ ثم صوَّر تعالى المشهد الخاشع الرهيب، الذي ترتعد له القلوب، فقال ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾التفزيعُ: إزالةُ الفزع، أي حتى إذا زال الفزع والخوف عن قلوب الشفعاء، من الملائكة والأنبياء، قال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم في أمر الشفاعة؟ قالوا: قد أذن الله فيها للمؤمنين فقط، أما الكفار ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ وهو جلَّ وعلا المنفرد بالعلو والكبرياء، العظيم في سلطانه وجلاله!

قال المفسرون: إن الله تعالى يأذن يوم القيامة للأنبياء والملائكة في الشفاعة، وهم على غاية الفزع من الله، لما يقترن بها من الأمر الهائل، والخوف الشديد، أن يقع منهم تقصير، فإذا سُرِّي عنهم قالوا للملائكة فوقهم: ماذا قال ربكم؟ أي بماذا أمر الله؟ قالوا: الحقَّ، أي إن الله قد أذن لكم في الشفاعة للمؤمنين ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾أي قل يا أيها الرسول لهؤلاء المشركين: من هو الذي يُغدق عليكم الرزق، فينزل لكم المطر، ويخرج لكم الثمر؟ ومن ينبتُ لكم الزرع، ويُخرج لكم الضَّرع؟ وهو سؤال إفحام وإلزام، فإنهم لا يستطيعون أن يقولوا: إن الأصنام هي التي ترزقنا، فقل لهم عند ذلك: إن الرازق هو الله تعالى، لا أحد غيره ـ سبحانه ـ يستطيع أن يخلق أو يرزق، فإذا أُفحموا وأقيمت عليهم الحجة، فقل لهم بالأسلوب الحكيم، الذي لا يثير الضغائن: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ أي أحدُ الفريقين نحن أو أنتم، على الهدى أو في الضلال الواضح!؟ وهذا نهايةُ الإنصاف مع الخصم، وغايةُ التلطف في الدعوى!! كأنه يقول: إن أحد الفريقين لا بدَّ أن يكون على هدى، والآخر لا بدَّ أن يكون على ضلال، إمَّا نحن أو أنتم؟ ولم يجزم أنه على الهدى والحق، وهم على الضلال والخطأ، لئلا يثير حميتهم وأحقادهم، وفي هذا إرشاد من

قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

المولى جلَّ وعلا إلى أسلوب (المناظرة العلمية) لأن أحد المتناظرين إذا قال للآخر: هذا الذي تقول خطأ، أو أنت مخطىء، فإن ذلك يُغضبه، وعند الغضب تكون المكابرةُ والعناد، أما إذا قال له: لا شك أن أحدنا مخطىء، والتمادي في الباطل قبيح، فإنه يجتهد في النظر، ويترك التعصب﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي قل لهم: لا تؤاخذون على ما ارتكبنا من إجرام، ولا نُسأل نحن ولا نُؤاخذ بما اقترفتم من أعمال، وإنما يعاقب كل إنسان بجنايته، وكلُّ زارع يحصد زرعه!! ولننظر إلى روعة القول وإبداعه، فقد نسب الإجرام إلى نفسه ﴿عمَّا أجرمنا﴾ ونسب الفعل والعمل إلى أعدائه ﴿ولا نُسأل عما تعملون﴾ ولم يقل: عمَّا أجرمتم، مع أن أعمالهم أفظع الجرائم، حيث أشركوا الأوثان مع الرحمن، وكفى بهذا توجيهاً إلى الدعاة، حتى يحسنوا طريق التلطف في الدعوة إلى الله!! ثم يترك الفصل في الأمر، إلى ربِّ العزة والجلال فيقول﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي قل لهم: الله جلَّ وعلا هو الذي يجمع بيننا وبينكم يوم القيامة، ثم يحكم بيننا ويفصل بالحقِّ، وهو الحكم العدل الذي لا يظلم أحداً، وهو العالم بأحوال الخلق، فيدخل المحقَّ الجنة، والمبطل النار!!﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي قل لهم: أروني هذه الأصنام التي ألحقتموها بالله جلَّ وعلا؟ وجعلتموها شركاء معه في الألوهية؟ لأنظر بأيِّ وصفٍ استحقت العبادة؟ هل تخلق؟ هل ترزق؟ هل تُحي؟ أم لهم صفة القدرة على تدبير شؤون الكون؟ وفي هذا الأسلوب استخفافٌ بعقولهم وإزراء، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿كلاً بل هو الله العزيز الحكيم﴾ كلاً للردع والزجر، أي ارتدعوا عن هذا الضلال، فليس في هذه الأصنام التي عبدتموها، ما يجعلها في مصاف الآلهة، بل المعبود بحقٍّ هو الله الخالقُ الرازق، الموصوفُ بالحكمة الباهرة، والقدرة القاهرة، الحكيمُ في تدبير شؤون الخلق!!﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي وما

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ

أرسلناك يا محمد إلا رسولاً لجميع الخلق، العرب والعجم، لتكون مبشراً للمؤمنين بجنات النعيم، ومنذراً للكافرين من عذاب الجحيم، ولكن هؤلاء الكفار، لجهلهم بحقيقة النبوة والرسالة، ينكرون ويستهزئون ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي متى يأتينا العذاب الذي تخوفوننا به، إن كنتم صادقين فيما تقولون؟ ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي لكم زمان معين للعذاب، لا يتقدم ولا يتأخر عن وقته وحينه!! ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ﴾ أي قال الكفرة المجرمون: لن نصدِّق بهذا القرآن، ولا بما سبقه من الكتب السماوية الدالة على البعث والنشور، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي ولو ترى حال أولئك الأشقياء، وهم في ذلك الموقف الذليل، محبوسون للحساب والجزاء؟ وجوابُ (لو) محذوف للتهويل والتفظيع أي لرأيت أمراً فظيعاً شنيعاً تقصر العبارةُ عن تصويره ﴿يرجع بعضهم إلى بعض القول﴾ أي يتخاصمون ويتحاورون، ويلوم بعضهم بعضاً، يقول الأتباع للرؤساء: أنتم سبب شقائنا وضلالنا، ولولا تحسينُكم لنا الباطلَ لكنا مؤمنين!! ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أي هل نحن الذين منعناكم عن الإيمان؟ بل أنتم كفرتم من ذات أنفسكم، بسبب أنكم كنتم غارقين في الإجرام، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ﴾ أي قال الأتباع الضالون: لم يكن إجرامنا هو الصادُّ لنا

وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا

عن الإيمان، بل خبثكُم ومكركم بالليل والنهار، هو الذي منعنا من الهداية والإيمان، حين زينتم لنا الكفر والباطل، وأمرتمونا أن نعبد الأصنام والأوثان، فأنتم المسؤولون عن ضلالنا ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي أخفوا في نفوسهم الندم، أخفاها كلٌّ منهم عن الآخر، حين رأوا العذاب المهين، فما عاد ينفعهم الجدالُ والحوار، وجعلنا السلاسل في رقاب الكفار الفجار، السادة منهم والأتباع، ولا يُجزون إلا بأعمالهم وإجرامهم، ولا يظلم ربك أحداً ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ الآية تسليةٌ للنبي ﷺ على تكذيب قومه له، أي لم نبعث رسولاً من الرسل، في أهل بلدةٍ من البلاد، إلاَّ قال المترفون فيها، وهم المتنعِّمون والرؤساء في الشر: إنا كافرون برسالتكم، لا نؤمن بما جئتمونا به من عند الله ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي قال مشركو مكة: نحن أكثر أموالاً وأولاداً، من هؤلاء الفقراء الضعفاء أتباع محمد، ولن يعذبنا الله أبداً، لأنه لو لم يكن راضياً عنا، لما بَسَط لنا في الرزق!! قاسوا الآخرة على الدنيا، وظنوا أن الله كما بسط عليهم الرزق في الدنيا، سيكرمهم في الآخرة، لأن كثرة المال، وسعة العيش، دليل على الرضى عليهم، وهذا خطأ فاحش، ولهذا ردَّ تعالى عليهم بقوله ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي قل لهم يا أيها الرسول: إن توسعة الرزق أو تضييقه، ليس دليلاً على رضى الله على العبد، فقد يوسِّع الله على الكافر الفاجر، ويُضيِّق على المؤمن الصالح، ابتلاءً وامتحاناً، فلا تظنوا أن كثرة الأموال والأولاد، دليل السعادة والمحبة، بل هي تابعة للمشيئة والحكمة، ولكنَّ أكثر الناس لا يدركون حكمة الله ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا

زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾

زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي ليست أموالكم ولا أولادكم، التي تفتخرون بها وتكاثرون، تجعلكم من المقربين عند الله ﴿زلفى﴾ أي قربةً، إلا المؤمن الصالح، الذي ينفق ماله في سبيل الله، ويُعلِّم أولاده الخير، ويربيهم على التقى والصلاح، فإن هذا الذي يقرِّب من الله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ أي هؤلاء المؤمنون المحسنون، هم الذين تضاعف لهم الحسنات، وهم في منازل الجنة وقصورها العالية، آمنون من عذاب الله، ومن كل سوء ومكروه ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي وأمَّا الفجار الذين سعوا لإطفاء نور الله، والصدِّ عن سبيله، ظانين أنهم يعجزون ربهم، بمكرهم وفجورهم، فهم في العذاب مخلَّدون، ومعنى ﴿محضرون﴾ أي هم في عذاب جهنم، تحضرهم الزبانية لا يجدون منها مَخلصاً!! ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي يوسِّع على من يشاء من عباده، ويضيِّق على من يشاء، وما أنفقتموه في سبيل الله، يعوِّضه الله عليكم، قليلاً كان أو كثيراً، وهو سبحانه خير الرازقين والمعطين، وعطاؤه تعالى بغير حساب!! كررت الآية لاختلاف المقصد، فإن المقصد في الآية السابقة الكفار، الذي خُدعوا بالمال والعطاء، والمقصدُ هنا ترغيب المؤمنين بالبذل والإنفاق، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾ أي يعوِّضه عليكم.. وكما عبد المشركون الأوثان والأحجار، كذلك عبد فريق منهم الملائكة الأبرار، وليست الملائكة إلاَّ عبيداً للواحد القهار، شأنهم كشأن سائر المخلوقات، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، فكيف يملكون نفع غيرهم؟ وفي ذلك يقول سبحانه ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ ؟ أي ويوم يجمع الله الكفار جميعاً، ثم يخاطب الملائكة فيقول لهم: أهؤلاء عبدوكم من دوني؟

قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾

وأنتم أمرتموهم بذلك؟ الخطاب للملائكة والمراد به توبيخ وتقريع الكفار، على حدِّ قول المثل السائر: «إيَّاكِ أعني واسمعي يا جارة» ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ أي تعاليتَ وتقدست يا ربَّنا، عن أن يكون معك شريك أو إله، أنت ربُّنا ومعبودنا الذي نخلص له العبادة!! ونحن نتبرأ إليك منهم، ما أمرناهم بعبادتنا، بل كانوا يعبدون الشياطين، وهم الذين أضلُّوهم، وزيَّنوا لهم عبادة غير الله فأطاعوهم، وأكثر هؤلاء الكفار، يؤمنون بأقوال الشياطين، بأن الملائكة تشفع لمن عبدها، وما هي إلاَّ ظنون وأوهام ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي في هذا اليوم ـ يوم الحشر الأكبر ـ لا ينفع أحدٌ (بشفاعة ولا نجاة) أحداً، لا العابدون ولا المعبدون، لا ينفعون لا بشفاعة ونجاة، ولا بدفع عذاب وهلاك، لأن الأمر في ذلك اليوم لله وحده، ونقول للمشركين: ذوقوا عذاب جهنم، التي كنتم تكذبون بها، وتستهزئون بها في الدنيا ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ أي وإذا تُليت على هؤلاء المشركين آياتُ الذكر الحكيم، واضحات المعاني، بيِّنات الإعجاز، قالوا: ما هذا الذي يزعم أنه رسول، إلاَّ رجل مثلكم، يريد أن يمنعكم عمَّا كان يعبد آباؤكم وأجدادكم من الأوثان والأصنام ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي وقال الفجار: ما هذا القرآنُ، إلاَّ كذبٌ مختلقٌ على الله، افتراه محمد ونسبه إلى الله، وما هذا القرآنُ إلاَّ سحرٌ واضح ظاهر، لا يخفى أمره على لبيب، وفي قوله تعالى ﴿لما جاءهم﴾ ما يشير إلى تسرُّعهم في الحكم، دون تأمل ولا تبصُّر!! والإفكُ: هو الكذبُ والافتراء، وقد أكَّدوه لسفههم بأنه مفترى أي مكذوب، ليشكِّكوا في

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

مصدره الإلهي، وهم في هذه الدعوى كاذبون مفترون ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ أي وما أنزلنا على قومك كتاباً يُتلى قبل القرآن، يقرءون فيه ويتدارسونه، وما بعثنا إليهم قبلك رسولاً ينذرهم عذاب الله، فمن أين ذهبوا هذا المذهب الضال؟ وقالوا عن القرآن: إنه سحر مبين؟ ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي وكذَّبتِ الأمم المتقدمة قبلهم، كما كذبك هؤلاء الضالون، وما بلغ قومُك من كفار مكة، عُشر ما آتينا أولئك، من القوة، وطول العمر، وكثرة الأموال والأولاد!! فكذَّبوا الرسل الذين أرسلتهم لهم، فكيف كان عذابي لهم؟ ألم يكن منكراً فظيعاً، هائلاً مدمِّراً؟ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾.

أي قل يا أيها الرسول لقومك المشركين: إنما أنصحكم وأوصيكم بخصلةٍ واحدة، هي أن تهتموا بأمر دعوتي، وأن تتحرَّوا الحقَّ لوجه الله تعالى، مجتمعين اثنين اثنين، أو منفردين واحداً واحداً، لتتفكَّروا هل بمحمد الذي أرسله الله إليكم جنون؟ أم هو رجل عاقل يريد لكم الخير والنفع؟! فإن من ظهر على يديه هذا الكتاب المعجز، لا يمكن أن يكون به شيءٌ من الجنون، وإنما قال ﴿ما بصاحبكم من جنة﴾ لينبِّههم إلى أن هذا الرسول صاحَبَهم وعاش بين أظهرهم مدة أربعين عاماً، أفلا يكفي هذا العمر أن يعرفوا حقيقته، كما قال سبحانه ﴿فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾؟ وقد كانوا طيلة هذه المدة، يعرفون عنه العقل، والصدق، والأمانة، والنزاهة، ويقولون عنه: الصادق الأمين، فاتهامه بالجنون، سفهٌ منهم وبهتان ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي ليس محمد إلا رسول

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾

منذر لكم، يخوفكم من عذاب يوم القيامة، الفظيع الشديد، والتصوير ﴿بين يدي عذاب شديد﴾ تصوير بارع في منتهى الروعة والجمال، كأن العذاب يوشك أن يقع عليهم، وقد تقدَّمهم النذير بخطوات يحذِّرهم منه، كالصارخ الذي يصرخ بالناس من اندلاع حريق فظيع، يوشك أن يلتهم البشر!! ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي قل لهم: هل سألتكم على تبليغ الرسالة شيئاً من المال؟ حتى تتهموني في أمري؟ إن كنتُ قد طلبتُ منكم شيئاً فخذوه!! وهو أسلوبٌ فيه تهكُّمٌ لاذع، وفيه توبيخٌ وتأنيب، وهذا كما يقول إنسانٌ لآخرَ، طلب منه شيئاً فلم يعطه: إن كنتَ أعطيتني شيئاً فخذه!! ثم يقول لهم صراحةً: أنا لا أطلبُ أجري إلاَّ من الله، وهو شاهد على ما أقول، يعلم صدقي وإخلاص نيَّتي، وكفى به شهيداً!! ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾. أي قل لهم: لقد جاءكم القرآنُ، بالحجج الساطعة، التي تقصم ظهرَ الباطل، من عند رب العزة والجلال، علاَّم الغيوب، ولم أخترعه من تلقاء نفسي حتى تتهموني ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي قل لهم: لقد جاء الإسلام بوجهه المنير الوضّاء، وذهب الكفر والباطل، فلم يبق له بدءٌ ولا عود، فهو في زوالٍ واضمحلال، كالشمس إذا طلعت بدَّدت الظلام ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أي وقل لقومك المشركين أيضاً: إن كنتُ على ضلال ـ كما تزعمون ـ فإن إثم ضلالي على نفسي، أتحمَّلُه أنا، ولا يصيبكم منه شيء، وإن كنت مهتدياً، فذلك بفضل الله، وإنعامه عليَّ بالوحي والرسالة، إنه تعالى سميع لأقوال العباد، قريب الإجابة لمن دعاه ورجاه ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي ولو ترى حال الكفار الفجار، حين خرجوا من قبورهم فزعين، إلى أرض المحشر، ﴿فلا فوت﴾ أي فلا نجاة لهم من العذاب ولا

وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٢﴾ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ ﴿٥٤﴾

مهرب، وأُخذوا من أرض المحشر، إلى نار الجحيم، وجواب (لو) محذوف للتهويل، أي لرأيت أمراً هائلاً فظيعاً ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾أي وقالوا حين عاينوا العذاب: آمنا بمحمد وبالقرآن، وصدَّقنا بما جاءنا به من عند الرحمن، ومن أين لهم تناول الإيمان وهم الآن في الآخرة، أمام الجبَّار، الكبير المتعال؟ وقد ذهبت الدنيا فصارت منهم بمكان بعيد؟ يريد أن الإيمان محلُّه الدنيا، فكيف يصلون إليه وهم الآن في الآخرة؟ شبَّه تعالى حالهم بحال من يريد تناول شيء، وبينه وبين هذا الشيء مسافات شاسعة بعيدة، ومعنى (التناوش): التناولُ ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾أي وقد كفروا بالرسول وبالقرآن في الدنيا، فكيف يحصلون على الإيمان بهما في الآخرة؟ وقد كانوا يرجمون بالظن الكاذب، حين أنكروا القيامة، والبعث والحساب، والجنة والنار!! مثَّل تعالى لهم بمن يرمي هدفاً لا يراه، من مسافة بعيدة، فكيف يصيبه؟ والعرب تقول لكل من تكلَّم بما لا يعرف: هو يرجم بالغيب، على جهة التمثيل لمن يرمي شيئاً بعيداً عنه لا يراه، ولا يصيب الهدف ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ﴾أي حيل بينهم وبين ما يشتهون من التوبة والإيمان، والعمل الصالح، والرجوع إلى الدنيا، كما فعل بأشباههم وأمثالهم من الكفار، لأنهم كانوا في الدنيا في شك وارتياب، من أمر الحساب والعذاب!!

انتهى تفسير سورة سبأ

● ● ●

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

تفسير سورة فاطر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ابتدأت السورة الكريمة، بالثناء على الله جلَّ وعلا، خالق الكون، ومبدع العوالم، الذي خلق الملائكة بأشكال عجيبة، وأجنحةٍ عديدة، فمنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم له أكثر من ذلك، ومعنى ﴿فاطر السموات والأرض﴾ أي موجدهما ومبدعهما على غير مثالٍ سابق، بمعنى المخترع لأول مرة ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ أي يزيد في خلق الملائكة ما يشاء من الخلق، في الجسم، والشكل، وتعدد الأجنحة، فقد روى البخاري عن ابن مسعود (أن النبي ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناحٍ) وفي بعض الروايات أن جبريل فتح جناحين منها فسدَّ ما بين المشرق والمغرب، وكلُّ هذا يدل على عظمة الخالق، وروعة الإبداع، فالذي خلق الطائر بجناحين، خلق الملائكة بأجنحة متعددة، ليشير إلى عظمته تعالى، وقدرته وسلطانه، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ أي قادر على ما يريد، لا يعجزه شيء!! ثم ذكر تعالى أنه هو المتصرف في الكون، وبيده وحده مقاليد الأمور، فقال سبحانه ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي ما يمنحه الله تعالى لأحدٍ من خلقه، من نعمة، وصحة، وعافية، أو أمنٍ، وعلم، ورزق، فلا يقدر أحد على إمساكه، وما يمسكه ويحبسه عنهم، فلا يقدر أحد على إعطائه، لأنه تعالى هو المتصرف في شؤون العباد ﴿العزيز﴾ أي الغالب على كل شيء ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأمور في نصابها،

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾

حسب الحكمة والمصلحة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي تذكَّروا نعم الله الجليلة عليكم، اذكروها بالشكر والثناء، والطاعة والاستجابة، هل هناك خالقٌ غيرُ الله تبارك وتعالى، يرزقكم من السماء بإنزال المطر، ومن الأرض بإخراج الزرع والثمر، لا خالق ولا رازق لكم غيُره تعالى ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي لا رب لكم ولا معبود بحقٍّ، إلا ربُّ العزة والجلال، فكيف تُصرفون عن عبادة الرحمن إلى عبادة الأوثان؟ وهي أحقر من أن تخلق أو ترزق!! والإفكُ بمعني الكذب، سُمّي إفكاً لأنه مصروف عن الحقِّ إلى الباطل ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي وإن كذَّبك المشركون من أهل مكة، فلا تحزن لتكذيبهم واصبر، فلك بمن سبقك من الرسل، أُسوةٌ وقُدوة، فقد كُذِّبوا وأُوذوا حتى أتاهم نصرنا، ولا بدَّ أن ينصرك الله، وإلى الله وحده مرجع الخلق، فيجازيهم بأعمالهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

كرَّر النداء للناس، ليحذِّرهم خطر عدوهم اللَّدود (إبليس) اللعين، الخبيث الماكر، والغَرُورُ: بفتح الغين اسمٌ للشيطان، لأنه يغرُّ الإنسانَ ويخدعه، والمعنى: إن وعد الله لكم أيها الناس، بالبعث والجزاء، والجنة والنار، حقٌّ لا شك فيه، فلا تخدعنكم الحياة الدنيا بزخرفها ونعيمها عن الحياة الآخرة، ولا يخدعنكم الشيطانُ بما يوسوسه لكم، فإنه كذَّاب، خدَّاع، ماكر، يريد فتنتكم بفعل القبيح والفجور ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي إن الشيطان عدوُّكم فلا تمكِّنوه من أنفسكم، وعداوته قديمة لكم، لا تنتهي ولا تزول، فعادوه كما عاداكم، إنما يريد بدعوته لكم، أن يقذف بأتباعه والمطيعين له، في نار جهنم المستعرة!

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ۝٧ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٨ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾

قال بعض السلف: يا عجباً لمن عصى المحسنَ بعد معرفته بإحسانه، وأطاعَ اللعينَ ـ يعني الشيطان ـ بعد معرفته بعدواته ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ﴾ أي الكفار الفجار في العذاب الشديد، والمؤمنون الأبرار في جنات الخلد والنعيم **﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾** وشتَّان ما بين الجزاءين والمصيرين ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ أي أفمن أغواه الشيطانُ فحسَّن له فعله القبيح، حتى سُرَّ به ورآه حسناً؟! واستحسن ما هو عليه من الكفر والضلال، كمن استقبحه واجتنبه واختار طريق الإيمان؟ ودلَّ على هذا الحذف قوله سبحانه **﴿فإن الله يضل من يشاء﴾** أي الجميعُ بمشيئته تعالى، فإنه يضلُّ من اختار طريق الضلال، فيجعله في أسفل سافلين، ويهدي من يشاء هدايته لاختياره طريق الإيمان، فيرفعه إلى أعلى علِّيين ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ أي فلا تُهلك نفسك عليهم، حسرةً على عدم إيمانهم، فإنه تعالى قد كتب عليهم الشقاوة والضلالة، بقبح عملهم وسوء صنيعهم، وهو العالم بما يصنعون من القبائح، ومجازيهم عليها ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ بيانٌ لدلائل قدرته تعالى ووحدانيته، أي والله تعالى بقدرته، وبديع صنعه، هو الذي أرسل الرياح مبشِّرة بنزول المطر، فتحرِّك السحاب وتهيجه، فسقنا السحاب الذي يحمل المطر، إلى بلدٍ مجدبٍ قاحل، فأنزلنا عليه الماء، فأحيينا به الأرضَ بعد جدبها ويبسها، **﴿كذلك النشور﴾** أي كما أحيينا الأرض الميتة بالماء، كذلك نخرج الموتى من قبورهم، وهو استدلال لطيف، بارع الروعة والجمال، (سأل أحدُ الصحابة رسول الله ﷺ، كيف يحيى الله الموتى؟ فقال له: أَمَا مررت بوادي أهلك مُمحِلاً؟ ـ أي مجدباً ـ ثم مررتَ به يهتزُّ خَضِراً؟ قلت: بلى يا رسول

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًاۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

الله، قال: فكذلك يحي الله الموتى، وذلك آيته ـ أي علامته ـ في خلقه) رواه أحمد وابن ماجه.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ﴾ أي من كان يريد عزة الدارين، فليعلم أن العزة والقدرة والمنعة، لله عزَّ وجل وحده، لا لغيره من البشر، فكيف يطلب الكفار العزة من الأوثان والأحجار؟ كما قال تعالى عنهم ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً﴾ وهذه الأوثان ذليلة ضعيفة مهينة!! ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعملُ الصالح يرفعه﴾ أي إليه جلَّ وعلا يرتفع العملُ الصالح، والكلام الطيب، من ذكر، ودعاء، وتسبيح، وتلاوة قرآن، ويقبله ويثيب فاعله، فمن كان يريد العزة فليعمل بطاعة الله ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أي والذين يحتالون بالمكر والخديعة لإطفاء نور الله، والكيد للإسلام والمسلمين، لهم في الآخرة عذاب شديد في نار جهنم، وكيدهم يبور أي هالك وباطل!! والآية تشير إلى تآمر كفار مكة على الرسول ﷺ في (دار الندوة) حيث اجتمعوا وتشاوروا في قتل الرسول ﷺ أو نفيه أو حبسه، فأبطل الله مكرهم، وردَّ كيدهم في نحورهم ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾ ثم ذكر تعالى برهاناً آخر على قدرته ووحدانيته فقال سبحانه ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًاۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ﴾ أي والله تعالى بقدرته خلق أصلكم آدم من تراب، ثم خلق ذريته من ماء مهين، هي النطفة، ثم خلق من هذه النطفة أزواجاً ﴿ذكوراً وإناثاً﴾، بطريق التَّزاوج، وما تحمل أنثى في بطنها من جنين، ولا تلده إلاَّ بعلمه سبحانه، يعلم أطواره وأدواره ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي ما يطول عمر أحدٍ من البشر، حتى يصل لسنِّ الهرم، ولا ينقص من عمر أحد، فيموت وهو صغير أو شاب، إلاَّ كان ذلك مسجَّلاً في اللوح المحفوظ، عند رب العزة والجلال، لا يزاد عليه ولا ينقص،

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

وذلك سهلٌ هيِّن على الله، لأنه تعالى أحاط بكل شيء علماً!

إن خلق الإنسان من تراب، أظهر دليل وبرهان على وجود الله، وقدرته ووحدانيته، ولو فكر الإنسان في أصل نشأته، لعرف أن وجوده معجزةٌ من أعظم المعجزات، فالتراب جماد لا حياة فيه، وهو أصل تكوين البشر، ثم معجزة نفخ الروح، لا تزال سراً مغلقاً على البشر، ما هي هذه الروح؟ كيف تكونت؟ كيف حدثت فجعلت من هذا الجماد بشراً سوياً؟ شيء غريب لا يدركه أحد ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ وبعد هذا البرهان الساطع على قدرة الله ووحدانيته، يضرب القرآن المثل للمؤمن والكافر فيقول سبحانه﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي لا يتساوى ماء النهر، وماءُ البحر أبداً، فهذا ماءٌ حلو عذبٌ شديد الحلاوة، يُذهب العطش، يَسْهُل انحداره في الحلق، لعذوبته، وذاك ماء شديد الملوحة، يُحرق حلق الشارب لملوحته ومرارته، فالأُجاج: الشديدُ الملوحة، والفُرات: الشديد الحلاوة، والسائغ الذي ينحدر بسهولة، وهذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر، كما قال بعض علماء السلف، أي كما لا يتساوى ماء البحر، وماءُ النهر، كذلك لا يتساوى المؤمن مع الكافر، ولا البَرُّ مع الفاجر﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ومن كل واحد منهما، تأكلون سمكاً غضّاً طرياً، وتستخرجون اللؤلؤ والمرجان من مياه البحار، للحلية والزينة، وترى السفن العظيمة الضخمة، تمخر عُباب البحر، مقبلةً ومدبرة، تحمل على ظهرها الأثقال، والبضائع، والرجال، وهي تسير ولا تغرق، لأنها بتسخير الله عز وجل، لتشكروه على نعمه الجليلة، التي أنعم الله بها عليكم!! وجريانُ السفن العظيمة الضخمة فوق سطح الماء، من آيات الله الباهرة، فإن الحصاة تسقط في الماء، فكيف لا تسقط هذه السفن وتغرق في الماء على ضخامتها؟﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هذا برهان آخر على قدرة الله

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾

ووحدانيته، أي وهو سبحانه بقدرته، يُنقص من الليل ويزيد في النهار، ويُنقص من النهار فيزيد في الليل، وهذا هو الإيلاج: يعني الإدخال، وهذه من آيات الله الباهرة، فلو نظر الإنسان بعين البصيرة، لرأى العجبَ العُجاب، مشهد الليل وهو يأكل من النهار، وكأنما يدخل فيه، ومشهد النهار وهو يأكل من الليل، فبينما الدنيا مشرقة ساطعة، إذا بالظلام يخيِّم على الكرة الأرضية، وإذا بالكون يسبح في ظلام دامس، آيةٌ من آيات الله الكونية، يُشاهدها الناس في كل صباح ومساء، ولكنهم لا يفطنون لها، للإلف والاعتياد، وفي بعض البلدان يطول النهار حتى يصل إلى عشرين ساعة، ويقصر الليل حتى يصبح بضع ساعات، فسبحان من دبَّر الكون بحكمته، وغيَّر الأوقات بقدرته!! ﴿وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾ أي ذلَّلهما وسيَّرهما لمصالح العباد، يجريان بنظام دقيق محكم، إلى زمن محدود هو يوم القيامة ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ أي ذلكم الإله العظيمُ الشأن، هو ربكم، الذي له الملك والسلطانُ، والتصرف الكامل في الخلق، وما عداه فباطل لا يملك شيئاً، ولا ينفع بشيء ولو بمقدار القطمير، وهي القشرة الرقيقة البيضاء التي تكون بين التمرة والنواة ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي وهذه الآلهة المزعومة، هي أصنام من أشجار أو أحجار، لو دعوتموهم للإعانة وكشف الضر، لم يسمعوا دعاءكم، ولم يستجيبوا لندائكم، لأنها جمادات لا تنطق ولا تسمع، ولو سمعوا دعاءكم ـ على الفرض والتقدير ـ ما استجابوا لكم، لعجزهم عن النفع بالكلية، وفي الآخرة عندما ينطقهم الله بقدرته، يتبرءون منكم ومن عبادتكم، ولا يخبرك أحد على وجه اليقين، إلا الخالق العليم الخبير! فالخبيرُ هنا يُراد به ربُّ العزَّة والجلال.

قال قتادة: يعني نفسه تبارك وتعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي أنتم يا معشر البشر، الفقراء على الحقيقة، المحتاجون إلى الله على الدوام، والله

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾

سبحانه وتعالى هو الغنيُّ عن جميع الخلق، لا تنفعه طاعة ولا تضرُّه معصية، وهو المحمود في جميع الأوقات والأحوال، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي لو شاء تعالى لأهلككم وأفناكم، وأتى بقوم آخرين خير منكم!! وليس ذلك بصعب ولا عسير على الله تعالى، بل هو سهلٌ يسير، لأنه يقول للشيء: كن فيكون!! يا عجباً للإنسان الغافل عن ربه، يركبه الغرور أحياناً، فيظن أنه شخصٌ عظيم، مستغن عن إحسان الله وفضله، فماذا يصنع لو منع الله عنه الهواءَ، أو قطع عنه الطعامَ والماء؟ وماذا يصنع لو تجمَّد بعضُ الدم في عروقه، فأصابته الجلطةُ؟ أو حُبس البول في المثانة؟ أو توقَّف القلب عن الحركة؟ ألا يهلك ويموت؟ فما أضعف الإنسان وأعجزه، أمام عظمة الله وجلاله!! ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ أي كلُّ نفسٍ تحمل إثم نفسها، ولا تُعاقب بذنب غيرها، كما يفعله الجبابرة من أخذ بعض العشيرة بالجاني، وأخذ الجار بالجار، وإنما المسئولية فردية، كل نفسٍ تحمل آثامها، وإن تدع نفسٌ مثقلةٌ بالأوزار، أحداً ليحمل عنها بعض أثقالها، لا يتحمل عنها أحد، حتى ولو كان المستغيث ذا قرابة، كالابن، والأب، والأم، لأن كل إنسان يريد نجاة نفسه ﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ فهو مشغول بنفسه وحاله، عن قريبه وأحب الناس إليه، يقول: نفسي، نفسي ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون، الذين يخشون عذاب الله، ولم يشاهدوا ربهم، ولكنهم أيقنوا بوجوده، فخافوا عقابه، وحافظوا على عبادتهم وصلاتهم، فهؤلاء الذين ينتفعون بالإنذار، ومن تطهَّر من أدناس المعاصي والفجور، فنفعه عائد عليه، وإليه تعالى وحده مرجع جميع الخلق، فيحاسبهم على أعمالهم ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ هذا واردٌ مورد التمثيل، لبيان

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

الفارق الكبير بين الإيمان والكفر، والهدى والضلال، فالإيمان نور، والكفر عمى، والهدى ضياء، والضلال ظلمة!

ومعنى الآية: وما يتساوى عند الله الكافر والمؤمن، ولا الجاهل والعالم، وهو المراد بقوله ﴿الأعمى والبصير﴾ ثم قال تعالى ﴿ولا الظلمات ولا النور﴾ أي ولا يتساوى عند الله الباطلُ والحقُّ، والهدى والضلال، فالباطل ظلمة، والحقُّ نور ﴿ولا الظلُّ ولا الحرور﴾ أي ولا يتساوى الجنةُ والنار، ولا الثواب والعقاب، كما لا يتساوى الظلُّ الظليل، مع شدة الحرِّ وقت الظهيرة وهو حرُّ السموم!! ضرب تعالى الظلَّ مثلاً للجنة، وظلها الظليل، وثمارها اليانعة، وضرب الحرور - وهو شدة حر الشمس - للنار وسعيرها، وشدة لهبها وجحيمها. كما قال سبحانه ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾ فالجنة مستقر للأبرار، والنار مستقر للفجار.. ثم زاد تعالى في التأكيد لبيان الفارق الشاسع، بين أهل الإيمان، وأهل الكفر، فقال سبحانه ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ شبَّه تعالى المؤمنين بالأحياء، والكافرين بالأموات، فالمؤمن ينتفع ويسمع ويتدبر، والكافر ميت لا يسمع ولا يستجيب ﴿إن أنتَ إلاَّ نذير﴾، أي وليس محمد ﷺ إلا رسولٌ منذر، يُسمع الأحياء لا الأموات!!

لقد جاء التمثيل في هذه الآيات، في غاية الفصاحة والبيان، فقد ذكر تعالى الأعمى والبصير مثلاً للمؤمن والكافر، فذكر ما عليه الكافر من ظلمة الكفر والضلال، وما عليه المؤمن من نور الهداية والإيمان، ثم ذكر مآلهما ومصيرهما في الآخرة، ومثَّل له بالظل والحرور، فالمؤمن بإيمانه في ظل وراحة، والكافر بكفره في سموم وحميم، وحرٍّ وتعب، ثم ذكر مثلاً آخر على أبلغ وجه وهو (الحيُّ والميت)، فالأعمى قد يكون فيه بعض النفع، بخلاف الميت فإنه لا نفع فيه، ولا خير يُرتجى منه، فالكافر شَبَحٌ في صورة حي، وبهيمة في صورة إنسان ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾ فتدبَّرْ روائع أمثلة القرآن!! ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي نحن بعثناك يا محمد بالهدى والدين

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾

الحق، بشيراً للمؤمنين، ونذيراً للكافرين، وما من أمةً من الأمم السابقة، في الأزمنة الماضية، إلاّ وقد بعثنا فيها نبياً أو رسولاً، لئلا يبقى لأحدٍ حجة بعد الرسل!! ثم سلّى تعالى رسوله عن تكذيب قومه له، فقال سبحانه ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ أي وإن كذبك قومُك يا محمد، فقد كذَّب الذين من قبلهم رسلهم، جاءوهم بالمعجزات الواضحات الساطعات، ﴿وبالزبر﴾ أي الصحف التي فيها النصائح والمواعظ، كصحف إبراهيم، وشيث، وإدريس ﴿وبالكتاب المنير﴾ أي الكتب السماوية التي أنزلها الله على أكابر الرسل ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي ثم أخذت المكذبين الكفار، بأشدِّ أنواع العقاب، وبالهلاك والدمار، فكيف كانت عقوبتي لهم، وإنكاري عليهم؟ ألم آخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر؟ ألم أجعل نعمتهم نقمة، وسعادتهم شقاوة، وقصورهم خراباً ودماراً!! ثم عاد الحديث إلى ذكر دلائل القدرة والعظمة والوحدانية، في هذا الكون المنظور، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ أي ألم تر أيها الإنسان العاقل، أن الله العظيمَ الجليلَ الكبير، أنزل المطر بقدرته من السحاب، فأخرج بذلك الماء أنواع النباتات، والفواكه، والثمار، المختلفات الأشكال والألوان؟ من تفاح، وعنب، وتين، وزيتون، وغيرها مما لا يكاد يُحصر، الماء واحد، والتربة واحدة، والطعوم والألوان مختلفة ﴿يُسقى بماء واحدٍ ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾ ثم انتقل إلى الجبال فقال ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ أي وخلق من الجبال أيضاً حجارة مختلفة الألوان والأشكال، ذات هيئاتٍ متنوعة، منها الأبيضُ، والأحمرُ، والأسود، فكما خالف بين الألوان في الفواكه والثمار، كذلك خالف بينها في الجبال والأحجار، ومعنى الجدد أي الطُرق جمع جُدَّة وهو الطريق ﴿وغرابيب﴾ جمع غربيب وهو الشديد السواد، أي حجارة سوداء شديدة

وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾

السواد ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ أي ومن البشر، والبهائم، والأنعام، مختلفة الأشكال والألوان، كاختلاف الثمار والجبال، فهذا أبيض البشرة، وهذا أحمر، وهذا أصفر، وهذا أسود، والجميعُ خلق الله، إنما يعظِّم الله ويُجلُّه ويخشاه حقَّ الخشية، العلماءُ العارفون بعظمته وجلاله، إنه سبحانه هو العزيز الغالب، المعاقب لأهل الفجور والطغيان، الغفور للتائبين عن العصيان.. وهذه الآية الكريمة لفتت الأنظار، إلى (العلوم الكونية) المتنوعة، فأشارت إلى علم النبات، والطبيعة، والأحياء، وطبقات الأرض «الجيولوجيا» وعلم الأرصاد، والطب البشري، والحيواني «البيطري» لأن الله تعالى لفت في هذه الآية، إلى آثار قدرته في هذا الكون المنظور، ليحفز المؤمن على البحث والتنقيب، على شتى العلوم الكونية، بجميع فروعها، ليستفيد ممَّا حوله، ويعمر الدنيا بطاعة الله، وذكره وشكره، وختم الآية بقوله ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ وجاءت في سياق الحديث عن علوم الكون والطبيعة، فعلماء الطب، والفلك، والنبات، وعلماء طبقات الأرض، والزلازل، والبراكين، وعلماء الفضاء، المفروضُ فيهم أن يكونوا أشدَّ الناس خشيةً لله، لما يرون من آثار صنعه وإبداعه، فالطبيب مثلاً الذي يرى آثار الدقة والإبداع، في كل حاسة من حواس الإنسان، في العين، والأذن، والقلب، والمخ، والأعصاب، بل يرى آ ثار الإبداع والإتقان في كل خلية من خلايا جسم الإنسان، وفي كل نقطة تجري في دمه وعروقه، هو الذي يعرف روائع الخلق والتكوين، فيزداد بذلك إيماناً بعظمة الله ووجوده، ولهذا كان أشدَّ الناس من خشيةِ الله سيِّدُ الأنبياء، لِمَا يَعْرِف من عظمة الله وجلاله حيث قال: (أَمَا واللهِ إني لأخشاكم لله وأتقاكم له) رواه البخاري.. وبعد هذا تنتقل الآيات من الكتاب المنظور (الكون) إلى الكتاب المسطور (القرآن العظيم) فيقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ أي إن الذين يقرءون القرآن، بتدبر وتأثر،

لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾

وأتى بصيغة المضارع ﴿يتلون﴾ المفيدة للتجدد والاستمرار، لينبِّه تعالى أن من شأنهم المداومة والمواظبة على تلاوة القرآن ﴿وأقاموا الصلاة﴾ أي أدَّوها على الوجه الأكمل بأركانها وآدابها، وخشوعها، وفي أوقاتها، لأن لفظ الإقامة يدلُّ على الحسن والإتقان ﴿وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية﴾ أي أنفقوا بعض ما رزقناهم من الأموال، في سبيل الخير والإحسان، ابتغاء مرضاة الله، في السر والعلن ﴿يرجون تجارة لا تبور﴾ أي يرجون بعملهم الصالح تجارة رابحة، لن تخسر ولن تكسد، بل هي رابحة على الدوام، لأنها تجارة مع الرحمن ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي ليوفيهم الله ثواب أعمالهم، ويزيدهم فوق أجورهم، أضعافاً مضاعفة، من فضله وكرمه وإحسانه، إنه تعالى مبالغٌ في الستر على عباده، شاكر لطاعتهم وإحسانهم ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي وهذا القرآن الذي أوحيناه إليك يا أيها الرسول، هو الكتاب الحقُّ، كلامُ ربِّ العزة والجلال، جاء مصدِّقاً لما سبقه من الكتب الإلهية، المنزلة على الأنبياء والمرسلين، كالتوراة والإنجيل، إنه تعالى خبير بمصالح العباد، مطَّلع على أعمالهم، لا تخفى عليه خافية، وفي الآية إشارة إلى أن القرآن وحي من عند الرحمن، لأن الرسول لم يكن كاتباً ولا قارئاً، وأتى ببيان ما في كتب الله السابقة، ولا يكون ذلك إلا بطريق الوحي من الله ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي ثم أورثنا القرآن العظيم، هذه الأمة المحمدية، التي اخترناها على سائر الأمم، وخصصناهم بهذا النور المبين، وقد انقسموا أمام هذه «الوراثة الربانية» إلى ثلاثة أقسام ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي فمنهم العاصي المقصِّر في طاعة الله، ومنهم المقتصد أي المتوسط في فعل الخيرات والطاعات، ومنهم السابق إلى مرضاة الله، المجدّ المجتهد في العبادة، والطاعة وفعل الصالحات!! ذكر

جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ

تعالى أقسامهم، ثم ذكر بعد ذلك مصيرهم وجزاءهم، فالفريق الأول (العصاة) هؤلاء أمرهم إلى الله، إمَّا أن يعذِّبهم ليطهرهم من الذنوب والأوزار، ثم يدخلهم الجنة، وإمَّا أن يعفو عنهم بشفاعة النبي المختار، لأنهم من أمته وقد ماتوا على الإيمان ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ وأمَّا المقتصد في عمله، والسابق إلى الخيرات فهؤلاء من أهل الجنة، ولهذا قال تعالى بعدها ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ أي لهم عند ربهم جنات عدن أي جنات إقامة يتنعَّمون فيها بأنواع النعيم، ويُزيَّنون فيها بأساور من ذهب، مرصَّعة باللؤلؤ، وهذه الزينة للرجال والنساء، لأن الجنة دار تشريف لا دار تكليف، فليس هناك شيء حرام، وجميع ما يلبسونه في الجنة من ثياب الاستبرق والحرير، ولهذا قال تعالى ﴿**ولباسهم فيها حرير**﴾ ولمَّا كانت الملوك في الدنيا تلبس الأساور والتيجان، جعل الله ذلك لأهل الجنان ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ﴾ أي ويقولون حين يدخلون الجنة: الحمد لله الذي أذهب عنا الأحزان، والهموم، والأكدار، إن ربنا واسع المغفرة لذنوبنا وأخطائنا، شكور لطاعة المطيعين ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ أي الذي أنزلنا وأسكنَنا الجنةَ، دارَ الإقامة والخلد، وجعلها لنا وطناً وقراراً، من فضله و كرمه، لا يصيبنا فيها تعبٌ ولا مشقة، والنَّصبُ: التعبُ، واللُّغوبُ: الإعياءُ والضعفُ والفتور!! لقد جعل الله جزاء هذه الأمة المختارة «أمة محمد» الجنة دار الخلود والإقامة، وجعل النعيم فيها مادياً، ومعنوياً، فالنعيم الماديُّ ما يكون لأهل الجنة من المآكل والمشارب، واللذائذ الجسدية ومنها الحور العين، والنعيم المعنويُّ النفسي، ما يكون لهم فيها من الراحة، والسعادة، والاطمئنان، في دار السرور والحبور ﴿**لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون. لا يحزنهم الفزع الأكبر**﴾ ومقابل هذا النعيم والتكريم لأهل الجنة، يأتي الحديث عن أهل النار، وما هم فيه من الشقاء والعذاب فيقول سبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ

جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾

﴿جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي والذين كفروا بآيات الله، وكذبوا رسله، فإن لهم نار جهنم المستعرة، لا يُحكم عليهم بالموت، حتى يستريحوا من عذاب جهنم، ولا يُخفَّف عنهم شيء من العذاب، بل هم في عذاب دائم مستمر، كذلك نعاقب كل كافرٍ مبالغ في الكفر والإجرام ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي وهم في جهنم يستغيثون ويصيحون برفع أصواتهم، صياح المعذَّب، قائلين: يا ربنا أخرجنا من النار، وردَّنا إلى الدنيا، لنعمل عملاً صالحاً يرضيك، غير ما كنا نعمل من سيء الأعمال!! يقول تعالى موبخاً لهم ومؤنباً ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي أولم نمهلكم في الدنيا، ونعمرِّكم فيها عمراً طويلاً، يكفي لأن يتذكر من يريد التذكُّر والتدبر؟ فماذا صنعتم في هذه المدة التي عشتموها؟ وجاءكم الرسول المنذر، محمد ﷺ، فلم تتذكَّروا ولم تتَّعظوا، فذوقوا عذاب الله الشديد، فمالكم اليوم شافع ولا نصير، يدفع عنكم العذاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي هو سبحانه العالم بكل ما خفي في هذا الكون، يعلم خفايا النفوس، والخواطر والهواجس، التي تمرُّ على فكر الإنسان، فكيف لا يعلم أعمالهم الظاهرة؟ والغرضُ من الآية بيان أن الله لو ردَّهم إلى الدنيا، لعادوا إلى الكفر والضلال، لأنه يعلم خفاياهم ونواياهم، كقوله سبحانه ﴿ولو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ ثم جاءت الآيات تذكِّرهم بعاقبة الكفر الوخيمة، حيث قال سبحانه ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي هو جلَّ وعلا جعلكم أجيالاً يخلف بعضكم

قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾

بعضاً، جيلاً بعد جيل، ليمتحنكم ويختبركم، فمن كفر فعليه وبالُ كفره، لا يضرُّ بذلك إلا نفسه، ولا يزيد الأشقياء الكفارَ كفرُهم ﴿إلاَّ مقتاً﴾ أي بُغضاً وسخطاً، والمقتُ: أشدُّ أنواع البغض والكراهية، ولا يزيدهم كفرهم إلا هلاكاً وخسراناً، لأنهم خسروا راحتهم وسعادتهم ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي أخبروني يا معشر المشركين، عن هذه الأوثان والأصنام، التي زعمتم أنها آلهة وشركاء مع الله؟ ماذا خلقت من المخلوقات، من البشر، أو الدواب، أو الجبال أو البحار؟ لنرى هل تستحقُّ أن تعبد مع الله!! أم لها شركة مع الله في بعض مخلوقاته؟ ليستحقوا بذلك الألوهية!! ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي هل عند هؤلاء العابدين للأوثان، كتاب منزل من السماء، ينطق بأن هذه الآلهة المزعومة شركاء مع الله؟ بل هم في عبادتهم لها في ضلال وغرور، ضلَّلهم الرؤساء بأنها تشفع لهم يوم القيامة، وما هو إلا غرور باطل وزور ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي الله الذي خلق السموات والأرض، هو الذي يمسكهما بقدرته عن الزوال، والسقوط، والوقوع، كما قال سبحانه ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾ وإذا فُرِضَ أن الله تعالى تخلَّى عن إمساكهما، فلا يستطيع أحدٌ على إمساكهما، إنه تعالى حليمٌ على عباده، لا يعجِّل لهم العقوبة، غفور يغفر لهم ذنوبهم وآثامهم، من فرط رحمته بهم، ولعلَّ في هذه الآية ما يشير إلى حركة الأرض، لأنها لو كانت ثابتة علي شيء، لما احتاجت إلى الإمساك، وإنما هي ـ والله أعلم ـ كبقية الأفلاك تسبح في الفضاء ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي

ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

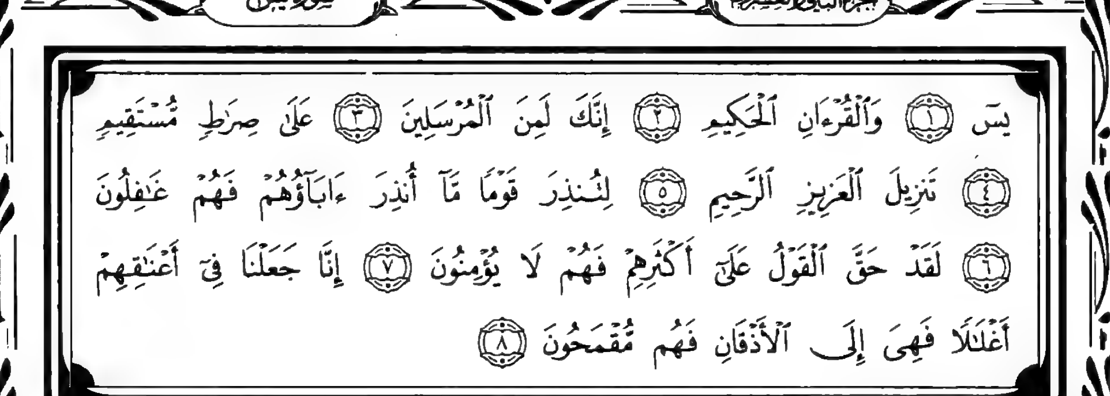
أقسم المشركون كفار مكة، أقسموا بالله أشدَّ الأيمان وآكدها وأبلغها، أنه لو جاءهم رسول، ليكونُنّ أسبقَ الناس إلى الإيمان به، وأهدى من اليهود والنصارى، الذين كذبوا أنبياءهم ورسلهم ﴿فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً﴾ أي فلما جاءهم الرسول المنذر، (محمد بن عبد الله) خاتم النبيين، ما زادهم إلا بعداً عن الإيمان، ونفوراً عن اتباع سيد المرسلين ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ أي نفروا عن الهدى والإيمان، بسبب الاستكبار والطغيان ، والمكرِ الخبيث للصدِّ عن دين الله، ولا يعود وبال هذا المكر الخبيث، إلا على أهله ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي فهل ينتظرون إلا عادة الله في المكذِّبين من الأمم السابقة؟ وهي الإهلاك لهم بأنواع العذاب والدمار؟ وهي سُنَّةٌ لا تتبدل ولا تتغير ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي أو لم يسافروا في البلاد، ليعتبروا بمن سبقهم من الطغاة، كيف كانت عاقبتهم الوخيمة؟ فقد كا نوا أقوى من أهل مكة أجساداً، وأطول أعماراً، وأكثر أموالاً وأولاداً؟ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ أي وما كان ليعجزه الانتقام منهم، فقد أهلكهم ودمَّرهم، وهو عليم بجرائمهم وبما يستحقونه، من العقوبة؟ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ أي إن الله حليم لا يعجِّل لعباده



العقاب، ولو آخذهم بذنوبهم لأهلك أهل الأرض جميعاً، ولكنه يؤخرهم ليوم الحساب، وهو سبحانه العالم بأعمالهم، وسيجازيهم عليها أعدل الجزاء!!.

انتهى تفسير سورة فاطر

● ● ●



تفسير سورة يسٓ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يسٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾، الحروف المقطعة ﴿يسٓ﴾ للإشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، أقسم تبارك وتعالى بالقرآن المعجز المحكم، على أن محمداً ﷺ أحد الرسل الكرام، الذين بعثهم الله لهداية البشرية، وأنه على الطريق الواضح البيِّن، وأن هذا القرآن هو تنزيل رب العزةِ والجلال!! والقسمُ بالقرآن العظيم على رسالته ﷺ، فيه تعظيمٌ وتفخيم لشأن الرسول ﷺ، فلم يُقسم الله في كتابه العزيز، لأحد من أنبيائه بالرسالة، إلا لمحمد ﷺ، وكفى بذلك شرفاً وتعظيماً لخاتم النبيِّن، **قال ابن عباس**: قال كفار قريش: لستَ يا محمد مرسلاً، وما أرسلك الله إلينا، فأقسم الله بالقرآن العظيم المحكم، أن محمداً ﷺ رسولُ الله، وأنه من جملة المرسلين ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لتنذر بهذا القرآن قومك العرب، الذين ما جاءهم كتابٌ ولا رسولٌ قبلك، لتطاول زمن الفترة بين «عيسى» وبعثة «محمد» فهم بسبب ذلك غافلون عن الإيمان، يتخبطون في ظلمة الشرك وعبادة الأوثان، ولقد وجب العذاب على هؤلاء المشركين، بسبب إصرارهم على الكفر والإنكار، فهم لذلك لا يؤمنون بما جئتهم به من عند الرحمن!! ثم مَثَّل تعالى لهم بمثلين عجيبين غريبين، فيهما تصوير حسيٌّ دقيق، لما هم عليه من الكفر والضلال، فقال في المثل الأول ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ هذه هي الصورة الأولى: صورة الإنسان الذي شُدَّت يداه بالسلاسل والأغلال، ورُبطت مع العُنق، فأصبح رأسُه مرفوعاً، لا يستطيع خفضه

وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

أو تحريكه يمنةً أو يسرة ﴿فهم مقمحون﴾ الإقماحُ: رفع الرأس وغضُ البصر، شبَّههم تعالى في إعراضهم عن هداية الله، بالبعير الذي رفع رأسه عند حوض الماء، وامتنع عن الشرب، وهؤلاء الكفار لا يلتفتون إلى الحقِّ، ولا ينظرون إلى حجج القرآن، بل هم معرضون عنه كالبعير الذي يُعرض عن شرب الماء ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ هذه هي الصورة الثانية، صورة الشخص الذي حُصِر بين سدَّين عظيمين، سدّ منيع من أمامه، وسدّ آخر من خلفه، وسُدّت الطرقُ في وجهه، فكيف يبصر ما أمامه، أو يرى طريق الهدى والرشاد؟ ومعنى ﴿فأغشيناهم﴾ أي غطَّينا بهذين السدين أبصارهم وأعميناهم، فهم لا يبصرون طريقهم إلى الإيمان، وحقاً إنه لتصوير رائع، يكشف عن حقيقة أولئك الأشقياء الفجار ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي يستوي عند هؤلاء الأشقياء، إنذارُك وتخويفك لهم من عذاب الله، وعدمُه، فهم بسبب طغيانهم وجبروتهم لا يؤمنون، إنما ينفع إنذارك لمن آمن بالقرآن، وخشي الرحمن، دون أن يرى ربه، فبشره بمغفرة لذنوبه، وأجر عظيم كريم، هو الجنة دار النعيم ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي نحن الذين خلقناهم، سنبعثهم من قبورهم بعد الموت، للحساب والجزاء، ونكتب ما عملوه من خير أو شر، نضبطه ونسجِّله عليهم، في كتاب واضح، هو كتاب أعمال الإنسان، أما المراد بالآثار، فهو ما ورد في الحديث الشريف أنها (خُطاهم إلى المساجد)، حيث قال ﷺ لبني سلمة حين أرادوا الانتقال إلى قرب مسجده ﷺ (يا بني سَلَمة، ديارَكم تُكتب آثارَكُم، . ديارَكُم تكتب آثاركم) رواه مسلم، أي الزموا دياركم، تكتب لكم حسنات خطواتكم إلى المساجد ثم ذكر تعالى قصة أصحاب

وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾

القرية، الذين أرسل الله لهم الرسل فكذبوهم، وأرادوا قتلهم فقال سبحانه: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ هذه بداية قصة أهل «إنطاكية» على المشهور من الأقوال، والقريةُ إذا أطلقت في القرآن، فإنه يراد بها البلدة والمدينة، وقد كان أهل هذه المدينة كفاراً يعبدون الأصنام، وفيها ملك ظالم جبَّار، يدعو الناس إلى عبادة الأوثان والأحجار، فبعث الله إلى أهل هذه البلدة (رسولين) كريمين فكذبوهما، ثم شدَّ أزرهما برسول ثالث، فهددُوا الرسل الكرام بالقتل، إن لم يكفُّوا عن دعوتهم الناسَ إلى الدين الجديد، وتنتهي القصة بهلاك الطغاة الظالمين، بصيحة من السماء أزهقت أرواحهم ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ أي أرسلنا إليه رسولين كريمين لهدايتهم فكذبوهما ﴿فعززنا بثالث﴾ أي فقويناهما وشددنا أزرهما بإرسال رسولٍ ثالث، فقالوا لهم: نحن رسلُ الله مرسلون إليكم لهدايتكم ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ أي أجابهم الأشقياء بقولهم: لستم إلا بشراً مثلنا، فكيف أوحى الله إليكم دوننا؟ ما أنتم إلا كذبة، تكذبون على الله في دعوى الرسالة، تزعمون أن الله أرسلكم إلينا!! ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي أجابتهم الرسل بقولهم: الله يعلم أننا رسله إليكم، ولو كنا كذبة لانتقم منا أشدَّ الانتقام، وليس علينا إلاَّ أن نبلِّغكم رسالة الله، فإن آمنتم فلكم السعادة، وإن كذَّبتم فعليكم الشقاوة والخسران ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ ردَّ الأشقياء المجرمون على رسلهم، أبشع ردٍّ، وجابهوهم بالأسلوب الغليظ العنيف، فقالوا لهم: إنَّا تشاءمنا منكم، ومن دعوتكم لنا إلى الإيمان، وترك عبادة الأوثان، لئن لم تمتنعوا عن دعوتكم لنا إلى الدين الجديد، ولئن لم تكفُّوا عن الطعن في آلهتنا من الأوثان والأصنام،

﴿قَالُوا۟ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾

لنرمينكم بالحجارة حتى الموت، ولنؤذينكم إيذاءً شديداً في أنفسكم وأهليكم!! وهكذا أسفر الباطل عن وجهه القبيح، ولكنَّ واجب الرسل الصبر والتذكير، والمضيّ في طريق الدعوة إلى الله، مهما كانت المصاعب والمتاعب ﴿قَالُوا۟ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي قالت لهم الرسل: ليس شؤمكم بسببنا ولا من جهتنا، بل بسبب كفركم وعصيانكم، وسوء أعمالكم!! لئن وعظناكم وذكَّرناكم ودعوناكم إلى توحيد الله، تتوعَّدونا بالرجم والتعذيب؟ أهذا هو جزاء الإحسان، والإرشاد إلى الرحمن؟ بل حقيقةً أنتم قوم مجاوزون الحدَّ في الإجرام والعصيان، وجواب الشرط ﴿أئن ذكرتم﴾ محذوفٌ لدلالة السياق عليه، تقديره: أئن ذكَّرناكم توعدتمونا بالقتل!! وتمضي القصة تذكر لنا خبر ذلك المؤمن (حبيب النجار) وكان قد سمع دعوة الرسل، فاستجاب لها، وقد خاف على قومه، وهم يتوعدون الرسل، إلى أن يحلَّ بهم عذاب الله، فأسرع نحوهم ناصحاً ومذكراً ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ خاطبهم بقوله (يا قوم) لاستمالة قلوبهم نحو قبول النصيحة، وللإشارة إلى أنه لا يريد بهم إلا الخير، جاءهم من أبعد أطراف المدينة، مسرعاً نحو قومه، يخشى أن يُقدموا على قتل الرسل، فيهلكهم الله بعذاب عاجل، فقال لقومه: اتبعوا الرسل الكرام، الداعين لكم إلى الخير والرشاد ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي اتبعوا هؤلاء الرسل، الصادقين المخلصين، الذين لا يسألونكم أجرةً على الهداية، والدعوة إلى الله، وهم عى هدى وبصيرة فيما يدعونكم إليه، من أمر التوحيد والإيمان!! **قال القرطبي**: كان هذا الرجل «حبيب النجار» به مرضُ الجُذام، ومنزلُه عند أقصى أبواب المدينة، وكان يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة، يدعوهم لعلهم يرحمونه ويكشفون ضُرَّه، فما استجابوا له، فلما أبصَر الرسلَ، ودعوه إلى الله، قال لهم: هل من آية ـ أي علامة ـ تدلُّ على صدق دعوتكم؟ قالوا: نعم، نحن ندعو ربنا القادر، فيفرِّج عنك ما بك!! فقال: إن هذا لعجيبٌ، فكيف يفرِّجه ربكم في غداة واحدة؟ ـ أي في صباح واحد ـ قالوا: ربُّنا على ما يشاء قدير، وهذه الأصنام لا تنفع شيئاً ولا تضرُّ، فآمن ودعوا

وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾

ربهم، فكشف الله ما به من بلاء ومرض!! فلمَّا همَّ قومه بقتل الرسل، جاءهم مسرعاً، وبعد أن ذكَّر قومه، وحذَّرهم من العدوان على رسل الله، عاد يتحدث إليهم عن نفسه، وعن أسباب إيمانه، ويتلطَّف معهم كأنه ينصح نفسه، بأسلوب حكيم، فيه تقريع ضمنيٌ لهم وتوبيخ، على ترك عبادة الإله الخالق الرازق، فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؟ أي ما الذي يمنعني أن أعبد خالقي، الذي أبدع خلقي وأوجدني، وربَّاني بأنواع الفضل والكرم؟ وإليه مرجعكم أيها القوم، بعد الموت والفناء، للحساب والجزاء!؟ ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ أي أأترك عبادة ربي وخالقي العظيم القادر، وأعبد آلهةً باطلة من الأوثان والأحجار، لا تسمع ولا تنفع، ولا تغني عن عابدها شيئاً؟ بل إن هذه الآلهة من الضعف والمهانة، بحيث لو أراد ربي أن ينزل بي شيئاً من الأذى والضرر، وشفعت لي، لم تنفعني شفاعتها، ولم تقدر على إنقاذي؟ فكيف وهي صمَّاء بكماء، لا تسمع ولا تجيب؟ ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أي إني إن عبدتُ غير الله، واتخذتُ الأصنام آلهةً من دون الله، فسأكون في خسرانٍ واضحٍ جليٍّ، وبعد هذا النصح والتذكير، أعلن إيمانه على رءوس الأشهاد، فقال: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾ أي إني آمنت بربكم الذي خلقكم، فاسمعوا قولي، واعملوا بنصيحتي، واتبعوا رسل الله!! ولمَّا أعلن إيمانه أمامهم، وثبوا عليه وثبة رجلٍ واحد، ووطئوه بالأقدام حتى مات، ولمَّا مات أدخله الله الجنة، فهو يتنعَّم فيها ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ أي فلما قتلوه قال له ربه: ادخل الجنة مع الشهداء الأبرار، فلما عاين ذلك النعيم، وتلك الكرامة، قال: يا ليت قومي عرفوا ما أكرمني الله به، من هذا الفضل والنعيم الخالد، وغفر لي ذنوبي بسبب إيماني، واتباعي رسل الله!! **قال ابن مسعود:**

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

إنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرجت أمعاؤه، فقال الله له: ﴿ادخل الجنة﴾ فدخلها، فهو يُرزق فيها، قد أذهب الله عنه سُقْم الدنيا، وحُزْنها ونصَبَها!! **وقال ابن عباس**: «نصح قومه حياً وميتاً» أمّا أولئك الأشقياء الفجار، فقد كانوا أذلَّ وأحقر، من أن يرسل الله عليهم ملائكة من السماء لإهلاكهم ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ هذا تحقيرٌ لهم، وتصغيرٌ لشأنهم، والمعنى: لم نحتجْ في إهلاكهم، إلى إنزال ملائكةٍ من السماء، وما كنا منزلين الملائكة من أجلهم، لأنهم كانوا أذلَّ وأهونَ علينا من ذلك، وما كانت عقوبتهم إلا (صيحةً واحدة)، صاح بهم جبريل، فإذا هم ميِّتون هالكون، قد أُخمدت أنفاسُهم، حتى صاروا كالنار الخامدة، وهو إشارة إلى الهلاك التام الذي أصابهم ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي يا أسفاً على هؤلاء المكذبين لرسل الله، المنكرين لوحدانية الله ووجوده، ما جاءهم رسول إلا سخروا منه، واستهزءوا به، فهم أحقاء بأن يُتحسَّر عليهم!! والحسرةُ: تفجُّع القلب لأمر مؤلم، والله تعالى لا يتحسَّر على العباد، إنما يذكر أن حالة هؤلاء الظالمين، تستدعي أن يتحسَّر عليهم البشر، **قال ابن كثير**: المعنى: يا حسرةَ العبادِ على أنفسهم، يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب.. ولمَّا ضرب الله المثل لكفار مكة، وبَّخ المشركين على عدم اعتبارهم بمن سبقهم من الطغاة المكذبين، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي ألم يعتبر ويتَّعظ هؤلاء الكفار، بالأمم السابقة المكذِّبة لرسلها، التي أهلكناها قبلهم؟ أُهلكوا إهلاكاً لا رجوع لهم فيه إلى الدنيا، أفلا يعتبرون؟ إنَّ الحيوان ليرتجف وهو يرى مصرع رفيقه أمامه، فما بال الإنسان يرى مصارع الظالمين، ثم يسير في نفس ذلك الطريق، وكأنه أعمى لا يُبصر!؟ ثم لا يظننَّ أحدٌ أنهم إذا أُهلكوا تُركوا، بل لا بدَّ من حضور الجميع يوم القيامة للحساب والجزاء ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

(إنْ) نافية بمعنى ما، و(لمَّا) بمعنى إلاَّ، أي ما جميع الأمم التي كذبت رسلها، بل وجميع الخلق، إلاَّ وهم محضرون يوم القيامة، بين يدي أحكم الحاكمين، فيجازيهم على أعمالهم، خيرها وشرِّها ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾ فليس من أهلكه الله بمتروك، بل هناك جمع له وحساب، وثوابٌ أو عقاب، كما قال القائل:

ولَـوْ أَنَّـا إذَا مِـتْـنَـا تُـرِكْـنَـا لَـكَـانَ الـمـوتُ رَاحَـةَ كـلِّ حَـيِّ
ولـكـنَّـا إذا مِـتْـنَـا بُـعِـثْـنَـا ونُـسـأَلُ بَـعْـدَه عـن كـلِّ شَـيِّءِ

ثم ساق تعالى الأدلة والبراهين على وحدانيته ووجوده فقال سبحانه ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي وعلامةٌ لهم على وحدانيتنا وكمال قدرتنا، الأرضُ اليابسة المجدبة، التي لا نبات فيها ولا زرع، فإذا أنزل الله عليها المطر، دبَّتْ فيها الحياة، فاهتزت وربت وأخرجت لهم النبات والثَّمر، أفليست هذه آية باهرة، على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى؟ إنهم يشاهدون الأرض مجدبة قاحلة، ثم يرونها حيَّة تنبت لهم أنواع الحبوب، التي منها يأكلون، وبها يتغذَّون ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ أي وجعلنا لهم في الأرض، بساتين ناضرة، وحدائق زاهية، فيها من أشجار العنب والنخيل، وجعلنا لهم فيها عيوناً وينابيع من الماء العذب، والأنهار السارحة التي تجري في البلدان، فنخرج لهم بواسطتها الفواكه والثمار، والورود والأزهار ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؟ أي ليأكلوا من ثمرات هذه الحدائق والجنات، مما أخرجه الله لهم فيها من أنواع الخيرات، وليس هذا بسعيهم وكدِّهم، ولا بحولهم وقوتهم، وإنما هو من فضل رحمة الله، أفلا يشكرون ربهم على هذه النعم؟ وقوله سبحانه ﴿وما عملته أيديهم﴾ نفيٌ، أي ليس خروج النبات والثمر، من عمل أيديهم، إنما هو خلق الله، كقوله سبحانه ﴿أفرأيتم ما تحرثون؟ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾؟ أي هل أنتم تنبتونه وتُخرجونه أم نحن المنبتون له؟ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾

تقدَّس وتنزَّه الله الخالق الحكيم، الذي خلق الأصناف كلها، ممَّا تخرجه الأرضُ من النخيل والأشجار، والزروع والثمار، ومن البشر الإناث والذكور، ومما لا يعلمونه من أنواع المخلوقات، التي بثَّها الله في هذا الكون الفسيح، تنزَّه أن يشابهه أحدٌ من الخلق!!

سبحان الله!! ما أبدع خلق الله، وما أعظم قدرته، وما أروع كلامه وبيانه!! لقد كان السائد في العصور السابقة، أن الزوجية «الذكورة والأنوثة» لا توجد إلاَّ بين الإنسان، والحيوان، وجاء العلم الحديث، فأثبت أن الزوجية كائنة في (النبات، والجماد، وسائر الموجود في الكائنات)، في النبات أعضاء مذكَّرة ومؤنثة، وفي الكهرباء «موجب» و«سالب» وحتى الذرة التي هي أصغر أجزاء المادة، فيها نوعان من الإشعاع «البروتون» و«الكترون» وكلٌّ منهما يشبه الذكر والأنثى، وهنا يظهر لنا جلال هذا الكتاب، المنزل على النبي الأمي، الذي أخبر عن هذه الحقائق العلمية، قبل أن يعرفها البشر حديثاً، حيث يقول ﴿**مما تنبت الأرضُ ومن أنفسهم ومما لا يعلمون**﴾ ويقول في آية أخرى ﴿**ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون**﴾ أليس هذا سبقاً لهذه العلوم والمكتشفات؟ ومن أين لهذا النبي الأمي، أن يعرف هذه الحقائق المدهشة، لولا أنه تنزيل العزيز الحميد؟ ﴿**وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ**﴾ أي وعلامةٌ أخرى لهم، على وحدانيتنا وكمال قدرتنا، (الليلُ والنهارُ)، يتعاقبان بنظام دقيق محكم، نُذهب عنه ضياء النهار، وننزعه منه، فإذا هم في ظلام حالك دامسٍ، والتعبير هنا ﴿**نسلخ منه النهار**﴾ جاء في غاية الجمال، والتصوير والإبداع البياني، فهو يصوِّر النهار، وكأنه لباسٌ ساتر، يلفُّ جسدَ الليل، فيغطِّي ظلمته، فإذا خلعنا الثوب عن الجسد، بدت ظلمة الليل الدامس، ولنوضِّح هذه الصورة الفنية البديعة، التي صوَّر القرآن بها الليل والنهار، صورة شاة لها لحمٌ، يستره جلدٌ جميلٌ لطيف، فإذا نزعنا الجلد عن الشاة، بدا فيها اللحم والجسدُ العاري، كذلك الليلُ والنهار، جسدٌ وعورة، سُتِرَ بلباسٍ كثيف من النور، فإذا نُزع الثوبُ وأُزيل، بدت ظلمةُ الليل الحالك، كعورة الجسد المكشوف، وهكذا الأرضِ تتزيَّن بالنهار بأبهى الحلل، ثم يُنزع عنها اللباس، فينسلخ النهار عن الليل، فإذا بالظلام يلفُّ الكون بشبح مخيف!! هذه هي الصورة الرائعة البديعة، التي صوَّرها القرآن الكريم ببيانه المعجز ﴿**نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون**﴾ فهل

وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ﴿٤٢﴾

باستطاعة البشر في كلماتٍ قلائل، أن يأتوا بمثل هذا الإبداع الفني؟ ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ أي والشمس تسير بقدرة الله القدير، وتسبح في هذا الفضاء الواسع، إلى وقتٍ حدَّده الله لها، هو «يوم القيامة» حيث ينطمس نورها، وتسكن حركتُها، وتُكوَّر وينتهي هذا العالم، وذلك علامة خراب الدنيا ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ أي ذلك السير والجريان بانتظام، وبحسابٍ رتيبٍ دقيق، هو تقدير الإله القاهر، العالم بمصالح العباد، الرحيم بهم ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ أي وآيةٌ لهم القمر قدَّرنا سيره في منازل هي «البروج» ينزل كل يوم في واحدٍ منها، يُولد (هلالاً)، ثم ينمو ليلة بعد ليلة، حتى يكتمل (بدراً ساطعاً) في منتصف الشهر، ثم يبدأ في النقصان، فإذا كان في آخر منازله، دقَّ واصفرَّ وتقوَّس، حتى يصبح كالعرجون، وهو غصنُ النخل اليابس، إذا يبس انحنى وتقوَّس، والتعبير هنا ﴿كالعرجون القديم﴾ بديع وعجيب، فالقمر في لياليه الأولى هلال، وفي لياليه الأخيرة هلال، ولكنه في بداية الشهر، يبدو كأنه (فتى)، فيه جمالٌ ونضارة، وفي آخر الشهر، يطلع وكأنه (كهلٌ هرم)، فيه شحوبٌ وذبول، كالعرجون القديم أي العتيق، إذا قدم وعتق، دقَّ وتقوَّس واصفرَّ ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ **قال مجاهد**: «أي لا يستر أحدُهما ضوءَ الآخر، ولا ينبغي له ذلك» رواه البخاري عنه، بمعنى أن الشمس لا تُذهب نور القمر، ولا القمر يطمس نور الشمس، وكلٌّ منهما يسير في انتظام، في مدارٍ له لا يتعدَّاه، وهذا التعبير يضفي عليها ـ وهي جمادات ـ صفة العقل والحكمة، فلم يقل تعالى: لا تدخل الشمس في مدار القمر، وإنما قال ﴿لا الشمسُ ينبغي لها أن تدرك القمر﴾ وكأنها عاقلة تجري وتسير بحكمةٍ واتزان، ولهذا ختم الآية بصيغة جمع العقلاء ﴿يسبحون﴾ وهي صورة بديعة، من صور الجمال الفنيِّ في القرآن ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ﴾ برهان ثالث على القدرة والوحدانية، أي وعلامةٌ لهم أيضاً على كمال قدرتنا، أننا حملنا آباءهم الأقدمين ـ يعني ذرية

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾

آدم ـ في سفينة نوح عليه السلام، المملوءة بالرجال، والحيوانات، والأرزاق، وهذا معنى ﴿المشحون﴾ يعني المملوء، وجعلنا لهم السفن التي يركبونها، من مثل سفينة نوح، وإنما نُسب الخلقُ إليه تعالى، لأنها بتعليم الله عزَّ وجلَّ، وتسخيره للبشر، والإشادة هنا بذكر السفن، للتذكير بنعمة الله على البشر، في تسخير البحر لهم!! فهذه (السُّفُن) الضخمة السابحة فوق سطح الماء، آية باهرة من آيات الله، فالماء سائل لطيف خفيف، تغوص فيه الحصاة، فكيف سارت هذه السفن الضخمة، التي تزن آلاف الأطنان، فوق سطح الماء؟ إنها قدرة الله، التي سيَّرت هذا الكون بنظام مضبوط ودقيق ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي لو أردنا لأغرقناهم في البحر، فلا مغيث لهم، ولا منقذ لهم من الغرق، إلاَّ من أجل رحمتنا بهم، وتمتيعنا لهم إلى نهاية آجالهم!! والصريخ في الآية: (المغيثُ)، أي لا ينقذهم أحدٌ إلاَّ نحن!! إن السفينة في البحر الخِضَمِّ، كالريشة في مهبِّ الهواء، إلاَّ تدركها رحمةُ الله، فهي هالكة في أيِّ لحظةٍ من ليلٍ أو نهار، والذين ركبوا البحار، وشاهدوا الأخطار، يدركون هول البحر المخيف، ويعرفون معنى رحمة الله، وأنه سبحانه هو المنجي لهم والمنقذ، في هذا الخِضمّ الهائل، فسبحان القدير الرحيم بالعباد!!﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لمَّا ذكَّرهم تعالى بدلائل قدرته، وآثار رحمته، أخبر هنا عن إعراضهم عن الهدى، مع كثرة الآيات الواضحة، والمعنى: وإذا قيل لهؤلاء المشركين: احذروا سخطَ الله وغضَبه، واعتبروا بما حلَّ بالسابقين قبلكم من العذاب، لكي يرحمكم الله، أعرضوا واستكبروا، ولم يلتفتوا إلى ذلك النصح والتذكير﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي وما تأتيهم معجزة من المعجزات الباهرة الساطعة، إلاَّ كذبوا بها، وجعلوها من قبول السحر، فلم يصدِّقوا بها﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ هذا من جملة سفاهة وحماقة

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾

المشركين، أنهم إذا دُعوا إلى إطعام الفقير والمسكين، قالوا على وجه السخرية والاستهزاء. أيفقره الله ونطعمه نحن؟ كان المشركون يهزءون ويقولون: إن كنتم تعتقدون بأن الله هو الرازق، فلمَ تطلبون منّا إطعامهم؟ لو شاء الله لأطعمهم، وما أنتم بهذا الاعتقاد إلا في ضلال واضح!! نزلت في «العاص بن وائل» كان إذا سأله مسكين، قال له: اذهبْ إلى ربك، فهو أولى مني بك، أيفقرك الله وأُطعمك أنا؟ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي متى يوم القيامة الذي تتوعدوننا به؟ ومتى يكون الحساب والجزاء؟ إن كنتم صادقين أن هناك جنةً وناراً، وحساباً وجزاء!! ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي ما ينتظر هؤلاء المجرمون المستهزئون، إلاَّ صيحةً واحدة من السماء، تُزهق أرواحهم، وهم في غفلة يتخاصمون ويتنازعون، كما ورد في صحيح البخاري (ولتقومنَّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما، فلا يَتَبَايَعَانه ولا يطويانه، ولتقومنَّ الساعة وقد رفع الرجل أُكلته - أي اللقمة - إلى فيه فلا يطعمها) **قال ابن كثير**: وهذه الصيحةُ نفخةُ الفَزَع، ينفخ إسرافيل في الصور، والناسُ في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم، ثم يُساقون إلى المحشر، والنارُ تحيط بهم من جوانبهم، ولهذا قال بعده ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي فلا يستطيع بعضهم وصيةَ بعضٍ بأمر من الأمور، ولا يستطيعون الرجوع إلى أهليهم ومنازلهم، لأن الأمر أسرع من ذلك، ثم تكون «نفخة الصعق» أي الموت التي يموت بها جميع الأحياء كلهم، ما عدا الحيِّ القيوم، ثم بعد ذلك «نفخة البعث» وهي النفخة الثالثة، ولهذا قال بعده ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ أي ونُفخ في الصور نفخة الإحياء، فإذا هؤلاء الأموات يخرجون من قبورهم، يسرعون المشي للحساب والجزاء، ومعنى ﴿ينسلون﴾ يُسرعون في الخروج، والنَّسْلُ: الإسراعُ في المشي، يخرجون مسرعين (بطريق الإجبار) لا الاختيار، والأجداثُ: جمعُ جَدَث وهو القبر، كما قال تعالى في آية أخرى ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصبٍ يوفضون﴾ يمضون إلى أرض الحشر،

قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾

وهم في فزع ودهشة ورعب، يتساءلون ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ أي يقولون: يا شقاءنا وهلاكنا من الذي أخرجنا من قبورنا؟ فتجيبهم الملائكة: هذا ما وعدكم الرحمن به، من البعث بعد الموت، وصدق رسلُ الله وأنبياؤه، فيما أخبروكم به عن الله ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ أي لم يكن في جمعهم تعبٌ ولا عناء، إنما هي صيحة واحدة، فإذا جميع الخلائق، حاضرون بين يدي أحكم الحاكمين للحساب والجزاء، وهذه صيحةُ إسرافيل عليه السلام بأمر الله عزَّ وجل، حين ينادي: أيتها الأعضاء المتمزقة، والشعور المتفرّقة، والأوصال المتقطعة، والعظامُ النخرة، إن الله يأمركنَّ أن تجتمعن لفصل القضاء، ثم ينفخ في الصور، فإذا هم حاضرون أمام ملك الملوك، ربِّ الأرباب ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي ففي هذا اليوم الرهيب، لا ظلم على أحد، بنقص ثواب، ولا زيادة عقاب، لأن الحاكم فيه هو ربُّ العزة والجلال، كما قال سبحانه ﴿**اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب**﴾ ويطوي السياق موقف الحساب، ويعجِّل البشارة للمؤمنين، بماأكرمهم الله به، من الخلد في جنان النعيم، فيقول سبحانه ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ أي إنهم اليوم في جنان النعيم، في البساتين الناضرة، والظلال الوارفة، والأنهار الجارية، وهم مع الحور في القصور، مشغولون بما هم فيه من النعيم، عن أصحاب الجحيم، ومعنى ﴿**فكهون**﴾ أي مسرورون معجبون، أما شغلُهم فهو شغلُ متعةٍ وهناء، يتلذَّذون بالحور الكواعب، وسماع الغناء والأوتار، **قال ابن عباس**: (شَغَلهم افتضاضُ الأبكار، وسماع الأوتار، عن أهاليهم من أهل النار، لئلا يُنَغَّصُوا) وفي الحديث الشريف (إن في الجنة لمجتمعاً للحور العين، يغنِّين بأصواتٍ لم يسمع الخلائق بمثلها، يقلن: نحن الخالدات فلا نَبيد ـ أي لا نموت ـ ونحن الناعماتُ فلا نبأس، ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا، وكنَّا له) رواه الترمذي، أي يا سعادة من كان من نصيبنا،

هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾

وكنّا من نصيبه ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ الأرائك جمع أريكة، وهي السريرُ المزيَّن باللآلىء والجواهر، والستور الحريرية، (كسرير العروس) من زوجات الملوك، أي أهل الجنة هم وزوجاتهم في ظلال الجنة الوارفة، حيث لا شمس فيها ولا زمهرير، وإنما هي أنوارٌ تتلألأ، وهم مضطجعون على السرر المزينة بالثياب والستور ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ أي لهم في الجنة أنواع الفواكه والثمار، مما تشتهيه نفوسهم، من كل ما لذَّ وطاب، ولهم فيها ﴿ما يدَّعون﴾ أي ما يتمنَّون ويشتهون، كما قال سبحانه **﴿يُطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون﴾** وهذا كلُّه من النعيم الجسدي، وهناك لهم نعيم روحي أيضاً، وهو سلام الله عليهم، وتلذذهم بالنظر إلى وجه الله الكريم، وهو أعظم نعيم أهلِ الجنة ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ أي لهم تحية وسلام، من رب العزة والجلال، يسلِّم الله عليهم، وتسلِّم عليهم الملائكة، تشريفاً لهم وتكريماً، وتهنئةً لهم بما نالوه من النعيم المقيم، وفي الحديث الشريف (بينا أهلُ الجنة في نعيمهم، إذْ سطع عليهم نور، فرفعوا رءوسهم، فإذا الربُّ جلَّ وعلا، قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلامُ عليكم يا أهل الجنة، وذلك قولُ الله عز وجل ﴿**سلام قولاً** من رب رحيم﴾ فينظر إليهم، وينظرون إليه، ولا يلتفتون إلى شيء من النعيم، ما داموا ينظرون إليه، حتى يحتجب عنهم، ويبقى نورُه وبركتُه عليهم في ديارهم) أي في قصورهم، رواه ابن ماجه ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ المعنى: انفصلوا وتميَّزوا يا معشر الكفرة المجرمين، عن عبادي المؤمنين المتقين، فلا ينبغي أن يكون المجرم، بجوار التقيِّ المسلم، انفصلوا عنهم ولا تخالطوهم، يُقال لهم هذا، عند الوقوف للسؤال والحساب ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾؟ أي يُقال للمجرمين توبيخاً وتقريعاً: ألم أوصكم وآمركم يا بني آدم، على لسان الرسل الكرام، بأن لا تطيعوا الشيطان، فيما دعاكم

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾

إليه من معصيتي؟ فهو لكم عدوٌّ ظاهر معلن العداوة؟ وأمرتكم بأن تعبدوني وحدي، ولا تشركوا معي أحداً، لأنه طريق السعادة لكم والفلاح؟ والمراد بعبادة الشيطان: طاعتُه فيما يغويه ويزيِّنه للبشر، من الكفر والعصيان، والمراد ببني آدم: (المجرمون)، لأنهم أعوان الشيطانُ ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾؟ أي ولقد أغوى الشيطان منكم خلائق كثيرين، وصدَّهم عن طاعة الله، حتى وقعوا في الكفر والعصيان، أفما كان لكم عقل يردعكم عن طاعته؟ والجِبلُّ بكسر الجيم: الأمةُ العظيمة، ثم بشَّرهم بما ينتظرهم من العذاب والهوان، فقال سبحانه ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي هذه نار جهنم، التي كان الرسل يتوعدونكم بها ذوقوا عذابها وبلاءها، بسبب كفركم وسخريتكم برسل الله، وهذا الأمر ﴿اصلوها﴾ أمرُ إهانةٍ وتحقير، مثل قوله تعالى ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ وأيُّ عزة وكرامة، لمن يُشوى بنار الجحيم؟ ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي ويوم القيامة نختم على أفواه الكفار الفجار، حتى لا يستطيعوا النطق بألسنتهم، وتنطق عليهم جوارحهم، أيديهم وأرجلهم، بما فعلوه من قبيح الأعمال، وذلك حين ينكرون ما ا جترحوه من الآثام، فضيحة لهم على رءوس الأشهاد، ويا له من خزي ومهانة!! **روى الطبري عن أبي موسى الأشعري أنه قال**: (يُدعى الكافرُ والمنافقُ يوم القيامة للحساب، فيعرض ربه عليه عمَله، فيجحده ويقول: أي ربِّ وعزَّتك لقد كتب عليَّ هذا المَلَكُ ما لم أعمل!! فيقول له المَلَكُ: أَمَا عملتَ كذا، في يوم كذا، في مكان كذا!؟ فيقول: لا وعزَّتك ربي ما عملته!! فإذا فعل ذلك، خُتم على فيه، وتكلَّمت أعضاؤه، ثم تلا ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم...﴾ الآية، رواه الطبراي، **وروى مسلم في صحيحه عن أنس قال** (كنا عند النبي ﷺ فضحك، ثم قال: هل تدرون ممَّ أضحك؟ قلنا: اللهُ ورسولُه أعلمُ!! قال: من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول يا رب: ألم تُجِرْني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول العبد: إني لا أجيز - أي لا أقبل - على نفسي إلاَّ شاهداً مني، فيقول تعالى له: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، وبالكرام الكاتبين - أي الملائكة - شهوداً!! فيُختم على فيه،

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾

ويقال لأركانه - أي أعضائه - انطقي، فتنطق بأعماله، ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعْداً لَكُنَّ وسُحقاً، فعنكنَّ كنتُ أناضل) رواه مسلم ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ أي لو شئنا لسلبنا أبصارهم وأعميناهم، فابتدروا طريقهم ذاهبين، فلم يهتدوا إليه، فكيف يبصرون وقد فقدوا حاسة البصر؟ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ المسخُ: تبديلُ الخلقة إلى جمادٍ، أو حَجَرٍ، أو بهيمة، أي لو نشاء لبدَّلنا صورهم الجميلة إلى صور قبيحة، فمسخناهم إلى قردة وخنازير، أو جعلناهم كأصنامهم حجارة صماء، لا تتحرك ولا تنطق، فلم يستطيعوا الذهاب ولا الإياب، فهلاً يتعظون؟ ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ هذا بيان لقدرته تعالى على مسخهم، **والمعنى**: ومن نُطل عمره، نجعله منتكساً في الخلق، فيصير كالطفل، ضعيف القوة، ضعيف العقل، ينسى كثيراً مما يسمع، ولا يكاد يعي الكلام، أفلا يعقلون أن من قدر على ذلك، قادر على إعمائهم ومسخهم؟ صوَّر تعالى لهؤلاء المشركين السفهاء صورتين، تليق بما هم عليه من السفاهة والاستهزاء:

الأولى: صورة العميان، يستبقون الطريق، وهم في سيرهم يتخبَّطون ويصطدم بعضهم ببعض، فكيف يصلون إلى غايتهم، وهم عميٌ لا يرون ما أمامهم؟

الثانية: صورة الإنسان الممسوخ، الذي مُسخ من صورة آدمية، إلى (صورة بهيمية)، فصار في هيئة القردة أو الخنازير، وسلب الله منه العقل والفهم، وهذا المشهد يثير السخرية والضحك، في كلا الصورتين، وشناعةُ ما في هذا التصوير والتمثيل، أن نتصور جَسَد إنسان برأس حمار، أو برأس خنزير، وهو يمشي على أربع، وصورة مجموعة من العميان، يتراكضون على غير بصيرة ورؤية، فيصطدم بعضهم ببعض، وينقلب بعضهم على بعض، مما يثير الضحك العميق ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي وما

لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

يعرف محمد الشعر، ولا يصحُّ ولا يليق به أن يكون شاعراً، لأن الشِّعر كلام موزون، ومثال مزخرف، مبنيٌّ على خيالات وأوهام، حتى قيل: «أعذبُ الشعر أكذبُه» فأين الشعر من كلام ربِّ العزة والجلال، الكبير المتعال؟ وما هذا الوحيُ المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين، إلا تذكير من الله لعباده، وقرآن ساطع قاطع ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي لينذر بهذا القرآن، من كان مؤمناً، حيَّ القلب، مستنير العقل، ويحقَّ العذابُ على الكافر لأنه كالميت، لا يعقل ولا يفهم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أي أولم ينظر هؤلاء نظر تفكر وتبصر، إلى قدرة الله العظيمة؟ في خلق هذه الأنعام، التي مَلَّكناها لهم، وسخَّرناها لمنافعهم، فمن هذه الأنعام ما يركبون عليه في الأسفار، كالإبل والجمال، ومنها ما يأكلون لحمه، كالبقر والغنم؟ ولهم فيها منافع عديدة - غير الركوب والأكل - كالجلود، والأصواف، والأوبار، أفلا يشكرون ربهم على هذه النعم الجليلة؟ ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي وعبد المشركون أصناماً وأوثاناً، من الأشجار أو الأحجار، يطلبون منها نصرتهم، وهي لا تقدر على نصرة نفسها، فكيف تنصر غيرها؟ والمشركون كالجند والخدم لهذه الأصنام، يفدونها بالأموال والأرواح، وهي لا تسوق لهم خيراً، ولا تدفع عنهم شراً!! وهذا غايةُ السخافة والحماقة ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي لا تحزن يا محمد على تكذيبهم لك، فنحن نعلم ما يخفونه في صدورهم من العداء لك، وما يظهرونه من الطعن في القرآن وفي رسالتك.. وهذه الآية تسلية من الله عزَّ وجل لرسوله محمد ﷺ، ليصبر

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾

على تحمل الأذى حتى يأتيه الفرج ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي قال أحد صناديد قريش (أُبيُّ بن خلف) لقومه: ألا ترون إلى ما يقول محمد؟ يزعم أن الله يبعث الأموات!! واللاَّتِ والعُزَّى لأذهبنَّ إليه ولأخصمنَّه ـ أي أقيم عليه الحجة ـ فجاء بعظم بالٍ إلى النبي ﷺ فجعل يفتُّه بيده ويقول يا محمد: أتزعم أن الله يحيينا بعد أن نموت، ونصبح رفاتاً مثل هذه؟ وفتَّ العظم بين يديه، فتناثر ذرات، فقال له ﷺ: نعم يميتك الله، ثم يحييك ثم يدخلك جهنم!! فأنزل الله هذه الآية ﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة..﴾ الآية رواه الحاكم وابن جرير، والمعنى: أولم ينظر هذا المنكر للبعث، أنَّا خلقناهُ من شيءٍ مهين حقير، هو النُطفة (المنيّ) الخارج من مخرج النجاسة!؟ فإذا هو شديد الخصومة والجدال لربه، ينكر قدرته، ويكذِّب بالبعث بعد الموت؟ أفليس الذي قدر على خلقه من نطفة، قادر على أن يعيده للحياة مرة أخرى؟ وضرب لنا المثلَ بالعظم البالي الرميم، ونسي أننا أنشأناه من نطفةٍ قذرة، فأوجدناه بعد العدم؟ نسي خلقه العجيب، وأخذ يجادل ربه بالباطل، يقول: من يحيي هذه العظام؟ وهي باليةٌ أشدَّ البلى؟ وهي ذرات متفتتة متلاشية، لا جِلد لها، ولا لحم، ولا عصب؟ قل لهذا المنكر الجاحد: الأمر يسير، يَخْلُقها ويُحييها الذي أوجدها من العدم، وأبدع تكوينها، فخلقها أول مرة؟ فالقادر على البداءة، قادر على الإعادة ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ أي هذا الإله العظيم، هو الذي يخرج لكم النار من الشجر الأخضر، فإذا بكم من هذا الشجر الريَّان، تخرج لكم النارُ وتوقدون به الحطب.. وهذا الشجر معروف عند العرب يسمى «المرخ» و«العُفار» فقد أخرج الله الضدَّ من الضِدِّ!! ثم ختم الله السورة الكريمة بقوله ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ أي أوليس هذا الخالق المبدع العظيم، الذي خلق



إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

السموات وما فيها من النجوم والأفلاك، والأرض وما فيها من الجبال والبحار والأنهار، قادراً على أن يعيد البشر بعد موتهم وفنائهم؟ بلى إنه هو الخلاَّق، العليم بكل شيء ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إنها القدرة الباهرة التي تقول للشيء: كنْ فيكون أي احْدُثْ فيحدث، دون إمهالٍ ولا تأخير، وتنزَّه هذا الإلٰه الخالق الجليل، عن صفات العجز والنقص! وفي الآية برهان ساطع، على القدرة الإلهية، التي لا يُعجزها أمرٌ من الأمور، فإذا تعلَّقت إرادته بشيء من الأشياء، حَدَث عن غير توقف على زمن أو أسباب!

انتهى تفسير سورة يس

● ● ●

وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾

تفسير سورة الصافات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَٰرِقِ﴾ ابتدأت السورة الكريمة، بالقَسَم بطوائف من الملائكة الأطهار، المسبِّحين الله بالليل والنهار، على أن الإِله المعبود إلٰهٌ واحد، أي أُقسم لكم أيها الناسُ، بهذه المخلوقات العظيمة من الملائكة، الصافات أقدامها في الصلاة صفوفاً كصفوف المؤمنين، وبالملائكة التي تزجر السحاب وتسوقه إلى حيث شاء اللهُ، لإِغاثة العباد، وأقسم لكم بالملائكة التالين لآيات الله، المنزلة على رسله وأنبيائه، أن إلٰهكم واحدٌ لا شريك له، فلا تعبدوا شيئاً من الأوثان والأصنام، وهذا الرب الجليل، هو ربُّ مشارق الشمس ومغاربها، **قال قتادة**: قال كفار مكة: كيف يَسَعُ الخلقَ كلَّهم إلٰهٌ واحد؟ فأقسمَ اللهُ لهم بالملائكة، على أن إلٰههم المستحقَّ للعبادة إلهٌ واحد، لا شبيه له، ولا مثيل، ولا نظير ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ أي زينا السماء الأولى القريبة منكم، بالكواكب المنيرة المضيئة، التي تبدو وكأنها جواهر تتلألأ ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ أي وللحفظ من كل شيطان خارج عن الطاعة، متمرد على ربه، والماردُ: أخبثُ الجنِّ وأشرسه، فإِذا أراد أن يسترق السمع، أتاه شهاب ثاقبٌ فأحرقه ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي لئلا يسمعوا إلى الملائكة الذين هم في السموات العلى، وإِذا أراد الجنيُّ أن يستمع، رُجم بالشهب من كل جهة، طرداً له عن السماع، ولهذا قال ﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي طرداً له مع الإِهانة، ولهم في الآخرة عذاب موصول

إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾

لا ينقطع ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أي إلاً من اختلس منهم شيئاً من كلام الملائكة، فإنه يلحقه شهاب مضيء، نافذ بشعاعه، فأحرقه حرقاً، وقد جاء في الحديث الصحيح (أن الجنَّ يركب بعضهم على بعض، حتى يصلوا إلى السماء، فإذا قضى الله الأمر في السماء، تحدثت به الملائكة، فيسمعه منهم ذلك الشيطان الأدنى، فيلقيه إلى الذي تحته، فربما لحقه الشهاب فأحرقه، وبما ألقاها إليه قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فتنزل تلك الكلمة إلى الكاهن، فيخبر بها الناس، فيصدِّق بها الجاهلون) رواه البخاري والترمذي، فلما جاء الإسلام، حُرست السماء بشدة، فلم يُفلت شيطان من (الشهاب المحرق) وليست هذه الشهب هي النجومُ نفسُها، وإنما هي شعلةٌ من نار، تنفصل من هذه الكواكب، ولهذا جاء وصفها بالشهاب الثاقب ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ أي اسأل يا أيها الرسول، هؤلاء المنكرين للبعث: هل هم أقوى بنيةً، وأشدُّ خلقاً، أم السمواتُ والأرضُ، وما بينهما من الملائكة والمخلوقات العجيبة؟ إنا خلقناهم من طينٍ لزجٍ، يلتصق بعضه ببعض، وهذا دليل ضعفهم، فمن أين استنكروا أن يُخلقوا بعد الموت؟ ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ﴾ أي بل عجبتَ يا محمد من تكذيبهم للبعث، مع رؤيتهم آثار قدرة الله الباهرة، وهم يسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث، وإذا وُعِظوا بالقرآن وخُوِّفوا، لا يتعظون ولا يتدبرون!! ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ أي وإذا رأوا معجزة من المعجزات الباهرة، تدل على صدقك، كانشقاق القمر، وتكليم الشجر والحجر، يبالغون في السخرية والاستهزاء ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾؟ أي وقال المشركون السفهاء: ما هذا الذي جئتنا به يا محمد، إلا سحرٌ واضحٌ بيِّن، هل إذا أصبحت أجسادنا بالية، وتفتَّتْ أجزاؤها إلى تراب وعظام؟ هل سنبعث؟ ونعود إلى الحياة مرة أخرى، نحن وآباؤنا الأقدمون؟ ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أي قل لهم:

فَإِنَّمَا هِىَ زَجۡرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٨﴾

نعم ستُبعثون، وأنتم أذلاء صاغرون ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجۡرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ﴾ أي ما هي إلا نفخة واحدة، ينفخ فيها «إسرافيل» في الصور، فإذا هم في أرض المحشر، قيام ينظرون، عادوا أحياء بعد الممات ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ أي قالوا: يا هلاكنا ويا خسارتنا هذا يوم الجزاء والحساب، الذي نجازى به بأعمالنا، فتقول لهم الملائكة على وجه التوبيخ والتقريع ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي هذا يوم الفصل بين الخلائق، الذي كنتم تنكرونه وتكذبون به!! ثمَّ يوجِّه الأمر إلى الملائكة، فيقول سبحانه لهم ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي اجمعوا الظالمين الفجرة الذين أشركوا بالله ﴿وأزواجهم﴾ أي أشباههم من العصاة المجرمين، كلَّ واحدٍ مع نظيره، الزاني مع الزاني، والسارق مع السارق، وشارب الخمر مع شارب الخمر، وما كانوا يعبدونه من الأصنام والأوثان، فعرِّفوهم طريق جهنم، وأرشدوهم إليه، وفي لفظ ﴿فاهدوهم﴾ تهكمٌ وسخرية بهم، جزاء استهزائهم بآيات الله، فإذا لم يهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم، فليهتدوا اليوم إلى طريق الجحيم ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ﴾ أي احبسوهم في الموقف عند طريق الجحيم، لأنهم سيسألون عن جرائمهم، ويُقال لهم بطريق التوبيخ: مالكم لا ينصر بعضكم بعضاً؟ كما كنتم في الدنيا تقولون ﴿نحن جميع منتصر﴾؟ بل هم اليوم أذلاء، خاضعون مستسلمون، لحكم رب العزة والجلال!! قد أحاط بهم الذل من كل جانب، فلا شافع لهم ولا ناصر!! ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي وأقبل الرؤساء والأتباع، يتلاومون ويتخاصمون، ويلعن بعضهم بعضاً ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي قال الأتباع للرؤساء: إنكم كنتم تغوننا وتحملوننا على الكفر والضلالة، بطريق القوة، لأننا كنا أذلاء وكنتم أعزاء، فأنتم سبب ضلالنا!! كنتم تأتونا من جهة الحقِّ

قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾

والدِّين، فتلبّسوه علينا!! ﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ أي قال الرؤساء للأتباع: لسنا نحن الذين أغويناكم، بل أنتم أنفسكم كنتم ضالين، تكرهون الإيمان، وتحبون الكفر والعصيان!! ولم يكن لنا عليكم سلطة وقوة، حتى نجبركم على متابعتنا، بل كان فيكم فجور وطغيان، ولذلك تركتم الحقَّ، واستجبتم لنا فاتبعتمونا ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ أي ثبت علينا عذاب الله، فنحن جميعاً ذائقون هذا العذاب، فقد كنا طغاة مجرمين، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم!! وينقطع هنا التخاصم والجدال، ويأتي الحكم الفصلُ من جبار السموات والأرض ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي إنهم اليوم مشتركون في العذاب، كما كانوا مشتركين في الضلالة، الجميع في نار جهنم، (القادة والأتباع)، أما سبب هذا العذاب، فهو أنهم كانوا يتكبَّرون عن قول (لا إله إلا الله) ويعظم عليهم أن يتركوا عبادة الأحجار والأوثان ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ أي ويقولون عندما يُدعَوْن إلى التوحيد: هل نترك عبادة الأوثان، لقول شاعرٍ مجنون؟ يعنون بذلك خاتم الأنبياء ﷺ، قاتلهم الله أنى يؤفكون!؟ قال تعالى ردّاً عليهم ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي ليس الأمر كما يزعمون، بل جاءهم محمد بالتوحيد الصافي، والنور الساطع المبين، الذي هو الحقُّ القاطع، الذي أجمع عليه الرسل، فأين الشعرُ والجنونُ، من ساحته ﷺ العالية الرفيعة؟ لقد اتهموه بالشعر والجنون، وحقاً إنها لتهمة فظيعةٌ شنيعة، في حقِّ من أرسله الله رحمة للعالمين!! ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي إنكم أيها الكفار الفجار، لمعذَّبون أشدَّ العذاب الأليم، في نار الجحيم، ولا تعاقبون إلا

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾

جزاءً عادلاً، مناسباً لعملكم القبيح، الذي كنتم تعملونه في الدنيا.. وبعد أن حكى عقاب الأشقياء الفجار، حكى ثواب المؤمنين الأبرار، فقال سبحانه ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أي لكنَّ عباد الله، المؤمنين المتقين، لا يذوقون العذاب، ولا يُناقشون الحساب، بل هم في رياض الجنة، يتمتعون بكل ما تشتهيه النفس، من الفواكه والثمار، ومن كل ما لذَّ وطاب، من الرزق الكريم الذي منحهم الله إياه، كما قال سبحانه ﴿**وفاكهة مما يتخيرون. ولحم طير مما يشتهون**﴾ وهم معزَّزون مكرَّمون، على سرر متقابلين، ينظر بعضهم إلى وجوه بعض، لدوام الأنس والسرور، تدور بهم الأسرة كيف شاءوا، أمَّا شرابهم فقد أخبر تعالى عنه بقوله ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي يطوف عليهم خدمُ الجنة، بكؤوس الخمر، من نهر جارٍ، يجري من عيون الجنة، كما تجري الأنهار، كما قال سبحانه ﴿**وأنهار من خمر لذةٍ للشاربين**﴾ هذه الخمر بيضاء، لونُها أشدُّ بياضاً من الحليب، يلتذُّ بها من شربها!! **قال ابن عباس**: كلُّ كأسٍ ذُكرت في القرآن، فإنه يُراد بها الخمرُ، ومعنى (المعين): العينُ الجارية ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ أي ليست كخمر الدنيا في منظرها البشع الرديء، وليس فيها ما يغتالُ عقولهم فيسلبها، كما تفعل خمر الدنيا، ولا هم يسكرون بشربها، يقال: نَزَف الشارب: إذا ذهب عقلُه من السُّكر، **قال ابن عباس**: في الخمر أربع خصالٍ: (السُّكرُ، والصُّداعُ، والقيءُ، والبولُ)، فذكر الله خمر الجنة، ونزَّهها عن هذه الخصال الرديئة» وبعد أن أخبر تعالى عن طعامهم، وشرابهم، وسررهم، أخبر عن نسائهم فقال سبحانه ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ أي وعندهم الحور العينُ الطاهرات العفيفات، اللواتي قصرن أعينهن على النظر إلى أزواجهن، فلا ينظرن إلى غيرهم، حياءً وعفة، ومعنى ﴿**عين**﴾ أي واسعات العيون، مع غاية الحسن والجمال.. روي أن المرأة تقول لزوجها: «وعزَّة ربي، ما أرى في الجنة أحسن منك، الحمد لله الذي جعلني زوجاً لك، وجعلك زوجاً لي»

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾

وقوله سبحانه ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ أي كأنهنَّ الجوهر المصون، واللؤلؤ المكنون في أصدافه، فهن مع ذلك الجمال الباهر، مصونات لم تدنسهن يدٌ، مع رقةٍ، ولطفٍ، ونعومة!! ثم أخبر تعالى عن حديث أهل الجنة، وهم على موائد الشراب، يتلّذذون بكل ممتع من الكلام والحديث، فقال سبحانه ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي جلسوا يتجاذبون أطراف الحديث، يتذاكرون نعيمهم في الجنة، ويتحدثون عما جرى لهم في الدنيا، فبينما هم في الحديث، وهم جلوس على السرر، والخَدمُ بين أيديهم يذهبون، ويجيئون، إذْ تذكّر أحدهم صاحباً له، كان في الدنيا فاجراً، كان يسخر منه ويهزأ، فيمضي يقصُّ عليهم قصته ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي قال قائل من أهل الجنة: إني كان لي في الدنيا جليسٌ وصديق، ينكر البعث، ويكذّب باليوم الآخر، وكان يساءلني في دهشة: هل أنت ممن يصدّق بأننا سنبعث بعد الموت، بعد أن نصبح تراباً وعظاماً؟ وهل إذا متنا وأصبحنا ذرات من التراب، ستعود لنا الحياة ونحاسب على أعمالنا؟ ومعنى ﴿مدينون﴾ محاسبون ومجزيُّون!! من الدِّين بمعنى الجزاء.. وبينما هو ماضٍ في حديثه، إذ خطر له أن يتفقد صاحبه وقرينه، ليعرف مصيره، ويخبره مَلَكٌ بأن قرينه في جهنم يُعذَّب، فينادي أصحابه إلى التطلع معه عليه ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ أي هل أنتم مطَّلعون معي إلى النار، لننظر كيف مصيرُ ذلك القرين؟ فنظر فأبصر صاحبه الكافر، في وسط جهنم، يتلظّى سعيرها، قال له المؤمن: والله لقد قاربتَ أن تهلكني بإغوائك، وتصدَّني عن دين الله!! ومعنى ﴿تردين﴾ أي تهلكني، من الردى وهو الهلاك ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي لولا فضلُ الله عليَّ بالهداية والعصمة، لكنت معذَّباً معك في الجحيم، ثم يخاطبه مستهزئاً به وساخراً، كما كان الكافر يستهزىء به في

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾

الدنيا فيقول له: هل أنت لا تزال على اعتقادك، بأننا لن نموت إلا موتة واحدة؟ وأنه لا بعث ولا جزاء، ولا حساب ولا عذاب؟ وهو أسلوب ساخر لاذع، يظهر فيه التشفِّي، من ذلك القرين الفاجر!! وإلى هنا ينتهي حديث المؤمن لجلسائه في الجنة، ويُعقِّب الله على هذه القصة بقوله ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ أي إن هذا النعيم الخالد الدائم، الذي أعطيه أهل الجنة، هو الفوز الحقيقي العظيم، الذي يسعد به الإنسان، ولمثل هذا الجزاء الكريم، يجب أن يتسابق المتسابقون، ويتنافس فيه المتنافسون، لا في حطام الدنيا الزائل، ولذلك قال تعالى بعده ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ النُّزل في اللغة: الضيافة والتكرمة التي تقدم للضيف، والأسلوب هنا واردٌ على وجه (التهكم والاستهزاء)، والمعنى: هل ذلك النعيمُ الخالد لأهل الجنة، وما فيها من الفواكه والثمار، والأشجار والأنهار، والحور والظلال، خيرٌ كرامة وضيافة؟ أم ضيافة أهل الجحيم، وهو الشوكُ والزقوم، الذي هو طعام الكفار الفجار؟ ثم ذكر تعالى وصف هذه الشجرة الخبيثة، التي ستكون ضيافة أهل النار، يملئون منها البطون، فقال سبحانه ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي إن هذه الشجرة الخبيثة «الزقوم» ابتلاءً وامتحان للكفرة الفجار، وهي شجرة تنبتُ في قعر جهنم، ويتفرَّع منها أغصان، تحمل ثمراً كريه الطعم، كريه المنظر، ثمرها كأنه رءوس الشياطين، في القبح والبشاعة ﴿فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ أي فإن أهل النار لشدة جوعهم، مضطرون ومجبرون على الأكل من شجرة الزقوم، حتى تمتلىء منها بطونهم، فهي طعامهم وفاكهتهم، ثم إن لهم بعدما أصابهم العطشُ الشديد، لشراباً من دمٍ وصديد، ممزوجاً ومخلوطاً بماءٍ حار، قد بلغ أقصى غاية الحرارة، ثم إن

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾

مصيرهم إلى دركات الجحيم، كما قال سبحانه ﴿**من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد. يتجرعه ولا يكاد يُسيغه ويأتيه الموتُ من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ**﴾ أمّا الفتنةُ التي أشارت إليها الآية الكريمة ﴿**إنا جعلناها فتنةً للظالمين**﴾ فهي ما قابل به المشركون كلام الله تعالى، بالسخرية والاستهزاء، فحين سمع كفار مكة ذكر «شجرة الزقوم» وأنها تَنْبُت في قعر جهنم، قالوا: كيف يكون في النار شجرة، والنارُ تحرق الشجر؟ فكانوا يضحكون ويسخرون، وكان أبو جهل - أخزاه الله - يقول لرؤساء قريش: إن محمداً يخوِّفنا بالزقوم، أتدرون ما هو الزقوم؟ إنه الزُبد والتمر، ثم يدخل بيته ويقول: يا جارية زقِّمينا!! فتأتيهم بالزبد والبلح، فيقول سخرية واستهزاءً: تزقَّموا فهذا ما يتوعَّدُكم به محمد، فكان ذكر هذه الشجرة فتنةً للناس، كما قال سبحانه عنها ﴿**وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن**﴾ وهي شجرةُ الزقوم، التي هي ضيافة الكفار في النار، ويا لها من ضيافة!! ويا لها من كرامة!! ثم ذكر تعالى سبب هذا البلاء والعذاب لهم فقال ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾أي إنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاقتدوا بهم، فهم يُسرعون في اقتفاء آثارهم، بدون عقلٍ ولا تفكير، وفي لفظ ﴿**يهرعون**﴾ ما يُشير إلى الطيش وخفة العقل، كمن يرى النار ملتهبة، فيسرع نحوها إسراعاً ليرمي نفسه فيها ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾أي ولقد ضلَّ قبل قومك يا محمد، أكثر الأمم السابقين، وقد أرسلنا إليهم رسلاً كثيرين، يخوِّفونهم عذاب الله، فتمادوا في كفرهم وضلالهم، فانظر كيف كان مصير الأمم المكذبين؟ ألم تكن نهايتُهم وخيمة؟ ألم نهلكهم إهلاكاً فظيعاً؟ والآية تسلية لرسول الله ﷺ، ببيان سنة الله في الأمم الماضية، فيمن كذبوا رسلهم، فكما أهلك الله الطغاة المفسدين، كذلك يهلك الله قومك الأشقياء المكذبين، وينجيك وأتباعك من كيدهم وشرِّهم ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾أي إلاَّ عباد الله، الذين اختارهم الله، وأخلصهم لطاعته وعبادته، فإنهم نجوا من ذلك العذاب. . ثم تمضي الآيات تذكر قصص بعض الرسل الكرام، وتبدأ بقصة «نوح» عليه السلام، في لمحةٍ سريعة خاطفة،

وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾

تذكر عاقبة قومه المكذبين ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ أي ولقد استغاث بنا نوح لمَّا كذبه قومه، فلنعم المجيبون نحن لدعائه وندائه، ونجيناه ومن آمن معه، من أهله وأتباعه، من الطوفان الذي عمَّ الأرض، وجعلنا ذرية نوح، الذين ركبوا معه في السفينة، هم الأحياء فقط، فجميع أهل الأرض من ذرية ركاب السفينة، ولهذا يسمى نوح «أبا البشر» الثاني بعد آدم، **قال ابن عباس**: أهل الأرض كلُّهم من ذرية نوح عليه السلام» ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وتركنا عليه ثناءً حسناً في جميع الأمم، يسلّمون عليه سلاماً عاطراً، باقياً إلى آخر الدهر، لجهاده وصبره وشدة يقينه بالله، وهكذا نجزي من أحسن العبادة، وأخلص عمله ودينه لله ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ أي أغرقنا جميع الكفار، الذين لم يؤمنوا بنوح عليه السلام، أغرقناهم بالطوفان، فلم يبق لهم ذكرٌ ولا أثر ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الشيعةُ: الأنصارُ والأعوان، أي وإن من أنصار نوح وأعوانه، وممن كان على منهجه وطريقته في الدعوة إلى الله، خليل الرحمن «إبراهيم» عليه السلام، حين جاء ربَّه بقلب نقيٍّ طاهر، خالصٍ من الشرك والشكّ، والتعبير بقوله ﴿بقلب سليم﴾ يوحي بجميع صفات النقاء والكمال، فهو قلب مؤمنٌ، نقيٌّ طاهر، سالم من الحقد والغل والحسد، والكبر والمكر والخُبث، لم تدنسه شهوات الحياة!! وكان بين نوح وإبراهيم (٢٦٤٠) أربعون وستمائة وألفا سنة، وإن بينهما نبيان كريمان، سابقان على إبراهيم، هما: «هود» و«صالح» عليهما السلام ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أي حين قال لأبيه «آزر» وقومه الوثنيين «عبدة الأصنام» ماهذا الذي

فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

تعبدونه من الحجارة والأوثان؟ أتريدون آلهة من دون الله، تعبدونها إفكاً وكذباً؟ وهي حجارة صماء بكماء، لا تضرُّ ولا تنفع؟ ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي فما هو تصوركم برب العزة والجلال أن يفعل بكم؟ هل تظنون أنه يترككم بلا عقاب ولا عذاب، وقد عبدتم غيره؟ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أوهمهم أن النجوم توحي إليه بالمرض، وقد كانوا يعتقدون بطوالع النجوم، لأنهم كانوا وثنيين، يعبدون الأوثان، ومنهم من كان يعبد الكواكب، وقال لهم: ﴿إني سقيم﴾ أي مريض، وأراد أنه مريض القلب من عبادتهم للأصنام، وليس هذا بكذب، وإنما هو من المعاريض الجائزة لمقصدٍ شرعي، وفي الحديث (إن في المعاريض لمندوحةً عن الكذب) رواه البخاري في الأدب المفرد، والطبراني، أي ما يغني عن الكذب ﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ أي فتركوه إعراضاً عنه، وخرجوا إلى عيدهم، فلما ذهبوا وتركوه ﴿فراغ إلى آلهتهم﴾ أي توجَّه نحو الأصنام في خفيةٍ وإسراع، فقال مخاطباً لها في تهكم وسخرية: ما لكم لا تأكلون من هذا الطعام الشهي؟ـ وكان قومه قد وضعوا أمامها أطايب الطعام ـ فلمَّا لم تجبه لأنها حجارة صمَّاء، زاد في تهكّمه وسخريته قائلاً: ما لكم لا تجيبوني على سؤالي؟ ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ أي فمالَ نحو الأصنام يحطِّمها بيمينه، بفأسٍ كان قد أحضره معه، مستخفياً عن القوم ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ أي أقبلوا نحوه مسرعين، كأن بعضهم يدفع بعضاً، فلما شاهدوا الأصنام مكسَّرة، قالوا: ويحك يا إبراهيم، نحن نعبدها وأنت تكسرها؟ فأجابهم موبِّخاً وساخراً ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي قال لهم: أتعبدون أصناماً نحتُّموها بأيديكم، وصنعتموها بأنفسكم؟ والله جلَّ وعلا خلقكم، وخلق أصنامكم التي تعبدونها، فكيف تعبدون المخلوق وتتركون الخالق؟ أليس لكم عقول تدركون بها فساد عملكم هذا؟ ومع وضوح الحق، وقوة الحجة والبرهان، فإن نفوسهم لم تتحمل أن ترى

قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾

الآلهة مهشَّمة، محطَّمة ملقاة في الأرض، فمالوا إلى الثأر، بالتنكيل والبطش بإبراهيم، وهو منطق الجبروت والطغيان، لا يفهم إلاَّ الحديد والنار، طريقاً لغلبة الخصم!! ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أي قالوا: ابنوا له مكاناً واسعاً، وأضرموه ناراً، ثم ألقوه في تلك النار الشديدة المستعرة، انتصاراً لآلهتكم، ففعلوا، وأرادوا الشرَّ بإبراهيم، فجعلناهم الأذلين، وأنجيناه منها، وجعلناها برداً وسلاماً عليه، وهكذا ردَّ الله كيدهم في نحورهم، وجعل خصومه الأخسرين ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ﴾ أي قال سيدنا إبراهيم: إني مهاجر من بلد قومي، إلى حيث أمرني ربي، طالباً رضاه، وسيهديني الله إلى ما فيه صلاح ديني ودنياي!! وكان إبراهيم وحيداً، وليس له من الأولاد من يؤانسه في غربته، فلهذا قال: ﴿رب هب لي من الصالحين﴾ أي ارزقني غلاماً تقياً، كاملاً في التقوى والصلاح، يعينني على الدعوة والعبادة، قال تعالى ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ أي فاستجبنا دعاءه، وبشرناه بغلام يكون حليماً في كبره، وهو «إسماعيل» عليه السلام، جمع الله له فيه بشارات ثلاث: **الأول**: أن المولود سيكون غلاماً، **الثاني**: أنه سيبلغ سنَّ الرشد، **الثالث**: أنه سيكون عاقلاً حليماً، لأن الصغير لا يوصف بالحلم!! وأيُّ حلم يعادل حلمه، حين عَرَض عليه أبوه الذبح، فقال له: ﴿يا أبت افعلْ ما تُؤمر﴾؟ ثم يأتي دور الامتحان والابتلاء، للشيخ الكبير الوقور، ولولده الحليم الرشيد ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾؟ أي فلمَّا بلغ الغلامُ السنَّ، الذي يمكنه أن يسعى مع أبيه، في أشغاله وحوائجه ـ وهو سنُّ الثالثة عشرة من العمر كما قال المفسرون ـ قال له أبوه إبراهيم: يا بنيَّ إني أُمرت في المنام أن أذبحك، فانظر في الأمر ما رأيك فيه؟ **قال ابن كثير**: وإنما أعلم ابنه بذلك، ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجَلَده، وعزمه على طاعة الله وطاعة أبيه ﴿قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ لم يشاوره ليرجع إلى رأيه، ولكنْ

فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

ليعلم ما عنده، هل يصبر أم لا؟ فأجابه بأحسن جواب، قال له: نفِّذ يا أبتِ ما أُمرت به من ذبحي، فستجدني صابراً إن شاء الله تعالى، وهو جواب من أوتي الحلم والصبر، والرضا بقضاء الله تعالى ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ أي فلما استسلما ـ الأبُ والابنُ ـ لأمر الله، وصرعه على وجهه ليذبحه ﴿وتلّه للجبين﴾ أي أكبَّه على وجهه، ناديناه يا إبراهيم قد نفَّذت ما أُمرت به، وحصل المقصود من رؤياك، بإضجاعك ولدك للذبح، وهذا هو الامتحان البيِّن، الذي يتميَّز به المؤمن المخلص، عن ضعيف الإيمان!! ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وفدينا إسماعيلَ بكبش سمينٍ عظيم من الجنة، يُذبح فداءً عنه، يفدي به الله نبياً، من نسله سيِّد المرسلين ﷺ، وأبقينا على إبراهيم، ثناء حسناً عاطراً إلى يوم الدين، كذلك نجزي كلَّ من أحسن عمله، وآمن بالله حقَّ اليقين، وجعل الله لإبراهيم الذكر الحسن إلى يوم القيامة، فجميع أهل الأديان يعظِّمونه ويجلُّونه، ويجعلونه إماماً لهم يقتدون به، لأنه أب الأنبياء، وإمام الحنفاء، وقد شهد الله له بالإيمان والإحسان، وكفى بشهادة الله له شهادة!! ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ أي وبشرناه بغلام آخر، وهو «إسحاق» عليه السلام، والد يعقوب الذي ينتمي إليه بنو إسرائيل، ومن ذرية (إبراهيم وإسحاق)، من هو محسن لنفسه بالطاعة والإيمان، ومن هو ظالم لنفسه بالكفر والعصيان.. وقد دلَّت الآية دلالة تكاد تكون قاطعة، على أن الذبيح هو «إسماعيل» لا «إسحاق» كما يزعم اليهودُ، لأن الله تعالى بعد أن ذكر حادثة

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

«الذبيح» قال بعدها ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ فالبشارة كانت بعد تلك الحادثة، ولذلك أكرمه الله بغلام آخر، ثم إن القصة وقعت في مكة، وإسماعيل هو الذي نشأ وترعرع فيها، وأما «إسحاق» فلا يُعلم أنه قدم مكة في حال صغره ـ كما يقول الحافظ ابن كثير ـ فكيف يكون هو الذبيح؟ رُوي أن عمر بن عبد العزيز وهو خليفة، أرسل إلى رجل يهودي ـ كان قد أسلم وحسن إسلامه ـ وكان من أكابر علماء اليهود، فسأله الخليفة: أيُّ ابنيْ إبراهيم أُمر بذبحه؟ فقال له: «إسماعيلُ» واللهِ يا أمير المؤمنين، وإن يهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب، على أن يكون أباكم إسماعيل، هو الذي له هذا الفضل، فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه «إسحاق» لأن إسحاق أبوهم، وكلٌّ قد كان طيباً طاهراً، مطيعاً للهِ عزَّ وجلَّ» رواه ابن كثير عن محمد بن كعب القرظي ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ هذه هي القصة الثالثة في هذه السورة، ذكرها الله تعالى أيضاً بالإيجاز، لأن الغرض بيان نصرة الله للمؤمنين، وتدمير وإهلاك الظالمين، **والمعنى**: ولقد أنعمنا على (موسى) وأخيه (هارون)، بالنعم العظيمة الجليلة، ونجيناهما وقومهما من استعباد فرعون وبطشه وطغيانه، حيث كان يذبِّح أبناء بني إسرائيل، ونصرناهم على أعدائهم الأقباط، زبانية فرعون، فكانوا هم الغالبين المنصورين عليهم، وآتيناهما الكتاب الواضح الجليَّ، وهو (التوراة) أحد الكتب السماوية، وهديناهما الطريق السوي الذي لا عوج فيه ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي تركنا على موسى وهارون الثناء العاطر إلى يوم الدين، جزاء إحسانهما، وصدق إيمانهما، وتفانيهما في

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

تبليغ رسالة الله عزَّ وجل ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾. أي وإن إلياس أحد رسل الله الكرام، الذين أرسلهم الله لهداية البشر، وهو أحد رسل بني إسرائيل، من ذرية هارون عليه السلام، وقد أرسله الله إلى قوم في بلاد الشام، كانوا يعبدون صنماً اسمه (بعل) ولا تزال آثار مدينة «بعلبك» تدل على آثار هذه العبادة، إذ قال لقومه: ألاَ تخافون الله في عبادتكم غيره؟ أتعبدون هذا الصنم المسمَّى «بعلاً» وتتركون عبادة ربكم أحسن الخالقين؟ الذي خلقكم وخلق آباءكم الأقدمين؟ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي فكذبوا نبيَّهم «إلياس» فإنهم محضرون للعذاب يوم الحساب، إلاَّ عباد الله المؤمنين، فإنهم ناجون من عذاب الله ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وتركنا على «إلياس» الثناء العاطر في الأمم بعده، سلام منا على إلياس وأهله المؤمنين الطيبين ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ هذه هي القصة الخامسة، أي وإن «لوطاً» عليه السلام، أحد رسل الله الكرام، واذكر لقومك حين نجيناه وأهله وأتباعه المؤمنين، من العذاب الفظيع المدمِّر، إلاَّ امرأته فقد هلكت مع الهالكين، لعدم إيمانها بالله، ثم أهلكنا قومه أشدَّ الإهلاك، حيث قلبنا ديارهم، فجعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل، ولفظ ﴿دمرنا﴾ يشير إلى أشد أنواع الإهلاك وأفظعه، حيث قُلبت ديارهم، وأُمطروا بحجارة من السماء، نزلت عليهم كالمطر الزاخر ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ أي وإنكم لتمرون في أسفاركم على منازلهم، وتشاهدون آثار هلاكهم، ليلاً

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾

ونهاراً، وصباحاً ومساءً، ثم لا تعتبرون ولا تتعظون!! أفليس لكم عقول تدركون بها عاقبة الكفر والعصيان؟ نبَّه تعالى بقوله ﴿أفلا تعقلون﴾؟ أنَّ من لم يتعظ بغيره فهو مجنون ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ هذه هي القصة السادسة في هذه السورة، أي وإن يونس أحد الرسل الكرام، حين هرب من البلد، وذهب إلى السفينة المملوءة بالرجال والمتاع، ﴿فساهم﴾ أي قارع أهل السفينة، فكان من المغلوبين بالقرعة ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي فابتلعه حوت عظيم، وهو آتٍ بما يُلام عليه، لخروجه عن قومه بدون إذن ربه ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي فلولا أن يونس كان من الصالحين، الذاكرين الله كثيراً في حياتهم، لمكث في بطن الحوت إلى يوم القيامة، يوم البعث والنشور ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ أي أمرنا الحوت أن يلفظه إلى طرف البر وهو سقيم) أي عليل البدن، مما ناله من الكرب والضيق في بطن الحوت، قال عطاء: «أوحى الله إلى الحوت، إني قد جعلتُ بطنك سجناً له، ولم أجعله لك طعاماً» فلذلك بقي حيّاً لم ينقص منه شيء وأنبت الله عليه شجرة القرع تظلّله وتقيه حرَّ الشمس. وسببُ ابتلاع الحوت له أن (يونس) عليه السلام ضاق ذرعاً بتكذيب قومه له، فأنذرهم بعذاب من الله قريب، وغادرهم غاضباً عليهم لأنهم كذَّبوه، فقاده الغضبُ إلى شاطىء البحر، حيث ركب سفينةً مملوءة بالرجال، وحين كانوا في البحر، هاجت بهم الأمواج والرياح، حتى أشرفوا على الغرق، فقال الملاَّحون: ههنا عبدٌ آبق من سيِّده، ولا بدَّ لنجاتنا من إلقائه في البحر، فاقترعوا فخرجت القرعة على «يونس» عليه السلام، فألقوه في البحر، فالتقمه حوت عظيم بأمر الله، وتمت المعجزة، فقد أمر الله الحوت، أن لا يصيب من يونس لحماً، ولا يكسر له عظماً، فبقي في بطنه ثلاثة أيام، وهو حيٌّ يسبِّح الله ويستغفره، ثم ألقاه الحوت في الفضاء، وظلّله الله بشجرة غطّته بأوراقها، من الشمس، والذباب

وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾

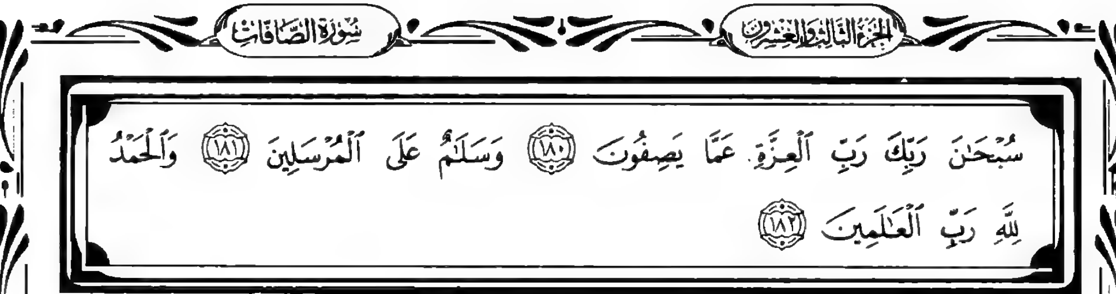
والبعوض ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي ولما استكمل صحته وعافيته، رددناه إلى قومه، الذين غادرهم غاضباً عليهم، وكانوا كثرةً كثيرة، هم في نظر الإنسان مائة ألف أو أكثر، وكانوا قد تابوا وآمنوا، بعد خروج نبيهم من بين أظهرهم، وتاب الله عليهم **﴿فآمنوا فمتعناهم إلى حين﴾** أي فآمنوا إيماناً صادقاً خالصاً، فمتعناهم بالحياة إلى وقت انتهاء أعمارهم، وهذه من خصائص قوم يونس، كما قال سبحانه **﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس﴾** لأن سنة الله في الأمم، إذا خرج نبيُّها عنها وغادرها، أن يهلكها ويفنيها بعذاب الاستئصال، أمَّا قوم يونس فلم يهلكهم الله، لأن نبيَّهم تركهم دون إذنٍ من الله، فلما آمنوا وتابوا، رحمهم الله وتاب عليهم ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ عاد الحديث عن المكذبين من أهل مكة، الذين زعموا أن الملائكة (بنات الله)، وقد شنَّع تعالى عليهم، وقبَّحهم على هذا الاعتقاد السخيف، **والمعنى**: سلْ يا محمد واستخبر، هؤلاء الكفار من أهل مكة: هل لله البنات ولهم البنون؟ إنهم يكرهون البنات، ولا يرضون نبستهنَّ إلى أنفسهم، فكيف يرضون نسبتهن إلى الله؟ هل اختار تعالى لنفسه البنات، واختار لهم البنين؟ **﴿ألكم الذكر وله الأنثى. تلك إذا قسمة ضيزى﴾**؟ أي قسمة ظالمة جائرة، ويسألهم هل كانوا حاضرين وشاهدين خلق الملائكة حين خلقهم الله؟ وهذا سخرية واستهزاء بهم، على زعمهم السخيف، أن الملائكة بنات الله، هل شهدوا خلقهم حتى يفتروا هذه الفرية الشنيعة؟ ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي إن المشركين من كذبهم وافترائهم، ينسبون إلى الله الذرية والولد، وهم كذبةٌ كفرةٌ فجرة، ثم أعقبه بتوبيخ لهم آخر فقال: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ أي هل اختار جلَّ وعلا لنفسه البنات، وفضلهنَّ على البنين؟

﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ (١٥٦) فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ (١٥٨) سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ (١٦٠) فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ (١٦١) مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ (١٦٦)﴾

بأيِّ منطق حكمتم بهذا الحكم الجائر؟ كيف يختار ـ على زعمكم ـ أخسَّ الجنسين في نظركم؟ أفليس لكم تمييز وإدراك، تعرفون به خطأ هذا الحكم والبهتان؟ ثم طالبهم تعالى بالحجة والبرهان فقال ﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؟ أي هل لكم برهان بيِّنٌ، وحُجَّةٌ واضحة، على أن الله اتخذ الملائكة بنات له؟ فأتونا بهذا الكتاب الذي يشهد بصحة دعواكم؟ وهذا توبيخ ثالث، والغرضُ من الآية تعجيزهم، وبيان أنهم لا يستندون في مزاعمهم الباطلة، على دليل شرعيٍّ، ولا منطق عقلي!! وينتقل الحديث إلى أسطورة أخرى لفَّقها المشركون، حيث زعموا أن هناك (صلة مصاهرة)، بين الله سبحانه وبين (الجن)، وأنه من التزاوج بين (الله) والجنِّ، وُلدت الملائكة، فهناك قرابة ومصاهرة بينهما ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾ أي جعل المشركون بين الله وبين الجنِّ قرابةً ونسباً، حيث قالوا: إنه نكح من الجن، فولدت له الملائكة ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ـ حيث زعموا أن الملائكة إناث، وأنهنَّ بنات الله!! وقد علمت الشياطينُ أنهم محضرون النَّارَ ومعذَّبون فيها، ولو كانوا منسوبين له تعالى لما عذَّبهم!! وهذا زيادة في تقريعهم وتوبيخهم ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ أي تنزَّه الله وتقدَّس، عما يصفه به هؤلاء السفهاء الظالمون ﴿إلاَّ عباد الله﴾ أي لكنَّ عباد الله المخلصين، ينزِّهون الله عمَّا يصفه به هؤلاء الضالون ﴿فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي فإنكم أيها المشركون، أنتم وأصنامكم، وكل ما تعبدونه من الجن والشياطين، لستم بقادرين أن تُضِلُّوا أحداً من عباد الله، إلاَّ من قضى الله عليه الشقاوة، وقدَّر أن يدخل النار ويصلاها.. ثم حكى تعالى عن الملائكة اعترافهم بالعبودية لله، فقال سبحانه ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾ أي وما منا مَلَكٌ، إلا وله وظيفة ومرتبة لا يتعدَّاها، فمنا الموكَّل بالوحي، ومنَّا الموكَّل بالأرزاق، والموكَّل بالأعمار، ونحن العابدون لله، الصافون في خدمته وطاعته،

وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾

والمسبِّحون لله عزَّ وجل آناء الليل وأطراف النهار، كما قال سبحانه عنهم ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ أي لا ينقطعون عن التسبيح، وهذا ردٌّ على زعم المشركين أنهم بنات الله ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي كان كفار مكة يقولون قبل بعثة النبي ﷺ: لو نزل علينا كتاب من كتب الأولين، (كالتوراة والإنجيل)، لكنَّا أعظم إيماناً من أهل الكتاب، وأسرع استجابةً منهم، وكنا نخلص العبادة والطاعة لله!! فلما جاءهم القرآن ـ وهو أعظم الكتب وأشرفها ـ كفروا به، واستهزءوا بمن أُنزل عليه، فسوف يعلمون عاقبة هذا التكذيب والسخرية ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أي سبق وعدنا وقضاؤنا للرسل الكرام، أنهم هم المنصورون على أعدائهم، وأن جندنا المؤمنين هم الغالبون والفائزون، في الدنيا بالحجة والبرهان، وفي الآخرة بدخول دار الجنان، والوعد الذي سبق هو قوله سبحانه ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله لقوي عزيز﴾ ثم سلَّى الله رسوله، عن تكذيب المشركين له فقال ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾؟ أي أعرضْ عنهم يا أيها الرسول، حتى نريك ما نفعل بهم، وانظر إلى ما ينالهم حينئذٍ من القتل والأسر، فسوف يعلمون عاقبة تكذيبهم واستهزائهم!! أفيستعجلون عذاب الله، وهو نازل بهم لا محالة؟ ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي فإذا نزل بهم عذابنا، فبئس هذا الصباح صباح المهلكين، فلا يستبعدوا ذلك، فإن العذاب إذا نزل لا يرفع، روي أن النبي ﷺ لمَّا حاصر خيبر ودخلها قال: (الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين) رواه البخاري ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ كرره تأكيداً للتهديد، وتسلية للرسول ﷺ، أي أعرض عنهم مدة يسيرة، وانتظر



ما يحدث لهم من العذاب العاجل ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي تنزَّه الله وتقدس عما يصفه به المشركون، وسلام عاطر من رب العزة والجلال، على رسله الكرام، والحمد لله رب العالمين في البدء والختام.. وفي الحديث الشريف: (من قال دُبُر كل صلاة ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين﴾ ثلاثَ مرات، فقد اكتال بالمكيال الأوفى من الأجر) «رواه الطبراني» ومعناه: نال الأجر الأكمل من الثواب.

انتهى تفسير سورة الصافات

● ● ●

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ

تفسير سورة صٓ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ ﴿صٓ﴾ الحروف المقطعة للإشارة إلى إعجاز القرآن، كما تقدم مراراً، أقسمَ تبارك وتعالى بالقرآن العظيم، ذي الشرف الرفيع، وذي الشأن والمكانة الجليلة، وجواب القسم محذوفٌ تقديره: أقسم بالقرآن إنه لكتابٌ معجز، وإن محمداً ﷺ لصادق، بل الكافرون في حمية وتكبر عن الإيمان، وفي خلاف وعداوة للرسول عليه السلام، ومعنى العِزَّة: التكبُر والامتناع عن قبول الحق، والشقاقُ: المخالفة والمعاداة، والمراد بالآية: أن كفرهم ليس عن جهل، بل عن استكبار وعناد ﴿كم أهلكنا﴾ أي وكثير من الأمم الطاغية قبلهم، أهلكناهم بأنواع العذاب، فاستغاثوا واستجاروا طلباً للنجاة ﴿ولات حين مناص﴾ (ولات) أصلها «لا» التي بمعنى ليس، وزيدت عليها التاء للتأكيد، والمناصُ: المنجا، والغوثُ، أي وليس الحينُ حينَ فرارٍ، ومهربٍ ونجاة!! ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أي وعجب المشركون من بعثة رسولٍ من البشر، واتهموا الرسول ﷺ بأنه ساحر، يُفرِّق بين الابن وأبيه، والأخ وأخيه، واتهموه بالكذب على الله فقالوا: ما محمد إلا ساحر، يكذب على الله في ادعائه أنه رسول الله ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ أي أزعم محمد أن الربَّ المعبود إلهٌ واحد، إن هذا لشيءٌ بليغ في العُجب، ولفظ «عُجاب» أبلغ من عجيب، لأن العُجابَ الذي لا مثل له ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ

ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾

﴿ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ أي انطلق أشراف مكة ورؤساء الضلالة فيهم، يقول بعضهم لبعض: اصبروا على عبادة آلهتكم، واثبتوا عليها، فإنه هذا أمر مدبَّرٌ من محمد، ومكيدة منه لصرفنا عن عبادة آلهتنا، لتكون له العزة والسيادة علينا!! ما سمعنا بمثل هذا القول في الملَّة النصرانية التي هي آخرُ الملل، فإنهم يقولون بالتثليث لا بالتوحيد، وما هذا الذي يدعيه محمد، إلا كذبٌ اختلقه من عند نفسه، **قال ابن عباس**: يعنون بالملَّة الآخرة «النصرانية» قالوا: لو كان هذا القرآن حقاً لأخبرتنا به النصارى.. روي أن قريشاً اجتمعوا، وذهبوا إلى «أبي طالب» فقالوا يا أبا طالب: كفَّ عنَّا ابن أخيك، فإنه يعيب ديننا، ويُسفِّه أحلامنا، ويذمُّ آلهتنا!! فأرسل رسولُ الله يطلبه إليه، فلما حضر قال له: يا ابنَ أخي ما بالُ قومك يشكونك؟ يزعمون أنك تشتم آلهتهم، وتسفّه أحلامهم!! فقال يا عم: أريد منهم كلمةً واحدةً؟ كلمةً يملكون بها العَجَم، وتدينُ لهم بها العربُ، فقال له أبو جهل: وأبيكَ نعطيكها وعشراً معها!! فقال لهم ﷺ: قولوا (لا إله إلا الله) فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، ويقولون ﴿أجعل الآلهة إلٰهاً واحداً إن هذا لشيء عُجاب﴾؟ فنزلت هذه الآيات! ثم قالوا منكرين عليه الرسالة والوحي، انتقاصاً لقدره ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ أي هل تنزَّل القرآن على محمد دوننا؟ ونحن رؤساء الناس وأشرافهم، وفينا الأغنياء والكبراء؟ قال تعالى تسفيهاً لهم ﴿بل هم في شك من ذكري﴾ أي ليس إنكارهم للمعجزة الكبرى «القرآن» عن جهلٍ منهم بمصدره، بل عن سَفَهٍ وحسد، بل لمَّا يذوقوا عذابي إلى الآن، ولو ذاقوه لعرفوا طريق الحق والإيمان ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾؟ أي هل عندهم خزائن رحمة الله تعالى، حتى يعطوا النبوة من شاءوا، ويمنعوها عمن شاءوا؟ وهو تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وليس للمال والشرف والجاه دخلٌ في ذلك!! فهو تعالى ﴿العزيز﴾ أي الغالب الذي لا يُغلب ﴿الوهاب﴾ الذي يهب النبوة لمن يشاء ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾؟ أي هل لهم شيء من ملك السموات والأرض؟ إن كان لهم شيء

جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٌ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٍ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٦﴾

فلْيصعدوا في المراقي والمصاعد، التي توصلهم إلى السماء، وليدبِّروا شئون الكون، وينزلوا الوحي على من شاءوا!؟ وهي سخرية بهم وتهكمٌ، بلغ الغاية القُصوى في التوبيخ ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٌ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ أي ما هم إلاَّ جندٌ من الكفار حقير، تحزَّبوا على رسل الله، ليطفئوا نور الله، وعمَّا قريب سيهزمون ويولُّون الأدبار، فلا تكترث بهم ولا تُبال بما يقولون، فإنهم يهرفون بما لا يعرفون!! ثم ضرب تعالى لهم المثل بالأمم الطاغية قبلهم، تحذيراً لهم وإنذاراً، وتسليةً لخاتم الأنبياء والمرسلين، فقال سبحانه: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٍ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ أي كذَّب قبل كفار قريش أمم كثيرون، منهم قوم نوح، وقوم هود، وفرعون الجبار ﴿ذو الأوتاد﴾ أي ذو الملك الثابت، والمباني الضخمة العظيمة، ومنها «الإهرامات» ومنهم قوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب (أصحاب الأيكة) أي الشجر الكثيف الملتف، هؤلاء الأشقياء الفجار، الذين تحزَّبوا على حرب رسلهم، ماذا حلَّ بهم؟ لقد هلكوا وبادوا ولم يبق عنهم إلاَّ آثار أو أخبار، تنطق بهلاكهم ودمارهم ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي ما كلٌّ من هؤلاء، الذين كذَّبوا رسلهم، إلاَّ ثبت عليهم، ونزل بهم عقابي ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي وما ينتظر هؤلاء المكذبون من قومك، إلا صيحةً واحدة تُزهق أرواحهم، لا تتأخر إلا فترة يسيرة من الزمان، بمقدار ما بين الحلبتين من الوقت، حيثُ تُحلب الناقة ثم تُترك دقائق بحيث يرضعها الفصيلُ لإدرار اللبن، ثم تحلب ثانية، يعني إذا جاء العذاب، لم يستحمل إلاَّ برهةً قصيرة من الزمن ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي قال الأشقياء الفجار من أهل مكة، بطريق الاستهزاء والسخرية: يا ربنا عجِّل لنا حظَّنا ونصيبنا من العذاب، والقطُّ: الحظُّ والنصيبُ، ولا تؤخره إلى يوم القيامة!! قال

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾

تعالى مسلياً رسوله ﷺ: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي اصبر يا محمد على سفاهة هؤلاء الأشرار، وتذكَّرْ عبدنا داود، ذلك النبيَّ الصابر الشاكر ﴿ذا الأيد﴾ أي ذا القوة في الدين، والعبادة والطاعة، الذي كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ويحيي نصف الليل بالعبادة، مع ما منحه الله من النبوة والملك، فقد آتاه الله قلباً ذاكراً، ولساناً شاكراً، وصوتاً رخيماً يتلو به الزبور، ومع أنه كان ملِكاً، فقد كان أوَّاباً أي رجَّاعاً إلى مرضاة الله بالتسبيح والتقديس ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي سخرنا له الجبال تُسبِّح بتسبيحه، في المساء والصباح، وتسبيحُ الجبال حقيقة واقعية، كان معجزةً لداود عليه السلام، والطيور كذلك مجموعةً له، إذا سمعته يترنَّم بقراءة الزبور، تقف في الهواء وتسبح معه، كلٌّ من الجبال والطيور، يُسبِّح الله معه ويعظِّمه، وهو مطيع له ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ أي وقوَّينا ملكه بكثرة الرجال والجنود، وأعطيناه الحكمة في القضاء، والإصابة في الأمور، والبيان الواضح، ومع هذه الخصائص، والمعجزات التي خصَّه الله بها، فقد تعرَّض للفتنة والإبتلاء، فاصبر يا محمد كما صبر، فالحياة كلُّها امتحانٌ وابتلاء!! ثم ذكر تعالى طرفاً من الامتحان الذي جرى لداود فقال ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾؟ أي وهل جاءك يا محمد خبر الجماعة المتنازعين، الذين عَلَوْا على داود في معبده، وهو مشتغل بالعبادة والطاعة؟ والأسلوب أسلوب تعجيب وتشويق لسماع قصته وخبره، كما يقول الإنسان لآخر: هل تدري ما حدث اليوم؟ يريد بذلك لفت انتباهه لاستماع الخبر ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي حين دخلوا على داود من أعلى السور، فخاف وفزع منهم، لأنهم دخلوا عليه من غير إذن، ثم تسوَّروا عليه المحراب، في مكان خلوته وعبادته، ولم يدخلوا من الباب، فلذلك فزع منهم، وبادروا إلى تطمينه فقالوا له: لا تخف فنحن

فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾

شخصان متخاصمان، تعدَّى بعضنا على بعض ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي فاحكم بيننا بالعدل والإنصاف، ولا تَجُر ولا تظلم في الحكومة، وأرشدنا إلى طريق الحق المستقيم، يعني طريق العدل في الحكم!! ثم شرع أحدهما يذكر له خصومته فقال ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ أي إن صاحبي هذا يملك تسعة وتسعين شاة من الضأن، وأنا أملك شاةً واحدة، ليس عندي غيرُها، فقال لي: ملِّكنيها واجعلها تحت كفالتي ﴿وعزَّني في الخطاب﴾ أي غلبني في الخصومة، وشدَّد عليَّ في القول وأغلظ ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي قال داود: لقد ظلمك صاحبك بهذا الطلب، حين أراد انتزاع نعجتك منك، ليكمِّل بها المائة، مع أن له قطيعاً من النعاج، وإن الكثيرين من الخلطاء أي الشركاء، ليتعدى بعضهم على بعض، غير مراعين الصحبة وحقوق الشركة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي إلا المؤمنين المتقين، فإنهم يجتنبون البغي والعدوان، وهم قليل بين الناس، و«ما» مزيدة للتأكيد والتعجب من قلَّتهم ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ أي وعلم داود أننا اختبرناه بهذه الحكومة، وامتحنَّاه بها، فطلب المغفرة من ربه، وخرَّ ساجداً لله تعالى، ورجع عمَّا عزم عليه من الانتقام منهما، لأنه ظنَّ أنهما يريدان اغتياله، والإنابةُ: الرجوع إلى الله بالندم والتوبة ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي غفرنا له تلك الزلة، وإن له عندنا المكانة الرفيعة، وحسن المرجع والمصير في الآخرة.. وهنا نقطة خطيرة ينبغي أن يتنبَّه لها المسلم، وهي ما حكاه بعضُ القُصَّاص، المولعين بالأخبار الإسرائيلية المكذوبة، أن «داود» عليه السلام عشق امرأة أحد القادة في جيشه وهو «أوريا»

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾

فجعله في مقدمة الجيش ليتخلَّص منه، وكان عند داود زوجات كثيرات، فلما قُتل القائد تزوج بزوجته، فعاتبه الله على ذلك، فأرسل الله إليه شخصين يتحاكمان عنده، بما قصَّه علينا القرآن الكريم. . وكلُّ هذه الأخبار من اختراع اليهود الخبثاء، تناقلها عنهم بعضُ المغفَّلين من غير تحقيق ولا تثبت، وهي قصة مكذوبة باطلة، لو نُسبت إلى أفسق الناس لتبرَّأ منها، والرجل الخبيثُ الذي يروي هذه القصة، لو نُسب إليه مثلُ هذا العمل، لبالغ في تنزيه نفسه عنه، ولعن من نسبه إليه، فكيف يليق بالعاقل نسبة هذا الإفك، إلى نبيٍّ كريم من الأنبياء، أَمَر اللَّهُ أفضل خلقه محمداً ﷺ بأن يقتدي به في مكارم الأخلاق!؟ ونحن نوقن بأن التوراة محرَّفة، فلا يصح رواية مثل هذه الأخبار، ولهذا قال عليٌّ رضي الله عنه (من حدَّث بحديث داود كما يرويه القُصَّاصُ، جلدتُه مائةً وستين جلدة، وتلك هي حدُّ الفرية على الأنبياء) يريد أن من قذف محصناً عفيفاً، فحدُّه الجلد ثمانين جلدة، ومن قذف (داود) عليه السلام ضعِّف له العقوبة، لأنه حدُّ الافتراء على النبي، أما حقيقة القصة، فهي ما ذكره أئمة المحققين من المفسرين، وهي: أن داودعليه السلام، كان يخصص بعض وقته لتصريف أمور المُلك، وللقضاء بين الناس، ويخصِّصُ أياماً للخلوة والعبادة، وكان إذا دخل المحراب، لم يأذن لأحدٍ بالدخول عليه، وذات يوم بينا هو في محرابه يتعبد ربه، إذ فوجىء بشخصين، يتَسلَّقانِ السور يريدان الدخول عليه، ففزع منهما، وقرَّر في نفسه البطش بهما، فأخبراه أنهما خصمان تنازعا في أمرٍ بينهما، وبدأ أحدهما فعرض خصومته .كما قصَّها القرآن . والقضية في ظاهرها تحمل ظلماً صارخاً، لا يحتمل الجدل والمناقشة، واندفع (داود) عليه السلام يقضي له في تلك المظلمة، ولم يوجِّه للخصم الآخر سؤالاً، بل أصدر حكمه العاجل ﴿**لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه**﴾ فعاتبه الله على ذلك، ونبَّهه إلى ضرورة تثبُّت القاضي، وضرورة سماع (قول الخصمين)، قبل إصدار الحكم، ولهذا جاء بعد هذه القصة قوله سبحانه ﴿**فاحكم بين الناس بالحقِّ ولا تتبع الهوى**﴾ وذلك ليكون درساً للحكام، والقضاة في كل حين وزمان، **قال في البحر المحيط**: والذي يدلُّ عليه ظاهر الآية، أن المتسورين كانوا من الإنس، ودخلوا عليه من غير المدخل، وفي غير وقت جلوسه للحكم، وظنَّ أنهم يغتالونه إذ كان منفرداً في محرابه، مستغرقاً في عبادة ربه، فلما اتضح له أنهم جاءوا في خصومة استغفر ربه من ذلك الظن، وخرَّ ساجداً لله عز وجل، قال: ونحن نعلم أن الأنبياء معصومون من الخطايا. اهـ بإيجاز، ثم قال تعالى ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ

فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾

فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي لقد استخلفناك في الأرض على العباد، فاحكم بينهم بالعدل، وبشرع الله المنزل عليك، ولا تتبع هوى النفس في الحكومات، فيكون ذلك سبباً لضلالك. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي إن الذين ينحرفون عن دين الله، ولا يقيمون العدل بين الخلق، لهم عذاب شديد في الآخرة، بسبب نسيانهم اليوم العصيب يوم «الحشر الأكبر» ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي وما خلقنا هذا الكون البديع، بما فيه من المخلوقات العجيبة، للعبث دون فائدة أو مصلحة!! ذلك هو ظنُّ الكفار الفجار، الذين لا يعتقدون بالله ولا بلقائه، ولا يؤمنون بالحساب والجزاء، فويل لهم من عذاب الله الشديد!! ثم أقام تعالى البرهان على ضرورة مجيء الآخرة، لتحقيق العدل بين الخلق فقال سبحانه ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ أي هل من العدل والحكمة، أن نساوي بين المؤمن والكافر، والبرِّ والفاجر؟ وهل يتساوى في ميزان العدالة الأبرار والفجار؟ والمفسدون والمصلحون؟ فلو بطل وجود الآخرة ـ كما يزعم الكفار ـ لاستوى عند الله المحسن والمسيء، والمصلح والمفسد، ومن سوَّى بينهما كان سفيهاً، والله منزَّه عن العبث، فلا بدَّ إذاً من الاعتقاد بالآخرة!! نرى الباغي الظالم، يزدادُ نعيمُه ويزداد مالُه، ويموت دون عقاب، ونرى الضعيف المظلوم، يموت في حسرته وكَمَده، فلا بدَّ إذاً في حكمة الحكيم العليم، من إنصاف هذا من هذا، وإذا لم يحدث هذا في دار الدنيا، فيتعين أن هناك داراً أخرى، لتحقيق تلك العدالة وهي (الدار الآخرة) ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي هذا كتاب عظيم الشأن، كثير المنافع والخيرات، أنزلناه عليك يا محمد، ليتفكروا في آياته المعجزة الحكيمة، وليتعظ به ذوو

وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾

العقول السليمة ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ يراد بالهبةِ «هبة النبوة» أي رزقنا عبدنا داود، ولداً صالحاً جعلناه نبياً، هو «سليمان» عليه السلام، نعم الولد الصالح، فإنه كان كثير الطاعة والرجوع إلى الله ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ أي حين عُرضت عليه خيلُه الأصيلة، بعد العصر عشية يوم من الأيام، عُرضت عليه الخيلُ السريعةُ الجري، التي هي أنفسُ أنواع الخيل ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ذكر المفسرون أنه كان لسليمان عليه السلام وِرْدٌ خاصٌ يتلوه بعد العصر، فلما عُرضت عليه الخيول الحسانُ، التي تركها له أبوه «داود» وتشاغل بحسنها وجريها أمامه، عن ذكره الخاص الذي كان يتلوه، حزن وتألَّم لما فاته من الخير بالذكر والتسبيح، والمراد من قوله ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ أي غابت الشمس، وحينئذٍ قال سليمان: لقد شغلتني هذه الخيلُ عن ذكر ربي وطاعته، ردُّوا هذه الخيل عليَّ، فشرع يذبحها ويقطَع أرجلها تقرباً إلى الله، لتكون طعاماً للفقراء والمساكين، **قال الحسن البصري**: «لمَّا رُدَّتْ عليه الخيل، قال: لا واللهِ لا تشغليني عن طاعة ربي، ثم أمر بها فعُقرت، وذُبحت طعاماً للمساكين» هذه خلاصة قصة الخيل، أمَّا قول من قال: إنها شغلته عن صلاة العصر، حتى غابت الشمسُ، فتردُّه الآية لأنها صريحة الموضوع ﴿عن ذكر ربي﴾ ولم يقل: عن صلاتي، ولا يكاد يُتصور من نبي أن يترك صلاة العصر، من أجل اشتغاله بأمرٍ من أمور الدنيا، وذهب ابن عباس إلى أن معنى ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ أنه أخذ يمسح أعرافَ الخيل وعراقيبها، تكرمةً لها وتعجُّباً من حسنها، والأظهر ما قاله الحسن البصري أنه ذبحها ليوزعها على المساكين، ولهذا عوَّضه الله عنها بما هو خير، وهي (الريحُ) التي كانت تحمله من بلد إلى بلد، وهي أسرع من الخيل العاديات، وهذا ما رجحه ابن كثير ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ نوع آخر من الابتلاء، ابتلي به سليمان عليه السلام، ثم تاب وأناب من تلك الهفوة والزلة، وهي تركه الاستثناء في قصة من قصص النساء، فقد كان له نساء وسراري ـ أي مملوكات ـ

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

كثيرات، فقال كما في رواية البخاري (لأطوفنَّ الليلةَ على سبعين ـ أو قال تسعين ـ امرأة، كلُّ واحدةٍ تأتي بفارسٍ يجاهد في سبيل الله!! ولم يقل: إن شاء الله، ـ أي نسياناً ـ فطاف عليهن، فلم تحمل إلا امرأة واحدة، جاءت بشقِّ غلام، ساقطاً أحد شقيه، فقال النبي ﷺ: والذي نفسي بيده لو قال (إن شاء الله) لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون) فهذا معنى إلقاء الجسد على كرسيه أي إلقاء القابلة لهذا الولد على كرسي سليمان، ومعنى إنابته فهو رجوعه إلى الله عن زلته، وهي تركه الاستثناء في مثل ذلك الأمر الخطير، وهو الصحيحُ، وأمّا قول من زعم أن شيطاناً اسمه (صخر) جلس على كرسي سليمان، ولبس خاتَمه، ودانت له الإنس والجن، وأن ملك سليمان ذهب لفقده لخاتمه، فكلُّ ذلك خرافاتٌ وأباطيل، لا يصح أن نصدِّق بها، فما كان الله سبحانه ليمكِّن الشيطان من (ملك سليمان)، ويقوم مقامه في تدبير شئون الملك، وكلُّها أخبار إسرائيلية باطلة، كما قال الحافظ ابن كثير ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ أي امنحني ملكاً واسعاً متميزاً عن الخلق، لا يناله غيري، ليكون معجزة دالة على نبوتي، إنك واسع الفضل والعطاء ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي فذللنا الريح لطاعته إجابةً لدعوته، تجري بأمر سليمان ﴿رخاءً﴾ أي ليِّنةً طيبة، حيث قصد وأراد ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أي وسخرنا له الشياطين، منهم من يبني له القصور الشاهقة، ومنهم من يغوص له في البحار، لاستخراج الدرر والجواهر ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ أي وآخرين من الشياطين ـ وهم المردة ـ مربوطون بالقيود والسلاسل، لكفرهم وتمردهم عن طاعة سليمان ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي وقلنا له: هذا عطاؤنا الخاصُّ لك، فأعطِ من شئتَ، وامنع من شئت، لا حساب عليك في ذلك ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي وإن له عندنا لمكانة رفيعة في الدنيا، وحسن مرجعٍ في الآخرة، هكذا أكرمه الله بمُلْكٍ واسع، وجاهٍ عظيم، ومرتبة رفيعة عالية، لم ينلها أحَد من ملوك الدنيا، مع النبوَّة التي شرَّفه الله بها، فكان نبياً

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾﴾

مَلِكاً، ابن نبيٍّ مَلِكٍ، أعطي خير الدنيا والآخرة، وفي الحديث الشريف (إن عفريتاً من الجن، تفلَّت عليَّ البارحة، ليقطع عليَّ الصلاة، فأمكنني الله منه، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد، حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرتُ قول أخي سليمان ﴿هب لي ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي﴾ فردَّه خاسئاً) رواه البخاري ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ هذه هي القصة الثالثة في هذه السورة، أي واذكر يا أيها الرسول عبدنا الصالح «أيوب» عليه السلام، الذي ابتلى بأنواع المصائب فصبر، حين نادى ربه متضرعاً، شاكياً له ما أصابه به الشيطانُ من مرضٍ ووصب، والإسنادُ إلى الشيطان ﴿مسَّني الشيطانُ﴾ مراعاةً للأدب، وإن كانت الأشياءُ كلُّها، خيرُها وشرُّها من الله تعالى، والنُّصْبُ: المشقةُ والتَّعبُ ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ أي استجبنا دعاءه، وقلنا له بواسطة جبريل: اضربْ برجلك الأرضَ، فضربها، فنبعت له عينان: عينٌ باردة صافية، شرب منها وعينٌ أخرى اغتسل منها، فذهب عنه كل بلاء، وقام صحيحاً معافى، كأن لم يكن به مرض. . روي أن «أيوب» أُصيب في أهله، وماله، وجسده، وبقي في البلاء ثمان عشرة سنة، وقد ابتلاه الله بالنعمة فشكر، وابتلاه بذهاب الصحة والولد فصبر، فكان في الحالين: في السراء، والضراء، من الشاكرين، ولما اشتدَّ به البلاء وطالت به المدة، ضجرتْ زوجته فقالت له: إلى متى تصبر على هذا البلاء؟ فغضب من هذا الكلام، وحلف إن شَفَاه الله ليضربنَّها مائةَ سوط، فرحم الله ضعفها، وراعى خدمتها لزوجها، فأرشده إلى طريقةٍ لا يحنث فيها، ويكون فيها البرُّ بيمينه، ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ أي أكرمناه بأن متعناه بصحته، وأغدقنا عليه المال، وكثَّرنا ذريته وأهله، حتى صاروا ضعف ما كانوا، رحمةً منَّا لحسن صبره وإيمانه، وقلنا له: خذ بيدك حزمةً من القضبان الخفيفة، فيها مائةُ عود، فاضربْ بها زوجتك، ولا تحنثْ بيمينك، إنَّا ابتليناه فوجدناه صابراً على الضراء، نِعْمَ العبدُ

﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾

أيوب، إنه عبدٌ مطيع، كثير التوبة والرجوع إلى الله، **قال ابن كثير**: وهذا من الفرج والمخرج، لمن اتقى الله وأطاعه، ولا سيما في حقّ امرأته المحتسبة الصابرة، المكابدة الصدِّيقة، البارَّة الرشيدة رضي الله عنها، والضِّغثُ: الشمراخُ - عودُ النخيل - فيه مائةُ قضيبٍ، يضربها به ضربةً واحدة فيبرُّ بيمينه، ويخرج من حنثه، وقد قال سبحانه ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً. ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ ثم ذكر تعالى مجموعة من الرسل الكرام، ذكرهم بأسمائهم، وأثنى عليهم الثناء العاطر، دون تفصيل لمآثرهم الجليلة، التي استحقوا بها الفضل والكرامة من الله، فقال سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أي اذكر هؤلاء الرسل الأخيار، وتأسَّ بهم وبسيرتهم العطرة، في لصبر على البلايا والشدائد، إنهم كانوا من أولي القوة في العبادة، والفقه في الدين، جمعوا بين الطاعة والعبادة، والبصيرة الثاقبة في أمور الدين ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ أي أخلصناهم لطاعتنا بخصلةٍ حميدة، هي تذكرُهم للدار الآخرة دائماً، **قال مجاهد**: «جعلناهم يعملون للآخرة، ليس لهم همٌّ غيرها» ذلك لأن منتهى غايتهم هي: (جوار الله) عزَّ وجل، والفوز بلقائه، ولهذا أُلقي إبراهيم في النار، وصبر يعقوب على فقد ولده يوسف ثلاثين سنة ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ أي وهم عند الله أنبياء مختارون، اصطفاهم من بين سائر الخلق، لأنهم أخيار أبرار، زهدوا في الدنيا، ورغّبوا الناسَ في الآخرة، وكأنهم خلقوا للدار الآخرة، ولهذا كانوا عند الله تعالى مختارين أخياراً ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ أي واذكر يا أيها الرسول هؤلاء الأنبياء أيضاً (إسماعيل» و«اليسع» و«ذا الكفل) وكلٌّ واحدٍ منهم من خير خلق الله، فاقتد بهم في الصبر، وتحمل الأذى في سبيل الله ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك، ذكرٌ جميل لهم في الدنيا، وشرف يُذكرون به أبداً، بالثناء والتكريم، وإن لكل من اتقى ربه، وأطاع رسله، حسن جزاءٍ ومرجع في الآخرة، ثم فسَّر تعالى هذا الجزاء بقوله ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ أي لهؤلاء المتقين

مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾

حدائق وبساتين، في دار الخلد والنعيم، قد فُتحت أبوابها لهم، انتظاراً لقدومهم!! ومعنى «عدن» أي إقامة، فهم مقيمون في هذه الجنان، لا يخرجون منها أبداً، كما قال سبحانه ﴿وما هم منها بمخرجين﴾ يدخلونها محفوفين بالملائكة، على أجمل هيئة، وأحسن حال ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾ أي متربِّعين على السرر الذهبية، المزينة بالدرِّ والياقوت، يطلبون أنواع الفواكه، وألوان الشراب، كحالة الملوكِ في الدنيا، وإنما اقتصر على ذكر الفاكهة، دون سائر الأطعمة، للتنبيه على أن المطاعم في الجنة لمحض التفكه والتلذذ، دون التغذِّي، لأنه لا جوع ولا عطش في الجنة، وإنما هو لمجرد التلذذ، كما قال سبحانه ﴿إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى. وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ أي لا يصيبك حرُّ الشمس ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ﴾ أي وعندهم الحورُ العينُ الفاتنات، اللواتي لا ينظرن إلى غير أزواجهن، من عفتهن وطهارتهن ﴿أتراب﴾ أي في سِنٍّ واحدة، شابات، في غاية الحسن والجمال، وفي الحديث الشريف (يدخل أهلُ الجنةِ الجنَّةَ، جُرْداً، مُرْداً، مكحَّلين، أبناء ثلاث وثلاثين سنة، لا يفنى شبابهم، ولا تبلى ثيابهم، لكل امرىء منهم زوجتان، على كل زوجة سبعون حُلَّة، يُرى مخُّ ساقها من ورائها) رواه الترمذي، ومعنى «مُرْد» أي ليس للرجال لحىً، بل هم كالغلمان المرد، لأن الجنة دار تشريف، لا دار تكليف ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي تقول لهم الملائكة: هذا جزاؤكم وأجركم الذي وعدكم الله به، ليوم الجزاء والحساب ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ أي هذا النعيم الذي أعطاكم الله إياه، لا زوال له ولا انقطاع أبداً، بل هو نعيم دائم خالد، وبمقابلة جزاء المؤمنين المحسنين، يأتي الحديث عن جزاء الكافرين المجرمين، فيقول سبحانه: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ أي وأما جزاء الطغاة الكفار الفجار، فلهم شرُّ المرجع والمصير في الآخرة، وهو جهنم دار السعير، وبئس المهادُ أي الفراش نار جهنم، يدخلونها فتغمرهم من جميع جهاتهم، كما قال سبحانه في سورة الأعراف:

﴿لهم من جهنم مهادٌ ومن فوقهم غواش﴾ فالنار تغشاهم من تحتهم ومن فوقهم،

هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾

وبئس الفراشُ نارُ جهنم ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أي هذا هو العذاب الذي ينتظرهم، فليذوقوه الآن، وقد كانوا يهزءون به في الدنيا، ألاَ وهو الحميمُ: أي الماءُ الحارُّ الذي قد انتهى حرُّه من شدة حرارته، والغسَّاقُ: وهو ما يسيل من صديد أهل النار ودمائهم، وفي الحديث (لو أن دلواً من غَسَّاقٍ يُهراقُ في الدنيا، لأنتن أهلَ الدنيا) رواه الترمذي وأحمد ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ أي وعذاب آخر، من مثل هذا العذاب المذكور، كالزمهرير، والزقوم، والسموم، وأصناف أخرى متنوعة، يُعذبون بها، ويا له من شراب تتقطع منه الأكباد!! ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾ أي وتقول لهم خزنةُ جهنم: هذا فوج كبير، قد تبعكم في دخول النار!! فيقول الرؤساء: لا أهلاً ولا مرحباً بهم، فبئس هؤلاء القوم الداخلون معنا النار ﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي قال الأتباعُ للزعماء: بل أنتم أيها الرؤساء لا مرحباً بكم، فأنتم الذين كنتم سبباً لهذا العذاب، فبئس المستقر والمنزل لنا ولكم نار جهنم، ويكرر الأتباع أيضاً ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ أي اللهمَّ من كان سبباً لضلالنا، فضاعف له العذاب في نار السعير، واجعله ضعف عذابنا، لأنهم كانوا سبب شقائنا وضلالنا.. ولننظر إلى هذه المقابلة الرائعة، بين مآل المتقين، ومآل الطغاة المجرمين، فالمتقون في أحسن حال، وأهنأ بال، لهم ﴿حسنُ مآب﴾ والكفرة المجرمون لهم ﴿شرُّ مآب﴾ والمتقون تتلقاهم الملائكة بالتحايا والبشارات، والمجرمون يتلقونهم باللعنات والإهانات، والمؤمنون على الأرائك يتكئون، ولهم في الجنة ما يشتهون، والمجرمون في الأغلال مكبَّلون، طعامهم الزقوم وشرابهم الغساق، وبعد أن كان الأشقياء متحابين في الدنيا، إذا هم اليوم في التباغض والسباب، يلعن بعضهم بعضاً، ويدعو بعضهم على بعض بالويل والثبور، وعظائم الأمور، ويا له من خزي وإهانة للأشقياء، أصحاب السعير والجحيم!! ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ بعد أن يستقر الجميع في نار جهنم، يفتقدون المؤمنين الضعفاء، الذين

﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾

كانوا يرمونهم بالسفه والجنون، ويعتبرونهم أشراراً، أي يقولون: ما لنا لا نرى هؤلاء الذين كنا نعدُّهم في الدنيا أشراراً؟ **قال ابن عباس**: يريدون بالأشرار (أصحابَ محمد ﷺ) يقول أبو جهل وإخوانه: أين بلال؟ أين صهيب؟ أين عمار؟ ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي هل كنا في سخريتنا منهم على خطأ؟ أم هم معنا هنا في النار؟ ولكنْ لا نراهم؟ يقولون ذلك تأنيباً وتوبيخاً لأنفسهم!! يا ويل أبي جهل، ويا حسرة عليه!! مسكين حقاً هذا الشقي، أسلم ابنه (عكرمة)، وأسلمت ابنته (جويرية)، وأسلمت أمه، وأسلم أخوه، وبقي الشقيُّ هو الكافر بالله. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ أي إن هذا الذي أخبرناك عنه يا محمد، من تخاصم القادة والأتباع في نار الجحيم، ولَعْن بعضهم لبعض، ودعاء بعضهم على بعض، لهو الحقُّ الذي لا بدَّ أن يحدث، على وجه اليقين، لأنه خبرُ رب العالمين، العالم بما كان وما سيكون، وسُمِّي كلامهم تخاصماً، لأن فيه تقبيحاً وتشنيعاً، وفيه لعنُ بعضهم لبعض، كما قال سبحانه ﴿يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾ وشتَّان، شتَّان بين مصير الأبرار، ومصير الأشرار!! ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أي قل لهؤلاء المشركين: ما أنا إلا رسول من رب العالمين، أنذركم وأخوّفكم من عذابه، ولست بساحر ولا كاهن، وليس لكم ربٌّ معبود، إلا الله ربُّ العزة والجلال، الواحد الذي قهر العباد، بعزته وجبروته ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ أي خالق جميع ما في الكون، من الخلق والعجائب، (العزيز) أي الغالب الذي لا يُغلب ﴿الغفَّار﴾ أي المبالغ في العفو والمغفرة لمن تاب وأناب، فلو بقي الإنسان في الكفر سبعين سنة، ثم تاب فإن الله يغفر له ذنوبه، ويوصله إلى درجات الأبرار ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ أي هذا القرآن الذي جئتكم به، أمر هامٌّ، وخبرٌ عظيم الشأن، لا تتفكَّرون به، ولا تعرفون قدره، فلذلك تعرضون عنه!! ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي من أينَ لي العلم

إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾

باختلاف الملائكة، في شأن خلق آدم، لولا الوحيُ المنزلُ عليَّ؟ وفي هذه الآية حجة بيِّنة على صدق رسالة محمد ﷺ، فهل كان رسول الله حاضراً، وقت أن أراد الله خلق آدم؟ وقالت الملائكة مستفسرة عن الحكمة ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**﴾؟ ثم سجدت الملائكة، وامتنع إبليسُ عن السجود!! فلولا الوحيُ الإلهيُّ، لما كان رسول الله ﷺ يعرف شيئاً عن هذه الأمور الغيبية، التي جرت بين الرب عز وجل وملائكته!! ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ **أي ما أوحى الله إليَّ بهذه الأخبار المغيَّبة، إلا لأنني رسول إليكم، ظاهر النبوة، لأنذركم عذاب الله** ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ **أي اذكر حين أخبر ربك الملائكة، أنه سيخلق إنساناً هو «آدم» من طين، وقال لهم: إذا أتممت خلقه، ونفختُ فيه الروح، فاسجدوا له سجود تحية وتكريم، وأضاف الروح إليه** ﴿**من روحي**﴾ **تكريماً لآدم وذريته، ولأنها شيء عجيب، لا يعرف حقيقتها إلاَّ الله ربُّ العالمين** ﴿**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي**﴾ **أي روحٌ مبتدأةٌ من خلق الله، وليس الأمرُ كما افترى النصارى أن عيسى ابن الله لقوله تعالى** ﴿**وروح منه**﴾ **فإن آدم أيضاً من روح الله، فهل يكون آدم أيضاً ابن الله!! تنزه الله عن الشريك والولد** ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ **أي فسجد جميع الملائكة امتثالاً لأمر الله، لكنَّ إبليس استكبر عن طاعة الله، وأبى السجود لآدم، فصار بعصيانه الأمرَ من الكافرين، قال ابن كثير: امتثل الملائكة كلهم الأمر، سوى إبليس، لم يكن من الملائكة جنساً، إنما كان من الجن، فخانه طبعه، فاستنكف عن السجود لآدم، وخاصم ربه عز وجل، وادعى أنه خير منه، فكفر بذلك، فطرده الله عن باب رحمته، ومحلِّ أنسه** ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ **أي قال له ربه: ما الذي صدَّك وصرفك عن السجود لآدم، الذي خلقته بيديَّ؟ هل تكبَّرتَ عن**

قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾

أمري؟ أم أنت من المستحقين للتفوق على آدم؟ ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ أي قال اللعينُ: أنا أفضلِ منه وأشرف، لأنك خلقتني من النار، وآدم خلقته من الطين، والنار خير من الطين، فكيف يسجد الفاضل للمفضول؟ ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أي قال الله له: اخرج من السموات فإنك مطرود من رحمتي، ومن كل خيرٍ وكرامة، وأنت ملعون إلى يوم الحساب؟ إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ أي قال إبليس: يا ربِّ أخرني وأمهلني، إلى اليوم الذي تبعث فيه الخلائق من القبور!؟ قال الله له: إنك من الممهلين إلى وقت انتهاء الدنيا، ونفخ إسرافيل في الصور (النفخة الأولى)!! أراد اللعينُ أن ينجو من الموت، إذ لا موتَ بعد خروج الناس من القبور، فأجابه الله تعالى، بأنه مؤخرٌ إلى وقت النفخة الأولى، وهو الوقت الذي قدَّره الله لفناء الخلائق!! فإن قيل: إذا لم يكن إبليس من الملائكة، وإنما هو من الجنِّ، فلماذا يؤمر بالسجود لآدم؟ فالجوابُ أن إبليس لم يكن حقيقة من الملائكة، لأن الملائكة لا يعصون أمر الله، ويفعلون ما يؤمرون، ولكنّه كان في صفِّ الملائكة، وضِمْنَهم حين أُمر الملائكة بالسجود لآدم، وقد توجَّه له ـ وهو من الجن ـ أمرٌ خاصٌ من ربِّ العزة والجلال، في قوله تعالى ﴿قال ما منعك ألاَّ تسجد إذ أمرتك﴾؟ وبهذا يُحلُّ الإشكال في الاستثناء، ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون. إلا إبليس﴾ ويكون الاستثناء في هذه الآية منقطعاً، ويتفق هذا القول مع آية الكهف ﴿إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ وبذلك يكون قولُ الحسن البصري صواباً: «ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين، إنما هو من الجن» ولمَّا سمع اللعينُ إمهالَ اللهِ له، إلى يوم فناء البشر، أقسم بعزَّة اللَّهِ أن يُضلَّ ذريَّةَ آدم جميعاً، بتزيين الشهوات لهم، وإدخال الشبهات عليهم، ثم استثنى من لا يقدر على إضلاله، من عباد الله المؤمنين المخلَصين، فقال: ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلاَّ عبادك

قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

منهم المخلَصين﴾ أي الذين أخلصتهم لطاعتك ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي قال الله تعالى: أقسمُ بالحقِّ، ولا أقول إلا الحقَّ، لأملأن جهنم منك، ومن أتباعك الذين أطاعوك أجمعين، ثم أمر الله جلَّ وعلا رسوله، أن يخبرهم بأنه إنما يريد من دعوته لهم، امتثال أمره تعالى، لا عرض الدنيا الزائل، فقال: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي قل لهم: لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً، ولست ممن يحتال على الناس ويتصنَّع، حتى **أدَّعِيَ** النبوة وأتقوَّل القرآن، وإنما أنا رسول مرسل من عند الله، لأبلغكم رسالة الله ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ أي ما هذا القرآن إلا عظة وذكرى لجميع الخلق، ولتعلمن خبره وصدقه عن قريب، **قال الحسن البصري**: يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين!.

تمّ تفسير سورة صٓ

● ● ●

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾

تفسير سورة الزمر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي هذا القرآن العظيم، المنزل عليك يا خاتم النبيين، هو تنزيلُ ربِّ العزة والجلال ﴿العزيز﴾ أي القاهر الذي لا يُغلب ﴿الحكيم﴾ أي الذي يفعل كل شيء بحكمة، وتقدير وتدبير، ويضع الأشياء في مواضعها ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي نحن الذين أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن، أنزلناه بالحقِّ القاطع، والنور الساطع، فاعبد ربك العظيم الجليل، مخلصاً له الطاعة والعبادة، ولا تقصد بعملك غير وجه الله ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ (ألاَ) أداة تنبيه، أي ألاَ فانتبهوا أيها الناس، فإن لله الدينُ الصافي، الخالص من الشرك والرياء، ولا يقبل اللهُ إلاَّ ما كان خالصاً لوجهه الكريم، أما المشركون الذين عبدوا من دون الله أوثاناً وأحجاراً، فيقولون: ما نعبدهم إلاَّ ليقرِّبونا من الله قربى، ليشفعوا لنا عند الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي يحكم بين الخلائق يوم القيامة، فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، فيدخل المؤمنين الجنة، والكافرين النار، إن الله لا يوفق للهدى والخير، من كان كاذباً على الله، قلبُه مملوء بالكفر والضلال.. كان المشركون إذا سئلوا عمن خلقهم؟ ومن خلق السموات والأرض؟ يعلنون أن الله هو الخالق، وكانوا يعبدون الأصنام، وبعضهم

لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾

يعبد الملائكة ويقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا من الله قُربى، ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم: (لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك) رواه مسلم، وهذه سخافةٌ وحماقة، حيث يقرُون للخالق بالقدرة والخلق، ويعبدون ما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً!! ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ هذا إبطال لدعوى المشركين أن الملائكة بنات الله، وقول النصارى عيسى ابن الله، أي لو أراد الله اتخاذ ولدٍ ـ على الفرض والتقدير ـ لاختار ما يشاء، من المخلوقات التي أنشأها وابتدعها، لأنه يستحيل أن يكون له ولدٌ عن طريق التوالد، لأنه سبحانه لا يماثله شيء، ولا شبيه له ولا نظير، ولو كان له ولد لكان من جنسه، ولا جنس له تعالى ولا مثيل، ولهذا قال بعده ﴿سبحانه هو الله الواحد القهار﴾ أي تنزَّه الله عمَّا يقول الظالمون، فهو الواحد الأحد، الذي لا نظير له ﴿القهار﴾ أي القاهر لعباده بعظمته وجلاله.. نبَّه تعالى أن الولد ينبغي أن يكون من جنس أبيه، ولا جنس له سبحانه!! ثم أقام الأدلة على وحدانيته ووجوده فقال ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ أي هو سبحانه!! الخالقُ للسموات والأرض، خلق السموات في ارتفاعها، والأرضَ في جبالها ووهادها، وما فيها من عجائب المخلوقات، وروائع الإبداع، ومعنى تكوير الليل على النهار، أي تغشيته إياه، فالليل يغطِّي نور النهار، حتى يذهب بضوئه، والنهارُ يغشىٰ الليلَ ويلفُّ عليه كما يلفُّ الثوبُ لابسه، حتى يذهب بظلمته ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ أي ذلَّل تعالى الشمس والقمر، لمصالح العباد، كلٌ منهما يسير ويجري في فَلَكه، إلى انتهاء الحياة عن سطح هذا الكوكب الأرضي وهو يوم القيامة، حين يُخسف القمر، ويذهب نور الشمس، والتعبير بقوله سبحانه ﴿يكور الليل على النهار﴾ تعبير عجيب، فهو يصوِّر (حقيقة علمية) رائعة، وهي أن الأرض تدور في مواجهة الشمس، فالجزء الذي يواجه الشمس يكون نهاراً، ولما كانت الأرض كروية

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ

الشكل، أصبح النور مكوَّراً عليها، ولمَّا كانت الأرض في حركة دائمة في دورانها، فإن النور يذهب من الجهة التي تقابل الشمس، ويحل محله الظلمة فيتكور الليلُ على النهار، بسبب كروية الأرض، وهكذا في حركة دائبة مستمرة، يتكون الليلُ والنهار، ويتكوَّر تبعاً لكروية الأرض، كما إذا سترنا قُبَّةً بستار، فإن الستار يكون مكوراً، وهذه الآية مما استدلَّ بها علماؤنا ومنهم (ابن تيمية) رحمهم الله على كروية الأرض، وانظر كتابنا «حركة الأرض، ودورانها حقيقة علمية أثبتها القرآن» ففيها براهين علمية دقيقة، حول ما اكتشفه العلم الحديث، في عصر صعود الإنسان إلى الفضاء، ودورانه حول الأرض.. ثم يأتي الحديث عن خلق الإنسان وهو أعجوبة الأعاجيب فيقول سبحانه ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي خلقكم سبحانه وتعالى بقدرته؛ من نفسٍ واحدة هي «آدم» عليه السلام أبو البشر، ثم جعل منها زوجها وهي «حواء» والتذكيرُ بخلق البشر من نفسٍ واحدة، هو التنبيه على القدرة المبدعة، لهذه النفس الواحدة بنوعيها: «الذكر» و«الأنثى» بنفس الصنع، ونفس التركيب، مما يشير إشارة قاطعة، على وحدة (الخلق والتصميم)، لهذا الكائن البشري ﴿**وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى. من نطفةٍ إذا تُمنى**﴾ أفليس هذا الخلق والإبداع، آية الآيات، ومعجزة المعجزات؟ ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أي وخلق سبحانه لمنافعكم ومصالحكم، هذه الأنعام المأكولة، وهي (الإبلُ، والبقرُ، والغنمُ، والماعزُ) من كلِّ نوعٍ من هذه الأنعام، خلق لكم ذكراً وأنثى، **قال مجاهد**: «من الإبل اثنين: (الناقةُ، والجملُ)، ومن البقر اثنين: (البقرةُ، والجاموسُ)، ومن الضأن اثنين: (الكبشُ، والنعجةُ)، ومن المعز اثنين: (الجديُ والمعزة) وإنما عبَّر عن الخلق بالإنزال بقوله ﴿**وأنزل لكم من الأنعام**﴾ لأن خلق هذه الحيوانات بسبب رحمة الله بإنزال المطر، فالمطر ينزل ويخرج الكلأُ والزرع، والحيوانات تأكل العشب والكلأ، فتسمن وتكبر، ولولا نزل المطر لما عاشت الأنعامُ ولا البشر ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي يخلقكم تعالى ويجعلكم تتنقلون في بطون أمهاتكم، في أطوار عجيبة، من

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ

نطفة، إلى علقة، إلى مضغة، إلى عظام مكسوَّة باللحم، ثم إلى إنسان سويٍّ، كامل الأعضاء، والأصلُ وهو المنيُّ واحد كما قال سبحانه: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً. وقد خلقكم أطواراً﴾ أفليس خلق الإنسان أعجوبة الأعاجيب؟ ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾؟ أما الظلمات الثلاث التي أشارت إليها الآية الكريمة، فهي كما كان يقول المفسرون: «ظلمةُ البطن، وظلمةُ الرحم، وظلمةُ المشيمة» ولكنَّ العلم الحديث اكتشف معجزة القرآن، فقد اتضح للعلماء، أن الغشاء الذي يحمي الطفل في بطن أمه، مكونٌ من ثلاث طبقات رقيقة، هي أغشية لهذا الطفل، تظهر بالعين المجردة كأنها غشاء واحد، وهي ثلاثة أغشية «المنباري» و«الخربون» و«اللفائقي» وقد ظهرت لهم عن طريق التشريح الدقيق، وإنما سماها القرآن ظلمات، لأن الغشاء حجاب وحاجز، يحجب عن الطفل النور والضياء، وهي في العلم الحديث أغشية، فهي حُجُب وظلمات، فهل كان محمد ﷺ طبيباً جرَّاحاً، يعلم دقائق علم التشريح؟ أم أن هذا الكتاب المعجز، تنزيل الحكيم العليم، الذي يعلم السرَّ وأخفى!! وفي مؤتمر القاهرة سنة ١٩٨٥م أشهر بعضُ الأطباء إسلامهم، حين علموا أن القرآن قد تحدَّث عن هذه الحقيقة العلمية، منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة، وعرفوا أيضاً المراحلَ التي أخبر عنها القرآن في خلق الإنسان، مما يتفق تماماً مع ما عرفوه في هذا العصر الحديث في قوله سبحانه ﴿ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ مما لا يختلف قيد شعرة، عمَّا رآه الأطباء وشاهدوه في العصر الحديث، بواسطة الآلات والمكتشفات العلمية ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي هذا الخالق المبدع، هو ربكم الذي يستحقُّ العبادة، الذي لا معبود بحق سواه، لا ما تعبدونه من الأحجار والأشجار، فكيف تُصرفون عن عبادة الخالق المبدع الحكيم، إلى عبادة ما لا يضرُّ ولا ينفع، ولا يُبصر ولا يسمع؟ ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي إن تجحدوا أيها الناس وجود ربكم، وتنكروا وحدانيته، فإن الله مستغن عنكم وعن عبادتكم، ولا تضرونه شيئاً، ولا يحب ولا يقبل من عباده أن يجحدوا فضله، وإن آمنتم وشكرتم ربكم، يحبُّه ويقبله

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ

منكم، ويثيبكم عليه، وإيمانكم سبب لفوزكم بسعادة الدارين، لا لانتفاعه تعالى به كما قال سبحانه: ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً﴾ نبَّه تعالى في الآية أنه سواء عند الله من شكر، ومن كفر، فالله لا ينتفع بطاعة المطيع، ولا يتضرر بمعصية العاصي، وإنما يرجع النفعُ، أو الضررُ إلى العباد، وسيجازي كل إنسان على عمله ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي ولا تحمل نفسٌ مذنبةٌ آثمة، ذنب نفسٍ أخرى، بل كل إنسانٍ مؤاخذٌ بكسبه، ومعاقب بذنبه!! ثم إليه تعالى وحده، مرجع ومصير الخلق كلهم، فيجازيهم على أعمالهم، وهو العالم بخفايا الصدور، وسرائر البشر.. ثم ذكر تعالى أن طبيعة الإنسان، الجحود والتنكر لفضل الله وإنعامه، فقال سبحانه ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي وإذا أصاب الإنسانَ الكافرَ كربٌ وبلاء، دعا ربه خاضعاً مخبتاً، راجياً منه كشف المحنة عنه، ثم إذا أعطاه ما يطلبه، وفرَّج عنه كربته، نسي ربه الذي كان يدعوه ويتضرَّع إليه، وعاد إلى الفجور والطغيان، وعبادة الأوثان ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي وجعل لله شركاء من الحجر، أو البشر، ليصدَّ ويمنع من أراد الإيمان عن عبادة الرحمن، يعني أنه ضالٌ مضل، قل تمتع بهذه الحياة الدنيا الفانية، وتلذَّذ بما فيها زمناً قليلاً، فمصيرك إلى نار الجحيم، تُخلَّد فيها، والأمرُ هنا ﴿تمتع بكفرك﴾ للوعيد والتهديد ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ﴾ أي هل هذا العبد، الخاشعُ المصلِّي المنيب، الذي يقضي ساعات الليل، في

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾

عبادة ربه ومناجاته؟ يخاف عذاب الله، ويرجو رحمته ورضوانه؟ كذلك الفاجر الشقيّ الكافر بالله؟ وحُذف جواب الاستفهام لدلالة الكلام عليه، كأنه يقول: لا يتساوى عند الله المؤمنُ العابدُ التقي، مع الكافر الفاجر الشقي، فالفارق بينهما كبير جداً، ولهذا عقَّبه بضرب مثل واضح جلي فقال ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي هل يتساوى العالم مع الجاهل؟ فكما لا يتساويان، كذلك لا يتساوى المطيع مع العاصي، ولا التقيُّ مع الشقي!! إنما يعتبر ويتعظ بهذه الأمثال، أصحابُ العقول السليمة، وفي الآية إشادة بفضيلة العلم، وما أحسن قول القائل:

ففُزْ بعلمٍ تَعِشْ حياً به أبداً   الناسُ موتىٰ وأهلُ العلم أحياءُ

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي قل لعبادي المؤمنين: اجتنبوا محارم الله، وخافوا عقابه، لمن أحسن عمله في الدنيا السعادةُ الكبرى، وهي الجنة دار النعيم، وأرضُ الله فسيحة واسعة، فإذا لم تقدروا على عبادة الله في بلدٍ، فهاجروا إلى بلد آخر، تعبدون فيه ربكم، واصبروا على ما ينالكم من المكاره والشدائد في هجرتكم، فإن جزاء الصابرين لا يُحصى ولا يُحصر.. نزلت في «جعفر بن أبي طالب» وأصحابه، حين عزموا على الهجرة من مكة إلى الحبشة، فراراً بدينهم، والغرضُ التشجيعُ والتنشيط للهجرة ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي قل لهم يا أيها الرسول: إن ربي أمرني بأن أخلص العبادة له وحده، وأمرني بأن أكون أول المسلمين من هذه الأمة، وكذلك كان ﷺ، فهو أول من خالف دين أجداده العرب، فخلع الأصنام وحطَّمها، وأسلم وجهه لله، ودعا إلى توحيده وعبادته ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي وقل لهم أيضاً: إني أخاف إن

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ۝١٥ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ۝١٦ وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ۝١٧﴾

عصيتُ أمر الله، وعبدتُ غيره، أن يعذبني الله يوم القيامة بنار جهنم!! والمقصودُ زجر الناس عن معصية الله، فإذا كان الرسول ـ على جلالة قدره ـ خائفاً من عذاب الله، فغيرُه أحقُّ وأولى بالخوف ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ أي قل لهم: أنا أعبد الله مخلصاً له طاعتي وعبادتي، لا أعبد أحداً سواه، فاعبدوا أنتم ما شئتم من الأصنام والأوثان، والأمر هنا ليس على حقيقته، بل هو على وجه (الوعيد والتهديد)، كقوله سبحانه ﴿اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾ فهو أسلوب تهديد ووعيد، كما يقول السيد للعبد: اعمل ما شئتَ، أي فسوف تلقى جزاءك!! ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي هذه حقيقة الخسران، أن يخسر الإنسان سعادته، وذلك هو الخسران الذي ما بعده خسران.. ثم أخبر تعالى عما ينالهم من صنوف العذاب والبلاء، وهم يحرقون في نار الجحيم، فقال سبحانه: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ أي لأولئك الأشقياء ظللٌ كثيفة من النار، ومن تحتهم كذلك ظلل كثيفة، فالنار تغشاهم وتحيط بهم من جميع الجهات، وتسميتُها بالظلل للتهكم والسخرية، فإن الظُلَّة ما يستظل به الإنسان من الحر، فإذا كانت من النار، كانت أحرَّ وأفظع، فالنار تُظلِّلهم بحرِّها وسعيرها، وتحرق أجسادهم وأكبادهم بلَظَاها، ولذلك خوَّف الله المؤمنين منها، فقال ﴿ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون﴾ أي خافوا عذابي واتقوه واحذروه، بطاعة الله وامتثال أوامره ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ الطاغوت: كلُّ ما عُبد من دون الله، من الطغيان وهو مجاوزةُ الحدِّ في الشر والعدوان، والصيغة للمبالغة، كالجبروت، والعظموت، **والمعنى**: والذين انتهوا عن عبادة الأصنام والأوثان، ورجعوا إلى طاعة الله وعبادته، لهم البشارة السارة من الله تعالى،

ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ

بالفوز العظيم في جنات النعيم، فبشرهم يا محمد، بما سيكرمهم الله به من أنواع الفضل والكرامة، مما لا عينٌ رأتْ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر!! ثم وضّح تعالى من هم هؤلاء العباد، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي هم الذين يستمعون الحديث والكلام، فيأخذون أحسن ما فيه، ويعملون به، فهؤلاء هم السعداء العقلاء المهتدون، **قال ابن عباس**: «هو الرجل يسمعُ الحسن والقبيح، فيتحدث بالحسن، ويستنكف عن القبيح، فلا يقوله ولا يتحدث به» والآيةُ ثناءٌ من الله تعالى عليهم بنفوذ بصائرهم، وتمييزهم بين الخير والشرِّ، والحسن والقبيح ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ أي هل من ثبتَتْ عليه الشقاوة، ووجبت له النار، بكفره وفجوره، فهل أنت تملك له الهداية والسعادة؟ ليس ذاك باستطاعتك!! **قال ابن عباس**: كان ﷺ حريصاً على إيمان قومه، فأخبره تعالى أنه لا يؤمن، إلاّ من سبقت له من الله السعادة» كما قال سبحانه **﴿وما أكثر الناس ولو حرصتَ بمؤمنين﴾** ثم بيَّن تعالى جزاء المؤمنين المتقين لربهم فقال ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ أي لكنْ المؤمنون الأبرار، المستمسكون بشريعته ودينه، لهم في الجنة درجات عالية، وقصور شاهقة، بعضها فوق بعض، مبنية من زبرجدٍ وياقوت، وبعضها من ذهب وفضة، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة، وعدهم بذلك ربُّ العزة والجلال، وهو وعد محقَّق، لأن الله لا يخلف وعده ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي ألم تبصر أيها الإنسان العاقل، قدرة الله العظيمة، في إنزال المطر من السماء؟ ينزله قطراتٍ قطرات، ولا يصبُّه صبّاً دفعة واحدة، لئلا يتلف الشجر والثمر!! ثم يدخله في طبقات الأرض، ويجعله في «خزّانات» ثم

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾

يتفجَّر بعد ذلك ينابيع وعيوناً، وقدرة الله تحفظه لئلا يذهب في الأغوار البعيدة، فلا ينتفع منه البشر، ولو شاء لجعله غائراً في الأرض، كما قال سبحانه ﴿فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون﴾ ثم ذكر تعالى قدرته في إخراج الزرع به والثمر، فقال ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ أي ثم يخرج بهذا الماء، أنواع الزروع والثمار، المختلفة الألوان، والأشكال، من أحمر، وأبيض، وأصفر، ومن قمح، وعدس، وذرةٍ، وغيرها من أنواع النبات والحبوب، الأرضُ واحدة، والتربةُ واحدة، والماءُ واحد ﴿يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾ ثمَّ ييبس الزرعُ فتراه بعد خضرته مصفراً، ثم يصبح هشيماً وحُطاماً متكسِّراً ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي إن في هذا الصنع، لعظة وعبرة، لأصحاب العقول المستنيرة، والآية تمثيلٌ لحياة الإنسان، بحياة الزرع، **قال ابن كثير**: هكذا الدنيا تكون خضراء، ناضرة حسناء، ثم تعود عجوزاً شوهاء، وكذلك الشاب يعود شيخاً هرماً، كبيراً ضعيفاً، وبعد ذلك كلّه الموتُ كما يموت الزرعُ، فالسعيدُ من كان حاله بعد الموت إلى خير ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي هل من أنار الله بصيرته، وشرح صدره للإسلام، فاستضاء بنوره واهتدى؟ وفي الآية محذوفٌ تقديره: كمن هو أعمى القلب، مطموس البصيرة؟ ودلَّ على هذا المحذوف ما بعده، وهو قوله سبحانه ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾ أي فهلاك ودمار لهؤلاء القُساة القلوب، الذين لا تلين قلوبهم ولا تخشع، عند سماع آي الذكر الحكيم!! أولئك في بعدٍ عن الحق، وضلال واضح بيِّن، والنفسُ إذا كانت خبيثة، لا يزيدها القرآن إلاّ قسوة وغلظة، وشقاءً وخسراناً ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ أي الله جلَّ وعلا، هو الذي نزَّل القرآن العظيم ﴿كتاباً متشابهاً﴾ أي يشبه بعضُه بعضاً في الفصاحة والبيان، وحُسن النظم والسبك ﴿مثاني﴾ أي تُثنَّى وتُكرَّر فيه المواعظُ والأحكام، والحلال والحرام، وتُكرَّر فيه الأنباء والأخبار، دون سأم ولا مَلَل،

نَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

كما جاء وصفه في الحديث الشريف (هو الفصلُ ليس بالهزل، لا يشبع منه العلماء، ولا يخْلَق على كثرة الردّ) أي لا تزول روعتُه وجماله على كثرة تلاوة آياته ﴿نَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾أي ترتعش وترتجف عند سماع آيات القرآن، قلوبُ وأجسادُ المؤمنين، هيبةً من كلام رب العالمين، وتأخذهم قشعريرة عند تلاوة آيات العذاب، ثم تطمئن وتسكن قلوبهم لكلامه جلَّ وعلا، وتأنس عند سماع آيات الرحمة، **قال ابن كثير**: وهذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، «إذا قرءوا آيات الوعد والوعيد، تقشعر جلودهم من الخشية والخوف، وإذا قرءوا آيات الرحمة، لانت جلودهم وقلوبهم، لما يرجونه ويؤملونه من رحمته ولطفه تبارك وتعالى ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾أي هذه هدايةُ الله لعباده المتقين، وهذه علامةُ صدق إيمانهم، ومن يخذله الله ويجعل قلبه قاسياً مظلماً، فليس له مرشد، ولا هادٍ بعد الله عزَّ وجل ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾أي أفمن يُكبُّ على وجهه في نار جهنم، فلا يستطيع أن يتقي العذابَ إلاَّ بوجهه، كالمنعَّمين في الجنة؟ ويقال للفجرة الكفار: ذوقوا عقاب ما اجترحتموه في الدنيا، من الكفر والمعاصي والآثام!! وإنما عبَّر هذا التعبير المفزع ﴿يتقي بوجهه سوء العذاب﴾ لأن الكافرَ في النار، مغلولة يداه، إلى عنقه، وهذا أبشعُ أنواع العذاب، حيث لا يجد ما يدفع عنه العذاب، إلا بملامسة وجهه لعذاب جهنم، فهو يهوي في النار، مكتوف الأيدي والأرجل ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾أي كذَّب قبل قومك، الأشرارُ الفجار من الأمم السابقة، كذبوا رسلهم كما كذبك قومك، فنزل بهم العذاب من حيثُ لا يدرون ولا يعلمون ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

فأذاقهم الله الذل والهوان في الدنيا، بالقتل والأسر، والتشريد من الأوطان، ولعذابُ الآخرة الذي أعدَّه الله لهم، أعظم وأكبر مما أصابهم في الدنيا، لو كانوا يعلمون ما كفروا بالله، ولا كذبوا رسله ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي ولقد وضَّحنا وبينَّا الأمثال للناس، في هذا الكتاب المعجز، من كل الأمثال الزاجرة، والأخبار الواضحة، ممَّا يحتاج الناس إليه، ليتعظوا ويعتبروا بتلك الأمثال ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي حال كون هذا القرآن بلسانٍ عربي مبين، لا تعارض في هذا القرآن ولا تناقض، ولا لبس فيه ولا اضطراب، لكي يتقوا الله، ويجتنبوا محارمه ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ هذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن الموحِّد، وللمشرك عابد الأوثان، وتوضيح المثل: عبدٌ مملوك، يملكه رجال ﴿متشاكسون﴾ أي في أخلاقهم سوء وعناد، وبينهم اختلاف وتنازع، هذا يأمره بأمر، وذاك يأمره بضده، وهو متحيِّرٌ موزَّع القلب، لا يعرف لمن يرضي، وهذا مثلٌ للمشرك عابد الأوثان، يعبد آلهة شتى ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ورجلاً آخر، لا يملكه إلا شخص واحد، حسن الأخلاق، يخدمه بإخلاص، ويتفانى في خدمته، ولا يلقى من سيِّده إلاَّ كل خيرٍ وإحسان، وهذا مثلٌ للمؤمن، يعبد إلهاً واحداً، هل يستوي هذا مع هذا؟ فكما لا يستوي هذان العبدان، كذلك لا يستوي المؤمن الموحِّد، مع المشرك الوثني، الذي يعبد آلهة شتى!! **قال ابن عباس**: هذا مثلٌ ضربه الله للمشرك، وللمؤمن المخلص ﴿**الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون**﴾ أي، الحمد لله على وضوح الحجة عليهم، بل أكثرهم لا يعلمون الحقَّ، فلهذا يشركون بالله، ومعنى ﴿**متشاكسون**﴾ جمع متشاكس، وهو الرجل الشرسُ سيِّئُ الخُلُق والطباع ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ أي إنك يا محمد

۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾

ستموت، فلا خلود لأحد في الدنيا، وإنهم سيموتون، وستنتقلون جميعاً من هذه الدار الفانية، إلى الدار الباقية، وستجتمعون عند الله للحساب، لينال كل منكم جزاءه العادل ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي ليس أحد أظلم من الكافر الفاجر، الذي كذب على الله، بنسبة الشريك له والولد، وكذَّب بالقرآن والرسول، من غير تدبر ولا تفكُّر!! أليس في جهنم مأوى ومسكن، لهؤلاء الكفرة الفجرة؟ ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي وأمَّا الأنبياء والرسل، الذين جاءوا بالصدق، والمؤمنون الذين صدَّقوا بما جاءهم به الأنبياء، فهؤلاء هم الذين يستحقون الكرامة والرضوان، لهم في الجنة ما يشتهون، من القصور، والحور، والنعيم، والمطاعم، والمشارب، وسائر الملاذ، ذلك جزاء من أحسن عمله ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي ليمحو الله عنهم أعمالهم السيئة، فلا يبقى لها حساب في ميزانهم، ويثيبهم على طاعتهم لله، بحساب أحسن الأعمال، تفضلاً منه وكرماً ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي أليس الله كافياً عبده محمداً ﷺ شرَّ من أراده بسوء؟ ويخوفونك بالأوثان التي لا تضر ولا تنفع، ومن أشقاه الله وأضلَّه فلن يهديه أحد بعد الله!! قال المشركون لرسول الله ﷺ: لتكفنَّ يا محمد عن سبِّ آلهتنا، أو ليصيبنَّك منها خَبَلٌ أو جنون!! فأنزل الله الآية ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ أي ومن أراد الله سعادته، فلن يقدر أحد على إضلاله، فإنه

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾

تعالى عزيز أي غالب لا يُقهر ولا يُغلب، ينتقم لأوليائه من أعدائه، ومن لجأ إليه فإنه لا يُضام ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي ولئن سألت المشركين: من خلق السموات والأرض؟ ليقولنَّ الله خالقهما!! وهذا اعتراف منهم، بأن آلهتهم عاجزة عن خلق أي شيء ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي أخبروني عن هذه الآلهة المزعومة، التي تعبدونها من دون الله، لو أراد أن يصيبني ببلاء، أو كرب، أو فقر، أو مرض، هل تستطيع آلهتكم أن تدفع البلاءَ والضرَّ عني؟ وإذا أراد بي نفعاً من نعمة وغنى، وصحة وعافية، هل تستطيع أن تمنع عني هذه الرحمة؟ والجواب معلوم سيقولون: لا قدرة لها على ذلك، إذاً فكيف تجعلونها آلهة وتعبدونها من دون الله؟ وهي ضعيفة، ذليلة، حقيرة!؟ ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي قل لهم: ربي كافيني فلا ألتفت إلى غيره، على الله أعتمد، وبه أثق، فأنا لا أخافكم ولا أخاف أصنامكم!! ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي قل لهؤلاء المشركين، الذين يتوعدونكَ بالشرِّ وبالانتقام: اعملوا على طريقتكم ومنهجكم، من المكر، والكيد، والخداع، فأنا ماضٍ على منهجي وطريقتي، بالدعوة إلى الله، ونشر رسالته ودينه، فسوف تعلمون أيُّنا الشقيُّ الضالُّ؟ الذي ينزل به عذاب الله الدائم، الذي يخزيه ويُذلُّه!! ومعنى الإخزاء: الإهانةُ والإذلال ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي نحن الذين أنزلنا عليك

ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾

يا محمد هذا القرآن المعجز، لمصلحة الناس وهداية البشر، فمن اهتدى فنفعُه يعود عليه، ومن ضلَّ فضرر ضلاله عائد عليه، ولست بموكَّل عليهم، حتى تجبرهم على الإيمان، وفي هذا تسلية له عليه الصلاة والسلام ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ أي الله جل وعلا هو الذي يميت البشر، فيقبض أرواحهم عند انتهاء آجالهم، وهذه هي «الوفاة الكبرى» وفاة كاملة حقيقية، ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، وهي «الوفاة الصغرى» لأن النائم كالميت، لا يُبصر ولا يُحسُّ بما حوله، وقد جعل الله هذه الوفاة الصغرى، دليلاً على البعث والنشور، فكما ينام الإنسان ثم يصحو من النوم، كذلك يموت الإنسان ثم يحييه الله ويبعثه!! ولهذا كان ﷺ إذا استيقظ من النوم يقول: (الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور) ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي فيمسك أرواح الأموات عنده، فلا يردُّها إلى أبدانها، ويرسل أرواح الأحياء النائمة إلى أبدانها عند اليقظة، وفي هذا عظة وعبرة لمن تفكر وتدبر!! **قال ابن عباس**: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام، فتتعارف ما شاء الله لها أن تتعارف، فإذا أرادت الرجوعَ إلى أجسادها، أمسك الله أرواح الأموات عنده، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها، فذلك قوله تعالى ﴿والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت..﴾ الآية، فالوفاة نوعان: (وفاة الموت)، و(وفاة النوم)، وبينهما تشابهٌ من عدة وجوه ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ كان المشركون يقولون: نحن نعبد هذه الأصنام لتشفع لنا يوم القيامة!! وقد ردَّ الله عليهم، بأسلوب فيه (تهكمٌ وسخرية)، **والمعنى**: أيستشفون بهم ولو لم يكن لهم عقل ولا إحساس؟ وهل يجدر بالعاقل أن يعبد من لا إدراك له؟ فهذه الأصنام ليس لها عقلٌ، ولا سمعٌ، ولا بصر، بل هي جمادات، أسوأ حالاً بكثير من الحيوانات!! ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي قل

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾

لهم: الشفاعة لله وحده، لا يملكها أحدٌ إلا الله سبحانه، ولا تكون إلا لمن ارتضاه الله، وبإذنه وإرادته، كما قال تعالى: ﴿ولا يشفعُون إلاَّ لمن ارتضى﴾ هو المتصرف في الملك والخلق، ثم مصيركم إليه يوم القيامة، للحساب والجزاء، لا لأحدٍ سواه ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي وإذا ذُكر الله وسمعوا كلمة التوحيد، «لا إله إلا الله» انقبضتْ ونَفَرتْ قلوب المشركين، الذين لا يصدِّقون باليوم الآخر، وإذا ذُكرت الأوثانُ والأصنام، ظهرت آثار الفرح والبشاشة على وجوههم، وهذا منتهى الجهل والضلال، فكيف ينفرون عند ذكر الله، ويستبشرون عند ذكر الأصنام؟ ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي قل: يا اللهُ، يا خالق ومبدع السموات والأرض، يا عالم السر والعلانية، أنت تحكم وتفصل بين عبادك، بعدلك وقضائك، فافصل بيني وبين هؤلاء المشركين، والمراد الالتجاء والتضرع إلى الله، لينصره على من كذَّبه وعاداه ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ أي لو أن لهؤلاء الكفار، جميع ما في الدنيا، من ذهبٍ وفضة، وذخائر وأموال، وضِعْفَ ذلك معه، لقدَّموه فديةً لهم، ليتخلَّصوا من العذاب الشديد، ولكنْ هيهات أن ينفعهم ذلك ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ أي ظهر لهم من أنواع العقاب والعذاب، ما لم يكن في حسابهم، ولم يخطر على بالهم ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي

فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

وظهرت لهم في ذلك اليوم العصيب، سيئات أعمالهم التي اكتسبوها، ونزل وأحاط بهم جزاء ما كانوا يسخرون ويهزءون به، من أنواع العذاب الشديد ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ المراد بالإنسان هنا: الكافر، أي إذا مسته مصيبة من شدة وبلاء، أو مرض أو فقر، تضرَّع إلى الله ودعاه، ليكشف عنه الكرب والشدة ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ أي ثم إذا أعطيناه نعمةً منا تفضلاً وكرماً، قال ذلك الكافر الجاحد: إنما أعطيته بذكائي، وعلمي بوجوه المكاسب، ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ليس الأمر كما يزعم، بل هو اختبارٌ وامتحان له، لنتخبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصي؟ أيشكر أم يكفر؟ ولكنَّ الكثيرين لا يعلمون ذلك، فيفرحون بها ويبطرون ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي قد قال مثل هذه الكلمة، الكفارُ قبلهم ممن أبطرتهم النعمة، مثل قارون حيث قال ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾ وهي كلمة الحمقى الضالين، في كل زمانٍ ومكان، يقولونها بتبجح، فما نفعتهم الأموال، ولا دفعت عنهم شيئاً من عذاب الله، بل صار حالهم إلى الهلاك والدمار ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي فنالهم جزاء أعمالهم السيئة، والذين كفروا من قومك، سينالهم جزاء أعمالهم القبيحة، وما هم معجزين ربهم أن ينتقم منهم، ولا خالصين من عذابه!! وقد أصابهم ذللك، فإنهم قد قُحطوا سبع سنين حتى أكلوا الجِيَف، وقُتل صناديدُهم يوم بدر ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ هذا ردٌّ على مزاعمهم الباطلة، أي أولم يعلم هؤلاء المشركون، أن الله يوسِّع الرزق على من يشاء، ويُضيِّق على من يشاء؟ وأن الأمر بيد الخلاَّق جلَّ وعلا، هو الذي

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾

يغني ويُفقر، ويُعزُّ ويذلُّ؟ وليس للذكاء والغباء دخلٌ في سعة الرزق وتقتيره، وفي ذلك عظة وعبرة، لقوم يعتقدون بحكمة الله وتدبيره.. ثم فتح ربُّ العزة والجلال، أبواب الرحمة والتوبة، أمام العصاة والمذنبين، حتى لا يقنط أحد من رحمته، فقال سبحانه ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي أخبر يا أيها الرسول عبادي المؤمنين، الذين أفرطوا في الجناية على أنفسهم، بارتكاب المعاصي والآثام، لا تيأسوا من رحمة الله، فالله يغفر جميع الذنوب، مهما عَظُمَتْ وكثُرتْ، إذا تاب منها الإنسان، لأن الله عظيم المغفرة، وواسع الرحمة!! ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي ارجعوا إلى الله بالتوبة والإنابة، واستسلموا له بالخضوع والطاعة، والعمل الصالح، قبل أن ينزل بكم العقاب، ثم لا تجدون لكم من يمنعكم من عذابه ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي امتثلوا ما أنزله الله إليكم، في هذا القرآن العظيم، الذي فيه أحسن الأحكام، التي بها سعادتكم وفلاحكم، من قبل أن ينزل بكم العذاب فجأة، وأنتم غافلون لا تدرون بمجيئه ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أي لئلا تقول بعض النفوس الغارقة في العصيان: يا حسرتي وندمي على تفريطي وتقصيري، في حق الله تعالى وطاعته، وقد كنتُ من الساخرين المستهزئين بدين الله!! **قال قتادة**: لم يكتف أن ضيَّع طاعة الله، حتى سخر من أهلها ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي أو يقول الإنسان العاصي: لو أن الله هداني بالإرشاد إلى الحق،

أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾

لا هتديتُ، وأطعتُ الله، وكنت من عباده الصالحين ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي أو تقول تلك النفس الفاجرة، حين مشاهدتها العذاب الأليم: لو أنَّ لي رجعةً إلى الدنيا، لأعمل بطاعة الله، وأُحسِنَ عملي وسيرتي، **قال ابن كثير**: «يتحسَّر المجرمُ ويودُّ لو كان من المحسنين المخلصين، المطيعين لله عزَّ وجل» وفي الحديث (كلُّ أهل النار، يرى مقعده من الجنة، فيقول ﴿لو أن الله هداني﴾ فتكون عليه حسرة) رواه أحمد والنسائي، يتحسَّر الكافر أولاً، ثم يحتجُّ بحجج واهية، ثم يتمنى الرجوع إلى الدنيا، ولو رُدَّ لعاد إلى الكفر والضلال، كما قال سبحانه ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ وحين يقول هذه الأقاويل، يأتيه الجواب من الجليل ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي بلى قد جاءك الهدى من الله، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، ولكنك كذبت بالآيات، واستكبرتَ عن الهداية والإيمان، وكنت من الكافرين بربك الذي خلقك، فلا عذر لك اليوم ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي ويوم الحساب والجزاء، ترىٰ الذين افتروا على ربهم، بنسبة الشريك له أو الولد، وجوههم سوداء مظلمة، بكذبهم وافترائهم على الله، أليس لهم مأوى ومسكن في نار الجحيم؟ مأواهم جهنم وبئس المصير!! هذا مقرُّ الفُجّار، أما المؤمنون الأبرار، فقال سبحانه ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي ينجِّي الله المؤمنين المتقين، بسبب سعادتهم وفوزهم، ينجِّيهم من نار جهنم، لا ينالهم فزعٌ ولا رعبٌ، ولا تمسُّهم نار جهنم، ولا هم يحزنون في الآخرة، كما قال سبحانه ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ ثم عاد إلى ذكر دلائل الألوهية والتوحيد، فقال سبحانه ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي هو سبحانه الخالق لجميع الأشياء، والقائم على تدبيرها، لا إله

لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ

غيره، ولا رب سواه ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي بيده جلَّ وعلا مفاتيح خزائن كل الأشياء، لا يملك أمرَها ولا يتصرف فيها غيرُه، والكافرون بالله هم الأشقياء، الذين خسروا سعادتهم وآخرتهم ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أي قل يا أيها الرسول: أتأمروني أن أعبد غير الله؟ بعد سطوع الآيات، وقيام الدلائل والبراهين على وحدانيته؟ يا أيها السفهاء الجاهلون!؟ وصفهم بالجهل، لأنَّ هذا منتهى الغباء والسفه، أن يدعُو المشركون رسولَ الله، لعبادة آلهتهم، **قال ابن كثير**: إن المشركين من جهلهم، دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، ويعبدوا معه إلهه، فنزلت الآية ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ اللام لتأكيد القسم، أي والله لقد أوحي إليك، وإلى الأنبياء قبلك، لئن أشركتَ ليبطلنَّ عملك الصالح، ولتكوننَّ من الخاسرين في الآخرة، ممن يخسر ويشقى!! والآية تحذيرٌ للأمة من الإشراك، فالرسول قد عصمه الله وحماه، من سفاهات أهل الجاهلية وضلالاتهم، فما يُتصور منه أن يشرك بالله، وهو الذي علَّم الأمة طريق التوحيد والإيمان!! **قال المفسرون**: الكلام وارد على سبيل الفرض والتقدير، لتهييج الرسل، وإقناط الكفرة، وبيان قبح وشناعةِ الإشراك بالله ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي أخلص العبادة والدينَ لله وحده، ولا تعبد معه غيره، وكن من الشاكرين لإنعام ربك، وهدايته لك إلى الإيمان ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي ما عرفوا الله حقَّ المعرفة، ولا عظَّموه حقَّ التعظيم، حيث عبدوا معه غيره، وهو سبحانه الموصوف بالقدرة الباهرة، فالأرضُ في قبضته، والسموات على سعتها وعظمتها بيمينه، يطويها كما

سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٩﴾

تُطوى الصحف ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي تنزَّه الله وتقدَّس، عما يصفه به المشركون، من الزوجة والشريك، والولد، رُوي عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (يقبضُ اللهُ الأرضَ، ويطوي السمواتِ بيمينه، ثم يقول: أنا الملِكُ، أين ملوكُ الأرض)؟ رواه البخاري **قال ابن عباس**: «ما السمواتُ السبعُ، وما الأرضون السبعُ، في يد اللهِ عزَّ وجل، إلاَّ كخردلةٍ في يد أحدكم» وفي حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ﴿وما قدروا الله حق قدره..﴾ وهو على المنبر، يقول بيده يحرِّكها، يُقبل بها ويُدبر: يمجِّدُ الله نفسه، يقول: «أنا الجبارُ، أنا المتكبرُ، أنا الملكُ، أنا العزيزُ، أنا الكريم» فرجف برسول الله المنبرُ، حتى قلنا: ليخِرنَّ به) رواه مسلم ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ هذا بيان لهول يوم القيامة، وما يكون فيه من الأهوال، والشدائد، والبلايا، أي واذكر يوم ينفخ «إسرافيل» في الصور «نفخة الصعق» التي يموت فيها جميع الخلائق، إلاَّ من شاء الله كحملة العرش، ثم ينفخ النفخة الثانية وهي «نفخة الإحياء» فإذا جميعُ الأموات يخرجون من القبور، ينظرون إلى الحشر الأكبر، **قال ابن كثير**: هذه النفخة «نفخة الصَّعق» هي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض، إلاَّ من شاء الله ـ كما جاء به مصرَّحاً في حديث الصور المشهور ـ ثم يقبض أرواح الباقين، حتى يكون آخر من يموت (مَلَك الموت)، وينفرد الحيُّ القيوم، الذي كان أولاً، وهو الباقي آخراً، بالديمومة والبقاء، ويقول: ﴿لمن الملك اليوم﴾؟ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: ﴿لله الواحد القهار﴾!! تفسير ابن كثير ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ أي أشرقت أرض المحشر، وأضاءت بنور رب العزة والجلال، حين تجلَّى لفصل القضاء بين العباد، وأُحضِرت صحائف

﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٧٠ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢﴾

أعمال الخلق، وجيء بالأنبياء الذين يشهدون على الأمم، بأنهم بلَّغوهم رسالات الله، وبالشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد، وقُضي بين العباد بالعدل، وهم لا يظلمون بنقص ثواب، ولا زيادة عقاب ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ أي نالت كلُّ نفسٍ جزاءها وافياً كاملاً، وهو تعالى أعلم بما عمل كلُّ إنسان، فلا حاجة له إلى كتاب أو شاهد، ولكنها (العدالة الإلٰهية)، التي تتجلَّى بشهادة الشهود، من الأنبياء والملائكة، على أكمل الوجوه، وأتم صور العدل ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ أي وسيق الكفار إلى النار أفواجاً أفواجاً، يُساقون مقيَّدين بالأغلال، كما يُساق المجرمون في الدنيا إلى السجون، والزُّمَرُ: جمع زمرة وهي الجماعة، حتى إذا وصلوا إلى جهنم، فُتحت عليهم أبوابها فجأة لتستقبلهم ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ أي وقال لهم حُرَّاس جهنم، وهم الزبانية الموكَّلون على النار، الذين قال الله عنهم ﴿عليها ملائكةٌ غلاظٌ شداد لا يعصون الله ما أمرهم﴾ قالوا لهم توبيخاً وتقريعاً: ألم يأتكم رسلٌ من البشر، يتلون عليكم كتاب ربكم، ويخوِّفونكم هول هذا اليوم الرهيب؟ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي يقول الأشقياء: بلى لقد جاءتنا الرسل وذكَّرتنا، وأقامت علينا الحجج والبراهين، ولكنَّا كذبناهم، لِمَا سبق لنا من الشقاوة، والمراد بكلمة العذاب قوله سبحانه ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ ولمَّا كان الموقف موقف إذعان وتسليم، لا موقف خصام وجدال، أقرُّوا واستسلموا، واعترفوا بأن الرسل أنذروهم وخوَّفوهم، ولكنهم قالوا لهم: ﴿ما نزَّل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال مبين﴾ وهذا اعتراف منهم بإجرامهم، وبقيام الحجة عليهم ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

أي تقول لهم خزنة جهنم: ادخلوا نار جهنم، لتصلوا حرَّها وسعيرها، ماكثين فيها أبداً، بلا زوال ولا انتقال، فبئس المقام والمسكن، نار جهنم للمتكبرين عن الإيمان بالله، واتباع رسله ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ أي وسيق الأبرار المتقون إلى روضات الجنة، جماعات جماعات، راكبين على النجائب ـ الخيل ـ كما يُفعل بالوافدين على الملوك يتقدمهم (حَرَسُ الشرف) كما قال سبحانه ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً. ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾ حتى إذا وصلوا الجنة، وقد فُتحت أبوابها ﴿جنات عدن مفتحةً لهم الأبواب﴾ تقول لهم الملائكة: سلام عليكم أيها المتقون الأبرار، طابت أعمالكم، وتطهرتم من الأدناس، فادخلوا الجنة مخلَّدِين فيها!! والحكمة في زيادة (الواو) في خبر أهل الجنة ﴿حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها﴾ ولم تذكر هذه الواو في خبر أهل النار ﴿حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها﴾ فهي أن النار سجنٌ للكفار، وأبواب السجون تكون مغلقة، إلى أن يحضرها أربابها (أصحاب الجرائم) فتُفتح لهم، ثم تُغلق عليهم، بخلاف أبواب الجنة، فهي دار السرور والحبور، فإنها تكون مفتَّحة الأبواب، كما في الأفراح والأعراس، فتدبر أسرار القرآن العظيم!! ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ أي وقالوا عند دخولهم الجنة، واستقرارهم فيها: الحمد لله الذي حقَّق لنا ما وَعدنا به، وملَّكنا أرض الجنة، نتصرف فيها تصرف المالك في ملكه، وننزل فيها حيث نشاء، لا ينازعنا فيها أحد، فنعمت الجنة أجراً للعاملين بطاعة الله ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي

وترى الملائكة الأبرار، محيطين بعرش الرحمن من كل جانب، ينزهون الله تعالى ويمجدونه، تلذذاً بذكره، وقُضي بين الخلائق في محكمة (العدل الإلهي) بالحق والعدل، وقال أهل المحشر جميعاً، المؤمنون منهم والكفار: الحمد لله رب العالمين!! المؤمنون يحمدون الله على فضله، والكافرون يحمدونه تعالى على عدله، ولهذا جاء اللفظ بصيغة المجهول: ﴿**وقيل الحمد لله رب العالمين**﴾ فدلَّ على أن جميع المخلوقات شهدت للَّهِ بالعدل والحمد والثناء!.

انتهى تفسير سورة الزمر

● ● ●

﴿حمٓ ① تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ② غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ③﴾

تفسير سورة غافر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ تقدم الكلام على الحروف المقطعة، وأنها للإشارة إلى إعجاز القرآن، وللتنبيه على أن هذا القرآن المعجز، منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية، ثم قال تعالى ﴿**تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم**﴾ أي هذا القرآن المنزل على خاتم النبيين، هو تنزيل رب العزة والجلال، العزيز في ملكه، العليم في خلقه، الذي يعفو عن ذنوب العباد، ويقبل توبة المذنبين العصاة، الشديد العقاب لمن طغى وتجبَّر، ذي الفضل والإنعام على من آمن واهتدى، لا معبود بحق سواه، وإليه وحده مرجع الخلائق كلهم، فيجازيهم على أعمالهم!! ذكر تعالى في هذه الآية، أربع صفات من صفات ذي العظمة والجلال: **الأول**: أنه غافر ذنوب العباد، **الثاني**: أنه قابل لتوبة من تاب إليه وأناب، **الثالث**: أنه شديد العقاب لمن طغى وفجر، **الرابع**: أنه المتفضل على العباد بأنواع النعم والكرم، لا لحاجةٍ إليهم، بل لمجرد أنه الربُّ (الرحيم الرحمن)، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿**لا إله إلا هو إليه المصير**﴾ روي أن عمر افتقد رجلاً من أهل الشام كان يحضر مجلسه، فقال للصحابة: ما فعل فلانُ بن فلان؟ قالوا يا أمير المؤمنين، تتابع في الشراب ـ الخمر ـ فلم نره منذ أيام، فدعا عمر كاتبه فقال: اكتب (من عمر بن الخطاب، إلى فلان بن فلان، سلامٌ عليك، أمَّا بعد: «**فإني أحمد إليك الله، الذي لا إله إلا هو ﴿غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير﴾** ثم قال لأصحابه: أدعوا الله لأخيكم أن يُقبل على الله بقلبه، ويتوب الله عليه!! فلما وصله كتابُ عمر، جعل يقرأه ويردِّده في نفسه، ويقول: ﴿**غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب**﴾ قد حذَّرني عقوبته، ووعدني مغفرته، فلم يزل يردّدها على نفسه وهو يبكي، ثم تاب وحسنت توبته، فلما بلغ عمرَ خبرُه، قال لأصحابه:

مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ

هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاً لكم زلَّ زلة، فسدِّدوه وادعوا الله له أن يتوب، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه) ذكره ابن كثير في تفسيره ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ أي ما يدفع الحقَّ، ويجادل فيه ويجادل في هذا القرآن بالطعن فيه، وبثّ الشبه والأباطيل في آياته البيِّنات، ، إلا الكفار الأشرار، فلا تنخدع بما هم عليه من النعيم، والسَّفر في البلدان للتجارات، وما بسط الله عليهم من الرزق، فإنما هو نعيم زائل، ومصيرهم إلى النار، كقوله سبحانه ﴿متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ ثم سلّى الله رسوله ﷺ عن تكذيب من كذَّبه من قومه فقال ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾ أي كذَّب قبل كفار مكة، أمم كثيرون كقوم نوح، وعاد، وثمود، وغيرهم، ممن تحزَّبوا على أنبيائهم وعادوهم، وحرصت كل أمة على قتل نبيِّها، وهمُّوا بالبطش بهم ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي جادلوا رسلهم بالباطل، ليبطلوا ويزيلوا الحقَّ الواضح المنير، فأخذتهم بالعقاب السريع، وأهلكتهم بالعذاب المريع، فكيف كان عقابي لهم؟ ألم يكن شديداً فظيعاً مريعاً!! ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي وجب وثبت عذاب الله، على الكفار الفجار، لأنهم أصحابُ النار، فكما أهلكنا المكذبين، من الأمم السابقين، كذلك نهلك قومك الطغاة المتجبِّرين ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ﴾ وبمقابلة الطغاة المجرمين، يأتي الحديث عن الملائكة المقربين، المحيطين بالعرش، أي حملة العرش، يطلبون للمؤمنين المغفرة من رب العزة والجلال،

رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾

قائلين ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي يقولون يا ربنا: وسعت رحمتُك وعلمك كل شيء، فاغفر لعبادك المؤمنين، الذين استمسكوا بدينك الحق، وتابوا عن الزلات والهفوات، ونجِّهم من عذاب جهنم الأليم، وفي هذا الثناء على الله، تعليمٌ للعباد أدبَ السؤال والدعاء، فقد بدءوا بالثناء عليه، فوصفوه بالرحمة والعلم ﴿وسعت كل شيء رحمةً وعلماً﴾ ثم طلبوا لهم المغفرة ﴿فاغفر للذين تابوا﴾ ليستمطروا فضله وإنعامه وإحسانه، ثم طلبوا لهم إكرامهم بدخول الجنان، مع ذرياتهم الصالحين فقالوا: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي أدخِلْهُمْ يا رب بفضل رحمتك وجودك، جنان النعيم التي وعدتهم بها، هم وذرياتهم وأزواجهم وآباءهم، الذين كانوا في الدنيا صالحين، ليتمَّ سرورهم باللقاء بهم، فإنك أنت ﴿العزيزُ﴾ أي الغالب الذي لا يمتنع عليه شيء، ﴿الحكيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا الحكمة والمصلحة، ثمَّ زادوا بطلب السلامة، والحفظ والرحمة لهم فقالوا ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي احفظهم ونجِّهم من كلِّ ما يسوءهم من العذاب والمكاره، فمن أُبعد عن نار جهنم، وأدخله الله الجنة، فذلك أعظم أنواع السعادة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ لمَّا تحدَّث عن دعاء الملائكة للمؤمنين، ذكر بعده شقاوة الكفرة المجرمين، وهم في موقف الذل والإخزاء المهين، **والمعنى**: وحين دخل الكافرون النار، ورأوا أعمالهم القبيحة، التي كانت سبباً لشقائهم، مقتوا أنفسهم وأبغضوها أشدَّ البغض، وأخذوا يقدِّمون المعاذير، فتناديهم زبانيةُ جهنم، على

قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾

وجه التقريع والتوبيخ: لبغضُ الله لكم في الدنيا، على جرائمكم الشنيعة، أعظم من بغضكم لأنفسكم الآن، وذلك حين كنتم في الدنيا تُدعون إلى الإيمان، فتأبون وتكفرون بالرحمن، فذوقوا اليوم العذاب الأليم!. وما أوجع هذا التوبيخ والتأنيب، في مثل هذا الموقف العصيب!؟ ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي قالوا معترفين بجرائمهم: يار بنا أمتَّنا إماتتين، وأحييتنا إحياءتين، فاعترفنا بذنوبنا ومعاصينا، فهل تخرجنا من النار، لنسلك طريق المؤمنين الأبرار؟ وغرضُهم من هذا الاستعطاف والاعتراف، أن يخفِّف الله عنهم العذاب، أو ينجيهم ويخلِّصهم منه، كأنهم يقولون: هل من سبيل ووسيلة للخروج من النار؟ وهل تردُّنا إلى الدنيا لنعمل بطاعتك؟ وسرعان ما يأتيهم الجواب، باليأس والإقناط، مع بيان سبب ذلك، فيقول سبحانه ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ أي لا أمل لكم في الخروج، وذلك العذاب الذي تلقونه، بسبب كفركم وعدم إيمانكم بالله، فقد كنتم إذا دعيتم إلى التوحيد تكفرون، وإذا دُعيتم إلى عبادة الأوثان، تُسرعون وتؤمنون، فلا نجاة ولا فوز، ولا خروج لكم من هذا العذاب، والحكم اليوم لله الكبير المتعال، الذي لا يظلم أحداً شيئاً!! والمرادُ بالموتتين في الآية ﴿أمتنا اثنتين﴾ الموتة الأولى حين كانوا في العدم، والموتة الثانية حين ماتوا بعد الحياة، عند انتهاء الأجل، وقد فسرتها آية البقرة ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم﴾ أي كنتم في العدم، فأحياكم الله وخلقكم، وأما الإحياءتين ﴿وأحييتنا اثنتين﴾ إحياءهم الحياة الأولى حين خرجوا من بطون الأمهات، والثانية إحياءهم بالبعث والنشور بعد الممات، فهاتان موتتان، وحياتان.. ثم يذكِّرهم تعالى بدلائل قدرته ووحدانيته، ليستيقظوا من غفلتهم، ويرجعوا عن كفرهم، فيقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ أي هو تعالى، يريكم دلائل قدرته ووحدانيته، بما تشاهدونه في هذا الكون، من روائع الخلق والإبداع، من شمس

فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾

وقمر، وليل ونهار، وبحار وأنهار، وغير ذلك من الآيات الناطقة بعظمته وجلاله، وينزِّل لكم المطرَ، ليخرج لكم به الزرع والثمر، وما يتعظ ويتذكر ويتدبر، بهذه الآيات الباهرة، إلا المؤمن الخاضع المنيب، ذو القلب الواعي المستنير ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أي اعبدوا أيها المؤمنون ربكم، مخلصين له العبادة والطاعة، ووحِّدوه، ولو اغتاظ من ذلك أعداء الله الكفار، الذين يكرهون دين الله ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ أي هذا الربُّ الجليل، هو عظيم الشأن والسلطان، صاحب الرتعة الكبير المتعال، وصاحب العرش العظيم، الذي أحاط عرشه بالسموات والأرض، ينزل الوحي على من شاء من خلقه، ليخوِّف عباده ذلك اليوم المشهود، الذي يلتقي فيه الخلائق جميعاً، المؤمنون والكافرون، والأبرارُ منهم والفجار، للحساب والجزاء!! وإنما سمَّى الوحي روحاً ﴿يلقي الروح﴾ أي الوحي، لأنه يسري في القلوب، سريان الروح في الجسد، و﴿يوم التَّلاق﴾: هو يوم القيامة، الذي يلتقي فيه المؤمنون والكفار، والأبرار والفجار ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أي يوم يكون الناس ظاهرين للعيان، مكشوفين أمام الأنظار، لا شيء يسترهم من حجاب أو بناء، لا يخفى على الله شيء من أحوالهم وأعمالهم، وينادي فيه ربُّ العزة والجلال: لمن الملك اليوم؟ ويسكت الخلائق والملوك، هيبةً لله تعالى وفزعاً، فيجيب تعالى نفسه بنفسه ويقول: ﴿لله الواحد القهار﴾ أي لله المتفرد بالملك، مِلكِ الملوك، الذي قهر كل كبيرٍ وعظيم، **قال الحسن البصري**: «هو تعالى السائلُ، وهو المجيب، لأنه يقول ذلك حين لا أحد يستطيع الجواب» وفي الحديث الصحيح «يطوي الله السموات والأرض بيمينه، ثم يقول: أنا الملكُ، أنا الجبار، أنا المتكبر، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟) رواه مسلم ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي في

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾

اليوم ـ يوم القضاء بين العباد ـ تُجازى كلُّ نفس بما عملت من خير أو شر، ولا يُظلم أحد شيئاً، لأن الحاكم فيه ربُّ العزة والجلال، وحسابه تعالى للخلائق سريع، لأنه لا يشغله شأن عن شأن، فكما يرزقهم في ساعة واحدة، كذلك يحاسبهم في ساعة واحدة ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي ذكّرهم وخوّفهم ذلك اليوم الرهيب، يوم (الحشر الأكبر) حين تكاد قلوبهم من شدة الخوف والجزع، تبلغ الحناجر ﴿كاظمين﴾ أي ممتلئين غمّاً وحسرة، شأن الخائف المكروب، ليس للظالمين في ذلك اليوم، صديق ينفعهم، أوشافع يشفع لهم، فينقذهم من العذاب!! والآزفةُ: اسم للقيامة لقرب مجيئها، من أزِف الشيءُ إذا اقترب ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ أي يعلم سبحانه النظرة الخائنة، ويعلم السرَّ المستور، وما تخفيه الصدور، لا تخفى عليه خافية، **قال ابن عباس**: «هو الرجل يكون جالساً مع الناس، فتمرُّ المرأةُ، فيسارقهم النظر إليها» ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي وربُّ العزة والجلال، هو الذي يقضي ويحكم بالعدل، عن علم وخِبرة، والذين يعبدونهم من دون الله، من الأصنام والأوثان، لا شأن لها في الحكم والقضاء، فكيف يكونون شركاء مع الله؟ وهذا تهكُّم بهم، لأن الجماد لا يُقال له: (يقضي أو لا يقضي)، لعدم العقل والإحساس ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ أي السميع لأقوال العباد، البصير بأفعالهم وأعمالهم، وهذا وعيدٌ للخلق ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾؟ أي أولم يسافر كفار مكة في البلدان، ليروا آثار المكذبين ممن سبقهم من الأمم؟ ليتَّعظوا ويعتبروا بما حلَّ بهم من العذاب والدمار؟ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي كانوا أشدّ

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ

قوةً من كفار قومك، وأقوى منهم آثاراً، حيث كانوا أصحاب حصون، وقصور، وجنود، فأهلكهم الله إهلاكاً فظيعاً، بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، ودمَّرهم تدميراً، مع ما كانوا عليه من القوة، ولم يجدوا من يقيهم ويحفظهم من عقابه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي ذلك العقابُ والإهلاك، بسبب أنهم كانت تأتيهم رسلهم بالمعجزات الباهرات، والآيات الساطعات الواضحات، فيكفرون بها ويهزءون من الرسل، فأهلكهم الله ودمرَّهم، إن عقابه تعالى للمجرمين شديد، وعذابه وجيع.. ثم ذكر تعالى نموذجاً للطغاة المكذبين للرسل، في قصة فرعون الجبار، مع موسى كليم الرحمن، بياناً لسنة الله في إهلاك الظالمين، فقال ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أي ولقد بعثنا رسولنا موسى، بالآيات والمعجزات الواضحات، إلى فرعون الطاغية الجبار، ووزيره «هامان» السفيه الأحمق، و«قارون» صاحب الكنوز والأموال، فقالوا عن موسى، بعدما شاهدوا تلك الروائع من المعجزات: إنه ساحر فيما أظهره من المعجزات، كذَّاب فيما ادعاه من الرسالة ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي فلما أظهر لهم موسى معجزته الباهرة، من (اليد، والعصا)، التي أيَده الله بها، قالوا اقتلوا ذكور بني إسرائيل لئلا يتناسلوا، واستبقوا النساء للخدمة ﴿وما كيد فرعون﴾، أي وما عملُ فرعون وتدبيرُه، إلاّ في خسار ودمار، لأن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي وقال فرعون الجبار لقومه: اتركوني حتى أقتل لكم موسى، ولْينادِ ربَّه حتى يخلِّصه مني!! وإنما قال ذلك للتمويه على

إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ

جماعته، وإيهامهم أنهم الذين كانوا يكفُونه عن قتله، وما كان يكفُّه إلاَّ شدةُ الخوف والفزع، من أن يعاجله الله بالعقاب، لأنه استيقن أنه رسول!! ثم يقول لهم في خُبث ومكر ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ أي إني أخاف أن يفسد عليكم دينكم، بترك عبادة ربكم الأعلى - يعني نفسه - أو أن ينشر في الأرض الفساد، بإثارة الفتن والقلاقل في بلادكم!! عجيبٌ والله مثلُ هذا المنطق الغريب؟ أن يصبح نبيُّ الله موسى الكليم «مفسداً» يخشى فرعونُ على شعبه من إفساده وفجوره، ويصبح فرعونَ «مصلحاً مرشداً»؟ كما يقول المثلُ السائر: «صار فرعونُ واعظاً»!! أليست هذه الكلمة بذاتها مقالةُ كل طاغية مفسدٍ، عن كل داعية مصلح؟ أليست هي السلاح الذي يحمله الطغاةُ لتبرير جرائمهم، في وجه كل مخلص غيورٍ على دينه ووطنه؟ وهل هناك أطرفُ أو أعجب، من أن يقول فرعون الطاغيةُ السفاح، عن نبي الله موسى الكليم: ﴿يظهر في الأرض الفساد﴾؟ ومتى صار موسى مفسداً، وفرعون مصلحاً؟ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي إني أستجير بالله، وأحتمي به، من شر كل جبار عنيد، مستكبر على الله، لا يؤمن ولا يصدِّق بالآخرة، ولم يقل: من شرِّ فرعون الذي توعَّده بالقتل، وإنما قال ﴿من كل متكبر﴾ ليشمل فرعون وزبانيته الطغاة المجرمين ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ أي قال رجل مؤمن، من أشراف فرعون من الحاشية، يخفي إيمانه من فرعون وقومه: أتقتلون رجلاً لا ذنب له، إلاَّ من أجل أن قال: ربي الله!! وقد أتاكم بالمعجزات الظاهرة التي شاهدتموها!؟ جاءهم بطريق النصح والملاطفة، ليبعد عنه التهمة، »أنه من أتباعه وأنصاره، فقال لهم ﴿أتقتلون رجلاً﴾ ولم يذكر اسمه، ليوهمهم أنه لا يعرفه، ثم قال ﴿أن يقول ربي الله﴾ ولم يقل: هو نبيُّ الله، أو هو رجلٌ مؤمن بالله، لئلا يشعروا أنه متعصب له، وكأنه يقول لهم: لنفرضْ أنه قال: ربي الله معتقداً بصحتها، فهل هذه الكلمة منه تستحقُّ القتلَ،

﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾

وإزهاقَ الروح؟ ومثلُ هذا فعل المشركون برسول الله ﷺ، فقد روى البخاري عن عُروة بن الزبير، أنه قال: (قلتُ لعبد الله بن عَمْرو بنِ العاص: أخبرني بأشدِّ ما صنع المشركون برسول الله ﷺ؟ قال: «بينا رسولُ الله ﷺ يصلِّي بفناء ـ أي صحن ـ الكعبة، إذ أقبل «عُقبةُ بن أبي مُعَيط» فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ؟ ولوى ثوبه في عُنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه، ودفع عن رسول الله ﷺ، وقال ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾؟ رواه البخاري في كتاب التفسير، ويتابع المؤمن معهم الحديث بدقة وحذر، فيقول ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ قدَّم الكذبَ على الصدق، موافقةً لرأيهم فيه ﴿وإن يك كاذباً فعليه كذبه﴾ أي إن كان كاذباً فإنه يتحمَّل تبعةَ كذبه، ويتحمل وزره، وليس هذا بمسوِّغ لقتله ﴿وإن يك صادقاً﴾ ولم يقل: هو صادق، أي وإن كان صادقاً في دعواه ﴿يصبكم بعضُ الذي يعدكم﴾ أي أصابكم بعض ما وعدكم به من العذاب، ولم يقل: أصابكم كلُّ ما وعدكم به، ولو قال ذلك لعلموا أنه متعصبٌ له، ثم أتبعه بكلام يُفهم منه أنه ليس بمصدِّق لموسى، وهو قوله ﴿إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾ وهذا القول منه، فيه منتهى الحكمة، وهو من (الأسلوب الحكيم) في مخاطبة الخصم، فظاهره أنه يريد به موسى، وحقيقتُه أنه يريد فرعون وحاشيته، إذْ هم في غاية الإسراف والفجور، والكذب على الله، حيث ادَّعى فرعون الألوهية، وصدَّقه أتباعه فعبدوه من دون الله، فهو المسرف الكذاب.. ثم يتابع مؤمنُ آل فرعون النصح والتذكير لهم، مع التلطف فيقول ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ أي لكم العلوُّ والغلبةُ في أرض مصر، على بني إسرائيل، وأنتم اليوم الحكامُ والملوك، وقد قهرتم بني إسرائيل واستعبدتموهم، فمن ينقذنا وينجينا من عذاب الله إن قتلتم رسوله؟ ونراه هنا يشرك نفسه معهم، فلم يقل: من ينصركم إن جاءكم العذاب، وإنما قال ﴿فمن ينصرنا﴾ وقال ﴿إن جاءنا﴾؟ ليشعرهم كأنه واحد من جماعة فرعون، وأن

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

أمرهم يهمُّه، فهو إذاً لهم ناصح أمين، يخاف عليهم كما يخاف على نفسه. . وهنا تأخذ فرعونَ العزةُ بالإثم، ويستبدُّ به الجبروت والطغيان ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي ما أشيرُ عليكم إلاَّ بهذا الرأي الذي قلتُه لكم، وهو (قتلُ موسى) لنتخلَّص من فتنته وشرِّه، ولستُ أدلكم إلاَّ على طريق الفلاح والرشاد، يقول ذلك متظاهراً بالشجاعة والقوة، وقد كذب عدوُّ الله، حيث كان في غاية الخوف والذعر من قتله، ولكنه كان يتجلَّد أمامهم، ولو كان له قُدرة لما استشار أحداً!! ويرجع المؤمن للتذكير بسوء العاقبة والمصير، إن أقدموا على قتل موسى، غير هائب من جبروت فرعون وطغيانه، فيقدِّم لهم النصح، ويخوِّفهم من عذاب عاجل يحلُّ بهم من الله ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي يذكِّرهم العذاب والدمارَ الذي أصاب الأحزاب، وهم الذين تحزَّبوا على رسل الله (كقوم عاد، وثمود، وقوم نوح، وصالح)، ومن جاء بعدهم من الأمم الطاغية، كيف أهلكهم الله بأنواع العذاب؟ بالغرق، والريح العاتية، والصيحة المدمرة!! كما قال سبحانه عنهم ﴿**فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ ثم يذكِّرهم عذاباً أشد من عذاب الدنيا، وهو عذاب الآخرة الفظيع الشنيع، فيقول لهم ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي أخاف عليكم ذلك اليوم الرهيب العصيب، الذي ينادي فيه المجرمون على أنفسهم بالويل والثبور، وهو يوم الحشر الأكبر، يوم تولون هاربين من هول جهنم، ولكنْ هَيْهاتَ، فقد أحاطت بكم جهنم من كل حانب، وليس لكم من ذلك اليوم مانع ولا دافع، ينجيكم

وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ

من عذاب الله ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ أي ولقد جاءكم نبي الله «يوسف بن يعقوب» من قبل موسى، بالمعجزات الواضحة، فلم تزالوا في شكٍّ من نبوته ورسالته، حتى إذا وافته المنية، قلتم: لن يأتي رسول من بعده!! ومرادهم نفي إرسال الله لأحدٍ من الرسل بعدَه بالكلِّية ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أي مثل ذلك الضلال، يضلُّ الله كل فاجر كافر، مسرفٍ في الفجور والطغيان.. ثم حذَّرهم من المجادلة بالباطل بدون حجة فقال ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ عدَل عن مخاطبتهم إلى أسلوب الخبر، لئلا يستفزَّ مشاعرهم، يقول لهم: من جادل في دين الله بغير حجة ولا برهان، فهو الشقيُّ الخاسر!؟ وكأنه يقول: لا تجادلوا رسول الله بغير علم ولا بالباطل ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ أي ما أبغضَ هذا الشيء عند الله وعند المؤمنين، أن يجادل الإنسانُ بغير برهان!!، وفي قوله ﴿كبر مقتاً﴾ ضربٌ من التعجب والاستعظام لأمره، كأنه يقول: ما أعظمه؟ وما أشدَّ قبحه!؟ ﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾ أي كما ختم الله على قلوب المجادلين في دين الله، كذلك يختم بالضلال، على قلب كل متكبر عن الإيمان، متجبِّر على عباد الله، فلا يعرف بعد ذلك معروفاً، ولا ينكر منكراً.. وبعد هذا النصح والتذكير من مؤمن آل فرعون، يبقى فرعون الجبار، سادراً في غيِّه وضلاله، ولكنه أمام هذه المواعظ والحجج، يتظاهر بأنه آخذٌ في التحقق، من دعوى موسى عليه السلام، وسيبحث عن هذا الإله الذي يدعو إليه موسى ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ أَسْبَٰبَ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلْأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾

ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ﴾ يطلب فرعونُ من وزيره «هامان» أن يبني له قصراً عالياً، عظيماً شامخاً رفيعاً ﴿لعلي أبلغ الأسباب﴾ أي لعلي أصلُ وأنتهي إلى طُرق السموات، فأنظر إلى إله موسى نظر عيان!! ومع هذا التصور السخيف للبحث عن الله، يجزم فرعون الطاغية بكذب موسى فيقول ﴿وإني لأظنه كاذباً﴾ أي وإني لأعتقد بأن موسى كاذبٌ، في ادعائه بأن له إلهاً غيري، وهذا يؤكِّد أن فرعون كان يريد التمويه على قومه، لأن بلوغ أبواب السماء مستحيل، ولكنه يتظاهر أمامهم بالبحث عن الإله ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ أي وكذلك زُيِّن لفرعون عمله السيء، ومُنع عن سبيل الرشاد، لمكره وخُبثه، ولهذا قال ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾ أي وما تدبيره ومكرُه، إلاَّ في خسار وهلاك، والتَبابُ معناه: الهلاكُ.. وبعد أن يئس المؤمنُ، من تليين قلب الطاغية، وزبانيته العتُاة الفُجَّار، دعا قومَه إلى الإيمان بالله الواحد القهار ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلْأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ أي اسلكوا طريقي في الإيمان، أهدكم إلى طريق الجنان، واعلموا أن هذه الدنيا، ليست إلا متاعاً زائلاً، ليس له ثبات ولا دوام، وأن الدار الآخرة هي دار الهناء والاستقرار ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٖ﴾ نبَّههم المؤمنُ إلى كرم الله وفضله على عباده، فقد اقتضى فضلُ الله تعالى أن تُضاعف الحسناتُ دون السيئات، فالسيئة يُجازى

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ۝٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٤٣﴾

الإنسان عليها بمثلها، أي بقدر سيئة واحدة دون زيادة عليها، وأما الحسنة فلا تتقدَّر بقدر، وإنما هي راجعةٌ إلى الفضل، فقد تكون عشراً، أو سبعين أو سبعمائة، ولهذا قال ﴿بغير حساب﴾ قال ابن كثير: أي لا يتقدر العطاءُ بجزاء، بل يثيبه الله ثواباً كبيراً، لا انقضاء له ولا نفاذ، بشرط الإيمان، سواءَ كان العاملُ للخير ذكراً أو أنثى.. ويستمرُّ المؤمن في نصحه وتذكيره لهم، ويستنكر ترددهم في اتباعه، فيقول ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾؟ أي ما لي أدعوكم إلى الإيمان، الموصل إلى دار الجنان، وتدعونني إلى الكفر والإشراك، الموصل إلى دركات الحجيم؟ والأسلوب هنا أسلوب تعجب من صنيعهم، هو يدعوهم إلى الجنة، وهم يدعونه إلى النار، وأراد بطريق النجاة ﴿أدعوكم إلى النجاة﴾ طريق الإيمان، وبطريق النار ﴿وتدعونني إلى النار﴾ الاستمرار على الشرك، وشتَّان بين دعوة الكفر، ودعوة الإيمان، فدعوة الكفر نابعة من ظلمات الجهل والضلال، ودعوة الإيمان، واضحة مستقيمة، لأنها دعوة العقل والحجة والبرهان، وأكد ذلك بقوله ﴿وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار﴾ أي أدعوكم إلى عبادة الواحد الأحد، (العزيز) الذي لا يُقهر ولا يُغلب (الغفار) لذنوب العباد ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي حقاً إن ما تدعونني إليه من عبادة فرعون، أو عبادةِ آلهة من الأوثان والأصنام، باطل وضلال، لأنها جمادات، لا تقدر على تفريج كربةٍ، ولا على جلب نفع، لا في الدنيا ولا في الآخرة، كما قال سبحانه عنها ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم﴾ ثم ذكَّرهم أن مرجع الخلائق كلهم، إلى الله الواحد الأحد فقال ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾أي مرجعنا جميعاً إلى الله وحده، فيجازي كل إنسان بعمله، وأمَّا المسرفون في الكفر والطغيان، فسيخلَّدون في نار جهنم، وهم أصحابها وملازموها

فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي فستذكرون صدق كلامي، حينما يحلُّ بكم العذاب، وأسلِّم أمري إلى الله، وأعتمد عليه في جميع أحوالي وشئوني، فهو سبحانه الذي لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد!! لقد قال كلمة الحق، دون مداهنةٍ ولا نفاق، وجهر بدعوة الإيمان في وجه الطغيان، ويظهر أن القوم هدَّدوه بالقتل، بل أرادوا فعلاً قتله، فنجَّاه الله من شرهم، ونزل بهم وبفرعون الجبار، أشدُّ أنواع العذاب والدمار ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ أي نجَّاه الله من شرِّهم، ومن مكائدهم الخبيثة، التي أرادوا إلحاقها به، ونزل بفرعون وجماعته أسوأ أنواع العذاب، وهو الغرق في الدنيا، والإحراق بنار الجحيم في الآخرة ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً﴾ أي صباحاً ومساءً، وهذه الآية تشير إلى (عذاب القبر)، لا إلى عذاب جهنم، أي يعذبون في القبور في الصباح والمساء، بدليل قوله بعده ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ ومعلوم أن القيامة لم تأت بعد، فكيف يخبر تعالى أنهم يُعرضون على النار، ويعذبون فيها؟ فهو إذاً عذاب قبل يوم القيامة، وهو عذاب القبر، **قال الحافظ ابن كثير**: وهذه الآيةُ أصلٌ كبير، في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وقد روى البخاري عن عائشة (أن يهوديةً دخلتْ عليها، فقالت: نعوذ بالله من عذاب القبر!! فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، فقال لها ﷺ: نعم، عذابُ القبر حقٌّ!! قالت عائشة: فما رأيتُ الرسول ﷺ صلَّى صلاةً إلاَّ وتعوَّذ فيها من عذاب القبر) رواه البخاري ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي واذكر حين يختصم الرؤساء والأتباع في نار جهنم، يتخاصمون ويتلاعنون، فيقول الضعفاء يعني الأتباعُ، للذين استكبروا وهم الرؤساء والقادة والكبراء: إنَّا كنا لكم في الدنيا أتباعاً

فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾

كالخدم، ننقاد لأوامركم، ونطيعكم في كل ما تقولون لنا ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾؟ أي فهل تدفعون عنا شيئاً من هذا العذاب الذي نحن فيه؟ وقد علموا أن الرؤساء لا قدرة لهم على ذلك، ومقصودهم تخجيلُهم، وإيلامُ قلوبهم بهذا الكلام ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ أي قال الرؤساء جواباً لهم: إنَّا جميعاً في نار جهنم، ولو قدرنا على دفع العذاب عنكم، لدفعناه عن أنفسنا، وقد تمَّ حكم الله علينا جميعاً بالخلود في نار الجحيم!! وحين ييأسُ أهلُ النار بعضُهم من بعض، يتوجهون إلى خزنة جهنم، في ذل وصغار، يطلبون منهم أن يسألوا الله تخفيف العذاب عنهم، ولو ليوم واحدٍ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي قالوا لحرَّاسها الموكلِّين عليها: أدعوا لنا الله أن يخفِّف عنا العذاب، ولو مقدار يوم واحد ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي أجابتهم الملائكة على وجه التوبيخ: ألم تأتكم الرسل بالحجج الواضحة، وتحذِّركم من عذاب الله؟ قالوا: بلى جاءونا!! فتقول لهم الملائكة مع السخرية والاستهزاء: فادعوا أنتم ربكم، فإنا لا نجترىء على ذلك، ولكنْ نبشِّركم أن دعاءكم لا يُجدي ولا ينفع، لأن دعاء الكفار في خسار وبطلان، لا يُقبل ولا يُستجاب!! وليس قولهم ﴿فادعوا﴾ لرجاء المنفعة، ولكن للدلالة على الخيبة، فإذاكان دعاء الملائكة المقربين فيهم لا يُسمع، فكيف يُسمع دعاء الكفار؟ ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ هذا وعدٌ من الله تعالى بنصرة رسوله ﷺ على أعدائه، أي إنَّا ننصر الرسل وأتباعهم المؤمنين في الحياة الدنيا بالحجة والظفر، وفي الآخرة حيث تكون النصرة على

يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

رءوس الأشهاد أعظم وأكبر، لأنها تكون بمحضرٍ من الملائكة، والأنبياء، والصدِّيقين ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي يوم لا ينفع المجرمين اعتذارهم لأنه باطل، ولهم الطردُ من رحمة الله، ولهم جهنم أسوأ مرجع ومصير!! ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي ولقد أعطينا موسى ما يُهتدى به من المعجزات، والأحكام، والشرائع، وأورثنا بني إسرائيل (التوراة) التي أنزلها الله على موسى، هدايةً وتذكرة لذوي العقول السليمة ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ أي فاصبر يا محمد على أذى المشركين، فإن وعد الله لك بالنصر، أمرٌ محقَّق، فكما نصر موسى على فرعون، سينصرك على أعدائك المشركين، وداومْ على ذكر الله، في المساء والصباح، فإنه عُدَّتك وسلاحُك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ﴾ أي إن الذين يخاصمون في آيات الله، ودلائل وحدانيته ووجوده، بغير حجة ولا برهان، ما في قلوبهم إلاَّ تكبرٌ عن قبول الحق، وطغيان وفجور يمنعهم من اتباعك، وليسوا بواصلين إلى مرادهم، من إطفاء نور الله ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي فالتجىءْ وتحصَّنْ بالله، من شرِّهم وكيدهم، فإن ربك هو السميع لأقوالهم، البصير بأحوالهم، ولن يضروك شيئاً ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي إنَّ خلقَ الله للسموات والأرضِ، أعظم وأضخم من خلق البشر، ولكنَّ

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ

الكثيرين لقصر عقولهم، لا يدركون ذلك، والغرضُ إثبات البعث، فإن الإله الذي خلق السموات والأرض، بهذا الشكل العظيم المدهش، كيف لا يقدر على إعادة الأجسام بعد فنائها؟ وهو الذي خلقها أولاً بنظام عجيب دقيق؟ ولكنْ لا يدرك هذا من كان أعمى البصيرة، فاقد العقل، ولهذا قال بعده ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ المراد بالأعمى هنا: (الكافرُ)، لأنه أعمى القلب، والمراد بالبصير: (المؤمنُ) المهتدي بنور الله، **والمعنى**: لا يتساوى عند الله المؤمن والكافر، كما لا يتساوى البرُّ والفاجر، ولا المحسن والمسيء، ولكنْ ما أقلَّ تذكُرَ البشر!! ولما كان الغرضُ التنبيه على البعث والنشور، لهذا ذكر تعالى أمر القيامة فقال ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ المراد بالساعة: القيامةُ، أي إن القيامة آتيةٌ لا محالة في ذلك، لا شكَّ ولا ريب في مجيئها، لإقامة العدل، والتفريق بين المحسن والمجرم، ولكنَّ الكفار الذين ينكرون البعث، لا يصدِّقون بمجيئها، وإنما قال ﴿**أكثر الناس**﴾ لأن الكفار هم كثرة كثيرة، والمؤمنون بالنسبة لهم قلة قليلة، والمنكرون للآخرة هم الكفار ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي قال ربُّ العالمين: ادعوني واعبدوني أستجب لكم دعاءكم، وأثبكم على طاعتكم وعبادتكم، إن الذين يتكبَّرون عن عبادة الله، سيدخلون جهنم أذلاء صاغرين، والمراد بالدعاء في الآية: العبادةُ، بدليل قوله ﴿**يستكبرون عن عبادتي**﴾ ويدخل في الآية الدعاءُ، والذكر، وسائر أنواع القُربات، فالعبادةُ أعمُّ من الدعاء، ومن تكبَّر عن عبادة الله، أهانه الله!! ثم ذكر تعالى من آثار قدرته ووحدانيته، ما يستلزم طاعته وعبادته وحده، وترك عبادة غيره، فقال سبحانه ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ

مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾

﴿مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ أي الله جلَّ وعلا بحكمته وقدرته، هو الذي جعل لكم الليل مظلماً، لتستريحوا فيه من تعب وعناء النهار، وجعل لكم النهار مضيئاً، لتتصرفوا فيه بطلب أسباب الرزق والمعاش، فالليلُ للراحة، والنهارُ للعمل، إنه تعالى هو المتفضِّل على العباد بما يحقِّق مصالحهم، وهو صاحب الجود والإحسان عليهم، ولكنَّ أكثر الناس لا يشكرون ربهم، على إنعامه وإحسانه ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ أي هو سبحانه المتفرِّدُ بالخلق والرزق، والإفضال والإنعام، لا معبود بحق إلاَّ هو، فكيف تُصرفون عن عبادة الخالق الرازق، إلى عبادة الأصنام والأوثان، وهي لا تسمع ولا تنفع؟ ﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ أي كذلك يصرف عن الهدى والإيمان، كلُّ من جحد بآيات الرحمٰن، فيُصرف عن الهُدىٰ إلى العمى ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ تذكيرٌ آخر بآلاء الله، وإحسانه على عباده، أي الله جلَّ وعلا جعل لكم الأرض، ممهَّدة صالحة لسكناكم، تبنون عليها الدور والقصور، وتمشون في مناكبها وأرجائها، وجعل السماء سقفاً محفوظاً، لا يمكن اختراقه، وهي كالقبة المبنية مرفوعة فوقكم، وصوَّركم فخلقكم في أجمل صورة، وأبدع شكل، متناسبي الأعضاء، منتصبي القامة، ولم يجعلكم كالبهائم، منكوسين تمشون على أربع، ورزقكم من أنواع اللذائذ والخيرات والثمرات ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي ذلكم الخالق المبدع، الفاعل لهذه الأشياء، هو ربُّ العزة والجلال، فتقدَّس وتمجَّد هذا الخالق العظيم، ربُّ جميع العالمين!! وليس معنى قوله تعالى ﴿جعل لكم الأرض قراراً﴾ أن

هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ

الأرض واقفة غير متحركة، كما فهم البعض، فالقرار هنا بمعنى: السكن، والاستقرار، كما قال ابن عباس: أي جعلها لكم منزلاً وسكناً، في حال الحياة، وبعد الموت، ولو كانت الأرض لا تدور في مقابلة الشمس، لما تعاقب الليل والنهار، فالشمس تدور، والأرضُ تدور، والنجوم تدور ﴿وكلٌ في فلك يسبحون﴾ ولولا دوران الأرض، لا نصَّبت مياه البحار والمحيطات، على اليابسة، فأهلكت الحرث والنسل، وغرق كل شيء على ظهرها من بشر وشجر، ومن هنا ندرك سرَّ تذكيرنا بإمساك الأرض ونعمة ذلك ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾ فالأرض مع دورانها، تمسكها يد القدرة الإلهية، عن الاصطدام والارتطام بالأفلاك الأخرى، ولو كانت ثابتة على شيء، لما احتاجت إلى إمساك، وقدوضحنا هذا في كتابنا «حركة الأرض حقيقة علمية أثبتها القرآن» وذكرنا الأدلة مفصَّلة واضحة ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي هو سبحانه المنفرد بالبقاء، والحياة الذاتية الحقيقية، وهو الباقي الذي لا يموت، فاعبدوه وحده مخلصين له العبادة، قائلين: الحمد لله رب العالمين، حمداً دائماً له على نعمة الخلق والإبداع.. ولمَّا بيَّن تعالى صفات الإله الحقِّ، العظيم الجليل، ذي القدرة الباهرة، نهى عن عبادة غير الله، فقال سبحانه ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي قل لهم: إن ربي العظيم الجليل، نهاني أن أعبد هذه الآلهة، التي تعبدونها من الأصنام والأوثان، حين جاءتني الدلائل الواضحة، والبراهين الساطعة، على وحدانية الله عزَّ وجل، فالعبادة لا تليق إلاَّ له، وجعلُ الحجارة المنحوتة، والأخشاب المصوَّرة شركاء له في المعبودية، مستنكر عند ذوي العقول السليمة ﴿وأمرت أن أسلم لرب العالمين﴾ أي وأمرني ربي أن أذلَّ وأخضع لله وحده، وأن أخلص له ديني، فلا أعبد أحداً سواه!! وتتابع السورة ذكر الأدلة على وحدانية الله ووجوده، فيقول سبحانه ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ﴾

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

أي هو جلَّ وعلا الذي خلقكم أيها الناس في أطوار وأدوار، فخلق أصلكم آدم من تراب، ثم خلق ذريته من النطفة، وهي «المنيُّ» أي الماء المهين، ثم من علقة وهي التي تعلق بجدار الرحم، ثم بعد تلك الأطوار، يخرج من بطن أمه طفلاً ضعيفاً، ثم لتبلغوا سنَّ الشباب وكمال الرشد والعقل، ثم لتصبحوا شيوخاً في سن الهرم ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي ومنكم من يُتوفَّى قبل سنِّ الشيخوخة، ولتصلوا إلى الزمان الذي حُدِّد عمراً لكل إنسان، وهو وقت الموت، ولكي تعقلوا دلائل قدرته سبحانه ووحدانيته!! لقد مرَّ خلق الإنسان في أطوار عجيبة، وهو مظهر (القدرة الباهرة)، فإن خلق الإنسان من تراب منتهى «الإبداع والإعجاز» فإن أهل الأرض جميعاً لو اجتمعوا على خلق ذُبابةٍ أو بعوضة ما استطاعوا، فكيف بخلق إنسان له عقل، وسمع، وبصر، وإدراك، من ترابٍ جامد!؟ ولكنها القدرة الفائقة التي تفعل العجائب، ولهذا قال بعده ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي هو سبحانه القادر على الإحياء والإماتة، يحيي الأموات، ويميت الأحياء، ولا يحتاج الأمر إلى مُدة، ولا إلى مشقة وكُلفة، بل بلمح البصر، يقول للشيء: كن فيكون!! وهذا تمثيل لكمال قدرته، وتصوير لسرعة وجودها، فالذي يوجد الشيء بهذه الصورة السريعة، كيف يعجزه أن يعيد الإنسان، إلى الحياة بعد موته، وهو الذي أوجده من العدم؟.. ثم عادَ الحديث عن الكفرة المنكرين للبعث، المجادلين في آيات الله بالباطل، فقال سبحانه بأسلوب التعجيب: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ أي ألاَ تعجب أيها العاقل، إلى أمر هؤلاء الجهلة، الغافلين عن قدرة الله؟ الذين يجادلون بالباطل، فيقولون: كيف يحيينا الله بعد أن نصبح تراباً ورفاتاً؟ مختلطاً بذرات الأرض؟ ويجهلون أن الذي خلقهم من العدم، قادر على أن يعيدهم بعد الموت!! وقوله سبحانه ﴿أنى يُصرفون﴾ أي كيف تُصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال؟ ثم فصَّلهم وبيَّنهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي

إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾

هم الأشقياء الذين كذبوا بالقرآن، وبالكتب السماوية المنزلة على الرسل، فسوف يعلمون عاقبة هذا التكذيب، والمجادلة بالباطل في آيات الله!! وهذا وعيدٌ وتهديد شديد.. ثم ذكر تعالى ما أعدَّ لهم من العذاب الأليم، في نار الجحيم، فقال سبحانه ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي حين يدخلون نار جهنم، وتُربط أيديهم مع أعناقهم بالأغلال والسلاسل الحديدية، ويسحبون بتلك السلاسل والأغلال، كما تُسحب البهائم الميتة، يُسحبون إلى الشرب من الحميم، وهو الماء الحار، الذي وصل إلى نهاية الحرارة ﴿وسُقوا ماءً حميماً فقطَّع أمعاءهم﴾ ثم يحرقون في نار جهنم المستعرة، وهذا نهاية الإهانة والإذلال لهم، لأنهم تكبروا عن آيات الله، ومعنى ﴿يسجرون﴾ من سَجَر النار بمعنى أوقدها، فتكون أجسامهم وقوداً للنار يحرقون بها، **قال ابن كثير**: ومعنى الآية: أن السلاسل متصلة بالأغلال التي بالأعناق، وهي بأيدي الزبانية، يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم، وتارة إلى الجحيم، كما قال تعالى: ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾، ويُقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ هل ينصرونكم اليوم؟ أدعوها لتنقذكم من هذا العذاب الأليم!! ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي يقول الأشقياء: لقد غابوا عنا فلم نرهم، ولم ينفعونا!! بل لم نكن نعبد شيئاً!! جحدوا عبادتهم لها، وإنما فعلوا ذلك لحيرتهم واضطرابهم، وظنهم أن الكذب قد ينفعهم، كما أقسموا في موطن آخر أنهم ما عبدوها ﴿والله ربنا ما كنا مشركين. انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ قال تعالى مبيناً سوء عاقبتهم الوخيمة ﴿كذلك يضل الله الكافرين﴾ أي كما ضلُّوا في الدنيا عن طريق الإيمان، يضلهم الله في الآخرة عن الجواب الصحيح، فيكذبون ولا يدرون أن هذا الكذب يزيد في عذابهم!! ثم يوجه إليهم التأنيب الأخير: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي ذلكم العذاب الشديد، بسبب طغيانكم

ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾

وفجوركم في الدنيا، وبسبب بطركم وخيلائكم، حيث كنتم تتكبرون عن آيات الله، وتهزءون وتسخرون منها ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي ادخلوا من أبواب جهنم السبعة، المقسومة لكم، كما قال سبحانه ﴿وإن جهنم لموعدهم أجمعين. لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم﴾ ماكثين فيها أبداً من غير خروج ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي بئست جهنم مقراً وسكناً للطغاة، المستكبرين عن طاعة الله، واتّباع رسله، فبسبب الاستكبار كانت هذه المهانة، وجزاءً على التكبر كان هذا التحقير، ثم يأتي الأمر للرسول ﷺ، بالصبر على ما يلقاه من الأذى، من أولئك الكفرة المجرمين، فيقول سبحانه ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي فاصبر يا محمد على تكذيب قومك لك، فإن وعد الله بتعذيبهم كائن لا محالة، فإن أريناك بعض ما وعدناهم به من العذاب، لنقرَّ به عينك، فذاك هو المطلوب، أونقبضك إلينا قبل عذابهم، فأمرهم إلينا لنجازيهم بأعمالهم!! وهذا توجيه للدعاة، أن يتأسوا برسول الله ﷺ، فإذا كان الرسول الكريم، يأمره ربُّه بعدم انتظار النتائج، وأن عليه أن يبلِّغ دعوة الله، وأمرُ العباد إلى الله، إمَّا أن ينتقم منهم في حياة الرسول، أو يؤخر عقوبتهم إلى ما بعد وفاته!! وكأن الآية تقول: أدِّ يا محمد واجبك، واترك الأمر إلى الله، فهو الذي يجازيهم على ما فعلوا!! ثم يأمره الباري بالتأسي بالأنبياء السابقين، في الصبر وتحمل الشدائد، فيقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ أي منهم من أخبرناك عن قصصهم مع أقوامهم، ومنهم من لم نخبرك عن أخبارهم وأحوالهم، فتأسَّ بهم في الصبر على ما ينالك ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي لا ينبغي لأيِّ رسول، أن يأتي قومَه بما اقترحوا عليه، من الخوارق والمعجزات، إلا بأمر الله تعالى وإذنه!! ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي فإذا جاء وقت عذابهم وهلاكهم، أهلكهم الله ودمَّرهم، وخاب وخسر في

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

ذلك الحين المبطلون، المقترحون للمعجزات، على سبيل التعنت والعناد!. والآية ردٌّ على المشركين حيث اقترحوا على رسول الله ﷺ أن يقلب لهم جبل الصفا إلى ذهب، وأن يشقَّ لهم في مكة الأنهار، ويزيل عنهم الجبال، وتصبح بلادهم سهولاً فسيحة ومروجاً، فنزلت تردُّ عليهم، وتبين أن مهمة الرسول ليست إجابة المقترحات ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي خلق لكم (الإبل، والبقر، والغنم)، وهي الأنعام، لتركبوا على ظهور بعضها، وتأكلوا من لحومها وألبانها ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أي ولكم في هذه الأنعام منافع عديدة، من الوبر، والصوف، والشعر، واللبن، والسمن، والزبد، وغير ذلك، ولتبلغوا عليها قضاء حوائجكم، من حمل الأثقال، في الأسفار البعيدة، قبل أن تظهر وسائل النقل الحديثة، من سيارات وطائرات، ومراكب كهربائية، وعلى الإبل في البر، وعلى السفن في البحر تُحْملون، فهي لكم مراكب بريَّة، ومراكب بحرية، والفُلْكُ في اللغة: السفن ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ أي ويريكم الله بعض آثار قدرته وعظمته، في مخلوقاته التي خلقها وأوجدها، فأيَّ آية من تلك الآيات الباهرة تجحدون؟ (الأفلاك، الجبال، البحار، الأنهار، الطيور، الأنعام) كلُّها من آيات الله، فلماذا لا تفكِّرون في آثار قدرته التي خلق بها هذه الأشياء؟ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي أفلم يسافروا في أنحاء الدنيا، ليعرفوا عاقبة المتكبرين المتمرِّدين على الله، وماذا صنع الله بهم؟ بسبب كفرهم وتكذيبهم رسل الله؟ ﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي كانوا أكثر عدداً من طغاة مكة، وأقوى منهم قوة، وأشد بأساً واستعلاء في الأرض، فما نفعهم ذلك شيئاً، ولم تعصمهم قوَّةٌ ولا كثرةٌ ولا عمران،

فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

مما كانوا يفخرون به ويغترُّون!؟ ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي فلما جاءتهم الرسل بالمعجزات، استكبروا عن اتِّباعهم، وفرحوا بماعندهم من العلوم فَرَح أَشَرٍ وبَطَر، فأخذهم الله وأهلكهم، ونزل بهم جزاء الاستهزاء برسل الله ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ أي فلما عاينوا العذاب، آمنوا وخضعوا واستسلموا، وأقرُّوا بعظمة الله ووحدانيته، وكفروا بالأوثان والأصنام ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي لم ينفعهم ذلك الإيمان حين شاهدوا العذاب، وتلك هي سنة الله وشريعته في أهل الكفر والضلال!!.

انتهى تفسير سورة غافر

● ● ●

﴿حمٓ ① تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ② كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ③ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ④ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ⑤ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾

تفسير سورة فصلت

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿حمٓ﴾ الحروف الهجائية المقطَّعة، للتنبيه على إعجاز القرآن، وأنه مركّب من أمثال هذه الحروف الهجائية، وقد جعله الله معجزة لخاتم الأنبياء ﷺ وهذا القرآن المنزل عليك يا محمد، هو تنزيل الإله الجليل، منزَّلٌ من الرحمٰن الرحيم، أنزله جلَّ وعلا رحمة بالعباد، وهو كتاب جامع للمصالح الدينية والدنيوية، بُيِّنَتْ معانيه، ووُضحت أحكامه، عن طريق المواعظ، والأحكام، والأمثال، والقصص، بلسانٍ عربي مبين، لقوم يفهمون دلائل البيان الإلهي ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ أي مبشراً للمؤمنين بجنات النعيم، ومنذراً للكافرين بعذاب الجحيم، ولكنْ أعرض أكثر المشركين عن تدبر آياته، فهم لا يسمعون ما فيه من الحجج والبراهين ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ أي قال الأشقياء من كفار مكة: قلوبنا في أغطية متكاثفة، لا يصل إليها شيء ممَّا تدعونا إليه، من التوحيد والإيمان، وفي آذاننا صممٌ فلا نسمع دعوتك، ومن بيننا وبينك حاجزٌ يحول بيننا وبين الإيمان، فافعل ما شئت، فإننا مستمرون على عبادة الأصنام والأوثان!! والآية وردت مورد التمثيل لطغيانهم وفجورهم، فقد كانت حواسهم سليمة، ولكنهم أصبحوا لا يفقهون ولا يفهمون، كأن قلوبهم وأسماعهم قد طُمس عليها، فهي لا تسمع ولا تفقه، وكأن بينهم وبين الرسول حُجُباً وحواجز ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي قل يا أيها الرسول لهؤلاء المشركين: أنا لستُ

فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾

إلاَّ بشراً مثلكم، خصَّني الله بالوحي والنبوة، فأنا أدعوكم إلى توحيد الله وعبادته، بأن تؤمنوا بالرحمٰن، وتتركوا عبادة الأوثان، فليس في الوجود، إلا الإلهُ الحقُّ المعبود، وهو إله واحد ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ أي توجهوا إلى ربكم، بالطاعة والاستقامة على دينه، واطلبوا منه المغفرة لذنوبكم، وهلاكٌ ودمار للمشركين، الذين لا يؤمنون بالله الواحد القهار، ومن صفاتهم القبيحة أنهم لا يفعلون الخير ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ أي جمعوا مع الكفر، الشحَّ والبخل، فهم لا يؤدُّون زكاة أموالهم، عوناً للفقراء والمساكين، ولا يعبدون الله ربَّ العالمين، ويكفرون بلقاء الله وبالبعث والنشور!! قرن تعالى بين الكفر، والامتناع عن أداء الزكاة، لينبِّه على عظم جريمة من منع حقَّ الفقير والمسكين، ثم مدح المؤمنين الذين يعملون الصالحات، فقال سبحانه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي لهم في الآخرة أجر دائم، غير مقطوع عند ربهم، ومعنى الممنون في اللغة: المقطوع المبتورُ.. ثم ذكَّرهم تعالى بدلائل القدرة والوحدانية فقال سبحانه ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ الأسلوب فيه إنكارٌ وتعجبٌ وتوبيخ للمشركين، يتعجب منهم القرآن، فهم يكفرون بالرحمٰن، ويشركون معه الأوثان، مع تيقنهم أن الله وحده هو خالق الكون، والمعنى: كيف تكفرون بالله، وتجعلون له شركاء، وهو الخالق المبدع، الذي خلق الأرض في مقدار يومين؟ فكيف يجوز في العقل، جعل الأصنام الخسيسة، شركاء مع الله في الألوهية؟ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي جعل في الأرض جبالاً شامخة ثابتة، لتحفظ توازن الأرض في حركتها ودورانها، وبارك في هذه الأرض، فأكثر خيرَها بالزروع والثمار، والعيون والأنهار، وقدَّر فيها أرزاق الخلق ومعاشهم، في تمام أربعة أيام،

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

لمن سأل عن الأرض، كيف خُلقت؟ وكيف تمَّتْ فيها الحياة؟ وسمَّى القرآن الجبالَ «رواسي» وهي كذلك ترسي الأرض لئلا تميد بالبشر، وتحفظ التناسق بين قاعات البحار، وشواهق الجبال، فتتوازن ولا تتأرجح بالبشر، ولهذا قال في آية أخرى ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾ أي خشية أن تضطرب بكم!! ولقد كان المظنون أن الأرض ثابتة راسخة على قواعد متينة، ثم جاء عصر الأقمار الصناعية، وهو عصر ظهور «معجزة القرآن» فصوَّروا الأرض وهي كرة صغيرة، سابحة في فضاء واسع، لا تستند إلى شيء، كبقية الأفلاك والكواكب، والقدرة الإلهية تمسكها، لئلا تتيه في أعماق الفضاء، أو تتأرجح بمن فيها وتسقط هي والسماء ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أي ثم قصد إلى السماء وهي بهيئة الدخان، فبناها وسوَّاها بقدرته، وأحكم بناءها، وقال للسماء والأرض: استجيبا لأمري طائعتيْن أو مكرهَتَيْن؟ قالت السموات والأرض امتثلنا أمرك طائعين، وفي هذه الآية سرٌّ عجيب، من روعة (التعبير والبيان)، تشير إلى انقياد هذا الكون، لأمر خالقه ومبدعه، كانقياد العبد لسيده، والجندي لقائده، وقد عبَّر عن هذه الطاعة، بتمثيلٍ رائع بديع، يجعل من الجماد، كأنه إنسان عاقل، يُؤمر فيسمع ويطيع، على حدِّ قول العرب (قال الحائطُ للمسمار لمَ تَشُقُّني؟ قال: سلْ من يدُقني)؟ والغرض من الآية تصوير نفوذ قدرته في المخلوقات، بصورة (العبد المطيع)، الذي لا يقوى على مخالفة أمر سيِّده، **وقال ابن عباس**: قال الله تعالى للسماء: اطلعي شمسك، وقمرك، ونجومك، وقال للأرض: شقّقي أنهارك، وأخرجي ثمرك وشجرك، طائعتَيْن أو مكرهتَيْن؟ قالتا: أتينا أمرك بالاستجابة والطاعة ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ أي أبدع خلقهن، وأحكم صنعتهنَّ. فجعلهن سبع سموات، في وقت مقدَّر بيومين، فتمَّ خلق السموات والأرض في مدة ستة أيام، من أيام الدنيا، ولو شاء لخلقهنَّ ـ كما قال ابن عباس ـ بلمح البصر، ولكنْ أراد أن يعلِّم عباده الحلم، والأناة، ونظَّم سبحانه ورتَّب في كل سماءٍ ما تحتاج إليه، من الملائكة، والأوامر، والتكاليف التي كُلفت بها الملائكة الأبرار ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي وزيَّنا السماء

﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

الأولى القريبة منكم، بالنجوم المنيرة المضيئة، التي تنير لأهل الأرض الطرق في الليل، وجعلناها حَرساً من الشياطين، أن تسترق السمع، ذلك الخلقُ والإبداعُ، هو من صنع الرب الجليل، (العزيز) في (ملكه)، العليم بمصالح عباده ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ هذا وعيد وتهديد لكفار قريش، أي فإن أعرضوا عن الإيمان، بعد هذه الدلائل والبراهين الساطعة، فقل لهم يا أيها الرسول: إني أخوِّفكم وأحذِّركم من نزول كارثة عليكم، صاعقة تدمِّركم كصاعقة قوم عاد، وثمود، يعني: عذاباً هائلاً شديدَ الوقع، كأنه صاعقة تحلُّ بكم ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي حين جاءتهم الرسل لهدايتهم، تدعوهم إلى توحيد الله، من جميع الجهات والأطراف، واجتهدوا فيهم بالنصيحة والإرشاد، والترغيب والترهيب، ليعبدوا الله وحده، ويتركوا ما هم عليه من الوثنية والإشراك ﴿قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي قالوا على سبيل الاستهزاء: لو شاء الله إرسال رسولٍ، لجعله مَلَكاً لا بشراً، وأنتم بشر مثلنا، فكيف نصدِّق أن الله أرسلكم إلينا؟ ثم أعلنوا كفرَهم بكل وقاحة فقالوا: نحن كافرون برسالتكم لا نؤمن بكم ولا نصدِّقكم؟ وفي قولهم ﴿بما أرسلتم﴾ ضرب من التهكم والسخرية برسل الله، لأنهم أعلنوا تكذيبهم لرسالتهم.. روي أن النبي ﷺ كان ذات يوم جالساً في المسجد الحرام، وقريش مجتمعون في ناديهم، ومعهم (عُتبة بن ربيعة) فقال لهم عُتبة يا معشر قريش: ألاَ أقوم إلى محمد فأكلِّمه، وأعرضُ عليه أموراً، لعله يقبل بعضها، فنعطيه إيَّاها ونكفُّ شرَّه عنَّا؟ فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم إليه بنفسك وكلِّمه!! فجاء إليه «عُتبة» حتى جلس إلى جواره، فقال يا ابنَ أخي: إنك منَّا حيثُ علمتَ، من الرفعةِ في العشيرة، والمكانِ في النَّسب، وإنك قد أتيتَ قومك بشيء عظيم، فرَّقتَ به جماعتهم، وسفهت به عقولهم، وعبتَ به آلهتهم ودينهم، وكفَّرتَ به من مضى من آبائهم، فاسمع مني بعضَ أمور أعرضها عليك، لعلك تقبل بعضها!!

فقال له الرسول ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع!!

فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً

فقال يا ابن أخي: إن كنت تريد بهذا الأمر مالاً، جمعنا لك حتى تكون أكثرنا مالاً!!

وإن كنتَ تريد مُلْكاً، جعلناك ملكاً علينا، ووضعنا على رأسك تاج الملك!!

وإن كنتَ تريد به شرفاً، سوَّدناك علينا ـ أي جعلناك سيداً ـ حتى لا نقطع أمراً دونك!!

وإن كنت تريد النساءَ، زوَّجناك أجمل بناتنا ما شئت منهن!!.

وإن كان هذا الذي يأتيك رئْياً ـ يعني شيطاناً ـ بذلنا فيه أموالنا حتى تُشفى منه!!

حتى إذا انتهى من حديثه، قال له الرسول الكريم: أفرَغتَ يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاستمع منّي، فقرأ عليه رسول الله ﷺ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. حمٓ. تنزيل من الرحمٰن الرحيم. كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون. بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾ ومضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه، و«عُتبة» ينصتُ إليه، حتى بلغ قوله تعالى ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ فوضع عُتبةُ يده على فم النبي ﷺ وناشده الرحم أن يكفَّ!! ورجع إلى قومه متغيِّر اللون، متأثراً بما سمع من كلام الله، فلما وصل إليهم، قال بعضهم لبعض: نحلف لكم بالله، لقد جاءكم (أبو الوليد) بغير الوجه الذي ذهب فيه، وما نُراه إلاَّ صَبَأ!! ـ يعني دخل في الإسلام ـ فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: واللهِ لقد سمعتُ قولاً ما سمعتُ مثله قطُّ، واللهِ ما هو بالسحر، ولا بالشعر، ولا بالكهانة!! يا معشر قريش: أطيعوني واجعلوها إليَّ، خلُّوا بين الرجل وبين دعوته، فوالله ليكوننَّ لقوله الذي سمعت نبأ!! فقالوا: والله يا أبا الوليد لقد سحرك محمد بلسانه، فقال: هذا رأي، فاصنعوا ما بَدَا لكم) اهـ. تفسير ابن كثير ٤/ ٩٨.

ثم فصَّل تبارك وتعالى ما حلَّ بأولئك الأقوام، المكذبين للرسل، فقال سبحانه ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟ أي فأمَّا الأشقياء من قبيلة عاد،

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾

فتعظَّموا وتكبَّروا عن قبول الحق، واغتروا بقوَّتهم فقالوا: لا أحدَ أقوى منَّا، وقالوا معتزين بقوتهم ﴿من أشدُّ منا قوة﴾؟ لأنهم كانوا ذوي أجسام طويلة، وقوة عظيمة، وبلغ من قوتهم، أن الواحد منهم يقتلع الصخرة من الجبل، فيحملها في يده، وإذا مشوا ترتجُّ الأرض تحت أقدامهم، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي هل غفلوا عن قدرة الله، حتى قالوا: من أشد منا قوة؟ ونسوا أن الخالق الذي خلقهم بهذه الأجسام الضخمة، هو أشدُّ منهم قوة؟ ومن هم بالنسبة إلى عظمة الله وقوته؟ ﴿وكانوا بآياتنا يجحدون﴾ أي عرفوا أن ما جاءهم به رسولهم «هود» حقٌّ، ولكنهم جحدوا رسالته، فجمعوا بين (الإنكار) و(الاستكبار)، فكانوا فسقة فَجرة!! ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ أي فأرسلنا عليهم ريحاً باردة، شديدة الصوت، وشديدة البرد، تُتلف وتهلك بشدة صوتها وبردها، في أيام مشئومات غير مباركات، ليس فيها شيء من الخير ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي لكيْ نذيقهم العذاب المخزي المهين في الدنيا، الذي يُذلُّهم ويهينهم، لأنهم استكبروا، فجازاهم الله بالخزي والهوان، والذل والصَّغار، ولعذابُهم في الآخرة، أشدُّ وأفظع، وأعظم وأوجع، وليس لهم من ينجيهم من عذاب الله ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي وأمَّا قبيلة ثمود، قوم «صالح» فدللناهم على الحق، وبينَّا لهم طريق الهدى والسعادة، فاختاروا الضلالة على الهدي، وآثروا الكفر على الإيمان، فالمراد بالعمى هنا: «الكفر والضلال» وعقروا الناقة التي كانت معجزة لرسولهم «صالح» عليه السلام ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي فأهلكناهم بالصيحة المدمِّرة، التي قطعتْ قلوبهم، وأخمدتْ أنفاسهم، وبالرجفة والزلزلة، التي جعلتهم صرعى لا حَرَاك لهم، مع الإهانةَ والإذلال لهم، بسبب إجرامهم وطغيانهم، وتكذيبهم لنبي الله «صالح» عليه السلام، **قال ابن كثير**: بعثَ الله عليهم

وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾

صيحةً، ورجفةً، وذلاً وهواناً، وعذاباً ونكالاً، بتكذيبهم لصالح، وعقرهم الناقة، وإصرارهم على الكفر والجحود ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ أي ونجينا صالحاً ومن آمن به، من تلك الصيحة والصاعقة، ومن ذلك العذاب المهين، لإيمانهم وتقواهم لله عزَّ وجل ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي اذكر يا أيها الرسول، يوم يُجمع أعداء الله الكفرة المجرمون، في أرض المحشر، يُجمعون كقطيع من البقر والأغنام، لسوقهم إلى نارجهنم ﴿فهم يوزعون﴾ أي يُحبس الأوائل على الأواخر، ليتلاحقوا ويجتمعوا، وتسوقهم زبانية جهنم إلى نار الجحيم، كما يُساق المجرمون في الدنيا إلى السجون ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي حتى إذا حضروها ووقفوا للحساب، رشاهدوا الأهوال والشدائد، أنكروا الكفر والإجرام وقالوا ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ فحينئذٍ يختم الله على أفواههم، وتنطق جوارحهم بما اقترفوه من آثام وإجرام ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي وقالوا: لأعضائهم وجلودهم: لم أقررتم علينا، وشهدتم بما فعلنا؟ قالوا: ليس ذاك باستطاعتنا، وإنما أنطقنا اللهُ رغماً عنَّا، الذي ينطق الجمادَ والإنسانَ والحيوان، فشهدنا عليكم بما فعلتم من القبائح ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي الذي أنطقنا هو الذي خلقكم، وأنشأكم من العدم، ثم أعادكم إلى الحياة مرة ثانية، فهذا الإله الكبير، لا يُتعجب من إنطاقه لجوارحكم، وإليه مرجع جميع الخلق، للحساب والجزاء!! يا لَلْخزيِ والعار!! ويا لَلْفضيحة والمهانة!! لم يكن في حساب هؤلاء الفجرة ـ أعداء الله ـ أن تشهد عليهم أيديهم، وأرجلهم، وسمعُهم وأبصارهم، فقد كانوا في الدنيا في مأمنٍ عن الحسيب والرقيب، وها هم اليوم يفاجأون بالأمر المدهش الغريب، لقد انعقدت ألسنتهم، ونطقت جوارحهم وأعضاؤهم، فشهدت عليهم بما اقترفوه في الدنيا، من المعاصي والآثام، وأصبحوا في موطن الذل والهوان!! **روى الإمام مسلم عن أنس** رضي الله

وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ

عنه أنه قال: (كنا عند رسول الله ﷺ فضحك!! فقال هل تدرون مِمَّ أضحك؟ قلنا: الله ورسولُه أعلم!! قال من مخاطبةِ العبد ربه، يقول: يا ربِّ!! ألم تُجرني ـ أي تحمني ـ من الظلم؟ فيقول الله: بلى، فيقول العبدُ: إني لا أُجيز ـ أي لا أقبل ـ على نفسي إلاَّ شاهداً مني!! فيقول الله له: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام البَرَرَة ـ الملائكة ـ شهوداً!! فيختم على فمه فيقال لأركانه ـ أي جوارحه ـ انطقي، فتنطق بأعمالها!! ثم يخلَّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعْداً لكنَّ وسُحقاً، فعنكنَّ كنت أناضلُ) أي أدافع، رواه مسلم ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي ما كنتم تستخفون في الدنيا عند مباشرتكم الفواحش، لأنكم لم تظنوا أن أعضاءكم وجوارحكم ستشهد عليكم!! لذلك ما استخفيتم منها ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي لأنكم كنتم لا تعتقدون أن الله يعلم أفعالكم، فلذلك اجترأتم على المعاصي وارتكاب الآثام ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ أي وهذا الظنُّ القبيح بربكم، أنه لا يعلم أفعالكم وأعمالكم، هو الذي أوقعكم في الهلاك والدمار، وأوردكم عذاب النار ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي فخسرتم سعادتكم وآخرتكم، وذلك تمام الشقاء والخسران ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ أي فإن يصبروا على العذاب، فنارُ جهنم مسكنُهم ومنزلهم، وإن يطلبوا إرضاء ربهم، ﴿فما هم من المعتبين﴾ أي المرضيِّين المقبول اعتذارهم، فقد مضت الدنيا، فلم يعد هناك عتاب ولا متاب!! يقول العربُ: استعتبتُه فأعتبني، أي استرضيتُه واعتذرتُ إليه فأرضاني!! **ورُوي عن ابن مسعود أنه قال:** (اجتمع عند البيت قرشيان وثقفي، قليلٌ فقهُ قلوبهم، كثير شحم بطونهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ فقال أحدهم: يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا!! فأنزل الله عزَّ وجل ﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم..﴾ الآية، رواه البخاري، ثم قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي هيأنا لأولئك الأشقياء المجرمين،

وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟

قرناء سوء من شياطين الإنس، فحسَّنوا لهم أعمالهم القبيحة، وزيَّنوا لهم المعاصي، حتى ظنوا أنفسهم محسنين ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ أي وثبت وتحقَّق عليهم القضاء المحتَّم بشقائهم، في جملة أممٍ من الأشقياء المجرمين، كانوا قد سبقوهم وأجرموا مثلهم، من شياطين الإنس والجن، وبسبب شقائهم استحقوا العذاب الأبديَّ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي قال رؤساء الضلالة من كفار قريش: لا تستمعوا لمحمد إذا قرأ القرآن، وارفعوا أصواتكم بالصياح عند تلاوته، حتى تغلبوه فلا يدري ما يقول!! ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي فوالله لنذيقنَّ هؤلاء الفجار، المستهزئين بالقرآن الكريم، عذاباً شديداً لا يطيقونه، ولنجازينهم بشرِّ أعمالهم، أسوأ وأقبح الجزاء ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾أي ذلك هو جزاء أعداء الله، لهم نار جهنم، مخلَّدون فيها لا يخرجون منها أبداً، بسبب جحودهم وكفرهم بآيات الرحمٰن ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي ويقول الكفار، حين يدخلون جهنم: يا ربنا أرنا كلَّ من أضلَّنا وأغوانا عن دينك، من شياطين الجن والإنس ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أي لنطأه بأقدامنا، انتقاماً وتشفِّياً، ليكونا في الدرك الأسفل من النار.. وبمقابلة هؤلاء الأشقياء المجرمين، يأتي الحديث عن الأبرار المتقين، فيقول سبحانه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ أي آمنوا بالله إيماناً صادقاً، ثم استقاموا على شريعة الله، في سلوكهم، وأخلاقهم، وأقوالهم، وأفعالهم، ولزموا منهج

تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾

الإسلام الصحيح ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي تتنزل عليهم ملائكة الرحمة، عند الاحتضار ووقت نزع الروح، يبشرونهم بالبشارة الكريمة، يقولون لهم: لا تخافوا مما تقدمون عليه من أهوال الآخرة، ولا تحزنوا على ما تركتموه في الدنيا من الأهل والأموال والأولاد، وأبشروا بجنة الخلد التي وعدكم بها الرحمٰن، على لسان سيد المرسلين!! ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي نحن أنصاركم وحماتكم في الدنيا والآخرة، نرشدكم إلى ما فيه سعادتكم في الدارين، ولكم في الجنة من النعيم المقيم الخالد، من كل ما تشتهيه أنفسكم، وتقرُّ به أعينكم، من أنواع اللذائذ والطيبات ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ النُّزلُ: الضيافةُ والكرامةُ، أي هذه ضيافتكم وكرامتكم من ربكم الرحيم، فأيُّ نعيم بعد هذا النعيم!؟ سأل بعضُ الصحابة رسول الله ﷺ عن نصيحة جامعة، يعتصم بها، ويستمسك بها في حياته، فقال له المصطفى ﷺ: (قل آمنتُ بالله، ثم استقم) رواه مسلم، أي ثم استقم على كلمة التوحيد والإيمان، وكان الحسن البصري يقول: اللهمَّ أنت ربُّنا فارزقنا الاستقامة!! ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي ليس هناك أفضل ولا أحسن ممن استقام على دين الله، ودعا إلى توحيد الله وطاعته، وفعل الخيرات والصالحات، وقال: أنا مسلمٌ أعتزُّ بدين الإسلام، فهذه شروط ثلاثة، للداعية الصادق الذي أثنى عليه القرآن: ١ـ أن يكون مؤمناً مستمسكاً بدينه ٢ـ وأن يكون متخلّقاً بما يدعو الناس إليه من الفضائل والمكارم ٣ـ معتزاً بشريعة الإسلام حتى تثمر دعوته ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أي ولا يتساوى من فَعَل الحسنات مع من فَعَل

وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾

السيئات، كما لا يستوي الخير والشر، والمعروف والمنكر، ادفع أيها المؤمن، السيئةَ التي تصيبك من غيرك، بالحسنة التي هي الحلم، والصفح عمن جهل عليك، وادفع إساءته بالإحسان منك إليه، والعفو عنه، فإذا عدُوك يصبح لك صديقاً حميماً!! وهذه كلُّها من محاسن الإسلام، **قال ابن عباس**: «ادفع بحلمك جهلَ من يجهل عليك» **وقال عمر رضي الله عنه**: «ما عاقبتَ من عصى الله فيك، بمثل أن تطيع الله فيه» ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي وما ينال هذه المرتبة الرفيعة، إلا المؤمن الصابر، الذي جاهد نفسه، فحملها على كظم الغيظ، واحتمال الأذى، ولا ينالها إلا من كان له نصيب وافر، من السعادة ومن طاعة الله ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي إن صرفك الشيطان ووسوس إليك، وأراد أن يحملك على البطش والانتقام، ممن آذاك وأساء إليك، فالجأ إلى الله، واعتصم من شره وكيده وخبثه، فإن الله هو السميع لأقوال العباد، العليم بأحوالهم وأفعالهم. . ثم عاد الحديث إلى بيان دلائل قدرة الله الباهرة، وحكمته البالغة، فقال سبحانه ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ أي ومن العلامات والبراهين، الدالة على وجوده تعالى ووحدانيته: الليلُ والنهار، والشمس والقمر، الليلُ بظلامه، والنهار بنوره وضيائه، يتعاقبان دون فتورٍ ولا انقطاع، الليلُ للراحة والسكون، والنهار للكدِّ والعمل، وكذلك الشمس والقمر، يسيران بنظام دقيق محكم، في هذا الفضاء الواسع، دون خلل ولا اصطدام، لمعرفة الشهور والأيام، ولولا الشمس والقمر، لما أمكن العيش على سطح هذا الكوكب الأرضي ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي اسجدوا للخالق العظيم الجليل، ولا تسجدوا للمخلوق الضعيف العاجز، اسجدوا للذي خلق هذه الأشياء وأبدعها، فكيف يليق بكم أن تعبدوا المخلوق، وتتركوا الخالق؟ إن كنتم حقاً مؤمنين،

فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ

تعبدون ربَّ العالمين!؟ والآية ردٌّ على عُبَّاد الشمس، وعُبَّاد الكواكب، كالصابئة الذين يعبدون الشمس والنجوم ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ أي فإن استكبر المشركون عن عبادة الرحمٰن، فإن الملائكة الأبرار الأطهار، يعبدونه بالليل والنهار، دون فتور ولا ملل ﴿لا يسأمون﴾ أي لا يملُّون، والله ليس بحاجة إلى عبادة أحدٍ من البشر، وإنما هو سبحانه مستغنٍ عن الخلق كلهم ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾ ثم ضرب تعالى مثلاً للبعث بعد الموت، بالأرض المجدبة الميتة، ينزل عليها المطر، فتخرج الزرع والثمر، فقال سبحانه ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي ومن البراهين الدالة على قدرته تعالى، على إعادة الموتى بعد فنائهم، أنك ترى الأرض هامدة، لا نبات فيها ولا ثمر، فإذا أنزل الله عليها المطر، خرج منها الزرع، ونبت العشبُ، وخرج الثمر ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي إن الإله الذي أحيا الأرض بعد موتها، هو الذي يحيي الأموات ويبعثهم من القبور، وهو القادر الذي لا يعجزه شيء.. لقد صوَّر القرآن الكريم، الأرض اليابسة الجرداء، قبل أن ينزل عليها الماء، بصورةٍ بديعة، صورةِ الرجل البائس المسكين، الذي جلس على قارعة الطريق، يستجدي إحسان المحسنين!! وإن اللسان ليعجز عن تصوير البلاغة الفائقة، في جمال الأسلوب المبدع.. فتأمل الروعة البيانية، وتصوَّر التناسق الفني، في التعبير والأداء، وتأمل لفظ «الخشوع، والاهتزاز، والانتفاخ، والنمو» للأرض الجرداء، كيف تصبح بعد نزول المطر عليها، وكأنها عروسٌ فاتنة، تزينت بأبهى حلل الزينة، وهي تميسُ طرباً، وتختال عُجباً، فتخرج لنا من أنواع الزهور والنبات والثمار، ما يدهش الأبصار ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾ ثم توعَّد تعالى الذين يحرِّفون معاني كلام الله عزَّ وجل، وينحرفون بها عن الحق إلى الباطل، فقال سبحانه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ أي يطعنون

أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ

في آياتنا بالتحريف والتلاعب فيها، أو الإنكار لها، لا يغيب أمرهم عنا، فنحن لهم بالمرصاد؟ **قال ابن عباس**: هو تبديلُ الكلام ووضعُه في غير موضعه ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ أي هل من يُطرح في نار جهنم خيرٌ وأحسن حالاً؟ أم من ينجو من عذاب الله، فيدخل الجنة آمناً مطمئناً؟ ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي افعلوا ما تشاءون في هذه الحياة الدنيا، فإنه تعالى مطَّلع على أعمالكم، لا تخفى عليه خافية من أحوالكم، وليس هذا تخييراً للبشر أن يعملوا ما شاءوا، إنما هو وعيد وتهديد شديد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أي كفروا بالقرآن العظيم أوَّلَ ما سمعوه، من غير تبصُّر ولا تفكر، وسارعوا في تكذيبه قبل معرفة أسراره وإعجازه، وإنه لكتاب رفيع القدر، يقمع كل معاند،، وخبرُ «إن» محذوفٌ لتهويل الأمر، كأنه يقول: إن فعلتهم الشنيعة لا تكاد توصف، وعذابهم متروك إلى من بيده السلطانُ والأمر ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي لا يتطرَّق إليه الباطل من أيِّ جهة من الجهات، لا بزيادة ولا نقصان، لأنه محفوظ بحفظ الرحمٰن!! ثم سلَّى تعالى رسوله ﷺ على ما يصيبه من أذى الكفار الفجار، فقال ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ﴾ أي ما يُقال في شأنك وحقك، إلاَّ كما قال السفهاء لرسلهم، من ضروب الأذى والسخرية والاستهزاء، آذوهم واتهموهم بالكذب على الله، ورموهم بالجنون والضلال، فلا تحزن على ما يصيبك، فلك بمن سبقك أسوة وقدوة ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي إن ربك يا محمد، لهو الغفورُ لذنوب المؤمنين، ذو العقاب الشديد للكافرين، ففوِّضْ أمرك إليه، فإنه ينتقم لك من أعدائك ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ﴾ أي ولو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم، لقال المشركون: هلاَّ نزل بلغتنا العربية لنفهمه؟ وهلاَّ بُيِّنت آياته بلسانٍ

ءَاْعۡجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿٤٥﴾ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

نفقهه ﴿ءَاْعۡجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّۗ﴾ أي أقرآن أعجميٌّ؟ ونبيٌّ عربي؟ والمراد أن القرآن لو نزل بلغة العجم، لكان لهم أن يقولوا: كيف نزل علينا بلغة العجم، ونحن عربٌ لا نفهم كلام الأعاجم؟ ولصحَّ لهم أن يقولوا ﴿قلوبنا في أكنة﴾؟ أَمَا وقد نزل بلغة العرب، فهذه سفاهة منهم وعناد ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾ أي قل لهم يا أيها الرسول: إن هذا القرآن نور وهدى للمؤمنين، وشفاء لهم من الجهل والشك، وشقاءٌ وتعاسة على الكافرين، بسبب كفرهم وضلالهم، والآية وردت مورد التمثيل، فقد صوَّرهم بصورة من في أذنيه صمم، وعلى عينيه غشاوة، فهو لا يسمع ولا يبصر، فكيف يهتدي بأنوار هذا الكتاب المجيد؟ وزاد في التشبيه والتمثيل فقال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ أي فهم كمن يُنادىٰ عليه من مكان بعيد، فإنه لا يسمع ولا يفهم، هذا إذا كان سليم الحواس، فكيف إذا كان أصمَّ وأعمى، وناديته من مكان بعيد جداً؟ **قال ابن عباس**: يريد تعالى أنهم مثل البهيمة، شبَّههم بالبهائم التي تسمع الصوت، ولا تفهم المعنى، كقوله سبحانه ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً﴾ أي كمثل الراعي الذي يصيح بالأغنام، وهي تسمع صوت الراعي، ولا تفهم ما يناديها به من الكلام ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ أي ولقد أعطينا موسى التوراة، كما أعطيناك يا محمد القرآن، فاختلف بنو إسرائيل فيها، ما بين مصدِّق ومكذِّب، كما اختلف قومك، فآمن بعضهم بالتوراة، وكفر بها بعض، ولولا أن الله حكم بتأخير العقاب لهم، إلى يوم القيامة، لعذَّبهم وأهلكهم في الدنيا ﴿وإنهم لفي شك منه مريب﴾ أي وإن قومك المشركين، لفي شك في هذا القرآن، موقع لهم في الحَيْرة، والاضطراب، والارتياب، لتبلد عقولهم، وعمى بصائرهم ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أي كلُّ إنسان

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾

يُجزى بعمله، فمن آمن واهتدى، فإنما نفع نفسه، ومن كفر وضلَّ، فإنما آذى نفسه، وأوردها نار الجحيم، ولا يظلم ربك أحداً!! ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أي إليه سبحانه وحده، يرجع معرفةُ وقت القيامة، لا يعلمها إلا الله ربُّ العزة والجلال، وما تخرج ثمرة من الثمرات من أوعيتها، ولا تحمل أنثى جنيناً في بطنها، ولا تلده إلا ويكون ذلك بعلمه، لا تخفى عليه خافية، والأكمامُ جمعُ كِمّ بالكسر، وهو وعاء الثمرة، فإذا كان الله لا يخفى عليه شيءٌ، ممّا هو في أكمام الثمرات، ولا ما في أرحام الأمهات، فكيف تغيب عليه أعمال العباد؟ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي ويوم يسأل الله الكفار، سؤال توبيخ وإنكار: أين الآلهة الذين عبدتموهم من دوني؟ قالوا: أعلمناك يا ربنا اليوم بالحقيقة، فليس فينا اليوم من يشهد أن لك شريكاً، فأنت الواحد الأحد، الفرد الصمد ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي غابت عنهم آلهتهم المزعومة، التي كانوا يعبدونها، ويؤمِّلون في شفاعتها، وأيقنوا أن لا مخلص لهم، ولا مهرب من عذاب الله!! والمحيصُ: الفرارُ والمهربُ ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ أي لا يملُّ الإنسانُ يعني الكافر ولا يضجر، من طلب السعة في النعمة، وطلب الخير والمال، وإن أصابه الضرُّ، ولو كان يسيراً، من فقرٍ ومرضٍ، فهو عظيم اليأس، قانطٌ من رحمة الله، لأن ثقته بربه ضعيفة بل معدومة ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي ولئن منحناه النعماء، بعد تلك الشدة والبلاء، تكبَّر على ربه وتجبَّر، وجحد فضل الله عليه، ونسب الأمر إلى نفسه، فقال: هذا بسعي واجتهادي، وما أعتقد أن

وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْـَٔافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾

القيامة ستكون ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي إنه لا يؤمن بالآخرة، ثمَّ على فرض أن القيامة حاصلة، يقول: إن ربي سيكرمني كما أكرمني في الدنيا!! يتمنَّى على الله عزَّ وجل الإحسان إليه، مع إساءته العمل، وعدم اليقين، قال تعالى ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي فلنجزينَّهم بإجرامهم في الدنيا، ولنعذبنهم أشدَّ العذاب وأغلظه، وهو عذاب الجحيم الذي لا يوصف.. ثم ذكر تعالى نوعاً آخر، من طغيان الكافر وفجوره، فقال سبحانه ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ أي وإذا أنعمنا على الإنسان، أعرض عن شكر ربه، وأبطرته النعمة، فنسي المنعم، وكفر بنعمته، وشمخ بأنفه تكبراً وترفعاً، ﴿ونأى﴾ أي تباعد وأعرض عن الإيمان، وإذا مسَّه الكربُ والبلاء، أكثر من التضرع والدعاء، وعرف ربه وقت الشدة، فهو ذو ﴿دعاءٍ عريض﴾ أي كثير ومستمر، يديم التضرع، ويكثر من الابتهال ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي قل يا أيها الرسول، يا معشر المشركين أخبروني: إن كان هذا القرآنُ، منزلٌ بحقّ من عند الله، وكفرتم به من غير تأمل ولا نظر، كيف يكون حالكم؟ ألاَ تعتقدون أنكم ستخسرون؟ وقد دلَّ عليه قوله ﴿من أضلُّ ممن هو في شقاق بعيد﴾؟ استفهام بمعنى النفي، أي لا أحد أضلُّ ولا أشقى، ممن كذَّب بآيات الله، وعادى رسله وأنبياءه ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْـَٔافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي سنطلعهم على بعض عجائب وغرائب مخلوقاتنا في هذا الكون، في أنحاء السموات وأقطارها، وفي أنفسهم وتركيبهم العجيب، ليعلموا حقَّ العلم، أن القرآن كلام الرحمن، وأن محمداً مرسل من عند الله ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي ألاَ يكفيهم برهاناً على صدقك، أن الله

أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ﴿٥٤﴾

مطلع على كل شيء، لا تخفى عليه خافية؟ ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها القوم، فإن المشركين في شك من البعث والنشور، والحساب والجزاء، ولذلك لا يتفكّرون ولا يتدبرون!! ألا فانتبهوا!! فإن الله تعالى عالم بجميع الأشياء، وقد أحاط علمه بهم، وبما يتآمرون به ويكيدون، وسيجازيهم على أعمالهم. وهكذا تختم السورة هذا الختم البديع، وفي ختام هذه السورة، وضّح لنا تعالى بأنه سيكشف للبشر، عن بعض أسرار هذا الكون، وقد رأينا بعض شواهد هذا الوعد في عصرنا الذي نعيش فيه، فمن كان يخطر بباله أن البشر سيصلون إلى القمر؟ ويدورون حول الكرة الأرضية؟ ومن كان يُصدِّق أن الإنسان وهو في المشرق، يرى أهل المغرب ويسمع كلامهم؟ وهل كان يدور بخلد إنسان، أن يتناول أحدنا طعام الفطور أو الغداء في الفضاء، وهو ما بين الأرض والسماء؟ وأن ينتقل من قارة إلى قارة في سويعات بواسطة الطائرة النفاثة؟ لقد أطلعنا الله على بعض عجائب هذا الكون، وكلما تقدم الزمن وتطوَّر العلم، ستظهر لنا خوارق وعجائب، مما أخبرنا عنه القرآن الكريم، ويتحقق الوعد الإلهي بظهور (معجزة القرآن) الكريم!!

انتهى تفسير سورة فُصِّلت

● ● ●

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿٦﴾

تفسير سورة الشورى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ عٓسٓقٓ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ تكتب هكذا وتقرأ (حا، ميم، عين، سين، قاف) وهذه الحروفُ المقطعة للتنبيه إلى إعجاز القرآن، وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية، وهو مع ذلك معجزٌ لهم.. أي كما أوحينا إليك يا محمد هذا القرآن العظيم، أوحينا إلى الرسل قبلك، لدعوة الناس إلى التوحيد، والذي أوحى إليك هذا القرآن، هو ربُّ العزة والجلال، (العزيز) في ملكه، (الحكيم) في صنعه ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي جميع ما في الكون خلقُه وملكُه، وهو المتعالي فوق خلقه، المنفرد بالكبرياء والعظمة ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بيان لعظمة الله وجلاله، أي تكاد السموات يتشقَّقن من عظمة الله وجلاله، ومن شناعة ما يقوله المشركون، وينسبونه إلى الله، من اتخاذ الزوجة والولد، وهو الغنيُّ عن العباد، والملائكة الأبرار مستمرون في تسبيح الله وتمجيده، وتنزيهه عمًّا لا يليق به، وهم يطلبون المغفرة من الله، لذنوب أهل الأرض، ألا فانتبهوا أيها الناس، إن الله هو الغفور لذنوب عباده. ﴿الرحيمُ﴾ بهم، حيث لم يعاجلهم العقوبة مع كفرهم وعصيانهم ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ أي والذين جعلوا لله شركاء وأنداداً، من البشر أو الحجر، فإن الله تعالى هو الرقيب على أعمالهم، فيجازيهم عليها، ولستَ بموكَّل عليهم حتى تكرههم على الإيمان،

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

وإنما وظيفتك الإنذار، والله هو المحاسب ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي وكما أوحينا إلى من قبلك، كذلك أوحينا إليك يا محمد، قرآناً عربياً معجزاً، أنزلناه بلسان العرب ولغتهم، لتنذر أهل مكة ومن حولها من أهل البلاد، سُميت «أم القرى» أي أمّ البلاد، تشريفاً لها لأنها عاصمة البلاد الإسلامية ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ أي ولتنذر أي تخوِّف الناس ذلك اليوم الرهيب، الذي لا شك فيه، يوم «الحشر الأكبر» يوم يلتقي الخلق للحساب والجزاء، وينقسمون إلى فريقين: فريق في النعيم، وفريق في الجحيم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي لو شاء الله لجعل الناس كلهم مؤمنين مهتدين، بطريق الإكراه والإجبار، ولكنَّ ذلك يناقضُ الحكمة الإلهية، بترك الاختيار للبشر، ليترتب على ذلك الحسابُ والجزاء، وقد اقتضت حكمته أن يترك أمر الإيمان لرغبة الإنسان ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ والكافرون ليس لهم من يتولاهم، فينصرهم أو يدفع عنهم عذاب الله ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ الاستفهام إنكاري للتعجيب والتوبيخ، أي بل اتخذ المشركون آلهة من الأوثان، يستعينون بهم ويطلبون شفاعتهم، فالله وحده هو الوليُّ والناصرُ لعباده المؤمنين، وهو القادر على إحياء الموتى، أمَّا آلهتهم المزعومة، فلا تجلب لهم نفعاً، ولا تدفع عنهم ضراً!! فالربُّ من صفاته القدرة على الحماية والنصرة، لا تلك الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي كل ما تختلفون فيه وتتنازعون في شأنه، فالحكم للّه وحده، لا يملك أحد غيره التصرف في شئون خلقه، ذلكم القادر الحكيم،

فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ

الذي أُمرنا بالتحاكم إليه، هو مالكي ومالك جميع العباد، عليه أعتمد، وإليه أرجع في جميع أموري وأحوالي ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ﴾ أي هو جلَّ وعلا خالق ومبدع السموات والأرض، ابتدأ خلقها من غير نموذجٍ سابق، وهو مدبِّر شئون عباده، خلق لكم زوجات من جنسكم، لتسكنوا إليهن، ويكونَ بينكم التناسل، وخلق من الأنعام أصنافاً، ذكوراً وإناثاً، لمصالحكم ومنافعكم ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي يجعلكم تتكاثرون وتتناسلون، بسبب التوالد، ولولا أنه تعالى خلق الذكر والأنثى، لما كان ثَمَّةَ تناسلٌ ولا توالد ﴿ليس كمثله شيء﴾ أي ليس له تعالى شبيهٌ، ولا نظير، ولا مثيل، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، والكاف هنا (كمثله) لتأكيد النفي، أي ليس مثله شيء، وهو سبحانه السميع لأقوال العباد، البصير بأحوالهم ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي بيده جلَّ وعلا مفاتيح أرزاق العباد، من المطر، والنبات، والحبِّ، والثمر، يوسِّع الرزق على من يشاء من خلقه، ويضيِّق على من يشاء، حسب الحكمة الإلهية، وعلمُه محيط بكل الأشياء ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي بيَّن لكم ووضَّح لكم سبحانه، الدينَ الذي ارتضاه لكم، وهو «الإسلام» وشريعته السمحة الحنيفية، وهذا الإسلام هو الدين الذي وصَّى به جميع الأنبياء ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ﴾ أي وما وصينا به مشاهير الأنبياء كإبراهيم، وموسى، وعيسى بن مريم، وصيَّناهم بأن استقيموا على الدين الحق، والتزموا به، دون اختلاف ولا تنازع، وهو دينُ الإسلام، ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ ولا تختلفوا في الدين، كما اختلف اليهود والنصارى، فضلوا وزاغوا،

كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ

فالجماعة رحمة، والفرقةُ عذاب ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي عَظُم وشقَّ على الكفار، ما تدعوهم إليه من عبادة الواحد القهار، ورفض عبادة الأوثان والأحجار، الله سبحانه يختار لدينه من شاء من عباده، ويهديه إلى الصراط المستقيم، وهو المؤمنُ الراجع إلى ربه، بالخشية والإنابة، فيوفقه ويقربه إليه، رحمةً منه وكرماً ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ﴾ **قال ابن عباس**: هم اليهود والنصارى، أي وما تفرَّق أهلُ الأديان المختلفة إلاَّ من بعد ما جاءهم الحقُّ المبين، ببعثة خاتم النبيِّين «محمد» ﷺ ﴿بغياً بينهم﴾ أي ظلماً وتعدياً، وحسداً وعناداً، فالمشركون قالوا: لِمَ خُصَّ محمد بالنبوة دوننا؟ واليهود والنصارى حسدوه، فأنكروا رسالته، لأنه جاء من العرب، لا من بني إسرائيل، مع علمهم بأنه النبيُّ المبعوث آخر الزمان!! ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ أي لولا وعدُ الله بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة، لعجلَّ العقوبة لهم سريعاً، بإهلاكهم بعذاب الاستئصال ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي وإن أهل الكتاب، الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ، وعاصروه من بعد أسلافهم السابقين، لفي شكٍ من كتبهم السماوية «التوراة والإنجيل» موقع لهم في أشدِّ الحيرة والريبة، لأنهم ليسوا على يقين من أمر الدين، وإنما هم مقلِّدون للآباء تقليداً أعمى، ولذلك هم في شك مقلق، لا يعرفون دينهم ولا يؤمنون بالرسول ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي فمن أجل ذلك التفرق الذي حدث لأهل الكتاب، بعثناك يا محمد لتدعوهم إلى الدين الحقِّ، دين الحنيفية السمحة، الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك، فادع يا محمد الناس إليه، والزم النهج القويم، وهو الاستقامة على دين الإسلام، ولا تتبع أهواء أهل الكتاب

وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا

﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي وقل لهم: صدَّقت بكل كتابٍ أنزله الله، وآمنت بجميع الرسل، وأمرني ربي أن أحكم بينكم بالعدل ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي الله خالقنا جميعاً، ولنا جزاء أعمالنا من خيرٍ أو شر، ولكم جزاء أعمالكم، ولا نعاقب بذنوبكم، ولا تعاقبون بذنوبنا ﴿لا حجة بيننا وبينكم﴾ أي لا مناظرة ولا جدال بيننا وبينكم، لأن الحقَّ قد ظهر وبان، كالشمس الساطعة، فلا نفع للمجادلة معكم سوى المكابرة، الله تعالى يجمع بيننا وبينكم يوم القيامة، لفصل القضاء، **والغرضُ من الآية**: بيان أن الحق قد ظهر وسطع، ومع العناد لا ينفع حجةٌ ولا جدال» ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي والذين يخاصمون في دين الله، لصدِّ الناس عن الإيمان، من بعدما استجاب له الناسُ ودخلوا في الإسلام ـ وهم اليهود والنصارى ـ حجتهم زائلة باطلة، ومن كانت حجته باطلة، فلا برهان له ولا سلطان ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي وعليهم غضبٌ عظيم من الرحمٰن في الدنيا، وعذاب شديد في الآخرة، وهذا هو الجزاء المناسب للصدِّ عن دين الله ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أي الله جلَّ وعلا هو الذي أنزل القرآن، بالحقِّ الساطع، والحكم القاطع، وأنزل الشرع العادل، الذي تُوزن به الحقوقُ، والمراد بالميزان هنا: «العدلُ» وسمَّىٰ العدلَ ميزاناً، لأن بالميزان يتحقَّق العدلُ، ويأخذ الإنسان حقه كاملاً، كذلك شرعُ الله العادل، يسوِّي بين الناس دون ظلم ولا بخس، وما يعلمك لعلَّ وقت الساعة قريب، فالواجب على العاقل أن يحذر منها ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا

وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّۗ﴾ أي يستعجل بالقيامة المشركون الذين لا يصدِّقون بها، فيقولون على سبيل السخرية والاستهزاء: متى تأتينا الساعة؟ والذين آمنوا خائفون أشدَّ الخوف من مجيئها، لأنهم يعتقدون أنها حاصلة وقادمة لا محالة، لذلك يؤمنون بها ولا ينكرونها ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي والذين يشكّكون في القيامة وفي يوم الحشر، هم في ضلال بعيدٍ عن الحقِّ، لذلك يجادلون ويمارون، لإنكارهم عدل الله وحكمته، والعقولُ تشهد على أنه لا بدَّ من دار جزاء ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي الله جلَّ وعلا برٌّ رفيق، رحيم بالخلق، كثير الفضل والإحسان إليهم، يوسِّع الرزق على من يشاء، ابتلاءً وامتحاناً، وله في ذلك حكمة، ليحتاج بعضهم إلى بعض، فيتعاونوا ويتساعدوا، وهذا من لطفه بالعباد، وهو القادر على كل شيء، الغالب الذي لا يُقهر ولا يُغلب ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ أي من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة، نضاعف له ثوابه، ونضاعف له حسناته، ومن كان يريد بعمله متاع الدنيا ونعيمها فقط، نعطه بعض ما يطلبه، مما قدَّرناه له من المتاع العاجل، وليس له حظٌّ في الآخرة من الثواب والنعيم!! الحرثُ: الزرعُ، شبَّه تعالى العملَ (بالزرع)، فالزارعُ يزرع الحب والنوى، ليجني منه النبات والثمر، فمن زَرَع لدنياه فقط، فقد خسر، ومن زرع لآخرته فاز ونجح، **قال ابن عباس**: «من كان يؤثر دنياه على آخرته، لم يجعل الله له نصيباً إلا النار، ولم ينل من الدنيا إلاَّ ما قُسم له» وقال ﷺ: (بشِّرْ هذه الأمة بالسَّناء، والرِّفعة، والنَّصر، والتمكين في الأرض، ما لم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة، فمن عمل منهم عَمَل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة من نصيب) رواه أحمد ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ تقريعٌ

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣)﴾

وتوبيخ للمشركين الذين عبدوا غير الله، أي هل لهم آلهةٌ من الأوثان، شرعوا لهم الشرك والعصيان؟ وسمَّاه ديناً للسخرية والتهكم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولولا أن الله حكم وقضى، أن الثواب والعقاب، يكون يوم القيامة، لعجَّل لهم العذاب في الدنيا، وإن الظالمين لهم عذاب مؤلمٌ موجع في الآخرة ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي ترى الكفار الفجار يوم القيامة، خائفين فزعين، من جرَّاء أعمالهم القبيحة الشريرة، التي ارتكبوها في الدنيا، والجزاءُ عليها نازلٌ لا محالة، سواءً خافوا أم لم يخافوا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي وأما المؤمنون الذين عملوا الصالحات، فإنهم في رياض الجنة، وحدائقها الغنَّاء، ذات الرياحين والزهور، والأشجار والثمار، لهم فيها ما يشتهونه من أنواع اللذائذ، من كل ما يشتهونه من مأكل، ومشرب، وملبس، وفنون المستلذات، ذلك النعيمُ والجزاءُ، هو الفوزُ الأكبر، الذي لا يوازيه شيء من نعيم الدنيا ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ أي هذه بشارةُ الله لعباده المؤمنين المتقين، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ليتعجلوا السرور ويزدادوا شوقاً إلى لقائه، قل لهم يا محمد: أنا لا أسألكم على تبليغ الرسالة و الدعوة، شيئاً من الأجر والمال، إلاَّ أن تحفظوا حقَّ القربى، ولا تؤذوني بسبب ما بيني وبينكم من القرابة، **قال ابن عباس معناه**: (إلاَّ أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة) رواه البخاري وهذا على حدِّ قول القائل: لا أطلب شيئاً على إحساني إليك، إلاَّ أن تكفَّ شرَّك عني ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي ومن يكتسب حسنة،

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

نزدْ له في أجر هذه الحسنة، فنضاعفْها له عشراً فأكثر ﴿إن الله غفور﴾ أي كثير المغفرة للمذنبين ﴿شكور﴾ كثير الشكر للمطيعين!! ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ أي هل يقول المشركون: إن محمداً كَذَب على الله، وأتى بهذا القرآن من عند نفسه؟ لو كان الأمر كما زعموا، لختمنا على قلبك يا محمد، فأنسيناك هذا القرآن، وسلبناه من صدرك، ولكنك لم تفتر على الله كذباً، ولهذا أيَّدناك وسدَّدناك، والآية فيها تكذيب لدعاوىٰ المشركين، ووعيدٌ وتهديد، لمن كذب على الله، وختم الله الآية بقوله ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي هو تعالى العالم بما في القلوب، فلو حدثتك نفسك، أن تفتري ما يقوله السفهاء، لطبع الله على قلبك وأماتك، كقوله سبحانه ﴿ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين﴾ أي كنَّا نقطع نياط قلبه حتى يموت، وفي هذا تأكيد لحفظ الله لكتابه، وعصمته لرسوله، مما نسبه إليه المفترون ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي هو سبحانه بفضله وكرمه، يتقبَّل التوبة من عباده، إذا أقلعوا عن المعاصي والآثام، ويمحو سيئاتهم التي ارتكبوها، صغيرها وكبيرها، ويعلم ما يفعله عباده، من خير أو شر ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي ويستجيب الله دعاء المؤمنين الصالحين، الذين عملوا الصالحات، ويفرِّج كرباتهم، ويزيدهم من جوده وكرمه فوق ما سألوا، لأنه الجوادُ الكريم، البَرُّ الرحيم ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي وأمَّا الكافرون المكذِّبون لرسل الله، فلهم العذاب الموجع الأليم، في دار الجحيم.. ثم ذكر تعالى الحكمة، من عدم التوسعة على جميع الخلق، فقال سبحانه ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لو وسَّع الله الرزق على جميع العباد، لطغوا وبغوا، وأفسدوا في الأرض بأنواع المعاصي والآثام، لأن

وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾

الغنىٰ يسبّب الطغيان ﴿**إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى**﴾ وخيرُ العيش ما لا يُلْهيك، ولا يُطْغِيك ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ أي ولكنه تعالى حكيم، ينزِّل أرزاق العباد، على ما تقتضيه الحكمةُ الإلهية، لأنه تعالى عالم بأحوال العباد، وما يصلحهم ولا يُطغيهم، وفي الحديث الشريف القدسي (إن من عبادي من لا يصلحه إلاَّ الغنىٰ، ولو أفقرتُه لأفسدتُ عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلاَّ الفقرُ، ولو أغنيتُه لأفسدتُ عليه دينه) ذكره ابن كثير ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ أي هو تعالى الذي ينزِّل المطر، مع كثرة معاصي البشر، رحمةً منه على العباد، من بعد يأس الناس من نزوله، وينشر خيراته وبركاته على الخلق، وهو سبحانه الكافل لأرزاق العباد، المحمود بكل لسان على ما أسدى من النعماء، ولْنمعِنْ النظر في قوله سبحانه ﴿**ينزل الغيث**﴾ بدل المطر، لأن اللفظ يوحي بالغوث والنجدة، بعد الكرب والضيق، وفي قوله ﴿**وينشر رحمته**﴾ تعبيرٌ رائع يلقي ظلال «النداوة، والخضرة، والبهجة، والسرور» لا سيما بعد أن تكتسي الأرضُ المجدبة، بالخضرة الزاهية، وتتفتح الأزهار، وتظهر الثمار فوق الأشجار، وكلُّ هذه من آثار رحمته، فما أروع التعبير!! وما أبدع البيان!! ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ﴾ أي ومن دلائل قدرته، وعجائب حكمته، الدالة على وجوده ووحدانيته، خلقُ السمواتِ والأرضِ بهذا الشكل البديع، وما نَشَر وفرَّق فيها من مخلوقات، من (الملائكة، والإنس، والجن) وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم، وألوانهم، وأجناسهم ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ﴾ أي وهو سبحانه القادر على جمع الخلائق، في أيِّ وقت شاء، للحساب والجزاء!! والآية جمعت عجائب وبدائع الخلق، في هذا الكون المنظور: السموات وما فيها من الكواكب النيِّرات، والأرض وما فيها من الجبال، والبحار، والأنهار، والأحياء المبثوثة فيها في كل مكان، فوق سطح الأرض، وفي

وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٣١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٤﴾

جوفها، وفي أعماق البحار، وبين الجبال والوديان، وما فيها من أنواع المخلوقات، ممَّا لا يحصيه عدٌّ، من (الوحش، والطير، والسباع، والزواحف، وسائر المخلوقات، فسبحان من أبدع هذا الكون، بأنواع المخلوقات) العجيبة!! ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ أي وما يصيبكم من بلايا، ونكبات، ومصائب، وكوارث، فمرجعه إلى ما كسبته أيديكم، ويعفو سبحانه عن كثير من الذنوب، فلا يؤاخذكم عليها، ولو آخذكم بكل ما كسبتم لهلكتم، كما قال سبحانه ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ ثم قال تعالى ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ أي ولا تعجزون أيها الناس ربكم، ولو هربتم من أقطار الأرض كل مهرب، فأنتم في قبضته تعالى، وليس لكم غير الله وليٌّ يتولَّى أموركم، ولا ناصر يدفع عنكم عذابه ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ أي ومن دلائل قدرته ووحدانيته جلَّ وعلا، السفنُ الجارية في البحر، كأنها الجبالُ الشاهقة، تجري فوق سطح الماء، دون أن تغوص في أعماق البحار، ومن المعلوم أن الماء جسم لطيف، تغوص فيه الحصاةُ الصغيرة، فكيف حمل الماءُ هذه الأجسام الثقيلة؟ وهذه السفن التي هي كالأبراج؟ فيها البشر، والسيارات، والدبابات، وآلاف الأطنان من الحديد والأخشاب وسائر المعدات؟ ولم تغص هذه السفن في البحر، إنها قدرة الله العجيبة، التي جعلت في الماء خصائص، وفي السفن خصائص ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾ أي لو شاء الله لأسكن الرياح، فلم تهبَّ ولم تتحرك، فتبقى السفن ساكنة ثابتة على ظهر البحر، أي غير جارية، إن في تسييرها لعبراً وعظات، لكل مؤمن صابر شاكر، يشكر ربه في السراء والضراء ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ﴾ أي يرسل الرياح عواصف، فيغرق هذه السفن وركَّابها، بسبب ما اقترفوا من جرائم، ويعفو تعالى عن كثير من الذنوب، فلا يؤاخذ الناس بكل ما يصدر عنهم، من

﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾

آثام، وهذا من رحمته ولطفه بعباده.. ذكر تعالى الرياح في إجراء السفن، لأن هذه السفن الضخمة، كانت تسير بالريح، في زمن نزول القرآن، فخاطب تعالى العرب بما كانوا يعرفون في زمانهم، وسواء كانت تجري بواسطة الريح، أو بالبخار، أو البترول في زماننا، فإنها تبقى من الآيات الباهرة، الدالة على قدرة الله تعالى، وذلك لما جعل تعالى في البحر من خصائص، من كثافةٍ وعمق، وما أودع في السفن من خصائص، جعلَها تطفو على وجه الماء، مع ضخامتها وثقل حمولتها، فسبحانه ما أبدع حكمته!! ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ المحيصُ: المهربُ، أي وليعلم الكفار المجادلون في آيات الله بالباطل، إذا توسطوا البحر، وغشيتهم الرياح من كل جانب، أنه لا ملجأ، ولا مهرب لهم، ولا مخلص، إلا بالالتجاء إلى الله، فهو القادر على تخليصهم من الهلاك والموت ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يعني أن الدنيا متاع زائل، ونعيمٌ فانٍ، يفنىٰ ويزول، والآخرة هي الباقية، ونعيمها دائم مستمر، وهذا النعيم للمؤمن الذي يعتقد بالله، ويتوكل عليه، فلا تُؤثروا الفاني على الباقي ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي يجتنبون الجرائم الكبيرة، كالشرك، والقتل، وعقوق الوالدين ﴿**والفواحش**﴾ قال ابن عباس: الزنى، لقوله سبحانه ﴿**ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً**﴾ أي ساء طريقاً!! ﴿**وإذا ما غضبوا هم يغفرون**﴾ أي إذا غضبوا صفحوا عمن أساء إليهم، والصفح عند الغضب من مكارم الأخلاق، بشرط ألاَّ يُخلَّ بالمروءة ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي أجابوا ربهم إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والإيمان، نزلت في الأنصار دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان فاستجابوا له، وأدوا الصلاة بشروطها وآدابها، ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾ أي لا

وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾

ينفردون برأي حتى يتشاوروا فيه، لا سيما الأمور الهامة كالحرب وما جرى مجراها، وينفقون مما رزقهم الله في سبيل الخير ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ أي ينتقمون ممن بغى عليهم، ولا يستسلمون لظلم المعتدي، وهو وصفٌ لهم بالشجاعة، وهذا لا ينافي وصفهم بالغفران، على حدِّ قول الشاعر «وحلمُ الفتى في غير موضعه جهل» فالحلم عن العاجز محمود، وعن الظالم المتجبِّر مذموم ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي وجزاء العدوان أن يُعاقب المعتدي بالمثل، ولا يزاد عليه، كيلا يتبجَّح الشرُّ ويطغى، فمن عفا عن الظالم، وأصلح بينه وبين من يعاديه، بالعفو والمسامحة، فإن الله يثيبه أفضل الثواب، والله يكره البادئين بالعدوان، والمجاوزين الحدود في الانتقام.. شرع تعالى القصاص وهو العدل، وندب إلى العفو وهو الفضل، والعفو لا يكون إلا عند المقدرة، ولهذا يكون فيه الأجر، وهنا يكون للعفو وزنُه، وذلك حين يشعر المعتدي أن العفو جاء سماحة، ولم يأت ضعفاً، وفي الحديث (ولا ظُلِمَ عبدٌ مظلمةً فصبرَ عليها، إلاَّ زاده الله بها عزّاً) رواه الترمذي، **قال العلماء**: وهذه من الأمور التي لا يؤدي العفو فيها إلى الشرِّ، كمن تعوَّد العدوان على الناس، فإن العفو عنه يزيد في ضلاله وطغيانه، بل يجب أن يُردع ويزجر، بعقاب يكفُّه عن الظلم والعدوان، ولهذا قال تعالى بعده ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أي انتصر ممن ظلمه دون عدوان، ولا مجاوزة في العقاب، فليس عليهم عقوبة ولا مؤاخذة، لأنه استعمل حقه المشروع ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ أي إنما العقوبةُ والمؤاخذةُ، على الذين يبدءون بالعدوان، ويتكبرون على عباد الله، سعياً بالفساد في الأرض بدون الحق ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي لهم عذاب شديد موجع ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي ولمن صبر على الأذى، وترك الانتصار لوجه الله تعالى، فإن هذا من الأمور

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ

المشكورة، والأفعال الحميدة، التي يرفع الله بها قدر الإنسان. . كرَّر تعالى الصبر اهتماماً به، وترغيباً فيه، وللإشارة إلى أنه محمود العاقبة، وأنه مما يحبُّه الله عز وجلَّ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ أي من يضلله الله عن طريق الهدى والرشاد، فليس له ناصر ولا هادٍ يهديه إلى الحق، بعد الله عزَّ وجل ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ المراد بالظالمين هنا: الكفار، لأنهم هم الذين يُخلَّدون في الجحيم، أي وترى الأشقياء الكفار، حين عاينوا عذاب جهنم وذاقوه، يطلبون الرجوع إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله، ويقولون: هل هناك طريق لعودتنا إلى الدنيا، لنعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل؟ ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ﴾ أي وتراهم في ذلك اليوم العصيب، أذلاء مهانين، حين يُعرضون على النار، يُسارقون النظر خوفاً وفزعاً، كالمجرم الذي ينظر إلى السيف، أو حبل المشنقة، لا يقدر أن ينظر بملء عينيه ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي يقول المؤمنون وهم في الجنة، حين يشاهدون ما حلَّ بالكفار: إن الخسران الحقيقي، هو خسران هؤلاء المساكين، الذين ضيَّعوا أنفسهم وأهليهم، بالخلود في نار السعير، فهم في عذاب دائم مستمر لا ينقطع ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ أي لم يكن لهم أعوان ولا أنصار، يدفعون عنهم عذاب الله، كما كانوا يؤمِّلون ذلك في الدنيا، ومن يضلله الله، فليس له طريق إلى السعادة والنَّجاة؟ ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي استجيبوا أيها الناس، إلى ما دعاكم إليه ربكم، من الإيمان به والطاعة لرسوله، من قبل أن يأتي يوم شديد عصيب، هو ﴿يوم القيامة﴾ الذي

مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ﴿٤٧﴾ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾

لا يردُّه الله بعد أن حكم به على عباده، وليس له دافع ولا رافع ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾ أي ليس لكم حصنٌ تلتجئون إليه حينئذٍ، وليس لكم من ينكر ما ينزل بكم من العذاب، لعدم قدرة أحدٍ على الاعتراض على الله عزَّ وجل، لأنه تعالى هو الحكم العدل في ذلك اليوم. ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ أي فإن لم يستجيبوا للنداء، وأعرضوا عما تدعوهم إليه من الهداية والإيمان، فما أرسلناك يا محمد محاسباً على أعمالهم، ولا حافظاً على ما يفعلون!! ليس عليك إلا أن تبلّغهم دعوة ربك، وقد أدَّيْتَ ما كلَّفك الله به ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ أي إذا أنعمنا عليه، بنعمة من النعم، من صحة، وغنى، وأمن، بَطِرَ وتكبَّر ﴿وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور﴾ أي وإن تصبه سيئة من مرضٍ، أو فقر، أو خوف، بسبب ما اقترفه من آثام، برِمَ وتضجَّر، فهو يبطر عند النعمة، ويجزع عند الشدة، لقلة إدراكه، وضعف يقينه، ولفظ (كفور) للمبالغة، أي عظيم الكفر والجحود لنعم الله ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ أي هو سبحانه المالك للكون كلِّه، والمتصرف فيه بالخلق والإيجاد، يخلق ما يشاء من الخلق، حسب حكمته ورحمته، فيخصُّ من يشاء من عباده بالإناث، ويخصُّ من يشاء بالذكور ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ أي يجعلهم من النوعين (ذكوراً وإناثاً) فيجمع للإنسان بين البنين والبنات، ويجعل من يشاء عقيماً لا نسل له ولا ذرية ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾ أي هو العالم بشئون العباد، والقادر على كل شي!!

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

قسم تعالى الناس أربعة أقسام: ١ـ منهمَ من يرزقه الله البنات فقط، ٢ـ ومنهم من يرزقه البنين دون البنات، ٣ـ ومنهم من يرزقه النوعين «الإناث والذكور»، ٤ـ ومنهم من يمنعه ذلك كله، فيجعله عقيماً لا نسل له ولا ذرية، وهذا برهان ساطع على وجود خالقٍ مدِّبر حكيم، نظَّم شئون العباد على أكمل الوجوه ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ أي ما صحَّ لأحدٍ من البشر، أيّاً كان، أن يكلِّمه الله إلاّ بطريق الوحي، في المنام أو بالإلهام، أو يكلمه من وراء حجاب، كما كلَّم موسى عليه السلام ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ أو يرسل إليه مَلَكاً فيبلِّغه الوحي، كما هو الغالب من إرسال جبريل إلى الرسل عليهم السلام ﴿إنه علي حكيم﴾ أي لأنه سبحانه متعالٍ عن صفات المخلوقين، فلا يمكن رؤيته في الدنيا، وهو الحكيم الذي يضع الأشياء في مواطنها!! فهذه طرق ثلاثة للوحي: ١ـ إما بواسطة الإلهام، ٢ـ أو يسمعه الكلام من وراء حجاب، ٣ـ أو بواسطة المَلَك جبريل عليه السلام ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك، أوحينا إليك يا محمد هذا القرآن العظيم، الذي هو للقلوب بمنزلة الروح للبدن، ما كنتَ قبل الوحي تعرف ما هو القرآن؟ ولا ما هو الإيمان على الوجه الذي أوحيناه إليك؟ ولكننا جعلناه نوراً وضياء، نهدي به من نشاء من عبادنا المتقين، نحييهم به من موت الجهل، وظلمة الضلال ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي وإنك لترشد الناس إلى طريق الله ودين الإسلام، الموصل لهم إلى جنات النعيم!!.

انتهى تفسير سورة الشورى

● ● ●

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

تفسير سورة الزخرف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي أقسمُ لكم بالكتاب المبين، الواضح في بيانه، الساطع في برهانه، على أن هذا القرآن كلام الرحمن جلَّ وعلا، أنزلناه بلغة العرب، لتعقلوه وتفهموه، وتتدبروا معانيَه، وتعلموا صدق رسالة النبي الأمي محمد ﷺ ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ أي وإن القرآن في اللوح المحفوظ عندنا، ذو مكانة عظيمة، وشرفٍ وفضلٍ فائق.. وفي القَسَم بالقرآن على علو قدره، براعة بديعة، حيث لا يوجد ما يدلُّ على علو شأنه، أكبر ولا أسمى، من أن يُقسم تعالى به على الكتاب نفسه ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ إستفهام إنكاري، أي أفنهملكم ونترك تذكيركم بالقرآن يا معشر قريش؟ ونعتبركم كالبهائم فنعرض عن تبصيركم وهدايتكم؟ لأجل أنكم مسرفون في التكذيب والعصيان؟ لا، لا نترك تذكيركم، وإن كنتم مغرقين في الإجرام!! ثم سلّى تعالى رسوله ﷺ عن تكذيب المشركين، وسخريتهم به، فقال سبحانه ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي وكثير من الأنبياء أرسلناهم في الأمم السابقة، وعادةُ الأمم الضالين، أنه ما جاءهم رسولٌ، إلاَّ سخروا منه، واستهزءوا به!! فلا تحزن يا أيها الرسولُ ولا تبال بتكذيبهم، فتلك هي طريقة الطغاة المعاندين للرسل ﴿يا حسرةً على العباد ما يأتيهم من

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾

رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾ وقد أهلكنا قوماً كانوا أشدَّ قوة من قومك المجرمين، وصارت أخبارهم مثلاً يُروى، ليكونوا عظة وعبرة لمن بعدهم من المكذبين ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي ولئن سئلوا عمن خلق السموات والأرض، ليعترفون ويُقِرّون بأن الخالق لها هو الله ربُّ العزة والجلال، ثم يعبدون معه، ما لا ينفع ولا يضر من الأصنام والأوثان!! أقرّوا له بالخلق والإيجاد، ثم عبدوا معه غيره سفهاً وجهلاً، وهذا أمر يدعو إلى العجب ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ هذا بيانٌ لصفات عظمته وجلاله، وآثار قدرته وإبداعه، أي هذا الربُّ العظيم، الذي اعترفتم بخلقه للسموات والأرض، هو الذي جعل لكم الأرض، ممهَّدة كالبساط، تستقرون عليها وتبنون وتنامون، وهي مسهَّلة وميسَّرة لكم للزراعة والبناء، فيها السهول، والوديان، والعيون، والأنهار، ولكم فيها جميع أسباب الراحة، والعيش، والاستقرار، وفيها الطرق التي تسلكونها في أسفاركم، لتهتدوا إلى مقاصدكم ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي وهذا الإله وهذا الذي نزَّل لكم المطر، بمقدار ووزنٍ معلوم، ينفع ولا يضرُّ، فأحيينا به أرضاً ميتة، جرداء مقفرة، فأحيينا بهذا المطر، النبات والزرع، وأخرجنا لكم به الثمر، كذلك نخرجكم من قبوركم بعد موتكم، والتعبير بقوله (بقدر) يشير إلى الإبداع والإتقان، فهو مقدَّر بوزنٍ، لا يزيد فيتلف ويُغرق، ولا يقلُّ فيموت الزرع والضرعُ.. مثَّل تعالى لموت الأرض، بموت البشر، فكما تكون الأرض ميْتةً مجدبة قاحلة، فتحيا بالمطر، كذلك يحيى الله الموتى من البشر!!

﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي وهذا الإله المبدع، هو الذي خلق الأصناف والأنواع كلَّها، من النبات والإنسان، والحيوان، والشجر،

لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾

والثمر وغيرها، وسخَّر لكم ما تركبونه في أسفاركم، السفن في البحر، والإبل في البر ﴿لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي لتستقروا وتعلوا على ظهور ما تركبونه من السفن والأنعام، ثم تتذكَّروا نعمة ربكم الجليلة عليكم، فتشكروه بألسنتكم وقلوبكم، وتقولوا عند ركوبكم: الحمد لله الذي سخَّر لنا هذا المركوب، وما كنا مطيقين ولا قادرين على ركوبه، لولا تسخير الله لنا ذلك!! هذه الإبل والسفن، هي التي كانت في زمن نزول القرآن، وأما في زماننا فقد تعددت وسائل الركوب والراحة، من قطارات، وسيارات، وطائرات نفَّاثة، وغيرها من المخترعات التي علَّمها الله للبشر ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ فسبحان من سخَّر ويسَّر، وخلق فأبدع!! ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ أي وتقولوا: إنا راجعون إلى الله تعالى بعد هذه الحياة، والغرضُ أن يتذكَّر الإنسان أيضاً «السفرة الكبرى» وهي السفر إلى الدار الآخرة، التي لا بدَّ منها، لينال كل إنسان جزاءه.. ولمَّا ذكر تعالى اعتراف المشركين، بأن خالق الكون هو الله رب العالمين، ذكر ما يدلُّ على سفههم وجهلهم، فقد زعموا أن الملائكة بنات الله، وأن الله نكح من الجن، فولدت له الملائكة، وهو افتراء عظيم شنيع، تنَزه الله عنه ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ أي جعل السفهاء المشركون، لله جزءً من عباده، وهو زعمهم أن الملائكة بناتُ الله، وعبَّر عن الولد بالجزء، لأنه بعضُ أبيه وجزء منه، فكيف يكون لله ولد، وهو منَّزه عن الشبيه والنظير؟ إن الإنسان لشديد الكفر، واضح البهتان، ولفظ ﴿كفور﴾ من صيغ المبالغة، وهي تدل على فظاعة الجرم وشناعته، وفي الآية تعجيب من جهلهم بعظمة الله وجلاله، وتنبيه على سخافة عقولهم، حيث وصفوا ربهم بما لا يليق به، ولهذا جاء الإنكار عليهم والتشنيعُ، فقال سبحانه ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾؟ أي هل اتخذ الرحمن لنفسه البنات، واختار لكم البنين؟ كأنه يقول: أَمَا تخجلون أن تجعلوا لله ما تكرهون؟ أليس لكم شيء من العقل، يحجزكم أن تجعلوا لله

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾

الإناث وأنتم تكرهونهن؟ وتجعلون لأنفسكم البنين الذين تحبونهم؟ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ تقبيحٌ وتشنيع آخر، بأسلوب مُفْحِم، فيه تعجيب من سفههم وحماقتهم، أي وإذا بُشِّر أحدهم بولادة الأنثى، أسودَّ وجهه من سوء ما بُشِّر به، وامتلأ صدره غمًّا وغيظاً، أفما كان من اللياقة والأدب ـ إن كان لهم عقل ـ أن لا ينسبوا »إلى الله ما يسوءهم ويحزنهم؟ وقد كان بعض العرب يهجر بيته، إذا ولدت له زوجته أنثى، وكان الكثير منهم يئدون بناتهم في التراب خشية العار، ثم هم ينسبون إلى الله البنات!! ومن توبيخ إلى توبيخ آخر، يوضِّح القرآن سخافتهم فيقول ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي أيجعلون لله وينسبون إلى مقامه العظيم، من يُربَّى في الزينة، وهو غير قويٍّ في الحجة والجدل، وهنَّ الإناث!!

قال ابن كثير: المرأة ناقصة في الصورة والمعنى، فيكمِّل نقصَ ظاهرها بلبس الحليِّ، ليجبر ما فيها من نقص، كما قال بعض الشعراء:

وما الحَلْيُ إلاَّ زينةٌ من نَقِيصةٍ

يُتمِّمُ من حُسْنٍ إذا الحُسْنُ قَصَّرا

وأما نقصُ المعنى، فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار، كما قال بعضُ العرب وقد بُشِّر ببنت: (ما هي بِنِعْمَ الولد!! نصرُها بكاء، وبرُّها سرقة)!! ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ كفرٌ آخر تضمَّنه قولهم الشنيع، **والمعنى**: اعتقد السفهاءُ من أهل مكة، أن الملائكة ـ الذين هم أكمل العباد ـ إناث، وحكموا عليهم بذلك، فأين حجتهم؟ وما دليلهم؟ هل شهدوا خلقهم؟ فعلموا أنهم إناث؟ وهو تجهيل لهم، وتهكم بهم!! ستكتب شهادتهم هذه في صُحف أعمالهم، ويُسألون يوم القيامة عن هذا

وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾

الكذب والافتراء!! ولمَّا أفحمهم، وأقام عليهم الحجة بكذب هذا الإدعاء، احتجوا بمشيئة الله، فزعموا أن الله راض عن عبادتهم للملائكة ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي قالوا: لو شاء الله ما عبدنا هذه الملائكة، ولا عبدنا الأوثان، ولمَّا كانت عبادتنا واقعة بمشيئة الله، فهو راضٍ عنا!! قال تعالى تكذيباً لهم ﴿ما لهم بذلك من علم﴾ أي ليس لهم في ذلك حجة ولا برهان، وما هم إلا يكذبون ويفترون على الله ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ هذا ردٌّ آخر على مزاعمهم الباطلة، أي هل وجدوا ذلك الباطل، في كتاب منزل قبل القرآن، أن الملائكة بنات الله، وأن الله يأمر بعبادتهم؟ فهم مستمسكون بهذا الكتاب يعملون بتوجيهاته!؟ ليس عندهم شيءٌ من ذلك، فهم إذاً يفترون ويكذبون على الله!! ثم حكى القرآن حقيقة أمرهم، وبيَّن أنهم في هذه المعتقدات، يقلّدون الآباء والأسلاف، تقليداً أعمى، فقال سبحانه: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ أي لم يأتوا بحجةٍ عقلية، أو شرعية على ما زعموا، بل اعترفوا بأنهم يقلّدون آباءهم تقليداً أعمى، بغير نظر، فقالوا: لقد وجدنا آباءنا على طريقةٍ ودين، فنحن نتّبعهم فيما كانوا عليه، ونهتدي بآثارهم ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ أي ما بعثنا قبلك رسولاً من الرسل، في بلدٍ من البلاد إلاّ قال المتنعمون فيها، الذين أبطرتهم النعمة: إنا وجدنا أسلافنا على ملّة ودين، وإنَّا مقتدون بهم، فيما كانوا عليه من العبادة، لا نترك طريقتهم!! والآية تسلية لرسول الله ﷺ، ودلالة على أن التقليد هو دينُ المعاندين لرسل الله، في كل عصر وزمان، وأن التنعم، وحب الرئاسة، هو الذي صرفهم عن النظر، إلى فساد التقليد ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي قال كل

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠)﴾

نبيٍّ لقومه، حين أنذرهم عذاب الله: أتقتدون بآبائكم، ولو جئتكم بدينٍ هو أهدى وأرشد، مما كان عليه الأسلاف؟ قالوا: إنا كافرون بكل ماجئتم به من التوحيد والإيمان، ونحن ثابتون على ما كان عليه آباؤنا، لا ننفك عنه أبداً!! ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي فانتقمنا من الأمم الكافرة، وعذَّبناهم أشدَّ أنواع العذاب، فانظر كيف كان مصير أولئك الفجرة، المعاندين لرسل الله ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ هذه قصة إبراهيم عليه السلام، الذي يزعم كفار مكة أنهم على دينه ومذهبه، وهم يعبدون الأصنام، وقد تبرأ إبراهيم منها وحطَّمها، **والمعنى**: أذكر أيها الرسول لقومك عَبدةِ الأوثان، حين قال الخليل إبراهيم لأبيه وقومه المشركين: إنني بريء من هذه الأوثان التي تعبدونها من دون الرحمن ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ أي لكنْ ربي الذي خلقني، وأنار بصيرتي بنور الإيمان، فإنه سيرشدني إلى الدين الحق. ويهديني إلى طريق السعادة ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي وجعل إبراهيم (كلمة التوحيد) باقيةً في ذريته إلى يوم الدين، وأمرهم وأوصاهم أن يستمسكوا بها، كما قال سبحانه ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ وقوله سبحانه ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي رجاء أن يرجع إليها، من كان أشرك منهم بالله، فيلتزموا دعوة التوحيد!! ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ «بل» للإضراب وهو الانتقال من حديث إلى حديث، وفي الآية لفتة لطيفة، توضِّح إمعان قريش في الضلال، وكأنه يقول: لندَعْ حديث إبراهيم وقصَّته، ولْننظر في شأن هؤلاء «طغاة مكة» فقد زعموا أنهم على دين إبراهيم، ولمَّا جاءهم خاتم النبيِّين محمد ﷺ بالحنيفية السمحة «دين إبراهيم» كانوا أول من سارع إلى تكذيبه!! وسبب هذا الفجور

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

والطغيان، أننا متعناهم وآباءهم، بأنواع النِّعم والمتاع، فاشتغلوا باللذائذ والشهوات، عن دعوة (التوحيد والإيمان)، ولمَّا جاءهم الرسول المؤيِّد بالمعجزات الباهرات، قالوا عن القرآن: إنه سحرٌ مبين، واستهزءوا بالرسول ﷺ، وضمُّوا إلى كفرهم السابق، معاندةَ الحق والاستهانة به ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ يقصدون بالقريتين: بلدة مكة، وبلدة الطائف، أي وقال المشركون من طغاة مكة: هلاَّ أُنزل هذا القرآن، على رجل عظيم كبير، غنيٍّ موسر، من أهل مكة أو الطائف؟ يعنون أشراف قريش كالوليد بن المغيرة في مكة، أو «عُروة الثقفي» في الطائف!! استبعدت قريش نزول القرآن على محمد ﷺ، وهو فقير يتيم، لا يملك من حُطام الدنيا شيئاً، واقترحوا أن ينزل على أحد الرؤساء والعظماء الكبار، وهم يعتبرون مقياس العظمة: «الجاه، والمال، والزعامة» فمحمد لم يكن زعيم قبيلة، ولا رئيس عشيرة، ولا غنياً من أثرياء العرب، فكيف تنزل عليه الرسالة؟ وقد ردَّ الله عليهم هذه السفاهة والحماقة بقوله ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾؟ أي هل هم يمنحون النبوَّة ويخصُّونَها من شاءوا؟ أو يقترحون أن تكون لفلان الغنيِّ، أو فلان الوجيه من الناس؟ وفيه تعجيبٌ من تحكمهم في شؤون الوحي!! ونحن الذين قسمنا بينهم الأرزاق، فلم نترك أمرها لهم، وإذا كان أمر الرزق ـ وهو تافه حقير ـ لم نتركه لهم، بل تولَّينا قسمته بأنفسنا، فكيف نترك أمر النبوة ـ وهو عظيم وخطير ـ إلى أهوائهم ومشتهياتهم؟ فأمُر النبوَّة راجعٌ إلى الله، وهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته، لا يُنزل الرسالة، إلاَّ على أزكى الخلق قلباً، وأشرفهم بيتاً، وأزكاهم خُلُقاً، وهو محمد رسول الله، ولو كان يتيماً وفقيراً!! ثم بيَّن تعالى الحكمة، في التفاوت بين الناس في الأرزاق، فقال سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي فاضلنا بينهم في الرزق، وجعلناهم مراتب وأصنافاً، فمن ضعيف وقوي، وفقير وغنيّ، وحاكم ومحكوم، ليكون كل واحد منهم مسخراً للآخر، يخدم بعضهم بعضاً،

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

ويحقق بعضهم مصالح بعض، ولو كانوا جميعاً أغنياء، لتعطلت مصالح العباد، فمن الذي يشقُّ لنا الطرق؟ ويستخرج الذهب والمعادن من المناجم؟ ومن يزرع الأراضي ويحرثها؟ ومن الذي يكنس الطرقات، وينظِّف المجاري، لولا حاجة الناس إلى المال؟ ثم قال تعالى ﴿ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ أي ونعمتُه عليك يا محمد بالنبوة والرسالة، خير من جميع كنوز الدنيا، وحُطامها الفاني، فقد أكرمك الله بشرف النبوة، وهو شرف عظيم لا يوازيه شرف، ولا شيء من متاع الدنيا!؟ ثم بيَّن تعالى حقارة الدنيا، ودناءة قدرها عند الله، فقال سبحانه ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ المعارج: جمع مِعْرَج وهو المصعد، والزخرفُ: الذهبُ، والمعنى: لولا خشيةُ أن يفتتن الناسُ، ويصيروا أمة واحدةً في الكفر، لخصصنا هذه الدنيا بالكفار، فجعلنا لهم القصور العالية، سقفُها من فضة، وسلالمها ومصاعدها من فضة أيضاً، عليها يصعدون ويرتقون - كالمصاعد الكهربائية في زماننا - ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ وجعلنا لهم أيضاً السرر الوثيرة المرفَّهة، عليها يتكئون ويضطجعون، ﴿وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال ابن عباس: : (وزخرفاً) أي ذهباً، أي جعلنا لهم السقف، والأبواب، والسرر، من الذهب والفضة، وهذا النعيم كلُّه، ما هو إلا متاعٌ موقت زائل، وحقيرٌ تافه، بالنسبة لنعيم الجنة، الذي أعدَّه الله للمؤمنين المتقين خاصة، لا يشاركهم فيها أحد، والآية سيقت لبيان حقارة الدنيا، وهَوَانها عند الله، فلولا خوف الفتنة على المؤمنين، لخصَّ الله نعيم الدنيا بالكافرين، فجعل قصورهم وبيوتهم من الذهب والفضة، بدل الحجارة والخشب، وجعل لهم المصاعد يصعدون بها إلى تلك القصور الشاهقة، وجعل لهم السرر من الذهب، والسقف والأبواب من الذهب والفضة، وهي مزخرفة بأنواع الزينة والجمال، وكلٌّ هذا النعيم حقيرٌ وحقير، بحيث يُبذل كلُّه للكافر، والعاقبة المحمودة للمؤمنين، وفي الحديث الشريف (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح

وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾

بعوضة، ما سقى كافراً منها جرعةَ ماء) رواه الترمذي، ولعلَّ في هذه الآية، ما يشير إلى هذه الأبنية الشاهقة، التي تسمى (ناطحات السحاب) والتي يصعد الناس إليها بالمصاعد الكهربائية يصعدون إلى خمسين أو سبعين طابق في دقائق معدودة، وما كان يخطر على بال أحد من البشر، أن ترتفع هذه الأبنية الشامخة، فتطاول الجبال، وهنا يظهر لنا سرُّ قوله تعالى: ﴿ومعارج عليها يظهرون﴾ أي يصعدون، وصدق نبوءة خاتم النبيِّين ﷺ حين حدَّث عن علامات الساعة فقال (وأن ترى الحفاة، العُراة العالة، رعاءَ الشاءِ يتطاولون في البنيان) رواه مسلم ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ أي ومن أعرض وتعامى عن القرآن، وذكر الرحمن، سلَّطنا عليه شيطاناً لإضلاله ﴿فهو له قرين﴾ أي ملازم ومصاحب له لا يفارقه ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي وإن الشياطين ليصدُّون قرناءهم الضالين، عن طريق الهدى والإيمان، ويحسب المفتونون، المخدوعون بتلك التُرَّهات الباطلة، أنهم على بصيرة وعلى هدى، وهذا أسوأ ما يفعله الشيطانُ بصاحبه، يُغويه ويُضلُّه ويوهمه أنه سائر في طريق الهدى، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أي حتى إذا جاء المشركُ مع قرينه الشيطان، وقد رُبطا بسلسلةٍ واحدة، قال المشرك لقرينه الذي أغواه: يا ليت بيني وبينك بُعد ما بين المشرق والمغرب، فبئس الصديقُ والصاحبُ أنت، فقد أغويتني وأضللتني، وكلمة (المشرقين) من باب التغليب، غلَّب المشرق على المغرب، كما يُقال: القمران للشمس والقمر ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي ويُقال لهم يوم القيامة توبيخاً: لن يفيدكم اشتراككم في العذاب، ولن يخفف عنكم ذلك شيئاً، بسبب ظلمكم، فلكل واحدٍ نصيبه الوافر من العذاب!! والمراد أنهم لا يرون الراحة، التي يجدها المكروب، لأن المصيبة إذا عمَّت، خفَّتْ وهانت، فهؤلاء لا يجدون حتى السلوى في اشتراكهم في العذاب ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾

أي هل باستطاعتك يا محمد أن تُسمع من به صمم؟ أو تهدي من كان أعمى القلب والبصيرة؟ شبَّه الكفار بالصُمِّ وبالعمي، فمهما بذل الإنسان جهده ليسمع الأصم، لا يمكن أن يسمع شيئاً، وأن يريه الطريق، لا يمكن أن يهتدي إليه، لفقده حاسة البصر، كذلك هؤلاء الكفار لا يسمعون ولا ينتفعون، فالرسول ﷺ يبالغ في دعوتهم، وهم يبالغون في الغيِّ والضلال!! ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ أي إن عجلنا وفاتك يا محمد، قبل أن ننتقم لك منهم، فلا بدَّ من معاقبتهم ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ أي نريك العذاب الذي وعدناهم به في حياتك، فنحن قادرون عليهم، والمراد من الآية: أنه لا بدَّ من أن ننتقم منهم ونعاقبهم، إمَّا في حياتك، أو بعد مماتك!!

قال ابن عباس: قد أراه الله ذلك يوم بدر، ولم يقبض الله رسوله، حتى أقرَّ عينه بإهلاك أعدائه، وحكّمه في نواصيهم ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي فتمسَّكْ بالقرآن الذي أنزله الله عليك، فإنك على طريق مستقيم، لا عوج فيه، وهو طريق التوحيد، ودينُ الإسلام ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ أي وإن هذا القرآن العظيم، لشرفٌ لك عظيم ولقومك، وسوف تُسألون عن هذه النعمة الجليلة، والمراد بقومه: (قريشٌ) وسائر العرب، فإنهم نالوا بالإسلام شرف الدنيا والآخرة، ويكفي أنهم صاروا خير أمة أخرجت للناس، بفضل هذا الدين العظيم، الذي شرَّفهم الله بحمل رايته ورسالته، ورحم الله الفاروق عمر حيث قال: (نحن قومٌ أعزَّنا الله بالإسلام، فإذا ابتغينا العزة بغيره أذلّنا الله) ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ اسأل الذين سبقوك، من الرسل الكرام وأتباعهم، هل هناك أحدٌ دعا إلى عبادة غير الله؟ والمراد إجماع الأنبياء على (دعوة التوحيد)، فليس محمد ﷺ ببدعٍ من الرسل في دعوته إلى توحيد الله، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ذكر تعالى هنا قصة موسى مع فرعون الطاغية الجبار، لينبِّه إلى أن الطغيان

فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾

والعناد واحد، فكما كذَّب فرعون موسى، فكذلك فعل كفار مكة مع سيد المرسلين، والمعنى: ولقد أرسلنا موسى بالمعجزات الباهرة الدالة على صدقه، إلى فرعون وأشراف قومه من الأقباط، فقال له موسى: إني مرسل إليك من ربك، أدعوك إلى عبادته وتوحيده ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ أي فلما جاءهم بتلك المعجزات الساطعة، ضحكوا سخرية واستهزاءً منه، شأن السفهاء الجهال، وإنما ضحكوا منها ليوهموا أتباعهم، أن تلك الآيات من قبيل السحر ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي وما نريهم آيةً من الآيات الباهرة، كالطوفان، والضفادع، والدم، إلاَّ وهي في غاية الكبر والظهور، ومع ذلك أصرُّوا على الكفر، وعاقبناهم بالعذاب الشديد، ليرتدعوا عن غيِّهم وضلالهم ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي ادع لنا ربك، ليكشف عنا العذاب، إننا لمهتدون تائبون، إن رفع اللهُ عنا الكرب والبلاء.. ولننظر إلى سفاهة القوم، فإنهم وهم في الكرب والضيق، وهم يستغيثون لرفع البلاء عنهم، يقولون لموسى ﴿يا أيه الساحر﴾ ولا يقولون: يا أيها الرسول، انتقاصاً لقدر موسى واستهزاء به، وذلك لغاية عتوهم وضلالهم، ثم يقولون ﴿ادع لنا ربك﴾ ويستنكفون أن يقولوا: ادع لنا ربنا، لأنهم كانوا يعتقدون بربوبية فرعون، وهذا أيضاً من طغيانهم وفجورهم ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أي فلما رفعنا عنهم العذاب بدعاء موسى، إذا هم ينقضون العهد، ويصرُّون على الكفر والإجرام ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي دعا فرعون زعماء ورؤساء القبط، بعد أن كشف الله عنهم العذاب، وخاف أن يؤمنوا، وقف فيهم خطيباً مفتخراً متبجحاً، وقال لهم يا قوم: أليست بلاد مصر الواسعة الشاسعة ملكاً لي؟ وهذه الأنهار المتفرِّعة من النيل تجري من تحت قصوري؟ أفلا تبصرون عظمة ملكي وسعة

أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾

سلطاني؟ فهل عند موسى شيء من هذا العز والسلطان؟ ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي ألستُ أفضل من موسى، هذا الضعيف الحقير؟ الذي لا عزَّ له ولا جاه ولا سلطان؟ والذي لا يكاد يُفصح عن كلامه، لأنه عيُّ اللسان، لا يكاد يُبين الكلام!؟ وقف فرعون يذكّرهم بعظمته ورفعة شأنه، ويتباهى على موسى بما عنده من الذهب، والزينة، والملك، والأنهار الجارية، وهذه نظرة الأحمق الجاهل، المخدوع بالأبّهة والبريق، ولا ينظر إلى الصفات الرفيعة، التي هي حلية الإنسان العاقل، التي تعلي قدره، ثم يزيد في الكبرياء والغرور، فيقول ﴿فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ﴾ أي فهلاً زيَّنه الله بأسورة ذهبية، دليلاً على نبوَّته، أو جاءت معه الملائكة يكتنفونه، خدمةً له وشهادةً على تصديقه!! ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ أي فاستخفَّ بعقول قومه، واستجهلهم لخفة عقولهم، وخَدَعهم بذلك الكلام البرَّاق، فأطاعوه فيما دعاهم إليهم من عبادته، بسبب فسقهم وفجورهم!! قال تعالى مبيِّناً نهايتهم المشؤومة: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ﴾ أي فلما أغضبونا وغاظونا أشد الغضب، أهلكناهم بالإغراق في البحر، وجعلناهم عظة وعبرة، يعتبر بهم السابق واللاحق.. وقد كان فرعون يفخر بالقصور والأنهار، فأهلكه الله بجنس ما تكبَّر به مع قومه، وذلك بالغرق بماء البحر، ومن تكبَّر بشيء، دمَّره الله به، وإنها لعبرة للمعتبرين ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾ أي ولمَّا ذُكر (عيسى ابن مريم) في القرآن، وضُرب به المثل، وقيل لهم: إن كلَّ عابدٍ وما عُبد من دون الله في النار، ضجَّ المشركون، وارتفعت أصواتهم بالصياح، ومعنى ﴿يَصِدُّونَ﴾ بكسر الصاد أي يصيحون ويضجُّون، ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾

أي وقال كفار مكة: هل آلهتنا خيرٌ أم عيسى بن مريم؟ فإن كان عيسى في النار، فلا بأس أن تكون آلهتنا معه!! ما مثَّلوا لك هذا المثل، إلا على وجه الجدال والمكابرة، بل هم قوم شديدو الخصومة، مجبولون على اللَّجاج والعناد، روي أن رسول الله ﷺ قرأ على المشركين قوله تعالى ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ ضجَّ المشركون وارتفعت أصواتهم بالصياح، وقالوا: شتم محمد آلهتنا!! فقال ابن الزِّبعري ـ وكان من طواغيت قريش ـ: يا محمد هل هذا خاصٌّ بآلهتنا، أم بكل من عُبد من دون الله؟ فقال ﷺ: بل لكل من عُبد من دون الله!! فقال ابن الزبعري: قد خصمتُك ورب الكعبة ـ أي غلبتك بالحجة ـ أليست النصارى يعبدون المسيح؟ واليهود يعبدون عزيراً؟ وقومٌ منا يعبدون الملائكة؟ فإن كان هؤلاء في النار، فقد رضينا أن تكون آلهتنا في النار!! ففرح المشركون وضحكوا، وارتفعت أصواتهم، وظنوا أنهم غلبوا الرسول ﷺ بالحجة، فأنزل الله هذه الآية، ولو تأمَّل الأشقياء الآية لما اعترضوا عليها، لأن الآية تقول ﴿إنكم وما تعبدون﴾ ولم يقل: ومن تعبدون، و«ما» لما لا يعقل، فلم يدخل فيها المسيح، ولا الملائكة، وإنما أراد الأصنام، ويروىٰ أن النبي ﷺ قال له: ما أجهلك بلغة قومك!! «ما» لما لا يعقل!! ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي ما عيسى إلا عبدٌ كسائر الخلق، أنعمنا عليه بالنبوة، وصيَّرناه عبرة عجيبة، كالمثل السائر، حيث خلقناه من غير أب، وفي الآية ردٌّ على من عَبَد عيسى من دون الله، ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ أي لو شئنا لجعلنا بدلاً منكم ملائكة، يسكنون في الأرض، يعمرونها بطاعة الله، وأهلكناكم جميعاً، **قال مجاهد**: ملائكة يعمرون الأرض بدلاً منكم، والغرضُ من الآية: «بيانُ أنه ليس بين الله وبين أحدٍ من الخلق نسبٌ، لا عيسى، ولا عُزير، ولا الملائكة، إنما هو مقام (الربوبية) ومقام (العبودية) وليس عيسى ابناً لله، ولا شريكاً مع الله، وأن خلقه من أم بدون أب، مظهرٌ من مظاهر القدرة الإلهية ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾ ثم إنه علامة على قرب القيامة، ولهذا قال ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي وإن مجيء عيسى، علامة على قرب الساعة ـ القيامة ـ لأن ظهوره من أشراطها، فلا تشكُّوا

وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾

في أمر القيامة، فإنها آتية لا محالة، وقل لهم يا أيها الرسول: اتبعوني واسلكوا طريقي، فهذا الإسلام دين الله الحق، الموصل إلى جنات النعيم ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي واحذروا أن يصدَّكم الشيطانُ، عن اتباع دين الإسلام الحق، فإن الشيطان عدوٌّ خبيث، ظاهر العداوة لكم ولذرية آدم ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي ولمَّا جاء عيسى بالمعجزات الواضحات، وبالشرائع البينات، قال لبني إسرائيل: لقد جئتكم بالحكمة الإلهية من عند الله ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي وقد أرسلني الله إليكم، لأبيِّن لكم ما اختلفتم فيه من أمور الدين، فخافوا ربكم في مخالفة أوامره، وأطيعوا أمري فيما أبلِّغه لكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي أنا وأنتم عبيدٌ لله، فقراء إليه، مأمورون بعبادته، هذا طريق واضح لا يضلُّ سالكه، لا اعوجاج فيه ولا التواء!! وهكذا يعلن السيد المسيح أنه عبدٌ لله، وليس له من صفات الألوهية شيء، فكيف عبده النصارى من دون الله؟ ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي فاختلف النصارى في شأن عيسى، وصاروا فيه فرقاً وأحزاباً، منهم من يقول: إنه ابن الله، ومنهم من يقول: إنه هو الله، وعيسى، مع أمه ثالثُ ثلاثة، قاتلهم الله أنَّى يؤفكون!؟ ولهذا قال تعالى ﴿فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾ أي فهلاك ودمار، لهؤلاء الكفرة الفجار، من عذاب يوم القيامة، المؤلم الموجع الشديد ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي هل ينتظر هؤلاء الضالون، إلا أن تأتيهم الساعة فجأة، وهم غافلون عنها، مشتغلون بلذائذ وشهوات الحياة، وحينئذٍ يندمون حيث لا ينفع الندم!! ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي الأصدقاءُ في الدنيا،

يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾

يصبحون يوم القيامة أعداء، إلاَّ من كانت صداقتُه ومحبته لله، ومن أجل مرضاته، وهم المتقون الذين اتقوا محارم الله ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي هؤلاء المؤمنون المتحابُّون في الله، يناديهم الله فيقول لهم: يا عبادي المؤمنين، الذين تحققتم في العبودية لله، لا خوف عليكم في هذا اليوم العصيب، ولا أنتم تحزنون على ما فاتكم من الدنيا، ثم وضحهم تعالى بقوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ أي الذين صدَّقوا بالقرآن، واستسلموا لحكم الرحمن، ادخلوا الجنة أنتم وأهليكم وأزواجكم ﴿تحبرون﴾ أي تُسرُّون وتنعَّمون فيها مع غاية البهجة والسرور ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي يدور عليهم خدم الجنة، بأوانٍ من الذهب، فيها ألوان الطعام، وأقداح من ذهب فيها أنواع الشراب، مما لذَّ وطاب، وفي الجنة كلُّ ما تشتهيه النفوس، من أنواع اللذائذ والمشتهيات، وممَّا تُسرُّ به العيون من فنون المناظر الجميلة، والمشاهد البهية، مما لا عينٌ رأتْ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما جاء ذلك في الحديث القدسي، وفوق هذا النعيم، لهم الخلود الدائم الأبدي في الجنة، ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي وهذه جنة الخلد، التي أورثكم الله إيَّاها، بسبب أعمالكم الصالحة، التي فعلتموها في الدنيا ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي لكم في الجنة من أنواع الفواكه والثمار الشيء الكثير، تأكلون منه تفكهاً وتلذذاً، دون فناءٍ ولا انقطاع!! ولمَّا ذكر تعالى مصير السعداء، أعقبه بذكر مصير الأشقياء، فقال سبحانه ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي إن الأشقياء المجرمين، الغارقين في الضلال

وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾

والإجرام، هم في عذاب الجحيم، مخلَّدون فيها أبداً، لا يخفَّف عنهم العذاب لحظة، وهم في ذلك العذاب (مبلسون)، أي يائسون قانطون من رحمة الله، ويائسون من النجاة ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي وما ظلمناهم بعقابنا لهم، ولكن كانوا هم الظالمين لأنفسهم، لتعريضهم لها للعذاب الخالد، بأعمالهم الخبيثة المنكرة ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ أي ونادى الكفار الفجار مالكاً خازن النار، قالوا: يا مالكُ ادعُ لنا ربك، حتى يميتنا ويهلكنا، لنستريح من هذا العذاب الشديد!! فيجيبهم بعد ألف عام: إنكم مقيمون في العذاب، لا خلاص لكم منه ولا نجاة، **قال ابن عباس**: مكث مالك ألف سنة لا يجيبهم، ثم ردَّ عليهم الجواب بقوله ﴿إنكم ماكثون﴾ أي باقون مخلَّدون في العذاب، ثم بيَّن تعالى السبب فقال: ﴿لقد جئناكم بالحق﴾ الساطع المبين، ولكنكم كنتم كارهين لدين الله، مكذبين لرسوله، والمراد نفرتُهم عن الرسول، وعن القرآن، وشدة بغضهم لقبول الحق ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ أي هل أحكم هؤلاء الكفار الفجار أمرهم، في الكيد لمحمد ﷺ وشرعه ودينه؟ وتآمروا فيما بينهم لقتله أو طرده من مكة؟ فإنا محكمون أمرنا في نصرته وإعزازه، وردِّ كيدهم في نحورهم!! والآية تشير إلى تآمرهم على الرسول في (دار الندوة) وقد خيَّب الله مساعيهم، ونجَّى رسوله من شرهم، وقد كانوا يتحدثون بهذا الأمر، سرّاً في أنديتهم، ويتشاورون فيما بينهم في أمره ﷺ، فنزل قوله سبحانه ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي هل يظنون أنا لا نعلم ما تحدثوا به فيما بينهم سرّاً، من التآمر على الرسول، وما أضمروه في أنفسهم من الكيد له؟ بلى نعلمه، وإن أمرهم لا يخفى علينا، وملائكتنا الحفظة تكتب أعمالهم وإجرامهم، والسرُّ: ما يُحدث به الإنسانُ نفسه، والنجوى: ما تكلموا به بينهم بطريق الخفاء ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين ـ

سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

على سبيل الفرض والتقدير ـ: لو كان لله ولدٌ كما زعمتم وادَّعيتم، فأنا أول من يعبده، لأنني عبد مطيع لأوامره، ولكنَّ هذا مستحيل، لأن الله ليس له زوجة ولا ولد، **وقال البخاري** ﴿فأنا أول العابدين﴾ **أي الآنفين، أي فأنا أول من خالفكم ووحَّد الله تعالى،** وهذا قول مجاهد، **والقول الأول أظهر** ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ **أي** تنزَّه الله وتقدَّس **عمَّا يصفه به الكافرون،** من نسبة الذرية والبنيين له، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ **أي اتركهم يا محمد** في جهلهم وضلالهم يتخبَّطون، **إلى أن يأتي** ذلك اليوم الرهيب، **الذي يجدون** فيه جزاءهم، ويعلمون مصيرهم ومآلهم، **وهو** وعيد وتهديد ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ **(إلهٌ)** بمعنى: معبودٌ، **والمعنى**: وهو جلَّ وعلا معبودٌ في السماء، ومعبودٌ في الأرض، يعبده الملائكة في السماء، كما يعبده المؤمنون في الأرض، وهو الحكيمُ في صنعه، العليمُ بشؤون خلقه، وما فيه مصالحهم ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي تمجَّد وتَعَظَّم الله، المالكُ لجميع ما في السموات والأرض، من الملائكة، والإنس، والجن، وسائر المخلوقات، التي بين الأرض والسموات، فهو الخالق لها، وهو المالك لكل ذلك ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ **أي** وعنده وحده علمُ وقت مجيء الساعة، لا يعرف وقتها إلا هو سبحانه، وإليه مرجع جميع الخلائق للحساب والجزاء ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ **أي** لا يقدر أحد أن يشفع لأحدٍ، ممن يعبدونهم من دون الله، إلاَّ لمن شهد بالحقِّ، وأقرَّ لله بالوحدانية، وهم الملائكة، والأنبياء، والشهداء، فهؤلاء تنفع شفاعتهم، لأنهم يقرون لله بالوحدانية ويعرفون عظمة الله وجلاله، أما الأوثان والأصنام وسائر من عُبد من دون الرحمن، فلا تنفع شفاعتهم

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

لأحدٍ من أهل الشرك، وفي الآية الكريمة ردٌّ على المشركين في قولهم: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ أي ليشفعوا لنا ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي ولئن سألتَ المشركين: مَنْ خَلَقهم؟ ليقولن: اللهُ خلقنا!! فهم يعترفون بأن الخالق لهم، هو الله ربُّ العزة والجلال، ثم يعبدون غيره، فكيف يُصْرفون عن عبادة الرحمن، إلى عبادة الأوثان؟ مع اعترافهم بأن كلَّ ما في الكون من خلق الله عز وجل؟ وهذا تعجيب من حالهم وتناقضهم في العبادة ﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي وقول محمد ﷺ في شكواه لربه: يا رب إن هؤلاء قوم متكبرون متجبرون، لا يؤمنون بك ولا برسولك، فاصفح يا محمد عنهم أي دعهم وسلِّمْ أمرك لربك، فسوف يرون عاقبة إجرامهم وافترائهم على الله!!.

انتهى تفسير سورة الزخرف

● ● ●

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

تفسير سورة الدخان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ الحروف المقطعة ﴿حم﴾ للإشارة إلى إعجاز القرآن، كما تقدم مراراً، ثم قال ﴿والكتاب المبين﴾ أي أقسم لكم بالقرآن العظيم، الواضح في إعجازه، البيِّن في أحكامه، الفارق بين الهدى والضلال، أقسمُ لكم على أن هذا القرآن، قد أُنزل في أفضل الليالي، وأفضل الشهور، في ليلة عظيمة مباركة هي (ليلة القدر) وهي في ليلة من ليالي شهر رمضان ﴿إنا كنا منذرين﴾ أي أنَّا كنا محذِّرين البشر من عقابنا، فلم نترك أحداً من الخلق بدون إنذار، لتقوم الحجة عليهم ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي في ليلة القدر المباركة، يُفصل من اللوح المحفوظ، أمرُ السنة كلِّها، وما يكون فيها من الأرزاق، والآجال، والأعمال، تُلقى إلى الملائكة الحفظة، بأمرنا وتدبيرنا ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي أنزلنا القرآن، وأرسلنا الرسل، رحمة منَّا بالعباد، لهدايتهم وإرشادهم، لأن حكمتنا اقتضت أن لا نترك البشر، دون هداية وتذكير ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي هذا الرب الرحيم، هو رب الكون كلِّه، سمائه وأرضه، وما فيها من المخلوقات، إن كنتم من أهل الإيمان واليقين، فاعرفوا أن الخالق هو الله رب العالمين ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي لا معبود بحق إلاَّ هو سبحانه، ولا خالق سواه، فهو المحيي المميت، القادر الحكيم، الذي ينبغي أن يُعبد ويُطاع، رب الأولين والآخرين، من

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾

السابقين واللاحقين ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ أي ليسوا موقنين في قولهم: الله خالقنا، بل هم يشكُّون في القرآن، والرسول، وفي أمر البعث والنشور، وهم لاهون غافلون، عما ينتظرهم من الهول والعذاب ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي انتظر يا محمد عذابهم، يوم تأتي السماء بدخانٍ كثيف، يكاد يُزهق الأرواح، ويكتم الأنفاس، ويجعل الإنسان يترنَّح كالسكران ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أي يحيط العذاب بأولئك الكفار، من كل جانب، ويعمُّهم بهوله وشدته، فيستغيثون قائلين: يا ربنا اكشف عنا العذاب، نحن مؤمنون برسولك وكتابك، إن كشفته عنَّا ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ أي من أين لهم أن يتعظوا ويتذكَّروا؟ وحالهم معروفٌ حين جاءهم رسول عظيم، هو (محمد خاتم المرسلين)؟ جاءهم بالمعجزات الباهرة، فكذبوه واستهزءوا به، وقالوا: إنه يتلقى القرآن من رجلٍ أعجمي، وقال بعض السفهاء عنه: إن محمداً رجل مجنون، فهل يُتوقَّع من أمثال هؤلاء أن يتذكروا، ويتَّعظوا؟

قال ابن مسعود: (إن قريشاً لمَّا استعصوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسنيِّ يوسف، فأصابهم قحطٌ وجهد، حتى أكلوا العظام والميتة، فجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجوع، فقالوا ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ فقيل له: إن كشفنا عنهم عادوا!! فدعا رسول الله ﷺ ربه، فكشف عنهم، فعادوا، فانتقم الله منهم يوم بدر، فذلك قوله تعالى **﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين..﴾** إلى قوله جلَّ ذكره **﴿إنا منتقمون﴾** رواه البخاري ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ أي سنكشف عنكم يا معشر المشركين العذاب، زمناً قليلاً، ثم تعودون إلى ما كنتم عليه من الشرك والعصيان ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ أي وذكِّرهم يوم نبطش بهم بطشتنا الكبرى، انتقاماً لك منهم، والبطشُ

۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾

معناه: الأخذُ بشدة وعُنفٍ، والمراد به (يوم القيامة)، حين لا يجدون لهم من ينصرهم من عذاب الله، وهذا قول ابن عباس، أن البطشة الكبرى (يوم القيامة) وقال ابن مسعود (يوم بدر) حيث قُتل من صناديدهم سبعون، وأُسر منهم سبعون، والراجح كما يقول ابن كثير والرازي: أنه يوم القيامة، لأن الله وصف البطشة بأنها (كبرى) وهذا إنما يكون يوم القيامة، وإن كان يوم بدر عظيماً وكبيراً أيضاً ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي ولقد ابتلينا بالنعمة والجاه والسلطان، قبل كفار قومك، (قوم فرعون)، وبعثنا إليهم رسولاً كريماً، ذا شرف ومكانة، من أكرم عباد الله، وهو «موسى» الكليم عليه السلام، فقال موسى لفرعون وأتباعه: ادفعوا إليَّ عبادَ الله، وأطلقوا سراح بني إسرائيل، من الذل والاستعباد، فأنا رسول ناصح لكم، مرسل من رب العالمين ﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي وأنصحكم أن لا تتكبروا على الله، بالاستخفاف بدينه ورسوله، إني جئتكم بالمعجزة الواضحة، الدالة على صدق رسالتي، فاقبلوا نصحي!! ومع هذا البيان الواضح، فإن الطغاة من قوم فرعون، توعَّدوه بالقتل فاستجار بربه، فقال ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾ أي وإني التجأت إلى الله، واستجرتُ به أن تقتلوني، وإن لم تؤمنوا برسالتي، فكفوا شرَّكم عني، واتركوني وخلُّوا سبيلي!! ولكنَّ الطغيان يأبى مهادنة الحق، فيلجأ إلى البطش والتنكيل، لذلك دعا عليهم موسى، لما رأى أن شرَّهم قد استفحل ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ أي فدعا موسى عليهم، لما يئس من إيمانهم وصلاحهم، وقال يا رب: إن هؤلاء قوم فُجَّار، مغرقون في البغي والإجرام، فانتقم منهم وأهلكهم!! قال تعالى ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ في الكلام حذفٌ تقديره: فأوحينا إليه وقلنا له: اخرج بعبادي

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

ليلاً من أرض مصر، فإن فرعون وقومه سيتبعونكم، فإذا وصلت البحر، فاضربه بعصاك، ثم سرْ عليه أنت وأتباعك المؤمنون، ثم اتركه ساكناً على هيئته، بعد أن تجاوزه، فإن فرعون وجنده سيغرقون في البحر، لأنهم إذا رأوه ساكناً على حالته دخلوا فيه، فيطبقه الله عليهم، ويغرقهم فيه.. ثم ذكر تعالى نهايتهم المشئومة، وما آلوا إليه من الهلاك والدمار، فقال سبحانه ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ أي لقد تركوا كثيراً من الحدائق والبساتين، والأنهار والعيون الجارية، والمزارع الواسعة التي فيها أنواع الخضرة والنضرة، والفواكه والثمار؟ وكم تركوا فيها من ﴿مقام كريم﴾ وهي المساكنُ والدُور، والقصُور الأنيقة، وقد كانوا في ديارهم ناعمين بالرفاهية والهناء، وكمال السرور والحبور، وقد زال عنهم كلُّ ذلك ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أي أغرقناهم وأورثنا ملكهم وديارهم لقوم آخرين، هم (بنو إسرائيل) كما ذكر تعالى ذلك صريحاً في الشعراء، فقال ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾ فإن الله ملَّكهم أرضَ مصر، فصاروا لها وارثين، بعد أن كانوا فيها مُستَعْبَدين!! لقد ترك الطغاة من قوم فرعون، ما خلَّفوه وراءهم من (الكنوز، والبساتين، والقصور، والمتاع، والزروع) فقد غرقوا في البحر، وتركوا تلك الأموال والثروات، غنيمة باردة لبني إسرائيل ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ أي ما تأثر لموتهم أحد، ولا حزن عليهم إنسان، وما كانوا ممهلين إلى وقت آخر، بل عُجِّل لهم العذاب، فأهلكهم الله بالغرق، والآيةُ وردت مورد التمثيل، يقول العرب: كُسِفتْ لموته الشمس، وبكت عليه السماء، أي كانت المصيبة به فادحة، وهنا قال: ﴿فما بكت عليهم السماء﴾ أي لم يُصب بفقدهم وهلاكهم أحد، من أهل السماء والأرض، وقيل هو على الحقيقة، **قال ابن كثير**: أي لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء، فتبكي على فقدهم، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله فيها فقدتهم، فلهذا استحقوا أن لا يُمهلوا ولا يُؤخَّروا، لكفرهم وإجرامهم، وعتوهم وعنادهم، وفي الحديث الشريف (ما من مؤمن إلاَّ وله في السماء بابان: باب ينزل منه رزقُه، وباب يصعد منه عملُه، فإذا مات بكيا عليه)

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾

ثم تلا ﷺ ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض..﴾ الآية، رواه الترمذي ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي نجينا المؤمنين من بني إسرائيل، من استعباد فرعون وطغيانه، من تسخيره إياهم في الأعمال المهينة الشاقة، خلَّصناهم من الاستعباد، عذاب فرعون الطاغية، إنه كان متكبراً جباراً، مسرفاً في الشر والفساد، يسومهم سوء العذاب ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي اصطفيناهم وشرَّفناهم على أهل زمانهم، لصبرهم وإيمانهم، على علم منا باستحقاقهم ذلك ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ أي أعطيناهم من الحجج والبراهين، وخوارق العادات، مثل فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المنِّ والسلوى، ما فيه اختبار ظاهر لهم، لننظر كيف يعملون؟ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي إن كفار مكة ليقولون: ليست هناك إلا موتة واحدة، وإذا متنا فلا حياة، ولا بعث، ولا نشور، وما نحن بمبعوثين بعد الموت!! والتعبيرُ عن كفار مكة بـ (هؤلاء) للتحقير والإهانة، كأنه يقول: إن هؤلاء السفهاء الحمقى من قومك، ليقولون: لن نموت إلاَّ موتة واحدة ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي فأحيوا لنا آباءنا وأجدادنا السابقين، إن كنتم صادقين، في دعوى أن هناك بعثاً بعد الموت، حتى يخبرونا بما جرى وحدث لهم!! وهذا يدلُّ على غباءِ وسَفَهٍ في تفكيرهم، فإن البعث إنما يكون بعد انتهاء الدنيا، لا في الدار الدنيا، بل بعد انقضائها وفراغها وذهابها، يعيد اللَّهُ الناسَ إلى الحياة مرة أخرى خلقاً جديداً، ويجعل الكافرين لنار جهنم وقوداً!! ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ أي هل كفار مكة أقوىٰ وأشدُّ، أم أهلُ سبأ «ملوك اليمن»؟ الذين كانوا أكثر أموالاً، وأعظم نعيماً من قريش؟ وكذلك الذين كانوا قبلهم، كقوم عاد وثمود، من الأمم الضالة العاتية؟ أهلكناهم

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾

بسبب إجرامهم، مع ما كانوا عليه من القوة، والشدة، والمنعة؟ أفلا يخافون إن يهلكهم الله- كما أهلك من قبلهم من الطغاة المكذبين!؟ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ما خلقنا السموات والأرض، وما بينهما من المخلوقاتِ العجيبة، إلاَّ عن حكمةٍ وقصدٍ وتدبير، ولم نخلقهما للَّهو والعبث، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون ذلك، فينكرون البعث والجزاء ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي إن يوم القيامة، موعدُ حساب الخلائق أجمعين، وفي ذلك اليوم الرهيب، لا يغني قريبٌ عن قريب، ولا حبيبٌ عن حبيب، لأن كلَّ إنسان مرتهنٌ بعمله، ومشغول بنفسه، ولا تنفع القرابةُ والشفاعة، إلا لمن رحمه الله، وهو المؤمن الذي يموت على الإيمان، فإنه تنفعه شفاعة الأنبياء، كما ورد في الحديث الصحيح (لكل نبيٍّ دعوةٌ مستجابة، وقد تعجَّل كلُّ نبي دعوته، وإني اختبأتُ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلةٌ ـ إن شاء الله ـ من مات من أمتي، لا يشرك بالله شيئا) رواه البخاري، وكأن الآية تقول: لمَّا كان هذا الكون مخلوقاً عن حكمة وتدبير، فلا بدَّ إذاً من دار جزاء، يجازىٰ فيه المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وإلاَّ كان هذا الوجودُ كلُّه عبثاً، وتنزَّه الله عن ذلك.. ثم يأتي الحديث عن المجرمين، ومآلهم المشئوم، وما يلقونه من أهوال وشدائد في الآخرة، فيقول سبحانه ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ أي إن هذه الشجرة الخبيثة، التي تنبت في قعر جهنم، وهي (شجرة الزقوم)، هي طعام كل كافرٍ فاجر، لا طعام له غيرها، وهي في شناعتها وفظاعتها، كالنحاس المذاب الذي انصهر، واشتدت حرارته، فهو يجرجر في البطن، كغليان الماء الشديد الحرارة، يَغْلي

خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٢﴾ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾

في بطون أهل النار، كغليان القِدْر بالطعام ﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ أي يُقال لزبانية جهنم، خذوا هذا الشقيَّ الفاجر، فجرُّوه من تلابيبه بعنفٍ وشدة إلى وسط الجحيم، ثم ألقوا فوق رأس ذلك الفاجر، الحميمَ وهو الماء المغلي، الذي يشوي الجلد والوجه، ويقال له على سبيل السخرية والاستهزاء: ذق هذا العذاب، فإنك أنت المعزَّزُ المكرَّم عندنا!! وأيُّ عزَّة وكرامة، لمن يلقىٰ هذه الإهانة؟ نزلت هذه الآيات في (أبي جهل) وأمثاله، فقد كان عدوُّ الله يقول لأصحابه: إن محمداً يَعِدُنا بطعامٍ في جهنم هو «الزقوم» هل تدرون ما هو الزقوم؟ إنه الزُّبدُ، والرُّطبُ، ثم يأمر جاريته أنْ تأتيهم بالزبد والرُّطبُ النفيس، ويقول لأصحابه: تزقَّموا فهذا هو الزقوم، الذي يعدكم به محمد، فأنزل تعالى هذه الآيات فيه، وأخبر أن شجرة الزقوم هي طعام كل أثيم فاجر، وليست كما يقول الشقيُّ الخاسر (أبو جهل) إنها: (الزبدُ والتمر) وإنما هي العلقمُ والجمر، وروي أن رسول الله ﷺ لقي ذات يوم أبا جهل، في أحد طرقات مكة، فقال له ﷺ: إن الله أمرني أن أقول لك: ﴿أولى لك فأولى. ثم أولى لك فأولى﴾ أي ويلٌ لك، ثم ويلٌ لك!! فقال أتتوعدني يا محمد؟ واللهِ ما تستطيع أنت وربك أن تفعلا بي شيئاً!! إني أعزُّ وأكرمُ أهل هذا الوادي، وأمنعُ أهل البطحاء، وأنا العزيزُ الكريم، فأذلَّه الله وقتله يوم بدر، وأنزل فيه هذه الآية ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ ثم قال تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ أي هذا العذاب هو ما كنتم تشكُّون فيه، وتنكرونه في الدنيا، فذوقوه اليوم!! ولمَّا ذكر تعالى ما أعدَّه للمجرمين من العذاب والنكال، ذكر ما أعدَّه للمؤمنين الأبرار، من التكريم والنعيم في جنان الخلد والسعادة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أي إن هؤلاء الأبرار، الذين اتقوا ربهم في الدنيا، وخافوا عذابه، إنهم اليوم في الجنة، في مكان أمين، يأمنون فيه من جميع المخاوف، وهم منعَّمون، في حدائق وبساتين ناضرة، وعيون جارية، ولباسهم في الجنة، الحريرُ

كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٥٤﴾ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

الرقيق منه وهو «السندسُ» والسميكُ منه الذي له بريقٌ ولَمَعان، وهو «الاستبرق» ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾ أي وكما نعَّمناهم في الجنة بأنواع النعيم، كذلك أنكحناهم بنساءٍ من الحور العين، الجميلات الواسعات العيون، اللواتي يحار فيهن الطرفُ، من شدة الحسن والجمال!! ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ أي يطلبون في الجنة من جميع ما يشتهون من الفواكه والثمار، آمنين من كل ما يسوءهم، ويكدِّر صفوهم، لأن الجنة دار الأمان، فهم آمنون من الأسقام، والأوجاع، والأمراض، فلا تعب في الجنة، ولا وَصَب، ولا خوف، ولا نَصَب ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي لا يذوقون في الجنة الموت، إلا الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا، ونجَّاهم ربهم من عذاب جهنم الأليم، وقد جاء في الحديث الشريف (أنه يؤتى بالموت يوم القيامة، على صورة كبش أملح، ويُنادَى أهلُ الجنة وأهلُ النار، ويقال لهم: أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموتُ، وكلُّهم قد رآه، فيذبح الموتُ، ثم يقول المنادي: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت) رواه البخاري ﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي كلُّ هذا النعيم تفضلٌ وكرمٌ من رب العزة والجلال، لأهل الجنة السعداء الأبرار، وهذا هو الفوز الحقيقي، الذي لا فوز أعظم ولا أكبر منه، لأنه الفوز بالسعادة الكبرى الدائمة، كما قال سبحانه ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾ ثم ختم الله السورة الكريمة بقوله ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ﴾ أي فإنما جعلنا القرآن سهلاً ميسراً، وأنزلناه بلغتك بلسان العرب، كي يفهمه قومك، ويتذكروا ويتعظوا بآياته البينات، ويعملوا بموجب أحكامه، فانتظر يا محمد ما يحلُّ بهم، إنهم منتظرون هلاكك، وسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر في الدنيا والآخرة؟ هل لهم أم لك؟ وهو وعد للرسول أكيد، ووعيدٌ للمشركين شديد!!.

انتهى تفسير سورة الدخان

● ● ●

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٥﴾

تفسير سورة الجاثية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الحروف المقطَّعة ﴿حمٓ﴾ للإشارة على إعجاز القرآن، كما تقدَّم مراراً، ثم بيَّن تعالى أن هذا الكتاب المجيد، منزَّلٌ من عند الله، خالق الأكوان، ومبدع الإنسان، (العزيز) في ملكه، (الحكيم) في صنعه، وفي هذا التقرير، ردٌّ على السفهاء من كفار مكة، الذين زعموا أن القرآن من تنزل الشياطين ﴿وما تنزلت به الشياطين. وما ينبغي لهم وما يستطيعون﴾ ثم بعد الحديث عن الآيات التنزيلية، جاء الحديث عن الآيات الكونية، المعروضة في السموات والأرض، فقال سبحانه ﴿إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين﴾ أي إن في خلق السموات، وما فيها من روائع الآيات البديعة، من نجوم زاهرات، وشمس، وقمر، وفي الأرض وما فيها من جبال، وبحار، وأنهار، وخلائق عجيبة لا يحصيها إلا الله، لعلامات باهرة على قدرة الله، وحكمته، ووحدانيته، لأهل البصيرة والإيمان ﴿وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ أي وفي خلقكم أيها الناس من نطفة، ثم من علقة، متنقلة في أطوار مختلفة، ﴿وما يبث﴾ أي وما ينشره تعالى ويُفرِّقه من أنواع المخلوقات التي تدبُّ على وجه الأرض، من الأنعام، والزواحف، والسباع، والظباء، والوحوش الكاسرة، كل هذه دلائل وبراهين، لقوم يوقنون بقدرة الله، وعظمته، وجلاله ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ أي وفي تعاقب الليل والنهار، بنظام محكم دقيق، وفيما أنزله الله من المطر، الذي به حياة الخلق والبشر، وسمَّى الله المطر رزقاً، لأن

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

به تحصيل أنواع الرزق، فأحيا به الأرض بعد جدبها ويبسها، بأصناف الزروع، والنبات، والثمرات، وتقليب الرياح من جهة إلى جهة، حارة وباردة، ﴿آيات﴾ أي علامات ساطعة واضحة، على قدرة الله ووحدانيته، لقوم لهم عقول نيِّرة، وبصائر مشرقة ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أي هذه دلائل الله وحججه وبراهينه، نقصُّها عليك يا محمد بالحقِّ الساطع المبين، وإذا لم يصدِّق قومك كفار مكة بكلام الله، فبأي حديث وكلام يؤمنون ويصدِّقون؟ والغرضُ استعظامُ تكذيبهم للقرآن، مع وضوح بيانه وإعجازه!! ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي هلاك ودمار، لكل كذَّاب، كثير الآثام والجرائم، وصيغةُ فعَّال (كذاب) وفعيل (أثيم) للمبالغة ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي يسمع آيات القرآن، تُقرأ عليه، وهي في غاية الوضوح والبيان، ثم يستمرُّ على كفره، ويتمادى في فجوره وطغيانه، كأنه لم يسمع كلام الله، فبشره يا أيها الرسول، بعذاب شديد موجع، في غاية الشدة والإيلام، والبشارة بالعذاب (للتهكم والسخرية)، فإذا كان هذا الشقيُّ لا يسمعُ النذير، فليأته العذاب في صورة البشير!! ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي وإذا بلغه شيء من آيات الذكر الحكيم، سخر واستهزأ منها، فله عذابٌ مع الذل والإهانة، والخزي والتحقير، وهي الجزاء المناسب، لمن يستهزىء بآيات الله ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولهم على كفرهم وفجورهم نار جهنم، تنتظرهم، وهم لا محالة واصلون إليها، ولا ينفعهم ما ملكوهُ في الدنيا من المال والبنين، ولا ما عبدوه من دون الرحمٰن، من الأصنام والأوثان، ولهم عذاب فظيع شنيع!! لقد نوَّع لهم تعالى فنون العذاب فقال: ﴿أليم، مهين، عظيم﴾ في مقابلة تفننهم في السخرية والاستهزاء بكلام الله، جزاءً وفاقاً.. ثم بيَّن تعالى أن هذا القرآن، المنزل على خاتم الأنبياء، هو طريق الهداية

﴿هَٰذَا هُدًىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٌ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ١١﴾

والرشاد، لمن أراد الله له الخير والسعادة، فقال سبحانه ﴿هَٰذَا هُدًىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٌ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ﴾ أي هذا القرآن في غاية الكمال، وهو الحقُّ بعينه الذي لا يشوبه الضلال، لمن آمن به واستنار بأنواره، والذين جحدوا بالقرآن، مع سطوع حججه، وظهور إعجازه، لهم عذاب من أشدِّ أنواع العذاب، مؤلم موجع، لا يُوصف من شدته وغلظته، والرجزُ في اللغة: أشدُّ العذاب، فهو تأكيد بعد تأكيد، وتهديد بعد تهديد، يناسب جرم من كفر بآيات الله!!

أشار تعالى في الآيات السابقة، إلى دلائل القدرة والوحدانية، وأمر بالنظر في آياته الكونية المبثوثة في الكون، فحيثما مدَّ الإنسان بصره، رأى آيات الله العجيبة!! فهذه السموات بأجرامها الضخمة، وأفلاكها الهائلة، وهي تدور في هذا الفضاء الرهيب، لا يصطدم نجم بنجم، ولا يدخل كوكب في مدار كوكب آخر، والمجموعة الشمسية ـ على ضخامتها ـ بالنسبة إلى هذا الكون الفسيح، أقلُّ بكثير من نسبة قطرة الماء، إلى مياه المحيطات كلها، فالكون واسع فسيح، لا يعلم مداه إلاّ ربُّ العزة والجلال، ولهذا لفتَ القرآن أنظار البشر للتفكر في خلق السموات، وهذه الأرض التي نعيش عليها، ذرة أو هباءة بالنسبة إلى النجوم والمجرات، ولولا النظام الذي وضعه الخالق فيها، لتاهت هذه الأرض في هذا الفضاء الوسيع، ولكنَّ الله سبحانه بحكمته وتدبيره، نظَّم ارتباطها وتناسقها بهذا الكون العجيب، فجعل بين الشمس والأرض مسافة محدودة، وهي في حركتها مع الشمس، لا تقترب ولا تبتعد عن هذه المسافة، التي قدَّرها الله لها، ولو اقتربت الشمس منا عُشر هذه المسافة، لأصبحت الأرض كتلةً من الفحم الحجري الأسود، احترقت بمن فيها، ولو ابتعدت عنا عُشر هذه المسافة، لتجمدت الأرضُ بمن عليها، ثم هذا التناسق والالتئام بين (الإنسان، والحيوان، والنبات)، آية من الآيات العجيبة، الإنسان يتنفس الهواء، فيأخذ (الأوكسجين) ويطلق غاز الفحم، والشجر والنبات يُطلق (الأوكسجين) ويأخذ غاز الفحم، فهناك تناسق بين حاجة الإنسان، وحاجة النبات!! وحول الإنسان مخلوقات متنوعة، من دواب، وأنعام، ووحوش، وزواحف، وحشرات، وقد نظمت حياتها تنظيماً دقيقاً، فالأسود مثلاً لا تتوالد كما تتوالد الأغنام والأبقار، ولو كانت تتناسل مثلها، لما أبقت على إنسان ولا غذاء، ولهاجمت الناسَ في دورهم ومنازلهم، وافترست الأطفال والرجال!! والذبابة الواحدة تعيش أسبوعاً أو أسبوعين، وهي تبيض مئات الألوف، فلو أُفلت لها الزمام، فعاشت سنة أو

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

سنتين، لكان الذباب يغطي الأجساد، ويأكل العيون والشفاه، ولما أمكن العيش في هذا الجو الوبيل، ولكنَّ قدرة الله المدبِّرة تضبط الأمور، في تقدير دقيق، محسوب فيه حساب جميع المخلوقات، ولهذا السرِّ البديع، لفت القرآن الأنظار، إلى التفكر في هذا الكون، وما خلق الله فيه من أنواع المخلوقات العجيبة، كما وضحتها الآيات الكريمة ﴿إن في خلق السموات والأرض لآيات للمؤمنين وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون﴾ فسبحان من خَلَق فأبدع!! ونظَّم فأحكم التدبير، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى!! ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي الله جلَّ وعلا بقدرته وحكمته، هو الذي ذلَّل لكم البحر، على سعته وعظمه، لتسير السفن على سطحه، دون أن تغوص في أعماقه، ولولا هذا التسخير والتذليل، لما استطاع الإنسان أن يقطع البحار، ويجوب القارات!! ولتنتفعوا بما خلقه لكم من أنواع الأسماك، وتستخرجوا منه أنواع الحلية، من اللؤلؤ، والمرجان، لأجل أن تشكروا ربكم على نِعَمه الجليلة ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي وسخَّر لكم كل ما في هذا الكون، من (شمس، وقمر، ونجوم، وجبال، وأنهار، ونبات، وثمار) كلُّ هذا من فضله وجوده، وإحسانه على عباده!! فَمَنْ هذا المخلوق، الضعيف، الذي يحظى بكلِّ هذا الفضل، من رعاية الله وعنايته؟! أفَلاَ يستحقُّ هذا الإله العظيم الجليل، أن يُعبد فلا يُكفر، على هذا الجود والإحسان؟! الأمر يحتاج إلى تفكير، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ أي يتفكرون في بدائع صنع الله، ويستدلون على وحدانيته وقدرته، فيؤمنون به ويعبدونه ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي قل يا أيها الرسول لعبادي المؤمنين، يعفوا ويصفحوا عن الكفار، الذين لا يؤمنون بالآخرة، ولا يعتقدون بلقاء الله

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾

وجزائه، ويتركوا جزاءهم إلى الله، ليعاقبهم في الآخرة، على ما اقترفوه في الدنيا من آثام وإجرام، فكلُّ إنسان يُجازىٰ بعمله، فمن فعل خيراً نفع نفسه، ومن فعل شراً أضرَّ بنفسه، وعند الله تجتمع الخصوم ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أنزلنا على بني إسرائيل (التوراة)، وأعطيناهم الحكمة وهي فصل الخصومات بين الناس، وجعلنا فيهم الأنبياء الكثيرين، ورزقناهم من أنواع النعم، من المآكل، والمشارب، والأقوات، والثمار، وأنواع اللذائذ الكثيرة، وفضلناهم على عالمي زمانهم، ولكنهم لم يشكروا الله على نعمه ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ﴾ أي وأعطيناهم دلائل ظاهرة، ومعجزات قاهرة، تدل على صدق رسالة محمد، وما بشَّرتَ به التوراة من بعثة خاتم النبيين، فما اختلفوا في أمر نبينا ﷺ، إلا من بعد ما جاءتهم الحجج والبراهين، على صدق رسالته ﷺ، حسداً وعناداً، ورغبةً في أن تبقى الرسالة، محصورة في بني إسرائيل، لا تنتقل إلى العرب، فتكذيبهم لرسالته ﷺ عن عداوةٍ وحسد ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي هو جلَّ وعلا الذي يفصل بين العباد يوم القيامة، فيما اختلفوا وتنازعوا فيه، من أمر الإيمان والدين، وفي الآية تحذير لكفار مكة، أن يسلكوا مسلك من سبقهم، من الأمم العاتية الطاغية، فيحلَّ بهم ما حلَّ بأولئك الكفرة المجرمين ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي جعلناك يا محمد على شريعةٍ واضحة ساطعة، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، فاستمسك بما أوحاه الله إليك، في هذا الكتاب المنير، ولا تتبع أهواء السفهاء الجهال من قومك، الصادّين عن دين الله ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي إنهم لن يدفعوا عنك شيئاً من العذاب، إن

هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

سايرتهم على ضلالهم!! رُوي أن المشركين طلبوا من رسول الله ﷺ أن يكفَّ عن تسفيه عقولهم، والطعن في آلهتهم، والانتقاص منها، وأن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، فنزلت السورة ﴿قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون﴾ وإلى هذه تشير الآية الكريمة هنا.. ثم بيَّن تعالى لرسوله ﷺ، أن أهل الضلال والهوى، ينصر بعضهم بعضاً، وأنه لا يواليهم ولا يساندهم إلاَّ ظالم مثلهم ﴿وإن الظالمين بعضهم أولياءُ بعضٍ والله وليُّ المتقين﴾ هو ناصرهم ومتولي أمورهم، وهو عونهم وسندهم، وهم في حفظه ورعايته!! والغرضُ تحذيرُ المؤمنين من موالاة أعداء الله، ورسولُ الله ﷺ معصوم بحفظ الله له، ولكنه يُخاطب لأنه الرئيس والقائد لأتباعه المؤمنين ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي هذا القرآن نورٌ وضياء، وهدى وشفاء، بمنزلة البصائر، يبصر به الناسُ الحقَّ من الباطل، والهدى من الضلال، وهو هداية ورحمة لمن آمن به، وتمسَّك بتعاليمه الحكيمة، وأيقن أنه كلام ربِّ العالمين ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي هل يظن الكفَّارُ الفجار، الذين ارتكبوا أنواع الجرائم والآثام، أن نجعلهم في الحكم والاعتبار، كالمؤمنين الأبرار؟ ونعاملهم معاملتهم في الجزاء والتكريم؟ ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي هل يتساوى الأشرار مع الأبرار، في الحياة وبعد الممات؟ كلاَّ، لا يستوون في حالٍ من الأحوال، فإن المؤمنين عاشوا على الطهر والطاعة، والكفار عاشوا على الفجور والعصيان، وشتَّان شتَّان بين الفريقين، وساء ما ظنُّوا واعتقدوا بالله، أن يساوي بين الفجار والأبرار!! ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي وخلق الله السموات والأرض بالعدل، ومن أجل تحقيق العدل لا بدَّ من مجيء الآخرة، للانتصار للمظلوم من الظالم، ولكي يُجازي كل إنسان بعمله، وبما فعله من خير أو شر، ولا يظلم ربك أحداً!! وضَّح سبحانه أن الحكمة من خلق العالم، هو الجزاء العادل، ولو لم تكن هناك آخرة ـ كما زعم الكفارُ ـ لاستوى المطيع والعاصي، والبر والفاجر، وهذا ما لا يتفق

أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾

مع حكمة الله وعدالته ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي أخبرني عن حال الشقي الفاجر، الذي ترك عبادة الواحد الأحد، وعَبَد الهوىٰ؟ ﴿وأضلَّه الله على علم﴾ أي عارفاً بالحق والباطل، **وقال ابن عباس**: «ذلك هو الكافرُ اتخذ دينه ما يهواه، فلا يهوى شيئاً إلاَّ ركبه» فإذا استحسن شيئاً في نفسه فعله، وإذا رآه قبيحاً تركه، لا يهوى شيئاً إلاَّ عَبَده من دون الله ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ؟ أي وطبع على سمعه وقلبه، بحيث لا يتأثر بموعظة ولا نصيحة، ولا يتفكر في الآيات، وجعل على بصره غطاءً، حتى لا يُبصر الهدى والرشاد، وقد سُدَّت عليه جميعُ المنافذ، التي يدخل منها النور «السمعُ، والعقلُ، والبصرُ» فمن يهديه بعد أن أضلَّه الله؟ لا أحد يقدر على ذلك، أفلا تعتبرون وتتعظون!! ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾ أي قال المشركون المنكرون للبعث والنشور: لا حياة بعد هذه الحياة الدنيا، يموت بعضُنا، ويحيا بعضنا، ولا آخرة، ولا حساب، ولا جزاء، وما يفنينا إلا تعاقبُ الدهور، والأعوام، والأيام، وليس بعد ذلك شيء مما يقوله الرسل، وجاءت به الأديان!! وهذه (عقيدة الملاحدة)، الذين ينسبون الخلق إلى (الطبيعة)، فيقولون: الطبيعة أوجدتنا، والطبيعةُ تطوينا، قال تعالى ردّاً عليهم ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي وليس لهم في هذه المزاعم الباطلة، مستند من شرعٍ، أو عقل، وما هي إلاَّ ظنون منهم وأوهام، ظنُّوها حقائق، واعتمدوا عليها في إنكار يوم الحساب ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي وإذا قُرئت عليهم آياتُ الذكر الحكيم، واضحات الدلالة على مجيء الآخرة، ما كان متمسكهم في إنكار البعث، إلا أن يقولوا: أحيوا لنا آباءنا، وابعثوهم من قبورهم، إن كنتم صادقين أننا سنحيا بعد الموت!! سمَّى تعالى هذا القول الباطل منهم

قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾

«حجة» على وجه (التهكم والسخرية)، كماقال الشاعر: «تحية بينهم ضربٌ وجيعُ» وما عرف الحمقى أن البعث لا يكون هنا في الدنيا، إنما هو بعد الموت، وانتهاء حياة البشر ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي قل لهم: اللهُ الذي أحياكم حين كنتم في أصلاب آبائكم، هو الذي يميتكم عند انتهاء آجالكم، ثم بعد الموت يبعثكم للحساب والجزاء، فمن قَدَر على البدء، قَدَر على الإعادة، ولكن الكثيرين يجهلون قدرة الله عزَّ وجل ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي ولله جلَّ وعلا ملك جميع ما في الكون، هو الخالقُ وهو المالك لها، ويوم القيامة يخسر الكافرون، المكذبون بيوم الحساب، ويظهر خسرانهم في ذلك اليوم الرهيب ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي وترى كلَّ أمة من الأمم، جالسة على الركب، من شدة الهول والفزع، وهي هيئة (المذنب الخائف)، وذلك حين يُؤتى بجهنم، فإنها تزفر زفرةً لا يبقى أحد، إلاَّ جثا على ركبتيه، يقول: نفسي، نفسي، وكلُّ أمة تُدعى إلى كتاب أعمالها، ويُقال لهم: اليوم تنالون جزاء أعمالكم، التي فعلتموها في الدنيا ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي هذا كتاب أعمالكم يشهد عليكم بالحق، من غير زيادة ولا نقصان، فكل ما فعلتموه مثبتٌ هنا ومحفوظ، لا شيء يُنسى، ولا شيء يضيع، كما قال سبحانه ﴿ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يُغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾؟ أي لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا سجلها علينا ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي فأما المؤمنون المتقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، فإن الله

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

يدخلهم في الجنة، وتلك هي السعادة الكبرى، التي لا سعادة بعدها، وعبَّر عن الجنة بقوله ﴿في رحمته﴾ لأن الجنة مكان تنزل الرحمة ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ أي وأمَّا الكافرون الجاحدون فيقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: ألم تكن الرسلُ تتلو عليكم آيات الله؟ فتكبرتم عن الإيمان بها، وأعرضتم عن سماعها، وكنتم قوماً مغرقين في الإجرام!! ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾ المراد بالساعة القيامة، أي وإذا قال لكم المؤمنون: إن ما أخبركم الله به، ووعدكم بمجيئه، حق كائن لا بدَّ أن يأتي، والقيامة قادمة لا محالة، قلتم لغاية عتوِّكم وضلالكم: أيُّ شيء القيامة؟ نحن لا نعرفها ولا نؤمن بها، نسمع بها سماعاً، ولا نظن أنها ستحدث، ولسنا مصدِّقين بها يقيناً ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي ظهرت لهم يوم القيامة، قبائح أعمالهم، وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يسخرون منه، ويستهزئون به في الدنيا، ويقولون: متى يأتينا العذاب؟ سخرية واستهزاء ﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي ويقال لهم: اليوم نترككم في العذاب، ونعاملكم معاملة الناسي، كما تركتم العمل لهذا اليوم الرهيب، ولم تبالوا به، ومصيركم ومسكنكم اليوم في نار جهنم، لا مأوى لكم غيرها، وليس لكم من ينصركم ويخلِّصكم من هذا العذاب!! والمرادُ بالنسيان في الآية: التركُ، **قال مجاهد:** ﴿فاليوم ننساكم﴾ أي نترككم كما تركتم العمل للآخرة، لأن الله تعالى لا يضلُّ ولا ينسى، روى مسلم في صحيحه (يقول الله للعبد يوم القيامة: ألم أكرمك؟ وأزوِّجك وأسخِّرْ لك الخيل والإبل؟ فيقول العبدُ: بلىٰ يا ربّ!! فيقول: أفظننتَ أنك ملاقيَّ؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى له: فاليومَ أنساك كما نسيتني) رواه مسلم، أي أهملك وأتركك في العذاب كما

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

تركت عبادتي وطاعتي ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي نجازيكم بهذا الجزاء، بسبب أنكم سخرتم من كلام الله ودينه، واستهزأتم بما جاءكم به الرسول، وخدعتكم الدنيا بزخارفها وأباطيلها، حتى نسيتم الآخرة ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي فاليوم لا يُخرجون من نار الجحيم، ولا يُطلب منهم أن يرضوا ربهم، بالتوبة والطاعة، ولا أن يعتذروا إليه، لفوات الأوان ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي فللَّه وحده خاصة الحمدُ والثناء، لأنه الخالق والمالك لكل ما في السموات والأرض ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي وله سبحانه العظمة الكمال، والمجد في السموات والأرض سبحانه وتعالى ربُّ العزة والجلال!!.

انتهى تفسير سورة الجاثية

● ● ●

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾

تفسير سورة الأحقاف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ الحروف المقطعة للإشارة إلى إعجاز القرآن، ثم بين تعالى أن هذا الكتاب المعجز، منزلٌ من عند الله، ﴿العزيز﴾ أي الغالب القاهر لكل إنسان ومخلوق، ﴿الحكيم﴾ الذي لا يفعل شيئاً إلا عن حكمة وتدبير، وصف تعالى نفسه بالعزة والكبرياء، والحكمة في الأقوال والأفعال ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ما خلقنا هذا الكون على وجه العبث والباطل، وإنما خلقناه بالحقِّ الواضح، لندلَّ على وحدانيتنا، وكمال قدرتنا، خلقناه إلى زمنٍ معيَّن هو يوم القيامة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ أي والجاحدون لوحدانية الله، معرضون عن النظر في هذا الكون، لا يفكِّرون كيف خُلقوا؟ ولماذا خُلقوا؟ يعيشون كالبهائم السارحة، لا تدري ما يُصنع بها؟ مع أن كل صفحة من صفحات هذا الوجود، تنطق بعظمة الله ووحدانيته، وكل ذرة تشهد بإبداعه وتدبيره، ويا ويل الإنسان الذي يغمضُ عينيه، حتى لا يرى دلائل قدرة الله ووحدانيته، فيما حوله من المخلوقات العجيبة!! ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي قل يا أيها الرسول، لهؤلاء المشركين الوثنيين، عَبَدةِ الأوثان والأحجار: أخبروني عن هذه الأصنام، التي عبدتموها من دون الله، وزعمتم أنها آلهة؟ أرشدوني أيَّ جزءٍ من أجزاء الأرض خلقوه؟ وماذا خلقوا من المخلوقات؟ من إنسان، أو حيوان، أو فَلَك، أو نبات!؟ وهل لهم شركة مع الله، في خلق شيء مما في السموات من بدائع المخلوقات؟ ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي هاتوا لي

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ

كتاباً من الكتب المنزلة من عند الله، قبل القرآن، تأمركم بعبادة هذه الأوثان، وأن الله شرع لكم عبادتها؟ أو ائتوني بـ ﴿أَثارة﴾ أي ببقية من علمٍ من علوم الأولين، تشهد باستحقاقها للعبادة، إن كنتم صادقين في دعواكم أنها شركاء مع الله!! **والغرضُ** توبيخُهم على هذا البهتان، فإن كل كتب الله المنزلة، ناطقة بالتوحيد، وإبطال الشرك، فليس لهم مستند من عقلٍ أو نقل.. ثم أخبر تعالى عن ضلالهم في عبادة غير الله فقال ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾ أي ليس هناك أضلُّ ولا أجهل، ممن يعبد أصناماً من الحجارة، لا تسمع دعاء الداعين، ولا تعلم حاجات المحتاجين، لأنها جمادات لا تسمع ولا تعقل، وهذه الأصنام غافلة عمن يتضرَّع إليها ويدعوها، وفيه تهكُّمٌ بها وبعابديها ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ أي وإذا جُمع الناس للحساب يوم البعث، كانت هذه الآلهة أعداءً لعابديها، يضرونهم ولا ينفعونهم، وتتبرأ ممن عَبَدها من دون الله، وذلك أن الله بقدرته يحيي الأصنام، فتتبرأ من عابديها ويقولون: ﴿تبرأنا إليك ما كانوا إيّانا يعبدون﴾ وذلك زيادة في الحسرة على الكفار، الذين أفنوا أعمارهم في عبادة الأحجار، والآية تشمل كل من عَبَد غيرَ الله، من حجر، أو شجر، أو بشر، فالجميع يصبحون يوم القيامة أعداء، كما قال سبحانه ﴿سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾ ثم قال تعالى مخبراً عن عناد المشركين ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي وإذا قُرئت على المشركين، آيات القرآن الكريم، ساطعات بيِّنات الإعجاز، قال أعداء الله الكفرة: ما هذا القرآن إلاّ سحرٌ، واضحٌ أمره أنه سحرٌ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ﴾ أي هل يقول المشركون: اختلق محمد هذا القرآن، وافتراه من تلقاء نفسه، ثم نَسَبه إلى الله؟ قل لهم: لو

هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾

أنني اختلقتُ هذا القرآن ـ على سبيل الفرض والتقدير ـ فإنكم لا تقدرون أن تدفعوا عني عذاب الله، ولا تنقذوني من عقابه وبطشه، فهو الذي يعاقبني على الافتراء عليه، فكيف أكذب على الله من أجلكم، وأتعرَّض لعذابه الشديد؟ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي هو سبحانه العالم بما تخوضون في القرآن، وتطعنون فيه، فتقولون عنه: إنه سحر، إنه شعر، إنه أساطير الأولين، وغير ذلك من وجوه الطعن، وكفى أن يكون الله العليمُ، شاهداً بيني وبينكم، يشهد لي بالصدق والتبليغ، ويشهد عليكم بالجحود والتكذيب، وهو سبحانه الغفور لمن تاب، الرحيم بعباده، وفيه وعدٌ لهم بالغفران والرحمة، إن رجعوا عن الكفر، وبيان لحلمه تعالى عليهم، إذ لم يعاجلهم بالعقوبة، مع سخريتهم واستهزائهم!! ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي قل لهم يا أيها الرسول: لستُ أول رسولٍ أُرسل للناس، بل جاء قبلي رسلٌ كثيرون، وما أنا بالرسول المبتدَع، الذي لا نظير له، حتى تستنكروا دعوتي ورسالتي!؟ ولستُ أدري ما يُفعل بي ولا بكم في الدنيا؟ هل أُنصر عليكم أم أُقتل؟ أم يحدث لي ما حدث للرسل، من الإخراج من الوطن؟ كما لا أدري أيُخسف بكم، أم تُرمون بالحجارة؟ فأنا لا أتبع إلا ما أوحاه الله إليَّ، ولا آتي بشيء من تلقاء نفسي، وما أنا إلا رسولٌ صادق، أنذركم عذاب الله وانتقامه!! ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي قل يا أيها الرسول لهؤلاء المشركين، الكافرين بالقرآن: أخبروني إن كان هذا القرآن كلامَ الله حقاً، ولم يكن سحراً، ولا مفترى كما تزعمون!! وكذَّبتم به وجحدتموه، وقد شهد رجلٌ من كبار علماء بني إسرائيل، فآمن به واستكبرتم أنتم عن الإيمان؟ كيف تظنون أن الله

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

سيفعل بكم؟ ألستم تكونون أشقى الناس؟ وأظلم الناس؟ والله لا يوفق للإيمان كل ظالم فاجر!! **أمّا الشاهدُ الذي أشارت إليه الآية،** فهو (عبدُ الله بن سَلاَم) من أكبر أحبار اليهود، وقد أسلم رضي الله عنه، حين هاجر النبي إلى المدينة المنورة، فجاء إليه وسأله عن ثلاثة أسئلة لا يعلمهن إلاَّ نبيٌّ ـ كما في رواية البخاري وأحمد ـ فلما أجابه عنها أسلمَ، وروى الشيخان عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: (ما سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول لإنسان حيٍّ يمشي على وجه الأرض: إنه من أهل الجنة، إلا لعبد الله بن سلام، وفيه نزلت الآية ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن﴾ الآية ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ﴾ هذه مقالة رؤساء قريش، أي قال الطغاة المستكبرون من رؤساء قريش: لو كان في هذا الدين خيرٌ، ما سبقنا إلى الدخول فيه، أمثالُ هؤلاء الفقراء الصعاليك، مثل (عمار، وصهيب، وخباب، وبلال) وأمثالهم ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي ولمَّا لم يهتدوا بالقرآن، مع وضوح إعجازه، قالوا عنه: هذا كذبٌ قديم، مأثورٌ عن الناس الأقدمين، أتى به محمد ونَسَبه إلى الله!؟ وهذا هو الكِبْرُ، الذي قال عنه رسول الله ﷺ: (الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْط الناس) رواه مسلم أي عدم قبول الحق، واحتقار الناس ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي ومن قبل القرآن، الذي أنزله الله عليك يا محمد، أنزلنا التوراة على موسى، قُدوةً يؤتمُّ بها في شرائع الله، ورحمة لمن آمن به واستضاء بضيائه ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي وهذا القرآن كتابٌ عظيم الشأن، مشتمل على أبدع الأحكام، مصدِّق للكتب السماوية قبله، أنزله الله بلغة العرب، إنذاراً للظالمين، وبشارة للمحسنين المتقين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي هؤلاء المؤمنون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، والاستقامة على دين الله،

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

وثَبَتُوا على ذلك حتى الممات، هؤلاء السعداء لا يلحقهم مكروه في الآخرة يخافون منه، ولا هم يحزنون على ما تركوه في الدنيا، وهم أهل الجنة على الدوام، لا يُخْرَجون منها أبداً ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ﴾ أي أمرنا الإنسان بالإحسان إلى والديه، والحنوُ عليهما، أمراً مؤكداً وثيقاً، أن يرعاهما ويحسن معاملتهما، بسبب ما تحمَّلاه من مشقات ومصاعب، في تربية الولد.. ثم ذكر تعالى ما تلقاه الأم على وجه انخصوص فقال ﴿حملته أمه كرهاً﴾ أي حملته أمه بكرهٍ ومشقة، مع شدة الآلام التي تلقاها، من الوِحام، وتغيُّر المزاج، وولَدَتْه بمشقةٍ وعسر ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ﴾ أي ومدة حمله ورضاعه سنتان ونصف السنة، فهي لا تزال تعاني وتقاسي الشدائد والآلام ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ أي حتى إذا عاش هذا الطفل، واستكمل السنَّ الذي فيه قُوَّته، وكمالُ عقله ورشده، وهو سنُّ الأربعين من العمر ـ وهو السنُّ الذي يُنبَّأ به الأنبياء ـ قال هذا الولد الصالح: يا رب ألهمني شكر نعمتك، التي أنعمت بها عليَّ وعلى والديَّ، وَوَفِّقني للعمل الصالح الذي يرضيك ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي اجعل ذريتي وأبنائي صالحين، مطيعين لك يا رب، معتصمين بدينك الحق، إني تائب لك من جميع الذنوب والآثام، وأنا من المسلمين المستمسكين بالإسلام ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ أي هؤلاء الأبناء البررة، هم الذين نصفح عن سيئاتهم، ونتقبل حسناتهم، بالوعد الصادق، الذي وعدناهم به على ألسنة رسلنا، ونكرمهم بالعفو والغفران، ودخول الجنان، مع عبادنا الصالحين.. **وهذه الآية نموذج** للولد الصالح

﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

البار، الذي استضاء قلبه بنور الإيمان، واستجاب لدعوة الرحمٰن، **أما النموذج الثاني فهو** للولد الشقي، العاقِّ لوالديه، الكافر بنعمة الله، والجاحد لوحدانيته ووجوده، فيقول عنه القرآن الكريم ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ أي وأما الولد الفاجر، الذي قال لوالديه حينما دَعَواه إلى الإيمان بالله، والتصديق بالآخرة: قُبحاً لكما على هذه الدعوة، أتعدانني أن أبعث بعد الموت، وقد مضت قرون وخلائق كثيرون قبلي، ماتوا ولم يُبعث منهم أحد!! ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي والوالدان يسمعان الكفر، ويفزعان مما يقوله ولدهما العاقُّ، ويستغيثان بالله، أن ينقذه من الشقاء والكفر، ويقولان له: ويلك آمنْ بالله، وإلاَّ هلكتَ، فوعدُ الله حقٌّ لا شك فيه، وولدهما الشقي يقول: ما هذا الذي تخبراني عنه من أمر البعث، إلاَّ خرافات وأباطيل السابقين، وما هي إلاَّ أوهام باطلة، ولا بعث ولا نشور!! ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ أي أولئك الأشقياء، هم الذين وجب لهم عذاب الله، في جملة أمم من أصحاب النار، مضت قبلهم من الجن والإنس، من الكفرة الفجار، ضيَّعوا فطرتهم الأصلية، باتباع الشيطان، فخسروا حياتهم وسعادتهم الأخروية.. وهذه الآيات عامة في كل ولدٍ بارٍ لوالديه، وفي كل ولدٍ شقيٍ عاقٍ لوالديه، ضربهما الله كنموذج للأبرار، والأشرار، ثم قال تعالى ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي ولكل فريق مراتب ومنازل بحسب أعمالهم، فللمتقين جنات النعيم، وللمجرمين دركات الجحيم، ومن زعم أن الآية ﴿والذي قال لوالديه أفٍ لكما﴾ نزلت في (عبد الرحمٰن بن أبي بكر) فقد أخطأ خطأً فاحشاً، لأن عبد الرحمٰن قد أسلم وحسن إسلامه، حتى كان من سادات الصحابة، ويدلُّ عليه ما روي (أن معاوية لما

وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ

أراد البيعة لابنه «يزيد» أرسل مروان، فجعل يقول لنناس: إن أمير المؤمنين رأى في يزيد رأياً حسناً، رأى أن يستخلفه عليكم، وهي سنة «أبي بكر، وعمر» فقال عبد الرحمٰن: بل سُنةُ «هرقلَ وقيصر» فقال مروان: هذا الذي قال لوالديه ﴿أفٍ لكما﴾ فبلغ ذلك عائشة، فقالت: كَذَب مروان، والله ما هو به، ولو شئتُ، أن أسمّي الذي نزلت فيه لسمَّيته» رواه النسائي، وروى البخاري بعضه بلفظ آخر، ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ أي اذكر لهؤلاء الغافلين، يوم تبرز جهنم لأربابها، ويُقرَّب الأشقياء منها، وتقول لهم الملائكة تقريعاً وتوبيخاً: لقد اشتغلتم بلذائذ الدنيا، من المآكل والمشارب، والملابس والمراكب، ونلتم حظوظكم في الدنيا، ولم تعملوا للآخرة ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي ففي هذا اليوم - يوم الجزاء - تنالون عذاب الذل والهوان، بسبب استكباركم عن الإيمان، وفسقكم وخروجكم عن طاعة الرحمٰن.. والآية وإن نزلت في الكفار، بدليل قوله تعالى ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار﴾ لكنّها تحذير وموعظة للمؤمنين، أن يرفلوا في ثياب الذين شغلتهم لذائذ الحياة عن طاعة الله، فأصبحوا متنعمين في الدنيا، ولذلك قال عمر لجابر بن عبد الله، وقد رآه اشترى لحماً بدرهم، فقال له: أو كلَّما اشتهى أحدكم شيئاً جعله في بطنه!! أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية، ممن قال الله فيهم ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾؟ والله لو شئتُ لكنتُ أطيبكم طعاماً، وأحسنكم لباساً، ولكنّي استبقي طيباتي لحياتي الآخرة!! ثم ذكر تعالى نموذجاً للأمم الطاغية الباغية، التي دمَّرها الله، موعظة لكفار قريش، فقال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي واذكر يا أيها الرسول لهؤلاء المشركين من قومك، قصة نبيِّ الله «هود» مع قومه «عاد» ليعتبروا ويتعظوا، حين حذَّر قومه من عذاب الله، وهم مقيمون بالأحقاف - وهي جبال من الرمل في بلاد اليمن - وقد مضت الرسل بالإنذار قبله، وبعده -

إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾

حذَّرهم هود وقال لهم: لا تعبدوا إلا الله، الذي خلقكم ورزقكم، وإليه مرجعكم ومآلكم ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ أي إني أخاف إن عبدتم غيره، عذاب يومٍ هائل هو (يوم القيامة)!! وقد جاء جواب هؤلاء السفهاء، على هذا التذكير والإنذار؟ سفيهاً وبعيداً عن الأدب ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ أي أجئتنا يا هود لتصرفنا عن عبادة آلهتنا؟ فأتنا بالعذاب الذي وعدتنا به، إن كنت صادقاً في دعواك!! وهو استفهام يراد به التسفيه لرأيه، والانتقاص من قدره، أمَّا (هود) فيتلقى هذا كلَّه في أدب الأنبياء، فهو عبد لله مأمور ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ أي ليس عندي علم بوقت مجيء العذاب، إنما علمه عند الله، وأنا أبلغكم رسالة ربي، ولكني أجدكم قوماً جهلة، ولذلك تستعجلون العذاب ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾ أجمل القرآن هنا ما كان بين (هود) وقومه، من النقاش والجدال، ليصل إلى النهاية المقصودة، من وراء هذا التحدِّي، والاستعجال بطلب العذاب، أي فلمّا رأوا السحاب معترضاً في أفق السماء، متجهاً نحو أوديتهم، استبشروا به، وقالوا: هذا سحاب مبارك، يأتينا بالمطر المدرار ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي قال لهم هود: ليس الأمر كما زعمتم أنه سحاب ممطر، بل هو ما طلبتموه، واستعجلتم به من العذاب، ريح عاصفة مدمرة، فيها عذاب فظيع مؤلم ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي تخرِّبُ الريحُ وتُهلك كلَّ شيء أتت عليه، من (رجال، وزروع، وثمار، وبناء، وأبقار)، بأمر الله وتدبيره، فأصبحوا وقد هلكوا، ولم يبق منهم سوى أطلال الديار، كذلك نعاقب ونجازي كل كافرٍ مجرم، مكذب لرسل الله!! روى

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾

البخاري عن عائشة أنها قالت: (كان رسول الله ﷺ إذا رأى غيماً أو ريحاً، عُرف ذلك في وجهه!! قلتُ يا رسول الله: إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا، رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرف في وجهك الكراهية!! فقال يا عائشة: ما يؤمِّنني أن يكون فيه عذاب؟ عُذِّب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا ﴿هذا عارض ممطرنا﴾!! رواه البخاري ومسلم، قال المفسرون: إن عاداً أصابهم حرٌّ شديد، وانقطع عنهم المطر، حتى قُحطوا، وكادوا يهلكون من شدة الحر، ورأوا سحابة في السماء، ففرحوا بها فرحاً شديداً، وخرجوا يستقبلونها في الأودية، يحسبون فيها الظلَّ والماء، فلما صاروا تحتها عصفت بهم عصفاً، ودمرتهم تدميراً، فلم تُبق منهم إلاّ الآثار، وكانت تقتلع الواحد منهم، فترفعه في السماء ثم ترمي به إلى الأرض، فإذا بهم جثث هامدة، كأنهم أعجاز نخل خاوية، واستمرت الريح عليهم ثمانية أيام، كما قال سبحانه ﴿سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية﴾ حسوماً: أي متتابعة، لقد أهلكهم الله بأبسط جنده بالريح العقيم!! قال تعالى محذِّراً ومنذراً كفار مكة ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ ﴿إنْ﴾ نافية بمعنى «ما» أي ولقد مكنَّا عاداً، في الشيء الذي لم نمكِّنكم فيه يا أهل مكة، من القوة، والبسطة، وطول الأعمار، وقوة الأجسام، ومنحناهم الحواسَّ من السمع، والبصر، والعقل، ليشكروا ربهم على هذه النعم ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي فما نفعتهم تلك الحواس أيَّ نفع، ولا دفعت عنهم شيئاً من عذاب الله، بل صرفوا جميع هذه النعم، في طلب الدنيا ولذاتها، ولم يستعملوها فيما ينفعهم، وجحدوا وكذبوا بآيات الله، التنزيلية والتكوينية ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي ونزل بهم العذاب، الذي كانوا يسخرون منه، ويستهزئون من مجيئه ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الخطاب لكفار مكة، أي ولقد أهلكنا القرى المجاورة لكم يا أهل مكة، كبلاد ثمود باليمن، وقرى قوم لوط بالأردن،

فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾

وكررنا لهم الحجج والدلالات، والمواعظ والبينات، لعلهم يرجعون عن الكفر والمعاصي، ولكنهم لم يتعظوا بكل ذلك ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي فهلاَّ نصرتهم آلهتم المزعومة، التي عبدوها من دون الله؟ وزعموا أنها تقربهم من الله في قولهم ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ أيَّ قربة؟ بل غابوا عن نصرتهم، وتركوهم وحدهم، وهم أحوج ما يكونون إليهم، لأن الصديق وقت الضيق، وهذا نتيجة الافتراء والكذب على الله!! وفي الآية ضرب من التهكم بهم، وبآلهتهم المزعومة، كأنَّ عدم نصرة الآلهة لهم، كان لغيبتهم عنهم، لا لأنها حجارة صماء بكماء، لا تسمع ولا تجيب!! وفي مقابلة هؤلاء المكذبين لسيد الخلق محمد ﷺ، من طواغيت مكة، الذين كذبوا القرآن، واستهزءوا بالرسول عليه الصلاة والسلام، تعرض السورة لنفرٍ من الجن، استمعوا إلى النبي ﷺ وهو يتلو القرآن، فتأثروا به وآمنوا، وتَداعَوْا إلى استماع آياته البينات ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي واذكر يا محمد حين وجَّهنا إليك نفراً من الجن، وأقبلنا بهم نحوك، وأنت تقرأ كتاب ربك في تهجدك وصلاتك، فلما سمعوا القرآن، قال بعضهم لبعض: اسكتوا لنسمع ما يقرأ، فلما فرغتَ من تلاوة القرآن، رجعوا إلى قومهم مؤمنين ناصحين، يحذِّرونهم عذابَ الله إن لم يؤمنوا!! لقد خشع الجنُّ عند سماع القرآن، ورقَّت قلوبهم فآمنوا وأذعنوا، ورجعوا يدعون إخوانهم من الجن إلى الإيمان به، وتصديق رسوله!! والمشركون يقولون ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ فما أبعد الفارق بين الجن، وكفار مكة، الغلاظ القلوب والأكباد!! وفي الآية توبيخ للمشركين حيث آمنت الجن بالقرآن، وهم يكذبون به ويستهزئون!؟ ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي قالت الجن لإخوانهم: لقد سمعنا كتاباً عجيباً غريباً، رائعاً مجيداً،

يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾

أُنزل على رسول من بعد موسى، **مصدِّقاً لما سبقه** من كتب الله السماوية، يرشد إلى الحق، وإلى الدين القويم ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي أجيبوا خاتم الأنبياء، الذي أنزل عليه هذا القرآن، وصدِّقوا برسالته، يرحمكم ربكم، ويكفِّر عنكم ذنوبكم، ويخلِّصكم وينجِّيكم من عذاب شديد مؤلم ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ **هذا ترهيبٌ بعد الترغيب**، أي ومن لم يؤمن بهذا الرسول، وبما جاء به من عند الله من الذكر الحكيم، **فإنه لا يعجز الله في الأرض**، بالهرب من عذابه، وليس له من دون الله، من ينصره، ويمنع عنه عذاب الله، وهؤلاء الذين لا يستجيبون للدعوة، في خسران واضح، بحيث لا يخفى على أحد!! وإلى هنا ينتهي حديث الجن، ثم يأتي التوبيخ لكفار قريش، المعرضين عن الأدلة والبراهين، الدالة على وحدانية رب العالمين، والمنكرين للبعث والنشور، فيقول سبحانه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي أولم يتفكر هؤلاء المشركون ويعلموا، أن الله الذي أبدع خلق السموات والأرض، وخلقها بهذه السعة والعظمة، واقفة بقدرة الله من غير أعمدة؟ ولم يعجز عن ذلك ولم يضعف، قادرٌ على إحياء الموتى بعد وفاتهم؟ بلى إنه قادر على كل شيء أراده ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي واذكر لهم ذلك اليوم الرهيب، يوم يُعرض المجرمون المكذبون للبعث، على نار جهنم، ويوقفون أمامها ثم يُقذفون فيها، ويُقال لهم: أليس هذا العذاب الذي تذوقونه حقٌّ؟ أم أنه سحر كما كنتم في الدنيا تقولون؟ فذوقوه بسبب كفركم وإجرامكم!؟ وقد أكَّدوا جوابهم، بالقسم فقالوا ﴿بلى وربنا﴾ كأنهم

فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

يطمعون في الخلاص، وأنى لهم ذلك؟ ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ﴾ أي فاصبر يا محمد على أذى المشركين، واستهزائهم بك، كما صبر الرسل الكرام من قبلك، وهم مشاهير الرسل، أصحاب الشرائع السماوية الكبرى، مثل (نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى) عليهم السلام، ولا تستعجل في عذاب المشركين، فهو نازل بهم لا محالة، كأنهم حين يعاينون العذاب، لم يمكثوا في الدنيا إلا ساعة واحدة من النهار، لما يشاهدون من الشدائد والأهوال ﴿بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ أي هذا بلاغ من الله وإنذار، ولا يهلك إلا الفسقة العصاة الفجرة، الخارجون عن طاعة الله تعالى!!.

انتهى تفسير سورة الأحقاف

● ● ●

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝٣﴾

تفسير سورة محمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي الكفار الذين امتنعوا عن الدخول في الإسلام، وصدُّوا غيرهم عن الدخول فيه، أبطل الله أعمالهم وضيَّعها، فلم يعد لها نفع ولا ثواب ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي والذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وآمنوا بمحمد ﷺ وبما أُنزل عليه من القرآن الحكيم، وهو الحق الثابت المؤكد، محا الله عنهم سيئاتهم، وأصلح شأنهم وحالهم.. مقابلةٌ لطيفةٌ بين أهل الإيمان، وأهل الكفر والطغيان، فأولئك الكفار الفجار، أحبط الله أعمالهم، وهؤلاء المؤمنون الأبرار، غفر لهم سيئاتهم، وأصلح لهم شئونهم وأحوالهم، وتخصيصُ الإيمان بمحمد ﷺ، مع أنه داخل في الإيمان الكلي، هو لتعظيم شأن الرسول ﷺ، وتفخيم أمره، وللإشارة إلى ضلال أهل الكتاب (اليهود والنصارى) حيث كفروا بمحمد، فإنهم وإن آمنوا برسولهم، لكنهم كفار لأن من كذَّب رسولاً فقد كذَّب سائر المرسلين، ومصيره نار الجحيم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أي ذلك الضياعُ لأعمال الكفار - التي يَعُدُّونها حسنة - بسبب أنهم سلكوا طريق الباطل والضلال، وأن المؤمنين سلكوا طريق الهدى والرشاد، فهداهم الله إلى طريق النجاة والسعادة، ومثل ذلك البيان الواضح، يبيِّن الله أحوال الفريقين، ليكون الإنسان على بصيرة من أمر دينه وآخرته،

فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ ۛ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾

فللمؤمن السعادةُ والنجاح، وللكافر الشقاوةُ والخسران ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ أي فإذا لقيتم أعداءكم الكفار في الحرب، فاضربوا أعناقهم ضرباً بالسيف، واقطعوا رءوسهم، درءاً لشرورهم وآثامهم، حتى إذا أكثرتم فيهم الجروح والقتل، وأضعفتم قوتهم وعزيمتهم، فخذوهم أسرى، والوَثاقُ: القيدُ والحبلُ الذي يربط به الأسير ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي فإمَّا أن تطلقوا سراحهم، بلا مقابل من المال، وهو المنُّ، أو تأخذوا منهم مالاً، كفديةٍ عن أنفسهم وهو الفداء، بعد أن تكونوا قد كسرتم شوكتهم، حتى تنقضي الحرب وتنتهي، بعزة الإسلام واندحار الشرك ﴿ذَٰلِكَ ۛ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي ولو شاء الله لأهلكهم بدون أن يكلِّفكم بقتالهم، يُهلكهم بخسفٍ، أو زلزلة، أو حاصب، أو إرسال ملائكة عليهم، ولكنه سبحانه أراد أن يمتحن إيمانكم وثباتكم، ويتخذ منكم شهداء، ولذلك أمركم بالقتال، لتستوجبوا ثواب الله العظيم، ويكون لكم فضل تطهير الأرض من رجس المشركين، والذين يُستشهدون منكم، فلن يضيِّع الله أعمالهم، بل يُنمِّيها لهم ويضاعفها ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي سيرشدهم ربهم إلى طريق السعادة، ويصلح حالهم وشأنهم، ويدخلهم الجنة دار السرور والحبور، يهتدون إلى بيوتهم ومنازلهم لا يخطئونها، كأنهم سُكَّانها منذ خُلقوا، وفي الحديث الشريف (والذي نفسي بيده، إن أحدكم بمنزله في الجنة، أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا) رواه البخاري ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ أي إن تنصروا دين الله، ينصركم على أعدائكم، ويثبتكم في مواطن الحرب والقتال ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي وأمَّا الكافرون بربهم، فهلاكاً لهم وشقاءً، وتعاسة وخيبة، وقد أبطل الله أعمالهم، فأذهبها وأضاعها، لأنها كانت في

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾

مرضاة الشيطان!! ثم خوَّفهم تعالى عاقبة الكفر، وذكَّرهم بمصارع الطغاة المتجبرين، فقال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؟ أي أفلم يسافر هؤلاء الكفار في البلاد، ليروا ما حلَّ بمن سبقهم من الأمم الطاغية، كعاد، وثمود، وقوم لوط، وفرعون الجبار، وغيرهم من الطغاة المجرمين؟ ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ أي أهلكهم الله، واستأصلهم، وخرَّب ديارهم، ولهؤلاء الكافرين من قومك، أمثالُ هذه العقوبات الوخيمة، ولفظ ﴿دمَّر الله عليهم﴾ أبلغ من قوله «دمَّرهم» لأن معنى «دمَّر عليهم» أنه أهلكهم مع أموالهم، ودورهم، وأولادهم، وأطبقَ عليهم الهلاك إطباقاً، كتهدُّم دارٍ على أصحابها، فإذا ديارهم أنقاضٌ متراكمة، وإذا هم تحت هذه الأنقاض، كما يحدث في حالات الزلازل العنيفة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي تلك العقوبة الفظيعة الشنيعة، بسبب أن الله وليُّ المؤمنين، وناصرُهم، وحافظُهم، وأن الكفار لا ناصر لهم، ولا معين ولا مغيث، فالمؤمنون في حفظ الله ورعايته، والكافرون ليس لهم من يدفع عنهم عذاب الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي فأما المؤمنون، الذين عملوا الصالحات، فإنهم في قصور الجنة، تجري من تحتها أنهارُ الجنة بالماء السلسبيل، ولهم فيها من كل ما يشتهون، من أنواع اللذائذ، والمطاعم، والمشارب، وأما الكافرون فإنهم غافلون عن العاقبة، يعيشون في الدنيا كما تعيش البهائم، ويأكلون كما تأكل الأنعامُ والدوابُّ، لا يفكّرون في بعثٍ، ولا حساب، ولا جزاء، فهم إلى الحيوانية، أقرب منهم إلى الإنسانية، ونار جهنم مسكنهم ومصيرهم في الآخرة ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ أي وكثير من أهل قرية أي بلدة، هم أشدُّ قوة من أهل

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾

مكة، الذين أخرجوك منها، ببغيهم، حين تآمروا على قتلك، أهلكناهم بأنواع العقوبات المدمِّرة، فلم يكن لهم ناصر ينقذهم من عذاب الله!! والآية تسلية للرسول ﷺ، أي كذلك نفعل بالمجرمين من قومك، **قال ابن عباس**: لمَّا خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة، بعد أن اختفى بالغار، التفت إلى مكة وقال (إنك لأحبُّ البلاد إلى الله، وأحبُّ البلاد إليَّ، ولولا أن قومك أخرجوني منك ما خرجتُ) فأنزل الله على نبيه هذه الآية ﴿وكأين من قرية..﴾ الآية، أخرجه ابن أبي حاتم ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾؟ أي هل من كان على بصيرة، وثبات من أمر الدين؟ مثل الرسول ﷺ وأتباعه المؤمنين، كمن زُيِّن له عمله القبيح فرآه حسناً؟ لا يتساويان أبداً، كما لا يتساوى الأعمى مع البصير!! ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾ المثلُ هنا لا يراد به التمثيل، وإنما يُراد به الوصفُ، **والمعنى**: صفةُ الجنة العجيبة الغريبة، التي هي في الجمال والروعة تشبه المَثَل، أن فيها أنهاراً جاريات، من كل صنفٍ ونوع، ليست كأنهار الدنيا تتغيَّر وتتعكَّر، بل هي صافية، لا عَكر فيها ولا كدر، فيها أنهار الماء السلسبيل **﴿من ماء غير آسن﴾** يعني الصافي الذي لا كدر فيه، لم يتغيَّر بطول المكث، يتفجَّر من جبلٍ من المسك **﴿وأنهار من لبن لم يتغير طعمه﴾** أي أنهار من حليب صافٍ في غاية البياض والنقاء، لم يخرج من ضروعِ المواشي والأبقار **﴿وأنهار من خمر لذة للشاربين﴾** أي وأنهار من خمر لذيذ الطعم، ليست كريهة الطعم والرائحة، كخمر الدنيا التي تتقذَّذ منها النفس، ولا يشربها إلا فاسد المزاج، وإنما وصفها بقوله **﴿لذة للشاربين﴾** ليدفع عنها شرور خمر الدنيا، من ذهاب العقل، والصُّداع، **قال ابن عباس**: في الخمر أربعُ خصال كريهة: «السُّكرُ، والصُّداعُ، والقيءُ، والبولُ» وقد نزَّه الله تعالى خمر الجنة عن هذه الخصال الذميمة، فقال **﴿لا يُصدعون عنها ولا ينزفون﴾** أي لا تتصدع رءوسهم بشربها، ولا يسكرون فتذهب بعقولهم **﴿وأنهار من عسل مصفى﴾** أي وفيها أنهار من عسل في غاية الصفاء، وحسن الطعم

وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾

واللون، لم يخرج من بطون النحل، وإنما من أنهار تتفجر في الجنة ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ أي ولهم في الجنة، من جميع أنواع الفواكه والثمار، ما لذَّ لهم وطاب، ولهم فوق ذلك النعيم المادي (نعيم روحي)، وهو المغفرة من الله لذنوبهم، والرحمةُ والرضوانُ، كما جاء في الحديث الصحيح (يقول الله لأهل الجنة: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: أعطيكم خيراً من ذلك؟ أُحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً) رواه البخاري ﴿كمن هو خالد في النار﴾ أي هل من هو في ذلك النعيم المقيم، كمن هو خالد في نار الجحيم؟ وسُقوا مكان شراب أهل الجنة، ماءً حاراً، شديد الغليان، فقطَّع أمعاءهم من شدة حرارته؟ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي ومن هؤلاء المنافقين، جماعة يستمعون إلى حديثك يا محمد، ولكنهم لغبائهم، وقلة فهمهم، لا يفقهون من كلامك شيئاً، حتى إذا خرجوا من مجلسك، قالوا لأهل العلم من أصحاب النبي عليه السلام: ماذا قال محمد (آنفاً)؟ يعني قبل قليل؟ لا يعقلون ما قال، ولا يكترثون له ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي ختم على قلوبهم بكفرهم ونفاقهم، واتبعوا أهواءهم الباطلة، فلم يفلحوا ولم يهتدوا ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي وأما المؤمنون المهتدون، فقد زادهم ما سمعوه من رسول الله هدى فوق هداهم، ويقيناً فوق يقينهم، وألهمهم تعالى وشدهم حتى ثبتوا على دين الله، فسعدوا وأفلحوا، ونالوا أعلى الدرجات ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ أي فهل ينتظر هؤلاء المنافقون، إلا أن تأتيهم القيامةُ فجأةً، دون سابق إنذار، وهم غافلون عنها، فقد جاءت أماراتها وعلاماتها، فمن أين لهم أن يتوبوا ويتذكَّروا عند مجيئها؟

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾

حيث لا ينفعهم ندمٌ ولا توبة؟ ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي إذا علمت أن مدار السعادة على التوحيد، فأيقنْ بأنه لا معبود بحقٍ إلا الله رب العالمين، وأثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله تعالى، واطلب من الله المغفرة لك، وللمؤمنين والمؤمنات ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ أي هو سبحانه الذي يعلم أحوالكم في الدنيا، وتصرفكم فيها في الليل والنهار، ومصيركم في الآخرة، فأعدُّوا الزَّادَ ليوم المعاد.. بدأ تعالى الآية بالعلم ﴿فاعلم﴾ لينبِّه على أن دعامة الإسلام الأساسية الإسلام، (العلم)، ولا بدَّ للمسلم أن يقبس من «ميراث النبوة» فإن الأنبياء لم يورِّثوا درهماً ولا ديناراً، وإنما ورَّثوا العلم، بالعلم تحيا القلوب، كما تحيا الأرضُ بوابل المطر، وما أحسن ما قاله الشاعر:

فَـفُـزْ بـعـلـمٍ تـعـشْ حـيـاً بـه أبـداً

الـنـاسُ مـوتـىٰ وأهـلُ الـعـلـمِ أحـيـاءُ

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ أي ويقول المؤمنون المخلصون، شوقاً إلى الجهاد، وحرصاً على أجر المجاهد: هلاَّ أنزل الله سورة فيها الإذنُ بقتال الأعداء؟ لنفوز بالشهادة في سبيل الله؟ ﴿فإذا أُنزلت سورة محكمة﴾ أي لم تُنسخ، يفرض الله فيها الجهاد على المؤمنين ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي رأيت المنافقين الذين في قلوبهم مرض الشك والنفاق، ينظرون إليك يا محمد، وأبصارهم مبهوتة هَلَعاً وجبناً، كما ينظر من أصابته غشيةُ الموت، فهو شاخصُ البصر ﴿فأولى لهم﴾ أي فويلٌ لهم من هذا الموقف المخزي، وهـو وعـيـدٌ وتـهـديـد ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾

طاعة لك يا محمد، وقول طيِّب جميل، خير لهم وأفضل وأحسن، فإذا جدَّ الجدُّ وفُرض القتالُ، فلو أخلصوا نيَّاتهم، وجاهدوا بصدقٍ ويقين، لكان ذلك خيراً لهم من التقاعس، والعصيان لأمر الرحمن ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أي فلعلَّكم إن أعرضتم عن الإسلام، والجهاد في سبيل الله، أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية، من سفك الدماء، وتقطيع الأرحام، في سبيل جمع الحطام، **قال قتادة**: كيف رأيتم القوم، حين تَولَّوْا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام، ويقطعوا الأرحام، ويعصوا الرحمٰن؟! ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ أي أولئك الأشقياء طردهم الله من رحمته، وأصمَّهم عن سماع الحق، وأعمى أبصارهم، فلا يهتدون إلى سبيل الرشاد!! صوَّرهم تعالى بهذا التصوير (كالبهيمة) التي لا تعقل، لأنهم عطَّلوا هذه الحواس، فاستحقوا هذا الوصف الذميم ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ ؟ أي أفلا يقرءون القرآن، قراءةَ تدبر وتبصُّر؟ فيدركون ما فيه من المواعظ والزواجر؟ فإن القرآن نور، يكشف الظلمةَ، ويزيل الغشاوة؟ أم قلوبهم مظلمة قاتمة، كأنها مكبلةٌ بالأقفال الحديدية، فلا يدخل إليها نور، ولا يشرق فيها إيمان!؟ شبَّه تعالى قلوب المنافقين بالأبواب المقفلة، فهي لا تستفيد من وعظ، ولا تلين لنصح، كأن القلوب أبواب، أُغلقت بإحكام، وجُعلت عليها الأقفال، فكيف يدخل إليها شيء من نور القرآن؟ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي هؤلاء الذين رجعوا إلى الكفر بعد الإيمان، بعد أن وضح لهم طريق الهدى، الشيطان زيَّن لهم ذلك، وغرَّهم وخدعهم، ﴿**وأملى لهم**﴾ أي مدَّ لهم في الأماني والآمال ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ المراد (بالذين كرهوا ما نزَّل الله) اليهودُ لعنهم الله، أي ذلك الارتدادِ عن دين الله، بسبب أن المنافقين قالوا لليهود من (بني قريظة)، سنطيعكم في بعض

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾

ما تأمروننا به، من الاستمرار على عداوة الرسول، وعونكم على محاربته، والخروج معكم إذا أخرجكم محمد من دياركم، والله تعالى يعلم خفاياهم، وما دبَّروه من مكائد ضد الإسلام ورسوله!! قاله المنافقون لليهود سراً، فكشَفه الله وفضحهم ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ أي فكيف يكون حالهم، إذا جاءتهم ملائكة العذاب، لقبض أرواحهم؟ ثم ضربوهم بمقامع الحديد، على وجوههم وظهورهم؟ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي ذلك العذاب المهين لهم، بسبب أنهم سلكوا طريق النفاق، وكرهوا ما يرضي الرحمن، وفعلوا ما يحبه الشيطان، فأبطل الله أعمالهم وأزهقها ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ الأضغانُ جمع ضغنٍ وهو الحقدُ الشديدُ، **والمعنى**: هل يظن المنافقون، الذين في قلوبهم مرض النفاق والشك، أن الله لن يكشف أمرهم للمؤمنين؟ وأن الله لن يفضحهم ويظهر أحقادهم الشديدة على المسلمين؟ لا بدَّ أن يفضحهم ويكشف أمرهم ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي لو نشاء لكشفنا أمرهم، وأريناك أشخاصهم، فعرفتهم بعلاماتهم عياناً، والسِّيما: العلامةُ، ولتعرفنهم يا محمد من فحوى كلامهم وأسلوبه، من كلامهم المعسول، الذي ظاهرهُ الطاعة، وباطنُه اللؤمُ والخُبثُ، والله يعلم جميع أعمالهم، وأعمال الخلق، وفي الحديث الشريف (ما أسرَّ أحدٌ سريرةً، إلاَّ كساه الله جلبابها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر) ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي ولنختبرنكم أيها الناس بالجهاد، ونحوه من التكاليف الشاقة، حتى نُظهر للخلق من يجاهد منكم لنصرة دين الله، والصابرين على مشاق الجهاد، ونختبر أعمالكم،

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ﴿٣٦﴾

حتى يظهر الصادق من المنافق، وليس المراد بقوله ﴿حتى نعلم﴾ أن ينكشف له سبحانه أمرهم، لأن الله تعالى عالمٌ من الأزل، بحقائق النفوس والأعمال، وإنما المرادُ كشفُ أمرهم للخلق، حتى يعلموا البرَّ من الفاجر، والمؤمن من الكافر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي جحدوا وحدانية الله، ومنعوا الناس عن الدخول في الإسلام، وعادوا الرسول وخرجوا عن طاعته، من بعدما ظهرت على يديه المعجزات الساطعة، الدالة على صدقه، لن يضرُّوا ربهم بكفرهم شيئاً من الضرر، وسيمحق أعمالهم الصالحة التي فعلوها، ويُبطل ثوابها، لأن الكفر يُحبط العمل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ أي أطيعوا أمر الله، وأمر رسوله، ولا تبطلوا أعمالكم بالكفر والنفاق ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ أي جمعوا بين الكفر، والصدِّ عن دين الإسلام، ثم ماتوا على الكفر، فلن يغفر الله لهم جريمتهم، ولن يعفو عنهم أبداً، لقوله سبحانه ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ والموتُ على الكفر ـ والعياذ بالله ـ يخلِّد الإنسان في نار جهنم ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ أي فلا تضعفوا يا معشر المسلمين أمام أعدائكم، ولا تدعوا إلى المهادنة والصلح مع الكفار، وأنتم الأعزة الغالبون، والله معكم بالنصر والتأييد ﴿ولن يتركم أعمالكم﴾ أي ولن يُنقص من ثواب أعمالكم شيئاً، ولن يُضيِّعها عليكم، يقال: وَتَره حقَّه: إذا بَخَسه وأنقصه له ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾ أي ليست هذه الحياة الدنيا، إلا فانية زائلة، لا قرار لها

إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾

ولا ثبات، هي باطلٌ وغرور، كلعب الأطفال يتلهى بها الصغار، والدار الآخرةُ هي دار القرار، فلا ينبغي أن يكون حبُّ الدنيا، والحرص على ما فيها من الملذَّات والشهوات، سبباً للجبن، والتخلف عن الجهاد، وإن تؤمنوا بالله حقَّ الإيمان، وتتقوه وتخافوا عقابه، يعطكم ثواب أعمالكم كاملاً غير منقوص، ولا يطلب منكم أن تنفقوا جميع أموالكم في الجهاد، وفعل الخيرات، بل أدُّوا ما فرض الله عليكم منها، عوناً لإخوانكم الفقراء والمساكين ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ أي لو طلب الله سبحانه منكم إنفاق جميع أموالكم، وألحَّ عليكم بإنفاقها، لبخلتم، وظهر ما في قلوبكم من الشح، وكراهة الإنفاق، لأن الإنسان جُبل على حبِّ المال، ومن نوزع في حبيبه، ظهرت سرائر نفسه، وإذا كنتم تبخلون بالقليل، فكيف لا تبخلون بالكثير؟ فمن رحمته سبحانه أنه لم يكلفكم ما لا تطيقون، ومعنى ﴿فيحفكم﴾ أي يلحُّ عليكم، من الإحفاء وهو الإلحاحُ، ومعنى ﴿أضغانكم﴾ أي أحقاد النفس الدفينة، والضغنُ: «الحقدُ ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي ها أنتم الآن تدعون للإنفاق، في الجهاد ووجوه الخير، ببعض أموالكم، فمنكم من يمسك عن الإنفاق، في الجهاد ووجوه الخير، ومن يبخل عن الإنفاق، فإنما يضرُّ نفسه، لأنه يمنعها الأجر والثواب ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُم﴾ أي والله سبحانه مستغن عنكم، وعن إنفاقكم، وأنتم محتاجون إليه، وإن تعرضوا عن طاعته، يستبدل من هم خير منكم، ولا يكوْنون مثلكم بل أفضل منكم، وأعبد لله وأطوعَ، وصلى الله على سيدنا محمد، خاتم النبيِّن والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

انتهى تفسير سورة محمد

● ● ●

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ

تفسير سورة الفتح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ المراد بالفتح «فتح مكة» شرَّفها الله، بشَّره تبارك وتعالى بفتح مكة قبل الفتح، وجاء به بصيغة الماضي ﴿فتحنا﴾ لتحقق الأمر وتيقنه، فإن ما أخبر الله عنه، بمنزلة الأمر المحتوم، والمعنى: إنَّا حكمنا وقضينا لك بفتح مكة، تفتحها قريباً، وتدخلها ظافراً منصوراً، وذهب بعضهم إلى أن المراد بالفتح «صلح الحديبية» لما ترتب على هذا الصلح من الآثار العظيمة، من بيعة الرضوان، ودخول كثير من المشركين بعده في الإسلام، ويُستأنس لهذا القول بما روي عن ابن مسعود أنه قال: (إنكم تعدُّون الفتح «فتح مكة» ونحن نعدُّ الفتح «صلح الحديبية» ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي ليعفو الله لك عن جميع ما فرط منك، من عملٍ عملته عن اجتهاد، ويتمم نعمته عليك بإعلاء دين الإسلام، وإظهاره على جميع الأديان، ويرشدك إلى الدين القديم، دين أبيك إبراهيم «الحنيفية السمحة» ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي ينصرك على أعدائك نصراً مؤزَّراً منيعاً، وتسميةُ الاجتهاد منه ﷺ، الذي لم يقرّه الله عليه «ذنباً» بالنسبة إلى منصبه الجليل، ولا يجوز أن نعتقد أن الرسول ﷺ عصى الله، أو ارتكب جنايةً وذنباً، متعمداً للمعصية، فإن الرسول معصوم عن المعاصي والذنوب، والعصمةُ من صفات الرسل، وإنما اجتهد في بعض الأمور، فمنها ما أقرَّه الله عليها، ومنها ما نبَّهه فيها على الخطأ، كحادثة (أخذ الفداء) في غزوة بدر، واستغفاره لعمه أبي طالب، وأمثال ذلك، فيسمى بالنسبة لمقامه الشريف «ذنباً» فتنبه لهذا رعاك الله ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ أي هو جلَّ وعلا الذي أنزل السكون والطمأنينة في قلوب المؤمنين، بسبب ما حدث في «صلح الحديبية» ليزدادوا يقيناً فوق يقينهم، حتى بايعوا رسول

وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾

الله ﷺ على الموت في سبيل الله في «بيعة الرضوان» ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي ولله ـ جلَّتْ عظمتُه ـ جنود جميع ما في السموات والأرض، لا تُحصى ولا تغلب، من (الملائكة، والرياح، والزلازل، والصواعق المدمرة، والخسف، والإغراق) يسلِّطها على من يشاء من أعداء دينه، وهو سبحانه عليم بأحوال خلقه، حكيم في صنعه وتدبيره.

قال ابن كثير: «ولو أرسل عليهم مَلَكاً واحداً، لأباد خضراءهم، ولكنه سبحانه شرع لعباده الجهاد، لما له في ذلك من الحجة القاطعة، والحكمة البالغة» ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي ليدخلهم ـ على طاعتهم وجهادهم في سبيله ـ حدائق وبساتين ناضرة، تجري من تحت قصورها ومساكنها أنهارُ الجنة، ماكثين فيها أبداً ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي ويمحو عنهم ذنوبهم وآثامهم، وكان ذلك النعيم الخالد، سعادة لا مزيد عليها، إذ ليس بعد نعيم الجنة نعيم يضاهيه ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ﴾ أي ويعذِّب المنافقين المتثاقلين عن الجهاد، والمشركين المحاربين لدين الله، وقدَّم المنافقين على المشركين، لأنهم أعظم خطراً، وأشدُّ ضرراً من الكفار، هؤلاء المنافقون الذين ظنوا بربهم أسوأ الظنون، ظنُّوا أن الرسول لن يرجع إلى المدينة، ولا أحداً من أصحابه، حين خرج ﷺ للعمرة يريد مكة ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ هذا دعاء عليهم، أي وعلى المنافقين ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين، من الهلاك والدمار، وسخط الله عليهم بكفرهم ونفاقهم، وطردهم من رحمته، وهيأ لهم في الآخرة ناراً عظيمة مستعرة، هي نار جهنم، وبئست مرجعاً ومآلاً، لأهل النفاق والضلال

وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ كرّر لفظ الجنود، لأن جنود الله، قد يكون إنزالهم للرحمة، وقد يكون للعذاب، فذكرهم في الآية السابقة، لبيان «جنود الرحمة» لأن الحديث كان عن المؤمنين، وذكرهم هنا لبيان «جنود العذاب» لأن الحديث جاء عن المنافقين والكافرين، وهو سبحانه المنتقم منهم، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿عزيزاً حكيماً﴾ لأنها بمعنى الغلبة والقهر، وهناك قال ﴿عليماً حكيماً﴾ لأنها في سياق الخلق والتدبير ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي أرسلناك يا محمد، لتشهد على الخلق يوم القيامة تشريفاً لمقامك العظيم، مبشراً لأهل الإيمان بالجنان، ومنذراً لأهل الكفر بالنيران، والبشارةُ تكون بالخير، والإنذارُ يكون بالشر ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي لتؤمنوا يا أتباع محمد بربكم، وتصدِّقوا برسالة رسوله محمد ﷺ ﴿وتعزروه﴾ أي تنصروا الرسول وتقوُّا دينه ﴿وتوقروه﴾ أي تحترموه وتجلُّوه ﷺ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ الضمير هنا عائد على الله، اي ولتسبِّحوا ربكم على نعمته عليكم بالإسلام، في الصباح والمساء، ليبقى القلب متصلاً بالله، في كل وقتٍ وآن.. ثم عظَّم تعالى شأن البيعة «بيعة الرضوان» فقال سبحانه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ﴾ هذه البيعة إنما كانت في الحديبية، حينما بايع الصحابةُ الرسول على (الموت في سبيل الله)، وفي هذه البيعة تشريفٌ عظيم لرسول الله ﷺ، حيث جعل تعالى مبايعةَ الرسول، مبايعةً لله عزَّ وجلَّ.

والمعنى: إن الذين بايعوك يا محمد إنما بايعوا الله، لأنك سفير ومبلِّغٌ عن الله ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ أي يد الله وقت المبايعة فوق أيديهم، فكأن الصحابة حين وضعوا أيديهم في يد رسول الله، بايعوا الله بتلك البيعة، لأن البيعة كانت لله، عن طريق رسوله ﷺ، وفي هذا تشبيه بليغ، كما نقول: وجهه قمر، وكلامه دُرٌ، ثم قال تعالى ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي فمن نقضَ البيعة، فضررُ هذا

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا

النقض يعود عليه، ومن وفَّى بعهده، فسيعطيه الله ثواباً عظيماً، الجنة دار الخلد والنعيم، روى البخاري عن سلمة بن الأكوع قال (بايعتُ رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قيل: على أيِّ شيء كنتم تبايعونه؟ قال: على الموت) وسبب هذه البيعة أن النبي ﷺ أرسل (عثمان بن عفان) إلى أهل مكة، يخبرهم أنه جاء معتمراً، وأنه لا يريد حرباً، فحبسوه عندهم، ووصل الخبر إلى المسلمين أن «عثمان» قد قُتل، فدعا رسول الله ﷺ إلى البيعة على قتال المشركين، فبايعوه على الموت، وكانت هذه البيعة تحت شجرة في الحديبية، وقد سميت «بيعة الرضوان» وفيها نزل ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾ الآية، وكان قد تَخلَّف المنافقون عن الخروج مع رسول الله في هذه السفرة، خوفاً على أنفسهم من القتل، وظنوا الظنون برسول الله ﷺ وأصحابه، ظنوا أن لا يرجع إلى المدينة، وقد أخبر تعالى عن سبب عدم خروجهم، وعمَّا سيعتذرون به من معاذير، قبل أن يرجع إليهم، وفي ذلك «معجزة غيبيَّة» للقرآن، حيث أخبر بما سيحدث منهم، فقال سبحانه ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ﴾ أي سيقول الذين تخلفوا عن الخروج معك (عام الحديبية)، إذا رجعت إليهم: شُغلنا عن الخروج معك بسبب الأموال والأولاد، فاطلب لنا العفو من الله، لأن هذا التخلف لم يكن باختيار، وإنما كان عن اضطرار، وهم كاذبون في هذا القول، يقولون خلاف ما يبطنون، وهذا هو النفاق القبيح ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ أي قل لهم: من يمنعكم أو يدفع عنكم ما قدَّره الله لكم، من ضر أو نفع؟ فإذا أراد الله عليكم القتل والهزيمة، أو أراد لكم النصر والغنيمة، فمن يمنع ذلك عنكم؟ ثم كشف تعالى عمَّا كانوا يخفونه في صدورهم فقال: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي بل حسبتم أن محمداً وأصحابه لن يرجعوا إلى المدينة أبداً،

وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

وأن المشركين يستأصلونهم بالمرة، فلذلك تخلفتم عن الخروج ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي وزيَّن لكم الشيطان ذلك الضلال، وظننتم ذلك الظن السيء، أن لا عودة للرسول والمؤمنين إلى المدينة، وأن الإسلام لن تقوم له قائمة، وكنتم قوماً هالكين، مستوجبين سخط الله وعقابه ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ أي ومن لم يُخلص في إيمانه، ويعتقد اعتقاداً جازماً بالله وبرسوله، فقد هيأنا له ناراً مستعرة في جهنم، جزاء نفاقه وكفره ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي هو سبحانه المالك لجميع ما في السموات والأرض، والمتصرف في هذا الملك كما يشاء، يرحم من يشاء من خلقه، ويعذب من يشاء، حسب عمل الإنسان، وفي هذا قطعٌ لطمع المنافقين، في استغفار رسول الله ﷺ لهم، حيث طلبوا منه الاستغفار ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أي سيقول الذين تخلفوا عن الخروج للحديبية، عند ذهابكم إلى مغانم خيبر، التي وعدكم الله بها: أتركونا نحضر معكم (غزوة خيبر)، ونجاهد معكم في قتال أهلها ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي يريدون أن يغيِّروا وعد الله، الذي وعده لأهل الحديبية، أن غنائم خيبر تكون خاصة لهم، لا يشاركهم فيها أحد، لأنهم رجعوا من الحديبية بالصلح، دون أن يصلوا إلى مكة، قل لهم: لن تتبعونا ولن يكون لكم فيها نصيب، كذلك حكم الله بأن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي فسيقولون لكم: ليس هذا من الله، بل هو حسد منكم لنا، على مشاركتكم في الغنيمة، والحقيقة أنهم لا يفهمون إلا المغنم

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

والمكسب، ولا يعرفون قدر نعمة الجهاد في سبيل الله!.

قال المفسرون: لمَّا رجع رسول الله ﷺ من الحديبية سنة ست من الهجرة، وعد أصحاب البيعة «بيعة الرضوان» أن تكون مغانم خيبر لهم خاصة، تعويضاً عما فاتهم في صلح الحديبية، وكان فتح خيبر بعد شهر من رجوعهم من الحديبية، وكانت وافرة الغنائم، فلذلك طمع المتخلفون في الخروج معهم إلى خيبر، لا حباً في الجهاد، وإنما طمعاً في المغانم، فأمر الله رسوله ألاَّ يأذن لأحدٍ منهم بالخروج معه إلى خيبر، وكان المنع حكماً عادلاً من الله، فجزاء المتخلفين أن يُحرموا، وجزاء الطائعين أن يغنموا، وأن تكون الغنائم خاصة بهم.. ثم يأتي امتحانٌ آخر للمنافقين، يكشف الستار عن خبايا نفوسهم، هل هم راغبون في الجهاد، أم طامعون في الغنيمة فقط، فيقول سبحانه ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي قل لهؤلاء المتخلفين من الأعراب عن الحديبية، ستدعون إلى حرب قوم أشداء، هم «بنو حنيفة» قوم (مسيلمة الكذاب) الذي ادَّعى النبوة، تقاتلونهم حتى تُفنوهم، أو يدخلوا في دين الإسلام، وتكريرُ وصفهم بالمتخلفين، للذم والتشنيع عليهم، فإن التخلف عن صحبة الرسول، شناعة وأيُّ شناعة!! ﴿فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي فإن تطيعوا الله فيما أمركم به من القتال، يعطكم الغنيمة والنصر في الدنيا، والرضى والجنة في الآخرة، وإن تتخلَّفوا عن الخروج كما تخلفتم من قبل، يعذبكم عذاباً أليماً في نار الجحيم.. ثم استثنى تعالى أهل الأعذار فقال سبحانه ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي ليس على الأعمى، ولا على الأعرج، ولا على المريض، حرجٌ أي إثمٌ ولا عقاب، في التخلف

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾

عن الخروج للجهاد، لما بهم من الأعذار الظاهرة، فالأعمى والأعرج عذرهما دائم، والمريضُ عذره مؤقت ينتهي بزوال المرض واستعادة الصحة، والله لا يكلف نفساً إلاّ وسعها، ومن يَطع أمر الله وأمر رسوله، يدخله جنات النعيم، تجري من تحت قصورها أنهارُ الجنة، ومن يتخلّف عن الجهاد طمعاً في الحياة الفانية، يعذبه الله عذاباً أليماً، في الدنيا بالمذلة، وفي الآخرة بالنار.. ثم جاء الحديث عن «بيعة الرضوان» التي باركها الله، وبارك أصحابها، لأنهم باعوا نفوسهم لنصرة دين الله، فقال سبحانه ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي رضي الله عن المؤمنين، الذين بايعوا رسول الله ﷺ، على الموت في سبيل الله، فقد فازوا برضى الرحمن، وخَلَع عليهم ربُّهم خلعة الرضوان ﴿لقد رضي الله﴾ وحدَّد المكان الذي بايعوا فيه، وهي الشجرة، وحضر هذه البيعة (روحُ القدس) جبريل عليه السلام، ولهذا سُطِّرت في الكتاب المبين، فما أكرمها من بيعة!! وما أعظمه من أجرٍ وثواب!! ﴿فعلم ما في قلوبهم﴾ من الصدق والوفاء، فرزقهم الطمأنينة وسكونَ النفس عند البيعة، لأنها كانت بيعة على الموت، وجازاهم على هذا الإيمان، بدخول الجنان، كما غنَّمهم غنائم خيبر ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي وعدهم على لسان رسوله، بغنائم كثيرة، يغنمونها من (يهود خيبر) وما حصل لهم من العزّ، والنصر، والرفعة في الدنيا والآخرة ﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ أي غالباً على أمره، حكيماً في تدبيره وصنعه ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي وعدكم الله يا معشر المؤمنين، بالفتوحات الكثيرة، والغنائم الوفيرة، على جهادكم وصبركم، فعجَّل لكم غنائم خيبر، بدون جهد ولا قتال، بإلقاء الرعب في قلوبهم، حتى فتحوا حصونهم واستسلموا!.

قال ابن عباس: المراد بالمغانم الكثيرة: المغانم التي تكون إلى يوم القيامة، والتي أحلَّها الله لهذه الأمة المحمدية ﴿وكف أيدي الناس عنكم﴾ أي منع أيدي الناس أن تمتد

وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

إليكم بسوء، والمراد بهم حلفاء يهود خيبر، وهم «بنو أسد، وغطفان» الذين جاءوا لنصرتهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب، فرجعوا ولم يقاتلوا المؤمنين ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي وليكون ما جرى بينكم وبين أعدائكم، من صلح في (غزوة الحديبية)، علامةً واضحة، تعرفون بها صدق نبيكم، وأنَّ ما دبَّره الله لكم من الصلح، كان لخيركم ومصلحتكم، وليهديكم ربكم إلى الطريق الأقوم، الموصل إلى عز الدنيا وسعادة الآخرة ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ أي وغنيمة أخرى ستكون لكم، وهي «فتح مكة» ليس بقدرتكم الاستيلاء عليها، ولكنَّ الله بفضله وكرمه، فَتَحها لكم، وجعلها محجوزة لكم كالغنيمة، استولى عليها بقدرته ووهبها لكم، والآيةُ إشارة إلى «فتح مكة» وقد فتحت في السنة الثامنة من الهجرة، حيث نقض المشركون العهد، فغزاهم رسولُ الله ﷺ بعشرة آلاف من المجاهدين، ولم تقع فيها حرب، لأن الله ألقى في قلوب المشركين الفزع والرعب، وبفتح مكة تحقَّق النصر الأكبر لجند الرحمن ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ تذكيرٌ لهم بنعمة أخرى، أي ولو قاتلكم كفار مكة، ولم يقع الصلح بينكم وبينهم، لنَصَركم الله عليهم، وانهزموا أمامكم، ولم يثبتوا في المعركة، ثم لا يجدون لهم من يحميهم وينصرهم، ويتولى أمورهم، لأن الله معكم، وقد كتب لكم النصر عليهم ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي هذه عادة الله وطريقته، في الأمم التي سبقت قبلكم، أن ينصر أولياءه، ويخذل أعداءه ﴿كتب الله لأغلبنَّ أنا ورسلي﴾ وسنته تعالى لا تتبدل ولا تتغير، وهي هزيمة الكافرين، ونصرُ المؤمنين ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي هو جلَّ وعلا بقدرته وتدبيره، صرف أيدي كفار قريش عنكم، كما

هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾

صرف أيديكم عنهم ﴿ببطن مكة﴾ أي بالحديبية التي هي قرب مكة، من بعد أن ظفرتم بهم، وتمكنتم منهم، فأخذتموهم أسرى، وسبب نزول هذه الآية ما رُوي (أن ثمانين من جنود المشركين، هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم، عند صلاة الصبح، حتى وصلوا الحديبية، وهم يريدون الفتك برسول الله ﷺ، فأسرهم المسلمون، وأتي بهم إلى رسول الله ﷺ، فعفا عنهم، وخلَّى سبيلهم، ولم يقتلهم، فكان ذلك سبباً للصلح، ولم تقع حرب بين المسلمين والمشركين، وفيهم نزلت الآية الكريمة) رواه مسلم وأحمد.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أي هؤلاء حقيقةً هم الكفار الفجار، الذين يستحقون القتال، لأنهم منعوكم عن دخول المسجد الحرام، لأداء مناسك العمرة، ومنعوا أيضاً الهَدْيَ ﴿معكوفاً﴾ أي محبوساً أن يصل إلى مكة ليذبح فيها، وكان الهَدْيُ الذي ساقه الرسول ﷺ سبعين بدنة، وهذا الهدي لفقراء الحرم، فمنعوا المسلمين ومنعوا الهدي، وهذا من الكبائر عند أهل الجاهلية، ولكنهم أخذتهم الحميَّةُ والعصبية بالإثم والعدوان، فقالوا: لا يدخل محمد وأصحابهُ مكة هذا العام ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ أي ولولا أن في مكة رجالاً ونساءً، من المؤمنين المستضعفين، الذين يخفون إسلامهم خوفاً من طغاة مكة، لا تعرفونهم بأعيانهم، لاختلاطهم بالمشركين ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي خشية أن تقتلوهم، دون علم منكم بإيمانهم، فينالكم بسبب قتلهم إثم وذنب عظيم، وجواب (لولا) محذوف، تقديره: لأذن لكم الله في قتالهم، ودخول مكة، ولسلَّطكم على المشركين ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي ليدخل الله في الإسلام من شاء هدايته من المشركين، لو تميَّز المسلمون عنهم، وانفصلوا عن المشركين، لعذبنا أعداء الله الكفار عذاباً أليماً، بالقتل، والأسر، والتشريد من الوطن

إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ أي حين دخلت إلى نفوس المشركين، (العصبيَّة الجاهلية)، أنفةً وغطرسة، فمنعوكم من دخول مكة، وأداء مناسك العمرة، ورفضوا أن يكتبوا في وثيقة الصلح (بسم الله الرحمن الرحيم) كما رفضوا أن يكتبوا (محمد رسول الله) وقالوا: اكتب اسمك واسم أبيك ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي فأنزل الله الطمأنينة والصبر والوقار، على قلب رسوله وقلوب المؤمنين، ولم تلحقهم العصبية الجاهلية كما لحقت المشركين، وثبَّتهم على كلمة الإيمان والتوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) والإذعان والطاعة لله ورسوله، مع أن شروط الصلح كانت مُجحِفة بحقوق المسلمين ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ أي وكان أصحاب محمد ﷺ أحقَّ بهذه الفضيلة من كفار مكة، وكانوا أهلاً لها، لأن الله اختصَّهم بصحبة رسوله، واختارهم لدينه، فهم أهل البر والوفاء، والله تعالى هو العالم بأهل الفضل، ولذلك ثبَّتهم على الطاعة، والقبول لما رضيه الرسولُ ﷺ.. روي أن المسلمين لما مُنِعوا من أداء العمرة، ودخول مكة، وأراد الرسول ﷺ أن يكتب شروط الصلح، ويرجع إلى المدينة، جاء إليه عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله: ألسنا على الحقِّ وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى!! قال عمر: ففيمَ إذاً نعطي الدنيَّة في ديننا ـ أي لماذا نرجع ولا نقاتلهم ونرضى بشروطهم؟ ـ ولما يحكم الله بيننا!! فقال له الرسول الكريم: يا ابن الخطاب إني رسولُ الله، ولن يضيِّعني الله أبداً) رواه البخاري، ورضي المسلمون بشروط الصلح طاعةً لرسول الله ﷺ، وكان فيها كل الخير والمصلحة للمسلمين ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي لقد حقَّق الله لرسوله، الرؤيا التي رآها في منامه ﷺ، أنه سيدخل مكة، هو وأصحابه للعمرة، في أمنٍ وأمان، يحلق بعضهم رأسه، وبعضهم يقصِّر من

لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

شعره، بعد الانتهاء من مناسك العمرة ﴿لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي لا تخافون أعداءكم المشركين، لا في حال دخولكم ولا حين الطواف، ولا حين خروجكم من مكة، فعلم تعالى ما في هذا من الخير والحكمة، والمصلحة للمسلمين ما لم تعلموه أنتم، فجعل قبل ذلك فتحاً عاجلاً وهو «صلح الحديبية» وسمَّاه تعالى فتحاً، لما قدَّره الله تعالى من ظهور الإسلام في تلك المدة، فإنه لما انعقد الصلح، وارتفعت الحرب، رغب كثير من الناس في الدخول بالإسلام، فقد جاء رسول الله ﷺ الحديبية في ألف وأربعمائة، وغزا (غزوة الفتح) بعدها بسنتين، وكان معه عشرة آلاف من المسلمين .. **روى البخاري عن البراء** رضي الله عنه أنه قال: (تعدُّون أنتم الفتح «فتح مكة» وقد كان فتحُ مكةَ فتحاً، ونحن نعدُّ الفتح «بيعة الرضوان» يوم الحديبية)!! أما الرؤيا التي أشارت إليها الآية الكريمة، فقد رأى عليه السلام في منامه، وهو في المدينة المنورة، أنه دخل مكة مع أصحابه محرمين، وطافوا بالبيت آمنين مطمئنين، ثم تحلَّلوا من عمرتهم!! فحدَّث بذلك أصحابه، ففرحوا واستبشروا، فلما وقع صلح الحديبية، صعب على نفوس الصحابة، أن لا تتحقق الرؤيا ذلك العام، ودخل إلى نفوسهم الهَلَعُ والجزع، فنزلت الآية الكريمة، تؤكد لهم صدق هذه الرؤيا، وأنه لا بدَّ أن تتحقق رؤيا الرسول، وأن وراءها ما هو أكبر من دخول المسجد الحرام، وراءها الفتح الأعظم (فتح مكة) وكل ذلك قد تحقق، ففي السنة السادسة كان الصلح، وفي السابعة أدَّوا العمرة آمنين مطمئنين، وفي السنة الثامنة، كان (فتح مكة) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي الله جلَّ وعلا هو الذي أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهداية التامة، والنور الساطع، هادياً الناس إلى سبيل السعادة والنجاة، وأرسله بدين الإسلام، ليعليه على الأديان كلها، ويرفعه على سائر الشرائع السماوية، وكفى بالله شهيداً على أن محمداً رسولُه، وأن الإسلام دين الله الخالد!!

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ﴾

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾ أي هذا الرسول الذي ختم الله به النبوة، وأرسله بالهدى ودين الحق، هو «محمد رسولُ الله» ﷺ، وأصحابه الأخيار الأبرار، الذين اصطفاهم لصحبته، صفتهم أنهم غلاظٌ على الكفار، حتى ولو كانوا أقرباءهم، رحماء على المؤمنين، ولو كانوا غرباء عنهم، فقد كان الواحد منهم يتحرز من ثوب المشرك أن يمسَّ بدنه، وإذا رأى أخاه المسلم صافحه وعانقه، وخفض له جناحه ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ﴾ أي تراهم أيها السامع راكعين ساجدين، من كثرة صلاتهم وعبادتهم، كأنهم خُلِقوا للعبادة فقط، رهبانٌ في الليل، فرسان في النهار، يطلبون بعبادتهم رضوان الله ورحمته ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ أي علامتهم التي تظهر للناظر، أن وجوههم لاحتْ فيها علامات السهر والتهجد، وهي إشراقة الوجه بنور العبادة، وما يظهر عليها من البهاء والوقار، قال منصور سألت مجاهداً ـ تلميذ ابن عباس ـ عن هذه الآية: أهي أثرٌ يكون بين عيني الرجل؟ قال: لا، ربما يكون بين عيني الرجل، مثلُ ركبة العنز، وهو أقسى قلباً من الحجارة، ولكنه نور في وجهه من الخشوع والطاعة ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ﴾ أي ذلك وصفهم في التوراة: الشدة على الكفار، والرحمة بالمؤمنين، وكثرة الصلاة والسجود، وإشراقة الوجه بنور الطاعة والعبادة ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أي ومثلهم في الإنجيل، كمثلِ زرع ﴿أخرج شطأه﴾ أي أخرج فراخه وفروعه، فهو زرعٌ مبارك، نما بسرعة، وقوي واشتد ﴿فآزره فاستغلظ﴾ أي قوّىٰ الزرعَ حتى صار قوياً غليظاً ﴿فاستوى على سوقه﴾ أي فوقف الزرع واستقام على أصوله، ونبت فيه الحبُّ وازدهر ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ﴾ أي يعجب هذا الزرع الفلاّحين والزرّاعين، لقوّته، وكثرته، وحسن نباته، ليغيظ بهم أعداء الله من الكفار.. هذا هو المثل المضروب لهم في الإنجيل، مثَّل تعالى لهم بالزرع ينمو ويقوى، ويشتدُّ بفراخه، حتى يصبح قوياً مستقيماً، يقف على ساقه، وقد نضج فيه الحب

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

وازدهر، (فالزرع) محمد ﷺ، (والشطأ) أي الأفراخ أصحابه رضوان الله عليهم، كانوا قليلين فكثروا، وضعفاء فقووا، حتى صلب أمر الدين بهم واشتدَّ، وثبت الإسلام كالطود ورسخ، وانتشر في آفاق الدنيا، يملأ الأرضَ خيراً، وبراً، ونوراً، وهو مثلٌ في غاية البيان والجمال، وجاء في الإنجيل (سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) وهكذا كان شأن أصحاب النبي ﷺ كانوا قلة فكثروا، وضعفاء فعزُّوا وسادوا، وملكوا الدنيا، بإيمانهم وجهادهم وإخلاصهم، ولهذا قال فيهم المصطفى ﷺ (لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل جبل أُحد ذهباً، ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه) أي نصفه، رواه البخاري ومسلم، وختم الله الآية بقوله ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ أي وعدهم بالمغفرة والأجر العظيم في جنات النعيم!! واللهُ لا يُخلف الميعاد.

انتهى تفسير سورة الفتح

● ● ●

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢﴾

تفسير سورة الحجرات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إرشاد للمؤمنين إلى الأدب السامي، في حضرة النبي عليه أفضل الصلاة والتسليم، تعظيماً لمقامه الشريف.. وصَفَهم تعالى بالإيمان لتنشيطهم، وإرشادهم إلى أسمى المكارم، في التأدب مع أشرف رسولٍ، بعثه الله إليهم، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، أي يا من أكرمكم الله بالإيمان، وصدَّقتم بكلام الرحمن، لا تُقدِّموا أمراً من الأمور، ولا تشيروا برأيٍ من الآراء، ولا تقطعوا بحكم من الأحكام، قبل أن يحكم الله ورسوله به، كما إذا عُرضت مسألةٌ في مجلسه لا يسبقونه بالجواب، وإذا مشوا معه لا يمشون أمامه، وإذا حضر الطعام لا يبتدئون بالأكل قبله، ومثل ذلك سائر الأمور، تعظيماً لمقامه الشريف ﷺ، وقد أجمل الله في الآية جميع الأمور، أي لا تقدِّموا أمراً، أو فعلاً، أو رأياً، أو حكماً، أمام قول الله وقول رسوله، ﴿واتقوا الله إن الله سميع عليم﴾ أي خافوا عذاب الله، في مخالفة أوامره في أقوالكم وأفعالكم، إن الله سميع لأقوالكم، عليم بنيَّاتكم وأحوالكم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ أي لا ترفعوا أصواتكم على صوت النبي، ولا تنادوه باسمه العلم، فتقولوا: يا محمد، أو يا أبا القاسم، بل عظّموه ووقِّروه، وقولوا في خطابه: يا نبيَّ الله، ويا رسول الله، وحافظوا على مراعاة مقام (النبوة والرسالة)، كما هو الشأنُ في مخاطبة العظماء والملوك، وأين مقام الملوك من مقام أشرف الأنبياء!؟ فراعوا الأدب معه في الحديث والخطاب ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ أي خشية أن تبطل أعمالكم، من حيث لا تدرون ولا تشعرون!! أمَّا سبب نزول هذه الآية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾

١ـ فقد أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله بن الزبير قال: (قدم ركبٌ من تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أمِّرْ عليهم القعقاع بن معْبد ـ أي اجعله أميراً على الوفد ـ وقال عمر: بل أمِّرْ الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردتَ إلاّ خلافي!! فقال عمر: ما أردتُ خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت الآية.

٢ـ **وروى البخاري أيضاً عن ابن أبي مُليكةَ قال:** (كاد الخيرّان ـ أي الطيِّبان الفاضلان ـ أن يهلكا (أبو بكر، وعمر)، رضي الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه وفدُ بني تميم.. وذكر بقية الحديث، ثم قال: (فما كان عمر يُسمع النبي ﷺ حتى يستفهمه) أي كان يخفي صوته حتى يطلب منه المصطفى ﷺ رفع الصوت ليفهم كلامه، وهذا طرف من أدب الصحابة بعد نزول الآية الكريمة.

٣ـ **ورُوي في الصحيح عن أنس بن مالك** (أن النبي ﷺ افتقدَ «ثابتَ بن قَيس» ـ أي لم يره أياماً ـ فسأل عنه، فقال رجل يا رسول الله: أنا أعلم لك خبَره، فأتاه فوجده جالساً في بيته، منكِّساً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شرٌّ ـ كان يرفع صوته فوق صوت النبي، فقد حبط عمله، وهو من أهل النار، فأتى الرجلُ النبي ﷺ فأخبره أنه قال: كذا، وكذا.. فرجع إليه ببشارة عظيمة من النبي ﷺ، فقال: اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة) رواه البخاري، وفي رواية الطبري زيادة، وهي أن النبي ﷺ قال له: (أَمَا ترضى أن تعيشَ حميداً، وتُقتلَ شهيداً، وتدخلَ الجنة)!؟ فقال: رضيتُ ببشرى الله تعالى، وبشرى رسوله، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ) فقُتل شهيداً يوم اليمامة، في حرب المسلمين مع مسيلمة الكذاب.

ثم امتدح تعالى الذين يخفضون أصواتهم في مجلس الرسول ﷺ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ أي إن الذين يخفضون أصواتهم في مجلس النبي ﷺ مراعاةً للأدب، هؤلاء هم الذين أخلص الله قلوبهم لمرضاته، وجعلها أهلاً ومحلاً لتقوى الله، والإجلال لرسوله، لهم على أدبهم، المغفرةُ والثواب العظيم، في جنات النعيم، **قال الحافظ ابن كثير:** كره العلماء رفع

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾

الصوت عند قبر النبي ﷺ فقالوا: يُكره رفعُ الصوت عند قبره، كما كان يكره في حياته ﷺ، لأنه محترمٌ معظمٌ حياً وميتاً، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ، قد ارتفعت أصواتهما، فجاء إليهما. فقال: أتدريان أين أنتما؟ أنتما في مسجد رسول الله ﷺ!! ثم قال لهما: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف!! قال لهما: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً) اهـ أقول: رضي الله عن عمر، فقد كان يسوس الناسَ بأدب النبوة، ويعلّم المسلمين الآداب في حضرة النبي وآل بيته.. ثم ذمَّ تعالى الأعراب الجُفَاة، الذين ما كانوا يعرفون قدر (مقام النبوة)، فقال سبحانه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي إن الذين ينادونك يا محمد، من خارج منازل أزواجك الطاهرات، أكثرهم جاهلون لا يعقلون، إذ العقل يقتضي حسن الأدب، ومراعاة العظماء عند مخاطبتهم، فكيف بمنصب النبوة في مقام سيد المرسلين؟ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ولو أن هؤلاء انتظروا خروجك، حتى تخرج إليهم فتتحدث معهم، لكان ذلك خيراً لهم وأكمل وأفضل، عند الله وعند الناس، ومع ذلك فلن تضيق رحمة الله ومغفرته، عن هؤلاء المسيئين للأدب، إذا تابوا وأنابوا، فإن الله غفور رحيم!! وقد راعى المسلمون هذا الأدب الرفيع، فتأدبوا مع شيوخهم وأساتذتهم، ليقتبسوا من علمهم وفضلهم، قال المحدِّث الثقة أبو عُبيد: ما دققتُ باباً على عالم قط، حتى يخرج في وقت خروجه!! وروي في سبب نزول هذه الآية، أن بعض الأعراب الجُفاة، جاءوا إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، والنبيُّ راقدٌ وقت الظهيرة، فطافوا في أطراف الحجرات، ولمَّا لم يجدوا رسول الله ﷺ، جعلوا ينادونه من خارج البيوت: يا محمد أخرجْ إلينا، يا محمد أُخرج إلينا، فأنزل الله الآية الكريمة ﴿إن الذين ينادونك﴾ الآية.. ثم حذَّر تعالى المؤمنين من نقل الأخبار، وإشاعتها بدون تثبت، لا سيما إذا كان مصدرها الفاسقُ، فقال سبحانه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾ أي تثَّبتوا يا معشر المؤمنين فيما تسمعونه من أخبار، من الفُسَّاقِ الفجار، وتحققوا من صحة

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾

الخبر، كيلا تصيبوا قوماً بالأذى، وأنتم جاهلون حقيقة الأمر، فتندموا على صنيعكم أشدَّ الندم!! وخصَّ تعالى بالذكر الفاسق، لأنه مظنةُ الكذب، (وما آفةُ الأخبار إلاَّ رواتُها) رُوي أن النبي ﷺ بعث «الوليد بن عُقبة» إلى بني المصطلق، ليأتي بزكاة أهلها، فلما سمعوا به فرحوا، وخرجوا لاستقباله، فظنَّ أنهم يريدون قتله، فرجع من الطريق، وجاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: إنهم منعوا الزكاة، وأرادوا قتلي!! فغضب ﷺ وأشار عليه بعضُ الصحابة بأن يغزوهم، فنزلت الآية، رواه أحمد والطبراني، ثم وجَّههم تعالى، إلى عدم التعجل في الحكم، حتى يظهر لهم صدقه، فقال سبحانه ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ أي واعلموا أن فيكم الرسول المعظَّم، المعصوم عن الهوى، فاتقوا الله أن تقولوا باطلاً، فإن الله تعالى يخبره فتفتضحون، ولو أطاعكم في أغلب ما تقولون له، لوقعتم في الجهد والمشقة، المؤدِّي إلى الهلاك، فعظِّموا الرسول ووقروه، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم، والعَنَتُ في اللغة: الهلاكُ، أي وقعتم في الهلاك والمشقة!.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ أي ولكنه تعالى بمنِّه وفضله حفظكم، ونوَّر بصائركم، وجعل الإيمانَ محبوباً إليكم، وحسَّنه في قلوبكم حتى صار أغلى عندكم من كل شيء، وبغَّض إلى نفوسكم الكفَر، والمعاصي، والخروج عن طاعة الرحمن ﴿أولئك هم الراشدون﴾ أي والذين تحلَّوْا بهذه الصفات الجليلة، هم الراشدون، الموفقون للخيرات وسلوك طريق السعادة ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ أي تفضلاً منه تعالى وكرماً، وهو العليم بأهل الهداية، الحكيم في صنعه وتدبيره.. ثم نبَّه تعالى على ما يترتب من الأنباء المكذوبة، من تخاصم وقتال، فقال سبحانه ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ أي وإن

حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ

رأيتم طائفتين من إخوانكم المسلمين، جنحوا ومالوا إلى القتال والعدوان، فابذلوا جهدكم للتوفيق والإصلاح بينهما، وادعوهما إلى النزول إلى حكم الله، فإن بغت إحداهما، وتجاوزت حدَّها بالظلم والطغيان، فقاتلوا تلك الجماعة الباغية ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ أي حتى ترجع إلى رشدها، وترضى بحكم الله عز وجل، فإن رجعت وأقلعت عن القتال، فأصلحوا بينهما بالعدل، دون حيفٍ على إحدى الفئتين، واعدلوا في جميع أموركم وأحكامكم، فإن الله يحب العادلين، الذين يعطون كل ذي حق حقه، نزلت هذه الآيات في خصومة وقعت في عهد النبي ﷺ، فقد أخرج البخاري عن أنس أنه قال (قيل للنبي ﷺ: لو أتيتَ عبد الله بن أبيٍّ ـ المشهور بالنفاق ـ فانطلق إليه النبي ﷺ وركب حماراً!! وانطلق المسلمون يمشون معه، فلما أتاه النبي ﷺ قال: إليك عني فوالله لقد آذاني نتنُ حمارك، فقال رجل من الأنصار منهم: والله لحمارُ رسول الله أطيبُ ريحاً منك، فغضب لعبد الله ـ المنافق ـ رجل من قومه، وغضب لكل واحدٍ منهما أصحابه، فكان بينهم ضرب بالأيدي والجريد والنعال، فبلغنا أنها أُنزلت فيهم ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا..﴾ الآية، رواه البخاري ومسلم ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ أي ليس المؤمنون إلاّ إخوة، جمعتهم رابطة (الإيمان والإسلام) فلا ينبغي أن يكون بينهم عداوة ولا بغضاء، فأصلحوا بين إخوانكم المؤمنين، ولا تتركوا الشيطان ينزغ بينهم، واتقوا ربكم، واحذروا عقابه، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، لتنالكم رحمتُه، وتسعدوا برضوانه، ودخول جنانه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ أي لا يحتقر ولا يهزأ، جماعةٌ مؤمنون من جماعةِ مؤمنين، فلعلَّ الإنسان المهزوء منه، يكون عند الله خيراً وأفضل، من الساخر المستهزىء بالناس، ولا تهزأ نساء مؤمنات من نساء مؤمنات، فلعلَّ المستهزأ منها، خير عند الله من الساخرة المستهزئة، فلكل فردٍ كرامتُه، فلا ينبغي أن

وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

يسخر الغنيُ من الفقير، ولا القويُ من الضعيف، ولا الجميلة من القبيحة، ولا الشابة من العجوز، فالميزان عند الله (بالتقوى) لا بالأنساب والأحساب ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي لا يطعن بعضكم في بعض، ولا يعبْهُ وينتقصْ قدره، فإن المؤمنين كنفسٍ واحدة، فإذا عاب المؤمنُ مؤمناً، فكأنما عاب نفسه، ولا يلقِّبه بلقبٍ يكرهه، كالألقاب البذيئة التي يكرهها الإنسان، كقوله: يا أقرع، أو يا أعرج، أو يقول له: يا قردُ، أو يا حمارُ، فإن ذلك يُفسد الودَّ، ويورث الضغائن ﴿بئس الاسم الفسوقُ بعد الإيمان﴾ أي بئس أن يصبح المؤمن فاسقاً، بعد أن كان مؤمناً، وفي الآية دليل على التنابز بالألقاب فسقٌ، والجمعُ بينه وبين الإيمان مستقبح في العرف والشرع، وكأنه يقول: لا تعيبوا إخوانكم فتصبحوا فساقاً، ومن لم يتب عن هذه الأخلاق الذميمة، فقد ظلم نفسه بتعريضها لعذاب الله، وإنما قال ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ للإشارة إلى أن المؤمنين كأنهم (نفس واحدة)، فمن انتقص غيره أو احتقره، فكأنما انتقص نفسه وعابها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ أي ابتعدوا عن التهمة، وإساءة الظن بالمؤمنين، وعبَّر بالكثير ليحتاط المؤمن في كل ظن، فلا يسارع إلى الاتهام، بل يتثبَّتَ ويتحقق، لأن بعض الظن السيء، فيه إثم وهو عند الله ذنب عظيم، وفي الحديث الشريف (إياكم والظنَّ فإن الظنَّ أكذبُ الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا..) رواه مسلم، وقال عمر رضي الله عنه: (لا تظننَّ بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلاّ خيراً، ولا تعتقدنَّ بها شراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً) ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي لا تبحثوا عن عورات المسلمين، ولا تتلقَّطوا هفواتهم، ولا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء، في غيبته بشيء يكرهه ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ أي هل يحب الواحد منكم، أن يأكل لحم أخيه المسلم وهو ميِّت؟ فكما تكرهون أكل لحم



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾

الميت، كذلك فاكرهوا غيبته، وخافوا عقاب الله، وتوبوا إليه، فإنه سبحانه واسع الرحمة، تواب على من تاب وأناب!! لقد مثَّل القرآن الكريم لقبح الغيبة وشناعتها، بتمثيل رائعٍ مفزع، ولْنتصَّوْر هذه الصورة الشنيعة: إنسان جلس أمام جثة مَيت، ينهش ويأكل من لحمها، واللحم نيء، ثم إنه أخوه في الإنسانية، وحقاً إنها صورة شنيعة، على أفحش وجهٍ وأشنعه، ينفر منها الطبع، وتتلخَّص في الآتي:

أولاً: إنه لحم إنسان وليس لحم شاةٍ مشوية.

ثانياً: إن هذا الإنسان الذي يأكل لحمه هو أخ له مسلم.

ثالثاً: إن اللحم الذي يأكله لحم نيء لميت!! ويا له من تمثيل قبيح شنيع، عظيم فظيع، يقطع أعناق المغتابين!!

وفي الحديث الشريف (يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتَّبعوا عوراتهم، فإنه من اتَّبع عوراتهم، يتَّبع اللهُ عورته، ومن اتَّبع عورته يفضحه في بيته) رواه أبو داود، ونظر ابنُ عمر يوماً إلى الكعبة، ثم قال: (ما أعظمك؟ وما أعظم حرمتك!! ووالله إن المؤمن، لأعظمُ حرمةً عند الله منك). رواه الترمذي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ الخطاب لجميع البشر من ذرية آدم، أي يا معشر البشر، نحن خلقناكم بقدرتنا من أصلٍ واحد، وأوجدناكم من أبٍ وأمٍ، فلا تفاخر بالآباء والأجداد، ولا اعتداد بالحسب والنسب، كلكم لآدم، وآدم من تراب، وجعلناكم قبائل شتى، وشعوباً متعددة، للتعارف والتآلف، لا للتناحر والتخالف، أنتم جميعاً إخوة في «الإنسانية» أبوكم واحد، وأمكم واحدة، وهذا يقتضي منكم التعاون في الحياة ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ أي إن أفضلكم عند الله أتقاكم له، فإن تفاخرتم فتفاخروا بالتقوى، وليس لشيء من (اللَّون، والجنس، والحسب، والنسب) حسابٌ في ميزان الله!! لم يقل: أغناكم، أو أقواكم، أو أشرفكم حسباً، وإنما قال سبحانه ﴿أتقاكم﴾ فلا قبليَّة، ولا قومية، ولا عنصرية في ميزان الشرع الحنيف، وما أجمل قول النبي الأعظم ﷺ (يا أيها

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾

الناسُ إن الله أذهب عنكم عَيْبة الجاهلية ـ أي عارها وعيبها ـ وتعظُّمها بالآباء، الناسُ رجلان: رجلٌ برٌّ تقيٌّ، كريم على الله تعالى، ورجلٌ شقيٌّ هيِّنٌ على الله تعالى، إن الله عزَّ وجل يقول ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ رواه ابن أبي حاتم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي عالمٌ بالتقي منكم والشقي، والبر والفاجر، خبيرٌ بأموركم وأحوالكم، وإنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ سبب نزول هذه الآية، أن جماعة من الأعراب قدموا المدينة المنورة، في سنة مجدبةٍ قاحلة، فدخلوا على الرسول ﷺ وأخذوا يمتنُّون على الرسول بإسلامهم، فقالوا يا محمد: جئناك مؤمنين، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، وبنو فلان، وأخذوا يمنون عليه بالإسلام، فنزلت الآية.

والمعنى: زعم الأعراب أنهم آمنوا، قل لهم: إنكم لم تؤمنوا بعد، وإنما نطقتم بالشهادة وهذه لا تبني إيماناً، لأن الإيمان تصديقٌ واطمئنان، مع ثقة القلب بالرحمن، ولكنْ قولوا: استسلمنا لحكم الله، خوف القتل والأسر ﴿**ولما يدخل الإيمان في قلوبكم**﴾ أي لم يثبت ويتمكّن الإيمان في القلب، ولو ذقتم حلاوته لما مننتم به على رسول الله!! **قال ابن كثير**: وهؤلاء الأعراب ليسوا منافقين ـ كما ظنَّ البعض ـ وإنما هم مسلمون، لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فأُدِّبوا بذلك، ولو كانوا منافقين، لعُنِّفوا وفُضِحوا ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وإن تطيعوا أمر ربكم، وتتمسكوا بشريعة نبيكم ﷺ ﴿**لا يلتكم**﴾ أي لا يُنقصكم من أجور أعمالكم شيئاً، فإنه تعالى واسع المغفرة، واسع الرحمة لعباده المتقين المطيعين ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ أي إنما المؤمنون الصادقون، الذين يحقُّ لهم أن يفخروا بإيمانهم، هم الذين صدَّقوا الله ورسوله، عن إيمان كامل، ويقين راسخ، ﴿**ثم لم يرتابوا**﴾ أي لم يشكُّوا ويتزلزلوا في إيمانهم، كما

وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

هو شأن المنافقين، وإنما ثبتوا على التصديق واليقين ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي بذلوا أموالهم وأرواحهم لنصرة دين الله، وطلب رضوانه، فهؤلاء هم المؤمنون حقاً، الصادقون في دعوى الإيمان!!.

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي قل لهم يا محمد: أتخبرون اللهُ بما في ضمائركم وقلوبكم؟ وهو جلَّ وعلا العليم بجميع أحوال الخلق، لا تخفى عليه خافية، لا في السموات ولا في الأرض!؟ والتعبيرُ بقوله ﴿أتعلِّمون﴾ بدل قوله: أتخبرون؟ لزيادة التشنيع عليهم والتوبيخ، كأنهم في مقام من يُعلِّم الله إيمانهم، وهذا منتهى الجهل ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي يمتنُّون عليك يا محمد بإيمانهم، ويعدُّون ذلك منَّةً منهم عليك بإسلامهم، بل لله المنَّةُ العظمى عليكم، بأن وفَّقكم وهداكم إلى الإيمان، إن كنتم صادقين فيما تقولون، من أنكم حقاً من أهل اليقين والإيمان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي الله وحده العالم بحقيقة إيمانكم، يعلم ما غاب عن الأبصار في السموات والأرض، وهو المطلع على أعمال العباد، لا تخفى عليه خافية، فأخلصوا لله سرَّكم وعلانيتكم، فهو سبحانه العالمُ بالسرائر، وبالخفايا والنوايا، يعلم الصادق من الكاذب، فأخلصوا أعمالكم لله لتُفلحوا وتسعدوا!!.

انتهى تفسير سورة الحجرات

● ● ●

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥﴾

تفسير سورة ق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ استبعد المشركون أن تكون هناك حياة أخرى بعد الموت، وتعجبوا من ذلك غاية العجب، بل شكُّوا في إمكان ذلك، وعدُّوه أمراً مستحيلاً، إذ كيف تعود الحياة للإنسان؟ بعد أن يبلى جسُده، وتتفرق أجزاؤه، وتصبح ذرات مختلطة بالتراب؟ فأقسم تبارك وتعالى بالقرآن الكريم، ذي المجد والشرف على سائر الكتب، أقسم على البعث بعد الموت، وجواب القسم محذوف تقديرُه: والقرآنِ المجيد لتبعثنَّ!! وقد تعجَّبوا أن يكون الرسولُ بشراً، ولم يتعجبوا أن يكون إلـههم من حجر!! ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ أي هل إذا متنا، واستحالت أجسادناة إلى ترابٍ، هل سنحيا ونرجعُ أحياء كما كنا؟ ذلك أمرٌ مستحيل!! أرادوا بقولهم ﴿رجع بعيد﴾ استحالة الأمر، أي ذلك رجوع مستَحيل، بعيدٌ غاية البعد!! قال تعالى ردّاً عليهم ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾ أي قد علمنا ما تُنقصه الأرضُ من أجسادهم، وما تأكله من لحومهم وأشعارهم وعظامهم، وعندنا اللوح المحفوظ الذي سُجِّل فيه كلُّ شيء، **(والحفيظُ)** بمعنى الحافظ، أي الحافظ لكل أمورهم وأحوالهم ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾ إنتقال من توبيخ إلى توبيخ، إلى ما هو أفظع وأشنع،، وهو التكذيبُ بالقرآن العظيم، مع سطوع آياته، ووضوح بيانه، أي كذبوا بالقرآن حين جاءهم، فهم في أمر مختلط مضطرب، في شأن القرآن والرسول، فتارةً يقولون عن الرسول ساحر، وتارة يقولون: شاعر، وأخرى يقولون: كاهن، وكذلك قالوا عن القرآن،

أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ (٩) وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤)

سحر، شعر، أساطير الأولين، ومعنى (مريج): مختلط.. ثم ذكر تعالى دلائل القدرة والوحدانية فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ أي أفلم ينظروا إلى السماء، نظر تفكر واعتبار، كيف رفعناها بلا عمد، وزيناها بالنجوم الزاهرات، وما لها من صدوع ولا شقوق؟ ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أي والأرض بسطناها ووسعناها، وجعلنا فيها جبالاً ثوابت، تمنعها من الاضطراب بسكانها، وأنبتنا فيها من كل نوع من النبات والثمار، حسن المنظر، يبتهج به الإنسان لحسنه وشكله ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي فعلنا ذلك تبصرة لكم، نبصّركم بها قدرة ربكم، وتذكيراً لكم على عظمته وسلطانه، لكل عبدٍ تائب إلى الله، راجع عن ذنوبه ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ أي وأنزلنا من السماء مطراً مباركاً، كثير الخيرات والمنافع، فأخرجنا لكم بهذا الماء البساتين الناضرة، والأشجار المثمرة، وأنواع الحبوب غذاءً لكم، كالحنطة والعدس، وسائر الحبوب التي تُحصد ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ وأخرجنا لكم شجر النخيل، **﴿باسقات﴾** أي طوالاً مرتفعات، لها ثمر منظم بعضه فوق بعض، رزقاً منا للخلق، وقوتاً لهم، بعضها غذاء، وبعضُها فاكهة، وأحيينا بذلك الماء المبارك، أرضاً يابسة مجدبة، فأنبتنا فيها الكلأ والعشب، كذلك نخرجكم أحياء من قبوركم بعد موتكم!! ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي كذب قبل قومك المشركين، أممٌ كثيرون، كقوم نوح، وأصحاب الرسِّ أي البئر، الذين قتلوا نبيَّهم

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝١٥ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ۝١٦ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ۝١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ۝١٨﴾

ودسُّوه فيه، وثمود، وعاد، وفرعون وأتباعه، وأصحاب الشجر الكثير المتلف وهم قوم «شعيب» وإخوان لوط سمَّاهم إخوانه، لأنه صاهَرَهم وتزوَّج منهم، وقوم تُبَّع اليمني، وجميع هؤلاء الأقوام الطغاة كذَّبوا رسلهم، فحلَّ عليهم وعيدي وعذابي، فلا تحزن يا محمد على تكذيب قومك لك، فهذه عادة الطغاة الفجرة، في كل زمانٍ وحين، والغرضُ التذكيرُ بمصارع المكذبين.. ثم قال تعالى مؤكداً أمر البعث ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ أي هل عجزنا عند ابتداء خلقنا لهم، حتى نعجز عن إعادتهم بعد الموت؟ أفليست الإعادةُ أسهل من البدء عندهم؟ فكيف يعجز رب العالمين عن إعادتهم، وهو الذي بدأ خلقهم من العدم؟ بل هم في شكٍ واضطراب من قدرتنا على أن نخلقهم مرة ثانية، بعد موتهم وفنائهم!! وهذا توبيخ لهم على غبائهم، وسوء فهمهم، وهو الجواب الحكيم، الذي يُخرس ألسنتهم!! ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ أي نحن بقدرتنا خلقنا الإنسان، من نطفة من ماءٍ مهين، ونعلم الخواطر التي تخطر على باله، وما تحدثه به نفسه، من أفكار ووساوس، فكيف يغيب عنا عملُه؟ ونحن أعلم بحاله من أقرب شيء إليه، وهو حبل الوريد المتصل بقلبه المسمَّى «الشريان الوريدي» والآية الكريمة تمثيل لعلم الله بالإنسان، وشدة قربه من عبده، حيث لا تخفى عليه خافية، والحافظ ابن كثير أوَّل الآية بأن المراد بها الملائكة أي وملائكتنا أقرب إليه من حبل الوريد، قال: والحلول والاتحاد منفيّان بإجماع، تقدَّس الله وتمجَّد، قال ويدل عليه ما بعده، وهو قوله سبحانه ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ﴾ أي حين يتلقى الملكان، الموكلان بحفظ أعمال الإنسان: ملكٌ عن يمينه، وملك عن شماله، لا يغيبان عنه في سفر ولا حضر، ولا في ليل ولا نهار، ملازمان له كالظل للإنسان، يلازمه حيث كان ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ أي ما يتكلم الإنسان كلمة، ولا يتلفظ لفظة، من خير أو شر، إلا وملك ﴿رقيب﴾ يكتب قوله، ويسجِّل عمله ﴿عتيد﴾ أي حاضر معه لا يغيب عنه، وكلٌّ من اللفظين وصفٌ للملك!.

وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾

قال الحسن البصري: فإذا مات ابن آدمُ طويت صحيفته، وقيل له يوم القيامة ﴿**اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً**﴾ ثم قال: عَدَل واللهِ فيك، من جعلكَ حسيبَ نفسك ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي جاءت شدةُ الموت وهولُه، التي تغشى الإنسان وقتَ الاحتضار، بالأمر الحق الذي يئول إليه أمره، من السعادة أو الشقاوة، ذلك ما كنت منه تفرُّ وتهرب، ولكنْ من أين لك أن تهرب من الموت، وهو طالب لا يملّ الطلب؟ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي ونفخ في الصور النفخة الثانية، وهي نفخة الإحياء، ذلك هو يوم الجمع للحساب، الذي قال الله فيه ﴿**الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه**﴾ والذي كان ينكره المشركون ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي جاء كل إنسان ومعه مَلَكان، مَلَك يسوقه إلى المحشر، ومَلَكٌ يشهد عليه بأعماله ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي يقال له: لقد كنت أيها الإنسان، في غفلة عن هذا اليوم الرهيب، فأزلنا عنك غطاء الغفلة، الذي كان على قلبك وبصرك، فأنت اليوم حادُّ البصر، ترى ما كنت تنكره وتستبعده ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ أي يقول الملك الموكل به: هذا الذي وكّلتني به يا رب من بني آدم، قد أحضرتُه وأحضرتُ ديوان عمله، فهو حاضر بين يديك!! فيقول سبحانه للملَكين: السائق، والشهيد ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ أي ألقيا في جهنم، كل كافر فاجر، معاندٍ للحق، ظالم غاشم، شاكٌ في الله ولقائه، لا يؤمن بيوم الحساب ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ أي الذي أشرك بالله، ولم يؤمن بوحدانيته، وعبد غيره من بشر أو حجر، فألقياه في عذاب جهنم الشديد!! هذا ما يقوله ربُّ العزة والجلال للسائق والشهيد، وما يقوله الملكُ الموكَّلُ به، وقد أُحضر المجرم إلى ساحة الحساب، ويتعلل المجرم، بأن قرينه وصاحبه من

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾

الشياطين، هو الذي أغواه وأضلَّه، وعندئذٍ يفزع القرين، ويبادر إلى إبعاد التهمة عنه ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي قال الشيطان الذي كان موكلاً به: يا رب لستُ أنا الذي أطغيتُه ولا أضللته، ولكنه كان شقياً غاوياً، اختار طريق الضلالة على طريق الهدى، وأنا زيَّنت له ذلك، من غير إكراه ولا إجبار ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي ما يُبدَّل حكمي، ولا يُغيَّر كلامي، ولا خصام اليوم ولا جدال، وقد سبق أن أنذرتكم من عذابي، ولستُ ظالماً حتى أعذِّب أحداً بدون استحقاق ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أي واذكر حين يقول ربك للنار: هل اكتفيتِ؟ وتقول: أريد المزيد، وفي الحديث الشريف (لا تزال جهنم يُلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع ربُّ العزة قدمه، فتقول: قط، قط) أي حسبي، حسبي، رواه البخاري، **قال النووي**: هذا الحديث على ظاهره، وأن الله يخلق في الجنة والنار تمييزاً يدركان به، ويقدران على المراجعة والاحتجاج، ويحتمل أن يكون بلسان الحالِ، أي على سبيل ضرب المثل لبيان سعة جهنم، بحيث تستوعب جميع الكفرة والعصاة.. وبعد ذكر حال الأشقياء، يأتي الإخبار عن ذكر مآل المؤمنين السعداء، فيقول سبحانه ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أي وقُرِّبَت الجنةُ وأُدنيت للمتقين، بحيث يشاهدونها من الموقف، فيبتهجون بأنهم محشورون إليها، ويقال لهم: هذا النعيم الذي ترونه، هو ما أعدَّه الله لكل عبدٍ مؤمن ﴿أواب﴾ أي رجَّاع إلى الله ﴿حفيظ﴾ أي حافظٍ لأمر الله وعهده ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أي خاف الرحمن وأطاعه، واتَّبع أمره، دون أن يرى ربه، لقوة إيمانه ويقينه، وجاء بقلب نقي طاهر، غير ملَّوث بالقذارات، من الكفر والمنكرات ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ أي ادخلوا الجنة بإمانٍ وسلامٍ، ذلك يوم

لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾

البقاء الدائم، في جنة الخلود والنعيم، الذي لا انتهاء له ولا زوال ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أي لهم في الجنة من كل ما تشتهيه أنفسهم، وتلذُّ به أعينهم، من المآكل والمشارب، والمناظر البهية، ولهم زيادة على ذلك، الاستمتاع بالنظر لوجه الله الكريم، الذي هو أعظم نعيم لأهل الجنة، كما جاء في الحديث الشريف (فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عزَّ وجل) رواه مسلم ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي وكثير من الأمم الطاغية، أهلكناها قبل قومك ﴿كفار قريش﴾ كانوا أقوى قوة، وأعظم فتكاً وبطشاً، من قومك المكذبين، فساروا في البلاد، وطوَّفوا في الآفاق، فهل لهم مهرب من الموت؟ لم يجدوا لهم محيصاً أي مهرباً، بل أُهلكوا شرَّ إهلاك ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي إن فيما ذكرناه من إهلاك الأمم الباغية، لتذكرة وموعظة، لمن كان له قلب سليم، وفكرٌ نيِّر، يتدبر به ما يسمع، أو أصغى إلى الموعظة وهو حاضر القلب، ليتذكَّر ويعتبر، فينتهي عن الفعل الذي كانوا يفعلونه، وعبَّر عن العقل بالقلب لأنه موضعُه.. ذكَّرهم تعالى بمصارع الغابرين، فإنَّ في إهلاكهم وهم أشدُّ قوةً من أهل مكة، أكبر العظة والعبرة، ولكنَ لا يعتبر بذلك إلاَّ من كان حيَّ القلب، أمَّا الذي مات قلبُه، فلا تنفعُه العِبرُ والعظات!! ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ ردٌّ على اليهود، فإنهم زعموا أن الله لـمَّا خلق السموات والأرض، في ستة أيام، تعب فاستراح يوم السبت، وسمَّوه يوم (راحة الرب) ولهذا حرَّموا العمل فيه فأنزل الله هذه الآية تكذيباً لهم، **والمعنى**: خلقناهما في ستة أيام وما أصابنا ﴿من لغوب﴾ أي تعب، واللَّهُ قادر على أن يخلقها بلمح البصر، ولكنه أراد أن يعلِّم العباد التأنيّ، كما قاله ابن عباس ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ أي اصبر يا أيها الرسولُ على ما يقوله

وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

المشركون في أمر البعث، وما يقابلونك به من السخرية والاستهزاء، واهجرهم هجراً جميلاً، وصلِّ لربك واعبده، وقتيْ (الفجر والعصر)، لأن ملائكة السماء تحضرهما، كما ورد ذلك في الصحيح ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ أي ومن الليل فصلِّ لربك تهجداً، وأعقاب الصلوات المفروضة، فالمراد بالتسبيح هنا: الصلاة، وقيل: هو التسبيح بذكر الله «سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر» ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي واستمع نداء «إسرافيل» عليه السلام، حين ينادي الخلائق، للخروج من القبور، للبعث والنشور، فيقول: «أيتها العظامُ البالية، واللحوم المتفرقة، والأشلاء المتمزقة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء، ثم ينفخ في الصور، فإذا هم قيام ينظرون» ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ أي نحيي الخلائق، ثم نميتهم، ثم نخرجهم أحياء بعد الفناء، وإلينا وحدنا مرجعهم للحساب والجزاء ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي يوم تنشقُّ الأرض عنهم، فيخرجون من القبور مسرعين، استجابةً لدعوة المنادي، ذلك جمعٌ سهلٌ هيِّنٌ علينا، لا يحتاج إلى جهد ووقتٍ وعناء ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي نحن عالمون بما يقول قومك المشركون، وبما يتهمونك به من شنيع الاتهام والفجور، ولست يا محمد بمتسلِّط عليهم حتى تجبرهم على الإيمان، فعظ بهذا القرآن من يخاف وعيد رب العالمين!.

وقد قال ﷺ (القرآنُ شافعٌ مشفَّع، وماحلٌ ـ أي مدافع ومحام ـ مصدَّق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه قاده إلى النار). اللهم اجعل القرآن العظيم، قائداً لنا إلى جنات النعيم.

انتهى تفسير سورة ق

● ● ●

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾

تفسير سورة الذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ أقسم تعالى بأربعة أقسام: أقسم بالرياح التي تذرو الترابَ وتنسفهُ، وتحمل الرمال من مكان إلى مكان، وأقسم بالحاملات وقراً، وهي السحب التي تحمل أثقال الأمطار، وهي محمَّلةٌ بالماء الذي به حياة البشر، وأقسم بالجاريات يسراً، وهي السفن التي تجري فوق سطح البحار، جرياً سهلاً بيسر، وهي تحمل ذرية بني آدم، وأقسم بالمقسِّمات أمراً، وهي الملائكة التي تقسم الأرزاق، والأمطار بين العباد، وتدبر أمور البشر، وشؤون الكون، أقسم بهذه الأمور الأربعة، لما فيها من الدلالة على عجيب صنعه تعالى وقدرته، ثم ذكر الجواب فقال ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ أي أقسمُ لكم بأنّ الذي توعدونه من البعث والحساب، لأمرٌ صادق محقَّق، لا يمكن أن يتخلَّف، وأن يوم الدين أي الجزاء، آتٍ لا محالة، وليس الأمر عبثاً ولا سدى!! ثم أتبع ذلك بقَسَم خامس، على أن المشركين في شكّ واضطراب، من أمر القرآن وأمر محمد عليه الصلاة والسلام، فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي أقسمُ بالسماء البديعة، المحبوكة حبكاً متقناً، أي المتقنة الصنع والبناء، كما قال سبحانه ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾ إنكم يا معشر المشركين، لفي أوهام وظنون، تضطربون في أمر الرسول والقرآن، فتقولون: ساحر، شاعر، كاهن، فأنتم في قلق واضطراب، يُصرف عنه من صرفه الله عن طريق الهدى والسعادة ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ أي لُعن وهلكَ الكذّابون، الزاعمون أن محمداً ساحر، أو شاعر، الذين هم

يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

غافلون لاهون عن أمر الآخرة ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي يسألون سخرية وتهكُّماً: متى يوم الحساب والجزاء؟ ثم بيَّن تعالى أنَّ وقته، يوم يدخلون نار الجحيم ويحرقون فيها، ويقال لهم ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي ذوقوا عذابكم وحريقكم، فهذا الذي كنتم تستعجلون به في الدنيا.. وبعد الحديث عن مصير الأشقياء المجرمين، يأتي الحديث عن مصير الأبرار المتقين، فيقول سبحانه ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي إنهم في حدائق وبساتين، فيها عيون جارية بالماء السلسبيل، راضين بما أعطاهم ربهم من النعيم والكرامة، لأنهم كانوا محسنين في إيمانهم وطاعتهم لربهم ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي كانوا يكابدون قيام الليل، فلا ينامون منه إلا قليلاً، يحيونه في الصلاة، ويستغفرون ربهم بالأسحار، كأنهم ـ من خشيتهم لله ـ مذنبون، فلذلك يستغفرون ربهم من التقصير ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ أي وفي أموالهم التي رزقهم الله إياها، نصيب معلوم، يدفعونه للسائل المحتاج، وللعفيف الذي لا يسأل مع فقره الشديد، ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي وفي الأرض دلائل واضحة، على وحدانية الله وقدرته، للموقنين بالله وعظمته، وفي أنفسكم آياتٌ وعبَر، من مبدأ خلقكم إلى منتهاه، أفلا تبصرون قدرة الله في وجودكم وخلقكم، من اختلاف (الصور، والألسنة، والألوان، والطبائع، والسمع، والعقل، والبصر) لتستدلوا على وحدانية الله، وعظمته وجلاله؟ ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ أي وفي السماء أسبابُ رزقكم وعيشكم، وهو المطرُ الذي به حياةُ النبات والبشر، وما توعدون به من النعيم، أو العقاب، وأقسمُ لكم بربِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾

السماء والأرض، إن ما توعدون به من الرزق، والبعث، والحساب والجزاء، لحقٌ كائن لا محالة مثل نطقكم، فكما لا تشكُّون في نطقكم لا تشكُّوا في رزقكم، فالرزق مثل النطق، لا يفارق الإنسان في حال من الأحوال، **قال الحسن البصري**: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: (قاتل الله أقواماً، أقسم لهم ربهم ثم لم يصدِّقوا) أخرجه الطبري مرسلاً، وحُكي أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ هذه الآيات ﴿وفي السماء رزقكم﴾ فاهتَّز وصاح يا سبحان الله، من أغضب الجبار حتى حلف لهم؟ ألم يصدِّقوه في وعده، حتى أقسم لهم أغلظ الأيمان؟ ثم ذكر تعالى قصة الخليل إبراهيم مع ضيوفه، تسلية لقلب النبي الكريم، فقال سبحانه ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾؟ أسلوب تشويق وترغيب لسماع القصة، أي هل بلغك ووصل إلى سمعك، خبر ضيوف إبراهيم الأفاضل؟ وهم الملائكة الأبرار الذي جاءوا لتبشيره بغلام مولود، وهم في طريقهم لإهلاك قوم لوط الفجار!! ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي حين دخلوا على إبراهيم، فسلَّموا عليه بتحية الإسلام، فردَّ عليهم التحية، وقال في نفسه: هؤلاء قوم غرباء، فما الذي قدم بهم؟ لم يقلها مشافهةً لهم، وإنما قالها في نفسه، لأن خُلُقه الرفيع، لا يسمح له بالجهر بها في مؤانسة الضيف، ويدل على هذا قوله تعالى في آية أخرى ﴿نكرهم وأوجس منهم خيفة﴾ أي أنكرهم في نفسه وتخوَّف منهم، **قال ابن كثير**: وإنما أنكرهم لأنهم قدموا عليه في صورة شُبَّان حسان، عليهم مهابة عظيمة ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أي فمضى نحو زوجه مسرعاً، في خفية عن ضيوفه، فجاءهم بعجلٍ سمين مشوي، وقربَّ الطعام نحوهم فلم يأكلوا، فقال لهم في تلطف وبشاشة: ألا تأكلون من هذا الطعام اللذيذ؟ ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أي أخفى في نفسه الخوف منهم، لمَّا رأى إعراضهم عن الطعام، فأخبروه عن حقيقتهم، أنهم ملائكة، وليسوا بشراً، وبشروه بغلام عليم، من زوجته «سارة» العقيم، ومعنى ﴿أوجس﴾ أي أحسَّ وشعر، أي أحسَّ بالخوف منهم، فأضمر في نفسه

فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

شيئاً ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي فأقبلت زوجته حين سمعت البشارة ﴿في صكة﴾ أي في صيحة وضجَّة، متعجِّبةً من الخبر، ولطمت وجهها بكفيها وقالت: أنا امرأة عجوز أولاً، وعقيم لا ألد ثانياً، فكيف يأتيني الآن ولد؟ **قال ابن عباس:** لطمت وجهها تعجباً كما تتعجب النساء من الأمر العجيب المستغرب، وقالت: أتلد امرأة عجوز وهي في الأصل عقيم لا تلد؟ ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي الأمرُ كما أخبرناك، هكذا حَكَم وقضى ربك، فلا تعجبي ولا تستبعدي الأمر، فإن الله على كل شيء قدير، وهو العليم بمصالح العباد ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ لمّا اطمأن إبراهيم أنهم ملائكة وليسوا بشراً، سألهم عن مهمتهم التي أُرسلوا من أجلها، وقال لهم: ما شأنكم الهامُّ الخطير، الذي أُرسلتم من أجله؟ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ أي نحن مرسلون لقوم خبثاء مجرمين، لندمِّرهم ونهلكهم بحجارة ﴿من طين﴾ متحجر من السماء، هو السجِّيل، كما فصَّله في سورة هود ﴿**وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود**﴾ أي حجارة صلبة متتابعة، مطبوخة من نارٍ وطينٍ ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي معلَّمة بعلامة، كل حجر عليه اسم صاحبه، للمسرفين المجاوزين الحدَّ في الفجور!! قال تعالى ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي أخرجنا المؤمنين من بين أظهرهم، فما وجدنا بعد البحث والتفتيش، غير أهل بيت واحدٍ من المسلمين، وهذا يدل على كثرة الفجار، وقلة الأبرار، وهم نبيُّ الله «لوط» وأهل بيته، غير امرأته الكافرة، فقد هلكت مع الهالكين، وكان الناجون من العذاب بضع عشرة نفساً، وكانت قراهم حوالي ستمائة قرية، قُلبت بهم مساكنهم، ونزلت عليهم حجارة من السماء، كالرصاص المتتابع، فدمَّرهم الله وأهلكهم عن آخرهم ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي تركنا لهؤلاء المهلكين،

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

في دورهم ومساكنهم، علامة على هلاكهم، بجعل عاليها سافلها، فقد انقلبت بهم الدور، وأصبحوا عبرةً للمعتبرين، الذين يخافون عذاب الله الأليم ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي وجعلنا في قصة موسى أيضاً عظة وعبرة، حين أرسلناه إلى فرعون الطاغية الجبار، بحجة واضحة، ودليل باهر، والمراد بالسلطان المبين: المعجزاتُ التي أيده الله بها، كاليد، والعصا ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي فأعرض عن الإيمان، بأنصاره وأتباعه، وبجنوده الذين كانوا له كالركن للبنيان، وقال عن موسى: إنه ساحرٌ، ولذلك أتى بهذه الخوارق، أو مجنون ولذلك ادعى النبوة والرسالة، وغرضُ اللعين التمويهُ على قومه، خشية الإيمان بدعوة موسى ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي أخذناه مع جنوده وأصحابه، فطرحناهم في البحر، لمَّا كذبوا رسولنا موسى ﴿وهو مليم﴾ أي وفرعون آتٍ بما يُلام عليه من الكفر والطغيان ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ أي الشديدة المدمِّرة، التي لا خير فيها ولا بركة، ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ أي ما تترك شيئاً مرت عليه، إلاّ جعلته كالتراب، والهشيم البالي المتفتت، شبَّه الريح بالمرأة العقيم، التي لا تحمل ولا تلد، بطريق الاستعارة البديعة، لأن هذه الريح لا خير فيها ولا نفع ولا بركة ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي وجعلنا في إهلاك «ثمود» آية وعبرة، حين قال لهم نبيُّهم «صالح» عليه السلام، بعد أن عقروا الناقة: عيشوا في دياركم ثلاثة أيام، ثم ينزل بكم العذاب!! ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ أي فعصوا رسولهم، واستكبروا عن طاعة الله، فأخذتهم الصاعقة وهي نار من السماء، فأهلكتهم ودمرتهم، فما قدروا على الهرب، وما نصرهم أحد، بل أصبحوا موتى لا حراك لهم، لاصقين بالأرض

وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾

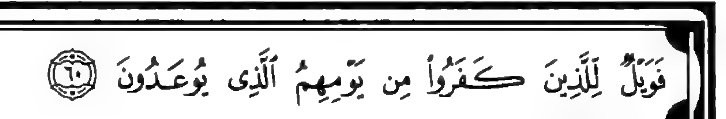
﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي وقبل هؤلاء الأشقياء، أهلكنا قوم نوح بالطوفان، فقد كانوا قوماً فسقة فجرة، خارجين عن طاعة الله ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي وبنينا السماءَ وأحكمنا خلقها بقوة وقدرة، وإنَّا لموسعون في خلق السماء، وخلق هذا الكون البديع!!

قال ابن عباس: ﴿بأيدٍ﴾ أي بقوةٍ عظيمة منَّا.. تأمل عظمة الكون بعين البصيرة والعقل، لترى عظمة الخالق، الكبير المتعال، فإن هذه الأرض التي نعيش على سطحها، ما هي إلاَّ ذرة صغيرة، تَسْبحُ في هذا الكون الفسيح، ومع ذلك فيها البحار، والأنهار، والجبال، وهي كبيرة بالنسبة للإنسان ولكنها بالنسبة للمجرات والنجوم لا تكاد تذكر، وتمعَّنْ وأنت تقرأ هذه الآية ﴿وإنا لموسعون﴾ عظمةَ الكون وسعته، وما حواه من غرائب وعجائب، لتسبِّح الله مع المسبِّحين، بقلبك ولسانك!! ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أي والأرض مهَّدناها لكم لتستقروا عليها، فنعم الماهدون لها نحن، حيث جعلناها كالفراش والبساط لكم - مع كرويتها - فإنها واسعة ممتدة، فيها السهول الفسيحة، والوديان الخصيبة، والبقاع الواسعة، لتبنوا عليها وتزرعوا، وتكون مقراً لكم إلى انتهاء آجالكم ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي ومن كل شيء خلقنا صنفين، ونوعين مختلفين، ﴿ذكراً وأنثى﴾ ، وحلواً وحامضاً، وأبيض وأسود، كي تتذكروا عظمة الله، فتؤمنوا به وتوحِّدوه، وتعلموا أنه تعالى وحدَه المستحقُّ للعبادة ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي الجأوا إلى الله، واهرعوا إلى طاعته ومرضاته، فإنه لا ملجأ ولا منجى لكم من الله إلا إليه، ولا تعبدوا غير الله تعالى، فإني أنذركم عذاب الله وعقابه، إن عبدتم غيره، ودعوتي واضحة لا لبس فيها ولا غموض ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ، أي كما كذبك قومك يا محمد،

أَتَوَاصَوْا بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾

واتهموك بالسحر والجنون، كذلك قال الطغاة الفجار لرسلهم، فلا تحزن لما يقوله المجرمون من قومك ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ استفهام فيه معنى التعجب والاستغراب، أي هل أوصىٰ الأولون الآخرين، بمثل هذا الباطل الشنيع؟ أن يجتمعوا على اتهام الأنبياء بالسحر والجنون؟ لا، لم يوص بعضهم بعضاً بذلك، لأنهم لم يتلاقوا في زمانٍ واحد، بل حملهم على ذلك الطغيانُ والفجور ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي فأعرض عنهم يا محمد، فإنه لا لوم عليك ولا عتاب، فقد بلَّغت الرسالة وأدَّيتَ الأمانة، وبذلتَ الجهد في النصح والإرشاد، فواظبْ على التذكير والموعظة، فإن القلوب المؤمنة، تتأثر بالموعظة الحسنة، لأنها تزيدهم بصيرة، وقوة في الدين ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي وما خلقت الخلق، إنسهم وجنَّهم، إلا ليعرفوا ربهم، ويؤمنوا به ويوحِّدوه، ويقرُّوا له بالألوهية والربوبية، فالمراد بالعبادة هنا: توحيدُ الله، ومعرفة دلائل وجوده، وطاعتُه سبحانه وتعالى، في كل أمرٍ ونهي ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾؟

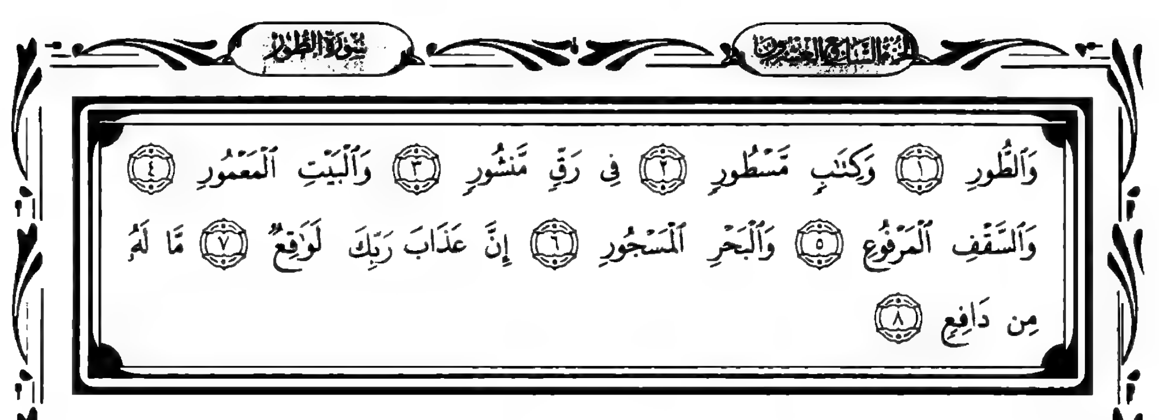
قال مجاهد: ﴿ليعبدون﴾ أي ليوحِّدوني، وليعرفوا أني أنا ربهم فيطيعوا أمري ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ أي لا أريد منهم أن يرزقوني أو يرزقوا أنفسهم، بل أنا المتفضل عليهم برزقهم، وبما يُعيشهم في هذه الحياة، ولا أريد منهم أن يطعموني، فأنا الغنيُّ الحميد!! وفي الآية تعريض بأصنام وأوثان المشركين، حيث كانوا يحضرون للأصنام أنواع المآكل، فربما أكلتها الكلاب، ثم بالت على الأصنام ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي فإن لهؤلاء الظالمين الذين عبدوا غير الله، نصيباً من العذاب مثل نصيب أسلافهم الكفار، فلا يتعجلوا



عذابي ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾أي هلاك وعذاب ودمار، لهؤلاء الكفرة الفجار، وويل لهم من عذاب يوم القيامة الشديد، الذي وعدهم الله به!.

انتهى تفسير سورة الذاريات

● ● ●



تفسير سورة الطور

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ أي أقسم لكم بجبل الطور، وبالقرآن العظيم المكتوب على الجلد الرقيق ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ أي وأقسمُ لكم بالبيت المعمور، الذي هو مطاف الملائكة الأبرار، وبالسماء العالية المرتفعة، وبالبحر الموقد ناراً يوم القيامة.. أقسم تعالى بأمور خمسة، هي من مخلوقات الله البديعة، بعضها مشاهدٌ مكشوفٌ، وبعضُها مغيَّب مجهول، قَسَماً ترتجفُ له القلوبُ، على أن عذاب الله نازلٌ بالكفار لا محالة، ولهذا قال ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ أي إن عذاب الله لواقع بالكفار حتماً، وليس له دافع يدفعه أو يرفعه عنهم.

أما القَسَم الأول: فهو (بجبل الطور) الذي كلّم الله عليه موسى، ونال من الأنوار والتجليات الإلهية ما نال، فاستحقَّ القَسَم به، لشرفه ومكانته، وقداسته.!

وأما الثاني: فهو القسم (بالقرآن العظيم)، المنزل على خاتم المرسلين ﷺ وهو أشرف الكتب وأفضلها، لأنه جمع كمالات الرسالات، والكتب السماوية.!

وأما الثالث: فهو القسم (بالبيت المعمور)، وهو للملائكة الأبرار، كالكعبة المشرَّفة للمؤمنين، وفي حديث الإسراء (ثم رُفع إليَّ البيتُ المعمورُ، فإذا هو يدخله كلَّ يوم سبعون ألف من الملائكة، ثم لا يعودون إليه) لكثرتهم رواه مسلم.

وأما الرابع: فهو القسمُ (بالسقف المرفوع)، وهي السماء العالية المحكمة المرتفعة، الواقفة بدون أعمدة بقدرة رب العالمين، سميت سقفاً، لأنها كالسقف للبيت.!

يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ﴿١٠﴾ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴿١٥﴾

وأما الخامس: فهو القَسَمُ (بالبحر المسجور)، الموقد ناراً يوم القيامة، والمراد به بحار الدنيا كقوله سبحانه ﴿وإذا البحار سجرت﴾ أي أُضرمت حتى صارت نيراناً متأججة، تحيط بأهل المحشر، أقسم تعالى بهذه الأمور الخمسة، على أن عذاب المشركين حقٌّ لازم.

رُوي عن (جبير بن مطعم) أنه قدم المدينة المنورة، ليسأل الرسول ﷺ في أساري بدر، فأدركه في صلاة المغرب وهو يقرأ سورة الطور، فلما قرأ ﴿إن عذاب ربك لواقع. ما له من دافع﴾ قال: أسلمتُ خشية أن ينزل عليَّ العذاب، فلما أتى على هذه الآية ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون. أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون﴾ قال: شعرتُ أن قلبي كاد يطير) القصة، رواها البخاري ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾ أي يوم تضطرب السماء وتتحرك، كما تضطرب أمواج البحار، من هول ذلك اليوم الرهيب، وتنسفُ الجبال نسفاً، فتتفتَّت وتصبح كالهباء المنثور، والحكمة في اضطراب السماء، وتطاير الجبال، هو التنبيه على أن لا عودة إلى الدنيا، ولا رجوع إليها ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ﴾ أي هلاك وعذاب ودمار، في ذلك اليوم المفزع، للمكذبين بآيات الله ورسله، الذين يخوضون في الباطل، في هذه الدنيا، وهم غافلون ساهون لاهون، عمَّا أمامهم من شدائد، كأنهم يلعبون، لا يدرون ما ينتظرهم من كرب وبلاء ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ الدَّعُ: الدفع بعنفٍ وشدة، مع التحقير والإهانة، أي يوم يُدفعون دفعاً عنيفاً شديداً، إلى نار جهنم، ليطرحوا فيها، وأتى بالمصدر ﴿دعّاً﴾ للإشارة إلى الإهانة والخزي الذي يلحقهم، كما تُدفع الحيوانات إلى الزريبة، وتقول لهم خزنة جهنم: هذه هي نار جهنم، التي كنتم تسخرون وتكذبون بها!! ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾ أي هل هذه النار من قبيل السحر؟ كما كنتم في الدنيا تقولون عن القرآن: هذا سحرٌ مبين؟ أم أنكم عُمْيٌ لا تبصرون؟ وهو أسلوب واضح، فيه السخريةُ، والتهكم بهم

﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٦ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ١٨ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٢٠ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾

﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي ادخلوها وذوقوا عذابها، وقاسوا حرَّها ولهبها، فاصبروا على عذابها، أو لا تصبروا عليه، فإنه لا خلاصَ لكم منها ولا نجاة، جزاء أعمالكم القبيحة، من الكفر والاستهزاء، ولمَّا كان الجزاء واقعاً حتماً، كان الصبر وعدمه سواءً. . ويمقابل هذا العذاب، الذي تتمزَّق له القلوب والأحشاء، يأتي المشهد البهيج، بما فيه من أنسٍ ورغدٍ ورخاءٍ، للمؤمنين المتقين، فيقول سبحانه﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي أمَّا المؤمنون المتقون، الذين اتقوا عذاب الله بطاعته، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإنهم اليوم، في حدائق وبساتين ناضرة، ونعيم مقيم خالد، يتنعَّمون ويتلذذون، بأصناف الملاذِّ، من مآكل ومشارب، وملابس ومراكب، بما أكرمهم ربهم به، ونجَّاهم من عذاب جهنم الشديد، ويقال لهم﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي كلوا أكلاً هنيئاً، واشربوا شرباً مريئاً، لا تنغيص فيه ولا كدر، بسبب ما قدَّمتم في الدنيا من صالح الأعمال، فهذا اليوم يومُ كرامتكم وجزائكم. . ثم حكى تعالى عن بعض نعيمهم في الجنة فقال﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾ أي جالسين ـ على هيئة المضطجع ـ على سرر من ذهب، مكلَّلة بالدُرِّ والياقوت، مصطفة بنظام بديع، ينظر بعضهم إلى وجوه بعض، يأنس بعضهم إلى حديث إخوانه، وقد أكرمناهم بأزواج من الحور العين، وهنَّ نساء بيض واسعات العيون، والبياضُ مع سعة العين نهايةُ الحسن والجمال!! سُمِّين «حوراً» لأن الطرف يحار من حسنها. . بيَّن تعالى (أسباب النعيم) على الترتيب، فأول ما يكونُ (المسكنُ)، ثم (الأكل والشربُ)، ثم (الفراش والراحةُ)، ثم (الزواجُ)، فكل ذلك مهيأٌ لأهل الجنة، دون تعب ولا مشقة، وزيادة لهم في النعيم والتكريم، يُلْحِق الله الأبناء بالآباء﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ أي وهؤلاء المؤمنون الذين دخلوا

﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

الجنة، وشاركهم أولادهم في الإيمان - وإن لم يكونوا كآبائهم في الأعمال الصالحة - ألحقنا الذرية بالآباء، لتَقرَّ بهم أعينهم، وإن لم يبلغوا عملهم ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي وما نقَّصنا الآباء من ثواب عملهم شيئاً، فالله سبحانه يُلحق المقصِّر بالمحسن، ولا يُنقص المحسن من أجره شيئاً، بشرط أن يكون الأولاد مؤمنين ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي كلُّ إنسانٍ مرهونٌ ومحبوس عند الله بعمله، فإن كان عملُه حسناً فكَّه، وإلا أهلكه.

قال ابن عباس: إن الله عزَّ وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة، وإن كان لا يبلغها بعمله، لتقرَّ بهم عينه، ثم تلا هذه الآية **﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان..﴾** الآية رواه ابن جرير.. ثم ذكر تعالى ألوان اللذائذ والمطاعم والمشارب التي تُغدق عليهم، فقال سبحانه ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أي وزدناهم فوق نعيمهم، بما يُشتهى ويُستطاب، من الفواكه ولحم الطير، كما يشربون خمراً، يتخاطفون كؤوسها، كما يفعل ذلك الندامى في الدنيا، لشدة سرورهم، هذه الخمر ليست كخمر الدنيا، فلا يصدر منهم ما يخدش الحياء، أو يجرح الكرامة، وإنما يتكلمون بالحِكَم، وأحاسن الكلام، ويفعلون ما يفعله الكرام، ولهذا قال تعالى **﴿لا لغو فيها ولا تأثيم﴾** أي ليس في شربها هذيان، حتى يتكلموا بساقط الكلام، ولا يلحقهم إثم كما يلحق شارب الخمر في الدنيا ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ أي ويدور عليهم للخدمة، شباب غلمان، خلقهم الله لهم خاصة، في سن الصبا وغاية الجمال، كأنهم في الحسن والصفاء والبهاء، اللؤلؤ المصونُ في الصَّدف، كما قال سبحانه **﴿إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً﴾** ومعنى **﴿المكنون﴾** المصونُ الذي لم تمسَّه الأيدي.. واستكمالاً لجو الأنس والنعيم، يذكر القرآن استئناسهم بحديث الأصحاب والأحباب، فيقول سبحانه ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي أقبل أهل الجنة يسأل بعضهم بعضاً، عن أعمالهم وأحوالهم التي كانوا

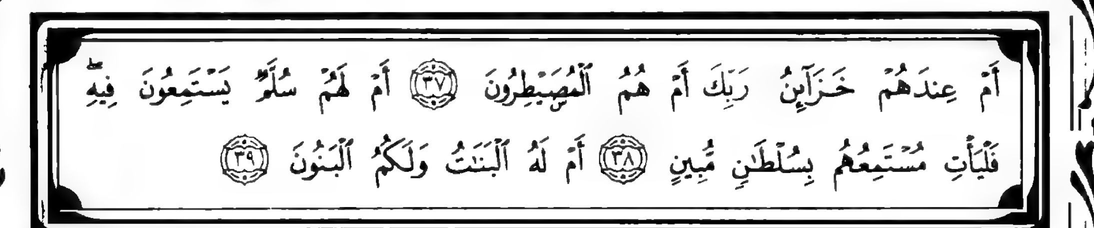
قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾

عليها في الدنيا، وما الذي استحقوا به نيل هذه الكرامة في الجنة، اعترافاً بالنعمة والفضل العظيم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ أي قالوا: لقد كنا في الدنيا خائفين من عذاب الله وعقابه، نعبده ونخشى أن لا يتقبَّل منا عملنا، فأنعم الله علينا، فأكرمنا بالمغفرة والجنة، وحمانا من نار جهنم الذي لا يُطاق، والسَّمومُ: الريحُ الحارةُ الشديدة، النافذة في المسامّ، وهي معروفة عند أهل الحجاز، بشدة لهبها وحرِّها، ولكن أين سَموم جهنم من سَموم الدنيا؟ ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي كنّا في الدنيا ندعوه، ونتضرَّع إليه، ونسأله الوقاية من نار جهنم، فاستجاب الله دعاءنا، وصرفها عنّا، لأنه ﴿هو البرُّ﴾ أي المحسن الكريم، الرؤوف ﴿الرحيم﴾ الذي لا يخيِّب رجاء من دعاه.. وفي الآية إشارة إلى أن أهل الجنة، يعلمون ما جرى عليهم في الدنيا ويذكرونه، وكذلك أهلُ النار، فتزداد لذة المؤمن، حيث يرى نفسه انتقلت من السجن إلى النعيم، وتزداد حسرة الكافر، حيث يرى نفسه انتقلت من النعيم إلى الجحيم.. رُوي أن عائشة رضي الله عنها قامت ذات ليلة تصلِّي، فقرأت هذه الآية ﴿فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم﴾ فجعلت تردّدها وتقول: (اللهم مُنَّ علينا وقنا عذاب السموم، إنك أنت البرُّ الرحيم) قيل للأعمش: في الصلاة؟ قال: نعم!! رواه ابن أبي حاتم.. وبعد هذا البيان المستفيض عن أهل الجنة، يأتي الحديث عن الكفرة المجرمين، فيقول سبحانه ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي فذكّر يا محمد بالقرآن، ولا تكترث بما يقولون!! فأنت بنعمة الله عليك بالنبوة، لست كاهناً تخبر بالأمور الغيبية، ولا مجنوناً تهذي بكلامٍ غير معروف، كما يتهمونك ويزعمون!! ﴿أم يقولون شاعر﴾ أي هل يقول هؤلاء السفهاء: إن محمداً شاعر، ننتظر به حوادث الدهر وصروفه، حتى يموت فنستريح

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾

منه؟ قل لهم: انتظروا موتي، فأنا منتظر هلاككم كما تنتظرون هلاكي!! والمنون: اسم للموت لأنه يقطع الأعمار ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾؟ أي هل تأمرهم عقولهم بهذا الكذب والبهتان؟ وبهذا التناقض في الكلام؟ فإن الكاهن يكون ذا فطنة، والمجنونُ مختلُّ العقل والتفكير، والشاعرُ له كلام منسَّق موزون، فكيف تجتمع هذه الأوصاف في شخص واحد؟ وفي الآية سخرية وتهكم بهم وبعقولهم!! فموقفهم من الرسول والقرآن، ينافي العقلَ والحكمة، ولهذا يسألهم في سخرية: هل هذه الأوصاف التي أضْفَوْها على الرسول ﷺ، من وحي هذه العقول النيِّرة؟ أم هم فسقة ظلمة طغاة، ولهذا يقولون ما يــقــولــون!؟ ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾؟ أي هــل يقولون: إن محمداً اخترع هذا القرآن من تلقاء نفسه، ونَسَبه إلى الله؟ بل حقيقة الأمر، أنهم لا يؤمنون بالقرآن، استكباراً وعناداً!! ثم يتحدَّاهم أن يأتوا بمثل هذا الكلام البديع، البالغ ذروة الفصاحة والبيان، إن كانوا في شكٍّ من هذا القرآن ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ في زعمهم أن هذا القرآن، من عند محمد، فإنهم أساطينُ البلاغة، وملوك البيان، ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ انــتــقــالٌ مــن توبيخ إلى توبيخ، ومن تعجيز إلى تعجيز، يقول القرآن: هل وُجِدوا بدون خالقٍ خلقهم؟ هذا باطل بالعقل، فإن الصنعة لا بدَّ لها من صانع، والمخلوقُ لا بدَّ له من خالق، فكيف يوجد شيء من غير موجد؟ أم هم خلقوا أنفسهم؟ وهذا في البطلان أشدُّ من سابقه، فإن المعدوم لا يمكن أن يخلق شيئاً، وهم قبل أن يوجدوا كانوا في العدم؟ فهل يتجرأ عاقل أن يقول: أنا الخالق لنفسي؟ وهذا باطل أيضاً بالعقل، أم يزعمون أنهم هم الذين خلقوا السموات والأرض؟ وهذا لا يستطيع أن يقوله أحدٌ، مؤمنٌ ولا كافر، وهو أسلوب تهكميٌّ لاذع، فما أحدٌ يجرؤ أن يقول: هما من خلقي، بل إنهم كانوا إذا سُئلوا من خلقكم؟ وخَلَق السموات والأرض؟ قالوا: اللَّهُ، بل حقيقة أمر هؤلاء، أنهم لا يوقنون بوجود ربهم.

لقد وضعهم القرآن الكريم، أمام ثلاث افتراضات:


﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾

الأول: أن يكون وجودهم هكذا من غير خالق، وهذا ظاهر البطلان.

الثاني: أن يكونوا هم الذين خلقوا أنفسهم، وهذا أشدُّ من سابقه في البطلان.

الثالث: أن يكون لهم خالقٌ حيٌّ قدير، خلقهم فأبدع خلقهم، وهو ربُّ العزة والجلال، فإذا بطل الفرضان السابقان ـ بمنطق الفطرة والعقل ـ ثبت الفرضُ الثالث!! وهذه من حجج القرآن الباهرة، في إفحام الخصم، بمنطقٍ واضحٍ بسيط.

وتمضي السورة في مناقشة المشركين، بأسلوب كله تحدٍّ وتعجيز، وتزييف لمزاعمهم الباطلة، فيقول سبحانه ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾؟ أي هل عندهم خزائن رزق الله ورحمته، حتى يعطوا من شاءوا، ويمنعوا من شاءوا؟ أم هم الأرباب المسيطرون على الخلق، حتى يمنحوا النبوة لمن يريدون؟

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾؟ أي هل لهم سُلَّم يَصِلُون به إلى السماء، يستمعون فيه إلى الوحي؟ فليأت من يزعم ذلك، ببرهان قويّ ساطع، يدلُّ على دعواه!! وغرضُ الآية التشنيعُ عليهم، في إنكار نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، يقول لهم: إن محمداً يقول: إني رسول الله أرسلني الله إليكم، وأنتم تكذبونه، ويقول: إن هذا القرآن يتنزَّل عليَّ من السماء، من عند الرحمن، فهل عندكم سلَّم تصلون به إلى السماء، لتعلموا حقيقة الأمر، أن محمداً صادق أم كاذب؟ ثم يناقشهم في إحدى أكاذيبهم القبيحة الشنيعة، وهي دعواهم أن الملائكة بنات الله، ويتوجه إليهم بصيغة المخاطبة مباشرة، زيادة في التقبيح عليهم والتشنيع، فيقول سبحانه ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ لم يقل: ولهم البنون، كما جاء بصيغة الغائب، في الآيات السابقة، بل قال ﴿ولكم البنون﴾ والمعنى: كيف تجعلون لله البنات، ولأنفسكم البنين؟ والذي تكرهونه تجعلونه لله؟ أهذا منطق العقل والإنصاف؟ إنكم تعتبرون البنات أحطَّ درجة من البنين، فكيف تجرأتم فجعلتم الملائكة بنات، ونسبتموهم إلى الله؟ هل أنتم عقلاء أم مجانين؟ ﴿ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذاً قسمة ضيزى﴾ أي ظالمة جائرة، ثم يأتي الخطاب للرسول ﷺ، يقرِّره فيه: هل طلب منهم

أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ

المال، حتى نفروا منه؟ لأن المال شقيق الروح؟ فيقول سبحانه ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي هل تطلب منهم يا محمد أجراً على تبليغ الدعوة والرسالة، فهم بسبب ذلك مثقلون بالتزام ماليّ فادح، فلذلك لا يتَّبعونك؟ وإذا كان الأمر خلاف ذلك، أنك لا تطلب منهم مالاً، ولا تُرهق كاهلهم بما يعجزون عنه، فعلام إذاً يكرهون الهدى ولا يتبعونه؟ أم أنه الاستكبارُ والعناد!! ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي هل عندهم علم الغيب، حتى يعلموا أن ما تخبرهم عنه، من أمور الآخرة، والحشر والنشر باطلٌ، فهم يكتبون ذلك عن معرفةٍ ويقينٍ؟ أم عندهم علمُ اللوح المحفوظ، حتى يعلموا أنك رسولٌ، أو غير رسول؟ ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾؟ أي هل يريد هؤلاء السفهاء المجرمون، أن يتآمروا عليك يا محمد، بالكيد والمكر الخبيث؟ كما فعلوا في «دار الندوة» حين اتفقوا على قتلك؟ ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك﴾ فلْيعلموا وليوقنوا بأنهم هم الخائبون الخاسرون، وأنت يا محمد المحروسُ المصون، فكيدهم راجع عليهم ﴿ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله﴾ وجاء التعبير في الآية الكريمة ﴿فالذين كفروا﴾ مكان الضمير «فهم» تقبيحاً عليهم وتشنيعاً، بتسجيل وصفهم بالكفر، وهذا من أكبر الذمّ لهم ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي هل لهم إلهٌ خالقٌ رازق، غيرُ الله تعالى؟ يطلبون منه الرزق والعون؟ ويستنجدون به لكشف الضُر والبلاء؟ وختم الآية بقوله ﴿سبحان الله عما يشركون﴾ أي تنَزه وتقدَّس اللهُ، عما يشركون به من عبادة الأصنام والأوثان، فهو سبحانه الواحد الأحد، الفرد الصمد.. أورد القرآن في هذه السورة الكريمة (الاستفهام الإنكاري) بلفظ «أمْ» في خمس عشرة آية، وكلُّها تحمل طابع الزجر، والتوبيخ والتقريع، على سفاهاتهم وضلالاتهم، في الأمور التي ناقشهم فيها، وكأنها سياطٌ تلذعهم، أو قذائف تحرقهم، فلا يستطيعون لها رداً ولا جواباً، وما أبدع هذه السخرية والإزدراء بالمشركين!!

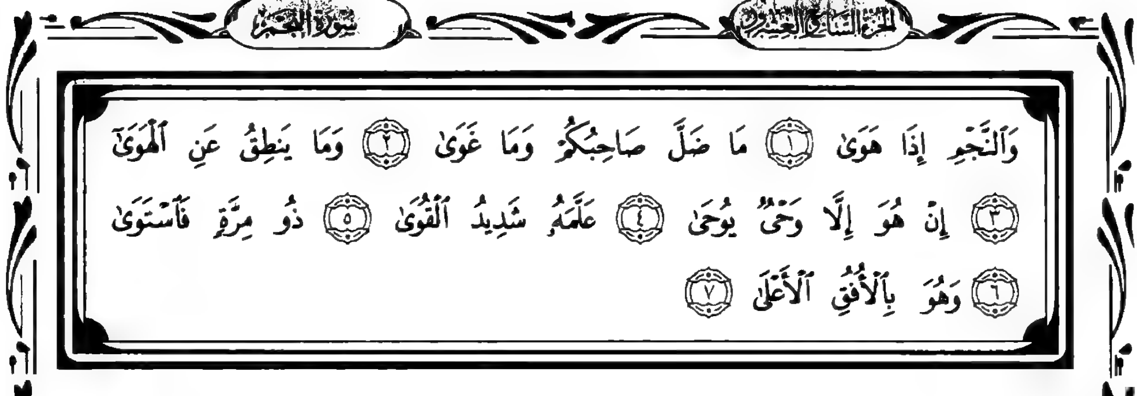
وفي نهاية المطاف، يكشف القرآن عن حقيقة أمرهم، أنهم معاندون مكابرون، لا يريدون الحقَّ ولو كان أظهر من الشمس، وذلك من شدة الطغيان والجبروت، فيقول سبحانه ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أي لو أرسل اللهُ عليهم العذاب، في صورة

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

قِطَع من السماء، تحرقهم وتدمِّرهم، ورأوا العذاب بأعينهم، لقالوا من فرط فجورهم وطغيانهم: هذا سحاب وليس بعذاب، فيه الماءُ والحياةُ، كما قال أسلافهم قوم عاد ﴿فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا﴾ قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ أي اتركهم يا محمد في غيِّهم وضلالهم، حتى يلاقوا ذلك اليوم المفزع الرهيب، الذي ينزل عليهم فيه العذاب كالصاعقة، فيحرقهم ويدمرهم، ويسلب عقولهم وألبابهم ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي يوم لا ينفعهم مكرهم ولا كيدُهم شيئاً من النفع، وليس لهم ناصرٌ ولا معين، ينقذهم من عذاب الله ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي وإن لهؤلاء الظلمة المجرمين، عذاباً شديداً في الدنيا قبل عذاب الآخرة، من القحط والجوع، والقتل والأسر - وقد أصيبوا بالقحط سبع سنين بدعاء الرسول ﷺ - ولكنهم غافلون لاهون، لفرط جهلهم وغفلتهم ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي فاصبر يا محمد على قضاء ربك وحكمه، فإنك بحفظنا وحمايتنا، نحرسك ونرعاك، ونزِّه ربك وعظمه ومجِّده، حين تقوم من فراشك، ومن مجلسك الذي تجلس فيه!! بمعنى سبح ربك في كل وقت وحين ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ أي وسبح ربك في المساء والصباح، وفي غسق الليل، وعند غياب النجوم، عند انفلاق نور الصباح، فهناك يكون أنس الحبيب بالحبيب!! والتعبير بقوله سبحانه ﴿فإنك بأعيننا﴾ تعبيرٌ عجيب، يدل على مقدار رفعة قدر هذا النبي الكريم عند ربه، فيكفيه شرفاً أن يكون ربه هو الذي يرعاه، وأي شرف أسمى من هذا الشرف؟ اللهم كما رفعت قدره، وأعليت مقامه، صلِّ عليه في الملأ الأعلى إلى يوم الدين.!

انتهى تفسير سورة الطور

● ● ●



تفسير سورة النجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ هذا قسمٌ، أي أقسمُ لكم بالنجم، إذا هوى من عليائه، منقضاً على الشياطين.

قال ابن عباس: أقسم سبحانه بالنجوم إذا انقضَّت، في إثر الشياطين، حين استراقها السمع، ﴿ما ضلَّ صاحبكم وما غوى﴾ أي ما ضلَّ محمد ﷺ عن طريق الحق، ولا حاد عن طريق الرشاد، بل هو في غاية العقل، والهدى، والاستقامة، وإنما قال ﴿صاحبكم﴾ ولم يقل: محمد، لينبههم على سخافة ما زعموه، من الكذب على الله، ورميهم له بالجنون، كأنه يقول لهم! لقد صاحَبَكم محمد أربعين سنة، وهو يُشار إليه بالبنان، في صدقه، وأمانته، وكمال عقله، حتى كنتم تسمونه (الصادق الأمين)، أفلا تكفي هذه المدة الطويلة، لكي تعرفوا حقيقته؟ ولتتحققوا أنه صادق أم كاذب في دعوى الرسالة؟ كما قال سبحانه ﴿فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾؟ أي مكثت بينكم أربعين سنة، قبل أن ينزل عليَّ الوحيُ، أفليست لكم عقول، تدركون بها صدق رسالتي؟ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أي وما يتكلم عن هوى نفسي، أو رأي شخصي، لا يتكلم إلاَّ عن وحي من الله عزَّ وجل، أوحاه إليه، ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ أي علَّمه القرآنَ مَلَكٌ شديد قواه هو جبريل الأمينُ ﴿ذو مرة﴾ أي ذو قوةٍ عظيمة كبيرة، ومن قوته أنه اقتلع قرى قوم لوط، ثم قلبها بهم، وصاح صيحةً في ثمود، فأصبحوا جاثمين، ﴿فاستوى﴾ أي فاستقام على صورته الملكية، التي خلقه الله عليها ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ أي وجبريل قادم من جهة المشرق، رُوي أن النبي ﷺ أحبَّ أن يرى جبريل في صورته المَلَكية، فطلع

ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾

له جبريل من المشرق، فسدَّ ما بين المشرق والمغرب، فخرَّ رسولُ الله ﷺ مغشيًا عليه، فرجع جبريل في صورة الآدميِّن، فضمَّه إلى نفسه، ولم ير جبريلَ عليه السلام على صورته الملكية، غيرُ النبي ﷺ، فإنه رآه مرتين: مرة في الأرض، ومرة في السماء عند سدرة المنتهى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ أي ثم اقترب جبريل من رسول الله ﷺ، وزاد في القرب منه، حتى صار قدر قوسين أو أقرب، فأوحى جبريل إلى عبد الله ورسوله، ما أوحى إليه من أوامر الله عز وجل، والضمير في قوله ﴿عبده﴾ يعود إلى الله تعالى، لا إلى جبريل، والآية تشير إلى رؤية الرسول ﷺ لجبريل، فقد روى البخاري عن ابن مسعود أنه قال: (رأى رسولُ الله ﷺ جبريل ـ أي في صورته الحقيقية ـ له ستمائة جناح، وقالت عائشة رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين) رواه البخاري ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ أي ما كذب قلبُ رسول الله ﷺ ما رآه ببصره، من صورة جبريل عليه السلام، فهي رؤيةٌ حقيقية بالبصر مع القلب، أفتجادلونه يا معشر المشركين، على ما رآه ليلة الإسراء والمعراج؟ المماراة: المجادلة بالباطل ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ أي ولقد رأى محمد ﷺ، جبريل في صورته الملكية (نزلة أخرى) أي مرة أخرى، رآه عند سدرة المنتهى، قرب عرش الرحمن، عند تلك السدرة، الجنة التي تأوي إليها الملائكة وأرواحُ الشهداء والمقربين، وهذه هي المرة الثانية، رأى جبريل في الملأ الأعلى، بصورته الملكية ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ أي رآه حين غطَّاها وغشيها ما غشيها من العجائب والغرائب، ما لا يحيط به الوصف ولا البيان، ما مال بصرُ رسول الله ﷺ، في ذلك المقام أدنى مَيل، وهذا وصف أدب النبي ﷺ في ذلك المقام المهيب، إذ لم يمدَّ بصره إلى غير ما أطلعه الله عليه، والآية الكريمة تشير إلى رؤية النبي ﷺ ليلة المعراج لآيات الله الكبرى، وهي إحدى

﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾

أدلة أهل السنة والجماعة في إثبات المعراج، وفي حديث المعراج (ثم صُعد بي إلى السماء السابعة، ثمَّ رفعتُ إلى «سدرة المنتهى» وإذا ثمرُها كالقِلال .أي الجرار الكبيرة .فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيَّرتْ، فما أحدٌ من خلق الله تعالى، يستطيع أن ينعتها .أي يصفها .من حسنها) رواه مسلم، وفي حديث آخر (رأيتُ سدرة المنتهى يغشاها فَرَاشٌ من ذهب، ورأيتُ على كل ورقة مَلَكاً قائماً يسبِّح الله عزَّ وجل) رواه مسلم أيضاً ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ أي والله لقد رأى محمد الآيات الكبرى الباهرة، من عجائب ملكوت الله، رأى السدرة، والبيت المعمور، والجنة، والنار، ورأى رفرفاً أخضر، ورأى جبريل الأمين، حين عُرج به إلى السماء، فأراه الله من عجائب المُلْكِ والملكوت، ما لا يمكن أن يوصف، ولهذا قال تعالى: ﴿الكبرى﴾. . ثم شنَّع على المشركين في عبادتهم لأحجار وأصنام، لا تضر ولا تنفع، فقال سبحانه ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾ أي أخبروني يا معشر الكفار، عن هذه الآلهة المزعومة التي تعبدونها (اللات، والعزى، ومناة) هل لها قدرةٌ توصف بها؟ وهل أوحت إليكم شيئاً، كما أوحى الله إلى محمد؟ أم هي جمادات لا تعقل ولا تنفع!؟ وهي أسماء أصنامهم، اشتقوا لها من (أسماء الله الحسنى)، فاللاَّتُ عندهم من اسم الجلالة (الله) و(العُزَّى) من العزيز، و(مناة) من اسم الله المنَّان، وهذه أشهر أصنام العرب، وأعظمها قداسة، وقد جعلوا الآلهة «إناثاً» وقالوا عن الملائكة إنهم (بناتُ الله)، ولهذا جاء التوبيخ لهم بأسلوب السخرية والتهكم، فقال سبحانه: ﴿ألكم الذكر وله الأنثى﴾ أي عجباً لكم أتجعلون لأنفسكم النوع المحبوب من الأولاد، وهم «الذكور» وتجعلون لله النوع المذموم في نظركم وهنَّ «الإناث»؟ ﴿تلك إذاً قسمة ضِيزى﴾ أي ظالمة جائرة غير عادلة؟ حيث جعلتم لربكم ما تكرهون!! ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ أي ما هذه الأصنام التي عبدتموها، إلا أسماء مخترعة سميتموها آلهة أنتم وآباؤكم، من غير حجة ولا برهان ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ أي ما يتبعون في عبادتها إلا

أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

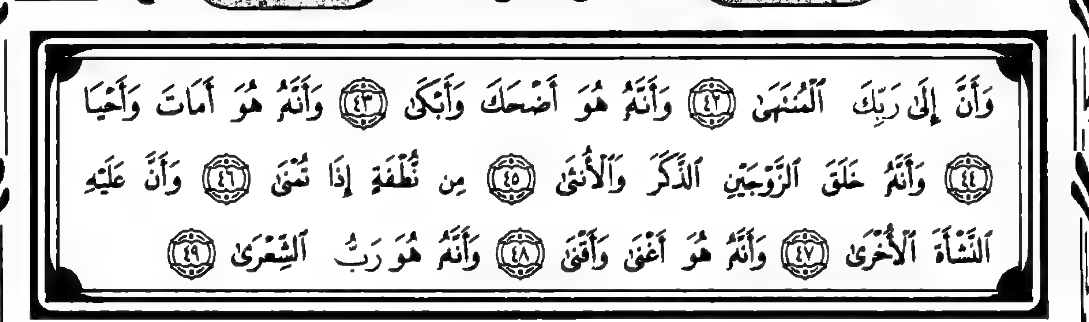
الظنون والأوهام، وما تشتهيه نفوسهم الأمارة بالسوء، وقد جاءهم من ربهم الرسول الهادي، بالبيان الساطع والبرهان القاطع، على أن الله لا شريك له، وعبادة الأصنام باطلة ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ أي ليس للإنسان كل ما يتمناه وتشتهيه نفسه، حتى يطمع في شفاعة الآلهة، فالملك كلُّه لله، مالك الدنيا والآخرة، وله الحكم فيهما، وليس لأحدٍ أن يتحكَّم في ملك الله، ثم أكّد هذا المعنى بقوله ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ أي و كثير من الملائكة المقربين عند الله - مع علوِّ منزلتهم - لا تنفع شفاعتهم أحداً أيَّ نفع، إلاَّ من بعد أن يأذن الله له في الشفاعة، لمن يشاء من أهل التوحيد والإيمان، فإذا كان هذا في حقِّ المقرَّبين، فكيف ترجون أيها الجاهلون، شفاعة الأصنام والأوثان مع عجزها وحقارتها؟ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ أي إن هؤلاء المشركين، الذين لا يصدِّقون بالحساب والجزاء، والبعث والنشور، ليزعمون أن الملائكة إناث، وأنهم بنات الله ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ أي والحال أنهم لا علم لهم بما يقولون أصلاً، لأنهم لم يشاهدوا خلق الملائكة، وما يتبعون في هذه الدعوة، إلا الظنون والأوهام، والحقُّ لا يُدرك إلا بالعلم، والظنُّ لا ينفع أبداً، أمام الحق الساطع القاطع!! ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي فأعرضْ يا محمد عن المشركين، عبدة الأوثان، الذين استنكفوا عن التصديق بالقرآن، وليس لهم همٌّ إلا الدنيا، وما فيها من النعيم الزائل، والمتعة الفانية، فإن دعوتك لا تزيدهم إلا استكباراً وعناداً ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي ذلك نهاية علمهم، وغاية إدراكهم، لأنهم قصروا نظرهم على الدنيا، ولم

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴿٣٢﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿٣٥﴾

يفكّروا في الآخرة، وربك يا محمد هو العالمُ بالتقيِّ والشقيِّ والضالِّ والمهتدي، وسيجازي كل إنسان بعمله ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ أي ولله جلَّ وعلا كلُّ ما في الكون، خلقاً وملكاً وتصرفاً، ليس لأحدٍ من ذلك شيء أصلاً، ليجازي المسيء بإساءته، والمحسن بإحسانه، فيدخل الكافر النار، والمحسن الجنة. . وهي المراد بقوله ﴿الحسنى﴾ أي بالمثوبة الحسنى وهي الجنة، ثم ذكر تعالى صفات هؤلاء المحسنين فقال ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ أي هؤلاء المحسنون هم الذين يبتعدون عن كبائر الذنوب، كالقتل، وشرب الخمر، وأكل مال اليتيم، ويبتعدون عن الفواحش التي تناهى قبحها كالزنى، واللواطة، التي قُبحها واضح ﴿إلا اللمم﴾ أي صغائر الذنوب ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ أي إن ربك غفَّار الذنوب، ستار العيوب، رحمتُه وسعت كلَّ شيء، ومغفرته تسع الذنوب كلَّها، الكبائر منها والصغائر، لمن تاب منها، هو جلَّ وعلا العالمُ بأحوالكم قبل أن يخلقكم، ومن حين أن كنتم أجنَّة أي مستترين في أرحام أمهاتكم، يعلم التقي من الشقي، والبرَّ من الفاجر، فلا تمدحوا أنفسكم على وجه الإعجاب، فهو تعالى العالمُ بمن أخلص العمل، واتقى ربه في السرِّ والعلن. . نبَّه تعالى أنه هو العالمُ بالنفوس، فلا حاجة إلى تزكية النفس، أمام علاَّم الغيوب، ومن اللغو - بل من سوء الأدب - أن يعرِّفه إنسان بنفسه، فيقول: أنا محسنٌ، أنا عبد صالحٌ، فالله هو العليم بكل نفس، وما جُبلت عليه!! ثم جاء الحديث عن النفس الطاغية، التي تُعرض عن الإيمان، وتبخل بالإحسان، وتطمع في رحمة الله بالأماني الكاذبة، فيقول سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ نزلت في قصة «الوليد بن المغيرة»

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾

جلس عند النبي ﷺ وسمع القرآنَ، فتأثر قلبُه بما سمع، وكاد أن يُسلم، فعيَّره رجل من المشركين، وقال له: تركتَ دين آبائك وضلَّلتهم، وزعمتَ أنهم في النار!؟ فقال له الوليد: إني خشيتُ غضبَ الله وعذابه، فضمنَ له الرجل أن يتحمل عنه العذاب، إن أعطاه شيئاً من المال، فأعطاه البعضَ، ثم بخل وقطع عنه الباقي، فارتدَّ الوليد ولم يوفِّ للرجل ما عاهده عليه، فأنزل الله فيه هذه الآيات، والمعنى: أخبرني عن حال هذا الشقيُّ الفاجر، الذي أعرض عن الإيمان وهدى الرحمن، وأعطى لصاحبه الذي ضمن له تحمُّل العذاب عنه بعضَ المال، ثم ضنَّ وبخل بالباقي!! أخبرني كيف يكون حالُه؟ ومعنى ﴿أكدى﴾ قَطَع العطاءَ، مأخوذٌ من الكُدية، وهي الصخرة التي تعترض الحافر، فيترك العمل لعجزه عن إتمام الحفر، ثم استُعمل لكل من أعطى ولم يتممّ، قال الحُطيئة: «فأعطى قليلاً ثم أكدى عطاءَه» أي منع العطاء ﴿أعنده علم الغيب فهو يرى﴾. ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؟ أي هل عنده علم الغيب، حتى يعلم أن صاحبه يتحمل عنه العذاب؟ أم أنه لم يُخبر بما جاء في الكتب الإلهية؟ في التوراة المنزلة على موسى، وفي الصحف المكرَّمة، المنزلة على إبراهيم أبي الأنبياء؟ الذي وفَّى بجميع شرائع الإسلام، فأتى بها على وجه الكمال والتمام، أنه لا يمكن أن تحمل نفسٌ ذنب غيرها، ولا تعاقب بجرم فعله أحد غيرها؟ والآية ردٌّ على هذا الأحمق الجاهل، الذي ضمن له صديقه أن يتحمل عنه العذاب، وهذا كله باطل وضلال!! ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ أي أولم يعلم أيضاً، أنه ليس للإنسان إلا عملهُ وسعيه؟ وأن عمله سيُعرض عليه، ويُكشف له في صحيفته وميزانه يوم القيامة؟ ثم يُجزى عليه الإنسان الجزاء الأتم الأكمل؟ وهذا مقتضى (العقل والعدل)، أن لا يحمل الإنسان وزر غيره، ولا تُعطى حسناتُه لغيره، وأمَّا دعاءُ الأحياء للأموات، وشفاعةُ الأنبياء للمؤمنين، والصدقةُ عن الميِّت والقريب، فهي نافعةٌ للإنسان ـ مع أنها ليست من عمله ـ لأنها ثمرةُ الإيمان والصلاح، وهذا فضلٌ من الله على المؤمن، فقد جاء في الصحيح، أن سعد بن عُبادة قال لرسول الله ﷺ: (إن أمي



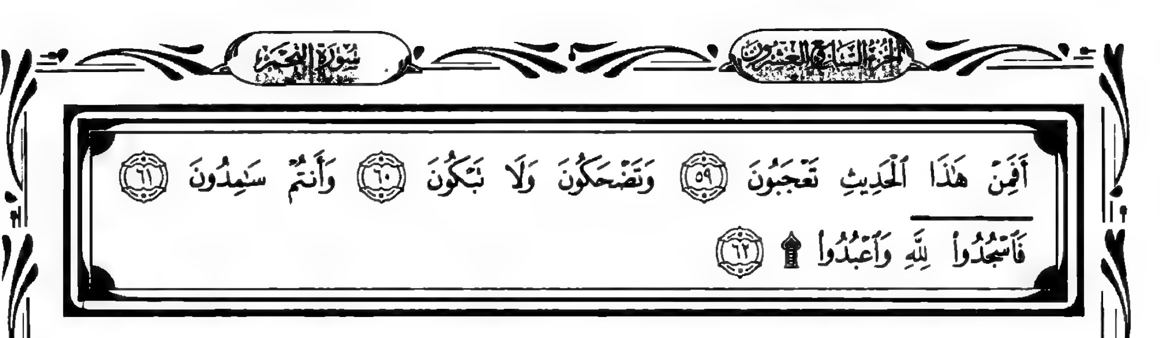
تُوفِّيت وأنا غائبٌ عنها، أينفعها شيء إن تصدقتُ به عنها؟ قال: نعم، قال: فإني أُشهدك أنَّ حائطي المخراف ـ أي بستاني المثمر ـ صدقةٌ عليها) رواه البخاري ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أي وأن إليه تعالى وحده، مرجع الخلائق بعد الموت، فيعاقب ويثيب، ويجازي كل واحدٍ بما يستحقُّ ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أي وأنه هو سبحانه خلق الفرح والحزن، والسرورَ والغمَّ، فأضحك في الدنيا من أضحك، وأبكى من أبكى، وقال الحسن: أضحك أهل الجنة في الجنة، وأبكى أهل النار في النار، وأنه سبحانه خلق الموت، وخلق الحياة، ولا يقدر على ذلك غيرُه، وقهر الملوكَ والعظماء بالموت، سُئل عمر رضي الله عنه: هل كان أصحاب رسول الله يضحكون؟ قال: نعم واللهِ، والإيمانُ في قلوبهم أثبتُ من الجبال الرواسي!!

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ أي وأنه جلَّ وعلا هو الذي خلق الذكر والأنثى، من نطفةٍ تُراق من ماء مهين، كقوله ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾؟ هذه النطفة يصبُّها الرجل في رحم المرأة، فإذا هو بعد ذلك إنسان كريم، ذكرٌ أو أنثى، والنطفة واحدة، متناسبة الأجزاء، فكيف حدث هذا التنويع؟ إنها والله عجيبة العجائب، ومعجزة المعجزات، ولكنَّ الناس عنها غافلون، من الذي يستطيع أن يتحكم في جعل المخلوق ذكراً أو أنثى؟ فضلاً عن أن ينفخ فيه الروح، إلاَّ الخلاَّق ربُّ العزة والجلال!؟ ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أي عليه جلَّ وعلا إعادة خلق الناس، وإحياءهم بعد الموت، للحساب والجزاء!! ولمَّا كان الكفار يُنكرون العودة إلى الحياة بعد موتهم، جاء التعبيرُ بأسلوب يدلُّ على وجوب الإعادة، فقال ﴿وأن عليه﴾ كأنه تعالى أوجب ذلك على نفسه، بخلاف الأمور السابقة، فقد جاء اللفظ فيها: «وأنّه، وأنّه، وأنّه» فتدبَّرْ أسرار الكتاب المعجز ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ أي وأنه سبحانه أغنى وأفقر، أغنى من شاء من خلقه، وأفقر من شاء منهم، وقيل المعنى: أغنى الإنسانَ ثم رضَّاه بما أعطاه، القولُ الأول أظهر للتناسق بين الآيات ﴿أضحك وأبكى﴾ و ﴿أمات وأحيا﴾ فيكون معنى ﴿أغنى وأقنى﴾ أي أغنى وأفقر ﴿وأنه هو رب

وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾

الشعرى﴾ أي وأنه تعالى ربُّ ذاك النجم الوقّاد الساطع، المسمى بـ«الشعرى» الذي كان يعبده بعضُ العرب، لقوة ضيائه وسطوع نوره، فأخبرهم تعالى بأنه مخلوق وليس بخالق. ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ أي وأنه جلَّ وعلا أهلك الطغاة المتجبرين، المكذبين لرسل الله (عاد) ونبيهم «هود» عليه السلام، كانوا من أشد الناس وأقواهم، وأعتاهم وأطغاهم، حتى قالوا ﴿من أشدُّ منا قوة﴾؟ وقد أهلكهم الله، بالريح الصرصر العاتية، ثم ﴿ثمود﴾ ونبيهم «صالح» عليه السلام، وقد أهلكهم الله بالصيحة وبالرجفة، وزلزل تحتهم الأرض، فلم يبق لهم ذكرٌ ولا أثر، ثم ﴿قوم نوح﴾، وقد كانوا قبل (عاد وثمود)، ولهذا قال ﴿من قبلُ﴾ وقد أهلكهم الله بالطوفان، وقد كانوا أفجر من غيرهم وأطغى، فقد آذوا نبيَّهم أشد أنواع الأذى، وعاش معهم قريباً من ألف سنة، وما آمن معه إلا عدد قليل، ثم أهلكهم الله ودمرهم ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾؟ المؤتفكة: هم (قوم لوط)، ائتفكت أي انقلبت بهم دورهم ومساكنهم، فصار عاليها سافلها، اقتلعها جبريل فرفعها إلى السماء، ثم هوى بها إلى الأرض ﴿فغشاها ما غشى﴾ أي غطَّاها من فنون العذاب ما غطَّى، وفيه من التهويل والتفظيع ما فيه، حيث كان عقابهم أليماً، ودمارهم شنيعاً ﴿فبأي آلاء ربك تتمارى﴾ أي فبأي نعم الله، الدالة على قدرته ووحدانيته، تشكِّك وتكذِّب أيها الإنسان الجاهل؟

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي هذا الرسول «محمد» ﷺ نذيرٌ من جنس الرسل المنذِرين قبله، أرسلته إليكم، وقد علمتم ما حلَّ بالمكذبين السابقين، فاحذروا غضب الله وسخطه، إن كذبتموه وعصيتم أمره!! ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي دنت الساعةُ، واقترب مجيء القيامة، والآزفة: اسم من أسماء القيامة (كالحاقة، والطامة، والصاخة، والقارعة) أي جاءت القيامة واقتربت بما فيها من شدائد وأهوال، التي لا يستطيع

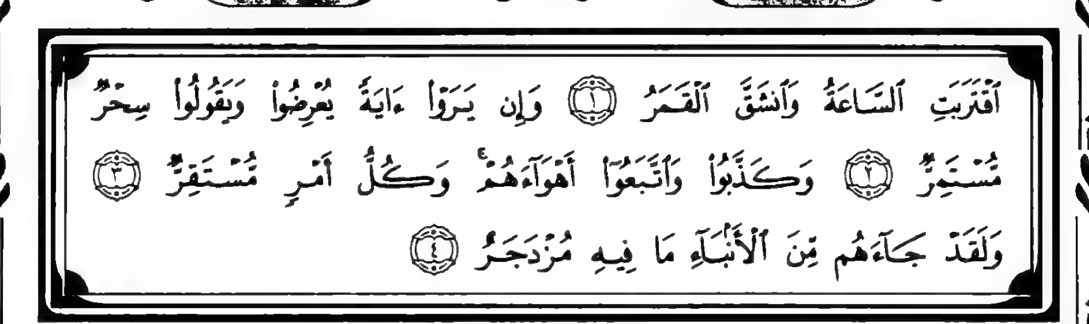


على كشفها وردِّها أحدٌ، إلاَّ الله ربُّ العالمين!! ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ المراد بالحديث: القرآن العظيم، والاستفهام للإنكار والتوبيخ.

والمعنى: أفمن هذا القرآن المعجز الساطع البيِّن، تعجبون يا معشر المشركين وتسخرون؟ وتضحكون عند سماعه ولا تبكون؟ ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ أي وأنتم لاهون غافلون، لا تفكِّرون في العاقبة، وكان الأجدرُ بكم عند سماعه البكاء، لو كنتم عقلاء، لا الضحك والاستهزاء!! فاتركوا عبادة الأوثان، واسجدوا لله الواحد الديان!!

انتهى تفسير سورة النجم

● ● ●


اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾

تفسير سورة القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي قربت القيامةُ، وانشقَّ القمرُ، معجزةً لسيد البشر، خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وإن ير المشركون معجزةً ساطعة، دالةً على صدق رسول الله ﷺ أعرضوا عن الإيمان، وقالوا: هذا سحرٌ دائمٌ مستمر، روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود أنه قال: (انشقَّ القمر على عهد رسول الله ﷺ حتى صار فرقتين، فقال لنا ﷺ: اشهدوا، اشهدوا) لقد طلب طغاة مكة من رسول الله ﷺ، معجزةً تدلُّ على صدقه، وقالوا له يا محمد: شُقَّ لنا القمرَ، إن كنت حقاً نبياً!! ووعدوه بالإيمان إن فعل ذلك، وكان ليلة البدر، فدعا الله عزَّ وجل، ورفع أصبعه نحو القمر، فانفلق فلقتين: فلقة على جبل «الصفا» وفلقة أخرى على جبل «قَيْقُعان» حتى رأى الناس جبل حراء بينهما، فقال المشركون: سحر محمد أعيننا!! فقال أبو جهل: انتظروا حتى يأتينا أهل البوادي فنسألهم!! فانتظروا حتى قدم الركبان فسألوهم، فأخبروهم أنهم رأوا القمر ذات ليلة منشقاً، وفزعوا من ذلك أشدَّ الفزع، وظنوا أنه ستحدث كارثة في الكون، فقال أبو جهل: لقد سحر محمد الناسَ جميعاً، هذا سحر دائم مستمر، فأنزل الله ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ وهذه الحادثة إحدى معجزات خاتم الأنبياء، سجَّلها الله في كتابه العزيز ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي وكذب المشركون بالنبي والقرآن، واتبعوا ما زيَّنه لهم الشيطان، وكلُّ أمر له نهاية ينتهي إليها، فالإيمانُ نهايتُه السعادة، والكفرُ نهايتُه الشقاءُ ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي ولقد جاء هؤلاء الكفار، ما فيه واعظٌ لهم، عن التمادي في الباطل والضلال، وجاءهم من أخبار

﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠﴾

الأمم السابقة ما يردعهم ويزجرهم، عن تكذيب سيد البشر ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ أي جاءهم هذا القرآن العظيم، وفيه الحِكَمُ البالغة، التي بلغت النهاية، في الهداية والإرشاد والبيان، فماذا تنفع الإنذارات والزواجر، لقومٍ أصمُّوا آذانهم، عن سماع كلام الرحمن، وهو الحكمةُ البالغة؟ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ أي أعرضْ يا محمد عن هؤلاء السفهاء الكفار، وانتظرهم إلى ذلك اليوم الرهيب، وما يحدث فيه من الأهوال والشدائد، يوم يدعو «إسرافيل» عليه السلام، إلى شيء فظيع منكر، تنكره النفوس، لعدم عهدهم بمثله، وهو أهوال يوم القيامة!! ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ أي ذليلين مهانين، لا يستطيعون رفع أبصارهم، من شدة الذلِّ والهوان، يخرجون من الأجداث أي القبور، كأنهم من الكثرة والانتشار، جراد منتشر في الآفاق، لا يدرون أين يسيرون ويتوجهون!! ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي مسرعين نحو صوت الداعي، لا يتأخرون ولا يتباطئون، يقول الكفرةُ المجرمون: هذا يوم صعبٌ عسير، شاق علينا!! حقاً إنه مشهدٌ رهيب، حين يخرجون من القبور فزعين خائفين، مسرعين الخُطى نحو صوت الداعي، يشبهون الجراد المنتشر، الذي يطير على غير هدف، فقد أكل الخوف قلوبهم، وأطار الرعبُ عقولهم وألبابهم، فمن أين لهم » أن يروا طريقهم في ذلك اليوم؟ ثم ذكر تعالى ما حلَّ بالطغاة المكذبين، من الأمم السابقة، تسليةً لرسول الله ﷺ وتحذيراً لطغاة مكة، فقال سبحانه ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ أي كذَّب قبل أهل مكة، الطغاةُ المتكبرون من قوم نوح، كذبوا عبدنا نوحاً، واتهموه بالجنون، وتوعَّدوه بالقتل ﴿قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين﴾ ومعنى قوله ﴿وازدجر﴾ أي انتهروه وزجروه، عن مواصلة دعوته لهم إلى التوحيد والإيمان، ولمَّا يئس من إيمانهم دعا عليهم ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ أي دعا ربه قائلاً: يا رب إني ضعيف عن مقاومة هؤلاء المجرمين، فانتقم لي منهم، وانتصر لدينك!! وسرعان ما استجيب الدعاء، قال تعالى:

فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ **أي فأرسلنا عليهم المطر غزيراً متدفقاً، منصباً بشدة وكثرة، كأنه أفواه القِرَب، بشكلٍ لم تعهده الأرضُ قبل ذلك، والمنهمرُ: الكثيرُ الغزيرُ المتدفق، وجعلنا الأرض كلَّها، كأنها عيون منفجرة بالمياه، فالتقى ماءُ السماء، وماءُ الأرض، على حالٍ عجيبة، قدَّرها الله لإهلاك الطغاة الظالمين!!**

قال المفسرون: جاءهم الماء من فوقهم أربعين يوماً متواصلاً، وتفجَّرت الأرض، من تحتهم عيوناً دافقة، وفُتحت أبواب السماء بالماء، من غير سحاب في ذلك اليوم، فلم تمطر السماء قبل ذلك اليوم، ولا بعده مثله، حتى صار «طوفاناً» يطمُّ ويعمُّ ويغمر وجه الأرض ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ **أي حملنا نوحاً ومن آمن معه، على السفينة، التي علمناه صنعها، وهي من أخشابٍ عريضة ﴿ودُسُر﴾ أي مسامير جمعُ دِسار وهو المسمارُ، حتى تبقى قوية متماسكة، ونوح عليه السلام أول مخترع للسفينة، بتعليم الكبير المتعال، ولم يكن قبل ذلك يُعرف ركوب البحار،** ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ **أي تسير بمرأى منا، بحفظنا وحمايتنا، جزاءً لنوح على صبره على قومه، وتحمله الأذىٰ في سبيل الله، ومعنى ﴿كُفِر﴾ أي جُحِد فضلُه، وكُفِر به، فإنه كان نعمة أنعمها الله على قومه، فكفروها**﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ **أي تركنا حادثة «الطوفان» عظةً وعبرة، فهل من معتبر ومتَّعظ؟** ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ **استفهامٌ يراد به التهويل والتعجيب، أي فكيف كان عذابي وإنذاري لمن كذَّب رسلي؟ ألم يكن فظيعاً هائلاً، لا يحيط به الوصف لشدته؟**﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ **أي يسرنا القرآن للحفظ، والتدبر، والعمل، فهل من متَّعظ ومعتبر، بما فيه من العبر والمواعظ؟**﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ **أي كذبت عادٌ رسولهم هوداً، فهل سمعتم كيف كان عذابي وإنذاري لهم؟ ثم وضَّح تعالى ما حلَّ بهم من العذاب الفظيع**

إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ﴿٢٠﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴿٢٥﴾

المدمِّر، فقال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ أي أرسلنا عليهم ريحاً باردة، شديدة الصوت، في يوم مشؤوم، دائم الشؤم، استمرَّ عليهم نحسُه ودمارُه، فلم يبق منهم أحد إلاَّ هلك ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ أي تقتلعهم الريحُ فترفعهم إلى السماء، ثم ترمي بهم فتدقُّ أعناقهم، ثم تتركهم جثثاً هامدة، كأنهم أصول نخل منقلع من جذوره، والتصويرُ في الآية عجيبٌ، فالريح تنتزعهم، ثم ترمي بهم على رؤوسهم، فتدقُّ رقابهم، فتبقى أجسامهم بلا رؤوس، وكأنهم أعجاز نخلٍ محطَّمة مهشمة، مقلوعة من أصولها من الأرض، وهذا معنى المنقعر أي المنقلع من أصله ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ تكرَّر هذا اللفظ، بعد كل قصة فيها هلاكٌ لقوم من الأقوام، للتهويل والتعجيب، كما تكرر التذكير بنعمة القرآن، للتنبيه على فضل الله على البشر، بتيسيره عليهم للحفظ والتدبر ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ أي فهل من متعظ ومعتبر بآياته ومواعظه؟ وأصلُ ﴿مدَّكر﴾ مذتكر أي متذكر، روى البخاري عن ابن مسعود قال (قرأتُ على رسول الله ﷺ «مذَّكر» بالذَّال، فقال النبي ﷺ: ﴿فهل من مدَّكر﴾ أي صحَّحها له بالدَّال، وقال مجاهد ﴿يسَّرنا﴾ أي هوَّنا قراءته، رواه البخاري ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ﴾ هذه هي القصة الثالثة في هذه السورة، أي كذبت ثمود بالإنذارات والمواعظ، التي سمعوها من «صالح» عليه السلام، فلم يُلقوا بالاً لتلك الإنذارات المخيفة، وقالوا: أنتَّبع إنساناً مثلنا من آحاد البشر؟ ليس من الملوك، ولا الأشراف والعظماء؟ إنَّا لو اتَّبعناه وتركنا عبادة آلهتنا «الأوثان» نكون في خطأٍ وذهاب عن الحقِّ واضح ﴿وسُعُر﴾ أي جنون دائم.

قال ابن عباس: ﴿سُعر﴾ أي جنون، مأخوذ من قولهم: ناقة مسعورة أي مجنونة، ثم زادوا في الاستهزاء والتكذيب، فقالوا ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ﴾ أي هل خصَّه الله بالنبوة والرسالة وحده؟ وفينا من هو فوقه من الشرف والذكاء، بل هو كذَّاب

سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾

﴿أشر﴾ أي بطرٌ متكبرٌ، يريد أن يترفَّع علينا بهذه الدعوة!؟ ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ أي سيعلمون وقت نزول العذاب عليهم، من هو الكذاب الأشر، هل هو «صالح» عليه السلام، أم قومه المكذِّبون المجرمون؟ وَصَفَ المجرمون نبيهم صالحاً بوصفين ذميمَيْن، بصيغة المبالغة، وهما: ﴿كذاب﴾ أي كثير الكذب ﴿أشر﴾ أي متغطرس متكبر، وهذا منتهى الذمِّ والتقبيح له، قاتلهم الله أنى يؤفكون، ولذلك ردَّ عليهم القرآن، وبيَّن أنهم هم السفهاء المتكبرون، الذين تكبَّروا على الله ورسله، وهم الأشقياء الخاسرون، وبأسلوب القرآن المعجز، ينقل القصة من خبر يُروى، إلى واقعة كأنها الآن تُعرض، ويشاهدها الناس بالأبصار، فيقول سبحانه: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ أي سنخرج لهم الناقة من الصخر الأصم كما سألوا، امتحاناً وابتلاءً لهم، فانتظرهم وتبصَّر ما يصنعون، واصطبر على أذيتهم، **قال ابن كثير**: أخرج الله لهم ناقة عظيمة عُشَراء. أي حاملاً. من صخرةٍ صمَّاء طبق ما سألوا، لتكون حجة عليهم، في تصديق نبي الله صالح، فيما جاءهم به ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ أي وأخبرهم أن الماء الذي يجري بواديهم، مقسومٌ بينهم وبين الناقة، لها يوم، ولهم يوم، كقوله سبحانه ﴿لها شربٌ ولكم شرب يوم معلوم﴾.

قال ابن عباس: إذا كان يوم شربهم لا تشرب الناقةُ شيئاً من الماء، وتسقيهم لبناً فكانوا في نعيم، وإذا كان يوم الناقة، شربت الماء كلَّه فلم تبق لهم شيئاً، وقوله سبحانه ﴿كل شرب محتضر﴾ أي كل واحدٍ يأخذ حظه وقسمته، فإذا كان يوم القوم حضروا شربهم، وإذا كان يوم الناقة حضرت شربها ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ أي فنادوا أشقى القوم، واسمه «قُدار بن سالف» لقتل الناقة، فرماها فقتلها، غير مكترثٍ بالأمر العظيم، وهذا القاتل الفاجر، هو الذي قال الله عنه ﴿إذ انبعث أشقاها﴾ فلما قتلها انتقم الله منهم شرَّ انتقام، قال تعالى ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أي فكيف كان عذابي وانتقامي منهم؟ ألم يكن فظيعاً

إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾

شنيعاً؟ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ أي أهلكناهم بصيحة واحدة، قطعت أنفاسهم، وأخمدت أجسادهم، حتى صاروا كالهشيم المتفتت، كيابس الشجر إذا تهشَّم وتحطَّم!! شبَّههم تعالى بعد هلاكهم، بورق الشجر وأغصانه المتساقطة، التي يجعل منها الراعي حظيرةً لغنمه، ثم تتساقط أجزاؤها وتتلاشى، بعد فترة من الزمن، فتداسُ بالأقدام، وهو تشبيه بديع رائع ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي يسرناه للتدبر والحفظ، فهل من معتبر به ومتعظ؟ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ أي كذبوا بالإنذارات التي أنذرهم بها نبيهم «لوط» عليه السلام ﴿**إنا أرسلنا عليهم حاصباً**﴾ أي حجارة قُذفوا بها من السماء، كانت تنزل عليهم كالمطر، إلاَّ آل بيته المؤمنين، نجوا من العذاب وقت السحر، قُبيل الصبح، نجيناهم من العذاب، إنعاماً منا عليهم لإيمانهم وإحسانهم، كذلك نجزي من شكر نعمة ربه، ولم يكفر بها، فننجِّيه من العذاب ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ﴾ أي ولقد خوَّفهم نبيُّهم لوط، عقوبتنا الشديدة، وانتقامنا السريع منهم، إن تعرَّضوا للناقة بالأذى، فشكُّوا في الإنذار والوعيد ولم يصدِّقوه، سفهاً منهم وجهلاً ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أي قصدوا الفجور بضيوف لوط، وهم الملائكة، لأنهم جاءوا في صورة شُبَّان مُرْدٍ حسان، فأعميناهم فجعلناهم لا يبصرون، فذوقوا عذابي وإنذاري لكم، روي أنهم لما علموا بضيوفه، جاءوا مسرعين نحوهم، ليفجروا بهم، فأغلق لوط دونهم الباب، فحاولوا كسره، فخرج عليهم جبريل، فضرب أعينهم بطرف جناحه، فانطمست أعينهم وعموا ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي جاءهم عذاب دائم مستمر، وقت الصباح، لم يفارقهم حتى دمَّرهم عن بكرة أبيهم ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أي ذوقوا

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ

أيها المجرمون، عذاب الله الأليم ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي هل من متّعظ ومعتبر؟ ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي جاءتهم الإنذارات العديدة، على لسان رسولنا (موسى)، فلم يتعظوا ولم يعتبروا، كذّبوا بآياتنا أي المعجزات التسع، فأهلكناهم بالإغراق في البحر، وأخذناهم أخذاً شديداً، أخذ إلٰهٍ عزيز قادر، لا يُفلت من عقابه ظالم، يناسب ما كانوا عليه من الطغيان والجبروت!! ثم ينتقل الحديث إلى خطاب طغاة مكة، المكذبين لسيد الخلق، فيقول سبحانه ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾؟ أي هل كفاركم يا معشر العرب، خير من الأمم السابقة، الذين أهلكْتُهُم بسبب تكذيبهم للرسل، كقوم نوح، وعاد، وثمود، أم لكم أمانٌ من عذاب الرحمن، في الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء؟ ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ أي هل يقولون نحن جمعٌ كثير، واثقون بقوتنا وكثرتنا، منتصرون على محمد؟ سيُهزم جمعهم، ويولون الأدبار منهزمين، وهذا من دلائل النبوة، وقد وقع ذلك يوم بدر، حيث هُزم جمع المشركين، وانتصر جند الرحمٰن.

عن ابن عباس (أن النبي ﷺ قال يوم بدر: اللهمَّ إني أنشدك عهدكَ ووعدكَ!! اللهمَّ إن شئتَ لم تعبد بعد اليوم أبداً، فأخذ أبو بكر بيده، وقال يا رسول الله: حسبُك فقد ألححتَ ـ أي أكثرت من الدعاء ـ على ربك، فخرج من القبة وهو يثبُ في الدِّرع ويقول ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ رواه البخاري، **وعن عمر أنه قال:** (لمَّا نزلت **﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾** قلت: أيَّ جمعٍ يُهزم، فلما كان يوم بدر، رأيتُ النبي ﷺ يثبُ في الدرع وهو يقول **﴿سيهزم الجمع﴾** فعرفت تأويلها يومئذٍ) رواه ابن أبي حاتم ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ أي ليس هذا تمام عقوبتهم، بل القيامة موعد عذابهم، والقيامةُ أعظم عقوبة، وأشدُّ مرارةً!! ولا يُقاس عذاب الدنيا بعذاب الآخرة، فإن عذابَها مديدٌ، وحرَّها شديد ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ

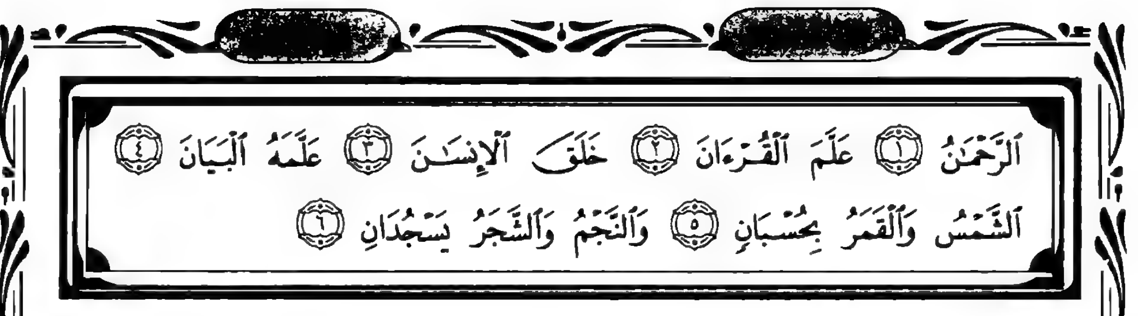
وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾

وَسُعُرٍ﴾ أي إن الأشقياء المجرمين، في هلاكٍ وشقاءٍ في الدنيا، ونيرانٍ مسعَّرة في الآخرة!!

قال ابن عباس: يعني في خسرانٍ وجنون، والسُّعُر: الجنونُ ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ أي يُجرُّون في نار السعير على وجوههم، إذلالاً لهم وتحقيراً، ويُقال لهم: ذوقوا وقاسوا حرَّ جهنم، جزاء كفركم وطغيانكم ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ أي كلُّ شيء خلقناه بقدر سابق، بتقديرٍ وتدبيرٍ، فلا شيء يحدث صدفة، ولا شيء دون حكمة، روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش يجادلون رسول الله ﷺ في القدر، فأنزل الله **﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر. إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾** ثم قال تعالى ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ أي وما شأننا في إيجاد شيء من الأشياء، إلا بكلمة واحدة نقول له: كنْ فيكون بلمح البصر، لا يحتاج إلى تأكيد بثانية، ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي أهلكنا أمثالكم وأشباهكم من الكفرة المجرمين، فهل من يتذكَّر ويتَّعظ ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ أي وجميعُ ما فعله البشر، من خير أو شر، مسطَّر في كتب الملائكة الحفظة، مثبت في دواوينهم، وكلُّ عمل من الأعمال، صغيراً كان أو كبيراً، مكتوب لدينا في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ أي إن المؤمنين المتقين، في بساتين وحدائق ناضرة، وعيون وأنهار جارية، يتنعَّمون في الجنة بما يشاءون ويشتهون، وهم في مقام حسن، ومكان مرضي، عند رب عظيم جليل، قادر على ما يشاء مما يطلبون ويشتهون، وصيغة (مليك) أبلغ من لفظ مَلِك، لأنه الذي جمع الملك من أطرافه، والله تعالى أعلم.

انتهى تفسير سورة القمر

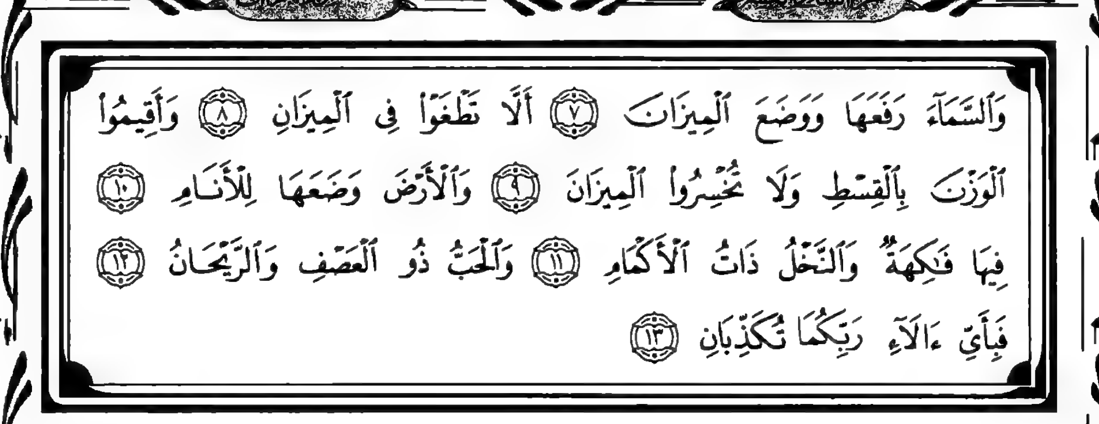
● ● ●



تفسير سورة الرحمن

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ بدأ الله هذه السورة الكريمة، بذكر اسم من أسمائه الحسنى الجليلة، وهو اسم **﴿الرحمن﴾** لينبه سبحانه على أن نعمة (الخلق، والتربية، والنطق، والتعليم)، كلُّ هذه النِّعَم، من فيوضات آثار اسمه الجليل (الرحمن) فمن رحمته سبحانه بالعباد، تعليمُهم، وهدايتُهم، وإنزال القرآن العظيم عليهم، نوراً وهدى للعالمين!! وقد كان المشركون إذا سمعوا لفظ «الرحمن» أنكروه، وقالوا لا نعرف الرحمن، كما أخبر سبحانه عنهم **﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً﴾** فردَّ الله عليهم هذا السفه والجهل فقال: الرحمنُ الذي أنكروه، هو الذي علَّم القرآن، وهو الذي خلقهم وأوجدهم، وجعلهم ينطقون بألسنتهم، دون سائر الحيوانات!! وقدَّم سبحانه تعليم القرآن على خلق الإنسان، مع أن الإنسان يُخلق، ثم يبدأ بتعلم القرآن، لينبه على فضل هذه النعمة الجليلة، (تعلم القرآن) وأنها تفوق في المنزلة نعمة الخلق، والمراد بقوله سبحانه **﴿علَّمه البيان﴾** أي ألهمه النُطق، فالإنسان وحده هو الناطق، وسائر الحيوانات لها أصوات، لكنها لا تنطق، ولهذا تسمى «بهائم» لأنها أُبهمت عن النطق والكلام، وهذا سرٌّ من أسرار القدرة الباهرة، فالبقرة مثلاً لها لسانٌ أطولُ من لسان الإنسان، لكنها لا تنطق، ولو كان اللسان هو المتكلِّم، لتكلَّم الأخرسُ، ولكنه سرُّ القدرة الإلهية، فسبحان من أقدر الإنسان، على أن ينطق بلحم، ويبُصر بشحم، ويسمع بعظم!! ثم قال تعالى ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ أي الشمس والقمر يجريان بحسابٍ دقيق منظَّم، لا يختلف، ولا يتوقف، ولا يضطرب، لأنه تقدير العزيز العليم، فالنجوم الساطعة، والأشجار الباسقة، تسجد لله الواحد القهار، النجمُ بالتنقل في البروج، والشجر بإخراج الثمار، ومعنى السجود في الآية **﴿يسجدان﴾** الانقيادُ لأمر الله، فهو سجود طاعة



وانقياد، وارتباط المخلوق بخالقه، فالكون كلُّه مرتبط في سيره ونظامه، في حركته وسكونه، بالخالق المبدع الحكيم ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ أي والسماءَ خلقها عالية، محكمة البناء، واقفه بدون عمد، فهو تعالى بقدرته خلقها، وبقدرته أمسكها، ﴿ووضع الميزان﴾ أي شرع العدل، وأمر أن يُعطى كل إنسان حقه، ﴿ألا تطغوا في الميزان﴾ أي لئلا تطغوا في الميزان، فتظلموا غيركم، وتبخسوا الناس حقوقهم ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾أي اجعلوا الوزن مستقيماً، بالعدل والإنصاف ﴿وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي ولا تُنقصوا الموزون عند البيع والشراء.. ذكر تعالى (الميزان) ثلاث مرات، وفي كل مرة له معنى جديد، فالأول يُراد به (العدل)، والثاني يُراد به (الآلة)، والثالث يراد به (الموزون)، والغرضُ من ذلك كلِّه، مراعاة العدل في الأحكام، وفي المكيال، والميزان، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾الأنام بمعنى الخلق، أي والأرضَ مهَّدها تعالى لأجل الخلق، ليستقروا عليها، فيبنوا، ويزرعوا، ويحصدوا، وينتفعوا بكل ما فيها من سهولٍ وهضاب، ثم أخرج للعباد من هذه الأرض أنواع الفواكه والثمار، وأنواع الحبوب، كالحنطة، والعدس، والشعير، منها ما هو غذاء للبشر، وهو جميع الحبوب، ومنها ما هو غذاء للحيوان، كالتبن وهو المراد بالعصف، وأما الريحانُ فهو كل زهرٍ له رائحة طيبة، كالورد، والياسمين، والفلّ.. ذكر تعالى أولاً الفاكهة، لأن الانتفاع بها يكون بنفسها، ثم النخل لكثرة الانتفاع به، من ليفٍ، وسعف، وجذوع، وثمر، ثم ذكر الحبَّ الذي هو قوام معيشة الإنسان، ووصَفَه بقوله ﴿ذو العصف﴾ تنبيهاً على إنعامه تعالى عليهم بما يقوتهم من الحب، وما يقوت بهائمهم من ورقه اليابس، وهو التبنُ الذي تعصف به الريحُ، وبدأ بالفاكهة، وختم بالمشموم (الريحان) ليذكّرهم فضله عليهم بأنواع النعم، ما هو غذاء لهم لا يستغنون عنه، وما هو للرفاهية من أنواع الروائح العطرة، وكلُّ هذه النعم من الأرض، التي خلقها الله للبشر، ثم خاطب الإنس والجن بقوله ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾

أي فبأيِّ نعمة من نعم الله يا معشر الإنس والجن تكذبان؟ ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الصلصالُ: الطينُ إذا يبس صار له صوتٌ عند النقر عليه، **والمعنى**: خلق الله أباكم آدم من طين يابس، يُسمع له صلصلة أي صوتٌ إذا نُقر، وخلق الجنَّ من لهب خالصٍ لا دخان فيه من النار، فبأي نعمةٍ من نعم الله الجليلة تكذبان، يا معشر الإنس والجان!؟ (رُوي أن النبي ﷺ، قرأ على أصحابه سورة الرحمن، من أولها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: ما لي أراكم سكوتاً؟ لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن ردًّا ـ أي جواباً ـ منكم، كلما أتيتُ على قوله تعالى **﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾**؟ قالوا: ولا بشيء من نعمك ربَّنا نكذِّب، فلك الحمد) رواه الترمذي والحاكم.. وقد ذُكرت هذه الآية إحدى وثلاثين مرة في هذه السورة، والسرُّ في هذا التكرار، التنبيه على كثرة نعم الله على العباد، ليحمدوه ويشكروه عليها، وهذا كما تقول لرجلٍ أحسنتَ إليه وهو ينكر الإحسان: ألم تكن فقيراً فأغنيتُك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن جاهلاً فعلَّمتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن عَزَباً فزوجتك أفتنكر هذا؟ وفائدته: التأكيدُ والتذكيرُ ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ أي هو جلَّ وعلا ربُّ مشرق الشمس ومغربه، ورب مشرق القمر ومغربه، فالمراد بالمشرقين: للشمس وللقمر، وكذلك المغربان للشمس وللقمر، وباختلاف المطالع في الصيف والشتاء، تنشأ الفصول الأربعة ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ المراد بالبحرين: البحار، والأنهار، وهو من باب التغليب، **والمعنى**: أنه سبحانه خلطهما في الأرض، وأرسلهما قريبٌ بعضُهما من بعض، يتجاوران ولا يختلطان، بينهما حاجز، حتى لا يطغى أحدهما على الآخر، ولو طغى البحر المالح على النهر العذب، لأفسد الحياة على سطح الأرض، ومما يدلُّ على أن المراد بالبحرين: (البحارُ، والأنهار) قوله تعالى **﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج﴾** والعذب الفراتُ لا يكون إلا لمياه

يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾

الأنهار، وأمَّا مياه البحار فإنها مالحة كلها ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟أي يخرج لكم من مياه البحار: اللؤلؤ والمرجان، واللؤلؤ: صغارُ الدرّ، والمرجان: كباره ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي وله جلَّ وعلا السفن الضخمة العوالي، تسير فوق سطح الماء، كالجبال عظمةً وضخامة، ولا تغوص في الماء، فبأي نعمة من نعم الله تكذبان، يا معشر الإنس والجان؟ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾أي كلُّ من على وجه الأرض، من إنسان وحيوان، سيموت لا محالة، ويبقى الله جلَّ وعلا الحيُّ القيوم، فلا شيء يدوم إلا الحيُّ القيوم، **قال ابن كثير**: عبَّر بالوجه عن الذات، ومثل هذه الآية قوله تعالى **﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾** إخبار بأنه هو الحيُّ الدائم الباقي، الذي تموت الخلائق ولا يموت، فمعنى **﴿إلا وجهه﴾** أي إلاَّ إيَّاه. اهـ أما وجه النعمة في الموت، فإن الله سوَّى فيه بين الغنيِّ والفقير، والعظيم والحقير، وبين الظالم والمظلوم، فلو كان المظلوم يموت ويبقى الظالم، ويموت الإنسان ويبقى السلطانُ، لكان في النفس حسرة وألم، فسوَّى تعالى في الموت بين جميع الخلائق: السلطان، والغني، والفقير، والظالم، والمظلوم، إقامة للعدل، ثم إنه لا يمكن للإنسان أن يصل إلى جنة النعيم، إلا بعد عبور هذا الجسر، فالموت معبرٌ (من دار الفناء) إلى (دار البقاء)، وأيضاً عند ما يهرم الإنسان، ويشتد به البلاء والمرضُ المزمن، يتمنَّى الموت لأنه راحة للعليل الذي لا يكاد يجد طعم النوم، وكما قال الشاعر:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً　　وحسبُ المنايا أن يكنَّ أمانيا..

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ أي يفتقر إليه تعالى ويحتاج له جميع الخلائق، يطلبون منه

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾

الرزق، والعون، والصحة، والأمن، وهو غني عنهم، وفي كل لحظةٍ وساعة، هو تعالى في شأن من شؤون الخلق، يغفر ذنباً ويُفرِّج كرباً، ويغني ويُفقر، ويُعزُّ ويُذل، ويميت ويحي، وفي هذه الآية ردٌّ على اليهود المفترين، حيث قالوا: إن الله لا يقضي شيئاً يوم السبت، لأنه يوم راحة الربِّ، فكذَّبهم الله في هذا البهتان ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان. فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾؟ أي سنتفرَّغ لحسابكم يا معشر الإنس والجن، فبأي نعم الله تكذبان؟ وهذا أسلوب وعيد وتهديد، يقول الرجل لمن يتهدده: سأتفرغ لحسابك وللانتقام منك!! وقد خاطبهم الله بالأسلوب الذي يعرفونه.

قال ابن عباس: ليس بالله تعالى شُغل وهو فارغ، وهو وعيد من الله لعباده، وقال البخاري في التفسير ﴿سنفرغ لكم﴾ سنحاسبكم لا يشغله شيء عن شيء، وهو معروف في كلام العرب، يقال: لأتفرغن لك، وما به شغل ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ أي يُقال لهم في مقام الحشر: إن قدرتم أن تخرجوا من ملك الله، هرباً وفراراً من عذابه، فاخرجوا وخلِّصوا أنفسكم من العذاب، لا تقدرون على ذلك، إلاَّ بقوةٍ وقهر وغلبة، وأنى لكم هذا وأنتم في أرض المحشر؟ فأين المنجى؟ وأين المهرب؟ ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ أي إن أردتم الهرب، فإنه يغشاكم لهبُ النار الحامية، ويُرسل عليكم نحاس مذاب، يصبُّ فوق رؤوسكم، فلا تجدون لكم ناصراً، ولا من ينقذكم من عذاب الله ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فإذا تشققت السماء يوم القيامة، وانفكَّ بعضها عن بعض، فصارت كلون الورد الأحمر، وكدهن الزيت في رقته وسيلانه، من شدة الهول، ورهبة الموقف الرهيب ـ موقف الحساب ـ فكيف يكون

فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾

حال البشر؟ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ أي ففي ذلك اليوم الرهيب ـ يوم القيامة ـ لا يحتاج الأمر إلى أن يُسأل أحدٌ من المجرمين عن ذنبه، هل فعلت؟ وماذا فعلت؟ لأنهم يُعرفون بعلامتهم **﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة﴾** فلا يحتاج إلى سؤالهم، ولهذا قال بعده: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي يُعرف المجرمون بسواد الوجوه، وزرقة العيون، وبما يغشاهم من الكآبة والحزن، وتأخذ الملائكة بنواصيهم ـ أي مقدم شعر الرؤوس ـ وأقدامهم، فيقذفونهم في نار جهنم، كما يُقذف الحطب في النار ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ أي يُقال لهم بطريق التوبيخ والتقريع: هذه جهنم التي كنتم تكذبون بها، هي حاضرة الآن أمامكم، ترددون فيها بين الجحيم، وبين ماءٍ حميم، ومعنى (آن) الذي انتهت به شدة الحرارة، والحميم: الماء الحار الشديد الحرارة، لقد كانوا في الدنيا يطوفون إلى الأوثان، وهم اليوم يطوفون في نار جهنم إلى حميم آن، مبالغة لهم في الذل والهوان ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟

وبعد الحديث عن الأشقياء المجرمين أهل النار، يأتي الحديث عن المؤمنين المتقين، أهل الجنة، على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب، والمراد (بمقام ربه): القيام بين يدي الله عز وجل للحساب، أي وللعبد المؤمن، الذي يخاف الوقوف بين يدي ربه للحساب، ويوقن بلقائه، له في الآخرة جنتان: جنة لسكنه، وجنة لأزواجه وخَدَمه، كما هو حال ملوك الدنيا، له قصر خاص، ولضيوفه قصر خاص، وقيل في تفسيرها: جنة للإنس، وجنة للجن، لأنهم مكلفون كالإنس، وليست هاتان الجنتان من حجارة وطين، وإنما هما من ذهب وفضة، كما في الحديث الصحيح (جنتان من فضة، آنيتُهما وما فيهما، وجنتان من

ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾

ذهب، آنيتُهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم، إلاَّ رداءُ الكبرياء على وجهه، في جنة عدن) رواه البخاري ومسلم ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي ذواتا أغصانٍ متفرعة، وثمار متنوعة، وظلال وارفة، فبأي نعم الله تكذبان، يا معشر الإنس والجان؟ ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ؟ أي في كل واحدةٍ عينٌ تجري بالماء الزلال، إحداهما: (التسنيم)، والأخرى: (السلسبيل)، تجريان لسقي تلك الأشجار والأغصان، فتثمر من جميع الأشكال والألوان، فماؤها غزير، وظلُّها ظليل ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فيهما من جميع الفواكه والثمار صنفان ونوعان: غريبٌ لم يروه في الدنيا، ومعروفٌ قد ألفوه، فبأي نعمة من نعم الله الجليلة تكذبان، يا معشر الإنس والجن؟ ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ؟ أي مضطجعين على فرش وثيرة، بطائنها من ديباج ـ أي حرير ـ المزيَّن باللؤلؤ، وهذا يدل على نهاية الرفاهية، فإذا كانت هذه هي البطائن، فكيف تكون الظواهر؟ ﴿وجنى الجنتين دان﴾ أي ما يُقطف من أشجارها من الثمار، قريب، يناله القائم، والقاعد، والمضطجع، كقوله تعالى ﴿قطوفها دانية﴾ بخلاف ثمار الدنيا فإنها عالية، لا ينالها الإنسان إلاَّ بعناء وتعب ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي في الجنان والقصور، أزواج عفيفات، لا تمتدُّ أبصارهن لغير أزواجهن ﴿لم يطمثهن﴾ أي هنَّ أبكار عذارى، لم يقربهن ويمسهنَّ قبل أزواجهن أحد، لا من الإنس بالنسبة للبشر، ولا من الجنّ بالنسبة إلى الجنّ، لأن الجنَّ المتقين يدخلون الجنة، ومعنى الطمث: الجماعُ ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ؟ أي كأنهن في الحسن والجمال، في صفاء الياقوت،

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ (٦٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَآمَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩)﴾

وبياض المرجان، يُشبهن الياقوت في حمرة الوجنة، والمرجان في بياض البشرة، روى البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال (إن في الجنة خيمةً من لؤلؤة مجوَّفة، عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منهنَّ أهل ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون) وفي الترمذي (إن المرأة من نساء أهل الجنة، ليُرى بياضُ ساقها من وراء سبعين حلة من حرير، حتى يُرى مخُّ ساقها) أي من شدة البياض، وهذا النعيم، جزاء من أطاع الله وعَبَده كأنه يراه، وهو مقام الإحسان، ولهذا قال ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ أي ليس جزاء من أحسن العمل في الدنيا، إلا الإحسان إليه في الآخرة!! روي أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسانُ﴾ فقال لأصحابه: هل تدرون ما قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم؟ قال يقول: هل جزاءُ من أنعمتُ عليه بالتوحيد، إلاَّ الجنة) رواه البغوي، ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ أي ومن دون الجنتين السابقتين، في المنزلة والفضل، جنتان أخريان لعامة أهل الجنة، فالأوليان للمقرَّبين، والأخريان لأصحاب اليمين ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ أي سوداوان من شدة الخضرة والريّ، والخضرةُ إذا اشتدتْ، مالت إلى السواد. !

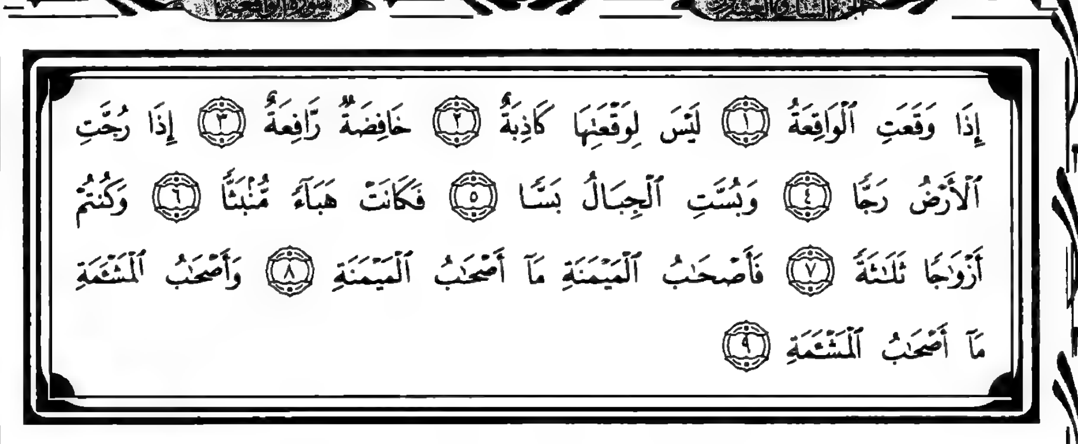
قال المفسرون: الجنتان (للمقرَّبين) هما من ذهب، والجنتان (لأهل اليمين) هما من فضة، وهما دون الأُولَيَيْن، وقد مرَّ حديث البخاري (جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما..) الحديث ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فيهما عينان فوَّارتان بالماء لا تنقطعان، تنضحُ المؤمنين بالمسك والكافور، وهذا دون الجريان، ولهذا كان نعيم السابقين أتمَّ وأكمل، لأنه قال هناك (تجريان) والجريان أقوى وأعظم من النضخ ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي في الجنة من أنواع الفواكه، وأنواع النخيل والرمان، الشيء الكثير الوفير، لأن ثمار الجنة لا تنقطع، ثم إن نخيل الجنة ورمانها، وراء ما يتصوره عقل

فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

الإنسان، وليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء، كما قال ابن عباس ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي في تلك الجنات الوارفة، نساء كريمات فاضلات، حسان الوجوه والأخلاق، وهنَّ (الحورُ العين)، ولهذا قال بعده ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي هؤلاء النسوة من الحور، مصونات محجوبات في خيام اللؤلؤ، لا يظهرن لغير أزواجهن ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي لم يغشهنَّ ولم يجامعهن أحدٌ قبل أزواجهن ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي مستندين على وسائد خضر من وسائد الجنة، والرَّفرفُ: ما تدلَّى من الأسرَّة من غالي الثياب ﴿وعبقري حسان﴾ أي ومن طنافس ثخينة مزخرفة، في غاية الحسن والجمال، فبأي نعمة من نعم الله تكذبان، يا معشر الإنس والجان؟ وختم السورة الكريمة بتعظيم الله وتمجيده، الذي أكرم المؤمنين بهذه النعم الجليلة فقال ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي تنزه الإله العظيم الجليل، صاحب العظمة والكبرياء، الحيُّ القيوم، الذي تفضل على عباده المؤمنين، بهذه النعم الوفيرة، في رياض الجنان، اللهم أكرمنا بالنظر إلى وجهك الكريم.

انتهى تفسير سورة الرحمٰن

● ● ●


إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾

تفسير سورة الواقعة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ الواقعةُ: اسم من أسماء القيامة، سميت بذلك لتحقق مجيئها ووقوعها.

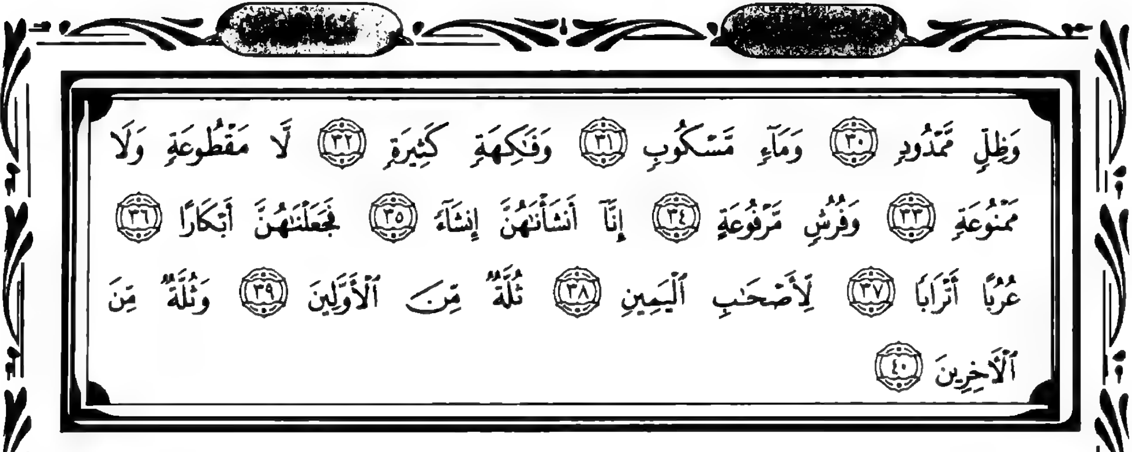
والمعنى: إذا جاءت القيامة التي لا بدَّ من وقوعها، وحدثت الداهيةُ الطامةُ، التي ينخلع لها قلبُ كل إنسان، من شدتها وهولها، فليس في ذلك الوقت، من يُكذِّب بمجيئها ووقوعها، كحال المكذبين اليوم، لأنهم يرونها رأي العين، فكيف يكذبون بها؟ **﴿خافضة رافعة﴾** أي خافضة لأقوام، رافعة لآخرين، تخفض أقواماً إلى أسفل سافلين، وإن كانوا في الدنيا ملوكاً وأعزة، وهم الكفار الفجار، وترفع أقواماً إلى أعلى علِّيين، وإن كانوا في الدنيا فقراء ومساكين، وهم المؤمنون الأبرار ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ أي إذا زلزلت الأرض زلزالاً عنيفاً، بحيث ينهدم كلُّ ما على سطحها، من بناء شامخ، وجبلٍ راسخ **﴿وبُسَّت﴾** أي فُتِّتَتْ الجبال تفتيتاً، حتى صارت كالهباء المنثور، المتطاير في الهواء ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ أي أصبحتم أصنافاً ثلاثة: صنفان في الجنة، وصنف في النار (السابقون، أهل اليمين، أهل الشمال) ثم فصَّل تبارك وتعالى أحوالهم، ومنازلهم في النعيم، أو في الجحيم، فقال سبحانه ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾؟ الاستفهام هنا للتفخيم والتعظيم، أي هل تدري أيُّ شيء أصحاب الميمنة؟ من هم؟ وما هي حالهم وصفتهم؟ إنهم السعداء الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم، ويكرَّمون في

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾

جنات النعيم، فهم في سرور وحبور، في أسعد مكان وأريح بال ﴿وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة﴾ أي وأصحاب الشمال هل تدريء ما هو حالهم؟ وماذا أعدَّ الله لهم من العذاب؟ إنهم في أسوأ حال، وشرِّ مآل، والأسلوب هنا تفظيعٌ لما نالوه من الشقاء والدمار، وكأن الآية تقول: أصحابُ اليمين في غاية حسن الحال، وأصحاب الشمال في غاية سوء الحال ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ هذا هو الصنف الثالث، وهم المقرَّبون الذين نالوا أرفع وأعلى الدرجات، أي والسابقون في فعل الخيرات، هم السابقون إلى أعلى الدرجات، وهم المقرَّبون عند رب العزة والجلال، في ظلِّ عرشِ الله وجواره، وهم في جنان الخلد والنعيم، يتنعَّمون فيها بأنواع السعادة والتكريم ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ أي هم جماعة كثيرة من السابقين، وهم أصحاب محمد ﷺ، وقليل من المتأخرين من الأمة المحمدية، لعجز المتأخرين أن يلحقوا بالمتقدمين، في الطاعة والعبادة، كما قال عليه السلام (لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه) رواه مسلم ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ أي هم جالسون على أسرة منسوجة بقضبان الذهب، مرصعة بالدر والياقوت، شأن المنعَّمين المترفين، وجوه بعضهم إلى بعض، وهذا أكمل في السرور، لا يكون الواحد منهم خلف الآخر، ثم تحدَّث عن خدمهم فقال ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي يدور عليهم للخدمة، غلمانٌ في نضارة الصبا، وجمال الشكل والهيئة، لا يكبرون ولا يهرمون، خُلقوا لخدمة أهل الجنة، يطوفون عليهم بكؤوس وأقداح فيها الخمر، تجري من عيون دافقة في الجنة، ومعنى (معين) أي جارية من العيون ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي لا يلحقهم صُداع في رؤوسهم بشربها، ولا يسكرون فتذهب بعقولهم كخمر الدنيا ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي ولهم في الجنة أنواع الفواكه المتنوعة، يختارون منها ما تشتهيه نفوسهم، ولحم طير مما يحبون ويشتهون، وفي

وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾

الحديث (إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه، فيخرُّ بين يديك مشوياً) رواه ابن أبي حاتم ﴿وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي ولهم نساء من الحور الجميلات، الواسعات العيون، في غاية الجمال والحسن، كأنهن اللؤلؤ في الصفاء والنقاء، (المكنون) أي الذي لم تمسَّه الأيدي، هذا النعيم جزاء لهم على أعمالهم الصالحة ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا﴾ أي لا يسمعون في الجنة باطلاً من القول، ولا فاحشاً وبذيئاً من الكلام، إلا تحية بعضهم لبعضٍ بالسلام، فحياتُهم كلُّها أنسٌ وسرور، وصفاء وحبور.. ذكر تعالى في هذه الآيات من نعيم أهل الجنة: (المجالس) وهي الأسرة من الذهب، و(الخدم) وهم الولدان المخلدون، الذين هم في الحسن كاللؤلؤ المنثور، و(الشراب) وهي خمر الجنة تنبع من عيون متدفقة، ثم (الفواكه والثمار) التي لا عدَّ لها ولا حصر، ثم (الطعام) الذي هو لحم الطير، وقدَّم الفاكهة على اللحم، لأن أهل الجنة يأكلون لا عن جوع، وإنما للتلذذ، والتفكه، ثم (النساء) وهن الحور العينُ، فما أحسنه من نعيم، وما أروعه من جزاء!! وبعد هذاالبيان المستفيض عن المقرَّبين، جاء الحديث عن أهل اليمين، فقال سبحانه ﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ الاستفهام للتفخيم والتعجيب من حالهم، أي هل تدري من هم أصحاب اليمين؟ وهل تعلم ما هو حالهم وكرامتهم في الجنة؟ إنهم في نعيم مادي محسوس، إنهم تحت أشجار النَّبق - وهو السِّدر - الذي قُطع شوكُه، وهذا معنى (المخضود)، ﴿وطلح منضود﴾ أي في شجر الموز المتراكم بعضه فوق بعض، وفي الظل الدائم الذي لا ينحسر ولا يزول، لأن الجنة كلها ظلال، لا شمس فيها، كما قال سبحانه ﴿لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً﴾ أي لا حراً، ولا برداً!! جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: إن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها!! قال: وما هي؟ قال: السِّدرُ، فإنه له شوكاً، فقال له ﷺ: (أليس الله يقول ﴿وسدر مخضود﴾؟ خَضَد - أي قطع - الله شوكه، فجعل مكان كل شوكةٍ ثمرةً، وإن الثمرة من ثمره، تفتق عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام، ما فيها لونٌ يشبه الآخر) أخرجه البيهقي والحاكم



﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ﴾ أي وماءٍ جارٍ علـى أرض الجنة، لا ينقطع، يجري على استمرار، والمراد به أنهار الجنة، التي تتفجر بالماء السلسبيل، وفواكه كثيرة متنوعة، لا تنقطع إذا جُنيت، ولا تمتنع عن أحد، وفرش عالية ناعمة، ترتفع وتنخفض بأصحابها، كما يحب الإنسان ويشتهي﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا عُرُبًا أَتۡرَابٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي خلقنا نساء أهل الجنة خلقاً جديداً، في غاية الحسن والجمال والنضارة، فجعلناهنَّ عذارى ﴿عرباً أتراباً﴾ جمع عَرُوب وهي الزوجة المحبَّبة إلى زوجها، العاشقة له، التي تأسره بلطفها وودِّها، قال البخاري في التفسير: عَروب مثل صبور، ويسميها أهل مكة «العَرِبة» وأهل المدينة «الغَنِجة» وأهل العراق «الشَّكِلة» اهـ والمراد أنها التي يعشقها زوجها من حسنها ولطفها، ومعنى ﴿أتراباً﴾ أي متساويات في السِنِّ، بنات (ثلاث وثلاثين) سنة، فلا عجوز، ولا هرمة، في الجنة، وكذا الأزواج لا هرم ولا شيخوخة لهم..

حُكي أن امرأةً عجوزاً جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله: (ادعُ الله أن يدخلني الجنة!! فمازحها ﷺ فقال لها يا أمَّ فلان: إن الجنة لا تدخلها عجوز، فولَّتْ تبكي، فقال ﷺ لأصحابه: أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، فإن الله تعالى يقول ﴿إنا أنشأناهن إنشاءً. فجعلناهن أبكاراً﴾) رواه الترمذي في الشمائل، وسألت «أم سلمة» زوجُ النبي ﷺ عن هذه الآية، فقال يا أم سلمة: (هنَّ اللواتي قُبضن في الدنيا عجائز، شُمطاً، عُمْشاً، رُمْصاً، جعلهن الله بعد الكبر، ﴿أتراباً﴾ أي على ميلاد واحدٍ في الاستواء) رواه الترمذي أيضاً ﴿لأصحاب اليمين﴾ أي خلقناهن جميلات حسناوات، لأصحاب اليمين، ليستمتعوا بهنَّ ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أي هم جماعة كثيرة من الأولين، من الأمم السابقة، وجماعة كثيرة من أمة محمد ﷺ، فأهل اليمين كثرة كثيرة في الأمم الماضية واللاحقة، وهم عامة أهل الجنة، وفي الحديث (إن أهل الجنة مائةٌ وعشرون صفاً، ثمانون

وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾

منها من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم) رواه الترمذي، وفي صحيح البخاري (إني لأرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة) ثم يأتي الحديث عن الصنف الثالث، وهم الأشقياء أصحاب الشمال، فيقول سبحانه ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي وأصحاب الجحيم هل تدري ما حالُهم؟ وكيف مآلهم؟ إنهم ﴿في سموم﴾ أي حرّ نار ينفذ إلى المسامّ، وشرابُهم الحميمُ وهو الماء الحار الذي اشتدت حرارته، وفي ظلّ دخان كثيف من نار جهنم، وهو اليحمومُ ومعناه: الشديدُ السواد، ليس هذا الظلُّ بارداً، يجد فيه الإنسان الراحة، وليس حسن المنظر، يعني أنه ظلٌّ حارٌّ وضارٌّ، لا نافع، سُمي (ظلاً) من باب التهكم والسخرية.. ثم بيَّن تعالى سبب العذاب فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أي كانوا في الدنيا منعَّمين، غارقين في الشهوات والملذات، لا يعبدون الله ولا يعرفونه ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي وكانوا يداومون على الذنب العظيم، والحِنثُ: الذنبُ الكبير، والمراد به: الكفر بالله ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي كانوا يقولون: هل إذا متنا سنبعث؟ بعد أن تصبح أجسادنا تراباً وعظاماً نخرة؟ وهل سيبعث آباؤنا الأوائل؟ هذا شيء مستحيل لا يمكن أن يُصدَّق!! قال تعالى ردّاً عليهم، وتأكيداً على عقيدة البعث ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي قل لهم: إن الخلائق جميعاً، السابقين منهم واللاحقين، سيُجمعون ويُحشرون ليوم الحساب والجزاء، الذي حدَّده الله وعيَّن وقته، كما قال سبحانه: **﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾** لا يتقدَّم على وقته ولا يتأخر ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ أي ثم إنكم يا معشر الكفار، المكذبين بالبعث والجزاء، ستأكلون في

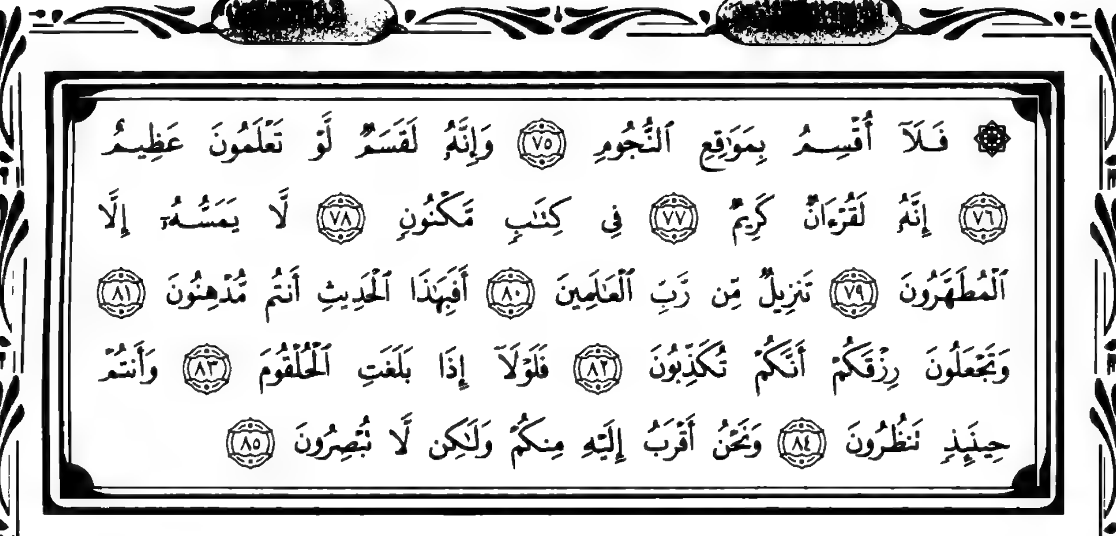
فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

جهنم من شجر الزقوم، الذي ينبتُ في أصل الجحيم، وتملأون بطونكم من تلك الشجرة الخبيثة، لغلبة الجوع عليكم ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾ أي فشاربون عقب ذلك، من الماء الحار، الذي اشتدت حرارته، من شدة العطش شرب الإبل الهيم.

قال ابن عباس: ﴿**الهيم**﴾: «الإبلُ العطاش التي لا تَروىٰ لداءٍ يصيبها» **قال المفسرون:** يُسلَّط على أهل النار الجوعُ، حتى يُضطروا إلى أكل الزقوم، فإذا ملأوا منه بطونهم، سُلِّط عليهم من العطش، ما يضطرهم إلى شرب الحميم، الذي يقطِّع أمعاءهم، قال تعالى ﴿**وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم**﴾ فيشربون شرب الهيم، وهي الإبلُ العطاشُ، التي بها مرض يصيبها فتشرب ولا تَروى ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ النُّزلُ: الضيافةُ، أي هذه ضيافتهم وكرامتهم يوم القيامة، وتسميتُه بالضيافة، تهكمٌ وسخرية، فأي ضيافةٍ هذه؟ وأيُّ كرامة لهؤلاء الأشقياء؟ ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي نحن الذين خلقناكم أيها الناس، فهلاً تصدِّقون بالبعث والنشور!؟.. ثم ذكر تعالى أربعة أدلة كونية، على قدرته ووحدانيته، فقال سبحانه ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ هذا البرهان الأول، أي أخبروني عمَّا تصبُّونه من المنيِّ في أرحام النساء؟ هل أنتم الذين تخلقونه وتصورونه بشراً سوياً؟ أم نحن بقدرتنا خلقناه وصورناه؟ ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي نحن الذين حكمنا وقضينا عليكم بالموت، وساوينا فيه بين الغني والفقير، والأمير والصعلوك، ولسنا بعاجزين على أن نهلككم، ونستبدل قوماً غيركم، يكون أعبد لله منكم وأطوع، ونخلقكم خلقاً جديداً لا تعرفون كيفيته!؟ ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي ولقد علمتم نشأتكم الأولى، حيث خلقناكم من ماءٍ مهين، فهلاً تتذكرون قدرة الله في إعادتكم بعد

أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

موتكم؟ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾؟ هذا البرهان الثاني، أي أخبروني عن البذر الذي تلقونه في الأرض؟ هل أنتم الذين تنبتونه أم نحن المنبتون؟ فإذا أقررتم أن الله هو الذي يخرج الحبَّ، وينبت الزرع، فكيف تنكرون إخراجه الأموات من القبور؟ ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي لو نشاء لجعلنا هذا الزرع والنبات، هشيماً متحطماً، فبقيتم تتحسَّرون وتتفجَّعون، على ما حلَّ بالزرع والثمر، وتقولون: نحن غَرِمْنا قيمة البذر، وحُرمنا خروج الزرع، فخسارتنا فادحة!! بل نحن محرومون فضل الله!! ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ هذا البرهان الثالث، أي أخبروني عن هذا الماء، الذي تشربونه عذباً فراتاً؟ هل أنتم الذين أنزلتموه من السحب، أم نحن المنزلون له بقدرتنا!؟ ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أي لو أردنا لجعلناه ماءً مالحاً، شديد الملوحة، ومُرّاً زُعاقاً لا يمكن شربه، فهلاَّ تشكرون ربكم على نعمه الجليلة عليكم!! حيث أنزله عذباً فراتاً، ولم يجعله ملحاً أجاجاً!؟ وفي الحديث أنه ﷺ كان إذا شرب الماء قال (الحمد لله الذي سقانا عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا) رواه ابن أبي حاتم، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾؟ هذا البرهان الرابع، أي أخبروني عن النار التي توقدونها لمنافعكم ومصالحكم، هل أنتم الذين خلقتم شجرها، أم نحن الخالقون المخترعون؟ ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ أي نحن جعلنا نار الدنيا تذكرة لنار جهنم، ومنفعةً ﴿للمُقْوين﴾، أي للمسافرين وغيرهم من الخلق، المستمتعين بالنار من الناس أجمعين، هذا قول مجاهد، وقال ابن عباس: (**المُقْوين**) أي المسافرين، فإن منفعتهم بالنار أكثر ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي

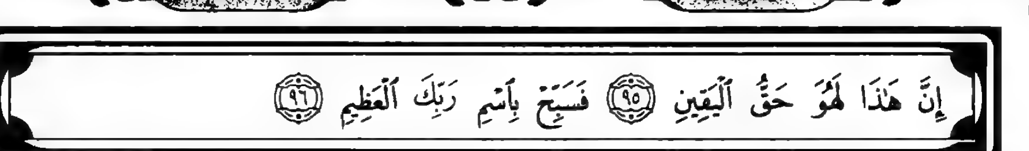


فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾

فإذا عرفت بدائع خلق الله، في هذه الآيات الكونية، فاعبد ربك وحده، ونزِّهه عما لا يليق به من صفات العجز والضعف، وقل: سبحان ربي العظيم، سبحان من خلق هذه الأشياء بقدرته، وسخَّرها لنا بحكمته!! ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ﴾ أي فأقسم لكم أيها الناس، قسماً عظيماً جليلاً، بمنازل النجوم، ودورانها في أفلاكها، وهذا القسم عظيم وعظيم جداً، لو عرفتم سرَّه لآمنتم وصدَّقتم!! أقسمُ لكم بأن هذا القرآن، الذي جاءكم به محمد، هو كلام رب العزة والجلال، ليس بسحر، ولا كهانة، وليس بمفترى على الله، وهو قرآن كريم، محفوظٌ ومسطَّر في اللوح المحفوظ، صانه الله عن التبديل والتحريف، وتكفل بحفظه ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ فلا يدخله باطل، ولا يعتريه زيادة أو نقص ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي لا ينبغي أن يمسَّه إلاَّ طاهر، إجلالاً له وتعظيماً، وهو منزَّل من عند رب العزة والجلال، أنزله نوراً وهدى للناس، أفلا تؤمنون به؟! كتب رسول الله ﷺ لعامله باليمن كتاباً جاء فيه (وأن لا يمسَّ القرآن إلاَّ طاهر) رواه مالك في الموطأ، فلا يُلتفت إلى قول من زعم جواز مسِّه على غير وضوء، وكفانا الله شرَّ الجهلاء!! ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾؟ أي أفبهذا القرآن يا معشر المشركين، تكذِّبون وتكفرون؟ بعد سطوع آياته، وظهور بيّناته؟ وتجعلون شكر رزقكم، أنكم تكذبون بخالقكم ورازقكم، وهو المنعم المتفضل عليكم؟ روى البخاري عن مجاهد ﴿مدهنون﴾ قال: مكذِّبون، وأصلُ المدهن: المراوغ الذي ظاهره خلاف باطنه، والمراد من الآية، أن المشركين بدل أن يشكروا الله على رزقه لهم، كفروا به وعَادَوْا رسوله، فوضعوا مكان الشكر الكفر ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾ أي فهلاً إذا بلغت الروح الحلقوم، عند

﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾

معالجة سكرات الموت، وأنتم في ذلك الوقت تنظرون إلى المحتضر «الميت» وهو يودّع الدنيا، وما هو فيه من الشدائد والأهوال! ونحن أقرب إلى الميت منكم بعلمنا، وملائكتنا تحضره لقبض روحه، ولكنكم لا ترونهم أنتم ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي فهلاً إن كنتم غير مجزيِّين بأعمالكم ـ كما تزعمون ـ تردُّون روح هذا الميت إلى جسده!! إن كنتم صادقين أن لا بعث ولا حساب، ولا جزاء ولا عقاب!؟ وكأن الآية تقول: إن كان الأمر كما تزعمون، أنه لا بعث ولا حساب، فهلاً تردُّون نفس من يعزُّ عليكم، إذا بلغت الروح الحلقوم!؟ وإذا لمْ يمكنكم فآمنوا أن هناك رباً يحيي ويميت، ويبعث من في القبور!! ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ أي فأمَّا إن كان هذا الميِّت من السابقين، المقربين عند الله، فله عند ربه الراحةُ، والأمانُ، والسعادة ودخول الجنان، يتنعم فيها بما تشتهيه نفسه، مع الخلود الدائم ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي وأما إن كان من السعداء أهل الجنة، الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، فلك منهم يا محمد السلام والتحية، فإنهم في سعادة ونعيم ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي وأمَّا إن كان من الأشقياء المجرمين، الضالين عن طريق الهدى، المكذبين بآيات الرحمن ﴿فنزل من حميم﴾ النُّزلُ: الضيافةُ والكرامةُ، أي فضيافته عند ربه، **(الحميمُ)** أي الماء الحار، الذي يصهر البطون، ويقطِّع الأمعاء ﴿وتصلية جحيم﴾ أي وله إحراق بنار جهنم، يُشوي بها ويُحرق، والنزلُ في اللغة: أول شيء يُقدَّم للضيف من الكرامة، وتسمية الحميم بالنزل أي الضيافة، ضربٌ من (التهكم والسخرية) فإذا كانت ضيافة هذا المجرم، الحميم والإحراق بنار الجحيم، فأيُّ ضيافة هذه؟ وأي كرامة؟ ولكنه كما قلنا: أسلوب السخرية والتهكم، على حد قول الشاعر: «تحية بينهم ضربٌ وجيع» وختم تعالى السورة بهذا



الختم البديع فقال ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي إن ما أخبرناك عنه يا محمد، من جزاء كل فريق، من المقربين، وأصحاب الشمال، وأصحاب اليمين، هو الحقُّ الذي لا شك فيه، هو عينُ اليقين، فسبح ربك ربَّ العزة والجلال، الكبير المتعال، وقل (سبحان ربي العظيم)!! بدأ السورة بذكر الطوائف الثلاثة، وصفاتهم ومكانتهم التي نالوها، وختمها بذكر جزاء هذه الطوائف الثلاثة، ليتناسق البدء مع الختام، في أبدع صور البيان!!

انتهى تفسير سورة الواقعة

● ● ●

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾

تفسير سورة الحديد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي نزَّه اللهَ، ومجَّده وعظَّمه، جميع ما في الكون، من إنسان، وحيوان، ونبات، وجماد، ﴿وهو العزيز﴾ أي الغالب الذي لا يُغلب ﴿الحكيم﴾ في صنعه وتدبيره، وهو جلَّ وعلا المالك لجميع ما في السموات والأرض، يحي البشر ويُفنيهم، ولا يعجزه شيء أراده ﴿هو الأول والآخر﴾ أي هو تعالى الأول الذي ليس لوجوده بداية، والآخر الذي ليس لبقائه نهاية ﴿والظاهر والباطن﴾ أي الظاهر بآثار قدرته ووحدانيته، الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي لا يحيط به أحد. وليس دونه شيء، كما قال المصطفى ﷺ في ثنائه على ربه (اللهمَّ أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء) رواه مسلم ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي خلقهما في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا، ولو شاء لخلقهما بلمح البصر، ثم علا فوق العرش علواً يليق بجلاله، يعلم ما يدخل في باطن الأرض، من أمطار وأموات، وما يخرج منها من زروع وثمار، وما ينزل من السماء من أرزاق وأقوات، وما يصعد إليها من ملائكة وأعمال،

لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾

وهو سبحانه رقيب عليكم، معكم بعلمه وتدبيره، لا تخفى عليه خافية من شؤونكم وأحوالكم، يسمع كلامكم، ويرى مكانكم، ويعلم سركم ونجواكم، واتفق المفسرون على أن المراد بالمعية هنا ﴿وهو معكم﴾ معيَّةَ العلم لا معية الذات ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي هو الخالق والمالك لجميع ما في السموات والأرض، وإلى الله وحده مرجع حساب الخلائق ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي هو المتصرف في الكون بحكمته وتدبيره، يُدخل كلاً من الليل والنهار في الآخر، فيطول هذا مرة ويقصر مرة، وهو المدبر للأكوان، العليم بالسرائر والضمائر ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي وحِّدوا الله وصدِّقوا برسوله، وأنفقوا في وجوه الخير والإحسان، من مال الله الذي جعلكم الله خلفاء في التصرف فيه، فأنتم بمنزلة الوكلاء في هذا المال، ولا تبخلوا بما وهبكم الله، فالمال ماله، وأنتم عبيده، والذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، لهم عند ربهم أجر عظيم، هو جنة النعيم ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي أيُّ عذر لكم في ترك الإيمان؟ ومحمد رسول الله يدعوكم لتؤمنوا بخالقكم ورازقكم، بالبراهين الساطعة، والحجج القاطعة، وقد أخذ الله ميثاقكم، بما ركَّب فيكم من العقل، ونصب لكم من الأدلة، على تفرده بالخلق والوحدانية، إن كنتم حقاً مصدِّقين بربكم، فهذا أوانه!! ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ربكم جلّ وعلا هو الذي أنزل هذا القرآن، المعجز في بيانه، الواضح في أحكامه، على عبده ورسوله محمد ﷺ، لينقذكم من ظلمات الكفر والضلالة، إلى نور الهداية والإيمان، وما فعل ذلك إلا لهدايتكم، رحمة

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾

بكم ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ﴾ تأكيد على الحث في الإنفاق، والمعنى: أيُّ شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله، وفيما يقرّبكم من ربكم؟ وسوف تموتون وتُخلِّفون وراءكم الأموال، وهي صائرة إلى الله تعالى، مالكها الحقيقي!! ولا يتساوى عند الله، من أنفقَ مالَه، لنصرة دين الله، قبل فتح مكة، وقاتل في سبيل الله، مع من أنفق وقاتل بعد فتح مكة، لأن بفتح مكة عزَّ الإسلام، وكثر أنصاره، فلم تعد الحاجة إلى الإنفاق كالسابق ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ﴾ أي أرفع منزلةً، وأعظم أجراً، من الذين أنفقوا وقاتلوا، بعد أن عزَّ الإسلام وانتصر ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي وكلاً من الفريقين، وعده الله المثوبة الحسنى، وهي الجنة، والله مطلع على أعمالكم، ومجازيكم عليها ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾؟ أي من ذا الذي ينفق ما له في سبيل الله، وابتغاء رضوانه؟ فيعطيه أجره على إنفاقه مضاعفاً، وله عند ربه جزاءٌ جميل، ورزقٌ باهر، وهو الجنة؟ ولما نزلت هذه الآية جاء (أبو الدحداح الأنصاري) إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: أو يريد ربُّنا منَّا القرض؟ فقال: نعم يا أبا الدحداح!! فقال يا رسول الله: أرني يدك، فناوله ﷺ يده، فقال: أشهدك أني أقرضتُ ربي بستاني، وله فيه ستمائة نخلة، وزوجته أم الدحداح فيه هي وعيالها، فناداها يا أمَّ الدحداح قالت: لبيك، قال: اخرجي، فإني قد أقرضته ربي عزَّ وجلَّ، فقالت: ربح بيعك يا أبا الدحداح، ونقلت منه متاعها وصبيانها، وقال ﷺ: (كم من عِذْقٍ رداح - أي كبير وضخم - لأبي الدحداح!!) رواه ابن أبي حاتم ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي يوم القيامة، تكون

يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

وجوه المؤمنين مضيئة كإضاءة القمر، حين يمرون على الصراط، وأنوارهم تتلألأ من جميع جهاتهم، ويُقال لهم: أبشروا اليوم بجنات الخلد والنعيم، التي تجري من تحت قصورها أنهار الجنة، ماكثين فيها أبداً، وهذه هي السعادة التي لا غاية وراءها.

لمَّا وضح تعالى أحوال المؤمنين، ذكر بعضها أحوال المنافقين، فقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾

والمعنى: واذكر يوم يقول المنافقون للمؤمنين: انتظرونا لنستضيء بنوركم، فيقول لهم المؤمنون سخرية واستهزاء: ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا هذه الأنوار هناك!! ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾أي فضُرب بين المؤمنين والمنافقين بحاجز يفصل بينهما، في باطن السور الرحمةُ وهي الجنة، وفي ظاهره العذابُ وهو النار، **قال ابن كثير**: هو سور يُضرب ليحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكمل دخولهم أُغلق البابُ، وبقي المنافقون من ورائه، في الحيرة، والظلمة، والعذاب ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾أي يقول لهم المنافقون: ألم نكن معكم في الدنيا نصلي، ونصوم، ونحضر الغزوات، فكيف تتركوننا؟ أجابوهم نعم كنتم معنا في الظاهر، ولكنكم أهلكتم أنفسكم بالنفاق، وتربصتم بالمؤمنين الدوائر، وشككتم في أمر (الدين والإيمان) وخدعتكم الأماني الفارغة بسعة عفو الله، حتى جاءكم الموت، وخدعكم الشيطان الماكر، بتزيين الضلال لكم والباطل، حتى أوردكم النار، **قال قتادة**: ما زالوا على خُدعة من الشيطان، حتى قذفهم الله في نار جهنم ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي ففي

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾

هذا اليوم الرهيب، لا يُقبل منكم بَدَلٌ ولا فداء، ولا من الكفار إخوانكم، ومنزلكم ومسكنكم في نار جهنم، هي تتولاكم، وبئس المرجع والمنقلب نار الجحيم!! وفي قوله ﴿هي مولاكم﴾ أي هي سندكم وعونكم، والناصرُ لكم، لا معين لكم غيرها، وهو تهكمٌ لاذع بالمنافقين... فنار جهنم مصير هؤلاء المنافقين وقرناؤهم الشياطينُ، وجيرانهم الكفار، وشرابهم الحميم، وطعامهم الزقوم، وأي خزي وهوانٍ بعد هذا!! ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي أمَا حان للمؤمنين أن ترقَّ قلوبهم وتلين لمواعظ الله؟ وآيات الذكر الحكيم؟ وأن لا يكونوا مثل (اليهود والنصارى)، الذين طال عليهم الزمن، فنبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، وحرَّفوه وبدَّلوه، فأصبحت قلوبهم قاسية كالحجارة، لا تلين ولا ترقُّ لنصح ولا موعظة؟ والكثيرون منهم فاسقون خارجون عن طاعة الرحمن!! ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الآية وردت مورد التمثيل كما قال المفسرون، **والمعنى**: كما تحيا الأرض القاحلة المجدبة بالمطر، كذلك يحي الله القلوب القاسية بالحكمة ونور القرآن، قد وضحنا لكم الأمثلة والمواعظ كي تعقلوا ما فيها، وتتدبروا كتاب الله، **قال ابن عباس**: يعني يحيى القلوب الميتة بالعلم والحكمة ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي إن المنفقين والمنفقات، الذين تصدَّقوا لوجه الله وابتغاء رضوانه، مع طيب النفس وإخلاص النية، هؤلاء الذين يتقبل الله منهم، ويضاعف لهم الأجر والثواب، ولهم الأجر العظيم في الجنة دار النعيم، وأصلُ ﴿**المصدِّقين**﴾ المتصدقين، أدغمت التاءُ في الصاد للتخفيف، فصارت المصدِّقين، وهذا ثناء من الله على المنفقين في سبيل الله.!

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي والذين آمنوا بوحدانية الله ووجوده، وصدَّقوا برسله كافة، هؤلاء هم الذين حازوا مرتبة الصدِّيقية فهم بمنزلة (الصدِّيقين)، والذين استشهدوا في سبيل الله، لهم في الآخرة الثواب الجزيل، والنور الوضاء يسعى بين أيديهم، أمَّا الكفار الفجار، فهم أصحاب الجحيم لا يفارقونها أبداً ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ أي اعلموا أيها الناس أن هذه الحياة الدنيا، ما هي إلاَّ سراب خادع، ولُعَبٌ كلعب الأطفال، يتفاخر فيها الناسُ، بكثرة الأموال والأولاد، ويتباهون بالأحساب والأنساب، ويشتغلون بجمع حُطامها عن طاعة الله ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ أي كمثل مطرٍ غزير، أصاب أرضاً، فأخرجت أنواع النبات الزاهي الخضر **﴿أعجبَ الكفارَ﴾** يعني الزُرَّاعَ نباتُ ذلك الزرع، الذي نبت بالغيث، بوفرته وخضرته، شبَّهها تعالى بالزرع، يعجب الزراع الناظرين إليه، ثم لا يلبث هذا الزرعُ، أن يصبح هشيماً يابساً، بعدما كان خضراً نضراً، هكذا شأن الحياة الدنيا، متاع زائل لا يلبث أن يفنى، أما الآخرة فهي دار السرور والحبور، وفيها النعيم الدائم الذي لا يزول، **قال ابن كثير**: هكذا الحياة الدنيا، تكون أولاً شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزاً شوهاء، والإنسان يكون كذلك في أول عمره، وعنفوان شبابه، غضّاً طرياً، ليِّن الأعطاف، بهيَّ المنظر، ثم يكبر فيصبح شيخاً هرماً، ضعيف القوى، وما هذه الدنيا إلا متاعٌ فانٍ، يغترُّ بها الجاهل، وهي

سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾

قليلة حقيرة، بالنسبة إلى الآخرة ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي سارعوا أيها الناس بالأعمال الصالحة، التي تقربكم من ربكم، والتعبير بلفظ ﴿سابقوا﴾ كأنهم في ميدان سباق، يتسابق فيه الفرسان إلى هدف معيَّن!! أي سارعوا إلى جنة واسعة فسيحة، عرضها كعرض السموات والأرض، والتمثيل هنا للتقريب إلى الأذهان، وإلا فالجنة أعظم وأكبر مما يتصوره الخيال، ولهذا لم يقل: عرضها السموات والأرض، وإنما قال ﴿كعرض﴾ على وجه التشبيه والتمثيل، وقد ورد في صحيح مسلم (إن أقلَّ أهل الجنة منزلة يوم القيامة، من له قدر الدنيا وعشرة أمثالها)، وهذه الجنة هيأها الله لعباده المؤمنين المتقين، الذين آمنوا بالله وبجميع رسله ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي ذلك هو عطاء الله العظيم، وفضله الكبير الجسيم، يعطيه لمن يشاء، ويتفضل به عن من يشاء من عباده، من غير إيجاب عليه، وهو سبحانه ذو الفضل والإنعام ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي ما تحدث مصيبة في الأرض، ولا في البشر (من قحطٍ، وزلزال، ومرضٍ، وكرب، وبلاء) إلا وهي مكتوبة مثبتة في علم الله تعالى، من قبل أن نخلق الخلق، ونُنشىءَ البرية، وهي مسجلة في اللوح المحفوظ، وإثباتُ ذلك ـ على كثرته ـ سهل يسير على الله ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي أخبرناكم بذلك، كي لا تحزنوا على ما فاتكم من نعيم الدنيا، ولكي لا تبطروا بزهرة الدنيا الفانية، والله تعالى لا يحب كل متكبر، يفخر على الناس بما أعطاه الله من مال أو جاه، والمراد بالحزن والفرح في الآية: الحزن الذي يوجب القنوط يعني اليأس، والفرح الذي يورث الأشر والبطر، **قال ابن عباس**: «ليس من أحدٍ إلا هو يحزن

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢٥﴾﴾

ويفرح، ولكنَّ المؤمن يجعل مصيبته صبراً، وغنيمته شكراً» يعني أن المؤمن، إذا عرف أن كل ما يحدث عليه، من مصائب ونكبات، إنما هو بقضاء الله، استسلم لحكم الله، فاستراح قلبه واطمأن، وشعر بالراحة والرضى، ولهذا قال المصطفى ﷺ (عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كلَّه له خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن اصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء، شكر فكان خيراً له) رواه مسلم.. ثم وضّح تعالى من هم الذي لا يحبهم الله، فقال ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ أي هم الذين يبخلون في الإنفاق في سبيل الله، ويحذّرون الناس من الإنفاق، وهذا أقبح الأوصاف، لا يفعل الخير، ويمنع غيره من فعله، ومن يعرض عن بذل الخير والإنفاق، فإنما يضرُّ نفسه، والله تعالى مستغنٍ عنه وعن إحسانه، محمود في ذاته وصفاته، ينصر دينه من غير حاجة إلى إنفاق هذا البخيل، وفي الآية وعيدٌ وتهديد.. ثم بيّن تعالى الحكمة من إرسال الرسل، فقال سبحانه: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ أي والله لقد أرسلنا الرسل إلى الأمم، بالحجج والمعجزات البينات، وأنزلنا مع الرسل، الكتبَ الإلهية السماوية، لهداية البشرية، وأمرنا بالميزان أي (العدل) في المعاملات، ليأمن الناس على أنفسهم وأموالهم، ويُقضى على الخلافات والمنازعات بينهم ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي خلقنا وأوجدنا لكم الحديد، فيه قوةٌ ومَنَعة لردع الظالم، لأن آلات الحرب تصنع منه، كالرماح، والسيوف، والدروع، والدبابات المصفحة، وغير ذلك من الآلات الحربية، كما أن فيه منافع كثيرة للعباد، كالسكين، والفأس، والقدوم، وآلات الحراثة، وما من صناعةٍ إلاّ والحديد فيها مادة أساسية فيها، وبخاصة الأبنية المسلَّحة في عصرنا، المسماة بـ«ناطحات السحاب» ويُراد بالحديد جنس المعادن، كالنحاس، والألمنيوم، والزنك، والرصاص، والفولاذ، فكل هذه المعادن تنفع البشر، وفيها رادع لمن أبى الحقَّ وعانده ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ أي وليظهر للناس من ينصر

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا

دينَ الله ورسله، في مجاهدة أعداء الله، والله تعالى ﴿قوي﴾ على إهلاك الكفرة الفجرة ﴿عزيز﴾ لا يحتاج إلى نصرة أحد، وإنما أمرهم بالجهاد، ليستوجبوا الأجر والثواب ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ذكر تعالى في هذه الآية شيخ الأنبياء «نوحاً» عليه السلام، وأبا الأنبياء «إبراهيم» خليل الرحمن عليه السلام، وبيَّن أنه جعل النبوة في ذريتهما، تشريفاً لهما وتكريماً، وتخليداً لمآثرهما الحميدة، ومن ذرية ﴿نوح وإبراهيم﴾ أناس مؤمنون مهتدون، وكثير منهم عُصاة فاسقون، خارجون عن طاعة الرحمن ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾ أي ثمَّ أتبعنا إرسال الرسل متلاحقين، بعضهم يتلو بعضاً، رسولاً بعد رسول، حتى انتهت الرسالة في بني إسرائيل إلى (عيسى ابن مريم) فهو آخر أنبياء بني إسرائيل، وأنزلنا عليه الإنجيل ليتحاكم الناس إليه ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي جعلنا في قلوب أتباع عيسى (الحواريين) الرِّقةَ، والشفقة واللين، يعطف بعضهم على بعض، ويحب بعضهم بعضاً، وهم بالنسبة له، كالصحابة لرسول الله ﷺ.. ثم أخبر تعالى عمن جاء بعد الحواريين من القسس والرهبان، الذين حرَّفوا وبدَّلوا، واخترعوا أموراً لم يشرعها الله، فقال سبحانه ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ أي ابتدعوا الرهبانية واخترعوها من تلقاء أنفسهم، وهي: (رفضُ النساء، وشهوات الدنيا، واتخاذ الصوامع) اخترعوها طلباً لرضوان الله، ونحن لم نشرعها لهم، ولم نلزمهم بها، ومع ذلك ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي ومع أنهم أحدثوها من غير تشريع رباني، لكنهم ما قاموا بها على الوجه المطلوب، ولا حافظوا عليها كما ينبغي، تظاهروا بالعفة والدين، وانتحلوا اسم القدِّيسين، وهتكوا الأعراضَ، وبلعوا أموال الناس بالباطل.

قال ابن كثير: «وهذا ذمٌّ لهم من وجهين:

فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

أحدهما: الابتداعُ في دين الله ما لم يأمر به الله.

والثاني: عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قُربةٌ تقرِّبهم إلى الله عزَّ وجل».

قال تعالى في بيان جزائهم ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ أي فآتينا الصالحين من أتباع عيسى ثوابهم مضاعفاً، والكثيرون منهم فساق فجار، خارجون عن طاعة الله، منتهكون لحُرماته ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ هذا تحذير للمؤمنين، أن يسلكوا مسلك اليهود والنصارى، في التلاعب بدين الله، وابتداع ما لم يشرعه الله من الأمور الدينية، **والمعنى**: يا معشر المؤمنين، يا من صدقتم بالله وبرسوله ﴿**اتقوا الله**﴾ أي خافوا عذاب الله، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿**وآمنوا برسوله**﴾ أي وآمنوا بمحمد رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين ﴿**يؤتكم كفلين من رحمته**﴾ أي يعطكم الله ثوابكم ضعفين من الأجر والثواب، لإيمانكم برسوله، وإيمانكم بمن قبله من الرسل ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ويجعل لكم نوراً في الدنيا، يهديكم إلى الصراط المستقيم، ونوراً يوم القيامة، يوصلكم إلى جنات النعيم، كما قال سبحانه ﴿**يسعى نورهم بين أيديهم**﴾ ﴿**ويغفر لكم**﴾ يعني ذنوبكم وما سبق منكم من المعاصي والآثام، وهو الغفور لذنوب عباده، الرحيم بهم، يغفر لكل من تاب وأناب ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ختم الله السورة بهذا البيان الواضح، أن أمر النبوة، ليس حسب أهواء الناس، وإنما هو اصطفاءٌ واختيار من الله، لمن شاء من عباده، **والمعنى**: إنما بالغنا في هذا البيان، عن أهل الكتاب، ليعلموا أنهم لا يقدرون على (حصر النبوة) فيهم، ولا يملكون

منع فضل الله ورحمته عن أحد من عباده، فكما بعث الله أنبياء في بني إسرائيل، كذلك بعث في العرب خاتم الأنبياء والمرسلين، والله تعالى يعطي فضله من يشاء، وهو ذو الفضل العظيم، والآية ردٌّ على اليهود والنصارى حيث كانوا يقولون: (الوحي والرسالة) في بني إسرائيل، والله خصَّنا بهذه الفضيلة من بين سائر العالمين، فردَّ الله عليهم، بأن أمر النبوة والرسالة والإيمان، بيد الرحمن جل جلاله وحده، يعطيه من يشاء من خلقه!! واللَّهُ أعلم حيث يجعل رسالته. !

انتهى تفسير سورة الحديد

● ● ●

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾﴾

تفسير سورة المجادلة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي حقاً لقد سمع الله قول «الزوجة المسكينة» التي تراجعك يا محمد في شأن زوجها، وتتضرع إلى الله في تفريج كربتها، والله تعالى يسمع ذلك الحديث، الذي جرى بينكما، ماذا قالت؟ وماذا رددت عليها؟ إنه تعالى سميع لمن يناجيه، بصير بأعمال العباد.. نزلت في شأن (خولة) امرأة «أوس بن الصامت» ظَاهَرَ منها زوجها، فجاءت إلى رسول الله ﷺ تشتكي إليه، قالت يا رسول الله: إن أوساً ظاهر مني، وإن لي منه صبيةً صغاراً، إن تركتُهم إليه ضاعوا، وإن ضَمَمتُهم إليَّ جاعوا، فماذا ترى؟ قال: ما أُراكِ إلاَّ قد حَرُمتِ عليه!! وجعلت تراجع الرسول، وهو يعيد عليها القول، حتى نزلت هذه الآيات، وروى البخاري عن عائشة أنها قالت: (تبارك الذي وسع سمعُه الأصواتَ، لقد جاءت المجادِلةُ خولة، فكلَّمت رسول الله ﷺ، وأنا في جانب البيت أسمع كلامها، ويخفى عليَّ بعضُه، فما برحتْ تراجعه حتى نزل جبريل بهذه الآيات **﴿قد سمع الله قول التي تجادلك..﴾**. والظهار أن يقول الرجل لزوجته: أنتِ عليَّ كظهر أمي، وكان ذلك يعتبر طلاقاً في الجاهلية، فحرَّمه الإسلام وذمَّه، وبيَّن حكم فاعله فقال سبحانه﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾ أي الرجال الذين يشبِّهون زوجاتهم بأمهاتهم، في حرمة النكاح، لا تصير الزوجة بقوله (أنتِ عليَّ كظهر أمي) أماً على الحقيقة، لأنَّ أمه الحقيقية هي التي ولدته،﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ وهذا القول منكر، يأباه الشرع، وينكره العقل، فالأم أمٌّ، والزوجة زوجة، وهو

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾

كذب وزور وبهتان، والله يعفو عمن تاب وأناب، ثم بيَّن كفارته فقال سبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي يظاهرون من زوجاتهم ثم يندمون على ما فرط منهم، ويرغبون في إعادة الزوجات إلى عصمتهم، فعليهم أن يعتقوا رقبة من قبل وطئهنَّ، كفارة لهذا الذنب، ذلك حكم الله فيمن ظاهر من زوجته، وقوله **﴿من قبل أن يتماسَّا﴾** كناية عن الجماع ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ﴾ أي فإذا لم يجد رقبةً يعتقها، فعليه أن يصوم شهرين متتابعين، من قبل الوطء، فإذا لم يستطع الصيام، لمرضٍ أو شيخوخة، فعليه أن يطعم ستين مسكيناً ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ذلك الحكم لتعملوا بشريعة الله، ولا تستمروا على أحكام الجاهلية، وهذه الأحكام فروضُ الله وحدوده، وللجاحدين لهذه الحدود، عذاب مؤلم موجع في نار الجحيم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي يعادون الله ورسوله، ويخالفون أوامرهما، **﴿كُبِتُوا﴾** أي أذلُّوا وأُهينوا، كما خُذل من قبلهم من الكافرين والمنافقين، وللكفار الفجار عذاب شديد، مع الإذلال لهم والإهانة ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي يوم القيامة، يحشرهم الله جميعاً للحساب والجزاء، فيخبرهم بما عملوا من القبائح والجرائم، ضَبَطَه الله وحفظه عليهم، بينما هم نسوا تلك الجرائم، لاعتقادهم أن

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾

لا حساب ولا جزاء، والله تعالى مطلع على كل ما عملوه، لا تخفى عليه خافية ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ﴾ أي ألم تعلم أيها السامع، أن الله لا يخفى عليه سرٌ ولا علانية، ما يقع من حديث خفيٍّ بين ثلاثة أشخاص، إلا كان الله رابعهم بعلمه، ولا خمسة أشخاص أو أقلَّ أو أكثر، إلا كان الله معهم، مطلعاً على أقوالهم وأحوالهم، لا يخفى عليه شيء من أمورهم، فأين الاختفاء والهرب من الله عزَّ وجل؟ وهو الرقيب المشاهد لأعمال العباد؟ ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي ثم يحاسبهم على أعمالهم يوم القيامة، لأنه العالم بالسر والجهر ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ الاستفهام للتعجيب من حال هؤلاء المنافقين، أي ألا تعجب يا أيها الرسول من حال هؤلاء الأشقياء؟ **﴿الذين نُهوا عن النجوى﴾** أي الحديث بينهم سراً، ثم يعودون إلى التناجي المحرَّم، بما فيه إثم ومعصية لله ورسوله؟ نزلت في اليهود والمنافقين، كانوا يتحدثون فيما بينهم، وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم، فشكا المؤمنون ذلك إلى رسول الله ﷺ، فنهاهم الرسول عن ذلك، ثم عادوا إلى طريقتهم الأولى، يتناجون ويتآمرون ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وإذا حضروا مجلسك يا أيها الرسولُ، بدءوك بتحية أثيمة فاجرة، لم يشرعها الله، ويقولون

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾

مستهزئين: هلاً يعذبنا الله بهذا القول، لو كان محمد نبياً؟ قال تعالى رداً عليهم: تكفيهم جهنم جزاءً، يَصْلون حرَّها، وبئست نار الجحيم مستقراً لهم.. لقد كان اليهود يأتون رسول الله ﷺ ويدخلون عليه، فيقولون في تحيتهم «السامُ عليكم» ومعنى السَّام: الموتُ، يوهمون أنهم يسلِّمون على الرسول، وكان المنافقون إذا جاءوا رسول الله، فعلوا مثل ما يفعل اليهود، أو حَيَّوه بتحية الجاهلية، وتركوا تحية الإسلام، فنزلت الآية، (روي أن اليهود استأذنوا على رسول الله ﷺ، فلما دخلوا عليه قالوا: السام عليك يا محمد، فقال ﷺ: وعليكم ـ وسمعت السيدة عائشة من غرفة أخرى كانت فيها ـ فقالت: بل عليكم السامُ والذَّامُ واللعنة، ولما خرجوا من مجلس الرسول ﷺ قال لها ﷺ: يا عائشة لا تكوني فاحشة!! قالت يا رسول الله: أما سمعتَ ما قالوا؟ قال: أما سمعتِ ما رددتُ عليهم؟ قلتُ: وعليكم، فيستجيب اللهُ لي فيهم، ولا يستجيب لهم فيَّ) رواه مسلم﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ أي لا تتحدثوا فيما بينكم، فيما فيه إثم ومعصية، وتحدثوا بما فيه برٌّ وتقوى، وإحسان، وخافوا ربكم، الذي إليه مرجعكم، فيجازيكم على أعمالكم﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي ليس هذا الحديث الذي يكون بينكم بالسر، إلا من تزيين الشيطان وتحسينه لكم، لِيُدْخِل الحزن على قلوب إخوانكم المؤمنين، وليس ذلك يضرُّهم إلا إذا شاء الله ذلك، وعلى الله وحده فليعتمد المؤمنون، ولا يبالوا بنجوى اليهود والمنافقين، فإن الله يعصمهم من كيدهم وشرهم﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ أي إذا قيل لكم يا معشر المؤمنين: توسعوا في مجلس الرسول ﷺ، وافسحوا لنا حتى نجلس معكم، ونستمع لإرشاده الكريم، فوسِّعوا لهم، فإن ذلك مما يزيد

﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

في الألفة والمحبة بينكم ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي وإذا قال لكم الرسول: انهضوا من المجلس، وقوموا منه، لتوسّعوا لإخوانكم القادمين، فقوموا وأجلسوهم في مجالسكم، إكراماً لهم، والله يرفع قدركم إذا فقهتم دين الله، ويعلي درجات ومنازل أهل العلم.. **وسبب نزول هذه الآية،** ما رُوي أن نفراً من أهل بدر فيهم (ثابت بن قيس) جاءوا إلى رسول الله ﷺ وهو في المسجد مع أصحابه، فسلَّموا عليه وانتظروا أن يوسّع لهم إخوانهم، فلم يفسحوا لهم، فبقوا واقفين على أقدامهم، وشقَّ ذلك على النبي ﷺ فقال لبعض أصحابه: قم يا فلان، قم يا فلان، حتى أقام بعدد الواقفين من أهل بدر ـ أهل السبق والفضل ـ فطعن المنافقون في ذلك، وقالوا: والله ما رأينا محمداً قد عدل، قوم أخذوا مجالسهم، وأحبُّوا القرب منه، أقامهم وأجلس غيرهم مكانهم، فنزلت الآية الكريمة، توجِّه المؤمنين إلى أدب (التوسعة في المجلس)، للقادمين من الضيوف، وجاء اللفظ ﴿يفسح الله لكم﴾ عاماً في كل ما يمكن الفسح فيه، في الرزق، والعلم، والفهم، والصدر، والقبر، وغير ذلك، وهذه الآية بيانٌ للأدب السامي الرفيع، الذي ينبغي أن يتحلَّى به المؤمنون، وهو أن يوقِّروا الكبير، ويرحموا الصغير، ويعرفوا مكانة أهل العلم والفضل، فإذا جاء إلى المجلس شيخ كبير، أو عالم فاضل، ينبغي أن يؤثروه على أنفسهم، فيجلسوه في مجلسهم، عن طواعية ورضى نفس، فقد قال ﷺ: (ليس منا من لم يوقِّر كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر) رواه الترمذي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في هذه الآية تعظيم لمقام الرسول ﷺ وتخفيف للعناء عنه، فقد كان المسلمون يسألون رسول الله ﷺ عن كل ما يعرض لهم، ليستمتعوا بآرائه وتوجيهاته الرشيدة، فأمرهم الله بدفع شيء من المال، صدقة للفقراء والمساكين قبل مناجاته ﷺ وسؤاله، ليشعرهم بمكانة الرسول، وبقيمة وقته الثمين، ثم نَسَخ الله هذا

ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

الحكم، تخفيفاً على أصحاب رسول الله ﷺ لا سيما الفقراء منهم الذين لا يجدون ما يتصدقون به، **والمعنى**: إذا أردتم مناجاة رسول الله في بعض أموركم المهمة، فتصدَّقوا قبلها، وهذا الإنفاق والتصدق، خير لكم وأطهر لقلوبكم، لأن فيه طاعةً لربكم، فإن لم تجدوا ما تتصدقون به، فإن الله يعفو عنكم ويسامحكم ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ عتابٌ للمؤمنين شفيفٌ رفيق، أي هل خفتم إن تصدقتم أن يقلَّ مالكم؟ أو تفتقروا بالإنفاق كلَّما أردتم مناجاة الرسول؟ لا تخافوا فإن الله يرزقكم ويغنيكم من فضله، وإذا شقَّ ذلك عليكم، وعفا الله عنكم، بأن رخَّص لكم مناجاته من غير تقديم صدقة، فاستمروا على طاعة الله، بالمحافظة على الصلاة، ودفع الزكاة التي فرضها الله عليكم، والله محيط بأعمالكم ونيَّاتكم، وهذه الآية هي التي نسخت الحكم السابق، رحمة من الله، وتيسيراً على صحابة رسول الله الأفاضل، **قال ابن عباس**: إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقُّوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه ﷺ، فلما قال ذلك، جَبُن كثير منهم، وكفُّوا عن المساءلة، فأنزل الله بعدها التخفيف، فوسَّع عليهم ولم يُضيِّق ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الآيات تتحدث عن المنافقين، وإخوانهم اليهود، والاستفهام للاستغراب والتعجيب من حالهم، **والمعنى**: ألا تعجب يا أيها الرسول، لحال هؤلاء المنافقين، الذين اتخذوا اليهود ـ المغضوب عليهم أصدقاءَ لهم ـ يحبونهم ويودُّونهم، وينقلون إليهم أسرار المؤمنين؟ **﴿ما هم منكم ولا منهم﴾** أي ليس هؤلاء المنافقون من المسلمين، ولا من اليهود، بل هم أناس منافقون مذبذبون، ويحلفون الأيمان المغلَّظة، أنهم مؤمنون مثلكم، وهم كذبة فجرة، يُظْهِرون غير ما في قلوبهم من النفاق والضلال!! ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي هيأ تعالى لهؤلاء

ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾

المنافقين، عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة، وبئس ما فعلوا، وبئس ما صنعوا ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي جعلوا أيمانهم الكاذبة وقاية لهم من القتل، فمنعوا الناس عن الدخول في الإسلام، بإلقاء الشبهات في قلوب الضعفاء، بالمكر والخداع، فلهم عذاب شديد مع الإهانة ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم شيئاً من النفع، ولن تدفع عنهم عذاب الله الأليم، وهم مخلّدون أبداً في نار الجحيم ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ أي يوم القيامة يجمعهم الله جميعهم، للحساب والجزاء، فيحلفون لله أنهم ما كانوا مشركين، كما يحلفون لكم اليوم في الدنيا كذباً، يظنون أن ذلك ينجيهم من عذاب الله فيكذبون في أيمانهم ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي ويظنون أن كفرهم يخفى على علاّم الغيوب، فيحلفون أمامه كذباً، ليتخلصوا من عذابه، ألا فانتبهوا أيها الناس، فإن هؤلاء الأشقياء، هم البالغون في الكذب أقصاه، والمقصود أنهم تعوَّدوا الكذب، حتى جاء على ألسنتهم في الآخرة، كما كان في الدنيا ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي استولى الشيطان على قلوبهم فأعماها، وتملَّك نفوسهم حتى أنساهم ربهم، فلم يذكروه بقلوبهم ولا بألسنتهم، وهؤلاء (جند الشيطان)، وأعوانُه وأنصاره، وهم الخاسرون لا محالة، وعلامة استحواذ الشيطان على الإنسان، أن يشغله بمظاهر الدنيا، من المطاعم والمشارب والملابس، عن طاعة الله، وأن يجعل همَّه جمع الأموال، وتكديس الثروة، دون نظر إلى حلال وحرام ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ أي يعادون الله ورسوله، ويحاربون الإسلام،

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾

لإطفاء نور الله، أولئك هم الأذلاء المغلوبون﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي قضى الله وحكم، أن الغلبة والنصرة لدينه، ورسوله، وجنده المؤمنين، لأنه تعالى القوي، القادر على نصرة أنبيائه وأوليائه، العزيز القاهر الذي لا يُقهر ولا يُغلب﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي لا يُتصور ولا يمكن أن يجتمع في قلبٍ واحد، حبُّ الله وحبُّ أعدائه، كما لا يمكن أن يجتمع النور والظلام، لأن من أحبَّ أحداً امتنع أن يحب عدوه، والآية جاءت للتحذير عن محبة ومصادقة الكفرة والمجرمين، ولكنها في صورة خبر، مبالغةً في النهي والتحذير، كأنه يقول: هذا لا يحدث ولا يُتصوَّر، أن يحبَّ مؤمنٌ من عادى الله ورسوله﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ﴾ أي ولو كان هؤلاء أقرب الناس إليهم، كالأب، والابن، والأخ، والعشيرة، فإن قضية الإيمان تقتضي معاداة أعداء الله، **قال ابن كثير**: نزلت في (أبي عُبيدة) قتلَ أباه يوم بدر، وفي (أبي بكر) همَّ أن يقتل ابنه عبد الرحمٰن، وفي (مصعب بن عُمير) قتل أخاه، وفي (عمر) قتل خاله يوم بدر﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ أي هؤلاء هم المؤمنون الصادقون، الذين ثبَّت الله ومكَّن في قلوبهم الإيمان، حتى صار راسخاً كالجبل، وقوَّاهم ونصرهم بعونٍ منه وتأييد إلهي على أعدائهم، ويدخلهم في الآخرة حدائق وبساتين، تجري من تحت قصورها أنهارُ الجنة، ماكثين فيها أبداً من غير زوال ولا انتقال﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي تقبَّل الله منهم أعمالهم فرضي عنهم، ونالوا ثوابه العظيم، فرضوا بما أعطاهم ربهم، وهؤلاء هم جند الله وأنصاره وأحبابه، وهم

الفائزون بخيري الدنيا والآخرة!!

قسم تعالى البشر إلى حزبين: (حزب الرحمٰن) و(حزب الشيطان)، ونبَّه إلى أن حزب الرحمٰن، هم الفائزون المنتصرون في الدنيا والآخرة، اللهم اجعلنا من حزبك وأوليائك يا ربَّ العالمين!.

انتهى تفسير سورة المجادلة

● ● ●

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾﴾

تفسير سورة الحشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي نزَّه الله تعالى ومجَّده وقدَّسه، جميع ما في الكون، من (مَلَكٍ، وإنسان، وحيوان، وجماد، وشجر، وثمر) وهو الغالب في ملكه، الحكيم في تدبيره وصنعه ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي هو جلَّ وعلا بقدرته، أخرج يهود بني النضير من مساكنهم بالمدينة المنورة ﴿لأول الحشر﴾ أي في أول مرة أُخرجوا منها من جزيرة العرب، إذ لم يصبهم هذا الذلُّ قبل ذلك، ما ظننتم أيها المؤمنون أن يَخرجوا من ديارهم وأوطانهم بهذا الذلِّ والهوان، لشدة بأسهم، حيث كانوا أصحاب قصور وحصون، وعزة ومَنَعة، وظنوا أن حصونهم الحصينة، تمنع عنهم عذاب الله وانتقامه ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي جاءهم بأسُ الله وعذابه، من حيث لم يكن في حسابهم، ولم يخطر على بالهم، وألقى في قلوب يهود (بني النضير) الخوفَ الشديد، والرعب والفزع، حتى استسلموا وفتحوا حصونهم، ورضوا أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، وكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم من الداخل، وأيدي المؤمنين من الخارج، فاتعظوا واعتبروا يا أولي العقول السليمة، ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ أي لولا أن الله حكم عليهم

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾

بالطرد من الأوطان، والخروج من الديار مع أهلهم وأولادهم، لعذبهم في الدنيا بالقتل، كما فُعل بإخوانهم (بني قريظة) ولهم مع عذاب الدنيا، عذاب جهنم الأليم المؤبّد، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي ما نزل بهم من العذاب والبلاء، والإخراج من الوطن، بسبب أنهم عادوا الله ورسوله، وخالفوا أمرهما، ومن يخالف أمر الله ويحارب دينه، فإن عقاب الله له شديد، وانتقامه سريع..

سببُ الجلاء: لمَّا قدم رسول الله ﷺ المدينة، صالح يهود بني النضير، على أن لا يكونوا معه ولا عليه، فلما انتصر ﷺ على المشركين يوم بدر، قالوا: إنه النبيُّ المنعوتُ في التوراة، الذي لا تُردُّ له راية، فلما هُزم المسلمون يوم أُحد، ارتابوا ونكثوا، وخرج رئيسهم (كعب بن الأشرف) اليهودي إلى مكة في أربعين راكباً، وحالف قريشاً على قتال رسول الله ﷺ عند الكعبة، فأمر رسول الله ﷺ «محمد بن مسلمة» أخاه من الرضاع، بقتله غيلةً حين رجع إلى المدينة، ثم صبَّحهم ﷺ بالكتائب وهم في حصونهم، وحاصرهم حتى صالحوه على الجلاء، وكانوا قبل جلائهم يخربون بيوتهم، فيقلعون الأعمدة، وينقبون الجدران، وينقضون السقوف، لئلا يسكنها المؤمنون، من شدة بغضهم وكيدهم للمسلمين، على طريقة «الأرض المحروقة» وكان المسلمون يخربونها من الخارج، ليقتحموا عليهم حصونهم، حتى ألقى الله في قلوبهم الرعب، وفيهم نزلت هذه الآيات، ثم قال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ اللِّينةُ: النخلةُ الطيبة الجيدة، القريبة من الأرض، سميت «لِينة» لجودة ثمرها وغضاضة أغصانها، والمعنى: ما قطعتم يا معشر المؤمنين، من شجر نخيل اليهود، من جيِّد وكريم الشجر، أو تركتموها بدون قطع أو إحراق، فكلُّ ذلك كان بأمر الله وإرادته، وليذلَّ اليهود ويُغيظهم، بحرق أشجارهم وثمارهم، وتدمير منازلهم، وما أعظم حسرة الإنسان حين يرى عدوَّه يعيث في أرضه بالإتلاف، كما يحبُّ ويهوى!! ولمَّا أمر رسولُ الله ﷺ بقطع نخيلهم وإحراقه، إهانةً لهم وإرعاباً لقلوبهم، قالوا يا محمد: ألست تزعم أنك نبيٌّ؟ وأنك تنهى عن الفساد؟ فما

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾

بالك تأمر بقطع الأشجار وتحريقها؟ فأنزل الله الآية ﴿**ما قطعتم من لينة..**﴾ الآية.. ثم بيَّن تعالى حكم الفيء، أي الغنائم التي غنمها المسلمون، من يهود (بني النضير)، بعدما أُجْلُوا عن ديارهم، وكانوا قد غنموها بدون حرب ولا قتال، فقال سبحانه ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ الفيءُ: ما يكون من غير قتال، والغنيمة: ما تكون بعد قتال، **والمعنى**: ما جاءكم من أموال من يهود بني النضير، فإنكم لم تتعبوا في تحصيل هذه الغنائم، ولم تُسرعوا فيه الخيل والدواب لقتالهم، لأن حصونهم كانت قريبة من المدينة، على بُعد ميلين، وقد فتحت صلحاً دون مشقة، بإلقاء الرعب في قلوبهم، ولهذا قال تعالى ﴿**ولكن الله يسلط رسله على من يشاء**﴾ أي ولكنه تعالى سلط رسوله عليهم، دون أن يحدث منكم قتال، لأنه سبحانه القادر على كل شيء.. ثم بيَّن تعالى حكم هذه الغنائم فقال ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي وما جعله الله غنيمة لرسوله، من أموال اليهود، بدون قتال، فحكم هذه الغنائم أن أمرها موقوف إلى الرسول ﷺ، يصرفها على نفسه وعلى مصالح المسلمين، فلا يدفع منها إلاَّ لأقربائه، من بني هاشم، وبني عبد المطلب، الذين آمنوا به وناصروه، ولليتامى، والمساكين، وللغريب المنقطع في سفره ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ أي لكي لا يستأثر بهذا المال، الأغنياءُ دون الفقراء، ومعنى «الدُّولة» التداول، أي لكي لا يبقى المالُ في أيدي الأغنياء، يتداولونه بينهم، ويُحرم منه الفقراء، وهذه قاعدة أساسية كبرى، من قواعد (النظام الاقتصادي في الإسلام)، يحفظ التوازن بين أفراد المجتمع الإسلامي، ولهذا جاءت فريضة الزكاة سنوية، بنسبة واحدٍ في الأربعين، من جميع ما يملك المسلم من أموال نقدية، فالذي يملك أربعين ألف درهم، عليه كل عام ألف درهم، ومن كان عنده أربعون مليون، فعليه كل عام مليون، وبذلك فتّت الإسلام الثروة، ولم يجعلها في أيدي فئة محتكرة، تمتصُّ دماء الناس، ولو

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾

طُبِّقت الزكاة كما ينبغي، لما بقي فقير من المسلمين على وجه الأرض، يشكو ألم الجوع ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي وما جاءكم به الرسول فاقبلوه، وما أمركم به من أمرٍ فافعلوه، وما نهاكم عنه فاجتنبوه، لأنه إنما يبلّغكم أوامر الله، وشريعته القدسية العادلة، ولا يأتي بشيء من عنده، وخافوا ربكم فإن عقابه شديد، والآية حكمها عامٌّ وليست خاصة بالغنائم، تشمل كل أمرٍ ونهي، جاء عن رسول الله ﷺ، ولهذا احتجَّ بها الصحابي الجليل «عبد الله بن مسعود رضي الله عنه» فقد روى البخاري ومسلم عنه أنه قال: (لعن الله الواشمات والمستوشمات، والنامصات والمتنمصّات ـ التي تزيل شعر وجهها، والتي تفعل بها ذلك ـ المتفلجات للحُسْن، المغيِّرات لخلق الله) فبلغ ذلك امرأة يقال لها: «أم يعقوب» وكانت تقرأ القرآن، فأتته فقالت بلغني أنك لعنتَ الواشمات والمستوشمات، وكيتَ وكيتَ!! فقال: وما لي لا ألعنُ من لعنَ رسولُ الله ﷺ وهو في كتاب الله!؟ فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لوحي المصحف ـ أي من أوله لآخره ـ فما وجدته، فقال: لئن قرأتيه لقد وجدتيه، أما قرأتِ قول الله تعالى ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ صحيح مسلم رقم ٢١٢٥ وهذه الآية قاعدة كبرى في الشريعة الغراء، فما جاء في كتاب أو سنة، فهو شرع الله الذي ينبغي أن يُنفَّذ، والحاكم مقيَّد بهذا النظام الإلهي، وما يُقال إن الأمة والشعب مصدر السلطات، فإنها فلسفة باطلة تقوم على أساس أنَ يَتحكَّمَ البشرُ بالبشر، وهل يتساوى تشريع الخالق الحكيم العليم، مع تشريع البشر العاجز الضعيف؟ وإذا كان الحكمُ لله، يتحقق العدل في الأرض، ولا يطغى الإنسان على أخيه الإنسان، كما هو الحال في (النظم الرأسمالية)، و(النظم الشيوعية) التي هي من فلسفة البشر!! ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ هذا متعلق بما قبله من أمر الفيء، أي الفيء والغنائم لهؤلاء الفقراء المهاجرين، الذين ألجأهم كفار مكة إلى الهجرة من أوطانهم، فتركوا الديار والأهل

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾

والأموال، ابتغاء مرضاة الله، ونصرةً لدينه، وهؤلاء حقاً هم الصادقون في إيمانهم ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ وهذه الآية ثناء ومديحٌ على الأنصار، أي وأمَّا الأنصار الذين سكنوا المدينة المنورة، فجعلوها منزلاً لهم وسكناً، وآمنوا قبل هجرة الرسول ﷺ إليهم، فهؤلاء يحبون إخوانهم المهاجرين حباً صادقاً، ولا يجدون في صدورهم حسداً وغيظاً، وحزازةً لما أُعطي إخوانهم المهاجرون، من الغنيمة دونهم، حيث قسم الرسول غنائم بني النضير بين المهاجرين فقط، ولم يعط الأنصار منها شيئاً، فرضوا بحكم الرسول ﷺ، ولم ينقموا على إخوانهم المهاجرين، بل وصل بهم الأمر إلى درجة الإيثار، أن يفضِّل الإنسان غيره على نفسه، ولهذا قال تعالى ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي يفضِّلون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم، ولو كان بهم فقر أو حاجة، ومن وقاه الله شرَّ رذيلة البخل، فهو الفائز السعيد، والشحُّ: البخلُ الشديد، ولعل في قصة الذي أطعم ضيفه، وترك نفسه وأهله وأولاده جياعاً، وهي قصة فريدة في دنيا الإيثار، ما يعطينا صورة مشرقة مضيئة، عما كان الصحابة، يَتحلَّون به من مكارم الفضائل والأخلاق، والقصة عجيبة ذكرها الإمام البخاري في صحيحه من كتاب التفسير ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي والذين جاءوا بعد (المهاجرين والأنصار) يحبون إخوانهم السابقين، ويدعون لهم بالرحمة والغفران، ويقولون في دعائهم: اللّهم اغفر لنا ذنوبنا، وارحم إخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا بغضاً لأحدٍ من المؤمنين.. قسم تعالى المؤمنين وصنَّفهم ثلاثة أصناف: (١ـ المهاجرون، ٢ـ الأنصار، ٣ـ التابعون لهم بإحسان) ولفظ التابعين يشمل جميع المؤمنين إلى قيام الساعة، فمن لم يكن نقيَّ القلب، عفَّ اللسان، محباً لإخوانه المسلمين،

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾

كان خارجاً عن هذه الأصناف الثلاثة، وليس له في الإسلام نصيب، وقد ظهرت فئات من الخوارج والرافضة، تزعم الإسلام، وهي تطعن في أخصِّ صحابة رسول الله ﷺ، وهؤلاء الذين عنتهم السيدة عائشة في حديثها، فقد روى مسلم عن عائشة أنها قالت لعروة ابن الزبير: (يا ابن أختي، أُمِرُوا أن يستغفروا لأصحاب رسول الله ﷺ فسبُّوهم، وتلت الآية ﴿والذين جاءوا من بعدهم..﴾ رواه مسلم وروى جابر قال: قيل لعائشة: إن ناساً يتناولون أصحابَ رسول الله ﷺ، حتى أبا بكر، وعمر!! فقالت: وما تعجبون من ذلك!! انقطع عنهم العمل، فأحبَّ الله أن لا يقطع عنهم الأجر) هؤلاء شرار الخلق عند الله... وتعود السورة للحديث عن المنافقين، فيقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي ألا تعجب يا أيها الرسول، من شأن هؤلاء المنافقين، الذين يزعمون الإيمان، يقولون لإخوانهم (يهود بني النضير) الذين تربطهم معهم رابطة الكفر والضلال: لئن أخرجكم محمد من المدينة، لنخرجنَّ معكم، ولا نترككم وحدكم، ولا نطيع أمره في قتالكم، ولا نترك مناصرتكم أبداً﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ أي ولئن قاتلكم أحد من المسلمين، فسوف نكون بجانبكم، نقاتل معكم صفاً لصف، والله يشهد أنهم كاذبون فيما قالوه، وفيما وعدوهم به، من النصرة والقتال معهم، ضدَّ محمد وأصحابه!!. ولمَّا عزم الرسول على قتال (يهود بني النضير)، بعث إليهم المنافقون، فقالوا: اثبتوا في حصونكم، فإنَّا معكم، وسنقاتل إلى جانبكم، ولا تخافوا تهديد محمد ووعيده لكم، فنزلت هذه الآيات فيهم، ثم أكَّد تبارك وتعالى ذلك بقوله﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي لئن أُخرج اليهودُ، وأُجلُوا من ديارهم قهراً، لا يخرجون معهم خارج المدينة، ولئن قُوتل اليهودُ، وشنَّ المسلمون عليهم حرباً، لا ينصرهم المنافقون ولا يقاتلون إلى جانبهم، ولئن حضروا لنصرتهم وقاتلوا معهم ـ على سبيل الفرض والتقدير ـ فسوف ينهزمون، لأن الله حكم عليهم بالذل والهوان، والطرد من الأوطان، وفي هذه الآية دليلٌ على صدق النبوة، فإن

لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾

اليهود لما أُخرجوا لم يخرج معهم المنافقون، ولم ينصروهم، فوقع الأمر كما حدَّث عنه القرآن، فكان ذلك أعظم برهان، على صدق النبوة ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي أنتم يا معشر المسلمين، أشدُّ خوفاً وخشيةً في قلوب المنافقين من الله، فإنهم يرهبون جانبكم، ويخافون منكم، أشدَّ وأكثر من خشيتهم من الله، وذلك لأنهم لا يعرفون عظمة الله وجلاله، حتى يخشوه حقَّ خشيته، وهذا من سفههم، وعدم فقههم لدين الله ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي لا يقاتلكم اليهود والمنافقون مجتمعين متفقين، إلاَّ إذا كانوا داخل البيوت والحصون، المحصَّنة بالأسوار والخنادق، أو يكونوا من وراء الأسوار والحيطان، ليتستروا بها، من فرط جبنهم وهَلَعهم ﴿بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾ أي عداوتهم فيما بينهم شديدة، لما قذف الله في قلوبهم من الرعب، تظنهم متفقين متحدين، وقلوبهم متفرقة متشتّتة ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ أي لسبب أنهم لا عقل لهم، يبصّرهم بطريق الهدى والحق! ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي مثل يهود (بني النضير) كمثل يهود (بني قَيْنُقاع)، الذين نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ، فحاصرهم الرسول حتى نزلوا على حكمه ﷺ، فصالحهم على أن يجلوا عن المدينة المنورة، وأن يأخذوا معهم متاعهم وأموالهم، إلا السلاح، فرحلوا إلى بلاد الشام، وذاقوا سوء عاقبة إجرامهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب شديد موجع.. ثم ضرب تعالى مثلاً آخر للمنافقين ـ في إغرائهم اليهود على القتال ـ بالشيطان الذي يُغْوي الإنسان، ثم يتبرأ منه، فقال سبحانه: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي مَثَلُ المنافقين مع اليهود، كمثل الشيطان مع

فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ

الإنسان، يغريه بالكفر، ثم يخذله ويتخلَّى عنه، ويتبرأ منه ﴿فلمَّا كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾ أي فلما كفر الإنسانُ، تبرأ منه الشيطان، وقال له: إني أخاف عذاب الله وانتقامه إن كفرتُ به ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فكان عاقبة المنافقين واليهود، كعاقبة الشيطان مع الإنسان، حيث صاروا إلى النار المؤبدة، وذلك الخلود في النار، عقاب كل ظالم فاجر، منتهكٍ لحرمات الله والدين... وإلى هنا تنتهي قصة يهود (بني النضير) ويأتي التوجيه للمؤمنين، بالاعتصام بتقوى الله، والخوف من عقابه الأليم، فيقول سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي خافوا الله، واحذروا عقابه، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ولينظر الإنسان ماذا ادَّخر لنفسه، من الأعمال الصالحة ليوم القيامة؟ وسُمّي يومُ القيامة غداً لقرب مجيئه، والتنكيرُ فيه للتفخيم والتهويل، وكرَّر اللفظ ﴿واتقوا الله﴾ للتأكيد، ولبيان منزلة التقوى في أمر الدين ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي ولا تكونوا يا معشر المؤمنين، كالذين تركوا طاعة الله وعبادته، ونسوا حقوق الله، فأنساهم حقوق أنفسهم، وهذا من المجازاة على الذنب بالذنب، عُوقبوا بأن أنساهم اللّهُ حظَّ أنفسهم، حتى لم يقدّموا لها خيراً ينفعها، وعاشوا في هذه الدنيا كالبهائم السارحة، بلا هدف ولا غاية ﴿أولئك هم الفاسقون﴾ أي هم الفسقة الفجرة، الخارجون عن طاعة الله عز وجل ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي لا يتساوى يوم القيامة الأشقياء (أصحاب النار)، الذين هم في العذاب الدائم، مع السعداء (أصحاب الجنة)، الذين هم في النعيم المقيم ﴿أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ أي أهلُ الجنة هم الفائزون بالسعادة الدائمة الأبدية، في دار الخلد والنعيم ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ

لَرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ

لَرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي لو جعل الله في الجبل تمييزاً وعقلاً، ومنحه ما منحَ الإنسانَ، ثم سمع القرآن، لتشقَّق الجبلُ وتفتَّت، خوفاً من الله تعالى، ومهابةً له، وهذا تمثيل وتصوير لعلوِّ شأن القرآن، وقوة تأثيره في النفس، بحيث أنه لو خوطب به جبل ـ على صلابته وقسوته ـ لتخشَّع وتصدَّع، ولهذا قال بعده ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي وهذه الأمثال نذكرها ونوضِّحها للناس، لعلهم يتعظون ويتفكرون، في عظمة القرآن وروعته، وتأثيره البليغ، لو كان لهم فهم وعلم!! **والغرضُ من الآية**: تنبيه الجاهل والغافل، على تأثير القرآن المجيد، ليتعظ به ويعتبر، فإن الجبال الصمَّ، لتتصدع من قوة حجته، وسحر بيانه، فكيف لا يتأثر به الإنسان؟ ثم ذكر تعالى صفات الخالق العظيم، المبدع لهذا الكون، فقال سبحانه ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي هو جلَّ جلاله، اللّهُ المعبود بحق، الذي لا إله غيره، ولا ربَّ سواه، وهذا الاسم الجليل ﴿**الله**﴾ أعظم أسمائه جلَّ وعلا، وما بعدها أوصاف للذات المقدسة ﴿**عالم الغيب والشهادة**﴾ أي العالم بالسر والجهر، وبما هو غائب عن العباد، وبما هو مشاهد ومنظور لهم ﴿**الرحمٰن الرحيم**﴾ أي ذو الرحمة الواسعة، الذي عمَّتْ رحمته جميع الخلق ﴿**ورحمتي وسعت كل شيء**﴾ الرحيم بعباده المؤمنين في الآخرة ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق سواه، وكرَّره اعتناءً بأمر التوحيد (وحدانية الله) لأنه أساس السعادة والنجاة ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ أي المالك لجميع الخلق، المتصرف فيهم تصرف المالك في ملكه، (القدوس) أي المنزَّه عن القبائح والنقائص، ومن تسبيح الملائكة، أنهم يقولون (سُبُوحٌ قدُّوسٌ، ربُّ الملائكة والروح)، والروحُ: رئيس الملائكة جبريل ﴿ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ أي الإلهُ الذي سَلِم الخلقُ من عقابه، وأمنوا من جوره، وهذا الاسم الجليل يُشِيعُ في النفس، الأمنَ والطمأنينة، تجاه ربه ﴿**المؤمنُ**﴾ أي المصدِّق لرسله، بإظهار المعجزات على أيديهم، وواهب الأمن، وواهب الأمان ﴿**المهيمنُ**﴾ أي القاهر لجميع الخلق، الذي هيمن بعظمته وجلاله، على الملوك والزعماء والرؤساء، وقهرهم بالموت ﴿ٱلْعَزِيزُ

ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

﴿ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ أي الغالب الذي لا يُغلب، والقاهر الذي لا يُقهر، مشتق من العِزَّة وهي الغلبة، ومن أمثال العرب قولُهم «من عزَّ بزَّ» أي من غلب عدوَّه سلب ماله، وفعل به ما يشاء ﴿الجبار﴾ أي العظيم الذي إذا أراد شيئاً فَعَله، لا يقف في وجهه أحد ﴿المتكبر﴾ أي الذي له صِفة الكبرياء حقاً، لأنه ملك الملوك، ولا يليق هذا الوصف إلاَّ به تعالى، كما جاء في الحديث القدسي (الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني فيهما قصمتُه ولا أبالي) رواه مسلم، وهذه الصفة (التكبر)، صفةُ مدح وكمال بالنسبة إلى الخالق جلَّ جلاله، وهي صفة ذم ونقص في حق الإنسان، لأنه يُظْهِرُ التعالي في نفسه على الغير، وهو ضعيفٌ ذليل حقير، فمن تواضع لله رَفَعه، ومن تكبَّر على الله وَضَعه ﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزَّه الله وتقدَّس، عما يصفه به الظالمون، من الزوجة، والولد، والشريك، والنظير كقوله تعالى ﴿لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾ ومعنى كُفُواً أي نظيراً وشبيهاً ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ﴾ أي هو جلَّ وعلا الخالقُ لجميع الأشياء، المبدعُ لكل ما في الكون ﴿الباريء﴾ أي المخترع المنشىء للأعيان، من العدم إلى الوجود، على طريق الكمال والجمال، وليس كلُّ من يعمل عملاً يُتقنه، إلا ربُّ العزة والجلال ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ أي أرشده إلى مصلحته ومنفعته ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ أي المبدع صورة الخلق، في أشكال متباينة، وصور مختلفة ﴿يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ وما من صورة إنسان تماثل الأخرى ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي له جل وعلا أحسنُ الأسماء، وأكملُها وأشرفها ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي كل ما في الكون يُمجِّد الله ويعظمه وينزّهه، وهو العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، بدأ تعالى السورة بالتسبيح، وختمها بالتسبيح، تنبيهاً للعباد على عظمته جلَّ وعلا، وتعليماً لهم أن يسبِّحوه بكرة وأصيلاً، كما قال سبحانه ﴿فسبحان الله حين تُمسون وحين تصبحون﴾.

انتهى تفسير سورة الحشر

● ● ●

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾

تفسير سورة الممتحنة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ ناداهم بوصف الإيمان، حفزاً لهم على الاستجابة والطاعة، **والمعنى**: يا معشر المؤمنين، لا تتخذوا الكفار الذين هم أعدائي وأعداءكم، أصدقاء وأحباء، وأنصاراً، تودُّونهم وتصادقونهم، وتطلعونهم على أسراركم، بسبب هذه الصداقة ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي كذبوا بالقرآن المنزل إليكم من ربكم، وجحدوا رسالة نبيكم محمد ﷺ ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي بسبب أنهم أخرجوا الرسول ﷺ، وأخرجوكم من أوطانكم، لا لذنبٍ اقترفتموه، سوى أنكم آمنتم بالله ربكم!! فهل بعد هذا الجرم الشنيع ـ إخراجكم من دياركم ـ ما يدعو إلى الصداقة والمودَّة؟ ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي﴾ هذا شرط حُذف جوابه، أي إن كنتم خرجتم من أوطانكم، مجاهدين في سبيل الله، طلباً لرضوان الله تعالى، فلا تتخذوهم أولياء، وبمعنى أوجز: إن كنتم أوليائي، فلا تتولَّوْا أعدائي ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ أي تقدّمون لهم النصيحة بالسرِّ والخفاء، وأنا العالم بسريرتكم وعلانيتكم، فماذا يجدي الإسرارُ والإخفاء؟ وفي هذا عتاب، ومع العتاب الإنذارُ والتهديد، ولهذا قال بعده ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي ومن أحبَّ وصادق أعداء الله، فقد أخطأ طريق الإيمان والجنة ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي إن يظفروا بكم ويغلبوا عليكم، يظهرون لكم كامل

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾

العداوة، ويمدُّون أيديهم إليكم بالقتل، والأسر، وألسنتهم بالمسبَّة والشتيمة، والأدهى من ذلك والأمرُّ، أنهم يتمنون كفركم، وارتدادكم عن الإسلام، فإن مودة أمثالهم خطأ عظيم، ضار بالدنيا والدين ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي لن تنفعكم القرابات، ولا الأرحام، ولا الأولاد، الذين توالون الكفار من أجلهم، ويوم القيامة لن يجلبوا لكم نفعاً، ولن يدفعوا عنكم ضراً، ﴿يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه﴾ وفي ذلك اليوم العصيب يحكم الله بين المؤمنين والكافرين بحكمه العادل، فيدخل المؤمنين الجنة، والكافرين نار السعير ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي مطَّلعٌ على أعمالكم ومجازيكم عليها.

سبب النزول: نزلت هذه الآيات في قصة (حاطب بن أبي بلتعة) كان من المهاجرين، وقد شهد غزوة بدر، فلما نقض المشركون عهدهم مع رسول الله ﷺ، وتجهَّز الرسول ﷺ لفتح مكة، أرسل (حاطب) إلى أهل مكة، يخبرهم أن الرسول تجهَّز لقتالهم، ليأخذوا حذرهم، وأرسل لهم رسالةً مع امرأة مسافرة، ونزل جبريل عليه السلام يخبر الرسول بالأمر، فبعث الرسول (علياً، والزبير، والمقداد) وقال لهم: انطلقوا إلى روضة خاخ ـ بستان قريب من المدينة ـ فإن بها ظعينة ـ أي مسافرة ـ معها كتاب فخذوه منها، فانطلقوا مسرعين حتى أتوا الروضة، ووجدوا المرأة، فقالوا لها: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي كتاب، فقال لها علي: لتخرِجِنَّ الكتاب أو لنلقين عنك الثياب، فأخرجته من ضفائر شعرها، فأتوا به النبي ﷺ، فإذا به (من حاطب إلى ناسٍ من المشركين من أهل مكة، يخبرهم ببعض الأمر) فقال له الرسول ﷺ: ما هذا يا حاطب؟ فقال: يا رسول الله! لا تعجلْ عليَّ!! إني لم أكن من العشيرة، وكان من معك من المهاجرين، لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببت أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلتُه كفراً، ولا ارتداداً عن ديني!! فقال الرسول ﷺ: إنه قد صَدَقكم، فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عُنق هذا المنافق!! فقال له الرسول ﷺ: يا عمر إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطَّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم!! فأنزل الله عز وجل هذه الآيات

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء..﴾ أخرجه البخاري ومسلم ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي قد كانت لكم يا معشر المؤمنين، قدوةٌ حسنة، في أبي الأنبياء خليل الرحمن (إبراهيم) عليه السلام، وفي أتباعه المؤمنين، حين قالوا لقومهم المشركين: إنَّا متبرءون منكم، ومما تعبدون من الأصنام والأوثان ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ أي لقد قطعنا صلتنا بكم، وكفرنا بدينكم، وظهرت بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاء، أبدَ الدهر، ما دمتم على الكفر والضلال، حتى تعبدوا الله وحده، وتتركوا عبادة الأصنام والأوثان، فتنقلب العداوة إلى صداقة، والبغضاء إلى محبة ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ أي اقتدوا بإبراهيم، إلاَّ في استغفاره لأبيه، فلا تقتدوا به في ذلك، فإن استغفاره لأبيه المشرك، كان عن موعدةٍ وعدها إياه، ﴿فلمَّا تبيَّن له أنه عدوٌ لله تبرَّأ منه﴾ وقولُه ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي قال إبراهيم لأبيه: لا أستطيع أن أدفع عنك شيئاً من عذاب الله، إن لم تؤمن ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وقولوا في دعائكم كما قال إبراهيم وأصحابه: يا ربنا عليك اعتمدنا في جميع أمورنا، وإليك رجعنا وتبنا، وإليك وحدك المرجعُ والمعاد في الآخرة ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي لا تسلِّط علينا الكفار، فيفتنونا عن ديننا، بعذاب لا نطيقه، واغفر لنا ذنوبنا، فإنك أنت يا الله ﴿العزيز﴾ الذي لا يذلُّ من التجأ إليه ﴿الحكيم﴾ الذي لا يفعل إلا ما فيه المصلحة، وتكرارُ النداء للمبالغة في التضرع إلى الله ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي لقد كان

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨﴾

لكم قدوة حسنة في معاداة الكفار، فقدوتكم إبراهيمُ وأتباعه المؤمنون، لمن كان منكم صادق الإيمان، يرجو ثواب الله، ويخشى عقابه، ومن يعرضْ عن الإيمان ويوالِ الكفار، فإن الله مستغن عنه وعن أمثاله، وهو المحمود في ذاته وصفاته.. نبَّه تعالى إلى أنَّ من شروط الإيمان: بغضَ أعداء الله، وموالاة أوليائه وأحبابه، وأنه لا ينفع في الآخرة حَسَبٌ ولا نسب، والمعصوم من عصمه الله.. ولما امتثل المؤمنون أمرَ الله، فعادوا آباءهم وأبناءهم، وجميع أقربائهم المشركين، طلباً لرضوان الله، أطمعهم تعالى في تحويل الحال وجمع الشمل، مؤانسةً لهم، فقال سبحانه ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي لعلَّ الله يُغيِّرُ الحالَ، فيجعل بينكم وبين أقاربكم الكفار محبة ومودة، بأن يُسلموا فتزول عوامل الشحناء والبغضاء، بينكم وبينهم، والله قادر على ذلك، وهو سبحانه واسع المغفرة والرحمة!! وقد حقَّق الله ذلك، في (فتح مكة) فجمع الله الشمل، وحلَّت المحبةُ مكان البغضاء، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ أي لا يمنعكم الله من إكرام هؤلاء، الذين لم يقاتلوكم من أجل إيمانكم بالله، ولم يخرجوكم من أوطانكم من أجل إسلامكم، لا يمنعكم أن تحسنوا إليهم، وتعدلوا معهم، فإن الله يحب العادلين في أقوالهم وأعمالهم!! نزلت هذه الآية كما يقول المفسرون في (أسماء بنت أبي بكر الصديق) كان أبو بكر قد تزوَّج أمَّها، ثم طلَّقها في الجاهلية، ثم قدمت مشركةً على ابنتها (أسماء) في المدة التي كان فيها «صلحُ الحديبية» فأبت أن تُدْخِلها بيتها، وأن تقبل منها الهدايا، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فنزلت الآية ﴿**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين..**﴾ الآية، فأمرها رسول الله ﷺ أن تُدخلها منزلها، وأن تقبل هديتها، وتكرمها وتحسن إليها» رواه أحمد.. وروى البخاري ومسلم عن أسماء أنها قالت: (قَدِمتْ عليَّ أمي وهي مشركة، فاستفتيتُ رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله: إن أمي قدمت عليَّ وهي راغبة ـ أي في زيارتي ومودتي ـ أفأصِلُها؟ قال: نعم، صِلِي أمَّكِ)

إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ

رواه البخاري ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾أي إنما ينهاكم ربُّكم ويحذِّركم من موالاة أعداء الله، الذين ناصبوكم العداوة، وقاتلوكم لأجل دينكم، وأعانوا المشركين على إخراجكم من أوطانكم، أن تتولوهم فتتخذوهم لكم أحباباً وأنصاراً، ومن يصادقهم فقد ظلم نفسه، لأنه عرَّضها لعذاب الله وسَخَطه.!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾أي إذا جاءكم النساء المؤمنات، مهاجراتٍ من دار الشرك، فاختبروا إيمانهنَّ، وجملة **﴿الله أعلم بإيمانهن﴾** جملة اعتراضية لبيان أن حقيقة الإيمان لا يعلمها إلا الله، وإنما لنا الحكم بالظاهر ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾أي فإن تحققتم إيمانهنَّ بعد امتحانهن، فلا تردوهنَّ إلى أزواجهم الكفار، فإن المسلمة لا تحلُّ للمشرك، ولا أن تبقى في عصمته وتحت سيطرته، ولا يحلُّ للمسلم أن يُبقيَ زوجة مشركةً في عصمته، فقد فرَّق الإسلام بينهما، والزواج قائم على أساس المودة والأنس، فكيف تبقى المسلمة في كَنَف المشرك، وهو يحارب دينها ويكره عقيدتها؟ ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾أي وادفعوا لأزواجهن الكفار ما أنفقوا عليهنَّ من المهور، فلا تجمعوا على المشرك خسران زوجته وماله!! وتلك هي عدالة الإسلام حتى مع أعدائه المشركين ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾أي لا إثم ولا حرج عليكم أن تتزوجوا هؤلاء المهاجرات، إذا دفعتم لهن مهورهنَّ ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾الكوافر جمع كافرة، أي ولا تتمسَّكوا بعقود زوجاتكم

وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا

الكافرات، فليس بينكم وبينهنَّ عصمة، ولا علاقة زوجية، فمن كانت امرأته كافرة فلا يعتدُّ بها، فليست امرأته، لأن الإسلام فرّق بينهما﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾ أي اطلبوا ما أنفقتم من مهور نسائكم اللاحقات بالكفار، وليطلب المشركون ما أنفقوا على زوجاتهم المهاجرات، ممن لحقن بدار الإسلام﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ أي ذلك هو حكم الله وشرعه العادل، بينكم وبين أعدائكم المشركين، والله عليم بمصالح العباد، حكيم في تشريعه.!

قال ابن عباس: كان صلح الحديبية قد تضمنَّ (أن من أتى أهل مكة من المسلمين لم يُردَّ إليهم، ومن أتى من المشركين إلى المسلمين رُدَّ إليهم) فجاءت «أم كلثوم» بنت عُقبة بن أبي معيط، وهي أول مهاجرة من النساء، إلى المدينة بعد هجرة رسول الله ﷺ، فلحقها أخواها فقالا يا محمد: أَوْفِ لنا بشرطنا، فقال ﷺ: كان الشرط في الرجال لا في النساء، فأنزل الله الآية، فكانت المرأة المهاجرة تُستحلف، أنها ما هاجرتْ بُغضاً لزوجها، ولا طمعاً في الدنيا، إنما خرجت حباً في الله ورسوله، ورغبةً في دين الإسلام﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ﴾ أي وإن فرَّتْ زوجة أحدٍ من المسلمين ولحقت بالكفار، فغزوتم وغنمتم وأصبتم من الكفار غنيمة﴿فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ أي فأعطوا من الغنيمة لمن فرَّت زوجته، مثلَ ما أنفق عليها من المهر، وراقبوا الله في أقوالكم وأعمالكم، واحذروا عذاب وانتقام ربكم الجليل الذي آمنتم به، وصدقتم بوجوده ووحدانيته!! رُوي أن الآية لما نزلت **﴿واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا﴾** قال المسلمون رضينا بحكم الله، وأدوا ما أُمروا به من مهور المهاجرات، إلى أزواجهن المشركين، وأبى المشركون أن يدفعوا شيئاً من مهور الكافرات إلى أزواجهن المسلمين، فأمر تعالى المسلمين أن يدفعوا إليهم من الغنائم، وهذا هو الفارق بين أهل الإيمان، وأهل الكفر والطغيان﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا

يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

يَزْنِينَ﴾ لمَّا فتح رسولُ الله ﷺ مكة، جاءه نساؤها يبايعنه على الإسلام، كما بايعه الرجال، فشرع ﷺ في بيعة النساء، فكان ﷺ يبايعهن على عدم الإشراك بالله، وأن لا يرتكبن جريمة السرقة، وجريمة الزنى، وجاءت (هند امرأة أبي سفيان) ضمن المبايعات ـ وهي التي شقَّت بطن حمزة يوم أُحد ـ جاءت متنكِّرة، فلما قرأ عليهن رسول الله ﷺ **﴿أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن﴾** قالت يا رسول الله: إن أبا سفيان رجل شحيح، وإني أصيب بعض الشيء من ماله، أفيحلُّ لي ذلك؟ فقال أبو سفيان: ما مضى فهو لك حلال!! فضحك رسول الله وعرفها، فقال لها: وإنك لهندُ بنتُ عُتبة؟ قالت: نعم يا رسول الله، اعفُ عمَّا سَلَف، عفا الله عنك!! فلما قرأ **﴿ولا يزنين﴾** قالت: أوَ تزني الحرة؟ فلما قرأ ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ قالت: ربيَّناهم صغاراً وقَتلْتَهم كباراً، فأنتم وهم أعلم ـ وكان ابنها حنظلة قد قُتل يوم بدر فضحك عمر حتى استلقى، وتبسَّم رسول الله ﷺ، فلما قرأ ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ فقالت هند: والله إن البهتان لأمرٌ قبيح، ولا يأمر الله إلاَّ بالرُّشد، ومكارم الأخلاق والمراد بالبهتان في الآية، أن لا يُلحقن بأزواجهن غير أولادهم، بأن تقول: هذا ولدي منك وليس منه ولما قرأ ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ قالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء) رواه ابن جرير، ثم قال تعالى ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي فبايعهن على هذه الشروط، واطلب لهن من الله المغفرة والرحمة، فإن الله واسع المغفرة، عظيم الرحمة، قالت عائشة رضي الله عنها: (فمن أقرَّ بهذا الشرط من المؤمنات، قال لها رسولُ الله ﷺ: قد بايعتك ـ أي يقول لها ذلك كلاماً ـ وواللهِ ما مَسَّتْ يدُ رسول الله ﷺ يد امرأة قط) رواه البخاري، وروى أحمد في المسند (قلنا يا رسول الله: ألا تصافحنا؟ قال: إني لا أصافح النساء، إنما قولي لامرأةٍ واحدة، قولي لمائة امرأة، ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ أي لا تصادقوا الكفار أعداء الدين، ولا تتخذوهم

أحباء وأصدقاء لكم، فإنهم قوم قد غضب الله عليهم، وطردهم من رحمته، وهم قد يئسوا من الحياة الآخرة، كما يئس الكفار من أمواتهم، أن يعودوا إليهم بعد الموت، حيث كانوا يقولون: هذا آخر العهد به، ولن نراه أبداً!!

ختم الله السورة بالنهي عن موالاة الكفار، كما بدأها بالنهي عن موالاة الكفار، ليتناسق البدء مع الختام، في أروع صور التحذير، وأبدع النظام!.

انتهى تفسير سورة الممتحنة

● ● ●

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي

تفسير سورة الصف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي نزَّه الله، وقدَّسه، ومجَّده جميعُ ما في السموات والأرض، من مَلَكٍ، وإنسان، ونبات، وجماد، وهو ﴿العزيزُ﴾ أي الغالب في ملكه، ﴿الحكيم﴾ في تدبيره وصنعه﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾؟ عتاب للمؤمنين على عدم موافقة العمل للقول، **والمعنى**: لمَ تقولون شيئاً بألسنتكم ولا تفعلونه؟ وهو استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ، كأنه يقول: هذا شيء عجيبٌ جداً أن يقول الإنسان شيئاً ولا يفعله!! روي أن المؤمنين قالوا ـ قبل أن يؤمروا بالجهاد ـ لو علمنا أحبَّ الأعمال إلى الله لعملناه، فلما نزلت آيات الجهاد، تباطأ بعضهم، وكرهه بعضهم، فنزلت الآية، رواه الترمذي وأحمد﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي عَظُم فعلكم هذا، بغضاً عند الله تعالى، أن تتحدثوا بما لا تعملون، بمعنى: ما أبغضَ هذا الفعل عند الله!! والمقتُ في اللغة: أشدُّ البغض﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ أي إن الله سبحانه يحب المقاتلين في سبيله، الذين يثبتون في الميدان، كأنهم بناء محكمٌ، قد رُصَّ بعضه إلى بعض، لا يفرُّون ولا ينهزمون، ولا يضعفون أمام الأعداء.. شبَّههم تعالى بالبناء المحكم، الذي رُصفت حجارتُه، ورُصَّ بعضها إلى بعض، حتى صار كالسدِّ المنيع!! وهذا صريح في أن ما قالوه كان عبارة عن الوعد بالقتال.. ثم ذكَّرهم تعالى بموقف بني إسرائيل المخزي، أمام نبيهم موسى عليه السلام فقال سبحانه﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي

وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٦﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾

﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾ أي اذكر يا أيها الرسولُ لهؤلاء المعرضين عن القتال، حين قال موسى لبني إسرائيل: يا قوم لم تفعلون ما يؤذيني، وأنتم تعلمون علم اليقين، أني رسولُ الله إليكم، بما تشاهدونه من المعجزات، التي أيدَّني الله بها؟ ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي فلمَّا مالوا عن الحقِّ وحادوا عنه، صرف الله قلوبهم عن الهدى، والله لا يوفِّقُ للخير، الخارجين عن طاعة الرحمن!! والإشارة في الآية إلى إذايةِ موسى، يراد بها هنا قولهم ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا ههنا قاعدون﴾ وذلك حين ندبهم إلى قتال الجبابرة، مع إذايات أخرى متعددة ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ أي واذكر يا محمد أيضاً لقومك، حين قال عيسى لبني إسرائيل: إني رسولٌ مرسل من الله إليكم، جئت معترفاً بأحكام التوراة، ولم آت بشيء يخالف التوراة حتى تنفروا مني ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أي وجئتُ لأبشركم ببعثة رسول يأتي من بعدي، هو خاتم الأنبياء يسمى (أحمد) وهو اسم لنبينا محمد ﷺ، كما جاء في الحديث الصحيح (لي خمسةُ أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا العاقب) رواه البخاري ومسلم.

ومعنى العاقب: الذي لا نبيَّ بعده، أي أنا خاتم الأنبياء ﴿فلما جاءهم بالبينات﴾ أي المعجزات الواضحات، قال اليهود اللعناء عن (عيسى ابن مريم): هذا ساحر ماهر، وليس برسول وهمُّوا بقتله، والغرضُ من هذه الآيات، تسليةُ النبي ﷺ عن إيذاء قومه له، فقد أوذي موسى، وعيسى، وكثير من الأنبياء قبلهما، وكأن الآية تقول له: اصبر على هؤلاء المشركين من قومك، فلستَ أنت أول نبي يُؤذى، فقد أوذي قبلك أنبياء كثيرون ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا أحد أشقى ولا

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

أظلم، ولا أفجر، ممن يُدعى إلى الإسلام، لنيل سعادة الدارين، فيكذِّب الرسولَ ويستهزىء منه!؟ والله لا يوفق للحق من كان ظالماً فاجراً ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي يريد أعداء الله (المشركون واليهود، والنصارى) أن يطمسوا نور الإسلام ويقضوا عليه، والله سبحانه متم نوره بإعلاء دين الإسلام، ولو كره أعداء الله ذلك!! وقد جاء التعبير بأبلغ أساليب الروعة والإبداع، حيث صوَّر حال هؤلاء الأعداء، بصورة إنسان أحمق، أراد أن يطفىء نور الشمس، بفمه الصغير الحقير، فنفخ عليها، فهل يذهب نورُها وينطمس ضياؤها؟ ولهذا قال ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾ والمراد بنور الله هنا: الإسلامُ، بدليل قوله تعالى بعده ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ أي هو جلَّ وعلا الذي أرسل محمداً بالقرآن الواضح، والدين الساطع، ليعلي دين الإسلام على جميع الأديان، ولو كره المشركون ذلك، وقد حقَّق الله وعده، بإعزاز دين الإسلام، فانتشر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعلا فوق جميع الأديان!!

وليس المراد بقوله ﴿ليظهره على الدين كله﴾ أن لا يبقى في العالم دينٌ سوى دين الإسلام، بل المراد أن يكون أهلُه، عالين غالين على سائر أهل الأديان، بالحجة والبرهان، إلى آخر الزمان، فهو الدين الحقُّ الذي يعلو ولا يُعلى عليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا أسلوب تشويق وترغيب، أي هل أرشدكم يا معشر المؤمنين إلى تجارةٍ رابحةٍ؟ لا تكسد ولا تخسر؟ بل هي في ربح دائم مستمر، تنقذكم وتخلِّصكم من عذاب شديد مؤلم؟ ثم بيَّن تعالى تلك التجارة العظيمة الرابحة، وبيَّن شروطها فقال سبحانه: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي تـؤمـنـون بالله وبرسوله محمد ﷺ، إيماناً صادقاً صافياً، لا يشوبه شكٌّ ولا نفاق، وتجاهدون أعداء الله، لإعزاز دينه، بالأموال والأنفس، وذلك الإيمان والجهاد في سبيله، خير لكم دنيا

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

وآخرة، إن كان عندكم علمٌ وفهم!! وأمّا ثمرةُ هذه التجارة، فقد وضَّحها تعالى بقوله ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي يستر ذنوبكم ويمحها بفضله عنكم، ويدخلكم حدائق وبساتين، تجري من تحت قصورها ومساكنها أنهارُ الجنة، ويسكنكم في قصور عالية رفيعة، ﴿في جنات عدن﴾ أي في جنان الإقامة الدائمة، وذلك هو الفوز العظيم، الذي لا سعادة ولا فوز وراءه، لأنه الخلود في دار النعيم ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وفوق هذا النعيم لكم (نعمة أخرى) عاجلة تحبونها، وهي النصر على الأعداء، وفتح عاجل قريب هو «فتح مكة» وبشِّرْهم يا أيها الرسول بهذا الفضل الكبير، من رب العزة والجلال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ أي كونوا أنصار دينه، وأتباع رسوله، واستمسكوا بهذا الدين المبارك ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي كما قال عيسى لأصحابه الحواريين: من يحميني ويناصرني لتبليغ دعوة الله ونصرة دينه؟ قال الحواريون: نحن أنصار دين الله ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ أي فانقسم بنو إسرائيل إلى طائفتين: طائفة آمنت به وهم (الحواريُّون) والمؤمنون من أتباعه، وطائفة أخرى كفرت به، وهم (اليهُود) اللُّعناء، فنصرنا المؤمنين على من عاداهم من الكفرة الظالمين، فأصبحوا عالين غالبين عليهم، لأن الحقَّ دائماً هو الغالبُ المنتصرُ، اللهم انصرْ دينك وكتابك، وعبادكَ الصالحين. !

انتهى تفسير سورة الصف

● ● ●

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾

تفسير سورة الجمعة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي ينزّه الله ويمجّده ويقدّسه، كل شيء في الكون، من إنسان، وحيوان، ونبات، وجماد، وصيغة المضارع **﴿يسبح﴾** لإفادة التجدد والاستمرار، فهو تسبيح دائم على الدوام، بدون انقطاع، فالكون كله ناطقه وجامده يسبِّح الله أي ينزهه عمَّا لا يليق به من صفات النقص **﴿الملك القدوس﴾** أي المالك لكل شيء، المتصرف في الأشياء بالإحياء والإعدام، المقدَّس المنزَّه عن النقائص **﴿العزيز الحكيم﴾** أي الغالب القاهر في ملكه، الحكيم في صنعه ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي هو جل وعلا بحكمته ورحمته، اختار من العرب رسولاً من جملتهم، اختار (محمداً) عليه الصلاة والسلام، أمياً مثلهم، لا يقرأ ولا يكتب، لينقذهم من ضلالة الكفر والجهل، ويقرأ عليهم آيات الذكر الحكيم، ويُطهِّرهم من دنس الكفر والمعاصي، ويُعلِّمهم القرآن والشريعة ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي وقد كان حالهم وشأنهم قبل بعثة هذا الرسول، أنهم كانوا في ضلال واضح، ما بعده ضلال!! ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي وبعث خاتم النبيين إلى قوم آخرين، لم يكونوا في زمانهم، وسيجيئون بعدهم، وهم جميع من أسلم إلى يوم القيامة، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: (كنا جلوساً عند النبي ﷺ، فأُنزلتْ عليه سورة الجمعة **﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾** قلت: من هم يا رسول الله ـ وفينا سلمان الفارسيُّ ـ فوضع رسولُ الله ﷺ يده على سلمان، ثم قال: لو

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾﴾

كان الإيمان بالثُريَّا، لناله رجال من هؤلاء) وقد حقَّق اللَّهُ ذلك، فمعظم المحدِّثين وحُماة الشريعة، من غير العرب، من الأعاجم، كالبخاري، ومسلم، وابن ماجة، وغيرهم كثير وكثير، والذين دخلوا في الإسلام من غير العرب لا يُحصون عدداً!! ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي اختيار الله لمحمد ﷺ من العرب، واختياره لأمته لحمل (الرسالة الكبرى) هو فضل الله، يعطيه من يشاء من عباده، وهو أعلم بمن يستحق هذا الفضل العظيم.. والآية ردٌّ على (اليهود)، حيث حصروا النبوة في بني إسرائيل، وكذَّبوا برسالة محمد، فأخلفَ الله ظنَّهم، وبيَّن أن فضله لا ينحصر في فئةٍ معينة!! ثم شرع تعالى في ذم اليهود، الذين أكرمهم الله بالتوراة، فلم يطبقوها ولم ينتفعوا بما فيها، فقال سبحانه ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ أي مثل اليهود الذين أُعطوا التوراة، وكُلِّفوا بالعمل بها، ثم لم يطبِّقوها ولم يعملوا بما فيها، كمثل الحمار الذي يحمل الكتب الضخمة النافعة، ثم لا ينتفع بما فيها، ولا نصيب له فيها إلا التعب والعناء!! وهو أقبح مَثَلٍ ضربه الله تعالى، لمن لم ينتفع بأنوار الهداية الإلهية ﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي بئس هذا المثلُ ـ الذي ضُرب لليهود ـ مثلاً للقوم الضالين، المكذبين لآيات الله، ومنها الآياتُ الدالة على نبوة (خاتم المرسلين) ﷺ، والله لا يوفق للخير، ولا يرشد للإيمان، من كان فاسقاً ظالماً، عاصياً لأمر الله!! وفي الآية تعريضٌ بنا نحن المسلمين، إذا لم نطبِّق آيات القرآن المبين، على حدِّ قول المثل السائر «إيَّاكِ أعني واسمعي يا جارة» ثم كذَّب الله اليهود، في زعمهم أنهم (أحباب الله)، فقال سبحانه ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي قل يا أيها الرسول لهؤلاء اليهود: إن كنتم تزعمون

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٧ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾

أنكم أحبابُ الله وأولياؤه، فتمنوا من الله أن يميتكم، لِتُنقلُوا سريعاً إلى دار كرامته، المعدَّة لأوليائه المقرَّبين عنده، لأن من أيقن أنه من أهل الجنة، أحبَّ أن يتخلَّص من دار الأكدار، **﴿إن كنتم صادقين﴾** في هذه الدعوى!! والآية ردٌّ على قول اليهود **﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾** وقولهم **﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً﴾** أي لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، قال تعالى فاضحاً لهم، ومقرراً كذبهم: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي ولا يتمنون الموت أبداً، بسبب ما ارتكبوه من جرائم وآثام، واللّهُ عليم بظلمهم وإجرامهم، وهذه من معجزات (القرآن الغيبية)، حيث تحداهم القرآن أن يتمنوا الموت، وأخبر عنهم خبراً قاطعاً جازماً، أنهم لا يتمنونه، وكان الأمر كما أخبر، ولو أنهم تمنوا الموت لماتوا، كما جاء في الحديث الصحيح (لو أن اليهود تمنَّوْا الموتَ لماتوا، ورأوا مقعدهم من النار) رواه البخاري، فهل بعد هذا التحدِّي الصارخ من برهان؟

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي قل لهم: إن هذا الموت الذي تكرهونه، وتهربون منه، وتخشون أن تتمنوه ولو بألسنتكم، فإنه آتيكم لا محالة، ولا ينفعكم الفرار منه، لأنه قضاء مبرم، وقَدَرٌ محتوم، ثم ترجعون إلى رب العزة والجلال، الذي لا تخفى عليه خافيه، فيجازيكم على أعمالكم القبيحة.. ثم شرع تعالى في بيان أحكام فريضة الجمعة، فقال سبحانه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إذا سمعتم المؤذن يؤذن لصلاة الجمعة، فامضوا وامشوا إلى سماع خطبة الجمعة، وأداء الصلاة، واتركوا البيع والشراء، وسائر أنواع التجارة، وجميع الأشغال، اتركوا تجارة الدنيا إلى تجارة الآخرة الرابحة، فإن ذلك خير لكم وأنفع، من جميع مكاسب الدنيا، إن كنتم من ذوي العلم والفهم

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي فإذا أديتم الصلاة وفرغتم منها، فتفرقوا في الأرض لطلب الرزق والمعاش، وقضاء مصالحكم، واذكروا ربكم ذكراً كثيراً، لتفوزوا بخيرَيْ الدارين، وتسعدوا وتفلحوا ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ هذا عتاب لأصحاب النبي ﷺ، الذين انصرفوا عن سماع الخطبة، وتركوا الرسول يخطب على المنبر، أي وإذا سمعوا بتجارة رابحة، أو شيء من لهو الدنيا وزينتها، تفرَّقوا عنك وانصرفوا، وتركوك يا محمد قائماً تخطب على المنبر، روي أن «دحية الكلبي» قدم بتجارة من الشام، وكان بالمدينة مجاعةٌ وغلاء سعر، وكان في القافلة أنواع الطعام، من (برٍّ، ودقيق، وزيت، وزبيب)، فلما علم أهل المسجد ذلك قاموا يتسابقون نحو التجارة القادمة، خشية أن تفوتهم الأرزاق، وما بقي مع النبي ﷺ إلاَّ عددٌ يسير!! روى البخاري عن جابر أنه قال: (أقبلت عِيرٌ يوم الجمعة، ونحن مع النبي ﷺ، والنبيُّ يخطب، فخرج الناسُ وبقي اثنا عشر رجلاً، أنا فيهم وأبو بكر، وعمر، فنزلت **﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً﴾** رواه البخاري ومسلم ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي قل لهم يا أيها الرسول: إن ما عند الله من الثواب والنعيم، خيرٌ مما ينالكم من الرزق العاجل، واللَّهُ هو الرزَّاق ذو القوة المتين، **قال الحافظُ ابن كثير**: وينبغي أن يُعلم، أن هذه القصة كانت لمَّا كان ﷺ يُقدِّم الصلاة على الخطبة يوم الجمعة، كما هو الحال في صلاة العيدين، كما روى ذلك أبو داود أنه كان يصلِّي الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين، ثم قُدِّمت الخطبةُ على الصلاة، وهذا هو المعهود عن صحابة رسول الله رضوان الله عليهم، فما تركوا الصلاة، إنما تركوا سماع الخطبة) انتهى كلام الحافظ ابن كثير، والله تعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم.

انتهى تفسير سورة الجمعة

• • •

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾

تفسير سورة المنافقون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي إذا أتاك يا أيها الرسول المنافقون، وحضروا مجلسك ـ مثل عبد الله بن سلول وأصحابه ـ قالوا بألسنتهم نفاقاً ورياءً: نشهد بأنك يا محمد رسولُ الله، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون فيما يقولون لك!! أكّدوا كلامهم بمؤكِّدَيْن «إن» و«اللام» ﴿إنك لرسول الله﴾ للإيهام بأن شهادتهم صادقة، منبعثة عن القلب، وعن يقين برسالته عليه السلام، وقد كذَّبهم الله في دعواهم، وجاءت جملة ﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾ اعتراضية بين الشرط وجوابه، لدفع توهُّم أن الله كذَّبهم في قولهم: (إنك لرسولُ الله) وإنما كذَّبهم تعالى لأنهم أظهروا خلاف ما أبطنوا، وقالوا بألسنتهم ما لا يعتقدونه في قلوبهم، ولو لم تذكر هذه الجملة الاعتراضية، لتوهَّم السامعُ إبطال الرسالة، والأصلُ في الآية: قالوا نشهد إنك لرسولُ الله، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي جعلوا أيمانهم الكاذبة ﴿جُنة﴾ أي وقاية لهم وستراً، يستترون بها من القتل أو الأسر، فما دخلوا في الإسلام عن قناعة وإيمان، وإنما عن خُبثٍ ومكر، فمنعوا الناس عن الإيمان، والإنفاق والجهاد في سبيل الله، بسبب هذا الكيد والمكر، فبئس هذا الصنيعُ منهم، وهل هناك أسوأ من الخداع والكذب لتضليل الناس، والصدّ عن سبيل الله؟ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي ذلك التلاعب في الدين، بسبب أنهم آمنوا في الظاهر، وكفروا في

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾

الباطن، فنطقوا (بكلمة الإيمان) أمام المؤمنين، و(بكلمة الكفر) عند رؤساهم المنافقين، فختم الله على قلوبهم، جزاء كفرهم ونفاقهم، فهم لا يفقهون حقيقة الإيمان، ولا حلاوة تأثيره في القلوب ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ أي وإذا نظرت إليهم أعجبتك أجسامهم، وراقك منظرهم، لضخامتها وحسن أشكالها، وإذا تحدثوا أصغيتَ لكلامهم، لفصاحتهم وذلاقة لسانهم، وكان رئيسهم «ابن سلول» رجلاً جسيماً، فصيح اللسان والبيان، وكذلك كان بعضُ أصحابه المنافقين﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ أي ولكنهم كالخُشب المنصوبة، المستندة على الحائط، أجسامهم خالية من العلم والخير والفهم، وفي هذا التشبيه روعةٌ وجمال، فقد شُبِّهوا بأخشاب منصوبة على الجدران، يسمعون الكلام ولا يَعُونه، فهم أشباحٌ بلا أرواح، خالون من العقل والفهم، لا يفقهون ولا يعقلون، كما قال القائل (جسمُ البغالِ وأحلامُ العصافير) ثم بيَّن تعالى ما في قلوبهم من الجبن والفزع، فقال سبحانه﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ أي يظنون لفرط جبنهم وهَلَعهم، كلَّ نداءٍ وكلَّ صوتٍ، أنهم هم المقصودون بذلك، وأنهم هم المطلوبون للعقاب، والتعبيرُ الرائع يرسم صورتهم وكأنهم يخشون من ظلِّهم، فإذا نادى منادي رسول الله، لأمرٍ من الأمور، ظنوا أنهم المقصودون، على حدِّ قول المثل العربي (يكاد المريبُ يقول خذوني) هم الأعداء الحقيقيون، الذين ينبغي أن يحذر الناس منهم، فاحذرهم يا محمد ولا تأمنهم على شيء من سِرِّك، لأنهم عيون لأعدائك﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ جملة دعائية، أي أهلكهم الله ولعنهم، كيف يُصرفون عن الهدى إلى الضلال؟ وعن الحق إلى الباطل؟ وفيه تعجيبٌ من إغراقهم في النفاق والضلال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ أي وإذا قيل للمنافقين: هلمُّوا إلى الرسول ليطلب لكم المغفرة من الله، على ما اقترفتموه من جناية، في حق الرسول والمؤمنين، حرَّكوا رؤوسهم وهزُّوها، استكباراً واستهزاءً، وكأنهم يقولون: من هو رسولُ الله؟ وما قيمة استغفاره؟ ﴿ورَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي ورأيتهم يعرضون عن طلب

سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٧﴾

الاستغفار إعراضاً، وهم متكبرون عن الاعتذار، لغاية نفاقهم وضلالهم، **قال المفسرون:** حين نزل القرآن يفضح المنافقين، ويكشف عن خفايا نفوسهم، وما قالوه في حقِّ الرسول والمؤمنين، من الكلام القبيح، مشى إليهم أقرباؤهم من أهل الإيمان، وقالوا لهم: تعالَوْا إلى رسول الله ﷺ فاعتذروا لديه، ليطلب لكم من الله المغفرة والرحمة!! أداروا رؤوسهم وحرَّكوها استهزاءً واستكباراً، ورفضوا أن يعتذروا.. وروي أن «عبد الله بن سلول» رئيس المنافقين، لمَّا قال في حق الرسول ما قال، ونزل القرآن يفضحه، جاء إليه بعضُ جماعته من أهل الصدق والإيمان، فقالوا له: لقد افتضحتَ، فامضِ إلى رسول الله ﷺ واعترف بذنبك، يستغفر لك!! فلوَّىٰ رأسه وهزَّه استكباراً، ثم قال لهم: لقد أشرتم عليَّ بالإيمان فآمنتُ، وأشرتم عليَّ بالزكاة ففعلتُ، ولم يبق لكم إلاَّ أن تأمروني بالسجود لمحمد!! ولوَّىٰ رأسه كالمستهزىء، فنزلت الآية، وكذلك فعل أصحابه المنافقون، وقد جازاهم الله على ذلك جزاءً وفاقاً، يناسب إعراضهم واستهزاءهم، فقال لرسوله ﷺ ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي يتساوى عندهم استغفارك لهم، وعدم الاستغفار، لأنهم لا يؤمنون بنبوتك ورسالتك، فالأمر عندهم سواء، ولو فرضنا أنهم جاءوك فاستغفرت لهم، فإن الله لن يغفر لهم جرائمهم وجناياتهم، لأنهم غير مؤمنين، والله لا يوفق للإيمان وفعل الخير، من كان فاسقاً عاصياً، خارجاً عن طاعة الرحمن!! ثم زاد تعالى في كشف قبائحهم وجرائمهم فقال سبحانه ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾ أي هم الفسقةُ الفجرة، الذين قالوا لإخوانهم المنافقين: لا تنفقوا على هؤلاء الفقراء المهاجرين، حتى ينصرفوا عن محمد، وقولهم **﴿على من عند رسول الله﴾** إنما قالوه على سبيل السخرية والهزء، إذ لو كانوا مؤمنين برسالته، ما قالوا مثل ذلك الفجور، قال تعالى رداً عليهم ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ أي بيده تعالى مفاتيح الرزق، والأرزاق بيد الرزَّاق، فليسوا هم الذين

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

يرزقون الفقراء، حتى يوصي بعضهم بعضاً، ألاَّ ينفقوا على الفقراء، من أتباع محمد ﷺ، إنما الذي يُعطي ويمنع، ويُغني ويُفقر، هو الله ربُّ تالعالمين، ولكنَّ المنافقين لا يفقهون حكمة الله وتدبيره، في الإغناء والإفقار.. ثم ذكر تعالى ما هو أشنع وأقبح، من مقالتهم السابقة، في حق الرسول ﷺ والمؤمنين، فقال سبحانه ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذه المقالة الفاجرة، هي مقالة الشقي الأثيم، رأسِ المنافقين (عبد الله بن سلول) قال أخزاه الله في عودته من (غزوة بني المصطلق): لئن عدنا من المدينة، لنخرجنَّ محمداً وصحبه، نخرجه منها مهيناً ذليلاً، ونبقى فيها أعزةً كراماً، وقصد بقوله **﴿ليخرجن الأعزُّ منها الأذل﴾** قصد بالأعز نفسه، وبالأذل محمداً وصحبه، قاتله الله وأخزاه، ولنفسح المجالَ أمام شيخ المحدِّثين الإمام البخاري رحمه الله، لنسمع قصة هذا الشقي الفاجر، فقد روى في صحيحه عن زيد بن أرقم أنه قال: (كنتُ في غزوةٍ مع عمي، فسمعتُ عبد الله بن أُبَيّ بن سلول يقول **﴿لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا﴾** وقال أيضاً **﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل﴾** فذكرت ذلك لعمي، فذكره لرسول الله ﷺ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى (أبيِّ بن سلول) وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فصدَّقهم رسولُ الله ﷺ وكذَّبني، فأصابني همٌّ لم يصبني مثلُه قطُّ، فجلستُ في البيت!! فقال لي عمي: ما أردتَ إلاَّ أن كذَّبك رسولُ الله ومَقَتَك - أي أبغضك بسبب هذه القصة - فأنزل الله عز وجل هذه السورة **﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله...﴾** إلى قوله تعالى **﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا... يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذل...﴾** الآيات، فبعث إليَّ النبي ﷺ فقال: إن الله صدَّقك يا زيدُ، وقرأ عليَّ السورة.. ولمَّا نزلت الآيات في حقِّ ابن سلول، قال عمر: يا رسول الله دعني أضربْ عُنُق هذا المنافق!! فقال له المصطفى ﷺ: لا يا عمر، دَعْهُ، لا يتحدَّثُ الناسُ أن محمداً يقتل أصحابه) رواه البخاري، ومن المواقف البطولية الإيمانية، ما رواه أهلُ السير (أن واحداً من أبناء ذلك الشقي، واسمه (عبد الله) كان مؤمناً صالحاً، جاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: بلغني أنك تريد قتل أبي، فيما قاله عنك، فَمُرْني - أي كلِّفني - فأنا أحمل لك

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾

رأسه!! فوالله لقد علمت الخزرج، بأنه ما كان فيها رجلٌ أبرَّ بوالده منِّي، وإني أخشى أن تأمر غيري فيقتله، فلا تطاوعني نفسي أن أنظر إلى قاتل أبي، فأقتل مسلماً بكافر!! فقال له ﷺ: بل نترفق به ونحسنُ صحبته ما دام فينا!! فانصرف ابنه المؤمن، ووقف لأبيه في الطريق، على بعض أبواب المدينة، وهو راجع من السفر، واستلَّ سيفه، فلما وصل أبوه (ابن سلول) قال له ابنه: وراءك!! أي ارجع، فقال له: ما لَكَ ويلك؟ فقال له: والله لا تدخل المدينة، حتى تشهد أنك أنت الذليل المهين، وأن محمداً ﷺ هو الأعزُّ المكرَّم، وحتى يأذن لك رسولُ الله ﷺ في دخولها!! فشهد على نفسه بأنه هو الذليلُ المهين، وأن محمداً هو الأعز الأكرم، وبقي محبوساً حتى بلغ الخبر لرسول الله ﷺ فأذن له في دخول المدينة) وحقاً إنه لموقف عظيم من مواقف الإيمان، وصورة رائعة مشرقة من صور المحبة الصادقة، لمن بعثه الله رحمة للعالمين، تتجلى في قصة هذا الشاب المؤمن، مع أبيه الشقي المنافق!!

وقد ختم الله السورة الكريمة، بتحذير المؤمنين من انشغالهم بالحياة الدنيا ومتاعها، عن الآخرة ونعيمها، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي لا تشغلكم يا معشر المؤمنين الأموال ولا الأولاد، عن طاعة الله والجهاد في سبيله، والمراد بقوله ﴿عن ذكر الله﴾ أي طاعته وعبادته، وليس المراد بها الذكر باللسان فحسب، بل جميع العبادات من (صلاة، وصيام، وزكاة، وحج، وجهاد في سبيله) وسائر القربات والطاعات ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أي من شغلته الدنيا وشهواتها وملذاتها، وشغلته الأموال والأولاد عن عبادة ربه، فإنه هو الشقي الخاسر، خسر نفسه وسعادته!! ثم حثَّهم تعالى على الإنفاق في طاعته فقال ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١١﴾﴾

وأنفقوا في وجوه البر والخير والإحسان، من بعض ما رزقناكم، وتفضلنا به عليكم من أنواع الرزق، من قبل أن يحلَّ بكم الموتُ، فيقول أحدكم: يا ربِّ هلاَّ أمهلتني وأخَّرتَ أجلي إلى زمن قصير، لأتدارك أمري، وأتصدق وأعمل الخير والصالحات، وأكون من عبادك المحسنين!! قال تعالى رداً على هذا المتمنِّي: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي ولن يمهل الله أحداً من الخلق، أيّاً كان براً أو فاجراً، مؤمناً أو كافراً، إذا انتهى أجله، والله مطلع على أعمالكم ومجازيكم عليها!! بيَّن تعالى أن كل مفرطٍ في حياته، يندم عند الاحتضار، ويسأل طول العمر، ليستدرك ما فات، ولكنْ هيهات!! ﴿فإذا جاء أجلُهم لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون﴾.

انتهى تفسير سورة المنافقون

● ● ●

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾

تفسير سورة التغابن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي ينزِّه الله ويمجِّده جميع ما في السموات والأرض، من مخلوقات، طوعاً أو كرهاً، تنزيهاً دائماً مستمراً دون انقطاع، وتشهد له بالخلق والإبداع، وصيغة المضارع ﴿**يسبح**﴾ تفيد التجدد والاستمرار.. ثم وصف تعالى نفسه بصفات الجلال والكمال، فقال ﴿**له الملك وله الحمدُ وهو على كل شيء قدير**﴾ أي له جلَّ وعلا الملكُ الكاملُ التام، والتصرف في شؤون الخلق كما يشاء، لا رادَّ لحكمه، وهو القادر على كل شيء!! أخبر تعالى أن كلَّ ما في الكون، يشهد بوحدانيته، ويُسبِّح بحمده، ويعظِّمه ويقدِّسه ويمجِّده!! السموات وما فيها من (ملائكة، وشمس، وقمر، ونجوم، وأفلاك) والأرض وما فيها من (جبالٍ، وبحار، وأنهار، وأشجار، وأطيار) كلُّها مسبِّحةٌ بحمده، خاشعة لجلاله وعظمته، منقادة له، يتصرف فيها كيف يشاء!! وتسبيحُ كلِّ شيءٍ بحَسبه، فتسبيح الإنسان باللسان، وتسبيح الجماد بالانقياد لخالقه وبارئه، وإن لم ندرك نحن ونفهم هذا التسبيح، كما قال سبحانه ﴿**وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم**﴾ فالأملاك تسبح الله في عليائها، والأفلاك في دورانها وجريانها، والأنهار في خريرها، والأطيارُ في تغريدها، والبحارُ في أمواجها، والرياح في هبوبها، والكونُ كلُّه ناطقه وجامده، يسبح الله بلسان المقال أو بلسان الحال!! ثم قال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي هو جلَّ وعلا، المتفرد بخلقكم أيها الناسُ، فمنكم كافر جاحد لربه وخالقه، ومنكم مؤمن معترف بوجود ربه، وكان الواجب أن يكون كلُّ البشر مؤمنين بالواحد الأحد، مطيعين لأمره، وقدَّم

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا

ذِكْرَ الكافر على المؤمن ﴿**فمنكم كافر ومنكم مؤمن**﴾ لكثرة الكفار، وقلة المؤمنين ﴿**والله بما تعملون بصير**﴾ أي مطَّلعٌ على أعمالكم، وسيجازيكم عليها.. ثم فصَّل تعالى بعض دلائل قدرته ووحدانيته فقال سبحانه ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي خلقهما بالحكمة البالغة، المتضمنة لمصالح الدنيا والدين، ولم يخلقهما لهواً ولا عبثاً، وخلقكم أيها الناس في أجمل صورة، وأحسن هيئة، فأتقن وأحكم خلقكم وتصويركم، وإليه المرجع والمآب، للجزاء والحساب ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي يعلم سبحانه جميع ما في الكون، من مخلوقات وأجرام، لا يغيب شيء عن علمه، ويعلم ما في صدور البشر، من أسرار وخفايا، فكيف لا يعلم الأعمال والأقوال؟ وهو العليم بالخواطر والهواجس، التي يُكِنُّها الناسُ في صدورهم؟ وهذا في معنى الوعيد والتهديد.. ثم يأتي الإخبار عن الأمم الباغية، التي أهلكها الله، تخويفاً لكفار مكة، فيقول سبحانه ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي ألم يصل إلى سمع هؤلاء الكفار، أخبار الأمم السابقة؟ وما حلَّ بها من عذاب ودمار، كقوم نوح، وهود، وصالح؟ ماذا حدث لهم، وماذا جرى عليهم؟ لقد ذاقوا عاقبة كفرهم الوخيمة في الدنيا، ولهم في الآخرة عذابٌ أشدُّ وأدهى، لهم عذاب مؤلم موجع!! ثم بيَّن تعالى سبب هذا العذاب، الذي حلَّ بالطغاة، فقال سبحانه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾؟ أي سبب هذا العذاب المدمِّر، أنَّ رسلهم كانت تأتيهم بالمعجزات الساطعات، والبراهين الواضحات، فكذبوهم وسخروا منهم واستهزءوا، وقالوا على سبيل الاستبعاد والاستغراب: أَرُسُلٌ من البشر جاءوا لهدايتنا؟ أنكروا أن يكون الرسول من البشر، ولم ينكروا أن يكون إلههم ومعبودهم من

فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾

الحجر!! ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي فكفروا بالرسول الهادي، وأعرضوا عن الإيمان، واتباع هدى الرحمن، واستغنى الله عن طاعتهم وعبادتهم، والله تعالى غني عن خلقه، محمود في ذاته وصفاته، لا تنفعه طاعة، ولا تضره معصية.. ثم حكى تعالى إنكارهم للبعث والنشور، فقال سبحانه ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي زعم المشركون وظنوا أنهم لن يُبعثوا بعد موتهم، فقل لهم يا أيها الرسول: أقسمُ لكم بجلال الله وعظمته، وأقسمُ لكم بربي، أنكم ستبعثون، وتخرجون من قبوركم أحياء، للحساب والجزاء، ثم لَتُخْبَرُنَّ بجميع أعمالكم، وجرائمكم التي فعلتموها، وتجازون عليها، وذلك أمرٌ سهلٌ هيِّنٌ على الله، فكما بدأكم من العدم، يُحييكم بعد الفناء ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي فآمنوا بربكم، وصدِّقوا رسوله، وآمنوا بالقرآن العظيم، الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ، فهو النور المبين، كما قال سبحانه **﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾** إنه نور لمن أراد الله له الهداية والسعادة ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ﴾ أي وقتُ بعثِ الخلائق هو (يوم القيامة) الذي يجمع الله فيه البشر كلَّهم، في صعيدٍ واحد، يبصرهم الناظر، ويسمعهم كلُّ إنسان، وهو اليوم الذي يظهر فيه غَبْنُ الكافر وخسارتُه، بتركه الإيمان، والغبنُ في اللغة: النقصُ والخسرانُ، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي ومن يصدِّقْ بالله، ويعمل عملاً صالحاً، يمحو الله عنه ذنوبه وسيئاته، ويدخله حدائق وبساتين، تجري من تحت قصورها أنهارُ الجنة، مقيمين في تلك الجنان على الدوام، لا يموتون فيها ولا يُخرجون منها، وذلك هو الفوز بالسعادة الكبرى، التي لا سعادة

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٠ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝١١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝١٢ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾

وراءهــــــا!! ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي وأما الكفار الفجار، الذين جحدوا وحدانية الله، وكذبوا بالقرآن العظيم، المنزل على خاتم المرسلين، فهم أهل جهنم وسكَّانها، لا يخرجون منها أبداً، وبئست النار مرجعاً ومستقراً لأهل الكفر والضلال ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ أي لا تقع مصيبة على أحد، في نفسه، أو ماله، أو ولده، إلاَّ بقَدَر من الله مسبق، ومن يؤمن بالله، يهد قلبه للصبر والرضا، ويثبته على الإيمان، **قال ابن عباس**: المعنى: يهد قلبه للإيمان واليقين، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، **وقال ابن مسعود**: هو الذي إذا أصابته مصيبة، رضي وعرف أنها من الله **﴿والله بكل شيء عليم﴾** أي عالم بكل ما يحدث في الكون، من خير أو شر، يعلم من يصبر، ومن يُعرض عن الله ويستكبر!! وفائدةُ الاعتقاد بالقضاء والقدر، أنها تهوِّن المصيبة على المؤمن، فيصبر على قضاء الله، ويستسلم لحكمه، فيكون هذا الإيمان، راحة للقلب، وسلوى للنفس ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي أطيعوا أمر الله، وأمر رسوله محمد ﷺ، في كل ما شرع لكم من الأوامر والنواهي، تُفلحوا وتَسْعدُوا، فإن أعرضتم عن إجابة الرسول، فيما دعاكم إليه من الهدى والفلاح، فليس عليه ضرر، إنما ضرر ذلك عليكم، وليس على الرسول إلا تبليغ الرسالة، وقد أدى واجبه ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي الله جلَّ جلالُه لا معبود بحق سواه، ولا خالق ولا رازق غيرُه، وعليه وحده توكلوا أيها المؤمنون، في جميع أموركم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ أي إن مــن بــعــض أزواجــكــم

﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾

وأولادكم أعداء لكم، فاحذروا أن تستجيبوا لهم، وتتركوا طاعة الله ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ أي وإن عفوتم عنهم، وسامحتموهم ولم تعاقبوهم، فإن الله يعاملكم بالمغفرة والرحمة، كما فعلتم معهم، **قال ابن عباس:** (إن قوماً أسلموا وأرادوا الهجرة، فَمَنَعَهم أزواجهم وأولادهم عنها، وتعلَّقوا بهم، وقالوا لهم: لا تتركونا!! فقعدوا عن الهجرة، ثم التحقوا بالمهاجرين، فرأوا الناسَ قد فقهوا في الدين، وسبقوهم في الطاعات والعبادات، فهمُّوا أن يعاقبوهم)، فنزلت الآية رواه الترمذي، ثم قال تعالى ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ أي هذه الأموال التي بأيديكم، والأولاد الذين أنعم الله عليكم بهم، اختبار وابتلاء من الله لكم، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، وما عند الله من الأجر والثواب، أعظم من متاع الدنيا، فلا تشغلكم الأموال والأولاد عن طاعة الله ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي ابذلوا جهدكم وطاقتكم في طاعة الرحمن، ولا تُكلِّفوا أنفسكم ما لا تطيقون من الأعمال، فإن الله رحيم بكم، وهذا في المأمورات من فضائل الأعمال، وأما المنهيات والمحظورات، فلا بدَّ من اجتنابها بالكلية، لقوله ﷺ (إذا أمرتكم بأمر، فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه) رواه البخاري ومسلم ﴿**واسمعوا وأطيعوا**﴾ أي اسمعوا كلام الله وكلام رسوله، وكونوا منقادين لما يأمركم الله به ورسوله، وأطيعوا أمرهما ولا تحيدوا عنه يمنةً أو يسرة ﴿**وأنفقوا خيراً لأنفسكم**﴾ أي أنفقوا في سبيل الله من أموالكم، يكن ذلك خيراً لكم عند الله ﴿**ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾ أي ومن سلم من البخل، الذي تدعو إليه النفس، فقد فاز بكل مطلوب، وأفلح وسعد، والشحُّ: أشدُّ أنواع البخل، وفي الحديث الشريف (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشُح، فإن الشُحَّ أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلُّوا

إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

محارمهم) رواه مسلم ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي إن أنفقتم شيئاً في سبيل الله، عوَّضه الله عليكم بأضعاف مضاعفة، وغفر لكم ببركة الإنفاق ما فرط منكم من الذنوب، والله شاكر لإحسان المحسن، حليم بالعباد لا يعاجلهم بالعقوبة على ذنوبهم، ولننظر إلى روعة التعبير في جمال القرآن، فقد شبَّه الإنفاق في وجوه الخير، بقرضٍ يُقْرِضه العبدُ لربه، واجب الوفاء، وهو سبحانه الرازق، ثم يطلب من عبده أن يُقرضه بعض المال، فما أكرمه من قرض، وما أعظمه من عطاء!! ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي هو سبحانه العالمُ بما غاب عن الأنظار، وبما هو مشاهد ومرئيٌّ بالأبصار، ﴿العزيز﴾ أي الغالبُ القاهرُ في ملكه، الحكيم في صنعه!!

انتهى تفسير سورة التغابن

● ● ●

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ

تفسير سورة الطلاق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والحكمُ عام له ولأمته، وخُصَّ ﷺ بالنداء تعظيماً له وتشريفاً، وجيء بصيغة الجمع **﴿طلقتم﴾** على سبيل التعظيم، أي إذا أردتَ يا أيها الرسولُ ويا معشر المؤمنين، أن تُطلِّقوا النساء، فطلقوهنَّ في الطهر، طلقةً واحدة رجعية ولا تطلقوهن وقت الحيض، لئلا تطول على المرأة العدة فتتضرر **﴿وأحصوا العدة﴾** أي اضبطوها وأكملوها ثلاثة أقراء ـ أي حيض ـ كاملة، لئلا تختلط الأنساب **﴿واتقوا الله ربكم﴾** أي خافوا عذابه وعقابه، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ أي لا تخرجوهن من مساكنهن، بعد فراقكم لهن، إلى أن تنقضي عدتهن، ولا يخرجن بأنفسهن من البيوت باختيارهن، أي لا تأذنوا لهن بالخروج، إلاَّ إذا قارفت المطلَّقة عملاً غير حسن، كسوء الكلام، وبذاءة اللسان، مع الزوج وأهل الزوج، فيسقط حقها من السكنى، وتُخرج من بيت الزوج، وقيل: (الفاحشة) الزنى، فتخرج لإقامة الحدِّ عليها، وهو ضعيف، لأنها لو زنت، لا يمكن أن يُؤمر الزوج بإبقائها في البيت!؟ **قال ابن عباس:** بذاءة اللسان، أي إلاَّ أن يفحشن عليكم، وإنما أمر سبحانه بعدم إخراج المطلَّقة من بيتها ـ أي بيت زوجها ـ لحكمةٍ جليلة، وهي: أن الزوج إذا رآها حزينة، مكسورة الجناح، بعد ثورة الغضب والانفعال الذي كان منه، قد يرقُّ قلبه عليها فيراجعها، أو تشعر هي بالخطأ والندم، فتحاول أن تغيِّر سلوكها مع زوجها، وتحاول أن تسترضيه، لتعود المياه إلى مجاريها، ولو خرجت من البيت، أو أُخرجت منه، عمل الشيطان عمله في توسيع أسباب النفرة والفراق، فلا يتحقق الغرضُ

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ﴾

المنشود ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ أي هذه الأحكام التي شرعها الله لكم، هي حدوده ومحارمه، التي ينبغي أن لا يتجاوزها المسلم، ومن يخالف هذه الأحكام، فقد ظلم نفسه بتعريضها لعذاب الله، وأضرَّ بها حيث ضيَّع عليه فرصة المراجعة لزوجته، إن طلقها بالثلاث، أو طلَّقها طلاقاً بائناً ﴿لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾ أي لا تدري أيها المطلِّق، ما الذي يحدثه الله تعالى بعد ذلك الطلاق من أمر!! لعلَّ الله يُقلِّب قلبه من بغضها إلى محبتها، ومن النفرة منها إلى الرغبة فيها، فالقلوب بيد الله، يقلِّبها كيف يشاء، وما على الإنسان إلا أن يتقي الله، حتى يجعل الله له من أمره فرجاً ومخرجاً!! وهي لفتة بديعة، لتطييب القلوب، وترقيق العواطف!! أما سبب نزول هذه الآية، فهو ما رواه البخاري أن (عبد الله بن عمر) طلَّق امرأته وهي حائض، فذكر ذلك عمر لرسول الله ﷺ، فتغيَّظ ﷺ، ثم قال لعمر: (مُرهُ فليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلِّقها، فلْيطلقها طاهراً قبل أن يمسَّها، فتلك العدَّةُ التي أمر الله عزَّ وجلَّ أن يُطلَّق لها النساء) رواه البخاري ومسلم، والطلاق في حال الحيض «طلاقٌ بدعي» مخالف للسنة، لكنه يقع وتُحسب عليه طلقة، لقوله ﷺ (مُرْه فليراجعها) ولو كان غير واقع، لما احتاج إلى مراجعتها، **والطلاقُ السنيُّ**: أن يكون الطلاق في طهرٍ، لم يجامعها فيه، **قال ابن القيم**: لمَّا كان الله يُبغض الطلاق، لِمَا فيه من انفصام عُرى الزوجية، وموافقة عدوه إبليس، حيث يفرح بافتراق الزوجين، وكان مع ذلك يحتاج إليه الزوج أو الزوجة، شرعه اللَّهُ على وجهٍ تحصل به المصلحة، وحرَّمه على غير ذلك الوجه، فشرع له أن يطلقها طاهراً، من غير جماع، وأن يكون طلقة واحدة، ثم يتركها حتى تنقضي عدتها، فإن زالت أسباب الخلاف، كان له سبيل إلى إعادتها، وجعل العدة (ثلاث حيض)، ليطول زمن المهلة والاختيار، فهذا الذي شرعه الله سبحانه، وأذن فيه، وهو المسمى «الطلاق السني»!! ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ﴾ أي فإذا قاربن وشارفن على انتهاء

﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ﴾

العدة، فراجعوهن بمعروف، مع حسن العِشرة، أو اتركوهن بمعروف دون إساءة، حتى تنقضي عدتهن، فيملكن أنفسهن، وأشهدوا عند الطلاق، أو الرجعة، لئلا يكون إنكارٌ من الزوجة، أو من الزوج، ولْيكنْ الشهود من أهل الصلاح والعدالة، ولْيشهدوا بالحقّ دون تحيز لأحد ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ أي هذا الذي شرعه الله لكم من الأحكام، ينتفع ويتّعظ به المؤمن، الذي يخاف الله، ويخاف يوم الحساب والجزاء، الذي يلقى فيه ربه، فيجازيه على عمله، ومن خاف الله تعالى، جعل الله له من كل همّ فَرَجاً، ومن كل ضيقٍ مخرجاً ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ أي ومن اتقى الله في سلوكه وعمله، رزقه الله رزقاً واسعاً، من حيث لا يظن، ومن وجهٍ لا يخطر بباله ولا يعلمه، ومن يعتمد في أموره على ربه، كفاه الله ما أهمَّه وأغمَّه **﴿إن الله بالغ أمره﴾** أي نافذٌ أمْرُه في جميع خلقه، لا يعجزه شيء **﴿قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾** أي جعل لكل شيءٍ من الشدة والرخاء، والعسر واليسر، أجلاً ينتهي إليه، فلا ييأس المؤمن، ولا يقنط من رحمة الله.. يُحكى أن (عوف الأشجعي) أسر المشركون ابنه، فكان يأتي إلى رسول الله ﷺ يشكو إليه حاجته، وضعفه، ويخبره بأن زوجته أم ابنه تبكي عليه، فقال له ﷺ: إن الله سيجعل لك فرجاً، ومُرْ أمه بالصبر، وأكثرا من قول (لا حول ولا قوة إلا بالله) ففعلا، فلم يلبثا بعد ذلك إلا يسيراً، إذ قرع ابنه الباب، فدخل ومعه مائةٌ من الإبل، غفل عنها العدو فاستاقها، بعد أن هرب من الأعداء) رواه ابن جرير ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ﴾ أي والنسوة اللواتي انقطع حيضهنَّ لكبر سنهن **﴿إن ارتبتم﴾** أي شككتم وجهلتم قدر عدتهن، فعدتهن ثلاثة أشهر، كلُّ شهر يقوم مقام حيضة، وكذلك اللواتي لم يحضن، لصغرهن، عدتهن ثلاثة أشهر ﴿وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ﴾ أي والنساء الحوامل، عدة الواحدة منهن وضعُ الحمل،

وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ

سواءً كانت مطلَّقة، أو متوفَّى عنها زوجها، تنتهي عدتها بالولادة، فقد حكم ﷺ (لسُبيعة الأسلمية) التي قُتل زوجها وكانت حاملاً، ثم وضعت بعد موته بأربعين ليلة، أن تتزوج فزوَّجها ﷺ لأحد الصحابة، كما في صحيح البخاري ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ أي ومن يخشَ الله في تصرفاته وأقواله، يسهِّل عليه أمره، ويوفقه لكل خير ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ أي ذلكم هو حكم الله، وشرعُه الحكيم العادل، أنزله الله لتأتمروا به، وتعملوا بمقتضاه، والذي يتقي ربه، يمحو عنه ذنوبه، ويضاعف له الأجر والثواب.. كرَّر تعالى ذكر (التقوى) ثلاث مرات، لأن الأمر خطير، حيث فيه هدم (عشّ الزوجية) وقد يكون هناك عدوان من الرجل على المرأة، فقد ينسب إليها ما يعيبها، وينفِّر الخُطَّاب عنها، بسبب طلاقه لها، فلذلك تكرر الأمر بالتقوى، والنبيُّ الرؤوف الرحيم، أوصى بالنساء، وهو على فراش الموت، لعلمه بضعفهن، فقال وهو يودِّع الحياة: (إنَّ أمركنَّ يهمُّني بعدي، ولن يصبر عليكنَّ إلا الصابرون) رواه الترمذي ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ﴾ أي أسكنوا هؤلاء المطلَّقات في بيوتكم التي تسكنونها، على قدر طاقتكم ومقدرتكم، لا يجب عليه أن يُسكنها في (قصرٍ)، ولا في (قبر)، بل على قدر الطاقة والسَّعة، ولا تُضيِّقوا عليهن في السكنى والنفقة، حتى تُلجئوهنَّ إلى ترك المنزل، أو الافتداء!! وفي الآية حثٌ على المروءة والمرحمة، وعطف على النسوة المطلقات ﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ﴾ أي وإن كانت المطلَّقة حاملاً، فعلى الزوج أن يُنفق عليها حتى تلد، وتنتهي عدتها، لأن الحمل لحقِّ الرجل، والأبناءُ يُنسبون إليه، فيكلَّفُ بالإنفاق عليها حتى وضع الحمل ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ﴾ أي فإن أرضعن لكم أولادكم بعد الطلاق، فآتوهنَّ أجرة الإرضاع، وليأمرْ كلٌّ من الرجل والمرأة صاحبه بالجميل والإحسان، فلا يكن من الأب التضييق، ومن الأم

وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴿٨﴾

المعاجزة والتعسير، فإن الولد لهما، وهما شريكان في ضرورة الإشفاق عليه ﴿وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ﴾ أي وإن عسر الاتفاق بين الزوجين، فأبى الزوج أن يدفع لها ما تطلب، وأبت الأم أن تُرضعه بأنقص من الأجر الذي طلبته، فليستأجر لولده مرضعة أخرى!! وفيها عتابٌ للأم لطيف، لأن الطفل الرضيع ولدُها ولا ينبغي أن يقع (ضحيَّة) الخلاف بين الزوج المطلِّق، وزوجته المطلَّقة!! ثم بيَّن تعالى مقدار النفقة، التي تجب على الزوج نحو زوجته عامة، سواء كانت في عصمته، أو كانت في العدة مطلَّقة، فقال سبحانه ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ أي لينفق الزوج على زوجته، بقدر وسعه وطاقته، الغنيُّ بمقدار غناه، والفقير بمقدار فقره، ومن ضُيِّق عليه رزقه، فكان دون السعة والكفاية، فلينفق بمقدار ما يستطيع ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ أي لا يكلف الله أحداً، إلا بقدر طاقته واستطاعته، فلا يُكلَّف الفقير بالنفقة التي ينفقها الغنيُّ، إنما ينفق بمقدار وسعه، سيجعل الله بعد الضيق الغنى، وبعد الشدة السعة والرخاء، وفيه تطييب لقلب المعسر، وبشارة للفقراء بفتح أبواب الرزق عليهم، وقد كان صحابة رسول الله ﷺ في ضيق وشدة، فأغدق الله عليهم المال، وفتح لهم البلاد.. ثم حذَّر تعالى العباد، من عصيانه وتعدِّي حدوده، وضرب الأمثلة بالأمم الطاغية، التي تمردت على الله ورسله، فقال سبحانه ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾ أي وكثير من الأمم السالفة، التي طغت وتمردت على أوامر الله، وطاعة رسله، عاقبناها على طغيانها وعصيانها، بأنواع العذاب والبلاء، من الجوع، والقحط، والأمراض، وسائر البلايا والنكبات، ثم بالقتل والتشريد من الأوطان ﴿وعذبناها عذاباً نكراً﴾ أي فظيعاً، شديداً، هائلاً يفوق التصور، وذلك بعذاب الاستئصال، قومٌ بالطوفان، وآخرون بالريح المدمرة، وبعضهم بقلب دورهم ومساكنهم عليهم، كما قال سبحانه ﴿فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ۝١١ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾

من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ فالمراد بالعذاب النُكر: عذاب الاستئصال المنكر الفظيع الشامل ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ أي فذاقت عاقبة طغيانها وعصيانها، وكانت نتيجة بغيها وفجورها، الهلاك والدمار، والخسران الذي ما بعده خسران ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي هيأ الله لأولئك الأشقياء الفجار، المكذبين لرسل الله، عذاب جهنم الشديد المؤبَّد، فاعتبروا بحالهم يا ذوي العقول السليمة، أنتم يا معشر أهل الإيمان ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ أي أنزل الله إليكم قرآناً يُتلى، فيه مواعظ ونصائح، وذكرى لكم، تذكِّر عباد الله المؤمنين ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي وأرسل إليكم رسولاً، هو خاتم الأنبياء محمد ﷺ، يقرأ عليكم آيات الله، واضحة بيِّنة جليَّة، ليخرجكم من ظلمات الجهل والضلالة، إلى نور العلم والإيمان، والظلمات في الآية استعارة عن الكفر، والنور: استعارة عن الإيمان، شبَّه الكفر بالظلمات، والإيمان بالنور، لأن أدلة الكفر قاتمة مظلمة، وبراهين الإيمان واضحة بينه، وهذا من بديع التشبيه، ولطيف الاستعارة ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ أي ومن آمن بالله، وعمل عملاً صالحاً، يدخله الله في الآخرة حدائق وبساتين، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة، مقيمين في جنان الخلد على الدوام ﴿قد أحسن الله له رزقاً﴾ فيه معنى التعجب والتعظيم، أي ما أحسن هذا الرزق وما أكرمه!! وختم الله السورة الكريمة ببيان آثار قدرته، وعظمته ووحدانيته، فقال سبحانه ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ أي الله الذي خلق السموات السبع

والأرض، بهذا الإتقان والإبداع، يتنزل وحيُ الله وحكمه وقضاؤه بين السموات والأرض، بطريق الملائكة الأبرار، لتوقنوا أيها الناس، أن الذي قدر على خلق ذلك، قادر على كل شيء، وتعلموا عظمته وسلطانه، من آثار مخلوقاته الباهرة، ولتعلموا أن الله عالم بكل شيء، لا تخفى عليه خافية.! وقوله سبحانه: ﴿**ومن الأرض مثلهنَّ**﴾ أي في الإبداع والإتقان، أو في العدد أي خلق في الأرض سبع طبقات، كما هو الحال في السموات، والفارقُ بينهما أن بين السماء والسماء فراغ، وليس بين طبقات الأرض فراغ، والله تعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم.!

انتهى تفسير سورة الطلاق

● ● ●

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾

تفسير سورة التحريم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تعرض هذه السورة الكريمة، لصفحة من الحياة الكريمة، التي كان يعيشها ﷺ، مع زوجاته الطاهرات، في (بيت النبوة) وتبدأ بعتاب شفيفٍ لطيف، للرسول الكريم على حرمان نفسه، من شيء أباحه الله له، وهذا العتاب يكشف لنا عن مقدار كرامة النبي ﷺ على ربه، ومكانته لديه.!

والمعنى: يا أيها النبيُّ المكرَّم، الموحى إليه من السماء، لماذا تمنع نفسك، مما أباحه الله لك من النساء؟ وتمتنع عن معاشرتهن؟ تبتغي بذلك رضى أزواجك، بتحريم ما أحلَّ الله لك؟ والله واسع المغفرة، عظيم الرحمة، حيث سامحك فيما امتنعت عنه من (الأمر المباح) وكأن الآية تقول للرسول ﷺ: أزواجك أحقُّ بطلب الرضى منك، لا أن تطلب أنت رضاهن!! فإنما فَضْلُهنَّ ومكانتهنَّ عندي، بك أنت، فلا تُتعبْ نفسك في استرضائهن، فالواجب عليهن أن يسعين في طلب رضاك!! ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي لقد شرع الله لكم وبيَّن، ما تتحلَّلون به من أيمانكم، إذا حلفتم، وذلك بكفارة اليمين، والله وليكم وناصركم، ومتولي شؤونكم، وهو العليم بخلقه، الحكيم في تشريعه، خاطبه تعالى بصيغة الجمع ﴿والله مولاكم﴾ تعظيماً لشأنه عليه السلام.. ثم شرع في بيان القصة، التي أغضبت الرسول ﷺ، حتى حلف أن لا يقرب نساءه شهراً، وهي «إفشاء السر» فقال سبحانه ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ أي اذكر أيها السامع، حين أطلع النبيُّ ﷺ بعض زوجاته، على سرٍّ واستكتمها إيَّاه، وأمرها أن لا تخبر به أحداً، فأفشته، فلما حدَّثتْ به، وأطلع الله نبيَّه على الأمر، أخبرها ببعض الذي أفشته، معاتباً لها، ولم يخبرها بجميع ما حصل منها، حياءً منه ﷺ وكرماً.!

عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ

قال ابن عباس: هو ما أسرَّه إلى «حفصة» من تحريم «مارية القبطية» على نفسه، ومن أن الخلافة ستكون بعده لأبي بكر، ثم لعمر، وطلب منها أن لا تخبر بذلك أحداً، فلما أخبرها بأنها قد أفشت سرَّه ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي قالت حفصة يا رسول الله: من أخبرك بهذا الخبر؟ ـ قال: الله رب العزة والجلال هو الذي خبَّرني بالخبر، العليم بسرائر العباد، الخبير الذي لا تخفى عليه خافية، وسبب نزول هذه الآيات الكريمة (ما رُوي أن النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه، فلما كان يوم «حفصة بنت عمر» استأذنت رسول الله ﷺ في زيارة أبويها، فأذن لها، فلما خرجت أرسل إلى جاريته (مارية القبطيَّة) المملوكة له، فعاشرها في بيت حفصة، فرجعت فوجدتها في بيتها، فغارت منها غَيْرةً شديدة، فقالت يا رسول الله: أدخلتها بيتي، وعاشَرْتَها على فراشي في غيبتي!! ما أراكَ فعلتَ هذا إلا لهواني عليك، ولو كانت غيري من نسائك، لما فعلت ذلك!! فقال لها ﷺ مسترضياً لها: إني حرّمتها على نفسي، ولا تخبري بذلك أحداً، وأبشِّرك ببشارة: إن أباكِ عمر، وأبا بكر سيكونان خليفتين من بعدي، واستكتمها الأمر، فلما خرج رسول الله ﷺ من عندها قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة ـ وكانتا متصادقتين ـ فقالت لها: ألا أبشِّركِ!! إن رسول الله قد حرَّم عليه مملوكته «مارية» وقد أراحنا الله منها، وإن أباك (تعني أبا بكر) وأبي عمر سيكونان خليفتين بعد رسول الله ﷺ، واستكتمتها الخبر ـ وكل سرٍّ جاوز الاثنين شاع ـ ونزل الوحيُ يخبر الرسول ﷺ بما أفشته حفصة، فغضب رسول الله ﷺ من إفشاء سرِّه، واعتزل نساءه، ومكث لا يدخل عليهن شهراً، من شدة تأثره منهن، ونزلت في هذه القصة الآيات الكريمة، من أول سورة التحريم ﴿**يا أيها النبي لم تحرم**..﴾؟ رواه الدارقطني، والنَّسائي.. وبعد هذا جاء العتاب الشديد لحفصة وعائشة، لإدخالهما الحزن على قلب النبي الحبيب حيث يقول سبحانه ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ أي إن تتوبا إلى الله، فهو الأسلم والأصلحُ لكما، من إيذاء قلب هذا النبيِّ الرحيم، ﴿**فقد صغت**﴾ أي مالت قلوبكما عن الحقِّ، وعمَّا يجب في حقِّ سيد الخلق، من الإخلاص له، بحب ما

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤﴾

يحبُّه، وكراهة ما يكرهه، فقد استوجب الأمر عليكما أن تتوبا، لأنه سَرَّكما ما أحزن النبيَّ عليه السلام، من تحريم مملوكته على نفسه إرضاء لكما ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ أي وإن تتعاونا على النبي ﷺ بما يسوءه ويحزنه، فإن الله هو ناصره، وهو وليُّ أمره، (وجبريل) رئيسُ الملائكة، والصالحون من المؤمنين الأبرار، والملائكةُ جميعاً في صفِّه أعوان له وأنصار، فماذا يصنع تآمرُ امرأتين، أمام هذا الحشد الرباني؟ فإلى جانب (محمد) ﷺ ربُّ العزة والجلال، وجبريل، وأبو بكر وعمر، والملائكة الأبرار الأطهار!! والمراد بصالح المؤمنين: (أبو بكر، وعمر) رضي الله عنهما، والدا عائشة، وحفصة، كما قاله ابن عباس، ويشهد له ما رواه مسلم أن عمر قال يا رسول الله: (ما يشقُّ عليك من أمر النساء؟ فإن كنتَ طلقتهنَّ فإنَّ الله معك، وملائكتُه، وجبريل، وميكائيلُ، وأنا، وأبو بكر والمؤمنون معك!!)، ومعنى قوله ﴿ظهير﴾ أي معينٌ ونصير، أفردَ (جبريل) بالذكر، تعظيماً له، إذ هو أفضل الملائكة، وإظهاراً لمكانته عند الله، فذكره على الخصوص، ثم مع العموم، لأنه داخل في صف الملائكة، فيكون قد ذكره مرتين، مرة في الإفراد، ومرة مع العموم، ووسَّط ﴿صالح المؤمنين﴾ بين جبريلَ والملائكة، تشريفاً لهم، واعتناءً بهم، وإشادة بفضل التقى والصلاح، وختم الآية بذكر ﴿**والملائكة بعد ذلك ظهير**﴾ وهم أعظم المخلوقات، وجعلهم ظهراء أي أعواناً وأنصاراً للنبي الكريم، ليكون أفخم لشأنه ﷺ، وأعظم لمكانته، والانتصار له، إذ هم بمثابة جيشٍ جرَّار، يملأ القفار، نصرة لنبيه المختار، فمن ذا الذي يستطيع أن يناوىء الرسول ويعاديه بعد ذلك!! أمَّا المرأتان اللتان تظاهرتا على النبي ﷺ فهما: (حفصة، وعائشة) فقد روى البخاري عن ابن عباس أنه قال: (لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر، عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله فيهما ﴿**إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما**﴾ فمكثتُ سنة أريد أن أسأله، فما أستطيع أن أسأله هيبةً له، حتى خرج حاجاً فخرجتُ معه، فقلت يا أمير المؤمنين: من اللتان تظاهرتا على النبي ﷺ من أزواجه؟ فقال: واعجباً لك يا ابن عباس!! تلك حفصةُ، وعائشة..) وذكر الحديث بطوله. رواه البخاري، ثم فصَّل تعالى أمر هؤلاء

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾

النسوة اللواتي سيبدلهنَّ الله لرسوله، تخويفاً لزوجاته فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ **﴿عسى﴾** هنا بمعنى: حقٌّ واجب كما قاله ابن عباس، والمعنى: حقٌّ على الله، إن طلقكنَّ رسولُه، أن يُبدله زوجاتٍ، خيرٍ منكن وأفضل، وأطوع لرسوله المكرَّم، ثمَّ فصَّل تعالى شأن هؤلاء النسوة، فقال: ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ أي خاضعات مستسلمات لأمر الله ورسوله، مصدِّقات بوحدانية رب العزة والجلال ﴿قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ أي عابداتٍ لله عزَّ وجل، تائبات من الذنوب والآثام ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ أي مهاجراتٍ إلى الله ورسوله ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ أي منهن ثيبات، ومنهن أبكار أي عذارى، والعذراء هي التي لم تتزوج، والثيب هي التي بانت من زوجها بموته أو بالطلاق، ودخلت الواو هنا **﴿ثيبات وأبكاراً﴾** لئلا يختلَّ المعنى، لأن الثيوبة والبكارة ضدَّان لا يجتمعان، أن تكون الواحدة بكراً وثيباً في آن واحد، بخلاف الأوصاف السابقة، فلم تدخل بينهما واو العطف، فتدبَّرْ أسرار القرآن!!

قال ابن كثير: «قسمهنَّ تعالى إلى نوعين، ليكون ذلك أشهى للنفس، فإن التنويع يبسط النفس». **أقول**: لقد كان أزواج النبي ﷺ بين ثيِّب، وبكر، فأراد الله أن يذكِّرهنَّ بأن الرسول لو طلقهن، لأبدله الله بالنوعين معاً، يكنَّ أفضل منهن، وأطوع لأمر الرسول، وفي هذا العتاب وعيدٌ لهن شديد، وفي الآية إشارة إلى أن تزوج النبي ليس على حسب الشهوة، بل على حسب رغبة الله ومرضاته!! والآيات كلُّها إنما وردت مورد التخويف والتهديد، لأزواج النبي الطاهرات، حفاظاً على كرامته ﷺ وراحته، وفيها درسٌ بليغ للمؤمنين، حتى تُحفظ أسرار البيوت وتصان، فما يُسِرُّه الرجل لزوجته، ينبغي أن لا يُنشر ولا يُفشى، فالأسرار الزوجية تبقى حبيسة البيت، مراعاة لكرامة الأسرة.. وبعد هذا الدرس البليغ، المتعلق ببيت النبوة، جاء التوجيه الإلهيُّ لجميع المؤمنين، أن يحفظوا أهليهم وأولادهم جميعاً من عذاب النار، بحملهم على الخير والصلاح، والطاعة لله ورسوله، فقال سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ أي صونوا أنفسكم، واحموا واحفظوا أزواجكم وأولادكم، من نار حامية مستعرة، ليست كنار الدنيا تُوقد بالحطب، إنما

عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ

وقودها وحطبُها الذي تُسعَّر به (الحجرُ والبشر) حجارةُ الكبريت التي هي أنتنُ من الجيفة، لرائحتها الكريهة، وأجساد بني آدم من الكفرة الفجرة، ثم ذكر تعالى حُرّاس جهنم، وزبانيتها الموكَّلين عليها، فقال: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي على هذه النار المستعرة، زبانيةٌ غلاظ القلوب، لا يرحمون إذا استُرْحِموا، لأنهم خُلقوا من الغضب، وحُبِّب إليهم العذابُ، كما حُبِّب للناس الطعام والشراب، لا يعصون أمر الله بحالٍ من الأحوال، ويُنفذون الأوامر بدون تأخير ولا تقصير، **قال عكرمة**: (خزنةُ جهنم سودُ الوجوه، كالحةٌ أنيابهم، قد نزع الله من قلوبهم الرحمة، ليس في قلب الواحد منهم مثقال الذرة من الرحمة، يتلذذون بتعذيب الكفار والفجار) رواه ابن أبي حاتم، ثم يقال للكفار عند دخولهم النار، على وجه التوبيخ والتأنيب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي لا تعتذروا عن ذنوبكم وجرائمكم، فلن ينفعكم اليوم اعتذار، إنما تنالون جزاء أعمالكم القبيحة في الدنيا، من الكفر والمعاصي ولا تُظلمون شيئاً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ هذه دعوة إلى التوبة الصادقة، التي ليس فيها مداهنة ولا نفاق، أي يا معشر المؤمنين توبوا إلى ربكم توبة صادقة، خالصة، نابعة من القلب، بالغة في النصح، عازمين على أن لا تعودوا إليها!! سئل عمر عن التوبة النصوح فقال: هي أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب، كما لا يعود اللبن إلى الضرع، وأن يرد المظالم **لأهلها** ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ عسى من الله تعالى واجبة، بمنزلة الأمر الحتم المحقَّق، أي حقٌّ على الله إن تبتم من ذنوبكم، أن يرحمكم ويدخلكم حدائق وبساتين ناضرة، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي يوم لا يفضح الله النبيَّ وأتباعه المؤمنين، ولا يُذِلُّهم ولا يُهِينُهم أمام الكفار، بل يعزهم ويكرمهم، نور إيمانهم وأعمالهم الصالحة،

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٩ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠﴾

يضيء لهم على الصراط، ويسطع أمامهم وخلفهم، وعن أيمانهم وشمائلهم، كإضاءة القمر في ظلمة الليل ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي يدعون ربهم قائلين: يا ربنا أدمْ علينا هذا النور، ولا تطفئه علينا حتى نصل إلى الجنة، وامح عنا ما فرط من الذنوب، فإنك أنت القادر على كل شيء!!

قال ابن عباس: هذا دعاء المؤمنين، حين أطفأ الله نور المنافقين، وأخذوا يستنجدون بالمؤمنين قائلين ﴿**انظرونا نقتبس من نوركم**﴾ أي انتظرونا لنستضيء بأنواركم فقد أظلم علينا الطريق، ولكن هيهات!! ثم أمر تعالى بجهاد أعداء الله من الكفرة، والمنافقين الذين قالوا بألسنتهم آمنا، ولم تؤمن قلوبهم، فقال سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي جاهد الكفار بالسيف والسِّنان، والمنافقين بالحجة والبرهان، لأن المنافقين كانوا يظهرون الإيمان بألسنتهم، فهم مسلمون في الظاهر، فلذلك لم يُؤمر عليه السلام بقتالهم ﴿**واغلظ عليهم**﴾ أي شدِّد عليهم النكير، واستعمل معهم الخشونة في القول، ومسكنهم جهنم، وبئس المرجع والمصير نار جهنم للكفرة المجرمين.. ثم ضرب تعالى مثلين: مثلاً للكفار، ومثلاً للمؤمنين الأبرار، ختم بهما السورة الكريمة، فقال سبحانه ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ﴾ أما المثل الأول، فهو مثل الزوجة الكافرة، في عَرينِ الإيمان، وبيت النبوة، لا ينفعها إيمان زوجها ولو كان نبياً، مثَّل بامرأة نوح، وامرأة لوط، كانتا في عصمة نبيَّين كريمين، هما «نوح» و«لوط» عليهما السلام ﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ أي فخانت كل واحدةٍ منهما زوجها، وخيانتهما بالكفر وعدم الإيمان، لا في العرض والشرف، **قال ابن عباس**: «ما بغت ـ أي زنت ـ امرأة نبيّ قط،

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١١﴾

وإنما كانت خيانتهما بالكفر وعدم الإيمان» كانتا مشركتين، فلم يدفعا عن امرأتيهما ـ مع نبوتهما ـ شيئاً من عذاب الله، وقيل لهما: ادخلا نار جهنم مع الداخلين إليها.. هذا (المثلُ الأول) للكافر في حمى الإيمان، لا ينفعه حسب ولا نسب، ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ هذا (المثلُ الثاني) للإيمان في حمى الكفر، لا يتضرر بكفر قريبه ونسيبه، حتى ولو كان الزوج أطغى الطغاة، وأفجر الفجار، وقد ضرب تعالى المثل بـ(آسية بنت مزاحم) امرأة فرعون، حين دعت ربها قائلة: يا ربِّ أنقذني من كفر فرعون وطغيانه، وابن لي قصراً عالياً في جنة الخلد بجوارك!! وما أحسن هذا الكلام، فقد اختارت الجارَ قبل الدار!! ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي ونجني يا رب من فتنة فرعون وطغيانه، ونجني من زبانية فرعون الطغاة المجرمين.. يروى أن موسى لمَّا غلب السحرة، وظهر على فرعون، آمنت به، فلما تبيَّن لفرعون إسلامها أراد قتلها، فدعت ربها أن ينجيها من شره وطغيانه، **قال الحسن البصري:** «لما دعت بالنجاة من فرعون، نجَّاها الله من شرِّه ومكره، أكرم نجاة، فرفعها إلى الجنة، تأكل وتشرب وتتنعَّم» وهذا كان بعد عذابها من فرعون!.

قال ابن كثير: «عذَّبها فرعون، فشدَّ يديها ورجليها بالأوتاد حين آمنت، وهي صابرة، فرأت بيتها في الجنة، فضحكت حين رأته، فقال فرعون: ألاَ تعجبون من جنونها!! إنَّا نعذِّبها وهي تضحك!! فقبض الله روحها في الجنة، رضي الله عنها» اهـ لم تغرَّها القصور، والنعيم والمتاع، حين ذاقت حلاوة الإيمان، بل آثرت رضى الله على كل شيء في الدنيا، واعتبرت ما كانت عليه في قصر فرعون، من رفاهية، ومتعةٍ، ونعيم، شراً ودنساً تستعيذ بالله من شرِّه وإثمه، وهذا مثلٌ عالٍ من أمثلة الإيمان، في التجرد لله من مغريات الحياة، وقد استجاب الله دعاءها، وخلَّد اسمها في سجل المجاهدين الخالدين.. وختم تعالى السورة بقصة تناسب قصة آسية، وهي قصة «مريم

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾

ابنة عمران» فقال سبحانه ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي عفَّت عن الحرام، وصانت نفسها عن الفجور ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أي فنفخ رسولنا «جبريل» في فتحة صدرها فوصلت النفخة إلى فرجها، فحملت بعيسى ابن مريم ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي آمنت وصدَّقت بالكتب المنزلة على الرسل الكرام، وكانت من النساء العابدات المطيعات لأمر الله، وهذا ثناء من الله عليها بكثرة العبادة والطاعة، والخشوع، فقد كانت رضي الله عنها، من النساء القانتات العابدات، العفيفات الفاضلات، وقد أثنى رسولُ الله ﷺ عليها بقوله (كَمُلَ من الرجال كثيرٌ، ولم يكمُلْ من النساء إلاَّ (مريمُ بنتُ عمران) و(آسيةُ امرأةُ فرعونَ) وفضلُ عائشةَ على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام) رواه البخاري ومسلم.

انتهى تفسير سورة التحريم

● ● ●

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣﴾

تفسير سورة الملك

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ أي تمجَّد وتعالى الله العليُّ الكبير، المفيضُ على المخلوقات فنون الخيرات، المتصرف في شؤون العباد، كيف يشاء، يعزُّ ويُذل، ويحي ويميت، ويُغني ويُفقر، وله القدرة التامة، والتصرف الكامل، في كل الأمور. ثم فصَّل تعالى بعض آثار قدرته وحكمته فقال ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ أي هو سبحانه الذي يحي ويميت، وقد خلق الموت والحياة. ليختبر العباد ويمتحنهم، أيهم أطوع لله، وأحسن عملاً، فيجازيهم على أعمالهم لا على علمه، ومعنى ﴿ليبلوكم﴾ أي يعاملكم معاملة المختبر، فإن الله تعالى عالم بالمطيع والعاصي أزلاً، لم يقل تعالى: أكثر عملاً، وإنما قال ﴿أحسن عملاً﴾ لأنه لا عبرة بالكثرة مع القبح، فلا بدَّ أن يكون العملُ خالصاً لوجه الله، على طريقة رسول الله ﷺ، حتى يكون حسناً مقبولاً عند الله، والموتُ ليس فناءً بالكلية، إنما هو انتقال من دار إلى دار، ولهذا ثبت في الصحيح أن الميت يرى، ويُحسُّ، ويسمع، كما في صحيح البخاري (إن أحدكم إذا وضع في قبره، وتولَّى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم..) الحديث، وقال ﷺ عن أهل القليب (والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، لكنهم لا يجيبون) رواه البخاري ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ أي خلق سبع سموات (طباقاً) أي طبقة بعد طبقة، سماءً فوق سماء، قائمة بقدرته بلا عمد، ولستَ ترى أيها الناظر، في خلق الرحمن البديع، خللاً ولا تناقضاً، ولا اضطراباً

ﵟثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٤﴾ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ﴿٨﴾ﵞ

ولا تنافراً، بل الكلُّ في غاية الإبداع والكمال، فكرّر النظر في السموات، وردِّده متأملاً عظمة خالقها، هل ترى فيها من شقوق أو صدوع؟ ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ أي ثم ردِّد النظر إليها مرةً بعد مرة، وانظر بعين الاعتبار، في خلق هذه السموات البديعة، يرجعْ إليك طرفُك خاشعاً ذليلاً، لم ير شيئاً من العيب أو الخلل، وهو متعبٌ كليل، والمراد بالكرَّتَيْن: التكثير، أي مرةً بعد مرة!! والنظرةُ إلى هذا الكون العجيب الرائع، تعطي الإنسانَ صورةً عن عظمة خالقها ومبدعها!! ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ أي زيّنَّا السماء الأولى القريبة منكم، بالنجوم الزاهرة، والكواكب الساطعة، التي تضيء لكم بالليل، كما تضيء لكم الشمسُ بالنهار، وجعلنا لهذه النجوم فائدة أخرى، وهي رجم أعدائكم الشياطين، الذين يحاولون استراق السمع، وليس المراد من الآية أن الرجم يكون بالنجم نفسه، وإنما بشُعْلةٍ ساطعةٍ من نار، تنفصل من الكوكب، بدليل قوله سبحانه ﴿**إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب**﴾ فالرجمُ إنما يكون بالشهب، والقرآنُ يفسِّرُ بعضُه بعضاً ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي أعددنا وهيأنا للشياطين في الآخرة، العذاب الشديد المستعر، وهو نار الجحيم ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي ليس العذاب مختصاً بالشياطين، بل هو لكل كافر بالله، من الإنس والجن، وبئست النار مسكناً ومصيراً للكافرين.. ثم وصف تعالى جهنم، وما فيها من النكال والأغلال، فقال سبحانه ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ﴾ أي إذا أُلقيَ الكفار في جهنم، سمعوا لها صوتاً فظيعاً منكراً، شهيقاً كشهيق الحمار، وهي تغلي بهم كما يغلي القدرُ بالطعام على النار.

قال ابن عباس: تشهق بهم شهقة البغلة للشعير، ثم تزفر بهم زفرة، لا يبقى أحد من الكفار، إلا تقطَّع قلبُه من الخوف ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ أي تكاد جهنم تتقطَّع من شدة الغضب على أعداء الله، كلما طرح فيها جماعة

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾

من الكفار، سألهم الزبانية الموكَّلون بجنهم: ألم يأتكم رسول يخوِّفكم من هذا اليوم الرهيب؟ والسؤال هنا سؤال توبيخ وتأنيب ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ أي أجابوا نعم، لقد جاءنا الرسول المنذر، وتلا علينا آيات الله، ولكننا كذبناه، واستهزأنا به، وأنكرنا رسالته، وقلنا: ما أنزل الله شيئاً من الوحي، على أحد من الرسل، وما أنتم يا معشر الرسل، إلا في ضلال واضح عميق ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي وقالوا معترفين بإجرامهم: لو كنا في الدنيا عقلاء، ننتفع بما نسمع، ونفهم ما جاءنا به الرسل الكرام، ما كنا نستوجب الخلود في جهنم!! وهذا منهم اعترافٌ وإقرار، والإقرارُ سيِّد الأدلة، ولهذا قال تعالى بعده ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي فأقرُّوا بإجرامهم وتكذيبهم للرسل، فَبُعْداً وهلاكاً لأهل النار، وهي (جملة دعائية)، أي أبعدهم الله من رحمته، وسحقهم سحقاً.. يا ويح هؤلاء الكفار!! لقد كانت لهم عقول، ولكنْ لم يستفيدوا منها، وكانت لهم أسماع، ولكنْ لم ينتفعوا بها، وقد كانوا في الدنيا يسخرون من الرسل والمؤمنين، ويتهمونهم بالسَّفه والجنون، وهاهم اليوم يُقرُّون على أنفسهم بالحماقة والجنون، فما أشدَّ حسرتهم وندامتهم!! ﴿يا حسرةً على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾ إنهم اليوم في ذلة وانكسار، بعدما كانوا في الدنيا في تبجُّح وإنكار، لدعوة الرسل الكرام!! وبعد ذكر أحوال الأشقياء، ذكر تعالى أحوال المؤمنين السعداء، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي أمَّا المؤمنون الذين آمنوا بربهم ولم يروه، وخافوا عذابه وعقابه، فكفُّوا عن المعاصي والآثام، طلباً لرضى الرحمن، لهم عند ربهم، مغفرة عظيمة لذنوبهم، وثواب كبير جزيل، تصغر دونه لذائذ الدنيا!! والمراد بالغيب هنا: هو عدم رؤيتهم لله عزَّ وجل، فهم يخافونه، ويخافون عذابه، وإن لم يكونوا رأوا ربهم، لأنهم يوقنون بوجوده، وهذا كمال الإيمان،

وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾

ودرجة الإحسان (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) رواه مسلم، ثم قال تعالى مخاطباً جميع الخلق ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾؟ أي أخفوا كلامكم وحديثكم أيها الناسُ، أو أظهروه وأعلنوه، فسواء أخفيتموه أو أظهرتموه فإن الله تعالى يعلمه، لأنه سبحانه يعلم السِّر وأخفى، فكيف تخفى عليه أعمالكم؟ ألا يعلم الخالقُ مخلوقاته؟ وهو الذي خلقها وأوجدها؟ وهو اللطيف بالعباد، الخبيرُ الذي لا يغيب عن علمه شيء، يرى النملة السوداء، في الليلة الظلماء، على الصخرة الصمَّاء!!

قال ابن عباس: نزلت في المشركين، فقد كانوا ينالون من رسول الله ﷺ بالكلام، فيخبره جبريل بما قالوه، فقال بعضهم لبعض: أسرُّوا قولكم، حتى لا يسمع إلهُ محمد ما نقول، فيخبره بكلامنا وحديثنا!! فقيل لهم: أسرُّوا هذا القول أو اجهروا به، فإن الله يعلمه!! والأمرُ هنا ﴿**أسروا قولكم أو ٱجهروا به**﴾ للتهديد والوعيد، ثم ذكَّرهم تعالى بدلائل قدرته ووحدانيته، فقال سبحانه ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي الله جل وعلا، الذي جعل لكم الأرض هيِّنة ليِّنة، سهلة المسالك، فسافروا حيث شئتم من أقطارها، للمكاسب والتجارات، وتردَّدوا في أقاليمها وأرجائها، وانتفعوا بما أنعم الله به عليكم، من أسباب الرزق والمعاش، وإليه تعالى المرجع والمآب بعد الموت، للجزاء والحساب!!

وبعد التذكير بالنعمة، يأتي الوعيد والتهديد، فيقول سبحانه ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾؟ أي هل أمنتم يا معشر المكذِّبين، ربكم العظيم الجليل، أن يخسف بكم الأرض، فيغيِّبكم في أعماقها ومجاهلها؟ بعدما جعلها لكم ذلولاً تمشون في أرجائها ومناكبها؟ ﴿**فإذا هي تمور**﴾ أي تضطرب وتهتز بمن عليها، هزاً شديداً عنيفاً، يدك

﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

القصور، ويهدم المباني والدور؟ والمورُ: الارتجاج والاضطرابُ.. لقد جعل الله الأرض لعباده «ذلولاً» كالدابة المذلَّلة للركوب، وجعلها حلوباً كالبقرة التي تمنحنا اللَّبن والسمن، ولكنْ ماذا يصنع البشر، لو حرَّكها بنا، فانقلبت إلى دابة جموح؟ فثارت فيها البراكينُ، واشتدت بها الزلازل، واضطربت بمن عليها اضطراباً مخيفاً؟ هل بإمكان البشر أن يوقفوا اضطرابها وهيجانها؟ إن الله يحذِّرنا ويخوفنا بهذه الزلازل والبراكين، التي تحدث بين حين وآخر، من غضبه وانتقامه، وما هي إلاَّ دقائق وثوان، يتحطَّم فيها ما بناه الإنسان على ظهرها في مئات السنين، وللبشر عبرة في الإعصار، الذي دمَّر في أميركا ما يزيد على ثلاثين ألف منزل في لحظات، فماذا استطاعت هذه الدولة أن تفعل؟ وماذا حدث في المغرب في بلدة «أغادير» عندما تزلزلت بهم الأرض لبضعة ثوان، والناسُ في لهوهم وعبثهم سادرون؟ وكذلك ماذا حدث لأهل اليمن، وأهل إيران من خراب ودمار؟ منذ زمن قريب!! وبين كل حين وحين، نسمع عن زلزال أو بركان، يدمِّر الأرض وما هي إلا إنذارات للبشر!! ومن عذاب الأرض، إلى عذاب السماء، يخوِّف القرآن الكفَّار، فيقول سبحانه ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟ أي أم هل أمنتم ربكم العظيم الجليلَ الكبير، أن يرسل عليكم حجارة من السماء، فيهلككم كما أهلك قوم لوط؟ وأصحاب الفيل؟ أو يرسل عليكم عواصف من الريح، كما أهلك قوم عاد؟ فستعلمون كيف يكون عقابي وإنذاري للمكذبين؟ ولقد كذَّب الطغاة من قبلكم يا أهل مكة، كذبوا رسلهم، فكيف كان إنكاري عليهم، وعذابي لهم؟ ألم يكن شديداً فظيعاً مريعاً، في غاية الهول والشدة؟ والآية تسلية للرسول ﷺ وتهديد ووعيد لقومه المشركين، عبدة الأوثان.. ثم نبَّههم تعالى على قدرته في هذه (الطيور) التي تسبح في الفضاء، وهم يشاهدونها، ولا يتدبرون عظمة الله في خلقها، وتحليقها وطيرانها، فيقول جلَّ ذكره ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ أي أولم ينظر هؤلاء الكفار، نظر تدبر واعتبار، إلى هذه الطيور فوقهم، باسطاتٍ أجنحتهن

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾

في السماء، عند طيرانها وتحليقها، ويضربنها عند إرادة الراحة فيقبضنها إلى صدورها؟ وهذه الطيور في الحالتين: حالة (البسط) الغالبة، وحالة (القبض) العارضة، تظل في الهواء ولا تسقط؟ ما يمسكها عن السقوط، إلا الله الخالق الرحمن جلَّ جلاله، البصير بأمور العباد!!

والعبرةُ في الطيور، أن جسمها ثقيل، وبعضها ضخم، يشبه الوزَّ والدجاج، وهي تطير وكان الواجب أن تسقط، ولكنَّ الله تعالى بقدرته، جعل لها الهواء تسبح فيه، كما يسبح السمك في الماء، وتبسط أجنحتها أو تقبضها، من غير أن تسقط، فالمتفكر في خلقها وطيرانها، يرى روائع الخلق، في فعل الله البديع، ولو قال لك قائل: رأيت سِرباً من الفئران أو الديدان تطير في السماء، لاستغربت الخبرَ وأنكرته، فكيف بهذه الطيور الضخمة؟ ومن تركيب (جسم الطائر)، اخترع الناسُ الطائرة، فسبحان المبدع للمخلوقات؟ ثم وبَّخ تعالى المشركين في عبادتهم لما لا يسمع ولا ينفع، من الأوثان والأحجار، فقال سبحانه ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ أي ومن الذي يستطيع أن يدفع عنكم عذاب الله، إن أراد إهلاككم وعذابكم؟ هل آلهتكم المزعومة، تستطيع نصرتكم وحمايتكم؟ أي ليس الكافرون في اعتقادهم نفع الأصنام والأوثان، إلاّ في ضلال واضح، وجهل عظيم!! ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أي من هذا الذي يستطيع أن ينزل لكم المطر؟ ويُنبت لكم به الزرع والثمر؟ ويمنحكم أسباب الرزق والحياة، إن منعها الله عنكم؟ هل إلهٌ غيرُ الله يقدر على ذلك؟ إن إسباب الرزق متعددة (الماء، والهواء، والشمسُ، والشجر، والثمر) وغيرها كثيرٌ وكثيرٌ، وكلُّها بيد الخلاَّق جلَّ وعلا، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿بل لجوا في عتو ونفور﴾ أي تمادى الكفار في الطغيان، وأصرُّوا على العصيان، وكفروا بالرحمن، فاستحقوا العذاب والهلاك!! ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؟ أي هل من يمشي كالدابة، أعمى القلب والبصر، منكَّساً رأسه إلى الأرض؟ يمشي مثل الأعمى لا يرى طريقه؟ أم من يمشي منتصب القامة،

﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٢٣ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٥ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٢٦﴾

يبصر الطريق، ويرى النور، ولا يتعثَّر في خطواته؟ أيهما أهدى سبيلاً، وأحسن دليلاً؟ **قال ابن عباس**: «هذا مَثَلٌ لمن سلك طريق الضلالة، ولمن سلك طريق الهدى» لقد صوَّر الكافر، كالدابة الهائمة على وجهها تسير بدون هدف، وكالأعمى الذي لا يرى الطريق، فيتعثر في خطواته، وهو تائه حائر ضالٌ، وصوَّر المؤمن، يمشي على طريق واضح بيِّن، فهو آمن من الخبط والعثار، أيهما أرشد وأهدى؟ الأعمى أم البصير؟ هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة، المؤمن يُحشر سوياً، يمشي على صراطٍ مستقيم، والكافر يمشي مكباً على وجهه إلى نار الجحيم، ويا له من تمثيل رائع، جمع بين جمال الصورة، وروعة التعبير، ودقَّة التصوير!!

﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ أي الله هو الذي خلقكم بهذا الشكل البديع، وركَّب فيكم هذه الحواس (السمع، والبصر، والعقل) أعطاكم السمع لتسمعوا ما ينفعكم، والبصر لتدركوا دلائل قدرة ربكم في هذا الكون، والعقل لتتأملوا وتفكِّروا في عظمة هذا الخالق ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أي ما أقلَّ شكركم لنعم خالقكم!؟ تذكرون ربكم وقت الشدة، وتنسونه وقت الرخاء!! وإنما خصَّ هذه الأعضاء بالذكر (السمع، والبصر، والعقل) لأنها أداة العلوم والمعارف، ووسائل الفهم والإدراك ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ أي خلقكم ونشركم في الأرض، ثم إليه وحده مرجعكم للحساب والجزاء ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؟ أي ويقول المشركون، المنكرون للبعث: متى يكون الحشر والجزاء، الذي تعدوننا به؟ إن كنتم صادقين في مجيء الساعة والقيامة؟ وهذا منهم على سبيل السخرية والاستهزاء ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ أي علمُ وقت الساعة، ووقت القيامة، عند الله تعالى، لا يعلمه أحد إلا هو سبحانه، وما أنا إلا رسول منذر، أخوِّفكم عذاب الله إن لم تؤمنوا!! وينتقل السياق فجأة من الدنيا إلى الآخرة، فبينما هم الآنَ في سخرية واستهزاء، إذْ أبصروا العذاب أمامهم،

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

محسوساً ملموساً ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي فلما شاهدوا العذاب ﴿زلفةً﴾ أي قريباً منهم، ورأوه رأي العين، ظهرت على وجوههم آثار الكآبة والاستياء، فعلاهم الحزنُ، وغشيهم الذلُّ والانكسار، وتقول لهم ملائكة العذاب: هذا الذي كنتم تطلبونه في الدنيا، وتسخرون منه وتهزءون، وتستعجلونه فتقولون: ائتنا بعذاب الله!! هذا هو قريب حاضر منكم، أفسحرٌ هذا أم أنتم لا تبصرون؟ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؟ أي قل يا أيها الرسولُ، لهؤلاء الذين يتمنَّوْن هلاكك: أخبروني إن أماتني اللهُ، أنا وأتباعي المؤمنين، أو رحمنا بتأخير آجالنا، فمن ينقذكم أنتم من عذاب الله، وقد كفرتم بالله؟ هل تظنون الأصنام تخلّصكم من عذاب الله وعقابه؟ ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي قل لهم: آمنا بالله وحده، وعليه اعتمدنا في جميع أمورنا، فسوف تعلمون من هم أهل الشقاوة والضلالة؟ هل أنتم أم نحن؟ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾؟ أي أخبروني إذا صار الماء غائراً ذاهباً في الأرض، بحيث لا تستطيعون إخراجه؟ فمن الذي يستطيع أن يخرجه لكم، ويجعله نابعاً، فائضاً، متدفقاً!؟ هل يستطيع غير الله أن يأتيكم به؟ وهو وعيد مفزع رهيب، لأهل الكفر والضلال!.

انتهى تفسير سورة المُلْك

● ● ●

نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴿٤﴾ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٧﴾

تفسير سورة القلم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ نون حرف من الحروف المقطعة، ذُكر للتنبيه على إعجاز القرآن، وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية، والبشر عاجزون عن الإتيان بمثله.. أقسم تعالى بالقلم، وبالكتابة، على صدق رسالة محمد ﷺ، لينفي عن الرسول تلك التهمة الشنيعة الفظيعة، التي رماه بها المشركون، وهي (الجنونُ) وحاشاه ﷺ منها، ولهذا قال ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ أي لستَ بإنعام الله عليك بالنبوة بمجنون، كما يقول السفهاء المجرمون ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ أي وإن لك عند الله لثواباً عظيماً جزيلاً، على ما تحمَّلتَ من الأذى، في سبيل تبليغ دعوة ربك ﴿غير ممنون﴾ أي غير منقوصٍ ولا مقطوع، وإنك يا محمد لعلى جانب عظيم، من الأدب الرفيع، والخُلُق الكريم!! يا له من شرف عظيم، لم يدركْ مرتبته بشر!! ربُّ العزة والجلال، يثني على عبده ورسوله (محمد) ﷺ، ويصفه بهذا الوصف العظيم الجليل، ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾!! وهذه هي السيدة عائشة رضي الله عنها، حين سُئلت عن أخلاقه وطباعه، قالت: (كان خلُقه القرآن) رواه مسلم، أي كانت أخلاقُه وشمائله، صورة حيَّة تطبيقية لما في القرآن ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ أي فستعلم ويعلمون يوم القيامة، من هو المجنون؟ هل أنت أم هم؟ والمفتونُ: المجنون الذي فتنه الشيطان، وقد كان المشركون يقولون إن بمحمد شيطاناً، يفتنه عن ديننا ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ أي إن ربك هو العالم بالشقي وبالتقي، يعلم من هو الضال

فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾

المنحرف عن طريق الهدى؟ ومن هو المهتدي إلى طريق الحق والإيمان؟ ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ أي لا تطع رؤساء الكفر والضلال، فيما يدعونك إليه، من الكفِّ عنهم وعن التعرض لآلهتهم «الأوثان» فإن طاعة العاصي عصيان، والمراد بقوله ﴿تدهن فيدهنون﴾ أي تداهن وتلين معهم، مأخوذٌ من المداهنة وهو: المصانعة والمساهلة ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ أي ولا تطع الحلاَّف، الذي يكثر الحلف بالحق والباطل، مستهيناً بعظمة الله وجلاله ﴿مهين﴾ أي حقير فاجر ﴿همّاز﴾ أي مغتاب يأكل لحوم الناس، بالطعن فيهم والعيب ﴿مشاء بنميم﴾ أي يمشي بين الناس بالنميمة، فينقل حديث بعضهم إلى بعض، ليوقع بينهم الفتنة، والنميمةُ: الوشايةُ والسعايةُ للإفساد، وهي من الكبائر، وفي الحديث الشريف (لا يدخل الجنة نمَّام) رواه البخاري ومسلم، ومرَّ ﷺ على قبرين، فقال (إنهما ليعذبان. . . وذكر أن أحدهما كان يمشي بالنميمة) رواه البخاري ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ أي بخيل ممسك عن الإنفاق، كثير الآثام والفجور ﴿عتل﴾ أي جافٍ غليظ القلب، لئيم لا يرحم ولا يلين، ثم هو بعد كل تلك الصفات الذميمة ﴿زنيم﴾ أي دعيٌّ لصيقٌ، ليس له نسبٌ صحيح، وهذه أشدُّ معايبه وأقبحها، أنه ابنُ زنى، كما قال الشاعر: (زنيمٌ ليس يُعرف من أبوه). !

قال ابن عباس: لا نعلم أحداً وصفه الله تعالى بهذه العيوب غير هذا، فألحق به عاراً لا يفارقه أبداً. . نزلت هذه الآيات في طاغية من طغاة مكة، وهو «الوليد بن المغيرة» كان شقياً فاجراً، جباراً متكبراً على الناس، وقد وصفه تعالى بهذه الصفات القبيحة، ولما نزلت فيه هذه الآيات، جاء إلى أمه واستلَّ سيفه وقال لها: إن محمداً وصفني بعشر صفات، وجدتُ تسعاً فيَّ، أمَّا (الزنيم) فلا علم لي بها، فإن صدقتيني وإلاَّ ضربت عنقك بالسيف!! فقالت له: إن أباكَ كان غنيّاً، وكان عنّيناً ـ أي لا يستطيع إتيان النساء ـ فخشيت أن يذهب مالُه، فمكَّنتُ راعياً من نفسي، فأنت ابن ذلك الراعي، فلم يُعرف الشقيُّ أنه «ابن زنى» حتى نزلت الآية، فكانت فضيحة له مدىٰ الدهر، وكان له عشرة أبناء، فكان يقول لهم: من أسلم

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾

منكم منعتُه رِفْدي أي عطائي!! ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ أي من أجل أن الله أغناه، وأكثر أولاده، كفر النعمة، وقال عن القرآن: إنه خرافاتٌ وأباطيل المتقدمين، وما أشنعها وأقبحها من مقالة!! يقابل المجرمُ، ربَّه المنعمَ عليه، بمثل هذه الكلمات الفاجرة!! قال تعالى ﴿سنسمه على الخرطوم﴾ أي سنجعل له علامة على أنفه، تكون له (وساماً) مدى الحياة، وهي خطمُ أنفه، وقد جُرح هذا اللعين يوم بدر، فبقي أثر الجرح في أنفه بقية عمره.

قال ابن عباس: «﴿سنسمه على الخرطوم﴾ أي سنخطم أنفه بالسيف، فنجعل ذلك علامة، باقية على أنفه ما عاش، وقد خُطم أنفُه يوم بدر» رواه الطبري، وكنَّى عن الأنف بالخرطوم، إذلالاً له وإهانة، فإن الخرطوم يكون للخنزير، فإذا شُبِّه به أنف الإنسان، كان ذلك غايةً في الإهانة والإذلال، كأنه يقول: سنجعل أنفه كخرطوم الخنزير.. ثم ضرب تعالى مثلاً لكفار مكة، بقصة أصحاب الجنة، وهو «بستان في اليمن» يذكِّرهم فيها بعاقبة البطر بالنعمة، وأن نهايتَها الهلاك والدمار، فقال سبحانه ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي اختبرنا أهل مكة بالقحط والجوع، حتى أكلوا الجلود، والجِيَفَ، والدم، بدعوة رسول الله ﷺ، لمَّا طغوا وتمرَّدوا عليه، وكذبوا برسالته، كما اختبرنا أصحاب الجنة ـ وهي بستان بقرب صنعاء ـ مشتملٍ على أنواع الفواكه والثمار، حين أقسم أصحاب البستان، ليقطعنَّ ثمارها من العنب والرطب، وغيرهما من الفواكه، وقت الصباح الباكر، قبل أن يأتيهم الفقراء والمساكين ﴿ولا يستثنون﴾ أي ولا يستثنون حصة المساكين كما كان يفعل والدهم، وقيل المعنى: ولا يقولون (إن شاء الله) كأنهم واثقون من أمرهم ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ أي فجاءها عذاب وبلاء من السماء، في ظلام الليل، وهم غارقون في نومهم، فأحرقها ودمَّرها، كان هذا الطائف ناراً نزلت عليها، فأتلفت الزرع والشجر والثمر، فأصبحت الحديقة والجنة، كالبستان الذي

فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾

صُرمت ثماره، بحيث لم يبق فيه شيء، (فعيل) بمعنى (مفعول) أي كالشيء المصروم ﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ أي فنادى بعضهم بعضاً، عند الصباح الباكر، انطلقوا مبكّرين إلى بستانكم وثماركم، قبل أن ينتبه الفقراء، إن كنتم حاصدين للثمار، وقاطعين لها؟ ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ أي ذهبوا نحو البستان، يتحدثون بطريق السِرّ والخفية، قائلين: لا تُدْخِلوا أحداً من المساكين إلى البستان اليوم ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ أي مضوا على قدرةٍ وقصدٍ، وعزم وتصميم، يظنون أنهم قادرون على مرادهم، لا يدرون ما فعل الله ببستانهم ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي فلما رأوا الشجر والثمر محترقاً، ورأوا حديقتهم سوداء، قد استحالت من النضارة والبهجة، إلى السواد والظلمة، قالوا: لقد ضللنا الطريق إليها، وما هي بحديقتنا، فلما وضح لهم أنها هي، قالوا عند ذلك: لسنا مخطئين للطريق، بل نحن محرومون، حرمنا الله خيرَها وثمرتها، بجنايتنا على أنفسنا!! ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي قال أعقلهم وأعدلهم رأياً: ألم أقل لكم توبوا عن هذا العزم السيء، ولا تنووا هذه النية الخبيثة!! وكان هذا الأخ قد حذَّرهم من منع الفقراء نصيبهم، ولكنهم عصوه وخالفوه، ولمَّا ذكَّرهم بما نصحهم به، اشتغلوا بالتوبة، ولكنْ بعد (خراب البصرة) ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي فقالوا حينئذٍ: تنَّزه ربنا عن الظلم فيما فعل بنا، فنحن كنا الظالمين لأنفسنا، في منعنا حقَّ المساكين!! ندموا واعترفوا بخطئهم وتابوا، ولكنْ بعد خراب الديار، واحتراق الثمار، وها هم اليوم يلوم بعضهم بعضاً ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ أي أقبل بعضهم يلوم بعضاً، يقول هذا: أنت أشرتَ علينا بهذا الرأي؟ ويقول الآخر: بل فلان هو الذي قال، وهو الذي خوَّفنا من الفقر!! فأصبح كلٌّ

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

واحد يَنْحَىٰ باللائمة على الآخر، ثم دعوا على أنفسهم بالويل والثبور، ثم أقبلوا على ربهم بطلب المغفرة، والتجأوا إليه أن يبدلهم الله خيراً منها، فهم راجون لعفوه، طالبون لإحسانه وفضله.. ساق تعالى هذه القصة، ليعلمنا أن مصير البخيل، ومانع الزكاة، إلى التلف والدمار، وأنه يُفْتَن ببعض ماله، فيذهب الله ماله كلَّه، مصحوباً بغضب الله، ولذلك ذكر بعد هذه القصة، هذا التعقيب الشديد، فقال سبحانه ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي مثل هذا العذاب، الذي نزل بأهل البستان، يُنزل الله عذابه بالمكذبين الجاحدين لفضله وإنعامه، ولعذاب الآخرةُ أكبر، وأشدُّ وأعظم من عذاب الدنيا.

وخلاصة قصة الجنة ما رُوي أن رجلاً صالحاً من أهل صنعاء باليمن، كان له بستان، فيه من أنواع النخيل والفواكه والثمار، وكان إذا حان وقتُ الحصاد، دعا الفقراء فأعطاهم حقَّهم ونصيبهم وافراً، وكان ينفق الثلث على نفسه وأهله، ويتصدَّق بالثلث ويترك الثلث لمصروف العمال وحاجة البستان، فلما مات الأب ورثه أبناؤه، فقال بعضهم إن أبانا كان أحمق، يبذِّر المال وينفق الكثير منه على المساكين، فتشاوروا بينهم وعزموا أن يحرموا الفقراء والمساكين من حقهم، فأرسل الله على البستان ليلاً، ناراً محرقة وصواعق، أتلفت الشجر، وأحرقت الثمر، وفي هذه القصة عبرةٌ لمن اعتبر!!

قال ابن كثير: وهذا مثل ضربه الله لكفار مكة، حيث أرسل الله إليهم الرحمة العظيمة، بعثة خير البشر، فقابلوه بالتكذيب، كما قال سبحانه ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار﴾ وهم كفار قريش اهـ.. وبعد ذكر جزاء الأشقياء المجرمين، ذكر تعالى جزاء المؤمنين المتقين، على طريقة القرآن، في الجمع بين الترهيب والترغيب، فقال سبحانه ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي إن للمؤمنين الذين اتقوا ربهم في الدنيا، حدائق وبساتين، يتنعمون فيها، بما تشتهيه الأنفس، من فنون أنواع النعيم ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، أي هل نساوي بين المسلم والمجرم؟ والمطيع والعاصي؟ فنجازي هذا بمثل ما نجازي ذاك!! ثم يتعجب منهم

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

فيقول: ﴿ما لكم كيف تحكمون﴾؟ أي ماذا حدث لعقولكم؟ حيث تقبلون هذا الحكم الأعوج، وهو المساواة بين المؤمن والكافر، والمطيع والعاصي؟ ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ أي هل عندكم كتاب نازل من السماء، تقرءون فيه، أن الله سيعطيكم في الآخرة، ما تشتهونه وتتخيَّرونه؟ وهذا توبيخٌ آخر للمشركين، حيث كانوا يقولون: إن كان هناك بعث ونشور، وجنة ونعيم، فسيعطينا الله خيراً مما يعطي المؤمنين، كما أعطانا في الدنيا!! ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾؟ أي هل لكم عهودٌ ومواثيق مؤكَّدة عند الله، أنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون؟ ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ أي سلهم أيُهم يضمن هذا؟ وأيهم كفيلٌ بهذا الذي يزعمون؟ وفيه نوع من السخرية والتهكم، حيث يحكمون بأمور، يرفضها العقل، وتأباها العدالة!! ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ أي هل لهم شركاء وأرباب، من الأوثان والأصنام، يكفلون لهم بذلك، فليأتوا بهم وليحضروهم، إن كانوا صادقين في دعواهم، وهذا إنكار لهم بعد إنكار، وتوبيخ لهم بعد توبيخ!! ثم شرع تعالى في بيان شدائد الآخرة وأهوالها، فقال سبحانه ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي اذكر يا أيها الرسول لقومك المكذبين، ذلك اليوم العصيب الرهيب، الذي تتكشف عنه الآخرة، من الأهوال والشدائد، والبلايا والرزايا، ويُدعى المشركون للسجود فلا يستطيعون، لأن ظهورهم تصبح طبقاً واحداً، لا يستطيعون الانحناء، ولا الركوع ولا السجود ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ أي أبصارهم ذليلة، ورءوسهم منكَّسة، يغشاهم ويلحقهم الذل والهوان، وقد كانوا في الدنيا، يُدعون إلى السجود لرب العالمين، فيأبون ويتكبرون، وهم أصحاء الجسم، ليس بهم مرضٌ ولا علة. **قال ابن عباس:** ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ قال: هو

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾

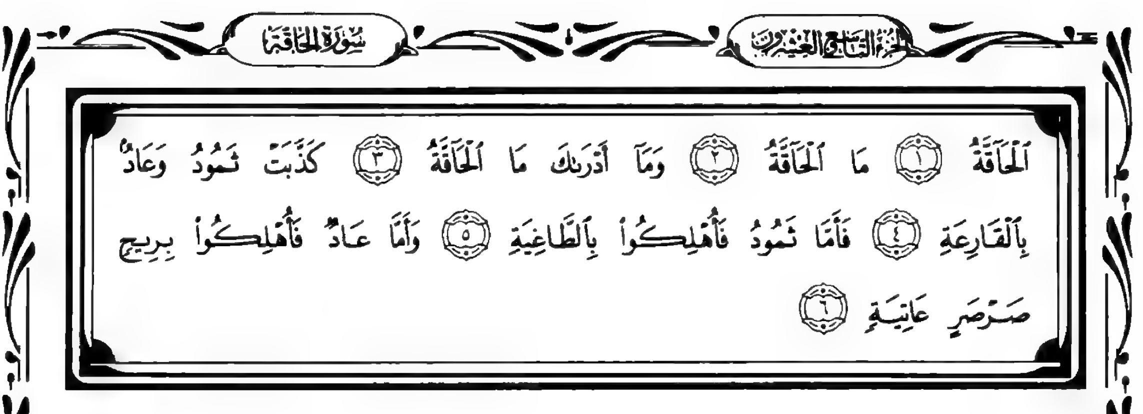
يوم القيامة يوم كرب وشدة، وهو الأمرُ الشديد الفظيعُ من الهول ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أي دعني والمكذبين بالقرآن، وخلِّ بيني وبينه، لأنتقم لك منه، وليس هناك مانعٌ يمنع الله من عذابهم، ولكنه أسلوب العرب في (الوعيد والتهديد)، كما يقول القائل: دعني وهذا الظالم لأكفيك شرَّه!! إنه وعيد الجبار، للكفرة الفجار، ومعنى قوله: ﴿سنستدرجهم﴾ أي نأخذهم بطريق الاستدراج، خُطوةً خطوة، من حيث لا يشعرون ولا يدرون، وذلك بالإمهال ثم بالدمار والنكال، **قال الحسن البصري**: كم من مفتونٍ بالثناء عليه؟ وكم من مغرور بالستر عليه؟ ﴿وأملي لهم﴾ أي أمهلهم وأطيل في أعمارهم، ليزدادوا إثماً، وانتقامي من الكافرين قويٌّ شديد، سمَّاه كيداً، لأنه في صورة الكيد، حيث كان سبباً للهلاك، ولا يجوز أن يُسمَّى الله ماكراً، ولا كائداً، ولا مستهزءاً، لأن صفات النقص لا تُنسب إليه تعالى، وأسماؤه توقيفية، وفي الحديث الشريف (إذا رأيتَ الله يُنعم على عبد، وهو مقيمٌ على معصيته، فاعلم أنه مستدرج) وتلا ﷺ ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ رواه أحمد ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي هل تسألهم يا أيها الرسولُ أجراً، على تبليغ الرسالة، فيُثقلهم ذلك، ويمنعهم من الإيمان؟ ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾؟ أي هل عندهم علم الغيب، فهم ينقلون منه ويكتبون، أن الله لن يعذبهم على إجرامهم، ولن يؤاخذهم على تكذيبهم لسيد الخلق ﷺ؟ ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي اصبر يا محمد على أذاهم، وامضِ في طريق الدعوة، حتى يحكم الله بينك وبين أعدائك، ولا تكن في الضجر والعجلة، كيونس بن متى، الذي التقمه الحوتُ، حين نادى ربه في بطن الحوت بقوله ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ وقوله تعالى ﴿وهو مكظوم﴾ أي وهو مكروبٌ ومغموم، وذلك حين ذهب مغاضباً لقومه، وركب البحر دون إذنٍ من ربه، وكادت السفينة تغرق، فألقي في البحر، فالتقمه الحوت، ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي لولا أن

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

تداركته رحمة الله، بدعائه وتضرعه، لطُرح في الفضاء الواسع من الأرض، الخالي من الجبال والظلال، وهو ملامٌ على ما ارتكب، ولكنَّ الله أنعم عليه بالتوبة والإنابة، فلم يلحقه شيء من الذمّ ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي فاصطفاه ربُّه واختاره لنفسه، فجعله من المقربين عنده، الكاملين في الصلاح، فهو ذو مكانة عند الله، وفي الحديث الشريف (لا ينبغي لأحدٍ أن يقول أنا خيرٌ من يونس بن متى) رواه البخاري، والمراد أن لا ينتقص أحدٌ قدره، بسبب غضبه على قومه، وخروجه من بين أظهرهم، دون إذنٍ من الله.. وتختم السورة الكريمة ببيان شدة عداوة المشركين للرسول الأعظم ﷺ، الذي بعثه الله رحمة للعالمين، فيقول سبحانه ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ أي ولقد كاد الكفار من شدة بغضهم لك، وعداوتهم لدينك، أن يصرعوك بأعينهم، ويهلكوك بنظرات مسمومة قاتلة، حين سمعوا القرآن تتلوه عليهم، ويقولون من شدة بغضهم وحسدهم لك: إن محمداً مجنون ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي وما هذا القرآن المعجز، المنزل عليك يا محمد، إلاَّ موعظة وتذكرة، للإنس والجن، فكيف يُوصفُ من نزل عليه القرآن بالجنون؟ وفي هذه الآية دليل على أن الإصابة بالعين حقٌّ، كما قال ﷺ: (العينُ حقٌّ، ولو كان شيء يسبقُ القَدَر، سبقته العين) رواه مسلم، وكان ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين فيقول: (أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامَّة، ومن كلِّ عين لامة) رواه البخاري، وحين اشتكى رسول الله ﷺ رقاه جبريل، فقال: (باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من كل حاسد وعين، اللَّهُ يشفيك) رواه أحمد، وصلى الله على سيدنا محمد، والحمد لله رب العالمين.

انتهى تفسير سورة القلم

● ● ●



تفسير سورة الحاقة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَآقَّةُ مَا ٱلْحَآقَّةُ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ الحاقة: القيامةُ، سميت حاقة لأنها حقٌ مقطوع بوقوعها، لا شك في مجيئها ولا جدال، والتكرار ﴿ما الحاقة﴾؟ لتفخيم شأنها، وتعظيم أمرها، والأصلُ أن يُقال: ما هي؟ ولكنَّ وضع الظاهر مكان الضمير، لزيادة التخويف والتهويل ﴿وما أدراك ما الحاقة﴾؟ أي وما أعلمك يا أيها الرسول ما هي الحاقة؟ إنها من الشدة والهول بحيث لا يحيط بها خيال!! آيات قصيرة، ولكنها مرعبةٌ مفزعة، بألفاظها، ووقعها، وأسلوبها، تهزُّ القلب هزاً، وتُلقي في النفس الهَلَع والفزع، فهي خطب فظيع، وشيء مريع، لا يكاد يبلغه علم إنسانٍ ولا وهمه!! ثم ذكر تعالى من كذَّب بها من الأمم الطاغية، فقال سبحانه ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ أي كذبت «ثمود» قوم نبي الله «صالح» و«عاد» قوم نبي الله «هود» بالقارعة أي بالقيامة، فأمَّا قبيلة ثمود فقد أهلكهم الله بالطاغية أي الزلزلة العظيمة الفظيعة، حيث رجفت بهم الأرض، فدمَّرتهم وأهلكتهم، كما قال سبحانه: ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ وأما قبيلة عاد، فقد أهلكهم الله بالريح العاصفة الشديدة، ذات الصوت المفزع، والباردة المهلكة بشدة بردها، وهي (الدبور)، لقوله ﷺ: (نُصرتُ بالصَّبا، وأُهلكتْ عادٌ بالدبور) رواه البخاري، ومعنى قوله ﴿عاتية﴾ أي متجاوزة الحد، في الهبوب والبرودة.

قال ابن عباس: ما أرسل الله من ريحٍ قطُّ إلاَّ بمكيال، وما أنزل قطرةً قطُّ إلا بمكيال، إلاَّ يوم نوح، ويوم عاد، فإن الماء طغى على الخُزَّان، فلم يكن لهم عليه سبيل، ثم قرأ

سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾

﴿إنَّا لما طغى الماء حملناكم في الجارية﴾ وإن الريح عتت على خزانها، فلم يكن لهم عليها سبيل، ثم قرأ ﴿بريح صرصر عاتية﴾ رواه الطبري ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي سلَّط الله عليهم (الريح العاتية) المدمرة، التي قلعت الأشجار، ودمرت الديار، سبع ليالٍ، وثمانية أيام ﴿حُسُوماً﴾ أي متتابعة، وهذا معنى الحسوم وهي التي لا تفتر ولا تنقطع ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أي فترى قوم عادٍ موتىٰ، ساقطين على الأرض، متناثرين هنا وهناك، يشبهون أصول النخيل البالية، التي تآكل جوفها، فسقطت على الأرض.. شبَّههم تعالى بالنخيل لأنهم كانوا طوالاً، ضخام الأجسام، يشبهون في الضخامة شجر النخيل ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ أي فهل ترى أحداً من بقاياهم؟ لقد بادوا وهلكوا عن بَكرة أبيهم، فلم يبق منهم أحد!! إن العاصفة إذا استمرت ساعةً أو ساعتين، خرَّبت ودمَّرت، فكيف إذا دامت ثمانية أيام تباعاً؟! إنه عقاب الله للطغاة المكذبين، لم يهلكهم الله بالقنابل الذرية، أو الهيدروجينية، وإنما أهلكهم بأبسط جنده، بالريح الصرصر العاتية ﴿ولله جنود السموات والأرض﴾.. ومن الحديث عن هلاك عادٍ وثمود، إلى الحديث عن هلاك فرعون الطاغية الجبار، وعن قوم لوط الأشقياء الفجار، يقول جلَّ ذكره ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي وجاء فرعون الجبار، ومَنْ تقدَّمه من الأمم الباغية ﴿والمؤتفكات﴾ وهم قوم لوط الذين انقلبت بهم ديارهم، حيث جعل الله عاليها سافلها، ﴿بالخاطئة﴾ أي بالفعلة الخاطئة المنكرة وهي «اللواطة» أفحشُ الجرائم، كما أتى فرعون بأفحش وأقبح الذنوب، فادَّعى الربوبية فقال ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ وقتَّل النفوسَ، وأزهق الأرواح، وارتكب ما ارتكب من شنائع وفظائع ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي عصى كلُّ قوم رسولهم، عصى فرعونُ رسول الله «موسى» وعصى قوم لوط رسولهم «لوطاً» فأخذهم الله أخذةً زائدة في الشدة، تزيد على عقوبات من سبقهم، لأن جرائمهم زادت في القباحة والشناعة!! ومعنى ﴿رابية﴾ أي زائدة في الشدة والعذاب.. ثم يأتي الحديث عن هلاك قوم نوح، بالطوفان الذي عمَّ الكرة الأرضية، وهو الطوفان العظيم،

إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾

الذي علا فوق الجبال، فيقول سبحانه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ أي نحن الذين أهلكنا المكذبين بالطوفان، لمَّا جاوز الماءُ حدَّه المعتاد، وحملنا آباءكم في السفينة، ونجيناهم من الغرق، وأنتم في أصلابهم، لنجعل تلك الحادثة (الطوفان) عظة وعبرة للخلق، تشير إلى انتقام الله من الكفرة المجرمين ﴿وتعيها أذن واعية﴾ أي تحفظها وتتذكَّرها أذنٌ حافظة، عقلت كلام الله، وانتفعت بما سمعتْ، ومعنى ﴿واعية﴾ أي واعية للمواعظ، من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظه.. ثم بعد الحديث عن قصص الطغاة المتجبرين، ينتقل الحديث إلى أهوال القيامة، فيقول سبحانه ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي فإذا نفخ «إسرافيل» في الصور نفخةً واحدة، وهي «النفخة الأولى» التي يحصل بها خراب الدنيا، وقُلعت الجبال وارتطمت حتى تفتَّتت، وأصبحت كذرات التراب المتناثرة، ولا يحتاج الأمر إلى تكرار الدكِّ، وإنما هي دكة أي ضربة واحدة، تتطاير فيها الجبال، وتتناثر فيها الكواكب، ويموت فيها جميع الخلق، لأنها تحصل بأمر العزيز الجبار ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي ففي ذلك الوقت الرهيب، قامت القيامةُ الكبرى، وحدثت الداهية العظمى﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ أي وتشققت السماء وتصدَّعت، لنزول الملائكة فهي يومئذٍ ضعيفة مسترخية، ليس فيها تماسك ولا صلابة ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ أي وملائكة الرحمن على جوانب السموات وأطرافها، لأن السماء مسكنهم، فإذا انشقت السماء، وقفوا على جوانبها، فزعاً من هول ذلك اليوم، ويحمل عرش الرحمن يوم القيامة، ثمانيةٌ من الملائكة العظام الأشداء، الذين لا يعرف ضخامة خلقِ أحدهم إلا الله ربُّ العالمين، وفي الحديث الشريف (أُذنَ لي أن أحدِّثكم عن ملَك من ملائكة الله تعالى، من ملائكة العرش، أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه، مسيرة سبعمائة عام) رواه أبو داود ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي في ذلك الموقف

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾

الجليل، واليوم الرهيب، تُعرضون على العزيز الجبار، ملك الملوك، الواحد القهار، للحساب والجزاء، لا يخفى عليه منكم أحد، والمراد بالعرض هنا: العرضُ الأكبر ﴿وعُرضوا على ربك صفاً﴾ وقال عمر رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر» وبعد هذا العرض الأكبر، على جبار السموات والأرض، ينقسم الناس إلى قسمين: سعداء، وأشقياء، فالسعداء يأخذون كتبهم بأيمانهم، والأشقياء يأخذونها بشمائلهم، ولهذا قال تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي فأمَّا المؤمن السعيد، الذي يُعطى كتاب عمله بيمينه، فيقول سروراً وابتهاجاً: خذوا أيها الناس كتابي فاقرءوه، انظروا يا أصحابي ويا أحبابي، لقد فزت بالسعادة الأبدية بالجنة، لأني أيقنتُ أني سأبعث وأُحاسب، فأعددت لهذا اليوم عُدَّته، قال تعالى ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي فهو اليوم في عيشة سعيدة هنيئة، ﴿راضية﴾ بمعنى مرضيَّة، يرضاها الإنسان، في جنة رفيعة القدر والدرجات، فيها قصور عالية شاهقة، ثمارها قريبة، يتناولها القائم والقاعد والمضطجع، ويقال لهم ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ أي كلوا من خيرات الجنة وفواكهها وثمارها، واشربوا من شرابها، أكلاً وشرباً هنيئاً مريئاً، لا تنغيص فيه ولا كدر، بسبب ما قدمتموه في الدنيا من الأعمال الصالحة، ونعيمُ الجنة ألوان وأنواع، لا تصل إليه خواطر البشر، ففي الحديث القدسي (أعددتُ لعبادي الصالحين، ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خَطَر على قلب بشر) قال أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ رواه البخاري ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ أي وأما الشقيُّ الذي يُعطى كتابه بشماله فيقول ألماً وتحسراً: يا ليتني لم أُعطَ كتابي، ولم أدر ما حسابي؟ وذلك لما يرى من قبح العمل، وسوء العاقبة، والهاء في ﴿كتابيه﴾ و﴿حسابيه﴾ تسمى هاء السكت، يؤتى بها لحلية الكلام

﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾

﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ أي ليت الموتة الأولى التي متُّها في الدنيا، كانت النهاية القاطعة لحياتي، ولم أُبعث بعدها أبداً، ما نفعني مالي الذي جمعتُه، ولا دفع عني من عذاب الله شيئاً، وقد زال عني ملكي وسلطاني، فلا المالُ أغنى أو نفع، ولا السلطانُ بقي أو دفع!! ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي يقول الله لزبانية جهنم: خذوا هذا المجرم الأثيم، فشدُّوه بالأغلال، واجمعوا يديه مع عنقه، ثم أدخلوه النار المتأججة، نار الجحيم، **قال ابن كثير**: قال الفُضيل بن عياض: إذا قال الربُّ عزَّ وجل ﴿خذوه فغلوه﴾ ابتدره سبعون ألف ملك، أيُّهم يجعل الغُلَّ في عنقه؟ وإن الملك منهم لا تُتصور ضخامته ﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾ أي أدخلوه في سلسلة حديدية، طولها سبعون ذراعاً، ولفُّوه بها حتى لا يستطيع الحركة، وليس الغرض التقدير بهذا المقدار، بل الوصف بالطول كقوله سبحانه ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة﴾ يريد به مرات كثيرة!.

قال الحسن البصري: الله أعلم بأيِّ ذراع، ذراع الإنسان، أو ذراع المَلَك!! ثم بيَّن تعالى السبب، في هذا العذاب الأليم فقال ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ أي لأنه كان كافراً فاجراً، لا يؤمن بربه وخالقه العظيم، ولا يحثُّ على إطعام المسكين، خلا قلبه من الإيمان، والرحمة، فهو قلب ميِّتٌ خرب!! لم يقل تعالى: لا يُطعم المسكين، وإنما قال ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ فإذا كان لا يحثُّ غيره على الإطعام، فكيف يُنفقُ هو ويبذل ماله؟ ذكر تعالى من جرائمه أمرين: (الكفر، والبخل) فإن أقبح الذنوب: الكفرُ بالله، وأشنعُ الرذائل: البخلُ وقسوةُ القلب، ومثلُ هذا المجرم لا تصلح له إلاَّ نار الجحيم!! ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾ أي فليس له يوم القيامة صديقٌ، ولا قريب يحميه، ولا طعام إلاَّ صديد أهل النار، الذي يسيل من

فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾

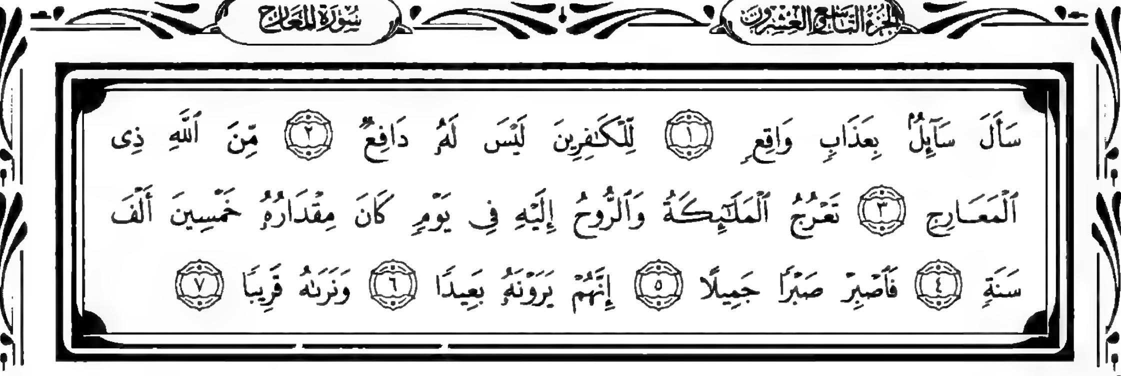
جراحاتهم، لا يأكله إلا الكفار الفجار ﴿**الخاطئون**﴾ أي الآثمون، أصحابُ الخطايا والجرائم، والخاطىء: الذي يفعل الذنب متعمداً، بخلاف المخطىء: الذي يفعل الذنب عن غير قصد، ولهذا قال هنا ﴿**الخاطئون**﴾ ولم يقل المخطئون، فتدبر أسرار القرآن في تعبيره الدقيق!! ثم يأتي القَسَمُ من ربِّ العزة والجلال، على صدق رسالة محمد، وصدق القرآن المنزل عليه، فيقول سبحانه ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ أي فأقسمُ لكم أيها الناس، بما ترونه وما لا ترونه، . بما هو مشاهد ومرئي لأبصاركم، إن هذا القرآن، كلامُ ربِّ العزة والجلال، يبلِّغكم إياه رسوله الكريم، محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم، وأضاف القرآن إلى الرسول، باعتبار أنه هو القارىء والمبلِّغ له عن الله عزَّ وجل ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي وليس القرآنُ كلام شاعر كما تزعمون، لأنه مباينٌ لأوزان الشعر، كلامٌ بالغُ الروعة، خارجٌ عن طاقة البشر، وليس بقول كاهنٍ يدّعي معرفة الغيب، لأنه يغاير كلام الكهان ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي هو منزلٌ من عند الرحمن، رب الخلق أجمعين، وذكر القلة ﴿**قليلاً ما تؤمنون**﴾ و﴿**قليلاً ما تذكرون**﴾ أي القليل منكم من يؤمن به، والقليل من يتعظ به ويتذكر!! والغرضُ من الآية، تبرئة الرسول ﷺ مما نسبه إليه المشركون، من دعوى الكهانة والشعر، فكل ذلك كذب وبهتان، ثم أكَّد ذلك بأعظم برهان، وأبدع بيان، على أن هذا القرآن من عند الرحمن، فقال سبحانه ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾ أي لو اختلق محمد بعض الأقوال علينا، ونسب إلينا ما لم نقله، لأخذنا بيمينه، ثم لقطعنا منه نياط قلبه، وهو عرق القلب الأبهر، الذي إذا قُطع مات صاحبُه ﴿فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ أي فما يستطيع أحدٌ منكم أن ينقذه منا، أو يُخلِّصه من عذابنا!! لم يقل تعالى: لضربنا عنقه، أو أهلكناه وموَّتناه، وإنما صوَّره بأفظع ما يفعله الملوك، بمن يغضبون عليه، وهو أن يأخذ الجلاَّد بيمينه، ويكبَّه على وجهه، وهو يرى السيف، ثم يضرب عنقه، ويقطع منه الأوداج، وإنه

وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

لمنظر مفزع رهيب، في تصوير القتل بهذه الصورة الشنيعة.. ثم ختم تعالى السورة، بالإشادة بذكر هذا القرآن، الهادي إلى طريق الحق، المذكِّر للبشر، فقال سبحانه ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ أي وإن هذا القرآن، لعظة وتذكرة لأهل التقوى والإيمان، وإنَّا لنعلم أن منكم من يكذِّب به، مع وضوح آياته، وظهور إعجازه ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي وإنه لحسرة وندامة، على المجرمين المكذبين به في الآخرة، إذا رأوا ثواب المؤمنين، وسعادتهم في الجنة، وإنه لحقٌّ يقيني منزل من عند الله، لا يحوم حوله ريب، ولا يشك عاقل أنه كلام رب العالمين، فسبح يا محمد ربك، ونزّهه عما يقوله هؤلاء السفهاء، في حق القرآن الكريم، فإنه معجزتك الكبرى، وأنت خاتم المرسلين!!

انتهى تفسير سورة الحاقة

● ● ●



تفسير سورة المعارج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ نزل صدر هذه السورة في السفهاء، من (مشركي قريش)، الذين استعجلوا العذاب، والسائل هو (النضر بن الحارث) أحد صناديد مكة وطغاتها المتجبرين!.

والمعنى: دعا داع من كفار مكة، على نفسه وقومه، بعذاب نازل لا محالة، من رب العزة والجلال، هذا العذاب إذا نزل، فلن يُرفع ولن يُدفع، ولكنْ كيف يستعجل هذا الشقيُّ العذاب، وهو نازلٌ من رب الأرباب؟ أفلا يخاف عظمة الله وجلاله؟ **﴿من الله ذي المعارج﴾** أي هذا العذاب من الكبير المتعال، صاحب المعارج أي المصاعد، التي تصعد بها الملائكةُ وتنزل، بأمره سبحانه ووحيه ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ إخبار عن طول يوم القيامة، أي إن الملائكة ورئيسهم جبريل الأمين، يصعدون بين الأرض والعرش، يوم القيامة الذي طوله خمسون ألف سنة من سنوات الدنيا، ولهذا قال في آية أخرى **﴿مما تعدُّون﴾** أي من أيام الدنيا.

قال ابن عباس: «هو يوم القيامة، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة، ثم يدخلون النار للاستقرار» وقد قيل للرسول ﷺ يا رسول الله ما أطولَ هذا اليوم؟ فقال: (والذي نفسي بيده، إنه ليخفَّفُ على المؤمن، حتى يكون أخفَّ عليه من صلاة مكتوبة ـ أي فريضة ـ يصلِّيها في الدنيا) رواه أحمد ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ أي فاصبر يا محمد على سخريتهم وتكذيبهم، واستعجالهم للعذاب، فإن هؤلاء الفجار ـ لإنكارهم

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾

للبعث والحساب ـ يستبعدون العذاب، ويعتقدون استحالة حدوثه، ونحن نراه قريباً، لأن كلَّ ما هو آت قريب ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده﴾ والآية تسليةٌ للرسول ﷺ عن استعجال المشركين للعذاب، لأنهم كانوا يطلبونه على وجه السخرية والاستهزاء!! فإن قيل: كيف قال هنا: ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ وقال في آية الحج ﴿كألف سنة مما تعدون﴾؟ **فالجواب**: أن الحديث هنا عن يوم القيامة، وطولُه خَمسون ألف سنة، ولهذا جاء الخبر قاطعاً جازماً، وأمَّا في سورة الحج، فقد استبطئوا نزول العذاب، فأخبرهم الله أن اليوم عنده، ليس مثل اليوم عند البشر، فاليوم عنده طويل، يقارب ألف سنة بالنسبة للبشر، وهو (اليوم الإلهي) ولهذا جاء بكاف التشبيه ﴿كألف سنة مما تعدون﴾ فآيةُ المعارج تتحدث عن (يوم القيامة) وآية الحج تتحدث عن (اليوم الإلهي) الطويل، فلا تعارض بين الآيتين، فكل منهما في موضوع مختلف عن الآخر، فافهم كلام رب العزة والجلال، رعاك الله!! ثم أخبر تعالى عن هول العذاب وشدته، في ذلك اليوم العصيب، الذي تتفطَّر له السماء، وتتناثر له الجبال، فقال سبحانه ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ أي ذلك العذاب الذي يستعجلونه، سيرونه لا محالة، يوم تصبح السماءُ سائلةً غير متماسكة، كالنحاس المذاب من شدة الهول، وتكون الجبال كالصوف المنفوش، المصبوغ ألواناً، لأن الجبال مختلفة الألوان في الدنيا، منها الأبيض، والأحمر، والأسود، فإذا تفتت الجبال وتناثرت، أصبحت ﴿كالعهن﴾ أي الصوف المصبوغ ألواناً ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ أي لا يسأل صديقٌ صديقه، ولا قريبٌ قريبه، عن حاله وشأنه، لانشغال كل إنسان بنفسه، وذلك لشدة ما يحيط بالخلائق من الهَلَع والفزع ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ أي يُبصر بعضُهم بعضاً، فيرى الرجل أباه، والأخ أخاه، والصديق صديقه، فلا يسأله ولا يكلِّمه، لشغل كل أنسان بنفسه، ويتمنى المجرم المكذب بآيات الله، لو يفدي نفسه من عذاب الله، بأعزِّ من كان عليه في

﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾

الدنيا من البنين يعني الأولاد، ﴿وصاحبته وأخيه﴾ يعني الزوجة والإخوة ﴿وفصيلته التي تؤويه﴾ أي وعشيرته التي كان ينتسب إليها، ويفتخر بها، وكانت تحميه وتدفع عنه شرَّ الأعداء، بل إن الأمر يتعدى الأقارب، إلى أن يتمنى المجرم لو فدى نفسه بجميع أهل الأرض، ولهذا قال ﴿ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه﴾ أي لو كان جميع الخلق تحت يده، لَبَذَلهم فداءً لنفسه، ولكنْ هيهات أن ينجو المجرم من العذاب ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ «كلاَّ» أداةُ ردعٍ وزجر، أي ليرتدعْ هذا المجرم الأثيم، وليكفَّ عن أمانيه الباطلة، في خلاصه من العذابِ، فأمامه ﴿لظى﴾ تنتظره، وهي جهنم، التي تشتعل نيرانها، ولا تهدأ ولا تنطفىء ﴿نزاعة للشوى﴾ أي تقلع وتنزع جلدةَ الرأس، والشوّىٰ جمعٌ مفردها شواةٌ، أي إن هذه النار لشدة حرها، تقتلع أطرافهُ وجلدةَ رأسه، وكأنها مغناطيس، تجذب إليها كل ما يحيط بالإنسان من الأطراف، قال البخاري في التفسير: الشوىٰ: اليدان، والرجلان، والأطراف، وجلدةُ الرأس يُقال لها: شواةٌ ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ أي تدعو جهنم وتهتف بمن كفر بالرحمن، وكذب بالقرآن، وأعرض عن الإيمان، تقول: إليَّ إليَّ يا كافر، وتنادي من جمع ماله، وخبأه في وعاء، ولم يؤدِّ زكاته، ولا أدىٰ حقوق الفقراء والمساكين منه.

قال ابن عباس: «تدعو جهنم الكافرين والمنافقين بأسمائهم، بلسانٍ صحيح فصيح، تقول: إليَّ يا كافرُ، إليَّ يا منافق، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطيرُ الحبَّ» والآية وعيدٌ شديد، لمن جمع المال، وبخل به، فلم يعط منه حقَّ المسكين، ولا أدىٰ زكاته، وفي الحديث الشريف (يُجاء بابن آدم يوم القيامة، كأنه بَذَجٌ ـ الصغير من الضأن ـ فيوقف بين يدي الله، فيقول الله له: أعطيتك، وخوَّلتُك ـ أي ملَّكتُك ـ وأنعمتُ عليك، فماذا صنعتَ؟ فيقول: يا رب جمعتُه وثمَّرته فتركتُه أكثر ما كان، فارجعني آتك به!! فيقول الله له: أرني ما قدَّمتَ فيعيد العبدُ قوله السابق.. فإذا عبدٌ لم يُقدِّم خيراً، فيُمضىٰ به إلى النار) رواه الترمذي. **وكان الحسن البصري يقول**: يا ابنَ آدم سمعتَ وعيدَ الله، ثم أوعيتَ الدنيا!! أي جمعتها من حلال وحرام!! ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ أي طبيعة

إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾

الإنسان الهلعُ والجزعُ، ومعنى ﴿هلوعاً﴾ أي كثير الجزع والضجر، ثم فسَّره تعالى بقوله ﴿إذا مسه الشر جزوعاً﴾ أي إذا نزل به كربٌ أو شدة، أو فقرٌ أو مرض، كان كثير الجزع أي الضجر والشكوى ﴿وإذا مسه الخير منوعاً﴾ أي وإذا أصابه الخير، من الغنى والسعة، كان مبالغاً في المنع والإمساك، ينسى فضل ربه عليه، فيشحُّ ويبخل، ولا ينفق مما أعطاه الله ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ أي إلا أهل الصلاح والإيمان، الذين يحافظون على الصلاة، ويؤدونها من غير تقصير، فهؤلاء لا يصيبهم الهلع والجزع، فلا يجزعون لفقد الدنيا، ولا يبخلون بخيرها ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ أي والذين في أموالهم نصيبٌ معيَّن، فرضه الله عليهم وهو «الزكاة» التي هي حق الفقراء والمساكين، للسائل الذي يسأل الناس لفقره، وللمحروم الذي يتعفف عن السؤال ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ ثم زاد في أوصاف هؤلاء المؤمنين فقال ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أي والذين يؤمنون بيوم الحساب والجزاء، ويصدِّقون بالآخرة تصديقاً جازماً، ويخافون من عذاب الله، فإن عذاب الله لا ينبغي أن يأمنه أحد، لأن الأمور بخواتيمها، فهؤلاء المؤمنون مع إيمانهم وإحسانهم، يخافون من عذاب الله، **قال الحسن البصري**: المؤمن يُشفق أن لا تُقبل حسناتُه مع طاعته وإحسانه ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ أي يحفظون فروجهم عن الزنى والفواحش، إلا على زوجاتهم فإنهم غير مؤاخذين، لأنها فيما أباحه الله لهم، فمن طلب غير الزوجة، وملك اليمين، لقضاء شهوته، فإنه الظالم المتعدي لحدود الله.. أثنى الله عليهم بأنهم أعفاء شرفاء لا يرتكبون المحارم، بعيدون عن كل قذارةٍ جنسية!! فالإسلام يقرر نظافة (الاتصال الجنسي)، فيبيح العلاقات الجنسية إذا كانت بطريق

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

شرعي شريف، ويحرِّمها إذا كانت بطريق الفوضى، كالحيوانات ينزو بعضُها على بعض، ويعتبرها رجساً وقذراً، يستحق فاعلها العقوبة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ أي يؤدون الأمانات، ويحفظون العهود، فإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدروا، خلافاً لما عليه المنافقون، من خيانة الأمانة، ونقض العهد ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ أي والذين يقيمون الشهادة بالعدل، يشهدون بالحق على القريب والبعيد، ولا يكتمون الشهادة ولا يغيِّرونها، ويحافظون على صلاتهم، في أوقاتها، بفرائضها وأركانها وآدابها، هؤلاء الذين اتصفوا بالصفات الفاضلة الحميدة، هم الوارثون لجنات النعيم، يلقون فيها التحية والتكريم.. وبعد هذا البيان المستفيض عن أوصاف أهل الإيمان، يأتي الحديث عن الأشرار الفجار، وموقفهم من خاتم المرسلين، فيقول سبحانه ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ المهطعُ: الذي يُسرع الخطى نحو الشيء الغريب، ومعنى (عزين) جماعات متفرقين، جمع عِزَة وهي الجماعة المتفرقة، ومعنى الآية، ما لهؤلاء الكفرة المجرمين، مسرعين نحوك يا محمد، يمدُّون أعناقهم في استغراب ودهشة؟ ينظرون إليك نظراً حاداً، وقد تحلَّقوا جماعات جماعات، عن يمينك وشمالك؟ يسرعون ليهزءوا ويضحكوا!! ويقولون فيما بينهم إن دخل هؤلاء المؤمنون الجنة ـ كما يقول لهم محمد ـ فسندخلها قبلهم، لأن الله أعطانا في الدنيا أكثر مما أعطاهم!! قال تعالى رداً عليهم ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي هل يطمع كل واحد من هؤلاء المجرمين، أن يدخله الله جنة الخلد والنعيم؟ وقد كفر بربه، واستهزأ من رسوله؟ ﴿كلا﴾ ردعٌ له وزجرٌ مع التحقير، أي ليس الأمر كما يطمعون، فإن هؤلاء الفجار، لن يدخلوا جنة الله أبداً، ومن أين لهم أن يتشرفوا بدخول الجنة، وهم على ما هم عليه من الكفر والإجرام!؟ وهم يعلمون حقيقتهم، ويعرفون ممَّ خُلقوا!! لقد خُلقوا من تلك النطفة الحقيرة، من ذلك الماء المهين، الذي تستقذره النفس ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾؟

فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرًا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

والتعبير المبدع الرائع في الآية يجعلهم يطأطئون الرءوس خجلاً وحياءً، ويُعرِّفهم بقدرهم وقيمتهم عند الله، فهم أهونُ وأحقرُ وأذلُّ، من أن يدخلوا جنة القدس!؟ وقد مسخ القرآن بهذا التعبير، كبرياءهم وغطرستهم مسخاً، وأراهم أنفسهم على حقيقتها، دون لفظةٍ نابية، فلم يقل مثلاً: خلقناهم من قذر ونجس، وإنما قال ﴿إنا خلقناهم مما يعلمون﴾ ليفكروا في أصل نشأتهم، حتى يعرفوا مكانتهم عند الله، فإذا كانوا مخلوقين من القذر، من ماء مهين، فلا يليق بهم الكبرُ الذي يتيهون به ويفخرون.. ثم يأتي لهم الوعيد والتهديد ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرًا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ ﴿فلا﴾ لا، صلة للتأكيد، أي فأقسم لكم قسماً مؤكداً، برب مشارق الشمس والقمر والنجوم، ومغاربها، إنا قادرون على إهلاكهم، واستبدالهم بقوم أفضل منهم، وأطوع لله وأعبد، ولسنا بمسبوقين أي بعاجزين عن ذلك، نحن الذين خلقناهم، ونحن القادرون على إهلاكهم وإفنائهم!! ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي دعهم واتركهم في غيِّهم وضلالهم، اتركهم يخوضوا في باطلهم، ويلعبوا بدنياهم، حتى يلاقوا ذلك اليوم العصيب الرهيب ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾ أي يوم يخرجون من القبور، إلى أرض المحشر مسرعين، كأنهم يسعون إلى أصنامهم التي نصبوها ليعبدوها، وفي هذا التشبيه (تهكُّمٌ) بهم وسخرية لاذعة، تتناسب مع حالهم في الدنيا، فقد كانوا يسارعون إلى الأوثان في الأعياد ليعبدوها، وها هم يسارعون اليوم إلى الجحيم ليقتحموها ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ أي أبصارهم ذليلة، لايرفعونها من الخجل والحياء، والذلُّ والهوان يغشاهم من كل مكان، وفي هذا اليوم يلقون حسابهم وجزاءهم العادل.!

انتهى تفسير سورة المعارج

● ● ●

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

تفسير سورة نوح

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي بعثنا شيخ الأنبياء «نوحاً» عليه السلام، إلى سكان جزيرة العرب ـ وكان يسكن بالكوفة ـ بأن خوِّف قومك الكافرين، وحذِّرهم عذاب الله الشديد الموجع، إن لم يؤمنوا ويتركوا عبادة الأوثان والأصنام، وقومُ نوح هم أولُ من ظهرت فيهم (الوثنيةُ وعبادةُ الأصنام) وأولُ من كفر بالله، وتمادى في العصيان، وقد كان بين نوح وآدم عشرة قرون ـ أي ألف سنة ـ كما قال ابن عباس، كلهم على التوحيد والإيمان، حتى كان زمن نوح، فكفروا وعبدوا الأوثان ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ لاطفَهم عليه السلام بالدعوة، فلم يقل لهم: إنكم قوم ضالون، تعبدون حجارة صماء، لا تضرُّ ولا تنفع، وإنما أضافهم إليه ﴿يا قوم﴾ استعطافاً لهم، حتى لا يشردوا عنه، فهو إنما يريد لهم الخير، ويريد أن ينقذهم مما هم فيه من الضلال، فدعاهم إلى الله، وقال لهم: إني لكم منذر، دعوتي واضحة، وأمري ظاهر، فأنا لا أطلب منكم مالاً، ولا أريد فيكم زعامة ولا رئاسة، إنما أنذركم وأخوّفكم من عذاب الجبار، وأطلب منكم ثلاثة أمور: (عبادة الله وحده، وترك المحارم والآثام، وإطاعة رسوله) الذي بعثه الله لصلاحكم وفلاحكم، ثم بيَّن لهم ثمرة الطاعة والاستجابة لدعوته، فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إنكم إن استجبتم لدعوتي، فعبدتم الله وحده، وتركتم عبادة الأوثان، وأطعتم أمري، غفر الله لكم ذنوبكم، ومدَّ في آجالكم

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾

وأعماركم، إلى الوقت الذي حدَّده الله لكم، والمراد بتأخير الأجل، هو التأخير بدون عذاب، أي يمهلكم في الدنيا إلى انتهاء أعماركم، دون عقوبةٍ ولا عذاب، وأما العمر فمحدود، لا يزيد ولا ينقص، ولهذا أتبعه بقوله **﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر﴾** أي إذا انتهى عمركم، وأنتم على الكفر، فإن الله لا يؤخركم بعد ذلك لحظة، فبادروا إلى الإيمان، قبل فوات الأوان!! ويطوي القرآن الكريم مقالة قومه المعاندين، واستهزاءهم وسخريتهم به، مع طول المدة التي عاشها فيهم، وهي (٩٥٠) تسعمائة وخمسين سنة، ويجعلنا نستمع إلى شكوى نوح، والألمُ يعتصر فؤاده، وهو في غاية الكرب والضيق، من ضلال قومه، واستمرارهم على الكفر والعصيان ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي قال نوح مستنجداً بربه: يا ربِّ إني دعوت قومي إلى الإيمان، وترك عبادة الأوثان، ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، فلم يزدادوا إلاَّ إمعاناً في الضلال، وهرباً وشروداً عن سماع النصيحة، وإعراضاً عن قبول الحق ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ أي وإني كلما دعوتهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم ومغفرة ذنوبهم، سدُّوا آذانهم لئلا يسمعوا دعوتي، وغطُّوا رؤوسهم ووجوههم بثيابهم، حتى لا يروني ولا يسمعوا كلامي، وأصرُّوا على الكفر والطغيان، واستكبروا عن الإيمان استكباراً شديداً، وفيه تصوير دقيق مؤثِّر، للعناد والطغيان، الذي كان عليه (قوم نوح)، حتى وصل بهم الحال إلى كراهة سماع النصح، وبغض رؤية الناصح ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ أي ثم إني دعوتهم علناً على رؤوس الأشهاد، مجاهراً بدعوتي دون خوفٍ ولا ملل، وسلكتُ معهم كل طريق في الدعوة إليك، تارة سراً، وأخرى علناً، أعلنُ لهم الدعوة حيث يصلح الإعلان، وأسرُّها حيث أتوقع نفع الإسرار، وبذلت كل جهدي معهم، لأنقذهم من الضلال، فلم يقبلوا ولم ينزجروا عمَّا هم عليه من عبادة الأوثان!! ثم وضَّح ما وعظهم به، وما

فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾

دعاهم إليه في السِّر والعلن، فقال ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ أي فقلت لهم في نصحي: يا قوم اطلبوا من ربكم مغفرة الذنوب، فإن ربكم تواب رحيم، يغفر الذنب ويقبل التوب، وإذا رجعتم إلى الله، أغدق عليكم أبواب الرزق، فأنزل عليكم المطر غزيراً، بكثرة ووفرة، فأخرج لكم به الزرع، وأحيا به الضرع، وبارك لكم في أموالكم وأولادكم، وجعل لكم الحدائق الفسيحة، والبساتين الناضرة، ذات الأشجار والثمار، ويجعل لكم الأنهار تجري خلالها!! أطمعهم نوح عليه السلام، بالحصول على بركات السماء، وبركات الأرض، إن هم آمنوا بالله، وأطاعوا أمره، ثم عاد فهزَّ نفوسهم هزّاً، وعَطَفها نحو الإيمان، بأسلوب آخر من بديع البيان، فقال لهم ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾؟ أي مالكم أيها القوم، لا تخافون عظمة الله وجلاله، ولا ترهبون قدرته وسلطانه!! وقد خلقكم في أطوار متباينه: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم أخرجكم أطفالاً، ثم أصبحتم شباباً، ثم كهولاً!! فمن هذه قدرتُه كيف لا تهابون عظمته؟ ثم يوجههم نوح إلى (كتاب الكون) المشاهد لهم بالأبصار، الدال على وحدانيته تعالى وكمال قدرته، فيقول ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾؟ أي ألم تشاهدوا عظمة الله وسلطانه، وقدرته الباهرة؟ وتنظروا نظر تفكر واعتبار، كيف أن الله العظيم الجليل، خلق سبع سمواتٍ، بعضُها فوق بعض، محكمة البناء، سماءً فوق سماء، وهي في غاية الإبداع والإتقان؟ وجعل القمر في السماء الدنيا، منوِّراً لوجه الأرض في ظلمة الليل؟ وجعل الشمس سراجاً وهاجاً، يزيل ظلمة الليل، ويبصر به الناسُ ما حولهم، كما يبصر أهلُ البيت الأشياءَ في ضوء السراج؟ عبَّر عن القمر بالنور، وعبَّر عن الشمس بالسراج، وهذه لفتة بديعة، لأنه ثبت علمياً أن القمر جرم مظلم، يستمدُّ نوره من الشمس، وأما الشمس فهي السراج الوهَّاج، فالقمر

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ﴿٢٠﴾﴾

كالمرآة يعكس نور الشمس لأهل الأرض، فسبحان من أحاط بكل شيء علماً!! ثم ذكَّرهم نبيُّهم نوح عليه السلام، بأصل نشأتهم من الأرض، ثم عودتهم إليها بعد الموت، ليقرِّر لهم عقيدة (البعث والنشور) فقال ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ أي والله جلَّت عظمته، خلقكم خلقاً بديعاً، وأنشأكم من الأرض إنشاءً، كما يخرج منها النباتُ، ثم يعيدكم إلى الأرض بعد موتكم، ثم يخرجكم منها للحساب والجزاء!! وتشبيهُ خلق الإنسان بالنبات، تشبيهٌ عجيبٌ يوحي بحقيقة علمية، قلَّما ينتبه إليها البشر، وهي «وحدة الخلق» في الإبداع والإنشاء، فالإنسانُ كالنبات، ينمو كما ينمو النبات، من عناصرها الأساسية، يتغذَّى وينمو، والأرضُ أمُّه منها خُلق وإليها يعود، يتغذى من لَبَانها، ويأكل من نباتها، يتناول الحبوبَ، والخضار، والثمار، وهي خارجةٌ من الأرض، ويأكل لحوم الأنعام، وهي تتغذى من كلأ وعشب الأرض، فهو تماماً يشبه النبات، بل هو نباتٌ من نبات الأرض، وأصلُ البشر كلهم من التراب، فسبحان القائل في محكم التنزيل: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾! ثم وجههم إلى نعمة تذليل الأرض، وتيسير أسباب الحياة والعيش عليها، فقال ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾ أي جعلها فسيحة، واسعة، ممهدة لكم، جعلها كالبساط والفراش، فيها تزرعون، وعليها تبنون، وفوق ظهرها تنامون وتتقلَّبون، لتسلكوا في الأرض طرقاً واسعة في أسفاركم، تنتقلون بواسطة هذه الطرق من بلد إلى بلد، ومن مكانٍ إلى مكان!! شبَّه الأرض بالبساط، في امتدادها واستقرار الناس عليها، وليس معنى قوله ﴿بساطاً﴾ أنها منبسطة غير كروية، فإن كروية الأرض، أمرٌ مقطوع به، أثبته علماؤنا المتقدمون بأدلة عقلية ونقلية، وقد سُئل «ابن تيمية» رحمه الله، عن السموات والأرض، هل هما كرويان؟ فأجاب لا أعلم أحداً من علماء المسلمين المعروفين، من أنكر ذلك، إلاَّ من لا يُؤبه له من الجهال، ثم أورد بعض الأدلة، وانظر الفتاوى ٦/٥٨٨.. لقد سلك نوح مع قومه شتى الأساليب، وأنواع الوسائل، ليذكِّرهم بربهم وخالقهم ورازقهم، وكلُّ ذلك في دأبٍ طويل، وصبر جميل، وزمان واسع، ومع ذلك لم يفلح في هدايتهم وإصلاحهم، ولذلك رجع إلى

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾

ربه بالشكوى من ضلال هؤلاء الطغاة المتمرِّدين ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ يقول نوح: يا رب إنهم بالغوا في تكذيبي، وعصيان أمري، واتبعوا رؤساءهم وأغنياءهم الضالين، الذين أبطرتهم النعمةُ، وكثرةُ الأموال والأولاد، ومكر بهم الرؤساء، مكراً عظيماً متناهياً في الخبث والدهاء، ولفظ (كُبّاراً) للمبالغة، أي مكراً كبيراً في غاية الضخامة، قال البخاري في التفسير: الكُبَّار أشدُّ من الكبير، لأنها مبالغة. اهـ والمراد أن الرؤساء الأشرار، مكروا بالأتباع، مكراً عظيماً بالغاً حدَّ الغاية، في تزيين الكفر والباطل، وعبادة الأوثان ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ أي قال الرؤساء لهم: لا تتركوا عبادة الأوثان، فهي آلهتكم التي تنفعكم، ولا تسمعوا لدعوة نوح!! ولا تتركوا على وجه الخصوص عبادة هذه الأصنام الخمسة (وَدّ، سواع، يغوث، يعوق، نسر) وكانت أعظم أصنامهم وأكبرها، وهذا من شدة إغراقهم في الكفر والضلال، وقد أضلَّ هؤلاء المجرمون خلقاً كثيراً، ولا تزدهم يا رب على طغيانهم وعدوانهم، إلاَّ ضلالاً فوق ضلالهم!! وقد انتقلت عبادة الأوثان، من قوم نوح إلى العرب، فقد روى البخاري في صحيحه، عن ابن عباس أنه قال: (صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح، في العرب بعد، أمَّا «وَدٌّ» فكانت لكلب ـ أي قبيلة كلب ـ وأمَّا «سُواع» فكانت لهُذَيل، وأمَّا «نَسْر» فكانت لحِمْيَرَ، وأمَّا «يغوث» فكانت لمرادٍ، وأمَّا «يعوق» فكانت لهمدان، أسماءُ لرجالٍ صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم، أن انصبوا إلى مجالسهم أنصاباً، وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسَّخ ـ أي ضاع ـ العلمُ عُبدوا). رواه البخاري في التفسير، قال تعالى في بيان العقوبة الشديدة التي حلَّت بقوم نوح ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي من كثرة خطيئاتهم، وجرائمهم الشنيعة، أغرقوا بالطوفان، وأُدخلوا على الفور، ناراً عظيمة هائلة، فلم يجدوا من ينصرهم، أو يدفع

وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

عنهم عذاب الله، والمراد بالنار هنا (نار القبر) وعذاب البرزخ، لا نار جهنم، لأنها عُطفت بالفاء، والفاءُ تفيد الترتيب مع التعقيب، لأن الإحراق جاءهم بعد الإغراق، ولا عجب أن يُحرقوا بالنار ولو كانوا في الماء، فإن من ابتلعه حوتٌ، أو غرق في الماء، أو أكلته السباعُ أو الضباعُ، أصابه ما يصيب الميت في القبر، لأن بطن الحوت أو الأسد يصبح قبراً له، والله على كل شيء قدير، ويدلُّ على أن هذا العذاب (عذاب القبر)، قوله تعالى عن آل فرعون: ﴿النارُ يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ ومعلوم أن القيامة لم تقم بعد، فكيف يُعذبون بالنار صباحاً ومساءً؟ إنه بلا شك عذاب القبر!! وحين يئس نوح من إيمان قومه دعا عليهم أن لا يُبقي الله منهم أحداً. ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ أي لا تترك أحداً على وجه الأرض من الكافرين، ومعنى ﴿دياراً﴾ أي أحداً، يُقال: ما في الدار من ديار، أي من أحد، ثم علّل ذلك بقوله: إنك إن أبقيت منهم أحداً، أضلوا عبادك عن الإيمان بك وتوحيدك، ولا يأتي من أصلابهم إلاَّ كلُّ كافر فاجر، كما يقال في الأمثال: «لا تلد الحيَّةُ إلاَّ الحية» لأنه عرف طباعهم وجرَّبهم، وكان الواحد منهم يأخذ معه ابنه ويأتي إلى نوح، فيقول: يا ابني احذر هذا فإنه كذاب، وإن أبي أوصاني بمثل ما أوصيك به!! ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ ﴿تباراً﴾ أي هلاكاً ودماراً، ختم نوح كلامه بالدعاء، فدعا لنفسه أولاً، ثم لأبويه ثانياً، ثم عمَّم الدعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات، فشمل بدعائه جميع المسلمين إلى يوم القيامة، وصلى الله وسلّم على سيدنا نوح الذي لم ينسَ أمة محمد ﷺ من دعائه الصالح!.

انتهى تفسير سورة نوح

● ● ●

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾﴾

تفسير سورة الجن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ الجنُّ خلقٌ من مخلوقات الله، وهم كالإنس مكلَّفون بالتكاليف الشرعية، فيهم المؤمن والكافر، والصالح والطالح، وأجسامُهم لطيفة، أصلها من نار، يختلفون عنا وعن الملائكة في الصورة والشكل، ومن عجيب أمرهم أنهم يبصروننا ونحن لا نبصرهم، كما قال سبحانه ﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾ أي إن الشيطان يراكم هو وجماعته، من حيث لا ترونهم أنتم، وقد حجب الله عنا رؤيتهم امتحاناً لنا، كما حجب عنا رؤية الملائكة، حتى يتحقق فينا (الإيمان بالغيب)، **ومعنى الآية**: قل يا محمد لقومك: إن ربي أوحى إليَّ، أن جماعة من الجن استمعوا لقراءتي، وأنا أقرأ القرآن، فقالوا لقومهم، لقد سمعنا قرآناً عجيباً، يتلوه محمد ﷺ، لا يشبه كلام البشر، فصدَّقنا بكلام الله، ولن نعبد إلهاً غير الله بعد اليوم، فنحن مؤمنون موحِّدون!! والغرضُ توبيخُ المشركين، إذ تباطئوا عن الإيمان، بينما الجن كانت أسرع منهم إلى الإيمان، فإنهم حين سمعوا القرآن، آمنوا به ورجعوا إلى قومهم منذرين، ومشركو العرب كذبوا واستهزءوا ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ الجدُّ بفتح الجيم: العظمةُ والسلطانُ، أي يقولون: تعالت عظمةُ ربنا، وتقدَّس مجْده وسلطانه، فإنه ليس له صاحبة أي زوجة، وليس له ولد، لأنه منَّزه عن الشبيه، والمثيل، والنظير!!

وفي قولهم هذا، ردٌّ على النصارى الذين قالوا: (عيسى ابن الله) واليهود الذين قالوا: (عزير ابن الله) ومشركي العرب الذين قالوا: (الملائكةُ بنات الله) ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ أي كان السفهاء فينا، يقولون ما لا يليق بجلال الله وعظمته، قولاً بعيداً عن

وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾

الحقّ والصواب، ورئيس هؤلاء السفهاء (الشيطانُ)، الذي أضلَّ أتباعه من الجنّ والإنس، **قال مجاهد**: السفيهُ هو (إبليس) الذي دعاهم إلى عبادة غير الله، ومعنى الشَّطط: القول المنكر البعيد عن حد الاعتدال ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي كنا نظنُّ أن أحداً لن يكذب على الله تعالى أبداً، لا من الإنس ولا من الجن، فلما سمعنا القرآن، عرفنا أن هناك من كذب على الله، فنسب إليه الزوجة والولد، وهذا اعتذار منهم، عن عدم توحيدهم لله فيما سبق، لاعتقادهم بصدق القائلين بوجود الزوجة والولد، ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي وأنه كان رجال من البشر، يستجيرون برجالٍ من الجن، فزاد الإنسُ الجنَّ طغياناً وجبروتاً، والرَّهَقُ: الإثمُ والطغيان، وذلك أن الرجل من العرب، كان إذا نزل بصحراء، أو وادٍ قفرٍ، قال: أعوذ بسيِّد هذا الوادي ـ أي كبير الجن ورئيسهم ـ من سفهاءِ قومه، فإذا سمع الجنُّ ذلك قالوا: سُدْنا الإنسَ والجنَّ، فازداد الجنُّ بذلك تكبراً وطغياناً ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ أي وأن كفار الإنس ظنوا كما ظننتم يا معشر الجن، أن لن يبعث الله أحداً بعد الموت، يعنون أن الإنس أنكروا البعث كما أنكرتموه أنتم ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ يقول الجنُّ: لقد أردنا بلوغ السماء لنستمع لكلام الملائكة، فوجدناها قد ملئت بالملائكة الأشداء، يحرسونها، وبالشهب المحرقة التي تقذف من يحاول القرب منها ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي وقد كنا قبل بعثة محمد ﷺ، نصعد إلى السماء فنسترق السمع، فنلقيه إلى الكهان، فمن يحاول الآن استراق السمع، يجد شهاباً ينتظره، يُحرقه ويمحقه، ومعنى (رصداً) أي يترقبه ويرصده لينقضَّ عليه.

وفي صحيح البخاري: (وقد حيل بين الشياطين وخبر السماء، وأُرسلت عليهم

وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾

الشهبُ، فرجعت الشياطينُ فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأُرسلت علينا الشهبُ!! فضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فلما سمعوا القرآن قالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم منذرين) ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ يقول الجن: نحن لا نعلم سبب حراسة السماء منا؟ هل هو لعذابٍ يريد الله أن ينزله بأهل الأرض؟ أم لخيرٍ يريده الله بهم؟ وهذا أدبٌ من الجنّ مع الله جلَّ وعلا، حيث نسبوا الخير إليه، ولم ينسبوا إليه الشر، فقالوا ﴿أشر أريد﴾ بالبناء للمجهول، وفي الخير قالوا ﴿أم أراد بهم ربهم رشداً﴾ فما أفقههم بصفات الله؟ وما أبدع أدبهم في كلامهم!؟ وهذا كقول إبراهيم الخليل ﴿الذي خلقني فهو يهدين... وإذا مرضتُ فهو يشفين﴾ فنسب الخلق إلى الله، والمرضَ إلى نفسه، أدباً مع الله، وإن كان الخير والشرُّ بتقدير الله ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ يقول الجنُّ: فينا أبرار، وفينا أشرار، ومنا قوم صالحون، وقومٌ مفسدون، ﴿كنا طرائق قدداً﴾ أي فِرَقاً شتَّى، ومذاهب مختلفة، فينا التقيُّ والشقيُّ، والبّر والفاجر، وهذا الكلام منهم يعطينا صورة صحيحة عنهم، فالجنُّ ليسوا كلُّهم أشراراً، بل فيهم الأخيار والأشرار، والمتقون والفجار ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ أي قد علمنا وأيقنَّا الآن، بعد سماعنا القرآن، أننا لن نعجز الله، ولن نفلت من عقابه، إذا أراد بنا سوءً، ولن نتخلَّص بالهرب منه ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أي لـمَّا سمعنا القرآن، آمنا بالله تعالى من غير تردد، ومن يؤمن بالله، ويصدق رسله، فلا يخاف نقصاناً من عمله، ولا ظلماً بتحميله سيئات غيره، والرَّهقُ: ما يُثقل كاهل الإنسان، ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي وأنا بعد سماعنا القرآن،

وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾

منَّا من أسلم، ومنَّا من بقي على كفره، فكان قاسطاً أي ظالماً جائراً عن الحق، فمن اعتنق الإسلام، فقد اهتدى وسلك طريق الرشاد، وأما الحائدون عن الدين الحق، فسيكونون وقوداً لجهنم.. وفي الآية دليل على أن الجنَّ يعذبون في النار، فهم مكلفون كالإنس، وإلى هنا ينتهي كلامُ الجن، حكاه القرآن عنهم، ثم يقول تعالى مذكِّراً كفار قريش ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي لو استقام هؤلاء الكفار، على شريعة الله، التي أنزلها على رسوله، لأسقيناهم ماءً وافراً كثيراً، ننبتُ لهم به الزرع، ونُخرج لهم به الضرع، لنختبرهم به، أيشكرون نعمة الله، أم يجحدونها؟ ومن يعرض عن طاعة الله وعبادته، ندخله عذاباً شاقاً، صعباً شديداً، والماء الغَدَق: الكثير الوافر، والعذاب الصَّعَد: العذاب الشاق الذي لا راحة فيه ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ أي وأوحي إليَّ أن المساجد وبيوت العبادة، مختصَّةٌ به تعالى، فلا تعبدوا فيها غيره، ولا تدعوا فيها غيره، أضيفت إليه سبحانه تشريفاً لها وتكريماً، لتكون منارات للهدى والعلم، لا محافل للدعاية للرؤساء والزعماء!! ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي وأوحي إليّ، أنه لما قام عبد الله ورسولُه (محمد ﷺ) يصلّي ويقرأ القرآن في صلاته، كاد الجن يركب بعضهم بعضاً من شدة الزحام، حرصاً على سماع القرآن، ومعنى (لبداً) أي متراكماً بعضهم فوق بعض ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي قل لهم يا محمد: إنما أعبد ربي وحده، ولا أشرك معه أحداً، لا من البشر ولا من الأصنام ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ أي لا أقدر أن أجلب لكم نفعاً، أو أدفع عنكم ضراً، إنما الذي يملك هذا هو الله وحده، فهو سبحانه النافع الضار ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ أي لن ينقذني من عذاب الله أحدٌ إن عصيتُه، وأشركتُ معه غيره،

إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ

ولن أجد ملجأً ألجأ إليه غير الله تعالى، إن خالفت أمره، فكيف أطيعكم فيما تدعونني إليه؟ والملتحدُ: الملجأُ والنصير.. كان المشركون قد طلبوا من رسول الله ﷺ أن يترك الدعوة إلى دين الإسلام، وأن لا يتعرَّض لآلهتهم بعيبٍ أو طعن، وقالوا له: نحن نجيرك وننصرك، فنزلت الآية رداً على هؤلاء السفهاء، ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي لا أجد ملجأً ولا نجاة لي من عذاب الله، إلاَّ إذا بلَّغتكم رسالة الله، ونصحتكم وأرشدتكم كما أمرني ربي، ومن عصى أمر الله وأمر رسوله، وأعرض عن سماع الآيات، فمصيره إلى جهنم، لا يخرج منها أبداً، والمراد بالمعصية هنا: الإشراكُ بالله وتكذيبُ رسله، بدليل الخلود المذكور في الجحيم، والخلودُ لا يكون إلا على الكفر والإشراك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ أي حتى إذا رأى المشركون، ما وعدهم الله به من العذاب، فسيعلمون حينئذٍ من هو الأذلُّ الأحقر؟ من هو أضعف ناصراً ومعيناً، وأقلُّ نفراً وجنداً؟ هل هم المؤمنون أم الكافرون؟ هل هو محمد وأتباعه، أم أبو جهل وأشياعه؟ ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ أي قل لهم: لست أدري هل العذاب الذي وُعدتم به، قريبٌ زمنه أم بعيد؟ أم يجعل الله له ﴿أَمَدًا﴾ أي غاية بعيدة، ووقتاً طويلاً؟ فأنا بشر مثلكم لا أعلم الغيب، ولا أعلم وقت نزول العذاب بكم؟ كان ﷺ كلما خوَّف المشركين عذاب الله، أظهروا الاستخفاف بقوله، وقالوا سخريةً واستهزاءً: متى يكون هذا العذاب؟ ومتى يأتينا؟ قل لهم: إنه كائن لا محالة، وأمَّا وقتُه فما أدري متى يكون؟ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ أي هو جلَّ وعلا وحده عالمُ الغيب، فلا يطلع على غيبه أحداً من خلقه، إلا من اختاره وارتضاه لرسالته ونبوته، من بعض الأنبياء والمرسلين، فيطلعهم على بعض مسائل الغيب،

﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾

ليكون معجزة لهم تدل على صدق دعوى رسالتهم، كما أطلع (عيسى) على بعض المغيبّات كمعجزة له، وكما أطلع خاتم النبيّين، على ما يحدث قُبيل قيام الساعة، فأخبر عنها، ثم قال تعالى عن هؤلاء الرسل الكرام، ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ أي فإن الله تعالى يجعل لرسله ملائكةً وحرساً يحرسونهم من الجن والشياطين، ومن أشرار البشر ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ أي ليعلم الله تعالى أن الرسل، قد بلغوا رسالاته إلى خلقه، دون زيادة ولا نقصان، وأحاط علمه بما عند الرسل، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم، وأحصى وضبط جلَّ وعلا، كلَّ ما خلقه في الكون، حتى القطر والرملُ، والشجر والثمر، فلم يخف عليه شيء في الوجود سبحانه وتعالى.

انتهى تفسير سورة الجن

● ● ●

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾

تفسير سورة المزمل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ، لما جاءه جبريل وهو في غار حراء يتعبَّد ربّه، وأنزل عليه أول الآيات القرآنية (اقرأ باسم ربك الذي خلق) رجع إلى خديجة يرجف فؤاده، فقال لها: زمّلوني، زمّلوني، لقد خشيتُ على نفسي!! وأخبرها بالخبر، فغطَّته بقطيفة، فأنزل الله عليه سورة المزمِّل، وانظر كمال الحديث في صحيح البخاري.. بدأت السورة الكريمة، بنداءٍ للرسول عليه السلام، فيه ملاطفة وتأنيس له ﷺ، والعرب إذا أرادت ملاطفة المخاطب، وترك معاتبته، نادوه باسم مشتق من حالته التي هو عليها، كقولهم: قم يا عجلان، أو يا ندمان، وكقول النبي ﷺ لعلي حين غضب من فاطمة ونام في المسجد، ولصق بجنبه التراب: (قم أبا تراب) فكان أحبَّ الأسماء إليه، فالنداء له ﷺ بالوصف هنا ﴿يا أيها المزمل﴾ إنما ناداه تعالى به تأنيساً وتلطيفاً له.

والمعنى: يا أيها المتلفِّف بثيابه، الراكنُ إلى الهدوء والراحة، قم بجدٍّ ونشاط، واجتهد في عبادة ربك، دع التزمُّل والتلفف، وانشط لقيام الليل، فقم الليلَ كلَّه إلاَّ قليلاً منه، أو نصف الليل، أو انقص من النصف إلى الثلث، أو زد إلى الثلثين، واقرأ آيات الذكر الحكيم في صلاتك، قراءة تُؤدةٍ وتمهل ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي سننزل عليك يا محمد قرآناً عظيماً جليلاً، له هيبةٌ وروعةٌ وجلال، لأنه كلام رب العزة والجلال، وإنما أمرناك بصلاة الليل، لتستعدَّ وتتهيأ لنزول هذا الكتاب الجليل، وما فيه من تكاليف شاقة على النفس، وتبليغ ذلك إلى الناس ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي إن العبادة التي

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ۝١٠ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ۝١١﴾

تُنشئها وتُحدثها في الليل، بالصلاة والناسُ نيام، أشدُّ كُلفةً ومشقةً على النفس، لأن الليل جُعل للراحة والسكون، فإذا هجر الإنسان النوم، وقام لعبادة ربه، كان ذلك شاقاً وصعباً على النفس، ولكنه أصفى للخاطر، وأعدلُ وأبينُ ﴿قيلا﴾ أي قولاً، بمعنى أن القراءة في الليل، أقرب إلى تدبر كلام العزيز الحميد، حيث تهدأ الأصوات، وتنقطع الحركات، فتكون النفس أصفى، والقلبُ أوعى، ويحصل التأمل والتدبر لمعاني كلام الله ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ أي إن لك في وقت النهار، ما يكفيك للتصرف في أشغالك، فتفرَّغْ بالليل لعبادة ربك.!

قال ابن كثير: والمقصود من الآيات، أن قيام الليل، أصفى للخاطر، وأجمع على التلاوة، في أداء القراءة وتفهمها، من قيام النهار، لأن النهار وقت انتشار الناس، ولَغَط الأصوات، وأوقات المعاش، ولك في النهار فراغاً طويلاً، فأفرغ لربك الليلَ، وهذا حين كانت صلاةُ الليل فريضة، ثم إنَّ الله منَّ على عباده، فخفَّفها ووضعها ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ أي دم على ذكر ربك ليلاً ونهاراً، واستعن بالذكر على تبليغ دعوة الله ﴿وتبتل إليه تبتيلا﴾ أي انقطع إليه انقطاعاً تاماً، فاجعل همَّك طلب مرضاته، ولا تعتمد في شأنٍ من شؤونك على غيره تعالى، فإذا انقطع قلبك عن الخلق، واتصل قلبك بالله، كفاك الله شرَّ عبـاده ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ أي ثق بربك وحده، فهو الخالقُ والمالك لمشارق الأرض ومغاربها، وهو المتصرف في الكون، يعزُّ ويذلُّ، ويُغني ويُفقر، ويرفع ويخفض، فاجعل اعتمادك على الله وحده، واصبر على أذى المشركين وسفههم، واهجرهم ولا تتعرض لهم، فعمَّا قريب سيرون عاقبة التكذيب!! ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾ أي دَعني يا محمد وهؤلاء الكفرة المكذبين بآياتي، من أصحاب الترف والغنى، فأنا أكفيك شرَّهم، وأمهلهم زمناً يسيراً، حتى ترى ما أصنع بهم؟ والأسلوب أسلوب (وعيدٍ وتهديد) فليس بالله تعالى ما يمنعه منهم،

إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾

ولكنه أسلوبُ العرب، في تهديد الظالم المعتدي، يقول: اتركني أنتقم لك منهم!! وماذا بمقدور هؤلاء الأقزام، أمام جبروت الله وكبريائه؟ لقد أمهلهم الله ثم قتل صناديدهم ببدر، وعلى رأسهم الشقيُّ الفاجر «أبو جهل» وهذا هو العذاب العاجل، وأمَّا العذاب الذي ينتظرهم، فإنه أدهى وأمرُّ، وإليه الإشارة بقوله سبحانه ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي إن لهؤلاء المجرمين عندنا في الآخرة، قيوداً ثقيلة من الحديد، يُقيَّدون بها، وسلاسل يربطون بها، وناراً حامية مستعرة يُحرقون بها، كما قال سبحانه ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون﴾ ثم قال: ﴿وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً﴾ أي وطعاماً كريهاً غير سائغ في الحلق، يغَصُّ به آكلُه، وهو الضريعُ والزقوم.

قال ابن عباس: يَنْشَب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج، ولهم عذاب شديد موجع ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي يوم تتزلزل الأرض، وتهتز بمن عليها، هزَّةً عنيفة مخيفة، وترجف الجبالُ فتتفتَّت وتنهار، وتصبح الجبال على صلابتها، تلالاً من الرمال متناثرةً، بعد أن كانت صلبة جامدة، وتُنسف نسفاً، فلا يبقى جبلٌ إلاَّ تفتَّت، فإذا كان هذا حالُ الجبال، فكيف يكون حال الرجال؟ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ أي لقد بعثنا لكم يا أهل مكة، رسولاً هادياً نذيراً، شاهداً على أعمالكم، هو خاتم الأنبياء (محمد) ﷺ، يشهد عليكم يوم القيامة، كما أرسلنا إلى فرعون الجبار، رسولاً كريماً من أولي العزم، هو كليمُ الله (موسى) عليه السلام ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أي فعصى فرعونُ الطاغية موسى، فكذَّب برسالته، ولم يؤمن به، فأخذناه أخذاً شديداً لا يُطاق، وأهلكناه إهلاكاً فظيعاً شنيعاً، ومعنى الوبيل: الشديدُ الوخيمُ ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ هذا تهديد لمشركي قريش، أي فكيف تنجون من عذاب يومٍ فظيع هائل، إن كفرتم بالله ولم تؤمنوا به؟ يوم يشيب فيه الوليد، من شدة

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾

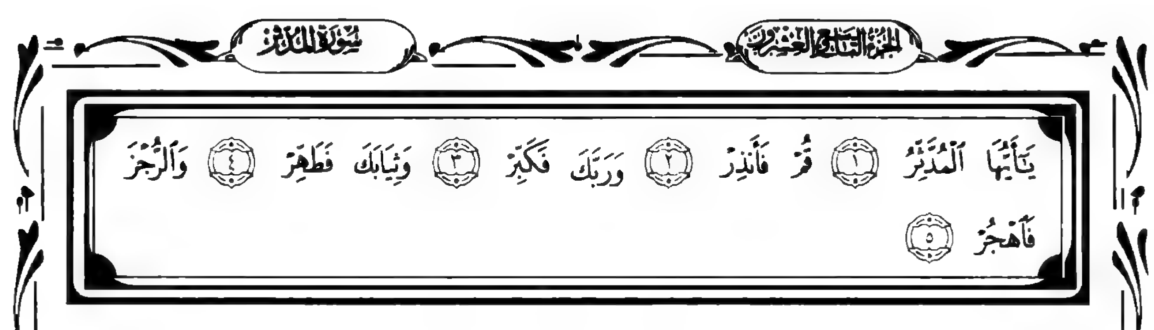
هوله وكربه، حينما يقول الله لآدم: «أخرجْ من ذريتك بعثَ النار، من كل ألفٍ تسعمائة وتسعةً وتسعون» رواه مسلم ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾ أي السماء متشققة ومتصدِّعة، من هول ذلك اليوم الرهيب، كان وعده تعالى بمجيء ذلك اليوم واقعاً لا محالة، لأن الله لا يخلف الميعاد ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي هذه الأخبار مواعظ وعِبَرٌ بليغة، يتذكَّر بها أولوا الألباب، فمن شاء أن يتَّعظ بها، فليسلك طريقاً إلى الله، بالإيمان والعمل الصالح ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ أي ربُّك يا محمد يعلم، أنك تقوم للتهجد مع أصحابك، أقل من ثلثي الليل، وأحياناً ثلثه، في طاعة الله وطلب مرضاته. ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ أي والله جلَّ وعلا يعلم مقادير ما تقومون به من الليل ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ أي علم الله أنكم لن تطيقوا قيام الليل كلِّه، ولا معظمه، فرحمكم فخفَّف عنكم ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ أي فصلُّوا ما تيسَّر لكم من قيام الليل والتهجد، واقرءوا في الصلاة ما تيسَّر من القرآن، وإنما عبَّر عن الصلاة بالقراءة، لأن القراءة أحد أركان الصلاة، **قال ابن عباس**: سقط عن أصحاب رسول الله قيامُ الليل وصارت تطوعاً، وبقي ذلك فرضاً على رسول الله ﷺ.. ثم بيَّن تعالى الحكمة من هذا التخفيف فقال سبحانه ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ أي علم ربكم أنه سيكون منكم من يعجزه المرضُ عن قيام الليل، ومن يعجزه السفرُ، وقد سافر لطلب الرزق، فيشقُ عليه القيام، وهناك جماعة مجاهدون، خرجوا لنشر دعوة الله، والجهاد في سبيله، هؤلاء لا يستطيعون قيام الليل، لأنهم في النهار في شغل شاغل في جهاد الأعداء ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ أي صلُّوا لله ما تيسَّر من الصلاة،

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ﴾ المفروضة عليكم «الصلوات الخمس» وأدُّوا زكاة أموالكم، وتصدَّقوا في وجوه البر والإحسان ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ﴾ أي وما تفعلوه أيها الناس، من وجوه الخير، طاعة لربكم، وطلباً لمرضاته، تلقوا أجره وثوابه عند ربكم، أضعافاً مضاعفة عمَّا فعلتموه من صالح الأعمال ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ أي اطلبوا مغفرة ربكم في جميع أحوالكم، فإن الإنسان قلَّما يخلو عن تفريطٍ أو تقصير، والله عظيم المغفرة، واسع الرحمة، والآية تكاد تكون صريحة في أن قيام الليل كان واجباً على الرسول ﷺ وأصحابه، ثم نُسخ الحكم عن المؤمنين، وبقي فريضةً على رسول الله ﷺ كما يقول ابن عباس، وإنما كُلِّفوا في بدء أمر الدعوة أن يقوموا ساعات من الليل طويلة، لا تقلُّ عن ثلثه، ولا تزيد عن ثلثيه، لأن قيام الليل، وإحياءه بأنواع الطاعات المختلفة، من ذكرٍ، وصلاة، وتلاوة قرآن، واستغفار، يقوِّي أبدانهم، ويزكيِّ أرواحهم، ويعوِّدهم الخشونة في العيش، واجتناب ما عليه المترفون، من الراحة والرخاوة، والانغماس في الملذات، كلَّفهم الله تعالى بذلك، ليعدَّهم إعداداً جسمياً، وروحياً، للقيام بأعباء الدعوة الجديدة، وتحمل المشاق في سبيل نشر الإسلام، ولهذا فتحوا البلاد والأمصار، ويا لها من تربية كريمةٍ مجيدة، تنشىء الرجال، وتصنع الأبطال!!

انتهى تفسير سورة المزمل

● ● ●



تفسير سورة المدثر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ هذه السورة كسابقتها «المزمِّل» تتحدث عن بعض حياة النبي ﷺ ولهذا سميت (سورة المدَّثر) وقد ابتدأت بتكليف الرسول بالنهوض بأعباء الدعوة، والقيام بمهمة التبليغ، بجد ونشاط، وإنذار الكفار، والصبر على أذى الفجار، والمعنى: يا أيها النبي المتدثر أي المتغطي بثيابه أو بلحافه، يريد النوم والراحة، قم من مضجعك قيام عزم وحزم، وحذِّر الناس من عذاب الله، قم فادع الناس إلى دينك الجديد (الإسلام) ولا تركن إلى الراحة، فأمامك جهدٌ كبير في تبليغ دعوة ربك، خوطب بلفظ (المدَّثر) مؤانسةً وتلطفاً، ﴿وربك فكبر﴾ أي عظِّمْ ربك، ونزِّهه عمَّا يقوله عَبَدةُ الأوثان، وأفرده بالعظمة والكبرياء، فليس في الكون أجلُّ وأكبر من الله، فهو أكبر من الملوك، والعظماء، وسائر المخلوقات، وإنما ذُكرت هذه الآية، بعد الأمر بالإنذار، تنبيهاً للنبي ﷺ على عدم الاكتراث بالكفار، فلا ينبغي أن يرهب من أحد، سوى العظيم الجبار، ﴿وثيابك فطهر﴾ أي طهِّر ثيابك من النجاسات والمستقذرات، فإن المؤمن طيب القلب، طاهر الثياب، باطنه وظاهره سواء، لا يليق أن يحمل الخَبَث في نفسه، ولا النجاسة في ثوبه.

قال ابن زيد: كان المشركون لا يتطهَّرون، فأُمر ﷺ أن يتطهَّر، وأن يطهِّر ثيابه، **وقال ابن عباس:** الثيابُ هنا كناية عن القلب والنفس، أي طهِّر نفسك من الذنوب والمعاصي، واستشهد بقول غيلان:

فإنـيِّ بـحـمْـدِ اللهِ لا ثَـوْبَ فـاجـرٍ　　لَـبِـسْـتُ ولا مـن غَـدْرةٍ أَتَـقَـنَّـعُ

والعربُ تقول: لبس ثوب العفاف، أي عفَّ عن القبائح، وفلانٌ دنسُ الثياب، إذا كان غادراً فاجراً ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ أي اهجر عبادة الأصنام والأوثان، وكلَّ قبيح، ولا تتخلَّق

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾

بأخلاق المشركين، والخطابُ للرسول ﷺ، والتوجيهُ له ولأمته، فلم يُعرف عن الرسول ﷺ أنه سجد لصنم، أو شرب خمراً، أو فعل ما يخلُّ بالمروءة، ولكنه التوجيُه الربانيُّ إلى المسلمين، في صورة الخطاب لرئيسهم وقائدهم ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي لا تعطِ أحداً عطاءً وتستكثره، لأن الكريم يستقلُّ ما يعطي، وإن كان كثيراً، قال ابن عباس: «لا تعطِ العطيَّةَ، تلتمس أكثر منها» قال المفسرون: وهذا الأدبُ خاصٌّ بالنبي ﷺ، وليس على أحدٍ أن يُهدي هديةً، يرجو بها أكثر منها، إلاَّ أن هذا مخلٌّ بمنصب النبوة، لأن هدف الأنبياء، أسمى وأعلى من أن تكون الدنيا، هَدَفاً وغايةً لهم، وأمَّا غيرُ الأنبياء، فذلك جائز في حقهم، وهو من باب قول النبي ﷺ (تهادُوا تَحَابُّوا) رواه مالك ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ أي اصبر على أذى قومك، وما ينالك من السفهاء الفجار، لأن من دعا الناسَ، إلى ما يخالف هواهم، لا بدَّ أن يناله منهم شرٌّ وأذى.. ثم بعد هذه التوجيهات الكريمة الفاضلة، يأتي دورُ (الوعيد والتهديد) فيقول سبحانه: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ النَّاقورُ: يراد به الصوُر، الذي ينفخ فيه المَلَكُ «إسرافيل» عليه السلام، لأنه صوت مخيفٌ مزعج، خارج عن حدود طاقة البشر، **والمعنى**: فإذا نُفخ في الصور، تلك النفخة الشديدة، ذات الصوت المفزع المرعب، الذي يرتعد له الكونُ، فذلك اليومُ يومٌ شديد هائل، يشتدُّ فيه الكرب على الكفرة المجرمين، لأنهم لا يجدون فيه سعادة، ولا راحة، ولا نجاة، وأكَّد الخبرَ بقوله **﴿على الكافرين غير يسير﴾** أي إن هذا اليوم شديد وعسير، على الكافرين لا على جميع الناس، لأنهم يناقشون الحساب، وتسودُّ وجوههم، ويفتضحون على رءوس الأشهاد، بينما المؤمنون في ظل عرش الرحمن، فتقييده بالكفار، دليل على أنه يسيرٌ على المؤمنين، وقد جاءت هذه الآية، عقب أمر الرسول بالصبر، كتعليل لذلك التكليف، كأنه يقول: اصبر يا محمد على أذاهم، فبين أيديهم يوم فظيع شديد، يلقون فيه عاقبة فجورهم وأذاهم، وتلقى عاقبة صبرك!! ثم يأتي الحديث إلى ذكر قصة ذلك الشقي الفاجر (الوليد بن المغيرة) فتتوعده بعذاب خاص، خارج عن نطاق البيان، في هوله وشدته، لأنه سمع القرآن، وأيقن أنه كلام الرحمن، ولكنه في سبيل حبِّ الزعامة، قال في القرآن قولاً ساقطاً مرذولاً، بعد تفكير عميق، وكيدٍ خبيث، فزعم أنه من قبيل السحر، إرضاءً لأهواء صناديد

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾

الكفر، فيقول سبحانه ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ أي دعني يا محمد وهذا الشقيَّ، الذي خلقته في بطن أمه وحيداً فريداً، لا مال له ولا ولد، ولا عون له ولا سند، ثم أنعمتُ عليه بالمال الواسع الكثير، ورزقته الذرية والبنين، فكان له المال الممدود أي الواسع المبسوط، من (الخيل، والإبل، والغنم، والزرع، والضرع، والبساتين الناضرة)!!.

قال ابن عباس: كان ماله ممدوداً ما بين مكة والطائف، وكان له بستان لا ينقطع نفعه شتاءً ولا صيفاً ﴿وبنين شهوداً﴾ أي وبنين مقيمين معه، وكانوا عشرة أبناء، لا يفارقونه سفراً ولا حضراً، وكان مستأنساً بهم، أسلم منهم ثلاثة (خالد، والوليد، وهشام) وخالد يسمى (سيف الله) من أشجع أبطال المسلمين، وهو المشهور بـ(خالد بن الوليد)﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾ أي وبسطتُ له من أسباب الرفاهية والنعيم، الشيءَ الكثير، فاجتمع له المالُ، والعزُّ، والجاه، وكان سيداً مطاعاً في قومه ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ أي ثم بعد هذا العطاء الجزيل، والخير الوفير، يطمع الشقيُّ أن أزيد له في المال والعطاء، وقد كفر بي، وكذَّب بآياتي!! ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ كلاَّ كلمةُ ردعٍ وزجر، أي ليرتدع هذا الفاجر الأثيم، عن ذلك الطمع الفاسد، فلن ينال مبتغاه، لأنه كافرٌ جاحد، معاند لربه، مكذب لرسوله، فكيف يطمع بالزيادة، وهو على هذه الحالة من الجحود والطغيان؟ وكلمة (ثُمَّ) في الآية للإنكار والتعجيب من حاله، وهذا كما يقول شخص لآخر، أنزلتك ضيفاً في داري، وأحسنت إليك غاية الإحسان والإكرام، ثم أنت تشتمني!! ثم عقَّب بعد ذلك بالوعيد المخيف الشديد له، فقال: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أي سأكلِّفه وألجئه إلى عذاب شاقٍ لا يُطاق، عذاب لا راحة له فيه، وهو صعود جبلٍ من نار، كلما صعد فيه هوى، فهو معذَّب أبداً بالصعود

﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾

والهبوط، لأنه فكَّر في شأن النبي والقرآن، وأجال رأيه وذهنه الثاقب، ثم نظَّم ورتَّب كلاماً في نفسه، فقاتله الله وأخزاه، على تلك الكلمة الشنيعة التي قالها في القرآن، حيث قال عنه (إنه سحر) وقال عن محمد: (إنه ساحر) ﴿ثم قتل كيف قدر﴾ كرَّره لبيان شناعة قوله السخيف، والتعجيب من حاله في تفكيره وتقديره، أي ما أعجب تقديره وما أغربه؟ تأكيداً للذم والتقبيح، ولغاية التهكم به، كأنه يقول: قاتله الله ما أروع تفكيره، وأبدعَ رأيه الحصيف!! حيث قال عن القرآن إنه سحر يُؤثر!؟ ثم صوَّر القرآن حالته الغريبة، بصورة بديعة، مثيرة للسخرية والتهكم، في قسمات وجهه، ونبرات صوته، وكدِّ ذهنه ليخرج بتلك العبقرية المذهلة، ﴿ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ أي ثم أجال النظر مرةً بعد مرة، متفكراً في شأن القرآن، ليستجمع ذهنه الوقَّاد، في هيئة مضحكة تثير الدهشةَ والعجب ﴿ثم عبس وبسر﴾ ثم كَلَح وجهَه وقطَّبه، وزاد في الكلوح والتقطيب بين عينيه، كالمهتم المتفكِّر في أمر أقلق باله ﴿ثم أدبر واستكبر﴾ أي أعرضَ عن الهدى والإيمان، وتكبَّر عن قبول ما جاء به الرسول ﷺ من النور ﴿فقال إن هذا إلا سحر يؤثر﴾ أي ما هذا الذي يتلوه محمد، إلاَّ سحر يُؤثر أي يُروى ويُنقل عن السحرة ﴿إن هذا إلا قول البشر﴾ أي ما هذا إلا كلام البشر، يخدع به محمد القلوب!! قال ذلك عصبيةً وحميَّة جاهلية لقومه..

قصة الوليد بن المغيرة

روي أن الوليد مرَّ بالنبي ﷺ، وهو يصلي ويتلو القرآن، فاستمع لقراءته وتأثَّر بها بالغ التأثر ـ وكان زعيماً في قومه ـ فانطلق حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم، فقال لهم: لقد سمعتُ من محمد كلاماً عجيباً رائعاً، واللهِ ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، ما هو بشعر، ولا بسحر، ولا بكهانة، وما يشبه كلام البشر!! واللهِ إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة ـ أي جمالٌ ورونق ـ وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدقٌ، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه!! ثم انصرف إلى منزله، فقالت قريش: صبأ الوليدُ لتصبأنَّ قريش كلُّها ـ أي دخل في

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾

دين محمد ـ وكان أبو جهل غائباً، فلما رجع وسمع ما قاله قومه، قال لهم: أنا أكفيكم أمره، فانطلق إلى الوليد حتى جلس بجواره، فقال له الوليد: ما لي أراك حزيناً يا ابن أخي!؟ قال: كيف لا أحزن، وقومك تركتُهم يجمعون لك الأموال، يزعمون أنك قد صبأتَ، لتنال من طعام ومال محمد!؟ فغضب الوليدُ وقال: لقد كذبوا!! ألا تعلم قريش أني من أكثرهم مالاً وولداً؟ وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام، حتى يكون لهم فضل زادٍ ومالٍ؟ ثم قال لأبي جهل: اجمعهم لي، فجمعهم له، فجاءهم الوليد فقال لهم تزعمون أن محمداً كاهنٌ، فهل رأيتموه يتكهَّن؟ وتزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط؟ وتزعمون أنه كذَّاب، فهل جربتم عليه كذباً قط؟ وفي كل مرة يقولون: اللهمَّ، لا، ثم قالوا: فما هو إذاً؟ فقال لهم: دعوني حتى أفكِّر، ففكَّر ثم قال لهم: يا معشر قريش، إن أقرب ما تقولون فيه: إنه ساحر، أما رأيتموه يفرِّق بين الأب وابنه، وبين الرجل وأهله؟ وما هذا الذي يقوله إلا سحر، أخذه من أهل بابل!! فارتجَّ النادي فرحاً بمقالته، وتفرَّقوا معجبين برأيه، وتركوه رئيساً وزعيماً عليهم، وفيه نزلت هذه الآيات ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً..﴾ إلى قوله ﴿إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر..﴾ الآيات، ثم قال تعالى متوعداً له ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ سقر: اسم من أسماء جهنم، أي سأدخله وأحرقه في نار الجحيم ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ أي وما أعلمك أيُّ شيء سقر؟ استفهام للتهويل والتفظيع!! إنها نارُ الله الموقدة!! لا تبقي على شيء إلاَّ أحرقته، ولا تترك أحداً من الأشرار والفجار، إلاَّ طحنته ومزَّقته، فهي تأتي على اللحوم، والجلود، والأشعار، حتى لا تبقي منها شيئاً، فإذا أُعيد خلقُهم من جديد، تُعاودُ إحراقهم، وهكذا أبداً ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾ ومعنى قوله تعالى ﴿لواحة للبشر﴾ أي تلوح وتظهر لأعداء الله، من مسافات بعيدة شاسعة، لعظمها وهولها، قال الحسن: تلوح لهم من مسيرة خمسمائة عام، حتى يروها بأبصارهم عياناً ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي زبانيتُها الموكَّلون عليها من الملائكة تسعة عشر ملكاً، رئيسهم (مالك) خازن جهنم، ولمَّا نزلت هذه الآية، قال أبو جهل اللعين لقريش: أسمع ابن أبي كبشة ـ يريد محمداً ﷺ ـ يتوعدنا بأن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الشجعان المغاوير، أيعجز كلُّ عشرة منكم أن يبطش بواحدٍ منهم؟ ثم قال لهم: أنا أكفيكم

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾

سبعة عشر منهم، فاكفوني أنتم منهم اثنين، يقول ذلك سخرية واستهزاءً!! فأنزل الله رداً عليه ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي وما جعلنا خزنة جهنم، إلاَّ من الملائكة، الغلاظ الشداد، الذين لا يستطيع أهل الأرض جميعاً، مقاومةَ واحدٍ منهم، وليسوا من البشر، حتى يصارعهم ويصارعونه!؟ وقد بلغ من قوة أحدهم، أنه يحمل الجبل بكفه، كما حمل جبريلُ قرى قوم لوط بجناحه، ثم قلب بهم ديارهم، وما جعلنا عددهم (تسعة عشر) إلاَّ فتنةً للكفار الفجار، ليروا عددهم قليلاً، فيهزءوا ويسخروا منهم، حتى قال بعضهم: كيف يمكن لهذا العدد القليل، أن يُعذِّب جميع أهل النار؟ ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ﴾ أي ليتيقن أهل الكتاب من صدق محمد ﷺ، وأن هذا القرآن من عند الله، حيث يجدون هذا العدد في كتبهم المنزَّلة، ويزداد المؤمنون تصديقاً لله ورسوله، بما يشاهدونه من تسليم أهل الكتاب به، ولا يشك أهل الكتاب والمؤمنون في عددهم، وهذا كالتأكيد للخبر السابق، وهو من معجزات القرآن، حيث سخر المشركون واستهزءوا، وأكَّد أهل الكتاب الأمر بذكر العدد ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ﴾ أي وليقول المنافقون الذين في قلوبهم مرضُ النفاق، والكافرون من أهل مكة: أيَّ شيء أراد الله بهذا الحديث؟ ولماذا يخوِّفنا الله من سقر، وخزنتها التسعة عشر؟ قال تعالى رداً عليهم: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾ أي كما أضلَّ الله مشركي قريش، كذلك يضلُّ الله من أراد إضلاله، ويهدي من أراد هدايته، فهو سبحانه يعلم القلب التقيَّ النقيَّ، الذي هو أهل للخير والصلاح، فيوفِّقه للهداية والإيمان، ويعلم القلبَ الزائغ الفاسد، فيتركه لهوى النفس، ونزغات الشيطان ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي وما يعلم عدد الملائكة، وقوتهم وكثرتهم، وضخامة أجسامهم إلاَّ ربُّ العالمين، والآية ردٌّ على أبي جهل

﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾﴾

حين قال: أليس لربِّ محمد أعوان إلاَّ تسعة عشر؟ فبيَّن تعالى أنه لا يعلم عددهم إلا ربُّ العزة والجلال، وما هذه النار، التي وصفها لكم الجبار، إلاَّ موعظة وتذكرة للخلق، ليتذكروا عقاب الله وعذابه، فينزجروا عن المعاصي والآثام ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ أي ليرتدع هؤلاء السفهاء، عن السخرية والاستهزاء، وأقسمُ لكم بالقمر، وما فيه من عجائب، حيث يبدأ هلالاً، ثم يكبر شيئاً فشيئاً حتى يصبح بدراً، ثم يرجع إلى الصغر، ثم يختفي بالمحاق، وما فيه من دلائل القدرة الباهرة ﴿والليل إذ أدبر﴾ أي وأقسمُ بالليل حين يولي ذاهباً بظلامه، ليعقبه نور النهار ﴿والصبح إذا أسفر﴾ أي وأقسمُ بالصبح إذا أشرق وأنار بضيائه الكون، ونشر نوره في الأرجاء ﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ﴾ أي إن جهنم لهي (إحدى البلايا) الدواهي الكبيرة، وهم مع ذلك يسخرون ويهزءون، وهذه النارُ إنذارٌ للبشر، ليتقوا ربهم ويخافوا عذابه ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ أي لمن شاء من العباد، أن يتقرب لربه بفعل الخيرات والصالحات، أو يتأخر عن فعل الخير بارتكاب المنكرات والموبقات، ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾ أي كلُّ نفسٍ محبوسةٌ بعملها يوم القيامة، ولا تُفكُّ حتى تؤدّي ما عليها من الحقوق ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ أي إلاَّ السعداء أهل الجنة، فإنهم فكُّوا رقابهم، بما أحسنوا من أعمالهم، كما يفكُّ الراهنُ رهنه بأداء الدَّين ﴿في جنات يتساءلون عن المجرمين﴾ أي هم في حدائق وبساتين ناضرة، يسألون المجرمين، عن سبب دخولهم النار؟ يقولون لهم ﴿ما سلككم في سقر﴾ ما الذي أدخلكم نار جهنم، وجعلكم تصلون سعيرها؟ وسؤالهم هذا سؤال توبيخ وتحقير لهم، لإدخال الحسرة والألم على نفوسهم ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ﴾ أي يقولون معترفين ببعض جرائمهم: كنا في الدنيا لا نصلِّي لله، ولا نحسن للمساكين، فنتصدق

وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾

عليهم، فما عبدنا ربَّنا، ولا أحسنَّا إلى خلقه ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ أي وكنا نسخر مع أهل الباطل بالرسول وبالدين، ونتكلم بالباطل والبهتان، فنقول عن القرآن: سحر، شعر، كهانة ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ هذا أفحش جرائمهم وأشنعها، أي كنا نكذب بيوم القيامة، وبالجزاء والمعاد ﴿حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ أي حتى جاءنا الموتُ ونحن على تلك القبائح والمنكرات!! قال تعالى معقِّباً على اعترافهم بتلك الجرائم ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ أي لو شَفَع فيهم أهلُ السماء والأرض، ما قُبلت شفاعتهم فيهم، لأن الشفاعة تنفع في العاصي لا في الكافر، وفي المسلم لا في المجرم!! ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أي فما لهؤلاء المشركين، معرضين عن القرآن، وآياته البيِّنات، وما فيه من المواعظ والنصائح، والإرشادات؟ ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ أي كأنهم حمرٌ وحشية نافرة، رأت الأسد، ففرَّت وهربت منه، من شدة الفزع!!

قال ابن عباس: «الحمرُ الوحشيةُ إذا عاينت الأسدَ هربت، كذلك هؤلاء المشركون، إذا رأوا محمداً ﷺ هربوا منه، كما يهرب الحمار من الأسد» مشهدٌ مضحك غريب، فإن حمار الوحش، إذا سمع زئير الأسد، يعدو عدواً غريباً، دون هدف ولا اتجاه، في منظر مضحك يدعو إلى الاستغراب، وفي تشبيههم بالحمر شهادةٌ عليهم (بالبَلَه) والحمارُ إذا نَفَر لا يلامُ، أما البشر حين يسمعون المُنْذِر، فينفرون منه، فإنه حقاً منظر غريب، يدعو إلى الضحك، من هذا المشهد العجيب!! ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ أي هل يطمع كل واحدٍ من هؤلاء الأشقياء، أن يُنزَّل عليه الوحيُ كما ينزل على الأنبياء؟ وأن يُعطى الصحف الإلهية المفتوحة غير المطويَّة؟ وهذا كما حكاه الله عنهم ﴿قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله﴾ وهيهات أن ينال الأشقياء منازل الأنبياء!! ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ أي ليرتدعوا عن هذه الأماني الفارغة، فإنما أفسدهم وأزاغ قلوبهم أنهم لا يؤمنون

كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

بلقاء الله، ولا يخافون عذابه، فلذلك يطلبون ما يطلبون!! ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ كرَّر الردع توبيخاً لهم، ثم بيَّن أن هذا القرآن تذكرة بليغة، كافية لاتعاظهم، لو أرادوا الخير والسعادة لأنفسهم، فمن شاء اتعظ به وانتفع ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي وما يتعظون بآيات الذكر الحكيم، إلا أن يشاء الله لهم الهدى، فيتذكروا ويتعظوا، وفيها تسلية للنبي ﷺ وترويح عن قلبه الشريف، مما كان يغشاه من إعراضهم وتكذيبهم له، ﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ أي هو سبحانه حقيقٌ بأن يُتَّقىٰ عذابه ويُطاع، وحقيق لمن آمن به أن يغفر له، جلَّ شأنه وعَظُم سلطانه!!

انتهى تفسير سورة المدَّثر

● ● ●

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦﴾

تفسير سورة القيامة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ ظاهرُه نفيُ القَسَم، وحقيقتُه أنه قسمٌ مؤكد، والمعنى: أقسم لكم بيوم القيامة، يوم الحساب والجزاء، الذي لا بد أن يأتيكم، وأقسمُ لكم بالنفس الطاهرة المؤمنة، التي تلوم صاحبها على التقصير في جنب الله، وتستغفر ربها مع كثرة طاعتها وإحسانها.. أقسم تعالى بيوم القيامة، لعظمه وهوله، وأقسم بالنفس اللوَّامة، تعظيماً لشأنها، لأنها النفسُ التقيَّةُ النقية، التي تردع صاحبها عن فعل ما يُسخط الله، وجواب القَسَم محذوف، دلَّ عليه ما بعده، تقديره: لتبعثنَّ ولتحاسُبنَّ ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ أي هل يظن الكافر الفاجر، أن الله لن يحييه بعد موته؟ ولن يجمع عظامه المتناثرة البالية؟ ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ أي بلى نجمعها، ونحن قادرون على ما هو أعجب من ذلك، أن نعيد الخطوط والدوائر، التي على رءوس الأصابع، نعيدها على ما كانت عليه!! والمراد بالبنان: أطراف الأصابع، جمع بنانه، وهذه إحدى المعجزات القرآنية، التي توصَّل إليها العلم الحديث، فقد ثبت علمياً أن بشرة الأصابع، مغطَّاة بخطوط دقيقة، متناهية في الدِّقة، منها ما هو على شكل أقواس، أو دوَّامات تشبه الدوائر، وهذه الخطوطُ، لا يمكن أن يتشابه إنسان فيها مع آخر، ولذلك اعتمدتها الدول رسمياً، وأصبحت تميِّز بها الإنسان، والإعجاز في الآية، أن التعبير جاء بلفظ ﴿أن نسوي بنانه﴾ ولم يقل: نخلق بنانه، ليشير إلى قدرة الله الباهرة، في إعادة الهيئة والشكل، الذي كانت عليه هذه الأصابع، بنفسِ الخطوط واللَّمسات التي كانت عليها، وتباركت عظمة الله في خلقه وإبداعه!! ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي بل يريد الكافر، بهذا الإنكار للبعث والنشور، أن يستمر على فجوره، فلذلك يسأل سؤال مستهزىء: متى يوم القيامة؟ نبَّه تعالى إلى أن الكافر، يريد أن ينطلق مع شهواته البهيمية، ويسترسل

فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾

بالاستمتاع باللذائذ والشهوات، والإيمانُ (بالحساب والجزاء) ينغِّصُ عليه متعته، فلذلك ينكر الآخرة، ولا يصدِّق بالبعث، حتى يستمر في فجوره، وشهواته الحيوانية.. ورداً على هذا الطغيان والفجور، يذكر تعالى الموعد لمجيء القيامة، في مشهد عنيفٍ مثير، تشترك فيه الحواسُّ، والمشاهدُ الكونية ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾؟ مشهدٌ مخيفٌ، البصرُ يُخطف، والقمرُ يُخسف، ونظام الكون الدقيق يتعطَّل، أي فإذا زاغ البصر وانبهر، من شدة الأهوال والمخاطر، وذهب ضوءُ القمر فأظلم، ورجع كتلةً سوداء معتمة، بعد أن كان بدراً مضيئاً، واختلَّ نظامُ الكون، فدخل القمر في مدار الشمس، فاصطدما وارتطما، بعد أن كان كلٌّ منهما يجري بنظام دقيق، هنالك يتساءل الإنسان الكافر الفاجر، المنكر للقيامة، فيقول: أين المهرب؟ وأين الفرار؟ وأين النجاة من هذا البلاء الداهم؟ قال تعالى رداً عليه ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ الوَزَرُ: الملجأُ والحِصنُ، أي ليرتدغ هذا الكافر الأثيم، عن هذا القول، فلا ملجأ له، ولا مغيث له من عذاب الله، إلى الله وحده مرجع ومصير الخلائق ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي يُخبر الإنسانُ في ذلك اليوم العصيب، عن جميع أعماله، صغيرها وكبيرها، ما قدَّمه منها في حياته، وما أخرَّه بعد مماته، من سنة حسنة أو سيئة ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ أي بل الإنسان شاهد على نفسه، لا يحتاج إلى شاهد آخر، تشهد عليه جوارحُه بسوء عمله، وقبح صنيعه، ولو أنه أتى بكل معذرة، ليبرّر إجرامه وفجوره، فإنه لا ينفعه ذلك، لأنَّ نفسه تشهد عليه ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ والمقصود من ذكر هذه الآيات، بيانُ أهوال الآخرة، فالقلوبُ تفزع، والأصواتُ تخشع، والإنسانُ يطيش عقلُه، ويذهب رشدُه، ويبحث عن النجاة والمخلص، ولكنْ أين المهرب؟ وأين النجاة؟ فلقد جاءت الطامة الكبرى، فلا عُذر ولا نجاة!! ثم يأتي الحديث عن الوحي الرباني، الذي كذَّب به كفار قريش وأنكروه، فيقول سبحانه ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي لا

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾

تحرك يا محمد لسانك بتلاوة القرآن، عندما يقرأه عليك أمينُ الوحي «جبريل» من أجل أن تتعجل بحفظه، بل استمع لقراءته وأنصت، فإن علينا أن نجمعه في صدرك، ونجعلك حافظاً له، تقرأه متى شئت!! وسبب نزول هذه الآيات، ما رواه البخاري عن ابن عباس أنه قال: (كان رسول الله ﷺ، إذا نزل عليه جبريل بالوحي، يحرِّك به لسانه وشفتيه ـ أي يردِّد القراءة مع جبريل ـ خشيةَ أن ينفلت منه، فيشتدُّ عليه فقيل له: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي علينا أن نجمعه في صدرك، وأن تقرأه كما نزل ﴿فإذا قرأناه فاتَّبِعْ قرآنه﴾ أي فإذا أنزلناه فاستمع ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي علينا أن نبيِّنه بلسانك، فكان ﷺ إذا أتاه جبريل بعد ذلك سكتَ، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله به) رواه البخاري، وإنما أضاف القراءة إليه جلَّ وعلا ﴿فإذا قرآناه﴾ أي قرأه جبريلُ، لأن جبريلَ مبلِّغٌ عن الله وحيه وكتابه، فجعل قراءة جبريل قراءة الله عزَّ وجل، لأنها بأمره، ونظير هذه الآية قوله سبحانه: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه﴾ أي لا تتعجل بقراءة القرآن مع جبريل، من قبل أن ينتهي من قراءته عليك!.

قال ابن كثير: «أمره الله عز وجل، إذا جاءه الملكُ بالوحي، أن يستمع له، وتكفَّل له أن يجمعه في صدره، وأن يبيِّنه له، ويفسِّره ويوضِّحه» ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ الخطاب لكفار قريش، أي ارتدعوا يا معشر المشركين، فليس الأمرُ كما زعمتم، أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء، بل أنتم قوم تحبون الحياة الفانية، وتتركون الآخرة الباقية، ولذلك لا تفكِّرون في الآخرة، ولا تعملون لها، مع أنها خير وأبقى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي في ذلك اليوم ينقسم الناس إلى فريقين: أبرار، وفجار، فأما وجوه الأبرار، فتكون مشرقة مضيئة، حسنة بهيَّة، من بشاشة السرور، وأثر النعيم، تنظر إلى جلال ربها، وتستمتع برؤية وجه ربها الكريم، دون حاجز ولا حجاب، وهذا أعظم نعيم لأهل الجنة، رؤية الخالق جلَّ وعلا في جنات النعيم، وفي الصحيحين (إنكم سترون ربكم عياناً، كما ترون القمر ليلة البدر) وفي صحيح مسلم (فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم، من النظر إلى ربهم جلَّ وعلا وهي الزيادة، ثم تلا ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾.

قال الحسن البصري: ﴿ناضرة﴾ أي حسنة مسرورة، وحُقَّ لها أن تنضر، وهي إلى

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ (٢٨) وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ (٣٥)﴾

جمال ربها تنظر ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ هذه وجوه الأشقياء، أي ووجوهٌ يوم القيامة، عابسة كالحة مسودَّة، تتوقع أن تنزل بها داهية عظيمة، تقصم فقار الظهر، ومعنى الفاقرة: الداهية الفظيعة، التي تكسر فقرات الظهر ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ أي ارتدعوا يا معشر المشركين، الغافلين عن الآخرة وأهوالها، وتنبهوا لما بين أيديكم من الأهوال والمخاطر، فإن الدنيا دار الفناء، ولا بدَّ لكم أن تتجرعوا كأس المنيَّة، فإذا بلغت الروحُ أعالي الصدر، وهي (التراقي) وأشرفتم على الموت، وقال أهل المريض وأصدقاؤه ﴿من راق﴾؟ أي من يشفيه ويرقيه ممَّا هو فيه؟ أي من يعالجه ليُشفى من مرضه؟ ﴿وظن أنه الفراق﴾ أي وأيقَنَ المحتَضَرُ، أنه سيفارق الدنيا، ويفارق الأهل والمال والولد، لأنه يبصر بعَيْنيْه ملائكة الموت ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ أي التفَّت إحدى ساقي الميِّت بالأخرى، فلا يقدر على تحريكهما، لأن الموت قد دبَّ فيهما، فتخرج الروح أول ما تخرج من الرجلين، إلى أن تنتهي إلى الحلقوم، فتُنزع من الجسد، **قال الحسن البصري**: ماتت رجلاه فلم تحملاه، وقد كان عليهما جوَّالاً، يسير بهما نحو المعاصي ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ أي إلى الله جلَّ وعلا مساقُ العباد، أي مرجعهم ليفصل بينهم، يجتمع عنده الأبرار والفجار، ثم يُساقون إلى الجنة أو النار ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي ما صدَّق هذا الكافر الفاجر بالقرآن، ولا سجد ولا صلَّى للرحمن، ولكنه طغى وفجر، فكذَّب الرحمن، وأعرض عن الطاعة والإيمان ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أي رجع إلى أهله يتبختر ويختال ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ أي ويلٌ لك أيها الشقيُّ الفاجر، ثم ويل لك على طغيانك وفجورك!! نزلت هذه الآيات في (أبي جهل) لقيه رسولُ الله ﷺ في أحد طرقات مكة، فأمسكه بمجامع ثوبه، ثم قال له ﴿أولى لك فأولى﴾!! فقال له أبو جهل: أتتوعدني وتهدِّدني يا محمد!! والله لا تستطيع لا أنتَ ولا ربّك، أن تفعلا بي شيئاً، والله إني لأعزُّ أهل الوادي ـ يعني مكة ـ فلما كان يوم بدر صرعه الله، وقتله شرَّ قتلة، والآيات وإن نزلت في أبي جهل، ولكنها تعمُّ كل

أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

طاغية فاجر، لا يؤمن بالله، ولا يصلي، ولا يُصدِّق بيوم البعث والجزاء، لأن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أي هل يظن الكافر الفاجر، أن يُترك هملاً من غير تكليف، بحيث يبقى كالبهائم المرسلة؟ ومن غير بعثٍ، ولا حساب، ولا جزاء؟ لا ينبغي أن يظن هذا الظن الخاطيء ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾؟ أي أما كان هذا الإنسان، المتكبر على ربه، نطفة مهينة، تُراق وتُصبُّ في الأرحام؟ كقوله سبحانه ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾؟ فهذا أصل الإنسان، ثم أصبح بعد ذلك علقة تعلق بجدار الرحم ﴿فخلق فسوى﴾ أي فخلقه الله في أبدع صورة، وجعله إنساناً سوياً ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ أي فجعله صنفين: ذكراً وأنثى، بقدرته جل وعلا مع أن النطفة واحدة؟ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي أليس هذا الإله المبدع الحكيم، الذي أوجد الإنسان من ماء مهين، بقادرٍ على أن يعيد خلقه بعد موته وفنائه؟ بلى ونحن على ذلك من الشاهدين!!

انتهى تفسير سورة القيامة

● ● ●

هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾

تفسير سورة الإنسان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ الإنسانُ من حيث إنه إنسان، آية من آيات الله الباهرة، ومظهر من مظاهر قدرته جلَّ وعلا ووحدانيته، فقد أبدع الله خلقه، فركب فيه الحواس: (السمع، البصر، العقل، النطق، الفهم، التمييز) فأين كان الإنسان قبل أن يُخلق؟ من الذي أوجده؟ ومن الذي صوَّره بهذه الصورة البديعة؟ أليس هو الله ربُّ العالمين؟ ولهذا ذكَّرنا الله عز شأنه، بنعمة الخلق والإيجاد، والتصوير والإبداع. **والمعنى:** لقد أتى على الإنسان وقتٌ طويل، كان في عداد الموتى، لم يكن له ذِكْرٌ ولا أثر، ثم أوجده الله بارىء الأكوان، ومبدعُ الإنسان!! والآية تشير إلى مرحلة ما قبل «نفخ الروح» حيث مرَّ في بطن أمه بأطوار وأدوار، من (نطفة إلى علقة، إلى مضغة، إلى لحم وعظام) ثم نفخ الله فيه الروح، فصار إنساناً سوياً ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ أي نحن بقدرتنا الفائقة، خلقنا الإنسان من (نطفةٍ أمشاج) أي أخلاط، من ماء الرجل وماء المرأة، لنختبره ونمتحنه بالتكاليف الشرعية، والأوامر الإلهية، فجعلناه إنساناً سوياً، ذا سمع، وبصر، وعقلٍ، وتمييز، والمراد بالسمع والبصر: جميعُ الحواسِّ، من العقل، والفهم، والإدراك، وخصَّهما بالذكر، لأنَّهما أعظم الحواسِّ، وأشرفها، فبالسمع يسمع آيات الرحمن، وبالبصر يرى بدائع الأكوان، وبالعقل يدرك عظمة الخالق جلَّ وعلا ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أي بينَّا له وعرَّفناه، طريق الهدى والضلال، ببعثة الرسل الكرام، وإنزال الكتب الإلهية، ثم خيَّرناه وتركنا له طريق الاختيار، أن يسلك طريق الشكر أو الكفر، فإمَّا أن يكون مؤمناً تقياً، فيسلك طريق الخير والرشاد، وإمَّا أن يكون فاجراً

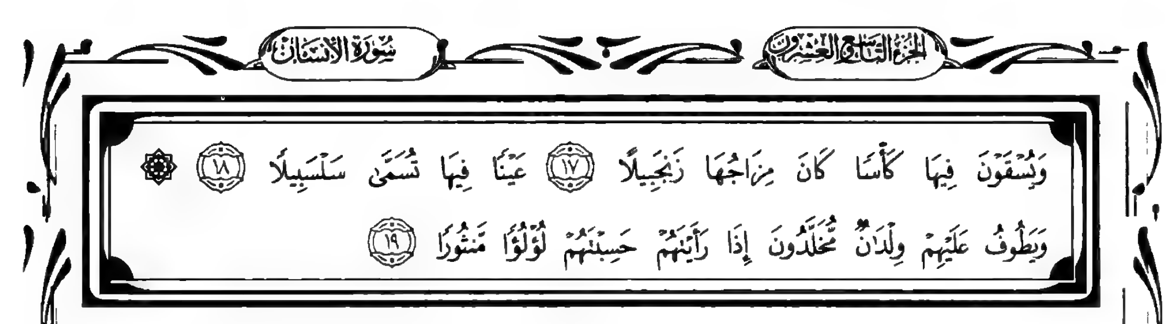
إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيۡنًا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾

شقياً، فيسلك سبيل الفجور والفساد، والشكرُ والكفرُ هما مناطُ الثواب والعقاب، والمراد هديناه السبيل، ليكون إمَّا شاكراً، وإمَّا كفوراً، لم يقل تعالى: إما شاكراً وإمَّا كافراً، وإنما جاء بصيغة المبالغة في الكفور، ومعناه المابلغ في الكفر، دون الأولى، للإشعار بأن الشاكر قليل، وأمَّا الكفور وهو الجاحد لنعم الله فكثير، ولهذا جاء النصُّ ﴿وإمَّا كفوراً﴾ بصيغة المبالغة، فتدبر أسرار القرآن!! ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ أي هيأنا للكفار الفجار، قيوداً ثقيلة تُشدُّ بها أرجلُهم وهي السلاسلُ، وأغلالاً تُغلُّ بها أيديهم مع الأعناق، وسعيراً أي ناراً حامية تُحرق بها أجسادهم ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ أي إن المؤمنين الأبرار، الذين كانوا في الدنيا محسنين، يشربون كأساً من الخمر، ممزوجةً بأنفس الطيب، وهو الكافورُ، وهو اسم عين في الجنة، ولهذا قال بعده ﴿عَيۡنًا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرًا﴾ أي هذا الكافور يتدفَّق، من عين جارية من عيون الجنة، يشرب منها عباد الله الأبرار، يُجْرونها حيث شاءوا من منازلهم وقصورهم ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرًا﴾ أي يوفون بما نذروه على أنفسهم من صلاةٍ، وزكاة، وحج، وصيام، وسائر أعمال البر والطاعة، ويخافون هول يوم عظيم، بلغت أهواله وشدائده، أقصى حدود الشدة والفزع ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ أي ويطعمون الطعام لكل محتاج، من مسكين، أو يتيم، أو أسير، في حال محبتهم وشهوتهم له، وحاجتهم إليه، يطيبون به نفساً للبؤساء والمساكين، ويؤثرونهم به على أنفسهم، وهذا غاية الكَرَم!! ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ أي إنما نكرمكم ونطعمكم طلباً لثواب الله، وابتغاء مرضاته، لا نقصد منكم الحمد والثناء على هذا الإحسان.

قال مجاهد: أَمَا واللهِ ما قالوه بألسنتهم، ولكنْ علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم

إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾

به، ليرغب في ذلك راغب ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ القمطريرُ: الصعبُ الشديدُ العسيرُ، أي إنما نعمل ذلك، رجاء أن يقيَنا الله، هولَ يوم شديد عسير، تعبس فيه الوجوه وتَكْلَح، من فظاعة أمره، وشدة هوله ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أي فحماهم الله بطاعتهم له وإحسانهم، شرَّ ذلك اليوم وشدَّته، وأعطاهم حُسْناً في الوجوه، وفرحاً في القلوب، وفي الآية مقابلة لطيفة بين عبوس الكفار وحزنهم، ونضرة وجوه المؤمنين وسرورهم ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أي أثابهم وجازاهم، على صبرهم على مرارة الطاعة، وإنفاقهم المال في سبيل الله، جنة واسعة يسكنونها، فيها من كل ما تشتهيه الأنفس، وألبسهم فيها ملابس الحرير ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ لمَّا ذكر تعالى طعامهم ولباسهم، أعقبه بذكر مجالسهم ومساكنهم، أي مضطجعين في الجنة على الأسرة الذهبية، المزيَّنة بفاخر الثياب والستور، وهم في الظلال، لا يرون في الجنة حراً ولا برداً، والجنة أنوارٌ تتلألأ، ليس فيها شمس تُحرق، ولا زمهرير أي بردٌ شديد يُتلف، وإنما هي نسماتٌ، تهبُّ من العرش تُحيي الأنفاس ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أي ظلالُ الأشجار قريبةٌ من الأبرار، زيادةً في نعيمهم، وكمال راحتهم، وأُدنيتْ ثمارها منهم، ليسهل عليهم قطفها، دون عناء، وتعب، **قال ابن عباس**: إذا اشتهى أن يتناول من ثمارها، تدلَّتْ أغصانها حتى يقطف منها ما يريد!! ثم وصف تعالى شراب أهل الجنة فقال ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي يدور عليهم الخدم بالأواني الفضية، فيها لذيذ الطعام والشراب ـ على عادة أهل الترف في الدنيا ـ فيتناول كل واحدٍ منهم ما يشتهيه، ويُؤتى لهم بأكواب أي أقداح وكؤوس للشرب، رقيقة شفَّافة كالزجاج في صفائه، وهي من فضة، حيث يُرى ما فيها من الشراب من خارجها، **قال ابن عباس**: لو


﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾

أخذت فضة الدنيا، فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب، لم يُر الماءُ من ورائها، وقواريرُ الجنة من فضة، ببياض الفضة، مع صفاء الزجاج، يُرى الماء من خارجها ﴿قدروها تقديراً﴾. قال مجاهد: أي على قدر رِيِّهم لا تزيد عنه ولا تنقص، والقواريرُ لا تكون إلا من زجاج، وهذه الأكواب من فضة، وهي مع هذا شفَّافة، يُرى ما في باطنها، وهذا ممَّا لا نظير له في الدنيا ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ المراد بالكأس: كأس الخمر، قال ابن عباس: كلُّ كأسٍ في القرآن يراد بها الخمرُ، أي يُسقى هؤلاء الأبرارُ في الجنة، كأساً من الخمر مخلوطة بالزنجبيل، والشرابُ الممزوج بالزنجبيل أطيبُ الشراب، قال الشاعر:

وكـأنَّ طَـعْـمَ الـزَّنْـجـبـيـل بـه ... إذْ ذُقـتَـه وسُـلافَـةَ الـخَـمْـر

والزنجبيلُ: اسمٌ لعينٍ في الجنة، ولهذا قال تعالى ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ أي يشربون من عينٍ في الجنة، فيها الماءُ العذبُ، السهلُ الجريان في الحلْق، المخلوطُ بالزنجبيل، يشعر الشاربون بطعمه، لكنهم لا يشعرون بحرقته ولذعته، فيبقى الشراب سلسبيلاً، سهل المساغ في الحلق، **قال ابن كثير**: ﴿كأساً﴾ أي خمراً ممزوجة بالزنجبيل، فتارةً يُمزج لهم الشرابُ بالكافور، وهو بارد، وتارةً بالزنجبيل وهو حارٌّ، ليعتدل الأمرُ، هذا للأبرار، وأما المقرَّبون فإنهم يشربون من كلٍّ صِرْفاً، كما قال قتادة وغير واحد من علماء السلف، فالمقربون أعلى درجة من الأبرار، ومعنى (صِرفاً) أي خالصاً.. ها هم أهل الجنة في أهنأ وأسعد حال، متكئون على الأرائك، تحت الظلال الوارفة، والقطوف الدانية والجو اللطيف، يُطاف عليهم بأنواع الشراب، في آنية وأكواب من الفضة، ولكنها شفَّافة كالزجاج، مما لم تعهده أواني الدنيا، وهي بأحجام مقدرة تقديراً دقيقاً يحقِّق المتعةُ والجمال، وهي تمزج بالزنجبيل مرةً، وبالكافور مرةً، وتُملأ من عين جارية، تسمى «السلسبيل» لشدة عذوبتها، وسهولة ابتلاعها، فما أعظم هذا النعيم!! ثم وصف تعالى بعد ذلك خدم أهلِ الجنة فقال ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ أي يدور على خدمة أهل الجنة، غلمانٌ ينشئهم الله تعالى لخدمتهم ﴿مخلَّدون﴾ أي باقون على ما هم عليه من الحسن والجمال، والنضارة، لا يكبرون ولا يهرمون، إذا شاهدتهم منتشرين في الجنة، خلتهم لحسنهم،

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

وصفاء وجوههم، كأنهم (اللؤلؤ المنثور) وإذا كان الخادم كاللؤلؤ، يشِعُّ بالجمال والبهاء، فكيف يكون المخدوم؟ وإنما شُبِّهوا باللؤلؤ المنثور، لانتشارهم وتفرقهم في الجنة، انتشار الورود والأزهار، في الحدائق والبساتين النضرة ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أي وإذا رأيت ما في الجنة من مظاهر الأنس والسرور، رأيتَ نعيماً لا يُوصف، ومُلكاً واسعاً عظيماً، لا يكاد يتصور، كما جاء في الحديث القدسي (أعددتُ لعبادي الصالحين، ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر) رواه البخاري ومسلم، **قال ابن كثير: وثبت في الصحيح: «أنَّ أقلَّ أهل الجنة منزلةً، من له قَدْرُ الدنيا وعشرةُ أمثالها»** فإذا كان هذا عطاؤه تعالى، لأدنى من يكون في الجنة، فما ظنُّك بمن هو أعلى منزلة، وأحظى عنده تعالى؟ ولفظة ﴿ثَمَّ﴾ بفتح الثاء بمعنى هناك، تقول: ما ثَمَّ خالدٌ، أي ما هنالك خالد ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ أي يعلو أهلَ الجنة الثيابُ الحريريةُ الخضراء، المزينة بأنواع الزينة، منها ما يكون من الحرير الرقيق وهو «السندس» والحرير الثخين وهو «الاستبرق» فلباسُهم في الجنة الحريرُ بأنواعه: الرقيقُ منه والثخين، وإنما قال ﴿عاليهم﴾ لينبه أن لهم عدة ثياب، ولكنَّ الذي يعلوها هو الحرير، فيكون أفضلها ﴿وحلوا أساور من فضة﴾ أي وأُلبسوا في الجنة أساور فضية، للزينة والحلية، كما يُحلَّون بأساور ذهبية تارة أخرى ﴿يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير﴾ فتارة يلبسون الفضة، وتارة الذهب، وتارة اللؤلؤ، على حسب ما يشتهون ﴿وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾ أي سقاهم الله شراباً طاهراً لم تدنِّسه الأيدي، وليس بنجسٍ كخمر الدنيا، ولا يستحيل إلى بولٍ، ولكنه يستحيل إلى رشح ـ أي عرق ـ في أبدانهم كرشح المسك، في طيبه وريحه، كما جاء في صحيح مسلم (إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، لا يبولون ولا يتغوَّطون، قالوا: فما بال الطعام يا رسول الله؟ قال: جُشاءٌ ورشح كرشح المسك» والجُشاءُ: ما يخرج من المعدة من هواء ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ أي يُقال لهم: هذا جزاء أعمالكم الصالحة، التي قدمتموها في الدنيا، وعملكم مشكور ومبرور، جُزيتم عليه أحسن الجزاء ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ أي نحن أكرمناك يا محمد بإنزال

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾

هذا الكتاب العظيم عليك، نزَّلناه مفرَّقاً شيئاً بعد شيء، ولم ننزله جملة واحدة، لتذكِّرهم بما فيه من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أي فاصبر على ما ينالك من أذى المشركين، وانتظر لحكم ربك وقضائه، فلا بدَّ أن ينتقم لك اللَّهُ من أعدائك، ويقرَّ عينك بإهلاكهم، ولا تطع من هؤلاء الفجرة، من كان غارقاً في الآثام والشهوات، مبالغاً في الكفر والجحود لربه ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي داوم على ذكر ربك، في الصباح والمساء، وأكثر من طاعته وعبادته، في كل وقت وحين ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ أي واسجد لربك في الليل، متهجداً مستغرقاً في مناجاته، وأكثر من الصلاة والعبادة لله، في جنح الظلام، والناسُ نيام، فهو الزاد لك على النصر على أعدائك ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ أي إن هؤلاء الكفرة، يُؤثرون الدنيا على الآخرة، وينهمكون في لذاتها الفانية، ويتركون وراءهم يوماً عسيراً شديداً، عظيم الأهوال والشدائد، وهو «يوم «القيامة» فلا يستعدُّون له، ولا يفكِّرون فيه ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي نحن الذين أوجدناهم من العدم، وأحكمنا ربط أعضائهم بالأعصاب والعروق، حتى صاروا أقوياء أشداء، ولو أردنا لأهلكناهم، ثم أتينا بخلقٍ أفضل منهم، يكونون أعبدَ لله وأطوع، كما قال سبحانه ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ فلا يغترُّوا بقوتهم، فإنهم لا يعجزون الله!! ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي إن هذه الآيات البيِّنات، موعظة وذكرى، يتذكر بها العاقل، وينزجر بها الجاهل، فمن أراد الاتعاظ والاعتبار، فليسلك طريقاً إلى الله، بطاعته، واتباع رسوله الهادي، فأسباب السعادة ميسورة، وسُبُل النجاة ممهَّدة ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي وما تشاءون أمراً من الأمور، إلا بتقدير



﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾

الله ومشيئته، فهو سبحانه العليم بمصالح عباده، الحكيم في تدبيره وصنعه ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ أي يُدخل في جنته ـ التي هي مكان رحمته ـ من يشاء ممن يعلم فيهم الخير والصلاح، وهم المؤمنون المتقون، فأما المشركون الظالمون، فقد هيأ الله لهم عذاباً شديداً موجعاً في دار الجحيم!!

انتهى تفسير سورة الإنسان

● ● ●

وَالْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾

تفسير سورة المرسلات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا فَالْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا وَالنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ هذه أقسامٌ أقسم الله بها ﴿والمرسلات عُرفاً﴾ أي أقسمُ بالرياح، حين تهبُّ متتابعة، يتبع بعضُها بعضاً، والمراد بها «رياح العذاب» التي يُهْلِك الله بها الطغاة المتجبرين، كما أهلك قوم «عاد» بالريح الصرصر العاتية ﴿فالعاصفات عصفاً﴾ أي وبالرياح التي تشتد وتعصف، فتقلع الأشجار، وتخرِّب الديار، وتغير الآثار ﴿والناشرات نشراً﴾ أي أقسمُ بالملائكة الموكَّلين بالسحب، يسوقونها حيث شاء الله، لتنشر رحمة الله، بإنزال الغيث والمطر، لإغاثة العباد والبلاد ﴿فَالْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ أي وبالملائكة التي تنزل بآيات الذكر الحكيم، فتفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال ﴿فَالْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ أي وأقسم لكم بالملائكة المقرَّبين، تلقي الوحي إلى الأنبياء والمرسلين، إعذاراً وإنذاراً من الله للخلق، لئلا يبقى حجة لأحدِ عند الله، بعد إرسال الرسل.. أقسم الله بهذه الأقسام الخمسة، على أن القيامة حقٌّ، وأن ما أوعد به المكذبين، من مجيء يوم الحساب، كائنٌ لا محالة، آمنوا به أم كذَّبوا!! ثم بيَّن تعالى وقت مجيء القيامة، فقال ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ وَإِذَا السَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ أي فإذا ذهب نورُ النجوم والكواكب، وطُمس ضياؤها فأصبحت قاتمة مظلمة، وإذا السماء تشقَّقت وتصدَّعت من خوف الرحمن، وهول الموقف ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ أي تطايرت وتناثرت حتى صارت كالهباء المنثور ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ أي وإذا الرسلُ جُعل لها وقتٌ وأجلٌ محدَّد، للشهادة على أممهم، لأي يوم عظيم أُخِّرت الرسل؟ استفهام للتعظيم والتهويل،

وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾

ثم قال ﴿ليوم الفصل﴾ أي أُجِّلت ليوم القضاء والفصل بين الخلائق ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ ؟ أي وما أعلمك ما هو يوم الفصل؟ وما هي أهوالُه وشدائده؟ إنه أعظم مما يتصوره البشر، يومٌ هائلٌ فظيع، تتقَّطع لهوله القلوب، وتطيش له الأحلام!! ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار في ذلك اليوم العصيب، للمكذبين بيوم الدين!! وقد كُرِّرت هذه الآيةُ عشر مرات، كمطرقة تطرق مسامع الطغاة المتجبرين، المكذبين بآيات الله، المستهزئين برسله.. ثم أخبر تعالى ما فعل بالأمم المكذبة فقال ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ ؟ أي ألم نهلك المجرمين السابقين، من المكذبين لرسل الله وأنبيائه؟ كقوم نوح، وعاد، وثمود؟ ثم ألحقنا بهم المتأخرين، ممن كانوا مثلهم في الطغيان والعصيان؟ ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي مثل إهلاك الطغاة المتقدمين، كذلك نهلك كل ظالم فاجر، منتهكٍ لمحارم الله ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾؟ تذكيرٌ للجاحدين للقيامة، وتعجيبٌ من غفلتهم، أي ألم نخلقكم بقدرتنا، من نطفةٍ قذرةٍ حقيرة هي «المنيُّ»؟ ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ﴾ أي فجعلنا هذا الماء المهين، في مكانٍ حصين، هو رحم المرأة ﴿إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ أي إلى وقت محدَّد معيَّن، قدَّره الله لهذا الجنين، وهو تسعة شهور، أو تزيد أياماً وساعات ﴿فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾ أي فقدرنا على خلقه في أطوار (نطفة، ثم علقة، ثم مضغة) ثم أنشأناه خلقاً آخر، فجعلناه في أجمل صورة، وأحسن هيئة، فنعم القادرون نحن على الخلق والإعادة ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار للكفرة الفجار، المكذبين بقدرة الإله الجبار، وفي الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه، ثم قال: يقول الله عزَّ وجل (ابنَ آدمَ أنَّىٰ تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه؟ حتى إذا سوَّيتك وعدلتك، مشيتَ بين بُرْدَيك وللأرض منك وئيد ـ أي ثِقَلٌ وصوت شديد ـ فجمعتَ ومنعتَ، حتى إذا بلغت التراقي ـ أي الروح بلغت الخروج من الجسد ـ قلتَ: أتصدَّقُ

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

وأنَّى أوان الصدقة)؟ رواه ابن ماجه وأحمد ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾؟ الكفتُ: الضمُّ والجمع، أي ألم نجعل هذه الأرض، التي تعيشون عليها، كالأم الحاضنة لكم؟ تجمع الأحياء على ظهرها، والأموات في بطنها؟ الأحياء يسكنون في الدور، والأموات يسكنون في القبور، فقد جمعت الأحياء والأموات فيها ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ أي وجعلنا في الأرض جبالاً عاليات مرتفعات، تتجمع على قممها السحبُ، ثم تتساقط بالغيث المدرار، فأسقيناكم ماءً عذباً حلواً، بالغ الحلاوة والعذوبة، فهل يكون مثل هذا إلاَّ عن قدرة وحكمةٍ وتدبير؟ وجَمَع في الآية بين ذكر الجبال، والماء العذاب الفرات، لأن الجبال مخازن ومستودعات لمياه الأمطار، تخزن في جنباتها الماء الساقط عليها، ثم تنبع منها العيون والأنهار، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين الفجار، انطلقوا إلى نار الجحيم، التي كنتم تكذبون بها في الدنيا ﴿انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ أي انطلقوا فاستظلوا بظل كثيفٍ من دخان جهنم، يتفرع من هذا الظل ثلاث شعب، لا يظلُّ من الحر، كما هو الظلُّ في الدنيا، ولا يدفع عنهم ألسنة النار، المندلعة من جهنم، فهو ظل خانق، ودخانه أسود قاتم، وتسميتُه (ظلاً) للسخرية والتهكم، ولهذا قال ﴿ولا يغني من اللهب﴾ أي ولا يدفع عنهم لهب جهنم ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ أي إن جهنم ترمي بشرر عظيم من النار، كلُّ شرارة كأنها قصر شامخ، في العظم والضخامة، وكأن شررها المتطاير منها، الإبل الصُّفر، في لونها وسرعة حركتها، والجِمَالةُ: جمع جَمَل، كحِجَارة جمع حجر، والجَمَلُ: ذكرُ الناقة، يعني أن لون ذلك الشرر أصفر، يشبه الجمل الأصفر، فإذا كان الشرر مثل القصر الضخم، وفي اللون مثل الجمل الأصفر، فكيف يكون حال تلك النار الملتهبة؟ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ أي في

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾

هذا اليوم الرهيب، لا ينطق الفجار بحجة تنفعهم، ولا يُؤذن لهم ليعتذروا، فقد انقضى وقتُ الجدل، ومضى وقت الاعتذار، وجاء وقتُ العقاب، ﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ ثم قال جلَّ ثناؤه ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ أي هلاكٌ ودمار، للمكذبين بآيات الجبار، ويُقال لهم: هذا اليومُ يوم العدالة الإلهية، والفصل بين الخلائق، الذي يفصل الله فيه، بحكمه العادل بين السعداء والأشقاء، جمعناكم فيه مع من تقدَّمكم من الأمم السالفة، لنحكم فيه بينكم جميعاً ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي فإن كان لكم حيلة، للخلاص من العذاب فافعلوها، وأنقذوا أنفسكم من هذا الكرب والبلاء إن استطعتم، وهذا تقريعٌ لهم، وتعجيزٌ وتوبيخ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي إن الذين اتقوا ربهم في الدنيا، هم يوم القيامة في ظلال الأشجار الوارفة، وعيون الماء الجارية، التي تجري من تحت قصورهم، يتنعمون بألوان الفواكه والثمار، من كل لذيذٍ ومشتهى، ويقال لهم ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي كلوا من طعام الجنة وثمارها، واشربوا من مائها السلسبيل، أكلاً وشرباً هنيئاً، لا يشوبه كدرٌ ولا تنغيص، بسبب ما قدمتموه في الدنيا من صالح الأعمال، هذا جزاؤنا لكل من أحسن عمله، واتقى ربه ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ أي عذاب ودمار للمكذبين الفجار، كلوا في هذه الدنيا كما تأكل البهائم، وتمتعوا بشهواتها الفانية، زمناً قليلاً إلى منتهى آجالكم، فإنكم مجرمون تستحقون العذاب والإهانة، شأنكم كشأن البهائم ملء البطون، ونيل الشهوات، والأمرُ هنا واردٌ على وجه التهديد والوعيد، بدليل قوله ﴿إنكم مجرمون﴾ الوعيد الذي يناسب الفسقة الفجرة ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ أي هلاكٌ ودمار للمكذبين الفجار، إذا قيل لهم: صلُّوا لله واسجدوا له،

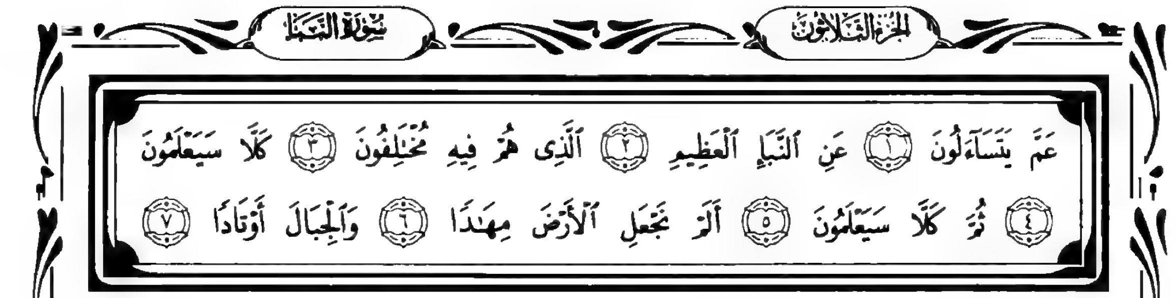


﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

واخشعوا لعظمته وجلاله، أبوا واستنكفوا، يأبون السجود للرحمن، ويهرعون للسجود للأوثان، أفلا يستحقون مثل هذا العذاب، لفجورهم وطغيانهم؟ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أي عذاب ودمار، للكفرة الفجار، فبأيِّ كتاب، وبأيِّ كلام، يصدِّقون ويؤمنون، إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن، الواضح، الساطع، المنير؟ هل هناك كتاب أو كلام أصدق من كلام ربِّ العزة والجلال؟ تكررت هذه الآية ﴿ويل يومئذٍ للمكذبين﴾ عشر مراتٍ للتخويف والوعيد، فعقب كل خبر، يتوعدهم ويهددهم رب العزة والجلال، بالعذاب الأليم الذي ينتظرهم.!

انتهى تفسير سورة المرسلات

● ● ●



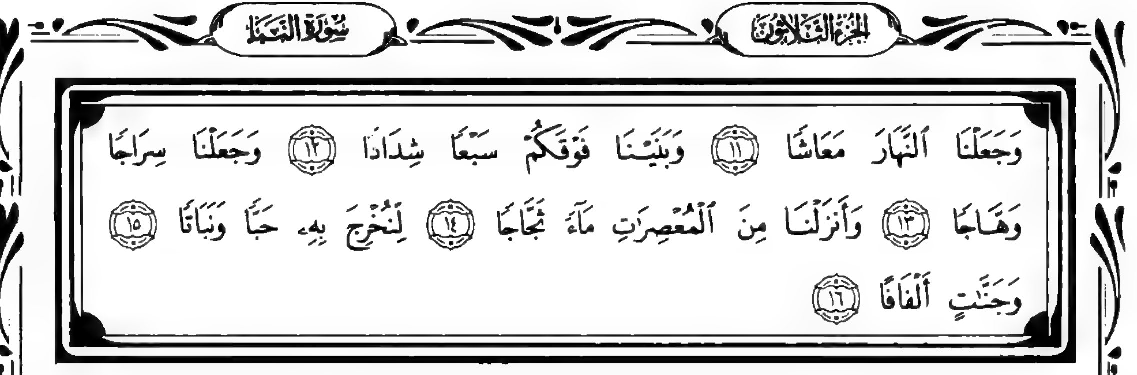
تفسير سورة النبأ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ كان كفار مكة ينكرون البعث بعد الموت، ويخوضون فيه سخريةً واستهزاءً، ولهذا قال سبحانه ﴿عمَّ يتساءلون﴾؟ أي عن أيِّ شيء عظيم يسأل هؤلاء الكفرة الجاحدون؟ وعن أيِّ شيء يتحدثون؟ ثم أجاب تعالى عن حالهم، منكراً عليهم هذا التساؤل الغريب فقال: ﴿عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً: عن الخبر العظيم الهامِّ، الذي اختلفوا فيه، ما بين ساخر مستهزىء، ومنكر جاحد معاند، والأمر أبسط مما يتصورون، فإن الذي خلقهم من العدم، قادر على أن يعيدهم إلى الحياة، بعد الموت والفناء، ثم يأتي الوعيد الشديد لهم ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ كلاَّ: ردعٌ وزجر، أي ليرتدع هؤلاء الجهلاء، المكذبون بالبعث والنشور، عن هذا الجدل والتساؤل، فسوف يعلمون حقيقة الأمر، حينما يرون جهنم عياناً، ويرون عاقبة كفرهم وسخريتهم ﴿ثم كلا سيعلمون﴾ تأكيدٌ للوعيد مع التهويل له والتشديد، أي سوف يعلمون ما يحلُّ بهم، من ألوان الكرب والعذاب!! ثم ساق تعالى تسعة براهين وأدلة، على قدرته على البعث والإحياء، وكلُّها حجج واضحة، وشواهد بيّنة، على قدرة الله جلَّ وعلا الذي لا يعجزه شيء، فقال سبحانه ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾؟ أي ألم نجعل لكم هذه الأرض الشاسعة الواسعة، ممهَّدة كالبساط والفراش؟ تسكنونها وتبنون عليها، وهي ممهَّدة لكم للاستقرار فوق سطحها، والتقلب في أنحائها؟ وهذا الدليل الأول ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي وخلقنا فيها الجبال الشامخة، وجعلناها كالأوتاد للأرض، تثبِّتُها وتحفظ توازنها، لئلا تضطرب بمن على ظهرها، فلا يمكن السكنى عليها. وهذه حقيقة علمية ملموسة، فإن ما يحدث في الأرض من الزلازل، والبراكين، والاهتزازات الجوفية، لا يمكن استقرار البشر عليها، فأرساها الله بالجبال، حتى لا تتأثر تأثراً بالغاً بما يحدث في باطنها، وهنا ندرك سرَّ

وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾

قوله تعالى ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾ أي خشية أن تضطرب بكم، ثم بالجبال كان حفظ التوازن واضحاً، بين أغوار البحار، وقمم الجبال، فكأن ما اقُتطع من البحار، ثُبِّت في الجبال!! ثم الجبالُ مخازن للمياه، ومنها تنبع الأنهار!! وقد يكشف لنا العلم، عن حِكَم عديدة في المستقبل، لا نعرفها الآن!! وهذا البرهان الثاني ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي وخلقناكم أيها الناس أزواجاً: ذكوراً، وإناثاً، ليسكن كلٌّ من الصنفين للآخر، وينتظم أمر المعاش والتناسل، ولا تنقطع الحياة عن ظهر هذا «الكوكب الأرضي» وهذه ظاهرة يدركها كلُّ إنسان، فقد جعل الله بقاء النوع البشري، قائماً على اختلاف النوعين: (الذكر، والأنثى) ولو كان الناسُ كلهم نوعاً واحداً، لانقرض هذا الجنسُ، ولما كان هناك التناسلُ والتوالد، وقد أودع الله ميلَ كل نوع إلى الآخر، ليستمرَّ دولاب الحياة، بالإمداد والعطاء، فيجد الإنسان المتعة والراحة باقترانه بالآخر!! ثم يأتي بعد ذلك التأمل في القدرة الباهرة، التي تجعل من نطفةٍ ذكراً، ومن نطفة أخرى أنثى، بدون سبب ظاهر للتفريق بينهما، اللهمَّ إلاَّ قدرةُ الخالق المدبِّر الحكيم!! وهذا هو البرهان الثالث ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي وجعلنا نومكم راحةً لأبدانكم ﴿سباتاً﴾ أي قاطعاً لأشغالكم، تتخلَّصون به من مشاقِّ العمل بالنهار، وسُمِّي النوم سباتاً، لأنه يقطع العمل والتعب، وهو سرٌّ من أسرار القدرة الباهرة، يجعل الشخص في حالة عجيبة غريبة، لا هي موتٌ كامل، ولا هي حياة كاملة، فالنائم لا يُحِسُّ، ولا يشعر، ولا يرى ما حوله، ولكنه يتنفَّس، فهو من حيثُ النَّفَسُ حيٌّ، لأنه يستنشق الهواء ويخرجه، ومن حيث عدمُ الإحساس، وعدمُ الرؤية على العمل والتفكير، يشبه الميِّت، ولهذا يعدُّ النومُ «الوفاةَ الصغرى» وقد كان ﷺ إذا أوى إلى فراشه يقول: (باسمك اللهم أحيا وأموتُ) وإذا استيقظ قال (الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور) رواه البخاري، فالنوم آية من آيات الله الباهرة، وقد ضربه الله مثلاً للبعث والنشور، وكأنه يقول لنا: كما تنامون وتستيقظون، كذلك تموتون ثم تُبعثون!! وهذا هو البرهان الرابع ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي كاللباس، يغشاكم ويستركم بظلامه، كما يستر اللباسُ عورة صاحبه، فالآية محمولةٌ على التشبيه والتمثيل، أي يستركم الليلُ بظلامه، كما يستركم اللباسُ، وقد أودع الله في الكون هذه الظاهرة (ظاهرة الليل) ليتمَّ التناسقُ، بين البشر، وبين المخلوقات والكائنات، فلولا الليلُ الذي يُجبر الناسَ على ترك العمل، والخلود إلى الراحة،



وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾

لهلك البشر، ولولا ظلمةُ الليل، لأحرقت الشمس الزرع والثمر، ولذلك جعل الله الليل والنهار، من آياته الباهرة فقال ﴿ومن آياته الليلُ والنهار﴾ وهذا هو البرهان الخامس ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أي وجعلنا النهارَ سبباً لتحصيل الكسب والمعاش، تتقلَّبون فيه لقضاء أعمالكم ومصالحكم، فالليلُ للسكون والراحة، والنهار للكسب والعمل، والضرب في الأرض بالأسفار، وبذلك يتمُّ التناسقُ، في إحكام وإبداع، بين حاجات البشر!!

قال ابن كثير: «أي جعلنا النهار مشرقاً، نيِّراً للتكسب والتجارة، وغير ذلك» ومعنى قوله تعالى ﴿معاشاً﴾ أي سبباً للرزق والمعاش، وهذا هو البرهان السادس ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أي وخلقنا فوقكم سبع سموات، قوية الخلق، محكمةَ البناء، كالسقف، لا تتأثر بمرور العصور والأزمان، لأنها من خلق الرحمن، وهي قائمة بقدرة الله بلا عمد، والآيةُ فيها أنها كالسقف للبيت، لا تستند على دعائم، فكيف لم تسقط، وهي لا تستند على شيء؟ إنها قدرةُ الله جلَّ وعلا ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾ وهذا هو البرهان السابع ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ أي وخلقنا لكم شمساً منيرة ساطعة، يتوهَّج ضوْها ويتوقَّد، دائمة الحرارة والضياء، ومعنى الوهَّاج: الوقَّاد المتلألىء، الذي يلتهب من شدة وهجه وحرارته، فمن أين تستمد الشمس حرارتها؟ وكيف لا تنطفىء على مرور ملايين السنين عليها؟ إنها قدرة الله!! ثم إن نعمة الشمس لا تُتصوَّر، إذ بها حياةُ البشر، والحيوانات، والزروع، والنبات، والثمار، ولولاها لكانت الأرضُ كتلةً من الجليد يلفُّها الظلام، فسبحان من أنار الأرضَ بهذا الكوكب الوهاج!! وهذا هو البرهان الثامن ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ أي وأنزلنا لكم (من المعصرات) وهي السحبُ المثقلةُ بمياه الأمطار، ﴿ماء ثجاجاً﴾ أي ماء دافقاً، منصبَّاً بكثرةٍ وغزارةٍ، لنخرج بهذا المطر، الزرع والثمر، والحدائق والبساتين، ذات الأشجار والأغصان الكثيرة، الملتف بعضها على بعض، وهذا هو البرهان التاسع على قدرة الواحد الأحد!! ووجه المناسبة بين ذكر الشمس، وذكر السحاب، أن المطر ينزل بقدرة الله جل وعلا بأسباب كونية، من

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾

جملتها حرارةُ الشمس، التي بواسطتها تتبخَّر مياه المحيطات، فتتكون منها السُّحُب، ثم ترتفع إلى طبقات الجو العليا، وعند ما تلامس هواءً بارداً، تنعقد سحاباً ممطراً، يُغيث الله به العبادَ، ويحي البلاد، والمطر (تحلية ربَّانية) بدون آلات ولا مخضات، وبدون معدات، يحلِّي الله لنا مياه البحر، وكم ينفق الناس من أموال طائلة لتحلية شيء من مياه البحار؟ بينما القدرة الإلهية تجعله ماءً فراتاً بدون كل هذه الآلات والمعدات!! ذكر تعالى هذه البراهين التسعة، على قدرته تعالى الباهرة، على إمكان البعث والنشور، فإن من قَدَر على إنشاء هذه الأفعال البديعة، قادرٌ على إحياء الناس بعد موتهم، ولهذا عقَّبه تعالى بقوله ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ أي إن يوم الحساب والجزاء، الذي يفصل الله فيه بين الخلائق، له وقتٌ محدود معلوم، في علمه تعالى وقضائه، لا يتقدم عليه، ولا يتأخر.. ثم بيَّن تعالى ووضَّح وقت مجيئه فقال: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ أي وقتُه وزمانُه يوم ينفخ إسرافيل في الصور «نفخة الإحياء» وهي النفخة الثانية، فتُبعثون من قبوركم، وتحضرون جماعات جماعات للحساب، أمام ملك الملوك، جبَّار السموات والأرض ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ أي تشققت السماء وتصدَّعت من كل جانب، هيبةً من الله تعالى، فصار فيها مثل الأبواب، بعد أن كانت لا فطور فيها ولا صدوع، وذلك لنزول الملائكة أيضاً ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام ونُزِّل الملائكة تنزيلاً﴾ ومن هولٍ في السماء، إلى هولٍ في الجبال ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي نُسفت الجبالُ، وقُلعت من أماكنها، فصارت كأنها هباء منبثٌ متطاير، كالسراب يظنه من رآه ماءً، وما هو في الحقيقة إلاَّ هباء!! ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ المرصادُ: المكانُ الذي يجلس فيه العدوُّ، ليرصد عدوه فيبطش به، أي إن جهنم تترصَّد وتترقَّب نزلاءها الكفارَ لتلتقطهم، كما يترقَّب الإنسانُ عدوه، فجهنم لا يجاوزها شقي، وكأنها تنتظر أعداء الله، لتخطفهم إليها، وهي مترقبةٌ ومنتظرةٌ لكل كافر فاجر ﴿لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ أي هي مرجعٌ ومأوى ومنزلٌ للطغاة المجرمين ﴿لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ أي ماكثين في نار السعير، دهوراً كثيرةً متتابعة، لا نهاية لها!! كلما مضىٰ حِقْبٌ ـ أي دهر ـ تبعه حِقبٌ إلى ما لا

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾

نهاية، والآية كناية عن الخلود والتأبيد ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا جَزَآءً وِفَاقًا﴾ أي لا يذوقون في جهنم برداً يخفِّف عنهم حرَّ النار، ولا شراباً يسكِّن عطشهم فيها، إلاَّ ماءً حاراً، بالغاً الغاية القُصوى في الحرارة، و﴿غساقاً﴾ أي صديداً وقيحاً يسيل من جلود أهل النار ﴿جزاء وفاقاً﴾ أي جازيناهم وعاقبناهم، جزاءً موافقاً لأعمالهم وإجرامهم!! وإنما كان عقابُهم مؤبَّداً، لأنهم لو خُلِّدوا في الدنيا، لاستمرُّوا على الكفر، فلذلك عوقبوا بالخلود في نار الجحيم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي كانوا لا يؤمنون بلقاء الله، ولا يصدِّقون بالحساب والجزاء ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾ أي وكذَّبوا بآيات القرآن، تكذيباً بليغاً، مفرطاً في الجحود والطغيان ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا﴾ أي وكل ما فعلوه من جرائم وآثام، حفظناه في كتاب مسطَّر عندنا، وهو كتاب أعمالهم ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ أي فذوقوا يا معشر الكفار هذا العذاب الشديد، فلن نزيدكم على استغاثتكم، إلا عذاباً فوق عذابكم!!..

قال المفسرون: ليس في القرآن على أهل النار، آية أشد من هذه الآية، كلَّما استغاثوا بنوع من العذاب، أُغيثوا بأشدَّ منه كما قال تعالى ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ وبعد أن حكى تعالى أحوال الأشقياء من أهل النار، حكى بعدها أحوال السعداء الأبرار، فقال سبحانه ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا﴾ أي إن للمؤمنين السعداء، الذين اتقوا محارم الله، وأطاعوا ربهم في الدنيا، لهم الفوز بجنات النعيم، والنجاة من عذاب الجحيم، ثم فسَّر هذا النعيم فقال ﴿حدائق وأعناباً﴾ أي لهم بساتين ناضرة، فيها من جميع الأشجار والثمار، وفيها أنواع الأعناب الطيبة، من جميع ما تشتهيه النفس من الفواكه والثمار ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ أي وفي الجنة نساء عذارى نواهد، في منتهى الحسن والجمال (كواعب) جمع كاعب، وهي الجارية التي بَرَزَ نهدُها ـ أي ثديُها ـ واستدار مع ارتفاعٍ يسير (أترابا) أي مستويات في السنِّ والجمال!! والمراد أنهن بالغات تمام درجة الحسن الفائق، فيهن رُواء

وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾

الشباب ونضارتُه، وفيهن الجمالُ الفاتنُ الذي لا يكاد يُوصف ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ أي وكأساً من الخمر مملوءة صافية، ومعنى الدهاق: المملوءة، والكأسُ إذا أطلقت في القرآن يراد بها الخمر ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ أي لا يسمعون في الجنة كلاماً باطلاً لا فائدة فيه، ولا كذباً من القول، لأن الجنة دار السلام، ودار السرور، فليس فيها ما ينغِّص العيش، أو يكدِّر الجوَّ، من الكلام القبيح، والكذب الصريح ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ أي جازاهم الله على إحسانهم، وعملهم الصالح، بذلك الجزاء العظيم، تفضلاً منه وكرماً ﴿عطاء حساباً﴾ أي عطاءً كافياً وافياً ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي خالق ومبدع ما في الكون من مخلوقات، لا يقدر أحد على مخاطبته من تلقاء نفسه، لغاية العظمة والكبرياء، لأن اليوم رهيب وعصيب ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب، يقف جبريلُ والملائكةُ مصطفين صفوفاً، خاشعين هيبةً لله تعالى وإجلالاً، لا يتكلم أحد بحضرته، إلا من أذن الله له بالكلام والشفاعة، ونطق بالحق والصواب ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ أي في ذلك اليوم العظيم، وهو اليوم الحقُّ القادم لا محالة، فمن أحبَّ أن يتخذ طريقاً إلى ربه، بالإيمان والعمل الصالح، فليفعل قبل أن يداهمه الموتُ ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ أي خوَّفناكم وحذَّرناكم يا معشر الناس، عذاباً قريب الوقوع، هو عذاب الآخرة، سمي (قريباً) لأن كلَّ ما هو آتٍ قريب، فالدنيا رحلةٌ قصيرة، وعمرٌ قريب ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ أي يوم يبصر كل إنسان ما فعل من خير أو شر، مكتوباً مثبتاً في صحائف أعماله، ويتمنى الكافر أنه لم يُخلق، ولم يُكلَّف، ويقول: يا ليتني كنت بهيمةً ودابة، أرجع إلى التراب، ولا أحاسب ولا أُعذَّب، وذلك حين تُحشر الحيوانات، فيقتصُّ

الله لبعضها من بعض، ثم يقول اللَّهُ لها: كوني تراباً، فترجع تراباً، فيودُ الكافر حينئذٍ، أن يكون كالبهائم تراباً، ولا يرى ذلك اليوم المشئوم، وفي الحديث الشريف: (لتؤدنَّ الحقوقَ إلى أهلها يوم القيامة، حتى يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء) رواه مسلم أي يُقتصَّ من الشاة القرناء ذات القرون، للشاة الجلحاء التي لا قرون لها، فتنطحها كما نطحتها في الدنيا، وبعد ذلك يصيِّرها اللَّهُ تراباً، فيقول الكافر حينئذٍ يا ليتني كنت تراباً!!

انتهى تفسير سورة النبأ

● ● ●


وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾

تفسير سورة النازعات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾ هذا قَسَمٌ من الله تعالى بالملائكة الأبرار (ملائكة الرحمة) و(ملائكة العذاب) وبالملائكة التي تدبّر شئون العالم، وأمور الخلق ﴿والنازعات غرقاً﴾ أي أقسمُ لكم بالملائكة التي تنزع أرواح الكفار، بشدة وعُنف، نزعاً بالغ الشدة، تُنزع من أجسادهم، من الأنامل، والأظفار، والجلد، ومن تحت كل شعرة، حتى كأن روح الكافر، تخرج من ثقب إبرة، إمعاناً في العنف والشدة ﴿والناشطات نشطاً﴾ أي وأقسم بالملائكة (ملائكة الرحمة) التي تنزع أرواح المؤمنين، برفقٍ ولين، وتسلُّها سلاً رقيقاً، كما تُسلُّ الشعرةُ من العجين، والنَّشطُ: الأخذ برفقٍ ويُسر، بخلاف النزع فإنه يكون بشدة وقسوة.

قال ابن مسعود: إن ملك الموت وأعوانه، ينزعون روح الكافر، كما ينزع السفُّود - أي سيخ الحديد ذو الشعب الكثيرة - من الصوف المبتلّ، فتخرج روحُ الكافر كالغريق في الماء، وينزع روح المؤمن برفق ولين، ويقبضها باليسر، كما يُنشط العقالُ من يد البعير، أي كما يُحلُّ الرباط عن البعير ﴿والسابحات سبحاً﴾ أي وأقسمُ لكم بالملائكة، ينزلون من السماء مسرعين، كالفرس الجواد إذا أسرع في جريه، مسرعين لتنفيذ أمر الجبار ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا﴾ أي الملائكة التي تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة، تبشيراً لهم بدار السرور، بأمر الله وحكمه ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ أي الملائكة الموكَّلين بتدبير شئون الكون، وأمور الخلائق، في الرياح، والأمطار، والأرزاق، والأعمار، وغير ذلك من أمور الدنيا والدين، بأمر رب العالمين!! أقسم تعالى بهذه الأصناف الخمسة من الملائكة، على أن القيامة حقٌّ، وجوابُ القسم محذوفٌ، لدلالة ما بعده عليه، تقديره: لتبعثنَّ يا معشر الناس ولتحاسبُنَّ.. ثم بيَّن تعالى موعد هذا الأمر، فقال: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ أي يوم يُنفخ في الصور «النفخة الأولى» التي يرتجف ويتزلزل لها كل شيء، ثم تتبعها «النفخة الثانية» وهي نفخة

قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾

القيام من القبور، التي قال الله عنها ﴿ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ قال ابن عباس: (الراجفة، والرادفة) هما النفختان: الأولى، والثانية، أما الأولى فتميت كل شيء بإذن الله تعالى، وأما الثانية فتحيي كل شيء بإذن الله تعالى ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ أي قلوب الكافرين المنكرين للقيامة، في ذلك اليوم، خائفة وجلة مضطربة، أبصار أصحابها ذليلة منكسرة، لهول ما ترىٰ، بادٍ عليها الذلُّ والهوان ﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ أي يقول هؤلاء الكفرة في الدنيا: أنُردُّ بعد الموت، فنرجع كما كنا أحياء، بعد الفناء؟ والحافرةُ: الحالة الأولى، يُقال: رجع إلى حافرته أي حالته الأولى، ومرادُهم: أنُردُّ إلى أول حالنا بعد موتنا، فنرجع كما كنا أحياء؟ ثم زادوا في الإنكار والاستبعاد فقالوا ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾ أي هل إذا صرنا عظاماً بالية متفتتة، سنحيا ونُبعث من جديد؟ ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي قالوا بطريق الاستهزاء: إن صحَّ أن هناك عودة، وبُعثنا بعد موتنا، فنحن إذاً خاسرون!؟ لا يقولون ذلك اعتقاداً بالعودة، بل بطريق السخرية والاستهزاء، لأنهم موقنون بعدم العودة، كما حكى الله عنهم ذلك بقولهم ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ قال تعالى ردّاً على سفههم وجهلهم: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ أي ما هي إلا صيحة واحدة لا تتكرر، يسمعونها وهم في بطون الأرض، وهي (نفخة الحشر) فإذا الخلائق جميعاً أحياء على وجه الأرض ينظرون!! والساهرةُ: وجهُ الأرض، والمراد بها: أرضُ المحشر، وهي غير أرضنا التي نسكنها اليوم لقوله تعالى ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾ وللحديث الشريف (يُحشر الناسُ يوم القيامة على أرضٍ بيضاء عفراء ـ أي لم توطأ ـ كقرصة النقيّ، ليس فيها عَلَمٌ لأحد) رواه البخاري ومسلم، أي مثل قرص الخبز الأبيض ليس فيها بناء ولا علامة.. ثم يأتي الحديث عن قصة موسى الكليم، مع فرعون الطاغية الجبارَ، كتسلية للرسول ﷺ عمّا يلقاه من أذى المشركين، فيقول سبحانه ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ استفهام بأسلوب (التشويق والترغيب) إلى سماع القصة، أي

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾

هل جاءك يا محمد خبرُ موسى الكليم؟ حين كلَّمه ربه بالوادي المطهَّر المبارك؟ المسمَّى «طوى» في أسفل جبل طور سيناء؟ ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي قائلاً له: اذهب إلى الطاغية الجبار «فرعون» ملك مصر، الذي جاوز الحدَّ في الفجور والطغيان، حيث قال **﴿أنا ربكم الأعلى﴾**!! ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾؟ أي تلطَّفْ معه في الكلام، فقل له: هل لك رغبةٌ وميل، إلى أن تتطهر، وتطهِّر نفسك من الذنوب والآثام؟ وأرشدك إلى معرفة ربك وعظمته، فتتَّقيه وتخشى عقابه؟ بدأ مخاطبته بالعرض لا بالأمر **﴿هل لك إلى أن تزكى﴾**؟ ثم أردفه بالكلام اللطيف الرقيق، ليستنزله من أوج عتوِّه وطغيانه **﴿وأهديك إلى ربك﴾** وهي دعوةٌ بألطف وجوه الرفق واللين، ليس فيها غلظة ولا خشونة، بما يحرِّك الحمية فيه، من مثل وصفه بالشرك، والجهل، والطغيان، ففرعون الطاغية الجبار، يُؤمر موسى بأن يدعوه بالرفق واللين، وهو الأسلوب الحكيم في الدعوة إلى الله، هذا مع الكافر، فكيف بالمؤمن إذا بدرت منه خطيئة، يصفه بعض الدعاة بالضلال والشرك، والخروج عن ملة الإسلام!؟ هدانا الله جميعاً إلى سلوك طريق الحكمة، في الدعوة إلى الله!! وهذه الآية تفصيل لقوله تعالى في سورة طه **﴿فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾**!! ولمَّا عرض عليه موسى الدعوة، بالأسلوب الليِّن الرفيق، الذي أمره به ربه، طلب منه فرعون أن يريه (معجزة واضحة) تدل على صدق رسالته ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي فأراه موسى المعجزة الكبرى، وهي (العصا) التي كان يلقيها فتنقلب إلى حية تسعى، وسمَّاها «كبرى» لأنها أعظم معجزاته التسع، ولم يُفلح الأسلوب النديُّ الرقيق، في إلانة القلب الطاغي ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ أي كذب فرعونُ موسى، وعصى أمر الله، وسمَّى تلك المعجزة (سحراً) لغاية جبروته وعناده ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي ولَّى فرعون مدبراً هارباً من الحية، يُسرع في مشيه من هول ما رأى!! ثم حشر أي جمع السحرة، والجنود، والأتباع، وقام فيهم خطيباً، يتبجَّح بمقالته الكاذبة الفاجرة، فقال **﴿أنا ربكم الأعلى﴾** أي لا ربَّ فوقي، وليس هناك ربٌّ ـ كما يزعم موسى ـ حتى ينازعني في ربوبيَّتي وملكي!؟ قالها الطاغية، مستخفاً بعقول قومه **﴿فاستخفَّ قومه فأطاعوه﴾** وأقرُّوا له بالألوهية، قال تعالى

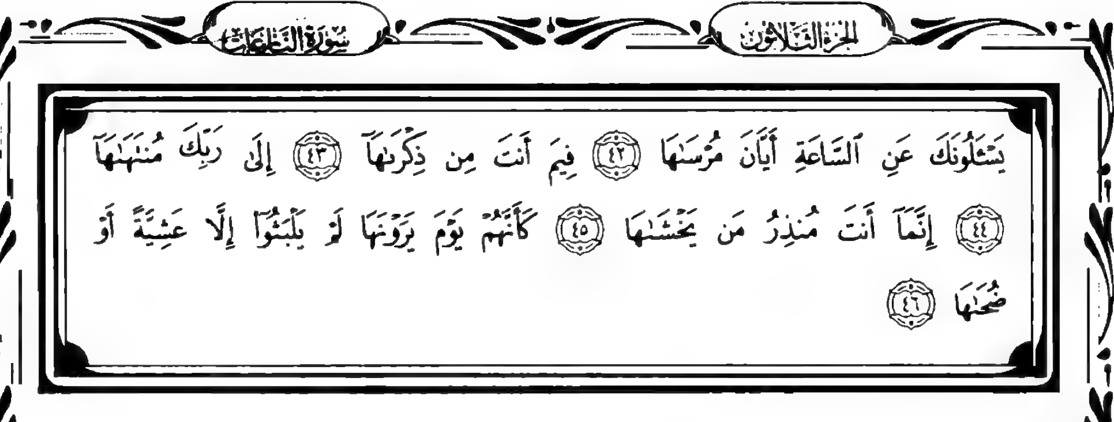
﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ٢٦ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ٢٩ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ٣١﴾

موضحاً نهايته المشؤومة، بعد تلك الكلمة الكافرة الفاجرة ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ أي فأهلكه الله وقصَمه، عقوبةً له على مقالته الأخيرة ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ ومقالته الأولى ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ وجعله الله عبرة للمعتبرين، في الدنيا بالعذاب الأليم، وفي الآخرة بعذاب الجحيم، ولهذا قال سبحانه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾ أي إن في قصته، وفي إغراقه مع جنوده في البحر، لعظة عظيمة وعبرة، لمن يخشى عذاب الله، ويخاف عقابه!! وبعد ذكر نموذج الطغيان في قصة فرعون، عادت الآيات تذكِّر طغاة مكة، بمظاهر قدرة الله في مخلوقاته، وتحذِّرهم من أهوال يوم القيامة، ليرتدعوا وينزجروا عن كفرهم وضلالهم، فقال سبحانه ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾ أي هل أنتم يا معشر المشركين، أشقُّ وأصعبُ خلقاً؟ أم خلقُ السموات العظيمة البديعة، بهذا النظام الدقيق؟ ﴿بناها﴾ أي جعلها بناءً محكماً، لا شقوق فيها ولا صدوع؟ فإن من خلق السموات بهذه العظمة والضخامة، سهلٌ عليه إعادتكم بعد موتكم، فكيف تنكرون البعث؟ ﴿رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ السَّمكُ: العلوُّ والارتفاع، أي جعل تعالى ارتفاعها عالياً شاهقاً، وسوَّاها على أبدع نظام، وأحكم بنيان، بلا شقوق ولا صدوع ﴿وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي جعل ليلها مظلماً حالكاً، ونهارها مشرقاً مضيئاً ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ أي والأرض بسطها ومهَّدها لسكنى البشر، بعد خلق السموات العُلى.

قال الفخر الرازي: كانت الأرض أولاً كالكرة المجتمعة، ثم إن الله تعالى مدَّها وبسطها، وليس معنى ﴿دحاها﴾ مجرد البسط، بل المراد أنه تعالى بسطها بسطاً مهيأً لنبات الأقوات، والجسمُ الكرويُّ العظيم، يكون ظاهره كالسطح المستوي ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا﴾ أي أخرج من الأرض عيون الماء المتفجرة، وأجرى فيها الأنهار، فأنبت به الزرع والكلأ، مما يأكله الناسُ والحيوان، والآية صريحة في أن المطر، الذي ينزل من السماء، أصله من ماء الأرض، فإن المطر يتكون من تبخُّر مياه المحيطات، بواسطة أشعة الشمس، فيرتفع إلى السماء سحاباً، ثم ينزل بصورة قطراتٍ، مطراً مدراراً، وليس المطر إلا «تحلية

وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾

ربانية» من فيض رحمة الله على العباد، دون مشقة منهم ولا تعب، وإنما كان المطر من الأرض، لأن الله تعالى قال ﴿أخرج منها ماءها﴾ أي أخرج من الأرض مياهها، ولا تعارض بين القرآن، وحقائق العلم القطعية، فإن المطر ينزل من السحاب بواسطة التبخُّر، وأصله من مياه البحار، فسبحان القادر على إخراج الماء العذب، من الماء المالح الأجاج!! ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ أي والجبالَ أثبتها في الأرض، فجعلها لها كالأوتاد، لتستقر وتسكن بأهلها، ولولا الجبالُ لكانت الأرضُ، كالريشة في مهب الهواء، تضطرب وتتزلزل بسكانها دون استقرار ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ أي فعل ذلك كلّه، فأنبع العيون، وأجرى الأنهار، وأنبت الزرع والكلأ، قوتاً لكم ولمواشيكم وأنعامكم ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ أي «إذا جاء وقت الداهية العظمى وهي «القيامة» التي تعمُّ بأهوالها كل شيء، سميت «طامة» لأنها داهية ونازلة فادحة، تعلو على كل نازلة وكارثة، كما قال تعالى ﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾ وفي ذلك اليوم الهائل الرهيب، يتذكَّر الإنسان ما فعل من خير أو شر، ويراه مدوَّناً في صحيفة أعماله ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ أي ظهرت جهنم للناظرين، فرآها المجرمون عياناً رأي العين، بعد أن كانوا يكذّبون بها، ولكنْ ماذا ينفع التذكُّر والندم؟ هاهم يُشرفون على جهنم وهي تنظرهم، وقد برزت لهم بأغلالها وسعيرها ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي فأما من كفر وفجر، وجاوز الحدَّ في الكفر والعصيان، واختار الحياة الفانية «الدنيا» على الحياة الباقية «الآخرة» وانهمك في الشهوات المحرمة، فإن جهنم هي مسكنه ومأواه، لا مسكن له سواها ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي وأمَّا من خاف عظمة ربه وجلاله، وخاف وقوفه بين يدي رب العزة والجلال، للحساب و الجزاء، ونهى نفسه وكفَّها عن المعاصي والمحارم، فإن مسكنه ومأواه هو الجنة دار النعيم!!



وهذا ميزان دقيق، يستطيع أن يعرف به الإنسانُ مصيره في الآخرة وهو في الدنيا، فإن كان يخاف من الله، ويجتنب محارمه، وينهى نفسه عن الشهوات المحرمة، فمصيره إلى الجنة، وإلاَّ فمصير كل من لا يؤمن بالله، ولا يصدق بالآخرة، ولا يكفُّ نفسه عن المحارم، نار الجحيم ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي يسألك هؤلاء المشركون عن القيامة؟ متى حدُوثها وقيامُها؟ ومتى تقع وتحدث؟ يقولون ذلك على وجه السخرية والاستهزاء ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي ليس علمها عندك، حتى تخبرهم عن وقتها، لأنها من الغيوب التي استأثر الله بعلمها، فلماذا يسألونك عنها، ويلحّون في السؤال؟ وهم لا يؤمنون بها ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ أي منتهى علمها عند الله عزَّ وجل، لا يعلم متى تقوم الساعة إلا هو!! ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ أي ليست مهمتك تعليمهم وقت الساعة، إنما واجبك إنذار من يخاف القيامة، لا الإعلام بوقتها ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ أي كأن هؤلاء الكفار حين يشاهدون أهوال القيامة، لم يمكثوا في الدنيا إلا سويعات من النهار، بمقدار عشية أو ضحاها، يستقصرون مدة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم عشية يوم، أو ضحى يوم، من هول ما يرونه كما قال سبحانه ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾ ويا لها من خسارة فادحة للكفار الفجار!!

انتهى تفسير سورة النازعات

● ● ●

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾

تفسير سورة عبس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ ﴿عبس﴾ أي كلح وجهَهُ وقطَّبه ﴿وتولّى﴾ أي أعرض وتنحَّى عنه بوجهه، لأن جاءه الأعمى يسأل عن أمور دينه، وأجمع المفسرون على أن الذي عبس وتولّى هو الرسول ﷺ، والأعمى هو «عبد الله بن أم مكتوم» وجاء التعبير بضمير الغائب ﴿عبس وتولى﴾ تلطفاً به ﷺ، وإجلالاً له، فلم يعاتبه ربُّه مشافهةً، مثل أن يقول: عبستَ وتوليت، لما في المشافهة من الشدة والصعوبة ما لا يخفى!! وسبب نزول هذه الآيات، ما روي أن النبيَّ ﷺ كان مسغولاً مع صناديد قريش، يدعوهم إلى الإسلام (عتْبة، وشيبة، وأبي جهل، والوليد بن المغيرة) وكان يطمع في إسلامهم، رجاء أن يُسلم أتباعهم، فبينما هو مشتغل بمن عنده من وجوه قريش، إذ جاءه «ابن أم مكتوم» الأعمى، فقال يا رسول الله: أرشدني وعلِّمني ممَّا علَّمك الله!! وكرَّر ذلك، وهو لا يعلم أن الرسول ﷺ مشغول مع القوم، فكره الرسول مجيئه، وعبس وأعرض عنه، وقال في نفسه، يقول هؤلاء: إنما أتباعُه العميانُ، والسفلةُ، والعبيدُ، فَعَبس في وجهه، وأقبل على القوم يكلِّمهم، فأنزل الله الآيات ﴿عبس وتولى. أن جاءه الأعمى﴾ فكان ﷺ بعد ذلك يكرمه إذا جاءه ويقول له: (مرحباً بمن عاتبني فيه ربي) واستخلفه على المدينة مرتين، وكان من المهاجرين الأولين!! ثم قال تعالى: ﴿وما يدريك لعله يزكّى﴾ أي وما يُعلمك ويخبرك لعلَّ هذا الأعمى، الذي عبستَ في وجهه، يتطهَّر من ذنوبه، بما يتلقاهُ منك من العلم والمعرفة!! ﴿أو يذكر فتنفعه الذكرى﴾ أي أو ينتفع بما يسمعه من النصائح والإرشادات، فتنفعه الموعظة، ويستنير قلبُه بنور الإيمان ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ أي أمَّا من كان غنياً بالمال، وأعرض عن الله والإيمان، فأنت تتعرَّض له، وتهتمّ بشأنه، وتُصغي لكلامه ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أي وليس عليك ذنبٌ ولا مسؤولية، إن لم يتطهر من دنس الكفر

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ۝١٦ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩﴾

والعصيان، فلستَ مطالباً بهدايته، وإنما عليك تبليغ دعوة الله!! ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ وَهُوَ يَخۡشَىٰ﴾ أي وأما من جاءك يُسرع ويمشي، طالباً الهداية والإرشاد، يبتغي الخير والفلاح، وهو يخاف الله تعالى، ويتقي محارمه ﴿فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾ أي فأنت تتشاغل عنه، وتُعرض عن سماع كلامه، تودداً لأهل الغنى والجاه، لجلبهم إلى الإسلام!! وأصلُ ﴿تصدى﴾ و﴿تلهى﴾ تتصدى، وتتلهى، فعل مضارع حُذفت منه إحدى التاءَين للتخفيف ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ أي لا تفعل يا محمد بعد اليوم مثل ذلك، وكفَّ عن التصدِّي للكبراء والعظماء، واعتن بشأن الضعفاء والفقراء، فهؤلاء الذين يرجى منهم الخير، وما هذا الذي أرشدناك إليه، إلا موعظة وتذكرة ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي فمن شاء من عباد الله، انتفع واتعظ بآي الذكر الحكيم، واستفاد من إرشاداته وتوجيهاته!! ولم ينل النبيَّ ﷺ غمٌّ مثلُ هذا الغمِّ، حين أنزل عليه سورة «عبس» لأن فيها العتاب الشديد له، وهو الحبيبُ القريبُ، ومع ذلك كلِّه بلَّغ هذا الوحي، مع ما فيه من العتاب!!

وقد قال ابن زيد: لو كان محمد كاتماً من الوحي شيئاً لكَتَم هذا!! ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ﴾ أي هذه المواعظ، مثبتة في صحف مكرَّمة، عند رب العزة والجلال، لأنها كلام الرحمن ﴿مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ﴾ أي عالية القدر والمكانة، منزَّهة عن عبث الشياطين ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ أي هذه الصحف بأيدي ملائكة كرام، جعلهم الله سفراءَ بينه وبين رسله، وهم مكرَّمون معظمون، أتقياء صلحاءَ ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ وفي الآيات ردٌّ على السفهاء المشركين، الذين قالوا «إن الشياطين تنزلت بهذا الوحي على محمد» قاتلهم الله أنَّى يؤفكون!! ثم ذكر تعالى ضخامة جريمة الكافر، السكر لوجود الله فقال ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ دعاء عليه بأشنع الدعوات، أي قاتل الله هذا الكافر الفاجر، ما أشدَّ كفره بالله، مع كثرة إحسان الله إليه!! والصيغةُ صيغةُ تفظيع وتقبيح وتشنيع لأمره، كأن الله يقول: ادعوا على هذا الكافر بالقتل واللعن، لارتكابه مع ربه أعظم القبائح، ما أشدَّ كفره لمن خلقه ورزقه وربَّاه!! ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي من أي شيء خلق الله هذا الكافر، حتى

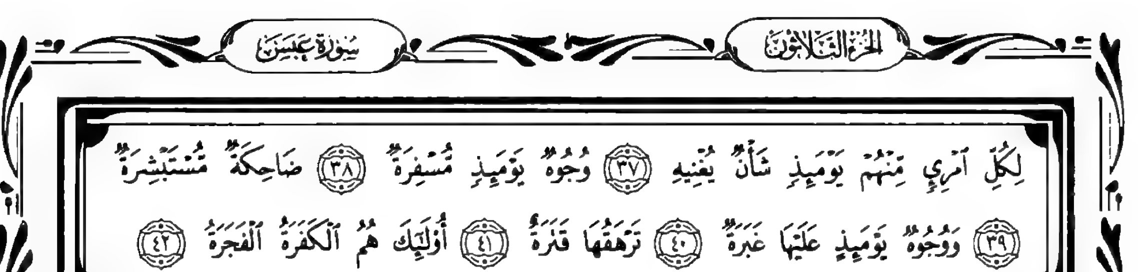
ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾

يتكبَّر على ربه!؟ أليس من شيء مهين حقير، من النطفة «المنيّ» الذي يشبه المخاط ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾؟ فكيف يتكبر على ربه، وهو بهذا الضعف وهذه الحقارة؟ وقوله تعالى ﴿فقدره﴾ أي خلق له من الأعضاء والحواسّ، والأرزاق والأقوات، ما يصلح لبقاء حياته ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ أي ثم يسَّر له طريق الخروج من بطن أمه، ولولا أنه تعالى جعل رأسه منكوساً عند الولادة، ويسَّر له الخروج، لاختنق في بطن أمه.

قال الحسن البصري: «كيف يتكبَّر من خرج من سبيل البول مرتين»؟ يريد به الذكر، والفرج، وكلاهما مكان للبول ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ أي ثم أماته فجعل له قبراً يُوارى فيه، إكراماً له، ولم يجعله ملقى للسباع والوحوش، وهذه تكرمة لبني آدم، على سائر الحيوانات، يُقال: أقبر الميِّتَ إذا أمر بدفنه ومكَّن منه، وقَبَره إذا دفنه، وعدَّ الموتَ نعمة، لأنه طريقٌ إلى الحياة الأبدية ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ أي ثم حين يشاء الله، يحييه فيخرجه من قبره للحساب والجزاء، وإنما قال ﴿إذا شاء﴾ لأن وقت البعث غير معلوم لأحد، فهو إلى مشيئة الله، متى شاء الله أن يحيى الخلائق أحياهم، يُقال: أنشره الله إذا أحياه بعد الموت ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أي ليرتدع هذا الكافر، وينزجر عن تكبُّره وتجبُّره، فإنه لم يقضِ ما أمره الله به، من الإيمان والطاعة، ولم يفعل ما كُلِّف به من العبادات، ولم يشكر خالقه المنعم عليه بأنواع النعم، بل تكبَّر على ربه وتجبَّر، أفلا يستحقُّ السخط والعقاب!؟ ثم ذكر تعالى ما أغدق به من النعم على الإنسان، ليشكر ربه ولا يكفره، فقال سبحانه ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ أي فلينظر هذا الإنسان الغافل، الجاحد لفضل ربه وإنعامه، إلى أمر معاشه، كيف هيأ الله له أسباب الطعام، الذي به قوام حياته؟ أنَّا أنزلنا بقدرتنا الباهرة، المطر من السحاب إنزالاً عجيباً، فجعلناه ينزل قطرات قطرات، لا ينصبُّ دفعة واحدة، لئلا يتلف الزرع، ويُسقط الثمر، ثم شققنا الأرض لخروج النبات منها شقاً بديعاً، وفي هذه الآية لفته رائعة، إلى القدرة الباهرة، التي أودعها الله في هذه البذرة الضعيفة، فإن هذه النواة أو البذرة، تشقُّ الأرض الصلبة الجامدة، فيخرج منها ساق، تتكون منها شجرة باسقة، تحمل

﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦﴾

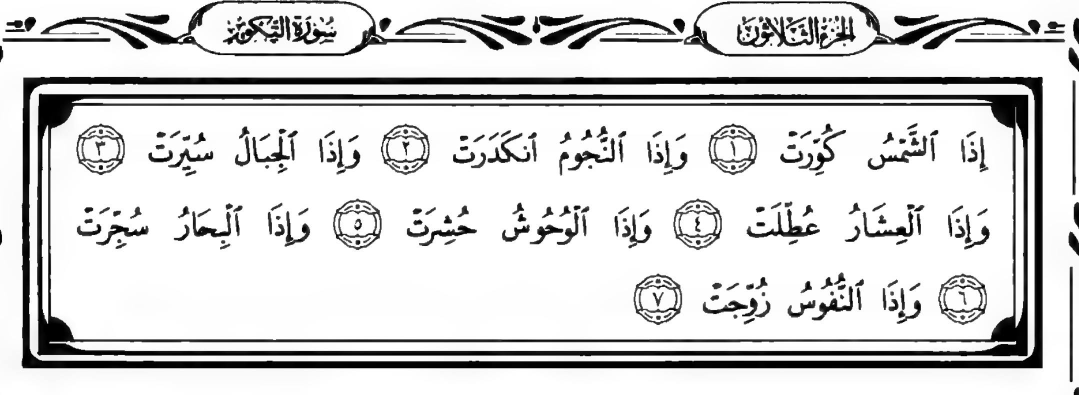
الفواكه والثمار، وهي (معجزة باهرة) يراها الناس، ولكنهم يغفلون عن مصدر هذه القوة التي شقت الأرض شقاً!! ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا﴾ أي فأخرجنا بسبب المطر، أنواع الحبوب والثمر، غذاءً وطعاماً يتغذى به الإنسان!! أخرجنا به أنواع الحبوب، من بُرّ، وشعير، وعدس، وأرز، وغيرها، حباً يقتات به الناسُ ويدَّخرونه، وأخرجنا بالمطر أنواع العنب الشهي اللذيذ، غذاء من وجه، وفاكهة من وجه آخر، وأخرجنا به ﴿قضباً﴾ أي أنواع الخضار، التي تُقطع مرة بعد أخرى، كالسبانخ، والبقدونس، والنعنع، والجرجير، وسائر الخضار والبقول، ﴿وزيتوناً ونخلاً﴾ خصَّهما بالذكر، لكثرة فوائدهما، خصوصاً لأهل بلاد العرب، فمن الزيتون يستخرجون الزيت، ويجعلون منه الصابون، ويدَّهنون بالزيت، ويجعلونه أدماً للطعام، ويوقدون به المصابيح، وكذلك ينتفعون بالنخيل، فيأكلون منه الرطب، والتمر، ويستخرجون منه الدبس، وينتفعون بَسَعفه وجذوعه، في العرائش وسقف البيوت، وقد ضرب ﷺ مثلاً للمؤمن بالنخلة لكثرة نفعها كما في البخاري ﴿وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ أي وأخرجنا لكم بماء المطر، البساتين والحدائق ذات الأشجار الكثيرة، الملتفة الأغصان، اليانعة الثمار ﴿غلباً﴾ أي كثيرة غليظة بأغصانها وأوراقها، يستظل بها الإنسان من حر الشمس ﴿وفاكهة وأباً﴾ أي كما أخرجنا أنواع الفواكه والثمار، مما تشتهيه النفوس، مثل التفاح، والمشمش، والكرز، والبرتقال، إلى أنواع لا تُحصى، كما أخرجنا الأبَّ وهو ما ترعاه البهائم من الكلأ والعشب، الذي لم يزرعه الناس، وإنما يخرج طعاماً للدواب والأنعام، من فيض رحمة الله، ولهذا قال ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ أي ليكون منفعةً ومعاشاً لكم أيها الناس، وطعاماً للبهائم والأنعام، أفلا تشكرون ربكم على هذه النعم!! ثم ذكر تعالى وقت البعث وبعض أهوال القيامة، فقال سبحانه ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ الصَّاخةُ: صيحةُ القيامة، سميت «صاخة» لأنها تصخُّ الآذان أي تصمُّها بشدة صوتها، أي فإذا جاءت الداهيةُ العظيمة وهي القيامة التي يفزع لها البشر ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ أي في ذلك اليوم الشديد الرهيب، يهرب الإنسان من أعزِّ وأحبِّ الناس إليه،



يهرب من أخيه، وأمه، وأبيه، وزوجته، وأبنائه، لئلا يطالبه بحقٍّ له عليه، ولشدة الهول، يتمنَّى أن لا يرى أحداً منهم، لأن الهول عظيم، والخطب جسيم ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ أي لكل إنسان في ذلك اليوم، شأن يشغله عن شأن غيره، ولذلك لا يفكر في غير نفسه.. سمعت عائشة النبي ﷺ يقول (يحشر الناس حُفاة، عُراة، غُرْلاً - أي غير مختونين - فقالت يا رسول الله: الرجال والنساء جميعاً، ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال يا عائشة: الأمر أشدُّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض) رواه البخاري ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ أي وجوه في ذلك اليوم، مضيئة مشرقة من البهجة والسرور، فرحة مسرورة، مستبشرة بذلك النعيم، الذي أكرمها الله به، وهي وجوه أهل السعادة، أهل الإيمان ودخول الجنان ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ﴾ أي ووجوه في ذلك اليوم، عليها غبار ودخان من لهب جهنم، وهي سوداء كالحة ﴿تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي يعلوها ويغشاها السوادُ والظلمة، وهي وجوه الأشقياء أهل النار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾ أي أولئك الأشقياء، أصحاب الوجوه السود، هم الجامعون بين الكفر والفجور، فجمع الله لهم بين السواد والغبار، نعوذ بالله من أهل النار!!.

انتهى تفسير سورة عبس

• • •



تفسير سورة التكوير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ هذه السورة الكريمة «سورة التكوير» وما يتبعها من سورة «الانفطار» و«الإنشقاق» كلها من السور المكية، التي تتحدث عن شدائد وأهوال يوم القيامة، وما يحدث قبلها من انفراط (نظام الكون) وما يصاحبها من انقلاب كوني هائل، يشمل (الشمس، والنجوم، والجبال، والبحار. .) إلى آخر ما هنالك من شدائد وأهوال، وقد قال النبي ﷺ: (من سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة، كأنه رأيُ عين، فليقرأ ﴿إذا الشمس كورت﴾ و﴿إذا السماء انفطرت﴾ و﴿إذا السماء انشقت﴾ رواه الترمذي، قوله تعالى ﴿إذا الشمس كورت﴾ أي لُفَّت وطُويت وذهب ضوءها ونورها، فلم تعد تُشرق على الناس، وذلك علامة خراب الدنيا، وفناء أهلها ﴿وإذا النجوم انكدرت﴾ أي انطمس نورها، وتساقطت وتناثرت كما في قوله تعالى ﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾ أي لم يبق في السماء منها نجم ﴿وإذا الجبال سيرت﴾ أي نسفت من أماكنها، فلم يبق جبلٌ إلا وقد تطاير من مكانه كقوله ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً﴾ فتسييرها ذهابها عن أماكنها بالزلزلة التي تحصل للأرض ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ العشارُ: النوق الحبالى، جمع عُشَراء وهي الناقة التي مضى على حملها عشرة أشهر، والمعنى: وإذا النوق الحوامل، تُركت هَمَلاً بدون راعٍ ولا طالب، لأن أهلها في شُغل شاغلٍ عنها، وخصَّ النوق بالذكر، لأنها كرائم أموال العَرب ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي وإذا الوحوشُ جُمعت من أوكارها وجُحُورها، من شدة الرعب والفزع، وقد كانت شاردة في الشِّعاب والجبال، فأصبحت لا تأوي إلى أوكارها ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي وإذا البحارُ أُوقدت وأُحميت، فأصبحت ناراً تضطرم وتلتهب، وأحاطت بالبشر، فأين للناس المهرب؟ ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أي وإذا قُرنت النفوسُ البشرية

وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾

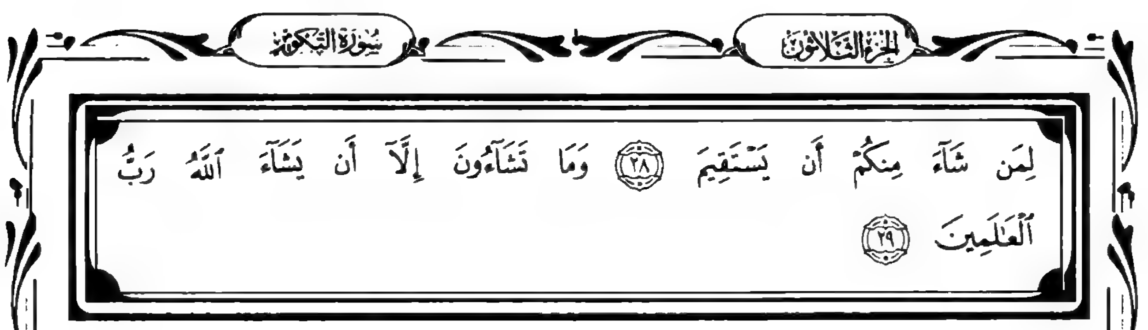
بأشباهها، فيُقرن الفاجرُ مع الفاجر، والمنافق مع المنافق، والمؤمن مع المؤمن، والمرابي مع المرابي، وهكذا يُقرن الأشباه مع الأشباه، خطب عمر رضي الله عنه في الناس فقرأ ﴿وإذا النفوس زوجت﴾ فقال: يُقرن الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة، ويُقرن الرجل السوء مع الرجل السوء في النار ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ أي وإذا سُئلت البنتُ المدفونة حيَّة: لماذا دُفنت؟ وأيَّ ذنب ارتكبته حتى قُبرت بهذه الصورة الوحشية؟ والغرضُ من سؤالها التَّلطفُ بها، وتوبيخ قاتلها، لأنها ستقول: دُفنت بلا ذنب!! وكان العرب يئدون البنات مخافة الفقر، أو خشية لحوق العار بهم، فيدفنونها حية، وهذا منتهى الغلظة والوحشية!! ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ أي وإذا صحف أعمال البشر نُشرت أي فُتحت وبُسطت للحساب والجزاء، فالصحف تُطوى عند الموت، وتُفتح عند الحساب، وإنها لفضيحةٌ وخزيٌ على الفجار، حيث يكون نشر الصحف، على رؤوس الأشهاد، فيفتضح الخائن والمجرم ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ أي أُزيلت ونُزعت من مكانها، كما يُنزع الجلد عن الشاة، وكلُّ ما في الكون يتبدَّل، (السماءُ، والأرضُ، والنجوم، والأفلاك) والهولُ يشملها كما يشمل الخلائق والبشر ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أي أُوقدت وأُضرمت لأعداء الله، ليُحرقوا فيها، فالنار في ذلك اليوم، تتوقَّد وتستعر على المجرمين ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أي وإذا الجنةُ أُدنيتْ وقُرِّبت من المتقين، ليستبشروا بدخولها، كقوله سبحانه ﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد﴾ فالجنة تكون مرئية لهم، حتى لا يصيبهم هولُ ذلك اليوم الرهيب ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ أي علمت كلُّ نفسٍ ما فعلت من خيرٍ أو شر، ورأته أمامها حاضراً، لتجازى عليه، وهذه الآية جوابُ جميع الآيات المتقدمة الإثني عشر، من قوله ﴿إذا الشمسُ كورت﴾ إلى هنا، وكأنه يقول: إذا حدثت هذه الأحداث المفزعة، تعلم كلُّ نفس، برَّة كانت أو فاجرة، ما كان منها من خير أو شر، تجده حاضراً بين يديها، ولا يظلم ربك أحداً.. ثم يأتي الحديث عن الوحي، الذي أنكره المشركون، وأنكروا أن يكون القرآنُ، كلام رب العزة والجلال، فيقول سبحانه ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ أي فأقسمُ لكم قسماً مؤكَّداً، أقسمُ

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾﴾

لكم بالنجوم الساطعات الزاهرات، التي تختفي بالنهار، وتظهر بالليل، وهذا معنى (الخُنَّس) أي التي تختفي، وسمي الشيطان الخنَّاس، لأنه يوسوس ويختفي ﴿الجوار الكنس﴾ أي الجاريات التي تجري وتسير في أفلاكها، ثم تستتر وقت غروبها، كما تستتر الظباء في كهوفها، وهذا معنى (الكُنَّس) أي التي تغيب عن الأنظار، يقال: كَنَسَ الظبيُ: إذا دخل كِنَاسه أي بيته الذي يأوي إليه، وفي هذا التشبيه جمالٌ وإبداعٌ، كأن النجومَ ظباءٌ دخلت في كهوفها، مختفيةً عن الأنظار ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي وأُقسمُ بالليل ﴿إذا عسعس﴾ أي أقبل بظلامه حتى غطَّى الكون، وبالصبح إذا أضاء وأشرق، وانتشر نوره وامتدَّ، حتى أصبح نهاراً مضيئاً، وانظر إلى روعة الإبداع في التعبير ﴿والصبح إذا تنفَّس﴾ ففيه تشبيه النور، الذي يأتي به الصبحُ، بنسمات الهواء العليل، التي تحي النفس والقلب، فالصبح حيٌّ يتنفَّس، أنفاسُه: النورُ، والحركةُ، والضياء، وكأنه إنسانٌ نائم يغطُّ في سُبات عميق، ثم يستيقظ فيستنشق الهواء العليل، ويستعيد نشاطه وحيويته، وإنما جاءت روعة البيان، من جمال الاستعارة البديعة.. وبعد هذا القَسَم المبدع، بالكواكب والنجوم المضيئة، وهي تُشرق وتغرب، وتظهر وتختفي، وبالليل يُقبل بظلامه، فيغطِّي الكونَ بشبحه، وبالصباح يشرق، فيبدِّد ظلام الليل الحالك، ويحي الموات، وكلها براهين ودلائل على قدرة الواحد القهار، يأتي جواب القَسَم مؤكَّداً بعدة مؤكِّدات، على أن القرآن كلام الرحمن جلَّ وعلا، فيقول سبحانه ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ أي إن هذا القرآن، لكلامُ رب العزة والجلال، بلَّغه لمحمد ﷺ، رسولٌ كريم، هو أمينُ وحي السماء «جبريل» عليه السلام، فأمينُ السماء نزل على أمين الأرض، بهذا القرآن العظيم، كما قال سبحانه ﴿نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين﴾ وأكَّد تعالى الخبر بـ«إنَّ» و«اللام» ﴿إنه لقولُ﴾ وأراد بالرسول هنا «جبريل الأمين» بدليل وصفه بالقوة، والمكانة عند ربِّ العرش جل جلاله ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ أي هذا المَلَكُ «جبريلُ» صاحبُ قوة عظيمة، ومكانة سامية رفيعة، عند رب العزة والجلال، الكبير المتعال ﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ ثَمَّ بفتح الثاء بمعنى «هناك» فهي ظرفُ مكان، والمعنى: هذا الملك جبريل، مطاعٍ هناك في الملأ الأعلى، تطيعه الملائكة الأطهار، لأنه كبيرُهم ورئيسهم ﴿أمين﴾ أي مؤتمن عند الله، على الوحي الذي ينزل به على الرسل،

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾

وصفه تعالى بخمس صفات (القوة، المكانة، السيادة، الأمانة، طاعةُ الملائكة له) هذه صفةُ أمين السماء، أمَّا أمينُ الأرض، وهو محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي بلَّغ القرآن للناس، فهو أكمُل الناس فضلاً، وأرجحهم عقلاً، وقد ذبَّ الله عنه افتراء المفترين، فقال في الردِّ على المشركين ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ أي ليس صاحبكم محمد، الذي صاحبتموه يا معشر قريش أربعين سنة، بمجنون كما كذبتم، وافتريتم عليه، بل هو أكملكم عقلاً، وأفضلكم نُبلاً، والآية رد على سفاهتهم وافترائهم، حين قالوا: **﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾** وفي التعبير بقوله **﴿وما صاحبكم﴾** بدل قوله: وما محمد بمجنون، لتوبيخهم، فهو صاحبكم الذي عايشتموه زمناً طويلاً (٤٠) أربعين سنة، ولقبتموه بالصادق الأمين، فما لكم حين جاءكم بالحقِّ المبين، تزعمون أنه كاذبٌ وأنه مجنون!! أفلا تعقلون؟ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ أي وأقسمُ لكم أن محمداً رأىٰ جبريل، بصورته الملكيَّة التي خلقها الله عليها، وهو مقبلٌ من جهة المشرق، بمطلع الشمس حيث الأفق الواضح، وإذا كان قد رآه في صورته الملَكيَّة، فكيف يختلط عليه أمر الوحي الإلهي؟ روى البخاري عن ابن مسعود أنه قال: (رأى محمد ﷺ جبريل له ستمائة جناح) وسأل سيدنا رسولُ الله ﷺ جبريلَ، أن يريه نفسه بصورته الملكية، فقال له: لا أقدر على ذلك، وما ذاكَ إليَّ!! فأذن الله له بذلك، فأتاه على صورته الملكية، والرسول راجع من غار حراء، فرآه قد ملأ الأفق، رجلاه في الأرض، ورأسه في السماء، وفتح جناحين فقط من/ ٦٠٠/ ستمائة جناح، فسدَّ ما بين المشرق والمغرب، فغُشي على النبي ﷺ، فتحوَّل جبريل إلى صورة آدمي، وضمَّه إلى صدره، وجعل يمسح الغبار عن وجهه، ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ أي وليس محمد على الوحي، الذي أوحاه الله إليه **﴿بضنين﴾** أي ببخيل، يضِنُّ بنشره وتعليمه للناس، بل يبلِّغ رسالة ربه بكل صدق وأمانة، مأخوذ من ضنَّ بالشيء إذا بخل به ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ أي وليس هذا القرآن المعجز، الذي جاءكم به خاتم المرسلين ﷺ، من قول بعض الشياطين، كما افتريتم وزعمتم يا معشر المشركين!! ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي فأين تذهب



عقولكم، في تكذيبكم لهذا القرآن؟ مع ظهور إعجازه، وسطوع بيانه، وما هو إلا موعظة وتذكرة لجميع البشر ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ أي لمن أراد أن يتَّبع الحقَّ، ويهتدي بهدي هذا النور الإلهي ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي وما تقدرون على شيء، إلا بتقدير الله ولطفه، فاطلبوا من الله الهداية والتوفيق لأفضل طريق!

انتهى تفسير سورة التكوير

● ● ●

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴿٤﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾

تفسير سورة الانفطار

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ هذه السورة تتحدث عن الانقلاب الكوني، الذي يصاحب قيام الساعة، وما يحدث في ذلك اليوم الرهيب، من أحداث جسام، يفزع لها الإنسان، كسابقتها سورة التكوير.

والمعنى: ﴿إذا السماء انفطرت﴾ أي تشققت وتصدعت، وسواءً أكان ذلك من هيبة الجبار، أم لتنزل الملائكة الأبرار، فإنها حقيقة كونية من حقائق ذلك اليوم العصيب، ومشهد من مشاهد الهول الأعظم، الذي يحلُّ بالكون والبشر ﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾ أي وإذا النجوم تساقطت وتناثرت من أماكنها، وخرجت عن بروجها، واصطدم بعضها ببعض، وحدث الخراب والدمار لهذا العالم ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾ أي وإذا البحار فُتح بعضُها على بعض، فأصبحت بحراً واحداً، واختلط عذبُها بمالحها، أو تفجرت فاشتعلت بألسنة النيران، كقوله في السورة السابقة ﴿وإذا البحار سجرت﴾ أي اشتعلت نيرانها، من السَّجر بمعنى الالتهاب، ﴿وإذا القبور بعثرت﴾ أي قُلب ترابُها، وأُخرج موتاها، فأصبحوا على ظهرها، بعد أن كانوا في بطنها ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ هذا هو جواب «إذا» أي في ذلك اليوم تعلم كلُّ نفس، برَّة كانت أو فاجرة، ما أسلفت من خير أو شر، وما فعلت من صالح أو طالح ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾؟ المراد بالإنسان هنا: الإنسانُ العاصي الفاجر، بدليل الاستفهام الذي هو للتوبيخ، أي ما الذي خدعك، وجرَّأَكَ على عصيان ربك؟ وقد علِمت ما بين يديك من الدواهي والشدائد!! وكيف تجرأت على مخالفة أمره، مع إحسانه إليك، وعطفه عليك!! فالآية واردة مورد العتاب والتوبيخ، كأنها تقول:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

كيف قابلتَ إحسان ربك بالعصيان، ورحمته بك بالتمرد والطغيان؟ وليست لتلقين الحجة كما قال البعضُ، ولهذا قال عمر الفاروق: غرَّه جهلُه، وغرَّه حُمقه.. ثم فصَّل تعالى بعض نعمه الجليلة عليه، فقال ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ أي الذي خلقك بعد أن لم تكن شيئاً، فجعلك سويًّاً سالم الأعضاء، تسمع، وتبصر، وتعقل، وجعلك معتدل القامة، في أحسن الهيئات والأشكال ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾ أي ركَّبك في أي صورة شاءها، واختارها لك، من الصور الحسنة العجيبة، ولو شاء لجعلك في صورة كالقرد، والبهيمة، والخنزير، ولكنه بفضله وإنعامه، خلقك في أحسن صورة، وكرَّمك على سائر المخلوقات ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ جعلك معتدل القامة، متناسب الأعضاء، بحيث صارت كل أعضاء الإنسان معتدلة، لا تفاوت بينها، فلو كانت إحدى العينين، أوسع وأضخم من الأخرى، أو إحدى الرجلين أطول من الأخرى، أو إحدى الأذنين تشبه أذن الأرنب، والأخرى تشبه أذن المِعْزىٰ، لكان منظر الإنسان مشوهاً غير جميل، ثم جعلك تمشي قائماً على رجلين، لا كالبهائم تشمي على أربع، فهذا كلُّه من تكريم الله للإنسان!!

قال عكرمة: لو شاء لجعله في صورة كلب، أو في صورة حمار، أو في صورة خنزير، ولكنه تعالى بلطفه وقدرته، جعله بشكل حسن مستقيم، جميل المنظر والهيئة.. ثم وبَّخ تعالى المشركين، المكذبين بيوم الدين، فقال سبحانه ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ كلاً للردع والزجر، أي ارتدعوا يا معشر المشركين، عن معاداة الرسول ومحاربته، ولا تغترُّوا بحلم الله عليكم، فحقيقةُ أمركم أنكم تُكذِّبون بالجزاء والحساب، وتنكرون البعث والنشور، وهذه علة الغرور ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ﴾ أي والحال أن عليكم ملائكة حفظة، يضبطون أعمالكم، ويكتبون أقوالكم، فلا تظنوا أنكم متروكون مهملون، بل عليكم رقباء من الملائكة، يراقبون تصرفاتكم ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي يعرفون كل ما تعملونه، أو تتحدثون به من خير أو شر، ويسجِّلون ذلك في صحائف أعمالكم، لتجازوا به يوم القيامة، وقد قال

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

ﷺ: (أكرموا الكرامَ الكاتبين، الذين لا يفارقونكم، إلا عند إحدى حالتين: الجنابة، والغائط) رواه ابن أبي حاتم، والآيةُ تحذيرٌ وتذكير، فإن العبد إذا أيقن أنَّ الله رقيبٌ عليه، وأن الملائكة يحفظون أعماله، ويكتبونها في صحفهم، وأنها تُعرض يوم القيامة، على رؤوس الأشهاد، كان ذلك أزجر له، وأبعد عن فعل القبيح والسوء!! ثم وضَّح تعالى مصير كلٍّ من الأبرار، والفجار في الآخرة فقال سبحانه ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ أي إن المؤمنين الأبرار، لفي الجنة دار السرور والحبور، يتنعَّمون فيها بما لذَّ وطاب، وإن الأشقياء الفجار، لفي نار الجحيم، يُحْرَقون فيها ويعذبون ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ أي يذوقون حرَّها، ويقاسون سعيرها، يوم الحساب والجزاء، الذي كانوا يكذبون به في الدنيا، وليسوا بغائبين عن نار جهنم طرفة عين ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾؟ تعظيم لشأنه، وتهويل لأمره، أي ما أعلمك وأخبرك ما هو يوم الدين؟ إنه من شدته وهوله، لا يدري أحد فظاعته وهوله، فهو فوق الوصف والبيان، وكرره لزيادة التهويل ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب، لا ينفع أحدٌ أحداً، ولا يدفع عنه أيَّ ضرر، والحكم والقضاء فيه، بيد جبار السموات والأرض، لا يملكه غيره جل وعلا، فهو الحاكم وهو المتصرِّف يوم الدين، كما قال سبحانه ﴿لمن المُلْكُ اليومَ لله الواحدِ القهار﴾.

انتهى تفسير سورة الانفطار

● ● ●

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ۝٧﴾

تفسير سورة المطففين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾ أي هلاكٌ وعذابٌ ودمار، للظلمة الفجار، الذين يُنقصون الكيلَ والميزان، وسُمُّوا ﴿مطفِّفين﴾ لأنهم لا يكادون يأخذون ويسرقون، إلا الشيء التافه الحقير، ثم بيَّن تعالى طرفاً من قبائحهم، وهو أنهم إذا أخذوا الكيل من الناس، أخذوه وافياً كافياً لأنفسهم، مع الزيادة، ولم يذكر تعالى الوزن، لدلالة الكيل عليه، ولقوله بعده ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ أي وإذا كالوا لهم، أو وزنوا لهم، أنقصوا في الكيل والوزن، فهم عند الأخذ يأخذون كاملاً، وعند البيع والعطاء، يعطونه ناقصاً، ولهذا جاء الوعيد بالويل والعذاب، وقد أهلك الله قوم شعيب، لبخسهم المكيال والميزان، وروي عن ابن عباس أنه قال: (لمَّا قدم رسولُ الله ﷺ المدينة، كانوا من أخبث الناس كيلاً، فلما نزلت السورة، كانوا من أحسن الناس كيلاً بعد ذلك) رواه النسائي وابن ماجه ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؟ أي ألا يعلم ويستيقن هؤلاء الظلمة، المطففون للمكيال والميزان، أنهم سيبعثون ليوم رهيب عصيب، شديد الهول؟ هو «يوم القيامة» يقفون فيه بين يدي الجبار جلَّ وعلا، لينالوا جزاءهم وعقابهم!؟ وفي هذا وعيد شديد ترتعد له الفرائص!! وفي الحديث (إن العرق يُلجم أحدهم إلى أنصاف أذنيه) وروى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال (تدنوا الشمسُ يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكون الناسُ على قدر أعمالهم في العَرَق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى حِقْوية ـ منتصف البدن ـ ومنهم من يُلجمه العرقُ إلجاماً) رواه مسلم، ثم ذكر تعالى مآل الأشقياء الفجار، فقال ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ أي ليرتدع هؤلاء السفهاء الفجار، الغافلون عن البعث والحساب، فإن كتاب أعمال هؤلاء

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ﴿٨﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٩﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾

المجرمين، في ﴿سجين﴾ أي مكانٍ ضيِّق، مظلم، موحش، مأخوذ من السُّجن وهو الضيق، كما يُقال: فسِّيق، وخمِّير، وسكِّير، ولهذا عظَّم هوله فقال ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾؟ أي هل تعلم ما هو سجين؟ هو سجنٌ عظيم، وعذاب أليم!! ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي كتابٌ كُتب فيه أسماء الأشقياء، حتى صار كالرقم في الثوب، لا يُنسى ولا يُمحى!! وقوله تعالى ﴿كتاب مرقوم﴾ ليس تفسيراً لقوله ﴿وما أدراك ما سجين﴾ وإنما هو تفسير لما كُتب لهم من المصير المشئوم، ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ أي هلاك ودمار، لهؤلاء المكذبين الفجار ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي يكذبون بيوم الحساب والجزاء، وما يكذِّب بهذا اليوم ـ يوم العدل الإلهي ـ إلاَّ كلُّ ظالم أثيم، مجاوزٍ للحد في الكفر والضلال، شغلته شهواته البهيمية، عن الآخرة والعمل لها ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي إذا قُرئت عليه آيات القرآن المبين، قال عنها: إنها خُرافات وأباطيل السابقين، والأساطير جمع أسطورة، وهي الخرافة التي لا أصل لها ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي ليرتدع ذلك الفاجر، عن هذا القول الباطل، فليس القرآن أساطير الأولين، بل حقيقة الأمر، أنه غطَّى على قلوبهم ما كسبوا من الجرائم والقبائح، فطمس على بصائرهم، فصاروا لا يعرفون الرُّشد من الغيِّ!! ومعنى قوله ﴿ران﴾ أي غلب وغطَّى.

قال الحسن البصري: الرَّانُ: هو الذنبُ على الذنب، حتى يسودَّ القلب ويعمى فيموت، وفي الحديث الشريف (إن العبد إذا أذنب ذنباً، نُكِتتْ في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر، صُقل قلبُه، وإن عاد ـ أي إلى الذنب ـ زادت حتى تعلو قلبَه، فذلك الرَّانُ الذي ذكر الله ﴿**كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون**﴾ رواه الترمذي ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ أي إن هؤلاء السفهاء، محجوبون يوم القيامة عن رؤية ربهم، وعن النظر إلى وجهه الكريم، الذي هو أعظم نعيمٍ لأهل الجنة، وفي الآية دليلٌ واضح، على أن المؤمنين يرون

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤)﴾

ربهم في الآخرة، **قال مالك رحمه الله**: «لمَّا حجب أعداءه فلم يروه، تجلَّى لأوليائه حتى رأوه» وهذا الحرمان من رؤية الرحمن، عقوبة للمجرمين على ذلك العدوان، وقولهم عن القرآن إنه أساطير الأولين، وليس هذا فحسب، بل لهم عقوبة أخرى هي احتراقهم بنار الجحيم، ولهذا قال ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ أي ثم إنهم بعد الحرمان من رؤية الرحمن لداخلون الجحيم، وذائقون عذابها الأليم، يُحرقون فيها ولا يخرجون منها أبداً ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي تقول لهم خزنة جهنم، على وجه التقريع والتوبيخ: هذا هو عذاب جهنم، الذي كنتم تكذبون به في الدنيا فذوقوا عذابه.. وبعد الحديث عن مصير الكفار الفجار، يأتي الحديث عن مآل المؤمنين الأبرار، فيقول سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ كلاَّ للردع والزجر، أي ليرتدعوا عن سفاهتهم، فليس الأمر كما يزعمون، من مساواة الفجار بالأبرار، فإن كتاب الأبرار في علِّيين - وهو مكان عالٍ مشرف في الجنة تحت العرش - بينما كتاب الفجار في سجِّين - في مكان ضيِّق تحت الأرض - فكيف يكون جزاؤهم واحداً؟ ولفظُ ﴿عليين﴾ للمبالغة، مشتق من العلوّ، لأنه في مكان عليٍّ رفيع، ولهذا فخَّم أمره، وعظَّم شأنه فقال ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ أي وما أعلمك يا محمد ما هو علِّيون؟ إنه خارج عن دائرة معرفة الخلق!! ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي إنه كتاب مسجَّلٌ مسطَّر، مكتوبٌ فيه أعمالُ أهل السعادة، دُوِّنت فيه كلُّ أعمال الخير، التي عمل بها الصلحاء والأخيار، تحضره الملائكةُ، ويشهدون على ما فيه يوم القيامة.. ثم بيَّن تعالى مصير الأبرار ومسكنهم، فقال سبحانه ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ أي إن السعداء الأبرار، في الجنان الوارفة، والثمار الدانية، يتنعمون في الجنة بكل ما يشتهون، يضطجعون على السرر، المزيَّنة بفاخر الثياب والستور، ينظرون إلى ما أعدَّ الله لهم، من أنواع الكرامة والنعيم في الجنة، وفي حديث ابن عمر (إن أدنى أهل الجنة منزلة، لمن ينظر في ملكه مسيرة ألف سنة، يرى أقصاه كما يرى أدناه، وإن أعلاهم لمن ينظر إلى الله عزَّ وجل في اليوم مرتين) رواه الترمذي ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أي إذا رأيتهم

يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾

تعرف أنهم أهل نعمة، لما ترى في وجوههم، من النور، والبياض، والحسن، وترى بهجة النعيم ورونقة، فهم في نعيم دائم، وسرور كامل، تفيض البهجة والنضرة على وجوههم ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ أي يسقون في الجنة، من خمر بيضاء صافية، لم تُكدِّرها الأيدي، قد خُتم على تلك الزجاجات، فلا يفكُّها إلا أربابها، والرحيقُ: صافي الخمر، وخالصها الذي لا غشَّ فيه ﴿خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ﴾ أي ممزوج بمسك، إذا شربه الإنسان فاحت منه رائحة المسك.

قال ابن عباس: طيَّب الله لهم الخمر، فكان آخر طعمه مختومٌ بمسك، أي بريح المسك، وفي مثل هذا النعيم، والشراب الهنيء، فلْيرغب الراغبون، ولْيتسابق المتسابقون ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي يمزج ويخلط ذلك الشراب (الرحيق) من عينٍ عاليةٍ رفيعة، تجري من جنة عدن، هي أشرف شراب أهل الجنة وأصفاه، تسمى (التسنيم) يشرب منها المقربون صِرْفاً، يعني خالصاً، ويُمزج الرحيقُ منها للأبرار، فدلت الآية على أن درجة «المقرَّبين» أعلى من درجة «الأبرار» وفي الحديث الشريف (أيما مؤمنٍ سقى مؤمناً، شربةَ ماء على ظمأ، سقاه الله من الرحيق المختوم) رواه أحمد.. ثم أخبر تعالى عن حال المجرمين يوم القيامة فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ أي إن المجرمين، كانوا في الدنيا يسخرون ويضحكون على المؤمنين، لا لذنبٍ، إلا لأنهم آمنوا بالله، ورسوله، واليوم الآخر، فصاروا أضحوكةً في نظر المجرمين ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ أي وإذا مرَّ المؤمنون بالكفار، وهم في أنديتهم يلعبون، غمز بعضهم بعضاً بأعينهم، احتقاراً لهم وازدراءً.. نزلت في صناديد وطغاة المشركين، كانوا إذا مرَّ بهم فقراء المسلمين، قالوا: جاءكم ملوكُ الدنيا، يقولون ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء، لأن النبي ﷺ كان يعدهم، إن استمسكوا بالإسلام، أن يفتحوا الدنيا، ويملكوا العالم، فكانوا يقولون: جاءكم ملوكُ الدنيا، سخرية بهم لإيمانهم، واستمساكهم

وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

بالدين ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ أي وإذا انصرف المجرمون، ورجعوا إلى منازلهم وأهليهم، رجعوا متلذِّذين لسخريتهم بالمؤمنين، والضحك عليهم ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ أي وإذا رأى الكفار، المؤمنين في الطرقات يمشون، قالوا: إن هؤلاء لضالون، لإيمانهم بمحمد، وتركهم شهوات الحياة!! رموهم بالضلال والجنون، وأكَّدوا قولهم بـ«إن» و«اللام» وهذا من أعجب العجب، أن يسخر الجاهل من العاقل، وأن يتحدَّث أهل الفجور، عن أهل الإيمان والتقوى!! قال تعالى ردّاً على سفههم وجهلهم ﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ أي وما أَرسلتُ هؤلاء الأشقياء، حفظة ولا وكلاء على المؤمنين، يحفظون أعمالهم، ويشهدون برشدهم أو ضلالهم!! وفي الآية تهكم وسخرية لاذعة بالكفار، كأنه يقول: أنا ما أرسلتهم رقباء ولا وكلاء، على حفظ أعمال عبادي المؤمنين، حتى يعرِّفوهم طريق الخير والفلاح، ولا أسندت إليهم شؤونهم، فلم يشغلون أنفسهم فيما لا يعنيهم؟ وتختم السورة الكريمة، بالمشهد المحزن الأليم، لأولئك الأشقياء وهم في دركات الجحيم، يستغيثون ويَستنجدون، والمؤمنون في جنان الخلد، يرونهم ويضحكون ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ أي ففي هذا اليوم - يوم الجزاء والعدل الإلهي - يضحك المؤمنون على الكفار، جزاءً وفاقاً، حين يرونهم مكبَّلين بالأغلال والقيود ﴿يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون﴾ وقد جاء في الحديث الشريف (أن أبواب النار تفتح للكفار، ثم يُقال لهم: اخرجوا منها، فإذا رأوها قد فُتحت، أقبلوا نحوها يريدون الخروج، فإذا وصلوا إلى أبوابها، أُغلقت دونهم، والمؤمنون على الأرائك ينظرون، فيضحكون منهم على هذا المنظر، كما ضحكوا عليهم في الدنيا) أسباب النزول للواحدي ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ أي هل جوزي الكفارُ بأفعالهم وإجرامهم؟ وهل نالوا ثوابهم كافياً وافياً؟ وأيُّ ثواب هذا وهم في لظى الجحيم يصلون حرَّها؟! ولكنه أسلوب (التهكم والسخرية) كما سخروا في الدنيا على المؤمنين، فكان عقابُهم جزاءً وفاقاً.

انتهى تفسير سورة المطففين

● ● ●

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾

تفسير سورة الانشقاق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ هذه الآيات الكريمة، بيان لأهوال القيامة، وتصوير لما يحدث بين يدي القيامة، من كوارث ونكبات وأهوال، يفزع لها الخيال!!

والمعنى: إذا تشققت السماء وتصدَّعتْ، مؤذنةً بخراب الدنيا، ونهاية العالم، ومجيء يوم الحساب والجزاء ﴿وأَذنت﴾ أي استمعت لأمر ربها، وانقادت لحكمه، وحقُّها أن تسمع وتطيع، لأن الآمر لها ربُّ العزة والجلال، وجديرٌ بها أن تنشق من أهوال القيامة، ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ أي وإذا الأرض ازدادت سعة وبسطة، بإزالة جبالها وآكامها، وصارت مستويةً، لابناء فيها، ولا جبال ولا هضاب، وألقت ما في جوفها من الموتى، والكنوز، والمعادن، كما تلقي الحاملُ ما في بطنها من الحمل ﴿وتخلت﴾ أي وتخلَّت عنهم كأنها مرغمة على ذلك ﴿وأذنت لربها وحقت﴾ أي استمعت لأمر ربها، وحُقَّ لها أن تسمع وتطيع!! وجواب «إذا» محذوف للتهويل والتفظيع، أي إذا وقعت هذه الأمور، لقي الإنسان من الشدائد والأهوال، ما لا يحيط به الخيال.. وفي ظلِّ هذه الأحداث، التي يشيب لهَوْلها الولدان، يأتي التهديدُ الملفَّح بظل الوعيد، للإنسان الغافل الذي يكدُّ في هذه الحياة وينصب، وينسى آخرته وما فيها من أهوال، فيقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ الكدحُ: السعيُ والجدُّ وإجهاد النفس في العمل، **والمعنى**: أنتَ يا ابنَ آدم، تكدُّ وتتعب، وتشقى وتَنْصب، والزمانُ بك يطير، وأنت في كل لحظة، تقطع شوطاً من عمرك القصير، فكأنك سائرٌ ومسرع نحو الموت، ثم تلقى جزاءك هناك في الآخرة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فهلاً قدَّمت لآخرتك، ما ينفعك من العمل الصالح!؟ وهلاً كان كدحُك فيما يُنجيك، من أهوال

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾

وشدائد يوم الحساب؟ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ أي فمن أُعطي كتاب عمله بيمينه ـ وهذه علامةُ السعادة ـ فسوف يكون حسابُه سهلاً يسيراً، فلا يُناقش ولا يُدقَّق معه في الحساب، وإنما تعرض عليه أعمالُه عرضاً، ثم يدخل الجنة معزَّزاً مكرَّماً!! ومعنى العرض: أن يُعرَّف المؤمنُ بذنوبه، ثم يُتجاوز عنه، للحديث الشريف (إن الله يُدني ـ أي يُقرِّب ـ العبد يوم القيامة، حتى يضع عليه كَنَفه ـ أي ستره ـ فيقول له: فعلتَ كذا وكذا، يوم كذا وكذا.. ويعدِّد عليه ذنوبَه ـ ثم يقول له: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم) فهذا هو العرضُ الذي أشارت إليه النصوص النبوية.. سمعت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ يقول (ليس أحد يُحاسب إلاَّ هلك!! فقالت يا رسول الله: جعلني الله فداءَك!! أليس يقول الله عزَّ وجل ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه. فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾؟ فقال لها ﷺ: ذاكَ العرضُ، ومن نُوقش الحساب هَلَك) رواه البخاري ومسلم ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ أي ويرجع إلى أهله وإخوانه في الجنة، مبتهجاً مسروراً، بما أكرمه الله به، من العفو والنجاة من العذاب، وهذا هو المنقلب السعيد، الرضيُّ الهنيء ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ أي وأمَّا من أوتي كتاب عمله بشماله، ومن وراء ظهره ـ وذلك علامةُ الشقاوة ـ فسوف يدعو على نفسه بالويل والثبور، والهلاك والدمار، ويدخل ناراً حامية مستعرة، هي نار الجحيم.. يدعو بالهلاك على نفسه، ويتمنَّى الموتَ الذي كان يفرُّ منه، يقول: يا ويلاه، يا ثبوراه، أنقذيني، ينادي الهلاكَ لينقذه، كما يتمنَّى المريضُ بداءِ عضال الموت، كما قال الشاعر:

كفَى بكَ دَاءً أن تَرَى الموتَ شَافِياً
وحَسْبُ المنَايَا أن يكُنَّ أمَانِيَا

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ أي لأنه كان في الدنيا بطراً، مترفاً، مسروراً مع أهله، غافلاً لاهياً، لا يفكِّر في العواقب، ولا تخطر على باله الآخرة، فأعقبه ذلك الفرحُ اليسير، الحزن الدائم الطويل ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي إنه ظنَّ أن لن يرجع إلى ربه، ولن يُجازى على

بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾

عمله، فلذلك كَفَر وفجر، ومعنى ﴿يحور﴾ أي يرجع ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ أي بلى سيعيده الله بعد موته، ويُحييه بعد فنائه، ويجازيه على كلِّ أعماله، صغيرها وكبيرها، فإن ربه الذي خلقه، كان مطلعاً على جميع أفعاله، وحركاته وسكناته.

قال ابن زيد: (وصف الله أهلَ الجنة بالخوف، والحزن، والبكاء في الدنيا، فأعقبهم به النعيمَ والسرورَ الدائم في الآخرة.. ووصف أهلَ النار بالسرور، والتنعم، والضحك في الدنيا، فأعقبهم به الحزنَ الطويلَ في الآخرة) وبعد هذا البيان المستفيض، عن أحوال الأبرار، والأشرار، يأتي القَسَمُ من الله تعالى، على الأهوال التي يلقاها الناس، بعد رحلة هذه الحياة، بدءاً من الموت، إلى القبر، إلى المحشر، إلى الاستقرار في الجنة، أو في النار، فيقول سبحانه ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي فأقسم لكم أيها الناس، قسماً مؤكَّداً بالشفق، وهو حُمرة الأفق، بعد مغيب الشمس، وفي هذا القسم إشارةٌ إلى وداع الدنيا، كما يُودِّع الإنسان النهارَ بغروب الشمس، فالدنيا دار فناء لا دار بقاء ﴿والليل وما وسق﴾ أي وأقسمُ لكم بالليل، وما جمع وضمَّ إليه، وما لفَّ في ظلمته من الخلائق، والدواب، والأنعام، والهوامِّ، فكلٌّ يأوي إلى مكانه وسربه، فكأنه تعالى أقسم بجميع المخلوقات ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ أي وأقسمُ لكم بالقمر، إذا تكامل نوُره وضوءُه، فصار بدراً ساطعاً مضيئاً، وعمَّ بنوره وبهائه الكائنات ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ هذا هو جواب القَسَم، أي واللهِ لتلاقُنَّ يا معشر البشر، أهوالاً وشدائد في الآخرة، هي طبقات في الشدة والفظاعة، بعضها أشدُّ من بعض، وأنتم الآن غافلون، عما أمامكم من الأهوال، فالطبقُ هنا: كنايةٌ عن الشدائد والأهوال، التي سيراها الإنسان في الآخرة.

قال الطبري: المراد أنهم يلقون من شدائد يوم القيامة، وأهواله، أحوالاً، حالاً بعد حال، وهذا التفسير ورد عن رسول الله ﷺ، فقد روى البخاري عن ابن عباس ﴿لتركبنَّ طبقاً عن طبق﴾ أي حالاً بعد حال، قال هذا نبيكم ﷺ) أي سمعتُ هذا من نبيكم ﷺ، رواه البخاري ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ استفهام للتوبيخ، أي

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ۝٢٥﴾

فما لهؤلاء المشركين، لا يؤمنون بالله؟ ولا يصدِّقون بالبعث بعد الموت؟ بعد ظهور البراهين على وقوعه؟ وما لهم إذا سمعوا آيات القرآن، لا يسجدون لخالقهم الرحمن؟ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ﴾ أي بل طبيعة هؤلاء الكفار، التكذيبُ، والجحودُ، والإنكار، وجاء بصيغة المضارع ﴿يكذبون﴾ للدلالة على استمرارهم في التكذيب، لأن المضارع يفيد التجدد والاستمرار ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي والله جل وعلا، هو العالم بما يضمرونه في صدورهم، من عداوة الرسول والمؤمنين ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي فبشرهم بالعذاب الموجع الأليم، في نار الجحيم، وذكرُ البشارة في موضع الإنذار (للسخرية والتهكم) يسخر القرآن منهم، كما سخروا من الرسول، ودين الله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾ أي لكنْ المؤمنون الصادقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، فإن لهم ثواباً في الآخرة، دائماً غير منقوص ولا مقطوع، في جنات الخلد والنعيم، مع النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

انتهى تفسير سورة الانشقاق

● ● ●

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ﴿٥﴾﴾

تفسير سورة البروج

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾ ابتدأت السورة الكريمة، بالقَسَم بالسماء ذات النجوم الهائلة، ومداراتها الضخمة، التي تدور فيها تلك الكواكب، وباليوم العظيم المشهود، وبالرسل والخلائق، على هلاك ودمار المجرمين، الذين طرحوا المؤمنين في النار، وأحرقوهم لا لذنب، إنما لإيمانهم بالله، يقول سبحانه ﴿والسماء ذات البروج﴾ أي أقسمُ لكم بالسماء البديعة ﴿ذات البروج﴾ أي المنازل التي تنتقل فيها تلك الكواكب، في أثناء دورانها، سميت بروجاً لضخامتها وعظمها، فإن البرج هو القصرُ الشامخ، ومدارات هذه الكواكب السيارة، من الضخامة والكبر، بحيث يعجز العقل البشري عن تصورها ﴿واليوم الموعود﴾ أي وأقسمُ لكم باليوم الموعود، وهو يوم **(الحشر الأكبر)** يوم القيامة، الذي وعد الله به جميع الخلائق في قوله ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ أقسمَ الله به، لأنه اليوم الذي يجتمع فيه الظالمُ والمظلومُ، والحاكم والمحكوم، والبَرُّ والفاجر، ويتولى القضاء فيه ملكُ الملوك، جبَّار السموات والأرض، فيفصل بين العباد بحكمه العادل ﴿وشاهد ومشهود﴾ أي وأُقسم بمحمد والأنبياء الذين يشهدون على أممهم يوم القيامة، فالشاهدُ: الرسلُ، والمشهود: هو يوم القيامة، لقوله تعالى ﴿ذلك يوم مجموع له الناسُ وذلك يوم مشهود﴾ وقوله في الشاهد ﴿وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ ففي يوم القيامة تُعرض الخلائق، وتُعرضُ فيه أعمال البشر، ويشهد محمد والرسلُ على أممهم، أنهم بلّغوهم رسالة الله، وهناك تكون الفضيحة للمجرمين على رؤوس الأشهاد ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ هذا هو جواب القسم، أي لعن اللهُ وأهلَكَ أصحابَ الأخدود، الذين شقُّوا الأرض طولاً، وحفروها وأضرموها ناراً، ثم أحرقوا بها المؤمنين ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ﴾ أي النار الملتهبة المتأججة، الموقدة بالحطب، وهو وصفٌ للنار بالشدة الهائلة، وارتفاع اللهب، وكثرة ما

إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾

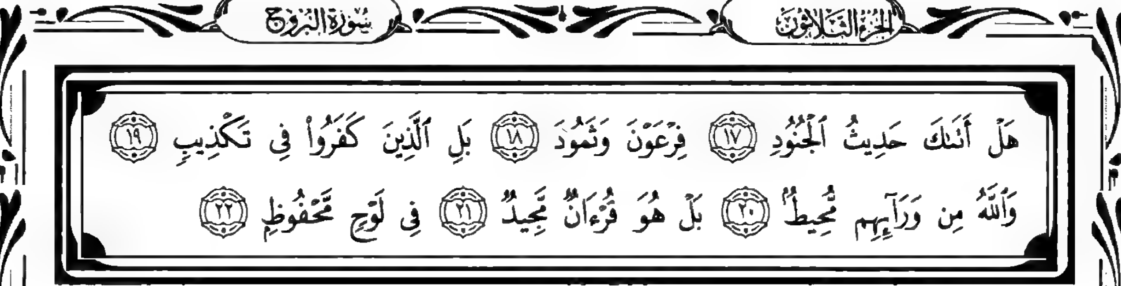
فيها من الحطب ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ أي حين هم جلوسٌ، في مكان عالٍ، مشرف على النار، يتلذذون بإحراق أجساد المؤمنين، بتلك النار اللاهبة، وهم يشاهدون هذا المنظر الفظيع الشنيع ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أي وما انتقموا منهم، وليس لهم ذنب ولا جرم، إلاَّ لأنهم آمنوا بالله، وكفروا بالطاغوت، وهذا ليس بذنب يستحقون به العقوبة، ولكنه الطغيانُ والإجرامُ، وجاء وصفُ الإله هنا بـ ﴿العزيز الحميد﴾ لأنه المناسب للمقام، فالله ﴿العزيز﴾ أي الغالب القاهر، الذي ينبغي أن يُخشى عقابُه ﴿الحميد﴾ أي المحمود المنعمُ على الخلق، الذي يُرجى ثوابه، فهؤلاء الذين أحرقوا المؤمنين بالنار، لن يُفلتوا من عقاب الله، وإنما أمهلهم تعالى ليأخذهم أخذ عزيز مقتدر!! ثم أفاض تعالى في وصف عظمته وجلاله، وقدرة انتقامه فقال: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي هذا الإله الجليل، هو المالك لجميع ما في الكون، لا يخرج شيء عن ملكه، وهو المطلع على أعمال العباد، وختم الآية ببيان أنه على كل شيء شهيد، لينبِّه على انتقامه العاجل، من الطغاة المجرمين، ففي الآية تهديدٌ ووعيد ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ المراد بقوله ﴿فتنوا المؤمنين﴾ أي أحرقوهم بالنار، ليفتنوهم عن دينهم، ثم لم يرجعوا عن كفرهم وإجرامهم، فلهم عذاب جهنم المخزي المهين، ولهم العذاب المحرقُ الفظيع، الذي لا يشابهه حريق!! وإنما ذكر لفظ (الحريق) هنا، لمناسبته لجريمتهم الشنيعة وهي إحراقهم للمؤمنين بالنار، فسيحرقهم الله بنار حاميةٍ محرقة، لا يشابهها نارٌ، وأين نار الآخرة من نار الدنيا؟ ثم إن نار الدنيا تنتهي بالموت، ونارُ الآخرة أبد الآبدين!! وفي قوله ﴿ثم لم يتوبوا﴾ دعوةٌ لأولئك المجرمين، للتوبة والإنابة، والرجوع إلى الله، وهذا من سعة رحمته تعالى بالعباد، ولو كانوا أفجر الفجار.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾

قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة!! فما أعظم فضل الله!! ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ لمَّا ذكر عقاب الأشقياء المجرمين، ذكر تعالى جزاء المؤمنين الصادِقين، **والمعنى**: إن المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان، والعمل الصالح، لهم البساتينُ والحدائقُ الزاهرة، التي تجري من تحت قصورها أنهارُ الجنة، ولهم فيها من كل ما تشتهيه نفوسهم، من أنواع المطاعم والمشارب، وذلك هو الظفرُ العظيمُ بالمطلوب والمحبوب، الذي تصغر عنده الدنيا كلُّها وما فيها.. أما قصة أصحاب الأخدود، كما وردت في صحيح مسلم ومسند الإمام أحمد، ونلخِّصها بالآتي: (كان في الأمم قبلكم ملكٌ جبار ظالم، أدَّعى الربوبية، وكان له ساحر يستعين به، فلما كبر الساحرُ، طلب من الملك أن يأتيه بغلام يعلِّمه السحر، حتى لا يذهب ملكه، فبعث له غلاماً، وكان هذا الغلام يمرُّ في طريقه، على رجلٍ عابد زاهد، فيجلس عنده بعض الوقت، وتعلَّق قلبُ الغلام به، فأسلم على يديه، ووصل بالغلام الصلاحُ إلى درجة عظيمة، حتى صار يبرىء الأعمى، ويداوي الناسَ من سائر الأمراض المستعصية على الأطباء، وكان للملك وزيرٌ أعمى، فلما سمع بأمر الغلام، جاء إليه بهدايا كثيرة وثمينة، وقال له: هذه الهدايا كلُّها لك إن أنت شفيتني!! فأجابه الغلام: أنا لا أشفي أحداً، إنما الذي يشفي هو الله ربي، فإن آمنتَ بالله، دعوتُ لك ربي فشفاك الله!! فآمن الوزيرُ بالله ودعا الغلامُ له فردَّ الله عليه بصره، فجاء الوزير إلى مجلس الملك يمشي، وهو يبصر الناسَ، فقال له الملك: من ردَّ عليك بصرك؟ فقال ربي!! فقال له: وهل لك ربٌّ غيري؟ فقال له: ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتَّى دلَّ على الغلام، فجيء بالغلام فقال له الملك: لقد بلغ من سحرك أنك تبرىء الأعمى والأبرص، فقال له الغلام: أنا لا أشفي أحداً إنما يشفي الله ربُّ العالمين، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلَّ على الراهب العابد ـ وكان العابد قد أوصى الغلام أن لا يدلَّ عليه أحداً، فجيء به إلى الملك فقال له: ارجع عن دينك فأبى، فأمر الملك أن يُنشر بالمنشار، فنُشر حتى سقط على الأرض شقتين، ثم أُتي بوزير الملك فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فنُشر بالمنشار حتى سقط شقتين، ثم أُتي بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فأمر الملك أن يصعدوا به إلى أعلى جبل، فإن

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

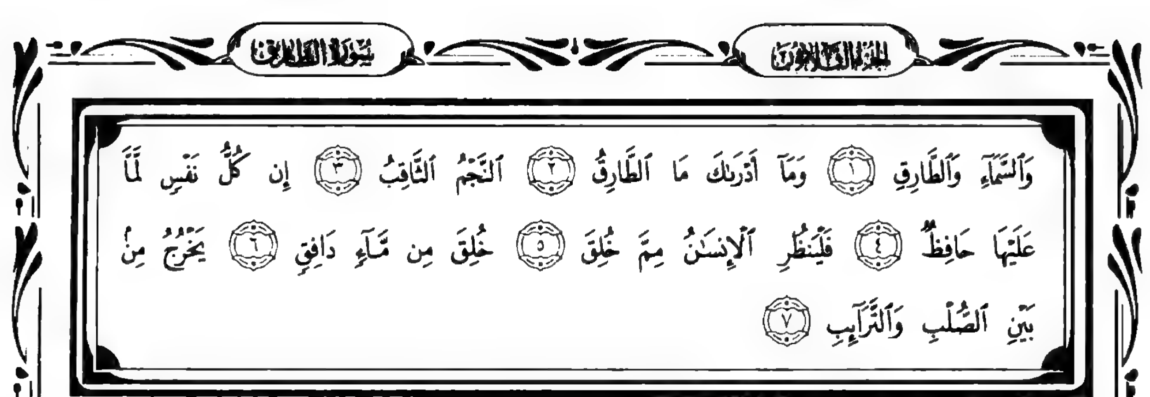
رجع ردُّوه، وإلا ألقوه من رأس الجبل، فلما صعدوا به الجبل، عرضوا عليه الرجوع فأبى، فأرادوا أن يرموه من قمته، فدعا ربه فقال: اللهمَّ اكفني من شرِّهم بما شئتَ، فارتجف بهم الجبلُ فماتوا، وجاء الغلام يمشي إلى الملك، فأمر أن يذهبوا به إلى البحر، فإن رجع عن دينه أن يردوه، وإلا قذفوه في البحر، فلما توسطوا به البحر، دعا الله فانقلبت بهم السفينة فغرقوا، وجعل الله له طريقاً يابساً في البحر، حتى جاء يمشي إلى الملك، فسأله عن أصحابه فأخبره أنهم غرقوا، فكاد الملكُ أن يصعق، فقال له الغلام: إنك لستَ بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، تجمع الناس في صعيد واحد، ثم تربطني على جذع شجرة عالية، ثم تأخذ سهماً من كنانتي وتقول: باسم الله ربِّ الغلام، فحينئذٍ تتخلَّص مني!! ففعل الملك ما قال له الغلام، فلما رماه وقال: بسم الله رب الغلام، أصابه في رأسه فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام وكفرنا بالملك، فعند ذلك أمر بالأخاديد فشقت الأرض، وأضرمت ناراً، وصار يعرض عليها كل مؤمن ومؤمنة، فإن رجع عن دينه تركوه وإلاَّ رموه في النار، فجاءت امرأة ومعها طفلها الرضيع، فلما عرضوا عليها الكفر امتنعت، فأرادوا إلقاءها في النار، فخافت على طفلها فأرادت الرجوع، فأنطق الله الطفل فقال لها يا أمَّاه: اصبري فإنك على الحقِّ!! فألقوها في النار مع طفلها) رواه مسلم، هذه هي قصة الأخدود ذكرناها بالمعنى. ثم ذكر تعالى انتقامه من الطغاة المتجبرين فقال سبحانه ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أي إن انتقام ربك يا محمد، وأخذه الجبابرة الطغاة بالعذاب، بالغٌ الغاية في الشدة، ومعنى البطش: الأخذُ بقسوةٍ، وشدة، وعنف، ولهذا قال ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ ولم يقل: إن عذابه لشديد، لينبِّه الطغاة الجبارين، بشدة العذاب وقسوته ﴿إنه هو يبدىء ويعيد﴾ أي هو جل وعلا، الذي بدأ الخلق من العدم، ثم يعيدهم إلى الحياة بعد الموت، للحساب والجزاء ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ أي هو سبحانه الساترُ لذنوب عباده، اللطيفُ المحسنُ إلى أوليائه، المحبُّ لمن أطاعه، يودُّ المؤمنين ويكرمهم، وهو صاحب العرش العظيم، المحيط بالسموات والأرض، ﴿المجيد﴾ صفةٌ للرب لا للعرش، ولهذا جاء مرفوعاً، أي هو سبحانه الممجَّد، العالي على جميع الخلق، المتصفُ بجميع صفات الكمال والجلال ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقِّب لحكمه، ولا راد لقضائه، ولا



يمتنع عليه شيء أراده، **قال ابن كثير**: روينا عن أبي بكر الصدِّيق، أنه قيل له وهو في مرض الموت: هل نظر إليك الطبيب؟ قال: نعم، قالوا: فماذا قال لك؟ قال: قال لي (إني فعال لما أريد)!! أراد رضي الله عنه بالطبيب هنا: ربَّ العزة والجلال، وقد مات في مرضه ذلك ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ الاستفهام للتشويق والترغيب لسماع القصة والخبر، أي هل بلغك يا أيها الرسول، خبرُ الجموع الكافرة، الذين تحزَّبوا على أنبياء الله ورسله، كفرعون الطاغية الجبار، وجنوده، وقبيلة ثمود الأشقياء الفجار؟ هل بلغك ما حلَّ بهم من العذاب؟ فقد كانوا أشدَّ بأساً، وأعظم بطشاً، من قومك كفار مكة، فأهلكهم الله ودمَّرهم!! ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ بلْ للإضراب، أي لم يعتبر كفار مكة، بما حلَّ بالكفرة المجرمين، بل هم ماضون في الكفر والتكذيب، والجحود والعناد، والله قادر عليهم، لا يفوتونه ولا يعجزونه، لأنهم في قبضته تعالى، في كل حين وزمان ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ أي بل هذا القرآن الذي كذَّب به قومك، كتاب عظيم شريف، سما على سائر الكتب السماوية، وهو عند الله في اللوح المحفوظ، مصون محروس، ويا شقاوة من كذَّب به!!

انتهى تفسير سورة البروج

● ● ●



وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴿٤﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾

تفسير سورة الطارق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالسماء، ذات الكواكب الساطعة، التي تضيء للناس سبلهم بالليل، ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، على أن كل إنسان قد وُكِّل به من يحرسه، ويتعهد أمره من الملائكة الأبرار ﴿والسماء والطارق﴾ الطارق هو: كلُّ ما يجيء ليلاً، من قادمٍ، أو أمرٍ حادث، والمراد هنا: النجومُ الزاهرة، سُمِّي النجمُ طارقاً لأنه إنما يظهر بالليل، ويختفي بالنهار، وقد جاء تفسير الطارق بالنجم، في السورة نفسها، ولهذا قال تعالى ﴿وما أدراك ما الطارق، النجم الثاقب﴾ أي وما الذي أعلمك وأنبأكَ ما هو الطارق؟ ثم فسَّره بقوله ﴿النجم الثاقب﴾ أي النجم الساطع المضيء، الذي يثقب الظلام بنوره ﴿إن كلُّ نفسٍ لما عليها حافظ﴾ هذا هو جواب القَسَم، أي ما من إنسانٍ إلا عليه حافظ من الملائكة، يحفظ عمله، ويضبط ما يفعله من أعمال الخير أو الشر، ويحرسه من الآفات.. وقد أكثر تعالى القَسَم في كتابه المجيد، بالشمس، والقمر، والنجوم والكواكب، لأنها براهينُ ودلائل ساطعة، على وجود الله سبحانه، ووحدانيته وقدرته، وانفراده تعالى بخلقها وتسييرها، فإن الصنعة تدل على الصانع!! وبعد هذا أمر تعالى بالنظر والتفكر في (خلق الإنسان) لينبِّه على القدرة الباهرة في إنشائه وتكوينه، ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ﴾ أي فلينظر الإنسانُ نظر تفكر واعتبار، في أصل نشأته، من أيِّ شيء خلقه الله؟ ليعرف عظمة خالقه، ومبدع تكوينه، خُلق من ماء متدفِّق من الرجل، يختلط مع ماء المرأة (البويضة الأنثوية) ليخرج منهما هذا المخلوق العجيب ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ أي يخرج من صلب الرجل «عظام الفقرات» ومن ترائب المرأة ـ وهي ضلوع صدرها ـ جمعُ تريبة، وهي ما بين الثديين، كما قال ابن

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ﴾

عباس، وجاء العلم الحديث، بمكتشفاته ومخترعاته الدقيقة، ليخبر عن هذه الحقيقة، التي حدَّث عنها القرآن، فقد كشف العلم الحديث، أن في عظام الظهر يتكون ماء الرجل، وفي عظام الصدر العلوية يتكون ماء المرأة، وعند اللقاء الجنسي، يتدفق المني بقوة وشدة، ويلتقي مع البويضة الأنثوية، ليجتمعا في قرار مكين هو (رحم الأم)!! ولكنَّ خلق الإنسان من نطفة مهينة (معجزةُ المعجزات) وأعجوبة الأعاجيب، فهذا الماء الدافق من صلب الرجل، يحمل معه جيشاً جراراً، من الجنود الشجعان المغاوير، يسميها علماء الأجنَّة (الحيوانات المنوية) وفي الدفقة الواحدة، يتدفَّق ما يزيد على أربع ملايين حيوان منوي، يهجمون هجوم الأبطال، على «البويضة الأنثوية» القادمة من عظام صدر الأنثى، والمستقرة في رحم الأم، حيوان واحد منها فقط، الأسبقُ والأمهرُ منها، هو الذي تحتضنه هذه البويضة، وتقبله عريساً لها، وتغلق عليه باب الرحم، ويبدأ عندها (شهر العسل) ثم تطرد بقية العُشاق من الملايين، الذين يموتون صرعى خارج الرحم، وتبدأ «الرحلة العجيبة» فيتكون منها خلية واحدة ملقَّحة، ثم تبدأ في الانقسام المستمر إلى خلايا، وهذه الخلايا تقوم ببناء هيكل الجسم الإنساني، وكأنها عقلٌ مبدعٌ مدبِّر، قادرة على البناء والتصنيع، لهذه (العمارة الإنسانية) فهذه خلايا للجهاز العظمي، وهذه خلايا لجهاز التنفس، وهذه لجهاز الهضم، وتلك للجهاز العصبي، وكلُّ مجموعة تقوم بعملها التخصصي الدقيق، فالخلايا المكلفة بالعين، تعرف أن العين يجب أن تكون في الوجه، ولا يجوز أن تكون في البطن أو في الظهر، إذ كيف يمكن للإنسان أن يمشي لو كانت العين في الظهر مثلاً!! وهكذا قُلْ في جميع الخلايا والعضلات والعظام، ومن هنا ندرك سرَّ قول الله عز وجل ﴿فلينظر الإنسان مم خلق﴾ لنرى عظمة الخالق المبدع الحكيم، انظر كتاب (رحلة الإيمان في جسم الإنسان) للدكتور حامد أحمد ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾ أي إن ربه الذي خلقه من نطفةٍ من ماء مهين، قادر على إحيائه، وإعادته بعد موته إلى الحياة، لأن من قَدَر على البداءة، قادر على الإعادة، ولكنْ متى يكون موعد الإعادة؟ قال تعالى ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾ أي يوم تمتحن القلوب وتُختبر، فيعرف ما فيها من الخفايا والنوايا، ويُميز بين القلب الطيب الطاهر، والقلب الخبيث الفاجر، فلا يبقى هناك سرٌّ مكتوم، وليس للإنسان في ذلك اليوم قوة، تدفع عنه العذاب، ولا ناصرٌ ينصره أو يجيره من الكرب والبلاء، لأنه يفقد المعين والنصير ﴿وَٱلسَّمَآءِ



ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾

ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ أي وأُقسمُ لكم بالسماء، التي ترجع بالخير على العباد، بالمطر الهاطل من السماء، غوثاً للبشر ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ أي وأقسمُ لكم بالأرض التي تتصدَّع وتنشق، فيخرج منها الشجر، والنباتُ، والثمر ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ أي إن هذا القرآن العظيم، لكلام الخالق جلَّ وعلا، الفاصل بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وليس فيه شيء من اللهو والعبث، بل هو جدٌّ كلُّه، لأنه كلام أحكم الحاكمين ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾ أي إن هؤلاء الكفرة من قومك، ليعملون المكايد لإطفاء نور الله، والصدِّ عن سبيله، بالتشويش وإثارة الشبه والفتن، وأجازيهم على كيدهم بالإمهال، ثم بالعذاب والنكال ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾ أي لا تتعجل في هلاكهم والانتقام منهم، وأمهلهم ﴿رويداً﴾ أي زمناً يسيراً، حتى ترى ما أصنع لك بهم؟ وفيه إيناسٌ للرسول بقرب الفَرَج، وتبشير له بقرب هلاك الكفار، وفيه منتهى الوعيد والتهديد لأعداء الرسول المجرمين، المتآمرين عليه!.

انتهى تفسير سورة الطارق

● ● ●

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾

تفسير سورة الأعلى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي نزِّه يا أيها الرسولُ، ربك العظيم الجليل، عن صفات النقص والعجز، وعمَّا يقوله الظالمون، مما لا يليق به سبحانه من الشريك، والزوجة، والولد ﴿الذي خلق فسوى﴾ أي خلق المخلوقات، فأتقن خلقها، وأبدع صنعها، على غاية الإحكام والتمام، بحيث لا خلل فيها ولا اضطراب، ﴿هذا خلقُ الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾؟ ثم ذكر من دلائل قدرته ووحدانيته بعضَ البراهين، فقال سبحانه ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أي قدَّر في كل شيء خواصه ومزاياه، فهدى الإنسانَ لوجه الانتفاع بما أودعه فيها، وهدى الأنعام إلى مراعيها، وقدَّر لكل مخلوق وظيفته، وطريقه وغايته، ولو تأملت ما في النباتات من الخواصِّ، وما في المعادن من المنافع والمزايا، واهتداء الإنسان لاستخراج الأدوية والعقاقير النافعة من النباتات، واستخدام المعادن في آلات الحراثة، والقدور، والطائرات والمراكب، لعلمتَ حكمة الله العليِّ القدير، في صنعه وتدبيره!! ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ أي والذي أنبت ما ترعاه البهائم، من الكلأ والحشائش والأعشاب، أخرجه لها أخضرَ غضَّاً طرياً، ثم يصيّره بعد ذلك ﴿غثاءً أحوى﴾ أي أسود بالياً يميل إلى السواد، بعد أن كان زاهياً ندياً، وفي هذه الحالة يكون أيضاً طعاماً نافعاً للحيوانات، فسبحان من أحكم كلَّ شيء بتقدير وإتقان!! وفي الآية تلميحٌ إلى فناء البشر، كما يفنى الزرع ويموت الشجر، بعد الخضرة والنضارة، ولا شيء يدوم سوى الحيِّ القيوم.. وبعد ذكر بعض دلائل القدرة والوحدانية، تأتي الآياتُ لتذكُّر الرسول، بنعمة إنزال هذا القرآن عليه، وجعله محفوظاً في صدره، فيقول سبحانه ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ أي سنقرئك يا محمد هذا القرآن العظيم، فتحفظه في صدرك ولا

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾

تنساه، إلاَّ ما أراد الله تبديله بنسخه فتنساه، وفي هذه الآية معجزة له ﷺ، لأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وكان مع ذلك لا ينسى ما أقرأه جبريلُ إياه، وكونُه يحفظ هذا الكتاب الضخم، من غير دراسة ولا تكرار، ثم لا ينساه أبداً، من أعظم البراهين على صدق نبوته، حتى إن جبريل كان يقرأ عليه السورة الطويلة مرة واحدة فلا ينساها، تحقيقاً للوعد الإلهي الكريم ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾ وقوله ﴿إلا ما شاء الله﴾ استثناءٌ من الأحكام، أي إلا ما شاء الله نسخه من الأحكام التشريعية، فإنك تنساه من صدرك ﴿إنه يعلم الجهر وما يخفى﴾ أي يعلم ما يجهر به العباد، وما يخفونه من الأقوال والأفعال، لا تخفى عليه خافية!! وثَمَّ بشارةٌ أخرى للرسول ﷺ، وهي أن يجعل شرعه ودينه، سمحاً سهلاً، لا ضيق فيه ولا حرج، ولا عُسر فيه ولا مشقة، ولهذا قال بعده ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي نوفقك للشريعة السمحة، التي هي أيسُر وأسهلُ الشرائع السماوية، وهي ملة أبيك إبراهيم، ولهذا قال ﷺ (بُعثت بالحنيفية السمحة) فالشريعةُ الغراء، هي شريعةُ اليسر والسماحة ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ أي فذكّر يا أيها الرسولُ البشرَ، بهذا القرآن الذي أنزلناه عليك، حيث تنفع الموعظةُ والنصيحةُ والتذكرةُ، ولا تُتعب نفسك مع الذين انحطُّوا إلى درجة البهائم والأنعام، التي تسمعُ الكلامَ ولا تفهم المرام، فهؤلاء لا ينفعهم نصحٌ ولا تذكير!!

قال ابن كثير: ومن ههنا يُؤخذ الأدبُ في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله، كما قال عليٌّ رضي الله عنه (ما أنت بمحدِّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم، إلاَّ كان فتنةً لبعضهم) وقال كذلك (حدِّثوا الناسَ بما يعرفون، أتريدون أن يُكذَّب اللهُ ورسولُه)؟! ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ أي سينتفع بهذه الذكرى والموعظة، من له قلبٌ حيٌّ، يخاف الله تعالى، ويخشى عقابه، ويرفضُ الموعظة، ويبتعد عن قبولها، الشقيُّ المبالغُ في الشقاوة والضلال، الذي لا يؤمن بالله، وهو الكافر الفاجر ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أي الذي يدخل نار جهنم المستعرة، الفظيعة في حرِّها وشدتها، ثم لا يموت في النار، حتى يستريح من العذاب، ولا يحيا الحياة الطيبة السعيدة، بل هو في عذاب دائم لا ينقطع، كما

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾

قال سبحانه ﴿لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾ والموت يذبح يوم القيامة، كما جاء في الحديث الصحيح، وينادي المنادي: (يا أهلَ النار خلودٌ فلا موت، ويا أهلَ الجنة خلود فلا موت) وإنما وُصفت النارُ بالكبرى ﴿يصلى النار الكبرى﴾ لأن المراد بها (نار جهنم)، وأما النار الصغرى فهي نار الدنيا، وقد قال ﷺ (ناركم هذه التي توقدون، جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم) رواه البخاري ومسلم ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ أي قد فاز ونجح، ونال مطلوبه ومبتغاه، من طهَّر نفسه بالإيمان، وأخلص عمله للرحمن، وتذكَّر عظمةَ الله وجلالَه، فصلَّى خاشعاً ممتثلاً لأمر ربه، فنال السعادة الكبرى، بدخول جنة النعيم ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي بل تفضّلون أيها الناسُ، هذه الحياة الفانية، على الآخرة الباقية، فتشتغلون للدنيا وتنسون الآخرة، والحالُ أن الآخرة خيرٌ من الدنيا وأبقى، لأن الدنيا فانية، والآخرةُ باقية، والباقي خيرٌ من الفاني، ولو أن دور الدنيا ومساكنها كانت من ذهب، وكانت دورُ الآخرة ومساكنها من خشب، لكانت الآخرة أفضل وأعلى وأثمن، لأنها دائمة باقية، والدنيا زائلة فانية!! فكيف والأمر بالعكس، فإن قصور الجنة من فضة وذهب، وكلُّ ما فيها نعيم وأمن، فكيف يفضِّل العاقل الدنيا على الآخرة!؟ قرأ سيدنا عبد الله بن مسعود هذه الآية ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾ فقال لأصحابه: أتدرون لمَ آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة؟ قالوا: لا نعلم!! قال: لأن الدنيا أُحضرت وعُجِّلت لنا، بطعامها، وشرابها، ونسائها، وبهجتها، ولذاتها، والآخرةُ زُويت وغُيِّبتْ عنا، فأحببنا العاجل وتركنا الآجل ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ أي إن هذه النصائح والمواعظ، المذكورة في هذه السورة، مثبتةٌ في الكتب والصحف القديمة، المنزلة على إبراهيم وموسى، فهي مما اتفقت عليه الأديان، وتنزلت بها آيات القرآن، خاتمة الكتب السماوية، فعلى المؤمنين أن يتدبروا، ويتعظوا بكلام رب العزة والجلال!.

انتهى تفسير سورة الأعلى

● ● ●

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾

تفسير سورة الغاشية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ الغاشيةُ: هي القيامة، سُمِّيت «غاشية» لأنها تغشى الناسَ بأهوالها وشدائدها، والاستفهام لتفخيم الأمر، والتشويق إلى استماع الخبر المذكور، أي هل جاءك يا أيها الرسول خبر القيامة، وما يلقاه الناسُ فيها من كُرَب، وشدائد، وأهوال، وانقسام البشر فيها إلى فريقين: أشقياء، وسعداء ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾ ثم وضَّح تعالى أحوال الأشقياء، في ذلك اليوم الرهيب، فقال سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ أي وجوه الفجار الأشقياء في ذلك اليوم، ذليلةٌ مهينة، يرهقها الذلُّ والهوان ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ أي دائبةٌ في الأعمال الشاقة، من جرِّ السلاسل والأغلال، وصعود التِّلال والجبال، وخوضِهم في نار الجحيم، خوض الإبل في الوحل، كما قال سبحانه ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون. في الحميم ثم في النار يسجرون﴾ وهذا جزاء تكبرهم في الدنيا عن عبادة الله، ومعنى ﴿ناصبة﴾ أي متعبة مرهقة بما تُعذَّب به، من النَّصَب بمعنى التعب ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ أي تُشوى وتُحرق بنار شديدة مستعرة، قد أُحمي عليها حتى اشتدَّ سعيرها ولهبُها، فهي تتلظى على أعداء الله ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ آنية: فظيعة الحرارة، أي تُسقى هذه النفسُ الأثيمةُ الفاجرة، من عينٍ متناهية الحرارة، وصلَ حرُّها وغليانها إلى درجة النهاية، فإنَّ أهل النار، إذا عطشوا وطلبوا الشراب، سُقوا من الماء الحميم، الذي يقطِّع الأمعاء، كقوله سبحانه ﴿وسقوا ماء حميماً فقطَّع أمعاءهم﴾ فهذا شرابهم، ماء حار بلغ نهاية الحرارة، يشبه النحاسَ المذاب في حرارته ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ والمهلُ: النحاسُ المذاب ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ أمَّا طعامهم، فليس لهم في جهنم إلاَّ الضريع، وهو نبتٌ ذو شوك، تسميه

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾

قريش «الشَّبرق» وهو أخبثُ طعام وأبشعه، وهو مرٌّ علقم لا يستسيغه إنسانٌ ولا حيوان، لا يفيدُ هذا الضريعُ السِّمَن في الأبدان، ولا يدفع غائلة الجوع عن الإنسان، والعذاب يوم القيامة أنواعٌ وألوان، فمنهم من يكون طعامه (الزقوم) ومنهم من يكون طعامه (الضريع) ومنهم من يكون طعامه (الغسلين) على حسب فجوره وطغيانه.. ولما ذكر تعالى عذاب الأشقياء الفجار، ذكر بعدها نعيم المؤمنين الأبرار، فقال سبحانه ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي وجوه المؤمنين السعداء في ذلك اليوم «يوم القيامة» متنعِّمة، سعيدة، ذاتُ بهجةٍ وحسن، ونضارة وإشراق، يبدو فيها النعيم، ويفيض منها الرضى ﴿لسعيها راضية﴾ أي لعملها الذي عملته في الدنيا، وطاعتها للرحمن، وما أكرمها الله به من الثواب، راضية مطمئنة، فقد جازاها الله على عملها الصالح، بدخول جنان النعيم، فَحَقَّ لها أن ترضى ﴿في جنة عالية﴾ أي هي في حدائق وبساتين، مرتفعة مكانةً وقدراً، فيها جميع أسباب النعيم، من المآكل والمشارب، والقصور، والحور العين ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ أي لا تسمع في الجنة شتماً، ولا سباً، ولا كلاماً فاحشاً، ولا شيئاً من الكذب كقوله سبحانه ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً﴾ ثم ذكر تعالى أنهار الجنة فقال ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ التنوين في (عينٌ) للتكثير، أي في الجنة عيون كثيرة، تجري بالماء السلسبيل، لا تنقطع أبداً، وقد ورد أن أنهار الجنة، تتفجّر من عيون من تحت جبال المِسْك ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ أي في الجنة سرر عالية مرتفعة، مزينةٌ بالياقوت والزبرجد، عليها الحور العينُ، فإذا أراد وليُّ الله، الجلوسَ على تلك السرر، انخفضت له، كما قال ابن كثير ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ أي وأقداح موضوعة على حافات العيون، معدة لشرابهم، كلما أرادوا الشرب وجودها جاهزة أمامهم، مملوءة لا تحتاج إلى من يملؤها، وهذه الأقداح من ذهب، كما قال سبحانه ﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب﴾ أي وأقداح من ذهب ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ نمارقُ جمع نُمرقة وهي: الوسادةُ، أي وفيها وسائدُ قد صُفَّ بعضها إلى جنب بعض، ليستندوا عليها، كما هو حال المرفَّهين ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ أي وفيها طنافس فاخرة مزركشة، مفروشة في أنحاء الجنة.

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾

قال ابن عباس: الزرابيُّ هي: الطنافسُ التي لها خَمَلٌ جمع زِرْبِية ومعنى (مبثوثة) أي منتشرة مبسوطة في أطراف الجنة وفي القصور، وكلُّ ما ذكره الله عن الجنة، إنما هو لتقريبه إلى الأذهان، وإلاَّ فإن نعيم الجنة وما فيها من أنواع الزينة والمتاع، مما لا يعلمه إلا الله ربُّ العالمين، للحديث القدسي (أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عينٌ رأت..) الحديث، ثم ذكر تعالى الدلائل والبراهين على قدرة الله ووحدانيته فقال سبحانه ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ أي أفلا ينظر هؤلاء الكفار، نظر تفكر واعتبار، إلى الإبل كيف خلقناها خلقاً عجيباً بديعاً، يدل على قدرة خالقها؟ وإنما خصَّ تعالى الإبل بالذكر، لأنها أفضل (دوابٌ العرب) وأكثرها نفعاً، ولهذا يسمِّيها العرب (سفينةَ الصحراء) فانظر إلى خلقها العجيب، فإنها في غاية الشدة والقوة، وهي مع ذلك تنقاد مع الصغير، ولو كان هناك قافلة من مائة بعير، لقادها طفل صغير، ثم هي تجلس لنضع عليها حمولتها الثقيلة، ثم تقوم بما تحمله مما يعجز عن حمله العُصبةُ أولو القوة، ثم صبرها على الجوع والعطش الأيام المعدودة، ثم بلوغها المسافات الطويلة، ورعيها بكل نباتٍ في البراري، وغير ذلك من عجائب الخلق والتكوين ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ أي وإلى السماء البديعة المحكمة، كيف رفع الله بناءها؟ وجعلها قائمة متماسكة، بدون دعائم ولا عمد؟ ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أي وإلى الجبال الشامخة، وهي راسخة ثابتة، لا تميد ولا تتزلزل؟ ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي وإلى الأرض التي يعيشون عليها، كيف مهَّدْناها لهم وبسطناها، فجعلنا فيها السهول الفسيحة، حتى صارت شاسعة واسعة ـ مع كرويتها ـ عليها يبنون وفيها يزرعون، أفلا يشكرون ربهم على هذه النعم الجليلة؟ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ أي فذكِّرهم يا محمد وخوِّفهم، وعظهم بآيات الذكر الحكيم، ولا يهمنَّك أنهم لا ينظرون ولا يتفكرون!! فإنما أنت واعظٌ مرشد، عليك البلاغ، وعلينا الحساب ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ أي لستَ بمتسلطٍ عليهم، ولا قاهرٍ لهم، حتى تجبرهم على الإيمان!! فالقلوب بيد الرحمن يقلِّبها كيف يشاء ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ الاستثناء هنا منقطع عمَّا قبله،



﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾

أي لكنْ من أعرض عن الإيمان، وكفر بالرحمن، فالله جلَّ وعلا يتولَّى عقابه، وسوف يحرقه بنار جهنم الكبرى، يذوق حرَّها، ويصلى سعيرها، جزاء كفره وضلاله، وإنما قال (العذاب الأكبر) لأنهم عُذبوا في الدنيا بأنواع من العذاب، بالجوع والقحط، والقتل والأسر، وهو عذاب صغير بالنسبة لعذاب الآخرة ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ أي إن رجوعهم بعد الموت إلينا وحدنا، لا لأحدٍ غيرنا، ونحن الذين سنحاسبهم ونجازيهم على كفرهم وإجرامهم!! وفي الآية تسلية للنبي ﷺ، وإزالة لهمومه وأحزانه، كأنه يقول له: لا تحزن لتكذيبهم لك، وسخريتهم منك، فرجوعهم إلينا، ونحن سنتولى عقابهم، ولن يُفلتوا من العقاب أبداً، فالمحاسبُ بصير، والله على كل شيء قدير.!

انتهى تفسير سورة الغاشية

● ● ●


﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧﴾

تفسير سورة الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ هذا قَسَم، أقسمَ الله تعالى في هذه السورة، بأربعة أقسام: أقسم بضياء الفجر، عند ذهاب ظلمة الليل، وبالليالي العشر المباركات، وهي العشر من ذي الحجة، التي يُقبل فيها المؤمنون على ربهم، لأداء مناسك الحج، وبالشفع وهو العددُ المزدوج من كل شيء، وبالوتر وهو الفردُ من كل شيء، أقسم سبحانه بالخالق، وهو وتر (واحد أحد) وبالخلق وهم شفعٌ (ذكرٌ وأنثى) وهذا مرويٌ عن ابن عباس فإنه قال: الله وترٌ واحد، وأنتم شفع، وعلى هذا يشمل القَسَم (الخالق، والمخلوق)، فهو قسمٌ عمَّ الكون كلَّه ﴿والليل إذا يسر﴾ أي وأقسمُ بالليل إذا يمضي بحركة النهار، والتعبيرُ هنا في قمة الروعة والجمال، حيث صوَّر الليل بصورة الإنسان المسافر، الذي يمشي في ظلمة الليل، يقطع الصحارى والقفار، ويختار وقت الليل للمشي، لأن السرى معناه السفر بالليل، أو بالحارس الساهر الذي يمشي بالليل للسهر على أمن النفوس والأموال، وفرق كبير بين أن يقول: والليل إذا مضى، وبين التعبير المعجز ﴿والليل إذا يسر﴾ كالفرق بين الثرى وبين الثُريَّا، وكلُّ ذلك للتناسق بين الآيات، ولو قال: والليل إذا مضى، لذهب هذا الجمال الساحر، ثم قال تعالى ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾؟ أي هل في هذا الذي ذُكر من هذه الأشياء، قسم مقنعٌ لذي لبٍّ وعقل؟ والحِجرُ بكسر الحاء: العقلُ، أما المقسم عليه فمحذوف لدلالة السياق عليه، تقديره: أقسمُ لكم أن هؤلاء المجرمين سيعذبون، ولن يُتركوا بدون عقاب، دلَّ عليه قوله سبحانه ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾؟ أي ألم يبلغك أيها السامعُ، ويصل إلى علمك، ما فعله الله بعادٍ قوم هود؟ وهم «عاد الأولى» أهلِ إرمَ، ذات البناء العالي الرفيع، القائم على الأعمدة الضخمة؟ الذين تكبروا وتجبَّروا وقالوا مقالتهم السفيهة ﴿من أشد منا قوة﴾؟ فقد أهلكهم الله بالريح الصرصر

ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾

العاتية ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ أي تلك القبيلة التي لم يخلق الله مثلها، في القوة والشدة، وضخامة الأجسام!! ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ﴾ أي ألم يسمعوا أيضاً، بقبيلة ثمود قوم «صالح» عليه السلام، الذين قطعوا صخور الجبال، ونحتوا فيها بيوتاً في الحِجْر - بين تبوك والمدينة المنورة -؟ وقد أهلكهم الله بالصيحة المزلزلة، التي خلعت قلوبهم، وتركتهم صرعى كأن لم يكونوا شيئاً مذكوراً؟ ومعنى ﴿جابوا﴾ أي قطعوا ونقبوا، فقد كانوا ينحتون الجبال، ويستخرجون الصخور، والرخام، فيبنون منها القصور الشامخة!! كما قال سبحانه ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين﴾ أي لمجرد الأشر والبطر، والتظاهر بالأبهة والعظمة (بالواد) أي بوادي القُرى ﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ﴾ أي أولئك الطغاة المتجبرون في الأرض، الذين مرَّ ذكرهم (عاد، وثمود، وفرعون وجنوده) الذين جاوزوا الحدَّ في الظلم والطغيان، وأكثروا في الأرض الفساد، بالعدوان، والفجور، والعصيان ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ أي فأنزل عليهم ربك، ألواناً شديدة من العذاب، واستعمل لفظ (الصبِّ) للإشارة إلى كثرته وتتابعه، كأنه مطر مدرار، منصبٌ من السماء ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ المرصادُ: المكان الذي يرصد الإنسان فيه عدوَّه، أي إن ربك يا محمد للطغاة المفسدين في الأرض، يرقبهم ويترصد خطواتهم، كما يترصد رجال الأمن مجرماً، لا يفوته أحد من الطغاة الأشرار!! وفي هذا تهديد لكفار قريش، الذين كذبوا سيِّد المرسلين ﷺ.. ثم جاء الحديث عن طبيعة الإنسان الكافر، الجاحد لنعم ربه، الذي يبطر عند الرخاء، وييأس عند الضراء، فقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ أي فأمَّا الإنسان الغافل عن ربه، وعن الإيمان بالحساب والجزاء، فهو لجهله وغفلته لا يهتم إلاَّ بأمور دنياه، فإذا اختبره ربه وامتحنه، بالغنى واليسار، فيقول: ربي أحسنَ إليَّ، لأنني مستحقٌ لهذا التكريم والنعيم!!

وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴿٢٠﴾ كَلَّآۖ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾

وينسى أن هذا اختبار له، أيشكر أم يكفر؟ ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ أي وأمَّا إذا اختبره وامتحنه، بضيق الرزق والفقر، فيقول متبرِّماً ضجراً: ربي أهانني بتضييقه الرزق عليَّ!! وهذا من جهله وغفلته، فهو يحصر النعمة في الغِنَى والمال، ولا ينظر إلى نعمة الصحة، والعقل، والأمن، ونعمة المعافاة من كل بلاء، وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث والنشور!! وإنما أنكر عليه قوله (ربي أكرمن) وقوله (ربي أهانن) لأنه قال الأولى (أكرمنِ) على وجه الفخر والكِبْر، لا على وجه الشكر، وقال (أهانن) على وجه التشكِّي، وقلَّة الصبر، ولهذا جاء له الردعُ والزجر ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ أي ليرتدعْ هذا الغافل عن هذه المقالة، فليس الإكرامُ بالغنى، والإهانةُ بالفقر، فقد يوسِّع اللهُ الرزق على الكافر، ويحرمه المؤمن، وقد يعطي الأحمق الجاهل، ويمنع الذكيَّ العاقل!! بل الأمر أنكم تبخلون بالمال على اليتيم، مع إكرام الله لكم بكثرة المال ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ أي ولا يحثُّ بعضُكم بعضاً على إطعام المعدوم، وعَون المسكين، وإذا كان لا يحثُّ غيره فكيف هو يطعم المسكين؟ وهذا ذم بليغ للبخيل، فإنه إذا بخل في الكلام، كان أشدَّ بخلاً في بذل الطعام!! ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾ أي وتأكلون الميراث أكلاً شديداً، لا تسألون أهو حلالٌ أم حرام؟ ومعنى (لمَّاً) أي شديداً، وهذا وصف لهم بالظلم، فقد كان العربيُّ يأخذ نصيبه ونصيب غيره، فلا يعطون الأنثى ولا الصغير، بل ينفرد به الرجال ﴿وتحبون المال حباً جماً﴾ أي وتحبون المال حباً شديداً مع الحرص والشَّره، ومعنى الجَمّ: الكثير، والمراد من الآية: ذمُّهم لتكالبهم على المال، وبخلهم بإنفاقه ﴿كَلَّآۖ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا﴾ أي ارتدعوا أيها الغافلون وانزجروا عن ذلك، فأمامكم أهوال وشدائد عظيمة، وذلك حين تُزلزل الأرضُ، فتندكُّ دكاً دكاً، فلا يبقى على ظهرها جبلٌ، ولا قصر، ولا بناء، حتى تصبح كالأرض الجرداء الملساء ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ أي جاء ربُّ العزة والجلال، لفصل القضاء بين العباد، وجاءت الملائكةُ صفوفاً

وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

صفوفاً ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾؟ أي وأُحضرت جهنم ليراها المجرمون رأي العين، ففي ذلك اليوم الرهيب، والموقف العصيب، يتّعظ الكافر ويندم الفاجرُ، يندم على تفريطه وعصيانه، ويتمنى أن يعود إلى الدنيا، ليصلح سيرته، ومن أين له ذلك؟ وقد ذهبت الدنيا، وجاء وقتُ الحساب والجزاء!! ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ أي يقول نادماً متحسراً: يا ليتني قدمت صالحاً لآخرتي، لهذه الحياة الباقية الدائمة، دار البقاء والخلود!! ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي ففي ذلك اليوم الرهيب، ليس هناك عذاب أشدُّ من عذاب الله، لمن كفر به وعصاه، ولا يُقيِّد أحدٌ بالسلاسل والأغلال، كتقييد الله للكافر الفاجر ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ أي يا أيتها النفس المؤمنة، الطاهرة الزكية، ارجعي إلى رضوان ربك وجنته، راضية بما أعطاك الله من النعيم، راضياً عنك ربك بما قَدَّمتِ من عمل ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ أي فادخلي جنان الخلد، في زمرة عبادي الصالحين، ادخلي معهم الفردوس الأعلى، مع النبيين والشهداء والصالحين!! وهذا يقال للمؤمنين عند الاحتضار، لتكون للمؤمن بشرى عاجلة سارة قبل موته، جعلنا الله وإياكم من عباده الصالحين. !

انتهى تفسير سورة الفجر

● ● ●

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ۝٥﴾

تفسير سورة البلد

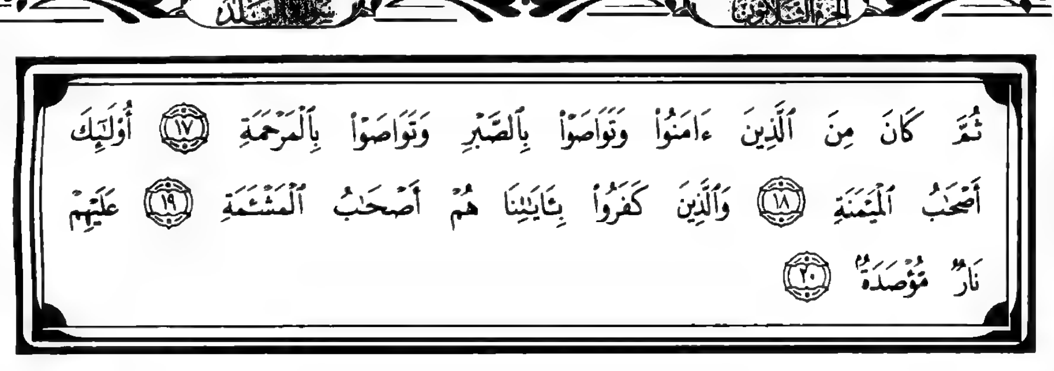
بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ «لا» ليست للنفي، وإنما هي للتأكيد، أي أقسمُ قسماً مؤكداً بالبلد الحرام، «مكة المكرمة» شَّرفها الله، وأنت يا محمد ساكنٌ ومقيم بالبلد الأمين!! أقسم تعالى بمكة المكرمة، وبسكنى النبي ﷺ فيها، إظهاراً لقدره عليه السلام، ومقامه الرفيع عند الله، حتى كأن الله تعالى جعل من أسباب شرف هذا البلد، كونَ حبيبه ونبيه ساكناً فيه، ثم لتضخيم جريمة الكفار، في إخراج النبي منها، وأنه من أكبر الكبائر عند الله، قال ابن عباس: (ما خَلَق اللهُ، ولا ذَرأ، ولا بَرأ، نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعتُ اللهَ عز وجل أقسم بحياة أحدٍ من خلقه، إلا بحياة محمد، وتلا الآية الكريمة ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ أي وحياتك يا محمد، وهنا أقسم بسكناه، وكلُّ ذلك تفخيمٌ لشأنه، وعلوِّ مكانته ومنزلته عند الله ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ أي وأقسمُ بآدم عليه السلام، وهو الوالد للبشر، وبذريته الصالحين.

قال مجاهد: الوالد آدم عليه السلام ﴿وما ولد﴾ جميع ذريته، وما ذهب إليه مجاهد حسنٌ قوي كما قال ابن كثير، لأنه لمَّا أقسم بالمكان، أقسم بعده بالساكن فيه، وهو «آدم» أبو البشر وأولاده ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ أي والله لقد خلقنا الإنسان في تعب ومشقة، فإنه لا يزال يقاسي أنواع الشدائد، من وقت نفخ الروح فيه، إلى حين نزعها منه، **قال ابن عباس**: ﴿في كبد﴾: أي في مشقة وشدة، من حمله، وولادته، ورضاعه، وفطامه، وحياته، وموته ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾ الضمير ﴿أيحسب﴾ يعود إلى بعض صناديد قريش، وهو (أبو الأشدِّ بنُ كلدة) كان طاغيةً جباراً، يغترُّ بقوته، كان يُبسط له الجلدُ الغليظ، فيضعه تحت قدميه، ويقف عليه ويقول: من يسحبه من تحت قدميَّ فله كذا وكذا، فيجذبه عشرة من الرجال الأقوياء، فيتقطع الجلد قِطَعاً، ولا تزلُّ قدماه، **ومعنى الآية**: أفيظن هذا الشقيُّ

يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾

الفاجر، المغترُّ بقوته، أن أحداً لن يقدر على الانتقام منه؟ بلى إن ربه الذي خلقه قادر عليه، فلا يغتَّر بجبروته وقوته!! ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ أي يقول الشقي: لقد أنفقتُ في عداوة محمد مالاً كثيراً!! يقول ذلك على سبيل المباهاة والفخر ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي هل يظن أن الله لم يره حين كان ينفق؟ وهل يظن أن أعماله تخفى على رب العباد؟ ليس الأمر كما يظن هذا الأحمق، فالله رقيبٌ مطلع عليه، وسيجازيه يوم القيامة على هذا الإجرام!! ثم ذكَّره تعالى بنعمه ليتَّعظ ويعتبر، ويكفَّ عن غيّه وضلاله، فقال سبحانه ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾؟ أي ألم نكرمه فنجعل له عينين يبصر بهما؟ ولساناً ينطق به فيعبِّر عما في ضميره؟ وشفتين يطبقهما على فمه، ويستعين بهما على النطق، والأكل والشرب والنفخ؟ ﴿وهديناه النجدين﴾ أي وبينَّا له طريق الخير، وطريق الشرِّ، وسبيل الهدى، والضلال، ليسلك طريق السعادة ويجتنب طريق الشقاوة؟ والمراد بالنجدين: (الخير) و(الشر) كما قال ابن مسعود ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾؟ أي فهلاً أنفق ما له في اجتياز العقبة الكؤود؟ بدل أن ينفقه في عداوة محمد ﷺ؟ وأصلُ العقبة: الطريقُ الوعرُ في الجبل، وأراد بالعقبة هنا: الشدائد والأهوال، التي يلقاها في الآخرة!! وهذا مَثَلٌ ضربه الله لمجاهدة النفس، والهوى، والشيطان ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أي وما أعلمك كيف يكون اقتحامُ العقبة؟ وما هو الطريقُ إلى تجاوزها؟ ثم فسَّر ووضَّح ذلك بقوله: ﴿فك رقبة﴾ أي تَجَاوزُ العقبة يكون بإعتاق عبدٍ، وتخليصه من الرقِّ والعبودية، ومنحه الحرية لوجه الله، وفي الحديث (من أعتق نفساً مسلمة، كانت فديته من جهنم، ومن شاب شيبةً في الإسلام، كانت له نوراً يوم القيامة) رواه أحمد ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي أو أن يطعم الفقير، في يوم ذي مجاعة، لليتيم الذي له قرابة معه، أو يطعمه للمسكين البائس، الذي اشتدَّ به الفقر والحاجة، حتى لصق بالتراب من فقره وضُرِّه، وهو تصوير لشدة البؤس والفقر الذي أصابه، والمسغبة: المجاعة، والمتربةُ الترابُ، **قال ابن عباس:**

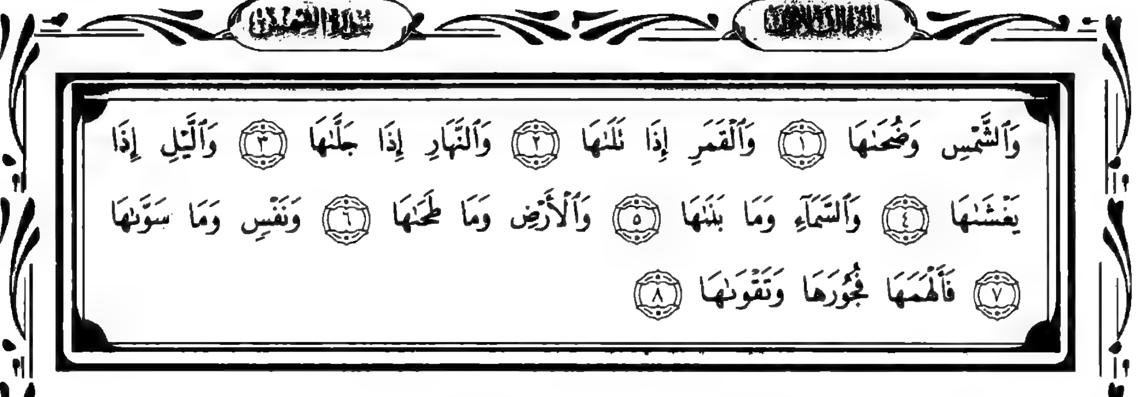


﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

﴿**أو مسكيناً ذا متربة**﴾ هو المطروح في الطريق، الذي لا بيت له يأويه، ولا شيء يقيه من التراب ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ أي فعل هذه القربات لوجه الله تعالى، وابتغاء أجره وثوابه، وهو مع ذلك مؤمنٌ، صادق الإيمان، فالعمل الصالح من غير إيمان، لا ينفع صاحبَه شيئاً، وقوله ﴿**وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة**﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على الإيمان، وطاعة الرحمن، وبالشفقة والرحمة على كل إنسان، لا سيما إذا كان من الضعفاء والمساكين ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ أي هؤلاء الأتقياء، الموصوفون بتلك الأوصاف الحميدة الجليلة، هم أصحاب الجنة، الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، ويسعدون بالخلود في جنات النعيم، (مع النبيين، والصدِّيقين، والشهداء، والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً) ولمَّا ذكر نعيم الأبرار، أعقبه بذكر مآل الفجار، فقال سبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أي أمَّا الأشقياء الفجار، الذين جحدوا نبوَّة محمد، وكذبوا بالقرآن، فإنهم أصحاب الشمال، يأخذون كتبهم بشمائلهم، وهذه علامة الشقاوة والخسران - ﴿**المشئمة**﴾ أي هم أصحابُ الشؤم والنَّحس، خسروا آخرتهم وسعادتهم ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ أي هم في الجحيم، عليهم نار مطبقةٌ مغلقة، لا يستطيعون الخروج منها، ولا الفكاك عنها، ولا نجاة لهم ولا خلاص، ومعنى (مؤصدة) أي مغلقة، لا يدخلها روح ولا ريحان، ولا يخرجون منها أبد الزمان!.

انتهى تفسير سورة البلد

● ● ●



تفسير سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ أي أقسمُ بالشمس وضوئها الساطع، إذا أنارَ الكونَ وبدَّد الظلام، وأقسمُ بالقمر إذا سطع مضيئاً، وتبع الشمس طالعاً بعد غروبها، وذلك من النصف الأول من الشهر، وحكمةُ القسم بالشمس والقمر، هو التنبيهُ على ما فيهما من المنافع العظيمة، إذ بدون الشمس لا يمكن أن يعيش إنسانٌ، ولا حيوان، ولا نبات ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ أي وأقسمُ بالنهار إذا كشف بنوره ظلمة الليل، فجعل الأرض منيرةً ساطعة ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ أي وأقسمُ بالليل إذا غطَّى الكونَ بظلامه، ولفَّه بشبحه، فالنهار ينير المعمورة ويُظهرها، والليلُ يسترها ويغطِّيها ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ أي وأقسمُ بالسماء وبمن بناها، وهو الإلهُ القادرُ العظيم، الذي خلق السماءَ، وأحكمَ وأبدع خلقها، فجعلها متماسكة متينة، رفيعة الأرجاء، محكمة البناء، كقوله سبحانه ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾ وقد دلَّ بناؤها وإحكامها على وجوده تعالى، وكمال قدرته ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ أي وأقسم بالأرض ومن بسطها ومهَّدها لتكون صالحة لسكنى الإنسان، فهي ممتدة واسعة فسيحة، ميسَّرة للبناء والزراعة والسُّكنىٰ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أي وأقسم بالنفس الإنسانية، وبالذي أنشأها وأبدعها، وجعلها سوية، مستعدة لكمالها، بعد أن وهبها العقل، وأرشدها وعرَّفها طريق الفجور، وطريق التقوى، وما تُفرِّق به بين الرُّشد، والضلال.

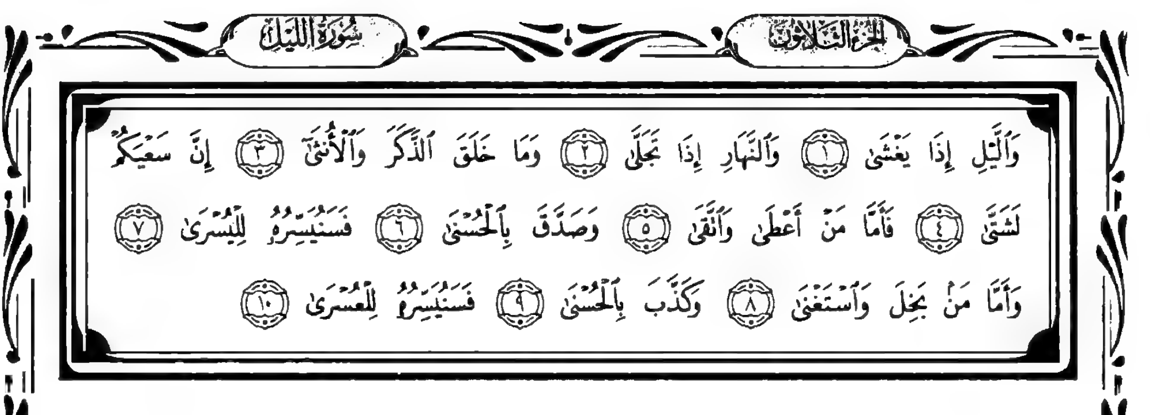
قال ابن عباس: بيَّن لها الخيرَ والشرَّ، والطاعة والمعصية، وعرَّفها ما تفعل وما تتقي!! أقسم تعالى بهذه الأقسام السبعة (الشمس، القمر، الليل، النهار، السماء، الأرض، النفس الإنسانية) إظهاراً لكمال قدرته تعالى، وعظمته وسلطانه، وانفراده بالألوهية، فإن هذه الأشياء جميعها مخلوقةٌ له جلَّ وعلا، وللتنبيه على كثرة منافع هذه الأشياء، وأنه لا بدَّ لها

قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ﴿١٥﴾

من صانع ومدبر لحركتها وسكناتها. . أما المقسم عليه فهو قوله سبحانه ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي واللهِ لقد فاز ونالَ مبتغاه، من زكَّى نفسه بطاعة الرحمن، وطهَّرها من دنس المعاصي والآثام، وقد خاب وخسر، من أذلَّ نفسه وحقَّرها بالفجور والمعاصي، وأوقع نفسه بالتهلكة ﴿دسَّاها﴾ من دسَّ الشيء إذا أخفاه، وأصلُ الكلمة «دسَسها» فكأنَّ هذه الجرائم التي يُخفيها الإنسان، هي المهلكة له، فإن من ارتكب الفواحش، وسار مع الشهوات، فقد سقط من عداد العقلاء، وصار في عداد البهائم ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾ ثم ذكر تعالى نموذجاً من نماذج الفجور والطغيان، في قصة قبيلة (ثمود) قوم «صالح» عليه السلام، فقال سبحانه ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ أي كذبت قبيلةُ ثمود نبيَّها، بسبب طغيانها وفجورها ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ أي حين انطلق أشقى القوم، بسرعةٍ وعزيمة، لقتل الناقة وعقرها، معجزة نبيِّ الله «صالح» واسمُه «قُدار بن سالف» عاقرُ الناقة، وكان عزيزاً شريفاً في قومه، ورئيساً مطاعاً فيهم، وهو الذي قال الله فيه ﴿فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر﴾ روى البخاري أن النبي ﷺ خطب فذكر الناقة، والذي عَقَرها فقال: (انبعث لها رجل عزيزٌ عارمٌ ـ أي جبار ـ منيعٌ في رهطه. .) الحديث ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا﴾ أي فقال لهم نبيُّ الله صالح عليه السلام: احذروا ناقة الله فلا تمسُّوها بسوء، واحذروا أن تمنعوها سقياها أي شربها ونصيبها من الماء ﴿لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾ فلم يلتفتوا إلى قوله، ولم يبالوا بتحذيره ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا﴾ أي فكذبوا رسولهم، وقتلوا الناقة، فأهلكهم الله، ودمَّرهم عن آخرهم، بسبب إجرامهم وطغيانهم، ولم يُبْقِ منهم أحداً، ومعنى الدمدمة: إطباقُ العذاب عليهم، بحيث لم ينج منهم صغير ولا كبير ﴿وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا﴾ أي ولا يخاف ربُّ العزة والجلال، عاقبة إهلاكهم وتدميرهم، كما يخاف الملوك والرؤساء عاقبة ما يفعلون، لأنهم يخشون ثائرة الأمم!!

انتهى تفسير سورة الشمس

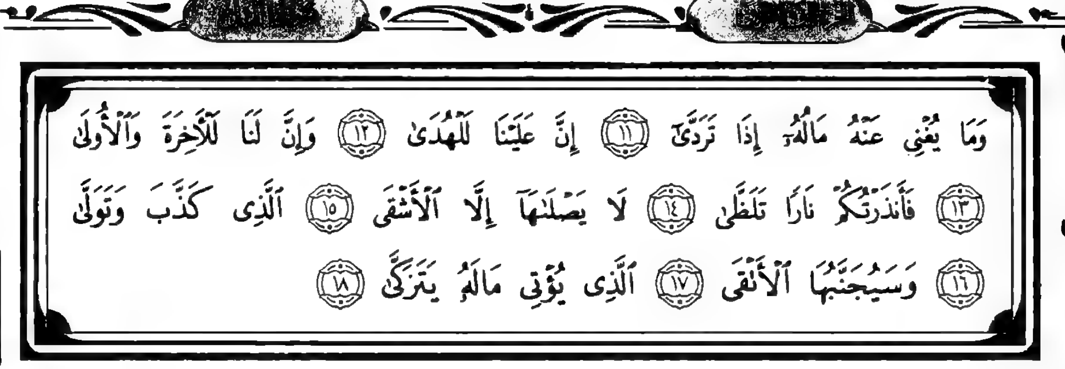
● ● ●



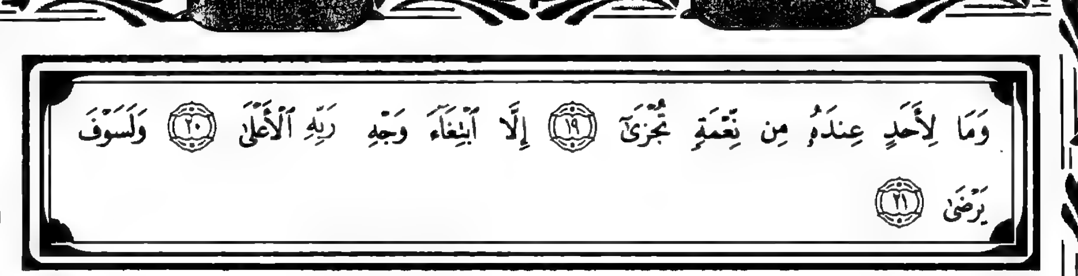
تفسير سورة الليل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ أي أقسم بالليل إذا غطَّى بظلمته الكون، وستر بشبحه المخيف الوجودَ والخليقة، وأُقسمُ بالنهار إذا أشرق وأضاء، وتجلَّى بنوره الساطع، فأنار الكونَ والوجود، وأقسمُ بالإِله القادر العظيم، الذي خلق الإنسانَ نوعين: (ذكراً، وأنثى) من نطفةٍ مهينة ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ هذا جواب القَسم، أي إن عملكم أيها الناسُ، مختلفٌ ومفترق، كما أن جزاءكم متباين، فمنكم مؤمن ومنكم كافر، ومنكم برّ ومنكم فاجر، فللجنة أهلٌ وأصحاب، وللنار كذلك أهل وأرباب، ولهذا قال بعدها ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ أي فأمَّا من أعطى الفقيرَ حقَّه، واتقى ربَّه، فكفَّ عن محارمه وعصيانه، وصدَّق بالجنة التي أعدَّها الله للأبرار، وأيقن بلقاء الجبار، فسنهيِّئه ونيسِّر له عمل الخير، ونيسِّر له الطاعة والعبادة، حتى يكون من عباد الله الأبرار، فالعملُ من الإنسان، والتيسيرُ من الرحمن، ولا إكراه لأحدٍ على طاعةٍ أو عصيان ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ أي وأمَّا من بخل بإنفاق ماله، ولم يعط حقَّ الفقير والمسكين، شحاً به وبُخلاً، واستغنى عن الله وعن ثوابه، وكذَّب بالجنة ونعيمها، فسنهيِّئه للخصلة الشاقة المؤدية إلى حياة العُسْر، وهي الحياة التعيسة الشقية، التي تنتهي بصاحبها إلى الجحيم، سمَّى الله طريق الخير (يُسرى) لأن عاقبتها اليُسْر، وهي الجنة دار النعيم، وسمَّى طريق الشر (عسرى) لأن عاقبتها العسر، وهي دخول الجحيم.. خرج رسولُ الله ﷺ في جنازة، وعند مواراة الميت قال لأصحابه: (ما منكم من أحدٍ إلاَّ وقد كُتب مقعُده من النار، ومقعده من الجنة!! قالوا يا رسول الله: أفلا نتَّكل على كتابنا، ونَدَع العملَ!؟ قال: لا،


وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾

اعملوا فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له، أمَّا من كان من أهل السعادة، فيُيسَّر له عملُ أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء، فيُيسَّر لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ ﷺ الآيات ﴿فأما من أعطى واتقى...﴾ الآية، رواه البخاري.. ومن هنا نعلم أن الإنسان إذا أراد الخير، سهَّل الله له طريقه، ومن أراد الشرَّ سهَّل له طريقه، والإنسان يُجازى على عمله وكسبه، لا على علم الله تعالى السابق!! يقول تعالى لأهل الجنة ﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ ويقول لأهل النار ﴿ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ ثم قال تعالى ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ ؟ أي ماذا ينفعه مالُه، إذا هوى وهلك في نار جهنم؟ هل ينفعه المال؟ أو يدفع عنه الوبال؟ والردَّىٰ معناه: الهلاكُ، فالمال الذي بخل به الإنسان، ولم ينفق منه شيئاً في وجوه الخير، لن ينفعه يوم القيامة، بل يكون سبباً لشقائه وخسرانه، ولا ينفع في الآخرة إلاّ الإيمانُ، والعملُ الصالح، وقد جاء في الحديث الشريف أن الله تعالى يقول للإنسان يوم القيامة: (يا ابنَ آدمَ، أرأيتَ لو كان لك ملءُ الأرض ذهباً، أكنت تفتدي نَفسَك من عذاب هذا اليوم؟ فيقول: نعم يا رب!! فيقول الله له: قد سألتك ما هو أهونُ من ذلك، سألتُك أن لا تشرك بي، فأبيت إلاّ الشرك) رواه البخاري، وقد يقول قائل: كيف يخلقنا الله، ويتركنا إلى أهوائنا وشهواتنا، ثم يعاقبنا على ما فعلناه، وهو الذي منحنا هذه القوى؟ فجاءت الآيات تقرِّر بجلاء، مبدأ «الهداية الربانية» للبشر جميعاً، التي أوجبها الله على نفسه تكرماً وفضلاً ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي علينا أن نبين للناس طريق الهدى، وطريق الضلالة، ونوضِّح للبشر سبيل الرشد وسبيل الغيِّ، وهذا ما تقتضيه حكمةُ الإله، اللطيف الخبير، ثم نترك للإنسان (حرية الاختيار) فإما أن يسلك طريق الهداية فيسعد ويسلم، أو يسلك طريق الشقاوة فيهلك ويندم ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ أي وإن لنا ما في الدنيا والآخرة، نحن المالكون والمتصرِّفون فيهما، ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ أي حذرتكم يا معشر البشر، ناراً مستعرة، تتوقَّد وتتوهَّج من شدة حرارتها، لا يذوق عذابها، ويصلى حرَّها، إلا الكافر الشقيُّ، المبالغُ في الشقاوة والضلال ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي وهو الذي كذَّب الرسل، وأعرض عن الإيمان، وطاعة الرحمن ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ أي وسينجو من هذه النار، ويُبْعَدُ



﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾

عنها، المؤمنُ التقيُّ، وهو الذي ينفق ماله في مرضاة الله، ليطهِّر نفسه من الشحِّ والدنس ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾أي وليس لأحدٍ عنده نعمة سابقة، حتى يكافئه عليها، وإنما ينفق المال لوجه الله، وطلباً لمرضاته، وليس له غاية إلاَّ نيل رضوان الله تعالى ﴿ولسوف يرضى﴾ أي ولسوف يعطيه ربُّه من الأجر ما يرضيه، وهو وعد كريم، من رب رحيم، والله لا يخلف الميعاد. . نزلت هذه الآيات بإجماع المفسرين، في سيدنا «أبي بكر الصدّيق» رضي الله عنه، فقد كان يشتري المستضعفين من المؤمنين بماله، ويعتقهم لوجه الله، ليخلِّصهم من ظلم طواغيت قريش، واشترى بلالاً بمالٍ كثير، من سيِّده وأعتقه لوجه الله، فقال المشركون: إنما أعتقه ليدٍ كانت له عنده ـ أي لإحسانٍ سابق من بلال عليه ـ فنزلت الآية ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾ وكان عمر رضي الله عنه يقول: (أبو بكر سيِّدُنا وأعتق سيِّدنا) يعني بلالاً.

قال ابن كثير: والآية نزلت في أبي بكر الصديق بالإجماع، ولكنها عامَّةٌ في كل من أنفق لوجه الله، ولا شك أن أبا بكر داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها، فقد كان صِدّيقاً، كريماً، تقياً، بَذَّالاً لأمواله في طاعة الله، ونصرة رسوله، رضي الله عنه وأرضاه!.

انتهى تفسير سورة الليل

● ● ●

﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾

تفسير سورة الضحى

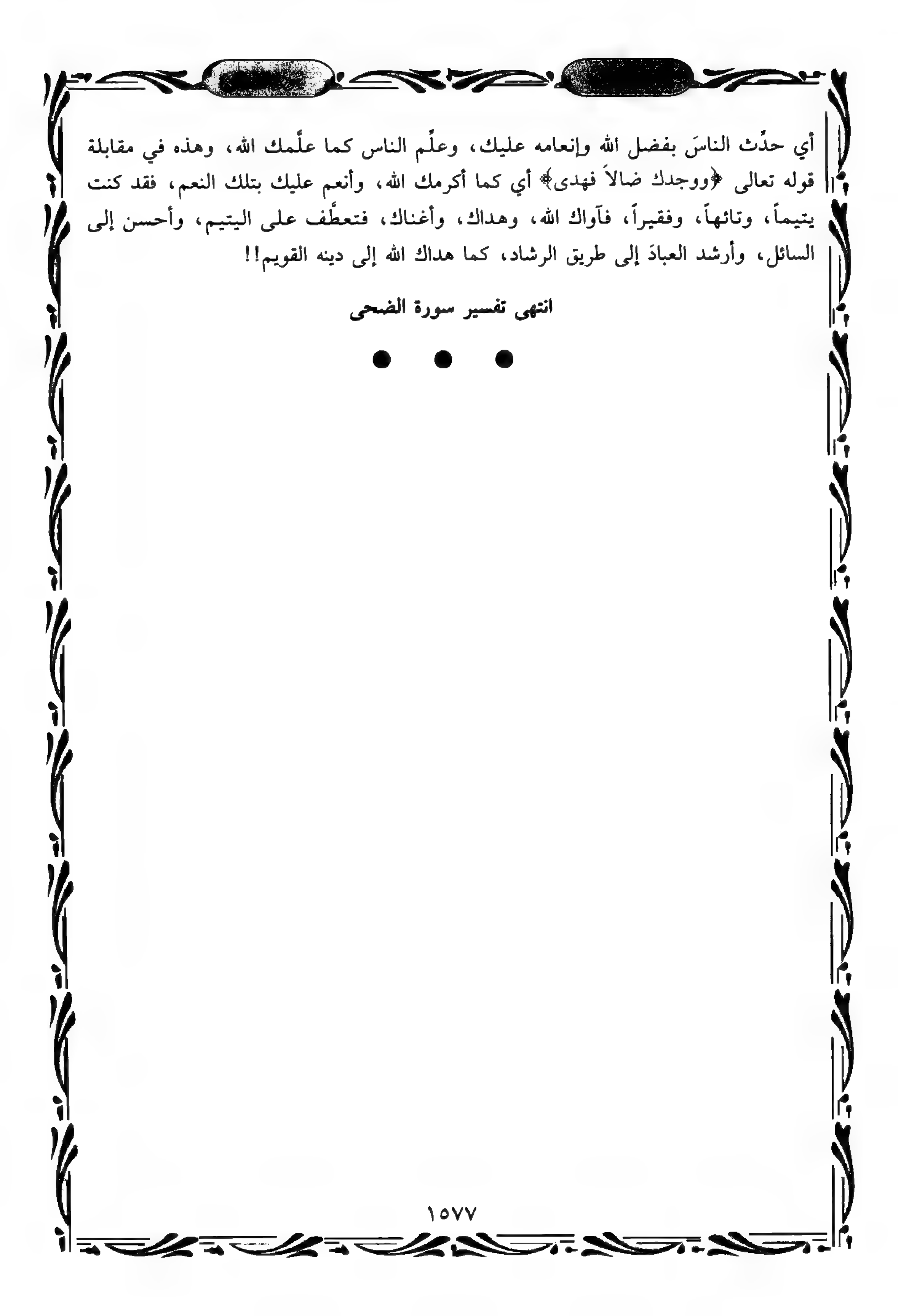
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ اشتكى رسول الله ﷺ ـ أي مرض ـ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، ولم يخرج إلى الناس، فجاءت امرأةُ أبي لهب، وتُكنى «أم جميل» إلى رسول الله ﷺ فقالت يا محمد: إني لأرجو أن يكون شيطانُك قد هجرك ـ تقصد بالشيطان (جبريل) الذي ينزل بالوحي ـ لم أره قَرُبك ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله هذه السورة الكريمة ﴿والضحى، والليل إذا سجى. .﴾ أخرجه البخاري بدون ذكر اسم المرأة، **والمعنى**: أقسمُ لك يا محمد بالضحى وضيائه، عند أول إشراقة نور الصباح، وبالليل إذا اشتدَّ ظلامه، فهدأت فيه الأصواتُ، وسكنت فيه الحركات، وخَلدَ فيه الناسُ إلى النوم والراحة ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾ ﴿ودَّعك﴾ أي هجرك، ﴿قلى﴾ أي أبغضك، هذا هو جواب القَّسَم، أي ما تركك ربك يا محمد ولا هجرك، منذ أن اختارك للنبوة والرسالة ﴿وما قلى﴾ أي ولا أبغضك، فأنت الحبيب القريب عند ربك!! وهذا ردٌّ على المشركين، وتسفيهٌ لقولهم: إن محمداً قد هجره ربُّه وأبغضه، فردَّ الله عليهم هذا الافتراء والبهتان، وكأن الآيات تقول له: إنَّ من أنعم عليك بشرف النبوة والرسالة، لم يكن ليتركك أو ينساك، ولم يكن ليبغضك أو يهجرك!! وهذه بشارة عظيمة له ﷺ، أن يُقسم له ربُّه، بأنه حبيبٌ إليه، قريب منه، رفيع القدر والشأن عند مولاه، وكيف يُبغضه ويهجره، وهو الذي اختاره لحمل هذه الرسالة؟ ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ أي خير لك من هذه الدنيا الفانية، ولهذا كان ﷺ يقول: (اللهمَّ لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة) ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ أي سوف يعطيك ربك من الثواب، والكرامة، والشفاعة حتى يرضيك.

قال ابن عباس: «هي الشفاعة في أمته حتى يرضى» ويؤيده ما رواه مسلم (أن النبي ﷺ تلا قول الله في إبراهيم ﴿فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾

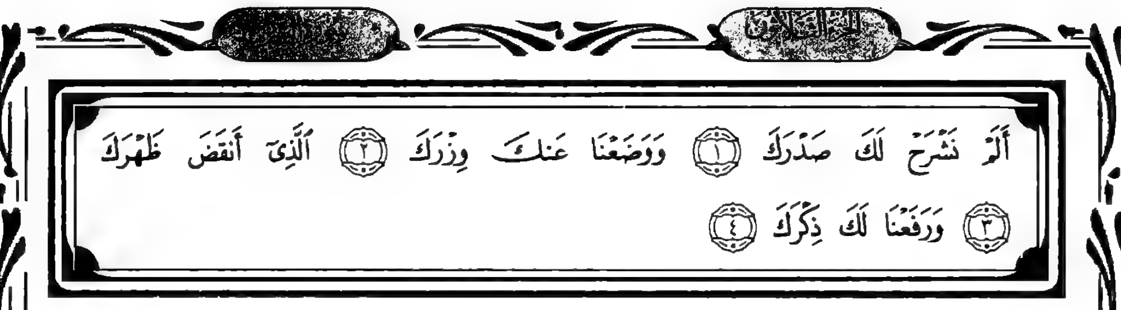
وتلا قول عيسى ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ فبكى، وقال: اللهمَّ أمتي، أمتي، فقال الله عزَّ وجل يا جبريلُ، اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسلْه ما يبكيك؟ فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله بما قال، فقال الله يا جبريل، إذهب إلى محمد فقل له: إنَّا سنرضيك في أمتك ولا نسوءُك) رواه مسلم، وإنها لبشارة سارة لهذا الرسول المعظَّم، تُثلج صدره، وتُعلي قدره، أن يعطيه ربُّه حتى يرضيَه، وقد أعطاه الله في الدنيا النصرَ والظفرَ على الأعداء، وأعطاه في الآخرة الشفاعة العظمى، والمقام المحمود.. ثم ذكَّره تعالى بفضله وإنعامه عليه، منذ أن كان طفلاً يتيماً، إلى أن شرَّفه بحمل الأمانة الكبرى فقال سبحانه ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾؟ أي ألم تكن يا محمد يتيماً، فرعاكَ الله وضمَّك إلى جدِّك «عبد المطلب» ثم إلى عمك «أبي طالب»؟ وعطَّف عليك القلوب، حتى كفلك ورعاك من لا يؤمن برسالتك!! ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ أي وجدك تائهاً عن معرفة الشريعة والدين، فهداك الله إليها، وعلَّمك ما لم تكن تعلم؟ **قال الضحَّاك:** ﴿ووجدك ضالاً﴾ أي لم تكن تعرف القرآن، ولا تدري الشرائع، فهداك الله إليها!! هذا هو الصحيح في معنى الآية، ولا يُراد بالضلال هنا، عبادةُ غير الله، أو ارتكاب المنكرات والمعاصي، فإن الرسول ﷺ على (الفطرة والاستقامة) منذ طفولته وصغره، لم يشرب خمراً، ولم يعبد صنماً، ولا كان على دين قومه، وإنما يراد بالآية: عدمُ معرفة الشريعة والدين، كما أشارت الآية الكريمة في قوله سبحانه ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ أي وجدك فقيراً محتاجاً، فأغناك عن العباد، ويسَّر لك أسباب الرزق والتجارة، ولمَّا عدَّد سبحانه هذه النعم الثلاثَ عليه، وصَّاه بثلاث وصايا تقابلها، ليحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليه، فقال سبحانه ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي فأمَّا اليتيم فلا تُهنه، ولا تعبسْ في وجهه، ولا تغلبه على ماله، ولكنْ أحسنْ إليه، وتعطَّف عليه، فقد ذقتَ طعم اليُتْم، فكن لليتيم، كالأب الرحيم، ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي وأما الفقير المحتاج، طالبُ العون والإحسان، فلا تطرده إذا سألك، ولا تُغلظْ له القول، بل أعطه مما أعطاك الله، وردَّ المسكين برفقٍ ولين، وهذه في مقابلة قوله ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾ وأما الوصية الثالثة فهي قوله ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾



أي حدِّث الناسَ بفضل الله وإنعامه عليك، وعلِّم الناس كما علَّمك الله، وهذه في مقابلة قوله تعالى ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ أي كما أكرمك الله، وأنعم عليك بتلك النعم، فقد كنت يتيماً، وتائهاً، وفقيراً، فآواك الله، وهداك، وأغناك، فتعطَّف على اليتيم، وأحسن إلى السائل، وأرشد العبادَ إلى طريق الرشاد، كما هداك الله إلى دينه القويم!!

انتهى تفسير سورة الضحى

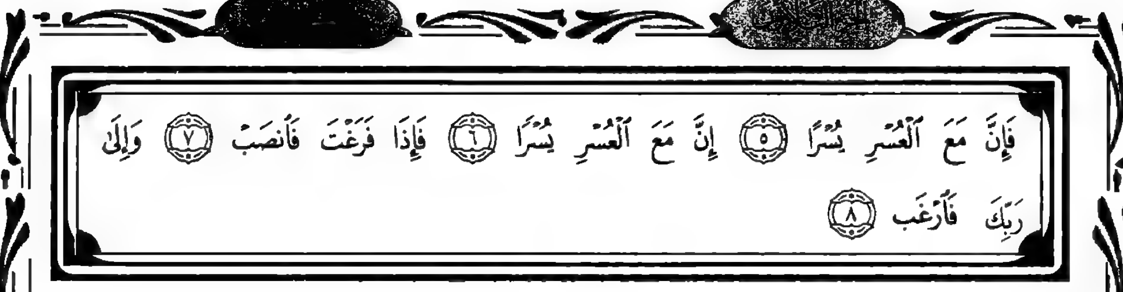
● ● ●



تفسير سورة الانشراح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي لقد شرحنا لك يا أيها الرسول صدرك، بالهداية والإيمان، ونوَّرناه بسواطع آيات القرآن، تفضلاً عليك من الرحمن، فاشكر ربك على هذه النعمة ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ أي حططنا عنك حملك الثقيل ﴿الذي أنقض ظهرك﴾ أي الذي أثقل وأضعف ظهرك، حتى أصبحت مهموماً مكدَّراً!! والنقيضُ: صوتُ الحمل الذي يُوضع على البعير، وهذا تمثيلٌ، مثَّل تعالى ما كان يحمله الرسول ﷺ من همومٍ وأكدار، وتحسُّره على عدم إيمان قومه، بحملٍ ثقيل، يُرهق ظهر حامله، فأذهب الله عنه الهمَّ والغمَّ، وأراح قلبَه الشريف، بإنزال هذا الوحي، وتأنيسه بما فيه من الآيات التي كانت تواسيه وتسلّيه عن تكذيب قومه له، والمراد بالوزر في الآية ﴿وزرك﴾ الأمور التي فعلها الرسول ﷺ وعُوتب فيها، كأخذه الفداء من أسرى بدر، وإذنه لبعض المنافقين في عدم الخروج للجهاد، وعبوسه في وجه الأعمى، وأمثال ذلك مما فعله عن اجتهاد، ولا يُراد بالوزر: الذنوب والمعاصي والمنكرات، فإن الرسول ﷺ معصومٌ عن مقارفة المعاصي والآثام، ومن خصائص الأنبياء (العصمة) كما هو معلوم، وما يفعلونه عن غير قصدٍ، يعتبر بالنسبة لمقامهم الرفيع، كأنه ذنبٌ يؤاخذون عليه﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أي رفعنا لك يا أيها الرسول ذكرك، وأعلينا شأنك وقدرك، باقترانه باسمي، فلا أُذكر إلاَّ وتُذكر معي!! وفي الحديث (أتاني جبريلُ فقال يا محمد: إن ربك يُقرئك السلام، ويقول: أتدري كيف رفعتُ ذكرك؟ قلت: الله تعالى أعلم!؟ قال: يقول ربكَ: إذا ذُكرتُ ذُكرتَ معي) رواه الطبري وابن أبي حاتم.. لقد قرن الله اسم الرسول ﷺ باسمه جلَّ وعلا، في كلمة (الشهادة، والأذان، والإقامة، والخطبة، والتشهد) وأخذ العهد على الأنبياء وأممهم، أن يؤمنوا برسالته، إن أدركوا حياته، وما أحسن ما قاله حسان بن ثابت رضي الله عنه:



وضَمَّ الإلهُ اسمَ النبيِّ إلى اسمِهِ إذا قالَ في الخَمْس المؤذِّنُ أشهدُ
وشقَّ لهُ من اسمِهِ ليُجلَّهُ فذو العَرْش محْمودٌ وهذا «محمَّدٌ»

ويا له من شَرَف لا يضاهيه شرف، أن لا يُذكر الله إلا ويُذكر معه محمد ﷺ، وأن لا تُقبل كلمةُ الشهادة والتوحيد، إلا وهي مقرونةٌ بذكر اسم محمد (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله) وهذا كلُّه إعلاءٌ لقدر الرسول ﷺ، ورفعٌ لمكانته وجاهه في الدنيا والآخرة.

قال ابن عباس: ما خلق الله، ولا ذَرَأ، ولا بَرَأ، نفساً أكرمَ عليه من نفس محمد ﷺ، وما سمعتُ الله أقسمَ بحياة أحدٍ من الرسل إلا بحياة محمد ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ والعَمْرُ: الحياةُ أي وحياتك يا محمد، وإنه لتشريف من ربّ العزة والجلال، لرسوله وحبيبه المصطفى ﷺ، لم ينله أحد من الخلق غيره ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أي إن لك بعد هذا الضيق فَرَجاً، وبعد ذلك الكرب والشدة مخرجاً، وفي هذه بشارة للرسول ﷺ، بأن الله سيحوِّلُ حاله من العُسر إلى اليُسر، ومن الضيق إلى السَّعة، وكأن الآية تقول له: إن الذي أنعم عليك بهذه النعم، سينصرك على أعدائك، ويُبدِّل أمرك، وقد حقّق الله له ما وعده به، فأعزّه ونصره، وجعل دينه منتشراً في أنحاء المعمورة ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ أي فإذا انتهيتَ من دعوة الناس إلى الله، فاجتهد في عبادة ربك، واجعل همَّك ورغبتك فيما عند الله، لا في هذه الدنيا الفانية الزائلة، فإن ما عند الله خير للأبرار!!.

انتهى تفسير سورة الانشراح

● ● ●



تفسير سورة التين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

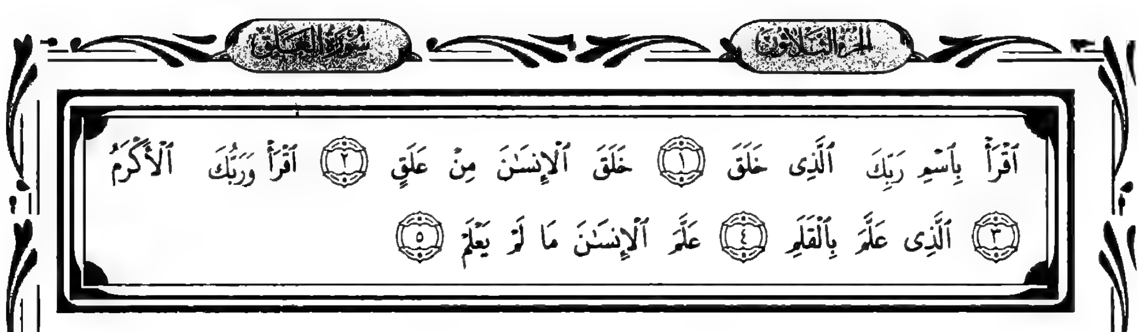
﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ أقسم تعالى في هذه السورة الكريمة بثلاثة أقسام، بالأماكن المشرَّفة التي ظهر فيها أكابر الرسل (موسى، وعيسى، ومحمد) صلى الله عليهم وسلم، وهي الأماكن التي أشرقت فيها أنوار النبوة، وتنزَّل فيها الوحيُ الإلهي على الأنبياء والمرسلين، **أمّا القسم الأول**: فهو القسمُ بالتين والزيتون، ومنابتهما في الأرض المقدسة «أرض فلسطين» حيث مولد (عيسى ابن مريم) خاتم أنبياء بني إسرائيل، **والقسم الثاني**: (بجبل الطور) الذي كلَّم الله عليه موسى، فناداه واجتباه، وبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل، **والقسم الثالث**: (بمكة) شرَّفها الله، مولد سيد الرسل، وفخر الكائنات محمد ﷺ، **قال عكرمة**: أقسم تعالى بمنابت التين والزيتون، فإنهما ينبتان كثيراً ببيت المقدس، وبلاد الشام ﴿وطور سنين﴾ هو جبل الطور ﴿وهذا البلد الأمين﴾ مكة المكرمة، ورجّح هذا القول الطبري، وابن كثير، فقد قال رحمه الله: «قال بعضهم: هذه محالٌ ثلاثة، بعث الله في كل واحدٍ منها نبياً مرسلاً من (أولى العزم) أصحاب الشرائع الكبار، صلوات الله عليهم أجمعين، **فالأول**: بيت المقدس وهو محلة (التين والزيتون) الذي بعث الله فيه عيسى بن مريم، **والثاني**: طور سيناء الذي كلَّم الله عليه موسى، **والثالث**: مكة وهو البلد الأمين، وهو الذي أرسل الله فيه محمداً.. أقول: وهذا القول هو الأصحُّ والأظهر، للتناسب بين الأماكن والبقاع، لأن الله تعالى عطف على التين والزيتون، بجبل الطور، والبلد الأمين، فيكون قَسماً بالبقاع المقدَّسة، التي شرَّفها الله بالوحي، وبرسالات عظماء الرسل والأنبياء، وإلاَّ فما هو وجه المناسبة بين التين والزيتون، وجبل الطور، ومكة؟ ووردت رواية عن ابن عباس: أنهما التينُ الذي نأكله، والزيتون الذي نعصره، ولا منافاة بين القولين، إذ يكون ذكرهما لبيان كثرة منافعهما وخصائصهما، مع الإشارة إلى أماكن نباتهما، ولهذا قال الألوسي: «والغرضُ من القَسَم بهذه الأشياء، الإبانة عن شرف البقاع المباركة، وما ظهر

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾

فيها من الخير والبركة، ببعثة الأنبياء والمرسلين» أما جواب القسم فهو قوله تعالى ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ أي خلقناه في أبدع صورة، وأحسن شكل، وزيَّنَّاه بالعقل، والنُّطق، والفهم، ليشكر ربه على إنعامه وإفضاله، فهو أكمل المخلوقات، وأفضلُها، وأشرفُها، يمشي منتصب القامة، متناسب الأعضاء، في أجمل صورة، يأكل بيده، ويمشي على قدميه، بينما سائر الحيوانات تأكل بفمها، وتمشي على أربع، وهي منكوسة على وجهها، ﴿ولقد كرمنا بني آدم. . . وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ فأجملُ المخلوقات على وجه الأرض هو الإنسان ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي ثم نردُّه إلى أسفل دركات النار، إن لم يؤمن بالله الواحد القهار، جزاء له على كفره وإجرامه، وإهماله للعقل الذي رزقناه إيَّاه. . بيَّن تعالى أن بعد هذه الصورة الجميلة، يكون على أقبح صورة وأبشعها، من سواد الوجه، والكلوح وزرقة العيون، فمن لم يعرف قدر الكرامة، ذاق ذلَّ الإهانة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ أي إلا المؤمنين المتقين، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، فلهم ثواب دائم لا ينقطع، وهو (الجنة) دار المتقين ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ أي فما الذي يجعلك أيها الإنسان، تكذِّب بالجزاء والبعث والنشور؟ بعد هذه الدلائل والبراهين؟ فإن الذي خلق الإنسان، من نطفةٍ من ماء مهين، وجعله في أحسن شكل، وأبدع صوره، قادر على أن يعيده إلى الحياة بعد الموت ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾؟ أي أليس الله جل وعلا بأعدل العادلين؟ بلى ونحن على ذلك من الشاهدين!! حُكماً، وقضاءً، وفصلاً بين العباد؟ وفي الحديث الشريف (من قرأ ﴿والتين والزيتون﴾. . فقرأ: أليس اللَّهُ بأحكم الحاكمين؟ فليقل: بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين) رواه الترمذي.

انتهى تفسير سورة التين

● ● ●



تفسير سورة العلق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ أشرقت أنوار الرسالة الإلهية، وتنَّزل الوحيُ في البلد الحرام، على سيِّد الرسل الكرام، وهو في غار حراء يتعبد ربه، وكان هذا بداية الوحي على رسول الله ﷺ، وأول اتصال السماء بالأرض، بهذه الآيات البينات، التي تفيض روعةً، وجمالاً، وجلالاً!! ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ هذا هو مطلع السورة، وفيها دعوةٌ صريحة إلى العلم، وإلى القراءة، والكتابة، أي اقرأ يا محمد القرآن، مستعيناً باسم ربك، الذي خلق جميع المخلوقات، ثم فسَّر كيفية الخلق، تفخيماً لشأن (الإنسان) على وجه الخصوص، فقال: ﴿خلق الإنسان من علق﴾ أي خلق جنس الإنسان الذي هو أشرف المخلوقات، بهذا الشكل البديع، من العلقة التي تشبه الدودة الصغيرة، وقد أثبت الطبُّ الحديث، أن النطفة التي خُلق منها الإنسان، تحتوي على حيوانات منوية، تشبه الديدان الصغيرة، لها رأس وذنب، لا تُرى بالعين المجردة، وإنما تُرى بالمجهر الدقيق «الميكروسكوب» واحدٌ من هذه الملايين من الحيوانات المنوية، يلتقي بالبويضة ويدخل الرحم فيعلق بجداره، ومنه يُخلق الإنسان العاقل السميع البصير، فتبارك الله أحسنُ الخالقين!! ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ أي اقرأ يا أيها الرسولُ، وربك العظيمُ الجليلُ الكريم، الذي علَّم البشر القراءة، والكتابة بالقلم، وعلَّم الخلائقَ ما لم يكونوا يعرفونه، من فنون العلوم والمعارف، فنقلهم من ظلمة الجهل، إلى نور العلم والمعرفة، فكما علَّم سبحانه بواسطة الكتابة والقراءة، فإنه يعلِّمك بلا واسطة، وإن كنتَ أمياً لا تقرأ ولا تكتب!! وهذه الآيات الخمسُ المباركات، هي أولُ القرآن نزولاً على خاتم الأنبياء، فقد نزل بها جبريل الأمين، على رسول الله ﷺ وهو يتعبَّد ربه بغار حراء، كما في رواية البخاري ومسلم.. ثم أخبر تعالى عن سبب طغيان الإنسان، فقال سبحانه

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ۝١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ (كلاَّ) للردع والزجر، أي ليرتدع هذا الأحمقُ الجاهل، عن غيّه وضلاله، فإن الإنسان يتكبر ويتجبَّرُ على ربه، ويزيد في الطغيان والفجور، حينما يرى نفسه غنياً، ذا ثروةٍ ومال، وبدلاً عن أن يشكر ربه، يطغى ويفجر ﴿إن إلى ربك الرجعى﴾ هذا وعيد وتهديد، أي تذكَّر أيها الإنسان، أن مرجعك ومصيرك إلى ربك، وسترى حينئذٍ عاقبة طغيانك!! ثم ذكر تعالى صورة من صور الطغيان، ممثَّلة في قصة (أبي جهل) فقال سبحانه ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ الاستفهامُ للتعجيب، أي ألاَ تعجبُ من حال هذا الشقيِّ الضالّ، الذي ينهى أكملَ الخلق في العبودية لله؟ ينهىٰ محمداً ﷺ عن الصلاة، ما أشنعَ فعله، وما أسخف عقله!؟ كأن الصلاة جريمة يستحقُّ فاعلُها أن يُنهىٰ عنها؟ هل هناك أمرٌ أعجب من هذا؟ ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ﴾ أي أخبرني إن كان هذا العبد المصلِّي، الذي تنهاه عن الصلاة، عبداً صالحاً مهتدياً؟ أو كان آمراً بالإخلاص والتوحيد، داعياً إلى الهدى والرشاد، كيف تزجره وتنهاه؟ ما أحمقك يا أيها الغبيُّ الجاهل!! وما أعجب أمرك!! ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ ؟ أي أخبرني عن حال هذا الشقيِّ الضال، إن كذَّب بالقرآن، وأعرض عن الإيمان، ألم يعلم أن الله يراه، وأنه مراقب لأفعاله، وسيجازيه عليها!؟ نزلت هذه الآيات في عدوِّ الله (أبي جهل) قال يوماً لطغاة قريش: هل يعفِّر محمد وجهه بالتراب؟ ـ يعني هل يصلِّي ويضع جبهته على الأرض أمامكم ـ قالوا: نعم، فقال لهم: واللات والعُزَّى، لئن رأيته يفعل ذلك، لأطأنَّ على عُنقه، ولأعفرنَّ وجهه بالتراب!! فأقبل ذات يوم على رسول الله ﷺ، وهو يصلِّي، ليفعل به ما حلف عليه، فما أن اقترب قليلاً من رسول الله ﷺ حتى رجع يهرول، وهو يتقي وجهه بيديه!! فقالوا له: ما لك يا أبا الحَكَم؟ فقال لهم: لقد رأيتُ بيني وبين محمد خندقاً من نار، ورأيت أجنحةً وهولاً، تكاد تختطفني!! فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: لو دنا مني، لاختطفته الملائكةُ عضواً، عضواً) رواه البخاري ومسلم، ففيه نزلت هذه الآيات ﴿أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلَّى..﴾ وهذه الآيات وإن نزلت في حقِّ «أبي جهل» لكنها موعظة

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾

لجميع الخلق، وتهديد لمن يمنع عن الخير والطاعة، فإنه شريكٌ لأبي جهل في هذا الوعيد، وقد احتاط لهذا الأمر بعضُ الأكابر، حتى رُوي عن عليّ رضي الله عنه، أنه رأى في المصلَّى أقواماً، يصلُّون قبل صلاة العيد، فقال: ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ يفعل ذلك!! فقيل له: ألاَ تنهاهم؟ فقال: أخشى أن أدخل تحت وعيد قوله سبحانه ﴿أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى﴾ واستمسك بهذا الأدب الرفيع «أبو حنيفة» رحمه الله، حين سأله تلميذه «أبو يوسف» أيقول المصلّي حين يرفع رأسه من الركوع: اللهمَّ اغفر لي؟ فقال له: يقول: «ربنا لك الحمدُ، ويسجد» ولم يصرِّح بالنهي، خشية أن يكون قد منع من دعاء الخير!! وتختم السورة الكريمة بهذا التهديد السافر، لذلك الشقي الفاجر «أبي جهل» وهو وعيدٌ في غاية الشدة والعنف، فيقول سبحانه ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي لئن لم يكفَّ هذا الشقيّ عن غيِّه وضلاله، فَلَنَسْحَبنَّه من ناصيته ـ مقدمة شعر رأسه ـ ولنقذفنه في نار الجحيم، ذليلاً مهاناً، وصاحبُ هذه الناصية، فاجرٌ كاذبٌ خاطىء، ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ أي فليدع عشيرته وأهل ناديه، لينقذوه من عذابنا، سندعو خزنة جهنم، الملائكة الغلاظ الشداد ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ أي لا تطع يا محمد هذا الشقي، فيما دعاك إليه من ترك الصلاة، واسجد لربك، وواظب على صلاتك، فنحن نرعاك ونحفظك!!

انتهى تفسير سورة العَلَق

● ● ●

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾

تفسير سورة القدر

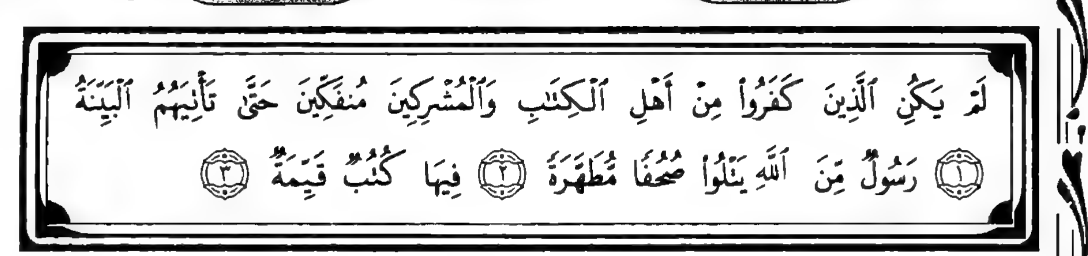
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ أي نحن أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن المعجز، في ليلة القدر والشرف، سميت ﴿ليلة القدر﴾ لشرفها ورفعة قدرها عند الله تعالى، لأنها ليلةُ إشراقِ النور الإلٰهي على أهل الأرض، و(القدر) بمعنى الشرف والرفعة، من قولهم: لفلانٍ قدرٌ عند الأمير، أي له مكانة ومنزلة رفيعة عنده، والمراد بإنزال القرآن: ابتداء نزوله، ثم نزل مفرَّقاً في مدة (٢٣) سنة، **قال ابن عباس**: (أنزل الله القرآن جملةً واحدة، من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم نزل مفرَّقاً بحسب الوقائع، في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ استفهام للتفخيم والتعظيم لشأنها، أي وما أعلمك وأخبرك يا أيها الرسول، ما هي ليلةُ القدر؟ ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي ليلةُ القدر في الشرف والفضل، أفضلُ من عبادة ألف شهر ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي تتنزل الملائكة ومعهم (جبريل) رئيس الملائكة، في تلك الليلة المباركة إلى الأرض، احتفاءً بها، من أجل كلِّ أمرٍ قدَّره الله وقضاه، من الخير والبركة للبشر ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ أي تلك الليلة المباركة ما هي إلاَّ أمنٌ وسلامة، من بدايتها إلى نهايتها، لا يقدِّر الله فيها إلاَّ الخير والسلامة لبني الإنسان، لا يحدث فيها كوارث ونكبات، كالزلازل، والصواعق، والفيضانات، فكلُّها خيرٌ وبركة، والملائكة ومعهم الروح الأمين (جبريل) يصلُّون ويسلِّمون على كل عبدٍ قائمٍ يعبد الله، أو قاعدٍ يذكر الله، ولا ينقطع تنزلهم إلى طلوع الفجر!! ذكر سبحانه من (خصائص) هذه الليلة العظيمة المباركة ثلاثة أمور: **الأول**: أن العبادة فيها تعادل عبادة ألف شهر/ ٨٣/ سنة وأربعة أشهر، فإذا أدرك المسلمُ العابدُ هذه الليلة، وهو في عبادةٍ وطاعةٍ للّهِ، فكأنه عبد الله ألف شهر، **الثاني**: أن ملائكة العرش

والسماء تتنزَّل إلى الأرض احتفالاً بهذه الليلة المباركة، ومعهم (جبريل الأمين) رئيس الملائكة، وهو المسمى بـ (الروح) **ثالثاً**: إن الله يكتب فيها الأمن والسلامة للبشر، ويكون فيها الفرح والابتهاج، لأهل الأرض والسماء، فما أكرمها من ليلة!! وما أعظم وأفخم شأنها عند الله!! رُوي في سبب نزول هذه السورة (أن رجلاً من الأمم السابقة حمل السلاح، وجاهد في سبيل الله ألف شهر، فعجب رسول الله ﷺ وأصحابُه من ذلك، وتمنَّى رسول الله لأمته، أن يبارك اللهُ في أعمارها فقال يا رب: جعلتَ أمتي أقصر الأمم أعماراً، وأقلَّها أعمالاً!! فأعطاه الله ليلةَ القدر، وقال له: ليلةُ القدر هذه، خيرٌ لك ولأمتك من ألف شهر، جاهد فيها ذلك الرجل إلى يوم القيامة!!) رواه ابن أبي حاتم، ورُوي هذا عن ابن عباس، وقال مجاهد: عملُها، وصيامُها، وقيامُها خيرٌ من ألف شهر!! فالحمد لله على نعمه التي لا تحصى، وما خصَّ به الأمة المحمدية من خصائص جليلة في هذا الشهر العظيم المبارك إكراماً لنبيها المعظَّم ﷺ !!

انتهى تفسير سورة القدر

● ● ●



تفسير سورة البينة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

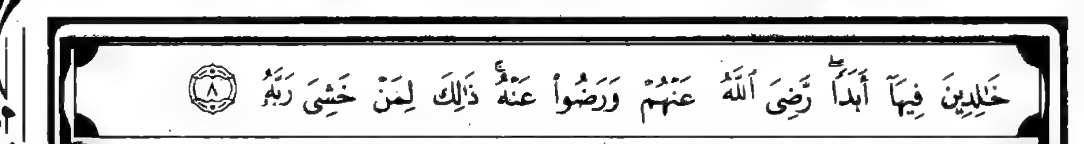
﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ كان المشركون من العرب، وعامة أهل الكتاب يترقبون بعثة خاتم النبيين، الذي بشَّرت به الكتبُ السماوية، فلما بُعِث رسول الله ﷺ كان أول من كفر به، وجحد رسالته ونبوَّته (اليهودُ والنصارى) وهذا هو الذي أشارت إليه السورة الكريمة، **والمعنى**: لم يكن المشركون الوثنيون من العرب، ولا أهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿منفكين﴾ أي منفصلين ومنتهين عمَّا هم عليه من الكفر، حتى يأتيهم خاتم النبيِّين بالحجة الواضحة، وهو (القرآن العظيم) الدال على نبوته ورسالته ﷺ!! ثم بيَّن تعالى ما هي هذه البيِّنة؟ أي الحجة التي يلزمهم بها العودة إلى رحاب الإيمان، وترك الكفر والضلال فقال سبحانه ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ أي هذه البينة هي: بعثةُ (محمد خاتم النبيين) المرسل من عند الله بالبرهان الساطع، وهو القرآن المعجز البيِّن الواضح، يقرأه عليهم نبيٌّ أميٌّ عن ظهر قلب ـ أي غيباً ـ ﴿يتلو صحفاً مطهرة﴾ أي منزَّهة عن الباطل، مطهَّرة عن الكفر والشرك، والزور والبهتان.. سمَّى الله رسوله ﷺ وما جاء به (بيِّنة) لأن أمر نبوته ورسالته عليه السلام، في غاية الوضوح والجلاء، فهو رسول أميٌّ، لا يعرف القراءة ولا الكتابة، جاءهم بكتاب معجز، يحفظه في صدره غيباً، فهذا أعظم دليل وبرهان على صدقه، كما قال سبحانه ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون. بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون﴾ ثم قال تعالى ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي في هذه الصحف المنزلة عليه، أحكامٌ قيِّمة، وأخبار صادقة، وشرائع محكمة، لأنها تنزيل العليم الحكيم، فالمراد بالكتب هنا: الأحكامُ والفرائضُ، التي فرضها الله على عباده، وإنما قال ﴿قيِّمة﴾ لأن القرآن العظيم، جَمَع ثمرات كتب الله المتقدمة، ففيه (القصصُ،

وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾

والأخبار، والأحكامُ، والشرائع، والمواعظ، والزواجر) كما وَصَف هذا القرآن سيِّدُ البشر بقوله (كتابُ الله، فيه نبأ من قبلكم، وخبر من بعدكم، وحكمُ ما بينكم، هو الفصلُ ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه اللهُ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلَّه الله..) الحديث رواه الترمذي، ثم ذكر تعالى سبب جحود أهل الكتاب لرسالته ﷺ، ووضَّح أنه (جحود حسدٍ وعناد)، ولهذا قال سبحانه ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي وما اختلف اليهود والنصارى، في شأن رسالة محمد ﷺ، إلا بعد وضوح الحق، وظهور الأدلة القاطعة، على أنه خاتم النبيِّين، بما يجدونه في كتبهم من ذكره، فكفرهم كان كفرَ جحود وعناد، كما قال سبحانه ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنةُ الله على الكافرين﴾ ثم إنَّ اليهود والنصارى، بانحرافهم عن منهج الله الحقِّ، قد خالفوا كتبهم، فقد زعم اليهود أن «عزير بن الله»، وقال النصارى «المسيح ابن الله» واعتقدوا بالتثليث، وهي عقيدة وثنية، تخالف ما جاءهم به (عيسى) عليه السلام من إخلاص العبادة لله وحده، ولهذا شنَّع عليهم ووبَّخهم تعالى بقوله سبحانه ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ أي وما أُمروا في التوراة والإنجيل، إلا بعبادة الله وحده، وأن يُخلصوا العبادة له جلَّ وعلا، فلا يعبدوا معه غيره!! ولكنهم حرَّفوا وبدَّلوا، فعبدوا عزيراً، وعبدوا المسيح، وجعلوا لله أبناء وشركاء، وأطاعوا الأحبار والرهبان، فيما يدعونهم إليه من الضلال، ومعنى قوله ﴿حنفاء﴾ أي مائلين عن الدين الباطل، إلى الدين الحقِّ، الذي هو دين إبراهيم خليل الرحمٰن، والذي جاء به خاتم المرسلين ﷺ كما قال سبحانه ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ وفي هذا تعريضٌ بهم، بأنهم مشركون لا يعبدون اللّهَ، إنما يعبدون ما زيَّن لهم رؤساؤهم من الأحبار والرهبان ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً﴾ وقولُه سبحانه ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أي وقد أُمروا في كتبهم بأن يحافظوا على الصلاة، ويؤدُّوا الزكاة إلى مستحقيها، عن طيب نفس،

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ

وهذا هو الدين الحقُّ المستقيم، لا ما هم عليه من الدين الأعوج الباطل، المخالف للرسالات السماوية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ كرَّر تعالى وصفهم بالكفر، وقرنهم مع المشركين عَبَدة الأوثان، لينبِّه على أنهم في الكفر والضلال سواء، **والمعنى**: إن هؤلاء الكفار، الذين كذبوا بالقرآن، وبنبوَّة محمد عليه الصلاة والسلام، من (اليهود، والنصارى، وعبدة الأوثان) هؤلاء جميعاً في نار جهنم يوم القيامة، فقد اشتركوا في الكفر، كما اشتركوا في العذاب، ولا ينجيهم من عذاب الله، أنهم أهلُ كتاب، لاعتقادهم الخبيث الشنيع، في ذات الله، فقد زعم النصارى أن الآلهة ثلاثة: (الأب، والابن، وروح القدس)، فآمنوا بعقيدة التثليث، وتركوا عقيدة التوحيد الواضحة الصافية، وكذلك اليهود عبدوا عزيراً، وأنكروا رسالة عيسى ومحمد، فهم كذلك كفرة فجرة، ولهذا قال ﴿أولئك هم شرُّ البرية﴾ أي أولئك شرُّ الخلق على الإطلاق، شرٌّ من البهائم والأنعام، والعجبُ من أناسٍ يزعمون العلم، ويقولون عن اليهود والنصارى، إنهم غيرُ كفار، لأن لهم ديناً سماوياً يتمسكون به، وأنهم يدخلون الجنة كما يدخلها المؤمنون، والله تعالى يقول فيهم ﴿أولئك هم شر البرية﴾ فكيف يدخلون الجنة، والله قد حكم عليهم بالخلود في الجحيم، وجعلهم شرَّ الخليقة على الإطلاق؟ وكيف يدخلون الجنة، وهم يُكذِّبون رسالة خاتم النبيِّين؟ وفي إنكار رسالته ﷺ تكذيبٌ لله تعالى، الذي يقول ﴿محمد رسول الله﴾ وفي الحديث الشريف (والذي نفسي بيده، لا يسمعُ بي أحدٌ من هؤلاء، يهوديٌّ ولا نصراني، ثم لا يؤمن بالذي أُرسلتُ به، إلاَّ أدخله الله النارَ) رواه مسلم.. الله يحكم عليهم بالكفر، وهؤلاء الأذكياء يحكمون لهم بالإيمان، فبكلام من نأخذ؟ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ أي إن المؤمنين الصادقين، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، هم خيرُ الخليقة على الإطلاق، وهم السعداء الأبرار، الذين فازوا بالنعيم الدائم، وعقبى الدار ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي ثوابهم في الآخرة، على ما قدَّموا في

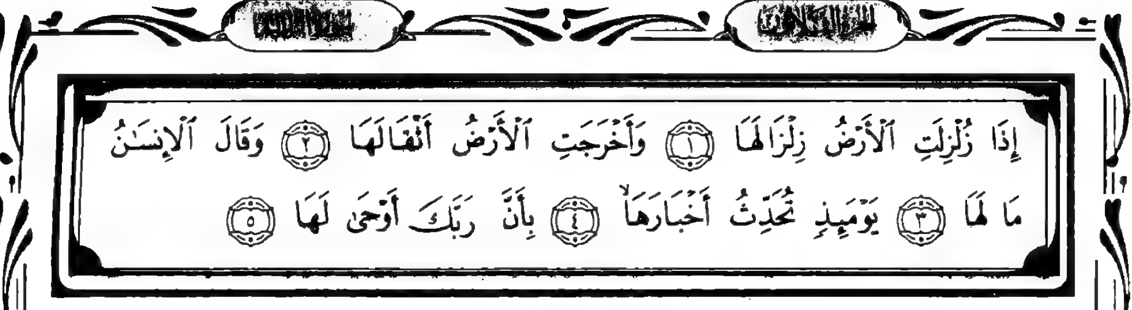


﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾

الدنيا، من الطاعة وصالح الأعمال، حدائقُ وبساتينُ زاهرة ناضرة، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ أي لا يُخرجون منها ولا يموتون، فهم ماكثون فيها أبداً، في أحسن حال، وأطيب مكان، في نعيم دائم لا ينقطع ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ أي نالوا رضى الله، وهم رضوا بما أثابهم تعالى به، من الأجر والكرامة، والعطاء العظيم الجزيل، الذي لا يُتصور، وهذا الجزاء والثواب الحسن، لمن خاف الله واتقاه، وكفَّ عن محارم الله.!

انتهى تفسير سورة البيّنة

● ● ●



تفسير سورة الزلزلة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

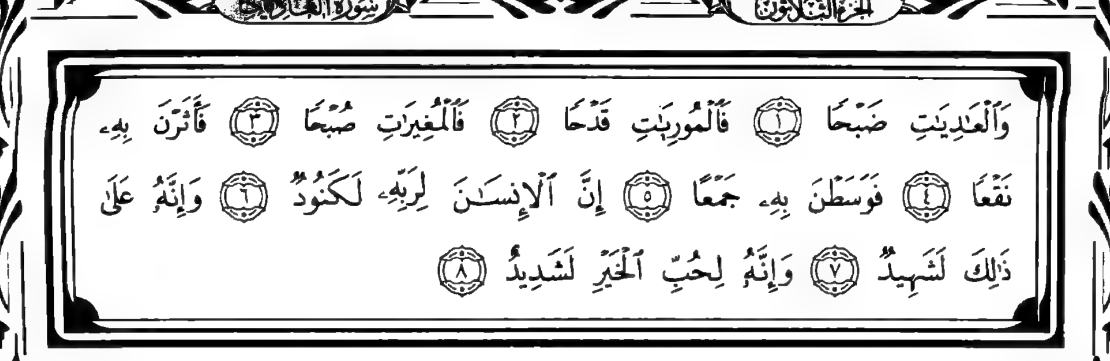
﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ تتحدث السورة الكريمة، عن الزلزال العنيف، الذي يكون وقت قيام الساعة، عند خراب الدنيا، ومجيء القيامة، حيث يندكُّ كل صرح شامخ، وينهار كل جبل راسخ، ويكون من الشدائد والأهوال، ما يطيش له عقل الإنسان، **والمعنى**: إذا تزلزلت الأرضُ، واهتزت بمن عليها اهتزازاً عنيفاً، يقطّع الأكبادَ، ويُفزع الألباب ﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ أي وأخرجت الأرض ما في بطنها من الكنوز، والأموات، والأموال ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ أي وقال الإنسانُ فَزَعاً وهَلَعاً: ما للأرض تزلزلت هذه الزلزلة العظيمة؟ وما لها ألقت ما في بطنها من الموتى والكنوز؟ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب، تخبر الأرضُ عمّا حدث على ظهرها، من خير أو شر، وعمّا فعل الناسُ عليها من جرائم وأعمال قبيحة، وذلك بأمر الله لها، أن تنطق، وأن تُخبر بما حدث وجرىٰ عليها، ومعنى ﴿أوحى لها﴾ أي أذن لها وأمرها أن تتكلم، روى الترمذي والنسائي (أن رسول الله ﷺ قرأ ﴿يومئذٍ تحدث أخبارها﴾ فقال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم!! قال: فإن أخبارها أن تشهد على كلّ عبدٍ وأمة ـ ما عمل على ظهرها، تقول: عَمِل يوم كذا: كذا وكذا، فهذه أخبارها) رواه الترمذي وقد يقول البعضُ: كيف تتكلّم الأرض وتتحدث وهي جماد؟ **والجواب**: إن الذي أنطق الإنسانَ من لسانه، وهو قطعة من لحم، قادر على أن يُنطق الأرض، وهي جماد، ثم إذا كانت أعضاء الإنسان وجوارحه، ستنطق وتشهد عليه يوم القيامة، كما قال سبحانه ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾ وهو خبرُ الله الحقُّ، فكيف لا تنطق الأرضُ؟ وإذا كنا نرى في عصرنا العجب العجاب، نسمع خطاباً لرئيسٍ، أو قارىء، بليت عظامُه تحت الأرض، نرى صورته ونسمع كلامه، وكأنه واقف أمامنا يتكلم،

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

بنبراته، وصوته، وصورته، بواسطة الشريط المسجَّل «الفديو» فكيف نستبعد على قدرة الله أن يُنطق الجماد، ويأمر الأرض بأن تتحدث عمَّا صنع البشر على ظهرها؟ إذا كانت هذه قدرة إنسان، فكيف بقدرة الخالق العظيم، الذي يقول للشيء: كن فيكون!؟ وقد قال الصادق المصدوق ﷺ: (تحفَّظوا من الأرض فهي أُمُّكم، وإنه ليس من أحدٍ، عامل عليها خيراً أو شراً، إلاَّ وهي مخبرةٌ به) رواه الطبراني ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ أي في ذلك اليوم، يرجع الناسُ والخلائقُ من موقف الحساب ﴿**أشتاتاً**﴾ أي متفرقين فِرَقا فِرَقاً، ينصرفون وقد انقسموا إلى جماعتين: أشقياء، وسعداء، ﴿**فريق في الجنة وفريق في السعير**﴾ ثم قال تعالى ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ أي فمن يعمل من الخير، ﴿**مثقال**﴾ أي وزن الذرة من التراب، يجد ثوابه يوم القيامة، ومن يعمل من الشر وزن الذرة من التراب، يجد جزاءه عليه، ولا يضيع عند الله عمل الإنسان مهما كان قليلاً، كما قال سبحانه ﴿**وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين**﴾ فالموازين دقيقة، والمحاسب هو الحكم العدلُ، الذي لا يضيع عنده وزن الذرة.. والسورة تحدثت عن (الزلزلة الكبرى) وقيام الساعة، وبهذه المناسبة فقد حدث في تركيا زلزال عنيف، ذهب ضحيته ما يزيد على (أربعين ألف) نسمة، ودُمِّرت عشرات الآلاف من المنازل، حدث ذلك في ليلة الثلاثاء السابع من شهر جمادى الأولى سنة ١٤٢٠هـ الموافق عام سنة ١٩٩٩م وكان يوماً عصيباً، مفزعاً، حتى ظنَّ الناس أن القيامة قد قامت، وقد كنت في تلك المنطقة، التي حصل فيها الزلزال، وأنا أشتغل في هذا التفسير، واهتزت بنا الأرض اهتزازاً عنيفاً، أيقنَّا في تلك الساعة بالهلاك والموت، ولكنَّ اللَّهُ نجَّاني ونجَّىٰ من معي من المؤمنين، ببركة خدمتي لكتابه العزيز، الذي كنت قد قاربتُ على الانتهاء منه، وكان يوماً عصيباً، والكرب فيه شديد، والحمد لله على فضله وإنعامه، وفي ذلك عبرة وأيُّ عبرة ﴿**فاعتبروا يا أولي الأبصار**﴾!!

انتهى تفسير سورة الزلزلة

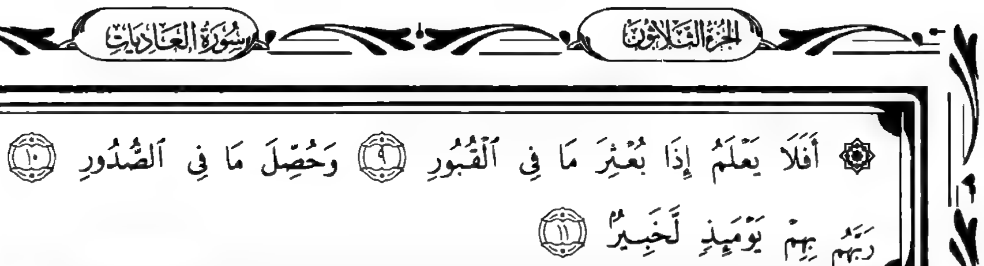
● ● ●



تفسير سورة العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ العاديات: جمع عادية وهي الخيل الجارية بسرعة، والضَّبْحُ: صوتُ أنفاس الخيل، إذا ركضت سريعاً في سباقٍ، أو رَكَضتْ نحو الأعداء ﴿فالموريات قدحاً﴾ أي الخيل التي تقدح بحوافرها الحجارةَ، عند جريها بسرعة، فيتطاير منها الشرر ﴿فالمغيرات صبحاً﴾ أي الخيل التي تُغير على الأعداء، وقت الصباح لتأخذهم على حين غفلة ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ أي أثارت الخيلُ الغُبار الكثير، في ميدان القتال ﴿نقعاً﴾ النَّقعُ: الغبارُ ﴿فوسطن به جمعاً﴾ أي توسطن به جموع الأعداء، في قلب المعركة.. أقسم تعالى في هذه السورة الكريمة، بخيل الغزاة المجاهدين في سبيل الله، حين تُغير على الأعداء، فيُسمع لها عند جَرْيها صوتٌ جهير، أقوى من صوت الصهيل، هو صوتُ أنفاسها، وهي تتسابق لاقتحام الميدان، وتقدح بحوافرها الحجارة، فيتطاير منها الشَّررُ والنارُ، وتثير التراب والغبار، وتهجم على العدوّ وقتَ الصباح، فتوقع فيهم القتل والدمار!! أمَّا المقسمُ عليه، فهو قولُه سبحانه ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ أي طبيعة الإنسان الجُحودُ والتنكُّر لفضل ربه، لا يشكره على نعمه العظيمة، يذكر المصائب، وينسى النعم، وصيغة (كنود) من صيغ المبالغة، ومعناها: شديد الكفر والجحود، قال ابن عباس: (كنود) أي جاحد لنعم الله ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أي وهو نفسُه شاهدٌ على كفره وجحوده، بتصرفاته وأعماله القبيحة، ينفق المال على الشهوات والملذات، ولا يعرف فيه حق الفقير والمسكين ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ المراد بالخير هنا: المالُ أي وإنه لشديدُ الحبِّ للمال، حريصٌ على تكديسه وجمعه كما قال سبحانه: ﴿وتحبون المال حباً جماً﴾ وأمّا



على طاعة ربه وعبادته، فضعيفٌ متقاعس وصدق رسول الله ﷺ حين قال: (لو كان لابنِ آدمَ واديان من ذهب، لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملأُ فَمَ ابنِ آدمَ إلاَّ الترابُ، ويتوبُ الله على من تاب) رواه الترمذي ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي أفلا يعلم هذا الغافل الجاهل، إذا قُلبتِ القبورُ وأُخرج ما فيها من الموتى؟ وكُشف ما في صدور الناس، من الأسرار والخفايا، التي يسرُّونها، وفُضِحوا على رءوس الأشهاد ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أن الله تعالى مطَّلع على جميع ما فعلوه، ومجازيهم عليها، أفلا يخافون الفضيحة أمام الخلائق، وأمام رب الأرباب جل وعلا؟

انتهى تفسير سورة العاديات

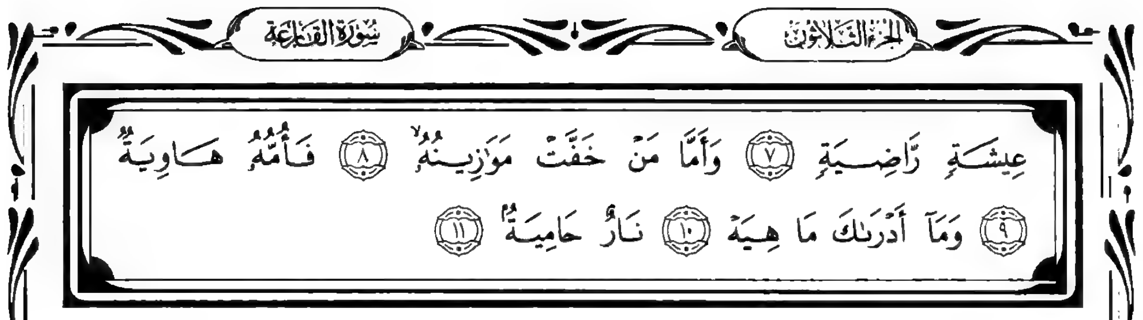
● ● ●

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي

تفسير سورة القارعة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْقَارِعَةُ مَا ٱلْقَارِعَةُ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ للقيامة أسماء عديدة، منها (الصاخة، الطامة، الواقعة، الغاشية، القارعة) والسورة تذكر هنا اسماً من أسمائها وهي (القارعة) سميت بذلك لأنها تقرع الخلائق بأهوالها، وفنون شدائدها وأفزاعها، والاستفهام هنا ﴿ما القارعة﴾؟ للتفخيم والتهويل، والمعنى: هل تدري ما هي القيامة؟ إنها فوق التصور والخيال!! ثم زاد في تهويل أمرها وشأنها فقال سبحانه: ﴿وما أدراك ما القارعة﴾؟ أي هل تعلم ما هي هذه القارعة؟ إنه لا يعلم حقيقة أمرها، ولا مقدار فظاعتها، إلا ربُّ العزة والجلال، إنها لا تُدخِلُ الفزع إلى القلوب فحسب!! بل تُفزع الكون بأجرامه العظيمة، في (كواكبه، وسمائه، وأرضه، وجباله، وبحاره) وفي كل شيء مشاهد للإنسان.. ثم جاء التوضيح لبعض أحداثها وأهوالها، فقال سبحانه ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ أي يوم يخرج الناسُ من قبورهم، فزعين خائفين، كأنهم فراش متفرّق، منتشر هنا وهناك، يموج بعضهم في بعض، من شدة الفزع والاضطراب، يكونون حيارى هائمين على وجوههم، لا يدرون ما يصنعون!! شبَّههم تعالى بالفراش، الذي إذا طار لا يدري أين يتوجَّه؟ وهكذا يكون الناس يوم القيامة، يموج بعضهم في بعض، كما قال سبحانه: ﴿وتركنا بعضهم يومئذٍ يموجُ في بعض﴾ الآية ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ أي وتكون الجبال كالصوف المتطاير، المتناثر في الهواء، ومعنى ﴿العهن﴾ الصوف، شبَّه الجبال وهي متنوعة الألوان، منها الأبيض، والأحمر، والأسود، فعند تطايرها تشبه الصوف الملوَّن، المتناثر في الفضاء، فإذا كان هذا حال الجبال، فكيف يكون حال الرجال؟ ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَهُوَ فِي



﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي فأما المؤمن الذي رجحت حسانه على سيئاته، فهو في ذلك اليوم في لذة، وسعادة، وهناء، يرضى عنها صاحبها، لأنه يكون في جنان الخلد والنعيم!! ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ أي وأمَّا من زادت سيئاتُه على حسناته، وكان كافراً لا يؤمن بالله، فنار جهنم أمُّه ومصيره ومأواه، لا مسكن له غيرها، وهي مأوى الأشقياء المجرمين، تضمُّهم إليها كما تضمُّ الأمُّ أولادها ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ أي وما أعلمك ما هي هذه الهاوية؟ إنها نار متناهية في الحر والشدة!! أجارنا الله وإياكم من نار الجحيم!!

انتهى تفسير سورة القارعة

● ● ●

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

تفسير سورة التكاثر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أي شغلكم أيها الناسُ، التفاخر بكثرة الأموال والأولاد، عن طاعة الله عزَّ وجل، وعن الاستعداد للآخرة، حتى متُّم وأصبحتم من أهل القبور!! وزيارة القبور هنا: كنايةٌ عن الموت، يقال لمن مات: قد زار قبره، ومنه قولُ الأعرابي: (بل هي حُمى تفور، على رجلٍ كبير، تُزيرهُ القبورَ) رواه البخاري ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذا زجرٌ وتهديد، أي ارتدعوا أيها الناس وانزجروا، عن الاشتغال بالدنيا الفانية، وتكديس الأموال والثروات، فسوف تعلمون عاقبة تفريطكم في جنب الله، وغفلتكم عن الآخرة، ثم كرَّر التهديد والوعيد، للتحذير من الغفلة، فقال سبحانه: ﴿ثم كلا سوف تعلمون﴾ أي سوف تعلمون عاقبة تفاخركم إذا نزل بكم الموت، **قال الحسن البصري**: (لا يغرنَّك كثرةُ من ترى حولك!! فإنك تموت وحدك، وتُبعث وحدَك، وتُحاسب وحدكَ) ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي لو علمتم العلم الحقيقي الذي ليس معه شك، وجواب (لو) محذوفٌ تقديره: لو عرفتم ذلك، لما ألهاكم التكاثر بالدنيا، عن طاعة الله، ولما خُدعتم بنعيم الدنيا عن أهوال الآخرة وشدائدها ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ أي أقسمُ وأؤكِّد لكم، بأنكم ستشاهدون نار الجحيم عياناً ويقيناً ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي ثمَّ ترون الجحيم رؤيةً حقيقية، ليس فيها شك، وذلك حين تذوقون عذابها ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي ثم لتسألنَّ في الآخرة، عن نعم الله التي أنعم بها عليكم، من (المال، والأمن، والصحة، ونعمة العقل، والعلم، وسائر النعم، من المطعم، والمشرب، والمركب، والمفرش) ﴿وإن تعدُّوا نعمت الله لا تحصوها﴾ والآية فيمن لم يشكر ربه على

تلك النعم، وعاش عيشة البهائم لبطنه وشهواته، أمَّا من شكر النعمة، فقد أدَّى حقها، كما جاء في الحديث الصحيح (إن الله ليرضىٰ عن العبد أن يأكل الأكلةَ فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها) رواه مسلم، قرأ سيدنا رسول الله ﷺ هذه السورة ﴿ألهاكم التكاثر﴾ فقال عليه السلام: (يقول ابنُ آدمَ: مالي، مالي!! وهل لك يا ابنَ آدم من مالكَ إلاَّ ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدَّقتَ فأمضيتَ)؟ أي قدَّمته لآخرتك فبقيَ ذُخراً لَك، رواه مسلم.

خرج رسول الله ﷺ ذات يومٍ وقتَ الظهيرةِ، لأنه لم يجد في بيته طعاماً يأكله ذو كَبِدٍ، فلقي في طريقه أبا بكر، وعمر، رضي الله عنهما، فقال ﷺ لهما: ما أخرجكما من بيتكما هذه الساعة؟ فقالا: والله يا رسول الله إنما أخرجنا الجوعُ فقال: والذي نفسي بيده، لقد أخرجني الذي أخرجكما!! ـ يعني خرجتُ بسبب الجوع ـ انطلقا معي، فانطلق رسولُ الله ﷺ مع صاحبيه، حتى أتى بستان أبي طلحة الأنصاري، فدخلوا إليه فقال ﷺ: أين أبو طلحة؟ فقالت يا رسول الله: ذهبَ يستعذب لنا الماء ـ أي يأتي لنا بماءٍ عذب للشرب ـ وقدم أبو طلحة فرأى رسولَ الله وأبا بكر، وعمر، ففرح فرحاً شديداً، ثم قال: واللهِ ما أحدٌ أكرمَ أضيافاً منِّي هذا اليوم، فبسط لهم بساطاً، ثم أتى لهم بشيء من الرطب، وأخذ السكِّين ليذبح لهم شاة، فقال له ﷺ: إيَّاكَ والحَلُوبَ ـ أي لا تذبح شاة فيها حليبٌ ـ فذبح الشاة وطَبَخها مع شيء من الشعير المطحون ـ ثم قدَّم لهم الطعام، فلما أكلوا وشبعوا قال ﷺ لصاحبيه: (هذا واللهِ من النعيم، الذي تسألون عنه يوم القيامة، خرجتما جائعَيْن، ثم لم ترجعوا حتى شبعتم من الطعام) رواه مسلم في صحيحه، أو كما قال ﷺ.

انتهى تفسير سورة التكاثر

● ● ●

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

تفسير سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ المرادُ بالعصر هنا: الوقتُ والزمانُ، لأنه رأسُ عُمُرِ الإنسان، فمن ضيَّع عمره في غير ما ينفعُه فقد شقي وخسر، أي أُقسمُ لكم بالدهر والزمان، وما فيه من أصناف العجائب والعِبَر، على أنَّ جنسَ الإنسان، في شقاء وخسران، والمراد بالإنسان: البشر المنحرفون عن منهج الله، العاملون بغير طاعته، لأن الله استثنى من هذا الخسران، المؤمن الصادق المتصف بأربع صفات فقال ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي إلاَّ المؤمن الكامل، الذي تحلَّىٰ بجلائل الأعمال ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي آثروا طاعةَ الله ورضوانَه، على شهوات الدنيا وملذاتها، وأدَّوا ما افترض الله عليهم من أنواع الطاعات والواجبات ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ أي تواصوا فيما بينهم على فعل الطاعات، وترك المحرمات ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أي تواصوا بالصبر على الشدائد والمصائب!! حَكَم تعالى بالخسران على جميع البشر، إلاَّ من أتى بهذه الأمور الأربعة: (الإيمان، العمل الصالح، التواصي بالحق، التواصي بالصبر) وهذه عناصر النجاة، وسبيلُ الخير والسعادة، ولهذا قال الإمام الشافعي: (لو لم يُنزل الله من القرآن، سوى هذه السورة الكريمة، لكفت الناسَ) أي لأنها جمعت وسائل النجاة، وقد كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا، لم يتفرقا حتى يقرأ أحدُهما على الآخر (سورة العصر) إلى آخرها، ثم يُسلِّم أحدهما على الآخر، كما ذكره الحافظ ابن كثير.

انتهى تفسير سورة العصر

● ● ●

وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ﴿٤﴾

تفسير سورة الهمزة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾ (الهُمَزة): الهمَّازُ الذي يغتاب الناسَ ويطعن في أعراضهم، بالسخرية والتهكم، والاحتقار والازدراء، و(اللُّمزَةُ) الذي يلمزهم بعينه وحاجبه أي بالإشارة، استخفافاً واحتقاراً لهم، **والمعنى**: عذابٌ وهلاكٌ ودمار، لكل من يَعيبُ الناسَ ويطعن فيهم، بلسانه، أو بعينه وحاجبه، وصيغة (هُمَزة) و(لُمَزة) للمبالغة، لأنه يدلُّ على الكثرة والاعتياد، فلا يقال: فلانٌ لُعَنة، وضُحَكَة، إلا للمكثر المعتاد، قال الشاعر:

تُـدْلـي بـودِّي إذا لاقـيـتَـنـي كَـذِبـاً: وإن تـغـيَّـبـتُ كـنـتَ الـهَـامِـزَ الـلُّـمَـزَة

نزلت هذه السورة في «الأخنس بن شَريق» أحد صناديد الكفر، وطغاة مكة، كان كثير الوقيعة في الناس، يحتقرهم ويعيبهم، ويطعن في رسول الله ﷺ، حتى صار هذا الأمر طبعاً له وخُلقاً، والحكم عامٌّ لأن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، ولأن الله قال ﴿لكل﴾ وهو لفظٌ يدلُّ على العموم، ثم ذكر من صفات هذا الشقي، بعضَ المعايب والنقائص فقال ﴿ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ﴾ أي جمع المالَ الكثير، وأحصاه وحافظ على عدده، فلم يُنفق منه في وجوه الخير، شُحاً وبُخلاً، ولم يعرف فيه حقَّ اليتيم والمسكين، **قال ابن كعب**: «شَغَله مالُه بالنهار، يجمع ويكدِّس هذا إلى هذا، فإذا جاء الليلُ نامَ، كأنه جيفةٌ منتنة» ﴿يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ﴾ أي يظنُّ هذا الأحمقُ الجاهل ـ لفرط غفلته وفساد عقله ـ أن المالَ سيتركُه مخلَّداً في الدنيا لا يموت، كأن المال وثيقةُ ضمان لحياته وخلوده ﴿كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ أي ليرتدعْ هذا الجاهل، عن هذا الظنِّ الخائب، فواللهِ لنطرحنَّ هذا الشقيَّ في النار، التي تحطمُ كلَّ ما يُلقى فيها، وعبَّر بالنبذ ﴿لينبذنَّ﴾ للاستخفاف والاحتقار، كأنه لمهانته حصياتٌ، أخذهنَّ واحدٌ فطرحهنَّ في مكان مهين، أو رمىٰ بهنَّ في البحر، جزاء

وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ۝٩

ترفُّعه على الناس وتكبُّره ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾؟ استفهامٌ للتهويل والتفظيع لأمر جهنم، أي وما أعلمكَ ما حقيقةُ هذه النار الفظيعة؟ إنها نار جهنم «الحُطَمة» التي تحطم العظام، وتأكل اللحوم، وتمزِّق الأشلاء، وتهجم على القلوب، حتى تكاد تبتلع من يُلقى فيها.. ثم بيَّنها تعالى ووضَّحها بقوله ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ﴾ أي هي نار الله المستعرة المؤجَّجة، ليست كسائر نيران الدنيا، فهي لا تهدأ ولا تخمد أبداً، كما قال سبحانه: ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور﴾ وقد جاء في الحديث (أن جهنم أُوقد عليها مائةُ عام حتى اسودَّتْ، فهي سوداء مظلمة) رواه الترمذي ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ أي يبلغ ألمها وإحراقُها إلى القلوب فتحرقها، وخصَّ (الأفئدة) بالذكر، لأن الألم إذا وصل إلى القلب مات صاحبُه، ولكنهم في حالة من يموت ولا تُزْهَ قُ روحُه، كما قال سبحانه ﴿فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا﴾ فهم أحياء في صورة الأموات ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ أي إن جهنم ﴿مؤصدة﴾ أي مغلقة عليهم، لا يدخل إليهم روح ولا ريحان، وهم في ﴿عَمَد ممددة﴾ أي مقيَّدون بالسلاسل والأغلال، تُشدُّ بها أيديهم وأرجلهم، مع الأغلال في الأعناق، كما قال سبحانه: ﴿فسوفَ يعلمون * إذِ الأغلالُ في أعناقِهمْ والسَّلاسلُ يُسْحَبون * في الحميم ثمَّ في النَّار يُسْجَرون﴾ هذا وقد أُغلقت عليهم أبواب جهنم، فلم يعد لهم أملٌ في الخروج!!

انتهى تفسير سورة الهُمَزة

● ● ●

أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ﴿٢﴾ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ﴿٥﴾

تفسير سورة الفيل

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾؟ أي هل بلغك يا أيها الرسول، ماذا فعل ربك العظيم الجليل بأصحاب الفيل؟ ﴿أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ﴾ أي ألم يدمِّرهم ويُهلكهم عن بَكْرة أبيهم؟ ويجعل سعيهم لتخريب الكعبة، في ضياع وخسار ﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ﴾ أي أرسل عليهم طيوراً، أتتهم جماعات جماعات متفرِّقة، بعضها عَقِبَ بعض، وهذا معنى ﴿أبابيل﴾ أي جماعات، جماعات، أحاطت بهم من كل جهة وجانب ﴿تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ﴾ أي تقذفهم بحجارة صغيرة، من طين شديد متحجِّر، كأنها رصاصات قاتلة، لا تصل إلى أحدٍ إلاَّ أماتته وقتلته ﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾ أي فجعلهم كورق الشجر المتساقط، الذي عصفت به الريح فطيَّرته، أو كطعام أكلته الدواب ثم أخرجته قَذَراً، ولم تُبق له أثراً!! لمَّا أهلكَ الله أصحاب الفيل، ومزَّقهم شرَّ ممزَّق، عزَّتْ قريش وهابهم الناسُ، وصارت لهم في نفوس الخلق مكانة ومنزلة، فذكَّرهم الله بهذه القصة، ليعلموا حرمة بيته، وقدر نبيِّه، ويكفُّوا عن الكفر والإشراك، وكان ذلك الحَدَثُ التاريخي، في عام مولد الرسول الأعظم عليه الصلاةُ والسلام، وكان ذلك من أعظم الإرهاصات بنبوته، إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المذكور، من خوارق العادات المتقدمة بين أيدي الأنبياء عليهم السلام، وقد أهلك الله الذين قصدوا الكعبة بسوء، بأضعف جنوده، بالطير التي كانت تحمل الحجارة الصغيرة، ولكنها كانت أشدَّ فتكاً وتدميراً من الرصاصات القاتلة. **ذكر القصة**: رُوي أن (أبرهة الأشرم) ملك اليمن، بنى (كنيسة) عظيمة بمدينة (صنعاء) وأراد أن يصرف إليها الحجيج، وزيَّنها بالرخام والجواهر الثمينة، وسمع بذلك العرب، فجاء رجلٌ من بني كنانة، فدخل الكنيسة ليلاً، فتغوَّط فيها، ولطخ جدرانها بالنجاسة والقذر، احتقاراً لها، وبلغ الخبرُ إلى «أبرهة»

فغضب، وحلف أن يهدم الكعبة حجراً حجراً، وجاء الطاغيةُ الجبَّارُ (مكة) بجيش عرمرم، يركبون على الفيلة، ولما اقتربوا من مكة فرَّ أهلها إلى الجبال، خوفاً من جبروت (أبرهة) وجيشه، فأرسل الله عليهم طيوراً تحمل في مناقيرها وأرجلها الحجارة، ترميهم بها وهي من ﴿سِجّيل﴾ أي من طين متحجر، حتى أبادهم الله وأهلكهم جميعاً، وجعلهم عبرة لمن يعتبر. !

انتهى تفسير سورة الفيل

● ● ●

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤﴾

تفسير سورة قريش

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ معنى الإيلاف: الإلفُ والاعتياد، واللام متعلقة بالفعل بعدها ﴿فليعبدوا﴾ والمعنى: من أجل تيسير الله على قريش وتسهيله لهم، ما كانوا يألفونه من رحلتي الشتاء والصيف.. في الشتاء إلى (اليمن)، وفي الصيف إلى (الشام)، حيث كانوا يسافرون للتجارة، فيأتون بالأطعمة والثياب، ويربحون وهم آمنون مطمئنون، لا يتعرَّض لهم أحد بسوء، لأن الناس كانوا يقولون: هؤلاء جيران بيت الله، وسُكَّانُ حَرَمه!! فلذلك جاء الامتنان عليهم، تذكيراً لهم بالنعم، ليوحِّدوه ويشكروه ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾ دخلت الفاء لأن فيها معنى الشرط، كأنه قال: إن لم يعبدوه لسائر نعمه الجليلة، فلْيعبدوه من أجل هذه النعمة، حيث فتح لهم أبواب الرزق، في هاتين الرحلتين، معِ الأمن والسلامة، والناسُ من حولهم يُتَخطَّفون!! ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ أي هذا الإله العظيم، الذي أطعمهم وهم جياع، لأنهم في بلدٍ ليس فيه زرعٌ ولا ضرع، وآمنهم في بلادهم من الأعداء، أفيؤمنون بالأصنام والأوثان، ويكفرون بالرحمن؟ فهلاَّ شكروا ربهم على نعمة الغنى واليسار، ونعمة الأمن والاستقرار!!

لقد كانت عنايةُ الله بالبيت الحرام وساكنيه، في غاية السمو والعظمة، حتى أهلك الله من قصده بسوء، وحمى أهله من جبروت (أبرهة الأشرم) في الوقت الذي عجزوا فيه عن الوقوف في وجه أصحاب الفيل، فكان يقتضيهم هذا شكر ربهم على نعمه الجليلة، بدل الكفر والتكذيب لرسوله!! قرأ ﷺ هذه السورة ﴿لإيلاف قريش. إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾ فقال: (ويحكم يا معشر قريش، اعبدوا ربَّ هذا البيت، الذي أطعمكم من جوع، وآمنكم من خوف)!!

انتهى تفسير سورة قريش

● ● ●

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

تفسير سورة الماعون

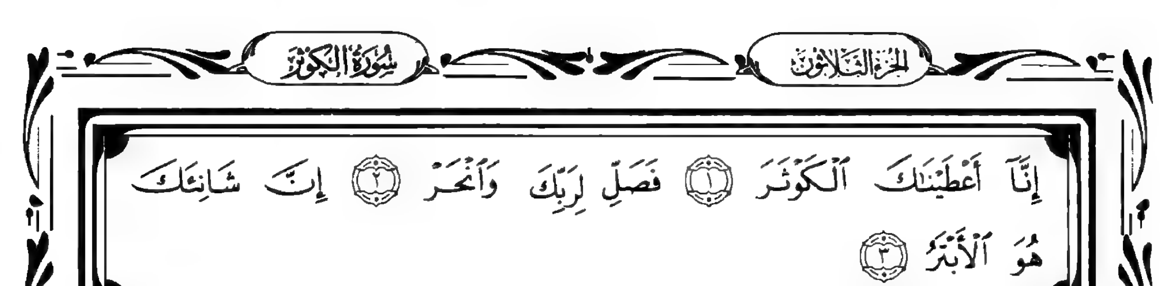
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾؟ استفهام للتعجيب والاستغراب، أي هل عرفت الذي يكذِّب بيوم الحساب والجزاء؟ هل عرفته وعرفتَ أوصافه القبيحة؟ إن أردتَ أن تعرفه، ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ فذلك هو الغليظ القاسي، الذي يدفع اليتيم بجفاء وغلظة، ويظلمه ولا يعطيه حقه ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي لا يفعل الخير، ولا يحثُّ غيره على الإحسان، وهذا نهايةُ الخِسَّة والدناءة، فإذا امتنع عن حثِّ غيره، على إطعام المسكين، فكيف يُطعمه هو من ماله؟ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أي هلاكٌ وعذاب ودمار، للمصلِّين الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها، وهم لاهون عنها، لانشغالهم بتجاراتهم وشهواتهم، وهذه صفة المنافقين، يصلُّون رياءً وسمعة، ولا يهتمُّون بها.

قال ابن عباس: هو المصلِّي الذي إن صلَّى لم يرجُ لها ثواباً، وإن تركها لم يخشَ عليها عقاباً، لأن قلبه خلا من الإيمان، ويدلُّ عليه قوله تعالى بعده ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ أي هم المنافقون المراءون، الذين يصلُّون رياءً، ليتظاهروا بالتقى والصلاح، ويمنعون الناسَ إعارة المنافع اليسيرة، كالإبرة، والفأس، والقِدْر، ورغيف العيش، و﴿الماعونُ﴾: كلُّ ما فيه منفعة للغير، وقد دلت الآيات على أنها في المنافقين، ففي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال (تلك صلاةُ المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقبُ الشمسَ، حتى إذا كانت بين قرنيْ الشيطان، قام فنقر أربعاً - يريد صلاة العصر - لا يذكر الله فيها إلاَّ قليلاً)!! رواه البخاري، **قال بعضُ السلف**: الحمد لله الذي قال ﴿عن صلاتهم ساهون﴾ ولم يقل: في صلاتهم، وإلاَّ هلك الناسُ؛ لأنه لا يخلو أحدٌ من السَّهو.!

انتهى تفسير سورة الماعون

● ● ●



تفسير سورة الكوثر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ الخطاب للرسول الأعظم ﷺ، تكريماً لمقامه الرفيع، وتشريفاً له، أي نحن أعطيناك يا محمد الخيرَ الكثير، والفضل العميم، فلا تُبال بما يقوله لك السفهاء الجهلاء، ومن هذا الخير الكثير (نهر الكوثر) الذي من شرب منه شربةً واحدة، لم يظمأ بعدها أبداً ﴿فصل لربك وانحر﴾ أي اجعل صلاتك لربك وحده، الذي أفاضَ عليك ما أفاض من الخير والكرامة، وانحر البُدْن ـ الإبل ـ لوجهه لا لغيره، واجعل أعمالك كلَّها خالصة لربك، شكراً له على ما أولاك من الخير الكثير!! والمراد بالكوثر: الخير الكثير، وهو مبالغة من الكثرة، ومن فسَّره بالنهر، فإنما فسَّره ببعض ما يشمله اللفظ، **روى البخاري عن ابن عباس** أنه قال في تفسير الكوثر: (هو الخيرُ الكثيرُ الذي أعطاه الله إيَّاه!! قال بِشرٌ ـ راوي الحديث ـ قلتُ لسعيد بن جُبير: إن الناس يزعمون أنه نهرٌ في الجنة!؟ فقال ابنُ جُبير: النهرُ الذي في الجنة، من الخير الذي أعطاه الله إيَّاه) ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ أي إن مبغضك يا محمد، هو الأبترُ المنقطعُ من كل خير، ومعنى ﴿الأبتر﴾: المنقطعُ، من البتر بمعنى القطع، نزلت في (العاص بن وائل) وذلك لمَّا مات ابنُ النبي ﷺ (القاسم) قال هذا الشقيُّ: دعوه فإنه رجلٌ أبتر، لا نسل له، فإذا مات انقطع ذكره، فأنزل الله هذه السورة دفاعاً عن رسوله، وأخبر تعالى أن ذلك الفاجر الكافر، هو الأبتر الذي لا خيرَ فيه، المقطوع من رحمة الله عزَّ وجل، أمَّا رسول الله ﷺ فذكره باقٍ، دائم، خالد إلى آخر الدهر، واسمه الطاهر مرفوع على المآذن، والمنابر، مقرون باسم الله عزَّ وجل (لا إله إلا الله محمد رسولُ الله) والمؤمنون من زمانه إلى يوم القيامة، أبناؤه، وأنصارُه، وأتباعُه، وهو كالوالد لهم ﴿النبيُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ صلوات ربي وسلامُه عليه في كل وقت وحين!! وقد ورد في وصف نهر الكوثر ـ الذي هو من جملة ما

خصَّ الله به هذا النبي الكريم، من أنواع الكرامات ـ أحاديث كثيرة وشهيرة، منها ما رواه الترمذي في سننه: (الكوثرُ نهرٌ في الجنة، حافتاه من ذهب، ومجراه على الدرِّ والياقوت، تربتُه أطيبُ من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيضُ من الثلج) وفي البخاري عن أنس (لمَّا عُرج بالنبي ﷺ قال: أتيتُ على نهرٍ حافَّتاه: قبابُ اللؤلؤ المجوَّف، آنيتُه كعدد النجوم، قلتُ: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك) رواه البخاري.

اللهم اسقنا من نهر الكوثر، شربة هنيئةً مريئة، لا نظمأ بعدها أبداً، يا أرحم الراحمين!! وصلِّ على خاتم النبيِّين، الذي خصصتَه بالمقام المحمود، وأعطيته الحوض والكوثر.

انتهى تفسير سورة الكوثر

● ● ●

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

تفسير سورة الكافرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ هذه السورة الكريمة، سورة التوحيد الخالص، والبراءة من الشرك والوثنية، وقد رُوي في سبب نزولها، أن المشركين دَعَوْا رسول الله ﷺ، إلى الصلح والمهادنة، وعرضوا عليه خطةً سخيفة، هي (أن يعبدوا إلهه سنةً، ويعبد آلهتهم سنة) كأن القضيَّة قضية مزايدة ومساومة!! فقال لهم عليه السلام: معاذَ الله أن نُشرك بالله شيئاً!! فقالوا: فاستلمْ بعضَ آلهتنا، وتمسَّح بها، نصدِّقْكَ ونعبد إلهك، فامتنع ﷺ عن التمسُّح بها، أو ذكرها بشيءٍ من الثناء، فنزلت السورة الكريمة، فغدا إلى المسجد الحرام، وفيه الملأ من أشراف قريش وصناديدها، وقام على رؤوسهم فقرأها عليهم، فيئسوا منه، وآذوه وأصحابه أشدَّ الأذى، **والمعنى**: قل يا أيها الرسول، لهؤلاء الكفار الفجار، الذين يدعونك إلى عبادة الأحجار: لا أعبد هذه الأوثان والأصنام، التي تعبدونها، من دون الرحمن، وأنا بريء منكم، ومن آلهتكم ومعبوداتكم، التي لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تدري من دَعَاها، ممن دَحَاها!! أي دحرجها ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي ولا أنتم يا معشر المشركين، عابدون إلهي الحقّ، الذي أعبده وأتوجه في صلاتي إليه، فربكم غيرُ ربي، ودينكم غيرُ ديني، أنا أعبد الرحمن، وأنتم تعبدون الأوثان، وشتَّان شتَّان بينهما!! ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي ولا أنا في المستقبل، عابدٌ آلهتكم المزيَّفة أبداً ما عشتُ، كما أنكم لا تعبدون إلهي الحق الذي أعبده، لغاية ضلالكم وطغيانكم ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ أي لكم شرككم ودينكم الأعوج، ولي ديني الذي أكرمني الله به (الإسلام) فأنا بريء منكم، ومن أصنامكم ومن كل ما عبدتموه من دون الله،

لا معبودنا واحدٌ، ولا عبادتنا واحدة!! قال البخاريّ في كتاب التفسير ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ الآن ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ أي لا أجيبكم فيما بقي من عُمري) وفي خطابه ﷺ لهم بلفظ ﴿يا أيها الكافرون﴾ وهو يعلم أنهم يغضبون من ذلك، أكبرُ برهان، على أنه محروسٌ من الرحمن، إذ كيف يمكن لشخص واحدٍ، شخصٍ فريد مستهدف، أن يجابه طواغيت قريش بهذه المجابهة القوية الشديدة، ويسمعهم هذه الكلمات التي تجرح كبرياءهم، لو لم يكن محفوظاً من عند الله عزَّ وجلَّ!!

فالحمد لله الذي فَرَق بين الحق والباطل، والهدى والضلال.!

انتهى تفسير سورة الكافرون

● ● ●

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾

تفسير سورة النصر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ بشارةٌ كريمة، وخبرٌ سارّ، وتوجيه رشيد، إلى النبي الحبيب، يبشِّره فيه ربه بالفتح الأعظم (فتح مكة) وهذا الإخبار بفتح مكة قبل وقوعه، من أظهر الدلائل، وأوضح البراهين، على صدق نبوَّة خاتم المرسلين ﷺ، وقد أجمع المفسرون على أن المراد بالنصر هنا (فتح مكة) **والمعنى**: إذا نصرك الله يا محمد، على أعدائك المشركين، وفتح الله عليك «أم القرى» مكة المكرَّمة، ذلك الفتح الأكبر، الذي يترقّبه أتباعك المؤمنون ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ أي ورأيت العرب، وسكان الجزيرة من حولك، يدخلون في الإسلام، جماعات جماعات، من غير حرب ولا قتال ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ أي سبِّح ربك العظيمَ الجليل وعظِّمْه على هذه النعم الجليلة، واشكره على نصرك على أعدائك، وإظهاره لدينك، واطلب منه المغفرة والتوبة لك ولأمتك، إنه سبحانه واسع الرحمة، عظيم التوبة، كثير المغفرة والإحسان.. هذه السورة تُسمَّى سورة (النصر) وسورة (البشارة) وسورة (التوديع) وفيها نعيُ النبي ﷺ، والتنبيهُ له بقرب وفاته ﷺ، ولهذا لمَّا نزلت هذه السورة الكريمة قال الرسول ﷺ لعائشة: ما أُراه إلاَّ قد حضر أجلي!! وخرج ﷺ كالمودِّع لأصحابه، فخطب فيهم فقال: (إن الله خيَّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله!! فبكى أبو بكر رضي الله عنه وقال: فديناك بأنفسنا، وآبائنا، وأولادنا يا رسول الله!! قال الراوي: فعجبنا لبكائه أن يُخيِّر الله عبداً من عباده، ويبكي له أبو بكر، فكان رسولُ الله ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكر أعلَمنا) رواه البخاري.. ورُوي عن ابن عباس أنه قال: (كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ـ وكان شاباً صغيرا السنّ ـ فكأنَّ بعضهم وَجَد في نفسه، فقال: لمَ تُدخل معنا هذا؟ ولنا أبناء مثلُه؟ فقال لهم عمر: إنه من حيث علمتم!! فدعاني ذات يوم فأدخلني

معهم، فقال لهم عمر: ما تقولون في قول الله تعالى ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ فقال بعضُهم: أُمرنا أن نحمدَ اللهَ ونستغفره، إذا نصرنا اللهُ وفتح علينا المدائنَ والقصورَ!! وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلتُ: لا يا أميرَ المؤمنين!، قال: فما تقول؟ قلتُ: هو أجلُ رسول الله ﷺ ـ أي إشارة إلى انتهاء عمره ـ أعلَمَه له، قال: إذا جاء نصرُ الله والفتحُ، وذلك علامةُ أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره!! فقال عمر: ما أعلمُ منها إلاَّ ما تقول) رواه البخاري، وقالت عائشة: كان ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: (سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي، يتأوَّلُ القرآن) رواه البخاري، وقد كان الأمر كذلك، فقد انتقل ﷺ، إلى جواربه، بعد (حجة الوداع) بفترة وجيزة هي (٨٠) يوماً، ودُفن في الروضة الشريفة، فكان ذلك تأويلاً لهذه السورة الكريمة، وكان يوماً حزيناً، بالغ الوقع والتأثير على نفوس المسلمين، حتى كادوا يفقدون رشدهم، روى الترمذي عن أنس أنه قال: (لمَّا كان اليومُ الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة، أضاء منها كلُّ شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه، أظلم منها كلُّ شيء، وما نفضنا الأيدي من دفن رسول الله ﷺ ـ وإنا لفي دفنه ـ حتى أنكرنا قلوبنا)!!

انتهى تفسير سورة النصر

● ● ●

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢

تفسير سورة المسد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ نزلت هذه السورة في حقِّ الشقي «أبي لهب» كان شديد العداء لرسول الله ﷺ، يترك شغله وعمله، ليفسد على الرسول ﷺ دعوته، ويصدَّ الناسَ عن الإيمان به، **والمعنى**: هلكت يدا ذلك الشقيِّ، وخاب وخسر، وضلَّ عملُه وسعيُه، وعبارة ﴿وتب﴾ إخبارٌ، أي وقد هلك وخسر فعلاً، الأول دعاء، والثاني إخبار، كما يُقال: أهلكه الله وقد هَلَك، وسبب هذا الدعاء بالهلاك، ما رواه البخاري عن ابن عباس أنه قال: لمَّا نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف يا صباحاه!! فاجتمعت إليه قريش، فقال لهم ﷺ: أرأيتم إن حدَّثتُكم، أن العدوَّ مُصَبِّحكم أو مُمسِّيكم، أكنتم تصدِّقوني؟ قالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك كذباً!! قال: فإني نذير لكم بين يديْ عذاب شديد!! فقال أبو لهب: تباً لك يا محمد ألهذا جمعتنا، فأنزل الله تعالى ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾ رواه البخاري، ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ أي لن ينفعه مالُه الذي جمعه، ولا جاهه وعزُّه الذي اكتسبه، وفسَّر ابن عباس ﴿وما كسب﴾ أي ما رُزقه من أولاد، قال: فإن ولد الرجل من كسبه، قال ابن مسعود: كان أبو لهب يقول: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً، فإني أفتدي نفسي يوم القيامة بمالي وولدي، فأنزل الله ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ قال المفسرون: (كان لأبي لهب ثلاثةُ أبناء: «عُتْبة» و«معتِّب» و«عُتيبة» أسلم الأولان يوم فتح مكة، وأمَّا «عُتيبة» فلم يُسلم، وكانت «أم كُلثوم» بنت رسول الله ﷺ عنده، وأختها «رقيَّة» عند أخيه «عُتْبة» فلمَّا نزلت السورة في حقِّ (أبي لهب) قال أبوهما: رأسي من رأسكما حرام ـ أي لا أراكما ولا أكلِّمكما ـ إن لم تطلِّقا ابنتيْ محمد!! فطلَّقاهما، ولما أراد الشقي «عُتيبة» الخروج إلى الشام مع أبيه، قال لآتينَّ محمداً فلأوذينَّه في نفسه ودينه، فأتاه فقال يا محمد: إني كافرٌ بالنجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلَّى، ثم بصق أمامه، وطلَّق ابنته «أم كلثوم» فدعا عليه رسول الله ﷺ قال:

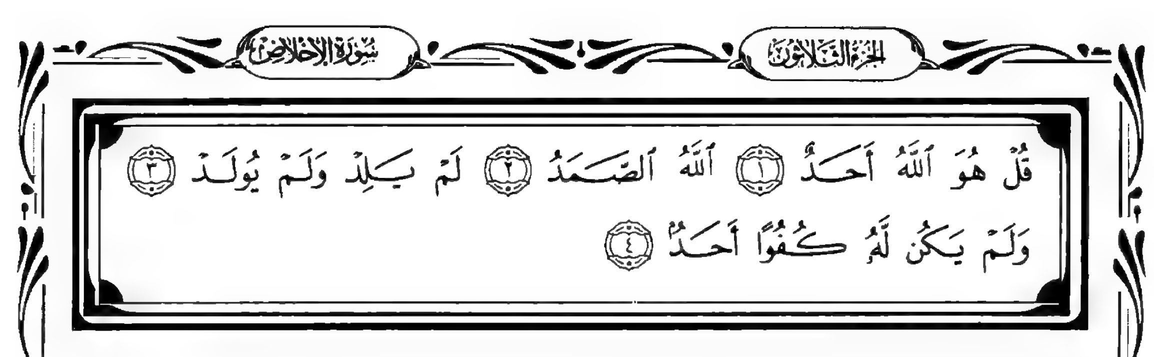
سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾

(اللهمَّ سلِّطْ عليه كلباً من كلابك) فافترسه الأسد، وهلك «أبو لهب» بعد وقعة بدر بسبع ليالٍ، بمرضٍ معدٍ يسمى «العدسة» وبقي ثلاثة أيام لا يقربه أحدٌ حتى أنتن، فلما خاف قومُه العارَ، حفروا له حُفرة، ودفعوه إليها بأخشاب طويلة غليظة، حتى وقع فيها، ثم قذفوا عليه الحجارة حتى واروه فيها، ولم يحمله أحد خشية العدوى، فهلك كما أخبر عنه القرآن الكريم، ومات شرَّ مِيتة ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي سيحرق بنار حاميةٍ شديدة، ذات اشتعال وتوقُّدٍ عظيم، وهي نارُ السعير، وإنما قال ﴿ذات لهب﴾ للتناسب بينها وبين كنية الشقي، فالنار ذاتُ اللهب، للشقي الفاجر الخاسر «أبي لهب» ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ أي وستدخل معه نار الجحيم، امرأته العوراء، «أمُّ جميل» والأولى أن تسمى «أمّ قبيح» ﴿حمالة الحطب﴾ أي التي كانت تحمل حزمةً من الشوك والحسك، فتنثرها بالليل في طريق النبي ﷺ لإيذائه، فقد كانت خبيثةً مثل زوجها، كما قال سبحانه ﴿الخبيثاتُ للخبيثين والخبيثون للخبيثات﴾ وتأويلُ الآية بهذا التأويل، يكون على الحقيقة، **وقال ابن عباس ومجاهد**: ﴿حمالة الحطب﴾ كانت تمشي بالنميمة بين الناس، وتوقد بينهم نار البغضاء والعداوة، فيكون هذا القول من باب «الاستعارة والتمثيل» مثَّل للفتنة بمن يضع الحطب في النار لإضرامها» كما قال الشاعر: «ولم يمشِ بين الناس بالحطب الرَّطْب» أي لم يمش بالنميمة ﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ الجيدُ: العُنق، والمَسَدُ: الشوكُ، أي في عنقها حبلٌ من شوكٍ وليفٍ، تُعذَّب به يوم القيامة، لوضعها الشوك في طريق الرسول ﷺ، ويحكى أنه كان لها قلادة فاخرة من جوهر، فقالت: واللاتِ، والعُزَّى، لأنفقنَّها في عداوة محمد، فأعقبها اللهُ حبلاً في عنقها من مَسَد جهنم، ومن عجائب القصص والأخبار، أن امرأة «أبي لهب» لما سمعت ما أنزل الله في حقِّ زوجها وفيها، أتت رسولَ الله ﷺ، وهو في المسجد الحرام، ومعه أبو بكر الصدِّيق، وفي يدها فِهْرٌ ـ أي قطعة حادة من الحجر تشبه السكيِّن ـ فلما دنت من الرسول أعمى الله بصَرَها عنه، فلم تر إلاَّ «أبا بكر» فقالت يا أبا بكر: بلغني أن صاحبك يهجوني أنا وزوجي، فوالله لئن وجدتُه، لأضربنَّ بهذا الحجر وجهه، ثم أنشدت تقول: (مُذمَّماً عَصَينا، وأمرَه أبينا، ودينه قَلَينا) أي أبغضنا ثم انصرفت، فقال أبو بكر يا رسول الله: أما تراها رأتك؟ قال: ما رأتني!! لقد أعمى الله

بصرها عني، وكان المشركون يسبُّون الرسول ويقولون: (مذمماً) بدل قولهم (محمداً) فقال ﷺ: ألا تعجبون كيف صرف الله عني أذاهم؟ إنهم يسبون ويهجون مذمماً، وأنا محمد!!

انتهى تفسير سورة المَسَد

● ● ●



تفسير سورة الإخلاص

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ بدأ الله السورة الكريمة ببيان صفاته القدسية، وذاته العليَّة، أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين، المنكرين لوحدانية ربِّ العالمين: إن ربي الذي أعبده، وأدعوكم لعبادته، هو ربٌّ عظيم جليل، متصفٌ بكل صفات الكمال، فهو واحد أحد، فرد صمدٌ، ومعنى (أحد) أي واحد، واحدٌ في ذاته، وواحد في صفاته، وواحد في أفعاله، لا شبيه له ولا مثيل ولا نظير، ومعنى ﴿الصمد﴾ قال البخاري: «هو السيِّدُ الذي انتهى إليه السُّؤددُ، والعربُ تسمي أشرافها: الصَّمد» وفي الحديث الشريف (يقول الله تعالى ـ يعني في الحديث القدسي ـ كذَّبني ابنُ آدم، ولم يكن له ذلك ـ أي لا ينبغي له أن يكذِّبني ـ وشتَمني ولم يكن له ذلك، أمَّا تكذيبُه إيَّاي فقولُه: لن يعيدني كما بدأني، وليسَ أولُ الخلق بأهون عليَّ من إعادته!! وأمَّا شتمه إيَّاي فقوله: اتخذ الله ولداً!! وأنا الأحد الصَّمد، الذي لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفواً أحدٌ) رواه البخاري.

أما سبب نزول السورة: فقد رُوي أن بعض المشركين، جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد: صفْ لنا ربَّك: أمن ذهب هو؟ أم من فضة؟ أم من ياقوت؟ أم من زبرجد؟ فأنزل الله تعالى ﴿قل هو الله أحد﴾ السورة، ثم قال تعالى: ﴿الله الصمد﴾ هو سبحانه السيِّدُ الذي تُصمد إليه الحاجاتُ، أي تُطلب منه الحاجات، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ أي ليس له أبناء، ولا بنات، كما أنه لم يولد من أبٍ ولا أم، لأن كل مولودٍ حادث، والله أزليٌّ قديم، فالجملة الأولى ﴿لم يلد﴾ نفيٌ للذرية والبنين، والجملة الثانية ﴿ولم يولد﴾ نفيٌ للوالديَّة، أي ليس له تعالى والد، فإنه لم يولد من أب ولا أم ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ أي وليس جلَّ وعلا شبيهٌ، ولا مثيلٌ، ولا نظير، وهو مالكُ كلِّ شيء وخالقُه، فكيف يكون من

خلقه نظيرٌ يساميه، أو قريب يدانيه؟ والسورة الكريمة ردَّتْ على فِرَق أهل الضلالة جميعاً (اليهود، والنصارى، والمشركين عبدة الأوثان) فاليهود قالوا «عزير ابنُ الله» والنصارى قالوا: المسيحُ ابنُ الله، والمشركون قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، فكذَّبهم الله جميعاً، ولأن الولد لا يكون إلاَّ من زوجة، وتنَزَّه الله عن الزوجة والولد، ﴿أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾؟ أي كيف يكون له ولد، وليس له زوجة، والولدُ ينبغي أن يتصف بصفات أبيه، فإذا كان الأبُ لا يأكل، ولا يشرب، ولا ينام، ولا يبول، ولا يتغوَّط، ينبغي أن يكون الولد مثله؟ ففكرة إثبات الولد لله، فكرة سخيفة، خاطئة باطلة، لا يقبلها عقلٌ سليم، والأعجبُ من هذا أن النصارى، يعتقدون بألوهية المسيح، ثم يزعمون أنه صُلب، فكيف يكون إلهاً ويُصلب؟ ويعتقدون بأنه وُلد من مريم، ويسمونه (عام الميلاد) فكيف يكون إلهاً، وقد خرج من فرج امرأة، كما يولد الأولاد؟ ويقولون: إنه كان يأكل ويشرب، والذي يأكل ويشرب، يحتاج إلى أن يبول ويتغوَّط؟ ويحكم يا معشر النصارى، أفليس لكم عقول تفكِّرون بها؟ إلهٌ يُولد ثم يُصلب، ويأكل ويشرب ثم يبول ويتغوَّط؟ ما هذا الإله؟ وكيف اعتقدتم فيه ذلك؟ ولهذا يقول العقلاء: لا يجتمع عقلٌ ونصرانية، واليهود أقلُّ جنوناً من النصارى، فليس عندهم ما عند النصارى من الاعتقاد بالأقانيم الثلاثة، فعقيدةُ النصارى أن الإله مجموعٌ من ثلاثة أقانيم (أقنوم الآب، والابن، وروح القدس) وهي عقيدة التثليث، التي قال عنها القرآن الكريم ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ يعتقدون بأن الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة، والجنونُ فنون!! كيف يكون الثلاثة واحداً، والواحدُ ثلاثة؟ إن الأب غير الابن، والابن غير الأب، وروح القدس غيرهما؟ إذا قلنا: هذه شمسٌ، وهذا قمر، وهذا نجم، فكيف تصبح الثلاثة واحداً، هل هي ثلاثة شموس، أم ثلاثة أقمار، أم ثلاثة نجوم؟ فكيف تتَّحد وتصبح شيئاً واحداً، والحمد لله على سلامة العقل والدين!! وعقيدة التوحيد هي (عقيدة المسلمين) التي جاء بها جميعُ الرسل، وهي العقيدة التي يقبلها الله تعالى، المتَّفقة مع المنطق والعقل وصدق الله العظيم ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾!!

انتهى تفسير سورة الإخلاص

● ● ●

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

تفسير سورة الفلق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

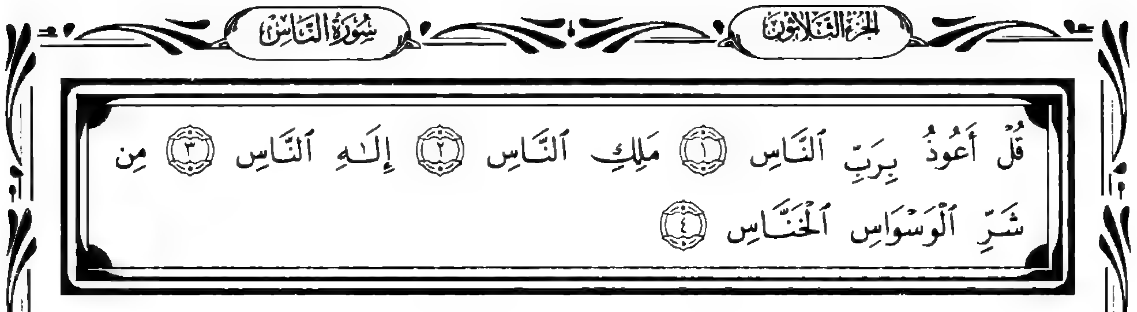
﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ هذه إحدى المعوذتين، وفيها الاستجارة والالتجاء إلى رب الأرباب، من شرِّ الأعداء، وقد خُتم الكتابُ العزيزُ بهما، كما ابتدأ بالفاتحة الشريفة، ليجمع بين حُسْن البدء، وحُسْن الختام، فالعبد المؤمنُ، يستعينُ بالله، ويلتجيء إليه، من بداية الأمر إلى نهايته، **والمعنى:** قل يا أيها الرسول: ألتجيء وأعتصم برب الفَلَق، أي بربِّ الصبح، الذي ينفلق عن الظلام ﴿فالق الإصباح﴾ **قال الزجَّاج:** ﴿**الفلق**﴾ هو فَلَق الصبح وهو ضياؤه، وفي أمثال العرب: الأمر أبينُ من فَلَق الصبح ﴿من شر ما خلق﴾ أي من شرِّ جميع المخلوقات: من (الإنس، والجن، والوحوش، والهوامِّ، والأفاعي)، وشرِّ كل مؤذٍ من المخلوقات ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ الغاسقُ: الليلُ إذا أظلم، ومعنى ﴿وَقَب﴾ أي دخل بظلامه، والمعنى: وأستجير بالله من شرِّ الليل إذا أظلم، وأقبل بظلامه الدامس، فإن بمجيء ظلمة الليل، يكثر الأشرار، وينتشر الفُجَّار، وتكثر اللصوص، ويقلَّ الغوثُ، ولهذا قالوا في الأمثال: (الليلُ أخفى للويل) أي أستر للأحداث المخيفة المهلكة، ففي الليل تخرج السباع من آجامها، والهوامُّ من مكانها، ويظهر اللصوصُ والسُرَّاق، ويقع الحريق، ويُخشى الطريق ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ أي وأستجير بالله، وأحتمي به، من شرِّ النساء السواحر، اللواتي يعقدن عُقَداً في خيوط، وينفثن فيها ـ أي ينفخن فيها ـ للإضرار بعباد الله، والتفريق بين المرء وزوجه، وخصَّص (النساء) بالذِّكر ﴿النفَّاثات﴾ لأن السحر أكثر ما يقع منهن، بسبب الغيرة الشديدة، فالنساء يَكِدْن بعضهنَّ البعض بواسطة السِّحر ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أي وأستجير بالله من شر كلِّ حاسد، يحسد الإنسان، ويتمنى زوال نعمة الله عنه، والحسدُ صفة اليهود الخبثاء، وليس من صفة

المؤمنين الصادقين في الإيمان، وقد قال سبحانه عن اليهود ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾؟ فقد حسدوا رسولَ الله على النبوة، وأرادوا أن تبقى في بني إسرائيل، والحسدُ مرضٌ خطير، أخطرُ من مرض الجسد، ولهذا حذَّر منه المصطفى ﷺ بقوله: (دبَّ فيكم داءُ الأمم قبلكم: الحسدُ، والبغضاء، هي الحالقةُ لا أقول تحلق الشَّعر، ولكنْ تحلقُ الدين..) أي تُذهب دين الإنسان، رواه الترمذي، وأول ذنبٍ حصل، وعُصي به الله، هو (الحسدُ)، فقد حسد إبليسُ آدم، فطرده الله من حضرة القدس، فصار شيطاناً رجيماً.. أما سببُ نزول المعوذتين، فهو أن يهودياً سَحَر النبيَّ ﷺ، فمرض ﷺ فنزلت المعوذتان، وأخبره جبريلُ بموضع السحر، فأرسل علياً فجاءه بالسحر، وفيه إحدى عشرة عُقدة، فقرأهما عليه، فكان كلَّما قرأ آية انحلَّت عقدة، حتى وجد ﷺ خفةً ونشاطاً، ورقاه جبريل عليه السلام بهذه الدعوات (باسم الله أرقيك، من كلِّ شيء يُؤذيك، من كلِّ حاسدٍ وعينٍ الله يشفيك) فشفاه الله عزَّ وجل!! وقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت (سُحِرَ النبيُّ ﷺ، حتى كان يُخيَّل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله، حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي، دعا الله ودعاه، ثم قال يا عائشة: أشعرتِ أن الله قد أفتاني فيما استفيتُه فيه؟ أتاني رجلان ـ وفي رواية أخرى مَلَكان ـ فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجليَّ، فقال أحدهما لصاحبه: ما وَجَعُ الرجل؟ قال: مطبوبٌ ـ أي مسحور ـ قال: ومن طبَّه؟ قال: (لبيد بن الأعصم) اليهودي، قال: في أيِّ شيء؟ قال: في مُشْطٍ، ومُشَاطةٍ، وجُفِّ طلع نخلةٍ ذكر، قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذي أروان، فذهب النبيُّ ﷺ في أناس من أصحابه إلى البئر، فنظر إليها فرأى ماءها كأنه نُقاعة الحناء، فأمر بها فُدفنت) رواه البخاري ومسلم وأحمد، وأنكر بعض (المتفلسفة) حتى من بعض الشيوخ، هذا الحديث، وزعموا أنه يُنقص من قدر النبوة، ويُفضي إلى القدح في الرسالة، إلى آخر كلامهم الغريب، والجواب عن ذلك أن السحر لم يؤثِّر على الوحي، ولا على عقل النبي ﷺ، وإنما أثَّر على جسده، من حيث الطبيعة البشرية، لا من حيث الرسالة النبوية، وإذا كان النبيُّ يمرض، ويأتيه ما يأتي سائر البشر، من العوارض والأمراض البدنية، فكذلك يمكن أن يُسحر، والحكمةُ في هذا ظاهرة، وهي أن الرسول لو كان ساحراً ـ كما زعم المشركون ـ لأمكنه أن يدفع السحر عن نفسه، فلمَّا أضرَّ في جسده الشريف، عُلِم أنه ليس بساحر، ولا شاعر، فلا داعي إذاً لإنكار الأحاديث الصحيحة، من أجل هَوَس بعض النفوس الضعيفة، التي لا تعقل حكمة الله، من ابتلاء أنبيائه ورسله، بالقتل، وتسليط الأعداء عليه، وإصابته ببعض الأوجاع والأمراض، والكوارث، للدلالة على بشريته، وأنه ليس له من خصائص الألوهية، ما يمنع لحاق الأذى والضرر به، ولهذا نزلت المعوذتان على رسول الله ﷺ، وكانت علاجاً وسبباً لشفائه ﷺ،

كما بعث الله له مَلَكيْنِ هما «جبريل، وميكائيل» وهو بين النائم واليقظان، وأخبراه بمن سحره، وبمكان السحر، حتى دفنه ﷺ، وشفاه الله من ذلك البلاء، الذي دبَّره له اليهود اللعناء، فلا داعي إذاً لإنكار الحديث وهو في الصحيحين، كما هو مذكور في مسند الإمام أحمد، وعند النسائي، وغيرهم من أئمة أعلام علماء الحديث، وقد كان ﷺ بعد هذه الحادثة، لا يترك قراءة المعوذتين عند نومه، وعند مرضه، كما روت لنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ذلك، حيث قالت: (كان النبيُّ ﷺ ينفث على نفسه في المرض، بالمعوِّذات، فلما ثقُل ـ أي اشتد به المرضُ ـ كنت أنفث عليه بهن، وأمسح بيده نفسِه لبركتها) رواه البخاري.

انتهى تفسير سورة الفَلَق

● ● ●



تفسير سورة الناس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ مَلِكِ ٱلنَّاسِ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ هذه ثاني (المعوذتين) اللتين نزلتا على رسول الله ﷺ، وفيهما الاستجارة والاحتماء بربِّ الأرباب، من شر أعدى الأعداء، إبليس اللعين، وأعوانه من شياطين الإنس والجن، الذين يغوون الناس بأنواع الوسوسة، وفنون الإغواء، والمعنى: قل يا أيها الرسول: إني أعتصمُ وألتجىءُ، وأستجيرُ، بخالق الناس، ومربِّيهم، ومدبِّر أرزاقهم وشؤونهم ﴿ملك الناس﴾ أي مالك جميع الخلق، حاكمين ومحكومين، ملوكاً وشعوباً، وهو المتصرِّف فيهم، بالإحياء والإماتة، والعزِّ والذل، والغنى والفقر، فهو جلَّ وعلا ملك الملوك، ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾ ثم قال تعالى ﴿إله الناس﴾ أي هو جلَّ وعلا ربُّهم ومعبودهم، لا ربَّ لهم سواه، ولا معبود يستحق العبادةَ غيرُه، وصف تعالى نفسه: بالمَلِكِ، وبالإله، لأن في الناس ملوكاً، فذكر أنه مِلِكُهم، وفي الناس من يعبد غيرَه، فذكر أنه إلههم ومعبودهم الحق، وأنه هو الذي يجب أن يُلجأ إليه، وأن يُستعاذ به، دون غيره من الملوك والعظماء، وإنما كرَّر لفظ (الناس) ثلاث مرات، لإظهار كرامتهم وشرفهم عند الله ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ فأضافهم إليه تكريماً وتعظيماً، ولبيان، الاعتناء بشأنهم، وفي التكرار عزٌّ لهم وفخار، كما قال القائل:

أَعِـدْ ذِكْـرَ نُـعْـمـانٍ لـنَـا إنَّ ذكـرَهُ
هـو الـمِـسْـكُ مـا كَـرَّرتَـه يَـتَـضَـوَّعُ

أما المستعاذ منه فهو الشيطان الرجيم، ولهذا قال ﴿من شر الوسواس الخناس﴾ أي

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

من شر الشيطان اللعين، الذي يوسوس في صدور البشر، ليغريهم بالكفر، والمعصية، والفجور!! والوسواسُ: اسم للشيطان، ومعنى ﴿الخنَّاس﴾ الذي يخنس أي يتأخر ويختفي عندما يذكر العبدُ ربَّه، فإذا غفل عن ذكر الله، عاد فوسوس له ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ أي الذي يُلقي - لشدة خُبْثه - في قلوب البشر، صنوفَ الوساوس والأوهام الباطلة ﴿يعدهم ويمنِّيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ ووسوستُه: هي الدعاءُ لطاعته، بكلام خفيٍّ يصل مفهومه إلى القلب، من غير سماع صوت، وفي الحديث الشريف (إن الشيطان واضعٌ خَطْمه - أي مقدَّم أنفه وفمه - على قلب ابنِ آدمَ، فإذا ذكرَ الله خَنَس - أي توارى وتأخَّر - وإذا نسيَ التقمَ قلبه فوسوس) أخرجه الحافظ الموصلي.. ثم بيَّن تعالى من هو الذي يُستعاذ من شرِّه فقال ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ أي هذا الذي يوسوس للناس، لفتنتهم وإغوائهم، هو من شياطين الجنِّ والإنس، كما قال سبحانه ﴿شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ والسورةُ الكريمة فيها الاستعاذةُ من جميع الشياطين، والالتجاء إلى الله عزَّ وجل من شرِّهم، ولا شكَّ أن شياطين الإنس أشدُّ فتكاً وخطراً من شياطين الجن، فإن شيطان الجن يخنس بالاستعاذة، وشيطان الإنس يُزيِّن له الفواحش، ويغريه بالمنكرات، ولا يثنيه عن عزمه شيء!!لقد بلَّغ الرسول القرآن بالأسلوب الذي نزل عليه، كما أوحاه الله إليه، ولهذا لم يقل: أعوذ برب الفلق، أعوذ برب الناس، وإنما حكى السورتين باللفظ الموحى له ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ قال زرُّ بن حُبيش (سألتُ أُبيَّ بنَ كعب عن المعوذتين، فقال: سألتُ النبي ﷺ فقال: قيل لي فقلتُ: فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ) رواه البخاري.

دعاء الختام: (اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك، سمَّيتَ به نفسَكَ، أو أنزلته في كتابك،أو علَّمته أحداً من خلقك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآنَ العظيم نورَ صدري، وربيع قلبي، وجلاءَ همِّي وحزني، وقائدي إلى جناتك جنات النعيم، اللهم علِّمْني منه ما جهلتُ، وذكِّرْني منه ما نسيتُ، وارزقني تلاوته آناءَ الليل، وأطرافَ النهار، مع كمال التدبر والفهم لمعانيه، برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلَّى الله وسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد والحمد لله رب العالمين)!! هذا الدعاء ينبغي أن لا ينساه القارىء.

بعون الله وتوفيقه، تمَّ تأليفُ هذا التفسير، في العشر الأخير من شهر رمضان المبارك، في البلد الحرام (مكة المكرمة) سنة عشرين وأربعمائة بعد الألف من هجرة سيد المرسلين (١٤٢٠) هجرية، والحمد لله في البدء والختام، وصلى الله وسلم على خاتم الأنبياء المرسلين.

خادم الكتاب والسنة
الشيخ محمد علي الصابوني

● ● ●